كتاب الشعب
٩٣

بدائع الزهور
في وقائع الدهور



كتاب الشعب

المختار من

بدائع الزهور في وقائع الدهور

تأليف

محمد بن أحمد بن إياس
الحنفي المصري



مطابع الشعب
١٩٦٠



سيقع القارىء على فقرات يعجب فيها من تفكير القوم فى عصر ابن اياس . وقد أثبتناها ليعلم جيلنا ، وكل جيل يأتى من بعده ، أن لكل جيل أوهامه وضلالاته ...

ولكى تثبت أقدامنا على السبيل السوى ، علينا أن نراجع أفكارنا ... فنأخذ الطيب من الحق ، ونذر الخبيث من الضلالات والأوهام ، حتى لا تسخر الأجيال القادمة من أفكارنا حين تصبح تراثا ...

كتاب الشعب

أخبار مصر

وما ورد فيها من الآيات العظيمة والأحاديث النبوية ، وما خصت به من الفضائل والمحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد ، وما قاله الشعراء فى وصفها .

اعلم — وفقك الله — أن مصر من أجل البلاد قدرا .

قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى؛ أفلا تبصرون ؟ » .

وأما بالاشارة والايماء فمنها قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ؟ » . يعنى مصر .

وأما ما ورد فيها من الأخبار النبوية فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : « اذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا ... فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » .

ذكر حدود أرض مصر ومسافتها

قال أبو الصلت أمية الأندلسى ان حد أرض مصر فى الطول من مدينة برقة الى عقبة ايلة ، وذلك نحو من أربعين يوما . ومسافة حدها فى العرض من مدينة أسوان من أعمال الصعيد الى العريش عند الشجرتين ، وذلك نحو من ثلاثين يوما فى مسافة العرض منها .

وكان اقليم مصر متصلا بالعمارة على شاطىء النيل كأنها مدينة واحدة مشتبكة بالأشجار المثمرة بالفواكه اليانعة والقرى العامرة ، حتى قيل ان المسافر كان يسير من اسكندرية الى أسوان بلا زاد ، بل يسير فى ظل وأشجار وفواكه الى أن يصل الى مدينة أسوان فى قرى عامرة بالناس لا يحوجونه الى زاد يحمله معه .

ذكر ما عد من فضائل مصر

قال أبو الريحان : « ولد بمصر من الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام ، وولد بها يوشع ابن نون ، ودخل اليها عيسى بن مريم وأقام بقرية بالصعيد يقال لها أهناس .

ودخل مصر من الأنبياء ابراهيم الخليل عليه السلام ، ويعقوب ويوسف والأسباط وارمياء ، ودخل اليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام . ودخل اليها من السادة التابعين جماعة ، ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة كما سيأتى ذلك فى مواضعه .

وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذى أثنى الله تعالى عليه فى القرآن ، ومنهم آسية امرأة فرعون التى أخبر الله تعالى عنها فى كتابه ، ومن أهلها سحرة فرعون الذين آمنوا فى ساعة واحدة مع كثرتهم .

ما خصت به مصر من المحاسن والعجائب دون غيرها من البلاد

قال صاعد الغوثى فى كتاب طبقات الأمم :
« ليس فى بلد أعجوبة الا وفى مصر مثلها ... أو أعجب منها » .

وقيل ان بمصر من الأنواع ثلاثين نوعا لا توجد فى الدنيا :

فمنها معدن الزمرد والذبابى ، ولا يوجد فى الدنيا الا بها . قيل يوجد فى نواحى البهنسا .

ومنها معدن الشب والملح ، ولا يوجد الا بها .

ومنها الأبنوس الأسود ، ولا يوجد الا بها .

ومنها مقاطع الرخام الملون الفستقى والسماقى والطلوروى وغيره من أنواع الرخام .

ومنها الأفيون وهو عصارة ماء الخشخاش ، ومنافعه لا تنكر .

وبها دهن البيلسان ، ولا يوجد الا بها فى أرض المطرية ، وهو الذى تتغالى ملوك النصارى فى ثمنه ولهم فيه اعتقاد عظيم .

وبها السمك الرعاد ، ونفعه للحمى اذا علق على المحموم يرى .

وبها الحيات التى يعمل منها الدرياق ومنافعها لا تنكر .

وفيها الاسقنقور ومنافعه لا تنكر .

وبها الحطب الصنط الذى هو سريع الاشتعال بطىء الخمود .

وبها القمح اليوسفى .

وبها دهن السلجم .

وبها معامل التنانير التى يعمل بها البيض ويوقد عليها بالنار فتحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة فيخرج منها الفراريج وهى من أعظم ماكول مصر ، ولا يعمل هذا فى بلد غير مصر .

وبها النارنج والاترنج المدور ، قيل انه حمل من أرض الهند وزرع بمصر بعد سنة ثلثمائة من الهجرة ولم يكن بمصر قبل ذلك .

وكان بها نوع يقال له البنج وهو مثل اللوز الأخضر ، وكان من محاسن مصر ولكن انقطع منها فى سنة سبعمائة من الهجرة .

وكان بها الماسكة ومنافعها لا تنكر .

وبها الخوخ الزهرى الأحمر ولا يوجد الا بها .

وبها العسل النحل المصرى وهو أطيب من غيره من الأشربة وله فضيلة دون غيره .

وبها نتاج الخيل والبغال والحمير تفوق على غيرها من البلاد .

وبها الطرز الأسيوطية وكانت لا توجد الا بها .

وبها الثياب الدبيقية . كانت تعمل بمدينة تنيس ، يبلغ ثمن الثوب منها مائة دينار .

وبها جلال الخيل والبراقع والطنافس لا تعمل الا بهـا .

وبها المقاطع الشرب لا تعمل الا بدمياط ، ولها خاصية دون غيرها .

وبها العرس والنمس ، ولهما فضيلة لا تنكر فى أكل الثعابين حتى قيل : لولا العرس والنمس لما سكنت مصر .

وبها البطيخ الصيفى ، ومنافعه لا تنكر . قيل

نقلت زريعتـه الى مصر من بلاد الهنـد فى أيام القبط .

وبها الرخام المرمر ، ومنافعه لا تنكر .

وبها القرط الذى تربط عليه الخيول فى زمن الربيع .

وبها الكتان ، ومنافعه لا تنكر .

وبها الخيار شنبر ، ومنافعه لا تنكر .

ومن أجل منافعها ماء النيـل المبـارك وسرعة هضمه للأكل . قال بعض الحكماء ، « لولا ماء الليمون على أهل مصر لوخموا من حـلاوة ماء النيل » .

وبها ماء العوسج ، ومنافعه لا تنكر .

ومن فضائل مصر أن الرخامة الخضراء المستقية التى فى الحجر عند الكعبة أصلها من مصر ، بعثها الى مـكة محمـد بن طريف ، مولى العباس بن محمـد ، فى سنة احـدى وأربعـين ومائتين من الهجرة ، وبعث معها رخامة أخرى فستقية وضعت على سطح الكعبة عنـد الميزاب . وقبل طولهما ذراع بالعمل وثلاث أصابع ، وعرضهما مثل ذلك . ذكره الفاكهى فى تاريخ مكة .

قال المسعودى : « ان كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة على انفرادها » .

وقد قال الله تعالى فى حق قرى مصر : « وابعث فى المدائن حاشرين » .

قال القضاعى : « لم يكن فى الأرض ملك أعظم من ملك مصر . ولو ضرب بينها وبين سائر قرى الدنيـا سور لاستغنى أهلهـا بما فيها عن سائر البـلاد . ولو زرعت كلها لوفت بخراج الدنيـا بأسرها » .

وهى أكثر البـلاد كنوزا وعجائب وأنهارا ، ولا سيما ما فى بلاد الصعيـد من البرابى ، وما أودعت من العـلوم والحكم والطلسمات وغـير ذلك .

قيل سئل بعض الحكماء : « متى تطيب أرض مصر ؟ » . قال : « اذا اعتـدل هواها ، وارتفع وباها ، وطاب مرعاها » .

وقال بعض الحكماء : « اذا بلغت زيادة النيـل ثمانية عشـر ذراعا وهبط ، كانت العاقبة فى ذلك حدوث وباء بالديار المصرية فى تلك السنة » .

قال كعب الأحبار رضى الله عنه : « من أراد أن ينظر الى شبه جنـة الفردوس فلينظر الى أرض مصر » . قيل قبل طلوع الشمس فى زمن ربيعها ، اذا اطردت أنهارها ، وغردت أطيـارها ، وأينعت أزهارها .

وقد قال القائل فى المعنى :

ما مثل مصر فى زمان ربيعهـا
لصفاء ماء واعتـلال نسـيم

أقسمت ما تحوى البلاد نظيرها
لما نظرت الى جمـال وسـيم

ووصف بعض الحكماء أرض مصر فقـال : « ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة أشهر مسـكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر كهرمة صفراء » ...

فان أرض مصر فى شهر أبيب ومسرى وتوت يركبها الماء فتصير الأرض بيضاء من افتراش الماء عليها ، وتصير ضياعها مثل الكواكب فى السـماء فلا يصل اليها أهلها الا فى الزوارق .

وأما المسكة السوداء فان أرض مصر فى شهر بابه وهاتور وكيهك ينصرف عنها الماء فتصير مثل المسكة السوداء .

وأما الزمردة الخضراء فان أرض مصر فى شهر

طوبة وأمشير وبرمهات يكثر فيها الزرع فتصير الأرض خضراء مثل الزمردة .

وأما الكهرمة الصفراء فان أرض مصر فى شهر برمودة وبشنس وبؤنة يدرك فيها الزرع ويحصد فتصير مثل السبيكة الذهب الصفراء .

وقد قيل فى المعنى :

كل وقت بمصر أمر عجيب
نحن منه فى السعد كالأغنياء

ذهب حيثما ذهبنا ، ودر
حيث درنا ، وفضة فى الفضاء

ومن محاسن مصر ... قال القضاعى : « ان مصر يوجد بها فى كل شهر من الشهور القبطية نوع من المأكولات والمشمومات . فيقال رطب توت ، ورمان بابه ، وموزهاتور ، وسمك كيهك ، وماء طوبه ، ورميس أمشير ، ولبن برمهات ، وورد برمودة ، ونبق بشنس ، وتين بؤنه ، وعسل أبيب ، وعنب مسرى » .

ومن محاسن مصر أيضا السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد فى أواخر فصل الشتاء ، ولم يكن هذا ببلد غيرها ، وهى : النرجس ، والبنفسج ، والبان ، والورد النصيبى ، والزهر (وهو زهر النارنج) ، والياسمين ، والورد الجورى ، ويعرف أيضا بالقحانى ، وهو آخر هذه السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد .

أما النسرين — وان كان من أعظم الزهور رائحة — فانه غير معدود فى جملة الزهور السبع التى تجتمع فى وقت واحد ، لأنه يأتى فى آخر أيام الورد ... فلا يلحق النرجس ولا يلحق البنفسج ، فلم يكن معدودا فى جملة هذه السبع زهرات التى تجتمع فى وقت واحد لأجل تأخره عن بقية الأزهار .

وقد نظمتها فى هذا المقطوع وهو قولى فى المعنى :

ياطيب وقت بمصر فيه قد جمعت
سبع من الزهر تحويها البساتين

بنفسج نرجس زهر وبان لنا
ورد نصيبى وجورى وياسمين

وقيل ان الذى ينقطع من الفواكه والأزهار فى سائر البلاد فى زمن الشتاء يوجد بمصر .

* * *

ومن محاسنها أن أهل مصر لا يحتاجون فى زمن الشتاء الى التدفى بالنار كما تعانيه أهل الشام ، ولا فى زمن الصيف الى أن يدخلوا تحت الخيش من شدة الحر كما تعانيه أهل مكة .

قال أبو الصلت : « أهل مصر خصوا بالأفراح فيها دون غيرهم من جميع الأمم » .

وقيل ان أهل مصر لا يهتمون بأمر الزاد كما هى عادة غيرهم من الأمم ، كأنما حوسبوا وفرغوا من الحساب .

وكان بمصر من الفلاسفة والحكماء القدماء : هرمس وبقراط وجاليوس والينوس وفيداغورس ، ولما ماتوا دفنوا بمصر . وكان بها من الحكماء فى دولة الاسلام الرئيس علاء الدين بن نفيس صاحب كتاب الموجز ، والرئيس أبو على بن سينا .

ومما تفتخر به مصر على سائر البلاد أن سلطانها خادم الحرمين الشريفين وله الميزة على سائر ملوك الأرض كما قال القائل :

اذا البلاد افتخرت لم تزل
مصر لها عز وتفضيل

وكيف لا تفتخر [illegible]
أرجائها السلطان والنيل

ماقاله الشعراء في وصف مصر
من كل معنى غريب

قال ابن الوردي رحمه الله تعالى :

ديار مصر هي الدنيا ، وساكنها
هم الأنام ... فقابلها بتقبيل

يامن يباهي ببغداد ودجلتها
مصر مقدمة والشرح للنيل

وقال الصلاح الصفدي :

من شاهد الأرض وأقطارها
والناس أنواعا وأجناسا

ولا رأى مصر ولا أهلها
فما رأى الدنيا ولا الناسا

وقال الشيخ علاء الدين الوداعي :

رو بمصر وسكانها
شوقي ، وجدد عهدي الخالي

وصف لنا القرط ، وشنف به
سمعي ، وما العاطل كالحالي

وارو لنا ياسعد عن نيلها
حديث صفوان بن عسال

وقال البها زهير :

يارعى الله أرض مصر ، وحيا
ما مضى لي بمصر من أوقات

حبذا النيل والمراكب فيه
مصعدات بنا ومنحدرات

هات زدني من الحديث على النيـ
ـل ، ودعني من دجلة والفرات

وقال ابن فضل الله :

يحق لمصر أن تتيه اذا جرى
بها النيل وامتدت اليه عيون

فما مثله من زائر لقدومه
تقر عيون اذ تقر العيون

وقال ابن الصائغ الحنفي :

ارض بمصر فتلك أرض
من كل فن لها فنون

وليلها العذب ذاك بحر
ما نظرت مثله العيون

وقال الشهاب المنصوري :

تقول لنا مصر : أنا خير موطن
ولا ناس في الأمصار أظرفه من ناسي

فان تك أوقات السرور قصيرة
فلا تقطعوها في الا بمقياسي

وقال رضي الله عنه :

اعملوا أهل مصر لله شكرا
وقليل من العباد الشكور

ان مصر أسقى الاله ثراها
بلد طيب ورب غفور

المُقَوْقَس

كان اسمه جريج بن ميناهى ، وقد أدرك نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كانت سنة ست من الهجرة (٦٢٧ م) بعث اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطب ابن أبى بلتعة رضى الله عنه ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه فيه الى الاسلام . فلما دخل حاطب مصر وجد المقوقس بثغر اسكندرية ، فتوجه اليه ، وكان يصيف بمصر ويشتى بالاسكندرية[1] . فلما دخل عليه اعطاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما اخذه قبله ووضعه على رأسه ، ثم قرأه وعلم ما فيه وقال لحاطب : « نعلم أنه نبى مرسل ، وقد أخبرنا المسيح بذلك » .

ثم بعث مع حاطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية عظيمة ، وهى ألف مثقال من الذهب ، وعشرون ثوبا من قباطى مصر ، وجارية تسمى مارية وأخرى تسمى شيرين ، وغلام خصى يسمى مابور ، وبغلة تسمى دلدل ، وحمار يسمى عفيرا وقيل يعفور ، وعسل من عسل بنها .

وأكرم حاطبا غاية الاكرام وبعثه بتلك الهدية ، فلما وصلت الى النبى صلى الله عليه وسلم قبلها منه ، واستسلم مارية فأسلمت على يديه ، ووهب أختها شيرين الى حسان بن ثابت . وكانت البغلة والحمار أحب دوابه اليه .

ولما دخل على مارية حملت منه بابراهيم فعاش ثمانية عشر شهرا ومات .

قال صلى الله عليه وسلم : « ستفتحون بعدى أرضا يذكر فيها القيراط . فاذا افتتحتموها فاستوصوا بأهلها خيرا فان لهم نسبا وصهرا » . قال ابن شهاب : « كنى بالنسب عن هاجر ، أم اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام ، فان أصلها من مصر . وكنى بالصهر عن مارية القبطية ، فان أصلها من مصر أيضا » .

واستمر المقوقس قائما بملك مصر نحو احدى وثلاثين سنة حتى افتتح عمرو بن العاص رضى الله عنه الديار المصرية فى سنة عشرين من الهجرة النبوية فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه .

---

(1) لعله يعنى عكس ذلك .



عمرو بن العاص
وابتداء دولة الإسلام

قال الكندى : لمـــا كانت خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنـــه أرسل جيشا الى مصر ، وكان أمير الجيش عمرو بن العاص رضى الله عنه فلما وصل الى مصر أقام يحـاصر أهلها ثلاثة أشهر ، وكان المقوقس فى قصر الشمع ، وكان قصر الشمع مطلا على بحر النيل ، وكانت السفن ترسو تحته . فلما رأى المقوقس أن العرب أشرفوا على أخذ المدينة نزل فى مركب من باب قصر الشمع وتوجه الى نحو الاسكندرية هاربا ، وكان يعلم أن العرب لا بد أن تملك مصر ، وسبب ذلك ...

قال أبو الحسن المسعودى : كان بقصر الشمع فى الكنيسة المعلقـــة صنم من النحـــاس الأصـــفر راكب على جمل من النحاس الأصفر ، وهو زى العرب وعلى رأسه عمامة وفى رجليه نعـــلان من جلد ، فكانت القبط والروم اذا تظالموا فى شىء بينهم واعتدى بعضهم على بعض يتحاكمون عند ذلك الصنم النحاس ، ويقفون بين يديه فيقـــول المظلوم للظالم : « أنصفنى قبل أن يجىء هـــذا الرجل الأعرابى فيأخذ الحق لى منك ان رضيت أو لم ترض » . فكانوا يعنـــون بذلك عمرو بن العاص رضى الله عنه .

وقيل كان بالاسكندرية باب لا يزال مغلقـــا دائما وعليه أربعة وعشرون قفلا ، فعزم على فتحه المقوقس . فلما قوى عزمه على ذلك اجتمعت عليه القسيسون والرهبان وسألوه ألا يفتح ذلك الباب وأن يجعل عليه قفلا كما فعل من تقدمه من الملوك ، فلم ينته عن فتحه ، فقالوا له نحن نعطيك ما خطر ببالك أنه فيه من المال ولا تفتحه ، فلم يسمع لهم شيئا وفتحه . فلما دخل فيه لم يجد به شيئا من المال ، ورأى على حيطانه منقوشا تصاوير العرب وهم على خيولهم بعمائمهم وسيوفهم فى أوساطهم وهم على الابل . ورأى فى صدر ذلك المكان كتابة بالقلم الرومى ، فأتى بمن قرأ ذلك الخط ، فاذا معناه : اذا فتح هذا المكان تملك العرب المدينة فى تلك السنة التى يفتح فيها ... فكان الأمر كذلك ، وملكت العرب المدينة فى تلك السنة . وكان كل من ملك مدينة الاسكندرية يجعـــل على ذلك الباب قفلا ، وهـــذه الأقفال بعدد من ملك المدينـــة من ملوك القبط .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما فرغ من الصلاة : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اذا فتحت عليـــكم بعدى مصر فاتخذوا منها جنـــدا كثيفا ... فذلك الجند خير أجنـــاد الأرض » . فقيل : « ولم ذلك يارسول الله ؟ » . فقال : « لأنهم فى رباط الى يوم القيامة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مصر كنانة الله فى أرضه ... ما كاد أهلها أحد الا كفاهم الله تعالى مؤنته » .

قال ابن المتوج : « لما فتح عمرو بن العاص مصر واستقر بهـــا ، قصـــد التوجه الى مدينـــة الاسكندرية ، فتوجه اليها بمن معه من العربان ، فلما وصل اليها حاصر أهل المدينة أشد المحاصرة ، وكان المقوقس بها مقيما ، فلما أشرف على فتحها

أرسل المقوقس يسأله فى الصلح وأن يجعل عليه الجزية » .

قال ابن لهيعة: «وكان سبب فتح الاسكندرية أن عمرو بن العاص لما طال عليه أمر الحصار أتى اليه رجل يقال له ابن بسامة — وكان بوابا على باب المدينة — فقال لعمرو بن العاص : أتؤمننى على نفسى وعيالى وأنا أفتح لك الباب ؟ فأجابه عمرو الى ذلك ففتح له الباب فدخل عمرو ومن معه من المسلمين فملكوها وأسروا المقوقس » .

فلما فتحت مدينة الاسكندرية أرسل بذلك الى الخليفة وكتب اليه كتابا وهو يقول فيه : « أما بعد ، فانى قد فتحت مدينة لا أقدر أن أصف لك ما فيها غير أنى قد وجدت بها اثنى عشر ألف بقال يبيعون صنف البقولات فى جوانب المدينة من بعد العصر ، ووجدت بها ألف مركب من مراكب الروم الكبار ، ووجدت بها نحو ستمائة ألف يهودى وقد هرب أكثرهم الى بلاد الروم من البحر ، وقد أوجبت الجزية على من بقى منهم غير النساء والصبيان ، فقررت على كل رأس منهم دينارين فى كل سنة ، فكان الذى بقى نحو خمسين ألف يهودى » .

فكتب اليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « من كان فى يدك من اليهود أو النصارى فخيره بين الاسلام ودينه . فان أسلم فهو من جملة المسلمين ... له مالهم ، وعليه ما عليهم . وان لم يسلم فعليه الجزية عن كل رأس ديناران » .

ثم ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب الى عمرو بن العاص تقليدا بولاية مصر وأرسله على يد معاوية بن خديج ، وذلك فى سنة عشرين من الهجرة ، فكان أول من تولى على مصر نيابة عن الخلفاء .

قيل لما ملك العرب مدينة الاسكندرية جاءت الروم الى قسطنطين بن هرقل ، وقالوا له : « أتترك الاسكندرية فى أيدى العرب وهى مدينتنا الكبرى ؟ » . فتوجه قسطنطين الى الاسكندرية فى ألف مركب مشحونة بالرجال المقاتلين ، فلما وصل الى قرب الاسكندرية بعث الله تعالى عليهم ريحا عاصفا فأغرقت تلك المراكب كلها بمن فيها من الرجال ولم ينج منهم أحد . وأما قسطنطين ملك الروم فألقته الريح بصقلية فسأله أهلها عن أمره فأخبرهم بأمر الريح وتغريق المراكب فقالوا له : « قد أفنيت من بقى من عسكر الروم وجئت الينا ، فلو دخلت العرب الى بلادنا لم يجدوا من يردهم » . فاجتمع عليه أهل صقلية وقتلوه وكفى الله المؤمنين القتال .

قال ابن وصيف شاه : « لما فتح عمرو بن العاص مدينة الاسكندرية أقام بها مدة ورجع الى مصر ، فاجتمع رأيه بأن يبنى هناك مدينة ظاهر قصر الشمع ، فابتدأ ببناء مدينة وسماها مدينة الفسطاط . وسبب تسميتها بمدينة الفسطاط أن عمرو بن العاص لما فتح مصر نزل بمن معه من العربان فى الفضاء ونصب هناك فسطاطه ، فلما قصد التوجه الى الاسكندرية أمر بنزع ذلك الفسطاط فوجدوا عليه عش يمامة وقد أفرخت عليه ، فقال عمرو بن العاص : « دعوا الفسطاط — يعنى الخيمة — مكانه لا تهدوه احتراما لليمامة التى قد عششت عليه » .

فلما توجه الى الاسكندرية وفتحها ، وقصد الرجوع الى مصر قالوا له لما دخل الى مصر : « فى أى مكان تنزل ؟ » . فقال فى مكان تركت به الفسطاط ، أى الخيمة . فلما بنى هناك هذه المدينة سميت مدينة الفسطاط بسبب ذلك . وكانت الفسطاط مدينة عظيمة جليلة بها عدة مساجد وحمامات وطواحين ومعاصر ، وكان أولها من حدرة ابن قميحة وآخرها عند الرصد . ولم تزل هذه المدينة عامرة ساكنة الى دولة الفاطمية الى خلافة

العاضد بالله ، فحرقت عندما استولى الفرنج على الديار المصرية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه فى أخبار الدولة الفاطمية .

قال ابراهيم بن وصيف شاه : « ان فى سنة احدى وعشرين من الهجرة كان فتح مدينة دمياط على يد المقداد بن الأسود رضى الله عنه ، وكان ملك هذه المدينة شخصا من القبط يقال له الهاموك خال المقوقس صاحب مصر . وكان للهاموك ولد يسمى شطا ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأسلم تلك الليلة ، ودلهم على مسالك المدينة فاستولوا عليها ليلا وملكوها فقاتل معهم شطا قتالا شديدا حتى قتل فى المعركة ، وكان قتله فى ليلة الجمعة فى النصف من شعبان من سنة احدى وعشرين من الهجرة ودفن خارج دمياط فى مكان قتل به ، وقبره يزار الى الآن رحمة الله عليه » .

قال ابن عبد الحكم : « لما استقر عمرو بن العاص بمصر جاء اليه القبط وقالوا له : « أيها الأمير ان لنيلنا سنّة كل سنة لا يجرى الا بها » . فقال لهم : « وما هى ؟ » فقالوا : « اذا كان ليلة اثنتى عشرة من شهر بؤونة من الشهور القبطية عمدنا الى جارية بكر وأخذناها من أبويها غصبا أو رضا ، وجعلنا عليها الحلى والحلل ثم نلقيها فى بحر النيل فى مكان معلوم » . فلما سمع عمرو بن العاص ذلك قال لهم : « هذا الأمر لا يكون فى الاسلام أبدا ». فأقام أهل مصر شهر بؤونة وأبيب ومسرى وتوت من الشهور القبطية ، ولم يجر فيها النيل لا قليلا ولا كثيرا ، فهم أهل مصر بالجلاء ...

« فلما أن رأى عمرو بن العاص ذلك كتب كتابا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وأرسله على يد نجاب ، فلما وصل الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب بطاقة وأرسلها الى عمرو بن العاص ، وأمره أن يلقيها فى بحر النيل ، فلما وصلت الى عمرو بن العاص فتح تلك البطاقة وقرأ ما فيها واذا فيها مكتوب :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

« من عبد الله عمر بن الخطاب الى نيل مصر المبارك .

« أما بعد ، فان كنت تجرى من قبلك فلا تجر . وان كان الله تعالى الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله تعالى أن يجريك » ...

« فلما وقف عمرو على ما فى البطاقة ألقاها فى النيل كما أمره أمير المؤمنين عمر ، وقد ألقاها فى النيل قبل عيد الصليب بيوم واحد ، وعيد الصليب يكون سابع عشر توت من الشهور القبطية ، وكان قد أجلى غالب أهل مصر من عدم جريان الماء . فلما أصبح الناس يوم عيد الصليب رأوا النيل زاد فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا فى دفعة واحدة . وقد قطع الله تلك السنة السيّئة عن أهل مصر ببركة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه » .

وفى سنة ثلاث وعشرين من ولايته على مصر ابتدأ ببناء جامعه الكبير الذى بمصر — وهو المسمى به — وكان واقفا على قبلته نحو سبعين رجلا من الصحابة ، فهو أول جامع بنى فى الاسلام بمصر ، وهو جامع مبارك وفيه الدعاء مجاب .

قال ابن وصيف شاه ان عمرو بن العاص سأل المقوقس وقال له : « لقد وليت على مصر احدى وثلاثين سنة فأخبرلى بما يكون فيه عمارة أراضى مصر » . فقال له المقوقس : « انى رأيت الذى يقوم بعمارة مصر حفر خلجانها ، واصلاح جسورها ، وسد ترعها ، ولا يؤخذ خراجها الا من غلالها ، ويحجر على عمالها من المطل ، ويمنعون من الرشا ، وترفع عن أهلها المعاون والهدايا ليكون ذلك قوة على وزن الخراج » .

قال المسبحى :

« كان بمصر فى الزمن الأول مائة وخمسون كورة ، فى كل كورة مـدينة ، وكان لكل كورة ثلثمائة وخمس وستون قـرية . فلما خربت عند قدوم بختنصر اليها ، ثم أعيدت بعـد ذلك ، صـار بها خمس وثمانون كورة ، ثم انها تناقصت من بعـد ذلك الى أن كانت دولة عمرو بن العاص فصار بها نحـو أربعين كورة . وقـد اشتملت على ألفين وثلثمائة وخمس وتسعين قرية دون الكفور ، وذلك عند ما خربت وتناقص خراجها فجباها عمرو بن العاص فبلغ اثنى عشر ألف ألف دينـار . وكان خراجها فى زمن الفراعنة ستة وتسعين ألف دينار » .

ثم ان عمرو بن العاص أقام على مصر الى أن توفى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وتولى من بعده الامام عثمان بن عفان ، فعزل عمرو ابن العاص عن ولايه مصر وولى عبد الله بن أبى السرح ، فكانت مدة ولاية عمرو بن العاص على مصر فى هذه المرة نحو ست سنين الا أشهرا ، ثم عاد الى ولايته بمصر ثانيا كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .



ولاة مصر بعد عمرو بن العاص

قال الكندى : « كان عبد الله بن أبى السرح أخا الامام عثمان بن عفان من الرضاع ، فلما تولى على مصر رحل عنها عمرو بن العاص وأتى المدينة الشريفة ، فلما استقر ابن أبى السرح بمصر جبى خراجها فى تلك السنة أربعة عشر ألف ألف دينار ، فلما وصل خراج مصر الى الامام عثمان بن عفان نظر الى عمرو بن العاص وقال : « لقد درت اللقحة بعدك ياعمرو » . فقال له : « نعم ، ولكن أجاعت أولادها ، وان هذه الزيادة التى أخذها عبد الله ابن أبى السرح انما هى على الجماجم » . فانه أخذ عن كل رأس دينارا خارجا عن الخراج فحصل لأهل مصر بسبب ذلك الضرر الشامل ، وكانت هذه أول شدة وقعت لأهل مصر فى مبتدأ الاسلام .

وأقام عبد الله بن أبى السرح فى ولايته على مصر الى أن مات فى سنة ست وثلاثين من الهجرة ، وقيل انه مات بفلسطين ودفن بها ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو اثنتى عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفى فى سنة ست وثلاثين .

* ثم تولى من بعده الأمير قيس بن سعد بن عبادة الخزرجى الأنصارى — وكان من الصحابة — فأقام فى ولايته على مصر نحو اثنتى عشرة سنة ، فانه تولى على مصر سنة خمس وعشرين وتوفى فى سنة ست وثلاثين .

* ثم تولى من بعده الأمير مالك بن الحارث النخعى بن الأشتر — وكان من الصحابة — فتولى على مصر فى خلافة الامام على رضى الله تعالى عنه ، وأقام فى ولايته عليها الى أن مات بها ودفن بها ، وقيل انه مات مسموما ، فلما بلغ الامام موته حزن عليه حزنا شديدا وقال : « لقد كان لى كما كنت لرسول الله صلى الله عليه وسلم » .

الولاة زمن الامويين

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه . تولى على مصر فى خلافة معاوية بن أبى سفيان فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة ، وأقام بمصر حتى قتل . وكان سبب قتله أن محمد بن أبى بكر هذا كان من جملة من اجتمع على قتل الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو فى داره يوم المقتلة فيما زعموا ، واستغفر الله من ذلك . فلما تولى محمد على مصر ثار عليه الشيعة بسبب ثأر عثمان بن عفان ، وكان الذين ثاروا عليه من الشيعة معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد وبشر بن أرطاة وغيرهم من الشيعة ، فأتوا من الشام ، فلما دخلوا الى مصر خرج اليهم الأمير محمد بن أبى بكر رضى الله عنه وقاتلهم قتالا شديدا . وكان — مع صغر سنه — شجاعا بطلا ، فكان هو وأخوه عبد الرحمن يقاتلان الشيعة ومعهما بعض العسكر ، فلما قويت عليهم الشيعة تفرق عنهما العسكر ، فانكسر الأمير محمد وهرب واختفى فى بعض الخرابات ، فلما حثوا فى طلبه قالت لهم عجوز : « أتريدون الأمير محمد بن أبى بكر ؟ » . فقالوا لها : «نعم» . فقالت : « أتعطونى الأمان لأخى وأنا أدلكم عليه . » فقالوا لها : « نعم

قـد أعطينا الأمان لأخيك » . وكان أخوها يبيع النجل فى مدينة الفسطاط ، فدلتهم على مكانه . فلما دخلوا عليه وجدوه قـد كده العطش فقال لهم : « بالله اسقونى شربة من المـاء » . فقال له معاوية بن خديج : « لا سـقانى الله ان سقيتك . أنسيت منعك الماء لعثمان بن عفان وهو محصور فى الدار ؟ » . فقال : « أكرمونى لأجل أبى بكر » . فقال له معاوية بن خـديج : « لا أكرمنى الله ان أكرمتك . أنسيت ما فعلته يوم قتلة عثمان ؟ فـلا أمان لك عندنا » . ثم تقدم اليه معاوية بن خديج وضرب عنقـه بالسيف ثم جره برجله وطاف به فى المدينة ، ثم أدخل جثته فى جوف حمار ميت وأحرقه حتى صار فحما . فكانت قتلته فى رابع عشر صفر سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . وكانت مدة ولايته على مصر خمسة أشهر ، وكان له من العمر لما قتل ثمان وعشرون سـنة ، وكان مولده فى عام حجة الوداع . وتوفى أبوه أبو بكر وله من العمر نحو سنتين ونصف . قيل لما قتل الأمير محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أخذ رأسه وجثته زمام الخادم ودفنهما خارج مدينة الفسطاط وبنى هناك مسجدا ، وهو الى الآن يعرف بمسجد زمام ويزار الى الآن .

قال الكندى : « لما قتل الأمير محمـد أرسل معاوية بن خديج قميصه الذى قتل فيه وهو بدمه الى المدينة الشريفة . فلما وصـل الى دار الامام عثمان بن عفان اجتمع عصبة عثمان ونساؤه وأظهروا الفرح والسرور فى ذلك اليوم . ثم ان نائلة زوجة عثمان لبست القميص ورقصت به بين الرجال .

* ثم من بعده أعيـد الأمير عمرو بن العاص الى ولايته بمصر ، وهى الولاية الثانية . تولاها فى خلافة معاوية بن أبى سفيان فى سنة ثمان وثلاثين من الهجرة . واسـتمر فى ولايتـه الى أن مرض وسلسل فى المرض ، فلما أشرف على الموت أحضر ما كان جمعه من الأموال وقال لولده عبـد الله ، وكان يقاربه فى السن — قيل كان بين مولد عمرو ابن العاص وبين مولد ابنه عبد الله نحو ثلاث عشرة سنة — فقال عمرو لولده عبد الله : « اذا أنا مت فاردد هذه الأموال التى جمعتها الى أربابها » . فلما مات الأمير عمرو بن العاص أرسل معاوية بن أبى سفيان يقول لعبد الله : « نحن أحق بهذه الأموال التى جمعها عمرو لدفع العدو » . فأرسل من أخذها وأدخلها فى بيت المال ، فقيل لعبد الله : « ما كان قدر ذلك المال ؟ » . فقال : « كان سـبعين جرابا من جلد ثور كاملة » .

وكانت وفاة الأمـير عمرو بن العاص فى ليـلة عيد الفطر فى سنة ثلاث وأربعين من الهجرة . فلما كان يوم عيد الفطر أخرج نعشه الى الجامع ووضع فى المحراب حتى تكاملت الناس وصلوا عليه بعد صلاة العيد ، ثم حمل ودفن فى مقـابر الفسطاط على طريق الحاج . ومات رضى الله عنـه وله من العمر نحو خمس وتسعين سنة ، وكانت مدة ولايته الثانية نحو ست سنين الا أشهرا .

* ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن أبى سفيان ، أخو أمير المؤمنين معـاوية . فلما تولى على مصر أقام بها مدة يسيرة دون السنة ومات ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عقبة بن عامر الجهنى ، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورديفـه ، وهو الذى تسند اليـه الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . تولى على مصر فى سنة أربع وأربعين من الهجرة ، وأقام بها الى أن مات شهيدا فى يوم النهروان رضى الله عنه ، فكانت مدة ولايته على مصر سـنتين وثلاثة أشهر [1] . وكانت وفاته فى

(1) الذى فى « شذرات الذهب » و « اسد الغابة » ان وفاة عقبة بن عامر سنة ثمان وخمسين . وفى صفحة ٣٠١ من الجزء الاول من خطط المقريزى أنه عزل من مصر سنة ٤٧ للهجرة .

سنة سبع وأربعين من الهجرة ، ودفن بالقرافة الصغرى وقبره يزار الى الآن بالقرافة .

* ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن مخلد ، واستمر على ولايته بمصر حتى مات ، فكانت مدة ولايته خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير سعيد بن يزيد ابن علقمة الأزدي . تولى على مصر فى سنة اثنتين وستين من الهجرة ، فكانت مدة ولايته سنتين .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن ابن جحدم القرشى . تولى فى أيام عبد الله بن الزبير فى سنة أربع وستين من الهجرة ، فلم تطل أيامه بمصر وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد العزيز بن مروان ، وهو أبو العبد الصالح عمر رضى الله عنه . قيل لما تولى عبد العزيز بن مروان على مصر وقع بها الطاعون ، فرحل عبد العزيز عن مدينه الفسطاط وتوجه الى حلوان — وهى من قرى مصر — فأقام بها مدة ، وقيل ولد بها ابنه عمر ، فكانت أخبار المدينة تأتيه فى كل يوم الى حلوان بما يحدث فى البلد من الموت وعدة من يموت بها وغير ذلك من الأخبار ، فلم نزل عبد العزيز مقيما بحلوان حتى طعن ومات بها فحملوه فى نعش من حلوان الى مدينة الفسطاط وقد تغيرت رائحته ، وكان حول نعشه مجامر النار وهى مطلقة بالبخور حتى دخل الى مدينة الفسطاط فدفن بها . قال ابن عفير : « لما كان الأمير عبد العزيز بحلوان كان له فى كل ليلة ألف جفنة تصف حول داره وهى ملآنة بالطعام تفرق على الفقراء والمساكين بجراية الخبز . وكانت له مائة حلة كبيرة تحمل على عجل وفيها الطعام فيطاف بها على قبائل العرب التى حوله ، واستمر ذلك فى كل ليلة الى أن مات » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الملك ابن مروان ، فكانت ولايته على مصر فى سنة ست وثمانين من الهجرة ، وكانت مدة ولايته نحو خمس سنين .

* ثم تولى من بعده الأمير قرة بن شريك العبسى . تولى على مصر فى سنة تسعين من الهجرة ، فلم تطل ولايته الا أياما وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده عبد الملك بن رفاعة الفهمى . تولى على مصر مرتين وطالت بها أيامه حتى مات ودفن بها .

* ثم تولى من بعده الأمير أيوب بن رحبيل الأصبحى . تولى على مصر فى سنة احدى ومائة من الهجرة فى خلافة عمر بن عبد العزيز فأقام بها نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير بشر بن صفوان . تولى على مصر ثلاث مرات ثم عزل عنها فى سنة ثمان وعشرين ومائة فى خلافة مروان الحمار .

* ثم تولى من بعده الأمير حنظلة بن صفوان الفهمى أخو بشر ، وهو الذى نقلت قبائل بنى قيس الى مصر فى أيامه ، وذلك فى سنة ثمان وعشرين ومائة ، ولم يكن قبل ذلك بمصر من بنى قيس أحد . واستمر الأمير حنظلة واليا على مصر حتى توفى فى سنة تسع وعشرين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن عبد الملك ابن مروان فأقام فى ولايته على مصر سبعة أشهر وخمسة أيام ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير الحر بن يوسف ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حفص بن الوليد العامرى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده أخوه الوليد بن رفاعة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الرحمن بن خالد الفهمى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسان بن العتاهية التجيبى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حوثرة بن سهل الباهلى ، وكان رجلا حليما قليل الغضب . قيل ان رجلا من العرب دخل عليه وهو قائم يريد الدخول الى حرمه ، فجاء اليه الرجل الأعرابى وحدثه فى حاجة له ، فوضع الأعرابى نصل سيفه على رجل الأمير حوثرة وطال معه فى الحديث ، وجعل يغوص بالسيف فى رجله حتى أدماها وهو صابر ، حتى فرغ الأعرابى من كلامه وخرج من عنده فدعا حوثرة بمنديل ومسح به الدم عن رجله فقيل له : « لم لا نحيت رجلك من تحت سيفه أيها الأمير أو أمرته برفع سيفه عن رجلك ؟ » فقال : « خشيت أن أقطع عليه كلامه وهو فى حاجته » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الحميد بن المغيرة بن سعيد الفزارى ، فأقام على ولاية مصر نحو سنتين ثم عزل عنها . قال ابن وصف شاه : « ان أرض مصر أجدبت ووقع بها الغلاء فى زمن عبد الحميد بن المغيرة فرهن حلى نسائه عند التجار واشترى منهم قمحا وفرقه على الفقراء . فلما عزل عقب ذلك عن مصر وقف اليه التجار بسبب الرهن فأمر ببيعه حتى قضى ما كان عليه من الدين الذى للتجار وكان نحو عشرة آلاف دينار ، ثم رحل عن مصر والناس عنه راضون » .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله بن مروان الحمار ، وهو آخر من تولى على مصر من عمال الخلفاء من بنى أمية . ومما وقع للأمير عبيد الله هذا ... قال ابن وصيف شاه : « لما انتقلت الخلافة الى بنى العباس ، وولى عبد الله السفاح ، توجه عبد الله بن على العباسى الى الشام فى طلب من بقى من بنى أمية ، ثم أرسل بالقبض على الأمير عبيد الله بن مروان الحمار أمير مصر ، فلما أن بلغ الأمير عبيد الله ذلك دخل الى خزائن أمواله وأخذ منها عشرة آلاف دينار ذهبا ثم أحضر اثنى عشر بغلا وحملها ذلك المال وشيئا من القماش والفرش وغير ذلك ، وأخذ معه جماعة من العبيد والغلمان ، ثم شد على وسطه خريطة فيها جواهر فاخرة مثمنة وخرج من مصر هاربا ، فتوجه الى نحو بلاد النوبة . فلما وصل هناك وجد مدائن خرابا وبها قصور محكمة البناء ، فنزل فى بعض تلك القصور ، وأمر غلمانه بكنسها فكنست وفرشت فيها فرشه وما كان معه من تلك الفرش الفاخرة ، ثم قال لبعض غلمانه ، وكان ممن يثق بعقله : « امض الى ملك النوبة وخذ لى منه أمانا على نفسى من القتل » . فخرج الغلام وتوجه الى ملك النوبة ، فغاب ساعة ، ثم عاد ومعه قاصد من عند ملك النوبة ، فلما دخل عليه قال له ان الملك يقرئك السلام ويقول لك : « أجئت اليه محاربا أم مستجيرا ؟ » . فقال له الأمير عبيد الله : « رد عليه منى السلام وقل له : قد جاء اليك ليستجير بك من عدو يريد قتله » . فمضى ذلك القاصد بالجواب ، فغاب ساعة ورجع وقال له : « ان الملك قادم عليك فى هذه الساعة » . فقال عبيد الله لغلمانه : « افرشوا ما معنا من الفرش الفاخرة » . وجعل مرتبة فى صدر المكان برسم ملك النوبة ، وجلس يرتقب مجيئه ..فبينما هو على ذلك اذ دخل عليه غلامه ، وقال له ان ملك النوبة قد أقبل ، فقام الأمير عبيد الله وصعد على أعلى القصر ونظر الى ملك النوبة فاذا هو رجل أسود طويل القامة نحيف الجسد ، وعليه بردان قد اتزر بأحدهما وارتدى بالآخر ، ومعه عشرة من السودان حوله ومعهم حراب بأسنة تلمع . فلما رآه الأمير عبيد الله

استصغر أمره واحتقره ، فلما قرب من المكان الذى فيه عبيــد الله أتاه من عسكره نحو عشرة آلاف رجل من السودان فى أيديهم الحراب ، فلما دخل ملك النوبة على عبيــد الله وأحاط ذلك العسكر بالمكان الذى فيه عبيد الله ووقعت عين ملك النوبة على الأمير عبيد الله ، بادر الى يد الأمير عبيد الله وقبلها ، فأشار اليه عبيد الله بأن يجلس على تلك المرتبة التى وضعها له فأبى وصار يدفع تلك الفرش الفاخرة برجله ، فقال عبيد الله للترجمان : « لم لا يقعد الملك على تلك المرتبة التى وضعناها له ؟ » . فقال له الترجمان فى ذلك فقال ملك النوبة : « قل للأمير : كل ملك لا يكون متواضعا لله فهو جبار عنيــد متكبر » . ثم انه جلس بين يدى الأمــير عبيد الله وجعل ينكت فى الأرض بأصبعه طويلا . ثم انه رفع رأســه الى الأمير عبيد الله وقال له : « كيف سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأنتم أقرب الناس الى نبيكم ؟ » . فقال له عبيد الله : « ان الذى سلب منا ملكنا أقرب الى نبينا منا » . فقال له ملك النوبة : « فكيف أنتم تلوذون الى نبيكم بقرابة وأنتم تشربون ما حرم عليكم من الخمور ، وتلبسون الديباج وهو محرم عليكم ، وتركبون فى السروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ولم يفعل نبيكم شيئا من هذا . وبلغنا أنك لما وليت على مصر كنت تخرج الى الصــيد ، وتكلف أهل القــرى ما لا يطيقون ، وتفســدون الزرع على الناس ، وتروم الهدايا والتقادم من أهل القرى ... وكل هذا لأجل كركى تصيده قيمته سبعة أنصاف أو ثمانية » ... فصار ملك النوبة يعدد على الأمير عبيد الله جملة ذنوب ، والأمير عبيد الله ســاكت لا يتكلم بحرف واحد ، ثم قال له ملك النــوبة : « فلما استحللتم ما حــرمه الله عليكم ، سلبتم من ملككم وأخذ منكم وأوقع الله بكم نقمة لم تبلغ غايتها منكم ، وأنا أخاف على نفسى ان أنزلتــك عندى أن تحل بى تلك النقمــة التى حلت بكم ، والبلاء عام والرحمة مخصوصة » . ثم قال له : « ارحل من أرضى بعد ثلاثة أيام والا أخذت جميع ما معــك وقتلتك شر قتــلة » . فلما سمع الأمير عبيــد الله ذلك خرج من أرض النــوبة فى يومه ورجع الى مصر فقبض عليه عمال الخليفة المنصور العباسى وبعث به الى بغداد ، فسجنه المنصــور حتى مات فى السجن . وهو آخر من تولى على مصر فى دولة الخلفاء الأموية من العمال .

الولاة فى العهد العباسى

وأما من تولى على مصر من العمــال فى دولة الخلفاء العباسية فجماعة كثيرة ، أكثر ممن تولوا فى دولة بنى أمية ، وكانوا يسمون عمال الخراج بمصر . وكانت الخلفاء تشترط على عمال مصر فى تقليدهم ، الخيل العربية ، والأثواب الديبقية شغل تنيس ، والمقاطع الشرب الاسكندرانية ، والطرز الصــعيدية ، وأجلال الخيل . وتشــترط عليهم ضــيافة العسل النحــل المصرى من عسل بنهــا ، وتشــترط عليهم البغــال والحمير وغير ذلك من الأصناف التى لا توجد الا بمصر .

* فكان أول من تولى مصر فى دولة الخلفاء العباسية الأمير صالح بن على بن عبد الله العباسى ، تولى على مصر فى ســنة ثلاث وثلاثين ومــائة ، فتولى على مصر مرتين .

* ثم تولى من بعده الأمير أبو عون عبد الملك الأزدى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن كعب — وهو أبو عيينة — تولى على مصر فى ســنة احدى وأربعين ومائة فلم تطل أيامه بها ، وكانت مدة ولايته على مصر دون السنة .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن الأشعث الخزاعى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده حميد بن قحطبة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن حاتم المهلبى . تولى فى سنة سبع وأربعين ومائة ، وفى أيامه وقع الغلاء بمصر وشرقت الأراضى من خسة النيل . وفى هذه السنة أخذ قاع النيل فجاء الماء القديم ذراعا وعشرين أصبعا ولم يعهد مثل ذلك فى السنين الماضية . فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة اثنى عشر ذراعا وستة عشر أصبعا ، فشرقت البلاد فى تلك السنة وحصل للناس الضرر الشامل ، ووقع الغلاء بمصر حتى ماجت المدينة بأهلها ومات الأمير يزيد بعد ذلك بمدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن عبد الرحمن فلم تطل أيامه بها ، ومات .

* فتولى من بعده الأمير محمد أخو عبد الرحمن عم عبد الله ، ثم عزل عنها بعد مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، وعزل عنها بعد مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده اللخمى فى أيام الخليفة المهدى فلم تطل أيامه بها وعزل عن ولاية مصر فى سنته ، ولم يستقم أمره بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن لقمان فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير واضح المنصورى فلم تطل أيامه .

* ثم تولى من بعده الأمير منصور بن يزيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير يحيى بن داود فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير سالم بن سودة ، تولى أيضا فى أيام الرشيد فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى ، تولى على مصر فى سنة خمس وستين ومائة . وكان الرشيد قد زوجه بابنته غالية ، فلما تولى على مصر لم يستقم بها حاله فعزله الرشيد عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن مصعب مولى خثعم ، تولى على مصر فى سنة سبع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير أسامة بن عمرو المعافرى ، تولى على مصر فى سنة تسع وستين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير فضل بن صالح العباسى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير على بن سليمان العباسى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده موسى بن عيسى العباسى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير مسلمة بن يحيى الأحمسى ، تولى على مصر سنة اثنتين وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير محمد بن زهير الأزدى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده داود المهلبى ، تولى على مصر سنة ثلاث وسبعين ومائة هو والأمير محمد ابن زهير الأزدى سنة واحدة .

* ثم تولى من بعده الأمير ابراهيم بن صالح العباسى . وفى أيامه توفى الامام الليث بن سعد

رضى الله عنه ودفن بالقرافة . وكانت وفاته فى سنة خمس وسبعين ومائة ، وذلك فى يوم الجمعة رابع عشر شعبان — وهى الولاية الثانية — فأقام بها حتى توفى فى سنة ست وسبعين ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن المسيب الضبى فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسحق بن سليمان العباسى ، تولى على مصر فى سنة سبع وسبعين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير هرثمة بن أعين فى سنة ثمان وسبعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الملك بن صالح العباسى ، تولى فى سلخ سنة ثمان وسبعين ومائة فأقام دون الشهر ومات ودفن بمصر .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدى العباسى ، تولى على مصر فى سنة تسع وسبعين ومائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن عيسى العباسى ، تولى على مصر ثلاث مرات ، وأقام فى آخر ولايته الى سنة ثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الأمير عبيد الله ابن الخليفة المهدى ثانيا ، فأقام فى ولايته على مصر هذه الثانية نحو سنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن صالح العباسى ، فأقام على ولايته بمصر دون السنة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير اسمعيل بن عيسى فى سنة اثنتين وثمانين ومائة .

* ثم تولى من بعده الليث بن الفضل الأسدى ، تولى على مصر فى سنة أربع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* وتولى من بعده الأمير أحمد بن اسمعيل العباسى ، تولى على مصر فى سنة تسع وثمانين ومائة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن أحمد العباسى الذى يقال له ابن زينب ، تولى على مصر فى سنة تسعين ومائة وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير حسين بن جميل ، تولى على مصر فى أواخر سنة تسعين ومائة ثم عزل عنها فى مدة يسيرة .

* ثم تولى من بعده الأمير مالك ابن دلهم الكلبى فى سنة اثنتين وتسعين ومائة ، فلم تطل بها أيامه وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جانم حسن بن البجباج ، تولى على مصر فى سنة ثلاث وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها

* ثم تولى من بعده الأمير جانم بن هرثمة ابن أعين ، فأقام على ولاية مصر مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير جابر بن الأشعث الطائى ، تولى على مصر فى سنة خمس وتسعين ومائة ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده الأمير عبادة بن محمد فى سنة ست وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده المطلب بن عبد الله الخزاعى فى سنة ثمان وتسعين ومائة . وفى أيامه توفى القاضى بكار بن قتيبة الحنفى رضى الله عنه ، وكان الرشيد ألزمه أن يتولى القضاء بمصر فتولى القضاء على كره منه . وكانت له كرامات خارقة للعادة ، وكانت وفاته فى سنة تسع وتسعين ومائة ، ودفن بالقرب من باب الزعلة عند المجراة .

❊ ثم عزل المطلب عن مصر ، وتولى العباس ابن موسى العباسى فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

❊ ثم أعيد المطلب ثانى مرة فأقام مدة يسيرة وعزل عنها .

❊ ثم تولى من بعده السرى بن الحكم فى سنة تسع وتسعين ومائة فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

❊ ثم تولى من بعده الأمير عبد الله بن طاهر الخزاعى . وكان من حذاق العمال بمصر ، وهو الذى نقل زريعة البطيخ العبدلى الى مصر ولم يكن بها قبل ذلك منه شىء ، وكان ظهوره بمصر فى سنة مائتين من سنى الهجرة فى أيام عبد الله بن طاهر ، واليه ينسب فيقال البطيخ العبدلى . وأقام عبد الله ابن طاهر على ولاية مصر ثم عزل عنها .

❊ ثم أعيد السرى بن عبد الحكم الى ولاية مصر ثانيا وذلك فى سنة احدى ومائتين فأقام بها مدة ومات ودفن بمصر .

❊ ثم تولى من بعده ابنه محمد بن السرى ، وفى أيامه توفى الامام الشافعى محمد بن ادريس رضى الله عنه ، وكانت وفاته فى ليلة الجمعة فى سلخ شهر رجب الفرد سنة أربع ومائتين من الهجرة ودفن بالقرافة الكبرى مقابل تربة القاضى بكار . وقيل مات بعلة البطن ومات وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان مولده بمدينة غزة فى سنة خمسين ومائة ، وهى السنة التى توفى فيها الامام أبو حنيفة رضى الله عنه .

قيل لما مرض الامام الشافعى أوصى بألا يغسله الا أمير البلد . فلما مات حضر محمد ابن السرى أمير البلد ، فقيل له : « ان الامام أوصى بألا يغسله الا أنت » . فقال : « هل توفى الامام وعليه دين ؟ » . فقيل له : « نعم » . فحسبوا ما عليه من الدين فاذا هو سبعون ألف درهم ، فقضاها عنه محمد بن السرى ، وقال هذا غسلى اياه ، وانما كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه .

وقيل ان الامام الشافعى أوصى اذا مات بأن السيدة نفيسة رضى الله عنها تصلى عليه . فلما مات أحضروا نعشه عندها فضربت لها ستارة وصلت عليه من خلفها ، ثم حمل من عندها ودفن فى تربته كما تقدم ذكر ذلك .

وقيل ان الامام الشافعى رضى الله عنه لما ساح فى الأرض فى طلب الحديث ، وقصد التوجه الى نحو مصر ، أنشد فى حلقة درسه قبل أن يدخل الى مصر هذين البيتين من نظمه حيث قال :

وانى أرى نفسى تتوق الى مصر
ومن دونها عرض المهامه والقفر

فوالله ما أدرى : أللعز والغنى
أساق اليها ، أم أساق الى قبرى ؟

فكان الأمر كذلك ودفن بمصر ، وكانت وفاته فى أيام الخليفة المأمون .

وأما نسبه — رضى الله عنه — فهو : محمد ابن ادريس بن عثمان بن شافع بن السائب ، متصل النسب الى عبد مناف أحد أجداد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فهو قرشى . وأما أمه فهى فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن الامام على رضى الله عنه .

❊ وقد قال الكرمانى فيه هذه الأبيات :

الشافعى امام كل أئمة
تربو فضائله على الآلاف

لكننى أوتيت بدعا بارعا
فى وصفه هو سيد الأوصاف

ختم النبوة والامامة فى الهدى
بمحمدين هما لعبد مناف

قيل ان أم الشافعي رضى الله عنه رأت فى منامها وهى حامل أن نجما خرج من بطنها وله ضوء عظيم فسقط بأرض مصر ، ثم طار منه فانتشر فى سائر الآفاق . فقصت هذه الرؤيا على بعض المعبرين فقال لها : « سيخرج من بطنك مولود ويكون من كبار العلماء ، ويخص علمه أهل مصر دون غيرها من البلاد ، ثم ينتشر علمه فى سائر الآفاق » ... وكان كذلك .

وكان الامام — رضى الله عنه — حسن الخلق ، قليل الغضب ، سخى النفس . وقد عاصر الامام مالك بن أنس رضى الله عنه ، وقرأ عليه الموطأ فى المدينة الشريفة . وعاصره أيضا الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه .

ومما يحكى عن الامام الشافعي رضى الله عنه أنه قال : « كنت فى المسجد جالسا ، واذا بلص قد سرق نعلى من غير علمى ، ثم مضى الى بيتى فقال للجارية ان الامام قد سرق نعله ، ولم يجد ما يمشى فيه ، فأرسلوا له نعلا حتى يجىء به الى البيت . فبينما أنا جالس فى المسجد واذا بالجارية قد أقبلت من باب المسجد ومعها نعل فقلت لها : وما هذا ؟ فقالت : قد جاء الينا رجل وقال لنا ان الامام قد سرق نعله ولم يجد ما يجىء به الى البيت فأتوا اليه بنعل غيره فعلمت ان القائل للجارية هو اللص ، فتعجبت من لطافة هذا اللص اذ لم يدعنى أجىء الى بيتى حافيا » .

ومن فضائل الامام الشافعي رضى الله عنه أن فى مدة حياته لم يقع الطاعون بمصر وهو بها ، ولا وقع فى غيرها من البلاد فى مدة حياته طاعون وذلك نحو من خمسين سنة ... نقل ذلك ابن حجر .

ومن هنا نرجع الى أخبار أمراء مصر .

❋ ثم تولى من بعد محمد بن السرى أخوه عبيد الله بن السرى ، تولى على مصر فى سنة ست ومائتين من الهجرة .

وفى أيامه توفيت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكانت وفاتها فى شهر رمضان سنة ثمان ومائتين من الهجرة ، ودفنت بالمراغة . وكان لها كرامات خارقة ، وأسرار صادقة .

قال شمس الدين بن خلكان فى تاريخه : هى نفيسة بنت الامام حسن بن زيد بن الحسن بن على ابن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين . أتت من مكة الى مصر مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق رضى الله عنه . وقيل بل دخلت مصر مع أبيها الأمير حسن . وقيل كان لها أولاد من زوجها اسحق ابن جعفر الصادق رضى الله عنه . قال ابن خلكان ان الامام الشافعي رضى الله عنه حضر عندها وأخذ عنها الحديث . وبالجملة ان الدعاء عند قبرها مجاب . وقيل ماتت ولها من العمر نيف وسبعون سنة .

❋ ثم أعيد الأمير عبد الله بن طاهر الى ولايته على مصر ثانيا ، فأقام مدة ثم عزل عنها .

❋ ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن يزيد الجلودى . تولى على مصر فى سنة ثلاث عشرة ومائتين ، فأقام بها نحو سنة ثم عزل عنها .

❋ وتولى الأمير عمير بن الوليد التميمى ، تولى على مصر فى سنة أربع عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

❋ ثم أعيد الأمير عيسى بن يزيد ثانيا ، ثم عزل عنها .

❋ ثم تولى من بعده عبدويه بن جبلة . تولى على مصر فى سنة خمس عشرة ومائتين ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها .

❋ ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور

المرافقى . وفى أيامه خرج أهل مصر عن طاعة الخليفة المأمون ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، وطردوا العمال عن البلاد ، وكانت فتنة عظيمة بمصر حتى كادت أن تخرب عن آخرها ، وعظم الأمر حتى قدم الخليفة المأمون الى مصر وخمدت هذه الفتنة ، ومهد البلاد ، وعزل عيسى بن منصور المرافقى عن مصر .

* ثم تولى من بعده الأمير نصر السعدى المسمى كيدر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده المظفر ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى بن منصور المرافقى ، فأقام بها مدة ثم عزل عنها فى سنة تسع عشرة ومائتين .

* ثم تولى من بعده الأمير موسى بن على ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو شهر ويومين وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده مالك بن كيدرة ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده على بن يحيى الأرمنى فى سنة خمس وعشرين ومائتين ، ولم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده هرثمة بن نصر الجبلى .

* ثم تولى ابنه جانم .

* ثم تولى اسحق بن يحيى .

* ثم تولى من بعده الأمير عبد الواحد المسمى حوط . تولى على مصر فى سنة ست وثلاثين ومائتين فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده عنبسة بن اسحق بن شمر . تولى على مصر فى سنة ثمان وثلاثين ومائتين . وفى أيامه أتى بنو الأصفر الى ثغر دمياط ، وهجموا على أهلها ، وقتلوا جماعة من المسلمين وأسروا منهم جماعة ، فجاء الخبر الى مصر بذلك فى يوم عيد النحر ، فنودى بالنفير عاما ، فخرج أهل الفسطاط جميعا وتوجهوا الى ثغر دمياط ، وتحاربوا مع بنى الأصفر ، فانتصر عليهم عنبسة وأسر منهم جماعة وهرب الباقون جميعا ، ورجع عنبسة الى مدينة الفسطاط فأقام بعد ذلك مدة ومات ودفن بها .

* ثم تولى من بعده الأمير يزيد بن عبد الله التركى ، وكان من الموالى . تولى على مصر فى أيام الخليفة المتوكل على الله جعفر ، وهو الذى بنى المقياس الجديد فى جزيرة الفسطاط وأبطل المقياس الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى فى أيام خلفاء بنى أمية ، وصار العمل فى قياس النيل على هذا المقياس الجديد الى الآن . وكان بناؤه فى سنة سبع وأربعين ومائتين .

* ثم تولى من بعده مزاحم بن خاقان التركى ، فلم تطل أيامه بها .

* ثم تولى من بعده ابنه أحمد ، ولم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده أرخور التركى ، وكان من الموالى . تولى فى أيام المتوكل فلم تطل أيامه بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير محفوظ بن سليمان . تولى فى أيام المتوكل أيضا فكان يقول : « انى تأملت أرض مصر فوجدتها اذا بلغ النيل ستة عشر ذراعا فقد وفى خراج مصر تاما ، وان زاد ماء النيل بعد ذلك ذراعا واحدا نقص من الخراج مائة ألف دينار لما يستبحر من بطون الأراضى التى هى واطية ، واذا زاد خمسة عشر ذراعا ثم هبط حصل للناس الضرر الشامل واستسقى أهل مصر لذلك

ـوقع بها الغلاء . ولو أن أراضي مصر تزرع كلها
ـفت بخراج الدنيا كلها بأسرها » .

قال محفوظ بن سليمان أمير مصر : « تبقى علىّ
ـ خراج مصر فى أيام المتوكل ثلثمائة ألف دينار ،
ـرسل فأحضرنى فى الحـديد . فلما وصلت الى
ـداد دخلت عليه بعد أن فرغ من صلاة الفجر وأنا
أعقل من الوهم ، فأصبته جالسا وفى يده درج
ـكتوب بماء الذهب . فلما أبصرنى قال : من أنت ؟
ـلت : عبدك محفوظ بن سليمان . فقال : ويحك !
ـ ساعة دخلت علىّ فيها ! فقلت : فى سـاعة خير
ـمير المؤمنين . فقال : هل تدرى ما فى هذا الدرج
ـى فى يدى ؟ فقلت : لا والله ياسيدى . فقال :
ـا مما أنزل على دانيال عليه السلام . يقول الله
ـلى : « عند تناهى شدتى يكون فرجى ، وعند
ـول بلائى يكون رجـائى ، وفى مثلى فليطمع
ـامعون » . اذهب يامحفوظ فقـد وهبت لك
ـعليـك من المـال وليتك على مصر ، فامض
ـسـدا . وأمر بنزع قيودى وخلع علىّ خلعة
ـية » .

وقد قيل فى المعنى :

ما خاب عبد على الله الكريم له
توكل صـادق فى السر والعلن

حاشاه أن يحرم الراجى اجابته
اذا دعاه لكشف الهم والحزن

واستمر الأمير محفوظ بن سليمان فى ولايته على مصر حتى مات ودفن بهـا فى سنة أربع وخمسين ومائتين .

❋ ثم تولى من بعده الأمير أحمد بن محمد بن المدبر . فلما تولى على مصر أحدث بها أنواعا من المظالم فى جهات متعـددة : منهـا أنه حجر على الأطرون بعد ما كان مباحا للناس ، ومنها أنه قرر على الرعاة ما كانوا يرعونه من المراعى فى الفلاة ، وصير عليهم قـدرا معلوما ، ومنها أنه قـرر على صيادى السمك قدرا معلوما ، وأحدث أشياء كثيرة من هذا النمط ... فهذه أول شدة لحقت أهل مصر من المظالم . وقد انحط خراجها فى هذه الأيام الى الغـاية حتى بقى ثمانمائة ألف دينار بعدما كانت تجبى فى أيام خلفاء بنى أمية اثنى عشر ألف ألف دينار بغير مكوس .

ثم صـارت مصر تتزايد من هذه الأحـوال الفاسدة ، وقد آل أمرها الى الخراب ، حتى تولى أمرها الأمير أحمـد بن طولون ، واستقل بهـا ، وانفرد وادعى بهـا الأمر لنفسه ... وذلك فى أيام محمد المعتز بالله بن جعفر المتوكل .



الدولة الطولونية

قال ابراهيم بن وصيف شاه : « كان طولون والد الأمير أحمد أصله من مماليك الخليفة المأمون ، فولد له الأمير أحمد هذا ، فلما انتشأ طلع شجاعا بطلا عالى الهمة سعيد الحركات ، تولى على مصر فى أواخر خلافة المتوكل فى سنة خمس وخمسين ومائتين . ولما دخل مصر كان فى أضيق حال ، يحتقره كل من يراه . قيل كان بمصر رجل من الأعيان يقال له على بن معبد البغدادى ، وكان فى سعة من المال ، فلما بلغه حضور الأمير أحمد خرج الى تلقيه ، فلما رآه فى ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينار فقبلها ، ورأى بها موقعا ، وحظى ذلك الرجل عنده ، فكان لا يتصرف فى شىء من الأمور الا برأى ذلك الرجل . وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية » .

قال ابن وصيف شاه : « لما تولى الأمير أحمد ابن طولون على مصر أخذ فى أسباب عمارة قرى مصر وعمارة جسورها وقناطرها ، وحفر خلجانها وسد ترعها ، فاستقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه بعد ما كانت قد تلاشى أمرها الى الحراب ، وانحط خراجها فى أيام من تقدمه من العمال . فلما حصلت العمارة والعدل عم الرخاء سائر أعمال الديار المصرية حتى بيع القمح فى أيامه كل عشرة أرادب بدينار ، وعلى هذا فقس فى جميع البضائع . ووصل خراج مصر فى أيامه — مع وجود هذا الرخاء — أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير المكوس » .

قال ابن وصيف شاه : « فلما تم أمر الأمير أحمد ابن طولون فى ولايته على مصر ، واستقامت أحواله بها استكثر من مشترى المماليك الديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك ، وبلغ مشترى عبيده أربعين ألفا من العبيد الزنج ، واستكثر من شناترة العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف انسان . فعند ذلك سطا على الخلفاء ، وادعى الخلافة لنفسه بمصر ، وانفرد بخراجها . فحاربه الخليفة المعتضد بالله أشد المحاربة فلم يقدر عليه ، فخضع له وأرسل يخطب ابنة ابنه الأمير خمارويه — وهى الست قطر الندى — فأصدقها مائة ألف دينار . وأتت من مصر الى بغداد فى محفة ، وكانت مدة توجهها من الديار المصرية الى بغداد ستة أشهر ، فكانت تمشى كما تمشى السحابة . فلما حضرت الى بغداد دخل عليها المعتضد بالله وزفت عليه ، وكان لهما مهم عظيم . وأحبها المعتضد بالله حبا شديدا ، وأقامت معه حتى مات » .

قيل ان النجوم تطايرت فى السماء شرقا وغربا فى أيام الأمير أحمد بن طولون وذلك سنة احدى وأربعين [1] ومائتين ، فارتاع الأمير أحمد من ذلك وأحضر أرباب الفلك وسألهم عن ذلك فما أجابوا بشىء ، فصار الأمير أحمد متطيرا من ذلك فدخل عليه الشاعر المسمى بالجمل — وهو جالس فى موكبه — وأنشده هذه الأبيات :

قالوا تساقطت النجو ... م لحادث أبدا عسير
فأجبت عند مقالهم ... بجواب محتنك خبير
هذى النجوم الساقطا ... ت رجوم أعداء الأمير

(1) لعلها احدى وستين .

، الأمير أحمد بذلك ، وخلع على الشاعر
لعة سنية .

ن وصيف شاه : « خرج الأمير أحمد بن
وما على سبيل التنزه الى نحو الأهرام ،
يسير اذ غاصت قوائم فرسه فى الأرض ،
ف ذلك المكان ، فلما كشفه اذا هو مطلب
يوسفية ، فنقلها الى خزائنه على ظهور
لشكاير » .

حاله فأخذ فى أسباب بناء الجامع المعروف
ن بناؤه فى سنة ستين ومائتين . قيل انه
، بنائه مائة ألف دينار .

قضاعى ان الأمير أحمد بن طولون وضع
ذا الجامع على مكان يسمى جبل يشكر ،
ا الجبل يشرف على بحر النيل قبل حفر
كتين اللتين احداهما تعرف ببركة الفيل ،
تعرف ببركة قارون . وقيل ان جبل يشكر
ور باجابة الدعاء ، وسبب ذلك أن موسى
م ناجى ربه عليه فى بعض الأوقات ، وهو
رك . قيل ان النمل دار على محراب هذا
وضعوا أساسه ، فبنوا على ذلك الخط
ه النمل المحراب ، ويسمى محراب النمل
ورئى النبى صلى الله عليه وسلم فى
مرار يصلى فى ذلك المحراب . فلما بنى
د هذا الجامع قرر به جماعة من العلماء
، وأجرى عليهم الرواتب والصدقات ،
، كل يوم راتب من الطعام والخبز — حتى
الفاكهة وغير ذلك — وكان هذا مستمرا
م . وأنشأ به مارستانا برسم الضعفاء ،
قبل ذلك بمصر مارستان غيره ، فكان
على هذه الرواتب والصدقات فى كل يوم
ى دينار .

الأمير أحمد يرسل فى كل سنة الى فقراء
بغداد مائة ألف دينار برسم الصدقات ، ويرسل
اليهم فى كل سنة بكسوة الشتاء والصيف دائما فى
مدة ولايته على مصر .

قال الشيخ أبو الحسن بن حماد ، وكان من
كبار العلماء : « كنت راقدا فى بعض الليالى فى
منزلى ، واذا بالباب يدق فى نصف الليل ، فنظرت
من الطاق ، واذا برجال ومعهم مشاعل ، فوقفوا
على باب منزلى ، فقلت : ما تريدون ؟ قالوا :
أبا الحسن ابن حماد ؟ فقلت : هاهو أنا . فقالوا :
امض فان الأمير احمد قد طلبك فى هذه الساعة .
فارتعدت أعضائى ، فخرجت معهم وركبت بغلتى
وأنا آيس من الحياة . فلما وصلت الى دار الأمير
أحمد دخلت وسلمت على حاجب الباب فقال لى :
ادخل وخذ فى مشيك عن يمينك ، واحترز أن تقع فى
البحرة . وكانت ليلة مظلمة من ليالى الشتاء .
فمشيت حتى بلغت ضوء الشمع ، فوقفت هناك
ساعة واذا بالأمير أحمد فى قبة لطيفة وهو نائم
على ظهره وبين يديه شمعتان ، فوقفت طويلا ، فلما
علم بى قال : أبو الحسن ؟ فقلت : نعم . فقال :
ادخل . فدخلت ووقفت بين يديه فقال لى : اجلس
فجلست ، فقال لى : لأى شىء تصلح هذه القبة ؟
وكانت قبة لطيفة يجلس فيها نحو أربع أنفس ،
فقلت : تصلح للذكر وقراءة القرآن ومطالعة العلم
ومنادمة المحبين . فتبسم ثم قال : ما تقول فى هذه
المسألة ؟ فقلت : يقول الأمير أيده الله بنصره . فقال:
ما تقول فيمن سلط على شىء ففعله ... فهل يعذب
عليه ؟ قال أبو الحسن : فعلمت أن المسألة ناشئة
عنه ، فقلت على الفور : لو كان كل مسلط معذبا
لكان ملك الموت أشد الناس عذابا يوم القيامة .
فلما سمع ذلك استوى جالسا وقال : كيف قلت ؟
فقلت : لو كان كل مسلط معذبا لكان ملك الموت
أشد الناس عذابا يوم القيامة . ثم سكت طويلا

وقال : انصرف الى منزلك . فخرجت من عنده وأنا لم أصدق بالنجاة . فلما خرجت من عنـده تبعنى الحاجب بكيس فيه مائة دينار ، وانصرفت الى منزلى وأنا أرعد من الخوف » .

قال ابن وصيف شاه : « كان راتب مطبخ الأمير أحمد بن طولون فى كل يوم ألف دينار تصرف فيما يحتاج اليه أمر الطعام والحلوى والفاكهة والسكر والشمع وغير ذلك . وكان منتهى حكمه من مصر الى الفرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب » .

قال جامع السيرة الطولونية : « كان بمدينة عين شمس — وهى التى تسمى الآن المطرية — صنم من الكـذان الأبيض على قدر خـلقة الانسـان المعتدل ، وكان محكم الصـناعة يكاد أن ينطق ، فقصد الأمير أحمد أن ينظر اليه ، فنهاه عن ذلك بعض الكهـان وقال له : أيها الأمير ، لا تنظر الى هذا الصنم فما نظر اليه أحد من ولاة مصر الا عزل عنها فى سنته . فلم ينته الأمير أحمد عن ذلك وركب وتوجه الى مدينة عين شمس ، ولم يزل حتى رأى ذلك الصنم ، فأمر باحضار القطاعين فكسروه قطعا ولم يبق له أثر . فلما رجع الأمير أحمد الى داره لم يقم بعـد ذلك سوى عشرة أشهر ، ثم مرض وتسلسل فى المرض ، فاضطربت مصر بسبب مرضه وخرج الناس قاطبة الى الصحارى ، وفعلوا مثـل ما يفعلون فى الاستسقاء ، فخرج الناس حفاة وعلى رءوسهم المصاحف ، وخرج اليهود وعلى رءوسهم التوراة ، وخرج النصارى وعلى رءوسهم الأناجيل ، وخرج الأطفال من المكاتب وعلى رءوسهم الألواح ، وخرج سائر العلماء والصلحاء وهم يدعون الله تعالى له بالعافية والشفاء » .

فاستمر الأمير أحمد فى ذلك المرض حتى مات به ، فكانت وفاته فى سنة تسع وستين ومائتين ، فكانت مدة ولايته بمصر نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان يقول فى مرضه : « رب ارحم من جهل مقدار نفسه وقد أبطره وغره حلمك ياأرحم الراحمين » .

وكان الأمير أحمد ملكا عادلا فى الرعية كريما سخيا ، منقادا الى الشريعة ، يحب العلماء والصلحاء . وكان يصلى على من يموت فى البلد — من فقير أو غنى — بنفسه ، ويحضر دفنهم ، ويحب فعل الخير ، كثير البر والصـدقات ، وكان له اشـتغال بالعلم وطلب الحديث ، وكان نافذ الكلمة وافر الحرمة ... حكم فى أيام ولايته من مصر الى الفـرات ، ومن مصر الى بلاد المغرب ، وعم العدل منه سائر الجهات حتى تخيروه على خلفـاء بغـداد . وكانت أفعاله جميلة ... غير أنه كان سـفاكا للدماء ، شـديد الغضب ، سيىء الخلق ، قيل مات فى حبسه ثمانية عشر ألف انسان .

ولما مات الأمير أحمـد دفن بالقـرب من باب القرافة . قال بعض الثقات : كنت أرى شيخا من أهل العلم يقرأ على قبر الأمير أحمد بن طولون فى كل يوم ، ثم رأيته ترك القراءة ورجع عن ذلك ، فسألته عن سبب ذلك فقال لى : كان للأمير أحمـد على بعض احسان فأحببت أن أصله بعد موته بشىء من القرآن ، فرأيته فى بعض الليالى فى المنام فقال لى : يافلان ، لا تبق تقرأ على قبرى شيئا ، فانى ما تمر بى آية الا قيل لى أما سمعت هذه الآية فى دار الدنيا ... فهلا كنت تعمل بها ؟ وما رأيت أشد على رؤساء الدنيا من الحجاب فى كتمهم لحوائج المظلومين عن الحكام . ثم أنشد يقول :

ولو أنا اذا متنا تركنا   لكان الموت راحة كل حى

ولكنا اذا متنا بعثنـا   ونسأل بعد ذا عن كل شى

مع أن الأمير أحمد كان فيـه الخير ، وأبطل فى أيامه جمـلة مكوس كانت حـدثت بمصر ، أيام أحمد بن المدبر .

قال ابن وصيف شاه : « لما توفى الأمير أحمد بن طولون خلف من الأولاد ثلاثة وثلاثين ولدا ، منهم سبعة عشر ذكورا وباقى ذلك اناث ، وخلف من الذهب العين عشرة آلاف ألف ألف دينار ، وخلف من المماليك المشتروات سبعة آلاف مملوك ، ومن العبيد السود أربعة وعشرين ألف عبد ، وخلف من الخيول سبعة آلاف فرس ، ومن البغال والحمير ستة آلاف رأس ، وخلف من الجمال عشرة آلاف جمل ، ومن المراكب الحربية والشوالى ألف مركب ، وخلف من اللؤلؤ والجواهر واليواقيت مائة صندوق ، وخلف من التحف والفرش ما لا يحصى عدده ... وهذا خارج عن الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك » .

وكان خراج مصر فى أيامه أربعة آلاف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار بعد اسقاط المكوس — وهو نحو مائة ألف دينار — مع وجود الرخاء وانحطاط سعر الغلال فى زمانه .

ولما مات رثاه بعض الشعراء بهذه الأبيات :

خذ القناعة من دنياك وارض بها
واقصد لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مصرا وما جمعت
هل راح منها بغير القطن والكفن

ولما مات الأمير أحمد بن طولون تولى من بعده ابنه خمارويه .

الأمير خمارويه

تولى على مصر بعد أبيه الأمير أحمد ، ومشى على نظامه وطريقته ، واستكثر من المماليك وزاد فى عسكره شنانزة العرب الشجعان حتى بلغوا نحو عشرة آلاف انسان . وكان يحب الجياد من الخيل فاستكثر منها حتى ضاقت بها الاسطبلات ، وكان لها أنساب مثبتة فى الدواوين كأنساب الناس المعروفة .

قال ابن وصيف شاه : « كان الأمير خمارويه مولعا بالعمارات وغرس الأشجار . قيل انه أنشأ ميدانا بالقرب من جامع أبيه ، ونقل اليه الأشجار من سائر البلاد الهندية والشامية حتى من خراسان ومن مكة ومن اليمن ، فكان به سائر الفواكه وسائر الرياحين ، حتى الكادى والقرنفل والسنبل والزعفران وجوز الهند وغير ذلك من أنواع الفواكه والزهورات والرياحين والأشياء الغريبة التى لم تزرع قط بمصر ، ثم زرع أشياء من أنواع الرياحين وجعلها كالسطور تقرأ ، مثل « حسبنا الله ونعم الوكيل » وما أشبه ذلك من الألفاظ ، ووكل بتلك السطور رجالا بأيديهم مقاريض من الذهب والفضة يصلحون بها ما يفسد من الأوراق ويخرج عن قالب الاعتدال فى الأحرف حتى يستقيم الكلام فى معناه . ثم انه ألبس قوائم الأشجار الكبار بالنحاس الأصفر وطلاه بالذهب ، فكانت الشمس اذا طلعت على تلك الأشجار لا يقدر أحد أن ينظر اليها من شدة اتقاد ذلك النحاس المموه بالذهب ، وكان يسحق المسك والكافور وينثره على تلك الرياحين السطور ...

« وصنع فى ذلك البستان بحيرة كبيرة وملأها من الزئبق . وكان يضع على ذلك الزئبق فراشا من جلد خباه أنعم من الحرير ، وكان له حركات تمتلىء بالريح ثم يسد فاه بحبل ويطرح ذلك الفراش على ذلك الزئبق وينام عليه » .

قال بعض المؤرخين ان خمارويه هذا كان يعتريه ضربان المفاصل ، وكان يضع ذلك حتى يجد له راحة وينام ساعة من الليل .

قال ابن وصيف شاه : « خرج خمارويه يوما

الى الفضاء على سبيل التنزه ، فلقيه أعرابى فأخذ بعنان فرسه وأنشد :

ان السـنان وحد السيف لو نطقا
لحـدثا عنك فى الهيجـاء بالعجب

أفنيت مالك تعطيـه وتبـذله
يا آفة الفضـة البيضاء والذهب

فلما سمع خمارويه هذه الأبيات قال لغلامه : ادفع اليـه ما معك فى الخـريطة . فوجـد فيها خمسمائة درهم فدفعها اليـه . فقـال الأعرابى : زدنى أيها الأمير فمثلك من يزيد . فقال خمارويه للمماليك : اطرحوا عليه مناطقكم وسـيوفكم ، وكانت مسقطة بالذهب . فقـال الأعرابى : ومن يحمل لى ذلك ؟ فأمر له ببغل ، فحمل ذلك ومضى . فلما رجع خمارويه الى قصره فرق على المماليك سيوفا ومناطق عوضا عما أخذ منهم .

الافضل امير الجيوش بدر الجمالى

واستمر خمارويه فى ولايته على مصر حتى توفى بها ودفن عند أبيه ، ثم تولى من بعده ابنه الأفضل أمير الجيوش بدر الجمالى . وهو صاحب سوق مرجوش .

قال القضاعى : ان الأفضل هذا هو الذى حفر خليج أبى المنجى ، وكان المتولى أمر حفر هـذا الخليج أبو المنجى شـعيا اليهودى فعرف به من يومئذ . وقال القضاعى ان الأفضل هو الذى بنى المسـجد المطل على بركة الحبش المعروف الآن بالرصد ، وانما سمى بالرصد لأنه كما قيل كان فوقه صورة من النحاس الأصفر قدرها نحـو قنطار وهى مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض بسبب تحرير الساعات لأجل وقت دخول الصلاة . ولم ينسب الى الحاكم بأمر الله فى بنائه شىء وانما هى اشاعة بين الناس فى نسبته الى الحاكم .

ومن الحوادث فى أيام الأفضـل أنه فى يوم الجمعة ثانى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين ، هاجت بالديار المصرية ريح سـوداء ، واشـتد هبوبها ، وأظلم الجو حتى ظهرت النجوم بالنهار ، فارتاع النـاس من ذلك وتوجهوا الى المسـاجد يبتهلون الى الله تعـالى بالدعاء . فلم تزل تلك الرياح عاصفة من العصر الى المغرب ، ثم بعد ذلك سكن الريح وانجلت تلك الظلمة وعادت الناس الى دكاكينهم بعد ما تركوها مفتوحة ومضوا الى المساجد .

وفى أيامه توفى الشيخ بنان الجمـال رضى الله عنه ، وكان صاحب كرامات خارقة ، ودفن تحت الجبل المقطم بالقرافة .

واستمر الأفضل فى ولايته على مصر حتى مات بهـا ودفن فى المسـجد الذى فى حارة برجوان . وكانت وفاته فى سنة احدى وتسعين ومائتين .

هارون بن بدر الجمالى

ثم تولى من بعده ابنه هارون ، فلما تولى على مصر لم يستقم أمره بها وعزل عنها ، فكانت مدة ولايته على مصر ثمانية أشهر وأياما .

* * *

* ثم تولى من بعد الأمير شـيبان من ولد الأمير أحمد بن طولون ، وكان يكنى بأبى المناقب . تولى على مصر فى سـنة اثنتين وتسعين ومائتين ، فلم تطل مدته بها وعزل عنها .

* ثم تولى من بعده الأمير عيسى الدنوشرى ، فلم تطل أيامه بها وعزل عنها . ومن الحوادث فى أيامه أنه وقعت صاعقة عظيمة فى مدينة الفسطاط فأحرقت عدة أماكن .

* ثم تولى من بعـده أبو الحسن المسـمى

بكا الأعور . تولى على مصر فى سنة ثلاث وثلثمائة ، فأقام بها مدة يسيرة ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعـــده شخص يســـمى تكين التركى . تولى على مصر مرتين ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يســـمى هلال ابن بدر المصرى فى سنة تسع وثلثمائة ، ولم تطل أيامه بها ثم عزل عنها .

* ثم تولى من بعده شخص يسمى أحمـــد ابن كيغلغ ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

* ثم أعيد تكين التركى الى ولايتـــه بمصر ثالث مرة ، فكانت ولاية أحمد بن كيغلغ وعود تكين فى سنة واحـــدة وهى سنة احـــدى عشرة وثلثمائة . ولم تزل الأحوال مضطربة بمصر حتى ابتدأت دولة الاخشيدية .



الدولة الإخشيدية

قال الكندي : ان أول من تولى بمدينة فرغانة يسمى الاخشيدى ، فكان أول من تولى منهم أحمد بن كيغلغ ، ومحمد بن طغج ، وأبو القاسم على ، وأبو بكر بن محمد بن طغج ، وخادمهم كافور . وأما أحمد بن كيغلغ ومحمد بن طغج فتوليا على مصر كل واحد منهما مرتين ، ولم تطل أيامهما بها .

* وأما أبو القاسم على فانه تولى على مصر فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة ، وفى أيامه وقع الغلاء بمصر واستمر تسع سنين متوالية . وسبب ذلك أن النيل كان ينتهى فى زيادته الى خمسة عشر ذراعا وأربعة عشر أصبعا ، واستمر فى كل سنة يزيد هذه الزيادة الخسيسة الى سنة تسع وأربعين وثلثمائة ، فوقع الغلاء بسبب ذلك فى هذه السنين .

* ثم توفى عقيب ذلك الأمير أبو القاسم على الاخشيدى ، وتولى الأمير أبو بكر بن محمد ابن طغج على مصر مدة طويلة نحو عشرين سنة . وفى أيامه استقامت أحوال الديار المصرية ، وانصلحت أحوال الناس ، واستكثر من العساكر ورتب لهم الرواتب والجوامك فى كل شهر ، فبلغت عدة عساكره بمصر والشام نحو أربعمائة ألف فارس ، وبلغ خراج مصر فى أيامه ألفى ألف دينار . قيل ان الوزير عمل لأولاده فى ليلة الغطاس فوانيس شمع مزهر ، فكان مصروف ذلك مائة وعشرين ألف دينار .

واستمر الأمير أبو بكر فى ولايته على مصر حتى توفى فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة ودفن بمصر ، فكانت مدة ولايته بها نحو عشرين سنة .

ولما مات الأمير أبو بكر رثاه الشاعر الماهر أبو الطيب المتنبى بهذه الأبيات :

هو الزمان مشت بالذى جمعا
فى كل يوم ترى من صرفه بدعا

لو كان ممتنع تغنيه منعته
لم يصنع الدهر بالاخشيد ما صنعا

ذاق الحمام فلم تدفع عساكره
عنه القضاء ولا أغناه ما جمعا

لو يعلم اللحد ما قد ضم من كرم
ومن فخار ومن نعماء لاتسعا

يالحد طل ان فيك البحر محتبسا
والليث مهتصرا والجود مجتمعا

يايومه لم تخص الفجع فيه لقد
كل الورى بردى الاخشيد قد فجعا

* ولما مات الأمير أبو بكر تولى من بعده خادمه أبو المسك كافور الاخشيدى . فلما تولى على مصر مشى على طريقة أستاذه الأمير أبى بكر وأطاعه أهل مصر . ثم انه استجدّ فى عسكره جماعة كثيرة من طوائف البربر . ومما وقع له أنه كان جالسا فى موكبه فى يوم عيد فدخل عليه طائفة من التكرور وهم يرقصون ومعهم طبل وطنبور ، فلما رقصوا بين يديه طرب منهم وحرك كتفيه ، ثم انه استدرك فارطه فصار يحرك كتفيه فى كل ساعة من الليل والنهار حتى مات ، وقال : هذا مرض يعترينى . ولم يخرج عن ناموسه .

قيل وكانت علامة على مراسيمه « القلم بمده ، والسيف بحده ، والعبد بسعده ، لا بأبيه ولا بجده » .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه : « كان راتب كافور الاخشيدى فى مطبخه فى كل يوم ألفى رطل من اللحم البقرى ، وسبعمائة رطل لحم ضأن ، ومائة طير أوز ، وثلثمائة طير دجاج ، وثلثمائة فرخ حمام ، وعشرين فرخ سمك كبار ، وعشرين رميسا رضع ، وثلثمائة صحن حلوى ، وسبعة أفراد فاكهة ، وألف كوز تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وألف كماجة ، وخمسة أفراد بقولات . وكان يحضر على سماطه الخاص والعام » .

قيل وقعت زلزلة عظيمة بمصر فى أيامه فخاف الناس من ذلك ، وهربوا الى الجبال ، فدخل محمد بن عاصم الشاعر على كافور وهو فى موكبه فأنشده قصيدة عظيمة منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها
لكنها رقصت من عدله طربا

فلما سمع كافور ذلك أجازه على هذه القصيدة بألف دينار ، وهذه الجائزة التى هيجت المتنبى حتى دخل الى مصر ومدح كافورا بقصائد سنية وهى ثابتة فى ديوانه الى الآن .

قيل وقع حريق عظيم فى أيامه بمصر ، وعملت النار من سوق البزازين الى قيسارية العسل ، ودخل الليل والنار على حالها ، فبات الناس على وجل من ذلك ، فركب كافور وأمر المنادى ينادى بأن من جاء بقربة فيها ماء فله مائة درهم ، فجاء الناس بالقرب وفيها الماء فأطفأوا تلك النار ، فكان عدة ما احترق فى هذه الواقعة ألفا وسبعمائة دار غير البضائع والأقمشة التى احترقت للناس .

وفى أيامه وقع الغلاء بمصر . وسبب ذلك أن النيل بلغ فى الزيادة الى اثنى عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا ثم هبط ، فشرقت الأراضى ووقع الغلاء ، وكان ذلك فى سنة ست وخمسين وثلثمائة .

قال الكندى : « وكان من آثار عجائب القدماء الى أيام كافور الاخشيدى حوض من رخام أخضر مدور وعليه كتابة لا تقرأ بالقلم القديم ، وهذا الحوض كان فى بحر النيل عند طرا ، فاذا جلس فيه واحد من الناس أو أربعة وحركوه يعدى بهم من جانب الى جانب . فأخذه كافور من البحر وألقاه فى البر فبطل فعله من يومئذ » .

واستمر كافور الاخشيدى فى ولايته على مصر الى أن مات فى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ودفن بالقرافة الصغرى ، فكانت مدة ولايته على مصر نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من تولى على مصر من الأمراء .

قال ابن وصيف شاه : « تولى على مصر من الأمراء اثنان وسبعون أميرا ، أولهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وآخرهم أبو المسك كافور الأخشيدى ، ودفن غالبهم بمصر . ومن مبتدأ ظهور الاسلام من حين فتحت مصر على يد عمرو ابن العاص وأخذها من يد المقوقس عظيم القبط لم ينفرد بملك مصر أحد من أمرائها ويستغل خراجها له سوى الأمير أحمد بن طولون فى مدة ولايته عليها » .

ولما مات الأمير كافور اضطربت أحوال الديار المصرية غاية الاضطراب ، وطمع أهل القرى فى الجند ، وامتنعوا عن وزن الخراج ، فعند ذلك كتب أعيان مصر الى المعز الفاطمى — وكان ببلاد الغرب — بأن يحضر الى الديار المصرية ، ويتسلم المدينة ويتولى عليها . فلما وقف المعز

على تلك المكاتبات أرسل الى مصر الأمير جوهر القائد الصقلى ، ومعه مائة ألف من عساكر الغرب ، فكان دخول جوهر القائد الى مصر فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، فلما دخل الى مصر لم تعجبه مدينة الفسطاط ، فأخذ فى أسباب عمارة القاهرة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه : « لما أراد جوهر القائد أن يبنى سور القاهرة اختط أساس المدينة وجمع أرباب الفلك وأمرهم بأن يختاروا له مطلعا سعيدا حتى يضع فيه أساس المدينة ، فجعل على كل جهة من أساس المدينة ، قوائم من الخشب ، وبين كل قائمة منها حبلا وفيه أجراس من نحاس ، ثم وقفت الفلكية ينتظرون دخول الساعة الجيدة والطالع السعيد حتى يضعوا فيه الأساس . وكان لهم اشارة مع البنائين اذا حركوا تلك الأجراس يلقون ما بأيديهم من الحجارة اذا سمعوا حس الأجراس . فبينما هم واقفون لانتظار الساعة السعيدة ، واذا بغراب وقع على تلك الحبال فتحركت تلك الأجراس فظن البناءون أن الفلكية قد حركوا لهم الحبال التى فيها الأجراس ، فألقوا ما بأيديهم من الحجارة فى أساس السور ، فصاح عليهم الفلكية : لا لا ، القاهر فى الطالع » . يعنون المريخ ، واسمه عندهم «القاهر» ، فقضى الأمر ... » . فكان كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه
ويأبى الله ألا ما يريد

وكان بناء سور القاهرة فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة من الهجرة ، وبنى أولا بالطوب اللبن ، فلما فرغ بناء السور أرسل الأمير جوهر القائد يعرف المعز بفراغ بناء السور فقدم اليها .



الدولة الفاطمية

المعز لدين الله الفاطمي

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى نسبه : « هو المعز أبو تميم معدّ بن المنصور اسماعيل ابن القائم بالله محمد بن المهدى عبيد الله المغربى الفاطمى » . وكان مولده ببلاد الغرب بمدينة أفريقية فى يوم الجمعة تاسع عشر من شوال بسنة احدى وأربعين وثلثمائة . وهو رابع خليفة من بنى عبيد الله ببلاد المغرب بمدينة أفريقية .

وفى سبب شرف هذه الفاطمية أقوال كثيرة . فمن الناس من قد نسبهم الى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن الناس من قد نسبهم الى الحسين بن محمد بن أحمد بن قداح ، وكان أصل القداح من أبناء المجوس ، وهذا الأمر عند أرباب التواريخ فى نسبهم مشهور وأكثر الاتفاق عليه .

قال الذهبى : « وكان قدوم المعز الى مصر فى سابع عشر شهر رمضان سنة احدى وستين وثلثمائة ، وقد انقرضت دولة الاخشيدية بموت الأمير كافور » .

قال الشيخ عماد الدين بن كثير : « لما دخل المعز الى مصر دخل معه ألف وخمسمائة جمل موسوقة ذهبا عينا . وكان معه من القماش والتحف مالا يسمع بمثله ، فمن جملة ذلك كان معه قبة من البلور وهى قطعتان يجلس فيهما نحو أربع أنفس ، فكانت اذا نصبت فى الليلة المقمرة تخفى ضوء القمر من شعاعها . وكان معه أربع خواب من البلور كل خابية تسع قدر راوية من الماء ، وكان معه غير ذلك من التحف والعجائب » .

قيل لما أراد المعز أن يتوجه الى مصر حمل معه أجداده الذين ماتوا بمدينة أفريقية ، فحملهم فى توابيت من خشب ، فلما دخل الى مصر دفنهم بالقرافة الكبرى .

قال ابن كثير : « لما دخل المعز الى مصر رأى ما بناه جوهر القائد فلم يعجبه ، وعاب عليه ما بناه ، وقال له : « لقد بنيت هذه المدينة فى وطيئة لا هى بحرية ولا هى جبلية » . وكان قصد المعز لو بناها على شاطىء النيل » .

وقيل ان المعز سمى « القاهرة » أولا « المنصورية » ، فلما بلغه ما وقع للفلكية من أمر القاهر غير اسمها فقال سموها « القاهرة » ، فاستمرت من ذلك اليوم على هذا الاسم .

وقد قالت فيها الشعراء أشعارا كثيرة :

لله قاهرة المعز لأنها
بلد تخصص بالمسرة والهنا
أو ما ترى فى كل قطر منية
من جانبيها فهى مجتمع المنى

وقال آخر فيها :

مصر لها الأفضال اذ لم تزل
على العدا منصورة ظاهرة
ما غولبت ، كلا ولا قوهرت
الا وكانت مصر والقاهرة

قال المسبحى : لما استقر المعز بمصر انفرد بها ولم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية ، وادعى الخلافة لنفســه بمصر ، وقال نحن أفضــل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكان الخلفاء الفاطمية يحــكمون من مصر الى الشــام الى حلب الى الفــرات الى مكة والمدينــة الشريفة الى القدس والخليل ، وصارت مصر وبلاد المغرب مملــكة واحدة . وكانت الخلفاء العباسية يحكمون من الفرات الى بغداد وأعمالها الى سائر بلاد الشرق . وكان يخطب لكل خليفة منهما فى الجهات التى تحت حكمه باسمه فقط .

ثم ان المعز استكثر من العساكر بمصر فكانوا ما بين كنانة وروم وصــقالبة وبربر ومغاربة ، وكانوا فى العدد لا يحصون لكثرتهم حتى قيل : لم يطأ الأرض — بعــد جيوش الاسكندر بن فليبش الرومى الكبير — أكثر من جيوش المعز الفاطمى . ثم انه بنى قصر الزمــرد مكان دار الضرب ، وكان جوهــر القــائد وزيره ومدبر مملكته .

وجوهر هذا هو الذى بنى الجامع الأزهر ، وكان بناؤه فى سنة احدى وستين وثلثمائة . وكانت له فى مصر حرمة وافرة ، وكان خــراج مصر فى أيامه ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار . وكان خراج مصر قد انحط فى أيام من تولى قبله من الأمراء فجدد الأمير جوهر ما فسد من عمارة القنــاطر والجسور وغير ذلك حتى استقامت أحوال الديار المصرية فى أيامه .

ولما تولى المعز على مصر منع القبط مما كان يعمل فى يوم النيروز من صب المياه على الناس فى الطرقات ، وايقاد النار فى تلك الليــلة ، وكانوا يخرجون فى ذلك عن الحد . ومنعهم أيضا مما كان يعمل فى ليلة الغطاس من النزول فى المراكب وضرب الخيام على شــاطىء بحر النيل عنــد المقياس ، فأشهر النداء بابطال ذلك جميعه ، وهدد من يفعل ذلك بالشنق ، فرجع الناس عن ذلك فى أيامه ، وكان يحصل من هذه الأفعال غاية الفساد بمصر فى تلك الأيام .

قال المسبحى فى تاريخــه ان امرأة وقفت للمعز وهو فى موكبه وأنشدت :

تحطمنــا ريب الزمان كأننــا
زجاج ولكن لا يعــاد له سبك

فقال لهــا المعــز : « من أنت أيتها المرأة ؟ » . فقالت : « أنا زوجة الأمير أبى بكر بن محمد بن طغج الاخشــيدى صــاحب مصر » . فقــام اليها المعز ، وقال : « ما حاجتك ؟ » . فقالت : « انى قد أودعت بغلطاقا لى عند شخص يهودى ، فأقام عنده مدة ، ثم انى طلبته منه فأنكره ، فقلت له : خذ منه ما تختار من جواهره وأعطنى الباقى ، فأبى وامتنع من الاعطــاء ، وأنكر ذلك أصلا » . فلما سمع المعز ذلك أرسل خلف اليهودى وسأله عن أمر البغلطاق الذى أودعته عنده زوجة الأمير أبى بكر الاخشيدى ، فأنكره ولم يعترف به ، فأمر بشنقه . فلما تحقق ذلك اعترف به فأمره المعز باحضاره ، فلما أحضره بين يديه تحير ممــا فيه من الجواهر واللآلىء . ثم انه وجد اليهودى قد سرق من صدر ذلك البغلطاق درتين فسأله عن ذلك فاعترف أنه باع هاتين الدرتين بألف وستمائة دينار ، فأخذ المعز ذلك البغلطاق من اليهودى وأمر بشنقه فشنق ، ثم دفع ذلك البغلطاق الى زوجــة الاخشيدى فسألته أن يأخذه منها على سبيل الهدية فأبى من قبول ذلك ، فأخذته وانصرفت وهى داعية له .

وكان المعز يحب العدل والانصاف بين الرعية ،

غير أنه كان رافضيا سبابا للصحابة فى يوم الجمعة على المنابر . قال المسبحى : ان المعز كان يميل الى علم الفلك ، فأخبره جماعة من المنجمين بأن عليه قطعا شديدا فى يوم كذا وكذا ، فى شهر كذا وكذا ، ثم أشاروا عليه بأن يختفى فى سرب تحت الأرض حتى تمضى عنه تلك القطوع . فاختفى فى سرب نحو أربعة أشهر ، فلما طالت غيبته على جنده ظنوا أنه قد رفع الى السماء فكان الفارس من عسكره اذا نظر الى الغمام فى السماء ينزل عن فرسه ويقول : « السلام عليك يا أمير المؤمنين » ... فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر من ذلك السرب وجلس على سرير ملكه وهم يحسبون أنه كان فى السماء وأتى اليهم .

قال المسبحى : « كان للمعز أخت تسمى الست سيدة الملك ، قيل انها توفيت فى خلافة أخيها المعز فوجد لها من الذهب العين ثلثمائة صندوق ، ومن الفصوص الياقوت الملونة واللؤلؤ خمس ويبات ، ووجد لها مدهنا من الياقوت الأحمر وزنه سبعة وعشرون مثقالا لم يحص له ثمن ، ووجد لها من الشقق الحرير الأحمر ثلاثين ألف شقة » . قال بعض المؤرخين وكانت أخت المعز — مع وجود هذه السعة — أزهد الناس فى الدنيا ، وكانت لا تأكل الا من ثمن غزلها دائما حتى ماتت .

واستمر المعز فى الخلافة حتى مرض وسلسل فى المرض حتى مات ، فكانت وفاته فى ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان له من العمر لما توفى نحو احدى وأربعين سنة . وهو أول خلفاء بنى عبيد الله بمصر ، ودفن عند سيدى زين العابدين جد السيدة نفيسة ، وتربته بين الكيمان عند حدرة ابن قميحة . وكانت مدة خلافة المعز بمصر أربع سنين وشهرا ويومين .

وكان المعز رجلا عادلا عاقلا حازما لبيبا فصيحا شاعرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

ما بان عذرى فيك حتى عذرا
وبدا البنفسج فوق ورد أحمرا

همت بقبلته عقارب صدغه
فاستل ناظره عليها خنجرا

ولما مات المعز تولى من بعده ابنه العزيز .

العزيز بالله

هو العزيز بالله ، أبو منصور ، نزار ، بن المعز لدين الله معدّ الفاطمى العبيدى ، وهو الثانى من خلفاء بنى عبيد بمصر .

بويع بالخلافة بعد موت المعز فى سنة خمس وستين وثلثمائة ، وكان مولده بمدينة القيروان فى سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، فلما تم أمره فى الخلافة بمصر، استقر بجوهر القائد مدبرا لأمر مملكته كما كان فى أيام أبيه المعز .

وكان العزيز يحب العدل فى الرعية ، وينصف المظلوم من المظالم ، وكان كريما جوادا ممدوحا ، فأحبته الرعية وصفا له الوقت بالديار المصرية . ثم انه استكثر فى عسكره من المماليك الديالمة والمصامدة والأتراك المغل . واستقر بالقاضى يعقوب ابن كلس وزيرا .

قيل لما تولى العزيز الخلافة دخل عليه عبد الله بن حسن الجعفرى الشاعر يهنئه بالخلافة بعد موت أبيه فأنشده هذه القصيدة منها :

عمت خلافته مصرا فصار بها
كأنه الشمس فيها حلت الحملا

ان المعز الذى لا خلق يشبهه
الا العزيز ابنه ان قال أو فعلا

فان مضى كافل الدنيا فصار لها
من بعـده كافلا يغنى بما كفلا
أضحت ملوك بنى الدنيا له خدما
وما حوت كل دار منهم نفلا

حكى المسبحي فى تاريخه أن العزيز لما تم أمره بمصر استقر بشخص من النصارى عاملا بمصر على سائر جهاتها ، وكان يقال له نسطروس ، واستقر بشخص من اليهود عاملا على سائر جهات دمشق وكان يقال له منشا . فحصل من النصرانى لأهل مصر غاية الظلم والأذى ، وحصل من اليهودى لأهل دمشق غاية الظلم والأذى . فاتفق أن العزيز ركب يوما وشق من القاهرة فزينت له ، فعمد بعض الناس الى مبحرة من حديد وألبسها ثياب النساء وزينها بإزار وشعرية ، وجعل فى يدها قصة على جريدة وكتب فيها :

« بالذى أعز جميع النصارى بنسطروس ، أعز جميع اليهود بمنشا ، وأذل جميع المسلمين بك ... الا ما رحمتهم وأزحت عنهم هذه المظالم ؟ » .

فلما مر العزيز على تلك الصورة ظن أنها امرأة ولها حاجة ، فطلب قصتها فلما قرأها اشتد به الغضب ، وأمر بشنق ذلك النصرانى نسطروس فشنق على باب القصر ، وأرسل بشنق منشا اليهودى فشنق على أحد أبواب دمشق ، واحتاط على جميع أموالهما من صامت وناطق

ومن الحوادث فى أيامه أن فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة ولدت امرأة بمدينة تنيس جارية لها رأسان ووجهان فى عنق واحد ، وكان أحد الوجهين أبيض اللون والآخر أسمر اللون وفيه سهولة ، وكل وجه منهما كامل الخلقة ، وهذان الوجهان فى جسد واحد ، فكانت أم تلك المولودة ترضع كل واحد منهما على انفراد ، فحملت هذه المولودة الى العزيز من تنيس الى مصر حتى شاهدها فوجه لأمها شيئا من المال ، ثم عادت الى تنيس فعاشت هذه المولودة مدة يسيرة ثم ماتت .

وفى أيامه فى سنة تسع وسبعين وثلثمائة حدث بمدينة تنيس فى ليلة الجمعة ثامن عشر ربيع الأول حادث فيه أرعدت السماء وأبرقت ، وأظلم الجو وظهر فى السماء أعمدة من نار تلتهب ، فأضاءت منها الدنيا ، ثم اشتدت تلك الحمرة ، وجاءت عقب ذلك ريح سوداء فيها غبار حار يأخذ بالأنفاس من شدة حره ، فارتاع الناس من ذلك وأيقنوا بالهلاك ، وصار يودع بعضهم بعضا ، فضج الناس الى الله تعالى بالدعاء . ولم يزل على ذلك من بعد العشاء الى طلوع الفجر حتى خمدت الريح وخمدت تلك الأعمدة النار وزالت الحمرة من الجو . فلما لاح الصباح طلعت الشمس وهى محمرة ، فأقامت على ذلك خمسة أيام حتى اعتدلت .

قال أبو القاسم عبد المجيد القرشى ان فى سنة احدى وسبعين وثلثمائة صيدت سمكة بمدينة تنيس من البحر المالح فكان طولها من رأسها الى ذنبها ثمانية وعشرين ذراعا ونصف ذراع ، وكان عرضها خمسة عشر ذراعا ، وكان فتح فمها تسعة وعشرين شبرا ، وكان لها يدان كل يد طولها ثلاثة أذرع ، وكان لها عينان كعينى البقر ، ولسان كلسان الثور العظيم ، وكانت ملساء وفى جلدها غلظ . فلما صيدت أمر والى تنيس بأن يشق بطنها ويحشى ملحا ، فوضعوا فى جوفها مائة أردب ملح ، فكان الرجل يدخل فى جوفها وهو حامل قفاف الملح قائما غير منحن ، فأمر نائب تنيس بحملها الى القاهرة حتى يشاهدها الخليفة العزيز فشاهدها وتعجب من خلقتها .

وكانت مدينة تنيس هذه من أجل المدائن ، وكانت بالقرب من دمياط . قال المسعودى : « كان

طول مدينة تنيس من الجنوب الى الشمال ثلاثة آلاف ذراع ومائتى ذراع ، وكان عرضها من المشرق الى المغرب ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وثمانين ذراعا بالعمل ، وكان لها تسعة عشر بابا مصفحة بالحديد ، وكان بها عدة مساجد نحو مائة وستين مسجدا ، وبكل مسجد منارة ، وكان بها ستة وثلاثون حماما ، وكان بها مائة معصرة للزيت والشيرج والقصب ، وكان بها مائة وستون طاحونا ، وكان بها من الحوانيت ألفان وخمسمائة حانوت برسم البضائع ، وكان بها من المناسج للقماش نحو خمسة آلاف منسج يصنعون فيها الثياب الشرب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا ، وكانوا ينسجون بها أثوابا تسمى البدنة تنسج بالذهب صناعة محكمة يباع الثوب منها بمائة دينار ، وكانت تحمل منها الى بغداد ، وكان يعمل بها طرز من الكتان بغير ذهب يباع كل طراز منها بمائة دينار وهو بغير ذهب ، وكان بهذه المدينة النخل والكرم وسائر أصناف الأشجار . وكانت صحيحة الهواء كثيرة الطير والسمك ، وكان أهلها يدخرون بها ماء النيل فى جباب فلا يفسد ولو أقام بها دهرا طويلا . ولم تزل مدينة عامرة الى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة حتى جاء اليها نحو أربعين مركبا موسوقة جماعة من الفرنج فحاصروا أهلها ، فلما أشرفوا على أهل المدينة هرب أهلها الى ثغر دمياط وتركوا المدينة فاستولى عليها الفرنج وملكوها ونهبوا ما فيها ثم ألقوا فيها النار فاحترقت كلها ، ثم أخذوا ما قدروا عليه من الغنائم وتركوا المدينة خرابا ورحلوا عنها . واستمرت على ذلك الى سنة أربع وعشرين وستمائة فى دولة الملك الكامل محمد بن أيوب فأمر بهدم ما بقى من سورها وبيوتها ، واستمرت خرابا من يومئذ الى الآن » .

قال المسبحى ان فى أيام العزيز نزار هذا ظهر السمك البلطى بالنيل ، ولم يكن به قبل ذلك منه شىء ، وهو من أسماك البحر المالح . وفى أيامه أيضا ظهر السمك اللبيس ببحر النيل ولم يكن منه قبل ذلك شىء ، وهو أيضا من أسماك البحر المالح هرب ودخل الى البحر الحلو . وانما سمى لبيسا لأنه يشبه البورى فالتبس به فسمى لبيسا » .

واستمر العزيز بالله نزار فى الخلافة بمصر حتى توفى ، وكانت وفاته فى شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وكانت مدة اقامته فى الخلافة بمصر احدى وعشرين سنة وخمسة أشهر وأياما ، وكان خيار بنى عبيد قاطبة . ولما مات تولى من بعده الحاكم بأمر الله منصور .

الحاكم بأمر الله

هو الحاكم بأمر الله ، أبو على منصور ، ابن العزيز نزار بن المعز معد الفاطمى العبيدى ، وهو الثالث من خلفاء بنى عبيد الله بمصر ، بويع بالخلافة بعد موت أبيه العزيز فى يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان سنة ست وثمانين وثلثمائة من الهجرة . وكان مولده بالقاهرة فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وثلثمائة . فلما تولى الخلافة أظهر العدل بين الرعية وسار فى الناس سيرة حسنة ، وأخذ فى أسباب بناء جامعه الذى هو داخل باب النصر ، وكان مبتدأ عمارته فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة . ولما تم أمره فى الخلافة بمصر أفرد لليهود حارة زويلة وأمرهم بأن يسكنوا بها ولا يخالطوا المسلمين فى حاراتهم . ثم انه بعد مدة أمرهم بأن كلا منهم يدخل فى دين الاسلام فخافوا

منه وأسلموا كلهم ، ثم أذن لهم بالعودة الى دينهم فارتد منهم فى يوم واحـد أكثر من سبعة آلاف يهودى ، ثم انه أمر بهدم كنائسهم ، ثم انه أعادها كما كانت عليه أولا .

وفى أيامه توفى الأمير جوهر القائد وزير المعز ، فلما مات وجد له من الأموال ما لا يحصى . فمن جملة ذلك من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ، ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ، ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صنـاديق مجلدة ، ومن القصب الزمرد ألف قصبة ، ومن الثياب الديباج ورقّ تنيس خمسة وسبعين ألف قطعة ، ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهى مرصعـة بالدر والياقوت ، فقوم ما عليها من الجواهر باثنى عشر ألف دينار . ووجد عنده لعبة من المسك والعنبر الخام اذا نزع ثيابه ألبسها عليها . ووجد فى داره مائة مسمار من الذهب على كل مسمار منها عمامة لون . ووجد عنده من المعالق الذهب والفضة ثلاثة آلاف معلقة . ووجد عنده عشرة آلاف زبدية صينى وبلور وفضة . ووجد عنده أربع قدور من الذهب وزن كل قدر مائة رطل ذهب ، قيـل كان يطبخ المسلوقة فيها . ووجد عنده سبعمائة خاتم بفصوص من الياقوت والزمرد والماس ، ووجد عنده ثلاثة آلاف نرجسية ذهب وفضة وبلور وصينى ... هذا كله خارج عن البغال والجمـال والخيل والعبيـد والجوارى والفرش والأملاك والضياع وغير ذلك .

ولما مات الأمير جـوهر القائد دفن بالقرافـة الكبرى . ثم ان الحاكم بأمر الله لما توفى الأمـير جوهر القـائد اسـتقر بالأمير برجوان عوضـه بالوزارة . وبرجوان هـذا هو صاحب الحـارة المنسوبة اليه ، وكان من أمراء الحاكم ، وكان الحاكم يخشى من سطوة برجوان ولا يتصرف فى شىء من أمـور المملكة الا برأيه ، وصار معـه كالمحجور عليه فأقام على ذلك مدة طويلة فما أطاق ذلك ، فنـدب الى برجـوان من قتله وهو خارج من الحمام .

فلما قتل برجوان احتاط الحاكم على موجوده فوجد له أكثر مما وجد لجوهر القائد ، فمن جملة ذلك وجـد له من الذهب العين مائتـا ألف ألف دينار ، ومن الدراهم الفضة خمسـون اردبا ، ووجد له من القماش مائتان واحـدى وستون بقجة ، ووجد له ألف سروال من البعلبكى العال ، وفى كل سروال نافجة مسك وتكة حرير أبيض ، ووجد له ألف قميص حرير اسكندرى وألف منديل حرير شغل اسكندرية ، ووجد عنده من كل صنف من القماش ألف قطعة ، ووجد عنده من الجواهر اثنـا عشر صندوقا ... هـذا خارج عن الأملاك والضياع والخدم . ووجد عنده من البقر والأنعام والجاموس ما يباع لبنه فى كل سنة بثلاثين ألف دينار على يد أبى الحسن بن يزيد العامل . ووجد له من الحواصل والمناخات ما لا يحصى لكثرته ، فصار الحاكم ينقل فى موجود برجوان فى كل يوم دفعتين من حارة برجوان الى قصر الزمرد الذى كان عند دار الضرب على مائتى جمل نقلتين فى كل يوم نحو أربعين يوما .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « لمـا قتـل برجوان صار الحاكم ما على يده يد ، فعنـد ذلك طغى وتجبر وصار يفعل أشياء متضادة لا تقع الا من المجانين الذين فى عقلهم خلل .

« فمن ذلك أنه مر يوما بحمام الذهب الذى بمصر فسمع بها ضجيج النسـاء وهن فى الحمام ، فأمر بأن يسد عليهن باب الحمام ، فسـدوه عليهن من وقتـه وساعته بالحجر الفص ، فاستمرت فى الحمام حتى مات الجميع فى الحمام ولم يجدوا لهن من حميم ولا شفيع .

« ومنها أنه منع الناس من بيع الزبيب ، وأمر بحرق الكروم وقطعها ، فقطع منها نحو مائة ألف كرم .

« ومنها أنه منع الناس من بيع العسل الأسود وكُسر منه نحو اثنى عشر ألف مطر .

« ومنها أنه منع الناس من أكل الملوخية وأكل القرع ، وكتب قسائم على الفلاحين ألا يزرعوا شيئا من الملوخية ولا القرع . وعلل تحريم الملوخية بكون أبى بكر الصديق كان يميل اليها ، وعلل تحريم القرع بكون عائشة بنت أبى بكر كانت تميل اليه ... وقيل انه طلع يوما على جماعة يأكلون ملوخية فضربهم بالسياط ، وطاف بهم فى القاهرة ، ثم أمر بأن تضرب أعناقهم عند باب زويلة .

« ومنها أنه نهى عن بيع السمك الذى لا قشر له ، ونهى عن بيع الرطب ، ونهى عن زرع الترمس .

« ومنها انه أمر بقتل الكلاب ، فقتل منها نحو ثلاثين ألف كلب .

« ومنها أنه صار يوقد الشمع فى مجلسه ليلا ونهارا ، ثم انه صار يجلس فى الظلام ، واستمر على ذلك مدة طويلة .

« ومنها أنه أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل ، وجعل الليل مقام النهار فى جميع أحوال الناس فامتثلوا منه ذلك واستمروا عليه دهرا طويلا ، ثم انه مر فى بعض الأيام على شيخ يعمل فى التجارة من بعد العصر فوقف عليه وقال : « ألم أنهكم عن ذلك ؟ » . فقال له الشيخ : « يا أمير المؤمنين ، أما كان الناس يسهرون بالليل ؟ ... فهذا من جملة السهر » ... فتبسم وتركه ، ثم أعاد الناس الى ما كانوا عليه فى الأول يتقاضون أشغالهم بالنهار .

« ومنها أنه كان يسب الصحابة ، وأمر بكتابة ذلك على سائر أبواب المساجد والجوامع ، فأقام على ذلك مدة ، ثم انه أمر بمحو ذلك .

« ومنها أنه هدم قمامة وبنى مكانها مسجدا ثم أعادها على ما كانت عليه قمامة . وكان يبنى عدة مدارس ويقرر بها المشايخ والصوفية ثم يقتلهم ويهدم تلك المدارس .

« ومنها أنه كان يعاقب جماعة من خواصه بسلب الألقاب ، فاذا غضب على أحد سلب لقبه مدة طويلة لا يدعوه بذلك اللقب فيصير ذلك الرجل فى حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه فيكون عنده ذلك عيدا .

« ومنها أنه أمر طائفة اليهود بأن يعملوا فى أعناقهم اذا خرجوا الى الأسواق قرم خشب وزن كل قرمة خمسة أرطال ، وأمر النصارى بأن يعملوا فى أعناقهم صلبانا من حديد قدر ذراع ، وأمرهم بأن يلبسوا المآزر الفسيحة ، وألا يركبوا بهيمة ، فأقاموا على ذلك مدة ثم أعادهم الى ما كانوا عليه .

« ومنها أنه أمر الناس اذا ذكر اسمه الخطيب فى يوم الجمعه وهو على المنبر تقوم الناس صفوفا اعظاما لذكره واحتراما لاسمه ، فكان يفعل ذلك فى سائر مملكته حتى فى الحرمين الشريفين وبيت المقدس .

« ومنها أنه كان يلبس جبة صوف أبيض ويركب على حمار عال أشهب يسمى القمر ، ويطوف فى أسواق مصر والقاهرة ، ويباشر حسبة البلد بنفسه ، وكان معه عبد أسود طويل عريض يمشى فى ركابه يقال له مسعود ، فان وجد أحدا من السوقة غش فى بضاعته أمر ذلك العبد مسعودا بأن ...

... ...

والحاكم واقف على رأسه . وقد صار مسعود هذا مثلا عند لطفاء أهل مصر اذا مزحوا مع أحد يقولون احضر له يا مسعود ...

« ومنها أنه أبطل صلاة التراويح نحو عشر سنين ثم أعادها كما كانت أولا .

« ومنها انه كان يحب أهل العلم والصلحاء ثم يغضب عليهم ويقتلهم . وأقام يلبس الصوف مدة سبع سنين ثم ترك ذلك ولبس الحرير .

« ومنها أنه كان يركب على حماره الأشهب المدعو بالقمر فينزل عنه عند باب جامعه الذى عند باب النصر ويأخذ بيد من يختار من غلمانه فيرقده ويشق بطنه بيده ثم يخرج مصارينه بيده فيرميها الى الكلاب ويترك المقتول مكانه حتى يدفنه أهله ، وكان يعذب جماعة من خواصه بالنار ، وقتل جماعة كثيرة من العلماء منهم أبو أسامة — وكان من كبار العلماء — ومنهم جبارة اللغوى . قيل ان الشيخ جبارة هذا كان يعرف للكلب فى اللغة ثلثمائة اسم فى لغات العرب ، ومنهم الهروى وغير ذلك من العلماء .

« ومنها أنه كان عنده شجاعة واقدام مع جبن وادبار ، وكان يحب الكرم ويكثر من البخل ، وكان يحب فعل الخير ويتبعه بشىء من الشر ، ويحب العدل فى الرعية ويتبعه بشىء من الظلم والجور » .

فكان كما قال القائل فى المعنى :

أرى فيك أخلاقا حسانا قبيحة
وأنت لعمرى كالذى أنا واصفه
قريب بعيد ، باذل متمنع
كريم بخيل ، مستقيم مخالفه
كذوب صدوق ، ليس يدرى صديقه
أيجفوه من تخليطه أم يلاطفه
فلا أنت ذو غش ، ولا أنت ناصح
وانى لفى شك لأمرك واقفه
كذاك لسانى هاج لك مادح
كما أن قلبى جاهل بك عارف

قال القاضى شمس الدين بن خلكان فى تاريخه ان الحاكم بأمر الله كان يعبد الكواكب كما كان جده المعز ، وكان له اشتغال بأمر المطالب وله فى ذلك أخبار كثيرة .

حكى بعض المؤرخين ان رجلا أودع عند رجل جرابا فيه ألف دينار وسافر الى الحجاز ، فلما عاد طلب ذلك الجراب من الرجل فأنكره ، فشكا ذلك الرجل أمره الى الحاكم ، فقال له الحاكم : « اقعد لى فى الشارع ، فاذا مررت بك فقم الى وتحدث معى » . فلما فعل ذلك ومر عليه الحاكم قام له وتحدث معه وأطال معه الحديث ، فمر به الرجل الذى عنده الجراب فرأى صاحب الجراب يتحدث مع الحاكم حديثا طويلا ، فلما مر الحاكم ومضى أحضر ذلك الرجل الجراب ودفعه الى صاحبه وقال له : « تذكرت وديعتك وهاهى » فوجده الرجل بختمه لم يفتح ، فمضى به ذلك الرجل الى الحاكم وعرفه بما جرى له مع الرجل ، فقال له الحاكم : « خذ جرابك وامض الى سبيلك » . فلما أصبح رأى ذلك الرجل الذى كان عنده ذلك الجراب مشنوقا على باب داره والناس يتحدثون فى أمره .

قال ابن كثير : « وقع الغلاء بمصر فى زمن الحاكم فى سنة سبع وثمانين وثلثمائة ، فاجتمع الناس تحت قصر الزمرد واستغاثوا بالحاكم فى أن ينظر فى أحوال الناس فقال لهم الحاكم : « اذا كان الغد أتوجه الى جامع راشدة وأعود من مصر ، فان وجدت فى طريقى مكانا خاليا من الغلة ضربت عنق صاحب ذلك المكان » . ثم انه توجه الى جامع راشدة وتأخر هناك الى ما بعد العصر ، فما بقى أحد من أهل مصر والقاهرة الا وحمل ما عنده من الغلال ووضعها فى الطريق الذى يمر عليه الحاكم ، فلما رجع من جامع راشدة وجد الغلال قد امتلأت بها الطرقات وشبعت

أعين الناس ، فقرر مع أصحاب الغلال أن أحـدا لا يدخر فى بيته شيئا من الغلال ، وقرر معهم أسعار كل صنف من الغلال بثمن معين لايزيد ولا ينقص ، فعند ذلك سكن الوهج الذى كانت فيه الناس ، ووقع الرخاء فى مصر وسائر أعمالهـا ، وذلك من شدة رعب الناس من الحاكم ومن سطوته ... فكان كما قيل فى المعنى :

صاحب أخا الشر لتسـطو به
يوما على بعض صروف الزمان
فالرمـح لا يرهب أنبوبـه
الا اذا ركـب فيه السـنان

وفى هذه السـنة — وهى سنة سـبع وثمانين وثلثمائة — توفى ابن زولاق صاحب تاريخ مصر ودفن بها .

ومن النكت المضحكة ما قيل ... كان فى زمن الحاكم قاض بمصر يقال له النطاح . وسبب ذلك أنه كان له طرطور وفيه قرنان من قرون البقر ، فيضعه الى جانبه ، فاذا جاءه خصمان يتحاكمان عنده وجار أحدهما على الآخر يلبس القـاضى ذلك الطرطور الذى فيه القرنان ويتباعـد وينطح الخصم الذى يجور على صاحبه ، فاشتهر أمره بين الناس بهـذه الواقعة . فبلغ أمره الى الحاكم فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ما هذا الأمر الذى قـد اخترعته حتى قبحت سيرتك بين الناس ؟ » فقال : « يا أمير المؤمنين ، أشتهى أن تحضر مجلسى يوما وأنت من خلف ستارة لتنظر ماذا أقاسى من العوام ، فان كنت معذورا فيهم والا عاقبنى بما تختار » . فقال له الحاكم : « أنا غدا أحضر مجلسك حتى أرى ما تقول » . فلما أصبح الحـاكم أتى الى مجلس ذلك القـاضى وقعد من خلف سـتارة ، فأتى الى القاضى خصمان ، فادعى أحدهما على الآخر بمائة دينار فاعترف المدعى عليه بها ، فأمره القاضى بدفع ذلك الى صاحبه فقال المدعى عليه : « انى معسر فى هذا الوقت ، فقسطوا على ذلك على قدر حالى » . فقال القـاضى للمدعى : « ما تقول ؟ » . فقـال : « أقسطها عليه فى كل شهر عشرة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون خمسة دنانير » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى : « تكون دينارين » . فقال المديون: « لا أقدر على ذلك » . فقال القاضى: « تكون دينارا » . فقال المديون : « لا أقدر على ذلك » . فلا زال القاضى يدرجـه حتى قال له : « تكون عشرة دراهم فى كل شهر » . وهو يقول : « لا أقدر على ذلك » . فقال له القـاضى : « وما القدر الذى تقدر عليه فى كل شهر . فلعل أن يرضى به خصمك » . فقال المديون : « أنا لا أقدر على أكثر من ثلاثة دراهم فى كل سنة ، بشرط أن يكون خصمى فى السجن لئلا يحصل معى هذا القدر ولا أجد خصمى فيذهب منى » .

فلما سمع ذلك الحاكم لم يملك عقله وخرج من خلف الستارة وقال للقاضى : « انطح هذا النجس الشيطان والا فأنا أنطحه ... » . وكان الحاكم أحمق من القاضى .

وقال الشـيخ شمس الدين الذهبى فى تاريـخ الاسلام : « لا زال الحاكم بأمر الله يتزايد فى الظلم والجـور ، واستخف بأهـل مصر حتى أنه ادعى الربوبيـة من دون الله كما فعل فرعون ، فكان اذا مر فى الطرقات والأسـواق يقول له جماعـة من العوام : « يا واحد يا أحد ! يا محيى يا مميت ! » . وكانت جماعة من جهـال العوام يسجدون له كلما رأوه ، ومن لم يفعل ذلك ضرب عنقه .

ثم انه ادعى فى وقت أنه يعلم علم الغيب ، فكان يقول لأمرائه ووزرائه : « يا فلان ، أنت فعلت فى بيتك البارحة ماهو كيت وكيت . وأنت يافلان قلت

البارحة ماهو كيت وكيت » ... وكان ذلك باتفاق يعتمده مع العجائز اللاتي يدخلن الى بيوت الأمراء والوزراء وغير ذلك من أعيان أهل مصر . فلما زاد الأمر فى ذلك كتب اليه بعض الناس رقعة ورمى بها وهو فى معظم موكبه، وكان فى الرقعة هذه الأبيات :

بالجور والظلم قد رضينا
وليس بالكفر والحماقه
ان كنت أوتيت علم غيب
بين لنا كاتب البطاقه

فلما قرأ تلك الرقعة سكت عن الكلام فى أمر ما كان يدعيه من علم الغيب .

روى ابن كثير أن الفاطمية كانوا يدعون الشرف ويقولون نحن أفضل من العباسية ، لأننا من ولد فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان بعض العلماء الذين يتواجهون لهم أثبت لهم نسبا فاسدا بأنهم من ولد الامام على رضى الله عنه وليس بصحيح ، وانما هم من ولد ديصان بن سعيد — وكان أصله مجوسيا — وقد وافق على ذلك جماعة من العلماء ، مثل أبى حامد الاسفراينى ، والشيخ أبى الحسن القدورى وغير ذلك من العلماء .

وكان الحاكم يذكر نسبه فى كل جمعة وهو على المنبر يخطب ، وكانت الناس ترفع اليه الرقاع فى أشغالهم وهو على المنبر ، فرفعت اليه رقعة فيها مكتوب هذه الأبيات :

انا سمعنا نسبا منكرا
يتلى على المنبر فى الجامع
ان كنت فيما قلته صادقا
فانسب لنا نفسك كالطائع
وان ترم تحقيق ما قلته
فاذكر لنا بعد الأب السابع
أو لا دع الأنساب مستورة
وادخل بنا فى النسب الواسع
فان أنساب بنى هاشم
يقصر عنها طمع الطامع

فلما قرأ تلك الرقعة رجع عما كان يدعيه من أمر النسب .

واستمر الحاكم على ماذكرناه من أمر هذه الأفعال الشنيعة ، ومخالفته لأمر الشريعة ، حتى قتل . وكان سبب قتله أن أخته ست النصر لما زاد أخوها من هذه الفعال أراد قتلها ، فلما تحققت ذلك — وكانت من النساء المدبرات — أخذت فى تدبير الحيلة على قتل أخيها ، فخرجت تحت الليل وأتت الى دار الأمير سيف الدين بن رواش ، وكان اكبر أمراء الحاكم . فلما دخلت عليه اختلت به وعرفته أنها أخت الحاكم فبالغ فى تعظيمها ، فقالت له : « أنت تعلم ما قد فعله أخى بالرعية من القتل والجور وخراب البلاد ، وقد عول على قتلى وقتلك » . فقال لها الأمير سيف الدين : « وكيف الحيلة فى قتله ؟ » . فقالت له : « الرأى عندى أنك تندب اليه جماعة من العبيد السود يقتلونه اذا خرج الى حلوان ، فانه ينفرد بنفسه فى الطريق ، فيخرجون عليه ويقتلونه . فاذا قتل تكون أنت المدبر للمملكة من بعده ، وتولى ولده عليا » . فاتفقا على ذلك ثم مضت الى قصرها ، فلما أصبح النهار خرج الحاكم على عادته الى نحو حلوان ، فأرسل الأمير سيف الدين خلفه عشرة من العبيد السود الغلاظ الشداد ، وأعطى لكل عبد منهم خمسمائة دينار وعرفه كيف يقتله . فسبقه العبيد الى حلوان ، فلما وصل الحاكم هناك نزل بالقصبة التى فى حلوان بشرقى البلد ، فخرج عليه أولئك العبيد فقتلوه هناك ، فلما أبطأ خبره على العسكر خرجت اليه جماعة من الجند يلتمسون رجوعه ومعهم جنائب الموكب بالسروج

الذهب والكبابيش ، فصاروا يخرجون الى حلوان فى كل يوم ينتظرون رجوعه مدة سبعة أيام ، فلما أبطأ عليهم فوق السبعة أيام ، خرج الأمير مظفر الحاجب ومعه جماعة من العسكر — وكانت عساكر الحاكم ما بين ترك وديلم ومصامدة وصقالبة وروم وعبيد سود وغير ذلك — فلما وصلوا الى آخر القصبة التى بحلوان وجدوا حماره الأشهب المدعو بالقمر ، وقد قطعت يداه ورجلاه ، وعليه السرج واللجام ، فتبعوا أثر الحمار فوجدوا ثياب الحاكم وكان عليه سبع جبب صوف بيض ورأوا فيها آثار ضرب السكاكين ، فلم يشكوا بعد ذلك فى قتله . فلما رجعوا الى القاهرة أشيع قتل الحاكم .

وكان قتله فى شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة، وكانت مدة خلافته بالديار المصرية والبلاد الشامية خمسا وعشرين سنة وأياما ... ولم ينل أهل مصر من أفعاله مكرمة ، وصاروا معه فى قمع سمسمة ، وصبروا على أذاه فى هذه المدة وقد قاسوا منه أى شدة حتى فرج الله عنهم هذه الكربة العظيمة فكان كما قيل :

ودهر قطعناه بضيق وشدة
ونحن على نار قيام على الجمر
صبرنا له حتى أزيل وانما
تفرج أيام الكريهة بالصبر

وفى هذه المدة قتل الحاكم من الناس ما لا يحصى عددهم من العلماء والفقهاء وغير ذلك .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « ولما قتل الحاكم صار جماعة من الجهال المغفلين من وادى التيم من نواحى الشام يعتقدون حياة الحاكم الى الآن ، ويقولون لابد أن يظهر فى آخر الزمان ويعود الى الخلافة ، وأنه هو المهدى لا محالة ، ويحلفون الى الآن بغيبة الحاكم » .

الظاهر لدين الله

هو الظاهر لدين الله على ، بن منصور بن نزار ابن المعز معد ، وهو الرابع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمية بمصر ، بويع له بالخلافة بعد أبيه الحاكم بأمر الله فى شوال سنة احدى عشرة وأربعمائة ، وتلقب بالظاهر لدين الله . تولى الخلافة وله من العمر نحو ست عشرة سنة ، وكانت عمته ست النصر أخت الحاكم هى القائمة بأمور دولته ، والأمير سيف الدين بن رواش .

وفى أيامه اضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية ، واستولى على البلاد الشامية الأمير حسان شيخ عربان جبل نابلس ، وصار يستخرج خراجها لنفسه ، ونزع أيدى العمال عنها .

وفى سنة خمس عشرة وأربعمائة من خلافته توفيت ست النصر أخت الحاكم بأمر الله ، فظهر لها موجود عظيم من المال والجواهر والقماش والتحف لا يحصى لكثرته ، ووجد لها أربعة آلاف جارية ما بين بيض وسود ومولدات ، فمنهن ألف وخمسمائة أبكار والبقية ثيبات ، ووجد عندها ثلاثون زيرا صينيا مملوءة من المسك السحيق ، وأما بقية الموجود فما ضبط لكثرته .

ومن الحوادث فى أيامه جاءت الأخبار من مكة أن رجلا أعجميا قد حضر الى مكة وجماعة من الأعاجم معه فأظهروا أنهم يريدون الحج ، فأقاموا فى مكة مدة ، ثم غافلوا الناس فى وقت القائلة ودخلوا الحرم وقلعوا الحجر الأسود من مكانه وكسروه ثلاث قطع ، فأدركهم الناس وأمسكوهم فقطعوا أيديهم وصلبوهم على أبواب الحرم ، ثم ان الناس أعادوا الحجر الأسود الى مكانه ولصقوا ماكسر منه .

وفى أيام الظاهر هذا أذن لأقباط مصر فيما كان يعمل فى ليلة الغطاس بالديار المصرية ، وكان هذا الأمر قد بطل من أيام المعز كما تقدم ، وكان من أجل المواسم بمصر . وذلك أن ليلة الغطاس — وهى فى الجادى عشر من شهر طوبه — تجتمع جماعة من المسلمين وجماعة من الأقباط النصارى عند شاطىء النيل قدام المقياس ، فتنصب هناك الخيام على جانبى النيل وتوضع فيها الأسرة لأعيان القبط من الرؤساء ، وكان البحر يمتلىء بالمراكب والزوارق ، ويجتمع فيها السواد الأعظم من الخاص والعام من المسلمين والنصارى ، فاذا دخل الليل تزين المراكب بالقناديل وتشعل فيها الشموع ، وكذلك على جوانب الشطوط من بر مصر والروضة ، وكان يشعل على الشطوط فى تلك الليلة أكثر من ألف مشعال وألف فانوس وتنزل رؤساء القبط فى المراكب ، وكان ينفق فى تلك الليلة من الأموال ما لا يحصى فى مآكل ومشارب ، وتتجاهر الناس بشرب الخمر ، وتجتمع أرباب الملاهى وأرباب الملاعب من كل فن ، ويخرج الناس فى تلك الليلة عن الحد فى اللهو والفرجة ، ولا يغلق فى تلك الليلة دكان ولا درب ولا سوق ، وكانوا يهادون رؤساء الأقباط فى تلك الليلة بأطنان القصب والبورى والحلوى القاهرية والكمثرى والتفاح الفتحى والسفرجل والأترج والنارنج والليمون المراكبى وطاقات النرجس وغير ذلك من الأنواع اللطيفة ، وكانوا بعد العشاء يغطسون فى بحر النيل — النصارى مع المسلمين سوية — ويزعمون أن من يغطس فى تلك الليلة يأمن من الضعف فى تلك السنة . فلما كان وقت الغطاس نادى الخليفة الظاهر بألا يختلط النصارى بالمسلمين عند الغطاس ، وكان فى قصر جده المعز الذى يشرف على بحر النيل يتفرج على ذلك المهرجان الذى يحصل فى تلك الليلة . وكان المعز لما قدم الى مصر ورأى ما يحصل فى ليلة الغطاس من المفاسد العظيمة أمر بابطال ذلك ، واستمر ذلك باطلا من سنة اثنتين وستين وثلثمائة الى سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فأمر الخليفة الظاهر باعادة ذلك حتى يتفرج عليه .

قال المسبحى : ان فى الدولة الفاطمية كان رؤساء القبط يضربون فى يوم خميس العدس خراريب من ذهب ويفرقونها على أرباب الدولة برسم التبرك . وكانوا يضربون من هذه الخراريب نحو خمسمائة مثقال ، فبطل ذلك جميعه من مصر من جملة ما بطل من القواعد القديمة .

واستمر الخليفة الظاهر لدين الله فى الخلافة بمصر حتى توفى ، وكانت وفاته فى يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر عشر سنين وتسعة أشهر [1] .

ولما مات الظاهر لدين الله تولى من بعده ابنه المستنصر بالله أبو تميم .

المستنصر بالله

هو المستنصر بالله أبو تميم ، معد ، بن الظاهر لدين الله على بن منصور الحاكم بأمر الله ، وهو الخامس من بنى عبيد الله الفاطمى . بويع له بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر لدين الله فى يوم الأحد خامس عشر شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة ، فتولى الخلافة بمصر وله من العمر سبع سنين وعشرون يوما . وكان مولده بالقاهرة فى سنة ثمانى عشرة وأربعمائة [2] . وهو الذى خطب له البساسيرى على منابر بغداد مع وجود خلفاء بنى العباس ، وهذا لم يقع لأحد من أقاربه من خلفاء بنى عبيد الله .

(1) الذى فى المقريزى ان مدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانية أشهر وأيام ، وهو الصواب .

(2) فى المقريزى انه ولد فى السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ٤٢٠ .

ولما تم أمره فى الخلافة استقر بالحسن بن على البازورى وزيرا ، وهـو الذى جمع بين الوزارة وقضاية القضاة الشافعية ، ولم تقع هذه لمن قبله من الوزراء . فلما مات البازورى استقر بأبى نصر العلاجى وزيرا ، فقبض أبو نصر العلاجى على ابن الأنبارى وزير الحاكم بأمر الله فاعتقله بخزانة البنود وصادره وأخذ جميع أمواله ، ثم قطع رأسه ودفنها بخزانة البنود ، فما مضى قليل حتى قبض المستنصر على أبى نصر العلاجى ، واعتقله فى خزانة البنود وصادره وأخذ أمواله وأمر بقطع رأسه .فلما أرادوا أن يحفروا لأبى نصر العـلاجى فى خزانة البنود ليواروا رأسه فيها ظهر من تلك الحفرة رأس فسألوا العلاجى عن ذلك فقال هذا رأس ابن الانبارى وأنا قتلته ودفنته فى هذه الحفرة ثم أنشد يقول :

رب لحد قد صار لحدا مرارا

ضـاحكا من تزاحم الأضداد

فقطعوا رأس العلاجى ودفنوهـا على رأس ابن الأنبارى ... والجزاء من جنس العمل .

ومن الحوادث فى زمن المستنصر بالله : أنه فى سنة احدى وخمسين وأربعمائة وقع الغلاء العظيم بمصر، فكان يعادل الغلاء الذى وقع فى زمن يوسف عليه الصلاة والسلام . وقد أقام هذا الغلاء بمصر سبع سنين متوالية والنيل فى تلك السـنين لم يبلغ فى الزيادة الا اثنى عشر ذراعا وأحد عشر اصبعا ، وكان القاع ثلاثة أذرع واحد عشر اصبعا . ففى هذه المدة أكلت الناس بعضها بعضا ، وبيع فيهـا القمح بثمانين دينارا كل أردب ، وبمائة وعشرين دينـارا كل أردب . ثم اشتد الأمر حتى بيع كل رغيف فى زقاق القناديل بخمسة عشر دينـارا ، وأكلت الناس الميتة والكلاب والقطط حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دنانير ، وبيع كل قط بثلاثة دنانير ، وقيل كان الكلب يدخل الى الدار فيأكل الطفل الصغير وهو فى المهد وأمه وأبوه ينظران اليه فلا يستطيعان النهوض لدفعه عن ولدهما من شدة الجوع وعدم القوة . ثم اشتد الأمر حتى صـار الرجل يأخذ ابن جاره ويذبحه ويأكله ولا ينكر ذلك عليه أحد من الناس . وصار الناس فى الطرقات اذا قوى القوى على الضعيف يذبحه ويأكلـه . وصارت طائفة من الناس يجلسون على السقائف وبأيديهم حبال فيها كلاليب ، فاذا مر بهم أحد من النـاس ألقوا عليه تلك الحبـال ونشلوه بتلك الكلاليب فى أسرع وقت ، فاذا صار عندهم ذبحوه فى الحال وأكلوه بعظامه . وقيل ان الوزير ركب يوما على بغلة ودخل الى دار الخلافة فلما نزل عنها أخذت من غلمانه وأكلت فى الحال ، فأمسـكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم وعلقوهم على الخشب، فلما باتوا أصبحوا لم يجدوا أحدا من المشانيق ، وقـد أكلوا من فوق الخشب ، ولم يبق منهم غير لعظام على الأرض .

قال المسبحى فى تاريخه : « كان بمدينة الفسطاط حارة تسمى حارة الطبق ، وكان فيها نحو عشرين دارا ، كل دار تساوى فى الثمن ألف دينار ، فبيعت بيوت هذه الحارة كلها بطبق من الخبز — كل دار برغيف — فسميت من يومئذ حارة الطبق » .

وقال الشيخ أبو الفرج بن الجوزى : « خرجت امرأة من مدينة الفسطاط ومعها ربع من اللؤلؤ الكبار وقالت : « من يأخذ منى هـذا اللؤلؤ ويعطينى عوضه قمحا ؟ » . فلم تجد من يأخذ منها ذلك اللؤلؤ ويعطيها عوضه قمحا . فلما أعيت من ذلك ألقته على الأرض وقالت : « اذا لم تنفعنى وقت الحاجة فلا حاجة لى بك » . ثم تركته ومضت، فأقام ذلك اللؤلؤ مرميا على الأرض ثلاثة أيام ولم يوجـد من يلتقطه ، وكان كل أحد من النـاس مشغولا بنفسه عن كل شىء » .

الخلافة ستين سنة وأربعة شهور ، وهذه المدة لم تتفق لأحد قبله من الخلفاء الفاطميين ولا العباسيين ، ولكنه قاسى فى هذه المدة مشقات عظيمة شديدة كما قيل فى المعنى والأمثال « من أراد البقاء فى الدنيا فليوطن نفسه على المصائب » .

ولما مات المستنصر تولى من بعده ابنه أحمد المستعلى بالله .

المستعلى بالله

هو المستعلى بالله أحمد ، بن المستنصر بالله ، ابن الظاهر ، بن الحاكم ، وهو السادس من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستنصر بالله فى ثانى عشر ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

ومن الحوادث فى أيامه أن الفرنج استولوا على بيت المقدس وملكوه ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين وأسروا من الباقى نحو ألف انسان ، وذلك فى سنة احدى وتسعين وأربعمائة ، وأخذوا من قبة الصخرة أربعين قنديلا من الذهب والفضة ، وزن كل قنديل ألف درهم من الفضة ، وأخذوا التنور النحاس الكبير ، وأقاموا مالكين بيت المقدس نحو ثلاث سنين .

وفى أيام المستعلى كسفت الشمس ، وغاب جميعها ، وأظلمت الدنيا حتى ظهرت النجوم وقت الظهر ، وأقامت على ذلك الى آخر النهار حتى انجلت .

واستمر المستعلى فى الخلافة بمصر الى أن مرض ومات فكانت وفاته فى يوم الثلاثاء تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وكانت مدة خلافته بمصر سبع سنين وشهرين .

ولما مات تولى من بعده ابنه الآمر بأحكام الله .

الآمر بأحكام الله

هو الآمر بأحكام الله ، أبو على المنصور ، بن المستعلى بالله أحمد ، وهو السابع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستعلى بالله فى تاسع صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة . ولما أن تولى الخلافة بمصر طاش وسار فى الناس أقبح سيرة ، وصار يتجاهر بالمنكرات ، واشتغل باللهو والطرب وشرب الخمر ، فاضطربت أحوال الديار المصرية فى أيامه ، وجاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مدينة عكا وطرابلس ونابلس وغير ذلك من أعمال البلاد الشامية ، وأشرفوا على أخذ الديار المصرية ووصلوا الى العريش ، وكان ملك الفرنج يسمى بردويل[1] ، فلما وصل الى العريش مرض هناك مرضا شديدا ومات ، فكتم أصحابه موته خوفا من المسلمين ، وشقوا بطنه ورموا مصارينه ، ثم دفنوها بالعريش ، وقد صار الناس الى الآن كلما مروا بالعريش رجموا ذلك المكان الذى دفنت فيه مصارين بردويل — ويسمى الى اليوم سبخة بردويل — وأما جثته فحملت الى القمامة التى ببيت المقدس ودفنت هناك .

وفى أيامه وقع الغلاء بمصر ، وتناهى سعر القمح الى ثلاثين دينارا ثمن الأردب الواحد ، فأقام الأمر على ذلك نحو ستة أشهر ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وانحط سعر القمح عن ذلك القدر ، وكثرت الغلال فى العرصات .

وكان القائم بتدبير أمور الديار المصرية المأمون البطايحى الوزير ، فساس الناس فى هذه الغلوة أحسن سياسة ، ولم يحصل فى الديار المصرية من

(1) هو « بلدوين » .

الاضطراب كما حصل فى أيام المستنصر مما تقدم ذكـــره .

قيل : هجم رجل فى زمان الغـلاء على بعض المغاربة وهو يأكل فى رغيف ، فلما رآه ستر الرغيف منه ، فقال له ذلك الرجل : « أما سمعت الحديث : طعام واحد يكفى اثنـين ؟ » فقال له المغربى : « ذلك فى ضوء السراج ... اذا كان لواحد يكفى جماعة . وأما فى هـذا الرغيف فلا أطعمك منـه لقمة » . فمضى عنه الرجل ولم يطعمه شيئا .

وسبب هذا الغلاء أن النيل بلغ فى الزيادة الى خمسـة عشر ذراعا وأصبعا ثم هبـط ، فشرقت البلاد ، وحصل للناس الضرر الشامل ، ورسـم الخليفة للبطرك بأن يتوجـه الى بلاد الحبشـة بسبب توقف النيل ، ولم يفـد توجه البطـرك شـيئا .

وفى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ابتدأ الآمر بأحكام الله فى عمارة جامعه الذى بناه عند سوق مرجوش المسمى بجامع الأقمر ، وأنفق على بنائه مائتى ألف دينار ، وكان له صـهريج يمتلىء من مسارب الخليج الحاكمى .

وفى سنة تسع عشرة وخمسمائة قبض الآمـر على الوزير المأمون البطايحى ، وقتله ثـم صلبه واحتاط على موجوده ، فظهر له من الأموال ما لا يحصى . فمن ذلك مائة صندوق ما بين ذهب عين ودراهم فضة وجواهر فاخرة ، ووجد عنده مائة بكرلية مملوءة من الكافور العنصورى ، وهـذا الصنف عزيز الوجود . ووجـد عنده ثلثمـائة صندوق فيها قماش جسمه مابين حرير وصوف ودق تنيس ودمياط ، ووجـد عنده من العـود القمارى مائة من وأشياء كثيرة لا تنحصر ، فحمل ذلك الى قصر الخلافة .

فلما قتل الآمر الوزير البطايحى لم يقم بعـده الا مدة يسيرة وقتل الآخر . وكان سبب قتله أنه توجه الى بر الروضـة على سبيل التنزه ، فأقام هناك يوما وليلة ، فلما رجع الى القاهرة مر على جسر الروضـة الذى كان بالقـرب من الجزيرة الوسطى ، فلما عبر الجسر وثب عليه جماعة من العبيد السود فضربوه بالسكاكين تحت الليـل — وكان سكران — فوقع عن فرسـه فحملوه الى القاهرة وطلعوا به الى قصره فمات من وقته ، فكانت وفـاته فى ليـلة الثلاثاء العشرين من ذى القعـدة سنة أربع وعشرين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خـلافته بمصر نحو تسع وعشرين سنة وشهرين . ومات عن غير ولد فتولى من بعده ابن عمه المستنصر بالله .

الحـافظ لدين الله

هو أبو الميمون عبد المجيد الحافظ لدين الله ، ابن المستنصر بالله ، وهو الثامن من خلفـاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد قتل الآمر بأحكام الله ، وكان الحافظ لدين الله رجلا حليما ، لين الجانب ، قليل الأذى ، فطمعت فيه الرعية ، واضطربت فى أيامـه أحـوال الديار المصرية ، واستولت الفرنج على البلاد ، وكثر منهم الفساد ، وطمع الفلاحون فى أهل مصر ، وامتنعوا من وزن الخراج ، وتعطل الأمر وما راج .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى : « ان الشيخ أبا عبد الله الأندلسى دخل الى مصر فى أيام الخليفة الحافظ — وكان الشيخ أبو عبد الله له يد طائلة فى عـلم السيمياء — فأحضره الحافظ بين يديه وقال له : « أرنا شيئا من علم السيمياء » . فامتنع من ذلك ، فألح عليه ، فأراه مساحة القصر كأنها لجة ماء وفيها سفينة كبيرة وحولها شوانى حربية ،

فوقع بينهما الحرب والقتال ، فكانت بينهم السيوف تلمع ، وسحائب القسى تمطر ، والبنود تخفق ، والرءوس تهدر ، والدماء تسيل ... فلا يشك الناظر فى حقيقة ذلك . ثم ان أصحاب السفينة سلموا الى أصحاب الشوانى فساروا بها والطبول تضرب والبوقات تزعق حتى غابوا عن الأبصار . ثم ذهبت تلك اللجة الماء التى كانت فى القصر بأمواج تتلاطم كالجبال . فلما رأى الحافظ ذلك تعجب منه ، وكان حوله جماعة من خواصه فأشاروا عليه بقتل الشيخ أبى عبد الله ، وقالوا هذا يفسد عقول الناس ، فلم يوافقهم الحافظ على قتله . ثم قال للشيخ : « أرنى شيئا فى هؤلاء الذين قد أشاروا بقتلك » . فقال له الشيخ : « مرهم يمضوا الى منازلهم » . فقال الحافظ لمن حوله : « انصرفوا الى منازلكم » . فلما انصرفوا صار كل من يركب دابته يراها فى صفة الثور العظيم ، ولها فى رأسها قرون طوال ، فتحيروا فى ذلك ، ورجعوا الى الحافظ ، وذكروا له ما جرى لهم فى دوابهم ، فضحك وقال لهم : « افدوا دوابكم منه » . فما منهم الا من أعطاه شيئا حتى أطلق لهم دوابهم » .

قيل ان الحافظ كان يشتكى بألم القولنج ، فصنع له الحكيم شبرماه الديلمى طبل باز من المعادن السبعة ، وهو مرصود فى وقت معلوم ، فكان من خاصية هذا الطبل اذا ضرب عليه أحد خرج منه ريح ، وهذه الفائدة كانت لدفع القولنج ، وكان الحافظ يعتريه هذا المرض فصنع له ذلك الطبل بسبب القولنج .

قيل لما ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب أمر الديار المصرية استعرض حواصل الخلفاء الفاطمية فوجد ذلك الطبل فى علبة ، فأخذه بعض الأكراد وضرب عليه بيده فخرج منه ريح فخنق من ذلك ورمى الطبل من يده على الأرض فكسره ، فبطل فعله من حينئذ ، فندم على كسره صلاح الدين يوسف غاية الندم .

واستمر الحافظ بالخلافة بمصر حتى توفى ، فكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وكانت مدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر . ولما مات تولى من بعده ابنه الظافر بالله .

الظافر بالله

هو الظافر بالله ، أبو المنصور اسماعيل ، بن الحافظ ، بن المستنصر بالله ، وهو التاسع من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ ، وكان له من العمر لما تولى الخلافة سبع عشرة سنة . وكان شابا جميل الصورة ، حسن الهيئة ، وكان يميل الى اللهو والطرب وشرب الراح ، وكان يهوى ابن وزيره عباس ، وينزل اليه ويبيت عنده فى غالب الأوقات ، وامتحن به غاية الامتحان . قيل انه أهدى فى بعض الأوقات الى ابن الوزير صينية من ذهب فيها ألف حبة من اللؤلؤ الكبار ، وفصوص من الياقوت الأحمر والأصفر والزمرد الدنانى ، وألف نافجة من المسك ، وعشرة آلاف دينار . ومن العجائب أن الوزير عباسا وولده نصرا لم ينفع فيهما شىء من ذلك ، وقتلا الظافر عقيب ذلك كما سيأتى ذكره فى موضعه .

ومن الحوادث فى أيام الظافر أن فى سنة احدى وخمسين وخمسمائة وقع وباء عظيم بين أرض الحجاز واليمن ، وكان بينهما نحو من عشرين قرية ، فدخل الوباء فى ثمانى عشرة قرية منها فأفناهم عن آخرهم حتى لم يبق منهم انسان . فكانت مواشيهم سائبة لا قانى لها ، ولا يستطيع أحد من الناس أن يدخل الى تلك القرى ، وكل

من دخل الى تلك القرى هلك من وقته بالطعن ومات . وأما القريتان اللتان حول تلك القرى فما عندهما شعور بما جرى على من حولهما من القرى مما أصابهم من الفناء والطعن ، ولم يمت من هاتين القريتين طفل واحد ... فسبحان القادر على كل شيء .

ومن هنا نرجع الى أخبار الظافر بالله . قيل كثر الكلام بين الناس فى حق الوزير عباس بسبب ابنه نصر ، فلما نزل الظافر الى بيت الوزير عباس على جرى عادته وبات عنده ، ندب اليه من قتله تحت الليل ورماه فى بئر ... فلما أصبح الوزير طلع الى دار الخلافة ودخل الى القصر ، فقال لبعض الخدام : «أين أمير المؤمنين ؟» . فقال له الخدام : « ان ابنك نصرا يعرف أين هو ؟ » . ثم ان الوزير عباسا دخل الى دور الحرم وأخرج الأمير عيسى بن الظافر ، وأحضر القضاة وأرباب الدولة وقال : « ان أمير المؤمنين الظافر نزل البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق ومات . والرأى عندى أننا نولى الأمير عيسى الخلافة عوضا عن أبيه الظافر ، ونلقبه بالفائز بنصر الله » . وتراضوا على ذلك . ثم بعد ذلك شاع بين الناس أن الوزير عباسا قد قتل الظافر ، فانقلبت الجند على الوزير عباس بسبب ذلك .

وكانت قتلة الظافر فى ليلة الأحد ثانى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته أربع سنين وسبعة أشهر وأياما .

والظافر هذا هو الذى بنى الجامع المعروف الآن بجامع الفاكهانى ، وهو بالقرب من الشوايين .

الفائز بنصر الله

هو الفائز بنصر الله ، أبو القاسم عيسى ، بن الظافر ، بن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو العاشر من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد قتل أبيه الظافر بالله ، وكان سبب بيعته أن الوزير عباسا لما قتل الظافر طلع الى القصر وأحضر القضاة والشهود وقال لهم ان الظافر نزل البارحة فى مركب فانقلبت به فغرق ، ثم هجم الوزير على ابن الظافر وهو فى دور الحرم وأخذه من عند أمه وحمله على كتفه ففزع منه واضطرب — وكان له من العمر ست سنين — فأحضره بين القضاة وولاه الخلافة ، واستمرت معه الطربة عمالة حتى كبر ومات بعد مدة وهو يضطرب فى كل وقت .

فلما تم أمره فى الخلافة وأطاعه الجند ، صار يخشى من الوزير عباس ولا يقر له قرار ، فاستعان على قتله بشخص يسمى طلائع بن رزّيك — وكان متوليا على منية ابن خصيب — فجمع عسكرا عظيما من العربان وقصد التوجه الى القاهرة . فلما بلغ الوزير عباسا ذلك أخذ ما قدر عليه من الأموال والتحف وهرب نحو البلاد هو وولده نصر ، فكان كما قيل :

حكى غراب البين فى شؤمه
لكن اذا جئنا الى الحق زاغ

فبينما هو فى أثناء الطريق اذ خرجت عليه طائفة من الفرنج فأسروه ، وأخذوا ما كان معه من الأموال والتحف ، فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة احتاط الفائز على موجود الوزير عباس جميعه ، وولى الوزارة طلائع بن رزيك عوضا عن عباس ، فخلع عليه وتلقب بالصالح بالله ، فأطاعه الجند وأحبوه ، وكانت له حرمة وافرة فى القاهرة . وهو

الذى بنى الجامع المنسوب اليه المشهور بجامع الصالح الذى هو خارج باب زويلة ، وكانت الوزراء تتلقب يومئذ كألقاب الخلفاء .

ثم ان الصالح هذا أرسل الى طائفة الفرنج الذين أسروا الوزير عباسا يطلبه منهم ، وأرسل اليهم هدية ومالا نحو عشرة آلاف دينار ، فلما وصل ذلك الى الفرنج أرسلوا الوزير عباسا وولده نصرا الى الصالح وهما فى الحديد ، فلما دخلا القاهرة كان يومهما يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، فأمر الفائز بأن يصلب الوزير عباس وولده نصر على باب القصر ، فصلبا وأخذ الفائز بثأر أبيه الظافر قبل العصر ، فكان كما قيل فى الأمثال : « الموت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى العار » .

وفى أيام الفائز هذا نقلت رأس الحسين رضى الله عنه من عسقلان الى القاهرة ، وذلك فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وسبب ذلك أن رأس الحسين كانت بعسقلان ، فلما تولى الفرنج على عسقلان خاف المسلمون على رأس الحسين فأحضروها الى القاهرة فى علبة ، وبنى لها الفائز هذا المشهد ودفنها به . قيل ان رأس الحسين نقلت الى ثلاثة أماكن قبل أن تحضر الى القاهرة بمدة .

وفى أيام الفائز استعرضت عساكر القاهرة ، فكانت نحو خمسين ألف مقاتل على أجناس مختلفة ، وكان بمراكبه عشر مراكب مشحونة بالرجال والسلاح بسبب الجهاد ، وهذا مع وجود تلاشى أمر الخلفاء الفاطمية وضعف شوكتهم .

واستمر الفائز فى الخلافة بمصر حتى مرض ومات ، وكانت وفاته فى يوم الجمعة سابع رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وتوفى وله من العمر احدى عشرة سنة وأشهر ، ومات بالطعن ، وكانت مدة خلافته بمصر خمس سنين وأشهرا ولما مات تولى من بعده ابن عمه عبد الله العاضد بالله .

العاضد بالله

هو العاضد بالله ، أبو محمد عبد الله ، ابن الحافظ ، بن المستنصر ، وهو الحادى عشر من خلفاء بنى عبيد الله الفاطمى . بويع بالخلافة بعد موت ابن عمه الفائز فى رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة . قيل ان الخليفة المعز لما قدم الى الديار المصرية قال لبعض علماء مصر : « اكتب لنا ألقابا تصلح للخلافة ، حتى اذا تولى منا أحد تلقب بها » . فكتب له ألقابا كثيرة آخرها العاضد بالله ، فاتفق أن آخر من تولى منهم تلقب بالعاضد بالله ، وبه انقرضت دولتهم . ولم يكن لهم من المساوىء سوى أنهم كانوا رافضة يسبون الصحابة فى كل جمعة على المنابر .

ولما أن تولى العاضد استمر الصالح وزيرا ، فأقام على ذلك مدة ومات ، فتولى عوضه فى الوزارة شاور بن مجير السعدى .

ومن الحوادث فى أيام العاضد أن الفرنج استولوا على الديار المصرية ودخلوا بمراكبهم الى بحر النيل ونزلوا على مدينة الفسطاط التى تقدم ذكرها لأنها كانت بالقرب من بركة الحبش من الرصد ، فأحاطت عساكر الفرنج بمدينة الفسطاط ، وأشرفوا على أخذها ، وكان ملك الفرنج يسمى مرى ، وكان معه نحو سبعين مركبا مشحونة بالمقاتلين . فلما رأى الخليفة العاضد عين الغلب ، وصار الفرنج يأسرون جماعة من المسلمين وينهبون أموالهم ، وقرروا على أهل مصر والقاهرة أموالا جزيلة ، وأخذوا فى أسباب جبايتها ... فعند

ذلك أشار الوزير على الخليفــة بحرق مدينــة الفسطاط خوفا من الفرنج أن يملكوها ، فأذن له الخليفــة فى حرقهــا ، فجمــع الوزير العبيــد وأحرقوها . وكانت هذه المدينة من أجلّ المدائن ، وقد أنشأها عمرو بن العاص فى مبتدأ الاسلام عند فتح مصر ، وقد تقدم ذكر ذلك عند فتوح مصر . فلما قدم المعز من الغرب وبنى القــاهرة تلاشى أمر مدينة الفسطاط .

وكانت القاهرة فى غاية العمــارة والتحصين ، فلما أحرقت مدينة الفسطاط تحول النــاس الى القاهرة قيل بلغ كراء الجمل من مدينة الفسطاط الى القاهرة عشرة دنانير كل نقلة ، وصارت النار عمالة فى مدينة الفسطاط واحدا وخمسين يوما حتى صار الدخان يرى من مسيرة ثلاثة أيام ، فلما رأى الفرنج ذلك خافوا ورحلوا عن مصر .

قال عبد الله بن عبــد الحكم : « وكان ذلك سببا لخراب مدينة الفسطاط ، وصارت من يومئذ كيمانا يوجــد فيها الأعمدة الرخام الأبيض الى الآن . وكان أولها من حدرة ابن قميحة وآخرها عند الرصد ، وكان حرقها وخرابها فى سنة أربع وستين وخمسمائة » .

وقال ابن المتوج ان الخليفة العاضد لما استولى مرى ملك الفرنج على مصر أرسل العاضد الى الملك العادل نور الدين الشهيد صاحب دمشــق بأن يرسل الى أهل مصر نجدة ويدركهم قبل أن تملك الفرنج المدينة ، فأرسل نور الدين الشهيد الى مصر صــلاح الدين يوســف بن أيوب هو واخوته ، فلما قدموا الى مصر تسامع بهم الفرنج فرحــلوا عن مصر . ولما رحلوا قويت شــوكة بنى أيوب بمصر ، فخاف منهم العاضــد ، فخلع الوزير شــأور بن مجــير الدين الســعدى من الوزارة ، وولى أسد الدين شيركوه أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف عوضا عن السعدى .

ثم ان أسد الدين صلب الوزير ابن مجير الدين السعدى على باب القاهرة لــكونه أشار بحرق مدينة الفسطاط ، ثم ان أسد الدين لما تم أمره فى الوزارة تلقب بالمنصور — وكانت الوزراء تتلقب بمثل ألقاب الخلفاء — فلما تولى الوزارة أقام حرمة مصر الى الغاية ، وهابه النــاس ، فأقام فى الوزارة مدة يسيرة ومات فجأة على حين غفلة .

فلما مات أســد الدين شيركوه تولى من بعده الوزارة صــلاح الدين يوسف بن أيوب وتلقب بالناصر . فلما تولى صلاح الدين بن أيوب على مصر ضعفت شوكة الخليفة العاضــد ، ومالت الجند الى صلاح الدين يوسف . ثم ان نور الدين الشهيد أرسل يقول له : « اقطع الخطبة من مصر عن اسم العاضد » . فلما قطع الخطبــة عن اسمه حصل له قهر عظيم ، وصــار مع صــلاح الدين كالمحجور عليه ... لا يتصرف فى الأمور الا بعد مشورة صلاح الدين ، فما أطاق العاضد ذلك ، فقيل انه ابتلع فص ألماس فمات من يومه .

وكانت وفاته فى يوم الاثنين عاشر المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة من الهجرة ، وكانت مدة خلافته بمصر اثنتى عشرة سنة وستة أشهر وأياما ، وبه انقطعت دولة بنى عبيــد الله الفــاطمى عن الخلافة بمصر ، وبه ختمت أخبار الخلفاء الفاطمية من بنى عبيد الله .

وقد قامت دولة الخلفاء الفاطمية بمصر مائتين وثمانيا وستين سنة .

الدولة الأيوبية

الملك الناصر

كان أولهم الملك الناصر ، أبا المظفر يوسف ، ابن أيوب ، بن شادى ، بن مروان الكردى . وكان أصلهم من آذربيجان من بلاد الكرج ، ولكن أصلهم أكراد .

وكان مولد صلاح الدين يوسف بقلعة تكريت فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وكان أبوه أيوب فى خدمة زنكى أبى نور الدين الشهيد ، فلما توفى زنكى صار أيوب وأولاده فى خدمة نور الدين الشهيد ، ثم ارتقى نور الدين حتى بقى صاحب البلاد الشامية .

فلما تلاشى أمر الخليفة العاضد ، واستولت الفرنج على الديار المصرية ، أرسل يطلب من نور الدين الشهيد نجدة بسبب الفرنج ، فأرسل اليه أسد الدين شيركوه أخا أيوب عم صلاح الدين يوسف . فلما توفى أسد الدين تولى من بعده فى الوزارة أيام العاضد صلاح الدين يوسف . فلما توفى العاضد تولى من بعده على مصر صلاح الدين يوسف نيابة عن نور الدين الشهيد بتقليد منه .

وكان سبب موت العاضد أن نور الدين الشهيد لما أرسل الى صلاح الدين يقول له : « اقطع الخطبة عن اسم العاضد بالله » ... أرسل صلاح الدين يقول لنور الدين الشهيد : « ان أهل مصر لا يطاوعونى على ذلك ، وأخشى أن يثبوا على بسبب ذلك » . فأرسل نور الدين الشهيد يقول لصلاح الدين ثانيا : « لابد من ذلك » .

فلما رأى صلاح الدين أن نور الدين الشهيد مصمم على ذلك ، جمع أعيان أهل مصر وذكر لهم ما قاله نور الدين الشهيد ، فقالوا له : « وكيف يكون ذلك ؟ » . فقال شخص من أبناء العجم يسمى الأمين ، وكان من أهل العلم : « أنا أفتح لكم باب هذا الأمر » .

فلما كان يوم الجمعة ثانى المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة ، صعد ذلك الشخص الأعجمى الى المنبر قبل صلاة الجمعة ، ودعا الى الخليفة المستضىء بالله العباسى خليفة بغداد . فلما صعد المنبر ودعا الى المستضىء لم يتكلم أحد من الناس ولا أنكروا . فلما كان ثانى جمعة أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة أن يقطعوا اسم الخليفة العاضد من الخطبة ، وأن يدعوا باسم الخليفة المستضىء بالله العباسى ، ففعلوا ذلك .

فلما بلغ العاضد ذلك انقهر وعمد الى فص من الألماس فابتلعه ، فمات من يومه ودفن . فكانت وفاته فى عاشر المحرم كما تقدم .

فلما مات العاضد أرسل نور الدين الشهيد الى صلاح الدين تقليدا بولاية مصر نيابة عنه .

قيل لما استولى صلاح الدين يوسف على حواصل الخلفاء الفاطمية استعرض ما فيها من السلاح والأموال ، فأرسل الى نور الدين ما استحسنه من السلاح الفاخر والتحف ، وصار

بعد ذلك يبيع ما فضل من السلاح وغيره نحو عشر سنين غير ما اصطفاه لنفسه .

ثم ان صلاح الدين صار مستوليا على مصر نيابة عن نور الدين الشهيد حتى توفى نور الدين محمود بن زنكى . وكانت وفاته فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بدمشق فى جامع الكلاسة ، وكان يلقب بالملك العادل ، وهو المجاهد المرابط فاتح بيت المقدس من أيدى الفرنج ، وفاتح الثغور الاسلامية من البلاد الشامية ، وهو الذى تعصب لبنى العباس ورد لهم الخطبة بمصر وأعمالها ، وأبطل ما كان يخطب باسم الفاطمية .

قال الهروى ان فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة انخسفت المغارة المدفون فيها ابراهيم الخليل عليه السلام ، فنزل اليها جماعة فوجدوا فيها ابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام ، وقد بليت أكفانهم ، وهم مستندون الى حائط المغارة وعلى رءوسهم قناديل من ذهب وفضة . فلما بلغ نور الدين ذلك أمر بأن تجدد لهم أكفان جدد ، وأن يسد عليهم ما انخسف من المغارة .

فلما توفى نور الدين الشهيد انفرد صلاح الدين يوسف بمملكة الديار المصرية والبلاد الشامية ، وصفا له الوقت ، فأزال ما كان بمصر من العساكر الملفقة — وكانوا ما بين صقالبة وكدالة ومصامدة وأرمن وشناترة العرب والعبيد السود — فمحا تلك الطوائف جميعها ، واتخذ بمصر عساكر من الأكراد خاصة ، فكانت عدتهم اثنى عشر ألف فارس من شجعان الرجال الذين لا يكلون من الحروب .

ثم ان صلاح الدين يوسف نظر فى أحوال الرعية ، وأمر باسقاط المكوس جميعها التى حدثت فى أيام الفاطمية ، وكتب بذلك مساميح بخط القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء ، وقرئت على المنابر فى الجوامع بعد صلاة الجمعة ، وكان قدر ما أبطله من المكوس فى كل سنة ما ينوف عن مائة ألف دينار . فلما قرئت تلك المساميح ضج له الناس بالدعاء وأحبته الرعية فكان كما قيل :

دولته للأنام عيد
باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل فى الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذى عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم
يصير الشاة فى حماه
تمشى مع الذئب والضياغم

قال ابن الأثير : « لما كانت سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، أمر الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب ببناء سور القاهرة بالحجر الفص المنحوت ، وكان القائم على بنائه الأمير بهاء الدين قراقوش الخصى الحبشى » . فأبطل السور القديم الذى كان قد بناه الأمير جوهر القائد فى أيام المعز الفاطمى كما تقدم .

وكان جوهر القائد بنى السور أولا بالطوب اللبن فى سنة احدى وستين وثلثمائة عندما قدم من القيروان ، وآثار السور القديم باقية عند الباب المحروق الى الآن .

قال ابن الأثير ان دور السور الذى بناه صلاح الدين يوسف تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثة آلاف ذراع بالعمل ، وجعل عليه هذه الأبواب المصفحة بالحديد . وكانت عدة أبواب القاهرة خمسة عشر بابا غير ما فى السور من الأبواب الصغار ، وكان باب زويلة يسمى باب الفاضل ،

وانما باب زويلة القديم الذى فى الغرابليين عنـد سام بن نوح وآثاره باقية الى الآن .

قال ابن الأثير ان صـلاح الدين يوسف هو الذى بنى قلعة الجبل وصارت دار المملكة ، وبطل أمر قصر الزمرد الذى كان فى القاهرة مكان دار الضرب . ولكن مات صلاح الدين ولم يتم بناء قلعة الجبل وانما أتم بناءها الملك الكامل محمد ابن أخى الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وهو أول من سكن بقلعة الجبل من بنى أيوب .

ومن النكت اللطيفة أنه كان بدمشق خان يسمى بخان ابن الزنجارى ، وكان يفعل فيه من أنواع الفسوق مالا يوصف شرحه . فلما بلغ الملك الناصر صلاح الدين يوسف أخبار ذلك الخان أمر بهدمه فهدم وبنى مكانه جامعا وسماه جامع التوبة ، وولى خطبته والامامة الى شخص يسمى العماد الواسطى — وكان يتهـم بشرب الراح وحب الملاح — فكتب بعض اللطفاء قصيدة عن لسـان حال هذا الجامع ، ورفعها الى الملك الناصر صـلاح الدين يوسف ، وكان شرح هذه القصة فى هذه الأبيات :

يا مليكا أوضـح الحـق لدينـا وأبانه
جـامع التوبة قـد قلـدنى منـه أمـانه
قال : قل للملك النـا صر أبقى الله شـانه
يا صـلاح الدين يامن حمـد النـاس زمانه
لى خطيب واسـطى بعشـق الشرب ديانه
ويحب المـرد طبعـا ويغـنى بالجعـانه
فانـا فى كل حـال لم أزل بالسـكرخانه
فاسـتمع قصـة حالى زادك الله صـيانة

فلما وقف صلاح الدين على هـذه الأبيات أمر بعزل العماد الواسطى عن خطبة الجامع ، وولى عليه شخصا من أهل الصلاح والخير .

قال المسبحى ان فى أيام صلاح الدين يوسـف نزل الفرنج على ثغر مدينـة دمياط فخرج اليهم صلاح الدين فى عساكر كثيرة من مصر ، وتوجه الى دمياط ، فتقاتل مع الفرنج أشـد القتـال ، وكانوا نحو مائتى مركب ، فأقام صـلاح الدين يحاصر الفرنج على دمياط نحو خمسة وخمسـين يوما فانكسر الفرنج وانهزموا نحو بلادهم مدبرين وانتصر عليهم صلاح الدين .

فلما رحل الفرنج الى بلادهم توجه صلاح الدين من هناك الى الشام فأقام بها مدة . قيل لـما دخل صلاح الدين الى دمشق نزل بالميدان الكبير فجاءت اليه أرباب الملاعب من المصارعين والمتأنقين وغير ذلك ، وكان فيما جاء اليه رجل أعجمى فتكلم معه بأن يريه أعجوبة فى صنعة الشعبذة ، فأذن له فى ذلك ، فنصب خيمة لطيفة فى الميـدان بين يدى السلطان صلاح الدين وأخرج من كمه كبة خيط فربط طرف ذلك فى يده ، ثم حذف تلك الكبـة الخيط فى الهواء ثم تعلق بها وصعد حتى غاب عن الأبصار ، ثم سقطت بين النـاس احدى رجليـه وصارت تزحف على الأرض حتى دخلت الى الخيمة ، ثم سقطت احـدى يديه ودخلت الى الخيمة ، ثم سقطت اليد الأخرى ودخلت الى الخيمـة ، ولم تزل أعضاؤه تتساقط عضوا بعد عضو حتى سقط الرأس وصار يزحف على الأرض حتى دخل الخيمة ثم بعد ساعة خرج ذلك الرجل وهو سـوى كما كان يمشى على أقدامه ، فقبـل الأرض بين يدى الملك النـاصر ... فبهت الناس من ذلك ، ثم ان الرجل دخل الخيمة ثانيا قدام الناس فقال رفيقه للحاضرين : « ادخلوا الخيمة فتشـوا فيها » .. فدخلوا الخيمة وفتشوا فيها فلم يجدوا فيها أحدا ، ثم فكوا الخيمة ونصبوها فى مكان آخر فخرج منها ذلك الرجل وهو يمشى على أقدامه كما دخل ،

فتعجب منه الناس ومن كان حول الملك الناصر من الأمراء .

ثم ان الأمير سنقر الأخلاطى حنــق من ذلك الرجل الذى صنع هذه الشعبذة فقام اليه بالسيف وضرب عنقه بين الناس ، وقال للملك الناصر ان مثل هذا لا يؤمن أن يكون جاسوسا من عند احد من الفرنج ، ثم أراد الأمير سنقر أن يقتــل رفيقه فاستجار بالملك الناصر وزعم أنه لايعرف شيئا مما كان يعمله رفيقه ، فقال له الملك الناصر : « اخرج من دمشق فى هذه الساعة ، ولا تقم بها فيقتلوك » فخرج من وقته .

قال ابن كثير ان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب هو أول من قرر الخدام الخصيان بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بها أحد من الخدام قبل ذلك ، وكان سبب تقريره للخدام أن بنى حسن لما تغلبوا على الخلفاء الفاطمية ، وأظهروا العصيان ، وصاروا يجهرون عند الأذان بقولهم : « حى على خير العمل » ، وهو مذهب الشيعة .. فلما تولى مصر الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب استمال بنى حسن ، وأغدق عليهم الأموال والهدايا حتى أذنوا له أن يجعل على المدينة الشريفة جماعة من قبله ، فقرر بالمدينة الشريفة أربعة وعشرين خادما خصيا ، وجعل عليهم شيخا من الخدام يقال له بدر الدين الأسدى ، ووقف على مجارى المدينة الشريفة بلدين من أعمال الصعيد — وهما نقادة وقبــالة ، وهمــا الى الآن جاريتــان فى أوقــاف الحرمين — وكان شيخ الحرم النبوى اذا قدم من المدينة على الملوك يقومون له ويجلسونه الى جانبهم ويتبركون به لقرب عهده من تلك الأماكن الشريفة .. واســتمر الأمر على ذلك الى أيام الملك الأشرف برسـباى .

ومما أنشأه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بالديار المصرية من آثار الخير ، خانقاه ســعيد الســعداء التى بالقرب من باب النصر وأنشــأ المدرسة السيوفية التى بالقرب من باب الزهومه ، وأنشأ مارستانا كان عند دار الضرب القــديم ، وأنشأ المدرسة التى بجــوار الامام الشــافعى — وكانت ساحة — وهو الذى أقام بمجد السادة الشافعية وقدمهم على غيرهم من المذاهب ، وأنشأ المدرسة الصلاحية التى بالقدس الشريف عنــدما استخلص بيت المقدس من يد الفرنج ، وله غير ذلك من الآثار الحسنة أشياء كثيرة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، واستخلص بلادا كثيرة كانت تحت يد الفرنج من البلاد الاسلامية .

واستمر الملك الناصر صلاح الدين يوســف قائما بأمور الديار المصرية حتى سافر الى البلاد الشامية فى أواخر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة . فلما دخل الى الشام أقام بها مدة يسيرة ومرض ومات ، فكانت وفاته فى صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة . ومات وله من العمر احدى وسبعون سنة .

ولما مات دفن بدمشق بمدرسة مجاهد الدين ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية أربعا وعشرين سنة بما فيها من أيام محمود بن زنكى الشهيد .

ولما مات صلاح الدين يوسف خلف من الأولاد سبعة عشر ولدا ذكرا من صلبه ، ولم يخلف فى خزائنه لاذهبا ولا فضة ، ولم يخلف قرية ولا بستانا ولا ملكا ولا ضيعة ، وأنفذ جميع ما فى الخزائن على التجــاريد والغزوات حتى فتح البــلاد التى كانت بيد الفرنج .

ولما مات تولى من بعده ابنه العزيز عثمان .

الملك العزيز بالله

هو الملك العزيز بالله ، عماد الدين أبو الفتح ، عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو الثانى من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع له بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الناصر صلاح الدين يوسف بعهد من أبيه له . وكان أصغر اخوته ، وكان أخوه الأفضل أكبر منه . فلما توفى الملك الناصر صلاح الدين بدمشق ولى ابنه الأفضل على دمشق ، وولى ابنه المظفر غازى على حلب ، وولى ابنه العزيز عثمان على مصر .

وكان مولد العزيز بمصر فى جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة ، وولى ملك مصر وله من العمر نحو سبع وعشرين سنة . فلما مات أبوهم صلاح الدين وقع الخلف بين الاخوة ، ووثبوا على بعضهم ، ولم يقنع أحد منهم بما هو فيه فحصل بينهم من الفتن والحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .

فلما تولى الملك العزيز على مصر وأتى من دمشق وجلس على سرير الملك لم يمش على طريقة والده الملك الناصر صلاح الدين ، وسار مع الناس فى مصر أقبح سيرة ، وقد أخطأت فيه فراسة أبيه الناصر بما كان يرجوه فيه فكان كما قيل فى المعنى :

أملتهم ثم تأملتهم
فلاح لى أن ليس فهم فلاح

طال وقوفى بفنا ربعهم
بغير نفع فالرواح الرواح

فأعاد المكوس التى كان أبطلها أبوه صلاح الدين ، وزاد فى شناعتها ، وتجاهر بالمعاصى والمنكرات حتى غلا سعر العنب فى أيامه لكثرة من يعصره ، وحملت أوانى الخمر جهارا من غير انكار وحميت بيوت المزارة وأماكن الحشيش ، وأباح ذلك أرباب الأمر والنهى ، وأقيمت عليها الضرائب الثقيلة حتى صار يأخذ من أرباب هذه الجهات فى كل يوم ستة عشر دينارا حماية للسلطان ، فلم يقدر أحد أن يعارض أماكن الفسوق فى أيامه فيما يفعلون ، وصارت طاحون الحشيش عمالة فى كل يوم فى حارة المصامدة ، وكذلك بيوت المزارة فى الكبش فى مكان يقال له الغور .

قال القاضى الفاضل ان فى أيام الملك العزيز هذا وقع غلاء بسبب توقف النيل ، وتشحطت الغلال فى وقت ميسورها والقمح فى الجرون ، واضطربت أحوال الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق .

ومن الحوادث فى أيامه أن دارا كانت فى فم السد تعرف بدار ابن مقشر ، وكان يحصل فى أجرتها فى اليوم والليلة ما لا يتحصل من أجرة مثلها فى مدة سنة كاملة ، وذلك بسبب الفرجة يوم فتح السد اذا أوفى النيل . فلما أن كانت سنة احدى وتسعين وخمسمائة أوفى النيل على جرى عادته فأكرت الناس تلك الأماكن التى فى دار ابن مقشر بسبب الفرجة حتى ما بقى فيها مايسع قدم انسان . فبينما الناس محتبكة بها للفرجة اذ سقطت تلك الدار على من فيها من الناس فماتوا جميعا ، وكان بها ما ينوف عن خمسمائة نفس من نساء ورجال وصغار وكبار ، فأقاموا يستخرجون من فيها من الأموات ثلاثة أيام ، فوجدوا بها شخصا يعرف بأبى البقا وفيه بعض نفس ، فطلع من تحت الردم وقد كاد أن يفارق الدنيا . فلما شم الهواء عوفى وعاش بعد ذلك مدة طويلة ، ثم طلع الى سطح داره فى بعض الأيام ونزل وهو مستعجل فزلت رجله من ثلاث درج من سلم السطح فمات من وقته وساعته .

قال ابن المتوج : « جاء رجل من بلاد العجم الى القاهرة فأوحى الى الملك عثمان بأن الهرم الصغير الذى فى الجيزة — وهو المكسو بالحجر الصوان — تحته مطلب ، فوجه اليه الملك العزيز جماعة من الحجارين ليهدموه ، فأقاموا فى هدمه نحو شهر ولم يهدموا منه الا اليسير ، فأنفق على هدمه فى هذه المدة مالا جزيلا ، فلما أعياه ذلك تركه . وآثار ذلك النقب فيه الى الآن ، وقد نزعوا عنه بعض الحجارة الصوان .

سنة خمس وتسعين وخمسمائة (١١٩٨ م) :

فيها خرج الملك العزيز الى نحو الفيوم يتصيد على سبيل الفرجة ، فلاح له ظبى فساق خلفه فكبا به الفرس فدخل قربوس السرج فى صدره فمات من وقته ، فحمل الى القاهرة ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه .

وكانت وفاته فى يوم الخميس العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، فكانت مدة سلطنته فى الديار المصرية نحو سبع سنين وأشهر .

ولما مات تولى من بعده ابنه محمد .

الملك المنصور

هو الملك المنصور محمد ، بن الملك العزيز عثمان ، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، بن أيوب ، وهو الثالث من ملوك بنى أيوب . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العزيز فى العشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو عشرين سنة . وكان القائم بأمور دولته الأمير بهاء الدين قراقوش — وهو صاحب الحارة المنسوبة اليه — فساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة وأحبته الرعية ، ودعوا له بطول البقاء .

وفى أيامه توفى القاضى عبد الرحيم الفاضل صاحب ديوان الانشاء ، وهو أول من أظهر التورية فى الشعر . قال الأسعد بن مماتى : « كان القاضى الفاضل دميم الخلقة ، وكان له حدبة ظاهرة خلف ظهره ، وكان يسترها بالطيلسان حتى لا تظهر للناس » . وقد هجاه ابن عنين الشاعر بسبب حدبته بهذه الأبيات :

حاشا لعبد الرحيم سيدنا ال
فاضل ماذا تقوله السفل

يكذب من قال ان حدبته
فى ظهره من عبيده حبل

هذا قياس فى غير سيدنا
يصح أن كان يحبل الرجل

ومن النكت اللطيفة قول الأسعد بن مماتى : دخلت يوما على القاضى الفاضل ، فرأيت الى جانبه أترجة بديعة الخلقة ، فجعلت أنظر الى تلك الأترجة فقال لى الفاضل : أراك تطيل النظر الى هذه الأترجة . فقلت : أتعجب من شكلها وبديع خلقتها . فقال لى الفاضل : ولها نسبة أيضا فيما بها من الاحتداب . فقلت : الله الله يا مولانا .

ثم انى ارتجلت بيتين من الشعر وهما هذان :

للحسن ، بل لله ، أترجة
قد أذكرتنا بجنان النعيم

كأنها قد جمعت نفسها
من هيبة الفاضل عبد الرحيم

فلما سمع ذلك أعجبه وزال ما عنده مما كان قد توهمه منى .

قال الأسعد بن مماتى : ثم انى ذكرت هذه الواقعة لبعض أصحابى ، فقال لى : احمد الله اذ أنشدته ذلك من لفظك ولم تكتبهما له ... فربما

حفت عليــه فى اللفظ فيقرؤها « من هيئــة »
ضل عبد الرحيم ... فيزداد حنقا من ذلك .
واستمر الملك المنصور فى السلطنة مدة يسيرة ،
ثبت عليه أعمامه من أجل السلطنة ، وجرى بينهم
الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر .
وآخر الأمر خلع الملك المنصــور من السلطنة ،
جن بقلعة الجبل واستمر مسجونا الى أن مات
لسجن ، فكانت مدة سلطنته بمصر تسعة أشهر
ما .

ولما خلع الملك المنصور تولى من بعده عم أبيه
ير أبو بكر بن أيوب .

الملك العــادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الأمير
م الدين أيوب بن شادى ، وهو الرابع من ملوك
، أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد خلع ابن ابن
يه المنصور محمد فى شوال سنة خمس وتسعين
مسمائة . وكان العادل هذا فى أيام أخيه الناصر
لاح الدين يوسف قد استولى على عدة من بلاد
رق . وكان العادل هــذا مســعودا فى جميع
كاته ، يحب الغــزو فى ســبيل الله ، خفيف
كائب ، صبورا على الجهاد . وكان مولده بمدينة
بك فى سنة أربع وستين وخمسمائة . وكان أصغر
، أخيه صلاح الدين يوسف . فلما تولى السلطنة
صر مشى على نظام الملوك القــديمة فى الحرمة
افرة ونفاذ الكلمة . قيل انه كان يشتى بمصر
صيف بالشام . وكانت مملكة مصر والشــام فى
مه مضبوطة لا يختل شيء من نظامها . واستمر
مر على ذلك ...

نة سبع وتسعين وخمسمائة (١٢٠٠ م) :
فيها توقف النيل عن الزيادة قبل الوفاء ، وثبت
على اثنى عشر ذراعا وأصبع واحد ، ثم هبط ولم
يزد بعد ذلك شيئا من الأصابع فاضطربت أحوال
الديار المصرية ، وأكلت النــاس بعضها بعضــا .
واستمر النيل على ذلك ثلاث سنين متوالية ، ولم
يزد غير عشرة أذرع ثم يهبط ، فوقع القحط بالديار
المصرية وعدمت الأقوات فى سائر أعمــال مصر ،
فصــار الناس من شــدة الجوع يأكلون القطط
والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال حتى
ما بقى بمصر دابة ، فصار الناس اذا قوى أحدهم
على صاحبه يذبحه بيده ويأكله ، وصــار الرجل
يذبح ابن جــاره ويأكله ولا ينكر ذلك عليــه ،
ويذبح ولده بيده ويأكله من شدة الجوع ... وهذا
كله بعــد أن فرغت الكلاب والقطط والوحوش
والطيور . وقد تناهى سعر القمح فى السنة الثالثة
الى مائة دينار كل أردب ... ولا يوجد .

ثم جاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى مات من أهل
مصر نحو الثلثين .

قال أبو شــامة المؤرخ ان الملك العادل أبا بكر
ابن أيوب كفن من ماله فى مدة يسيرة ممن مات من
الغرباء نحو مائتين وعشرين ألف انسان ، غير من
مات من أهل المدينة فلم يحص لهم عدد حتى قيل
كان النيل اذا طلع لم يجــد من يزرع الأراضى ،
فكانت الترك تخرج بنفســها يحرثون ويزرعــون
بأيديهم ، ويبذرون فى الأرض الغلال لعدم وجود
الفلاحين .

وقيل فقد من الأطباء فى تلك الســنة جماعة
كثيرة ... يدعونهم الى المريض فاذا حصلوا عندهم
فى الدار يذبحونهم ويأكلونهم . وكذلك النســاء
الغواســل ... يدعونهن الى الأموات فيذبحونهن
ويأكلونهن ، حتى قيل ان رجلا استدعى بطبيب فلما
مضى معه الطبيب جعل ذلك الرجل يكثر من ذكر
الله تعالى بطول الطريق ، فسكن روع ذلك الطبيب

بعد ما كان على وجل ، فلما وصلا الى الدار فاذا هى دار خربة ، فارتاع ذلك الطبيب فخرج اليه رجل من الخربة وقال للرجل الذى جاء بالطبيب : « وهل مع هذا البطء العظيم جئت الينا بصيد ؟ » ... فلما سمع الطبيب ذلك ولى هاربا ، وما خلص الا بعد جهد عظيم .

واستمر الأمر على ذلك مدة ثم سكن الحال ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وظهرت الغلال ، وانحط سعر القمح حتى صار مرميا لا يجد من يشتريه ، وتراجع سعر كل شىء ، وانصلح الوقت وطاب ، ورجع الماء الى مجاريه فكان كما قيل فى المعنى :

اذا ما رماك الدهر يوما بنكبة
فهيىء لها صبرا وأوسع لها صدرا
فان تصاريف الزمان كثيرة
فيوما ترى عسرا ويوما ترى يسرا

ثم ان الملك العادل استمر فى السلطنة بمصر حتى خرج الى نحو الشام لتفقد الأحوال ، فمرض هناك ومات ودفن بدمشق ، فكانت وفاته فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وكانت مدة سلطنته بمصر ثمانى عشرة سنة وتسعة أشهر .

وكان العادل هذا رجلا طويلا جسيما ، مدور الوجه ، شرها فى الأكل ، يأكل الخروف وحده . وكان يحب من يأكل معه مثل أكله .

ولما مات الملك العادل خلف من الأولاد ثلاثة ، وهم :

الملك محمد الكامل ، فاستمر بعد أبيه العادل على مملكة الديار المصرية .

وابنه الملك المعظم عيسى ، فاستقر بعد أبيه العادل على مملكة البلاد الشامية .

وابنة الملك الأشرف موسى شاه أرمن ، فاستقر بعد أبيه على مملكة البلاد الحلبية . وكان موسى شاه أرمن هذا بديع الحسن والجمال ، وهو ممدوح القاضى كمال الدين بن النبيه فى جميع قصائده حيث يقول من قصيدة :

يا طالب الرزق ان سدت مذاهبه
قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

وقال فى ختم زجل :

والشفق أحمر وأصفر رايات شاه أرمن
ذا ملك بحال جالو ما خلق وليس يخلق

وفى أيام العادل أبى بكر توفى مؤيد الدين — صاحب لامية العجم — الطغرائى . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد . وكان كاتب الملك مسعود صاحب حماه . فلما كانت الواقعة بين الملك مسعود وبين أخيه الملك محمود شاه ، انكسر الملك مسعود وولى هاربا ، فكان أول من أسر من جماعة الملك مسعود مؤيد الدين الطغرائى . فلما مثل بين يدى الملك محمود شاه — وكان بينه وبين الطغرائى عداوة بسبب مملوكه فريد الحسن — أمر بقتل الطغرائى على يد ذلك المملوك الذى كان يهواه ، فرمى عليه بالنشاب فقتله . وقيل عفا عنه ومات الطغرائى عقيب ذلك من الرجفة .

الملك الكامل

هو الملك الكامل ، ناصر الدين محمد ، بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو الخامس من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه العادل فى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة . وكان الملك الكامل أكبر اخوته .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه ان الملك الكامل استولى على الديار المصرية نحوا من أربعين سنة ، نصفها فى حياة أبيه الملك العادل ،

ونصفها مستقل بها بمفرده . وكان كثير الغزوات ، ويحب الجهاد ، وفتح فى أيامه فتوحات كثيرة من البلاد الشامية والمصرية .

وكان الملك الكامل يكثر من الاقامة فى العباسية ، ويقول : « هذه أحسن من مصر ، فانى اذا أقمت بها أصطاد الطير من السماء ، والسمك من الماء ، والوحش من الفضاء ، ويصل الى خبر القاهرة فى يومه مع النجباء فى كل يوم مرتين » . وكان من حبه للعباسية أنشأ بها البساتين والمناظر برسم الحرم والسرارى .

وفى أيامه توفى الشيخ الصالح أبو الحسن الدينورى ، وكان من كبار العلماء الأولياء ، وله كرامات خارقة ، ودفن بالقرب من الجبل المقطم ، وكانت وفاته فى ذى القعدة سنة ست عشرة وستمائة .

ومن الحوادث فى أيامه أن شخصا مغربيا دخل الى الديار المصرية ، وكان من علماء فن السيميا ، فأظهر لشخص من الأعيان بستانا خارج القاهرة من أحسن ما يكون ، كثير الأشجار من أصناف الفواكه المثمرة ، وفيه خمس سواق دائرة ، وعدة ثيران واقفة برسم السواقى ، وحوله واقفة من حول هذا البستان . فلما رآه ذلك الرجل أعجبه فاشتراه من المغربى بألف دينار وقبضه الثمن ، وأشهد عليه المغربى بتسليم ذلك البستان بقاض وشهود ... ثم مضى ذلك المغربى الى حال سبيله وبات ذلك الرجل فى البستان الذى اشتراه ، فلما أصبح وجد نفسه بين الكيمان ولم ير شيئا من ذلك البستان الذى باعه له المغربى ، فصار يسأل من الناس : « هل كان قبل ذلك اليوم هنا بستان ؟ » . فيقولون : « ما سمعنا بهذا قط » . فصار الرجل متعجبا من ذلك ، وشاع أمره بين الناس فلما بلغ الملك الكامل ذلك طلب المغربى فلم يجده وأخذ الألف دينار ومضى الى حال سبيله . وهذه الواقعة من الغرائب .

وقال بعض المؤرخين ان ملوك اليمن أهدت الى الملك الكامل محمد شمعدانا من نحاس يخرج منه عند طلوع الفجر شخص من نحاس لطيف الحلقة يخاطب الملك قائلا : « صبحك الله بالخير ... قد طلع الفجر » ، أو صفير هذا معناه . وكان هذا الشمعدان من صنعة الميقاتية ، فأقام فى حواصل الملوك الى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم فقد .

وفى أيام الملك الكامل هذا توفى الشيخ زكى الدين العوضى ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد . وكان سبب موته — كما قيل — أنه كان فى خدمة الملك المظفر محمود صاحب حماه ، وكان قبل أن يلى حماه وعد الشيخ زكى الدين العوضى أنه اذا تولى حماه يعطى الشيخ زكى الدين ألف دينار . فلما تولى حماه كتب اليه الشيخ زكى الدين هذه الأبيات :

مولاى هذا الملك قد نلته
برغم مخلوق من الخالق
والدهر منقاد لما شئته
فذا أوان الموعد الصادق

فعند ذلك دفع اليه الملك المظفر الألف دينار التى وعده بها ثم ان الملك المظفر صار يرسل الشيخ زكى الدين فى الأسفار الى بعض أشغاله فصرف الألف دينار على الأسفار ولم يبق منها شىء ، فبلغ الملك المظفر أن الشيخ زكى الدين قال فى معنى ذلك شعرا :

ان الذى أعطوه لى جملة
قد استردوه قليلا قليل
فليت لم يعطوا ولم يأخذوا
وحسبنا الله ونعم الوكيل

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بحبسه ، فحبس ، فبلغه عنه أنه قال وهو فى السجن هذا البيت من قصيدة :

أعطيتنى الألف تعظيماً ومكرمة
يا ليت شعرى ! أم أعطيتنى ديتى ؟

فلما بلغ الملك المظفر ذلك أمر بخنقه ، فخنق وهو فى السجن ، ودفن تحت الليل .

سنة ثمان عشرة وستمائة (١٢٢١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الفرنج جاءوا الى ثغر دمياط فى مائتى مركب ، واستولوا على مدينة دمياط وملكوها . فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، ونادى الملك الكامل فى القاهرة بأن النفير عام ... فاجتمع من العساكر نحو عشرين ألف مقاتل ، فعند ذلك خرج الملك الكامل من القاهرة ومعه تلك العساكر فتوجه الى دمياط ، ونزل قبالة طلخا على رأس بحر أشموم ، واجتمع هناك السواد الأعظم من الخلائق ، وصار الملك يحاصر الفرنج فى دمياط ، وقد حصن الفرنج سور دمياط ، وجعلوا الجامع الكبير كنيسة . فلما دام الحصار بينهم وقع الغلاء بين عسكر السلطان الكامل حتى عدمت الأقوات وبلغ الرغيف الخبز ثقله فضة ، وبيعت بيضة الدجاجة بدينار ، وصار السكر فى مقام الياقوت الأحمر ... فكانت الخيول والبهائم تأكل من أوراق الشجر فى مدة هذه المحاصرة . وكانت المحاصرة فى ثغر دمياط ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . وقد أسرف الافرنج فى القتل والنهب والأسر .

وسير الملك الكامل السعاة الى سائر البلاد يستحث الناس الى الحضور لأجل دفع الفرنج عن الديار المصرية . قيل كان فى مدة هذه المحاصرة يمشى فى ركاب الملك الكامل شخص يسمى شمايل — وكان من جملة الجندارية — فكان يسبح فى البحر تحت الليل ، ويأتى الملك الكامل بأخبار الفرنج ، فحظى بذلك عند الملك الكامل . فلما انتصر على الأفرنج ولى شمايل المذكور القاهرة ، وصار مقربا عنده ، واليه تنسب خزانة شمايل ، وهى عبارة عن سجن يحبس فيه أصحاب الجرائم .

ولما طال حصار الملك الكامل على دمياط أنشأ هناك قرية وسماها « المنصورة » ، وبنى بها الأسواق والفنادق والحمامات ، ولا زالت تتزايد فى العمارة الى الآن .

ثم ان الملك المظفر محمود — صاحب حماه — حضر فى عسكر كثيف عند الملك الكامل ليعاونه به على دفع العدو ، فاجتمع هناك من العساكر نحو أربعين ألف مقاتل ، فجرى بينهم من القتال ما يطول شرحه عن هذا المختصر . فلما طال الأمر على الافرنج أيقنوا بالهلاك ، وأرسلوا يطلبون من الملك الكامل الأمان على أنهم يتركون دمياط ويرحلون عنها الى بلادهم ، فاتفق الحال على أن كلا من الفريقين يعطى رهائن من أقاربه ، وعلى أن كلا من المسلمين يطلق من عنده من الأسارى ، وعلى أن الافرنج يطلقون من عندهم من الأسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ... فحلف الملك الكامل والافرنج على ذلك ، ووقع الصلح على ذلك . فأرسل ملك الافرنج عشرين ملكا من عنده رهنا الى الملك الكامل ، وأرسل الملك ابنه الأمير نجم الدين مع جماعة من الأمراء الى ملك الافرنج . . فعند ذلك سلم الافرنج مدينة دمياط الى المسلمين ، وأطلقوا من كان عندهم من الأسرى من أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف . وكذلك أطلق الملك الكامل من كان عنده من الافرنج الأسرى .

قيل لما سلم الفرنج مدينة دمياط الى المسلمين ، جاء عقيب ذلك الى الافرنج نجدة من البحر نحو مائتى مركب . وكان من جميل صنع الله تأخرها الى حين تسلم المسلمون دمياط ، لأنها لو جاءت

قبل ذلك لتقووا بهـا على المسـلمين ، وأبوا عن الصلح . فلما تسلم الملك الكامل مدينة دمياط كان يوم دخوله اليها يومـا مشهودا لم يسـمع بمثله ، وعمت البشائر سائر الآفاق . وكانت مدة استيلاء الفرنج على ثغر دميـاط سـنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما ، والملك الكامل معهم فى جهاد ليلا ونهارا ، لا يكل من الحروب فى هذه المدة . وكانت هذه النصرة فى سـنة تسع عشرة وستمائة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى ان فى مدة المحاصرة حضر الى الملك الكامل أخـواه — وهما الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الأشرف موسى شاه أرمن صاحب حلب وماردين — فلما حصلت هذه النصرة أحضر الملك أخويه واجتمعوا فى القصر الذى أنشأه الملك الكامل فى المنصورة ، وكان مبتدأ عمـارة المنصورة فى سـنة عشرين وستمائة ، فلما اجتمعوا فى القصر أحضروا سـفرة الشراب بعد أن مد لهم سماط عظيم هناك . فلما جلسوا الى المنـادمة بعد ما قاسوا من الافرنج أهوالا عظيمة كما قيل فى المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نُساء ويوم نسرّ

أحضر الملك الأشرف موسى جـارية تغنى على عود ، فحركت العود وأنشدت تقول :

ولمـا طغى فـرعون عكا بسـحره
وجاء ليسعى بالفساد الى الأرض
أتى نحوه موسى وفى يده العصـا
فأغرقهم فى اليم بعضـا على بعض

فطرب الملك الأشرف موسى لذلك فشق على أخيه الملك الكامل محمد هذا المعنى ، وأسرها فى نفسه ، ثم انه أرسل خلف الراجح الحلى الشاعر وأمره بأن يجيب عن ذلك المعنى بشىء — والراجح الحلى هذا أقدم من الصفى الحلى — وقد قال ابن نباتة فى معنى ذلك هذين البيتين :

يا سـائلى عن رتبـة الحـلى فى
نظم القـريض رواضـيا بى أحكم
للشـعر حليـان ذلـك راجح
ذهب الزمـان به ، وهـذا قيم

ثم ان الراجح الحلى نظم هذين البيتين ودفعهما الى الملك الكامل ، فأمر الملك الكامل باحضـار جارية تضرب بالعود ، فحضرت فى اليوم الثـانى وأخذت العود وغنت عليه بهذه الأبيات :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا
لما قد جرى فى عصرنا وتجـددا
ألا ان موسى قـد أتانا وقـومه
وعيسى جميعا ينصرون محمـدا

فلما سمع الملك ذلك طرب له ، وأمر لكل جارية بخمسمائة دينار ، وأجاز الراجح الحلى بجائزة سنية .

ثم ان الملك الكامل دخل الى القاهرة فى موكب عظيم ومعه أخواه الملك الأشرف موسى والملك المعظم عيسى ، فأقاموا فى القـاهرة مدة يسـيرة وتوجها الى بلادهما .

ثم ان الملك الكامل أخذ فى أسباب بناء مدرسته الكامليـة التى بين القصرين ، وكانت تسمى دار الحديث . قيل لما أن حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك صنما كبيرا من ذهب ، فأمـر الملك الكامل بأن يسبك ذلك الصنم وينفق على بنـاء هذه المدرسة ، فبنيت من وجه حل .

وهو الذى أنشأ هذه القبة العظيمة على ضريح الامام الشافعى رضى الله عنه ، وبنى المجراة من بركة الحبش الى تربة الامام الشافعى رضى الله عنه تجرى بالماء فى أيام النيل وهى باقية الى الآن . وبنى الحوض على الطريق السالكة عند تربة الامام الشافعى رضى الله عنه . ولما ماتت أم الكامل دفنت عند الامام الشافعى داخل القبة .

وتوفى فى أيامه القاضى كمال الدين ابن النبيه ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، وهو الذى مدح بنى أيوب بقوله من قصيدة :

دمتم بنى أيوب فى نعمة
تجوز فى التخليد حد الزمان
والله لا زلتم ملوك الورى
شرقا وغربا وعلى الضمان

وكان الملك الكامل سعيد الحركات فى أفعاله ، كثير الجهاد والغزوات والفتوحات .

وفى سنة اثنتين وثلاثين وستمائة فى ثانى جمادى الأولى توفى الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رحمة الله عليه ، ودفن بالقرافة الصغرى تحت العارض بالجبل المقطم . وكان مولده بالقاهرة فى رابع ذى القعدة سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، فكانت مدة حياته أربعا وخمسين سنة وستة أشهر وأياما . ولما مات دفن تحت رجلى شيخه الشيخ محمد البقال رحمة الله عليه ، وكان أصله من حماة ، وانما سمى بابن الفارض لأن والده الشيخ شمس الدين كان من كبار أهل العلم ، وقد انفرد فى علم الفرائض ، فسمى لذلك الفارض . وكان الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض رضى الله عنه فريد عصره فى علم التصوف ، وكان له نظم فائق فى معانى الغراميات لم يسبق اليه . وقد عاصر من العلماء الشيخ أبا القاسم المنفلوطى ، والشيخ صفى الدين ابن أبى المنصور ، والشيخ شمس الدين الأيكى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، والشيخ سعد الدين الحارثى الحنبلى المحدث ، والقاضى أمين الدين بن الرقاقى ، والشيخ جمال الدين الأسيوطى ، والشيخ شهاب الدين السهروردى رضى الله عنه ، والشيخ برهان الدين الجعبرى ، والقاضى شمس الدين بن خلكان ، والشيخ شهاب الدين بن الخيمى ، وكان له نظم لطيف ، وكان يطارح به ابن الفارض — والشيخ نجم الدين بن اسرائيل ... وغير ذلك جماعة كثيرة من العلماء والصوفية ، ولم ينكر عليه أحد منهم فى حالاته ولا نظمه ، وكانوا معه فى غاية الأدب .

ومما وقع للشيخ شرف الدين عمر بن الفارض أنه كان مقيما بجامع الأزهر ، فأراد يوما أن يتوجه الى جامع عمرو بن العاص الذى فى مصر العتيقة ، فأحضروا الى الشيخ مكاريا ليركبه الى جامع عمرو ، فقال أصحاب الشيخ للمكارى : « كم لك من هنا الى جامع عمرو ؟ » . فقال المكارى : « خلوا الشيخ يركب معى على الفتوح » . فقال الشيخ : « نعم نركب معك على الفتوح » . فركب معه الشيخ وتوجه الى جامع عمرو . فلما كان فى أثناء الطريق لقى الشيخ بعض أعيان الناس فترجل له عن فرسه فسلم عليه ثم أرسل الى الشيخ مائة دينار مع غلامه ، فقال الشيخ : « ادفعوا هذه المائة الى المكارى ، فانا ركبنا معه على الفتوح » . فدفعوا المائة دينار الى المكارى ، فبعث اليه بمائة دينار أخرى غير المائة الاولى ، فقال الشيخ : « ادفعوها الى المكارى ، فانا ركبنا معه على الفتوح » . فلما وصل الشيخ الى جامع عمرو نزل عن الحمار وصار يعتذر الى المكارى فى التقصير ، وقال : « لو دخل الينا أكثر من ذلك لدفعناه اليك » .

ثم ان الملك الكامل قصد التوجه الى دمشق لتفقد الأحوال ، فخرج من القاهرة وتوجه الى دمشق ، فلما دخلها أقام بها مدة ثم مرض ومات هناك ودفن بدمشق . وكانت وفاته فى العشرين من رجب سنة خمس وثلاثين وستمائة ، فكانت مدة سلطنته بمصر نحوا من عشرين سنة .

ولما مات تولى من بعده ابنه العادل أبو بكر .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبى بكر ، بن نجم الدين أيوب ، وهو السادس من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الكامل محمد . تولى الملك فى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وكان سبب سلطنته أنه لما توفى أبوه الملك الكامل بدمشق ، كان العادل أبو بكر هذا نائبا عن أبيه بمصر لما أن توجه الى دمشق . فلما توفى هناك الملك الكامل ، وجاءت الأخبار بموته الى القاهرة ، اتفق رأى الأمراء الذين كانوا بمصر على أن يسلطنوا الأمير أبا بكر بن الملك الكامل عوضا عن أبيه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك العادل على اسم جده الملك العادل أبى بكر . فلما بلغ أخاه نجم الدين ، وكان نائبا بحلب ، أن أخاه تسلطن بمصر — وكان العادل أصغر من أخيه نجم الدين — شق ذلك على نجم الدين وحضر من حلب الى الديار المصرية فى أسرع مدة . فلما دخل الى مصر وثب على أخيه الملك العادل وحاربه وجرى بينهما من الحروب ما يطول شرحه عن هذا المختصر . وصار العسكر معهم فريقين : مع كل أخ فريق .

ودام الأمر على ذلك ثم قويت شوكة الأمير نجم الدين على أخيه العادل فخلعه من السلطنة وسجنه بقلعة الجبل الى أن مات ، كما سيأتى ذلك فى موضعه ، فكانت مدة ولايته على مصر سنة وشهرين وأياما . ولما خلع تولى من بعده أخوه نجم الدين .

الملك الصالح

هو الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، بن الملك العادل أبى بكر ، بن نجم الدين بن أيوب ، وهو السابع من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك العادل أبى بكر فى يوم الاثنين خامس عشرى ذى القعدة سنة ست وثلاثين وستمائة ، وتولى الملك وله من العمر نحو أربع وثلاثين سنة . وكان مولده فى سنة ثلاث وستمائة بمصر فى قلعة الجبل . فلما تم أمره فى السلطنة وأطاعه الجند أخذ فى أسباب تدبير ملكه ، واستكثر من مشترى المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة ، وصاروا يشوشون على الناس وينهبون البضائع من الدكاكين ، فضج منهم الناس . وفى ذلك قال بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من
ترك بدولته ... يا شر مجلوب !
قد آخذ الله أيوبا بفعلته
فالناس قد أصبحوا فى ضر أيوب

فلما بلغ الملك الصالح ذلك بنى لهم قلعة فى الروضة بالقرب من المقياس ، وأسكنهم بها وسماهم المماليك البحرية . وجعل حول تلك القلعة شوانى حربية مشحونة بالسلاح معدة لقتال الفرنج اذا طرقوا البلاد فتكون هذه المماليك على أهبة ، فينزلون فى الحال فى الشوانى ويتوجهون الى قتال الفرنج ، وكان عدتهم ألف مملوك قاطنين بالقلعة لا يخالطون الناس بالمدينة ، ولهم الرواتب والجوامك عمالة بسبب ذلك . وآثار هذه القلعة باقية فى الروضة الى الآن .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى ان طائفة من هذه المماليك خرجوا من القاهرة هاربين من السلطان

فى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فتوجهوا الى نحو التيه ، فتاهوا به نحو خمسة أيام ، فلاح لهم فى اليوم السادس سواد فقصده فاذا هو مدينة عظيمة ولها سور ولها أبواب وهى مبنية بالرخام الأخضر ، فدخلوا اليها وطافوا بها ، فوجدوا بها أسواقا ودورا ، ووجدوا فيها صهاريج فيها ماء أحلى من العسل وأبرد من الثلج — فشربوا منه ، ووجدوا فى بعض الدكاكين التى فى أسواقها دنانير من الذهب وعليها كتابة بالقلم القديم ، فأخذوا تلك الدنانير وخرجوا من المدينة فساروا ليلة كاملة ، فلما أصبحوا وجدوا طائفة من العرب هناك فحملوهم الى مدينة الكرك فأخرجوا تلك الدنانير التى معهم الى بعض الصيارفة فاذا عليها مكتوب اسم موسى عليه السلام . وقيل ان هذه المدينة بنيت فى زمن موسى وكان يقال لها المدينة الخضراء من مدائن بنى اسرائيل ، وقد طمست بالرمال ، فتارة تنقص عنها الرمال فتظهر ، وتارة تطمها ... فلاحت الى هؤلاء المماليك وقت تناقص الرمل عنها .

وفى سنة أربع وأربعين وستمائة أنشأ الملك الصالح نجم الدين مدينة على أطراف الرمل وسماها الصالحية ، وأنشأ بها الأسواق والفنادق والمساجد ، فتزايدت فى العمارة وصارت مدينة على انفرادها .

وهو الذى أنشأ المدرستين تجاه باب الصاغة ، وهى : النجمية ، والصالحية قلعة العلماء .

ومن الوقائع فى أيامه أن الأمير شهاب الدين بن يغمور والى القاهرة أمر بشنق عشرين رجلا كانوا يقطعون الطريق على الناس ويقتلون من يظفرون به ، فلما شنقهم أمر الخفراء بحفظهم ، فلما جاء الليل عدهم الخفراء فاذا هم تسعة عشر مشنوقا ... فخاف الخفراء من الأمير شهاب الدين أن يسألهم عنه ، فقعدوا على الطريق ينتظرون من يمر بهم فيشنقونه عوضا عن ذلك الرجل ، واذا بشخص قد مر بهم فقاموا اليه وأمسكوه وشنقوه مع جملة المشانيق . فلما لاح الصباح أتى الأمير شهاب الدين وعد المشانيق فاذا هم أحد وعشرون رجلا فقال للخفراء : « ومن هذا الرجل الزائد الذى معهم ؟ » . فبهتوا ... فقال لهم : « ما شأنكم ؟ » . فقالوا : « يا أيها الأمير ، قد عددناهم فى الليل فرأيناهم ناقصين واحدا ، فمر بنا فى الليل هذا الرجل فأمسكناه وشنقناه معهم » . فقال لهم الأمير شهاب الدين : « أرونى هذا الرجل المسكين الذى وقع لكم » . فلما رآه وجده شخصا قاطع طريق وله مدة وهو محث فى طلبه ولا يقدر على تحصيله . فلما رآه سر به وتعجب من هذه الواقعة غاية العجب .

ثم ان الملك الصالح صفا له الوقت ، وكثرت مماليكه ، وطالت أيامه فى السلطنة ... فعند ذلك تعرض لقتل أخيه الملك العادل أبى بكر الذى كان فى السجن بقلعة الجبل فقتله فى ثالث شوال سنة أربعين وستمائة ودفن عند الامام الشافعى رضى الله عنه . فلما قتل الملك الصالح أخاه العادل أقام بعد قتله أياما يسيرة ، ثم ابتلاه الله تعالى بآكلة طلعت له فى وجهه فرعته الى آخره ، واستمر عليلا وثقل المرض عليه .

سنة سبع واربعين وستمائة (١٢٤٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن ريدا فرنسيس ، ملك الافرنج[1] ، أتى الى ثغر دمياط فى مائتى مركب مشحونة بالرجال ، غير من أتى فى البر من المقاتلين . وكان ريدا فرنسيس هذا قد استولى على غالب بلاد الأندلس وسبى أهلها ، وقتل من المسلمين ما لا يحصى عددهم ، ونهب أموالهم .

(١) هو لويس التاسع ملك فرنسا .

وكانت طائفة هذه الافرنج غير الطائفة التى جاءت فى أيام الملك الكامل محمد كما تقدم ذكر ذلك .

فلما تحقق الملك الصالح ذلك أمر باشهار النداء فى مصر والقاهرة بأن النفير عام ، ولا يتأخر صغير ولا كبير ، فان العدو قد استولى على البلاد ، ووصلت بوادره للمنصورة ... فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت بأهلها .

ثم ان ملك الافرنج ريدا فرنسيس لما أحاط بثغر دمياط أرسل كتابا الى نائب دمياط يهدده فيه ويحذره ، وذكر له ما جرى على أهل الأندلس من القتل والسبى . فلما سمع أهل دمياط بذلك هربوا تحت الليل . فلما أصبح الافرنج وجدوا أبواب المدينة مفتحة وليس فيها أحد من الناس ، فظن الافرنج أن ذلك مكيدة من المسلمين ، فتمهلوا حتى ظهر لهم أن ما فى المدينة أحد من المسلمين ، فدخلوا من غير مانع وملكوها .

فلما سمع الملك الصالح بذلك نادى فى مصر والقاهرة بالرحيل ، فخرج الناس قاطبة وسائر الأمراء ، وخرج الملك الصالح فى محفة ، فانه كان مريضا على غير استواء . فلما وصل الى نحو المنصورة نزل بها ، وأمر بجمع العربان من سائر النواحى ، فاجتمع من العالم ما لا يحصى .

ثم ان الملك الصالح أحضر نائب دمياط وشنقه وشنق معه نحو خمسين أميرا بسبب خروجهم من دمياط بغير اذن من السلطان ، فعز ذلك على الأمراء وقصدوا أن يقتلوا الملك الصالح هناك فأشار بعض الأمراء بعدم ذلك ، وقال هذا غير صواب ... فصار القتال بين المسلمين والافرنج : كل فرقة تقتل من الأخرى ، وأسر جماعة كثيرة . هذا والسلطان كل يوم يتزايد فى المرض حتى أيست منه الأطباء .

فلما كانت ليلة الأحد رابع عشر شعبان سنة سبع وأربعين وستمائة (١٢٤٩ م) توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد .

فلما مات الملك الصالح بالمنصورة كتم موته خوفا من الافرنج أن يطمعوا فى أخذ البلاد من أيدى المسلمين ، فحمل السلطان بعد أن مات فى زورق تحت الليل وجىء به الى قلعة الروضة فدفن بها . وقيل نقل بعد ذلك الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ودفن عند أقاربه داخل القبة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية نحو تسع سنين وسبعة أشهر وأحد عشر يوما .

ولم يشعر أحد من الناس بموته ، فكانت المراسيم تخرج كل يوم بعلامة السلطان فلا يشك من يراها انها بخط السلطان الصالح . وكانت الأمراء تجتمع فى الموكب ويظهرون أن السلطان مريض ، وكانت الأطباء تدخل على جارى العادة فى كل يوم ، وكان طبق المزاور يدخل فى كل يوم ويخرج على جارى العادة ، والمراسيم فى كل يوم رائحة من المنصورة الى القاهرة فى الاشتغال ، ولم يعلم أحد بموت الصالح فى القاهرة ... وكان القائم بتدبير هذه الأمور الأمير حسام الدين لاجين ، والأمير فارس الدين اقطاى فى هذه المدة ، حتى حضر توران شاه ابن الملك الصالح .

وكان توران شاه فى حصن كيفا ، فلما سلسل الملك الصالح فى المرض أرسلوا خلف ابنه توران شاه من حصن كيفا ، فأبطأ عليهم حتى مات أبوه . فلما حضر الى المنصورة — وقد جاء فى عسكر عظيم من الأكراد من عساكر حصن كيفا — أشيع موت الملك الصالح ، وتسلطن ابنه توران شاه عوضه .

الملك المعظم توران شاه

هو الملك المعظم توران شاه ، بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل محمد ، وهو الثامن من ملوك بنى أيوب بمصر . بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مستهل شهر المحرم الحرام[1] سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وكانت ولاته بعد موت أبيه بأربعة أشهر . فلما ولى نودى باسمه فى القاهرة وزينت له ودقت له الكئوسات سبعة أيام ، وتلقب بالملك المعظم ، ونودى بين العساكر فى الوطاق بالدعاء للسلطان الملك المعظم توران شاه والترحم على الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلبس توران شاه خلعة السلطنة بالمنصورة ، وقبل له الأمراء الأرض ، وخطب باسمه على المنابر .

فلما تحقق الافرنج موت الملك الصالح طمعوا فى أخذ مصر وزحفوا الى فارسكور ، فاجتمع سائر الأمراء وتحالفوا على الجهاد فى سبيل الله تعالى .

فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) ركب الأمير بيبرس البندقدارى والأمير لاجين وغيرهما من الأمراء ، وخرج معهم السواد الأعظم من العوام والفلاحين وغير ذلك وفى أيديهم المقاليع والحجارة ، وهجم المماليك البحرية وفى أيديهم السيوف والدبابيس والرماح ، ومنهم طائفة يرمون بالنشاب ، فحملوا على الافرنج حملة واحدة ... فكانت ساعة تشيب منها النواصى ، وقد تاب من هول ذلك اليوم العاصى ، فانكسر الافرنج أبخس كسرة ، وولوا مدبرين ، والله تعالى ناصر الناصرين ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم

قال الشاعر :

لله در فوارس يوم الوغى
تهوى الحياطة لا اليهم تنتمى

ذرعوا الفوارس بالرماح ، وفصلوا
بالمرهفات ، وخيطوا بالأسهم

فبلغ عدة من استشهد فى هذه الواقعة من أمراء السلطان سبعة وستين اميرا غير المماليك ، وقتل من العوام ما لا يحصى عددهم ، وقتل من الافرنج على فارسكور ما يزيد على اثنى عشر ألف انسان ، وأسر من ملوكهم سبعة ، وغنم منهم المسلمون من السلاح والقماش والخيول شيئا كثيرا لا يحصى ... حتى قيل بيع فى عسكر السلطان كل سيف بنصفين فضة ، وكل فرس بعشرة أنصاف ، وكل درع بثمانية أنصاف .

وأما ملك الافرنج ريدا فرنسيس ، وآكابر أمرائهم ، فانهم قد انحاشوا الى تل عال هناك ، وأرسلوا يسألون الأمان من السلطان ، فأرسل اليهم بعض الأمراء فقبض عليهم وقيدهم وسجنهم .

وأما ملك الافرنج فسجنه السلطان فى دار القاضى فخر الدين بن لقمان كاتب السر — وكانت فى المنصورة — ووكل به طواشى يسمى صبيح الفاطمى فكان يضربه ليلا ونهارا ، ويقرره على الأموال . واستمر فى السجن وهو مقيد هو وأخوه وأقاربه ، وقد قرر عليه السلطان مالا يورده ، فأرسل الى بلاده ليحضر الأموال التى قد قررت عليه .

فلما حصلت هذه النصرة أرسل السلطان الملك المعظم توران شاه بالبشارة الى القاهرة بأخذ مدينة دمياط ، وقد توجه بهذه البشارة الأمير شهاب الدين ابن يغمور والى القاهرة ، فدخلها وهو لابس لبس

(1) فى « حسن المحاضرة » : ان توران شاه ملك مصر فى ذى القعدة سنة ٦٤٧ ، وقتل فى يوم الاثنين سابع عشر المحرم سنة ٦٤٨ .

ملك الافرنج : اشكرلاط مخمل أحمر بفرو سنجاب وقلنسوة ذهب . فزينت له القــاهرة ، وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ... بعد أن كان الافرنج أشرفوا على أخذ الديار المصرية ، واستولوا على غالب الضياع ، ونهبوا ما فيها ، وأسروا أهلها .

قيل لما ملك المسلمون مدينة دمياط أشار الأمراء على السلطان بهــدم مدينة دمياط ، فأرسل اليها الهدادين فهدموها عن آخرها ، ولم يبق منها سوى الجامع الكبير ووقع فيها الهدم فى يوم الاثنين ثامن شعبان سنة ثمان وأربعين وستمائة ، واستمرت من يومئذ خرابا وصار مكان بيوتها أخصاصا من القش على شاطىء بحــر النيل يسكن فيهــا جماعة من الصيادين ، وسموها المنشية ، واستمرت على ذلك الى دولة الملك الظاهــر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فأمر بتجديد عمارتها ، فأرسل اليها جماعة من البنائين والحجارين . وكان ابتداء عمارتها فى سنة خمسين وستمائة (١٢٥٢ م) ، فجدد بناء سورها ، وأمر بردم فم البحــر الذى تدخل منــه مراكب الافرنج فردموه من القرابيص التى كانت هناك من الهدم القديم ، فامتنعت المراكب الكبار من الدخول الى بحر النيل من يومئذ .

ثم ان الملك الظاهر أمر باعادة السلسلة الحديد التى كانت من البر الى البر ... قيــل ان هــذه السلسلة كانت فى أيام المقوقس عظيــم القبط ثم بطلت ، فأمر باعادتها كما كانت .

ومن هنا نرجع الى أخبــار ملك الافرنج ريدا فرنسيس ، فانه لما اعتقل بدار القاضى فخر الدين ابن لقمان كاتب السر التى كانت بأرض المنصورة ، وتولى عقابه الطواشى صبيح الفاطمى ، صار يضربه فى كل يوم خمسمائة عصا ، فاستمر على ذلك الى أن تولى الملك المعز أيبك التركمانى ، فأرسل اليه فرنسيس يقول له بأن يشترى نفسه منه بمائتى ألف دينار غير التقادم ... فأفرج الملك المعز عنــه وعن أخيــه وأقاربه ، وحلفوه أيمانا عظيمة بأنه ما بقى يتعدى على بلاد المسلمين ، ولا يفسد فى البحــر والبر . فلما حلف أذن له الملك المعز بالتوجه الى بلاده ، فسار واستمر فى بلاده وأرسل الى الملك المعز ما قرره له من الأموال .

وأقام على ذلك الى أن قتل الملك المعز أيبك وتولى من بعده ابنه الملك المنصور على ، فجاءت الأخبار من البــلاد بأن فرنسيس المذكور جمــع العساكر ، وصنع مراكب كثيرة ، وقصد العود الى أخذ مدينة دميــاط . فلما بلغ المنصور ذلك جمع الأمراء وضربوا مشورة ، فاقتضى الرأى أن يرسلوا اليه مطالعة من عند السلطان بالتهديد له والحط عليه ، فكتب اليه الصاحب جمال الدين بن مطروح مطالعة وضمنها هذه الأبيات :

قل للفرنسيس اذا جئتــه
مقال نصح من قئول فصيح
آجرك الله على ما جــرى
من قتل عباد لدين المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكهــا
تحسب أن الزمر بالطبل ريح
فساقك الحين الى عسكر
ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصــحابك أودعتهم
بسوء تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفا لا ترى منهم
الا قتيلا أو أسيرا جريح
وفقــك الله لأمثالهــما
لعل عيسى منكم يســتريح

ان كنت عولت على عودة
لأخذ ثأر أو لعقد صحيح
دار ابن لقمان على حالها
والقيد باق ، والطواشي صبيح

فلما وصلت هذه المطالعة الى فرنسيس وسمع هذه الأبيات ، رجع عن التوجه الى مصر ، وتذكر ما قد جرى عليه من الطواشي صبيح وما قاسى من ضربه له .

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك المعظم توران شاه ... قيل لما حصلت هذه النصرة لتوران شاه ظن أن الوقت قد صفا له فتحول من المنصورة الى فارسكور ، فنصب له هناك برجا من الخشب على شاطىء البحر ، ثم أحضر الأسارى من الافرنج وضرب أعناقهم بين يديه بالسيف ، ثم قذفهم فى البحر ، ثم شرع يقرب جماعة من حاشيته ممن حضر معه من حصن كيفا وصار يعطيهم الوظائف السنية ، وأبعد مماليك أبيه الملك الصالح ، وأرسل الى شجرة الدر زوجة أبيه يعدها بكل سوء ، فأرسلت شجرة الدر تقول للأمراء والمماليك البحرية اقتلوا توران شاه وعلى رضاكم بكل ما يمكن .

وكان توران شاه عنده خفة ووهج فى أموره ، فكان اذا سكر يصف الشموع فى الليل قدامه ، ويأخذ السيف بيده ، ويضرب به تلك الشموع ويقول : « هكذا أفعل بالمماليك البحرية ... » . وكان أحمق جاهلا ، لا يدرى ما يضره وما ينفعه كأنه خشبة ، وكان كما قال فيه القائل :

يا جامعا لخصال قبيحة ليس تحصى
نقصت عن كل فضل فقد تكاملت نقصا
لو أن للجهل شخصا لكنت للجهل شخصا

فلما بلغ مماليك أبيه ذلك أضمروا له السوء وقد تغيرت خواطرهم عليه .

فلما كان يوم الاثنين تاسع المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) جلس الملك المعظم توران شاه فى الموكب والأمراء بين يديه ، وكان قد أمر رءوس النواب أن يقفوا قدامه بعصى ، وهى ملبسة بالذهب فى أيام المواكب ، فلما مضى الموكب وحضر السماط جلس الملك المعظم على السماط كجارى العادة ، فتقدم اليه جماعة من المماليك البحرية وبأيديهم السيوف فضربوه على أصابعه فقطعوها ، فقام وهرب ودخل ذلك البرج الخشب وأغلق عليه باب البرج ، فأطلقوا فى البرج النار ، فخرج منه السلطان وألقى نفسه فى البحر وصار يسبح فيه والنشاب يأخذه من كل ناحية وهو يقول : « خذوا ملككم ودعونى أرجع الى حصن كيفا » ... فلم يغثه أحد وبقى على ذلك حتى قتل فى ذلك اليوم المقدم ذكره ، فمات حريقا قتيلا غريقا ، فطلعوا به من البحر فبقى مرميا على شاطىء البحر ثلاثة أيام لم يدفن ، ثم دفن فى بعض جروف البحر ولم يعلم له قبر .

ثم ان المماليك نهبوا جميع ما كان فى الوطاق من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، واستمر السماط فى ذلك اليوم ممدودا حتى تخطفته الكلاب ولم يع أحد له ، فكانت مدة سلطنة الملك المعظم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب نحو أربعين يوما ، ولم يدخل الى مصر ولا جلس على سرير الملك بقلعة الجبل ، ولا حكم بالقاهرة ، فكانت قتلته فى يوم الاثنين كما تقدم .

وهو آخر من تولى السلطنة بمصر من بنى أيوب ، وبه انقرضت دولة بنى أيوب ، وكانت مدة دولتهم — من حين تولى الملك الناصر صلاح الدين يوسف الى أن قتل الملك المعظم توران شاه — نحو ست وثمانين سنة الا أشهرا ، وزالت دولتهم كأنها لم تكن بمصر .

قيل لما قتل توران شاه رجعت الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وطلعوا الى قلعة الجبل ، فوقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة شجرة الدر عوضا عن توران شاه ، وأن يكون الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة معهـا ... فسلطنوها وتحالفـوا على ذلك ، وهذا لم يقع قط بالديار المصرية ، ولا سمع بأن امرأة قد تسلطنت بها .

شجرة الدر

هى شجرة الدر ، زوج الملك الصالح نجم الدين أيوب . وهى أم ولده خليل ، فكانت تاسع من تولى السلطنة بمصر من جماعة بنى أيوب ، وقع الاتفاق على سلطنتها ، فتسلطنت فى ثانى شهر صفر سنة ثمان وأربعـين وستمائة ، وقبل لها الأمراء الأرض من وراء حجاب .

فلما تم أمرها فى السلطنة فرقت الوظائف السنية على الأمراء ، وفرقت الاقطاعات الثقال على المماليك البحرية ، وأغـدقت عليهم بالأمـوال والخيول ، وأرضتهم بكل ما يمكن ، وساست الرعية فى أيامها أحسن سياسة ، وكانت الناس عنها راضية ، وكان الأمير عز الدين أيبك التركمانى مدبر المملكة ، وكان لا يتصرف فى الأمور الا بعد مشورتها فيما تريد ، وكانت تكتب على المراسـيم فى العـلامة بخطهـا « والدة خليل » .

فلما كان يوم الجمعة خطب باسم شجرة الدر على منابر مصر ، فكانت الخطباء تقول بعد الدعاء للخليفة : « واحفظ اللهم الجبهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، ذات الحجاب الجميل ، والستر الجليل ، والدة المرحـوم خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب » .

قال الشيخ شـمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى : « فلما بلغ الخليفة المستنصر بالله أبا جعفر وهو ببغداد ، أن أهل مصر قد سلطنوا امرأة أرسل يقول من بغداد لأمراء مصر : أعلمونا ان كان ما بقى عندكم فى مصر من الرجال من يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ؟ وأنكر عليهم بسبب ذلك غاية الانكار ، وهـددهم وأمرهم بالرجـوع عن ذلك ... » . وقد قال القائل :

النسـا ناقصـات عقـل ودين
ما رأينـا لهـن رأيا سـنيا
ولأجـل الكمـال لم يجعل الله
تعـالى من النسـاء نبيـا

فلما بلغ شـجرة الدر ذلك خـلعت نفسها من السلطنة برضاها من غـير كره لها ، فكانت مـدة سلطنتها بالديار المصرية نحو ثلاثة أشهر الا أياما . وكانت تدبر أمور المملكة بالديار المصرية فى حياة أستاذها الملك الصالح ، وكانت ذات عقل وحـزم ومعرفة تامة بأحوال المملكة ، فسلطنوها لحسـن تدبيرها للأمور ، وسياستها للرعية ، وجعلوا الأمير عز الدين أيبك التركمانى أتابك العساكر ومشاركها فى أحوال المملكة ، فكان لا يتصـرف فى شىء من الأمور الا برأيها ... فلما خلعت نفسها من السلطنة أشار القضاة والأمراء بأن يولوا الأمير عـز الدين أيبك التركمانى السلطنة ، وأن يتزوج بشجرة الدر فتزوج بها ، ثم تولى السلطنة بعد خـلع شـجرة الدر ، فكان أول من تولى من ملوك الترك .

دولة الأتراك

المعز أيبك التركمانى

كان أولهم المعز أيبك التركمانى الصالحى النجمى ، كان أصله من مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب فأعتقه ، ثم صار أميرا فى حياة أستاذه الملك الصالح ، ثم بقى أتابك العساكر بعد قتل الملك المعظم توران شاه ثم بعد خلع شجرة الدر .

تولى الملك بالديار المصرية فى يوم السبت تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين وستمائة (١٢٥٠ م) وركب بشعاره وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى ، وجلس على سرير الملك وجميع الأمراء قبلوا الأرض بين يديه ولقبوه بالملك المعز .

فلما تم أمره فى السلطنة تقلب عليه المماليك الصالحية ، وقالوا لابد لنا من واحد من ذرية بنى أيوب نسلطنه — وكان المتكلم يومئذ من الأمراء الأمير بلباى الرشيدى ، والأمير فارس الدين أقطاى ، والأمير بيبرس ركن الدين البند قدارى ، والأمير سنقر الرومى وغير ذلك جماعة من المماليك البحرية — فوقع الاتفاق بينهم وبين المعز أيبك بأن يحضروا بشخص من بنى أيوب ، يقال له مظفر الدين يوسف من أولاد الملك مسعود صاحب بلاد الشرق — وكان عند عماته ببلاد الشرق — فأرسلوا خلفه ، فلما حضر من البلاد سلطنوه ولقبوه بالملك الأشرف . وكان له من العمر نحو عشرين سنة ، فلما تسلطن يوسف المذكور لم نعزل أيبك التركمانى من السلطنة ، بل صار معه مثل الشريك ، وكان يخطب باسمهما على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة على الدنانير والدراهم باسمهما ، فلم يسع أيبك الاحتمال .

واستمر أيبك ويوسف المذكور شريكين فى السلطنة حتى قويت شوكة المعز أيبك ، وأنشأ له مماليك ، وأقام له عصبة ، فعزم رأيه على أن يقبض على الأمير فارس الدين اقطاى — وكان رأس المماليك الصالحية — فطلبه وقت الظهر ، فلما طلع الى القلعه آكمن له كمينا وراء قاعة الأعمدة وقرر معهم اذا مر بهم الأمير فارس الدين يقتلونه من غير معاودة . فلما مر بهم ووصل الى باب قاعة الأعمدة وثب عليه المماليك المعزية ، فأذاقوه كأس المنية .

فلما قتل الأمير فارس الدين أمر الملك المعز أيبك بغلق باب القلعة . فلما شاع بين الناس قتل الأمير فارس — وكان ذلك فى يوم الاثنين حادى عشرى شعبان سنة اثنتين وخمسين وستمائة — ركب سائر خشداشينه — وكانوا نحو سبعمائة انسان — فلما أن طلعوا الى الرميلة وأحاطوا بالقلعة ، رمى اليهم الملك المعز برأس الأمير فارس الدين اقطاى من فوق سور القلعة ، فلما تحقق خشداشينه قتله انفضوا خائبين ، وخرجوا على حمية ، نحو البلاد الشامية ، وهم الأمير بيبرس ركن الدين البندقدارى ، والأمير قلاون الألفى ، والأمير سنقر الأشقر ، والأمير بيسرى ، والأمير سكن ، والأمير برمق .

فلما قصدوا أن يخرجوا الى البلاد الشامية ، وجدوا أبواب القاهرة مغلقة ، فتوجهوا الى باب

القراطين ، فأحرقوه بالنار وخرجوا منه هاربين ، فسمى من ذلك اليوم باب القراطين . فلما بلغ المعز هروبهم أمر بالحوط على موجودهم . فلما خمدت تلك الفتنة ، وتشتت الأمراء الذين كان يخشى منهم المعز ، فعند ذلك قبض على الملك الأشرف يوسف الذى كان شريكه فى السلطنة وسجنه بالقلعة ، وانفرد بالسلطنة وحده .

سنة اربع وخمسين وستمائة (١٢٥٦ م) :

فيها أرسل الملك المعز أيبك يخطب بنت الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فلما بلغ ذلك شجرة الدر تغيرت على المعز أيبك وتغير هو أيضا عليها ، لأنها كانت تمن عليه فى كل وقت وتقول له : « لولا أنا ما وصلت أنت الى السلطنة » ... وكانت قد منعته من الاجتماع بزوجته أم ولده الأمير على ، حتى انها ألزمته بطلاقها منه بالثلاث .

وكانت شجرة الدر تركية الجنس ، صعبة الخلق ، شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة وحرمة وافرة ، سكرانة من خمرة العجب والتيه كما قيل فى المعنى :

كتب القتل والقتال علينا
وعلى الغانيات جر الذيول

فلما صار أيبك معها فى غاية الضنك حنق منها يوما ونزل الى مناظر اللوق وهو غضبان ، وكانت مناظر اللوق مكان الأزبكية الآن ، وكانت مطلة على بحر النيل . فلما نزل أيبك من القلعة أقام بمناظر اللوق أياما وهو غضبان ، فأرسلت اليه شجرة الدر وهى تتلطف به حتى سكن غضبه وقام وطلع الى القلعة فلاقته وقامت اليه وقبلت يده على غير عادة منها ، وكانت شجرة الدر قد أضمرت له السوء فندبت له خمسة من الخدام الخصى الروم وقالت لهم : اذا دخل الى الحمام فاقتلوه . فلما طلع الى القلعة اصطلح مع شجرة الدر وتراضيا ثم دخل الى الحمام ، فلما صار هو وشجرة الدر بها دخل عليه أولئك الخدام وبأيديهم السيوف ، فقام أيبك وقبل شجرة الدر واستغاث بها ، فقالت للخدام : « اتركوه » ... فأغلظ عليها بعض الخدام فى القول ، وقال لها : « ان تركناه حيا فلا يبقى عليك و لاعلينا » ... فقتلوه فى الحمام خنقا ، وقيل ربطوا محاشمه بوتر وجذبوه حتى مات . فلما مات حملوه وأخرجوه من الحمام وأشاعوا أنه قد أغمى عليه من الحمام فوضعوه على فراش الحمام ، وكان ذلك فى ليلة الأربعاء الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨ م) .

فلما أصبح الصباح أشاعوا قتله بين الناس ، فركب ابنه الأمير على والمماليك المعزية ، فلما طلعوا الى القلعة وتحققوا قتله شرعوا فى تجهيزه فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى القرافة . ثم قبض ابنه على شجرة الدر ، وسلمها الى أمه فأمرت جواريها أن يقتلنها بالقباقيب والنعال ، فضربنها بها حتى ماتت وفارقت الدنيا ... فكانت كما قيل فى الأمثال :

واقنع اذا حاربت بالسلامة
واحذر فعالا توجب الندامه
فالتاجر الكيس فى التجارة
من خاف فى متجره الخساره

فلما ماتت شجرة الدر سحبوها من رجلها ورموها من فوق السور الى خندق وهى عريانة ، فأقامت وهى مرمية فى الخندق ثلاثة أيام لم تدفن حتى قيل أن بعض الحرافيش نزل الى الخندق تحت الليل وقطع دكة لباسها لأنها كانت من حرير أحمر ، وفيها كرة من لؤلؤ ، ونافجة مسك ... فسبحان من يعز ويذل كما قيل فى المعنى :

لقد هزلت حتى بدا من هزالها
كلاها وحتى سامها كل مفلس

ثم بعد ثلاثة أيام حملت ودفنت بتربتها التى بطريق السيدة نفيسة بجوار بيت الخلفاء .

وكانت شجرة الدر أصلها من جوارى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، اشتراها فى أيام أبيه الملك الكامل محمد فحظيت عنده واستولد منها ابنه خليلا ثم أعتقها وتزوج بها . وكانت معه فى البلاد الشامية مدة طويلة لما كان مستوليا على الشام ، فلما قدم الى الديار المصرية وتسلطن ، عظمت شجرة الدر فى دولة أستاذها الملك الصالح ، وصارت تدبر أمور المملكة عند غياب الملك الصالح فى الغزوات .

وكانت ذات عقل وحزم ، كاتبة قارئة ، لها معرفة تامة بأحوال المملكة . وقد نالت من العز والرفعة ما لم تنله امرأة قبلها ولا بعدها . وقد أقامت فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وخطب بإسمها على منابر مصر وأعمالها ، ونفذت مراسيمها فى الآفاق بعلامتها ، وكانت علامتها على المراسيم « والدة خليل » . وكانت كثيرة البر والصدقات ، ولها أوقاف على جهات خير وصدقة . وكانت قتلها فى يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ست وخمسين وستمائة (١٢٥٨ م) .

وأما الخدام الذين قتلوا المعز أيبك التركمانى فهرب بعضهم الى بلاد الشرق ، وصلب بعضهم على باب القلعة وأقام أياما . وكان الملك أيبك التركمانى رجلا عاقلا حليما نظر فى مصالح الرعية فى أيامه . وكان كفؤا للسلطنة ودفع العدو ، وكان يحب الجهاد فى سبيل الله تعالى مع الافرنج . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية سبع سنين ، منها مدة انفراده بالسلطنة خمس سنين وثلاثة أشهر ، وكانت مدة الأشرف يوسف الذى هو من بنى أيوب الذى شارك أيبك فى السلطنة سنة وأشهرا .

وأيبك هذا هو أول ملوك الترك . ولما قتل تولى من بعده ابنه نور الدين على .

ومن الأبيات اللطيفة التى تتضمن أسماء ملوك الترك والجراكسة — دون أسماء أولادهم — ممن تولى السلطنة بالديار المصرية ، وهم على الترتيب من مبتدأ دولتهم الى الآن ، وهى هذه :

أيبك ، قطز ، يعقبا	بيبرس ذو الكمال
بعد قلاون بعد	كتبغا المفضال
لاچين ، بيبرس ، بر	قوق شيخ ذوالأفضال
ططر ، برسباى ، جقمق ذو العلا ، اينال	
وخشقدم عنه قل	بلباى ذو الأحوال
تمربغا ، قايتبا	ى الفحل ذو الاقبال
وقانصوه ، جنبلا	ط عنهما أقوالى
وبعدهم جاء طو	من باى بالاقبال
وقانصوه بعده	ذا مظهر الأهوال

الملك المنصور

هو الملك المنصور ، نور الدين على ، ابن الملك المعز أيبك التركمانى الصالحى ، وهو الثانى من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى السلطنة بعد قتل أبيه الملك المعز أيبك التركمانى يوم الخميس سادس عشرى ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) ، وكان له من العمر لما تولى السلطنة احدى عشرة سنة ، وكان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير علم الدين سنجر الحلبى ، وكان الوزير يومئذ شرف الدين ابن صاعد الفائزى ، وكان قد وزر لأبيه المعز

أيضا ، وكان اسمه هبة الله ، وكان أصله من أبناء القبط ، فأسلم فى دولة الملك الكامل محمد ، وما زال يرقى الى أن بقى وزيرا بالديار المصرية فى دولة الملك المعز أيبك التركمانى ، ثم وزر لابنه الملك المنصور على .

فلما تم أمر الملك المنصور على فى السلطنة ، استقر بالأمير سيف الدين قطز المعزى ، نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر . وكان قطز شديد البأس ، صعب الخلق ، فقبض على الوزير شرف الدين هبة الله ، وصادره وأخذ جميع أمواله ثم صلبه على باب القلعة ، وخلع على القاضى زين الدين يعقوب بن الزبير ، واستقر به وزيرا عوضا عن هبة الله .

ومن الحوادث فى أيام الملك المنصور على هذا أن فى سنة ست وخمسين وستمائة ، فى خامس جمادى الآخرة ، جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه قد ظهر فى التاريخ نار بوادى شطا شرقى المدينة ، وأنها يخرج منها شرر يأكل الحجارة . وقيل انه قبل ظهور هذه النار بخمسة أيام وقع بالمدينة زلزلة عظيمة ، وسمعوا أصواتا من السماء مزعجة . ولم تزل هذه النار مستمرة ليلا ونهارا نحو شهر ، فكان طول هذه النار أربعة فراسخ فى عرض أربعة أميال ، فصارت تأكل الحجارة حتى تصير مثل الفحم الأسود . قال الشيخ عماد الدين ابن كثير : « أخبرنى الشيخ صدر الدين على التميمى الحنفى ، قال : أخبرنى والدى الشيخ صفى الدين مدرس مدرسة البصرى أنه رأى وهو بالبصرة صفحات أعناق الابل فى الليل المظلم من ضوء تلك النار التى ظهرت بالمدينة » .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة ان أهل المدينة لما رأوا تلك النار قد زاد أمرها تضرعوا الى الله تعالى ، وتابوا من ذنوب كانوا يعملونها ، وتصدقوا بالأموال على الفقراء ، ولزموا الصوم والصلاة حتى كشف الله تعالى عنهم تلك النار بعد ما أقامت نحو شهر وهى تفور . وفى ذلك يقول القائل :

بحر من النار تجرى فوقه سفن
من الهضاب لها فى الأرض ارساء
منها تكاثف فى الجو الدخان الى
أن عادت الشمس منه وهى دهماء
يرمى لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء
فيالها آية من معجزات رسو
ل الله قد ظهرت والقوم أحياء

يشير الناظم الى ما رواه البخارى فى صحيحه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىء منها أعناق الابل ببصرى » رواه فى آخر كتاب الفتن فى باب خروج النار .

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى تاريخه : ان فى دولة الملك المنصور على بن أيبك هذا ، كان استيلاء هلاكو على مدينة بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخراب بغداد وقتل أهلها » .

ثم قصد التوجه الى حلب وأخذ البلاد الشامية ، فعدى من الفرات فى عسكر لايحصى عدده . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى من هلاكو ، وقد أرسل ابنه فى عسكر عظيم الى حلب ، وقد استولى على نائب ضياع حلب .

فلما تحقق الأتابكى قطز ذلك أمر بعقد مجلس وجمع سائر الأمراء والقضاة ومشايخ العلماء — وكان المشار اليه فى ذلك المجلس شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه ، وكان من آكابر علماء الشافعية ، وقد تلقب بسلطان العلماء —

فلما تكامل ذلك المجلس من الأمراء وأعيان الدولة والقضاة ومشايخ العلماء قام مدع فى ذلك المجلس وذكر هيئة سؤال فى أمر هلاكو واستيلائه على البلاد ووصوله الى حلب ، وأن بيت المال خال من الأموال ، وقد وصل العدو ، وطمع فى أخذ البلاد ، والسلطان صغير السن ، وضاعت مصالح الرعية ، وأن الوقت محتاج الى اقامة سلطان كبير تحشاه الناس ويدفع العدو ، وأن بيت المال محتاج الى المساعدة بشيء من أموال الرعيه لاقامة الجند وتجهيزهم للسفر وما يعينهم على ذلك . . فأجاب الشيخ عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه فى ذلك المجلس وقال : « اذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله ، وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأعيان البلد ما يستعين به على تجهيزه العسكر لدفع العدو ... لكن بشرط ألا يبقى فى بيت المال شيء من السلاح والسروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش وأسقاط السيوف الفضة وغير ذلك ، وان كلا من الجند يقتصر على فرسه ورمحه وسلاحه ، ويساوى فى ذلك بقية العامة وقت القتال وأما أخذ أموال التجار والرعية — مع وجود ما فى بيت المال من السلاح والقماش — فلا يجوز ، لأنه من باب آخذ أموال الرعية بغير حق » .

ثم ان الأمراء تكلموا مع القضاة فى اقامة سلطان كبير لدفع العدو ، فوقع الاختيار من الأمراء والقضاة على خلع الملك المنصور على ابن الملك المعز أيبك التركمانى ، وأن يسلطنوا الأتابكى قطز . فعند ذلك خلعوا الملك المنصور على من السلطنة وولوا الأتابكى قطز .

وكان الملك المنصور على طائش العقل ، يلعب بالحمام مع أولاد الغلمان ، وكانت أمه تدبر أحوال السلطنة . فلما خلعوه من السلطنة أرسلوه وهو مقيد الى ثغر دمياط وأرسلوا معه اخوته وأمه ، فاعتقلوه ببرج السلسلة بثغر دمياط ، فأقام فى البرج الى أن مات هناك ، ودفن بثغر دمياط بعد مدة طويلة وهو فى البرج ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنتين وثمانية أشهر ، وكانت أيامه كلها فتن وشرور .

ومن الحوادث فى أيامه أن فى سنة ست وخمسين وستمائة ، فى رابع شهر رمضان ، وقعت احدى المسلتين اللتين بأراضى المطرية . يزعم الناس أنهما مسلتا فرعون ، وكانتا اثنتين ، فلما وقعت احداهما وجدوا فى قلنسوتها نحو مائتى قنطار نحاس أصفر ، ووجدوا فى داخل تلك القلنسوة عشرة آلاف دينار كل دينار وزنه أوقية من الذهب الأكسير الجيد ، فحمل الى الخزائن الشريفة ... ذكر ذلك الشيخ شمس الدين محمد بن ابراهيم الجزرى فى تاريخه كما شرح هناك .

وأما من توفى فى أيام الملك المنصور على ابن الملك المعز أيبك التركمانى من الأعيان فهم : الشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، والشيخ القطب العارف بالله تعالى ، شيخ الطريقة والحقيقة الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، ودفن بصحراء عيذاب من أعالى الصعيد الأعلى . وتوفى الشيخ شعلة شيخ القراءات ، وتوفى الفاسى المغربى المالكى ، وتوفى الشيخ سعد الدين بن العربى صاحب النظم الرقيق ، وتوفى الصرصرى صاحب الديوان اللطيف ، وتوفى ابن الأبار المؤرخ ، وغير ذلك من أعيان العلماء وأعيان الناس .

ومن انشاء المعز أيبك المدرسة المعزية المطلة على بحر النيل عند رحبة الحناء عند مصر العتيقة .

الملك المظفر

هو الملك المظفر ، سيف الدين قطز المعزى ، وهو الثالث من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وكان أصله من مماليك المعز أيبك التركمانى ، ورقى فى دولة أستاذه الملك المعز ، ثم صار فى دولة ابن أستاذه الملك المنصور على أتابك العساكر . فلما خلع الملك المنصور على ، وقع الاختيار على سلطنة الأتابكى قطز المعزى ، فتسلطن فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وستمائة (١٢٥٩ م) .

فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة قبض على جماعة من خشداشينه من الأمراء والخدام وأرباب الدولة وغير ذلك من الأعيان وأرسلهم الى الحبوس بثغر دمياط والاسكندرية . فلما فعل ذلك استقامت أموره فى السلطنة ، وصفا له الوقت ، وأنشأ له عصبة من الأمراء ، فخلع على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، واستقر به أتابك العساكر ، وفوض اليه جميع أمور المملكة ، وانحصرت فيه الكلمة .

ثم جاءت الأخبار بأن جاليش عسكر هلاكو ملك التتار قد وصل الى أطراف دمشق ، ونهبوا البلاد وقتلوا العباد وأطلقوا فيهم الزناد ، وكان ذلك فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) . فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت وماجت بأهلها ، وقد بلغهم ما فعله هلاكو فى بغداد وقتله للخليفة المستعصم بالله ، وما جرى منهم فى حق أهل بغداد من القتل والنهب وخراب البلاد كما تقدم .

ثم ان أميرا من أمراء هلاكو الذين وصلوا الى دمشق يقال له كتبغا حضر الى الملك قطز ، وصحبته أربعة من التتار ومعهم كتاب من عند هلاكو ، وكان مضمونه : من ملك الملوك شرقا وغربا ، القان الأعظم ... ونعت فيه نفسه بألفاظ معظمة ، وذكر فى الكتاب شدة سطوته وكثرة عساكره وما جرى على أهل البلاد منه ولا سيما ما فعله فى بغداد وما جرى على أهلها منه ... وأرسل يقول : « يا أهل مصر أنتم قوم ضعاف ، فصونوا دماءكم منى ، ولا تقاتلونى أبدا فتندموا » .

وشرع يذكر فى كتابه أشياء كثيرة من هذه الألفاظ الفاحشة اليابسة ، فلما أن سمع الملك المظفر قطز مضمون ما فى كتاب هلاكو أحضر الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر هلاكو ، فقال الأمراء : نجمع العساكر من سائر البلاد ونخرج اليه ونقاتله أشد ما يكون من القتال .

ثم ان الملك المظفر قطز نادى فى القاهرة بأن النفير عام الى الغزو فى سبيل الله تعالى . ثم انه عرض العساكر ، وأرسل خلف عربان الشرقية والغربية ، فاجتمع من العساكر ما لا يحصى . ثم انه أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأخذ من أهل مصر والقاهرة على كل رأس من الناس من ذكر و أنثى دينارا واحدا ، وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف شهرا واحدا ، وأخذ من أغنياء الناس والتجار زكاة أموالهم معجلا ، وأخذ من الترك الأهلية الثلث من المال ، وأخذ على الغيطان والسواقى أجرة شهر ، وأحدث من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة ، فبلغ جملة ما جمعه من الأموال فى هذه الحركة ستمائة ألف دينار ، فأنفق على العسكر والعربان ، وبرز خيامه الى الريدانية .

فلما كان أواخر شهر شعبان سنة ثمان وخمسين وستمائة نزل السلطان الملك المظفر قطز من قلعة الجبل وهو فى موكب عظيم . فلما نزل بالريدانية ،

امر بتوسط كتبغافويزبك — أمير هلاكو — ومن كان معه من التتار ، ثم رحل من الريدانية ونزل بمنزلة الصالحية ، وأقام بها الى أن تكامل العسكر ، ثم رحل من الصالحية ، وجد فى السير الى أن وصل الى عين جالوت من أرض كنعان ، فتلاقى هناك عسكر هلاكو وعسكر السلطان قطز ، فكانت بينهما ساعة تشيب فيها النواصى ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عدده ، فكانت الكسرة على التتار ، فكسروهم وشتتوهم الى بيسان ، وكان ذلك فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان من السنة المذكورة .

ثم وقعت بينهما وقعة ثانية على بيسان أعظم من الأولى ، فقتل من التتار نحو النصف ، وغنم عسكر السلطان منهم غنيمة عظيمة من خيول وسلاح وغير ذلك .

فلما جرى ذلك توجه السلطان قطز الى نحو الشام ، فدخلها فى موكب عظيم ، وجلس للحكم ، فخلع على الأمير سنجر الحلبى واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير علاء الدين ابن صاحب الموصل واستقر به نائبا ، ثم انه أخذ فى أسباب استخلاص البلاد الشامية من أيدى أولاد بنى أيوب — وكان غالبها فى أيديهم — فمهد البلاد الشامية والحلبية وولى من يختار من عصبته من الأمراء .

ثم بعد ذلك قصد التوجه نحو الديار المصرية . فلما خرج من دمشق ووصل الى قريب من أرض الصالحية ، اتفق الأمراء على قتله فكان كما قيل فى الأمثال :

لا تغترر بالحفظ والسلامه
فانما الحياة كالمدامه
والعمر مثل الكأس والدهر القدر
والصفو لا بد له من الكدر

وكان المشار اليه فى ذلك الوقت من ا
الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . فلما
السلطان قطز الى القرين ، ركب السلط
الفضاء ، فرأى أرنبا فساق خلفه وساق معه ا
— وكان فيهم الأمير بيبرس البندقدارى —
ساق دنا منه الأمير بيبرس ليقبل يده —
السلطان قطز قد أنعم عليه بجارية مليحة من
التتر — فظن قطز أنه جاء يقبل يده بسبب ذ
فلما مد يده اليه قبض عليه وضربه بالسيف ، و
عليه بقية الأمراء بالسيوف فقتلوه وتركوه ميتا
على الأرض ، ثم ساقوا وهم شاهرون سـ
الى أن وصلوا الى الوطاق ، فجلس الأمير بـ
على مرتبة السلطان قطز ، وأخذ المملكة بالـ
فشق ذلك على جماعة من المماليك الأمراء لـ
السلطان قطز قتل من غير ذنب ، وكان خيار
الترك ، وله اليد البيضاء فى قيامه لدفع التتا
البلاد الشامية وقد أشرفوا على الدخول الى ا
المصرية .

وكان قتل الملك المظفر قطز فى اليوم الخـ
عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستـ
ودفن هناك فى مكان قتله بالقرين . وقيل نقل
ذلك ودفن فى مدرسته التى بالقرب من
الشيخ خلف . وكانت مدة سلطنته سنة الا أ
ثم تولى من بعده الأمير بيبرس البندقدارى

الملك الظاهر

هو الملك الظاهر ، ركن الدين بيبرس ، العلا
البندقدارى الصالحى النجمى . وهو الرابع
ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، تسـ
بعد قتل الملك المظفر قطز فى يوم السبت الخـ
عشر من ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستـ
وتلقب بالملك القاهر أبى الفتوحات .

فلما تلقب بالملك القاهر عز ذلك على جماعة من العلمـاء ، فقال الصـاحب زين الدين بن الزبير : « ما تلقب أحد بهذا اللقب فأفلح . ولقد تلقب به جماعة من الملوك فلم تطل أيامهم » . فلما سمع ذلك ترك ذلك اللقب وتلقب بالملك الظاهر بيبرس . وكان أصله تركى الجنس ، أخذ من بلاده وهو صغير فبيع لشخص يسمى العماد الضائع ، ثم بعده اشتراه منه الأمير علاء الدين ايدكين البنـدقدارى . فلما قبض عليه الملك الصالح نجم الدين أيوب واحتاط على موجوده ، أخذ بيبرس من جملة الموجود . ثم ان الملك الصـالح أعتقه وجعله من جملة المماليك البحرية .

وكان بيبرس هذا شجاعا بطلا ، أظهر فى يوم وقعة الافرنج التى كانت فى المنصورة فى أيام الملك المعظم توران شاه من الشجاعة ما لا يسمع بمثله ... فلا زالت الأقدار تساعده حتى بقى أتابك العساكر فى أول دولة الملك المظفر قطز . فلما قتل قطز بقى بيبرس سلطانا كما تقدم ، فلما جلس على مرتبة السلطان قطز قبـل له الأمراء الأرض وحلفوا ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يثبوا عليه ، وذلك الحلف على المصحف الشريف . ثم أحضر خلعة وخلع على الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب ، واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه .

فلما تم أمره فى السلطنة قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فدخل القاهرة فى الليل ، وطلع الى قلعة الجبل . فلمـا طلع النهـار نادى المنادى فى مصر والقاهرة : « ترحموا على الملك المظفر قطز ، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس البندقدارى » .

وكانت القـاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز ... فلما تحقق الناس قتـل الملك المظفر قطز ، حزنوا عليـه لأنه قتل من غير موجب ، وكانت له الراية البيضـاء فى قيامه لدفع العدو عن البلاد ، وكان التتار قد أشرفوا على الدخول الى مصر .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب بقلعة الجبل ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأتابكى فارس الدين أقطاى المستعرب واستمر أتابك العساكر كما تقدم ، وخلع على الأمير لاجين الدرفيـل واستقر به دوادارا كبير ، وخلع على الأمير بلباى الرشيدى واستقر به دوادار ثانيا ، وخلع على الأمير بهـاء الدين يعقوب الشهرزورى واستقر به أمير أخور كبيرا ، وخلع على الأمير أيبك الأفرم الصالحى واستقر به أمير جاندار .

وأنعم على الأمير بدر الدين اليسرى الشمسى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير سيف الدين قلاون بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بدر الدين بكتوت المعزى الجوكندار بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير عز الدين بيدغان — المعروف بسم الموت — بتقدمة ألف ، وأنعم على الأميربلبان الهارونى بتقدمة ألف .

وخلع على الأمير جمال الدين أقوش النجيبى واستقر به استادار العالية ، وخلع على الأمير ركن الدين اياجى ، والأمير سيف الدين بكجرى واستقر بهما حجابا ، ثم فصل الصاحب زين الدين بن الزبير من الوزارة ، واستقر بالصاحب بهاء الدين بن حنا وزيرا بالديار المصرية . والصاحب بهاء الدين بن حنا هذا هو الذى بنى مكان الآثار النبوية المطل على بحر النيـل ، واشترى الآثار الشريفة بجملة كبيرة من المال وأودعها فى ذلك المكان الذى أنشأه على بحر النيل ، وصـارت الناس يقصدون ذلك المكان بسبب الزيارة فى كل يوم أربعاء .

ثم ان الملك الظاهر بيبرس عمل الموكب ، وخلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيليك الخازندار ، واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه جميع أحوال

المملكة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تذكرته ان الأمير بيليك هذا كان أصله من مماليك الظاهر بيبرس ؛ اشتراه صغيرا ورباه من حين كان الملك الظاهر أمير عشرة ، واستمر فى خدمته الى أن بقى الملك الظاهر سلطانا فخلع على الأمير بيليك واستقر به نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ، وصار ينفذ الأمور من غير مشورة السلطان .

قيل ان التاجر الذى باع الأمير بيليك الى الملك الظاهر بيبرس كان فى سعة من المال والتجارة ، فدارت عليه الدوائر حتى افتقر وصار من جملة الحرافيش ، فلما دخل الى القاهرة قال له التجار ان مملوكك بيليك الذى بعته للملك الظاهر بيبرس قد صار عزيز مصر ، وأقبلت عليه الدنيا ، فلو أنك تدخل اليه وتذكر له حالك وما صرت اليه من الفقر فعسى ينعم عليك بشيء من الدنيا تستعين به على جور الزمان ... فكتب قصته ورفعها الى الأمير بيليك ، وكان من مضمون تلك القصة هذان البيتان :

قد صرت ، من بعد عز ، فى الهوان وقد
جار الزمان بضيق نلت منه أذى
والآن أقبلت الدنيا عليك كما
ترضي : فلا تنسني ... ان الكرام اذا

فلما قرأها الأمير بيليك قال : « من رفع هذه القصة ؟ » . فقيل له : « هذا التاجر الذى باعك للسلطان » ... فلما رآه قام اليه واعتنقه وأجلسه الى جانبه ، فشكا اليه التاجر ما قد جنى عليه الزمان بجوره ، فأنعم عليه الأمير بيليك بعشرة آلاف دينار وخلعة وفرس .

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الظاهر بيبرس .

فلما تم أمره فى السلطنة رسم باحضار المماليك البحرية الذين كانوا منفيين فى البلاد ، ثم أرسل عدة مكاتبات الى سائر من فى البلاد من النواب وأخبرهم بما قد جدد الله تعالى له من الملك ، وطلب منهم بذل الطاعة ، فأجابوه بالسمع والطاعة .

ثم ان الملك الظاهر لما ثبت فى السلطنة أراد أخذ خواطر الرعية بالأفعال المرضية ، ليمحو ما جناه من السيئات ، وتعود مكانها الحسنات ... فأبطل جميع ما كان أحدثه الملك المظفر قطز من أبواب المظالم عند خروجه الى تجريدة التتار ، وكتب به مساميح ، وقرئت على منابر مصر والقاهرة ، فطابت اليه نفوس الرعية ، وضجوا له بالأدعية السنية ، فطابت به مصر ورق الهواء ، ومشى الذئب والشاة سواء .

وفيه يقول بعض الشعراء من أبيات :

لم يبق للجور فى أيامكم أثر
الا الذى فى عيون الغيد من حور

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام سنجر الحلبى الذى كان الملك المظفر قطز ولاه نيابة الشام قد خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان ، وجمع أمراء دمشق وقبلوا له الأرض ، وركب فى دمشق بشعار السلطنة وتلقب بالملك المجاهد ، وكتب بذلك الى سائر أعمال البلاد الشامية ، وخطب باسمه على منابر دمشق وأعمالها .

وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبى هذا ، لما ثقل أمره على الناس فى دولة الملك المنصور على ابن أيبك التركمانى ، قبض عليه الملك المظفر قطز قبل أن يلى السلطنة وسجنه مدة فى الاسكندرية ، ثم أفرج عنه واستقربه نائب الشام . فلما قتل الملك المظفر قطز وتولى الملك الظاهر بيبرس ، كما تقدم ، أظهر الأمير سنجر العصيان وتسلطن بالشام . فلما بلغ الظاهر بيبرس ما وقع من الأمير سنجر كتب اليه كتابا يوبخه فيه بقبيح فعله ، وأمره بالرجوع

عن ذلك ، فعادت الأجوبة بالمخالفة وعدم الطاعة ، وقد وافقه على العصيان جماعة من النواب ، واضطربت أحوال البلاد الشامية والحلبية فى أوائل دولة الملك الظاهر بيبرس ... منها ما أفسده عسكر هلاكو من نهب البلاد وقتل العباد ، ومنها عصيان النواب وسلطنة سنجر . واضطربت أحوال الملك الظاهر فى أوائل دولته ، ووثب عليه المماليك المعزية ، فقبض على جماعة من الأمراء المعزية والمماليك ، وقتل منهم جماعة ، ونفى منهم جماعة ، حتى صفا له الوقت من الكدر وأمن الحذر .

سنة تسع وخمسين وستمائة (١٢٦١ م) :

فى يوم الاثنين تاسع عشر شهر رجب حضر من بغداد الى الديار المصرية شخص من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد . وهو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، ابن الخليفة المستنصر بالله العباسى الهاشمى . فلما بلغ الملك الظاهر قدومه خرج الى تلقيه . فلما وصل الى المطرية تلاقى هناك هو والامام أحمد العباسى ، وكان الامام أحمد هذا أسمر اللون ، وأمه أم ولد حبشية . فلما وقعت عين الملك الظاهر عليه نزل عن فرسه ، ونزل الامام أحمد عن فرسه ، واعتنقا ثم ركبا ومرا فى القاهرة ، ودخلا من باب النصر ، فزينت له القاهرة ، وكان له موكب عظيم ويوم مشهود لم يسمع بمثله . فلما وصلا الى القلعة طلع الامام أحمد مع السلطان الى القلعة ، فأنزله السلطان فى قاعة الأعمدة ، فأقام بها أياما .

ثم ان الملك الظاهر قصد أن يثبت نسبا للامام أحمد بأنه من ذرية بنى العباس ، فان الخلافة كانت شاغرة من حين قتل الخليفة المستعصم بالله فى سنة ست وخمسين وستمائة ، وكان قدوم الامام أحمد الى الديار المصرية فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، فكانت مدة شغور الخلافة نحو أربع سنين الا أشهرا .

فأمر الملك الظاهر بعقد مجلس فى قاعة الأعمدة ، وجمع القضاة ومشايخ العلماء ومشايخ الصوفية وأعيان مشايخ الأولياء وسائر الأمراء وأرباب الدولة ، وكان فى صدر المجلس المشار اليه الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الاسلام رضى الله عنه .

فلما تكامل المجلس ، تأدب الملك الظاهر مع الامام أحمد ، وجلس بين يديه بغير مرتبة . ثم ان السلطان أمر باحضار العربان الذين حضروا صحبة الامام أحمد من بغداد — وكان فيهم طواشى من بغداد — فشهدوا كلهم بين يدى قاضى القضاة تاج الدين الشافعى ابن بنت الأعز بأن الامام أحمد هذا هو ابن الخليفة الظاهر بأمر الله ، ابن الخليفة الناصر لدين الله ، المتصل النسب الى العباس رضى الله عنه ... فثبت ذلك على يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وسجله على نفسه وحكم بصحة ذلك .

فلما ثبت نسب الامام أحمد بايعه القضاة بالخلافة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة ، وفوض اليه أمر البلاد الاسلامية وما يضاف اليها وما سيفتح عليه من البلاد الكفرية .

فلما كان يوم الجمعة أمر السلطان الامام أحمد بأن يخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء بالجامع ، فخطب الامام أحمد خطبة بليغة ، وأثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذى رد الخلافة لبنى العباس .

فلما كان يوم الاثنين رابع شهر شعبان من السنة المذكورة خرج الملك الظاهر الى نحو أرض المطرية ، وضرب هناك خيمة كبيرة ، وجلس على كرسى والأمراء بين يديه . ثم ان القاضى فخر الدين بن

لقمان كاتب السر الشريف نصب له هنـاك منبرا وصـعد عليه ، وقرأ على الأمراء تقليـد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر . فلما فرغ من قراءته أحضروا للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة ، وهى جبة سوداء بطوق ذهب ، وعمامة سـوداء بعذبة ذهب ، وسيف بداوى متقلد به حمائلى . فلما لبس خلعة السلطنة ركب فرسا برز بسرج ذهب وكبنوس ، ودخل القاهرة من باب النصر ، ومر بالمدينة وقد زينت له ، وهو لابس شعار السلطنة كما تقدم ، والأمراء جميعهم مشاة بين يديه ، والصاحب بهاء الدين بن حنا حامل التقليد على رأسه حتى طلع الى القلعة . وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله .

ثم ان السلطان كتب الى سائر أعمال مملكته بأخذ البيعة الصحيحة من الخليفة المستنصر بالله أحمد ، وهو أول خليفة بايع الملوك الترك بمصر .

ثم ان السلطان أخـذ فى أسباب تجهيز الامام أحمد وعوده الى بغداد ، فأقام له برك عظيم ، وعين معه عسكرا ، فكان جملة ما أنفقه الملك الظاهر على تجهيز الامام أحمد من المال مائة ألف دينار وستين ألف دينار .

فلما انتهى شغل الامام أحمد ، ودع السلطان ونزل من القلعة ، فنزل السلطان معه الى المطرية وسائر الأمراء ، فودع السلطان الامام أحمد وعاد الى القلعة ، وسار الامام أحمد بمن معه من العساكر السلطانية . فلما وصل الى الفرات بلغ قرابغا أمير التتار الذى استخلفه هلاكو على بغداد مجىء الامام ومعه عساكر السلطان ، فخرج اليه قرابغا فى عسكر ثقيـل من التتار ، فتلاقى العسكران على مكان يسمى الأنبار ، فحمل عسكر السلطان على التتار فكسروهم كسرة قوية ، وهرب التتار ... فلما دخل الليل هجم التتار على عسكر السلطان فأحاطوا بهم فما نجـا منهم الا من طال عمره ، ونهبوا ما كان معهم من سلاح وخيول ومال .

وأما الامام أحمد فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر . فمن الناس من يقول انه قتل تحت الليل وقت الكبسة ، ومن الناس من يقول انه نجا بنفسه وهو مجروح مع طائفة من العرب فأقام عندهم أياما ومات ... والله أعلم . وكانت هذه الواقعة فى أواخر سنة تسع وخمسين وستمائة .

فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى للامام أحمد ، تأسف الملك الظاهر بيبرس على ذلك غاية الأسف ، وراح ما صنعه فى البارد ، فكان كما قال الشاعر فى المعنى وأجاد :

أنفقت كنـز مدائحى فى ثغره ... وجمعت فيه كل معنى شـارد
وطلبت منه جـزاء ذلك قبلة ... فأبى ، وراح تغزلى فى البارد

سنة ستين وستمائة (١٢٦٢ م) :

فيها جاءت الأخبـار بأن شخصا من ذرية بنى العباس يقال له الامام أحمد أيضا قد وصل الى الديار المصرية ، فلما بلغ ذلك الملك الظاهر بيبرس خرج الى تلقيه ، فلاقاه من الريدانية ، وصعد به الى القلعة وأنزله بالبرج الكبير الذى بالقلعة . وكان هذا الامام أحمد الثانى مستخفيا عند جماعة من العرب فى قرية من أعمال بغداد ، فسبقه الامام أحمد ابن الخليفة الظاهر الى مصر . فلما قتل الامام أحمد حضر الى مصر ، فعقد له الملك الظاهر مجلسا ثانيا ، وجمع فيه القضاة ، وفعل به كما فعل أولا . وكان قد حضر معه الأمير عيسى بن مهنا وجماعة كثيرة من العربان ، فشهدوا بين يدى قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز بأن هذا الامام أحمد هو ابن على ، بن أبى بكر ، ابن الخليفة المسترشد ، ابن الخليفة المستظهر ، ابن الخليفة المقتدى ، ابن محمد

الذخيرة العباسى الهاشمى ... فثبت ذلك على يد قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، وحكم بصحة ذلك .

ثم ان القضاة بايعوا الامام أحمد بالخلافة ولقبوه بالحاكم بأمر الله ، وثبت نسبه ، وتولى فى ذلك المجلس الخلافة .

ثم ان الامام أحمد بايع الملك الظاهر بالسلطنة ثانيا ، وبايع أعيان الدولة على قدر طبقاتهم ، ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها ، وينقش على الدنانير والدراهم اسماهما ، وأن يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه .

ثم انه أسكن الامام أحمد فى مناظر الكبش التى أنشأها الأمير أحمد بن طولون ، وكانت منـاظر الكبش مطلة على بحر النيل . ورتب له ما يكفيه فى كل يوم هو وعياله ، وأمره بأن يصعد الى القلعة فى أول كل شهر ويهنى السلطان بالشهر ... فهو أول خلفاء بنى العباس بمصر ، وهو جد الخلفاء الذين تولوا الخلافة بمصر ، فهذا كان سبب نقل الخلافة من بغداد الى مصر على يد الملك الظاهر بيبرس ، وهذا من جملة فضائله .

وقد ورد فى بعض الأخبار أن الخلافة لا تزال فى بنى العباس حتى ينزل عيسى بن مريم عليـه السلام فتنقطع بعد ذلك . قال بعض الشعراء فى حق الملك الظاهر بيبرس :

يا أسـد الترك ، ويا ركنهم
ويا آخذ الثأر بعـد المخافه

كسرت الطغاة ، جبرت العفاة
قطعت الفرات ، وصلت الخلافه

ثم ان الملك الظاهر — لما استقرت الخلافة بمصر — جعل لكل مذهب من المذاهب قاضيا كبيرا وتحت يده نواب ، وكان قبـل ذلك فى الدول المتقدمة قاض فرد كبير شافعى . وكان يولى من تحت يده نوابا من المذاهب الثلاثة . وآخر من كان يفعل ذلك قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعى ، فأبطل ذلك الملك الظاهر بيبرس ، وقرر لكل مذهب قاضيا كبيرا ويولى من تحت يده نوابا ، فهو أول من قرر القضاة أربعة ، وجعل لمصر نوابا وحدها ، وللقاهرة نوابا وحدها ، وكان ذلك فى أواخر سنة ستين وستمائة .

سنة احدى وستين وستمائة (١٢٦٣) :

فيها رتب السلطان لعب القبق . وفيها وقع الغلاء بمصر ، وشح النيـل حتى عدمت الأقوات ، فأمر السلطان بجمع الحرافيش كلهم — وكانوا نحو ألفى حرفوش — ففرقهم على الأمراء ، وأخذ لنفسه منهم جانبا ، وأضاف لولده الملك السعيد منهم جانبا ، وأضاف الى الأمير بيليك نائب السلطنة منهم جانبا ، ورسم لكل واحـد منهم فى كل يوم برطل خبز ونصف رطل لحم ، وأمرهم ألا يسألوا بعد ذلك أحدا من الناس .

وفيها كانت وفاة الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصارى الحموى شيخ الشيوخ بحماة ، وكان مولده فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ووفاته سنة احدى وستين وستمائة ، فكانت مدة حياته خمسا وسبعين سنة . وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله فى الغزل :

سبحان مورثه من حسن يوسـف ما
لم يبق فى الحجر لى والصبر من حصص

أقام للشـعراء العـذر عارضه
فكم لهـم فى دبيب النمل من قصص

سنة اثنتين وستين وستمائة (١٢٦٤) :

وفيها حضر الى الملك الظاهر بيبرس جماعة من

ملوك الشرق يهنئونه بالسلطنة ، فمنهم الملك الصالح اسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وأخوه الملك المجاهد سيف الدين اسحق صاحب الجزيرة ، وأخوه الملك المظفر ... فلما قدموا على الملك الظاهر أكرمهم وأقرهم على ما بأيديهم من الممالك التى فى الشرق .

وفيها ختن السلطان ولده الملك السعيد محمدا ، ورسم للأمراء والجند وبقية الرعية أن كل من كان له ولد فليطلع به الى القلعة حتى يختتن مع ابن السلطان ... فأحضر الناس أولادهم فبلغ عددهم نحو ألف وستمائة وخمسة وأربعين ولدا ، خارجا عن أولاد الأمراء والأعيان ، فرسم لكل واحد منهم بكسوة على قدر مقام أبيه . وأما أولاد الحرافيش فرسم لكل واحد منهم بكسوة ، ومائة درهم ، ورأس غنم ، واستمر المهم عمالا فى القلعة سبعة أيام .

سنة اربع وستين وستمائة (١٢٦٦ م) :

فيها سافر السلطان الى الشام ، وتوجه من هناك الى صفد فافتتحها ، وعمر بها البرج الكبير ، ورجع الى الديار المصرية .

وفيها أخرج السلطان تجريدة الى مدينة سيس . وكان باش العساكر الأمير عز الدين بيدغان المعروف بسم الموت ، والأمير قلاون الألفى ، وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ... فخرجوا من القاهرة فى موكب عظيم وتوجهوا الى نحو بلاد الشمال . فلما وصلوا الى مدينة سيس وحاصروها أعلن أهلها بالأمان ، ثم توجهوا الى قلعة اياس ففتحوا عدة قلاع كانت بيد الأرمن ، ثم رجع الأمراء الى الديار المصرية وهم فى غاية النصر بهذه الفتوحات العظيمة التى فتحت على أيديهم . وقد هنأ بهذه الأبيات بعض الشعراء الأمير بيدغان عند عوده :

بقيت مدى الدنيا جمالا لدولة
لها منك سهم فى اللقا ورسيس
تسوق لها عز الفتوح جنائبا
وأول هاتيك الجنائب سيس

سنة خمس وستين وستمائة (١٢٦٧ م) :

فيها أبطل السلطان ضمان الحشيشة ، وأمر باحراقها ، وأخرب بيوت المسكرات وكسر ما فيها من الخمور وأراقها ، ومنع الخانات من الخواطى ... وعم هذا الأمر سائر الجهات المصرية ، وبرزت المراسيم الشريفة بمنع ذلك من سائر الجهات الشامية ، فطهرت فى أيامه سائر البقاع ، ومنع الناس من ذلك غاية الامتناع .

ثم أحضروا اليه فى أثناء هذه الواقعة شخصا يسمى ابن الكازرونى ، وهو سكران ، فأمر بصلبه فصلب بعد حد عظيم فى مستحقه ، وعلقت الجرة والقدح فى عنقه . فلما عاين أرباب المجون والخلاعة ما جرى لابن الكازرونى امتثلوا أمر السلطان بالسمع والطاعة ، وقد قال القائل :

لقد كان حد السكر من قبل صلبه
خفيف الأذى اذ كان فى شرعنا جلدا
فلما بدا المصلوب قلت لصاحبى :
ألا تب ، فان الحد قد جاوز الحدا

قال الشيخ شمس الدين بن دانيال ، صاحب كتاب طيف الخيال : « لما قدمت من الموصل الى الديار المصرية ، فى الدولة الظاهرية ، سقى الله من سحب الأنعام عهدها ، وأعذب مشارب وردها ، فوجدت مواطن الأنس دارسة ، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسة ، ومن لذة العيش آيسة . وهزم أمر السلطان ، جيش الشيطان . وتولى الخوان والى القاهرة اهراق الخمور ، واحراق الحشيش وتبديد المزور ... وشاعت بذلك الأخبار ، ووقع الانكار ، واختفى المسطول فى الدار ، وقد آذى الخلاعة غاية الأذية ، وصلب ابن الكازرونى وفى رقبته نباذية ... فدعانى بعض

أصدقائي الى محله ، وأنزلني من عياله وأهله .
واعتذر اليّ عن تقصيره في الاكرام ، اذ لم يأتني بمدام . وقال قد غلب على ظني أن أبا مرة [1] قد مات ، وعد من الرفات ... فقم بنا نبكيه ، ونصف الحالة ونرثيه . فابتدأت وقلت ، في معنى هذه الواقعة التي وقعت :

مات ياقوم شيخنا ابليس
وخلا منه ربعه المألوس
ولعاني حدسي به اذ توفي
ولعمري مماته محدوس
هو لو لم يكن كما قلت ميتا
لم يغير لأمره ناموس
أين عيناه تنظر الخمر ، اذ عط
ل منها الراووق والمحريس ؟
ومواعينها تكسرن ، والخم
ار من بعد كسرها محبوس

* * *

أين عيناه تنظر المزر قد أو
حش منه الماجور والقادوس ؟
وعجين البقول قد بددوه
وهو بالترب خلطه مبسوس
والقناني مكسرات كما قد
كسرت في دجى الليالي الكئوس
وذوو القصف ذاهلون ، وقد كا
دت على سيلها تسيل النفوس
وفتى قائل : لقد هان عندي
بعد هذا في شربها التجريس
كم خليع يقول : ذا اليوم يوم
— مثل ماقيل—قمطرير عبوس !
ارحلوا هذه بلاد عفاف
وسعود الخلاع فيها نحوس

(1) ابو مرة : كنية لابليس .

من لنا بعد ذلك الشيخ الف
وسمير ومؤنس وأنيس
لا ترى بعده فتى ضاحك السـ
ـن وكل يبدو له تعبيس
فسأبكيه أرمد العين حتى
لشفائي يعيش جالينوس

قال ابراهيم المعمار : لما وقفت على قصيدة الشيخ شمس الدين بن دانيال قلت : لو أني أدركت ذلك الزمان لرثيت الخلاعة والمجون ، بهذا الزجل المصون :

منعونا ماء العنب ياسين
رب سلم لم يمنعونا التين
هات قل لي اذا منعنا الراح
وحرمنا من الوجوه الصباح
بيش نبقى نستجلب الأفراح
والخليع كيف تراه يعيش مسكين

* * *

على ماء ذا العنب بكي الراووق
والشمع صار بعبرتو مخنوق
والوتر بات من الغروب للشروق
من أنينه تسمع له في الليل حنين

* * *

ولقد هان حضرة المحضر
وتلون ذا الزهر وتغير
وبغيظه ريحاننا اتنصر
وعلى وجهه صلب اليسمين

* * *

والندامى جميعهم في شتات
حزنوا كأن مات لهم أموات
هذا قاعد يبكي على ما فات
وذا ينسدب وذا الآخر حزين

* * *

ولى صاحب زمان معى كان طبيب
جانى وقال لى مشتاق أنا يا أديب
لجـريره لـو انهـا من زبيب
أرى قلبى يرتاح لهـذا الحـين

* * *

فقصدنا « المنية » الى « شبرا »
ما لقينا رحنـا « طنـان » لخرا
وفى « قليوب » قالوا ولا نظـرا
درنا من « مرصفا » الى « شبين »

* * *

وصـعدنا قبـلى ذا البلدان
ونبشنا « طموه » « لدير شعران »
ما أمر الطـريق الى « حـلوان »
أخرب الله « طره » على « التبّين »

* * *

قد تعبنـا ممـا نجـد السـير
ولا أصـبنا فى ذا السفر من خير
جئنا عنـد المسـا لواحـد ديـر
فوقفنا نزعق للشـيخ أبو مرتين

* * *

ونقـول له : يا أبونا قد جئنـاك
عسى جـره بحيـاة رهابينـاك
ويميتـك ربى على دينـاك
وانا ندرى انـه أحسـن ديـن

* * *

لانا نضـحك عليـه وتهـزر
حـتى لا يكبـح ويتخنـزر
ووهبنـاه مـن بيننـا منـزر
ووقفنـا نخاطبـه باللـين

* * *

فدخـل غاب زمان ونحن وقوف
واتتو تدروا ايش وقفـة الملهوف
وانا ندعو ذاك الدعا الموصـوف
الله يفتح وأخـى يقـول آمـين

بعـد سـاعة الا وهـو قـد رد
جا يقـول : بالله رآكـم حـد ؟
ونصيب من وراه شـيخ يرعـد
ومعـه جـرة اذ يصيح يا أسـين

* * *

كـم ندور فمـا لقيت عنـدى
الا هـذه وأظنهـا دردى
قمـت متمـدد من الفـرح يدى
ونصيـح لـه من الظمـا أروين

* * *

آخـذت نسكب منهـا قنينـه
جبتهـا كالمسـك رقتينـه
سـودا مـلانه للطينـه
قلت معمـار دى نحسـه للطـين

* * *

فرجعنـا ايش رجعـة المكسـور
قلت كيف العمـل فقـال ندور
فى المقيـلات ونقتنـع بالمـزور
ولا نرجع من ذا السـفر متخيبين

* * *

حين قطعنـا الاياس من الخمـار
جئنـا نسـعى له أشـن المـزار
قال نشرب ما عجـين فقلت فشار
فما ذا الكعك أصل من ذا العجين

* * *

وأنا مالى عنـه سوى ابن الكروم
والشـراب المعتـق المعـلوم
نتبعـه لو يصـير بأقصى الـروم
ولـو انا ندخـل لقسـطنطين

* * *

ولا نهـوى الا الشراب القـديم
ومعشوق جـديد يكون لى نديم

تنفق المـال على ايش يسمى عديم
وأنا ممكن في غـــاية التمكين

***

أرخـوا بالله توبـة المعمـار
واكتبـوها بالتبر طـول أعمـار
قولوا من هجـرة النبى المختـار
سـبعمائة سـنة خمس وأربعـين

***

انتهى ما أوردناه مما قالت الشـعراء في هذه الواقعة ، ومن هنا نرجع الى أخبار التاريخ .

سنة ست وستين وستمائة (١٢٦٨ م) :

فيها توجه السلطان نحو الشام ، وحاصر مدينة انطاكية ، ففتحها في يوم الجمعة ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة . ثم توجه الى بغراس ففتحها ورجع الى الديار المصرية وهـو في غاية النصرة وزينت له القاهرة .

سنة سبع وستين وستمائة (١٢٦٩ م) :

فيها حج السلطان الى بيت الله الحرام ، فخرج من القاهرة في ثالث شوال ، وتوجه الى غـزة ، فأخذ الاقامات التى كان عباها له نائب الشام ، ثم توجه من غزة الى الكرك ، ثم توجه من الكرك الى المـدينة الشريفة ، فزار قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم توجه من هنـاك الى مكة فدخلها في خامس ذى الحجة . وكان في تلك السنة الوقفـة يوم الجمعة ، وكان ولد السلطان السعيد محمد توجه صحبة المحمل بالحاج المصرى ، فلمـا قضى حجه رجع الى الشام ورجع ابنـه الملك السعيد صحبة المحمل مع الركب المصرى .

سنة ثمان وستين وستمائة (١٢٧٠ م) :

فيها رجع السلطان الى القاهرة وأقام بها الى شهر شـعبان ، ثم توجه الى زيارة بيت المقدس والخليل عليه السلام ، فزارهما ورجع الى الديار المصرية .

سنة تسع وستين وستمائة (١٢٧٠ م) :

فيها أرسل صـاحب طرابلس تقـدمة عظيمة للسلطان ، وأظهر الطاعة ، فقبلها السلطان وأقره على ما كان بيده من البلاد .

وفى هذه السـنة رتب السلطان خيل البريد ، بسبب سرعة أخبار البلاد الشامية ، فكانت أخبار البلاد الشامية ترد عليه في الجمعة مرتين . وقيل انه أنفق على ذلك جمـلة مال حتى تم له ترتيب ذلك ، وكان خيـل البريد عبـارة عن مراكز بين القاهرة ودمشق ، وفيها عدة خيول جيدة ، وعندها رجال يعرفون بالسواقين ، ولايقدر أحد يركب من خيل البريد الا بمرسـوم سلطانى . وكان عند كل مركز ما يحتاج اليه المسافرون من زاد وعلف وغير ذلك ... وهذا كله لأجل سرعة مجىء أخبار البلاد الشامية وغيرها من البلاد . وقيل ان الملك الظاهر بيبرس هذا كان يعمل موكبا بمصر وموكبا بالشام ، وكانت خيل البريد مرصودة بسبب ذلك ، حتى لقد قال القائل في المعنى :

يوما بمصر ، ويوما بالشآم ، ويو
ما بالفرات ، ويوما في قرى حلب

واستمر هذا الأمر باقيـا بعد الملك الظاهـر بيبرس مدة طويلة ، ثم تلاشى أمره قليلا قليلا حتى بطل في دولة الملك الناصر فرج بن برقوق عندما قدم تيمورلنك الى الشام وأخرب البلاد الشامية ، وذلك في سنة ثلاث وثمانمائة ... فعند ذلك بطل أمر خيل البريد مع جمـلة ما بطل من شعائر مملـكة الديار المصرية .

سنة سبعين وستمائة (١٢٧١ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن التتار قد تحركوا على البلاد ، ووصلوا الى الفـرات ، وملكوا البيرة ،

فخرج اليهم السلطان ومعه سائر الأمراء . وكان جاليش العسكر الأمير قلاون الألفى والأمير بيسرى ... فتلاقوا مع التتار على الفرات ، فكان بينهم وقعة عظيمة ، فقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وأسر منهم جماعة كثيرة . فلما دخل السلطان الى البيرة خلع على نائبها وأقره على حاله ، وفرق جملة من المال على من بها من الرعية لأنهم قاتلوا التتار قتال الموت حتى كسروهم كسرة قوية ، فأقام السلطان فى البيرة أياما ثم رجع الى الشام ، فأقام بها شهرا ثم توجه الى الديار المصرية فدخلها فى موكب عظيم ، وزينت له وحملت القبة والطير على رأسه .

سنة احدى وسبعين وستمائة (١٢٧٢ م) :

فيها هجم الوباء على الديار المصرية ، ومات فى تلك السنة مالا يحصى من الخلائق من نساء ورجال وأطفال وعبيد وجوار ، وأقام نحو ستة أشهر .

سنة اثنين وسبعين وستمائة (١٢٧٣ م) :

فيها كان النيل شحيحا ، ووقع الغلاء وقلت الغلال فى سائر أعمال الديار المصرية .

وفى هذه السنة توفى الشيخ عبد العظيم ابن الجزار الشاعر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، وكان مولده فى سنة احدى وستمائة ، ووفاته فى سنة اثنين وسبعين وستمائة ، فكانت مدة حياته احدى وسبعين سنة . وعاصر الشيخ أثير الدين أبا حيان المغربى ، والشيخ قطب الدين القسطلانى ، وغيرهما من العلماء .

ومن شعره الرقيق قوله فى نفسه :

من منصفى من معشر
كثروا على وأكثروا
صادقتهم ، وأرى الخرو
ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل فى السطو
ر ومحوه يتعذر
واذا أردت كشطته
لكن ذاك يؤثر

سنة ثلاث وسبعين وستمائة (١٢٧٤ م) :

فيها زوج السلطان ولده الملك السعيد محمد بينت الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، وكان له مهم عظيم أقام سبعة أيام بالقلعة ، وكان يظن أنه اذا زوج ابنه بينت الأمير قلاون الألفى يكون له من بعده عونا على تقلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ، فسطا الزمان عليه وأخذه من الجانب الذى يركن اليه .

سنة اربع وسبعين وستمائة (١٢٧٥ م) :

فيها جرد السلطان الى نحو بلاد النوبة . وسبب ذلك أن ملك النوبة دخل مدينة أسوان ونهب ما فيها وأحرقها . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى استادار العالية ، والأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار ، وجماعة من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية ... فلما وصلوا الى النوبة تقاتلوا مع ملك النوبة على أسوان ، فانكسر ملك النوبة وهرب ، وقتل من عسكره جماعة كثيرة ، وأمسك أخوه وأولاده وأقاربه ، وغنم منهم عسكر السلطان غنائم كثيرة من جوار وعبيد وخيول وغير ذلك .

سنة خمس وسبعين وستمائة (١٢٧٦ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن التتار زحفوا على البلاد ، فخرج اليهم السلطان وتوجه الى حلب وتقاتل مع التتار فكسرهم وقتل منهم خلائق لا تحصى . وكان ملك التتار يقال له ابغا . فلما انكسر ملك التتار

هرب فتبعه السلطان الى نحو الابلستين ، فكانت بينهما هناك وقعة عظيمة قتل من الفريقين نحو مائة ألف انسان ، فانكسر ابغا ملك التتار وهرب فتبعه السلطان الى نحو زبيد ، ثم رجع من هناك السلطان الى قيسارية وحاصر أهلها ، فأرسلوا يطلبون من السلطان الأمان ، فأرسل لهم الأمان على يد الأمير بيسرى ، فسلموا المدينة فدخلها السلطان . وكان يوم دخوله الى المدينة يوما مشهودا ، فنزل بدار السلطنة وصلى بها ركعتين ، وحكم بين الناس ، وأقام بها أياما ثم رحل وتوجه الى دمشق .

سنة ست وسبعين وستمائة (١٢٧٧ م) :

فيها دخل السلطان الى حلب ، فتوعك جسده وأخذته الحمى وسلسل فى المرض ، فأسقاه الحكماء دواء مسهلا ، فأفرط فى الاسهال وثقل فى المرض ، فرحل من حلب وقصد الدخول الى دمشق ، فمات فى بعض ضياع دمشق . فلما مات كتم موته عن العسكر ، وحمل فى محفة الى أن دخل دمشق فدفن هناك ليلا . وكان موته فى يوم الخميس ثامن عشرى شهر الله المحرم سنة ست وسبعين وستمائة . ومات وله من العمر نحو ستين سنة .

وكان ملكا عظيما جليلا مهيبا ، كثير الغزوات ، خفيف الركاب ، يحب السفر والحركة فى الشتاء والصيف . وكان مشهورا بالفروسية فى الحرب ، وله اقدام وعزم وقت القتال ، وله ثبات عند التقاء الجيوش فى الحرب . وكان يلقب بأبى الفتوحات لكثرة الفتوحات فى أيامه . وكان له موكب بمصر وموكب بالشام كما تقدم ذلك عند خيل البريد . وكان رنكه سبع ... اشارة لشجاعته وقوة بأسه . وكان كريما سخيا على الرعية ، باسط اليد ، يفرق الغنائم التى تحصل من الفتوحات على الرعية حتى يرغبهم فى القتال وقت الحرب . وكان محبا لجمع الأموال ، كثير المصادرات للرعية لأجل الغزوات والتجاريد ، وينفق ذلك على العسكر . وكان مهيب الشكل ، حسن الوجه ، طويل القامة ، مستدير اللحية ، الغالب فى لحيته البياض . وكان مبجلا فى موكبه ، كفؤا للسلطنة ، منقادا للشريعة ، يحب العلماء والصالحين ، ويحب فعل الخير ، وله بر ومعروف وآثار ، ولا سيما رده الخلافة لبنى العباس بعدما كادت أن تنقطع عنهم ، فردها لهم كما تقدم ذلك . وقد أنفق على ذلك جملة مال حتى صارت الخلافة بمصر .

وكان خيار ملوك الترك بمصر وفى ذلك أقول :

تاريخه فى الملوك أضحى
يحير العرب والأعاجم
فاكتبه بالتبر لا بحبر
وانسب لأفعاله العظائم
اختاره الله من امام
لقمع أهل الفساد صارم
قد أظهر العدل فى الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
له بقلب الملوك رعب
أغنى عن السمر والصوارم
فالله يرحمه كل حين
ما دام هذا الوجود قائم

قيل لما توفى الملك الظاهر بيبرس كتم الأمير بيليك ، نائب السلطنة ، موته خوفا من التتار لئلا يرجعوا الى البلاد ، ثم احتاط على خزائن المال والبرك السلطانى ، وقصد التوجه الى الديار المصرية ، فكانت المحفة تمشى فى الموكب وقدامها الجنائب وهو يظهر أن السلطان مريض . ورتب حضور الأطباء على العادة ، فكان لا أحد يجسر أن يقرب الى المحفة . واستمر الأمر على ذلك حتى دخل الى مصر القاهرة ، وطلع قلعة الجبل ... فعند ذلك

أشيع موت السلطان وتسلطن ولده الملك السعيد .
وقد رثاه القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف بهذه الأبيات :

الله أكبــر ، انهــا لمصــيبة
منهــا الرواسى ، خيفــة ، تتقلقل
لهفى على الملك الذى كانت به الدنـ
يا تطيب ... فــكل قفــر منــزل !
الظــاهر الســـلطان من كانت له
منن عــلى كل الورى وتطول
لهــفى عــلى آرائه تلــك التى
مثل الســهام الى المصالح ترســل
لهفى عــلى تلك العزائم كيف قــد
غفلت ... وكانت قبــل ذا لا تغفل
ما للــرمال تخولتهــا رعــدة
لكنها ، اذ ليس تعقــل ، تعقــل
ســهم أصــاب وما رمى من قبــله
ســـهم له فى كل قلب مقتـــل
أنا ان بكيت دما فعذرى واضــح
ولئن صــبرت فاننى أتمثـــل
خلف الشــهيد لنا الســعيد فأدمع
منهـــلة فى أوجـــه تتهـــلل

وكانت مدة سلطنة الملك الظاهر بيبرس بالديار المصرية والبلاد الشامية سبع عشرة سنة وشهرين ونصف شهر .

ولما مات خلف من الأولاد عشرة : ثلاثة ذكور ، وهم الملك السعيد محمد ، والملك العادل سلامش ، وسيدى خضر ولكنه لم يتسلطن . وخلف من البنات سبعا . وأما فتوحاته التى افتتحهــا فى أيامه فهى قيسارية وأرسوف وصفد وطبريا ويافا والشقيف وانطاكية وبغراس والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافيثا والمرقبــة وحلب وبانياس وطرسوس ، وكانت هذه البلاد بأيدى الافرنج .

وأما ما فتحه من بلاد الشرق فهى مدينة سيس ، أخــذها بالأمان ، ودركوش وتلميش وكفر دنين ورعيان ومرزبان وكينوك وأدنة والمصيصة .

وأما الذى صار اليه من بلاد المسلمين فهى دمشق وبعلبك وقلعة الصبية وقلعة شيزر وعجلون وبصرى وصرخد والصلت وحمص وتدمر والرحبــة وتل باشر وصهيون وقلعة الكهف والقدموس والخوابى والكرك والشوبك وبيت المقدس ومدينة الخليل عليه السلام .

وأما ما افتتحه من بلاد الســودان فهى النوبة وأعمالها ، وافتتح قلعة العميدين من أعمال برقة ، وافتتح عدة جزائر من أعلى الجنادل .

وأما ما أنشأه من العمائر فى البلاد فهو ما جدده فى الحرم الشريف النبــوى ، وجدد عمــارة قبة الصخرة ببيت المقدس ، وزاد فى أوقاف الخليل عليه السلام .

وأما ما أنشاه بالديار المصرية وأعمالها ، فمن ذلك قناطر شبرامنت بالجيزة ، وعمر سور مدينة الاسكندرية ، وجدد بناء المنار الذى بها ، وعمر منارا بثغر رشيد ، وردم فم بحر دمياط بالقرابيص حتى لا تدخل اليه مراكب الافرنج ، وعمر الشوانى وأعادها الى ما كانت عليــه بالصناعة ، وحفر بحر أشموم طناح ، وعمر القلاع التى ببلاد الشرق التى كان هلاكو ملك التتار قد أخربها ، وعمر مدرسة بدمشق .

وأما ما أنشأه فى القاهرة من العمائر فهى المدرسة التى بين القصرين بجانب المدرسة الصالحية ، وعمر الجــامع الكبــير الذى فى زقاق الكحــل خارج الحسينية وأنفق عليه جملة مال من وجه حل من الغنــائم التى كانت تفتح عليــه من بلاد الافرنج وغيرها من البلاد — وكان هذا الجامع ساحة يلعب

فيها المماليك القبق — وجدد عمارة الجامع الأزهر ، وأعاد فيه الخطبة بعد ما أقام وهو خراب من أيام الحاكم بأمر الله ، وعمر القصر الأبلق بدمشـق ، وعمر خانا بالقدس الشريف ، وجـدد حفرخليج الاسكندرية وباشر حفره بنفسه ، وأنشأ ضيعة على فم وادي العباسية وسماها الظاهرية .

وأخبار الملك بيبرس كثيرة فى عدة مجلدات ، ولكن الذى ذكرناه هنا من أخباره هو الصحيح . وغالب أخبـاره فيهـا الزيادة والنقصـان وهى موضوعة .

ومن انشائه بالديار المصرية القنـاطر التى على بحر أبى المنجى شعيا . ومن انشائه قناطـر السباع التى بالقرب من ميدان الجبل ، ومن انشائه البرج الكبير الذى بقلعة الجبل عند ظريب التبر .

قال الشيخ شمس الدين بن الوردى فى ذلك :

الملك الظاهر أخبـاره تشنف الراحل والقاطن
تأملوا آثاره وانظروا ما فعل الظاهر بالباطن

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء فهم : شيخ الاسلام عز الدين بن عبد السلام رضى الله عنه من أكابر علماء الشافعية ، وكان يلقب فى أيامه بسلطان العلماء ، وكانت له كرامات خارقة ، ودفن بالقرافة الصغرى . وتوفى الامام أبو شامة وكان من كبار العلماء ، وتوفى قاضى القضاة الشافعى ابن بنت الأعز ، وتوفى الشـيخ أبو الحسن ابن بنت الأعز ، وتوفى الشيخ مجد الدين ابن دقيق العيد والد الشيخ تقى الدين ابن دقيق العيـد ، وتوفى القرطبى صاحب التذكرة ، وتوفى الشيخ ناصر الدين الطوسى ، وتوفى اللورقى وكان من كبار العلماء ، وتوفى غير هؤلاء من العلماء والأعيان جماعة كثيرة .

الملك السعيد

هو الملك السعيد أبو المعالى محمد ، بركة خان ، ابن الملك الظـاهر ركن الدين بيبرس العـلائى البندقدارى الصالحى النجمى ، وهو الخامس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية .

بويع بالسلطنة بعـد موت أبيه الملك الظاهر . وكان مولده فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة (١٢٦٠ م) وانما سمى بركة خان على اسم جده لأبيـه . فلما تسلطن وجلس على سرير الملك كان القـائم بتدبير دولتـه الأمير بدر الدين بيليك الخـازندار نائب السلطنة ، فحلف الأمراء ، وتم أمره فى السلطنة ، ومشى على نظام أبيه ، واستمر على ذلك مدة يسيرة .

ثم ان الأمير بيليك نائب السلطنة مرض وسلسل فى المرض حتى مات ... وكان أميرا دينا خيرا كثير البر للفقراء والمساكين . فلما مات كثر عليه الحزن والأسف . فلما انقضت أيامه طاش الملك السعيد واستبد برأيه ، فقبض على جماعة من أمراء والده ، وهم الأمير سنقر الأشقر والأمير بيسرى ، وكانا جناحى والده . ثم استقر بالأمير آق سنقر الفارقانى نائب السلطنة عوضا عن الأمير بيليك ، فأقام فى نيابة السلطنة مدة يسيرة ، ثم قبض عليه ، وسجنه بثغر الاسكندرية ، ثم أرسل بخنقه فخنق ودفن فى السجن .

ثم ان الملك السعيد استقر بالأمير كوندك نائب السلطنة عوضا عن الأمير آق سنقر الفارقانى .

سنة سبع وسبعين وستمائة (١٢٧٨ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن نائب الشام خامر وخرج عن الطاعة ، فجرد اليه الملك السعيد وخرج بنفسه . فلما دخل الى الشام نزل بالقصر الأبلق الذى أنشأه

والده بدمشق فخامر عليه هناك جماعة من الأمراء — وقد بلغهم عنه أنه يريد قبض جماعة منهم — فلما تحققوا ذلك خرجوا من دمشق وتوجهوا الى المرج الأصفر وأقاموا هناك . فلما بلغ الملك السعيد ذلك أرسل اليهم بعض الأمراء ليمشى بينهم وبين السلطان بالصلح ، فأبوا عن ذلك وانفصل المجلس وكلهم مانع .

فلما عاد الجــواب بالمنع ركبت خوند أم الملك السعيد — وكانت سافرت مع ولدها الملك السعيد الى الشام — فلما تغير خاطر الأمراء على السلطان ركبت خوند بنفسها وتوجهت اليهم فى مكان يسمى الكسوة خارج دمشق . فلما اجتمعت بهم مشت بينهم بالصلح فأبوا من ذلك ، فرجعت من عندهم والمجلس مانع .

ثم ان الأمراء الذين خامروا قصدوا أن يتوجهوا نحو الديار المصرية ، فلما بلغ الملك السعيد ذلك رحل من دمشق ، وأخذ من بقى معه من العسكر والأمراء وقصدوا التوجه الى القاهرة ، فجمع معه من عربان جبل نابلس جماعة كثيرة ، والتف عليهم جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس . فلما وصل الى غزة أنفق عليهم الأموال ، فأخذوا منه النفقة ، وتسحب من عنده العربان وعسكر دمشق وطرابلس ، ولم يبق معــه من العسكر المصرى الا القليل .

فلما خرج من غزة جــد فى السير حتى دخل المطرية . فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر مجىء السلطان على حين غفلة خرجوا اليه على حمية ، وكان من لطف الله تعالى فى ذلك اليــوم ضباب عظيم ، فستر الله تعالى الملك الســعيد حتى طلع القلعة ونجا بنفسه . فلما بلغ الأمراء أن السلطان طلع القلعــة رجعوا من المطرية وحاصروا السلطان وهو بالقلعة . فلما رأى من كان حول السلطان أن حاله قد تلاشى صاروا يتسحبون من القلعة وينزلون الى الأمراء الذين فى الرميلة .

واستمر الحــرب سائرا بين الأمراء وبين الملك السعيد سبعة أيام . فلما رأى الملك السعيد عين الغلب أرسل الى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، فمشى بينه وبين الأمراء وقال : « ايش آخر هذا الحال ؟ وما قصدكم ؟ » فقالوا قصدنا يخلع نفسه من السلطنة ويمضى الى الكرك ويقيم بها . فرجع الخليفة الى السلطان وأخبره بذلك ... فخلع نفسه من الملك ، وشهد عليه القضاة بالخلع وخرج الى الكرك من وقته . وكان للتسفر عليــه الأمير بيدغان الركنى المعروف بسم الموت .

وكانت مدة سلطنة الملك السعيد بالديار المصرية سنتين وشهرا وأياما ، وهو صاحب الحمام التى بالقرب من سوق الغنم .

سنة ثمان وسبعين وستمائة (١٢٧٩ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن الملك السعيد قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وكان سبب موته أنه لعب بالكرة فى ميدان قلعة الكرك ، فتقنطر به الفرس ، فانكسر ضلعه فمات من يومه . وكانت وفاته فى أول هذه السنة ، ثم دفن هناك ، وقيل نقل بعد ذلك الى دمشق ، ودفن على أبيــه الملك الظاهر بيبرس .

وكان الملك السعيد شابا جميل الصورة ، حسن الشكل ، كريما على الرعية .

ولما خلع الملك السعيد من السلطنة تولى بعده أخوه سلامش .

الملك العادل

هو الملك العادل سيف الدين سلامش ، ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وهو السادس من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الملك السعيد ، وكان له من العمر لما تسلطن سبع سنين ونصف ، وكان يعرف بابن البدوية . وكان جلوسه على سرير الملك فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وكان القائم بتدبير مملكته قلاون الألفى وكان يخطب له وللعادل سلامش على منابر مصر وأعمالها ، وضربت السكة باسمهما ، وكان فى الحقيقة قلاون هو السلطان ، والسلطان ليس له الا مجرد الاسم ، والأمر كله لقلاون .

وكان الأمير بيسرى يشارك قلاون فى أمور السلطنة ، ولكن كان الأمير بيسرى مغرما بحب الصيد والخروج الى السرحات ، وكان الأتابكى قلاون يمهد لنفسه فى الباطن ، وأرسل بعزل النواب عن البلاد الشامية ، وولى من يثق به من خشداشينه . ثم انه قبض على جماعة من الأمراء الظاهرية وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . فلما صفا له الوقت خلع الملك العادل سلامش من السلطنة ، وأرسله الى قلعة الكرك ، وأرسل معه أخاه سيدى خضرا فأقاما فى الكرك مدة ثم نقلهما الملك الأشرف خليل بن قلاون الى القسطنطينية فكانت مدة سلطنة الملك العادل سلامش بالديار المصرية خمسة أشهر وأياما .

ولما خلع سلامش من السلطنة تولى من بعده قلاون .

الملك المنصور قلاون

هو الملك المنصور سيف الدين قلاون ، أبو المعالى الألفى ، الصالحى النجمى ، وهو السابع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك العادل سلامش فى يوم الأحد ثانى عشر شهر رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، وجلس على سرير الملك فى اليوم المذكور .

وكان أصله من مماليك آق سنقر الكاملى ، ثم قدمه الى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب المدرسة الصالحية ، فأعتقه فى أثناء سنة سبع وأربعين وستمائة . فلما تم أمره فى السلطنة أنعم على جماعة من خشداشينه بتقادم ألوف — وهم : طرنطاى ، وكتبغا ، ولاچين ، وقفجق ، والشجاعى ، وأيبك الخازندار ، وطقصو ، وطغريل الايغانى ، وبلبان الطباخ ، وأقوش الموصلى ، وسنقر جركس وازدمر العلائى ، وقلجق وايدمر الطباخ ، وقيران الشهابى ، ومحمد الكورانى ، وابراهيم الجاكى — ثم أمر بالافراج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية ، منهم الأمير أيبك الأفرم ، فخلع عليه واستقر به نائب السلطنة وأقام فى النيابة مدة يسيرة ، ثم استعفى من ذلك فأعفاه السلطان ورتب له ما يكفيه ، ولزم بيته .

ثم ان السلطان خلع على مملوكه طرنطاى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن أيبك الأفرم ، وخلع على الأمير سنقر الأشقر واستقر به نائب الشام . فلما أن دخل الى الشام خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، ثم انه تسلطن هناك وقبلوا له الأرض بدمشق وتلقب بالملك الكامل ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم فلت عنه الناس واضمحل أمره وقصد

أمراء الشام أن يقبضوا عليه فهرب الى صهيون .

سنة تسع وسبعين وستمائة (١٢٨٠ م) :

فيها جاءت الأخبار أن ملك التتار زحف على البلاد ، وأرسل أخاه منكوتمر فى جاليش العسكر ، وقد وصلوا الى حلب وملكوا ضياعها وأشرفوا على أخذ المدينة . فلما بلغ الملك المنصور قلاون الألفى ذلك خرج بنفسه ، هو والأمراء ، على جرائد الخيل . فلما وصل الى غزة جاءت الأخبار بأن منكوتمر أخا أبغا — لما بلغه مجيء السلطان — نهب البلاد ، وأحرق الضياع ، وقتل الرعية ، وآذى البرية ... ثم رجع الى بلاده .

فلما بلغ السلطان رجع من غزة الى القاهرة ، فجاءت الأخبار بأن التتار رجعوا الى حلب وأفحشوا فى حق الرعية أعظم ما فعلوا فى الأول ، فخرج اليهم السلطان ثانيا ، وجد فى السير فتلاقى مع عسكر التتار على المرج الأصفر ، فكان بينهما واقعة عظيمة ، وذلك فى أوائل سنة ثمانين وستمائة ، فكانت النصرة للملك المنصور قلاون ، فتقنطر منكوتمر أخو أبغا الى الأرض ، فأحاط به التتار حتى حملوه وهربوا به ، فوقع النهب فى عسكر التتار وولوا منهزمين ، وقد غنم منهم عسكر السلطان ما لا يحصى من سلاح وخيول وقماش وغير ذلك ... وكانت هذه الواقعة من الوقعات المشهورة .

ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو القاهرة ، فدخلها فى موكب عظيم ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ومشت الأمراء بين يديه حتى طلع القلعة .

سنة احدى وثمانين وستمائة (١٢٨٢ م) :

فيها صفا الوقت للسلطان ، فقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير بيسرى ، والأمير بكتوت الشمسى ، والأمير كشغندى ، وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن خشداشينه ، وشرع فى انشاء مماليك ، وأنعم عليهم بتقادم ألوف ، وبالاقطاعات السنية .

وفيها تزوج السلطان الملك المنصور قلاون بخوندا شلون بنت الأمير شنكاى ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وزفت عليه .

وفى هذه السنة توفى مجير الدين محمد بن تميم الدمشقى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

وليلة بت أسقى فى غياهبها
راحا تسل شبابى من يد الهرم
ما زلت أشربها حتى نظرت الى
غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم

وفيها توفى الشيخ بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبى ، وكان من أعيان الشعراء ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى معذر وقد ضمن المثل السائر :

صدوا وقد دب العذار بخده
ما ضرهم لو أنهم جبروه
هل ذاك غير نبات خد قد حلا
لكنهم لما حلا هجروه

سنة اثنتين وثمانين وستمائة (١٢٨٣ م) :

فيها ابتدأ السلطان الملك المنصور قلاون بعمارة القبة التى بين القصرين والمدرسة ، وأضاف الى ذلك قاعة القطنيين وسماها البيمارستان المنصورى . وقيل انتهى منها العمل فى مدة عشرة أشهر على ما نقله المؤرخون ، وجعل لها فى كل يوم من الرواتب ألف دينار ، ووقف عليها أوقافا كثيرة من ضياع وأملاك وبساتين وغير ذلك ، وشرط فى وقفه أشياء كثيرة من أنواع البر والخير مما لم يسبق فعله لأحد من الملوك من قبل ومن بعد ، فكان كما قال القائل :

تمشى الملوك على آثار غيرهم
وأنت تخلق ما تأتى وتبتدع

فهو من حسنات الزمان ... تحتاج اليه الملوك ، ويفتقر اليه الغنى والصعلوك .

قيل : وكان سبب بناء البيمارستان هذا أن الملك المنصور قلاون أمر مماليكه بأن يضعوا السيف فى العوام لأمر أوجب تغير خاطر السلطان عليهم ، فانهم خالفوا أمره فى شىء فعله بجهلهم ، فأمر بقتلهم ، فلعب فيهم السيف ثلاثة أيام ، فقتل فى هذه المدة ما لا يحصى عدده ، وراح الصالح بالطالح وربما عوقب من لم يجن .

فلما زاد الأمر عن الحد ، طلع القضاة ومشايخ العلم الى السلطان وشفعوا فيهم ، فعفا عنهم ، وكف عنهم القتل . فلما جرى ما جرى ، وراق خاطر السلطان ندم على ما فعله ، وبنى هذا البيمارستان ، وجعل له جملة أوقاف على رواتب بر واحسان ، وفعل من أنواع الخير ما لا يفعله غيره من الملوك ليكفر الله عنه ما فعله بالناس لعل الحسنات تذهب السيئات كما قال الله تعالى .

سنة ثلاث وثمانين وستمائة (١٢٨٤ م) :

فيها خرج السلطان الى نحو البلاد الشامية ، فوصل الى حصن المرقب ، ونصب المجانيق ، وحاصره مدة ثمانية وثلاثين يوما ، فطلب أهله الأمان ، فأخذ بالأمان ، ثم رجع الى الديار المصرية .

سنة اربع وثمانين وستمائة (١٢٨٥ م) :

فيها أرسل السلطان الأمير طرنطاى نائب السلطنة الى حصار سنقر الأشقر الذى كان نائب الشام ، وأظهر العصيان وتسلطن هناك كما تقدم . فلما وصل الأمير طرنطاى الى نحو صهيون حاصر سنقر الأشقر أشد المحاصرة ، فلما رأى سنقر الأشقر عين الغلبة ، أرسل يطلب من الأمير طرنطاى الأمان ، فأجابه الى ذلك . فلما وثق منه بالأمان نزل اليه من قلعة صهيون ، فحلف له الأمير طرنطاى أنه اذا توجه الى السلطان لا يشوش عليه ، ولا يحصل منه الا كل خير ... فأخذ عياله وأولاده وتوجه صحبة الأمير طرنطاى الى نحو الديار المصرية . فلما بلغ السلطان مجىء سنقر الأشقر خرج الى تلقيه . فلما وصل الى مسجد التين بالقرب من المطرية ، تلاقى هو وسنقر الأشقر هناك . فلما وقعت عين سنقر الأشقر على السلطان نزل عن فرسه ، ونزل السلطان أيضا ، وتعانقا . فبكى سنقر الأشقر وطلب الأمان من السلطان ، فأعطاه منديل الأمان فوضعه على رأسه . ثم ركبا وتوجها الى القلعة فى موكب عظيم ، وسنقر الأشقر راكب الى جانب السلطان . فلما طلعا الى القلعة ، خلع عليه ونزل الى مكان قد أعد له ، ونزل معه سائر الأمراء الى ذلك المكان ثم انصرفوا ، وكان ذلك فى يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول من سنة أربع وثمانين وستمائة .

سنة خمس وثمانين وستمائة (١٢٨٦ م) :

فيها قبض السلطان على مملوكه الأمير علم الدين سنجر الشجاعى ، وصادره واحتاط على موجوده ، واستصفى أمواله بعد أن عصره بالمعاصير حتى كسر رجليه ، وخلعه من الوزارة ، ثم خلع على مملوكه الأمير بدر الدين بيدرا المنصورى ، واستقر به وزيرا عوضا عن سنجر الشجاعى .

وفى هذه السنة توفى الشيخ محيى الدين بن قرناص الحموى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

أيا حسنها روضة قد غدا
جنونى فنـونا بأفنانها
أتى الماء فيها على رأسه
لتقبيل أقدام أغصـانها

سنة ست وثمانين وستمائة (١٢٨٧ م) :

فيها توعك المقام العلائى نور الدين على ، ولد السـلطان الملك المنصـور قلاون ، وكان والده المنصـور ولاه السلطنة فى أيام حيـاته ، وركب بشعار السلطنة وجلس على سرير الملك وقبـل له الأمراء الأرض ، وجلس الى جانب والده قلاون . وكان سبب سلطنته أن الملك المنصور قلاون كان كثير الأسفار الى نحو البـلاد الشامية ، فسلطن ولده نور الدين عليا ولقبه بالملك الصالح ليكون عوضه فى مصر اذا سافر الى البـلاد الشامية ، فأقام على ذلك مدة فى حيـاة والده ثم ان الملك الصالح عليا مرض مرضـا شديدا بحمى الكبد حتى أشرف على الموت .

سنة سبع وثمانين وستمائة (١٢٨٨ م) :

فيها ثقل على الملك الصالح على المرض وتفـل الدم . فلما كانت ليلة الجمعـة رابع شهر شعبان سنة سبع وثمـانين وستمائة ، توفى الملك الصالح على الى رحمـة الله تعالى . فلمـا مات حزن عليه والده الملك المنصور حزنا شديدا ، وكان الأمراء جلوسا على باب السـتارة ينتظرون ما يكون من أمره . فلما وقع الصراخ فى دور الحرم دخل الأمير طرنطاى نائب السلطنة فوجد السلطان مكشوف الرأس وكلوتته مرميـة على الأرض وهو يبكى ويصيح . فلمـا رآه الأمير طرنطاى على هـذه الحالة رمى الآخر كلوتته عن رأسه ، ثم ان بقية الأمراء دخلوا على السلطان ، وألقى الكل كلوتاتهم عن رءوسهم وأقاموا على ذلك ساعة ، ثم ان الأمير طرنطاى النائب أخذ كلوتة السلطان فى يده وقبل الأرض هـو والأمير سنقر الأشقر الذى تسلطن بدمشق ، وناولها للسلطان ، فدفعه وقال : « ايش بقيت أعمل بالملك بعد ولدى ؟ » ... ثم صبروا له ساعة ، وقام الأمراء جميعـا كلهم وقبلوا الأرض ووضعوا كلوتة السلطان على رأسه .

واسـتمر العزاء قائمـا فى تلك الليلة . فلما أصبحوا يوم الجمعة أخذوا فى أسباب تجهيزه ، فأخرجوه وصـلوا عليه عند باب السـتارة ، ثم نزلوا به من باب المدرج ، فأراد السـلطان أن يمشى فى الجنازة فمنعه الأمراء من ذلك . فكان له مشهد عظيم ، وذلك فى يوم الجمعة قبل الصلاة ، فمشت قدامه النـاس قاطبـة الى تربة والـدته خوند خاتون التى فى طريق السيدة نفيسة بجوار المدرسة الأشرفية ، فدفن هناك .

فلما أصبح يوم السبت نزل السلطان الى زيارة قبر ولده وجلس عنده فى ذلك اليوم ، واسـتمر الميتم ممتدا سبعة أيام .

ولما مات السلطان الملك الصـالح على ، خلف ولدا ذكرا يسمى الأمير موسى ، وهو صـاحب الربع الذى فى الغرابليين . ومات الملك الصالح وله من العمر نحـو عشرين سـنة . وكان والده قلاون أشركه فى السلطنة من سنة تسع وسبعين وستمائة ، واستمر على ذلك حتى مات فى سـنة سبع وثمانين وستمائة ، فكان أكبر أولاد قلاون . قال ابن خلكان [١] : لما مات السلطان الملك الصالح كتب القاضى محيى الدين بن عبـد الظاهر كاتب السر الشريف عن لسان أبيه الملك المنصور قلاون الى نائب الشام وغـيره من النواب مطالعـات ، ضمنها ما جرى على السلطان من فقد ولده ، فقال

(١) انظر هذا : فان ابن خلكان توفى سنة ٦٨١ والملك الصالح توفى سنة ٦٨٧ .

عن لسان والده : « نحمد الله تعالى على حزن حزنا به بالصبر أجورا فاخرة ، فكان قصدنا أن نجعله ملكا فى الدنيا فاختار الله تعالى أن يكون ملكا فى الآخرة » .

وفى هذه السنة توفى الشيخ ناصر الدين ابن النقيب ، وكان من أعيان شعراء مصر ، وله شعر جيد فى نوع التورية ، فمن ذلك قوله :

جودوا لنسجع بالمديح على علاكم سرمدا
فالطير أحسن ما يغرد عند ما يقع الندى

سنة ثمان وثمانين وستمائة (١٢٨٩ م) :

فيها فى ثالث عشر صفر خرج السلطان على حين غفلة الى نحو البلاد الشامية ، وتوجه نحو طرابلس ، وحاصر أهلها ونصب على سورها المجانيق ، واستمر يحاصرها أربعة وثلاثين يوما ففتحها بالسيف عنوة فى يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر من سنة ثمان وثمانين وستمائة ، فوردت البشائر الى الديار المصرية بفتح مدينة طرابلس وجبيل . ثم ان السلطان عاد الى الديار المصرية فزينت له وحملت على رأسه القبة والطير ، وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله .

وفيها جاءت الأخبار بأن ملك النوبة هجم على مدينة أسوان ونهب أسواقها وأحرق جرونها ، فجرد اليه الأمير أيبك الأفرم ، فلما أن وصل الى هناك هرب منهم ملك النوبة ، فتبعه العسكر والأمير عز الدين أيبك الأفرم الى آخر بلاد النوبة ، فغنموا منهم أشياء كثيرة — من عبيد وجوار وخيول وغير ذلك — ورجع العسكر الى الديار المصرية وهم فى غاية النصرة .

وفى هذه السنة توفى الشيخ ظهير الدين بن البارزى الدمشقى ، وكان عالما فاضلا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

يذكرنى وجد الحمام اذا غنى
لأنا كلينا فى الهوى نعشق الغصنا

سنة تسع وثمانين وستمائة (١٢٩٠ م) :

فيها عزم السلطان الى العود الى السفر ليحاصر مدينة عكا . فخرج من القاهرة فى ثامن عشر شوال من السنة المذكورة ، فلما نزل بالريدانية وأقام بها حتى يتكامل خروج العسكر ، وجد فى جسده توعكا وحمى ، فصار الأمر فى كل يوم يتزايد عليه حتى ثقل فى المرض . وكان الملك المنصور قلاون لما مات ولده الملك الصالح على ، عهد من بعده الى ولده خليل ولقبه بالأشرف . فلما سلسل السلطان ، اضطربت الأحوال ، وصار ولده خليل ينزل اليه من القلعة فى كل يوم ويتفقد أحواله ثم يرجع الى القلعة . وكانت الأمراء يدخلون على السلطان فى كل يوم صحبة الحكماء . فلما زاد الأمر على السلطان وتغير حاله منع الأمير طرنطاى الأمراء من الدخول على السلطان .

فلما تحقق الأمراء موت السلطان جاءوا الى الأمير طرنطاى النائب وقالوا له : « أنت تعلم ما بينك وبين ولد السلطان من حظوظ النفس من أيام والده . وقد صار الأمر اليه والسلطان ما بقى يرجى . ومتى صار الحكم الى ولده فهو قاتلك لا محالة ... فبادر اليه وأمسكه قبل أن يمسكك ونحن كلنا عصبتك » ... فسكت الأمير طرنطاى ساعة وقال : « كيف أمسك ابن أستاذى أو أقتله ؟ فايش يشاع على بين الناس ؟ ولكن أنا مملوك السلطان ومملوك ولده . فان رضينى وأبقانى على حالى كان الفضل له ، وان قتلنى صرت شهيدا من جملة الشهداء » .

ثم ان السلطان قلاون دخل فى النزع ، فجلس الأمير طرنطاى عند رأسه حتى مات وغمضه بيده .

فلما أصبح الصباح جاءت الأمراء على العادة فلم يمكنهم من الدخول على السلطان . ثم انه أرسل خزائن المـــال والأطلاب التى كانت مع السلطان برسم السفر . ثم ان الأمير طرنطاى أرسل عرف ولد السلطان الملك الأشرف خليل أن والده قــد مات ، وأشار عليه أنه يقيم فى القلعـــة ولا ينزل ، ووكل به مقدم المماليك .

ثم ان الأمير طرنطاى حمل السلطان قلاون وهو ميت فى محفة وطلع به الى القلعـــة بعد المغرب ، فغسله وكفنه ونزل به فى تابوت بعـــد العشـــاء والأمراء والقضاة وأعيـــان الناس مشاة قدامه . وكثر عليه الحـــزن والأسف من النـــاس الى أن وصلوا به الى البيمارستان ، فصلوا عليه هنـــاك ودفن داخل القبة التى بين القصرين . وكانت وفاته يوم السبت سادس ذى القعدة سنة تسع وثمـــانين وستمائة ، ودفن فى ليـــلة الأحـــد ، وكانت مدة توعكه تســـعة عشر يوما . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية احدى عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام ، فمات وكأنه لم يكن ... فكان كما قيل فى المعنى :

كل ابن أنثى وان طالت ســـلامته
يومـــا على آلة حـــدباء محمول

ولما مات الملك المنصور قلاون خلف من الأولاد ثـــلاثة ذكور ، وهـــم : الأشرف خليل ، والناصر محمد ، والأمير أحمد ولد بعد وفاة أبيه .

وكان المنصور قلاون حسن الشكل ، مربوع القامة ، درّى اللون - وكان قليل الكلام بالعربى ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، وكان مغرما بمشترى المماليك حتى قيل انه تكامل عنده اثنا عشر ألف مملوك ، وقيل سبعة آلاف مملوك . ومما يدل على علو همته وحسن اعتقاده عمـــارة البيمارستان الذى بين القصرين ، ولا سيما ما فعله فيه من وجوه البر والصـــدقات ووقف الأوقاف الجليلة ، وشرط فى وقفه ما لم يشرطه أحـــد من الملوك قبله ولا بعـــده ، وقد كفاه ذلك شرفا فى الدنيا والآخرة .

ومن محاسنه أنه غير تلك الملابس الشنيعة التى كانت تلبسها العسكر فى الدول القديمة . قيل كانت كلوتاتهم من الصـــوف، الأزرق الغميض ، وهى مضربة عريضة بغير شاش . وكانت المماليك تربى لهم ذوائب من الشعر خلفهم ويجعلونها فى أكياس حرير أحمر أو أصفر ، وكانوا يشدون فى أوساطهم بنودا بعلبكية عوضـــا عن الحـــوائص ، وكانت خفافهم برغالى أسود ، وكانوا يشدون فوق قماشهم ابزيم جلد وفيه حلق نحاس وفيها صوالق برغالى أسود ، وهى كبار يسع الصولق الواحد نصف ويبة قمح ، وكان لهم فى ذلك الابزيم معلقة من الخشب كبيرة وسكين كبيرة ، وكانت لهم مناديل من الخام قدر فوطة كبيرة لمسح أيديهم . وكانوا يربون لهم شوارب قدر السلفة الكتان . فلما تولى الملك المنصور قلاون أمر العسكر أن يغيروا هذه الملابس الشنيعة ، ويدخلوا فى الهيئة المطبـــوعة وكانت خلع المقدمين من العنتابى ، فأمر لهم بالخلع المخمل الأحمر والأخضر بالفرو السمور . وهو أول من أسكن المماليك فى أبراج القلعة وسماهم المماليك البرجية .

وأما ما افتتحه الملك المنصور قلاون فى أيامه من الفتوحات فهو المرقب وجبلة من بلاد الافرنج ، وفتح طرابلس الغـــرب ، واللاذقيـــة ، وجبيل ، والكرك والشـــوبك ... كانت بيـــد أولاد الملك بيبرس البندقدارى فأخذها منهم .

وأما ما أبطله فى أيامه من المظالم ، فهو أنه كان من قديم الزمان وظيفة تسمى ناظر الزكاة — وهو من يأخذ ممن عنده مال زكاته — فان مات ذلك

الرجل صاحب المال أو عدم ماله فيتم ذلك القدر المقرر عليه فى الدفاتر باقيا يؤخذ من أولاده أو من ورثته أو من أقاربه ولو بقى منهم واحد ... فأبطل الملك المنصور قلاون ذلك الى يومنا هذا وسطر فى صحائفه .

ومما أبطله من المظالم أيضا أنه كان يؤخذ مال من أهل مصر للمبشرين اذا حضروا يبشرون بفتح حصن أو بنصرة عسكر أو بما أشبه ذلك ، وكان يجبى من أهل مصر على قدر طاقتهم فى السعة ، فأبطل ذلك .

وكان يجبى من أهل مصر عند وفاء النيل المبارك ثمن الحلوى والفاكهة والشوى ، برسم السماط الذى يوضع فى المقياس يوم الوفاء ، فأبطل ذلك عن الناس جميعه ، وجعل مصروفه من بيت المال ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط .

وكان من أجلّ ملوك الترك قدرا ، وأعظمهم أخبارا وذكرا .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ومشايخ الاسلام ، فمن ذلك الامام العلامة محيى الدين النووى الشافعى رضى الله عنه ، وهو صاحب كتاب المنهاج . قال الشيخ شمس الدين الذهبى : ان الشيخ محيى الدين توفى وله من العمر نحو أربعين سنة ، ودفن بنوى وهى بلده . وقد رثاه الشيخ زين الدين ابن الوردى المعرى بهذه الأبيات :

لقيت خيرا يا نوى
ووقيت من ألم النوى
فلقد ثوى بك عالم
لله أخلص ما نوى
وعلا علاه بفضله
فضل الحبوب على النوى

وتوفى أيضا الشيخ برهان الدين الشافعى ابن جماعة ، والشيخ شمس الدين ابن خلكان المؤرخ ، والشيخ ناصر الدين ابن المنير ، والشيخ جمال الدين الشريشى شارح مقامات الحريرى ، وتوفى ابن النحاس النحوى ، وتوفى علاء الدين ابن النفيس شيخ الأطباء ، وتوفى غير ذلك من أعيان الناس ومن العلماء جماعة كثيرون .

ولما توفى الملك المنصور قلاون تولى من بعده ابنه الأشرف خليل .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف ، صلاح الدين خليل ، ابن الملك المنصور قلاون الألفى الصالحى ، وهو الثامن من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تولى الملك بعهد من أبيه قبل وفاته ، وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه قلاون ، وذلك فى يوم الأحد سادس ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ، وكان مولده فى سنة ست وستين وستمائة . فلما قام بشعائر السلطنة نزل من القلعة الى الميدان الذى تحت القلعة . وكان سبب نزوله الى الميدان أن الأمراء تخلوا من طلوعهم الى القلعة ، فلم يطلع منهم أحد الى القلعة ، فنزل السلطان — وهو بشعائر الملك — فجلس هنالك على كرسى ، واستحلف له سائر الأمراء ، فلما حلفوا له خلع فى ذلك اليوم على الأمير علم الدين سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا كما كان فى أيام والده .

وكان الأشرف خليل كفؤا للسلطنة ، وجاء فيها كما ينبغى فى الحرمة والعظمة والشهامة ، وفيه يقول القائل محمد بن غانم الشاعر :

مليكان قد لقبا بالصلاح
فهذا خليل وذا يوسف
فيوسف لا شك فى فضله
ولكن خليل هو الأشرف

فلما تم أمره فى السلطنة ، وتلقب بالملك الأشرف ، عمل الموكب ، ثم قبض على الأمير طرنطاى نائب السلطنة ، وكان بينه وبين الأمير طرنطاى عداوة قديمة من أيام والده . وكان الشجاعى يكره الأمير طرنطاى ، فحسن للسلطان القبض عليه ، فقبض عليه فى ذلك اليوم وحمل الى الاعتقال ... فكان الأمر كما قالته الأمراء للأمير طرنطاى : ان الأشرف خليلا يقبض عليه . فلما قبض عليه ندم الأمير طرنطاى الذى ما قبض على الأشرف خليل قبل أن يتسلطن ، كما قيل فى المعنى :

احذر من الناس ، ولا
معترك الشك تجل
فى قلب ليث بت ... وخف
ان بت فى قلب رجل

فأقام الأمير طرنطاى بالسجن فى القلعة ثلاثة أيام ، ثم ان السلطان أمر بقتله فخنق وهو فى السجن ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفن تحت الليل فى القرافة الصغرى .

ثم ان السلطان رسم للشجاعى بأن يحتاط على موجود الأمير طرنطاى ، فنزل الشجاعى الى بيت طرنطاى ، ورسم على مباشريه ، وقبض على جميع من كان من حاشيته ، وقبض على نسائه وسراريه ، وأحضر لهم المعاصير وعصرهم وقررهم على الأموال والذخائر ... فكان الشجاعى ينزل فى كل يوم الى بيت الأمير طرنطاى ويقرر جماعته ونساءه ويعاقبهم أشد العقوبة ، فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله ، فطلعوا بذلك جميعه الى الخزائن الشريفة .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير بيدرا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير طرنطاى النائب .

فلما قتل الأشرف خليل الأمير طرنطاى صفا له الوقت ، فأرسل خلف القاضى شمس الدين بن السعلوس — وكان بالحجاز من أيام الملك المنصور قلاون — بالحضور ، وحشاه بخط يده بالقلم العريض بين السطور وهو يقول : « يا شعير ! جد السير ، جاء الخير » ... وكان الأشرف خليل كثيرا ما يحشى فى مراسيمه بقلم العلامة .

وحشى أيضا مرسوما وأرسله الى دمشق لما أمر باسقاط ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل من باب الجابية من القمح خمسة دراهم من المكس ، فرسم بابطال ذلك وكتب فى مرسومه بين السطور : « وقد أمرنا بأن تكشف عن رعايانا هذه الظلامة ، ونستجلب بذلك الدعاء الينا من الخاصة والعامة » ... فهو أول سلطان حشّى فى مراسيمه بين السطور بخطه بيده .

فلما حضر شمس الدين ابن السعلوس من مكة الى القاهرة ، خلع عليه واستقر به وزيرا مستشار المملكة ، وفوض اليه أمر السلطنة جميعها ، وأحال الناس فى أشغالهم عليه ، وفصل الشجاعى من الوزارة . وكان حضور شمس الدين ابن السعلوس من مكة فى ثالث عشر المحرم مستهل سنة تسعين وستمائة ، وقد حضر صحبة مبشر الحاج على الهجن ، وجد المسير حتى حضر الى مصر .

قيل : وكان أصل ابن السعلوس هذا من دمشق ، وكان تاجرا بها ، فحضر فى بعض السنين الى مصر ، وكان له خط جيد ، فسعى عند الأشرف خليل — وهو أمير فى أيام والده قلاون — فجعله ناظر ديوانه ، وصار يستأجر له مواضع كثيرة فى البلاد الشامية ، فيتحصل منها كل سنة جملة من المال ، فحظى ابن السعلوس عند الأشرف حتى صار نديمه ولا يصبر عنه ساعة واحدة ، واحتوى على عقله وملك لبه ... فلما بلغ الملك المنصور قلاون ذلك ، أمر بنفى ابن السعلوس الى مكة ،

فأقام بها الى أن مات المنصور قلاون وتسلطن ابنه خليل ، فأرسل نحو ابن السعلوس نجابا مطردا كما تقدم . فلما حضر واستقر به وزيرا فوض اليه جميع أحوال المملكة ، فكان يركب ، ومعه جماعة من الأمراء الرءوس النواب والمماليك السلطانية فى كل يوم حسبما رسم له السلطان بذلك ، وكانت القضاة الأربعة تركب قدامه فى أيام الموكب ، وعظم أمره حتى صارت القصص تقرأ عليه ، وينفذ أمرها من غير مشورة السلطان ، فأظهر من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره غيره ، وانفرد بالكلمة فى مصر دون غيره ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وصار يجتمع بالسلطان فى الليل فى خلوة ويقضى أشغال الناس من سهلها لصعبها ، كما قيل فى المعنى :

ملك اذا قابلت بشر جبينه
فارقته والبشر فوق جبينى
واذا لثمت يمينه وخرجت من
أبوابه لثم الملوك يمينى

سنة تسعين وستمائة (١٢٩١ م) :

فيها جرد السلطان وخرج بنفسه هو والعساكر الى حصار مدينة عكا وكانت بيد الافرنج . فلما وصل الى عكا حاصر أهلها أشد المحاصرة ، ونصب حول المدينة خمسة وسبعين منجنيقا ، وحاصرها مدة أيام فأعطاه الله النصر وفتحها بالسيف فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة تسعين وستمائة . فلما افتتحها هدم سورها وقلعتها . وكانت عكا بيد الافرنج ، وكانوا يقطعون على المسافرين الطريق ، ويأخذون أموال التجار ، ويقتلون كل من لقوه من المسلمين . فلما فتح الملك الأشرف خليل مدينة عكا توجه من هناك الى جبت وبيروت ، فافتتحهما فى تلك السنة .

قال الشيخ شمس الدين الذهبى فى تاريخه : ان عكا كانت من أحسن المدائن فى العمارة والبناء الفاخر . فلما فتحها الملك الأشرف خليل وهدم سورها هرب أهل المدينة منها وصارت خرابا من يومئذ ، وصار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومن جملة ما نقل منها الباب الرخام الأبيض الذى على المدرسة الناصرية التى بين القصرين ، وكان هذا الباب على كنيسة ، فنقل الى القاهرة فأخذه الملك الناصر ابن قلاون ووضعه على باب مدرسته التى أنشأها بجانب البيمارستان . قيل لما فتحت عكا قتل فى مدة المحاصرة من الأمراء اثنا عشر أميرا ، وقتل بها العزى نقيب الجيوش المنصورة ، وهو صاحب سويقة العزى سميت به . وقتل يوم الفتح من المماليك السلطانية نحو مائة وعشرين مملوكا .

ثم ان الملك الأشرف خليلا لما فتح عكا رجع الى الديار المصرية وهو فى غاية النصر والعظمة ، فدخل من باب النصر ، وشق فى المدينة وزينت له . وكان يوم دخوله يوما مشهودا والأمراء مشاة بين يديه ، والأمير بيدرا نائب السلطنة حامل القبة والطير على رأسه ، ولعبوا بالغواشى الذهب بين يديه . وكان القضاة الأربعة وأرباب الوظائف راكبين بين يديه ، وكان له موكب عظيم . فلما وصل الى البيمارستان ثنى عنان فرسه ونزل وزار قبر والده قلاون ، ثم ركب وطلع الى القلعة ، فخلع على الأمراء ونزلوا الى بيوتهم ، وانفض الموكب .

ومن غرائب الاتفاق أن الشيخ شرف الدين الأبوصيرى — ناظم البردة — رأى فى منامه ، قبل مسير الملك الأشرف خليل الى حصار عكا فى شوال سنة تسع وثمانين وستمائة ، كأن قائلا ينشد هذه الأبيات :

قد أخـذ المسـلمون عكا
وأشـبعوا الكافرين صـكا

وسـاق سلطاننـا اليهـم
خيـلا تدك الجبـال دكا

وأقسم التـرك منذ سارت
لن يتركـوا للفـرنج ملـكا

فلما انتبه الشيخ شرف الدين من منامه أخبر بهذه الرؤيا جماعة من أصحابه . فلما توجه الأشرف خليل الى عكا فتحها الله على يديه ، فكان الأمر كما قال الهاتف فى منامه ، وأخذت عكا . وفى ذلك يقول القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر — كاتب السر الشريف — هذين البيتين :

يا بنى الأصـفر قد حل بكم
نقـمة الله التى لا تنفصـل

نزل الأشرف فى سـاحلكم
فأبشروا منه بصـك متصل

ولما رجع الملك الأشرف من هذه الغزوات ، عظم فى نفسه ، واستخف بالأمراء ، فأخذ فى أسـباب لقبض على جماعة منهم ، فقبض على الأمير حسام الدين لاچين السلحدار ، وكان نائبا . فلما رجع مع السلطان الى الديار المصرية بعد فتح عكا قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة صـفد ، ثم أمسك الأمير سنقر الأشقر الذى كان قد تسلطن بدمشق كمـا تقدم ، وقبض على الأمير طقصو ، وقبض على الأمير جرمك ، ثم قبض على أميرين ما يحضرنى اسماهما ثم أرسل خلف الأمير لاچين الذى كان فى السجن بقلعة صفد ، فلما حضر أكملهم سبعة من الأمراء وسجنهم بقلعة الجبـل فى برج الحية . فلما كانت ليلة الأحـد أمر بخنق هؤلاء الأمراء جميعهم ، فخنقوا فى البرج تحت الليل . فلما أخرجوهم ليدفنوهم وجدوا الأمير لاچين نائب الشام فيه بعض نفس ، فأخبروا السلطان بذلك ، فعطف عليه وأمر بأن يفرج عنه ، فكان كما قيل : « الحى مالو قاتل ، ولو قتل ما مات » ... وكيف يموت وقد كتب الله له فى اللوح المحفوظ أن يكون سلطانا بمصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ؟

فلما عوفى الأمير لاچين أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف .

ثم ان السلطان أمر بالافراج عن الأمير بيسرى ، وكان فى السجن بثغر الاسكندرية . وكان سبب ذلك أن السلطان لما حضر من السفر ومر بالمدينة ، واجتاز أمام قصر بيسرى الذى كان تجاه المدرسة الكاملية ، وقف له أولاد الأمير بيسرى تحت القصر وقبلوا له الأرض — وكانوا ستة أولاد ذكور صغار وفيهم من هو رضيع — فقـال السلطان : « من هؤلاء ؟ » . فقـال له الأمراء : « هؤلاء أولاد مملوكك بيسرى » ... فرق لهم السلطان ، وقال لهم : « يحصل الخير ان شـاء الله » . فلما طلع القلعة وجرى لهؤلاء الأمراء ما جرى ، أفرج عن الأمير بيسرى وأنعم عليه بتقدمة ألف .

سنة احدى وتسعين وستمائة (١٢٩٢ م) :

فيها توجه السلطان الى نحو الشام ، فأقام بها مدة أيام ، ثم توجه الى نحو حلب ، ثم توجه من حلب الى قلعة الروم وحاصر أهلها ونصب حول المدينة ثلاثة وعشرين منجنيقا ، ففتحها بالسيف فى يوم السبت حادى عشر رجب من سنة احـدى وتسعين وستمائة ، وكانت قلعة الروم كرسى مملكة الأرمن . ثم رجع السلطان الى نحو الديار المصرية ، وطلع قلعة الجبل .

سنة اثنتين وتسعين وستمائة (١٢٩٣ م) :

فيها خرج السلطان على حين غفلة على الهجن ،

فلما خرج من القاهرة توجه الى نحو الكرك ، فاستقر بالأمير اقوش نائبا . ثم توجه من هناك الى دمشق ، فعرض عليه العسكر بدمشق ، وعين جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ليتوجهوا الى نحو سيس . فلما وصلوا الى سيس أرسل صاحب سيس يطلب الأمان ، فأرسل الأمراء يكاتبون السلطان بذلك ، فعاد الجواب من السلطان : « ان كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع — وهى قلعة البهنسا وقلعة مرعش وتل حمدون — فأعطوه الأمان . وان لم يسلم هذه الثلاث قلاع فحاصروه » ... فلما وصلت مراسيم السلطان بذلك سلم صاحب سيس تلك القلاع الثلاث ، وحصل الصلح ، ورجع العسكر من سيس .

ثم ان السلطان أقام بدمشق الى مستهل رجب ، ثم توجه من هناك الى نحو حمص ، فأضافه الأمير مهنا بن عيسى ثلاثة أيام بلياليها . ثم ان السلطان بدا له أن يقبض على الأمير مهنا بن عيسى وعلى اخوته ، فقبض عليهم وولى الأمير على بن حديثة عوضا عن الأمير مهنا بن عيسى .

ثم ان السلطان رجع الى دمشق ، ورسم للأمير بيدرا النائب بأن يأخذ العسكر ويتوجه الى القاهرة . فأخذ الأمير بيدرا فى أسباب التوجه الى القاهرة ، وأخذ معه الأمراء والعسكر ، ورجع الى مصر ، وأقام السلطان بدمشق على سبيل التنزه ، ثم توجه الى الديار المصرية ودخل القاهرة فى موكب عظيم وكان له يوم مشهود لم يسمع بمثله . وزينت له القاهرة بالزينة الفاخرة ، وسار فى الموكب مثل العروس ، حتى طلع القلعة وجلس على سرير المملكة أحسن جلوس .

وفى هذه اسنة توفى القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر الشريف ، وكان مولده فى سنة عشرين وستمائة ، فكانت مدة حياته اثنتين وسبعين سنة ، وكان له نظم ونثر فائق ، فمن ذلك قوله :

ان كانت العشاق من أشواقهم
جعلوا النسيم الى الحبيب رسولا
فأنا الذى أتلو لهم : ياليتنى
كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) :

فيها توجه الملك الأشرف خليل الى نحو البحيرة على سبيل التنزه ، فخرج من القاهرة فى ثالث المحرم ، فلما وصل هناك ضرب خيامه فى مكان يعرف بالحمامات — وهو غربى تروجه — فأقام هناك مدة .

ثم انه قصد أن يتوجه الى ثغر الاسكندرية ، فأرسل الصاحب شمس الدين ابن السعلوس الى ثغر الاسكندرية ليجهز الاقامات لأجل قدوم السلطان . فلما دخل ابن السعلوس الاسكندرية ، وجد غلمان الأمير بيدرا النائب بثغر الاسكندرية وقد استولوا على بهار الأمير بيدرا وأدخلوه فى الحواصل — وكان أعظم من بهار السلطان — فحصل بين ابن السعلوس وبين الأمير بيدرا تشاجر ، فأرسل ابن السعلوس يكاتب السلطان بما جرى من غلمان الأمير بيدرا وما رأى عنده من البهار وما قاله غلمان بيدرا ، وزاد على كل كلمة عشرا ، وأغلظ فى القول ... فلما سمع السلطان ما فى مكاتبة ابن السعلوس ، غضب على الأمير بيدرا أشد الغضب ، وأضمر له العطب ، فكان كما قال القائل :

يا ناقلا الىّ قول حاسدى
لا ينبغى نقل الذى لاينبغى

لا تؤذنى فى حجة النصح فما
أسمعنى السوء سوى مبلغى

ثم ان السلطان أرسل خلف الأمير بيدرا وقت الظهر . فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام ، وقصد القبض عليه وتوعده بكل سوء ، فتلطف به الأمير بيدرا فى الكلام حتى خرج من بين يديه ، فاجتمع بالأمراء من خشداشينه واتفق رأيهم على الوثوب على السلطان .

ثم ان السلطان قصد أن يتصيد ويخلو بنفسه ، فأعطى الأمراء والعسكر دستورا بأن يتوجهوا الى القاهرة الى حين يعود السلطان ، فمضى الأمراء والعسكر الى القاهرة ، ولم يبق مع الملك الأشرف سوى بعض مماليك جمدارية . فلما كان يوم السبت خامس المحرم ركب السلطان وانفرد وحده — وليس معه سوى أمير شكار شهاب الدين بن الأشل — فلما بلغ ذلك الأمير بيدرا رجع من أثناء الطريق وقال هذا وقت انتهاز الفرصة ... قيل فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصه
تصير ان لم تنتهزها غصه

وان رأيت النصر قد لاح لكا
فلا تقصر واحترز أن تهلكا

فأرسل الأمير بيدرا خلف خشداشينه — وهم الأمير قرا سنقر ، والأمير لاچين ، والأمير بهادر ، والأمير آق سنقر ، وجماعة من الخاصكية — فشدوا فى أوساطهم تراكيش وسيوفا ، وركبوا خيولهم ، ثم ساقوا خلف السلطان ، فوجدوه منفردا وحده وليس معه سوى أمير شكار وبعض مماليك جمدارية ... فلما رآهم السلطان قاصدينه — وكانوا نحو عشرة من الأمراء — أحس بالشر ، وظهر له منهم الغدر . فلما أن وصلوا اليه عاجلوه بالحسام قبل الكلام . فكان أول من ابتدأه بالحسام الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فضربه بالسيف على يده ، فصاح عليه الأمير لاچين وقال له : « ويلك ! الذى يريد أن يتسلطن يضرب هذه الضربة ؟ » . ثم ضربه الأمير لاچين على كتفه ضربة فوقع الى الأرض ... فجاء الأمير بهادر ، رأس نوبة النواب ، ونزل عن فرسه ، وأدخل السيف فى دبر السلطان وأخرجه من حلقه ، وصار كل واحد من الأمراء يظهر ما كان فى نفسه من السلطان ، ثم تركوه ميتا فى المكان الذى قتل فيه ، ثم ردوه الى الوطاق .

وتشاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فوقع رأيهم على أن يولوا الأمير بيدرا نائب السلطنة ، فحلف له الأمراء ، ثم قبلوا له الأرض ولقبوه بالملك الأمجد ، وقيل بالملك الرحيم . ثم فكوا الوطاق وتوجهوا الى القاهرة ، فأركبوا الأمير بيدرا تحت العصايب السلطانية ، ثم شرعوا فى مسك جماعة من الأمراء . منهم الأمير بيسرى ، والأمير بكتمر السلحدار ، وغير ذلك من الأمراء .

فلما وصل هذا الخبر الى الأمراء الذين كانوا بالقاهرة ، ركبوا خيولهم على حمية سائر الأمراء والمماليك السلطانية ، فلما عدوا من الجيزة ووصلوا الى الطرانة تلاقوا هم وبيدرا هناك ، فوقع بينهم على الطرانة واقعة عظيمة ، فانكسر بيدرا ، وسار يتسحب من كان معه من المماليك ويجىء عند الأمير كتبغا . وكان بيدرا قد جمع معه من عربان الجيزة جماعة كثيرة ، فلما رأوا بيدرا قد انكسر رجعوا الى البحيرة مطرودين .

وكان بيدرا لما انكسر توجه نحو الجبل فتبعه جماعة من المماليك السلطانية ، فقبضوا عليه ، وأتوا به عند الأمير كتبغا . فلما رآه مماليك الأشرف قطعوه قطعا بالسيف ، وشقوا بطنه ، وأخرجوا كبده ، وصار كل واحد منهم يقطع منه قطعة ويأكل منها ، ثم حزوا رأسه وحملوها على

رمح ، وقصدوا التوجه الى القاهرة فطافوا برأس بيدرا فى المدينة ثم علقوها على باب بيته . فلما رأى من كان مع بيدرا من المماليك والأمراء انه قتل ، هربوا واختفوا .

ثم ان الأمير سنجر الشجاعى نادى النواتية من شاطىء البحر بأن لا أحد من النواتية يعدى بمملوك من عسكر بيدرا ، ولا بأحد من حاشيته ... هذا ما كان من أمر الأمير بيدرا .

وأما ما كان من أمر الأشرف خليل بعد قتله ، فانه أقام بعد قتله ثلاثة أيام لم يدفن ، وهو مطروح فى البرية ، وقد أكلته الذئاب حتى قال فيه الشاعر هذا المعنى :

ألم تر أن الليث حقا تناهشت
ذئاب الفلا منه ذراعا وساعدا

ثم ان والى تروجه ، أيدمر الفخرى ، حمل الأشرف خليلا على جمل وأتى به الى القاهرة ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى مدرسته التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها .

وكان الملك الأشرف حسن الوجه ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، ضخم الجسد ، كبير الوجه ، شديد البأس ، مهيبا فى أعين الناس ، كفؤا للسلطنة ، عارفا بالمملكة . وكان بطلا شجاعا مقداما على القتال ، لا يكل من الحروب ليلا ولا نهارا ، وكان مسعودا فى حركاته ، ولو طال عمره لكان يفتح غالب بلاد العراق ... ولا يعرف فى أبناء الملوك من يناظره فى العزم والشجاعة والاقدام ، وعلى هذا قد اتفق أرباب التواريخ فى ترجمته .

وكان يميل الى شرب الراح والى السماع الطيب ، وكان كثير الانهماك على اللذات ، وكان عنده معرفة بصنعة الانشاء والتوقيع ، وكان يتعاظم حتى كان يكتب فى علامته على المراسيم والمربعات حرف الخاء فقط ، اشارة الى الحرف الأول من اسمه . ومنع الموقعين أن يكتبوا لأحد من الأمراء والنواب « الزعيمى » ، وكان يقول : « من زعيم الجيوش غيرى ؟ » .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر ، كاتب السر الشريف ، قبل موته : « ما رأيت ولا سمعت بأحسن من فهم الملك الأشرف خليل . ولقد كنت أحضر بالمراسيم للعلامة ، فما علّم على مرسوم قط الا وقرأه جميعه ، وفهم ما فيه ، بل كان يخرج علينا أشياء كثيرة فى صنعة التوقيع ونرى فيها الصواب منه » .

ولكنه كان من مساويه أنه نفى الملك العادل سلامش وأخاه سيدى خضر — وهما أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى — كانا فى الكرك ، فنفاهما الأشرف خليل الى القسطنطينية ، وقد تخيل من اقامتهما فى الكرك ، فأرسل الأمير عز الدين أيبك الموصلى فأخذهما من الكرك وأمهما معهما ، وتوجه بهما الى ثغر الاسكندرية ، ثم أرسلهما من البحر المالح الى القسطنطينية ، فلما وصلا الى هناك أكرمهما الأشكرى صاحب القسطنطينية ، وأحسن اليهما ، ورتب لهما ما يكفيهما من النفقة فى كل يوم .

وأما سلامش فأدركته المنية هناك فمات . فلما مات صبرته أمه فى تابوت الى أن اتفق عودها الى القاهرة فحملته معها وهو ميت ، فدفنوه بالقرافة . ومات سلامش وله من العمر نحو اثنتين وعشرين سنة .

وأما سيدى خضر فانه عاد الى مصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ومن مساوىء الأشرف خليل أنه خنق سبعة من الأمراء المقدمين فى ليلة واحدة كما تقدم . وكان سفاكا للدماء ، قتلّ خلقا كثيرا من الأمراء وغيرهم .

ومن مساويه أيضا أنه كان يسمع الكلام فى حق الناس بالباطل من وزيره ابن السلعوس ، وكان ذلك سببا لزوال ملكه . ولكن كان عنده العدل فى حق الرعية ، ويقضى بالحق على الأمراء المقدمين للسوقة ، ولا يراعى فى ذلك أحدا . وكان منقادا للشريعة ويحب العلماء ، وكان اذا ظهر له الحق لا يوالس عليه ، وفيه يقول بعض الشعراء :

يا أيها الملك الذى سطواته
حلمت بها الأعداء فى يقظاتها
ملك تمر له الملوك بأنه
انسان أعينها وعين حياتها
شتت شمل المال بعد وفوره
وجمعت شمل الناس بعد شتاتها

وكانت قتلة الأشرف خليل يوم السبت بعد العصر خامس عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة . ومات وله من العمر ثلاثون سنة ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث سنين وشهرين وخمسة أيام .

وأما فتوحاته التى افتتحها فى أيامه من المدن فهى مدينة عكا وصيدا وبيروت وعثليث وبهنسا وقلعة الروم ومرعش وتل حمدون وصور .

وأما ما أنشأه من العمارات فهى قاعة الأشرفية التى بقلعة الجبل ، والمدرسة التى بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وله غير ذلك من الآثار .

وقيل بلغت عدة المماليك السلطانية فى أيامه اثنى عشر ألف مملوك .

وتوفى فى أيامه أبو جلنك الحلبى الشاعر ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد . ومما وقع له أنه دخل حلب ودمشق فامتدح القاضى كمال الدين ابن الزملكانى الشافعى بقصيدة سينية وجلس على الباب ينتظر الجائزة ، فأرسل له القاضى رقعة بأن يصرف له رطلان من الخبز ، فغضب أبو جلنك ومضى ... ثم بعد مدة دخل أبو جلنك الى بستان من منتزهات دمشق فأقام فيه يومه ، ثم سأل عن ذلك البستان فقيل له ان البستان لقاضى القضاة كمال الدين ابن الزملكانى المشار اليه ، فكتب أبو جلنك الحلبى على بعض حيطان ذلك البستان هذين البيتين :

لله بستان حللنا دوحه
فى جنة قد فتحت أبوابها
والبان تحسبه سنانيرا رأت
قاضى القضاة فنفشت أذنابها

فهجا القاضى بأحسن عبارة وألطف اشارة .

ولما قتل الأشرف خليل ، وجرى للأمير بيدرا ما جرى ، وقع رأى الأمراء على سلطنة محمد ابن قلاون أخى الأشرف خليل فسلطنوه ولقبوه بالملك الناصر ، وكان القائم فى ذلك الأمير كتبغا .

الملك الناصر

هو الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسلطن بعد قتل أخيه الملك الأشرف خليل فى يوم الخميس ثامن عشر المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو تسع سنين ودخل فى العاشرة ، وكان مولده سنة أربع وثمانين وستمائة . وكانت أمه أشلون بنت الأمير شنكاى ، فلما أن تسلطن خلع على الأمير كتبغا واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير بيدرا ، وخلع على الأمير سنجر الشجاعى واستقر به وزيرا عوضا عن الأمير شمس الدين بن السلعوس ، وخلع على الأمير بيبرس الجاشنكير واستقر به استادارا وكاشف الكشاف ... وفى ذلك اليوم

طافوا برأس بيدرا على رمح ، ثم علقوها على باب القلعة .

ولما تولى الملك الناصر واستقر أمره ، قبض الشجاعى على جماعة من الأمراء ممن كانوا سببا فى قتل الأشرف خليل ... فقبض على الأمير قفجق السلحدار ، والأمير قرمش السلحدار ، والأمير بورى السلحدار ، وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ، والأمير لاچين چركس ، والأمير مغلطاى المسعودى ، والأمير كردى الساقى وهو صاحب الحمام الذى فى المدابغ .

فلما قبض عليهم قيدهم وسجنهم فى البرج الذى فى القلعة . ثم انه قبض على جماعة من المماليك السلطانية وسجنهم بخزانة شمايل ، ثم ان الأمير بيبرس الجاشنكير تولى عقوبة هؤلاء الأمراء وصار يقررهم على من كان سببا فى قتلة الأشرف خليل . ثم رسم الأمير كتبغا بقطع أيديهم وأرجلهم ، وسمروا على الجمال ، وطافوا بهم فى القاهرة ، وكان يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، ثم وسطوهم فى سوق الخيل ومضى أمرهم .

ثم ان الشجاعى قبض على الصاحب شمس الدين بن السعلوس الذى رأى من العز والعظمة مالم يره غيره من أرباب الوظائف . فلما قبض عليه الشجاعى جعل يعاقبه ويعصره بالمعاصير حتى مات تحت الضرب ، وكانت وفاته فى يوم الأحد خامس عشر صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، فاحتاط الشجاعى على موجوده جميعه ، وصادر عياله وغلمانه وحاشيته ونساءه وأقاربه ، واستصفى أموالهم جميعها حتى صادر سائر أصحابه ، فذهبت أمواله ، وزال سلطانه ، واختفى سعده ، وظهر عكسه ، وظفرت به أعداؤه ، وتولى الدهر عنه وما دعاه ، فكان كما قيل :

لا تفرحن بخير جاء من غلط
فللزمان اساءات واحسان
وكن من الدهر ان يصحو على حذر
فما تقدمت الا وهو سكران

ومن النكت اللطيفة ... قيل ان الصاحب شمس الدين بن السعلوس لما أن رقى وبلغ من العلو ما بلغ فى دولة الأشرف خليل ، أرسل ابن السعلوس يطلب أقاربه الذين كانوا بدمشق ، فكلهم أجابوه الى الحضور الا شخصا من أقاربه يقال له زين الدين ، فانه أبى الحضور وخاف على نفسه ولم يوافق على الدخول الى مصر ، وكتب الى ابن السعلوس فى رقعة وهو يقول هذين البيتين :

تثبت ياوزير الملك ، واعلم
بأنك قد وطئت على الأفاعى
وكن بالله معتصما فانى
أخاف عليك من نهش الشجاعى

فكان الفأل بالمنطق ... فما كان عن قريب حتى قتل الأشرف خليل ، وتسلم الشجاعى ابن السعلوس ، واستصفى أمواله وعاقبه حتى مات تحت العقوبة كما تقدم .

ثم ان سنجر الشجاعى لما رأى أن الوقت قد صفا له وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، استخف بالسلطان الملك الناصر محمد لصغر سنه ، فحدثته نفسه بالسلطنة ، فصار يرمى الفتن بين الأمراء وبين الأمير كتبغا نائب السلطنة ، فصار مع الأمير كتبغا فريق من العسكر ، وفريق مع الشجاعى ... فكان الشجاعى يبذل الأموال على جماعة من المماليك البرجية حتى قيل انه أنفق عليهم فى يوم واحد ثمانين ألف دينار ، واتفق معهم بأن كل من قتل أميرا وجاء برأسه من عصبة الأمير كتبغا يأخذ بيته وبركه واقطاعه . فلما بلغ ذلك الأمير كتبغا اجتمع بأعيان خشداشينه وألبسهم آلة الحرب ووقفوا فى سوق الخيل . فلما علم الشجاعى بذلك أغلق باب القلعة وعلق السنجق

السلطانى ودق الكئوسات حربى ، ثم صار ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، وصار الأمير كتبغا يحاصر القلعة وقطع عنها الماء ، فلما كان يوم الجمعة ثالث عشر من صفر نزل المماليك البرجية من القلعة على حين غفلة ووقعوا مع الأمير كتبغا واقعة قوية حتى كاد الأمير كتبغا أن ينكسر . ثم كسرت عصبة الأمير كتبغا فاجتمع معه الأمير بيسرى ، والأمير بكتاش أمير سلاح ، والأمير بكتوت العلائى ، والأمير أيبك الموصلى ، والأمير آق سنقر ، والأمير بلبان الحسنى ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأمراء الأربعين والأمراء العشراوات والمماليك السلطانية ... فوقعوا مع المماليك البرجية واقعة قوية ، فانكسر المماليك البرجية وطلعوا الى القلعة منهزمين ، وليس لهم من ناصر ولا معين .

ثم ان خوند أشلون ، أم الملك الناصر محمد ، أرسلت خلف الأمير كتبغا من باب السلسلة ، وتحدثت معه من أعلى السور ، وقالت له : « ايش قصدك حتى نفعله ؟ ... ان كان قصدك أن خلع ابنى من السلطنة فافعل » . فقال الأمير كتبغا : « أعوذ بالله السميع العليم ! والله لو بقى من أولاد أستاذنا بنت عمياء ما أخرجنا الملك عنها ، ولا سيما ابن أستاذنا رجل وفيه كفاءة لذلك . وانما قصدنا القبض على الشجاعى واخماد الفتنة » ... فانفصل الأمر على ذلك .

فلما سمع من كان من عصبة الشجاعى ما جرى صاروا ينزلون من القلعة ويجيئون الى الأمير كتبغا ، فلا زالوا على ذلك حتى لم يبق عند الشجاعى الا القليل . فلما رأى الشجاعى عين الغلب أرسل يطلب الأمان من الأمير كتبغا ، فلم يعطه كتبغا أمانا ولا وافقه بقية الأمراء على ذلك .

ثم ان الشجاعى دخل الى السلطان فى صورة أنه يستشيره فيما يكون هذا الأمر وما يفعل فى ذلك ، فقال له السلطان : « يا عمى ايش آخر هذا الحال الذى أنتم فيه ؟ » . فقال له الشجاعى : « هذا كله لأجلك يا ابن أستاذى ... فانهم قصدوا أن يخلعوك من السلطنة ويمسكونى أنا » . فقال له السلطان : « يا عمى ، أنا أعطيك نيابة حلب واخرج اليهم فى هذه الساعة لتستريح منهم » .فلم يوافق على ذلك الشجاعى وأغلظ على السلطان فى القول ، فقام اليه المماليك الذين كانوا عند السلطان وأمسكوه وقيدوه وأرسلوه الى البرج .

فبينما هو فى أثناء الطريق اذ خرج عليه جماعة من المماليك البرجية فقتلوه ، وقطعوا رأسه ووضعوها فى فوطة حرير ، وكان الذى قتل الشجاعى شخصا من المماليك يقال له بهاء الدين أقوش . فلما خرج برأس الشجاعى الى باب القلعة رآه بعض المماليك البرجية الذين هم من عصبة الشجاعى ، فقالوا له : « ما معك فى هذه الفوطة ؟ » . فقال : « خبز سخن أرسله السلطان الى الأمراء ليعلموا أن عندنا الخبز كثير » . فتركوه حتى مضى ونزل من القلعة ... ولو علموا أن معه رأس الشجاعى لقتلوه شر قتلة

فلما نزل الى الرميلة رمى برأس الشجاعى بين يدى الأمير كتبغا . فلما رأى الأمراء رأس الشجاعى توجه كل واحد منهم الى بيته ، وخمدت الفتنة ، ولم يبق شر بينهم .

ثم ان الأمير كتبغا رسم بأن يطوفوا برأس الشجاعى فى مصر والقاهرة ، فطافوا بها وهى على رمح ، والمشاعلية تنادى عليها ، وكان أكثر الناس من أهل مصر والقاهرة يكرهون سنجرا الشجاعى ، فصاروا يعطون المشاعلية شيئا من الفضة ويأخذون منهم الرأس ويدخلون بها الى دارهم ، ولا يزالون يصفعونها بالقباقيب والنعال حتى يشتفوا منه ، وطافوا بها فى الحارات والأزقة حتى طافوا بها فى حارات زويلة ، وصار اليهود يدخلون بها الى

بيوتهم ، ولم يزالوا يصفعونها بالنعال حتى اشتفوا منها ، وربما كانوا يبولون عليها ، فأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية حتى قيل كان مع المشاعلية برنية خضراء يحصلون فيها الفضة التى تدخل عليهم من الناس ، فقيل انهم ملأوا البرنية ثلاث مرات فضة ... ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الوقائع ، وهى من الغرائب .

قيل كان سنجر الشجاعى هذا رجلا طويلا عريضا ، كامل الخلقة ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، مهيب الشكل ، قاسى القلب ، مظلم الصورة ، عسوفا كثير الأذى ، اذا ظفر بأحد لا يرحمه ، ولا يراعى فى الأنام خليلا ... فلما أن قتل لم يرث له أحد من الناس فكان كما قال القائل :

لا تفعل الشر فتسمى به
وافعل الخير تجاز عليه
أما ترى الحية من شرها
يقتلها من لا تؤامى عليه

فلما قتل الشجاعى وخمدت الفتنة ، طلع الأمراء عند السلطان وجمعوا المماليك البرجية ، وكانوا يسكنون فى أبراج القلعة ، فرسم الأمير كتبغا بأن ينزلوا من القلعة ويسكنوا فى الأبراج التى فى سور القاهرة خلف البرقية ، فسكنوا بها — وكانوا نحو أربعة آلاف وسبعمائة مملوك — فرتب لهم الأمير كتبغا ما يكفيهم فى كل يوم ، وشرط عليهم أنهم لا يركبون ولا يخرجون من الأبراج .

ثم ان الأمير كتبغا قبض على جماعة من الأمراء الذين كانوا من عصبة الشجاعى ، وهم : الأمير بيبرس الجاشنكير أستادار العالية ، وقبض على الأمير اللقانى أمير أخور كبير ، وقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم أفرج عن جماعة من الأمراء الذين كانوا مسجونين بالثغر المذكور ، وهم : الأمير قفجق السلحدار ، والأمير عبد الله حامل الخبر ، والأمير قرمش ، والأمير بورى ، والأمير لاچين جركس ، والأمير مغلطاى المسعودى ، والأمير كردى الساقى ، والأمير عمر شاه السلحدار ... فلما حضروا خلع عليهم وأعادهم الى وظائفهم واقطاعاتهم .

سنة اربع وتسعين وستمائة (١٢٩٤ م) :

فى يوم عاشر المحرم ثار جماعة مماليك الأشرف خليل تحت الليل ، وفتحوا باب سعادة وهجموا على اصطبلات الناس . فلما طلع النهار أرسل الأمير كتبغا فقبض على من فعل ذلك من المماليك ، وقطع أيديهم ، وصلب على باب زويلة منهم جماعة ووسط منهم جماعة ، وكانوا نحوثلثمائة مملوك .

فلما جرى ذلك اجتمع الأمراء وضربوا مشورة وقالوا قد فسدت الأحوال لكون السلطان صغير السن ، وطمع المماليك فى حق الرعية ، ومن الرأى أن نولى سلطانا كبيرا يقمع المماليك عن هذه الأفعال . فعند ذلك وقع الاتفاق من الأمراء على خلع الملك الناصر محمد ، وأن يولوا كتبغا ، فخلعوا الملك الناصر من السلطنة وولوا كتبغا ، فكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون فى هذه المرة أحد عشر شهرا وأياما .

الملك العادل كتبغا

هو الملك العادل كتبغا ، بن عبد الله المنصورى ، وهو العاشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . تسلطن بعد خلع الملك الناصر محمد

ابن قلاون فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين وستمائة ، وتلقب بالملك العادل ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء .

وكان أصله من سبايا التتار ، أخذه الملك المنصور قلاون فى وقعة حمص الأولى ، وذلك فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، فصار من جملة مماليك السلطان قبل أن يلى السلطنة ، فلما تسلطن جعله أمير عشرة ، ثم بقى مقدم ألف . فلما قتل الأشرف خليل وتولى أخوه محمد جعله نائب السلطنة ثم بقى سلطانا . فلما تم أمر كتبغا فى السلطنة استقر بالأمير لاجين نائب السلطنة عوضا عن نفسه . وكان الأمير لاجين ممن تواطأ على قتلة الملك الأشرف . فلما تولى أخوه محمد هرب الأمير لاجين — وكان من عصبة بيدرا — فاختفى لاجين مدة طويلة نحو سنة ، فكان مقيما فى خزانة أحمد بن طولون . ثم ان الأمير كتبغا شفع فيه عند الملك الناصر محمد بن قلاون ، فقابله به ، فرضى عليه السلطان ، وأنعم عليه بتقدمة ألف . فلما تسلطن كتبغا جعله نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور المملكة جميعها ، وجعل الأمير بهادر حاجب الحجاب .

ثم ان الأمير كتبغا لما ثبت أمره فى السلطنة صار يقرب خشداشينه وينعم عليهم بتقادم ألوف وبالاقطاعات السنية ، وقويت شوكته وراج أمره فى السلطنة وصار له عصبة .

سنة خمس وتسعين وستمائة (١٢٩٥ م) :

فيها أجدبت البلاد وشح النيل ، وقد وصل الى اثنى عشر ذراعا ثم هبط ، فشرقت الأراضى ووقع الغلاء والقحط بالديار المصرية ، وشحط سعر القمح الى مائة وسبعين درهما كل أردب ، وكذلك الفول ، وبلغ سعر اللحم كل رطل سبعة دراهم ، وبيع كل فروج بخمسة عشر درهما ، وبيعت البيضة الواحدة بأربعة دراهم ، وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين درهما . واشتد الأمر على الناس حتى أكلوا الكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال ، ولم يبق عند أحد شىء من الدواب ... حتى قيل صار يباع الكلب السمين بخمسة دراهم ، والقط بثلاثة دراهم . فلما طال الأمر على الناس أرسل الله تعالى اليهم جرادا كثيرا فأكل الناس منه شيئا كثيرا حتى قيل كان يباع منه كل أربعة أرطال بدرهمين . وقد عم هذا الغلاء سائر البلاد ... حتى البلاد الشامية ، حتى مكة والمدينة وسائر أعمال الديار المصرية .

ثم أعقب هذا فناء عظيم حتى صار الناس يتساقطون موتى فى الطرقات ... قيل مات فى هذه السنة من الناس نحو الثلث ، حتى كفن الملك العادل كتبغا من ماله فى مدة يسيرة من مات من العربان على الطرقات نحو مائتين وسبعين ألف انسان ، فجافت منهم الحارات والأزقة ، وصار الرجل يكون ماشيا فيقع ميتا فى الحال . وفى ذلك يقول ابن المعمار :

يا طالبا للموت قم واغتنم
هذا أوان الموت ما فاتا

قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا

ثم كشف الله عن الناس هذه الكربة ، وتراجع الأمر قليلا قليلا ، وانحطت الأسعار ، وانصلح الحال كما كان أولا ، وزالت تلك الشدة العظيمة فكان كما قيل :

قل لمن يحمل هما ان هذا لا يدوم
مثل ما تفنى المسرات كذا تفنى الهموم

وفى هذه السنة — وهى سنة خمس وتسعين وستمائة — توفى الشيخ الزاهد الناسك سيدى

فتح الأسمر رحمة الله عليه . وهو فتح بن عثمان الأسمر التكروري المراكشي ، قدم من مراكش الى دمياط على سبيل التجريد ، وكان يسقى فى دمياط الماء فى الأسواق احتسابا من غير أن يأخذ من أحد شيئا ، وكان يلازم الصلاة فى المسجد مع الجماعة ، وكان لا يرى الا وقت الصلاة ، واذا سلم الامام عاد الى انعكافه . واستمر على ذلك حتى توفى فى ليلة الجمعة ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وستمائة ، ودفن بثغر دمياط بجوار مسجد الفتح وقبره يزار الى الآن ، وقد قيل فى المعنى :

لعمرك ما دميـــاط الا حبيبة
تهيم الورى منها بأحسن منظـر
لها ناظر منها يصـــول بأبيض
ويطعن من فتح القـوام بأسمر

وفى هذه السنة أيضا كانت وفاة الشيخ سراج الدين الوراق ، الشاعر الماهر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيـد . وكان مولده فى سنة خمس عشرة وستمائة ، ووفاته فى سـنة خمس وتسعين وستمائة ، فكانت مدة حياته نحو ثمانين سنة . ومن شعره لنفسه قوله :

واخجلتى وصحائفى سودا غـدت
وصحـائف الأبـرار فى اشراق !
وموبخ لى فى القيـامة قـائل :
أكـذا تكون صحـائف الوراق ؟

ومما وقع للسراج الوراق أن الشيخ نصـير الدين الحمامى قال له : « قد عملت قصيـدة فى الصـاحب تاج الدين السبكى ، وأشتهى أن تثنى عليها اذا قرئت بحضرتك » ... فلما أنشدها النصير الحمامى بحضرة الشيخ سراج الدين أنشـأ على الفور ارتجالا وهو يقول :

شـاقنى للنصـير شـعر بديـع
ولمثـلى فى الشـعر نقـد بصـير
ثم لمـا سـمعت باسـمك فيـه
قلت نعـم المـولى ونعـم النصير

ومن هنا نرجع الى أخبار كتبغا .

سنة ست وتسعين وستمائة (١٢٩٦ م) :

فيها سافر السلطان الى البـلاد الشامية بسبب تمهيد البلاد ، فلما دخل الشام صلى بها الجمعة ، ثم فى يوم السبت لعب فى ميدان دمشق بالكرة وأقام بها أياما وعزل من عزل وولى من ولى ، ثم قصد التوجه الى الديار المصرية . فلما رحل من دمشق ووصل الى وادى فجمـة ، وقع بين الأمير لاچين نائب السلطنة وبين جماعة من الأمراء كلام فبادر الأمير لاچين وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير بنجاص العادلى ، والأمير بكتوت الأزرقى ، وكانا جناحى الملك العادل كتبغا . فلما بلغه ذلك رجع الى دمشق فى نفر قليل من العسكر .

فلما رجع كتبغا الى دمشق احتوى الأمير لاچين على خـزائن المـال ، وركب تحت العصـائب السلطانية ، وقصد التوجه الى الديار المصرية ... هذا ما كان من أمر الأمير لاچين .

وأما ما كان من أمر الملك العادل كتبغا فانه لمـا رجع الى دمشق ، أقام بها ثلاثة عشر يوما وهو بقلعة دمشق ، وقد أطاعه أهلها وتعصبوا له ، فما مضى قليل حتى جاءت الأخبـار من القـاهرة بأن لاچين قد تسلطن بمصر وتلقب بالملك المنصور ، فعند ذلك انحل برم الملك العادل كتبغا وانصرف عنه الناس .

فلما كان يوم الخميس ثامن ربيـع الأول من السنة المذكورة ، وصل الى دمشق الأمير حسام الدين لاچين استادار العالية ، وعلى يده مراسيم لقضاة دمشق وللأمراء ، فاجتمعوا بدار السعادة وقرأوا مراسيم السلطان لاچين على القضاة والأمراء

بأن يحضروا الملك العادل كتبغا ويشهدوا عليه بالخلع من السلطنة ، فقام قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة الشافعى — هو والأمير لاچين الاستادار — ودخلوا على العادل كتبغا وهو بقلعة دمشق ، وتكلموا معه . فلما رأى كتبغا عين الغلبة أذعن وأشهد على نفسه بالخلع .

ثم فى يوم الاثنين وصل الى دمشق الأمير قفجق المنصورى ، وقد استقر نائب الشام . فلما دخل دمشق نزل بدار السعادة ، وأرسل خلف العادل كتبغا وقال له : « ان السلطان المنصور لاچين يسلم عليك ، ورسم لك بأن تتوجه الى مدينة صرخد ويرتب لك ما يكفيك » ... فقال : « السمع والطاعة ! » .

وخرج من يومه الى صرخد وهو معزز مكرم ، ومعه عياله ومماليكه وغلمانه وبركه ، وتوجه الى صرخد فأقام بها ... فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والديار الشامية الى أن خلع من السلطنة نحو سنتين الا شهرين .

فلما توجه الى صرخد أقام بها الى سنة تسع وتسعين وستمائة ، فلما عاد الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة فى المرة الثانية أنعم على الملك العادل كتبغا بمملكة حماة وأعمالها . وكان الملك الناصر يميل الى كتبغا دون أبيه ، فاستمر كتبغا فى حماه الى أن مات ، وكانت وفاته فى يوم عيد النحر من سنة اثنتين وسبعمائة ، ودفن بحماه ، ثم نقل بعد ذلك الى دمشق ودفن بسفح جبل قاسيون .

وكان كتبغا رجلا قصير القامة ، أجرد اللحية ، أسمر اللون ، وكان موصوفا بالشجاعة ، وكان دينا خيرا سليم الباطن . ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

ومن صفاء باطنه أنه قرب الأمير لاچين وشفع فيه من القتل عند الملك الناصر محمد بن قلاون .

وكان لاچين ممن تعصب على قتل الأشرف خليل . ولما أن تسلطن كتبغا استقر بالأمير لاچين نائب السلطنة ، وفوض اليه أمور السلطنة جميعها . وكان لاچين فى قلبه الغدر لكتبغا حتى وثب عليه وخلعه من السلطنة وجرى عليه ما جرى . وكان لاچين يظهر المحبة لكتبغا وهو فى الباطن بخلاف ذلك كما قيل فى المعنى :

والخِل كالماء : يبدى لى ضمائره
مع الصفاء ، ويخفيها مع الكدر

الملك المنصور

هو الملك المنصور حسام الدين لاچين ، ابن عبد الله المنصورى ، وهو الحادى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد خلع الملك العادل كتبغا ، وذلك فى نصف شهر صفر سنة ست وتسعين وستمائة ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ودقت له الكئوسات .

وكان أصله من مماليك الملك المنصور قلاون . فلما تم أمره فى السلطنة خلع على خشداشينه ، وهم الأمير قرا سنقر المنصورى ، واستقر به نائب السلطنة عوضا عن نفسه ، وأنعم على مملوكه منكوتمر بتقدمة ألف ، ثم خلع على الأمير سنقر الأعسر واستقر به وزيرا .

ثم أخذ فى أسباب عمارة جامع أحمد بن طولون وكان خرابا بغير سقف مدة مائة وسبعين سنة ... وكان لاچين ، لما قتل بيدرا وجرى ما تقدم ذكره ، اختفى فى جامع أحمد بن طولون فى المئذنة مدة طويلة حتى شفع فيه العادل كتبغا عند الملك الناصر محمد بن قلاون ، فلما ظهر ورضى عليه الناصر محمد نذر فى نفسه ان صار سلطانا ليعمرن جامع

أحمد بن طولون كما كان . فلما صار سلطانا عمره ورتب فى سطح الجامع دكة بسبب الميقاتية لتحرير الوقت ، ووقف على ذلك أوقافا كثيرة الى الآن تصرف للميقاتية ، وأحيا رسوم هذا الجامع بعد ما كانت قد درست .

ومن محاسن الملك المنصور لاچين أنه أرسل خلف أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الذين كانوا بالقسطنطينية من حين نفاهم الملك الأشرف خليل بن قلاون ، فأحضرهم الى مصر . فأما سلامش ابن الملك الظاهر فانه أدركته المنية فى القسطنطينية ، فأتوا به — وهو ميت — فى سحلية ، ودفن بالقرافة الصغرى . وكان يسمى ابن البدوية ، وكان جميل الصورة ، مليح الشكل . وأما أخوه سيدى خضر فانه أقام بالقاهرة مدة ثم طلب من السلطان لاچين دستورا بأن يحج ، فأذن له فى ذلك ، فسار الى الحجاز وحج ورجع الى مصر ، وأقام بها مدة ومات ودفن مع أخيه سلامش ، وبه انقرضت أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

ثم ان السلطان لاچين قبض على الأمير قرا سنقر — نائب السلطنة — وسجنه ، وامتقر بمملوكه منكوتمر نائب السلطنة ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، ولم يكن منكوتمر أهلا لذلك .

سنة سبع وتسعين وستمائة (١٢٩٧ م) :

فيها راك السلطان البلاد المصرية ، وهو الروك الحسامى . وكان ابتداء ذلك فى سادس جمادى الأولى من السنة المذكورة . وكان المتكلم فى ذلك شخصا من المباشرين يقال له التاج الطويل ، فشرع فى كتب قوائم بمساحة البلاد وأسمائها .

وكانت البلاد المصرية مقسومة يومئذ على أربعة وعشرين قيراطا ، منها أربعة قراريط للسلطان ، ومنها عشرة قراريط للأمراء والاطلاقات ، ومنها عشرة قراريط للجند كلهم ... فرسم السلطان للمباشرين بأن يكفوا الأمراء بعشرة قراريط مع الأجناد ، وزاد الذين قد تشكوا من الأجناد قيراطا ، وبقى للسلطان ثلاثة عشر قيراطا ، فشكا الجند وضجوا من ذلك . وكان المتكلم فى ذلك الأمير منكوتمر النائب ، فصار يقابح الأمراء والجند أنحس مقابحة ، وعادى سائر العسكر بسبب ذلك ... فنفرت قلوبهم عن السلطان لاچين ، وتمنى كل أحد زواله ، وكثر الدعاء عليه من الناس ، وكان مملوكه منكوتمر من سيئات الدهر ، أظلم خلق الله تعالى وأنحسهم .

فلما كان ثامن رجب من السنة المذكورة فرقت المثالات بما تقرر عليه المال مع الأمراء والجند وهم غير راضين بذلك .

ثم لما مضى أمر ذلك أشار الأمير منكوتمر على السلطان بأن يقبض على جماعة من الأمراء فقبض على جماعة منهم الأمير ايلبك الحموى وغيره من الأمراء ، ثم أرسل بالقبض على قفجق نائب الشام ، فلما بلغه ذلك خرج من الشام هاربا وخرج معه الأمير بكتمر الأبوبكرى والأمير نزلار وغيرهم من الأمراء الذين كانوا بدمشق . فلما خرجوا من دمشق توجهوا الى القان الأكبر غازان ملك التتار ، وكان هذا سببا للفتنة العظيمة التى وقعت بينه وبين عسكر مصر كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

وفى هذه السنة سأل الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله السلطان بأن ينعم له فى أن يحج ، فأنعم له فى ذلك ، ورسم له بألف دينار فأخذها وحج فى تلك السنة ، ثم عاد مع الحجاج الى القاهرة .

سنة ثمان وتسعين وستمائة (١٢٩٨ م) :

فيها توجه السلطان الى القصر الكبير ، وكان صائما ، وكان ذلك يوما شديد الحر فجلس فى القصر

الى وقت الفطور وهو يلعب بالشطرنج ، وكان عنده القاضى حسام الدين الرازى الحنفى ، وامامه محب الدين ابن العسان ، وشيخ العرب يزيد . فلما جلس فى القصر الى وقت المغرب بلغ ذلك جماعة من المماليك الأشرفية — وكان فى قلبهم من السلطان لاجين شيء لأنه كان من جملة من تواطأ على قتل أستاذهم الملك الأشرف خليل — فقالوا هذه ليلة الفرصة ، فاتفقوا مع جماعة من المماليك البرجية بأن يهجموا على السلطان بعد العشاء وهو فى القصر .

وكانت تلك الليلة نوبة شخص من السلحدارية يقال له نوغان الكرمانى ، فاتفق معه شخص يقال له كرجى — وهو مقدم المماليك البرجية — على أن يدخل المماليك ، ويهجموا عليه بعد العشاء ويقتلوه . فلما دخل وقت المغرب أفطر السلطان فى القصر واستمر يلعب فى القصر الى وقت العشاء ، فتقدم كرجى مقدم المماليك البرجية الى الشمعة ليصلحها ، فرمى الفوطة على النمجاة والسلطان منكب على الشطرنج وهو لا يدرى ما خبيء له فى الغيب ، فالتفت اليه السلطان وقال له : « غلقت أبواب الأطباق على المماليك البرجية ؟ » فقال له : « نعم » . فشكره وأثنى عليه .

وكان المماليك البرجية واقفين بالسيوف فى دهليز القصر ، فلما فات وقت العشاء تقدم كرجى الى السلطان وقال له : « ياخجم ، أما تصلى العشاء ؟ » فقال له السلطان : « نعم » . وقام ليصلى العشاء فضربه كرجى بالسيف على كتفه فهدله ، فقام السلطان ليأخذ النمجاة فلم يجدها ، فقبض على كرجى ورماه الى الأرض فجاء اليه نوغان الكرمانى وأخذ النمجاة وضرب بها السلطان على رجله ضربة قوية فقطعها ، فصاح عليه القاضى حسام الدين الرازى : « ويلكم ! كيف تقتلون أستاذكم ؟ » .

فانقلب على ظهره السلطان ووقع الى الأرض ميتا ، فتركوه مكانه ومضوا وأغلقوا عليه باب القصر ، وتركوا عنده الامام والقاضى حسام الدين الرازى .

ثم ان كرجى توجه تحت الليل الى الأمير منكوتمر النائب — وكان ساكنا بدار النيابة بالقلعة — فدق عليه الباب وقال له : « ان السلطان يدعوك » . فأنكر ذلك ، وقال لكرجى : « لعلك قتلت السلطان » . فقال له كرجى : « نعم قتلناه وجئنا اليك نقتلك يانحس » . وكان بين كرجى وبين الأمير منكوتمر حظ نفس من قديم الزمان .

ثم ان كرجى أحرق الباب ودخل على منكوتمر وقبض عليه وتوجه به الى الجب الذى بالقلعة فحبسه به ، وكان بالجب جماعة من الأمراء مسجونون ، وكان منكوتمر سببا لسجنهم كما تقدم . فلما رأوا منكوتمر دخل عليهم قتلوه شر قتلة ... هذا كله جرى فى القلعة تحت الليل وأهل المدينة لم يشعروا بشيء من ذلك ، فلما طلع النهار شاعت الأخبار فى المدينة بما جرى .

ثم ان الزمام شرع فى تجهيز السلطان ، فغسل وكفن ونزل من القلعة فى تابوت هو والأمير منكوتمر ودفنا بالقرافة الصغرى ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين بالديار المصرية الى أن قتل سنتين وشهرين وأياما ، وكانت قتلته فى ليلة الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة . ومات وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة .

وكان رجلا طويل القامة ، أشقر اللون واللحية ، أزرق العينين ، مهيب الشكل ، وكان موصوفا بالفروسية ، شجاعا بطلا ، وكان دينا خيرا أبطل فى أيامه من المكوس التى كانت بالديار المصرية أشياء كثيرة ، ولم يكن من سيئاته سوى مملوكه منكوتمر

هو الذى كان يرمى الفتن بينه وبين الأمراء ، وهو الذى كان يحدث فى القـاهرة أبواب الظلم ، حتى يجلب لأستاذه الدعاء من كل أحد من الناس ، حتى كرهوه وتمنوا زواله وعود الملك الناصر محمد بن قلاون الى الديار المصرية .

وفى أثناء قتلة السلطان لاجين حضر الى القاهرة الأمير بكتاش أمير سلاح ، وكان مسافرا مع طائفة من العسكر الى البلاد الشامية ، فلما أن حضر نزل اليه كرجى و نوغان اللذان قتلا السـلطان لاجين فقبض عليهما وقتلهما شر قتلة ، وكان بين قتلهمـا وقتل السلطان لاجين ليلة واحدة .

ثم ان الأمراء اجتمعوا فى القلعة وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا فوقع الاتفاق منهم على عـود الملك الناصر محمد بن قلاون من الكرك ، فأرسلوا اليــه نجابا الى الكــرك بالحضور فأبطــأ عليهم وأقامت مصر بلا سلطان أحدا وأربعين يوما حتى حضر الملك الناصر من الكرك وعاد الى الملك .

عَودُ الملكُ الناصر محمد بن قلاوون

عاد الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة بالديار المصرية ، وهى السـلطنة الثانية . دخل القاهرة يوم الخميس ثامن جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وستمائة . فلما دخل القاهرة زينت له زينة عظيمة ودقت له الكئوسات ، فلما طلع القلعة لبس خلعة السلطنة — وهى جبة سـوداء بطوق ذهب وعمامة سوداء وسيف بداوى متقلد به — وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشت الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، وقبل له الأمـراء الأرض من كبير وصغير ، وفى ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعى رحمه الله هذين البيتين :

الملك الناصر قد أقبلت دولته مشرقة الشمس
عاد الى كرسيه مثل ما عاد سليمان الى الكرسى

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب ، وخلع على من سـيذكر من الأمراء وهم : الأمير آقوش الأفـرم واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير سـلار المنصورى واستقر به نائب السلطنة ، وخـلع على الأمير بيبرس الجاشـنكير ، واسـتقر به اتابك العساكر ، وأعيد الأمير سنقر الأعسر الى الوزارة ، وخلع على الأمير حسام الدين لاجين وأعيـد الى الاستدارية ، وأنعم على جماعة كثـيرة من مماليك أبيه بتقادم ألوف ، وأنعم على جمـاعة أيضا من المماليك بالاقطاعات السنية ، وتم أمره فى المملكة وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة .

سنة تسع وتسعين وستمائة (١٢٩٩ م)

فيها جاءت الأخبـار من حـلب بأن غازان ملك التتار قد زحف على البلاد ووصل أوائل عسكره الى الفرات ، وهو فى عسكر ثقيل لا يحصى .

وغازان هذا هو ابن أرغون ، بن ابغا ، بن هلاكو الذى أخرب بغداد ، وقتل الخليفة ، وجرى منه ما جرى .

وكان سبب مجىء غازان وزحفه على البلاد هو أن قفجق ، نائب الشام ، لما بلغه أن الملك المنصور لاجين أرسل بالقبض عليه أخذ أولاده وعياله وبركه وماله ، وخرج من الشام وتوجه هاربا الى القان غازان ، وحسن له أن الملك الناصر صغير ، وأن الأمراء والعسكر بينهم الخلف ، وأنه اذا زحـف القان غازان على البـلاد لا يجد من يرده عنها ... فعند ذلك جمع القان غازان عساكر عظيمة ، نحو مائتى ألف مقـاتل .

فلما وصل الخبر الى الديار المصرية اضطربت الأرض واجتمعت الأمراء بالقلعة وضربوا مشورة ، فوقع الاتفاق على أن الأتابكى بيبرس الجاشنكير يتوجه الى حلب ومعه خمسمائة مملوك قبل خروج السلطان ، فخـرج الأتابكى بيبرس على جـرائد الخيل مع العسكر . ثم خرج الملك الناصر محمد بعده فى خامس عشر صفر ، وكان صحبته الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله والقضاة الأربعـة ، وكان قاضى القضاة الشافعى حينئذ شيخ الاسلام : تقى الدين ابن دقيق العيد . وخرج مع السـلطان سائر الأمراء والعسكر ، فجد السلطان فى المسـير حتى وصل الى دمشق فى ثامن ربيع الأول سـنة تسع وتسعين وستمائة ، ثم خرج من دمشق فتلاقى مع جاليش غازان فى مكان يعرف بسـلمية قرب بعلبك ، فوقع بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وهرب الملك الناصر الى بعلبك ، ونهب بركه وسائر برك العسكر ، ولم يبق معه من العسكر الا طائفة يسيرة .

ثم ان القان غازان زحف على ضـياع الشام ونهب ما فيها وسبى أهلها . فلما بلغ أهل الشام ذلك خافوا على أنفسهم من غازان فيما فعله بأهل الضياع ، فتشاوروا مع جماعة من العلماء الذين كانوا بدمشق ، وخرجوا الى غازان يطلبون منـه الأمان ، فخرج قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى ، والشيخ زين الدين الفارقى ، والشيخ تقى الدين ابن تيمية الحرانى ، والقاضى نجم الدين ابن الصرصرى ، والقاضى عز الدين بن تركى ، والشيخ عز الدين بن القلانسى ، والقاضى جـلال الدين القزوينى ، وغير هؤلاء جماعة من العلمـاء والصلحاء . فلما دخلوا على غازان ووقفـوا بين يديه ، وقف الترجمان وتكلم مع القان غازان فى أمرهم وانهم جاءوا يطلبون الأمان منه ، فقال له غازان : « قل لهم انى قد أرسلت اليهم الأمان قبل حضورهم عندى » ... فرجعوا الى دمشق واجتمع فى جامع بنى أمية الجم الغفير ، وقرءوا على الناس الأمان الذى أرسله القان غازان الى أهل دمشق . فلما قرىء عليهم ذلك الأمان وسمعوه فرح الناس بذلك ، وحصل عنـدهم سكون بعد ما كانوا فى اضطراب من أمر غازان .

ثم حضر الأمير قفجق الذى كان نائب الشـام وهرب الى غازان ونزل بالميدان الأخضر وأرسل يقول لنائب قلعة الشام : « سـلم الينا القلعـة ولا تحوجنا الى أن نحاصرك وتغلب بعد ذلك » . فأرسل نائب القلعة يقـول لقفجق : « ليس لك عندى جواب الا السيف . وكيف أسـلم القلعة والملك الناصر على قيد الحياة ؟ » .

فلما بلغ غازان ذلك حاصر القلعة ، ونصب عليها المجانيق ، وأحرق البيوت التى حولها فلم يقـدر عليها .

ثم بلغه أن الملك الناصر تراجع اليه العسكر وهو قاصد نحو الشام . فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى رحل غازان عن دمشق وترك بهـا أميرا من التتار يقال له الأمير قطلو شاه بيك ومعه عسكر من التتار ، وولى الأمير قفجق نائب الشام كما كان أولا ... هذا ما كان من أمر القان غازان .

وأما ما كان من أمر الملك وأمر عسكره فانه لما انكسر ودخل الى بعلبك أقام بها أياما ، ثم قصد التوجه الى الديار المصرية ، وجدّ فى السـير حتى وصل الى القاهرة ، فدخل على حين غفـلة وطلع القلعـة ، وقد نهب جميع ما كان معه من البرك وكذلك الأمراء والعسكر . فلما طلع القلعـة فتح الزردخانة وفرق ما كان فيها من الملبوس والسلاح على العسكر ، ثم فتح حـزائن المال وأنفق على

العسكر ... فأعطى كل مملوك ثمانين دينارا ، وجماعة منهم أعطاهم خمسة وسبعين دينارا ، وجماعة منهم خمسة وستين دينارا ، وأعطى مماليك الأمراء كل واحد خمسين دينارا ثم أنفق على عسكر الشام الذين حضروا بصحبته ، فأعطى كل واحد منهم عشرة دنانير ذهبا ، وعشرة أرادب شعيرا ، وعشرة أرادب قمحا . ثم أنفق على سائر الأمراء والمقدمين والطبلخانات والعشراوات لكل واحد منهم على قدر مقامه . وكان القائم فى تدبير مملكته الأمير سلار نائب السلطنة والأتابكى بيبرس الجاشنكير .

ثم ان الملك الناصر قصد العود الى محاربة غازان ، فبرز بخيامه فى الريدانية ، وخرج من القاهرة ثانيا . وكان صحبته الخليفة الامام أحمد والقضاة الأربعة وسائر الأمراء والعساكر . فلما أقام فى الريدانية تشكى العسكر وتغلبوا عليه فأنفق عليهم نفقة ثانية لترفع أحوالهم ، ثم رحل من الريدانية وجد فى السير ، فتقدم فى جاليش العسكر الأمير سلار نائب السلطنة ، والأتابكى بيبرس الجاشنكير فلما وصل الجاليش الى دمشق تلقاهم الأمير قفجق وأظهر الطاعة للسلطان وباس الأرض ، ولجتمع بالأمراء وأشار عليهم بأن السلطان يرجع الى القاهرة ولا يدخل دمشق ، وسيجيئه الأمر كما يختار .

فعند ذلك رجع السلطان الى القاهرة ، وكان رجوعه اليها فى ثامن عشر شهر رمضان من سنة تسع وتسعين وستمائة .

ومن النكت اللطيفة أن الملك المنصور قلاون — أستاذ الأمير قفجق المذكور — خرج يوما الى نحو المطرية فى أيام النيل على سبيل التنزه ومعه جماعة من الأمراء من أخصائه ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم وذبح خروفا سمينا بيده ، فلما حضر السماط قدموا ذلك الرميس بين يديه فقطعه بيده ، ثم أخذ الكتف منه وجرده من لحمه وتركه ساعة حتى جف ، ثم لوحه على النار قليلا قليلا ، ثم أخرجه ونظر فى لوح الكتف ساعة وأطال التأمل ، ثم تفل عليه وألقاه من يده وظهر فى وجهه الغضب ... فسأله بعض الأمراء عن ذلك — بعد ما سكن غضبه — فقال : « ان وليتم قفجق بعدى نيابة الشام يحصل منه غاية الفساد . فلا تخرجوه بعدى من مصر لئلا تتعبوا من أمره » . فكان الأمر كما قاله الملك المنصور قلاون . والملوك لهم فراسة فى الأمور قبل وقوعها كما قيل فى المعنى :

يرى العواقب فى أثناء فكرته
كأن أفكاره بالغيب كهان
لا طرفة منه الا تحتها عمل
كالدهر لا دولة الا لها شان

ولم يزل الأمير قفجق ممقوتا فى دولة الملك المنصور قلاون حتى مات قلاون وتسلطن خليل ولده ، الى أن تسلطن الملك المنصور لاجين فاستقر بالأمير قفجق نائب الشام . فلما ظهر له منه عين العصيان أرسل بالقبض عليه فهرب قفجق الى القان غازان وحسن له بأن يزحف على البلاد كما تقدم من أخباره .

قال القاضى محيى الدين بن فضل الله : « حكى لى الأمير قفجق ، بعد أن جرى ما جرى ، ورجع الى القاهرة ، وتلاقى عسكر السلطان مع عسكر غازان فكاد غازان أن ينكسر وهم بالهرب ، فطلبنى ليضرب عنقى ، لأنى كنت السبب فى مجيئه الى دمشق ، فلما حضرت بين يديه قال لى : ما هذا

الحال ؟ فقلت : ما ثم الا الخير والسلامة ... فأنا أخبر بعسكرنا فان لهم أول صدمة ثم يولون عن القتال . فالقان يصبر ساعة فما يبقى قدامه أحد منهم . فصبر ساعة فكان ما قاله صحيحا . ولما انكسر عسكر مصر أراد أن يزحف عليهم بما معه من العسكر فقلت فى نفسى : متى زحف عليهم لم يبق منهم أحد . فقلت له : القان يصبر ساعة فان عسكر مصر لهم حيل وخداع ، وربما يكون لهم كمين وراء الجبل فيخرج علينا فننكسر فسمع لى ، ثم وقف ساعة حتى أبعدتم عنا ولم يبق منكم أحد قدامه ... فلو زحف عليكم ما بقى منكم أحد . فلولا أنا ما سلم منكم أحد » .

فكان الأمر كما قيل :

ولو شئت قابلت المسيء بفعله
ولكننى أبقيت للصلح موضعاً

ومن هنا نرجع الى أخبار الملك الناصر محمد ابن قلاون .

ثم فى هذه السنة وصل الخبر من البحيرة بأن قد اختلفت طائفتان من العرب — وهما جابر ومرديس — ونهبوا ضياع البحيرة ، وأحرقوا الجرون ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وعين لهم السلطان تجريدة ... فكان باش العساكر الأمير بيبرس المنصورى أمير دوادار كبير ، وصحبته جماعة من الأمراء نحو عشرين أميرا ، ما بين طبلخانات وعشراوات ، فخرجوا من القاهرة على الفور ، وجدوا فى السير الى أن وصلوا الى تروجه ، ووقعوا مع العرب فكسروهم وهربوا الى الجبال حتى لم يبق منهم أحد ، فأحاط العسكر بجمالهم وأغنامهم وأولادهم ونسائهم ، ثم عاد الأمراء الى القاهرة وهم فى غاية النصرة ... فخلع السلطان على الأمير بيبرس خلعة ، ونزل الى بيته فى موكب عظيم .

سنة سبعمائة من الهجرة النبوية (١٣٠٠ م) :

فيها كان خليفة الوقت الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وسلطان العصر الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون ، وقاضى القضاة من الشافعية شيخ الاسلام تقى الدين ابن دقيق العيد .

وأما الأمراء أرباب الوظائف : فالأمير سلار المنصور نائب السلطنة ، والأمير بيبرس الجاشنكير أتابك العساكر المنصورة ، والأمير بيبرس المنصورى دوادار كبير ، والأمير سنقر الأعسر وزير ، والأمير لاچين استادار ، والأمير عز الدين أيدمر نقيب الجيوش المنصورة ، والأمير أقوش الشمسى حاجب الحجاب ، والأمير ناصر الدين ابن الشيخ واليا بالقاهرة . وبقية الأمراء لم نذكرهم هنا خوف الاطالة ولكن سيأتى ذكرهم فى مواضعه .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين ، فالقاضى محيى الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف ، والقاضى بهاء الدين بن الحلى ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى كريم الدين بن السديد ناظر الخواص الشريفة .

وكان شاعر الوقت يومئذ الشيخ صدر الدين ابن الوكيل ، كان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن شعره ولظمه الرقيق قوله من قصيدة خمرية :

عناصر أربع فى الكأس قد جمعت
وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح
وطوقها فلك والأنجم الحبب
وان أقطب وجها حين تبسم لى
فعند بسط الموالى يحفظ الأدب

وفى أثناء هذه السنة جاءت الأخبار بحركة التتار وقد وصل أوائلهم الى الفرات ، فجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة فى ذلك الخبر ، فقال السلطان للأمراء : « أنتم تعلمون أنى رجعت مكسورا من التتار تلك المرة ، ونهب جميع بركى ، وذهبت الأموال ... والآن لم يبق فى بيت المال لا دينار ولا درهم ، فمن أين أنفق على العسكر ؟ » .

فاتفق رأى الأمراء على أن يوزعوا النفقة على المباشرين وأعيان التجار ومساتير الناس ، ثم ندبوا الى ذلك الأمير سنقرا الأعسر وزير الديار المصرية فشرع فى استخراج الأموال من الناس ، فتحصل من ذلك فوق مائتى ألف دينار . ثم ان السلطان أنفق على العسكر وخرج من القاهرة قاصدا نحو البلاد الشامية . فلما أن وصل الى غزة جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب كسر التتار كسرة قوية ، ورجعوا الى بلادهم هاربين . فلما بلغ السلطان رجع الى القاهرة من غزة ، وكان سبب رجوعه ... قيل ان العسكر تغلبوا عليه هناك وقصدوا منه نفقة ثانية من قلة التبن والشعير ، فانه كان لا يوجد .

ثم ان السلطان عين من الأمراء بكتمر السلحدار وجماعة من الأمراء بأن يتوجهوا من غزة الى حلب ويقيموا بها الى أن يظهر ما يكون من أمر التتار . ثم ان السلطان رجع الى القاهرة ، ودخل فى موكب عظيم ، وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك الأمر .

سنة احدى وسبعمائة (١٣٠١ م) :

فيها توفى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وكانت وفاته فى ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى من سنة احدى وسبعمائة ، وكان قدومه من بغداد فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وذلك فى دولة الملك الظاهر بيبرس البندقدارى . وأقام فى الخلافة نيفا وأربعين سنة ، وهو أول خلفاء بنى العباس بمصر . ولما مات دفن بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وبنيت له هناك قبة .

ولما مات الامام أحمد تولى من بعده ابنه المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ، وهو ثانى خلفاء بنى العباس بمصر واليه تنسب الخلفاء الى الآن بمصر .

سنة اثنتين وسبعمائة (١٣٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أميرا من أمراء القان غازان ، يقال له قطلوشاه ، قد دخل الى حلب على حين غفلة من أهلها ومعه طائفة من عسكر التتار ، وذكروا أن بلادهم قد اضمحلت هذه السنة وقصدهم الاقامة بحلب حتى يشتروا لهم مغلا ... وكل ذلك حيل وخداع .

ثم بعد أيام دخل منهم جماعة نزلوا بالمرعش ، فأرسل نائب حلب يكاتب السلطان بذلك فلما جاء هذا الخبر عين السلطان جماعة من الأمراء المقدمين عدتهم ستة من الأمراء ، وعين ألف مملوك من المماليك السلطانية فخرجوا من القاهرة على الفور مسرعين . فلما وصلوا الى غزة تواترت الأخبار بوصول غازان الى الرحبة ، وأن نائب الرحبة تلطف به وأرسل له بالاقامة مع ولده ومنعه من محاصرة المدينة .

فلما أن بلغ السلطان ذلك أحضر الأمير سلار النائب ، والأتابكى بيبرس الجاشنكير ، وضربوا مشورة فى ذلك ، فأشاروا على السلطان بالخروج قبل أن يتمكن العدو من البلاد ، فنادى السلطان فى جميع أماكن القاهرة للعسكر بالرحيل من كبير وصغير .

ثم ان السلطان أحضر جماعة من عربان الشرقية ومن عربان الغربية ، ونادى بالنفير عاما ، وخرج

مسرعا على جرائد الخيل ، وكان معه الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان والقضاة الأربعة وسائر الأمراء والعسكر من كبير وصغير . فلما رحلوا من الريدانية تقدم الأتابكى بيبرس الجاشنكير مع جماعة من العسكر قدام السلطان .

فلما وصلوا الى الشام جاءت الأخبار بأن جاليش غازان قد وصل الى قرب حماة ، فأرسل الأتابكى بيبرس يستحث السلطان فى سرعة الحضور ، فجدَّ السلطان فى السير حتى وصل الى الشام فى مستهل شهر رمضان من السنة المذكورة .

ثم ان السلطان لم يقم بالشام ، وبرز الى قتال عسكر غازان ... فكان مع السلطان من العساكر المصرية والشامية وعربان جبل نابلس نحو مائتى ألف انسان ، وكان مع غازان مثل ذلك أو أكثر . فتلاقى العسكران على مرج راهط تحت جبل غباغب ، فكان بين الفريقين هناك واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، فكانت النصرة يومئذ للملك الناصر محمد بن قلاون على القان غازان ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وأسر من عسكر غازان نحو الثلث ، وقتل من أمراء مصر الأمير حسام الدين لاجين استادار العالية ، والأمير أوليا بن قرمان ، والأمير سنقر الكافورى ، والأمير آيدمر الشمسى القشاش ، والأمير أقوش الشمسى الحاجب ، والأمير عز الدين نقيب الجيوش المنصورة ، والأمير علاء الدين بن التركمانى ، والأمير حسام الدين على بن ساخل ، والأمير سيف الدين بهادر الدكاجكى ... هؤلاء غير من قتل من أمراء دمشق الشام وحماه وحلب وطرابلس وغزة وغير ذلك من الأمراء . وقتل من المماليك السلطانية والأمراء نحو ألف وخمسمائة مملوك ، هذا خارجا عن العربان والمشاة والعبيد والغلمان وغير ذلك .

فلما دخل الليل حالت الظلمة بين العسكرين ، فالتجأ عسكر غازان الى أعلى الجبال ، وباتوا يوقدون النيران ، وبات عسكر السلطان محدقين بهم كالحلقة . فلما لاح الصباح من يوم الأحد رابع شهر رمضان عاين عسكر التتار الهلاك من العطش والجوع ، فصاروا يتسحبون فى الأودية أولا بأول ، فحمل عسكر السلطان عليهم فصيروهم رمما ، وأسروا منهم ما شاءوا ، فامتلأت من قتلاهم القفار ، وضجوا كما قال فيهم القائل :

مشوا متسابقى الأعضاء فيهم ... لأرجلهم بأرؤسهم عثار
اذا فاتوا السيوف تناولتهم ... بأسياف من العطش القفار

فلما وصلت هذه النصرة للملك الناصر محمد ، أرسل الأمير بكتوت الفتاح بأخبار هذه النصرة الى الديار المصرية ، ثم ان السلطان رحل من المكان الذى وقعت فيه الواقعة ودخل الى دمشق وصحبته الخليفة المستكفى بالله سليمان والقضاة الأربعة ، فنزل بالقصر الأبلق . وكان يوم دخوله الى دمشق يوما مشهودا لم يسمع بمثله ، وزينت له دمشق زينة عظيمة ، فأقام بدمشق أياما ثم قصد التوجه نحو الديار المصرية ، فوصل الى القاهرة فى ثالث عشرى شوال من سنة اثنتين وسبعمائة ، فدخل الى القاهرة وكان يوما مشهودا ، والأسارى من عسكر التتار قدامه وهم فى جنازير حديد ، وصناجق غازان منكوسة ، وطلائعه معكوسة . فشق السلطان من القاهرة وطلع الى القلعة . وقد غنم العسكر من التتار — لما انكسروا — أشياء كثيرة من خيول وسلاح وقماش وغير ذلك من الغنائم . وكانت هذه النصرة على غير القياس ، فان غازان كسر الملك الناصر قبل ذلك كسرة قوية ، ونهب جميع ما كان معه ومع العسكر من خيول

وسلاح وبرك وغير ذلك كما تقدم ، فكان كما قيل فى المعنى :

فيوم علينا ويوم لنا
ويوم نساء ويوم نسر

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى الثالث والعشرين من ذى الحجة وقعت زلزلة عظيمة بالديار المصرية وسائر أعمالها ، وكانت قوة عملها بثغر الاسكندرية ، فهدمت سورها والأبراج . وهدمت جانب المنار ، وفاض ماء البحر المالح حتى غرقت البساتين . وأما بالديار المصرية فهدمت أكثر جدران الجامع الحاكمى ، وهدمت مئذنة المدرسة المنصورية ومئذنة جامع الظاهر الذى فى الشوايين ، وهدمت مئذنة جامع الصالح الذى عند باب زويلة ، وهدمت جانبا من حيطان جامع عمرو بن العاص . وقد تشقق من هذه الزلزلة الجبل المقطم ، وخرج الناس الى الصحراء وظنوا أنها القيامة . وأقامت الزلزلة تعاود الناس مدة عشرين يوما ، وسقطت الدور على الناس ، وهلك تحت الردم من الناس ما لا يحصى . وقيل ان شخصا كان يبيع اللبن فسقطت عليه داره فظن الناس أنه قد مات ، فأقام تحت الردم ثلاثة أيام بلياليها ، فلما شالوا عنه الردم ، وجدوا فيه الروح وقد تصلبت عليه الأخشاب فسلم ، وكان معه جرة فيها لبن فوجدت معه كما هى سالمة وفيها اللبن .

وكانت هذه الزلزلة فى قوة الحر ، فجاء عقيبها ريح أسود فيه سموم ، فلفح حتى أغمى على الناس منها .

وقيل كانت هذه الزلزلة متصلة الى دمشق والكرك والشوبك وصفد وغالب البلاد الشامية ، وفى ذلك يقول بعضهم :

زلزلت الأرض فخاف الورى
وابتهلوا الى العزيز الحكيم
فليذكروا مع خوفهم قوله
زلزلة الساعة شىء عظيم

سنة ثلاث وسبعمائة (١٣٠٣ م) :

فيها خرج الأمير بيبرس الدوادار لعمارة ما انهدم من الأبراج والأسوار بمدينة الاسكندرية بسبب ما حصل من الزلزلة ، فكان عدة ما سقط من الأبراج سبعة عشر برجا وستا وأربعين مئذنة

ثم ان جماعة من الأمراء التزموا بترميم ما انهدم من الجوامع بالديار المصرية بسبب الزلزلة ، وصرفوا على ذلك من أموالهم شيئا كثيرا .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار بموت القان غازان الذى جرى منه ما تقدم ذكره ، فكان غازان هذا من أولاد هلاكو الذى جرى منه فى بغداد ما جرى . وقيل ان غازان مات مسموما ... سمته زوجته فى منديل الفرش . وكان موته بالقرب من همذان ، وحمل الى تبريز ودفن بها . وكان أخذ فى أسباب جمع عساكر ، وقصد بأن يزحف على البلاد الشامية ، وكفى الله المؤمنين القتال . وفى ذلك يقول الشيخ علاء الدين الوداعى :

قد مات غازان بلا علة
ولم يمت فى السنة الماضيه
بل شنعوا فى موته فانثنى
حيا ولكن هذه القاضيه

سنه اربع وسبعمائة (١٣٠٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب دنقلة من أعمال الصعيد ، وكان صحبته هدايا جميلة من رقيق وجمال وأبقار حبشية وغير ذلك ، فخلع عليه السلطان خلعة وأنزله بدار الضيافة .

وفيها كانت وفاة قاضى القضاة الشافعى شيخ الاسلام تقى الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى .

وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، وكان من طلبة الشيخ عز الدين بن عبد السلام . وكان له نظم رقيق ، فمن ذلك قوله فى نوع الجناس التام :

تهيم نفسى طربا عند ما
أستلمح البرق الحجازيا
ويستخف الوجد عقلى وقد
لبست أثواب الحجا زيا
ياهل ترى أقضى منى من منى
وأنحر البدن المهاريا
وأرتوى من زمزم فهى لى
ألذ من ريق المها ريا

سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٥ م) :

فيها ابتدأ الأتابكى بيبرس الجاشنكير بعمارة خانقاه التى برحبة باب العيد قبالة الدرب الأصفر ، وكتب له الشيخ شرف الدين بن الوجيه ختمة مكتوبة بالذهب فى سبعة أجزاء فى ورق قطع البغدادى بقلم الشعر ، فصرف على أجرة نسخها ألفا وسبعمائة دينار . وكتبها برسم هذه الخانقاه التى أنشأها ، فكانت هذه الختمة من محاسن الزمان ، وأودعها بها .

سنة ست وسبعمائة (١٣٠٦ م) :

فيها وقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال واشتد سعرها ، وهاجت الناس على بعضها ، وعز الخبز من الأسواق ، وبلغ ثمن الرغيف درهم فضة ، فأقام الأمر على ذلك مدة يسيرة ، ثم تراجع الحال قليلا قليلا الى أن انحط السعر ، وظهرت الغلال .

وفيها توفى الشيخ الزاهد العارف بالله تعالى سيدى يافوت العرشى رضى الله عنه ودفن بنواحى الاسكندرية . وفيها توفى الشيخ زين الدين الفارقى ، وتوفى الشيخ صدر الدين بن الوكيل صاحب الأشعار اللطيفة ، وتوفى الشيخ ضياء الدين الطوسى شارح الحاوى .

سنة سبع وسبعمائة (١٣٠٧ م) :

فيها وقع بين السلطان وبين الأمير سلار نائب السلطنة ، وثارت بينهما الفتنة وكثر القيل والقال ، ودبت بينهما عقارب التشاحن .

ثم انه فى يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ، وقبض فى ذلك اليوم على جماعة من الخاصكية الذين هم من عصبة الأمير سلار النائب — وهم : يلبغا التركمانى ، وخاص ترك العلائى ، وبكتمر الفارسى — فرسم لهم السلطان بأن يتوجهوا الى القدس ، فعز ذلك على الأمير سلار .

وفيها أظهر صاحب اليمن — وهو الملك المؤيد هزبر داود — المخالفة للسلطان ، ومنع ما كان يرسله فى كل سنة من الهدايا والتقادم الى السلطان ، فعز ذلك على الملك الناصر ، وعين له تجريدة ، وشرع فى عمارة مراكب تسمى جلبات ، وعين جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية . فلما شرع فى ذلك دخل الشتاء فأهمل هذا الأمر وبطل .

سنة ثمان وسبعمائة (١٣٠٨ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بحركة التتار . فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة وبها جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير جمال الدين آقوش الموصلى المسمى قتال السبع ، وهو صاحب الغيط المنسوب اليه ، والأمير شمس الدين الدكز السلحدار . وعين جماعة من الأمراء والطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن يتقدموا ويقيموا فى مدينة حلب الى أن يصير من أمر التتار ما يكون . فلما شرعوا فى أمر السفر ، وهموا بالخروج الى حلب ، جاءت الأخبار من عند

نائب حلب بأن التتار وقع بينهم خلف ورجعوا الى بلادهم ، فبطل أمر التجريدة .

ثم ان السلطان أظهر أن يحج فى تلك السنة ، وعبى له سنيحا عظيما . فلما كان فى يوم السبت خامس عشرى شهر رمضـــان من السنة المذكورة خرج السلطان من القاهرة ، وصحبته جماعة من الأمراء ، وهم الأمير عـــز الدين أيدمر الخطيرى استادار العالية ، وهو صـــاحب الجامع الذى فى بـــولاق ، والأمير حســـام الدين لاچين قرا أمير مجلس ، والأمير آل ملك الجوكنـــدار ، والأمير بلبـــان المحمـــدى أمير جاندار ، والأمير أيبـــك الرومى ، والأمير بيبرس الأحمدى ، وغير ذلك من الأمـــراء والطبلخانات والعشراوات والمماليـــك السلطانية . فخرج السلطان من القاهرة وتوجه الى الصالحية فعيد بها عيد الفطر ، ثم رحل وأظهر أنه يقيم بالكرك الى أن يخرج المحمل من القـــاهرة ، فرحل من الصالحية وتوجه الى الكرك فدخل اليها فى يوم الأحد عاشر شهر شوال .

فلما دخل المدينة زينت له زينـــة عظيمة . ولما وصل الى خندق قلعة الكرك وقف حتى مدوا له جسرا من الخشب ليعبر عليه . فلما عبر عليه ومشى تكاثرت حوله المماليك ، فانكسر ذلك الجسر من تحت أرجلهـــم بعـــد أن تقـــدم فرس الســـلطان بخطوتين ، فســـقط المماليك المشاة فى الخندق ، فانصدع منهم جماعة كثيرة ، ومات منهم واحـــد فى تلك الساعة .

فلما طلع السلطان الى قلعة الكرك وأقام بها ، جمع الأمراء الذين كانوا معه وصرح لهم بما كان عنده من الـــكمين فى خـــاطره من الأمير ســـلار والأتابكى بيبرس الجاشنكير ، ورسم الى الأمراء الذين توجهوا معه الى الـــكرك بأن يرجعوا الى القاهرة ، وأنه قد اختار الاقامة بالكرك .

ثم ان السلطان رسم لنائب الكرك بأن ينزل من القلعة هو وجماعته ، فتحول فى الحال ونزل من القلعة بمن كان معه من الرجال ، واستقر السلطان بقلعة الكرك . وكان السلطان قرر مع الأمراء الذين بمصر أنه اذا خرج المحمل من القاهرة يلاقيهم من العقبـــة ، وكان قرر معهم أن حـــريم الســـلطان يتوجهون صحبة المحمل وهو يلاقيهم من هناك .

فلما كان سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة وصحبته حريم السلطان — وكان أمير المحمل فى تلك السنة الأمير جمال الدين خضر بك ابن نوكبة — فلما وصل الحاج الى العقبة أرسل السلطان فأخذ عياله من هناك والســـنيح ومضوا الى الكرك .

فلما وصلوا الى هناك رسم الســـلطان للأمراء بالعـــود الى الديار المصرية ، وأعاد صحبتهم خزائن المال والجنائب والعصـــائب الســـلطانية والهجن والكبابيش الزركش التى كانت معه برسم سفر الحجاز ، وكتب مع الأمراء مرسوما يتضمن أن الســـلطـــان رغب عن الملك ، واختـــار الاقامـــة بالكرك ، وأن الأمراء الذين بالقاهرة يختارون لهم من يولونه سلطانا .

ثم ان الملك الناصر محمد خلع نفسه من الملك وأشهد عليه بذلك ، فمضى الأمراء من عنده .

فلما كان يوم السبت ثالث عشرى شوال دخل الأمراء الذين كانوا صحبة السلطان فى الكرك الى القاهرة ، فلما بلغ الأمراء الذين كانوا بمصر مجىء الأمراء على حين غفلة ركبوا جميعـــا وطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل ، فقرءوا عليهم مرسوم السلطان بأنه قد رغب عن الملك وأشهد على نفسه بالخلع واختار الاقامة بالكرك .

فلما ســـمع الأمراء ذلك ضربوا مشـــورة مع بعضهم وقالوا : « ان راددنا السلطان فى العود الى

الملك نخشى ألا يسمع ... ويطمع العربان فى البلاد الى أن يعـود الجواب الينا بما يكون » ... ثم انفضوا ولم ينتظم لهم حال .

فلما كان وقت الظهر من ذلك اليوم ركب سائر الأمراء وطلعـوا الى القلعـة ، واجتمعوا فى دار النيـابة ، وضربوا مشورة فيمن يولونه سلطانا ، وكانت الكلمة يومئذ مجتمعـة بين سـلار نائب السلطنة وبين الأتابكى بيبرس الجاشنكير ، فطال بينهما الجدال فى أمر السلطنة .

فأما الأمير سـلار فامتنع من السـلطنة بكل ما يمكن ، وحلف على ذلك بالطـلاق الثلاث من نسائه .

فلما جـرى ذلك وقع الاختيـار على سلطنة الأتابكى بيبرس الجاشنكير . وأما الأمير سـلار فبقى نائب السلطنة على عادته . ثم تحالف سـائر الأمراء على ذلك وأنهم يكونون كلمة واحدة .

ثم أحضروا خلعة السلطنة والفرس الى بيبرس الجاشنكير ، وتولى السلطنة . فكانت مدة سلطنة الناصر محمـد بن قلاون فى هذه المـرة — وهى السلطنة الثانية — عشر سنين وأياما .

قيل وكان سبب توجه الملك الناصر الى الكرك أنه كان مع سلار النـائب وبيبرس الجـاشنكير كالمحجور عليـه ، لا يتصرف فى شىء من أمـور المملكة الا باختيارهما ، حتى قيل انه طلب خروفا وميسا بدريا فمنع من ذلك ، وقيل له حتى يجىء القـاضى كـريم الدين كاتب الأمـير بيبرس الجاشنكير ... فغضب السلطان من ذلك ، وأظهر أنه يريد الحج فى تلك السنة ، فلما خرج من القاهرة توجه الى الكرك وأقام بهـا كما تقـدم ، وأخذ عياله من العقبة .

وسيعود بعد ذلك الى الملك كما سيأتى ذكر ذلك ان شاء الله تعالى .

الملك المظفر

هو الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصـورى ، وهو الثـانى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسـلطنة بعد خلع الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاون ، وتلقب بالملك المظفر ، فركب بشعار السـلطنة من الايوان الأشرفى ، وحملت القبة والطير على رأسه ، ومشت الأمراء بين يديه حتى جلس على سرير الملك ، والأمراء قبلوا له الأرض ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، وذلك فى يوم السبت بعد العصر الثالث والعشرين من شهر شوال من سنة ثمان وسبعمائة .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على الأمير سلار واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلع على الصاحب ضياء الدين النشائى واستقر به وزيرا ، وخلع فى ذلك على جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين حتى قيل انه خلع فى ذلك اليوم ألفين ومـائتى خلعة ، ما بين كوامل سمور ومتمرات وغير ذلك .

سنة تسع وسبعمائة (١٣٠٩ م) :

من الحوادث فيهـا أن النيل توقف عن الزيادة واستمر الى آخر مسرى ، ودخلت أيام النسىء وهو على ذلك ، ثم نقص فضج الناس وماجوا فى بعضهم ، وتشحطت الغـلال ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وضج العوام .

ثم ان السلطان رسم بكسر السد من غير وفاء ، لأن النيل كان نقص عن الوفاء ثلاثة أصابع ، فكسر السد سابع توت من الشهور القبطية . ولم يخلق المقياس لذلك ، لأن التخليق لا يكون الا بالوفاء .

فلما كان السابع والعشرون من توت نقص النيل جملة واحدة ، فكان منتهى الزيادة فى تلك السنة

خمسة عشر ذراعا وسبعة عشر اصبعا ، فشرقت البلاد بسبب ذلك . وقد قال النصير الحمامى فى هذه الواقعة :

ان عجل النوروز قبل الوفا
عجل للعالم صفع القفا
فقد كفى من دمعهم ما جرى
وما جرى من نيلهم ما كفى

ثم ان العوام صنعوا كلاما ولحنوه ، وصاروا يغنونه فى أماكن التفرجات وغيرها ، وهو هذا :

سلطاننا ركين ونائبو دقين
يجينا الماء من اين
هاتوا لنا الأعرج يجى الماء يدحرج

وكان السلطان بيبرس الجاشنكير لقبه ركن الدين ، فسماه العوام « ركين » .

وكان الأمير سلار أجرد ، فى حنكه بعض شعرات ، لأنه كان من التتر ، فسماه العوام «دقين» .

وكان الملك الناصر محمد بن قلاون به بعض عرج ، فسماه العوام « الأعرج » .

فلما فشا بين الناس هذا الكلام بلغ السلطان بيبرس ، فرسم بقبض جماعة من العوام نحو ثلثمائة انسان ، فضرب منهم جماعة بالمقارع ، وأشهرهم فى القاهرة ، ورسم بقطع ألسنة جماعة منهم .

ثم ان السلطان بيبرس بلغه عن بعض الأمراء أنهم كاتبوا الملك الناصر وهو بالكرك ، فقبض على جماعة منهم ونفاهم الى ثغر الاسكندرية ، وقبض على جماعة من المماليك السلطانية ونفاهم نحو قوص ، وكانوا نحو ثلثمائة انسان ، فلما وقع ذلك من الملك المظفر نفرت منه قلوب الرعية من الترك والعوام ، واختار كل أحد من الناس عود الملك الناصر محمد .

ثم صار جماعة من المماليك الناصرية ينسحبون تحت الليل ويتوجهون الى الملك الناصر بالكرك ، ويتركون بيوتهم وأولادهم . فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك أرسل الى الملك الناصر محمد ، الأمير مغلطاى والأمير قطلوبغا وبيدهما كتاب الى الملك الناصر ، مضمون تلك المطالعة تهديد الملك الناصر ووعيده بكل سوء ، وأرسل يقول له : « ان لم ترجع عن مكاتبتك الى الأمراء ، والا جرى عليك كما جرى على أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ونفيهم الى القسطنطينية ... وأنت تعلم ذلك فلا تحوجنا الى أن نفعل ذلك كما فعل أخوك الأشرف خليل بأولاد الظاهر بيبرس » كما تقدم . فلما وصلت مطالعة الملك المظفر الى الملك الناصر محمد اشتد غضبه على الأمير مغلطاى وقطلوبغا اللذين أرسلها الملك المظفر ، وضرب الأمير مغلطاى بالمقارع لأنه أغلظ عليه فى القول ، ثم اعتقله هو والأمير قطلوبغا فى الجب .

ثم ان الملك الناصر أرسل مكاتبة الى نائب حلب والى نائب طرابلس ، والى نائب صفد ، والى نائب حماة ، يقول لهم فيها : « لما اشتد علىّ الضنك من الأمراء خرجت لهم من مصر ، وتركت لهم الملك ، ورضيت من الدنيا بأحقر المساكن وأضيق الأماكن ليستريح خاطرى من النكد ... فما تراجعوا عنى ، وأرسل المظفر يهددنى بالنفى الى القسطنطينية مثل أولاد الظاهر بيبرس البندقدارى ، وأرسل يطلب منى مالاً لا أقدر عليه . وأنتم تعلمون ما لوالدى الملك المنصور عليكم من حق العتق والتربية . وما أظنكم ترضون لى بهذا الحال . فاما أنكم تكفون عنى أذى هؤلاء الأمراء الذين يتعصبون على ، واما أنى أتوجه الى بعض بلاد التتار وألتجىء اليهم قبل ما يرسلنى الملك المظفر الى بلاد الكفار » .

ثم أرسل الملك الناصر الى النواب مطالعة الملك المظفر التى أرسلها له بالتهديد ، وكان الذى توجه الى النواب بمطالعة الملك الناصر شخصا يسمى

تاج الدين أوزان من أبناء العجم . فلما وصلت هذه المطالعات الى النواب أخذتهم الحمية على ابن أستاذهم ، وتعصبوا له ، وأرسلوا يقولون له : « متى أردت أن تتحرك الى التوجه الى مصر فنحن طوع يدك ومماليك أبيك » ... فلما عاد الجواب الى الملك الناصر بذلك أخذ فى أسباب التوجه الى مصر ، فخرج من الكرك ومعه جماعة من العربان ، فلما وصل الى البرج الأبيض من أعمال البلقاء أرسل نائب الشام أقوش الأفرم يعرف الملك المظفر بذلك ، وكان نائب الشام هذا من عصبة المظفر ، فلما وقف الملك المظفر على مطالعة نائب الشام وتشاور مع الأمير سلار النائب عينوا الى الملك الناصر تجريدة ، وعينوا بها من الأمراء الأمير سيف الدين بلغار — صهر الملك المظفر — والأمير عز الدين أيبك البغدادى ، والأمير شمس الدين الدكز السلحدار ، والأمير أقوش الذى كان نائب الكرك ، وعين معهم ألفى مملوك من المماليك السلطانية .

ثم ان الملك المظفر أنفق على العسكر المعين للتجريدة ، فجهزوا أمرهم فى سبعة أيام ، ثم خرجوا من القاهرة يوم السبت تاسع رجب من سنة تسع وسبعمائة . فلما نزلوا بالريدانية أقاموا هناك يوما وليلة ، ثم عادوا الى القاهرة . وكان سبب عود الأمراء أن ورد كتاب من عند نائب الشام بأن الملك الناصر تسلم الشام ودخل اليها فى موكب عظيم وزينت له ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وأن جميع النواب دخلوا تحت طاعته ومشوا فى ركابه ، وهم : نائب طرابلس ، ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب حمص ، وكل نائب بعسكر ... فدخل الى الشام فى موكب عظيم ، وكان الأمير بهادر — المعروف بالحاج بهادر — حامل القبة والطير على رأسه الى نزوله بالقصر بميدان دمشق ، فحضر اليه السنجرى نائب قلعة دمشق بسماط عظيم . ثم ان الملك الناصر خلع على الأمير أقوش الأفرم ، وأقره نائب الشام على عادته ، وخلع على الأمير استدمر كرجى وأقره نائب طرابلس على عادته ، وخلع على الأمير تمر الساقى وأقره نائب حمص على عادته ، وخلع على نائب حماه وأقره على عادته ، ثم حضر الأمير قرا سنقر المنصورى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فخلع عليه وأقره على عادته فى نيابة حلب .

ثم لما كان يوم الجمعة خطب باسم الملك الناصر فى ذلك اليوم على منابر دمشق ، فلما بلغ الملك المظفر بيبرس ذلك كله اضطربت أحواله ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، ونسى حلاوة اللحم بمرارة الأشنان ، وقد قال القائل فى المعنى :

ياطالب الدنيا الدنية ، انها
شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت فى يومها
أبكت غدا ... تبا لها من دار !

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر شهر رمضان دخل المقر السيفى سلار النائب ومعه جماعة من الأمراء الى الملك المظفر بيبرس ، وقالوا له : « يامولانا السلطان ، ان غالب الأمراء والمماليك السلطانية قد تسحبوا من القاهرة وتوجهوا الى الملك الناصر ، وقد وقع الاختيار على عوده ، ومن الرأى أن ترسل الى الملك الناصر لتسأله فى مكان تتوجه اليه أنت وعيالك فلعله أن يجيبك الى ذلك . وان لم تبادر الى هذا والا دهمتك العساكر وهجموا عليك وأنت هنا » . فقال له المظفر : « ومن يتوجه الى الملك الناصر بهذه الرسالة ؟ » . فأشار عليه الأمراء بالأمير بيبرس الدوادار الكبير والأمير بهادر آص ، فكتب معهما الملك المظفر كتابا الى الملك الناصر وهو يترفق به فيه ، ويسأله أن ينعم عليه بمكان يتوجه اليه هو وعياله : اما الكرك ، واما صهيون ، واما حماه .

ثم ان الملك المظفر أحضر القضاة الأربعة ، وخلع

نفســه من الملك وأشهد عليه بذلك ، وجهز ذلك الاشهاد على يد الأمير بيبرس والأمير بهادرآص ، وخرجا من يومهما وتوجها الى الشام .

ومن عجائب الاتفاق أن الساعة التى خلع فيها الملك المظفر نفسه من الملك كانت هى الساعة التى ركب فيها الملك الناصر من الشام وخرج قاصدا نحو الديار المصرية ، ودام فيها الملك الناصر فى السلطنة مدة طويلة الى أن مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه . فلما توجه الأميران المذكوران الى الملك الناصر برسالة الملك المظفر ، أقام الملك المظفر بعد ذلك أياما وهو على جمرة نار ، لايقر له قرار . ثم دخل خزائن بيت المال ، وأخــذ منها ما قدر عليه من الأموال والســلاح والتحف ، وعين معه من المماليك الذين هم من مشترياته سبعمائة مملوك ، وأخذ صحبته الأمير بكتوت الفتــاح ، والأمــير أيدمــر المعــروف بالحظيرى ، والأمير قجماس .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشر شهر رمضان نزل الملك المظفر من القلعــة بعد العشــاء من باب القرافة ، وأخذ معه من الأسطبل السلطانى ثلاث طوائل خيل من الخيول الخواص . فلما بلغ العوام نزوله من القلعــة اجتمعوا ، ووقفوا له عند باب القرافة ، ورجموه بالحجارة والمقاليع ، وسبوه سبا قبيحا ... فلولا أنه شعلهم بشىء من الفضة نثرها عليهم والا كانوا قتلوه لا محــالة ، فانه كان قد أفحش فى حق العوام وشوش على جماعة منهم كما تقــدم ذكر ذلك .

فلما خلص منهم توجه من بركة الحبش الى نحو أطفيح ، وقصد التوجه الى نحو أسوان .

فلما أصبح الصبــاح أشيع هروب الملك المظفر ونزوله من القلعــة . فلما جرى ذلك دخل الأمير سلار النائب ، وختم على خزائن بيت المال ، وأطلق من كان مسجونا من الأمراء فى الأبراج بالقلعة .

ثم انه أرسل يكاتب الملك الناصر بما جرى من أمر الملك المظفر بيبرس ، وأرسل كتابا بهذه الواقعة على يد الطنبغا الجمدار .

ولما كان يوم الجمعة خطب بآسم الملك الناصر على منابر القاهرة قبل دخوله اليها .

هذا ما كان من أخبار الملك المظفر بيبرس ... وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لما خرج من الشام ووصل الى غزة لاقاه الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادر آص اللذان أرسلهما الملك المظفر ، فقدما اليه مطالعة الملك المظفر والخلع الذى أشهد به على نفســه . فلما رأى ذلك الملك الناصر فرح وقال : « الحمد لله الذى صان دماء المسلمين عن القتــال ! » . وخلع على ذينك الأميرين الخلــع السنية .

ثم ان الملك الناصر كتب أمانا وأرسله الى الملك المظفر على يد الأمير بيبرس والأمير بهادرآص ، وعادا الى مصر فوجــدا الملك المظفــر توجه الى أطفيح . فلما رأيا ذلك أرسلا له ذلك الأمان وهو فى أطفيح ... فكانت مدة غيبة الأميرين سبعة أيام ذهابا وايابا الى أن عادا بالجواب .

ثم ان الملك الناصر خرج من غزة ، وجــد فى السير فوصل الى بركة الحاج فى سلخ شهر رمضان فعيد هناك ، فخرج اليه الأمير سلار النائب وقبل له الأرض ، وكذلك سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر والقضاة الأربعة وأعيان الناس . ثم ان الملك الناصر صلى صــلاة العيد هنــاك ، وطلع الى القلعة فى موكب عظيم ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وفرشت تحت حوافر فرسه الشقق الحرير من بين الترب الى أن طلع الى القلعــة وجلس على سرير الملك ... وقد قال القائل فى المعنى :

فاستبشرت مصــر وهنــأ بعضهـا
بعضــا بعــودته الى الأوطــــان

عَودُ الملكِ الناصر

عاد الملك الناصر محمد بن قلاون الى السلطنة ، وهى السلطنة الثالثة .

فلما كان يوم الخميس ثانى شوال سنة تسع وسبعمائة ، فيه عمل السلطان الموكب ، وطلع الى القلعة الخليفة المستكفى بالله سليمان ومعه القضاة الأربعة ، وبايع الملك الناصر بالسلطنة ، ولبس خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء وعمامة سوداء بعذبة زركش وسيف بداوى متقلد به — فجلس على سرير الملك وجميع الأمراء من كبير وصغير قبلوا له الأرض وهو جالس فى الايوان الأشرفى . ثم خلع على سائر الأمراء والنواب الذين حضروا معه خلع الاستمرار ، وخلع على الخليفة المستكفى بالله سليمان والقضاة الأربعة وأرباب الدولة من أصحاب الوظائف

ثم فى ذلك اليوم قبل الأرض الأمير سلار النائب ، وطلب من السلطان أن يعفيه من النيابة ، وأن يقيم بالشوبك لأنهـا كانت جارية فى جملة اقطاعه ... فأجابه السلطان الى ذلك ، وخلع عليه خلعة السفر وخرج من يومه الى الشوبك ، فكانت مدة نيابته بالديار المصرية احدى عشرة سنة وأياما . وكان مستحقا للسلطنة أكثر من المظفر بيبرس الجاشنكير ، ولكن كان سلار قانعا بالنيابة . وهو نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، كثير المال ... فقنع بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى :

اذا منعتك أشجار المعالى
جناها الغض فاقنع بالشميم

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى ، وخلع على الأمير بكتمر الجوكندار واستقر به نائب السلطنة عوضا عن سلار . ثم ان السلطان أرسل الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادرآص الى الملك المظفر بيبرس ، وكان قد توجه نحو اخميم من أعمال الصعيد . فلما اجتمعا به تلطفا معه فى القول حتى استخلصا منه ما كان أخذه من بيت المال من الأموال والتحف ، وكذلك ما كان أخذه من الخيول الحواص ، وأخذا منه ما كان معه من المماليك ، ثم قالوا له ان السلطان يقول لك : « امض الى الكرك وأقم بها ، وهو يرسل اليك من هناك عيالك وأولادك » . فقال الملك المظفر : « السمع والطاعة » . ورحل من يومه وتوجه من هناك من طريق السويس .

ثم ان الأمير بيبرس الدوادار والأمير بهادرآص رجعا الى القاهرة ومعهما الأموال والخيول والمماليك الذين كانوا مع المظفر . فلما حضروا الى الملك الناصر وبلغه توجه المظفر من جهة السويس الى الكرك ، أرسل اليه الأمير استدمر كرجى وهو فى أثناء الطريق ، فقبض عليه وأحضره الى الأبواب الشريفة ، فطلع الى القلعة فى الليل ، وذلك فى ليلة الخميس رابع عشر ذى القعدة . فلما طلع الى القلعة أودعه السلطان فى البرج .

فلما كان صبيحة يوم الخميس وقت الظهر فى خلوة ، مثل بين يديه ووبخه بالكلام ، وعدد له ما وقع من القبائح فى حقه ، ثم أمر بحنقه بين يديه فخنق بوتر حتى مات وقضى نحبه ، وذلك فى يوم الخميس رابع عشر ذى القعدة من سنة تسع وسبعمائة . فلما مات أرسله السلطان الى زوجته ، وأمر بأن يدفن فى تربة بالقرافة فدفن هناك مدة ... ثم ان بعض الأمراء تداخل على السلطان بأن ينقل ويدفن فى خانقاته التى أنشأها عند الدرب الأصفر بالقرب من خانقاه سعيد السعداء ، فكانت مدة سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير بالديار المصرية أحد عشر شهرا وأياما .

وكان بيبرس مليح الشكل ، أبيض اللون ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، وافر العقل ، حسن السيرة ، وكان كفؤا للسلطنة ، كثير البر والخير والمعروف والصدقات .

سنة عشر وسبعمائة (١٣١٠ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير بكتمر الناصرى الحاجب واستقر به وزيرا .

ثم ان السلطان بلغه أن أخا الأمير سلار النائب وجماعة من الأمراء الذين هم من عصبة الأمير سلار يقصدون الوثوب على السلطان . فلما تحقق ذلك بادر وقبض على أولئك الأمراء الذين نقل عنهم أمر الوثوب — وكانوا نحو أربعة عشر أميرا — وقبض معهم على أخى الأمير سلار وأودعهم السجن .

ثم ان السلطان أرسل يكاتب سلار بما وقع من أخيه ، وأرسل الى سلار بالحضور الى القاهرة ليزول أمر القال والقيل من بين الناس . ثم ان السلطان أرسل فى هذه الرسالة الأمير علم الدين سنجر الجاولى ، وأمره ان لم يجىء سلار طوعا يقبض عليه ويحضره كرها ، فأخذ سنجر الجاولى مراسم السلطان وتوجه الى سلار — وكان مقيما بالكرك وقيل بالشوبك — فلما وصل اليه الجاولى أجاب الى الحضور . فلما حضر الى الأبواب الشريفة ، أودعه السلطان فى السجن بالقلعة ، فأقام به أياما وأشيع موته . وكان أصله من مماليك الملك الصالح على بن قلاون ، وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار قلاون .

وقيل لما سجن الأمير سلار بعث اليه السلطان بطعام ، فلما وصل اليه الطعام ومثل بين يدى سلار أبى أن يأكل ، ورده على السلطان وأظهر الحمق . فلما بلغ السلطان ذلك منع عنه الأكل والشرب ، فأقام على ذلك أياما ، فلما تزايد به الجوع أكل أخفافه وهو فى السجن . ولما بلغ السلطان ذلك رق له وأرسل من يقول له ان السلطان قد رضى عليك ، ففرح وقام ومشى خطوات ثم وقع ميتا من شدة الجوع .

وكان سلار مربوع القامة ، غليظ الجسد ، أسمر اللون ، خفيف اللحية ، له بعض شعرات فى حنكه ... وكان من التتار ، وكان شديد البأس ، صعب الخلق ، قوى الغضب . وكان لطيف الذات فى ملبسه ، واليه ينسب السلارى الى الآن والمناديل السلارية . وقد اقترح أشياء كثيرة فى الملبوس وقماش الخيل وآلة الحرب ، وهى منسوبة اليه الى اليوم . وكان كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف ، وكان فى سعة من المال والعيال بما لا يحصى لكثرته .

ولما مات سلار تولى أمر دفنه الأمير سنجر الجاولى ، ودفنه فى مدرسته الجاولية التى عند الكبش . ثم ان السلطان احتاط على موجوده فظهر له من الأموال والتحف ما لم يسمع بمثله فى خزائن الملك . قال الشيخ محمد الكتبى : « وقفت على قوائم بخط القاضى جمال الدين بن الغويرة تتضمن ما قد اشتملت عليه تركة الأمير سلار النائب — وذلك أول ما ضبط فى أول يوم وهو يوم الأحد سادس عشر جمادى الأولى من سنة عشر وسبعمائة — فمن ذلك صناديق افرنجى مصفحة بنحاس ضمنها فصوص ، منها فصوص ياقوت أحمر كهرمان رطلان ، وفصوص بلخش رطلان ونصف ، وفصوص زمرد بابى عشرون رطلا ، وفصوص ألماس وعين الهر ثلثمائة قطعة ، ولؤلؤ كبير مدور كل حبة وزن مثقال مائة وخمسون حبة . ووجد عنده صناديق فيها ذهب عين مائتا ألف دينار ، ومن الفضة أربعمائة ألف درهم وأحد وسبعون ألف درهم » .

ثم فى يوم الاثنين سابع عشره وجد له من الذهب العين خمسة وخمسون ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف درهم ، ومن الفصوص المختلفة رطلان ، ووجد له مصوغ من ذهب — ما بين خلاخيل وأساور — وزن أربعة قناطير مصرى . ووجد عنده صحون فضة وأطباق وأهوان ذهب وطشوت فضة وزن ستة قناطير .

ثم فى يوم الثلاثاء ثامن عشره وجد له من الذهب العين خمسة وأربعون ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف وثلاثون ألف درهم . ووجد عنده صحون فضة للصناجق ، وقطريات فضة ثلاثة قناطير .

ثم فى يوم الأربعاء تاسع عشره وجد عنده من الذهب العين ألف ألف دينار ، ومن الفضة ثلثمائة ألف درهم . ووجد عنده أقبية حرير عمل الدار ملون بفرو سنجاب ... العدة أربعمائة قباء . ووجد عنده من السروج الذهب مائة سرج ، والكل بمياثر زركش على مخمل أحمر . ووجد له — عند صهره الأمير موسى — ثمانية صناديق لم يعلم ما فيها . ووجد له من الشقق الحرير الطرد وحش وغيره ألف شقة . ووصل صحبته من الكرك من الذهب العين مائة ألف دينار ، ومن الدراهم أربعمائة ألف درهم . ومن الخلع الملونة ثلثمائة خلعة . ووجد عنده من الخيام ست عشرة نوبة ، وحزكات خشب بغشاء أطلس أحمر مرقوم مزركش . ووجد عنده من الخيول الخاص ثلثمائة رأس دون الدشار ، ومن البغال مائة وعشرون قطارا ، ومن الجمال مائة وعشرون قطارا ... هذا كله خارج عما وجد له من الأملاك والضياع والمعاصر والشون والمراكب والعبيد والخدم والمماليك والجوارى وغير ذلك . ووجد عنده من الأغنام والأبقار ما لا يحصى . ووجد عنده من الغلال ثلثمائة ألف أردب فى الشون ... ومع هذا كله مات من شدة الجوع فى السجن بالقلعة ! ثم بعد أيام ظهر له مخبأة فى داره ظهر فيهـا أكياس ذهب لا يعلم لها عدد ، ووجد له فى بيت قريب من بيت الخلاء مخبأة فيها ذهب عين مسبوك بغير أكياس لا يعلم له عدد .

قيل كان متحصل الأمير سلار هذا فى كل يوم من أجرة أملاكه وضياعه ومستأجراته وحماياته مائة ألف دينار . ومن العجائب أن الأمير سلار أقام فى نيابة السلطنة بمصر احدى عشرة سنة ... فكيف حوى هذه الأموال العظيمة فى هذه المدة اليسيرة والذى يظهر لى اما أنه كان قد ظفر بكنز من كنوز القدماء ، واما أنه كان أخذ هذه الأموال والتحف من خزائن بيت المال عندما توجه الملك الناصر الى الكرك — وقد كانت مفاتيح بيت المال بيد سلار لا يمكن منها الملك الناصر بشىء — ولكن لما مات سلار رجع كل شىء لأصله ، وقد قيل فى المعنى :

اجمع وأنت من الدنيا على حذر
واعلم بأنك بعد الموت مبعوث
واعلم بأنك ما قدمت من عمل
محصى عليك وما خلفت موروث

وفى هذه السنة ، وهى سنة عشر وسبعمائة ، كانت وفاة الشيخ شمس الدين بن دانيال الحكيم ، وهو صاحب كتاب طيف الخيال . وكان شاعراً ماهرا وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله فى حرفته :

ياسائلى عن حرفتى فى الورى
وضيعتى فيهم وافلاسى
ما حال من درهم انفاقه
يأخذه من أعين الناس

وفيها توفى الشيخ شمس الدين السروجى ، شارح كتاب الهداية ، وكان من كبار الحنفية . وتوفى التوريزى محدث مكة .

سنة احدى عشرة وسبعمائة (١٣١١ م) :

فيها عظم أمر الملك الناصر محمد بن قلاون حين جاءت الأخبار من افريقية ببلاد الغرب أنه قد خطب باسمه فيها على المنابر . وكان سبب ذلك أن صاحب افريقية — وهو أبو يحيى اللحيانى — قدم على الملك الناصر فى هذه السنة ، وقال له : « أرسل معى عسكرا الى افريقية ، فاذا فتحت المدينة وملكتها ألتزم للسلطان بأن أقيم نفسى بها نائبا عن السلطان » ... فعين معه السلطان تجريدة نحو مائة مملوك ومعهم أمير عشرة ، فلما توجهوا نحو افريقية تسامعت بهم العربان وأهل النواحى ، فالتفت عليهم جماعة من العربان والمغاربة ، فعظم أمر أبى يحيى ومشى على بلاد تونس وغيرها من البلاد ، فحاصر مدينة افريقية حتى فتحها ، ودخل اليها وعلى رأسه الصناجق السلطانية والعساكر المصرية ، فطرد من كان بها وملكها وخطب فيها باسم الملك الناصر محمد بن قلاون كما قرر معه ، واستمر بها ورجع العسكر الى القاهرة وذلك فى شهر رجب من السنة المذكورة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان خلع على الأمير كراى المنصورى ، واستقر به نائب الشام ، فأقام بها مدة يسيرة ، وأرسل فقبض عليه وأعاد الأمير أقوش الأفرم الى نيابة الشام وكان بالكرك . ثم ان السلطان قبض على الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطنة بمصر وسجنه ، وخلع على الأمير بيبرس الدوادار المنصورى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن بكتمر الجوكندار .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام والأمير قرا سنقر المنصورى هربا من الشام وتوجها الى نحو بلاد التتار ، وقد بلغهما أن السلطان يروم القبض عليهما فهربا من أجل ذلك .

سنة اثنتى عشرة وسبعمائة (١٣١٢ م) :

فيها حضر رسل صاحب اليمن وصحبتهم هدايا عظيمة ، فقبلها السلطان وأكرم قصاده .

وفيها حضر ملك النوبة الى الأبواب الشريفة وصحبته هدايا عظيمة ، فمن جملة ذلك ألف رأس رقيق وخمسمائة جمل وخمسمائة بقرة خيسية .

وفيها قبض السلطان على الأمير بيبرس الدوادار الذى استقر نائب السلطنة وسجنه واستقر بالأمير أرغون الدوادار الناصرى فى نيابة السلطنة بمصر عوضا عن بيبرس الدوادار ، ثم خلع على الأمير تنكز الحسامى واستقر به نائب الشام عوضا عن أقوش الأفرم . قيل لما تولى الأمير تنكز نيابة الشام جعل السلطان نيابة دمشق أكبر من نيابة حلب — وكانت فى قديم الزمان نيابة حلب أكبر من نيابة الشام — ثم خلع على الأمير سودون الناصرى واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير قفجق المنصورى .

وفيها عمر السلطان الناصر جامعه المسمى بالجديد الذى عند موردة الحلفاء ، وكان النيل يجرى من تحته صيفا وشتاء . قيل لما أراد عمارة هذا الجامع نقل حجارته من صنم كان عند قصر الشمع يقال له السرية . قيل كان مقابل ذلك الصنم الذى عند الأهرام فى بر الجيزة الذى يقال له أبو الهول . قيل عمل من ذلك الصنم قواعد للأعمدة الكبار التى فى الجامع .

وفيها عمر السلطان سور الميدان الكبير الذى تحت القلعة ، وابتدأ بعمارة الميدان الكبير الذى عند موردة الجبس بالقرب من خليج أروى .

وفيها حضر مملوك نائب حلب وأخبر السلطان بأن التتار قد تحركوا على البلاد ، فلما تحقق السلطان ذلك عرض العسكر وأنفق عليهم فعبوا حالهم فى سبعة أيام ، ثم خرج السلطان من القاهرة فى أوائل شهر رمضان وقصد التوجه الى حلب بسبب التتار ، فلما وصل الى غزة وردت عليه الأخبار بأن التتار بلغهم مجىء السلطان فخافوا ورحلوا عن مدينة الرحبة وتوجهوا الى بلادهم ، وقد كسرهم نائب الرحبة كسرة قوية . فلما تحقق السلطان ذلك قوى عزمه بأن يسافر من هناك الى الحجاز الشريف ، وقد سميت هذه التجريدة « الكذابة » ... ثم ان السلطان رد جماعة من الأمراء والعسكر الى القاهرة ، وأخذ معه بعض أمراء ومماليك سلطانية وتوجه من هناك الى الحجاز الشريف . فلما قضى حجه رجع من هناك الى الشام وأقام بها الى أوائل شهر صفر من سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، فدخلها ثالث عشر صفر ، وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة زينة عظيمة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت له الشقق الحرير من التبانة الى القلعة ، ومشت الأمراء بين يديه حتى طلع الى القلعة ، وكان له موكب عظيم وهذه هى الحجة الأولى .

وفى أثناء السنة — وهى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة — كانت وفاة الشيخ نصير الدين الحمامى وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

كدرت حمامى بغيبتك التى
تكدر فيها العيش من كل مشرب
فما كان صدر الحوض منشرحا بها
وما كان قلب الماء فيها بطيب

وقال فى المعنى :

لى منزل معروفه — ينهل غيثا كالسحب
أقبل ذا العذر به — وأكرم الجار الجنب

وفى هذه السنة توفى أبو جبارة شارح « الشاطبية » ، وكان من أعيان العلماء .

سنة ثلاث عشرة وسبعمائة (١٣١٣ م) :

فيها سافر السلطان الى نحو بلاد الصعيد لتمهيد البلاد ، فان العربان كانوا قد زادوا فى الفساد . فلما توجه السلطان هناك ضيق عليهم حتى رحلوا الى الجبال ، فماتوا من الجوع والعطش ، فأسر منهم نحو النصف وحملهم الى القاهرة فى مراكب وهم فى الخشب ، فسجن منهم جماعة واستعمل منهم جماعة أخر فى حفر الجسور وهم فى جنازير حديد .

ولما عاد السلطان من بلاد الصعيد أقام عند الأهرام فى بر الجيزة أياما على سبيل التنزه — وكان ذلك فى شهر رمضان — فلما قرب عيد الفطر طلع الى القلعة وعيد بها .

وفى هذه السنة شرع السلطان فى روك البلاد الشامية — وهو الروك الناصرى — فأمر باحضار كتاب الجيوش الشامية ، وحضر نائب غزة وجماعة من الأجناد الشامية والغزاوية ، وتكلموا فى ذلك وكتبوا المثالات والمناشير وأرسلوها على يد الأمير قجليس السلحدار . ولما وصل الى الشام سلم الأوراق والمناشير الى نائب الشام ففرقها على العساكر الشامية .

وفى هذه السنة تحولت سنة اثنتى عشرة وسبعمائة الخراجية ، الى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة الهلالية .

سنة أربع عشرة وسبعمائة (١٣١٤ م) :

فيها شرع السلطان فى عمارة القصر الأبلق الذى

بقلعة الجبل ، وهو عبارة عن ثلاثة قصور متداخلة فى بعضها ، وهى خمس قاعات وثلاثة مراقد .

قال بعض المؤرخين ان الملك الناصر محمدا هذا أكمل عمارة هذه القصور الثلاثة المتداخلة فى عشرة أشهر ، فلما انتهى العمل جمع فيها سائر الأمراء حتى القضاة الأربعة ، وقرأ فيها ذلك اليوم ختمة ، ومد بها سماطا عظيما ، وملأ الفسقية التى فى القصر الكبير سكرا بماء ليمون ، فأكل من ذلك السماط الخاص والعــام ، وأحضر السلطان للأمراء القمز فشربوا منه ، ووقف رءوس النواب على الفسقية يملأون السكر للناس بالطاسات . وخلع السلطان فى ذلك اليوم على المعلمين والمهندسين والمرخمين والنجارين والفعلة نحوا من ألفين وخمسمائة خلعة ، ما بين متمرات وكوامل وخلع وأقبية وغير ذلك ، وفرق من الأموال على الفقراء فى ذلك اليوم نحو خمسين ألف دينــار ، وكان ذلك اليــوم يعرف بالسلطانى ... ذكر ذلك صاحب كتاب زبدة الأفكار فى أخبار الملك الناصر .

سنة خمس عشرة وسبعمائة (١٣١٥ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن تنكز نائب الشام جمع سائر النواب وتوجه الى نحو ملطية ، فحاصر أهلها ومن كان بهــا من الأرمن ، فطلبوا منه الأمان ، ففتحها بالأمان فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من المحرم من سنة خمس عشرة وسبعمائة .

وفى هذه السنة راك السلطان الملك النــاصر محمــد بن قلاون البلاد المصرية — وهو الروك الناصرى بعد الروك الحسامى — فزاد عن الروك الحسامى فى مواضع ونقص فى مواضع .

وفى هــذه السنة — وهى ســنة خمس عشرة وسبعمائة — كانت وفاة الشيخ شمس الدين محمد ابن العفيف ، وكان مولده ســنة اثنتين وستين وستمائة ، فكانت مدة حياته ثلاثا وخمسين سنة . وكان شاعرا ماهرا ، رقيق الشعر والنظم ، وله شعر جيد ، فمن تغزلاته اللطيفة قوله :

ياســاكنا قلبى المعنى	وليس فيــه سواه ثانى
لأى معنى كسرت قلبى	وما التقى فيه ساكنان

سنة ست عشرة وسبعمائة (١٣١٦ م) :

فيها جرد السلطان العساكر نحو صحراء عيذاب بأعالى بلاد الصعيد بسبب فساد العربان ، فخرج فى هذه التجريدة ستة أمراء مقدمين وألفا مملوك ، فتوجهوا الى بلاد البجاة وجاوزوا الأقاليم الثلاثة فلم يظفروا بأحد من العربان العصاة ، فرجعوا الى القاهرة من غير طائل . وكان قوت العسكر فى هذه التجريدة الذرة والماء من الحفائر ، وكانت العرب فى الجبال فلم يظفروا منهم بأحد يلوح .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ علاء الدين ابن المظفر الكندى الشهير بالوداعى ، وكان مولده سنة أربعين وســتمائة ، ووفاته ســنة ست عشرة وسبعمائة ، فكانت مدة حياته ستا وسبعين سنة . وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

لقد سمح الزمان لنا بيوم
غدا فيه السمى مع السمىّ
تجمعنــا كأنا ضرب خيط
عــلىّ فى عــلىّ فى عــلىّ

سنة سبع عشرة وسبعمائة (١٣١٧ م) :

فيها جرد الســلطان العساكر الى نحو مدينة أحد ، فطرقوها على حين غفلة ، فهرب أهلها منها ، فملكها عسكر مصر من غير محاصرة .

وفى هذه السنة توجه السلطان الى غزة ، وتوجه من هناك الى زيارة بيت المقدس فزاره ، ثم توجه

الى زيارة الخليل عليه السلام فزاره ، ثم رجع الى الديار المصرية وذلك فى جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

وفى هذه السنة وفى النيل فى التاسع والعشرين من أبيب وزاد عن الوفاء نصف ذراع ، فكسر بعد العصر خوفا من قوة عزم الماء .

وفيها أمر السلطان بتوسعة الجامع الذى فى القلعة ، فوسعه وبنى به المئذنة الخضراء ، وزخرفه بالرخام الملون وبنى به القبة الخضراء ، وقيل انتهت منه العمارة فى أربعة أشهر وخمسة وعشرين يوما .

سنة ثمانى عشرة وسبعمائة (١٣١٨ م) :

فيها جرد السلطان العسكر الى نحو برقة بسبب فساد العربان لأنهم قد منعوا غنم الزكاة وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم السلطان وأخذ أغنامهم وجمالهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون الى نحو بلاد الغرب .

وفى هذه السنة أجرى السلطان ماء النيل من البحر الى قلعة الجبل ، وعمل مجراة جارية على قناطر مبنية بالحجر ، وركز للمياه آبارا ، وجعل عليها سواقى نقالة فى عدة أماكن .

وفى هذه السنة عمر السلطان الحوش الكبير الذى بالقلعة وزرع به بستانا ، ونقل اليه الأشجار والرياحين من سائر الأماكن حتى من البلاد الشامية ومن مكة ، وطلع فيه الكادى وجوز الهند وغير ذلك من الفواكه .

وفى هذه السنة قوى عزم السلطان على أن يحج فى تلك السنة — وهى الحجة الثانية — فعين معه جماعة من الأمراء المقدمين اثنى عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات ثلاثين أميرا . وحج مع السلطان فى تلك السنة الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، وحج صحبة السلطان من المباشرين القاضى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الشريف ، والقاضى فخر الدين ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى كريم الدين ناظر الخواص الشريفة ، وغير ذلك من المباشرين ... فخرج السلطان من القاهرة فى تاسع ذى القعدة ، فجدّ فى السير حتى دخل الى مكة قبل الصعود بثلاثة أيام ، فكنس مكان الطواف ومسحه بيده ، ثم صعد الى الجبل وقضى مناسك الحج ورجع الى مكة وأقام بها أياما وفرق على الفقراء الذين بمكة جملة من المال ، وأبطل أشياء كثيرة من المكوس التى كانت بمكة .

ثم توجه الى زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودخل المدينة الشريفة وهو ماش على أقدامه حافيا . فلما دخل المدينة فرق على الفقراء خمسين ألف دينار ، ثم توجه الى نحو القاهرة فدخلها فى أوائل صفر ، وكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا .

سنة تسع عشرة وسبعمائة (١٣١٩ م) :

فيها تزوج السلطان بنت أزبك خان صاحب الموصل ، فحضرت من بلاد الشرق الى مصر فى محفة مرقومة بالذهب ، فطلعت الى القلعة وكان لها مهم عظيم ، ودخل عليها السلطان وحظيت عنده .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ شهاب الدين محمود أبى الثناء . وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ، وله شعر جيد ونثر رقيق ، فمن شعره قوله :

لقد سلبوا نومى ولم تدر مقلتى
وقد سلبوا قلبى ولم تشعر الأعضا
وطلقت نومى والجفون حوامل
فمن أجل ذا فى الخد أبقت لنا فرضا

سنة عشرين وسبعمائة (١٣٢٠م) :

فيها جرد السلطان العساكر الى مدينة سيس ، فطردوا من كان بها من الأرمن وملكوها ، وأقاموا بها نائبا من قبل السلطان ثم رجعوا الى القاهرة وهم فى غاية النصرة .

وفى هذه السنة توفى قاضى القضاة جلال الدين القزوينى .

سنة احدى وعشرين وسبعمائة (١٣٢١م) :

فيها حجت خوند زوجة الملك الناصر — وهى خوند طغاى أم ولده أنوك — فحج معها القاضى كريم الدين ناظر الخاص ، وكان أمير المحمل فى تلك السنة الأمير قجليش أمير سلاح وجماعة من الأمراء العشراوات ، فخرجت من القاهرة فى ثامن شوال ، وحجت فى محفة مرقومة بالذهب ، وسافر صحبتها الكئوسات والعصائب السلطانية ، فحجت ورجعت الى القاهرة فى عاشر المحرم ، فنزل السلطان الى تلقيها ، فتلقاها من بركة الحاج ، ودخلت فى موكب عظيم والأمراء مشاة قدام محفتها حتى طلعت الى القلعة .

وفى هذه السنة جرد السلطان العساكر الى قلعة اياس ومدينة سيس ... وذلك أنه لما رحل عنها عسكر السلطان ورجعوا الى القاهرة رجعت اليها الأرمن وطردوا النائب الذى كان فيها من قبل السلطان ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليها تجريدة عظيمة كان بها من الأمراء الأمير طرجى أمير مجلس ، والأمير ألماس حاجب الحجاب — وهو صاحب الجامع الذى بالقرب من سوق الغنم — والأمير بهادر آص ، والأمير سنجر الجمقدار ، والأمير كجكر العلمى ، والأمير أقوش الأشرفى ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات ، وألفان من المماليك السلطانية . ولما وصلوا الى سيس حاصروها أشد المحاصرة حتى هرب من كان بها من الأرمن ، وقتلوا من أهلها ما لا يحصى عدده ، وفتحوها بالسيف ، وأخربوا سورها وتركوها خاوية على عروشها ، وزال عنها زخرفها ونقوشها ، وجعلوا بها نائبا قد رماه الدهر فى النوائب . وعن لسان نائب سيس يقول بعض الشعراء :

قالوا اجعلوا فيها لنا نائبا
جيوش سيس ... قلت رأى تعيس
لو أن ذا الحاكم فى سلطنة
ما تركونى أبقى بسيس

ثم رجع العسكر المصرى الى القاهرة وتركوا نائب سيس تحت مكتوبه .

وفى هذه السنة رسم السلطان الملك الناصر بعمارة ميدان المهارة الذى عند قناطر السباع ، وأنزل أمير أخور كبير لعمارته ، فعمره بالطوب اللبن وانتجز العمل منه فى أسرع مدة .

سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة (١٣٢٢م) :

فيها تغير خاطر السلطان على القاضى كريم الدين ابن السديد — ناظر الخواص الشريفة — فقبض عليه وعلى ولده ، وقد كان نال من العز ما لم ينله جعفر البرمكى فى أيام هارون الرشيد ، وكان الملك الناصر قد صير له التصرف فى الخزائن والأموال من غير حرج ، فكانت الأمراء والأعيان يركبون فى خدمته ، وينزلون معه الى بيته . ولما تغير خاطر السلطان عليه احتاط على موجوده ، واستصفى أمواله وذخائره ولم يترك له لا قليلا ولا كثيرا ، وصادر نساءه وغلمانه وحاشيته ، ثم بعد ذلك نفاه الى نحو الشوبك هو وولده .

ثم ان السلطان خلع على القاضى تاج الدين ابن عبد الوهاب واستقر به ناظر الخواص الشريفة عوضا عن كريم الدين . ثم ان السلطان نقل القاضى

كريم الدين من الشوبك الى أسوان من أعمال بلاد الصعيد ؛ فتوجه من هناك وهو مقيد بالحديد وسجن هناك فى أسوان ، فأقام فى السجن مدة يسيرة ومات ... قيل انه عمد الى خشبة وعمل فيها حبلا وخنق به نفسه ، فمات وهو فى السجن بأسوان . فلما مات أحضر السلطان ولده وعاقبه وقرره على الأموال والذخائر فأظهر مخبأة فى دهليز بيته فوجد فيها من الذهب العين مائتى ألف دينار ، ومن الفصوص والتحف ما لا يحصى ... هذا بعد ما أخذه السلطان منه فى المصادرة أولا وثانيا ، فكان كما قيل فى المعنى :

احذر مداخلة الملوك ولا تكن
ما عشت بالتقريب منهم واثقا
فالغيث غيثك ان ظمئت وربما
ترمى بوارقه اليك صواعقا

وحكى بعض المؤرخين عن القاضى كريم الدين هذا أنه شرب فى بعض الأيام دواء ، فجمع وردا كان فى القاهرة ففرش منه فى داره ما قدر عليه حتى فى دهاليز بيت الخلاء وعلى الملاقى ، وداس منه الناس ما داسوا ، وأخذوا منه ما أخذوا ، ثم ان العبيد والغلمان أخذوا ما فضل من ذلك الورد فباعوه بخمسة آلاف درهم . وكان القاضى كريم الدين له بر ومعروف ، وأنشأ جامعا بجزيرة أروى ، وأنشأ خانقاه بالقرافة الصغرى ، ووقف عليها الأوقاف الجليلة . وفيه يقول ابن نباتة :

يا كريما موافق الاسم للفعـ
ـل وأنسى فى الفضل كل قديم
لا تخف نبوة الحوادث فالله
كريم يحب كل كريم

وقيل مات القاضى كريم الدين وله من العمر نحو من ستين سنة .

سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣م) :

فيها ابتدأ الملك الناصر محمد بن قلاون بعمارة خانقاه سرياقوس . قيل ان الملك الناصر رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وأشار عليه أن يبنى فى هذا المكان خانقاه ، فبنى هذه الخانقاه . فلما كملت قرر بها الصوفية ، ووضع فى هذه الخانقاه ربعة مكتوبة بالذهب مثل الربعة التى فى خانقاه بكتمر التى بالقرافة ، وجعل فيها حضورا ، وقرر الشيخ مجد الدين الأقصرائى شيخا بها وكان من كبار العلماء . فلما كملت العمارة نزل السلطان هناك وعمل بها وليمة عظيمة ، وحضر فيها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء .

ثم ان السلطان عمر حول هذه الخانقاه البيوت الجليلة ، ورغبوا فى سكناها ، وصارت مدينة على انفرادها ، وتزايدت فى العمارة ، وبنى بها الملك الأشرف برسباى مدرسة عظيمة وجعل فيها خطبة ، وبنى فيها عدة مساجد ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاون قرر بهذه الخانقاه جماعة آفاقية قاطنين بها ليس لهم حرفة ، وفى ذلك يقول المعمار :

قد صار فى الخانقاه عرف
من فعلهم وهو شر عادة
لا يدفعون النصيب فيها
الا لمن يترك الشهادة

سنة اربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٤م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة موسى ملك التكرور وصحبته هدايا جليلة الى السلطان . وسبب توجهه الى مصر أنه قصد الحج فى تلك السنة فحج ورجع الى بلاده .

وفى هذه السنة رسم السلطان بحفر الخليج الناصرى . وسبب ذلك أن الخليج القديم ، المسمى بخليج الذكو ، كان قد تلاشى أمره وعمى ، فأمر

السلطان بحفر هذا الخليج ، وجعل مبدأه من عند موردة الجبس الى أن أوصله بالخليج الحاكمى من عند زقاق الكحل ، ثم وزع حفره على جماعة من الأمراء بالقصبة الحاكمية . وسبب ذلك أن الأمراء الذين تعاونوا على حفره كان لهم بلاد تنتفع بالرى من هذا الخليج ، فوزع السلطان حفره عليهم ، فاحتفلوا به وحفروه حتى نبع الماء من أرضه ، وانتجز منه العمل فى مدة شهرين . فلما أخذوا فى اسباب حفره أرادوا أن يوصلوه بالخليج الحاكمى من كوم الريش ، فأشار عليهم شخص من الصالحين يقال له الشيخ على الرطلى بأن يمشوا به من بركة قرموط ، فعطفوا به من عند القنطرة العسراء ومشوا به الى الخليج الحاكمى وطلعوا من قبالة زقاق الكحل . والى الشيخ على الرطلى تنتسب بركة الرطلى ، وكان هذا المكان قديما يعرف بأرض الطبالة . فلما مشى هذا الخليج الناصرى بالماء جاء أحيا من خليج الذكر وأكثر مياها . قيل لما أوفى النيل فى تلك السنة ودخل الماء الى الخليج الناصرى كان له يوم مشهود ، ونزل السلطان واجتمع الأمراء يوم كسر سده ، وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة المغربى :

ولرب أقطع قال لى بيتا وقد
كسر الخليج وجاء كالطوفان
أجرى لنا السلطان بحرا ثانيا
مالى بشكر نوالهن يدان

وفى هذه السنة ابتدأ الأمير بكتمر — حاجب الحجاب — بحفر بركته المعروفة الآن ببركة الرطلى ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى ، وعمل لها جسرا بينها وبين الخليج . وأرض البركة جارية الى الآن فى وقف الأمير بكتمر الحاجب .

وفى هذه السنة برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بأن يروك البلاد الحلبية كما فعل فى البلاد الشامية ، فخرج أمير من الأمراء العشراوات ومعه جماعة من المباشرين بسبب ذلك ، فتوجهوا من القاهرة الى حلب وراكوا البلاد الحلبية حكم البلاد الشامية ، فجميع البلاد المصرية والشامية والحلبية الآن فى الروك الناصرى .

سنة خمس وعشرين وسبعمائة (١٣٢٥ م) :

فيها رسم السلطان بابطال الضرب بالمقارع من سائر أعمال مملكته ، وكتب بذلك مراسيم شريفة وقرئت على منابر مصر والشام بابطال ذلك .

وفى هذه السنة وقع الغلاء بمصر وسائر أعمالها ، وتشحطت الغلال وماجت الناس على بعضها .

وفى هذه السنة أجرى السلطان عين ماء بمكة — وهى العين المعروفة بعين بازان — فحصل لأهل مكة بها غاية النفع ، وهى الى الآن جارية يعم نفعها أهل مكة .

سنة ست وعشرين وسبعمائة (١٣٢٦ م) :

فيها عمل السلطان الموكب ، وقبض على الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر ، وقبض على الأمير قطلوبغا الفخرى . فأما الأمير طشتمر حمص أخضر فشفع فيه الأمراء ، فأفرج عنه السلطان من يومه وأما الأمير قطلوبغا الفخرى فأرسله السلطان الى دمشق بطالا . واستمر طشتمر ممقوتا عند السلطان فانه كان شديد البأس ظالم الصورة ، وفيه يقول المعمار رحمه الله تعالى :

لما طغى طشتمر واعتدى
تفاءل الناس بأفوالها
دنا حصاد الحمص المعتدى
ولم تزل مصر بأفوالها

وفى هذه السنة عمرت القرية المعروفة بالتحريرية من أعمال الغربية ، وكان سبب انشائها أن الأمير

شمس الدين سنقر السعدى — نقيب الجيوش المنصورة — كانت هذه الأرض فى اقطاعه جارية ، فعمر بهـا الأمير سـنقر السعدى جامعا وطاحونا وخانا ، ثم تزايدت فى العمارة وسكن بها جماعة كثيرة من الفلاحين ، فبلغ خراجها فى كل سنة خمسة عشر ألف دينار ، فبلغ ذلك الملك الناصر ، فأخذها من الأمير سنقر السعدى وصارت من جملة بلاد السلطان ، وتزايدت فى العمارة حتى صارت بلدا كرسيا .

سنة سبع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٧ م) :

فيها توفى الأمير سنقر السعدى — نقيب الجيوش — عند حدرة البقر المسماة بالسعدية .

وفى هذه السنة أمر السلطان باحضار القاضى محيى الدين بن فضل الله العمرى — كاتب سر الشام — فلما حضر الى الأبواب الشريفة خلع عليه السلطان ، واستقر به كاتب السر الشريف بمصر . وهو الذى يقول فيه الشيخ جمال الدين بن نباتة :

يا سائلى عن كاتب السر الذى
يعزى علاه الى أب أواه
هذاك غيث الله محيى الأرض من
بعد الممات ، وذاك فضل الله

ومما يحكى عن القاضى محيى الدين هذا أنه كان اذا دخل على الملك الناصر فى وقت العلامة يجمع ما فيها من الرمل الذى يتناثر من العلامة بحضرة السلطان ، فيجمع ذلك كله ولا يرمى منه شيئا ، ويضعه فى مرملته التى لنفسه ، ويقول : « هذا رمل سعيد لا يرمى منه شىء » . فكان اذا كتب شيئا رمله من ذلك الرمل الذى جمعه من العلامة بحضرة السلطان .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة صاحب حماة — وهو الملك المؤيد عماد الدين — وصحبته هدايا جليلة وتقادم عظيمة ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام ، وأقام بالقاهرة أياما ثم توجه الى بلاده .

سنة ثمان وعشرين وسبعمائة (١٣٢٨ م) :

فيها برزت المراسيم الشريفة ببناء قناطر على الخليج الناصرى الذى حفره السلطان الملك الناصر ، فبنى قنطرة عند الميدان الكبير بموردة الجبس ، وبنى قنطرة تعرف الآن بقنطرة قديدار . قيل ان الأمير قديدارا كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ، وبنى قنطرة بظاهر باب البحر ، وبنى قنطرة عند بركة قرموط تعرف الآن بقنطرة العسرا ، وبنى قنطرة عند بركة الرطلى تعرف الآن بقنطرة الحاجب كان مشرفا على عمارتها فنسبت اليه ، وبنى قنطرة عند زقاق الكحل تعرف الآن بالقنطرة الجديدة ... فهذه القناطر من انشاء الملك الناصر محمد بن قلاون .

سنة تسع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٩ م) :

فيها حفر السلطان الملك الناصر البركة الناصرية المنسوبة اليه المجاورة للميدان الكبير ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى .

وفى هذه السنة أخرج السلطان ولده الأمير أحمد الى مدينة الكرك ورسم له بأن يقيم بها ، فعبى له نسيجا عظيما وتوجه الى هناك .

سنة ثلاثين وسبعمائة (١٣٣٠ م) :

فيها عمر السلطان القصر الكبير الذى فى الميدان عند البركة الناصرية ، وعمل تحته بستانا عظيما ، وكان ينزل هناك ويقيم معه الحريم ، ويركب من هناك المواكب الجليلة ، ويطلع الى القلعة والأمراء بين يديه بالشاش والقماش والعسكر مشاة بين يديه حتى يطلع الى القلعة .

وفى هذه السنة رسم السلطان بهدم الايوان

الأشرف الذى كان بالقلعة ، فهدمه وبناه على هذه الصفة الموجودة الآن ، وعقد فوقه هذه القبة العظيمة ، وكان يعمل فيه المواكب العظيمة ، وتجتمع به الأمراء ويكثر فيه الزحام من العسكر حتى قال فيه بعض الشعراء رحمه الله :

ما كان يكفى حر ذا الا
يوان حتى ازداد قبه
فكأننى فيه خرو
ف قد شوى من تحت كبه

وفى هذه السنة هدم السلطان دور الحرم التى كانت بالقلعة وأنشأها عمارة جديدة وتباهى فى بنائها .

وفى هذه السنة حضر الى الأبواب المقر السيفى تنكز نائب الشام يزور السلطان ، فأنزله فى الميدان الكبير عند الناصرية ، وبالغ فى اكرامه وتعظيمه . وأحضر صحبته تقادم عظيمة الى السلطان والأمراء ما بين خيول وفراش وقماش وغير ذلك .

سنة احدى وثلاثين وسبعمائة (١٣٣١ م) :

فيها رسم السلطان بأن يعمل باب للكعبة الشريفة جديد من الخشب السنط الأحمر ، فعمل وصفحوه فوق الخشب بصفائح الفضة ، فكان زنتها ثلاثين ألف درهم . فلما قلع الباب العتيق وزنوا ما كان عليه من الفضة فكان زنتها ستين رطلا ، فأنعم بها الملك الناصر على بنى شيبة خدام البيت الشريف ، فتقاسموه بينهم . وهذا الباب كان عمله الخليفة العباسى الملقب بالمقتفى بالله فى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٢ م) :

فيها شرع السلطان فى التوجه الى الحجاز الشريف ، وهى الحجة الثالثة ، فيها خرج من القاهرة فى سابع شوال . وكان سبب هذه الحجة أن السلطان لما عمل هذا الباب الجديد للكعبة قصد أن يوضع على باب الكعبة بحضرته ، فحج فى تلك السنة ، وكان بصحبته الملك الأفضل محمد ابن الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل صاحب حماه ، وكان مع السلطان من الأمراء الأمير بكتمر الساقى وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر ، والأمير أيدمر الخطيرى ، والأمير جنكى ابن البابا — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير بيبرس الأحمدى ، والأمير بهادر المعزى ، والأمير ايدغمش — وهو صاحب الخوخة المنسوبة اليه — والأمير قطز أمير آخور كبير ، والأمير طقزدمر — وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه — والأمير سنجر الجاولى ، والأمير قوصون ، والأمير صوصون ، والأمير طاير بغا ، والأمير بشتاك العمرى — وهو صاحب الجامع المنسوب اليه — والأمير أقبغا آص الجاشنكير ، والأمير طقتمر الخازن — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير تمر الموسوى ، والأمير أيدمر أمير خازندار ، والأمير مسعود حاجب الحجاب ، والأمير صاروجا نقيب الجيوش المنصورة — وهو صاحب الجامع الذى عند بركة الرطلى — وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ... فكانت عدة من حج مع السلطان من الأمراء فى تلك السنة اثنين وسبعين أميرا ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك ، فكانت مدة غيبة السلطان فى هذه السفرة الى الحجاز ذهابا وايابا أربعة وخمسين يوما لا غير .

ومما وقع للسلطان الملك الناصر فى هذه الحجة أن صهره الأمير بكتمر الساقى الأتابكى لما حج معه هو وولده الأمير أحمد ، فلما قضوا حجهم ورجعوا مرض الأتابكى بكتمر فى أثناء الطريق ، فلما وصل الى عيون القصب ثقل عليه المرض فمات هناك ودفن بعيون القصب ، وكانت وفاته فى ثانى المحرم

من سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . ثم مرض ولده الأمير أحمد أيضا ومات بنخل ودفن بها ، ثم بعد مدة نقل الأتابكى بكتمر وولده الأمير أحمد الى القاهرة ودفنا هنـــاك فى الخانقاه التى أنشأها بالقـــرافة الصغرى بالقرب من الجبل المقطم . وكان الأمـــير بكتمر أصـــله من مماليـــك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، فلما مات الملك المظفر أخـــذه الملك النـــاصر محمد من جملة موجوده ، فحظى بكتمر عند الملك الناصر حتى جعله ساقيا ، ثم صار يرقى فى دولة الملك الناصر حتى بقى أتابك العســـاكر . ثم ان الملك الناصر زوج الأتابكى بكتمر بأختـــه بنت الملك المنصور قلاون . وكان الملك الناصر ينزل الى بيت الأتابكى بكتمر وينفرد عنده وينـــام فى بعض الأوقات حتى يتفرج على بركة الفيل ، فان الأمير بكتمر كان ساكنا فى البيت الذى بالقرب من المدرسة الجاولية ، فصار الأتابكى بكتمر صاحب الحل والعقد فى دولة الملك الناصر ، ولا يتصرف الملك الناصر فى شىء من المملكة الا بعد مشـــورة الأتابكى بكتمر ، وكان لا يهدى للملك الناصر شىء من التقادم الا ويهدى للأتابكى بكتمر مثله أو أحسن منه ، فكثرت أموال الأتابكى بكتمر حتى قيل : كان فى اسطبله مائة سطل نحاس بيد مائة سائس ، وتحت يـــد كل سائس طوالة خيل من الخيـــول الخاص ، وحوى من الأموال والجواهر والتحف ما لم يحوه قبله أحد من الأمراء ، فلما ثقل أمـــره على الملك الناصر لم يتمكن من القبض عليه ، فلما حج معه بلغ الملك الناصر أن الأتابكى بكتمر يقصد قتله فى طريق الحجاز ويتسلطن هناك ، فبادر اليه الملك الناصر ودس عليه من سقاه سما هو وولده الأمير أحمد ابن أخت الملك الناصر فماتا وهما فى أثناء الطريق راجعين كما تقدم ذكر ذلك .

قال بعض المؤرخين : لما مات الأتابكى بكتمر بعيون القصب احتاط الملك على موجوده الذى كان معه بطريق الحجاز فوجد معه خمسمائة تشريف ما بين خلع أطلس ومتمرات وكوامل وغـــير ذلك ، ووجد معه عدة قيود وجنازير فى خوشخانات ... فعند ذلك تحقق الملك صحة ما نقل عن الأتابكى بكتمر فى أمر أنه قصد قتل السلطان هناك .

وكان الأتابكى بكتمر يغلظ على السلطـــان فى القول اذا رأى منه الجور فى حق الرعية ، وكان يحجر عليه فى ذلك ، وكان السلطان يرجع الى قول الأتابكى بكتمر فى غالب الأمور ولا يخالفه فى شىء اذا أصر عليه .

وكان صفة الأتابكى بكتمر : أبيض اللون مشربا بحمرة ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، وافر العقل ، حسن العبارة فى كلامه ، عليه سكينة ووقار . وكان قليل الأذى فى حق الرعية ، وله بر ومعروف ... فمن ذلك أنه أنشأ خانقاه فى القـــرافة الصـــغرى بالقـــرب من الجبل المقطم ، وقرر بهـــا صوفيـــة وحضورا ، ووقف عليها أوقافا كثيرة ، ووضع بها ربعة عظيمة مكتوبة كلها بالذهب ، قيل ان مصروفها نحو ألف دينار ، وهى موجودة الى الآن . وكان بهذه الخانقاه حمام وفرن وطاحون وســـاقية وجنينة ، وكان بها جماعة من الصوفية قاطنون بها ، وكان له آثار كثيرة بمصر والشام .

فلما مات الأتابكى بكتمر قرب السلطان الأمير قوصـــون ورقاه . قيل انه أنعم عليـــه بزردخانة الأتابكى بكتمر ، فقوم ما فيها من السلاح وغـــيره فكان بنحو ستمائة ألف دينار . ثم ان السلطـــان زوّج الأمـــير قوصون باحدى بنـــاته . ولم يزل قوصون يرقى فى أيام الملك الناصر حتى فاق على الأتابكى بكتمر فى أيامـــه . قيل وقع يوما بـــين الأتابكى بكتمر وبين الأمير قوصون تشاجر فقال قوصون للأتابكى بكتمر : « أنا ما نقلت من الأطباق

الى الاسطبلات ، بل أخذنى السلطان من شخص تاجر كنت فى خدمته . فلما أخذنى السلطان اتفق أن فى ذلك اليوم توفى واحد من الخاصكية الثقال فأنعم على السلطان باقطاعه وبركه وبيته ، وصرت خاصكيا فى ذلك اليوم . وسبب ذلك أن التاجر الذى كنت عنده لما قال له السلطان : بعنى هـذا المملوك ، قال التاجر : هو حر لوجه الله تعالى ، فأخذنى السلطان برضاى ، ولم أقعد فى طبقـة ، ولم أكن تحت حكم أغا ، ولم أبـع مثل بقيـة المماليك ... » .

فلما سمع الأمير بكتمر ذلك سكت عنـه ولم يجبه عن ذلك بشىء .

وفى أثناء هذه السنة ــ وهى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة ــ حضر الى الأبواب الشريفة الأمير مهنا ابن الأمير عيسى من عربان آل فضل ، وأحضر معه تقادم عظيمة للسلطان ، فخلع عليه وأقره على حاله شيخ آل فضل .

سنة اربع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٤ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السـيفى تنكز نائب الشام ، وكان يزور السلطان فى كل سنة مرة ، وصحبته الهدايا والتقادم . فلما حضر أنزله السلطان فى الميـدان الكبير الذى عنـد البركة الناصرية ، وبالغ السـلطان فى اكرامه وتعظيمه ، وكان ذلك آخر اجتماعه بالسلطان وهو فى عـزة وعظمة وقد تناهى سعده ، فأقام بالقاهرة ثم توجه الى الشام ، فخلع عليه السلطان خلعـة عظيمة ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم والأمراء فى خدمته حتى رحل من القاهرة .

سنة خمس وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٥ م) :

فيها أفرج السلطان عن جماعة من الأمراء الذين فى السجن بثغر الاسكندرية ، وهم : الأمير بيبرس حاجب الحجاب ، والأمير تمر السـاقى ، والأمير غانم بن أطلس خان ، والأمير طغلق ، والأمير بلاط اليونسى ، والشيخ على الأوجاقى ، والأمير بلزعى ، والأمير بنجاص ، والأمير لاچين الغمرى ، والأمير بيبرس العلمى ، والأمير كچلى ... فلما حضر هؤلاء الأمراء الى القاهرة خلع عليهم السلطان ثم أعادهم الى اقطاعاتهم وقبض على جماعة من الأمراء نحو ذلك وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

وفى هذه السنة رسم السلطان بعمارة قنطرة على بحر أبى المنجا عند شيبين القناطر .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأرمن ملكوا مدينة سيس وطردوا من كان بهـا من المسلمين ، فرسم السلطان لنائب حلب بأن يتوجه اليهم ومعه العساكر الحلبية ، فخرج اليهم فى سابع عشرى شهر رمضان ، فحاصر من كان بها من الأرمن ، وأحرق الضياع التى حولها ، وأسر جماعة من الأرمن نحو ثلثمائة انسان . فلما بلغ ذلك من كان من الأرمن بقلعة اياس ، ثاروا على من كان عندهم فى المدينة من المسلمين ، وحشروهم فى فنـدق ، وأحرقوا ذلك الفندق ، فاحترق فيه من المسلمين نحو ألفى انسان ما بين رجال ونساء وصغار ، وذلك فى يوم العيد ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

سنة ست وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٦ م) :

فيها رسم السلطـان للمقـر السيفى تنكز نائب الشام بعمارة قلعة جعبرة ، فتوجه اليها تنكز وعمرها فى أسرع مدة ، ورتب بها الرجال الحرسية ، وجعل لها نائبا مقيما بها ، وأودع فيها السلاح ، وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان .

وفى هذه السـنة توجه الأمير أزدمر الشمسى ــ نائب بهنسا ــ الى قلعة درنده وحاصر أهلها ،

فطلبوا منه الأمان فأمنهم ، فسلموه القلعة فأقام بها نائبا من قبل السلطان . ثم توجه الى قلعة النقير فحاصرها ، ففعل أهلها مثل ما فعل أهل قلعة درندة ، وأقام بها نائبا من قبل السلطان .

وفى هذه السنة وقع الغلاء بالديار المصرية ، فبيع القمح كل أردب بسبعين درهما ، وعدم الخبز من الأسواق ، وماجت الناس على بعضها ، فرسم السلطان بفتح شونه ففتحوها وباعوا منها فانحط السعر الى أن صار الأردب بثلاثين درهما . ولما أن دخل شهر رمضان كثر فيه القمح حتى ما بقى أحد يشتريه ولا يقلبه ؛ وسكن وهج الناس .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان الملك الناصر تغير خاطره على الخليفة المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، ورسم له بأن يتحول من مناظر الكبش ويسكن بقلعة الجبل ، فتحول من يومه وطلع الى القلعة هو وعياله ، فأنزله السلطان فى البرج الكبير الذى أنزل فيه الظاهر بيبرس البندقدارى الخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله عند قدومه من بغداد ، فاستمر الخليفة المستكفى بالله ساكنا فى البرج ، ومنعه السلطان من الاجتماع بالناس ومن النزول الى المدينة ، فأقام على ذلك نحو خمسة أشهر . ثم ان بعض الأمراء تشفع فيه فرسم له السلطان باعادته الى مناظر الكبش كما كان أولا .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى سيس بسبب فساد الأرمن .

وفيها حضرت الى الأبواب الشريفة الحرة زوجة ملك الغرب طالبة الحج ، فأهدت الى السلطان هدية جليلة ، ومن جملتها أعجوبة وهو ثور أصفر فاقع اللون كامل الخلقة ، وفى وسط ظهره من الجانب الأيمن كتف طالع من رءوس أضلاعه ، وهو بمرفق وذراع وحافر مفروق مثل حوافر البقر ، فكان يطوف بالقاهرة ويجبى عليه — كما يفعل بالسباع — وهو بحبل من حرير أصفر .

سنة سبع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٧ م) :

**فيها قبض النشو — ناظر الخواص الشريفة — على ابن فضيل شيخ مدينة ملوى ؛ وكان له دواليب ومعاصر ، وكان يزرع فى كل سنة من القصب الحلو خمسمائة فدان . فلما قبض عليه النشو وجد عنده فى حاصله أربعة عشر ألف قنطار سكر ، ومثلها قطر نبات ، ومثلها عسل أسود ... هذا كله خارج عن العبيد والجوارى والغلال وغير ذلك . فحمل جميعه الى الحواصل السلطانية ، وأقام ابن فضيل فى الترسيم مدة ، ثم أفرج عنه السلطان ، وخلع عليه وأعيد الى عمله بمدينة ملوى .

سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٨ م) :

فيها رسم السلطان للخليفة المستكفى بالله سليمان بأن يتوجه هو وأولاده وعياله الى نحو مدينة قوص من أعمال بلاد الصعيد وأن يقيم بها ، فخرج من يومه — هو وعياله وأولاده — فشق ذلك على الناس وتأسفوا غاية الأسف على ذلك ، وفى ذلك يقول الشيخ زين الدين ابن الوردى :

أخرجوكم الى الصعيد لأمر
غير مخز فى ملتى واعتقادى

لا يغيركم الصعيد وكونوا
فيه مثل السيوف فى الأغماد

قيل : وكان سبب تغيير خاطر السلطان على الخليفة المستكفى بالله أنه رفعت قصة الى الملك الناصر وعليها خط الخليفة سليمان ليحضر محمد بن قلاون الى مجلس الشرع أو يوكل ، فشق ذلك على الملك الناصر وبقى فى خاطره شىء من الخليفة

سليمان حتى نفاه الى قوص ، فأقام بها الى أن مات فى شهر شعبان سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة خلافته بمصر خمسا وثلاثين سنة وسبعة أشهر .

فلما نفاه السلطان الى قوص أقامت مصر بلا خليفة أربعة أشهر والسلطان يتروى فيمن يوليه الخلافة . وكان الخليفة المستكفى بالله لما توجه الى مدينة قوص عهد الى ولده أحمد ، وثبت عهده على يد قاضى قوص بشهادة أربعين رجلا من العدول ، فلم يمض الملك الناصر ذلك العهد لما فى نفسه من الخليفة سليمان ، فجمع القضاة الأربعة ، وعقد مجلسا بسبب ذلك ، فلما رأى القضاة ذلك العهد تمسكوا بحكم قاضى قوص ، فانفض المجلس ولم يول السلطان أحمد بن المستكفى بالله وصمم على عدم ولايته ، ثم ولى ابراهيم أخا المستكفى بالله على حين غفلة ، ولقبوه بالواثق بالله . وكان ذميم السيرة ... قال قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر فى تاريخه : « ان العوام كانت تسمى ابراهيم هذا لما تولى الخلافة « المستعطى بالله » لقذارة نفسه وسوء تدبيره » .

سنة تسع وثلاثين وسبعمائة (١٣٣٩) :

فيها ظهرت بالقاهرة امرأة تسمى الخناقة ، وكانت تحتال على النساء والأطفال وتخنقهم وتأخذ ثيابهم ، فشاع أمرها بين الناس ، فلا زالوا يحتالون عليها حتى أمسكوها وشنقوها على باب زويلة ، وكان لها يوم مشهود لما علقت للشنق .

وفى هذه السنة تغير خاطر السلطان على النشو — ناظر الخواص الشريفة — وسلمه للأمير بشتاك الناصرى حاجب الحجاب يعاقبه . فلما تسلمه عاقبه حتى مات تحت العقوبة ، واستصفى أمواله . وكان السلطان قد قرب النشو عنده فى أعلى المراتب ، وأمن من قبله ، فكان كما قال الامام على كرم الله وجهه : « من أمسى من الدنيا وهو على جناح أمن أصبح منها وهو على قوادم خوف » . فلما مات النشو استقر السلطان بصهر النشو فى نظارة الخاص ، فجاء أظلم من النشو ، وفيه يقول المعمار :

قد أخلف النشو صهر سوء
قبيح فعل كما تروه
أراد للشر فتح باب
فأغلقوه وسمروه

سنة اربعين وسبعمائة (١٣٤٠ م) :

فيها توفى أنوك ولد الناصر محمد بن قلاون ، وكان بديع الجمال مليح الشكل ، وكان السلطان يحبه دون سائر اخوته ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، فتأسف عليه السلطان أسفا شديدا . وقد رثاه الصلاح الصفدى رحمه الله حيث قال :

مضيت وكنت للدنيا جمالا
وجرعت النجوم الزهر فقدك
ومن عجب الليالى فيك ألا
يموت أبوك يا أنوك بعدك

وكان الفأل بالمنطق .

وفيها توفى الشيخ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمرى . وكان عالما فاضلا ناظما للشعر ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

فسر لى عابر مناما ... فضل فى قوله وأجمل
وقال : لا بد من طلوع ... فكان ذاك الطلوع دمل

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى : « كنت بدمشق فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، والشيخ

فتح الدين بن سيد الناس بمصر ، فكتبت اليه وأنا بدمشق أقول له :

كان سمعى فى مصر بالشيخ فتح الد
ين يجنى الآداب وهى طرية
يا لها غربة بأرض دمشق
أعوزتنى الفواكه الفتحية

وفى هذه السنة تغير السلطان على المقر السيفى تنكز نائب الشام ، فأرسل الأمير بشتاك الناصرى ، والأمير يلبغا اليحياوى ، وصحبتهم جماعة من المماليك السلطانية ، ثم كتب مراسيم الى أهل دمشق على يد هؤلاء الأمراء بأن يكونوا لهم عونا على القبض على تنكز نائب الشام . وكان تنكز هذا أصله من مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين ، وتولى الملك الناصر فأخذ تنكز من جملة موجود لاجين ، فصار من مماليك الناصر محمد ، ثم جعله خاصكيا ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير طبلخانات ، ثم بقى مقدم ألف ... كل ذلك فى دولة الملك الناصر محمد . ثم جعله نائب الشام فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة عوضا عن الأمير أقوش الأفرم . واستمر تنكز فى نيابة الشام ثمانيا وعشرين سنة ، فعظم أمره ، وكثرت أمواله ، وكان له عند السلطان منزلة عظيمة حتى كان يكاتبه فى المراسيم « أعز الله أنصار المقر الكريم العالى » . وزاده فى الألقاب عن العادة ، وكان السلطان لا يفعل شيئا من أمور المملكة حتى يرسل ويشاور تنكز عليها .

وكان تنكز يزور السلطان فى كل سنة مرة وصحبته الهدايا الجليلة والتقادم العظيمة ، ويقيم بمصر أياما ، ثم يخلع عليه السلطان خلعة ويتوجه الى الشام .

واستمر تنكز على ذلك حتى أوقعوا بينه وبين السلطان ، ودبت بينهما عقارب الفتن ، فأرسل السلطان بالقبض عليه . فلما وصل اليه بشتاك الناصرى والأمير يلبغا اليحياوى ، قالوا له . « ان السلطان رسم لك بأن تحضر الى القاهرة حتى يزوج ابنته بابنك » . فقال تنكز : « أنا لى شغل فى هذا الشهر ، ولكن امضوا أنتم الى القاهرة وأنا أحضر أنا وولدى بعدكم » . فأغلظوا عليه فى العبارة ، وأغلظ هو أيضا عليهم ، فأرسلوا كاتبوا السلطان بذلك ، وأثخنوا جراحات تنكز عند السلطان . فلما سمع السلطان هذا الجواب ازداد حنقه على تنكز ، وعين اليه الأمير طاجار الدوادار الكبير بالقبض عليه . ولو أن تنكز حضر الى السلطان صحبة الأمير بشتاك والأمير يلبغا ما حصل له من السلطان الا كل خير .

فلما وصل الأمير طاجار الدوادار قال لتنكز : « قم احضر عند السلطان والخيرة لك » . فقال له تنكز : « امض أنت وأنا بعد ثمانية أيام أحضر عند السلطان » . فرجع الأمير طاجار عند السلطان ، وما أبقى ممكنا فى حق تنكز من الأذى .

فلما سمع السلطان ذلك عين الى تنكز تجريدة ثقيلة من القاهرة ، ورسم للنواب كلهم أن يمشوا على تنكز . فلما وصلت التجريدة الى الشام ، ومشت على تنكز جماعة من النواب ، حاصروه وهو بالشام ، فطلب منهم الأمان ، ونزل اليهم فقبضوا عليه وقيدوه ، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة سنة أربعين وسبعمائة .

ولما أمسك تنكز احتاطوا على موجوده من صامت وناطق ، فالذى قد ضبط من الذهب العين ثلثمائة ألف دينار وستون ألف دينار ، ومن الفضة النقدية ألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، ووجد له من الفصوص الياقوت والبلخش واللؤلؤ الكبار ثلاثة صناديق ، ووجد عنده من الطراز

الزركش والحوائص الذهب والخلع الأطلس مائة وخمسون بقجة ، ومن القماش الصوف وغير ذلك خمسمائة بقجة ، ووجد عنده من الفراش والبرك والأوانى ما حمل الى القاهرة على مائة وخمسين جملا ، ووجد له ودائع عند النــاس مائتا ألف دينار ، ومن الفضة ألف ألف ومائة ألف درهم ، وظهر له من الأملاك والضياع بمصر والشام ما قوم فى كل سنة بمائة ألف دينار .

فلما وصل تنكز الى القاهرة حمل موجوده الى الخزائن الشريفة ، ورسم له بالتوجه الى السجن بثغر الاسكندرية ، فسجن بها . ولما سجن أقام بالسجن أربعين يوما وهو مقيد ، ثم ان السلطان رسم بخنقه ، فأرسل اليه الحاج ابراهيم بن صابر مقدم الدولة فخنقه بالسجن وغسله وصلى عليه ودفنه بثغر الاسكندرية ... فذهب ماله ، وتخلى عنه سلطانه . وقد قيل :

لا فهم فى الدنيــا لمســتيقظ
بلمحها بالفكــرة البــاصرة
ان كدرت عيشــته ملهــا
وان صــفت كدرت الآخرة

قيل : « ثلاثة لا يؤمن اليها : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا منك ، والمــرأة وان طــالت صحبتها » .

ثم ان تنكز أقام مدفونا بثغر الاسكندرية مدة يسيرة ، ثم ان بعض الأمراء شفع فيه بأن ينقل ويدفن فى مدرسته التى أنشأها بدمشق ، فرسم السلطان بنقله وهو ميت الى دمشق فى أواخر سنة أربعين وسبعمائة . وفيه يقول الشيخ صلاح الدين الصفدى :

الى دمشـــــق نقلوا تنكــزا
فيالهـــا من آيــة طــاهرة
فى جنــة الدنيــا له جثــة
وروحــه فى جنــة الآخــرة

وقال فيه أيضا رحمه الله تعالى :

فى نقل تنكــز سر — أراده الله ربــه
أتى به نحو أرض — يحبهـــا وتحبــه

وكانت صفة تنكز : أسمر اللون ، خفيف العوارض طويل القامة ، حسن الشكل ، وافر العقل ، سديد الرأى ، حسن السياسة . وكان دينا خيرا ، كثير البر والخــير ، وله معروف وآثار للخــير بمصر والشام ، وكان طاهر الذيل عن ... غير أنه كان صعب الخلق شديد الغضب ، اذا غضب على أحد لم يرض عنه أبدا .

وكانت مدة نيابته بدمشق ثمانيا وعشرين سنة ، وهذا لم يتفق لنائب قبله . وكانت أهل دمشق عنه راضية فى مدة ولايته .

سنة احدى وأربعين وسبعمائة (١٣٤١ م) :

فيها توفى القاضى محيى الدين بن فضل الله العمرى كاتب السر الشريف . فلما توفى استقر ولده القاضى شهاب الدين بن فضل الله عوضه ، فجاء فى المنصب أعظم من والده . وكان عالما فاضلا ، وله نظم ونثر ، وألف كتابا فى صنعة الانشاء ، وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين فى الانشاء ، وصار عمدة الموقعين ، وبه يقتدون . وقد قال منشيه فى المعنى :

ياطالب الانشــاء خــذ علمه
عنى ، فعــلمى غــير منكور
ولا تقف ببــاب غيرى فمــا
تدخــــله الا بدســـتور

وفى هــذه السنة تزايدت عظمة الملك الناصــر محمد بن قلاون ، وكثرت مماليكه حتى صار راتبه ورواتب مماليكه كل يوم من اللحم الضانى ستة وثلاثين ألف رطل . وبالغ فى مشترى المماليك حتى

قيل بلغت مشترواته اثنى عشر ألف مملوك . وهو أول من اتخذ الشاش والقماش للعسكر والأقبية المفتوحة ، واتخذ الطرز الذهب والحوائص الذهب والسيوف المسقطة بالذهب والأقبية القاقم . وهو أول من رتب المواكب فى القصر على هذا الترتيب الحسن ، ورتب شرب السكر بعد السماط فى القصر والأمراء مجتمعون ، ورتب وقوف الأمراء فى المواكب على قدر منازلهم وكذلك أرباب الوظائف من المتعممين. وقد طالت أيامه فى السلطنة — بخلاف من تقدمه من الملوك — وصفا له الوقت ، وصار غالب الأمراء والنواب مماليكه ومماليك والده قلاون ، ولا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه ، حتى قيل قد تزايدت فى أيامه الديار المصرية والبلاد الشامية فى العمائر مقدار النصف من جوامع وقناطر وجسور وغير ذلك من العمائر والانشاء .

قال الشيخ سيف الدين أبو بكر بن أسد فى تاريخه : « لقد وقفت على تاريخ الملوك السالفة ، فما سمعت لأحد من الملوك بما للمالك الناصر محمد بن قلاون من المواقع الحسنة . فانه خطب له فى أماكن لم يخطب فيها لأحد من الملوك ، وكاتبه سائر الملوك من مسلم وكافر ، وهادوه وهابوه ، وصار جميع عسكر مصر فى قبضته من كبير وصغير » .

وفيه يقول الشيخ صفى الدين الحلى :

الناصر السلطان قد خضعت له
كل الملوك ... مشارقا ومغاربا

ملك يرى تعب المكارم راحة
ويعد راحات الفراغ متاعبا

ترجى مكارمه ويخشى بطشه
مثل الزمان ... مسالما ومحاربا

فاذا سطا ، ملأ القلوب مهابة
واذا سخا ، ملأ العيون مواهبا

ولم يزل الملك الناصر قائما على سرير ملكه حتى مرض وسلسل فى المرض ومات على فراشه فى ليلة الخميس العشرين من ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة . ومات وله من العمر ثمان وخمسون سنة ، ودفن فى يوم الخميس المذكور على والده قلاون داخل القبة التى أنشأها قلاون بين القصرين . وكانت له جنازة مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس .

وقد رثاه بعض الشعراء رحمه الله بهذه الأبيات :

حكم المنية فى البرية جارى
ما هذه الدنيا بدار قرار

ومكلف الأيام ضد طباعها
متطلب فى الماء جذوة نار

طبعت على كدر ، وأنت تريدها
صفوا من الأقذار والأكدار

واذا رجوت المستحيل فانما
تبنى الرجاء على شفير هار

فالعيش نوم ، والمنية يقظة
والمرء بينهما خيال سار

جاورت أعدائى ، وجاور ربه
شتان بين جواره وجوارى

وكانت مدة سلطنة الملك الناصر محمد هذا بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاثا وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياما ، وذلك دون خلعه من الولاية نحو أربع سنين وأيام .

ولما مات خلف من الأولاد أحد عشر ولدا ذكرا دون البنات ، فالذى تولى السلطنة من أولاده بعده ثمانية ، وهم : سيدى أبو بكر ، وسيدى أحمد ، وسيدى كجك ، وسيدى شعبان ، وسيدى اسماعيل ، وسيدى حاجى ، وسيدى حسن ،

وسيدى صالح ... فهؤلاء تولوا السلطنة كما سيأتى . وأما من لم يل السلطنة فثلاثة ، وهم : سيدى رمضان ، وسيدى حسين ، وسيدى يوسف . وأما من توفى من أولاده فى حال حياته من الذكور فأربعة ، وهم : سيدى ابراهيم ، وسيدى محمد ، وسيدى أنوك ، وسيدى على ... فهذا مجموع ما جاءه من الأولاد الذكور دون البنات .

وأما فتوحاته التى فتحها فى أيامه فآمد وملطية ، ودرنده ، وقلعة اياس ، وبهنسا ، والمرعش ، وتل حمدون ، وقلعة النقير ، وقلعة نجيبة ، والهارونية ، وكاورا ، واسفندكار ، وغير ذلك من الفتوحات .

وحج فى أيامه ثلاث حجج ، وزار بيت المقدس والخليل عليه السلام ثلاث مرات ، وسافر الى حلب والشام عدة مرار .

وأما نوابه بالديار المصرية فالأمير كتبغا ، والأمير سلار ، والأمير بكتمر الجوكندار ، والأمير بيبرس الدوادار المنصورى ، والأمير أرغون الناصرى مملوكه .

وأما وزراؤه بالديار المصرية : فالأمير سنجر الشجاعى ، والصاحب تاج الدين بن حنا بن الصاحب بهاء الدين بن حنا ، والصاحب فخر الدين الخليلى تولى الوزارة فى أيامه مرتين ، والأمير سنقر الأعسر ، والأمير أيبك البغدادى ، والصاحب شمس الدين محمد بن الشيخى ، والأمير أيبك الأشقر ... وهو أول من تسمى مدبر المملكة . وتولى شخص يسمى ابن عطاء ، وتولى شخص يسمى بدر الدين محمد بن التركمانى ، وتولى الصاحب أمين الدين بن الغنام ، تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات ، والأمير بكتمر الحاجب ، والأمير مغلطاى الجمالى ... فهؤلاء وزراؤه .

وأما قضاته الشافعية : فالشيخ تقى الدين ابن دقيق العيد ، والشيخ بدر الدين بن جماعة المقدسى ، والشيخ جمال الدين الزرعى ، والشيخ جمال الدين القزوينى ، والشيخ عز الدين بن جماعة .

وأما كتاب سره : فالقاضى شرف الدين بن فضل الله ، والقاضى علاء الدين بن الأثير ، والقاضى شهاب الدين محمود أبو الثناء ، والقاضى محيى الدين بن فضل الله ، وولده القاضى شهاب الدين صاحب كتاب الانشاء فى صنعة التوقيع .

وأما نظار جيوشه : فالقاضى بهاء الدين بن الحلى . وتولى شخص يسمى الفخر — وهو صاحب القنطرة المنسوبة اليه — تولى فى أيامه مرتين . وتولى القاضى قطب الدين بن شيخ السلامية ، والقاضى شمس الدين بن التاج ، والقاضى مكين الدين بن قزوينة ، وهو صاحب الغيط المنسوب اليه . وتولى شخص يسمى جمال الكفاة ... فهؤلاء نظار جيوشه .

وأما نظار خواصه : فالقاضى كريم الدين بن السديد ، وتولى شخص يسمى النشو ، ثم تولى صهر النشو .

وأما دواداراته : فالأمير عز الدين أيدمر الناصرى ، والأمير أرغون الناصرى ، والأمير رسلان ، والأمير الجاى الناصرى ، والأمير صلاح الدين يوسف بن الأسعد ، والأمير بغا ، والأمير طاجار الناصرى .

وأما ما أنشاه فى أيامه من البناء فهو القصر الكبير الأبلق والقصران اللذان يليانه ، وعمر الايوان الكبير وعقد فوقه القبة العظيمة ، وعمر الجامع الكبير الذى بالقلعة ، وعمر الجامع الجديد المطل على بحر النيل عند موردة الحلفاء ، وأنشأ الخانقاه التى بسرياقوس ، وعمر الحوش الكبير الذى بالقلعة ، وعمر دور الحرم التى بالقلعة ، وعمر المجراة وأجراها من بحر النيل الى القلعة ،

وعمر سور الميـدان الذى تحت القلعـة ، وعمر الميدان الكبير الذي عند البركة الناصرية ، وبنى القصر الكبير وميدان المهـارة الذى عنـد قناطر السـباع ، وحفر الخليج الناصرى من موردة الجبس الى زقاق الكحل . ومن انشائه الدهيشة المطلة على الحوش السلطاني وهي من محاسن الزمان . وأنشأ عدة قناطر كما تقدم ، وحفر البركة الناصرية المنسوبة اليه وأجرى اليها المـاء من الخليج الناصرى ، وعمر قناطر أم دينار وقناطر شبين وقناطر أبو صوير وقنـاطر اللبيني ، وعمر الجسر الذى بشبرامنت ، وعمر جسرا بالفيوم ، وجدد عمارة الرصد ، وجدد عمارة جامع راشده الذي عند دير الطين ، وجدد عمارة مشهد السيدة نفيسة رضى عنها ووضع به المحراب على التحرير الصحيح ، وعمر زاوية الشيخ رجب التى تحت القلعة ، وعمر الاصطبل السلطانى ، وجدد عمارة الطبلخانات السلطانية ، وعمر زريبة بثغر دمياط ، وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وأما ما أبطله فى أيامه من وجوه الظـلم فهو ضمان الغوانى . وكان عبـارة عن أخذ مال من النساء البغـايا ، وذلك لو خرجت أجلّ امرأة فى القاهرة تقصد البغاء ، ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة ، وأقامت بما يلزمها من القـدر المعين عليها ، لمـا قدر أكبر من فى مصر يمنعها عن البغـاء وعمل الفاحشة . وكان يحصل من ذلك لنساء الأكابر وبناتهم غاية الفساد ولا يقدر أحـد يمنعهن من ذلك ، فأبطل الناصر ذلك وسـطر فى صحائفه الى يوم القيامة ... وكان يتحصل من هذه الجهة جملة مال كثير .

وأبطل أيضا فى أيامه ما كان يؤخذ ممن يبيع ملكا عن كل ألف درهم عشرون درهما ، فأبطل ذلك جميعه ... وكان يتحصل من ذلك جملة مال .

وفى الجملة ان الملك الناصر محمد بن قلاون كان من أجل الملوك قدرا وأعظمهم نهيا وأمرا ، وأكثرهم معروفا وبرا ، وقد جبلت القلوب على محبته سرا وجهرا .

ولما مات تولى من بعده ابنه المنصور أبو بكر .

الملك المنصور

هو الملك المنصور سيف الدين أبو بكر ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون . وهو الثالث عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، بويع بالسلطنة بعد موت أبيه بعهد منه له . وكان فى أولاده من هـو أكبر منه ، ولكن الملك الناصر اختار من بين أولاده هذا ، فقدمه عليهم ، وعهـد له من بعده ، فهو أول من تسلطن من أولاد محمد ابن قلاون .

لبس شعار الملك ، وجلس على سرير الملك فى يوم الخميس حادى عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وسبعمائة ، وله من العمـر نحو عشرين سنة . وقبل الأمراء له الأرض بالقصر الكبير . فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمـير طقـزدمر صـاحب القنطـرة التى على الخليج الحاكمى ، واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع على الأمير قوصون وهو صاحب ... [1] واستقر به أتابك العساكر ، وخلع على الأمير طشتمر المعروف بحمص أخضر واستقر به دوادارا كبيرا على عادته . ثم دبت عقارب الفتن بين قوصون والأمير طاجار ، وصار العسكر فرقتين : فرقة مع الأمير قوصون ، وفـرقة مع الأمير طاجار الداوادار . ولم يخضع أحدهما لصاحبه .

(١) كذا فى الأصل .

ثم ان الأمير طاجار الدوادار حسن للسلطان أن يقبض على الأتابكى قوصون وهو فى الخدمة بالقصر الكبير ، فأسر السلطان ذلك الى بعض الخاصكية ، وكان السلطان من طبعه الخفة والوهج ، فتوجه ذلك الخاصكى الذى أسر اليه السلطان الى الأمير قوصون ، وذكر له ذلك ، وأخبره بما قد عزم عليه السلطان من مسكه . وقد قيل فى المعنى :

اذا المرء أفشى سره بلسانه
ولام عليه غيره فهو أحمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه
فصدر الذى يستودع السر أضيق

فلما تحقق الأتابكى قوصون ذلك اجتمع بالأمير أيدغمش أمير أخور كبير وجماعة من الأمراء ، وذكر لهم ذلك ، فاتفقوا على خلع الملك المنصور أبى بكر . فلما كان يوم الموكب امتنع الأتابكى قوصون عن طلوع القلعة ، فاضطربت الأحوال فى ذلك اليوم . ثم ان الأتابكى قوصون طلع القلعة فى ذلك اليوم بعد انفضاض الموكب بعد الظهر على حين غفلة ، وقبض على السلطان الملك المنصور أبى بكر وأرسله الى السجن بمدينة قوص ، وأرسل معه أخويه — وهما سيدى يوسف وسيدى رمضان — فكانت مدة الملك المنصور أبى بكر فى السلطنة نحو ثلاثة أشهر ، وكان خلعه فى شهر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة .

ثم ان الأتابكى قوصون قبض على الأمير طاجار الدوادار ، والأمير بشتاك الناصرى ، وجماعة من الأمراء ، وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، ثم قبض على جماعة من المماليك السلطانية . فلما وصل الملك المنصور الى قوص ، أرسل الأتابكى قوصون الى متولى ناحية قوص بأن يقتل الملك المنصور وهو فى البحر ، فقتله وقطع رأسه وأرسلها الى الأمير قوصون فى الدس ، وكتم موت الملك المنصور عن الناس ، ولكن أشيع ذلك ... فهذا أول ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وكان ذلك من أكبر ذنوب الأتابكى قوصون ، وبه زال أمره .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف علاء الدين كجك ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الرابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى من أولاد محمد بن قلاون . ولى السلطنة بعد قتل المنصور أبى بكر .

تولى الملك وجلس على سريره فى يوم الاثنين حادى عشرى صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فتولى الملك وله من العمر سبع سنين أو أقل ، فتصرف فى الأحكام صغيرا ، وأوتى — على صغر سنه — ملكا كبيرا ، فكان سابورى الولاية ، صغير السن الى الغاية . وأما تسميته بكجك فهو لفظ أعجمى معناه بالعربى صغير ، فان والده لحظ فيه حال التسمية أنه سيلى بعده الملك وهو صغير ، والملوك لهم فراسة فى الأمور قبل وقوعها .

ثم ان الأتابكى قوصون عمل بالموكب ، وأجلس السلطان على تخت المملكة ... وأحضر خلعة ولبسها ، واستقر نائب السلطنة وأتابك العساكر ، ثم تحول وسكن فى دار النيابة بالقلعة ، وتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختاره ، فنفى الأمير طقزدمر نائب السلطنة الى دمياط ، وقبض على جماعة من الأمراء ، وعزل من عزل ، وولى من ولى ، وظن أن الوقت قد صفا له ... فكان اذا حضرت العلامة أخذ قوصون بيد السلطان كجك والقلم فى يده ، ويريه كيف يكتب على المراسيم والمناشير .

وكان الأمر كله بيد قوصون ، والسلطان معه مثل العصفور بيد النسور ... فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وتعطلت البلاد الشامية ، وعصت النواب ، ووقع الخلف بين الأمراء بمصر ، ووقفت أحوال الرعية ، وحصل للناس غاية الأذية . وقد قال القائل بالمعنى :

سلطاننا اليوم طفل ، والأكابر فى
خلف ، وبينهم الشيطان قد نزغا

فكيف يطمع من مسته مظلمة
أن يبلغ السؤل ، والسلطان مابلغا ؟

ثم ان الأتابكى قوصون صار يمسك فى كل يوم جماعة من المماليك السلطانية ، وأرسل الى الطنبغا نائب الشام بالقبض على طشتمر حمص أخضر نائب حلب . فلما بلغ طشتمر ذلك توجه الى الكرك ، وأخذ الأمير أحمد بن الملك الناصر محمد بن قلاون لأنه كان مقيما بالكرك من أيام والده الملك الناصر كما تقدم . فلما خرج الأمير أحمد من الكرك تسامعت به النواب ، فجاء اليه الأمير قطلوبغا الفخرى نائب طرابلس ، وحضر نائب حماه ونائب صفد وقصدوا التوجه الى مصر ، وأن يسلطنوا الأمير أحمد عوضا عن أخيه الملك كجك ، وأن يقبضوا على الأتابكى قوصون . فلما خرجوا من الكرك توجهوا الى نحو الشام ليقبضوا على الطنبغا نائب الشام لأنه كان من عصبة قوصون ، فأرسل الطنبغا يطلب من النواب الأمان وأن يكون معهم تحت طاعة الأمير أحمد بن الناصر . فلما خرج النواب على حمية قاصدين الديار المصرية وبلغ ذلك الأتابكى قوصون ، أراد أن يقبض على الأمير أيدغمش أمير أخور كبير . فلما بلغ الأمير أيدغمش ذلك ركب هو والأمير آق سنقر والأمير يلبغا اليحياوى وجماعة من الأمراء وطلعوا الى الرميلة وأحاطوا بالقلعة .

ثم ان الأمير أيدغمش نادى للعوام بأن ينهبوا بيت الأتابكى قوصون ، ونادى للعسكر أن كل من لم يكن له فرس فليحضر الى الاصطبل السلطانى ويأخذ له فرسا ... فطلع اليه العسكر قاطبة ، ففرق عليهم فى ذلك اليوم عدة خيول من الاسطبل السلطانى . فلما تحقق الأتابكى قوصون أن الركبة عليه جلس بالقلعة وحصنها . ثم ان العوام دخلوا بيت قوصون وأحرقوا بابه ، ونهبوا ما فى اسطبله من الخيول والبغال ، ونهبوا حواصله وما كان فيها من برك ونحاس وسلاح وصينى وسكر وغير ذلك وقوصون ينظر اليهم من شباك ، فقال لبعض الأمراء الذين فى الاسطبل : « يامسلمين ، أما تحفظون هذا المال الذى تنهبه العوام ؟ .. اما أن يكون لى أو للسلطان » ، فقالوا له : « الذى معك من الأموال والتحف يكفى السلطان ... وهذا شكرانه للعوام من عندك » .

ثم ان العسكر صاروا كلما رأوا أحدا من مماليك قوصون ، أو من حاشيته فى الطرقات ، قتلوه شر قتلة . واستمر الحال على ذلك الى العصر من ذلك اليوم ، فأرسل قوصون يطلب الأمان من الأمير أيدغمش ، وقد تسحب من كان عنده من الأمراء والمماليك ، فهجم عليه الأمير أيدغمش وقبض عليه وقيده وسجنه بالزردخانة . فلما تحقق العوام مسك قوصون نهبوا خانقاته التى هى خارج باب القرافة ، وجامعه الذى بالقرب من بركة الفيل . ثم ان الأمير أيدغمش صار يمسك من كان من عصبة قوصون من الأمراء والخاصكية ، ثم أرسل الأتابكى قوصون تحت الليل الى ثغر اسكندرية وهو مقيد فسجن بها ، فعمد أهل مصر وصوروا صورة قوصون فى العلاليق وقد سمروه ، وفى ذلك يقول المعمار :

شخص قوصون رأينا   في العلاليق مسمر
تعجبنا منه لما   جاء في التسمير سكر

وكان الأتابكي قوصون أميرا عظيما مليئا مهيبا ، وصار في دولة الملك الأشرف كجك صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وتصرف في أمور المملكة بحسب ما يختاره من ذلك .

فلما أمسك قوصون وسجن ، خلع الأشرف كجك من السلطنة ، ودخل الى دور الحرم ، وصار الأمراء والعسكر ينتظرون قدوم الأمير أحمد من الكرك حتى يتسلطن ، فخطب باسمه في القاهرة قبل حضوره ، وتلقب بالملك الناصر الى أن حضر وتولى السلطنة كما سيأتي ذلك في موضعه ... فكانت مدة سلطنة الملك الأشرف كجك بالديار المصرية الى أن خلع خمسة أشهر وأياما ، فلم تكن الا كسنة من النوم أو يوم أو بعض يوم . وأقام في الأسر والاعتقال بدور الحرم الى أن مات على فراشه في دولة أخيه الملك الكامل شعبان ، كما سيأتي ذلك في موضعه .

ولم يتسلطن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون أصغر منه سنا .

الملك الناصر شهاب الدين

هو الملك الناصر ، شهاب الدين أحمد ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الخامس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون .

دخل القاهرة وبويع بالسلطنة بعد خلع أخيه كجك ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض في يوم الاثنين عاشر شوال سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك ، وتم أمره في السلطنة — وكان أكبر اخوته سناً ، وأرجحهم في العين وزنا ، فهو ليثهم الغالب ، وشهابهم الثاقب — ولكن خابت فيه الظنون ، وقيل معلم مجنون ، فوقع منه أمور لا تقع الا ممن أصيب في عقله ... وذلك أنه أمر بقتل سبعة من الأمراء الذين كانوا في السجن بثغر الاسكندرية .

فلما فعل ذلك نفرت منه قلوب العسكر . ثم انه خلع على الأمير طشتمر حمص أخضر واستقر به نائب السلطنة بمصر ، وخلع على الأمير قطلوبغا الفخري واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا ، وخلع على الأمير أيدغمش أمير آخور واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير طشتمر حمص أخضر ، واستقر بجماعة من الأمراء في وظائف من أمسك منهم وسجن ... فاستمر الأمر على ذلك نحو ثلاثة وثلاثين يوما .

ثم انه قبض على الأمير طشتمر حمص أخضر وقيده وسجنه بالقلعة ، ثم انه أرسل جماعة من المماليك السلطانية خلف الأمير قطلوبغا الفخري الذي استقر به نائب الشام وقبض عليه وهو في أثناء الطريق وقيده — وكان هذان الأميران سببا في سلطنته — فما شكره أحد من الناس على ذلك .

ثم انه أقام في السلطنة الى سلخ ذي القعدة من سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة ، فتوجه الى السفر ، فخرج في يوم الاثنين ومعه جماعة من الأمراء والعسكر ، فلم يعلم أحد أين يريد . فلما خرج من القاهرة توجه قاصدا نحو الكرك الذي هو محط رحاله وبغية آماله . وكان لما أضمر على التوجه الى الكرك دخل الى الخزائن السلطانية وأخذ منها ما قدر عليه من الأموال الجزيلة والتحف الجليلة ، فوصل الى الكرك يوم الثلاثاء من ذي الحجة ، فعمل عيد النحر بها . وكان لما توجه الى السفر أخذ الأمير طشتمر حمص أخضر

معه وهو مقيد فى محفة ؛ ثم أحضر الأمير قطلوبغا الفخرى بين يديه وهو مقيد لما وصل الى الكرك ، فأمر باعتقاله فى قلعة الكرك هو والأمير طشتمر .

سنة ثلاث واربعين وسبعمائة (١٣٤٢ م) .

فى خامس المحرم اجتمع الأمراء فى سوق الخيل، وقالوا : « ان أحوال المملكة ضائعة ، والسلطان لا يلتفت لشىء من ذلك . فأرسلوا كاتبوه فى الحضور الى مصر ، فان حضر فذاك ، وان لم يحضر فولوا غيره » . فكتبوا كتابا عن لسان الأمراء كلهم ، وأرسلوه على يد خاصكى يقال له طقتمر الصلاحى ، فأخذ الكتاب ومضى الى الكرك فوصل فى حادى عشر المحرم . فلما اجتمع بالسلطان وقرأ ما فى الكتاب كتب للأمراء جواب ذلك الكتاب الذى أرسلوه وهو يقول فيه : « ان الشتاء قد دخل . وانى قد اخترت الاقامة بالكرك الى أن يمضى الشتاء وبعد ذلك أحضر الى مصر » . ثم أخرج الأمير طشتمر حمص أخضر والأمير قطلوبغا الفخرى من السجن ، ووسطهما بالسيف فى ميدان قلعة الكرك بحضرة ذلك الخاصكى طقتمر الصلاحى ... وهذا الأمر لا يقع الا من المجانين الذين فى عقلهم خلل ، مع أن هذين الأميرين كانا سببا لسلطنته ؛ ولكن :

لا تفعل الأعداء فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه

ومما قاله ابراهيم المعمارى فى الأمير طشتمر حمص أخضر :

جننت بالملك لما	أتاك بالبسط ماجن
وقد أمنت الليالى	ياحمص اخضروداجن

وقوله فيه أيضا :

أوردت نفسك ذلا	ورد النفوس المهانة
وبالدنا حزت مالا	ملأت منه الخزانة
وكم عليك قلوب	ياحمص اخضرملانه

وقال فيه بعض الشعراء :

طوى الردى طشتمرا بعد ما
بالغ فى دفع الأذى واحترس
عهدى به كان شديد القوى
أشجع من يركب ظهر الفرس
ألم تقولوا حمصا أخضرا
تعجبوا بالله كيف اندرس

وقال فيه آخر :

لما رجعت الينا
من بعد ذا البعد والبين
خلناك تحنو علينا
يا حمص اخضر بقلبين

فلما رجع طقتمر الصلاحى من عند الملك الناصر أحمد الى القاهرة ، وأخبر عن هذين الأميرين وما جرى عليهما ، فعند ذلك نفرت منه قلوب العسكر قاطبة . فلما قرأوا كتابه وعلموا أنه اختار الاقامة بالكرك ، ضربوا مشورة فيمن يولونه السلطنة ، فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه اسماعيل ابن الملك الناصر محمد ، فخلعوا الناصر أحمد من السلطنة ، وولوا اسماعيل .

وكانت مدة سلطنة الناصر أحمد بالديار المصرية شهرين واثنى عشر يوما لا غير ، وأقام بالكرك حتى قتل كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

وكانت سلطنته كالحلم فى المنام ، كما قيل فى ذلك :

فلم يقم الا بمقدار أن
قلت له أهلا أخى مرحبا !

الملك الصالح

هو الملك الصالح علاء الدين ، أبو الفداء اسماعيل ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو السادس عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاون . بويع بالسلطنة بعد خلع أخيه الناصر أحمد فى يوم الخميس ثانى عشر المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، فلما جلس على سرير الملك وتم أمره فى السلطنة خلع على الأمير آق سنقر السلارى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية ، وخلع على الأمير أيدغمش واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير طقزدمر واستقر به نائب حلب ، وقبض على الأمير الطنبغا الماردينى — وهو صاحب الجامع الذى فى البرادعيين — وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم عزل من عزل وولى من ولى ، فما اختلف عليه اثنان ، ولا قيل هذان خصمان ، فسار فى الناس سيرة حسنة ، وبسط العدل ، وأكثر فى الرعية من البذل ، وعامل خاصكية أبيه بالمعروف وبذل لهم الألوف بعد الألوف .

سنة اربع واربعين وسبعمائة (١٣٤٣ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الأمير آق سنقر نائب السلطنة ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، ثم خلع على الحاج آل ملك واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آق سنقر السلارى .

والأمير آل ملك هذا هو صاحب الجامع الذى فى الحسينية . وكان الأمير آل ملك له بر ومعروف ، ولما تولى نيابة السلطنة أمر بهدم خزانة البنود التى كانت سجنا يحبسون فيها أصحاب الجرائم ثم صارت حارة يسكن فيها طائفة من الأرمن ، ويجتمع فيها طائفة من المناحيس والمقامرين فيحصل منهم غاية الفساد ، فهدمها وبنى مكانها مسجدا فلم يصل أحد فيه لما قد تقدم فيه من الفساد وسفك الدماء ، وكثرة من به من القتلى مدفونا ، فصار هذا المسجد مقفلا دائما لا يصلى فيه أحد من الناس ، وبقى مهجورا . وقد قال فيه بعض الشعراء :

أنا مسجد سميت بيت عبادة
عارى الملابس ليس فىّ حصير
هجر المؤذن والجماعة جانبى
وجفانى التهليل والتكبير
الشمع فى خلل المساجد مشعل
وفناء ربعى مظلم مهجور
ما جاء فى القرآن فى عبارة
واليوم للشيطان فىّ عبور
هل مبلغ عنى الأمير شكايتى
فلعله يرثى لمن هو بور

سنة خمس واربعين وسبعمائة (١٣٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان تجريدة الى أخيه الناصر أحمد وهو فى الكرك ، فحاصروه أشد المحاصرة فلم يقدروا عليه ، والسلطان يخرج له تجريدة بعد تجريدة وهو لايمل من القتال ، وقد حصن قلعة الكرك فلم يقدروا على أخذها ، واستمر على ذلك حتى نفد جميع ماكان عنده من المال والغلال ،فضرب مابقى عنده من السروج الذهب والكبابيش وخلط مع الذهب النحاس ، فكان الدينار الذى ضربه يساوى خمسة دراهم فضة ، وأنفق ذلك على العسكر الذين هم بقلعة الكرك ، وقد هلكوا من الجوع والعطش والعرى ، فلما طال عليهم الأمر تفرقوا

من حوله وقد أقاموا معه فى المحاصرة نحو ثلاث سنين

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشرى صفر ، طلب الملك الناصر أحمد من العسكر الأمان ، ونزل اليهم فقيدوه وأرسلوا يعلمون السلطان الملك الصالح بذلك ، فأرسل اليه الأمير منجك اليوسفى فقطع رأسه وأحضرها الى القاهرة فى علبة . وكانت قتلته فى أواخر صفر سنة خمس وأربعين وسبعمائة . وكان الناصر أحمد أشجع اخوته ، وأحسنهم شكلا ، وأكبرهم سنا ... لكنه كان سيء التدبير ، قليل المعرفة ، الغالب عليه الجهل وقوة الرأس وقلة الثبات فى الأمور . وقيل لما وضعوا رأسه بين يدى أخيه الملك الصالح سجد لله شكرا وأمر بدفنها .

سنة ست وأربعين وسبعمائة (١٣٤٥) :

فيها مرض السلطان وسلسل فى المرض الى أن مات يوم الخميس حادى عشرى ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاث سنين وشهرا ونصفا . وكان خيار أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، وله بر ومعروف على جهات خير ، فمن ذلك أنه وقف ضيعة تسمى بيسوس وجعلها مرصدة على كسوة الكعبة الشريفة . وكان يحب العدل والانصاف بين الرعية ، وساس الملك فى مدة ولايته أحسن سياسة ... ولم يزل على ذلك الى أن مات على فراشه — بخلاف اخوته — فكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، وقد رثاه الصلاح الصفدى بقوله :

مضى الصالح المرجو للبأس والندى
ومن لم يزل يلقى المنا بالمنايح
فيا ملك مصر ، كيف حالك بعده
اذا نحن أثنينا عليك بصالح ؟

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى فى تاريخه ان الملك الصالح اسماعيل هذا كان — على مذهب بعض الخلفاء — يميل الى حب الجوارى المولدات الحبش والسود ، وكان يحب من يمدح له فى ذلك ، فكانت الشعراء يكثرون له فى معنى ذلك .

قال بعضهم :

يكون الخال فى خد قبيح
فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام معشوق على من
يراه كله فى العين خالا ؟

وقال آخر فى أسماء الجوارى :

اذا زار الحبيب على اشتياق
فقد زال العنا وقت الصباح
وان وافتك خمر مع نسيم
فقد دام السرور بالانشراح

ومثله فى المعنى :

بدا السعد لى حين زار الحبيب
وجاء الهنا ودام السرور
وجاءت نسيم بتفاحة
مباركة من غزال نفور

الملك الكامل

هو الملك الكامل شعبان ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون . وهو السابع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويع بالسلطنة بعد موت أخيه الملك الصالح اسماعيل بعهد منه له . وكان شعبان هذا هو أخا الملك الصالح اسماعيل شقيقه ، جلس على سرير الملك ، ولبس شعار السلطنة فى يوم الخميس حادى

عشري ربيع الأول سنة ست وأربعين وسبعمائة ، وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباته :

طلعة سلطاننا تبدت
بكامل السعد فى الطلوع
واعجب لهاتيك كيف أبدت
هلال شعبان فى ربيع

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب ، وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم الأمير آل ملك نائب السلطنة ، فأقام بالقلعة في البرج أياما ثم أفرج عنه وولاه نيابة صفد ، فخرج من يومه ، فلما وصل الى العريش أرسل بالقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم عمل الموكب وخلع على الأمير ارقطاى واستقر به نائب السلطنة عوضا عن آل ملك . ثم قبض على الأمير قماري استادار العالية وأرسله الى السجن بثغر دمياط . ثم أرسل بالقبض على الأمير طقزدمر نائب الشام وسجنه بالكرك . وخلع على الأمير يلبغا اليحياوى واستقر به نائب الشام عوضا عن طقزدمر .

وفي هذه السنة توفي الملك الأشرف كجك أخو السلطان ، وكان مقيما بدور الحرم من حين خلع من السلطنة الى أن مات .

سنة سبع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٦ م) :

فيها طاش الملك الكامل شعبان ، وصار يخرج الاقطاعات بمال معلوم ، وصار يصادر أرباب الوظائف من المباشرين ويأخذ أموالهم قهرا ... فتقلقلت منه الناس .

وفيها جاءت الأخبار بأن يلبغا اليحياوى — نائب الشام — خامر وأظهر العصيان ، فجمع السلطان الأمراء وشاورهم فى أمر نائب الشام ، فوقع الاتفاق على أن السلطان يرسل الأمير منجك اليوسفى لكشف الأخبار ، فتوجه الأمير منجك نحو الشام من يومه ، ثم ان السلطان عرض العسكر وقصد التوجه الى الشام بسبب عصيان النائب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان طلب أخويه : الأمير حاجى ، والأمير حسينا ، فأرسل اليهما الساقي سرور الزيني ، فقال لهما : « امضيا كلما السلطان » . فقالا : « نحن اليوم ضعاف وقد شربنا الدواء » . فلما رد الجواب على السلطان بذلك أرسل اليهما الأمير الزمام صواب الطولونى ، فقال لهما : « امضيا كلما السلطان والخيرة لكما » . فقالا له مثل ما قالا لسرور الزينى . فلما رد الجواب على السلطان بذلك ، اشتد غضبه على أخويه ، وأرسل خلف الأمير أستدمر الكاملى والأمير قطلوبغا الكركى ، فلما حضرا قال لهما : « انى طلبت أخي حاجى وأخى حسينا فأبيا عن الحضور الى » ، فقال الأمير أستدمر الكاملي للأمير أرغون العلائى زوج أم السلطان : « ادخل أنت اليهما وأخرجهما » . فدخل الأمير أرغون وأخرجهما غصبا وهما يتباكيان . فلما حضرا بين يدى السلطان قبلا له الأرض وقالا له : « يامولانا السلطان ، لا تؤاخذنا فاننا كنا شربنا دواء » . فقال لهما السلطان : « كذبتما ... ما أنتما الا مخامران على » . فأخرج الأمير حاجى ختمة كانت معه وحلف عليها أنه ما امتنع عن الحضور الا لكونه كان ضعيفا وشرب الدواء ، فلم يصدقه السلطان فى ذلك . ثم جاءت أمهاتهما ، وحلفن للسلطان ، وكشفن رءوسهن له وقلن : « والله ما امتنعا عن الحضور الا لكونهما شربا الدواء » ... فلم يقبل منهن السلطان ذلك ، وقال لهن : « أنتن نساء قليلات العقول » . ثم أمر بادخال أخويه الى موضع فى الدهيشة ، ورسم عليهما السلطان بجماعة من الخدم ، فباتا تلك الليلة فى الدهيشة ، فلما أصبح الصباح طلب السلطان عشرين فص حجر مسقط ،

وحملي جير وجبس ، وقصد أن يدخل أخويه فى مكان عقد تحت الدهيشة ويبنى عليهما بالحجر ، ويجعل ذلك المكان قبرا لهما .

فلما كان يوم الاثنين ، ثالث عشرى شهر جمادى الأولى من سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، دخل بعض الخاصكية على السلطان وقت صلاة الصبح وأخبره بأن الأمير ملكتمر الحجازى قد لبس آلة الحرب هو ومماليكه وتوجهوا الى قبة الهواء التى تحت القلعة — وكان السلطان قد عول على القبض عليه أيضا — فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، فأرسل الى زوج أمه أرغون العلائى وقال له : « ما الخبر ؟ » . فقال له : « ان ملكتمر الحجازى ، وأرغون شاه ، وجماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب وتوجهوا نحو قبة الهواء » .

فلما تحقق السلطان ذلك فتح باب الزردخانة ، وفرق منها الملبوس ، وأمر بشد الخيول ... فلم يجد أحدا عنده من المماليك غير بعض مماليك صغار كتابية ، فركب السلطان ووقف على باب السلسلة ، ودقت الكئوسات حربيا ، ثم مشى الى الطبلخانات ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء والعسكر فلم يطلع اليه أحد ، فبقى واقفا ساعة حتى طلعت الشمس . ثم مشى وقصد نحو قبة الهواء — ولم يكن معه من الأمراء سوى الأمير أرغون العلائى زوج أمه ، والأمير أستدمر الكاملى ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير جوهر السجرلى مقدم المماليك ، وبعض مماليك صغار تحت الصنجق — فتقدم الى آخر الصوة فبرز اليه الأمير أرغون شاه ، والأمير قرا بغا القاسمى ، والأمير آق سنقر ... وضربوا عليه يزك ، ووقع بينهما القتال ، فبرز الأمير يلبغا أروس الى الأمير أرغون العلائى زوج أم السلطان فضربه بطبر على وجهه فسقط عن فرسه الى الأرض ، فقبضوا عليه وأسروه .

فلما رأى ذلك من كانوا حول السلطان تسحب أكثرهم من حوله ولم يبق معه أحد الا القليل من المماليك ، فزحف عليه الأمراء ، فهرب فى أربعة مماليك صغار ، وتوجه نحو باب السلسلة .

فلما ولى السلطان مهزوما قبضوا على من معه من الأمراء المقدم ذكرهم . فلما توجه الى نحو باب السلسلة وجده مقفلا ، فصار يسأل بعض الأوجاقية فى أن يفتح له الباب حتى يطلع الى القلعة وهو سائق . فلما دخل الحوش أراد أن يقتل أخويه حاجى وحسينا ، فلم يفتح له الخدام باب الدهيشة ، فرجع الى بيت أمه واختفى فيه ، وكانت أمه ساكنة بالقلعة .

هذا ما كان من أمر الملك الكامل شعبان بعد كسرته . وأما ما كان من أمر الأمراء الذين وثبوا على السلطان ، فانهم لما انكسر السلطان وولى مهزوما ، قبضوا على الأمراء الذين كانوا معه وشكوهم فى زناجير . وأما مقدم المماليك جوهر السجرلى فانه كان واقفا تحت الصنجق فقطعوه بالسيوف ، ثم ساقوا الى الرميلة وطلعوا من السلسلة الى القلعة ، فوقفوا على باب الستارة وقالوا للخدام : « أين ابن أستاذنا سيدى حاجى ؟ » فقالوا لهم : « فى الدهيشة هو وأخوه سيدى حسين » فدخلوا الحوش ، وطلعوا الدهيشة ، وأخرجوا سيدى حاجى وقبلوا له الأرض وقالوا له أنت سلطاننا ...

ثم انهم طلبوا الملك الكامل شعبان فلم يجدوه ، فقال لهم بعض الخدام : « قد اختفى فى بيت أمه » . فهجموا عليه فى بيت أمه فلم يجدوه ، فأمسكوا الجوارى وأرادوا توسيطهم ، فأقروا بأنه فى بيت الأزيار ، فهجموا عليه فوجدوه واقفا

بين الأزيار وقد ابتلت أثوابه بالماء ، فقبضوا عليه ومضوا به الى الدهيشة وسجنوه فى المكان الذى كان به أخواه .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى ، حكى لى الأمير ستبغا — استدار الصحبة — قال : « هيأنا السماط على أن الملك الكامل شعبان يأكل منه ، ثم أفردنا منه شيئا لسيدى حاجى وسيدى حسين اللذين كانا فى السجن بالدهيشة ، فخرج الى السماط سيدى حاجى وجلس فى صدره وأكل منه ، ثم دخلنا بالطعام الذى كنا أفردناه لسيدى حاجى وأخيه حسين الى الملك الكامل شعبان فأكل منه وهو فى السجن الذى كان فيه أخواه ... » . فسبحان القادر على كل شىء ... ان فى الليل والنهار عجائب . وقد قال القائل :

لا تأمنن للدهر وهو مسالم
سلس القياد فقد يكون محاربا
واحذر تقلبه ، ولا تعجب له
ان أركب الماشى وأمشى الراكبا

وقال آخر :

كم حاربتنى شدة بجيشها
فضاق صدرى من لقاها وانزعج
حتى اذا آيست من زوالها
جاءتنى الألطاف تسعى بالفرج

ثم ان الملك الكامل أقام محبوسا فى المكان الذى فى الدهيشة ثلاثة أيام ، ثم ان أخاه حاجى أرسل اليه من يخنقه وهو فى السجن فخنق ، وكانت قتلته فى ليلة الخميس ثالث جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية سنة وشهرين ونصفا . ولما مات دفن مع والده داخل القبة التى بين القصرين .

وكانت صفة الملك الكامل شعبان : أشقر اللون ، أزرق العينين ، وافر الأنف ، مجدر الوجه ، يميل الى الصفرة ، شديد الخلق ، سيىء التدبير . وكانت أمه رومية ... فجمع بين قبيح الشكل والفعل . قال الصلاح الصفدى :

بيت قلاون سعاداته
فى عاجل كانت بلا آجل
حل على أملاكه للردى
دَيْنٌ قد استوفاه بالكامل

الملك المظفر

هو الملك المظفر حاجى ، ابن الملك الناصر محمد ابن قلاون . وهو الثامن عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السادس من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . بويع بالسلطنة — بعد قتلة أخيه الملك الكامل شعبان — فى يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وسبعمائة ، وفيه يقول الشيخ جمال الدين بن نباتة المصرى :

يا امام الورى ، مضى نصف عام
لم أنل فيه من وصولى ربع
سنة ، ان غفلت عنى فيها
كسرتنى ، وكيف لا وهى سبع ؟

وكان مولد حاجى هذا فى سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة . ولد بالطريق عند عود أبيه الملك الناصر من الحجاز — وهى الحجة الثالثة — فلما بشر به سماه حاجى .

فلما تسلطن وتم أمره فى السلطنة أراد أن يقبض على جماعة من الأمراء ، فرسم لنقيب الجيوش المنصورة بأن يدور على الأمراء المقدمين ويعلمهم بأن السلطان رسم بأن يعمل الموكب فى القصر

وتجتمع سائر الأمراء ... فدار عليهم نقيب الجيوش وأعلمهم بذلك . فلما طلعوا الى القلعة واجتمعوا فى القصر ، دخل عليهم جماعة من المماليك السلطانية بعد المغرب فقبضوا على جماعة منهم . قيل ان الأمير آق سنقر — لما أرادوا أن يقبضوا عليه — جرد سيفه وقصد نحو السلطان ليقتله ، فأمسكه الأمير شجاع الدين عزلو والأمير كجلى ، وأخذوا سيفه من يده . ثم قبضوا على الأمير ملكتمر الحجازى ، والأمير قرابغا القاسمى ، والأمير أيتمس عبد الغنى ، وتزلار الغمرى ، والأمير صمغار ... فكانت ساعة تشيب فيها النواصى .

ثم ان السلطان أمر بتقييدهم فقيدوا ، وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأما الأمير آق سنقر والأمير ملكتمر الحجازى ، فحبسهما السلطان فى البرج الى الليل ، وأمر بخنقهما فخنقا ودفنا تحت الليل ومضى أمرهما . وكان هذان الأميران سببا لسلطنة المظفر حاجى وقتل أخيه الملك الكامل شعبان ، وكانا يظنان أنهما فى دولة الملك المظفر حاجى يصيران صاحبى الحل والعقد فى أمور المملكة ، فجاء الأمر اليهما بخلاف ذلك ... فكان الأمر كما قيل :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله

ورب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع فى ذلك اليوم على خمسة عشر أميرا ، وأنعم عليهم بالاقطاعات السنية ، وقرر منهم جماعة فى وظائف وأقام له عصبة من الأمراء .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام يلبغا اليحياوى هرب ، فتبعه جماعة من عسكر دمشق فتقاتل معهم وقتل ، فقطعوا رأسه وأحضرت الى القاهرة ، فرسم السلطان بأن تعلق على باب زويله .

ثم ان الأمير شجاع الدين عزلو تزايد ظلمه فى حق الرعية ، وصار يرمى الفتن بين الأمراء ... فلما بلغ السلطان ذلك قبض عليه وسجنه ، فوقع منه كلام فى حق السلطان ، فلما بلغه أمر بقتله فخنق تحت الليل ودفن فى القرافة . فلما بلغ العوام ذلك توجه منهم جماعة الى قبره ، ونبشوا عليه ، وأخذوا كفنه ، وأحرقوا عظامه ... فلما بلغ السلطان ذلك رسم لوالى القاهرة بأن يقبض على من فعل ذلك ، فقبضوا على جماعة من العوام ، وضربوهم بالمقارع ، وقطعوا أيديهم وطافوا بهم القاهرة .

ولما كان يوم الأربعاء ثامن شهر رمضان ، وصل من الشام موجود يلبغا اليحياوى ، وكان من جملة ذلك من الذهب العين خمسون ألف دينار . فلما وصل ذلك الى الخزائن الشريفة ، أنفقه السلطان جميعه على طيور الحمام — وكان مولعا بلعب الحمام ، فعمل لها خلاخيل ذهب فى أرجلها وألواح ذهب فى أعناقها ، وصنع لها مقاصير من خشب الأبنوس وطعمها بالعاج والأبنوس ، وأقام بها غلمانا يكلفونها — فصرف ذلك المال جميعه عليها ...

قال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة فى ترجمته للملك المظفر حاجى : « وقد اشتغل بلعب الطيور عن تدبير الأمور ، والتهى عن الأحكام بالنظر الى الحمام ... فجعل السطح داره ، والشمس سراجه ، والبرج مناره ، وأطاع سلطان هواه ، وخالف من نهاه . وخرج فى ذلك عن الحد ، وصار لا يعرف الهزل من الجد ... » .

ثم ان السلطان صار يستخف بالأمراء ولا يبيت

عندهم فى القصر فى ليـالى الموكب ، فعند ذلك تغيرت عليه خواطر الأمراء — ولا سيما ما قد أنفقه على الحمـام من المـال الذى جاءوا به من موجود نائب الشام — فدخل الأمير جبغـا على السلطان وقت الظهـر وخلا به وعنفـه على تلك الأمور التى يفعلها ، وقال له ان الأمراء والعسكر قد تغير خاطرهم على السلطان بسبب ذلك .

فلما سمع السـلطان ذلك غضب ، وقام من وقته وطلع الى الحمام وذبحها جميعا ، وأخرب تلك المقاصير ، وأرسل يقول للأمير جبغا : « انى قد ذبحت الحمام الذى كان عندى جميعه . وأنا ان شاء الله تعالى أذبح فى هذا القرب خياركم كما ذبحت الحمام ... » . فلما سمع الأمير جبغا ذلك قام من وقته ودخل الى نائب السلطنة ، وذكر له ما قاله السلطان ، فاتفق رأى الأمراء قاطبة على خلعه من السلطنة .

فلما كان يوم الأحد ثانى عشر رمضان ، وثب الأمراء على السـلطان ، ولبسوا آلة الحـرب ، وخرجوا الى قبة النصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بشـد الخيول ، ودق الكئوسات حربيا ، وزعق النفير ، وركب تحت الصنجق ومعه جماعة من الأمراء العشراوات نحو ثلاثة أنفس ، وبعض مماليك صغار ، ومقدم المماليك الأمير عنبر . ثم ان السلطان خرج من باب السلسلة ، ومشى الى رأس الصـوة ، ووقف ينتظر من يطلع اليه من الأمراء فلم يطلع اليه أحد ، فوقف ساعة ثم مشى بين الترب فوقف هناك .

وأرسل خلف الأمير شيخو العـمرى فجاء من بيته ، فبعثه السـلطان الى الأمراء الذين فى قبة النصر وهو يقول لهم : « ايش قصدكم حتى نعرف سبب ركوبكم علينا من غير موجب ؟ » . فلما توجه الأمير شيخو من عند السلطان بهذه الرسالة ، اجتمع بالأمراء الذين فى قبة النصر وبلغهم ما قاله السلطان فقالوا له : « امض الى السلطان وقل له ينزل عن الملك ويكف هذا القتال عن العسكر » . فلما رجع الأمير شيخو الى السلطان ، وبلغه ما قالته الأمراء ، قال السلطان : « كيف أنزل عن الملك ؟ ... والله ما عندى لهم الا السيف » .

فرجع اليهم الأمير شيخو بهذا الجواب ، فزحفوا اليه ، وأشاروا بالحرب عليه . فثـار بينهم غبار الحرب الوارد ، وحملوا عليه حملة رجل واحد . وكان رأس الفتنة الأمير يلبغا أروس ، فجاء من وراء السلطان وضرب عليـه يزك بمن معه من العسكر ، فصار من كان مع السلطان من المماليك يتسحبون قليلا قليلا ، فلم يبق معه الا القليل من المماليك ، فتقدم اليه الأمير يلبغا أروس وضرب السلطان بطبر كان معه ، فلم تؤثر فيه الضربة ، فنزل الأمير يلبغا أروس عن فرسه ، وأمسك لجام فرس السلطان . وتكاثر عليه العسكر فقلعوه من قربوس السرج ، وأخـذوه وهو حاسر الرأس ، ومضوا به الى الأمير أرقطاى نائب السلطنة . فلما رآه نزل عن فرسه ، ورمى على السلطان قباءه ، وقال : « أعوذ بالله أن أقتل ابن أستاذى ، ولكن امضوا به الى السجن فى القلعة » . فأخذه الأمير يلبغا أروس ومضى به الى تربة فى الباب المحروقى فخنقه هناك ، ودفن من وقته ، ولم يشعر به أحد .

وكان له من العمر نحو عشرين سنة . وكان مليح الشكل ، صبيح الوجه ، شجاعا بطلا ، لا يهاب الحرب ، ولا يخاف الضرب . وقد قال فيه الصلاح الصفدى رحمه الله :

أيها العـاقل اللبيب تفـكر
في المليـك المظفر الضرغام
قد تمادى وازداد فى البغى حتى
كان لعب الحمام جـد الحمام

فكانت مدة سلطنة الملك المظفر هـذا بالديار المصرية سنة وثلاثة أشهر وثمانية عشر يوما ، ولكن قتل فى هذه المدة اليسيرة جماعة كثيرة من الأمراء وغيرهم . وكان سفاكا للدماء على صغر سنه . وفيه يقول الصفدى :

خان الردى للمظفـر وفى الثرى قد تعـفر
فكـم أبـاد أميرا على المعـالى توفر
وقاتل النـفس ظلما ذنوبه ما تكفـر

فلما قتل المظفر حاجى طلع الأمراء الى القلعة وتشـاوروا فيمن يولونه السلطنة ، فاختلفوا فى ذلك : فطائفة من الأمراء يقولون سيدى حسين ، وطائفة منهم يقولون سيدى حسن ... فوقع الخلف بينهم فى ذلك .

وكان سيدى حسين مجرما سفاكا للدماء ، فنفر منه العسكر لشدة بأسه ، ووقع القال والقيل بين الأمراء ، وأقامت مصر يومين بغير سلطان والناس يدعون الى الله باصلاح أحوال المسلمين . ثم فى اليوم الثالث وقع الائتلاف من الأمراء على سلطنة سيدى حسن ، فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه ، كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

الملك الناصر أبو المحاسن

هو الملك الناصر أبو المحاسن حسن ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون . وهو التاسـع عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو السابع من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاون .

بويع بعد قتل أخيه حاجى ، فتولى الملك وله من العمر ثلاث عشرة سنة . وكان مولده فى سنة ست وثلاثين وسبعمائة . تسلطن فى يوم الثلاثاء فى رابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

قيل لما أخرجوه من دور الحرم جلس على باب الستارة وأحضروا له خلعة السلطنة . وكان اسمه أولا « سيدى قمارى » لحسنه . فلما أرادوا أن يسلطنوه قال للأمراء : « أنا لا أسمى الا بسيدى حسن » . فقال الأمراء : « على بركة الله تعالى » . فألبسوه خلعة السلطنة ، وأركبوه من باب الستارة — والأمراء مشاة بين يديه — الى أن وصـل الى الايوان ، وجلس على سرير الملك ، ودقت له الكؤسات ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بولايته .

فلما كان يوم الاثنين عمل الموكب ، وخلع على الأمير يلبغا أروس واستقر به نائب السلطنة عوضا عن الأمير أرقطاى ، ثم خلع على الأمير أرقطاى واستقر به نائب حلب ، ثم خلع على الأمير أرغون شاه واستقر به نائب الشـام ، وخلع على الأمير منجك اليوسفى واستقر به وزيرا واستادارا بالديار المصرية ، وخلع على جماعة كثيرة من أرباب الوظائف من الأمراء والمتعممين وغير ذلك .

ثم فرق الاقطاعات على المماليك السلطانية وأرضاهم بكل ما يمكن . ثم عينوا الأمير استبغا المحمودى السلحدار بأن يتوجه ببشـارة ولاية السلطان الى دمشق ، فأخذ فى أسباب السفر الى دمشق . وفيه يقول ابن أبى حجلة :

غـدا سلطاننا ملك البـرايا
رعاه الله يعـدل فى الرعايا
حواصل عدل والده حـواها
وأخرج من زواياها الخبـايا
فمهلا فى التسـادى والأيادى
فقـد حزت النهاية فى العطايا

وفى هـذه السنة — وهى سنة ثمان وأربعين وسبعمائة (١٣٤٧ م) — احترف بحر النيل احترافا زائدا مما يلى بر مصر ، فاتفق رأى الأمراء بأن يسدوا البحر مما يلى بر الجيزة ، فرسموا للأمير منجك اليوسفى وزير الديار المصرية بأن يتولى أمر ذلك ، ففرض منجك على كل دكان بمصر والقاهرة درهمى فضة ، وأخرجوا مراسيم شريفة الى كاشف الشرقية بأن يفرض على كل نخلة فى البـلاد درهمين من الفضة ، فاجتمع من ذلك مال جزيل ، فأخذ منجك ذلك المال واشترى به مراكب ووسقها حجارة كبارا وغرقها فى البحر مما يلى بر الجيزة ، فلم يفد من ذلك شيئا ، وطغى عليهم الماء ، فقبضوا على منجك ورسموا عليه بسبب ما أخذه من البلاد من المال فصادروه ، وأخذوا أمواله وعزلوه من الوزارة .

سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير جبغا واستقر به نائب طـرابلس ، وخلع على الأمير أحمـد شاد الشرنجاناه واستقر به نائب صفد .

ومن الحوادث فى هـذه السنة ان الفناء وقع بالديار المصرية وعم سائر البلاد [1] ، فكان يخرج من القاهرة فى كل يوم ما ينوف عن عشرين ألف جنازة . وقد ضبط فى شهر شعبان ورمضان فبلغ عدة من مات فيهما من الناس ، فكان نحو تسعمائة ألف انسان ... ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فيما تقدم من الطواعين المشهورة فى صدر الاسلام .

قال الشيخ شمس الدين محمد الذهبى :

« ان الطواعين المشـهورة فى مبتدأ الاسـلام خمسة ، وهى :

« طاعون شيرويه .

« وطاعون عمواس — كان فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقع بالشام وأعمالها فى سنة ثمان عشرة من الهجرة — وعمواس بفتح العين اسم قرية بالشام .

« وطاعون الجارف ، وقـع فى زمن عبدالله بن الزبير فى سنة سبع وستين من الهجرة . قيل مات فيه فى ثلاثة أيام فى كل يوم سبعون ألفا ، ومات فيه لأنس بن مالك رضى الله عنه فى ثلاثة أيام ثلاثة وثمانون ولدا . وكان فى شهر رمضان قوة عمله .

« وطاعون الفتيات كان بالبصرة وواسط . قيل انه ابتدأ بالعذارى الصغار فسمى طاعون الفتيات .

« وطاعون جاء فى سنة احدى وثلاثين ومائة من الهجرة يسمى طاعون قتيبة ، مات فيه ألف ألف وستمائة وخمسون ألف انسان ، ومات عقيبه المغيرة ابن شعبة رضى الله عنه » .

ولكن لم يسمع بمثل هذا الطاعون الذى جاء فى هذه السنة ، لأنه عم البلاد قاطبة ، ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم من مسلم وكافر ، وكانت قوة عمله فى بلاد الفرنج ، وأقام دائرا فى البلاد نحو سبع سنين حتى عزت جميع البضائع لقلة الجالب من البلاد ، وبلغ ثمن الراوية من الماء اثنى عشر درهما بالقـاهرة ، وسبب ذلك موت الجمال . وبلغ طحن الاردب القمح خمسـة عشر درهما .

ولم يزرع من أراضى مصر فى تلك السنة الا القليل بسبب موت الفـلاحين وعدم من يزرع ، فوقع الغلاء حتى بيعت كل ويبة قمح بمائتى درهم ، وكادت مصر تخرب فى تلك السنة . ووقع الطاعون

(١) هو وباء « الموت الاسود » الذى اجتاح المعمورة فى منتصف القرن الرابع عشر للميلاد . وقد بدأ فى أواسط آسيا ، ثم انتقل الى شبه جزيرة القرم ، ومنها نقلته احدى السفن الى جنوا وسائر انحاء أوربا . وانتقل من ارمينيا الى انجلترا عام ١٣٤٨ ، فقضى على نصف سكانها . وقضى فى الصين على ثلاثة عشر مليونا .

أيضا فى القطط والكلاب والوحوش . ولقد شوهد شيء كثير من الوحوش وهى مطروحة فى البرارى وتحت ابطها الطواعين ، وكذلك الخيل والجمال والحمير وسائر الحيوان ، حتى الطيور مثل النعام وغير ذلك . وفى ذلك يقول الصلاح الصفدى :

لما افترست أصحابى يا عام تسع وأربعينا
ما كنت والله تسعا بل كنت سبعا يقينا

وقوله أيضا :

دارت من الطاعون كاس الفنا
فالنفس من سكرته طافحة
قد خالف الشرع وأحكامه
لأنه يثبت بالرائحة

وقوله أيضا :

لا تثق بالحياة طرفة عين
فى زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع
والبرايا لها فراش تطير

وقال الشيخ زين الدين بن الوردى :

يقولون شم الخل فى زمن الوبا
وفاقا لما قال الأطباء يا خلى
فان قلت للطاعون تسطو على الورى
يقول : نعم ... أسطو وأتقك فى الخل

وقال ابراهيم المعمار :

يا طالبا للموت قم واغتنم
هذا أوان الموت ما فاتا
قد رخص الموت على أهله
ومات من لا عمره ماتا

وقوله أيضا :

قبح الطاعون داء فقدت فيه الأحبة
يبعث الأنفس فيه كل انسان بحبة

ومن مجونه قوله :

قلت لمن بالحشيش مشتغل :
ويحك ، ماتخشى هذه الكتبه !
فالناس ماتوا بكبة ظهرت
فقال : انى أعيش بالكبه

وقال بعضهم :

تروعنا الجنائز مقبلات
ونلهو حين تذهب مدبرات
كروعة ظبية صدفت لذئب
فلما غاب عادت راتعات

وقال آخر :

نراع بالموت ساعة ذكره
ونعرض للدنيا فنلهو ونلعب
ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها
وما كنت منه فهو شيء محبب

قيل لما زاد أمر هذا الطاعون بالديار المصرية ، أمر بعض العلماء بأن الناس يخرجون قاطبة الى الدعاء برفعه ، فخرج الناس قاطبه الى الصحراء وفعلوا كما يفعلون فى الاستسقاء ، فلم يفد ذلك شيئا ، بل زاد أمر الطاعون حتى عم سائر البلاد ، ودخل الى مكة ، ولم يعهد هذا قط فى سوى هذه السنة ... نقل ذلك ابن حجر فى كتاب « بذل الماعون فى أخبار الطاعون » .

سنة خمسين وسبعمائة (١٣٤٩م) :

فيها جاءت الأخبار بأن أرغون شاه نائب الشام قتل تحت الليل . وسبب ذلك أن الأمير جبغا نائب طرابلس دخل الى دمشق فى جماعة كثيرة من عسكر طرابلس . وكان أرغون شاه نائب الشام مقيما بالقصر الأبلق الذى بدمشق ، فدخل عليه الأمير جبغا نائب طرابلس وهو نائم بين عياله فقبض عليه

وقيده وسجنه بقلعة دمشق . فلما أصبح الصباح طلب الأمير جبغا القضاة والأمراء بدمشق ، وأخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على أرغون شاه نائب الشام ، فعند ذلك سكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا أن ذلك صحيح .

ثم ان الأمير جبغا احتاط على موجود أرغون شاه جميعه . فلما كانت ليلة الجمعة رابع عشرى ربيع الأول من تلك السنة ، فيها وجدوا أرغون شاه النائب مذبوحا وهو فى السجن ، فأحضر الأمير جبغا القضاة وكتب محضرا فى شأن ذبح أرغون شاه بأنه وجد فى السجن مذبوحا ولا يعلم من فعل ذلك . ثم فشا الكلام بين الناس بأن ذلك من فعل الأمير جبغا ، فكثر القال والقيل فى حق جبغا بأنه هو الفاعل لذلك جميعه ، فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه ، فهرب جبغا وتوجه الى نحو المزه — وهى من أعمال دمشق — فلم يتبعه أحد من عسكر الشام وخافوا عقبى ذلك .

ثم ان الأمير جبغا توجه الى طرابلس بعد ما جرى منه ما جرى .

ثم ان أمراء دمشق كاتبوا السلطان بما وقع من الأمير جبغا . فلما وصل الخبر الى السلطان أنكر ذلك ، وحلف على مصحف أنه لم يكن له علم بذلك . ثم عاد الجواب الى الأمراء بدمشق بأن السلطان ليس له علم بما جرى من الأمير جبغا ، ثم رسم لعسكر دمشق بأن يحاربوا الأمير جبغا ويمشوا عليه فى أى مكان كان ، فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ، وحاربوه وهو فى طرابلس ، فانكسر الجبغا وقبضوا عليه ودخلوا به الى الشام ... وكان يوم دخوله الى الشام يوما مشهودا لم يسمع بمثله . وكان فى مراسيم السلطان التى جاءت الى دمشق : « ان ظفرتم بالجبغا فاشنقوه على باب دمشق » . فلما ظفروا به شنقوه وعلقوه على باب القلعة كما رسم السلطان ، فأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى دفن بعد ذلك ، فكان كما قيل : ليس المغسر بمحمود ولو سلما .

سنة احدى وخمسين وسبعمائة (١٣٥٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن شخصا من التتار يسمى هندو أغار على مدينة سنجار وملكها ، فأرسل السلطان له تجريدة فحاصروه فطلب من العسكر الأمان ، ثم رحل عن سنجار وعاد اليها النائب الذى من قبل السلطان ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم سالمون .

وفيها توجه الأمير طاز أمير حاج بالمحمل الشريف . فلما وصل الى مكة وقع بينه وبين الملك المجاهد صاحب اليمن — وكان قد حج فى تلك السنة — فلما صعدوا الى الجبل وقعت بينهما فتنة عظيمة فانكسر الملك المجاهد صاحب اليمن وقبض عليه الأمير طاز وقيده وأحضره صحبته الى القاهرة .

وفيها جمع السلطان الملك الناصر حسن القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ورشد نفسه ، واستعذر الأوصية فأعذروا له فى ذلك . ثم بعد أيام قبض السلطان على جماعة من الأمراء — منهم الأمير يلبغا أروس ، والأمير منجك اليوسفى — وأرسلهم الى السجن بالاسكندرية .

وفيها أبطل السلطان ما أحدثه النساء من القمصان التى خرجت فى كبر أكمامها عن الحد ، وأبطل ما أخرجوه من الأزر الحرير والأخفاف الزركش ، فأشهروا المناداة فى القاهرة بابطال ذلك فرجعت النساء عن ذلك .

سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة (١٣٥١ م) :

فيها عاد الحجاج الى القاهرة ، فطلع الأمير طاز

الى القلعة وصحبته الملك المجاهد صاحب اليمن .

فلما تمثل بين يدى السلطان أطلقه من القيد ورسم له بالعود الى بلاده وهو مكرم ، وأرسل معه السلطان الأمير قشتمر المنصورى ليوصله الى بلاده . فلما وصل الى الينبع أراد الملك المجاهد أن يقتل الأمير قشتمر ويهرب من هناك ، فقبض عليه الأمير قشتمر ورجع به الى القاهرة ، فتغير عليه خاطر السلطان بسبب ذلك ، فقيده وأرسله الى السجن بقلعة الكرك .

وفيها — فى يوم الأحد سابع عشر جمادى الآخرة — وثب الأمراء على السلطان ، ولبسوا له آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة ، ووقفوا بسوق الخيل . وكان رأس الفتنة الأمير طاز المنصورى ، والأمير بيبغا الشمسى ، والأمير سفر الناصرى ... فحطم الأمير طاز — ومعه جماعة من الأمراء — فطلعوا الى القلعة وهم راكبون الى الحوش السلطانى ، فقبضوا على السلطان الملك الناصر حسن وسجنوه بالقلعة فى مكان داخل دور الحرم ، فأقام به الى حين عوده الى السلطنة كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

فكانت مدة سلطنة الملك الناصر حسن فى هذه المرة بالديار المصرية ثلاث سنين وتسعة أشهر ، وهى السلطنة الأولى . ثم تولى من بعده أخوه صالح .

الملك الصالح صلاح الدين

هو الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك الناصر محمد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو تمام العشرين من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون ، بويع بالسلطنة بعد أخيه الملك الناصر حسن فى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة .

وكان مولده بقلعة الجبل فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة . وأمه خوند قطلو ملك بنت الأمير تنكز نائب الشام . وكان سبب سلطنته أن الملك الناصر لما خلع من السلطنة تعصب الأمير طاز وسلطن الملك الصالح ، فجلس على سرير الملك ، وتلقب بالملك الصالح ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء .

فلما تم أمر سلطنة الملك الصالح صار الأمير طاز صاحب الحل والعقد ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار الملك الصالح معه مثل اللولب يديره كيف شاء ، وليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط ... فوقع بين الأمراء الخلف ، وأضمروا السوء للامير طاز ، ودبت بينه وبينهم عقارب الفتن ، فوثب عليه جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجهوا الى القصر . فلما بلغ الأمير طاز ذلك أركب السلطان ونزل به من القلعة فى جماعة من الأمراء ومن المماليك السلطانية ، ودقت الكئوسات حربيا ، وزعق النفير ، ومشى السلطان تحت الصنجق ، ونودى فى القاهرة : « من وجد مملوكا من مماليك الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاى ، فيقتله حيث وجد فى أى مكان » ... فقتل فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من المماليك ، وأخذوا خيولهم وقماشهم وسلاحهم .

ثم زحف السلطان والأمير طاز بمن معهما من الأمراء والعسكر ، وتوجهوا الى قبة النصر ، فوقع بينهم القتال عند خليج الزعفران وقرب المطرية ، فكان بين الأمراء واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة من المماليك .

ثم ان الأمير منكلى بغا الفخرى والأمير مغلطاى انكسرا وهربا فى بعض بساتين المطرية ، فقبضوا

عليهما فى أواخر النهار ، فرسم السلطان بسجنهما فى خزانة شمايل ، ثم أرسلهما الى السجن بثغر الاسكندرية . ورسم بالافراج عن الأمير شيخو العمرى والأمير منجك اليوسفى — وكانا بالسجن بثغر الاسكندرية — فأفرج عنهما وحضرا الى الأبواب الشريفة وطلعا الى القلعة ، فأنعم السلطان على الأمير شيخو فى ذلك اليوم بتقدمة ألف ، وكذلك الأمير منجك اليوسفى .

ثم ان السلطان أرسل بالافراج عن الأمير بيبغا أروس — وكان بالسجن فى قلعة الكرك — فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب حلب . ثم خلع على الأمير أرغون الكاملى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية .

وفى هذه السنة توفى ابن اللبانة الشاعر ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد . ومن لطائف قوله :

هلا تُنالك علىّ قلب مشفق
لترى فراشا فى فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذى لا يرتجى
وبقيت كالنفس الذى لا يلحق
لو فى يدى سحر وعندى هذه
لجعلت قلبك كل يوم يعشق
لتذوق ما قد ذقت من ألم الهوى
فترق لى مما تراه وتشفق

وفيها توفى الامام العالم العلامة شيخ الاسلام شمس الدين بن قيم الجوزية وكان له مصنفات كثيرة فى العلوم الجليلة .

سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة (١٣٥٢ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير بيبغا أروس قد خرج عن الطاعة وأظهر العصيان ، وكذلك الأمير بكلمش نائب طرابلس ، وكذلك الأمير أحمد نائب حماه ، وكذلك الأمير الطنبغا برقاق نائب صفد — فأرسل نائب الشام الأمير أرغون الكاملى يخبر السلطان بما قد جرى من النواب .

ثم بعد ذلك بأيام يسيرة جاءت الأخبار بأن نائب حلب وصل الى الشام وحاصر المدينة . فلما رأى نائب الشام عين الغلبة هرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزه فأقام بها ، فأرسل يعلم السلطان والأمراء بذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن بيبغا أروس لما دخل الى الشام وقف تحت القلعة ومعه من تقدم ذكرهم من النواب ، فاستعرض هناك العسكر الشامى والعسكر الحلبى ، فكان مع الأمير بيبغا أروس من النواب والأمراء نحو ستين أميرا — غير العساكر الحلبية والشامية ، وغير ما التف عليه من العربان والعشائر — فقويت شوكته . فلما فرغ من العرض نزل عند قبة بيبغا ، وأرسل الى نائب قلعة دمشق — وهو الأمير أياجى — بطلب منه أميرا كان مسجونا بقلعة دمشق ، فأرسل اليه الأمير أياجى يعتذر له عن ذلك بأن هذا فى سجن السلطان ولا أقدر على اطلاقه من السجن الا بمرسوم السلطان .

ثم ان نائب قلعة دمشق حصن القلعة تحصينا عظيما ، وركب عليها المكاحل بالمدافع ، وأرسل يقول لأهل المدينة : « لا تفتحوا دكانا ولا سوقا ، ولا تبيعوا على عسكر حلب شيئا » .

فلما بلغ الأمير بيبغا أروس ذلك اشتد به الغضب ، وأمر عسكره بأن ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ، ويقطعوا الأشجار . فلما سمعوا هذه المناداة ما أبقوا ممكنا من الأذى والفساد ، فنهبوا حتى النساء والبنات والقماش . وجرى على أهل

دمشق من بيبغا أروس ما لم يجر عليهم من عسكر غازان لما أن دخل الى دمشق .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى السلطان علق الجاليش وتجهز للخروج الى دمشق . ثم عين الأمير عمر شاه — وهو صاحب القنطرة — وعين محمد بن بكتمر الساقى ، والأمير قمارى الحموى بأن يخرجوا الى الصعيد قبل خروج السلطان لحفظ البلاد من فساد العربان وصون الغلال ، فخرجوا من يومهم .

ثم ان السلطان خرج من القاهرة قاصدا نحو البلاد الشامية ، فطلب طلبا عظيما ، وخرج معه من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير طاز ، والأمير شيخو العمرى ، والأمير صرغتمش ، والأمير أستدمر العمرى ، وأخوه الأمير طاز ، والأمير جردمر ، والأمير قرابغا ، والأمير بنجاص ، والأمير قجا السلحدار ، والأمير طشتمر القاسمى ، والأمير سنقر المحمدى ، والأمير قطلوبغا الذهبى ، وبقية الأمراء المقدمين ، وكان مع السلطان الطبلخانات والعشراوات نحو ثمانين أميرا .

ثم ان السلطان ترك فى القاهرة الأمير قبلاى نائب السلطنة ، ومعه ثلاثة أمراء لصون المدينة .

ثم خرج السلطان من القاهرة فى يوم الثلاثاء سابع شهر شعبان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ، وكان صحبته القضاة الأربعة ، والخليفة الامام أحمد الحاكم بأمر الله ابن المستكفى بالله ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله ، وسائر العسكر قاطبة ، فكان وصول السلطان الى دمشق فى شهر رمضان ، فنزل بالقصر الأبلق الذى فى الميدان ، وصلى الجمعة فى جامع بنى أمية . وكان الأمير بيبغا أروس لما بلغه وصول الملك الصالح الى دمشق رحل عنها . ثم ان السلطان طلع الى قلعة دمشق وأقام بها ، وأمر جماعة من الأمراء والعسكر بأن يتوجهوا خلف الأمير بيبغا ومن معه من النواب ، فخرجوا اليهم وتقاتلوا معهم .

فلما كان ثالث شهر شوال جاءت الأخبار من عند السلطان بأنه قد انتصر على الأمير بيبغا أروس ، وانكسر بيبغا وهرب الى بلاد التراكمة ، وقبض على جميع من كان معه من النواب والعسكر ودخلوا بهم الى دمشق وهم فى جنازير وقيود ، وكان لهم فى دمشق يوم مشهود لم يسمع بمثله .

ثم ان السلطان جلس فى القصر الأبلق بالميدان ، واجتمع الأمراء عنده فى القصر ، ودخل العسكر الى الميدان ، ثم أحضروا النواب بين يدى السلطان فعاتبهم على ما فعلوا ، ثم أمر بتوسيطهم فوسطوا ستة من الأمراء وهم : الطنبغا برقاق نائب صفد وهو صاحب الدرب المنسوب اليه ، والأمير طنبغا الأوجانى المعروف بحلاوة ، والأمير مهدى العلائى شاد الدواوين بحلب ، والأمير استبغا التركمانى ، والأمير الطنبغا شادّ الشرنجاناه ، والأمير شادى أخو الأمير أحمد نائب حماه . ثم أراد أن يوسط الأمير بكتمر السعيدى ، فشفع فيه الأمراء فحبس بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان قصد أن يتوجه نحو الديار المصرية ، فخرج من الشام — بعد ما عزل من عزل وولى من ولى — وسار حتى دخل القاهرة فى أواخر شوال من السنة المذكورة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت له الشقق الحرير من باب النصر الى القلعة ... وهو فى غاية العز والنصرة ، والأمراء مشاة بين يديه ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، ونثروا عليه الذهب والفضة ، وضج له الناس بالدعاء .

وكان محبا للرعية قليل الأذى . فلما استقر

بالقلعة ومضى عليه أيام يسيرة قبض على الصاحب علاء الدين بن زنبور ، وكان قد عظم أمره ونمت أمواله ، واجتمع فيه من الوظائف السنية ما لم يجتمع فى غيره ، فكان وزيرا وناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة ... فتعاظم على الناس بقوة البأس .

فلما قبض عليه السلطان ضربه ضربا شديدا ، وقيده ونفاه الى قوص ، واحتاط على موجوده من صامت وناطق ، فكان كما قيل فى المعنى :

ومباشر السلطان شبه سفينة
فى البحر ترجف دائما من خوفه
ان أدخلت من مائه فى جوفها
أدخلها ، وماءها ، فى جوفه

قال قاضى القضاة برهان الدين بن جماعة رحمة الله عليه : « وقفت على قوائم فيها ما ضبط من موجود الصاحب علاء الدين بن زنبور ، وهو : قماش ملون ما بين صوف وحرير ألفان وستمائة قطعة . منها مفرى بسمور ووشق وسنجاب وقاقوم ألفا قطعة ، جنداب بوجهين ستمائة قطعة . جبينات خمسة آلاف قطعة . أوانى ذهب وفضة زنتها نحو ستين قنطارا . صناديق ضمنها فصوص ملون ما بين ياقوت والماس وعين هر وحبات لؤلؤ كبار وزن ذلك نحو قنطارين وكسور . صناديق ضمنها لؤلؤ حب ، فاعتبروه بالكيل فكان نحو أردبين بالمصرى . صناديق ضمنها ذهب عين جملته ستمائة ألف دينار . حوائص ذهب ستة آلاف حياصة . كلوتات زركش ستة آلاف كلوته . ووجد له ودائع عند الناس فى أماكن عدتها ستة وثلاثون مكانا ما يعلم ما فى الصناديق التى وجدت بها . ووجد له فضة نقرة محررة بالكيل فكانت ثلاثين أردبا بالمصرى . حواصل فيها شاشات ، العدة ثلثمائة ألف شاش . حواصل فيها بسط رومى وسقاعة من سائر الألوان خمسة وثلاثون ألف قطعة . أنطاع كبار وصغار ثلاثون ألف نطع . ومن الخيول والبغال والجمال عشرون ألف رأس . ووجد له فى خبية تحت سلم سبعمائة ألف دينار . ووجد له عبيد وجوار سبعمائة رأس ، ومن المماليك الروم خمسون مملوكا ، ومن الخدام الخصى مائة رأس . ووجد له فى حاصل نحو من ثلاثين ألف قطعة صينى ما بين لازورد وأخضر وشفاف . ووجد له من النحاس الأصفر المكفت والنحاس الأبيض نحو من أربعين ألف قطعة . ووجد له من الأملاك والضياع والمستقفات سبعة آلاف مكان قومت بثلثمائة ألف دينار . ووجد له من المعاصر خمسة وعشرون معصرة ، وبها من القنود السكر ما لا ينحصر وزنه . ووجد لأولاده اقطاعات حلقة سبعمائة اقطاع . ووجد له فى حاصل من السروج الذهب والفضة والكبابيش الزركش والبدلات وعدد الخيل ، قوموا ذلك بثلاثين ألف دينار . ووجد له مخازن فيها بضائع وبهار قوموا ذلك بأربعمائة ألف دينار . ووجد له من المراكب ستمائة مركب . ووجد له من البساتين والغيطان مائتا بستان . ووجد له من السواقى فى البلاد ألف وأربعمائة ساقية . ووجد له من الأبقار الحلابة والأغنام السياق ثلثمائة ألف رأس . ووجد له من الغلال — ما بين قمح وشعير وفول — ما لا ينحصر كيله . ووجد له ودائع كثيرة عند الناس من قماش ونحاس ومال وغير ذلك مما لا ينحصر قدره . والذى ضاع له عند الناس والغلمان ونحو ذلك شىء لا ينحصر . وكان له أربع نسوة ومائتا سرية ... وهذا الموجود لم يسمع بمثله ولا عند الخلفاء » .

وآخر الأمر أنهم أخذوا ماله جميعه ونفى الى قوص ، فأقام بها الى أن مات ودفن بقوص ، ولم

بعلم له مكان قبر ، وزالت الدنيا عنه كما زالت عن غيره ، كما قيل فى الأمثال : « المال كالماء ... من استكثر منه غرق فيه » .

وقال بعضهم :

خذ القناعة من دنياك وارض بها
واختر لنفسك منها راحة البدن

وانظر لمن قد حوى مما سمعت به
هل ناله غير بعض القطن والكفن

وقال الزمخشرى رحمه الله :

وقائلة أرى الأيام تعطى
لئام الناس من رزق خبيث

وتمنع من له شرف وفضل
فقلت لها خذى أصل الحديث

رأت جل المكاسب من حرام
فجادت بالخبيث على الخبيث

وفى هذه السنة توفى الشيخ الامام العالم العلامة زين الدين عمر بن المظفر بن الوردى المعرى الكندى ، وكان من أعيان علماء الشافعية وله مصنفات كثيرة ، منها « كتاب البهجة » وغير ذلك . وكان فريد عصره ووحيد دهره ، وله نظم ونثر ، رضى الله عنه .

قال الشيخ عماد الدين اسماعيل بن كثير فى تاريخه ان الشيخ زين الدين بن الوردى دخل الى الشام — وكان ضيق المعيشة ، رث الهيئة ، ردىء المنظر — فحضر الى مجلس القاضى نجم الدين ابن صصرى من جملة الشهود ، فاستخفت به الشهود وأجلسوه فى طرف المجلس ، فحضر فى ذلك اليوم مبايعة مشترى ملك ، فقال بعض الشهود : « أعطوا المعرى يكتب هذه المبايعة » ... على سبيل الاستهزاء به . فقال الشيخ زين الدين : « أكتبه لكم نظما أو نثرا؟ » ... فتزايد استهزاؤهم به فقالوا له : « بل اكتب لنا نظما » . فأخذ ورقة وقلما وكتب فيها هذا النظم اللطيف ، وهو :

باسم اله الخلق هذا ما اشترى
محمد بن يونس بن سنقرا

من مالك بن أحمد بن الأزرق
كلاهما قد عرفا من جلق

فباعه قطعة أرض واقعة
بكورة الغوطة وهى جامعه

بشجر مختلف الأجناس
والأرض فى البيع مع الغراس

وذرع هذى الأرض بالذراع
عشرون فى الطول بلا نزاع

وحدها من قبله ملك التقى
وجابر الرومى حد المشرق

ومن شمال ملك أولاد على
والغرب ملك عامر بن جهبل

وهذه تعرف من قديم
بأنها قطعة بيت الرومى

بيعا صحيحا ماضيا شرعيا
ثم شراء قاطعا مرعيا

بثمن مبلغه من فضة
وازنة جيدة مبيضة

جارية للناس فى المعاملة
ألفان ، منها النصف ألف كاملة

وسلم الأرض الى من اشترى
فقبض القطعة منه وجرى

بينهما بالبدن التفرق
طوعا فما لأحد تعلق

ثم ضمان الدرك المشهور
فيه على بائعه المذكور

وأشهدا عليهما بذاك فى
رابع عشر رمضان الأشرف
من عام سبعمائة وعشرة
من بعد خمسة تليها الهجرة
والحمد لله وصلى ربى
على النبى وآله والصحب
يشهد بالمضمون من هذا عمر
ابن المظفر المعرى اذ حضر

فلما فرغ الشيخ من نظمه ، ووضع الورقة بين يدى الشهود ، تأملوا هذا النظم مع سرعة الارتجال ، فقبلوا يده واعتذروا له من التقصير فى حقه ، واعترفوا بفضيلته عليهم .

ثم ان الشيخ قال لبعض الشهود فى المجلس : «سد فى هذه الورقة بخطك» فقال له : «ياسيدى أنا ما أحسن النظم» . فقال له : « ما اسمك ؟» . فقال له : « أحمد بن رسول » ، فكتب الشيخ عنه وهو يقول :

قد حضر العقد الصحيح أحمد
ابن رسول وبذاك يشهد

وتوفى فى هذه السنة الشيخ شمس الدين الذهبى المؤرخ . وتوفى الشيخ أثير الدين أبوحيان المغربى — وكان مالكى المذهب ، فلما دخل الى مصر تقلد بمذهب الشافعى رضى الله عنه — فسئل عن ذلك فقال : « بحسب البلدة » ... وكان عالما فاضلا ناظما ناثرا ، وله شعر جيد . ومن شعره اللطيف قوله :

بدر تم له على الخد خال
فى احمرار ينشق منه الشقيق
كتب الحسن بالمحقق معنى
ولكن عذاره تعليق

سنة اربع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٣ م) :

فيها توفى الخليفة الامام الحاكم بأمر الله تعالى أحمد ، ابن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد . فلما مات تولى من بعده ابنه أبو بكر ، وتلقب بالمعتضد بالله . وكان له مشهد عظيم ، وصلى عليه السلطان الملك الصالح .

وفيها حضروا برأس الأمير بكلمش نائب طرابلس ، ورأس الأمير بيبغا أروس نائب حلب ، ورأس الأمير أحمد نائب حماه — وكانوا هربوا من الملك الصالح لما توجه الى الشام كما تقدم . فلما هرب أولئك النواب توجهوا الى بلاد التركمان ، فقطعوا رءوسهم وأرسلوهم الى السلطان ، فرسم بأن يعلقوا على باب زويلة ، فعلقوا عليه ثلاثة أيام .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن العربان أظهروا الفساد وعصوا ونهبوا جميع الغلال وقتلوا العمال . وكان كبير العربان شخصا يسمى ابن الأحدب ، شيخ قبيلة عرك ، فاجتمع عليه قبائل كثيرة من العربان حتى سدوا الفضاء . فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت الأحوال وخرج اليهم السلطان بنفسه وسائر الأمراء قاطبة . وكان جاليش العسكر الأمير طاز ، والأمير شيخو العمرى ، والأمير صرغتمش الناصرى . فلما تقدموا أمام العسكر وقع بينهم وبين العربان واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وقيل مات من العربان نحو النصف ، وانكسر شيخهم ابن الأحدب ، وصار الأمير شيخو يقطع رأس كل من رآه من الفلاحين يقول دكيك ، حتى بنى من رءوس العربان مساطب ومواذن على شاطىء البحر . ثم ان الأمراء مشوا وراء العربان الذين هربوا مسيرة سبعة

أيام حتى دخلوا أطراف بلاد الزنج . ثم رجع الأمراء والسلطان الى الديار المصرية ومعهم ألف رأس من أكابر العربان ، وقد غنموا منهم غنائم كثيرة من خيول وجمال وأغنام وسيوف ودرق وغير ذلك .

فلما دخل السلطان الى القاهرة كان له يوم مشهود . فلما طلع الى القلعة رسم بتوسيط الأسرى من العربان ، فوسطوا نحو سبعمائة انسان .

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن الفلاح لا يركب فرسا ولا يحمل سلاحا .

ثم ان ابن الأحدب كبير العربان شيخ العرك الذى قد هرب أرسل يطلب من السلطان الأمان بأن يقابل ، فأرسل له السلطان أمانا ، فحضر الى الأبواب الشريفة ، فخلع عليه السلطان خلعة ، وأقره على عادته شيخ العركى كما كان ، وتوجه الى بلاده . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

ما هادن السلطان أعداءه ... الا لأمر فيه اذلالهم

حتى له تكثر أموالهم ... وللسبا تكثر أطفالهم

وفى هذه السنة خلع السلطان على الأمير أرغون الكاملى واستقر به نائب حلب عوضا عن بيبغا أروس . فلما توجه الأمير أرغون الى حلب جرد الى قراجا بن ذو الغادر أمير التركمان ، وكان ذنب قراجا أنه وافق بيبغا أروس على العصيان . فلما وصل اليه الأمير أرغون هرب منه ، فتبعه الأمير أرغون الى أطراف بلاد الروم ، فقبض عليه وأرسله الى السلطان . فلما حضر الى القاهرة ومثل بين يدى السلطان أمر بتسميره ، فسمروه على جمل وطافوا به مصر والقاهرة ، ثم وسطوه فى الرميلة بسوق الخيل ثم دفنوه .

سنة خمس وخمسين وسبعمائة (١٣٥٤ م) :

فيها توفى القاضى شهاب الدين ابن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية والبلاد الشامية . وكان عالما فاضلا ، ناظما ناثرا ، وله شعر جيد . وصنف كتابا فى صناعة التوقيع وصار العمل عليه الى الآن بين الموقعين ، وبه يقتدون .

ومما وقع للقاضى شهاب الدين هذا أنه رثى نفسه قبل أن يموت بهذين البيتين ، ووجدا فى دواته بعد موته :

قلت لأقلامى : اكتبى وانطقى ... فقالت الأقلام : واسوأتاه

وشقت الألسن من حزنها ... وولولت ، واسود وجه الدواه

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الاثنين ثانى شوال وثب جماعة من الأمراء على الملك الصالح . وكان الأمير طاز قد توجه الى نحو البحيرة ليتصيد ، فاغتنم الأمراء هذه الفرصة ، فركب فى ذلك اليوم الأمير شيخو العمرى وجماعة من الأمراء وهجموا على السلطان الملك الصالح وخلعوه من الملك وسجنوه بدور الحرم من يومه ، وزال ملكه كأنه ما كان . فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية — الى أن خلع من السلطنة — ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما . وكان ملكا عظيما دينا خيرا حسن السيرة ، ساس الرعية فى أيامه أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وكانت أيامه كلها خيرا وعدلا ، وكان قليل الأذى كثير الخير .

ولما خلع من السلطنة اشتور الأمراء فيمن يولونه سلطانا فوقع الاتفاق على عود الملك الناصر حسن ابن محمد بن قلاون أخى الملك الصالح ، فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

عود الملك الناصر حسن

وهى السلطنة الثانية . فلما خلع الملك الصالح صالح من السلطنة وقع الرأى على عود الملك الناصر حسن ، فأخرجوه من دور الحرم وسلطنوه ، وذلك فى يوم الاثنين ثانى شوال سنة خمس وخمسين وسبعمائة . فلما جلس على سرير الملك هناه الشيخ جمال الدين بن نباته بهذه الأبيات وهى قوله :

عد على النصر والسعادة يامن
رفع الله فى السلاطين شانه
أنت سهم لله ما كان يخلى
منه أوطان مصر وهى كنانه

قال الشيخ شهاب الدين بن حجلة التلمسانى ان الملك الناصر حسن وافق والده فى سبعة أشياء وقعت له :

أولها — أنه وافقه فى اللقب ، لأن والده تلقب بالناصر وهو أيضا تلقب بالناصر .

الثانى — أنه ترك الملك وعاد اليه ، ووالده ترك الملك وعاد اليه .

الثالث — أنه جلس على سرير الملك فى المرة الأولى فى رابع عشر الشهر ، ووالده جلوسه فى المرة الأولى كان فى رابع عشر الشهر .

الرابع — أنه لما عاد الى الملك جلس على سرير الملك فى ثانى شوال ، ووالده كذلك .

الخامس — أنه وزر له متعمم ورب سيف ، ووالده أيضا وزر له متعمم ورب سيف .

السادس — أنه أقام مدة بلا وزير ، ووالده أقام مدة بلا وزير .

السابع — أنه أقامت مصر فى أيامه مدة بلا نائب سلطنة ، ووالده أيضا أقامت مصر فى أيامه مدة بلا نائب سلطنة .

وهذا من غريب الاتفاق ...

فلما عاد فى هذه المرة غاب كالبدر فى سحابه ، ورجع كالسيف المسلول من قرابه ، فخضعت له الرقاب ، وضرب بين الظلم وقلعته بسور له باب ، وأنشده الدهر « بغيرك راعيا عبث الذئاب » ...

فلما تم أمره فى السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى سيف الدين شيخو العمرى الناصرى ، واستقر به أميرا كبيرا — وهو أول من سمى بأمير كبير — وليس لها خلعة وصارت من يومئذ وظيفة مستقلة . ثم خلع على المقر السيفى عز الدين أزدمر العمرى واستقر به أمير سلاح بالديار المصرية — والأمير أزدمر هذا هو جد والد مؤلف هذا التاريخ ، وكان جد والده لأمه — ثم خلع على الأمير صرغتمش ، واستمر رأس نوبة النواب على عادته ... فصار الأمير شيخو والأمير صرغتمش فى دولة الناصر حسن صاحبى الحل والعقد ومدبرى المملكة ، وكانت عظمة الأتابكى شيخو فى دولة الملك الناصر حسن .

ثم ان الأمير طاز ، الدوادار الكبير ، حضر عقيب ذلك من البحيرة — وقد تقدم أنه توجه للصيد — فلما حضر قبضوا عليه وقيدوه ، وسجنوه بالقلعة هو وأخوه ، فأقام فى السجن أياما . ثم ان بعض الأمراء شفع فيه فأفرج عنه وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، فخرج اليها من يومه .

وفى هذه السنة خلع على القاضى تقى الدين السبكى ، واستقر به قاضى القضاة الشافعية بدمشق . فلما توجه الى دمشق وخرج من القاهرة قال فيه ابراهيم المعمار :

مصر للسبكى قالت سر فلا عدت اليا
عذت بالرحمن ربى منك ان كنت تقيا

وفيها خلع على القاضى علاء الدين بن فضل الله

العمرى ، واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية على عادته ، وفيه يقول المعمار أيضا :

لابن فضل الله فضل   غمر الناس ووفى
كيف لا وهو على   علم السر وأخفى

سنة ست وخمسين وسبعمائة (١٣٥٥ م) :

فيها أنشأ المقر السيفى شيخو جامعا وخانقاه بالصليبة الطولونية ، وأنشأ بها حمامين وربوعا ودكاكين ولما كملت عمارة الخانقاه قرر بها شيخا يحضر فى كل يوم من بعد العصر وصوفية يحضرون معه . وكان الشيخ الذى قرره ، شيخ الاسلام الشيخ أكمل الدين الحنفى ، وكان من أكابر علماء الحنفية ، وقد خضعت له الناس لفضله وزهده ، وكان بارعا فى العلوم ، وفيه يقول ابن أبى حجلة التلمسانى :

شيخ تقدم فى العلوم لأنه
ان عد أرباب الفضائل أول
ما قيل هذا كامل فى ذاته
الا وقلت الشيخ عندى أكمل

ثم ان شيخو أوقف على هذه الخانقاه والجامع أوقافا كثيرة ، وشرط فى وقفه محاسن جميلة ، وجعل النظر على تلك الأوقاف لمن يكون رأس نوبة النواب بالديار المصرية ، ولشيخ الخانقاه المشاركة معه فى النظر . وقرر للصوفية الخبز والطعام فى كل يوم ، والحلوى والعجمية فى كل شهر ، وغير ذلك من الجوامك والمرتبات للصوفية ، وجعل فى الخانقاه تدريسا وقراءة سبع فى كل يوم . قال فى معنى ذلك ابن أبى حجلة :

ومدرسة للعلم فيها مواطن
فشيخو بها فرد وايثاره جمع
لئن بات فيها للقلوب مهابة
فواقفها ليث وأشياخها سبع

سنة سبع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٦ م) :

فيها من الحوادث آن ربعا وقع عند جامع قوصون على ثلاثين نفسا من نساء ورجال ، فمات منهم ثلاثة وعشرون انسانا ، وسلم منهم سبعة ، فقيل ان السبعة الذى سلموا من الردم سافروا فى ذلك الشهر الى نحو بلاد الصعيد فى مركب ، فهبت عليهم ريح شديدة فغرقت بهم المركب ولم يسلم منهم أحد ... فمن لم يمت بالسيف مات بغيره .

وفى هذه السنة ابتدأ السلطان الملك الناصر حسن بعمارة مدرسته التى فى سوق الخيل تجاه القلعة ، وكان مكانها قصر يبيغا اليحياوى نائب الشام ، فهدمه وبنى مكانه هذه المدرسة التى لم يعمر مثلها فى الاسلام . وقيل ان ايوانها بنى على قدر ايوان كسرى أنو شروان فى الطول والعرض . وهذه المدرسة تشتمل على أربع مدارس ، لكل شيخ مذهب مدرسة تختص به . وقيل ان بعض الناس كان مسافرا فى البحر المالح فى شهر رمضان فرأى قنديل هلال مئذنة هذه المدرسة من البحر المالح . وقيل ان أخشاب أساقيل العمارة قومت بمائة ألف دينار ... وبالجملة ان بناء مدرسة السلطان حسن دال على أفعاله ، وعلى علو قدر همته بين الملوك المصرية ، وقد قال فيه ابن أبى حجلة :

لسنا ، وان كرمت أوائلنا ،
يوما ، على الأنساب نتكل
نبنى كما كانت أوائلنا
تبنى ، ونفعل فوق ما فعلوا

ولما كملت عمارة هذه المدرسة كان لها يوم مشهود ، واجتمع بها فى يوم الجمعة القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، وملئت الفسقية التى بصحن المدرسة سكرا بماء الليمون ، ووقف رءوس

النـواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات ، ونزل السلطان وصلى بهـا الجمعة ، وخلع على البنائين والمهندسين الخلع السنية ، وأنعـم على الفعلة لكل واحـد عشرة دنانير ، وقال الشـيخ جمال الدين ابن نباتة فى المعنى :

امام الورى ، هنئت بالجامع الذى

وجـدت الى مبناه سعدا موافقا

دعا حسنه أهل الصلاة لقصـده

فلا غرو ان جاء المصـلى سابقا

وقيل ان السلطان لما حفر أساس هذه المدرسة وجد فى الأرض مالا مدفونا فصرفه على عمارة هذه المدرسة ، فعمرت من وجه حل . وقيل لما حفروا أساس هذه المدرسة وجدوا هناك مرساة مركب قيل كان البحر هناك ...

ومن الحوادث فى هـذه السنة أن هبت ريح عاصفة من جهـة الغرب حتى أظلم الجـو ظلمة شديدة ، وهـدمت الرياح عدة أماكن ، وقلعت الأشجار من الأرض بعروشها ... واستمر ذلك من أوائل النهار الى أن طلع الفجر ، فسكن الريح ، وأمطرت السماء ، وأسفر الجو .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بغداد بأن القان حسن صاحب بغداد قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وتولى أويس ابنه عوضا عنه .

وفيها توفى الشيخ شـهاب الدين بن عقيل ، والحافظ العلامة مغلطاى .

سنة ثمان وخمسين وسبعمائة (١٣٥٧ م) :

فيها قتل الأتابكى شيخو العمرى أمير كبير . وسبب ذلك أن شـخصا من المماليك السـلطانية يسمى قطلوقجاه السلحدار غافل الأتابكى شيخو وهو فى الايوان فى يوم الموكب ، فضربه بالسيف فى وجهه ثلاث ضربات ، فوقع الأتابكى الى الأرض مغشيا عليه . فلما جـرى ذلك قام السلطان من مجلسه وهو مرعوب ، فطلع مماليـك الأتابكى شيخو وصهره الأمير خليل بن قوصون الى القلعة ، وحملوا الأتابكى شيخو على جنوبة ونزلوا به الى بيته فوجدوا به بعض رمق ، فخيطوا جراحاته ، وكان ذلك فى يوم الاثنين حادى عشرى شعبان . فلما بات فى تلك الليلة فى بيتـه نزل له السلطان ثانى يوم يسلم عليه ، فنزل عن فرسه ودخل الى الأتابكى فى المكان الذى كان به ، فلما سلم عليه السلطان صار يحلف له أن ذلك لم يكن بعلمه ولا له خبر بمـا جرى ، ثم ان السلطان أحضر ذلك المملوك الذى ضرب شيخو وقال له : « هل أغراك على ذلك أحد من الأمراء ؟ » ، فقال: « لا والله ما أغرانى أحد على ذلك ، وانما قدمت للأمير شيخو قصة بسبب اقطاع ، فأخرج ذلك الاقطاع لشخص من جماعته ، فتغير خاطرى منه ، ففعلت ذلك من قهرى منـه » ... فرسم السـلطان بتسمير ذلك المملوك قطلو قجاه الذى ضرب شيخو ، فسمروه وطافوا به فى القاهرة ، ثم وسطوه فى الرميلة قدام مماليك شيخو ، وكان عدة مماليك شيخو سبعمائة مملوك .

ثم ان شيخو استمر ملازم الفراش وهو عليل حتى مات يوم الجمعة سادس عشرى ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وسبعمائة . وقد استمر عليلا فى الفـراش ثلاثة أشـهر وأياما . وكانت جنـازته مشـهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه وحضر دفنه ، ودفن فى خانقاته التى فى الصليبـة داخل القبة ، وطلعوا بجنازته من بيته الذى عند حدرة البقـر فصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ، ورجعوا بالجنازة من رأس الصليبة الى خانقاته التى دخل بها السلطان قدام نعشة ماشيا حتى دفن ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس .

واتفق أن فى ذلك اليوم زلزلت الأرض زلزلة خفيفة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا — وذلك فى وسط قلب الصيف — فقال بعض الشعراء فى هذه الواقعة :

بروحى من أبكى السماء لفقده
بغيث ظنناه لسوال عينه
وما استعبرت الا أسى وتأسفا
والا فماذا القطر فى غير حينه ؟

وقد رثاه بعض الشعراء بقوله :

لما أفلت عن المنازل أظلمت
تلك الديار ، وغاب عنها المشفق
وتقول مصر : لفقد شيخو شفنى
أرق علىّ أرق ومثلى يأرق

وكان شيخو أميرا خيرا دينا ، كثير الخير قليل الأذى ، وله بر ومعروف ولا سيما هذه الخانقاه والجامع الذى فى الصليبة ، وما قرر فيهما من وجوه الخير والاحسان .

سنة تسع وخمسين وسبعمائة (١٣٥٨ م) :

فيها تزايدت عظمة المقر السيفى سيف الدين صرغتمش رأس نوبة النوب ، وصار فى رتبة الأتابكى شيخو ، صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، فأرسل بالقبض على الأمير طاز نائب حلب من غير علم السلطان ، وأرسله من هناك الى السجن بثغر الاسكندرية ، فانه كان بينه وبين الأمير طاز حظ نفس من أيام الملك الصالح ، وكان الأتابكى شيخو يرده عن الأمير طاز . فلما مات شيخو قضى منه الأمير صرغتمش أربه . وقيده ونفاه الى الاسكندرية .

فلما جرى ذلك خلع السلطان على الأمير منجك اليوسفى واستقر به نائب حلب عوضا عن الأمير طاز . ثم ان الأمير صرغتمش أشار بضرب فلوس جدد : كل فلس بدرهم ، وشىء بدرهمين ، وشىء بمثقال ... فثقل أمر ذلك على الناس ، وتضرر منه السوقة . وغلت سائر البضائع بسبب ذلك ، ووقف حال الناس . وقد قال بعض الشعراء :

أميرنا أكرم من حاتم
لا يمنع السائل من فلسه
تقضى به حاجة من رامه
فخذه طوعا واخش من بأسه

ومن الحوادث فى هذه السنة : رفعت قوائم الى الأمير صرغتمش من ديوان الأحباس فيها عدة حصص جارية على منافع الكنائس والديور ، فكان قدر تلك الحصص خمسة وعشرين ألف فدان بيد النصارى . فلما سمع الأمير صرغتمش بذلك حنق وطلع الى القلعة وشاور السلطان على ذلك ، فرسم السلطان بأن يخرج ذلك من يد النصارى ، وكتب بذلك مربعات ، وأنعم بها على الأمراء زيادة على اقطاعاتهم ، ففرقت عليهم تلك المربعات الشريفة ، وبطل ما كان بيد النصارى من تلك الرزق .

ثم ان السلطان رسم بهدم الكنائس والديور . وكان فى شبرا كنيسة عظيمة على شاطىء بحر النيل ، وكان بتلك الكنيسة صندوق من الخشب مقفول بقفل من حديد وفى داخله أصبع بعض من هلك من عباد النصارى يسمونه الشهيد ، وكان هذا الأصبع مقيما بتلك الكنيسة دائما ، وكان النصارى يتوارثونه من قديم السنين ... فاذا كان ثامن شهر بشنس من الشهور القبطية أخرجوا ذلك الأصبع من الصندوق وغسلوه فى بحر النيل ، ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقوا فيه ذلك الأصبع ويسمونه عيد الشهيد ، ويكون لذلك اليوم عيد ترحل اليه سائر النصارى من جميع القرى ، وتخرج عامة أهل مصر من غنى

وصعلوك ، وينصبون الخيام على شاطىء بحر النيل بشبرا وفى الجزائر ، ولا يبقى مغن ولا مغنية ، ولا رب ملعوب ولا ماجن ولا خليع الا ويجتمع هناك ، فيجتمع عالم لا يحصي عددهم ، وتصرف هناك أموال لا تنحصر ، ويتجاهرون هناك بالمعاصي والفسوق وشرب الخمور ... وربما كان يقتل فى ذلك اليوم جماعة من الناس ولا يوجد ما يمنع من ذلك لا من وال ولا من حاجب .

وكان أهل مصر يستعدون لذلك اليوم فى كل سنة دائما من قديم الزمان ، حتى قيل كان يباع بشبرا فى مدة ثلاثة أيام بألف دينار خمر ، وكان فلاحو شبرا لا يغلقون خراج أطيانهم الا مما يبيعوله على الناس فى يوم عيد الشهيد . وكان أعيان القبط والمباشرين ، وأعيان الناس من المسلمين والأمراء ، يكرون المراكب حتى ما يبقى فى البحر مركب ، ويوقدون فيها الشمع والقناديل فى الليل حتى يسدوا البحر من كثرة المراكب . وكان الناس يعتقدون أن النيل لا يزيد الا بالقاء هذا الأصبع فيه ، فقام الأمير صرغتمش فى ابطال ذلك قياما عظيما ، وأرسل الحجاب والأمير علاء الدين بن الكورانى الوالى الى شبرا ومنع الناس من نصب الخيام على شاطىء البحر ، وأشهر النداء هناك بمنع ذلك ، ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ... وكان ذلك من أجل متفرجات مصر لم يسمع بمثله فى اللهو والقصف والفرجة .

ثم ان الأمير صرغتمش أمر بهدم تلك الكنيسة فهدموها ، وأحضروا ذلك الصندوق الذى فيه أصبع الشهيد الى مابين يدى السلطان الملك الناصر حسن . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر ربيع الأول جلس السلطان فى الميدان الذى تحت القلعة ، وأحضر ذلك الصندوق الذى فيه أصبع الشهيد وأمر بحرقه بحضرة الأمراء ، ورسم بأن يذروا رماد ذلك الأصبع فى بحر النيل ، ففعلوا ذلك . وبطل من يومئذ أمر عيد الشهيد وما كان يحصل فيه من المفاسد العظيمة ، وزاد النيل فى تلك السنة زيادة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وزال من ظن الناس أن النيل لا يزيد الا بالقاء ذلك الأصبع فيه ، وبطلت السيئة فى تلك السنة على يد المقر السيفى صرغتمش رأس نوبة النوب وأتابكى العساكر ، وسطر ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة كما قيل فى المعنى :

للخير أهـل لاتزا ... ل وجوههم تسعى اليه
طوبى لمن جرت الأمو ... ر الصالحات على يديه

سنة ستين وسبعمائة (١٣٥٩ م) :

فيها توفى الأمير تنكزبغا الماردينى أحد الأمراء المقدمين ، وكان صهر الملك الناصر حسن . فلما مات أنعم السلطان باقطاعه على مملوكه يلبغا العمرى الناصرى ، ثم خلع عليه وجعله أمير مجلس ... وهذا كان أول عظمة الأمير يلبغا العمرى .

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفى تسحب حتى خرج من مصر واختفى ولم يعلم له خبر ، فعاقب السلطان جماعته بسبب ذلك ، وحبسهم الى أن ظهر الأمير منجك كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

فلما اختفى الأمير منجك خلع السلطان على الأمير بيدمر الخوارزمى واستقر نائب حلب عوضا عن الأمير منجك . فلما توجه الأمير بيدمر الى حلب جرد الى نحو سيس وحاصر أهلها ، فطلبوا منه الأمان ، فأخذها بالأمان ، وكذلك المصيصة . وفتح فى تلك السنة عدة قلاع ، ثم رجع الى حلب .

وفيها ركب السلطان الملك الناصر حسن ، ومر

بالقاهرة وزينت له . فلما وصل الى البيمارستان نزل عن فرسه ودخل فزار قبر أبيه قلاون ، ثم دخل الى الضعفاء والمجانين وتفقد أحوالهم ، ثم ركب وطلع الى القلعة ، وضج له الناس بالدعاء حتى طلع الى القلعة ، وكان يوما مشهودا .

سنة احدى وستين وسبعمائة (١٣٦٠ م) :

فيها ثقل أمر الأمير صرغتمش على السلطان وخشى منه ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بأن يقبض عليه من قريب ، وقال له : « ان لم تبادر وتقبض عليه ، والا قبض هو عليك » ... فبادر السلطان وقبض عليه ، فكان كما قيل فى المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته
مع التوانى وكان الرأى لو عجلا

فلما كان يوم الاثنين حادى عشرى شهر رمضان من السنة المذكورة قبض السلطان على الأمير صرغتمش وهو فى الموكب بالايوان . فلما سمع مماليك صرغتمش بذلك لبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة — وكانوا نحو ثمانمائة مملوك — ووقفوا فى سوق الخيل ، فوثب عليهم المماليك السلطانية ورموهم بالنشاب ، فتفرقوا وانكسروا .

ثم ان الزعر وجماعة العوام نهبوا بيت صرغتمش ، ونهبوا سط خانقاته التى بالقرب من حدرة الفيل ، ونهبوا جميع قناديلها وحوائج الأعجام الصوفية الذين كانوا بها ، ودكاكين الصليبة ضميمة لذلك ، وصاروا يمسكون حاشية صرغتمش وغلمانه ، وينهبون بيوتهم ... واستمر هذا الأمر من أول النهار الى ما بعد العصر .

فلما كان يوم الثلاثاء صبيحة ذلك اليوم قيدوا الأمير صرغتمش ، وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأمسكوا معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته — وهم الأمير طشتمر القاسمى حاجب الحجاب ، والأمير طقبغا صاووق ، والأمير جركس الرسولى ، وغير ذلك من الأمراء — وأرسلوهم الى الاسكندرية .

ثم ان الأمير صرغتمش أقام فى السجن نحو ثلاثة شهور وأشاعوا فى القاهرة موته . قيل انه خنق وهو فى السجن . وكان أميرا عظيما مهيبا ، وكان فى سعة من المال ، وقد أخذ بغتة من حيث لا يشعر كما قيل فى المعنى :

وان امرأ دنياه أكبر همه
لمستمسك منها بحبل غرور

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير منجك اليوسفى قد أمسك ، فلما حضر بين يدى السلطان كان عليه بشت عسلى وعلى رأسه مئزر صوف أبيض ، فوبخه السلطان بالكلام ، ثم عفا عنه ورسم له بامرة أربعين فى الشام ويكون به طرخانا ، فخلع عليه وخرج الى الشام من يومه وسافر .

سنة اثنتين وستين وسبعمائة (١٣٦١ م) :

فيها تزايدت عظمة السلطان حسن ، وتناهى أمره فى العلو ، وكثرت مماليكه ، فأهدى اليه بعض ملوك اليمن خيمة عظيمة غريبة الشكل ، بها هيئة قاعة وبها حمام ، وهى منقوشة بصنعة غريبة ، فتوجه السلطان الى بر الجيزة ، ونزل بكوم برا ونصب هناك تلك الخيمة المقدم ذكرها ، فكان أهل القاهرة يخرجون ويتوجهون الى نحو كوم برا حتى يتفرجوا على تلك الخيمة ، وفيها يقول ابن أبى حجلة :

حوت خيمة السلطان كل عجيبة
فأمسيت منها باهتا أتعجب
لسانى بالتقصير فيها مقصر
وان كان فى أطنابها بات يطنب

وقال فيها أيضا عفا الله عنه :

اذا ما خيمـــة السـلطان لاحت
فقـــل فى حســنها نظمـا ونثرا
وان رفعت ورمت النصـب منهـا
فصف أطنابهـا وهـــلم جــرا

ثم ان السلطان طابت له الاقامة هناك ، فأقام نحو ثلاثة شهور — وكان زمن الربيع — وكان بالقـاهرة أوخام وموت ، فأقام السـلطان هناك حتى تذهب تلك الأوخام عن المـــدينة ، فكان هناك فى أرغد عيش ، وعنده فى كل ليـلة مغانى عرب وخيال ظل وحراقة نفط ... وهو لا يدرى ما خبىء له فى الغيب من الحوادث ، فكان كما قيل :

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة
وحق لسكان البسـيطة أن يبكوا

فلما أقام السلطان هنـاك هذه المدة ، وكان بعض الأمراء يرمى بين السلطان وبين الأمير يلبغا الفتن ، وكان الأمير يلبغا من مماليك السـلطان حسن ، فحسنوا للسلطان الفتك به ، فدبت بينه وبين السلطان عقارب الفتن . فلمـا كانت ليـلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى وهو فى الخيام ، أحس الأمير يلبغا بذلك فخرج من الخيام ، فلما كبس عليه السلطان لم يجد بالخيام أحدا—وكان الأمير يلبغا قد أكمن للسلطان كمينا — فلما رجع خرج عليه ذلك الكمين فوقع مع السلطان واقعة عظيمة ، فقتل من مماليك السـلطان جمـاعة ، وانكسر السـلطان وغرق عسكره ، فهرب تحت الليل وعدى من طرا ، وطلع الى القلعـة فتبعه الأمير يلبغا .

فلما طلع السلطان الى القلعة لم يجد معه من المماليك الا القليل ، ولم يكن معـه من الأمراء سـوى الأمير ثمان تمر العمرى والأمير أيدمر الدوادار الكبير وبعض مماليك صغار ، فلم يجد السـلطان للماليك خيولا يركبونها لأن الخيول كانت فى الربيع . فلما أسفر النهـار حطم الأمير يلبغا وطلع الى الرميلة وحاصر السلطان وهو فى القلعة . فلما رأى السلطان عين الغلبـة نزل من القلعة — هو والأمير أيدمر الدوادار — ولبسوا زى العرب ، وقصد السلطان بأن يتوجه نحو الشام ليستنجد بالأمير بيدمر الخوارزمى نائب الشام .

فلما نزل السلطان من القلعة ووصل الى المطرية قبض عليه وعلى الأمير أيدمر الدوادار جماعة من العربان وأحضروهما الى الأمير يلبغا . فأما الأمير أيدمر فقيـدوه ، وأرسـلوه الى السـجن بثغر الاسكندرية ، وأما السلطان حسن فـكان آخر العهد به ... قيل انه خنق ورمى فى البحـر ولم يعرف له مكان قبر ، ولم يدفن فى مدرسته داخل القبة التى بها . وكانت قتلته فى ثانى عشر جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة . وكان ملكا شجاعا ، بطلا ، مقداما مهيبا ، نافذ الكلمة ، وافر الحرمة ، عالى الهمة . وكان محبا للرعية ، غير أنه كان كثيرا ما يصادر أرباب الوظائف لأجل المال . وكان له من العمـر لما مات نحو سـبع وعشرين سـنة ، وقد دارت لحيته . وكان عربى الوجه ، أشقر اللحية ، أشهل العينين لأن أمه كانت رومية الجنس . وكان نحيف الجسد ، معتدل القامة ، وكان يميـل الى اللهو والطرب وشرب الراح ، مولعا بحب الملاح ، لا يمـل من شرب الـراح وسماع الغناء ليلا ولا نهارا ، حتى قيل فيه :

لمـا أتى للعـــاديات وزلزلت
حفظ النسـاء وما قرا للواقعة
فلأجل هذا الملك أضحى لم يكن
وأتى القتـال وفصلت بالقـارعة

لسو عامل الرحمن فاز بكهفــه
وبنصره فى عصره للســـــابعة

من كانت الأنعـــام من أحــزابه
عطعط به الدخـان نار لامعـــة

أراد الناظم بقوله « عطعط » الاشارة الى مغن كان اسمه عطعط ، وأشـار بالدخان الى اسم مشبب كانا يغنيـان بالديار المصرية والبــلاد الشامية ...

وكانت مدة سـلطنته عشر سنين ونصـفا . فالسلطنة الأولى ثلاث سنين وتسعة أشهر وأيام ، والسلطنة الثانية ست سنين وتسعة أشهر وأيام .

ولما مات السـلطان حسن خلف من الأولاد عشرة ذكور ، وهم : سيدى أحمد ، وسـيدى على ، وسـيدى قاسم ، وسـيدى اسكندر ، وسـيدى موسى ، وسـيدى يحيى ، وسـيدى شعبان ، وسيدى يوسف ، وسيدى اسماعيل ، وسيدى محمد . وخلف من البنات ستا .

وكان فى أيامه من أولاد الناس ثمـانية أمراء مقدمى ألوف ، وهم : عمر بن أرغون النائب ، واستبغا بن بكتمر الأبوبكرى ، ومحمـــد بن المحسنى ، ومحمد بن آل ملك نائب السـلطنة ، وموسى بن أرقطاى النائب ، ومحمد بن طرغاى ، ومحمد بن بهادر آص ، وموسى بن الأزكشى .

وكان من أولاد السـلطان حسن ثلاثة أمراء مقدمين ، وهم : سيدى أحمد ، وسيدى على ، وسيدى قاسم .

وكان فى أيامه من أولاد الناس أمراء طبلخانات وعشراوات كثير ، وكان منهم نواب فى البـلاد الشـامية : بيـدمر الخوارزمى نائب الشـام ، والعلائى على بن قشتمر نائب حلب ، وابن صبيح نائب صـفد . وكان قصد الملك النـاصر حسن انشاء أولاد الناس فى أيامه .

وهو آخـر من تـولى الملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون . وكان مجموع من تولى من أولاد محمد بن قلاون ثمانية . وكان الناصر حسن كفؤا للسلطنة .

ولما قتل تولى من بعده ابن أخيه المظفر حاجى .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم :

الملك الصالح صلاح الدين صالح ، ابن الملك الناصر محمـــد بن قلاون ، أخو الملك النـاصر حسن . وقد تقدم أنه لما خلع من السلطنة استقر مقيما بدار الحرم الى أن مات فى سـنة احدى وستين وسبعمائة فى دولة أخيه حسن ، ودفن فى تربة عمه الملك الصالح على بن قلاون داخل القبة التى أنشأها بجوار المدرسة الأشرفية التى بطريق السيدة نفيسة .

وتوفى فى أيامه الشيخ بهاء الدين بن عقيل من أعيان العلماء ، وتوفى الحافظ العلامة مغلطاى ، وتوفى الشيخ أبو امامة من أعيان العلماء ، وتوفى ابن النقاش من كبار علماء الشافعية ، وغير ذلك من أعيان العلماء جماعة كثيرة .

وتوفى فى أيامه أيضا الشيخ صفى الدين الحلى صاحب شرح البديعية . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد فى ديوان لطيف كله غرر ومحاسن . ومن لطائف قوله :

من شاء يملك حفظ صحة جسمه
ويفـوز طول حيـاته بدوامهـا

فليجعـلن غـــذاءه من أربـع
لايقبـل التغيير فى أقســامها :

من لحم سـاعته ، وخبز نهـاره
وطعام ليلته ، وقهـوة عامهـا

الملك المنصور محمد

هو الملك المنصور محمد ، ابن الملك المظفر حاجى ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الحادى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد قتل عمه الملك الناصر حسن فى يوم الأربعاء تاسع جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، فتولى الملك وله من العمر أربع وعشرون سنة . وكان القائم فى أمور تدبير مملكته المقر السيفى يلبغا العمرى ، فاستقر به أتابك العساكر . وكانت عظمة الأمير يلبغا فى أيام الملك المنصور ، فخلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى واستقر به نائب السلطنة ، ثم رسم بالافراج عمن كان مسجونا من الأمراء بثغر الاسكندرية — وهم : الأمير طاز الناصرى نائب حلب ، والأمير جركتمر الماردينى ، والأمير قطلوبغا المنصورى ، والأمير طشتمر القاسمى ، والأمير ملكتمر المحمدى ، والأمير أقتمر عبد الغنى ، والأمير بكتمر المؤمنى وهو صاحب سبيل المومنين المصلاة الآن ، والأمير جردمر ، والأمير قرابغا بنخاص — فلما حضروا الى القاهرة وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم وأنعم لهم بتقادم ألوف ، وفرق عليهم الاقطاعات السنية . فلما فعل ذلك وتم أمره فى السلطنة أقام مدة يسيرة وهو نافذ الكلمة وافر العقل ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركنن الى الدنيا وان كبرت
فصفوها لك ممزوج بتكدير

ثم جاءت الأخبار من الشام بأن بيدمر الخوارزمى نائب الشام أظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، وملك قلعة دمشق ، وقتل نائب القلعة ... وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب .

فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وعلق السلطان الجاليش ، وأخذ فى أسباب الخروج الى الشام . فلما كان ثانى شعبان من سنة اثنتين وستين وسبعمائة خرج الملك المنصور محمد من القاهرة قاصدا نحو الشام ، وخرج صحبته الأتابكى يلبغا العمرى وسائر الأمراء ، فلما وصل السلطان الى الشام أرسل له أمانا ، فلما نزل من القلعة وقابل السلطان قبض عليه الأتابكى يلبغا وقيده وأرسله الى الاسكندرية . ثم ان السلطان خلع على الأمير على الماردينى واستقر به نائب الشام عوضا عن بيدمر الخوارزمى ، واستقر بالأمير قطلوبغا الأحمدى نائب حلب ، ثم رجع السلطان والأتابكى يلبغا الى القاهرة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت له المدينة ، وطلع الى القلعة فى موكب عظيم .

سنة ثلاث وستين وسبعمائة (١٣٦٢ م) :

فيها توفى الامام الخليفة المعتضد بالله أبو بكر ابن المستكفى بالله ، وكانت وفاته فى ليلة الأربعاء ثامن عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . وكانت مدة خلافته نحو عشر سنين . ولما مات عهد بالخلافة الى ولده محمد ، فولاه السلطان وتلقب بالمتوكل على الله .

وفيها تزوج الأتابكى يلبغا بخوند طولو — زوجة أستاذه الملك الناصر حسن — وما كفاه أنه قتله ، بل تزوج بامرأته زيادة على ذلك .

سنة اربع وستين وسبعمائة (١٣٦٣ م) :

فيها توفى سيدى حسين ابن الملك الناصر محمد ابن قلاون . وهو والد الملك الأشرف شعبان ،

وهو آخر من توفى من أولاد الملك الناصر محمد ابن قلاون . مات ولم يل السلطنة ، فانه كان عنده خفة ووهج وصعصعة . فلما قتل السلطان حسن لم يوافق الأتابكى يلبغا على سلطنته ، واختار محمد ابن الملك المظفر حاجى فولاه كما تقدم . وكانت وفاته يوم السبت رابع ربيع الآخر من السنة المذكورة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الثلاثاء رابع شعبان طلع الأتابكى يلبغا الى القلعة وقبض على السلطان الملك المنصور محمد ، وخلعه من السلطنة ، وأدخله دور الحرم متحفظا به ، وولى سيدى شعبان ابن سيدى حسين المقدم ذكر وفاته ، فكانت مدة سلطنة الملك المنصور محمد ابن الملك المظفر حاجى بالديار المصرية سنتين وأربعة أشهر لاغير .

واستمر فى دور الحرم مقيما فى غبوق وصبوح لايفيق من السكر ساعة ، وعنده جوقة جوارى مغنيات نحو عشر من الجوارى يدفون بالطارات عند الصباح والمساء ، وكانت هذه عادة رؤساء مصر تغنى عندهم الجوارى المغنيات ، وآخر من كان يفعل ذلك من أعيان مصر الأمير جمال الدين محمود الاستادار ، ثم بطل ذلك مع جملة ما بطل من محاسن عيشة الأكابر بالديار المصرية .

ثم ان الملك المنصور أقام على ذلك وهو مختف فى دور الحرم الى أن مات فى ليلة السبت تاسع المحرم سنة احدى وثمانمائة فى دولة الظاهر برقوق ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين سنة [1] ، ودفن فى تربة جدته أم أبيه خوند طغلى عند الباب المحروق ، وخلف من الأولاد نحو خمسة ذكور واناث ، واستمرت هذه الجوقة المغنيات بعده دائرة فى القاهرة يعرفن بمغانى المنصور .

(1) لا يستقيم هذا مع قول المؤلف ان عمره كان اربعا وعشرين سنة عندعسليتيه عام ٧٦٤ هـ .

وكان الملك المنصور هذا لما خلع من السلطنة قنع من الدنيا بأرغد العيش من شرب الخمور وسماع الزمور ، وكان راضيا بما فيه من ذلك ، واستغنى بذلك عن السلطنة كما قيل فى المعنى :

كل الملوك تسلطنوا ... بالملك والسلاح
وأنا قنعت منه ... بالراح والملاح

الملك الأشرف أبو المعالى

هو الملك الأشرف ، أبو المعالى زين الدين شعبان ، ابن الأمجد مجد الدين حسين ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو الثانى والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة فى يوم الثلاثاء خامس شهر شعبان سنة أربع وستين وسبعمائة ، وتلقب بالملك الأشرف ، ولبس خلعة السلطنة ، وجلس على سرير الملك ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء .

وكان له من العمر لما تسلطن نحو اثنتى عشرة سنة ، وكان مولده فى سنة أربع وخمسين وسبعمائة ، وكان الأشرف شعبان مليح الشكل بديع الجمال ، تولى الملك بعد خلع ابن عمه محمد المنصور بن المظفر حاجى . وقد تعصب لسلطنته الأتابكى يلبغا العمرى ، وفيه يقول بعض الشعراء :

بالملك الأشرف المفدى
شعبان فزنا بكل فضل
من وطن الكون والرعايا
بطى ظلم ونشر عدل

وفيه يقول خلف الغبارى من زجل :

حب قلبى شعبان موفق رشيد
وجمالو أشرق ، ومالو حدود
وأبوه الحسن ، وعمه الحسن
وارث الملك من جدود الجدود

سل لحظك صارم لقتل العدا
وانت منصور طول المدى والسنين

زعق السعد بين يديك شاويش
فرح القلب بعد ما كان حزين

ونصب لك كرسى على الملكه
وظهر لك نصره بفتحو المبين

والعصايب من حولك اشتالت
خفقت فى الركوب عليك البنود

فاحكم احكم فى مصرنا سلطان
فجميع الملاح لحسنك جنود

فلما تم أمر الأشرف شعبان فى السلطنة آقر الأتابكى يبلغا أميرا كبيرا على عادته ، واستقر بالأمير قشتمر المنصورى فى نيابة السلطنة على عادته كما كان ، ثم عمل الموكب وجلس على سرير الملك وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى طنبغا الطويل ، واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار جد والد مؤلفه ، واستقر بالأمير أزدمر المذكور نائب طرابلس ، وخلع على الأمير عشقتمر الماردينى ، واستقر به أمير مجلس على عادته . وخلع على الأمير أرغون الشهير بالأسعردى ، واستقر به دوادارا كبيرا . وخلع على الأمير أرغون الأرقى ، واستقر به رأس نوبة النوب . وخلع على الأمير طيبغا العلائى ، واستقر به حاجب الحجاب .

ثم عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر من الأمراء — وهم أرباب الوظائف — وهم : المقر السيفى منكلى بغا الشمسى ، واستقر به نائب الشام . وأرسل المراسيم الشريفة الى قطلوبغا الأحمدى بأن يكون نائب حلب على عادته . ثم خلع على الأمير قشتمر المنصورى ، واستقر به نائب صفد . وخلع على الأمير عمر شاه — وهو صاحب القنطرة — واستقر به نائب حماه . وخلع على الأمير عمر بن أرغون النائب ، واستقر به نائب غزة . ثم فرق الاقطاعات على جماعة من المماليك وجعل منهم أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات ، ثم أنفق على العسكر وأرضى الجند بكل ما يمكن ، فاستقام أمره فى السلطنة ونفذت أحكامه .

سنة خمس وستين وسبعمائة (١٣٦٤ م) :

فيها أرسل السلطان بالقبض على قطلوبغا الأحمدى نائب حلب . وخلع على الأمير طشقتمر الماردينى ، واستقر به نائب حلب عوضا عن قطلوبغا الأحمدى . ثم خلع على الأمير خليل ابن قوصون ، واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير طشقتمر الماردينى .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من دمشق بأن نائب دمشق منكلى بغا الشمسى فتح باب كيسان الذى بدمشق ، وكان هذا الباب مقفلا من أيام نور الدين فاقتضى الرأى فتح الباب بسبب من يمر من المسافرين ، فجمع النائب القضاة الأربعة وأعيان دمشق واستشارهم فى ذلك فأشاروا بفتحه ففتح . ثم ان النائب بنى القنطرة عند هذا الباب فحصل بها منفعة للمسافرين وغيرهم .

وفى هذه السنة رسم السلطان بابطال الوكلاء من أبواب القضاة والحكام بالديار المصرية والبلاد الشامية ، فامتثلوا ذلك . وقد قال بدر الدين بن حبيب :

يقول ذا الحق الذى قاله
خصم ألد ولسان كليل

ان صيروا أمر وكيلى سدى
فحسبى الله ونعم الوكيل

سنة ست وستين وسبعمائة (١٣٦٤/٦٥ م) :

فيها توفى الملك الصالح ابن الملك المنصور غازى صاحب ماردين . وكان ملكا عظيما جليلا عادلا فى الرعية . وقد أقام فى مملكة ماردين نحو أربع وخمسين سنة ، وعاش من العمر احدى وسبعين سنة . فلما جاءت الأخبار بذلك تأسف السلطان لموته .

وفيها توفى نور الدين الأسعردى الشاعر . وكان شاعرا ماهرا ، وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

دب العذار بخدّه ثم انثنى
فكأنه من وجنتيه مُروَّعُ

نمل يحاول نقل حبة خاله
فتمسه نار الخدود فيرجع

وفى هذه السنة — فى ربيع الآخر — أسلم أبو الفرج المقسى القبطى ، وتلقب بشمس الدين ، وقرر فى استيفاء المماليك ، وهو من أجداد تاج الدين المقسى ناظر الخواص الشريفة .

سنة سبع وستين وسبعمائة (١٣٦٥/٦٦ م) :

فيها رسم السلطان لنائب حلب بأن يأخذ العساكر الحلبية ويتوجه الى حصار قلعة خرت برت من أعمال ديار بكر ، فسار اليها وحاصرها نحوا من أربعة أشهر ، فطلب أهلها الأمان ونزلوا طائعين ، فأرسل نائب حلب يعلم السلطان بذلك ، فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يستقر بنيابة قلعة خرت برت على عادته ويحلفه أيمانا عظيما بأنه لا يرجع يخامر ولا يعصى السلطان .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من ثغر اسكندرية بأن صاحب قبرص قد وصل الى ثغر الاسكندرية فى سبعين مركبا من المراكب الحربية مشحونة بالمقاتلين ، فطرقوا المدينة يوم الجمعة ثالث عشرى صفر ، فخرج اليهم نائب الاسكندرية وجماعة من أهل البحيرة فوقعوا معهم واقعة عظيمة ظاهر باب البحر ، فانكسر نائب الاسكندرية وهرب وهرب العربان الذين كانوا معه ، فدخل الفرنج الى المدينة ، ونهبوا أسواقها وبيوتها ، وقتلوا جماعة كثيرة من المسلمين ، وحرقوا باب رشيد .

فلما جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة كان السلطان ، هو والأتابكى يلبغا ، فى وادى العباسة يتصيدون ، فلما بلغتهم هذه الأخبار رجعوا الى القاهرة ونودى فى العسكر قاطبة بأن السلطان يصلى الظهر ويركب فلا يتأخر أحد من المماليك السلطانية . فلما صلى السلطان الظهر ركب وعدى الى بر الجيزة — وكان النيل فى قوة الزيادة — فقاسى العسكر مشقة زائدة فى التعدية .

ثم ان السلطان سار الى الطرانة ونزل هناك ، وعين الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح ، والأمير خليل بن قوصون أمير مجلس ، والأمير قطلوبغا المنصورى والأمير كوكنداى أخا طنبغا الطويل ، وعين معهم ألف مملوك ، ورسم بأن يتقدموا جاليش العسكر ... فلما وصلوا الى ثغر الاسكندرية وجدوا الفرنج رحلوا من الثغر وتوجهوا نحو بلادهم بعد ماجرى منهم ماجرى من القتل والنهب وغير ذلك .

فلما بلغ السلطان رجوع الفرنج الى بلادهم رجع الى القاهرة هو والأمراء ، وأرسل مرسوما الى الأمراء الذين تقدموا الى الاسكندرية بأن يقيموا هناك ، ويعمروا ما فسد من المدينة ويطمنوا أهل البلد حتى لا يرجع اليهم الفرنج .

ثم ان السلطان خلع على الأمير بكتمر الشريف — أحد مقدمى الألوف — وجعله نائب ثغر الاسكندرية . وهو أول من تولى نيابة ثغر

الاسكندرية من الأمراء المقدمين ، وكان قبل ذلك يتولاها جماعة من الكشاف ومن أولاد الناس ... فظهرت من يومئذ حرمة ثغر الاسكندرية ، وزال عنها أولئك النواب الأصاغر ، فخرج اليها الأمير بكتمر الشريفى فى برك عظيم ، ومماليك كثيرة ، وحرمة وافرة . وقد قال بعض الشعراء فى النائب المنفصل على لسان حال الاسكندرية هذين البيتين :

اسكندرية قالت يانائبى صن دماكا
لقد تغير ثغرى واحتجت فيه سواكا

وقال الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى حجلة يرثى ثغر الاسكندرية فيما جرى عليه من الفرنج فى هذه الواقعة :

ألا فى سبيل الله ما حل بالثغر
على فرقة الاسلام من عصبة الكفر

أتاها من الافرنج سبعون مركبا
وضاقت بها العربان فى البر والبحر

وصير منها أزرق البحر أسودا
بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر

أتوا نحوها هجما على حين غفلة
وباعهم فى الحرب يقصر عن فتر

فكم من فقير عاش فيها من الغنى
وكم من غنى مات فيها من الفقر

نثرت دموعى يوم فرط نظامهم
فياليت شعرى من يبلغهم نثرى

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح خرج نحو وادى العباسة على سبيل التنزه ، فأقام هناك أياما يتصيد ، فأرسل اليه الأتابكى يلبغا خلعة مع جماعة من الأمراء ومرسوما سلطانيا بأن يستقر نائب الشام ويتوجه من هناك . فلما أوصل اليه ذلك الأمراء — وهم الأمير أرغون الأسعردى الدوادار ، والأمير طيبغا العلائى حاجب الحجاب ، والأمير أرغون الأرقى رأس نوبة النوب ، والأمير أروس المحمودى استادار العالية — تحدثوا معه فى أمر نيابة الشام ، فأبى الأمير طنبغا الطويل لبس الخلعة وأظهر العصيان ، والتف عليه أولئك الأمراء الذين توجهوا اليه ، ووافقوه على العصيان ، وتوجهوا الى القاهرة ليتفقوا مع الأتابكى يلبغا . فلما وصلوا الى خانقاه سرياقوس ، بلغ الأتابكى يلبغا ذلك فطلع الى القلعة ، وأركب الملك الأشرف شعبان ونزل به من القلعة ، ووقفوا تحت القلعة ودقت الكئوسات حربيا ، ونادوا فى القاهرة : « من أطاع الله والسلطان يركب ويجىء تحت الصنجق السلطانى » ... فركب العسكر قاطبة وطلعوا الى الرميلة ، فوقف السلطان ساعة حتى تكامل العسكر ، ومشى تحت الصنجق السلطانى وتوجه الى نحو قبة النصر فوقف هناك ، وذلك فى يوم السبت سابع ربيع الأول من السنة المذكورة .

هذا ما كان من أمر السلطان والأتابكى يلبغا .

وأما ما كان من أمر الأمير طنبغا الطويل أمير سلاح والأمراء الذين معه ، فانهم ركبوا من العباسة واستمروا سائقين طول الليل حتى وصلوا الى المطرية ... فتعبت خيولهم ، وتشتتت غلمانهم ، فتلاقوا مع عسكر السلطان على قبة النصر ، وكان بينهما هناك واقعة عظيمة ، فانكسر الأتابكى يلبغا وولى مدبرا . وكان الأتابكى يلبغا قد أكمن كمينا من العسكر عند فم وادى السدرة . فلما ولى الأمير يلبغا مهزوما خرج ذلك الكمين من وادى السدرة على الأمير طنبغا الطويل ومن معه فانكسروا كسرة عظيمة ، وقبض على الأمير أرغون الأسعردى الدوادار والأمير أروس المحمودى الاستادار ، والأمير كوكندى أخى طنبغا الطويل ،

وجماعة كثيرة ممن كانوا معهم من الأمراء . ثم قبض على الأمير طنبغا فى أثناء ذلك اليوم من تربة فى باب القرافة . فلما تكامل الأمراء قيدهم الأتابكى يلبغا فى تلك الليلة وأرسلهم تحت الليل الى السجن بثغر مدينة الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على جماعة كثيرة من الأمراء عوضا عمن قبض عليهم ممن تقدم ذكرهم كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

وفيها توفى الملك المجاهد سيف على صاحب بلاد اليمن ، وتولى من بعده ابنه عباس وتلقب بالملك الأفضل .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة الأمير جبار بن مهنا أمير آل فضل من عربان الشام ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه واستقر به على عادته ... وكان له مدة طويلة وهو عاص فلم يؤاخذه السلطان وحلم عليه .

سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٣٦٦/٦٧ م) :

فيها فرق السلطان اقطاعات الأمراء الذين كانوا قد ركبوا مع الأمير طنبغا الطويل فنفاهم وأخرج اقطاعاتهم على الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

وفيها أرسل المقر السيفى منكلى بغا نائب الشام يسأل السلطان فى الحضور الى مصر زائرا ليرى وجه السلطان . فلما حضر الى القاهرة أحضر صحبته تقادم كثيرة للسلطان حتى للأمراء والأتابكى يلبغا ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام ، وخلع عليه واستقر به نائب حلب ، وجعل حلب أكبر من الشام كما كانت على القاعدة القديمة ، وعين معه عسكرا يقيمون بحلب عنده .

ثم ان السلطان خلع على الأمير أقتمر عبد الغنى واستقر به نائب الشام عوضا عن منكلى بغا .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأتابكى يلبغا رسم بعمارة مراكب أغربة بسبب تجريدة تتوجه الى بلاد الفرنج ، فان جماعة من الفرنج صاروا يعبثون فى البحر ويقطعون الطريق على التجار ، فعين لهم السلطان تجريدة ، وأنشأ مائة غراب ، ورسم للأمير طنبغا العلائى بأن يكون شادا على عمارة هذه الأغربة ، فأنشأ عمارتها فى الجزيرة الوسطانية ، فلما كملت عمارتها نزل السلطان والأتابكى يلبغا الى الجزيرة الوسطى يتفرجان على القائها فى البحر ، فكان يوم نزول السلطان يوما مشهودا . فألقوا الأغربة قدامه فى البحر والطبل عمال والنفط ، وزينت الأغربة بالصناجق والسلاح ، ولعبوا بها فى البحر ذهابا وايابا والسلطان ينظر الى ذلك .

فلما انقضى ذلك اليوم عدى السلطان من هناك الى بر الجيزة وصحبته الأتابكى يلبغا ، فتوجه الى نحو الطرانة فأقام بها أياما وهو فى أرغد عيش . فبينما هو على ذلك اذ وثب مماليك الأتابكى يلبغا عليه هناك .

وسبب ذلك أن الأتابكى يلبغا ضرب بعض مماليكه هناك بالمقارع وقطع أنفه ، فتعصب عليه جماعة من خشداشينه ووثبوا على أستاذهم .

فلما كانت ليلة الأربعاء سادس ربيع الآخر من سنة ثمان وستين وسبعمائة ، ركب مماليك يلبغا وكبسوا عليه وهو فى الخيام ، فهرب تحت الليل وهو فى زى فلاح ، فعدى من بولاق التكرور وطلع الى الجزيرة الوسطى ، ثم توجه الى بيته الذى فى الكبش . فلما طلع النهار طلب الأمراء الذين كانوا بالقاهرة ، ولبسوا آلة الحرب ، وتوجه الى الجزيرة ونادى أن لا أحد من النواتية يعدى

بأحد من المماليك الى بر مصر ، ومنع المراكب من التعدية ، وجعل الأمراء الذين معه كل واحد فى مكان ... فأقام جماعة منهم فى بولاق ، وجماعة فى مصر العتيقة ، وجماعة فى دير الطين . وكان معه من الأمراء الأمير طنبغا العلائى حاجب الحجاب ، وكان معه استاداره والأمير أينبك البدرى وكان أمير آخوره ، والأمير أقبغا جركس وكان دواداره . واجتمع عنده جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والمماليك السلطانية .

هذا ما كان من الأتابكى يلبغا .

وأما ما كان من أمر مماليك يلبغا فانهم لما علموا بهروب أستاذهم جاءوا الى السلطان الملك الأشرف شعبان وقالوا له : « قم واركب معنا » ... فأبى السلطان ذلك . فقالوا له : « ان لم تركب معنا والا نقتلك » ... فقام وركب معهم ، وجاء الى بر انبابة فلم يجد مركبا يعدى فيه ، فأقام فى بر انبابة يوم الأربعاء ويوم الخميس .

ثم ان الأتابكى يلبغا طلع الى القلعة ، وطلب سيدى أنوك — أخا السلطان الأشرف شعبان — وأخرجه من دور الحرم بالغصب ، وأجلسه على سرير الملك ، وقبلوا الأرض أمامه ولقبوه بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى القاهرة .

فلما كان الجمعة ركب الأتابكى يلبغا وركب سيدى أنوك الذى تسلطن معه ، وجمع العسكر ... فصار الملك الأشرف شعبان فى بر انبابه والأتابكى يلبغا فى الجزيرة الوسطى وهما يتراميان بالنشاب والمكاحل النفط حتى حال بينهما الليل .

ثم ان الملك الأشرف شعبان طلب شخصا من النواتية يسمى محمد لبطه — وكان رئيسا على المراكب فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاون — فقال له السلطان : « قصدى أن تعدينى الى ذلك البر » فقال له : « نعم أنا عدى بك » . ثم انه أحضر ثلاثين غرابا من الأغربة التى كانت عمرت بسبب التجريدة ، فكسروا بروقها وعمروها بالمقاديف ، وعدى بالسلطان والعسكر من الوراق وهم راكبون خيولهم ، فطلعوا من جزيرة الفيل ، وذلك فى يوم السبت .

فلما طلع السلطان من جزيرة الفيل ، توجه على خليج الزعفران وخرج من بين الترب وطلع الى القلعة ، فتسامعت به الناس والعسكر ، فصاروا يتسحبون من عند الأتابكى يلبغا ويطلعون الى السلطان فى القلعة ، فلم يبق عند الأتابكى الا القليل من العسكر ، فرجع الأتابكى يلبغا من الجزيرة ، وطلع الى الرميلة بمن بقى معه من العسكر ، فوقف بسوق الخيل ساعة فلم يجىء اليه أحد من العسكر ، فتلاشى أمره وولى سعده وبدا عكسه .

فلما رأى ادبار نفسه نزل عن فرسه وصلى ركعتين فى وسط الرميلة قدام باب الميدان ، ثم حل سيفه وأعطاه للأمير طنبغا حاجب الحجاب ، ثم ركب فرسه وتوجه الى بيته الذى فى الكبش ، فرجمه العوام وسبوه سبا فاحشا لأنه كان يبغض العوام ويسلط مماليكه عليهم ، فما وصل الى بيته الا بعد جهد كبير ، فأقام فى بيته ذلك اليوم ، وأرسل اليه السلطان بعض الأمراء وقت المغرب فأخذه وطلع به الى القلعة هو والأمير طنبغا ، فسجنوه بها الى ما بعد العصر ، فهجمت مماليك يلبغا عليه ، وأخرجوه من السجن ونزلوا به من باب المدرج وهو ماش مشحطط بينهم . فلما وصلوا به الى رأس الصوة عند الحوض تقدم اليه مملوك من مماليكه يقال له قراتمر وضربه بالسيف فرمى رأسه عن جثته ، وأخذ بقية مماليكه الرأس

ووضعوها فى مشعل ، ونزلوا بها من الصليبة ، وتوجهوا بها الى بيته الذى فى الكبش .

فلما طلع النهار أحضروا الرأس بين يدى السلطان — وكان الأتابكى يلبغا له خلف أذنه سلعة — فلما رأوا ذلك لم يشكوا فى قتله ، ثم صار جسده مرميا فى الصوة على الأرض والناس ينظرون اليه ، حتى أخـذ رأسه وجثته الأمير طشتمر الدوادار ودفنه فى تربة عند الباب المحروق ومضى أمره ، فكانت قتلته فى ليلة الأحد تاسع ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة ، وفيه قال بعض الشعراء :

أتاك على يديك المـوت لما
ظهرت بما نهـاك الشرع عنه
فلا تعتب سواك على الذى قد
بليت به فدود الخـل منـه

وقال آخر :

بدا شـقا يلبغـا وعدت
عـداه فى سـفنه اليـه
والكبش لم يفده وأضحت
تنوح غـربانه عليــه

وقال آخر :

حواشى يلبغـا كانوا زناة
فلا تعجب اذا رجموا جهارا
ولا عجب اذا سكروا بحرب
فأهل الكبش مابرحوا سكارى

وكان الأتابكى يلبغا أميرا عظيما جليل القدر ، فى سعة من المال ، وافر الحرمة ، نافذ الكلمة . وكان فى دولة الملك الأشرف شعبان صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، والسلطان معه مثل اللولب يديره كيف شاء . وقد تزايدت عظمته فى تلك الأيام حتى بلغت مماليكه مايزيد عن ثلاثة آلاف مملوك . وكان من مماليكه أربعة مقدمو ألوف غير العشراوات . وكان راتب سماطه ضريبة كل صحن عشرة أرطال لحم ضانى ، فيقال صحن يلبغاوى ، واليه تنسب الطرز العراض اليلبغاوية الى الآن ، وأشياء كثيرة منسـوبة اليه فى آلة الحرب الى الآن ... لكنه كان سيىء الخلق ، سفاكا للدماء ، قتل جماعة كثيرة من الأمراء ومن مماليكه من غير ذنب ، ولا سيما قتله لأستاذه السلطان حسن . وقيل انه غضب يوما على « مثقال » مقدم المماليك فضربه ستمائة عصا وسط القصر الكبير . وكان من سيئاته جور مماليكه على الناس بالأذى ، لكنه رأى فى مبتدأ أمره من العز والعظمة ونفاذ الكلمة ما لا يراه غيره من الأمراء قبله ولا بعده ، وكان كما قيل :

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما
وأنت ناه لهـذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستجلى أوائله
لكنـه ربمـا مجت أواخره

قيل كان الأتابكى يلبغا اذا طلع الى القلعة تركب مماليكه ويصطفون من بيته الذى فى الكبش الى باب المدرج ويشق هو بينهم حتى يطلع الى القلعة ، وكانت مماليكه نحو ثلاثة آلاف مملوك . وقيل ان الوزير « قروينه » كان يحمل الى يلبغا فى كل يوم ألف دينار برسم سماطه .

ولما قتل يلبغا اضطربت أحوال القاهرة ، فطلع الأمراء الى القلعة وقبضوا على الأمراء ممن كان من عصبة الأتابكى يلبغا — وهم الأمير قرابغـا البدرى ، والأمير يعقوب شاه ، والأمير طيبغا العلائى حاجب الحجاب ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات — فقيدوهم وأرسلوهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى أستدمر الناصرى

واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا العمرى ، وخلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن طيبغا العلائى ، وخلع على المقر السيفى أيدمر الشامى واستقر به دوادارا كبيرا وأضاف اليه نظر الأحباس مع الدوادارية ، فكان أول من تكلم فى نظر الأحباس من الدوادارية.

وفيها قبض السلطان على الصاحب فخر الدين ابن قروينه وسلمه الى الأمير قرابغا الصرغتمشى ، فلا زال يعاقبه حتى مات تحت الضرب . قيل انه أحرق أصابعه بالنار وأحمى له خوذة فى النـار وألبسها له حتى مات .

ولما كان يوم الخميس سادس عشر رجب من سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٣٦٦/٦٧ م) ، ثارت فتنة بين الأمراء فلبسوا آلة الحـرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك السلطانية والتقوا معهم فكسروهم ومسكوا منهم جماعة من الأمراء ، منهم الأمير قرابغا الصرغتمشى ، والأمير برمش العلائى ، والأمير أينبك البدرى ، والأمير ايسان الرجبى ، والأمير قرابغا العزى ، والأمير مقبل الرومى . فلما قبضوا عليهم طلعوا بهم الى القلعة فرسم السلطان بتقييدهم وارسـالهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

فلما جرى ذلك عز على بقية الأمراء فركبوا أجمعين ، وثارت فتنة عظيمة ، ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل السلطان الى الحراقة ، ودقت الكئوسات حربيا ، وأرسل السلطان يقول للامراء : « ايش سبب هذه الفتنة ؟ » فقالوا : « سلمونا الأمير أستدمر أمير كبير » ... وكان أستدمر هذا لما قتل يلبغا استقر عوضه أميرا كبيرا وسكن فى بيته الذى فى الكبش ، والتف عليـه جماعة من مماليك يلبغا ، ومشى على نظـام يلبغا فى الحرمة والشهامة .

فلما أرسل الأمراء الذين قد ركبوا يقولون للسلطان : « أنت أستاذنا ، وما نموت الا تحت أقدامك . ولكن سلموا لنا أستدمر ، فانه هو الذى يرمى الفتن بيننا وبين السلطان » ... فلما سمع الأمير ذلك نزل هو وجماعة من الأمراء الذين كانوا فى القلعة عند السلطان والمماليك السلطانية من باب الدرفيل ، وجاءوا من وراء القلعة ، وطلعوا من رأس الصوة ، فلم يشعر الأمراء الذين فى سوق الخيل الا وقد دهاهم الأتابكى أستدمر هو ومن معه من العسكر ، واجتمع معه الجم الغفير من الزعر والعوام ، وبأيديهم المقاليع بالحجارة . فلما رأى الأمراء الذين فى سوق الخيل ذلك هربوا أجمعين ولم يثبت منهم أحد ، ودخـل فى قلوبهم الرعب فانهزموا من سوق الخيل ، ولم يثبت من الأمراء غير الأمير الجاى اليوسفى والأمير أرغون شاه تتر ، فوقعوا مع الأتابكى أستدمر ومن معه من مماليك يلبغا واقعة عظيمة كانت من أول النهار الى ما بعد الظهر ، فلم يطلع اليهم أحـــد من الأمراء ، ولا ساعدهم . فانكسر الأمير الجاى ، والأمير أرغون شاه تتر وهربا ، وانتصر عليهم الأتابكى أستدمر ومن معه من مماليك يلبغا .

ثم ان الأتابكى أستدمر كبس على الأمراء الذين انكسروا وقبض عليهم من بيوتهم — وهم : الأمير جركس أمير سـلاح ، والأمير أيدمر الشـامى الدوادار ، والأمـير الجاى اليوسـفى ، والأمير قطلوبغا ، والأمير أرغون شاه تتر ، والأمير طيغتمر النظامى ، والأمير قجماس الطازى ، والأمير أقطاى اليلبغاوى ، والأمير اقبغا الأحمدى ، وغير ذلك جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات — فقيد الأمراء المقدمين وأرسلهم الى السـجن بثغر الاسـكندرية ... فكان عدة من قبض عليـه من الأمراء المقدمين فى هذه الحركة ثمانية أمراء ، ومن

الأمراء الطبلخانات وغير ذلك من العشروات نحو أحد عشر أميرا .

ثم ان بعض الأمراء قال للأتابكي أستدمر : « اقبض على السلطان وتسلطن أنت » ... فأبى من ذلك وأبقى السلطان على حاله . فلما راقت مدة الفتنة عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى ، والطنبغا المنجكى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى والطنبغا اليلبغاوى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى بيرم الغزى قطقطاى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن أيدمر الشامى ، وخلع على المقر السيفى سلطان شاه واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير قطلقتمر العلائى واستقر به أمير جاندار .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى أزدمر العمرى الناصرى الشهير بالخازندار — وهو جد مؤلفه كما تقدم — وكان السلطان نقله من نيابة طرابلس الى نيابة حلب ثم أرسل خلفه ، فلما حضر الى القاهرة خلع عليه واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير قطلوبغا جركس . وكان الأمير أزدمر هذا تولى أمير سلاح أيضا فى دولة الملك الناصر حسن فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة بعد قتلة الأتابكى شيخو العمرى . وكان شيخو وأزدمر خشداشين من فرد تاجر . فلما كانت دولة الملك الأشرف شعبان أحضر الأمير أزدمر وأعاده كما كان . ثم ان السلطان أنعم على جماعة حاشيته بأمريات طبلخانات وأمريات عشراوات ، واستقام أمر السلطان فى هذه الحركة وزال عنه جماعة من الأمراء المتمردين الذين كان يخشى هو منهم .

وفى هذه السنة — وهى سنة ثمان وستين وسبعمائة — كانت وفاة العلامة الشيخ جمال الدين محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن حسن بن صالح بن على بن نباتة الفارقى المصرى الجدامى تغمده الله برحمته . وكان من فحول المولدين وله شعر جيد فاق به على من تقدمه من الشعراء . وكان مولده فى سنة ست وثمانين وستمائة . وكان منشؤه بمنشية المهرانى بزقاق القناديل ، وكانت مدة حياته اثنتين وثمانين سنة ، وتوفى فى سنة ثمان وستين وسبعمائة كما تقدم . ومما وقع للشيخ جمال الدين هذا أنه كان يخترع المعنى الغريب فى شعره الذى لم يسبق اليه ، فيعارضه فيه صلاح الدين الصفدى ويأخذه عنه وزنا وقافية وينسبه الى نفسه ، كما قيل فى المعنى :

وفتى يقول الشعر الا أنه
فيما علمنا يسرق المسروقا

قال الشيخ جمال الدين : « فلما طال على الأمر فى ذلك ، جمعت كتابا فيما قلته وسرقه منى ونسبه الى نفسه ، وسميت هذا الكتاب « خبز الشعير » ، لأنه مأكول مذموم ... فمن جملة ذلك انى قلت فى هذا المعنى :

بروحى عاطر الأنفاس ألمى
ملى الحسن حالى الوجنتين
له خالان فى دينار خد
تباع له القلوب بحبتين

فأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدى وقال :

بروحى خده المحمر أضحت
عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديما
فنقطه بدينار وحبة

قال الشيخ جمال الدين : « فلما وقفت على هذا المعنى قلت : لا اله الا الله ... سرق الشيخ صلاح الدين الصفدى — كما يقال — من الحبتين حبة » .

سنة تسع وستين وسبعمائة (٦٨/١٣٦٧ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن الفرنج جاءوا الى قلعة اياس وحاصروها ، فخرج اليهم الأمير منكلى بغا الشمسى نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس ، وكانوا ثلاثة ملوك — وهم : صاحب قبرص ، وصاحب رودس ، وصاحب الاستبار — فجاءوا فى مائتى مركب حربية ، فلما جاءوا الى طرابلس كان النائب غائبا عن المدينة ، فطمع الفرنج فى أخذ المدينة . ثم خرج اليهم بعض عسكر طرابلس ، فوقعوا معهم ، فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج الى المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة مسلمين نحو ألفى انسان . فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاءوا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم ، فانكسرت ملوك الافرنج كسرة قوية ، ورحلوا عن ساحل طرابلس .

فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما جرى ، اضطرب السلطان من ذلك والأمراء ، وقصدوا أن يعينوا لهم تجريدة ... وكان فى تلك السنة بالقاهرة فناء عظيم حتى كان يخرج من أبواب القاهرة فى كل يوم اثنا عشر ألف جنازة ، وكان أكثر عمله فى الأطفال والغرباء . وقد قيل فى المعنى :

وما الدهر أهل أن نؤمل عنده
حياة ، وأن نشتاق فيه الى النسل

وقال آخر :

نحن بنو الموت فما بالنا
نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا
على زمان هن من كسبه

سنة سبعين وسبعمائة (٦٩/١٣٦٨ م) :

فى يوم الجمعة سادس صفر ، بعد صلاة الجمعة ، ركب جماعة من مماليك يلبغا ودخلوا الى بيت الأتابكى ، فقال لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فقالوا : « قصدنا نمسك خمسة من الأمراء ، وهم الأمير أزدمر أمير سلاح المعروف بالخازندار ، والأمير بيرم العزى الدوادار ، والأمير جركتمر المنجكى أمير مجلس ، والأمير ينبغا القوصونى أمير أخور كبير ، والأمير كبك الصرغتمشى الجوكندار » ... فركب معهم الأتابكى أستدمر ومسك هؤلاء الأمراء من بيوتهم .

فأما الأمير أزدمر أمير سلاح فانه قيد وأرسل الى قلعة الصبيبة فسجن بها . وأما بقية الأمراء فقيدوا وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان الأتابكى أستدمر الناصرى قصد القبض على السلطان ، فتعصب له جماعة من الأمراء ، فطلعوا الى القلعة ، ونزل السلطان الى الأسطبل ، وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربيا ، فطلع اليه غالب العسكر ، فاجتمع تحته فى الرميلة الجم الغفير من الزعر والعوام وبأيديهم المقاليع والحجارة ... وكل هذا بغض فى المماليك الذين قد التفوا على الأتابكى أستدمر ، وكانو مماليك يلبغا ، وقد جاروا على الناس وصاروا يهجمون على النساء فى الحمامات ، ويخطفون قماش الناس من الأسواق ، فتغيرت منهم القلوب وأبغضهم الناس قاطبة .

فلما ركب الأتابكى أستدمر ومماليك يلبغا ، توجهوا من وراء القلعة كما فعلوا تلك المرة . فلما زحفوا وأقبلوا من عند الصوة لاقتهم الزعر والعوام بالحجارة والمقاليع ، فألقى الله تعالى الرعب فى قلوب المماليك ومن كان معهم من الأمراء ، فانكسر مماليك يلبغا أنحس كسرة ، وهرب الأتابكى أستدمر من رأس الصوة ، وكان يظن أنه ينتصر

كما وقع له تلك المرة ، فكان كما قيل فى المعنى :

أتطمع أن يبقى السرور لأهله
وهــذا محال أن يدوم سرور
وتقضى الليالى باجتماع وفرقة
ويحدث من بعد الأمور أمور

فلم يكن الا ساعة يسيرة وقد أمسك الأتابكى أســتدمر وجماعة معــه من الأمراء ممن كان من عصبته ، وقد أمسكوا من بين الترب ، فصــار العوام يقبضون على كل من يرونه من مماليك يلبغا ويعرونه ويقتلونه شر قتلة ، واستمروا على ذلك الى آخر النهار .

فلما أمسك الأتابكى أستدمر ومن معــه من الأمراء مثلوا بين يدى السلطان ، فأراد أن يقيد الأتابكى أســتدمر ، ويرسله الى الســجن بثغر دمياط ، فشفع فيه الأمراء وعرفوا السلطان بأن الأتابكى أستدمر مع مماليك يلبغا تحت الضنك ، ولا يقدر على ردهم ، فرسم السلطان للأتابكى أستدمر أن ينزل الى بيته ، وأرسل معه الأمير خليل بن قوصــون — وكان الأمير خليل بن قوصون ابن عمة السلطان الملك الأشرف شعبان — فلما نزل الأمير خليل مع الأتابكى أســتدمر الى بيته ، اتفق معه على العصيان ، وتحالفا على ذلك . فتسامع بهم بقية الأمراء والمماليك الذين كانوا قد اختفوا فجاءوا تحت الليل الى الأتابكى أستدمر حتى ضاق بهم المكان من الازدحام لكثرتهم .

فلما كان يوم الاثنــين ثامن عشر صفر من سنة سبعين وسبعمائة ، ركب الأتابكى أستدمر والأمير خليل بن قوصون وجماعة من الأمراء الذين من عصبة الأتابكى أستدمر ، فطلعوا الى الرميلة ووقفوا بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى المقعد المطل على الرميلة وعلق الصنجق ، ودقت الكئوســات حربيا ، فحصل فى ذلك اليوم واقعة عظيمة بين الفريقين ، وظن السلطان أنه مأخوذ لا محــالة ، فكان كما قيل فى المعنى :

ولا ترج الا الله فى كل حــالة
ولا تعتمد يوما على غير فضــله
فكم حالة تأتى ويكرهها الفتى
وخيرته فيهــا على رغم أنفــه

فلم تكن الا ســاعة يســيرة ، وكسر الأتابكى أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء الذين ركبوا مع أستدمر ، فنهب العوام بيوتهم ، وصاروا يمسكون مماليك يلبغا من الاصطبلات ويودعونهم فى الحبوس ، ثم قيــدوا الأتابكى أستدمر والأمير خليل بن قوصون وبقية الأمراء الذين ركبوا مع أستدمر وأرسلوهم الى السجن بثغر الاسكندرية . وأما مماليك يلبغا فنفوا منهم وغرقوا منهم جماعة ، وهرب منهم جماعة الى بلاد المشرق ، وانتصر عليهم الســلطان الملك الأشرف شعبان . وقد قال المعمار :

ســـلطاننا دامت له عــزة
ونصرة من أجــل هــأتين
دمر كبشــين ومن مسعده
ما انتطحت فى ذاك شــاتين

وقال الشيخ شهاب الدين بن العطار :

هلال شعبان جهرا لاح فى صــفر
بالنصر حتى أرى عيدا بشــعبان
وأهل كبش كأهل الفيل قد أخذوا
رجما وما انتطحت فى الكبش عنزان

ثم ان الســلطان ، لما خمدت الفتنة ، رســم بالافــراج عن من يذكر من الأمــراء ممن كان مسجونا بثغر الاســكندرية ، وهم : الأمير يلبغا آص ، والأمير الجاى اليوسفى ، والأمير ملكتمر الشيخونى الخازندار ، والأمير أيدمر الخطائى .

ما أفرج عنهم وطلعوا الى القلعة خلع على الأمير بغا آص المنصورى واستقر به أتابك العساكر وضا عن أستدمر الناصرى ، وخلع على الأمير جاى اليوسفى واستقر به أمير سلاح عوضا عن أمير أزدمر العمرى الناصرى الخازندار ، وكان أمير الجاى اليوسفى زوج أم السلطان الملك أشرف شعبان . وأنعم على الأمير أيدمر الخطائى تقدمة ألف ، وأنعم على الأمير ملكتمر الشيخونى خازندار بتقدمة ألف .

والأمير ملكتمر هذا هو الذى عمر الجامع لأخضر الذى عند فم الحور بين الغيطان .

ثم استمر الحال ساكنا مدة يسيرة ، وقبض لسلطان على يلبغا آص المنصورى ، وعلى لأمير ملكتمر الشيخونى . وسبب ذلك أنه قد لغ السلطان أن يلبغا آص لما حضر الى القاهرة لتف عليه جماعة من الأمراء ، وقد عول على لركوب على السلطان . فلما تحقق السلطان ذلك ادر اليه وقبض عليه وعلى الأمير ملكتمر قيدهما وأعادهما الى السجن بثغر الاسكندرية . فى ذلك يقول ابن العطار :

يلبغا آص تولى جمعة
فبغى واختار حربا وادّعى

ويح من جاء لحكم زائرا
ثم ما سلم حتى ودّعا

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى منكلى بغا الشمسى نائب حلب ، فلما حضر خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا آص . ثم أرسل خلف الأمير على المارديني نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية وكان من خيار الأمراء .

وفى هذه السنة توفى الملك المنصور غازى صاحب ماردين ، وتولى من بعده ابنه الملك الصالح محمود .

ومن الحوادث فى هذه السنة : جاءت الأخبار من دمشق أنه قد نزل بها جراد عظيم لم يسمع بمثله . وقد أتى هذا الجراد من مكة الى دمشق ، فأكل الأشجار وسد أعين المياه ، وكان معظم أمره فى قرى دمشق مثل حوران وعجلون . فلما كان يوم الجمعة دخل الجراد الى جامع بنى أمية حتى ملأ صحن الجامع وصار يترامى على الخطيب وهو فوق المنبر حتى شغله عن الخطبة ، ثم كثر حتى جافت منه القرى والبلدان ، فوخم منه الناس حتى صاروا يشمون منه القطران من كثرة رائحته الكريهة ، ثم تناقص من بعد ذلك حتى ارتفع عن البلاد الشامية .

سنة احدى وسبعين وسبعمائة (١٣٦٩/٧٠ م) :

فيها خلع على المقر السيفى قشتمر المنصورى ، واستقر به نائب حلب عوضا عن منكلى بغا الشمسى ، ثم رسم بالافراج عن الأمير أزدمر العمرى الناصرى — جد مؤلفه — وقد تقدم أنه نفى الى الصبيبة فى وقعة الأتابكى أستدمر بسبب مماليك يلبغا ، فأقام بالسجن فى الصبيبة مدة ثم رسم بالافراج عنه ليوليه نيابة الشام عوضا عن الأمير على المارديني . فلما وصل الأمير أزدمر الى العريش مرض هناك ودخل الى القاهرة وهو عليل ، فأقام مدة يسيرة ومات الى رحمة الله تعالى ودفن بالقرافة الصغرى ، بالقرب من زاوية الشيخ أبى العباس البصير رضى الله عنه .

وكان الأمير أزدمر هذا أميرا جليلا دينا خيرا له بر ومعروف وآثار ، فمن ذلك أنه لما كان نائب حلب أنشأ خانا بها يعرف بخان سراقب . ولما كان نائب طرابلس أنشأ حوضا وسبيلا على الدرب

السلطاني فى قرية من أعمال جبل نابلس تسمى قرية حلمة بنى سعد . وله أوقاف على الحرمين الشريفين والذرية . وكان قليل الأذى كثير الجود كما قيل :

وليس سحيق المسك ريا حنوطه
ولكنــه ذاك الثنــاء المخلف

وولى من الوظائف أمير سلاح بالديار المصرية مرتين ، وولى نيابة حلب ونيابة طرابلس ونيــابة صــفد وغير ذلك من الوظــائف . وكانت وفاته — أى الأمير أزدمر أبو ذقن — فى يوم الأربعاء سادس ربيع الآخر سنة احدى وسبعين وسبعمائة .

ولما توفى الأمير أزدمر خلع السلطان على المقر السيفى منجك اليوسفى ، واستقر به نائب الشام عوضا عن الأمير أزدمر العمرى ، وكان قد عين له نيابة الشام .

وفيها خلع السلطان على الأمير الكز الكشلاوى واستقر به وزيرا واستادارا .

وفيها توجه السلطان الى بر الجيزة ونزل عنــد الأهرام على سبيل التنزه ، فأقام هناك سبعة أيام ثم رحل من هناك وتوجه الى البحيرة ، ثم رحل من هناك وتوجه الى ثغر الاسكندرية — وكان ذلك فى أيام النيل — فحصل للعسكر مشــقة عظيمة بسبب المخايض فى الطريق . فلما دخل السلطان الى مدينة اسكندرية دخل من باب رشيد ، والأمراء مشاة بين يديه من باب رشــيد الى باب البحر ، وفرش له نائب الاسكندرية الشقق الحرير تحت حوافر فرسه ونثر على رأسه الذهب والفضــة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام هنــاك ثلاثة أيام ، ودخلت عليــه التقادم والهــدايا ، ثم رحل من الاسكندرية ورجع الى القاهرة وطلع الى القلعة .

ومن الحوادث فى هــذه السنة أن جماعة من العوام وقفوا تحت القلعــة ، ومنعوا الأمراء عن الطلوع الى القلعة ، وصاروا يرجمون النــاس ، فأرسل اليهم السـلطان بعض الأمراء وهو يقول لهم : « ايش قصدكم ؟ » ... فأرســلوا يقولون للسلطان : « تسلمنا علاء الدين بن كبك شــاد الدواوين ووالى القاهرة » ... فوقفوا تحت القلعة الى ما بعد العصر . وحصل منهم غاية الفســاد ، فرسم السلطان للماليك بأن ينزلوا اليهم ، فنزلوا ورموهم بالنشاب ، فتشتتوا وهربوا من الرميلة ، فأمســكوا منهم جماعة وأودعوهم فى الحبس ، وقتل منهم جماعة بالنشاب وهرب البــاقون فارين على وجوههم ، وغلقت فى تلك الليلة المدينة قاطبة ، ولم يفد وقوفهم فى الرميلة شيئا ، فكان كما قيل فى المعنى :

سل السيف عن أهل الفخار وفرعه
فانى رأيت السيف أصــدق مقولا

ثم ان السلطان نادى للعوام بالأمان والاطمئنان ، وعزل عنهم والى القــاهرة ، وولى الأمير حســين ابن الكورانى واليا على القاهرة عوضا عن بكتمر السيفى .

وفيها جاءت الأخبــار من حلب بأن نائب حلب قشتمر المنصور قد قتل هو وقلد محمد . وسبب ذلك أن شخصا من آل فضل يسمى الأمير جبار وقع بينه وبين نائب حلب تشــاجر ، فخرج اليه نائب حلب مع العساكر الحلبية ، فتقابل مع الأمير جبار ، فقويت العربان على نائب حلب فقتل هو وقلده فى المعركة .

ثم ان السلطان خلع على الأمير عشقتمر الماردينى — وهو صاحب الخانقاه التى فى باب القرافة — واســتقر به نائب حلب عوضــا عن قشــتمر المنصورى ، وأرسل خلعــة الى الأمير زامك من آل فضل بأن يكون عوضا عن الأمير جبار بن مهنا ، فخرج الأمير عشقتمر وتوجه الى حلب .

ثم ان السلطان عمل الموكب وأنعم على من يذكر

من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم : الأمير بشتاك الكريمى ، فخلع عليه واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير خليل بن قوصون . وأنعم على الأمير بهادر الجمالى بتقدمة ألف . وأنعم على جماعة من الخاصكية بأمريات طبلخانات وعشراوات .

وفى هذه السنة حجت خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، فخرجت من القاهرة فى موكب عظيم فى محفة زركش والأمراء مشاة قدامها . وخرج صحبتها العصائب السلطانية والكئوسات ، وحج معها الأمير بشتاك رأس نوبة النوب ، والأمير بهادر الجمالى ومائتا مملوك من المماليك السلطانية .

سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة (٧١/١٣٧٠ م) :

فيها رجعت خوند أم السلطان من الحجاز الشريف ، ووصلت الى القاهرة فى سادس عشر المحرم ، فخرج اليها السلطان ولاقاها من البويب . وكان يوم دخولها يوما مشهودا حتى طلعت الى القلعة .

وفى هذه السنة توفى الأمير على الماردينى الناصرى نائب السلطنة بمصر ، وكان أميرا دّينا خيّرا كثير البر والصدقات ، قليل الأذى ، كثير الخير ، قريبا من الناس . تولى نيابة دمشق ونيابة حلب ونيابة السلطنة بمصر ، ومات والناس راضون عنه ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس . ولما مات خلع السلطان على الأمير طشتمر العلائى واستقر به نائب السلطنة بمصر عوضا عن الأمير على الماردينى الناصرى .

سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (٧٢/١٣٧١ م) :

فيها رسم السلطان بأن السادة الأشراف قاطبة يجعلون فى عمائمهم شطفات خضر حتى يمتازوا عن غيرهم ، وتعظيما لقدرهم ، فنودى لهم فى القاهرة بذلك ، فامتثلوا أمره المتدارك . وفى هذه الواقعة يقول الشيخ شهاب الدين بن جابر الأندلسى :

جعلوا لأبناء الرسول علامة
ان العلامة شأن من لم يشهر

نور النبوة فى كريم وجوههم
يغنى الشريف عن الطراز الأخضر

وقال الشيخ بدر الدين بن حبيب :

عمائم الأشراف قد تميزت
بخضرة رقت وراقت منظرا

وهذه اشارة أن لهم
فى جنة الخلد لباسا أخضرا

وقال الشيخ شمس الدين بن المزين :

أطراف تيجان أتت من سندس
خضر كأعلام على الأشراف

والأشرف السلطان خصصهم بها
شرفا لنعرفهم من الأطراف

وقال الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة :

لآل رسول الله جاه ورفعة
بها رفعت عنا جميع النوائب

وقد أصبحوا مثل الملوك برنكهم
اذا ما بدوا للناس تحت العصائب

وفى هذه السنة عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى بهاء الدين السبكى ، وأرسل خلف الشيخ برهان الدين بن جماعة خطيب بيت المقدس ، فلما حضر خلع عليه وولاه قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن بهاء الدين السبكى . وكان الشيخ برهان الدين هذا ابن أخى قاضى القضاة عز الدين بن جماعة المقدسى .

سنة اربع وسبعين وسبعمائة (٧٣/١٣٧٢ م) :

فيها توفى الأتابكى منكلى بغا الشمسى ، وكان من خيار الترك . ولما توفى خلع السلطان على المقر السيفى الجاى اليوسفى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن منكلى بغا الشمسى بحكم وفاته .

وفيها أنعم السلطان على ولده الأمير على بتقدمة ألف .

وفى هذه السنة كانت وفاة خوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، وكانت ذات حسن وجمال ، وذات دين وخير ولها بر ومعروف . وهى التى أنشأت المدرسة التى بالتبانة ، ورتبت بها دروسا للمذاهب الأربعة ، وحضورا فى كل يوم للصوفية ، ومكتبا للأيتام ، وحوضا وسبيلا . ولما ماتت دفنت بهذه المدرسة وحزن عليها السلطان حزنا شديدا . وكانت ذات عقل ورأى سديد . وقد رثاها الشهابى بن الأعرج بقوله :

فى الثان والعشرين من ذى قعدة
كانت صبيحة موت أم الأشرف
فالله يرحمها ويعظم أجرها
ويكون فى عاشورا موت اليوسفى
فكان الفأل بالمنطق ... كما يقال :
لا تنطقن بما كرهت فربما
نطق اللسان بحادث سيكون

سنة خمس وسبعين وسبعمائة (٧٤/١٣٧٣ م) :

فيها فى يوم الثلاثاء سادس شهر الله المحرم وثب على السلطان الأتابكى الجاى اليوسفى زوج أمه ، ولبس آلة الحرب ، وطلع الى الرميلة هو ومماليكه . وكان سبب ذلك أنه قد حصل بينه وبين السلطان حظ نفس بسبب ميراث أم السلطان ، فحنق الأتابكى الجاى من السلطان فوثب عليه . ثم ان السلطان نادى للعسكر والأمراء بأن يركبوا ويحاربوا الأتابكى الجاى ، فركب جميع الأمراء والعسكر وطلعوا الى الرميلة ، ووقعوا مع الجاى واقعة عظيمة قتل فيها جماعة كثيرة ، وآخر الأمر انكسر الأتابكى الجاى وهرب نحو بركة الحبش ، ثم طلع من عند الجبل الأحمر وأتى الى قبة النصر فأقام بها ، فأرسل اليه السلطان خلعة بأن يكون نائب حماه ويخرج من هناك ... فأبى الجاى من ذلك وأقام بقبة النصر الى يوم الخميس وهو لابس آلة الحرب ، فنادى السلطان للعسكر والأمراء بأن يتوجهوا اليه بقبة النصر ويحاربوه ، فتوجهوا اليه وحاربوه ، فانكسر الجاى ثانيا وهرب الى نحو شبرا ، فساقوا خلفه فأدركوه فرمى نفسه فى البحر وهو راكب فرسه ، فغرق الجاى ومات وطلع فرسه من بر انبابه من عند الوراق ، وقبض العسكر على مماليكه وخيوله وسلاحه وأحضروهم بين يدى السلطان وحكوا له ما جرى .

ثم ان السلطان أرسل جماعة من الغطاسين الى نحو شبرا فغطسوا هناك وطلعوا بالجاى ، فأحضروا له تابوتا ، وأتوا به الى القاهرة فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ، ودفنوه بمدرسته التى أنشأها فى سويقة العزى ، وكان ذلك فى يوم الجمعة عاشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة كما قولوا عليه .

وكان الأتابكى الجاى أميرا جليلا مهيبا ، كثير البر والصدقات ، يحب فعل الخير ... ولو أنه حضر بين يدى السلطان وهو فى قيد الحياة ما كان يحصل له من السلطان الا كل خير ، فانه كان زوج أمه ، وكان له على السلطان تربية قديمة ، ولكن كان ذلك مقدرا عليه .

ثم ان السلطان أرسل خلف المقر السيفى أيدمر نائب طرابلس ، فلما حضر خلع عليه واستقر به

أتابك العساكر عوضا عن الجاى اليوسفى ، فأقام أيدمر فى نيابة السلطنة بمصر مدة يسيرة ثم توفى الى رحمة الله تعالى فأرسل السلطان خلف المقر السيفى منجك اليوسفى نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه السلطان واستقر به أتابك العسكر عوضا عن آيدمر ، وأضاف اليه نيابة السلطنة مع الأتابكية ، وفوض اليه أمور المملكة قاطبة من الديار المصرية والبلاد الشامية ، ورسم له بأن يخرج الاقطاعات من غير مشورة السلطان من أربعمائة دينار الى ستمائة دينار ... وكانت عادة نواب السلطنة من قديم الزمان ألا يخرجوا من الاقطاعات أكثر من أربعمائة دينار الى ما دون .

وفيها خلع السلطان على مملوكه الأمير أرغون شاه الأشرفى واستقر به رأس نوبة النوب .

وفيها جاءت الفرنج الى رشيد ، فخرج اليهم الأتابكى منجك مع جماعة من العسكر فكسروهم وهربوا منهم الى بلادهم ... وفى ذلك يقول ابن أبى حجلة :

أمنجك سل فى الأعداء بترك
ولا تترك من الافرنج بترك
تداركت المعالى بالعوالى
ولكن فضل جودك ليس يدرك
وقد آنست مصرا حين قالت
تولى الله حيث حللت نصرك

ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل توقف عن الوفاء ، ثم هبط ونقص أصبعين ، فضج الناس لذلك وماجت مصر وتشحطت الغلال وامتنع الخبز من الأسواق ، فرسم السلطان للناس بأن يخرجوا ليستسقوا . فلما كان يوم الخميس ثانى ربيع الآخر من السنة المذكورة ، خرج الناس قاطبة الى الصحراء ، واجتمع هناك الجم الغفير من العلماء والصلحاء والفقراء والرجال والنساء والأطفال وطائفة اليهود وطائفة النصارى ، وحضر الخليفة محمد المتوكل على الله والقضاة الأربعة ، ولم يزل السلطان معهم ، ثم توجهوا من وراء قبة النصر ونصبوا هناك منبرا وصعد اليه قاضى القضاة الشافعى ، وهو الشيخ شمس الدين بن القسطلانى ، وخطب خطبة بليغة فى الاستسقاء ، ولما حول رداءه كشف عن رأسه ودعا الله تعالى ... وكان ذلك اليوم يوما مشهودا تسكب فيه العبرات .

ولما رجع الناس وباتوا تلك الليلة هبط الماء جملة واحدة ، وتزايد سعر الغلال وبلغ ثمن كل اردب مائة وعشرين درهما ، ومن الشعير كل اردب بثمانين درهما ، وبلغ ثمن الرغيف الخبز الكشكار أربعة دراهم ، وبلغ الرطل اللحم الضانى درهمين ونصفا كل رطل ، واللحم البقرى كل رطل بدرهم ونصف ، وبلغ ثمن البيضة عشرة دراهم كل واحدة ، وبلغ ثمن الراوية الماء خمسة دراهم . ومات تلك السنة أكثر الدواب من قلة العلف ، وغلا سعر كل شىء من أصناف البضائع . وجاء عقيب ذلك فناء عظيم حتى بلغ ثمن البطيخة الصيفى مائة درهم ، والرمانة ستة عشر درهما ، وصار القمح كل يوم يتزايد سعره .

فلما اشتد الأمر وشرقت البلاد رسم السلطان للأتابكى منجك بأن يجمع الحرافيش الذين فى القاهرة ويفرقهم على الأمراء وأعيان التجار ففعل ذلك ، ورسم السلطان بأن يعطوا لكل فقير رغيفين وما يشاكل ذلك من الطعام ... واستمر الأمر على ذلك نحو سنة ، ولم يتراجع السعر ولم ينحط عن ذلك حتى صار الناس يأكلون خبز الفول وخبز النخال والذرة ، واستمر الحال على ذلك .

سنة ست وسبعين وسبعمائة (١٣٧٤/٧٥ م) :

فيها جاءت الأخبار من حلب بأن نائب حلب خرج الى مدينة سيس هو والعساكر الحلبية وفتح مدينة سيس ، وكانت فى أيدى الأرمن . فلما جاءت الأخبار بذلك فرح السلطان ، وأمر بدق الكاسات سبعة أيام ، وزينت القاهرة سبعة أيام ، وأرسل نائب حلب صاحب سيس ، وهو أسير ومقيد — وكان اسمه تكنور — فرسم السلطان باعتقاله ، ورتب له فى كل يوم ما يكفيه من النفقة وهو فى السجن . وقد هنأ بعض الشعراء السلطان بقصائد فى فتح مدينة سيس حيث قال :

الملك الأشرف سلطاننا
أيده الله بعز نفيس

ساق الى نحو العدا أدهما
وجاءه النصر على أخذ سيس

وفيها جاءت الأخبار من بغداد بأن القان أويس صاحب بغداد قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وتولى من بعده ابنه حسين ، وكانت مدة مملكة القان أويس على توريز وبغداد تسع عشرة سنة .

وفيها كانت وفاة الأتابكى منجك اليوسفى . وكانت وفاته فى يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة ، ودفن فى خانقاته التى أنشأها فى رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية ، ومات وله من العمر نحو سبعين سنة . وكان أميرا جليلا عظيما كثير البر والصدقات ، وله آثار ومعروف بمصر والشام ، وقد تولى نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة السلطنة بمصر وأتابك العساكر بالديار المصرية .

سنة سبع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٥/٧٦ م) :

أقول : وهذه السنة عزيزة الوقوع ، لأنه قد اجتمع فيها ثلاث سباع ، فهى سبع وسبعون وسبعمائة ، وهذا غير ممكن أن يتفق مثلها من سنى الهجرة النبوية من الأعوام القابلة ، ولم يتفق مثلها فى مبتدأ الاسلام غيرها من السنين .

ففيها ختن السلطان أولاده وأقام لهم مهرجانا فى القلعة سبعة أيام ، وكان ذلك تاسع المحرم . وفيها كملت عمارة السلطان التى أنشأها فى رأس الصوة تجاه الطبلخانات . ولم يحدث فى هذه السنة من الحوادث شيء ، وكان غالب الناس يتطير منها فلم يحصل فيها الا خير .

سنة ثمان وسبعين وسبعمائة (١٣٧٦/٧٧ م) :

فيها أبطل السلطان ضمان المغانى من سائر أعمال مملكته ، وكان ذلك عبارة عن مال كثير مقرر على سائر المغانى من رجال ونساء يؤدونه فى كل سنة الى الخزائن الشريفة ، فأبطل ذلك . ومن جملة ما أبطله ضمان القراريط ، وكان عبارة عن أن الشخص اذا باع ملكا يؤخذ منه لبيت المال عن كل ألف درهم عشرون درهما ، فأبطل ذلك وصار فى صحيفته الى يوم القيامة .

وفيها توعك السلطان وأقام فى الفراش منقطعا مدة ، ثم شفى وخرج الى الموكب .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يحج فى هذه السنة ، فأشار عليه بعض الصلحاء بترك الحج فى هذه السنة فلم يسمع ، وأخذ فى أسباب عمل البرق . فلما كان يوم السبت ثانى عشر شوال خرج السلطان من القاهرة ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم وطلب ، وخرج من الميدان الذى تحت القلعة . وقد اشتمل الطلب السلطانى من الهجن على عشرين نوبة بقماش زركش ، وخمس عشرة نوبة بقماش حرير ملون ، ونوبة هجن ملبسة خليفتى ، ونوبة هجن ملبسة أبيض برسم الاحرام . وكان فى الطلب مائتا فرس ملبسة بركشتونات مخمل ملون وشى

فولاذ مكفت بالذهب ، وفيه كجاوتين زركش ، وكان فيه عشر محفات زركش برسم الحريم ، وكان فيه ستة وأربعون زوجا محاير مخمل ملون برسم السرارى والعيال ، وكان فى السنيح خمسمائة جمل محملة سكرا وحلوى وفاكهة وغير ذلك برسم ما يحتاج اليه المطبخ ، وكان فيه قطاران من الجمال محملة أشجارا مزهرة فى طينها وهى فى صناديق خشب مزفته .

فلما انتهى أمر الطلب خرج السلطان من الميدان فى موكب عظيم ، وقدامه سائر الأمراء من كبير وصغير ، وكان له يوم مشهود . ولما نزل من القلعة توجه الى نحو بركة الحاج على العادة . فلما أقام هناك خلع على الشيخ ضياء الدين الغنوى واستقر به شيخ مدرسته التى أنشأها برأس الصوة ، وقرر بها حضورا من بعد العصر وصوفية . وكانت هذه المدرسة من محاسن الدنيا فى الزخرفة والبناء ، وقد هدمت هذه المدرسة فى دولة الملك الناصر فرج ابن برقوق كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ، وكان صحبته من الأمراء المقدمين تسعة ، وهم : المقر السيفى أرغون شاه الأشرفى ، والمقر السيفى صرغتمش الأشرفى أمير سلاح ، والمقر السيفى يلبغا السابقى أمير مجلس ، والمقر السيفى بهادر الجمالى أمير أخور كبير ، والمقر السيفى صراى تمر المحمدى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى طشتمر العلائى الدوادار ، والأمير مبارك شاه الطازى ، والأمير قطلقتمر العلائى الطويل ، والأمير بشتاك العمرى ومن أمراء الطبلخانات خمسة وعشرون أميرا .

ثم ان السلطان جعل المقر السيفى أقتمر بن عبد الغنى — نائب السلطان — مقيما بالقاهرة ، وجعل الأمير أيدمر الشمسى نائب الغيبة ، ورسم للأمراء المقيمين بالقاهرة بأن يطلعوا الى القلعة فى كل يوم اثنين وخميس ، ويعطوا الخدمة للأسياد — أولاد السلطان — فصار الأمراء بعد توجه السلطان يطلعون الى القلعة ويجلسون على باب الستارة ، ويخرج اليهم ابن السلطان الأمير على — وكان أكبر أولاد السلطان — فيجلس مع الأمراء ساعة لطيفة على باب الستارة ، ويحضر لهم السكر فيشربون وينصرفون ، واستمروا على ذلك مدة يسيرة .

وكان السلطان الملك الأشرف شعبان لما قصد التوجه الى الحجاز الشريف ضبط أمور المملكة قبل خروجه ، وأخذ معه من الأمراء من كان يخشى أمره ، وترك بالقاهرة من الأمراء من كان يركن اليه ، وظن أن الأمور قد استقامت له واقتدى بما فعله من رأيه كما قيل :

ياحاسبا لأمور تعتريه ، لقد
حسبت شيئا وغابت عنك أشياء

فلم يتم بذلك مراده ، وجنى عليه اجتهاده ، كما قيل :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما رحل السلطان من بركة الحاج ، ورجع كل أحد الى بيته — وكان يوم السبت ثالث ذى القعدة — وثب جماعة من الأمراء ، ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة . وكان القائم فى ذلك الأمير طشتمر المحمدى المعروف باللفاف أحد الأمراء العشراوات ، والأمير قرطاى الطازى أحد رءوس النوب ، والأمير أستدمر الصرغتمشى ، والأمير اينبك البدرى — ولم يكن فيهم أمير مقدم ألف .

فلما طلعوا الى الرميلة التف عليهم جماعة كثيرة من المماليك السيفية ومماليك الأسياد ، فهجموا

كلهم وطلعوا الى القلعة ووقفوا على باب الستارة ودقوا الباب ، فخرج اليهم الأمير مثقال الجمالى الزمام . والأمير جلبان اللالا ، والأمير قطلوبغا جركس اللالا : فقالوا للمماليك : « ما الخبر ؟ » ، فقالوا : « قد سمعنا أن السلطان لما وصل الى العقبة وثب عليه المماليك وقتلوه . فأخرجوا الينا الأمير على حتى نسلطنه » ... ولم يكن لهذا الكلام صحة ، ولكن كان الفأل بالمنطق كما يقال فى المعنى :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى

ان البلاء موكل بالمنطق

فلما سمع الأمير الزمام ذلك توقف ساعة ، فأغلظ عليه المماليك فى القول ، وعينوا له القتل . فلما رأى منهم الجد دخل الى دور الحرم وأخرج الأمير على ابن الملك الأشرف شعبان ، فجلس على باب الستارة ساعة ، ثم توجه المماليك الى الأمير أيدمر الشمسى نائب الغيبة وأحضروه الى القلعة ، فلما حضر أخذوا الأمير عليا ، وتوجهوا به الى الايوان الكبير ، وأجلسوه على سرير الملك ، وقبلوا له الأرض ، ثم أرسلوا خلف من كان فى القاهرة من الأمراء فطلعوا الى سوق الخيل ، فطلبوهم ليطلعوا القلعة فأبوا من ذلك ، فركبوا الأمير عليا ونزلوا به الى باب السلسلة ، وجلس فى الخزانة التى فى الاسطبل السلطانى ، ونادى لسائر الأمراء بأن يطلعوا الى باب السلسلة ، فطلعوا فحلفوهم ؛ وقبلوا للأمير على الأرض ، ولقبوه بالملك المنصور .

ثم ان المماليك أمسكوا فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء العشراوات وهم : الأمير طشتمر الصالحى ، والأمير بلاط السيفى الجاى ، والأمير حطط اليلبغاوى أحد رءوس النوب ... فلما قبضوا عليهم سجنوهم بالقلعة ثم قالوا لوالى القاهرة : « ناد فى المدينة بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المنصور على » ... فنزل الوالى ونادى بذلك فى القاهرة ، وكان ذلك فى يوم السبت ثالث ذى القعدة من السنة المذكورة .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك ، والناس مائجة فى بعضهم ، اشتاعت الأخبار بين الناس بأن شخصا من المماليك السلطانية قبض على شخص من المماليك الذين كانوا فى الحجاز يقال له قازان اليرقشى من جملة الأمراء الأخورية ، وكان صحبة السلطان ، فوجدوه فى المدينة وهو متنكر ، فقبضوا عليه وأحضروه الى الأمير أيدمر الشمسى نائب الغيبة ، فسأله عن سبب ذلك وحضوره الى القاهرة ، فمغمغ فى الكلام ، وتلجلج بلسانه ، فعراه الأمير أيدمر وأراد توسيطه ، فقال له : « امهلني حتى أخبرك بما جرى هناك » ... فألبسه أثوابه وقال له : « احك » . فقال : « لما وصل السلطان الى العقبة دخلها فى يوم الثلاثاء وأصبح فى يوم الأربعاء ، وقف عليه جماعة من المماليك السلطانية وطلبوا منه العليق ، فقال لهم اصبروا الى الأزلم ، فرجعوا وهم على غير رضا منه . فلما مد السماط لم يحضر من المماليك السلطانية أحد ، فظهر للسلطان منهم الغدر . ثم ان المماليك توجهوا الى جماعة من الأمراء — منهم الأمير طشتمر العلائى الداودار الكبير ، والأمير مبارك شاه الطازى ، والأمير صراى تمر المحمدى ، والأمير قطلقتمر العلائى الطويل — فاتفقوا معهم على الوثوب على السلطان ...

« فلما كان يوم الخميس ركب هؤلاء الأمراء على السلطان ، والتف عليهم جماعة كثيرة من مماليك الأسياد ، فلما تحقق السلطان ذلك ركب هو وجماعة من الأمراء — منهم الأتابكى أرغون

شـــاه الأشرف ، والأمـــير صرغتمش الأشرف أمير سلاح ، والأمير بشتاك العمرى رأس نوبة النوب ، والأمير بيبغا السابقى ، والأمير يلبغـــا الناصرى ، والأمير أرغون كتك — فركب هـــؤلاء الأمراء مع السلطان ووقعوا مع المماليك هناك واقعة عظيمة ، فلم تكن الا ســـاعة يسيرة وانكسر السلطان ومن معه من الأمراء وهربوا الى نحو عجرود » .

فلما ســـمع الأمير الشمسى بذلك ركب ، هـــو والأمير أســـتدمر الصرغتمشى ، والأمير طولو ، وجماعة من الأمراء السلطانية ، وتوجهوا الى نحو بركة الحـــاج ، فتلاقوا هم والأمراء الذين كانوا بصحبة السلطان فى العقبـــة . فلما تلاقوا معهم لم يجدوا السلطان صحبتهم ، ولا الأتابكى أرغون شاه ، ولا الأمير يلبغا الناصرى ... فوقعوا هناك فى بعضهم وقتلوا الأمراء الذين حضروا من العقبـــة ، وقطعوا رءوسهم ودخلوا بها الى القاهرة ، وعلقوها على باب القلعة .

هذا ما كان من أمر الأمراء . وأما ما كان من أمر السلطان الملك الأشرف شعبان فانه لـــا هرب بعد الكسرة من العقبة قال له محمد بن عيسى شيخ العائد : « آخذك وأتوجه بك من هنـــا الى غـــزة فتقيم بهـــا حتى تتسامع بك العســـاكر ، وتجتمع عليك العرب ، وترجع الى القاهرة ، وتأخذ الملك بالسيف » ... فوافقه السلطان على ذلك ، فمنعه الأتابكى أرغون شاه من ذلك .

ثم انه دخل الى القـــاهرة وهو مختف ، فبـــات تلك الليـــلة فى تربة فى الصحراء الى آخر الليل ، ثم قام من هناك الى حارة الجودرية واختفى عند امرأة يقال لها آمنة زوجة ابن المشتولى — وكانت من عيـــال أم السلطان — فخافت من عقبى ذلك على نفســـها من القتل ، فان الأمير أيدمر الشمسى نائب السلطنة نادى فى القـــاهرة : « كل من وجد السلطان الملك الأشرف شعبان فى بيته ولا يقر به يشنق على باب بيته » ... فلما سمعت آمنة المذكورة ذلك توجهت الى الأمير أينبك البدرى وقالت له : « ان السلطان مختف عندى فى البيت » .

فلما سمع الأمير أينبك بذلك أرسل معها مائة مملوك ملبســـة ، ومعهم أمير يقـــال له الطنبغـــا السلطانى ، فتوجهوا الى الجودرية وكبسوا على بيت آمنة زوجة ابن المشتولى . فلما أحاطوا بالبيت هرب السلطان وطلع الى سطح البيت ، فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه أحـــدا ، فطلعوا الى السطح فوجـــدوا السلطان مختفيـــا فى الباذهنج — وهو بطاق القميص — فقبضوا عليه ، والذى كان خائفا منه وقع فيه ، كما قيل فى المعنى :

عرفت الليـــالى قبل ما صنعت بنـــا
فلمـــا دهتنى لم تزدنى بهـــا علمـــا

فلما قبضوا على السلطان نهبوا جميع ما كان فى البيت ، ثم أركبوا الســـلطان فرســـا وهو مغطى الوجه ، فطلعوا به الى القلعة بعد المغرب ، وتسلمه الأمير أينبك البدرى . ولما دخل الليل خلا الأمير أينبك بالسلطان وبات فى تلك الليلة يعاقبه ويقرره على الأموال والذخائر .

فلما كانت ليلة الثلاثاء دخل چركس — مملوك الأتابكى الجـــاى اليوسفى ، وكان فى قلبـــه من السلطان من أيام أســـتاذه الجاى شىء — فتسلم السلطان وخنقه بوتر حتى مات ، ثم وضعه فى قفة وكسر ظهره وخيط بلاسى وأرسله تحت الليل على حمار ورماه فى بئر عند باب الزغلة .

وكانت قتلته فى ليـــلة الثلاثاء ثالث ذى القعدة سنة ثمـــان وسبعين وسبعمائة . ومات وله من العمر نحو أربع وعشرين ســـنة . وكان مولده فى ســـنة أربع وخمســـين وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبـــلاد الشامية أربع عشرة سنة

وشهرين ويوما . وزال عنه الملك كأنه لم يكن . فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير . وقد قيل في المعنى :

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
على الماء خانته فروج الأصابع

ثم ان الملك الأشرف شعبان لما رموه في البئر كما تقدم ، أقام فيها أياما فظهرت رائحته وطفا على الماء ، فمر به بعض الطواشية ، فلما تحقق أنه السلطان صبر حتى دخل الليل ، وأحضر له تابوتا وطلعه من البئر وحمله فيه وأتى به الى مدرسة والدته التي في التبانة ، فغسله هناك وكفنه وصلى عليه ، ثم دفنه في القبة التي تجاه المدرسة .

وكان الملك الأشرف شعبان من محاسن الزمان في العدل والحلم ، وكان ملكا هينا لينا محبا للناس منقادا للشريعة ، ويحب أهل العلم ويحسن لهم ، وكان كثير البر والصدقات على الفقراء والمساكين ، وكان محسنا لأقاربه وأبناء عمه بخلاف من تقدمه من بني قلاون . وكانت الدنيا في أيامه هادئة من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية وفساد العرب . وساس الناس في أيام دولته أحسن سياسة ، وكانت الناس راضية عنه حتى مات رحمه الله . وقد قال فيه القائل :

للملك الأشرف السلطان سيدنا
مناقب بعضها يبدو به العجب
له خلائق بيض لا يغيرها
صرف الزمان كما لا يصدأ الذهب

ولما مات الأشرف شعبان خلف من الأولاد ستة ذكور وسبع بنات . فأما الذكور فسيدي على الذي تسلطن بعده ، وسيدي أمير حاج الذي تسلطن بعد أخيه على ، وسيدي قاسم ، وسيدي محمود ، وسيدي اسماعيل ، وسيدي أبو بكر . وولد له بعد موته سيدي أحمد الذي من خوند سمراء .

وأما فتوحاته من المدن فمدينة سيس ، ومدينة منجار ، ومدينة دوركي .

وأما ما أنشأه في القاهرة من العمائر فالمدرسة التي كانت في رأس الصوة تجاه الطبلخانات السلطانية ، والقاعة الأشرفية التي بالقلعة داخل دور الحرم . وله غير ذلك آثار كثيرة وتذكار .

وكان في أيامه جماعة كثيرة من أولاد الناس طبلخانات وأمراء عشراوات .

فأما الأمراء الطبلخانات فالأمير علي بن منجك اليوسفي ، والأمير أحمد بن يلبغا العمري ، والأمير عبد الله بن بكتمر الحاجب ، والأمير موسى بن دندار ، والأمير قرطقا بن صوصون ، وأمير حاج ابن مغلطاي ، والأمير محمد بن تنكز بغا .

وأما من كان منهم من أمراء العشراوات فمنهم الأمير أبو بكر بن سنقر الجمالي ، والأمير أحمد ابن محمد بن قطلوبغا المحمدي ، ومحمد بن سنقر المحمدي ، والأمير خضر بن عمر بن أحمد ابن الأتابكي بكتمر الساقي .

وكان من أولاد الناس في أيامه جماعة كثيرة نواب في البلاد الشامية .

وبالجملة ان الملك الأشرف شعبان كان آخر بني قلاون في الحرمة والعظمة ونفاذ الكلمة ، وكان عارفا بأحوال أمور المملكة ، حسن التدبير ، ماشيا على القواعد المرضية ، مستجلبا لخواطر الرعية . وكان حسن الشكل ، سخي النفس ، شجيع القلب ... ولكن خانه الدهر ، وسطا عليه بالقهر ، فعاجله المنون ، وخابت فيه الظنون .

هذا ما كان من أمر الملك الأشرف شعبان بعد رجوعه من العقبة . وأما ما كان من أمر الأمراء الذين خامروا على السلطان في العقبة ، فانه لما

هــرب السلطان من هنــاك اجتمعوا ودخلوا على الخليفة المتوكل على الله محمد — وكان قد سافر صحبة السلطان هو والأربعة قضاة — فقالوا له : « تسلطن ... أنت أحق بالســلطنة » . فامتنع من ذلك غاية الامتناع ، وطال بينه وبين الأمراء الجدال فلما صمم الخليفة على الامتناع عينوا مع الحجاج الأمير بهــادر الجمــالى أمير أخور كبير ، فتوجه صحبة المحمل مع الحجاج وساروا ركبا واحدا .

ثم ان الأمراء أخذوا الخليفة والقضاة الأربعة وقصــدوا التوجه الى الديار المصرية ، وصحبتهم حريم الســلطان الملك الأشرف شــعبان . ثم ان القضــاة ســألوا فضــل الأمراء أن يزوروا بيت المقــدس ، فأنعموا لهم بذلك ، وأرســلوا معهم جماعة من المماليك السلطانية ، فتوجهوا من هناك الى بيت المقدس .

فلما وصل الخليفة والأمراء الى عجرود جاءت الأخبار بمــا جرى فى القاهرة من قتــل السلطان وسلطنة ولده الأمير على .

ومن غريب الاتفــاق أن اليوم الذى خامر فيه المماليك وركبوا على الســلطان فى العقبة ، وافق اليوم الذى ركب فيه الأمراء بالقــاهرة وسلطنوا ســيدى عليــا ابن الســلطان . فلما سمعوا ذلك ووصلوا الى بركة الحاج جاءت الأخبار بذلك الى القاهرة ، وتوجه اليهم جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، فوقعوا معهم عند المطرية ، فانكسر الأمراء الذين جاءوهم من القاهرة ، وساق خلفهم الأمير قطلقتمر العلائى الطويل الى رأس الصوة ، فتكاثر عليه المــاليك الســلطانية حتى أمسكوه وحضروا به الى نائب السلطنة فلم يشوش عليه ، ثم دخل الأمير طشتمر الدوادار الكبير واختفى فى تربة فى الباب المحروق ، فنم عليه الغلمان ، فجاءوا اليه وقبضوا عليه وقيــدوه وأرسلوه الى ثغــر الاسكندرية ، وقبضوا معه على جماعة من الأمراء وتفوهم الى الاسكندرية ، وخمدت الفتنة وسكن الاضطراب ، واستمر ســيدى على سلطانا كمــا سيذكر ذلك فى موضعه .

ولمــا مات الأشرف شــعبان رثاه القيم خلف الغبارى بهذه القطعة الزجل فقال :

عن منــازل طالع القــلعة
كوكب السعد اختفى حين بان
اقتــران زحــل مع المريخ
كسوف شمس اتنقل شعبان

* * *

صار محــرما يوما لمــا
صفر المنــزل من الأشرف
وادخــر منــار يبعى عيش
وجمــادين فتكهم أسرف
ورجب فيه الملك شــعبان
دور المحــمل ولا أشرف

* * *

رمضان صاموا وفى شــوال
شال وذى القعدة بدا الحرمان
فيه جرت ســيره لذى الحجة
ماجــرت فى سائر الأزمان

* * *

قد فهمنا أصــل ذى النوبه
بسماع ما جا من الأخبــار
فى حصار شعبان وفى ضربوا
لوبتــين والخنــق بالأوتار
ولذا صــار قلبنا موصــول
بالهــموم والعقــل منا طار

* * *

وخروج الســهم لو تشبيب
فى القصب من داخل الأبدان

والسيوف غنت لرقص الخيل
والأنامل هـزت العيـدان
* * *
للحجاز لمـا نوى الأشرف
ورحل مع جمـلة العشاق
خامرت ميه من العسـكر
ولرصـد الغدر جو أجواق
قتـلوه شركه وتاريخـو
للعـراق والأصبهان السـاق
* * *
وقد أضحى فى الرمال مدفون
والذى بيه فى طـرب فرحان
صار محير والحمام فى الدوح
ناح لفقدو باختلاف ألحـان
* * *
الذخائر ذاهبة حـين صـار
واسطة عقـد الجيوش غايب
والعقيق كنـواقد اتخضب
بالدما حـين هربو كارب
* * *
ومسـلوك الدر واليـاقوت
عقـدها انفرط من التيجان
وأصبح الجـوهر يتيم بعدو
ودموع العـين عليه مرجان
* * *
ذى الذى كان الملك ايدو
وايدهـم فى فـرد زبديه
جـوه بعـملة غدر مدفونه
وخيـول فى السر مخفيه
وقلوب بالغلب مغـمومه
وكبـود بالغبن مشـويه
* * *

وأمـور مـزورة لـكن
قبل ما اسقوه الهوان ألوان
طبخوا القـدره وقد صاروا
حـولها مستجمعين اخـوان
* * *
فى أتابك مصر كنت اعهـد
قوم عزيزين جبـر للمكسور
منهـم أرغـون وضرغتمش
والشهير بالسابقى المنصـور
والأمير بشـتاك مع الأفرم
بأمر من لو الحكم والمقـدور
* * *
جا القضا عاجل خد الخمسة
وقد أضحى عزهم منهـان
هكذا الدنيـا وقد قالوا
فى المثـل ما عز شى الا وهان
* * *
جـاك بنفسو ذ الملك لمـا
جا يصيب دستو عليه مقلوب
وأخـذ فيكو سريع شامات
وانكشف رخو وصار مغلوب
هكذا فى وقعـة الدنيـا
دست هذى المملكة المنصوب
* * *
ذا يكن راكب فرس عـزوا
عاليه فرحان يعود فى احزان
والذى فى الحـاشية بيدق
ينتقـل حتى يصير فرزان
* * *
مصر وادى تيه وصارت غاب
وسكنوا ابراج حوت رفعـه

وآماراتهـــــا الذين كانوا
فى هنا من قبـــل ذى الوقعه
للملك خـــلان وهم غزلان
وأســـود وأقمار لهم طلعه

* * *

خفيت الأقمار من الأبراج
وخلا المســـكن من الخلان
وعن الغـــاب غابت الآساد
وأقفر الوادى من الغـــزلان

* * *

ضم الأشرف قبر ليت شعرى
هو لقنديل نور ضـــياه جامع
أو صدف فيه خالص الجوهر
أو فلك فيه غاب قمـــر طالع
أو نقول غاب فيه أسد ضارى
أو جفير جواه حســـام قاطع

* * *

أو كناس فيه أحسن الغزلان
أو حمى فيه أفرس الفـــرسان
أو جسد فيه روح من الأرواح
أو سواد مقـــلة وفيه انسان

* * *

نســـألك يا الله بجـــاه موسى
وبعيسى وأحمـــد المحبوب
غيث الأشرف واوهبوا رحمة
وعليـــه أفرغ صـــبر أيوب
فارق اذكرنا فراق يوســـف
مثل ما أورثنا حـــزن يعقوب

* * *

والخليـــل منا غـــدا قائل
لخليـــلو حين يراه لهفـــان
فى سفين الحزن بعـــدو نوح
واجر دمعك فى الخدود طوفان

* * *

نصر شـــعبان بهم بالكامل
لعـــلى والحكم للقـــادر
نســـألك يا حق يا عادل
كن لجيش المســـلمين ناصر
وارزق العـــالم عمل صالح
واصلح البـــاطن مع الظاهر

* * *

واخمـــد الفتنـــا وطمنـــا
لا تشـــتتنا من الأوطـــان
وانصر المنصـــور على واعفو
عن أبيه الأشرف الســـلطان

* * *

يا من امسى مثل ما أصـــبح
فى فرح بالجـــاه وكنز المـــال
قط لا تركن لذى الدنيـــا
واحذر احـــذر حالها ان حال
كم عزيز ذلته صـــار يطلب
جاه يجيـــه ماجاه ومالو مال

* * *

فالبس البس حـــلة التقـــوى
قبـــل لبسك شقة الأكوان
لا تغـــرك زينـــة الدنيـــا
كل ما تنظر عليهـــا فان

* * *

آخـــر الثامن مع الســـبعين
بعـــد تاريخ سبعماية عام
يا غبـــارى قلت فى الأشرف
نظم شاع فى أقاليم مصروالشام

وانت فى فن الزجـل قيم
بدروج تشـهد بها الحكام
* * *
وبتنظم النشـر من فكرك
كم، وكم صنفت من ديوان
والبديع لك صارت الفرسان
فيـه رجال والقيمة أدوان

وفى أيامه توفى الشيخ نور الدين على بن سعيد المغربى الأندلسى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

وا طول شـوقى الى ثغـور
ملأى من الشهد والرحيق
عنها أخـذت الذى تراه
يعذب من شـعرى الرقيق

الملك المنصور على

هو الملك المنصـور على ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الملك الأمجد حسين ، ابن الملك الناصر محمـد ، ابن الملك المنصور قلاون ، وهو الثالث والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة عند ما حضر أمير المؤمنين المتوكل على الله من العقبة فبايعه بالسلطنة ، ولبس خلعة السلطنة وجلس على سرير الملك ، وجميع الأمراء قبلوا له الأرض ، وتلقب بالملك المنصور ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء ، فلبس خلعة السلطنة من باب الستارة ، وركب لابسا شعار الملك والأمراء مشاة بين يديه ، والقبة والطير على رأسه ، حتى وصل الى الايوان وجلس على سرير الملك ساعة ، ثم دخل الى القصر الكبير ومد السماط فى القصر وجلس عليه وهو لابس شعار الملك ــ وكانت هذه عادة قديمة أن السلطان يوم يتولى يمد فى القصر سماطا ويجلس علـيه وهو بشعار الملك ــ فلما فرغ من الأكل خلع على المقر السيفى أقتمر الصاحبى الشهير بالحنبلى واستقر به نائب السلطنة بالديار المصرية عوضـا عن الأمير أقتمر عبد الغنى ، وخلع على المقر السيفى طشتمر المحمدى الشهير باللفاف واستقر به أتابك العساكر بمصر ، وكان طشتمر المحمدى هـذا أمير عشرة فبقى أتابك العسـاكر فى يوم واحد عوضـا عن الأتابكى أرغون شاه الأشرفى ، وأنعم عليه ببركه ومماليكه ، وكان ذلك فى يوم الأحـد سـادس ذى القعدة سنة ثمـان وسبعين وسبعمائة ، وكان السلطان الملك المنصور له من العمر يومئذ نحو سبع سنين وأشهر .

فلما كان يوم الاثنين سابعه ، عمل السـلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمـير قرطاى الطازى ، واسـتقر به رأس نوبة النوب ، ورسم له ببرك الأمير صرغتمش الأميرى الأشرفى . وخلع على الأمير أستدمر الصرغتمشى الناصرى ، واستقر به أمير سلاح . وخلع على الأمير قطلوبغا البدرى ، واستقر به أمير مجلس عوضا عن يبلغا السـابقى . ثم خلع على الأمير طشتمر العلائى ، واستقر به نائب الشام ، ورسم له بأن يخرج من القاهرة فى يومه . وخلع على الأمير اياس الصرغتمشى ، واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن طشتمر العلائى . وخلع على الأمير أينبك البدرى ، واستقر به أمير أخور كبيرا عوضا عن الأمير بهادر الجمالى . وأنعم على الأمير بلاط السيفى الجاى بتقدمه ألف ، وكذلك الأمير دمرداش اليوسفى ، وكذلك الأمير يلبغا النظامى ، وكذلك الأمير الطنبغا السلطانى .

وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء بأمريات طبلخانات وأمريات عشراوات .

فأما الأمراء الطبلخانات فهم بيقجا الجمالى ، وقطلوبغا البشيرى ، وقطلو بك النظامى ، وأحمد ابن التركمانى ، وقطلو تجاه أخو أينبك البدرى ، وتمربغا البدرى ، والطنبغا المعلم اليلبغاوى ، وبلكتمر المنصورى ، ومقبر الرومى ، واستبغا الدارمى ، وأطلمش الطازى ،واربغا السيفى جبغا ، وابراهيم بن قلقتمر العلائى ، وعلى بن أقتمر عبد الغنى ، واستبغا النظامى ، وماتمور القلمطارى ، واطلمش الأرغونى .

وأما العشراوات فمنهم : محمد بن قرطاى الطازى ، وخضر بن الطنبغا السلطانى ، ومحمد بن شعبان بن يلبغا العمرى ، وتكا الشمسى ، واستبغا المحمودى ، وطيبغا المحمدي ، وتلكتمر المنجكى ، وأقبغا السيفى الجاى ، وچركس السيفى الجاى — وهو الذى خنق الملك الأشرف شعبان — وطقتمش السيفى يلبغا ، وطوغان العمرى الشاطر ، وخليل بن أستدمر العلائى ، ورمضان بن صرغتمش الناصرى ، وأخوه حسن ، ويوسف بن شادى ، وخضر الرسولى ، وقطلوبغا أمير علم ، وسودون العثمانى شاد الزردخاناه ، وأستمر الشرفى ، ومنكلى بغا الطرخانى ، ومغلطاى الشرفى .

ثم نفى جماعة من الأمراء ، وأفرج عن جماعة منهم ممن كان فى السجن بثغر الاسكندرية من أيام الأشرف شعبان .

سنة تسع وسبعين وسبعمائة (١٣٧٧ / ٧٨ م) :

فيها فى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر صفر عمل المقر السيفى قرطاى الطازى رأس نوبة النوب وليمة ، فأهدى اليه المقر السيفى أينبك أمير أخور شش ، وعمل له فيه بنجا مرقدا ، فلما شرب منه الأمير قرطاى تبنج ونام حتى طلعت الشمس ، فركب الأمير أينبك البدرى ولبس آلة الحرب وطلع الى الرميلة هو ومماليكه ، والتف عليه جماعة من الزعر والعياق ، فلما طلع النهار نزل السلطان المنصور الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربيا ، فطلع بقية الأمراء واجتمع المماليك السلطانية ، فأقام الحرب بينهم عمالا الى يوم الاثنين ثانى عشرى صفر .

فلما طار البنج من رأس الأمير قرطاى وصحا من سكره ، ركب واجتمع بالأمراء فأشاروا عليه بأن يرسل فيسأل فضل السلطان فى ذلك بأن يكون نائب حلب ، فأرسل يسأل السلطان فى ذلك ، فأرسل له السلطان خلعة بأن يكون نائب حلب ، ورسم له بأن يخرج من يومه ، فخرج وتوجه الى نحو سرياقوس ... فلما أن خرج الأمير قرطاى أمسك السلطان جماعة من الأمراء ممن كان من عصبة الأمير قرطاى . ثم ان الأمير أقتمر الحنبلى نائب السلطنة أشار على السلطان بأن يقبض على الأمير أينبك البدرى .

فلما كان يوم الثلاثاء الثانى[1] والعشرين من صفر ركب الأمير أقتمر الحنبلى نائب السلطنة ليسير نحو المطرية ، فأرسل اليه الأمير أينبك البدرى هناك جماعة بخلعة وقال له : « توجه من هناك الى دمشق واستقر نائب الشام ، وان رجعت الى بيتك فى هذا اليوم قتلتك » ... فما وسع الأمير أقتمر الا الطاعة ، وتوجه من هناك الى الشام . فلما توجه الأمير أقتمر الى الشام ، عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير أينبك البدرى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن الأمير طشتمر المحمدى المعروف باللفاف ، وقبض على الأمير طشتمر اللفاف ونفاه الى القدس بطالا ، ثم أفرج عن الأمير أقتمر عبد الغنى وأعاده الى نيابة السلطنة كما كان أولا عوضا عن الأمير أقتمر الصاحبى

(١) كذا فى الاصل . وهو يعنى « الثالث »

الشهير بالحنبلى ، وخلع على الأمير الطنبغا السلطانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير قطلوبغا البدرى ، وخلع على الأمير دمرداش اليوسفى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير قرطاى الطازى ، ثم نفى جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وأنعم على جماعة كثيرة من غيرهم باقطاعاتهم ، وخمدت هذه الفتنة .

ثم ان الأتابكى أينبك البدرى وقع بينه وبين الخليفة المتوكل على الله أمور ، وخلعه من الخلافة وولى زكريا بن ابراهيم بن عم المتوكل على الله من غير مبايعة ولا عهد ، وتلقب زكريا بالمعتصم بالله ، وكانت ولايته من نوع التعصب على المتوكل ، واستمر الحال ساكنا .

ثم ان الأتابكى أينبك أسكن جماعة من مماليكه فى مدرسة السلطان حسن ، وأسكن جماعة من مماليكه أيضا فى مدرسة الأشرف شعبان التى كانت فى رأس الصوة ، وصار يتصرف فى أمور المملكة بحسب ما يختار من ذلك . وكان له ولد صغير فأعطاه تقدمة ألف .

ولم يزل على ذلك حتى جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن النواب جميعا خامروا وخرجوا عن الطاعة . فلما تحقق الأتابكى أينبك ذلك علق من يومه الجاليش السلطانى على الطبلخانات ، وعين الأمراء والعسكر الى التجريدة نحو بلاد الشام . ثم انه عرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج مسرعا على جرد الخيل ، وأخذ معه السلطان الملك المنصور عليا فى محفة ، وخرج فى تاسع عشر ربيع الأول من السنة المذكورة وتوجه الى هناك .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى السابع والعشرين من تموز من الشهور الرومية ، أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا شديدا برعد وبرق حتى سال المطر كالغدران . ولما أراد السلطان أن يخرج الى التجريدة فصل الخليفة زكريا من الخلافة ، وولى محمدا المتوكل كما كان أولا ، وأخذه معه فى التجريدة ، فكانت مدة الخليفة زكريا فى الخلافة عشرين يوما لا غير ، وأعيد المتوكل الى الخلافة كما كان . فكانت خلافة زكريا كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم .

فلما رحل السلطان من القاهرة ووصل الى بلبيس رجع الى القاهرة على حين غفلة . وكان سبب ذلك أن الأمير قطلوفجاه — أخا الأتابكى أينبك البدرى — كان فى الجاليش قدام العسكر ، فبلغه أن جماعة من المماليك السلطانية قصدوا أن يكبسوا عليه ليقتلوه ، فهرب تحت الليل هو وثلاثة من الأمراء ودخلوا الى القاهرة . فلما تحقق أينبك ذلك ، وأن العسكر قد انقلبوا عليه ، أخذ السلطان الملك المنصور عليا ورجع الى القاهرة فطلع السلطان الى القلعة وقد ماجت المدينة وكثر القال والقيل بين الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثالث ربيع الآخر من السنة المذكورة رجع الأمراء والعسكر الذين كانوا صحبة السلطان فدخلوا الريدانية ، وهم على حمية ، فلبسوا آلة الحرب من وقتهم واجتمعوا فى سوق الخيل . وكان العسكر جميعهم مقلوبا على الأتابكى أينبك البدرى . فلما تحقق أينبك أن الركبة عليه ، نزل من القلعة هو وجماعة من الأمراء والمماليك السلطانية فوقعوا مع العسكر الذين فى الرميلة ، فكان بينهم واقعة عظيمة حتى جرى الدم مثل الماء ، فانكسر الأمير قطلو فجاه أخوه الأتابكى أينبك ، وقبضوا عليه . فلما رأى الأتابكى أينبك ذلك ساق فرسه وهرب من باب القرافة وتوجه الى نحو الكيمان التى بمصر العتيقة ، فساق خلفه الأمير أيدمر الخطائى مع جماعة من الأمراء والمماليك

السلطانية فأدركه ، فنزل عن فرسه ورمى ملابسه بين الكيمان وهرب وهو ماش فاختفى هناك .

فلما هرب أينبك طلع الأمراء الى باب السلسلة ، وصار المتحدث يومئذ فى أمور المملكة المقر السيفى قطلقتمر العلائى الطويل ، فملك باب السلسلة وأقام بها ، فاجتمع الأمراء وضربوا بينهم مشورة ، وطلعوا الى باب السلسلة ، وقبضوا على الأمير قطلقتمر العلائى وقيدوه .

ثم فى صبيحة يوم الأحد ظهر الأتابكى أينبك فى مكان فى كوم الجارح ، فأرسل الأمير يلبغا الناصرى فقبض عليه وقيدوه ، وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته . وفيه يقول الشيخ شهاب الدين ابن العطار المصرى رحمه الله :

من بعد عز قد ذل أينبكا
وانحط بعد السمو من فتكا
وراح يبكى الدماء منفردا
والناس لا يعرفون أين بكى

فلما توجه أينبك الى السجن جرى له ماجرى ، واتنفى مع الجماعة من الأمراء .

وأينبك هذا هو صاحب الدرب الذى فى السبع سقايات .

ثم ان جماعة من الأمراء لبسوا آلة الحرب وافتتنوا فى بعضهم ، وكان رأس الفتنة الأمير برقوق العثمانى ، والأمير بركة الجوبانى ، والأمير يلبغا الناصرى ، والأمير بورى الحلبى الأحمدى — وهو صاحب الدرب المنسوب اليه — والأمير أقبغا آمن الشيخونى ... فاتفق هؤلاء الأمراء مع جماعة من الأمراء ، فانكسر منهم طائفة وهم : الأمير دمرداش اليوسفى ، والأمير تمربای الحسينى ، والأمير قطلوبغا الشعبانى ، والأمير دمرداش اليمان تمرى العلم ، والأمير أستدمر العثمانى ، والأمير يجمان العلائى أمير مشوى ، والأمير استبغا التلكى . فلما انكسر هؤلاء الأمراء ، قبضوا عليهم وقيدوهم وأرسلوهم الى السجن بثغر اسكندرية .

ثم ان الأمير يلبغا الناصرى أقام فى باب السلسلة ، وملك الاسطبل السلطانى ، وصار يحكم فيه بين الناس . فاستمر على ذلك سبعة أيام فلم يطق ذلك الأمير برقوق والأمير بركة ، فهجموا على الأمير يلبغا الناصرى وقت الظهر ، وأنزلوه من باب السلسلة الى بيته فأقام به .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على المقر بركة واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير الطنبغا السلطانى .

ثم أرسل خاصكيا مطردا على جرد الخيل ليحضر المقر السيفى طشتمر نائب الشام ، فلما حضر خرج السلطان الى تلقيه وسائر الأمراء ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أينبك البدرى .

ولما أن حضر الأمير طشتمر نائب الشام حضر صحبته جماعة من الأمراء الذين كانوا بدمشق وهم : الأمير تمربای الدمرداش ، والأمير تغرى برمش العلائى ، والأمير سودون الشيخونى ، والأمير طقتمش اليلبغاوى . فلما حضروا أنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف ، وخلع على الأمير تمربای الدمرداشى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير دمرداش اليوسفى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا مسجونين بثغر الاسكندرية ، وهم : الأمير سودون المنجكى ، والأمير قطلوبغا

البدرى ، والأمير الطنبغا السلطانى ، والأمير اياس الصرغتمشى ، والأمير قطلو بغا البشيرى ، والأمير أصبغا الناصرى الصارمى — وهو صاحب الحوض المنسوب اليه — وغير هؤلاء جماعة كثيرة ممن كان منفيا فى البلاد الشامية وغيرهم .

وفيها — فى ثالث عشر شوال — توجه الأمير بلاط السيفى الجاى أمير حاج الى نحو الربيع بشبرمنت . فلما أقام هناك أرسل اليه السلطان خلعة ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس يستقر بها نائبا ، فأجاب بالسمع والطاعة ، وخرج من هناك من يومه . فلما وصل الى غزة رسم له بأن يقيم فى القدس بطالا .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير يلبغا الناصرى واستقر به أمير سلاح عوضا عن بلاط السيفى الجاى .

وفيها ثارت فتنة بين مماليك الأتابكى طشتمر وبين مماليك الأمير الزينى بركة الجوبانى ، فلبسوا آلة الحرب وتقاتلوا فى الرميلة أشد القتال . فلما طال الأمر بينهم ركب الأتابكى طشتمر بعد العصر وطلع الى باب السلسلة عند المقر السيفى برقوق أمير آخور كبير . فلما طلع اليه قبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية هو وأمير حاج بن مغلطاى .

فلما مضى ذلك عمل السلطان الموكب وخلع على المقر السيفى برقوق العثمانى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن طشتمر العلائى ، وخلع على المقر السيفى أيتمش البجاشى واستقر به أمير أخور كبير عوضا عن برقوق . ثم ان الأتابكى برقوق قبض على الأمير يلبغا الناصرى أمير سلاح ، وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على المقر السيفى اينال اليوسفى واستقر به أمير سلاح عوضا عن يلبغا الناصرى .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى ليلة الأحد الخامس والعشرين من ذى الحجة وقع حريق بظاهر باب زويلة عند باب دار التفاح ، فاحترق دار التفاح والربع الذى كان حوله ، ووصلت النار الى البراذعيين ثم الى الموازينيين ، ولولا سور القاهرة لاحترق نصف المدينة فى تلك الليلة . فلما زاد الأمر ركب الأمير بركة والأمير أيتمش البجاشى ، والأمير قرا دمرداش الأحمدى ، والأمير تغرى برمش حاجب الحجاب ... فاجتمعوا هناك هم ومماليكهم وأخذوا السقائين من بيوتهم وصاروا يطفئون النار وهى لا تزداد الا وهجا واشتعالا ، فأقامت النار وبات الناس على وجل من ذلك ، وأعيوا عن اطفائها ، فأقامت على ذلك يومين بلياليهما والناس مائجة على بعضها . وفى ذلك يقول الشيخ شهاب الدين بن العطار فى المعنى :

أرتنا دار تفاح بليل
حريقا وقده أمسى عظيما
ونالت بعد ذاك النور نارا
وكانت جنة فغدت جحيما

وقال الشيخ زين الدين بن حبيب الحلبى :

بباب زويلة وافى حريق
أزال معانى الحسن المصون
ودمر كل عال من بناء
وصير كل عال مثل دون
وعبرة عبرة الرائين أجرى
يقينا كالعيون من العيون
وما برح الخلائق فى ابتهال
لمحيى الأرض من بعد المنون
الى أن قال فى لطف خفى
وفضل عناية : يا نار كونى

فاحترق فى ذينك اليومين أكثر من خمسمائة دار ودكان ، حتى لطف الله تعالى وانطفأت النار .

سنة ثمانين وسبعمائة (٧٩/١٣٧٨ م) :

فيها — فى سادس ربيع الأول — قبض الأتابكى برقوق على جماعة من الأمراء ، وهم : الأمير الطنبغا العلائى ، والأمير قطلوبغا أمير علم ، والأمير استبغا التلكى ، والأمير بلك الأحمدى ، والأمير غريب الأشرفى ، والأمير جوبان الطيدمرى ، والأمير ثمان تمر العثمانى ، والأمير قرطقا بن صوصون ، والأمير يجمان العلائى أمير مشوى ، والأمير أقبغا بلشون ... فلما قبض على هؤلاء الأمراء قيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى يوم الاثنين رابع عشرى شعبان ركب الأتابكى برقوق ليسير نحو المطرية ، وكان الامير بركة الجوبانى مسافرا فى اقطاعه نحو البحيرة ، فاغتنم الأمير اينال اليوسفى أمير سلاح هذه الفرصة ، فركب هو ومماليكه ولبسوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة ، فتسامعت به جماعة من الأمراء ، فركبوا وطلعوا الى الرميلة . وكان الذين ركبوا مع الأمير اينال اليوسفى هم الأمير سودون جركس المنجكى ، والأمير سودون النوروزى ، والأمير صصلان الجمالى ، والأمير جمق الناصرى ، والأمير حطط ، وغير ذلك من المماليك السلطانية ... فاجتمعوا فى الرميلة .

ثم ان الأمير اينال اليوسفى حطم وطلع الى باب السلسلة وجلس فى الحراقة التى فى الاصطبل ، ثم انه فتح زردخانة الأتابكى برقوق وأخرج ما فيها من السلاح ، ووجد بعض مماليك صغار من مماليك برقوق فألبسهم آلة الحرب وأوقفهم على سور باب السلسلة فقال الأمير سودون المنجكى للأمير اينال : « دعنى آخذ معى جماعة من المماليك وأخرج الى برقوق وأقاتله حتى أن يرجع » ... فلم يوافقه الأمير اينال على ذلك ، ولو فعله لكان صوابا .

فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك ، رجع من أثناء الطريق ، ودخل الى بيت الأمير أيتمش البجاشى ، فقام الأمير أيتمش وفتح زردخاناته وألبس مماليكه ومماليك الأتابكى برقوق ، وخرجوا على حمية ، وطلعوا الى الرميلة ، فوقعوا مع الأمير اينال اليوسفى والأمير سودون المنجكى وبقية الأمراء واقعة قوية ، وقتل فيها جماعة من المماليك السلطانية .

ثم ان برقوق حاصر باب السلسلة ، فلما رأى مماليك برقوق الذين أقعدهم الأمير اينال على سور باب السلسلة أستاذهم يحاصر باب السلسلة رموا الأمير اينال بالنشاب وهو جالس فى الحراقة ، فجاءت نشابة فى رقبة الأمير اينال فتأثر لها ، فقام من وقته وهرب من باب الاصطبل الذى فى باب القرافة ، فاختفى هناك فى بعض الترب ، فطلع الأتابكى الى باب السلسلة وملكه ، وانفض ذلك المجمع .

ثم فى أواخر النهار قبض بعض المماليك على الأمير اينال اليوسفى والأمير سودون المنجكى وأحضروهما بين يدى الأتابكى برقوق ، فقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . وفى ذلك يقول ابن العطار :

قد ألبس الله برقوقا مهابته
نهار الاثنين فى عز وتمكين

وراح اينال مع سودون وانكسرا
وكان يوما عسيرا يوم الاثنين

وقوله أيضا فيه :

بغى اينال واعتقد الأمانى
تساعده فما نال المؤمل

ومد لأخذ برقوق يديه
ولم يعلم بأن الخوخ أسقل

وكان الأمير اينال صاحب الأمير بركة ، ولما جرت هذه الحركة كان الأمير بركة غائبا فى البحيرة كما تقدم ؛ فلم يجد له اينال من ناصر ولا معين على ما جرى له . وفى ذلك يقول شهاب الدين بن العطار رحمه الله :

ما بال اينـال أتى فى مثل هذى الحركه
مع علمـه بأنهـا خاليـة من بركه

ثم ان السلطان عمل الموكب وقبض على جماعة من الأمراء ، منهم : الأمير سودون جركس المنجكى والأمير سودون النوروزى ، والأمير صصلان الجمالى ، والأمير جمق الناصرى ، والأمير قمارى الخازندار ... فلما قبض عليهم قيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، فهذا ما كان من حوادث سنة ثمانين وسبعمائة .

سنة احدى وثمانين وسبعمائة (١٣٧٩/٧٨٠ م) :

فيها ــ فى يوم الأربعاء سابع عشر صفر ــ أرسل الأمير بركة يقول للأتابكى برقوق ان الأمير أيتمش البجاشى ألبس مماليكه آلة الحرب ، وهو قاصد الركوب ، فاضطرب الأتابكى برقوق من ذلك وأرسل الى بيت أيتمش يكشف عن ذلك الخبر ، فلم يجد لهذا الكلام صحة ولا خبرا .

فلما بلغ الأمير ايتمش ذلك ركب وطلع الى الأتابكى برقوق فى باب السلسلة . ثم ان برقوق أرسل يطلب الأمير بركة بأن يطلع الى باب السلسلة ويحقق ما ذكره فى أمر ايتمش ، فأبى الأمير بركة من الطلوع الى برقوق ، فترددت بينهم الرسل ، والأمير بركة يمتنع من الصلح مع الأمير ايتمش .

ثم ان الأتابكى برقوق أرسل الى الشيخ أكمل الدين الحنفى شيخ الخانقاه الشيخونية ، والى الشيخ أمين الدين الخلوتى بأن يركبا ويتوجها الى الأمير بركة ويسعوا فى الصلح بين الأمير بركة وبين الأمير ايتمش البجاشى ، فتوجه الأمير ايتمش صحبة الشيخين ودخلوا الى بيت الأمير بركة ، فما وسع الأمير بركة الا أنه خلع على الأمير ايتمش خلعة نح ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فطلع الأمير أيتمش وقبل يد الأتابكى برقوق ، وخمدت الفتنة التى كانت .

فلما كانت ليلة الجمعة تاسع عشر صفر ركب جماعة من الأمراء ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة . وسبب ذلك أن الأمير بركة ألبس مماليكه آلة الحرب وقصد الركوب . فلما تحقق الأمراء ذلك ركبوا قاطبة ، وطلعوا الى الرميلة واضطربت الأحوال ، فعند ذلك أرسل الأتابكى برقوق خلف القضاة الأربعة ورسم لهم بأن يتوجهوا الى بيت الأمير بركة ، ويسعوا بينه وبين الأمراء فى الصلح واخماد الفتنة ، فأصلح القضاة بينهم ، وتحالفوا وزال ما كان فى خواطرهم من الحقد ، وطلعوا الى القلعة فى يوم السبت ولعبوا الكرة والصولجان ، وأقاموا على ذلك مدة يسيرة والأمر مبنى على السكون .

فلما كان يوم الاثنين سابع ربيع الأول ركب الأتابكى برقوق ليسير نحو المطرية ، وركب معه جماعة من الأمراء ممن كانوا من عصبته . فلما رجعوا ، طلع الأتابكى برقوق الى باب السلسلة ، ورجع الأمراء الذين كانوا معه الى بيوتهم .

ثم ان الأتابكى برقوق جاءه ولد ذكر من سرية فسماه محمدا ، فلما كان يوم سابعه عمل له الأتابكى برقوق عقيقة ، واستدعى سائر الأمراء فلم يتأخر عنه أحد من الأمراء غير الأمير بركة الجوبانى فانه لم يطلع اليه ــ وكانت قد دبت بينهما عقارب

الفتن — وكان الأمير بركة صاحب الأتابكى برقوق صحبة مؤكدة لا يعرف أحد ما بينهما ، فلا زال الأمراء يرمون بينهما الفتن حتى أوقعوا بينهما ، وصار كل منهما عدوا لصاحبه ، كما قيل : « سئل بعض الحكماء : كيف يمكن أن يبقى الصديق عدوا ولا يمكن أن يبقى العدو صديقا ؟ فقال : لأن تخريب العامر أسهل من عمارة الخراب ، وتكسير الزجاج أسهل من تصحيحه اذا كان مكسورا » ...

فلما تخلف الأمير بركة عن الطلوع الى الأتابكى برقوق ، مد السماط ، وأكل الأمراء ونزلوا الى بيوتهم ، فقبض الأتابكى فى ذلك اليوم على ثلاثة من الأمراء ممن كان من عصبة الأمير بركة — وهم : الأمير قرا دمرداش الأحمدى ، والأمير طيح المحمدى والأمير أقتمر العثمانى — وأمسك معهم أخا الأمير بركة ، وهو صراى الرجبى الطويل .

ثم ان الأتابكى برقوق ألبس مماليكه آلة الحرب وأوقفهم على سور باب السلسلة ، ونزل الأمير نزلار العمرى وهو سائق الى مدرسة السلطان حسن ، فدخلها مع مماليك الأتابكى برقوق ، فطلعوا الى سطح المدرسة ، ورموا بالنشاب على الأمير بركة وهو جالس فى مقعده ... وكان الأمير بركة ساكنا فى بيت شيخو الذى عند باب الرميلة .

فلما رأى الأمير ذلك ركب وخرج من الباب الكبير الذى بحدرة البقر هو ومماليكه لابسين آلة الحرب — وكان معه بعض أمراء — فمر بالمدينة وخرج من باب الفتوح وتوجه من هناك الى نحو قبة النصر . ولما خرج الأمير بركة من بيته نادى الأتابكى برقوق للعوام بأن ينهبوا بيت الأمير بركة ، فأحرق العوام باب بيت بركة ، ودخلوا اليه ، و نهبوا جميع ما كان فيه حتى أخذوا رخامه وأبوابه وشبابيكه .

ثم ان الأمير بركة أقام فى قبة النصر ذلك اليوم فاجتمع عنده طائفة كثيرة من خشداشينه .

ثم ان الأتابكى برقوق عين الأمير آلان الشعبانى والأمير أيتمش البجاسى ، والأمير قرطاى التركمانى وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية ، وتوجهوا الى الأمير بركة فى قبة النصر وقت الظهر ، فوقعوا هناك معه واقعة قوية ، فكسرهم الأمير بركة وسحبهم الى تحت القلعة فحال بينهما الليل عن القتال .

فلما أصبحوا يوم الأربعاء تاسع عشرى ربيع الأول نزل السلطان الملك المنصور على الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ودقت الكاسات حربى ، فاجتمع الأمراء والمماليك السلطانية ... فلما كان وقت القائلة بعد الظهر أرسل الأمير بركة يقول للأتابكى برقوق : « ايش أنت قاعد تعمل ؟ اما أن تجيئنى أو أنا أجيئك الى الرميلة » ... فأرسل يقول له الأتابكى برقوق : « اختر أنت فى أى مكان نلاقيك ، ويعطى الله تعالى النصر لمن يشاء وتخمد هذه الفتنة عن المسلمين » .

فلما سمع ذلك الأمير بركة حنق ، وكان السلطان أرسل اليه خلعة وهو فى قبة النصر بأن يستقر نائب طرابلس ويتوجه من هناك ، فلم يوافق الأمير بركة على ذلك ، واستمر القال والقيل بينهما عمالاً .

ثم ان بعض خشداشين الأمير بركة أشار عليه بأن يركب فى ذلك الوقت ويحطم الى الرميلة ، فان العسكر الذين مع برقوق مقيلون فى هذا الوقت فى بيوتهم ، والرميلة خالية من العسكر ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ... فركب الأمير بركة فى ذلك الوقت وقسم العسكر الذين معه فرقتين ، وأمر فرقة أن تمضى من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة تمضى الى الرميلة .

فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك أرسل جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية الى الفرقة التى فيها الأمير بركة ، فلاقوه بين الترب فوقعوا معه هناك واقعة قوية من بعد الظهر الى قرب المغرب ، فانكسر الأمير بركة وهرب ، وتفرق من كان معه من العسكر من شدة الحر .

ثم ان طائفة من المماليك سحبوا الأمير بركة حتى تقنطر من على فرسه ، فقام وهرب وهو ماش حتى اختفى .

وأما الفرقة التى أرسلها من تحت الجبل الأحمر فانه كان فيها الأمير يلبغا الناصرى أمير سلاح ، فتوجه اليه الأمير أيتمش البجاشى ووقع معه ، وتقدم اليه الأمير أيتمش وضربه بطبر كان معه على وجهه فسقط الى الأرض مغشيا عليه وانكسر من كان معه من العسكر ، فنهب الزعر العسكر الذين كانوا مع يلبغا ، وقتل من المماليك الذين كانوا معه ما لا يحصى ومن الغلمان كذلك ، فأخذ الأمير أيتمش صنجق يلبغا الناصرى وطبلخاناته وأتى بهما الى الأتابكى برقوق ، وقبض على جماعة كثيرة من المماليك السلطانية ممن كان راكبا مع الأمير بركة . وجرح فى هذه الواقعة من العسكر والغلمان ما لا يحصى .

وقيل : لما هرب الأمير بركة اختفى فى بستان حتى دخل الليل — وكان معه شخص من الأمراء العشراوات يقال له أقبغا ميوان — فتوجه الأمير بركة الى شخص من الصالحين يقال له الشيخ محمد المقدسى ، وكان مقيما فى جامع المقس الذى فى باب البحر ، فاختفى بركة عنده ، فلما طلع النهار أرسل الأمير بركة يعرف الأتابكى برقوق بأنه فى جامع المقس عند الشيخ محمد المقدسى ، فأرسل اليه الأتابكى برقوق فى ساعته الأمير الطنبغا الجوبانى ، والشرفى يونس دوادار الأتابكى برقوق . فلما دخلا عليه أخذاه وأركباه على فرس وطلعا به الى القلعة ، فلما طلع قيدوه وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية . وفى ذلك يقول ابن حبيب الحلبى :

يا ويحها من حالة وشؤمها من حركه
وقبحها من فتنة فيها أزالت بركه

وقال القيم خلف الغبارى :

مصر صارت بعد انقباض فى انشراح
وقلعها مزخرف والقصور
يا الهى احفظ لنا برقوق
واحرس الجند وانصر المنصور

***

جعل الله لكل وقعة سبب
ونقول لك سبب هذه الوقعه
بركه راد يعمل على أيتمش
والى الشام يسيروا سرعه
طلب الصلح بينهم برقوق
فأرسلوا له اخلع عليه خلعه

***

وبقى بعض ما بقى فى النفوس
والعليل ما اشتفى بغل الصدور
وقد أمسوا على حذر بايتين
وايش يفيد الحذر مع المقدور

***

أصلحوا بينهم نهار جمعه
وصفى ودهم وطابوا الجميع
جا أيتمش عصبة الأمير برقوق
وبقى كل أحد لأمرو مطيع
فمسك فى نهار الاثنين طيح
ودمرداش الدوادار سريع

***

بركه حين سمع بذلك طلب
قبة النصر خوف من المقدور
كان حذور حتى وقع فى الشرك
والمثل قال ما يقع الا الحذور

ولما وقعت هذه الفتنة أقامت أبواب مصر هى والأسواق مقفلة ثلاثة أيام حتى أمسكوا بقية الأمراء الذين ركبوا مع الأمير بركة ، وهم : الأمير قرا كشك اليلبغاوى ، والأمير أيدمر الخطائى ، والأمير سودون الطيقتمرى ، والأمير يلبغا المنجكى ، والأمير قرابلاط الأحمدى ، والأمير قرابغا الأبو بكرى ، والأمير تمربغا الشمسى ، والأمير كرك القرمى ، والأمير قطلو بك النظامى ، والأمير أقبغا صيوان ، والأمير طولوتمنو الأحمدى ، والأمير تنكز العثمانى ، والأمير غريب الأشرفى ، والأمير الطنبغا الأرغونى ، وأمير حاج بن مغلطاى ، والأمير طوجى الحسنى ، ويوسف بن شادى ... فلما أمسك هؤلاء الأمراء قيدوا وأرسلوا الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسلوا طائفة منهم الى ثغر دمياط ، وطائفة منهم الى قوص ، وراقت هذه الفتنة وخمدت .

ثم ان السلطان أفرج عن جماعة من الأمراء ممن كانوا بالسجن معتقلين ، وأنعم عليهم باقطاعات من نفى من الأمراء عوضا عنهم ، واستمر الحال ساكنا .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من الشام بأن نائب الشام بيدمر الخوارزمى خامر وخرج عن الطاعة ، ولما أن خامر قبض عليه عسكر دمشق وقيدوه وسجنوه بقلعة دمشق وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وأنه أخرج بركه وعياله من الشام وقصد الهرب الى نحو بلاد التركمان ، فقبضوا عليه وسجنوه بقلعة دمشق الى أن يفعل فيه السلطان ما يريد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك أرسل يطلب بيدمر الخوارزمى الى القاهرة ، وعين لذلك خاصكيا .

ثم ان السلطان عمل الموكب ، وخلع على الأمير ألان الشعبانى ، واستقر به أمير سلاح عوضا عن يلبغا الناصرى ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوبانى واستقر به أمير مجلس عوضا عن الأمير بركه الجوبانى ، وخلع على الأمير ألان بغا العثمانى واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير الطنبغا المعلم واستقر به رأس نوبة النوب ثانى .

ثم ان السلطان عمل الموكب الثانى وخلع فيه على من يذكر من الأمراء وهم : الأمير جركس الخليلى واستقر به أمير أخور كبير . وخلع على الأمير كمشبغا الأشرفى واستقر به شاد الشربخانات السلطانية . وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بامريات عشرة ، منهم : أقبغا الناصرى المعروف بالقندسى ، ومنهم تنكز بغا السيفى يلبغا ، ومنهم قطلوبغا الكوكاى فخلع عليه واستقر به حاجبا ، ومنهم الأمير سودون باق ، ومنهم طوجى العلائى وفارس الصرغتمشى ، وكشتبغا الخاصكى ، وبيرم العلائى ، وقوصون المحمدى الأشرفى ، وأقبغا الأجنبى ، وبيبرس الثمان تمرى ، وغير ذلك من الأمراء جماعة كثيرة — منهم طبلخانات ومنهم عشراوات — فاستقامت الأحوال ، وسكن الاضطراب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن جاءت الأخبار من البحيرة بأنه قد جاءت على دمنهور طائفة من العربان نحو خمسة آلاف انسان ، وكان كبير العربان يسمى بدر بن سلام ، فكبسوا على دمنهور ونهبوا أسواقها والبيوت ، وأخربوا عدة بلاد . فلما سمع الأتابكى برقوق بذلك عين فى ذلك اليوم ثمانية أمراء مقدمين — وهم الأمير ألان الشعبانى أمير سلاح ، والأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس ، والأمير أيتمش البجاشى رأس نوبة النوب ، والأمير مأمور القلمطاوى أحد المقدمين ، والأمير بلاط الصرغتمشى أحد المقدمين ، والأمير بهادر الجمالى ، والأمير نزلار العمرى الناصرى

أحد المتقدمين — فهذه ثمانية[1] أمراء مقـدمين . وعين من الأمراء الطبلخانات عشرة ، ومن الأمراء العشراوات اثنى عشر ، ومن المماليك السـلطانية نحو أربعمائة مملوك ، وأمرهم بأن يخرجوا من يومهم .

فلما كان يوم الجمعة رابع عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة ، صلى الأمراء صلاة الجمعة وخرجوا قاطبة مع العسكر ، وعدوا من بر مصر الى الجيزة ، فقاسى العسكر مشـقة عظيمة فى التعدية حتى عدوا . فلما تكامل العسكر رحلوا من الجيزة وتوجهوا الى نحو البحيرة . فلما مضى ثلاثة أيام حضر أمير أخور كبير أيتمش البجـاشى وأخبر بأن العسكر لما وصلوا الى البحيرة وضربوا خيامهم وباتوا فى تلك الليلة ، أراد العـرب أن يكبسوا على العسـكر وهم فى الخيـام ، فجاء شخص من العرب الى الأمراء وأخبرهم بأن العرب قصدون أن يكبسوا على العسكر وهم فى الخيام تحت الليل . فلما سمع الأمراء والعسـكر ذلك خرجوا من الخيام تحت الليل وأكمنوا كمينا بالقرب من الخيام . فلما انتصف الليـل هجم العرب على الخيام فوجدوها خالية ليس بها أحد ، فرجع عليهم الترك ولعبوا فيهم بالسيف ، وأحاطوا بهم فقتلوا منهم نحو ألف انسان وأسروا منهم أكثر من ذلك من نساء وصغار وبنات ، ولم ينج منهم الا القليل ، وأخـذوا جمالهم وأغنامهم وخيـولهم وأموالهم وأولادهم .

وأما بدر بن سلام كبير العربان فانه لمـا رأى ذلك هرب تحت الليل الى نحو الجبال . فلمـا حصلت هذه النصرة للعسكر قصدوا التوجه الى نحـو الديار المصرية ، فكان يوم دخـولهم الى القاهرة يوما مشهودا ، فدخلوا بالأسارى وهم فى زناجير ، والنساء فى حبال وهن حاملات أولادهن مشاة ، فلما حصـل ذلك خرج أهل مصر جميعا للفرجة عليهم ، فكان لهم يوم عظيم فى القصقه والفرجة عليهم .

وفى هذه الواقعة يقول القيم خلف الغبارى هذه القطعة الزجل :

باسم رب السما أبتدى ... فارج الهـم والكرب
ويفيـد للذى حضر ... قصـة الترك والعرب

* * *

جاء الخبر يوم الأربعا ... بأن فى ليـلة الأحـد
جا دمنهور عرب خذوا ... سوقها وأخربوا البلد
وابن سـلام أميرهم ... هو الذى للجميع حشد

* * *

فبـرز أيتمش سريع ... بمماليك وروس نوبه
وعدد ما لهـا عـدد ... ويطلبوا لهـم طلب

* * *

والأمارى المعينـين ... كل واحد بجيش بدا
عدا بعد الصلا وراح ... وغدا قصـد للعدا
فى المعـادى رأيت لهم ... يوم زحام فايش غدا

* * *

لتروجا تروحـوا ... واستراحوا من التعب
ونصب كل أحد خيام ... ولصيد العدا انتصب

* * *

حضروا ما التقوا أحد ... من جميع العرب حضر
وابن عرام أتى لهـم ... بعثوه يكشـف الخبر
ماعرف للعـرب طريق ... بعد وجا عبدو فى الأثر

* * *

لأيتمش حدثوا الصحيح ... قام سريع أيتمش ركب
ماترك تركى فى الوطاق ... والخيام حيل قد نصب

* * *

راحت الترك من مكان ... وأتى بدر من مكان
وتفرعن وجا الوطاق ... ولهـم قال أنا فـلان
ولموسى بن خضر صاح ... مات بطعنة من السنان

* * *

(1) لم يذكر سوى سبعة .

ورأى الترك داركوه | فى طلوع النهار هرب
شحتوا أيتمش سريع | ورقاب من معو ضرب

* * *

واقعة حرب ذى العرب | لاغنا مالها نبا
بدر فى الليل بعاديات | جا البلد والنسا سبا
طلبوا النصر جالهم | مالهم فى القصص سبا

* * *

فى القتال كان لهم نهار | لو تراه ساعة اقترب
يوم قيامه وكم عرب | جاثية فيه على الركب

* * *

جس ذى النوب بالسماع | قد فهمنا من الأصول
فى الخروج تابت العرب | فازت الترك بالدخول

* * *

والسهام شببت على | جس الأوتار بالغضب
غنت البيض على الخود | رقصوا الخيل من الطرب

* * *

وابن سلام مع الأجل | فاز بنفسو على فرس
والأمير أيتمش رحل | لتروجا سريع كبس
فى البيوت حارت النفوس | ما التقى حد لو نفس

* * *

نبشوهم من الشون | قببوهم من القبب
وخدوا فضة الجميع | وجميع مالهم ذهب

* * *

وقع القتل فى الرجال | وقد انهتك الحريم
والذى كان مقيم رحل | ما عليها أحد مقيم
وكم انسان بسيف وقوس | ماعرف له هناك غريم

* * *

جبد السيف من الجفير | ولراس من لقيه ضرب
وان حماه مشترى النفاد | سرعا بالقوس عليه عقب

* * *

لما تروا السيوف دما | ساعة النحر فى النحور
اعتقدت انها تحيض | صرت تعجب لذى الأمور
قال فتى بابلى اللحاظ | كيف يحيضو وهم ذكور

* * *

الا ذا ساحر القتال | أيتمش للسيوف كتب
باب نزيف نزت الدما | من مماليكه الجلب

* * *

البحيره من الفتن | سعدها زال واختفى
وبقى فرحها حزن | وقد تكدر الصفا
والناس قالت ايش جرا | والذى قد جرى كفى

* * *

قالوا من تحت راس بحيره | مالو بتقلو قد انتهب
وبنات الخدور سبوا | قلت سبوه فهو السبب

* * *

جا ابن سلام معو رجال | كل حد شمهوتو رغيف
ذا على رقبتو تفال | وذا فى رقبتو شسليف
وذا لو درع سيسبان | وذا الودرع خوص وليف
والقسى قسى من نخيل | وخرائطهم الجعب
وصواريهم الجريد | وخودهم قصع خشب

* * *

فاعل النحس فى القياس | ما عرفه صنعة البنا
جا بنى شىء بلا أساس | هدمت الترك ما بنى
وتروجا المعسره | خربت حسين لها دنا

* * *

قلعوا أبوابها الجميع | والسكفات مع العتب
يمسكوا بدر يعتبوه | وعليه يوقع العتب

* * *

بدر تبت يدا أباه | لصلاح النسا فسد
كم مليحه أتت وفى | جيدها حبل من مسد
ولى قال شخص من حنين | بدر فى ذى الذى قصد

* * *

أبو جهل قلت لا | الا قلبو أبو لهب
قال لى وامرتو ايش تكون | قلت حمالة الحطب

* * *

حسن غلب منى راجحى | وانكسر كسر ما انجبر
قالت أقوام يعد سوه | أنت قيم ديار مصر
جا الحكم طابقى وقال | يا غبارى جرى خبر

* * *

لديار مصر قيمين | فى الزجل ذا يكن عجب
قلت ذا قيم السفه | وأنا قيم الأدب

ومن الحوادث فى هذه السنة قد جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأمير بركة الجوبانى قد مات وهو بالسجن ، فأرسل الأتابكى برقوق دواداره الشرفى يونس لكشف أخبار موته على حين غفلة . فلما توجه الشرفى يونس الى ثغر الاسكندرية وكشف عن ذلك ، وجد خليل بن عرام نائب الاسكندرية قد قتله ودفنه فى بعض الترب هناك ، فنبش عليه الشرفى يونس وأخرجه من القبر فوجد ثلاث ضربات فى رأسه وهو مدفون فى ثيابه من غير غسل ولا تكفين ، فغسله الشرفى يونس وكفنه وصلى عليه ودفنه خارج باب رشيد وبنى عليه قبة وكتب بذلك محضرا .

ثم انه أخذ خليل بن عرام صحبته وأتى به الى القاهرة وهو فى الحديد . فلما حضر الشرفى يونس وطلع الى القلعة أودعوا خليل بن عرام فى خزانة الشمايل وباتوا يعاقبونه ويعصرونه لأنه قد قيل عنه انه لما قتل الأمير بركة كان فى رأسه فصوص مثمنة فأخذها منه ، فلم يقر ابن عرام بشىء من ذلك .

فلما كان يوم الخميس خامس عشرى رجب طلب الأتابكى برقوق خليل بن عرام فأخرجوه من خزانة الشمايل ، ومثل بين يدى الأتابكى برقوق ، فرسم بضربه بالمقارع فضرب ستة وثمانين شيبيا ثم رسم بتسميره ، فأخذه الأمير مأمور القلمطاوى حاجب الحجاب والأمير قطلقتمر أمير جاندار ، فأحضر له جملا ولعبه وسمروه عليه ، فلما نزلوا به من القلعة وهو مسمر ، ووصلوا به الى باب السلسلة ، جاء اليه مماليك الأمير بركة وضربوه بالسيوف حتى مات ، ثم أنزلوه من على الجمل ، وصاروا يقطعونه بالسيوف قطعا ، فقطع بعضهم رأسه وأخذها وعلقها على باب زويلة ، وصار كل واحد من مماليك بركة يقطع من أعضائه قطعة ، وقيل ان بعض المماليك شق بطنه بالسيف وأخرج كبده وجعل يمضغه من شدة حنقه . ثم ان بعض الناس جمع أعضاء خليل بن عرام ودفنها فى مدرسته التى أنشأها عند قنطرة الأمير حسين بن جندر على الخليج الحاكمى ...وصارت هذه الواقعة مثلا عند أهل مصر ، يقولون : « نعوذ بالله من حمول ابن عرام » ...

وكان الأتابكى برقوق أرسل الى ابن عرام مراسيم فى الدس بقتل الأمير بركة ، فأنكر برقوق ذلك وأرسل أخذ منه تلك المراسيم ، وراحت هذه الواقعة فى رقبة ابن عرام وراح مظلوما فى ذلك بين برقوق ومماليك الأمير بركة .

وقد قال بعضهم فى المعنى :

مخالط السلطان فى محنة
يرتقب الأوقات فى عكسه
ان سره أسخط خلاقه
أوساءه خاف على نفسه

وفى واقعة خليل ابن عرام يقول شهاب الدين بن العطار المصرى رحمه الله :

بدت أجزا ابن عرام خليل
مقطعة من الضرب الثقيل
وأبدت أبحر الشعر المراثى
محررة بتقطيع الخليل

وقيل ان الشيخ يحيى الصنافيرى والشيخ بهار ، بشرا عن خليل بن عرام أنه ما يموت الا مسمرا مقطعا . وقال المقريزى ان خليل بن عرام كان شرع قبل موته فى كتابة تاريخ يذكر فيه أشياء من وقائع الأحوال ، فلماجرى له ماجرىقال فيه ابن العطار :

أيا ابن عرام قد سمرت مشتهرا
وصار ذلك مكتوبا ومحسوبا

مازلت تجهد فى التاريخ تكتبه
حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا

ومن الحوادث فى هذه السنة أن فى يوم الثلاثاء ثامن ذى القعدة حضر من بلاد الچراكسة والد الأتابكى برقوق ، فخرج الناس لملاقاته قاطبة ، فلاقوه من العكرشة — وقيل هو المكان الذى التقى فيه يوسف الصديق مع أبيه يعقوب عليهما السلام — فلما تلاقى برقوق مع أبيه تعانقا ثم ركبا ورجعا الى سرياقوس ، فمد له برقوق هناك سماطا عظيما ، وأقاما فى سرياقوس الى ما بعد الظهر ، فجاءت اليه سائر الأمراء وأرباب الدولة حتى القضاة الأربعة .

ثم ان الأتابكى برقوق ركب من سرياقوس ودخل القاهرة ، فدخل من باب النصر ، وزينت له المدينة فشق من القاهرة وطلع الى القلعة .

وكان والد الأتابكى برقوق جركسيا مغلقا ، لا يعرف ولا كلمة بالعربى . وكان اسمه « أنص » ، وقيل « أنس » بالسين . فلما كان يوم الموكب تقدم أيدمر الشمسى أحد الأمراء المقدمين وقبل الأرض ، وسأل الأتابكى برقوق بأن يكون طرخانا ويرتب له ما يكفيه ، وأن تكون امريته الى والد الأتابكى برقوق ، فشكره الأتابكى على ذلك ورتب له ما يكفيه وجعله طرخانا كما طلب ، وأنعم السلطان بامريته على والد الأتابكى برقوق ، فلم يقم الأمير أيدمر الشمسى بعد ذلك الا ثلاثة أشهر ومات ، واستمر والد برقوق مقدم ألف .

وفى هذه السنة شرع الأتابكى برقوق فى عمارة جسر الشريعة الذى بطريق الشام عند قرية أريحا على النهر الذى هناك ، وجعل طوله مائة وعشرين ذراعا وعرضه نحو عشرين ذراعا ، فصرف على ذلك جملة مال ، وكان به نفع عظيم للمسافرين ، وقد قيل فى المعنى :

أيا ملكا بنى جسرا بعدل
به حمل الأنام على الشريعة
له شُرف على الجوزاء سام
وفوق الحوت أركان منيعة

وفى هذه السنة توفى الشيخ ابراهيم المعمار صاحب الأشعار اللطيفة والأبيات العامرة بالمحاسن والتورية ، وقد رثاه الشيخ برهان الدين القيراطى بهذه الأبيات فقال :

مذ عمر المعمار دار البلى ... رمى بيوت النظم بالنقض
فياله من شاعر ميت ... بكت عليه طوبة الأرض

سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة (٨١/١٣٨٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من البحيرة بأن سائر قبائل عربان البحيرة تحالفوا على العصيان ونهبوا البلاد ، فخرج اليهم ألان الشعبانى أمير سلاح مع خمسمائة مملوك . فلما وصلوا اليهم وقع معهم ، فكسره العرب وقتلوا جماعة كثيرة من المماليك السلطانية .

فلما جاءت الأخبار بذلك اضطربت أحوال الديار المصرية ، وعلق السلطان الجاليش ، وقصد التوجه الى البحيرة . ثم ان بعض الأمراء أشار بعدم خروج السلطان ، وأن سائر الأمراء يخرجون اليهم ، فجاءت الأخبار عن ذلك بأن نائب الاسكندرية حضر هناك وصحبته عربان كثيرة من عربان الغربية ، فوقعوا مع العربان فكسروهم كسرة قوية وهربوا الى نحو برقة ، فبطل العسكر الذين كانوا قد توجهوا اليهم .

وفيها توفى الأديب أحمد سميكة ، وكان شاعرا ماهرا فى طبقة ابراهيم المعمار ، ومن شعره قوله :

شهر الصيام مبارك ... لو لم يكن فى شهر آب
خفت العذاب فصمته ... فوقعت فى وسط العذاب

سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) :

فيها هجم الوباء بالديار المصرية ، ووقع الغلاء أيضا فى تلك السنة .

وفيها حضر الى القاهرة الشيخ الصالح الزاهد الناسك العارف بالله تعالى الشيخ على الروبى ، أعاد الله علينا من بركاته . فلما حضر عند الأتابكى برقوق ، وأقام عنده يومين ، بشره من نفسه بأنه سيلى السلطنة فى يوم الأربعاء تاسع عشر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة . ومما بشر به الناس أن بعد مضى شهر يرتفع الوباء من القاهرة ، ويتناقص الغلاء ، ثم يموت عقيب ذلك الملك المنصور على بن الأشرف شعبان .

وأقام الشيخ على الروبى فى مصر أياما ثم توجه الى بلاده ، فما مضى قليل حتى أشيع بين الناس أن الملك المنصور عليا قد طعن وهو فى حال العدم .

فلما كان يوم الأحد ثالث عشرى صفر فيه توفى الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، وكانت وفاته بعد الظهر ودفن فى يومه ، وتولى تجهيزه الأمير قطلو بغا الكوكاى ، فغسله وكفنه وصلوا عليه بالقلعة ودفنوه فى مدرسة جدته خوند بركة أم الملك الأشرف شعبان التى بالتبانة .

ومات الملك المنصور على وله من العمر نحو اثنتى عشرة سنة ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية خمس سنين وثلاثة أشهر ونصفا . وكان جميل الصورة ، حسن الشكل ، قليل الأذى فى حق الرعيه . وكان مع الأتابكى برقوق فى غاية الضنك ، ليس له فى السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للاتابكى برقوق .

ولما مات الملك المنصور على لم يجسر برقوق أن يتسلطن بعده ، فأخرج سيدى أمير حاج أخا الملك المنصور على وسلطنه عوضا عن أخيه على .

الملك الصالح أمير حاج

هو الملك الصالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأمجد حسين ، ابن محمد بن قلاون ، وهو الرابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . بويع بالسلطنة بعد موت أخيه الملك المنصور على فى يوم الاثنين رابع عشرى صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة (١٣٨١ م) . وتولى الملك وله من العمر نحو احدى عشرة سنة .

وكانت صفة ولايته أن أمير المؤمنين محمدا المتوكل حضر والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وسائر الأمراء ، فاجتمعوا عند باب الستارة وطلبوا من بقى من أولاد الملك الأشرف شعبان ، فوقع الاتفاق على تولية سيدى أمير حاج — وكان أكبر اخوته — فولوه السلطنة ولقبوه بالملك الصالح ، وأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها . وركب من باب الستارة والأمراء مشاة بين يديه حتى وصل الى الايوان ، فجلس على سرير الملك ، والأتابكى برقوق حامل القبة والطير على رأسه ، ثم دخل الى القصر ومد السماط ونادى باسمه فى القاهرة وضج الناس له بالدعاء .

فلما تم أمره فى السلطنة رسم بالافراج عن بيدمر الخوارزمى نائب الشام — وكان معتقلا بثغر دمياط — فلما حضر خلع عليه واستقر به نائب الشام على عادته .

ثم جاءت الأخبار من البلاد الحلبية بأن طائفة من التركمان نهبوا بعض ضياع حلب وحصل منهم غاية الفساد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك عين لهم تجريدة ، وخرج اليهم ثلاثة من الأمراء المقدمين وخمسمائة مملوك ، فلما توجهوا الى هناك التقوا

مع التركمان وكسروهم ، وقتلوا منهم جماعة كثيرة ، ونهبوا أموالهم وطردوهم الى ملطية ، ثم رجع العسكر الى القاهرة وهم فى غاية النصرة .

وفيها توفى الشيخ نظام الدين ، وهو صاحب النظامية التى بطاوق جبل القلعة .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير حسّن للأتابكى برقوق وجماعة من الأمراء أن يعمل جسرا ما بين الروضة وبين جزيرة أروى — وكان البحر قد احترف فى تلك السنة احترافا زائدا — فحفروا فى وسط البحر خليجا من الروضة الى الزربية ، وشرعوا فى عمل جسر طوله نحو ثلثمائة قصبة وعرضه عشرة أقصاب ، وجعلوا بظاهر هذا الجسر خوازيق سنط كل خازوق نحو من ثمانية أذرع ، وسمروا عليها أفلاق خشب نخل وردموا عليها بالتراب ، وأنجز العمل من هذا الجسر فى نحو من شهرين . وكان مبتدأ ذلك فى ربيع الأول سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وفى ذلك يقول الأديب عيسى بن حجاج :

جسر الخليلى المقر لقد رسا
كالطود وسط النيل كيف يريد
فاذا سألتم عنهما قلنا لكم :
ذا ثابت دهرا ، وذاك يزيد

وقال ابن العطار رحمه الله :

راع الخليلى قلب الماء حين طغى
بنى عليه لذا جسرا وجبره
رأى ترمل أرضيه وحدتها
والنيل قد خاف يغشاها فجسره

فلما زاد الماء وبلغ ثمانية عشر ذراعا أكل ذلك الجسر الذى تعب عليه الخليلى ، ولم يفد من ذلك شيئا ، وزاد النيل فى تلك السنة زيادة لم يعهد مثلها ... وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

قد قطع النيل جسر مصر ولم يراعى له خليل
تياره صال مثل سيف يقطع والما له نصول

وفى هذه السنة زاد شر العربان فى البحيرة حتى نهبوا المغل فى البلاد . فلما بلغ الأتابكى برقوق ذلك عين لهم تجريدة فيها ستة أمراء مقدمين وخمسمائة مملوك . فلما توجه الأمراء الى هناك هرب منهم العرب فغنم منهم العسكر نحو ثلاثة آلاف رأس غنم ، ومثلها جمال ، ومثلها معز ، فأخذ العسكر ذلك ورجعوا الى القاهرة .

ومن الحوادث فى تلك السنة أن فى يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر رمضان رقد الأتابكى وقت القائلة فى البيت الذى بباب السلسلة ، وكان عنده شخص من الخاصكية يكبسه يقال له الشيخ الصفوى ، فلما أراد برقوق أن يستغرق فى النوم اتكأ الشيخ الصفوى على جنبه بالقوى ، فقعد برقوق على حيله وقال : « ايش الخبر ؟ » ... فقال له الشيخ الصفوى : « ان مملوكك أيتمش الخاصكى اتفق معه جماعة من مماليك الأسياد أنهم يدخلون عليك فى هذه الساعة ويقتلونك » ... فسكت برقوق ساعة ثم ان أيتمش المذكور دخل البيت على برقوق فقام اليه برقوق وأخذ قوس كباد كان الى جانبه وضرب به أيتمش ضربة فرماه الى الأرض . فلما وقع قال له برقوق : « يا ... الذى يريد قتل الملوك يقع الى الأرض من فرد ضربة ؟ » ... ثم قام برقوق وقبض عليه وسجنه فى بعض أبراج باب السلسلة ، ثم خرج وجلس فى المقعد الذى يطل على الرميلة وطلب بطا الأشرفى ، فلما طلع اليه قبض عليه وسجنه . ثم انه طلب نقيب الجيش وقال له : « در على الأمراء وقل لهم يطلعوا فى

هذه الساعة » ... فدار عليهم نقيب الجيش ، فطلعوا الى باب السلسلة ، فلما تكاملوا وحضروا بين يديه تلا عليهم ما بلغه عن مماليك الأسياد ، وأخبرهم بما وقع له معهم ، فأشاروا عليه بمسكهم ، فقبض فى ذلك اليوم على خمسة وستين مملوكا من مماليك الأسياد وأرسلهم الى خزانة شمايل . وأما أيتمش الخاصكى وبطا الأشرف فنفاهما الى الشام ، ونفى من أعيان مماليك الأسياد الى قوص نحوا من أربعين مملوكا .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من السنة المذكورة طلب الأتابكى برقوق الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فلما اجتمعوا فى باب السلسلة قام القاضى بدر الدين بن فضل الله كاتب السر الشريف فى وسط المجلس وقال : « يا أمير المؤمنين ، ويا سادات القضاة ، ان أحوال المملكة قد فسدت ، وزاد فساد العربان فى البلاد ، وخامر غالب النواب فى البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة ، والأحوال غير مستقيمة ، وان الوقت قد ضاق ، ومحتاجون الى اقامة سلطان كبير تجتمع فيه الكلمة ويسكن الاضطراب » ...

فتكلم القضاة مع الخليفة فى سلطنة الأتابكى برقوق ، فخلعوا الملك الصالح أمير حاج من السلطنة وسلطنوا الأتابكى برقوق .

ثم ان الملك الصالح أمير حاج دخل الى دور الحرم عند اخوته . وكانت مدة سلطنته بعد أخيه على بالديار المصرية سنة وسبعة أشهر وأياما . واستمر الملك الصالح مقيما فى دور الحرم الى أن عاد الى السلطنة مرة أخرى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

وأمير حاج هذا هو آخر من تولى السلطنة من ذرية بنى قلاون ، وبه زال الملك عن بنى قلاون كأن لم يكن ... فسبحان من لايزول ملكه ولا يتغير .

وقد أقامت السلطنة فى قلاون وذريته مائة سنة وثلاث سنين وأشهرا ، وزال عنهم الملك ...



دولة الجراكسة

الملك الظاهر برقوق

هو الملك الظاهر سيف الدين ، أبو سعيد برقوق ابن أنص ، وقيل أنس ، العثمانى الچركسى. وهو أول ملوك الچراكسة بالديار المصرية ، وهو الخامس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية .

بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح أميرحاج ، ابن الملك الأشرف شعبان ، ابن الأمجد سيدى حسين ، ابن الملك الناصر محمد بن قلاون . تولى الملك فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، الموافق لآخر يوم من هاتور من الشهور القبطية . وفى حال جلوسه على سرير الملك أمطرت السماء مطرا خفيفا ، فاستبشر الناس بذلك .

وكانت صفة ولايته أنه لما صلى الظهر بايعه أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بحضرة القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، وهو الذى لقبه بالملك الظاهر ، لأنه تولى الملك وقت الظهر . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء ، وشاش أسود ملفوف عمامة ، وللجبة طرز زركش وسيف بداوى مقلد حمائلى — فركب من الحراقة التى فى باب السلسلة ، والأمراء مشاة بين يديه ، والمقر السيفى أيتمش البجاشى حامل القبة والطير على رأسه الى أن طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من العام والخاص .

ولما تسلطن الملك الظاهر برقوق أقامت القاهرة سبعة أيام وهى مزينة ، والناس فى فرح وسرور بسلطنته .

وكان أصل الملك الظاهر برقوق من مماليك الأتابكى يلبغا العمرى الناصرى ، جلبه الى مصر الخواجا عثمان بن مسافر فاشتراه منه الأتابكى يلبغا وأقام عنده مدة ثم أعتقه . فلما مات يلبغا وجرى لمماليكه ما جرى ، هرب برقوق وتوجه نحو الشام ، فخدم عند منجك نائب الشام ، فلما توفى منجك صار برقوق من جملة مماليك السلطان . فلما كانت دولة الأشرف شعبان بقى برقوق أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير أخور كبير ، ثم بقى أتابك العساكر فى دولة الملك المنصور على ابن الأشرف شعبان ، ثم بقى سلطانا بمصر بعد خلع الملك الصالح أمير حاج .

وكان برقوق من خلاصة الچراكسة ، فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وخلع فيه على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى ، خلع عليه واستقر به نائب السلطنة بمصر . وخلع على المقر السيفى أيتمش البجاشى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، وخلع على المقر السيفى الطنبغا المعلم واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى الطنبغا الجوبانى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى چركس الخليلى واستقر به أمير

أخور كبير على عادته ، وخلع على المقر السيفى قردم الحسنى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى قطلوبغا الكركائى واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على المقر السيفى يونس النوروزى داوداره واستقر به داودارا كبيرا .

ثم أنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، وأنعم على جماعة بأمريات أربعين ، وعلى جماعة بأمريات عشرة ، وأرضى الجند بالاقطاعات ، وأنفق عليهم نفقة السلطنة واستقامت أموره فى المملكة .

وكان من العادة أن السلطان اذا خرج من الباب الى صلاة العيد تحمل القبة والطير على رأسه . فلما تسلطن برقوق أبطل ذلك ثم قبض على جماعة من الأمراء وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، ونفى جماعة كثيرة من المماليك الأشرفية وحلف سائر الأمراء لنفسه .

ودخل الرعب فى قلوب الرعية والعسكر منه حتى كان العوام يقولون للفاكهانى : « عندك شقير ؟ » ... ولا يقولون «برقوق» تعظيما لاسمه .

ثم غير جماعة من قضاة القضاة ومن المباشرين من أرباب الدولة ، منهم القاضى بدر الدين بن فضل الله ... فصله من كتابة السر واستقر بالقاضى أوحد الدين الحنفى كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن ابن فضل الله ، وغير جماعة كثيرة من المباشرين .

وفى هذه السنة عمل الخليلى جركس المراكطى أمير أخور كبير طاحونة لطيفة تدور بالماء ، فوضعها فى مركب ، وأوقفها عند المقياس ، فكانت تطحن الدقيق من غير تعب ولا كلفة ، فكان الناس يخرجون زمرا يتفرجون عليها . قال ابن العطار :

سر لطاحون الخليلى التى
تدور بالماء بمصر حقيق
قد شنفت من وصفها مسمعى
لأنه من كل وجه دقيق

وفى هذه السنة توفى الشيخ يحيى الصنافيرى رحمة الله عليه ودفن بالقرافة عند الشيخ أبى العباس البصير .

سنة خمس وثمانين وسبعمائة (١٣٨٣ م) :

فيها قبض السلطان على الخليفة المتوكل على الله محمد وقيده وسجنه فى البرج الذى بالقلعة . وسبب ذلك أنه بلغ السلطان عن الخليفة ما غير خاطره عليه ، فخلعه من الخلافة وسجنه وولى الخلافة عمر أخا زكريا ولقبه بالواثق بالله . وكانت مدة خلافة المتوكل على الله فى هذه المرة نحو اثنتين وعشرين سنة ونصفا . فلما خلعه من الخلافة وسجنه قال شهاب الدين بن العطار :

أبشر أمير المؤمنين ، فما جرى
أقوى دليل أن عزك مرمد
لا تختشى ، فيد العدا مغلولة
ويد الخلافة لا تطاولها يد

وفى هذه السنة توفى الشيخ على الروبى ، وقد تقدم أنه بشر برقوق بالسلطنة قبل أن يليها بمدة طويلة .

سنة ست وثمانين وسبعمائة (١٣٨٤ م) :

فيها حضر المقر السيفى بيدمر الخوارزمى نائب الشام الى الأبواب الشريفة ليزور السلطان ، وأحضر صحبته تقادم عظيمة للسلطان والأمراء فخلع عليه السلطان وأكرمه وجعله فوق الأمير سودون الفخرى نائب السلطنة ، فأقام فى القاهرة مدة ثم رجع الى الشام على عادته .

وفى هذه السنة تغير خاطر السلطان على القاضى تقى الدين ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه علقة

فى القصر نحو مائة وخمسين عصا ، فنزل الى بيته وهو محمول على بغل ، فأقام فى بيته يومين ومات ، فكانت وفاته فى يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . وفيه يقول ابن العطار :

يكفى التقى كرامــة أبدت له
نيل الشــهادة واغتدى بأمــان
بشرى الذى قد عاش طول حياته
عيش الملوك ومات بالســلطان

فكأن لسان حال القاضى تقى الدين مع السلطان برقوق كما قد قيل فى المعنى :

أحمـــــل نفسى كل وقت وســاعة
همــوما على من لا أفوز بخــيره
كما سود القصار فى الشمس وجهه
حريصــا على تبييض أثواب غيره

ولما توفى القاضى تقى الدين خلع السلطان على القاضى موفق الدين أبى الفرج ، واستقر به ناظر الجيوش المنصورة عوضا عن القاضى تقى الدين ، وقد راحت القلعة فى كيسه .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة أكمل الدين محمــد ، ابن الشيخ شمس الدين محمد ، ابن الشيخ جمال الدين أبى الثناء محمود الرومى البــابرتى الحنفى شيخ الخانقاه الشيخونية . وكانت وفاته فى ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان من سنة ست وثمانين وسبعمائة المقدم ذكرها ، ودفن فى يوم الجمعة قبل الصلاة ، وكانت جنــازته مشهورة ، وحضر السلطان جنــازته ، وأخرجوه من الخانقاه الشيخونية والسلطان ماش قدامه من الخانقاه الى سبيل المؤمنين ، وأراد أن يحمل نعشه فلم يمكنه الأمراء من ذلك ، فصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ثم انهم أعادوه الى الخانقاه والسلطان ماش قدامه حتى طلعوا به الى الخانقاه فدفنوه داخــل القبــة الى جانب قبر الأتابكى شيخو والسلطان حاضر دفنه .

وكان الشــيخ أكمل الدين من أكابر علمــاء الحنفيــة . وكان بارعا فى العــلوم ، وله عدة مصنفات فى أنواع العلوم ، وكان السلطان يسأله أن يتولى قاضى القضاة الحنفية فيأبى من ذلك ، وكان الأتابكى شيخو جعله ناظرا على وقفه ، وكان له فى مصر حرمة وافرة وكلمة نافذة عند الحكام والأمراء ، ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة .

وقد رثاه ابن أبى حجلة بقوله :

شيخ الى ســبل الرشاد مسلك
وســبيله فى العلم ما لا يجهــل
شيخ تبحر فى العلوم فمن رأى
بحرا يســوغ لوارديه المنهــل
شيخ عليــه من المهــابة رونق
كالبــدر لــكن وجهــه متهلل
شيخ تقــدم فى العــلوم لأنه
ان عد أرباب الفضــائل أول
شيخ بحسن بيــانه وشروحــه
ما بات بالمفتــاح باب مقفــل
ما قيــل هـــذا كامل فى ذاته
الا وقلت الشيخ عنــدى أكمل

وفى هذه السنة كانت وفاة القاضى أوحد الدين الحنفى كاتب السر الشريف ، وكان القاضى أوحد الدين سبط قاضى القضاة جمال الدين بن التركمانى الحنفى .

وفيها توفى قاضى القضاة أمين الدين بن الأنفى المالكى نائب الحكم بدمشق .

وفيها توفى الأمير كافور الهندى الشبلى ، وكان من خدام الملك الناصر محمــد بن قلاون المتولى

الزمامية فى دولة السلطان حسن ، وكان قد قارب من العمر نحو مائة سنة . وكان فى سعة من المال ، وهو صاحب التربة التى تحت الجبل المقطم ، ولما مات دفن بها . وكانت وفاته فى ثامن ربيع الأول من السنة المذكورة . وكان الأمير كافور هذا حسن المحاضرة حلو الكلام ، وكان ينظم الشعر وله شعر جيد . فمن ذلك ما نظمه وكتبه على رفرف مقعد بيته وهو قوله :

خدمنا بأبواب السلاطين قبلكم
وكانت لنا أهل المماليك تخدم
فما أبطرتنا — يعلم الله — نعمة
ولا نيل منا بالأذية مسلم

وكان الأمير كافور قد اقتنى من الكتب أشياء كثيرة من سائر العلوم ، فلما مات أودعها فى تربته التى تحت الجبل المقطم .

ولما مات كافور خلع السلطان على الأمير صواب السعدى واستقر به فى الزمامية عوضا عن الأمير نصر البالسى .

سنة سبع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٥ م) :

فيها خلع السلطان على القاضى جمال الدين بن خير المالكى السكندرى واستقر به قاضى القضاة المالكية بالديار المصرية عوضا عن القاضى ولى الدين بن خلدون المغربى بحكم انفصاله عن القضاء .

وفيها اشترى السلطان مملوكه تمربغا الأفضلى المعروف بمنطاش — وهو أخو الأمير تمرباى الدمرداشى — فأقام مدة ، ثم ان السلطان أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا .

وفيها أرسل الأمير بهادر المنجكى استادار العالية الى يلبغا الناصرى نائب حلب فقال له : « قم كلم السلطان » . فلما خرج من حلب ووصل الى غزة قبض عليه ، وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية

وكان سبب تغير خاطر السلطان على يلبغا الناصرى أنه بلغه عنه أنه متواطىء مع الأمير سولى ابن ذى الغادر أمير التركمان ، وقد اتفقا على العصيان . فلما تحقق السلطان ذلك أرسل قبض على يلبغا الناصرى وسجنه بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون المظفرى واستقر به نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصرى . ثم ان السلطان أرسل الأمير جمال الدين محمود شاد الدواوين الى حلب بسبب الحوطة على موجود يلبغا الناصرى ، وتوجه الأمير محمود الى حلب بسبب ذلك .

وفى هذه السنة قبض السلطان على الأمير الطنبغا الجوبانى أمير مجلس . فلما قبض عليه السلطان شفع فيه الأمراء ، فخلع عليه ورسم له بأن يكون نائب الكرك ، فخرج اليها من يومه وتوجه الى هناك .

وفيها خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة الحنفى ، واستقر به قاضى القضاة الحنفية بحلب عوضا عن قاضى القضاة جمال الدين بن العديم بحكم وفاته . وكان ابن العديم هذا من أعيان علماء الحنفية ، وكانت وفاته بحلب ، وعاش من العمر نحو ثمان وسبعين سنة .

وفى هذه السنة — وهى سنة سبع وثمانين وسبعمائة — رسم السلطان الملك الظاهر برقوق بابطال ما كان يعمل فى يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية . ومما كان يعمل فى ذلك اليوم بالديار المصرية أنه كان يجتمع فى ذلك اليوم السواد الأعظم من الناس الأسافل ، فيقفون على أبواب الأكابر من أعيان الدولة ، فيكتب أمير النوروز وصولات بالجمل الثقال ، وكل من امتنع

من الاعطاء من الأكابر بهدلوه وسبوه سبا قبيحا ، ولا يزالون مترسمين على بابه حتى يأخذوا منه ما يقرون عليه من الدراهم بحسب ما يقرره عليه أمير النوروز ، فيأخذوا ذلك منه غصبا ويمضوا

وكان ذلك السواد الأعظم العياق ، يقفون فى الطرقات ويتراشون بالماء المتنجس ، ويتراجمون بالبيض النى فى وجههم ، ويتصافعون بالأنطاع والأخفاف ، ويقطعون على الناس الطريق ، ويمتنع الناس من الخروج فى ذلك اليوم الى الأسواق ، وتغلق فى ذلك اليوم أسواق القاهرة ودكاكينها ، وكل من ظفروا به فى الطرقات بهدلوه — ولو أنه مير أو من أعيان الناس — فيرشونه بالماء لمتنجس ، ويرجمونه بالبيض النى فى وجهه ، يصفعونه بالأخفاف ، فتتعطل الناس فى ذلك ليوم عن البيع والشراء .

وكان الناس فى ذلك اليوم يتجاهرون بشرب لخمر وكثرة الفسق فى أماكن المتفرجات حتى خرجوا فى ذلك عن الحدود بما كان يقتل منهم جماعة يعربدون على بعضهم ، وكان هذا الأمر مستمرا فى كل سنة على القاعدة القديمه من الدول الماضية ولا ينكر ذلك بين الناس .

وكان يوم النوروز من أجل المواسم بالديار المصرية ، وكان يحمل فى ذلك اليوم لأكابر مصر من القبط والمباشرين من أصناف الفواكه الرمان وعراجين الموز ومشنات السفرجل والتفاح الشامى وقفف البسر وأقفاص العنب والتمر القوصى لبطيخ الصيفى والرطب والخوخ المشعر وفدور هريسة المعمولة من لحوم الدجاج ومعها بطط جلاب وصحون الحلاوى القاهرية وغير ذلك من أنواع اللطيفة .

فلما تسلطن الملك الظاهر برقوق وتم أمره فى السلطنة ، أمر بابطال ما كان يعمل فى يوم النوروز ، وأرسل الحجاب مع جماعة من المماليك السلطانية ووالى الشرطة فطافوا فى أماكن المتفرجات وفى الطرقات ، فمن وجدوه يفعل ذلك يضربونه بالمقارع ، وصاروا يقطعون أيدى جماعة ممن كان يفعل ذلك . وقاموا فى ذلك قياما عظيما حتى بطل ذلك من القاهرة ، وأشهروا النداء بتهديد من يفعل ذلك بالشنق ، فانكف الناس من يومئذ عن ذلك وصاروا يفعلون بعض شىء فى أماكن المتفرجات من الخلجان والبرك ونحو ذلك .. وهذه الواقعة ذكرها المقريزى فى حوادث سنة سبع وثمانين وسبعمائة .

سنة ثمان وثمانين وسبعمائة (١٣٨٦ م) :

فيها تزوج السلطان الملك الظاهر برقوق بينت الأمير منكلى بغا الشمسى ، وهى بنت أخت الملك الأشرف شعبان ، فكان له مهم عظيم بالقلعة ، وحمل بين يديه خمسمائة شمعة .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد صاحب ماردين ، وأخبر بأن خارجيا من التتار الجغطاوية يقال له تمرلنك قد استولى على البلاد ، وقد وصل جاليش عسكره الى مدينة تبريز وأخربها وقتل من أهلها خلائق كثيرة ، وان القان أحمد بن أويس انتقل الى بغداد وحصنها وأخذ حذره من تمرلنك .

وفيها رسم السلطان بنقل الأمير يلبغا الناصرى من ثغر الاسكندرية الى ثغر دمياط ، فنقله الى ثغر دمياط وكسر قيده .

وفيها ضرب السلطان القاضى موفق الدين أبا الفرج ناظر الجيوش المنصورة ، فضربه مائة وخمسين عصا ، كما ضرب القاضى تقى الدين بن محب الدين التيمى ، ثم فصل موفق الدين من نظارة الجيش وخلع على القاضى كريم الدين بن

مكاس واستقر به فى نظارة الجيوش عوضا عن موفق الدين .

وفيهـا حضر الى الأبواب الشريفة ابن ملك الكرج ، وأخبر السلطان بأنه قد رأى فى المنـام النبى صلى الله عليه وسلم وقال له : « امض الى مصر ، وأسلم على يد خادم الحرمين » ... فقال له الرجـل ابن ملك الـكرج : « ومن هو خـادم الحرمين ؟ » .. فقال : « برقوق سلطان مصر » ..

فلما سمع السلطان ذلك أكرمه وأحضر القضاة واستسلمه بحضرتهم ، ثم ان السـلطان أنزله فى قصر خوند الحجازية بنت الملك محمد بن قلاون — وكان هذا القصر عند حبس الرحبة — ورتب له ما يكفيه الى أن سافر الى بلاده .

وفى هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان التى بين القصرين ، فلما كملت نزل السلطان اليها وذلك فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى من السنة المذكورة . فلما نزل السـلطان اجتمع بالمدرسة القضاة الأربعـة وسائر الأمراء ومقرئى البلد . ثم ان السلطان مد هناك سـماطا عظيما ، وملأ الفسقية التى فى صحن المدرسة سكرا وفرقه على النـاس بالطاسـات . وفى ذلك اليوم خلع السـلطان على الشيخ علاء الدين السـيرامى واستقر به شيخ المدرسة ، فأضاف اليه تدريس الحنفية . وخلع على الأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير ، وكان شاد العمارة . وخلع على معلم المعلمين الشـهابى أحمد بن الطولونى قبالخ ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وخلع على خمسـة وعشرين مملوكا من ممالـيـك جركس الخليلى ، وخلع على المهنـدسين والمرخمـين والنجارين والدهانين والبنايين لكل واحد خلعة ، وفرق على الفعلة لكل واحد أشرفيين ... وفى ذلك يقول ابن العطار :

قد أنشأ الظاهر السـلطان مدرسة
فاقت على ارم مـع سرعة العمـل
يكفى الخليـلى أن جاءت لدعوته
صم الجبال لهـا تسعى على عجل

وقوله فيها أيضا :

قل للمليك الظـاهر المرتضى
هنيت بالمدرسـة الفائقـة
تخنقت حسادك قهرا بهـا
فيالهـا من مدرسـة خانقـة

قيل كانوا يقطعون حجارة هـذه المدرسة من الجبل ويجعلونها على عجل تسحبها الأبقـار من الجبل الى بين القصرين ، وهى التى تسمى الحجارة العجالية .

وفى هذه السنة خلع السلطان على المقر الشهابى أحمد ابن الأتابكى يلبغا العمرى واستقر به أمير مجلس كما كان عوضا عن الطنبغا الجوبانى .

وفيهـا أفرج السلطان عن الأمير عشـقتمر الماردينى ، وهو صاحب الخانقاه التى عنـد باب القرافة — وكان مقيما فى القدس بطالا — فأرسل اليه خلعة ، ورسم له بأن يكون نائب الشام .

وفيها عزل السلطان الخليفة الواثق بالله عمر ، وخلع على الخليفة زكريا ابراهيم واستقر به خليفة عوضا عن أخيه عمر .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد القان أحمد بن أويس صاحب بغداد وأخبر بأن الخارجى تمرلنك قد وصل الى مدينة فرباغ ونهبها وسبى أهلها ، فأرسل القان أحمد يعرف السلطان بذلك ليكون على حذر من أمره .

وفيهـا جاءت الأخبـار من مكة أن أمير مكة أحمـد بن عجلان قد قتل . وكان سبب ذلك أن المحمل لما دخل الى مكة خرج الأمير أحمد يلاقيه ،

فلما نزل عن فرسه ليقبل رجل جمل المحمل على العادة ضربه فداوى بسكين فى جنبه فمات من يومه ، فاضطربت أحوال مكة ، وكادت العرب تنهب الحجاج ... فلبس أمير الحاج والمماليك الذين معه آلة الحرب ، وأقاموا على ذلك سبعة أيام . ثم ان أمير المحمل خلع على الأمير عنان بن مغامس واستقر به أمير مكة عوضا عن الأمير أحمد ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفيها توفى الخليفة المنفصل عن الخلافة الواثق بالله عمر .

وفيها توفى الشيخ محمد بن عثمان القرمى القادرى ، وكان من أكابر الأولياء ، فمات بالقدس فى شهر رجب ودفن هناك ، وقد رثاه ابن العطار فقال :

محمد القرمى قطب الزمان قضى
نحبا وصار لدار الخلد والنعم
والقدس كان حوى نعم الخليل به
ومصر والشام كانا فى حمى القرمى

وفيها توفى الشيخ شمس الدين القونوى الرومى الحنفى ، وكان من أعيان علماء الحنفية وله عدة مصنفات فى أنواع العلوم .

وفيها توفى الشيخ بدر الدين ، وكان من أولاد الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وكان من أعيان علماء الشافعية مفتيا .

وفيها توفى الشيخ برهان الدين القيراطى ، وكان من فحول الشعراء وله شعر جيد فى علم البديع .

سنة تسع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٧ م) :

فيها فى المحرم جاءت الأخبار من تلمسان ببلاد الغرب بأنه وقع بها فتنة عظيمة ، وقتل فى المعركة مالا يحصى من عساكر الغرب ، وقتل ملكها أبو حمو المعز .

وفى صفر استقر الطنبغا الجوبانى فى نيابة الشام عوضا عن أشقتمر .

وفيه توفى محمد بن عقيل ابن قاضى القضاة بهاء الدين الشافعى .

وفى ربيع الأول جرت واقعة غريبة ، وهى أن السلطان دخل الى القصر الكبير فى غير يوم الموكب ، فلما جلس بالشباك رأى خيمة على بعد مضروبة فى الروضة على شاطىء النيل ، فبعث من كشف عن خبرها ، فلما عاد القاصد أخبر السلطان أن بتلك الخيمة كريم الدين الصاحب بن مكانس ومعه جماعة وهم يشربون الخمر ، فأرسل اليهم جماعة من المماليك فأحضروهم بتمامهم وكملهم بين يدى السلطان ، فأمر بضرب الصاحب كريم الدين بالمقارع وقرر عليه خمسين ألف دينار ، ثم عفا عن الباقين ... وهذه من الغرائب .

وفى ربيع الآخر ابتدأ السلطان بلعب الرمح بعد الظهر ، وأمر المماليك أن ينزلوا من الطباق ويلعبوا الرمح الى العصر . وهو أول من أحدث ذلك من الملوك ، ورسم لهم أن يلعبوا فى الحوش السلطانى من الظهر الى العصر ، واستمر ذلك بعده الى الآن .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وجعل لها دائرا وفيها اسمه ، فتقول الناس بأنه تدور عليه الدوائر ويسجن ، وكان الأمر كذلك كما قيل فى ذلك :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى
ان البلاء موكل بالمنطق

ويقرب من ذلك أن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق لما تسلطن ضرب دنانير — وهى المناصرة — فجعلوا اسمه فى دائرة ، فلما رآها يوسف ناظر الخاص قال لمعلم دار الضرب : « قد ضيقت على عثمان قوى » ... فكان الأمر كذلك .

ووقع مثل ذلك للملك المؤيد أحمد بن اينال ، لأنه لما تسلطن ضرب دراهم فضة ، فجعلوا اسمه فى دائرة ، فلما عرضوا ذلك عليه تطير منه ورسم لمعلم دار الضرب أن يغير تلك السكة ، ومع ذلك فيدوم ... وهذا مجرب .

وفيه جاءت الأخبار بأن المدينة الشريفة — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — نهبها الشريف على بن عطية أمير المدينة . فلما تحقق السلطان ذلك كتب الى أمير مكة المشرفة بأن يتوجه الى المدينة المشرفة — على صاحبها أفضل الصلاة والسلام — ويحارب على بن عطية .

وفيه توفى الحافظ ناصر الدين بن عشائر الحلبى، وكان فقيها محدثا بارعا فى كل علم .

وفى جمادى الأولى توفى أشقتمر الماردينى نائب الشام ، فلما مات أفرج السلطان عن الطنبغا الجوبانى — وكان بالكرك — فأرسل اليه خلعة واستقر نائب الشام عوضا عن أشقتمر الماردينى . وفيه توقف النيل عن الزيادة والوفاء ، ونقص عما زاده ، واضطربت الأحوال وقلق الناس لذلك ، ثم رد النقص وأوفى على العادة . وقد قال بعضهم :

النيل قد أوفى بحمد الهنا
وجرى على العادات بعد توقف
وغدا يقول لأهل مصر وغيرهم :
من ذا يفى فى مصر ان أنا لم أف ؟

وفى جمادى الآخرة ظهر فى السماء كوكب من جهة الشمال الى جهة العرب ، وكان غريب الصفة له ثلاث شعب ، فى احداها ذنب طويل قدر رمح ، وله ضوء زائد كضوء القمر ، فأقام مدة ثم تحول من جهة المغرب الى جهة الجنوب ، فلما تحول سمع له صوت شديد مثل الرعد ، وكان ذلك بعد العشاء .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طغاى — وكان قد توجه الى بلاد الشرق لأخبار تمرلنك — فلما حضر أخبر السلطان أن جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها وكسر قرا محمد أمير التركمان ، وأن بوادر عساكر تمرلنك قد وصلت الى ملطيه .

فلما تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقصر الكبير ، وطلب القضاة الأربعة والخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى وأعيان المشايخ المفتين وحضر سائر الأمراء . فلما تكامل المجلس تكلم السلطان مع الخليفة والقضاة الأربعة فى أمر تمرلنك . ثم ان السلطان تكلم فى أخذ مال الأوقاف من الجوامع والمدارس وغيرها ، فلم يوافق شيخ الاسلام على ذلك ولا القضاة الأربعة ، فشكا لهم السلطان بأن الخزائن خالية من الأموال ، والعدو زاحف على البلاد ، وان لم تخرج العسكر بسرعة والا وصل الى حلب والشام ... والعسكر لا تسافر بلا نفقة . فوقع فى المجلس جدال عظيم ، ودافعوا السلطان وأغلظوا عليه فى القول .

فلما طال الأمر وقع الاتفاق — بحضور الخليفة والقضاة الأربعة — بأن يؤخذ من مال الأوقاف أجرة الأماكن وخراج الأراضى سنة كاملة ، وتبقى الأوقاف على حالها . وانفصل المجلس على ذلك ، ورسم السلطان لمحتسب القاهرة بأن يتولى جبى الأموال من الناس ، فأخذوا فى أسباب ذلك .

ثم ان السلطان عين تجريدة وعين لها جماعة من الأمراء ، وهم : الطنبغا المعلم أمير سلاح ، وقردم الحسنى رأس نوبة أمير كبير ، ويونس النوروزى الدوادار ، وسودون باق أحد المقدمين . وعين من الأمراء والطبلخانات رأس نوبة كبير ثمانية ، ومن الأمراء العشراوات عشرة ، وعين من المماليك السلطانية ثلثمائة مملوك ، وأنفق عليهم وأخذوا فى أسباب السفر والتوجه الى حلب والاقامة بها الى حضور السلطان .

ثم ان السلطان رسم بأخـذ زكاة الأموال من التجار ، وندب الى ذلك القاضي الطرابلسي الحنفي .

وفي رجب خرجت التجريدة من القاهرة في تجمل زائد ، واستمرت الأطلاب تنسحب من باكر النهار الى قريب الظهر ، وكان يوما مشهودا ...

فلما خرجت التجريدة اشتد الأمر على الناس ، وجبيت الأموال منهم غصبا بالعصا ، فجبوا ذلك من الناس في يوم واحد ، ثم فرج الله عنهم ، وجاءت الأخبار بأن تمرلنك رجع الى بلاده ، وأن ولده قد قتل ... فسكن الاضطراب ، ورسم السلطان باعادة ما أخذوه من الناس ، فتزايدت أدعيتهم له بالنصر ، وقد قيل :

فصبرا : ان عقبى الصبر خير
ولا تجـزع لنـائبة تنـوب
فان اليسر بعـد العسر يأتى
وعند الضيق تنكشف الكروب
وقد جزعت نفوس من أمور
أتى من دونها فـرج قريب

وفي شعبان انفصل قاضي القضاة الشافعي بدر الدين أبو البقـاء السبكي ، وخلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الميلق ، واستقر قاضي القضاة الشافعية عوضا عن بدر الدين أبي البقاء . وقد امتنع ابن الميلق من لبس الخلعة غاية الامتناع ، فألزمه السلطان بذلك على كره منه .

وفيه توفي الصـاحب شمس الدين ابراهيم بن كاتب أرلان القبطي . فلما مات خلع السلطان على علم الدين عبد الوهاب بن القسيس المعروف بابن كاتب سيدى ، وكان مستوفيا في ديوان المرتجع ، فبقي وزيرا بالديار المصرية .

وفي رمضان في يوم الأحد ثامنه نزل السلطان الى الاصطبل الذي بباب السلسلة ، وحكم به ، ونادى في القاهرة : « من كان له ظلامة أو خصومة يحضر بين يدى السلطان في كل يوم أحد وأربعاء » ... وهـذا لم يقع لسلطان قبله ، وهو أول من أحدث ذلك من الملوك . واستمر ذلك بعده الى الآن .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة أمير مكة المشرفة على بن عدنان ، فلما حضر أكرمه السلطان وأنعم عليه وخلع عليه وجعله شريكا لعنان بن مغامس في امرة مكة المشرفة وأصلح بينهما .

وفيـه طلب السلطان يلبغا الناصري من ثغـر دمياط ، فلما حضر أكرمه وخلع عليه واستقر نائب حلب على عادته .

وفي شـوال قدم البريد من حلب وأخبـر أن منطاش ، مملوك السـلطان الذي قد استقر نائب السلطنة ، قد خرج عن الطاعة وخامر .

وفيـه حضر رأس بدر بن سـلام كبير عربان البحيرة ، وكان قد ظهر منه غاية الفساد .

وفي ذى القعـدة قرر أمير حاج بن مغلطاى في نيابة الاسكندرية عوضا عن يجمان المحمدى .

وفيه جاءت الأخبار بأن الواثق بالله محمد بن أبي الحسن صاحب فاس قد خلع من الملك وأعيد أبو العباس أحمد ، وسجن الواثق بطنجة . وحصل بفاس فتنة عظيمة في أواخر هذه السنة .

وفي ذى الحجة جاءت الأخبار بموت ملك التكرور موسى ، وكان حسن السـيرة عادلا في الرعية .

وفيه خلع السلطان على الأمير ايدكار العمرى وقرر حاجب الحجاب .

سنة تسعين وسبعمائة (١٣٨٨ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة جراى تمر دوادار المقر الشرفي يونس أمير دوادار ، وصحبته قاصد نائب حلب المقر السيفي يلبغا الناصري ، فأخبر بأن العسكر الذي توجه من القـاهرة لما وصل الى

سيواس وقع مع جاليش تمرلنك واقعة قوية ، وقد انكسر عسكر تمرلنك ، وأن الغلاء وقع فى العسكر وعزت سائر البضائع . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل للعسكر نفقة ليستعينوا بها على ذلك .

وفيها خلع السلطان على الأمير محمود بن على الظاهرى شاد الدواوين واستقر به استادار العالية عوضا عن الأمير بهادر المنجكى .

وفيها رجع العسكر الذين توجهوا الى حلب وهم فى غاية النصرة على عسكر التتار .

وفيها قبض السلطان على جماعة من الأمراء الذين كانوا فى التجريدة ... وهم : الأمير الطنبغا المعلم أمير سلاح ، والأمير قردم الحسنى رأس نوبة النوب ... وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، ثم أرسل السلطان بالقبض على الطنبغا الجوبانى نائب الشام وسجنه ، وأرسل خلعة الى الأمير طرنطاى حاجب دمشق بأن يستقر نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوبانى ، وأرسل خلعة الى الأمير استدمر حاجب طرابلس بأن يكون نائب طرابلس ، واستقر بالأمير سودون العثمانى نائب حماة .

وفيها توفى قاضى القضاة الشافعى برهان الدين بن جماعة الحموى الكنانى . وتوفى الشيخ علاء الدين السيرامى الحنفى شيخ المدرسة البرقوقية . وتوفى الصاحب علم الدين بن القسيس المعروف بكاتب سيدى . وتوفى الأمير بهادر المنجكى الذى كان استادارا . وتوفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب من أعيان العلماء .

سنة احدى وتسعين وسبعمائة (١٣٨٩ م) :

فيها — فى أوائل صفر — ابتدأ السلطان بشرب القمز ، وهو عبارة عن لبن مصنوع محمض ، وكان الملوك تعودوا ذلك ، فرسم السلطان للامراء بأن يجتمعوا فى كل يوم أربعاء فى الميدان الذى تحت القلعة ويشربوا القمز ، وكان ذلك من جملة شعائر المملكة ، فتجتمع الأمراء بحضرة السلطان ويجلسون فى مراتبهم ، ويبقى الأوزان عمال ، والأمراء بالشاش والقماش ، والسقاة يسقونهم القمز فى الزبادى الصينى . وكان القمز يسكر مثل الشرس ، ويسمى قراقمز .

وفيها وقع الطاعون بمصر ، ومات من الناس من كبار وصغار ما لا يحصى عددهم ، وأقام مدة ، وكثرت الأمراض حتى بيعت البطيخة الصيفى بأشرفيين ولا توجد ، ولكن بطل ذلك من بعد الملك الظاهر برقوق .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصرى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة وقتل الأمير سودون المظفرى الذى كان نائب حلب قبله ، وقتل أربعة أنفس من مماليك سودون ، وأمسك حاجب الحجاب بحلب وجماعة من أمرائها . وسبب ذلك أنه كان قد وقع بينه وبين سودون المظفرى تشاجر ، فأرسل سودون يشتكى من يلبغا الناصرى الى السلطان بما وقع منه فى حقه . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل الأمير تلكتمر المحمدى الدوادار الثانى الى حلب ليصلح بين يلبغا الناصرى وبين سودون المظفرى . وقيل ان السلطان أرسل فى الدس مراسيم على يد الأمير تلكتمر الى سودون المظفرى بأن يقبض على يلبغا الناصرى نائب حلب . فلما وصل الامير تلكتمر الى حلب بلغ يلبغا الناصرى أمر المراسيم التى جاء بها الأمير تلكتمر ، فخرج الى تلقيه — وكان بين يلبغا الناصرى وبين الأمير تلكتمر صحبة مؤكدة فما أمكنه أن يخفى منه أمر المراسيم — فلما وقف عليها يلبغا الناصرى أخذها وأخفاها ، ثم توجه الى دار السعادة وطلب قضاة حلب والأميرسودون

المظفرى ليقرأ عليهم المراسيم التى جاءت بالأمر بالصلح بين يلبغا وسودون . فلما أرسل خلف سودون لم يحضر الى دار السعادة ، فأرسل خلفه أربع مرات والقضاة جالسون والأمير تلكتمر ... فما حضر سودون الا بعد جهد كبير ، فطلع سودون وهو لابس زردية من تحت ثيابه . وكان يلبغا الناصرى ركن جماعة من مماليكه فى دار السعادة وهم لابسون آلة الحرب . فلما دخل سودون من باب دار السعادة تقدم اليه مملوك من مماليك يلبغا وجس كتف سودون فرآه لابسها من تحت ثيابه ، فقال له : « يا أمير سودون ... الذى يريد الصلح يدخل الى دار السعادة وهو لابس آلة الحرب ؟ » ... فلكمه سودون ، فصاح على ذلك الكمين فخرجوا الى سودون ، فقتلوه فى دار السعادة ، وقتلوا معه أربعة مماليك من مماليكه .

ثم ان يلبغا الناصرى أظهر العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من مماليك الأشرف شعبان . وكان من جملة من التف على يلبغا تمربغا الأفضلى المدعو منطاش مملوك الظاهر برقوق — وكان له مدة وهو منفى فى المدن الشامية — فالتف على يلبغا الناصرى .

ثم ان الأمير تلكتمر ، لما جرى ما جرى بحلب ، رجع وأخبر السلطان بما وقع لسودون المظفرى مع يلبغا . فلما تحقق السلطان عصيان يلبغا الناصرى أرسل خلعة الى الأمير اينال اليوسفى بأن يستقر نائب حلب عوضا عن يلبغا الناصرى ، وكان اينال أتابكى العساكر بدمشق ، وكان يلبغا الناصرى فى نفسه من الملك الظاهر برقوق عداوة قديمة كامنة فى قلبه كما قيل :

الجرح يبرا ولكن كلما نظرت
عين الجريح اليه جدد الوجعا

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشر صفر من السنة المذكورة نزل السلطان الى الميدان الذى تحت القلعة ، ونصب هناك عدة صواوين للأمراء . ثم انه أرسل خلف الأمراء ، فلما تكاملوا مد لهم سماطا عظيما ، فلما فرغوا من الأكل جلس معهم السلطان ، وذكروا لهم ما وقع من يلبغا الناصرى من أمر عصيانه ، ثم أحضر لهم مصحفا شريفا ، وحلف عليه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر بأن يكونوا معه كلمة واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصرى ، فحلفوا على ذلك جميعهم وانفض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشرى صفر عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى يلبغا الناصرى ، وعين خمسة أمراء من المقدمين ، وأربعمائة مملوك ، ثم جاءت الأخبار من طرابلس بأن عسكر طرابلس ركبوا على النائب ، وقتلوا من أمراء طرابلس جماعة وهرب النائب الى يلبغا الناصرى .

وجاءت عقب ذلك أخبار من حماه بأن نائبها سودون العثمانى حضر الى دمشق وهو هارب ، وسبب ذلك أن مماليكه ركبوا عليه مع عسكر حماه وأرادوا قتله ، فهرب منهم الى دمشق ، وقد وقعت الفتن فى سائر البلاد الشامية . فلما تحقق برقوق أن البلاد قد افتتنت خاف على نفسه ، وأمر نائب القلعة بأن يضيق على الخليفة المتوكل ويمنعه من الاجتماع بالناس ، فانه كان مسجونا فى البرج الذى بالقلعة وهو مقيد . ورسم السلطان للأمير مقبل الزمام بأن يضيق على الأسياد أولاد السلاطين الذين فى دور الحرم ، ويمنع من كان يدخل لهم . ثم ان السلطان أرسل خلعة الى الأمير طغيتمر القيلاوى بأن يستقر فى نيابة طرابلس عوضا عن النائب الذى كان بها .

ثم حضر قاصد من عند الأمير خليل بن قراجاين

ذو الغادر ، فأخبر أن الأمير سنقر نائب سيس قد خامر وخرج عن الطاعة ، ووافق يلبغا الناصرى على العصيان ، ورحل من سيس وأتى الى حلب . فلما تحقق السلطان أن النواب قد خامروا عليه أنفق على العسكر وأخرج التجريدة التى كان عينها الى حلب ، وكان بهـا من الأمراء الأتابكى أيتمش البجاشى ، والأمير أحمـد بن يلبغا الناصرى أمير مجلس ، والأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير ، والأمير يونس النوروزى الدوادار الكبير ، والأمير ايدكار العمرى حاجب الحجاب ؛ وجمـاعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وأربعمائة مملوك ، فخرجوا من القاهرة فى عظمة زائدة .

فلما خرجوا من القـاهرة ووصلوا الى دمشق جاءت الأخبار من هناك مع السعاة بأن العساكر لما وصلت الى دمشق وجدوا يلبغا الناصرى قد ملك الشام حتى قلعتها ، فلما وصل العسكر اليه أوقعوا معه بظاهر دمشق واقعـة عظيمة حتى جرى الدم بينهم ، وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر انكسر عسكر السلطان الذى أرسله ، وانتصر عليهم يلبغا الناصرى ، وقتل الأمير جركس الخليلى أمير أخور كبير ، وهرب الأمير أحمد بن يلبغـا العمرى أمير مجلس والأمير ايدكار العمرى حاجب الحجـاب والأمير يونس الدوادار . وأما الأتابكى أيتمش فانه أسر وسجن بقلعة دمشق ، وأما بقيـة الأمراء والمماليك السلطانيه فشىء أسر وشىء هرب وشىء قتل ... وكانت هـذه الواقعة بدمشق فى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة .

فلما أن جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الناس من هـذه الأخبار ، وماجت على بعضها ، وكثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك ، وارتج الأمر على السلطان ... فعمـل الموكب بالقصر ، وفرق أمريات من قتل من الأمراء فى هذه المعركة ، فأنعم على الأمير قرابغا الأبو بكرى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير بجاس النوروزى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير شيخ الصفوى بتقـدمة ألف ، وأنعم على الأمير قرقماس الطشتمرى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير أقبغا الماردينى بتقدمة ألف ، وأنعم على جماعة كثيرة من الخاصكية بأمريات أربعين ، وعلى جماعة بأمريات عشرة ، ثم انه رسم بالافراج عن جماعة من المماليك الأشرفية ومماليك الأسياد — وكانوا فى السـجن بخزانة شمايل — وصار يرضى خاطر العسـكر بكل ما يمكن حتى يمحو ما وقع منه فى حق العسكر .

ولما كان يوم الأربعـاء مستهل جمادى الأولى حضر تمربغا الفخارى السواق ، وكان قد توجه الى نحو الشام بسبب كشف أخبار يلبغـا الناصرى . فلمـا وصل الى غزة رأى طوالع جاليش يلبغـا الناصرى قد وصـل غزة ، فلما دخلوا مدينة غزة أنزلهم الامير حسام الدين بن باكيش نائب غزة فى الميدان الكبير . فلما باتوا تلك الليلة كبس عليهم وأمسـكهم عن آخرهم وقيـدهم وسجنهم فى دار السعادة ، وكانوا نحو مائة انسان وفيهم ثلاثة أمراء من حلب . فلما سمع السلطان هذا الخبر فرح وخلع على ذلك السواق كاملية بسمور .

ثم فى يوم الأحد خامس جمادى الأولى قعـد السلطان فى مقام سيدى محمـد الرديبى الذى هو داخل الحرم ، وطلب الخليفة المتوكل من البرج ، فخرج وحضر وهو مقيد ، وكان له نحو ست سنين فى البرج بالقلعة وهو مقيد ، وقد أفحش فى حقه الملك الظاهر برقوق ، وتمادى على طغيانه فى حق المتوكل وهو فى القيد هذه المدة الطويلة .

فلما حضر بين يدى السلطان قام اليه وأمر بنزع قيده ، وصار يعتذر اليه مما وقع منه فى حقه .

ثم طلب القضاة الأربعة ، وأعاد المتوكل الى الخلافة كما كان ، وخلع عليه وأركبه فرسا وسرج ذهب وكنبوش ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم والقضـــاة قدامه ، وزينت له الصليبة وجامع ابن طولون ، وكان يوما مشهودا .

فلما نزل الى بيته أرسل اليــه السلطان قماشا بنحــو ألف دينار ما بين صوف وســمور ووشق وسنجاب وبعلبكى وغير ذلك ، وأرسل اليه ألف دينار ذهب عين . ثم أن السلطان نزل الى الميدان الذى تحت القلعــة وعرض هناك العســكر وهم لابسون آلة الحرب راكبون على خيولهم ، وصار يســأل من كل واحــد منهم ما هو عاوز من آلة الحرب فيعطيه الذى يعوزه من خيل وسلاح وغير ذلك .

ثم ان السلطان عمل الموكب فى القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : الأمير سودون الصيفى تمرباى باق واستقر أمير سلاح ، وخلع على الأمير قرابغا الأبوبكرى واستقر أمير مجلس عوضا عن الأمير أحمــد بن يلبغا العمرى ، وخلع على الأمير قرا دمرداش الأحمدى واســتقر رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير قرقماس الطشتمرى واستقر دوادارا كبيرا عوضا عن الشرفى يونس ، وخلع على الأمير اقبغا الماردينى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الأمير ايدكار العمرى .

ثم فى يوم الاثنــين حضر الى الأبواب الشريفة العــلائى على بن الطشــلاقى والى قطيــا وأخبر السلطان بأن جاليش يلبغا الناصرى قد وصل الى قطيا ، ثم بعد ذلك جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصرى قد وصل الى الصالحية . فلما تحقق السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة ، وجلس فى الحراقة ، وأمر بشد الخيول ، وعلق الصنجق السلطانى ، ونادى العسكر بأن يطلعوا الى الرميلة وعليهم آلة الحرب ، فطلع اليه من الأمراء الأمير سودون الفخرى نائب السلطنة ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير أبو بكر بن ســنقر الجمالى ، والأمير بيبرس التمان تمــرى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، والأمير قجماس ابن عم السلطان . فلما تكامل العســكر ركب السلطان وخرج من باب السلسلة وعلى رأسه الصنجق السلطانى ، فتوجه هو والعسكر الى نحو المطرية ، فأقام السلطان هنــاك يوم الأربعاء ويوم الخميس ، فصار جماعة من المماليك الســلطانية يتسحبون من عند السلطان ويتوجهون الى يلبغا الناصرى ، فتوجه اليه جمــاعة كثيرة من المماليك السلطانية ومن المماليك السيفية . فلما رأى السلطان ذلك رجع من هناك وطلع الى القلعة .

فلما كان يوم السبت خامس عشر جمادى الأولى جاءت الأخبار بأن أوائل عسكر يلبغا الناصرى قد وصل الى أوائل الترب . فلما تحقق السلطان ذلك نزل من القلعة ، ودقت الكئوسات حربى ، وجمع العسكر وتوجه الى نحو قبة النصر ، فوقف هناك على كوم عال فوقع بين الفريقــين بعض قتــال هين ، فأقام السلطان هناك الى آخر النهار ثم رجع الى القلعة وقعد فى باب السلسلة وبات به .

فلما كانت تلك الليلة توجه أكثر الأمراء الى يلبغا الناصرى ، فلم يبق مع السلطان الا بعض جماعة من الأمراء ، منهم الأمير قجماس ابن عم الســلطان ، وسيدى أبو بكر الجمالى ســنقر ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير سودون الطرنطاوى ، وبعض مماليك من الجمدارية . فلمــا رأى السلطان عين الغلب أراد أن يسلم نفســه ويختفى فى البحرة ، فمنعــه الأمراء من ذلك . فأقام الى العصر فى باب السلسلة ، فبلغه أن الأمير نزلار العمرى ، والأمير الطنبغــا الأشرفى والأمير طقطاى الطشتمرى — ومعهم جماعة من المماليك نحو خمسمائة مملوك —

قد وصلوا الى القلعة ، فعين لهم السلطان بطا الخاصكى ، وسكرباى الخاصكى ، ومعهما نحو عشرين مملوكا ، فنزلوا اليهم وأوقعوا معهم فى الرميلة واقعة قوية ، فكسر عسكر يلبغا الناصرى وطردوهم الى تحت المنجكية . فلما بلغ يلبغا الناصرى أن جاليشه قد انكسر هم بالهروب من هناك ، وأرسل بركه وقماشه الى القنطرة التى عند المرج والزيات خوفا من النهب .

فلما كانت ليلة الاثنين سابع عشرى جمادى الأولى تسحب من كان بقى عند السلطان من الأمراء والمماليك ولم يبق عنده سوى سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى ، وبيدمر المجدى شاد القصر ، فقال السلطان لسيدى أبى بكر : « خذ الترس والنمشاه وامض الى يلبغا الناصرى ، وقل له السلطان يسلم عليك ، ويقول لك بأنك تؤمنه على نفسه من القتل » ... فمضى سيدى أبو بكر وبيدمر المجدى الى الأمير يلبغا ، وذكرا له ما قاله السلطان ، فقال الأمير يلبغا : « هو آمن على نفسه من القتل ، ولكن قولا له يختفى من القلعة حتى تنكسر حدة العسكر الذى حضر من الشام عنه ، وبعد ذلك يفعل الله ما يشاء ، وما يكون الا خير » .

فلما رجع سيدى أبو بكر بن سنقر وبيدمر من عند الأمير يلبغا الناصرى بهذه الرسالة ، وأخبراه بما قاله الأمير يلبغا ، أقام فى باب السلسلة والخليفة المتوكل عنده الى أن صلى العشاء ، وقام الخليفة من عنده فبقى هو وخمسة من المماليك الجمدارية فأمرهم بالانصراف . فلما انصرفوا قام السلطان ودخل المبيت ، وقلع تخفيفته ولبس له عمامة وجوخة من فوق ثيابه ، وأخذ فى يده عصاه ونزل من باب السلسلة بعد العشاء واختفى .

فلما نزل السلطان من باب السلسلة وقع النهب فى الحواصل السلطانية ، وذلك فى ليلة الاثنين خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

فلما أصبح يوم الاثنين وصل الأمير يلبغا الناصرى ، وصحبته الأمير تمربغا الأفضلى المعروف بمنطاش مملوك الملك الظاهر برقوق . فلما وصلوا الى الرميلة وقفوا بسوق الخيل هم والعسكر الذى حضر معهم من البلاد الشامية فوقفوا ساعة . ثم ان الخليفة المتوكل أتى الى الأمير يلبغا وسلم عليه ، ثم طلع الأمراء والخليفة الى باب السلسلة واشتوروا فى ذلك اليوم فيمن يولونه سلطانا ، وبات فى تلك الليلة العسكر بغير سلطان .

فلما أصبحوا يوم الثلاثاء وقع الاتفاق بين الأمراء على عود الملك الصالح أمير حاج ، ابن الأشرف شعبان الذى خلعه برقوق من السلطنة ، وكان مقيما بدور الحرم فطلبوه ، فخرج اليهم ، فاجتمعوا بالحوش السلطانى ، فلما رأوا الملك الصالح قد حضر ، باس له الأرض سائر الأمراء ، ثم طلبوا القضاة الأربعة ، وبايعه الخليفة بالسلطنة ثانيا ، وكان عوده الى الملك على غير القياس ، فكان كما قيل فى المعنى :

أيها الانسان صبرا
ان بعد العسر يسرا
كم لزمنا الصبر حتى
عاد ليل الهم فجرا

فكانت مدة سلطنة الملك الظاهر برقوق فى هذه المرة ست سنين وثمانية أشهر وسبعة عشرين يوما ، وكانت مدة اقامته فى الأتابكية خمس سنين الا أشهرا ، فحكم بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى عشرة سنة وخمسة أشهر وسبعة عشر يوما . فهذه كانت مدة سلطنة برقوق الأولى ، وسيعود الى السلطنة ثانى مرة كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

عَوْدُ الملكِ الصّالحِ أميرِحاج

حين عاد الملك الصـالح أمير حاج ، ابن الملك الأشرف شـعبان بن حسين الى السلطنة — وهى السلطنة الثانية — جلس على سرير الملك بعد أن بايعه الخليفة بحضرة القضاة الأربعة ، وباس لـه الأمراء الأرض ، وركب بشعار الملك من الحوش السلطانى الى القصر الكبير ، فمد هناك السماط وجلس عليه وهو بشعار الملك .

ثم ان الأمير يلبغا الناصرى لما تولى الملك الصالح هذه المرة غير لقبه ولقبه بالملك المنصور ، وهذا لم يتفق قط — فان الملك الناصر محمد بن قلاون لما خلع من الملك وعاد اليه ثلاث مرات لم يتغير لقبه — ثم نادوا باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء.

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وطلع اليه سائر الأمراء . فلما تكامل الأمراء فى الموكب تقدم الأمير يلبغا الناصرى وقبض على المقر السـيفى سودون الفخرى الشـيخونى نائب السـلطنة ، وقبض على الأمير سـودون باق ، وقبض عـلى الأمير سودون الطرنطاى ، وقبض على سـيدى أبى بكر بن سـنقر الجمالى — وكان سـيدى أبو بكر هـذا حاجب الحجـاب فى دولة الملك الظـاهر برقوق — وقبض على الأمير بجـاس النوروزى ، وقبض على الأمير أقبغا الماردينى ، والأمير شيخ الصفوى والأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق ، وقبض على الأمير محمود بن على الظاهرى استادار العالية ، فكان عدة من أمسك فى ذلك اليوم من الأمراء المقدمين تسعة .

وقبضوا فى ذلك اليوم على ثمانية وستين أميرا ما بين أمراء طبلخانات وأمراء عشراوات ، حتى ارتجت فى ذلك اليوم القاهرة وكادت أن تخرب عن آخرها .

وكان الأمير يلبغا ومنطاش لما أتوا الى القاهرة دخلوا ومعهم السواد الأعظم من التراكمـة ومن العربان وغير ذلك من عساكر البلاد الشـامية والبـلاد الحلبية . فلمـا أرادوا أن يدخلوا الى المدينة وجدوا أبواب القاهرة مقفلة ، فجاء الأمير ناصر الدين اسـتادار الأمير ارغون اشـكى — وكان قد حضر من الشـام صحبة العسكر — فأتى الى باب النصر فوجده مقفلا ، فدق البـاب فلم يفتحوا له ، فدخل من باب سر جامع الحاكم وهو راكب على فرسه وفتح باب النصر وباب الفتوح ، فدخل السواد الأعظم الى القاهرة ، فنهبوا عدة دكاكين من سوق باب النصر من البضائع والمآكل وغير ذلك ، واستمر النهب عمالا من باب النصر الى الـركن المخـلق ، وقد تدرجـوا الى نهب البيوت ، واضطربت القاهرة وماجت بأهلها .

فلمابلغ الأمير يلبغا ومنطاش ذلك أرسلوا جماعة من رءوس النوب ومن الحجاب وطردوا من يفعل ذلك ، ونادوا فى القـاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن من نهب شيئا يرده والا يشـنق ، فانكف الناس عن النهب ، وتركوا جماعة من الحجاب فى أماكن من القاهرة ، فسكن الأمر قليلا وخمدت الفتنة .

ثم ان الأمراء تكلموا مع الأمير يلبغا الناصرى ومنطاش فى أمر هؤلاء الأمراء الذين أمسكوا ، فأفـرج الأمير يلبغـا عن جمـاعة من الأمـراء الطبلخانات والأمراء العشراوات أحـدا وعشرين أميرا ، وأفرج عن الأمير شيخ الصفوى ورسم له بأن يتوجه الى القدس بطالا ، ورتب له ما يكفيه . ثم ان الأمير يلبغا قيد بقية الأمراء وأرسلهم الى السجن بثغـر الاسكندرية . وقـد تقدم ذكـر أسمائهم .

ثم ان الأمير يلبغا رسم بأن يفرج عن جماعة من

الأمراء ، ممن كان مسجونا بثغر الاسكندرية ، فحضروا الى القـاهرة ، وهم : الأمير الطنبغـا الجوبانى ، والأمير الطنبغا المعلم ، والأمير قردم الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء الذين كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية .

فلمـا تم الأمر للملك المنصـور أمير حاج فى السلطنة ، عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى يلبغا الناصرى واستقر أتابكى العسـاكر بالـديار المصرية عوضـا عن الأتابكى أيتمش البجاشى ، وخلع على المقر السيفى قرا دمرداش الأحمدى واستقر أمير سلاح عوضا عن سودون السـيفى تمر باى باق ، وخلع على المقر الشـهابى أحمد ابن الأتابكى يلبغا العمرى واسـتقر أمير مجلس على عـادته ، وخلع على المقـر السـيفى الطنبغـا الجوبانى واسـتقر رأس نوبة النـوب عوضـا عن قرا دمـرداش الأحمـدى ، وخلع على المقر السـيفى تمر باى الحسنى واستقر به حاجب الحجاب عوضـا عن سيدى أبى بكر بن سنقر الجمالى ، وخلع على المقر السيفى الأبغا العثمانى واستقر دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير يونس النوروزى ، وخلـع على الأمير أقبغا الجوهرى واستقر به استادار العاليـة عوضا عن الأمير محمود بن على الظاهرى ، وخلع على الأمير الطنبغا الأشرفى واستقر به رأس نوبة ثانى ، وخلع على الأمير قطلو بك السيفى يلبغا واستقر به أمير جاندار وأنعم على جماعة من الأمراء بتقـادم ألوف ، وعلى جمـاعة بامريات أربعين ، وعلى جماعة بامريات عشرة . ثم عمل الموكب الثانى وخلع على من يذكـر من الأمراء وهم : المقر السيفى نزلار العمرى واستقر به نائب الشام ، وخلع على المقر السيفى كمشبغا الحموى واستقر به نائب حلب ، وخلع على المقر السيفى قطلوبغا الصفوى واستقر به نائب صفد ، وخلع على المقر السيفى سنجق الحسنى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على المقـر الشـهابى أحمـد ابن المهمندار واستقر به نائب حماه ، وخلع على الأمير بغاجق السيفى صرغتمش واستقر به نائب ملطية ... ثم رسم للنـواب الذين اسـتقروا بأن يتوجهوا الى البلاد الشامية ، ويستقر كل واحد فى نيابته ، ويعمر ما فسـد من أحوال البـلاد الشامية ، فخرجوا من القاهرة على حمية ، جميعهم بالسوية .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى نادى فى القاهرة بأن مماليك الظاهر برقوق لا يقيم منهم أحد فى القاهرة ، وأن يخدموا عند النواب ويخـرجوا معهم ، وكل من وجد منهم من بعد ذلك شنق من غير معاودة ثانية . وصاروا يكررون المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج بعد عوده الى الملك .

وأما ما كان من أمر الملك الظاهر برقوق بعد اختفائه ، فان الأمير يلبغا الناصرى صار ينادى فى القاهرة : « كل من كان الملك الظاهر برقوق عنده ولا يقـر عليه يشـنق على باب داره من غـير معاودة » ...

فبينما الأتابكى يلبغا الناصرى جالس فى باب السلسلة وقت الظهر ، اذ دخل عليـه مملوك من مماليك أبى يزيد الخازن يقال له سنقر الرومى ، فقال للأتابكى يلبغا الناصر : « ان السلطان برقوق مختف عند أستاذى فى بيت شخص خياط » ... فلما سـمع الأتابكى يلبغا بذلك طلب أبا يزيد الخازن وقال له : « انزل أحضر الملك الظاهر برقوق من عندك والا شنقتك على باب بيتك » ... فلما سمع أبو يزيد بذلك أنكر ، فأمر الأتابكى يلبغا

بتوسيطه ، فلما تحقق ذلك أقر بأنه عنده ، فقال له يلبغا : « أنت ما سمعت المناداة بأن من خبى السلطان برقوق عنده ولا يقر به شنق على باب داره ؟ » ... فقال أبو يزيد : « ياخوند ، ان الملك برقوق كان له عليّ احسان عظيم ، وجاء اليّ تحت الليل فما أمكنني رده » ... فقال له يلبغا : « انزل اليه وأحضره » . ثم أرسل معه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب ومعه عشرون مملوكا ، فلما وصلوا البيت الذى فيه السلطان برقوق طلع اليه الأمير الطنبغا الجوبانى بمفرده ، فلما وقعت عينه على الملك الظاهر برقوق جرى الطنبغا وقبل يد الملك الظاهر برقوق وقال له : « أنت أستاذنا كلنا ونحن مماليكك » ... ثم ان برقوق قام معه ، ولبس له عمامة على رأسه ، وعمل فوقها طيلسانا ، وركب فرسا وركب الطنبغا الجوبانى الى جانبه ومعهما أبو يزيد فى الترسيم ، فطلعوا الى باب السلسلة ، فنزل السلطان برقوق من على الفرس ، فطلعوا به من باب سر القصر الكبير الذى من الاسطبل ، فأدخلوه الى قاعة النحاس التى لها شبابيك مطلة على الايوان .

ثم ان الأتابكى يلبغا قال لأبى يزيد : « احضر لنا ما كان مع السلطان من المال لما دخل عندك » ... فأخرج لهم كيسا فيه ألف دينار وقال : « والله ما أودع عندى غير هذا الكيس ، وما أعلم مافيه » ... فقال له الأتابكى يلبغا : « لقد خاطرت بنفسك ، ولولا خاطر الملك الظاهر برقوق كنت شنقتك » ... فقال أبو يزيد : « يا خوند ، أنا ما فعلت ذلك الا وقد فرغت عن نفسى وحسبت حساب التلف » .

وقد قيل فى المعنى :

اذا اعتذر الجانى محا العذر ذنبه
وكل امرىء لايقبل العذر مذنب

فقال له يلبغا :

« خذ لك الكيس بما فيه ، ومثلك من يخدم الملوك » ... ثم خرج عنه ونزل الى بيته .

ثم ان الأتابكى يلبغا الناصرى رتب للملك الظاهر برقوق سماطا فى كل يوم بكرة وعشية ، وجعل عنده ثلاثة مماليك صغارا يخدمونه ، وأقام فى قاعة النحاس الى الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، فطلع اليه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب فقيده ونزل به من القلعة فى نصف الليل من باب الدرفيل ، فأركبه على هجين وركب معه الأمير الطنبغا الجوبانى وبعض سماليك ، وتوجهوا به على قبة النصر وقصدوا به نحو عجرود . وقد زالت دولة الظاهر برقوق كأنها لم تكن ، وقد قاسى مشقة ورعبا فى مدة اختفائه ، وقد قيل فى المعنى :

انى تأملت للعليا فلم أرها
تنال الا على كد من التعب

ثم ان الأمير عيسى بن مهنا ، شيخ العرب ، تسلم السلطان برقوق وتوجه به الى نحو الكرك ، ورجع الأمير الطنبغا الجوبانى الى القاهرة . فلما وصل السلطان برقوق الكرك سجن بالقلعة التى به وهو فى القيد . وكان نائب الكرك يومئذ الأمير حسام الدين الكجكنى ، فأكرم الملك الظاهر غاية الاكرام ، وأنزله فى مكان عند الطارمة .

وكان سبب هذه العداوة التى وقعت بين يلبغا الناصرى وبين السلطان برقوق أن برقوق قبض على يلبغا الناصرى وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية مرتين : مرة فى دولة الملك المنصور على بن الأشرف شعبان ، والمرة الثانية فى دولة الظاهر برقوق لما كان يلبغا نائب حلب . ثم ان برقوق أرسل مراسيم على يد الأمير تلكتمر الى الأمير سودون المظفرى بقتل يلبغا الناصرى ،

فأطلع عليها يلبغا الناصرى وجرى ما تقدم ذكره ... فهذا كان سبب العداوة بين يلبغا الناصرى وبين برقوق . واستمرت العداوة بينهما حتى بلغ يلبغا من برقوق مناه ، وقيده ونفاه ، كما تقدم .

توقع كيد من خاصمت يوما
ولا تركن الى ود الأعادى
فان الجرح ينكث بعد حين
اذا كان البناء على فساد

وكان توجه السلطان برقوق الى الكرك فى ليلة الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين وسبعمائة . فلما مضى أمر الظاهر برقوق واستقر بالكرك وقع الخلف بين الأمير تمر بغا منطاش وبين الأتابكى يلبغا الناصرى ، ودبت بينهما عقارب الفتن ، فأظهر الأمير منطاش أنه ضعيف وانقطع فى بيته أياما . فلما بلغ الأمراء ذلك توجه الأمير الطنبغا الجوبانى رأس نوبة النوب ليسلم عليه ، فلما دخل الى بيته قبض عليه ، وكان ذلك فى يوم الاثنين سادس عشر شعبان من سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

فلما كان وقت الظهر ، والناس مقيلة فى بيوتهم ، ركب الأمير منطاش هو ومماليكه وهم لابسون آلة الحرب — وكانوا نحوا من أربعين مملوكا — فهجموا على باب السلسلة ، وأخذوا الذى بالاسطبل السلطانى ، ثم توجهوا الى بيت أقبغا الجوهرى استادار العالية فنهبوا كل ما فيه ، والتف على منطاش السواد الأعظم من الزعر والغلمان والعبيد ، فهرب أقبغا الجوهرى من بيته الذى على بركة الفيل .

ثم ان منطاش أرسل الأمير تنكز بغا اليلبغاوى ، ومعه جماعة من المماليك ، فطلعوا الى سطح مدرسة السلطان حسن وصاروا يرمون على كل من يمشى فى الرميلة أو سوق الخيل ، فتسامعت به مماليك الظاهر برقوق الذين كانوا قد اختفوا ، فظهروا وجاءوا الى منطاش ، وكذلك مماليك الأشرف شعبان ومماليك الأسياد . فاجتمع عند منطاش فى أواخر النهار نحو خمسمائة مملوك ، وكان معه أول ماركب دون الأربعين مملوكا . فلما تسامع الأمراء والعسكر بذلك طلعوا الى الرميلة وهم لابسون آلة الحرب ، فنزل اليهم الأتابكى يلبغا الناصرى ومن كان من عصبته من الأمراء والمماليك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان . وصار العوام والزعر يساعدون منطاش بالحجارة والمقاليع ، ثم يلتقطون النشاب الذى يرمونه جماعة يلبغا الناصرى ويحضرونه الى منطاش . ثم تكامل عند منطاش نحو ألفى مملوك ، وحضر عنده من الأمراء المقدمين أربعة ، وهم : المقر الشهابى أحمد بن يلبغا العمرى أمير مجلس ، والأمير قرا دمرداش الأحمدى أمير سلاح ، والأمير الطنبغا المعلم ، والأمير عبد الرحيم ابن منكلى بغا الشمسى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

ثم ان الأمير منطاش قال للأمير ناصر الدين ابن الطرابلسى الزردكاشى : « انصب على مدرسة السلطان حسن مكحلة » ... فامتنع ناصر الدين ابن الطرابلسى من ذلك ، فعراه وقصد توسيطه .

ثم انه نصب مكحله على المدرسة ، ورمى بها على باب السلسلة ، فهرب المماليك الذين كانوا فى الاسطبل .

ثم ان الأتابكى يلبغا نصب مكحلة على المدرسة الأشرفية التى كانت فى رأس الصوة ورمى بها على سوق الخيل فلم يفد من ذلك شىء .

ثم ان جماعة من المماليك السلطانية ، لما رأوا أن الأمير منطاش منتصف على الأتابكى يلبغا ، صاروا

يتسحبون من عند يلبغا وينزلون عند منطاش ، واستمر الحرب سائرا بينهما يومين . فلما رأى الأتابكي يلبغا عين الغلب هرب تحت الليل هو وجماعة من الأمراء ، وهم . الأمير مأمور القلمطاوي أحد المقدمين ، والأمير الأبغا العثماني الدوادار ، والأمير أقبغا الجوهري استادار العالية ، والأمير كشكلي أحد المقدمين ، وبعض مماليك نحو مائتي مملوك ... فحرجوا من باب القرافة ، وتوجهوا الى الجبل المقطم ، وخرجوا من عند وادي السدرة وقصدوا نحو البلاد الشامية .

وكان الأتابكي يلبغا يظن أنه ينتصف على منطاش ، كما أنه قد انتصف على الملك الظاهر برقوق ... وما كل مرة تسلم الجرة . فكان كما قيل في المعنى :

واني رأيت المرء يشقى لعكسه

كما كان قبل اليوم يسعد بالسعد

هذا ما كان من أمر الأتابكي يلبغا الناصري .

وأما ما كان من أمر الأمير تمربغا الأفضلي منطاش فانه لما هرب الأتابكي يلبغا ، ركب وطلع الى باب السلسلة واستولى على حواصل يلبغا .

فلما كان في يوم الخميس تاسع عشر شعبان جاءت الأخبار بأن يلبغا الناصري قد مسك هو والأمراء الذين كانوا صحبته من بلبيس فلما حضر يلبغا حبسه منطاش في المكان الذي حبس فيه الظاهر برقوق — والمجازاة من جنس العمل — فأقام أياما ، ثم قيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسل معه الأمراء المقدم ذكرهم ، فنفي في هذه الحركة تسعة أمراء وغير ذلك من الأمراء العشراوات ممن كان في عصبة يلبغا .

ثم ان الأمير منطاش رسم بالافراج عن جماعة من الأمراء الذين كان قد سجنهم يلبغا الناصري ، فحضر من ثغر دمياط المقر السيفي سودون الفخري نائب السلطنة ، ثم أرسل باحضار الأمير شيخ الصفوي من المقدس ، وأفرج عن الأمير الطنبغا العثماني ، والأمير بطا الطولوتمري ، والأمير الطنبغا شادي .

ثم ان الأمير منطاش عرض مماليك الظاهر برقوق في باب السلسلة ، ومسك منهم نحو مائتي مملوك وحبسهم في أبراج القلعة .

ثم ان السلطان الملك المنصور أمير حاج عمل الموكب في القصر ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفي تمربغا الأفضلي منطاش واستقر به أتابك العساكر عوضا عن يلبغا الناصري ، وخلع على الأمير استدمر الشرفي واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير تمان تمر الأشرفي واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمير الطنبغا الحلبي واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير اياس الأشرفي واستقر به أمير اخور كبير . وأنعم على جماعة من الأمراء ممن كان من عصبته بتقادم ألوف ، وبامريات أربعين ، وبامريات عشرة . وفرق الاقطاعات على المماليك ، وأقام له عصبة قوية ، وظن أن الوقت قد صفا له .

ثم في العشر الأخير من شهر رمضان جاء الخبر من الكرك بأن الملك الظاهر برقوق قد ملك قلعة الكرك وعصى بها . وكان سبب ذلك أن الأتابكي منطاش أرسل شخصا من البريد يقال له الشهاب ، وأرسل على يده مرسوما شريفا الى نائب الكرك بقتل الملك الظاهر برقوق .

ومن العجائب أن منطاش مملوك الملك الظاهر برقوق ، اشتراه في سنة سبع وثمانين وسبعمائة ، ورباه صغيرا ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا . وكان منطاش شجاعا بطلا ، فظهر منه بعض افساد

فى القاهرة ، فضربه السلطان برقوق علقة قوية ونفاه الى البلاد الشامية . فلما عصى يلبغا الناصرى التف عليه منطاش ، وحضر معه الى القاهرة ، وحارب أستاذه برقوق أشـد المحاربة ، وقيده ونفاه الى الكرك ... وما كفاه ذلك حتى أرسـل مراسـيم بقتـله ، فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل فى المعنى :

كنت من كربتى أفـر اليهـم
فهمـو كربتى فأين المفـر ؟

فلما دخل الشهاب البريدى الى الكرك بلغ ذلك الملك برقوق . وكان للملك الظاهر فى المكان الذى حبس فيه شباك الى جهة بلاد الخليل عليه الصلاة والسلام ، فكان برقوق فى كل يوم يقف فى الشباك ويقول : « يا خليل الله ، أنا فى حسبك من منطاش » ... قيل ان شخصا من الصالحين رأى الخليل عليه الصلاة والسلام فى المنام ، فقال له ان برقوق يعود الى ملكه ، وينصر على منطاش ...

فلما حضر الشهاب البريدى الى الكرك ، تنسم منه الحاج عبد الرحمن البابا الذى كان بخدمة الملك الظاهر برقوق بأنه جاء بقتل أستاذه برقوق . وكان أصـل الحاج عبد الرحمن البابا من الكرك ، وله أقارب هناك . فلما كانت تلك الليلة التى قدم فيها الشهاب البريدى كانت نوبة أبى علوان السجان ، وكان من أقارب الحاج عبد الرحمن البابا ، فأنزلوا ذلك البريدى فى مكان يسمى الطارمة بجانب المكان الذى فيه السلطان برقوق ، وكان نائب الكرك فى كل ليلة من شهر رمضان لا يفطر الا عند السلطان برقوق . فلما كانت تلك الليلة لم يحضر فيها نائب الكرك المذكور ، فاضطرب الظاهر برقوق لذلك ، وقال : « لا آكل شيئا حتى يحضر النائب » ... ثم بعد سـاعة حضر وأكل مع السلطان . فلما فرغوا دخل أقارب الحاج عبد الرحمن البابا على الشهاب البريدى وهو فى الطارمة فقتلوه ، ثم أرادوا قتل نائب الكرك فاستجار بالسلطان فمنعهم من قتله ، فقبضوا عليه وسجنوه ، وملك الملك الظاهر قلعة الكرك ... فهذه كانت مبدأ سـعد الملك الظاهر برقوق ، وقـد قاسى من المحن والأهوال أمرا عظيما ، فكان كما قيل فى المعنى :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
ويعرف عند الصـبر فيما يصيبه

ومن قل فيما يتقيـه اصـطباره
فقـد قل فيما يرتجيه نصـيبه

فلما جاءت الأخبار بأن برقوق قد ملك قلعـة الكرك ، اضطربت أحوال الأتابكى منطاش ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد . ثم انه أحضر العسكر وعين تجريدة الى برقوق .

ثم فى أثناء ذلك حضر شخص من العربان الشامية وأخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد طرده أهل الكرك وأنزلوه من القلعة وهرب الى خارج المدينة ، وان العربان قد أحاطوا به ... ولم يكن لذلك صحة ، وانما السلطان برقوق أرسل هذا الهجان بهذا الخبر الى مصر حتى يبطـل أمر التجـريدة التى كانوا عينوها له الى أن تستقيم أحواله .

فلما سمع الأتابكى منطاش بهذا الخبر فرح ، وخلع على ذلك الهجان كاملية بسمور ، وبطل أمر التجريدة ، فكانت هـذه أول مكيدة صحت بيد برقوق .

ثم فى خامس عشر شوال جاءت الأخبار من قوص بأن مماليك الظاهر برقوق الذين كانوا هناك قد توجهوا الى الكرك من وادى القصب الى السويس ، وقد قتلوا والى قوص .

ثم فى أثناء ذلك جاءت الأخبار من حلب بأن

كمشبغا الحموى نائب حلب خامر وخرج عن الطاعة .

ثم جاءت الأخبار بأن الظاهر برقوق قد خرج من الكرك وهو قاصد نحو الشام ، فلاقاه حسام الدين بن باكيش نائب غزة ومعه جماعة من عربان جبل نابلس نحو خمسة آلاف انسان ، فأوقعوا مع الظاهر برقوق فى الطريق واقعة قوية ، وكان الظاهر برقوق قد التف عليه من عربان الكرك نحو ألف انسان . فلما خرج من الكرك تسامعت به الناس فجاءوا اليه ، وصار كلما مر بقرية يخرج اليه أهلها ويلاقونه ومعهم العليق والضيافة . فلما لاقاه ابن باكيش نائب غزة ، وانكسر من كان مع ابن باكيش من العسكر ، نهبهم عسكر برقوق وغنموا منهم خيولا وسلاحا وقماشا وبركا ، فقوى عسكر برقوق بتلك الغنيمة . فلما وصل برقوق الى شقحب خرج اليه عسكر دمشق ، وأوقعوا معه هناك واقعة عظيمة ، فقتل بها من أمراء دمشق ستة عشر أميرا ، ومن المماليك نحو خمسين مملوكا ، وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك .

ثم جاءت الأخبار بأن الأمير اينال اليوسفى خرج من السجن وملك قلعة صفد . وسبب ذلك ان اينال اليوسفى كان مسجونا بقلعة صفد . وكان داودار نائب صفد شخصا يقال له يلبغا السالمى ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق . فلما خرج نائب صفد من المدينة وتوجه الى نحو دمشق ليساعد نائب دمشق على قتال الظاهر برقوق بقيت صفد خالية بلا نائب ، فاتفق يلبغا السالمى مع حاجب صفد ونائب القلعة ، وأخرجوا الأمير اينال اليوسفى من السجن ، وأخرجوا معه جماعة من المماليك الذين كانوا معه فى السجن وملكوا قلعة صفد . فلما بلغ ذلك نائب صفد رجع الى صفد وأراد أن يدخل الى دار السعادة ، فرموا عليه بالمدافع وطردوه من المدينة ، واستولى اينال اليوسفى على قلعة صفد ، ونهب حواصل قطلو بك نائب صفد ، فقويت شوكة الظاهر برقوق .

ثم جاءت الأخبار بأن نائب صفد ونائب حماه قد وصلا الى قطيا وهما هاربان من الظاهر برقوق ، فدخلوا الى القاهرة فى يوم الأحد خامس عشرى شوال ، فأخبروا الأتابكى منطاش بأن أكثر النواب خامر مع الظاهر برقوق .

فلما سمع منطاش ذلك عقد مجلسا عظيما فى القصر الكبير ، وأرسل خلف أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى . فلما تكامل المجلس عرض عليهم الأتابكى منطاش سؤالا شرحه : « ما تقول السادة العلماء فى رجل خلع الخليفة وسجنه وقيده من غير موجب لذلك ، وقتل رجلا شريفا فى الشهر الحرام فى البلد الحرام ، واستحل أخذ أموال الناس بغير حق ، واستعان بالكفار على قتال المسلمين ؟ » ... ثم كتبوا من هذا السؤال عدة نسخ . فقال القضاة : « ما نكتب على هذا السؤال حتى يكتب شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى » . فكتب الشيخ سراج الدين البلقينى : « اذا قامت عليه البينة بذلك وجب قتاله ومحاربته ، فهو خارجى » . فلما كتب شيخ الاسلام ذلك كتب بعده القضاة ومشايخ العلماء ، وكتبوا من هذا السؤال عدة فتاوى ، ثم أرسلوها الى ثغر الاسكندرية ودمياط وغير ذلك من الثغور ... وكان الظاهر برقوق فى أول سلطنته وقع منه أمور فاحشة فى حق الرعية ، فكان كما قيل : « اذا حملت الأنفس ما لا تطيق ، نطقت الألسن بما لا يليق » ...

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن الظاهر برقوق بعد أن دخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل فى

الميدان ، كبس عليه أهل دمشق ، وأخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد . وكان سببه أن الظاهر برقوق لما وصل الى دمشق نزل عند قبة اليلبغا خارج دمشق . فأقام هناك ، فجاء اليه كمشبغا الحموى نائب حلب ، فوجد الظاهر برقوق فى خيمة خلقة صغيرة ، فأحضر له خيمة مدورة عظيمة ، وأحضر طشتخاناه وشربخاناه وفرشخاناه وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك من أوان وفرش حتى أحضر له الخليفة برسم النوبة ، وصار الظاهر برقوق سلطانا كما كان أولا بعدما كان قد تلاشى أمره ، فكان كما قيل :

الصبر مثل اسمه فى كل نائبة
لكن عواقبه أحلى من العسل

فاصبر لها غير محتال ولا ضجر
فى حادث الدهر ما يغنى عن الحيل

ثم ان الظاهر برقوق لما استقامت أموره ، حضر بمن معه من العساكر ودخل الى دمشق ، وملك المدينة ، ونزل بالميدان الكبير ، فجاء اليه الناس من كل فج وقدموا اليه الخيول والقماش والمال وغير ذلك . فبينما هو فى الميدان اذ قامت بدمشق عركة ، ورجموا الملك الظاهر برقوق وأخرجوه من الشام . وكان سبب ذلك أن بعض مماليك برقوق عبث على بعض سوقة دمشق وأخذ منه شيئا من البضائع بالغصب ، فاستغاث ذلك السوقى ، فحضر اليه جماعة من أهل دمشق وتعصبوا له ، فهاش عليهم ذلك المملوك وضربهم ، فرجمه أهل دمشق ، فجاء خشداشى ذلك المملوك ورموا على عوام دمشق بالنشاب ، فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاليع ، فكسروا المماليك كسرة قوية . فركب الظاهر برقوق ومن معه من الأمراء وخرجوا من دمشق الى قبة يلبغا ، فدخل العوام الى الميدان ، ونهبوا برك الظاهر برقوق ، وغلقت أبواب دمشق بعد ما كانت مفتحة ، وكان برقوق أشرف على أخذ قلعة دمشق وراج أمره ، فتعطل بسبب ذلك كما قيل : « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

ويقرب من هذه الواقعة ما ذكره بعض المؤرخين أن أهل قريتين تقاتلوا حتى تفانوا عن آخرهم على قطرة عسل وسبب ذلك أن رجلا نحالا يبيع العسل وقف على زيات ليبيعه عسلا . فبينما الزيات يزن فى العسل ، قطرت منه قطرة على الأرض ، فوقع عليها زنبور ، فوثب عليه قط كان فى دكان الزيات وهو عزيز عنده ، فخطف ذلك الزنبور ، فرآه كلب كان مع صاحب العسل وهو عزيز عنده ، فوثب على قط الزيات فقتله وأكله . فلما رأى الزيات قطه قد مات ضرب كلب صاحب العسل فقتله . فلما رأى صاحب العسل كلبه قد مات خرج من عقله — وكان ذلك الكلب عزيزا عنده — فضرب الزيات ضربة فقتله فلما رأى أخو الزيات أخاه قد قتل ، وثب على صاحب العسل فقتله . وكان صاحب العسل من قرية والزيات من قرية ، فتسامع أهل القريتين بذلك فلبسوا السلاح ، وما زالوا يتقاتلون بالسيف والرمح ، والحرب سائرة بينهم ، حتى تفانوا عن آخرهم ... وكان سبب ذلك القطرة العسل التى أثارت هذه الفتنة العظيمة .

فنعوذ بالله من آفة الجهل ، وقلة العقل ، كما قيل فى المعنى .

ألم تر أن العقل زين لأهله
ولكن تمام العقل طول التجارب

ومن هنا نرجع الى أخبار الأتابكى منطاش ... فانه لما سمع ذلك عن الظاهر برقوق لم يثق بهذا الكلام ، وأخذ فى أسباب خروج العسكر ، والسلطان الملك المنصور أمير حاج ، الى نحو

الشام لقتال الظاهر برقوق . فلما تحرك أمر التجريدة حصل للناس غاية الضرر من الأتابكى منطاش ، وتمنى كل أحد عود الملك الظاهر برقوق الى الديار المصرية . وكان قد جرى من الأتابكى منطاش عند خروج التجريدة أمور منها أنه أخذ خيول الطواحين جميعها حتى غلا الدقيق وأكل الناس بعضهم بعضا ، ومنها أنه نادى فى القاهرة بأن لا فقيه ولا متعمم يركب فرسا ، ومنها أنه أمسك جماعة من مماليك الظاهر برقوق وسجنهم بخزائن شمايل ، ومنها أنه سد باب الفرج — وكان ذلك فألا عليه — وسد باب حمام أيدغمش ، ومنها أنه رمى على جماعة من المباشرين بالايوان الشريف خمسمائة فرس من الخيول الخاص ، ومنها أنه رمى على أولاد الناس أجناد الحلقة كل واحد فرسا أو ثمنه ، ورمى على الحجاب المقيمين بالقاهرة كل واحد ثمن فرس خمسين دينارا ، وفرع من أبواب هذه المظالم أشياء كثيرة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، فكان كما قيل فى المعنى :

كفى المرء نقصا أن يرى عيب غيره

وما عاب منه النـاس غير معيب

ثم ان السلطان علق الجاليش وأنفق على العسكر، فرسم الأتابكى منطاش لكل مملوك من المماليك السلطانية بنفقة دون المائة دينار ، فأخذوا ذلك على كره منهم وأظهروا العصيان ، وكثر القيل والقال فى حق المقر الأتابكى منطاش . ثم أشيع بين الناس أن الملك الظاهر برقوق قد انكسر وهرب ، وأن رأس اينال اليوسفى قد قطعت وهى واصلة الى القاهرة ، فدقت البشائر لذلك ثلاثة أيام ، وزينت القاهرة ... وكل ذلك أخبـار مصنوعة ليس لها صحة ، وانما هى اشاعة لتطمئن خواطر العسكر وهذه حيل منطاش .

ثم ان السلطان برز خيامه فى الريدانية وكذلك سائر الأمراء .

فلما كان يوم الاثنين سـابع عشر ذى الحجة سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، نزل السلطان الملك المنصور أمير حاج من القلعة ، وصحبته الخليفة المتوكل على الله محمد ، والقضاة الأربعة — وهم : قاضى القضاة أبو البقا السبكى الشافعى ، وقاضى القضاة شمس الدين محـمد الطرابلسى الحنفى ، وقاضى القضاة جمال الدين بن خير المالكى ، وقاضى القضاة ناصر الدين بن العسـقلانى الحنبلى — وسائر الأمراء من الأكابر والأصـاغر ، فنزل فى موكب عظيم الى الريدانية .

ثم ان السلطان ترك بالقاهرة من الأمراء المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ورسم له بأن يقيم فى القلعة الى أن يعود السلطان ، وجعل الأمير تكا الأشرفى نائب الغيبة مع الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا السيفى تمر باى حاجبا ثانيا ومعه جماعة من الحجاب ، وترك جماعة من المماليك السلطانية نحو خمسمائة مملوك ، ورسم لهم بأن يتوزعوا فى أبراج القلعة وجوانب المدينة .

ثم ان فى يوم الجمعة رحل السلطان من الريدانية فلما وصل الى العكرشا وقع من أعلى الفرس الى الأرض فتفاءل له الناس بعدم النصرة . وكان أكثر العسكر مائلا الى الملك الظاهر برقوق ، وما مع الأتابكى منطاش من العسكر الا القليل .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور أمير حاج والأتابكى منطاش .

وأما ما كان من أمر الأمراء الذين بالقاهرة بعد خروج السلطان فان الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، لما رحل السلطان من القـاهرة ، أمر بسـد أبواب القلعة ، وهى : باب الدرفيل ، وباب الميدان ، وباب

القرافة ، وسد بعض أبواب القاهرة الصغار . ثم ان نائب الغيبة رمى على أولاد الناس المقيمين بالقاهرة كل واحد فرسا أو ثمنه ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل ، وصارت القاهرة كل يوم فى اضطراب وقلة أمن .

وفى هذه السنة توفى الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفى ، وكان من أعيان العلماء وله شعر جيد فى البديع ، فمن ذلك قوله فى الصاحب كريم الدين ابن الغنام :

وزير الملك عيد ألف عيد
فأنت الصاحب الخلق الجليل
فمنك غنيت فى الأضحى بكبش
ملىء بالغنا كاف كفيل

سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة (١٣٩٠ م) :

فيها جاءت الأخبار من غزة بأن أكثر العسكر تسحب من عند الملك المنصور وتوجهوا الى الظاهر برقوق .

ومن الحوادث بالقاهرة أن جماعة من مماليك الأمراء اتفقوا مع مماليك الأمير صراى تمر نائب الغيبة على قتل أستاذهم صراى تمر . فلما تحقق صراى تمر ذلك أرسل الأمير قطلوبغا الحاجب ، ووالى القاهرة ، فكبسا على جماعة من المماليك الذين هم رأس الفتنة فى مكان فى البرقية ، فمسكا منهم ستة أنفس وهم لابسون آلة الحرب . فلما قبضا عليهم أحضراهم الى الأمير صراى تمر نائب الغيبة فعاقبهم وقررهم فأقروا بأنهم قصدوا قتل جماعة من الأمراء ، فسجنهم بخزانة شمايل .

ثم ان الأمير صراى تمر أرسل يعرف الأمير تكا الأشرفى رأس نوبة ثانى عما وقع من هذا ، فلما أشيع ذلك بين الأمراء قبض كل أمير من الأمراء على جماعة من مماليكه ، فمسكوا منهم نحو خمسين مملوكا وسجنوهم . ثم ان الأمير صراى تمر أرسل فقبض على سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق وسجنه بالقلعة .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة نادى فى القاهرة بأن كل من مسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ له عشرين دينارا . فلما جرى ذلك اضطربت القاهرة ، وأشاعوا بأن المماليك الذين فى القاهرة يقصدون الوثوب على الأمراء . فلما تحقق الأمير صراى تمر ذلك ما وسعه الا أنه رسم بالافراج عمن سجن من المماليك قاطبة ، والافراج عن سيدى بيبرس ابن أخت الملك الظاهر برقوق ، ونزل الى بيته .

ثم فى يوم الخميس حضر هجان من الشام وعلى يده مراسيم الى الأمراء بأن السلطان الملك المنصور دخل الى الشام وملكها ، وأن الملك الظاهر برقوق هرب من وجهه ولم يقابله ، فخلعوا على الهجان الذى جاء بهذا الخبر خلعة عظيمة ، ودقت البشائر ثلاثة أيام ... ثم ظهر بأن هذا الخبر كذب مصنوع ليس له صحة ، وفعلوا ذلك لتطمئن الرعية .

ثم فى يوم الأحد سابع عشرى المحرم من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة أشيع بين الناس بالقاهرة بأن الظاهر برقوق قد انتصر على الملك المنصور أمير حاج ، ثم انقطعت هذه الأخبار مدة طويلة

فلما كان ليلة الأربعاء مستهل شهر صفر حدث فى تلك الليلة أن جماعة من المماليك السلطانية كانوا بائتين فى القلعة ، فنقبوا حائطا وأخرجوا جماعة من المماليك الذين كانوا فى السجن بالقلعة ، فلما كثروا جاءوا الى باب القلعة الذى ينزل الى باب السلسلة فوجدوه مقفلا فعبثوا فيه بعتلة حديد ، فلما أحس بهم الحراس ضربوا أحد الحراسين بالسيف فمات من وقته ، فهرب بقية الحراس لما رأوا ذلك ، فخلع

المماليك الباب ، ونزلوا الى الاسطبل السلطانى ، وجاءوا الى باب السلسلة ، فوجدوا الحراس قد ناموا وكان ذلك فى آخر الليل ، فضربوا من الحراس اثنين فماتا ، وأخذوا منهم مفتاح باب السلسلة ففتحوا الباب ونزلوا الى الرميلة ... هذا كله والأمير صراى تمر نائم فى حريمه لم يشعر بشىء من ذلك . فلما أحس بهذا الأمر نزل من سور الاصطبل فى حبل الى الرميلة ، ثم توجه الى بيت الأمير قطلوبغا الحاجب .

ثم ان المماليك تحايوا وكثروا ، فلما أصبح الصباح فتحوا أبواب القلعة وأخرجوا من كان فى الأبراج من المماليك مسجونا ، وكذلك من كان فى خزانة شمايل ، ثم طلعوا الى الاسطبل السلطانى وأخذوا ما كان به من الخيول ، وطلعوا الى الطبلخانات السلطانية ، وأحضروا جماعة الغلمان والعبيد وقالوا لهم دقوا الكئوسات حربيا .

ثم ان الأمير صراى تمر نائب الغيبة والأمير قطلوبغا الحاجب ركبا ولبسا آلة الحرب ، ووقفا بسوق الخيل — وكان الأمير بطا الطولوتمرى قد ملك باب السلسلة — فلما طلع الأمير صراى تمر والأمير قطلوبغا الى سوق الخيل نزل اليهم الأمير بطا مع جماعة من المماليك الظاهرية ، فأوقعوا معهم واقعة قوية ، فانكسر الأمير صراى تمر نائب الغيبة ، والأمير قطلوبغا الحاجب ، فنهب العوام بيوتهم ومن كان من عصبتهم من الأمراء والمماليك .

ومن غرائب صنع الله تعالى أن القاهرة اضطربت لهذه الواقعة ، وكانت المدينة سائبة — لا سلطان بها ولا قاضى ولا حاكم — ومع هذا لم يفقد لأحد من الناس ما قيمته الدرهم الفرد ، وكانت الزعر مائجة فى المدينة ، ولم يتعرضوا لأحد من الناس بسوء ، ولا نهبوا لأحد شيئا من الدكاكين ولا البيوت ولا الأسواق ، وكان حفظا من الله تعالى ، فكان كما قيل فى المعنى :

لم لا نرجى الفضل من ربنا
أم كيف لا نطمع فى حلمه
وفى الصحيحين أتى أنه
بعبده أشفق من أمه

ثم ان الأمير بطا خلع على شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن العادلى واستقر به والى القاهرة عوضا عن حسين بن الكورانى . ثم ان محمد بن العادلى نادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد ، والدعاء للسلطان الملك الظاهر برقوق بالنصر ، فضج الناس له بالدعاء ... وهذا كله جرى بالقاهرة ولم يعلم للملك الظاهر برقوق خبر ، ان كان قد انتصر أو انكسر .

ثم ان المقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة ركب بنفسه وشق القاهرة ، ونادى قدامه بالأمان والاطمئنان ، والدعاء للملك الظاهر برقوق ، وكان ذلك يوم الجمعة ، فنودى للخطباء بأن يخطبوا باسمه فى ذلك اليوم .

ثم ان الأمير صراى تمر ، والأمير قطلوبغا ، وجماعة من الأمراء طلعوا الى باب السلسلة صحبة المقر السيفى سودون النائب وفى رقابهم مناديل . فلما طلعوا الى باب السلسلة قيدهم الأمير بطا وسجنهم بالقلعة . وكان الأمير بطا من مماليك الظاهر برقوق ، وكان يومئذ أمير عشرة ، ولكن خدم سعده لسعد أستاذه برقوق كما قيل فى المعنى :

ملك نداه المبتدا — للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه — حكم القضاء والقدر

فلما كان يوم السبت أواخر شهر صفر حضر الى القاهرة جلبان الخاصكى وصحبته الأمير عيسى بن

مهنا شيخ العرب ، وأخبروا بأن الملك الظاهر برقوق قد انتصر على منطاش ، وهو واصل الى غزة . فلما سمع ذلك الأمير بطا دق الكئوسات ، ونادى بالزينة فى القاهرة وكتب مراسيم وأرسلها الى ثغر الاسكندرية ودمياط والصعيد بنصرة الملك الظاهر برقوق على منطاش .

ثم ان الأمير بطا خلع على الأمير حسين بن الكورانى ، واستقر به والى القاهرة كما كان أولا.

ثم فى يوم الأحد ثانى ربيع الأول حضر هجان على يده مراسيم شريفة متوجة بخط الملك الظاهر برقوق ، مضمونها أن الأمير بطا يجهز الاقامات الى قطيا .

ثم بعد ذلك حضر شيخ العرب زيد بن عيسى شيخ العائد وأخبر بما جرى للملك الظاهر برقوق مع الملك المنصور أمير حاج ومع الأتابكى منطاش . فأخبر أن الملك المنصور لما وصل شقحب تلاقى هناك هو والملك الظاهر برقوق ، فحصل بين العسكرين واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، وذلك فى يوم الأحد رابع عشر المحرم سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة . فلما التقوا هناك على شقحب انكسر الملك الظاهر برقوق كسرة قوية وهرب ، وأسر الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر وجرح . فلما انكسر الظاهر برقوق وولى دخل الأتابكى منطاش الى الشام ومعه الأمير قجماس ابن عم الملك الظاهر برقوق وهو أسير . ثم ان الأتابكى منطاش قال لنائب الشام الأمير نجردمر : « اخرج أنت وعسكر الشام ولاقى الملك المنصور » ... وكان الملك المنصور لما انكسر برقوق أخذ الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة وخزائن المال وبعض جماعة من العسكر ، ونزل تحت جبل خارجا عن الشام بيوم .

هذا ما كان من أمر الملك المنصور والأتابكى منطاش .

وأما ما كان من امر الملك الظاهر برقوق بعد كسرته ، فانه هرب هو والأمير كمشبغا الحموى نائب حلب فأما نائب حلب فتوجه تحت الليل الى حلب ودخلها ، ثم حصن المدينة وظن أن الظاهر برقوق قد تلاشى أمره . واما الملك الظاهر برقوق فانه لما انكسر هرب فى نفر قليل من العسكر وتوارى خلف الجبل الذى تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فأتى اليه بعض العرب وأخبره بأن الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر — وكانوا نحو أربعين انسانا — فألقى الله الرعب فى قلوب عسكر المنصور ، وغلت أيديهم عن القتال ، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالباز على الطائر ، واحتوى على كل ما معهم من البرك والقماش والسلاح وخزائن المال . فلما جرى ذلك تسامع به الناس فجاءوا اليه أفواجا من كل مكان ، كما قيل : « اذا استقام نجم سعدك ، فاصنع مع السعد ما شئت » ... فبات برقوق هناك تلك الليلة .

فلما بلغ ذلك منطاش حضر — ومعه عساكر الشام والسواد الأعظم من دعر دمشق فحصل بينهم واقعة أعظم من الواقعة الأولى ، وقتل بها ما لايحصى من الخلائق ، واستمرت الحرب سائرة بينهم من باكر النهار الى غروب الشمس ، فانكسر الأتابكى منطاش وعسكر الشام كسرة قوية ، فولوا هاربين الى نحو دمشق ، وصار القتلى على الأرض مثل الحصا من أهل الشام وعسكر مصر ، وربما عوقب من لم يجن كما قيل :

حب السلامة يثنى عزم صاحبه
عن المعالى ويغرى المرء بالكسل

فلما جرى ذلك أقام الظاهر برقوق بمنزلة شقحب يومين . ثم ان شخصا من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفى مشى بين الملك

الظاهر برقوق وبين الملك المنصور أمير حاج فى أن يخلع نفسه من الملك ويسلم الأمر الى الملك الظاهر برقوق ، فأجاب الملك المنصور الى ذلك ، وأحضر الخليفة المتوكل والقضاة الأربعة ، وخلع نفسه من الملك وأشهدوا عليه بذلك .

ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا الملك الظاهر برقوق بالسلطنة ، وذلك بمنزلة شقحب .

ثم ان الظاهر برقوق أقام هناك تسعة أيام ، فوقع فى العسكر الغلاء وعز الشعير والتبن والقمح حتى بيعت كل بقسماطة بخمسة دراهم شامية ، وبيع كل فرس بعشرين درهما شامية — لعدم العليق — وكل جمل بعشرة دراهم ولم يوجد من يشتريه بهذا السعر ، وبيعت القطعة السكر بثقلها فضة ولم توجد ... فقلق العسكر قاطبة وهموا بالوثوب على برقوق ، فلما رأى ذلك عزم على التوجه الى نحو الديار المصرية ، فخلع عند رحيله على الأمير اياس الجرجاوى واستقر به نائب صفد ، وخلع على الأمير قديد القلمطاوى واستقر به نائب الكرك .

ثم انه أمر العسكر بأن يرحلوا أولا بأول ، فرحلوا من شقحب وبقى الظاهر برقوق والخليفة والملك المنصور وبعض أمراء ومماليك سلطانية ، فلما بلغ منطاش ذلك خرج من الشام ومعه نحو مائتى السان من عسكر دمشق ، ووقف على تل عال خارج عن دمشق ، فلما بلغ الظاهر برقوق ذلك ركب وخرج اليه ، فوقف كلاهما هناك ساعة ولم يقع بينهما قتال .

ثم ان منطاش رجع الى الشام ، ورجع برقوق ثم رحل من شقحب وقصد نحو الديار المصرية ، فسار هو والخليفة والقضاة الأربعة والملك المنصور .

فلما وصل الظاهر برقوق الى غزة قبض على نائب غزة الأمير حسين بن باكيش — وكان وقع منه فى حق الظاهر برقوق لما خرج من الكرك ما قد تقدم ذكره — ثم قيده وأخذه صحبته الى القاهرة . وخلع على الأمير علاء الدين بن أقبغا السلطانى واستقر به نائب غزة عوضا عن ابن باكيش .

ولما كان يوم الأربعاء ثامن صفر حضر الى القاهرة أقبغا الطولوتمرى المعروف باللكاش — وهو أخو الأمير بطا وكان قد أرسله الى كشف الأخبار — فلما رجع أخبر بأن الملك الظاهر برقوق قد خرج من غزة وهو قاصد نحو الديار المصرية ، فنادى الأمير بطا بالزينة ، فزينت القاهرة ودقت البشائر سبعة أيام . ثم ان الأمير بطا أرسل بالافراج عن جماعة من الأمراء قد كانوا بالسجن بثغر الاسكندرية ودمياط ، وهم الأمير الطنبغا العثمانى ، والأمير عبدون العلائى ، والأمير مامق .

ثم ان الأمير بطا قبض على الأمير حسام الدين ابن الكورانى ، والى القاهرة ، وضربه وسجنه . وسبب ذلك أنه كان يكبس على مماليك الظاهر برقوق ويقبض عليهم من اصطبلات الحارات ، فلما انتصر برقوق قال له الأمير بطا : « اقبض على مماليك منطاش كما كنت تقبض على خشداشيننا من الاصطبلات » ... فصار يختلع فى ذلك ، فقبض عليه الأمير بطا وضربه وسجنه ، ثم استقر بالصارمى والى القاهرة عوضا عن ابن الكورانى ... هذا كله قبل وصول الملك الظاهر برقوق .

فلما كان يوم الخميس تاسع صفر ، حضر الى القاهرة الأمير سودون الطيار وعلى يده مثالات شريفة الى سائر الأمراء بالسلام ، وأخبر الأمير سودون بأنه قد فارق السلطان فى الصالحية ، فخرج أكثر الناس الى ملتقاه .

فلما كان يوم الثلاثاء وصل الى بركة الحاج ، فخرج اليه الناس قاطبة من الأمراء والعلماء وأعيان الناس وسائر الرعية من العـوام وغيرهم ، حتى طائفـة الصيادين بشبكاتهم ، وطائفـة الجيوش ومعهم صنجق وطبل وهم يرقصون ، وخرج اليه طائفة اليهود وطائفة النصارى وفى أيديهم الشموع والرايات ...

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر صفر ، دخل السلطان الملك الظاهر برقوق وطلع الى القلعة ، فكان له موكب عظيم ، فشـق من بين الترب ، واليهود والنصارى قدامه بالشموع تشعل ، وهو راكب والأمراء مشاة بين يديه ، والخليفة المتوكل قدامه والقضـاة الأربعـة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، وسـائر الأمراء من الأكابر والأصاغر قدامه ، وسائر الجند من شيخ وصبى . وكان الملك المنصور أمير حاج راكبا عن يمينـه وحملت القبـة والطير على رأسه ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، وانطلقت له النساء بالزغاريط .

فلمـا وصل الى تربة طيبغا الطويل فرشت له الشقق الحرير . فلما وصل الى أوائل الشقق ثنى عنان فرسه عن الشقق ، وأشار الى الملك المنصور أمير حاج بأن يمشى بفرسـه على الشـقق جبرا لقلبه ... فدعا له الناس بالنصر .

فلمـا أن وصـل الرميـلة ، طلـع الى باب السلسلة وجلس به ، واجتمع الخليفة والقضـاة الأربعة ، فجددوا له البيعة ثانيا ، وأشهدوا على الملك المنصور بالخلع .

فلما انقضى المجلس قال الملك الظاهـر برقوق للملك المنصـور أمير حاج : « اطلع سـلم على أمك » ... فقام الملك المنصور وقدموا له الفرس ، فركب من المقعد الذى فى الاصطبل . فلما ركب قام له الملك الظاهر وعضده من تحت ابطه حتى ركب ، وبالغ فى تعظيمه ، فدعا له الناس بالنصر .

فلما طلع المنصور من الاصطبل السلطانى توجه الى دور الحرم ، فدخل اليها وهو فى غاية التعظيم بخلاف من تقدم من أقاربه . فلما دخل الى دور الحرم أقام بها فى غاية الحفظ ، فكان آخر من تولى السلطنة بالديار المصرية من ذرية بنى قلاون ، وبه قد زال عنهم الملك كأنه لم يكن .

ومن جملة سعد الملك الظاهر برقوق أنه من حين خلع من السلطنة وعاد اليها لم يجلس أحد على مرتبته الى أن عاد اليها . وكانت سلطنة الملك المنصور أمير حاج عبارة عن نيابة عن الملك الظاهر برقوق الى أن عـاد الى السـلطنة ، وكان أمـر السلطنة جميعها بيد الأتابكى منطاش .

وكان من جملة سعد الملك الظاهر برقوق ، أنه من حين خـرج من الكرك وتوجه الى الشـام ، وخرج اليه المنصور وجرى فى القاهرة ما تقـدم ذكره من مسك الأمراء وغير ذلك ، كانت الخطبة باسم الظاهر برقوق على منابر القاهرة قبل دخوله اليها ، ودخل الى القاهرة من غير قتال ولا حرب . وقد تقـدم ما فعله الأمير بطا قبل دخول الظاهر الى القاهرة ، وخدم سعد برقوق فى هذه الولاية الثانية الى أن مات على فراشه وهو سلطان كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن جملة سعد برقوق أن الملك المنصور نزل له عن السلطنة بدمشق طائعـا ، ولم يختلف عليه اثنان .

ومن غرائب الاتفاق أن قلاون لما تولى الملك تلقب بالملك المنصور ، وآخر من تولى الملك من ذريته تلقت بالملك المنصور .

وأغـرب من هذا أن الملك المنصـور قلاون الألفى كان قد أخذ الملك من أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، والملك الظاهر برقوق أخذ الملك من أولاد الملك المنصور قلاون — وفى المثل

« كما تدين تدان » - فكانت مدة سلطنة الملك المنصور أمير حاج فى هذه المرة ثمانية أشهر وستة عشر يوما الى يوم خلعه بشقحب ، وكان الأتابكى منطاش فى هذه المدة هو السلطان ، يعزل من يشاء ويولى من يختار من عصبته ، وقد قال بعض الزجالة هذا المطلع :

من الكرك جانا الظاهر   وجب معو أسد الغابه
ودولتك يا أمير منطاش   ما كانت الا كدابه

ولما دخل الملك أمير حاج الى دور الحرم أقام بها الى أن مات على فراشه فى ليلة الاربعاء تاسع عشر شوال سنة أربع عشرة وثمانمائة ، وذلك فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وصلى عليه بالقلعة ودفن فى تربة جدته خوند بركة التى بالتبانة ، ومات وله من العمر نحو سبع وأربعين سنة ، وقيل انه مات وهو مقعد فى الفراش مما حصل له فى يوم وقعة شقحب لما كبس عليه الملك الظاهر برقوق ، واستمرت الطربة معه حتى مات . وقد قال القائل فى المعنى :

اصبر لدهر نال منك   فهكذا مضت الدهور
فرحا وحزنا تارة   لا الحزن دام ولا السرور

عود الملك الظاهر برقوق

عاد الى السلطنة الملك الظاهر برقوق بن أنص — وقيل أنس — العثمانى ، وهى السلطنة الثانية .

لما حضر من دمشق ، ودخل القاهرة ، جلس فى باب السلسلة كما تقدم ذكر ذلك . فلما بايعه الخليفة بحضرة القضاة أحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر وجلس على سرير الملك ، وذلك فى يوم الأربعاء رابع عشر صفر سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة .

ومن العجائب أن سلطنته الأولى كانت فى يوم الأربعاء وسلطنته الثانية كانت فى يوم الأربعاء .

ولما جلس على سرير الملك نودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، وبطل القيل والقال من بين الناس ، وقد قال القائل فى المعنى :

ملك به اخضر الزمان كأنما
أيام دولته ربيع ثانى

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم : المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى واستقر به نائب السلطنة على عادته ، وخلع على المقر السيفى اينال اليوسفى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن تمربغا الأفضلى منطاش ، وخلع على المقر السيفى كمشبغا الأشرفى المعروف بالخاصكى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على الأمير الطنبغا الجوبانى واستقر به رأس نوبة النوب على عادته ، وخلع على الأمير بطا الذى جرى منه ما تقدم ذكره واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير تكلمش العلائى واستقر به أمير أخور كبير، وخلع على الأمير تنجاص السودونى واستقر به حاجب الحجاب .

ثم رسم بالافراج عن المقر السيفى يلبغا الناصرى الذى كان نائب حلب وخامر على السلطان ، وجرى منه ما جرى ، وكان سببا لزوال ملك الملك الظاهر برقوق كما تقدم . فلما عاد الملك الظاهر فى هذه المرة زال ما كان بينه وبين يلبغا الناصرى من العداوة ورسم بالافراج عنه . فلما حضر خلع عليه واستقر به أمير سلاح . ولما نفى يلبغا الناصرى كان أتابك العساكر ، فلما رجع فى هذه المرة استقر أمير سلاح .

ثم ان الملك الظاهر أفرج عن جماعة كثيرة من الأمراء ممن كانوا فى السجن بثغر الاسكندرية . فلما حضروا خلع على الأمير الطنبغا الجوبانى

واستقر به نائب الشـام ، ثم خلع على الأمير قرا دمرداش الأحمدى واسـتقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير القلمطاوى واسـتقر به نائب حماه ، وخلع على الأمير أرغون الغلمانى واستقر به نائب ثغر الاسكندرية ، وخلع على الأمير مقبـل الرومى واستقر به أمير خازندار . وأنعم على جماعة كثيرة من الأمراء بتقـادم ألوف وامريات أربعين وامريات عشرة . واستقامت أموره فى السلطنة أعظم من المرة الأولى . ثم بعد ذلك خلع على جماعة من أرباب الدولة من المباشرين ، فخلع على القـاضى علاء الدين الكركى العامرى واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وخلع على القـاضى موفق الدين أبى الفرج واستقر به ناظر الجيوش المنصـورة ووزير الديار المصرية عـلى عادته ، وخلع على القـاضى كريم الدين بن عبـد العزيز واستقر به ناظر الخواص الشريفة ، وخلع على الأمير قرقماس الطشتمرى واسـتقر به استادار العالية ... فثبت قواعد دولته ، وأجرى كل أحد على عادته ، فكان أحق بقول القائل :

تاب الزمـان اليك مما قد جنى
والله يأمـر بالمتـاب ويقبـل
ان كان ماض من زمانك قد مضى
باسـاءة قـد سرك المسـتقبل
هذا بذاك فشفع الثـانى الذى
أرضـاك فيما قد جناه الأول
واليسر بعد العسر موعود به
والنصر بالفرج القريب موكل
والله قـد أولاك أمـر عبـاده
لما ارتضـاك ولاية لا تعـزل
واذا تـولاك الاله بنصـره
وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

فلما كان يوم الثـلاثاء خامس ربيـع الأول من سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ، جلس السلطان فى الميدان الذى تحت القلعة ، وحكم بين الناس على عادته ، ثم بعد مدة أيام قبض على جماعة من الأمراء وهم : يلبغا المنجكى ، وطشبغا السيفى تمر باى ، وصربغا الناصرى ، وتلكتمر المحمـدى ، وعـلى الجركتمرى ، ومنكلى بغا المنجكى . فلما قبـض عليهم قيـدهم وأرسلهم الى السـجن بثغـر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على القاضى سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن موفق الدين أبى الفرج ، وخـلع على الصـاحب علم الدين سنبرة واستقر به ناظر الدولة الشريفة ، وكان فى قديم الزمان أن الوزير اذا انفصـل من الوزارة يستقر ناظر الدولة طوعا أو كرها ويلزمه السلطان بذلك .

ثم لما كان يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول حضر الى الأبواب الشريفة السيفى كزل مملوك يلبغـا الناصرى ، وصحبته جماعـة من أعيان دمشـق ، فأخبروا بأن منطاش قد ملك مدينة بعلبك ، وقد التف عليـه جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس ، والتف عليه جماعـة كثيرة من عربان جبل نابلس ، وقد نهب عدة ضياع من البلاد الشامية ، فأخذ السلطان حذره من ذلك .

وفيها فى يوم الأربعاء سادس عشر ربيـع الأول خلع السلطان على الأمير جمال الدين محمود ابن على الظاهرى ، واستقر به استادار العاليـة وناظر الخواص الشريفة ومشير الدولة ، فتزايدت عظمته الى الغاية ، وخلع السلطان على الأمير علاء الدين ابن الطبلاوى واستقر به والى القاهرة عوضا عن الصـارمى .

وفى يوم الخميس حادى عشرى رجب جاءت الأخبار من حلب بأن منطاش أرسل شخصا يسمى

تمان تمر الأشرفى الى مدينة حلب ، وكان نائب حلب كمشبغا الحموى قد ثقل أمره على أهل حلب ، فما صدقوا بهذه الحركة ، فحاصروا نائب حلب أشد المحاصرة وتعصبوا الى منطاش ، فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع ، فصار كمشبغا نائب حلب يقاتلهم من داخل النقب على البرج ، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة أشهر ، فانتصر كمشبغا نائب حلب على تمان تمر الأشرفى الذى ولاه منطاش على حلب ، فانكسر تمان تمر وولى هاربا .

ثم أن كمشبغا نائب حلب أخذ فى أسباب عمارة ما تهدم من المدينة وزاد ، ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن منطاش توجه الى طرابلس ومعه جماعة من العسكر ، فحاصر المدينة حتى ملكها وهرب من كان بها من الأمراء والنائب ، وهرب أكثر أهلها الى دمشق . ثم بعد مدة جاءت الأخبار من دمشق بأن منطاش حاصر دمشق بمن معه من العسكر ، وكان عوام دمشق يميلون الى منطاش ويكرهون الملك الظاهر برقوق ، فاتفقوا مع منطاش بأن يسلموه المدينة تحت الليل . فلما بلغ ذلك الأمير أيتمش البجاسى ، والأمير يلبغا الناصرى ، والأمير الطنبغا الأشرفى ، ركبوا بعد العشاء وخرجوا الى ظاهر دمشق وأوقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة ، فقتل فى تلك الليلة من الفريقين نحو ألف انسان ، ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة .

وفى عقيب هذه الواقعة وثب مماليك الطنبغا الجوبانى نائب الشام على أستاذهم فقتلوه ، وهربوا من دمشق وتوجهوا الى منطاش . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل تقليدا الى يلبغا الناصرى واستقر به نائب الشام عوضا عن الطنبغا الجوبانى . ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن الأمير جبق الكمشبغاوى خرج من دمشق وقصد التوجه نحو طرابلس ، فأخذه عربان نعير وأحضروه الى منطاش فقتله بين يديه .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن منطاش توجه الى نحو عنتاب ، فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان ، فحاصر مدينة عنتاب أشدما يكون من المحاصرة ، فملكها وهرب النائب الذى كان بها . فلما دخل الليل جمع نائب عنتاب جماعة كثيرة من التركمان وكبس على منطاش ، فقتل من عسكره نحو مائتى انسان وهرب منطاش نحو الفرات . فلما بلغ السلطان هذا الخبر انشرح له ونزل الى الرماية فى بركة الحج . ولما عاد من الرماية دخل من باب النصر ، وشق من بين القاهرة ، وزينت له ولاقته اليهود والنصارى ومعهم الشموع موقدة .

وفى ذلك اليوم دخل السلطان الى بيت الأمير بطا الداودار الكبير وسلم عليه فانه كان مريضا . ثم أن السلطان طلع الى القلعة وكان له يوم مشهود . فانه من حين أتى من الكرك لم يشق من القاهرة سوى ذلك اليوم ، فضج الناس له بالدعاء .

وفى هذه السنه عملت خوند — أخت الملك الظاهر برقوق — كسوة جليلة للحجرة الشريفة ، وستارة زركش لباب الحجرة الشريفة ، فشقت بذلك من القاهرة وكان يوما مشهودا . وسبب ذلك أنها نذرت لئن عاد أخوها الى السلطنة تكسو الحجرة الشريفة ففعلت ذلك . وفى هذه السنة عزل السلطان الصاحب سعد الدين بن البقرى ، واستقر بالجناب الناصرى محمد بن الحسام الصقرى عوضه فى الوزارة . فلما نزل الى بيته طلب الوزراء المنفصلين ، فلما حضروا ، استقر بالصاحب شمس الدين المقسى ناظر الدولة ، واستقر بالصاحب سعد الدين بن البقرى ناظر البيوتات ومستوفى الدولة ، واستقر بالصاحب موفق الدين أبى الفرج مستوفى الدولة ، فأطلق عليه وزير

الوزراء ، لأنه كان مستوفى على أرباب الوظائف بالديوان المفرد ... واستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم أن السلطان غضب على الصاحب فخر الدين بن مكانس وضربه علقة قوية ، ثم علقه من رجليه بسرياق ، فأقام وهو منكوس على رأسه نصف نهار ، ثم ان بعض الأمراء شفع فيه فأنزلوه فقال فى هذه الواقعة :

وما تعلقت بالسرياق منتكسا
لزلة أوجبت تعذيب ناسوتى
لكننى مذ نفثت السحر من غزلى
عذبت تعذيب هاروت وماروت

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى ، وكان من أعيان فحول الشعراء وله شعر جيد فى فن البديع ، وله تذكرة لطيفة وعدة مصنفات جليلة غريبة المعانى فى أيام الملك الظاهر برقوق . وكانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى حجلة ، وكان أصله مغربيا من تلمسان ، وكان من أهل الفضل والعلم وله شعر جيد فى فن البديع ، وهو صاحب كتاب السكردان وكتاب ديوان الصبابة ، وله غير ذلك مصنفات كثيرة ، وكان شيخ المدرسة المنجكية التى عند الصوة [1] .

سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة (١٣٩١ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى كمشبغا الحموى نائب حلب ، وأخبر السلطان بأن أكثر التركمان والعربان خامروا وخرجوا عن الطاعة والتفوا على منطاش . فلما سمع السلطان ذلك اجتمع بالأمراء وضربوا مشورة فى أمر منطاش .

وفيها طلب السلطان الأمير حسين بن باكيش نائب غزة ، فلما حضر بين يديه عراه وضربه بالمقارع ثمانين شيبيا . وكان ابن باكيش هذا وقع منه فى حق السلطان — لما خرج من الكرك — أمور عظيمة ، وجمع له العربان ، وحاربه أشد المحاربة حتى كاد السلطان أن ينكسر ، فبقى عند السلطان هذا الكمين حتى اقتص منه ، فكان كما قيل :

وقد يرجى لجرح السيف برء
ولا يرجى لما جرح اللسان

وفيها حضر الأمير أيتمش البجاسى من الشام هو وجماعة من الأمراء ، وكانوا توجهوا الى الشام بسبب منطاش ، فبلغ السلطان أنهم كانوا متعاملين على الفساد مع منطاش ، فلما حضروا قيد منهم جماعة ونفاهم الى ثغر الاسكندرية .

وفيها جاءت الأخبار بأن منطاش قد ملك حماه وحمص وبعلبك ولم يشوش على أحد من أهلها ، فمال اليه الرعية وصاروا يسلمونه المدن من غير قتال . ثم أن منطاش توجه الى الشام وحاصر المدينة ، فخرج اليه نائب الشام ، فهرب منطاش الى جبل بقرب من طرابلس ، فتبعه نائب الشام ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد بها أحدا من الأمراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باب كيسان الصغير ، فدخل منه الى المدينة ونهب الأسواق وأخذ أموال التجار ، وكبس على الاصطبلات التى بالشام وأخذ منها نحو مائة فرس ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته وراج أمره . فلما بلغ السلطان ذلك نادى للعسكر بالعرض ، وقوى عزمه على الخروج الى منطاش ، وعلق من يومه الجاليش ثم عرض العسكر وأنفق عليهم فى يومه .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشر من شهر شعبان ، خرج السلطان وتوجه الى نحو الريدانية فى موكب

(١) فى شذرات الذهب ان الصفدى توفى بدمشق فى شوال سنة ٧٦٤ ، وان ابن أبى حجلة توفى فى مستهل ذى الحجة سنة ٧٧٦

عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وخرج معه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . فلما استقر بالريدانية طلب الأمير حسين بن باكيش نائب غزة — وكان مسجونا بخزانة شمايل — فلما حضر بين يديه أمر بتوسيطه ، وأحضر جماعة من الأمراء كانوا فى خزانة شمايل من عصبة منطاش فأمر بتوسيطهم ، فهلكوا أجمعون .

ثم ان السلطان جعل المقر السيفى كمشبغا الحموى نائب الغيبة بمصر الى أن يعود اليها السلطان . وكان كمشبغا الحموى — من حين حضر من حلب — مقيما بالديار المصرية ، وكان الملك الظاهر يميل اليه دون غيره من سائر الأمراء ، فاختاره بأن يكون نائب الغيبة الى أن يعود السلطان الى مصر . ورسم السلطان للمقر السيفى سودون الفخرى نائب السلطنة بأن يقيم فى القلعة الى أن يعود السلطان . ورسم للأمير بجاس النوروزى بالاقامة فى الايوان الذى بالقلعة وترك عنده ستمائة مملوك ، وترك بالقاهرة من الأمراء : المقر السيفى قطلوبغا الصفوى حاجب الحجاب ، والأمير تنجاص السودونى . وترك بالقاهرة من الأمراء العشراوات والحجاب نحو عشرين اميرا

ثم ان السلطان رحل من الريدانية وقصد التوجه الى الشام . فلما رحل السلطان عن القاهرة عرض نائب الغيبة أولاد الناس أجناد الحلقة وعين منهم نحو مائتى انسان بأن يتوجهوا نحو الصعيد ، ويقيموا عند الكاشف بسبب فساد العربان ، ثم بعد مدة أيام حضر الأمير سودون الطيار على خيل البريد وعلى يده مثالات شريفة الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فكان من مضمونها أن السلطان لما وصل الى الشام هرب منطاش من وجهه الى بلاد التركمان .فلما سمع الأمراء بذلك دقوا الكئوسات ونادوا بالزينة ، فزينت القاهرة سبعة أيام ...

قيل لما دخل السلطان الى دمشق خاف أهل دمشق وهموا بالهرب من المدينة . وقد تقدم أن أهل دمشق لما خرج الملك الظاهر برقوق من الكرك ودخل الى الشام رجموه وأخرجوه من الشام هاربا على وجهه ، ونهبوا بركه وقماشه كما تقدم . فلما أن دخل اليهم هذه المرة ، وبلغه أنهم خائفون منه ، نادى لهم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن الماضى لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم ... فضج أهل دمشق له بالدعاء ، وسكن ما كان عندهم من الاضطراب .

ثم ان السلطان أقام فى دمشق أياما وتوجه الى حلب . فلما خرج من دمشق جاء نعير بن حيار أمير آل فضل ونهب ضياع دمشق — وكان نعير عاصبا على السلطان وهو ملتف على منطاش — وأخرب غالب البلاد الشامية ونهب ضياعها ، فلما بلغ نائب الشام مجىء نعير خرج اليه وأوقع معه واقعة قوية فى مكان يسمى الكسوة ، فانكسر نائب الشام وقتل من عسكر دمشق نحو خمسة عشر أميرا ، ثم رجع نعير الى بلاده ، ورجع نائب الشام الى دمشق .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار من حلب بأن السلطان قد قبض على يلبغا الناصرى وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعة حلب ثم قتلهم عن آخرهم ، وكانوا نحو ثلاثة وعشرين أميرا . وكان سبب ذلك أن الأمير سالم الدوكارى أمير التركمان أرسل يعرف السلطان بأن يلبغا الناصرى أرسل اليه كتابا وهو يقول فيه : « خذ منطاش واهرب به الى بلاد الروم ، فانه ما دام منطاش موجودا فنحن موجودون » ...

ثم ان الأمير سالم الدوكارى أرسل كتاب يلبغا الناصرى على يد قاصده ، فلما تحقق السلطان

صحة ذلك طلب الأمراء ، فلما حضروا قرا عليهم كتاب يلبغا الناصرى الذى أرسله الى الأمير سالم الدوكارى . ثم ان السلطان وبخ يلبغا الناصرى بالكلام فى ذلك المجلس ، فلم ينطق بحجة وانعقد لسانه عن الكلام ، فنعوذ بالله من زلة العقل كما قيل :

وانى رأيت المرء يشقى بعقـــله

كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

ثم ان السلطان قبض على يلبغا الناصرى وعلى جماعة من الأمراء وسجنهم بقلعـــة حلب ، ثم أمر بقتلهم فقتلوا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان استقر بالأمير بطا الدوادار نائب الشام ، واستقر بالأمير جلبان الكمشبغاوى نائب حلب ، واستقر بالأمير اياس الجـرجاوى نائب طرابلس ، واســتقر بالأمـير قرا دمرداش المحمدى نائب حماه ، واستقر بالأمير أبى يزيد دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير بطا .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان خرج من حلب وهو قاصد نحـو الديار المصرية ، وقد أنفق على هذه التجريدة جملة مال ولم يظفر بمنطاش .

وفى هذه السنة توفى الشيخ شهاب الدين بن النقيب وكان من أعيان العلماء ، وتوفى الشيخ بهاء الدين السبكى أخو الشـيخ تاج الدين ، وتوفى الشيخ جمال الدين الاسنوى ، وتوفى الشيخ شهاب الدين بن حبيب ، وتوفى ابن رافع ، وتوفى الشيخ عماد الدين الحسبانى وكان من أعيان العلماء بمصر رحمهم الله تعالى أجمعين .

سنة اربع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٢ م) :

فيهـا فى ثانى عشر المحرم حضر الى الأبواب الشريفة الأمير بهادار الشهابى — مقدم المماليك الســـلطانية — وصـحبته حريم الســلطان ، فان السلطان كان قد تزوج فى دمشق بينت الأمير على بن أستدمر نائب الشام ، وأخبر بأن السلطان خرج من غزة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى بلبيس، فحرج الأمراء الى تلقيه ، ونادوا فى القاهرة بالزينة . فلما كان يوم الخميس سابع عشر المحرم وصل السلطان وطلع الى القلعة من بين الترب ولم يشق من المدينـة ، ففرشت له الشقق الحرير من قبة النصر الى رأس الصوة ، وحملت على رأسه القبـة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، فطلع الى القلعـة فى موكب عظيم وكان له يوم مشهود .

ثم ان الســلطان عمـل الموكب ، وخلع على الجنـاب الـركنى عمر بن قايمـاز — وهـو صـاحب الحوض والسبيل خارج الحسينية — واســتقر به وزيرا بالديار المصرية عوضـا عن الناصرى محمد بن الحسام الصقرى بحكم وفاته .

وخلع السلطان على الجناب الناصرى محمد ابن الأمير جمال الدين محمود الاستادار واستقر به نائب ثغر الاسكندرية .

وفيها تزوج السلطان بينت الشهابى أحمد بن الطولونى معلم المعلمين ، وهو جد الزينى حسن .

وفيها جاءت الأخبار بأن الأمير بطا الذى تولى نائب الشام قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع الســلطان على الأمير سودون الطرنطـاى واستقر به نائب الشام عوضا عنه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن جماعة من المماليك — نحو خمسة عشر مملوكا — هجموا على باب قلعة دمشق وقت الظهر ، وتوجهوا الى نحو السجن الذى بها وأخرجوا من كان به من المحابيس الذين من عصبة منطاش ، وكانوا نحو مائة مملوك . فلما أخرجوا هؤلاء المحابيس قويت شوكتهم ، فهجموا على نائب القلعة فقتلوه وملكوا

القلعة . فلما بلغ ذلك من كان بدمشق من العسكر لبسوا آلة الحرب وركبوا وحاصروا من بالقلعة ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ، فقتل من عسكر الشام جماعة كثيرة . ثم بعد ذلك هجم عسكر دمشق على باب القلعة وأحرقوه ، ودخلوا الى القلعة ، ثم قبضوا على المماليك كلهم ووسطوهم تحت باب القلعة .

وفيها فى يوم الاثنين حادى عشر جمادى الأولى طلع الأمير جمال الدين محمود الاستادار الى القلعة على جارى العادة . فلما نزل من القلعة رجمه المماليك الذين بالطباق فهرب منهم ، فسحبوه الى الرميلة وضربوه بالدبابيس ، وضربوا القاضى سعد الدين بن تاج الدين موسى ناظر الخواص الشريفة . فلما بلغ الأمير أيتمش البجاسى ذلك ركب هو ومماليكه ، وردوا المماليك عنهم ، وأدخلهم الى بيته وأغلق عليهم الباب ، فأقاموا عنده الى آخر النهار ، فأرسل معهم مماليكه حتى أوصلوهم الى بيوتهم ، فأقاموا فى بيوتهم مدة لم يركبوا حتى اصطلحوا مع المماليك .

وفيها خلع السلطان على القاضى تاج الدين بن أبى شاكر واستقر به وزيرا عوضا عن عمر بن قايماز

وفيها فى العشرين من شعبان توعك جسد السلطان ، وأقام مدة وهو منقطع فى الحريم ، ثم حصل له الشفاء فخرج الى الخدمة ، ونودى فى القاهرة بالزينة فزينت سبعة أيام .

وفيها جاءت الأخبار بأن نائب الشام سودون الطرنطاى قد انتقل بالوفاة الى رحمة الله تعالى ، فخلع السلطان على المقر السيفى كمشبغا الأشرفى الخاصكى أمير مجلس ، واستقر به نائب الشام عوضا عن سودون .

وفيها تغير خاطر السلطان على جماعة من الأمراء ، فقبض عليهم وسجنهم فى أبراج القلعة ، ثم أمر بخنقهم فخنقوا تحت الليل ودفنوا .

وفيها فى شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى بكلمش العلائى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى شيخ الصفوى واستقر به أمير مجلس ، وكان الأمير شيخ من مماليك الظاهر برقوق .

وفيها فى العشرين من شوال عمل السلطان الموكب ، وخلع على المقر السيفى ثانى بك اليحياوى واستقر به أمير اخور كبير عوضا عن بكلمش العلائى ، وخلع على قاضى القضاة جمال الدين العنبرى الحنفى واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ومشيخة الخانقاه الشيخونية ، وهذا لم يتفق لأحد قبله من الأعيان فيما تقدم .

وفيها جاءت الأخبار بأن منطاش حضر الى حلب مع جماعة من التركمان فحاصر المدينة ، فخرج اليه عسكر حلب وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هاربا الى الفرات . ثم حضر قاصد نعير على يده كتاب من عند نعير ، فكان مضمونه أنه أرسل يطلب من السلطان أربع بلاد وهو يلتزم بمسك منطاش ، فقال السلطان للأمير ابى يزيد الدوادار : « اكتب له كتابا ، عن لسانك ، أنك ان أمسكت منطاشا نعطيك جميع ماطلبته وزيادة على ذلك » ... فأرسل اليه الأمير أبو يزيد الدوادار بذلك .

وفى هذه السنة كانت وفاة الشيخ عماد الدين ابن كثير المؤرخ صاحب كتاب البداية ، وتوفى الشيخ سراج الدين الهندى شارح البديعية ، وتوفى الشيخ شهاب الدين الأوزاعى ، وتوفى القاضى أبو البقاء السبكى الشافعى .

وفيها فى ذى الحجة توفى الصاحب فخر الدين بن مكانس القبطى صاحب الأشعار اللطيفة ، تولى عدة وظائف بمصر .

سنة خمس وتسعين وسبعمائة (١٣٩٣ م) :

فيها خلع السلطان على الشيخ صدر الدين المناورى ، وولاه قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن قاضى القضاة عماد الدين الكركى .

وفيها خلع السلطان على المقر السيفى تنم الحسنى واستقر به نائب الشام عوضا عن كمشبغا الأشرفى بحكم وفاته .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن منطاش ونعيرا توجهوا بمن معهم من العساكر الى مدينة حماه ، فخرج اليهم نائب حماه فأوقع معهم واقعة قوية ، فانكسر نائب حماه وهرب ، فدخل منطاش ونعير الى المدينة ونهبوا أسواقها وأخذوا أموال التجار . فلما بلغ نائب حلب ذلك ركب هو وعساكر حلب ، وكبس على بلاد نعير ونهب أمواله وأخذ أولاده ونساءه وأحرق بيوته وقتل من عربانه ما لا يحصى عدده .

وفيها خلع السلطان على المقر السيفى قلمطاى العثمانى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير أبى يزيد بحكم وفاته .

وفيها مرض السلطان مرضا شديدا حتى أشرف على الموت وأرجفت القاهرة بموته من شدة قهره من منطاش ، ثم شفى وركب وشق القاهرة فزينت له وكان له يوم مشهود وموكب عظيم .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة مملوك نائب حلب وأخبر بأن نعيرا قبض على منطاش وسلمه الى نائب حلب ، فكان — كما يقال — « سيف السلطان طويل » . وقد قيل فى المعنى :

قالت : ترقب عيون الحى ، ان لها
عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

وكان سبب امساك منطاش أن نعير بن جبار أرسل يطلب من نائب حلب أولاده ونساءه الذين أسرهم كما تقدم ، فأرسل نائب حلب يقول له : « ما أطلق لك أولادك ونساءك حتى تسلمنا منطاش » ... وكان منطاش قد تزوج من بنات نعير واستنسل منهم . فلما رأى نعير أن السلطان ونائب حلب عليه ، وقد نهبوا أمواله ومواشيه ، وأسروا أولاده ونساءه ، قصد أن يرضى السلطان بامساك منطاش حتى يزول ما عنده مما جرى منه فى حق السلطان كما تقدم .

ثم ان نعيرا ندب الى منطاش أربعة عبيد غلاظ شداد ، فلما أتوا اليه أحس بالشر ، وكان راكبا على هجين ، فنزل عنه وركب على فرس ، فأمسك بعض العبيد لجام الفرس وقال له : « كلم الأمير نعيرا » . فقال منطاش : « وايش يعمل بى نعير ؟ ؟ » ... فتكاثر عليه العبيد وأنزلوه عن فرسه وأخذوا سيفه منه ، فقال لهم منطاش : « دعونى حتى أبول » ... فقصد الى جانب حائط ، وكان فى تكته خنجر فشق به بطنه ، فغشى عليه ، فحمله العبيد وأتوا به الى نعير ، فقيده وأرسله الى نائب حلب ، وأرسل معه جماعة من العربان حتى أسلمه الى نائب حلب ، وكان له يوم مشهود . فتسلمه نائب حلب وسجنه بالقلعة ، وكتب بذلك محضرا وأرسله الى السلطان فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر خلع على القاصد خلعة عظيمة ، ودقت الكؤسات ، وزينت له القاهرة سبعة أيام ، ونسى السلطان — لما ظفر بمنطاش — ما قاساه من التعب ومن القهر ومن المال الذى صرفه على التجاريد » فكان كما قيل فى المعنى :

اذا ظفرت من الدنيا بقربكم
فكل ذنب جناه الدهر مغفور

ثم ان السلطان عين الأمير طولو بن على شاه الى حلب ليحضر منطاش . فلما وصل الى حلب تسلم منطاش وجعل يعاقبه ويعصره ويقرره على الأموال التى غصبها من البلاد فلم يقر بشيء . ودخل عليه النزع فقطع الأمير طولو رأسه ووضعها فى علبة ، ثم خرج من حلب وجعل يطوف برأس منطاش فى كل مدينة يدخلها حتى وصل الى القاهرة ، فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت المدينة زينة عظيمة ، فشقوا برأس منطاش فى القاهرة ، ثم طلعوا بها الى القلعة . فرسم السلطان بأن تعلق على باب زويلة ، فعلقت ثلاثة أيام ثم دفنت وقلعت الزينة ، وانقضى أمر منطاش . وقد هنى السلطان بعض الشعراء بهذين البيتين فقال :

كأن فجاج الأرض عناك ان يسر
بها خائف تجمع عليه الأنامل
فأين يفر المرء منك بجرمه
اذا كان تطوى فى يديك المراحل

ثم ان السلطان أرسل الى نعير خلعة وأقره على عادته أمير آل فضل ، فما صدق الناس بأن فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنة أخرى ، وما هى الا أنه فى عقيب ذلك حضر طواشى رومى يسمى صفى الدين جوهر ، أرسله صاحب ماردين فأخبر بأن تمرلنك قد أخذ تبريز ، ثم حضر عقيب ذلك قاصد صاحب بسطام فأخبر بأن تمرلنك قد أخذ شيراز ، ثم حضر قاصد نائب الرحبة وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد قد وصل الى الرحبة وهو هارب من تمرلنك ، وقد احتاط على غالب بلاده وملكها .

وكان سبب أخذ تمرلنك بلاد القان أحمد بن أويس أن تمرلنك أرسل الى القان أحمد كتابا يترفق له فيه ويقول له : « أنا ما جئتك محاربا ، وانما جئتك خاطبا أتزوج بأختك وأزوجك بنتى » ... ففرح القان أحمد بذلك ، وظن أن هذا الكلام صحيح ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركنن الى الخريف فماؤه
مستوخم وهواؤه خطاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها
ومن الصديق على الصديق يخاف

وكان القان أحمد استعد لقتال تمرلنك وجمع له العساكر ، فلما أتى اليه قاصد تمرلنك بهذا الخبر ثنى عزمه عن القتال ، واستعاد من العسكر الذين قد جمعهم ما أعطاهم من آلة القتال ، وصرف همته عن القتال ، فلم يشعر الا وقد دهمته عساكر تمرلنك من كل مكان ، فضاق بهم رحب الفضاء ، فخرج اليهم القان أحمد بمن بقى معه من العساكر... فبينما القان يقع مع عسكر تمرلنك اذ فتح أهل بغداد بقية أبواب المدينة وقد خافوا على أنفسهم مما جرى عليهم من هلاكو فى أيام الخليفة المستعصم بالله .

فلما رأى تمرلنك أبواب المدينة مفتحة دخل الى المدينة وملكها ولم يجد من يرده عنها . فلما بلغ القان أحمد ذلك ما أمكنه الا الهرب ، فأتى الى جسر هناك فعدى من فوقه ثم قطعه ، فلما بلغ عسكر تمرلنك ذلك تتبعوا القان أحمد وخاضوا خلفه الماء فهرب منهم ، فتتبعوه مسيرة ثلاثة أيام ، فلما حصلت له هذه الكسرة قصد التوجه الى نحو الديار المصرية .

ثم حضر قاصد نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى حلب ، فلما تحقق

السلطان صحة هذا الخبر جمع الأمراء واستشارهم فيما يكون من أمر القان أحمد ، فوقع الاتفاق من الأمراء على أن السلطان يرسل اليه الاقامات ويلاقيه ، فعند ذلك عين السلطان الأمير أزدمر الساقى — وصحبته الاقامات وما يحتاج اليه القان أحمد من مال وقماش وغير ذلك — فخرج الأمير أزدمر على جياد الخيل .

ثم فى عقيب ذلك حضر الى الأبواب الشريفة قاصد أبى يزيد بن مراد بك بن عثمان ملك الروم على يده تقادم عظيمة للسلطان . وكان سبب مجىء قاصد ابن عثمان أنه أرسل يخبر السلطان بأمر تمرلنك ويحذره عن الغفلة فى أمره ، وأرسل يطلب من السلطان حكيما حاذقا فى صنعة الطب ، وأدوية توافق مرضه الذى كان يشكو به ، فانه كان يشكو بضربان المفاصل . فلما وقف السلطان على مطالعة ابن عثمان ، وعلم ما فيها ، عين له الرئيس شمس الدين بن صغير ، وأرسل صحبته حملين من الأدوية التى توافق مرضه ، وأرسل اليه هدية عظيمة على يد قاصد من عند السلطان ، فتوجهوا الى ابن عثمان .

ثم فى عقب ذلك حضر قاصد صاحب ماردين وأخبر بأن تمرلنك ملك بلاد الأكراد وأخبر بأن الملك محمود شاه — أستاذ تمرلنك — قد توجه الى نحو البصرة وحاصر أهلها ، فجمع صاحب البصرة جماعة كثيرة من العساكر والعربان والتقى مع عساكر الملك محمود شاه ، فكان بينهما واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فقتل بها الملك محمود شاه أستاذ تمرلنك ، وأسر بها ابن تمرلنك ، فأرسل تمرلنك يطلب من صاحب البصرة الأمان ، وأنه يطلق اليه ولده ومن عنده من الأسرى ، فأرسل صاحب البصرة يقول له : « ما أطلق ولدك ولا الأسرى الذين عندى حتى تطلق ابن القان أحمد بن أويس الذى عندك وجميع من عندك من الأسرى » ... فلما سمع تمرلنك هذا الجواب حنق منه وأرسل عسكرا ثقيلا وحاصر البصرة ، فلم يقدر عليها ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده ، ودخل عليه الشتاء فرجع الى بلاده ليجمع العساكر ويرجع الى حصار البصرة . فلما تواترت الأخبار بذلك رسم السلطان للأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة بأن ينادى فى القاهرة للعسكر بالعرض فى الميدان بسبب تمرلنك الخارجى ، وجعل يكرر هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية بألا يتأخر عن العرض لا كبير ولا صغير ، وعلق الجاليش ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وما صدق العسكر بأن فتنة منطاش قد خمدت فانتشت لهم هذه الفتنة العظيمة ، فكان كما قيل فى المعنى :

وثقيل ما برحنا — تتمنى البعد عنه
غاب عنا ففرحنا — جاءنا أثقل منه

وفى هذه السنة توفى من الأعيان عبد الرحمن أبو تاشفين صاحب تلمسان ملك الغرب وتولى من بعده أخوه محمد ، وتوفى قاضى القضاة ناصر الدين الكنانى العسقلانى الحنبلى وتولى بعده القاضى موفق الدين الحجازى المقدسى الحنبلى ، وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين الزهرى الشافعى ، وتوفى الصاحب شمس الدين المقسى وزير الديار المصرية وناظر الخواص الشريفة ودفن فى جامعه الذى أنشأه فى باب البحر المطل على الخليج الناصرى ، وتوفى الشيخ سراج الدين ابن الملقن والقاضى أبو البقاء السبكى وغير ذلك من الأعيان .

سنة ست وتسعين وسبعمائة (١٣٩٤ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن القان أحمد بن أويس قد وصل الى غزة ، فأرسل السلطان لملاقاته . ثم

ان القان أحمد وصل الى الريدانية فى يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول سنة ست وتسعين ، فنزل السلطان من القلعة ، وخــرج الى تلقيه . فلما وقعت عين السلطان على القان أحمد بن أويس ، ترجل له عن فرسه ، وترجل القان أحمد أيضا . ثم ان السلطان أتى بقباء حرير بنفسجى مغرى بفاقم بطرز ذهب عريض فألبسه للقان أحمد ، وأحضر اليــه فرسا بسرج ذهب وكنبوش فأركبه اياه ، وركب السلطان ومشى القان أحمد عن يمينه ، وطلعا من بين الترب فلما وصلا الى رأس الصوة صوب السلطان وثنى عنان فرسه ، فنزلت الأمراء مع القان أحمد الى بيت الأمير طقزدمر المطل على بركة الفيل ، فنزل به ونزل معه الأمراء ، فمد له السلطان هناك سماطا عظيما ، فأكل وأكلت معه الأمراء ، ثم قام الأمراء وتوجهوا الى بيوتهم ، وقام القان أحمد ودخل الى البيت .

ثم ان السلطان أرسل الى القان أحمد تقدمة عظيمة ، وهى طوالة خيــل خاص بسروج ذهب وكنابيش ، وعشرون مملوكا صغارا ، وعشرون جارية أبكارا ، ومائتا تفصيلة اسكندرانية ، وخمسة آلاف دينار برسم النفقة .

ثم بعد أيام جاءت الأخبار من نائب حلب بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى الرها . فلما تحقق السلطان ذلك عرض العســكر باللبس الكامل فى الميدان بحضرة القان أحمد ، فصار السلطان يعطى كل من عرضه من المماليك النفقة — وهى دون المائة دينار — فامتنعوا عن الأخــذ ... فصار السلطان يعطى النفقة من يده للمماليك ، فأخذوا النفقة على كره منهم . ثم ان الســـلطان بعث النفقة للأمراء المقدمين وغيرهم .

فلما كان يوم الأحد سابع ربيع الآخر برزت خيام السلطان الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس عاشر ربيع الآخر رتب السلطان الطلب ونزل من القلعة ، فجد الطلب من باب الميدان الذى تحت القلعة ، وصار السلطان يرتب الطلب بنفسه ويسوق فى الرميلة ذهابا وايابا حتى انتهى الطلب الى آخره ، وكان ما اشتمل عليه الطلب مائتى فرس ملبسة بركستوانات حرير ومخمل ملون وكجاوتين زركش . فلما تكامل خروج الطلب ، خرج بعده السلطان والقان أحمد ابن أويس صحبته ، والخليفة محــمد المتوكل ، والقضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ثم ان السلطان رسم للعسكر بأن يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب .

وقد قيل لما تجهز السلطان للسفر طلب تجار الكارم ، فحضر المحلى والخروبى وابن مســلم ، فاستقرض السلطان منهم مائتى ألف دينار وكتب عليه بذلك مسطورا ، وضمن فيه الأمير محمود الاستادار .

وسار الســـلطان فى ذلك الموكب العظيم حتى وصل الى الريدانية ، فنزل بالمخيم الشريف . ولما نزل من القلعة توجه الى الريدانية من بين الترب ، فلما خرج طلب السلطان ترادفت من بعده أطلاب الأمراء فى الخروج ، فما زالوا يتسحبون الى الظهر حتى انتهــوا عن آخرهم . فلما استقر الســـلطان بالمخيم الشريف قبض هناك على الصاحب ســعد الدين بن البقرى وعلى ولده القاضى تاج الدين . ثم ان السلطان خلع على الجناب الناصرى محمد بن رجب بن كلبك واستقر به وزيرا عوضا عن سعد الدين بن البقــرى . ثم ان الســـلطان رحــل من الريدانية ، وصحبته القان أحمد بن أويس وسائر الأمراء ، وجد فى السير حتى وصل الى دمشق فى

يوم الاثنين ثاني عشرى ربيع الآخر . فلما دخلها نزل بالقصر الأبلق الذى فى الميـــدان ، وحكم بين الناس ، وأقام بالشـــام أياما ثم رحل منها وتوجه الى حلب .

فلما أقام بحلب حضر اليه قاصد من عنـــد ابن عثمان وعلى يده مطالعات مضمونها أن يكون هو والســـلطان عونة واحدة على دفع العدو البـــاغى تمرلنك ، فأجابه السلطان الى ذلك ورد له الجواب عن ذلك بما يطيب به خاطره .

ثم حضر اليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ما قاله ابن عثمـــان ، فأجابه السلطان كما أجاب ابن عثمان .

فلما أقام السلطان بحلب بلغه أن جاليش عسكر تمرلنك قد وصل الى البيرة ، فصار جمـــاعة من عسكر السلطان يعدون تحت الليـــل من الفرات ويكبسون عليهم ، فغنموا من عسكر تمرلنك أشياء كثيرة ، فقيل ان عسكر مصر كانوا ينفخون القرب ويجعلونها تحت بطون الخيل ويعدون من الفرات تحت الليـــل حتى يقعوا مع عسكر تمرلنك ، وفى ذلك يقول القائل :

ولمـــا ترامينا الفرات بخيلنا
سكرنا نهارا بالقوى والقوائم
فأوقفت التيار عن جريانه
الى حيث عدنا بالغنى والغنائم

ثم بلغ السلطان أن تمرلنك رجع الى بلاده . فلما تحقق السلطان ذلك قصد الرجوع الى نحو الديار المصرية ، وكذلك القان أحمد بن أويس رجع الى بلاده . ولم يقع بين تمرلنك وبين الملك الظـــاهر برقوق قتال فى هذه المرة ، بل رجع كل من الفريقين الى بلاده .

ثم ان السلطان رجع الى الشام فأقام بها أياما ، وخلع على المقر الســـيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب حلب ، ونقل الأمير أرغون شاه من نيابة صفد الى طرابلس ، وخلع على الأمير أقبغا الجمالى واستقر به نائب صفد عوضا عن أرغون شاه ، وخلع على الأمير دقماق المحمدى واستقر به نائب ملطية ، وخلع على الأمير مقبل كاور واستقر به نائب طرسوس ، وخلع على الأمير منكلى بغـــا الأشبغاوى واســـتقر به نائب الرها ، وخلع على الأمير طفنجى واستقر به نائب قلعة المسلمين .

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن ابن أبى السباع صاحب تونس قد توفى الى رحمة الله تعالى واستقر ولده أبو فارس عبد العزيز — ويعرف بعزوز — عوضه فى مملكة تونس . وتوفى أبو العباس أحمـــد بن أبى سالم صاحب مدينة فاس ، وتوفى أبو الحجاج يوسف المعروف بابن الأحمر صاحب بلاد الأندلس وتولى من بعده ابنه أبو عبد الله محمد الأندلسى . وكان ابن الأحمر ملك الأندلس هذا شاعرا ماهرا وله شعر جيد فى البديع ، فمن ذلك قوله مخاطبا لمحبوبته حمدونة الأندلسية :

ايا ربة الخال التى أذهبت نسكى
على أى حال كان لا بد لى منك
فاما بـــذلّ وهو أليق بالهـــوى
واما بعـــزّ وهو أليـــق بالملك

وفى هذه السنة توفى أبو العباس أحمد صاحب بلاد قسطنطينية الهواء ببلاد المغرب . وفيها توفى القاضى محيى الدين يحيى بن فضل الله كاتب السر الشريف بالديار المصرية وتولى من بعده القاضى بدر الدين أبو الثناء محمود الكلستانى الحنفى ، وتوفى الصـــاحب موفق الدين أبو الفرج ، وتوفى الرئيس علاء الدين بن صغير رئيس الأطباء ، توفى

عند رجوعه من بلاد ابن عثمان ، وقد تقـدم أن السلطان أرسله الى ابن عثمان ليطبه .

سنة سبع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٥ م) :

فيهـا حضر الى الديار المصرية مملوك الأمير جمال الدين محمود الاستادار وأخبر بأن السلطان خرج من دمشق .

وفى هذه السنة كان مولد شيخ الاسلام الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى الحنفى ، ولد فى هذه السنة .

وقد توجه السلطان الى زيارة بيت المقدس ، ثم جاءت الأخبار بعد ذلك بأن السلطان قد وصل الى الصالحية راجعا .

فلما كان يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وصل الى القاهرة ودخلهـا فى موكب عظيم ، وشق من بين الترب ، وفرشت له الشقق الحرير الملون من قبة النصر الى القلعة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، وضج الناس له بالدعاء ... وكان قـدامه الخليفة محمد المتوكل والقضـاة الأربعـة وسـائر الأمراء من الأكابر والأصاغر . فلما طلع الى القلعة خلع على أرباب الوظائف من المباشرين وغيرهم .

وفى هذه السنة ، فى يوم السبت سادس شوال الموافق آخر يوم من أبيب من الشهور القبطية ، زاد الله فى النيل المبارك أربعين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى ثانى يوم — وهو أول يوم من مسرى — زاد الله فى النيل المبارك اثنين وسـتين اصـبعا ، وذلك ذراعان ونصف وأصـبعان ، فبقى عليه من الوفاء ذراعان . ثم فى يوم الوفاء الموافق لثالث يوم مـن مسرى زاد الله فى النيل المبـارك خمسين أصبعا فأوفى وزاد أصبعين ، فكانت جملة مازاده فى أربعة أيام سبعة أذرع ونصف ذراع وأصبعين ، وكان الوفاء فى ثالث يوم من مسرى . وهذه الزيادة لم يعهد مثلها فيما تقدم من السنين الخالية ، ولا سمع بمثل ذلك ، وفى ذلك يقول الشاعر :

النيل زاد جورا بحكمـه المطـاع
يعمـل فى الرعايا بالبـاع والذراع

وقال آخر فى المعنى :

النيل أفرط فيضا بفيضـه المتتـابع
فصـار مما دهانا حديثنا بالأصـابع

وفى هذه السنة جاءت الأخبار من مكة بأن أمير مكة الشريف على بن عجلان قد قتل والذين قتلوه من أقاربه . وفيهـا كثر الموت بالديار المصـرية ، ومات للسلطان ولدان وهما سيدى محمد وسيدى قاسم . وفيها توفى قاضى القضاة ناصر الدين محمد ابن الميلق الشافعى ، وتوفى الشـيخ زين الدين أبو بكـر الموصـلى الواسطى ، وتوفى الشـيخ غياث الدين العاقولى — وكان زين الدين الموصلى من أعيان الصوفية — وفيها كانت وفاة المقر البدر ابن فضل الله كاتب السر الشريف وأخيه حمزة بعد شهر واحد ، وفيهما يقول عويس العالية :

قضـى البدر بن فضـل الله نحبا
ومات أخوه حمـزة بعد شـهر
فـلا تعجب لذى الأجـلين يوما
فحمـزة مـات حقا بعـد بدر

سنة ثمان وتسعين وسبعمائة (١٣٩٦ م) :

فيها فى يوم السبت سـادس صفر تغير خاطـر السلطان على الأمير جمال الدين محمود الاستادار ، فأرسل اليه طواشى يسمى شاهين الحسنى الجمدار ، فأخذ ولده الأمير محمدا وأخذ نساءه وسراريه ، وطلع بهم الى القلعـة ، فسجن الأمير محمـدا فى البرج ، ورسموا على النسـاء ، فاختفى الأمـير محمـود . ثم ان القـاضى سـعد الدين ابراهيم

ابن غراب وكيل بيت المال نزل الى بيت الأمير محمود — هو والأمير على باى الخازندار — فاحتاطوا على موجود الأمير محمود ، فظهر له فى أول يوم فى مكان عقد تحت سلم مائة ألف دينار وخمسون ألف دينار .

فلما كان يوم الاثنين ثامن صفر خلع السلطان على الأمير قطلو بك العلائى واستقر به استادارا عوضا عن الأمير محمود بن على الظاهرى ، وخلع على القاضى بدر الدين بن غراب واستقر به ناظر الديوان الشريف المفرد ، وخلع على الأمير مبارك شاه واستقر به وزيرا عوضا عن الناصرى محمد ابن رجب بن كلبك .

ثم ان السلطان اشتد غضبه على الأمير محمد ابن الأمير محمود الاستادار فسلمه الى الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة ، فعاقبه أشد عقاب ، وقرره على الأموال ... فعند ذلك اتسع الخرق على الراقع ، وثخنت جراحات الأمير جمال الدين محمود ، وكثرت فيه المرافعات من الناس ، كما قيل فى المعنى :

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت

ويبتلى الله بعض الناس بالنعم

ثم ظهر للأمير جمال الدين مكان خلف مدرسته التى فى القربيين ، فوجد فيه سبعة أزيار كبار وزلعتان فيهما فضة ودراهم نقرة ، ووجد له فى ذلك المكان جرتان كبيرتان فيهما ذهب عين ، ثم قبضوا على بوابه موسى وعصروه فأقر على مكان بالاسكندرية فى مخزن حمار ، فأرسل اليه من حفر فى ذلك المكان فوجدوا فيه ستة وثلاثين ألف دينار نقدا ، ووجدوا له فى مكان آخر بالاسكندرية مائتى ألف دينار ، وفى مكان آخر بالاسكندرية أيضا ثلاثين ألف دينار ذهبا ... فأحضروا ذلك جميعه الى الخزائن الشريفة على يد الطواشى زين الدين صندل المنجكى الخازندار ، فأودع ذلك بالخزائن الشريفة . وقد قال القائل فى المعنى :

رأيت الدرهم المضروب أضحى

كلص ما له أبدا أمانه

ألم تر كل انسان حريصا

يحصله ويرميه الخزانه ؟

ووجد له عند مملوك لأجنبى ثلاثون ألف دينار ، ووجد له عند مملوكه شاهين أربعون ألف دينار ، ووجد له عند امامه سراج الدين ثلاثون ألف دينار ، ووجد له عند قاضى القضاة ولى الدين ابن خلدون المالكى عشرون ألف دينار ، ووجد له عند فراشه شقير زير كبير فيه سبعون ألف دينار ، ووجد له عند بابسره فى مكان بكلتان نحاس فيهما ثلاثة وستون ألف دينار ، ووجد له فى سطح مدرسته التى فى القربيين خمس قدور فيها نحو خمسين ألف دينار ، ووجد له فى مكان عند الجامع الأزهر زير كبير فيه مائة وسبعة وثلاثون ألف دينار ، ووجد له مكان عند البرقية عند جارية سوداء زير كبير فيه مائة ألف دينار ، وثلاث برانى فيها لؤلؤ كبير وفصوص مختلفة الألوان ... فتسلم ذلك جميعه الزينى سندل المنجكى الخازندار ، فكان كما قيل :

قد يجمع المال غير آكله

ويأكل المال غير من جمعه

ويقطع الثوب غير لابسه

ويلبس الثوب غير من قطعه

ووجد له عند شخص اسكافى بقج فيها طرز زركش وحوائص ذهب وكنابيش زركش ما يعلم عدد ذلك ، ووجد له فى مكان عند حارة بنى سيس خلف بيته زلعة فيها ذهب عين ، جملة ذلك مائة ألف دينار وثمانية وثلاثون ألف دينار ، ومن الفضة

الدراهم زلعتان ... هذا كله خارج عما وجد له من القماش والفرش والخيول والبرك وغير ذلك من حلى نسائه وسراريه ، وغير ما وجد له من الأملاك والضياع والمراكب والمعاصر والجوارى والعبيد والمماليك والطواشية وغير ذلك ، وقد ضاع له عند الناس أضعاف ذلك . ووجد له من الغلال فى الشون ما لا يحصى من المغل ... وهذا الموجود يقارب موجود الصاحب علم الدين بن زنبور .

ثم ان بعض الناس قبض على الأمير محمود من مكانه من كوم الجارح وأحضره الى السلطان ، فلما مثل بين يديه رسم بتسليمه هو وولده محمد الى شاد الدواوين ، فسجنهما بخزانة شمايل ، فزالت عنه الدنيا كأنها لم تكن . وقيل فى المعنى :

وان امرأ دنياه أكبر همه
لمستمسك منها بحبل غرور

وفى هذه السنة وقع الغلاء العظيم بمصر ، فرسم السلطان بأن يعمل فى كل يوم عشرون اردبا من الدقيق خبزا ويفرق على الفقراء والمساكين وفى الزوايا . فلما اشتد الأمر بذلك توجه شيخ الاسلام سراج الدين البلقينى الى الجامع الأزهر ، واجتمع من الخلائق ما لا يحصى ، ودعوا الله تعالى فى كشف ذلك عن الناس ... وقد اجتمع الغلاء والفناء فى تلك السنة .

وفى أواخر هذه السنة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند قرا يوسف بن قرا محمد ، وحضر صحبته شخص من التتر قيل انه من قرابة تمرلنك ، وذكروا أن تمرلنك لما رحل جعله نائبا عنه بالرها ، فنزل فى بعض الأيام ليتصيد ، فسمع به قرا يوسف ، فركب مع جماعة من التركمان فقبض عليه وهو سكران وقيده وأرسله الى السلطان ، فلما مثل بين يديه أمر بسجنه فى خزانة شمايل .

وفيها خلع على الصاحب سعد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن مبارك شاه ، وخلع على القاضى بدر الدين بن الطوخى واستقر به ناظر النظار .

وفى هذه السنة كانت وفاة المقر السيفى سودون الفخرى الشيخونى نائب السلطنة بالديار المصرية ، وتوفى الصاحب محمد بن رجب بن كلبك ، وغير ذلك جماعة من الأعيان والعلماء .

سنة تسع وتسعين وسبعمائة (١٣٩٧ م) :

فيها حضر قاصد من عند تمرلنك يطلب أطلمش الذى كان قد أمسكه قرا يوسف كما تقدم ، فأرسل السلطان يقول لتمرلنك : « ما أطلق لك أطلمش حتى تطلق أنت من عندك من النواب ومن الأسرى الذين أسرتهم من البلاد » ... فعاد الجواب الى تمرلنك بذلك .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى تنم الحسنى نائب الشام . فلما بلغ السلطان وصوله الى الريدانية نزل السلطان من القلعة ولاقاه وخلع عليه وأنزله بالميدان الكبير الذى عند الناصرية ، فقدم نائب الشام الى السلطان عشرة مماليك جراكسة ، وعشر جوار ، وعشرة آلاف دينار ، ومصحفا شريفا مكتوبا بالذهب ، ونمجاه مسقطة بالذهب ومرصعة بفصوص ياقوت وفيروز ، وأربعة كنابيش زركش ، وأربعة سروج ذهب ، وأربع بدلات ذهب زنة كل بدلة أربعمائة مثقال شغل المعلم بهرام ، وعشرة كواهى برسم الصيد ، ومائة وخمسين حملا ما بين سمور ووشق وسنجاب وقاقم وقرضيات ، وأثواب صوف ملون ، ومائة فرس خاص ، وخمسين بغلة ، وخمسين جملا ، وعشرين حمل أثواب بعلبكى ، وثلاثين حمل فاكهة

وحلوى شاميه ، وعشرين حمل مخللات ، وحملين علب سكر نبات حموى ، وحملين سواقة فى علب كبار ، وغير ذلك أشياء كثيرة .

ثم ان السلطان عدى الى بر الجيزة وعزم نائب الشام ، ثم توجه الى بلاده على عادته .

وفى هـذه السنة حضر قاصـد صاحب اليمن — وهو الملك الأشرف محمد بن الفضل — وحضر صحبته القاضى برهان الدين المحلى التاجر الكارمى وأحضرا صحبتهما هدية عظيمة للسلطان لم يسمع بمثلها على أنواع مختلفة ، فخلع السـلطان على قاصد ملك اليمن وأكرمه غاية الاكرام .

وفى هذه السنة خلع السلطان على القاضى تقى الدين الزبيرى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية ، عوضا عن القـاضى صدر الدين المناوى الشافعى .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن عوام دمشق قتلوا شحصا من الناس يقال له ابن النشو ، ولما قتلوه أحرقوه بالنار ، وكان سبب ذلك أن هـذا الشخص كان يشترى الغـلال فى أيام الرخص ويخزنها حتى تتشحط المدينـة من الغلال فيبيعها بأغلى ثمن ، فتحملت منه الناس وتعاونوا على قتله فقتلوه وأحرقوه ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيها خلع السلطان على الأمير يلبغا الأحمدى المعروف بالمجنون واستقر به استادارا عوضا عن قطلو بك العلائى .

وفيها جاءت الأخبـار من حلب بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى أطراف بلاد الروم وأخـذ مدينة تسمى أرزنكان ، وقتل أهلها ونهب ما فيها . فلما سمع السلطان ذلك أرسل الى سائر النواب بأن يتوجهوا الى شاطىء الفرات ويحصنوا البلاد ، فخرج سائر النواب الى شاطىء الفرات وأقاموا هناك .

وفيها حصل للسلطان توعك فى جسده ، وأقام منقطعا فى الحريم أياما لم يعمل الموكب ، ثم عوفى بعد ذلك ودخل الحمام ، ثم ركب من بعد ذلك وشق القاهرة وزينت له ففرحت الناس بعافيته . فلما طلع الى القلعة انتكس من يومه وضعف أكثر ما كان أولا ، وكثر فى القاهرة القيل والقال بين الناس ، فأقام على ذلك أياما ثم عوفى وركب وتوجه الى سرياقوس ، ثم انه رجع الى القلعة .

وفيها توفى سيدى اسماعيل ابن السلطان حسن ، وتوفى الصاحب سـعد الدين بن البقرى ، وتوفى قاضى القضاة جمال الدين القيصرى الحنفى ، وتوفى قاضى القضـاة شمس الدين الطرابلسى الحنفى ، وتوفى السيد الشريف الأخلاطى الحنفى ، وتوفى الأمير جمـال الدين محمود بن على الظاهرى الاستادار كان ، وقد تقدم أن السلطان سجنه هو وولده محمد فى خزانة شمايل ، فاستمر مقيما بها الى أن مات فغسـل وكفن وصلى عليه ودفن فى مدرسته التى أنشأها خارج باب زويلة ، وقد قاسى من الشدائد ما لا خير فيه ، وآخر الأمر ذهب ماله ومات وهو فى السجن ولم يوجد له ثمن كفن ، حتى ان بعض مماليكه أخرجه من عنده ، فكان كما قيل فى المعنى :

أف لدنيـانا وأفعـالها ... فانهـا للهم مخـلوقه
همومها لا تنقضى ساعة ... عن ملك فيها ولا سوقه
واعجبا منها ومن فعلها ... عدوة للناس معشـوقة

سـنة ثمانمائة من الهجـرة (اولهـا ٢٤ سبتمبر ١٣٩٧ م) :

وانقضى قرن السبعمائة وقد جـرى فيه من الحوادث ما تقدم ذكره . وقد ورد فى الأخبار : «على رأس كل قرن فتنة» ... وهذا حديث صحيح .

فيها رسم السلطان باحضار السيفى المقر تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب ، فتوجه لاحضاره أخو الأمير بكتمر جلق .

ومن الحوادث فيهـا أن السـلطان تغير خاطره على الأتابكى كشبغا الحموى ، وعلى المقر السيفى بكلمش العلائى أمير سلاح ، فقيدهما فى يوم واحد وأرسلهما الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم ان السلطان عمل موكبا وخلع على المقـر السيفى أيتمش البجاسى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن كمشبغا الحمـوى ، وأنعم على الأمير نوروز الحافظى بتقدمة ألف . ثم حضر المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب ، فلما حضر أنزله السلطان فى بيت الأمير طاز الذى عند حمام الفارقانى ، ثم عمل بعـد أيام الموكب وخلع على جماعة من الأمراء ، وهم المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا نائب حلب واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير بكلمش العلائى ، وخلع على الأمير أقبغا اللكاش واستقر به أمير مجلس عوضـا عن الأمير شيخ الصفوى ، وخلع على الأمير نوروز الحافظى واستقر به أمير أخور كبير ، وخلع على الأمير بيبرس قريب السـلطان واستقر به دوادار كبير ... فلبس هؤلاء الأمراء كلهم فى يوم واحد . وأنعم السلطان على مملوكه على باى بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير يشبك الشعبانى بتقدمة ألف ، وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة .

وفيها خلع السلطان على الأمير بيقجاه طيفور الشرفى واستقر به نائب غزة عوضا عن الأمير أحمد ابن الشيخ على ، ونقل الأمير أحمد بن الشيخ على الى نيابة صفد ، ونقل نائب صفد الى نيابة طرابلس .

وفيها أرسل السلطان خلف القاضى جمال الدين الملطى من حلب ، فلما حضر الملطى خلع عليـه واستقر به قاضى القضاة الحنفية بالديار المصرية عوضا عن القاضى شمس الدين الطرابلسى الحنفى بحكم وفاته . ثم بعد مدة عمل السلطان الموكب وخلع على مملوكه على باى — ويدعى الماياى — واستقر به رأس نوبة النوب .

ومن الحوادث فى هذه السنة أن السلطان تغير خاطره على الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة ، فقبض عليه وعلى أخيه وابن عمه وجميع أصـحابه وحاشيته وغلمانه وأودعهم فى الترسيم بالقلعة . فلما كان يوم السبت طلع جماعة من العوام الى الرميلة ومعهم مصـــاحف وأعلام فوقفوا واستغاثوا فأرسل اليهم السلطان وجاقا ، وقال لهم : « ما شأنكم ؟ » ... فقالوا : « نسأل السلطان فى أن يفـرج عن الأمير علاء الدين بن الطبـلاوى الوالى » ... فلما سـمع السلطان ذلك حنق على العوام ، وأرسل اليهم جماعة من المماليك فشتتوهم من الرميلة .

واستمر علاء الدين بن الطبلاوى فى الترسيم ، ثم قال : « ان لى كلاما سرا ما أقوله الا فى أذن السلطان » ... فلم يوافق السـلطان على ذلك . ورسم للأمير يلبغا الأحمدى الاستادار بأن يتسلم ابن الطبلاوى ويستخلص منه الأموال . فلما أراد أن ينزل به من القلعة قعد ابن الطبلاوى على باب الزردخانة وأخرج من وسطه خنجرا صغيرا وشق به بطن نفسه ، فأمسك الناس يده فلم يؤثر فيه ذلك ، فلما بلغ السلطان هذه الواقعة تحقق أن ابن الطبلاوى ما كان يريد القـرب من السلطان الا ليضربه بذلك الخنجر ، فاشتد عليـه غضبه وأمر يلبغا الأحمدى بأن يعاقبه ، فنزل به الى بيته وعاقبه وعصره بالمعاصير فى أكعابه ، وسقاه الجير بالملح ، وضربه بالكسارات ، وأذاقه ما كان يفعله بالناس .

وقد قيل فى المعنى :

جرع كأسا كان يسقى بها ... والمرء مجزى بأعمـاله

فظهر له من المال فى مكان ستون ألف دينار ، وفى مكان عشرون ألف دينار . ثم ان يلبغا الأحمدى احتاط على موجوده جميعه فباعوه بمائة ألف دينار ، فلم يكتفوا بذلك وعاقبوه ثانيا وألبسوه خودة حديد محمية بالنار ، فأقر أن له عند ابن عمه مائتى ألف درهم فضة نقرة ، وأقر بأن له عند أخيه مثل ذلك . ثم أقر بأن له عند قريبه تقى الدين الخطيب خمسين ألف دينار ، وعند دواداره على بن عمر عشرة آلاف دينار ... فحمل ذلك جميعه الى الخزائن السلطانية ، وذهب ما كان جمعه ابن الطبلاوى من حلال وحرام ، وبقى عليه اثم ذلك ، فذهبت عنه الدنيا والآخرة ، وقد قيل فى المعنى :

النار آخر دينار نطقت به
والهم آخر هذا الدرهم الجارى
والمرء ما دام مشغوفا بحبهما
معذب القلب بين الهم والنار

ثم ان السلطان رسم بسجن علاء الدين بن الطبلاوى فى خزانة شمايل فسجن بها .

وفى هذه السنة وقع الرخاء بمصر حتى بيع كل أربعه أرطال خبز بدرهم ، ولا أحد يشتريه .

ومن الوقائع اللطيفة أنه فى يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة لعب السلطان بالكرة والصولجان مع الأتابكى أيتمش البجاسى فى الحوش السلطانى ، فغلب السلطان المقر الأتابكى أيتمش ، فقال له السلطان : « جاء عليك يوم بالقفيرى » فأراد الأتابكى أيتمش أن يعمل وليمة من ماله ، فقال له السلطان : « أنا أقوم عنك بذلك من مالى » ... فضرب خيمة كبيرة مدورة وعدة صواوين فى الميدان الذى تحت القلعة ، وأرسل خلف سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، ورسم للوزير وناظر الخاص بأن يتكلفوا بأمر ذلك المهم ، فعمل فيه من اللحم الضأن عشرين ألف رطل ، ومن الأوز مائتى زوج ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الخيول للذبح عشرين فرسا ، ومن السكر ثلاثين قنطارا ، ومن الفاكهة مائتى علبة ، ومن الحلوى مائتى مجمع ، ومن الزبيب برسم الأقسمة ثلاثين قنطارا ، ومن الدقيق ستين أردبا برسم البوزة ... فعملت البوزة والشش فى أدنان ، وأحضر السلطان مغانى البلد جميعها والأوزان .

ثم ان السلطان صلى الصبح ونزل الى الميدان ، ورسم بألا يمنعوا أحدا من الدخول الى الميدان . فلما تكاثر الناس فى الميدان أشار بعض الأمراء على السلطان بأن يمد السماط الى القلعة ، فمد السماط وأكل هؤلاء والأمراء ، ثم خلع على الوزير وناظر الخاص ، ثم ركب وطلع الى القلعة من وقته ... وكان قصد السلطان أن يقيم فى الميدان الى آخر النهار ويجتمع هناك أرباب الملاهى والملاعب ، فما تم له ذلك . فلما ركب وطلع الى القلعة تكاثر العوام ودخلوا الى الميدان ونهبوا الدنان البوزة والشش ، وحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب بسبب ذلك . وقال بعض الشعراء :

سلطان مصر دام فضل علائه
قد عمنا بالفضل والاحسان
لم أنس يوم السبت حسن مهمه
قد كان يوما جاء بالسلطان

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الأحد تاسع عشر ذى القعدة كان وفاء النيل المبارك ، فنزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس ليخلق العمود ويكسر السد على العادة . فلما دخل الى المقياس وخلق العمود ونزل الى الحراقة لتكسير السد ، جاء اليه مملوك من خشداشينه من مماليك الأتابكى يلبغا العمرى يقال له سودون الأعور —

وكان ساكنا فى البيوت التى بأعلى الكبش — فجاء الى السلطان وأسر اليه حديثا فى أذنه ، فكان مضمون ذلك أنه قال له : « رأيت فى بيت الأمير على باى الذى تحت الكبش مماليك لابسة آلة الحرب ، وقد دخلوا تحت بوائك الخيل وستروا على البوائك بانخاخ حتى لا يراهم أحد » ... وكان هذا البيت محل سكن على باى .

فلما سمع السلطان ذلك أنكره . وكان الأمير على باى من مماليك السلطان الخواص وقد رقاه حتى جعله رأس نوبة النـوب . وكان الأمير على باى قبل هذه الواقعة انقطع فى بيته أياما وأظهر أنه مريض ، وظن أن السلطان اذا رجع من كسر السـد يدخـل يسلم عليه ، فاذا دخل يسلم عليه تخرج تلك المماليك من تحت البوائك التى سترها بالأنخاخ فيقتلون السلطان . وظن أن هذه الحيلة تصعد من يده ، فكان تدميره فى تدبيره كما قيل فى الأمثال :

وان من حارب من لا يقوى
لحربه ، جر اليـه البـلوى
فحـارب الأكفاء والأقرانا
فالمرء لا يحـارب السـلطانا

ثم ان السلطان أرسل الأمير أرسطاى أحد رءوس النوب الى بيت الأمير على باى ليكشف له الخبر عن صحة ذلك ، فتوجه الأمير أرسطاى الى بيت الأمير على باى ، وأعلم جماعته بأن السلطان اذا رجع من السد يدخل يسلم على الأمير على باى .

فلما فتح السلطان السد ورجع توجه الى بيت الأمير على باى . فلما أراد أن يدخل الى بيته نادته امرأة من أعلى البيوت التى فى الكبش وقالت له : « لا تدخل له » ... وقد قيل ان تلك المرأة رمت على السلطان — لما أراد أن يدخل الى بيت على باى — قلة ، فلما شال السلطان وجهه اليها قالت له لا تدخل اليه ، فثنى السلطان عنان فرسه ومضى ، فأشار عليه بعض الأمراء بأن ينقل فى مشيه ، فنقل وساق هو والأمراء ، فتقنطر فى ذلك اليوم الأمير فارس حاجب الحجـاب والأمير يبيرس الدوادار الكبير ثم ركبا . فلمـا تحقق على باى رجـوع السـلطان الى القلعة خرج من بيته ومماليكه — وكانوا نحـو أربعين مملوكا — فسـاقوا خلف السلطان الى الرميلة .

وكان من جملة سعد السلطان لما مضى من بيت على باى أنه ساق وطلع الى الرميلة فوجد باب السلسلة مفتوحا ، فطلع منه هو والأمراء ثم أغلقوه خلفهم . فلما جلس فى المقعد الذى فى الاسطبل السلطانى طلع على باى خلفه الى الرميلة ، فوقف فى سوق الخيل هو ومماليكه ساعة ، فنزل اليه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، فأوقعوا معه واقعة قوية ، فقتل فيها من المماليك السلطانية خاصكى يقـال له بيسق المصارع ، وجرح فيهـا جماعة كثيرة من المماليك السلطانية .

فلما رأى على باى عين الغلب هرب وانكسر ، وكان معه الأمير يلبغا الأحمدى الاستادار . فلما هرب على باى قبضوا على يلبغا الأحمدى وطلعوا به الى باب السلسلة ، فأراد المماليك السلطانية قتله فمنعهم السلطان من ذلك ، ثم قيدوه ورموه فى البرج .

ثم ان مماليـك السـلطان مسكوا مملوكا من مماليك على باى — وهو شاد الشربخاناه عنده — كان يقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا ، فلما قبضوا عليه وأحضروه بين يدى السلطان أمر بقتله فقتلوه قدام السلطان بالسيوف .

فلمـا انكسر على باى وهرب من الرميلة نهب العوام بيته الذى تحت الكبش ، وأخذوا جميع

بركه وقماشه حتى أخذوا رخام بيته وأبوابه ونهبوا بيوت حاشيته وغلمانه . فلما دخل الليل ظهر الأمير على باى فى مستوقد حمام بالقرب من بيته ، فأتى اليه الأمير بيبرس الدوادار الكبير وقبض عليه وطلع به الى القلعة ، فأمر السلطان بسجنه .

وكان سبب ركوب على باى على السلطان أن مملوكا من مماليكه أفسد جارية من جوارى الأمير اقباى الطرنطاى وكان ساكنا بجوار بيت على باى . فلما علم الأمير أقباى بذلك قبض على مملوك الأمير على باى وضربه أربعمائة عصا . فلما بلغ الأمير على باى ذلك تعصب لمملوكه وطلع الى القلعة واشتكى الأمير أقباى الى السلطان ، فلم يلتفت السلطان الى كلام على باى ، فحنق من السلطان وقال أنا آخذ ثارى بيدى ، ثم انقطع على باى فى بيته أياما وأظهر أنه مريض ، وأضمر فى نفسه أن السلطان اذا سمع أنه مريض يدخل يسلم عليه ، فاذا دخل اليه يقتله وتصعد هذه الحيلة من يده ... فكان الأمر بخلاف ذلك ، وخانه المراد ، وجنى عليه الاجتهاد .

فلما ركب على باى وجرى منه ما جرى قبضوا عليه ، فلما طلعوا به الى القلعة سجنه السلطان ، ثم طلبه فى قاعة البحرة وخلا به وقال له : « من ألجأك الى هذا الذى قد فعلته ؟ » ... فقال : « ما ألجأنى أحد لذلك ، ولكن فعلت ذلك من قهرى منك حيث لم تأخذ بثأرى من أقباى » .

ثم ان السلطان أحضر اليه المعاصير وعصره بحضرته ، وقرره ان كان لأحد من الأمراء خبرة فى ذلك ، فبرأ سائر الأمراء ، فصار السلطان يعصر على باى فى كل يوم مرتين ويقرره فلم يقر بشىء ، فتزايد حنق السلطان عليه فضربه بكازفولاد كان فى يده فخسف به صدر على باى فمات من وقته ، فغسلوه وكفنوه ودفنوه تحت الليل وانقضى أمره ، وصار ذلك مثلا بين الناس يقولون : « زلة على باى » فكان كما قيل فى المعنى :

واذا كانت النفوس كبارا
تعبت فى مرادها الأجسام

ثم ان السلطان أفرج عن الأمير يلبغا الأحمدى استادار ونزل الى بيته ، وخلع على الأمير أرسطاى ابن خجا على واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن على باى ، وخمدت هذه الفتنة عن الناس .

فلما كان يوم الاثنين وقت الظهر ماجت الرميلة ولبس المماليك آلة الحرب ووقفوا فى الرميلة ، فغلقوا باب السلسلة وأشاعوا بين الناس أن الامير أقبغا اللكاش والأمير يلبغا الأحمدى الاستادار قد ركبا على السلطان ... وليس لهذا الكلام صحة .

وكان سبب هذه الفتنة أن بعض المماليك السلطانية رأى مملوكا من مماليك على باى فساق خلفه وتبعه وسيفه مسلول ، فظن الناس أن العسكر قد ركب على السلطان ، فلبس المماليك آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، وأشاع العوام بأن يلبغا الأحمدى وأقبغا اللكاش قد ركبا على السلطان . ثم ان يلبغا الأحمدى وأقبغا اللكاش طلعا الى القلعة وقالا للسلطان : « يا خوند ، هذا كذب العوام ، فالسلطان لا يصدق فينا كلام » . ثم ان السلطان قبض على يلبغا الأحمدى وأرسله الى ثغر دمياط ، وخلع على الناصرى محمد بن سنقر البجكاوى واستقر به استادارا عوضا عن يلبغا الأحمدى .

وفى أثناء هذه الواقعة قبض السلطان على سبع أنفس من جماعة على باى ورسم للوالى بأن يسمرهم ، فسمروا وطافوا بهم فى القاهرة على الجمال ، وكان فيهم شخص عجمى يسمى رمضان ، وكان على باى يقول له يا أبى ، وفيهم مملوك

أقبغا الفيل كان أغات على باى ، فوسطوا الجميع عند بركة الكلاب .

وفى هـذه السنة توفى القاضى برهان الدين صـاحب سـيواس ، وتوفى الأمير جـالى بك اليحياوى أمير آخور كبير ، وتوفى الأمير قلمطاى العثمانى ، وتوفى القـاضى أمين الدين الحمصى كاتب السر بالشام ، وتوفى القاضى تاج الدين بن الشهيد ، وتوفى القاضى نجم الدين بن الطميدى محتسب القاهرة ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة احدى وثمانمائة (١٣٩٨/١٣٩٩ م) :

فيها ، فى يوم السبت ثالث عشر صـفر ، نزل السـلطان الى الاصطبل السـلطانى وحكم بين النـاس . وكان ، من حـين جرى من على باى ما جرى ، لم ينزل الى الاصطبل ولم يحكم به .

فلما نزل فى ذلك اليوم تغير خاطره على الأمير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليـه وسجنه بقاعة الفضة المطلة شبابيكها على الايوان . وكان سبب تغير خاطر السلطان على الأمير نوروز الحافظى ما قيل من أنه نقل عنه كلام أنه اتفق مع جماعة من المماليك على قتل السلطان ، فلما تحقق السـلطان ذلك بادر وقبض على الأمـير نوروز الحافظى أمير آخور كبير ، فقبض عليـه وسجنه بقاعة الفضة ، وقيده وأرسله الى السـجن بثغر الاسكندرية ، ونفى معه جمـاعة من الخاصكية ممن كان من عصبته .

ثم ان السلطان عمل الموكب وخلع على الأمير سودون قريب السلطان واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمـير أرغون شاه الأقبغاوى واسـتقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا اللكاش ، وخلع على أقبغا اللكاش واستقر به نائب الكرك ورسم له بأن يخرج اليها .

فلما خرج من القاهرة ووصـل الى غزة أرسـل السلطان فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بقلعة الصلبية .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير تمراز الناصرى بتقدمة ألف .

وفيها جاءت الأخبار بأن نائب حلب أرغون شاه الابراهيمى قد توفى الى رحمة الله تعالى ، فرسم السلطان للأمير أقبغا الجمالى نائب طرابلس بأن ينتقل الى نيابة حلب عوضا عن أرغون شـاه ، فتوجه الى تقليده الأمير اينال باى بن قجمـاس قريب السلطان ، وأرسل تقليدا الى الأمير يونس المطـاوى الظـاهرى بأن يكون نائب طرابلس ، وأرسل تقليدا الى الأمير دمرداش المحمدى بأن يكون نائب حماه على يد الأمير شيخ المحمودى ، وأرسل تقليدا الى الأمير سـودون الظريف بأن يكون نائب الكرك .

وفى هـذه السنة نادى السـلطان للناس بأن يحجوا رجبيا ، وكان ذلك قد بطل من سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ، فرسـم باعادته على جارى العادة .

وفى هذه السنة أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشراوات ، منهم تغرى بردى الجلبانى ، ومنكلى بغا الناصرى ، وبكتمر جلق الناصرى ، وأحمد بن قطينة . وأنعم على جماعة بامريات أربعين ، منهم بسباى بن باكى ، وتمر بغا بن باشـاه ، وشاهين بن اسـلام ، وجوبان العثمانى ، وجكم العوضى .

وفى هذه السنة قبض السلطان على الصاحب بدر الدين بن الطوخى ، وخلع على الأمـير تاج الدين عبد الرزاق والى قطيا واسـتقر به وزيرا عوضا عن ابن الطوخى .

وفيها رسم السلطان بالافراج عن الأمير يلبغا

الأحمدى الاستادار وأعيد الى وظيفته كما كان أولا .

وفيهـا خلع السلطان على القـاضى فتح الله واسـتقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية عوضا عن القاضى بدر الدين الكلستانى الحنفى بحكم وفاته . وفيه يقول بعض الشعراء :

فتح الله بعلمو اشتهر فسـبحان من أعطاه
وتبت يد الـكافرين اذا جـاء فتـح الله

وفيها خلع السلطان على الأمير فرج استادار الذخيرة واستقر به نائب ثغر الاسكندرية عوضا عن الأمير صرغتمش المحمدى بحكم وفاته .

وفيهـا ، فى يوم الثلاثاء سـابع عشرى شهر رمضان ، رسم السلطان بالافراج عن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى والى القاهرة — وكان له مدة وهو فى السجن بخزانة شمايل كما تقدم—فتجمع وقت خروجه الجم الغفير من الناس ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، وتخلق الناس فى ذلك اليوم بالزعفران حتى قيل اشترى الناس فى ذلك اليوم زعفران بعشرين أشرفى . فلمـا خرج ابن الطبلاوى من خزانة شمايل أقام مدة فى بيته ثم رسم له السلطان بأن يتوجه الى الكرك ويقيم بها .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء خامس شوال ، لعب السـلطان بالرمح فى الحوش ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، فلما فرغ من لعب الرمح أكل عسل نحل كخناوى فطاب له فأكل منه كثيرا ، وشرب عقيب ذلك أقسـمة محرفة ، فاسـتحال خلطا صفراويا ، فاشتدت به الحمى فضعف من يومه وثقل فى المرض الى يوم السبت بعـد العصر ، فأشيع بين الناس أنه فى النزع ، فأقام على ذلك الى يوم الأربعاء ثالث عشر شـوال ، فطلع عليه الورشكين ، ثم حصل له الفواق فاضـطربت فى ذلك اليوم القاهرة وضجت ، فركب والى القاهرة ونادى فى المدينـة بالأمان والاطمئنـان والبيع والشراء .

فلما كان يوم الخميس رابع عشر شوال حصل للسلطان افاقة ، فطلب أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضـاة الأربعـة وسـائر الأمراء وأرباب الدولة ، فلما تكامل المجلس عهد السلطان بالملك من بعده الى ولده المقر الزينى فرج ، ثم من بعده الى ولده المقر العزى عبد العزيز ، ثم من بعـده الى ولده المقر الصارمى ابراهيم . ثم ان السلطان كتب فى ذلك المجلس وصية فأوصى فيها لزوجاته وسراريه وخدامه بمال جملته مائتا ألف دينار ، وأوصى بأن تعمر له تربة بثمانين ألف دينـار ، ويشترى لها أوقاف بعشرين ألف دينار ، وأوصى بأن يدفن فى لحد لا فى فسقية ، وأن يكون دفنه بين الفقراء الذين هناك ، وأوصى بأن يكون سائر أملاكه أوقافا على تربته ، وأوصى بأن يكون المقر الأتابكى أيتمش البجاسى وصـيا على أولاده ، وفوض اليه أمر الولاية والعزل . ثم جعـل أمير المؤمنين المتوكل على الله وصـيا على أولاده من بعده ، وجعل المقر السيفى تغرى بردى أمير سلاح وصيا ، والأمير بيبرس الدوادار وصيا ، والأمير يشبك الشعبانى وصيا ، وجعل المقر السيفى تنم الحسنى نائب الشام وصيا . ثم خلع على الأتابكى أيتمش خلعة ، ونزل الى بيته ومعه سائر الأمراء . واستمر السـلطان ملازم الفراش ... قال الأمير صندل المنجكى الخازندار ان السلطان تصدق فى هذه الضعفة فى مدة انقطاعه على الفقراء والعلماء بمائتين وخمسين ألف دينار .

فلما كان ليلة الجمعة خامس عشر شـوال من سنة احدى وثمانمائة توفى السلطان الملك الظاهر برقوق بن ألص العثمانى رحمة الله تعالى عليه ، وكانت وفاته وقت السحر ، فكانت مدة سلطنته

بالديار المصرية والبلاد الشامية الى أن مات على فراشه ست عشرة سنة وأربعة أشهر وسبعة وعشرين يوما ، فكانت كما قيل فى المعنى :

ترجو البقاء بدار لا ثبات لها
فهل سمعت بظل غير منتقل

وكانت مدة سلطنته الأولى ست سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة السلطنة الثانية الى أن مات تسع سنين وثمانية أشهر الا يوما ، ومدة خلعه بين السلطنتين ثمانية أشهر وأياما ، وكانت مدة أتابكيته بمصر أربع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، فكانت مدة حكمه بالديار المصرية أتابكا وسلطانا احدى وعشرين سنة وعشرة أشهر وستة عشر يوما ، وزال ملكه كأن لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

ومات الملك الظاهر برقوق وله من العمر نحو ثلاث وستين سنة ، وخلف من الأولاد ستة : ثلاثة ذكور وهم : سيدى فرج وسيدى عبد العزيز وسيدى ابراهيم ، وثلاث بنات . وخلف من المال فى الخزائن ألف ألف دينار وأربعمائة ألف دينار ، وخلف من الخيول اثنى عشر ألف فرس ، ومن الجمال خمسة آلاف جمل ومثلها من البغال .

قال الأمير شهاب الدين بن قطينة : « لما كنت متولى الاستادارية كان عليق السلطان الظاهر برقوق فى أيامى فى كل شهر اثنى عشر ألف أردب شعير ، ومن اللحم ستة وعشرين ألف رطل فى كل يوم » .

وبلغت عدة مماليكه المشتراة سبعة آلاف مملوك چراكسة خارجا عن أصحاب الجوامك . وكان كثير البر والصدقات ، فمن ذلك أنه أوقف بلدا فى بر الجيزة على سحابة تطلع فى كل سنة الى الحجاز الشريف برسم الحجاج المنقطعين . وكان له فى كل يوم من شهر رمضان عشرون بقرة تطبخ فى فايزية وتفرق على الحبوس والزوايا وعلى الفقراء ومعها ألف رغيف ، وكان يفرق فى كل سنة من القمح سبعة آلاف أردب فى الزوايا والمزارات ، وأبطل فى أيامه مكوسا كثيرة بمصر والشام كانت تحصل مع غاية الضرر ... فأبطل ذلك جميعه . وعظم أمره حتى خطب باسمه فى أماكن لم يخطب فيها لأحد قبله من الملوك ، فخطب باسمه فى تبريز العجم وفى الموصل وفى ماردين وفى سنجار وفى دوركى وفى أرض الروم وفى أرزنكان ، وضربت السكة باسمه فى هذه الأماكن .

وأما ما أنشأه فى أيامه من العمائر فهو جسر الشريعة بالغور ، وجدد بناء خزائن السلاح بثغر الاسكندرية ، وجدد عمارة زريبة البرزخ بثغر دمياط بعد ما كان قد ظهر منها عظام الشهداء ، وعمل سورا على مدينة دمنهور ، وعمر قناة العروب بالقدس الشريف ، وجود عمارة المجراة التى تجرى من بحر النيل الى قلعة الجبل ، وعمر فساقى بطريق المدينة الشريفة عند رأس وادى بنى سالم ، وعمر سور الميدان الذى تحت القلعة بعد ما كان قد خرب ، فرمى بأرضه أحمال طين ثم سقاه بماء النيل وزرع فيه القرط فلم يطلع فيه شىء غير النجيل ، وعمر صهريجا كبيرا بالقلعة ، وعمل السبيل والمكتب الذى قدام دار الضيافة بظاهر القلعة ، وعمر بالقلعة طاحونا ولم يكن بها قبل ذلك طاحون ، وعمر المدرسة العظيمة التى بين القصرين والوكالة التى تجاه باب الجوانية ، وله غير ذلك آثار كثيرة بمصر والشام .

وكانت دولته ثابتة القواعد . فأما قضاته الشافعية بمصر فالقاضى برهان الدين بن جماعة ، والقاضى ناصر الدين بن الميلق ، والقاضى بدر الدين بن التقى السبكى ، والقاضى عماد الدين الكركى ، والقاضى صدر الدين المناوى ، والقاضى تقى الدين الزبيرى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى

صدر الدين بن منصور ، والقاضى شمس الدين الطرابلسى ، والقاضى مجد الدين الكنانى ، والقاضى جمال الدين محمود القيصرى ، والقاضى جمال الدين الملطى . وأما قضاته المالكية فالقاضى جمال الدين بن خير ، والقاضى ولى الدين بن خلدون المغربى ، والقاضى شمس الدين الركراكى ، والقاضى شهاب الدين النحريرى ، والقاضى ناصر الدين بن التونسى . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى ناصر الدين العسقلانى وولده برهان الدين . وأما كتاب سره بالديار المصرية فالقاضى بدر الدين بن فضل الله ، والقاضى علاء الدين الكركى ، والقاضى بدر الدين محمود الكلستانى ، والقاضى فتح الدين فتح الله . وأما نظار جيوشه فالقاضى تقى الدين عبد الرحمن ، والقاضى موفق الدين بن الفرج ، والقاضى جمال الدين القيصرى ، والقاضى كريم الدين بن عبد العزيز ، والقاضى شرف الدين ابن الدماميني ، والقاضى سعد الدين بن غراب ، وأما وزراؤه بمصر فالصاحب شمس الدين بن كاتب الأزلان ، والصاحب علم الدين بن القسيس ، والصاحب كريم الدين بن الغنام ، والصاحب موفق الدين أبو الفرج ، والصاحب سعد الدين ابن البقرى ، والصاحب ناصر الدين بن الحسام الصفوى ، والصاحب ركن الدين عمر بن قيماز ، والصاحب تاج الدين بن أبى شاكر ، والصاحب ناصر الدين محمد بن كلبك ، والصاحب مبارك شاه الظاهرى ، والصاحب بدر الدين بن الطوخى ، والصاحب تاج الدين عبد الرزاق ، والصاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة . وأما استادارياته بمصر فالأمير قرقماس السيفى طشتمر ، والأمير جمال الدين محمود بن على الظاهرى ، والأمير عمر بن قايماز ، والأمير قطلو بك العلائى ، والأمير يلبغا الأحمدى المعروف بالمجنون ، والأمير ناصر الدين محمد بن سنقر البجكاوى ، والأمير بهادر المنجكى ، والأمير يلبغا السالمى . وأما نظار خواصه فالقاضى سعد الدين موسى ، والقاضى سعد الدين ابن البقرى ، والقاضى موفق الدين أبو الفرج ، والقاضى سعد الدين بن غراب .

قال المقريزى : « ان الذى أبطله الملك الظاهر برقوق فى أيامه من المكوس هو ما كان يؤخذ على الدريس والحلفاء بظاهر باب النصر . وأبطل ما كان مقررا لنائب طرابلس عند توجهه اليها ، وذلك أنه كان يؤخذ ممن يسرح للأمراء نحو العباسة من التجار وأعيان الناس من كل واحد فرس أو جمل أو ثمن ذلك ، وأبطل ما كان يرمى على البلاد من الأبقار عند فراغ الجسور السلطانية ، وأبطل ما كان يؤخذ على معمل الفراريج بناحية النحريرية ، وأبطل أشياء كثيرة من هذا النمط بالديار المصرية والبلاد الشامية » ... واستمر ذلك بطالا الى الآن فى صحيفة الملك الظاهر برقوق رحمة الله تعالى عليه .

وقد رثاه الشيخ شمس الدين الزركشى بقصيدة منها :

فى باطنى للملك الظاهر
حزن سرى منى فى سائرى
قد صير الندب لنا سنة
عليه من باد ومن حاضر
فبعده للملك يتم غدا
تبكى عليه أعين الناظر
لكن أتانا فرج عاجلا
من بعده بالملك الناصر

الملك الناصر فرج

لما توفى الملك الظاهر برقوق ، نزل من بعده ابنه فرج . وهو الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج ، ابن الملك الظاهر برقوق بن أنص العثمانى ، وهو السادس والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

تولى الملك بعهد من أبيه ، وجلس على سرير الملك فى يوم الجمعه خامس عشر شهر شوال سنة احدى وثمانمائة ، فبايعه أمير المؤمنين المتوكل بحضرة القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وبحضرة الأتابكى أيتمش البجاسى وسائر الأمراء ، فألبسوه خلعة السلطنة — وهى جبة سوداء بطرز زركش — وركب من الاصطبل السلطانى ، وطلع من باب سر القصر الكبير والأتابكى أيتمش حامل القبة والطير على رأسه ، فجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض .

وفى حال جلوسه على الكرسى جاء ابن الرداد ببشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، فاستبشر الناس بذلك ، ثم دقت الكئوسات ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء وخطب باسمه فى ذلك اليوم على منابر القاهرة .

قيل ان الملك الناصر فرجا تولى الملك وله من العمر نحو اثنتى عشرة سنة ، وكانت أمه رومية الجنس تسمى شيرين الطويلة . وفيه يقول بعض الشعراء :

مضى الظاهر السلطان أعظم مالك
الى ربه برقى الى الخلد فى الدرج
وقالوا ستأتى شدة بعد موته
فأكذبهم ربى وما جا سوى فرج

فلما انفض امر الموكب شرع الأمراء فى تجهيز الملك الظاهر برقوق ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه بالقلعة ، ونزلوا به والأمراء مشاة قدامه ، وكانت جنازته مشهودة بخلاف من يموت من الملوك ، وكثر عليه الأسف والحزن والبكاء من الناس حتى وصلوا به الى البقعة التى اختار الدفن فيها ، فحفروا له هناك قبرا ودفنوه فيه بين قبور المشايخ والفقراء الذين هناك ، ونصبوا على قبره خيمة كبيرة ، وأقام القراء يقرءون على قبره ثمانى ليال متوالية ، وكان القائم بأمر المأتم الأمير يلبغا الأحمدى الاستادار ، والناصرى محمد بن سنقر البجكاوى استادار الذخيرة .

فلما كان يوم السبت ثانى يوم موت الملك الظاهر طلع الأتابكى أيتمش هو والأمراء الى القلعة ، وعينوا الأمير سودون الناصرى الطيار بأن يتوجه الى تنم الحسنى نائب الشام بالتعزية بموت الملك الظاهر والبشارة بسلطنة ولده الملك الناصر ، وعينوا الأمير يلبغا الحافظى الى نائب حماه وكذلك الى نائب غزة وكذلك الى نائب الكرك ، وعينوا الأمير سنبغا الى الأمير نصير شيخ آل فضل ، وأرسلوا اليه خلعة بأن يكون على عادته .

ولما كان يوم الاثنين ثامن عشر شوال عمل السلطان الموكب فى القصر واجتمع الأمراء ، فلم يطلع الأمير سودون أمير آخور كبير — وكان من قرابة الملك الظاهر برقوق — فلما امتنع من الطلوع الى القلعة أرسل خلفه الأتابكى أيتمش فلم يطلع ، فأرسل خلفه ثانيا فلم يطلع . وكثر القال والقليل بين الناس ، فأرسل الأتابكى أيتمش يقول له انزل من الاسطبل الى بيتك ، فامتنع من ذلك وأرسل الى الأتابكى أيتمش جوابا يابسا ، فحنق منه أيتمش فأرسل اليه جماعة من المماليك فقبضوا

عليه وقيدوه وأرسلوه الى السجن بثغر الاسكندرية ... فهذه كانت أول ما جرى من الحوادث فى دولة الملك الناصر فرج .

ثم ان الأتابكى أيتمش تحول وطلع الى باب السلسلة وسكن به .

ولما كان يوم الخميس حادى عشرى شوال عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم الأتابكى أيتمش البجاسى أتابك العساكر على عادته واستقر أمير آخور كبير أيضا ، وخلع على المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أمير سلاح ، وخلع على المقر السيفى أرغون شاه واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى أرسطاى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على المقر السيفى بيبرس واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفى فارس واستقر به حاجب الحجاب ، وخلع على الأمير يلبغا الأحمدى واستقر به استادارا على عادته ، وخلع على الصاحب تاج الدين بن أبى شاكر واستقر به وزيرا ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف وامريات أربعين وامريات عشرة ، وخلع على الشيخ بدر الدين محمود العينى الحنفى واستقر به محتسب القاهرة عوضا عن تقى الدين المقريزى ، وهذه أول وظائف للعينى بمصر .

وفى ذلك اليوم قبض الأتابكى أيتمش على جماعة من الأمراء وهم : الأمير تمراز الناصرى ، والأمير تمربغا المنجكى ، والأمير طقلجى السيفى يلبغا ، والأمير بلاط السعدى ، والأمير طواو ... فقيدهم وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية . ثم بعد أيام تغير خاطر الأتابكى أيتمش على الأمير يلبغا الأحمدى الاستادار فقبض عليه وقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية .

ثم خلع على الأمير مبارك شاه الظاهرى واستقر به استادارا عوضا عن يلبغا الأحمدى ، فأقام بها مبارك شاه دون الشهر واستعفى منها ، واستقر بها الصاحب تاج الدين بن أبى شاكر فصار وزيرا واستادارا .

وفى أواخر هذه السنة حضر الأمير سودون الطيار — الذى كان قد توجه الى تنم نائب الشام — فأخبر بأن تنم نائب الشام دخل تحت طاعة السلطان الملك الناصر ، وباس له الأرض ، ونادى فى مدينة دمشق بالزينة سبعة أيام ، ودقت له بها البشائر . فلما حضر سودون الطيار بالبشارة خلع عليه السلطان واستقر به أمير آخور كبير . وأنعم على الأمير اينال باى من قرابة الملك الظاهر برقوق بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير طاز بتقدمة ألف ، وأنعم على الأمير أقباى الطرنطاوى بتقدمة ألف . ثم خلع على الأمير سودون الماردينى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير أرسطاى ، وخلع على الأمير يلبغا السالمى واستقر به استادارا عوضا عن الصاحب تاج الدين عبد الرزاق ، وخلع على الأمير شهاب الدين أحمد ابن عمر الحسنى بن قطينة واستقر به وزيرا بدلا عن تاج الدين عبد الرزاق .

وفيها جاءت الأخبار من القدس الشريف بأن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى قد هرب من القدس وتوجه الى تنم نائب الشام ... وقد تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى الكرك .

وفى أواخر هذه السنة انفصل ابن قطينة من الوزارة واستقر بها القاضى فخر الدين بن غراب .

وفى أواخر هذه السنة جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان ملك الروم قد تحرك على بلاد السلطان ، وقد وصل أوائل جاليشه الى بلاد الأبلستين وهو قاصد حلب . فلما بلغ السلطان والأمراء هذا الخبر أمر الأتابكى أيتمش بعقد مجلس بالقصر الكبير ، فحضر أمير المؤمنين المتوكل

والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقينى وسائر الأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان ، فوقع الاتفاق على محاربته والخروج اليه ، وأن يؤخذ من أجرة الأملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو .

ثم بعد مدة جاءت الأخبار بأن ابن عثمان وصل الى ملطية وملكها ولم يشوش على أحد من أهلها ، وأمر عسكره بألا ينهبوا لأحد من الرعية شيئا ، فأقام بملطية أياما ثم رجع الى بلاده فبطل أمر التجريدة وسكن الحال .

وفى هذه السنة توفى الأمير بكلمش العلائى بالقدس الشريف . وتوفى فى هذه السنة أيضا الأمير شيخ الصفوى أمير مجلس ، وكانت وفاته بالقدس الشريف أيضا . ومات الأتابكى كمشبغا الحموى بالسجن بثغر الاسكندرية ، وتوفى أرغون شاه الابراهيمى نائب حلب ، وتوفى قاضى القضاة الشافعى عماد الدين الأزرقى وهو صاحب تاريخ مكة ، وتوفى قاضى القضاة المالكى ناصر الدين بن الونسى ، ومات فيها جماعة كثيرة .

سنة اثنتين وثمانمائة (١٣٩٩ — ١٤٠٠ م) :

فيها فى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، ركب الملك الناصر ونزل من القلعة وزار قبر والده برقوق وشق من القاهرة ودخل من باب النصر ، وكان له موكب عظيم ، وزينوا له المدينة وضجوا له بالدعاء ، فشق من المدينة وطلع الى القلعة ... وهذا كان أول مواكبه .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب الشام خامر وأظهر العصيان ، وخرج عن الطاعة ، وأطلق من كان مسجونا من الأمراء بقلعة دمشق من أيام الملك الظاهر برقوق . فلما بلغ السلطان ذلك طلب المقر الأتابكى أيتمش ، فلما حضر قال له : « أنا قد بلغت الحلم ، وقصدى أن أترشد » . فقال الأتابكى أيتمش . « نعم ... السمع والطاعة » . ثم أرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى ، فلما تكامل المجلس قام المقر السعدى سعد الدين بن غراب وكيلا عن السلطان ، وادعى فى المجلس بين يدى القضاة ، فأعذر له الأتابكى أيتمش وثبت رشده فى ذلك اليوم وحكم به القضاة وأعذر له أمير المؤمنين .

ثم ان السلطان خلع على أمير المؤمنين وعلى القضاة الأربعة وشيخ الاسلام سراج الدين البلقينى والأتابكى أيتمش ونزلوا الى بيوتهم . ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بالزينة فزينت له سبعة أيام ، ودقت البشائر ، ونودى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء والدعاء بالنصر للسلطان ، فضج الناس له بالدعاء .

فلما كان يوم الاثنين عاشر ربيع الأول من سنة اثنتين وثمانمائة ركب المقر الأتابكى أيتمش على السلطان ، وألبس مماليكه آلة الحرب وطلع الى الرميلة بين المغرب والعشاء ، فاجتمع عنده جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير تغرى بردى أمير سلاح ، والأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، وغير ذلك جماعة من الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، واجتمع عنده من المماليك السلطانية والسيفية ما لا يحصى .

واجتمع عند الملك الناصر بالقلعة جماعة من الأمراء المقدمين وهم : الأمير يشبك الشعبانى ، والأمير طاز والأمير سودون المارديني ، والأمير بيبرس الدوادار ، والأمير اينال باى بن قجماس ،

وجماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات وجماعة كثيرة من المماليك الظاهرية .

فلما لاح الصباح نزلوا الى باب السلسلة وأوقعوا مع أيتمش واقعة عظيمة من طلوع الفجر الى بعد الظهر .

ثم ان الأتابكى أيتمش نادى للعوام بأن كل من أمسك مملوكا من مماليك الظاهر برقوق يأخذ عريه وفرسه . فلما سمع المماليك الذين كانوا مع أيتمش هذه المناداة تسحبوا من عنده وقالوا : « نحن نقاتل معه وهو يريد مسك خشداشيننا !.. » .

فطلعوا الى القلعة فلم يبق مع أيتمش الا بعض مماليك صغار ، فلما تلاشى أمره فل الأمراء الذين كانوا عنده ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر الأتابكى أيتمش وهرب نحو قبة النصر . وقد قتل فى هذه الواقعة بعض أمراء وجرح منهم جماعة وقتل جماعة كثيرة من المماليك الذين كانوا معه .

ولما انكسر أيتمش ومن كان معه من الأمراء نهب العوام بيوتهم وأخذوا كل ما فيها حتى الرخام والأبواب ، ثم نهبوا مدرسة أيتمش التى عند باب الوزير ، وأحرقوا ربعه المجاور للمدرسة ، ثم حفروا قبر أولاده وقد ظنوا أن فيه مالا فما لقوا فيه شيئا غير العظام ، ونهبوا آق سنقر المجاور لبيت أيتمش ، ونهبوا قبة خوند زهرة بنت الملك الناصر محمد بن قلاون المجاورة لبيت أيتمش ، ونهبوا وكالة أيتمش التى عند مدرسته ، ونهبوا مدرسة السلطان حسن وأحرقوا بابها لكون أيتمش كان يحاصر القلعة منها ثم نهبوا بيوت الأمراء الذين ركبوا مع أيتمش ... واستمر النهب فى المدينة يومين .

ثم ان الزعر زاد أمرهم حتى كسروا باب حبس الرحبة وأطلقوا من كان به من المحابيس . وصارت المدينة مائجة ليس بها حاكم ولا وال ولا حاجب ، والسلطان صغير ليس له حرمة ولا كلمة ، واضطربت الأحوال ، ولولا لطف الله تعالى بالناس لنهبوا القاهرة عن آخرها فى هذه الحركة .

ثم جاءت الأخبار بأن الأتابكى أيتمش ، ومن معه من الأمراء ، لما انكسروا توجهوا الى نحو باب الشام ، فلما وصلوا الى هناك تلقاهم تنم نائب الشام وأنزلهم بالقصر الأبلق الذى بالميدان ، ومد لهم سماطا عظيما ، وأنعم عليهم بكسوة وخيول ومال ، ورتب لهم فى كل يوم ما يكفيهم من سماط وعليق وغير ذلك . وكان وصول الأتابكى أيتمش والأمراء الذين معه الى دمشق فى يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الأول من السنة المذكورة ، وكان يوم دخولهم الى دمشق يوما مشهودا وموكبا عظيما .

فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر اجتمع هو والأمراء وضربوا مشورة فى هذا الأمر ، ثم وقع الاتفاق على أن يفرجوا عن جماعة من الأمراء ممن كان مسجونا بثغر الاسكندرية ، فرسم السلطان بالافراج عمن يذكر من الأمراء وهم : الأمير نوروز الحافظى ، والأمير سودون قريب الملك الظاهر برقوق ، والأمير تمراز الناصرى ، والأمير أقباى السيفى طرنطاى ... فلما حضروا عمل السلطان الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى بيبرس واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أيتمش البجاسى ، وخلع على المقر السيفى بكتمر الركنى واستقر به أمير سلاح عوضا عن تغرى بردى بن يشبغا ، وخلع على المقر السيفى تمراز الناصرى واستقر به أمير مجلس ، وخلع على المقر السيفى نوروز الحافظى واستقر به رأس نوبة النوب — والأمير نوروز الحافظى هو الذى جدد القبة على فسقية الخانقاه الشيخونية لما

بقى رأس نوبة النوب ولم يكن بها قبل ذلك قبة — وخلع على المقر السيفى سودون قريب السلطان واستقر به دودارا كبيرا ، وخلع على المقر السيفى أقباى الطرنطاوى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن الأمير فارس ، وخلع على المقر السيفى سودون ابن على باى واستقر به أمير آخور كبيرا عوضا عن سودون الطيار .

وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء وهم : الأمير اينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن زاده — وهو صاحب الجامع الذى فى سويقة العزى — والأمير اينال العلائى حطب .

وأنعم على جماعة بامريات أربعين وامريات عشرة . واستقامت أموره فى السلطنة .

وفيها قبض السلطان على الصاحب فخر الدين ابن غراب وفصله من الوزارة ، وقبض على أخيه القاضى سعد الدين بن ابراهيم ناظر الجيش وناظر الخاص ، وقبض على الأمير شهاب الدين أحمد بن قطينة الاستادار ، وقبض على الشريف علاء الدين البغدادى شاد الدواوين ... وسلمهم جميعهم الى الأمير أزبك الرمضانى رأس نوبة ثانى ليستخرج منهم الأموال ، فأقاموا فى بيت الأمير أزبك أياما ، ثم ان الأتابكى بيبرس شفع فيهم فأفرج السلطان عنهم وخرجوا الى بيوتهم بطالين .

ثم ان السلطان خلع على الصاحب بدر الدين الطلوخى وأعاده الى الوزارة ، وخلع على القاضى شرف الدين بن الدمامينى واستقر به ناظر الجيش وناظر الخاص ووكيل بيت المال ، فأقام هؤلاء فى هذه الوظائف نحو ثلاثة شهور .

ثم ان السلطان رضى على الصاحب فخر الدين ابن غراب وأعاده الى الوزارة ، وأعاد أخاه القاضى سعد الدين بن غراب الى وظائفه كما كان ، وخلع على القاضى شرف الدين بن الدمامينى واستقر به قاضى ثغر الاسكندرية عوضا عن أخيه .

وفيها خلع السلطان على الشيخ أنبيا التركمانى واستقر به شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس عوضا عن الشيخ اسلام الحنفى .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن تنم نائب الشام جمع عسكرا عظيما من الشام وهو قاصد نحو الديار المصرية ، وقد وصل أوائل عسكره غزة . فلما تحقق السلطان صحة هذا الخبر علق الجاليش ، ونادى للعسكر بالعرض ، وأنفق عليهم فى يومه ، ثم برز خيامه الى الريدانية .

فلما كان يوم الخميس رابع رجب من السنة المذكورة طلب السلطان ونزل من القلعة ، وخرج فى موكب عظيم ومعه أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فتوجه الى نحو الريدانية وخرج من بعده أطلاب الأمراء المسافرين معه .

ثم ان السلطان جعل الأتابكى بيبرس نائب الغيبة بمصر الى أن يعود السلطان الى الديار المصرية ، وترك بمصر جماعة من الأمراء العشراوات والحجاب وبعض مماليك سلطانية . ثم ان الملك الناصر عين جماعة من الأمراء بأن يتقدموا أمام العسكر ، وهم الأمير بكتمر الركنى أمير سلاح ، والأمير تمراز الناصرى أمير مجلس ، والأمير شيخ المحمودى الخاصكى أحد الأمراء المقدمين ، والأمير سودون قريب السلطان ، والأمير دقماق المحمدى ، وجماعة من العسكر والمماليك السلطانية نحو ألف مملوك ... فتقدموا أمام العسكر .

فلما كان يوم الجمعة ثامن رجب رحل السلطان من الريدانية وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية

ومن هنا نرجع الى أخبار تنم نائب الشام . فانه لما تولى الملك الناصر فرج خرج عن الطاعة

وأظهر العصيان ، ووضع يده على البلاد الشامية . وقد وافقه على العصيان نائب حلب ونائب حماه ونائب صفد ونائب طرابلس ، والتف عليه من العسكر والعربان ما لا يحصى عددهم . فلما ركب الأتابكى أيتمش بمصر وانكسر كما تقدم ، توجه اليه هو والأمراء الذين ركبوا معه . فلما توجهوا اليه قويت شوكته وعظم أمره ، فصار تنم يركب فى كل يوم بالشام فى المواكب العظيمة مثل مواكب السلطان ، والأمراء والنواب قدامه ، والدف والشبابة والأوزان والجاويشية والشعراء قدامه ، وكان يركب فى خدمته من الأمراء المقدمين ما يزيد على خمسة وعشرين أميرا ، واجتمع عنده من النواب ومن عساكر البلاد الشامية نحو أربعة آلاف انسان ما بين تركمان وعربان وغير ذلك من العساكر ... فحدثت نفس تنم أنه صار سلطانا لا محالة ، وعظم فى نفسه .

هذا ما كان من أمر تنم نائب الشام ، وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد خروجه من مصر ، فانه لما خرج من مصر كان أكثر الناس لا يشكون أنه هو المكسور لا محالة ، وأن تنم هو المنتصر عليه ، والله غالب على أمره . وكان أكثر الأمراء والعساكر خامروا على السلطان فى الباطن ، ومالوا الى تنم نائب الشام ، والسلطان بينهم مثل العصفور فى يدى النسور ، فخرج من مصر وهو فى غاية الضنك ، فكان كما قيل فى المعنى :

خف اذا أصبحت ترجو   وارج ان أمسيت خائف
رب مكروه مخوف   فيه لله لطائف

فلما وصل السلطان كان أقبغا اللكاش نائب غزة خرج هو ونائب حماه ونائب صفد الى قتال الملك الناصر ؛ فألقى الله تعالى الرعب فى قلوب النواب ... فأول من دخل تحت طاعة السلطان دمرداش نائب حماه ، وكذلك نائب صفد . فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان خامر الجميع على تنم نائب الشام ودخلوا تحت طاعة السلطان وتوجهوا اليه فى غزة . ثم ان نائب غزة أقبغا اللكاش هرب من وجه الملك الناصر ، فملك السلطان مدينة غزة . فلما بلغ ذلك تنم نائب الشام خرج من الشام هو والأتابكى أيتمش وبقية الأمراء وأتوا الى مدينة الرملة ، فصار السلطان فى غزة وهم فى الرملة .

ثم ان السلطان أرسل الى تنم نائب الشام ، والى الأتابكى أيتمش قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى ، والأمير ناصر الدين بن الرماح بأن يمشوا فى أمر الصلح بينهم وبين السلطان ... فتوجهوا اليهم ثم انهم عادوا بالجواب بأنهم قد أبوا الصلح ولم يوافقوا على ذلك .

فلما سمع السلطان جوابهم ركب من غزة هو والأمراء والعسكر وتوجهوا اليهم ، وذلك فى يوم السبت ثانى عشرى رجب ، فتلاقى العسكران على مكان يسمى الحبتين ، فكان بينهم هناك واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى وقعت الكسرة على تنم نائب الشام وأمسك ، واحتاطوا على بركه ودوابه .

ثم ان الأتابكى أيتمش وبقية الأمراء هربوا وتوجهوا الى نحو الشام ، ثم ان العساكر المصرية نهبوا مدينة الرملة وسبوا أهلها .

ثم ان الأمير جكم العوضى توجه خلف الذين هربوا الى الشام فقبض على الأتابكى أيتمش البجاسى ، وعلى الأمير تغرى بردى أمير سلاح ، وعلى الأمير أقبغا اللكاش نائب غزة ، والأمير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير أرغون شاه البيدمرى أمير مجلس ، والأمير يعقوب شاه الكشبغاوى ، والأمير فارس حاجب الحجاب

... فلما قبض عليهم قيدهم وحبسهم بقلعة دمشق ، ونادى فى الشـــام بالأمان والاطمئنـــان ، والبيع والشراء ، والدعاء بالنصر للسلطان الملك الناصر ، فضج أهل الشام له بالدعاء . ثم بعد أيام وصل السلطان الى دمشق ، وكان يوم دخوله اليها يوما مشهودا ، ودخل فى موكب عظيم وقدامه تنم نائب الشـــام وهو مقيد راكب على كديش أبلق ومعه عشرة من أمراء دمشق وهم فى قيود ، فحبسهم فى قلعة دمشق عند الأتابكى أيتمش ... وفيه يقول بعض الشعراء :

أملت أنـــك لاتزال بكل من
عاداك بالنصر القريب مظفـــرا
ورجوت أن تطأ الكواكب رفعة
من فوق أعناق العدا وكذا جرى

ولما دخل الســـلطان الى دمشـــق نزل بالقصر الأبلق . ثم انه شرع فى القبض على أصحاب تنم نائب الشام وحاشيته ، فكان من جملة من أمسك من الأمراء الأمير علاء الدين بن الطبلاوى — وقد تقدم أن الملك الظاهر برقوق نفاه الى القدس — فلما مات الملك الظاهر هرب وتوجه الى تنم نائب الشام ، وصار يفرع الظلم بدمشق كما كان يفعل بمصر .

ثم أراد الســـلطان أن يقبض على النـــاصرى محمـــد بن تنكز نائب الشام فهرب تحت الليـــل وتوجه الى بلاد التركمان ، فكان كمـــا قيل فى المعنى :

من عاشر الزيدانى فاحت عليه روايحو
ويحترق بشرارو من عاشر الحـــداد

فلما كان يوم الخميس خامس عشرى شعبان حضر الى القـــاهرة قمج الخاصـــكى وعلى يده مثالات شريفة تتضمن أخبار هـــذه النصرة التى حصلت للســـلطان ، وقد حضر قمج المذكور من البحر المالح من على الطينة لأن الدرب السلطانى كان مضطرب الأحوال بسبب فســـاد العربان . فلما جاء هذا الخبر الى القاهرة نادى نائب الغيبة فى القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن الأمير بلبغا الأحمدى المعروف بالمجنون — وكان اســـتادارا بالديار المصرية — لما توجه السلطان الى الشام صـــار يرمى الفتنة بين الأمـــراء الذين كانوا فى القاهرة ، فوثبوا على بعضهم ووقع بينهم الخلف ، وصـــار كل واحـــد منهـــم كل يـــوم فى فتن ، واضطربت أحوال الديار المصرية ، وتخبطت البلاد الشرقية والغربية ، وكثرت المناسر فى القاهرة حتى صـــار فى كل حـــارة مركز يغفرونها فى الليل من الحرامية ، وصاروا يخطفون العمائم فى الحارات الظهر .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان لما قام من دمشق بعد هذه النصرة خلع هنـــاك على من يذكر من الأمراء وهم : المقر الســـيفى ســـودون قريب السلطان واستقر به نائب الشام عوضا عن تنم الحسنى ، وخلع على المقر السيفى دمرداش المحمدى ونقله من نيابة حماه الى نيـــابة حلب ، وخلع على المقر السيفى شيخ المحمودى واستقر به نائب طـــرابلس ، وخلع على الأمـــير دقمـــاق المحمدى واستقر به نائب حماه عوضا عن دمرداش المحمـــدى ، وخلع على الأمير الطنبغا العثمـــانى واستقر به نائب صفد على عادته ، وخلع على الأمير جنتمر التركمانى واستقر به نائب بعلبك .

ثم ولى جمـــاعة من القضـــاة بدمشق منهم : القاضى تقى الدين ابن المـــكفرى الحنفى ، وولى القاضى شمس الدين النابلسى الحنبلى .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن السلطان قتل جمـــاعة من الأمـــراء وهـــم : الأتابكى أيتمش

البجاسى ، والأمير فارس حاجب الحجاب ، والأمير أقبغا اللكاش نائب غزة ، والأمير جلبان الكمشبغاوى ، والأمير بيقجا طيفور حاجب الحجاب بدمشق ، والأمير أرغون شاه الأقبغاوى ، والأمير يعقوب شاه الكمشبغاوى ، والأمير بيقوت اليحياوى ، والأمير مبارك شاه المعروف بالمجنون ، والأمير بهادر العثمانى نائب البيرة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من أمراء مصر والشام ... فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحو أربعة عشر أميرا ، فذبحوا الجميع ببرج الحمام بقلعة دمشق .

ثم ان السلطان أرسل رأس الأتابكى أتمش البجاسى ورأس الأمير فارس حاجب الحجاب الى القاهرة فى علبة ، فطافوا بهما فى القاهرة ، ثم علقوهما على باب زويلة .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد خنق تنم نائب الشام ، والأمير يونس نائب طرابلس . قيل انما أخر تنم نائب الشام بعد قتل الأمراء ليستصفى أمواله ويقرره على الأموال التى أخذها من البلاد لما أظهر العصيان ، ولعبت به الدنيا ثم رمته وتخلت عنه . فكان كما قيل فى المعنى :

اذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت
له عن عدو فى ثياب صديق

ولما كان يوم الاثنين ثامن شهر رمضان ، حضر خاصكى وأخبر بأن السلطان خرج من دمشق وهو قاصد نحو الديار المصرية .

ثم فى يوم السبت الحادى والعشرين من شهر رمضان حضر الى القاهرة المقر السعدى سعد الدين بن غراب وصحبته حريم السلطان الملك الناصر ، وأخبر بأن السلطان قد وصل الى الصالحية . ولما حضر ابن غراب أشيع بين الناس أن الأمير علاء الدين بن الطبلاوى لما قدم على السلطان بدمشق قيده وأرسله هو والقاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام صحبة ابن غراب ، فلما وصل الى غزة أرسل السلطان بقتل علاء الدين بن الطبلاوى فمات مخنوقا بغزة ودفن هناك ، وقد قاسى شدائد عظيمة فى أيام الملك الظاهر برقوق وفى أيام ابنه فرج ، وآخر الأمر مات قتيلا بعد ما قاساه ، فكان كما قيل :

ترجو الوليد وقد أعياك والده
فما رجاؤك بعد الوالد الولدا

ثم وقعت شفاعة من الأمراء فى القاضى ناصر الدين بن أبى الطيب كاتب سر الشام بعد ما كان قد رسم بقتله ، فعفا عنه من القتل وحضر صحبة ابن غراب الى مصر .

ولما كان يوم الجمعة سادس عشرى شهر رمضان وصل السلطان الى الديار المصرية ، ودخلها فى موكب عظيم ، وزينت له القاهرة ، فلم يطلع الا من بين الترب ، فدقت له البشائر ، وفرشت له الشقق الحرير من عند تربة طيبغا الطويل الى رأس الصوة ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة وجلس على سرير الملك . ثم عمل الموكب وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء منهم : قطلوبغا الكركى ، وأقباى الاينالى ، وجركس القاسمى ، وجكم العوضى . ثم خلع على الأمير مقبل واستقر به زماما ، وخلع على الأمير صواب الجنكلى واستقر به مقدم المماليك السلطانية ، وخلع على فارس الدين شاهين الحلبى واستقر به نائب مقدم المماليك .

وفيها ، فى يوم الثلاثاء رابع عشر شوال ، جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن الناصرى محمد بن عمر الهوارى كبس على الأمير يلبغا الأحمدى فمسك جماعة من أصحابه وغلمانه وهرب يلبغا الأحمدى .

وكان سبب ذلك أن يلبغا الأحمدى لما سافر السلطان صار يرمى الفتن بين الأمراء الذين كانوا بمصر حتى افتتنوا فى بعضهم ووثبوا على بعضهم ، فقصد نائب الغيبة بأن يقبض على يلبغا الأحمدى فهرب وتوجه الى نحو بلاد الصعيد فلما أراد محمد بن عمر الهوارى أن يقبض على يلبغا هرب فتبعوه فنزل عن فرسه ورمى نفسه فى البحر فغرق ، ثم بعد أيام طلعوا به وقد أكل السمك وجهه فدفنوه ومضى أمره بعد ما أخرب بلاد الصعيد ونهب أموال الناس .

وفيها ، فى ثانى ذى القعدة ، حضر مملوك نائب حلب وأخبر بأن القان أحمد بن أويس صاحب بغداد ، وقرا يوسف أمير التركمان ، حضر اليهم جاليش تمرلنك فأوقعوا معهم واقعة عظيمة ، فانكسر جاليش تمرلنك ، فلما انكسروا أتوا الى نحو ملطية — وكانوا نحو سبعة آلاف انسان — فأرسلوا الى نائب حلب يقولون له : « عين لنا مكانا ننزل به » ... فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب حماه وتوجهوا الى عسكر تمرلنك ، فأوقعوا معهم واقعة عظيمة لم يسمع بمثلها ، فانكسر نائب حماه ، وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة ، منهم جانى بك اليحياوى أتابك العساكر بحلب ، وأسر نائب حماه دقماق المحمدى حتى اشترى نفسه منهم بمال جزيل ، ورجع نائب حلب الى حلب وهو مكسور ... وكانت هذه أول الفتن بين عسكر مصر وبين تمرلنك . فلما بلغ السلطان ذلك رسم لنائب الشام ونائب صفد ونائب طرابلس بأن يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها

وفيها حضر نجاب من مكة المشرفة وأخبر بأن الحرم احترق منه نحو الثلث ، ومن الأعمدة الرخام مائة وثلاثون عمودا ، وعملت النار من باب عزورة الى باب العمرة ... وكان هذا حادثا عظيما لم يسمع بمثله . فلما بلغ السلطان ذلك عين الأمير بيسق الشيخى لعمارة ما احترق من الحرم ، وأرسل معه الخواجا برهان الدين المحلى التاجر الكارمى ، وبعث معه السلطان عشرة آلاف دينار بسبب العمارة فعمروه كما كان ، ولم يجدوا أعمدة رخام فعملوا عوض ذلك حجرا أسود .

وفيها ظهر الأمير صرق وكان مختفيا من حين خامر تنم نائب الشام . فلما ظهر أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بحلب فسافر الى حلب من يومه .

وتوفى فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة مجد الدين الكنانى الحنفى ، وقاضى القضاة برهان الدين العسقلانى الحنبلى ، والشيخ اسلام الاصبهانى الحنفى ، والأمير بهادر الشهابى مقدم المماليك السلطانية ، وغير ذلك من الأعيان .

سنة ثلاث وثمانمائة (١٤٠٠/١٤٠١ م) :

فيها حضر مملوك من عند نائب حلب وأخبر بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى سيواس ، وأن ابن تمرلنك فى الجاليش ومعه عساكر عظيمة ، وأن ابن عثمان والقان أحمد بن أويس وقرا يوسف توجهوا الى مدينة برصا وتركوا بلادهم من خوفهم من تمرلنك ، وقد أشيع عنه أنه لما دخل الى سيواس نهبها وقتل أهلها ، وكان يحفر للناس حفيرة ويدفنهم فيها وهم بالحياة ، وكان يحرق بعضهم بالنار وكانت فتنة تمرلنك أول فتنة وقعت على رأس القرن الثامن .

ثم جاءت الأخبار من حلب بأن تمرلنك قد ملك البهشا وعنتاب ، وقد وصل الى الباب ، وبزاعا بالقرب من حلب

ثم ان تمرلنك أرسل الى نائب حلب قاصدا ،

ومعه مكاتبات من عند تمرلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب . فلما سمع نائب حلب ذلك حنق وأمر بضرب أعناق قصاد تمرلنك ، فعند ذلك اضطربت أحوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين . فلما بلغ تمرلنك ما فعلوا بقصاده زحف الى قرية من قرى حلب يقال لها جيلان ، واحتاط بمدينة حلب ونهب ما حولها من الضياع .

فلما كان يوم السبت حادى عشر ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة خرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم ، وأوقعوا مع تمرلنك ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى ، وقد دهمتهم عساكر تمرلنك كأمواج البحار المتلاطمة ، ومالت عليهم كتائب الجنود المتزاحمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مدبرين ، وأقبلوا نحو المدينة منهزمين ، وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة ، وحل بهم من البؤس كل داهية طامة . وكان قد احتمى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والأطفال ، فدخلوا اليهم وأسروهم وقرنوهم بالحبال ، وأسرفوا فى قتل النساء والرجال ، وصارت الأبكار تفتض فى المساجد ، ولم يراعوا حرمة المساجد ، فلم يرثوا لبكاء الرضع ، ولم يخشوا دعاء الركع ، وقد صارت المساجد كالمجزرة من القتلى ... فلا حول ولا قوة الا بالله . واستمر هذا الأمر الشنيع يتزايد من يوم السبت الى يوم الثلاثاء .

فلما رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب نزل من القلعة ، هو وبقية النواب ، وأخذوا فى رقابهم مناديل وتوجهوا الى تمرلنك يطلبون منه الأمان ، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل أحمر ، وألبسهم تيجان مذهبة ، وقال لهم : « أنتم صرتم نوابى » ... ثم أرسل معهم جماعة من أمرائه يتسلمون القلعة ، فاستنزلوا من كان بها وهم فى قيود . واستمر مقيما على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التى حول المدينة ويقطعون الأشجار التى بها ، ويهدمون البيوت ، وقد أسرفوا فى القتل ونهب الأموال ، وصارت الأرجل لا تطأ الا على جثة انسان لكثرة القتلى حتى قيل انه بنى من رءوس القتلى عشر مآذن ، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعا ، وصعودها فى الهواء مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح ، وتركوا أجساد القتلى فى الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش ، فكان عدة من قتل فى هذه الواقعة من أهل حلب — من صغار وكبار ونساء ورجال — نحوا من عشرين ألف انسان ، هذا خارج عما هلك من الناس تحت أرجل الخيول عند اقتحام أبواب المدينة وقت الهزيمة ، وهلك من الجوع والعطش أكثر من ذلك .

فلما ملك تمرلنك مدينة حلب والقلعة نهب جميع ما فى المدينة والقلعة ثم ان تمرلنك أقام على حلب نحو شهر ثم رحل عنها بعد ما جعلها خاوية على عروشها وقد تعطلت فى مدة هده المحاصرة عن الأذان والاقامة وعن صلاة الجمعة .

ومما يحكى عن أخبار عسكر تمرلنك فيما فعلوه بعسكر حلب ، قيل كانوا يطئون الأبكار فى محراب المساجد وآباؤهن يشاهدون ذلك بعينهم . ولقد حكى من أمر معهم من حين استولوا على حلب الى حين رحلوا عنها لم يسمع فى عسكرهم أذان ، وأنهم يجامعون النساء فى المحيض ، ولا يعاودون الوطء الا بعد اغتسال — ولو كان فى قلب الشتاء — بالماء البارد . وقيل ان تمرلنك كان يحتجب عن عسكره نحو أسبوعين فلا يجتمع على أحد من عسكره ، وينعكف على شرب

الخمور . ففى مدة انعكافه تنهب عساكره البلاد ، ويفسقون فى أهلها ، فلم يجدوا من يمنعهم عن ذلك ولا يردهم ، فيستمروا على ذلك .

ولما كان يوم السبت خامس عشرى ربيع الأول من سنة ثلاث وثمانمائة ، ، حضر مملوك بكلمش العلائى وأخبر بما قد جرى من تمرلنك ، وبما وقع فى حلب ، وبما جرى على النواب ... فعند ذلك اضطربت أحوال الديار المصرية مما جرى فى البلاد الشامية ، فعين السلطان فى يومه الأمير سودون بن زاده ، والامير اينـال حطب رأس نوبة ثانى ، فتوجهوا الى السفر من يومهم لكشف الأخبار عن صحة ذلك .

ثم جاءت الأخبار عقيب ذلك بأن تمرلنك لما أن رحل عن حلب الى حماه فعل بأهلها كما فعل بأهل حلب من القتل والنهب كما تقدم من أفعاله الشنيعة .

ثم حضر نجاب من عند نائب الشام وأخبر بأن جاليش تمرلنك قد وصل الى الشـام عند جبل الثلج . فلما تحقق السـلطان ذلك علق الجاليش ونادى للعسكر بالعرض ، فعـرض وأنفق على العسكر ، وبرز خيامه الى الريدانية ، فاضطربت فى ذلك الوقت أحـوال الديار المصرية ، وماجت القاهرة بأهلها ، فكان كما قيل فى المعنى :

كم لى أنبـه مقلـة من نائم
لم يهد غير سروره الأحـلام
فكأنه اذا جئته مسـتصرخا
طفـل يحرك مهـده فينـام

قيل لما علق السلطان الجاليش بسبب خروجه الى تمرلنك ركب شـيخ الاسـلام سراج الدين البلقينى والقضاة الأربعة وحاجب الحجاب ووالى القاهرة ونادوا فى الشوارع بأن النفير عام بسبب قتال تمرلنك ، فاضطربت أحوال القاهرة فى ذلك اليوم جدا .

وكان الملك الناصر كلما طرقته هـذه الأخبار يتغافل عنها ويتشاغل بشرب الراح وحب الملاح ، حتى تمكن تمرلنك من البـلاد ، وعم فعله من الفساد . فعند ذلك خرج الملك الناصر وطلب ونزل من القلعة فى يوم الأحد ثالث ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانمائة ، فخرج فى موكب عظيم ، وكان صحبته أمير المؤمنين محمد المتوكل والقضاة الأربعة وهم : قاضى القضاة الشافعى صدر الدين المناوى ، وقاضى القضاة جمال الدين يوسف الملطى الحنفى ، وقاضى القضـاة نور الدين بن الجلال المالكى ، وقاضى القضاة موفق الدين الحنبلى ، وخرج معه سائر الأمراء من المقدمين والأربعينات والعشراوات وسائر العسكر ، فأقام فى الريدانية يومين . ثم عين ستة من الأمراء المقدمين يتقدمون جاليش العسكر وهم : الأتابكى بيبرس الركنى ، والمقر السـيفى بكتمر أمير سلاح ، والمقر السيفى نوروز الحافظى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى أقباى الطرنطاى حاجب الحجاب ، والمقر السـيفى اينال باى بن قجماس ، والمقر السيفى يلبغا الناصرى .

ثم ان الملك الناصر رحل من الريدانية وترك المقر السـيفى تمراز الناصرى أمير مجلس نائب الغيبة بمصر الى أن يحضر السلطان ، والأمير جكا أحـد المقدمين وجماعة من الحجـاب والمماليك السلطانية . فلما وصل السـلطان الى غزة جاءت الأخبار الى القاهرة بأن السلطان لما دخل الى غزة خلع على المقر السيفى تغرى بردى بن يشبغا واستقر به نائب الشـام ، وخلع على المقر السـيفى آقبغا الجمالى واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على المقر السيفى تمربغا المنجكى واستقر به نائب صفد ،

وخلع على المقر السيفى طولو بن على شاه واستقر به نائب غزة ، وخلع على الأمير صدقة بن الطويل واستقر به نائب القدس الشريف .

ثم ان السلطان رحل من غزة فى يوم الاثنين خامس عشر ربيع الآخر وقصد التوجه الى الشام . ولما رحل السلطان من غزة أرسل يطلب من نائب الغيبة ألف فرس وألف جمل يتقوى بها العسكر .

ثم جاءت الأخبار بأن الأمير ابن رمضان أمير التركمان جمع عساكر كثيرة من التركمان وجاء الى حلب وطرد من بها من عسكر تمرلنك الذين نزلوا بحلب ، وأرسل يكاتب السلطان بذلك .

ثم جاءت الأخبار من دمشق بأن تمرلنك نازل بالقرب من سلمية ، وأنه أرسل جماعة من عسكره الى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق ، فدخلوا فى واد بين جبلين ، فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين .

ثم ان السلطان دخل الى دمشق فى يوم الخميس سادس جمادى الأولى ، ونزل بالميدان الكبير ، وجلس بالقصر الأبلق ، وحكم بين الناس ، وصلى الجمعة بدمشق ، ثم برز خيامه الى قبة يلبغا . فلما كان وقت الظهر جاء چاليش تمرلنك من تحت جبل الثلج — وكانوا نحو ألف فارس — فبرز اليهم چاليش السلطان — وكانوا نحوا من مائة فارس — فأوقعوا مع عسكر تمرلنك واقعة قوية ، فانكسر چاليش تمرلنك وولوا مدبرين .

ثم فى تلك الليلة جاء جماعة من أمراء تمرلنك ومن عسكره ودخلوا تحت طاعة السلطان ، وأخبروا بأن ولد تمرلنك كان فى الچاليش فقتل وكذلك صهره ، وقد حصل لتمرلنك على ولده غاية الحزن ... فخلع السلطان على أمراء تمرلنك وأنزلهم بدمشق .

ثم حضر عند السلطان الأمير نعير بن حيار أمير آل فضل . وجمع من العربان مالا يحصى عددهم من عربان حارثه وغير ذلك من القبائل .

ثم بلغ السلطان بأن عسكر تمرلنك قد تغلبوا عليه ، ومات من عسكره جماعة كثيرة تزيد عن خمسة آلاف انسان من الثلج الذى ينزل من الجبل . وصار يحضر الى السلطان فى كل يوم جماعة من عسكر تمرلنك ويدخلون تحت الطاعة ، والتف على السلطان جماعة كثيرة من العربان وغيرهم حتى قيل انه تكامل عنده نحو اثنى عشر ألف انسان خارجا عن عسكر مصر . وكانت طوالع الملك الناصر فى مبتداها سعيدة ، والنصر لائح عليه ، ولكن كما قيل فى المعنى :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أرادا

فلما كان يوم الخميس خامس جمادى الآخرة من السنة المذكورة حضر السلطان الملك الناصر فرج الى الديار المصرية على حين غفلة ، وطلع الى القلعة ، وحضر صحبته الخليفة المتوكل ، وجماعة من النواب وهم : نائب الشام ، ونائب صفد ، ونائب غزة ، وغالب أمراء دمشق . وحضر مع السلطان من العسكر نحو ألف مملوك ، وحضر مع كل أمير مملوكان من مماليكهم وليس معهم برك ولا خيول ولا قماش . وكان سبب حضور السلطان على هذا الوجه أن عسكر السلطان بعد أن اوقع مع عسكر تمرلنك مرتين وهو ينكسر ، أرسل تمرلنك يطلب من السلطان الصلح ، وأرسل الى السلطان أميرا من أمرائه يقال له الأمير حسين ، وأرسل معه ابن بنته يمشون بينه وبين السلطان فى أمر الصلح . فلما أن حضروا الى السلطان خلع عليهم وأحسن اليهم ، وأرسل تمرلنك يسأل السلطان أن يطلق له قريبه أطلمش الذى أسر فى

أيام الملك الظاهر برقوق كما تقدم ، وأن تمرلنك يطلق من عنده من الأسرى جميعهم ، وصارت الرسل تتردد بين السلطان وبين تمرلنك مرارا عديدة ، وآخر ذلك كان ليلة الجمعه رابع عشر جمادى الآخرة ، فأقام رسل تمرلنك عند السلطان الى ثلث الليل ، واتفق معهم على أنه فى باكر النهار ينعقد الصلح بينهما ، فبلغ السلطان أن العسكر تقلبوا عليه فى تلك الليلة ، وهرب منهم جماعة من الأمراء وقصدوا بذلك التوجه الى نحو الديار المصرية . وكان الذى قد تسحب من الأمراء تحت الليل الأمير سودون الناصرى الطيار ، والأمير قانى باى العلائى ، والأمير أحمد بن الشيخ على ، والأمير جقمق . ومن الخاصكية يشبك العثمانى ، ويشبك الساقى الأعرج ، وقمج الحافظى ، وبرسبغا ، وطراباى بن عبد الله ، وجماعة من المماليك السلطانية نحو من أربعين مملوكا .

فلما كانت ليلة الجمعة المذكورة قام الأمراء على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق قرب التسبيح ... وقد جعل الله لكل شىء سببا حتى ينفذ القضاء والقدر .

فلما خرج السلطان والأمراء من دمشق طلعوا على عقبة قدومر ، ونزلوا على ساحل البحر المالح وتوجهوا الى صفد ، فأخذوا نائب صفد معهم وتوجهوا الى غزة . فلما دخل السلطان الى غزة وجد الأمراء الذين تسحبوا من دمشق هناك ، فتوجهوا مع السلطان الى مصر .

قيل وكان سبب تسحب الأمراء من دمشق أن جماعة تقلبوا هناك على الملك الناصر وخرجوا من الشام وقصدوا أن يتوجهوا الى مصر ويسلطنوا الأمير لاجين الچركسى . فلما تحقق الأمراء ذلك قاموا على السلطان وأركبوه غصبا وخرجوا به من دمشق . فلما دخل السلطان الى القاهرة رسم للأمير يلبغا السالمى استادار العالية بأن يشرع فى عمل برك للسلطان وكسوة للأمراء والخليفة — فانهم خرجوا من الشام ولا برك ولا قماش — فشرع الأمير يلبغا السالمى فى ذلك .

ثم ان السلطان قوى عزمه على أن يخرج الى الشام ثانى مرة ، فعلق الچاليش ورسم بأن يأخذ من بلاد المقطعين على العبرة القديمة ، وأن يأخذ من أملاك القاهرة وضواحيها أجرة شهر واحد ، ومن الرزق عن كل فدان عشرة دراهم ، ومن البساتين عن كل فدان مائة درهم . ثم صاروا يفتحون حواصل التجار أصحاب الأموال ويزعمون أن السلطان يقترض أموال التجار على ذمته الى أن يجىء له مال من البلاد فيعيد لهم ما أخذه من المال ... فكانوا يكبسون حواصل التجار ، فان وجدوا صاحب الحاصل أخذوا من ماله النصف وتركوا له النصف ، وان لم يجدوا صاحب الحاصل أخذوا جميع ما فى الحاصل من قماش أو مال ، ولم يتركوا للتجار شيئا .

ثم أخذ من أوقاف الجوامع والمساجد أجرة شهر واحد — حتى من أوقاف البيمارستان المنصورى — فحصل للناس من ذلك غاية الضرر ، وصاروا فى التراسيم والمصادرة ، وكان المتكلم فى ذلك الأمير يلبغا السالمى الاستادار .

فلما تكامل جبى الأموال تكلم الناس فى حق يلبغا السالمى بأنه أخذ لنفسه فى هذه الحركة من الناس أضعاف ما أورده للسلطان . فلما كثر الكلام فى حقه قبض عليه السلطان وخلع على المقر السعدى سعد الدين ابراهيم بن غراب واستقر به استادارا فصار ناظر الجيوش المنصورة وناظر الخواص الشريفة واستادار العالية . ثم ان السلطان سلم اليه الأمير يلبغا السالمى ، وكذلك الصاحب شهاب الدين أحمد بن قطينة سلمه الى ابن غراب أيضا .

ثم ان السلطان عرض أجناد الحلقة والبحرية ، فكل من يكون قادرا على السفر يأمره بالسفر ، وكل من يكون عاجزا عن السفر يقيم له بديلا أو يأخذ منه نصف خراج اقطاعه عن سنة كاملة . وفرع أشياء كثيرة من أبواب هذه المظالم ، فجمع من ذلك جملة كبيرة ، وقوى عزمه على العود الى الشام ليوقع مع تمرلنك مرة أخرى ، وينفق ما جمعه من المال على العسكر .

ثم أخذ فى أسباب جمع عربان ، فحضر كاشف البحيره وصحبته ستة آلاف فارس من عربان البحيرة ، وحضر شيخ العرب ابن بقر وصحبته ألفان وخمسمائة فارس من عربان الشرقية ، وحضر شيخ بنى وائل وصحبته ألف وخمسمائة فارس من بنى وائل ، وجاءت الأخبار من عند الأمير نعير شيخ آل فضل بأنه قد جمع خمسة آلاف فارس من عربان جبل نابلس . ثم صار العسكر الذى انقطع فى الشام يدخلون الى مصر وهم فى أنحس حال من العرى والجوع ، فصار السلطان ينعم على كل مملوك بجامكية شهرين معجلا ، وينعم عليه بألف درهم خارجا عن الجامكية ، ليرقع أحوالهم . وقد شرع فى أمر النفقة عليهم والعود الى السفر نحو الشام .

هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد حضوره من دمشق .

وأما ما كان من أمر أهل دمشق مع تمرلنك بعد خروج السلطان منها فانه خرج الى الشام فى ليلة الجمعة حادى عشرى جمادى الأولى من السنة المذكورة ، فأصبح الناس فى يوم السبت مائجين فى بعضهم ، وغلقوا أبواب المدينة وركبوا على الأسوار ، وصاروا يترامون بالنشاب على عسكر تمرلنك . وصار أهل دمشق يسحبون بعضهم بعضا على القتال ، فكان بينهم فى أول يوم واقعة عظيمة ، فقتل فى ذلك من عسكر تمرلنك نحو ألفى انسان .

فلما كان يوم الأحد أرسل تمرلنك يطلب من أعيان دمشق رجلا من عقلائهم حتى يمشى بينه وبين أهل دمشق فى الصلح . فلما أتى قاصد تمرلنك بهذه الرسالة اشتور أهل دمشق فيمن يرسلونه الى تمرلنك ، فوقع الاختيار أن يرسلوا اليه القاضى تقى الدين بن مفلح الحنبلى ، فانه كان انسانا طلق اللسان يعرف بالتركى وباللسان العجمى ، فأرخوه من أعلى السور بسرياق ومعه خمس أنفس من أعيان دمشق ، فغاب عند تمرلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بأن تمرلنك تلطف معه فى القول وقال له : « هذه بلد فيها الأنبياء وقد أعتقتها لهم » ... وذكر عنه أنه قد زار قبر أم حبيبة احدى أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما زاره قال : « يا أهل الشام ، مثل هذا القبر يكون بلا قبة ؟ أنا ان شاء الله تعالى أبنى عليه قبة » ... وذكر عنه أنه كان فى مجلسه كثيرا ما يذكر الله تعالى ويستغفر من ذنوبه ، وأن السبحة لا تزال فى يده دائما كما قال ابراهيم المعمار :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبح
فهو كالجزار فيهم يذكر الله ويذبح

وشرح ابن مفلح عن تمرلنك محاسن كثيرة ، وجعل يخذل أهل الشام عن قتال تمرلنك ويرغبهم فى طاعته ... فصار أهل البلد فرقتين : فرقة ترى ما رآه ابن مفلح ، وفرقة ترى محاربته ولم تسمع قول ابن مفلح . وكان أكثر أهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ولم يرجعوا عن قتال تمرلنك وهم الجم الغفير من أهل دمشق . فباتوا على ذلك ليلة الاثنين ، فلما أصبحوا يوم الاثنين غلب رأى ابن مفلح وأصحابه على تلك الطائفة المخالفة لذلك .

ثم ان ابن مفلح قصد أن يفتح باب النصر الذى بدمشق ، فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : « ان فعلتم ذلك أحرقت البلد جميها » .

ثم ان ابن مفلح أخـذ أعيان أهل دمشق من العلماء والقضاة والمشايخ وتوجهوا الى تمرلنك من أعلى السور بسرياقات . فلما توجهوا الى تمرلنك باتوا فى وطاقه تلك الليلة وأضافهم ، فلما أصبحوا رجعوا الى دمشق وعلى أيديهم مثـال من عنـد تمرلنك مكتوب فيه تسعة أسطر يذكر فيها أمانا لأهل دمشق ، فقرىء ذلك المرسوم على أهل دمشق فى جامع بنى أمية ، ففرح أهل دمشق بذلك وفتحوا باب المدينة وهو الباب المسمى بالصغير ، فحصل لهم طمأنينة وما يعلم ما فى القلوب الا الله . وقد قيل فى المعنى :

لقـد ضرنى من كنت أرجو به نفعا
وقد سـاءنى أفعـاله خلتها أفعى
اذا ما بدا لى ضاحكا زدت خيفة
وفى ضحكة الأفعى فلا تأمن اللسعا

فلما فتحوا باب دمشق دخل الى المدينة أمير من أمراء تمرلنك وجلس على البـاب وأظهر أنه بحفظ المدينة من أذى عسكرهم .

ثم ان تمرلنك أرسل خلف ابن مفلح وقرر معه بأن يجبى له من أهل دمشق ألف ألف دينار . فلما رجع ابن مفلح من عنده شرع فى استخراج ذلك من أهل دمشق . فلما كملت تلك الأموال وحملت الى تمرلنك حنق ولم يرض بذلك وقال لابن مفلح : « أنا قررت معكم أن تجمعوا من دمشق ألف ألف تومان . والتومان عندنا كل تومان عشرة آلاف ألف دينار ... فرجع ابن مفلح من عنـد تمرلنك بخفى حنين .

فلما رجع ابن مفلح الى دمشق أطلق بأهلها النـار ، واستخرج من أهلها الأموال بالضرب والعصارات ، فأخذ على رأس كل انسان من كبير وصغير عشرة دراهم شامية ، وفرض على أوقاف الجوامع والمساجد والزوايا أجرة ثلاثة أشهر ... فعند ذلك تزايدت البـلايا وعظمت الرزايا فى استخراج الأموال من الناس .

وفى مدة هذه المحاصرة عزت الأقوات بدمشق حتى بيع كل مد من القمح بأربعين درهما شامية . وفى هـذه المدة تعطلت صـلاة الجمعة والخطبة بدمشق ، ونزل فى جامع بنى أمية أمير من أمراء تمرلنك يقال له شاه ملك ، فدخل بحرمه فى الجامع وأغلق بابه وأخذ بسط الجامع وحصره فستر بها على البوايك ، وصاروا يشربون الخمور فى الجامع ويضربون بالطنبور ويلعبون بالكعاب . وفى هذه المدة تعطلت الصلوات الخمس من مساجد دمشق ، وتعطل الأذان والبيع والشراء ، وتعطلت الأسواق ، وصار عسكر تمرلنك يدخلون المدينة فى كل يوم قليلا قليلا حتى امتلأت منهم المـدينة ، وصاروا يحاصرون القلعة أشد المحاصرة . فلما رأى نائب القلعـة عين الغلب سلم اليهم القلعـة بعد تسعة وعشرين يوما ، فملكوها واحتاطوا على كل ما فيها من صـامت وناطق ، واسـتولوا على المدينـة بأسرها .

ثم ان ابن مفلح جمع الأموال ثانيا وأحضرها بين يدى تمرلنك فقـال لابن مفلح : « هذه بحسابنا ثلاثة آلاف ألف دينار ، وبقى عليكم سبعة آلاف ألف دينار » . وكان تمرلنك أول ما فرض على أهل دمشق القدر الأول — وهو ألف ألف دينار — فقرر مع ابن مفلح أن هذا القدر يكون خارجا عما تركه العسكر والأمراء لمـا رحل السـلطان من دمشـق من برك وقماش وسـلاح ودواب وغير ذلك .

فلما رجع ابن مفلح من عند تمرلنك أمر المنادى بأن ينادى فى دمشق بأن كل من كان عنده ودائع للأمراء والعسكر والسلطان يحضر ذلك من غير تأخير ، فامتثل الناس ذلك وأحضروها بين يدى تمرلنك ، فقال لابن مفلح : « قـد بقى عليك أن تجمع لنا أموال التجار الغائبين وأعيان البلد » . فجمع له ذلك وأحضره بين يديه ، فقـال لابن مفلح : « قد بقى عليك أن تجمع لنا كل دابة فى البلد من فرس وبغل وجمل وحمار » فلما رجع ابن مفلح من عنده جمع كل دابة فى البلد ، فكان عدتهـا اثنى عشر ألف دابة . فلما أحضر ذلك بين يديه قال لابن مفلح : « اجمع لنا مافى البلد من سـلاح من جليلها لحقيرها » . فلما جمع له ذلك وأحضره بين يديه قال له : « قـد بقى عليك أن تكتب لنا أسماء حارات دمشق جميعها والخطط » . فرجع من عنده وكتب له ذلك وأحضره اليه . فلما قدمت اليه القوائم وعلم أن الطلب قد انتهى قال لابن مفلح : « قد بقى تكملة ما تقرر عليه الحال من تفريدة المـال الذى وقع عليه القرار ، وهو سبعة آلاف ألف دينار » فقال له ابن مفلح : « لم يبق فى البلد لا درهم ولا دينار » ... فحنق من ابن مفلح وقبض عليه وعلى أصحـابه وأودعهـم فى الحـديد ... وآخر الطب الكى . فكان كما قيل فى المعنى :

ان الملوك ظروف الصبر داخلهـا
وفوق أفواههـا شىء من العسـل

تحلو لذائقهـا حتى اذا انكشفت
لـه تبـين ما تحـويه من دغـل

ثم ان تمرلنك فـرق تلك الأوراق التى بأسماء الحارات على أمرائه فتقاسموها ، ثم دخـل الى المدينة السواد الأعظم ، فنزل كل أمير من أمرائه فى حارة ، وطلب سكانها وفرض عليهم من المال ما لا يقدرون على شىء منه ، فكان الرجل يقـام على باب داره وهو فى أنحس هيئة ويقولون له : « هات ما عليك من المال » ... فيقول : « ما عندى شىء من المال » ... فيضرب ضربا شديدا ، فيخرج جميع ما فى بيته من قمـاش ونحاس وغير ذلك ، حتى يخرج بأولاده ونسائه وعياله ، فتوطأ نساؤه وبناته بين يديه وهو يشاهد ذلك بعينه ، فتفتض أبكار بناته ، ويلاط بولده بين يديه . فاذا قضوا من الوطء أوطارهم أوجعوهم بعـد ذلك ضربا ، هذا وصاحب البيت قائم يضرب فى وسط داره .

ولقد تنوعوا فى عذابهم أنواعا ، فكان أحدهم يشد رأس الرجل بحبل قنب ثم يلويه ليا عنيفا حتى يغوص ذلك الحبل فى رأسه ، ثم يؤخذ من تحت ابطيه وتربط ابهام يديه من وراء ظهره ثم يلقى على ظهره ويغم بخرقة فيها رماد سخن ، أو يعلق الرجل من ابهـام رجليه فى سقف الدار ثم يوقدون تحته النار حتى يموت من ذلك العذاب أو يسقط من الحبل فى النار . ففعل عسكر تمرلنك بأهل دمشق من هذا النمط وأمثاله ما تشيب من سماعه النواصى ، فأقاموا على ذلك تسعة عشر يوما وهم على ماذكرناه من أنواع هذا العذاب .

فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشرى رجب من سنة ثلاث وثمانمائة دخل فى ذلك اليوم الى دمشق عسكر كأمواج البحر وهم مشاة وبأيديهم سيوف مسلولة، فنهبوا ما بقى فى المدينة ، وأسروا النساء والشباب والرجال وساقوهم فى حبال لا يعلمون أين يذهبون بهم ، ثم تركوا الأطفـال الرضع ومن عمره أربع سنين والشيوخ الفانية والعجائز بالمـدينة . وكان من جملة من أسروه فى هذه المعركة قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى وغيره من العلمـاء والفقهاء وقضاة دمشق وأعيان دمشق من التجار

وغيرها ، وأسروا جماعة كثيرة من عسكر مصر وأمرائها وقضاتها وغير ذلك . وكان من أسره تمرلنك من النواب المقر السيفى دمرداش نائب حلب ، والمقر السيفى سودون قريب المقام الشريف نائب الشام ، والمقر السيفى شيخ المحمودى نائب طرابلس ، والمقر السيفى دقماق المحمدى نائب حماه . وأسر من العساكر الحلبية والشامية ومن أمرائهم ما لا يحصى عددهم ، فقيدهم وزنجرهم وساقهم قدامه .

وقيل انه لما توجه الى بلاد ابن عثمان حاصرها وانكسر ابن عثمان — وهو بايزيد بن مراد — فلما أسره جعله فى قفص من حديد وبقى يعجب عليه فى البلاد التى يدخلها . وأسر جماعة من ملوك الهند ، وأخرب بلاد الشرق ونهب ما بها .

فلما كان يوم الخميس مستهل شهر شعبان أمر تمرلنك باحراق مدينة دمشق ، فأضرم بها النار حتى صارت ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر . وأحرقوا جامع بنى أمية حتى بقى جدارا قائما بغير سقوف ولا أبواب ولا رخام ، وأحرقوا غالب جوامع دمشق ومساجدها ، وأحرقوا الأسواق التى بها والقياسر بعد ما نهبوا ما فيها ، وأحرقوا غالب حاراتها التى صارت لا تعرف ، كما قيل فى المعنى :

وأمر بالأوطان والسكن الذى
قد كنت أعهده بخير وافر
لم ألق غير البوم فيها ساكنا
تبا له من طير نحس وآكر

وقد أصبحت دمشق ، بعد البهجة والسرور ، والنضرة والحبور ، أطلالا بالية ، ورسوما خالية ، قد خوت على عروشها ، وأقفرت من زخرفها ونقوشها ، لا نرى بها دابة تدب ، ولا حيوانا يهب ، سوى جثث قد احترقت ، وصور فى الثرى قد تعفرت ، وقد صارت تكسى من الذباب ثوبا ، ومغنما للكلاب ونهبا ، لايستهدى اللبيب فيها الى داره ، ولا يفطن الذكى الى محل سكنه من مزاره ... فانا لله وانا اليه راجعون لعظم هذه المصائب ، وشناعة هذه النوائب . فلم توقظنا حوادث الأيام ، ونحن فى ليل الغفلة نيام ، فلا نعتبر بما جرى للأنام ، ولا نرجع عن ذنوبنا والآثام . وقد قال القائل فى المعنى :

ان ترمك الأقدار فى أزمة
أوجبها أجرامك السالفه
فادع الى ربك فى كشفها
ليس لها من دونه كاشفه

وقد هلك فى هذه النازلة من الناس ما لا يحصى عددهم ، فجماعة بالقتل وأنواع العذاب ، وجماعة بالجوع والعطش فى مدة هذه المحاصرة لعدم الأقوات . فكانت هذه الفتنة من أعظم فتن قرن الثمانمائة .

روى فى بعض الأخبار عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه قال : « يارب ... أنت فى السماء ونحن فى الأرض ، فما علامة غضبك من رضاك ؟ » ... فأوحى الله تعالى اليه : « يا موسى ... اذا استعملت عليكم خياركم فهى علامة رضائى ، واذا استعملت عليكم شراركم فهى علامة سخطى . فلا تشتغلوا بسب الملوك ، وتوبوا الى أعطف عليكم قلوب الملوك » ...

فلما كان يوم الجمعة ثانى شهر شعبان ، رحل تمرلنك عن دمشق بعد ما فعل الذى فعله ، فأخذ عسكره وخرج من دمشق . وكانت مدة اقامته بدمشق الى أن رحل عنها نحو ثمانين يوما .

قيل ان تمرلنك لما أراد أن يرحل عن دمشق جمعوا له أطفال المدينة الذين أسر أهلهم ، فكانوا ما بين ابن خمس سنين الى شهر وشهرين ، فركب

تمرلنك وأتى الى ذلك المكان الذى هم به خارجا عن المدينة . فلما أتى اليهم وقف ساعة وهو ينظر اليهم ويتأملهم ، ثم قال للعسكر : « سوقوا عليهم بالخيل » ... فساقوا بالخيل فماتوا أجمعين ، وكانوا نحو عشرة آلاف طفل . فلما رجع لامه أمراؤه على ذلك فقال : « ما نزل على قلبى فيهم رحمة » . فكان تمرلنك يقول : « أنا غضب الله فى أرضه ، يسلطنى على من يشاء من خلقه » . فكان حال الأطفال مع تمرلنك كما قيل فى المعنى :

وجرم جره سفهاء قوم   فحل بغير جانبه العذاب

ولما رحل تمرلنك عن دمشق صار من بقى فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون ويخرجون من دمشق الى الديار المصرية ، فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس فى وسطهم ، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجر عليهم من عسكر تمرلنك ، فكان أكثرهم ينزل من البحر المالح ويجىء من جهة دمياط فيدخلون الى مصر وهم فى أنحس حال . وقد ذهبت حرمة المملكة ، ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة . فعزم السلطان الناصر على العود الى دمشق ثانيا ويوقع مع تمرلنك مرة أخرى . ثم حضر الطنبغا العنبرى وأخبر الملك الناصر بأن تمرلنك رحل عن دمشق وهو مريض ، وقد طلعت له حمرة فى جسده وقد تألم لها . فلما تحقق السلطان ذلك أبطل أمر التجريدة ولطف الله تعالى بالناس كما قيل فى المعنى :

اصبر قليلا فبعد العسر تيسير
وكل شىء له وقت وتقدير
وللمهيمن فى أحوالنا نظر
وفوق تدبيرنا لله تدبير

ثم حضر سودون نقيب قلعة دمشق وعلى يده كتاب من عند تمرلنك للسلطان ، وهو يعتذر له مما قد جرى . وأرسل يطلب قريبه أطلمش الذى كان قد أسر فى أيام الملك الظاهر برقوق — وقد تقدم سبب ذلك — وأنه اذا حضر أطلمش عنده يطلق من عنده من الأسرى .

فلما حضر كتاب تمرلنك الى السلطان جمع الأمراء واستشارهم فى ذلك وما يصنع ، فأشاروا عليه بأن يطلق أطلمش ويرسله اليه فرسم باطلاقه ، وكان فى البرج بالقلعة . ثم عين معه الأمير قانباى النوروزى أغات سودون بقجة ، وعين معه الأمير شهاب الدين بن غلبك من أمراء حلب ، فتوجهوا الى تمرلنك وصحبتهم أطلمش وقد كساه السلطان وأحسن اليه . فلما وصلوا الى تمرلنك أكرمهم وقبل مراسيم السلطان ، وتفارش وبكى ، واعتذر مما وقع منه ، وقال : « هذا كان مقدرا » ...

وقيل كان تمرلنك — مع هذه السطوة العظيمة — أعرج بوركه الأيمن ، وكان اذا أراد أن يركب تحمله الرجال على أكتافهم حتى يركب . وكان قصير القامة ، غليظ الجسد ، مستدير اللحية ، قد وكزه الشيب . وكان ثقيل الحركة ، ولكن كان له سعد خارق حتى جرى منه ماجرى ، وملك البلاد ، وقهر العباد ، ونهب الأموال وأسر النساء والرجال ، ويتم الأطفال . وقد قيل فى المعنى :

رزق الضعيف بعجزه   فاق القوى الأغلبا
فالنسر يأكل جيفة   والنحل يأكل طيبا

فلما تسلم تمرلنك أطلمش أطلق من كان عنده من الأسرى جميعهم وأرسلهم صحبة قانباى النوروزى ، وأرسل للسلطان هدية صحبة الخواجا مسعود الكججاوى ، وكان من جملة الهدية فيل عظيم الخلقة وعلى ظهره صندوق خشب يجلس

فيــه نحــو عشر أنفس يضربون بالكئوســات . وأرسل مع الفيل أشياء كثيرة جليلة غير ذلك .

فلما دخل قانباى النوروزى الى القاهرة كان له يوم مشهود ، ودخل لابسا خلعة تمرلنك وهى مخمل أحمــر مزهر ، وعلى رأســه تاج مخمل مذهب ، وقدامه الأسرى الذين كانوا عند تمرلنك وقد خلع عليهم ، فلما رأى أهل مصر ذلك الفيل تعجبوا من خلقته غاية العجب ... ولما عاد قانباى النوروزى من عنــد تمرلنك كان يدعى قانبــاى التمرلنكى . ثم بعد مدة خلع السلطان على قانباى المذكور واستقر به نائب الكرك ، فأقام هناك مدة يسيرة ثم نقله الى نيابة الاسكندرية

فلمــا سكن أمر تمرلنك وتحقق رجــوعه الى بلاده ، عمل الســلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقــر الســيفى نوروز الحافظى وجعــله مشير الدولة ومدبر المملكة ، فعظمت حرمته على الاطلاق ، ونفــذت كلمته فى الآفاق . وخلع على المقــر السيفى تغــرى بردى واستقر به نائب الشام عوضــا عن سودون قريب السلطان . فلما خلع عليه رسم له بأن يخرج الى الشام من يومه ليعمر ما أفسده تمرلنك من دمشق ، فخرج على جياد الخيل من غير طلب .

ثم فى أثنــاء ذلك حضر المقر السيفى شــيخ المحمودى ، وكان أسيرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهــرة . فلما حضر فــرح به السلطان وخلع عليه واستقر به نائب طرابلس على عادته ، فخرج اليها من يومه بسبب عمارة البلاد .

ثم فى أثنــاء ذلك حضر المقر الســيفى دقماق المحمدى نائب حماه ، وكان أســيرا عند تمرلنك فهرب من عنده وحضر الى القاهــرة ، فلما حضر خلع عليه السلطان واســتقر به نائب حمــاه على عادته . ورسم له السلطان بأن يخرج من يومه لعمارة ما أفســده تمر لنك من حماه ، فخرج على جرائد الخيل من غير طلب .

ثم فى أثناء ذلك خلع السلطان على الأمير تمربغا المنجكى واســتقر به نائب صــفد ، وخــلع على الأمــير تنكز الحطظى واستقر به نائب بعلبــك ، وخلع على الأمير طولو ابن على شــاه واستقر به نائب ثغر الاسكندرية عوضا عن قانباى النوروزى وأنعم على قانباى النوروزى بتقدمة ألف بمصر .

وفيها ، فى يوم الخميس تاسع عشرى شعبان ، خلع السلطان على القاضى ناصر الدين الصــالحى واستقر به قاضى القضاة الشافعية بمصر عوضا عن قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى بحكم أسره عند تمرلنك ، وخلع على القاضى أمين الدين الطرابلسى الحنفى واستقر به قاضى قضاة الحنفية بمصر عوضا عن القاضى جمال الدين الملطى الحنفى بحكم وفاته فى البلاد الشامية ، وخلع على القاضى جمــال الدين الأقفهسى المالكى واستقر به قاضى قضاة المالكية بمصر عوضا عن نور الدين بن الجلالى بحكم وفاته ، وخلع على القاضى مجــد الدين بن سالم الحنبلى واستقر به قاضى قضاة الحنابلة بمصر عوضــا عن القــاضى موفق الدين الحنبلى بحكم وفاته . ثم ان القاضى جمال الدين الأقفهسى المالكى أقام فى القضاء الى ثالث عشرى شهر رمضان وعزل عنه وتولى عوضه القاضى ولى الدين بن خــلدون المالكى المغربى .

وفيها خلع السلطان على المقر السيفى يشــبك الشعبانى واستقر به دوادارا كبيرا ومشير المملكة مع نوروز الحافظى ، وخلع على الأمير يشباى بن باكى واســتقر به حاجب الحجاب عوضــا عن أقبــاى الطرنطاى ، وخلع على الأمير تمر البريدى واستقر به مهمندارا عوضا عن الطنبغا المعروف بسيدى ، وأنعم على الطنبغا المذكور بتقدمة ألف بحلب .

نفس الملك الناصر يخشى من الأمير جكم هــذا ، كما قيل فى المعنى :

ان الأســود لتخشى وهى ســاكنة
والكلب يخسا لعمرى وهو نبــاح

وفى هذه السنة توقف النيل عن الزيادة ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال حتى بلغ سعرها الى أربعة أشرفية كل أردب ... فأقام على ذلك أياما ثم ان النيل زاد فى يوم واحد ثمانيــة وأربعين اصبعا وبقى على الوفاء ستة عشر اصبعا ، ثم أوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع . قال القائل فى المعنى :

يا نيــل مصر كم يد لك بالــوفا
أوليتنــا بالكسر جــبرا دائما
أوفيت قبل الكسر خمس أصابع
كرمــا فكانت للوفاء خــواتما

وأما من توفى فى هذه السنة من الأعيان فهم المقر السيفى سودون نائب الشــام ، مات مأسورا عند تمر لنك . وتوفى الأمير بجاس النوروزى أحــد الأمراء المقدمين ، وتوفى قاضى القضاة بدر الدين أبو البقاء السبكى الشافعى ، وكانت وفاته فى ليلة السبت سابع عشر ربيع الآخر من هــذه السنة . وتوفى قاضى القضاة جمال الدين يوســف الملطى الحنفى ، وتوفى قاضى القضاة نور الدين بن الجلال المالكى ، مات فى تجريدة تمر لنــك باللجون من طريق الشام لما توجــه مع السلطان فى تجــريدة تمر لنك . وتوفى قاضى القضاة شهاب الدين أحمد النحريرى المالكى ، مات وهو منفصل عن القضاء . وتوفى القــاضى شرف الدين بن الدمــامينى قاضى القضاة بثغر الاسكندرية ، وتوفى الشيخ الحافظ المحدث علاء الدين بن اللحام الحنبلى الدمشقى ، وتوفى سيدى أبو بكر ابن الملك الأشرف شعبان ، وتوفى الصــاحب فخر الدين بن مكانس صاحب الأشعار اللطيفة ، وقيل توفى الصاحب فخر الدين ابن مكانس فى دولة الملك الظاهر برقوق كما تقدم والله أعلم . وقد تولى الوزارة مرتين ، وتولى ناظر الجيش وناظــر الخاص ، وباشر وظائف كثــيرة ، وكان من أهل الفضل والعلم ، وكان شاعرا ماهرا وله شعر جيد ومصنفات لطيفة . ومن شعره قوله فى الامام على كرم الله وجهه :

يا ابن عم الرســول ان أناســا
قد تولــوك بالســـعادة فازوا
أنت للعــلم فى الحقيقـــة باب
يا اماما وما ســواك مجــاز

وتوفى فى هذه السنة أيضا الشيخ بهاء الدين أبو الفتح أخو الشيخ سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وتوفى الشيخ شمس الدين بن المكين المالكى شيخ الحديث الشريف ، وتوفى ســيدى خليل بن تنكز نائب الشام ، وكان ابن بنت الناصر محمد بن قلاون . وتوفى قاضى القضاة بدر الدين الأقفهسى ، وتوفى الخواجا نور الدين بن الخروبى التاجر الكارمى ، وهو صاحب المدرسة التى فى مصر بالقرب من شاطىء النيل ، وكانت وفاته فى عاشر رجب من هذه الســنة . وتوفى الشــيخ الصالح المجذوب سيدى أبو بكر صاحب الكلوته ، وكان من كبار الأولياء .

سنة اربع وثمانمائة (١٤٠١/١٤٠٢ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن عربان بنى عقبة قد تعرضوا للحجاج ونهبوا ما معهم ، فأوقع معهم أمير الحاج فكسرهم وأسر شيخهم منجد بن خاطر وأحضره بين يدى الســلطان فأراد توسيطه ، فالتزم برد ما نهب للحجاج ، فسجن حتى شرع فى رد ذلك .

وفيها جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل دمشق

رجموا نائب الشام تغرى بردى وأرادوا قتله فهرب عند نائب حلب ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل تقليدا الى المقر السيفى أقبغا الجمالى بأن يستقر نائب الشام عوضا عن تغرى بردى .

وفيها تزوج المقر السيفى نوروز الحافظى بأخت الملك الناصر فرج — وهى بنت الملك الظاهر برقوق — فكان لهما مهم عظيم ، ودخل عليها فى العشرين من المحرم وفى أثناء ذلك تزوج ايضا المقر السيفى اينال باى بن قجماس بأخت السلطان الصغرى ، ودخل عليها فى نصف صفر ، وكان لهما مهم عظيم .

وفيها فى يوم الأربعاء خامس عشرى صفر ، بلغ الأمراء بأن السلطان قد أسكن آلان الخاصكى فى القاعة الأشرفية وفتح لها من دهليز القصر بابا ، فتخوف الأمراء من ذلك وامتنعوا من الطلوع الى القلعة ، وأقاموا على ذلك أياما ، فأرسل اليهم السلطان الأمير أقباى حاجب الحجاب وهو يقول لهم : « لم لا تطلعوا تبيتوا فى القصر على جرى العادة ؟ » ... فقالوا : « ما نطلع الى القلعة حتى يمسك لنا السلطان ثمانية من الأمراء العشراوات » ... فرسم السلطان لهم بالخروج الى ثغر دمياط ، وجماعة منهم الى الشام ، فركب المقر الأتابكى بيبرس وأتى الى بيت الأمير نوروز الحافظى ، فشفع عنده فيهم ، فلم يوافقه بقية الأمراء على ذلك ، وأرسلوا اليهم حاجب الحجاب فأخرجهم من بيوتهم . فلما أتى الى بيت الأمير سودون بقجه ، وأراد القبض عليه ، رمى نفسه من الطاق الى بركة الفيل وهرب . ثم توجه الى غيره من الأمراء فلم يجد منهم أحدا فى بيته . وكان السلطان أرسل بقول لهم : « تغيبوا من بيوتكم » .

ثم ان السلطان رسم للخليفة والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى بيوت الأمراء ويشفعوا فى هؤلاء الأمراء ، فتوجهوا اليهم وتحدثوا معهم فى ذلك ، فوقع الاتفاق على أن الأمير سودون الحمزاوى يستقر فى نيابة صفد ويخرج اليها من يومه ، وبقية الأمراء يخرجون الى الشام كما تقرر عليه الحال أولا ، ولم يقبلوا شفاعة الخليفة ولا القضاة الأربعة .

فلما كان يوم الاثنين خامس عشرى صفر طلع الأمير سودون الحمزاوى الى القلعة ، فأحضروا له خلعة ليستقر نائب صفد كما تقرر . فلما أحضروا له الخلعة لم توافق المماليك السلطانية على ذلك ، ومنعوه من لبس الخلعة ، فحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب بين العسكر .

وفيها أرسل السلطان تقليدا الى دقماق المحمدى نائب حماه بأن يستقر نائب حلب عوضا عن المقر السيفى دمرداش المحمدى ، ورسم لدمرداش المحمدى بأن يحضر الى القاهرة لما تقتضيه الآراء الشريفة .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة الطواشى عبد اللطيف الساقى ، وكان ممن أسر عند تمرلنك فهرب من عنده بعد أن قاسى من الشدائد ما لا خير فى ذكره ، وأخبر بأن ابن تمرلنك توجه الى ماردين ثم الى بغداد ، وأوقع مع أهل بغداد واقعة عظيمة فكسره أهل بغداد كسرة قوية ... هذا بعد أن رجع من الشام . فلما بلغ تمرلنك أن ولده قد انكسر توجه هو بنفسه الى بغداد وحارب أهلها وأخربها ، وفعل بها كما فعل بالشام . وأخبر أيضا عن تمرلنك أنه وضع قاضى القضاة صدر الدين المناوى الشافعى فى تليس وأغرقه فى نهر الفرات عند القنطرة .

وفيها فى يوم الاثنين رابع جمادى الآخرة خلع الملك الناصر على الشيخ جلال الدين عبد الرحمن

ابن شـيخ الاسلام سراج الدين عمر البـلقينى ، واستقر به قاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية عوضا عن القاضى ناصر الدين بن الصالحى

وفيها جاءت الأخبار من غزة بأن الأمير صرق الظاهرى نائب غزة قد خامر وخرج عن الطاعة ، فلما تحقق السلطان ذلك خلع على الأمير الطنبغـا العثمانى واستقر به نائب غزة عوضا عن صرق ، ثم بعد أيام حضر مقدم البريدية ومعه سيف صرق وأخبر بأن أمير جرم مع عربان نابلس أوقعوا مع صرق فانكسر صرق وقتل فى المعـركة ، فأرسلوا سيفه الى السلطان واحتاطوا على موجوده . وفى أثناء ذلك جاءت الأخبـار من طرابلس بأن نائب طرابلس شيخ المحمودى قد خرج عن الطاعة ، وأظهر العصيان ، وأمسك حاجب طرابلس وجماعة من أمرائها سـجنهم بسـجن المرقب ، وأنه قـد استخدم جمـاعة كثيرة من التركمان والعشير ، وعمل له برك عظيم .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير دقماق المحمـدى ، لمـا استقر نائب حلب وتوجه اليها ، خرج اليه دمرداش نائب حلب وأوقع معه واقعة قوية ، فانكسر دمرداش ونهب بركه وهرب الى نحو ملطية .

وفيها فى يوم الاثنين رابع عشرى رجب خلع السلطان على القاضى جمال الدين البساطى المالكى واستقر به قاضى القضاة المالكية عوضا عن قاضى القضـاة ولى الدين بن خلدون المغربى الحضرمى المالكى .

ومن الحوادث الفلكية أن نجماً طلع فى الجانب الغـربى وله ذؤابة صاعدة الى السماء ، فاستمر يطلع فى كل ليلة بعد المغرب ويقيم الى ثلث الليل ، فأقام على ذلك الى أواخر شهر شـعبان ، فكان يطلع بالنهار عند طلوع الشمس ، فكان يرى بالنهار مع ضوء الشمس ويقيم الى وقت الظهر ، ثم اختفى من بعد ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أنه فى يوم الاثنين مستهل شهر شعبان من هذه السنة أخرجوا الفيل الكبير الذى كان تمرلنك ارسله الى الملك الناصر صحبة قانباى النوروزى — وتقـدم ذكر ذلك — فلما أخرجوه ليسيروا به توجهوا به الى نحـو بولاق ثم رجعوا به من على قنطرة الفخر ليطلعوا به على باب البحر ، فلما عدوا به على قنطرة الفخر وأتوا به الى رأس العطفـة التى تخـرج الى الخليج الناصرى وهناك بجمون ، فداس الفيل على ذلك البجمون فانخسف به فغاصت رجله فيه الى فخذه فلم يقدر أحـد من الناس أن يخلصه ، فأقام على ذلك ساعة ثم مات . فلما أشيع أمره فى القاهـرة خرجت اليه الناس زمرا يتفرجون عليه . وقـد غلقت الأسواق فى ذلك اليوم بسبب الفرجة ، وكان يوما مشـهودا ، وقد رثاه بعض الزجالة بهـذا الزجل اللطيف :

تعا اسمعوا بالله يا ناس اللى جرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطره

لمـا أفلسوا غلمان الفيل	راموا الجزاف
خدوه وراحوا صوب بولاق	يجبـوا المطاف
رأوا شويخ من أهل الله	ما فيه خـلاف

جوا ياخدوا شاشو منو بالزنطره
دعا على الفيـل اتقنطر فى القنطره

قالوا بأنو فى البجمـون	مغروس يصيح
فقلت حـتى أروح أبصر	ان كان صحيح
أجى ألاقى الفيـل ميت	ملقـى طـريح

والناس تطلع فوق ظهره مستظهره
لمـا وقع يوم الاثنين فى القنطـره

واولاد ديار مصر الساده | حولــو زمــر
يتعجبوا من هــذا الفيل | اللى انحصــر
رأوا دموع عينو تجرى | مثــل المطــر

ولو جعير والعــالم دول متفكره
لمــا وقع يوم الاثنين فى القنطــره

فقلت لو يا فيل مرزوق | يا اسود دغوش
أين حرمتك بين العــالم | واتنــا تهــوش
وكنت يا فيــل السلطان | زين الوحوش

وكنت بالاعجاب تزهو فى المخطره
وقد بقيت اليوم مطروح فى القنطره

والفيل لسان حالو ناطق | للنــاس يقــول
كم كنت نا ادور فى الزفه | فــوقى طبــول
وكنت نا ادور فى المحمل | ولــى قبــول

كنى عروسه حين تجلى فى المنظره
واليوم كان آخر مشيى فى القنطرة

وقالت الفيــله امراتو | من لى معــين
سهم الفراق قد صاب قلبى | يا مســــلمين
ونا غريبــه هنــــديه | قلــبى حــزين

وكان هذا الفيــل زوجى لا معيره
واليوم كان آخر عمرو فى القنطره

وعيطــت حــتى أبكت | جيرانهــــــا
من كتر ما ناحت ناحــو | لأحزانهــــــا
من نارها صــارت تلطم | بودانهــــــا

حتى الزرافــــة جاءتهــا متحسرة
تبكى على الفيل اللى مات فى القنطره

لمــا ظهر دا فى شــعبان | آخــر رجــب
لاحت لنــا فيــه نجمــه | لهــا ذنــب
فقــالت العــالم أجمــع | دا لــو سـبب

وايش دلايل ذى الكوكب يامن درى
دلت على الفيل اللى مات فى القنطره

يا ناصر الدين من عمرى | ادر الدخــول
والناس تقــول انى قيم | صاحب قبــول
لما هلك ذا الفيل مرزوق | فصرت أقــول

تمــا اسمعوا بالله يا ناس اللى جــرى
الفيل وقع يوم الاثنين فى القنطره

ومن الحوادث فى هذه السنة أنه فى يوم الجمعة ثانى شــوال وقعت الفتنــة بين الأمــير نوروز الحــافظى ، وبين الأمير جكم العــوضى والأمير سودون طاز أمير آخور كبير ، فلبسوا آلة الحرب فى ذلك اليوم ، ووقفوا بســوق الخيل ، ونزل الســلطان الى باب السلسلة ثم جلس فى المقعــد المطل على الرميلة ، وطلع الأمراء الذين هم من عصبة السلطان الى باب السلسلة ، وتقاتلوا مع هؤلاء الأمراء أشد القتال . ثم ان السلطان رسم للخليفة وشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى والقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى الأمراء ويمشوا بينهم بالصلح مع بعضهم ، فتوجهوا اليهم وسعوا بينهم بالصلح ، فاصطلحوا صلحا على فســاد ، وصارت القلوب معمرة بالعداوة لبعضهم كما قال بعضهم فى المعنى :

أعدى عــدوك أدنى من وثقت به
فحاذر الناس واصحبهم على دخل
فانمــا رجــل الدنيــا وواحــدها
من لا يعول فى الدنيــا على رجل

فطلع السلطان الى القلعــة وخمــدت الفتنة قليــلا .

ثم فى يوم الســبت رسم الســلطان للخليفة والقضــاة الأربعــة بأن يتوجهــوا الى الأمراء ويحلفوهم للســلطان ، فتوجهوا الى بيت الأمير بيبرس وحلفوه ، ثم توجهوا الى بيت الأمير نوروز الحافظى وحلفوه ، ثم توجهــوا الى بيت الأمير

سودون طاز أمير آخور كبير ، وكذلك بقية الأمراء ، فكانت أيمانهم كاذبة كما قيل فى المعنى :

حلفتهم لا يخونوا فى الهوى ذممى
كأنما حلفوا لى أن ما حلفوا

فلما كان يوم الاثنين خامس شوال طلع الأمراء الى القلعة — وباسوا الأرض للسلطان — واصطلحوا ، فخلع على جماعة منهم ونزلوا الى بيوتهم . فلما نزل الأمير جكم الى بيته أرسل السلطان اليه خلعة وقال : « هذه لأخيك قانباى رسم له السلطان بأن يستقر نائب حماه » ... فلما سمع الأمير جكم ذلك عز عليه وتوجه الى نحو بركة الحبش وأخذ معه أخاه قانباى العلائى والأمير قرقماس الاينالى ، فلما بلغ ذلك الى المماليك السلطانية توجه اليه منهم جماعة نحو خمسمائة مملوك ، فأقاموا هناك يوم الخميس ويوم الجمعة .

فلما كان يوم الجمعة طلع الأمير نوروز القلعة وصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم نزل الى بيته فأقام ساعة ، فأرسل اليه السلطان جمدارا وقال له : « قم كلم السلطان » فقال : « أنا كما نزلت من عند السلطان ايش يعمل بى ؟ ولكن غدا أنا بين يديه » ... فلما رجع من عنده الجمدار أقام فى بيته الى بعد العشاء ثم أرسل خلف الأمير تمر بغا المشطوب ، والأمير سودون زاده ، وجماعة من الأمراء العشراوات . فلما تكاملوا ركب الأمير نوروز ومعه الأمراء الذين أرسل خلفهم وتوجهوا جميعا الى الأمير العوضى .

فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله ، ونزل الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربى ، فطلع اليه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، فوقفوا فى سوق الخيل ، فأقاموا على ذلك يوم السبت ويوم الأحد فلم يجىء اليهم أحد من الأمراء الذين توجهوا الى بركة الحبش.

فلما كان يوم الأحد توجه المماليك السلطانية الى نحو باب الزغلة عند زاوية القاضى بكار ، فبعد ساعة واذا بجاليش الأمير جكم العوضى قد أقبل من نحو بركة الحبش ، فتلاقوا هناك وأوقعوا مع عسكر السلطان ، فكان بينهم واقعة قوية ، فقتل فى ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية وجماعة من الغلمان ، فكان عدة من قتل وجرح من الناس والغلمان نحو ستين انسانا ، وأسر من المماليك السلطانية اثنا عشر انسانا ، ثم حال بينهم الليل . ففى تلك الليلة تسحب جماعة من الأمراء من عند السلطان الى الأمراء الذين فى بركة الحبش . وكان من الذين تسحبوا الأمير سودون البجاسى ، والأمير تمربغا الطرنطاى ، والأمير سودون الجلب ، وتسحب معهم نحو مائة مملوك من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم الثلاثاء أشهر السلطان المنادى للمماليك السلطانية بالعرض ، فعرضوا فى يوم الأربعاء .

فلما كان يوم الخميس فرق السلطان خيولا ولبوسا على المماليك الذين عرضهم . ثم انه ركب وخرج من باب السلسلة ووقف بسوق الخيل ساعة حتى تكامل العسكر ، وأرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل والقضاة الأربعة ، فلما حضروا جميعا توجه السلطان والأمراء والعسكر الى باب القرافة ، فتقدم جاليش السلطان وكان فيه من الأمراء الأمير يشبك السودونى ، والأمير سودون تلى ، ثم تبعهما الأتابكى بيبرس ومعه نحو من ألف مملوك . فلما وصلوا الى مصلت خولان التى بالنقعة ، أقبل جاليش الأمراء الذين فى بركة الحبش ، فأوقع الفريقان هناك واقعة قوية ، ثم بعد ساعة واذا

بالملك الناصر قد أقبل ومعه السواد الأعظم ، فوقع فى قلوب الأمراء الذين أتوا من بركة الحبش الرعب من السلطان ، فلما وقع القتال بينهما انكسر الأمراء الذين كانوا فى بركة الحبش . فأول من أمسك منهم الأمير تمر بغا المشطوب ، والأمير سودون بن زاده ، والأمـير على بن اينـال ، وجرح الأمـير يشبك الساقى ، والأمير قمج الحافظى ، وأسر جماعة كثيرة من الأمـراء العشراوات والخاصـكية والمماليك السلطانية ، وهرب بقية الأمراء منهزمين الى نحو بركة الحبش وقد تمزقوا كل ممزق من الطفشان . فلما حصلت هذه النصرة للملك الناصر — وكانت على غير القياس — رجع الى القلعة ومعه الخليفة والقضـاة الأربعة والأمراء الذين أسروا قدامه مشاة ، وهم فى زناجير حديد ، حتى طلع الى القلعة وهـو فى غاية النصـر ، وفى ذلك يقـول بعض الشعراء :

الملـك النـاصر أعظـم به
من ملـك جاء بأمـر عجيب
قد كتب السـعد باقبـاله
نصـر من الله وفتـح قريب

هذا ما كان من أمر الملك الناصر فرج .

وأما ما كان من أمر الأمـير جكم العـوضى ، والأمير نوروز الحافظى ، والأمير قانباى العلائى ، والأمير يشـبك بن أزدمر أخى اينـال ، والأمير قرقماس وبقية الأمراء ، لما أن وقعت عليهم الكسرة وهربوا ، استمروا الى أن وصلوا الى الميمون ، فأقاموا هنـاك يومين ثم عدوا الى بر الجـيزة ، فأخذوا خيول الدشار والهجن التى هناك ، وأقاموا فى الجيزة ثلاثة أيام . ثم ان الأمير نوروز الحافظى حضر تحت الليل الى القاهرة ، وتوجـه الى بيت الأتابكى بيبرس ، فطلع به الى السلطان وقابل به ، فان نوروز كان صهر الملك الناصر فرج زوج أخته . فلما أن قابله رسم له السـلطان بأن يستقر نائب الشام ، وأرسل اليه خلعة ورسم له بأن يخرج من يومه .

وكان من جملة سعد الملك النـاصر أن فى تلك الليلة اتفق جماعة من المماليك السلطانية نحو من ألف مملوك بأن يتوجهوا الى الأمير نوروز والأمير جكم ، فلما حضر الأمير نوروز رسم له بأن يستقر نائب الشام ، فلما برز خيامه فى الريدانية وخـرج اليها أرسل اليه السلطان من قيده ثم أرسـله من هناك الى ثغر الاسكندرية فسجن بها . فلما بلـغ الأتابكى بيبرس ذلك عز عليه لكونه حلف لنوروز بالطلاق أنه اذا قابل به السلطان لا يشوش عليه . فلمـا فعل به السـلطان ذلك عز على الأتابكى بيبرس .

هـذا ما كان من أمر الأمير نوروز الحافظى .

وأما ما كان من أمر الأمير جـكم العوضى فانه أرسل يسأل السلطان أن يرسم له بأن يتوجه الى ثغر دمياط من غير سجن ، فرسم له بذلك ، فتوجه اليه الأمير اينـال حطب رأس نوبة ثانى فأحضره الى القاهرة فى ليلة الأربعاء . فلما حضر طلـع الى باب السلسلة عند الأمير سودون أمير آخور كبير ، فشاور عليه السلطان فرسم بتقييده ، فقيد هـو والأمير سودون زاده وجماعة من الأمراء الذين قد خامروا على السلطان وتوجهوا الى الأمير جكم ، فقيـدوا أجمعين ، وأرسلوا الى السـجن بثغـر الاسكندرية ، وكان المتسفر عليهم الأمير سودون تلى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير يشبك الشعبانى — وكان بالسجن بثغر الاسكندرية — فلما حضر خلع عليه واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير جكم العوضى .

ثم ان السلطان رسم بالافراج عن الأمير قطلوبغا

الحسنى والأمير أقبـاى الكركى والأمير جركس القاسمى المصـارع ، فتوجـه لاحضارهم الأمير سودون بقجـة ، فأخرجهم من السـجن بثغـر الاسكندرية .فلما حضروا طلعوا الى القلعة وباسوا الأرض ، فأنعم عليهم السلطان بتقادم ألوف عوضا عن الأمـراء الذين توجهـوا الى السـجن بثغر الاسكندرية كما تقدم ، فكانوا مثل بابات خيـال الظل ، فشيء يجيء وشيء يروح ، كما قد قيـل فى المعنى :

رأيت خيال الظـل أعجب منظرا
لمن هو فى عـلم الحقيقـة راقى
تمـر وتمضـى بابة بعـد بابة
وتفنى جميعـا والمحـرك باقى

وفى هـذه السنة ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شوال ، ورد كتاب من ثغر الاسكندرية حضر من بلاد ابن عثمان على يد جماعة من التركمان فأخبروا فيه بأن تمرلنك قد هلك عن يقين [1] . قال القـاضى تقى الدين المقريزى محتسب القاهرة : « كنت عند القاضى فتح الله كاتب السر الشريف فجاءه كتـاب ابن عثمان يذكر فيه موت تمرلنك ، وأن القـان أحمـد بن أويس رجـع الى بلاده وكذلك قـرا يوسف ، وأخبر بأن الحمرة التى طلعت فى جسـد تمرلنك وهو على دمشق استمرت ترعى فى جسده حتى مات بها وعجل الله بروحه الى النـار » . كما قد قيل :

زبانية النـيران تكره وجهـه
ومنـه استعاذت مذ رأته جهنم

قيل انه لما دفن كان يسمع عواء فى قبره مـثل عواء الكلاب . وقال بعض السياح انه قد شاهد الدخان يطلع من قبره . وقيل انه لما دفن لم تقبله الأرض ، فصنعوا له صندوقا من خشب ووضعوه فيه وعلقوه بين السماء والأرض وقيل ان تمرلنك كان قد جمع عساكر كثيرة وقال : « ما أرجع حتى أدخل مصر وأفعل بهـا ما فعلت فى دمشق » ... فأخذه الله تعـالى وكفى النـاس شره . وقد قال القائل :

مات تمرلنـك وجاءت لنـا
أخبـاره فيمـا تأتى اليـه
وقد كفـانا ربنـا شره
والله كاف من توكل عليـه

وفى هذه السنة تأخر خروج المحمل من القاهرة الى ثانى عشرى شوال ، وهذا لم يعهد قط . وكان أمير المحمـل فى تلك السـنة الأمـير نكسبيـه الأزدمرى ، فكان تأخير المحمل الى هذه المدة لأمر حصل لأمير الحاج فعاقه عن الخروج

ومن الحوادث فى هذه السنة أن الأمراء دخلوا بيت الأتابكى بيبـرس ولعبوا معـه بالكرة ، فلما فرغوا وقصدوا التوجه الى بيوتهم خرج اليهم فى أثناء الطريق جماعة من المماليك الناصرية فضربوا الأمراء ، فهرب الأمير يشـبك الشعبانى الدوادار فطلع الى باب السلسلة وأقام فيه الى العصر فلما بلغ ذلك الى السـلطان رسم لوالى القاهـرة بأن يحضر المماليك الذين فعلوا هذه الفعلة ، فأحضر منهم ثلاثة ممـاليـك فضربهم السلطان بالمقـارع وأشهرهم فى القاهرة ، فخمدت الفتنة قليلا .

وفى هذه السنة تزايدت عظمة المقر السـعدى ابراهيم بن غراب ، وحظى عند الملك الناصر حتى انه استقر به أمير مجلس ، وصار صاحب الحـل والعقد بالديار المصرية ، وصار يجلس مع الأمراء المقدمين تحت أمير كبير .

وفيها جاءت الأخبار من البحيرة بأن العـربان نهبوا البلاد وأخذوا المغل وقتلوا جماعة كثيرة من

(1) فى « المنهل الصافى » و « الشذرات » وغيرهما ان تمرلنك توفى سنة ٨٠٧ هـ.

الفلاحين ، فأرسل اليهم السلطان تجريدة وكان بها من الأمــراء المقدمين عشرة وهم : الأمــير يكتمر الركنى أمير ســلاح ، والمقر الســعدى ابراهيم ابن غراب أمــير مجلس ، والمقر السيفى يشــبك الشعبانى أمير دوادار ، والأمير سودون الماردينى ، والأمير يلبغا الناصرى ، واينال باى بن قجماس ، والأمير سودون بن على باى ، والأمير قطلوبغا الكركى ، والأمير ألان اليحياوى ، والأمير اينال العلائى نائب حــلب . ومن الأمــراء الطبلخانات والعشراوات أربعة عشر أمــيرا ، ومن المماليــك السلطانية أربعمائة مملوك — فخرجوا من القاهرة على حمية وتوجهوا الى البحيرة فأوقعوا مع العربان فطردوهم الى برقة ونهبوا أموالهم ومواشيهم .

سنة خمس وثمانمائة (١٤٠٢/١٤٠٣ م) :

فيها تغير خاطــر السلطان على المقــر الأتابكى بيبرس ، فرسم له بأن يتوجه هو وعياله الى ثغــر دمياط ، فأخذ فى أسباب توجهه الى دمياط ، فطلع سائر الأمراء المقدمين وشفعوا فيه عند الســلطان فبطل أمر سفره الى دمياط ورضى عليه .

سنة ست وثمانمائة (١٤٠٣/١٤٠٤ م) :

فيها وقع الخلف بين الأمــراء بمصر ، وجاءت الأخبار بأن عربان الشرقية والغربية قد كثر منهم الفساد . ثم جاءت الأخبــار من البــلاد الشامية والحلبية بأن النــواب قد خامروا وخرجوا عــن الطاعة ، وصار القيل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس ، والأمراء فرقتان : فرقة مع الملك الناصر ، وفرقة عليه .

سنة سبع وثمانمائة (١٤٠٤/١٤٠٥ م) :

فيهــا وقع الوباء بالديار المصرية ، وكثر موت الفجأة ، وتحركت دموية بالناس ، وكان ذلك فى قوة البرد والشمس فى برج الدلو ، وكثر بالناس السعال والانحــدار ، فمات فى مدة ســبعة عشر يوما — وقيل فى دون الشهر — كثير من الناس ، وصاروا يتساقطون فى الطرقات موتا ... فأقام مدة يسيرة ثم ارتفع . فمات فى هذه المدة اليسيرة نحو ما كان يموت فى الفصول الكبار ، ولكن لم يظهر فيه طعن بل كان أهوية متحركة وأوخاما ، ولأجل ذلك لم يعده الشيخ شهاب الدين بن حجــر رضى الله عنه من جملة الطواعين التى وقعت بمصر لأنه لم يظهر فيــه طاعون ، وقد فرق بين الوباء وبين الطاعون فى كتابه المسمى ببذل الماعون فى أخبــار الطاعون .

فلما وقع هذا الوباء بمصر فتح المقر السعدى ابن غراب مغسلا برسم الأموات عند بيته الذى عند جامع بشتك الناصرى ، فكانوا يأتون اليه بالأموات على عتالــين يطرحونهم على بابه حتى يخرجهم من مغسله ، فكفن فى تلك السنة من ماله جماعة كثيرة من الغرباء وغيرهم لا يحصى عددهم ، فسمى فصل ابن غراب .

وفيها توفى سيدى على ابن سيدى محمــد وفى رضى الله تعالى عنه .

سنة ثمان وثمانمائة (١٤٠٥/١٤٠٦ م) :

فيها خلع على سعد الدين بن غراب واستقر كاتب السر الشريف بمصر عوضا عن فتح الله بعد القبض عليه والمصادرة وأقيم فى الترسيم .

وفيها جاءت الأخبار بأن دمرداش نائب حلب قد أطلق الأمير جكم العوضى من السجن ومعه جماعة من الأمراء وتوجه بهم الى حلب ، فاضطربت أحوال الملك الناصر بسبب ذلك ، وضاقت عليه الأمور ، وصار فى غاية الضنك مع الأمراء بخلفهم ، وتعصب عليه الأتابكى بيبرس وجماعة من الأمراء ، وصاروا يعاكسونه فى الأمور .

فلما كان يوم الأحد خامس عشرى ربيع الأول من السنة المذكورة نزل الملك الناصر من القلعة بعد العصر وهو ماش متنكر ، فاختفى فى مكان لا يعلم . فلما نزل من القلعة وبلغ ذلك الأمراء ركبوا وطلعوا الى باب السلسلة ، فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فيمن يسلطنونه ، فوقع الاتفاق على سلطنة أخيه المقر العزى عبد العزيز ، فطلبوه من دور الحرم وسلطنوه فى ذلك اليوم ، ولقبوه بالملك المنصور ، وخلع الملك الناصر فرج من السلطنة ، فكانت مدة سلطنته فى هذه المدة ست سنين وخمسة أشهر وعشرة أيام ... ثم يعود الى السلطنة من بعد ذلك مرة ثانية — كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى — والله سبحانه وتعالى أعلم .

الملك المنصور عز الدين

هو الملك المنصور عز الدين أبو العز ابن الملك الظاهر برقوق بن أنص العثمانى الجركسى ، وهو السابع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بمصر ، وهو الثالث من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية ، بويع بالسلطنة بعد العشاء ، وتلقب بالملك المنصور ، وجلس على سرير الملك ليلة الاثنين سادس عشرى ربيع الأول من سنة ثمان وثمانمائة بعهد من أبيه الملك الظاهر برقوق كما تقدم ، فباسوا له الأرض ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، ولم تدق له الكؤسات . فلبس خلعة السلطنة من القصر الكبير ، وحملت القبة والطير على رأسه ، وجلس على سرير الملك .

قال المقريزى : « تسلطن الملك المنصور عبد العزيز وله من العمر عشر سنين ، وكانت أمه أم ولد رومية الجنس تسمى تنق باى » .

فلما تسلطن لم يتم أمره فى السلطنة ، ولا ساعدته الأقدار ، ولم يبلغ المراد كما قيل فى المعنى :

ما كل من نال المعالى ناهضا
فيها ، ولا كل الرجال فحول

فلما تسلطن المنصور صار الأتابكى بيبرس صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار يتصرف فى أمر المملكة بحسب ما يختار من ذلك ، فانخفضت كلمة المقر السيفى يشبك الشعبانى الدوادار ، فعز ذلك عليه وتمنى عود الملك الناصر فرج ، فشكا ذلك الى المقر السعدى ابن غراب فى خلوة ، فقال له ابن غراب : « لا تهتم لذلك ... الملك الناصر عندى مختفى » ... ففرح يشبك بذلك ، وقام الى ابن غراب وقبل رأسه ثم أخذ فى أسباب ظهور الملك الناصر فرج .

فلما كان يوم الخميس رابع جمادى الآخرة ظهر الملك الناصر من بيت سودون الحمزاوى الذى عند البركة الناصرية . فلما أشيع ذلك اضطربت القاهرة وماجت ، ولبس العسكر آلة الحرب ، وصار الأمراء والعسكر فرقتين : فرقة مع الملك الناصر ، وفرقة مع أخيه عبد العزيز . وكان من عصبة الملك المنصور عبد العزيز : الأتابكى بيبرس ، والأمير سودون المحمدى ، والأمير اينال باى ابن قجماس ، والأمير سودون الماردينى ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وجماعة من العسكر . وكان من عصبة الملك الناصر فرج : المقر السيفى يشبك الشعبانى الدوادار ، وجماعة كثيرة من الأمراء . وكان أكثر العسكر مع الملك الناصر ، فلبسوا آلة الحرب واقتتلوا فى ذلك اليوم أشد القتال ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الأتابكى بيبرس ومن معه من الأمراء ، وانتصر عليهم الملك الناصر فرج ، فركب من بيت سودون الحمزاوى وطلع الى القلعة وملكها . فرسم لأخيه

عبد العزيز بأن يدخل الى دور الحرم فدخلها وأقام بهــا محتفظا ، فكانت مدة سلطنته بمصر شهرين وعشرة أيام ، وكان فى السلطنة آلة لا ينتفع بهــا والأمر كله فى هذه المدة للأتابكى بيبرس .

عَوْدُ الملكــ الناصر فرج

قال المقريزى : « عاد الملك النــاصر فرج الى السلطنة وجلس على سرير الملك فى يوم الخميس رابع جمادى الآخرة من ســنة ثمــان وثمانمائة ، وبايعه الخليفة ثانيا .

فلما جلس على سرير الملك قبض على الأتابكى بيبرس ، وقيــده وأرســله الى السجن بثغــر الاسكندرية ، وأرسل معه جماعة من الأمراء الذين كانوا سببا لسلطنة أخيه عبد العزيز ... والذى كان قصد الملك الناصر يفعله بالأتابكى بيبرس فى الأول فعله فى الآخر ، كما قيل فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها
عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

ثم ان الملك الناصر عمل الموكب وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى تغرى بردى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن بيبرس ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف عوضا عمن نفى من الأمراء ، فاستقامت أموره فى هــذه المرة ، ولم يختلف عليه اثنان كما قيل : « وربمــا صحت الأجسام بالعلل » .

ومن الحوادث فى هذه السنة وفاة أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله ، ابن الخليفة المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله ابن الامام احمد الحاكم بأمر الله . وكانت وفاته فى ليلة الثلاثاء ثامن عشرى رجب من ســنة ثمــان وثمانمائة . فكان مجموع خلافته بالديار المصرية الى أن مات نحوا من خمس وأربعين سنة — بما فيها من عزل وولايه — وكان كريما جوادا ممدوحا لا يرد سائلا ، كما قيل :

كأنه فى العطاء بحر ندى
وبذله النقد فيه تيــار

ولكن قاسى من الملك الظاهر برقوق شــدائد عظيمة ، وتركه فى القيد وهو مسجون ببرج الحية الذى بقلعــة الجبل نحو سبع سنين . وكان اماما عظيما ، كفئا للخلافة ، كثير البر والصدقات ، يحب فعل الخير . فلما مات دفن عند أقاربه بمشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ولما مات خلف من الأولاد سبعة وهم : العباس وكان أكبرهم ، وداود وسليمن وحمزة ويوسف ويعقوب وموسى ، وكل منهــم ولى الخلافة الا يعقوب وموسى لم يليا الخلافة .

وقيل جاء للمتوكل نحو مائة ولد من صلبه مابين ذكور واناث وسقوط . وهذا لم يقع لخليفة قبله سوى عبد الملك بن مروان الأموى ، فانه لما مات خلف من الأولاد أربعة وهم : الوليــد وسليمن ويزيد وهشام ، وكل منهم ولى الخلافة .

ولما توفى محمدالمتوكل تولى الخلافة من بعده ابنه العباس ، وتلقب بالمستعين بالله .

ومن الحوادث أن ابن نعير أرسل الى السلطان رأس جكم العــوضى الذى تسلطن بحلب وتلقب بالملك العادل ، فخرج من حلب الى قتال قرا ملك أمير التركمان فقتل فى المعركة بين بساتين آمد ولا يعلم من قتله ، فكانت مدة سلطنته بحلب نحوا من شهرين ، فعلق رأســه على باب زويله ، وكان له يوم مشهود ، وكفى الملك الناصر شره .

وفيهــا توفى الأمير بيبرس الفارقانى — وهو صاحب الحمام الذى تجاه المدرسة البندقدارية — وكان بيبرس هــذا من المعمرين ، وكان من أهل الدين والصلاح وله مشاركة فى العلم ، وكان له

شعر جيد ، وكان رجلا أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يزن الشعر بالطباع ، وينظم منه ما لا تمجه الأسماع ، فمن ذلك قوله :

من لى بظبى غرير ... باللحظ يسبى الممالك
اذا تبدى بليل ... جلا سناء الحوالك
من حور رضوان أبهى ... لكنه نجل مالك

ذكر ذلك صاحب كتاب زهر الخمائل فيمن نظم الشعر من الترك الأصائل .

سنة تسع وثمانمائة (١٤٠٦/١٤٠٧ م) :

فيها أخرج الملك الناصر أخاه عبد العزيز الذى تسلطن الى ثغر الاسكندرية فسجن بها ، وأرسل معه أخاه سيدى ابراهيم ، وذلك فى ثامن صفر . وأقاما بثغر الاسكندرية نحو أربعين يوما ، ثم جاءت الأخبار بموتهما فى يوم واحد ، وكانت وفاتهما فى ليلة الاثنين سابع ربيع الأول من سنة تسع وثمانمائة . فقيل ان الملك الناصر أشغلهما فى حلوى أرسلها اليهما ، فلما بلغه موتهما أرسل فأحضرهما ودفنهما فى الخانقاه البرقوقية التى فى الصحراء .

وفيها خلع على البدرى حسن بن نصر الله واستقر به وزيرا بمصر عوضا عن ابن البقرى .

وفيها عزل جلال الدين البلقينى عن القضاء وأعيد اليه الاخنائى ، فأقام به مدة ثم أعيد اليه الجلال البلقينى .

سنة عشر وثمانمائة (١٤٠٧/١٤٠٨ م) :

فيها أفرج السلطان عن الأمير جكم العوضى والأمير نوروز . فلما حضرا خلع على الأمير نوروز الحافظى واستقر به نائب الشام ، وخلع على الأمير جكم العوضى واستقر به نائب حلب . فلما توجها الى البلاد أظهر كل منهما العصيان والمخامرة على السلطان .

فأما جكم العوضى فانه تسلطن بحلب ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك العادل ، وصار واضع اليد على البلاد الحلبية ، وأخرج أوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب ، وصار يحكم من الشام الى الفرات ، فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية ، وصار حكمه لايجاوز غزة ، فضاق الأمر على الملك الناصر حتى كادت روحه تزهق . فما مضى قليل حتى جاءت الأخبار من حلب بأن جكم العوضى قد قتل ولا يعلم من قتله . وكان سبب ذلك ان خارجيا من التركمان من أولاد قرا يوسف خرج عليه فخرج اليه جكم مع العساكر الحلبية فالتقى معه فكان بينهم واقعة عظيمة ، فقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، وفقد جكم العوضى فى المعركة ولا يعلم له خبر ولا عرف كيف قتل . فلما جاءت الأخبار الى مصر بذلك سر الملك الناصر وقد كفاه الله تعالى أمر جكم بعد غيره كما قد قيل :

الصبر أولى بوقار الفتى ... من قلق يهتك ستر الوقار
من لزم الصبر على حالة ... كان على ايامه بالخيار

وفى المعنى :

صبرنا على جور الزمان وربما ... تفرج أيام الكريهة بالصبر

فلما قتل جكم التف الأمير نوروز الحافظى على الأمير شيخ المحمودى نائب طرابلس وأظهروا العصيان ، والتف عليهم جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات ، وصار بيد الملك الناصر مصر وأعمالها فقط ، وهو فى غاية الحصر مع مماليك أبيه بمصر ، فكان يسلى همه بكثرة السكر لا يصحو منه ليلا ولا نهارا ، كما قيل فى المعنى :

وما اجتمعت والهم يوما لأنهـا
بكاسـاتها صـفراء للهم فاقعة

سنة احدى عشرة وثمانمائة (١٤٠٨/١٤٠٩ م) :

فيها ظهر فى السماء بعد مغيب الشـفق حمرة عظيمة من الجهة الغربية ، ثم اشتدت تلك الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة ، ثم جاور تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع يحيل للناظر أنها نار لا محالة ، ثم انتشرت تلك الحمرة حتى كادت أن تغطى ثلث السماء . واستمر الحال على ذلك الى نصف الليل ، فخاف الناس من ذلك وتضرعوا الى الله بالدعاء ، فانكشفت تلك الحمرة قليلا قليلا ، وصحت السماء فأصبح الناس يتحدثون بما وقع فى تلك الليلة من العجائب . وقد قال القائل :

ما خاب عبد على الله الكريم له
توكل صـادق فى السر والعلن
حاشاه أن يحرم الراجى اجابته
اذا دعاه لكشف الهم والحَزَن

ومن الوقائع الغريبة جاءت الأخبار بان جاليش الأمير شيخ المحمودى والأمير نوروز قد جاء من غزة وهم فى عساكر لا تحصى . فلمـا سمع الملك النـاصر بذلك خرج هو والأمراء على الهجن ، فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهمـا واقعة عظيمة ، فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم ، فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة ، فقوى حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرهما كسرة قوية ، فرجعا الى الشام مهزومين وانتصر عليهما الملك الناصر ، ولكن قتل فى هذه الحركة جماعة كثيرة من الأمراء والمماليك .

وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم بطل نوروز من نيابة الشام وأرسل السلطان تقليدا الى شيخ بنيابة الشـام وتقليدا الى دمرداش بنيابة حلب ، ثم عين نوروز الى القدس بطـالا ، ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ، ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب ، وهـذا من العجـائب ... ثم ان شيخ بعـد ذلك خامر على السلطان ، فجرد اليه ورجع من غير طائل .

وفيها توفى الأمير باش باى رأس نوبة النوب .

سنة اثنتى عشرة وثمانمائة (١٤٠٩/١٤١٠ م) :

فيها تزايد جور الملك النـاصر فى حق مماليك أبيه ، فصار ينفى منهم جماعة ويغرق منهم جماعة ، فكان الأتابكى تغرى بردى ينهى الملك الناصر عن هذه الأفعال الشنيعة فلا يلتفت الى كلامه . فلما ثقل عليه أمره خلع عليه واستقر به نائب الشام . فلما توجه تغرى بردى الى الشـام أسرف الملك النـاصر فى قتل مماليك أبيه ، فكان يسكر الى نصف الليل ويخرج الى الحوش وهو سكران ، فيعـرض الممـاليك الذين فى السـجن بالأبراج فيحضرونهم فى زناجير فيقدمون اليه واحـدا بعد واحد ، فيقول : « من هذا ؟ » ... فيقولون له هذا فلان من الطبقة الفلانية ، فيقول : « قدموه » ... فيبطحونه على الأرض فيذبحه بيده ثم يدوس على وجهه برجله وربما كان يبول عليهم أو يصب عليهم النبيذ ... وكل هذا من شدة قهره وما قاساه منهم ، فكان يذبح من المماليك فى كل ليلة بحسب ما يختار فى تلك الليلة ، وذكروا عنه أشياء شنيعة من هذا النمط . فاستمر على هـذه الحـالة مدة طويلة حتى قيل انه ذبح فى هذه المدة من مماليك أبيه نحوا من ألفى مملوك ، وقد تجرأ على القتل حتى صـار يقتـل فى كل ليـلة نحـو عشرين مملوكا ...

وكان الملك الناصر معـذورا فيهم ، فانه كان يسامح الواحد منهم المرة والمرتين والثلاث وهم يغدرونه ويخامرون عليه ، حتى كان يقول الملك

المؤيد شيخ فى بعض مجالسه بعد قتل الملك الناصر فرج : « ما صبر أحد من الملوك كصبر الملك الناصر على مماليك أبيه » ... فانه ما كان يقتل الواحد منهم حتى يكون قد سامحه مرارا عديدة وهم يغدرونه ... وقد جرى له معهم من الوقائع ما يطول شرحه عن هذا المختصر ، وهم مع ذلك لا يزدادون عليه الا طغيانا ولو أسرف فى قتلهم .

سنة ثلاث عشرة وثمانمائة (١٤١٠/١٤١١) :

فيها وقع الطاعون بالقاهرة ، وكانت قوة عمله فى شهر رمضان ، وفى ذلك يقول القاضى مجد الدين بن فضل الله :

تزايد الطاعون لما أتى
شعبان والحمى به صعبه
ودام فى الصوم على فتكه
وفطر الضعيف على كبه

وفيها انتهت زيادة النيل الى أحد وعشرين ذراعا ، وكان الوفاء أول مسرى .

وفيها جاءت الأخبار بأن شيخ المحمودى ونوروز الحافظى قطعا اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق وأعمالها .

وفيها توفى جلال الدين بن خطيب داريا ، وكان عالما فاضلا بارعا فى فن البديع وله شعر جيد حسن .

سنة اربع عشرة وثمانمائة (١٤١١/١٤١٢ م) :

فيها نفرت قلوب المماليك من الملك الناصر ، وصار منهم جماعة يتسحبون تحت الليل ويتوجهون الى نوروز الحافظى وشيخ المحمودى ، فكانوا يتوجهون من العقبة الى غزة ومن غزة الى الشام ، فتسحب من العسكر نحو الثلث .

وفى هذه السنة وفى النيل المبارك فى أول يوم من مسرى ، وبلغت الزيادة فى تلك السنة اثنين وعشرين ذراعا واصبعا من الثالث والعشرين ، فحصل للناس فى تلك السنة غاية الضرر الشامل ، وغرقت أكثر البساتين ، وانقطعت الطرقات حتى قيل فى المعنى :

قد زاد هذا النيل فى عامنا
فأغرق الأرض بانعامه
وكاد أن يعطف من مائه
عرى على أزرار أهرامه

وفيها جاءت الأخبار بأن نوروز الحافظى وشيخ المحمودى قد قويت شوكتهما والتف عليهما سائر النواب وغالب عسكر مصر ، والتف عليهما جماعة كثيرة من العشير ومن عربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الأمراء ما يزيد على أربعة وعشرين أميرا من أمراء مصر والشام . فمنهم الأمير قرقماس المعروف بسيدى الكبير ، والأمير بكتمر جلق ، والأمير سودون المحمدى ، والأمير شاهين الأفرم ، والأمير طوغان الحسنى ، وغير ذلك من الأمراء المصرية والشامية .

فلما تحقق الملك الناصر ذلك عرض العسكر ، وأنفق عليهم ، وبرز خيامه الكل فى جمعة واحدة ، ثم نزل من القلعة فى موكب عظيم ، وطلب طلبا عظيما ، وأمر العسكر بأن يخرجوا وهم لابسون آلة الحرب . وكان صحبته الخليفة العباس والقضاة الأربعة ، منهم قاضى القضاة الشافعى جلال الدين بن سراج الدين البلقينى ، وبقية القضاة ما يحضرنى أسماؤهم الآن ، ومن المباشرين القاضى فتح الله كاتب السر الشريف ، وسائر الأمراء والعسكر ، فتوجه الملك الناصر الى نحو الريدانية فأقام بها يومين ، ثم انه رحل منها وقصد التوجه الى نحو الشام .

وكانت هذه التجريدة ثالثة تجريدة خرج فيها الملك الناصر بنفسه .

فان أول تجريدة جردها الى الشام كانت بسبب تنم الحسنى نائب الشام لما أظهر العصيان كما تقدم .

والتجريدة الثانية كانت بسبب تمرلنك لما وصل الى الشام وجرى منه ما جرى كما تقدم .

والتجريدة الثالثة كانت بسبب نوروز الحافظى وشيخ لما أظهروا العصيان فخرج اليهما الملك الناصر بنفسه .

سنة خمس عشرة وثمانمائة (١٤١٢ م) :

فيها دخل الملك الناصر الى الشام وأقام بها أياما ، ثم توجه خلف النواب ، فكانوا يتوجهون فى كل يوم من بلد الى بلد والملك الناصر يسوق خلفهم ليلا ونهارا فأتعب العسكر ، وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب .

فلما كان يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وصل الملك الناصر الى اللجون — وهى من ضياع الشام — فتلاقى هنالك الملك الناصر والنواب بعد العصر ، وكان الملك الناصر قد اصطبح وهو لا يعى من شدة السكر ، فأراد الكبس على النواب فى تلك الساعة ، فمنعه الأمراء من ذلك فلم يسمع لهم ، فتقدم اليه القاضى فتح الله كاتب السر وتكلم معه فى أن ينزل هنالك ساعة حتى يستريح العسكر من شدة السوق فلم يلتفت الى كلامه وقال : « أنا لى سنين أنتظر هذا اليوم . ومتى نزلت هنا ساعة هربوا من وجهى الى مكان آخر » ...

فلما رأى الأمراء والعساكر هذه الأحوال الفاسدة تسحبوا من عنده الى النواب ، فأول من تسحب من عنده من الأمراء الأمير قجقار أمير سلاح فتوجه الى النواب . فلما رأى العسكر ذلك صاروا يتسحبون من عنده قليلا قليلا حتى لم يبق معه الا القليل من العسكر ، فبان عليه عين الغلب ، فكبس على النواب وقت غروب الشمس ، فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر الملك الناصر وهرب بمن بقى معه من العسكر ، فولى مدبرا الى نحو الشام ، فكان كما يقال فى المعنى :

ما تفعل الأعداء فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه

فدخل الى الشام وبات فى تربة تنم فى ليلة الأربعاء سادس عشرى المحرم . فلما ولى الملك الناصر استولى الأمير نوروز وشيخ على بركه وخزائن المال وملكوها ، وقد انتصر شيخ ونوروز على الملك الناصر ، وفى ذلك يقول الشيخ تقى الدين بن حجة الحموى من قصيدة يمدح بها الملك المؤيد شيخ :

وجمعت باللجون جم عساكر
دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة
فكأن هاتيك السروج مقابر

فلما دخل شيخ ونوروز الى الشام طلعوا الى دار السعادة ، واجتمع هناك سائر الأمراء وأحضروا القضاة الأربعة ورسموا بأن يكتبوا محضرا بأفعال الملك الناصر ، بأنه سفاك للدماء ، مدمن للخمر . فكتبوا محضرا بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من أعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة . واشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال نوروز لشيخ : « لا أنا ولا أنت تتسلطن ، ولكن اجعلوا الخليفة العباس ... هذا هو السلطان . ويكون الأمير شيخ أتابك العسكر ومدبر المملكة بمصر ، ويكون الأمير نوروز نائب الشام ، ويحكم فى البلاد الشامية من غزة الى

الفرات ، يولى بها من يختار ويعزل من يختار » ... فتراضوا على ذلك ، وحلف جميع الأمراء على ذلك ، وتعاهد الأمير شيخ ونوروز على ذلك ، وأن الخليفة اذا بقى سلطانا بمصر لايعزل ولايولى حتى يراجع فى ذلك الأمير شيخ والأمير نوروز . ثم سلطنوا الخليفة العباس كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

واستقر الأمير شيخ أتابك العساكر بمصر ، واستقر الأمير نوروز الحافظى نائب الشام كما تقرر الحال عليه .

هذا ما كان من أمر النواب .

وأما ما كان من أمر الملك الناصر فرج بعد الكسرة التى وقعت له على اللجون ، فانه لما جرى له ما جرى ولى منهزما فتوجه الى نحو الشام ، وأقام فى تربة تنم ، وأرسل الى الأمير شيخ يطلب منه الأمان . وكان الأمير نوروز صهر الملك الناصر زوج أخته ... فلو طلب منه الأمان أولا ما أصابه شىء . ولكن قصد الأمير شيخ فأرسل اليه من قيده وأحضره الى السجن بقلعة دمشق . ثم انهم أثبتوا عليه الكفر كما قيل ، والله اعلم بحقيقة ذلك .

فلما كانت ليلة السبت سادس شهر صفر من سنة خمس عشرة وثمانمائة دخل على الملك جماعة من الفداوية وقتلوه بالخناجر فى تلك الليلة وهو بالبرج بقلعة دمشق ، فلما أصبحوا وأشيع ذلك بين الناس لم يصدقوا بذلك ، فأخرجوه من البرج وألقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس فى وسطه ، وصار الناس يأتون اليه أفواجا ينظرون اليه ، ولو أمكن مماليك أبيه أن يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه . فأقام على ذلك ثلاثة أيام لم يدفن ، ثم غسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه بمقبرة باب الفراديس بدمشق ... هذا ما جرى للملك الناصر فرج والله أعلم . فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ، وذلك خارج عن مدة خلفه بأخيه عبد العزيز ، وهى شهران وعشرة أيام . وقتل وله من العمر نحو ست وعشرين سنة والله أعلم . وقد قيل فى المعنى :

يا نفس صبرا والا فاهلكى جزعا
ان الزمان على ما تكرهين بنى
لا تحسبى نعمة سرتك صبحتها
الا بمفتاح أبواب من الحَزن

ولما توفى الملك الناصر خلف من الأولاد سبعة : ثلاثة صبيان وأربع بنات . فأما الصبيان فهم : محمد وفرج وخليل الذين نفاهم المؤيد شيخ الى ثغر الاسكندرية ، وأقام خليل هناك الى أن توفى فى أثناء دولة الملك الأشرف اينال ، ونقل بعد موته ودفن بتربة جده الملك الظاهر برقوق التى بالصحراء . وأما البنات فخوند شقرا ، وخوند آسية ، وخوند زينب ، وخوند هاجر .

وكان الملك الناصر فرج شجاعا بطلا مقداما كريما ، غير أنه كان سفاكا للدماء ، مسرفا على نفسه ، منهمكا فى شرب الخمر وسماع الزمور ، عنده كثرة الجهل مع قلة الدين . وكانت الدنيا على أيامه جائلة ، وحقوق الناس ضائعة ، وقد خربت غالب البلاد الشامية فى أيامه ... من تمرلنك ومن عصيان النواب ، وخربت أوقاف الناس التى بالبلاد الشامية فى أيامه لما عصى جكم العوضى وتسلطن بحلب . وكم قتل من أبطال ، ويتم من أطفال ، وجرت فى أيامه أمور شتى يطول شرحها عن هذا المختصر ، حتى فرج الله تعالى بموته وزوال دولته . وكانت الناس معه فى غاية الضنك .

وكانت صفته أبيض اللون يميل الى صفرة ، أشهل العينين ، وافر الأنف ، نحيف الجسد ،

معتدل القامة ، عربى الوجه ، مستدير اللحيــة ، أشقر الذقن ، مهيب الشكل . وكانت أمه رومية ، فجمع بين قبح الفعل والشكل . وكان كل من يراه يرعد لشدة بأسه وعظمة سطوته .

وأما ما أنشأه بالديار المصرية من العمائر فهو المدرسة التى تجاه باب زويلة التى تسمى الدهيشة ، وعمر الجامع الذى هو داخل الحوش السلطانى بالقلعة ، وجدد بالدهيشة التى بالقلعة أشياء كثيرة ، وعمر الربعين اللذين عند جامع الصالح خارج باب زويلة ، وله غير ذلك أشياء كثيرة من الانشاء بالديار المصرية .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فمنهم شيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقينى الشافعى ، وتوفى القاصى تقى الدين بن الشــهيد صاحب ديوان الانشاء . وتوفى فى أيامــه القيم خلف الغبارى صاحب الأزجال اللطيفة ، وكان فريد عصره فى هذا الفن الشريف بدمشق . وتوفى الشيخ شمس الدين الشهير بالمزين ، وكانا من أعيــان دمشق . فلما بلغ الشيخ عزالدين الموصلى وفاتهما — وكانا من أضداده — أنشد يقول :

دمشق قالت لنــا مقــــالا
معنـــــاه فى ذا الزمان بــين

اندمل الجــرح واستراحت
ذاتى من الفتــح والمــزين

وتوفى الشيخ زين الدين بن العجمى عين كتاب الانشاء بالديار المصرية ، وكان له شعر جيد ، فمن ذلك قوله :

انظر الى الغدران كيف تجعدت
أمواجهــا فزهت وراقت منظرا

وحكت سطورا فى طروس خطها
قلم النسيم بلطفه لمــا انبرى

وتوفى الشيخ علاء الدين بن أيبك الدمشقى ، وكان من فحول الشعراء .

سلطنة الخليفة المستعين بالله

هو أبو الفضــل العباس ، ابن الامام محمــد المتوكل على الله ، ابن المعتضد بالله ، ابن المستكفى بالله ابن الامام أحمــد الحاكم بأمر الله . تسلطن بدمشق بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق فى يوم الاثنين سابع عشرى المحرم من سنة خمس عشرة وثمانمائة . فمن المؤرخين من عده من جملة السلاطين بالديار المصرية ، ومنهم من عده من جملة خلفاء بنى العباس . وهذه القواعد لم تتفق لخليفــة قبله من بنى العبــاس أنه تسلطن بمصر وحكم بها على هذا الوجه . وفيه يقول بعض الشعراء :

سلطاننا حاز الفخــار بأسره
وبأمره مجموع كل الناس

ولقد روى الضحاك عن ثغر له
والجفن فى الاغضا عن العباس

وكان سبب سلطنة الخليفة العباس أنه لما عصى نوروز الحافظى وشيخ المحمودى جرد اليهم الملك الناصر . فلما انكسر الملك النــاصر خلعوه من السلطنة ، واتفق رأى نوروز وشيخ على سلطنة الخليفة العباس كما تقدم ذكر ذلك ، فأحضروا له خلعة السلطنة ، وألبسوها له وباسوا له الأرض .

وكان القائم فى سلطنة الخليفة الأمير نوروز الحافظى . قيل لما أرادوا أن يولوا الخليفة السلطنة امتنع من ذلك غاية الامتناع ، فقال له الأمــير نوروز : « لا تخف ، أنا ظهــرك ، لا يصيبك الا ما يصيب رقبتى » . فشرط عليه الخليفــة العباس قبل أن يلى السلطنة شروطا كثيرة ، منها

أنه اذا خلع من السلطنة يستمر فى الخلافه على حاله الأول ، فأجابوه الى ذلك .

فلما ولوه السلطنة خلع على المقر السيفى نوروز الحافظى واستقر به نائب الشام ، وأضاف اليه جميع خراج البلاد الشامية ، وسلم اليه قلعة دمشق ، ثم خلع على المقر السيفى شيخ المحمودى واستقر به أتابكى العساكر بمصر ومدبر المملكة ونظام الملك ، وصار نوروز يحكم من غزة الى الفرات ، والخليفة والأتابكى شيخ يحكمان من قطيا الى أقصى بلاد الصعيد وأعمال الديار المصرية قاطبة .

فلما وقع الاتفاق على ذلك خرج الخليفة من دمشق وصحبته الأتابكى شيخ وبقية الأمراء والعساكر ، فلما توجهوا قاصدين مصر كان الخليفة العباس فى مدة السفر فى غاية العز والعظمة ، نافذ الكلمة ، وأطاعه سائر العسكر .

فلما دخلوا الى مصر كان للخليفة العباس موكب عظيم ، وحمل الأتابكى شيخ على رأسه القبة والطير . فلما طلع الخليفة الى القلعة وسكن بها سكن الأتابكى بباب السلسلة ، فكانت الأمراء اذا نزلوا من عند الخليفة يدخلون الى المقر الأتابكى شيخ فى باب السلسلة ، ويعطونه الخدمة ثانيا ، فيقع بين يديه الابرام والنقض ، والحل والعقد .

وكان الأتابكى شيخ لا يمكن الخليفة من كتابة مربعة أو منشور أو مرسوم حتى يعرض عليه ذلك جميعه .

فاستمر الأمر على ذلك مدة يسيرة . ثم ان الأتابكى شيخ بدا له أن يتسلطن ويخلع الخليفة العباس من السلطنة ، فعند ذلك أحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء وكتب محضرا بأن عربان الشرقية والغربية قد خرجوا من الطاعة ، وكثر الفساد فى البر والبحر ، واضطربت الأحوال ، وأن الوقت محتاج لاقامة سلطان تركى له سطوة يقمع أهل الفساد وتنصلح الأحوال على يده . فعند ذلك خلعوا الخليفة العباس من السلطنة ولم يخلعوه من الخلافة ، فبايع الأتابكى شيخ بالسلطنة .

فلما تسلطن شيخ استمر الخليفة العباس بالقلعة فى مكان محتفظا به لا يجتمع به أحد ، فأقام على ذلك مدة يسيرة . ثم ان شيخ خلعه من الخلافة أيضا وولى أخاه داود وتلقب بالمعتضد بالله .

وكان الخليفة العباس لما خلع من الخلافة عهد الى ولده ، فلم يمض الملك المؤيد شيخ عهده ، وولى أخاه داود ، ثم أرسل الخليفة العباس الى السجن بثغر الاسكندرية . وكانت مدة سلطنته بالشام ومصر ستة أشهر الا أياما ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة !

وكان فى مدة سلطنته مع الأتابكى شيخ فى غاية الضنك ، ليس له فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط ، والأمر كله للأتابكى شيخ . وكانت مدة خلافته دون السلطنة ثمانى سنين وأشهرا .

واستمر الخليفة فى السجن بثغر الاسكندرية الى دولة الملك الأشرف برسباى ، فأخرجه من السجن وأسكنه فى بعض دور الاسكندرية . واستمر على ذلك الى أن مات فى الوباء الذى وقع فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، وكانت وفاته فى يوم الأربعاء حادى عشرى جمادى الآخرة من تلك السنة ، ودفن هناك رحمة الله عليه .

ومن الحوادث فى أيامه ما نقله الشيخ شهاب الدين بن حجر فى تاريخه أن قاضى قضاة الحنفية ، صدر الدين بن العديم ، تولى الحسبة فى تلك الأيام مضافا لما بيده من قضاء الحنفية ، وهو أول من جمع بين القضاء والحسبة فى وقت واحد ، ولم

يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الدول الماضيه . وفيه تقول بعض الشعراء :

من ولى الحسبة يصـــبر على
تعـــرض الخـــارج والعـــابر
فليس يحطى بالمنى والغـنى
فيهم ســوى المحتسب الصابر

الملك المؤيد المحمودى

هو الملك المؤيد أبو النصر شيخ ابن عبد الله المحمودى الظاهرى ، وكان يعـرف بالحاصكى . وهو الثامن والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الرابع من ملوك الجراكسة وأولادهم .

بويع بالسلطنة بعد خلع الخليفة العباس فى يوم الاثنين مستهل شـــهر شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة (١٤١٣ م) ، فلبس خلعة السلطنة من باب السلسلة وطلع الى القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك وباسوا له الأرض ، وتلقب بالملك المؤيد ، ودقت له البشائر ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من الخاص والعام . وفيه يقول الشيخ ناصر الدين بن كميل الشاعر :

تسلطن الشـــيخ وزال العنا
فالنـــــاس فى بشر وتيه وفيخ
فلا تقـــاتل بصـــبى ولا
تلق به جيشـــا وقاتل بشيخ

وكان أصله من مماليك الملك الظاهر برقوق ، اشتراه من الحواجا محمود شاه وأعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى ساقيا . وكان يعـرف بشيخ المجنون ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين . وسافر الى الحجاز أمير حاج فى سنة احدى وثمانمائة ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك الناصر فـــرج بن برقوق ، ثم بقى نائب طرابلس ونائب الشام أيضا . وأسره تمرلنك على حلب كما تقدم ووقع له فى دولة الملك الناصر فرج أمور شتى ومحن عظيمة ، وسجنه الملك الناصر بخزانة شمايل ، فأقام بها مـــدة ، ثم خرج الى الشام والتف على جـــكم العوضى ونوروز الحافظى ، ولم يزل فى عصيان وهجاج فى البلاد الشامية حتى مضى أكثرعمره ... فلما جرد الملك الى نوروز وقتل الملك الناصر كما تقـــدم ، وتسلطن الخليفة العباس ، بقى أتابك العساكر بمصر ونظام المملكة ، ثم انه خلع الخليفة من السلطنة وتسلطن عوضه .

فلمـــا تسلطن وتم أمره فى السلطنة قبض على جماعـــة من الأمراء وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ووظائف سنية ، وأنعم على ولده المقر الصارمى ابراهيم بتقدمة ألف ، وأقام له من الأمراء عصبة ، وأرضى الجند بالاقطاعات ، ثم قرب جماعة حضروا معه من البلاد الشامية فرقاهم الى وظائف سنية ، فمنهم المقر الزينى عبد الباسط بن خليل ، ومنهم المقر النـــاصرى ناصر الدين بن البارزى ، ومنهم القاضى علم الدين داود بن الكويز ، والقاضى بدر الدين بن مزهر ، والأمير ناصر الدين التاج وأخوه ، والشيخ تقى الدين بن حجة الحموى عين أعيان الشعراء ، وغـــير هؤلاء جماعة كثيرة حضروا معه من البلاد الشامية الى الديار المصرية .

ثم انه قبض على القاضى فتح الله كاتب السر الشريف واحتاط على موجوده من صامت وناطق ، ثم انه خنقه ودفنه تحت الليل . فلما مضى أمر فتح الله خلع على المقر القاضوى ناصر الدين بن البارزى واســـتقر به كاتب السر بالديار المصرية عوضا عن فتـــح الله ، واستقر بالمقـــر الزينى

عبد الباسط كاتب الخزائن الشريفة ، ثم جعله والى القاهرة وناظر الجوالى وناظر الكسوة الشريفة . واستقر بالقاضى علم الدين بن الكويز ناظر الجيوش المنصورة ، واستقر بالأمير ناصر الدين التاج استادار الصحبة ، وقرر كل واحد منهم فى وظيفة تليق به . ثم انه قرب من الأمراء من شاء منهم ، وأبعد من شاء منهم ، واستقامت أموره فى السلطنة ، وأطاعه الجند ولم يختلف عليه اثنان من العسكر .

سنة ست عشرة وثمانمائة (١٤١٣ م) :

فيها جاءت الأخبار من دمشق بأن نوروز الحافظى لما بلغه أن شيخ خلع الخليفة العباس من السلطنة وتسلطن عوضه ، عز ذلك عليه ، ولم يقبل الأرض للملك المؤيد شيخ ، وأظهر العصيان وتعجب من شيخ كيف خان الأيمان والعهود التى كانت بينه وبين نوروز — وكانوا أعظم من الاخوة ينامون على مخدة واحدة — فخان شيخ الأيمان والعهود وتسلطن بمصر ، فكان كما قيل:

وحلفت أنك لا تميل مع الهوى
أين اليمين وأين ما عاهدتنى ؟

واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباس على منابر دمشق وأعمالها ، ولم يخطب باسم الملك المؤيد شيخ ، ولاضرب باسمه سكة ، واستمر واضعا يده على البلاد الشامية من غزة الى الفرات .

وفى هذه السنة خلع السلطان على منكلى بغا الشمسى وولاه محتسبا بالقاهرة ، وهو أول من تولى الحسبة من الأتراك ولم يتولها قبله أحد من الأتراك .

ومن الحوادث فى تلك السنة أنه ظهر بالقاهرة شخص يدعى أنه يصعد الى السماء ويكلم البارى جل جلاله فى كل يوم مرة ، فاعتقده جماعة كثيرة من عوام مصر فلما شاع أمره بين الناس رسم السلطان بأن يعقدوا له مجلسا بالصالحية ، فاجتمع له هناك القضاة الأربعة ، فأراد القاضى المالكى أن يثبت عليه الكفر ، فشهد جماعة من أهل الطب بأن فى عقله خللا فسجنوه ولم يثبت عليه الكفر ... وهذه الواقعة متفق على صحتها فى زمن المؤيد شيخ .

سنة سبع عشرة وثمانمائة (١٤١٤ م) :

فيها قوى عزم الملك المؤيد شيخ بأن يخرج الى الشام بسبب عصيان نوروز ، فعلق الجاليش وعرض العسكر وأنفق عليهم ، وخرج من القاهرة فى موكب عظيم وصحبته الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وسائر الأمراء . وقرر الأمير ططر نائب الغيبة الى أن يحضر السلطان ، والأمير سودون قرا سنقر حاجب الحجاب يحكم بين الناس . فلما وصل الى دمشق وجد نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ أشد ما يكون من المحاصرة ، ونصب حول مدينة دمشق صاعدة مناجيق ، ولا زال يحاصر نوروز مدة طويلة حتى ضجر نوروز وأرسل يطلب من شيخ الأمان على نفسه ، وكان بقلعة دمشق . فما زالوا على ذلك حتى غلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ . وآخر الأمر قطع شيخ رأس نوروز فى قلعة دمشق وأرسلها الى القاهرة وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام ثم دفنت .

وكان شيخ باغيا على نوروز ، فكأن لسان حال نوروز يقول :

يا غادرا بى ولم أغدر بصحبته
وكان منى مكان السمع والبصر

قد كنت من قلبك القاسى أخاف جفا
فجاء ما قلتـــه نقشا على حجـر

قال الشيخ تقى الدين بن حجة الشاعر . وفى النيل المبارك فى سنة ست عشرة وثمانمائة فى أوائل مسرى ، فنزل الملك المؤيد وخلق المقياس وكسر السد على العادة — وذلك قبـل أن يتوجه الى دمشق بسبب نوروز — فأنشدته فى ذلك اليوم مهنئا :

أيا ملكا بالله صـــار مـــؤيدا
ومنتصـبا فى ملكه نصـب تمييز

كسرت بمسرى سد مصر وتنقضى
وحقك بعـد الكسر أيام نوروز

فكان الفأل بالنطق . وتوجه الملك المؤيد عقيب ذلك الى نوروز وقطـع رأسه وأرسلها الى مصر صحبة الأمير جرباش قاشق ، وذلك فى جمـادى الأولى سنة سبع عشرة وثمانمائة ، فارتجت لهـا مصر ، وأقام بعد ذلك فى دمشق أياما حتى مهد البلاد الشامية ، وعزل من عزل ، وولى من ولى وخلع على قانباى المحمدى واستقر به نائب الشام عوضا عن نوروز الحافظى ، وخلع على الأمـير اينال الصصلانى واستقر به نائب حلب ، وخلع على الأمير سودون بن عبـد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على الأمير جانى بك البجاسى واستقر به نائب حماه ، ثم قصد التوجه الى نحو الديار المصرية ، فلما دخل الى مصر كان له يوم مشهود ، وزينت له القاهرة ، وحملت على رأسه القبة والطير حتى طلع الى القلعة .

سنة ثمانى عشرة وثمانمائة (١٤١٥ م) :

فيها جاءت الأخبار بأن النواب المقدم ذكرهم قد أظهروا العصيان وخرجوا عن الطاعة ، فجرد اليهم الملك المؤيد ثانيا ، وخرج اليهم بنفسه وأوقع معهم فانتصر عليهم وقبض على قانبـاى المحمدى نائب الشام وقطـع رأسه ، ثم قبض على اينال الصصلانى وقتله على صدر أبيه ، ثم قتل الأب بعد ذلك . ثم انه ولى جمـاعة من الأمراء نوابا غير هؤلاء ورجع الى الديار المصرية ، فلم يقم سوى مدة يسيرة . وقد جاءت الأخبار بأن النــواب قد خامروا وأظهروا العصيان ، فجرد اليهم ثالث مرة وخرج بنفسه . فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف أمير التركمان ، فاستقر بنواب غيرهم ممن يثق بهم . وفى هذه المرة مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جادرة هذه النواب الذين كانوا مخامرين عليه .

ثم رجع الى الديار المصرية ، وقـد صفا له الوقت ، وانشأ له مماليك كثيرة ، وجدد له أمراء وحســنت أوقاته بمصر . فكان ينزل من القلعـة ويتوجه الى بولاق ويقيم عند القاضى ناصر الدين ابن البـارزى فى بولاق . وكان يعمـل المواكب هناك وتجتمع الأمراء المقدمون عنده . وكان ينزل يعوم فى بعض الأوقات فى البحر وحوله الأمراء والخاصكية .

وكان يتباهى فى يوم كسر سد النيل المبارك ، ويلزم الأمراء المقدمين بأن كل واحد منهم يزين له حراقة ويجعل فيها الصناجق والكثوسات ، فاذا وفى النيل يحضرون له بالذهبية الى بولاق ، ويتوجه الى المقياس يخلق العمود ويكسر السد ، والأمراء المقدمون حوله فى الحراريق المزينة حتى يســدوا البحر من كثرة المراكب ، ويكون له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم . وقد فاق فى ذلك على ما كان يصنعه فى ذلك اليوم أستاذه الملك الظاهر برقوق . وكان يتباهى فى المواكب الجليلة الى الغاية .

وكان رجلا كثير التنزه ، لا يقيم بالقلعة الا قليلا وأكثر أيامه فى بولاق . وقيـل كانت الرماحـة

تلعب قدامه فى بولاق وهو ينظر اليهم من البارزية ولم يمش أحد من الملوك على طريقته فى اللهو والقصف .

سنة تسع عشرة وثمانمائة (١٤١٦ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وفتك غاية الفتك فى البرية ، وقد قال بعض الشعراء :

رعى الرحمن دهرا قد تولى
يجازى بالسلامة كل شرط
وكان الناس فى غفلات أمن
فجا طاعونهم من تحت ابط

سنة عشرين وثمانمائة (١٤١٧ م) :

فيها ظهرت أعجوبة . ولدت جاموسة بمدينة بلبيس مولودة لها رأسان وأربع أيد وسلستا ظهر ، ولها دبر واحد وفرج واحد ، ولها رجلان فى حقوها ، فأقامت أياما وماتت .

ومن العجائب أيضا ما ذكره العلامة شهاب الدين بن حجر فى تاريخه أن المصونة فاطمة بنت قاضى القضاة جلال الدين بن سراج الدين عمر البلقينى ولدت ولدا ذكرا له ذكر وفرج ، وله يدان زائدتان فى كتفيه ، وله قرنان فى رأسه مثل قرون الثور ، فأقام ساعة ومات .

وذكر أيضا فى تاريخه أن جملا ذبح بمدينة غزة بعد العشاء فأضاء لحمه فى الليل كما يضيء الشمع . وقيل رمى بقطعة من لحمه لكلب فلم يأكل منها شيئا ، ولم يعلم سبب ذلك ... وهذا من العجائب التى وقعت فى تلك السنة .

سنة احدى وعشرين وثمانمائة (١٤١٨ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، واستمر يسلسل حتى دخلت سنة اثنتين وعشرين ، فكان تارة يزيد وتارة ينقص .

وفى سنة احدى وعشرين وقع الغلاء أيضا بالديار المصرية ، ونزل الملك المؤيد شيخ واستسقى كما جرت بذلك العادة . وقيل ان الملك المؤيد لما نزل الى الاستسقاء لبس جبة صوف أبيض وعلى رأسه عمامة صغيرة جدا بعذبة مرخية خلفه ، وعلى كتفه مئزر صوف أبيض ، وركب فرسا بغير قماش حرير ولا سرج ذهب ، وذبح هناك بيده أغناما وأبقارا وفرقها على الفقراء ، وفرق فى ذلك اليوم على الفقراء ثلاثين ألف رغيف ، وصلى على الرمل من غير سجادة . وتواضع الى الله تعالى فى ذلك اليوم ، فزاد النيل ووفى فى أواخر توت ثم انهبط بسرعة ، وشرقت أكثر البلاد ، واستمر الغلاء بمصر سنة كاملة ، وعزت الأقوات .

سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة (١٤١٩ م) :

فيها كملت عمارة جامع الملك المؤيد شيخ الذى هو داخل باب زويلة ، وكان مكان هذا الجامع سجنا يحبس فيه أصحاب الجرائم ، وكان يعرف بخزانة شمايل . وكان شمايل هذا من جملة جماعة والى القاهرة ، فلما خرج الملك الكامل صاحب المدرسة الكاملية الى قتال الفرنج لما أخذوا ثغر دمياط ، كان شمايل هذا يمشى فى ركاب الملك الكامل ، ويسبح فى البحر تحت الليل ، ويكشف عن أخبار الفرنج ويأتى الملك الكامل بالأخبار ، فحظى عنده بذلك . فلما انتصر الملك الكامل على الفرنج جعل شمايل هذا والى القاهرة ، فبنى له هذا السجن فنسب اليه ، وقيل « خزانة شمايل » .

وكان الملك المؤيد شيخ من جملة من حبس فى خزانة شمايل فى دولة الملك الناصر فرج بن برقوق فقاسى بها شدائد عظيمة ، فنذر فى نفسه ان خلص من هذه الشدة وبقى سلطانا يهدم هذا السجن

ويبنى مكانه جامعا فلما تولى الملك بمصر هدمه وبنى مكانه هذا الجامع وقد تناهى فى زخرفته ورخامـه وسقوفه وأبوابه ، فلم يبن فى القاهرة مثله ولا مثـل سقفه ، ولكنه ظلم أعيان الناس فى تحصيل رخامه ، وصاروا يكبسون البيـوت والحارات بسبب الرخام ، فظـلم خلق الله حتى حصل هذا الرخام ومن جملة ظلمه فيه أنه أخذ باب مدرسـة السـلطان حسن والتنـور الكبير وجعلهما فى جامعه ، وأعطى فيهما أبخس الأثمان . وأخذ العمودين السماق اللذين فى المحـراب من جامع قوصون الذى بالقرب من بركة الفيـل ، ووزع أخشاب سقوفه ودهانها على أعيان المباشرين فكان كما قيل :

بنى جامعا لله من غير حله
فجاء بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها
فليتك لاتزنى ولا تتصدقى

ولما تم بناء هذا الجامع وقف عليه الأوقاف الجليلة من بلاد ومسقفات ، وقرر فيه حضورا من بعد العصر ، ورتب لهم جوامك وخبزا ، وقرر شيخ الحضور الشـيخ شمس الدين الديرى الحنفى ، وجعل الخطابة للقاضى ناصر الدين بن البارزى ، وأودع بهذا الجامع خزانة كتب نفيسة .

قيل لما كملت عمارة هذا الجامع رسم السلطان بأن تملأ الفسقية التى فى صحن الجامع سكرا وماء ليمون ، فملئت سكرا ووقف رءوس النواب يفرقون السكر على الناس بالطاسات ، وخلع فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة من المشدين والمهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين . فلما كان يوم الجمعة حضر بالجامع القضـاة الأربعة وسائر الأمراء وأرباب الوظائف وأعيان العلماء ، وخطب فى ذلك اليوم القاضى ناصر الدين بن البارزى كاتب السر الشريف خطبه بليغة ، وكان يوما مشهودا . فلما كان وقت الحضور فى الجـامع اجتمع الطلبة وخرج الشيخ شـمس الدين الديرى من الخـلوة وقدامه ولد السلطان المقر الصارمى ابراهيم ، وهو حامل سجادة الشـيخ شمس الدين الديرى حتى فرشها له فى المحراب ، وفى ذلك يقول بعض شعراء العصر :

ان يقولوا سجادة فوق بحـر
لولى يمشى عليهـا كـرامه
قلت هذى سجادة فوقها البحـ
ـر فحدث عنه بغـير ملامه

ومن الحوادث أنه لما بنوا مئذنتى هذا الجامع مالت احداهما الى السقوط عند ما كملت ، فرسم بهدمها فهدمت ثم أعيدت ثانيا ، فقال العلامة شهاب الدين بن حجر يداعب قاضى القضـاة بدر الدين محمود العينى الحنفى فى هذه الواقعة :

لجـامع مولانا المـؤيد رونق
منارته تزهو من الحسن والزين
تقـول وقد مالت عليهم ترفقوا
فليس على هدمى أضر من العين

فأجابه عن ذلك بدر الدين بن العينى :

منارة كعروس الحسن اذ جليت
وهـدمها بقضاء الله والقـدر
قالوا أصيبت بعين قلت ذا غلط
ما أوجب الهدم الا خسة الحجر

ومما عد له من المحاسن أنه أبطل مكس الفواكه قاطبة ، ونقش ذلك على رخامة وجعلها بباب هذا الجامع لما كمل بناؤه .

سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة (١٤٢٠ م) :

فيها توفى المقر الصارمى ابراهيم ابن السلطان المؤيد شيخ . وقيل ان أباه المؤيد سمه فى حلوى ،

وسبب ذلك أن سيدى ابراهيم كان شجاعا بطلا لا يسل من الحرب والقتال ، فمالت اليه قلوب الجند . وكان الملك المؤيد لا يزال يعتريه ضربان المفاصل ، وكان قد ثقل عن الحركة ، فكان يحمل على أكتاف المماليك اذا نقل من مكان الى مكان ، فقال القاضى ناصر الدين بن البارزى للملك المؤيد : « ان العسكر يقصدون خلعك من السلطنة ويولون سيدى ابراهيم » ... فحسن له أن يشغله . فلما شغله ومات حزن عليه الناس حزنا شديدا ، ودفن داخل القبة التى فى الجامع المؤيدى .

فلما كان يوم الجمعة حضر السلطان المؤيد فى الجامع ، وصلى الجمعة فى مأتم ابنه ، فخطب القاضى ناصر الدين بن البارزى فى ذلك اليوم خطبة فى معنى ذلك حتى ينفى عنه كلام الناس ، فروى وهو على المنبر هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لما أن دخل على ولده ابراهيم وجده يجود بنفسه ، فلما رآه رسول الله صلى الله عيه وسلم جعلت عيناه تذرفان وقال : « ان العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول الا مايرضى ربنا ، وانا بفراقك يا ابراهيم لمحزونون » فلما سمع الملك المؤيد ذلك شق عليه وقال فى نفسه : « يغرينى على ولدى حتى أقتله ثم يندمنى عليه ؟ » ... فلما فرغ القاضى ناصر الدين من صلاة الجمعة قدم اليه سلطانية سكر وشغله فيها ، فتوجه الى بيته وأقام أياما ومات ، والمجازاة من جنس العمل .

سنة أربع وعشرين وثمانمائة (١٤٢١ م) :

فيها ثقل الملك المؤيد فى الضعف ولزم الفراش ، واستمر على ذلك أياما حتى مات فى يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، فغسل فى القلعة وكفن وصلى عليه ونزلوا به من القلعة والأمراء مشاة قدامه حتى توجهوا به الى جامعه ، فلم يدخلوا به من باب زويلة ودخلوا به من الباب الذى عند الخضريين .

وقيل مات وله من العمر خمس وستون سنة ، وخلف من الأولاد صبيا وبنتين ، وهو سيدى أحمد الذى تسلطن بعده ، وهو ابن خوند سعادات . وكانت احدى بناته متزوجة بالأتابكى قرقماس الشعبانى ، والأخرى متزوجة بالأمير يشبك الفقيه الدوادار ، وهى أم ولده سيدى يحيى .

فكانت مدة سلطنة الملك المؤيد شيخ بالديار المصرية والبلاد الشامية ثمانى سنين وخمسة أشهر وثمانية أيام . وكان ملكا جليلا كفئا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة ، وافر العقل ، مقداما فى الحرب ، وله مكايد وحيل وثبات وقت التقاء الجيوش حتى ضرب به المثل ، فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ، ومن حطمة نوروز الحافظى .

وكان المؤيد كريما على من يستحق الكرم ، وشحيحا على من يستحق الشح . وكان يضع الشىء فى محله . وهو الذى مهد البلاد الشامية والحلبية ، وقطع جدر تلك النواب العصاة الذين أخربوا غالب البلاد الشامية . وكان يميل الى اللهو والطرب ، ويستعمل الراح ويميل الى الملاح . وكان يستعمل الأشياء المخدرة من المصطلات . وكان يقرب أرباب الفنون . وكانت أرباب الفنون تتباهى فى أيامه فى فنونهم لجودة فهمه وحسن معرفته . وكان يغنى من فن الموسيقى ويركز الفن وينظم الشعر . ومن نظمه الرقيق قوله من قصيدة :

فتنتنا سوالف وخدود
وعيون نواعس وقدود
أسرتنا الظبا وهن نعاس
وخضعنا لها ونحن الأسود

ولم يزل يركز هـذه الأبيات الى الاستشهاد باسمه فقال :

وأنا الخاصكى شـيخ المؤيد

نظم شـعرى جواهر وعقود

وله أشياء كثـيرة من الفن دائرة بين المغنـين الى الآن .

وكان منقـادا الى الشريعة ويحب أهل العـلم ويقرب الفقهاء والصلحاء ويبرهم ويحب فعل الخير ، وله أوقاف كثيرة على جهات بر وصـدقة . ولكن ذكر له المقريزى أشياء كثيرة من المساوىء ، منها أنه كان جهورى الصوت ، سفيها فى كلامه . وكان غير مقبول الشكل ، واسع العينين ، كبير الكرش ، درى اللون ، أكث اللحية ، معتدل القامة ، متركن الوجه ، كبير الأنف . وكان سفاكا للدماء ، قتـل جماعة كثيرة من النواب والأمراء . وكان اذا ظفر بأحد من أعدائه لا يرحمه . وكان كثير المصادرات للرعية . وأحدث فى أيامه أشياء كثيرة من أبواب المظالم لما كان يخرج الى التجاريد .

وأما ما أنشأه من العمائر بالديار المصرية فهو الجامع الكبير الذى هو داخل باب زويلة ، وعمر الجامع الذى فى رأس الصـوة مكان المدرسـة الأشرفية التى هدمها الملك الناصر فرج بن برقوق ، وعمر الجامع الذى عند المقياس ، وعمر الخلاوى والمئذنة التى فى المدرسة الخروبية التى فى بر الجيزة ، وجدد عمارة القبة التى فى قاعة البحرة ، وجدد عمارة التـاج والسبعة وجـوه التى كانت بالقرب من الكوم الابيض ، ولكن هدم ودرست معالمه فى دولة الملك الظاهر جقمق ، وكان من جملة المفترجات القديمة بمصر فهدمه الناصرى محمد بن اينال قريب الملك الظاهر جقمق .

وللملك المؤيد آثار كثيرة غـير ذلك بمصر والشام .

وكانت دولته ثابتة القواعد ، وصـير الذئب والغنم يمشيان فى صعيد واحد .

فأما قضاته الشافعية فالقاضى جلال الدين بن سراج الدين البلقينى الشافعى ، والقاضى ولى الدين العراقى الشافعى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى بدر الدين محمود العينى الحنفى ، والقاضى التفهنى ، والقـاضى صدر الدين بن العديم الحنفى . وأما قضاته المالكية فالقـاضى نصر الدين بن التونسى المالكى . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى علاء الدين ابن مغلى الحنبلى

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فقاضى القضاة جلال الدين بن سراج الدين البلقينى الشافعى . قيل انه توفى بمنزلة الصالحية عند عود الملك المؤيد من البـلاد الشـامية . فلما توفى جلال الدين فى الصالحية ودخـل السلطان الى الديار المصرية اشتوروا فيمن يولونه قاضـيا عوضا عن جلال الدين ، فأخبروا السـلطان بذكر ابنه تاج الدين وأخيه علم الدين صالح ، فلما بلغ الشيخ شهاب الدين بن حجر ذلك أنشد يقول :

مات جلال الدين قالوا ابنـه

يخلفـه أو فالأخ الكاشـح

فقلت تاج الدين لا لائق

بمنصب الحكم ولا صـالح

ثم وقع الاختيار على تولية الشـيخ ولى الدين العراقى فولى عوضا عن جلال الدين البلقينى .

وتوفى فى أيام المؤيد من الأعيـان الشـيخ شمس الدين البنانى وكان من كبار الحنفية ، وتوفى الشيخ مجد الدين الفيروزابادى صاحب القاموس ، وتوفى الشـيخ خلف النحريرى وكان من كبـار المـالكية ، وتوفى الشـيخ جمال الدين بن ظهيرة قاضى القضـاة الشافعية بمكة ، وتوفى الشـيخ

برهان الدين بن رفاعة الدمشقي وكان من أعيان دمشق وله شعر جيد ، وتوفى ابن هشام العجمى ، وتوفى القاضى ناصر الدين بن البارزى الجهنى الشافعى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وتوفى الشيخ عز الدين الموصلى صاحب شرح البديعية ، وتوفى الشيخ جمال الدين بن خطيب داريا وكان من فحول الشعراء ، وتوفى الشيخ علاء الدين بن أينبك الدمشقى وكان من فحول الشعراء ، وتوفى فى أيامه جماعة كثيرة من الأعيان .

ولما توفى الملك المؤيد شيخ تولى من بعده ابنه الملك المظفر .

الملك المظفر أبو السعادات

هو الملك المظفر أبو السعادات أحمد ، ابن الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى . وهو التاسع والعشرون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الخامس من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

تسلطن بعد موت أبيه الملك المؤيد شيخ فى يوم الاثنين تاسع المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة . تسلطن وله من العمر سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام ، فكان مرضعا . وكانت ولايته تقرب من ولاية سابور ذى الأكتاف الذى تولى الملك وهو فى بطن أمه ، فوضعوا على بطنها تاج الملك وسابور حمل . فكانت ولاية الملك المظفر أحمد تقرب من ذلك . وكانت أمه خوند سعادات بنت الأمير صرغتمش الناصرى .

فلما تسلطن كان الأتابكى الطنبغا القرشى غائبا فى التجريدة هو وجماعة من الأمراء نحو البلاد الشامية بسبب عصيان النواب ، وكان بمصر من الأمراء المقر السيفى ططر أمير مجلس .

فلما توفى الملك المؤيد شيخ تعصب مماليكه وقالوا : « ما نسلطن الا ابن أستاذنا » . وكان المماليك المؤيدية نحو خمسة آلاف مملوك . فلما حضر الخليفة والقضاة الأربعة وقصدوا المبايعة لأحمد ابن الملك المؤيد عارض الخليفة فى ذلك وقال : « هذا صغير وتضييع أحوال المسلمين بين الأمراء » ... فقال المماليك : « الأمير ططر يكون مدبر المملكة الى أن يحضر الأتابكى الطنبغا » ... فما وسع الخليفة الا أنه بايعه على كره منه ، فسلطنوه ولقبوه بالملك المظفر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، ثم أجلسوه على سرير الملك وهو فى حجر المرضعة .

وكانت العادة اذا تسلطن سلطان وجلس على سرير الملك فى القصر الكبير تدق الكئوسات داخل القصر . فلما أجلسوا الملك المظفر أحمد على سرير المملكة وهو فى حجر المرضعة دقت الكئوسات فى القصر ، فاضطرب الملك المظفر اضطرابا شديدا وأغمى عليه ، فحصل له فى الحال حول فى عينيه من الرجفة ، واستمر فى كل وقت يضطرب الى أن مات .

فلما تم أمره فى السلطنة ثار المماليك المؤيدية على الأمير ططر بسبب الامريات والوظائف ، وصار ططر معهم فى غاية الضنك ، فما وسعه الا أن يرضيهم بكل ما يمكن ، فخلع على الأمير على باى المؤيدى واستقر به دوادارا كبيرا وكان أمير عشرة ، وخلع على الأمير تغرى بردى بن قصروه واستقر به أمير آخور وكان أمير عشرة ، ثم جعل جماعة من الأمراء المؤيدية مقدمى آلوف ، وجماعة منهم أمراء طبلخانات ، وجماعة منهم أمراء عشراوات . ثم انه فرق الاقطاعات السنية على المماليك المؤيدية .

ثم جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن جقمق الأرغونى نائب الشام قد خامر وخرج عن الطاعة ، وكذلك يشبك المؤيدى نائب حلب قد خامر أيضا

وخرج عن الطاعة ، وكذلك بقية النواب قد خامروا وخرجوا عن الطاعة . وكان الأتابكى الطنبغا القرشى لما توجه الى الشام بسبب عصيان النواب أوقع معهم بمن معه من الأمراء فهربوا الى نحو صرخد .

ثم ان الأتابكى الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربان والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق منه وهرب الى نحو حلب ، فملك الأتابكى الطنبغا دمشق وقلعتها . فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والتفت عليه العربان والعشير . فلما بلغ الأمراء ذلك خلعوا على ططر واستقروا به أتابكى العسكر عوضا عن الطنبغا القرشى .

ثم اتفق الحال على أن الأتابكى ططر يأخذ السلطان معه فى محفة ويتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشى والنواب . فخرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر احمد فى محفة ، والمرضعة معه ، وخرج من مصر وسائر الأمراء والعسكر ، وكانت خوند سعادات صحبة ابنها فى المحفة لما خرج الى الشام حتى تأمن عليه من القتل .

وكانت خوند سعادات لما انقضت عدتها مشت الأمراء بينها وبين ططر بأن يتزوج بها . فلما خرج ابنها الى الشام خرجت معه ، فلما وصلوا به الى الشام ألقى الله تعالى الرعب فى قلب الطنبغا القرشى وجقمق نائب الشام . فلما دخل الملك المظفر الى الشام حضر اليه الطنبغا القرشى وفى رقبته منديل فباس الأرض قدام الملك المظفر وهو فى المحفة . فلما وقعت عليه عين الأتابكى ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ، ثم قبض على جقمق نائب الشام وسجنه بقلعة دمشق أيضاً . ثم انه أمر بخنقه وبخنق الطنبغا القرشى فخنقا تحت الليل ، ثم قبض على جماعة من النواب وقتلهم .

وأخذ فى أسباب القبض على جماعة من الأمراء المؤيدية ، فاحتال عليهم وأظهر أنه قد مرض وأقام بقلعة دمشق . ولما بلغ الأمراء ذلك طلعوا يسلمون عليه ودخلوا عليه ، فقبض على جماعة منهم حتى قيل قبض فى يوم واحد على أربعين أميرا من الأمراء المؤيدية وحبسهم بقلعة دمشق ، ثم قبض على جماعة من المماليك المؤيدية نحو ثلثمائة مملوك وحبسهم بقلعة دمشق . فعند ذلك صفا لططر الوقت ، والتفت عليه خشداشينه القاهرية ، وفرق عليهم الاقطاعات والوظائف ، وقويت شوكته وعصبته ، وصار يمهد لنفسه فى الباطن ...

فعند ذلك خلع الملك المظفر أحمد من السلطنة ، وتسلطن عوضه بدمشق . وكان الخليفة المعتضد بالله داود صحبته ، والقضاة الأربعة ، فبايعوا ططر وسلطنوه ، وذلك فى يوم الجمعة تاسع عشرى شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الظاهر ، وخطب باسمه فى ذلك اليوم على منابر دمشق .

فلما تم أمره فى السلطنة هناك طلق خوند سعادات أم الملك المظفر أحمد وقد خاف على نفسه منها . والذى خاف منه وقع فيه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ، فلم ينل من الدهر قصده .

فلما تسلطن قصد التوجه الى نحو الديار المصرية ، وأخذ الملك المظفر معه وأمه ورجع الى مصر . فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وزينت له المدينة ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب الى أن طلع القلعة . فلما جلس على سرير الملك أرسل الملك المظفر أحمد الى السجن بثغر الاسكندرية ، وأرسل معه المرضعة

والدادة ، فكانت مدة سلطنته بمصر سبعة أشهر وعشرين يوما ... فما كان أغناه عن هذه السلطنة ، والحول الذى حصل فى عينيه لما دقت الكئوسات فى القصر يوم سلطنته كما تقدم ، وآخر الأمر سجن ! وأقام فى السجن الى أن مات بثغر الاسكندرية فى سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة فى دولة الأشرف برسباى . ومات بالطاعون ، ثم نقل بعد موته الى القاهرة ودفن على أبيه داخل القبة التى فى الجامع المؤيدى الذى هو داخل باب زويلة . ومات وله من العمر نحو احدى عشرة سنة ، ولم يع أيام سلطنته وانما وعى نفسه فى السجن الى أن مات فيه . وقد دخل مماليك أبيه فى خطيئته حيث سلطنوه وهو فى هذه السن .

وكان المظفر هذا حسن الشكل جميل الصورة ، وانما حدث له ذلك الحول فى عينيه من يوم سلطنته كما تقدم .

ومن الحوادث فى أيامه أن فى هذه السنة — وهى سنة أربع وعشرين وثمانمائة — زاد النيل المبارك زيادة مفرطة ، واستمر ثابتا الى آخر هاتور من الشهور القبطية ، وهذا قط لم يعهد فى الاسلام . وحصل للناس فى تلك السنة الضرر الشامل واستبحرت الأراضى وغرق أكثر البساتين ، وفات الزرع عن أوانه ، وانقطعت الطرق من الماء . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

يا رب ان النيل زاد زيادة
أدت الى هدم وفرط تشتت
ما ضره لو جا على عاداته
فى دفعه أو كان يدفع بالتى

وتوفى فى أيامه قاضى القضاة الشافعية ولى الدين العراقى ، والشيخ شمس الدين الديرى الحنفى . وقيل بل مات فى أثناء دولة الملك الأشرف برسباى والله أعلم بذلك .

الملك الظاهر ططر

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد ططر الظاهرى الچركسى . وهو الثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو السادس من ملوك الچراكسة فى العدد .

كان أصله من مماليك الظاهر برقوق من مشترواته ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك السلطانية الجمدارية ، ثم هرب من الملك الناصر فرج وتوجه الى حلب والتف على جكم العوضى لما تسلطن بحلب ، فلما قتل جكم التف ططر على شيخ ونوروز لما أظهرا العصيان بالشام ، فلما قتل الملك الناصر بالشام وتسلطن الخليفة العباس أنعم على ططر بامرية عشر . ثم بقى أمير أربعين فى دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ... كل ذلك فى دولة المؤيد شيخ . فلما مات الملك المؤيد وتسلطن ابنه الملك المظفر بقى ططر مدبر المملكة ، فلما أظهر العصيان الأتابكى الطنبغا القرشى ، لما كان بالشام ، بقى ططر أتابك العساكر عوضا عنه . فلما خرج الى الشام صحبة الملك المظفر أحمد وظفر بالأتابكى الطنبغا القرشى والأمير قجقار القردمى أمير سلاح ونائب الشام چقمق الأرغون شاوى وجماعة من النواب ، وقتلهم كما تقدم ذلك ، قبض على جماعة كثيرة من الأمراء المؤيدية وسجنهم بقلعة دمشق ، فعند ذلك صفا له الوقت وقويت شوكته ، والتفت عليه خشداشينه الذين كانوا مفرقين فى بلاد الشرق ، فخلع الملك المظفر من السلطنة وتسلطن عوضه بالشام ، وطلق خوند سعادات أم الملك ، فقيل انها أشغلته فى منديل الفرش لما خلع ابنها من السلطنة فمرض ططر بالشام

ودخل الى مصر وهو عليل ، واستمر يسلسل فى المرض ولزم الفراش ، فهو كما قيل فى المعنى :

فكان كالمتمنى أن يرى فلقا
من الصباح فلما أن رآه عمى

فلم يزل عليلا حتى مات فى يوم الأحد رابع ذى الحجة من سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر نحو خمس وخمسين سنة ، ودفن بجوار قبر الامام الليث بن سعد رضى الله تعالى عنه ... فكانت مدة سلطنته بالشام وبمصر ثلاثة أشهر وأياما . وقد تحمل فى هذه المدة اليسيرة اثم من قتله من الأمراء والمماليك فى طلب السلطنة ، وقد مهد لغيره فكان كما قيل فى المعنى :

الا انما الأرزاق تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ولما مرض ططر عهد بالسلطنة الى ابنه محمد .

الملك الصالح ناصر الدين

هو الملك الصالح ناصر الدين محمد ، ابن الملك الظاهر ططر ، وهو الحادى والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم ، وهو السابع من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية فى العدد .

بويع بالسلطنة بعد موت أبيه ططر فى يوم الأحد رابع ذى الحجة سنة أربع وعشرين وثمانمائة .

تسلطن وله من العمر نحو احدى عشرة سنة . فلما بايعه الخليفة أحضروا له خلعة السلطنة ، وتلقب بالملك الصالح ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وجلس على سرير الملك .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على المقر الأتابكى جانى بك الصوفى واستقر به أتابك العساكر على عادته ، ومدبر المملكة . فصار الأتابكى جانى بك فى تلك الأيام صاحب الحل والعقد والابرام والنقض ، فعز ذلك على بقية الأمراء ، وصار الأمير طراباى الظاهرى حاجب الحجاب يرمى الفتن بين الأتابكى جانى بك الصوفى وبين المقر السيفى برسباى الدقماقى أمير دوادار كبير ، فوثب الأمير برسباى على الأتابكى جانى بك الصوفى ، فهرب فى أواخر النهار ، فقبض عليه بعض المماليك وأحضروه الى الأمير برسباى ، فقيده وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، فاجتمعت الكلمة من بعد ذلك فى برسباى ، وصار صاحب الحل والعقد .

ثم ان برسباى وقع بينه وبين الأمير طراباى حاجب الحجاب ، فقبض عليه وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، فعند ذلك صفا للأمير برسباى الوقت ، وقويت شوكته ، فتعصب له جماعة من الأمراء وخلعوا الملك الصالح محمد بن ططر من الملك وتسلطن برسباى . فكانت مدة سلطنة الملك الصالح بمصر ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما لا غير . وكان ليس له فى السلطنة الا مجرد الاسم فقط .

فلما خلعه برسباى من السلطنة عطف عليه ولم يسجنه بثغر الاسكندرية كعادة أولاد الملوك ، بل أدخله دور الحرم وأسكنه فى قاعة البربرية هو وأمه خوند بنت الأمير سودون الفقيه . ثم ان الأشرف برسباى زوج الملك الصالح بنت الأتابكى يشبك الأعرج . واستمر الملك الصالح ساكنا فى القلعة بدور الحرم ، ورسم له الملك الأشرف برسباى بأن ينزل ويركب فى كل جمعة ويزور قبر والده ططر . فكان يركب صحبة المقر الناصرى محمد الملك الأشرف برسباى ويسيرون نحو المطرية .

وسيدى محمد هذا كان ابن الأشرف برسباى ، وكان أكبر من ولده سيدى يوسف ولكن توفى فى حياة والده عقيب الفصل الذى جاء فى سنة ثلاث

وثلاثين وثمانمائة . وكان الملك الصالح محمد بن ططر هذا يهلل كثير الخباط . فكان يسمى الفرس البوز (الفرس الأبيض) ، فقال بعض الخدام لاتقل الفرس الأبيض وقل الفرس البوز ، فحفظ منه ذلك الاسم ، فطلب يوما سلطانية صينى أبيض فقال : « هاتوا السلطانية البوز » ... فنهره بعض الخدام ونهاه عن ذلك ، فقال له : « لالاتى علمنى هذا » ... وكان له من أنواع الخباطة أشياء كثيرة ليس هذا محلها ، فكان كما قيل فى الأمثال :

فى الناس من تسعده الأقدار
وفعله جميعه ادبار

واستمر الملك الصالح على ذلك حتى توفى فى ليلة الخميس ثانى عشرى جمادى الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، ومات بالطاعون الذى وقع فى تلك السنة ، ودفن على والده ططر بجوار قبر الامام الليث . ومات وله من العمر اثنتان وعشرون سنة .

ولما مات الملك الصالح محمد رسم الملك الأشرف برسباى لأولاد الأسياد الذين كانوا فى دور الحرم من داخل بأن ينزلوا يسكنون المدينة . وأنعم على كل واحد منهم بفرس ومائة دينار ، فنزلوا من يومئذ وسكنوا بالمدينة ، وبطل أمرهم .

الملك الأشرف برسباى

هو الملك الأشرف أبو النصر برسباى الدقماقى الظاهرى ، وهو الثانى والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الثامن من ملوك الجراكسة وأولادهم . بويع بالسلطنة بعد خلع الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر فى يوم الأربعاء ثامن ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة (١٤٢١م) ، فلبس خلعة السلطنة من باب السلسلة وركب من المقعد ، وحملت على رأسه القبة والطير حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض من الأكابر والأصاغر ، وتلقب بالملك الأشرف ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء من الخاص والعام .

قيل لما خلع الملك الصالح محمد بن ططر من السلطنة حضر أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاء الأربعة ، وحضر الأتابكى بيبغا المظفرى وسائر الأمراء فاشتوروا فيمن يولونه السلطنة ، فقال الأتابكى بيبغا : « الأمير برسباى يكون سلطانا ، وهو أحق بها منى » ... فآثره بالسلطنة على نفسه .

وكان الملك الأشرف برسباى يومئذ دوادارا كبيرا ولم يكن أتابك العساكر . وأصله چركسى الجنس ، جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق المحمدى نائب ملطية مع جملة مماليك صغار . ثم انه قدمه الى الملك الظاهر برقوق فأخذه وجعله من جملة المماليك السلطانية ونزل بطبقة الزمامية . وكان أغاته الأمير جركس القاسمى المصارع .

ثم ان الملك الظاهر برقوق أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم ساقيا فى دولة الملك الناصر فرج ، ثم التف على شيخ ونوروز لما خامرا بالشام ، فلما قتل الملك الناصر فرج وتسلطن الملك المؤيد شيخ جعله أمير عشرة ، ثم بقى أمير طبلخانات ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم تولى نيابة طرابلس ، ثم قبض عليه الملك المؤيد وسجنه بقلعة المرقب مدة طويلة ، ثم أطلقه وأنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق . فلما خامر نائب الشام جقمق الأرغون شاوى قبض على برسباى وسجنه بقلعة الشام . فلما توجه ططر الى الشام وقبض

على جقمق نائب الشام وحبسه فى قلعـة دمشق أفرج عن برسباى وأحضره صحبته الى القاهرة لما تسلطن بدمشق . ثم انه خلع عليـه واسـتقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير على باى المؤيدى .

واستمر برسباى على ذلك حتى توفى الظاهر ططر وتسلطن ابنه الصالح محمد ، فوقعت الفتن بين الأتابكى جانى بك الصوفى وبين الأمير برسباى فقبض عليه الأمير برسباى وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية . فعند ذلك خلع الملك الصالح محمد من السلطنة وتسلطن عوضه كما تقدم .

فلما تم أمر برسباى فى السلطنة عمل الموكب وخلع من يذكر من الأمراء وهم : المقر الأتابكى بيبغا المظفرى واستقر به أتابك العساكر على عادته .

وكان بيبغا هذا عظيم اللسان قليل الكلام بالعربى يابس الطباع ، سيىء الخلق ، فلم توافق العسكر على سلطنته ، فقنع بيبغا بالأتابكية دون السلطنة . فكان كما قيل فى المعنى :

اذا منعتك أشـجار المعـالى
جنـاها الغض فاقنـع بالشميم

وخلع على الأمير جقمق العيسوى واستقر به أمير سلاح على عادته ، وخلع على الأمـير أقبغا التمرازى واستقر به أمـير مجلس ، وخلع على الأمير سودون بن عبد الرحمن واستقر به دوادارا كبيرا ، وخلع على الأمير قصروه بن عثمان واستقر به أمير آخـور كبير ، وخلع على الأمـير أزبك المحمـدى واستقر به رأس نوبة النوب ، وخلع على الأمـير جقمق العلائى واسـتقر به حاجب الحجـاب ، وخلع على المقر السـيفى جانى بك البجاسى واستقر به نائب الشام ، وأنعم على جماعة من الأمراء بتقـادم ألف ، وعلى جمـاعة بامريات طبلخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، ثم أنفق على العسكر وفرق الاقطاعات على جماعة منهم .

واستقامت أحـواله فى السلطنة ، وراق له الوقت . ثم أخذ فى أسباب تقريب جماعـة من حاشية الملك المؤيد شيخ ، فخلع على المقر الزينى عبد الباسط بن القرشى خليل واستقر به ناظـر الجيوش المنصورة ، وقـد رقى فى أيامه الزينى عبد الباسط حتى صار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام . وكان الملك الأشرف لا يتصرف فى شىء من أحوال المملكة الا برأى القاضى عبـد البـاسط . فعظم أمره فى تلك الأيام حتى أطلق عليه عظيم الدولة فى أيامه ، واستمر على ذلك فى مدة دولة الملك الأشرف كلها . ثم قرب الأمير ناصر الدين التاج واستقر به والى القاهرة على عادته ، وكان أصل التاج من الشوبك ، وكان جده من النصارى ، وكان ينادم الملك الأشرف ولا ينشرح الا به . وكان التاج واسطة خير ، قليل الأذى ، لا تتكلم فى حق أحد الا بخير ، ليس عنده ضرر .

وفيه يقول الشيخ تقى الدين بن حجة :

سـبع وجـوه لتاج مصر
تقـول ما فى الوجود شبهى
وعندنا ذو الوجـوه يهجى
وأنت تاج بفرد وجـه

وقرب أيضا القاضى بدر الدين بن مزهر حتى صار كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، وقرب جماعة كثـيرة من حاشية الملك المؤيد شيخ غـير هؤلاء .

سنة ست وعشرين وثمانمائة (١٤٢٢ م) :

فيها وفى النيل المبارك فى ثامن عشر أبيب من الشهور القبطية ، ولم يسمع بمثل هذا فيما تقدم من السنين الماضية . وفيه يقول بعض الشعراء :

لما وفى النيـل المبارك عاجـلا
عم البـلاد وللروابى طففا
نشروا القـلوع وبشروا بوفائه
فالراية البيضا عليـه بالوفا

وفى هذه السنة رسم السلطان للأمير جرباش الكريمى المعروف بقاشق — بأن يتوجه الى ثغر الاسكندرية بسبب حفر خليج الاسكندرية ، لأنه قد طم بالرمال وضعف جريان الماء فيه . فتوجه اليه الأمير جرباش وجمع ما قدر عليه من الرجال فجمع ثمانمائة وسبعين انسانا ، وابتدأ فى حفره فى حادى عشر جمادى الأولى من تلك السنة المذكورة ، فانتهى العمل منه ومشى فيه الماء فى مدة أربعة أشهر فسر الناس بذلك .

سنة سبع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٣ م) :

فيها تزايدت عظمة الأمير جانى بك مملوك الملك الأشرف برسباى وصار أمير طبلخاناه دوادار ثانى ، واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد فى دولة أستاذه . وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من المنجكية .

ومما يحكى عنه أنه نفى الأتابكى بيبغا المظفرى الى ثغر الاسكندرية من غير علم السلطان . فلما علم السلطان بذلك لم يقل له ليش فعلت ذلك . وتناهت عظمته حتى التف عليه جميع العسكر ، وكان الأمراء المقدمون ينزلون معه من القلعة الى بيته الذى بالقرب من سوق الجوار . ولم يزل جانى بك على ذلك حتى تخيل منه الملك الأشرف أن يثب عليه فشغله فى حلوى فاستمر عليلا ملازم الفراش حتى مات فى أثناء دولة أستاذه . ولو عاش لوثب على أستاذه وتسلطن .

ومن الحوادث فى أيامه أن شخصا من العوام شنق نفسه ، وسبب ذلك أنه كانت له زوجة يحبها فطلقها فتزوجت بغيره ووكلته فيه ، فشنق نفسه من قهره منها فمات .

سنة ثمان وعشرين وثمانمائة (١٤٢٤ م) :

فيها حجت خوند جلبان زوجة الملك الأشرف برسباى ، وهى أم ولده المقر الجمالى يوسف ، وكان المتسفر عليها القاضى عبدالباسط .

سنة تسع وعشرين وثمانمائة (١٤٢٥ م) :

فيها أرسل السلطان تجريدة الى قبرس ، فأعطاه الله تعالى النصر ، وفتح مدينة قبرس فى تلك السنة وأسر ملكها وجىء به الى القاهرة أسيرا . فكان يوم دخوله الى القاهرة يوما مشهودا ، وزينت المدينة سبعة أيام . ودخل عسكر الفرنج وهم فى زناجير وملكهم راكب وعليه آلة الحرب . وكانت هذه النصرة على غير القياس .

وفى هذه السنة كملت عمارة مدرسة السلطان — وهى المدرسة الأشرفية التى عند سوق الوراقين — فلما وقعت هذه النصرة وأسر ملك الفرنج فى تلك السنة رسم السلطان بأن تعلق خوذة ملك الفرنج على باب هذه المدرسة لتكون تذكارا له . وهى الى الآن معلقة فى باب هذه المدرسة .

سنة ثلاثين وثمانمائة (١٤٢٦ م) :

فيها جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأتابكى جانى بك الصوفى قد كسر قيده وهرب من السجن . وقيل ان جارية دخلت اليه فى السجن وقد تحملت بمبرد لطيف فى فرجها ، فبرد به قيده وهرب من أعلى حيطان البرج وتدلى فى حبل صغير وهرب . فلما بلغ الملك الأشرف ذلك اضطربت جميع أحواله ، وصار يكبس البيوت والحارات ، وقبض على أصهار جانى بك الصوفى وعاقبهم ، وكذلك عياله ومماليكه ، وجرى بسبب ذلك على الناس مالا خير فيه ، وصار كل من له عدو يكذب عليه ويقول جانى بك الصوفى مخبأ عنده ، فيكبسون عليه بيته وينهبون ماله ويعاقبون ذلك الرجل أشد العقوبة . واستمر الملك الأشرف على

ذلك وهو لا يهنأ له عيش حتى ظهر جانى بك فى بلاد التركمان عند أولاد قرا يوسف ، فعند ذلك سكن الاضطراب من القاهرة .

وفيها قبض السلطان على الصاحب بدر الدين نصر الله وعلى ولده صلاح الدين ، وقرر عليهما مالا .

وفيها تولى قاضى قضاة الشافعية العلامة الحافظ شهاب الدين بن حجر الكنانى العسقلانى الشافعى — وهو أول ولايته — فنزل من القلعة الى بيته فى موكب .

سنة احدى وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٧ م) :

فيها ابتدأ السلطان الملك الأشرف بعمارة مدرسته التى فى خانقا سرياقوس ، وقد تناهى فى رخامها وزخرفها ، ثم عمل فيها خطبة ، ولم يعمل مثلها فى ذلك المكان وكان أول من خطب فيها الشيخ عبد الرحيم الحموى الواعظ ، وقد قرره السلطان فى الخطابة بل كان خطيبا فى الأشرفية التى عند سوق الوراقين أيضا .

سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٨ م) :

فيها خلع السلطان على الأمير حقمق العلائى واستقر أمير آخور كبير عوضا عن الأمير فصروه ابن عثمان .

وفيها نزل السلطان الى الرماية ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان له يوم مشهود والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة (١٤٢٩/١٤٣٠ م) :

فيها وقع الطاعون العظيم بالديار المصرية . وكان هذا الطاعون مخالفا لبقية الطواعين ، فان عادة الطعن يقع فى فصل الربيع ، وهذا وقع فى وسط الشتاء . واستمر يسلسل أربعة أشهر . وكانت قوة عمله فى الغرباء والأطفال والمماليك والعبيد والجوار ، فمات فيه من الناس ما لايحصى عددهم . حتى قيل انتهى من مات فى يوم واحد الى أربعة وعشرين ألف جنازة ، حتى ضج الناس من ذلك وصار يودع بعضهم بعضا . وفى ذلك يقول القائل:

قد نقص الطاعون ثلث الورى
وأهلك الوالد والوالده
كم منزل كالشمع سكانه
أطفاهمو فى نفخة واحده

وفى أول شعبان لم يبق غير طفل صغير مرضع ، وارتفع الوباء بالكلية فى ليلة واحدة ، فسبحان الحى الذى لا يموت ... ولكن ما ارتفع حتى أخلى عدة أماكن .

ومات فيه من الأعيان الملك الصالح محمد بن ططر ، وسيدى محمد بن الملك الأشرف برسباى .

وجاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بموت الخليفة العباس الذى تسلطن ، ومات هناك أحمد ابن المؤيد شيخ .

قال الحافظ بن حجر : « لما كثر الطاعون بمصر اجتمع أعيان العلماء بالجامع الأزهر ودعوا الله برفعه . فازداد أمر الطاعون ولم يتناقص » .

سنة اربع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٠/١٤٣١ م) :

فيها كسفت الشمس وقت العصر حتى ظهرت النجوم بالنهار ، واستمرت مكسوفة نحو ساعة الى قريب الغروب .

سنة خمس وثلاثين وثمانمائة (١٤٣١/١٤٣٢ م) :

فيها حضر الى الأبواب الشريفة بعض التراكمة وصحبتهم رأس الأتابكى جانى بك الصوفى ، قطعها بعض التراكمة الذين كان عندهم وأرسلها الى السلطان ليحظى عنده بذلك . فلما حضرت الرأس رسم السلطان بأن يطوفوا بها فى القاهرة ، فطافوا

بها ثم علقوها فى باب زويلة ثلاثة أيام ، ثم رسم السلطان بأن ترمى ميضة جامع الحاكم فرميت بها وبطل أمر جانى بك الصوفى .

سنة ست وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٢/١٤٣٣ م) :

فيها جاءت قصاد قرا ملك الى السلطان وطلعوا الى القلعة وصحبتهم هدية للسلطان ، فمن جملتها فرص مرآة مكفتة بذهب ، ومن جملتها خروف بأليتين ، وخلعة للسلطان مخمل أحمر مرقومة بالذهب ، وبعض أثواب مخمل ، وصقورة برسم الصيد .

فلما رأى السلطان تلك الهدية استقلها وعز عليه أمر الخلعة . ثم انه عزم قصاد قرا ملك فى البحيرة ، ثم أحضر تلك الخلعة وألبسها لشخص من الشهدارية — وكان مضحكا — فرقص بها قدام السلطان فضحك عليه . ثم أحضر نارا وأحرق تلك الخلعة بحضرة القصاد ، وذبح الخروف ثم قال للقصاد : « استاذكم ان أراد أن يبهدل أحدا ايش يعمل فيه ؟ » ... فقالوا له : « يرميه فى الماء » ... فرسم السلطان برميهم فى البحيرة ، فرموهم فيها ، فأقاموا ساعة ثم أطلعوهم ، فرسم السلطان بقص أذناب خيلهم ، وقال لهم : « اخرجوا سافروا فى هـذا الوقت ، وقولوا لأستاذكم يلاقينى على الفرات » ...

فلما جرى ذلك علق السلطان الجاليش ونادى للعسكر بالعرض ، وأخذوا فى أسباب الخروج الى التجريدة .

وقد أولوا الخروف بأنكم عندنا مثل النعاج ، والمرآة بأنكم مثل النساء ... انظروا وجهكم فى هذه المرآة . وأولوا الخلعة بأنك نائب من تحت يدنا ...

ثم ان السلطان أنفق على العسكر ، وعين من الأمراء أربعة مقدمين يقيمون بالقاهرة مع جماعة من الحجاب ، وعين جماعة من الأمراء يتوجهون معه الى البلاد الشامية .

فلما انتهى شغل السلطان عزم على السفر ، وكان نائب الغيبة أقبغا المعروف بالتمرازى أمير مجلس وجماعة من الحجاب وبعض مماليك سلطانية . وبرز خيامه الى نحو الريدانية .

ثم ان السلطان طلب وخرج من الميدان الذى تحت القلعة ، فكان فى طلبه مائتا فرس ملبسة بالبركستوانات الفولاذ والحرير الملون ، وكان فيه كجاوتان زركش ، وكان فيه خمسون فرسا بسروج ذهب وكنابيش ، وكان له يوم مشهود بموكب عظيم . وكان صحبته أمير المؤمنين المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة وهم : ابن حجر ، وبدر الدين العينى ، وشمس الدين البساطى ، ومحب الدين البغدادى الحنبلى . وخرج معه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر . فأقام بالريدانية يومين ثم رحل وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، فكان له فى الشام موكب عظيم وكذلك فى حلب .

ثم خرج من حلب وقصد التوجه نحو آمد من ديار بكر . فلما وصل الى هناك حاصر قلعة آمد أشد المحاصرة ، ونصب عليها عدة مجانيق فلم يقدر عليها ، فأقام هناك مدة ، فوقع فى العسكر الغلاء ، فقلق من ذلك ، وكانت العوام تغنى وتقول : « فى آمد رأينا العونه ، فى كل خيمه طاحونه ، الغلام نهاره يطحن ، والجندى يجيب المونه » ... فلما سمع المماليك ثارت أخلاقهم على السلطان وقصدوا الوثوب عليه هناك ، فخشى الملك الأشرف أن تقع هناك فتنة ، فلم يقع بينه وبين قرا ملك واقعة ولا قابَلَهَ ، فمشى بعض الأمراء بين قرا ملك وبين السلطان بالصلح ، فأرسل اليه السلطان القاضى محب الدين بن الأشقر نائب كاتب السر ، فحلف قرا ملك أنه لا يتعدى على بلاد السلطان ولا يحصل منه فساد .

ثم ان السلطان قصد التوجه الى نحو الديار المصرية . قيل ان السلطان صرف على هذه التجريدة من المال خمسمائة ألف دينـــار ولم يظفر بطائل . فلمـــا رجع عاد قرا ملك الى ما كان عليـــه من العصيان .

سنة سبع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٣/١٤٣٤ م) :

فيها عاد الملك الأشرف برسباى الى نحو الديار المصرية ، فدخل الى القاهرة فى موكب عظـيم ، وحملت على رأسه القبة والطير ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير حتى طلع القلعة ... وهو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى البـــلاد الشامية . فلما وصل السلطان خرج ولده المقــر الجمالى يوسف الى تلقيه من العكرشة .

سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٤/١٤٣٥ م) :

فيها خلع على المقر السيفى جقمق العـــلائى واستقر أمير سلاح . وتوفى الشـــيخ تقى الدين الحسنى شارح كتاب أبى شجاع على مذهب الأمام الشافعى .

وفيها خلع على القاضى أمين الدين بن الهيصم واستقر فى الوزارة عوضا عن كريم الدين بن كاتب المناخات .

سنة تسع وثلاثين وثمانمائة (١٤٣٥/١٤٣٦ م) :

فيها استقر المقر السيفى جقمق العلائى أتابك العساكر بالديار المصرية .

وفيهـــا تزايدت عظمة الملك الأشرف برسباى حتى صارت مماليكه المشتروات خمسة آلاف .

وفيها عمر السلطان الملك الأشرف تربته التى فى الصحراء عند تربة الظاهر برقوق وجعل فيهـــا مدرسة .

وفيها نزل السـلطان الى الرماية ، وشـــق فى القاهرة وزينت له .

وفيها توفى الشيخ صلاح الدين الأقفهسى وكان من أعيان العلماء .

سنة أربعين وثمانمائة (١٤٣٦/١٤٣٧ م) :

فيها شوش السلطان على أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وصادرهم بسبب اقطاعاتهم ، وأخذ منهم على العبرة القديمة ، فحصل لهم الضرر الشامل . وكان المتكـــلم فى ذلك المقـــر السـيفى آركماس الظاهرى أمير دوادار كبير ، فجار عليهم وحصل لهم منه غاية الضرر . وكان سبب ذلك أنه بلـــغ السلطان أن شاه رخ بن تمرلنك تحرك على البلاد ، فقصد السلطان أن يجرد اليه بنفسه ثانيا ، فصادر أجناد الحلقة بسبب ذلك .

وفيها توفى الشـــيخ بدر الدين بن الدمامينى المالكى المخزومى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى قاضى القضـــاة ناصر الدين التونسى المالكى لما ولاه أمر العقود فى مبادى عمره :

يا قاضـــيا ليس يلفـــى نظيره فى الوجـــــــود
قد زدت فى الفضل حتى قلدتنى بالعقـــــــــود

وفيها كانت وفاة الشيخ زين الدين الخراط الأديب الفاضل ، وله شعر جيد .

سنة احدى واربعين وثمانمائة (١٤٣٧/١٤٣٨ م) :

فيها وقـــع الطاعون بالديار المصرية ، وهـــو الطاعون الثانى الذى جاء فى آخر دولته . وكان خفيفا بالنسبة الى الطاعون الذى كان قبله ، فمات فى هذا الفصل ما لا يحصى عددهم من مماليـــك وأطفال وجوار وعبيد وغـــير ذلك . وفى هـــذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

تغـــير فى مصر الهـــواء بأهلهـــا
بدا وعليـــه صـــفرة ونحـــول

وصح بها موت النسيم وكيف لا
وقد جاءه الطاعـون وهو عليـل

ثم ان الملك الأشرف برسـباى مرض عقيب ذلك وسلسل فى المرض ، فحصل له ماليخوليا وخفة عقل ونزق ، فرسم بنفى الكلاب الى بر الجيزة ، فصار كل من أمسك كلبا يأخذ له نصف فضة من صيرفى باب السلسلة ، فأمسك العياق من الكلاب نحو ألف كلب فنفوهم الى بر الجيزة .

ثم انه نادى بأن امرأة لا تخرج من بيتها مطلقا ، فكانت الغاسلة اذا أرادت التوجه الى ميتة تأخذ ورقة من المحتسب ، وتجعلها فى رأسها حتى تمشى فى السوق .

ثم انه نادى فى القاهرة بأن فلاحا لا يلبث زمطا مطلقا ، لا من كبير ولا صغير ، فامتثل الناس ذلك .

ثم انه رسم بتوسيط الحكماء ، فوسط الرئيس خضر ، ووسط الرئيس شمس الدين بن العفيف .

واستمر على هذه الخـرافات الى أن مات ، فكانت وفاته فى يوم السبت بعد العصر ، فبـات بالقلعة وأخرجوه فى يوم الأحد ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة ، ودفن بتربته التى أنشأها عند البرقوقية بالصحراء ، وصلى عليـه العلامة ابن حجر .

ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ست عشرة سنة وثمانية أشهر وخمسة أيام ، فكثر عليه الحزن والأسف من الناس . فان مصر كانت هادية فى أيامه من الفتن والحروب التى كانت فى الدول الماضية . وقد قال القائل :

والمـرء كالظـل ولا بد أن
يزول ذاك الظل بعد امتـداد

قيل ان الملك الأشرف لما ثقل فى المرض أحضر الخليفة الى داره والقضـاة الأربعة وسائر الجند والأمراء ، وحلف المماليك ثم أنفق عليهم لـكل واحـد ثلاثون أشرفيا ، وعهد الى ولده يوسف بالسلطنة ، وجعل الأتابكى جقمق العلائى وصيا عليه ونظام المملكة . ثم انه رسم بأن يعـاد الى أجناد الحلقة من أولاد الناس ما أخذ منهم بسبب الاقطاعات كما تقـدم ، فرسم للأمير أركمـاس الظاهرى بأن يعاد الى كل واحد ما أخذ منه بالتمام والكمال ويكتب عليه شهادة بذلك ، فأعادوا الى أجناد الحلقة ما كان أخذ منهم .

وكان الملك الأشرف برسباى ملكا جليلا مبجلا فى موكبه ، وكان منقادا الى الشريعة ويحب أهل العلم ويقربهم . وكانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة ، ولا سيما الأشرفيـة البرسبيهية ، فانها من خالص الذهب ، والى الآن يرغب اليها الناس فى المعاملة .

وكانت صـفة الملك الأشرف برسباى أنه عربى الوجه ، طويل القامة ، أبيض اللون ، مستدير اللحية شائب الذقن ، حسن الشـكل ، صبيح الوجه ، عليه سكينة ووقار ومهابة مع لين جانب . وكان عنده معرفة بأحوال السلطنة ، كفئا للملك ، كثير البر والصدقات ، وله معروف وآثار ... لكنه كان عنده طمع زائد فى تحصيل الأموال ، محبا لجمع الأموال من المباشرين وغيرهم .

ومما أنشأه من العمائر فى أيامه المدرسة التى عند سوق الوراقين ، والمدرسة التى فى الصحراء التى دفن فيها ، والمدرسة التى فى خانقاه سرياقوس ، وعمر الوكالة التى فى الصليبة والربعين اللذين بها وله انشاءات كثيرة بالديار المصرية وغيرها . وكان الأمير حاسوك شادا على عمائره .

وخلف من الأولاد صبيين وهما يوسف وأحمد . وكان من أزواجـه خوند جلبـان وهى أم ولده يوسف ، وخوند فاطمة بنت الظاهر ططر ، وخوند

، الأتابكى يشبك الأعرج ، وأرسل فأحضر بنت
، عثمان ملك الروم لكنه لم يدخل عليها . وكان
ر ملوك الچراكسة كما قيل فى المعنى :

قالوا فهل جاد الزمان بمثـــله

قلت الزمان بمثله لشــــحيح

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم قاضى
ضاة الهروى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن
نى الحنبلى ، وقاضى القضاة التفهنى الحنفى ،
لشيخ ناصر الدين الديرى الحنفى ، وابن النقاش
، أعيان علماء الشافعية ، والشيخ شهاب الدين
ريزى المؤرخ ، والأتابكى بيبغا المظفرى ، وغير
ك من الأعيان .

الملك العزيز أبو المحاسن الدقماقى الظاهرى

هو الملك العزيز أبو المحاسن جمـــال الدين
ـســف ، ابن الملك الأشرف برسباى الدقماقى
ظاهرى ، وهو الثالث والثلاثون من ملوك الترك
ولادهم بالديار المصرية ، وهو التاسع من ملوك
چراكسة وأولادهم فى العدد .

بويع بالسلطنة بعد موت أبيه الملك الأشرف
، يوم السبت ثالث عشر ذى الحجة سنة احدى
'ربعين وثمانمائة ، وتسلطن وله من العمر نحو
ـبع عشرة سنة ، وتلقب بالملك العزيز . وأمه أم
لد چركسية تسمى جلبان .

فلما بايعه الناس بالسلطنة جلس على سرير
لملك ، وحمل الأتابكى چقمق القبة والطير على
أسه من باب الستارة الى القصر الكبير . فلما
جلس باس له الأمراء الأرض ، فاستقر بالأتابكى
چقمق العلائى نظام المملكة وصاحب الحل والعقد .

سنة اثنتين واربعين وثمانمائة (١٤٣٨/١٤٣٩ م) :

فيها دبت عقارب الفتنة بين الأتابكى چقمق
وبين الأمراء الأشرفية ، وصاروا يعاكسون الأتابكى
چقمق فيما يفعله من الأمور . وصار الملك العزيز
مع چقمق مثل اللولب يدوره كيف شاء ، فليس له
فى السلطنة غير مجرد الاسم فقط لأجل كتب العلامة
على المراسيم . وكان الأتابكى چقمق مع الأمراء
الأشرفية فى غاية الضنك ، وقصدوا قتله فى القصر
عدة مرار . ولولا أن فى أجله فسحة لقتل من يوم
مات الأشرف .

ثم ان جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية
التفوا على چقمق وتعصبوا له ، فوثبوا على الملك
العزيز ، والتف عليهم جمـــاعة كثيرة من المماليك
السيفية فأوقعوا مع المماليك الأشرفية ، فلم تكن الا
ساعة من النهار حتى انكسر المماليك الأشرفية ،
وأحاط بهم كل رزية ، فتشتتوا وتفرقوا ، بيــد
النوى وتمزقوا . فلما انكسروا وقع الاتفاق وتحقق
على سلطنة الأتابكى چقمق ، فأحضروا الخليــفة
المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة ، فخلعوا الملك
العزيز من السلطنة وولوا الأتابكى چقمق ، فكان
الذى خلع الملك العزيز قاضى القضاة شهاب الدين
ابن حجر .

فلما تولى الأتابكى چقمق رسم بأن العزيز يدخل
الى دور الحرم ولم يسجنه بثغر الاسكندرية كعادة
أولاد الملوك ، فأخلى له قاعة البربرية وأقام بها .
وكان قصد السلطان چقمق بأن يزوج الملك العزيز
ويستمر ساكنا بالقلعة ، فما صبر الملك العزيز ووقع
منه ما سيأتى ذكره فى موضعه . فكان كما قيل
فى المعنى :

قد يدرك المتأنى جل مقصــده

وقد يكون مع المستعجل الزلل

فكانت مدة سلطنة الملك العـــزيز يوسف بن
الأشرف برسباى بالديار المصرية ثلاثة أشهر وخمسة
أيام كأنها أضغاث أحلام .

الملك الظاهر جقمق

هو الملك الظاهر سيف الدين أبو سعيد جقمق العلائى الظاهرى ، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العاشر من ملوك الجراكسة وأولادهم .

بويع فى السلطنة بعد خلع الملك العزيز يوسف ابن الأشرف برسباى فى يوم الأربعاء تاسع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ، فحضر الخليفة المعتضد بالله داود والقضاة الأربعة فخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا جقمق ولقبوه بالملك الظاهر ، ثم أحضرت له خلعة السلطنة فلبسها من باب السلسلة ، وركب فرس النوبة ، وحمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى قرقماس الشعبانى أمير سلاح ، وقد تقدم أنه حضر مع العسكر الذين كانوا فى التجريدة .

فلما ركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير جلس على سرير الملك ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالدعاء ، ودقت له البشائر فى ذلك اليوم بالقلعة ، وفرح غالب الناس بتوليته لكونه كان رجلا دينا خيرًا قليل الأذى .

وكان أصل الملك الظاهر جقمق جركسى الجنس ، جلبه الحواجا كزل فاشتراه منه العلائى على بن الأتابكى اينال اليوسفى وقدمه الى الملك الظاهر برقوق فصار من جملة المماليك السلطانية ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى ساقيا ، ثم أمسك وحبس فى دولة الملك الناصر فرج ، ثم أطلق وصار أمير طبلخاناه خازندار فى دولة الملك المؤيد شيخ ، ثم مقدم ألف فى دولة الملك الظاهـر ططر . ثم بقى حاجب الحجاب فى دولة الملك الأشرف برسباى ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم بقى أتابك العســاكر ... كل ذلك فى دولة الملك الأشرف برسباى . فلما مات الأشرف وتولى ابنه العزيز يوسف بقى جقمق نظام المملكة ومشيرها ، فبقى مع المماليك الأشرفية فى غاية الضنك ، وأقام على ذلك مدة يسيرة ، ثم تعصب له جماعة من الأمراء المؤيدية والناصرية وخلعوا الملك العزيز من السلطنة وولوا جقمق .

فلما جلس على سرير الملك وتم أمره فى السلطنة وباس له الأمراء الأرض قبض فى ذلك اليوم على الأمير جوهر الزمام اللالا وسجنه فى البرج بالقلعة. ثم قرر فى وظيفة الزمامية فيروز الساقى ، ثم توفى جوهـــر اللالا فى أثناء ذلك من الرجفة ، ثم عمل الموكب فى القصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم المقر السيفى قرقماس الشـــعبانى واستقر به أتابك العساكر بمصر عوضا عن نفسه وقرره فى اقطاعه وهو نظام المملكة وزاد عليه امرية أربعين بدمشق ، وخلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به أمير سلاح عوضا عن قرقماس الشـــعبانى ، وخلع على المقر السيفى يشبك السودونى واستقر به أمير مجلس عوضا عن أقبغا التمرازى ، وخلع على المقر السيفى تمراز القرمشى واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن الأمير جانم الأشرفى ، وخلع على المقر السيفى قراقجا الحسنى واســـتقر به رأس نوبة النوب عوضا عن تمراز القرمشى ، وخلع على المقر السيفى تغرى بردى البكلمشى — الشهير بالمؤذى— واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن يشبك السودونى ، وأقر المقر السيفى أركماس الظاهرى دوادارا كبيرا على عادته كما كان فى دولة الملك الأشرف برسباى ... فهذا كان ترتيب الأمراء المقدمين أرباب الوظائف فى مبتدأ دولتـــه ، ثم انتقلت الوظائف من بعـــد ذلك الى

جماعة من الأمراء حسبما يأتى ذكر ذلك فى مواضعه عند انتقال الوظائف .

ثم ان الملك الظاهر أنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، وأنعم على جماعة بامريات طبلخانات ، وعلى جماعة بامريات عشرة ، وأرضى جماعة المؤيدية والناصرية بكل ما يمكن من ذلك .

ثم انه أنفق على العسكر نفقة السلطنة ، وفرق الاقطاعات على المماليك السلطانية والمماليك السيفية الذين كانوا سببا لسلطنته ... فأقام فى السلطنة مدة يسيرة والأمر ساكن ، ثم بات الناس وأصبحوا وقد أشيع فى ليلة عيد الفطر — والناس فى اضطراب — أن الملك يوسف قد تحسب من القلعة ونزل بعد المغرب فى صفة صبى طباخ ، وعليه ثياب رثة ، وعلى رأسه دست طعام ، وقد لوث وجهه بسواد الدست فكان ذلك فألا عليه . فلما وصل الى باب القلعة ضربه الطباخ الذى وراءه واستخفه فى المشى . فلما نزل من القلعة اضطربت الأحوال ، وكان مماليك أبيه أوقعوه فى هذه البلية ، فلما وقع تخلوا عنه وتبرأ كل أحد منه . فكان كما قيل فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار
فلا تبال أغابوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار
وفعلهم مأثم للمرء أو عار
لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

ثم ان الملك العزيز استمر مختفيا نحو شهر ، والوالى فى كل ليلة يكبس البيوت والحارات بسبب الملك العزيز ، وصار كل من كان له عدو يكذب عليه فيكبسون بيته . واستمر الناس فى جمرة نار مطلوقة الى أن توجه الملك العزيز الى بعض الأمراء فنم عليه . فلما بلغ بلباى المؤيدى ذلك — وكان ساكنا فى زقاق حلب — جاء ماشيا وقبض على الملك العزيز وتوجه به الى باب السلسلة ، فأنعم عليه السلطان بخمسمائة دينار وجعله أمير أربعين ، وقيد العزيز ، ودقت الكئوسات تحت الليل بسبب ذلك . فلما أصبح الصباح ونزلوا بالملك العزيز من القلعة ، توجهوا به الى البحر ومضى الى الاسكندرية فسجن بها ، وآخر الطب الكى ، وكم عجلة أعقبت ندامة... وكان قصد الملك الظاهر أن يزوج الملك العزيز ويبقى ساكنا فى القلعة ، فما سلم من مماليك أبيه ، وحسنوا له الهروب حتى هرب ، وقد دخلوا فى خطيئته برأيهم المعكوس . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء من أبيات :

ولم يدخلوه السجن الا مخافة
من العين أن تطرا على ذلك الحسن
وقلنا له شاركت فى الاسم يوسفا
فشاركه أيضا فى الدخول الى السجن

واستمر الملك العزيز فى السجن مدة دولة الملك الظاهر جقمق كلها . فلما كانت دولة الملك الأشرف اينال رسم للملك العزيز بالافراج ، وأن يسكن فى بعض دور الحرم بثغر الاسكندرية ، وأن يركب الى الجامع وقت صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الملك الظاهر خشقدم ، فتوفى بثغر الاسكندرية كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار دولة الملك الظاهر جقمق ، فانه لما رجع العسكر الذى كان قد توجه الى البلاد الشامية ، وحضر صحبة العسكر المقر السيفى قرقماس الشعبانى فوجد الملك العزيز قد تسلطن ، وكان قرقماس فى نفسه من السلطنة شىء ، فلما تسلطن جقمق جعله أميرا كبيرا فاستمر على ذلك أياما ثم لعب الأكرة مع السلطان ، فقصد الأتابكى قرقماس أن يقبض على السلطان وهو

يلعب الأكرة ، فدنا منه وأراد أن يقبض عليه وهو راكب على الفرس ، فانجذب منه السلطان وساق الى الدهيشة .

فلما انقضت الأكرة ونزل الأمراء الى بيوتهم لبس الأتابكى قرقماس آلة الحـــرب وطلع الى الرميلة ، فالتفت عليه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، ولكن كان أكثر الأمراء والعسكر مع الملك الظاهر جقمق . فلما ركب قرقماس وطلع الى الرميلة وقف بسوق الخيل ، فنزل السلطان الى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على الرميلة .

فلما تسامعت الأمراء الذين من عصبة السلطان طلع الى الرميلة تسعة أمراء مقدمون منهم الأمير بيبغا الطيـــار ، والأمير تمرباى ، والأمير قراقجا الحسنى ، والأمير يشبك السودونى ، والأمير تمراز القرمشى ، والأمير تغرى بردى المؤذى ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين وغيرهم ، فأوقعوا مع قرقماس واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد كسر الأتابكى قرقماس وهـــرب واختفى فى غيطه الذى عنـــد الجزيرة الوسطى . وسبب ذلك أن مملوكا يسمى بلبان كان فى باب السلسلة ، فحـــرر على قرقماس وضربه بسهم نشاب فجاء فى يده فخرقها من وسط كفه ، فتألم لذلك قرقماس وهرب من وقته وانكسر . فلما بلغ ذلك السلطان أنعم على بلبان المذكور باقطاع ثقيل وجعله خاصكيا .

ثم ان قرقماس أقام فى غيطه ثلاثة أيام وأرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل اليـــه بعض الأمراء ، فطلع به الى القلعة ، فقيـــده السلطان وأرسله الى السجن بثغر الاسكندرية ، وخمدت الفتنة ولم ينل قرقماس مقصوده ، فكان كما قيل فى المعنى :

يا خاطب الدنيا الى نفسه
تنح عن خطبتهـــا تسـلم
ان التى تخطب غـــدارة
قريبـــة العرس من المأتم

ثم ان السلطان خلع على المقر السيفى أقبغـــا التمرازى واستقر به أتابك العســـاكر عوضا عن قرقماس الشعبانى ، وجعله أيضا نائب السلطنة ، وصـــار يحكم بين النـــاس وعلى بابه رأس نوبة ونقباء ، وهو آخر من تولى نيابة السلطنة بالديار المصرية ، وكانت هذه الوظيفة قد بطلت من أيام محمد بن قلاون — وكانت أكبر من الأتابكية — ويخرج النائب الاقطاعات الخفية من غير مشورة السلطان .

وفيها توفى قاضى القضاة المالكى شمس الدين البساطى وولى القضاء البدر التونسى عوضه .

سنة ثلاث واربعين وثمانمائة (١٤٣٩/١٤٤٠) :

فيها جاءت الأخبار من البلاد الشامية بأن اينال الجكمى نائب الشام قد خرج عن الطـــاعة وأظهر العصيان ، وكذلك تغرى برمش نائب حلب ، فعين السلطان لهم تجريدة ثم خلع على المقر السيفى أقبغا التمرازى واستقر به نائب الشام عوضا عن اينـــال الجكمى ، وخلع على المقر السيفى يشبك السودونى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن أقبغا التمرازى .

فلما توجه العسكر الى البلاد الشامية أوقعوا مع النواب ، فانكسر النواب ، وأسروهم وقطعوا رءوسهم وأرسلوها الى القـــاهرة ، فعلقوها على باب زويلة .

وقد وقع للملك الظـــاهر فى أوائل دولته محن عظيمة ، منها تسحب الملك العزيز من القلعة ، ومنها وثوب الأتابكى قرقماس عليـــه ، ومنها عصيان النواب ، وحصل له غاية الاضطراب . ثم انه أثبت

على الأتابكى قرقماس كفرا ، وحــكم به قاضى القضاة المالكى شمس الدين البساطى .

ومن النــوادر ما حكاه بعض المؤرخــين أن الأتابكى قرقماس هذا لما أرادوا ضرب عنقه وهو فى السجن أحضروا له المشاعلى فضربه ثلاث ضربات بالسيف فلم يؤثر فيه ذلك ، ففتشوه فوجدوا فى فمه خاتم فضة . وكان قرقماس أصله من مماليك الظـاهر برقوق ، وكان ضرب عنقــه وهو بثغر الاسكندرية فى السجن .

ثم ان الملك الظاهر صفا له الوقت من بعد ذلك ، وعاش فى أرغد عيش ، ودام فى السلطنة الى أن مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه . فكان كما قيل فى المعنى :

لا تسأل الدهر فى بأساء يكشفها
فلو أردت دوام البؤس لم يدم

سنة أربع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٠/١٤٤١ م) :

فيها خلع السلطان على القاضى جمال الدين بن البارزى واســتقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية . وكان القاضى جمال الدين بن البارزى صهر الملك الظاهر جقمق زوج أخته ، فرقى فى تلك الأيام الى الغاية . وخلع على القاضى جمال الدين يوسف بن كاتب جكم واســتقر به ناظر الخواص الشريفــة على عادته ، ثم قبــض على القــاضى عبد الباســط ناظر الجيوش المنصورة وصــادره واستصفى أمواله فأخذ منه نحو مائتى ألف دينار ، ثم نفاه الى مكة ، ثم نقله الى الشام . ولما انفصل القاضى عبد الباسط من نظارة الجيش استقر بهــا القاضى محب الدين بن الأشقر عوضا عن القاضى عبد الباسط .

وفيها عزل السلطان قاضى القضــاة شــهاب الدين بن حجر من القضاء وولى القاضى علم الدين صالح البلقينى ، فقال القاضى شهاب الدين بن حجر :

يا أيها السلطان لا تستمع
فى أمر قاضيك كلام الوشاه
والله لم نســمع بأن امرأ
أهدى له قط ولا قدر شاه

فأقام القاضى علم الدين البلقينى فى قضاء القضاة مدة يسيرة وعزل عنها ثم أعيد ابن حجر الى القضاء ثانى مرة .

سنة خمس وأربعين وثمانمائة (١٤٤١/١٤٤٢) :

فيها كانت وفاة أمير المؤمنين المعتضد بالله أبى الفتح داود بن المتــوكل ، وكانت خلافته ثمانيــا وعشرين ســنة وشهرين . وقد بايــع فى أيامه من السلاطين ستة وهم : المظفر أحمد بن المؤيد شيخ ، والظاهر ططر ، وابنه ، والأشرف برسباى ، وابنه ، والملك الظاهر جقمق .

ولما مات الخليفة داود نزل الســلطان وصلى عليه ، وكان كثير البر والصدقات . وكانت وفاته فى يوم الأحد رابع ربيع الأول من هذه السنة .

وفى هــذه السنة كان وفاء النيل رابع عشر أبيب ، وقد وقع مثل ذلك فى أيامه مرتين .

وفيها عزل البــدر العينى عن الحسبة ، وتولى الشيخ على العجمى الخراسانى .

وفيها توفى الشيخ تقى الدين المقريزى المؤرخ .. والأصح أنه توفى سنة ست وأربعين لا فى السنة المذكورة .

ولما مات المعتضد تولى من بعده أخوه سليمان ابن المتوكل ، ولقب بالمستكفى بالله ، فقال الناس : ورث سليمان داود .

سنة ست وأربعين وثمانمائة (١٤٤٢/١٤٤٣ م) :

فيها من الحوادث أن طائفة من العبيد السود خامروا على أستاذهم ، وعدوا بر الجيزة فأقاموا

هنــاك وأظهروا العصيان ، وجعلوا لهم ســلطانا ووزيرا وأميرا كبيرا ودوادارا . وصار ســلطانهم يركب وعلى رأسه صنجق أصفر وحوله جماعة من العبيد نحو من خمسمائة عبد ، فصاروا يفسدون هناك وينهبون ما يمر عليهم من غلال وغير ذلك ، فحصل للناس منهم غاية الأذى . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم بعض الأمراء ومعه جماعة من المماليك السلطانية ، فعدوا اليهم وأوقعوا معهم ، فانكسر العبيد وأسر سلطانهم ومسك منهم جماعة وهرب الباقون ورجعوا الى القــاهرة ، فرسم السلطان ونادى فى القــاهرة بأن كل من كان له عبد كبير يطلع به الى باب السلسلة ويقبض ثمنه اثنى عشر دينارا ، فامتثل الناس ذلك ، فاشترى منهم السلطان جماعة وأرسلهم الى بلاد ابن عثمان ورسم ببيعهم هناك ، فتوجهــوا بهم فى مركب وهم فى الخشب وباعوهم هناك ، وقطع جادرة العبيد الشناترة من مصر ، وخمدت تلك الفتنة التى كانت بين العبيد .

وفيها كان قاضى القضــاة بدر الدين محمود العينى الحنفى محتسب القــاهرة ، فكان يعزر السوقة بذهاب المال ، فمن وجد فى بضاعته غشا يرســلها الى الحبوس فيأكلها المحبوسون ، فكان يعزر بذلك .

سنة سبع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٣/١٤٤٤ م) :

فيها تزايدت عظمة القاضى زين الدين أبى الخير ابن النحاس حتى صــار وكيل بيت المــال وناظر الكسوة وناظر الجوالى ، فانفرد بالســلطان حتى قيل كان السلطان قصد أن يزوجه باحدى بناته ، وقد صار عزيز مصر فى أيامه ، وأبطل كلمة جميع المباشرين ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد بمصر كما قيل فى المعنى :

يقول بيت المــال لما رأى
تدبيره ذاك الجلى الجليل
الله أعطــانى وكيلا رضا
فحسبى الله ونعم الوكيل

سنة ثمان وأربعين وثمانمائة (١٤٤٤ م) :

فيها أرسل السلطان خلف القاضى عبد الباسط — وكان منفيا بمكة — فلما حضر أكرمه السلطان وأقام فى بيتــه بطالا وفى غاية العز والعظمــة ... وكان يطلع الى السلطان فى رأس كل شهر ويهنى به ، فيكرمه السلطان ويعظمه . واستمر على ذلك حتى مات .

وفيها وثب مماليك الأمير تغرى بردى المؤذى عليه وهو فى بيته ، فرموا عليه بالنشاب وهو جالس فى المقعد فهرب ودخل الى البيت وأغلق عليه الباب ، فاستمروا يحاصرونه من أول النهــار الى العصر ، واستمر من الطربة مريضا الى أن مات . فلما مات خلع السلطان على الأمير اينال العلائى واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عنه .

سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، ومات فيه من الناس ما لا يحصى عددهم ، لكنه كان خفيفا بالنسبة الى الطاعون الذى جاء فى أيام الأشرف برسباى . وفيه يقول الشيخ شمس الدين النواجى :

يا الها أهدى الى الخلق رحمى
بوباء جم الثــواب العظيــم
قد شريت النفوس منــا فخذها
بالرضا فى قضــاك والتســليم

وفيها كان مولد الشيخ جلال الدين بن الشيخ كمال الدين الأسيوطى ، وذلك فى جمادى الآخرة من تلك السنة .

وفيها توفى الأتابكى يشبك السودونى ، واستقر فى الأتابكية اينال العلائى الأجرود ، وكان دوادارا

كبيرا . واستقر بالأمير قانباى الجركسى دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير اينال العلائى .

وفيها تولى الشيخ شمس الدين محمد القاياتى قاضى القضاة الشافعية عوضا عن ابن حجر ، فقال الشهاب المنصورى فى القاياتى تعصبا لابن حجر :

ان كان شمس الدين قاياتيكم
مستثقل الحركات والسكنات

لا غرو أن أضحى جبانا فى الورى
فالجبن منسوب الى القايات

وفيها تزايدت عظمة الأمير زين الدين الجبى استادار العالية ، ورقى فى أيام الملك الظاهر هذا الى الغاية ، وهو صاحب الجامع الذى بالحبانية ، والجامع الذى فى بولاق ، والجامع الذى بين السورين ، وله عدة جوامع بمصر وغيرها . وكان له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وكان الملك الظاهر منقادا له لا يسمع فيه مرافعة ، ولم يجىء بعده من يناطيه فى الاستدارية ، بل كان آخرهم .

سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الأمير جانى بك الظاهرى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسم الكاشف الذى كان قد اشتهر بالصلاح ، فنفى الأمير جانى بك الى ثغر دمياط لأمر أوجب ذلك .

وفيها رسم السلطان باعادة مولد سيدى أحمد البدوى بعد ما كان بطل .

وفيها هجم الفيل الكبير على سايسه وقتله ، فلما بلغ السلطان رسم بقتل الفيل .

وفيها أحضر السلطان الأمير خشقدم الناصرى من الشام ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف .

سنة احدى وخمسين وثمانمائة (١٤٤٧ م) :

فيها تغير خاطر السلطان على الشيخ برهان الدين البقاعى ، وقد وقف شخص وشكاه للسلطان ، فأمر بسجنه بالمقشرة ، وأخرج عنه وظيفته فى قراءة الحديث ، ثم نفاه الى الهند حتى شفع فيه بعض الأمراء .

سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة (١٤٤٨ م) :

فيها كانت وفاة الشيخ الصالح السيد الشريف الحسيب النسيب شمس الدين محمد الطباطبى أعاد الله علينا من بركاته ، ودفن بالقرافة الكبرى عند الشيخ فضل الله بن فضالة .

وفى هذه السنة كان مولدى ، وذلك فى يوم السبت سادس ربيع الآخر من السنة المذكورة . هكذا نقلته من خط والدى رحمة الله عليه .

وفيها من الحوادث أن السلطان رسم بسد خوخة الجسر التى ببركة الرطلى لأمر أوجب ذلك ، فحصل عند الناس اضطراب زائد بسبب ذلك . ثم تكلم فى ذلك الجمالى يوسف ناظر الخاص فرسم باعادة كل شىء على حاله .

وفيها تولى قاضى القضاة الشافعية الشيخ شرف الدين يحيى المناوى ، وكان قاضيا على القدر دينًا خيّرا من أهل العلم والصلاح .

وفيها من الحوادث أن شخصا أعجميا يسمى الشيخ أسد الدين كان يدعى أنه شريف ، فجاء الى الشيخ على المحتسب وقال له : « اجمعنى على السلطان فانى أعرف صنعة الكيمياء » .. ! فجمعه عليه فأوحى اليه أنه يطبخ له كيمياء ، وأن هذا وجه حل ، فانطاع السلطان الى كلامه وأجرى عليه ما يحتاج اليه من أسباب ذلك ، وصرف عليه جملة مال نحوا من عشرة آلاف دينار ، ولم تصح معه الكيمياء ، فكان يأخذ الحرير الأحمر بالأرطال ويوقده فى النار ، ولا يأكل شيئا فيه روح ، فأتلفه

على الملك الظاهر جمله مال ولم يفد ذلك شيئا .
فكان كما قيل فى المعنى :

كاف الكنوز وكاف الكيمياء معـا
لا يوجدان فدع عن نفسك الطمعا
وقد تحـدث قوم باجتماعهمـا
وما أظنهمـا كانا ولا اجتمعـا

فأوحوا الى السلطان أن هـذا يعبد النـار ، وتحدثوا فى حقه بكلمات كثيرة ، فأرسله السلطان الى المدرسة الصالحية فحكم فيـه بعض نواب القـاضى المالكى بدر الدين التونسى بأنه كفر ، فضربوا عنقه تحت شباك الصالحية ، وكان له يوم مشهود .

سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة (١٤٤٩ م) :

فيها توقف النيل عن الوفاء ثلاث أصابع وقيل أربعا ، وأقام على ذلك أياما لم يزد شيئا ، فرسم السلطان بأن يخرج الناس للاستســقاء ، فخرج القضاة الأربعـة وأمير المؤمنين المسـتكفى بالله سليمان ومشايخ العلم والصلحاء وأعيان الناس ، ولم ينزل السلطان فعز ذلك على النـاس . وقد تقدم أن الملك المؤيد شيخ نزل بنفسه واستسقى مع الناس ، وكان عليه جبة صوف أبيض ، فلم يوافق الملك الظاهر على ذلك . ثم خرج أطفال المكاتب وعلى رءوسهم المصاحف ، وخرج طائفة اليهود وعلى رؤوسهم التوراة ، وخرج طائفـة النصارى وعلى رءوسـهم الانجيـل ، وأخرجوا معهم بعض أبقار وأغنام ، وخرج معهم السـواد الأعظم من رجال ونساء وأطفال رضع ، والخلق يسـتغيثون : « يا ألله ارحمنا » ... وكان يوما تسكب فيه العبرات ، فتوجهوا نحو الصـحراء عند الجبل الأحمر ، وأحضروا هناك منبرا ، وكان قاضى القضاة الشافعية يومئذ القاضى شرف الدين يحيى المنـاوى ، فصـعد المنبر وخطب خطبـة الاستسقاء على جارى العادة ، فلما أراد أن يحول رداءه — كما جرت به العادة فى خطبة الاستسقاء — سقط الرداء الى الأرض ، فتطير الناس من ذلك . الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبى الرداد ومعه رايات زعفران ونادى بزيادة أصـبع ففرح الناس بذلك . وأنعم السلطان على ابن أبى الرداد بمائة دينـار بسبب هذه الزيادة ثم ان البحـر نقص فى تلك الليلة أصبعين .

ومن النكت اللطيفة أن بعض العلماء خرج فى بغداد ليستسقى بالناس ، وكان فى السماء بعض سحاب وقت خروجه ، فلما خرج ودعا للنـاس ورفع يديه بالدعاء تقطع السحاب وصحت السماء من الغيم ، فخجل ذلك العـالم ودفع الى منزله . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

خرجنـا لنستسـقى بفضـل دعائه
وقد كاد سحب الغيم أن يلحق الأرضا
فلما ابتدا يدعو تكشـفت السـما
فمـا تم الا والسحاب قد انفضـا

فلمـا نزل البحر ، وقد بقى على الوفاء ثمانية أصابع ، رسم السلطان بأن يكسروا السد ان زاد البحر أو لم يزد ، فكسروا السد فلم يجر الماء الا قليـلا ، فدخل غالب المـاء الى بركة الفيل من البجمون ، ثم نزل البحر من بعـد ذلك ولم يزد شيئا ، فاضطربت أحوال الديار المصرية ، وماجت الناس على بعضها ، وحصـل الضرر الشـامل ، وشرقت البلاد ، وعزت الأقوات وشحط السعر فى القمح والشعير والفول وسائر الحبوب ، وتزايد سعر كل شىء وتناهى سـعر القمح الى خمسـة أشرفية كل أردب ، ثم تناهى الى سبعة أشرفية كل أردب ، وغلا سعر كل شىء من البضائع حتى روايا الماء ، وعم الغلاء سـائر البلاد ، وشرقت غالب

البساتين وماتت الأشجار وماتت البهائم . فلما جرى ذلك حول الأمراء شونهم الى بيوتهم ومعهم مماليكهم ملبسة خوفا من العوام أن ينهبوا القمح .

ثم ان العوام رجموا القاضي أبا الخير بن النحاس وكيل بيت المال ، وقد بلغهم عنه أنه قال للسلطان : « ان العوام يأكلون بذهبهم حشيشا ، ويأكلون فوقه بأربعة أنصاف حلوى . فالذى يأكلون به حلوى يأكلون به خبزا » ... فرجموه وهو نازل من القلعة ، وخطفوا عمامته من على رأسه ، وأخذوا خواتمه من أصابعه . ثم رجموا العلائي على بن القيسى محتسب القاهرة بسبب الخبز ، فانه وصل سعر كل رطل خبز نصفى فضة ، وقاسى الصاحب أمين الدين بن الهيصم والأمير زين الدين الاستادار فى هذه الغلوة من المماليك ما لا خير فيه ، وصاروا يضربونهم ويرجمونهم ، وتشحط اللحم والجبن وسائر البضائع ، حتى الروايا الماء . واستمرت هذه الغلوة نحو سنتين . وقد رثى بعض الشعراء الخبز لما عز وتشحط بقوله :

قسما بلوح الخبز عند خروجه
من فرنه وله الغداة فوار
ورغائف منه تروقك وهى فى
سحب الثفال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الـ
ـخدين للشونيز فيه عذار
كالفضة البيضاء لكن يغتدى
ذهبا اذا قويت عليه النار
تلقى عليه فى الخوان جلالة
لا تستطيع تحده الأبصار
فكأن باطنه بكفك درهم
وكأن ظاهر لونه دينار

ما كان أجهلنا بواجب حقه
لو لم تبينه لنا الأسعار
ان دام هذا السعر فاعلم أنه
لا حبة تبقى ولا معيار

ثم وقع الطاعون فى هذه السنة أيضا بالديار المصرية ، ومات فيه ما لا يحصى عددهم من مماليك وأطفال وجوار وعبيد ومرباء حتى قيل كان يموت فى كل يوم نحو عشرة آلاف انسان ، وفى ذلك يقول شمس الدين النواجى :

رب نج الأنام من هول طعن
قد قضى غالب الورى فيه نحبه
رخصت قيمة النفوس فأضحت
كل روح تباع فيه بحبه

وفى أواخر هذه السنة كانت وفاة القاضي عبد الباسط ناظر الجيوش المنصورة كان . فكانت وفاته فى سادس شوال من السنة المذكورة ، وكان له بر ومعروف وفعل خير ، وأنشأ عدة مدارس بمصر ومكة والمدينة وبيت المقدس ، وكان له سحابة تطلع فى كل سنة برسم الحجاج المنقطعين ، وقطع من طريق العقبة ، وأرسل حجارين قطعوا منها ما كان يشوش على الحجاج . وكان القاضي عبد الباسط عزيز مصر فى أيامه ، فلما مات تزوج الملك الظاهر بنته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سنة اربع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٠ م) :

فيها كانت وفاة شيخ الاسلام قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى الكنانى الشافعى رحمة الله تعالى عليه [1] ، وكانت جنازته مشهودة . ولما مات لم يخلفه أحد من العلماء من بعده ، وقد رثاه الشيخ شهاب الدين المنصورى بقصيدة منها :

(1) في « الشذرات » وغيرها ان وفاة ابن حجر كانت سنة ٨٥٢

بكاك العلم حتى النحو أضحى
مع التصريف بعدك فى جدال
وقد أضحى البديع بلا بيان
وقد سلفت معانيه الغوالى
وقد درست دروس العلم حزنا
وقد ضل الجواب عن السؤال
تنكرت المعارف فى عيانى
وتمييزى غدا فى سوء حال
وما عوضت من بدل وعطف
سوى توكيد سقمى واعتلالى
وكم جنت المنون على كرام
وجندلت الكمى بلا قتال
فيا قبرا ثوى فيه تهنى
فقد حزت الجميل مع الجمال
سقاك الله عينا سلسبيلا
وأسبغ ما عليك من الظلال

سنة خمس وخمسين وثمانمائة (١٤٥١ م) :

فيها وفاة أمير المؤمنين المستكفى بالله سليمان ابن المتوكل على الله محمد . وكانت وفاته فى يوم الجمعة ثانى المحرم من السنة المذكورة ، فكانت مدة خلافته نحو عشر سنين . ولما مات نزل السلطان وصلى عليه ومشى فى جنازته حتى دفن عند أقاربه بالمشهد النفيسى . ومات ولم يعهد لأحد من اخوته .

فلما كان يوم الاثنين خامس المحرم عقد السلطان مجلسا بالقصر الكبير ، وجمع فيه القضاة الأربعة وهم : قاضى القضاة الشافعية شرف الدين يحيى المناوى ، وقاضى قضاة الحنفية سعد الدين الديرى ، وقاضى القضاة الحنابلة عز الدين الحنبلى ، وقاضى القضاة المالكية شمس الدين البساطى .

وكان المتكلم فى ذلك المجلس القاضى كمال الدين محمد بن البارزى كاتب السر الشريف . فلما تكامل المجلس وقع الاختيار على تولية حمزة بن المتوكل — وكان أسن اخوته — فولاه السلطان . ثم ان القاضى كمال الدين بن المبارك البارزى استرعى السلطان مبايعة الخليفة حمزة ، ولقبوه بالقائم بأمر الله ، ثم أحضروا له التشريف فألبسوه له ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم وقدامه القضاة الأربعة وأعيان الناس حتى وصل الى بيته وهو فى غاية العظمة ، فكان أحق بقول القائل :

كل يهنيك بالتشريف محتفلا
يا من بأيامه المعروف معروف
لكننى بك أختار الهناء له
فان قدرك للتشريف تشريف

ومن الحوادث أن السلطان رسم بحرق شخوص خيال الظل جميعها وأبطلها ، ورسم بابطال نوبة خاتون التى كانت تعزف بالقلعة بعد العشاء .

وفيها توفى العلامة قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى صاحب التاريخ البدرى .

سنة ست وخمسين وثمانمائة (١٤٥٢ م) :

فيها توفى القاضى كمال الدين ابن القاضى ناصر الدين البارزى كاتب السر الشريف بالديار المصرية . فلما أن توفى القاضى كمال الدين بن البارزى خلع الملك الظاهر على القاضى محب الدين ابن الأشقر واستقر به كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، عوضا عن القاضى كمال الدين بن البارزى ، وخلع على القاضى جمال الدين يوسف واستقر به ناظر الجيوش المنصورة مع ما بيده من نظارة الخاص .

وكان القاضى كمال الدين بن البارزى من أهل الفضل والعلم ، وله خط جيد وعبارة حسنة . وكان له نظم رقيق ، وقد فاق والده القاضى ناصر الدين البارزى .

ومن النكت اللطيفة قيل كتب القاضى ناصر الدين البارزى تقريظا ، وقد استوفى الى آخر الورقة ، فلما فرغ قالوا له : « لابد من كتابة ولدك القاضى كمال الدين على هذا التقريظ » . فأمره بأن يكتب تحت خطه — ولم يبق من الورقة الا قدر أصبعين — فكتب القاضى كمال الدين تحت خط والده :

مرت على فهمى وحلو لفظها
مكرر ، فما عسى أن أصنعا ؟
ووالدى — دام بقاء سؤدده —
لم يبق فيها للكمال موضعا

فانظر الى حسن أدبه ، مع بلوغ القصد وحسن ما وقع له بالتورية مع تضمين اسمه وعدم الحشو ، وحسن المقابلة بين الحلو والمر ، وهذا فى غاية الرقة .

ومن الحوادث فى أيام الملك الظاهر جقمق أن البلاد لما شرقت رسم للمقطعين بأن البلاد التى رويت من ماء النيل فى تلك السنة يأخذون عنها من الفلاحين القطيعة قطيعتين ، ففعلوا ذلك ومشى هذا الأمر .

ومن الحوادث فى أيامه أن بركات ، أمير مكة ، كان قد أظهر العصيان ، فتوجه اليه القاضى شرف الدين الأنصارى فحضر صحبته ، فلما وصل نزل اليه السلطان ولاقاه من المطعم ، فدخل صحبته وطلع الى القلعة ، فخلع عليه وأكرمه وزالت تلك الوحشة التى كانت بينهما .

سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣ م) :

فيها توعك جسد السلطان ولزم الفراش وسلسل فى المرض . فلما ثقل عليه الضعف أرسل خلف أمير المؤمنين القائم بالله حمزه والقضاة الأربعة ، فلما حضروا عهد بالملك الى ولده المقر الفخرى عثمان ، وخلع نفسه من السلطنة ، واستمر عليلا ملازم الفراش الى أن توفى فى ليلة الثلاثاء رابع شهر صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، فغسلوه وكفنوه وصلى عليه الخليفة حمزة بالقلعة ، ونزلوا به من باب المدرج ، وتوجهوا به الى تربة قانباى الجركسى التى عند دار الضيافة فدفن هناك ، وكثر عليه الحزن والأسف من الناس .

وقيل مات وله من العمر نحو احدى وثمانين سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك أربع عشرة سنة وعشرة أشهر ويوما وقيل يومين .

وكان ملكا عظيما جليلا دينا خيرا متواضعا كريما يحب فعل الخير . وكان عنده لين جانب ، يحب العلماء وينقاد الى الشريعة ، ويقوم الى العلماء اذا دخلوا عليه . وكان يحب الأيتام ويكتب لهم الجوامك ، ولا يخرج اقطاع من له ولد الا الى ولده . وكانت الدنيا فى أيامه هادئة من الفتن والتجاريد . وكان يحسن للأمراء التراكمة ويعطيهم العطايا الجزيلة ، فكانوا تحت طاعته فى مدة ولايته .

وكان الملك الظاهر طاهر الذيل عفيفا عن ... و ... .

وكانت صفته : معتدل القامة ، غليظ الجسد ، درى اللون ، مستدير الوجه ، مستدير اللحية ، حسن الشكل ، عليه وقار وسكينة ، مهيبا فى العيون . وكان فصيح اللسان بالعربية ، متفقها

وله مسائل فى الفقه عويصة ترجع له فيها العلماء .. لكنه كان صاحب ودينة ، ماشيا على قاعدة الأتراك : عنده الدعوى لمن سبق ، وكان عنده حدة زائدة وبادرة فى الأمر .

ومن مساويه أنه كان عنده خرق فى حق العلماء ، منها أنه سجن قاضى القضاة ولى الدين السقطى فى المقشرة ، ومنها أنه عزر الشيخ شمس الدين الكاتب فى وسط الصالحية وكان يكره جماعة الأشرف برسباى ونفى منهم جماعة ، ونفى أبا الخير بن النحاس — الذى ما كان عنده أعظم منه — وسجنه بالديلم أياما ، وسجن جماعة كثيرة من العلماء بالمقشرة ، وصادر القاضى عبد الباسط وأخذ أمواله ، وأثبت على الأتابكى قرقماس الشعبانى كفرا وأرسل يضرب عنقه بثغر الاسكندرية ، وآثبت على الأمير بخشباى كفرا وضرب عنقه . وكان اذا سمع بأن أحدا يسكر ينفيه ويقطع جامكيته ويخرج اقطاعه . وغضب فى وقت على النصارى فهدم جانبا من كنائسهم ، وحجر على بيع النبيذ ، وكتب على اليهود والنصارى قسائم ألا يعصروا خمرا ، ثم كبس البيوت والحارات بسبب ذلك وأراق من الخمور أشياء كثيرة ، ثم أمر بسد خوخة باب الجسر التى عند بركة الرطلى فأقام مسدودا أياما ثم رسم بفتحه . وكان له أشياء كثيرة من هذا النمط بحسب الوسائط السوء ... وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساويه ، وكان خيار ملوك الترك من الجراكسة بالنسبة الى غيره من الملوك كما قيل فى المعنى .

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء فضلا أن تعد معايبه

ولما مات الملك الظاهر خلف من الأولاد ثلاثة صبيا وبنتين ، وهم : الملك المنصور عثمان الذى تسلطن بعده . وأما البنتان فاحداهما من خوند التى هى بنت البارزى تزوجت بالأتابكى أزبك ، والأخرى تزوجت بالأمير جانبك الظريف أولا ثم تزوجت بالأتابكى أزبك بعد موت أختها

وأما نساؤه فخوند بنت البارزى أولا ، وخوند بنت الأمير جرباش الكريمى قاشق أمير سلاح ، وخوند بنت ابن عثمان ، وخوند الجركسية ، وتزوج ببنت عبد الباسط ناظر الجيش .

وكانت دولته ثابتة القواعد وأما أمراؤه الأتابكية فالأمير قرقماس الشعبانى أولا ، ثم الأمير أقبغا التمرازى ، ثم الأمير يشبك السودونى ثم الأمير اينال العلائى .

وأما دواداريات فالأمير اركماس الظاهرى أولا ، ثم الأمير تغرى بردى المؤذى ، ثم الأمير اينال العلائى ، ثم قانباى الجركسى ، ثم الأمير دولاتباى المؤيدى .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى شهاب الدين بن حجر أولا ، ثم القاضى علم الدين صالح البلقينى والقاضى شمس الدين القاياتى ، والقاضى ولى الدين السقطى ، والقاضى شرف الدين يحيى المناوى . وأما قضاته الحنيفية فالقاضى سعدالدين ابن الديرى . وأما قضاته المالكية فالقاضى شمس الدين محمد البساطى أولا ، ثم القاضى بدر الدين ابن التونسى ، ثم القاضى ولى الدين الأموى . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى محب الدين العسقلانى أولا ، ثم القاضى بدر الدين البغدادى ، والقاضى عز الدين الحنبلى .

وأما كتاب سره فالقاضى بدر الدين بن مزهر أولا ، والقاضى كمال الدين بن البارزى ، والقاضى محب الدين بن الأشقر من بعده .

وأما نظار جيوشه فالقاضى عبد الباسط أولا ،

ثم القاضى محب الدين بن الأشقر ، والقاضى جمال الدين يوسف بن كاتب جكم .

وأما نظـار الخواص الشريفة فالقاضى جمال الدين يوسف بن كاتب جكم المذكور .

وأما وزراؤه فالصاحب كريم الدين ابن كاتب المناخات ، والصاحب أمين الدين بن الهيصم .

وأما استداراياته فالأمير عبد الرحمن بن الكويز والأمير زين الدين يحيى . وتولى غير هؤلاء جماعة لم تطل مدتهم فلم نذكرهم ههنا .

وأما من تولى الحسبة فى أيامه فالقاضى محمود العينى ، والشيخ على العجمى ، والعلائى على بن القيسى ، وعبد العزيز بن محمد الصغير أيضا .

وأما ولاة القاهرة فى أيامه فمنصور بن الطبلاوى وجانى بك ، وقراجا ، وعلى بن القيسى ، وغير ذلك من الأتراك وغيرهم .

وأما من توفى فى أيامه من الأعيان فهم الخليفة داود ، والخليفة سليمان ، وقاضى القضاة شمس الدين البساطى المالكى ، وقاضى القضاة ولى الدين السفطى الشافعى ، وقاضى القضاة محب الدين العسقلانى الحنبلى ، وقاضى القضـاة بدر الدين البغـدادى الحنبلى ، وقاضى القضاة بدر الدين التونسى المالكى ، وقاضى القضـاة بدر الدين محمود العينى الحنفى — وهو صـاحب التاريخ البدرى — وكان العينى من أهل الفضل وله عدة مصنفات فى علوم جليلة ، وكان له شعر جيد . وفيه يقول بعض الموالة هذه الأبيات المواليا ، وقد جمع فيها الفنون السبعة وهو قوله :

قوما لدو بيت قاضى قد زجل شينى
بكان وكان امتدح بين الورى زينى
وانقـل موشـح مواليـا بلا مينى
فأبحر الشعر مجراها من العينى

وتوفى فى أيام الملك الظاهر ولده المقر الناصرى محمد ، وتوفى القاضى الوفائى ، وابن الجزرى شـيخ القراءات . وتوفى الحافظ عبـد الرحيم الحموى المحدث ، وتوفى شيخ الزهاد محمد بن سلطان ، والشيخ كمال الدين المجذوب ، والشيخ عبادة المالكى ، والشيخ شمس الدين الحنفى ، والشيخ أبو الفتح بن أبى الوفاء ، والأمير جوهر اللالا الزمام القنقبای الخازندار .

وتوفى فى أيامه جماعة كثيرة من الأمراء المقدمين وأعيان الناس من الأكابر .

وتوفى فى أيامه من الشعراء الشيخ تقى الدين ابن حجة صـاحب شرح البديعية ، توفى بحماه . وتوفى الشيخ شهاب الدين بن مبارك شاه ، وكان من أعيان الشعراء . وتوفى الشيخ شمس الدين بن كميل ، وكان له شعر جيد . وتوفى البدر البشتكى من أعيان الشـعراء ، وتوفى الشيخ شمس الدين النواجى صاحب حلبة الكميت ، وكان من أعيان الشعراء ، وقد رثاه الشهاب المنصورى حيث قال :

رحـم الله النواجى فقـد
فقـد الدنيـا وأبقى ما روى
وانطوى فى شـقة البين فيا
حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

الملك المنصور أبو السعادات

هو الملك المنصور أبو السعادات ، فخر الدين عثمان ، ابن الملك الظاهر چقمق العلائى ، وهو الخامس والثـلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الحـادى عشر من ملوك الچراكسة وأولادهم فى العدد .

بويع بالسلطنة بعد خلع أبيه من السلطنة فى يوم الخميس حـادى عشرى المحـرم سنة سبع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٣م) .

تسلطن وله من العمر نحو تسع عشرة سنة . وكانت أمه أم ولد رومية الجنس ، فلبس خلعة السلطنة من الدهيشة ، وركب وتوجه الى القصر الكبير والأتابكى اينال العلائى حامل القبة والطير على رأسه . فلما جلس على سرير الملك باست له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج له الناس بالدعاء — هذا كله ووالده الظاهر فى قيد الحياة — فأقام اثنى عشر يوما حتى توفى والده .

فلما تم أمره فى السلطنة خلع على الأمير تمربغا واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير دولاتباى المؤيدى .

ثم انه قبض على الأمير زين الدين استادار ، وكان بينه وبينه حظ نفسى من أيام والده ، فلما قبض عليه لم يرث له وسلمه الى الأمير فيروز الزمام . ثم خلع على الأمير جانى بك نائب جدة واستقر به استادارا عوضا عن زين الدين ، ثم نقل زين الدين من عند فيروز الزمام وسلمه الى الأمير جانى بك نائب جدة فعاقبه وأحضر اليه المعاصير وعصره فى أركابه حتى كسرها ، واستخرج منه نحو أربعين ألف دينار ، واستمر فى العقوبة أياما . وفيه يقول بعض الشعراء :

أخبار زين الدين قد شاعت بها
أعداؤه بين الورى تتعهد
لا غرو ان هم بالغوا فى عصره
فالكرم يعصر والجواد يقيد

ثم ان الملك المنصور أخذ فى أسباب نفقته على العسكر ، ولم يكن فى الخزائن شىء من المال .

قيل خلف الملك الظاهر جقمق فى الخزائن من المال ثلاثين ألف دينار لا غير ، فشكا ذلك الى القاضى جمال الدين يوسف ناظر الخاص ، فقال : « على ذلك » . ثم ضرب دنانير ذهب ينقص كل دينار عن الأشرفى قيراطين ، وسماها المناصرة ، فضرب منها جملة كثيرة ، وأراد أن ينفق ذلك على العسكر

ولما كان يوم الاثنين مستهل ربيع الأول من سنة سبع وخمسين وثمانمائة وثب المماليك الأشرفية والمؤيدية ، والتف عليهم جماعة من المماليك السيفية . فلما وثبوا توجهوا الى بيت الأتابكى اينال العلائى فأركبوه غصبا ، وأتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر . فلما استقر به أرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر أخذ فى أسباب خلع الملك المنصور عثمان فكتبوا محضرا وشهد فيه جماعة الخاصكية بما يوجب خلعه ، فخلع من السلطنة وبويع الأتابكى اينال بالسلطنة . واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين من يوم الاثنين الى يوم الأحد سابع ربيع الأول ، فانكسر الملك المنصور عثمان فى ذلك اليوم .

وكان الملك المنصور أرسل يحضر عربانا من الشرقية وعربانا من البحيرة ، فمنعه من ذلك الأمير قانباى الچركسى وما مكنه من ذلك، وقال : « تطمع العرب فى الترك » ... ولا زال اينال يحاصر الملك المنصور وهو بالقلعة ، وقطع عنه الماء ومنع عنه الأكل ، حتى ضجر وانكسر ، فملك اينال باب القلعة وولوا الظاهرية منهزمين كأنهم لم يكونوا .

فلما تسلطن اينال قبض على الملك المنصور وقيده وسجنه بالبحرة وهو مقيد فأقام بها الى يوم الأحد ثامن عشرى ربيع الأول ، فأنزلوه من القلعة من باب القرافة وهو مقيد الى أن وصلوا به البحر فأنزلوه فى الحراقة وتوجهوا به الى السجن بثغر الاسكندرية ، وكان المتسفر عليه الأمير خير بك الأشقر أمير آخور ثانى . فلما وصل الى الاسكندرية سجن بها ورجع الأمير خير بك ... فكانت مدة

سلطنة الملك المنصور عثمان ثلاثة وأربعين يوما ، وكانت كسنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما قيل فى المعنى :

فلم يقم الا بمقـــدار أن

قلت له أهــلا أخى مرحبا

واستمر الملك المنصور بثغـر الاسكندرية الى دولة الملك الظاهر خشقدم ، فرسم بالاطلاق ، وأن يسكن فى بعض دور الاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة . واستمر على ذلك الى دولة الأشرف قايتبـاى ، فنقله الى ثغر دميـاط ، وكان يركب ويتصيد ثم طلب من السلطان اذنا بأن يحج فأنعم له بذلك ، فحضر الى القاهرة وطلع الى القلعة ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، ثم أقام له بركا وسنيحا وتوجه الى الحجاز فحج وعاد الى القاهرة ، وأقام بها نحوا من شهرين ... ففى هذه المدة كان يطلع القلعــة ويضرب الأكرة مع السـلطان ، ورسم له السلطان بأن يتوشح ببند أصفر حين يلعب الأكرة ، فكان فى غاية العز والعظم .

وكان الملك الأشرف قايتبـاى ممـلوك أبيـه الظاهر چقمق ، والأتابكى مملوك أبيه وصهر زوج أختـه ، وسائر الأمراء الظاهرية مماليك أبيـه . وكان الأتابكى تمراز الشمسى متزوجا ببنت الملك المنصور ... فساعدته الأقدار من كل جانب .

ثم رسم له السلطان بالعود الى ثغر دمياط ، وأقام فيها حتى توفى بها أثناء دولة الملك الأشرف قايتباى ، ونقل بعد موته من دمياط ودفن فى تربة أبيه الملك الظاهر .

ومات الملك المنصــور وله من العـمر أربع وخمسون سنة . وكان كريما سخيا لين الجانب .

الملك الأشرف إينال

هو الملك الأشرف أبو النصر ، سيف الدين اينال ، العلائى الظاهرى ، وهو السادس والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثانى عشر من ملوك الچراكسة وأولادهم .

بويع بالسلطنة بعد خلع الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق ، وذلك يوم الاثنين ثامن ربيع الأول سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، وتلقب بالملك الأشرف .

وقد تقــدم أن جماعة من الأشرفية والمؤيدية والمماليك السيفية ، لما وثبوا على الملك المنصور ، توجهوا الى بيت أتابكى اينال وأركبوه غصبا وأتوا به الى حدرة البقر فى بيت قوصون فجلس به ، وأرسل خلف أمير المؤمنين حمزة ، فلما حضر قام فى سلطنة الأتابكى اينـال غاية القيـام ، وخلع الملك المنصــور من السلطنة قبــل أن ينكسر ، وبايع الأتابكى اينال ، ونودى باسـمه فى القـاهرة . واستمرت الحرب ثائرة بينهم سـبعة أيام ، وقتل فى هذه المدة من الناس ما لا يحصى . وآخر الأمر انكسر الملك المنصور وملك اينال باب السلسلة .

فلما استقر ببـاب السلسلة بعث جمـاعة من الأشرفية قبضــوا على الملك المنصور وقيــدوه وأدخلوه البحرة ، وقبضوا على جماعة من الظاهرية فبات ليلة الاثنين فى باب السلسلة .

فلما كان يوم الاثنين أحضر اليه شعار الملك ، وأفيض عليه ، وقدمت له فرس النوبة فركب من سلم الحراقة ، وحملت القبة والطير على رأسـه وولده الشهابى أحمد ، ومشت قدامه الأمراء حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر

بالقلعة ، ونودى باسمه فى القـاهرة ، وارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام .

وكان أصل الملك الأشرف اينال چركسى الجنس جلبه الخواجا علاء الدين على فاشتراه منه الملك الظاهر برقوق وصار من جملة مماليكه . فلما توفى الملك الظاهر برقوق وتولى بعده ابنه الناصر فرج أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا وبقى جمدارا ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الملك المظفر أحمد ابن المؤيد شيخ ، ثم بقى أمير طبلخاناه رأس نوبة ثانى فى دولة الملك الأشرف برسباى ، ثم بقى نائب غزة مع الأشرف برسباى . ولما توجه الى آمد جعله نائب الرها ، وذلك فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة . ثم أحضره الأشرف برسباى الى القاهرة وأنعم عليه بتقدمة ألف — واستمرت نيابة الرها بيده زيادة عن التقدمة — ثم نقله الأشرف الى نيـابة صفد وخرج اليها فى سنة أربعـين وثمانمائة ، واستمر بصفد الى دولة الظاهر چقمق ، فبعث خلفه . فلما أحضره قرره فى تقدمة تغرى بردى المؤذى . فلما توفى الأتابكى يشبك السودونى قرر فى الأتابكية عوضا عن يشبك السودونى ، وذلك فى سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، واستمر على ذلك حتى توفى الظاهر چقمق وتولى ابنه الملك المنصور عثمان ، فوثب عليه العسكر وتوجهـوا الى بيت الأتابكى اينال فأركبوه غصبا ، وأقام الحرب ثائرة بينهما سبعة أيام ، فلما انكسر المنصور وقع الاتفاق على سلطنته فسلطنوه ، وتلقب بالملك الأشرف .

فلمـا تم أمره فى السـلطنة وجلس على سرير الملك أخـذ فى تدبير أمره واصلاح شأنه . ثم انه عين الأتابكية لولده المقر الشهابى أحمد ، فعز ذلك على الأمراء ، فقرر فيها ثانى بك البردبكى وخلع عليه وأقره فى الأتابكية عوضا عن ولده ، وأنعم على ولده الشهابى أحمد بتقدمة ألف .

ثم عمل الموكب وخلع على الأمير خشقدم وقرره أمير سلاح عوضا عن تنم بن عبد الرزاق ، وخلع على طوخ بويتى بازق وقرره أمير مجلس ، وخلع على قرقماس الجلب وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن اسنبغا الطيار ، وخلع على چرباش كرت وقرره أمير آخور كبير عوضا عن قانى باى الچركسى ، وخلع على يونس الأقباى المؤيدى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن تمربغا الظاهرى ، وخلع على جان بك القرمانى وقرره حاجب الحجاب عوضا عن خشقدم الناصرى ، وخلع على تمـراز الاينالى الأشرفى وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن اسباى ، وخلع على جانى بك القجماسى الأشرفى وقرره فى شادية الشراب خانه عوضـا عن لاچين الظاهرى ، وخلع على خير بك الأشقر وقرره أمير آخور ثانى ، وخلع على جانبك نائب جدة واستمر متحـدثا فى الاسـتادارية ، وخلع على قانى باى الأعمش وقرره فى نيابة القلعة ، وخلع على يونس العلائى وقرره فى نيابة الاسكندرية ، وخلع على يشبك الناصرى وقرره رأس نوبة ثانى .

وأنعم على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف منهم أرنبغا اليونسى وبرسباى البجاسى وغير ذلك من الأمراء .

ثم أنعم بامرية طبلخانات وعشراوات على جماعة كثيرة من الأمراء منهم جانبك الظريف وقرره فى الخازندارية الكبرى عوضـا عن آزبك بن ططخ ، وأنعم على بردبك زوج ابنته بامرية عشرة ، وقرر يشبك الأشقر فى استدارية الصحبة عوضا عن سنقر أحد أمراء الظاهرية .

ثم انه شرع فى ارسال الملك المنصور الى ثغر الاسـكندرية ، فنزل به من باب الدرفيل وهو مقيد ، فتوجهوا به الى الاسكندرية ليسجن بهـا بعد أن أنزلوه الى البحر فى الحراقة وتوجهوا به ،

وكان المتسفر عليه خير بك الأشقر أمير آخور ثانى ، فسجنه ورجع .

ثم أنزل من قبض عليه من الأمراء ، وهم : تنم ابن عبد الرزاق أمير سلاح ، وقانى باى الچركسى أمير آخور كبير ، وتمربغا الدوادار الكبير ، ولاچين شاد الشراب خاناه ، وأزبك بن ططخ خازندار كبير ، وسنقر العايق ، وجانم الساقى ، وجانى بك وسودون الأفرم ... فتوجهوا بالجميع الى ثغر الاسكندرية فسجنوا بها وهم فى قيود حديد .

وفى ربيع الأول ابتدأ السلطان بتفرقه النفقة — وهى نفقة البيعة — على الجند ، وكانت قد ضربت قبل ذلك ، وهى الدنانير المناصرة تنقص عن وزن الأشرفى قيراطين من ذهب . وكان القائم فى ذلك ناظر الخاص يوسف . فلما تسلطن اينال ضربت باسمه وأنفقها على الجند . وجلس السلطان للتفرقة على الجند ، فأنفق على جماعة من الجند مائة ، وعلى جماعة منهم خمسين دينارا ، وعلى جماعة منهم خمسة وعشرين دينارا ، وعلى جماعة عشرة دنانير ... وهو أول من شح فى نفقة البيعة وميز الجند بعضا على بعض ، فكلمه بعض الأمراء فى ذلك فأجاب بأن الأمير تمربغا الدوادار رتب ذلك فى قوائم فى دولة المنصور ، وقد مضى ذلك على هذا الحكم ، فما تنبغى الزيادة على ذلك والخزائن مشحوتة من المال ، وان هذا القدر ما تحصل الا من المصادرات من ناظر الخاص يوسف وزين الدين الاستادار وغير ذلك من المباشرين . وهذا أول تصرفات اينال فى أحوال أمور المملكة فى الولاية والعزل

وفيه توفى جقمق اليشبكى الخاصكى أحد معلمى الرمح ، وكان ترشح أمره الى نيابة القلعة بمصر . وكان شجاعا مقداما فى الحرب ، جرح فى هذه الواقعة واستمر ملازما للفراش حتى مات .

وتوفى الشيخ على الرفاعى شيخ المدرسة الأشرفية — أشرفية برسباى — التى بالصحراء وتوفى شمس الدين الأبح كاتب المماليك ، وتوفى الأمير أرنبغا اليونسى الناصرى الذى تقرر فى تقدمة الألف . وتوفى جانبك الوالى الزردكاش الكبير وكان من مماليك يشبك الجكمى ، فلما مات خلع السلطان على نور كار الحاجب الثانى ، وقرر فى الزردكاشية الكبرى عوضا عن جانبك الوالى ، وقرر فى الحجوبية الثانية سمام الحسنى . وقد قرر السلطان جماعة كثيرة من الأشرفية البرسبيهية فى عدة وظائف سنية ، وقرر منهم جماعة كثيرة رءوس نوب حتى بلغ عدتهم فى أيام دولته فوق الخمسة والعشرين أميرا رأس نوبة ، وقرر عدة دوادارية فوق عشرة أنفار ، وعدة سقاة وبوابين ، وفرق الاقطاعات على غالب المماليك الأشرفية .

وقبض على جماعة كثيرة من مماليك الظاهر ، ونفى منهم جماعة من أعيانهم الى بلاد الشام ، ونفى منهم جماعة الى الوجه القبلى نحو قوص فاستقامت أموره فى السلطنة ، وثبتت قواعد دولته ، واستمر فى السلطنة الى آن مات على فراشه كما سيأتى ذكر ذلك .

وفى ربيع الآخر قدم جانم الأشرفى الذى كان أمير آخور كبير ونفى الى صفد ، وحضر جانى بك قلقسير الأشرفى الذى كان نفى الى طرابلس فحضر من غير اذن ، فأنعم عليه السلطان بامرية عشرة .

وفيه حملت نفقات الأمراء اليهم على جارى العادة .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من مماليك القاضى عبد الباسط يقال له لبان ، فوسطه — ومعه اثنان من أصحابه — وسبب ذلك أنهم كانوا يحضرون عندهم بنات الخطا ، فاذا بتن عندهم يقتلونهن ويأخذون ما عليهن من القماش . ففعلوا

ذلك غير مرة حتى غمز عليهم فأشهروهم فى القاهرة وقدامهم أقفاص حمالين فيها عظام الأموات التى كانوا يقتلونها من النساء ، وكان لهم يوم مشهود .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بحلب القاضى تاج الدين عبد الوهاب وصرف عنها الزهرى .

وفيه عقد السلطان لولده المقر الشهابى أحمد على بنت الأمير دولات باى الدوادار الكبير .

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ سراج الدين عمر التبانى الحنفى . وكان عارفا بفن علم الرمل ، وله فى ذلك يد طائلة [1] ، وكان من خواص المؤيد شيخ ، وكان رئيسا حشما وله شهرة زائدة .

وفيه قبض السلطان على قراجا الخازندار ، وكان من المقدمين الألوف ، ورسم باخراجه الى القدس بطالا ، ولم يكن له ذنب غير أنه أخـذوا منه التقدمة وقرروا فيها جانم الأشرفى .

وفيه قرىء تقليد السلطان بالقصر على العادة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعـة ، فلما انتهى المجلس خلع السلطان على الخليفة والقضاة ونزلوا الى بيوتهم .

وفيه توفى قاضى القضـاة الحنبلى بدر الدين عبـد المنعم بن محمد بن محمد بن عبـد المنعم البغدادى ، وكان عالما فاضلا معظما عند الناس وأرباب الدولة وله حرمة وافرة ، ومولده سـنة احدى وثمانمائة . وكان أعور باحدى عينيه ولكنه كان من أعيان علماء الحنابلة من أهل الفضل .

وقد قال فيه بعض الشعراء يداعبه :

ورب أعمـى قال فى مجـلس
يا قوم ما أصعب فقـد البصر
أجابه الأعـور من خلفـه
عندى من دعواك نصف الخبر

فلما خلع السلطان على الشيخ عز الدين الكنانى ابن قاضى القضاة برهان الدين ، ابن قاضى القضاة مجد الدين بن نصر الله ، وقرر فى قضاء الحنابلة بمصر عوضا عن قاضى القضاة بدر الدين البغـدادى بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار بقتل سونجبغا اليوسى ، وتغرى بردى القلاوى ، وكان كاشف الوجه القبلى ، وكان قرر فى الوزارة فى أواخر دولة الظاهر جقمق . أخذ الوزارة عن أمين الدين بن الهيصم ، وكان فرج بن النحال ناظر الدولة يومئذ ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، فتوجه سونجبغا للقبض عليه فتخانقا وهما على الخيل ، فقتل كل منهما صاحبه بالخناجر ، فماتا معا فى يوم واحد . وكان سونجبغا من مماليك الناصر فرج بن برقوق ، وكان من جملة أمراء الطبلخانات ، وسافر أمير الحاج غير مرة ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على برسباى المؤيدى باقطاع تغرى بردى القـلاوى ، وقرر بلباى الاينالى فى امرية سونجبغا .

وفيه توفى الشيخ محب الدين أبو القاسم محمد النويرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، وكان ذكر للقضاء غير ما مرة ولم يتم له ذلك . ومولده سنة احدى وثمانمائة .

وفيـه قرر فى تقدمة المماليك الطواشى لؤلؤ الرومى الأشرفى وصرف عنها مرجان العادلى

وفيه قرر فى كشف الوجه القبلى قراجا العمرى عوضا عن القلاوى .

وفيه توفى الشيخ عز الدين التكرورى المالكى وكان عالما فاضلا أديبا بارعا ، وكان له خط جيد وشعر رقيق . وكان مولده سنة احدى وستين وسبعمائة .

وفيه قدم القاضى محب الدين بن الشحنة الى القاهرة من غير طلب ، فأراد السلطان أن يرده الى

---
(1) تأمل !

حلب ، فأوعد بمال ، فأذن له بالدخول الى مصر فدخل على كره من الجمالى يوسف ناظر الخاص .

وفيه توفى الأمير قانصوه النوروزى ، وكان من أعيان الرماة بالنشاب ، مشهورا بالفروسية بين الأتراك .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى الأمير دولات باى المحمودى المؤيدى ، أمير دوادار كبير كان . وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان حج فى تلك السنة . فلما عاد قبض عليه الملك المنصور وبعث به الى السجن بثغر الاسكندرية . فلما تسلطن الأشرف اينال رسم بالافراج عنه ، فحضر الى القاهرة وقرر فى تقدمة ألف ، فأقام مدة يسيرة وتوفى . وكان أميرا جليلا عارفا بأحوال المملكة ، سيوسا فى أفعاله . ومات وله من العمر نحو ستين سنة . وكان منهمكا فى لذات نفسه ، يميل الى شرب الراح وحب الملاح . وهو والد سيدى عمر . وكان لا بأس به .

ولما مات قرر فى تقدمته خير بك المؤيدى المعروف بالأجرود ، وقرر قايتباى المحمودى فى تقدمة ألف بدمشق ، وهى تقدمة قانصوه النوروزى .

وفيه خرجت تجريدة الى البحيرة بسبب فساد العربان ، وكان باش العسكر طوخ بانى بازق أمير مجلس .

* * *

وفى رجب رسم السلطان بدوران المحمل ونودى فى القاهرة بالزينة — وكان له مدة وهو بطال — فساقوا الرماحة فى تلك السنة . وكان جانى بك الظريف هو باش الرماحة .

وفيه قرر القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر فى نظر الاصطبل ، وقرر القاضى محب الدين بن الشحنة باستمراره فى قضاء حلب وتوجه الى حلب .

وفيه تزوج الأمير جانى بك الظريف بنت الملك الظاهر جقمق ، وهى أخت زوجة الأمير أزبك بن ططخ .

وفيه جاءت الأخبار بقتل قشم المحمودى الناصرى كاشف البحيرة ، قتله عربان البحيرة غدرا . فلما قتل قشم قرر عوضه فى كشف البحيرة حسن الدنكرى .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى ثالث عشرى مسرى ، فنزل لكسره المقر الشهابى أحمد ابن السلطان ، وكان له يوم مشهود ، وهو أول فتحة للسد .

* * *

وفى شعبان كانت وليمة عرس خوند فاطمة بنت السلطان ، على الأمير يونس البواب أمير دوادار كبير ، وكان مهما حافلا بالقلعة وأقام ثلاثة أيام متوالية ، ثم نزلت فى محفة الى دار زوجها وكانت ليلة حافلة عند نزولها من القلعة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نائب صفد يبغوت ابن صفر خجا المؤيدى المعروف بالأعرج ، وكان أميرا جليلا ، ولى نيابة حماه ونيابة صفد ثم سجن ثم عاد الى صفد ومات بها .

وفيه ثارت فتنة كبيرة ، وركب المماليك وطلعوا الى الرميلة واضطربت الأحوال ، وسبب ذلك أن المماليك طلبوا من السلطان نفقة البيعة ، وقالوا ان التى قد أنفقها السلطان انما هى نفقة الملك المنصور ونحن نطلب منك نفقة ثانية ، فبعث يعتذر اليهم ويقول لهم ان الخزائن خالية من المال ، وهذه النفقة من المصادرات لجماعة من المباشرين ... فسكنت الفتنة قليلا ، وكانت هذه تعلية من المماليك السيفية .

وفى رمضان جاءت الأخبار بوفاة جقمنوس الناصرى نائب بيروت .

وفيه اختفى الصاحب أمين الدين بن الهيصم . فلما اختفى خلع السلطان على سعد الدين فرج بن النحال كاتب المماليك وقرره فى الوزارة عوضا عن ابن الهيصم ، وكان عين للوزارة ناظر الخاص يوسف ، فاستعفى من ذلك ، فقرر بها سعد الدين فرج ، وقرر عوضه فى كتابة المماليك ابن عمه عبد الرحمن . وفيه خلع السلطان على اياس الطويل وقرره فى نيابة صفد عوضا عن يبغوت الناصرى . وكان اياس الطويل أتابك العساكر بطرابلس ، وكان خشداش السلطان . وقرر فى أتابكية طرابلس حطط الناصرى ، وكان من العشراوات بطرابلس ، وقرر فى امرية حطط جانى بك المحمودى المؤيدى وكان منفيا بطرابلس .

وفيه توجه القاضى عبد الكافى بن الذهبى كاتب السر بدمشق ، وكان من أعيان الدماشقة ، حسن الخط والعبارة .

* * *

وفى شوال كان العيد يوم الجمعة ، وخطب مرتين ، فلهج الكثير من الناس بزوال السلطان فلم يصح ذلك .

وفيه قرر جانى بك فى نيابة جدة على عادته .

وفيه خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل جانى بك الظريف ، وأمير ركب الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان لهما يوم مشهود .

وفيه اختفى زين الدين الاستادار . وكان الأشرف اينال ، لما استعفى منها جانى بك نائب جدة ، خلع السلطان على زين الدين وولاه الاستادارية على كره منه . فلما اختفى خلع السلطان على العلائى على بن محمد الاهناسى ، وكان برد دار بالمفرد عند زين الدين الاستادار ، ثم كان استادارا عند المقر الشهابى أحمد بن الملك الأشرف اينال. فلما غيب زين الدين سعى فى الاستادارية الكبرى ، فخلع عليه السلطان وولاه الاستادارية عوضا عن زين الدين ، وهذه أول عظمة العلائى على بن الاهناسى .

وفيه وصل قاصد ملك الروم محمد بن عثمان يخبر السلطان بفتح القسطنطينية العظمى ، وقد صنع المكايد فى فتحها ، وكان الفتح فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى من هذه السنة . فلما بلغ ذلك دقت البشائر بالقلعة ، ونودى فى القاهرة بالزينة . ثم ان السلطان عين برسباى أمير آخور ثانى رسولا الى ابن عثمان يهنئه بهذا الفتح العظيم ، فخرج برسباى وتوجه الى بلاد ابن عثمان .

* * *

وفى ذى القعدة لبس السلطان الصوف فى سادس هاتور القبطى ، وقد عجل السلطان بلبسه .

وفيه خلع السلطان على محب الدين بن الشحنة وقرره فى كتابة السر بمصر ، وصرف عنها محب الدين بن الأشقر ، وهذا أول عظمة ابن الشحنة بمصر . وكان قرر فى قضاء الحنفية بحلب ، فتكاسل عن التوجه الى حلب ، وسعى فى كتابة السر حتى قرر بها .

وفيه خرج المقر الشهابى أحمد ابن السلطان الى الرماية وصحبته خشقدم أمير سلاح وبرسباى البجاسى فلما عاد زينت القاهرة وكان له يوم مشهود .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى درويش الرومى الاقصرائى نزيل الخانكة ، وكان من الصالحين ، وظهرت له كرامات خارقة .

وفيه توفى القاضى ضياء الدين بن النفيسى

الشـافعى الحلبى كاتب السر بحلب ، وكان من أعيان الناس الرؤساء بحلب .

وفيه قرر شمس الدين محمد بن أصيل فى نظر الجوالى عوضا عن شرف الدين الأنصارى .

وفيه طلع شخص الى السلطان وأخبره بأن فى زيادة جامع الحاكم صندوقا من البلور فيه أوراق تدل على خبيئة فى الجامع من أعظم الخبايا ، فأمر السلطان القاضى ناظر الخاص يوسف أن يتوجه الى هناك ، فتوجه وحضر قاضى القضاة علم الدين الباغينى ، واجتمع الجم الغفير من الناس وحفروا ذلك المكان الى أن كاد ينبع الماء من أرضه فلم يجـدوا فيه شيئا ، وانفض ذلك الجمـع من غير طائل ، ولم يظفروا بشىء مما قالوه .

وفيه قبض السلطان على المحتسب على العجمى وصادره وقرر عليه مالا وأقام فى الترسيم عنـد الزمام حتى يورد المال ، وقرر عوضه فى الحسبة عليا بن أحمد الكاشف المعروف بابن ارم .

❋ ❋ ❋

وفى ذى الحجة قرر فى نيابة اسكندرية جانى بك النوروزى نائب بعلبك عوضا عن يونس العلانى ، وقدم يونس العلائى الى القاهرة وقرر فى امرية طبلخاناه .

وفيه توفى حطط الناصرى ، وكان ولى نيـابة غزة وأتابكية طرابلس ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأن قد ظهر شخص يقال له ابن الفلاح المشعشع وقد حصل منه غاية الفساد ، وقتـل من النـاس ما لا يحصى ، ونهب الركب العـراقى . وقد أعيا أمره نائب الشـام ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيـه ظهر زين الدين الاستادار ، وطلع الى القلعة وقابل السلطان ، فأمره بملازمة داره وألا يجتمع بأحد من الناس .

سنة ثمان وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤ م) :

فى المحرم قرر فى كتابة السر بدمشـق الحافظ قطب الدين الخضيرى عوضا عن صلاح الدين بن السابق ، وهذه أول ولاية الخضيرى لهذه الوظيفة . ثم بعد مدة جمع بين قضاء الشافعية بدمشق وكتابة سرها .

وفيه قرر أقبردى الظاهرى الساقى فى أتابكية حلب عوضا عن على باى العجمى ، وقرر فى نيابة حلب عوضا عن أقبردى قاسم بن القشاشى .

وفيه وصل قاصـد على باى الحمزاوى نائب حلب وعلى يده تقدمه حافلة الى السلطان ، وكان قد أشيع عنه العصيان والمخامرة ، فبطل ذلك .

وفيه خلع السـلطان على الشيخ محيى الدين الكافيجى وقرر فى مشيخة الخانقـاه الشيخونية عوضا عن العلائى كمال الدين بن الهمـام الحنفى بحكم رغبته عنها ومجاورته بمكة المشرفة .

❋ ❋ ❋

وفى صـفر رسم السـلطان بنفى زين الدين الاستادار الى القدس ويقيم به . فلمـا خرج الى سبيل ابن قايماز بعث السلطان اليه من فتشه فلم يجد معه شيئا غير ثلثمائة دينار وبعض فضة ، وقد كان وشى به عند السلطان بأن معه مالا ، ثم رسم باعادته الى القـاهرة ، وطلع الى القلعة فأدخلوه البحرة ، وأحضر اليه السـلطان فى يومه المعاصير وعصره فلم يقر بشىء من المال ، فأجاب بأن يبيع أوقافه ويرضى السـلطان ، فتكلم ناظر الخاص يوسف فى أمره وأحضره بين يدى السـلطان وهو محمول بين أربعة . وقيل ان السلطان لم يعصره فى هذه المرة بل ضربه فى الدهيشة نحوا من خمسمائة عصا ، فلما حضر بين يديه تكلم له تمراز الدوادار الثانى فخلع عليه السلطان وأعاده الى الاستادارية

وصرف عنها عليا بن الأهناسى . ثم ان السلطان خلع على زين الدين وقرره كاشف الكشاف بالوجهين القبلى والبحرى ، مضافا الى الاستادارية ، فراج أمره قليلا .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن أبى الخير بن النحاس من السجن وأن يقيم بطرابلس بطالا .

* * *

وفى ربيع الأول قرر حمزة بن البشيرى فى نظر الدولة عوضا عن التاج الخطيرى .

وفيـه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحـو الصحراء بسبب تربته التى أنشأها هناك ، فلمـا عاد شق من القاهرة وصعد الى القلعة — وهذا أول ركوبه فى سلطنته — وكان له يوم مشهود .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان حافلا .

وفيه انتهت عمارة جامع برد بك صهر السلطان الذى أنشأه بخط قناطر السباع المطل على الخليج .

* * *

وفى ربيع الآخر توفى الناصرى محمد بن المخلطة . وكان فاضـلا مالـكى المـذهب ... ولى نظـر البيمارستان ، وكان محمود السيرة .

وفيه قدم جلبان نائب الشـام على السلطان ، وكان أشيع عنه العصيان .

وفيه توفى تقى الدين الأذرعى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، نائبا فى الحكم بدمشق ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الأولى عزل تمراز عن الدوادارية الثانية ، وكان ذلك من تلقاء نفسه .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة سيدى خليل ابن الملك الناصر فرج بن برقوق . وكان دينا خـيرا رئيسا حشما ، ومولده سـنة أربع عشرة وثمانمائة . فلما مات رسم السلطان بنقل جثته الى القاهرة ، فنقل ودفن فى تربة جده الظاهر برقوق ، وأظهرت عليه أخته خوند شقرا غاية الحزن ، وعملت له نعيا بالمغانى تعزف بالطارات نحو سـبعة أيام حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه قرر فى الوزارة الصاحب أمين الدين بن الهيصم على عادته ، وصرف عنها سعد الدين فرج ابن النحال .

وفيـه طلعت تقدمة جلبان نائب الشـام الى السـلطان ، وكانت تقـدمة حافلة ، ومثلها للمقر الشهابى أحمد ، ثم بعد أيام أضافه السلطان وخلع عليه ورسم له بالعود الى الشام على عادته .

وفيه خلع السلطان على الأمير برد بك صهره ، وكان من أعيـان مماليكه وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن تمراز الأشرفى ، ورسم الى تمراز أن يتوجه الى القدس بطـالا . وكان تمراز رجلا أحمق سيىء الخلق غير محبب للناس .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى قاضى ثغر اسكندرية شمس الدين محمد بن عامر المالكى ، وكان من الأفاضل فى مذهبه .

وفيه قرر قانى باى الموساوى فى نيابة ملطية ، وقرر فى نيابة البيرة الناصرى محمـد والى الحجر عوضا عن قانى باى الموساوى .

وفيه خلع على القـاضى تاج الدين بن المقسى وقرر فى كتابة المماليك عوضا عن عبد الرحمن بن النحال ابن عم الصاحب سعد الدين فرج .

وفيه خرجت تجريدة الى نحو البحيرة ، وكان باش العسـكر جانم الأشرفى وبرسباى البجاسى وجماعة من الجند ، وخرجوا لأجل عرب البيد .

وفيـه عزل محب الدين بن الشحنة عن كتابة السر ، وأعيد اليها محب الدين بن الأشقر .

وفى رجب أدير المحمل على العادة .

وفيه سافر الأمير برد بك صهر السلطان ، والقاضى شرف الدين الأنصارى ، وتوجها الى القدس . وسبب ذلك أن السلطان صنع كسوة الى ضريح سيدنا الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . وكان لخروجهما يوم مشهود .

وفيه توفى جانى بك مملوك القاضى عبد الباسط الذى كان ولى الاستادارية فى أيام الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أعيد الشيخ على العجمى الى الحسبة ، وصرف عنها عبد العزيز بن محمد الصغير .

وفيه قدم برسباى الذى توجه قاصدا الى محمد ابن عثمان ، وخلع عليه .

* * *

وفى شعبان عرض السلطان جماعة من العسكر ، وقطع جوامك أولاد الناس ممن تجدد فى أيام الظاهر جقمق ، وقد انشحت الديوان من كسوة العسكر وشكا الاستادار من ذلك . ثم انه بعد ذلك شفع فيهم الأمير يونس الدوادار الكبير فأبقاهم على حالهم ، ورد اليهم جوامكهم التى قطعت عنهم ، ولله الحمد .

وفيه سمر السلطان شخصا من العربان يقال له الفضل — وقد كان مشتهرا بالشجاعة وقتل النفس — فاشهره فى القاهرة هو وأولاد عمه ثم سلخوهم وبعثوا بهم الى بلاد الشرقية ، وكانوا من المفسدين .

وفيه توفى قاضى القضاة الحنفية بمكة المشرفة — وهو رضى الدين أبو حامد بن الضياء — وكان من أعيان العلماء الحنفية بمكة وله نظم جيد ، ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة .

وفيه ، فى ثالث عشر مسرى ، كان وفاء النيل المبارك . ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

* * *

وفى رمضان جاءت الأخبار بوفاة صاحب الأبلستين — وهو سليمان بن محمد بن قراجا بن دلغادر التركمانى — وكان من خيار التراكمة ، لم تتحرك فى أيامه فتنة ، وكان مثقلا بالشحم جدا .

وفيه قدم جان بك نائب جدة من الحجاز ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية .

* * *

وفى شوال وصل ركب من المغرب من عند صاحب تونس ، وصحبته هدية حافلة ، وخرج صحبة الحاج الى مكة .

وفيه قرر فى الاستادارية الناصرى محمد بن أبى الفرج نقيب الجيش ، وقرر سعد الدين فرج بن النحال فى الوزارة عوضا عن أمين الدين ابن الهيصم بحكم اختفائه ، ثم أعاد كتابة المماليك الى سعد الدين فرج ، وصرف عنها تاج الدين بن المقسى ، فصار سعد الدين فرج بعده معه الوزارة وكتابة المماليك .

* * *

وفى ذى القعدة تغير خاطر السلطان على زين الدين الاستادار وضربه ضربا مبرحا ، وتسلمه الجمالى يوسف ناظر الخاص على مال يورده .

وفيه جاءت الأخبار بأن أصلان بن سليمان بن دلغادر تملك الأبلستين عوضا عن أبيه بحكم وفاته .

* * *

وفى ذى الحجة استقر تقى الدين ابن نصر الله فى نظر الدولة ، وكانت شاغرة مدة طويلة .

وفيه توفى الناصرى محمد الصغير معلم النشاب ، وكان أستاذا فى هذا الفن ، وقد جاوز الثمانين

سنة من العمر . وهو والد عبد العزيز الذى ولى الحسبة .

وفيه ثارت جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا الى بيت ابن أبى الفرج الاستادار على حين غفلة ونهبوا ما فيه عن آخره ؛ واختفى هو ثم طلع الى السلطان واستعفى من الاستادارية فأعفاه السلطان من ذلك ، وقرر فيها قاسم الكاشف ، وبقى ابن أبى الفرج فى نقابة الجيش على عادته .

وفيه قدم نجاب بيشارة الحاج وأخبر بأن المبشر قد عوقه العربان فى الطريق ، فلم يحضر أحد من الجند بالبشارة على العادة .

سنة تسع وخمسين وثمانمائة (١٤٥٤/١٤٥٥ م) :

فيها : فى المحرم ، قدم قاصد من عند الأمير ابراهيم بن قرمان أمير التركمان وعلى يده مكاتبة مضمونها أنه أرسل يشكو فيها من ملك الروم محمد بن عثمان فما اكترث السلطان لذلك ، ثم انه أرسل اليه بجواب هين ، وما أكرم قاصده ... فمضى غير راض . وكان هذا سببا لعصيان ابن قرمان كما يأتى الكلام على ذلك .

وفيه تغير ماء النيل المبارك تغيرا فاحشا ، وغلبت عليه الخضرة جدا حتى تعجب الناس من ذلك .

وفيه نودى فى القاهرة بخروج المماليك البطالة من القاهرة ، وهدد من تأخر منهم بعد سماع المناداة .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وأخبر بما قاساه من شدة السيول وموت الجمال وقطع الطريق من العربان ، وقد أخذ ركب المغاربة ، وكانت سنة صعبة مهولة ، وقد جاء عليهم السيل فى وادى عفان فاحتمل الجمال بأحمالها وقذفها فى البحر الملح .

وفيه توفى الشيخ شرف الدين أبو الفتح محمد الراعى الشافعى المدنى العثمانى ، وكان من أعيان العلماء الشافعية ، وله سند فى الحديث .

وفيه وقع أمر عجيب ، وهو أن جماعة من مماليك الأمير برد بك — صهر السلطان — ماتوا بالطاعون ، وقد ظهر ذلك بداره فقط ولم يظهر ذلك بغير بيت برد بك .

وفيه ارتفع سعر الذهب حتى بلغ الدينار الأشرفى ثلثمائة وسبعين درهما .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار بموت جلبان نائب الشام . وكان جلبان هذا دينا خيرا ، وأصله من أتباع الملك المؤيد شيخ . وهو جركسى الجنس ، وقيل غير جركسى . ويقال انه مسلم الأصل ، ومات وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وتولى عدة ولايات ، منها ولاية نيابة حماة ونيابة طرابلس ونيابة حلب ونيابة الشام . وقد طالت أيامه فى السعادة . فلما توفى عين السلطان نيابة الشام الى قانى باى الحمزاوى نائب حلب ، وخرج الى تقليده يونس العلائى . ثم ان السلطان خلع على جانم الأشرفى وقرره فى نيابة حلب عوضا عن قانى باى الحمزاوى ، وعين الأمير برد بك الدوادار الثانى صهر السلطان لتقليده ، ثم يعود الى دمشق لضبط موجود جلبان نائب الشام . ثم ان السلطان أنعم على يونس العلائى بتقدمة ألف ، وهى تقدمة جانم الأشرفى بحكم انتقاله الى نيابة حلب .

وفيه توفى يشبك الناصرى رأس نوبة ثانى . فلما مات قرر فى رأس نوبة الثانية سودون قراقاش المؤيدى ، وقرر فى امرية سودون قراقاش مغلباى طاز ، وقرر النوروزى فى امرية عشرة .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان مولدا حافلا .

وفيه حصلت زلزلة خفيفة بمصر ، واستمرت تعاود الناس أياما .

وفيه وصلت تقدمة من عند الملك أصلان صاحب الأبلستين ، وكانت تقدمة حافلة ما بين خيول وبغال وجمال بخاتى وقماش حرير وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين نصر الله بن النجار الكاتب القبطى وقرره فى الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج ، فلم يقم بها ابن النجار الا قليلا واختفى .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على سعد الدين فرج وأعاده الى الوزارة كما كان ، وقرر حمزة بن الشيرى فى نظر الدولة وصرف ابن كاتب الشعير عنها .

وفيه توفى الصاحب أمين الدين بن الهيصم ، وهو ابراهيم بن عبد الغنى بن ابراهيم القبطى ، وقيل كان ينسب الى المقوقس صاحب مصر ، وكان حشما رئيسا يميل الى أهل العلم ، وله اشتغال بالفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه . ولم يكن شافعيا ، وولى الوزارة غير ما مرة . وكان مولده سنة ثمانمائة ، وكان نادرة فى أبناء جنسه ، مسددا فى أمر الوزارة فى الغلوة التى وقعت فى أيام الظاهر جقمق لما شرقت البلاد ، وكان لا بأس به فى المباشرين .

وفيه خرج جانم الأشرفى الذى قرر فى نيابة حلب ، وكان له يوم مشهود وتجمل عظيم .

وفيه انزلت خوند زينب الخاصكية زوجة السلطان الى بولاق ، فأقامت فى القطينية التى ببولاق ، وكان قد حصل لها توعك شديد فى جسدها ، فنزلت لترى البحر حتى يذهب عنها الوخم ، فنزل اليها السلطان وأعادها . فلما حصل لها الشفاء أحرقوا فى بولاق حراقة نفط هائلة حافلة ، وخرجت البنت من خدرها بسبب الفرجة ، وكانت تلك الليلة فى بولاق من الليالى المشهورة . فلما عوفيت طلعت الى القلعة فى محفة وحولها الخوندات والستات وأعيان نساء الأمراء والمباشرين حتى طلعت الى القلعة ، وكان لها مهم حافل بالقلعة .

وفيه توفى الأمير خاير بك الأجرود المؤيدى أحد الأمراء المقدمين بمصر . فلما مات أنعم السلطان بتقدمته على الأمير قانم التاجر بن صفر خجا المؤيدى ، وهذه أول تقدمته بمصر .

* * *

وفى جمادى الأولى تزايد شر المماليك الجلبان ، وتوجهوا الى بولاق ، ونهبوا شون الأمراء لأجل الشعير ، فانه كان مشحوتا ، وصاروا ينزلون الفقهاء والمباشرين عن خيولهم وبغالهم ويأخذونها من تحتهم ، وحصل منهم فى حق الناس غاية الضرر — ولا سيما التجار فى الأسواق — فكان المماليك يخطفون القماش من الدكاكين وسائر البضائع ... واستمروا على ذلك حتى وقع فيهم الطاعون كما يأتى ذكر ذلك .

وفيه توفى الأديب البارع شاعر العصر شمس الدين محمد بن حسن بن على بن عثمان النواجى الشافعى[1] ، ومولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة . وكان عالما فاضلا ، أديبا بارعا ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله من نوع الاكتفاء :

خليلى هذا ربع عزة فاسعيا
اليه وان سالت به أدمعى طوقا (ن)

فجفنى جفا طيب المنام وجفنها
جفانى ، فيالله من شرك الأجفا (ن)

ومثله له :

(1) تقدمت وفاة النواجى فى حوادث سنة ٨٥٧ ، والصواب ماهنا .

يا ضـيف بيت الله نلت المنى
منـذ تحصـنت بأم القرا (ن)
لب بحـج واعتـمار وقل
نه ما أسـعد هذا القـرا (ن)

ونه :

فتنـت بحسـن عـواد بديع
مليح الشكل معشوق الشمايل
يحـرك عـوده فينـا بلطف
فيقتلنـا بأطـراف الأنامل

وقوله ملغزا فى اسم سعيد :

ما اسـم لعبـد ان تزل عينـه
يعـد فى الحـال لنـا سـيدا
عليـه فرض الصـوم لكنـه
اذا مضى الربع له عيـدا

ومن مصنفاته البـديعة « حلبة الكميت » فى وصف الخمرة وما قيل فيها ، و « تأهيل الغريب » فى الأدبيات المطولة ، و « مراتع الغزلان فى وصف الحسان من الغلمان » ، و « الشفا » وله غير ذلك من المصنفات الغريبة . ولمـا مات رثاه الشهاب المنصورى بقوله :

رحـم الله النـواجى فقـد
فقـد الدنيـا وأبقى ما روى
وانطوى فى شـقة البين فيا
حسرة العشاق من بعد النوا (جى)

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى المجذوب رحمة الله عليه . ولما مات أخذه السلطان اينال ودفنه بجوار تربته تبركا به .

وفيه خلع السـلطان على عبد العزيز بن محمد الصغير ، وقرر فى الحسبة مضافا لمـا فى يده من نقابة الجيش ، وكان قد تغير خاطر السلطان على الشيخ على العجمى وصرفه من الحسبة و[illegible] عبد العزيز بن محمد الصغير .

وفيه تغير خاطر السلطان على فخر الد[illegible] السكر والليمون ناظر ديوان المفرد ، وضر[illegible] يديه بسبب تأخر جوامك الجند ، وكان ا[illegible] فى غاية الشحتة .

وفيه توفى القـاضى صـلاح الدين خليـ[illegible] السابق ، وكان فاضلا رئيسا حشما ، ولى[illegible] سر حلب وكتابة سر دمشق ونظر جيشهم[illegible] ذلك من الوظائف ، وكان حسن السيرة

وفيه ثارت فتنة عظيمة . وسبب ذلك أن[illegible] من المماليك الظاهرية استمالوا بعض جلبـ[illegible] السلطان . وكان السلطان عين تجريدة قبل[illegible] للبحيرة ، وكتب غالب الجند فيها من المما[illegible] الظاهرية ، وعين الباش عليهم الأمير خشقد[illegible] سلاح . فلما جرى ذلك وقفوا فى الرميلة[illegible] نزل الأمـير يونس الدوادار الكبـير ، [illegible] بالدبابيس ، وجـرح فى ذلك اليوم شـخـ[illegible] المماليك وقطعت أصابعـه . ثم ان الأمير [illegible] الدوادار تحيل فى صـعوده الى القلعـة [illegible] السلطان بذلك ، فطلب السلطان جانى بك ا[illegible] ومرجان مقـدم المماليك ، وبعث بهما لكش[illegible] الأخبار ، وما سبب وثوب المماليك على يونس الدوادار . ثـم ان نوكار الزردكاش[illegible] الى المماليـك الجلبان الذين وثبوا مع طائفة[illegible] المماليك الظاهرية ليستميلهم عن ذلك ويستر[illegible] فعـاد الجواب الأول بأن يسلمهم الأمير [illegible] الدوادار ، وقد صمموا على ذلك ، وكانت الحركة فى سلخ جمادى الآخرة .

* * *

فلما استهل رجب بدأ السلطان بضرب الأ[illegible] فلم يطلع غالب الأمراء الى القلعة . ثم ان المم[illegible]

أصبحوا لابسين آلة الحرب ، ووقفوا بسوق الخيل . وقد اشتد الأمر ، ومنعوا الأمراء من الصعود الى القلعة ، فبعث السلطان يقول للخليفة : « غيب من بيتك حتى تسكن هذه الفتنة » . فلم يغب من بيته ، فتوجه اليه المماليك وأركبوه من بيته وأتوا به الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر ، فأقام به ، واشتد القتال . فلما بلغ السلطان ذلك نزل الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى على رأسه ، ودقت الكنوسات حربيا ، فوقع فى ذلك اليوم قتال هين ... فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انفض ذلك الجمع وفر المماليك شيئا بعد شىء ، فلما رأى ذلك المماليك الظاهرية تسحبوا من الرميلة — وقد اشتد الحر — وتوجه كل أحد من المماليك الى داره . وكان رأس الفتنة من المماليك الظاهر يشبك بن مهدى ، وكان يومئذ جنديا من جملة المماليك السلطانية . فلما انفض الجمع قام السلطان من المقعد وطلع الى القلعة ، وقام الخليفة أيضا وتوجه الى داره ، وخمدت هذه الفتنة ، وكان الخليفة يظن أن هذه الحركة يحصل له فيها نفع كما حصل له فى حركة الملك المنصور مع الأشرف اينال . فانه لما تسلطن أنعم على الخليفة حمزة باقطاع ثقيل ومال وخلع وخيول وغير ذلك ، فظن الخليفة أن هذه الحركة مثل الأولى ، فجاء الأمر بخلاف ذلك ... وكم من عجلة أعقبت ندامة ، فكان كما قيل فى المعنى :

اذا ما أراد الله خيرا لعبده
ينله ، وما للعبد ما يتخير
وقد يهلك الانسان من باب أمنه
وينجو ، بعون الله ، من حيث يحذر

وكان الخليفة قام فى سلطنة الأشرف اينال قياما عظيما ، وخلع الملك المنصور قبل أن ينكسر ، وأمر بحرق سبيل المؤمنين حتى أخذوا الميدان ... فظن الخليفة أن تكون هذه الفتنة يحصل له فيها مثل تلك المرة ، فلما توجه الخليفة الى بيته أرسل السلطان خلفه وقد بقى له ذنب ، اذ أرسل السلطان يقول له : « غيب من بيتك حتى تخمد هذه الفتنة » ... فاستتر فى بيته حتى آركبوه المماليك برضاه وجاء الى البيت الكبير كما تقدم ذكر ذلك . فلما طلبه السلطان وحضر بين يديه ، وبخه بالكلام فلم ينطق بالجواب وأمسك لسانه عن ذلك ، وكان به بعض صمم فكان كما قيل :

اذا كان وجه العذر ليس بواضح
فان اطراح العذر خير من العذر

ثم ان السلطان أمر بادخاله الى البحرة ، فدخل اليها وأقام بها أياما وهو فى الترسيم . ثم ان السلطان رسم باخراجه الى السجن بثغر الاسكندرية ، فنزل من القلعة بعد المغرب فى سابع رجب ، وصحبته جانى بك القرمانى حاجب الحجاب ، فأوصله الى البحر حتى نزل فى الحراقة وسار الى الاسكندرية : فسجن بها الى أن مات فى أواخر دولته ، ودفن بثغر الاسكندرية على شقيقه العباس الذى ولى السلطنة بعد قتله الناصر فرج بن برقوق ، فكانت مدة الخليفة حمزة فى الخلافة أربع سنين وستة أشهر وأياما . وكان رئيسا حشما كفئا للخلافة ، وكان له حرمة وافرة ، وشهامة زائدة ، بايع الملك المنصور عثمان والأشرف اينال .

ومن النكت الغريبة اللطيفة ، قيل لما أرادوا خلع الخليفة حمزة من الخلافة قال : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من الخلافة ، وخلعت السلطان اينال من السلطنة » . فاضطرب المجلس لذلك ، فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى : « ان خلعه للسلطان لا يصح وقد بدأ بخلع نفسه أولا ثم

حتى يخلع السلطان وهو غير مولى للخلافة » ... فلم يصح منه عزله للسلطان ، فعدت هذه من النوادر .

فلما عزل الخليفة حمزة من الخلافة تكلموا فيمن يلى بعده الخلافة ، فوقع الاتفاق على ولاية أخيه الجمالى يوسف بن محمد المتوكل .

خلافة المستنجد بالله أبى المحاسن

هو المستنجد بالله ، أبو المحاسن يوسف بن محمد المتوكل على الله . وهو الثالث عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . بويع بالخلافة بعد خلع أخيه حمزة فى يوم الخميس ثالث عشر رجب سنة تسع وخمسين وثمانمائة . وكانت صفة ولايته أن عمل موكب بالقصر ، وطلع القضاة الأربعة وهم : علم الدين صالح البلقينى الشافعى ، وسعد الدين الحنفى ، وولى الدين السنباطى المالكى ، وعز الدين الحنبلى . فلما تكامل المجلس سكت القضاة ساعة لم يتكلم منهم أحد فى شىء ، فقال قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى : « نقل بعض علماء مذهبى أن السلطان له أن يعزل الخليفة ويولى غيره ... فهذا كان حاصل المسألة فى خلع الخليفة حمزة وولاية أخيه الجمالى يوسف » ... فعند ذلك قام القاضى كاتب السر محب الدين بن الأشقر ، وقال فى المجلس : « نشهد عليك — يا مولانا السلطان — أنك عزلت الخليفة حمزة من الخلافة ووليت أخاه الجمالى يوسف » ... فقال : « نعم » ... فأحضروا له التشريف ، وأفيض عليه ، وتلقب بالمستنجد بالله ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، والقضاة الأربعة قدامه ، وأعيان الناس ، حتى أوصلوه الى بيته وهو فى غاية العظمة ، وقد طالت أيامه فى الخلافة جدا .

ثم ان السلطان قبض على جماعة من المماليك الظاهرية ، ممن كانوا سببا لاقامة هذه الفتنة ، وسجنهم بالبرج ، واختفى منهم جماعة كثيرة ، ونفى منهم جماعة الى البلاد الشامية .

وفيه قدم الأمير برد بك — صهر السلطان — وكان قد توجه الى القدس كما تقدم . فلما حضر أتى صحبته زين الدين الاستادار ، وكان السلطان نفاه الى القدس . فلما عاد خلع عليه السلطان وأعاده الى الاستادارية ، وصرف عنها قاسم الكاشف .

وفيه أدير المحمل على العادة ، وساق الرماحة أحسن سوق .

وفيه توفيت خوند زاده بنت أورخان بن محمد ابن عثمان ملك الروم ، وهى زوجة الظاهر جقمق ، وتزوجت أيضا بالأشرف برسباى ، وماتت فى عصمة برسباى البجاسى حاجب الحجاب .

وفيه قبض السلطان على يشبك النوروزى نائب طرابلس ، وحمل الى قلعة المرقب فسجن بها .

* * *

وفى شعبان جاءت الأخبار بوفاة السيد الشريف بركات سلطان مكة . وهو بركات بن عجلان بن رميثة الحسنى ، وكان من خير أمراء مكة ، ومولده سنة اثنتين وثمانمائة .

وفيه ، فى خامس عشر مسرى ، كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة .

وفيه خلع السلطان على اينال اليشبكى ، وقرر فى نيابة طرابلس عوضا عن يشبك النوروزى ، وقرر فى نيابة صفد جانى بك التاجى عوضا عن اياس الطويل ، وقرر فى نيابة غزة خاير بك النوروزى أحد الأمراء بصفد ، وقرر فى نيابة ملطية أقبردى الساقى أتابك العسكر بحلب عوضا عن قايتباى الناصرى ، وقرر فى أتابكية حلب

سودون الناصرى أتابك طرابلس — وكان هـذا كله بتدبير الجمالى يوسف ناظر الخاص

وفيه زاد النيل زيادة مفرطة حتى قطع الجسور وغرق غالب البلدان ، فبعد ما جرى ذلك هبط النيل بسرعة ، وشرق جانب من البلاد ، وارتفع سعر الغلال بسبب ذلك .

وفى رمضان قرر ابن الوجيه فى نظر الجيش بحلب عوضا عن ابن السفاح .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بمكة محب الدين الطبرى ، وصرف عنهـا أبو السعادات بن ظهيرة ، وقرر فى نظر الحـرم الشريف برهان الدين بن ظهيرة الذى عظم أمره فيما بعد وانتهت اليه رياسة مكة .

وفيه قدم جانى بك نائب جدة وسعى الى السيد الشريف محمـد بن بركات المتوفى فى امرية مكة عوضا عن أبيه بخمسين ألف دينار ، فولاه السلطان وأقام بها حتى توفى فى صفر سنة ثلاث وتسعمائة وكان من خيار أمراء مكة .

***

وفى شوال رسم السلطان بعمل كسوة للحجرة الشريفة ، فلما انتهى العمل منها عرضها ناظـر الخاص يوسف على السلطان ، فألبسه كامليـة حافلة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل بيبرس الأشرفى .

وفيه تغير خاطر السلطان على نقيب الجيش ابن محمد الصغير وهو عبد العزيز ، فضربه بين يديه ضربا مبرحا ، وأمر بنفيـه الى دمياط لأمر أوجب ذلك . ثم ان السلطان خلع على العـلائى على بن القيسى وقرره فى نقابة الجيش عوضا عن عبدالعزيز ابن محمد الصـغير ، وكان السلطان عينهـا الى خشكلدى الزردكاش ، فوقع الاختيار بعـد ذلك على ابن القيسى .

وفى ذى القعدة قرر جمال الدين الباعونى فى قضاء الشافعية بدمشق وصرف عنها سراج الدين الحمصى ، وأمر أن يخرج الى حمص ويقيم بها .

وفيه شرع الجمالى ناظر الخاص فى بناء مدرسة بالصحراء ، فجاءت مدرسة حافلة لم يعمر فى الصحراء مثلها . وكان مصروف ذلك من مال ناظر الخاص يوسف دون مال السلطان ، فقيل له انه صرف عليها اثنى عشر ألف دينـار وزيادة على ذلك . وأنشأ زاوية تجـاه المدرسـة ، وحوشـا لدفن جماعة السلطان .

***

وفى ذى الحجة قرر فى الحسبة الشـيخ على العجمى على عادته ، وكان يعرف بيار على .

وفيه توفى العلامة محب الدين محمد بن أحمـد ابن أبى يزيد الأقصرائى الحنـفى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، وكان امام الأشرف برسباى ومولده سنة احدى وتسعين وسبعمائة ، وهـو الشيخ أمين الدين الأقصرائى .

وفيه توفى أقبردى الساقى الظاهرى نائب ملطية وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشهاب أحمد الحاضرى الحنفى ، وكان عارفا بالقراءات السبع وتعبير الرؤيا .

وفيه توفى خليفة سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه ، وكان مالكى المذهب وله اشتغال بالعلم ويعرف بسنان الأبودرى .

وفيه صلى السلطان صلاة عيد النحر ، وخرج من الجامع مسرعا ، وتوجه الى الحوش ونحر به وخالف العادة ... وسبب ذلك أنه قويت الاشاعات بوقوع فتنة فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان ، فبادر السلطان وتوجه الى الحوش ونحر به فسكن الاضطراب قليلا .

سنة ستين وثمانمائة (١٤٥٥/٥٦ م) :

فيها ، فى المحرم ، قرر أقباى الجكمى فى نيابة ملطية عوضا عن أقبردى الساقى ، وقرر فى نيابة طرسوس آقباى السيفى جارقلطو ، عوضا عن آقباى الجكمى . وتوفى الناصرى محمد بن الحلبى والى الحجرة .

وفيه وصل الحاج وأخبر بأنه لم يحج فى هذه السنة أحد من العراق خوفا من المشعشع الذى ظهر منه الفساد ، وقد شاع خبره فيما تقدم . وكان فى تلك السنة الأمير برد بك البجمقدار أمير الحاج هو والأمير بيبرس الأشرفى ، وكانت سنة صعبة على الحاج .

* * *

وفى صفر ثار المماليك الجلبان على ناظر الخاص يوسف وضربوه ، وأخذوا عمامته من فوق رأسه وصار مكشوف الرأس ، ولولا أنه هرب لقتلوه لا محالة ، وكانت المماليك تزايد شرهم جدا .

وفيه ثارت الغلمان والعبيد على الوزير ، ونزلوا من القلعة وتوجهوا الى بيت الوزير وصاروا ينهبون بعض دكاكين القاهرة ، وخطفوا عمائم الناس ، حتى وصلوا الى دار سعد الدين فرج فاختفى من داره فنهبوا ما وجدوه فى الدار ، وسبب ذلك انشحات اللحم المقرر للجند .

وفيه خرج يونس العلائى — أحد الأمراء المقدمين — الى بر الجيزة لحفظ الخيول التى فى الربيع ، وكانت عربان البيد قد أفسدوا بر الجيزة وأخذوا خيول الأمراء والجند من مراعيها .

* * *

وفى ربيع الأول أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى قيل أمطرت فى قليوب بردا وزن كل بردة خمسون درهما ، وهلك به بعض مواش وأفسد الزرع .

وفيه ظهر الصاحب فرج بعدما كان مختفيا ، فخلع عليه بالاستمرار ، وخلع على فخر الدين بن السكر والليمون وقرر فى نظر الدولة وكانت شاغرة .

* * *

وفى ربيع الآخر عمر السلطان الربع والحمام وما بينهما الذى بين القصرين .

وفيه خرج جماعة من الأمراء والجند الى نحو الجون على العادة لاحضار الأخشاب .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى المسند جمال الدين عبد الله بن محمد بن أحمد التسترى ، وكان عالى السند ، من أهل الفضل والعلم .

وفيه وصل الخواجا جمال الدين عبد الله القابونى رسولا من عند بن عثمان ملك الروم محمد ، وعلى يده مكاتبة تتضمن ما فتحه من الفتوحات السنية ، فأكرمه السلطان غاية الاكرام . ولما أراد التوجه الى ابن عثمان عين معه السلطان قانى باى اليوسفى المهمندار وعلى يده هدية من عند السلطان الى ابن عثمان ، وأخذ قانى بك اليوسفى فى أسباب تعلق السفر الذى عين فيه .

وفى أثناء هذا الشهر ظهر فى السماء نجم بذنب طويل جدا ، وكان يظهر من جهة الشرق ، ودام يطلع نحوا من شهرين — وكان من نوادر الكواكب — فتكلم فيما يدل عليه من الأمر ، وزاد الكلام بسببه ، ثم اختفى ذلك النجم وأقام مدة طويلة نحوا من ثلاث سنين حتى وقع بمصر الطاعون ووقع بمصر أيضا الحريق كما سيأتى ذلك فى موضعه .

قال صاحب « مرآة الزمان » ان أول ما ظهر نجم الذنب عندما قتل قابيل أخاه هابيل ، وظهر عند وقوع الطوفان ، وعند وقود نار ابراهيم الخليل عليه السلام ، وظهر عند هلاك قوم عاد وثمود ،

وظهر عند هلاك فرعون ، وظهر عند قتل الامام عثمان بن عفان ، وظهر عند قتل الامام على كرم الله وجهه ، وظهر عند قتل جماعة كثيرة من الخلفاء . وفى الغالب يحدث عند ظهور نجم الذنب حادث عظيم — وقد جرب ذلك وصح — من فناء وقتل وفتن ، وخسف وزلازل وغير ذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى القاضى الذى بالاسكندرية شهاب الدين أحمد المحلى الشافعى وكان فاضلا ، فى سعة من المال ، وكان تاجرا فى البهار ، وسعى فى قضاء الاسكندرية على خلاف ما جرت به العادة من ولاية المالكية ، وقد سعى بمال حتى تولى ومات وقد جاوز السبعين من العمر .

وفيه قبض السلطان على زين الدين الاستادار وضربه بين يديه علقة قوية بسبب تأخيره للجامكية ورسم عليه فى طبقة الزمام وهو فى الحديد . ثم انه خلع على سعد الدين فرج بن النحال ونقله من الوزارة الى الاستادارية ، وخلع على العلائى على ابن محمد الاهناسى وقرره فى الوزارة عوضا عن سعد الدين فرج ، وهذه أول عظمة علاء الدين على فى الوزارة ، وهو على بن الأهناسى .

* * *

وفى رجب كانت نهاية عمارة مدرسة السلطان التى أنشأها فى الصحراء ، وخطب بها وعمل السلطان هناك وليمة حافلة ، وحضر بها القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، ومد بها الأسمطة الحافلة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه طلع الأمير يونس الدوادار الكبير الى القلعة ، وكان مريضا وشفى ، فخلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل الى دواره فى موكب حافل وقدامه الأمراء وأرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

وفيه أفرج السلطان عن زين الدين الاستادار وتسلمه ناظر الخاص يوسف على مال .

وفيه أدير المحمل على العادة ، وساقوا الرماحة بحضرة قاصد ملك الروم محمد بن عثمان .

وفيه ماتت ملك باى الجركسية سرية الملك الأشرف برسباى أم ولده سيدى أحمد ، وكان تزوج بها قرقماس الجلب وماتت معه ، وهو الذى ربى سيدى أحمد ابن الأشرف برسباى .

* * *

وفى شعبان رسم السلطان بنفى زين الدين الاستادار الى المدينة المشرفة بعد أن أخذ منه عشرة آلاف دينار ، وتوجه من البحر الى المدينة الشريفة .

وفيه سافر الخواجا ابن القابونى قاصد ابن عثمان ، وخرج صحبته قانى باى اليوسفى المهمندار . وكان أشيع موت ابن عثمان قبل خروج القاصد ، ثم جاءت الأخبار بأن ابن عثمان قد شفى وهو فى قيد الحياة ، فرسم السلطان بدق الكئوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه توفى الأمير اسباى الجمالى الظاهرى من مماليك الظاهر جقمق ، وكان ولى الدوادارية الثانية ثم نفى الى القدس فمات به ، وكان لا بأس به ، لين الجانب متواضعا ، وكان معروفا وموصوفا بالشجاعة وبالفروسية .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير ابراهيم بن قرمان أمير التركمان قد زحف على بلاد السلطان ، وقد أظهر العصيان ، واستولى على طرسوس وأدرنة وكولك . فلما سمع السلطان ذلك تشوش لهذا الخبر ، وعين تجريدة الى ابن قرمان ، وجعل باش العسكر خشقدم الناصرى أمير سلاح ، ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشروات ، وعين من الجند نحوا من أربعمائة مملوك ، وعين سنقر

قرق شبق الزردكاش بأن يتوجه ، قبل خروج العسكر ؛ لكشف الأخبار عن ذلك .

وفيه كان وفاء النيل المبارك فى سادس مسرى.

وفيه نزل المقر الشهابى أحمد ابن السلطان وفتح السد على العادة .

* * *

وفى رمضان تزايد أذى المماليك الجلبان فى حق الناس ، وصاروا ينهبون حواصل البطيخ الصيفى وسائر البضائع ، حتى امتنعت السوقة من البيع ، وارتفع سعر كل شيء من المأكول وغير ذلك .

وفيه قبض السلطان على عشرة أنفار من الزغلية وجدوهم يضربون الزغل ، فأمر بتوسيطهم أجمعين .

***

وفى شوال خرج الحاج من القاهرة على العادة وكان أمير ركب المحمل قانم التاجر أحد المقدمين وأمير الأول عبد العزيز بن محمد الصغير ، وكان السلطان قد رضى عليه وقرره من جملة الحجاب بالقاهرة .

وفيه ضرب السلطان خاير بك الوالى بين يديه ضربا مبرحا لأمر أوجب ذلك .

وفيه حصل للقاضى ناظر الخاص يوسف توعك فى جسده ، فانقطع عن طلوع القلعة أياما ثم شفى بعد ذلك وطلع الى القلعة ، فخلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه أرباب الدولة وأعيان الناس ، فزينت له القاهرة من داره الى القلعة ، وقعدت له جوق المغانى على الدكاكين ، وتخلقت الناس بالزعفران وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يا جوهر الفرد الذى عن جسمه زال العرض
أجفان من أحبته تحملت عنك المرض

***

وفى ذى القعدة توفى قانى باى الأعمش الناصرى نائب القلعة ، فلما مات قرر فى نيابة القلعة عوضه النوروزى سودون ، وأنعم السلطان بامرية قانى باى الأعمش على ولده الناصر محمد ، وهو أصغر أولاده ، وكان أمير عشرة .

وفيه قرر فى نظر الجوالى القاضى زين الدين أبو بكر بن مزهر ، وصرف عنها ابن أصيل .

***

وفى ذى الحجة قدم قاصد جهان شاه ، وصحبته هدية للسلطان ، وعلى يده مكاتبة تتضمن أنه بعث يشكو الى السلطان من حسن بك الطويل بأنه جائر عليه وقد زحف على بلاده ، فأرسل اليه السلطان الجواب عن ذلك .

وفيه نزل السلطان الى المطعم الذى بالريدانية ، وألبس الأمراء الصوف ، وشق من القاهرة فى موكب عظيم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه توفى الشيخ برهان الدين الرفاعى الشافعى وكان من أهل العلم والفضل ، مولده بعد الثمانين والسبعمائة .

وتوفى أركماس اليشبكى ، أحد الامراء العشروات ورءوس النوب

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب اليمن ، وهو الملك أبو الفتح عمر بن على بن رسول التركمانى ، وكانت دولة بنى رسول أقامت باليمن نحوا من مائتين وثلاثين سنة ، وكان سبب تسمية جدهم برسول أن الخلفاء كانت تبعثه رسولا الى البلاد الشامية وغيرها من البلاد فسمى رسولا ، ومازال يرتقى حتى ملك بلاد اليمن وانفرد بها ، ومعرفته مشهورة فى التواريخ القديمة .

سنة احدى وستين وثمانمائة (١٤٥٦/١٤٥٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، قرر العلائى على بن القيسى فى ولاية القاهرة عوضا عن خاير بك القصروى ، وقد تغير خاطر السلطان على خاير بك وضربه وسجنه بالقلعة ، وقرر عليه مالا له صورة ، وخلع على الناصرى محمد بن أبى الفرج ، وقرر فى نقابة الجيش عوضا عن على بن القيسى .

وفيه نودى على الدينار بثلاثمائة درهم ، وكان قد زاد سعره حتى بلغ ثلاثمائة وسبعين درهما ، وكان قد كثر الغش فيه وفى الفضة .

وفيه قرر كسباى السمين وثانى بك الصغير ، قرر كل منهما رأس نوبة عصاة .

وفيه جاءت الأخبار بأن سنقر الزردكاش لما وصل الى حلب توجه من هناك الى طرسوس ، فتحارب مع نائبها الذى أقامه ابن قرمان ، فقتله وأرسل رأسه الى السلطان ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة ثلاثة أيام . وقد تقدم أن السلطان أرسل لكشف أخبار ابن قرمان .

وفيه توفى الأمير جرباش الكريمى صهر الملك الظاهر چقمق ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وتولى عدة وظائف سنية منها حاجبية الحجاب وامرية مجلس وامرية سلاح ، ولما كبر سنه لزم داره ورتب له ما يكفيه حتى مات وقد تجاوز التسعين سنة من العمر .

***

وفى صفر ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الجلبان ، وكان السلطان فى الدهيشة ، فلما تزايد الأمر منهم خرج اليهم السلطان وهو ماش من الدهيشة وقد هموا أن يهجموا عليه ، فلما عاينوه رجموه بالحجارة فولى وهو مستعجل حتى وقعت احدى نعليه من رجله فلم يلتفت اليها ومر حافيا ، ويقال انه أصابته طوبة من الرجم فى ظهره وانعطب بعض الخاصكية من الرجم فى وجهه ، وكانت حادثة شنيعة قل أن يقع فى الحوادث أشنع منها . فلما دخل السلطان الدهيشة أغلقوا عليه الباب وكان عنده بعض الأمراء . واستمر الحال على ذلك الى العصر ، والأمراء والخاصكية قد تعوقوا بالقلعة ، فترددت الرسل بين السلطان وبين المماليك الجلبان فى هذه الواقعة ، فآل الأمر فيها بأن زادهم ألف درهم فى الكسوة ، فصارت من يومئذ ثلاثة آلاف درهم لكل مملوك ، وزادهم فى الأضحية رأسا من الغنم فى كل سنة ... فسكنت الفتنة قليلا . وقد استطالوا بعد ذلك على الناس ، ووقع منهم أمور شنيعة يطول الأمر فى شرحها ، وعظم أذاهم بالناس جدا ، ووقع منهم أمور ما وقعت من مماليك السلاطين قبلهم قط .

وفيه عقد مجلس بين يدى السلطان ، وحضر القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، فلما تكامل المجلس تكلم الجمالى يوسف مع القضاة بسبب غش الفضة فى المعاملة ، وأحضروا نقود الدول القديمة من أيام المؤيد شيخ الى دولة الظاهر چقمق ، فسبكت فلم يوجد أكثر غشا وفسادا من ضرب فضة دولة الأشرف اينال ، فأمر السلطان باشهار المناداة فى القاهرة بابطال المعاملة الحلبية والدمشقية ، فوقف حال الناس وأشيع بين الناس أن العامة ترجم الجمالى يوسف ناظر الخاص . واضطربت الأحوال فنودى فى القاهرة بأن كل شىء على حاله فى المعاملة الحلبية وغيرها ، ثم نقض ذلك بعد مدة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم من علماء الحجاز يدعى جلال الدين أبو السعادات ابن ظهيرة الشافعى ، وكان علامة ولى قضاء مكة ونظر الحرم والحسبة ، وكان حسن السيرة .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين الحمصى الشافعى

قاضى دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضـاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضـاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفى الطواشى عبـد اللطيف الرومى المنجكى مقـدم المماليك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

***

وفى ربيـع الأول توفى القـاضى شهاب الدين أحمد بن محمد الزفتاوى الشافعى ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعمائة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السـلطان على ولده المقر الشهابى أحمد وقرره أمير ركب المحـمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجوا فى تلك السنة ، وشرع لهم فى عمل برك حافل ، وحجت صحبـة ولدها المقر الشهابى أحمد .

***

وفى ربيـع الآخر أعيد خاير بك القصروى الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبـار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخـذها وفر الى الينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخـذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

***

وفى جمادى الأولى خرجت التجـريدة المعينة الى ابن قرمان ، وكان باش العسكر خشقدم أمير سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك نحـو من أربعمائة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانة حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخـرج غصبا على كره منه .

***

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من مماليك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر فى الزردكاشية عوضا عن نوكار النـاصرى بحكم وفاته .

***

وفى رجب طفش جماعة من فرسان العـربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطفوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجـدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هـذه اباحة صعدت من أولئك العربان .

وفيه توفى قاضى قضـاة المالكية ولى الدين السنباطى ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيـان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة . فلما توفى وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى فى ذلك بمال جزيل . وكان السـاعى له فى ولاية القضاء الجمالى يوسف ناظر الخـاص ، وكان يومئذ فى المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من المماليك الجلبان غاية الضرر فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبـار بأن حسن بيك الطويل ـ صاحب ديار بكر ـ تحـارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه .

وفيه عاد قانى باى اليوسفى الذى كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

***

وفى شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذى توجه من مصر صحبة الأمير خشقـدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التى بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

***

وفى رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعـروف بالفقيه المؤيدى أحد الأمراء الطبلخانات يومئذ ، وهو الذى تولى الدوادارية الكبرى فيما بعد .

وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحـد بن عبد الحميد بن مسعود السيوامى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ بالخانقاه الشيخونية ، وكان فريد عصره فى علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرفيـة والشيخونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصـل سودون القصروى ـ أحـد الدوادارية ـ وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشـجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكئوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقـر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان فى شهر رمضان ، فقيل أفطر فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسايرة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

***

وفى شوال توفى الأمير جانى بك القـرمانى حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات فى التجريدة التى أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل باش العسكر الأمير خشقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر فى تقدمة جانى بك القرمانى أبا يزيد التمربغاوى ، وقرر فى امرية أبى يزيد برسـباى المؤيدى .

قاضى دمشق ، وكان عالما فاضلا ولى عدة وظائف منها قضـاء طرابلس وحلب ودمشق وغير ذلك ، وكان قد ترشح أمره لقضـاء مصر — بل وكتابة السر — ولم يتم له ذلك .

وفيه توفى الطواشى عبـد اللطيف الرومى المنجكى مقـدم المماليك ، وكان لا بأس به بين الخدام .

***

وفى ربيـع الأول توفى القـاضى شهاب الدين أحمد بن محمد الزفتاوى الشافعى ، نائب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة تسعين وسبعمائة .

وفيه عمل السلطان المولد الشريف على العادة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع السـلطان على ولده المقر الشهابى أحمد وقرره أمير ركب المحـمل ، ورسم لزوجته خوند زينب وأولاده بأن يحجوا فى تلك السنة ، وشرع لهم فى عمل برك حافل ، وحجت صحبـة ولدها المقر الشهابى أحمد .

***

وفى ربيـع الآخر أعيد خاير بك القصروى الى ولاية القاهرة وصرف عنها على بن القيسى .

وفيه جاءت الأخبـار من المدينة الشريفة بأن شخصا من الأشراف يقال له الشريف برغوت تسلق الى سطح الحجرة النبوية الشريفة واختلس عدة قناديل ذهب وفضة ، فأخـذها وفر الى الينبع ، فقبض عليه بعد أيام وأخـذ ما معه من القناديل وسجن ، وكانت هذه الفعلة من أقبح الفعائل .

***

وفى جمادى الأولى خرجت التجـريدة المعينة الى ابن قرمان ، وكان باش العسكر خشقدم أمير سلاح ومعه جماعة من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، ومن المماليك نحـو من أربعمائة مملوك ، وكان لخروجهم يوم مشهود .

وفيه أرسل السلطان زردخانة حافلة على يد نوكار الزردكاش بسبب العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وكان نوكار مريضا فخـرج غصبا على كره منه .

***

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بوفاة نوكار الزردكاش ، مات بغزة ، وكان من مماليك الناصر فرج بن برقوق وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على سنقر الأشقر المعروف بقرقشبق ، وقرر فى الزردكاشية عوضا عن نوكار النـاصرى بحكم وفاته .

***

وفى رجب طفش جماعة من فرسان العـربان ركاب خيول ، وشرعوا يعرون الناس من الصحراء الى أن وصلوا الى رأس الصوة — وكان ذلك وقت القائلة — فخطفوا عمائم الفقهاء ، وسلبوا قماش الناس عنهم ، ولم يجـدوا من يردهم عن ذلك ، وكانت هـذه اباحة صعدت من أولئك العربان .

وفيه توفى قاضى قضـاة المالكية ولى الدين السنباطى ، وهو محمد بن عبد اللطيف بن اسحق ابن أحمد بن اسحق بن ابراهيم بن سليمان بن داود بن عتيق الأموى المالكى ، وكان عالما فاضلا من أعيـان المالكية ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة . فلما توفى وقع الكلام على من يلى قضاء المالكية ، فوقع الاختيار على ولاية السيد الشريف حسام الدين بن حرير ، فسعى فى ذلك بمال جزيل . وكان السـاعى له فى ولاية القضاء الجمالى يوسف ناظر الخـاص ، وكان يومئذ فى المالكية من هو أعلم منه ، ولكن ساعدته الأقدار

وولى قضاء المالكية وأقام بها مدة طويلة الى أن مات .

وفيه أدير المحمل على عادته ، ولكن حصل فيه من المماليك الجلبان غاية الضرر فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، وعظم الفساد ، وخطف عمائم الناس وغير ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن بيك الطويل — صاحب ديار بكر — تحارب مع جهان شاه صاحب تبريز والعراقين ، فجرى بينهم من الحروب ما يطول شرحه ، وآل الأمر الى أن حسن الطويل قد انتصر على جهان شاه . فلما جاءت الأخبار بذلك سر السلطان بنصرة حسن الطويل على جهان شاه .

وفيه عاد قانى باى اليوسفى الذى كان توجه الى ابن عثمان ملك الروم وأخبر بأنه أكرمه غاية الاكرام .

***

وفى شعبان جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر الذى توجه من مصر صحبة الأمير خشقدم أمير سلاح دخل بلاد ابن قرمان ، وشن فيها الغارات ، وأخربوا غالب بلاده ، وقطعوا الأشجار التى بها ، وقتلوا جماعة كثيرة من عسكره . فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

***

وفى رمضان أرسل السلطان جماعة من العسكر الى اللجون بسبب قطع الأخشاب على العادة ، وكان الباش على العسكر يشبك بن سليمان المعروف بالفقيه المؤيدى أحد الأمراء الطبلخانات يومئذ ، وهو الذى تولى الدوادارية الكبرى فيما بعد .

وفيه توفى عالم الحنفية وشيخهم بالديار المصرية الأستاذ الشيخ كمال الدين محمد بن الهمام الحنفى وهو محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود السيواسى المصرى الحنفى شيخ الشيوخ بالخانقاه الشيخونية ، وكان فريد عصره فى علماء الحنفية ، عالما عاملا فاضلا رحمة الله عليه . وكان مولده سنة تسع وثمانين وسبعمائة . وكان معظما عند الملوك وأرباب الدولة ... ولى مشيخة الأشرفية والشيخونية وغير ذلك من الوظائف السنية .

وفيه وصل سودون القصروى — أحد الدوادارية — وأخبر بنصرة العسكر المتوجه الى ابن قرمان ، وقد استولى العسكر على غالب بلاده وأخربها وأحرق أشجارها ، فلما تحقق السلطان أمر بضرب البشائر بسبب هذه النصرة ، فدقت الكئوسات بالقلعة ثلاثة أيام .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ونزل المقر الشهابى أحمد ولد السلطان وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا ، ولكن كان فى شهر رمضان ، فقيل أفطر فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العياق الأوباش ، وكان يوما شديد الحر .

وفيه عمل السلطان مسايرة حافلة ، وركب معه أرباب الدولة من المباشرين وغيرهم .

***

وفى شوال توفى الأمير جانى بك القرمانى حاجب الحجاب ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان لين الجانب متواضعا مات فى التجريدة التى أرسلت الى ابن قرمان .

وفيه وصل العسكر الذى توجه الى بلاد ابن قرمان ، ودخل باش العسكر الأمير خشقدم أمير سلاح ، وكان يوم دخولهم يوما مشهودا بالقاهرة ، ولكن حصل للعسكر بعد خروجهم من غزة وباء فمات منهم ما لا يحصى ، ودخل الباقون وهم متوعكون ، حتى الأمراء وأكثر الجند .

وفيه قرر فى تقدمة جانى بك القرمانى أبا يزيد التمربغاوى ، وقرر فى امرية أبى يزيد برسباى المؤيدى .

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وخرج ابن السلطان فى موكب حافل . وخرجت والدته خوند زينب فى محفة زركش هى وأولاده خوند زوجة الأمير برد بك ، وزوجة الأمير يونس البواب أمير دوادار كبير ، وخرج ولد السلطان سيدى محمد صحبة أخيه المقر الشهابى أحمد ، وكان لهم يوم مشهود .

وحج فى تلك السنة جماعة كثيرة من أعيان المباشرين ، منهم القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السر ، والقاضى علم الدين شاكر بن الجيعان وجماعة من أولاده ، والقاضى أبو بكر بن مزهر ناظر الاصطبل ، وغير ذلك من الأعيان .

وفيه حضر جانى بك نائب جدة ، وحضر صحبته زين الدين الاستادار ، وقد تقدم أن السلطان نفاه الى المدينة الشريفة ، ثم رضى عليه وأحضره الى القاهرة .

وفيه أنعم السلطان على جانى بك الاسماعيلى — المعروف بكوهية — بامرية عشرة .

وفيه خلع السلطان على برسباى البجاسى وقرر فى حجوبية الحجاب عوضا عن جانى بك القرمانى بحكم وفاته .

* * *

وفى ذى القعدة قدم قاصد صاحب بغداد بهدية للسلطان ومكاتبة أنه كسر الخارجى الذى يقال له المشعشع ، وقتل غالب عسكره ، وأن الحاج العراقى تجهز فى تلك السنة بعد ما كان له مدة وهو منقطع بسبب أمر المشعشع ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأقام أياما وسافر .

وفيه توفى الشيخ سراج الدين عمر الوردى الشافعى ، وكان من أهل العلم .

وفيه خلع السلطان على القاضى صلاح الدين المكينى وقرره فى الحسبة .

* * *

وفى ذى الحجة ثار المماليك الجلبان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، وذلك بسبب زيادة رأس غنم فى كل سنة ، فشح السلطان فى ذلك ، ثم رسم لكل واحد بزيادة رأس غنم فى الأضحية وخمدت الفتنة قليلا .

وفيه ، فى ثامن عشريه ، قدم مبشر الحاج — وهو دمرداش الطويل — وأخبر بأن الحاج قاسى عطشة عظيمة فى أثناء الطريق ، ومات من الناس ما لا يحصى ، وأخبر بسلامة خوند وأولاد السلطان فضربت البشائر بالقلعة لهذا الخبر .

وفيه توفى أزبك الشسمانى أحد الأمراء بمصر .

وفيه أخرج السلطان تقدمة طوخ بونى بازق بحكم عجزه عنها ، وكان مريضا ، وقرر فى تقدمته برسباى البجاسى . وقرر فى تقدمة برسباى البجاسى بيبرس خال الملك العزيز ، وقرر فى امرية مجلس جرباش المعروف بكرت عوضا عن طوخ بونى بازق وقرر يونس العلائى أمير آخور كبير عوضا عن جرباش كرت بحكم انتقاله الى امرية مجلس .

سنة اثنتين وستين وثمانمائة (١٤٥٧/١٤٥٨م) :

فيها ، فى المحرم ، أنعم السلطان على قايتباى المحمودى بامرية عشرة ، وكان أحد الدوادارية وقايتباى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وكان بين تأميره وسلطنته تسع سنين وبعض شهور .

وفيه قرر فى نيابة ملطية تغرى بردى .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين السيرجى أحد نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان مولده سنة ثمان وسبعين وثمانمائة

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، ووصل ابن السلطان ووالدته واخوته ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل ، ولاقاهم الأمراء وأرباب الدولة من البويب ، ومشت الأمراء قدام محفة خوند حتى طلعت الى القلعة والأمراء مشاة قدامها من البويب ، ثم طلعت هى وأولادها وحمل الأمير فيروز الزمام على رأسها القبة والطير ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى أن جلست على المرتبة بقاعة العواميد ، ونثر على رأسها خفايف الذهب والفضة ، ثم دخلت اليهم التقادم من الأمراء والمباشرين لخوند وأولادها . وكان ما أهداه الجمالى يوسف ناظر الخاص قندورة لخوند الكبرى مثلث ذهب ولؤلؤ وريش ، فكان مصروفها ما يزيد على اثنى عشر ألف دينار ، وهذا خارج عن بقية التقادم لها ولأولادها لكل منهم تقدمة على انفراده ، ولا سيما ما أهداه للمقر الشهابى أحمد ولد السلطان وأخيه الناصرى محمد ، حتى قيل انه صرف فى هذه الحركة نحو مائة ألف دينار ما بين تقادم وأسمطة وغير ذلك ، وهذا من ماله دون مال غيره . وأفعال ناظر الخاص يوسف فى أخباره تقارب أخبار جعفر البرمكى ، وهذا الأمر مشهور بين الناس .

وفيه وصلت تقدمة من عند قانى باى الحمزاوى نائب الشام ، ومن جملتها خيول نحو ثمانين فرسا ، أحدها مسروج بسرج بلور من نوادر السروج .

* * *

وفى صفر رسم السلطان باحضار أزبك بن ططخ الظاهرى — وكان مقيما بطالا — فلما طلع الى السلطان بالقلعة ألبسه سلاريا من ملابسه ونزل الى بيته ، فأنعم عليه بامرية عشرة .

وفيه مات الشيخ عبد الكريم — خليفة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه — مات قتيلا ولا يعلم من قتله . وكان غير مشكور فى سيرته ، وولى خلافه سيدى أحمد البدوى مدة طويلة . فلما مات ولى بعده صبى من أقاربه اسمه عبد المجيد .

وفيه توفى القاضى علاء الدين على بن آقبرس التركى الأصل ، وكان عالما فاضلا على مذهب الشافعى . وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية منها الحسبة ونظر الأوقاف وناب فى القضاء ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، ومولده سنة احدى وثمانمائة .

* * *

وفى ربيع الأول نودى فى القاهرة بتسعير الذهب والفضة ، وضرب السلطان فضة جديدة . فسعر الدينار الذهب بثلثمائة ، والفضة الجديدة كل أشرفى بخمسة وعشرين ونصفا عددية جيدة من خالص الفضة ، وأبطل سائر المعاملات من تلك الفضه المغشوشة التى كان وصل الدينار منها الى أربعمائة وستين درهما ... فخسر الناس فى هذه الحركة ثلث أموالهم ، ولكن انصلح أمر المعاملة بعدما كانت فسدت ، ففرح طائفة من الناس بذلك واغتم آخرون . وكان القائم فى ذلك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، فاضطربت الأحوال لذلك مدة ، ثم مشت تلك المعاملة الجديدة وسكن الاضطراب قليلا قليلا ، وصار كل من قبض عليه السلطان من الزغلية يوسطه أو يقطع يده ، فوقع الرعب فى قلوب الزغلية ، وكان ذلك سببا لاصلاح المعاملة ، وقد انصلحت بعد جهد كبير . وقال الشهابى المنصورى فيمن أهدى اليه دينارا عند المناداة على الذهب :

أمولاى قد آثرتنى متفضلا
وأهديت دينارا قد استغرق الوصفا
ولكنه قد خاف أمر مليكه
ألم تره من خوفه نقص النصفا

وفيه توفى الشيخ الصالح المـلك المعتقد سيدى مدين ، وكان من الأولياء وللناس فيه اعتقاد .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن مبارك شاه ، وهو أحمد بن محمد بن حسين بن ابراهيم بن سليمان القاهرى الحنفى . وكان عالما فاضـلا شاعرا ماهرا وله نظم جيد ، وألف الكتب النفيسة فى الأدبيـات وغير ذلك ، منهـا كتاب يقـال له السفينة ، كله محاسن وفوائد ، ومولده سنة ست وثمانمائة . ومن شعره — عشرة مقابلة بعشرة — قوله :

فرع ، جبـين ، محيا ، قامة ، كفـل
صدغ ، فم ، وجنات ، ناظر ، ثغر
ليـل ، هلال ، صباح ، بانة ، ونقا
آس ، أقاح ، شقيق ، نرجس ، درر

* * *

وفى ربيع الآخر توفى جانم البهلوان الأشرفى — أحد الأمراء العشراوات رءوس النـوب — وكان رئيسا حشما شجاعا بطلا بارعا فى فنون الفروسية .

وفيه حصل للسلطان توعك فى جسده ثم شفى ، فضربت البشـائر بالقلعـة بسبب ذلك وبأبواب الأمراء .

وفيـه توفى الأمير طوخ بن تمراز النـاصرى المعروف ببونى بازق ، وكان أصله من مماليـك النـاصر فرج ابن الظاهر برقوق ، ومات بطالا بعدما كان أمير مجلس ، وكان كبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين أحمد المعروف بقرقماس ، وهو أحمد بن على بن محمد بن مكى ابن محمد بن عبيـد بن عبـد الرحيم الأنصارى الدماصى الحنفى . وكان عالمـا فاضلا ، وناب فى القضاء بخط بولاق . وكان مولده سـنة تسعين وسبعمائة .

وفيه توفى سودون النوروزى نائب القلعة . فلما مات قرر بعـده فى نيابة القلعة كمسباى السمين ، وقرر جانى بك كوهيـة أحـد رءوس النوب عن كمسباى السمين .

وفيه توفى الناصرى محمد بن لاجين الجنـدى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

* * *

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على الطواشى مرجان العادلى وقرره فى تقدمة المماليك .

وفيه قرر فى نظر الدولة منصور بن الصيفى ، وهذا أول ظهوره فى الرياسة .

وفيه توفى المغنى الأستاذ فى فن النشيد ، فريد عصره ووحيد دهره ، ناصر الدين محمد المازونى القاهرى . وكان بارعا فى فن الغناء ، وكان يضرب به المثل فى حسن النغم ومعرفة الفن ، ولـم يجىء بعده من هو فى طبقته الى يومنا هذا . وقد رثاه الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

يا نزهـة السـمع سكنت الثرى
فللمـلاهى أيمـا لهـفى
كـم لطمـة من قـدم أو يد
فى خـدى الدوكـة والدف

وقوله أيضـا :

كانت به لذاتنـا موصـولة
فانقطعـت بمـوته اللـذات
وكانت الأصـوات تزهو بهجة
فارتفـعت لمـوته الأصـوات

وكان حصل للمازونى خلط فالج فأقام به مدة طويلة حتى مات ، فكان يقول : « ارحموا من سكت حسه ، وبطل نصفه » .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء وأرباب الوظائف من الدولة ، فسـاروا الى نحو جزيرة أروى ثم توجه الى بولاق ، وكان له يوم مشهود . فلما شق من بولاق أمر بهدم ما كان بها

من الأخصاص — وكانت تضيق الطريق على السالك — فهدمت من يومها .

وفيه مات الشيخ شهاب الدين أحمد بن الأوجاقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ذكيا .

وفيه صرف القاضى صلاح الدين المكينى عن الحسبة ، وقرر بها قانى باى اليوسفى المهمندار ، وكان جماعة من الجلبان ثاروا على المحتسب فكان هذا سببا لصرفه عن الحسبة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن قرمان وعلى يده مكاتبة يعتذر فيها عما حصل منه من الخروج عن الطاعة ، وأرسل يسأل السلطان فى العفو عنه والصلح معه ، فاجابه السلطان الى ذلك .

* * *

وفيها نزلت صاعقة عظيمة ببولاق حتى كادت تحرق عن آخرها ، وكان ذلك يوم الجمعة من شهر رجب . واستمر فى كل ليلة يحترق فى مصر والقاهرة حريق ، وأقام على ذلك نحو سنة حتى ضج الناس من ذلك .

سنة ثلاث وستين وثمانمائة (١٤٥٨/١٤٥٩ م) :

فيها توفى القاضى محب الدين بن الأشقر كاتب السر الشريف . فلما توفى خلع السلطان على القاضى محب الدين بن الشحنة ، واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن ابن الأشقر . وكانت وفاته فى رجب .

وفيها توفى الشيخ على العجمى المحتسب .

وفيها توفى قانباى الحمزاوى نائب الشام واستقر بها جانم الأشرفى .

وفيها ظهر فى السماء نجم له ذنب طويل نحو سبعة أذرع ، فكان يطلع من جهة الشرق ، ثم صار يظهر من جهة الغرب ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى .

ومن الحوادث فى أيامه أن حضر الى الأبواب الشريفة جاكم ابن ملك قبرس وطلب من السلطان نجدة ، فعين السلطان معه تجريدة ، وكان باش العسكر الأمير يونس الدوادار . ثم ان السلطان شرع فى عمارة مراكب أغربة بالجزيرة الوسطى . وكان الشاد على عمارة هذه الأغربة الأمير سنقر قرق شبق الزردكاش ، فحصل منه غاية الظلم لأرباب الغيطان بسبب الأخشاب . فلما كملت عمارة تلك الأغربة نزل السلطان بنفسه ، وكشف على عمارة الأغربة ، وكان له يوم مشهود ، ونزل من القلعة فى موكب عظيم ، وتوجه الى الجزيرة الوسطى فرموا قدامه الأغربة فى البحر — والنفط والطبل عمال — حتى انتهى ذلك ، ثم رجع الى القلعة . فلما خرجت التجريدة وتوجهوا الى بلاد الافرنج لم يحصل من العسكر الذى توجه نتيجة ، ورجع الأمير يونس الدوادار من التجريدة بسرعة وترك بقية العسكر فى قبرس ، ورجع الى القاهرة فما شكره أحد من العسكر على ذلك ، وبقى ممقوتا عندهم الى أن مات .

وفيها توفى الأمير يونس العلائى الناصرى أميرآخور كبير ، فخلع السلطان على الأمير برسباى البجاسى ، واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن يونس العلائى ، وخلع على الأمير سودون قراقاش واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن برسباى البجاسى ، وأنعم على الأمير جانى بك نائب جدة بتقدمة ألف .

سنة أربع وستين وثمانمائة (١٤٥٩/١٤٦٠ م) :

فيها وقع الطاعون بالديار المصرية ، وكان مبدؤه من الشام ، وكان طاعونا عظيما جدا مات فيه ثلث المماليك والأطفال والجوارى والعبيد والغرباء ، واستمر عمالا نحو خمسة أشهر . وكان الورد فى تلك السنة كثيرا ، فصاروا يعملون على التوابيت قواصير جريد يغرزون فيها الورد . وقد

انتهت الجنائز فى كل يوم الى اثنى عشر ألف جنازة . وقد قال القائل :

أسفى على سكان مصر اذ غدا
للطعن فيها ذات وخز سارى
الموت أرخص ما يكون بحبة
لكن هذا صار بالقنطار

وفيها توفى العلامة الشيخ جلال الدين المحلى الشافعى . وفيها توفى الزينى أبو الخير بن النحاس وفى هذه السنة كانت وفاة القاضى برهان الدين ابراهيم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ومستوفى ديوان الجيش .

سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠/١٤٦١ م) :

فيها توجه الأتابكى أحمد ابن المقام الشريف الى السرحة ، فلما عاد زينت له القاهرة ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وطلع الى القلعة فى موكب عظيم .

وفيها توفى الناصر محمد بن أيتمش الخضيرى — ابن أخت خوند بنت خاصبك — توفى يوم دخول الأتابكى أحمد الى القاهرة ، فكدر عليهم ذلك اليوم .

واستمر الملك الأشرف اينال قائما فى ملكه وهو فى أرغد عيش ، وأولاده حوله ، وكان غالب الأمراء أصهاره ، والعسكر فى قبضة يده . واستمر على ذلك حتى مرض بألم الخصية ، وسلسل فى المرض حتى مات . وكانت وفاته يوم الخميس بعد العصر خامس عشر جمادى الأولى سنة خمس وستين وثمانمائة ، ودفن من يومه فى تربته التى أنشأها له القاضى ناظر الخاص يوسف بالقرب من تربة القاضى عبد الباسط التى فى الصحراء ، فكثر عليه الحزن والأسف كما قيل فى المعنى :

هى الدنيا اذا كملت وتم سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا كما فيمن مضى فعلت

وتوفى الملك الأشرف اينال وله من العمر احدى وثمانون سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ثمانى سنين وشهرين وستة أيام ، وخلف من الأولاد أربعة وهم : الأتابكى أحمد الذى تسلطن بعده ، والمقر الناصر محمد أخوه الصغير ، وابنته خوند بدرية زوجة برد بك ، وابنته خوند فاطمة زوجة يونس البواب الدوادار الكبير .

ولم يتزوج اينال غير أم أولاده خوند زينب بنت خاصبك .

ولما ثقل فى المرض عهد بالملك الى ولده الأتابكى أحمد ، فتسلطن ووالده فى قيد الحياة .

وكانت صفة الملك الأشرف اينال : طويل القامة ، أسمر اللون ، عربى الوجه ، خفيف العوارض ، وكان يعرف باينال الأجرود . وكان ملكا هينا لينا قليل الأذى ، ولولا جور مماليكه فى حق الناس لكان خيار ملوك الجراكسة . وكان كل من يقع له من الزغلية يوسطه وكانت أيامه كلها لهوا وانشراحا . وكان أميا لايقرأ ولايكتب ، فكانوا يخطون له على المراسيم حتى يمشى عليها بالقلم . وقيل انه فى مدة سلطنته لم يسفك دما قط بغير وجه شرعى ، فعد ذلك من النوادر .

ومن الحوادث فى أيامه أنه كان يقع بالقاهرة فى كل ليلة حريق فى عدة أماكن ، حتى ضج الناس من ذلك ، ولم يعلم سبب هذه النازلة ولا من كان يفعل ذلك . فاستمر الأمر على ذلك مدة ثم بطل .

وفى أيامه تحرك ابن قرمان على بلاد السلطان ، فأخرج اليه تجريدة — وكان باش العساكر المقر السيفى خشقدم أمير سلاح — فلما توجهوا الى بلاد ابن قرمان لم يقاتلهم ولم يقع بينهم قتال ، فرجع العسكر الى الديار المصرية وهم سالمون .

ومن الحوادث فى أيامه أن خوند زوجة

السلطان مرضت فنزلت الى بولاق وأقامت فى القطبية ، فنزل السلطان وسلم عليها فلما حصل لها الشفاء أحرقوا فى بولاق حراقة نفط ، فخرجت فى تلك الليلة البنت من خدرها بسبب الفرجة على ذلك ، وكانت من الليالى المعدودة فى القصف والفرجة .

وكانت دولة الملك الأشرف اينال تانتة القواعد .

فأما أتابكيته فالمقر السيفى ثانى بك الظاهرى ، وولده المقر الشهابى أحمد .

وأما دوادارياته فالمقر السيفى يوس البواب صهره ، والأمير برد بك الدوادار الثانى مملوكه وصهره أيضا .

وأما قضاته الشافعية فالقاضى علم الدين صالح البلقينى وأما قضاته الحنفية فشيخ الاسلام سعد الدين الديرى وأما قضاته المالكية فالقاضى ولى الدين السنباطى ، ثم السيد الشريف حسام الدين بن حريز وأما قضاته الحنابلة فالقاضى عز الدين أحمد بن نصر الله الحنبلى

وكان الجمالى يوسف ناظر الخاص مدبر مملكته ، كما كان القاضى عبد الباسط فى دولة الأشرف برسباى .

وكان ينقاد الى الشريعة ، ويحب العلماء ، قليل العزل للقضاة وأرباب الوظائف .

وكان معظم مساويه مماليكه الجلبان . وبالجملة كان الأشرف اينال من خيار ملوك الجراكسة .

الملك المؤيد أبو الفتح العلائى الناصرى

هو الملك المؤيد أبو الفتح شهاب الدين أحمد ، ابن الملك الأشرف اينال العلائى الناصرى . وهو السابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد .

بويع بالسلطنة فى حياة والده . وكانت صفة مبايعته بالسلطنة أن أباه لما أشرف على الموت طلع الأمير برد بك — صهر السلطان — واجتمع بخوند زوجة السلطان ، وذكر لها أن الأحوال فاسدة ، والأمور فى اضطراب . ومن الرأى أن السلطان يعهد الى ولده بالسلطنة . فدخلت خوند على السلطان وذكرت له ذلك ، فأمر باحضار الخليفة والقضاة الأربعة ، فحضر الخليفة الجمالى يوسف، والقضاة الأربعة وهم : علم الدين صالح البلقينى الشافعى ، وسعد الدين الديرى الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى ، وحضر أرباب الدولة من أرباب الحل والعقد . فلما تكامل المجلس دخل بعض الشهود على السلطان ، وشهدوا عليه بخلع نفسه من السلطنة وتولية ولده .

ثم ان الخليفة بايع الأتابكى أحمد بن اينال بالسلطنة عوضا عن أبيه وتلقب بالملك المؤيد . فلما تمت له البيعة احضر له شعار الملك ، وهو العمامة السوداء والجبة والسيف البداوى ، وأفيض عليه الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، وركب من باب الدهيشة ، وحمل الأمير خشقدم أمير سلاح على رأسه القبة والطير ، وقد ترشح أمره لأن يلى الأتابكية

فلما ركب من الدهيشة مشت قدامه الأمراء قاطبة — والخليفة عن يمينه — حتى دخل القصر الكبير ، ونزل عن فرسه ، وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ودقت له البشائر بالقلعة .

ثم نزل الوالى ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والدعاء للملك المؤيد ، فارتفعت الأصوات بالدعاء

وكان محبباً للناس ، قليل الأذى . ثم خلع على الخليفة والأمير خشقدم ، ونزلا الى دورهما .

وكان له من العمر لما تولى السلطنة نحو من ثمان وثلاثين سنة أو زيادة على ذلك . وكانت أمه خوند زينب بنت خاصبك . وكان كامل الهيبة ، حسن الشكل ، أبيض اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، طويل القامة ، غليظ الجسد ... وكان كفئا للسلطنة ... ولكن لم يساعده الزمان ، وجنى عليه وخان ، كما قيل :

اذا طبع الزمان على اعوجاج
فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب وجلس على سرير الملك ، وقال فيه القائل :

بمهجتى أفدى مليكا غدا
مؤيدا بالنصر كالشمس
فلو تراه فوق كرسيه
لقلت هذا آية الكرسى

ثم أخذ فى تدبير ملكه ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى خشقدم الناصرى أمير سلاح ، فقرره فى الأتابكية عوضا عن نفسه ، وأخرج له مكتوبا باقطاعه الذى كان بيده . وخلع على جرباش المحمدى — المعروف بكرت — وقرره فى امرية سلاح . وخلع على قرقماس الجلب وقرره فى امرية مجلس عوضا عن جرباش كرت . وخلع على قانم التاجر وقرره رأس نوبة النوب عوضا عن قرقماس الجلب . وقرر فى تقدمة جرباش كرت بيبرس خال الملك العزيز . ثم شغرت تقدمة فأراد أن ينعم بها على صهره الأمير برد بك الدوادار الثانى ، فوقف اليه جانى بك الظريف وباس الأرض وطلب التقدمة التى شغرت ، فأبى السلطان من ذلك ، وحصل بين جانى بك الظريف وبين الأمير يونس الدوادار الكبير فى ذلك اليوم تشاجر بسبب ذلك ، ونزل جانى بك الظريف من عند السلطان غير راض ، وكان ذلك سببا فى سرعة زوال الملك المؤيد أحمد عن قريب .

ثم ان السلطان نادى فى الحوش للعسكر بأن نفقة البيعة فى يوم الثلاثاء عشرى هذا الشهر لكل مملوك عشرون دينارا ، فسر الجند بذلك وارتفعت له الأصوات بالدعاء ... هذا كله جرى ووالده الأشرف فى قيد الحياة ، الى أن مات فى يوم الخميس بعد العصر . وذلك فى خامس عشر جمادى الأولى من تلك السنة . فلما مات شرعوا فى تجهيزه ، وأخرجوه عند باب الستارة ، وصلى عليه الخليفة وولده الملك المؤيد أحمد ، ثم نزلت جنازته من سلم المدرج وتوجهوا به الى تربته التى أنشأها بالصحراء كما تقدم .

ثم ان السلطان بعث نفقات الأمراء فحمل للأتابكى خشقدم أربعة آلاف دينار ، ولأرباب الوظائف من الأمراء والمقدمين لكل واحد منهم ألفان وخمسمائة دينار ، ولبقية المقدمين لكل منهم ألفا دينار ، وحمل للأمراء الطبلخانات لكل واحد منهم خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتا دينار

ثم أنفق على الجند — على العادة القديمة — من مائة دينار الى ما دون ذلك الى عشرة دنانير .

ثم أنعم السلطان على يشبك البجاسى الأشرفى ، ويشبك هذا كان من مماليك الأشرف اينال ، وكان فى أيام أستاذه مقدم ألف بحلب ، ثم حضر الى القاهرة فبقى مقدم ألف بمصر .

* * *

وفى جمادى الآخرة عين السلطان جماعة من خواصه من الأمراء والخاصكية بالتوجه الى البلاد الشامية وغيرها ببشارة السلطنة الى النواب وغيرهم .

وفيه جاءت الأخبار من قبرس بأن جانى بك الأبلق — الذى كان مقيما بقبرس مع جماعة من المماليك السلطانية — أرسل يخبر بأن أخت جاكم صاحب قبرس فرت الى رودس لتستنجد بصاحبها ليمدها بعسكر حتى تحارب أخاها وتأخذ منه مدينة شيرينه ، فأرسل جانى بك الأبلق يستحث السلطان فى ارسال تجريدة تنجده سريعا ، وكان يظن أن الأشرف اينال فى قيد الحياة .

وفيه خلع السلطان على مجد الدين بن البقرى وقرره فى الاستادارية عوضا عن منصور بن الصفى بحكم صرفه عنها ، وهذه أول ولاية مجد الدين للوظائف السنية .

وفيه توفى الطواشى مرجان العادلى مقدم المماليك ، وكان حبشى الجنس ، وكان عنده شدة بأس وعسوفة زائدة ، فلما مات قرر فى تقدمته جوهر النوروزى .

وفيه توفى جسيل بن أحمد بن عميرة شيخ العرب بالكفور بالغربية ، وكان ظالما عسوفا ، وكان فى سعة من المال وهو بخيل جدا .

وفيه توفى الصاحب سعد الدين فرج ابن ماجد النحال . وكان أصله من الأقباط ، ولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والاستادارية غير ما مرة ، وولى أيضا كتابة المماليك وغير ذلك من الوظائف . وكان رئيسا حشما دينا خيرا مشكورا فى مباشرته ، وكان عنده حدة مزاج فى ذاته ، ومولده فى سنة احدى وثمانمائة .

وفيه كان قراءة تقليد السلطان بالقصر الكبير . وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وأرباب الدولة ، وجلس القاضى كاتب السر محب الدين بن الشحنة على كرسى وقرأ التقليد على العادة . ثم ان السلطان خلع على الخليفة والقضاة الأربعة ونزلوا من القلعة فى موكب حافل .

وفيه ثارت عربان لبيد ، ووصلوا الى البحيرة ، وشنوا بها الغارات ، ونهبوا الغلال . فلما بلغ السلطان ذلك بادر وأرسل خلفهم تجريدة ولم يرسل من المماليك الجلبان أحدا ، فعز ذلك على المماليك القرانصة وأضمروا له السوء .

***

وفى رجب ظهر فى القاهرة وضواحيها الأمن والعدل والرخاء ، وأحب الرعية السلطان حبا شديدا ، ومالت اليه النفوس قاطبة كما قيل :

دولته للأنام عيد ... باق وأيامه مواسم
قد أظهر العدل فى الرعايا ... وأبطل الجور والمظالم
وصير الشاة فى حماه ... تمشى مع الذئب والضياغم
لو نطقت مصرنا لقالت ... يا ملك العصر والأقالم
ملأ قلب الملوك رعبا ... أغنى عن السمر والصوارم

وفيه هجم المنسر على المتفرجين بجزيرة بولاق ، وكان فى الظلمة نصف الليل ، فنهبوا من الناس شيئا كثيرا ، وكان الناس قد خرجوا عن الحد فى الفتك والقصف بسبب الفرجة ، ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر ، وصاروا يقيمون فى الرمل ليلا ونهارا من نساء ورجال وهم فى غاية التزخرف ، فهجم عليهم المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ، ولم ينتطح فى ذلك شاتان .

وفيه قدم الأشرفى الذى كان دوادارا ثانيا بمصر ونفى فى دولة الأشرف اينال ، فلما مات اينال قدم الى القاهرة من غير اذن السلطان . فلما حضر نزل عند الأتابكى خشقدم . فلما بلغ السلطان ذلك شق عليه وأمر باخراجه من حيث جاء ، فخرج من يومه ، وأمر بسجنه ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، وألبسه كاملية سمور ، وخرج من مصر سريعا ، فشق ذلك على جماعة الأشرفية ، وكثر القيل والقال بين الناس ، ولهجوا بوقوع فتنة عن قريب .

وفيه وصل الطواشى شاهين غزالى الذى توجه

الى دمشق لضبط تركة زوجة قانى بك الحمزاوى نائب الشام . واشتملت تركتها على أشياء غريبة من تحف ومعادن نفيسة وأقمشة مثمنة وأوانى فضة وبلور مما لا يسمع بمثله ، فكان هذا الموجود أعظم من موجود الخوندات ، فأمر السلطان ببيعه فى كل يوم ثلاثاء ، فأقاموا نحوا من شهر وهم يبيعون فى ذلك الموجود .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو القرافة وعاد سريعا ، وهذا أول ركوبه فى السلطنة ... وكان آخر ركوبه .

وفيه أمطرت السماء بردا كبارا كل حصوة قدر بيضة الحمامة ، وكان غالب ذلك ببلاد الشرقية ، وتلف بها أكثر الزرع وهلك بها بعض بهائم .

وفيه توفى الأمير فيروز الزمام الخازندار الكبير ، وكان أصله من خدام فيروز الحافظى . وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف منها الزمامية والخازندارية الكبرى وغير ذلك من الوظائف . وكان سيىء الأخلاق حاد المزاج ، وكان فى سعة من المال ، ووجد له من الأصناف والمال ما يزيد على مائة ألف دينار . قيل ابتيع له حاصل فيه فحم بألف دينار . ومات وله من العمر مايزيد على ثمانين سنة ، ولم يجىء بعده مثله من الخدام .

* * *

وفى رمضان أشيع بين الناس أن السلطان عول على امساك جماعة من الأمراء الأشرفية . ثم انه أمر نقيب الجيش بأن يدور على الأمراء ويأمرهم بالصعود الى القلعة وما عرف السبب لذلك ، فأخذوا حذرهم وباتوا على وجل ، ولم يطلع اليه أحد .

فلما كان ليلة السبت سابع عشر رمضان وثب جماعة من المماليك الأشرفية والظاهرية ، واستمالوا معهم غالب المماليك الاينالية ، ولعبوا بهم وأفسدوا عقولهم ، وضحكوا عليهم ، فلبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة . فلما عظم الأمر نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس بالمقعد المطل على الرميلة ، فاشتد الحر فى ذلك اليوم ، واستمروا على ذلك حتى حال بينهما الليل .

فلما أصبح يوم الأحد ثامن عشر رمضان نزل السلطان الى المقعد المطل على الرميلة وثبت للقتال ، فلما رأى مماليك أبيه قد وثبوا عليه تحقق أنه مكسور لا محالة ، فكان كما قيل :

كنت من كربتى أفر اليهم
فهمو كربتى فأين المفر ؟

ثم كانت الكسرة على أحمد ، فطلع من باب السلسلة وتوجه الى قاعة البحرة ، ثم طلب أخاه الناصرى محمدا وأمرهم أن يغلقوا عليهما الباب . فلما بلغ العسكر أن الملك المؤيد قد اختفى توجهوا الى بيت الأتابكى خشقدم ، فأركبوه غصبا حتى طلعوا الى باب السلسلة . وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة وبايعوا الأتابكى خشقدم ، فكانت مدة الملك المؤيد فى السلطنة أربعة أشهر وثلاثة أيام .

وكان المماليك كاتبوا جانم نائب الشام أن يحضر الى مصر ليلى السلطنة ، وأرسلوا اليه صورة حلف ، وكتب فيه الأمراء الأشرفية خطوط أيديهم بأنهم ارتضوا بجانم أن يكون هو السلطان عليهم ، وأرسلوا يستحثوله فى الحضور فأبطأ عليهم ، فما صبروا الى أن يحضر ، فوثبوا على المؤيد فى رمضان وحاربوه ثلاثة أيام ، فلما انكسر التفوا على الأتابكى خشقدم وولوه السلطنة عارية الى أن يحضر جانم نائب الشام ، فصار الهزل جدا وكان كما قيل فى المعنى :

وان صبابتى كانت مزاحا
فصيرها الهوى حقا يقينا

وكان الملك المؤيد أحمد كفئا للسلطنة ، ذا

عقل ورأى ، كامل الهيبة ، ساس الناس فى أيامه أحســن سياسة ، وقمــع مماليك أبيه عما كانوا يفعلونه من تلك الأفعال الشنيعة . وكان بصـيرا بمصالح الرعية ، ولو أقــام فى السلطنة لحصـل للناس به غاية النفع ... ولكن خانه الزمان ، وأخذ من حيث كان يرجو الأمان ، كما قيل :

واذا جفاك الدهر ـ وهو أبو الورى

طـرا ـ فـلا تعتب على أولاده

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم الناصرى المؤيدى ، وهو الثامن والثـلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو أول ملوك الروم بمصر ... ان لم يكن أيبك التركمانى من الروم ، ولا لاجين من الروم ، فخشقدم أول ملوك الروم بمصر .

وكان الظاهر خشقدم أصله رومى الجنس ، جلبـه الخواجـا ناصر الدين ـ وبه يعـرف بالناصرى ـ فاشـتراه منه الملك المؤيد شيخ ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا فى دولة الملك المظفر أحمد ابن الملك المؤيد شيخ . ودام على ذلك دهرا طويلا الى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق فأنعم عليه بامرية عشرة ، وذلك فى سنة ست وأربعين وثمانمائة (١٤٤٢/ ١٤٤٣ م) ، وصار رأس نوبة . واستمر على ذلك الى سنة خمسين وثمانمائة (١٤٤٦ م) ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها ودام بدمشق الى أن تغير خاطر السلطان على الأمير قانى بك الظاهرى حاجب الحجاب بسبب عبد قاسـم الكاشف الذى كان قد اشتهر بالصلاح ، فعند ذلك نفى السلطان الأمير قانى بك الى ثغر دمياط .

فلما جرى ذلك سعى القاضى أبو الخير ابن النحاس وكيل بيت المال ـ هو والأمير تمربغـا الدوادار الثانى ـ للأمـير خشـقدم ، فأحضره السلطان من دمشق ، وأنعم عليه باقطاع الأمـير قانى بك حاجب الحجاب ، وذلك فى صـفر سنة أربع وخمسين وثمانمائة ، فأقام على ذلك الى أن مات الملك الظاهر جقمق وتسلطن الملك الأشرف اينال ، فبقى الأمير خشقدم أمير سـلاح فى دولة الأشرف اينال ، وسافر فى أيامه باش العسكر فى التجريدة التى توجهت الى حلب بسبب ابن قرمان .

فلما رجع من التجريدة أقام أمير سلاح الى أن توفى الملك الأشرف اينال وتسلطن ولده الملك المؤيد أحمد ، فاستقر بالأمير خشقدم أتابك العسـاكر عوضا عن نفسه ، وذلك فى سنة خمس وسـتين وثمانمائة .

فلما وثب المماليك على الملك المؤيد فى شـهر رمضان ـ كما تقدم ذكر ذلك ـ اتفق رأى الأمراء على سلطنة الأتابكى خشقدم الى أن يحضر المقر السيفى جانم نائب الشام فيسـلطنوه . فلما أبطأ عليهم الأمير جانم سلطنوا الأتابكى خشقدم لنيابة عن جانم ، فكانت سلطنة خشقدم فلتة كما قيـل فى المعنى :

وان صبابتى كانت مزاحـا

فصيرها الهوى حقا يقينـا

وكانت سلطنة الأتابكى خشقدم فى يوم السبت سابع عشر رمضـان سنة خمس وستين وثمانمائة (١٤٦٠/١٤٦١ م) ، فصلى الظهر وجلس فى المقعد الذى فى باب السلسلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة وهم على الوصف المقدم ذكـره ، فخلعوا الملك المؤيد أحمد من السلطنة وبايعـوا الأتابكى خشقدم ، فأحضروا له خلعة السلطنة فلبسها من المقعد الذى فى باب السلسلة ، وركب من هناك فرس النوبة وطلع الى باب القصر الكبير ، وحمل

على رأسه القبة والطير المقر السيفى جرباش كرت أمير سلاح .

فلما جلس على سرير الملك باس له الأمـراء الأرض وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالأدعية الفاخرة .

ثم انه أرسل قيد الملك المؤيد وأخاه فى البحرة . ثم نزل بهما وقت الظهر من القلعة وخلفهما أوجاقية بخناجـر وأرسلهما الى السجن بثغر مدينـة الاسـكندرية وأرسل معهما الأمير قراجا الطويل الاينالى . وكان المتسفر عليهما الأمير خـير بك المصـارع ، فتوجه بهـا الى ثغر الاسـكندرية وسجنهما بها .

ثم ان السلطان رسم على خوند الخاصبكية — أم الملك المؤيد — وجعـل عليها عشرة من الخدام ، منهم خشقدم اللالا ، فصار يقسو عليها ثم انه أخذ للسلطان من خوند المذكورة جمـلة كثيرة من المال نحو مائة ألف دينار .

ثم أنه فى أواخر شهر رمضان توفى الأمير يونس البواب الدوادار الكبير — وكان صـهر الملك الأشرف اينال — فكثر عليه الحزن والأسف .

ثم ان السلطان عمل الموكب فى القصر الكبير ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى جرباش المحمدى المعروف بكرت ، فخلع عليـه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه . وخلع على المقر السيفى قرقماس الجلب واستقر به أمير سلاح عوضا عن جرباش . وخلع على المقرالسيفى قانم التاجر المؤيدى واستقر به أمير مجلس . وخلع على المقر السيفى بلباى المؤيدى واستقر به حاجب الحجاب . وخلع على المقر السيفى جانى بك نائب جدة واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمـير يونس البواب بحكم وفاته كما تقدم . ثم انه نقل المقر السيفى برد بك الجمقدار واستقر به حاجب الحجاب . وخلع على المقر السيفى بيبرس خال العزيز واستقر به رأس نوبة النوب ، ثم خلفه تمر بغا لما جاء من مكة حين أمسك الأمير بيبرس ونفى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه . وكان تمربغا بمكة ، فلما حضر لمصر استقر به رأس نوبة النوب . وخلع على المقر السيفى جانى بك الظريف واستقر به دوادارا ثانيا وأنعم عليـه بتقدمه ألف مع الدوادارية . وخلع على المقر السيفى جانى بك الأشرفى ، واستقر به شاد الشربخاناه ، وأنعم عليه بتقدمة ألف مع الشادية . وخلع على الأمير اينال الأشقر ، واستقر به والى القاهرة . وخلع على الأمير تنم رصاص واستقر به محتسب القـاهرة . وأنعم على جماعة كثيرة من الأمـراء الأشرفيـة بامريات عشرة ... ولم تـكن ولاية هؤلاء الأمراء فى موكب واحد بل كانت فى مواكب متعددة حسبما يأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ثم ان الأمير جانى بك نائب جدة قرب جماعة من الاينالية ولم يمكن السلطان من التشويش عليهم — منهم : أزدمر الطويل ، وثانى بك قرا ، وجانى بك الخشن ، وشاد بك أبانطة ، وقانصوه المؤيدى ، وغير ذلك من الاينالية جماعة كثيرة — — فصار هؤلاء من عصبة جانى بك نائب جدة . وكان متخيلا من جماعة الأشرفية والمـؤيدية ، فقويت شوكته ، وتعصبت له الاينالية واجتمعت فيه الكلمة وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، والسلطان خشقدم فى قبضة يده يدوره كيف شاء .

وكان السلطان خشقدم متخيلا أيضا باطنـا وظاهرا ، فلم يزل الملك الظاهر خشقدم ينسبل الى جانى بك نائب جدة ويداريه حتى انتهز الفرصة فى قتله وقتله كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ،

فكان لسان حال جانى بك نائب جدة يقول :

لا تأمنن عـــدوا ولو دنا للمنيـــة
فحيـــة السم تدعى فى حالة الموت حية

ثم ان الملك الظاهر خشقدم أنفق على العسكر نفقة كاملة ، وفرق الاقطاعات الثقال على المماليك وأرضى جميع الجند بكل ما يمكن ، فاسنفامت أحواله فى السلطنة ، وزال عنه الشك .

فلما كان يوم التاسع والعشرين من شهر رمضان من السنة المـذكورة ، جاءت الأخبـــار بأن المقــر السيفى جانم نائب الشام قد وصـل الى خانقاه سرياقوس ، وقد تقدم أن الأمراء الأشرفية أرسلوا كاتبوه بأن يحضر الى القاهرة بسرعة حتى يسلطنوه عوضـا عن الملك المؤيد أحمـد ابن الأشرف اينال . فلما أبطأ عليهم وثبوا على الملك المؤيد وخلعوه من الســلطنة ، وولوا الأتابكى خشقدم سلطانا ، واسـتقر المقر السيفى جرباش كرت أتابك العسكر بمصر فلما حضر جانم من الشام وجد القاعدة قد انخرمت ، والوظائف قد انقسمت ، وفاته الشنب ، وعز الطلب ، فكان كما قيل فى المعنى :

وثب الثعلب يوما وثبـــة
شغفا منه بعنقـــود العنب
لم ينله ، قال : هذا حامص
حصرم ليس لنـا فيـه أرب

فلما بلغ الظاهر خشقدم حضور جانم بك نائب الشـــام اضطربت أحـواله ، وتزايدت أوجاله ، فاجتمع بالأمراء وضربوا فى ذلك مشورة ، فوقع الاتفاق بأن جانم يرجع الى الشام ولا يدخل الى مصر ، وأن يكون نائب الشام على عادته . فتوجه اليه الصاحب علاء الدين بن الأهناسى وصحبته خلعة الى الأمير جانم بأن يكون نائبا على عادته ، فتوجه اليه فى ليلة عيد الفطر ، ومد له فى الخانقاه يوم العيد مدة عظيمة ، ولم يمكن السلطان أحدا من الأمراء المقدمين بأن يتوجه اليه ، فتوجه اليه بعض أمراء عشراوات من الأشرفيـــة منهم تمراز الشمسى وغير ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الى الأمير جانم عشرة آلاف دينار ، وأنعم عليه بيرك الأمـــير يونس الدوادار جمعه ، وصار يرضيه بكل ما يمكن ، فرجع الأمير جانم الى الشام وهو بخفى حنين . وكان ذلك ترتيبا من الأمير جانى بك نائب جدة فانه كان كثير الحل والخداع .

فلما رجع الأمير جانم الى الشام أرسل السلطان الى نائب قلعة الشام مراسيم فى الدس بأن يقبض على جانم نائب الشام ، فرمى عليه بالمدافع وهو جالس فى دار السعادة ، فهرب وقام من وقته وأخذ عياله وأولاده وخرج من الشام هاربا . فلما خرج نهبوا دار السعادة وأخذوا جميع بركه وقماشه . فلما خرج من الشام توجه الى نحو مدينة الرها واستمر فى هجاج وعصيان فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بذلك عين له السلطان تجريدة وعين الأمير جانى بك نائب جدة أمير العسكر ، فأخذ فى أسباب ذلك .

ثم ان السلطان خلع على خشداشـــيه المقـــر السيفى تنم المؤيدى واستقر به نائب الشام عوضا عن جانم الأشرفى لما تسحب من الشـــام ، فأقام الأمير تنم فى نيابة الشام الى أن مات هناك ودفن بالشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم

سنة ست وستين وثمانمائة (١٤٦١/١٤٦٢ م) :

فيها عمل السلطان الموكب فى القصر الكبير . فلما طلع الأمراء واجتمعوا بالقصر عول فى تلك الليلة على مسك جماعة من الأمراء الأشرفية . فلما كان بعد العشاء غلقوا أبواب القلعة ، ودخل على الأمراء وهم فى القصر جماعة من المماليك

الظاهرية وهم لابسون الزرديات والخود ، وبأيديهم سيوف مسلولة ، ومع بعضهم قسى ونشاب ، فقبضوا على الأمير جانى بك الظريف ، والأمير جانى بك المشد ، والأمير بيبرس خال العزيز ، وغيرهم من الأمراء الأشرفية نحو من اثنى عشر انسانا . فلما قبضوا عليهم قيدوا الأمراء المقدمين ونزلوا بهم من القلعة ، وهم : الأمير جانى بك الظريف ، والأمير بيبرس خال العزيز ، والأمير جانى بك المشد ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات فلما نزلوا بهم توجهوا بهم الى السجن بثغر الاسكندرية .

فلما جرى ذلك وثب جماعة الأشرفية على الملك الظاهر خشقدم ، ولبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فنزل اليهم جماعة من المماليك الظاهرية فوقعوا معهم .

ثم ان المماليك الأشرفية توجهوا الى الأتابكى جرباش كرت — وكان فى تربة الظاهر برقوق بسبب موت ابنته التى ماتت نفساء ، وهى زوجة الأمير أقبردى اليوسفى — فلما توجهوا اليه اختفى الأمير جرباش منهم فى فسقية الموتى ولم يقابلهم ، فلم يزالوا عليه حتى طلعوا به من فسقية الموتى ، وسلوا عليه السيوف وأركبوه غصبا ، وشالوا على رأسه صنجقا ، ودخلوا به من باب النصر وشقوا به من القاهرة ولقبوه بالملك الناصر فصار العوام يضجون له بالدعاء ، حتى وصل الى البيت الكبير الذى عند حدرة البقر ، فأقام هناك . ثم ان الأشرفية قاتلوا قتالا هينا وكان رأس هذه الفتنة الأمير سنقر قرق شبق الزردكاش وكان من شرار جماعة الأشرفية ، فلم يطبوا طبة ، وصارت أحوالهم سبة .

ثم ان الملك الظاهر خشقدم أرسل الى الأتابكى جرباش بعض الخاصكية فتلطف به وأخذه وطلع به الى القلعة ، فلما طلع تحيل عليه الأمير جانى بك نائب جدة وقال : « خشكلدى ملك ناصر » ... فلم يرد عليه جوابا . فلما طلع الأتابكى جرباش الى القلعة نزل المماليك الظاهرية ، وأوقعوا مع المماليك الأشرفية واقعة قوية ، فلم تكن الا ساعة غير بطية ، حتى انكسر المماليك الأشرفية كسرة قوية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فولوا مدبرين ، ورجعوا خائبين ... فعند ذلك توجه جماعة من المماليك الظاهرية الى بيت الأمير سنقر الزردكاش ونهبوا ما فيه وأحرقوه ، ثم قبضوا على الأمير سنقر الزردكاش وعلى جماعة كثيرة من الأشرفية ونفوهم فى أماكن شتى ، وخمدت هذه الفتنة كأنها لم تكن .

ثم ان السلطان قبض على جماعة من الاينالية ونفاهم ، ثم نفى الأمير برد بك — صهر الملك الاشرف اينال — الى مكة .

وفيها خلع السلطان على خشداشيه الأمير جانى بك كوهيه ، واستقر به دوادارا ثانيا عوضا عن الأمير جانى بك الظريف .

وفيها خلع السلطان على الأمير اينال الأشقر والى القاهرة ثم استقر به نائب ملطية . وخلع على الأمير تمر الظاهرى واستقر به والى القاهرة عوضا عن اينال الأشقر .

وفيها عزل السلطان ناظر الخاص عبد الرحمن ابن الكويز واستقر بالقاضى شرف الدين الأنصارى ناظر الخواص الشريفة عوضا عن عبد الرحمن بن الكويز .

وفيها فصل السلطان قاضى القضاة علم الدين صالح من القضاء ، وأعاد القاضى شرف الدين يحيى المناوى . وقيل بل عزل القاضى علم الدين وتولى المناوى فى دولة المؤيد أحمد بن اينال ، وهذه

ثالثـة ولاية للمنـاوى . وكذلك فصـل القاضى سعد الدين الديرى من القضاء وولى ابن الصواف عوضا عنه .

وفيها عزل السلطان الصاحب علاء الدين بن الأهناسى ، وخلع على الصاحب بن الصنيعة واستقر به وزيرا .

وفيها عزل السلطان الأمـير زين الدين يحيى الاستادار وولى مجد الدين بن البقرى استادارا عوضا عنه

ومن الحوادث فى هذه السنة أن النيل المبارك توقف فى أبيب عند مبتدأ الزيادة ، وأقام فى ذلك التوقف نحو خمسة عشر يوما ولم يزد شيئا ، فضـج النـاس من ذلك ، وتشـحطت الغـلال ، وشطح سعر القمح الى ألف درهم كل أردب ، وحصل للنـاس الضرر الشامل لقلة الزيادة وقد دخلت مسرى ، وقد قيل فى المعنى :

ولقد عهـدت النيل سـنيا يرى
عمـرا ويتبع أمـره تسـديدا
والآن أضحى فى الورى متشيعا
متوقفـا ما ان يحب يزيدا

فلمـا استقر الأمر على ذلك رسم السلطان للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهـوا الى المقياس ، ويبيتوا به ويتلوا هناك القـرآن والحديث الشريف ويدعوا الله تعالى بزيادة النيل . فتوجه القاضى يحيى المناوى والسيد الشريف ابن حريز المالكى وجماعة من العلماء فأقاموا فى المقياس أياما ورجعوا ولم يزد النيل شيئا فأرسل السلطان الى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائى يستفتيه فى ذلك فقال الشيخ أمين الدين . « اجمعوا بنى العباس من الرجال والنساء ، من صغارهم لكبارهم ثم يضعون فى أفواههم شيئا من الماء ويمجونه فى اناء ثم يصبونه فى فسـقية المقياس » ... ففعلوا ذلك فكانت فيه البركة [1] .

ثم ان القاضى علم الدين صالحا البلقينى توجه الى المقياس وأقام هناك ثلاثة أيام ، ففى اليـوم الرابع زاد ثلاث أصـابع ، ففـرح الناس بذلك ، ورجع القاضى علم الدين وشق من القاهرة وقدامه رايات زعفران ، وانطلقت له النسـاء بالزغاريت من الطيقـان ، ثم وفى النيل فى تلك السنة وثبت ثباتا عظيما الى أواخر توت ، وتوجه المقر السيفى قانم التاجر وكسر السد ، وقد قال القائل :

سد الخليج بكسره جبر الورى
طـرا ، فكل قد غدا مسرورا
البحر سلطان ، فكيف تواترت
عنه البشـائر اذ غـدا مكسورا

ثم فى عقيب ذلك عزل السـلطان القاضى يحيى المناوى وأعاد القاضى علم الدين صالحا البلقينى .

سنة سبع وستين وثمانمائة (١٤٦٢/١٤٦٣ م) :

فيها جاءت الأخبـار من حلب بأن جانم نائب الشام قد قتل ، وقيل ان مماليكه قد قتلوه وهو فى قلعة الرها . فلما صح هذا الخبر دقت الكئوسات ثلاثة أيام ، وبطلت التجريدة التى كانت تعينت اليه.

ثم ان السلطان أرسل قبض على الأمير تمراز الأشرفى وسجنه بالمرقب ، وأشيع عنه أنه قتل قتيلا فأثبت عليه السلطان كفرا وأرسل اليه شخصا من المالكية يقـال له الشـارعى فضرب عنقه على باب السـجن الذى بالمرقب . وكان تمراز هـذا سيىء الخلق مر اللسان مستحقا لكل سوء ، وكان منفيا فى البلاد الشامية من أول دولة الملك الأشرف اينال ، وآخر الأمر قتل هناك ومضى أمره .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى نحو بلاد

(١) تامل غفلة الاجداد .. وقاتل الله شر الغفلة .

الافرنج برودس ، وكان باش العسكر الأمير برد بك البجمقدار .

وفيها كسفت الشمس كسوفا فاحشا من بعد الضحى الى قرب العصر ، حتى أظلمت الدنيا فى أعين الناس .

وفيها خلع السلطان على القاضى برهان الدين ابراهيم بن الديرى واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن القاضى محب الدين بن الشحنة ، واستقر القاضى محب الدين بن الشحنة قاضى قضاة الحنفية عوضا عن ابن الصواف .

وفيها توفيت والدة المقر الشهابى أحمد بن العينى ، وكانت وفاتها فى يوم السبت ، فتوجه معها الى التربة الأمير جانى بك نائب جدة ، والقاضى كاتب السر ابراهيم بن الديرى . فلما رجعوا من التربة خلط ابن الديرى مع الأمير جانى بك فى الكلام ، فقال لجانى بك ان هذه الميتة نزلت من القلعة فى يوم السبت ولا بد أن يعقبها أحد كبير وأظنه السلطان ، فأخذ جانى بك منه الكلام ونقله للسلطان ، فتغير خاطر السلطان على ابن الديرى ، فلما طلع الموكب قال له : « ياقاضى ، فى أى حديث ورد أن الميت اذا خرج فى يوم السبت لابد أن يتبعه أحد كبير ؟ » . ثم قال له : « الزم بيتك » ... فكان كما قيل :

العقل زين والسكوت سلامة
فاذا نطقت فلا تكن مكثارا
فلئن ندمت على سكوتى مرة
فلقد ندمت على الكلام مرارا

ثم ان السلطان عزل ابراهيم بن الديرى من كتابة السر بسبب ذلك ، وخلع على القاضى زين الدين أبى بكر بن مزهر ، واستقر به كاتب السر الشريف عوضا عن ابن الديرى ، فكانت مدة ولاية القاضى برهان الدين بن الديرى دون الشهرين ، وقد سعى فيها بخمسة آلاف دينار ...

وفيها أخرج السلطان تقدمة الأمير جانى بك المرتد الناصرى ، وجعله طرخانا ، ورتب له مايكفيه ، واستمر على ذلك الى آن مات فى أثناء دولته .

وفيها قبض السلطان على المهتار على فطيس — مهتار الأشرف اينال — وسلمه الى الأمير جانى بك نائب جدة ، فضربه علقة قوية وأخذ منه خمسة آلاف دينار ، فباع أملاكه وجميع ما يملكه حتى سدد ذلك .

وفيها استعفى القاضى شرف الدين الأنصارى من نظارة الخاص ، فخلع عليه السلطان واستقر به وكيل بيت المال ، وخلع على عبد الرحمن بن الكويز وأعاده الى نظارة الخاص .

وفيها استقر مثقال البرهانى مقدم المماليك عوضا عن صندل الهندى .

وفيها استقر القاضى تاج الدين بن المقدسى فى نظارة الجيش عوضا عن الزين بن مزهر .

وفيها توفى شيخ الاسلام قاضى القضاة الحنفى سعد الدين ابن الديرى ودفن بتربة الظاهر خشقدم وقد تولى القضاء نحو ثلاثين سنة ، وكان من عظماء الحنفية ، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول من سنة سبع وستين ، ومات وهو منفصل عن القضاء .

سنة ثمان وستين وثمانمائة (١٤٦٣/١٤٦٤ م) :

فيها عزل عبد الرحمن بن الكويز من نظارة الخاص ، واستقر بها الصاحب علاء الدين بن الأهناسى ، واستقر ناظر الخاص ووزيرا فأقام على ذلك مدة ثم اختفى وغيب ، فخلع السلطان على مجد الدين بن البقرى واستقر به وزيرا عوضا عن ابن الأهناسى . وخلع على القاضى تاج الدين بن المقدسى واستقر به ناظر الخاص . ثم ان مجد الدين ابن البقرى قبض على الصاحب علاء الدين بن

الأهناسى فسجنه السلطان فى البرج الذى فى القلعة واحتاط على موجوده ، فأخذ منه مائة ألف دينار ورسم بنفيه الى مكة ، فخرج وسافر من البحر الملح .

وفى هذه السنة عظم أمر الأمير جانى بك نائب جدة والتفت عليه جماعة الظاهرية من خشداشينه ، فكان ينزل من القلعة وعسكر مصر قدامه ، أولهم عند قناطر السباع وآخرهم فى الرميلة ، وسائر المباشرين قدامه ، مستمرا ذلك فى كل يوم . وهو أول من اتخذ السعاة يمشون قدامه كلما ركب ونزل — زيادة فى العظمة — فثقل أمره على الملك الظاهر خشقدم . وكان الظاهر خشقدم أنشأ له مماليك كثيرة ، وثبتت قواعده فى السلطنة ، وصارت خشداشينه المؤيدية غالبهم أمراء ، فعول على قتل جانى بك نائب جدة فى الباطن وأضمر له السوء .

ثم ان الأمير جانى بك ، لما كملت عمارة القبة التى أنشأها فى منشية المهرانى ، عمل هناك وقدة عظيمة ، وأحضر سوارى طوالا على البر وعلق فيها قناديل ، وعزم على جماعة من الأمراء ومد مدة عظيمة ، وكانت ليلة لم يسمع بمثلها . وحضر هناك ابن رحاب المغنى ، وابراهيم بن الجندى ، وجمع بين قراء البلد والوعاظ ، وكان ذلك فى ليلة الجمعة . فلما كان يوم الثلاثاء ثامن ذى الحجة سنة سبع وستين وثمانمائة طلع الأمير جانى بك نائب جدة الى القلعة على جارى العادة ، وكان معه الأمير تنم رصاص المحتسب ، وكان السلطان قرر مع جانى بك أنه فى ذلك اليوم يمسك الأمير قانم التاجر والأمير قايتباى المحمودى المؤيدى ، فطلع فى ذلك اليوم بدرى ، وكانت المعمولية والطبخة له كما قيل فى المعنى :

وكم من طالب يسعى لشىء

وفيه هلاكه لو كان يدرى

فلما طلع الى القلعة ودخل من بابها ، ووصل الى الجامع ، خرج اليه كمين من المماليك الأجلاب من مماليك الظاهر خشقدم فقتلوه هناك هو والأمير تنم رصاص ، ورموا على رءوسهما فص حجر بعد أن طعنوهما بالرماح حتى وقعا الى الأرض موتى . فلما أصبح الصباح غسلوهما وكفنوهما وصلوا عليهما بالقلعة ونزلوا بهما ، فدفن الأمير جانى بك فى تربته التى أنشأها خارجا من باب القرافة . فلما سمع مماليكه لبسوا آلة الحرب وطلعوا الى الرميلة ، فرموا عليهم بالنشاب من باب السلسلة فولوا مدبرين ، وراحت على من راحت ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وكان الأمير جانى بك نائب جدة أميرا عظيما ، صاحب حرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان صاحب حيل وخداع ، وهو الذى رتب للملك الظاهر خشقدم فى مسك الأمراء الأشرفية ورجوع جانم نائب الشام الى الشام بعدما ترشح أمره الى السلطنة ، فكان حال جانى بك مع الظاهر خشقدم كما قيل فى المعنى :

أعلمه الرماية كل يوم

فلما استدّ ساعده رمانى

وكان الأمير جانى بك مولعا بغرس الأشجار ، وأنشأ عدة غيطان بالمنشية ، وهى منشية المهرانى . وكان كثير التنزه . وكانت صفته أخضر اللون ، قصير القامة جدا مستدير اللحية ، شائب الذقن ، عارفا بأحوال المملكة ، فصيح اللسان بالعربى ، أصله من مماليك أسنبغا الطيارى وقدمه الى الملك الظاهر جقمق ، فهو معتوق الملك الظاهر جقمق من جملة مماليكه .

سنة تسع وستين وثمانمائة (١٤٦٤/١٤٦٥ م) :

فيها خلع السلطان على خشداشيه الأمير يشبك

الفقيه واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن الأمير جانى بك نائب جدة .

وفيها أنعم السلطان على خشداشيه الأمير جانى بك كوهيه بتقدمه ألف ، وخلع على مملوكه الأمير خير بك واستقر به دوادارا ثانيا عوضا عن جانى بك كوهيه .

وفيها أنعم السلطان على سبطه المقر الشهابى أحمد ابن العينى بتقدمة ألف وقرره فى أمرية الحاج وقرر فى امرية الركب الشرفى يحيى ابن الأمير يشبك الفقيه

وفيه اختفى زين الدين الاستادار ، فصرف السلطان مجد الدين بن البقرى من الوزارة وقرره فى الامتدارية ، واستمرت الوزارة شاغرة أياما حتى خلع السلطان على الشمس محمد البباوى ناظر الدولة وقرره فى الوزارة عوضا عن ابن البقرى . فلما قرر البباوى فى الوزارة عد ذلك من مساوى خشقدم ، وقالت الناس : « الزفر تولى الوزارة بمصر » ... ومن يومئذ انحط قدر الوزارة جدا ، وتبهدل هذا المنصب الى الغاية .

قال الامام أبو شامه المؤرخ : « كانت الوزارة على عهد الخلفاء وظيفة عظيمة جليلة ، وكان الوزير يجلس بحضرة الخلفاء على مقدار خمسة أذرع ، وكان هو المتصرف فى أمر المملكة بما يختار . فلما جاءت دولة الأتراك قدموا نيابة السلطنة على الوزارة ، فتلاشى أمر الوزارة من يومئذ ، وصارت الوزارة تنقسم الى أربع جهات ، منها كتابة السر ، والاستادارية ، ونظر الخاص ، وشاد الدواوين . وكانت خلعة الوزارة فى قديم الزمان عمامة بيضاء برقمات ذهب شغل تنيس ، وطيلسان أبيض برقمات ذهب ، وجبة صوف بيضاء بطرز ذهب ، وفى عنقه عقد جوهر بعشرة آلاف دينار ، وسيف مقلد به مسقط بالذهب ، ويركب حجرة بخمسمائة دينار ، وفى قوائمها أربع جوهرات ، وفى عنقها جوهرة كبيرة بألف دينار ، وترفع على رأسه أعلام بيض ، ويحمل على رأسه منشور الولاية وهو مكتوب فى حرير أبيض ، فبطل ذلك كله » ...

فلما تولى البباوى شق ذلك على الناس لكونه لم يكن من أهل ذلك . وكان البباوى طباخا ، وكان أميا لايقرأ ولا يكتب ، وفى كلامه غرتلة . وكان أسود اللحية ، عنده عترسة ويبس ، وكان أصله معاملا فى اللحم من جملة المعاملين ، ولكن وعده الله بذلك من القدم . وفيه يقول بعض الشعراء :

قالوا البباوى قد وزر ... فقلت كلا لا وزر
الدهر كالدولاب لا ... يدور الا بالبقر

وقال آخر :

تجنب العلم والفضائل
ومل الى الجهل ميل هائم
وكن حمارا مثل البباوى
فالسعد فى طالع البهائم

فلما تولى الوزارة جاء فيها على الوضع ، وسكن فى بيت الوزارة التى فى بركة الرطل ، ودقت على بابه الكئوسات ، ولبس الخف والمهاميز . وكان الظاهر خشقدم قائما معه فهابه جميع المباشرين وخافوا منه . وكان يكبس البيوت على من يجده يسكر ، ويغرمه جملة مال تحت الليل ، حتى ضجت منه الناس . وكانت له حرمة وافرة وكلمة نافذة . وجاء على الناس مجيء وحش ، فكان لا يقبل رسائل أحد من الأمراء ، وصادر فى مدة ولايته جماعة من أعيان الناس والتجار ، وكان يكره من يسكر . ثم أن السلطان سلمه الأمير زين الدين الاستادار فأحضر له المعاصير وقصد عصره ، فترامى عليه الأمير زين الدين وصار يقبل رجليه حتى عفا عنه من العضير ، وكذلك جماعة كثيرة غير زين

الدين صاروا تحت أمره وأخذ أموالهم ، وكان كما قيل :

ومن أعظم البلوى كريم أصابه
قضاء وأضحى تحت ذل لئيم

وفيها توفى قاضى القضاة الشافعى علم الدين صالح البلقينى ، فلما توفى خلع السلطان على القاضى يحيى المناوى وأعاده الى القضاء ، فلم يقم الا مدة يسيرة وسعى عليها القاضى صلاح الدين أحمد بن بركوت المكينى الشافعى ، فعزل السلطان القاضى يحيى المناوى وولى صلاح الدين المكينى . وفى ذلك اليوم عزل السلطان القاضى محب الدين ابن الشحنة الحنفى وولى القاضى برهان الدين ابراهيم ابن الديرى قاضى قضاة الحنفية . فتولى القاضيان فى يوم واحد ، ونزلا من القلعة فى موكب واحد وعليهما التشاريف .

وفيها خلع السلطان على القاضى كمال الدين ابن القاضى جمال الدين ناظر الخاص واستقر به ناظر الجيش ، وكان الساعى له الأمير خير بك الدوادار . فانه كان صهره زوج أخته .

وفيها أرسل السلطان تجريدة الى البحيرة ، وكان فيها خمسة أمراء مقدمين ، منهم الأمير قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير جانى بك قلقسير ، وغير ذلك من الأمراء .

وفيها حجت خوند الأحمدية زوجة السلطان خشقدم ، وكان المقر الشهابى أحمد بن العينى أمير المحمل ، وكان الشرفى يحيى ابن الأمير يشبك الفقيه أمير أول ، وحج الأمير يشبك الفقيه مع ولده فى تلك السنة .

وقد أظهر المقر الشهابى أحمد بن العينى فى هذه الحجة من الكبرياء والعظمة ما لم يظهره غيره من أبناء الملوك ، فصنع أكوارا من الذهب مرصعة بفصوص ياقوت وبلخش وفيروز ، وصنع كنابيش مثلث بذهب ولؤلؤ وريش ، وخرج من القاهرة فى موكب عظيم وسائر الأمراء والمباشرين قدامه ، وخوند الأحمدية فى محفة زركش ، فكان له يوم مشهود .

وفيها توفى الأمير جانى بك المرتد الناصرى ومات وهو طرخان ، وكان السلطان أخرج عنه التقدمة .

وفيها أمطرت السماء ، وجاء رعد وبرق ، وهبت رياح باردة ، وذلك فى أواخر بشنس بعد أن قلع السلطان الصوف ، فلبس الصوف بعد ذلك أياما .

سنة سبعين وثمانمائة (١٤٦٥/١٤٦٦ م) :

فيها عاد المقر الشهابى أحمد بن العينى من الحجاز الشريف ، وخوند الأحمدية ، فكان لهم يوم مشهود .

وفيها كانت وفاة المقر الصاحبى العلائى على ابن الأهناسى ، توفى بمكة المشرفة ودفن هناك ، وكذلك الأمير برد بك صهر الملك الأشرف اينال توفى بمكة ودفن هناك . قيل مات قتيلا من العرب فى رابغ ، ثم نقل من رابغ الى مكة ودفن بها .

وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين بن أبى السعود أحد شعراء العصر ، وهو من السبعة الشهب .

وفيها عزل السلطان قاضى القضاة صلاح الدين المكينى وولى القاضى أبا السعادات البلقينى ، فأقام فى قضاء القضاة أربعة أشهر ثم سعى عليه القاضى ولى الدين الأسيوطى ، وكان الساعى له الأمير خير بك الدوادار الثانى ، فتولى الأسيوطى وعزل القاضى أبو السعادات .

وفيها أعاد السلطان القاضى محب الدين بن الشحنة الى قضاء الحنفية .

وفيها أخرج السلطان تجريدة الى بر الجيزة

بسبب فساد العربان ، وكان باش العسكر الأمير بلباى المؤيدى أمير آخور كبير ، والأمير برد بك هجين ، فطردوا من هناك العربان وأقاموا مـدة ورجعوا . وقتل من المماليك السلطانية هناك ستة لما وقعوا مع العربان .

وفيها نزل السلطان الى الرماية ، وشـق من المدينة ، وزينت له وكان له موكب عظيم .

وفيها عزم المقر الأتابكى قانم على السلطان فى الربيع ، فنزل اليه هو وسائر الأمراء والعسكر ، فمد له الأتابكى قانم هناك سماطا عظيما قيل كان مصروفه ألف دينـار ، ففرق الأكل على جميـع العسكر وأحضر للسلطان هناك أرباب الملاعيب من المشعبدين وغير ذلك ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية هو والأمراء . ولما رجع السلطان دخل الى بيت منصور الاستادار ، ثم توجـه الى بيت الصاحب شمس الدين البباوى ، فأقام السلطان عند قانم الى ما بعد العصر ثم طلع الى القلعـة فى موكب عظيم .

وفيها نزل السـلطان وخلق المقيـاس وكسر السد ، وهذا لم ير من بعد الملك المؤيد شيخ بأن سلطانا نزل وكسر السد بنفسه .

وفيها خلع الســلطان على منصـور القبطى واستقر به استادارا ، فأقام بها مدة ثم قبض عليه وسجنه بالمقشرة ، ثم خلع على شرف الدين ابن كاتب غريب واستقر به استادارا ، ثم أثبتوا على منصور القبطى كفرا وضربوا عنقه تحت شـباك المدرسة الصالحية .

وفيها توفيت خوند الأحمدية زوجة الظاهـر خشقدم ، وهى جدة المقر الشهابى أحمد بن العينى فلما ماتت تزوج السلطان بسريته خوند سوارباى أم ولديه .

وفيها ، فى أواخر هذه السنة فى يوم الاربعاء ثامن عشرى ذى الحجة ، نزل الصاحب شمس الدين البباوى من بيته الذى سكن فيه على بركة الرطلى ، فنزل فى مركب وتوجه الى نحو قناطر بنى منجا ، فلما رجع ووصل الى فم خليج الزربية انقلبت به المركب هناك فغرق قريب البر ، فأطلعوا جميـع ما غرق معه حتى حق الدقاق ، وهو لم يظهر لـه خبر ولا وقف له على أثر — حتى ولا فى شطنوف التى هى محط رحال الغرقى — فكان من بقية قوم نوح ، أغرقوا فأدخلوا نارا ... وقد قال القائل :

لا تكرهوا الموت ان فيـه
حصـاد من طاب مع خبيث

فمســتريح ومســتراح
منه كما جـاء فى الحديث

فلما غرق البباوى خلع السلطان على يحيى ابن صنيعة ، ثم قاسم — وهو قاسم المعروف بشنيعة — وعبد القادر ، واشتركا فى التكلم فى الوزارة ، ثم انفرد بها الزينى قاسم ، واستمر على ذلك مـدة طويلة .

سنة احدى وسبعين وثمانمائة (١٤٦٦/١٤٦٧ م) أ

فيها توفى الأتابكى قانم بن صفر خجا المؤيدى التاجر ، وقد مات فجأة فى ليلة واحدة . فلما مات خلع السلطان على المقر السـيفى بلباى المؤيدى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن قانم التاجر ، ثم خلع على المقر الشهابى أحمد بن العينى واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن بلبـاى المؤيدى ، فتزايدت عظمة المقر الشهابى أحمد ابن العينى فى تلك الأيام ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة ، وهو الذى أنشأ القصر العظيم المطل على البحر بمنشية المهرانى . ولما كملت عمارة هذا القصر نزل السلطان اليه ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، وتفرج فى

ذلك اليوم على البحر وانشرح ، وكان يوما سلطانيا .

وفيها توفى قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى ، وكان من أعيان خيار علماء الشافعية ، وتوفى وهو منفصل عن منصب القضاء .

وفيها تغير خاطر السلطان على الرئيس علاء الدين بن رحاب ، فشكه فى الحديد ورسم بنفيه الى الشام ، فخرج وتوجه الى قطيا وأقام بها أياما ، ثم شفع فيه كاتب المماليك بن جلود فرسم السلطان بعوده . وكان سبب نفى ابن رحاب أنه كان اذا عمل سماعا فى مكان يقوم فى ذلك المكان عربدة ، فعمل سماعا فى باب الوزير فقتل فى تلك الليلة قتيل ، فنفى السلطان ابن رحاب بسبب ذلك .

وفيها نزل السلطان للرماية ، وشق من القاهرة وزينت له .

وفيها نزل السلطان وكسر السد بنفسه .

وفيها غرق السلطان خازندار الأمير جانى بك نائب جدة المسمى يرش ، وكان شابا صغيرا فتأسف عليه الناس .

وفيها توفيت بنت السلطان التى من خوندا سورباى ، وكانت مستحقة للزواج .

وفيها حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان الى أن عاد الى بلاده .

وفيها نزل السلطان الى المطعم بالمطرية ، ولبس الصوف هناك ، وشق من المدينة وزينت له ، وكان له موكب عظيم .

سنة اثنين وسبعين وثمانمائة (١٤٦٧/١٤٦٨ م) :

فيها تزايدت عظمة السلطان خشقدم ، وبلغت عدة مماليكه نحو أربعة آلاف مملوك ، وصار غالب خشداشينه مقدمى ألف ، منهم الأمير يشبك الفقيه ، والأمير مغلباى طاز ، والأمير قنبك المحمودى ، والأمير جانى بك كوهية ، وغير ذلك جماعة كثيرة أمراء طبلخانات وعشراوات . ثم أمر جماعة كثيرة من مماليكه منهم الأمير خير بك الدوادار الثانى ، ومنهم الأمير خشكلدى اليسقى ، ومنهم الأمير كنباى ، والأمير مغلباى المحتسب ، والمقر الشهابى أحمد بن العينى ، وغير ذلك جماعة كثيرة من مماليكه .

وفيها جاءت الأخبار من حلب بأن خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه سوار ، فرسم السلطان للأمير برد بك الجمقدار نائب حلب بأن يخرج اليه فخرج اليه . ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن برد بك نائب حلب لما خرج الى سوار التف عليه وأظهر العصيان على السلطان وقصدوا التوجه الى الشام . فلما بلغ السلطان ذلك اضطربت أحواله وعين الى سوار تجريدة وبها من الأمراء خمسة مقدمو ألوف .

ثم ان السلطان دور المحمل الرجبى فى تلك السنة على جارى العادة ، فلما كان ليلة حراقة النفط فى الرميلة احترق بالنفط فى تلك الليلة سقف الاسطبل السلطانى ، فكان ذلك فألا على السلطان ، ولم ينجح أمره من بعد ذلك ...

ثم ان النيل المبارك وفى فى أثناء تلك السنة ، فنزل لكسر السد السلطان بنفسه على جارى العادة ، فكان له موكب عظيم ، وكان ذلك آخر مواكبه . فلما كسر السد وطلع الى القلعة حم من يومه ولزم الفراش ، ثم ثقل فى المرض وسلسل .

وكان القائم بتدبير أمور المملكة الأمير خير بك والمقر الشهابى أحمد بن العينى ، فعينوا الأمير أزبك بن ططخ — رأس نوبة النوب — بأن يخرج الى العقبة بسبب فساد العربان ، فخرج وتوجه الى العقبة ووصل الى الأزلم . ثم عينوا الأمير قرقماس الجلب أمير سلاح ، والأمير يشبك الفقيه

أمير دوادار كبير بأن يتوجهوا الى نحو الصعيد بسبب فساد العربان — وكل ذلك عن لسان السلطان وهو ملازم الفراش على غير استواء — فخرج هؤلاء مسرعين من غير تأخير . وكان الأمير خير بك متخبلا من هؤلاء الأمراء فأخرجهم بسرعة حتى يصفو له الوقت ويبلغ قصده ، فكان كما قيل :

وسالمتك الليالى فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر

ولما ثقل السلطان خشقدم فى المرض نزل بفرس من الاسطبل من الخيول الخاص ، وعرضه على الأمراء للبيع ، فاشتراه ابن العينى بخمسمائة دينار ، وقيل بألف دينار . فلما أرسل ثمنه للسلطان تصدق بثمنه كله على الفقراء ، وكانت هذه عادة قديمة عند الملوك اذا حصل لهم توعك يفعلون ذلك .

وفى مدة توعك السلطان اضطربت أحوال الديار المصرية ، وصار الأمير تمر الوالى يطوف فى كل ليلة فى المدينة معه مماليك ملبسة والمشاعلية تنادى : « كل من يمشى فى الليل يقطع أنفه وآذانه » ...

واستمر السلطان مريضا نحو أربعين يوما ، فلما كان يوم السبت بعد الظهر عاشر ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة توفى السلطان الملك الظاهر خشقدم ، ودفن فى تربته التى أنشأها فى الصحراء . ومات وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة ، ومات بحمى كبدية ، وخلف من الأولاد صبيين وهما سيدى منصور وأخوه ، فكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ست سنين وخمسة أشهر وعشرين يوما بما فيها من مدة توعكه وانقطاعه .

وكان ملكا جليلا مهيبا ، كفئا للسلطنة ، عارفا بأحوال المملكة . وكان حسن الشكل ، معتدل القامة ، مترك الوجه ، أحمر اللون ، مستدير اللحية ، ضخم الجسم ، شائب الذقن ، فصيح اللسان بالعربى . وكان ماشيا على النظام القديم ، تابعا لطريقة الملوك السالفة فى عمل المواكب فى القصر الكبير والمبيت به فى كل ليلة اثنين وخميس . وكان ماشيا على طريقة أستاذه الملك المؤيد شيخ فى كسر السد بنفسه ، ولبس الصوف فى المطعم . وكان كثير الرمايات فى كل سنة ، ويشق من القاهرة فى المواكب الجليلة ، وكان يدور فى كل سنة المحمل فى رجب ، وتسوق الرماحة على جارى العادة أربعين يوما ، ثم يلبسون الأحمر وتزين القاهرة ثلاثة أيام ويخرج الناس فى ذلك عن الحد فى القصف والفرجة . وكانت أيامه كلها لهوا وانشراحا ، ولم يجىء فى أيامه الطاعون بمصر ، ولا جرد تجريدة الى البلاد الشامية .

وكان ترفا فى ملبسه ، فصنع له ركبا من ذهب ومهاميز من ذهب . وكان يلبس السمور الأسود الذى على لون الحبر لا يوجد الآن . وكان يلبس القباء الصوف الفاخر ، ويبطنه بالمخمل الأحمر الكفوى . وكان اذا ركب وساق لا ينفرد ذيله من تحت فخذه ولو ساق سوقا قويا وكان كريما على من يستحق الكرم ، بخيلا على من يستحق البخل .

لكن كان من مساويه جور مماليكه فى حق الناس . ومن مساويه أنه كان غير عفيف عن ... و ... ومن مساويه أنه كان سريع العزل للقضاة والمباشرين ، ويأخذ أموالهم ويعزلهم بسرعة . ومن مساويه قتل جانى بك نائب جدة من غير ذنب ، وأخذ أموال ابن الأهناسى — حتى رخام بيته — بغير حق ولم يترك لأولاده شيئا ، وقتل جماعة من الأمراء بغير ذنب . وبالجملة أنه كان قليل الأذى بالنسبة الى من جاء بعده من الملوك .

وكان يحب العلماء والصلحاء ، وينقاد الى الشريعة ، وكانت البلاد على أيامه هادية من الفتن ، وهو آخر من مشى من الملوك على النظام القديم .

فأما أتابكيته فالمقر السيفي جرباش كرت أولا ، ثم قانم التاجر ، ثم بلباى .

وأما دواداريا‌ته فالأمير جانى بك نائب جدة ، والأمير يشبك الفقيه .

وأما قضاته الشافعية فالقاضي يحيى المناوى — تولى فى أيامه مرتين — والقاضى علم الدين صالح البلقينى ، والقاضى صلاح الدين المكينى ، وأبو السعادات البلقينى ، والقاضى ولى الدين الأسيوطى . وأما قضاته الحنفية فالقاضى سعد الدين الديرى أولا ، ثم ابن الصواف ، ومحب الدين بن الشحنة — تولى فى أيامه مرتين — والقاضى برهان الدين الديرى . وأما قضاته المالكية فالسيد الشريف القاضى حسام الدين بن حريز . وأما قضاته الحنابلة فالقاضى عز الدين الحنبلى .

وأما كتاب السر فالقاضي محب الدين بن الشحنة أولا ، ثم ابراهيم بن الديرى ، ثم أبو بكر ابن مزهر .

وأما نظار جيوشه فتاج الدين بن المقسى ، والقاضى كمال الدين بن ناظر الخاص يوسف .

وأما نظار خواصه فعبد الرحمن بن الكويز أولا ، ثم شرف الدين الأنصارى ، والعلائى بن الأهناسى ، وتاج الدين بن المقسى .

وأما وزراؤه فعلاء الدين بن الأهناسى أولا — وقد تولى الوزارة فى أيامه ثلاث مرات — ثم ابن صنيعة ، ثم مجد الدين بن البقرى . ثم الشرفى يوسف ، ثم البباوى ، ثم قاسم وشريكه عبد القادر .

وأما استادارته فزين الدين أولا ، ثم مجد الدين بن البقرى ، ثم منصور . ثم قاسم الكاشف ، ثم ابن كاتب غريب ... فهذه جملة من تولى فى أيامه من أرباب الوظائف من القضاة والمباشرين .

أما من توفى فى أيامه فهم : قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وصالح البلقينى ، ويحيى المناوى ، وشمس الدين القرافى من أعيان نواب المالكية ، والأتابكى قانم التاجر ، وسيدى محمد ابن الأشرف اينال توفى بثغر الاسكندرية . وتوفى الأمير تنم نائب الشام بدمشق ، وتوفى تمربای ططر أحد المقدمين ، وتوفى الأمير جانى بك الظريف بسجن المرقب ونقل بعد موته الى مصر ودفن بالصحراء فى القبة التى عمرت له بعد موته . وتوفى الأمير خشكلدى القوامى أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أعيان المؤيدية وقيل من الناصرية . وتوفى من العلماء أيضا الشيخ جلال الدين المحلى — وكان من أعيان علماء الشافعية — والأصح أنه توفى فى دولة الأشرف اينال كما تقدم . وتوفى من المشايخ الشيخ عمر الكردى ، والشيخ محمد الشريفى الشاذلى ، والشيخ على الطيبى . وتوفى فى أيامه من الشعراء شهاب الدين بن أبى السعود توفى بمكة ، وسيدى على بن بردبك ، والشيخ شهاب الدين بن صالح وكان من فحول الشعراء ، ومن شعره فيمن أهدى اليه بطيخا وقطرا وقاله ارتجالا :

بعثت الى بطخا وقطرا
يشابه ذاك هذا فى الصفات
هما نوعان عند الذوق كل
تولد فى الحقيقة من نبات

الملك الظاهر بلباى المؤيدى

هو الملك الظاهر أبو النصر سيف الدين بلباى المؤيدى . وهو التاسع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية . وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد بمصر ، بويع بالسلطنة بعد موت الملك الظاهر خشقدم .

تسلطن فى يوم السبت بعد العصر ، وهو اليوم العاشر من ربيع الأول سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

وكان أصله جركسى الجنس ، جلبه الأمير اينال ضضع من بلاد الجراكسة فاشتراه منه الملك المؤيد شيخ فى سنة عشرين وثمانمائة ، فأقام فى الطبقة مدة ثم أعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم ساقيا فى دولة الملك الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى أمير أربعين ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك الأشرف اينال ، ثم بقى حاجب الحجاب فى دولة الملك الظاهر خشقدم ، ثم بقى أمير آخور كبير ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر بعد موت قانم التاجر فى سنة سبعين وثمانمائة .

فلما توفى الظاهر خشقدم وقع الاتفاق على سلطنته دون الأمراء ، فحضر الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة ، فاستجمعوا فى المقعد الذى فى باب السلسلة فبايعوه بالسلطنة ، ثم أحضروا له خلعة السلطنة فلبسها ، وركب من المقعد وطلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وباس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الظاهر ، ودقت له البشائر ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وضج الناس له بالأدعية الفاخرة .

فلما تم أمره فى السلطنة عمل الموكب بالقصر الكبير وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : المقر السيفى تمربغا أمير مجلس ، خلع عليه واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه . وخلع على المقر الشهابى أحمد بن العينى واستقر به أمير مجلس عوضا عن تمربغا ، فنزل ابن العينى من باب السلسلة وسكن فى بيت جانى بك نائب جدة المطل على الخليج . ثم خلع السلطان على المقر السيفى قنبك المحمودى واستقر به أمير سلاح عوضا عن الأمير قرقماس الجلب . وخلع على المقر السيفى برد بك هجين واستقر به أمير آخور كبير عوضا عن ابن العينى .

فلما فعل ذلك لم يتم أمره فى السلطنة ، وبان عليه العجز ، وكان خشنا قليل المعرفة ، لأنه كان يدعى بلباى المجنون ، فصار منقادا مع الأمير خيربك الدوادار بشعرة ، ولا يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا برأيه ، وصار مع المماليك الخشقدمية فى غاية البلية .

ثم ان الأمير خير بك أشار على السلطان بلباى بأن يمسك الأمير قرقماس الجلب ، والأمير أرغون شاه استادار الصحبة ، والأمير قلمطاى الاسحاقى ، فأرسل بالقبض عليهم — وكان الملك الظاهر خشقدم أرسلهم الى نحو الصعيد مع الأمير يشبك الفقيه كما تقدم — فأرسل للقبض عليهم من هناك وأرسلهم الى السجن بثغر الاسكندرية فلما وقع ذلك نفرت منه قلوب الرعية ، وكان تدميره فى تدبيره .

ثم لما أنفق على العسكر قطع نفقة أولاد الناس والخدام ، فكثر عليه الدعاء . ثم ان النفقة تشحطت فشكا ذلك الى الأمير خير بك ، فقال له : « يامولانا السلطان ، ان كان فى حاصلك شىء من المال فأنفقه على العسكر ، وقد صارت الخزائن بيدك خذ منها ما شئت » ... فسمع له وطلع بماله جميعه جملة واحدة فأنفقه على العسكر ، وقد نفد منه ما كان حصله من حين كان جنديا .

ثم بعد أيام حضر الأمير أزبك بن ططخ رأس نوبة النوب ، والأمير جانى بك ، والأمير قلقسير حاجب الحجاب — وكان السلطان خشقدم أرسلهم الى العقبة بسبب فساد العربان — فلما حضروا كان صحبتهم جماعة كثيرة من العربان نحو ستين انسانا، وكان الأمير أزبك انتهى فى هذا السفر الى الأزلم . فلما عرض العربان على السلطان بلباى أمر بتوسيطهم أجمعين ، ولم يعرف الظالم من المظلوم ، فصاروا فى ذمته ، وكان فيهم صغار دون البلوغ .

ثم لما رجع الأمير أزبك من العقبة أشار خير بك على السلطان بلباى بأن يستقر به نائب الشام . فلما طلع أزبك فى يوم الجمعة الى القلعة خلع عليه السلطان بعد صلاة الجمعة — وهو فى باب الستارة — خلعة ، واستقر به نائب الشام ، ورسم له بأن يتوجه الى الشام بعد ثلاثة أيام ، فخرج الى الشام فى يوم الاثنين فى أواخر ربيع الأول من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة .

فلما توجه الأمير أزبك الى الشام عمل السلطان الموكب ، وخلع على الأمير قايتباى المحمودى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن الأمير أزبك لما بقى نائب الشام .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه حضر من الصعيد فأقره على حاله دوادارا كبيرا كما كان ... وكل ذلك ترتيب الأمير خير بك الدوادار .

ثم ان الأمير يشبك الفقيه قصد الوثوب على الأمراء الخشقدمية ، وأن يقبض على جماعة منهم ، فجمع خشداشينه — وهم قنبك المحمودى أمير سلاح ، والأمير جانى بك كوهية ، والأمير مغلباى طاز ، والأمير طوخ الزردكاش ، وجماعة المؤيدية كلهم — فلبسوا آلة الحرب وركبوا فى يوم الخميس فلما تحقق العسكر ذلك التف عليهم جماعة من الاينالية وجماعة من الأشرفية والمماليك السيفية ، فتوجهوا الى بيت الأمير يشبك الفقيه . فعند ذلك طلع الأمير يشبك الفقيه الى المدرسة التى تسمى الجاولية ، فقعد هناك وحفر خندقا عند المدرسة الصرغتمشية ، وواحدا عند رأس الكبش ، وواحدا عند قناطر السباع ، ثم ركبوا مكحلة فى شباك المدرسة الجاولية ، واستمروا فى ذلك اليوم كله يقعون مع المماليك الخشقدمية .

فلما كان يوم الجمعة بعد الصلاة نزل الأمير قايتباى رأس نوبة النوب من القلعة ومعه جماعة من المماليك الاينالية والظاهرية ، فتوجهوا الى الأمير يشبك الفقيه وأوقعوا معه ، فكان بينهم واقعة عظيمة ، وقتل فى ذلك اليوم ثلاثة من المماليك السلطانية .

فلما كانت ليلة السبت هرب الأمير يشبك الفقيه ، وهرب بقية الأمراء المؤيدية ، وانكسروا كسرة قوية ، فنهب العوام بيوتهم ، وولى سعدهم ، وأتت عكوسهم ، فخابت آمالهم ، ولم ينفع اجتهادهم ، كما قيل فى المعنى :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما كان يوم السبت سابع جمادى الأولى من سنة اثنتين وسبعين اجتمع الأمراء بالقلعة ، وأحضروا الخليفة والقضاة الأربعة ، وخلعوا الظاهر بلباى من السلطنة ، ووقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة الأتابكى تمربغا كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه ، ثم دخلوا بالظاهر بلباى الى البحرة وقيدوه ، ثم قبضوا على الأمير قنبك المحمودى أمير سلاح وقيدوه وأدخلوه الى البحرة . ثم ان الأمير يشبك الفقيه توجه الى الأمير قايتباى ، ثم قبضوا على الأمير جانى بك كوهية ، ومغلباى طاز ، وطوخ الزردكاش ، وبقية المؤيدية من كبير وصغير ولم يتركوا منهم أحدا . فأما الملك الظاهر بلباى فانه

أقام فى البحرة يومين ثم نزلوا به هو والأمير قنبك المحمــودى ، فتوجهوا بهما الى الســجن بثغــر الاسـكندرية وأما الأمير يشبك الفقيه وطوح الزردكاش فتوجهوا بهما الى ثغــر دمياط . وأما جانى بك نوهية ومغلباى ظاز فما أدرى فى أى مكان توجهوا بهم . أفى ثغــر دمياط مع الأمير يشبك الفقيه أو لا ... فكانت مدة سلطنة الظاهر بلبــاى بالديار المصرية شهرين الا أربعة أيام ، وكانت كأنها سنة من النوم ، أو يوم أو بعض يوم ، كما قيــل فى المعنى :

ركب الأهــوال فى زورته
ثم ما ســلم حتى ودعا

وبه زالت دولة المؤيدية كأنهــا لم تكن ... فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وكان الظاهر بلباى من عمره أرشل قليــل المعرفه ، وكان يعرف ببلباى المجنون ، وكان عمره كله فى غلاسة هو ومماليكه . وكان ملبسه مغلسا من عمره ، وشكله سمج ، وتدبيره سيىء ... فجمع بين قبح الفعــل والشكل وسوء الطبــاع ومقت اللسان كما قيل :

وفظ غليظ الطبع لا ود عنــده
وليس لــديه للأخــلاء تأنيس
تواضعه كبــر ، وتقــريبه جفا
وترحيبه مقت ، وبشراه تعبيس

وقد زال سعده جملة واحدة ، فكانت أيامه شر أيام مع قصرها ، وخرج ماله على أنحس وجه .

وكان مع خير بك الدوادار فى غاية الضــنك ، ليس له فى السلطنة الا مجرد الاسم فقط ، ولا يتصرف فى شىء من أمور المملكة الا بشورة الأمير خير بك ، فكان اذا سئل فى شىء يقول : « ايش كنت أنا ؟ ... قل له » ... يعنى قل لخير بك حتى سمته العوام « قل له » ...

وكان خيربك جعل السلطان بلباى آلة ، وهو ممهــد لنفسه فى البــاطن ، وقد طمعت آماله فى السلطنة ، وحدثته نفسه بذلك ، والله غالب على أمره ...

الملك الظاهر أبو سعيد

هو الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهرى . وهو الأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثــانى من ملوك الروم بمصر فى العــدد .

كان أصــله رومى الجنس من مشــتريات الملك الظاهر چقمق ورباه صغيرا . فلما تسلطن چقمق جعله خاصكيا ، ثم بقى من جملة السلحدارية ، ثم بقى خازندارا ، ثم بقى أمير أربعــين ، ثم دوادارا ثانيا فى أثناء دولة الملك الظاهــر چقمق ، وسافر الى الحجاز أميرا فى سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الملك المنصور عثمان بن چقمق ، ثم نفى الى ثغر الاسكندرية وسجن بها نحو ست سنين ، ثم نقله الملك الأشرف اينال الى مكة فأقام بها نحو ثلاث سنين .

فلما تسلطن الظاهر خشقدم رسم باحضاره من مكة ، فلما حضر خلع عليــه واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن قرقماس الجلب فأقام على ذلك مدة ، ثم نفاه الظاهر خشقدم الى ثغر الاسكندرية فأقام فى السجن ثلاثة أيام هو والأمير أزبك ططخ ، فشفع فيهم الأتابكى قانم التاجر ، فرسم السلطان باحضارهم . فلما حضروا أقام على ذلك مدة ، ثم بقى أمير مجلس لما نفى الأتابكى جرباش كرت الى ثغر دمياط عند ما بقى قانم التاجر أتابك العساكر ، ثم بقى أتابك العساكر فى دولة الملك الظاهر بلباى عند ما تسلطن .

فلما ركب المؤيدية وانكسر الأمير يشبك الفقيه خلعو، الظاهر بلباى من السلطنة ، ثم وقع الاتفاق من الأمراء على سلطنة الأتابكى تمربغا ، فأحضروا الخليفة والقضـاة الأربعة وبايعوا الأتابكى تمربغا بالسلطنة ، وذلك فى يوم السبت سابع جمـادى الأولى سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، فلبس خلعة السلطنة من الحراقة التى فى باب السلسلة ، وركب من سلم المقعد ، وطلع من باب سر القصر الكبير ، وحمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى قايتباى رأس نوبة النوب .

فلما جلس على سرير المـلك باس له الأمراء الأرض ، وتلقب بالملك الظاهر أيضا ، ودقت له الكئوسات بالقلعة ، ونودى باسمه فى القـاهرة ، وضج النـاس له بالأدعية الفاخرة ، وفرح غالب الناس بولايته لأنه كان رجلا عاقلا عارفا بأحوال المملكة .

وكان كفئا للسلطنة ، وقد اشـتمل على جملة من المحاسن فى علم الفروسيه وغير ذلك من سائر الفنون حتى كان يزن بيده فى القبان ، وكان يعقد البر كاوات الحرير بيده ، وله غير ذلك محاسن كثيرة فى فنون لعب الرمح والنشاب ... ولكن لم يساعده الزمان ، وجنى عليـه وخان ، فلم تكن حـركاته سعيدة ، ولم تكن أيامه مديدة ، فكان كما قيل فى المعنى :

انى تأملت الزمان وفعـــله
فى خفض ذى شرف ورفع الأرذل
كطبائع الميـــزان فى أفعـــاله
تضع الرواجح والنواقص تعتلى

فلما تم أمره فى الســلطنة عمل الموكب بالقصر الكبير ، وخلع على من يذكــر من الأمراء وهم : المقر السيفى قايتباى المحمودى واستقر به أتابك العساكر عوضا عن نفسه ، وخلع على المقر السيفى جانى بك قلقسيز واستقر به أمير سلاح عوضا عن قنبك المحمودى ، وخلع على المقر السيفى خيربك واستقر به دوادارا كبيرا عوضا عن يشبك الفقيه ، وخلع على المقر السيفى خشكلدى اليسقى واستقر به رأس نوبة النوب عوضا عن قايتباى المحمودى ، وخلع على المقـر السيفى تمر الوالى واستقر به حاجب الحجاب عوضا عن بردبك هجين لما بقى أمير آخور كبير ، وخلع على الأمير كسباى الخشقدمى واستقر به دوادار ثانيا عوضا عن الأمير خيربك .

وفى تلك الأيام كتب الأمير كسباى كتابه على خوند بنت الملك الأشرف اينـال ، ولكنه لم يدخل عليها .

ثم ان السلطان تمربغا رسم بالافراج عن الأمير قرقماس الجلب فأحضره من ثغر الاسكندرية ، ثم رسم بالافراج عن الأمير تمراز الشمسى فأحضره من ثغر دمياط ، وكذلك الأمير دولات باى النجمى ... وهؤلاء من مماليك الأشرف برسباى .

ثم أنعم على الأمير مغلباى الخشقدمى بتقدمة ألف ، وأنعم على جمـاعة كثيرة من الخشقدمية بامريات عشرة وامريات أربعين .

ثم انه رسم بتدوير المحـمل الرجبى فى تلك السنة ، فساقوا الرماحة على العادة فى القرافة .

ومن الحوادث فى أيامه أنه قبض على الشرفى يحيى بن الأمير يشبك الفقيه وصادره وأخذ منه نحو عشرة آلاف دينار ، وكان قصده يصادر أعيان النـاس بسبب النفقة ، وقد صـار مع المماليك الخشقدمية تحت الضنك والقهر فى كل يوم .

فلما كان ليلة الاثنين سادس رجب عمل السلطان الموكب فى القصر الكبير وطلع الأمراء على جارى العادة الى القلعة ، فطلع الأمير خيربك ودخل الى القصر . فلما كان وقت المغرب غلقت أبواب القلعة ودخل جماعة من المماليك الخشقدمية ومعهم سيوف

مسلوثة فقبضوا على السلطان تمربغا وهو جالس فى الخرجاة المطلة على الرميلة ، وقبضوا على جماعة من الأمراء وحبسوهم تحت الخرجاة التى يجلس فيها السلطان . وكان الأمير خيربك اتفق مع المماليك الاينالية فى الباطن بأنه يمسك السلطان والأمراء الظاهرية وتصير الاينالية والخشقدمية شيئا واحدا ، وأنه اذا مسك السلطان من فوق تركب الاينالية من أسفل ، فيمسكوا بقية الأمراء ، وأن خيربك يتسلطن ... فانخرم معهم الحساب ، وضلوا عن الصواب ، كما قيل :

يريد المرء أن يعطى مناه ويأبى الله الا ما أرادا

فلما مسك السلطان تمربغا — ومعه جماعة من الأمراء الذين طلعوا الى القلعة فى تلك الليلة — ظن خير بك أنه قد تسلطن ووصل الى ذلك ، فجلس على سرير الملك وتلقب بالملك الظاهر مثل أستاذه خشقدم ، وباس له الأرض المماليك الخشقدمية ، وأنعم على جماعة منهم بوظائف سنية ، وتصرف فى تلك الليلة بما يقتضيه له الاختيار ، ولسان الحال يناديه : « كلام الليل يمحوه النهار ... »

وكان الأتابكى قايتباى غائبا فى الربيع لم يطلع فى تلك الليلة الى القلعة مع الأمراء ، فلما بلغه خبر مسك السلطان والأمراء ، ركب تحت الليل ودار على جماعة الظاهرية من خشداشينه ، ثم داروا على الاينالية واستمالوهم على خير بك وقالوا لهم نحن نرضيكم ، فوقع الاتفاق فى تلك الليلة على خلع السلطان تمربغا ، وأن الأتابكى قايتباى هو السلطان ، وأن يقبضوا على الخشقدمية كلهم .

فلما وقع القرار على ذلك باس الأرض تحت الليل للأتابكى قايتباى أعيان الاينالية ، وأركبوه وطلعوا به الى الرميلة . فلما بلغ خير بك ما جرى ، اضطربت أحواله ، وضاق به الأمر ، وأدركه طلوع النهار ، فأخرج السلطان تمربغا من تحت الخرجاة ، والأمراء الذين سجنوا معه ، وأجلس السلطان على مرتبته ، وباس له الأرض ثم انسطح بين يديه وقال له : « وسطنى ... فانى كنت باغيا عليك » . فقال له السلطان : « يا أمير دوادار لا أنت ولا أنا بقى لنا بقاء » . فلما طلع النهار ملك الظاهرية والاينالية باب السلسلة ، وانكسر الخشقدمية ، فطلع الأتابكى قايتباى الى باب السلسلة ، وجلس فى المقعد الذى يطل على الرميلة ، وحضر الخليفة والقضاة الأربعة ، ثم خلعوا الظاهر تمر بغا من السلطنة ، وولوا الأتابكى قايتباى كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

فلما طلع السلطان قايتباى الى القلعة ، قبض على المقر السيفى خير بك ، وعلى المقر السيفى الشهابى أحمد بن العينى ، وعلى الأمير كسباى الدوادار ، وعلى الأمير خشكلدى المعروف بالبيسقى ، وعلى الأمير مغلباى ، وعلى جماعة كثيرة من الأمراء الخشقدمية ، فقيدوا الأمير خير بك وابن العينى وسجنوا فى مكان بالقلعة ومعهم المهتار عبد الكريم . وأما الملك الظاهر تمربغا فأدخلوه الى البحرة من غير قيد — وهو فى غاية العز والعظمة — وأكرمه السلطان قايتباى غاية الاكرام ، فانه كان أغات جميع ظاهرية جقمق ، فالكل جاءوا من بعده .

ثم ان السلطان رسم للملك الظاهر تمربغا بأن يتوجه الى ثغر دمياط من غير قيد ولا سجن ، ورسم له بأن يركب الى صلاة الجمعة ويتنزه فى غيطان دمياط ، فنزلوا به تحت الليل وتوجهوا به فى مركب الى ثغر دمياط فأقام بها ، فكانت مدة سلطنته بمصر ثمانية وخمسين يوما لا غير ، فكان كما قيل فى المعنى :

لم أستتم عناقه لقدومه
حتى ابتدأت عناقه لوداعه

ولم يعلم بأحـد من ملوك الترك أنه خلع من السلطنة فى أقـل من هذه المـدة ، ولم تفد معرفة الملك الظاهـر تمربغا شيئا ، وعارضه الزمان كما قيل فى المعنى :

واذا جفاك الدهر — وهو أبو الورى
طـرا — فـلا تعـتب على أبنـائه

وكيف كان تمربغا يمكث فى السلطنة والقسمة كانت من القدم لقايتباى ؟ ... وقد قال القائل فى المعنى :

الرزق فى الوجـوه للمـرء مـلتزم
ما هو لمـن سمى الا لمـن قسـم

واستمر الملك الظاهر تربغا فى أرغد عيش بثغر دمياط حتى حسن له الشيطان أن ينسحب من ثغر دمياط ، فتسحب من هناك كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

الملك الأشرف قايتباى

هو الملك الأشرف أبو المنصور سيف الدين قايتبـاى المحمودى الظاهـرى . وهو الحـادى والأربعون من ملـوك الترك وأولادهـم بالديار المصرية ، وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر .

كان أصـله جركسى الجنس ، جلبه الى مصر الخواجا محمود فى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة ، فاشتراه منه الملك الأشرف برسـباى هو وعـدة مماليك صغار ، ضريبة كل مملوك خمسون دينارا . فلما اشتراه أنزله بالطبقة وصار من جملة المماليك الكتابيـة ، واستمر على ذلك حتى توفى الأشرف برسباى ، وتسلطن الظاهر جقمق ، فاشتراه مـن بيت المال على يد حاسوك — وصى الملك الأشرف برسباى — هو وعدة مماليك كتابية . واسـتمر فى رق الظاهر جقمق حتى أعتقه ، ثم أخرج له خيلا وقماشا وصار جمدارا ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى دوادارا كبيرا . فلما توفى الظاهر جقمق وتسلطن الظاهر بلباى جعله رأس نوبة النوب عوضا عـن أزبك بن ططخ لما بقى نائب الشـام . ثم لما تولى الظـاهر تمربغا جعله أتابك العسـاكر عوضا عن نفسه ، فلما وثب خير بك على الظاهر تمربغا ووقع له ما تقدم ذكره ، وقع الاتفـاق من العسكر على سلطنته وخلع الظاهر تمر بغا ، وكان القائم فى ذلك طائفة الاينالية والظاهرية .

فلما انكسر خير بك وطائفة الخشقدمية حطـم الأمير يشبك بن مهدى كاشف الوجه القبـلى مع جماعة من العسكر ، فملكوا باب السلسلة وقبضوا على خير بك ، فتقلب العسكر على الظاهر تمربغا وأشرف على الخـلع . فعند ذلك طـلع الأتابكى قايتباى الى باب السلسلة وجلس بالمقعد الذى به ، واشتوروا فيما يكون من الأمر فى الظاهر تمر بغا ، فلم يوافق العسـكر على ابقاء الظاهر تمربغا فى السلطنة ، فأرسلوا خلف أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، فحضر وحضر القضاة الأربعـة — وهم ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشـحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حـريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى — وحضر جماعة من الأمراء .

فلما تكامل المجلس عملت صورة شرعية فى خلع الظـاهر تمربغا من السلطنة ، فخلعه الخليفـة فى الحـال وبايع الأتابكى قايتبـاى ، وتلقب بالملك الأشرف . ثم أحضروا له شـعار المـلك — وهى العمامة السـوداء والجبة السوداء التى بالطـراز الذهب والسيف البداوى — فلما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك تمنع من ذلك وبكى ، فألبسـوه ذلك الشعار غصبا وهو يمتنع غاية الامتناع ثم قدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة ،

وأذن للأمير جانى بك قلقسيز أمير سلاح بأن يفرد الصنجق السلطانى على رأسه لعدم حضور القبة والطير من الزردخاناه ، فرفع الصنجق على رأسه ، وقد ترشح أمره للأتابكية .

فلما ركب سار ومشت قدامه الأمراء بالشاش والقماش ، وركب الخليفة عن يمينه ، وسار حتى طلع من باب سر القصر الكبير .

فلمـا طلع جلس على سرير الملك ، وقبلت له الأمراء الأرض ، وذلك يوم الاثنين سادس رجب من السنة المذكورة .

فلما تمت بيعته وراج أمره خلع على الخليفة ونزل الى داره ، ثم خلع على المقر السيفى جانى بك قلقسيز الأشرفى برسباى وقرره فى الأتابكية عوضا عن نفسه ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وقيل تولى الملك الأشرف قايتباى الملك وله من العمر نحو من خمس وخمسين سنة وقد وكزه الشيب قليلا ، ثم دخل يشبك بن مهدى وتمراز الشمسى على الظاهر تمربغا ، وأقاموه من فوق مرتبته وأدخلوه الى قاعة البحرة وهو فى غاية الاكرام ، ثم أخذوا منه النمچاه والترس والدواة وأحضروها بين يدى الأشرف قايتباى . ثم ان الأشرف قايتباى رسم بتقييد خير بك ، فقيد هو وابن العينى ، وأدخلوهما الى مكان بالقرب من القصر الكبير ، وأدخلوا معهما عبد الكريم — مهتار الملك الظاهر خشقدم — وهو أول حكم وقع للأشرف قايتباى . ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

سلطاننا الأشرف فى بذله
وعدله قد جمع الفضلا
تقبل الله الذى عزه
بالنصر منه الصرف والعدلا

وكان لما أراد أن يلبس شعار الملك شرط على العسكر أنه لا ينفق عليهم نفقة البيعة فرضوا بذلك ، فلما تسلطن لم ينفق على العسكر شيئا .

ثم أخذ السلطان فى أسباب القبض على أعيان الخشقدمية ، فقبض على كسباى الدوادار الثانى وقد ظهر من بيت يشبك بن مهدى ، وقبض على مغلباى ورسم باخراجه الى القدس يقيم به بطالا ، ورسم باخراج كسباى الى حلب ، واختفى خشكلدى البيسقى . ثم صار فى كل يوم يقبض على جماعة من الخشقدمية ، ويشتت شملهم ويسجنهم بالقلعة ، ما بين أمراء وخاصكية

ثم ان السلطان رسم باحضار قرقماس الجلب من دمياط ، واحضار جماعة من الأشرفية ، منهم بيبرس خال العزيز ، ومنهم جانى بك المشد وبيبرس الطويل ... وكانوا بالقدس . ثم أشار بعض الظاهرية على السلطان بعود هذه الجماعة الأشرفية الى القدس على عادتهم ، فخرج الأمر من السلطان بأن يعادوا بعد ما كانوا قد وصلوا الى قطيا ، فعادوا الى القدس .

وفى ثامن هذا الشهر رسم السلطان باخراج الظاهر تمربغا الى ثغر دمياط ، فخرج وهو فى غاية العز والاكرام من غير تقييد ، وقد رفق به ، وكان السلطان يرسل اليه فى كل يوم أسمطة حافلة وهو بالبحرة . وعند ما خرج للسفر اجتمع به السلطان واعتذر اليه فى أمر السلطنة ، وأن ذلك لم يكن باختياره وكان على كره منه ، وكان بين تمربغا وبين قايتباى أيمان عظيمة بأنه لا يغدر ولا يتسلطن ، فلم تتم هذه الأيمان .

ثم ان السلطان ودع الظاهر تمربغا ونزل من القلعة وهو راكب على فرس من مركب السلطان ، ونزل من باب القرافة بعد العشاء ، وتوجه الى ساحل البحر ، ونزل فى الحراقة ، وتوجه الى ثغر دمياط . فلما وصل الى دمياط نزل فى

أحسن دورها ، وكان يركب الى صلاة الجمعة . واستمر بدمياط الى ان كان من أمره ما سنذكره .

وفيه أشار بعض الظاهرية على السلطان بأن يطلق من كان سجنه من الخشقدمية .

ثم ان السلطان أخذ فى أسباب مصادرة خير بك الذى تسلطن هو وابن العينى ، فطلب السلطان من خير بك نحوا من ستين ألف دينار خارجا عن بركه وخيوله وسلاحه وغير ذلك ، وعلى ابن العينى نحوا من مائتى ألف دينار وذلك خارج عن بركه وسلاحه وغير ذلك .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : يردبك هجين وقرره فى امرية سلاح عوضا عن قانى بك المحمودى ، وخلع على يشبك بن مهدى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن خير بك . ولما حضر قرقماس الجلب من دمياط خلع عليه وقرره فى امرية مجلس عوضا عن ابن العينى ، وكان قرقماس الجلب لما نفى الى الاسكندرية أمير سلاح فنزل درجة الى أسفل . وقرر فى الدوادارية الثانية قان بردى الابراهيمى الاينالى ، عوضا عن كسباى الخشقدمى وقرر فى ولاية القاهرة قانى باى الحسنى الاينالى ، عوضا عن اصباى البواب الخشقدمى . وأنعم على قراجا الطويل الاينالى بتقدمة ألف . ثم ان بعض الأمراء شفع فى الناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت — وكان مقيما بدمياط من حين نفاه الظاهر خشقدم فى واقعة يرش مملوك جانى بك نائب جدة وقد تقدم ذكر ذلك — فلما حضر خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تعيين تجريدة الى شاه سوار بن دلغادر — وقد تقدم ما وقع منه فى أيام الظاهر خشقدم — وقد قويت شوكته والتف عليه عسكر ثقيل من التركمان وغيرهم ، وقد أظهر العصيان والمخامرة ، فخشى السلطان من أمره وأراد أن يأخذ أموره بالقوة . وكان يمكنه أن يرسل الى سوار خلعة وهدية وتخمد هذه الفتنة ، فلم يوافق على ذلك ، وأخذ الأشياء بالعترسة ، فعين له تجريدة ثقيلة وعين بها الأمير قلقسيز الأتابكى ، وبرد بك هجين أمير سلاح ، وقانى رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وعدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعدة وافرة من الجند — والغالب فيهم من المماليك الخشقدمية — وجعل السلطان ذلك عوضا عن نفيهم .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على من يذكر من الأمراء وهم : جانى بك الفقيه الظاهرى وقرره فى الأميراخورية الكبرى عوضا عن بردبك هجين ، وقرر فى الأميراخورية الثانية يشبك حسن عوضا عن جانى بك الفقيه بحكم انتقاله ، وقرر فى حسبة القاهرة قانصوه الخفيف تاجر المماليك وأنعم عليه بامرية عشرة .

وفيه رسم السلطان باخراج خير بك الذى تسلطن — وقد سمته العوام « سلطان ليلة » — فخرج تحت الليل وهو مقيد راكب فرسا والأوجاقى يردفه على جارى العادة . فلما وصل الى شاطىء البحر نزل فى الحراقة وانحدر حتى وصل الى ثغر اسكندرية فسجن بها ، ورجع من كان معه من الاينالية .

وبه زالت دولة الخشقدمية كأنها لم تكن ... فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

وفيه نودى من قبل السلطان بابطال المشاهرة التى تتعلق بالمحتسب — وهى نحو ألف دينار فى كل شهر — فبطل ذلك مدة يسيرة ثم عاد بعد ذلك كل شىء على عادته .

وفيه ابتدأ السلطان بتفرقة الأقاطيع على الجند — وكان أكثرهم اينالية — وأمر منهم جماعة

كثيرة حتى رضوا ، وكان قصدهم اثارة فتنــة ، واتفقوا مع الخشقدمية على ذلك ، ثم غلب سعد الأشرف قايتباى على ما قصدوه وخمــدت تلك الفتنة .

وفيه قرر فى أتابكية دمشق شادى بك الجلبانى عوضا عن سرامرد العثمانى بحكم القبض عليه .

وفيه وصل سودون البرقى من دمشق من غير اذن السـلطان — وكان عين من جملة المقــدمين بمصر — فلما حضر أنعم عليه السلطان بتقدمــة ألف ، وعين للتجريدة وكان مريضا فأعفى من السفر وأقام بمصر مدة ومات .

وفيه أحضر أزدمر الابراهيمى الطويل — وكان مسجونا بقلعــة دمشق — فلما حضر أنعم عليــه السلطان بتقدمة ألف ، وقد صار يدارى الاينالية مداراة .

وفيه عرض السلطان العساكر بسبب التجريدة لسوار ، واستمر جالســا على الدكة وهو يعرض ويكتب الى ما بعد العصر ، ثم ضــيق على أولاد الناس ، وألزمهم بالسفر الى سوار أو يقيموا لهم بدلا ، فصار يأخذ من كل واحــد — ان كان لا يسافر — مائة دينار عوضا عن البديل الى السفر ، وقرر على جماعة من المباشرين جملة مال وأمرهم باحضاره بسرعة ليستعين به على نفقة العسكر ... فهذه أول شدة وقعت منه فى حق الناس . واستمر الأمر منه يتزايد فى كل يوم حتى جاوز الحد فى ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه . فلما تكامل حضور المال حملت النفقات للأمراء المعينين للسفر ، فحمل للأتابكى جانى بك قلقسير أربعــة آلاف دينار ، ثم حمل لبقية الأمراء المقدمين لكل واحد ثلاثة آلاف دينار ، وللأمراء الطبلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشراوات لكل واحد مائتا دينــار ، وأنفق على الجند لكل واحــد من المماليك مائة دينار ، وهذا على العادة القديمــة الجارية بها العوائد . فلما تزايد أمر التجــاريد تضاعفت النفقات جدا حتى بلغت نفقة الأتابكى ازبك بن ططخ نحوا من ثلاثين ألف دينار فى كل سفرة على ما سيأتى ذكر ذلك فى محله .

* * *

وفى شعبان خلع السلطان على يشبك السيفى على باى وقرره فى نيابة قلعة دمشــق ، وقرر فى حجوبية الحجاب بدمشــق ابراهيم بن بيغوت ، وقرر فى نيابة قلعة حلب تمر باى أخا ألماس .

وفيه أحضر السلطان الشهابى أحمد بن العينى بين يديه فى الدهيشة ووبخه بالكلام بسبب ما قرر عليه من المال الذى لم يورد منه شيئا ، فسطحه على الأرض بالدهيشة وقام وضربه بيده نحوا من عشرين عصا حتى شق كعبه وأدماه وأغمى عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء وتوجهوا به الى طبقــة الزمام فأقام بها أياما ، ثم تسلمه يشبك بن مهدى أمير دوادار كبير فنزل به الى داره ليورد ما قرر عليه من المال . وكان ابن العينى لما قرر فى أمرية مجلس ونزل من باب السلسلة سكن فى بيت جانى بك نائب جــدة المشــهور ، فلما انكسر خير بك وزال أمر الخشقدمية نهبوا بيت ابن العينى عن آخره حتى قيل نهب له من البرك والقماش شىء بنحو من خمسين ألف دينار . وكان ابن العينى ماشيا على طريقة أولاد السلاطين حتى أطلق عليه عزيز مصر ، وربما تعصب له بعض جماعــة من الخشقدمية بأنه يتسلطن بعد خلع الظاهر بلباى من السلطنة ولم يتم له ذلك . وقد لطف الله تعالى به حيث لم يتسلطن فكان يقضى عمره كله فى القيد والسجن الى أن يموت .

وفيه ، فى يوم الاثنين ثانى عشره ، خرج الأمراء والعسكر المعينــون للتجــريدة ، وكان لهم يوم مشهود — وهذه أول تجريدة خرجت من مصر الى شــاه سوار — فكانوا نحو عشرين أميرا ما بين

مقدمى ألوف وطبلخانات وعشراوات ، ومن الجند فوق ألف مملوك . ثم فى ليالى السفر أنفق السلطان جامكية أربعة أشهر معجلا ، وصرف لهم الكسوة ، وأعطى لكل واحد منهم جملا ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن .

وفيه ركب السلطان ودار على الميدان حول القلعة . فلما عاد طلع من باب السلسلة ، وكان نزل الى الميدان ، وهو أول ركوبه ونزوله من القلعة وهو سلطان ثم تكرر ركوبه من بعد ذلك ليلا ونهاراحتى خرج ذلك عن الحد،فترك بعض المؤرخين ضبط ركوبه ونزوله من القلعة اذ لم يحص ذلك بعد أن كان ركوب السلطان نادرة مما يؤرخ فى التواريخ القديمة .

وفيه اختفى الوزير قاسم شغيته . فلما اختفى خلع السلطان على عبد القادر ناظر الدولة بالتحدث فى الوزارة حتى يقرر بها من يختار .

وفيه قرر دمرداش العثمانى فى نيابة القدس عوضا عن محمد بن حسن بن أيوب ، وقرر فى نظر القدس برد بك التاجى عوضا عن حسن التميمى .

وفيه خلع السلطان على شاهين الجمالى وقرره فى نيابة جدة ، وقرر أبو الفتح المنوفى — موقع السلطان وهو أمير — فى نظر جدة مستوفيا على شاهين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن العينى ، وخلع عليه كاملية بسمور ، ونزل الى داره ، وقد تحفظ أمره بواسطة الأمير يشبك الدوادار . والتزم ابن العينى بأن يورد فى كل شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد ، فكان جملة ما أورده للخزانة الشريفة مائة ألف دينار وتسعة وثلاثين ألف دينار ، وذلك خارج عن تعلقاته وجهاته . وهذه من النوادر الغريبة حيث جمع ابن العينى هذه الأموال الجزيلة فى دون الأربع سنين منذ قرر فى التقدمة الى أن قبض عليه ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الأولياء ، وعاد من طريق قناطر السباع ، ودخل الى دار سودون البرقى وعاده فى مرضه ، وأقام عنده ساعة ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من الخشقدمية الى جهة الوجه القبلى مع الكشاف وغيرهم كما كانت عادة المماليك الاينالية .

وفيه قرر بيبرس الأشقر فى أتابكية صفد

وفيه توفى سودون البرقى — وكان يعرف بالتمشى — وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق وقاسى محنا وشدائد ونفى واختفى وكان انسانا حسنا ، وعندما بقى مقدم ألف مات فى سنته .

وفيه خلع السلطان على الصاحب شمس الدين محمد — والد الصاحب علاء الدين الاهناسى — وقرره فى الوزارة عوضا عن قاسم شغيته ، وقرر ولده محمدا فى نظر الدولة عوضا عن عبد القادر .

وفيه أشيع أنه فقد من الخزينة السلطانية نحو عشرين ألف دينار ، فظهر أن خوند سواربای وسرارى الظاهر خشقدم قد سرقوا ذلك ، فرسم السلطان على خوند سواربای وأقامت فى الترسيم مدة حتى أرضت السلطان .

وفيه وصل الى الأبواب الشريفة السيد على بن بركات الحسنى وقد غضب من أخيه محمد سلطان مكة . فلما طلع الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه واستمر مقيما بمصر ورتب له ما يكفيه الى أن مات بعد مدة طويلة . وكان السيد محمد سلطان مكة أرسل للسلطان ستين ألف دينار على أنه يعوقه عنده بمصر حتى لا يقيم فتنة بمكة ، شرفها الله وعظمها .

وفيه ركب السلطان ونزل الى القرافة وزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما

ورحمهما ، ثم سار الى بركة الحبش ولعب بالكرة ، ثم عاد الى القلعة وخلع على تانى بك المعلم كاملية بسمور وقد أعجبه ضربه للكرة .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة — وهو أول بخارى ختم للسلطان — وكان يوما مشهودا . وحضر القضاة الأربعة وأعيان العلماء ، وفرقت الصرر على من له عادة ، وكذلك الخلع فرقت على أعيان العلماء ، وكان ختما حافلا .

* * *

وفى شوال وقعت غلوة خفيفة بالقاهرة ، وتشحطت الغلال وارتفع سعرها ، فاشتكت الناس للسلطان ، وصار اذا شق من القاهرة يسمعونه الكلام المنكى .

وفيه توعك السلطان وانقطع من الموكب أياما ، ثم شفى فأقيمت الخدمة بالقصر لأجل خروج الحاج .

وفيه قدم جانى بك حبيب من بلاد الروم — وكان هاربا من أيام الظاهر خشقدم — فتوجه الى بلاد ابن عثمان . فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه وبعث اليه الأمير يشبك الدوادار بألف دينار ليرقع أحواله .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة نظام الدين بن مفلح قاضى القضاة الحنبلى بدمشق ، وكان من أهل العلم

وفيه صعدت الى القلعة خوند فاطمة بنت العلائى على بن خاصبك ، فكان لها يوم مشهود . وكانت مقيمة بدار السلطان التى بسوق الغنم الى أن طلعت القلعة فى ذلك اليوم

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه الى شاه سوار قد انكسر كسرة شنيعة ، وأسر الأتابكى قلقسير ، وقتل جماعة من الأمراء والجند وقتل منهم ما لا يحصى ، وكان غالب العسكر من الخشقدمية ، وقتل من الأمراء المقدمين الأمير برد بك هجين المحمودى الظاهرى أمير سلاح ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به . وجرح الأمير تمر حاجب الحجاب فى وجهه . وأما من قتل من الأمراء العشراوات فمنهم أيدك الأشرفى ، واسنبغا بن صفر خجا المؤيدى نائب باب القلعة ، وتمرباى الساقى الأشرفى ، وقانصوه النوروزى ، وتمرباى قزل الظاهرى ، وتانى بك السيفى ، وجانى بك الثور ، وجانى بك البواب المؤيدى ، وقطلوباى المحمودى الأشرفى العزيزى ، ومغلباى الخليلى الأشرفى ، ويشبك الغزى الظاهرى ، ويشبك الأشقر . قيل انه فوجر على سوار فضرب عنقه بين يديه وأما من قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية فما ضبطوا . وقد نهب برك الأمراء والعسكر قاطبة ، والذى سلم دخل الى حلب فى أسوأ حال من العرى والمشى ، وقد قوى أمر سوار ، وتوجه الى عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ، وأشيع بين الناس أن ابن عثمان ملك الروم أرسل نجدة من عسكره الى سوار .

وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بأن العربان قد تحالفوا على الخروج عن طاعة السلطان ، فوثبوا هناك وأحرقوا الجرون ونهبوا بلاد المقطعين فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة بها عدة من الأمراء ، وعين تجريدة الى الشرقية وتجريدة الى الوجه القبلى بسبب أولاد ابن عمر ، ثم خلع على شيخ العرب صقر وقرره فى مشيخة عربان البحيرة ، ثم عزل خشقدم ، كاشف البحيرة ، وولاها لمحمد الصغير . فلما وردت أخبار كسرة العسكر على يد سوار اشتغل السلطان بذلك عن كل شىء ، ودهمته هذه الأمور الشنيعة عن التجاريد التى عينها .

وفيه ابتدأ السلطان بوقوع المساوى منه ، فأخرج قرية انبابه عن الخليفة المستنجد بالله

يوسف ، وكانت بيـده من حين تسـلطن المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أقطعها له لما تسـلطن فأخرجها السـلطان عنه باسم جانى بك حبيب . ثم بعد مدة يسيرة أخرج عنه جزيرة ابن الصـابونى وأقطعها لبعض مماليكه ... فعد ذلك من مساويه .

وفيه وصل قانصوه الجيلانى الحاجب بدمشق وعلى يده مكاتيب أزبك نائب الشـام يخبر فيها بكسر العسكر ودخولهم الى حلب وهم فى أسوأ حال ، وأن أزبك نائب الشام دخل الى حلب وهو مجروح فى وجهـه ، وليس اه برك ولا قماش ولا مماليك ، ودخل نائب حلب ونائب طرابلس على هذا الوجـه ودخل غالب العسكر عرايا مشـاة . وكانت هذه الواقعة فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة من السـنة المذكورة . فلما وردت هذه الأخبـار ماجت القاهرة وحار السلطان فى أمره ، وما يظن أن سوارا يقوى على العسكر لكثرته .

وفيه جاءت الأخبـار عقيب ذلك بأن سـوارا سجن الأتابكى جانى بك قلقسـير فى جب ، وأن عسكر سوار قد قوى بمـا نهبه من العسكر من خيول وسلاح وبرك ، وقد عزم سوار بأن يزحف على حلب فلمـا تحقق السلطان ذلك أمر بعقد مجلس بالقلعـة ، فحضر الخليفـة المستنجد بالله يوسف والقضـاة الأربعـة — وهم ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشـحنة الحنفى ، وحسـام الدين بن حـريز المالكى ، وعز الدين الحنبلى — وحضر شيخ الاسلام أمين الدين يحيى الاقصرائى ومشـايخ من العلمـاء ، وحضر سائر الأمراء ، وكان هذا المجلس بالحوش السلطانى . فلما تكامل المجلس قام القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهـر ، وتكلم عن لسـان السلطان ، ووجه الخطاب الى الخليفـة والقضاة ومشايخ العلم بمـا معناه من كلام طويل بأن بيت المال مشحوت من المـال ، وأن سوار الباغى قد استطال على البلاد وقتل العباد ، ولابد من خروج تجريدة عسكر لتحمى بلاد السلطان ، وأن العسكر يحتاج الى نفقة ، وليس فى بيت المال شىء ، وأن كثيرا من الناس معهم زيادة فى أرزاقهم ووظائفهم ، وأن الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وأن قصد السلطان يبعى لهم ما يقـوم بالشعائر فقط ويدخل الفائض الى الذخيرة ... فمال الخليفة وقضاة الجاه الى شىء من معنى الاجابة الى ذلك . فبينما هم على ذلك اذ حضر شيخ الاسـلام أمين الدين الاقصرائى الحنفى — وكان قد تأخر عن الحضور فأرسل خلفه السلطان — فلما حضر أعاد اليه كاتب السر الكلام الذى وقع فى أول المجلس . فلما سمع هذا الكلام أنكره غاية الانكار وقال فى الملأ العام من ذلك المجلس : « لا يحل للسلطان أن يأخذ أموال الناس الا بوجه شرعى واذا نفد جميع ما فى بيت المال ينظر الى ما فى أيدى الأمراء والجند وحلى النساء فيأخذ منه ما يحتاج اليه . واذا لم يوف بالحاجة ، ففى ذلك ينظر فى المهم : ان كان ضروريا فى المنع عن المسـلمين حل ذلك بشرائط متعددة ... وهذا هو دين الله تعالى ، ان سمعت آجرك الله على ذلك ، وان لم تسمع فافعل ما شئت ، فانا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيـامة ويقـول لنـا : لم لا نهيتموه عن ذلك وأوضحتم له الحق ؟... ولكن السلطان ان أراد أن يفعل شيئا يخالف الشرع فلا يجمعنا ، ولكن بدعوة فقير صـادق يكفيكم الله مؤنة هذا الأمر كله » ... ثم قام ... فانجبه منـه السـلطان ، وانفض المجلس من غير طائل ، وكثر القال والقيل ، وشكر الأمراء الشيخ أمين الدين على ذلك وغالب الناس ، وكثر الدعاء فى ذلك اليوم للشـيخ أمين

الدين رحمه الله ، وعد هذا المجلس من النوادر .

ثم ان السلطان نادى للجند بالعرض وأخذ فى أسباب خروج تجريدة . فلما أن دخل الدهيشة وهو فى غاية الحدة من الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، واذا بالأخبار جاءت اليه من ثغر دمياط بفرار الظاهر تمربغا من دمياط ، وأن شيخ العرب محمد بن عجلان وعيسى بن سيف الدين أنزلوه فى مركب وطلعوا به من الطينة وقصدوا به نواحى حلب . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وضاق الأمر عليه من كل جانب ، ونسى ما كان فيه من أمر سوار وعرض العسكر .

ثم زاد القال والقيل فى هروب الظاهر تمربغا من دمياط ، فعند ذلك عين السلطان يشبك الدوادار بأن يخرج ويلاقى الظاهر تمربغا من غزة فخرج على جرائد الخيل مسرعا .

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن لا يخرج أحد من بيته بعد صلاة العشاء ولا يحمل سلاحا ولا يحصل كلام ، وحصل للناس فى تلك الأيام غاية القلق .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بدمشق قطب الدين الخيضرى عوضا عن ابن الصابونى مضافا لما بيده من كتابة السر . ثم قرر فى نظر الجيش البدر ابن المزلق عوضا عن ابن الصابونى أيضا بحكم القبض عليه .

وفيه جاءت الأخبار بأن مبع وسباع — ولدى هجار — وثبا على الينابعة . وكان قد خرج اليهما على بن بركات — أخو صاحب مكة المشرفة — فكسروه ... وهذه أول فتنة الينبع .

وفيه عين السلطان تجريدة الى سوار — وهى التجريدة الثانية — فعين بها من الأمراء قرقماس الجلب أمير مجلس باش العسكر ، وسودون القصروى ، وقراجا الطويل الاينالى ، وازدمر الطويل الاينالى ، وعدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعين من الجند فوق الألف مملوك .

وفيه جاءت الأخبار بأن سوارا قد أطلق الأتابكى جانى بك قلقسير وقد وصل الى قرب حلب .

وفيه جاءت الأخبار بقتل مبع وسباع ولدى هجار أمير الينبع ، وقد وقعت فتنة عظيمة بالينبع بين خنافر وبينهما حتى قتلهما ، وكان سبع وسباع حصل منهما غاية الضرر الشامل .

❊ ❊ ❊

وفى ذى الحجة توفى شخص يسمى عصام الدين البخارى الحنفى ، وكان من أهل العلم ، وكان أكثر اقامته بدمشق ، واشتغل بدمشق على جماعة على مذهب أبى حنيفة ، وكان من الأفاضل .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن أرغون شاه الأشرفى قد قبض على الظاهر تمربغا . فلما وصل الأمير يشبك الى بلبيس تلقاه وحمله فى محفة وتوجه به من هناك الى ثغر الاسكندرية من غير تقييد . ثم ان السلطان رفق به ولم يسجنه ، وقد رسم له بأن يسكن بدار الملك العزيز التى بالاسكندرية ، وأن يركب الى صلاة الجمعة والعيدين . ثم ان الظاهر تمربغا كتب للسلطان كتابا بخط يده وقال فيه : « المملوك تمربغا يقبل الأرض » ... وأرسل يعتذر اليه مما وقع منه بسبب تسحبه من دمياط ، واعتذر بأنه قصد التوجه الى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان وتخمد هذه الفتنة ، كما قيل :

اذا كان وجه العذر ليس بواضح
فان اطراح العذر خير من العذر

وكان الظاهر تمربغا أرشل قليل الحظ معكوس الحركات فى أفعاله ، ليس له سعد ولا قسم له ، كما قيل :

دع التعرض ان الأمر مقدور
وليس للسعى فى الادراك تأثير
والمرء يعجز عن تحصيل خردلة
بالسعى ان لم تساعده المقادير

وفيه أيضا وصل أرغون شاه وعلى يده محضر بأنه سلم الظاهر تمربغا الى الأمير يشبك الدوادار الكبير وتوجه من بلبيس الى الاسكندرية . وكان أرغون شاه قبض على تمربغا لما خرج من الطينة ، فلما حضر أرغون شاه بين يدى السلطان شكره على ذلك ، وخلع عليه خلعة حافلة ، وأركبه على فرس بسرج ذهب وكنبوش ... فعز ذلك على جميع الظاهرية لكونه قبض على تمربغا ، ولم يكن هذا قصدهم

وفيه تزايد سعر القمح وانتهى الى سبعمائة درهم كل أردب ، ففتح السلطان شونه وباع منها بأقل من سبعمائة فحصل للناس بذلك بعض رفق .

وفيه ثارت المماليك بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من الطلوع اليها ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة . وسبب ذلك تأخر الوزير عن حمل اللحم المرتب والخبز .

وفيه قبض السلطان على الصاحب شمس الدين محمد والد الصاحب علاء الدين الاهناسى ووكل به فى طبقة الزمام .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ثلاثة أيام ، فقلق الناس لذلك وزاد سعر القمح ، ثم بعث الله تعالى بالزيادة حتى حصل الوفاء .

وفيه توفى الشيخ تقى الدين أحمد بن محمد بن محمد بن حسن بن على الشمنى القسطينى ثم السكندرى الحنفى . وكان اماما عالما فاضلا خيرا دينا عارفا بالفقه والأصول ، وله تصانيف وتآليف فى فنون العلم ، أجازه البلقينى وابن الملقن والعراقى وغير ذلك من العلماء ، وكان عين للقضاء الأكبر غير ما مرة وهو يمتنع من ذلك .

وفيه قبض على شخص سرق ستر الامام الليث ابن سعد رضى الله عنه ، فرسم السلطان بقطع يده ، فشهر وقطعت يده .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن أسد بن عبد الواحد السيوطى ثم السكندرى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلم ، عارفا بالقراءات بالروايات السبع ، ومولده سنة ثمانمائة .

وفيه أفرج عن الصاحب شمس الدين الاهناسى ، وخلع عليه باعادة الوزارة ، وصرف ولده محمد عن نظر الدولة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أبى القاسم بن جهان شاه صاحب كرمان ، وكان لا بأس به . وولى على كرمان بعد أبيه ، وجرى عليه أمورشتى ، وآخر الأمر قتل .

وتوفى الشيخ أبو عبد الله محمد التونسى الموصلى المالكى رحمه الله تعالى . وكان عالما فاضلا من أكابر علماء تونس ، وعاش نحوا من سبعين سنة .

وتوفى قانصوه خوتى الأشرفى أحد مقدمى الألوف بدمشق رحمه الله تعالى .

وتوفى قراكير العثمانى ، المعروف بجماز الخاصكى ، وكان لا بأس به رحمه الله تعالى .

وتوفى طوغان ميق العمرى المؤيدى أحد الأمراء العشراوات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب طرابلس الغرب .

وفيه توفى القاضى علم الدين أبو الفضل بن جلود كاتب المماليك ، وكان أصله من الأقباط

يسمى ابن اسحق ، وكان من أعيان المباشرين ، ورأى من العز والعظمة غاية .

وخرجت هذه السنة وقد وقع فيها من الفتن والشرور والأنكاد مالا يكاد أن يضبط ، وقتل فيها من العسكر والأمراء ما لا يحصى . وتولى فيها ثلاثة سلاطين بل أربعة : بخير بك سلطان ليلة . وتوفى فيها الظاهر خشقدم ، وتبدد شمل جماعة الخشقدمية ، وزالت دولتهم ، ووقع فيها غاية الفساد فى البلاد الحلبية بسبب عصيان شاه سوار . وقد تقدم ما جرى من الضرر فى حق العسكر .

سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة (١٤٦٨/١٤٦٩ م) :

فيها ، فى المحرم ، صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد . فأمر السلطان بعقد مجلس بسبب مشترى مماليك الظاهر خشقدم ، فاشتري من المماليك الكتابية نحوا من خمسمائة مملوك ، ضريبة كل مملوك عشرة آلاف درهم ، وقد طمع فى حق أولاد الظاهر خشقدم .

وفيه خلع السلطان على عبد الكريم بن علم الدين بن جلود ، ، وقرره فى كتابة المماليك عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وكان شابا لم يلتح بعد

وفيه عينت الأتابكية لأزبك بن ططخ نائب الشام ، عوضا عن الأتابكى جانى بك قلقسيز ، بحكم أسره عند سوار ، فخرجت اليه البشارة بذلك وطلب الى مصر سريعا ليلى الأتابكية .

وفيه ارسل السلطان بالقبض على تانى بك المعلم ، الذى توجه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه من العقبه وحمل للقدس بطالا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الحواجا شهاب الدين ابن المزلق الدمشقى ، وكان من اعيان التجار بدمشق ، ولم يكن يلى شيئا من الوظائف كأخيه

وفيه توفى جانى بك قجا التمشى المؤيدى مات بطالا ، وكان بيده امرية عشرة .

وفيه ، فى ليلة خامس عشره خسف جميع جرم القمر حتى أظلمت الدنيا ، ودام على ذلك الى قرب آخر الليل حتى انجلى .

وفيه توفى شاد بك شبق الأشرفى نائب ملطية أولا ، ثم بقى مقدم ألف بدمشق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، فلما وفى توجه الأمير قرقماس الجلب أمير مجلس ، وفتح السد على العادة .

وفيه توفى أصيل الحصرى ، وهو ابن محمد بن ابراهيم بن على بن عثمان بن يوسف بن عبد الرزاق ابن عبد الله المغربى — كان مالكى المذهب ، وكان عشير الناس ، كثير المداعبات والنوادر ، لطيف الذات محببا لأرباب الدولة ، وعاش مدة من العمر طويلة ، وكان مولده سنة ثمان وثمانين وسبعمائة .

وفيه حضر الزينى عبد الرحمن بن الكوير الذى كان ناظر الخاص ، وقرر فى دولة الظاهر خشقدم ، فوجه الى ابن عثمان ملك الروم ، فأقام عنده حتى توفى الظاهر خشقدم فحضر الى القاهرة . فلما مثل بين يدى السلطان خلع عليه ونزل الى داره .

وفيه حضر قاصد حسن الطويل ، وعلى يده مكاتبة بالتهنئة للسلطان بالملك ، وصحبته هدية حافلة .

* * *

وفى مستهل صفر توفى العلامة شمس الدين محمد بن ابراهيم الشروانى الشافعى . وكان اماما عالما فاضلا نادرة عصره ، بارعا فى فنون العلم ، خضعت له الناس من أهل زمانه ، وشهرته تغنى عن مزيد ذكره ، ومولده سنة ثمانين وسبعمائة .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى نحو طره والعدوية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى آخر النهار ، ومد هناك أسمطة حافلة ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه توقف النيل عن الزيادة وقلق الناس لذلك ، وارتفع سعر الغلال ، وتكالب الناس على مشترى القمح ، ثم بعث الله بالزيادة .

وفيه خلع السلطان على بلباى الظاهرى أحد العشراوات ، وقرر فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه اليحياوى — وقرر قانصوه اليحياوى نائب طرابلس عوضا عن اينال الأشقر — وقرر اينال الأشقر فى نيابة حلب عوضا عن برد بك البجمقدار ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام عوضا عن أزبك بن ططخ ، بحكم انتقاله الى الأتابكية عوضا عن جانى بك قلقسيز ، بحكم أسره عند شاه سوار .

وفيه نودى على الفلوس الجدد بأربعة وعشرين الرطل وكانت بستة وثلاثين ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الأمير مغلباى طاز الأبو بكرى المؤيدى ، أحد مقدمى الألوف بمصر . مات بدمياط بطالا ، وكان خيرا دينا ، موصوفا بالشجاعة ، وهو صاحب الجامع الذى أنشأه بدرب الخازن — ومات وقد نيف على الثمانين سنة من العمر رحمه الله تعالى ، ونقل بعد موته الى القاهرة ودفن بتربته التى أنشأها .

وفيه وصل المقر السيفى أزبك نائب الشام ، فلما صعد الى القلعة أكرمه السلطان وخلع عليه ، وقرره فى الأتابكية ، عوضا عن جانى بك قلقسيز بحكم أسره عند سوار ، فنزل الى داره فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة خوند فاطمة بنت الأشرف اينال . وكانت توجهت الى الاسكندرية بسبب ختان أولاد أخيها الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، فطعنت هناك وماتت ، وكان الطعن عمالا بالاسكندرية ، فحملت الى القاهرة ، ودفنت بتربة أبيها الأشرف اينال . وكان تزوج بها كسباى الدوادار الثانى الخشقدمى ولم يدخل عليها ، وكانت قبل ذلك تزوجت بالأمير يونس البواب الدوادار الكبير ، وماتت وهى فى عصمة كسباى . وكانت شابة جميلة لها من العمر نحو من سبع وعشرين سنة ، فكثر عليها من الناس الأسف والحزن والبكاء . وكانت من الأخيار .

وفيه توقف السلطان عن صرف جوامك أولاد الناس وجماعة من الفقهاء والمتعممين ، وأحضر قوسا ثقيلا وبه سهم نشاب طومار ، وصار يدفعه لأولاد الناس . فكل من لا يقدر على سحبه يقطع جامكيته . فحصل لأولاد الناس فى ذلك اليوم كسر خاطر ، وافتضح منهم جماعة ، ووبخهم بالكلام ، ونزلوا من القلعة ، وهم فى غاية الفكر ، وقطع فى ذلك اليوم عدة جوامك ، فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك .

وفيه توفى الطواشى سرور الطلايبهى شيخ الخدام بالحرم النبوى ، وكان قد طعن فى السن جدا . وتوفى القاضى شرف الدين عيسى العطولى الشافعى ، أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، وكان يوما حافلا مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة السلطان الملك الظاهر بلباى المؤيدى ، مات وهو

بالسجن بالطاعون ، وقد قاسى شدائد ومحنا وآخر الأمر مات قهرا ، وقد تقدم ذكره .

وفيه هبط النيل سريعا فى أثناء توت فتزايد أمر الغلال ، وشطح سعر القمح ، وابتدأ وقوع الطاعون بالقاهرة .

وفيه عين السلطان الأمير أزدمر الطويل الانالى بأن يخرج ومعه خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية الى حفظ البلاد الحلبية ، ويقيم بحلب الى أن تحضر التجريدة ويخرج عقيب ذلك . وكان بلغ السلطان بأن عسكر سوار نزل على قلعة دريدة وحاصرها فبادر الأمير أزدمر وخرج فى قلب الشتاء ليحفظ حلب . وكان ذلك عين الصواب

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانم طاز الأشرفى أحد مقدمى الألوف بحلب ، مات وهو فى أسر سوار ، وكان موصوفا بالشجاعة والفروسية ، ومات وقد جاوز الستين من العمر

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خانقاه سرياقوس ، ونصب هناك الخيام وأقام بها يومين ، وعمل هناك أسمطة حافلة ، وحضر هناك مع السلطان قاصد حسن الطويل ، وقاصد ملك الهند ، فكانت اقامتهم هنا مشهورة . وحصل للسلطان بذلك انشراح ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه قبض السلطان على الصاحب شمس الدين الاهناسي والد الصاحب علاء الدين — وسلمه الى الأمير يشبك الدوادار ، فعاقبه وسجنه عنده أياما ، ثم قرر عليه ألفى دينار وأطلقه .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش لتفرقة الجامكيه ، فقطع عدة جوامك لأولاد الناس والمتعممين ، وأحضر عنده ثلاثة أقواس بعضها أقوى من بعض ، وصار كلما دعا باسم شخص من أولاد الناس ، يدفع اليه من الأقواس قوسا ويأمره بجذبه ، فان أوفى جذبه كتبه للتجريدة ، أو يحمل مائة دينار عن بدل السفر ، وان لم يجذبه قطع جامكيته . وصار بعض الأمراء يشفع فيمن له ألف جامكية بأن يبقى على حاله ، ومنهم من ألزمه بخمسين دينارا لمن له ألف جامكية ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب هذه المصادرة ، وهان عليهم ترك الجامكية من كثرة توبيخ السلطان لهم .

وفيه أنعم السلطان على برقوق شاد الشراب خاناه بتقدمة ألف ، وعلى قنبردى الدوادار الثانى بتقدمة ألف ، ثم فى آخر الجوامك قطع عدة جوامك للفقهاء والمتعممين ، وفعل بهم كما فعل بأولاد الناس فى مصادراتهم .

وفيه أمر السلطان باحضار علاء الدين بن الصابونى فى الدهيشة . فلما حضر أمر بضربه بين يديه ، فضرب ضربا مبرحا على رجليه ، وألزمه بحمل مائة ألف دينار ، فأذعن الى ذلك ثم حمل الى طبقة الزمام فى الترسيم ، ووكل به جماعة من الخاصكية الى أن يورد ما قرر عليه من المال

وفيه خلع السلطان على يشبك الدوادار خلعة حافلة كخلعه الأتابكى ، وقرره فى الوزارة مضافا للدوادارية الكبرى ، فأخذ الوزارة عن الصاحب شمس الدين والد الصاحب علاء الدين الاهناسى ، وقرر قاسم شغيته فى نظر الدولة ، عوضا عن محمد ابن شمس الدين الاهناسى ، . فلما تم أمر يشبك فى الوزارة أخذ فى قطع مرتبات اللحم التى كانت للفقهاء والمتعممين قاطبة ، وكان ذلك باذن السلطان . ففتك يشبك الدوادار غاية الفتك ، ورسم على جماعة من المتعممين ، وقصد أن يأخذ منهم ما أكلوه فى الماضى . وكان منهم من له أربع زبادى لحم ، والخمسة زبادى ، بل وأكثر من ذلك ، فرسم على بدر الدين الدميرى كتكوت حتى شفع فيه بعض الأمراء ، وهرب ، واختفى حمزة بن

البشرى ، واستمر مختفيا حتى مات بعد مدة ، وحصل للفقهاء والمتعممين فى هذه الحركة غاية الضرر والبهدلة ، وما أبقى ممكنا فى ذلك . وقطع لحوم جماعة كثيرة من أولاد الناس والفقهاء والمتعممين والنساء ، وكان القائم فى ذلك قاسم شغيته ، وحسن للسلطان ذلك . وهذا أول فتح باب المظالم . وصار الأمر يتزايد من بعد ذلك .

وكان فى الزمن القديم تباع الزبادى اللحم ، وتشترى النساء والفقهاء وغير ذلك من الناس ، فامتنع هذا الأمر فى تلك الدولة ، وصار اللحم يصرف للمماليك فقط . وكان الوزراء المتقدمون يسدون هذا المسد للديوان أحسن السداد ، مع كثرة اللحوم المرتبة للناس على ذلك الديوان ، وآخر من كان قائما بسداد هذا الديوان : الصاحب علاء الدين ابن الاهناسى ، ثم ابن البباوى ، ثم ابن الصنيعة وغيره من الوزراء ، حتى ولى قاسم شغيته ، فحسن ليشبك الدوادار ذلك حتى فعل بالناس ما فعل .

وفيه خرج الأتابكى أزبك بن ططخ الى جهات البحيرة بسبب فساد العربان ، فأقام هناك مدة ثم عاد .

وفيه قرر سودون القصروى رأس نوبة النوب عوضا عن نانق الظاهرى ، بحكم وفاته .

وفيه قرر تانى بك الاينالى فى الدوادارية الثانية عوضا عن قنبردى الاينالى ، وقرر قانصوه الخفيف الاينالى فى شادية الشرابخاناه ، وقرر جانى باى الخفيف الاينالى فى تجارة المماليك ، وقرر مثقال الحبشى الساقى فى مشيخة الحرم الشريف النبوى ، عوضا عن سرور الطلابيهى بحكم وفاته . وكان مثقال هذا عشير الناس كثير الانهماك على شرب الراح ، فمقته السلطان ، وألبسه مشيخة الحرم الشريف لعله يتوب . وفيه يقول المنصورى :

يمم لدى كف مثقال فراحته
فيها لمن أمه جود وأفضال
واعجب له فرعاه الله من رجل
فيه قناطير خير وهو مثقال

وفيه أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة الى سوار ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار .

وفيه خلع السلطان على يشبك جن وقرره فى الحاج بركب المحمل ، وكان قد قرر قبل ذلك فى امرية الأخورية الثانية . وخلع على يشبك الجمالى وقرره فى امرية الحاج فى الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار بأن حسن الطويل قد استولى على ممالك العراق ، وطرد من كان بها من الملوك ، وقد تزايدت عظمته جدا ، فخشى السلطان منه فى الباطن ، وأخذ حذره ، ولكن شغله عنه أمر سوار .

وفيه أرسل السلطان نفقات الأمراء المعينين الى التجريدة ، فحمل لأزدمر الطويل ستة آلاف دينار ، وحمل لقجماس الطويل أحد الأمراء الطبلخانات خمسمائة دينار ، وحمل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائتى دينار ... فكان الذى صرف على هذه التجريدة التى خرج فيها أزدمر الطويل ، ومن عين معه من الأمراء ومن الجند — وهم نحو من خمسمائة مملوك — ما يزيد على مائتى ألف دينار . فخرج أزدمر الطويل ومن عين معه من الأمراء ومن الجند ، فى أوائل الشتاء ليقيم فى حلب .

وفيه خرج علاء الدين بن الصابونى الى دمشق . وخرج معه خاصكى يقال له جانى بك الأشقر ، ليحضر ما بقى عليه من المال الذى التزم به ، فخرج الى دمشق فى الترسيم .

* * *

وفى ربيع الآخر طلع القضاة الى التهنئة بالشهر ،

فتكلم السلطان معهم فى المجلس فى قطع جوامك العواجز من الجند والنساء . وأخذ يشكو للقضاة من انشحات الديوان ، وخراب البلاد ، وصار يدعو على نفسه بالموت حتى يستريح مما هو فيــه من التعب ... فطال الكلام فى ذلك المجلس بســبب ذلك ، ثم انفض الأمر من غير طائل ، وقام القضاة ونزلوا من القلعــة . فلمــا فرق الجــامكية فى الشهر الأول المذكور ، جلس على عادته ، واستدعى بالجامكية ، وصار يقطع عدة جوامك للعواجز من الجند والأيتام والنساء . وصار فى كل شهر على عادته ، تفرق الجامكية بحضرته ، ويقطع فى كل شهر للناس بحسب ما يختار منها . وهو أول من جلس على تفرقة الجامكية بنفســه من الملوك ، واستمر ذلك من بعده تفعله الملوك الى يومنا هذا فى كل يوم تفرق فيه الجامكية . ولم يعهد هذا من ملك قبله أنه حضر تفرقة الجامكية بنفسه .

وفيه قرر يشبك البجاسى الذى كان نائب حلب وعزل . قرره السلطان فى نيابة حماه عوضا عن محمد بن مبارك فعد هذا من النوادر ، لكونه قرر فى نيابة حماه بعد نيابة حلب .

وفيه خلع السلطان على يشبك الجمالى ، وقرره فى الحسبة عوضا عن قانصوه الخفيف ، بحكم انتقاله الى شادية الشرابخــاناه . فجــاء يشبك الجمــالى فى الحســبة على الأوضاع ، وصار له حرمة وافرة .

❋ ❋ ❋

وفى جمادى الأولى توفى الأمير جوهر التركمانى اليشبكى الخازندار الكبير والزمام ، وكان هندى الجنس ، سيىء الخلق ، غير محمود السيرة .

وفيه خرج تمراز الشمسى قريب السلطان وتوجه الى الغربية للكشف على الجسور ، وصار يتوجه اليها فى كل سنة ، ويقيم بها أشهرا .

وفيه توفى العرس خليل والد شيخنا الشيخ عبد الباسط الحنفى ، وهو خليل بن شاهين الصفوى الأشرفى ، وكان ذكيا لبيبا عارفا . تولى عدة وظائف سنية من الوزارة ونيابة الكرك ، ونيابة القدس ، ونيابة ملطية ، وأتابكية حلب ، ونيابة الاسكندرية ، وتقدمة ألف بدمشق ، وحج بالناس أمير المحمل . وكان من أعيــان الرؤســاء ، وكان نادرة فى أولاد الناس ، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، وكان حنفى المذهب ، اشــتغل على جمــاعة من العلماء ، وأجازه فى الحديث الحافظ بن حجر .

وفيــه خلع عــلى الطواشى جوهر النوروزى الحبشى ، وقرره فى الزمامية والخازندارية الكبرى عوضا عن جوهر التركمانى .

وفيه توفى الشــيخ المسلك العــارف بالله تعالى حسام الدين حسين بن محمود الأصفهانى الرفاعى الشافعى ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفيه عاد الأمير يشــبك الدوادار من الوجه القبــلى . وقد نهب البــلاد ، وأسر نساء العربان وأولادهم ، حتى قيل أحضر معه نحوا من أربعمائة امرأة ، وقد مات منهن من الجوع عــدة كثيرة . فلما عاد يشــبك حصل من العــربان بسبب ذلك ما لا خير فيه فى البلاد ، وسلب المسافرين ، ووقع منهم غاية الفساد .

وفيه جاءت الأخبــار بوفاة شيــخ العــرب حسن بن بغداد ، أحد مشايخ الغربية ، وكان فى سعة من المــال ، فأحاط الســلطان على موجوده قاطبة .

❋ ❋ ❋

وفى جمادى الآخرة ارتفع سعر الغلال عما كان ،

واشتد الغلاء على الناس ، وجاءت الأخبار بافشاء الطاعون باقليم البحيرة .

وفيه توفى الطواشي شاهين غزالى الظاهرى الرومى ، وكان بارعا فى الجمال ، وافتتن به كثير من النساء والرجال ، وكان حسن الشكل ، وافر العقل ، كثير الأدب ، حشما فى نفسه . وكان فى سعة من المال ، غاويا متجرا ، وكان منهمكا فى ملاذ نفسه . فلما مات نزل السلطان وصلى عليه ، ثم توجه من الصلاة الى بركة الحبش ، وأقام بها الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة . وفى شاهين غزالى يقول الشهاب المنصورى :

قد صاغك الله من لطف ومن كرم
وزاد حسنك بالاحسان تزيينا
فاخفض جناح الرضا واصطد طيور وغى
من جو اخلاصنا ان كنت شاهينا

وقال آخر :

أيها العشاق اصغوا واسمعوا حسن مقالى
كل عاشق لو غزال وأنا شاهين غزالى

وفيه ذكرت أعجوبة ... نقل شيخنا الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفى فى تاريخه أن شخصا من الجند يقال له يوسف السيفى يشبك الصوفى ، خرج ليسير نحو الجبل المقطم ، فرأى حصاة مرمية فى الأرض ، فأخذها فاذا عليها مكتوب بخط جيد قديم : « قد قرب الوقت فاعتبروا واتقوا الله » وهى كتابة بغير نقط ، ولا شكل ، فأحضرها بين يدى الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، حتى رآها وتعجب من ذلك ، ولكن طعن فيها بعض الناس ، وقال انها مصنوعة ، والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأخذ فى أسباب خروج العسكر الى سوار ، وهى التجريدة الثانية ، فعين باش العسكر الأتابكى أزبك بن ططخ وقرقماس الجلب أمير مجلس ، وسودون القصروى رأس نوبة النوب ، وتمر حاجب الحجاب ، وقراجا الطويل الاينالى .. ومن الأمراء الطبلخانات خاير بك ابن حديد ، وجانى بك الزينى ، ومن الأمراء العشراوات زيادة على العشرين أميرا . ثم رسم لأولاد الناس : من أراد السفر فليسافر ، ومن لم يسافر يحمل الى بيت المال مائة دينار ويقدمها بدلا عنه ، وهذا لمن يكون له جامكية واقطاع ، ومن لم يكن له اقطاع وله ألف دينار أو له جامكية ألف درهم ، يحمل خمسة وعشرين دينارا .

وفيه قبض السلطان على الشهابى أحمد بن العينى ، وسجن بالقلعة ليورد بقية المال الذى كان قرر عليه ، فأقام بالقلعة أياما حتى حمل ما عليه من المال المقرر . فعند ذلك خلع عليه السلطان ونزل الى داره .

وفيه أنفق السلطان على العسكر لكل مملوك مائة دينار ، ولكل أمير مقدم ألف : ألفا دينار . وحمل للأمراء الطبلخانات لكل واحد خمسمائة دينار ، وللأمراء العشراوات لكل واحد مائتا دينار . فكان جملة ما صرف على هذه التجريدة نحوا من أربعمائة ألف دينار ... فلما كان يوم الموكب طلع قرقماس الجلب الى القلعة ، وطلب من السلطان الاعفاء من السفر ، وأظهر العجز ، وأن يكون طرخانا فى أى مكان يختار السلطان . فلم يجب الى ذلك وخاشنه السلطان فى اللفظ ، وألزمه بالسفر ، وأكد عليه . فلما نزل الى داره كثر القيل والقال ، بأن ستكون فتنة . فلما بلغ السلطان ذلك لم يؤثر عنده ، ونزل الى خليج الزعفران وأقام به الى آخر النهار . ثم عاد الى القلعة وبطلت تلك الاشاعة .

* * *

وفى رجب حضر من البحيرة الأتابكى أزبك فلما نزلت له النفقة تمنع من السفر ، وزعم أنه لا يطيق

مماليك السلطان اذا عمل باش العسكر ، فما زال يتلطف به حتى أجاب الى السفر ، وقبل منه النفقة .

وفيه وصل قاصد حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان ، ومكاتبة تتضمن ما ملكه من القلاع من ملك العراقين ، وعلى يده عدة مفاتيح لعدة قلاع وحصون . وأرسل يتملق للسلطان بأن كل ما يملكه من البلاد هو زيادة فى ممالك السلطان ، وأنه النائب عنه فيها ، فأكرم السلطان قاصده ، وأضافه ، وخلع عليه كاملية حافلة ، وأرسل الى حسن الطويل هدية حسنة سنية ، وأذن للقاصد بالسفر . وكان هذا من حسن الطويل عين الخداع لما يأتى منه بعد ذلك .

وفيه توفى القاضى معين الدين ابن الطرابلسى الحنفى ، وهو محمد بن عبد الرحيم بن محمد بن أحمد بن أبى بكر الطرابلسى وكان عالما فاضلا ، ناب فى القضاء مدة . ثم نزل عن ذلك ، ولزم العبادة والتصوف حتى مات .

وفيه أكمل السلطان تفرقة النفقة على العسكر المعين الى تجريدة سوار . ثم ابتدأ بتفرقة الجمال . ثم عجل لهم جامكية أربعة أشهر ، وأعطاهم الكسوة أيضا ، وأرضاهم بكل ما يمكن . ووقع فى يوم تفرقة الجمال نادرة غريبة : وهى أن الهجانة لما أحضروا الجمال وساقوها الى الميدان ، تزاحمت عند باب الميدان وقت دخولها ، فمات منها فى ساعة واحدة ، نحو من ثلثمائة بعير ، فتشاءم الناس لذلك وصرحوا بعدم نصرة العسكر ، وكذلك جرى .

وفيه كان ابتداء وقوع الطاعون بالقاهرة وهو أول طاعون وقع فى دولة الأشرف قايتباى .

* * *

وفى شعبان توفى قاضى القضاة المالكى حسام الدين بن حريز بن أبى القاسم الهاشمى القرشى العلوى الحسنى ، وكان أصله مغربيا من طربطاى ، ثم نشأ بمنفلوط ، وولى القضاء بها مدة طويلة ، وكان عالما فاضلا جوادا سمحا ، فى سعة من المال ، سمع على ولى الدين العراقى وغيره من العلماء ، وآل أمره الى أن ولى القضاء الأكبر بمصر ، وصفا له الوقت ، وطالت أيامه بها . وعظم أمره فى القضاء ، وكان مولده سنة أربع وثمانمائة وكان يعاب بكثرة القيام فى أغراض نفسه . ولما مات تولى من بعده أخوه عمر سراج الدين ، وقرر فى قضاء المالكية عوضا عن أخيه . وتوفى المسند شمس الدين محمد بن النقاش الوفائى الصوفى الشافعى سمع الحديث من والده الشيخ سراج الدين عمر بن عمر بن حسن .

وفيه تزايد أمر الطاعون جدا ، وعمل فى الأطفال والمماليك والعبيد والجوارى والغرباء عملا بليغا ذريعا ، حتى عظم الأمر فى ذلك . وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يا نعم عيشة مصر ويئس ما قد دهاها
لما فشا الطعن فيها حاكى السهام وباها

وفيه خلع السلطان على المقر السيفى يشبك الدوادار ، وقرره فى الاستدارية ، مضافا لما بيده من الدوادارية والوزارة وكشوفية الكشاف ، فعظم أمره جدا . وما أظن أن هذه الوظائف قد جمعت لأحد من الأمراء قبله . فكان الانسان اذا قرب من بابه يستعيذ بالله من هول ما يرى من الظلمة التى ببابه . فلما ولى يشبك الاستادارية قبض على مجد الدين بن البقرى ، وشرف الدين بن كاتب غريب ، وطلب منهما مالا . فحصل من ابن البقرى خمسة آلاف دينار . وأما ابن كاتب غريب فانه أظهر العجز ، وحلف أنه لا يملك شيئا ، وكان متمرضا ، فرسم السلطان بحمله الى البرج الذى بالقلعة ، فسجن به .

وفيه خرج العسكر المعين الى سوار ، فخرجوا من القاهرة فى تجمل زائد ، وطلبوا أطلابا حافلة ... فخرج الأتابكى أزبك ومعه من العسكر والأمراء ما تقدم ذكره ، وخرج قبل ذلك الأمير أزدمر الطويل ، ومعه خمسمائة مملوك . فصار الطاعون عمالا ، والتجريدة خارجة ، والعسكر فى غاية الضرر على أولادهم وعيالهم . ومات فى أثناء الطريق جماعة كثيرة بعد خروجهم من الريدانية . وقيل ان السلطان نزل تحت الليل الى الأتابكى أزبك ، وأقام عنده ساعة وودعه ، وعاد الى القلعة كل ذلك تحت الليل ، ولم يشعر به أحد من الناس.

وفيه توفى الأديب البارع الفاضل الشهاب بن صالح ، وهو أحمد بن محمد بن صالح بن عثمان ابن محمد الشافعى . وكان عالما فاضلا شاعرا ماهرا من فحول الشعراء . وله نظم حسن السبك ومولده سنة عشرين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق فيمن أهدى اليه بطيخا وقطرا قوله :

بعثت الى بطيخا وقطرا
يشابه ذاك هذا فى الصفات
هما نوعان عند الذوق كل
تولد فى الحقيقة من نبات

وله فى اسم فرج :

شكا فؤادى هم الصد يافرج
وفيك أصبح صدرى ضيقا حرجا
واستيأس القلب حتى رحت أنشده
يامشتكى الهم دعه وانتظر فرجا

والتورية فيه ثلاثية

وفيه عظم أمر الطاعون بالقاهرة . وصارت الغرباء يموتون فى الطرقات بعضهم على بعض ، فشرع الأمير يشبك الدوادار فى بناء مغسل بالقرب من مدرسة السلطان حسن . وصارت تحمل اليه الطرحاء من الموتى ، فيكفنهم ويخرجهم ويدفنهم ويصرف عليهم من ماله ، فحصل للناس بذلك غاية الرفق فى تلك الأيام .

* * *

وفى رمضان اشتد الغلاء والفناء بمصر والشام وحلب ، حتى قيل بيعت الغرارة القمح بدمشق بنحو من أربعين دينارا ، وزيادة .

وفيه مات للسلطان ولد اسمه سيدى أحمد ، وهو أول أولاده من خوند الخاصكية ، وكان عمر ابن السلطان نحوا من أربع سنين ... ثم ماتت له ابنة اسمها ست الجراكسة ، وعمرها نحو من ست سنين من خوند أيضا .

وفيه توفى الطواشى لؤلؤ الزمام الأشرفى ، وكان خازندار كبير زمام . وتوفى يشبك خازندار الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، وكان أمير عشرة . ومات مغلباى الخشقدمى ، وكان من الأمراء العشراوات ، ومات ابن أخت السلطان وكان شابا حسنا صغير السن ، ومات جان بلاط الاينالى أحد الأمراء العشراوات . ومات جكم المحمدى الخشقدمى أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان حاجب ثانى . ومات اينال باى ميق الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، ومات آقبردى الهوارى الاينالى أحد الأمراء العشراوات . ومات قانى باى الحسنى الاينالى رأس النوب . ومات آنص باى الأعور الاينالى أمير آخور التبن والدريس ، ومات أركماس قرا أحد الأمراء العشراوات ، ومات قانى باى الحسينى الاينالى أحد العشراوات وكان والى القاهرة ، وكان غير عسوف فى ولايته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس خال الملك العزيز ، ومات بالقدس بطالا . وكان فى عشر الثمانين . وولى عدة وظائف سنية ، وجرى عليه

شدائد ومحن ، وكان الخشقدمى لا بأس به فى جماعة الأشرفية .

وفيه توفى الشيخ جمال الدين أبو الفضل خطيب مكة ، وهو محمد بن محمد بن أحمد العقيلى النويرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، سمع على جماعة من العلماء ، وولى خطابة مكة ، ثم قدم الى مصر وأقام بها الى أن مات وكان معظما عند أرباب الدولة ، وقد ترشح أمره لأن يلى القضاء بمصر ، فما تم له ذلك .

وفيه حصل للأمير يشبك الدوادار توعك فى جسده . فنزل اليه السلطان وعاده .

* * *

وفى شوال تناقص أمر الطاعون ، وأخذ فى الارتفاع ، بعد ما فتك فى الناس فتكا ذريعا .

وفيه خلع السلطان على قانى باى آنص الساقى وقرره فى الحجوبية الثانية عوضا عن جكم ابن أخت السلطان بحكم وفاته .

وفيه كان وصول الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان بثغر الاسكندرية ، فاستأذن السلطان فى الحضور ليحج ، فأذن له فى ذلك فحضر . فلما صعد الى القلعة ووقف بين يدى السلطان ، وأراد أن يقبل الأرض ، نهاه السلطان عن ذلك ، وبالغ فى اكرامه ، ثم أحضر اليه كاملية بسمور ، وفوقانى أخضر بطرز ذهب ، وقدم اليه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فركب من الحوش ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء ، فتوجه الى دار الأتابكى أزبك عند أخته زوجة أزبك ، وكان غائبا فى التجريدة ، فأقام عندها ، ثم بعد أيام أضافه السلطان بالبحرة ، ثم بعد ذلك ألبسه كاملية بسمور وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل فى موكب حافل . فعد مجيئه الى مصر ، وطلوعه الى القلعة ، من النوادر ، ثم ان السلطان أخذ فى أسباب عمل برك للملك المنصور لأجل الحج .

وفيه خلع السلطان على خشقدم الأحمدى الطواشى ، وقرر رأس نوبة السقاة عوضا عن شاهين غزالى . وخلع السلطان على مرجان النقوى الحبشى وقرره فى مشيخة الخدام بالمدينة الشريفة.

وفيه توفى أقباى اليحياوى الاينالى أحد الأمراء العشروات ، وكان شابا شجاعا بطلا .

وفيه أرسل السلطان الى الظاهر تمربغا ، وهو بالاسكندرية ، فرسا بسرج ذهب وكنبوش وكاملية بسمور ، وأذن له فى الركوب الى الصلاة فى الجمعة والعيدين ، والى حيث شاء من أماكن الاسكندرية

وفيه توفى الأمير قان بردى الابراهيمى الاينالى أحد مقدمى الألوف بمصر .

وفيه جاءت الأخبار بقتل السلطان أبى سعيد بن أحمد بن سعيد بن سعدان شاه تمرلنك ، وكان متملكا على سمرقند وبخارى ، وقتل على يد حسن الطويل ، وكان من أجلّ ملوك الشرق قدرا . فلما قتل تولى من بعده أحمد ، وهو باق على ملكه الى يومنا هذا .

وفيه خلع السلطان على يشبك بن حيدر الاينالى وقرره فى ولاية القاهرة ، فحسنت أوقاته بها ، ودام فى الولاية نحوا من عشرين سنة .

وفيه استقر فى مشيخة المدرسة الصلاحية — المجاورة لقبة الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه — الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية عوضا عن زين العابدين ابن قاضى القضاة يحيى المناوى بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وخرج صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق ،

فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة من برك وسنيح وغير ذلك .

وفيه لبس السلطان البياض فى يوم الاثنين سادس عشريه — الموافق الثالث عشر بشنس — فخرج من الدهيشة لابس البياض . وقد خالف العادة فى ذلك بعدم لبسه له يوم الجمعة وهى العادة القديمة ، فعيب ذلك عليه .

وفيه عاد القاضى شرف الدين الأنصارى من جبل نابلس ، وكان خرج بسبب جمع العشير المتوجه مع التجريدة فقيل انه صرف على جمع العشير من النفقة نحوا من مائتى ألف دينار .

وفيه نزل السلطان نحو قليوب ، ثم عرج على جسر أبى المنجا ، ثم عاد الى تربة يشبك الدوادار ، فأقام بها الى ما بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر لما وصل آخذ باب الملك ، وأنهم فى استظهار على العدو سوار . ثم جاءت الأخبار من نائب حلب بقتل مال باى الأقطع أخى سوار وجماعة كثيرة من عسكره ، وبعث برأس مال باى الأقطع ومعها رأسان من أمرائه ، فلما حضرت تلك الرءوس طيف بها فى القاهرة ، ثم علقت بباب زويلة وباب النصر .

وفيه جاءت الأخبار بموت خاير بك البهلوان ، وكان أحد الأمراء بدمشق ، قتل هو وجماعة من العسكر فى واقعة مال باى أخى سوار .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو طرا فأضاف هناك محمد بن البلاح ، فأقام الى آخر النهار وعاد .

وفيه سافر السلطان الى جهة بحيرة تنيس ، وكان معه من الأمراء المقدمين برقوق الناصرى ، واستمر فى هذه السفرة أياما ، وانقطع خبره عن الناس مدة ، وقد قرب عيد النحر ، فبعث مرسوما بطلب قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ليصلى به صلاة عيد النحر بفارسكور ، فخرج القاضى بسرعة وأخذ معه أشياء من نوع المآكل هدية للسلطان ، فتوجه الى نحو فارسكور ، فعيد السلطان هناك وقطع أضحية جماعة من أولاد الناس والفقهاء والنساء ، حتى الخوندات وجماعة كثيرة من الجند ، فحصل للناس كسر خاطر بسبب ذلك ... وكان العسكر فى هذا العيد غائبا فى التجريدة ، والسلطان مسافر ، وكان عقيب الفصل وقد فقدت الناس أولادهم وعيالهم ، وقطعت ضحاياهم المرتبة لهم بالديوان السلطانى من قديم الزمان .

وفى يوم عيد النحر كانت بشارة النيل المبارك بما جاءت به القاعدة ، ثم نودى عليه من غد .

واستمر السلطان فى هذه السرحة غائبا نحوا من أربعين يوما ، وطاف عدة بلاد من الشرقية والغربية ، فدخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان والمدركين من خيول ومال وغير ذلك .

وكان خروجه الى السفر على حين غفلة ، ولم يكن معه من الأمراء المقدمين سوى برقوق وبعض أمراء عشراوات وبعض عسكر . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قصد العود الى الديار المصرية ، وقد وصل الى بلبيس . فلما وصل الى الخانقاه خرج اليه أرباب الدولة قاطبة ، ثم نودى فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة . فلما كان يوم الخميس تاسع عشر الشهر المذكور دخل القاهرة من باب النصر فى موكب حافل ، وقد حمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى برقوق أحد المقدمين ، وموجب ذلك غياب الأتابكى أزبك بالتجريدة ، وكان له يوم مشهود ، ومشت قدامه الجنايب بالأرقاب الزركش ، ولاقاه الأوزان والشعراء والشبابة السلطانية ، وفرشت تحت حافر فرسه

الشـــقق الحرير من عند مدرسة أم الســـلطان التى بالتبانه الى القلعة ، ونثر على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ومشت قدامه الأمراء الرءوس النوب بالشـــاش والقماش من بين القصرين الى القلعة ، واصـــطفت له المغانى من النســـاء فى الدكاكين ، واستمر فى ذلك اليوم موكب حافل حتى طلع الى القلعة ، وهذا أول مواكبه الحافلة .

وصادف أن قاصد حسن الطويل كان حاضرا ، وصار متعجبا من حسن هـــذا الموكب ، وكان قد حضر وعلى يده رأس أبى ســـعيد ملك سمرقند ، وقد تقدم أنه قتل على يد حسن الطويل فلمـــا طلع السلطان الى القلعة وجلس على الدكة بالحوش حضر قاصد حسن الطويل ورأس أبى سعيد معه فى علبة ، وكان العسكر بالشاش والقماش ، وكان الموكب عاما . فلما انفض الموكب أقام السلطان بعد ذلك أياما ثم حضر تانى بك الظاهرى أحد رءوس النوب — وكان من جملة من خرج فى التجريدة — فأخبر بكسر العسكر ورجوعه من حلب ... وهذه ثانى كسرة وقعت لعسكر مصر مع سوار . فلما تحقق الســـلطان ذلك اضطربت أحواله وماجت القاهرة بمن فيها . وكان سبب انكسار العسكر أن سوار تحيـــل عليهم حتى دخلوا فى مواضع ضـــيقة بين أشجار ، فخرج عليهم السواد الأعظم من التركمان بالقسى والنشاب والسيوف والأطبار ، فقتلوا من العسكر ما لا يحصى عددهم .

وأخبر تانى بك بقتل الأمير قرقماس الجلب ، وكان يعرف بقرقماس بن يشبك خجا الأشرفى ، وكان أميرا جليلا حشما رئيسا يقرب للأشرف برسباى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها رأس نوبة النوب وامرية مجلس وامرية السلاح ، ثم جرى عليه فى دولة الظاهر بلباى ما تقدم ذكره وسجن ثم أطلق وتوجه الى دمياط ثم عاد الى مصر فى دولة الأشرف قايتبـــاى ، وأعيد الى امرية مجلس ، وخـــرج الى التجريدة وقتل فى المعركة .

وأخبر بموت جماعة من الأمراء وغيرهم ، منهم سودون القصروى رأس نوبة النوب ، مات بحلب وكان مجروحا فحمل الى حلب ومات بها ، وكان قد طعن فى السن ونيف على الثمانين سنة فى العمر . وكان انسانا حسنا دينـــا خيرا ، وهو صـــاحب المدرسة التى بخط الباطلية بجوار داره . وولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة قلعة مصر ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة النواب ومات بحلب ، وكان أصله من مماليك قصروه نائب الشام ، وكان دواداره

وتوفى برسباى أمير آخور ثانى ، وكان يعـــرف ببرسباى الأبو بكرى ، وكان أمير عشرة ورأس نوبة .

وتوفى اينال باى بن ميق الاينالى ، وكان أمير عشرة . وتوفى تغرى بردى الأرمنى المنصورى . وتوفى ططمش المحمـــدى الأشرفى برسباى ، قيل رماه سوار من أعلى السور فمات لوقته ، وكان شجاعا بطلا . ونوروز الدوادار ، وفارس البكتمرى أحـــد العشراوات ، وقجماس الطويل الحســـنى الظاهـــرى أحـــد الأمراء الطبلخانات ، ونوروز شكال ابن تغرى بردى الأرمنى المنصورى أحـــد العشراوات ، ونوروز تمر العلائى الأشرفى برسباى قيل رماه سوار من أعلى الســـور فمـــات لوقته ، وكان شـــجاعا بطلا ، ونوروز الدوادار بن عينى الأشرفى أحـــد العشراوات وكان أمير خازندار ، وقانم بيضا اليوسفى الظاهرى أحد العشراوات .

وقتل أيضا من أمراء دمشق : الشرفى يحيى بن جانم نائب الشـــام أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وكان يوصف بالشجاعة . وقتل محمد بن تنم بن

عبد الرزاق نائب الشام أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق وحاجب ثانى بدمشق ، وفارس الشهمى أحــد الأمراء بدمشق ، وشــاد بك آمر الاينالى أتابك دمشق ، وتمر باى الجلبانى أحــد الأمراء بدمشق ، وابراهيم بيغوت نائب حماه وكان حاجب الحجاب بدمشق ، وجانى بك السيفى تغرى برمش دوادار الســلطان بدمشق ، وشــاد بك الحسنى الشــعبانى أحــد أمراء دمشــق ، وعبد الرحمن الحمزاوى أحد الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وأما من قتل من الجنــد والمماليك السلطانية ومشايخ عربان جبل نابلس والعشــير والتركمان والغلمــان فمــا أمكن ضبطه . وكانت هذه من الواقعات المشهورة التى لم يسمع بمثلها فلما شاع بين الناس ذكر من قتل من الأمراء والعسكر صار بالقــاهرة فى كل حارة نعى ليلا ونهارا مثل أيام الوباء ، فزاد قلق الناس من سوار ، ودخل الوهم فى قلوب العســكر مثل أيام تمرلنك ، وصــاروا يرعدون من ذكره . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

يا رب ان سوارا قــد بغــى وبه
قد أصبح الناس فى ضيق وفى قلق
فاكسر سوارا ودعه فى السلاسل فى
خواتم الأمر يستعطى من الحلــق

وقال آخر :

ان ســوارا قــد غــدا مُخلخــلا
عسكره قــد حــل فى دار البوار
يارب شــتت شــمله حتى نرى
خــواتم الأمــر له كسر ســوار

وصار العسكر بعد ذلك يدخلون الى القاهرة فى أنحس حال من العــرى والجوع ، وبعضهم مجــروح وبعضهم ضعيف ، وكان يدخل بعضهم وهو راكب على حمــار أو جمل أو يدخل ماشيا وهو عريان ، ولم يلاقوا فى هذه التجريدة خيرا ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

* * *

وفى ذى الحجة خلع السلطان على الأمير برقوق الناصرى وقرره كاشف التراب بالشرقية ، وحصل به نفع لقمع العربان المفسدين وعمارة الجسور .

وفيه توفى القاضى فتح الدين ابن وجيه الدين ابن سويد المــالكى المصرى ، وهو محمــد بن عبد الرحمن بن حسن ، وكان عالمــا فاضــلا فى مذهبه وناب فى القضاء ، وهو والد جلال الدين ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى من الأتراك جانم المجنون الخشقدمى وكان أحــد الأمراء العشراوات . وتوفى جقمــق المؤيدى وكان أحــد الأمراء العشراوات . وتوفى اياس البجاسى نائب القدس ، وكان لا بأس به . وتوفى العلائى على ابن القيسى ، وهو على ابن اسكنور بن تمار تمر ، مات مع السلطان لما أن خرج الى السرحة مرض فى أثناء الطريق ومات ثم نقل الى القــاهرة على جمل ودفن فى تربته التى بباب الوزير ، وكان رئيسا حشما ، ولى عــدة وظائف منها الحسبة وولاية القــاهرة وحاجب الحجــاب بمصر ، وكان عنده بعض خفة ووهج مع عسوفة وبطش ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة .

وفيه توفى الواعظ البارع المنشد عبد القادر بن محمد الوفائى ، وكان ممن له ذكر وشهرة فى فنه وكان لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريج ، وقد وقع فيها أمور شتى ... الغلاء والفناء والفتن ببلاد الشرق ، وقتل أمراء وعسكر ممن تقدم ذكرهم ، ووقع فيها مصادرات بسبب التجاريد وقطع أرزاق الناس من جوامك وغيرها ، وفقدت الناس فيها أولادهم وعيالهم ، وما لاقى أحد فيها خيرا .

سنة اربع وسبعين وثمانمائة (١٤٦٩/١٤٧٠ م) :

فيها ، فى المحرم ، خلع السلطان على الزينى أبى بكر بن القاضى عبد الباسط وقرره فى نظر الجوالى عوضا عن الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف .

وفيه أخرج السلطان خرجا من جلبانه نحو المائتى مملوك — وهذا أول خرج أخرجه فى سلطنته — وسماهم الأشرفية .

وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار الى الوجه القبلى بسبب جمع المغل من البلاد القبلية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة تمر باى السيفى أخى ألماس نائب قلعة حلب ، وكان شابا حسنا جميل الصورة وأصله من الاينالية .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، ودخل صحبتهم الملك المنصور عثمان ابن الظاهر جقمق فحج وعاد فلما طلع الى القلعة أجله السلطان وأكرمه ، وخلع عليه كاملية بسمور وفوقها فوقانية أخضر بطرز زركش عريض حافل ، ونزل فى موكب حافل الى ان أتى دار الأتابكى أزبك .

وفيه عقد الأمير يشبك الدوادار على خوند فاطمة بنت السلطان المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال، وكان العقد بالجامع الذى بالقلعة بين يدى السلطان ، والقضاة الأربعة حاضرون وسائر الأمراء .

* * *

وفى صفر كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك الرابع والعشرين من مسرى فلما وفى نزل الأمير لاجين الظاهرى — أحد مقدمى الألوف — وفتح السد على العادة .

وفيه أضاف السلطان ، الملك المنصور عثمان بالبحيرة ، وخلع عليه وأذن له بالتوجه الى ثغر دمياط . فخرج وانحدر من يومه . وقد وقع له أمور لم تقع لأحد من أبناء السلاطين قبله . وكان لما حضر أذن له السلطان بأن يلعب معه الأكرة ، فكان يلعب مع السلطان والأمراء المقدمين وهو يبند أصفر مثل السلطان ، وقد بلغ السلطان فى تعظيمه جدا .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن قرقماش الصغير نائب ملطية تقاتل مع عسكر سوار ، فكان بينهما واقعة عظيمة ، وقتل فيها من عسكر سوار فوق خمسمائة انسان ، وأسر جماعة كبيرة من أمرائه وأقاربه ، وكان ذلك بمكيدة صعدت بيد قرقماس حتى بلغ فيها ذلك .

وفيه توفى طومان باى المحمدى — المعروف بدش سر الظاهرى — أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه توفيت خوند فاطمة ابنة الظاهر ططر ، وأخت الملك الصالح محمد بن ططر وزوجة الملك الأشرف برسباى ، وماتت وعليها جملة ديون .

* * *

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على يشبك جن بتقدمة ألف ، وأنعم على قانصوه الأحمدى المعروف بالخفيف بتقدمة ألف ، وقرر فى شادية الشربخاناه دولات باى حمام الأشرفى عوضا عن قانصوه الخفيف ، وقرر فى رأس النوبة الثانية برد بك المشطوب اليشبكى عوضا عن دولات باى حمام

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه توفى بنجاص العثمانى الظاهرى أحد العشراوات وكان حاجبا ثانيا .

وفيه خلع السلطان على جانى بك حبيب العلائى الاينالى ، وقرره فى الأمير آخورية الثانية عوضا عن يشبك جن ، ودام فى هذه الوظيفة عدة سنين .

وفيه توفى الشيخ نور الدين على البطيمى

الضرير ، وكان من أعيـان أهل العـلم والفضل وكف بصره فى سابع سنة من عمره بجدرى أصابه فى عينه ، وكان يعرف بابن شاور البرلسى ومولده سـنة ست أو سبع وثمانمائة ، وكان له نظـم جيـد .

وفيه خلع السـلطان على يشبك الجمـالى المحتسب وقرره فى امرية سلاح بركب المحمل ، وقرر فى امرية أول أقبردى بن أصبـاى الأشرفى برسباى .

وفيه توفى مغلبـاى لزن سـقل الظاهـرى الخشقدمى ، وكان من أحد المقدمى الألوف بمصر ثم أخرج الى القدس بطالا فمات به . وكان أميرا دينـا خيرا ولى عدة وظائف سنية ، منها شـادية الشون وحسبة القـاهرة ، ثم بقى مقـدم ألف بمصر ، ثم نفى الى القدس ومات به .

وفيه أرسل السلطان وقبض على زين الدين الاستادار وكان بطالا مقيما فى داره . فلما قبض عليه أحضره بين يديه ووبخه بالكلام ثم أمر بضربه بين يديه فضرب ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم سجنه بالبرج الذى بالقلعة وصار يحضره بين يديه كل يوم بعد يوم ويضربه أشد الضرب ، فمات وهو فى البرج . فلما أعلموا السـلطان بذلك لم يصدق بموته وأمر باحضاره بين يديه وهو ميت ، فكشف عن وجهه ورفسه برجله ثم أمر بحمله الى داره ليغسلوه ويدفنوه ، فحمل من القلعـة الى داره .

وكان بين السـلطان وبين زين الدين الاستادار عداوة قديمة من حين كان السلطان جنديا الى أن تسلطن ، فأخذ بثأره منه وقتله ، وكان يظن أن مع زين الدين الاستادار مالا فعاقبه وطلب منه من المال ما لا يقدر عليه ، فمات تحت العقوبة . وكان أصل زين الدين من الأرمن ، وكان اسمه يحيى ابن عبد الرزاق الأرمنى ، وكان يعرف بالأشقر ابن كاتب علوان ، وكان يقـرب لابن أبى الفرج . وقد رأى فى دولة الظاهر جقمق من العز والعظمة ما لم يره أحد بعده من الاستادارية ، وعظم أمره جدا ، وأنشأ بالقاهرة وغيرها عدة جوامع يخطب فيها وعدة مدارس ، وولى الاستادارية غير ما مرة وغيرها من الوظائف ، وباشر الاستادارية أحسن مباشرة ، وأنشأ فيها من المظـالم ما لم يسـمع بمثله ، وجرى عليه من الشدائد والمحن والأنكاد ما لا يعبر عنه ، وصـودر غير ما مرة ، وغـرم الأموال الجـزيلة ، وعصر فى أكعـابه وضرب غير ما مرة ، وغرم الأموال فى دول غير أيام قايتباى ، ونفى الى المـدينة المنورة الشريفة والى القدس الشريف وغير ذلك من الأماكن . وكان مولده قبل قرن الثمانمائة ، ولم يلق فى آخر عمره خيرا ، وله أخبار يطول شرحها ... رحمه الله تعالى وعفا عنه بمنه وكرمه .

وفيه توفى شمس الدين محمد بن عبد الرزاق ابن عبد القـادر بن نفيس الأذرعى الشـافعى . وكان من أهل العلم والفضل ، سمع على جمـاعة من العلماء رضى الله عنهم ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر توفى القـاضى شـهاب الدين أحمد بن سعيد بن السوسى المالكى المغربى قاضى قضاة المالكية بدمشق ، وولى قضاء الاسكندرية ، وكان من أهل العلم والفضل وجرت عليه أمور شتى ، وأذهب أموالا جمـة على وظيفـة القضاء . وتوفى السيد الشريف أبو هاشم حمزة بن أحمد ابن على الحسنى الدمشقى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه أرسل السـلطان خلعـة الى قانصـوه اليحياوى باستقراره فى نيـابة حلب عوضـا عن

اينال الأشقر ، وكتب الى اينال الأشقر بالحضور الى القاهرة على تقدمة ألف بها .

وفيه أرسل السلطان الى يشبك البجاسى نائب حماه باستقراره فى نيابة طرابلس ، وقرر موضعه فى نيابة حماه بلاط اليشبكى أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وقرر فى تقدمة بلاط بدمشق تمراز أتابك حلب ، وقرر فى أتابكية حلب تغرى بردى ابن يونس ، وقرر فى حجوبية الحجاب بدمشق محمد بن مبارك عوضا عن بيغوت الماضى خبر موته فى واقعة سوار .

وفيه قرر لاجين الظاهرى فى كشف الجسور بالبهنساوية .

وفيه قرر يشبك جن فى كشف الجسور بالبحيرة .

وفيه توفى قانصوه الساقى التمشى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وكان متمرضا من حين عاد من التجريدة .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن رمضان — أمير التركمان — أخذ جماعة من التركمان وكبس على أعوان سوار وأخذ منهم قلعة سيس ، فسر السلطان بهذا الخبر وأرسل الى ابن رمضان خلعة سنية .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة قانى بك المحمودى المؤيدى الذى كان أمير سلاح بمصر ونفى الى الاسكندرية فى دولة الظاهر تمربغا ، فأقام بالبرج الى أن مات . وكان قد جاوز الثمانين سنة من العمر ، وكان فى أوائل عمره شجاعا بطلا وولى عدة وظائف سنية منها أمير مجلس وامرية سلاح وقاسى شدائد ومحنا فى آخر عمره الى أن مات .

* * *

وفى جمادى الأولى حضر الى القاهرة قراجا السيفى جانى بك نائب جدة أحد الأمراء العشراوات ، وأخبر بأن شاه سوار أطلق الأتابكى جانى بك قلقسيز وبعث به الى حلب وقد أكرمه غاية الاكرام ، وقصد بذلك أن يرضى خاطر السلطان . وقرر مع الأتابكى جانى بك قلقسيز بأن يكون سفيرا بينه وبين السلطان فى أمر الصلح .

وفيه نزل السلطان الى الرماية ببركة الحاج ، وعاد من يومه وطلع من بين الترب .

وفيه ارتفع سعر الغلال حتى بلغ كل أردب قمح أربعة أشرفية ، وبلغ سعر كل أردب فول أو شعير سبعمائة درهم ، وبلغ ثمن الحمل التبن نحو أشرفى ذهب ، وعمت هذه الغلوة سائر البلاد حتى البلاد الشامية وغيرها .

* * *

وفى جمادى الآخرة نزل السلطان ، وتوجه الى خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وأقام هناك ثلاثة أيام ثم عاد الى القلعة .

وفيه وصل اينال الأشقر الذى تقدم ذكره ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ونزل الى دار أعدت له . ثم انه بعد أيام خلع السلطان عليه وأقره فى رأس نوبة النوب الكبرى عوضا عن سودون القصروى بحكم وفاته بسبب تجريدة سوار كما تقدم ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من يومئذ .

وفيه توفى خشكلدى القوامى الناصرى ، وكان أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان جركسى الجنس من مشتروات الناصر فرج بن برقوق . وكان دينا خيرا متواضعا ، وكان قد جاوز الثمانين من العمر .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية بدمشق محيى الدين عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث البكرى المصرى المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية ، وناب فى الحكم بمصر مدة ثم ولى قضاء دمشق . وتوفى تمر باى التمرازى

أحد أمراء العشراوات ، وكان ولى المهمندارية وأقام بها مدة .

وفيه قرر أبو الفتح المنوفى كاتب السلطان — وهو أمير — فى نظر الأوقاف والبيمارستان بالقاهرة . وأشيع بين الناس أن سبب ذلك تحكير الأمير يشبك الدوادار الكبير على الغلال بالوجه القبلى ومنع المراكب من حمله . وفيه يقول الشهاب المنصوري :

وظالم منه أتانا الغلا
يا ويله فى الحشر من ربه
فادعوا وقولوا ربنا اطمس على
أمواله واشدد على قلبه

وفيه خلع السلطان على لاجين ، وقرره أمير مجلس عوضا عن قرقماس الجلب ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل قرقماس الجلب فى واقعة سوار . ثم بعد أيام وصل الأتابكى قلقسير وصعد الى القلعة فقام له السلطان واعتنقه ثم خلع عليه كاملية بسمور ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وركب من باب البحرة ونزل من القلعة فى موكب حافل . ثم بعد أيام خلع عليه السلطان وقرره فى امرية سلاح ، عوضا عن برد بك هجين بحكم وفاته فى واقعة سوار ، وكانت الوظيفة شاغرة . ومن العجائب أن السلطان بعث بمرسوم بمنع جانى بك قلقسير من الدخول الى مصر ، وأن يقيم بحلب ، فقدم جانى بك قبل وصول المرسوم الى حلب بسبعة أيام . فلما حضر قرره فى امرية سلاح بعدما كان أميرا كبيرا .

وفيه قرر جقمق الظاهرى فى نيابة دمياط .

***

وفى شعبان كانت نهاية بناء السبيل الذى أنشأه السلطان بخط القشاشين من تحت الربع ، فجاء السبيل والمكتب فوقه نهاية فى الحسن ، ولا سيما فى ذلك المكان .

وفيه عاد الأمير يشبك الدوادار من الوجه القبلى — وكانت مدة غيبته نحوا من سبعة أشهر — ففعل ببلاد الصعيد من المظالم ما لا يسمع بمثله ، حتى انه شوى بالنار محمودا شيخ بنى عدى ، وخوزق من العربان جماعة ، وسلخ جلد جماعة ، ودفن جماعة فى التراب وهم أحياء ، وفعل بالعربان من أنواع هذا العذاب ما لم يفعله أحد قبله ... فدخل الرعب فى قلوبهم . فلما صعد الأمير يشبك الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل الى داره فى موكب حافل ثم بعد ذلك قدم للسلطان تقدمة سنية مما ينيف على مائة ألف دينار ما بين ذهب عين وخيول وقماش ورقيق وغلال وسكر وعسل وغير ذلك .

وفيه توفى سنطباى بن قصرويه الأشقر الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وكان مريضا من حين عاد من التجريدة .

***

وفى رمضان أمر السلطان بفتح شونتين ، وبيع القمح منهما سعر ألف درهم الأردب ، وكان وصل سعره الى أربعة أشرفية كل أردب ، فحصل للناس بعض رفق وكثر الخبز على الدكاكين .

وفيه نودى من قبل السلطان بأن من أخذ منه شىء من أولاد الناس وغيرهم بسبب بعث البدل الى التجريدة ، فليصعد الى القلعة فى ثامن هذا الشهر ليرد اليه ما أخذ منه من المبلغ . فلما صعد أولاد الناس الى القلعة رد اليهم ما أخذ منهم بحكم النصف ، فتعجب الناس لذلك وما السبب فيه ... فعد ذلك من النوادر .

وفيه توفى القاضى حسام الدين بن بريطع الحنفى

الدمشقى قاضى قضاة الحنفية بدمشق ، وكان من أعيان الحنفية ، ولى قضاء غزة وصفد وطرابلس ودمشق غير ما مرة . وكان رئيسا حشما وله نظم ونثر جيد وخط جيد ، وألف الكتب الجليلة .

وفيه حضر الأتابكى آزبك ، وكان مقيما بحلب من حين كسر العسكر ، فدخل القاهرة هو ومن بقى معه من الأمراء والعسكر وصحبته شاه بضاع أخو سوار الذى أخذ منه سوار البلاد . فلما صعد الأتابكى آزبك الى القلعة خلع عليه السلطان وعلى من معه من الأمراء وعلى شاه بضاع ، وكان معه يحيى كاور أخو سوار أيضا وكان مسك قبل ذلك . فلما مثل بين يدى السلطان آمر بسجنه فى البرج الذى بالقلعة .

وفيه اختفى القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الجيش ... فلما اختفى خلع السلطان على الزينى عبد الرحمن بن الكويز وأعاده الى نظر الخاص .

وفيه صعد قاصد سوار الى القلعة وصحبته هدية للسلطان ، فلم يؤذن له فى صعودها معه ، وحضر بمكاتبة سوار فكان مضمونها أنه يطلب الصلح من السلطان لكن على شروط منه لم يقبلها السلطان ، منها أن يكتب له السلطان تقليدا بامرية الأبلستين ، وأن ينعم عليه بتقدمة ألف بحلب ... وان فعل ذلك يسلم عينتاب للسلطان . فطال الكلام من القاصد والسلطان ولم ينتظم الأمر بينهما فى شىء من الصلح ، ونزل القاصد بغير خلعة .

وفيه خلع السلطان على الجمالى يوسف بن قطيس وقرره فى نيابة القدس عوضا عن دمرطاش العثمانى بحكم انتقاله الى نيابة سيس .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ بدر الدين ابن قاضى شهبة ، وهو محمد بن أبى بكر بن أحمد الأسدى الشهبى الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا ، بارعا فى الفقه ، عارفا بمذهب الشافعية ، عالم الشام على الاطلاق . وترشح أمره لقضاء دمشق غير ما مرة ، ومولده فى سنة ست وثمانمائة .

***

وفى شوال خلع السلطان على البدرى بدر الدين محمد بن الكويز ، وقرره فى معلمة المعلمين عوضا عن البدرى حسن بن الطولونى .

وفيه خرج الحاج من مصر فى تجمل زائد عن العادة ، وخرج صحبتهم الشيخ كمال الدين ابن امام المدرسة الكاملية وكان متوعكا فى جسده ، فلما وصل الى ثغرة حامد مات هناك . وكان عالما فاضلا بارعا سمع على جماعة من العلماء منهم ولى الدين العراقى وابن الجزرى والحافظ بن حجر وغيرهم من العلماء ، وولى عدة تداريس جليلة . وكان من أعيان علماء الشافعية ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه وقعت كائنة عظيمة لجلال الدين عبد الرحمن ابن سويد المالكى ، وطلب الى بيت اينال الأشقر رأس نوبة النوب بسبب أوقاف باعها كانت موقوفة على مدرسة جده ، فغرم بسبب ذلك مالا له صورة ، وحصل له غاية البهدلة من اينال الأشقر ، وما خلص الا بعد جهد كبير ، وافتقر حاله عقيب هذه الكائنة وباع جميع ما يملكه حتى سد ما جاء عليه من المال .

وفيه تزايد ظلم اينال الأشقر حتى صار غالب الناس ما تشتكى الأمر عنده . واشتكى بعض الناس من شخص شاهد ، فضربه وقطع أكمامه وركبه على ثور وأشهره بالقاهرة .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى أنشأها بالصحراء وجعل بها جامعا بخطبة ، وقرر به صوفية

وحوضا وصهريجا وأشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف .

***

وفى ذى القعدة قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض وابتدأ بضرب الكرة مع الأمراء .

وفيه جاءت أخبار بقتل تراباى الظاهرى الخشقدمى ، وكان أميرا بحلب قتله بعض العربان بالبلاد الحلبية ، وكان شجاعا وولى حسبة القاهرة وكان من أعيان الخشقدمية .

***

وفى ذى الحجة طلب السلطان الشيخ تقى الدين الحصنى ، وقرره فى مشيخة تدريس قبة الامام الشافعى رضى الله عنه عوضا عن الشيخ كمال الدين الإمام بالمدرسة الكاملية الماضى ذكر وفاته بطريق الحجاز

وفيه انتهى ضرب الكرة وأضاف السلطان الأمراء ثم اشتغل بتفرقة الضحايا على العسكر .

وفيه كانت وفاة الجمالى يوسف ابن الأتابكى تغرى بردى اليشبغاوى الرومى نائب الشام . وكان الجمالى يوسف رئيسا حشما فاضلا حنفى المذهب وله اشتغال بالعلم . وكان مشغوفا بكتابة التاريخ وألف فى ذلك عدة تواريخ ، منها تاريخه الكبير الموسوم « بالنجوم الزاهرة » و « المنهل الصافى » و « مورد اللطافة فيمن ولى السلطنة والخلافة » . وله تاريخ آخر فى وقائع الأحوال على حروف الهجاء ، وله غير ذلك عدة مصنفات . وكان نادرة فى أولاد الناس ، ومولده سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

وفيه توفى حذيفة بن أحمد الدكمارى المنوفى الحنفى . وكان فاضلا خيرا دينا له شهرة وذكر وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند ، وهو الشيخ عبد الله بن عبد الواحد ، وكان من ذرية أبى الليث السمرقندى فضل الله . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم والزهد ، وله شهرة زائدة ببلاد سمرقند ، ومولده سنة ست وثمانين وسبعمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أمير المدينة المشرفة — وهو السيد الشريف زهير بن سليمان بن هبة الحسنى — وكان ولى امرية المدينة بعد ضيغم والى امرية مكة الى أن مات قتيلا . وتوفى من الأتراك بيبرس بن ططخ الأشرفى ، وكان ولى تقدمة ألف بدمشق . وتوفى جانى بك الحسنى الاينالى أحد الأمراء العشراوات ورءوس النوب . وتوفى دولات باى الاينالى أحد العشراوات ، وكان متمرضا حين عاد من التجريدة ومات بغزة .

وفيه من الحوادث أن السلطان طلب مالا من الست سارة والدة القاضى ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم ليتساعد على خروج التجريدة الى سوار ، فتشكت من ذلك وأظهرت العجز ، فحلف وحياة رأسه لم يأخذ منها أقل من مائة وخمسين ألف دينار ، وصمم على ذلك وقرر معها أنها لاتبيع ملكا ولا ضيعة ولا بستانا ، ولم يقدر أحد من الأمراء ولا غيرهم يخفض عنها شيئا من ذلك ... فاستمرت تورد ذلك المال على حكم ماقرر عليها عدة شهور حتى غلقت ذلك القدر بالتمام والكمال ولم تبع لا ضيعة ولا ملكا . فلما غلقت المال جميعه أرسل خلفها ، فلما حضرت قام اليها وعظمها وخلع عليها كاملية مخمل بسمور ، وأكرمها غاية الاكرام ، ونزلت الى دارها مكرمة معظمة .

سنة خمس وسبعين وثمانمائة (١٤٧٠/١٤٧١ م) :

فيها ، فى المحرم ، كانت الأسعار غالية فى جميع أصناف المأكولات من الحبوب وغيرها ، وعز وجود

الأرز والدجاج من مصر جدا ، وتشحط الخبز من الأسواق ، وصار الناس يستعملون خبز الذرة والدخن . وهذا قط ماوقع ولا فى الغلاء الذى جاء فى دولة الملك الظاهر جقمق ، وتناهى سعر القمح الى سبعة أشرفية الاردب ، ولم يأكل الناس الذرة ولا الدخن فى تلك الأيام .

وفيه كثر القال والقيل بين العلماء بالقاهرة فى أمر الشيخ العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض نفعنا الله تعالى به والمسلمين ببركته ... وقد تعصب عليه جماعة من العلماء بسبب أبيات قالها فى قصيدته التائية ، واعترضوا عليه فى ذلك وصرحوا بفسقه بل وتكفيره ، ونسبوه الى من يقول بالحلول والاتحاد ... وحاشاه أن ينسب اليه هذا المعنى ، ولكن قصرت أفهام جماعة من علماء هذا العصر ولم يفهموا معنى قول الشيخ عمر رضى الله عنه فى هذه الأبيات ، فأخذوا بظاهرها ولم يوجهوا لها معنى ، فكان كما قال المتنبى :

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه
على قدر القرائح والفهوم

وكان رأس من تعصب على الشيخ عمر بن الفارض برهان الدين البقاعى ، وقاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وولده عبد البر . ونور الدين المحلى ، وقاضى القضاة عز الدين المحلى ، وتبعهم جماعة كثيرة من العلماء يقولون بفسقه . وأما من تعصب من العلماء للشيخ ، فهم : الشيخ محيى الدين الكافيجى الحنفى ، والشيخ قاسم بن قطلوبغا الحنفى ، والشيخ بدر الدين بن الغرس ، ونجم الدين يحيى بن حجى ، وشيخنا الجلال بن الكمال الأسيوطى ، والشيخ زكريا الأنصارى ، وتاج الدين بن شرف فلما زاد الرهج فى هذه المسألة كتبت الفتاوى فى أمر ابن الفارض التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشريعة ، فكتب الشيخ محيى الدين الكافيجى على هذا السؤال ما هو أحسن عبارة وأقرب الى الانصاف ، وألف الجلال السيوطى فى ذلك كتابا سماه « قمع المعارض فى الرد عن ابن الفارض » ، وألف البدر بن الغرس فى ذلك كتابا شافيا فى هذا المعنى واضحا فى الرد على من تعرض لابن الفارض ، وصنف بعض العلماء كتابا سماه « دریاق الأفاعى فى الرد على البقاعى » . ووقع فى هذه المسألة مشاحنات بين العلماء يطول شرحها فى هذا المعنى ، ثم هجوا البقاعى وابن الشحنة وغيرهما من العلماء ممن تعصب على ابن الفارض ، وصاروا يكتبونها ويلصقونها فى مزاره فمن ذلك قول الشهاب المنصورى فى البقاعى وأجاد :

ان البقاعى بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالما فقلبه يعاقب

وقوله من قصيدة مطولة مضمنة لأبيات سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه :

بين البقاعى وبين التاج من شرف
ما بين معترك الأحداق والمهج
يقول من صح فيه سهم صاحبه
أنا القتيل بلا اثم ولا حرج
كلاهما مدع حوضا بفكرته
فى كل معنى لطيف رائق بهج
يقول هذا لهذا غير مكترث
دع عنك لومى وعد عن نصحك السمج

ماذا تقـول ولى فى الشرع أجوبة
عنى تقوم بها عند الهوى حججى
دع التعارض لا تشـهر بواتره
فكم أماتت وأحيت فيـه من مهج
فلو سـلكت سبيلى كنت متبعـا
أوفى محب بما يرضـيك مبتهج
لو سـلم المعتـدى للمهتدى لرجا
قول المبشر بعـد اليأس بالفـرج
فمن يكن منهمـا ناج فعصبته
هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

وهذه مطولة وهذا القدر منها كاف .

ومن نظم الأقدمين فى سيدى عمر بن الفارض رضى الله تعالى عنه :

جز بالقرافة تحت ذيل العـارض
وقل السـلام عليك يابن الفارض
أبرزت فى نظم السـلوك عجـائبا
وكشفت عن سر مصـون غامض
وشربت من بحـر المحبـة والولا
فرويت من بحـر محيط فائض

وقال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

عمـر بن الفـارض الحبر الذى
قصرت عن فهـم ما رام الفـكر
لـم يـكن يؤذيه الا جاهـل
فارفضوه وترضـوا عن عمر

ولبعضهم يهجو ابن الشحنة :

اصبحت يا ابن الشحنة الحنفى فى
كل القبـائح أوحـد الأزمان
فى مصر عـلم أبى حنيفة تدعى
جهـلا وأنت معـرة النعمـان

وقال أبو النجا القمى :

أقعـدت يا حليبى   للفارضى يا كا
لمـا ادعيت فسقا   للفارضى يا كا (فر)
وما خلصت حتى   أقمت شاهداكا

ثم ان بعض الأمراء تعصب لسيدى عمـر بن الفارض رضى الله عنه ، وتعصب له السلطان أيضا ورسم لكاتب السر ابن مزهر بأن يكتب صـفة سـؤال الى الشيخ أبى يحيى زكريا الشافعى ، فكتب السؤال وهو هذا : « مايقول الشيخ الامام العالم العـلامة ، البحر الفهامة ، زكريا الأنصارى الشافعى ، نفع الله المسلمين به ، عمن قال بكفر سيدنا ومولانا الشيخ العارف بالله سيدى عمر بن الفارض ، تغمده الله تعالى برحمته ورضـوانه ، فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على ما فهمه من كلامه فى مواضع مرجعها الى اطلاقات معلومة عند السادة الصوفية باصطلاح تخاطبهم لا محـذور فيها شرعا ... فهل يحمـل كلام هذا العـارف على اصطلاح أهل طريقته أم على اصطلاح أهل ملة غير الاسـلام ؟ فمـا الجـواب عن ذلك ؟ أفتـونا أجورين » .

ثم قدم هذا السؤال الى الشيخ زكريا ، فامتنع عن الكتابة غاية الامتنـاع ، فألح عليه أياما حتى كتب ، فأجاب بقوله : « يحمل كلام هذا العارف — رحمة الله عليه ، ونفع ببركاته — على اصطلاح أهل طريقته ، بل هو ظاهر فيه عندهم ، اذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله ، ولا ينظر الى مايوهمه تعبيره فى أبيات فى التائية من القول بالحلول والاتحـاد ،

فانه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته بقوله من أبيات القصيدة :

ولى من أتم الرؤيتين اشارة
تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

« وهذا يصدر عن العارف بالله اذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته فى ذاته ، وصفاته فى صفاته ، ويغيب عن كل ما سواه بعبارات تشعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التى يرقى اليها كما قاله جماعة من علماء الكلام رضى الله تعالى عنهم . ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عمن لم يدركها فما كل قلب يصلح للسر ، ولا كل صدف ينطبق على الدر ، ولكل قوم مقال ، وما كل ما يعلم يقال . وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قيل :

واذا كنت بالمدارك غرا
ثم أبصرت حاذقا لا تمارى
واذا لم تر الهلال فسلم
لأناس رأوه بالأبصار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه ، كما قال القائل :

ولو يذوق عاذلى صبابتى
صبا معى لكنه ما ذاقها

« والحالة هذه ، والله يمنح بفضله ، ويمنع من يشاء بعدله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، وكتبه زكريا بن محمد الأنصارى الشافعى » .

فلما كتب الشيخ زكريا على هذا السؤال سكن الاضطراب الذى كان بين الناس بسبب ابن الفارض رضى الله تعالى عنه ، ونفع به وببركاته المسلمين أجمع آمين .

وفيه عقيب ذلك عزل ابن الشحنة عن قضاء الحنفية ، وحصل له عقيب ذلك فالج ، وذهل وسلب من العلم ، وحصل لولده عبد البر مع القلقيلى ما سنذكره فى موضعه .

وأما البقاعى فكادت العوام أن تقتله ، وحصل له من الأمراء ما لا خير فيه ، فهرب واختفى حتى توجه الى مكة فمات هناك .

وأما امام المدرسة الكاملية فخرج وهو مريض الى الحجاز فمات فى أثناء الطريق بعد خروجه من القاهرة بستة أيام .

وقد جرى على من تعصب على ابن الفارض ما لا خير فيه ، وظهرت بركته فى المتعصبين عليه شيئا فشيئا الى الآن .

وقد روى فى بعض الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى قال : « من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب » ، أى أعلمته بأنى محارب له — أورده النووى فى الأربعين حديثا .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار تقاتل مع ابن رمضان أمير التركمان ، فانكسر ابن رمضان وملك سوار قلعة اياس . فانزعج السلطان لهذا الخبر وأخذ فى أسباب تجريدة الى سوار .

وفيه بعث الأمير يشبك خبرا من البحيرة يطلب نجدة بسبب عربان لبيد ، فعين السلطان الأتابكى أزبك ومعه عدة من الأمراء والجند ، فخرج الى البحيرة .

وفيه وقعت أعجوبة غريبة ، وهى أن امرأة ولدت مولودا وهو جسد بلا رأس ولا له يدان ولا رجلان ، فسبحان القادر الصانع يخلق ما يشاء ! فعاش ساعة ومات .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة برد بك البجمقدار نائب الشام ، وكان يعرف ببرد بك الفارسى

الظاهرى ، ويعرف أيضا بالأقرع ، وكان من أعيان الناس وجماعة الظاهريه ، وكان امير عشرة فى دولة أستاذه الظاهر جقمق ، ثم بقى أمير طبلخانات رأس نوبة ثانى فى دولة الأشرف اينال ، ثم بقى مقدم ألف وحج أمير محمل غير ما مرة ، ثم ولى حاجب الحجاب ، ثم بقى نائب حلب فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم قبض عليه وحمل الى القدس بطالا ، ثم أعيد الى نيابة حلب ، ثم بقى نائب الشام فوليها مرتين ومات بها ، وكان أسيرا عند سوار وهو نائب حلب ، وأطلق بعد موت الظاهر خشقدم وقاسى شدائد ومحنا .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وكان الركب الأول والمحمل ركبا واحدا ، وكان الحاج قاسى فى السنة المذكورة مشقة زائدة من العطش وموت الجمال ، فأرسل يشبك الدوادار شقادف وزادا وماء الى المنقطعين من الحاج ، فلاقوهم من قريب الينبع وحصل بذلك لهم غاية النفع .

وفيه توفى أبو بكر بن على دوادار برد بك البجمقدار نائب الشام ، ويقال انه سم أستاذه برد بك ، فمات أبو بكر قبل أستاذه بأيام . وكان أبو بكر رقى فى أيام أستاذه حتى صار له ذكر وشهرة طائلة بحلب والشام .

وفيه حضر قاصد حسن بك الطويل وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أنه قتل جماعة من أولاد تمرلنك وملك بلادهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم يخبر أنه افتتح عدة بلاد من بلاد الافرنج البنادقة .

وفيه عين السلطان الأمير اينال الأشقر رأس نوبة النوب ، ومعه عدة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وعدة من الجند بسبب قتال سوار . وقد خشى السلطان من سوار أن يكبس حلب على حين غفلة ، فأرسل هذه التجريدة يقيمون بحلب الى أن يرسل تجريدة ثقيله بعد ذلك . فلما عينه بعث اليه النفقة من يومه ، وقد حمل اليه اثنى عشر ألف دينار ، ثم أنفق على بقية الأمراء والجند وألزمهم الخروج بسرعة ، فخرجوا عقيب ذلك من غير أطلاب ولا أشلة ، وقد عز ذلك على اينال الأشقر لكونه خرج فى قلب الشتاء ...

***

وفى صفر توفى الأمير برد بك المشطوب اليشبكى أحد الأمراء الطبلخانات ورأس نوبة ثانى ، وكان لا بأس به ، وأصله من مماليك يشبك نائب حلب .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وكان الوفاء ثانى عشرى مسرى . فلما أوفى توجه قلقسير الأتابكى كان ، وهو على امرية سلاح ، ففتح السد على العادة ، وكان الأتابكى أزبك غائبا فى البحيرة .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على الأمير برقوق الناصرى وقرره فى نيابة الشام عوضا عن برد بك البجمقدار بحكم وفائه . وكان برقوق يومئذ أحد مقدمى الألوف بمصر ، فانتقل الى مدينة الشام فى مدة يسيرة ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ظهر القاضى تاج الدين بن المقسى وكان مختفيا ، فخلع عليه السلطان وأعاده الى نظر الخاص ، وعزل عنها عبد الرحمن بن الكويز . وكان القائم فى عودة ابن المقسى الى نظارة الخاص الأمير يشبك الدوادار ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ومعه الأمير يشبك الدوادار وأعيان الدولة حتى قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى .

***

وفى ربيع الأول ، فى مستهله ، ركب السلطان وتوجه الى طرا ، فصعد القضاة للتهنئة بالشهر فلم يجدوا السلطان بالقلعة ، فأخبرهم نقيب الجيش

عن لسان السلطان بأن يصعدوا للسلطان اذا حضر بعد العصر . وفيه دخل خاير بك الظاهرى الخشقدمى الذى كان تسلطن ليلة واحدة ، فنزل فى بولاق فى بيت صهره ناظر الخاص يوسف ، وكان السلطان رسم له بأن يتوجه الى مكة ويقيم بها . وكان الساعى له فى ذلك الأمير يشبك الجمالى ، فأقام ببولاق أياما حتى عمل له برك وخرج الى مكة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وجلس برقوق الذى قرر فى نيابة الشام رأس الميمنة .

وفيه نزل السلطان الى جهة المطرية ، ونصب هناك الخيام ورسم للأمراء بالتوجه معه ، وأقام هناك أياما على سبيل التنزه ، وصنع هناك الأسمطة الحافلة ، حتى قيل كان مصروف الأسمطة ألف دينار . وفيه خلع السلطان على قاصد حسن الطويل .

وفيه توفى الأمير ثانى بك المعلم المحمدى الأشرفى ، مات بالقدس بطالا ، وكان عارفا بفنون لعب الرمح .

* * *

وفى ربيع الآخر صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر ، فلما أرادوا الانصراف أخذ السلطان فى الكلام معهم بسبب محراب جامع ابن طولون بأن فى أصل وضعه الانحراف عن جهة القبلة ، فقال كاتب السر : « هذا الجامع تحت نظر قاضى القضاة الشافعى » ... فقال القاضى : « ينبغى أن يتغير هذا المحراب ويجدد غيره الى جهة القبلة » ... وانفض المجلس على ذلك ولم يغير فيه شىء الى الآن .

وفيه خرج برقوق الى محل نيابة الشام ، وطلب طلبا حافلا وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن حسن الطويل تحرك على أخذ البلاد الحلبية ، وأنه أظهر العداوة للسلطان ، وقد طمع فى عسكر مصر بموجب مافعله معهم سوار . فثار السلطان لهذا الخبر وقصد أن يخرج الى حلب بنفسه .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأنه قد أبطل عدة مكوس ، منها مكس قطيا ومكس الخشب والأطرون بالبحيرة ، وغير ذلك عدة مكوس أبطلها بمصر وجدة ، فدعا له الناس بسبب ذلك .

وفيه عين السلطان القاضى شرف الدين الأنصارى وكيل بيت المال بأن يخرج الى جبل نابلس لجمع العشير بسبب التجريدة الى سوار ، فخرج هو ودولات باى الخازندار .

وفيه عين فى امرية الحاج بالمحمل يشبك الجمالى ، وفى امرية الأول اقبردى الأشرفى على عادتهما فى العام الماضى .

وفيه قرر السلطان فى الزردكاشية الكبرى جانم السيفى تمرباى عوضا عن فارس الذى توجه الى دمشق .

* * *

وفى جمادى الأولى أرسل السلطان بعزل بلاط اليشبكى عن نيابة حماه وقد أرسل يستعفى من ذلك .

وفيه عين السلطان تجريدة ثقيلة الى سوار ، وعين بها من الأمراء المقدمين يشبك دوادار كبير باش العسكر ، وتمراز التمشى ابن أخت السلطان أحد المقدمين ، وخاير بك حديد الأشرفى ، وأزدمر الطويل الابراهيمى ولم يتم السفر ، ثم عين قانصوه الخفيف ولم يتم له السفر . وعين تمر حاجب الحجاب ولم يتم له السفر . وعين عدة أمراء طبلخانات وعشراوات ، وعرض الجند وكتب منهم

عدة أمراء وأعلمهم بأن السفر يكون بعد أن يربع الخيل .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى خاير بك القصروى بأن يستقر نائب حماه عوضا عن بلاط اليشبكى ، فلما وصلت اليه الخلعة باستقراره فى نيابة حماه مات فجأة قبل دخوله الى حماه . وكان أميرا جليلا تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة القلعة بمصر ، ونيابة غزة ، ثم نيابة صفد ، ثم قرر فى تقدمة ألف بدمشق ، ثم قرر فى أتابكية طرابلس ، ثم فى نيابة حماه ... فمات ولم يدخلها .

وفيه توفى قاضى القضاة الشافعى بحلب — وهو السيد الشريف تاج الدين عبد الوهاب بن عمر بن حسن بن على بن حمزة الحسينى الحلبى الشافعى — وكان من أهل العلم والفضل .

وفيه توفى الأمير يشبك جن الاسحاقى الأشرفى أحد مقدمى الألوف بمصر — وكان يعرف بالبهلوان — ومات وله من العمر نحو من سبعين سنة . وكان حاد المزاج سيىء الخلق .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قرق شبق الأشرفى الذى كان زردكاش بمصر ، ثم نفى ومات وهو مقدم ألف بدمشق . وكان علامة فى لعب الرمح .

* * *

وفى جمادى الآخرة أنعم السلطان على برسباى قرا المحمدى بتقدمة ألف ، وهى تقدمة يشبك جن ، وقرر فى الخازندارية قجماز الاسحاقى الظاهرى عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله الى التقدمة ، وكان قجماز هذا أغا السلطان قديما .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الخانقاه ، ثم سار الى العكرشا وهو راكب الهجن . ثم عاد الى القلعة بعد أيام

وفيه توفى جكم الأجرود الأشرفى نائب صفد .

* * *

وفى رجب نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قناطر العشرة وأقام هناك سبعة أيام ، وتوجه الى الأهرام وهو ماش وحوله الأمراء ، وكانت تلك الأيام مشهودة فى القصف والفرجة ، ونصب له أشاير على رءوس الأهرام ، وعملت له هناك أسمطة فاخرة حافلة ، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة ، وبقية مغانى البلد ، وابتيع المجمع الحلوى هناك بنصفين ، والصحن الطعام الحاص بنصف فضة . ثم ان السلطان رحل من هناك بعد مضى سبعة أيام وتوجه الى الفيوم ، فلما دخلها زينت له وكان يوم دخوله الى الفيوم يوما مشهودا ، ودخل عليه جملة تقادم من الكاشف ومشايخ العربان ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحوا من عشرين يوما ، وكان ذلك فى قلب الشتاء فى زمن الربيع ، ثم عاد السلطان الى القلعة .

وفيه وقع العدل والعطاء بالديار المصرية ، حتى بيعت البطة الدقيق بستة أنصاف ، والرطل الخبز بدرهم نقرة ، وبيع الفدان البرسيم المخضر بدينار ، وكثرت اللحوم والأجبان ، وانحط سعر سائر البضائع .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه اليحياوى — نائب حلب — قد وقع بينه وبين نائب قلعة حلب ، فبعث يشكوه للسلطان ، فأنصف السلطان نائب حلب على نائب القلعة .

وفيه خلع السلطان على قجماز الاسحاقى وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن بلباى العلائى بحكم استقراره فى نيابة صفد عوضا عن جكم الأشرفى المعروف بالأجرود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سوارا قد

استولى على سيس وقلعتها ، ففزع السلطان لهذا الخبر .

* * *

وفى شعبان عزل قاسم شغيته عن نظر الدولة ، ورسم عليه الأمير يشبك الدوادار وطلب منه مالا ، وعين السلطان الأمير برسباى قرا أحد المقدمين بأن يخرج جاليش العسكر الى سوار قبل خروج الأمير يشبك ، فخرج ومعه عدة من الجند ، وبعث اليه السلطان أربعة آلاف دينار .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن السلطان أعاد الى جماعة ما كان أخذه منهم من المال ، لما صادرهم بسبب التجريدة الأولى ، فأعاد الى فارس الركنى ألفا وخمسمائة دينار ، وأعاد الى الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيار ألف دينار ، وأعاد الى فارس السيفى دولات باى ألف دينار ، وبعث لا بن العينى خمسة عشر ألف دينار من بعض ما أخذه منه ، وأعاد الى جماعة كثيرة ما كان أخذه منهم فى المصادرة ... فتعجب الناس من ذلك لكونه فعل ذلك من تلقاء نفسه ، وأشيع بين الناس أنه رأى فى المنام ما أوجب هذا من رد المال على أربابه ، فكان حال الناس معه كما قال القائل فى هذا المعنى :

كنا نؤمل أن نتال بجاهكم
خيرا يكون على الزمان معينا
والآن نقنع بالسلامة منكم
لا تأخذوا منا ولا تعطونا

ولكن فعل بعد ذلك بالناس من المصادرات وأخذ الأموال ما يعجز عنه الواصفون .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن العين التى أجراها السلطان الى عرفات قد انتهى العمل منها ، ووصل ماؤها الى عرفات ، وحصل به غاية النفع لأهل مكة المشرفة . وكان لهذه العين نحو من مائة سنة وكسور وهى معطلة عن الجريان . وكان حوبان أجرى ماءها فتعطلت من بعده حتى أجراها السلطان .

* * *

وفى رمضان أنفق على الجند الكسوة وأنفق على المماليك المعينين للتجريدة نفقة السفر لكل مملوك عشرون دينارا وكسوة عشرة دنانير ، واستمر ينفق عليهم ثلاثة أيام متتابعة .

وفيه كانت وفاة الأديب البارع الفاضل الشهاب الحجازى أحمد بن محمد بن على بن حسن بن ابراهيم الأنصارى الخزرجى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا فى الأدب وله عدة مصنفات فى الآداب، منها كتاب « روض الآداب » و « القواعد فى المقامات » و « شرح المعلقات » و « وقلائد النحور فى جواهر البحور » و « التذكرة » وغير ذلك من الكتب النفسية . وكان ظريفا لطيف الذات ، كثير النوادر ، عشير الناس ، حسن المحاضرة ، وله شعر جيد . فمن ذلك قوله :

فى حندس الليل أتانا فتى
ونادم القوم فبئس النديم
قلت لأصحابى لما أتى
قد جاءنا فى جنح ليل بهيم

ومن قصائده :

قصدت رؤية خصر مذ سمعت به
فقال لى بلسان الحال ينشدنى :
انظر الى الردف تستغنى به وأنا
مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

وكان مولده فى أوائل قرن الثمانمائة ، فلما مرض الشهابى الحجازى بعث اليه الشهاب المنصورى بهذين البيتين :

قيل الشهاب سقيم قلت وا أسفا
ما بال أحمد لا يخلو من العلل

وزن الرقائق من أضحى يجوزها
ووصفه بفنون العلم والعمل

ولما توفى الشهاب الحجازى رثاه الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

زادنى فقد الحجازى شجى
هل يطيب العيش فقدان الحجا

لو درى القمرى أبدى نوحه
أو غراب البين أضحى مسحجا

صار فى زورق نعش قاطعا
منك يا بحر المنايا لججا

وامتطى طرف الردى مستوقرا
طالبا من هم دنياه النجا

ان يكن فى الترب أمسى هابطا
فسيرقى فى الجنان الدرجا

أو يكن ليل الضريح عاكرا
فسيلقاه شهابا أبلجا

فلتطب أرجاء قبر زارها
انها حاكته فى حسن الرجا

فالحجازى مكة تبصره
والشهاب اشتاقه بدر الدجا

قلت كان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا فى عصر واحد ، وكل واحد يدعى بشهاب ، فكان يقال السبعة الشهب ، وهم : الشهاب بن حجر رحمه الله عليه ، والشهاب ابن الشاب التائب ، والشهاب بن أبى السعود ، والشهاب بن مبارك شاه الدمشقى ، والشهاب بن صالح ، والشهاب الحجازى ، والشهاب المنصورى . فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

خلت سماء المعانى من سنا الشهب
فالآن أظلم أفق الشعر والأدب

تقطب العيش وجها بعد رحلة من
تجانبوا بالمعانى مركز القطب

تعطلت خرد الأيام من درر
كانت تحلى بها منهم ومن ذهب

لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت
بهم كما يبطر الانسان بالنسب

ولو درى المسك أن الأرض قبرهم
لود نشقة عرف من شذى الترب

وهذا اختصار من القصيدة التى لهم رحمة الله عليهم أجمعين .

وفيه توفى كسباى الزينى المؤيدى الذى كان نائب الاسكندرية وعزل عنها .

* * *

وفى شوال كان خروج العسكر المعين الى سوار ، فخرج الأمير يشبك الدوادار الكبير ، وأزدمر الاستادار ، وكاشف الكشاف ، وباش العسكر ، فكان فى غاية العز والعظمة ، وقد فوض اليه السلطان أمور البلاد الشامية والحلبيه وغير ذلك من البلاد ، وجعل له الولاية والعزل فى جميع أحوال المملكة ، وكتب معه خمسمائة علامة ، ويكتب على البياض ، وجعل له التصرف فى جميع النواب والأمراء ما خلا نائب حلب ونائب الشام فقط ... فكان له لما خرج يوم مشهود ، وطلب طلبا حافلا بحيث لم يعمل مثله قط ، وجر فى طلبه عدة خيول ملبسة بركستونات فولاذ مكفتة بالذهب وبركستونات مخمل ملون ، وصنع فى رنكه صفة سبع . وقد اقترح أشياء عجيبة غريبة لم يسبق اليها ، ورسم لمماليكه بأن تخرج فى الطلب باللبس الكامل ، وخرج صحبته الأمراء الذين تقدم ذكرهم ، ومن الجند نحو من ألفى مملوك ، فرجت لهم القاهرة ، واستمرت الأطلاب تنسحب الى قريب الظهر . فلما كانت ليلة الرحيل ، نزل

السلطان عند يشبك ، وتكلم معه طويلا ، ثم أضافه الأمير يشبك وركب من عنده وتوجه الى الخانقاه ، ثم عاد الى القلعة . ثم فى ثانى ليلة نزل الأمير يشبك بعد العشاء ، ورحل من الريدانية قاصدا الشام . ثم خرج العسكر أفواجا أفواجا حتى سد الفضاء ، وكانوا من أعيان الشجعان . فتفاءل الناس بأن هذا العسكر ينتصر ، وأن سوارا مأخوذ لا محالة ، وكذا جرى ... وقد عيب على السلطان نزوله الى الأمير يشبك فى الوطاق مرتين ، وهذا بخلاف عادة الملوك وقواعدهم القديمة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان لهم يوم مشهود . ولكن تأخر الى يوم عشريه بسبب فرار غلمان أمير حاج .

***

وفى ذى القعدة ولد للأمير يشبك ولد من زوجته خوند ، ابنة الملك المؤيد أحمد بن الملك الأشرف اينال ، فسموه منصورا . وكان له مهم حافل .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف مبع ابن ظافر ، وقرره فى امرية الينبوع عوضا عن ظافر .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو صقيل ، وقد أضافه القاضى كريم الدين بن جلود كاتب المماليك ، فأقام هناك الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

***

وفى ذى الحجة خلع السلطان على شيخ عربان الشرقية صقر بن بقر وقرره فى مشيخة الشرقية عوضا عن قريبه عيسى بن بقر ، وسجن ابن بقر بالمقشرة ، بعد ما ضرب بين يدى السلطان ضربا مبرحا .

وفيه عين السلطان الأمير تمر حاجب الحجاب ، والأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، بأن يخرجا الى الشرقية بسبب فساد العربان . ورسم السلطان لهما بأن من وجدوه من بنى سعد وبنى وائل يقبضون عليه .

وفيه كان ابتداء عمارة الايوان الكبير الذى بالقلعة . فأمر السلطان بتجديده واصلاح ما فسد من بنائه وكان الشاد على عمارته القاضى كاتب السر ابن مزهر ، والبدرى بدر الدين بن الكويز ومعلم المعلمين ، فصرف عليه نحو من عشرين ألف دينار . وكان قصد السلطان أن تقام الخدمة على العادة القديمة ، ويركب منه ، فلم يتم له ذلك ... واستمر الأمر على حاله الى الآن .

وفيه توفى الاستاذ المغنى الموسيقى محمد المعروف ببرقوق التونسى ، وكان بارعا فى الغناء والانشاد ، وكان له شهرة طائلة . قدم من الغرب يروم الحج فتوفى بالقاهرة .

سنة ست وسبعين وثمانمائة (١٤٧١/١٤٧٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، فى أول يوم كانت بشارة النيل ، فتفاءل الناس بأنها سنة مباركة .

وفيه توفى قاضى القضاة برهان الدين بن الديرى الحنفى ، وهو ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن سعد بن مصلح العبسى القدسى الحنفى ، مات وهو منفصل عن القضاء . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما . وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الاسطبل ، ونظر الجيش ، وكتابة السر ، وقضاء الحنفية ، ومشيخة الجامع المؤيدى ، وغير ذلك من الوظائف .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه نحو شبين القناطر ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فبينما هو سائر فى أثناء الطريق ، اذ شب فرس الأتابكى أزبك على فرس السلطان

ورفسه ، فجاءت الرفسة فى قصبة ساق السلطان فانكسرت ، فنزل بشيبين وهو فى غاية الألم من ساقه ، وأرسل يطلب محفة حتى يعود فيها الى القاهرة . فلما وصل هذا الخبر الى القاهرة كثر بها القال والقيل بسبب عود السلطان فى المحفة . فلما عاد طلع الى القلعة وهو فى المحفة حتى نزل على باب البحرة ، وكانت القاهرة قد زينت لقدومه . فلما طلع تحت الليل هدمت الزينة وأشيع أن السلطان على غير استواء ، حتى نزل المنادى ونادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وسلامة السلطان ، وان تعاد الزينة كما كانت ، فزينت القاهرة ثانيا ثم ان السلطان خرج وجلس على الدكة ، وعلم المراسيم ، وجهز مراسيم الى البلاد الحلبية بسلامته من هذا العارض ، حتى سكن ذلك الاضطراب ، وخمدت هذه الاشاعات من البلاد الشامية والحلبية .

وفيه توفى تغرى بردى بن يونس أتابك حلب ، وكان لا بأس به .

وفيه حضر صحبة الحاج القاضى كمال الدين ابن ظهيرة قاضى جدة ، أخو القاضى برهان الدين ابراهيم بن ظهيرة قاضى مكة المشرفة ، ليسعى لأخيه فى عوده الى القضاء . وكان قد صرف عنه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه سوار قتل قرقماس الصغير نائب ملطية ، وقد تقدم ما فعله قرقماس بجماعة سوار . فلما ظفر سوار بقرقماس قتله أشر قتلة . قيل انه أوقفه فى مكان وبنى عليه حائطا . وقيل بل علقه فى شجرة واستمر يرمى عليه بالنشاب حتى مات . وكان قرقماس الصغير هذا أصله من مماليك الأشرف اينال ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب . وكان لا بأس به

وفيه عين السلطان نيابة ملطية لاينال الحكيم عوضا عن قرقماس الصغير بعد قتله .

وفيه خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن برهان الدين الديرى بحكم وفاته وكانت هذه الوظيفة مع أولاد الديرى بحكم شرط الواقف الملك المؤيد شيخ ، فأخرجها السلطان عنهم للشيخ سيف الدين ، ولم يلتفت الى شرط الواقف

***

وفى صفر جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك الدوادار أخذ قلعة عينتاب من جماعة سوار ، وأن سوارا أخذ أولاده وعياله وماله وأودعهم بقلعة زمنوطو ، وصار عنده التتر من العسكر ، بخلاف العادة .

وفيه عاد الأمير حاجب الحجاب من الشرقية . وقد قبض على جماعة من العربان المفسدين ، وفيهم موسى بن عمران ، وآخر يقال له طاجن — وكان من أعيان العربان المفسدين — فرسم السلطان بتوسيط موسى ومعه جماعة من بنى سعد ، وبنى حرام ، وبنى وائل . فلما بلغ العربان قتل هؤلاء أظهروا العصيان ، وأفسدوا فى البلاد ... فرسم السلطان للأمير تمر باى بعوده الى الشرقية ، فعاد عن قريب .

وفيه ركب السلطان وصلى صلاة الجمعة بالقلعة ، وكان له مدة لم يركب بسبب كسر قصبة ساقه ، فلما ركب كان له يوم مشهود بالقلعة .

وفيه رسم السلطان لابن الطولونى بأن يجدد عمارة الميضأة التى بجامع القلعة ، فوسعها ورسم بعمارة الجامع ، فصرف على ذلك ألف دينار .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك أخذ من سوار ما كان استولى عليه من أدنه وطرسوس ،

وتحارب مع جماعة سوار أشد المحاربة ، حتى طردهم من تلك البلاد وملكها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك فى سادس عشرى مسرى ، فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه توفى أسنبغا التترى اليشبكى الناصرى أحد الأمراء العشراوات ، ورءوس النوب ، وكان لا بأس به .

وفيه ركب السلطان ونزل من القلعة وتوجه الى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وكشف عما تهدم من حيطانه وسقوفه وأمر ببنائه من ماله ... وشرع فى ذلك .

❋ ❋ ❋

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه نودى من قبل السلطان بألا يشكو أحد أحدا للسلطان الا بعد أن يرفع أمره لأحد من الحكام ، فاذا لم ينصفه يقف بعد ذلك للسلطان . وكان قد كثرت شكاوى الناس بين يدى السلطان ، حتى ان امرأة شكت زوجها لأجل أنه وطىء جارية فى ملكه ، فما أطاقت زوجته الغيرة وشكته للسلطان بقصة .

وفيه خلع السلطان على الأمير يشبك الجمالى وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل على عادته . وكان السلطان عين برسباى الشرفى ، فاستعفى من ذلك فعفا عنه .

❋ ❋ ❋

وفى ربيع الآخر نزل السلطان الى نحو خليج الزعفران على سبيل التنزه ، وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى آخر النهار ، فلما عاد ووصل الى الحسينية وجد فى طريقه جنازة ، وهى امرأة غريبة ليس معها أحد من الناس سوى الحمالين ، فنزل عن فرسه ومن معه من الأمراء ، فصلى عليها فى قارعة الطريق . وقدم الجماعة الذين حضروا الصلاة فعد ذلك من النوادر . وقد وقع مثل هذه الواقعة للأمير أحمد ابن طولون ، واستمر ماشيا قدام الميت حتى واراه التراب .

وفيه بعث السلطان الى الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه وقرره فى نيابة عينتاب ، فنزل الى داره وهو مهموم ، وأقام على ذلك أياما حتى شفع فيه الأتابكى أزبك وأعفى من ذلك .

❋ ❋ ❋

وفى جمادى الأولى حضر محمد بن نائب بهنسا بمكاتبة يذكر فيها انحلال أمر سوار من الأمير يشبك ، وأن عسكر سوار قد فل عنه ، وهو خائف من العسكر . ثم أرسل الأمير يشبك يطلب من السلطان نفقة للعسكر يتوسع بها ، فان العليق كان هناك مشحوتا ، فبعث السلطان مائة ألف دينار تفرق على العسكر هناك .

وفى هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة عز الدين أحمد الحنبلى ، وهو أحمد بن ابراهيم ابن نصر الله بن أحمد بن محمد بن هاشم بن اسماعيل بن نصر الله بن أحمد العسقلانى الحنبلى ، وكان عالما فاضلا متواضعا فكه المحاضرة ، بقية الناس ، سمع على جماعة من العلماء وأجازوه ، وناب فى الحكم مدة ، ثم ولى القضاء الأكبر بعد وفاة قاضى القضاة بدر الدين البغدادى فى سنة سبع وخمسين وثمانمائة ، واستمر فى هذه الولاية مدة طويلة نحوا من عشرين سنة ، وباشر منصب القضاة بعفة ونزاهة ، وحمدت عند الناس سيرته ، وانتهت اليه رياسة مذهبه ، وولى عدة تداريس

جلبلة ، وعاش من العمر مدة طويلة وقد قارب الثمانين سنة ، ومولده سنة ثمانمائة ، فلما مات استمر منصب القضاء شاغرا لم يتول به أحد ، فأقام نحوا من أربعة أشهر وكان السلطان أرسل خلف برهان الدين بن مفلح من الشام ليلى القضاء ، وكان السلطان رسم لبدر الدين السعدى تلميذ قاضى القضاة عز الدين الحنبلى ، بأن ينظر فى الأحكام المتعلقة بمذهبه الى أن يحضر البرهان ابن مفلح من الشام . فلما عاد القاصد الذى توجه الى ابن مفلح أخبر بأن ابن مفلح مريض ، وأرسل يعتذر للسلطان فى عدم الحضور الى القاهرة ، وتعلل بأشياء تدل على عدم قبوله للولاية . فلما عاد هذا الجواب على السلطان أخذ القاضى كاتب السر ابن مزهر يسعى للسعدى فى أن يلى القضاء ، وكان يومئذ فى الحنابلة من هو أفضل من السعدى ، ولكن الحظوظ تختلف . فلما كان ختم البخارى فى رمضان أحضر السلطان خلعة ، وخلع على بدر الدين السعدى ، واستمر به قاضى القضاة الحنبلية بمصر عوضا عن القاضى عز الدين بحكم وفاته . فنزل من القلعة فى موكب حافل جدا ، وقد استكثر الناس غالبهم على السعدى ذلك ، وكان شابا لم يظهر البياض بلمته . وقد داعبه بعض الشعراء بهذه المداعبة وهى :

قاضيكم ما مثله فى حكمه
عفيف ذيل ليس يدعى زانيا
قد ساس أمر الناس فى أحكامه
فلم ترى أسوس منه قاضيا

وفيه أيضا :

حضرت فى الدرس على قاضى
نص على التقليد فى درسه
فيحسن البحث على وجهه
ويوجب الدخل على نفسه

وفيه خرج السلطان الى الرماية ببركة الحبش ، وكان معه الأتابكى أزبك وبقية الأمراء هناك ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، واصطاد فى ذلك اليوم ثلاثة كراكى وبلشون .

* * *

وفى جمادى الآخرة قدم قاصد من عند صاحب بلاد الهند الملك غياث الدين ، وأحضر على يده هدية الى السلطان ، والى الخليفة المستنجد بالله يوسف ، وأرسل يطلب منه تقليدا بولايته على اقليم الهند عوضا عمن كان قبله من ملوك الهند ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، وكتب له الخليفة تقليدا بما سأل .

وفيه وصل قاصد من عند الأمير يشبك الدوادار وعلى يده مكاتبة من يشبك يذكر فيها أنه وقع بينه وبين عسكر سوار واقعة مهولة على نهر جيحون ، وجرح فيها الأمير تمراز التمشى فى يده بسهم نشاب . وكان أول من ألقى نفسه فى النهر هو ... فلما بلغ العسكر رموا أنفسهم فى النهر خلفه ، فجرح تمراز وأغمى عليه ، فحملوه ورجعوا به الى الوطاق . ثم ان الأمير يشبك تثبت وقت الحرب ، وزحف بالعسكر على عسكر شاه سوار ، وكان بين الفريقين ساعة تشيب منها النواصى ، فانكسر عسكر سوار كسرة بليغة ، وقتل منهم ما لا يحصى عده ، وكان النصر لعسكر مصر على عسكر سوار كما قيل :

جيوشنا كالأسود أضحت
تقتحم الحرب بالعزائم
وسيف سلطاننا طويل
له بقوس العدا غنائم

فالنصر بالفتح منذ أتاه

صير قلب الحسود وارم

فياله فى الورى مليك

لقمع أهل الفساد صارم

فلما رأى سوار الكسرة عليه هرب فى نفر قليل من عسكره ، وطلع الى قلعة زمنوطو واختفى . فلما بلغ الأمير يشبك أن سوارا فى قلعة زمنوطو ، حاصرها أشد المحاصرة ، ورمى عليها بالمدافع واستمر محاصرا لها حتى كان من أمره ما سنذكره . فخلع السلطان على القاصد الذى جاء بهذه الأخبار والبشارة ، وكذلك الأمراء خلعوا عليه ، وانشرح السلطان بهذا الخبر

وفيه نزل الى الرماية وغاب يوما وليلة ، فلما عاد طلع من الصليبة فى موكب حافل .

وفيه خسف جرم القمر جميعا ، وكان خسوفا مهولا فاحشا

* * *

وفى رجب صار السلطان ينزل الى الاصطبل ويحكم فيه بين الناس يوم السبت والثلاثاء . فتكاثرت عليه المحاكمات ، وتزايدت شكاوى الناس اليه . فوقف شخص يقال له محمد القليبى واشتكى من ناظر الخاص تاج الدين أحمد بن المقسى ، وكان السلطان متحاملا عليه فأمر بضربه بالمقارع بين يديه ، فضرب نحو عشرين شيبيا حتى أدمى ، وكان يوما شديد البرد جدا ، وأمر بسجنه فى البرج الذى فى القلعه ، فطلع وهو ماش من باب السلسلة الى البرج عريانا مكشوف الرأس ، والدم يسيل من أجنابه ، فعد ذلك من مساوئ قايتباى .

وفيه ضرب انسان من أولاد الناس امرأة بسكين فى جنبها وهى ماشية بين الناس فى الطريق فماتت فى الحال ، فلما تحقق موتها هرب ولم يعلم ما سبب ذلك .

وفيه نزل السلطان الى نحو المطرية ، ثم عاد من جهة قنطرة الحاجب ، فأذن عليه المغرب عندما وصل الى المدرسة الجيعانية التى بالقرب من بركة الرطلى ، فنزل وصلى المغرب هناك خلف من صلى من العوام ، وكان الامام فى ثانى ركعة ، فصلى مع الجماعة ، فلما فرغت الصلاة وجد الامام صبيا أمرد فأعاد الصلاة ثانيا . ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفيه رسم السلطان ليشبك الجمالى المحتسب بأن ينادى فى القاهرة بأن امرأة لا تلبس عصابة مقنزعة ، ولا سرافوس حرير ، وأن تكون العصابة طولها ثلث ذراع ، وهى بختم السلطان من الجانبين . وكتب بذلك قسائم على من يبيع عصائب النساء وصمم السلطان على يشبك المحتسب فى تكرير المناداة فى ذلك ، وصارت رسل المحتسب يطوفون فى الأسواق ، فان وجدوا امرأة بعصابة مقنزعة أو سراقوس ، يضربونها ويجرسونها ، والعصابة معلقة فى رقبتها . فقلق النساء من ذلك ، وصارت المرأة اذا خرجت لنحو حاجة خرجت من غير عصابة مكببة رأسها ، أو تلبس عصابة طويلة فلما طال عليهن الأمر لبسن العصائب الطوال التى رسم بها السلطان . وكن يلبسنها اذا خرجن الى الأسواق فقط على كره منهن . ويلبسن العصائب المقنزعة فى بيوتهن . وفى هذه الواقعة يقول الأديب زين الدين بن النحاس الشاعر :

أمر الأمام مليكنا بعصائب

فى لبسها عسر على النسوان

فقلقن ثم أطعنه ولبسنها

ودخلن تحت عصائب السلطان

واستمر الحال على ذلك مدة يسيرة ، ثم رجعن الى ما كن عليه من لبس العصائب المقنزعة

والسراقوس ، ولم يلتفتن الى تحجر السلطان فى ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى الشرفى وقرره فى امرية الحاج بالمحمل ، وكان قد أعفى من ذلك . وقرر يشبك الجمالى فى امرية الحاج ، ثم بطل وقرر فيها برسباى الشرفى .

وفيه خلع السلطان على البدرى بدر الدين بن مزهر القاضى كاتب السر ، وقرره فى نظر الخاص عوضا عن تاج الدين بن المقسى ، بحكم صرفه عنها وكان بدر الدين بن مزهر صغير السن ، لم ملتح ، حين قرره فى نظارة الخاص .

***

وفى شعبان نزل السلطان الى خليج الزعفران وقد أضافه الزينى آبو بكر بن عبد الباسط ، فأقام عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه انتهت مواكب الاسطبل وضبط مافرقه السلطان على الفقراء وأرباب الديون فى هذه المدة . فكان نحوا من ثمانمائة دينار .

وفيه ظهر بالسماء نجم له ذنب مستطيل ، وكان يظهر من جهة الغرب ، ثم صار يظهر من الشرق .

وفيه خرج الأمير قانى باى صلق وتوجه الى جهة حلب ، وعلى يده كوامل الشتاء للنواب ، وعدة خلع للأمير يشبك الدوادار ، وبرسم من يرد عليه من التركمان ، وأرسل على يده نحوا من أربعين ألف دينار برسم توسعة للعسكر .

وفيه عرض السلطان محابيس المقشرة وأطلق منهم جماعة ، وكان بها شخص له نحو من ثلاثين سنة ، فعمل مصلحته ووزن عنه للمدينين مبلغ له صورة وأطلقه .

وفيه نزل السلطان وعدى الى بر الجيزة ، فأضافه شخص من عرب اليسار يقال له محمد بن برقع ، فمد له أسمطة حافلة ، وبات عنده ، ثم عدى وتوجه الى شبرى ، وطلع من هناك وتوجه الى العباسة ، فأضافه هناك الشيخ بيبرس بن شعبان شيخ العرب . وأقام بالعباسة أياما ثم عاد الى القلعة .

وفيه توفى الأمير طوخ الأبوبكرى المؤيدى الذى كان زردكاش ، ونفى الى ثغر دمياط ، ثم شفع فيه وعاد الى القاهرة . ثم مات وهو بطال ، وكان لا بأس به .

***

وفى رمضان رسم السلطان للقاضى عبد الغنى بن الجيعان بأن يفرق على الفقهاء والعلماء توسعة فى رمضان لعيالهم ، واستمر ذلك عمالا فى كل شهر رمضان مدة أيام الأشرف قايتباى الى أن مات ، ثم تناقص ذلك من بعده .

وفيه رسم السلطان باحضار الأتابكى جرباش كرت ، وكان مقيما بثغر دمياط ، وكذلك الأمير يشبك المؤيدى ، الذى كان دوادارا كبيرا ، فتكلم لهما بعض الأمراء بأن يحضرا الى القاهرة ويكونا فى دورهما بطالين ، الى أن تنقضى أعمارهما ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وأمر باحضارهما ، وكان الشرفى يحيى بن يشبك الفقيه متمرضا ، فلما حضر أبوه أقام مدة يسيرة ومات ، وكان شابا حسنا حشما رئيسا شجاعا بطلا ، حوى أنواع الفروسية ، وساق من جملة الرماحة بالمحمل ، وكان الظاهر خشقدم أنعم عليه بامرية عشرة ، وكانت أمه خوند بنت المؤيد شيخ ، وكان نادرة فى أبناء جنسه . ومولده سنة ثمان وثمانمائة .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده هدية للسلطان . وقد حضر يروم الحج .

وفيه ختم البخارى وخلع فى ذلك اليوم على

بدر الدين السعدى ، وقرره فى قضاء الحنابلة عوضاً عن عز الدين الحنبلى .

وفيه صعد فى يوم عيد الفطر سيدى منصور بن الظاهر خشقدم الى القلعة ليهنىء السلطان بالعيد ، وكان السلطان جالسا على الكرسى بالقصر الكبير . فلما وقف سيدى منصور بين يديه خلع عليه متمر ، ثم طلبه وأجلسه معه على الكرسى — وكان صغير السن دون البلوغ — فعد جلوسه مع السلطان على الكرسى من النوادر التى ما وقعت قط .

وفيه جاءت الأخبار من عند يشبك الدوادار بأن شاه سوار قد تلاشى أمره ، وفل عنه غالب عسكره ، وأرسل يطلب الصلح من الأمير يشبك ، وأن يكون نائبا عن السلطان فى قلعة درندة ، وأنه يرسل ولده بمفاتيح القلعة ، فما وافق السلطان على ذلك الا أن يحضر سوار بنفسه ، ويقابل السلطان .

وفيه توفى القاضى نجم الدين العجلونى محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الزرعى الدمشقى الشافعى مذهبا ، وكان عالما فاضلا ، قدم الى القاهرة بطلب من السلطان ليلى القضاء ، فتوعك فى جسده فمات ، ودفن بالقاهرة .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحمل برسباى الشرفى ، وأمير ركب الأول الشهابى أحمد ابن الأتابكى تانى بك البرديكى الظاهرى برقوق .

وفيه وقعت حادثة غريبة وهى أن نجارا كان عمالا بالقلعة فى بعض طباق المماليك ، فسقط من مكان فمات لوقته ، وكان له أولاد وعيال وهو فقير ، فوقف أولاده وعياله بقصة للسلطان يلتمسون منه شيئا من الصدقة ، فأمر لهم بمائة دينار ، وأمر للميت بثوب بعلبكى وثلاثة أشرفية يجهزونه بها ، فعد ذلك من محاسن الأشرف قايتباى .

وفيه رسم السلطان بشنق جارية بيضاء ومعها غلام ، فشهروهما فى القاهرة على جملين ، وكان سبب ذلك أن الجارية اتفقت مع الغلام على قتل سيدها ، وأخذ ماله ويهربان ، فقتلاه ودفناه فى الاصطبل . فلما ظهر أمرهما ، رسم السلطان بشنقهما فشنقا .

وفيه توفيت خوند مغل بنت البارزى زوجة الملك الظاهر جقمق ، وكانت دينة خيرة ولها بر ومعروف ، وهى التى عمرت جامع الشيخ مدين بالمقس ، ووقفت عليه أوقافا كثيرة ، وكانت ناظرة الى فعل الخير .

وفيه كانت نهاية عمارة الجامع الذى قد أنشأه تمراز أحد الأمراءخورية بجوار قنطرة عمر شاه .

***

وفى ذى القعدة غرقت مركب ببحر النيل ، وكان فيها بضائع كثيرة لتجار من الأروام ، ولم ينج منها سوى ثلاثة أنفار ، فعين السلطان شرف الدين بن كاتب غريب ، ومعه القاضى جلال الدين ابن الأمانة أحد نواب الشافعية ، الى المكان الذى غرقت فيه المركب لضبط مايظهر من تلك البضائع التى غرقت هناك ، فلم يظهر من ذلك الا اليسير وغرق الأكثر .

وفيه قدم قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى يده هدية للسلطان ومكاتبة فيها أشياء سرا ، فلم ينشرح السلطان لقدوم هذا القاصد ، ولم يعلم ما فى المكاتبة .

وفيه توفى يوسف بن مغلطاى نائب ثغر دمياط وكان لا بأس به .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين بنى حرام وبنى

وائل . وكثر الفساد من العربان بالشرقية ، حتى امتنع مرور الناس من الأسفار الى الشرقية من كثرة القتل ، وقطع الطريق ، وسلب أثواب المسافرين .

***

وفى ذى الحجة وصل قاصد من عند يشبك الدوادار ومعه مكاتبة ، يخبر فيها أن سوارا أرسل يطلب الأمان لنفسه ، وأنه يقيم بقلعة زمنوطو هو وعياله . فقال له الأمير يشبك : « حتى نكاتب السلطان بذلك » .

وفيه قدم اياس الطويل المحمدى الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ورسم له بأن يعود الى طرابلس ، وأنعم عليه بامرية بطرابلس يأكلها وهو طرخان . وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه وصل الأتابكى جرباش كرت من ثغر دمياط هو ويشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا كبيرا وشفع فيه بعض الأمراء بأن يكون بداره بطالا حتى ينتهى أجله . فرسم السلطان باحضاره هو ويشبك الفقيه ، فلما طلع الأتابكى جرباش الى السلطان عظمه ، وقام اليه وأجلسه الى جانبه . ثم ان الأتابكى جرباش قام وقبل يد السلطان فى أن يشفع فى جانى بك كوهيه ، بأن يحضر هو أيضا الى القاهرة ، وكان بثغر دمياط . فأجابه السلطان الى ذلك ، ورسم باحضاره ، ثم خلع على الأتابكى جرباش ويشبك الفقيه ، ونزلا الى دارهما .

وفيه أمر السلطان بانشاء البرج العظيم بقرب ثغر رشيد ، فجاء غاية فى الحسن من البناء والاتقان

وفيه تزايد فساد بنى حرام وبنى وائل ، وفسدت أحوال الشرقية ، فعين لهم السلطان تجريدة ، وكان بها من الأمراء الأتابكى أزبك وجانى بك قلقسيز أمير سلاح وأزدمر الطويل ، أحد المقدمى الألوف . وعين معهم جماعة كثيرة من الجند ، وأمرهم بالخروج الى الشرقية سريعا .

وسبب ذلك أن العربان من بنى وائل وبنى حرام ، هجموا على القاهرة حتى وصلوا الى رأس خط الحسينية ، ونهبوا الدكاكين ، وسلبوا أثواب الناس . واستمر الحال على ذلك من بعد العصر الى ما بعد المغرب ، فرجعوا حيث جاءوا . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم هؤلاء الأمراء ، فخرجوا من يومهم سريعا ... ثم ان الأتابكى أزبك عاد الى القاهرة بعد أيام ، ومعه بعض عربان ، فأودعوهم فى المقشرة . وأما بقية الأمراء ، فرسم لهم السلطان بالاقامة فى الشرقية لرد العربان المفسدين .

وفيه ولدت امرأة أربعة أولاد فى بطن واحد وهم صبيان وبنتان ، وكان أبوهم فقيرا فحملهم الى السلطان ، فلما وضعوا بين يديه تعجب منهم ، ورسم لأبيهم بعشرة دنانير ، وخمسة أرادب قمح .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر الصغير الابراهيمى الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات ، ورءوس النوب ، مات قتيلا على حصار قلعة زمنوطو ، وكان شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية . وتوفى حسن التميمى ابن بيرم بن ططر نائب القدس والخليل ، وكان لا بأس به .

وفى هذه السنة كانت الفتن المهولة ببلاد فارس ، واستمرت الفتن عمالة حتى ملكها بنو أوطاس . وكانت الفتن ببلاد الشرق بين حسن الطويل وبين ملوك هراة وسمرقند . وكانت الفتن عمالة بسبب سوار . وخرجت السنة المذكورة عن شرور وفتن فى بلاد الشرق وغيرها .

سنة سبع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٢/١٤٧٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، وقع بين الأتابكى أزبك وتغرى بردى ططر بسبب ضرب الكرة ، وقد زاحم فرس تغرى بردى ططر ، فرس الأتابكى أزبك ، فحنق منه فزاحمه عدة مرار وهو صابر له ، ثم حنق منه فضربه بالصولجان حتى تكسر على ظهره . وتغرى بردى يسب الأتابكى أزبك ، ويشتمه شتما فاحشا ، حتى وقف بينهما الأمير جانى بك قلقسير ، فثنى الأتابكى عنان فرسه ، ونزل الى داره كالغضبان . فتنكد السلطان غاية النكد بسبب ذلك .

وفيه توفى قلمطاى الأشرفى الاسحاقى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية .

وفيه حضر قانى باى صلق وعلى يده مكاتبة الأمير يشبك الدوادار ، تتضمن القبض على شاه سوار ونزوله من قلعة زمنوطو ، وقد وصل قانى باى صلق من حلب الى مصر فى ثلاثة عشر يوما . فلما صحت الأخبار عند السلطان سر بذلك ، وخلع على قانى صلق خلعة حافلة ، وكذلك سائر الأمراء خلعوا عليه حتى المباشرون . فحصل له جملة خلع سنية .

وكان من ملخص أخبار القبض على شاه سوار أنه لما طلع الى قلعة زمنوطو واختفى بها ، حاصره الأمير يشبك الدوادار أشد المحاصرة ، وقد فل عن سوار عسكره وأراد الله خذلانه ، فأرسل يطلب الأمير تمراز التمشى ، قريب السلطان ، فتلطف الأمير يشبك بالأمير تمراز حتى وافقه الى طلوعه الى سوار ، فطلع الى قلعة زمنوطو وصحبته القاضى شمس الدين أجا الحلبى قاضى العسكر ، وهو والد القاضى كاتب السر الآن . فلما طلع الأمير تمراز الى سوار واجتمع به ، تعلل سوار بأنه يلبس خلعة السلطان ، ويبوس الأرض ولا يقابل الأمير يشبك . فما وافقه الأمير تمراز على ذلك ، فقال له سوار : « أنا قتلت من العسكر جماعة كثيرة وأخشى اذا نزلت اليهم يقتلونى » . فقال الأمير تمراز : « ضمانك علىّ فما يصيبك شىء » . فما وافق سوار على نزوله من القلعة . فقام الأمير تمراز والقاضى شمس الدين بن أجا من عنده والمجلس مائع .

فلما عاد الأمير تمراز بالجواب على الأمير يشبك ، لم يوافق على ذلك ، وحاصر سوارا ، وضيق عليه ، ورمى عليه بالمدافع فما أطاق سوار ذلك ، فأرسل يطلب الأمير تمراز والقاضى شمس الدين بن أجا ثانيا ، على أنه ينزل صحبتهما ، فطلع اليه الأمير تمراز وابن أجا ثانيا ، فطال بينهما المجلس ، وقيل ان سوارا أضاف الأمير تمراز وابن أجا بقلعة زمنوطو . فلما طال جلوس الأمير تمراز وابن أجا بقلعة زمنوطو عند سوار ، ماج العسكر على بعضه ، وأشيع بأن سوارا قد قبض على الأمير تمراز وابن أجا بقلعة زمنوطو ، فلما مضى من النهار النصف نزل الأمير تمراز هو والقاضى ابن أجا وصحبتهما شاه سوار ، وهو فى نفر قليل من عسكره ، فتوجه الى وطاق الأمير يشبك الدوادار ونزل عن فرسه ودخل على الأمير يشبك فى الخيمة فقام اليه ورحب به وأحضر اليه خلعة وألبسها له . فلما أراد الانصراف من عنده ، قال الأمير يشبك : « امض الى نائب الشام وسلم عليه » وكان يومئذ برقوق نائب الشام . فلما توجه اليه سوار نزل عن فرسه ، ودخل الى برقوق نائب الشام ، وصحبته الأمير تمراز . فلما وقف بين يدى برقوق قال له برقوق : « من أنت ؟ » قال له : « أنا سوار » . قال : « أنت سوار ؟ » قال : « نعم أنا سوار » .

فجعل يكرر عليه هذا الكلام فيقول له : « نعم أنا سوار » . ثم قال له برقوق : « أنت الذى قتلت الأمراء والعسكر ؟ » فسكت سوار . ثم قال برقوق : « أحضروا له خلعة » . فأتوا اليه بخلعة وفى ضمنها جنزير . فلما ألبسوها له وضعوا الجنزير فى عنقه . فلما رأى جماعة سوار أنه وضع فى جنزير ، ثاروا على جماعة برقوق وسلوا سيوفهم . وكان برقوق أكمن كمينا حول الخيمة ، وهم لابسون آلة الحرب ، فهجموا على جماعة سوار ، وقطعوهم ثم قبضوا على سوار وأدخلوه فى بعض الخيام . فلما رأى الأمير تمراز ذلك شق عليه وقال لبرقوق : « أنا نزلت بسوار من القلعة وحلفت له أنكم لاتشوشوا عليه ، فكيف يبقى أحد يأمن لكم ؟ » . فأخرق برقوق بالأمير تمراز خراقا فاحشا ، وربما لكمه . فخرج تمراز من عند برقوق وهو غضبان . وكان الأمير يشبك حلف للأمير تمراز أنه اذا قابله سوار لايقبض عليه ولايشوش عليه . فلما نزل اليه سوار ندب برقوق الى مافعله بسوار . وكان هذا عين الصواب . ودع الأمير تمراز يغضب . فلما تحقق العسكر القبض على سوار ، قاموا على حمية ، وقصدوا التوجه الى الديار المصرية . وهذا ملخص ماوقع فى أمر القبض على سوار . واستمر الأمير تمراز غضبان من الأمراء حتى دخل القاهرة . فلما قبض على سوار خلع الأمير يشبك على شاه بضاع أخى سوار وقرره عوضا عن أخيه فى امرية الأبلستين .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار بأن تانى بك السيفى ألماس الأشرفى نائب البيرة ... (بياض بالأصل) .

وفيه توجه الأتابكى أزبك الى نحو البحيرة فغاب أياما ثم عاد من هناك ومعه جماعة من العربان المفسدين ، وهم فى الحديد ، فرسم السلطان بسجنهم فى المقشرة .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس وأمرهم بأن يلعبوا بالرمح بين يديه حتى يمتحنهم فى ذلك ، ويعلم من يلعب بالرمح ، ومن لا يلعب .. فحصل لهم غاية المشقة لأجل ذلك ، ووبخهم بالكلام ، وربما قصد الاخراق بهم .

وفيه عزل السلطان قاضى القضاة سراج الدين ابن حريز المالكى ووكل به بالطبقة ، ثم خلع على برهان الدين اللقانى أحد نواب الحكم ، وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن ابن حريز . واستمر ابن حريز فى الترسيم .

وفيه كتب السلطان عدة فتاوى ، وأخذ عليها خطوط مشايخ العلم والقضاة فى أمر سوار فأفتوه بأنه خارجى ، وأنه لا يبقى فى قيد الحياة .

وفيه ضرب السلطان ثلاثة من مماليكه الجلبان ومعهم آخر من المماليك الخشقدمية ، فضربهم ضربا مبرحا ، وقد بلغه بأنهم سكروا وعربدوا على الناس . ثم نفى المملوك الخشقدمى الى البلاد الشامية .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه نحو دمياط ورشيد وغير ذلك من البلاد ، فسار فى البحر فى عدة مراكب ، وكان صحبته الأتابكى أزبك والأمير أزبك اليوسفى ، وغير ذلك من الأمراء . واستمر السلطان غائبا فى هذه السفرة نحوا من ثلاثة عشر يوما ، وقد تنزه فى هذه السفرة ، وطاف عدة بلاد ، ثم عاد الى القلعة ..

وفيه أحضر الى القاهرة جماعة من الافرنج قبض عليهم نائب ثغر الاسكندرية ، وكانوا يعبثون بسواحل البحر الملح . فلما عرضوا على السلطان

رسم بسجنهم فى المقشرة ، فأسلم منهم جماعــة ، وجماعة سجنوا بالمقشرة .

وفيه حضر الشيخ عــلاء الدين الحصنى ، وكان خرج بصحبة الأمير يشبك الدوادار فغضب عليه ، وحصلت له كائنة عظيمة مع يشبك ، فهرب منه وأتى الى القاهرة واختفى بها .

***

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك دخل الى الشام وصحبته سوار ، فزينت له الشام زينة حافلة ، وكان له يوم مشهود ، فأقام بالشام ثلاثة أيام ورحل عنها الى غزة . فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بتبييض باب النصر وباب زويلة ، وضرب عليهما الرنوك الذهب . ثم أخذ فى أسباب ملاقاة الأمراء ، فكسا الأمراء المقدمين كل واحد أربع بدلات ، وجهز لهم ملاقاة الى الصالحية .

وفيــه كان وفاء النيل المبارك حادى عشرى مسرى ، فنزل الأتابكى أزبك ، وفتح الســد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه دخل الامير يشبك وبقية الأمراء والعسكر الى الخانقاه السرياقوســية ، وصحبتهم سوار واخوته وهم فى زناجير . فلما وصل الأمير يشبك الى الخانقاه : خرج الأمراء وأرباب الدولة الى ملاقاته ، ثم رحل من الخانقاه ونزل الى الريدانية فخرج القضاة الأربعة وأعيان مشايخ العلماء . ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بالزينة فزينت زينــة حافلة ، ورجت القاهرة لدخول سوار ، حتى بلغ أجرة كل بيت على الشارع أربعة أشرفية ، وأجرة كل دكان أشرفى ذهب ، بســبب الفــرجة على سوار . فخرجت البنت من خدرها تنظر الى سوار الذى قتل العباد ، ويتم الأطفال ، ونهب الأموال .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشر ربيــع الأول سنة سبع وسبعين وثمانمائة ، دخل الأمير يشــبك الدوادار الى القاهرة ، وصحبته شاه سوار . وكان الأمير تمراز التمشى دخل الى القاهرة وهو منفرد عن الأمراء ، لم يرافقهم ، واستمر غضبان بسبب ماحصل له مع برقوق نائب الشام ، لأجل قبضه على سوار . وقد تقدم ذكر ذلك ... ثم ان سوارا أدخل قدام الأمير يشبك وهو راكب على فرس ، وعليــه خلعة تماسيح على أسود ، وعلى رأسه عمامة كبيرة ، وهو فى زنجير كبير طويل ، وراكب الى جانبــه شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له تنم الضبع من الظاهرية الجقمقية — وهــو مشكوك مــع سوار فى الزنجير — وكان قــدام ســوار اخوته وأقاربه وأعيان من قبض عليه من أمرائه ممن نزل معه من قلعــة زمنوط ، فكانوا نحــوا من عشرين انسانا ، وهم راكبون عــلى أكادش ، وعليهم ملاليط بيض ، وعلى رءوسهم عمائم ، وهم فى زناجير ومشكوك معهم جماعة من أعوان الوالى . فشق الأمير يشبك من القاهرة وهو فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء ممن كان معــه فى التجريدة ، وممن كان مقيما بمصر . وسارت الأطلاب أمامه شيئا بعد شىء ، واصطفت الناس على الدكاكين ، وكان له يوم مشهود بالقاهرة لم يقع نظيره فى الفرجة ، وكان من نوادر الزمان .

واستمر الأمير يشبك فى ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، فعمــل السلطان الموكب فى القصر الكبير ، وقبــل الأمراء الأرض . ثم انتقــل الى الايوان ، فجلس به ، وكان من حين جدد معاليمه لم يجلس به سوى ذلك اليوم ، قصدا أن يعرض سوارا هناك ، فتزاحمت عليــه الناس ، فانتقــل السلطان الى الحوش ، وجلس على الدكة ، وطلب سوارا هناك . فلما مثل بين يديه وبخه بالكلام ،

وعاتبه عتابا لطيفا ، وسوار ساكت لم يتكلم . ثم ان السلطان وسم بتسليم سوار الى الوالى يشبك ابن حيدر ، فتسلمه هو واخوته . ثم أخرجوا أخاه يحيى كاور الذى كان فى البرج ، وقد قبض عليه قبل ذلك ، وكان مسجونا فى القلعة ، وسلمه للوالى فلما تسلمهم والى القاهرة نزع الخلعة عنه فى الحال ، وأحضروا لهم جمالا ، فأركبوا سوارا على جمل ، وألبسوه ملوطة بيضاء ، وجعل فى عنقه طوق حديد ، وفيه عمود من حديد طويل ، وفى رأس العمود جرس ، حسبما قد رسم السلطان له بذلك . ثم سمروا اخوته وأقاربه على جمال ، وهم عرايا ورءوسهم مكشوفة . واخوة سوار الأربعة هم : أردوانة الأحدب ، وحداد ، ويحيى كاور ، وسلمان ، وجماعة من أمرائه ... فلما سمروهم وأركبوهم على ظهور الجمال ، نزلوا بهم من الصليبة ، والمشاعلية تنادى عليهم : « هذا جزاء من يخامر على السلطان » . واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى باب زويلة ، فشنكلوا سوارا ، وعلقوه فى وسط باب زويلة ، وأخوه يحيى كاور عن يمينه فى الدخول من باب زويلة لصوب باب النصر ، وأردوانة عن شماله كذلك ، وعلقوا حدادا داخل الباب . وأما سلمان فكان أمرد مليح الشكل ، فرق الناس له ، فشفع فيه الأمير يشبك وخلصه من الشنكلة . ثم توجهوا بالباقى الى باب النصر فوسطوهم بأجمعهم . واستمر سوار معلقا حتى مات هو واخوته ، فأقاموا معلقين يوما وليلة — والناس ينظرون اليهم — ثم أنزلوهم وغسلوهم وكفنوهم وصلوا عليهم ، وتوجهوا بهم الى تل غال بالقرب من زاوية كهنبوش فدفنوهم هناك ، ثم قلعوا الزينة .

وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهب عليها أموال وأرواح ، وقتل جماعة كثيرة من الأمراء ، وكسر الأمراء ثلاث مرات ، ونهب بركهم ، وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم ، حتى ان الفلاحين طمعوا فى الترك ، وتبهدلوا عندهم بسبب ما جرى عليهم من سوار . وكادت أن تخرج المملكة عن الجراكسة ، وقد أشرف سوار على أخذ حلب ، وقد خطب له فى الأبلستين ، وضربت هناك السكة باسمه ... ولولا لطف الله تعالى بالناس ، واخذال سوار لفسدت أحوال المملكة جدا .

وكانت صفة سوار أنه جميل الصورة ، حسن الشكل ، مستدير الوجه ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، أشهل العينين ، أسود اللحية ، معتدل القامة ، ضخم الجسد . وكان فى عشر الأربعين من العمر ، وكانت مخايل الحشمة والرآسة محصورة فيه ، يقرب فى الشكل من القاضى ناظر الخاص تاج الدين بن المقسى ، وكان شجاعا بطلا ، وكان له سعد خارق فيما وقع له من النصرة على عسكر مصر غير ما مرة ، وكان من أعظم أولاد دلغادر ، وقد وقع له ما لم يقع لأحد من أجداده قبله ، وقد شق على الأمير تمراز قتل سوار على هذا الوجه ، واستمر غضبان مدة . وفى واقعة سوار قال المنصورى :

يا أيها الملك الذى سطواته
تغنى عن العسال والبتار
علق سوارا فوق باب زويلة
ان كنت منه آخذا بالثار
فلأنت تعلم أن ذلك معصم
ما كنت تتركه بغير سوار

وقوله أيضا فى الأمير يشبك لما حضر الى القاهرة وصحبته سوار :

منذ وافى الأمير يشبك مصرا
حبذا مصر موطن الأوطار

لبست حجل نيلها وتحلى
زند بابى زويلة بسوار

وفيه حضر الى القاهرة كسباى الظاهرى الخشقدمى ، الذى كان دوادارا ثانيا ونفى الى الشام فأرسل الأمير يشبك يشفع فيه ، فأجيب الى ذلك ، فأحضر كسباى صحبته ، واستمر فى داره بطالا حتى مات كما سيأتى الكلام عليه .

***

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على برسباى الشرفى ، وقرره فى امرية الحاج بالمحمل ، وقرر الشهابى أحمد بن الأتابكى تانى بك البردبكى بامرية الركب الأول ، وكان متوعكا فى جسده فأخذ يستعفى من السفر فما أعفى من ذلك .

وفيه توفى جانى بك الأبيض أحد الحجاب ، وكان قد جاوز السبعين سنة وكان لا بأس به .

وفيه توجه القاضى شرف الدين الأنصارى الى جهة الطينة ، وكان معه مائة مملوك من مماليك الأمير يشبك الدوادار ، فلما وصل الى هناك وجد فى البحر الملح مراكب فيها أفرنج يعبثون بالمسلمين المسافرين ، فقبض على مركب منها وأسر من فيها من الفرنج ، وأحضرهم صحبته لما عاد .

وفيه عزل قاضى القضاة الحنفى ابن الشحنة ، وأمر بالتوكيل به بطبقة الزمام ، وذلك بسبب ما وقع فى عقد المجلس الذى كان بين خوند شقرا وبين أختها خوند آسية ، بسبب وقف الظاهر برقوق ، فتعصب ابن الشحنة لخوند شقرا ، فحنق السلطان منه وعزله ، وكان فى نفسه منه شىء بسبب ولده عبد البر ، وكانت هذه آخر ولايته للقضاء ، ولم يل بعدها القضاء . واستمر فى الترسيم بطبقة الزمام بسبب تعلقات أوقاف الحنفية . ثم ان السلطان خلع على الشمسى شمس الدين محمد الامشاطى ، وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن محب الدين بن الشحنة بحكم انفصاله عن القضاء ، فأفيض عليه شعار القضاء ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وكان قد تمنع من الولاية غاية التمنع ، فألزمه بذلك السلطان .

وفيه شفع الأتابكى فى قاضى القضاة محب الدين ابن الشحنة ، فنقل الى بيت كاتب السر حتى يقيم حساب أوقاف الحنفية .

***

وفى جمادى الأولى توفى دقماق الأشرفى الاينالى نائب القدس ، وكان شابا حسن الشكل موصوفا بالشجاعة .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن حسن بك الطويل ، ملك العراقين ، قد جمع من العساكر ما لا يحصى ، وهو زاحف على بلاد السلطان ، وقد بعث ولده محمدا مع عسكر ثقيل ، وقد وصلوا الى الرها ... فكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، فما صدق العسكر أن خمدت عنهم فتنة سوار ، فاتتشى لهم فتنة حسن الطويل . وزاد الكلام بين الناس بأن هذا ما هو مثل شاه سوار ، وأن هذا لا يطاق . فقلق السلطان والعسكر لهذا الخبر فكان كما قيل فى المعنى :

شكوت جلوس الثان ثقيل
فجانا آخر من ذاك أثقل
فكنت كمن شكا الطاعون يوما
فجاء له على الطاعون دمل

***

وفى جمادى الآخرة عين السلطان تجريدة الى حسن الطويل ، وعين بها من الأمراء المقدمين ثلاثة ، وهم : جانى بك قلقسيز أمير سلاح ، وسودون الأفرم ، وقراجا الطويل الاينالى ، وعدة من الأمراء الطبلخانات ، والعشراوات ، ومن

الجنــد نحو من خمسمائة مملوك . فلمــا عينهم أنفق عليهم وأمرهم بالمسير الى حلب بسرعة من غير تأخير .

وفيه وقع تشــاجر عظيم بين الأمير يشــبك الدوادار ، وبين الأمير خاير بك بن حديد ، وذلك بحضرة السلطان . وكان ســبب ذلك صحصاح الكاشف ، فانه وقع بينه وبين الأمــير خــاير بك بســبب بلاده التى فى الفيــوم ، فتعصب الأمير يشبك الصحصاح ، فوقع بينهما ما لا خير فيه .

وفيه أخرج السلطان تقدمة سودون الأفرم وقد استعفى من السفر الى حسن الطويل ، فلما أخرج عنه التقدمة أنعم بها على قجماس الاسحاقى ورتب لسودون الأفرم ما يكفيه ، وبقى طرخانا بمصر .

وفيه شفع فى جانى بك المشد الأشرفى برسباى وكان مقيما بالقدس بطالا ، فحضر الى القــاهرة ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر مقيمــا بداره مدة حتى مات .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر حسن الطويل قد اســتولى على كحتا وكركر ، وبعث مكاتبة مكتوبة بماء الذهب الى شــاه بضــاع صاحب الأبلستين ، بأن يسلم اليــه القلاع التى حوله ولا يخرج عن طاعته . وأرسل له فى المكاتبة ألفاظا مزعجة بما معنــاه « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم هدده فى مكاتبته بأنه متى خالفه يحصل له منه ما هو كيت وكيت .

فأرسل بضاع المكاتبة للسلطان ، فلما قــرأها السلطان وعلم ما فيها ، انزعج لذلك ، وتأثر . ثم عين الأمير يشبك الدوادار باش العسكر . وعين تجريدة أعظم من الأولى التى عينهــا قبل ذلك . فعين بها من الأمراء المقدمين يشــبك الدوادار ، واينــال الأشقر ، وبرســباى قرا ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة . وكتب من الجند فوق ألفى مملوك . ثم أنفق عليهم وأخذوا فى أسباب الخروج الى السفر ، فخرجت التجريدة الأولى قبل ذلك . وكان باش العسكر جانى بك قلقسير أمير سلاح ، ومن معه من الأمراء . فلما رحل من الريدانية خرج الأمير يشبك ومن معــه من الأمراء ، فرجت لهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .

❊ ❊ ❊

وفى رجب لما صعد القضاة للتهنئة بالشهر صعد معهم الشــيخ أمين الدين الأقصرائى ، فأخــذ السلطان يتكلم معه بسبب حسن الطويل ، فتكلم الشيخ أمين الدين بكلام انزعج منه الســلطان ، وقد تقدم له معه فى واقعة سوار بما تكلم به فى ذلك المجلس ، وقد تأثر منه السلطان فى الباطن .

وفيه أرسل نائب الشام مكاتبة حسن الطويل الى الســلطان ، وكان أرســل يهدده فى هــذه المكاتبة ، ويأمره بأشياء لا يمكن شرحها . وكتب فى صدر المكاتبة « يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » . فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيــه جاءت الأخبــار من حلب بأن ورديش نائب البيرة قــد قبض على جمــاعة من عســكر حسن الطويل ، وكسر جاليشه ... فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه وصل الى القــاهرة من بلاد جركس ، أخت السلطان واسمها جان كين ، ومعها ولدها ، فصعدت الى القلعة فى محفة وحولهــا الخدام ، وحضر معها عدة نساء جراكسة .

وفيه رحــل الأمير يشــبك هو وعســكره من الريدانيــة ، وكان مصروف الســلطان على هذه التجــريدة فيما أنفقــه مبلغ أربعمائة ألف دينــار ، وعشرين ألف دينــار ، خارجــا عن أشــياء كثيرة بعثهــا للأمراء . فلما وصل الأمير

يشبك الى الخانقاه ، نزل اليه السلطان وودعه هناك ، واجتمع به فى خلوة ، وعرض عليه مكاتبة حسن الطويل التى بعثها الى نائب الشام .

* * *

وفى شعبان ثارت جماعة من المماليك الجلبان ، على شرف الدين بن كاتب غريب ، وكان متكلما فى الوزارة والاستادارية عن الأمير يشبك ، فتوجهوا الى داره ، وكسروا أبوابه ، فهرب واختفى . وكانت هذه أول حوادث الجلبان فى الفتك . واستمرت الحوادث منهم تتزايد حتى كان منهم ما سنذكره فى موضعه .

وفيه حضر قاصد نائب حلب وأخبر أن نائب حلب قبض على عثمان بن أغلبك ، وشخص آخر كان استادارا على تقدمة حسن الطويل التى كانت بحلب ، وقبض على جماعة آخرين نحوا من أربعين نفرا ، وقد نسبوا الجميع الى المواطأة مع حسن الطويل ، وكانوا يكاتبونه بأخبار المملكة . فأمر نائب حلب بشنقهم .

وفيه هلك بترك النصارى الملكية ، وهو فخر ابن الصيفى ، وكان فى النصارى لا بأس به .

وفيه كانت وفاة الشيخ فخر الدين المقسمى ، وهو عثمان بن عبد الله بن عثمان بن عفان الشافعى . وكان من أعيان علماء الشافعية ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الفقه ، دينا خيرا وافر العقل . وذكر بأن يلى القضاء الأكبر غير ما مرة . وولى عدة تداريس جليلة ، منها مشيخة الحديث بالشيخونية ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر . فلما مات قرر فى مشيخة الحديث بالشيخونية الشيخ جلال الدين السيوطى عوضا عن الفخر المقسمى .

* * *

وفى رمضان نزل السلطان الى دار تمر يعوده ، وكان نقطعا عن الركوب ، فسلم عليه وعاد الى القلعة .

وفيه وصل ركب من المغاربة من تونس ، وكان صحبتهم الحرة زوجة صاحب تونس . وحضر صحبتها قاضى الجماعة الشيخ أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن عمر القلجانى ، وكان من فضلاء علماء المالكية ، فأكرمه السلطان والأمراء ، ورأى من العز والعظمة حظا وافرا .

وفيه صلب على باب زويلة جارية سوداء قد قتلت ستها ، فأمر القاضى اللقانى المالكى بصلبها حتى تموت .

وفيه توفى جانى بك قرا العلائى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات وشاد الشون وكان لا بأس به .

وفيه توفى أيضا أرغون شاه استادار الصحبة ونائب غزة . وكان هو الذى قبض على الظاهر تمربغا لما تسحب من دمياط ، وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان محمود السيرة .

وفيه ختم البخارى بالقلعة ، وكان ختما حافلا وخلع فيه السلطان على القضاة ومشايخ العلم . وفرقت الصرر على الفقهاء .

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية فى فنون لعب الرمح والرماية بالنشاب ، وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشربخاناه ، ثم تقدمة ألف ، ثم نيابة الشام ، ومات بها — وكان قد جاوز الستين سنة من العمر — فلما حضر سيفه أظهر السلطان الحزن والبكاء وتأسف عليه ، وكان عنده بمنزلة الأخ . ثم أمر باحضار أولاده وعياله الى القاهرة ، ثم رسم بنقل جثته الى القاهرة ليدفن فى تربته التى بباب القرافة ، وكان لبرقوق بر ومعروف . وهو الذى أنشأ القبة على ضريح العارف بالله

الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وفيه توفى الأتابكى جرباش كرت المحمدى الناصرى وكان طرخانا الى أن مات بمصر . وكان قد قارب التسعين سنة من العمر ، وأصله من مماليك الناصر فرج . وكان أميرا جليلا حشما رئيسا ، ولى عدة وظائف سنية ، منها الأمير آخورية الكبرى وامرية مجلس ، وامرية سلاح . ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، وترشح أمره الى أن يلى السلطنة لما وثبت جماعة الأشرفية على الظاهر خشقدم ، كما تقدم ، وكان متزوجا بخوند شقرا بنت أستاذه الناصر فرج ثم نفى بعد ما وقع له ما ذكر الى دمياط . ثم أحضر الى القاهرة ومات بها وجرى عليه شدائد ومحن ، كما قيل :

اذا طبع الزمان على اعوجاج
فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك الدوادار دخل الى حلب ، وكان له يوم مشهود ، فلما استقر بحلب قدم عليه قاصد من عند حسن الطويل ، وعلى يده مكاتبة شرحها أنه أرسل يطلب جماعته الذين أسروا وسجنوا بحلب ، وأنهم اذا أطلقوهم يطلق من عنده من الأسرى وكان عنده دولات باى النجمى الذى كان نائب ملطية ، وجماعة آخرون ، فلم يلتفت اليه يشبك ولا أجابه عن ذلك بشىء .

وفيه توفى الزينى عبد الرحمن بن الكويز الذى كان ناظر الخاص ، وهو عبد الرحمن بن داود بن عبد الرحمن بن خليل . وكان أصلهم نصارى من الشوبك ، وحضر جدهم داود صحبه المؤيد شيخ لما قدم الى مصر . وكان عبد الرحمن رئيسا حشما فى سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الاسكندرية ، ثم ولى الاستادارية ونظر الخاص . ثم جرى عليه شدائد ومحن ، وفر الى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وأقام هناك مدة ثم عاد الى مصر . وكان يدعى أنه يعرف علم الحرف ، وكان له نظم سافل ومولده فى سنة ثمانمائة .

وفيه توفى نوروز الأشرفى ، كاشف الوجه القبلى ، وكان لا بأس به .

وفيه خرج الحاج على العادة ، وكان الشهابى أحمد ابن الأتابكى تانى بك أمير ركب الأول مريضا على غير استواء ، فلم يرق له السلطان ، وخرج على غير استواء ، وهو فى محفة فى النزع . فلما وصل الى بركة الحاج مات ليلة الرحيل ، وكان حشما متأدبا رئيسا ، وكان من الأمراء العشراوات ، وتوجه الى الحجاز أمير ركب الأول غير ما مرة . وكان مولده بعد العشر والثمانمائة ، فلما بلغ السلطان موته طلب جانى بك الأشقر أحد مماليكه وخواصه ، ورسم له بأن يتوجه أمير ركب الأول عوضا عن الشهابى أحمد بن تانى بك ، فتسلم جميع بركه وجماله ، وسافر على الركب الأول ، ثم حمل الشهابى أحمد الى القاهرة وغسل وكفن وصلى عليه ودفن ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولم يكن يمر الحج على بال جانى بك فى هذه السنة فكان كما قيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

وفيه أرسل السلطان خلعتين : احداهما الى جانى بك قلقسير أمير سلاح ، بأن يستقر فى نيابة الشام عوضا عن برقوق بحكم وفاته — وكان المشار اليه بالتجريدة — فتوجه الى الشام واستقر بها وأما الخلعة الثانية فبعث بها الى اينال الأشقر ، بأن يستقر فى امرية سلاح عوضا عن المذكور المتقدم .

* * *

وفى ذى القعدة طلع الخليفة المستنجد بالله

يوسف ومعه القضاة الأربعة ليهنوا السلطان بالشهر على العادة ، فتكلم الخليفة مع السلطان فى أمر ابنته ست الخلفاء ، التى كان عقد عليها خشكلدى السيفى . فطال الكلام فى ذلك وانفض المجلس على غير طائل . ثم فسخ عقدها عن خشكلدى فيما بعد .

وفى هذا المجلس تكلم السلطان مع قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الامشاطى ، فى اقامة قاض برسم حل الأوقاف والاستبدالات ، فقال : « ان السلطان له ولاية التفويض الى من شاء من النواب ، وأما أنا فلا ألقى الله تعالى بحل وقف ، ولا بعمل استبدال » وقام من المجلس كالغضبان . فتأثر السلطان منه فى الباطن رحمه الله تعالى ورضى عنه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأمير يشبك بعث جماعة من العسكر الى البيرة لقتال عسكر حسن الطويل ، وقد بلغه أن حالهم تلاشى الى الفرار ، وأن حسن الطويل أرسل يكاتب الافرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وهذا أول ابتداء عكسه لكونه أرسل يستعين بالافرنج على قتال المسلمين .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان ملك الروم أرسل قاصده الى الأمير يشبك ، بأن يكون عونا للسلطان على قتال حسن الطويل ، فأكرم القاصد ، وأرسل صحبته القاضى شمس الدين بن أجا قاضى العسكر ، بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده هدية حافلة ، ومكاتبة بأن ينتىء بينه وبين السلطان مودة ، بسبب أمر حسن الطويل .

وفيه وصل الى السلطان مكاتبة من عند ابن الصوا من حلب ، يخبر فيها بأن الأمير يشبك قد انتصر على عسكر حسن الطويل ، ورحلهم عن البيرة ، وأن والد حسن الطويل قد جرح جرحات بالغة ، وآخر من أولاده أصيب فى عينه ، ووقع بين الفريقين مقتلة شديدة ، وقتل فى المعركة شخص من الأمراء العشراوات يقال له قرقماس المصارع ، المعروف بالعلائى أمير آخور رابع ، وكان صهر مؤلف هذا التاريخ ، زوج أخته ، وكان انسانا حسنا دينا خيرا موصوفا بالشجاعة والفروسية علامة فى رمى النشاب والصراع ، أصيب بسهم فى صدغه فمات لوقته . ولم يقتل فى هذه المعركة أحد من العسكر سواه . ثم رحل عسكر حسن الطويل من البيرة ، وقد خذلهم الله تعالى بعد ما عدوا من الفرات ، وطرقوا البلاد الحلبية من أطرافها ، فردهم الله تعالى عن المسلمين . وقد قالت الشعراء فى هذه النصرة عدة مقاطيع ، فمن ذلك قول شمس الدين القادرى :

أيا حسن الطويل بعثت جيشا
كأغنام وهن لنا غنائم
فنار الحرب قد قتلت سوارا
وأنت لسبكها لا شك خاتم

وقال المنصورى :

هل عارف بالخارجى المعتدى
يخبر الينا باسمه وصفاته
قالوا نعم حسن فقلت هلاكه
قالوا الطويل فقلت ليل شتاته

وقوله أيضا :

أيها العسكر الذى سار قصدا
لقتال الطويل لا تنظروه
لا تطيلوا مع العدو كلاما
فى وغى الحرب والطويل اقصروه

وقال محمد بن شادبك :

عروس الحرب تقطعها المواضى
بأرواح الأعارب والأعاجم

وقد جليت وفى يدها سوار
وها حسن لكف الحرب خاتم

وقوله أيضا :

أيا حسن الطويل قصرت عمرا
وفاتتك المعالى والمغانم
سوار قد سبكناه ابتداء
وأنت بناره للسبك خاتم

وفى هذا الشهر كسفت الشمس كسوفا عاما ، وأظلمت الدنيا ، واستمر الكسوف نحوا من ثلاثين درجة .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقد أتى من جهة البحر الملح ، فأكرمه السلطان ، وأحضر صحبته مكاتبة حسن الطويل الى ملوك الافرنج بأن يمشوا على ابن عثمان وسلطان مصر من البحر ، وهو يمشى عليهم من البر ، وقد ظفر هذا القاصد بقاصد حسن الطويل ، وهو قاصد نحو بلاد الافرنج ، فقبض عليه فى أثناء الطريق وهو فى مركب وأسره . ثم ان القاصد أقام بمصر أياما وأضافه السلطان وأذن له فى السفر وخلع عليه . ثم ان السلطان عين دولات باى حمام الأشرفى ، بأن يتوجه قاصدا نحو ابن عثمان .

* * *

وفى ذى الحجة تغير خاطر السلطان على الأمير خاير بك بن حديد الأشرفى ، وأمره بلزوم داره ، وهذه أول كائنة وقعت له . ثم جرى عليه بعد ذلك ما هو أعظم من ذلك ، فأقام بداره أياما لا يركب . ثم بعث السلطان خلفه الى ضرب الكرة . فلما طلع الى القلعة وضرب الكرة ، إتفق أن السلطان قد سقط من يده الصولجان ، فترجل خاير بك عن فرسه وناوله للسلطان ، فخلع عليه وأركبه فرسا من خيوله ، ونزل الى داره وهو مكرم .

وفيه توفى جانم اللفاف المؤيدى ، وكان أمير عشرة ولكن مات طرخانا .

وتوفى طوخ النوروزى وكان أمير عشرة ومات طرخانا .

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأنه لما وصل المحمل العراقى ، ودخل المدينة الشريفة ، كان أميرهم شخص يقال له رستم ، وصحبته قاض يقال له أحمد بن وجيه ، فضيقوا على قضاة المدينة ، وأمروهم بان يخطبوا فى المدينة باسم الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين . فلما خرجوا من المدينة وقصدوا التوجه الى مكة ، كاتب أهل المدينة أمير مكة بما وقع منهم ، فخرج اليهم الشريف محمد ابن الشريف بركات ، ولاقاهم من بطن مر قبل أن يدخلوا الى مكة . وقبض على رستم أمير ركب المحمل العراقى ، وقبض على القاضى الذى صحبته ، وعلى جماعة من أعيانهم ، وأودعهم فى الحديد ليبعثهم الى السلطان . ثم أطلق بقية من كان فى ركبهم من الحجاج ، ولم يتعرض لهم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشيخ المسلك العارف بالله تعالى سيدى ابراهيم بن على بن عمر المتبولى رحمه الله تعالى . توفى بأسدود بالمنوفية ، ودفن بها . وكان خرج الى زيارة بيت المقدس فأدركته المنية هناك فمات . وكان خيرا دينا مباركا وللناس فيه اعتقاد حسن . وكانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد . وكان له بر ومعروف ، وأنشأ ببركة الحاج حوضا وسبيلا وبستانا . وكان يأوى الفقراء والمنقطعين ، وكان نادرة فى عصره صوفى وقته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم سمرقند العلامة الشيخ علاء الدين على بن محمد الطوسى

البتاركانى الحنفى ، وكان له شهرة ببلاد سمرقند . والف فى العلوم الجليلة ، وكان من أعيان علماء الحنفية .

وفيه توفى اياس الطويل المحمدى الناصرى ، الذى كان نائب طرابلس ، الذى تقدم ذكره .

وفيــه من الوقائع أن البرهان البقاعى وقاضى الجماعة أبو عبد الله القلجانى المغربى المالكى وقع بينهما بحث فى بعض المسائل ، فوقع من البرهان البقاعى فى ذلك المجلس جواب ضبطه عليه قاضى الجماعة ، وصرح بكفره وأشهد عليه وأراد أن تقام عليه الدعوى عند قاضى القضاة المالكى . فلما علم كاتب السر ابن مزهر بذلك ، طلب البقــاعى عنده ، وحكم بعض القضــاة بحقن دمه . ولولا كاتب السر ما حصل للبقاعى خير . والذى جرى على البقاعى بسبب سيدى عمر بن الفارض رحمه الله ورضى عنه ، فانه كان رأس المتعصبين عليه . واستمر البقاعى فى عكس حتى مات .

سنة ثمان وسبعين وثمانمائة (١٤٧٣/١٤٧٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتيع الرطل اللحم الســـليخ بثمانية نقره ، والبطة الدقيق بأربعة أنصاف . ووقع الرخاء فى سائر الحبوب ، وابتيع القنطار البطيخ العبدلاوى بثلاثة أنصاف . ووقع الرخاء فى سائر المأكولات قاطبة .

وفيه جاءت الأخبــار من الاســـكندرية بأن الافــرنج قد عبثوا ببعض سواحلها ، وأسروا من المسلمين تســـعة أنفار ، وفعلوا مثـــل ذلك بثغر دمياط . فلما جرى ذلك عين لهم السلطان فى الحال الأمير محمـــد بن قجماس الأسحاقى أحد مقدمى الألوف ، وأمره بالخروج من يومه . فخرج بعد العصر وسافر من البحر فى عدة مراكب ، وأمره الســلطان أن يتبع الفرنج حيث ساروا .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نوى ، وقد أضافه هناك ابن طفيش ضيافة حافلة ، وأقام عنده الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة .

وفيه رسم السلطان بعزل القاضى القمى المالكى ، أحد نواب الحكم ، بسبب حكم حكمه . فشكاه الخصم الى السلطان بأنه جار عليه ، فحنق منه السلطان وأمر بعزله .

وفيه وصـــل الحاج وصحبتهم ابن أمير مكة ، والقاضى برهان الدين بن ظهيرة الشافعى ، وولده أبو الســـعود وأخوه ، وأحضروا صحبتهم رستم أمير الحـــاج العرقى والقاضى اللذين بعث بهمـــا حسن الطويل وصحبتهما كسوة الكعبة المشرفة ، وأمر أهل المدينة والكعبة بأن يخطبوا فيهما باسم العـــادل حسن الطويل ، فسجن السلطان رستم والقاضى فى البرج الذى بالقلعة ، وتأخر الحاج فى السنة المذكورة عن ميعاده ثلاثة أيام ، بسبب موت الجمال وقلة المياه . ثم أرسل خاير بك الخشقدمى الذى سمى « سلطان ليلة » ، يسأل فضل السلطان بأن ينقـــله من مكة الى القدس ليقيم بهـــا حتى يموت ، فشفع فيه الأمير يشبك الجمالى ، فأجيب الى ذلك ، ونقـــل من مكة الى القدس . وحضر صحبة الحـــاج الشيخ ساد الأذربيجانى الحنفى ، وهو شيخ تربة الأمير يشبك الدوادار .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على القاضى ابراهيم بن ظهيرة ، وأعادة الى قضاء الشافعية بمكة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه القضاة الأربعة ، وأعيان الدولة .

وفيه خلع السلطان على تمراز التمشى ، وقرره

فى رأس النوبة الكبرى عوضا عن اينال الأشقر بحكم انتقاله الى امرية سلاح .

وفيـه عين السلطان برسباى الأشرفى استادار الصحبة ، بأن يتوجه قاصـدا الى ابن عثمان ملك الروم وصحبته هدية سنية .

* * *

وفى ربيع الأول كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى خامس مسرى الموافق لخـامس ربيع الأول . فلما أوفى توجه الأمير لاجين الظاهرى أمير مجلس وفتح السد على العادة . وفى ذلك اليوم نودى على النيل بزيادة اثنى عشر اصبعا بعد سبعة عشر ذراعا ، فكان زيادته ثلاثة أذرع فى ستة أيام .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة ، فلم يحضر فيه من الأمراء المقدمين سوى ثلاثة أنفار . وكان أكثر الأمراء غائبا فى التجريدة .

وفيـه توفى القاضى زين الدين عبد القادر بن عبد الرحيم بن الجيعان . وكان رئيسا حشما كثير العشرة للناس ، ومات وهو فى عشر الخمسين .

وفيه جاءت الأخبار بهلاك صاحب قبرس ، وهو جاكم بن جوان بن حينوس الكيتلانى ، وكان من أعيان ملوك الافرنج ، وهو الذى حضر الى الديار المصرية فى دولة الأشرف اينال ، وكان شابا حسنا فى شكله ، فلما هلك تولى من بعده أخوه .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان بعث عسكرا لمحاربة حسن الطويل ، فسر السلطان لذلك .

وفيه توفى الأمير يشبك الفقيـه ابن سلمان شاه المؤيدى الذى كان دوادارا كبـيرا فى دولة الظاهر خشقدم ثم نفى الى دمياط . ثم شفع فيه وعاد الى القـاهرة ، وأقام بها بطالا حتى مات . وكان دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم . وكان قد شاخ سنه ، وقاسى شدائد ومحنا ومات ولده قبله بمدة يسيرة ، وغص عليه ، وكان ولده شابا حسنا مليح الشكل مشهورا بالفروسية . وقد تقدم ذكر ذلك .

* * *

وفى ربيع الآخر أطلق السلطان رستم أمير الحاج العراقى ، وأطلق القـاضى الذى صحبته ، وخلع عليهما وبعثهما الى بلادهما ترضيا لخاطر حسن الطويل ، وقد أشار بذلك الأمير يشبك الدوادار .

* * *

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار بوفاة الأشرفى استادار الصحبة ، الذى توجـه قاصـدا الى بلاد ابن عثمان ، وكانت وفاته بحلب ، وكان لا بأس به فى ذاته .

وفيه خلع السـلطان على الماس الأشرفى أحد خواصه . وقرره فى استادارية الصحبة عوضا عن برسباى الشرفى بحكم وفاته . وعين قاصدا الى ابن عثمان .

وفيـه خلع السلطان على جانى بك الأشقر الدوادار ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ؛ وخلع على قانصوه خمسمائة الخاصكى ، أحـد مماليك السلطان ، وقرره فى امرية الركب الأول ، وقانصوه هو الذى تسلطن ولم تتم له السلطنة . وجرى له ما جرى .

وفيه أمر السلطان بتوسيط عبد صغير السن قد ذبح سيدته وأخذ مالها وهرب ، فقبض عليه من ليلته .

* * *

وفى جمادى الآخرة ثار جماعـة من المماليك الجلبان ، على السلطان بالقلعة ، ومنعوا الأمـراء من الصعود ، واستمر الحال على ذلك غـد ذلك اليوم ، حتى سكن الأمر قليلا بعد ما قصـدوا جماعة من خواص السلطان .

وفيه من الوقائع الغريبة أن شحصا حلبيا كان

عنده مسن من الرخام الأخضر له عنده نحو من ثلاثين سنة . فاتفق أن ذلك المسن سقط من يد صاحبه فانكسر نصفين ، فخرجت منه دودة غريبة الشكل ، فمد الحلبى يده اليها ، وأخذها يقلبها فلدغته فى اصبعه ، فاضطرب ساعة ووقع لوقته ميتا . وهذا من غريب الاتفاق .

وفيه أرسل يشبك يسأل فى الحضور . فان العسكر قد قلق من قلة العليق ، فلما بلغ السلطان حنق واغتاظ . ثم أذن لهم بالحضور بعد ذلك .

* * *

وفى رجب نزل السلطان ، وتوجه الى الرماية ببركة الحبش ، فاصطاد ثلاثة كراكى ، وعاد من يومه ، وشق من القاهرة فى موكب حافل .

وفيه ثار جماعة من الجلبان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء والمباشرين من الصعود الى القلعة ، وكان رأس الفتنة شخصا من مماليك السلطان يقال له على باى الخشن . فلما خمدت هذه الفتنة ضربه السلطان نحوا من ألف عصا ، ونفاه الى الشام . فجاءت الأخبار بعد مدة بأنه سقط عليه حائط ومات تحت الردم . ففرح فيه غالب الناس .

وفيه جاءت الأخبار باستقرار قراجا الطويل الاينالى فى نيابة حماه ، عوضا عن بلاط اليشبكى بحكم صرفه عنها . وحمل بلاط عقيب ذلك الى السجن بقلعة دمشق . ومات فى السجن بعد مدة يسيرة . وكان قد شاخ وجاوز السبعين سنة من العمر .

* * *

وفى شعبان عاد الأتابكى أزبك من البحيرة ، وخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه حضر من الجند جماعة كثيرة ممن كان فى التجريدة ، صحبة الأمير يشبك الدوادار ، فلما حضروا اختفوا بالقاهرة ، ولم يظهروا .

وفيه وقعت نادرة غريبة : وهى أن أبا بكر بن مزهر كاتب السر ، عطس بحضرة السلطان ، فشمته السلطان مرتين ، فعد ذلك من النوادر .

* * *

وفى رمضان أنعم السلطان على تغرى بردى ططر بتقدمة ألف ، وهى تقدمة قجماس الاسحاقى ، مضافة الى تقدمة قراجا الطويل الاينالى ، وقد انتقل الى نيابة حماه .

وفيه قرر ملاح اليوسفى الظاهرى فى نيابة القلعة .

وفيه كان دخول الأمير يشبك الدوادار الى القاهرة وقد عاد من التجريدة . فكان يوم دخوله يوما مشهودا ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وخلع فى ذلك اليوم على قضاة القضاة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على الفقهاء .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة عالم دمشق الشيخ زين الدين خطاب بن عمر بن مهنا بن يوسف بن يحيى العجلونى . وكان عالما فاضلا مفتيا من أعيان الشافعية . ومولده سنة تسع وثمانمائة .

* * *

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، حضر فى ذلك اليوم بالقلعة قاضى مكة البرهان بن ظهيرة وولده أبو السعود وأخو البرهان بن ظهيرة ، وكان الشريف بركات ابن أمير مكة حاضرا وجماعة من أعيان مكة . فخلع السلطان على الجميع فى ذلك اليوم .

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب المحمــل جانى بك الأشــقر ، وأمير ركب الأول قانصوه خمسمائة ، فالتزم الأمير يشبك بعمل بركه من ماله . وكان الأمير يشبك قد عقــد على أخت قانصوه وصاهره ، وخرج صحبة الحــاج شاهين نائب جدة ، وخرج القاضى ابراهيم بن ظهــيرة وجماعته ، وابن أمير مكة قاصدين التوجه الى مكة المشرفة شرفهــا الله تعالى وعظمها . وقد أوردوا للسلطان فى هذه الخطرة نحوا من مائة ألف دينار . فأكرمهم السلطان وأجلهم ، ورتب لهم ما يكفيهم من الأسمطة وغير ذلك . وأنزلهم فى بيت أم ناظر الخاص يوسف الذى ببركة الرطلى ، ورأوا فيها بهجة أيام النيل . ثم بعد ذلك سافروا .

وفيه وقف الأمير يشبك الدوادار الى السلطان ، واستعفى من الوزارة ومن الاســتادارية ، فاجابه السلطان الى ذلك ، ولكن حتى يغلق سنته . وكان من أمره ما سنذكره .

❋ ❋ ❋

وفى ذى القعدة رسم السلطان ليشبك الجمالى ، بأن يخرج قاصدا لابن عثمان ملك الروم ، وأبطل ألماس الذى كان قد تعين قبل ذلك .

وفيه تزوج أزدمر الطويل الاينالى ببنت الملك المنصــور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان له مهم حافل .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ونزلوا الى جهة بولاق فنهبوا ما فيها . ثم قصدوا شونة الأمير يشبك الدوادار ، فنهبوا ما فيها ، وصاروا يأخذون جمال السقايين ، ويحملونها ما نهبوه من الشعير . فلما تزايد الأمر منهم نزل السلطان وهو سائق ، ومعه مقدم المماليك ، ولكن ما نزل الا بعد فوات الأمر . وحصل منهم فى ذلك اليــوم غاية الضرر للناس ، من نهب وخطف بضائع الناس ، وغير ذلك . فبــات السلطان تلك الليــلة فى جامع زين الدين الأستادار الذى ببولاق ، فأضافه تلك الليلة بعض قصاة بولاق ، وهو القاضى تقى الدين البرمرى امام الجــامع المذكور وخطيبه ، ضــيافة حافلة . فشكر له السلطان ذلك .

❋ ❋ ❋

وفى ذى الحجة قصد جماعة من المماليك الجلبان الاخراق بالامير يشبك الدوادار ، وقصدوا قتله . ففر منهم ، وتوجه الى نواحى الجيزة حتى تخمد الفتنة . فاستمر غائبا نحوا من خمسة عشر يوما فهى هذه المدة كثر القال والقيل بين الناس . وامتنع الأمراء من الصعود الى القلعه والسلطان مقيم بالدهيشة ، كالعضبان من مماليكه ، والأبواب مغلقة عليه . فطلع الأتابكى أزبك ، وأزبك اليوسفى ، وتمر حاجب الحجاب ، وكاتب السر ، وشرف الدين الأنصارى ، وآخــرون من الأمراء ... على انهم يتلطفون بالسلطان ، ويمشون بينه وبين مماليكه بالصلح . فامتنع السلطان من ذلك ، وصمم على عدم الصلح مع المماليك . ثم خرج الى الحوش وجلس على الدكة ، وطلب من كان رأس الفتنة فى هذه الحركة ، وهو شخص من المماليك يعرف بالأقطش ، فأمر بتوسيطه فجردوه من ثيابه فى الحال ، فشفع فيه الأمراء فما أجاب الا بعد جهد كبير ، ثم ضرب ذلك المملوك فوق ألف عصا ، وسجنه بالبرج . وهذا كله جرى والأمير يشبك غائب فى الجيزة لم يحضر الا بعد أيام ، حتى سكنت هذه الفتنة .

وفيه حضر الملك المنصور عثمان بن الظــاهر جقمق بطلب من السلطان — وهذه ثانى مرة حضرها الى القاهرة — فلما حضر أكرمه السلطان ، وخلع عليه ، ونزل فى دار الأتابكى أزبك عند أخته . ثم أمره بالصعود الى القلعة لضرب الكرة مع الأمراء ،

وعومل معاملة السلاطين فى ارخاء البند الأصفر ، وتغيير الفرس فى مكان يغير فيه السلطان فرسه ، حتى عد ذلك من النوادر التى ما وقعت قط . وأقام الملك المنصور بالقاهرة نحو شهرين حتى عاد الى دمياط . وكان فى غاية العز والاكرام . ووقع له أمور ما وقعت لأحد من أبناء الملوك قبله . وكان حضوره الأول بسبب الحج ، وهذه المرة بسبب زيارة السلطان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة البدرى حسن بن المزلق ناظر جيش دمشق . وكان رئيسا حشما ، ولى عدة وظائف سنية .

وفيه توفى الأمير سودون الأفرم المحمدى الظاهرى ، وكان أحد مقدمى الألوف ، ولكن مات وهو طرخان . وكان بيده امرية عشرة يأكلها حتى مات .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى محمد الاسلامبولى رحمة الله تعالى عليه . وكان يعرف بالأقباعى ، وكان من عباد الله الصالحين ، وله كرامات ومكاشفات خارقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة ملك التكرور رحمه الله تعالى . وكان من أجل ملوك التكرور قدرا .

وفيه توفى عبد القادر بن جانم نائب الشام . وكان شابا حسنا لا بأس به . وتوفى فى هذه السنة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة

سنة تسع وسبعين وثمانمائة (١٤٧٤/١٤٧٥ م) :

فيها ، فى المحرم ، قدم قاصد حسن الطويل وعلى يده مكاتبة تتضمن الاعتذار عما كان منه ، وأن ذلك لم يكن باختياره . فأكرم السلطان ذلك القاصد ، وأظهر العفو عما جرى منه . وكان أشيع عن حسن الطويل أنه قتل . وأظهر بعض التركمان قميصه وهو ملطخ بالدم ، ثم ظهر كذب هذه الاشاعة . وقد ذكر موته غير ما مرة ، ثم يظهر أنه كذب .

***

وفى صفر أمر السلطان بقطع خصيتى شخص من الأتراك ، يقال له شاهين ، وهو خازندار اينال الأشقر . وكان نقل عنه للسلطان أنه فعل الفاحشة ببعض مماليكه الأحداث ، وأنه كثير العشرة لهم . فخصاه السلطان بمصر العتيقة وبرىء من ذلك بعد مدة . وعاش مدة طويلة ومات . وكان ذلك فى أيام ظهور شخص يهودى بمصر العتيقة ، عارف بالاخصاء ، وفعل ذلك مع جماعة كثيرة من الناس ، وبرئوا من ذلك .

***

وفى ربيع الأول تغير خاطر السلطان على الأمير قانصوه الخفيف الاينالى ، أحد مقدمى الألوف ، فرسم لنقيب الجيش بأن يتوجه الى داره ويخرجه منفيا الى دمياط ، فتوجه اليه وأخرجه من يومه . وحصل لقانصوه الخفيف منه غاية البهدلة . وأخرجه خروج الشؤم . فكثر القال والقيل بسبب ذلك .

وفيه فى ليلة الخميس عاشره ثارت فتنة عظيمة من المماليك الجلبان ، وقصدوا قتل الأمير يشبك ،وهو فى داره . فلما بلغ السلطان ذلك بعث للأتابكى أزبك وبقية الأمراء أن يلبسوا آلة الحرب ، وأن يثبوا على المماليك الجلبان . فاضطربت الأحوال ، وماجت القاهرة ، وغلقت الأسواق ، واتسع أمر الفتنة . وأشار بعض الأمراء على السلطان بخمود هذه الفتنة . وخشوا من أمر طائفة الاينالية ، لأنهم تأثروا لنفى قانصوه الخفيف . فبعث السلطان ألماس استادار الصحبة ، ومعه عدة وافرة من المماليك الجلبان ، الى دار الأمير يشبك الدوادار ، فقبلوا يده ،

واعتذروا له بمـا وقع منهم ، فأكرمهم وخلع على ألماس كاملية بسمور ، وأرضى الجلبان بالكلام ، وسكنت الفتنة قليلا .

وفيـه أنعم السلطان على ورديش نائب البيرة بتقدمة ألف . وهى تقدمة قانصوه الخفيف بحكم نفيه الى دمياط .

وفيه توفى تنم العجمى بن ططخ الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات . وكان خشداش الأتابكى أزبك وكان لا بأس به .

وفيـه رسم السلطان بنفى سودون المؤيدى ، فنفاه الى مكة . وكان قد نسب الى شىء من أمر الفتنة الماضية مع المماليك الجلبان ، وقد وشى به بعض المماليك عند السلطان فنفاه .

وفيه فى ليلة عيد ميكائيل نزلت النقطة ، وأمطرت السماء فى تلك الليلة مطرا غزيرا ، حتى عـد ذلك من النوادر .

وفيه بعث الأمير يشبك الدوادار الى القـاضى علم الدين شاكر بن الجيعان ، يسأله فى اسـتبدال قاعات البرابخية التى ببولاق ، ودفع لهم الثمن من ذلك خمسـة آلاف دينار . وكان قاضى القضـاة الحنفى شمس الدين صمم على عدم الاستبدالات قاطبة . فضيق عليه الأمير يشبك حتى استبدل له البرابخية ، فقامت عليه الألسنة بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من القـدس بوفاة خاير بك الظاهرى الخشقدمى ، الذى سموه سلطان ليلة ، وكان رئيسا حشما ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونفى فى عدة أماكن من البلاد ، وآخر الأمر توفى بالقدس الشريف .

وفيه وفى النيل المبارك وقد توقف أياما ، وحصل للناس غاية القلق ، حتى بعث الله تعـالى بالوفاء ، وكان لعشرين من مسرى . فلما وفى نزل الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، ومر الناس بذلك .

وفيه كان المولد النبوى وكان له يوم مشهود .

***

وفى ربيع الآخر ظهر بالسماء نجم له ذنب طويل . وكان يظهر بعد العشاء ، واستمر على ذلك مدة ، ثم اختفى .

وفيه كانت وفاة العلامة الشيخ زين الدين قاسم ابن قطلوبغا السودونى الحنفى ، وكان عالما فاضلا فقيها حاذقا كثير النوادر ، مفتيا من أعيان الحنفية ، وكان مولده فى سنة احدى وثمانمائة وكان نادرة عصره .

وفيه خلع السلطان على جانى بك الأشقر ، وقرره فى امرية الحـاج بركب المحمل ، وقرر جانى بك الخشن الاينالى فى امرية الركب الأول .

وفيه نفى السلطان جماعة كثيرة من مماليكه ، منهم اينال الخفيف الذى ولى حاجب الحجـاب فيما بعد ، وغيره من المماليك السلطانية ، ممن أثار تلك الفتن الماضية .

وفيه قدم للسلطان قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وعلى يده مكاتبة تتضمن الشفاعة فى اينال الحكيم ، وكان قد جرى عليه كائنة ، وفر الى ابن عثمان ، فقبل السلطان شفاعته وأكرم ذلك القاصد وخلع عليه ، وأقام بمصر مدة ثم عاد الى بلاده .

***

وفى جمادى الأولى ، فى ليلة الجمعة ، كانت وفاة الامام العالم العلامة محيى الدين الكافيجى ، وهو محمد بن سليمان بن سعد بن مسعود الرومى ، الحنفى . وكان اماما عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، ماهرا فى الفقه والحديث والعلوم العقلية وغير ذلك ، وانتهت اليه رياسة مذهبه بمصر ، وصار مفتيها على الاطلاق ، وألف فى العلوم الجليـلة ، وكان مهيبا

معظما عند السلطان والأمراء ، ولى عدة وظائف منهـا مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومشيخة تربة الأشرف برسباى ، وغير ذلك ، وشهرته تغنى عن مزيد التعريف به . ومولـده سـنة ثمان وثمانين وسبعمائة وكان من أفاضل الحنفية رحمه الله تعالى .
وفيه يقول المنصورى وقد أضافه فى خلوته بحلاوة قرع فقال فيه :

ياعـين أعيـان الزمـان ويا
محيى بمصر سـنة الشرع
لم يقرع الباب امرؤ نحوكم
الا وذاق حـلاوة القـرع

ولما مات رثاه المنصورى بهذه الأبيات :

بكت على الشيخ محيى الدين كافيجى
عيونـنـا بدمـوع من دم المهـج
كانت أسـارير هـذا الدهر من درر
تزهى فبـدل ذاك الـدر بالسـبج
فكم ترى من سـماح من مكارمـه
فقـرى وقوم بالاعطاء من عـوج
يانور عـلم أراه اليـوم منطفئـا
وكانت النـاس تمشى منـه فى سرج
فلو رأيت الفتـاوى وهى باكيـة
رأيتهـا من نجيـع الدمـع فى لجج
ولو مرت بثنـاء عنـه ريح صـبا
لاستنشقوا من شـذاها أطيب الأرج
ياوحشـة العلم من فيـه اذا اعتركت
أبطـاله فتـوارت فى دجى الرهـج
لم يلحقوا شـأو علم من خصـائصه
أتى ورتبتـه فى أرفـع الـدرج
قـد طال ما كان يقربنـا ويقرئنا
فى حالتيـه بوجـه منـه مبتهـج
سـقيا له وكسـاه الله نور سـنا
من سـندس بسـدا الغفران منتسج

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو طرا ، وأقام بها الى آخر النهار ، وعاد .
وفى عقيب ذلك رسم السـلطان بنفى اثنين من الاينالية ، وهذا أول الفتك بهم .
وفيه توفى سودون المنصورى مات قتيلا ، سقط من سطح ، وكان مشغول الرأس فمات لوقتـه ، وكان شـابا حسن الشكل ، كثير الاسراف على نفسه ، فقصـد السلطان أن يصلى عليه ، فلما علم كيفية موته لم يصل عليه ، نعوذ بالله من ذلك .
وفيه خلع السـلطان على خشقدم الأحمـدى الطواشى ، وقرره فى الوزارة عوضـا عن الأمـير يشبك الدوادار ، بحكم استعفائه عنها ، وقرر قاسم شـغيته فى نظر الدولة . فلما أحضروا لخشـقدم الخلعة شرع يلطم بيديه على وجهه ويبكى ، وصار يدعى الفقر والعجز ، ويكرر الاستعفاء ، والسلطان لم يلتفت لكلامه ، فلبس الخلعة ونزل الى داره .
وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، وعلى يده هدية للسلطان ، ومن جملتها سبع عظيم الخلقة ، وخيمة كبيرة ، وغير ذلك . فأكرمه السلطان ، وخلع عليه .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى خليج الزعفران ، ونصب هناك تلك الخيمة التى أهداها له ملك الهند وكانت غريبة . فأقام هناك ثلاثة أيام فصادف دخول الأمير يشبك الجمالى ، الذى كان توجـه الى ابن عثمان ملك الروم ، فعاد من سفره ، وقابل السلطان فى خليج الزعفـران ، وعليـه خلعة ابن عثمان ، ومكاتبة تتضمن التودد بينهما ، فانسر السلطان بذلك .
وفيه أمر السلطان ببناء ما تهدم من جامع عمرو

ابن العاص رضى الله عنـه ، فقيـل انه صرف عليه خمسة آلاف دينار .

* * *

وفى جمـادى الآخرة خلع السلطان على الشيخ سيف الدين الحنفى ، وقرره فى مشيخه الخانقاه عوضا عن محيى الدين الكافيجى ، وخلع على ابن قاضى القضاة سعد الدين الديرى ، وقرره فى مشيخة الشيخونية ، وكانت مشـيخة المؤيدية مع أولاد ابن الديرى بحكم شرط الواقف ، فعادت اليهم . وفيه أعيـد السيد الشريف موفق الدين أحمـد الحموى فى نظارة الجيش لدمشـق ، عوضـا عن ولد برهان الدين النابلسى ، وكان قد وليها بعد وفاة البدر بن مزلق .

وفيه وقعت تشحيطة صعبة بالقاهرة ، وعز وجود الخبز من الدكاكين ، وتزاحم الناس على شراء القمح، واستمر ذلك مدة حتى دخل المغل الجديد .

* * *

وفى رجب قرر السلطان الشـيخ أبا عبـد الله القلجانى المغربى ، قاضى الجماعة ، فى مشيخة تربة السلطان ، وقرر فى خطبتهـا الشيخ أبا الفضـل الحرقى ، وقرر بهـا ثلاثين صـوفيا ، يحضرون فى الخمسة أوقات ، وقرر فيها شيخ الميقاتية بدر الدين الماردينى ، وقرر فى قراءة المصحف بها ناصر الدين الأخميمى ، وخازن الكتب بها العلائى على بن خاص بك ، وبنى للصـوفية حـول التربة عـدة بيوت يسكنون بها دائما ، ثم رتب لهم الجوامك والخبز والزيت والصـابون وغير ذلك من أنواع البـر والمعروف ، وخطب بها فى الشهر المذكور ، وحضر الأمراء والقضاة الأربعـة وأرباب الدولة قاطبة ، وكان يوما حافلا .

وفيه خلع على القاضى أبى الفتح المنوفى ، وقرره فى نيابة جدة عوضا عن شاهين الجمالى ، وأضيف اليه الصرف أيضا ، عوضا عن محمد بن عبد الرحمن .

وفيه غضب السـلطان على شادبك أباز الاينالى الأشرفى ، أحد العشراوات ، فألبسه زنطا عتيقا وأمر بحمله الى خان الخليلى ليباع ، وقد ثبت أنه باق على ملك المنصور عثمان بحكم أنه ورثه من قانى باى الجركسى . فأمر السـلطان بأن يباع ويحمل ثمنـه الى الملك المنصور ، فشفع فيـه الأتابكى أزبك ، فما قبل منه .وآل الأمر الى أن حمل شاد بك أباز وآخر من الاينالية يقال له خاير بك ، وآخر يقال له سيباى ، فحملوا الى الملك المنصور فأشهد على نفسه بعتقهم . ثم نفى شاد بك الى دمشق ، وخاير بك الى طرابلس ، وشفع فى سيباى بأن يقعد بمصر بطالا . وقد بلغ السلطان ما غير خاطره عليهم ، قيل انهم قصدوا الوثوب على السلطان لمـا وثب المماليك على الأمير يشبك الدوادار ، فانكشف رخ جماعة الاينالية فى هذه الحركة ، وصار السلطان ينفى منهم جمـاعة بعد جمـاعة ، ممن كان رأس الفتنة فى هذه الحركة .

وفيه طلع الى السلطان شخص من الفقهاء يقال له شهاب الدين القلقيلى ، ورفع قصة يشكو فيها الشـيخ عبـد البر بن الشحنة ، بأنه سلط غلمانه وعبيـده عليه ، فضربوه ضربا مبرحا . وذكر فى آخر القصـة أن عبد البر جاهل ما يحسن قراءة الفاتحة ، وأن الصلاة خلفه لاتصح . فمال السلطان مع القلقيلى على عبد البر ، فرسم السلطان باحضار عبد البر وجماعة من مشايخ القراء ، وقرأ عبد البر بحضرتهم والسلطان جالس ، والقلقيلى حاضر . فلما سمعه المشايخ القراء شكروا قراءته ، فمال السلطان على القلقيلى ، وكان قد حلف برأس السلطان أن عبد البر ما يحسن قراءة الفاتحة ، فلما ظهر للسلطان كذب القلقيلى أمر بضربه ، فضرب بين يديه ضربا

مبرحا ، وأمر بحمله الى القاضي المالكي ليفعل به ما يوجبه الشرع . وانتصر عبد البر عليه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الناصري محمد بن شاد بك التركماني الجلبي نائب طرابلس .

وفيه توفى يشبك الظاهري السيفي على باى نائب قلعة دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان للرماية ، فلما عاد شق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار وخشقدم الوزير . حتى صرح الأمير يشبك بعزل نفسه من الدوادارية وأغلق بابه ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى ركب اليه الأمير الكبير أزبك وجماعة من الأمراء ، وتلطفوا به حتى طلع معهم الى القلعة ، وخلع السلطان عليه كاملية بسمور ، وأصلح بينه وبين خشقدم الوزير ، وباس خشقدم يد الأمير يشبك ، وخمدت هذه الفتنة التى بينهما .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بلباى العلائي الظاهري نائب صفد ، وكان لا بأس به ، وولى نيابة الاسكندرية ، ثم نيابة صفد ، ومات وهو فى عشر الستين .

* * *

وفى شعبان توفى بكتمر البواب الأبو بكرى الأشرفى ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى الاصطبل ، وحكم به ، وكاتب السر بين يديه على دكة لأجل قراءة القصص . وحضر يشبك الدوادار وشكا كاتب السر ، وهو واقف بين يدى السلطان ، فأمره أن ينزل ويقف بين يديه بازاء خصمه ، حتى يدعى عليه ، وحضر وشكا جانى بك الفقيه ، ففعل به كذلك .

وفيه توفيت خوند بدرية بنت الأشرف اينال وكانت لا بأس بها ، وتركت عدة أولاد ذكور واناث .

وفيه وصل قاضي القدس وهو فى الحديد ومعه جماعة من أعيان أهل القدس ، وهم فى الحديد بسبب هدم كنيسة هناك ، وقد ثار بسبب ذلك شر كبير بين العلماء ، وكتبت عدة فتاوى بسبب تلك الكنيسة ، وصار يفتى بعضهم بالهدم ، وبعضهم بالابقاء .

وفيه هجم طائفة من العربان المفسدين ، على جماعة من الناس فى أثناء طريق المنية ، واستمروا يعرون الناس من المنية الى قنطرة الحاجب ، وكان ذلك بعد العصر ، وكان أول الربيع . وسلبوا أثواب المتفرجين ، وطلعوا من على قناطر الأوز ، وخرجوا الى الفضاء ، وكانوا نحوا من عشرين خيالا . فكان من جملة ما سلبوه أثواب شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له كسباى المغربى ، وكان راجعا من طريق المنية ، فأخذوا سلاريته من فوقه .

وفيه توفى تانى بك الأزدمرى الحاجب الثانى وكان قد شاخ وبلغ من العمر نحوا من تسعين سنة .

وفيه عرض السلطان من فى السجون ، فأطلق منهم أربعة أنفار لا غير وأعاد البقية الى السجون .

* * *

وفى رمضان صعد القضاة الأربعة ومشايخ العلم ليهنئوا السلطان بالشهر ، فأمر السلطان بعقد مجلس بين يديه بسبب كنيسة اليهود التى هدمت بالقدس ، فأفتى الشيخ أمين الدين الأقصرائى بجواز هدمها . وكذلك شمس الدين الجوجرى ، وزين الدين الأبناسى . وأفتى الشيخ سراج الدين العبادى ، وقاضى الجماعة القلجانى المغربى المالكى ، وآخرون من العلماء بعدم جواز

الهدم ، وأنها تعاد الى ما كانت عليه ... فوقع فى المجلس القال والقيل من العلماء ، وكثر الخبط ، وانفض المجلس على غير طائل . وأمر السلطان بعقد مجلس آخر فى دار يشبك الدوادار ، وكان السلطان مائلا الى عدم هدم الكنيسة واعادتها الى ما كانت عليه ، وقد مال جماعة من العلماء مع غرض السلطان ، وحكم باعادتها الى ما كانت عليه ، ووقع بين قاضى القضاة المالكى اللقانى وقاضى الجماعة ما لا خير فيه . وكذلك سراج الدين العبادى والجوجرى . ومما هجى به السراج العبادى :

أيا سراج اليهود طرا
ومن لدين العزير أفتى
عصبة أهل الكتاب قالوا
لن ترضى عنك اليهود حتى

وقيل فى قاضى الجماعة من جملة أبيات فى ذلك المعنى :

تفتى بعود كنيسة يامغربى ما أنت الا

وفيه توفى اينال الأشقر البجاوى الظاهرى أمير سلاح ، وكان أميرا جليلا شجاعا بطلا ، وكان ظالما غشوما عسوفا ، كثير الاسراف على نفسه ، وكان عنده كرم زائد مع اتضاع ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق . وولى عدة وظائف سنية ، منها ولاية القاهرة ، ونيابة ملطية ونيابة حلب ، ورأس نوبة كبير وامرية سلاح ، وغير ذلك من الوظائف . وكان فى آخر عمره ظهر به جذام وبرص فاحش جدا .

وفيه قرر يشبك قرقماس الأشرفى فى نيابة دمياط .

وفيه توجه السلطان نحو الطرانة ، وكان معه الأتابكى أزبك ، فأقام هناك أياما وعاد .

وفيه قرر مغلباى سرق الأشرفى فى حجوبية الحجاب بدمشق .

وفيه فر من العربان من حبس الدلم شخص من بنى حرام يقال له عمر بن معروف ، وفر من سجن القاعة شخص يقال له محمد بن زامل ، وفر من سجن المقشرة أيضا شخص يقال له ابن صالح ... الكل فروا فى مدة يسيرة من هذا الشهر .

* * *

وفى ثالث شوال خرج الأتابكى أزبك مسافرا الى الحجاز ، وصحبته زوجته بنت الملك الظاهر جقمق ، وخرج معهم الأمير أزبك اليوسفى ، ومعه زوجته خوند بنت عم الملك الظاهر جقمق وخرج معهم الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وولده أبو السعود ، فحج الشيخ أمين الدين فى محفة ، وقد بعث له السلطان سبعمائة دينار يستعين بها على الحج . وخرج صحبتهم الكثير من الناس . وقد سبقوا الحاج بعشرين يوما .

وفيه خلع السلطان على قريبه أزدمر بن مزيد وقرره فى نيابة صفد عوضا عن بلباى العلائى الظاهرى بحكم وفاته .

وفيه خرج الحاج على العادة . ولما حج الشيخ أمين الدين الأقصرائى فى المحفة قال فيه بعض شعراء العصر هذين البيتين :

محفة الشيخ الأقصرائى
تنشد جدواه فى المشاهد
تقول طوبى لمثل هذا
قد حج بالناس وهو قاعد

وكان أمير الركب فى السنة المذكورة جانى بك الأشقر ، أحد خواص السلطان . وبالركب الأول جانى باى الخشن الاينالى تاجر المماليك .

وفى السنة المذكورة حجت خوند فاطمة ، زوجة السلطان ، بنت العلائى علاء الدين بن خاص بك ، فكان يوم خروجها يوما مشهودا ، وكان لها موكب حافل ، وخرجت فى محفة زركش برصفيات لؤلؤ مرصعة بأنواع المعادن الثمنة ، وخرجت صحبتها أخت السلطان فى محفة زركش . وخرج معها خمسون جملا من المحاير المخمل الملون ، ومشى قدام محفتها بالرميلة جميع أرباب الوظائف والدولة ، وغير ذلك من المباشرين . ومشى الزمام ومقدم المماليك ، وأعيان الخدام بأيديهم العصى ، وقدامها من الحداة أربعة ، منهم ابراهيم بن الجندى المغنى ، وأبو الفوز الواعظ ، وغير ذلك . فكان تجملا زائدا قل أن يقع لأحد من الخوندات مثله ، فعد ذلك من النوادر . وكان المتسفر عليها والدها العلائى على بن خاص بك ، وبرسباى المحمودى الخازندار .

وفيه من الحوادث أنه قبل خروج خوند الى السفر رسم السلطان بشنق جارية بيضاء جركسية فشنقت على جميزة بالقرب من حدرة ابن قميحة عند الأحواض التى بطريق مصر العتيقة . وكانت هذه الجارية حملت من بعض مماليك السلطان ، فلما علم السلطان بذلك شنق الجارية ، وأغرق المملوك ، وقيل بل خصاه ونفاه الى الشام .

وفيه اضطربت أحوال الشرقية بسبب فساد العربان من بنى حرام وبنى وائل ، فعين السلطان لهم الأمير يشبك الدوادار فخرج مبادرا .

* * *

وفى ذى القعدة هجم عرب غزالة على ضواحى الجيزة ، ونهبوا خيول المماليك ، وقتلوا جماعة من الغلمان ، وأطلقوا من كان فى السجن . فتنكد السلطان لهذا الخبر ، وعين عدة من الأمراء والجند ، فخرجوا على حمية . فأقاموا هناك أياما وعادوا ولم يظفروا بأحد من العربان المفسدين .

وفيه توفى بيبرس الطويل الأشقر بن ططخ أحد مقدمى الألوف بدمشق ، وكان لا بأس به .

وفى ذى الحجة جاءت الأخبار من الاسكندرية بوفاة الملك الظاهر تمربغا ، أبى سعيد الظاهرى الرومى ، مات بثغر الاسكندرية وقد جاوز الستين سنة من العمر . وكان ملكا جليلا شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية ، وافر العقل كامل الهيئة . واليه تنسب أشياء كثيرة من آلة الحرب ، ورمى النشاب ، ولعب الرمح . وكان من خيار الظاهرية ... اشتراه الملك الظاهر جقمق فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة وأعتقه ، ثم آل أمره الى أن بقى سلطانا ، وجرى عليه شدائد ومحن ونفى عدة مرار وجرى عليه من المماليك الخشقدمية ما لا خير فى اعادته . وخلع من السلطنة بعد ثمانية وخمسين يوما ، وآخر الأمر مات قهرا كما قيل فى المعنى :

هى الدنيا اذا كملت — وتم سرورها خذلت
وتفعل بالذين بقوا — كما فى من مضى فعلت

وفيه أمر السلطان بتوسيط كاشف البحيرة ، وهو شخص يسمى خشقدم الزينى ، فوسطه هو وشخص من الكتاب يقال له ابن الطواب . وقد تجمد عليهما مال لم يقوما به .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا . ثم نودى عليها كل رطل بستة وثلاثين . ونودى على الفلوس العتق كل رطل بأربعة وعشرين . فخسر الناس فى هذه الحركة ثلث أموالهم . وكانت الفلوس تخرج بالعدد كل أربعة أفلاس بدرهم .

وفيه قدم مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن والسلامة. وكان المبشر يومئذ شخصا من الخاصكية يقال

له جان بلاط الغورى ، فأخبر بوفاة أبى السعود محمد ابن الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، مات وهو عائد من مكة ، ودفن فى أثناء الطريق ، وكان شابا حشما رئيسا من أهل العلم والفضل . وتوفى كاتب السر الذى بطرابلس ، السيد الشريف تقى الدين أبو بكر بن أحمد ، وكان لا بأس به .

سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥/١٤٧٦ م) :

فيها ، فى المحرم ، خلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وقرره فى مشيخة تربة الأشرف برسباى ، عوضا عن الكافيجى بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان بتوسيط عمر ابن أبى الشوارب شيخ قليوب ، وقد ضرب بالمقارع بين يدى السلطان ، وشهر على جمل ، ووسط بقليوب .

وفيه فى سابع عشره كان وصول الأتابكى أزبك من مكة المشرفة . وحضر صحبته الشيخ أمين الدين ، وهو فى غاية التشويش على فقد ولده أبى السعود ، وقد وقع له ما يشبه الذهول فلم يلبث بعد دخوله القاهرة سوى تسعة أيام ومات . فلما طلع الى السلطان خلع عليه ، وعلى الأتابكى أزبك ونزلا الى دورهما .

وفيه فى رابع عشريه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تأخر عن ميعاده بأربعة أيام ، وحصل للحاج عطشة شديدة عند العود ، وكان الحاج فى تلك السنة كثيرا . ثم دخلت خوند زوجة السلطان الى بركة الحاج وهى فى تجمل زائد ، ولاقاها الأمراء قاطبة — حتى القضاة — وترجلوا اليها من فوق بغالهم وهى فى المحفة ، ولاقتها المغانى من البيوت ومدت لها هناك أسمطة حافلة . فلما طلعت الى القلعة رفعت على رأسها القبة والطير ، ونثرت عليها صنائف الذهب والفضة . وكان لها بالقلعة يوم مشهود . ودخل اليها التقادم من أرباب الدولة وأعيان الناس .

وفيه فى سابع عشريه كانت وفاة شيخ الاسلام أمين الدين يحيى بن محمد الأقصرائى الحنفى رحمه الله تعالى . وكان قد نيف على الثمانين سنة من العمر ، وكان مولده سنة سبع وتسعين وسبعمائة . وكان اماما عالما فاضلا مفتيا به نفع للمسلمين ، من أجل علماء الحنفية ، بارعا فى الفقه دينا خيرا قائما فى الحق . يخاشن الملوك والسلاطين ويغلظ عليهم فى القول ، ولا يخشى الا الله تعالى . وكان فى سعة من المال ، وولى عدة وظائف سنية منها مشيخة المدرسة الأشرفية ، ومشيخة المدرسة الصرغتمشية والأيتمشية والجانبكية ، وكان بيده عدة تداريس ، وطلب ليلى القضاء غير ما مرة وهو يتمنع .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على قريبه جانم الشريفى ، وقرره فى نظر الجوالى ... وهذا أول استظهاره فى الوظائف .

وفيه توفى الأمير قانى باى الساقى الطويل الظاهرى أحد الأمراء الطبلخاناة ، والحاجب الثانى وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه نزل السلطان الى طرا ، ومعه الأتابكى أزبك ، فبات هناك . ومد له الأتابكى أسمطة حافلة ، فبات وعاد من غده .

وفيه توفى الشيخ نجم الدين اسحق القرشى الحنفى ، كان من أعيان علماء الحنفية ، ومولده قبل التسعين وسبعمائة . وكان لا بأس به .

وفيه توفى تمر حاجب الحجاب ، وهو تمر بن محمود شاه الظاهرى ، وكان ظالما غشوما عسوفا شديد القسوة . تولى ولاية القاهرة ، وحجوبية

الحجاب ، وكان فى أيام ولايته صارما على العبيد والغلمان وغير ذلك ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، حتى قيل أحصى من قتله فى أيام ولايته ، فكان زيادة على السبعمائة انسان ... فلما مات قال جماعة من أهل الصحراء انهم سمعوه يعوى فى قبره كما تعوى الكلاب ، نعوذ بالله من ذلك .

وفيه طلع القلعة شخص من الأمراء العشروات — يقال له دولات باى حلاوة المحمودى — فبينما هو واقف بين الأمراء اذ اضطرب فحملوه الى تحت الكرمة التى بالحوش ، فمات لوقته ، فأحضر له تابوت ، وأنزلوه الى داره ، ودفن من يومه ، وكان دينا خيرا لابأس به .

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وحضره القضاة الأربعة وأعيان الناس من الأمراء وغيرهم .

وفيه خلع السلطان على القاضى تاج الدين ابن المقسى ، وأعيد الى نظر الخاص ، وقد نسى العلقة بالمقارع التى دخلت فى أجنابه ، وانفصل عنها القاضى بدر الدين بن كاتب السر بن مزهر .

وفيه خلع السلطان على الأمير أزدمر الابراهيمى الطويل الاينالى ، وقرر فى حجوبية الحجاب عوضا عن تمر بحكم وفاته .

وفيه قرر السلطان فى الحجوبية الثانية سيباى الظاهرى الذى كان أمير آخور ثانى . وقرر أزدمر المسرطن فى الخازندارية الكبرى ، عوضا عن أزبك اليوسفى ، بحكم انتقاله الى تقدمة ألف .

وفيه توفى الأمير يشبك حلس بن أقبردى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات . وكان دينا خيرا لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على الشيخ برهان الدين بن الكركى ، وقرره فى مشيخة المدرسة الأشرفية ، عوضا عن الشيخ أمين الدين الأقصرائى بحكم وفاته .

وفيه أشيع بين الناس أن السلطان يقصد السفر والخروج بنفسه الى البلاد الشامية ، فنزل بالميدان الكبير الذى بالناصرية ، وعرض هناك خيول الدشار . ثم توجه الى بولاق ، ونزل فى بيت شرف الدين الأنصارى الذى ببولاق ، فأضافه الانصارى هناك ضيافة حافلة ، وكان الأنصارى قد أنشأ غرابا تحت داره . فنزل السلطان فيه ، وتوجه الى شبرى ، ثم عاد قريب المغرب وطلع الى القلعة .

وفيه فى ثانى عشر مسرى كان وفاء النيل المبارك . ونزل الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أعزلو بن حسن الطويل قد وقع بينه وبين أبيه ، وقد بعث يستنجد بنائب حلب على أبيه ، فجهز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب ، وجعل عليهم باش اينال الحكيم أتابك حلب ، وجانم السيفى ، وجانى بك نائب جدة . وكان يومئذ نائب البيرة ، ودولات باى المحوجب ، وآخرين من أمراء حلب فلما خرجوا الى عسكر حسن الطويل ، تقاتلوا معهم ، فانكسر عسكر حلب ، وجرح محمد أعزلو جرحا بليغا ، ورجع الى حلب فى خمسة أنفار ، وأن اينال الحكيم فقد فى المعركة ، وأن دولات باى أسر فى المعركة ، وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة . فلما بلغ السلطان هذا الخبر تشوش له ، وعين جماعة من الأمراء . منهم الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وبرسباى قرا وخاير بك بن حديد ووردبش ، وعين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة ، وأمرهم بأن يتجهزوا ويكونوا على يقظة حتى يرد عليهم من

أمر حسن الطويل ما يكون ... فاضطربت أحوال العسكر . فبينما هم على ذلك اذ ورد كتاب من ابن الصوا يخبر فيه بأن عسكر حسن الطويل عاد الى بلاده ، ولم يحصل منـه ضرر . فانشرح السلطان لهـذا الخبر ، وبطلت التجـريدة التى تعينت الى حسن الطويل فكان كما قيل :

وكم هم تساء به صباحا فتأتيك المسرة بالعشى

وفيه توفى عضد الدين السيرامى شيخ المدرسة البرقوقية ، وهو عبد الرحمن بن يحيى بن سيف ابن محمد بن عيسى ، الحنفى السيرامى . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما من أعيان علماء الحنفية ، بارعا فى الفقه مفتيا ، وكان لا بأس به . فلما توفى خلع السلطان على قاضى القضـاة شمس الدين الامشاطى ، وقرره فى مشيخة البرقوقية عوضا عن السيرامى .

وفيه خلع السلطان على أزبك فشق الظاهرى ، وقرره فى امرية الآخورية الثالثة عوضا عن سيباى بحكم انتقاله الى الحجوبية الثانية .

وفيـه خلع السـلطان على ولد برهان الدين النابلسى ، وأعيد الى نظـارة الجيش بدمشق ، وصرف عنها الشريف موفق الدين الحموى .

وفيه توفى جمال الدين الباعونى قاضى القضاة الشـافعية بدمشق . وكان عالما فاضـلا رئيسا حشما . وكان قد ترشح أمره ليلى قضاء مصر فلم يتم له قضـاء مصر . وكان مولده سـنة خمس وثمانمائة .

* * *

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على قجماس الاسـحاقى ، وقرره فى الأمير اخورية الكبرى ، عوضا عن جانى بك الفقيه الظاهرى بحكم انتقاله الى امرية سلاح عوضا عن اينال الأشـقر بحكم وفاته ، وخلع على قانم قشـير الظاهرى أحـد العشراوات ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قجماس الاسحاقى ، بحكم انتقاله الى أمرية الآخورية الكبرى .

وفيه خلع على برد بك السيفى جرباش كرت ، وقد ظهر أنه قريب السلطان ، فقرره فى نيابة صفد عوضا عن أزدمر بن مزيد قريب السلطان أيضا ، وفيه نقل أزدمر المذكور الى نيابة طرابلس عوضا عن يشبك البجاسى ، وكان برد بك السيفى يومئذ شاد الطرانة ، فاستكثر عليه الناس نيـابة صفد دفعة واحدة .

وفيه توجه الى دمشق برهان الدين النابلسى ، وكيل بيت المال ، وقد خـرج فى بعض أشـغال السلطان .

وفيه وصل القاضى شمس الدين بن أجا قاضى العسـكر ، وكان قد توجه قاصـدا الى حسن الطويل ، فأخبر بأن الطـاعون قد هجم فى بلاده ومات من عسكره ما لا يحصى ، وقد تلاشى أمره . فسر السطان بهذا الخبر .

وفيه قدمت الى القاهرة زوجة حسن الطويل أم ولده محمـد أعزلو ، تستجير لولدها محمـد بالسلطان بأن يشفع له عند أبيه ، ويصلح بينهما . فلما قدمت أكرمها السلطان وأنزلها بدور الحريم .

وفيـه نقبت قاعة الذهب ، وسرق منها عـدة سبائك وشريط ذهب . فلما بلغ السـلطان ذلك ضيق على والى القـاهرة حتى يفحص عمن فعل ذلك . ثم بعـد أيام ظهر أن شـخصا يقـال له يوسف ، وكان من جملة صناع القاعة ، أنه هـو

الفاعل لهذا فقبض عليه ، وعرض على السلطان ، وأخذ ما كان معه من السبائك الذهب ، وسجن بالمقشرة الى أن يرد أمر مولانا السلطان فيه بما يقتضيه .

***

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار من دمشق بأن برهان الدين النابلسى وكيل السلطان ، لما دخل الى دمشق ، صدرت منه القبائح العظيمة بأهل دمشق ، فما أطاقوا ذلك ، ورجموه ورموا عليه بالسهام ، وأحرقوا داره بالنار ، وأرادوا قتله ، فركب نائب قلعة دمشق بنفسه ، وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلا . وقد كادت أن تخرب دمشق فى هذه الحركة بسبب ظلم النابلسى . وكان قد طغى على الناس وتجبر ، وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حقه ، حتى آل أمره الى ما سنذكره فى موضعه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو طرا ، فأضافه هناك ابن البلاح ، وكان أحضر بين يديه قدورا مختومة بها شهد ، ففتحت منها قدرة بين يدى السلطان وهو جالس على السماط . فلما فتحت خرج منها نحلة كبيرة فقصدت وجه السلطان دون الجماعة الذين على السماط ، فلدغته فى جفن عينه فورم وجهه فى الحال ، وتشوش لذلك ورجع من وقته . فطلع الى القلعة ، فانقطع عن اقامة الخدمة أياما حتى شفى .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة بين شاه بضاع بن دلغادر ، وصاحب الأبلستين ، وبين ابن قرمان ، ووقع بينهما مقتلة عظيمة . ووقع أيضا بين حسن الطويل وبين أخيه أويس ، وبعث اليه طائفة من عسكره بالرها فحاربوا أويسا وقتلوه ومن معه من العسكر .

وفيه توجه السلطان الى ثغر دمياط ، وقد توجه الى دمياط مرة أخرى قبل ذلك . وفى هذه السفرة الثانية توجه الى دمياط من البحر فى عدة مراكب كثيرة نحو من مائة مركب ، وكان معه من الأمراء يشبك الدوادار ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشراوات ، وجماعة من المباشرين والخاصكية من المماليك السلطانية . ووقع له وهو حادر فى البحر ، أنه رمى على كركى من الكراكى بجزيرة فى البحر ، فصرع الكركى ، فتحامل وألقى نفسه فى البحر ، فبادر اليه بعض السلحدارية ، ونزل فى البحر ليحضر الكركى ، فقوى عليه التيار فغرق من وقته . فتنكد السلطان بسبب ذلك . فلما طلع الى ثغر دمياط لاقاه النائب ومد له مدة حافلة ، فأقام بها أياما وهو فى أرغد عيش ، وتنزه فى غيطان البلد ، وتوجه الى مكان يصاد فيه السمك البورى ، ونزل فى مركب صغير وعاين كيف يصاد البورى ، وانشرح فى هذه السفرة الى الغاية . فلما أراد العود الى القاهرة عاد فى البحر أيضا ، ونزل فى المركب قاصدا الديار المصرية . فلما أن وصلوا الى بولاق ، سيب النفطية صواريخ نفط ، فجاء منها صاروخ فى مركب الأمير يشبك الدوادار ، فعملت النار فى قلع المركب فاحترق . فاضطرب الأمير يشبك من ذلك ، وصار يدفع عن وجهه النار بالمخدة ، فأدركه طواشى يقال له مرجان الحبشى ، فبينما هو يطفىء النار اذ سقط عليه الصارى فمات لوقته ، هو وشخص من المماليك السلطانية . فكانت مدة غيبة السلطان فى هذه

السفرة نحوا من خمسة عشر يوما ، وطلع الى القلعة فى سلخ الشهر .

* * *

وفى رجب صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر وقدوم السلطان من السفر ، فخلع فى ذلك اليوم على أبى البقا ابن قاضى القضاة ابن الشحنة ، وقرر فى قضاة الشافعية بحلب ، عوضا عن عز الدين الحساوى ، بحكم صرفه عنها . وفى أثناء هذا خرج السلطان على حين غفلة ، وقصد التوجه الى القدس الشريف ، وكان معه الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وآخرون من الأمراء والخاصكية ، وجماعة من أعيان المباشرين وغيرهم . فلما دخل الى القدس أظهر به العدل ، وأقام به ثلاثة أيام . ثم زار الخليل عليه السلام ، وتصدق فى القدس والخليل بستة آلاف دينار وأزال بهما ما كان من المظالم التى كانت حادثة هناك . ولما مر بالقرين أمر ببناء جامع وسبيل هناك ، وحصل له جملة تقادم حافلة من أعيان الناس هناك . ولما دخل الى غزة خلع على سيباى الظاهرى أحد العشراوات ، وقرره فى نيابة غزة ، عوضا عن يشبك العلائى ، بحكم انتقاله الى أتابكية دمشق . ثم ان القاضى تاج الدين بن المقسى ناظر الخاص قدم من عند السلطان ، وأخبر أنه قد وصل الى قطيا ، فخرج جماعة من الأمراء الى لقائه .

* * *

وفى عشرى شعبان وصل السلطان ودخل الى القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش والقماش . وخرج طائفة اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع الموقدة ، وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود حتى طلع الى القلعة . وكان فيه ختان بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وكان له مهم حافل .

وفيه توفى القاضى محيى الدين الطوخى أحد نواب الشافعية ، وهو عبد القادر بن محمد بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا وجيها عند الناس ... ناب فى القضاء مدة طويلة ، وحمدت سيرته ، وكان لا بأس به .

وتوفى السيد الشريف أمير جان تاجر المماليك ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وكان وجيها عند الناس والملوك والسلاطين ، وجلب غالب أمراء عصرنا ، وصاروا يعرفون بالشريفى الى الآن .

وفيه حضر مهنا بن عطية بين يدى السلطان ، وقد بعث اليه بمنديل الأمان ، وكان رأس العربان المفسدين ، وقد أعيا الأمراء والكشاف ومشايخ العربان ، ولم يقدروا على تحصيله ، فترامى مهنا بن عطية على أحمد بن طفيش حتى قابل به السلطان ، وخلع عليه خلعة الرضا ودخل تحت طاعة السلطان .

وفيه توفى جانى بك الأشقر الدوادار أحد خواص السلطان ، وكان رئيسا حشما عارفا سيوسا توجه الى الحجاز أمير حاج غير ما مرة ، وكان مقربا عند السلطان ، وكان أصله من مماليك قانى باى فرفور واتصل بخدمة جماعة من الأمراء ، ثم خدم الأشرف قايتباى — من حين كان أمير طبلخاناه الى أن بقى سلطانا — فأنعم عليه السلطان بامرية عشرة . وكان فى سعة من المال .

وفيه توفى شاهين الفقيه الزينى وكان من أعيان الخاصكية ، محمود السيرة دينا خيرا لا بأس به .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على الأ
الظاهرى أمير مجلس ، وقرره أمير ر

عوضاً عن جانى بك الأشقر المتوفى ، وكان قرره أمير ركب المحمل قبل موته .

وفيه وصل دولات باى المحوجب ، وكان قد أسر عند حسن الطويل ، فأطلقه وخلع عليه .

وفيه توفى سيباى أمير آخور ثالث ، وكان قد ولى حاجب ثان ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق . وكان يعرف بسيباى بن بخشباى ، وكان لابأس به .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن بعض تجار الافرنج احتال على تجار الاسكندرية حتى أسرهم ، وكان فيهم تجار السلطان ، وهم ابن عليبه يعقوب ، وعلى الكيزانى ، وعلى التمراوى . فلما أسروهم خرجوا بهم من الاسكندرية فى الوقت والساعة ، وتوجهوا بهم الى بلاد الافرنج . فاضطربت أحوال الاسكندرية وكادت أن تخرب ، فلما كاتبوا السلطان بذلك تأثر لهذا الخبر ، وعين فى الوقت خاصكيا من خواصه يقال له قيت الساقى ، الذى تولى ولاية القاهرة فيما بعد . وكتب معه مراسيم شريفة لنائب ثغر الاسكندرية بالقبض على جميع تجار الافرنج الذين بالاسكندرية . فلما توجه قيت الساقى هناك قبض على تجار الأفرنج من سائر السواحل ، وضيق عليهم ، وأودعهم فى الحديد ، وألزمهم بان يكاتبوا ملوك الافرنج بما جرى عليهم من السلطان ، بسبب التجار . وقد قام السلطان فى هذه الحادثة قياما تاما ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها . وآخر الأمر اشترى التجار الذين أسروا أنفسهم من ملوك الأفرنج بمال له صورة حتى أطلقوهم ، وأتوا بهم الى الأسكندرية ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانى باى جشحة العلائى الظاهرى الرماح ، وقرره فى الحجوبية الثانية ، عوضا عن سيباى الظاهرى بحكم وفاته . وخلع على دولات باى الحسنى ، وقرره فى شادية الشون عوضا عن قانى باى جشحة .

وفيه توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن محمد بن اسماعيل الكركى الحنفى ، والد برهان الدين امام السلطان ، وكان دينا خيرا من صوفية خانقاه الشيخونية وكان لا بأس به .

وفيه توفى مقبل الدوادار وكان أصله من مماليك تغرى بردى المؤيدى ، وكان متكلما على شعير الذخيرة .

وفيه قرر فى مشيخة الحرم الشريف النبوى اينال الاسحاقى ، وكانت عادة مشيخة الحرم للخدام الطواشية من قديم الزمان . وقرر فى باشية الجند بمكة المشرفة قانى باى اليوسفى .

* * *

وفى شوال خلع السلطان على أبى الفتح المنوفى وقرره فى نيابة جدة على العادة .

وفيه خلع السلطان على شخص من النصارى يقال له ميخاييل من نصارى منفلوط وقرره بترك النصارى .

وفيه خرج الحاج وكان أمير ركب المحمل لاجين الظاهرى ، أمير مجلس . وبالركب الأول جانى باى الخشن الاينالى ، وخرج صحبة الحاج شرف الدين الأنصارى . وكان الأمير يشبك الدوادار حاطا عليه ، فخرج الى مكة المشرفة ، وكان آخر عهده بالقاهرة . وقد تسلط عليه برهان الدين النابلسى ، وأخذ منه وكالة بيت المال ، فضاق الأمر عليه فترك مصر ومضى عنها كما قيل فى المعنى :

لعمرى ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

* * *

وفى ذى القعدة أشيع بين الناس أن خزانة السلطان سرق منها مال له صورة ، فظهر بعد أيام أن الفاعل لذلك جماعة من بوابى الدهيشة الألواحية ، فقبض السلطان على بعضهم وضربه ، فأحضر المال . فرسم بسجنه فى المقشرة فسجن .

وفيه سافر السلطان الى الفيوم ، وهى السفرة الثانية ، وكان معه الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وجماعة من المقدمين والعشراوات . وكان سبب توجهه الى الفيوم أن خاير بك بن حديد أنشأ هناك ضيعة ، وجعل بها طاحونا تدور بالماء ، وأنشأ بها بستانا هائلا ، فتوجه السلطان ليرى ذلك .

وفيه خسف القمر خسوفا تاما حتى أظلم الجو . وأقام الخسوف نحوا من أربعين درجة .

* * *

وفى ذى الحجة كان عيد النحر يوم الجمعة . وخطب فيه خطبتان .

وفيه قدم قطب الدين الخضيرى من دمشق ، وقد أتى يشكو من بدر الدين النابلسى وقد تزايد ظلمه وجوره فى حق الناس جدا .

وفيه كان ختان أولاد الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وكان الختان بثغر دمياط ، فبعث السلطان اليه بألفى دينار بسبب احتياج المهم ، وتوجه بن رحاب المغنى ، وصار بخدمته حتى انقضى مهمه ، وكان له مهم حافل .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأخبر بوفاة القاضى المالكى محيى الدين عبد القادر بن أبى القاسم بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن عبد المعطى ، الأنصارى السعدى ، المالكى ، قاضى مكة المشرفة ، وكان عالما فاضلا فقيها نحويا ، ولى قضاء مكة مدة طويلة ، وكان محمود السيرة .

وفيه توفى تنم الفقيه الأبو بكرى المؤيدى أحد الأمراء العشراوات . وكان صهر الشيخ أمين الدين الأقصرائى ، وكان لا بأس به .

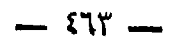
وتوفى اينال الابراهيمى الحكيم الأشرفى أتابك حلب ، وكان لا بأس به .

وتوفى جقمق المؤيدى أحد العشراوات ، وكان دينا خيرا انسانا حسنا لا بأس به .

وفى هذه السنة المذكورة — أعنى سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥ م) — كان ابتداء منشأ الأزبكية على يد المقر الأتابكى أزبك بن ططخ الظاهرى ، والذى نسبت الأزبكية اليه .

وكانت هذه البقعة أرض ساحة خرابا ، ذات كيمان فى أرض سباخ ، وبها أشجار أثل وسنط ، وبها مزار سيدى عنتر وسيدى وزير ، وغيرهما من الأولياء رضى الله عنهم ورحمهم . وكان فى هذه الأرض جامع الجاكى وهو باق الى الآن . وكانت هذه الأرض قديما عامرة ، بها المناظر والبساتين ، وتسمى مناظر اللوق ، وكانت قريبة من بحر النيل . ثم ان بعض الملوك حفر بها خليجا ، وأجرى اليه الماء من فم الخور . وصار هذا الخليج يعرف بخليج الذكر ، وبقى من جملة متنزهات القاهرة ، وبنى على هذا الخليج قنطرة وفوقها دكة للمتفرجين يجلسون عليها للفرجة ، وفيها يقول ابراهيم المعمار :

ياطالب التكة نلت المنى
وفزت منها ببلوغ الوطر



قنطـرة من فوقهـا تكة
وتحتها تلقى خليج الذكر

واستمرت هذه البقعة على ماذكرناه الى سنة خمس وخمسين وستمائة (١٢٥٧ م) . فلما تلاشى أمرها ، وضعف جريان الماء فى خليج الذكر ، وحفر الملك الناصر بن قلاون خليجه المسـمى بالخليج الناصرى ، وذلك فى سنة أربع وعشرين وسبعمائة (١٣٢٣ م) ، طم خليج الذكر ، وخربت مناظر اللوق التى هناك ، وصارت هـذه البقعة خربة مقطع طريق ، واستمرت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت اليهـا أحد من الناس . ثم ان شخصا من الناس عمر حماما كان هناك ، وفتح له بجمونا من الخليج الناصرى ، فجرى فيـه الماء فى أيام زيادة النيل . فلا زال يجريه حتى أوصله بأرض الأزبكية ، فصار يدخل اليها الماء فى آخر الزيادة ، ويروى بها بعض أراضيها ، ويزرع بها البرسيم والشعير ، واستمرت على ذلك مدة الى سنة ثمانين وثمانمائة (١٤٧٥ م) فى دولة الأشرف قايتباى . فحسن ببال الأتابكى أزبك أن يعمر هناك مناخا لجماله . وكان ساكنا بالقرب من هذه البقعة . فلما أن عمر المناخ ، حلت له العمـارة هنـاك ، فبنى القاعات الجليلة ، ثم الدوار والمقعد ، والمبيتات والحواصل ، وغير ذلك . ثم انه أحضر أبقارا ومحاريث ، وجرف الكيمان التى كانت هناك ومهدها ، ثم حفر بها هذه البركة الموجودة الآن ، وأجرى اليها الماء من الخليج الناصرى وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر التى كانت قديمة . ثم بنى على هذه البركة رصيفا محتاطا بها ، وتعب فى ذلك تعبا عظيما حتى تم له ما أراد من ذلك . وكان فى قوة الحر يدور خلف المحاريث فى الكيمان وغيرها ، وصرف على ذلك مالا له صورة يزيد على مائتى ألف دينار ... وكان ذلك فى غير طاعة الله تعالى ، ولا به نفع للمسلمين .

ثم شرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور الفاخرة ، والأماكن الجليلة . ولا زالت تتزايد فى العمارة الى سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ م) وقد رغب الكثير من النـاس فى سكنى الأزبكيـة وصارت مدينة على انفرادها ، ثم أنشأ بها الجامع الكبير ، وجعل به خطبة ، وأنشأ به منارة عظيمة ، فجاء غاية فى الحسن والتزخرف والبناء .

وفيه يقول شمس الدين القادرى :

بنى جامعـا لله يلتمس الرضا
به ونجـاة من أليم عقـابه
وفكر فى الحشر الذى عقبـاته
طوال يهول المرء قطع عقـابه
فأكرم به من جامع من ثوى به
فلم يخل منشـيه اذا من ثوابه
فيا فوز عبد مؤمن قد جنى به
ثمار أجور من رياض جنـابه
عظيم أجور لا ينـوب منابه
سـواه لأجر نال كل المنى به

ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع ، والحمامات والقيـاصر والطواحين والأفران ، وغير ذلك من المنافع . وسكن فى تلك القصور ، وتمتع بها مدة طويلة ، حتى مات . وبقى له تذكار الأزبكية على مر الأيام والأوقـات . وقال فيـه شمس الدين القادرى رحمه الله تعالى :

لأزبك مولانا المقـر عمـارة
بها السعد يسمو للنجوم الشوابك
بمملـكة الاسـلام لم أر مثلهـا
ولا النـاس طرا فى جميع الممالك
بنى جامعا للحسن أصبح جامعـا
تقر به العينان من كل ناسـك

وفيه توفى الشيخ تقى الدين الحصنى الشافعى وهو أبو بكر بن محمد بن شادى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الفقه والعربية وغير ذلك من العلوم ، وكان دينا خيرا لا بأس به . ولى عدة وظائف أى تداريس ، منهـا تدريس المدرسة الصلاحية ، التى بجوار قبة الشافعى رحمه الله تعالى ورضى عنه . فلما مات قرر بها الشيخ زين الدين زكريا الأنصارى عوضا عن الحصنى .

وفيه توفى قاضى القضـاة شهاب الدين أحمد المعروف بالمكينى ، وهو أحمد بن محمد بن بركوت الحبشى التاجر الكارمى . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، ربيب قاضى القضاة صالح البلقينى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها حسبة القاهرة ، ثم ولى قضاء الشافعية ، وغرم بسببها مالا له صورة ، ولم يمكث فى القضاء سوى مدة يسيرة ، وعزل عنها .

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر بوفاة القاضى شرف الدين الأنصارى ، وهو موسى بن على بن سليمان التتائى الشافعى ، وكان رئيسا حشما ، غير خال من فضيلة ، عارفا بأحوال المملكة ، سيوسا حسن الرأى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الجيش ، ونظر الخاص ، ووكالة بيت المال ، وغير ذلك من الوظائف السنية ، حتى عد مدبر المملكة ، وكان مولده بعد العشرين وثمانمائة .

وفيه أرسل نائب الشام جانى بك قلقسير ، هدية للسلطان ، من جملتها من الذهب النقد عشرة آلاف دينار ، وعدة حمالين ما بين سمور ، ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك .

* * *

وفى ربيع الآخر وقع حريق عظيم بباب السلسلة ، فاحترق من خيول السلطان الخاص ستة أرؤس . وقد أعيـا المماليـك طفيه . وهدم من سور باب السلسلة جانب عظيم .

وفيه فى ثالث مسرى كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه توفى نائب الاسـكندرية قانم قشـير الظاهرى ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الأولى عاد الأمير يشبك من بلاد الصعيد ، ولم يظفر بأولاد ابن عمر .

وفيه قرر فى امرية الحاج بركب المحمل تانى بك الجمالى الظاهرى ، أحد مقـدمى الألوف ، وقرر اقبردى الأشرفى أمير ركب الأول .

وفيـه حضر الى الأبواب الشريفـة قانصـوه اليحياوى نائب حلب ، وكان قد أشيع عنه أنه خرج عن الطاعة ، فلما حضر خلع عليه السلطان باستمرار ، وبطلت تلك الاشـاعة عنه . وكان القائم فى أمر مساعدته الأتابكى أزبك أمير كبير .

* * *

وفى جمادى الآخرة نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، لضيافة أبى بكر بن عبد الباسط ، فأضافه ضيافة حافلة . ثم ركب من خليج الزعفران وتوجه الى الخانقاه ، فصلى بها صلاة الجمعة . وأضافه هناك الأمير يشبك الدوادار ضيافة حافلة .

* * *

وفى رجب وقع بالقاهرة زلزلة فى الليل عظيمة ، وقع منها بعض أماكن ، ولو أنها دامت درجة أخرى لحصل منها غاية الضرر للناس .

وفيه تعطلت أسباب الناس لأجل الفلوس العتق ،

وكثر الضرر منها على البائع ، وصار النصف الفضة يصرف بثمانية عشر من الفلوس العتق ، وصارت البضائع بسعرين : سعر الفضة ، وسعر الفلوس . فحصل للناس بذلك غاية المشقة .

وفيه وقع بين الأمير يشبك الدوادار الكبير وبين خاير بك بن حديد تشاجر بالقلعة . فحنق منه الأمير يشبك الدوادار ولكمه بيده ، فرمى تخفيفته عن رأسه . فدخلت بينهما الأمراء ، وخلصوا بينهما . واستمرت القلوب معمرة بالعداوة حتى كان من آمر خاير بك بن حديد ما سنذكره .

* * *

وفى شعبان نزل السلطان الى الرماية ، وعاد فى موكب حافل ، ولكنه لم يشق من القاهرة ، وطلع من بين الترب . وقد تكرر نزوله فى الشهر المذكور ثلاث مرات ، وهو يطلع من بين الترب ، ولا يشق المدينة . وسبب ذلك الفلوس الجدد ، حتى لا يشكو له الناس من ذلك .

* * *

وفى رمضان نودى على الفلوس بستة وثلاثين الرطل ، وصارت بالميزان ، وأبطل عددها . ونودى على الفضة المضروبة بألا يتعامل بها الا بالميزان ، وكذلك الذهب . وبطل أمر العادة .

وفيه أشيع بين الناس بأن السلطان يتزيا بزى المغاربة وينزل الى الجامع الأزهر ويصلى به ، وكان يسأل فى بعض الطرقات من الناس عن سيرة نفسه ، ووقع له بين الناس فى هذا الأمر أشياء غريبة يطول الشرح فى ذكرها . وبعض الناس كان يحط عليه فى أفعاله ، وهو يسمع كلامه بأذنه ممن يسأله .

وفيه توفى جانى بك المشد ، وكان موته فجأة بعد أن صلى التراويح . وكان قد شاخ وكبر سنه . وأصله ممن مماليك الأشرف برسباى ، وولى شادية الشراب خاناه فى دولة الأشرف اينال . ثم بقى مقدم ألف ، ونفى الى دمياط فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر الى القاهرة فى دولة الأشرف قايتباى ومات بها وهو طرخان .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة على العادة . وفرقت الخلع والصرر على الفقهاء .

وفيه فشا أمر الطاعون بالقاهرة . وهذا هو الطاعون الثانى الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى.

ومات به فى الشهر المذكور القاضى عبد الكريم ابن جلود ، وهو عبد الكريم بن أبى الفضل بن اسحاق القبطى . وكان رئيسا حتشما ، وولى كتابة المماليك بعد أبيه ، وكان فى حداثة سنه لم يلتح ، وباشرها أحسن مباشرة . وكان له حرمة وافرة ، وكان مولده قبل السبعين والثمانمائة .

وفيه توفى قانصوه رفرف ، وكان من أعيان الخاصكية مقربا عند السلطان ، شابا مليح الشكل ، حسن الهيئة ، كثير الأدب والحشمة ، عارفا بالفروسية ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى شوال تزايد أمر الطاعون ، وفتك بالمماليك والأطفال والعبيد والجوارى والغرباء فتكا ذريعا . وكان طاعونا مهولا يموت فيه الانسان من يومه .

وفيه يقول الشهاب المنصورى رحمه الله تعالى :

لهفى على مصر وولدانها
أضحوا الى الموت يساقونا
ما لشر الفصل سهام الردى
عليهم الا طواعينا

وفيه حضر دولات باى النجمى الأشرفى ، حاجب الحجاب بدمشق ، وكان السلطان قد تغير خاطره عليه . ولما حضر خلع عليه ، وأظهر له الرضا .

وفيه وصل السيد الشريف على بن بركات أخو أمير مكة المشرفة . وكان حضر قبل ذلك الى

القاهرة ، فمشى السلطان بينه وبين أخيه بالصلح . وتوجه الى مكة المشرفة ، فأقام بها مدة يسيرة ، ووقع بينه وبين أخيه ثانيا ، فعاد الى القاهرة هو وولده ، فأكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه ، وأقام بمصر حتى مات .

وفيه خلع السلطان على قراجا السيفى جانى بك نائب جدة ، وقرره فى نيابة جدة ، عوضا عن أبى الفتح المنوفى بحكم انفصاله عنها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة على عادته ، وكان يوما مشهودا .

* * *

وفى ذى القعدة تناهى أمر زيادة الطاعون ، ومات فيه من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم الشيخ المسلك العارف بالله تعالى ، الولى الصالح محمد بن أحمد ابن محمد التونسى الشاذلى الوفائى ، المعروف بأبى المواهب رحمة الله عليه ، وكان أصله مغربيا يعرف بابن رغدان . وكان عالما صوفيا محققا أخذ عن أبى السعادات بن أبى الوفاء ، وألف عدة أجزاء جليلة ، وكان قد جاوز الستين سنة من العمر ، ودفن بتربة الشاذلية .

وتوفيت أخت السلطان ، خوند جان باى الجركسية وكانت لا بأس بها .

ومات جكم المصارع الأشرفى الخاصكى وكان لا بأس به .

ومات طوغان المحمدى الأشرفى ، وكان فى عشر الثمانين سنة ، وله اشتغال بالعلم .

ومات الشيخ عبد الكريم السيواسى الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضل .

ومات عيسى بك أخو شاه سوار ، وكان مقيما بالقاهرة .

ومات كسباى بن ولى الدين الظاهرى الخشقدمى ، الذى كان دوادارا ثانيا فى دولة الظاهر تمربغا .

ومات تمربغا كاشف الشرقية وكان من مماليك السلطان وكان أمير عشرة ، فلما مات قرر عوضه على باى الذى ولى نيابة الأسكندرية فيما بعد .

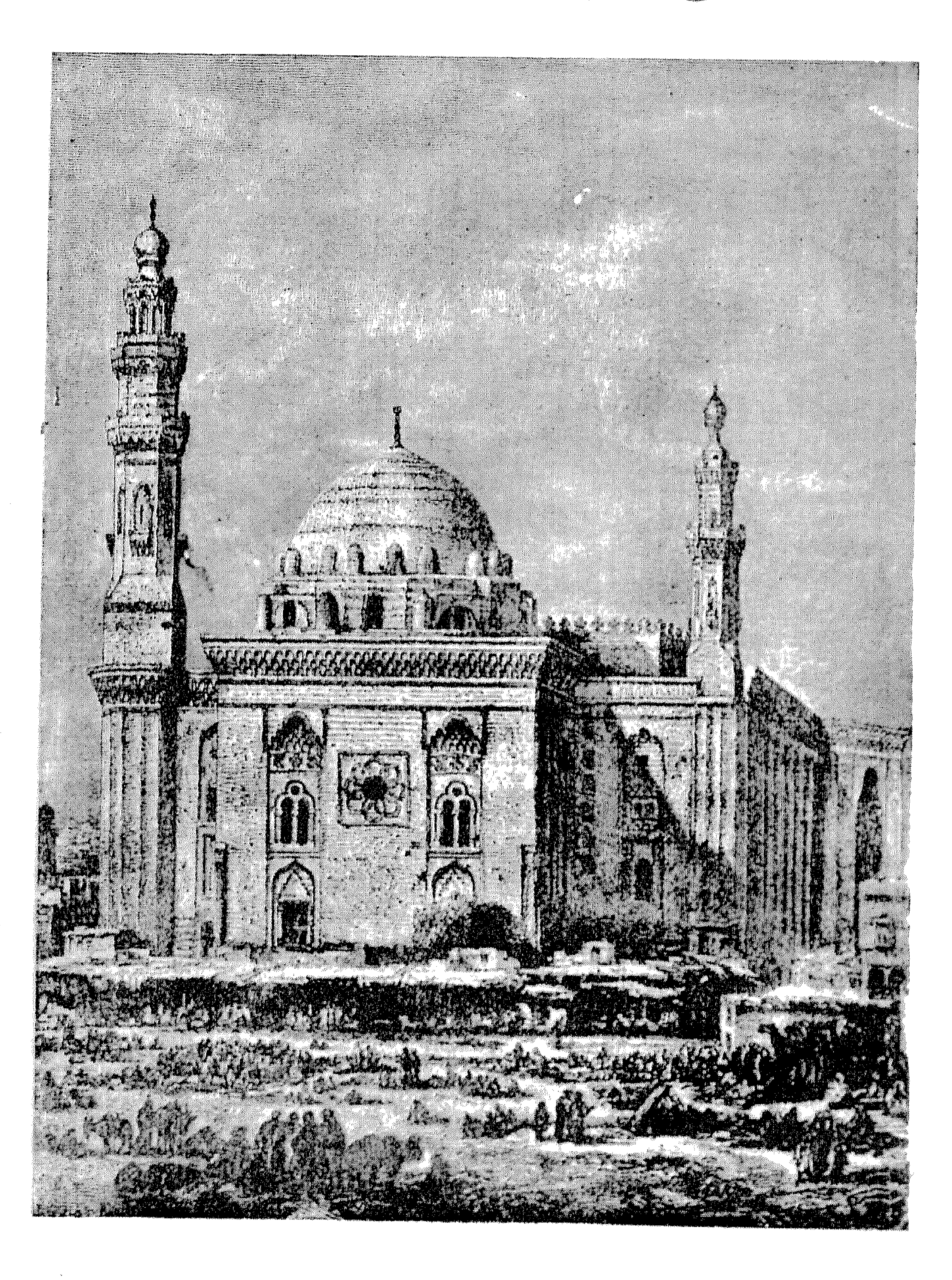
ومات كرتباى كاشف البحيرة وكان أصله من مماليك جانى بك نائب جدة ، ثم ظهر أنه من قرابة السلطان .

وفيه مات الامام العالم العلامة الشيخ سيف الدين الحنفى وهو محمد بن محمد بن عمر بن قطلوبغا التركى القاهرى ، وكان عالما فاضلا ، ورعا ، زاهدا ، خيرا ، دينا ، صالحا ، ماهرا فى الفقه والحديث . ولى مشيخة الجامع المؤيدى ، ومشيخة الخانقاه الشيخونية ، وغير ذلك من التداريس . وكان متقشفا زاهدا عن أبناء الدنيا . ومولده سنة ثلاث وثمانمائة . وكان من خيار الحنفية ، ولما مات رثاه الشيخ العلامة العمدة الجلال السيوطى بهذه الأبيات :

مات سيف الدين منفردا	وغدا فى اللحد منغمدا
عالم الدنيا وصالحها	لم تزل أحواله رشدا
ناصر دين النبى اذا	ما أتاه ملحد كمدا
فى الذى قدكان منورع	لم يخلف بعده أحدا
لم يكن فى دينه وضر	لا ولا للكبر منه ردا
عمره أفناه فى نصب	لاله العرش مجتهدا
ليت شعرى من نؤمله	بعد هذا الحبر ملتحدا
ثلمة فى الدين موتته	ما لها من جابر أبدا
قد روينا ذاك فى خبر	وهو موصول لنا سندا
فعليه هاملات رضا	ومن الغفران سحب ندا
وبعثنا ضمن زمرته	مع أهل الصدق والشهدا

* * *

بدائع الزهور
في وقائع الدهور



السيره . وعنده عسف وظلم ، فسان والناس عنه غير راضين

وفيه شرع الأمير يشبك الدوادار فى أمر توسيع الطرقات والشوارع والأزقة . فأمر القاضى فتح الدين السوهاجى ، أحد نواب الشافعية ، بأن يحكم بهدم ما وضع فى الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى . من أبنية وربوع وحوانيت ، وسقايف ورواشن ومساطب ، ونحو ذلك .

واستمر الحال فى أمر الهدم ، حتى دخلت سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة ، فحصل بذلك بعض نفع فى توسعة الطرقات ، ولكن حصل غاية الضرر لجماعة من الناس بسبب هدم ربوعهم وحوانيتهم . وهدم لخوند شقرا ، ابنة الملك الناصر فرج ، ثلاثة ربوع فى الموازنيين : أحدها كان لجامع الصالح خارج باب زويلة ، فاضطربت أحوال القاهرة ، وكثر الهدم فى الأماكن — ولا سيما المطلة على الشوارع — وحصل للقاضى فتح الدين السوهاجى غاية المقت بين الناس بسبب حكمه بهدم الأماكن . وفى هذه الواقعة يقول الشهاب المنصورى :

تكشفت عن محيا مصر الاستار
وخف عنها من الأثقال أوزار

واهتزت الأرض منها بهجة ورنت
ولاح فيها اضاءات وأنوار

كانت كصبح تعالت فوقه ظلم
شتى ، فجاء لها بالنور اسفار

كانت كشمس تغشاها الغمام ضحى
فمزقته من الأرياح اعصار

فاليوم أعطافها بالبشر مائسة
وقدها فى حلى السعد خطار

وكانت الطرق قد شابت مفارقها
والشيب ان شان ما فى أخذه عار

ومنها :

لما شكا الناس من مصر مضايقها
وحار فيها من الحكام أفكار

فما لقى آجور القاطنين بها
الا الأمير الذى بالعرف أمار

فهو الهمام النظام المرتقى درجا
ت الفضل يشبك مولانا الدوادار

وهذا اختصار القصيدة المطولة .

وفيه تغير خاطر السلطان على برهان الدين النابلسى ، وكيل بيت مال المسلمين ، فقبض عليه وسلمه للأمير يشبك الدوادار ، ليستخلص منه الأموال ... فاستمر الأمير يشبك يعاقبه ، واستخلص منه جملة أموال لها صورة . وآخر الأمر مات تحت العقوبة شر موتة . وقد أذاقه أنواع العذاب ، وتفنن فى عذابه تفننا زائدا . قيل انه ضربه عدة مرار نحوا من ألفين وستمائة عصا ، وقلع أضراسه ودقها فى رأسه ، وغير ذلك من أنواع العذاب . وكان أصله من دمشق ، وهو ابراهيم بن ثابت ، وكان أحد نواب الشافعية ، وله اشتغال بالعلم ، لكنه أدخل نفسه فى أمور السلطنة ، وطاش وظلم وجار عليهم ، ولم يفتكر فى عقبى ذلك ، فأخذ من الجانب الذى أمن اليه ، بعد أن عادى جميع الناس ممن بمصر والشام ، حتى الأمراء وأعيان الناس ، وأعيان الدولة ، وشقى لنفع غيره حتى سلب من المال والروح .

وفيه قدم قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وعلى يده مكاتبة ، فأكرمه السلطان ، وعاد له الجواب ، وسافر بعد أيام .

* * *

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الصاحب خشقدم الأحمدى ، وقرره فى الخازندارية الكبرى

والزماحية ، عوضا عن يوسف النوروزى ... فعظم أمره جدا ، وصار وزيرا وخازندارا وزماما . وقرر مقبلا السقى الطاهرى رأس نوبة السقاة ، وكانت بيده خشقدم أيضا .

وقبض السلطان على القاضى تاج الدين بن المقسى ، وقرره فى الاستادارية عوضا عن الأمير يشبك الدوادار ... وقد استعفى منها . فصار ابن المقسى استادارا وناظر الخاص ، فعظم أمره جدا وكانت ذلك بداية وانتهاء سعده .

وعمل السلطان المولد النبوى بالقلعة وكان يوما حافلا . وحضر القضاة الأربعة ، وجميع الأمراء . فلما انتهى أمر المولد نزل السلطان من القلعة ، وقصد التوجه الى ثغر الاسكندرية ، فسافر من البر ، وجهز سنيحه فى المراكب . وسافر صحبته من الأمراء : الأتابكى أزبك أمير كبير ، ويشبك الدوادار ، وتمراز رأس نوبة النوب ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ، وعدة من الأمراء الطبلخاناة ، والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية ، والمماليك السلطانية . وسافر معهم سائر المباشرين . وكان القاضى كاتب السر ابن مزهر متوعكا فى جسده ، وخرج وسافر مع السلطان وهو عليل .

وكان علم الدين شاكر بن الجيعان مريضا ، على غير استواء ، فتخلف بالقاهرة . وانما سافر معه ولده عبد الغنى . فلما وصل السلطان الى مدينة الاسكندرية ، زينت له زينة حافلة ، وخرج الى لقائه الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، وهو بالشاش والقماش . وكذلك قجماس الاسحاقى نائب ثغر الاسكندرية ... واصطف الناس فى شوارع المدينة بسبب الفرجة . فدخل السلطان فى موكب حافل ، وجميع من معه من الأمراء والعساكر ملبسين بآلة السلاح بالعدد الكاملة .

والأتابكى أزبك حامل القبة والطير على رأسه ، والملك المؤيد بين يديه قدام الأمراء ، وقدامه أعيان المباشرين ، وأرباب الدولة ، وطلب طلبا حافلا ، وجر فيه مائتين وخمسين فرسا ، منها خمسون فرسا بالسروج الذهب والكنابيش ، والبقية ملبسة بأنواع الجواغين المكفتة ، والبركستوانات من المخمل الملون ، وفى الطلب كجاوش زركش ، وهى التى تعرف الآن بالجوشن ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، والأوزان عال ، والشبابة . ومشى قدامه الأمراء رءوس النوب بالعصى ، وشق المدينة فى ذلك الموكب الحافل ، وكان له يوم مشهود .

ثم ان بعض تجار الافرنج نثر على رأسه ألف بندقى ذهبا ، فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض ، فكاد السلطان يسقط عن ظهر فرسه من شدة ازدحام الناس عليه ، حتى أدركه الأمير تمراز وبيده عصا ، فضرب الناس حتى خلص السلطان ومشى . واستمر فى ذلك حتى خرج الى باب البحر الذى هناك ، فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح . وكان من العادة القديمة أن السلطان اذا دخل الى مدينة الاسكندرية ، تفك أبواب المدينة ، وتلقى على الأرض الى أن يرحل السلطان عن المدينة ... فلم يوافق السلطان قايتباى على ذلك ، وأبقى كل شىء على حاله . ولم يدخل الإسكندرية سلطان من عهد الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ، وقد دخلها مرتين : الأولى فى سنة سبع وستين وسبعمائة ، لما طرق الافرنج ثغر الاسكندرية ، فدخلها على جرائد الخيل . والثانية كانت فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة ، فأوكب بها فى هذه المرة ، وزينت له مدينة الاسكندرية ، وفرش له خليل بن عرام نائب الاسكندرية الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضة ، ومشت

بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان فى تروجة . وتوجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعة .

ثم توجه بعده الى الاسكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود . فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم ، من الثلث الى الخمس ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباى ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجماس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء قاطبة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة فى الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافلة . ثم انه توجه نحو المنار القديم ، الذى كان بثغر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا عظيما ، وهو الموجود الآن . ثم ان السلطان رحل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمنهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان فى هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحوا من أربعين يوما ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء فى غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماه ، وأخبر أن نائب حماه ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دواداره وأحرقوه بالنار ، بسبب ظلمه وعسفه فى حق الرعية . فلما بلغ السلطان هذا الخبر ، عين من هنالك خاصكيا لكشف الأخبار ، لبرى الظالم من المظلوم .

وفيه حضر قاصد من مكة المشرفة ، وأخبر بنزول صاعقة عظيمة عند باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ، وأخبر بوفاة قاضى القضاة المالكية بمكة المشرفة ، وهو محمد أبو اليمن بن أبى السعادات ، وكان من أهل العلم والفضل .

وأخبر أيضا بوقوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بنى جزازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بنى جزازان .

* * *

وفى ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفى آخر يوم من أبيب . وكسر فى أول يوم من مسرى ، فعد ذلك من النوادر ، وفيه يقول القائل :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
اذا رام جريا فى الخليج تقنطرا
ولكن بهذا الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما فى القرى وتجسرا

وقال آخر :

ان بحر النيل قد وفى لنا
ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين الا أنه
حين وفى ما عليه انكسرا

وكان الوفاء فى غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوما مشهودا .

وفيه كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاكر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند الملوك والسلاطين . وكان عنده تواضع

بين يديه الأمراء وكان له بها يوم مشهود . وكان دخوله من باب رشيد ، فانه كان فى تروجة . وتوجه من هناك الى الاسكندرية ، فأقام بها ثلاثة أيام وعاد الى القلعة .

ثم توجه بعده الى الاسكندرية الملك الناصر فرج بن برقوق ، فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فلما دخلها كان له بها يوم مشهود . فوقف له بعض تجار المغاربة بقصة يشكو له من ظلم القباض لهم ، فأبطل ما كان يؤخذ منهم ، من الثلث الى العشر ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء . وعد ذلك من محاسن السلطان فرج .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف قايتباى ، فلما نزل بالمخيم مد له هنا قجماس نائب الاسكندرية مدة حافلة ، ثم خلع على الملك المؤيد ونائب الاسكندرية ، ورجعا الى دورهما ، وصحبتهما الأمراء قاطبة . فأقام هناك ثلاثة أيام ، ولعب الكرة فى الفضاء ، ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه . ودخل عليه من تجار الاسكندرية تقادم حافلة . ثم انه توجه نحو المنار القديم ، الذى كان بثغر الاسكندرية ، ورسم بأن يبنى على أساسه القديم برجا ، فبنى به برجا عظيما ، وهو الموجود الآن . ثم ان السلطان رحل من الاسكندرية وتوجه الى نحو ادكو ودمنهور وغير ذلك من البلاد الغربية ، وانشرح السلطان فى هذه السفرة الى الغاية ، واستمر يرحل من مكان الى مكان على سبيل التنزه ، نحوا من أربعين يوما ، حتى عاد الى القلعة المنصورة .

ومن الحوادث أنه جاء فى غيبة السلطان قاصد من عند قراجا الطويل ، نائب حماه ، وأخبر أن نائب حماه ثار عليه أهل البلد ورجموه وأخرجوه منها ، وقتلوا دواداره وأحرقوه بالنار ، بسبب ظلمه وعسفه فى حق الرعية . فلما بلغ السلطان هذا الخبر ، عين من هناك حاجبا يكشف لمقدمه الأخبار ، ليرى الظالم من المظلوم .

وفيه حضر قاصد من مكة المشرفة ، وأخبر بنزول صاعقة عظيمة عند باب السلام ، فاحترق منها عدة أماكن ، وأخبر بوفاة قاضى القضاة المالكية بمكة المشرفة ، وهو محمد أبو اليمن بن أبى السعادات ، وكان من أهل العلم والفضل .

وأخبر أيضا بوقوع فتنة مهولة بين الشريف محمد بن الشريف بركات ، وبين قبيلة بنى جزازان وحصل بينهما ما لا خير فيه . وآل الأمر الى أن الشريف محمد قد قبض على شيخ بنى جزازان .

* * *

وفى ربيع الآخر كان وفاء النيل المبارك ، وقد وفى آخر يوم من أبيب . وكسر فى أول يوم من مسرى ، فعد ذلك من النوادر ، وفيه يقول القائل :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
اذا رام جريا فى الخليج تقنطرا
ولكن بهذا الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما فى القرى وتجسرا

وقال آخر :

ان بحر النيل قد وفى لنا
ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين الا أنه
حين وفى ما عليه انكسرا

وكان الوفاء فى غيبة السلطان ، فتوجه الأمير لاجين أمير مجلس ، وفتح السد على العادة بأمر تقدم من السلطان له . وكان يوما مشهودا .

وفيه كانت وفاة القاضى علم الدين شاكر بن الجيعان بن عبد الغنى بن شاكر بن حامد بن عبد الوهاب بن يعقوب الدمياطى الأصل القبطى المصرى متولى ديوان الجيش . وكان رئيسا حشما وجيها عند الملوك والسلاطين . وكان عنده تواضع

زائد للناس قاطبة . وله اشتغال بالعلم . ومولده فى سنة سبعين وسبعمائة ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى بالقرب من بركة الرطلى . وكان نادرة فى بنى الجيعان .

وفيه وصل السلطان الى القاهرة ، وطلع الى القلعة . وكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحو شهر وأيام ، ودخل له تقادم حافلة . فلما استقر بالقلعة خلع على الشرفى يحيى بن شاكر بن الجيعان ، وقرره فى وظيفة والده . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

❊ ❊ ❊

وفى جمادى الأولى عرض السلطان جماعة من أولاد الناس ، وقرر منهم من اختاره فى وظائف مثل طبردارية وجمدارية ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن القوصونى ، وقرره فى رياسة الطب ، عوضا عن ابن العفيف .

وكانت انتهت عمارة قاعات الأزبكية ، التى أنشأها الأتابكى أزبك ، فعزم على السلطان هناك فنزل اليه وبات عنده فأضافه ضيافة حافلة . ثم قدم له تقادم هائلة فشكره على ذلك ، ولم يقبل منها شيئا . فلما أصبح توجه هو والأمير يشبك الدوادار الى جهة المطرية ، فأضافه هناك الأمير يشبك فى القبة التى أنشأها هناك . فأقام عنده يوما وليلة ، وانشرح هنالك الى الغاية ، وشكر عمارة الأمير يشبك على عمارة الأتابكى أزبك . ثم طلع الى القلعة ، وبعث اليه الأمير يشبك تقادم حافلة ، فقبل منها شيئا وردّ منها شيئا .

وفيه انتهت زيادة النيل الى أصبع واحدة وعشرين ذراعا . وثبت الى آخر بابة ، وقد كسر الجسور وقطع الطرقات ، وغرقت أراضى المنية . وكان نيلا عظيما .

وفيه خلع السلطان على قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقرره فى مشيخة الخانقاه الشيخونية ، عوضا عن الشيخ سيف الدين الحنفى ، بحكم وفاته رحمه الله تعالى . وكان ابن الشحنة منفصلا عن القضاء .

وفيه ، فى أثنائه ، خرج السلطان على حين غفلة من العسكر ، وتوجه الى الصالحية . ثم بعد أيام أشيع بأن السلطان توجه من هناك الى البلاد الشاميه ، فنعجب الناس من ذلك ، وكان فى نفر يسير من العسكر بحيث انه كان معه من المماليك نحو من أربعين مملوكا من خواصه ، وكان معه بعض أمراء عشراوات ، وتانى قرا الدوادار الثانى وآخرون من الأمراء . وكان معه من المباشرين القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهر ، وأبو البقاء ابن الجيعان ، وشهاب الدين بن التاج الموقع . وبرهان الدين بن الكركى الامام ، وغير ذلك مما لا يحضرنى أسماؤهم . وترك بالقاهرة الخليفة المستنجد بالله والقضاة الأربعة ، والأتابكى أزبك ويشبك الدوادار ، وسائر الأمراء المقدمين ، والطبلخانات والعشراوات ، وجميع العسكر قاطبة ، لم يتبعه أحد منهم . فصار الناس فى شك من سفره على هذا الوجه ، ولم يتفق لأحد من السلاطين مثل هذه الواقعة .

❊ ❊ ❊

وفى جمادى الآخر ورد هجان من عند السلطان وعلى يده مراسيم الى الأمراء الذين بالقاهرة . فكان من مضمونها أن السلطان توجه الى نحو البلاد الشامية ليكشف عن أمر النواب والقلاع بنفسه . وأرسل يقول للأمراء بأن يتوصوا بالرعية والجد فى الأحوال ، وأن يحضروا الجامكية مادام السلطان غائبا . وكان المشار اليه فى غيبة السلطان

الأمير أزبك ، وقد عظم أمره جدا والعقد الحل عليه دون الأمراء .

وفيه فى غيبة السلطان توفى القاضى نور الدين ابن الأبنابى ، نائب كاتب السر ، وكان رئيسا حشما عارفا بأحوال المملكة ، وكان انسانا حسنا لا بأس به رحمه الله تعالى .

* * *

وفى رجب توجه القضاة الأربعة الى بيت الأتابكى أزبك والأمير يشبك الدوادار ، وهنوهما بالشهر .

وفيه خرج الأتابكى أزبك الى السرحة ، فغاب أياما وعاد الى القاهرة .

ومن جملة ألطاف الله تعالى أن فى غيبة السلطان لم يتسع الخلف بين الأمراء ، بل كان الأمان والاطمئنان فى القاهرة وجميع ضواحيها ، حتى عد ذلك من النوادر .

* * *

وفى شعبان وصل هجان من عند السلطان ، وأخبر بأن السلطان دخل الى حلب ، وأقام بها ، وهو قاصد الى جهة الفرات ، وقد عرج قبل دخوله الى حلب نحو طرابلس .

ثم حضر هجان ثان وعلى يده مراسيم للأمراء بالسلام ، ومكاتبة للأتابكى أزبك بأنه يتوجه الى المطعم بالريدانية ، ويلبس الأمراء هناك الصوف وأن يصرف الكسوة للجند . فخرج الأتابكى أزبك الى المطعم وصحبته الأمراء قاطبة والعسكر وكان له يوم مشهود . فألبس الأمراء هناك الصوف كعادة السلاطين . وخلع فى ذلك اليوم على الأمير جانى بك الفقيه أمير سلاح ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر اقبردى الأشرفى بالركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الشهابى أحمد بن أبى الفرج ، نقيب الجيش ، وهو أحمد بن محمد بن عبد الغنى ، وتوفى بحلب . وكان خرج صحبة السلطان فمات هناك .

وقيل انه حصل له رجفة من السلطان فانطرب ومات عقيب ذلك . وكان شابا قليل الأذى للناس لا بأس به .

* * *

وفى رمضان وقع بالقاهرة بعض اضطراب ، وسبب ذلك مضى الثلاثين من شعبان ، ولم ير الهلال ، فأكل غالب الناس فى أول رمضان ، فنادى القاضى الشافعى بالامساك فثار عليه العوام ، وقصدوا الاحراق به ، فثبت رمضان برؤية الهلال قرب الظهر . ولكن أفطر غالب الناس فى ذلك اليوم .

وفيه وقع بين تنم الضبع أخى تنبك الجمالى ، وبين القاضى أبى الفتح السوهاجى ، تشاجر بسبب هدم مكان . فسب الأمير تنم الضبع السوهاجى ، فشكا الى الأمير يشبك . فطلب تنم فلما حضر أمر بضربه بين يديه ، فضرب ولم يوقره لأخيه تنبك الجمالى ، فحصل بسبب ذلك بعض ملعلة بين الأمراء .

وفيه جاءت الاخبار من حلب ، بأن السلطان لما توجه الى الفرات أقام هناك أياما . ثم عاد الى حلب ورحل عنها ، وقصد التوجه الى حماة ، فلما دخلها وأقام بها ، حصل له هناك مرض فى جسده ، فلما ثقل فى المرض وعجز عن الحركة ، أحضروا له محفة فحمل بها ، وتوجه الى دمشق فدخلها وهو مريض على غير استواء . فكثر القيل والقال بين الناس ، وصار فى كل يوم يشاع بالقاهرة خبر جديد بأن السلطان مات ودفن هناك ...

فاضطربت أحوال الأمراء فى بعضهم ، وأظهر كل واحد منهم ما فى نفسه من السلطنة . وأرجفت القاهرة بموت السلطان غير ما مرة . ونقل للأمير يشبك الدوادار بأن برد بك جيش ، أحد الأمراء الآخورية ، وكان من أخصاء جانبك الفقيه أمير سلاح ، قد مشى بين طائفة المماليك الخشقدمية ، بأن يكونوا من عصبة جانبك الفقيه . واذا صح موت السلطان يقومون معه ويسلطنونه

وكان جانى بك الفقيه تحدثه نفسه بالسلطنة ، ويقرب الفلكية والمنجمين ، وحظى عنده جماعة بسبب ذلك .

ثم ان الأمير يشبك أرسل خلف برد بك جيش ، وذكر له ما نقل عنه ، فأنكر ذلك وحلف أيمانا عظيمة أنه لم يصدر منه شيء من ذلك ، فقامت عليه البينة وكذبوه فى وجهه . فسكت ولم ينطق بحرف واحد ، فعند ذلك أمر الأمير يشبك بضربه ، فضرب بين يديه ضربا مبرحا حتى أشرف منه على الهلاك . ثم أقامه وأحضر له عمامة يهودى صفراء ، وألبسها له ، وقصد يشهره بالقاهرة . فتشفع فيه بعض الأمراء ، فأركبه على حمار وجرسه بين يديه فى الدوائر . ثم شكه فى الحديد ، وأمر بنفيه الى الواح .

كل ذلك جرى والسلطان غائب ، لم يعلم له خبر ، وكانت هذه الواقعة سببا لنفى جانى بك الفقيه أمير سلاح كما سيأتى الكلام على ذلك

وفيه ختم البخارى بالجامع الأزهر ، وحضر به القضاة الأربعة ، وفرقت هناك الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء ، وكانت قراءة البخارى من اول رمضان فى الجامع الأزهر ، وعند الدعاء يدعون للسلطان بالسلامة .

فبينما القاهرة فى اضطراب واذا بخاصكى حضر من عند السلطان ، يقال له برد بك سكر ، وعلى يده مكاتبات للخليفة والقضاة الأربعة ، والأتابكى أزبك ، والأمراء قاطبة . فكان من مضمونها أن السلطان قد حصل له توعك فى جسده ، وقد بعث الله تعالى له بالعافية والشفاء ، وحصل له البرء . فضربت البشائر بالقلعة ، ودخل على برد بك سكر عدة كوامل بسمور من الأمراء ، والخليفة ، وقضاة القضاة ، وأرباب الدولة ، ودقت له البشائر على أبواب الأمراء ، ونودى فى القاهرة بالزينة سبعة أيام ... فزينت وأظهرت الناس الفرح والسرور بعافيته . وسكن الاضطراب الذى كان بالقاهرة ، وبطل القيل والقال الذى كان بين الأمراء وفى ذلك يقول الشهاب المنصورى :

بعافية السلطان مولى الأنام قد
تهلل وجه الدهر فهو جميل
وقد صحت الدنيا لصحة جسمه
وليس بها غير النسيم عليل

وكان الأمير يشبك الداودار من حين توجه السلطان للسفر ، وهو مجتهد فى توسيع الطرقات واصلاح وجوه أبواب الجوامع والمساجد ، وجلى رخامها ، وبيض حيطانها ، وكشف عن أبواب جامع الملك الصالح ، وظهر منه عواميد رخام فجلاها ، وأمر بتبييض الدكاكين ، ووجوه الربوع التى تطل على الشوارع ، وخلع على شخص من أبناء الناس ، وجعله متسد الطرقات ، فصار يستحث الناس فى سرعة البياض والدهان ، حتى صارت القاهرة كأنها استجدت فى بنائها وزخرفها ... وصارت مثل العروس التى تجلى .

ثم ان الأمير يشبك أمر بقلع عتبة باب زويلة وأعلى العتبة وأصلحها . فان الأرض كانت علت على العتبة ، فقطع الأرض ، ومهد قدام الباب . واستمر باب زويلة مغلقا أياما حتى انتهى العمل منها ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه حضر هجان من عند السلطان ، وأخبر أنّ السلطان خرج من الشام بعد ما جلس بالقصر الذى بالميدان ، وحكم بين الناس ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء . وخلعت الأمراء على الهجان . ثم حضر عقيب ذلك هجان ثان ، وأخبر بأن السلطان خرج من غـزة ، وهو قاصـد الديار المصرية ، فشرعت الأمراء فى الخروج الى ملاقاة السلطان . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان وصل الى قطيا .

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى الصالحية . وصلى بها صلاة العيد ، وهو عيد الفطر . فعند ذلك خرج الاتابكى أزبك والأمير يشبك الدوادار ، وبقية الأمراء قاطبة ، الى ملاقاة السلطان . ثم وصـل الى الخانقاه ، فخرج اليه القضاة والعسكر بأجمعهم ، وزينت له القاهـرة بالزينة ، فزينت زينة حافلة .

فلمـا كان يوم الخميس رابع شـوال ، دخـل السلطان الى القاهـرة فى موكب حافل ، وقدامـه القضاة الأربعة ، والأمراء والعسكر ، على ما جرت العادة به فى المواكب . وكان له موكب عظيم ويوم مشهود ، الى أن طلع الى القلعة . فقدمت له حيونات ما يناسب الملوك ، الى أن دخـل الحوش ، فمدت الأسمطة الى القاعة . ثم أنعم وخلع على من كان مسافرا بصحبته .

ولما وصـل السلطان الى الفرات ، قدم عليـه شخص من أولاد حسن الطويل ، وهو ابن محمد اغزلو بن حسن الطويل ، وكان شابا جميل الصورة له من العمر نحو من ثمانى عشرة سنة ، فخافت عليه أمه أن يقتله أستاذه ، فهربت به الى السلطان ، فحضر به الى القـاهرة وحظى عنده . وكان عند مروره من القاهرة معه سنجقا كالملوك والامراء . واستمر بمصر حتى مات كما سيأتى الكلام عليه .

وكان اسمه حسين بك وقيل مرزاه ، وهو المشهور عند الناس .

ولما رجع السلطان من هذه السفرة عظم أمـره جدا ، وكان انتهاء سفره الى الفرات ، وكشف على عدة قلاع بنفسه ، ودخل الشام وحلب وطرابلس وحماة ، وغير ذلك من البلاد الشامية . ودخل عليه من النواب وأعيان الناس جملة تقادم وأموال لها صورة . وعدت هذه السفرة من النوادر الغريبة .

وكانت مدة غيبة السلطان فى سفرته نحـوا من أربعة أشهر . وفى هذه الواقعة يقول الشيخ محمد ابن الزيتونى هذه القطعة الزجل ، وهى من محاسن هذا الفن ، كلها غرر وجناس تام ، وهى هذه :

سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين
من العساكر حين سافر حساه
ومن حلب عدا يروم الفـرات
فأسقى الخيول من ماه وربه حماه

* * *

فى مصر فرسان أربعين بالعـدد
لدورة المحمـل يسوقوا الجياد
ورعبهم ســاكن قلوب الملوك
يردوا الخـارج وأهلّ العنـاد
فى دا العـدد راح الملك وافتخر
بهم على سائر ملوك البـلاد

* * *

وخيو ســوار لاقاه وفى صحبته
ولد حسن بك بالخـدم ما أباه
وخلع عليـه اطلس وخلع على
ولد حسن خلعــه وشتت أباه

* * *

كامل مظفر بالعـدا لم يزلْ
يجرى دماهم فى الفيـافىّ نهر

خرج لتطمين العباد فى البلاد
فكم شكر عادل وظالم نهر
امامنا الأعظم مليك الزمان
بالعدل فى هذا الوجود اشتهر

***

كشف عن النواب فمن خان وجار
أنكر عليه فعلو وبالعزل جاه
ومن رآه عادل وفعلو حسن
خلع عليه وأعطاه منازل وجاه

***

هذا الملك صالح وسرو ظهر
لا شك انو قطب فى الدائره
لما خرج فى الأربعين خلتهم
بدر الدجى حولو نجوم زاهره
له منازل كل حد منزله
شيء للرصد شأنه وشيء سامره

***

كشف بلاده واعتبر أهلها
واحد رفع قدره وآخر ساه
وطلعتو فاقت شموس الضحى
وأخفت البدر المنير فى سماه

***

لما دخل للشام وكان قد ضعف
من الهوا والشرب من ماء العيون
وربنا عافاه وجابو لنا
سالم وقرت به جميع العيون
عادل وربه بالظفر أيده
عجب لسلطان حايز جميع الفنون

***

ومهد الدنيا بعدلو وان
راد ينثنى عزمو الشديد ما ثناه

وفاز بتاريخ ما فرح به ملك
قبلو ونال قصده وسعى ناه

***

أهل الفضائل والعلوم وزخو
وكل واحد فى الكتابه ذهب
يكتب تواريخ الملوك بالمداد
الا لقايتباى كتب بالذهب
هو فارس الاسلام وليث الوغى
وفهلوان الحرب مثل العجب

***

وخالقه علا مقامه الشريف
على الملوك وآنشاه ومن ما براه
وكل ذا فى اللوح قديم فى الأزل
خطو القلم جل الذى قد براه

***

تاريخ سنة اثنين جمادى الأخير
يلى ثمانين مع ثمان من مئين
من هجرة الهادى عليه السلام
خير النبيين سيد المرسلين
تجهز السلطان يريد السفر
وأخفى عن العسكر خرج فى أربعين

***

وفر لبت المال خزائن ذهب
ما تحصرو أقلامنا مع دواه
وريح العسكر وكم من ضعيف
كان التخلف فى بلاده دواه

***

لاجل الدوادار الكبير قد برز
أمره بتوسيع الطريق المضيق
وكشف أبواب المساجد وما
بين المدارس كان على غير طريق

وصلح الأبواب وشيء بيشـــه
وأخلع على واحد مشد الطريق
***
ووكله بالقـــاهرة كل يوم
بقى يدور راكب وفى ابده عصاه
فيأمر النـــاس بالبياض والدهان
طاع الجميع أمره وما واحد عصاه
***
صارت مدينتنا عروس للملك
وذا عجب كيف العريس هو الولى
ونقشـــوها بالدهان فى البيـــاض
وأضحت عروسه بالطراز تنجلى
ومدت المدات نهـــار الفرح
وزينـــوها بالحلـــل والحـــلى
***
وبان لها سيقان عواميد رخام
جاذهم الصـــانع ونعم جـــلاه
ودقت الكوسات نهار الدخول
وكان دخوله فى المواكب جـــلاه
***
وقبل ذا صلوا على المصطفى
خير الخلائق واعلنوا بالســـلام
بكل مرة من صلاتك عليـــه
جزاك عشره بالصـــلاه يا كرام
وبالشـــفاعة يدخلك جنتـــه
من بابهـــا الأول لدار الســـلام
***
هو أول الرسل الكرام فى الوجود
وهو لهم خاتم وما حـــد تلاه
وأنزل القـــرآن عليـــه العزيز
على لســـان جبريل مفرق تلاه
***

فى ليـــلة المعراج بخـــير الأنام
ساقوا حديث مسند صحيح السياق
نزل عليـــه جبريل وقال له الاله
يدعوك الى الحضره على ذا البراق
ركب عليـــه حتى صـــعد للسما
وصار الى السبع العوالى الطباق
لجنـــة المـــأوى رقى وارتـــقى
وزج به فى النور وزاد فى شفاه
وأفرض عليه الخمس كان أصلها
خمسين وفيهـــا خطابه شـــفاه
***
هـــذا المعانى والبديع والجناس
من نظم زيتونى لفقـــه دخول
آبو النجـــا العوفى نظم فى الملك
من حين خروجه فى السفر للدخول
فان تجـــد عيبا فســـد الخلل
اذا ســـمعته فى نظـــامه يقـــول
***
سلطاننا الأشرف خرج فى أربعين
من العســـاكر حين سافر حمـــاه
ومن حلب عدى يروم الفرات
فأسقى الخيول من ماه وربه حماه

وفيه ، فى ثامن عشر منه ، خرج الحاج وكان أمير ركب المحمل الأمير جانى بك الفقيه ، آمير سلاح وبالأول أقبردى الأشرفى ، فلمـا خرج جانى بك الفقيه رسم السلطان بهدم سبيله الذى قد أنشاه بالرميلة . فأخذ الناس يلهجون بأنه لا يعود الى القاهرة ، وكذا جرى ...

***

وفى ذى القعـــدة قدم قجماس الاسحاقى نائب الاسكندرية ، وأقام بالقاهرة بباب السلسلة . وكان

قد جمع بين نيابة الاسكندرية وبين امرية الآخورية الكبرى .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى بر الجيزة وكشف عن خيوله ، وأقام هناك أياما . ثم توجه الى جهة منوف العلا ، وكشف عن جسورها ، وأمر باصلاحها ، وأقام هناك أياما وعاد الى الجيزة . ثم سافر من هناك الى الفيوم ، وكان معه فى هذه المرة الأتابكى أزبك ، وتمراز التمشى رأس نوبة كبير . وكان معه من الأمراء العشراوات ، ومن الخاصكية عدة وافرة . فلما دخل الى الفيوم تلقاه خاير بك ، وكان مقيما بالفيوم ، فخلع عليه خلعا فاخرة ، وأقام هناك أياما ، وهو فى أرغد عيش ، على سبيل التنزه .

فبينما هو على ذلك اذ ورد عليه من جهة الصعيد ، بأن عرب هوارة ثاروا مع يونس بن عمر ، على برسباى كاشف الوجه القبلى فكسروه . ووقع بينهما مقتلة ، قتل فيها جماعة كثيرة من الجند والبلاصية ، فتنكد السلطان لهذا الخبر . وقصد أن يتوجه من هناك الى بلاد الصعيد ، فمنعه الأمراء من ذلك . وكان الأمير يشبك متمرضا برجله ، وهو بالقاهرة ، فأرسل السلطان يستحثه فى سرعة السفر الى جهة الصعيد .

***

وفى ذى الحجة عاد السلطان من سفره من الفيوم ، فلما استقر بالقلعة ، خلع على بركات بن يحيى بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر عوضا عن نور الدين الانبابى ، بحكم وفاته...وهذا أول ضخامة الزينى بركات بن الجيعان .

وفيه توفى الناصرى محمد بن قرقماس الحنفى ، وكان عالما فاضلا من أعيان الحنفية ، وكان يدعى معرفة علم الحرف وعلم الكيميا ، وكان ولى مشيخة تربة الظاهر خشقدم . ومولده سنة اثنتين وثمانمائة وكان ناظما ناثرا ، وله عدة مصنفات ، منها « كتاب زهر الربيع فى شواهد البديع » وغير ذلك من التآليف ، وله معارضة مقامات الحريرى ، وكان يدعى دعاوى عريضة ، ومن نظمه :

اذا من من تهوى عليك بنظرة
أماط الجوى من قلبك الياس واللوى

فكن شاربا صبرا لمر صدوده
فما ذاق من الوصل من هم بالسلوى

وقوله فى مليح من ركاب الخيل وآجاد :

وظبى من العرب الكرام سألته
لمن فى الورى تعزى فقال مؤنبى

أنا ابن الذى تمشى الملوك أمامه
اذا ما رأوه راكبا يوم موكب

وفيه خرج الأمير يشبك الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب تلك الفتنة التى وقعت بين يونس ابن عمر ، وبين داود بن عمر قريبه ، وأخذ معه جماعة كثيرة من الجند .

وفيه توفى حسن بن محمد بن أيوب الكردى ، نائب القدس ، ونائب الكرك ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . وكان قد شاخ وناف على الثمانين سنة .

وتوفى القاضى شهاب الدين أحمد اللولونى الحنفى ، أحد نواب الحكم . وكان مفرطا فى السمن جدا ، بحيث لم يكن فى عصره أسمن منه . ومما وقع له أن جماعة من الفلاحين تحاكموا عنده على دين ، فأنكر الذى عليه الدين ، فألزمه القاضى باليمين ، فلما أراد أن يحلف ، قال له الخصم : ان كنت ما أخذت منى شيئا نيمى فى سمن هذا القاضى ، فاعترف لخصمه بالدين ولم ينكره .

سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة (١٤٧٨ م) :

فيها . في المحرم ، خلع السلطان على العلائي علي بن الصابوني ، وقرره في وكالة بيت المال ، عوضا عن النابلسي ، وقرر في قضاء الشافعية بحلب ، عز الدين الخشنافوي ، وصرف عنها أبو البقاء ابن الشحنة .

وفيه جاءت الأخبار بأن السلطان قبض على جاني بك الفقيه ، أمير سلاح الذي توجه أمير ركب المحمل ، فقبض عليه من العقبة ، وأرسله من هناك الى القدس بطالا .

ونفي أيضا قايتباي الخشقدمي الى جهة حلب ، ونفي أيضا يشبك جنب الظاهري جقمق الى جهة دمشق . لكونهما كانا من أصحاب جاني بك الفقيه .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد قاسى في السنة المذكورة شدائد عظيمة من الغلاء ، وموت الجمال ، وانقطع جماعة من الحاج من رجال ونساء . وقتل في السنة المذكورة قاضي المدينة المشرفة وخطيبها . وقد قتله بعض الرفض ... وسبب ذلك أن الخواجا شمس الدين بن الزمن ابتدأ بعمارة مدرسة السلطان ، فأخذ مكانا كان يسكنه هذا الرافضي : ودخله في بناء المدرسة ، فتعصب القاضي على الرافضي في هدم مكانه ، وكان ذلك سببا لقتله .

أقول : وأنا حججت تلك السنة ، وشاهدت الواقعة ، ومسك جاني بك الفقيه من العقبة .

وفيه خلع السلطان على جانم قريبه وقرره في نظر الجوالي : وهو جانم الشريفي . وهذا أول اشتهار جانم الشريفي في الوظائف . فأقام في نظر الجوالي مدة يسيرة . ثم أنعم عليه بتقدمة ألف . وهي تقدمة جاني بك الفقيه أمير سلاح . فعظم أمر جانم جدا ، وكان أمرد لم يلتح .

* * *

وفي صفر خلع السلطان على شاد بك الصغير ، وقرره في نيابة سيس ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقدم أزدمر الى القاهرة .

وفيه كان عقد جانم الشريفي ، قريب السلطان ، على خوند ، ابنة العلائي ، علي بن خاص بك . وكان بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة . وكان عقدا حافلا ، وخلع فيه على قاضي القضاة ، ولي الدين الأسيوطي لكونه تولى العقد . وخلع على كاتب السر ابن مزهر لكونه كان وكيلا عن جانم .

* * *

وفي ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوي ، وكان حافلا .

وفيه عين السلطان وردبش الظاهري ، بأن يخرج الى اللجون ، بسبب احضار الأخشاب . وعين معه جماعة من الجند ، وأمرهم بأن يدخلوا الى قبرس ، ويطالبوا أصحابها بالجزية ، ويتوجهوا من هناك الى اللجون ، لاحضار الأخشاب .

وفيه وقف الشهابي أحمد بن أسنبغا الطيار ، الى السلطان بقصة يشكو فيها قانصوه خمسمائة ، بسبب المكان الذي أنشأه بقناطر السباع ، تجاه بيت ابن أسنبغا الطيار ، وذكر في القصة أن قانصوه خمسمائة قد جار عليه ، وفتح من عنده بابا بغير طريق شرعي ، وقطع من عنده عدة أشجار ، وقد أضر ذلك بحاله . فلما سمع السلطان ذلك وبخ قانصوه خمسمائة بالكلام ، وأمره بأن يسد الباب الذي فتحه ، ويرضيه في قيمة الأشجار التي قطعها من عنده . وأنصفه السلطان ابن أسنبغا الطيار على قانصوه ، فعد ذلك من النوادر لكونه أنصف ابن اسنبغا على قانصوه ، مع خصوصيته بالسلطان ، ولكن كان قانصوه متعديا على ابن أسنبغا الطيار .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على قجماس الاسحاقى ، أميرآخور كبير وقرره فى امرية الحاج ، بركب المحمل ، وخلع على فارس الركنى ، وقرره بامرية الركب الأول . فاستعفى فارس من ذلك فأعفاه السلطان ، وقرر عوضه أقبردى الأشقر على عادته . وقيل ان فارسا استعفى بمال عن امرية الحاج .

وفيه جاءت الأخبار بأن يشبك الدوادار قبض على يونس بن عمر الهوارى ، وقد تتبعه الى بلاد النوبة ، وجرى معه أمور يطول شرحها . وآخر الأمر قبض عليه وقطع رأسه ، وقبض على أخيه أحمد ، وعلى جماعة من أقاربه ، وانتصر على بنى عمر نصرة عظيمة ، وبعث برأس ابن عمر يونس الى القاهرة ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة أياما .

وكان يونس هذا من خيار بنى عمر ، وهو يونس بن اسماعيل بن يوسف أمير عربان هوارة ، وكان مشهورا بالشجاعة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى فى رابع مسرى ، فتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

ومن الحوادث الغريبة أن فى ليلة الوفاء انقطع جسر أبى المنجا ، وانقلب عن آخره ، فحصل للبلاد التى تحته غاية الضرر ، وغرق الكثير من أموال الناس والمقطعين .

ومن العجائب أن البحر لم يتأثر لقطع جسر أبى المنجا ، ووفى فى تلك الليلة . وزاد عن الوفاء اثنتى عشرة أصبعا . فعد ذلك من النوادر .

ثم فى ثانى يوم من كسره زاد ست عشرة أصبعا ، وأكمل الذراع السابعة عشرة فى يومين ، حتى تعجب الناس من ذلك وقد قال القائل :

أرى النيل قد وافى وزاد ولم يزل
يجود على أهل القرى بالمكارم
أفاض عليها الماء من بسط راحه
أصابعها فاقت أيادى حاتم

* * *

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حماة ، بأن سيف بن نعير الغاوى وقرابته قد خرجوا عن الطاعة ، وأن نائب حماة تقاتل مع الغاوى فكسر نائب حماه ، وقتل من عسكره ما لا يحصى . ثم خرج اليه نائب حلب وأوقع معه ففر منه ، فتبعه وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة بين المماليك الجلبان ، حتى تقارعوا بالسيوف ، فحنق منهم السلطان ، ورمى النمجاة والترس من يده ، ونزل من القلعة ، وتوجه الى نحو شطنوف . فلما تحقق الجلبان ذلك أخذوا فى أسباب تلافى خاطره ، وسكن أمر الفتنة التى كانت بينهم . ثم توجه الأتابكى أزبك ، وكاتب السر الى السلطان ، وتلافوا خاطره ، وتلطفوا به فى عوده الى القلعة ، فما زالوا به حتى عاد الى القلعة بعد جهد عظيم .

وفيه وصل الأمير يشبك الدوادار من جهة الصعيد ، وحضر صحبته جماعة من بنى عم يونس وأقاربه ، وهم فى الحديد ، وأحضر الأمير أحمد ابن عمر الهوارى أخا يونس الذى قطعت رأسه ، فلما تمثل بين يدى السلطان خلع السلطان على الأمير يشبك خلعة حافلة ، ونزل الى داره ومعه أحمد بن عمر فى الحديد .

* * *

وفى جمادى الآخرة عرض أحمد بن عمر على السلطان ، فرسم بتسليمه الى الوالى هو ومن معه ، وكانوا سبعة أنفار ، فأركبوهم على جمال ، ونزلوا بهم الى باب زويلة ، فكلبوا الجميع ،

وعلقوهم بباب زويلة ووسطوا منهم جماعة ، وكان لهم يوم مشهود ، وتأسف عليهم الكثير من الناس ، فانهم كانوا خيار بنى عمر ... ولكن كان للأمير سببك عليهم ثأر قديم ، فاقتصه منهم . كما قيل « الموت فى طلب الثار ، ولا الحياة فى العار »

وفيه نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية فأضافه هناك كاتب السر ابن مزهر ضيافة حافلة ، وبات هناك ثم طلع الى القلعة .

* * *

وفى شهر رجب خلع السلطان على الشريف سبع ، وقرره فى امرية الينبع ، عوضا عن صقر بحكم القبض عليه .

وفيه خلع السلطان على يوسف بن ابى الفتح المنوفى ، نائب جدة ، وقرره فى كتابة المماليك ، عوضا عن عبد الكريم بن جلود بحكم وفاته . وكان متحدثا فيها بغير تقرير

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانى بك الفقيه ، الذى كان أمير سلاح ، ونفى من العقبة الى القدس ، فمات هناك . وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق . وكان يعرف بجانى بك بن ططخ . وكان انسانا حسنا ، وكان له اشتغال بالعلم ، وتولى عدة وظائف سنية منها أميرآخور تانى ، ثم بقى أميرآخور كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم نفى الى القدس ، ومات به بطالا .

وفيه توفى دولات حسام الأشرفى وكان يعرف بدولات باى بن تغرى بردى . ومات وهو نائب الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه عزل تاج الدين بن المقسى من الاستادارية ، وأعيد اليها الأمير يشبك الدوادار ، وأقام ابن المقسى فى الترسيم على مال يورده وكان ذلك آخر سعده .

* * *

وفى شعبان خلع على بدر الدين بن محمد ابن الكويز وقرر فى نظر الخاص ، عوضا عن تاج الدين بن المقسى بحكم انفصاله عنها ، وفيه خلع السلطان على محمد بن عجلان ، وأعاده الى مشيخة العرب بالشرقية . وكان له نحو من عشر سنين وهو فى البرج بالقلعة .

وفيه خلع السلطان على أقباى الطويل ، وقرره فى كشف الشرقية ، واقباى هذا هو الذى ولى نيابة غزة فيما بعد .

وفيه توفى دولات باى سكسكان الاشرفى برسباى توفى بحماة ، وكان أتابك العساكر بها ، وكان من أعيان الأشرفية ، ولا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بموت حسن الطويل ، ملك العراقين ، وأن ولده خليل تولى على العراقين بعده . وقيل ان موته كان فى رجب ، وكان ملكا جليلا عاقلا سيوسا ، كثير الحيل والخداع ، اقتلع ملك العراقين من أخيه جهان كبير ، بحيل غريبة ، وقتل عمه الشيخ حسن ، وانقرضت دولة بنى أيوب على يده . ثم قوى على جهان شاه ، وحاربه حتى كسره ، وقتله وشتت أولاده ، وملك تبريز والعراقين ، وبلغ مبلغا لم يصل اليه أحد من أجداده ، ولا من أقاربه .

وقد تحرش بابن عثمان ملك الروم ، بأن يأخذ من ملكه شيئا ، فما قدر عليه

ثم تحرش بسلطان مصر وجرى له مع الأشرف قايتباى أمور يطول شرحها . وكان الأشرف قايتباى يخشى من سطوته ، فلما مات عد ذلك من جملة سعد الأشرف قايتباى .وقد قيل فى المعنى :

آيا ملكا صار من سعده
بموت الأعادى حقيقا يفوزا
لقد أهلك الله عنك العداه
وينصرك الله نصرا عزيزا

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو القرين ، ثم الى الخطارة ، وكشف عن الجامع والسبيل اللذين أنشأهما هناك ، والحوض الذى أنشأه هناك ، على الدرب السلطانى . وكان المشد على العمارة الأمير يشبك الجمالى ، فجاءت هذه العمارة فى غاية النفع .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على اينال الأشرفى ، مملوك السلطان ، وقرره فى نيابة الاسكندرية ، عوضا عن دولات باى حمام

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، على العادة وكان ختما حفلا .

* * *

وفى شوال فى يوم عيد الفطر ، خلع السلطان على الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، وكاشف التراب ، ومدبر المملكة ، وغير ذلك فصار رأس مجلس الميسرة ، وهو بالقصر ، ويقف فى الحوش ، ولم تجتمع هذه الوظائف فى أحد من الأمراء قبله .

وفيه توفى شمس الدين العاقل أحد الموقعين والشهود العدول ، ولا بأس به .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير الركب بالمحمل قجماس أميرآخور كبير ، وأمير ركب الأول اقبردى الأشرفى .

وحج فى السنة المذكورة الشيخ صلاح الدين الطرابلسى الحنفى .

* * *

وفى ذى القعدة قصد قانصوه الألفى أن يسافر الى بلاد جركس ، وكان قد حصل له توعك فى أذنه وعينيه ، فتوجه هناك للتداوى — وكان يومئذ خاصكيا — فغاب هناك مدة طويلة ، ثم عاد الى القاهرة .

وفيه توفى أبو يزيد بن طراباى الأشرفى رأس نوبة الجمدارية ، وهو والد الناصرى محمد ابى يزيد ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ذى الحجة نزل السلطان من القلعة ، و[illegible] الى بر الجيزة ، وكشف عن القناطر التى بانشائها على يد الأتابكى أزبك ، وكان ال[illegible] محتاجا لاصلاح تلك القناطر ، وكانت قد تهد[مت] فصرف عليها جملة مال حتى جددها ، وهى باقي[ة] الآن .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة نائبها بك قلقسيز ، وكان أميرا جليلا ، رئيسا حش[ما] وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، موصوفا بالشجاعة والفروسية ، وتولى عدة و[ظائف] سنية ، منها : حجوبية الحجاب الكبرى ، و[...] مجلس ، وامرية سلاح ، ثم ولى الأتابكية وترشح أمره للسلطنة غير ما مرة ، ثم أسر [...] سوار ، ثم أطلق وأعيد الى امرية سلاح ، ثم نيابة الشام ، ومات بها . وكان كفئا للم[...] والمهمات وغير ذلك .

وفيه أرسل السلطان الخواجا محمد بن م[...] المغربى ، الى ملك التليان الأفرنجى ، وأر[سل] على يده هدية حافلة فسار اليه ، وفى عقيب [ذلك] أرسل صاحب قبرس ما عليه من الجزية المق[ررة] وقصد السلطان أن يجهز له تجريدة ، فلما [...] ما عليه سكن الأمر .

وفيه توفيت خوند فاطمة ، بنت المؤيد أحـ[ـمد] الأشرف اينال ، وهى زوجة الأمير يشبك الد[وادار] أم ولده منصور ، وكانت شابة جميلة وفيها ا[...] فحزن عليها الناس .

وفيه توفى شاهين الظاهرى أحد ا[...] العشراوات وكان لابأس به .

فيها ، فى المحرم ، توجه الأمير يشبك الدوادار الى ثغر دمياط . وكان السلطان قد جعله متحدثا عليها ، فلما توجه هناك أنشأ على فم البحر الملح عند برج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى سلسلة من حديد زنتها نحو من مائتين وخمسين قنطارا . وكانت هذه السلسلة قديما هناك ، ثم بطل أمرها فجددها الأمير يشبك الدوادار ، فى السنة المذكورة ، وحصل بها النفع ، لطرد المراكب التى الفرنج .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة وحمدت سيرة الأمير قجماس أمير المحمل .

وفيه فى يوم السبت رابع عشريه ، كانت وفاة أمير المؤمنين الجمالى يوسف رحمه الله تعالى المستنجد بالله العباسى ابن محمد المتوكل على الله ابن المعتضد بالله أبى بكر بن المستكفى بالله سليمان ابن الامام أحمد الحاكم بأمر الله العباسى الهاشمى . وكان الثالث عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . تولى الخلافة بعد أخيه حمزة ، ودام فى الخلافة نحوا من خمس وعشرين سنة وأشهر . وكان رئيسا حشما ، وعنده لين جانب ، مع تواضع زائد ، ورأى فى خلافته العز وقلد فيها خمسة من السلاطين ، وهم : المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال ، والظاهر خشقدم ، والظاهر بلباى ، والظاهر تمربغا ، والأشرف قايتباى ، ومات وله من العمر زيادة على الثمانين سنة . ومولده بعد التسعين والسبعمائة . ولما مات دفن عند أقاربه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها . وهو أول خليفة سكن بالقلعة ، ودام بها حتى مات ، ومات عن غير ولد ذكر ، بل خلف بنتا تسمى ست الخلفاء ، فعهد بالخلافة بعده لابن أخيه العزى عبد العزيز .

خلافة المتوكل على الله العباسى

هو المتوكل على الله ، أبو العز عبد العزيز ، ابن يعقوب ، ابن محمد المتوكل على الله ، ابن المعتضد بالله أبى بكر ، ابن المستكفى بالله سليمان ، ابن الامام الحاكم بأمر الله أحمد العباسى الهاشمى . وهو الرابع عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . بويع بالخلافة بعد موت عمه الجمالى يوسف بعهد منه . وكانت ولايته فى يوم الاثنين سادس عشرى المحرم من السنة المذكورة ، فطلبه السلطان ، فحين حضر حضر القضاة الأربعة ، وأرباب الدولة ، وكان يومئذ عمه موسى موجودا ، ولكنه كان غير صالح للخلافة . فلم يكن فى بنى العباس يومئذ أمثل من العزى عبد العزيز ، فوقع الاتفاق من السلطان والأمراء على ولايته ، فتولى الخلافة فى ذلك اليوم، ولم يل الخلافة من اسمه عبد العزيز سواه . ثم انه أراد أن يلقب نفسه بالمستعز بالله ، فعورض فى ذلك ولقبوه بالمتوكل على الله ، كلقب جده محمد المتوكل ، فأحضر اليه شعار الخلافة ، وأفيض عليه ، وقدمت اليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش . ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وأمامه قضاة القضاة ، وأعيان الدولة . فتوجه الى مكان تسكن فيه الخلفاء . ثم تحول من يومه وطلع الى القلعة ، وسكن بدار عمه يوسف ، التى هى داخل الحوش السلطانى ، وطالت أيامه فى الخلافة وكان كفئا لذلك . وكانت سنه لما تولى الخلافة نحوا من اثنتين وستين سنة أو أكثر من ذلك . وكان مولده سنة تسع عشرة وثمانمائة ، وكانت أمه تسمى حاج ملك بنت مقبل ، وهو شخص من المماليك السلطانية .

* * *

وفى صفر تغير خاطر السلطان على أزدمر

الطويل الابراهيمى الاينالى ، حاجب الحجاب ، فرسم بنفيه وبعث اليه بألفى دينار يتجهز بها .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى منف ، وأقام بها أياما ، ثم عاد الى القلعة .

***

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على تانى بك قرا الاينالى بتقدمة ألف ، وهى تقدمة أزدمر الطويل ، وعين الدوادارية الثانية الى قانصوه خمسمائة ، وخلع عليه بها بعد أيام .

وفيه نقل السيفى قانصوه اليحياوى من نيابة حلب الى نيابة الشام ، عوضا عن المرحوم جانى بك قلقسيز ، بحكم وفاته . ونقل أزدمر قريب السلطان من نيابة طرابلس الى نيابة حلب عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وقرر فى نيابة طرابلس برد بك المعمار نائب صفد ، عوضا عن أزدمر بن مزيد ، قريب السلطان . وقرر عوضه فى نيابة صفد جانى بك أحد مماليك السلطان ، وكان مقيما بالشام بطالا .

وفيه توفى جانم الأعور بن بلباى أمير شكار ، أحد العشراوات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى .

وفيه ضرب الأمير يشبك الدوادار الكبير الكرة مع السلطان ، فسقط صولجان الأمير يشبك من يده ، فترجل الأمير جانم الشريفى قريب السلطان ، أحد المقدمين عن فرسه ، وأخذ الصولجان من الأرض وناوله للأمير يشبك ، فلما كان فى اليوم الثانى صنع الأمير يشبك وليمة حافلة جدا ، وعزم على جانم وقانصوه خمسمائة وآخرين من الأمراء فلما حضروا أصلح الأمير يشبك بين جانم وبين قانصوه خمسمائة . وكان بينهما وحشة . ثم خلع على كل واحد منهما كاملية بسمور ، وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ... وكانت هذه الوليمة من نوادر الضيافة الحافلة .

***

وفى ربيع الآخر كانت نهاية ضرب الكرة ، وأضاف السلطان الأمراء ضيافة حافلة . ونزلوا الى دورهم .

وفيه كانت وفاة الأمير جانم الشريفى ، قريب السلطان أحد المقدمين . وكان من حين أضافه الأمير يشبك وهو مريض ، حتى اتهم الأمير يشبك بأنه قد شغله فى ذلك اليوم فى شىء من المأكول ، فلما تزايد به المرض وتورمت قدماه ، حمل فى محفة وتوجهوا به الى بولاق ، فأقام هناك بعض أيام ومات . فأمر السلطان بحمله الى داره فى محفة ، فغسل وكفن وصلى عليه بسبيل المؤمنين ، وكان له يوم مشهود . ثم توجهوا به الى تربة السلطان فدفن بها . واستمر العزاء عمالا بالقلعة ثلاثة أيام بدور الحريم . وتأسف عليه السلطان غاية الأسف . وقيل ان السلطان جلس بقاعة البحرة ، ورسم لنساء عرب اليسار أن يدقوا ويلطموا على الأمير جانم وهو ينظر اليهن . وقد جلس للعزاء وصارت الأمراء تتلطف به وتسليه . وقيل ان جانم كان يقرب للسلطان من جهة النساء ، وكان جميل الصورة حسن الهيئة ، قد بدا عذاره . وكان رئيسا حشما وافر العقل جليل القدر ، ورأى غاية العز والعظمة على صغر سنه ، وأقام بالطبقة مدة يسيرة ، ثم بقى خاصكيا ، ثم بقى أمير عشرة ، ثم بقى ناظر الجوالى ، ثم بقى شاد الشرابخاناه ، ثم بقى مقدم ألف . وجاءت اليه السعادة سريعا ، وزالت عنه فى مدة يسيرة ، وقد دهمه الموت فتوفى وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكان كريما سخيا بالعطاء حتى قيل فيه :

ففت الكرام فى الورى
يا مطلب الرائم
ما أنت الا حاتم
تصحفت بجانم

وكان قد تزوج بخوند أخت خوند زوجة السلطان ، وكان له مهم حافل ، وكان له زفاف ليلة خلا بزوجته لم يسمع بمثله . وزينت له القاهرة بالمصابيح والشموع ، وعلقت ليلة زفاف عرسه التنانير بها القناديل من سويقة العزى الى ما بين القصرين . ومشى أمامه الأمراء المقدمون ، وكان الأمير يشبك ماسكا عنان فرسه من جهة الميمنة ، وأزدمر الطويل حاجب الحجاب ماسكا لجام فرسه من جهة الميسرة ، وبقية الأمراء مشاة قدامه بالشموع ، من سويقة العزى الى بيت العلائى على ابن خاص بك ، وكان المهم هناك . فزف وزفت له العروس فكان أبهى من العروس كما قيل :

ما سمعنا فيما سمعنا قديما
بعروس يجلى عليها عروس

وكان زفاف الأمير جانم من المعدودات ، بحيث لم يقع بعده مثله .

فلما انقضت وفاة الأمير جانم كثر الكلام فى حق الأمير يشبك بسبب جانم ، ونسب الى قتله بالسم ، وصار فى تهديد ووعيد من المماليك الجلبان . ووقع بسبب هذه الحادثة أمور شنيعة يطول الكلام فى شرحها . وقصدوا قتل الأمير يشبك غير ما مرة . وصار السلطان يرجع المماليك عن الأمير يشبك ، وصار الأمير يشبك يترضى خاطر المماليك الجلبان بكل ما يمكن ، حتى سكنت هذه الفتنة قليلا . وصار على رأس الأمير يشبك طيرة من الجلبان ، حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه قدم الملك المؤيد أحمد من الاسكندرية . وكان سبب قدومه أن والدته خوند حصل لها توعك شديد وقد أشرفت فيه على الموت ، فأتى اليها الأمير يشبك ليعودها . فسألت فضله أن يسأل السلطان فى حضور ولدها الملك المؤيد الى مصر لتنظره قبل أن تموت . فلما طلع الأمير يشبك الى القلعة ، تكلم مع السلطان فى ذلك ، فرسم باحضاره . فلما حضر طلع الى القلعة ودخل الحوش وهو راكب ، وكان معه ولده على ، فقام له السلطان ورحب به وخلع عليه وعلى ولده . ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه الأمير يشبك الدوادار ، وتانى بك قرا وآخرون من الأمراء . فنزل فى داره التى بالجسر الأعظم عند والدته .

* * *

وفى ثالث جمادى الأولى كان وفاء النيل ، وقد أوفى فى تاسع عشرى أبيب القبطى ، وكسر فى آخر يوم من أبيب ، فعد ذلك من النوادر .

فلما وفى توجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة وكان يوما مشهودا . ثم بعد يومين زاد النيل عشرين أصبعا فغلق الذراع السابعة عشرة وست أصابع من الذراع الثامنة عشرة . فعد ذلك من النوادر .

وفيه خلع السلطان على ألماس الأشرفى وقرره فى شادية الشرابخاناه ، وقرر بيبرس الرجبى قريب السلطان فى استادارية الصحبة عوضا عن ألماس .

وفيه سافر السلطان الى ثغر الاسكندرية ، وهى السفرة الثانية ، فتوجه من البحر فى عدة مراكب كثيرة . وكان سبب توجه السلطان من البحر كثرة ماء النيل فى طرقات البلدان . وكان معه من الأمراء الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وخاير بك ابن حديد ، وأزبك اليوسفى ، وآخرون من الأمراء المقدمين ، وعدة وافرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية من المماليك السلطانية . وكان معه من المباشرين القاضى

كاتب السر ابن مزهر ، وغيره من أعيان المباشرين .
وكان الشهابى أحمد بن العينى ، وسيدى منصور بن الملك الظاهر خشقدم ، وغير ذلك من الأعيان .
وكان له ببولاق يوم مشهود عند نزوله الى البحر . وكان سفر السلطان الى الاسكندرية فى هذه المرة لأجل البرج الذى أنشأه هناك . وقد انتهى العمل منه فتوجه اليه ليرى هيئته . فلما دخل مدينة الاسكندرية لم يركب بها مثل أول مرة ، ولاحملت القبة والطير على رأسه . فلما نزل بالمخيم مد له نائب الاسكندرية مدة حافلة . ثم توجه الى رشيد وكشف عن البرج الذى أنشأه هناك بها ، ثم كشف عن البرج الذى أنشأه بثغر الاسكندرية مكان المنار القديم ، فجاء من محاسن الزمان ، ومن أعظم الأبنية ، وأجل الآثار الحسنة . ومن نوادر أفعال الملوك كما قيل :

ليس الفتى بفتى يستضاء به
حتى يكون له فى الأرض آثار

وقيل ان صفة بنيان هذا البرج ، أن دهليزه عقد على قناطر فى البحر الملح ، من الساحل حتى ينتهى الى البرج ، وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ينظر منه من مسيرة يوم الى المراكب وهى داخلة الى المينا ، وجعل بهذا البرج جامعا بخطبة ، وطاحونا وفرنا وحواصل . وشحنها بالسلاح ، وجعل حول هذا البرج مكاحل معمرة بالمدافع ليلا ونهارا ، لئلا تطرق الافرنج الثغر على حين غفلة ، وجعل بها جماعة من المجاهدين قاطنين به دائما ، وأجرى عليهم الجوامك والرواتب فى كل شهر ، وجعل شادا من خواصه وهو باش عليهم ، يقال له قانصوه المحمدى الخاصكى ، وهو الذى تولى نيابة الشام فيما بعد ، وصار يعرف بقانصوه البرجى . وقيل ان السلطان صرف على بناء هذا البرج زيادة عن المائة ألف دينار ، وأوقف عليه الأوقاف الجليلة ، وجاء من أحسن الآثار والمعروف .

ثم ان السلطان أقام بثغر الاسكندرية أياما ورحل عنها . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان دخل الى دسوق ، وزار سيدى ابراهيم الدسوقى ، وهو ماش وحوله الأمراء . واستمر السلطان غائبا فى هذه السفرة الى أواخر الشهر المذكور .

وفيه توفيت خوند زينب والدة الملك المؤيد أحمد ، وهى زوجة الأشرف اينال ، وكانت من أجل الخوندات قدرا ، ورأت فى دولة زوجها الأشرف اينال غاية العز والعظمة ، حتى صارت تدبر أمور المملكة ، من ولاية وعزل . وكانت نافذة الكلمة وافرة الحرمة ... فى سعة من المال ، ولم تتزوج غير الأشرف اينال ، ولم يتزوج هو أيضا غيرها . وصادرها الملك الظاهر خشقدم غير ما مرة ، وأخذ منها جملة مال ، وهى باقية ، وعقد ناموسها لم يتغير الى أن ماتت . وقد جاوزت من العمر نحو الثمانين سنة . وهى زينب بنت حسن ابن خليل بن خاصبك ، لم يجىء بعدها فى الخوندات مثلها . وكانت من مشاهير الخوندات ، وكانت اذا دخلت على الأشرف قايتباى يقوم لها ويعظمها . ولما ماتت لم يحضر جنازتها ، ولم يحضرها أحد من المقدمين ، غير تانى بك قرا . وسبب ذلك أن السلطان كان غائبا ، فلم يجسر أحد من الأمراء أن يجىء عند ولدها الملك المؤيد ، وبعد هذا ما سلم الأمر من القال والقيل ، فحضر جنازتها قضاة القضاة ، وأعيان الدولة .

ثم فى سلخ الشهر المذكور حضر السلطان من السفر فى البحر أيضا ، وطلع من بولاق ، وكان له يوم مشهود . وقد عد سفره من النوادر ، وكونه توجه الى ثغر الاسكندرية ، وترك الملك المؤيد بالقاهرة ، مع أن مماليك أبيه الأشرف اينال كانوا

فى غاية التنمرد ، ينتظرون وقوع الفتن . وظهر منهم فى غيبة السلطان بعض حركة ، وانكشف رخ جماعة منهم فى هده الحركة ، ونفى فيما بعد منهم جماعة كثيرة كما سيأتى الكلام على ذلك .

* * *

وفى جمادى الاخرة أضاف السلطان الملك المؤيد صباحه عاقله بالبحرة ، وخلع عليه وعلى ولده ، وآدن لهم بالعود الى الأسكندرية ، وقدم الملك المؤيد للسلطان تقدمة حافلة من مال وتحف ، بسبب موجود والدته الذى خلفته .

وفيه نبت النيل المبارك على عشرين أصبعا وعشرين ذراعا ، فوافق ذاك مثل العام الماضى ، حتى عد من النوادر

* * *

وفى رجب سافر الملك المؤيد الى الاسكندرية وقد أقام بالقاهرة نحو شهرين الا أياما

وفيه ظهر للسلطان أن طائفة الاينالية قصدوا اثارة فتنة فى غيبة السلطان ، فلما تحقق ذلك صار ينفى منهم جماعة بعد جماعة شيئا فشيئا ثم نفى مملوكه برد بك سكر الخاصكى الى البلاد الشامية ، وكان قد نسب الى أشياء من هذه الاشاعة . وقد تعرب قلوب الأمراء بعداوة الأمير يشبك الدوادار . وقد أشيع أنه قد سم الأمير جانم قريب السلطان . فانقطع يشبك عن طلوع القلعة أياما ، وكثر الكلام فى حقه بسبب ذلك .

وفيه خلع السلطان على على باى مق الذى كان كاشف الشرقية ، وقرره فى نيابة سيس عوضا عن أزدمر قريب السلطان ، وقرر أزدمر فى نيابة حماه عوضا عن قراجا الطويل الاينالى ، بحكم صرفه عنها وسجنه بقلعة دمشق

وفيه رسم السلطان بنفى ستة أنفار : منهم ثلاثة من طائفة الاينالية ، وهم أبو يزيد ، ومشد وشاد بك ، كل منهم أمير عشرة . وثلاثة من الستة من مشترياته ، فتوجهوا بهم الى نحو البلاد الشامية ثم تتابع النفى بجماعة من الاينالية ، وكثر الكلام فى ذلك حدا .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق تاج الدين بن عرب شاه ، عوضا عن ابن عيد .

* * *

وفى شعبان رسم السلطان بنفى الطواشى معروف اليشبكى شاد الحوش الى جهة قوص ، لأمر أوجب ذلك .

وفيه خلع السلطان على برسباى قرا المحمدى الظاهرى ، وقرره فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن أزدمر الطويل بحكم نفيه . وقرر فى شادية الحوش سرور السيفى بن جرباش كرت ، عوضا عن معروف اليشبكى .

وفيه وصل قانصوه الألفى الذى كان قد توجه الى بلاد الجركس ، فأحضر معه عدة من أقارب السلطان ، فخلع عليه ، ونزل الى داره .

وفيه حضر قاصد من عند بعض ملوك الهند صحبة أبى الفتح نائب جدة ، على يده هدية حافلة الى السلطان .

وفيه أنعم السلطان على قريب له بتقدمة ألف ، وهى تقدمة جانم الشريفى ناظر الجوالى . ثم بعد مدة أرسل له شاشا ، ورسم له بأن يلف تخفيفة ، وكذلك قانصوه خمسمائة ، فانه بقى دوادار ثانى وهو بكوفية بفندس .

وفيه توفى جانم السيفى نمر باى الزردكاش الكبير ، وكان أحد الأمراء الطبلخاناة .

* * *

وفى رمضان احتفل الصاحب خشقدم فى مسايرة هائلة ، كان قرر فى امرية الحاج بركب المحمل . وقرر شاهين الجمالى فى امرية الركب الأول . وكان

قرر بها أولا جانم الزردكاش الذى توفى . فكان للصاحب خشقدم يوم مشهود بتلك المسايرة . وقد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يحج فى السنة المذكورة ، فعمل هذه المسايرة بسبب نسوق السلطان الى الحجاز .

وفيه خلع السلطان على مملوكه قنبردى أحد الخاصكية ، وقرره فى كشف الشرقية ، عوضا عن على باى ميق ، الذى استقر فى نيابة سيس . وقرر اقبال الطويل فى كشف الغربية .

وفيه قدم برد بك جبس ، وكان منفيا بالبلاد الشامية ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم السلطان باحضاره ، فحضر ورضى عليه .

وفيه توفى اليشبكى الطواشى شاد الحوش ، ومات وهو منفى بالواحات ، وجرى عليه ما لا خير فيه ، وكان لا بأس به . غير أنه كان عنده تكبر فى نفسه وتعاظم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شاد بك الابراهيمى الاينالى ، وكان من الأمراء العشراوات ، فتغير خاطر السلطان عليه ، ونفاه الى الشام ، فمات بها .

وفيه رسم السلطان بنفى جانى بك الخشن الاينالى تاجر المماليك ، أحد الأمراء العشراوات ، ونفى أبى زيد أزبك الخاصكى الاينالى . ونفى تغرى برمش أحد الأمراء العشراوات ، والكل اينالية ، وقد سقط نجمهم ، وبدا عكسهم . وصار السلطان ينفى فى كل شهر منهم جماعة فى أماكن شتى .

* * *

وفى شوال خلع السلطان على يشبك الجمالى ، وقرره فى الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن جانم السيفى تمر باى . وقد جمع يشبك الجمالى بين الحسبة والزردكاشية الكبرى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وقد احتفل الأمير خشقدم ببرك عظيم بسبب السلطان ، لسفره الى الحجاز ، فكان معه نحو من مائتى جمل وخمسين جملا وقيل ان السلطان بعث اليه ثلاثين ألف دينار بسبب عمل هذا البرك . وكان لخروج الصاحب خشقدم يوم مشهود .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى ، مقدم المماليك — وكان يعرف بمثقال البرهانى — فخرج منفيا الى طرابلس . وكان هذا كله بسبب خروج السلطان الى البلاد الشامية ، وتوعكه هناك ، وقد تزايدت الأقوال بموته ، وحصل بين الأمراء نقل كلام فيمن يلى من بعده السلطنة ، وانكشف رخ جماعة من الاينالية فى هذه الحركة ولم يعلم باطن الأمر فى حقيقة ذلك . وصار السلطان ينفى كل قليل جماعة من الاينالية ، ومن مماليكه ، واستمر الأمر على ذلك . فلما خرج الحاج من القاهرة ورحل المحمل من بركة الحاج ، نزل السلطان من القلعة فى يوم الخميس ثالث عشرى شوال ، ولم يشعر بسفره أحد من الناس . وخرج على حين غفلة ، فسافر معه بعض أمراء عشراوات ، منهم يشبك الجمالى الزردكاش ، وآخرون من الأمراء من أخصائه ، وعدة وافرة من الخاصكية ، والمماليك السلطانية ، وجماعة من المباشرين ، منهم أبو البقاء بن الجيعان ، وغير ذلك من الأعيان ، منهم برهان الدين الكركى الامام . فخرج السلطان من بين الترب وسافر بعد صلاة الظهر فنزل معه الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، فودعاه ورجعا من أثناء الطريق ، فأوصاهما السلطان بحفظ الرعية . ثم سافر على ظهر البويب ، ولم يتوجه معه أحد من الأمراء المقدمين ، فعد سفره على هذا الوجه من النوادر .

* * *

وفى ذى القعدة رسم الأمير يشبك الدوادار ليشبك بن حيدر والى القاهرة ، بأن يتحدث فى الحسبة ، عوضا عن يشبك الجمالى بحكم سفره مع السلطان . وكان الأمير يشبك الدوادار هو المشار اليه فى غيبة السلطان .

وفيه شرع الأمير يشبك فى بناء القبة التى أنشأها فى رأس دور الحسينية . وخرب عدة ترب كانت هناك . ثم أنشأ بهذا المكان غيطانا ، ومجارى وسواقى ، وقصد أن يجعله من جملة منتزهات القاهرة . ولو عاش لفعل ذلك فجاءت القبة من محاسن البناء فى ذلك المكان .

* * *

وفى ذى الحجة كان انتهاء عمارة الربع الذى أنشأه السلطان بحدرة الكبش . وكان الشاد على العمارة نانق المؤيدى أحد الأمراء العشراوات .

وفيه قدم مبشر الحاج ، وهو شخص من الخاصكية يقال له اسنباى ، وقد استمر اسمه بالمبشر بعد ذلك . فاخبر بسلامة السلطان وأنه دخل الى مكة ، فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين ... وأنه تصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ، وتواضع تواضعا وخضوعا الى الغاية . وكان بطول الطريق لايتكلم فى شىء يتعلق بالأحكام بين الناس وفعل فى الطرقات أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف ، فحصل لأسنباى المبشر جملة خلع ، ومال له صورة ، من الأمراء وأعيان الناس ، ومن خوند زوجة السلطان ، وغير ذلك من أرباب الدولة .

وفيه جهز الأتابكى أزبك ، ويشبك الدوادار ، وجماعة من الأمراء اقامات لملاقاة السلطان من العقبة . وخرج الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين صحبة ذلك . وخرج معه جماعة كثيرة من أرباب الدولة ، لملاقاة السلطان من العقبة .

واهتم الأمير يشبك الدوادار ببياض أماكن بالقلعة ودهان أبوابها ، وضرب الرنوك عليها ، وجلا واجهة القصر الأبلق ، وما يليه ، حتى ظهر رخامه الملون ، وقد احتفل فى اصلاح ذلك جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بك بن حسن الطويل ، ملك العراقين — وكان أكبر أولاد حسن الطويل — ثار عليه بعض الأمراء فقتله . ولما مات ولى بعده أخوه يعقوب ، وكان من خيار بنى حسن الطويل ... وتوفى تانى بك الأشقر المحمدى البواب أحد الأمراء العشراوات ، وكان كاشف المنوفية .

سنة خمس وثمانين وثمانمائة (١٤٨٠ م) :

فيها ، فى المحرم بعث السلطان نجابا الى الأمراء وأخبر النجابب بأن السلطان دخل الى المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وزار النبى صلى الله عليه وسلم ، وأنعم على الفقراء الذين بها بخمسة آلاف دينار ، وأنه رحل نحو الينبع قاصدا للعقبة . ثم رحل عنها وهو واصل عن قريب ، ثم رسم لهم بألا يخرج الى ملاقاته أحد من الأمراء . وان السلطان ينزل بقبة الأمير يشبك التى بالمطرية . فبادر الأمراء بالخروج الى هناك ونصبوا الخيام . ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد وصل الى البويب ، فلما تحقق الأمراء ذلك ، ركب الأتابكى أزبك ، والأمير يشبك الدوادار ، وبقية الأمراء ، من المطرية وتوجهوا الى ملاقاة السلطان . فلما وصلوا الى البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا قدامه حتى وصل الى الوطاق الذى بالمطرية . وكان له هناك موكب حافل . وكان دخوله فى ثانى عشر المحرم ، قبل دخول الحاج بثمانية أيام ، فلما نزل بقبة الأمير يشبك مدّ له الأمير أزبك الأتابكى

هناك مدة حافلة جدا ، وبات السلطان هناك ، وبات عنده قضاة القضاة ، ومشايخ العلم ، وهنئوه بقدومه .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشر ، ركب السلطان من هناك وحمل الأتابكى أزبك على رأسه القبة والطير ، وركب قدامه الأمراء والعسكر ، وهم موكبون كالأعياد ، وسارت الأمراء والقضاة الأربعة قدامه ، فدخل من باب النصر ، وشق من القاهرة ، وقد زينت له زينة حافلة ، واستمر فى هذا الموكب العظيم . وطلب طلبا حافلا ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب . وكان له يوم مشهود الى أن طلع الى القلعة ... فلما طلع فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة الى الحوش ، ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وتوشحت الخدام بالبنود الذهب والحرير الأصفر ، وتخلقت بالزعفران . فلما دخل السلطان الى الحوش ، مد له هناك الأمير يشبك مدة حافلة أعظم من مدة الأتابكى أزبك التى مدها له بالقبة . ثم ان السلطان خلع على من كان معه من أرباب الوظائف ، ونزلوا الى بيوتهم ، وانفض ذلك الموكب . وعدت هذه الحجة من النوادر الغريبة ... ودخل عليه جملة تقادم من مال وتحف تعدل مائتى ألف دينار من أمير مكة المشرفة وقضاتها ، ومن أمير الينبع وغير ذلك . وقد نظم الشعراء فى هذه الواقعة عدة قصائد ، فمن ذلك :

قدم السرور بمقدم السلطان
من حجه المقبول بالرضوان
سلطاننا الملك الهمام الأشرف الرا
قى سماء الحسن والاحسان
فهناؤنا ببقائه ، فى نعمة
وسلامة ، فرض على الأعيان
ولقد علمنا أن طاعة أمره
أو نهيه دين من الايمان
لما نوى حجا ولبى محرما
عم الأمان مراتع الغزلان
والوحش فى آبياتها والدوح فى
انباتها والطير فى الطيران
ثم الصلاة على النبى المصطفى
عدد الرمال بجملة الكثبان

فلما استقر السلطان بالقلعة ، آخذ فى أسباب تفرقة الهدية على الأمراء . فابتدأ بالأتابكى أزبك ثم بقية الأمراء كل من هو فى منزلته ، ثم المباشرين وأرباب الدولة . وكان الأمراء والمباشرون قدموا للسلطان أيضا تقادم حافلة ، ما بين مال وخيول وقماش وغير ذلك .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحمدت سيرة الصاحب خشقدم الزمام .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى القرافة فزار ورجع من جهة مصر العتيقة ، وطلع من جهة قناطر السباع ، وأتى الى الكبش فكشف عن عمارته التى آنشأها هناك . ثم طلع الى القلعة من جهة الصليبة وكشف عن عمارة سبيله الذى آنشأه برأس سويقة عبد المنعم التى بالرميلة . وكان الشاد على عمارته تانى بك قرا أحد المقدمين ثم طلع من باب السلسلة الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قراجا الطويل الاينالى ، الذى كان نائب حماه ، ومات بطالا بالقدس ، وكان لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان قانم الأشرفى الذى كان كاشف الشرقية ، فضرب بين يديه ورسم بنفيه الى طرسوس .

***

وفى صفر قرر خالص التكرورى الطواشى فى تقدمة المماليك ، عوضا عن مثقال البرهانى . وقرر سرور الشامى نائب المقدم عوضا عن خالص .

وفيه قدم تمراز التمشى رأس نوبة النوب من

البحيرة . وقد أتى ليهنئ السلطان بعوده من الحجاز .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة بحماه ، وقتل فيها نائب حماه أزدمر بن أزبك قريب السلطان . وسبب ذلك أن سيف أمير آل فضل ، كان قد خرج عن الطاعة . فحاربه أزدمر نائب حماه المقدم ذكره ، فقتل فى المعركة ، وقتل معه جمع من أمراء حماه . فانزعج السلطان لهذا الخبر جدا .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة وكان حافلا . ومما وقع فى ذلك اليوم أن السلطان لما تكامل المجلس بالقضاة الأربعة ، والأمراء ، وانتهى أمر السماط ، حضر كاتب السر ابن مزهر ، وأبو البقاء بن الجيعان ، وخشقدم الزمام ، وحملوا ستة أطباق على رءوس ستة طواشية ، فحطت بين يدى السلطان بحضرة القضاة والأمراء ، وكشفوا عنها فاذا هى ستون ألف دينار ذهب عين . فتحدث كاتب السر وقال فى المجلس العام ان السلطان نصره الله تعالى لما حج فى العام الماضى ، رأى أهل المدينة المشرفة فى فاقة زائدة من قطع الأوقاف . فقصد مولانا السلطان بأن يفعل بالمدينة الشريفة خيرا يكون مستمرا من بعده ، وقد خرج عن هذا المال لله تعالى وهو من وجه حل ، من خالص ماله دون مال بيت المسلمين ، ليشترى به ما يوقفه على فقراء المدينة من ضياع ، وأماكن وربوع ، وغير ذلك . مما يصنع فى كل يوم من الدشيشة والخبز والزيت ، وغير ذلك كما يفعل بمدينة الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام . فارتفعت له الأصوات بالدعاء فى ذلك المجلس ، ثم أمر السلطان بأن يكون هذا المال تحت يد قاضى القضاة الشافعى ، حتى يشترى به أماكن أو ضياعا . فامتنع القاضى من ذلك ، واعتذر عن تسلمه ، حتى أعفى من ذلك .

ثم شرع السلطان فى بناء تلك الربوع التى أنشأها فى باب النصر ، وفى البندقانيين والخشابين والدجاجين وغير ذلك من الأماكن .

وفيه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك ، فلما عاد وقف له جماعة من العوام ، وشكوا له من أمور الحسبة بأنها ضائعة ، وأنه من بعد العصر ما يوجد الخبز على الدكاكين . فلما طلع الى القلعة وأصبح ، رسم للصاحب قاسم شغيته بأن يتكلم فى الحسبة ، عوضا عن يشبك الجمالى . وكان لما تولى الزردكاشية أهمل أمر الحسبة ، وضاعت المصالح فى أمور البضائع وغيرها ، وسعر الغلال ، ووقع بالقاهرة تشحيطة فى الخبز فى تلك الأيام ، وكادت أن تكون غلوة .

وفيه عين السلطان الأمير يشبك الدوادار للخروج الى حماه ، بسبب قتال سيف أمير آل فضل الذى قتل أزدمر نائب حماه ، كما تقدم ذكر ذلك ... وهذه السفرة كانت آخر العهد بالأمير يشبك ، ولم يعد منها الى مصر ، وعين معه من الأمراء المقدمين برسباى قرا ، وتانى بك قرا ، وعدة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وعدة وافرة من الجند . وقد لهج الناس بأن هذه التجريدة خرجت الى سيف ، وكان الأمر كذلك . وراح أكثر الأمراء والعسكر على السيف كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تنطقن بما كرهت فربما
نطق اللسان بحادث سيكون

وقال آخر :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى
ان البلاء موكل بالمنطق

وكان الأمير يشبك له غرض تام فى السفر الى ديار بكر . وقد سأل السلطان فى ذلك بنفسه .

والسبب فى ذلك أن الأمير يشبك كان قد وقع بينه وبين جلبان السلطان بسبب جانم الشريفى ، وقد اتهم به أنه شغله ، فصار معهم فى تهديد وقصدوا قتله غير ما مرة ، فحسن له بعض الأعاجم أن مملكة حسن الطويل سائبة ، وأن العسكر مختلف على ابنه يعقوب ، ومتى حاربتهم لا يقدرون على محاربتك ويسلمونك مملكة العراق قاطبة . فانصاع الأمير يشبك لهذا الكلام ، وسأل السلطان السفر بنفسه ، حتى يجعل الله لكل شىء سببا ، لنفوذ القضاء والقدر كما قيل فى المعنى :

أتطمع من ليلى بوصل وانما
تقطع أعناق الرجال المطامع

فلما عين السلطان الأمراء ، وعرض من بعد ذلك الجند ، وكتب منهم نحوا من خمسمائة مملوك ، وكان الأكثر منهم من طائفة الاينالية ، فلما عرضهم أنفق عليهم ، وأمرهم بسرعة التجهيز والخروج صحبة الأمير يشبك . فبلغت النفقة عليهم فى هذه الحركة زيادة عن المائة ألف دينار .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى بردى ططر أحد المقدمين ، وقرره أمير المحمل ، وقرر يشبك بن حيدر والى القاهرة أمير أول .

وفيه توفى الشهيد الشريف زين العابدين ، وهو محمد بن محمد بن على بن على بن حسين القرشى الهاشمى السنجارى الحنبلى ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، كثير التواضع ، حسن الملتقى .

وفيه خلع السلطان على قانصوه دوادار الأمير يشبك ، وجعله متحدثا فى الاستادارية الى أن يعود أستاذه . فاستعفى من ذلك وأظهر السفر صحبة أستاذه .

وفيه قرر جانم دوادار الأمير يشبك فى كشف أسيوط ، عوضا عن قرقماس الأعور ، فاستعفى جانم من ذلك ، واستقر بها سيباى ، وطلب قرقماس السفر صحبة يشبك .

وفيه فى سلخه كانت وفاة شيخ مذهب الشافعية بمصر الشيخ سراج الدين عمر بن حسن بن حسين العبادى الشافعى . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، مفتيا ، وصار أحفظ أهل زمانه بمذهبه بمصر ، منطرح النفس جدا . وولى عدة وظائف سنية ، منها نظر الأحباس ، ومشيخة خانقاه سعيد السعداء ، وغير ذلك من الوظائف . ومولده سنة احدى وثمانمائة .

وفيه نادى السلطان بأن معاملة الفضة بالميزان وكانت قد خفت جدا .

* * *

وفى ربيع الآخر خرج الأمير يشبك الدوادار الى التجريدة من غير طلب لذلك ، وكان عليه خمدة زائدة ، فتفاءل الناس أنه لا يعود الى مصر أبدا ، وكذا جرى . وكان الناس يقولون خرج لسيف ، وكان هذا فألا عليه

وفيه قرر السلطان جانم الأعرج السيفى جانى بك نائب جدة فى نيابة حماه ، عوضا عن أزدمر قريب السلطان .

وفيه برز آمر السلطان الى سيباى كاشف الوجه القبلى ، بأن يقطع رأس أزدمر الطويل الاينالى . وكان نفى الى مكة المشرفة ، ثم بعد مدة نقل الى أسيوط ، وسجن . وكان بينه وبين الأمير يشبك عداوة . وقصد أزدمر قتل يشبك غير ما مرة ، بل وقتل السلطان أيضا . فلما برز الأمير يشبك بالريدانية للتجريدة ، أرسل يشبك يقول للسلطان : « ما أرحل من هنا حتى تقطع رأس أزدمر الطويل ، وتجىء الى » . وتأخر أياما ينتظر ذلك ، فأرسل السلطان يوسف السوام الذى كان والى قوص ،

الى سيباى كاشف الوجه القبلى ، بقطع رأس أزدمر الطويل ، فتوجه فى الخفية الى آسيوط ، وعلى يده مرسوم السلطان الى سيباى ، بقطع رأس أزدمر . فقطع رأسه بأسيوط ، ووضعت فى علبة ، وأحضرت بين يدى السلطان ، فنظر اليها ثم أرسلها الى الأمير سبباى فنظر اليها ، وكتم هذا الأمر عن الناس ، وما خفى بل اشتهر من يومه . وكان أزدمر هذا من أعيان الاينالية شجاعا ، بطلا مقداما فى الحرب ، عارفا بأنواع الفروسية .

ثم ان الأمير سبباى رحل من الريدانية وقد نال قصده من أزدمر . ثم قطع رأس الأمير سبباى بعد ذلك بمدة يسيرة والمجازاة من جنس العمل .

وفيه توفى برد بك التاجى الأشرفى أحد العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه تغير خاطر السلطان على قاضى القضاة الشافعية ولى الدين الأسيوطى ، وعلى قاضى قضاة الحنابلة بدر الدين السعدى ، فعزل القاضى الشافعى ورسم بنفى القاضى الحنبلى الى قوص . ولم يكن ثم أمر كبير يستحق هذه الكائنة ، بل ما نكب القاضى الشافعى الا بسبب تركة انسان ، والقاضى الحنبلى بسبب كتاب وقف . ونحو ذلك . واستمر أمرهما فى اضطراب مدة أيام ، وتكلموا مع السلطان فيمن يلى قضاء الشافعية وقضاء الحنبلية . وكتب قائمة بأسماء جماعة من طائفتى المذهبين ، ثم عاد الأمر الى اعادتهما الى ما كانا عليه بشفاعة الاتابكى أزبك ، فخلع على القاضيين ، ونزلا الى دورهما وكان لهما يوم مشهود .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى القاضى شرف الدين يحيى ابن الجيعان . مستوفى ديوان الجيش . وهو يحيى بن شاكر بن عبد الغنى الشافعى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم والفرائض .

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضى تاج الدين ابن المقسى ناظر الخاص كان ، فرسم بتسميره ، فسمر على جمل ، وطيف به فى القاهرة ، وتوجهوا به الى قنطرة الحاجب ليوسطوه هناك . وكانت هيئته وهو مسمر على الجمل أنه على رأسه عمامة صغيرة ، وهو لابس كبر أبيض . فلما وصل هناك وقعت فيه شفاعة ، فعادوا به وقد أركبوه على فرس ، وفرح الناس بسلامته .

* * *

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان بشنق تاج الدين بن المقسى ، بعد أن عفى عنه ، فتوجهوا به الى غيط الحاجب ، فشنقوه على جميزة هناك . وشنق معه فى ذلك اليوم قاسم بن بقر أمير عربان جذام بالشرقية ، وكان لهما يوم مشهود . وكان اسمه عبد الله بن نصر الله القبطى ، وكان رئيسا حشما كيسا حسن الهيئة ، لطيف الذات ، وولى عدة وظائف سنية ، منها كتابة المماليك ونظر الدولة ونظر الجيش ، ونظر الخاص والأستادارية ، وغير ذلك من الوظائف . ومات وهو فى عشر الخمسين وكثر عليه الحزن من الناس . وقاسى فى أواخر عمره أهوالا وشدائد ومحنا ، وضرب بالمقارع فى يوم شديد البرد ، وآخر عمره شنق .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه نزل السلطان فى موكب وتوجه نحو قليوب ، ثم طاب له رؤية البحر ، فأقلع من هناك وتوجه الى الوجه القبلى ، حتى وصل الى نحو صبدا ، ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى رجب جاءت الأخبار بقتل سيباى العلائى

الاينالى ، كاشف الوجه الفبلى ، قتله بعض العرب بخنجر فى بطنه وهو راقد على فراشه . وكان شابا حسنا شجاعا بطلا ، من خيار الاينالية . وهو الذى قطع رأس آزدمر الطويل ، فكان بينه وبين قتل آزدمر الطويل شهران وبعض أيام .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة برهان الدين ابراهيم بن عمر بن حسن بن على بن أبى بكر الحرباذى البقاعى الدمشقى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا ماهرا فى الحديث ، ليس من مساويه سوى حطه على الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله ورضى عنه . فلما قامت الدائرة بسبب ابن الفارض ، توجه الى دمشق فمات بها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير يشبك الدوادار لما دخل الى الشام أخذ معه نائب الشام قانصوه اليحياوى وتوجه الى حلب ، وأن قانى بك صلق توفى بحلب ، وكان صحبة الأمير يشبك . وكان قانى بك صلق أصله من مماليك شادبك الجكمى ، وارتقى حتى بقى أمير طبلخاناه ورأس نوبة ، وكان لا بأس به ، ورأى غاية العز فى دولة الأشرف قايتباى .

* * *

وفى شعبان كان انتهاء القناطر التى بالجيزة . وخلع السلطان على الأتابكى آزبك بسبب كونه كان شادا على العمارة ، فجاءت من آثار الملوك . وقيل ان السلطان صرف على هذه القناطر نحوا من مائة ألف دينار .

وفيه توفى مجد الدين بن الكويز ، وهو محمد ابن سليمان بن عبد الرحمن بن داود بن خليل الشوبكى ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، منها معلم المعلمين ، ونظر الخاص ، وغير ذلك . ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة .

* * *

وفى رمضان كان ختم البخارى بالقلعة ، وفرقت الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم . وكان قارىء الحديث الشريف برهان الدين بن الكركى امام السلطان ، فخلع عليه . ونزل من القلعة فى جمع حافل .

وفيه آمر السلطان بتجديد عمارة الامام الشافعى رحمة الله عليه ورضى عنه ، وكان الشاد على عمارتها الخواجا شمس الدين بن الزمن

وفيه كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الأمشاطى محمد بن محمد بن أحمد بن حسن بن اسماعيل بن يعقوب العينتابى الكحكاوى الحنفى . وكان عالما فاضلا بارعا فى علوم مذهبه ، وافر العقل ، فكه المحاضرة ، وكان ناب فى القضاء مدة طويلة ، ثم تولى القضاء الأكبر ، وباشره بعفة زائدة وحرمة وافرة ، وحمدت سيرته ، وامتاز على غيره من قضاة عصره ، وصمم على عدم حل الأوقاف فى أيامه ، وجمع بين القضاء ومشيخة البرقوقية ، وكان نادرة فى عصره . فلما توفى الأمشاطى تكلموا مع السلطان فى القضاء عوضا عن الأمشاطى ، فلم يوافق على أحد يوليه من أهل مصر . ثم أرسل خلف شخص من الشام يقال له شرف الدين موسى بن عيد ، ليلى القضاء ، واستمر منصب قضاء الحنفية شاغرا الى أن حضر ابن عيد .

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار من الرها بوقوع كائنة عظيمة طامة ، قتل فيها الأمير يشبك الدوادار ، وانكسر العسكر قاطبة ، وقتل الأكثر منهم . وكان سبب ذلك : أن الأمير يشبك لما دخل الى حلب ، كان صحبته نائب الشام ، ونائب حلب ونائب طرابلس ، ونائب حماة ، والعسكر الشامى والحلبى والمصرى ، وغير ذلك من العساكر ... فلما

استقر بحلب بلغه أنّ سيف أمير آلْ فضلّ الذى خرج بسببه قد فر ، وتوجه الى نحو الرها ، فقوى عزم الأمير يشبك بأن يعدى من الفرات ، ويتبع سيفا فى أى مكان كان فيه . فكان كما قيل فى المعنى :

وكم من طالب يسعى لشىء
وفيه هلاكه لو كان يدرى

فعدى من الفرات ، هو والعساكر ، فاجتمع معه فوق العشرة آلاف انسان . فلما عدى توجه الى نحو الرها ، وكان المتولى أمرها يومئذ شخص يقال له بابندر ، أحد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل ، فحاصر الأمير يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة ، فلما أشرف على أخذها ، أرسل بابندر يتطلف بالأمير يشبك ، ويقول له : « ضمان مسك سيف علىّ » . وأرسل يقول له : « ارحل من الرها ، وأنا أجمع لك من المدينة مالا له صورة » . فأبى الأمير يشبك من ذلك ، لما رأى من كثرة العساكر التى كانت معه . فطمعت آماله فى أخذ مدينة الرها ، ويزحف بعد ذلك على ملك العراق ، كما حسنوا له ذلك . فزعق النفير وركب العسكر قاطبة ، فبرز بابندر ومن معه من العسكر ، وتحارب معهم ، فلم تكن الا ساعة يسيرة ، وقد انكسر عسكر مصر قاطبة ، وبقية العساكر قاطبة ، فأسر الأمير يشبك وهو راكب على ظهر فرسه ، فأتوا به الى بابندر ، وأسروا نائب الشام قانصوه اليحياوى ، ونائب حلب أزدمر ، ونائب حماه جانم الجداوى ، وقتل يرد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وأسر برسباى قرا حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين ، وقتل من الأمراء العشراوات ، ومن أمراء الشام وحلب ما لا يحصى ، وقتل من العساكر التى كانت مع الأمير يشبك ما لا يحصى عددهم ، وكانت حوافر الخيل لا تطأ الا على جثث القتلى من العسكر . فكان من قتل من أعيان العسكر . يرد بك قريب السلطان نائب طرابلس ، وهو برد بك المعمار السيفى جرباش كرت ، وجانى باى أخو سيباى أحد الأمراء العشراوات ، وجانى باى أخو تانى بك قرا ، وسوازار الأشقر الأشرفى ، وكان علامة فى الرمى بالنشاب ، وطقطمش الخشقدمى أحد الأمراء بحلب ، وسليمان بك من أقارب سوار ، وقانصوه البواب الاينالى أحد الأمراء العشراوات ورءوس النوب ، وقرقماس المحمدى الظاهرى ، أحد العشراوات ورءوس النوب . وأما الذى قتل من الخاصكية والمماليك السلطانية ، فما ضبط لكثرتهم . وقتل من العساكر الشامية والحلبية وغير ذلك ما لا يحصى عددهم . وكانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر .

وأما ما كان من أمر يشبك الدوادار فانه أقام فى الأسر نحو ثلاثة أيام ، ثم فى اليوم الرابع بعث اليه بعبد أسود من عبيد التركمان قطع رأسه تحت الليل ، وأحضرها بين يدى بابندر . وقيل انه حز رأسه بالسيف عدة مرار وهى لا تنقطع فقطعها بسكين صغير وعذبه غاية العذاب . فلما طلع النهار وجدوا جثته بغير رأس وهى مرمية على قارعة الطريق ، وعورته مكشوفة ، حتى ستره بعض الغلمان بحشيش من الأرض . فسبحان من يعز ويذل ، وبيده كل شىء وهو على كل شىء قدير . وقيل فى المعنى :

ما أعجب الدهر فى تقلبه
والدهر لا تنقضى عجائبه
فكم أرانا الدهر من أسد
بالت على رأسه ثعالبه

فلما قطعت رأس الأمير يشبك بعث بها بابندر الى بلاد العجم ، عند يعقوب بن حسن الطويل ،

فكان له يوم مشهود بمدينة ماردين ، وطافوا بها بلاد العجم ، وهى على رمح ، وألبسوا رأس الأمير يشبك تخفيفته الكبيرة لما طافوا بها ، وطافوا بالنواب والأمراء الذين أسروا وهم فى قيود وجنازير ، والمماليك الذين أسروا مشاة . وأرسل بابندر الى يعقوب بن حسن بجميع ما نهبه من العسكر من مال وخيول وسلاح وقماش وبرك وغير ذلك مما لا يحصى . وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة . وكانت قتلة الأمير يشبك فى العشر الأخير من رمضان سنة خمس وثمانين وثمانمائة بالرها ... وكان الأمير يشبك أميرا جليلا معظما فى سعة من المال ، ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكلمة نافذة ، وكان أصله من مشتريات الظاهر جقمق . وكان يعرف بيشبك بن مهدى ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، حتى صار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمع فيه عدة وظائف سنية ، منها الدوادارية الكبرى ، وامرية سلاح ، والوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة ، وغير ذلك . فعظم أمره جدا ، ووقع له أشياء غريبة ، لم تقع لغيره من أبناء جنسه فى عصره . ومات وله من العمر نحو من ست وخمسين سنة ، وقد وكزه الشيب قليلا . وكان صفته أبيض اللون مدور الوجه ، أشهل العينين ، أشقر اللحية ، طويل القامة ، ملىء الجسد . وأنشأ أشياء كثيرة من العمائر بالديار المصرية ما بين ربوع وحوانيت ودور جليلة وصهاريج ومغسل وأسبلة وزوايا . وأنشأ قبة بالمطرية ، وقبة برأس الحسينية ، وكان له فى كل سنة عدة شقادف محملة على جمال ومعها الزاد والماء تلاقى الحجاج من العقبة بسبب المنقطعين من الحجاج . وله غير ذلك أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف . وكانت له محاسن ومساو ، وفيه الخير والشر . وقد ساقه أجله حتى خرج فى هذه التجريدة بسبب سيف أمير آل فضل فكانت منيته بالرها . وكان الأمير يشبك باغيا على بابندر ، فانه قصد محاربته من غير سبب ، ولا موجب لذلك ، فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان فى وكره
يوما فلا يأمن من لسعته

وقد نهى بعض الحكماء عن التوجه الى بلاد الشرق من غير حاجة فقال :

اذا شئت أن تلقى دليلا الى الهدى
لتقفو آثار الهداية من كاف

فخل بلاد الشرق عنك فانها
بلاد بلا دال وشرق بلا قاف

ولكن قدر فى الأزل بأن قبض الأمير يشبك يكون بالرها ، فسبب له الأسباب لذلك . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا أراد الله تعالى قبض روح عبد بأرض جعل له اليها حاجة » .

ومن النكت اللطيفة ، ما روى فى بعض الأخبار : أن ملك الموت زار سليمان بن داود عليهما السلام ، فجعل ينظر الى رجل من جلسائه ، ويطيل النظر . فقال الرجل لسليمان عليه السلام : « ومن هذا الرجل الذى يطيل الىّ النظر ؟ » ، فقال سليمان عليه السلام : « هذا ملك الموت عليه السلام » . واضطرب الرجل وقال : « يانبى الله أقسمت عليك بالله تعالى الا ما أمرت الريح تحملنى من هنا وتلقينى خلف جبل قاف » . فأمر سليمان عليه السلام الريح بأن تحمل ذلك الرجل ، وتلقيه خلف جبل قاف . فلما حملته الريح الى هناك ، قال سليمان بعد ذلك لملك الموت : « لماذا

كنت تطيل النظر فى الرجل الذى كان جالسا عندى » . فقال ملك الموت عليه السلام : « كان نظرى الى هذا الرجل تعجبا منه ، لأننى أمرت بقبض روحه خلف جبل قاف ، وقد وجدته بحضرتك ، فصرت متعجبا من ذلك » . فلما مضى الرجل خلف جبل قاف ، قبض ملك الموت عليه السلام روحه هناك كما أمر . وهذا مصداق للحديث الشريف .

فكان قبض الأمير يشبك بالرها . فلما ورد هذا الخبر الى السلطان ، اضطربت أحواله ، وماجت القاهرة عن آخرها ، وكان يوما مهولا . ثم أشيع بين الناس أن الأمير يشبك فى الحياة ، وهو فى الأسر عند بابندر . وقيل انه فر بنفسه وهو مختفى عند بعض التركمان . واختلفت الأقوال فى أمره ، وصارت دكة النقباء على بابه بعد قتله مدة طويلة ، ونظامه باق على حاله ، ووقع الشك فى حقيقة قتله . ثم أشيع بين الناس أن السلطان قصد السفر الى حلب بنفسه ، ويقيم بها ، خوفا من عسكر يعقوب بن حسن ، أن يطرق بلاد حلب والشام . فان النواب قاطبة كانوا فى الأسر عند يعقوب بن حسن .

ثم ان السلطان عين الأتابكى أزبك الى حلب ، وعين معه وردبش أحد المقدمين ، وخلع عليه ، وأقره فى نيابة حلب ، عوضا عن أزدمر . وعين من الأمراء العشراوات ، والطبلخانات ، عدة وافرة . منهم : جانى بك حبيب أمير آخور ثانى ، وآخرين من الأمراء . ثم عرض الجند ، وكتب منهم جماعة ، واستحثهم على الخروج بسرعة قبل أن تهجم عساكر الشرق على حلب . ولولا فعله ذلك لخرج من يده غالب جهات حلب .

ثم بعد أيام خرج الأتابكى أزبك من القاهرة هو والعسكر فى تجمل زائد ، وكان لهم يوم مشهود . وفوض السلطان أمر البلاد الشآمية والحلبية للأتابكى أزبك ، وجعل له التكلم فى أمور المملكة من ولاية وعزل . ولما أراد الرحيل من الريدانية نزل اليه السلطان ، وودعه وجلس عنده ، واشتوروا فيما يكون فيه المصلحة بسبب هذه الكائنة . ثم ان الأتابكى أزبك سافر .

وفيه عين السلطان تمراز التمشى قريبه لنيابة الشام . فامتنع من ذلك ، وادعى الفقر وعدم البرق ، فوبخه السلطان بالكلام . فحنق منه تمراز ونزل الى داره وأغلق بابه ، ولم يجتمع بأحد من الناس ، وصرف نقباءه عن بابه . وكثر القال والقيل فى ذلك . فأرسل السلطان يقول له توجه الى مكة وأقم بها بطالا . واستمر فى هذه الحركة أياما وهو فى اضطراب ، والسلطان يستحثه فى سرعة الخروج الى مكة . ثم ان الأتابكى أزبك مشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فطلع الى القلعة ، وقابل السلطان ، فخلع عليه ونزل الى داره فى موكب حفل ، وقد زال ما بينه وبين السلطان من الوحشة بسبب نيابة الشام . ثم تحول أمر نيابة الشام الى قجماس الاسحاقى أميرآخور كبير ، فخلع عليه وقرره فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى ، بحكم أسره .

وفيه عقب ذلك وقف الأمير خاير بك بن حديد الى السلطان ، وسأله فى اقطاع الأمير يشبك الدوادار . فنتر فيه السلطان ، فنزل الى داره مغضبا ، وأغلق بابه ، وصرف غلمانه ، وامتنع من الاجتماع بالناس ، وتكلم بكلمات كثيرة فى حق السلطان . وكان الأمير خاير بك صعب المراس ، شديد الخلق قوى الرأس . فلما بلغ السلطان ذلك بعث باحضاره فاختفى خاير بك ، وخرج من داره وهو لابس جبة صوف أبيض ، وتعمم بمئزر صوف أبيض ، وأخذ بيده سبحة ،

وادعى انه قد ترك الدنيا وبقى فقسيرا مجردا ، وتوجه الى جامع قيدان ، الذى بقناطر الأوز . وكان أنشأ به جوسقا معللا على البركة التى هناك ، فأقام به أياما . فلما بلغ الأمير تمراز ذلك توجه اليه ، وتلطف به فى عوده الى داره ، فلـم يوافق على ذلك ، واستمر مصمما على عـدم عوده . وبقى هناك أياما .

ثم ان السلطان أرسل اليه قانصوه خمسمائة ، وشـكه فى الحديد ، وطلع به الى القلعـة وهو ماش . فلما مثل بين يديه ، وبخه بالكلام ، وقصد أن يفتك به ، ثم آل أمره من بعـد ذلك الى آن أخرجه منفيا الى دمشق ، صحبة الأتابكى أزبك ، لما خـرج الى التجريدة المقدم ذكرها . فـسجن هناك ، وجرى عليه شدائد ومحن الى الغـاية ، واسـتمر منفيا الى أن مات بمكة المشرفة كمـا سيأتى الـكلام على ذلك . وكان خاير بك من أخصاء السلطان ، وكان من أكبر أصحابه ، من حين كان السلطان خاصكيا ، فانقلب عليه كأنه لم يعرفه قط . فكان كمـا يقال : « ثلاث لا يؤمن اليهم : المال وان كثر ، والملوك وان قربوا ، والمرأة وان طالت صحبتها » .

وفيه طلع الأمير لاچين الظاهرى الى السلطان ، واستعفى من أمرية مجلس ، وذكر للسلطان آنه قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة . فأعفـاه السلطان من ذلك ، ورتب له ما يكفيه ، واستمر طرخانا الى أن مات .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين بن الأخميمى الحنفى ، أحـد أئمة السلطان ، وقرره فى مشيخة البرقوقية ، عوضا عن قاضى القضـاة الامشاطى .

وفيه خرج المحمل فى تجمل زائد من القاهرة ، وكان أمير الركب بالمحمـل ، تغرى بردى ططر ، أحد الأمراء المقدمين ، وأمير الركب الأول شبك ابن حيدر والى القاهرة .

* * *

وفى ذى القعـدة وصلت جثة الأمير يشـبك الدوادار من الرها ، وهى فى سحلية ، وهى جثة بغير رأس ، فوقع الشك فيها هل هى جثته ، أم لا . فوجدوا بها أمارات تدل على أنهـا جثته ، فكفنوها ودفنوها فى تربته التى أنشأها عند زاوية كهنبوش . وتحقق موته وانقطعت الاشاعات بأنه فى قيد الحياة . وحضر صـحبة جثته قانصـوه دواداره وأخبر بحقيقـة موته ، وكيفيـة أمر الواقعة ، ومن آسر من الأمراء . وأخبر بقتل قانم قريب السلطان ، الذى كان أتابك العساكر بحلب قتل على ماردين من جملة من قتل من العسـكر وكان شجاعا بطلا لابأس به . فلمـا ثبت موت يشبك زال أمره كأنه لم يكن .

وفيه وصل شرف الدين بن عيد الدمشـقى الذى تقدم ذكره . فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، وأقره فى قضاء الحنفية ، عوضـا عن الأمشاطى .

* * *

وفى ذى الحجة خلع السلطان على تغرى بردى بن يلباى الظاهرى ، خازندار يشـبك الدوادار وقرره فى الاستادارية ، عوضا عن مجـد الدين ابن البقرى . ورسم السـلطان على مجد الدين ليقيم الحساب . وكان فى ذلك دماره .

وفيـه توفى دولات باى بطيـخ الأبو بكرى المؤيدى ، أحد العشراوات ورءوس النوب ، لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بقتل محمد حسن بن الصوا الحلبى نائب قلعة حلب . من أخصاء السلطان ، ثار عليه أهل حلب

مظالم أحدثها بحلب ، فقتله العامة . وقتل فرج ابن أغلبك حاجب الحجاب بحلب وكان رئيسا حشما من أعيان أهل حلب ، وكان لا بأس به

وفيه مات مشنوقا شيخ عربان الشرقية قاسم ابن بيبرس بن بقر ، وكان من خيار بنى بقر وتوفى أبو بكر جركس مقدم البريدية وأحد الحجاب بمصر ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

* * *

سنة ست وثمانين وثمانمائة (١٤٨١ م) :

وفيها ، فى رابع المحرم ، خلع السلطان على أقبردى بن على باى قريبه ، أحد المقدمين ، وقرره فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن يشبك بن مهدى بحكم قتله فى الرها . فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وسكن فى دار الأمير يشبك ، ورسم له السلطان بجميع ما كان فى بيت الأمير يشبك . فجاءت اليه السعادة من قماش وآوان وخيول وبرك ، وهو لا يشعر بها ، فسبحان المعطى الكريم وهو على كل شىء قدير . وقد قيل « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفيه خلع السلطان على ألماس ، وقرره فى نيابة صفد فخرج عن قريب ، وخرج صحبته تانى بك الجمالى أحد المقدمين الى حلب ، عونة للأتابكى أزبك ، فطلب وخرج ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ثارت ريح عاصفة ، وثار فيها غبار أصفر يأخذ بالأنفاس ، واستمر من قبل الزوال الى نصف الليل .

وفيه ، فى سابع عشره ، كانت زلزلة عظيمة بمصر والقاهرة ، ماجت الأرض وتحركت المواذن ومالت ، وسمع للأرض دوى كدوى الرحى . وكان ذلك يوم الجمعة بعد العصر ، واستمرت نحو ثلاث درج وهى فى اضطراب ، حتى دهشت منها الناس ، وخرجت النساء من الحمامات والبيوت وهن حاسرات عن وجوههن . وحصل للناس غاية الرعب ، ومات من هذه الزلزلة قاضى القضاة شرف الدين بن عيد الحنفى ، وكان جالسا بايوان المدرسة الصالحية ، فقام حين وقعت الزلزلة ، فسقط عليه سافط من أعلى الايوان ، فمات لوقته . وكان عالما فاضلا دينا خيرا بعث السلطان خلفه من دمشق الى مصر ، وولاه قضاء الحنفية ، فأقام بها ثمانية وخمسين يوما ، ومات بهذا السبب . وكان أصله من عجلان ، وهو موسى بن أحمد بن عيد الدمشقى الحنفى ، وكان تولى قضاء دمشق ، ثم طلب وتولى قضاء مصر ، وكان مولده سنة ثلاثين وثمانمائة . فلما أخرجت جنازته نزل السلطان ، وصلى عليه ، ودفن بالصحراء .

وتوفى من الزلزلة عقيب ذلك الزينى أبو بكر بن القاضى عبد الباسط ، ناظر الجيش كان ، وكان رئيسا حشما نادرة فى أبناء الزمان ، ذا شهامة وعظمة ، وكان من أخصاء السلطان ، وكان عليلا فمات مرجوفا من الزلزلة حين ماج به البيت . وكان فى سعة من المال والقماش والبرك ، وولى من الوظائف نظر الجوالى ، وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان على قانصوه بن طراباى ، المعروف بخمسمائة الأشرفى ، وقرره فى امرية الآخورية الكبرى ، عوضا عن قجماس الاسحاقى ، بحكم انتقاله الى نيابة الشام . وكان قانصوه يومئذ شابا بدا عذاره ، وولى الدوادارية ، وهو لابس الكوفية القندس . فلما بقى أمير آخور كبير ، بعث له السلطان بشاش فلفه له تخفيفة كبيرة ، وكان حين لبس الدوادارية الثانية ، قبل أن يلبس أقبردى التقدمة ، والأميراخورية الكبرى بعد

ما ليس أقبردى الدوادارية . والمقصود أنه صار مقدم ألف قبله ، وأخذ الدوادارية بالمنزلة فى محله ، وقانصوه نقل من الدوادارية الثانية الى الأمير آخورية الكبرى . فكان بينه وبينها عدة وظائف .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم أزدمر تمساح ، ويشبك الجمالى الزردكاش الكبير ، وأزدمر المسرطن الظاهرى .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين بن المصنف ، عوضا عن العبدوى ، وعزل العبدوى ، وكان ابن فرفور قرر قبل ذلك فى نظر الجيش بدمشق ، فجمع بين نظارة الجيش وبين قضاء الشافعية . وعزل عن نظارة الجيش الشريف موفق الدين الحموى ، وأودع فى السجن بقلعة دمشق . وخلع على قطب الدين الخضيرى ، وقرره فى كتابة السر بدمشق ، فانفرد بكتابة السر دون قضاء الشافعية ، وكان قبل ذلك متوليا قضاء الشافعية بدمشق .

وفيه قدم قاصد ملك الحبشة ، فأوكب له السلطان موكبا بالحوش ، وكان موكبا حافلا ، وأحضر صحبته هدية حافلة للسلطان . فأكرم ذلك القاصد جدا . وسبب حضوره أنه جاء يسأل البترك أن يولى شخصا يكون عنه ببلادهم .

❊ ❊ ❊

وفى صفر خلع السلطان على قانى بك جشنحة ، وقرره فى الرأس نوبة الثانية ، عوضا عن أزدمر تمساح بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر فى الحجوبية الثانية تانى بك الاينالى ، عوضا عن قانى بك جشنحة بحكم انتقاله الى رأس نوبة ثانى .

وفيه نزل السلطان الى جهة قليوب وكان يوم الجمعة ، فلما عاد صلى الجمعة فى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية . وتوجه قاضى القضاة الشافعى وخطب به هناك .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة اينال الأسحاقى الظاهرى ، أحد العشراوات ، وشيخ الحرم الشريف النبوى . وكان انسانا حسنا خيرا دينا وله اشتغال بالعلم ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين العزى بن المغربى وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن ابن عيد ، ولم يكن هذا العزى أهلا لولاية قضاء الحنفية ودلس على السلطان أمره . وكان الساعى له فى هذه الوظيفة تغرى بردى الاستادار ، ويعقوب شاه المهمندار ، وقد عز ذلك على جماعة من الحنفية ، وكان فيهم يومئذ من هو أولى بذلك من العزى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الأتابكى أزبك لما وصل الى حلب وجد أمر الفتنة التى وقعت بين عسكر مصر وبين بابندر ، قد سكن أمرها ، وأن يعقوب بن حسن الطويل شق عليه ما فعله بابندر من سرعة قتله للأمير يشبك الدوادار ، ولامه على ذلك . ثم ان الأتابكى أزبك أرسل جانى بك حبيب قاصدا الى يعقوب بن حسن ، فتلطف به فى الكلام . وكان الأمير جانى بك حبيب سيوسا دربا حلو اللسان ، فأكرمه يعقوب ، وأجله . ثم أطلق من كان عنده من الأسرى من النواب والأمراء ، وغير ذلك ، فسلمهم للأمير جانى بك حبيب ، فأتى بهم الى حلب صحبته . فلما بلغ السلطان هذا الخبر سر به جدا .

وفيه خلع السلطان على البدرى حسن بن الطولونى ، وأعاده الى معلمة المعلمين ، وكانت قد أخرجت عنه مدة طويلة .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الخانكاه ،

فاعجبه مكان عند قناطر المرج والزيات ، فأمر ببناء زاوية هناك وحوض وسبيل ، وأخذ فى أسباب ذلك ، وجاء من أحسن البناء .

وفيه توفى القاضى سعد الدين الكماخى أحد نواب الحنفية ، وهو ابراهيم بن محمد بن محمد بن قطلوبك شيخ المدرسة الظاهرية العتيقة ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما دريا مشهودا فى قضائه ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الأول جاءت الاخبار بوفاة السلطان المعظم المفخم المجاهد الغازى . ملك الروم ، وصاحب القسطنطينية العظمى ، وهو محمد بن مراد بن محمد بن عثمان ، وكان ملكا جليلا عظيما ساد على بنى عثمان كلهم ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ، وحاز الفضل والعلم والعدل والكرم الزائد ، وسعة المال وكثرة الجيوش ، والاستيلاء على الأقاليم الكفرية ، وفتح الكثير من حصونها وقلاعها . وكان نائب ملك مملكة الروم ، فى حياة أبيه ، ثم استقل به من بعده ، ومكث به مدة طويلة تزيد عن احدى وثلاثين سنة ، ومولده بعد الأربعين والثمانمائة . ولما مات تولى بعده ولده أبو يزيد بالدرم ، الموجود الى تاريخه . فلما سمع ذلك السلطان أظهر الحزن والأسف عليه .

وفيه خلع السلطان على العلائى على بن الصابونى ، وقرره فى نظر الخاص عوضا عن بدر الدين بن الكويز بحكم وفاته . وقد جمع بين نظر الخاص ووكالة بيت المال

وفيه خلع السلطان على يشبك بن حيدر والى القاهرة ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر الشهابى أحمد بن الجمالى ناظر الخاص فى امرية الحاج بالركب الأول ، وقرر شاهين الجمالى فى نيابة جدة ، ويخرج صحبته الشهابى أحمد ناظر الجيش ، ويكون هو المتكلم على الحجاج بالركب الأول .

* * *

وفى ربيع الآخر نزل السلطان ، وتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية ، وبات بها وصلى صلاة الجمعة هناك ، وخطب به محمد بن دمرداش امام القبة . وعمل هناك بعد العصر ميعادا بحضرة السلطان ، فأنعم عليه بمائة دينار .

وفيه نزل السلطان ، وعدى الى جهة الروضة ، وأمر بتجديد الجامع الذى هناك تجاه المنشية ، وكان تلاشى أمره ، فأمر بهدمه وتجديده ، وكان الشاد على عمارته البدرى حسن ابن الطولونى . ثم ان السلطان توجه الى المقياس ونزل عن فرسه ، ودخل الى قاعدة المقياس ، وأمر بتجديد بعض أماكنه ، واصلاح أساسه ، وغير ذلك . ثم ان السلطان صار يتردد الى الروضة ، ويكشف عن بناء هذا الجامع ، حتى انتهى العمل منه فى سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وقد جاء فى غاية الحسن والزخرفة ، وصار يعرف بجامع السلطان . وكان أصل من أنشأ هذا الجامع الفخر ناظر الجيش ، وهو صاحب قنطرة الفخر التى أنشأها فى دولة الناصر محمد بن قلاوون . ثم جدد بناءه الصاحب شمس الدين محمد بن المقسى فعرف به . ثم جدد بناءه الأشرف قانبای فعرف به ، وجاء من أحسن البناء هناك .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى علان الأشقر بن ططخ الأشرفى أحد العشراوات ورءوس النوب ، وهو الذى أنشأ الحوض والسبيل بطريق بركة الحاج ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على اينال السلحدار ، نائب

بالاسكندرية ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن برد بك المعمار بحكم قتله فى واقعة بابندر . وخلع على جكم قرا أمير آخور الجمالى الظاهرى ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن اينال السلحدار بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس .

وفيه توفى الأمير لاجين الظاهرى ، أمير مجلس كان . وجاوز التسعين سنة من العمر ، وكان دينا خيرا رئيسا حشما . وكان من الشجعان قبل أن يهزم ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الزردكاشية الكبرى . ثم شادية الشراب خاناه ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير مجلس واستعفى من ذلك . ومات بطالا ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على قانم الفقيه الظاهرى الأشقر ، بمشيخة الحرم الشريف النبوى ، عوضا عن اينال باى الاسحاقى بحكم وفاته .

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار من حلب ، من عند الأتابكى أزبك ، بأن الجام بن عثمان ، ملك الروم ، قد وقع بينه وبين أخيه أبى يزيد ، وأن الجام وصل الى أطراف بلاد السلطان ، وبعث يستأذن فى الدخول الى حلب ، فعاد من السلطان للأتابكى أزبك بأن يحضر الى القاهرة فى قليل من عسكره ثم ان السلطان أخذ فى أسباب تجهيز الملاقاة اليه الى أن يصل الى مصر .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى خامس عشر مسرى . فلما أوفى رسم للأمير أزبك السيفى بأن يتوجه ويفتح السد .

* * *

وفى رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فوقع بالمجلس كلام يتعلق بالشهابى أحمد بن العيسى ، بسبب تركة شرف الدين ابن كاتب غريب

وكان بعض نواب المالكية سمع دعوى ابن العينى وحكم له ثم ان أمر هذه الدعوى وقف مدة طويلة ، فلما طلع القضاة فى الشهر المذكور ، أخذ السلطان يسأل القاضى المالكى والشافعى عن السبب فى تأخر ذلك بعد أن ثبت حق ابن العينى ، وحكم له بذلك . فطال الكلام فى المجلس بين القضاة ، فحنق منهم السلطان،فقام كاتب السر يتكلم للقضاة من نوع المساعدة لهم فقال له السلطان : « أنت معزول ، والقاضى الشافعى معزول ، والقاضى المالكى معزول » . فنزلوا الى دورهم وهم فى غاية النكد . وكان آخر عزل ولى الدين الأسيوطى ولم يل بعد ذلك القضاء ، وكذلك برهان الدين اللقانى ، فكانت مدة ولى الدين الأسيوطى فى قضاء الشافعية نحوا من ست عشرة سنة . وكان مشكور السيرة فى قضائه .

ثم أخذ السلطان فى أسباب من يلى قضاء الشافعية ، فترشح أمر الشيخ زين الدين زكريا ، فطلب وخلع عليه وتولى القضاء ، وقد تمنع من ذلك الى الغاية . ثم شرط على السلطان شروطا كثيرة ، فأجيب الى بعضها ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، واستمر فى هذه الولاية مدة طويلة وقد أخذها عن ولى الدين الأسيوطى بحكم صرفه عنها . وكان الشيخ زكريا يومئذ رأس الشافعية ثم ان السلطان طلب محيى الدين بن تقى الدين المالكى ، وخلع عليه ، وقرره فى قضاء المالكية . عوضا عن برهان الدين اللقانى بحكم صرفه عنها ، واستمر فى هذه الولاية الى أن مات .

وأما القاضى كاتب السر ابن مزهر ، فانه أقام فى داره نحو ثمانية عشر يوما وهو منفصل عن كتابة السر . ثم ان بعض الأمراء مشى بينه وبين السلطان فى عوده بعد ما كان ترشح أمر قطب الدين الخضيرى بأن يلى كتابة السر . ثم ان ابن مزهر

أورد للسلطان مالا له صورة حتى رضى عليه . فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، وأعاد وظيفته ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وتخلق جماعته بالزعفران ، وزينت له حارته وهنأه الأديب أبو الخير ابن النحاس بقوله فيه :

مقام ابن مزهــر فوق الســها
وقــد زاد ربى اجـــــلاله

وظيفته الدهــر تــسمو به
ولم تك تصـــلح الا له

وقال آخر :

يا كاتب الأسرار يا من فضـــله
قد جـــل الدنيا وزان المصيا

هـــذه وظيفتك التى فارقتهـا
عادت اليك فمرحبا بك مرحبـا

وفيه حضر برقوق الساقى الاينالى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان ممن أسر عند بابندر ، وحضر صحبته اياس مملوك الأتابكى أزبك ، وأخبر بأن النواب والأمراء الذين كانوا فى الأسر عند بابندر قد أطلقــوا أجمعــين ، ودخلوا الى حلب صحبة جانى بك حبيب ، وقد خلع عليهم يعقوب بن حسن الطويل . ثم أخبر اياس المذكور أن الجمجمة بن عثمان ، قــد خرج من غزة وهو قاصــد للديار المصرية . فلما أخبر السلطان بذلك آخذ فى أسباب ملاقاة الجام .

وفيه توفيت خوند بنت الملك المنصور ، وهى زوجة تمراز التمشى ، رأس نوبة النوب . وكانت شابة جميلة ماتت نفساء بعد أن وضعت .

وفيه قرر عماد الدين اسماعيل الناصرى الحنفى الدمشقى ، فى قضاء الحنفية بدمشق ، عوضا عن ابن القصيف بحكم انفصاله عنها .

* * *

وفى شعبان خرج الصاحب تخشقدم الزمام الى ملاقاة الجام بن عثمان ، ومــد له أسمطة حافلة ببلبيس والخانكاه ، ثم لاقته الأمراء المقدمون ، والعســـكر ورءوس النوب والحجاب من المــرج والزيات ، فســـار فى موكب حافل حتى طلع الى القلعة من بين الترب . فأقام له السلطان الموكب بالحوش . فلما مثل بين يدى السلطان وهو جالس على الدكة ، تحرك ولم يقم له ، فعد ذلك ناقصة من الأشرف قايتباى . ثم خلع على الجام كاملية بسمور حافلة ، وأركبه فرسا خاصـــا من مراكبه بسرج ذهب وكنبوش زركش ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء ورءوس النوب وكان له يوم مشهود . وقد قيل فى المعنى :

يا أيها الملك الهمـــام ومن له
أســد الفلا تأتى اليــه ملجمة

قد فاق قدرك فى الملوك تعاظما
مذ صح بين يديك نطق الجمجمة

وأنزلوه بدار ابن جلود ، كاتب المماليك ، التى بفم الخور ، وقد حضر بصـــحبة الجمجمة والدته وأولاده وعياله . وقد فر من أخيه أبى يزيد خوفا على نفسه من القتل ، فالتجأ الى سلطان مصر .

وفيه قبض يشبك بن حيدر والى القاهرة ، على امرأة يقال لها خديجة الرحابية ، وكانت من أعيان مغنيات مصر ، ولها انشاد لطيف ، وكان أصلها من مغنيات العرب ، ثم عظم أمرها جدا وحظيت عند أرباب الدولة ورؤساء مصر . وكانت جميلة حسنة الغناء فافتتن بها الكثير من الناس ، وقد قال فيها بعض الشعراء :

رحابية يخفى الشـــموس جمالها
لها حسن انشـــاد يزين مقالها

وقد خايلت بالبـــدر ليلة تمه
فما زال من عينى وقلبى خيالها

فلما قبض عليها يشبك ، كانت فى بعض الأفراح فنمس عليها من هناك ، فلما مثلت بين يديه قال لها : « آنت التى أفسدت عقول الناس » . ثم أمر بضربها بين يديه نحوا من خمسين عصـــا ، وقرر عليها مبلغا له صورة ، وكتب عليها قسامة بأنهـــا لا تغنى ولا تحضر فى مقام . فلما خلصت من ذلك أقامت مريضة مدة من الرجفة التى وقعت لها ، ثم ماتت عقيب ذلك . وكان لها من العمر نحــــو الثلاثين سنة ، فتأسف عليها الكثير من الناس .

وفيه كان ختان أولاد القاضى كاتب السر ابن مزهر ببركة الرطلى . وكان له مهم حافل جــدا . وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشراوات وحضر عنده جمجمة بن عثمان ، وبات عنده ، وكان النيل فى أواخره ، فأمر كاتب السر ســكان بركة الرطلى بأن يوقدوا فى البيوت وقدة حافلة . وشرع يرســل الى كل بيت فى البركة عشرة أرطال زيت ، وطبليةفيها آكل فاخر من طعام ذلك المهم ، فاحتفلوا فى الوقدة ، وعلقوا فى الطيقان الأحمال والتنانير ، حتى كانت ليلة مشهودة ، يكاد الانسان أن يدخل الخيط فى خرم الأبرة من عظم ضوء النور . وأحرق حراقة عظيمة لم يسمع بمثلها حتى جاءت اليهـــا الخلائق من كل مكان بسبب الفرجة . وبلغ كراء كل مركب أربعة أشرفية . واستمرت هذه الوقدة والحراقة ثلاثة أيام متوالية ، حتى عـد ذلك من النوادر التى لم يقع مثلها . واجتمع بالبركة نحو من أربعمائة مركب موسوقة بالخلائق ، وصار ابن رحاب عمالا ، ومغانى البلد من نساء ورجال فى كل ليلة . وأنفق فى تلك الليلة من الأموال ما لا يحصى ، حتى قيل ابتاع من عصفور الجبان على المتفرجين بنحــو من مائة وعشرين دينــارا جبنا مقليا ، وكذلك ابن الزيبق الحلوانى ابتاع منـــه حلوى بمثل ذلك . وقد خرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد . وقد رسم السلطان للقــاضى كاتب السر ألا يبقى ممكنا فى هــذا المهم لأجل جمجمـــة بن عثمان لكونه كان حاضرا فى هـــذا المهم . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

طابت عــلى بركة الرطــلى ليلتنا
حتى تباهت على الخلجان والبرك

حفت بضوء مصابيح زهت وغدت
تضىء فى حندس الديجور والحلك

فــكان لما تناهى حسن وقدتهـــا
تخفى شموس الضحى فى دارة الفلك

وقال شمس الدين القادرى :

تاه الأنام بجنح الليــل فاتخـــذوا
لهم دليــــلا لدى الظلما من اللهب

حتى كأن جــلابيب الدجى رغبت
عن لونهـــا وكأن الشمس لم تغب

وفيه عزم السلطان على الجمجمة بن عثمان ، وأضافه بقبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، وحضر ذلك الأمراء المقدمون . وكانت ضيافة حافلة جدا ، وخلع السلطان على الجمجمة كاملية بسمور

وفيه قرر الجمالى يوسف بن جاهين الكركى سبط ابن حجر فى قراءة الحديث الشريف بالقلعة عوضا عن برهان الدين بن الكركى الامام . وكان السلطان تغير خاطره على ابن الكركى واختفى مدة طويلة .

وفيه أحضر شخص من العرب بين يدى السلطان سنا من نواجذ بنى آدم ، من نسل العمالقة ، فكان وزنه ستة أرطال ونصفا ! فتعجب الســلطان من ذلك .

* * *

وفى رمضان ثارت رياح من جهة الغرب ، وكانت عاصفة جدا ، وأظلم بسببها الجو وأرعد وأبرق ، ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان المطر فى غير أوانه فى أواخر بابه . ثم جاءت الأخبار من دمياط بأن هذا الريح كانت قوته بدمياط ، وقد قلع عدة أشجار ، وهدم بعض أماكن ، وأغرق عدة مراكب من مراكب الفرنج . وكان ريحا مهولا جدا .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن فى ليلة ثالث عشر الشهر المذكور ، سقطت صاعقة عظيمة فى أواخر الليل على المسجد الشريف النبوى ، فاحترقت منها المنارة التى تجاه الحجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، واحترقت سقوف المسجد جميعها والمنبر والحيطان والأعمدة والأبواب ، وما سلم من ذلك سوى القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبعض حيطان المقصورة . وقتل المؤذن الذى كان على المئذنة وقت نزول الصاعقة ، وقتل جماعة أيضا ممن كان بالحرم الشريف ، فكتب بذلك محضر ، وثبت على يد قضاة المدينة . وكان مما كتب فى المحضر أن المؤذن لما طلع على المئذنة الشرقية ، لأجل التسبيح ، رأى صاعقة عظيمة نزلت من السماء على المسجد الشريف النبوى ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فعملت فيه النار . فلما عاين المؤذن ذلك خرس ، ونزل من المئذنة ، فأقام ساعة ومات . وقد عاين الناس عدة أطيار بيض بأعناق طوال ، طائفة حول المسجد ، تمنع النار أن تحرق البيوت التى حول المسجد . وأن المسجد جميعه قد احترق حتى صار كالتنور . فلما سمع السلطان ذلك بكى وبكى من كان حوله . وتعجب الناس لهذه الواقعة كيف جرت فى هذا المكان الشريف ، فأخذ شيخنا شمس الدين القادرى يعتذر عن ذلك :

بطيبة سيئات الركب يذلها
رب العلا حسنات عندما زاروا
وعندما قبلن ضاهت لدى حرم ال
مختار من أكلت قربانه النار

واعتذر آخر :

لم يحترق حرم النبى لحادث
يخشى عليه ولا دهاه العار
لكنما أيدى الروافض لامست
ذاك الجناب فطهرته النار

واعتذر آخر :

قالوا لقد غاب الصواب لحادث
تبنى عليه رضاهم الكفار
بل ضم شمل السحت وهو محرم
عند الرسول فحرقته النار

ثم ان السلطان شرع فى تجديد المسجد الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فعين الخواجا شمس الدين محمد بن الزمن بأن يتوجه الى المدينة الشريفة ، وأرسل معه عدة من البنائين والنجارين والمرخمين ، وغير ذلك . وأمر بهدم القبة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام واعادتها وتجديدها ، وتجديد غيرها من الحديد المخرم ، وكانت قبل ذلك من الخشب ، وتغيير المنبر والموادن التى كانت بالحرم . ثم توجه ابن الزمن الى هناك وشرع فى البناء حتى انتهى منه العمل ، فى أواخر سنة سبع وثمانين وثمانمائة . فجاء غاية فى الحسن من أجلّ الأبنية ، وأعظمها ، حتى قيل ان السلطان صرف على بنائه نحوا من مائة ألف دينار ، وجدد معالمه ، وتناهى فى زخرفته الى الغاية .

ووقع مثل هذه الحادثة فى حرق المسجد الشريف على صاحبه أفضل الصلاة والسلام سنة احدى وخمسين وستمائة ؛ فى أواخر دولة أيبك التركمانى .

وفيه وصل قاصد من عند يعقوب بن حسن الطويل ؛ وعلى يديه مكاتبة من عند يعقوب ، وهو يعتذر فيها مما وقع من بابندر ، وأن ذلك لم يكن بعلمه . فعتب السلطان على القاصد بسبب ما وقع من بابندر ؛ وسرعة قتله للأمير يشبك . ثم أضاف القاصد وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى فى رأس دور الحسينية ، فكشف عليها ورسم للأمير تغرى بردى الاستادار بأن يكمل عمارتها ؛ فان الأمير يشبك مات ولم يتم عمارتها . فلما رجع السلطان شق من القاهرة ، فقام اليه الناس قاطبة ، وضجوا له بسبب الفلوس الجدد وغلو البضائع . فلما طلع الى القلعة ، رسم بعقد مجلس بالمدرسة الصالحية . فاجتمع القضاة الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص العلائى ابن الصابونى والمحتسب ، ثم أخذوا يتكلمون فى أمر الفلوس . وكان ناظر الخاص ضرب فلوسا جددا عليها اسم السلطان ، وقصد أن يخرجها بأغلى من الفلوس العتق . فلما تكلموا فى أمر الفلوس العتق ، أخذ ناظر الخاص يعارض فى ذلك لأجل غرضه . فلما سمع العوام بذلك ثاروا عليه فى وسط المدرسة الصالحية ورجموه ، ولولا كاتب السر لقتلوه ... فلما طال المجلس فى ذلك اتفق الحال على أن تكون الفلوس كلها — العتق والجدد — بالميزان بستة وثلاثين الرطل . فنادوا فى القاهرة بذلك ، فسكن الأمر قليلا .

* * *

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، ورسم السلطان للجام بن عثمان بأن يلبس الشاش والقماش ويطلع ويصلى مع السلطان صلاة العيد ، فطلع وصلى وحضر الموكب ، وخلع عليه السلطان متمرا وفوقانى بطرز عريض ، ونزل مع الأمراء المقدمين وهو بالشاش والقماش .

وفيه خلع السلطان على بيبرس الرجبى قريبه ، وقرره فى شادية الشراب خاناه ، عوضا عن ألماس ، بحكم انتقاله الى نيابة صفد .

وفيه خلع السلطان على قريبه تمراز التمشى ، وقرره فى امرية سلاح . وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين قتل الأمير يشبك الدوادار .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير المحمل يشبك بن حيدر والى القاهرة ، وأمير الركب الأول الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص . وسافر صحبته الجام بن عثمان هو وأمه وعياله . وقد هيأ له السلطان بركا عظيما صرف عليه جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الأمير أزبك الى غزة ، وصحبته النواب والأمراء الذين كانوا أسروا عند بابندر ، فأرسل السلطان هجانا للأتابكى أزبك بأن يقبض على قانصوه اليحياوى ، الذى كان نائب الشام وأسر عند بابندر ، ويرسله الى القدس بطالا ، وأن بقية الأمراء والنواب يحضرون الى القاهرة . وكان قد بلغ السلطان بأن قانصوه اليحياوى كان سببا لكسرة العسكر وقتل يشبك . فعمل له ذنب كبير بسبب ذلك . فكان كما قيل :

له ألف ذنب لا تعد بواحد

ولى فرد ذنب لا يعادله ألف

وفيه كان وصول الأتابكى أزبك الى القاهرة ، فدخل فى موكب حافل ، وصحبته أزدمر نائب حلب الذى كان أسر عند بابندر ، وكذلك برسباى قرا

حاجب الحجاب ، وتانى بك قرا أحد المقدمين — وكانوا أسروا أيضا — فكان لدخولهم يوم مشهود وأحضر الأتابكى أزبك مثقال البرهانى الذى كان مقدم المماليك ونفى الى القدس بطالا . فلما حضر من غير اذن السلطان شق عليه ذلك ، وأمر بنفيه الى مكة المشرفة ، فلحق بالحجاج .

ثم أن الأتابكى أزبك شفع فيه ، وباس رجل السلطان مرارا ، فرسم بعوده الى القاهرة بطالا ، فعاد من أثناء الطريق .

* * *

وفى ذى القعدة خلع السلطان على قريبه أزدمر الذى كان نائب حلب ، وقرره فى امرية مجلس ، وكانت شاغرة من حين عفى منها لاجين الظاهرى فقرر بها أزدمر بغير اقطاع ، فكان له فى كل شهر ألف وخمسمائة دينار مرتبة على الذخيرة . ثم خلع على برسباى قرا ، وقرره فى الرأس نوبة الكبرى عوضا عن تمراز التمشى ، بحكم انتقاله الى امرية سلاح . وخلع على تغرى بردى ططر ، وقرره فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن برسباى قرا بحكم انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى . وخلع على قانصوه الغورى ، وقرره فى كشف الوجه القبلى .

* * *

وفى ذى الحجة قرر سيباى نائب غزة فى حجوبية الحجاب بدمشق ، عوضا عن يشبك العلائى ، بحكم انتقاله الى نيابة حماه ، عوضا عن جانم الجداوى ، بحكم انتقاله الى أتابكية دمشق ، عوضا عن شادبك الجلبانى . وقرر سودون الطويل الاينالى فى تقدمة ألف بدمشق ، وقرر فى نيابة غزة دولات باى الأجرود الاينالى ، عوضا عن سيباى ، الذى قرر فى حجوبية دمشق .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وكشف عن الجامع الذى أنشأه هناك .

وفيه توفى طوخ الذى كان زردكاش ، ونفى الى دمياط ، ثم شفع فيه وعاد الى مصر بطالا ، فمات بها . وكان أصله من مماليك المؤيد شيخ ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى شيخ عربان الشرقية محمد بن عجلان ابن بقر ، وكان لابأس به ، وجرت عليه شدائد كثيرة ومحن ، وكان قد شاخ وكبر سنه وتوفى أبرك الظاهرى أحد العشراوات . وتوفى جاهين التاجى دوادار جانم نائب الشام وكان لا بأس به . وتوفى فى أواخر السنة المذكورة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة .

سنة سبع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، جاءت الأخبار بموت جكم قرا العلائى الظاهرى ، نائب ثغر الاسكندرية ، وكان لا بأس به .

وفيه قدم الحاج الى القاهرة ، وحضر الجمجمة ابن عثمان صحبة الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ، ناظر الخاص أمير ركب الأول ، فأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة .

وفيه أفرج السلطان عن أمير ركب محمل العراق ، والقاضى الذى كان معه ، وكانا بالبرج الذى بالقلعة من أيام حسن الطويل ، وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه قلق جمجمة من اقامته بمصر ، وطلب التوجه الى بلاده ليحارب أخاه ، فجمع السلطان الأمراء واستشارهم فى ذلك ، ثم أحضر الجمجمة وتكلم مع الأمراء بكلام كثير ، فأغلظ عليه الأتابكى أزبك فى القول ، وهو لا ينتهى عن السفر الى بلاده . فطال الكلام بينه وبين الأمراء فى ذلك ثم انفض المجلس وقد أذن له السلطان بالسفر الى بلاده على كره منه . وكان ذلك عين الخطأ ،

وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها ، وسنذكر ذلك فى موضعه .

* * *

وفى صفر خلع السلطان على شخص من الأراذل يقال له محمد بن العظمة ، وكان صنعته فراء ، ثم سعى له عند السلطان وسائط السوء بأن يفرره فى نظر الأوقاف ، فخلع عليه بذلك . فلما استقر فى الوظيفة حصل على الناس منه غاية الضرر الشامل ، والتزم بمال يورده فى كل شهر له صورة . فصار يرسل خلف الناس من رجال ونساء ويرسم عليهم بسبب الأوقاف ، ويحاسبهم على الماضى والمستقبل ، ويأخذ منهم جملة مال ، وصار بابه أنحس من باب الوالى ، والتف عليه جماعة من المناحيس ، وصاروا يفرعون له الأذى تفريعا وكان ذلك فى صحيفة قايتباى ، رحمه الله ، الذى قرب مثل هذا وسلطه على الناس ، فكان كما قيل :

لبابك بواب عن الخير مانع
يضم لقبح الوجه سوء خطابه
فساويت فيه من غدا يمنع القرى
ومن يربط الكلب العقور ببابه

وكان يورد هذه الأموال للسلطان ، لايدرى آمن حلال هى أم من حرام ، كما قيل فى العنب :

قيل للصب فيه خمر حرام
فتمنى حرامه وحلاله

وفيه توفى جانى بك كوهية الاسماعيلى المؤيدى الذى تقدم ذكره ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على موفق الدين بن الحمصى الأسلمى ، وقرره فى نظارة الدولة ، وكان فى خدمة الصاحب خشقدم ، وهى أول شهرته .

وفيه توفى آقبردى تمساح بن اسباى الأشرفى أحد العشراوات ورءوس النوب ، وكان من مماليك الأشرف برسباى ، وسافر الحجاز أمير الركب الأول غير ما مرة ، وكان لا بأس به ، ومات فجأة ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر .

* * *

وفى ربيع الأول عقد الامير أقبردى على خوند آحت زوجة السلطان ، وهى بنت العلائى بن خاص بك ، التى كانت روجة الأمير جانم الجوالى قريب السلطان ، وكان يوم دخولها مهما حافلا .

وفيه ، فى أول يوم من بشنس ، قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وقد خالف العادة فى قلع الصوف بأيام ، ثم عمل المولد النبوى وضرب الكرة .

وفيه ضرب السلطان شخصا يقال له بلبان الكاشف ، فلما ضربه لم يعجبه ضرب رءوس النوب فنزل من فوق الدكة ، وتولى ضربه من عظم حنقه عليه .

* * *

وفى ربيع الآخر وقع بين قاضى القضاة زين الدين زكريا ، وبين الأمير دولات باى الحسنى شاد الشون ، فكانت حادثة عظيمة قام فيها القاضى الشافعى ، فما حصل له من ذلك طائل . وهذه الواقعة مشهورة بسبب وقف .

وفيه خلع السلطان على الأمير أزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر دولات باى الحسنى شاد الشون فى امرية الركب الأول .

وفيه كان ختان أولاد الملك المؤيد أحمد ابن الأشرف اينال بثغر الاسكندرية ، وكان حافلا ، فأرسل يطلب على بن رحاب المغنى بسبب الزفة .

وفيه خلع السلطان على الشيخ صلاح الدين الحنفى الطرابلسى ، وقرره فى مشيخة المدرسة

الاشرفية التى بجوار الورافين ، عوضا عن البرهان ابن الكركى بحكم اختفائه لما تغير خاطر السلطان عليه .

وفيه خلع السلطان على واحد من مماليكه يقال له « على باى » وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن جكم قرا بحكم وفاته . وكان على باى هذا كاشف السرقية يومئذ .

* * *

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار بقتل سيف أمير آل فضل ، الذى خرج الأمير يشبك الدوادار بسببه كما تقدم . قتله ابن عمه غسان فى بعض بلاد العراق .

وفيه خرج السلطان وسافر على الهجن ، ولم يعلم الى أين يتوجه ، وكثر الكلام فى حقه فى ذلك بسبب سفره . ثم ظهر بعد ذلك أنه سافر نحو جهات العباسة وغيرها ، ثم رجع بعد أيام .

وفيه جاءت الاخبار من مكة المشرفة بوفاة الأمير خاير بك بن حديد ، الذى كان احد المقدمين بمصر ، وتغير خاطر السلطان عليه ، كما تقدم ، فنفاه الى الشام ، فأقام بها مدة ثم نقله الى مكة المشرفة ، فمات بها . وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان دينا خيرا عارفا بأنواع الفروسية ، وله اشتغال بالعلم ، وحذق جيد ، وفصاحة بالعربية . مات وله من العمر زيادة عن الستين سنة ، وكان من جملة الأمراء المقدمين بمصر ، وهو صاحب المدرسة التى بزقاق حلب .

وفيه كانت وفاة شاعر العصر ورأس الأدباء على الاطلاق الشيخ شهاب الدين أحمد المنصورى ، وهو أحمد بن محمد بن خضر بن على السلمى المنصورى ، المعروف بالهائم ، القاهرى ... الحنبلى ، وكان له شعر جيد ، ونظم رقيق جدا ، وفيه يقول الناصرى محمد بن شادى خجا العنبرى :

أخبرتنا ملوك علم القوافى
في بديع المنظوم والمنثور
ما وجدنا خليفة فى المعانى
ملكا فى البيان كالمنصورى

وكان الشهاب هذا جميل الهيئة ، نير الوجه ، متعففا عن الناس . ولما بلغ خمسا وسبعين سنة من العمر قال :

بلغت من دنياى سنا به
وقعت فى السبعين والخمس
فالحمد لله الكريم الذى
متعنى بالسن والضرس

ولما بلغ الثمانين سنة من العمر قال :

نحو الثمانين من العمر قد
قطعتها مثل عقود الجمان
وما أحوجت يوما يمينى الى
عصا ولا سمعى الى ترجمان

ثم عرض له فى أواخر عمره فالج ، فلزم الفراش مدة طويلة ، وانقطع فى داره عن الحركة ، فأنشأ يقول :

آه يا درهمى ويادينارى
ضعت بين الطبيب والعطار
كنت آنسى فى وحدتى وشفائى
من سقامى وصحتى فى انكسار
كنت تقضى مما حلا من غداء
وعشاء ، منيتى أوطارى
قد حمانى الطبيب عن شهواتى
فاحم يارب قلبه بالنار
طال شوقى الى الفواكه والبط
ـيخ والجبن واللبا والخيار
ضاع لبى على مقاساة لب الـ
ـقرع والهندبا وبزر الثمار

كلما أجمع اختيارا حطاما

فرقته منى يد الاضطرار

ليت شعرى وللزمان خطوب

وبلاء يختص بالأحرار

هل لميت قضى عليه طبيب

من كفيل أو آخذ بالثار

واستمر بهذا الفالج الى أن مات ، وكان مولده سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان بالقلعة ، وقصدوا قتل مقدم المماليك ، حتى فر منهم واختفى وأحرقوا باب الزردخانة . وكانت فتنة كبيرة ، ثم سكن الحال قليلا .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجام لما خرج من مصر ، وتوجه الى بلاد ابن قرمان ، بعث اليه أخوه جماعة من عسكره فتحاربوا ، فانكسر وفر هاربا وندم على خروجه من مصر ، ولم يعلم أين يتوجه .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا.

وفيه هجم اللصوص على قيسارية جركس وقتلوا البواب ، وأخذوا من الدكاكين أشياء كثيرة ولم ينتطح فى ذلك شاتان .

وفيه أنعم السلطان على الناصرى محمد ابن الأتابكى أزبك بامرية عشرة ، وأرسل اليه تماتما فلف له تخفيفة .

وفيه توفيت خوند شقرا بنت الملك الناصر فرج ابن الظاهر برقوق ، زوجة الأتابكى جرباش كرت ، وكانت من مشاهير الخوندات ، فنزل السلطان وصلى عليها .

وفيه جاءت الأخبار بأن الجمجمة بن عثمان لما فر من عسكر أخيه ، نزل فى مركب فى البحر الملح فخرج عليه بعض الفرنج ، فى مراكب ، فأسروه ، وقد ذهب جميع ما كان معه من مال وقماش وغيره وكان خروجه من مصر عين الغلط .

وفيه هلك بترك النصارى اليعاقبة ، وكان عند أهل ملته مشكورا .

* * *

وفى شعبان صنع الأتابكى أزبك فى الأزبكية حراقة نفط ووقدة عظيمة ، وكانت ليلة مشهودة .

وفيه رسم السلطان بعمارة سور البيرة ، فجاء من أحسن البناء ، وأنفق عليه مالا له صورة .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن السلطان أنشأ هناك مدرسة ، وجعل لها شبابيك مطلة على الحرم الشريف النبوى ، فقامت على السلطان أسئلة بسبب ذلك ، وأفتى بعض العلماء بأن ذلك لايجوز فان حرمة النبى صلى الله عليه وسلم وهو ميت ، كحرمته وهو حى صلى الله عليه وسلم . وقد أجاز ذلك بعض علماء الجاه .

وفيه توفى الناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت ، وهو ابن خوند شقرا . فكان بينه وبين وفاة أمه نحو من شهر ، وقد مات فجأة ، وقيل وقع بينه وبين سرور مشد الحوش السلطانى ، وكان طواشى والدته قديما ، فحنق منه الناصرى محمد ، فتناول فصا من الماس وابتلعه فمات من ليلته . وكان رئيسا حشما لطيف الذات لا بأس به .

* * *

وفى رمضان توجه الصاحب خشقدم الى الوجه القبلى ، بسبب ضم المغل .

وفيه كان ختم قراءة صحيح البخارى ، وفرقت الصرر والخلع على القضاة والعلماء ، وكان ختما حافلا .

وفيه خسف جرم القمر ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة .

وفيه توفى قاضى المحلة أوحد الدين بن العجمى وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه رسم السلطان بنفى دولات باى بن مصطفى ، نائب غزة ، فنفى الى مكة المشرفة .

* * *

وفى شوال ظهر قاسم شغيتة ، الذى كان وزيرا وكان له مدة وهو مختف . فلما ظهر خلع عليه السلطان كاملية حافلة ، وقرره فى نظر الدولة ، عوضا عن موفق الدين بن الحمصى الأسلمى .

وفيه حضر الصاحب خشقدم من السفر ، فلما حضر رسم السلطان عليه لعمل الحساب .

وفيه ولد للسلطان ولد ذكر من سريته أصل باى الجركسية ، سماه محمدا ، وهو الذى تسلطن بعده .

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل أزبك اليوسفى ، أحد المقدمين . وبالركب الأول دولات باى الحسنى شاد السون

* * *

وفى ذى القعدة رسم السلطان للقضاة والشهود ألا يعقدوا لمملوك من مماليكه ، حتى يأخذوا له اذنا من أغاته . وفى هذه الأيام تزايد شر جماعة من المماليك الجلبان ، وصاروا يأخذون أشياء الناس بالأس ، من دكاكين التجار وغيرهم ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل .

وفيه توفى محب الدين كلب العجم ، واسمه عبد الرحمن بن حسن بن الأمين الحلبى الحنفى ، توفى بالبيمارستان . وكان فاضلا شاعرا ماهرا ، وله خط جيد ، وكان عشير الناس ، ذكيه المحاضرة ، وكان من أخصاء الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، لكنه كان مسرفا على نفسه ، يميل الى محبة الأحداث ، وله فيهم أشعار كثيرة ، وكان جاهلا محترما .

وفيه توفى الفتح محمد المنصورى ، أحد المباشرين ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه قدم الأمير تمراز التمشى من البحيرة ، وكان مسافرا بها ، فخلع عليه السلطان ، ونزل الى داره .

* * *

وفى ذى الحجة كانت الأضحية غالية ، ولا توجد الا قليلا ، فحصل للناس غاية القلق بسبب ذلك .

وفيه قبض السلطان على شخص يقال له الشريف الأكفافى زعموا أنه قد قتل قتيلا وهو زوجته ، فضرب بين يدى السلطان ، فلم يقر بشىء فرسم بسجنه فسجن مدة طويلة . ثم آل أمره الى أن صالح الورثة بمال ، وأطلق بعد ما قاسى شدائد ومحنا .

وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وقد ثبت الشهر بالأربعاء فى اليوم التاسع من ذى الحجة ، فحنق السلطان من القاضى زكريا ، وأشيع عزله . وقد كان الناس صوم يوم عرفة ، والتكبير فى صبيحته ، وانطلقت ألسنة العامة على القاضى زكريا وسبوه جهرا .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وأخبر أنه وقع بمكة المشرفة سيل عظيم ، حتى دخل الحرم ، وعام منه المنبر ، ووصل الى قريب عتبة البيت الشريف ، وحصل بالغرق بسببه نحو من سبعين انسانا ، وهدم عدة دور ، وكان أمرا مهولا . وأخبر المبشر بوفاة بدر الدين الدميرى المعروف بكتكوت ، أحد نواب الشافعية ، مات بالأزلم من طريق الحجاز ، وهو محمد بن يوسف بن على بن محمد بن أحمد بن سلطان الدميرى الشافعى . وكان فاضلا عارفا بصنعة التوقيع ، وكان موقع الدست ، وأحد نواب الحكم ، وكان فكه المحاضرة ، كثير العشرة للناس ،

طلق اللسان فى حق الناس . وكانت الشعراء تهجوه كثيرا ، فمن ذلك قول بعضهم :

قد عيل صبرى من خطب آلمّ به
عقلى وطرفى مذهول ومبهوت
فان غدا الديك سلطانا فلا عجب
فقد غدا قاضيا فى الناس كتكوت

وفيه يقول الأديب على بن برد بك :

ان الدميرى صديقى فلا
أسمع فيه قول واش ولاح
ولا أرى كالغير تقبيحه
بل هو عندى من ملاح الملاح

والنكتة هنا أن الكتاكيت ينادى عليها : ياملاح الملاح

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب أن أبا عبد الله بن حسن بن على بن أبى سعد بن الأحمر قد ثار على ابنه الغالب بالله ، صاحب غرناطة ، وملكها من ابنه ، وجرت بينهما أمور بطول شرحها ، وآل الأمر بعد ذلك الى خروج الأندلس عن المسلمين ، وملكها الفرنج والأمر لله فى ذلك .

وفيه توفى طرنطاى المحمودى أحد الأمراء العشراوات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان جلب هو والسلطان قايتباى فى سنة واحدة . وتوفى يونس الكاتب المجيد ، وكان أكتع ، ويكتب بيده اليسرى خطا جيدا . وتوفى أواخر السنة المذكورة جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم خوف الاطالة :

سنة ثمان وثمانين وثمانمائة (١٤٨٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، خلع السلطان على محمد بن عبد الرحمن ، وقرره فى نيابة جدة ، عوضا عن أبى الفتح المنوفى بحكم صرفه عنها .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى سنيت ، بسبب الكشف على الجسور ، ثم زار سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه ورضى عنه .

وفيه كان الغلاء بمصر قليلا والأسعار مرتفعة فى سائر البضائع والغلال .

وفيه توفى الشيخ علاء الدين الحصنى الشافعى وكان عالما فاضلا رئيسا حشما متواضعا .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة ، وقاسى مشقة زائدة ، ولم تحمد سيرة أمير الركب بالمحمل آزبك اليوسفى .

* * *

وفى صفر وقع بين كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر الذى توفى فى انبابة فيما بعد - وكان يومئذ أحد الدوادارية — وبين ناظر الجيش كمال الدين بعض تشاجر ، فلكمه كرتباى الأحمر ، فأطاح عمامته عن رأسه بالحوش فى وسط الناس ، وراحت فى كبسه .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن منجك ، وكانت وفاته بدمشق ، وكان رئيسا حشما من الأعيان .

وفيه توفى الشيخ أبو حامد المقدسى ، وهو محمد بن خليل المقدسى الشافعى ، وكان من أهل العلم والفضل ، وله عدة مصنفات ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة ، لكنه كان سبهللا ، بليد الذهن قليل الفهم . ومما وقع له أن الزينى أبا الفتح ابن النحاس الشاعر ، داعبه بهذين البيتين ، وكتبهما اليه فى ورقة ، ودفعهما له فى مجلس القاضى كاتب السر ابن مزهر . فلما قرأهما استحسنهما ، ولم يفهم ما فيهما من الدسيسة عليه ، فكتبهما بخطه فى بعض مصنفاته ، وأوردهما لابن النحاس وهما :

أبا حامد أنت الذى شاع ذكره
بكثرة تأليف وجمع به انفرد

فأنت الذى ما مثل حفظك فى الورى
وأنت الذى ما مثل ذهنك فى البلد

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانم الجداوى ، نائب حماه ، وآتابك دمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع عن متقال الساقى الطواشى الظاهرى رأس نوبة السقاة ، بأنه بضرب فى بينه الزغل ، فأرسل السلطان من كبس داره وقبض عليه .

***

وفى ربيع الأول رسم السلطان بعمل حساب قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزى ، بدار الأمير برسباى قرا رأس نوبة ، وقاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه .

وفيه تار بالناس فى فصل الربيع دموية وأمراض حادة ، ومات بذلك جماعة كثيرة ، حتى أطلق عليه الفصل الصغير . ومات به من أعيان الناس سيدى فرج ابن تنم نائب الشام ، وكان شابا جميل الوجه لم يلتح بعد فتأسف الناس عليه قاطبة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة ، وكان السلطان شرع فى عمل خيمة كبيرة مدورة برسم المولد الشريف ، فنصبها فى ذلك اليوم بالحوش .

وفيه توفى القاضى نجم الدين يحيى بن حجى ، وهو يحيى بن محمد بن أحمد بن حجى بن موسى ابن أحمد الحسبانى الدمشقى ، ثم القاهرى الشافعى . وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، وعد من العلماء ، وكان كريما سخيا ، وولى نظارة الجيش بمصر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر والشام ، فلما مات وجد عنده زيادة عن ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفسة .

وفيه ، فى آخر يوم من برمودة ، قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وقد عجل بلبس البياض قبل أوانه بعشرة أيام .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف ، بأن قانصوه اليحياوى الذى كان نائب الشام ، ونفى الى هناك بطالا ، قد أجرى عين ماء بالقدس ، وكانت معطلة مدة طويلة ، فصرف عليها مالا له صورة من ماله ، وحصل بها غاية النفع .

***

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على أزدمر تمساح ، أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرية الحاج فى ركب المحمل ، وقرر أزدمر الأشقر أحد العشراوات فى امرية الركب الأول .

وفيه قرر شادبك المحمدى الظاهرى ، أحد العشراوات ، فى نيابة دمياط

وفيه توفى أبو الفداء الواعظ النائر المادح ، وكان من أعيان دواخل مصر فى حسن الصوت وجودة الغناء ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة كبيرة بين مماليك أقبردى الدوادار ، وبين مماليك ازدمر نائب حلب ، ووقع بينهم فتنة بالرميلة ، حتى شهروا السلاح على بعضهم ، فثار جماعة من مماليك السلطان ، مع مماليك أقبردى الدوادار ، فكادت أن تكون فتنة عظيمة بين الأمراء . ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه توفى الشيخ الصالح سيدى أبو الفضل ، من أولاد سيدى على وفا . وكان حصل له انجذاب واستمر به الى أن مات ، وكان من بيت كبير الولاية .

وفيه زلزلت القاهرة بعد العشاء ، لكنها كانت خفيفة ولم تدم ، ولو دامت قدر درجة لحصل منها غاية الفساد .

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة ستة أذرع وأربع أصابع .

وفيه سافر الأمير أقبردى الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب ضبم المغل ، وكان صحبته أمير عربان هواره داود بن عمر . وكان قد أعاده السلطان الى امريته بالوجه القبلى ، وصرف محمد ابن يونس ولد عمه .

* * *

ومن الحوادث أنه فى جمادى الأولى فى يوم الثلاثاء عاشره ، ثار جماعة من المماليك الجلبان ، وتوجهوا الى دار برسباى قرا ، ونهبوا كل ما فيها وأحرقوها عن آخرها ، ونهبوا الربوع التى بجوارها ، وأحرقوها حتى نهبوا بسط المدرسة الأبوبكرية ، والفخرية ، حتى أخذوا القناديل التى بها ، وكانت مصيبة شنيعة ، وهذا أول فتك الجلبان بالقاهرة ، واستخفافهم بالسلطان . واستمرت الفتن من يومئذ تتزايد ، حتى كان منهم ماسنذكره فى موضعه .

وكان سبب كائنة برسباى قرا أن شخصا من المماليك الجلبان دخل الى سوق الشرب ، ليشترى ثوبا بعلبكيا من بعض التجار ، فتعترس المملوك على التاجر ، وضربه ضربا مبرحا ، وأخذ منه الثوب البعلبكى غصبا ، فشكا التاجر من باب برسباى قرا ، وكان يومئذ رأس نوبة النوب ، فطلب ذلك المملوك . فلما حضر ، قامت عليه البينة بما فعله فى سوق الشرب ، فأدبه وضربه بين يديه ، فلما بلغ خشداشينه ذلك ، ثاروا على برسباى قرا ، وفعلوا به ما فعلوا ، وراموا أن يحرقوا سوق الشرب ، حتى أخلوا منه التجار قاطبة ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة تعم البلد . ثم ان الأتابكى أزبك جرى بين المماليك الجلبان وبين برسباى قرا بالصلح ، وسكن الحال قليلا .

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن على دولات بن دلغادر ، قد أتى الى ملطية فى جمع كثير من العساكر ، وقد حاصر البلد أشد المحاصرة ، فانزعج السلطان لهذا الخبر .

وفيه توفى قانى باى الفلاح الأشرفى أحد العشراوات ، وأصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان بارعا فى فنون الرمح .

وتوفى مغلباى الفقيه أحد العشراوات ، وكان أصله من مماليك العزيز ، وكان له اشتغال بالعلم

وفيه عرض السلطان الجند ، وعين تجريدة الى حلب بسبب على دولات بن دلغادر ، وعين بها من العلماء أزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، والأمير تغرى بردى ططر حاجب الحجاب الثانى ، ومن الأمراء الطبلخانات قانى بك جنتمه رأس نوبة ثانى ، ومن الأمراء العشراوات تانى بك الاينالى الحاجب الثانى ، وسودون الصغير العلائى ، وبرد بك المحمدى الخازندار الثانى ، ومن الجند نحو من خمسمائة مملوك ، وأنفق عليهم فبلغت النفقة على الأمراء والجند زيادة عن سبعين ألف دينار .

وفيه حصر شمس الدين الحلبى تركة يحيى بن حجى ، فرأى بين كتبه كتاب الفصوص لابن عربى ، فقال : « هذا الكتاب ينبغى أن يحرق ، وأن ابن عربى كان كافرا أشد من كفر اليهود والنصارى وعبدة الأوثان » . فقال له بعض الحاضرين : « كيف تحرق كتاب الفصوص ، وفيه آيات من كتاب الله تعالى ؟ » . فقال : « ولو كان » . فمسكوا عليه ذلك ، وأرادوا تكفيره ، فبادر وترامى على كاتب السر ابن مزهر ، فقام معه ، وآل أمره الى أن عزروه ، وكشفوا رأسه ، ثم حكم باسلامه ، وحقن دمه ، وقد قامت عليه الدائرة بسبب ذلك وفيه يقول أبو النجا القمنى :

أقعـدت يا حلبيى	بالصفع فى قفـاكا
لما ادعيت جهــلا	حرق الفصوص ياكا[1]
وما خلصـت حتى	أقمت شاهــداكا

وفيـه توفى قانصوه المداقف المحمدى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان علامة فى الدقاف .

* * *

وفى رجب خرج الأمراء والعسكر الى التجريدة التى عينت الى على دولات بن دلغادر ، وكان آخر العهد بالأمير آزدمر أمير مجلس ، الذى كان نائب حلب ، فلم يدخل الى مصر بعد ذلك .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، أوفى ثانى عشر مسرى ، فلمـا أوفى توجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه توفى برد بك الطويل المحمـدى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان شـادا على أوقاف الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبـار من مكة المشرفة ، بوفاة محمد بن عبد الرحمن ، ناظر جدة ، وكان رئيسا حشما لطيف الذات عشيرا للناس . ولما مات دفن بمكة المشرفة أعزها الله تعالى .

* * *

وفى شعبان عرض السلطان المقصورة الجديدة التى صنعها للحجرة الشريفة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، فنصبها بالحوش فى أول الشهر المذكور ، وكان زنتهـا أربعمائة قنطار من الحديد ، فحملت الى المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام على سبعين جملا .

وفيـه توفى جـانم البهـلوان أحـد الأمراء العشراوات ، وكان أصـله من مماليك الظـاهر جقمـق ، وكان رأسا فى الصراع ، توفى بحلب .

ومات أيضا بحلب صنطباى العلائى الظاهرى أحد العشراوات ، وكان رأسا فى الرمى بالنشاب ، وكان من مماليك الظاهر جمقق .

* * *

وفى رمضان خسف جرم القمر خسـوفا تاما ، حتى أظلمت الدنيا ، ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة .

وفيه ، فى يوم ختم البخارى ، وقع بين الشيخ بدر الدين بن الغرس الحنفى ، وبين الشيخ صلاح الدين الطرابلسى تنافس ، حتى خرجا عن الحـد بسبب الجلوس ، فيمن يرتفع عن صاحبه ، وكان الصلاح الطرابلسى متعديا على ابن الغرس ، فما شكر على ذلك ، وكان مجلسا فاحشا لا خير فيه .

* * *

وفى شوال خرج من القاهرة المحمل ، فى تجمل زائد ، وكان يوما مشهودا . وخرج معهم شاد بك أحد الأميراخورية ، لـكنه كان ضخما ، ويلبس كما قصيرا ، وقد قرر على باشية الجند بمكة ومعه خمسون مملوكا ، وأرسل معه السلطان المقصورة الحديد التى صنعها للحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصـلاة والسـلام . ثم أرسل معه مصحفا كبيرا حمل على جمـل بمفرده ، كان من النوادر كتبه شاهين النورى ، ومات ولم يكمله ، فأكمله الشيخ خطاب بأمر السلطان ، وهو باق الى الآن فى الحجرة النبوية على صاحبها أفضل الصـلاة والسلام .

وفيه كان عرس الركنى عمر بن أبى البقاء ابن الجيعان ، وكان مهما حافلا .

* * *

وفى ذى القعدة خلع السلطان على أقباى كاشف الشرقية ، وقرر فى نيابة غزة ، عوضا عن دولات

(۱) ياكا ... فز

باى بن مصطفى ، الماضى خبره بما جرى عليه ، الى أن نفى الى مكة المشرفة .

وفيه أنعم السلطان على ستة أنفار من الخاصكية الظاهرية بامريات عشرة . منهم يشبك دجاج ، وأبو يزيد ، وبيبرس اليوسفى ، وملاج الأشقر ، وجانى باك البواب ، وقانم السواق ، وأنعم باقطاع جانم البهلوان المسافر فى التجريدة ، على سودون الصغير ، وقانصوه قرا ، وكسباى الشريفى ، وآخرين من جلبانه . وكان هذا اقطاع امرية عشرة ، وخرج بحكم وفاة جانم البهلوان .

* * *

وفى ذى الحجة قرر محمد بن السلاح فى التكلم على جهة الجيزة ، عوضا عن ابن الصعيدى .

وفيه كان عيد النحر يوم الجمعة ، وكانت الأضحية مشحوتة وغالية ، بسبب قلة الجالب ، من أذى المماليك الجلبان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضى الجماعة الغرناطى المالكى ، توفى بغرناطة ، وكان من أهل العلم والفضل .

وفى أواخر السنة المذكورة كثر الأذى من العبيد والزعر ، وكثر قتل القتلى حتى ان شخصا من البياطرة قتل بالجزيرة الوسطى ، ولا يعلم من قتله . ووجد شخص من المماليك الاينالية مقتولا بمنزله ولا يعلم من قتله . وقتل غير ذلك جماعة كثيرة .

سنة تسع وثمانين وثمانمائة (١٤٨٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، توفى الجمالى يوسف الحنبلى ابن الشهابى أحمد بن نصر الله بن أحمد البغدادى ، قاضى قضاة الحنابلة ، وكان رئيسا حشما ، تولى عدة مدارس الحنابلة ، منها المدرسة البرقوقية ، وكان شاهد ديوان الأمير تمراز التمشى أمير سلاح ، وكان لطف الذات ، عشير الناس ، لا بأس به .

وفيه أعيد أبو الفتح المنوفى الى نيابة جدة ، عوضا عن عبد الرحمن بحكم وفاته .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد المجذوب سيدى على القليوبى رحمه الله ورضى عنه . وكان له مكاشفات وكرامات خارقة .

وفيه قبض على شخص بالقرافة بتزيا بزى أهل الصلاح ، وله شعر فى رأسه ، فدخل الى مزار سيدى أبى العباس الحرا ، وسرق الستر من فوق ضريحه ، وقد فعل ذلك فى عدة مزارات ، وكان فى زى حسن لا يظن به سوء فلما اشتهر بذلك ضرب وشهر بالقاهرة .

وفيه توفى الشيخ ولى الدين أحمد ، شيخ الآثار النبوية وقاضى ثغر دمياط ، وكان دينا خيرا حسن السيرة لا بأس به .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد تأخر دخول المحمل الى رابع عشريه ، مما حصل لهم فى السنة المذكورة من المشقة الزائدة ، من موت الجمال ، والعطش .

وفيه عين السلطان تجريدة ثانية تقوية لمن تقدم من العسكر ، فعين تمراز التمشى أمير سلاح باش العسكر ، ومن المقدمين أزبك اليوسفى ، وعين من الجند نحوا من أربعمائة مملوك من المماليك السلطانية . وكان سبب تعيين هذه التجريدة ، أن السلطان قد بلغه أن ابن عثمان ملك الروم ، قد أمد على دولات بعساكر كثيرة . وهذا أول تحول ابن عثمان على بلاد السلطان . واستمرت الفتن بعد ذلك تتزايد ، الى أن كان ما سنذكره فى موضعه .

* * *

وفى صفر توفى الشيخ شهاب الدين الأبناسى ،

وهو احمد بن ابراهيم بن على بن احمد بن محمد الشافعى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا منقطعا الى الله تعالى .

وفيه توفى يحيى بن شاد بك المعروف بقاصد الحبشة ، أحد أجناد الحلقة ، وكان رئيسا حشما عارفا بلغة الحبشة ، فكه المحاضرة . ومولده بعد العشرة والثمانمائة .

وفيه توفى شيخ عربان جبل نابلس ، وهو حرب ابن أبى بكر بن محمد بن على بن عبد القادر ، مات وهو مسجون بالبرج فى القلعة ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وآل أمره الى أن مات مسجونا .

* * *

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار بأن العسكر الذى خرج من القاهرة ، قد تقاتل مع على دولات آخى سوار ، وقد كسر العسكر ، وقتل منهم جماعة كثيرة من الأمراء والجند ...فقتل الأمير قانى بك جشحة رأس نوبة ثانى ، أحد الأمراء الطبلخانات ، وقتل معه جماعة من أمراء حلب والشام . وكان قانى بك هذا أميرا انسانا حشما حسنا شجاعا بطلا . تولى من الوظائف شادية الشون ، ثم الحجوبية الثانية ، ثم رأس نوبة الثانية بقى أمير أربعين . وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان لا بأس به

وفيه رسم السلطان بعمل مولد للسيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ، ورسم للخليفة أن يحضر به والقضاة الأربعة وأعيان الناس . واجتمع هناك قراء البلد قاطبة ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وهو أول من أحدث هذا المولد ، بالمشهد الشريف ، وصار يقال له مولد الخليفة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالقلعة على العادة ، وكان حافلا .

وفيه توفى المسند رضى الدين الأوكالى ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن العز ، الشافعى القاهرى ، وكان عالما فاضلا محدثا مسند القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ عباس الفاسى نزيل القاهرة وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان علىّ الجمالى يوسف بن الزرازيرى كاشف البهنسا ، وقرره فى الوزارة ، عوضا عن خشقدم الطواشى ، بحكم صرفه عنها ، وقرر قاسم شغيته فى نظر الدولة .

وفيه كان تفرقة النفقة على الجند المعينين فى التجريدة بسبب على دولات ، ثم بعث النفقة الى الأمراء الذين تقدم ذكرهم . وكان تعين أقبردى الدوادار الى التجريدة . ثم بطل بعد ذلك فشق على العسكر بطلانه ، وكثر القيل والقال بسبب ذلك .

وفيه توفى أقبردى اليوسفى أحد العشراوات ، وكان أصله من مماليك الأشرف برسباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانصوه الغورى بامرية عشرة ، وعينه الى التجريدة ... وقانصوه هذا هو قانصوه سلطان مصر الآن .

وفيه توفى تانى بردى الشرف الاينالى ، وكان لا بأس به ، تأمر بحلب امرية عشرة .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى تاج الدين محمد بن الكردى الحنفى ، وكان عالما فاضلا لا بأس به .

وفيه توفى الخواجا الكارمى بدر الدين حسن ابن ابراهيم بن عليبة السكندرى ، أخو الخواجا عبد القادر تاجر السلطان ، وكان لا بأس به .

وفيـه كان خروج الأمير تمراز التمشى ، أمير سلاح ، وأزبك اليوسفى ، ومن عين معهمـا من الأمراء العشراوات والجنـد ، فكان لهـم يوم مشهود . وكان عدة الجنـد الذين خرجوا مع الأمراء نحوا من ألف مملوك .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية ، حتى ابتيعت البطة الدقيق بأربعة أنصـاف ، وكل أردب قمح بنصف دينار . وانحطت الأسعار فى سائر البضائع بعد تلك الغـلوة التى تقدمت . وكان قد اشـتد الأمر جدا وانفرج عن قريب .

وفيه توفى التاجر نور الدين بن مقلاج المصرى ، وكان فى سعة من المـال . وتوفى السيد الشريف شهاب الدين أحمد الأرسونى المالكى ، أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا مفتيا متواضعا علامة فى مذهبه . ومولده سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

* * *

وفى جمادى الآخرة توقف النيـل عن الزيادة ، وقلق الناس ، ثم تزايد ، واستمرت الزيادة عمـالة حتى كان الوفاء .

وفيه عزل الجمـالى يوسف بن الزرازيرى عن الوزارة ، وقرر بها قاسم شغيته على عادته .

وفيه خلع السلطان على القاضى شـهاب الدين أحمد الدرسالى ، وقرره فى قضاء الاسكندرية ، عوضا عن عفيف الدين بحكم صرفه عنها .

وفيه كثرت المرافعات فى قاضى القضاة الحنفى شمس الدين الغزى ، بسبب أوقاف الحنفيـة ، فرسم السلطان بأن يتوجه الى بيت برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وتحضر القضاة الثلاثة ، ويعقد مجلس بسبب أوقاف الحنفيـة . فلما حضر الى هناك حصـل له غاية البهدلة من الجباة وغيرهم .

وفيـه توفى جانى بك بن تمر باى ، ابن أخت السلطان ، وكان شابا صغير السن جميل الصورة لا بأس به ، ذا عقل وحشمة .

وفيه توفى سيدى محمد السـدار ، رحمه الله ورضى عنه ، وكان له كرامات ومكاشفات خارقة .

* * *

وفى رجب توفى العلامة شمس الدين الجوهرى وهو محمد بن عبد المنعم بن اسماعيل القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم ، عارفا بمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه . وله عدة مصنفات ، وتولى عدة تداريس ، وشـهرته تغنى عن مزيد التعريف به .

وفيه توفى نور الدين على السنهورى المالكى ، وهو الشيخ على بن عبد الله بن على الأزهرى ، وكان اماما فى مذهب المالكية ، وله شهرة طائلة ، وكان بارعا فى الفقه والعربية ، والقراءات السبع ، وغير ذلك من العلوم ، وألف الكتب النفيسـة فى العلوم الجليلة ، ومات وهو كفيف . وكان دينا خيرا صالحا مباركا ، ومولده سنة خمس عشرة وثمانمائة . وكان عنده اطراح نفس ، مع تواضـع وتقشف ، وقد كف فى آخر عمره فكان كما قيل :

كفيف بالافـادة لى كفيل
ضرير ما لـه فينـا ضريب
سليب الكبر ذو قلب سـليم
قـرين للتـقى منـا قـريب

وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد بن بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، وقرر فى قضاء الشافعية بدمشق ، عوضا عن الشهابى أحمد ابن فرفور بحكم صرفه عنها .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى ثانى

عشرى مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى أزبك ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه قبض السلطان على محمد بن العظمة ناظر الأوقاف ، وسلمه الى خشقدم الزمام ، وألزمه بمحاسبته .

* * *

وفى شعبان خلع السلطان على شرف الدين عبد الباسط بن البقرى ، وقرره فى نظر الأوقاف ، عوضا عن ابن العظمة ، بحكم صرفه عنها .

وفيه توفى جانى بك الشمسى ، نائب الكرك ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى القاضى ولى الدين بركات بن الجيعان ، وهو أبو البركات أحمد بن يحيى بن شاكر القاهرى الشافعى . وكان لا بأس به ، رئيسا حشما عارفا بأحوال المملكة . تولى نيابة كتابة السر ، وصار من أخصاء السلطان ، وترشح أمره لكتابة السر ، وهرعت الناس الى بابه ، ومات وهو شاب فى عشر الثلاثين . وكان جميل الهيئة حسن الوجه ، عاقلا بشوشا ، وله بر ومعروف وصدقات كثيرة ، وفيه يقول الشهاب المنصورى :

قال العواذل ما لمدحك قد غدا
يزداد فى الحركات والسكنات
فأجبتهم : لا تعجلوا وتأملوا
ما زاد الا وهـو فى بركات

فلما مات تأسف عليه السلطان ، وقال : « لو كان يفدى بمال لفديته » . وكان يتصرف فى أشغال السلطان كما ينبغى . ولما توفى القاضى بركات قرر أخاه صلاح الدين فى نيابة كتابة السر ، عوضا عن أخيه بحكم وفاته .

وفيه هبط النيل سريعا ، وقد ثبت على اثنتين وعشرين أصبعا من الذراع الثامن عشر ، فشرق أكثر البلاد ، وزاد سعر الغلال ، ولا سيما القمح ، وكان هذا سببا للغلوة التى وقعت فى السنة الآتية .

* * *

وفى رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن وردبش نائب حلب ، خرج فى جمع من العساكر ، وتقاتل مع على دولات أخى سوار ، وقد أمده ابن عثمان بجمع كثير من عساكره . فلما التقى العسكران ، وقع بينهما واقعة مهولة ، فانكسر العسكر الحلبى ، وقتل وردبش نائب حلب ، وجماعة كثيرة من العسكر الحلبى والمصرى . وكان وردبش شجاعا بطلا ، وأصله من مماليك الظاهر جقمق ، يعرف بوردبش بن محمود شاه . وتولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة سيس ، ثم نيابة قلعة الروم ، ولم يباشرها . ثم تولى نيابة البيرة ، ثم بقى أتابك العساكر بحلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ، ثم بقى نائب حلب ، واستمر بها الى أن قتل على يد على دولات باى . قيل انه ضرب عنقه بين يديه .
وقتل فى هذه المعركة جماعة كثيرة ، منهم ألماس نائب صفد ، وكان دينا خيرا ، عارفا بأنواع الفروسية ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها استادارية الصحبة ، وشادية الشرابخاناه ، ثم بقى نائب صفد ، واستمر بها حتى قتل . وكان شابا عاقلا حشما لا بأس به .

وقتل أيضا أزبردى الأشرفى ، أحد الأمراء العشراوات بحلب . وقتل تمراز حشيش بن حشاش الاينالى ، أحد الخاصكية . وقتل أيضا طرباى الأشقر الابراهيمى الاينالى أحد الأمراء بحلب . وتغرى بردى بن محمد بن قاسم أحد الأمراء العشراوات بحلب . وغير ذلك جماعة كثيرة من العسكر .

وتوفى طقطباى المحمدى الأشرفى نائب قلعة حلب ، وكان لا بأس به .

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن الأمير تمراز ، لما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ، ركب هو والأمير أزدمر أمير مجلس ، والعسكر المصرى ، وتوجهوا الى على دولات فتقاتلوا معه ، فانكسر على دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ، ونهبوا جميع بركهم ، وأخذوا صناجق ابن عثمان ، ودخلوا بها الى حلب ، وهى منكسة . وكانت هذه الحركة أول الفتن مع ابن عثمان ، واستمرت من يومئذ عمالة مع سلطان مصر ومعه ، حتى كان من أمرهما ما سنذكره . وكان أصل هذه الفتنة تعصب ابن عثمان لعلى دولات ، وكان ابن عثمان متحملا على سلطان مصر فى الباطن ، بسبب أشياء لم تظهر للناس .

وفيه رسم السلطان بنقل قانصوه الخفيف الاينالى ، من دمياط ، الى مكة المشرفة ، وقد بلغه عنه مايوجب تغير خاطره عليه .

وفيه زاد النيل زيادة مفرطة فى غير أوانها ، بعد انهباطه ، وقد شرق غالب البلاد فدخل الماء الى الخليج ، بعد ما كان قد نشف ، فتعجب الناس من ذلك ، ولكن لم تفد هذه الزيادة شيئا فى رى البلاد التى شرقت قبل ذلك .

* * *

وفى شوال خرج الحاج من القاهرة ، وأمير المحمل كان الأمير أزدمر تمساح أحد المقدمين . وبالركب الأول برسباى العلائى أحد العشراوات ، وحج صحبته سيدى منصور ابن الظاهر خشقدم . وكان برسباى العلائى زوج أم سيدى منصور . وحج فى السنة المذكورة أبو البقاء بن الجيعان ، وصحبته جان بلاط ، وماماى الخاصكيان . وقد توجه بسبب ما رتبه السلطان فى المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، من أمر تفرقة الدشيشة التى رتبها هناك . وحج فى هذه السنة المذكورة عالم سمرقند الشيخ أبو بكر الليثى ، وولده العلامة ، وكانا قدما من سمرقند لأجل الحج . وحج فى السنة المذكورة الشيخ عبد اللطيف شيخ ركب المغاربة ، وكان قدم صحبة الركب من تونس يروم الحج ، وكان بالركب نحو من ألف وخمسمائة انسان من المغاربة يقصدون الحج .

وفيه رسم السلطان بنفى مثقال الطواشى ، رأس نوبة السقاة ، فخرج صحبة الحاج منفيا الى مكة المشرفة ، وقد بلغ السلطان عنه أنه يضرب دراهم مغشوشة ، فقبض عليه ، وعلى شخص من مماليك الأتابكى أزبك ، يقال له تمربغا . فوجدوا فى بيت مثقال آلة الضرب التى يصنعون بها الدراهم الزغل ، فرام السلطان قطع أيديهما ، فشفع فيهما من القطع ، فنفى مثقال الساقى ، وسجن تمربغا على مال ، حتى مات فى السجن .

وفيه مات على بن قمتى رأس نوبة النقباء ، وكان من كبار الظلمة ، مات تحت العقوبة . وكان من أعيان الناس ، خدم جان بك نائب جدة لما كان دوادارا كبيرا ، وخدم السلطان قايتباى لما كان رأس نوبة النوب ، وخدم يشبك الدوادار ، ثم تكلم فى بعض جهات السلطان ، فوقف عليه مال ، واستمر تحت العقوبة حتى مات ، وكان من الأشرار .

وفيه توفى سودون الصغير العلائى الظاهرى ، أحد الأمراء الطبلخانات توفى بحلب . وكان يعرف بسودون الخازندار ، وكان لا بأس به .

وفيه ضرب السلطان محمد بن العظمة ، ناظر الأوقاف ، بالمقارع فى وسط الحوش ، وكتب عليه قسامة ألا يعود قط يسعى فى نظر الأوقاف ،

ومتى سعى فيه يكون دمه هدرا ، ثم سجن بالمقشرة وكتب من هذه القسامة أربع نسخ ، وبعث الى كل قاص سحة منها .

وفيه توفى قرقماس بن بحشباى البواب ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان موته فجأة . وكان من خواص السلطان .

وفيه توفى أزبك أبو زيد الانالى أحد أمراء حماه ، وكان لا بأس به

وفيه توفى المسند الشريف أبو السعود محمد العلوى الهاشمى الشافعى وكان من الفضلاء بارعا فى الحدث .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بأن على دولات ، قد أطلق اينال السلحدار نائب طرابلس ، وكان عنده مأسورا .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى أزدمر أمير مجلس ، ورسم له بعوده الى نيابة حلب ، كما كان اولا ، عوضا عن وردبش بحكم قتله عند على دولات .

وفيه خلع السلطان على مملوكه اينال الخسيف ، الذى كان آتابك العساكر بحلب ، ورسم له بأن يكون نائب صفد . وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه ، فنفاه الى البلاد الشامية ، فأقام بها مدة ثم رضى عليه وولاه نيابة صفد بعد نيابة سيس ، وآتابكية حلب ، ثم ولاه فيما بعد نيابة حماه .

وفيه اقترن المشترى وزحل ببرج العقرب ، وذكر أرباب علم الفلك أن هذا القران لم يقع من منذ مائتين وستين سنة ، وأن ذلك يدل على وقوع فتن عظيمة ، وكان الأمر كذلك كما سيأتى الكلام عليه فى محله .

وفيه حضر قاصد من عند ملك الهند ، فأكرمه السلطان ، وخلع عليه .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا من الجند يقال له جرباش المجنون ، وكان غاية فى الرمى بالنشاب ، وقف للسلطان فى طلب اقطاع عن شخص توفى ، فلم يجبه السلطان الى ذلك ، فلما نزل الى داره ذبح نفسه بيده من حنقه من السلطان ، فراحت روحه ولم يرث له أحد .

وفيه توفى الزينى عبد الباسط ابن علم الدين شاكر بن الجيعان . وكان رئيسا حشما متحدثا على مباشرات عديدة من مدارس وجوامع وأوقاف ، وكان دينا خيرا عفيفا عن الرشوة صلبا فى أموره ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه عز وجود القطن جدا حتى بلغ سعر كل قنطار ألفين وأربعمائة درهم ، ولا يوجد .

وفيه خلع السلطان على قريبه بيبرس الرجبى ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن اينال السلحدار ، بحكم أسره عند على دولات .

* * *

وفى ذى الحجة ارتفع سعر البرسيم حتى بلغ سعر كل فدان عشرة أشرفية .

وفيه عز وجود الضحايا من الغنم والبقر بواسطة أذى المماليك الجلبان .

وفى يوم عيد النحر أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأرض ، وحصل للناس مشقة فى مرورهم فى الشوارع الى صلاة العيد .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان أسر عند على دولات ، وقد قطع أصابع جماعة منهم من عند الابهام وأطلقهم .

وفيه جمع السلطان الأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان بسبب ما وقع منه فى تعصبه لعلى

دولات ، فأشار السلطان هو والأتابكى أزبك وغيره من الأمراء ، بأن السلطان يرسل هدية على يد قاصده ، وتزول هذه الوحشة من بينهما . فانصاع السلطان لهذا الكلام ، وعين فى ذلك المجلس الأمير جانى بك حبيب ، أمير آخور ثانى ، وكان حلو اللسان سيوسا دريا وقد تقدم أنه توجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، وتلطف به فى الكلام ، حتى أطلق من كان عنده من الأمراء والنواب والجند ، كما تقدم .

وفيه خرج بيبرس الرحبى ، الذى قرر فى نيابة طرابلس ، وكان له يوم مشهود .

وفيه توفى ناظر جيش غزة ابراهيم بن عبد الرحمن ، وكان رئيسا حشما لا بأس به . وتوفى الشيخ المعتقد أحمد السبوعى ، وكان من أعيان الصوفية ، وله اختصاص بالأتابكى أزبك .

وفيه وصل مبشر الحاج ، وهو شخص من الخاصكية يقال له قايتباى ، من مماليك السلطان ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن القاضى كمال الدين ناظر الجيش اختار المجاورة بمكة المشرفة ، وكان حج فى السنة المذكورة . وحضر صحبة المبشر دولات باى بن مصطفى ، الذى كان نائب غزة ونفاه السلطان الى مكة المشرفة ، فبعث بحضوره ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق ، فتوجه اليها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب قونية من بلاد ابن قرمان ، وهو عبد الله أخو الجمجمة بن عثمان ، تولى على قونيـة بعد أخيه جمجمة ، وكان حسن السيرة لا بأس به .

***

سنة تسعين وثمانمائة (١٤٨٥ م) :

فيها ، فى المحرم ، كانت وفاة قاضى القضاة محب الدين ابن الشحنة الحنفى ، وهو محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن غازى الثقفى ثم الحلبى . كان عالما فاضلا بارعا فى مذهب أبى حنيفة . وكان ناظما ناثرا رئيسا حشما ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى عدة وظائف سنية منها كتابة سر مصر ، ونظر جيشها ، وتولى قضاء قضاة الحنفية عدة مرار ، ثم ولى مشيخة الخانقاه الشيخونية ، ومات وهو شيخ بها ، وجرى عليه شدائد ومحن شتى ، واعتراه فى آخر عمره مرض الفالج ، واستمر به الى أن مات وقد ذهل فى عقله وكان مولده سنة أربع وثمانمائة ، ومات وقد قارب التسعين سنة من العمر ، وكان من أعيان الناس ، ورؤساء مصر ، وله عدة تآليف جليلة . ومن شعره قوله :

قلت له لما وفى موعدى
ان سلوى عن هواكم نفاق
وجاد بالوصل على وجهه
حتى سما كل حبيب وفاق

فلما مات تولى ابنه الشيخ سرى الدين عبد البر مشيخة الخانقاه الشيخونية ، عوضا عن أبيه

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وحضر أبو البقاء ابن الجيعان وجانبلاط وماماى ، وجماعة من أقارب السلطان كانوا فى الحجاز فى تلك السنة .

وفيه وصل قرقماس التنمى نائب طرسوس ، وكان ممن أسر عند على دولات .

وفيه توفى يشبك العلائى نائب حماه ، وكان لا بأس به ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها امرية عشرة بمصر ، وبقى من جملة رءوس النوب . ثم تولى نيابة الكرك ، ثم نيابة غزة ، ثم حجوبية الحجاب بدمشق ، ثم نيابة حماه ومات بها .

***

وفى صفر أرسل السلطان الى سيباى الطيورى صاحب دمشق ، وقرره فى نيابة حماه ، عوضا عن سبك العلائى بحكم وفاته ، وقـررا فى حجوبية دمشق بلباى ، أحد الدوادارية بدمشق ، وقرر فى الدوادارية جانى بك الطـويل أحـد ممالـيك السلطان .

وفيه كان توجه جانى بك حبيب ، أمير آخور ثانى ، الى ابن عثمان وقد تقدم القول فى ذلك ... فتوجه اليه من البحـر المالح من الاسـكندرية . وأرسل السـلطان صحبته تقليدا من الخليفة الى ابن عثمان ، بأن يكون مقـام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يديه من البـلاد الكفرية . وأرسل اليه أيضا الخليفة مطالعة تتضمن تخميد هـذه الفتنة التى قـد انتشت بينه وبين السلطان ، وفى المطالعة بعض ترفق له .

والذى استفاض بين الناس أن سبب هذه الفتنة الواقعة بينه وبين السلطان أن بعض ملوك الهنـد أرسل الى ابن عثمان هدية حافلة على يد بعض تجار الهند . فلما وصل الى جـدة احتاط عليها نائب جدة ، وأحضرها صحبته الى السلطان ، وكان من جملة تلك الهدية خنجر قبضته مرصعة بفصوص مثمنة . فطمع السلطان فى تلك الهدية ، وأخـذ الخنجر . فلما بلغ ابن عثمان ذلك حنق . وجاء فى عقب ذلك أن على دولات ترامى على ابن عثمان ، وشكا له من أفعال السلطان وما يصـدر منه ... فتعصب لعلى دولات وأمده بالعساكر ، واستمرت الفتنة تتسع حتى كان منها ما سنذكره فى موضعه . وقد طمع غالب ملوك الشرق فى عسـكر مصر ، بموجب ما وقع لهم مع سوار وبابندر ، وغير ذلك من ملوك الشرق . ثم ان السـلطان أرسـل الخنجر المذكور والهدية التى بعث بها ملك الهند ، وأرسل يعتذر الى ابن عثمان عن ذلك بعـد أن صـار ما صار ، فكان كما قيل :

جرى ما جرى جهرا لدى الناس وانبسط
وعـذر أتى سرا يؤكـد ما فـرط

ومن ظن أن يمحو جـلىّ جفـائه
خفىّ اعتـذار فهـو فى غاية الغلط

ثم ان جانى بك لبس خلعـة السفر ونزل فى موكب حافل ، وتوجـه الى ثغر الاسكندرية ، ونزل من هنـاك فى مراكب ، وتوجه الى بلاد ابن عثمان من البحر الملح .

وفيه قرر فى الأتابكية بحلب قرقماس التنمى ، عوضا عن اينال الخسيف ، بحكم انتقاله الى نيابة صفد . وقرر فى نيابة الكرك أمير زاده بن حسن الدوكارى ، عوضا عن جانى بك الطويل .

وفيه توفى خليفة سـيدى ابراهيم الدسوقى ، رحمه الله ورضى عنه ، وهو خير الدين أبو الكرم الشافعى وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الأول عرض السلطان العسكر وعين تجريدة الى على دولات ، وعين بها من الأمـراء برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وتانى بك الجمالى أحـد المقدمين ، ورسم لهم بأن يتقدموا جاليش العسكر الى أن يخرج الأتابكى أزبك . ثم أنفق على العسـكر الذى تعين للتجريدة فبلغت النفقة زيادة عن مائة ألف دينار .

وفيه توفى قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو بدر الدين محمد أبو السـعادات ابن محمد بن عبد الرحمن بن عمر الكنانى الشـافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا . تولى قضاء الشافعية بمصر فى دولة الظاهر خشقدم ، ولم تطل مدته بها ، وكان عنده خفة روح زائدة ، ورهج فى الأمور .

وفيه توفى عبد القادر الحمامى الجابى ، وكان رئيسا حشما سيوسا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد ، وكان حافلا ، ونصب فى ذلك اليوم الخيمة العظيمة التى أقامها على يديه ، وجاءت فى غاية الحسن والتزخرف . وحضر فى هذا المولد ملك التجار أحمد بن محمود ابن كاوان ، وكان جاء صحبة الحجاج من مكة المشرفة ، فعظم أمره بمصر جدا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف بوفاة الواعظ المحدث شهاب الدين أحمد العميرى المقدسى ، وكان عالما فاضلا علامة فى فن الوعظ ، دينا خيرا ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه توفى برسباى بن تمربغا الظاهرى المعروف بحشيش ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل مولد السيدة نفيسة رحمها الله ورضى عنها ، وحضره الخليفة والقضاة الأربعة ، وكان حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس الشريف بوفاة الشيخ سعد الله الهندى الحنفى امام المسجد الأقصى . وكان من أهل العلم والفضل ، عارفا بالقراءات السبع ، وكان أحد نوب النوب بدمشق .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة يشبك البجاسى ، الذى كان نائب حلب ، وعزل عنها ، مات بصفد ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، ولا سيما ما وقع مع النابلسى وكيل بيت المال . وكان رئيسا حشما تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة ملطية ، ونيابة حماه ، ونيابة طرابلس ، ونيابة حلب ، وصودر وسجن بدمشق ، ثم نقل الى صفد فمات بها .

وفيه رسم السلطان للقضاة والشهود « ألا يعقد أحد منهم نكاحا على جلب من مماليكه » ، فقلق المماليك من ذلك ، ثم توجهوا فيما بعد للزواج ، ولم يلتفتوا الى قول السلطان .

* * *

وفى ربيع الآخر وجد شخص من المماليك السلطانية ، يقال له فارس الزردكاش ، مقتولا بالصوة ، ولا يعلم من قتله ، وجد بعد صلاة الصبح .

وفيه خرج العسكر المعين الى على دولات ، وكان باش العسكر برسباى قرا رأس نوبة النوب ، وصحبته تانى بك الجمالى أحد المقدمين ، وعدة من الأمراء العشراوات . وقد خرج المقدمون من غير طلب .

وفيه قبض آقبردى الدوادار على جماعة من أولاد ابن عمر وسجنهم فى البرج الذى بالقلعة ، وقد أحضرهم صحبته لما توجه الى الوجه القبلى ، وقد تغير خاطر السلطان على بنى عمر .

* * *

وفى جمادى الأولى قرر فى امرية الحاج بالمحمل أزدمر المسرطن أحد المقدمين ، وبالأول برسباى اليوسفى أحد الأمراء الطبلخانات

وفيه قرر دولات باى الحسنى الظاهرى ، شاد الشون ، فى رأس النوبة الثانية عوضا عن قانى بك جشحة ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة مدة طويلة

وفيه توفى قراجا نائب جدة ، وكان أصله من مماليك جانى بك نائب جدة ، وكان لا بأس به .

وفيه وصل الى القاهرة اينال السلحدار الأشرفى الذى كان نائب طرابلس ، فأكرمه السلطان ، وخلع عليه ، وأقره فى شادية الشراب خاناه .

وفيه توفى الشيخ المعتقد نور الدين على من

أولاد سيدى يوسف العجمى ، رحمة الله عليه ، وكان لا بأس به

وفيه أخذ قاع النيل ، فجاءت القاعدة فى العام المذكور ثمانية أذرع وعشرين أصبعا ، فعد ذلك من النوادر .

وفيــه أعيــد القاضى شهاب الدين بن فرفور الدمشقى ، الى قضاء الشافعية بدمشق ، مضافا الى نظر الجيش ، وصرف عنها ابن المزلق .

وفيه هجم المنسر على النــاس ، وهم فى زيارة الامام الليث بن سعد رحمه الله ورضى عنه ، فأخذوا عمائم الزوار حتى أزر النســاء ، وعروا النساء فى الطريق بطولها ، حتى وصلوا الى باب القــرافة ، وكانت كائنة عظيمة .

* * *

وفى جــادى الآخرة ، ضرب السلطان السيد الشريف الذى كان كاتب سر دمشــق ، وأودعه بالمقشرة ، ولم يرث الى شرفه .

وفيه قــرر الشيخ كمال الدين ابن أبى شريف المقدسى ، فى مشيخة مدرسة السلطان التى أنشأها بالقدس الشريف ، وجاءت غاية فى الحسن .

وفيه خلع السلطان على السيد الشريف ، موفق الدين الحموى ، وقرره فى كتابة السر بدمشق .

وفيــه رسم الســلطان بقطع يد مملوك من جلبانه ، قد سرق غير مامرة ، فلما أراد قطع يده شفع فيه بعض الأمراء ، فحنق منه السلطان ، ورسم بقطع رجله أيضا .

وفيه رسم السلطان للأمير أقبردى الدوادار ، وأبى البقاء بن الجيعــان ، وجانبلاط ، ومامای ، ورمضان ، بأن يتوجهوا الى القدس وصحبتهم من القراء والوعاظ جماعة ، وأن يعمل وليمة لمدرسة السلطان التى أنشأها بالقدس ، وقد انتهى منهـا العمل . وخرج ابن أبى شريف صحبتهم ، وقد تقدم تقريره بالمدرسة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عســكر ابن عثمان قد استولى على قلعــة كولك ، وكان بها شخص من المماليك السلطانية يقــال له طوغان الساعى . فلما حاصروه أسلمها اليهــم بالأمان . وكانت هذه أول وقائع ابن عثمان ، ثم اتسع الأمر بعد ذلك ، وكان ما سنذكره فى موضعه .

* * *

وفى رجب جاءت الأخبار بوفاة ملك الأندلس ، صاحب غرناطة ، وهو الغالب بالله أبو الحسن على ابن سعد بن محمــد بن الأحمر . وكان من خيار ملوك الغــرب ، مشتهرا بالعــدل ، عارفا بتدبير المملكة ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيــه جاءت الأخبــار من مكة المشرفة بأن الأمطــار كانت قليلة بها جــدا ، وأن الآبار قد نشفت ، وأن العــين التى أجراها الســلطان قد وقفت ، وحصل لأهل مكة الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفيــه تزايد شر المماليك الجلبــان ، والزعر والعبيــد ، حتى أعيــا أمرهــم الوالى وحاجب الحجاب ، وصارت الأحوال فى اضطراب .

* * *

وفى ثانى شــعبان كان وفاء النيل المبارك وقد أوفى فى العشرين من مسرى ، فلمــا أوفى توجــه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه قرر البدرى محمود بن أجا ، فى قضــاء الحنفية بحلب ، عوضا عن ابن الحلاوى وكان هذا أول شهرة البدرى محمود بن أجا .

وفيه كان أول فتح خليج الأزبكية وكان يوما مشهودا . وعزم الأمير أزبك على الأمراء المقدمين ،

بالقصر المطل على البركة ، ومدت لهم الأسمطة الحافلة .

وفيه جاءت الأخبار بأن الفتن قائمة ببلاد المغرب ، بتونس وفاس وغير ذلك من البلاد ، وأن الفرنج قد استولت على مدينة مالقة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة بيبرس الرجبى قريب السلطان ، الذى كان نائب طرابلس ، وكان قد أشيع ذلك وقد صح .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر ابن عثمان ، قد استولوا على أطراف بلاد السلطان . وأرسل أزدمر ، نائب حلب ، يستحث السلطان بخروج تجريدة ثقيلة ، أو يخرج السلطان بنفسه . فتنكد السلطان لهذا الخبر ، ونادى للعسكر بالعرض ، ثم عرض الجند بحضرة الأتابكى أزبك ، وكان هو المشار اليه فى تعيين الجند ، مما يختاره منهم . ثم عرض القرانصة وأولاد الناس ، وصار الذى لا يطيق السفر منهم يقيم له بديلا كاملا بخيوله ولبسه ، وغير ذلك ، ويورد مائة دينار من له اقطاع وجامكية . ثم ان المماليك المعينة للسفر ، أطلقوا فى الناس النار ، وصاروا يأخذون بغال الناس وخيولهم غصبا ، حتى أخذوا بغال الطواحين والأكاديش التى بها ، وتعطلت الطواحين بسبب ذلك ، وتشحط الخبز من الدكاكين ، وكادت أن تكون غلوة كبيرة ، حتى وبخ السلطان المماليك بالكلام ، ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، وأن كل من أخذ له بغل أو فرس يطلع الى أمير آخور كبير يخلصه ، فتسكن الحال قليلا .

***

وفى رمضان توفى برسباى الخازندار المحمودى ، وكان من أخصاء السلطان ، وهو من الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وكان مجاورا بمكة المشرفة ، فأتاه الأجل هناك ، وهو محمد بن يوسف ناظر الجيش ، المعروف بابن كاتب جكم ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم ، وولى نظر الجيش وهو فى حداثة سنه ، وباشر ذلك أحسن مباشرة ، وحمدت سيرته بها حتى مات .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، وكان حافلا جدا ، وفرقت الخلع والصرر على الفقهاء والعلماء .

***

وفى شوال خرج العسكر المعين الى على دولات . وكان باش العسكر الأتابكى أزبك ، وكان صحبته : قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ونانى بك قرا أحد المقدمى الألوف ، وقد تقدم قبلهم ستة من الأمراء المقدمين أزدمر أمير مجلس ، وبغرى بردى ططر ، وفرر بعدهم تمراز أمير سلاح ، وأزبك اليوسفى أحد الأمراء المقدمين . ثم خرج من بعدهم برسباى قرا رأس نوبة النوب ، ونانى بك الجمالى أحد المقدمين ... فكان جملة الذين خرجوا أولا وآخرا تسعة أمراء بالأتابكى أزبك . ومن الجند نحو من ثلاثة آلاف مملوك مما تقدم فى الأول والآخر . وكانت هذه التجريدة من أعظم التجاريد . وطلب الأتابكى أزبك طلبا حافلا ، حتى رجت له القاهرة . وكذلك قانصوه خمسمائة كان طلبه غاية فى الحسن بحيث لم يعمل مثله قط ، قيل كان مصروف طلب قانصوه خمسمائة نحوا من ثمانين ألف دينار . وخرج العسكر وهم لابسون آلة الحرب ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مع الأمير أزبك عدة أمراء طبلخانات ، وعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية ، والمماليك السلطانية ، فعدت هذه التجريدة من النوادر .

وفيه كانت وفاة الخواجا محيى الدين عبد القادر ابن ابراهيم بن حسن ، المعروف بابن عليبة

السكندرى ، تاجر السلطان . وكان رئيسا حشما من أعيان التجار .

وفيه خلع السلطان على القاضى شهاب الدين أحمد بن ناظر الخاص يوسف ، وقرره فى نظر الجيش ، عوضا عن أخيه كمال الدين

وفيه خلع السلطان على على بن عامر ، وقرره فى امرية آل فضل بحماه ، عوضا عن عساف بحكم قتله .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحمل آزدمر المسرطن ، وبالركب الأول برسباى اليوسفى .

وفيه طيف برأس شخص من العربان المفسدين ، يقال له محمد بن عامر . أحد مشايخ هوارة ، وبعث بها ابن الزرازيرى الكاشف ، وعدة رءوس من العربان المفسدين .

❊ ❊ ❊

وفى ذى القعدة ، فى ثالث عشر هاتور ، زاد النيل زيادة مفرطة نحو الذراع ، حتى تعجب الناس من ذلك .

وفيه عاد جانى بك حبيب الذى توجه الى ابن عثمان قاصدا ، وكان قد سافر أولا من البحر المالح ، وعاد من على ملطية . فلما طلع بين يدى السلطان ، كان عليه خلعة ابن عثمان ، فخلع عليه وعلى من كان معه من الخاصكية . ثم ان جانى بك حبيب خلا بالسلطان ، وأخبره عن أحوال ابن عثمان بأنه ليس براجع عن أذاه لعسكر مصر ، وأنه لم ير منه اقبالا ولا أكرمه ، وأنه غير ناصح للسلطان . فكثر القال والقيل بسبب ذلك .

وفيه توفى شمس الدين الوفائى قاضى الخانقاه ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

❊ ❊ ❊

وفى ذى الحجة توفى قانم الفقيه الظاهرى ، أحد الأمراء العشراوات ، وكان باش المجاورين بسكة المشرفة ، وكان دينا خيرا لابأس به .

وفيه أعيد الزينى أمير حاج الى نقابة الجيش على عادته ، وصرف عنها موسى بن الترجمان بعد كائنة عظيمة وقعت له ، وكان غير محمود السيرة سيىء التصرف فى أفعاله .

وفيه قرر السلطان كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر ، فى كشف البحيرة ، عوضا عن قراكز مملوك تمراز أمير سلاح .

وفيه جاءت الأخبار من نائب حلب بأن على دولات أرسل يسأل فى الصلح ، بعدما اتسع الخرق على الراقع ، كما قيل فى المعنى .

أتروض نفسك بعد ما هرمت
ومن العناء رياضة الهرم

وفيه توفى قاضى الجماعة أبو عبد الله محمد بن محمد القلجانى التونسى المالكى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهبه ، قدم الى مصر ، وأقام بها مدة ، ثم عاد الى بلاده فمات بها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة المستنصر بالله محمد ، من أولاد الملك مسعود ، صاحب تونس . وكان أكبر أولاده مستوليا على احدى جهات المغرب . وكان شابا حسن السيرة عادلا فى الرعية ، فتأسف عليه والده جدا .

وقد خرجت السنة المذكورة عن فتن وشرور ببلاد الشرق وبلاد الغرب . وحصل فى مصر شحيطة فى سائر الغلال واشتد السعر ، ووقع الاضطراب بسبب ذلك لأهل التجاريد . وحصل للناس من المماليك ما لا خير فيه ، من أخذ البغال والخيول وغير ذلك ، مما حصل به الضرر الشامل ، وزيادة على ذلك ظلم أرباب الدولة ، وحصل للناس وقوف حال ، بسبب ضرب الفلوس الجدد ، وتبطيل الفلوس العتق ، والأمر لله تعالى فى ذلك .

... احدى وتسعين وثمانمائة (١٤٨٦ م) :

... فى المحرم ، كان خليفة الوقت الامام أمير ... ، المتوكل على الله أبو العز عبـد العزيز ، ... العصر الملك الأشرف قايتباى أبو النصر ، ... روف بالمحمودى الظاهرى . وأما القضـاه ... ـة فهم : قاضى القضـاة زين الدين زكريا ... رى الشافعى ، والقاضى شمس الدين محمد ... الحنفى ، والقاضى محيى الدين بن تقى الدين ... ى ، والقاضى محمـد السعدى الحنبلى . وأما ... مراء المقدمون ، فمنهم أرباب الوظائف ستة وهم : ... كى أزبك بن ططخ أمير كبـير ، وتمـراز ... ى أمير سـلاح . وأما أمرية مجلس فكانت ... ـه من حين عزل منهـا أزدمر قريب السلطان ... عن نيابة حلب ، وبرسباى المحمـدى الظاهرى ... ى نوبة النوب ، وقانصوه بن طراباى المعروف ... ـسمائة أمير آخور كبير ، وآقبردى بن على باى ... دوادار كبـير ، وتغـرى بردى ططر حاجب ... جاب . وأما الأمراء المقدمون غير أرباب الوظائف : ... ك اليوسفى المعروف بالخازندار ، وتانى بك ... لى ، وتانى بك قرا الاينالى ، وأزدمر تمساح ، ... زدمر المسرطن ، ويشبك الجمالى . وأما الأمراء ... طبلخانات فكانت عدتهم يومئذ نحو عشرة . وأما ... أمراء العشراوات فكانت عدتهم يومئذ نحوا من ... ى أميرا . وأما أرباب الوظائف من المتعممين : ... ـاضى كاتب السر زين الدين أبو بكـر بن ... مزهر ، ونائبـه صـلاح الدين بن الجيعـان ، ... ناظر الجيش الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ، ... الخاص ، ومستوفى ديوان الجيش القـاضى ... البقاء بن الجيعان ، وناظر الخاص علاء الدين ... ن الصابونى ، وقد جمع بين نظارة الخاص ووكالة ... المال . والوزارة بيد قاسم شغيته متحدثا فيها ، وشرف الدين بن البقرى ناظر الدولة ، وقد جمع بين نظارة الدولة وبين نظـارة الأوقاف فى تلك الأيام . والبـدرى بدر الدين بن مزهر محتسب القاهرة ، ووالى الشرطة يشبك بن حيدر الاينالى ، واستادار العالية تغرى بردى المعروف بالقادرى ، ونقابة الجيش بيد أمير حاج بن أبى الفرج ، وكتابة الخزانة بيد عبد الغنى بن الجيعان ، وكتابة المماليك بيد يوسف بن أبى الفتح نائب جـدة ، ونظارة الاصطبل بيد يحيى بن البقرى ، ونظارة الزردخانة بيد عبد الباسط بن تقى الدين ، ونظارة الكسوة الشريفة بيد رمضان المهتار ، ونظر الجـوالى بيد نور الدين على البتنونى المعروف بالحنبلى . وأما أرباب الوظائف من الطواشية : فحشقدم الزمام الأحمدى ، وخالص التكرورى مقدم المماليـك ، ونائبه عنبر ، وسرور شاد الحوش وغير ذلك من أرباب الوظائف لم نذكرهم خوف الاطالة فى ذلك ، وانما ذكرنا الأعيان منهم . فهذا كان ترتيب أرباب الوظائف فى مستهل السنة المذكورة على حـكم ماذكرناه . ثم انقلبت الوظائف الى جمـاعة كثيرة من الأتراك والمبـاشرين كمـا سـيأتى ذكره فى موضعه .

وفيه ، أعنى هذا الشهر ، توفى السيد الشريف أبو عوانة ، واسمه أحمـد بن أبى بكر النوسى المالكى رحمه الله ، وكان يعرف بالعوانى ، وكان دينا خيرا جميل الصورة حسن الشكل ، ومولده بعد الأربعين والثمانمائة .

وفيه توجه السلطان الى جهة الشرقية ليكشف على الجسور ، فغاب هناك أياما ثم عاد الى القلعة .

وفيه تنـاهى سعر البرسيم ، كل فدان محضر باثنى عشر دينارا ، وبيع الدريس الحوفى كل مائة قتة بأربعمائة درهم حتى عد ذلك من النوادر ... وسبب ذلك أن حب البرسيم التقاوى كان غاليا ، وكان النيل خسيسـا ، والذى طلع من البرسيم

أكلت غالبه الدودة ، وكان سعر الغلال مرتفعا فى السنة المذكورة ، حتى غلا سعر الماء والروايا من عدم العلف لجمال السقائين .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وعدى وهو راكب ، وكان معه القاضى قطب الدين الخضيرى ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجه الى خرطوم الروضة ، وعدى وأقام به الى آخر النهار ، ونصب له هناك خيمة سحابة وموخر ، فطاب له ذلك المكان ، فأمر ببناء قصر مطل على الأربع جهات هناك ، فلم يتم له ذلك .

وفيه كان دخول الحاج فى خامس عشريه ، وقد حصل لهم بموت الجمال وشدة الغلاء مشقة زائدة . وكان أمير ركب المحمل أزدمر ، وبالركب الأول برسباى اليوسفى . وقد جاور أكثر الناس ، وانقطع جماعة بالينبع ، ولم يدخلوا القاهرة الا بعد أيام .

وفيه توجه أقبردى الدوادار الى جهة الصعيد ، بسبب فساد أولاد ابن عمر .

وفيه توجه السلطان الى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، فلما رجع نزل عن فرسه وزار تربة الظاهر برقوق ، وكشف عن أحوالها . ثم عاد الى القلعة ، وألزم سرورا شاد الحوش بعمل مصالح الصوفية التى بتربة الظاهر برقوق .

* * *

وفى صفر قتل القاضى تقى الدين أبو بكر المعروف بخروف ، قتل ببولاق ولا يعلم من قتله . وكان رئيسا حشما لا بأس به . وكان ترشح أمره بأن يلى قضاء الحنفية فى دولة الظاهر خشقدم ، وقد سعى له ابن العينى .

وفيه خسف جرم القمر ، وأظلم الجو ، واستمر على ذلك نحوا من خمسين درجة .

وفيه توفى سيدى موسى بن الخليفة المتوكل على الله ، عم أمير المؤمنين أبى العز عبد العزيز ، وكان رئيسا حشما وفاتته الخلافة عدة مرار . وقد تولى أربعة من اخوته وهو مبعد لقلة حظه . وكان مولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة عظيمة بين عربان جبل نابلس ، وقتل فيها أقبردى بن بخشايش الاينالى استادار الأغوات . وقتل أيضا جماعة كثيرة من العربان . منهم : أبو بكر أمير حزم ، ويوسف بن الجيوسى أحد المشايخ بنابلس ، وجماعة كثيرة من أولاد اسماعيل ، وأولاد عبد القادر ، وكانت فتنة شنيعة مهولة . فلما بلغ السلطان ذلك عين أقبردى الدوادار الكبير بأن يتوجه الى جبل نابلس ويخمد هذه الفتنة التى بين العربان ، فخرج مبادرا الى ذلك .

وفيه كانت وفاة قاضى قضاة الشافعية كان ، وهو ولى الدين أحمد الأسيوطى ابن أحمد بن عبد الخالق بن عبد العزيز بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محمودا فى أيام قضائه ، رئيسا حشما سيوسا فى أفعاله . ولى القضاء الأكبر ومشيخة الجمالية ، والناصرية ، وعدة تداريس ، وأقام فى القضاء ، وهو مع الناس فى أحسن سيرة ، ودام فيها ست عشرة سنة ، والناس راضون عنه ، وكان مولده سنة ثلاث عشرة وثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من حلب ، بأن العسكر المصرى تقاتل مع عسكر ابن عثمان ، وانتصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم جماعة كثيرة نحوا من أربعين ألفا من توابع عسكره ، وقبض على أحمد بك بن هرسك ، وكان باش عسكر ابن عثمان وأجل أمرائه — ومعه جماعة من الأمراء أصحاب

.. ن العثمانيـة ، وأسروهم وأودعوهم فى
.. فلما بلغ السلطان ذلك سر به .

* * *

.. ع الأول عمل السلطان المولد النبوى ،
.. لا ، لكن كان أكثر الأمراء غائبا بالتجريدة .
.. بمصر من الأمراء المقـدمين سوى ثلاثة

.. وفى القاضى حسن بن عرب ، وهو على
.. الطنبدى الشافعى ، أحد نواب الشافعية
.. بالديار المصرية ، وكان لا بأس به .

.. اختفى القاضى شهاب الدين أحمـد ناظر
.. أخو القاضى كمال الدين ، فلما اختفى
.. سلطان على البدرى محمـد ابن القـاضى
.. الدين ناظر الجيش ، وقرره فى نظر الجيش ،
.. عن عمه الشهابى أحمد بحكم اختفـائه .
.. البدرى هذا حديث السن ، لمـا تولى نظر
.. ، لم يلتح بعد .

.. قرر شاهين الجمالى فى مشيخـة الحـرم
.. .

.. توفى المسند شمس الدين محمد البساطى
.. ى ، وكان علامة فى الحديث ، وكان دينـا
.. لا بأس به .

.. وصل دوادار نائب حلب ، وأخبر بصحة
.. ابن عثمان ، والقبـض على أحمـد بك بن
.. وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وأعيانهم .
.. خـذ العسكر المصرى من النهب ما لا يحصى
.. ول وجمـال وسـلاح وبرك وقماش وغير
.. ، وأخذوا صناجقهم ، وكانوا نحوا من مائة
.. ن صنجقا ، وقد قطعت عدة وافرة من رءوس
.. ابن عثمان ، وسيحضرون صحبة قيت الرحبى

الساقى الخاصكى ... فسر السلطان لهذا الخبر ، وخلع على دوادار نائب حلب خلعة حافلة .

وفيه سقط الصارى الخشب الذى تعلق فيـه القناديل فى رمضان بمنـارة جامع القلعة ، فأخذ الناس يتفاءلون بشىء يحدث للسلطان عن قريب . فلما كان اليوم الثانى من انكسار الصارى ، ركب السلطان على فرس وسير فى الحوش ، ثم سـاق ونخـع الفرس باللجـام ، فشب به وانقلب على السلطان ، فسقط الى الأرض وبقيت رجله تحت جنب الفرس ، فانكسرت رجل السلطان من عند عظمة فخذه كسرا بليغا ، فأغمى عليه ، وسال منه الدم ، فأرجفت القلعة بموت السلطان ، واضطربت أحوال القـاهرة بسبب ذلك ، وكثر القال والقيل بين الناس ، ولم يشك فى موته أحد ، بل تيقنوا ذلك . فحمله بعض الخاصكية ، وهو مغمى عليه ، وأدخله الى قاعة الدهيشة . فتسامع الأمراء بذلك فطلعوا اليه ، ثم طلع كاتب السر ابن مزهر ، فلما دخل عليه قال له اكتب فى الحـال فى هذه الساعة مراسيم ، وأرسلها الى نائب حلب ، لتطمئن الأمراء والعسكر بسلامة السلطان من هذا العارض . وقد حصـل له السلامة والشـفاء عن قريب ، فكتبت المراسيم بصورة الحال ، وأدرجت على يد هجان فى أثناء ذلك اليوم ، وتوجه الى حلب ، وقد نظم بعض شعراء العصر يعتذر عن هذه الواقعة بهذين البيتين وهما قوله :

وقد زعموا أن الجواد كبا به
وحاشاه من عيب يضاف اليه
ولكن رأى سلطان عز وهيبة
فقبل وجـه الأرض بين يديه

وفيه توفى الشيخ صالح زين الدين عبد الرحيم ابن ابراهيم بن حجاج الأبناسى القاهرى الشافعى ،

وكان عالمـا فاضلا دينا خيرا صالحا ، منجمعا عن أبناء الدنيا ، متصوفا على طريقة السلف ، متواضعا جدا ، وطلب للقضـاء غير ما مرة ، وهو يأبى من ذلك ، ولما مات دفن بزاوية الشـيخ شهاب الدين التى بحدرة الفول عند بركة الرطلى .

* * *

وفى ربيع الآخر طلع القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر ، فأذن لهم بالدخول على السلطان وهو فى القاعة التى بالدهيشـة ، وهى قاعة الحريم ، فلما دخلوا عنـده وجـدوه على سرير وقد قوروا له الفرش من تحته ، ورجله قدامه ، وهو لا ينام ولا يتحرك ، وكان الأمراء والمباشرون يدخلون عليه كل يوم ، ويعطونه الخدمة ، وهو جالس على ذلك السرير فيدعون له وينصرفون .

وفيه وصل قيت الساقى من حلب ، ومعه عدة وافرة من الرءوس التى قطعت من عسكر ابن عثمان . فلما دخل الى القـاهرة ، زينت له زينـة حافلة ، واصطفت الناس للفرجة ، فدخل وقدامه الرءوس محمولة على الرماح ، وكان عـدتها ما يزيد على مائتى رأس . فلما طلع الى القلعة ، دقت له البشائر ، وأقيمت الخـدمة بالحوش ، ووقف أرباب الدولة كل واحد فى منزلته ، على العادة ، وغطيت الدكة التى يجلس عليها السلطان بالملاءة الحرير ... فلما استقر قيت السـاقى بالحوش ، باس الأرض الى نحو الدكة ، فأحضرت له خلعة ولمن كان صحبته من المماليـك السلطانيـة ، فلبسوا تلك الخلع ، ونزلوا فى موكب حافل . وكل ذلك والسلطان منقطع فى القاعة ، وهو فى غاية التألم من رجله . وقيل ان السلطان فرق على الفقراء ، فى مدة انقطاعه بهـذا العارض ، نحوا من ألف دينار على يد قطب الدين الخضيرى ، ثم انه بعد أيام علم على أربعة مراسيم . وكانت العلامة قد تعطلت أيام مرضه .

وفيه توفى الشيخ جلال الدين البكرى ، وكان علامة فى مذهب الامام الشـافعى رضى الله عنـه ورحمه . وكان اسمه محمد بن عبـد الرحمن بن أحمد بن أحمد الديروطى الشافعى . وكان عالمـا فاضلا بارعا فى العلوم ، ناب فى القضاء مدةطويلة ، وتولى قضاء الاسكندرية ، ثم تولى مشيخة الخانقاه البيبرسية ، وكان بيده عـدة تداريس ، ومولده سنة سبع وثمانمائة .

وفيه رسم السلطان على لسان القـاضى كاتب السر ابن مزهر بأن يجمع رءوس النوب ، والنقباء الذين بأبواب الحكام ، ويكتب عليهم قسائم أنهم لا يأخذون من الأخصام عند انفصالهم من الحكم ، أكثر من نصفين ، فجمعهـم وكتب عليهم قسـائم بذلك ،فأقام هذا الأمر مدة يسيرة ، ثم عادوا لمـا كانوا عليه .

وفيه قرر شيخنا الجلال السيوطى فى مشـيخة البيبرسية ، عوضا عن الجـلال البكرى ، بحكم وفاته . وكان الساعى له السيد الخليفة عبد العزيز .

وفيـه هجم المنسر على سوق باب الشـعرية ، وقتلوا البواب ، وفتحوا عدة دكاكين ، وأخـذوا ما فيهـا ، وخـرجوا من الباب ، وتوجهـوا من حيث أتوا .

* * *

وفى جمادى الأولى حملوا السلطان وهو على السرير ، وخرج الى الدهيشة ، وجلس بالشباك المطل على الحوش ، وعرض قدامه عـدة خيول ، فحصل للناس الاطمئنان عليه .

وفيه حصل للسلطان الشفاء ، ودخل الحمـام . فلما كان يوم الجمعة ركب من باب الدهيشة وتوجه الى الجامع ، وصلى الجمعة ، وكان له بالقلعة يوم

مشهود ، وتخلق الخدام بالزعفران ، وفرقت خوند على النـاس البنود الحـرير الأصفر ، للخـدام والخاصكية ، والزمام ومقدم المماليك والغلمـان السلطانية قاطبة ، وأعيان الناس من الحجـاب ، ورءوس النوب ، ونقبـاء الجيش وغير ذلك من الأعيان . ولما رجع السلطان من الجامع لاقته النسوة بالتهانى ، ونثرت خوند على رأسه خفائف الذهب والفضة ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حوافر فرسه ، وكان يوما حافلا بالقلعة . وخلع على الأطباء والمزينين الخلع السنية ، ودقت له البشائر بالقلعة ، ونودى بالزينة فى القاهرة .

فلما كان الثانى من يوم ركوبه حضر الخليفـة والقضاة الأربعة وهنأوا السلطان بالعافية ، وجلس بالدكة ، وحكم بين النـاس . وكان مدة انقطاعه لهذا العارض نحوا من ثلاثة وخمسين يوما . وكان النـاس قد أيسوا منه ، وعد ركوبه من النوادر بعد ذلك العارض المهول عنـد الكبير . وقد قال القائل فى ذلك :

الله يـدفع عن نفس الامام لنـا
وكلنـا للمنـايا دونه غـرض

فليت هذا الذى يعروه من مرض
بالعـائدين جميعـا لا به المرض

ففى الامام له من غـيرنا عوض
وليس فى غيره منه لنـا عوض

فما أبالى اذا ما نفسـه سلمت
لو باد كل عبـاد الله وانقرضوا

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان ، لما حصلت لهم تلك الكسرة ، تجمع جيشا كثيفا ، ورجع الى المحاربة ثانيا ، وأن عسكر السلطان بعد أن رجع الى حلب ، خرج ثانيا الى نحو كولك . فتنكد السلطان الى الغـاية لهـذا الخبر . ونادى للعسكر بالعرض ، فعرض وعين جماعة من الأمراء المقدمين والجند ، فكانوا نحوا من خمسمائة مملوك . وكان الباش عليهم يشـبك الجمالى الزردكاش الكبير أحد المقدمين ثم أنفق عليهم واستحثهم على الخروج الى حلب . وضاق الأمر بالسلطان حتى قصد أن يخرج الى التجريدة بنفسه . وأرسل السلطان الى كرتباى الأحمـر كاشف البحيرة بأن يجمع له من طائفـة العربان الذين بالبحيرة ما يقدر عليه ، ثم عرض جماعة من الزعر ، وقصد أن ينفق عليهم لكل واحد ثلاثين دينارا ، وأن يخرجوا صحبته ، وصار ينظر ما يرد عليه من الأخبار .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد فاس ، من أعمال المغرب ، وقد حصل بين صاحب فاس والفرنج ما لا خير فيه من الحروب وقتـل العسـاكر ، وأن صاحب غرناطة توجه الى عمه يسأله أن يرسل له نجدة تعينه على قتال صاحب قشتالة ، وأن الفتن هناك قائمة والأمر لله .

وفيه خرج الأمير يشبك الجمالى ومن عين معه من الجند الى جهة حلب ، فكان لهم يوم مشهود .

* * *

وفى رجب جاءت الأخبـار بوفاة دولات باى المحوجب الشرفى نائب ملطية ، وكان عنده شجاعة وفروسـية . وتوفى قانم أمير شـكار المحمدى الظاهـرى ، أحد الأمـراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى السيد الشريف على ، أخـو أمير مكة المشرفة ، وهو على بن بركات بن حسن بن عجلان الهاشمى العلوى . وكان مقيما بالقاهرة من حين فر من أخيه وحضر الى مصر ، فأتاه الأجـل بها ، وكان رئيسا حشما فاضلا ذكيا لا بأس به . ومولده بعد الخمسين والثمانمائة .

* * *

وفى شعبان طلع القضاة الأربعة الى القاهرة للتهنئة بالشهر ، فكثرت المرافعات فى قاضى قضاة الحنفية شمس الدين الغزى ، فحنق منه السلطان ، ورسم لنقيب الجيش بالقبض عليه فى المجلس ، وتوجه به الى المدرسة الصالحية ليقيم حساب أوقاف الحنفية ، وجرى عليه ما لا خير فيه ، واستمر فى الترسيم الى أن عزل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد أوفى فى ثانى عشر مسرى فتوجه الأمير أزدمر تمساح وفتح السد . وكان الأتابكى أزبك غائبا فى التجريدة .

ومن النوادر أن النيل زاد فى ذلك اليوم عشرين أصبعا من الذراع السابع عشر فى يوم كسره ، واستمرت الزيادة عمالة حتى أنه زاد فى ثلاثة أيام متوالية من الوفاء تسعة وتسعين أصبعا ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة فى الزيادة . وقد قيل فى المعنى :

وفى النيل اذ وفى البسيطة حقها
وزاد على ما جاده من صنائع

فماذا يقول الناس فى جود منعم
يشار الى انعامه بالأصابع

وفيه نزل السلطان الى الميدان ، وجلس بالمقعد الذى به ، وعرض المحابيس من رجال ونساء ، وأطلق منهم جماعة . ثم أمر بتوسيط أحمد بن بشارة شيخ العشير ببلاد صفد .

وفيه عاد الأمير أقبردى الدوادار من جبل نابلس ، ومعه عدة من العربان ، وهم فى الحديد . وقد قبض على أعيان مشايخهم .

***

وفى رمضان كان أول ما خطب بمدرسة الصاحب الزمام التى أنشأها بخط باب الرميلة ، وقد جاءت من أحسن البناء ، وكان أصلها قاعة ، فصنع بها محرابا واتخذها مدرسة وخطب بها .

وفيه توفى شمس الدين محمد الديجورى ، أحد نواب الحكم من الشافعية ، وكان انسانا حسنا لا بأس به ، ومولده سنة تسع وعشرين وثمانمائة .

وفيه قبض على انسان وهو سكران فى رمضان ، فضرب بالمقارع ، وجرس بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة العلائى على بن شاهين العثمانى نائب قلعة دمشق . وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة فى الحوش . وكان ذلك على خلاف العادة .

وفيه تغير خاطر السلطان على خشقدم الزمام لأمر وقع له وكانت كائنة عظيمة . وقصد الأخراق به وأمر بضربه ، حتى شفع فيه ، ثم آل أمره بعد ذلك الى أن نفاه الى جهة قوص ، كما سيأتى ذكر ذلك .

***

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة [illegible]د بك سكر أتابك العساكر بطرابلس ، وكان شابا رئيسا حسنا حشما لا بأس به ، ولكن وقع له شدائد ومحن ونفى من مصر ، وكان من خواص السلطان ، ثم تغير خاطره عليه وجرى له أمور شتى .

وفيه خلع السلطان على الشيخ ناصر الدين محمد بن الأخميمى شيخ المدرسة البرقوقية ، وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن شمس الدين الغزى ، بحكم انفصاله عنها . وجرى على الغزى أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح على العادة .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من أعيان المفسدين فى الأرض ، يقال له حمور ، ووسط معه جماعة آخرين مفسدين فى الأرض ، فنزل حمور

من القلعة وهو مسمر على لعبة من الخشب ، غريبة الهيئة تجر بالعجل ، ولها حركات تدور بها ، فرجت القاهرة فى ذلك اليـوم ، وكان يوما مشـهودا . وتوجهوا به الى جزيرة الفيل ، فوسطوهم هناك وأراح الله الناس منهم .

وفيه أرسـل السلطان تجريدة الى البحـيرة بسبب فساد محمد الجويلى شيخ عربان البحيرة ، وكان باش الجنـد قرقاس المعلم ، أحـد الأمراء العشراوات ، واسباى المبشر وأزبك قفص ومامای ونحو من مائتى مملوك ن المماليك السلطانية ، فلما وصلوا الى البحيرة تقاتلوا مع الجويلى أشد القتال ، وقتل من الترك والعرب جماعـة كثيرة ، ورجع العسـكر من غير طائل ، ولا حصلوا من الجويلى على شيء .

وفيه وقعت نادرة : وهو أن مركبا ببولاق عدت تحت الليل ، فغرقت فى وسط البحر بمن فيها من الناس والدواب . ومن العجائب أنه كان بها انسان علامة فى السباحة الى الغاية فغرق ولم يعلم له خبر ، وكان الى جانبه صبى صـغير لا يعرف السباحة فنجا من الغرق ، وطلـع فعد ذلك من النوادر ، كما قيل فى المعنى :

وقد يهلك الانسان من باب أمنه
وينجو بعون الله من حيث يحذر

وفيه توفى الشـيخ قلج الرومى الأدهمـى ، شيخ زاوية السلطان بالمرج والزيات ، فلما مات قرر فى مشيخة الزاوية امرأة ، وهى زوجـة قلج المذكور ، فعد ذلك من النوادر ، وكانت المـرأة تقرب لجهان شاه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن العسكر قد ثار على الأتابكى أزبك ، وقصـد العـود الى القاهرة ، فتشوش السلطان لهذا الخبر . وشكوا من الانشحات . فأرسل السلطان اليهم نفقة هناك .

فأنفق الأتابكى أزبك عليهم هنـاك لكل مملوك خمسين دينارا ، حتى خمدت الفتنة .

وفيه ثار جماعة من المماليك الجلبان ، وتوجهوا الى بيت البدرى بدر الدين ابن مزهر المحتسب ، وقصدوا حرق بيته فاختفى ، وذلك بسبب تسعير البضائع من اللحم والخبز والجبن وغير ذلك ، ثم توجهوا الى الشون وكسروا أبوابها ، ونهبوا ما فيهـا من القمح والشعير ، وفعلوا ذلك بشون السلطان والأمراء . وكانت فتنة مهولة . فلما بلغ السلطان ذلك ، بعث اليهم جماعة من الخاصكية ، ومقدم المماليـك فما قدروا على ردهم . فركب السلطان بنفسه بعد العصر ، وتوجه الى بولاق . فلمـا رأوه فروا من وجهـه ، ثم أتوا الى دار الصاحب قانم ، فنهبوا كل ما فيها . فلما أصبحوا لم ينتهوا عما هم عليـه ، ولم يطلع أحـد من المباشرين الى القلعة . ثم ان القاضى كاتب السر ترامى على السلطان ، وقبل رجـله ثلاث مرات ، بأن يعفى ولده بدر الدين من الحسبة ، فما أجاب الا بعد جهد جهيد .

وفيه توفى الكاتب المجيد الزينى خطاب بن عمر ابن خطاب الأزهرى الشافعى وكان فاضلا وله اشتغال بالعلم ، وكتب المنسوب من الخط الجيد ، وكان له فى ذلك دعاوى عريضة جدا . وفيه يقول الشهاب المنصورى :

يذى التهذيب خطـاب تسامت
صحائف زانهـا خطـا وضبطا
فلو نطق الطـروس لفضـلته
وقالت أجـود الكتاب خطـا [1]

وفيه وصل قيت الساقى الخاصكى ، الذى كان قد توجه الى يعقوب بن حسن الطويل ، فعاد ومعه مكاتبة باظهار التودد وصدق المحبـة للسلطان .

---

(١) خطا [illegible]

وفيه توفيت خوند آسية بنت المؤيد شيخ ، وهى والدة سيدى يحيى بن يشبك الفقيه ، الذى كان دوادار كبيرا . وكان حصل لهـا تأسف على ولدها يحيى لما مات فكف بصرها فى أواخر عمرها . ومولدها سنة اثنتى عشرة وثمانمائة وكانت آخر من توفى من أولاد الملك المؤيد شيخ .

***

وفى ذى العقدة ظهر برهان الدين بن الكركى امام السلطان ، وكان مختفيـا من حين تغير خاطر السلطان عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء حتى ظهر وقابل السلطان ، ونزل الى داره بطالا .

وفيه خلع السلطان على أقبردى الدوادار وقرره فى الوزارة ، وكان متكلما فيها بغير تقرير . وقرر موفق الدين بن القمص الأسلمى فى نظر الدولة ، عوضا عن قاسم شغيتة ، بحكم صرفه عن الوزارة ونظر الدولة ، فوكل به ، وأقام فى الترسيم حتى يعمل الحساب .

وفيه خلع السـلطان على كسباى الشريفى ، وقرره فى الحسبة عوضا عن البدرى ابن مزهر بحكم استعفائه .

وفيـه رسم السـلطان بتوسيط عبد العزيز المعروف بعزوز ، من أولاد بنى عمر أمير عـربان هوارة ، ووسط معه جماعة من أقاربه ، وهم يعقوب ابن سليمان ، وموسى بن عبد الله وموسى بن أبى لاسون ، وعلى أخو عزوز ، ومحمد بن بشارة ، فكانت آجالهم متقاربة من بعضها .

وفيه بلغ سعر الأرز الى ستة أشرفية كل أردب ولا يوجـد . ثم عز جـدا حتى تناهى سعره الى اثنى عشر دينارا كل أردب ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه رسم السلطان بتوسيط شخص من كبار المفسدين ، يقال له أحمد الدنف ، وله حكايات فى فن السرقة يطول شرحها .

وفيه حضر جماعة من الجند ممن كان مسافرا فى التجريدة ، وقد حضروا من غير اذن من السلطان وقصدوا الاخراق بالأتابكى أزبك ياش العسكر ، وهو بحلب ، فقال لهم : « الذى يقصد الرواح الى مصر يروح ويقابل أستاذه » . فساروا فى الدس ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنـة كبيرة ، وصار جماعة من المماليك الجلبان يقفون للأمراء بالسلم المدرج ويقولون لهم : « قولوا للسلطان ينفق علينا والا يقع منا فتنة كبيرة » . وصاروا يغلظون عليهم فى القول ، وصار القال والقيل عمالا كل يوم بينهم وبين الأمراء ، والاشـاعات قائمة بوقوع فتنة ، وقصـدوا الاخراق بالأمير أقبردى الدوادار غير ما مرة ، حتى امتنع أياما من طلوع القلعة .

وفيه قرر فى قضاء الحنفية بدمشق ، القـاضى زين الدين عبـد الرحمن الحسبانى ، عوضـا عن عماد الدين اسمعيل الناصرى بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قاضى مكة المشرفة ، البرهان بن ظهيرة الشافعى . وهو ابراهيم بن على ابن محمد بن حسين بن على بن أحمد . وكان عالما فاضلا بارعا فى العلوم رئيسا حشما ، انتهت اليه رياسة مكة المشرفة ، وكان المرجع اليه بها . ولما مات قرر فى قضـاء الشافعية بمكة المشرفة ولده أبو السعود عوضا عنه .

وفيه كان دخول الأتابكى أزبك وبقية الأمراء والجند ممن كانوا مسافرين فى التجريدة الى على دولات والى عسكر ابن عثمان ، فلما دخلوا الى القاهرة كان لهم يوم مشـهود . وقدامهم الأسراء من عسكر ابن عثمان ، وهم مزنجرين والصناجق منكسة ، وكان صحبتهم جماعة من أعيان أمرائه ، وهم بزناجير على خيولهم ، وصحبتهم أيضا ياش

عسكر ابن عثمان ، وهو أحمد بك بن هرسك ، وهو راكب وفى عنقه زنجير . وقيل ان ابن هرسك كان أميرا كبيرا أتابكى ابن عثمان . فلما عرضوا على السلطان وهو بالحوش ، عاتب أحمد بن هرسك ووبخه بالكلام . ثم سلمه الى الأمير فانصوه خمسمائة أمير آخور كبير ، ثم وزع بقية الأسراء على جماعة من المباشرين ، حتى قضاة القضاة . ثم خلع على الأتابكى أزبك وعلى بقية الأمراء ونزلوا الى دورهم . وفى عقيب ذلك ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان ، ولبسوا آلة الحرب ، وأشهروا السلاح — وكان ذلك فى سلخ الشهر المذكور — فاضطربت الأحوال ، ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم فى الحواصل ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وجاءت الزعر أفواجا أفواجا .

وقبل ذلك توجه جماعة من المماليك الجلبان الى بيت آقبردى الدوادار ، وتكلموا معه فى أن يتكلم مع السلطان بأن ينفق عليهم فى نظير تعب سرهم بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم على عسكر ابن عثمان ، وسألوه أيضا فيمن يعمل مصالحهم فى مرتب اللحم والعليق . فلما اجتمع أقبردى بالسلطان كلمه فى ذلك غير ما مرة وهو مصمم على عدم اجابتهم الى ماسألوه فيه ، فلما عاد الجواب لهم بعدم الاجابة فى ذلك ثاروا عليه ، واتسعت الفتنة ، وغلقت الأمراء أبوابها ، واستمر الحال على ذلك .

* * *

وفى ذى الحجة لم يطلع أحد من القضاة الى القلعة بسبب التهنئة بالشهر ، وكانت الفتنة قائمة كما تقدم ، ثم طلع الأتابكى أزبك الى القلعة واجتمع بالسلطان وكلمه فى أمر النفقة على المماليك ، وتلطف به فى القول فما أجاب الى ذلك الا بعد جهد كبير ، فتقرر الحال على أنه ينفق عليهم لكل مملوك منهم خمسون دينارا ، ثم نادى فى القاهرة بأن النفقة ستكون فى أول السنة الجديدة ، فخمدت هذه الفتنة شيئا قليلا .

وفيه جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وحضر الأتابكى أزبك وفرقت الأقاطيع الشاغرة عمن توفى فى هذه التجريدة من الجند ، وصار الأتابكى أزبك هو المشار اليه فى هذا الأمر .

وفيه أنعم السلطان على آقباى بن جانم الظاهرى خشقدم بامرية عشرة ، وهى امرية أصباى السيفى قرقماش الشعبانى بحكم أنه كان مريضا منقطعا فى داره . وأنعم على آبى شعرة بامرية عشرة ، وهى امرية قراكز بحكم عزله أيضا .

وفيه كانت الضحايا قليلة جدا ولا سيما الغنم .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية ، فامتنع المماليك من أخذها وصمموا وقالوا : « ما نأخذ الا النفقة مع الجامكية ، ولا نصبر الى الشهر الآتى » ... فلما رآهم قد صمموا على ذلك أنفق عليهم ، فأعطى المماليك الجلبان كل واحد منهم خمسين دينارا ، وأعطى القرانصة كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، ولم يعط الذين لم يتوجهوا نحو التجريدة المقيمين ، ووقع القال والقيل بسبب ذلك ، فلم يلتفت الى شىء من كلامهم وخمدت هذه الفتنة .

سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة (١٤٨٦ م) :

فيها ، فى المحرم ، كانت الأسعار متشحطة ومشطة فى سائر البضائع ، وتشحط الخبز من الدكاكين حتى بيع كل رطل من الخبز بنصف فضة ، وكانت أحوال الناس واقفة بسبب الفلوس الجدد حتى غلا سعر راوية الماء ، وعز وجود جمال السقائين ، وصار الغلاء فى المأكول والمشروب ... هذا والمماليك قد طغوا فى حق الناس ، وتزايد

منهم الضرر الشامل ، والعربان قد تزايدت شرورهم فى البلاد من الشرقية والغربية ، وابن عثمان فى غاية التحرك على البلاد الحلبية ، والسلطان فى غاية الظلم والمصادرات للناس بسبب خروج التجريدة الى ابن عثمان ثانيا . وصار العسكر فى أمر مريب بسبب ذلك ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة بين الجلبان ، وقد صاروا فرقتين : فرقة مع قانصوه خمسمائة ، وفرقة مع أقبردى الدوادار ... والاضطراب بينهما عمال .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بوفاة الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر چقمق . وكان ملكا جليلا وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ورحمه ، حتى صار مفتيا فى طبقة العلماء ، ومات وهو فى عشر الخمسين من العمر . فلما بلغ السلطان وفاته رسم بنقل جثته الى مصر ودفن على أبيه الملك الظاهر چقمق ، وشرع فى أسباب ذلك ، وعين من يتوجه الى هناك ليحضره .

وفيه رسم السلطان بفك قيد أحمد بن هرسك الذى قد أسر ، وكذلك فك قيود من أسر من عسكر ابن عثمان . وأخذوا فى أسباب تجهيزهم الى بلادهم ، وقد أشيع أمر الصلح بين السلطان وابن عثمان .

وفيه اشتد أمر الغلاء جدا حتى بيع القمح كل أردب بستة أشرفية ، وبيعت البطة الدقيق بأربعمائة وخمسين درهما ، وبيع خبز الذرة ... ولم يظهر خبز الذرة فيما تقدم من الغلوات المشهورة حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

زويجى دى المسخرة يطعمنى خبز الدرة

وصار يموت الكثير من الفقراء على الطرقات من شدة الجوع . ثم ان السلطان فتح عدة شون وباع منها القمح على حكم خمسة أشرفية كل أردب ، وصار المحتسب يضرب الكثير من السوقة على عدم بيع الخبز واظهاره على الدكاكين .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قيت الساقى بامرية عشرة ، وكذلك مغلباى البجمقدار ، وقرر قيت الرحبى بجمقدارا عوضا عن مغلباى .

وفيه حضرت جثة الملك المنصور عثمان من ثغر دمياط ودفن على أبيه الظاهر چقمق بتربة قانى باى الجركسى .

وفيه قدم اينال الخسيف نائب صفد أحد مماليك السلطان ، فلما حضر أرسل السلطان خلعة وتقليدا الى يلباى حاجب دمشق وقرره فى نيابة صفد عوضا عن اينال الخسيف ، ثم بعد مدة قرر اينال الخسيف فى حجوبية دمشق عوضا عن يلباى بحكم انتقاله الى نيابة صفد .

وفيه توفى الشيخ شمس الدين محمد بن سوله الفارسكورى ، وكان من أعيان الشافعية من أهل العلم والفضل وكان لا بأس به .

وفيه توفى المنشد المطرب الواعظ المادح شمس الدين محمد بن حلة ، وكان من مشاهير الوعاظ وله نظم جيد ، ومولده قبل العشرين والثمانمائة .

وفيه انحل سعر القمح وبيع الأردب القمح بأربعة دنانير بعد ستة أشرفية بواسطة كثرة جلب الذرة ، وقد حصل للناس به غاية الرفق .

***

وفى صفر خسف جرم القمر وأظلم الجو ودام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة ، فلهج الناس بأن زوال السلطان قد قرب ... وما كان شىء مما لهجوا به ، وأقام السلطان بعد ذلك مدة طويلة ، فكان كما قيل فى المعنى :

لا تفعل الشمس شيئا ولا القمر
وعن خسوفهما لا يصدر الكدر

وفيه توفى الشيخ نظام الدين محمد بن الحبيغا الحنفى التركى ، وكان عالما فاضلا من أعيان الناس ، وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس ، فى سعة من المعيشة ، وفيه يقول المنصورى :

سبحان من من بحسن الكلام
على نظام الدين دون الأنام
فلفظ أهل العلم در ، ولا
يزين ذاك الدر الا النظام

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة الأمير قانصوه السيفى الأحمدى الاينالى الذى كان أحد المقدمين ، ونفى الى دمياط ثم نقل الى مكة المشرفة فمات بها ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وكان من أعيان طائفة الاينالية ، وهو الذى تعصب للأشرف قايتباى حتى تسلطن فما ناله منه خير كما يقال :

رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

وقيل انه كان يقول فى مجالس بسطه : « لولا أنا ما فرح قايتباى بالسلطنة قط » ... فلما سمع السلطان قايتباى ذلك جرى على قانصوه ما لا خير فيه . وكان يطلق لسانه فى حق السلطان بما لايليق ، فحقد عليه السلطان بسبب ذلك كما قيل فى المعنى :

وقد يرجى لجرح السيف برء
ولا برء لما جرح اللسان

* * *

وفى ربيع الأول توفى الأمير ملاج اليوسفى نائب القلعة ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان دينا خيرا رئيسا حشما عاقلا عارفا بفنون الفروسية ، وكان لا بأس به .

وفيه تعدى شخص من العوانية واحتكر بيع الملح وضمنه بمكس — ولم يكن يعهد ذلك من قبل — فلما جرى ذلك نشفت الملاحة فى تلك السنة حتى عز وجود الملح جدا .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا على العادة .

* * *

وفى ربيع الآخر توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى عبد العظيم السدار ، الذى كان يبيع السدر والحناء عند الغرابليين ، وكان للناس فيه اعتقاد زائد . وهو عبد العظيم بن ناصر الدين بن خلف المصرى ، ومولده بعد العشرين والثمانمائة .

وفيه توفى الشيخ محيى الدين عبد القادر الفرضى ، وكان علامة فى الفرائض . وهو عبد القادر بن على بن شعبان القاهرى الحنفى ، وكان امام جامع آصلان .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ بدر الدين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عمر البلقينى الشافعى ، وكان فاضلا ناب فى الحكم ، وكان محمود السيرة .

وفيه جاءت الأخبار من عند الأمير أقبردى الدوادار بأنه قد انتصر على العرب الأحامدة ، وكان توجه الى بلاد الوجه القبلى بسبب ذلك فقتل منهم ما لايحصى ، وأسر نساءهم وأولادهم وبعث بهم الى مصر وباعوهم كما يباع الرقيق من الزنج . ووقع لأقبردى مع الأحامدة أمور غريبة يطول شرحها ، وعذب جماعة منهم بالدفن فى التراب وهم أحياء ، ونوع لهم العذاب تنويعا ، وقد طهر بلاد الصعيد منهم ، وكانوا أظهروا الفساد بها جدا .

وفيه توفى القاضى سراج الدين عمر بن حريز المالكى . وهو عمر بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن محرز ، الهاشمى القرشى العلوى

الحسنى المنفلوطى المالكى . وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، وتولى قضاء المالكية بعد أخيه حسام الدين ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وعزل عن القضاء ودام معزولا حتى مات .

وفيه افتتنت طائفتان من الزعر ووقع بينهم أمور وشدائد يطول شرحها ، وصار يقتل بعضهم بعضا جهارا حتى أعيا الوالى أمرهم .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى برد بك طرخان الظاهرى جقمق . وكان انسانا حسنا لا بأس به ، وكان بيده امرية عشرة يأكلها وهو طرخان .

وفيه أمر السلطان بتجديد عمارة قناطر بنى منجا ، فخرج البدرى حسن بن الطولونى ومعه جماعة من البنائين والمهندسين بسبب العمارة ، وصرف على ذلك نحوا من سبعة آلاف دينار . وكانت هذه القناطر قد تشعثت وآلت الى السقوط ، فتدارك السلطان ذلك ، وجاءت من أحسن البناء .

وفيه توفيت ست الخلفاء بنت الخليفة المستنجد بالله سيدى يوسف ، وكانت بارعة فى الحسن ، فكثر عليها الحزن والأسف من الناس . وكانت أمها بنت قاضى القضاة البلقينى . وكان عقد لها على الأمير خشكلدى البيسقى ثم فسخ العقد قبل الدخول ، ثم تزوج بها كاتب السر ابن مزهر ، ثم تزوجت بالقاضى قطب الدين الخيضرى ، ثم تزوجت بعده بالسيد الشريف اسحاق البردينى وماتت تحته ، وكان مولدها سنة ستين وثمانمائة .

وفيه ، فى يوم الجمعة ، كان عقد قانصوه خمسمائة على بنت الأتابكى آزبك من خوند بنت الظاهر جقمق ، عقد بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس . وكان عقدا حافلا ، وأحضر السلطان عدة زبادى صينى فيها سكر ومتنات فاكهة فرقت فى القلعة ، فكان كما قيل :

على أيمن الساعات عقد مبارك
بهى كما شاء الاله وأظهرا

سنى المعالى يسرت حركاته
اذا الله سنى عقد أمر تيسرا

وفيه جاءت الأخبار بأن جانم الأجرود الاينالى كاشف منفلوط قد فر الى بلاد النوبة ، وكان السلطان أرسل بالقبض عليه ففر من الخوف على نفسه ،وأقام مدة وهو هارب حتى بعث السلطان له بالأمان .

* * *

وفى رجب لما صعد القضاة للتهنئة بالشهر أمر السلطان بالقبض على جماعة القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، فقبض على علاء الدين الحنفى النقيب ، وعلى أمين الحكم الصابونى ، وعلى جماعة من الجباة ، ووكل بهم لعمل الحساب لأجل أوقاف الشافعية التى تحت نظر قاضى القضاة الشافعى ، فاستمروا فى الترسيم بسبب هذه الواقعة نحوا من ثلاث سنين والسلطان يتغافل عنهم .

وفيه خلع السلطان على القاضى نور الدين الحساوى ، وأعاده الى قضائه بحلب عوضا عن ابن الشحنة أبى البقاء .

وفيه توقف النيل عن الزيادة اثنى عشر يوما متوالية الى تاسع أبيب ، فزاد قلق الناس بسبب ذلك ثم بعث الله بالزيادة واستمرت الى أن وفى .

وفيه كان دخول قانصوه خمسمائة على بنت آزبك أمير كبير ، فحمل الجهاز من الأزبكية الى دار قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ، فلما

شق من القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان الحمالون الذين يشيلون الأمتعة زيادة على أربعمائة حمال ، وقيل صرف على هذا الجهاز نحو من مائتى ألف دينار . ولما كانت ليلة العرس عمل بالأزبكية ، وكان مهما حافلا . ثم ان قانصوه خمسمائة ركب من باب السلسلة ، ومشت قدامه الأمراء المقدمون بالشاش الذى يلبس فى الجمعة والأعياد ، وكذلك الخاصكية وبأيديهم الشموع الى أن وصل الى الأزبكية ، وعد هذا الزفاف من النوادر الغريبة ... لكن حصل للناس فى تلك الليلة غاية الضرر من الجلبان ، وخطفوا العمائم ، وضربوا جماعة من الأمراء المقدمين ، وخطفوا النسع من أيدى الخاصكية ، وما حصل تلك الليلة منهم خير ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة .

وفيه رسم السلطان لكسباى المحتسب بأن نجمع له أعيان التجار الذين بالأسواق . فلما عرضوا على السلطان قال لهم : « ساعدونى بشىء على خروج التجريدة » ... ثم فرض عليهم أربعين ألف دينار ، فضجوا من ذلك وقالوا : « ما نقدر على هذا القدر » ... فما زال يحط عنهم من ذلك القدر والتجار يقولون ما نقدر على ذلك . فلما طال الأمر بينهم وبين السلطان تقرر الحال على أن يوردوا اثنى عشر ألف دينار اذا خرجت التجريدة ، وانفض المجلس على ذلك .

***

وفى شعبان توفيت فاطمة بنت الجمالى يوسف ناظر الخاص التى كانت زوجة الأمير خاير بك سلطان ليلة ، وكانت رئيسة حشمة لا بأس بها .

وفيه توفى الشيخ تاج الدين ابن قاضى القضاة سعد الدين الديرى الحنفى ، وكان تولى بعد أبيه مشيخة الجامع المؤيدى . وكان عالما فاضلا أخذ العلم عن أبيه ، ومولده سنة خمس وثمانمائة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك فى ثانى عشر مسرى ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة .

وفيه قرر السلطان قرقماس بن ولى الدين فى امرية الآخورية الثانية وكانت شاغرة مدة ، وقرر فى باشية الجند بسكة المشرفة أزدمر الأشرفى برسباى عوضا عن شاد بك أمير آخور الظاهرى بحكم وفاته .

***

وفى رمضان خلع السلطان على الشيخ بدر الدين بن الديرى وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن عمه تاج الدين ، فأقام بها مدة يسيرة وسعى عليه محيى الدين عبد القادر ابن الدهانة الحنفى فقرره السلطان بها وقد أورد مالا له صورة .

وفيه وصل الأمير أقبردى الدوادار ، وكان مسافرا نحو الوجه القبلى بسبب فساد عربان طائفة الأحامدة ، وقد تقدم ما جرى عليهم منه .

وفيه خلع السلطان على الشيخ بدر الدين ابن قاضى القضاة صلاح الدين المكينى وقرره فى مشيخة الخشابية عوضا عن الشيخ فتح الدين محمد بن قاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى الشافعى بحكم وفاته فى شهر رجب ، وقد سعى فيها بدر الدين المكينى بمال له صورة حتى قرر بها .

وفيه توفى القاضى عبد الغفار الميدومى الشافعى أحد نواب الحكم ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم قراءة البخارى الشريف بالقلعة — وكان بالحوش كالعام الماضى — وفرقت الصرر على الفقهاء بحكم النصف ، وقطعت صرر

من له خلع ، وقد شح السلطان فى الأيام التى خلت فى الشهر المذكور جدا

* * *

وفى شوال جاءت الأخبار بوفاة نائب الشام قجماس الاسحاقى الظاهرى . وكان دينا خيرا فى عابه الاحتشام مع لين جانب ، وكان انسانا حسنا لا بأس به ، وهو الذى أنشأ المدرسه التى عند الدرب الأحمر بقرب سوق الغنم ، وأنشأ مثلها بدمشق ، وله آثار حسنة غير ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على يشبك بن حيدر والى القاهره ، فأمر بنفيه الى الكرك ، فشفع فيه أزبك الأمير الكبير ورده من الخانقاه ، فعزل من الولاية وقرر فى امرية عشرة .

وفيه توفى الجلال أبو البقاء ابن الشحنة الحلبى الشافعى قاضى القضاة بحلب . وكان عالما فاضلا تقلد بمذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ورحمه ، وكان والده حنفى المذهب ، فقدم الى القاهرة معزولا ومات بها ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان خلف قانصوه اليحياوى الذى كان نائب الشام الذى كان بالقدس الشريف وهو معزول بسبب ما تقدم ذكره ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره فى نيابة الشام عوضا عن قجماس الاسحاقى بحكم وفاته .

وفيه خلع السلطان على مغلباى الشريفى الذى كان استادار صحبة ، وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن يشبك بن حيدر ، ثم بعد مدة طويلة خلع على اسباى المبشر وقرره فى استاداريته عوضا عن مغلباى .

وفيه جاءت الأخبار بفرار شاه بضاع بن دلغادر وكان مسجونا بقلعة دمشق ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، ورسم بشنق نائب قلعة دمشق ، ثم جاءت الأخبار بأن شاه لما فر من قلعة دمشق توجه الى ابن عثمان فأكرمه وأقام عنده الى أن كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير المحمل أزدمر تمساح ، وبالركب الأول خاير بك كاشف المحلة .

وفيه توفى مجد الدين اسماعيل الشطرنجى . وكان علامة فى نقل الشطرنج ، وجيها عند الأمراء كثير العشرة للناس ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة

وفيه تغير خاطر السلطان على موفق الدين بن القمص الأسلمى ناظر الدولة فضربه بالمقارع بين يديه بالحوش ، وسلمه للأمير آقبردى الدوادار . ثم خلع السلطان على شرف الدين بن البدرى حسن وقرره فى نظر الدولة عوضا عن موفق الدين الأسلمى .

* * *

وفى ذى القعدة جاء قاصد من عند ملك الغرب صاحب الأندلس ، وعلى يده مكاتبة من مرسله تتضمن أن السلطان يرسل له تجريدة تعينه على قتال الفرنج ، فانهم أشرفوا على أخذ غرناطة ، وهو فى المحاصرة معهم ، فلما سمع السلطان ذلك اقتضى رأيه أن يبعث الى القسوس الذين بالقمامه التى بالقدس ، بأن يرسلوا كتابا على يد قسيس من أعيانهم الى ملك الفرنج ، صاحب نابل ، بأن يكاتب صاحب اشبيلية ، بأن يحل عن أهل مدينة غرناطة ويرحل عنهم ، والا يشوش السلطان على أهل القمامة ، ويقبض على أعيانهم ويمنع جميع طوائف الفرنج من الدخول الى القمامة ، ويهدمها . فأرسلوا قاصدهم ، وعلى يده كتاب الى صاحب نابل ، كما أشار السلطان ، فلم يفد ذلك شيئا وملك الفرنج مدينة غرناطة فيما بعد .

وفيه توفى الشهاب الأبشيهى أحمد بن محمد

المحلى الشافعى ، وكان عالما فاضلا وناب فى الحكم مدة طويلة وكان رئيسا حشما وجيها عند الناس .

وفيه توفى أزبك الأشرفى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه كان علف الدواب غاليا ففرق السلطان الأضحية على الأمراء والجند قبل عيد النحر بخمسة وعشرين يوما فعد ذلك من النوادر .

***

وفى ذى الحجة فى سابع عشره خرج قانصوه اليحياوى الى نيابة الشام .

وفيه سقطت قبة جامع القلعة على المحراب والمنبر ، وقتل تحتها بواب الجامع وولده فرجت له القلعة وخرج السلطان وهو ماش حتى يرى ما سقط فى الجامع . وكان ذلك قبل يوم الجمعة بثلاثة أيام . فأمر السلطان بشيل الأتربة من الجامع ثم أخذ فى أسباب عمل قبة غيرها فجدد هذه القبة الموجودة الآن وجدد المنبر ، وكان قبل ذلك من الخشب فجعله من الرخام الملون ، وجدد عمارة الميضأة التى بالجامع فجاءت من أحسن البناء .

وفيه خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له سيباى بن بخت خجا وقرره فى نيابة سيس عوضا عن قانصوه الجمالى بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على الجمالى يوسف كاتب المماليك وأخذ منه تسعة آلاف دينار . وجدت عليه وعلى والده أبى الفتح نائب جدة أمور يطول شرحها حتى آل أمره الى ذهاب عقله واعتراه جنون .

وفيه قويت الاشاعات بثوران فتنة من المماليك الجلبان ، وكثر القال والقيل فى ذلك ونقل غالب الأمراء وأرباب الدولة أمتعتهم من الدور خوفا من النهب عند وقوع الحركة . فلما تزايد الكلام فى ذلك صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم بعد الصلاة جلس بالحوش ، ثم أحضر أغوات الأطباق وأعيان المماليك الجلبان ، وكلمهم كلاما كثيرا ووبحهم بالكلام حتى قال : « اذا كان قصدكم قتلى فدونكم ذلك » فاستغفروا له . ثم آل الأمر الى صلحهم مع السلطان ، وسكون هذه الفتنة قليلا . فلما خرجوا من عنده عادوا لما كانوا عليه من ثوران الفتنة حتى أشيع بين الناس أن السلطان قد تهيأ للفرار بنفسه ، ولم نعلم أين يتوجه ، وقد تزايد القول فى ذلك فكان كما يقال :

لعمرى ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم فى أمر مريج وكانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع ، والاشاعات قائمة برجوع عسكر ابن عثمان وزحفهم على البلاد الحلبية ، والاشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان والأمراء واقفة ، والسلطان ناظر الى الظلم وأخذ أموال الناس ، والأمر لله .

سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة (١٤٨٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، سافر قانصوه اليحياوى الى الشام — وقد تقدم أنه تقرر فى نيابة الشام — فخرج فى موكب حافل

وفيه سمح خاطر السلطان بأن ينفق على مماليكه توسعه على نزول خيولهم من الربيع ، فأعطى لكل مملوك عشرة دنانير ، والقرانصة خمسة دنانير ، والسيفية ثلاثه دنانير ، فصرف فى هذه الحركة جملة مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل حسن بن سليمان بن عيسى بن عمر الهوارى ، أخى داود بن عمر أمير

هوارة . فتله بعض أعدائه من العربان وكان شابا حشما لا بأس به .

وفيه توفى جانى بك حبيب العلائى الاينالى أحد الأمراء الطبلخانات وأمير آخور ثانى ، وكان رئيسا حشما حلو اللسان حسن العبارة سيوسا دريا عارفا فصيح اللسان بالعربى . توجه قاصدا الى يعقوب بن حسن الطويل ، ثم توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان مقبول الشكل حسن الوجه ومات ولم يظهر الشيب بلحيته ، وجرى عليه شدائد ومحن فى دولة الظاهر خشقدم ، وفر الى بلاد العرب وأقام بها حتى توفى الظاهر خشقدم ، فعاد الى مصر وصار له خصاصة بالأشرف قايتباى .

وفيه توفى بيبرس اليوسفى الظاهرى أحد العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه بلغ سعر الراوية من الماء نحو ثلاثة أنصاف وذلك بسبب عدم وجود الجمال لتسلط المماليك الجلبان على السقائين لأجل الدريس ، فحصل للناس غاية المشقة بسبب ذلك .

وفيه وصل الحاج الى القاهرة . وكان أشيع عنهم أمور شنيعة فظهر أن ذلك كذب . وكان أشيع عنهم أن طائفة عربان الأحامدة قد استولوا على الحجاج ولم ينج منهم أحد .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل عسكرا عظيما ، وقصد محاربة عسكر مصر . فتنكد السلطان لهذا الخبر .

وفيه حضر خضر بك نائب القدس فضرب بين يدي السلطان ضربا مؤلما ، وأقام بالترسيم حتى أورد مالا له صورة ، وكانت كثرت فيه الشكاوى عند السلطان ، وآل أمره الى أن عزل عن نيابة القدس .

وفيه قرر السلطان دقماق السيفى اينال الأشقر فى نيابة القدس عوضا عن خضر بك بحكم صرفه عنها .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة السلطان الملك المؤيد أبى الفتح أحمد ابن الملك الأشرف اينال العلائى الجركسى ، وكانت وفاته فى ليلة رابع عشر الشهر المذكور . فلما بلغ السلطان ذلك أخذ فى أسباب احضار جثته الى القاهرة ودفنه على أبيه الأشرف اينال ، وكان المؤيد هذا رئيسا حشما قليل الأذى وجرى عليه شدائد ومحن ونفى الى الاسكندرية ودام بها الى أن مات وهو فى عشر الخمسين .

وفيه وقع من الوقائع الغريبة أن محب الدين أبا الطيب الأسيوطى بلغه أن السلطان تغير خاطره عليه ، وقصد الاخراق به . فلما تحقق ذلك توجه الى المقياس ، وألقى نفسه فى البحر عمدا فغرق ومات ، وكان عالما فاضلا من ذوى العقول رئيسا حشما وجيها عند الأمراء وأرباب الدولة ، وكان من أعيان موقعى الحكم وكان عارفا بأمور صنعة التوقيع ، وكان اسمه محمد بن محمد بن على بن عمر بن حسن القاهرى الشافعى ، ومولده سنة ثمان وعشرين وثمانمائة ولكن هانت عليه نفسه لما تأمل ما سوف يجرى عليه . وكان له أعداء كثيرة فخاف على نفسه من السلطان فكان كما قيل فى المعنى :

لا تظهرن لعاذل أو عاذر ... حاليك فى السراء والضراء

فلرحمة المتوجعين حرارة ... فى القلب مثل شماتة الأعداء

* * *

وفى ربيع الأول قرر السيد الشريف موفق الدين الحموى فى نظر الجيش بدمشق ، عوضا

عن محيى الدين عبد القادر بحكم وفاته ، وقرر ولده عبد الرحيم فى كتابة السر بدمشق .

وفيه قرر ايدكى الأشرفى فى نيابة القلعة بدمشق عوضا عن على بن چاهين بحكم صرفه عنها .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا على العادة فى العام الماضى .

وفيه أحضر السلطان بترك النصارى ورئيس اليهود وقرر على طائفة اليهود والنصارى مالا له صورة بسبب حروج التجريدة الى ابن عثمان ، وهذا أول فتح باب المصادرات للناس .

وفيه قرر السلطان بركب المحمل چان بلاط الأشرفى الخاصكى أحد الدوادارية ، وقرر بالركب الأول كرتباى كاشف البحيرة .

وفيه أنعم السلطان على مملوكيه — وهما قانصوه الألفى وقانصوه الشامى — بتقدمة ألف

وفيه من الحوادث أن السلطان رسم بتوسيط مجد الدين ابن البقرى ، وقد جرى عليه شدائد ومحن وسجن بالمقشرة زيادة على ست سنين . وكان السلطان يكرهه طبعا . وقد بلغه أن مجد الدين هذا لما قتل يشبك الدوادار ، أظهر الشماتة به وتخلق عياله بالزعفران . وكان حصل له مع يشبك كائنة عظيمة ، فلما فرح به وأظهر السرور بلغ السلطان ذلك ، فتأثر منه وجرى له ما جرى . وكان مجد الدين رئيسا حشما ولى الاستادارية غير ما مرة ، وكذلك الوزارة ، وكان أصله من القبط ، واسمه شاكر بن علم الدين ، ووسطوه ببركة الكلاب ، ثم حملوه الى تربة ابن عمه يحيى فدفن بها ، وكان عنده عنف وظلم .

وفيه عمل السلطان الموكب وخلع على جماعة من الأمراء ، فقرر برسباى قرا فى امرية مجلس عوضا عن آزدمر قريب السلطان بحكم عوده الى نيابة حلب ، وكانت امرية مجلس شاغرة فى هذه المدة . وقرر تعرى بردى ططرفى الرأس نوبة الكبرى عوضا عن برسباى قرا ، وقرر تانى بك الجمالى فى حجوبية الحجاب عوضا عن تغرى بردى ططر بحكم انتقاله ، وقرر شبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة أمير آخور ثانى عوضا عن جانى بك حبيب وكان بيده امرية طبلخانات ، وقرر شاد بك ابن مصطفى المعروف بالخوخ فى نيابة القلعة عوضا عن ملاج بحكم وفاته

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على اسنباى المبشر الأشرفى ، وقرره فى استادارية الصحبة عوضا عن مغلباى بحكم انتقاله الى ولاية الشرطة ، وقرر اينال الفقيه الظاهرى فى الحجوبية الثانية عوضا عن تانى بك الأبناسى ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة . وقرر كرتباى ابن أخت السلطان فى معلمية الدلالين ، وهى وظيفة تاجر المماليك ، عوضا عن قانصوه الشامى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه أنعم السلطان بامريات عشرة على جماعة من خاصكيته ، منهم قانصوه السيفى أقبردى ، وقانصوه بن فارس المعروف بقرار ، ودولات باى الفلاح ، وجان بلاط الغورى ، وسودون العجمى واصطمر بن ولى الدين ، وآخرون .

وفيه صرف شرف الدين بن البدرى حسن عن نظر الدولة وضرب بين يدى السلطان . وخلع على قاسم شغيته وأعيد الى نظر الدولة .

وفيه من الحوادث أنه فى يوم الخميس عاشره جلس السلطان على الدكة بالحوش على العادة فثارت ريح عاصف فوقعت من شدتها السحابة التى بالحوش فأصابت جماعه من الأمراء وجرح تانى بك

الجمالى حاجب الحجاب فى وجهه ، وقد وقع عمود السحابة التى بالحوش عليه وجرح أيضا دولات باى الحسنى وطاحت خفائف الأمراء وعمائم المباشرين فقام السلطان من وقته ودخل الى البحرة ، وتهارب العسكر وظنوا أنها القيامة ، وهــرب الفراشون أصحاب النوبه خوفا على أنفسهم من السلطان ، وقد أظلم الجو ظلمة شديدة وقام رعد وبرق ثم أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى جرى السيل فى الأسواق والشوارع ، وكان يوما مهولا .

وفيه جاءت الأخبار من سيس بأن فى ذلك اليوم وقعت بها صاعقة مهولة هدمت سور قلعتها وقتل بها من الناس جماعة

وفيه توفى شرف الدين عبد الباسط ابن البقرى أخو مجد الدين شقيقه ، وكان رئيسا حشما ولى عدة وظائف سنية منها نظر الاصطبل ونظر الأوقاف ونظر الدولة وكان وجيها عند الناس حسن الهيئة ، وكان بين موته وموت أخيه نحو من شهر وقيل مات مسموما .

* * *

وفى جمادى الأولى جاءت الأخبار من حلب بأن ابن عثمان جهز عسكرا وقد وصل الى ادنة . فلما بلغ السلطان ذلك اضــطربت أحــواله ، ونادى بالعــرض . فحضر الأتابكى أزبك باش العسكر فكتب بحضرته من الجند نحوا من أربعة آلاف مملوك . وعين من الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا ، ومن الأمراء الطبلخــانات والعشراوات زيادة عن ستين أميرا ، حتى عدت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وقد بلغ السلطان أن ابن عثمان جمع من العساكر ما لا يحصى . فلما عرض الجند وعين الأمراء أخــذ فى أسباب تفرقة النفقة . ثم انه عين ثلاثة من الخاصكية بأن يسيروا على الهجن لكشف أخبار ابن عثمان ، وما يكون من أمره ، واستحثهم على الخروج ورد الجواب عليه بسرعة . ثم عين أقبردى الدوادار وكاتب السر أن يتوجها الى جبل نابلس بسبب جمع العشراوات من جبل نابلس .

وفيــه جاءت الأخبــار بأن يعقوب بن حسن الطويل وقع بينه وبين صاحب هراة من الفتن ما لا يعبر عنه ، وآل أمره الى كسرة يعقوب وانهزامه ، وقتل من عسكره ما لا يحصى ، فشق ذلك على السلطان .

وفيه قرر الســلطان شرف الدين ابن البدرى حسن فى نظر الأوقاف عوضــا عن شرف الدين ابن البقرى بحكم وفاته . وقد وليها ابن البدرى حسن غير ما مرة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير دولات باى الحسنى وأمر بنفيه الى مكة ، فخرج الى الخانقاه ثم طلع أزبك الأمير الكبير وشفع فيــه حتى عاد الى داره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة جانى بك الابراهيمى الطويل الأشرفى ، نائب صفد ثم دوادار السلطان بحلب وكان لا بأس به ، وقرر بدوادارية السلطان بحلب أركماس بن ولى الدين عوضا عن دوادار السلطان بحكم وفاته .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر ابن عثمان قد استولى على قلعة اياس من غير قتال ولا مانع ، فتنكد السلطان لهذا الخبر .

* * *

وفى جمادى الآخرة بعث السلطان نفقات الأمراء المقــدمين والعشراوات فبلغت النفقة على الأمراء خاصة دون الجند مائة ألف دينار وثلاثة آلاف دينار ، والأمراء المعينون الى التجريدة كما تقدم هم الأمير الكبير أزبك وتمراز أمير سلاح وبرسباى قرا أمير مجلس وقانصوه خمسمائة أمير آخور

كبير وتغرى بردى ططر رأس نوبة النوب وتانى بك الجمالى حاجب الحجاب ، ومن الأمراء المقدمين غير أرباب الوظائف أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار وتانى بك قرا الاينالى ، ويشبك الجمالى السيفى ناظر الخاص وقانصوه الألفى وقانصوه الشامى ، ونحو من خمسين أميرا من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ثم أنفق على الجند على العادة فكانت جملة النفقة على الأمراء والجند نحوا من ألف ألف دينار حتى عد ذلك من النوادر ولم يسمع فيما تقدم من الدول الماضية أن أحدا من السلاطين فعل مثل ذلك . وكانت نفقة أزبك الأمير الكبير وحده ثلاثين ألف دينار . وكانت عادة نفقة الأتابكية الى دولة الظاهر برقوق عشرة آلاف دينار ، ولم يسمع بأوسع من هذه النفقة قط فكان كما قيل :

تهب الألوف ولا تهاب ألوفها
هان العدو عليك والدينار

فلما أخذ المماليك النفقة أطلقوا فى الناس النار وأخذوا البغال والخيول حتى أكاديش الطواحين ، وحصل منهم الضرر الشامل فى حق التجار وغيرهم.

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب باستيلاء ألفنش صاحب قشتيلة على مدينة مالقة من بلاد الأندلس ، وكانت كائنة عظيمة وقعت هناك .

وفيه كان خروج أزبك أمير كبير ومن عين معه من العسكر ، وكان يوما مشهودا . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى ما بعد الظهر ، وخرج العسكر وهم لابسون آلة السلاح حتى عد ذلك من النوادر . وكان طلب أزبك أمير كبير وقانصوه خمسمائة غاية فى الحسن حتى قيل كان مصروف طلب قانصوه خمسمائة نحوا من ثمانين ألف دينار . ثم ان الأمراء برزوا ونزلوا بالريدانية واستمروا هناك الى أن رحلوا ولم تخرج من مصر تجريدة أعظم من هذه لا فى زمن الظاهر برقوق ولا غيره .

وفيه قبض السلطان على أبى الفتح المنوفى نائب جدة ورسم عليه بطبقة الزمام ، وكان حصل له ماليخوليا وطرف جنون . ثم خلع على جاهين الجمالى وقرره فى نيابة جدة عوضا عن أبى الفتح ثم أمر السلطان بتوجه أبى الفتح الى البيمارستان فانه لما أحضره السلطان وكلمه رد له جواب من فى عقله خلل ، فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض الأمراء . وشهد جماعة من المباشرين بأنه قد حصل له ماليخوليا ، وأمر بأن ينزلوا به الى البيمارستان ، وهو ماش مكشوف الرأس عريان وفى عنقه زنجير ، ورسم بأن يدعوه عند المجانين ففعلوا به ذلك فأقام بالبيمارستان أياما ثم شفع فيه فعاد الى طبقة الزمام وأقام فى الترسيم . وكان أبو الفتح فى خدمة السلطان مذ هو شاد الشراب خاناه . وكان عنده من المقربين ثم غربه ووقع له أمور يطول شرحها .

وفيه توفى برسباى الطلاشى الشمسى الظاهرى أحد العشراوات وكان من خشداشى السلطان وكان لا بأس به .

* * *

وفى رجب بلغ السلطان أن العربان قالت ان مصر ما بقى بها من العسكر الا قليل ، وزاد طمعهم فى الترك . فرسم السلطان لمن بقى بالقاهرة بأن يركبوا فى كل يوم أحد وأربعاء ويتوجهوا نحو المطرية ويعودوا ويشقوا من القاهرة ، وفى أوساطهم السيوف والطراكيش فصاروا يفعلون ذلك فى كل يوم أحد وأربعاء ، ويدخلون من القاهرة أفواجا أفواجا وتقعد الناس على الدكاكين لرؤيتهم ، فأقاموا على ذلك مدة ثم بطل .

وفيه كان انتهاء القبة التى جـددها السلطان بالجامع بالقلعة عوضا عن التى سقطت ، وجـدد المنبر فجاء من أحسن ما يكون من البناء

وفيه من الحوادث أن السلطان جدد مظلمـة شنيعه • وهو أنه أرسل لكشاف الغربية والشرقية بأن يأخذوا من البلاد الخمس من خراج المقطعين ، بسبب تجهيز خيالة من الشرقية من عربانها العشير يتوجهون نحو العسكر عونه بسبب قتال عسكر ابن عثمان . فحصل للمقطعين غاية الضرر من كبس البلاد وقبض الفلاحـين ونسب ذلك الى شرف الدين بن البدرى حسن فانه كان هو القـائم فى ذلك الوقت ، فوعدته المماليك الجلبان بالقتـل ونهبوا بيته فيما بعد . وقد جبى الخمس مرتين من خراج المقطعين سنتين متواليتين ولم تخرج خيالة من الشرقية ، وكانت زيادة مظلمة أخرى .

وفيه وصل الزينى أبو بكر بن مزهر كاتب السر وقد تقـدم القول أنه خرج الى نابلس صحبـة الأمير أقبردى الدوادار بسبب جمع العشـير من جبل نابلس لأجل التجريدة الماضى ذكرها ، فحضر وهو متوعك فى جسده فلم يقابل السلطان ولا طلع الى القلعة ، واستمر ملازم الفراش حتى مات ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفيه وصل قاصد ملك الفرنج الأنكيروس من بنى الأصفر وصحبته هدية حافلة للسلطان فأكرمه وأنزله فى مكان أعده له .

وفيـه توفى دولات باى بن مصطفى الأشرفى المعروف بالأجرود نائب غزة ثم بقى أحد الأمراء المقدمين بدمشق وكان لابأس به .

وفيه توفى الشيخ شمس الدين محمد بن قاسم ابن على الشافعى ، شيخ مدرسـة كاتب السر بن مزهر التى أنشأها بحارة برجوان ، وكان من أهل العلم والفضل وله شهرة بمصر وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبـار بوفاة تغرى بردى ططر التنشى الظاهـرى جقمق رأس نوبة النوب توفى بحلب ، وكان من أجل الأمراء وتولى عدة وظائف سنية منها نيابة القلعة بمصر ثم بقى مقدم ألف ثم بقى حاجب الحجاب ثم بقى رأس نوبة كبيرة ، ومما وقع له أن الأمراء كلهم خرجوا بالأطلاب ما عداه فانه خرج من غـير طلب ، فلما طلع الى القلعـة مقته السلطان بسبب ذلك ، فقال له تغرى بردى ططر : « لا تمقتنى ولا أمقتك أنا ما بقيت أرجع من هذه السفرة » . وكان الأمر كذلك ، كما يقال : « ان البلاء موكل بالمنطق » .

وفيه جاءت الأخبـار من حلب بأن ابن عثمان بعث عدة مراكب من البحر وهى مشحونة بالسلاح والعسكر ، وقد وصلت الى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر المصرى ، فما تم له ذلك وخذله الله تعالى ، وكانت النصرة لعسكر مصر كما سيأتى ذكره .

وفيه كان وفاء النيل المبارك وقد وفى حادى عشر مسرى فتوجه أقبردى الدوادار وفتح السد على العادة ، ولم يقع لأقبردى أنه نزل وفتح السد غير هذه السنة بموجب غياب الأمير الكبير وبقية الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع السلطان على فارس المنصورى وقرره فى نيابة دمياط عوضا عن شاد بك الأشقر بحـكم صرفه عنها .

* * *

وفى ثالث رمضان كانت وفاة الزينى أبى بكر ابن مزهـر ، كاتب السر بالديار المصرية ، وهـو أبو بكر محمد بن محمد بن محمد بن أحمـد بن عبد الخالق بن عثمان ، المعروف بمزهر الدمشقى الأنصارى الشـافعى . وكان عالما فاضـلا ، عارفا

بالفقه رئيسا حنسا انتهت اليه رياسة عصره ، وكان وجيها عند الملوك والسلاطين ، ونولى من الوظائف السنية عده . منها نظر الاصطبل ونظر الجش وكتابة السر ، ودام بها نيفا وعشرين سنة حتى مات وهو مقرر بها ، وتكلم فى وظيفة قضاء الشافعية مدة ، ومولده سنه اثنتين وثلاثين وثمانمائة وكان قد شاخ وكبر سنه فلما مات رثيته بهذين البيتين من قصيدة قلتها فيه :

صارت مرامله كشل أراملى
تبكى بأعينها دما وتترب

وكذا الدواة تسودت أقلامها
حزنا عليه وأقسمت لا تكتب

وكانت جنازته مشهودة ، وغطى نعشه بمرقعة من الصوف . فلما توفى خلع السلطان على ولده المقر البدرى محمد ، وقرره فى كتابة السر بمصر عوضا عن أبيه بحكم وفاته . وذلك فى يوم الخميس سادس عشره ، وأخذ منه مالا له صورة حتى تولى هذه الوظيفة ، وكان شابا فى عشر الثلاثين لما قرر فى كتابة السر وكان السلطان محتفلا به فاستخلص منه أموال أبيه بحسن عبارة . ولما تولى كتابة السر قلت فيه هذين البيتين :

تشرف ذا الانشاء من آل مزهر
بنجل سما قدرا وشاع له ذكر

أضاءت به الأيام فى مصر بهجة
ولم لاوقدأضحى يلوح لها البدر

وفيه جاءت الأخبار أن أزبك الأمير الكبير ملك باب الملك ، واستخلصه من أيدى عسكر ابن عثمان بعد أن أتوا اليه فى ستين مركبا وهى مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، فقلق العسكر من ذلك وانقطعت قلوبهم وظنوا أنهم هم المأخوذون . فبينما هم على ذلك اذ بعث الله تعالى بريح عاصفة فغرق غالب تلك المراكب فى البحر الملح ، والذى فر من البحر من العسكر العسانى وطلع الى البر قتله العسكر المصرى . وكانت النصره لهم على العثمانية وكانت على غير القياس . فلما تحقق السلطان هذا الخبر سر به ولم يصدق بذلك .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بوفاة صاحب تونس السلطان المتوكل على الله عثمان بن محمد بن محمد بن العزيز أحمد الهنانى الموحدى ، وكان ملكا جليلا أقام فى الملك نحوا من أربع وخمسين سنة ومات وهو فى عشرالتسعين سنة . ومما مدحه به بعض شعراء الغرب :

بقيت ولا أبقى لك الدهر حاسدا
فانك فى هذا الزمان فريد

علاك سوار ، والممالك معصم
وجودك طوق ، والبرية جيد

ولما توفى تولى بعده ولد ولده يحيى المعروف بالحفيد فلم تطل أيام مدته ، وقتل واستطال عليه أعمامه .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة سيباى بن تانى باى الطيورى الظاهرى نائب حماه وكان لا بأس به .

وفيه ورد الخبر من أزبك الأمير الكبير بأنه فى ثامن رمضان وقعت معركة عظيمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان فقتل من الفريقين ما لا يحصى ، وكان ممن قتل من أمراء مصر دولات باى الحسنى رأس نوبة ثانى أصيب بمدفع ، وقتل من مماليك السلطان عدة وافرة ومن العسكر العثمانى أكثر . وقد هزموا العثمانية وغنم منهم عسكر مصر أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، فلما سمع السلطان بهذا الخبر أمر بدق البشائر بالقلعة سبعة أيام .

* * *

وفى شوال وصل مغلباى البجقمدار أحد الأمراء العشراوات من ماليك السلطان وصحبته عدة رءوس قطعت من عسكر ابن عثمان وكانت نحوا من مائتى رأس ، فشق مغلباى من القاهرة وقدامه تلك الرءوس وهى على الرماح ، وكان له يوم مشهود . فخلع عليه السلطان ونزل فى موكب حافل ، ثم أخبر بوفاة مغلباى الفهلوان المحمدى الأشرفى الاينالى أحد الأمراء العشراوات رءوس النوب ، وكانت وفاته بحلب ، وكان عارفا بفن الصراع علامة فيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر العثمانى بعد ما حصلت له هذه الكسرة عاد أيضا الى أدنة ، وأن العسكر المصرى شرع فى حصارهم بها ، وقد تمادى الأمر فى ذلك حتى أخذت بعد مضى ثلاثة أشهر ، وقتل فى مدة هذه المحاصرة من الفريقين ما لا يحصى ، وآل الأمر الى أخذها بالأمان ، وجرى فى ذلك أمور يطول شرحها .

وفيه خرج الحاج من القاهرة وكان أمير ركب المحمل جان بلاط الخاصكى أحد الدوادارية ، وبالركب الأول كرتباى الكاشف . وحج فى تلك السنة داود بن عمر أمير عربان هوارة .

وفيه توفيت دولات باى الجركسية سرية الظاهر جقمق ، وهى زوجة برقوق نائب الشام . وكانت دينة خيرة لا بأس بها .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى اينال الخسيف باستقراره فى نيابة حماه وقد سعى له أزبك الأمير الكبير فى ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانم دهيشة بن أزدمر الأشرفى الخاصكى الساقى أحد خواص السلطان ، خرج الى دمشق فى بعض مهمات السلطان بدمشق فمات بها وكان شابا جميل الصورة حسن الشكل لا بأس به .

وفيه أعيد زين الدين الحسبانى الى قضاء الحنفية بدمشق وصرف عنها مجد الدين الناصرى وسجن بقلعة دمشق .

وفيه توفى الناصرى محمد بن محمد بن سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس البندقدارى وكان رئيسا حشما من مشاهير أولاد الأسياد .

* * *

وفى ذى القعدة توفى القاضى خير الدين الشنشى محمد بن عمر بن محمد بن حسن بن موسى القاهرى الحنفى ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان عالما فاضلا عارفا رئيسا حشما وترشح أمره لأن يلى قضاء الحنفية بمصر ، ولم يل ذلك وما تم له . ومولده سنة أربعين وثمانمائة .

وفيه قرر شخص يقال له محب الدين ، وكان أصله من الأقباط ، فقرر فى نظر الجيش بدمشق عوضا عن السيد الشريف موفق الدين بحكم صرفه عنها . فعيب ذلك على السلطان ، واتفق أن محب الدين المذكور لما دخل الى الشام أقام بها أياما ومرض ومات . وكان قد جد فى السعى على الشريف موفق الدين وأورد مالا له صورة .

وفيه ضرب السلطان شخصا من نواب الحنفية يقال له شهاب الدين بن القصيف ، ورسم بنفيه الى الواح ، فشفع فيه وكتب عليه قسامة بأنه لا ينوب فى الحكم قط ولا يسعى فى ذلك بل ولا يشهد فى شىء من الأمور الشرعية لأمر أوجب ذلك .

وفيه أحضرت جثة دولات باى الحسنى رأس نوبة ثانى من أدنة ودفنت بمصر فى تربته .

* * *

وفى ذى الحجة توفى الشيخ تقى الدين السخاوى واسمه أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا بارعا

، الحديث ، سمع على الحافظ بن حجر وغيره ، كان لا بأس به .

وفيه قدم الزينى محمود بن آجا قاضى قضاة حنفية بحلب ، فأقام بالقاهرة مدة ، ثم عاد الى لب على وظيفته .

وفيه توفى يرسباى العلائى الطويل الظاهرى حد الأمراء الطبلخانات وكان يعرف بالبواب فمات الك لما خرج فى التجريدة .

وتوفى قرقماس المحمدى الظاهـرى المعروف لمعـلم ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان رفا بفنون الرمح علامة . وتوفى ملاج الظاهرى چقمقى أحد الأمراء العشراوات وكان دينا خيرا ، ذوى العقول . ومما وقع له أنه كان بيده اقطاع ـاب وعنده عيال كثيرة وأولاد عدة فوقف الى ـسلطان وشـكا له حاله ، وأن اقطاعه خراب يحصل له منها شيء ، فلم يلتفت السـلطان الى لمه ، فنزل الى داره ودخل الى طبقة مهجورة ده ، وعمد الى سلبة وربطها فى سقف الطبقة ، مل فيها خية وشنق نفسه بها فمات . وقد هانت ه نفسه من شدة قهره ، وكان ساكنا فى الجودرية اح القتل فى كيسه ولم يرث له أحد .

وفيه جاءت الأخبار بقتـل صاحب طرابلس ـرب ، واسـمه أبو بكر بن عثمان بن محمـد نفصى ، قتـله صاحب تونس وقتل ولده أيضا ماعة من أعوانه .

وتوفى فى السـنة المذكورة جماعة كثـيرة من عيان منهم قاضى الاسكندرية وهو محمد بن مد عوض المالكى ، وكان لا بأس به .

ة أربع وتسعين وثمانمائة (١٤٨٨ م) :

فيها ، فى المحرم ، لما طلع القضاة لتهنئة السلطان رسم بعرض نواب الشافعية ونواب الحنفية وكلمهم كلاما مزعجا وأمر بابطال جماعة منهم وجرت أمور يطول شرحها ، ثم آل الأمر الى التحجير عليهم فى الأحكام الشرعية وألا يسجنوا الخصم الا باذن من القاضى الشافعى والحنفى ، وعم ذلك سـائر النواب .

وفيه تغير خاطر السلطان على الطواشى خشقدم الزمام وخازنداره ووزيره أيضا ، فرسم بالقبض عليه فى وسط الحوش وهم بضربه ، ثم آل الأمر الى أن خـرج منفيا الى سـواكن ، واحتاط على موجوده قاطبة واستمر منفيا الى أن مات هناك . وكان عنده عسف وظلم وشدة بأس وسفاهة لسان وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شخصا يقال له عبد القادر بن الرماح وكان له خصاصة بالسلطان قال له ان الشيخ عبد القادر الدشطوطى رحمه الله ورضى عنه شخص من عباد الله الصالحين ، وكان قصد السلطان الاجتماع عليه ، فأخبره أنه يتردد الى جامع محسـود فى مكان عنده بالقرافة تحت الجبل المقطم ، فقال له السلطان : « ان حضر هناك أعلمنى » . فعمد عبد القادر بن الرماح الى شخص كان شبيها بالشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وكان يدعى أنه شريف ، فأعلم السلطان بأن الدشطوطى يحضر تلك الليلة الى المكان المذكور ، فصـلى السلطان العشاء ونزل وصحبته ثلاث أنفس فأتى الى ذلك المكان ونزل عن فرسه ، فوجـد ذلك الشخص جالسا ورأسه فى عبه ، فشرع السلطان يقبل رجليه ويقول : « ياسيدى احمل حملتى مع ابن عثمان » . فصار ذلك الشخص يغرب عليه ، ويقول له : « أنت ما ترجع عن ظلم العباد » . فطال المجلس بينهما . ثم ان السلطان دفع له كيسـا فيه ألف دينار ، وقيل خمسمائة دينار ، فصار يمتنع من ذلك

والسلطان يتلطف به ويقول له : « فرق ذلك على الفقـــراء » . ثم ركب ومضى وهـــو يظن أنه الدشطوطى .

ثم بعد أيام انكشفت هذه الواقعة ، وظهر أنها مفتعلة . فلمـا تحقق الســلطان ذلك ، أحضر عبد القادر بن الرماح والشخص الذى تزيا بزى الدشطوطى وخدام المكان الذين كانوا به فضربوا بين يدى السلطان بالمقارع . وأما عبد القادر ابن الرماح الذى كان سببا لذلك فرسم الســلطان بحلق ذقنه وشهره فى القــاهرة على حمارة ، ثم سجنه بالمقشرة الى أن مات عقيب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أغرب الوقائع التى لم يســمع بمثلها مع أن عبد القادر بن الرماح كان من ذوى العقول ، ولكن قد يخبو الزناد ويكبو الجواد ، كما يقال :

وانى رأيت المرء يشقى بعقـله
وقد كان قبل اليوم يسعد بالعقل

* * *

وفى صفر أنعم الســلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بامرية عشرة ، وهى أول استظهاره فى العلو والرفعة ... وجان بلاط هــذا هو الذى تسلطن فيما بعد .

وفيه جاءت الأخبار أن صاحب فاس من بلاد الغرب قد غزا الفرنج ، واستخلص منهم عدة بلاد كانت أخذت من أيدى المسلمين ، فأعادها لهم ، وقتل أخوه فى المعركة .

وفيه صار العسكر الذين من مماليك السلطان يدخلون الى القاهرة شــيئا فشيئا قبل حضــور الأتابكى أزبك فتنكد السلطان لذلك .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى وكان غالب الأمراء مســافرين فى التجريدة ، وكان أمر السماط فيه بحكم النصف على العادة .

وفيه بلغ السلطان أن المماليك الذين حضروا من التجريدة قصـــدوا أن يثيروا فتنة كبيرة ، ويطلبوا من السلطان نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت لهم . ثم بلغ السلطان أن المماليك قالوا ان كان السلطان لا يعطينا نفقة قتلنا الأمراء والمماليك الذين كانوا بمصر ولم يســافروا ، وذكروا كلمات كثيرة من هذا النمط . فلما تحقق السلطان ذلك آخذ فى أسباب تحصيل المال ، واجتمع الســلطان بالقضـــاة الأربعة ، وذكر لهم أن الخزائن نفــد ما كان فيها من المال ، وأن المماليك يقصـــدون نفقة ، وان لم أنفق عليهم شيئا يثيروا فتنة كبيرة ... فاتفق الحـــال على أن يؤخذ من أرباب الأملاك والأوقاف التى بمصر والقــاهرة أجرة شهرين مساعدة للسلطان على النفقــة . وانفض المجلس على ذلك .

ثم ان السلطان أمر تغرى بردى الاستادار بأن يتكلم فى ذلك هو وناظر الخاص ابن الصابونى ، فاقتسموا التصرف فى ذلك ، وشرعوا فى جبــاية المال .

وفيه دخل الأمير الكبير أزبك ومن كان معــه مسافرا فى التجريدة من الأمراء وبقية العسكر ، وكان لهم يوم مشهود . ومن العجائب أنه فى حالة دخولهم الى القاهرة أشيع بين الناس عودهم الى حلب عن قريب ، لأن عسكر ابن عثمان قد استولى على سيس ، وعلى طرسوس ، وغير ذلك من البلاد الحلبيــة . وحضر مــع أزبك الأمير الكبير جماعة كثيرة من عســكر ابن عثمان ، أتوا طائعــين باختيارهم ، فأنزلهم السلطان فى ديوانه ، وقرر لهم الجوامك ، وهم الى الآن باقون فى الديوان يسمون العثمانية .

ثم قويت الاشاعات بوقوع فتنــة كبيرة ، وأن

المماليك قد صمموا على أخذ النفقة لكلّ واحد مائة دينار ، فقلق السلطان لهذه الاشاعات ، واشتد عليه الأمر .

* * *

وفى يوم السبت رابع ربيع الآخر جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وأرسل خلف القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، فلما تكامل المجلس قال السلطان للأمراء والقضاة : « هؤلاء المماليك يرومون منى النفقة ، وقد نفد جميع ما كان فى الخزائن من المال على التجاريد ، ولم يبق بها شىء من المال » . ثم أقسم بالله أنه نفد منه على التجاريد من حين ولى السلطنة الى الآن سبعة آلاف ألف دينار ومائة وخمسة وستون ألف دينار . ثم قال للأمراء : « اختاروا من تسلطنونه غيرى ، واشهدوا على أيها القضاة أنى خلعت نفسى » . وشرع يفكك أزراره وقصد الدخول الى قاعة البحرة فتعلق به القضاة ومنعوه من ذلك . وشرع قاضى القضاة المالكية ابن تقى يبكى وأظهر التأسف لهذه الواقعة وصار يتضارش ويترب . ثم ان الأمير تمراز أمير سلاح صار يمشى بين الجلبان وبين السلطان فى عمل المصالحة ، فكثر القال والقيل فى ذلك ، وضج العسكر ، وترددت الوسائط بين السلطان وبين الجلبان . ثم استقر الحال بعد جهد كبير على أن السلطان ينفق على الجلبان لكل واحد منهم خمسون دينارا من ذلك أربعون دينارا معجلة ، ويتأخر عشرة ينفقها عليهم بعد مدة شهرين ، وأن القرانصة ينفق عليهم خمسة وعشرين دينارا فاستقر الحال على ذلك وسكن الاضطراب قليلا .

ثم ان السلطان أرسل خلف الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز — وكان ساكنا عنده بالحوش — فلما حضر جدد له مبايعة ثانية بحضرة القضاة الأربعة . فكانت مدة سلطنته فى هذه المرة الأولى الى يوم خلعه هذا احدى وعشرين سنة وسبعة أشهر . ثم قام الخليفة ونزل القضاة الى دورهم ، وانفض الموكب وكان يوما مهولا .

ثم ان السلطان أخذ فى أسباب تحصيل المال لأجل النفقة واستحث فى احضار ما يجىء من المال بسبب الشهرين اللذين فرضهما على أرباب الأملاك ، ثم فرض على المماليك القرانصة وأولاد الناس الذين لم يسافروا فى التجريدة : على كل من له جامكية ألفان أربعون دينارا ، ومن له ألف جامكية بحكم ذلك ، ومن لم يورد شيئا من ذلك تقطع جامكيته ستة أشهر حتى يغلق ما فرض عليه . ثم أنفق على المماليك فيما بعد . ثم ان الأمير تمراز شفع فى القرانصة وأولاد الناس ألا يوردوا شيئا مما قرر عليهم ، وكان الغالب منهم أورد شيئا فراح عليه والمتأخر لم يحط شيئا بسبب الشفاعة .

وفيه ثار جماعة من العوام على الشيخ شهاب الدين أحمد الشيشى الذى تولى قضاء الحنابلة فيما بعد ، وكادوا أن يقتلوه لولا أنه اختفى مدة طويلة حتى سكن الأمر . وسبب ذلك ما نقل عنه أنه قد أفتى السلطان بحل ما يجىء اليه من أجرة الأملاك فى الشهرين الماضى خبرهما . فلما بلغ العوام ذلك ثاروا عليه وقصدوا قتله ... واستمر مختفيا حتى توجه الى مكة وجاور بها مدة .

وفيه كانت وفاة الشيخ بدر الدين بن الغرس وهو محمد بن محمد بن محمد بن خليل القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا عارفا بأصول الفقه وله نظم جيد وولى عدة وظائف سنية ، وناب فى القضاء مدة ثم تولى مشيخة تربة الأشرف برسباى ودام بها حتى مات ، وكان من أعيان الحنفية وذكر الى قضاء الحنفية غير ما مرة . ومن نظمه قوله :

ان جاءكم صب بكم فأكرموا
مثواه تجزون خيار الثواب
وجاوبوا العذال عمن غدا
من سقمه لا يستطيع الجواب

ولما مات رثاه الشيخ عبد الباسط بن خليل الحنفي بقوله :

لقد أظلمت مصر وأقفرت الدنيا
لموت عديم المثل بل أوحد العصر
سأعجب ان ضاءت ليالى عصرنا
وكيف يكون الضوء مع عدم البدر

وفيه كانت الأسعار مرتفعة فى سائر البضائع . وسبب ذلك اهمال كسباى المحتسب ، فانه لم ينظر فى أحوال المسلمين فوبخه السلطان بالكلام ، ثم بطحه وضربه بين يديه نحوا من عشرين عصا . فلما نزل من القلعة أطلق فى السوقة النار وكذلك سماسرة القمح ، وجرى بسبب ذلك أمور شتى .

وفيه كانت وفاة الحافظ قطب الدين الأخيضرى محمد بن محمد بن عبد الله بن خيضر بن سليمان ابن داود بن فلاح بن ضمرة الرملى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حشما ، وكان من أخصاء الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية : منها كتابة سر دمشق ونظر جيشها وقضاء الشافعية بها وغير ذلك من الوظائف ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه بعث السلطان بالقبض على مملوكه أزبك النصرانى ، وكان قرر فى نيابة كركر ، فوقع منه غاية الفساد هناك ، وآل أمره الى أن حزت رأسه وعلقت على باب كركر وكان من أشرار الناس .

وفيه من الحوادث : أنه أشيع بين الناس بأن فرس البحر قد ظهرت عند شبرا وصارت تتراءى للناس مدة ، ثم اختفت وتحققت الأقوال بذلك .

وفيه خلع السلطان على أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار ، وقرره فى رأس نوبة كبير عوضا عن تغرى بردى ططر بحكم وفاته . وخلع على شاد بك الخوخ بن مصطفى وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن قانصوه الألفى بحكم انتقاله الى التقدمة وكانت الدوادارية الكبرى شاغرة مدة طويلة . وأنعم على مملوكه طقطباى بامرية عشرة وجعله متحدثا فى نيابة القلعة فاستمر بها من غير أن يخلع عليه بها . وأنعم على يشبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة بتقدمة ألف مضافا لما بيده من الآخورية الثانية . وأنعم على مملوكه جانم الذى كان بالشام أميرا بتقدمة ألف ، وكتب له بذلك البشارة وهو بالشام . وقرر مملوكه مغلباى الشريفى فى تقدمة ألف مضافا لما بيده من ولاية القاهرة ، فأقام على ذلك مدة حتى تقرر غيره .

وفيه كان ابتداء تفرقة النفقة على الجند كما استقر الحال عليه فيما تقدم .

وفيه توفى تقى الدين ناظر الزردخانة فلما مات قرر ولده عبد الباسط فى نظر الزردخانة عوضا عن أبيه .

وفيه جاءت الأخبار بأن شاه بضاع بن دلغادر حضر الى الابلستين ، ومعه طائفة من عسكر ابن عثمان ، وكبس على أخيه على دولات وقبض على اثنين من أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد لهذا الخبر جدا .

وفيه قرر الشهابى أحمد ابن الجمالى يوسف ناظر الخاص فى نظر الجيش وصرف عنها بدر الدين ابن أخيه كمال الدين .

وفيه عين السلطان عدة من أمراء البلاد الشامية ، فقرر فى حجوبية دمشق يونس نائب البيرة ، وقرر فى نيابة البيرة اينال باى من جلبانه ، وكان يقرب

، وقرر باكير بن صالح الكردى حاجب حلب فى
ة قلعة الروم ، وقرر مملوكه قانصوه الغورى
حجوبية حلب عوضا عن باكير ... وقانصوه هذا
الذى تولى السلطنة فيما بعد . وقرر أركماس بن
، الدين فى دوادارية السلطان بدمشق ،
ـرر قانى بك البهنسا فى دوادارية السلطان
لب ، وقرر فى نيابة البهنسا كرتباى الأشرفى من
ليكه . فخرجت اليهم المراسيم بمعنى ذلك .

وفيه أراد السلطان أن يقرر تانى بك الجمالى
س نوبة كبير فامتنع من ذلك وصمم أنه ما يلى
أمرية مجلس عوضا عن برسباى قرا بحكم
انه فى التجريدة بحلب ، فتغير خاطر السلطان على
ى بك الجمالى ، وقصد نفيه الى مكة بسبب
ك ، وأقام على ذلك أياما لا يطلع القلعة . ثم
سل خلفه ووعده بها ، وصار يتكلم فيها على
ه منه .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى عبد الرازق أخى
ى دولات ، وقرره فى أتابكية حماه عوضا عن ابن
غل ونقل ابن طرغل الى نيابة طرسوس .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن
ـكر ابن عثمان لما بلغهم رجوع العسكر المصرى
حوا فى أخذ البلاد الحلبية ، وأرسل يستحث
لطان فى خروج تجريدة بسرعة لحفظ مدينة
لب . فلما بلغ السلطان ذلك عرض العسكر وعين
جريدة ، وكتب عدة وافرة من الجند الذين كانوا
يمين بالقاهرة ، وجعل الباش على هذه التجريدة
نصوه الشامى أحد المقدمى الألوف ، ومن
لأمراء الطبلخانات يشبك رأس نوبة ثانى ، وأزدمر
غقيه الظاهرى ، وكرت باى بن تمر باى ابن أخت
سلطان ، واصطمر بن ولى الدين أحد العشراوات .

ثم أنفق عليهم وعلى الأمراء وأمرهم بسرعة الخروج
الى التجريدة من غير اهمال .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى الشيخ محب الدين أخو
قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ، وكان
عالما فاضلا وناب فى الحكم وتولى خطابة الجامع
المؤيدى ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى القاضى بدر الدين محمد بن الحليس
أحد نواب الحنابلة وكان من أعيان الناس مشكور
السيرة .

وفيه أنعم السلطان على طوخ المحمدى البجمقدار
بامرية عشرة .

* * *

وفى جمادى الآخرة رسم السلطان بسلخ شخص
يسمى أحمد بن الديوان من أهل حلب فسلخه فى
المقشرة ، وسلخ معه والده محمد وأشهروهما فى
القاهرة على جمال . وكان أحمد بن الديوان من
أعيان الناس الرؤساء بحلب ، وكان من أخصاء
السلطان ، فنقل عنه أنه كاتب ابن عثمان فى شىء
من أخبار المملكة . فلما بلغ السلطان ذلك تغير
خاطره عليه ، وجرى عليه أمور يطول شرحها .
وكانت من الوقائع المهولة .

وفيه خرجت التجريدة ومن عين بها من الأمراء
والعسكر وكان يوما مشهودا . قيل قد بلغت النفقة
على الأمراء والجند فى هذه التجريدة الخفيفة نحوا
من مائة وخمسين ألف دينار غير جامكية أربعة
أشهر ، وثمن الجمال . وكان السلطان دريا فى
خروج هذه التجريدة لصون مدينة حلب .

وفيه قدم قاصد من عند داود باشا وزير ابن
عثمان يشير على السلطان بأن يبعث قاصدا الى ابن
عثمان لعل أن يكون الصلح . فرد له الجواب :

« اذاأطلق تجار المماليك الذين عنده ، وبعث مفاتيح القلاع التى أخذها ، كاتبنـاه فى أمر الصـلح ، وأرسلنا له قاصدا » ... ولكن جرى بعـد هذه الواقعة أمور شتى .

* * *

وفى رجب خلع السلطان على تانى بك المحمدى الاينالى أحد العشراوات وقرره فى شادية الشون وأشركوا معه أقبردى ططر الظاهرى أحد الأمراء العشراوات أيضا .

وفيه توفى جمال الدين الكورانى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وهو عبد الله بن محمد بن حسن ابن خضر بن محمد الأردبيلى الشافعى وكان عالما فاضلا دينا خيرا ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

* * *

وفى شعبان قرر فى مشيخة خانقاه سعيد السعداء الشيخ زين الدين عبد الرحمن القناوى الشافعى عوضا عن جمال الدين الكورانى بحكم وفاته .

وفيه ثارت فتنة من المماليك الجلبان ، بسبب العشرة دنانير التى تأخرت لهم من الخمسين التى استقر الحال عليها فى أمر النفقة فما سكنت الفتنة حتى أنفقها لهم .

وفيه حضر اسكندر بن جيحان أحـد الأمراء المقدمين لابن عثمان ، وقد أسره بعض النواب ، وكان على دولات هو القائم فى القبض عليه فكان له بالقاهرة لما دخل يوم مشهود . وأسر معه جماعة من العثمانية ، فلما عرضوا على السـلطان رسم بسجنهم .

وفيـه توفى سودون الشـور أحـد الأمـراء العشراوات وكان لا بأس به . وتوفى الطـواشى مرجان الجمالى المعروف بستمائة وكان من أعيان الطواشية .

وفيه فى آخر يوم منه كان وفاء النيل المبارك .

* * *

وفى مستهل رمضان كان فتح السد عن الوفاء ، ووافق ذلك سـادس مسرى فنزل أزبك أمير كبير وفتح السد على العادة . وقيل ان جماعة من أوباش العوام أفطـروا فى ذلك اليوم من شدة الحـر والعطش . وفى أثناء ذلك عمل الأتابكى أزبك وقدة هائلة وحراقة نفط فى بركة الأزبكية ، وعزم على الأمراء وكانت ليلة حافلة .

* * *

وفى شـوال كان أول توت وهو يوم النوروز عند القبط وكان عيد الفـطر عند المسلمين ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه خرج الحاج على العادة وكان أمير ركب المحمل أزدمر تمساح ، وكان الحج فى تلك السنة قليلا .

وفيه جاءت الأخبار من سواكن بوفاة الصاحب خشقدم الأحمدى ، وكان رئيسا حشما من أعيان الطواشية وتولى عدة وظائف سنية منها الوزارة والزمامـية والخازندارية الكبـرى ، وكان ظالما غشوما عسوفا من وسائط السوء .

وفيه توفى الشـيخ أبو الفضل محمـد المحلى الحنفى ، وكان من أعيان الحنفية .

* * *

وفى ذى القعدة توفى الطواشى مرجان ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى نوروز أخو برسباى قرا أمير مجلس وكان من الأمراء العشراوات من خيار الظاهرية وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ جعفر بن ابراهيم السنهورى الشـافعى شيخ القراء بمصر ، وكان يقرأ بأربع عشرة رواية . وكان علامة فى القراءات .

وفيه جاءت جمـاعة من تجـار الاسكندرية يشكون من نائبها على باى بأنه جار عليهم بالظلم والمصادرات فأرسل اليه السلطان يحذره من ذلك .

* * *

وفى ذى الحجة أنعم السلطان على سيباى نائب يس بامرية عشرة ، وكذلك كسباى بن أزبك ساقى .

وفيه توفى شعبان الزواوى شيخ القبانيين . كان علامة فى صنعة القبانة والتحرير فى الأوزان .

وفيه توفى سليمان بن محمد المغربى ، وكان ضلا فى علم الميقات وله شهرة فى ذلك .

سنة خمس وتسعين وثمانمائة (١٤٨٩ م) :

فيها ، فى المحرم ، كسفت الشمس كسوفا تاما حتى أظلمت الدنيا ، وثارت عقيب ذلك رياح عاصفة حتى فزع الناس من ذلك .

وفيه قدم الى القاهرة شاه بضاع بن دلغادر ، وقد تقدم القول بأنه هرب من قلعة دمشق ، وكان مسجونا بها . فلما هرب توجه الى ابن عثمان والتف على عسكره وملك الأبلستين ، واستمر فى عصيانه مدة طويلة . ثم وقع بينه وبين ابن عثمان فتنة وقصد قتله ففر منه والتجأ الى السلطان . فلما جاء اليه أكرمه السلطان وخلع عليه . ثم بعد مدة أرسله الى منفلوط ليقيم بها وأجرى عليه ما يكفيه فعد ذلك من جملة سعد السلطان وكانت من النوادر .

* * *

وفى صفر توفى الطواشى سرور السيفى قراقجا الحسنى وكان لا بأس به وتولى رأس نوبة السقاة وغير ذلك

وفيه كان اقتران المريخ مع زحل فأفرط البرد فى تلك الأيام حتى أحرق الأشجار وجمدت المياه . وذكر بعض المنجمين أن هذا الاقتران يدل على وقوع فتن ، وأن البرد يستمر أياما متوالية فى تزايد من الافراط ، وصار الثلج ينزل فى الليل ، وينعقد على الجدران بناحية الجيزة ، ومات الكثير من الحرافيش من شدة البرد ، فكان كما قيل :

ويوم برد مد أنفاسه
يخمش الأوجه من قرصها

يوم تود الشمس من برده
لو جرت النار الى قرصها

وفيه كثرت الشكاوى فى محمد بن اسماعيل قاضى الواح ، فأمر السلطان باحضاره ، فلما حضر ضربه بالمقارع ، ثم أشهره بالقاهرة وهو على حمار ثم سجنه بالمقشرة فمات بها بعد ايام وكان من كبار الظلمة من المفسدين فى الأرض . فلما خرجت جنازته ثار عليه جماعة كثيرة من أولاد أخ ورجموه بالحجارة وهو فى النعش ، وأرادوا حرقه ، فما خلصوه ودفنوه الا بعد جهد كبير .

* * *

وفى ربيع الأول جاءت الأخبار من عند [illegible] دولات بأن ابن عثمان اهتم فى تجهيز عساكر و[illegible] وصل أوائلهم الى كولك . فلما بلغ السلطان ذلك [illegible] نكد ، وجمع الأمراء وأخذ رأيهم فى ذلك فو[illegible] الاتفاق على خروج تجريدة صحبة أمير كبير ، [illegible] أخذ السلطان فى أسباب جمع الخمس من نواحى الشرقية كما فعل عند خروج التجريدة الماضية لأجل فرسان العرب لتخرج صحبة أمير كبير [illegible] العسكر ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الأ[illegible] وقطع الخمس من خراجهم مرتين .

وفيه عرض السلطان أولاد الناس أصحا[illegible] الجوامك من ألف درهم فما دونه — وكان أمر[illegible] أن يتعلموا رمى البندق الرصاص قبل ذلك فلما عرضهم ورموا قدامه كتبهم فى التجريدة وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارا ، وكل [illegible] أشركهم فى جمل أعطاه لهم وخرجوا [illegible] التجريدة

وفيه خلع السلطان على قيت بن قانم الـ[illegible] وقرره فى ولاية القاهرة ، عوضا عن [illegible]

الشريفى بحكم انتقاله الى التقدمة وكان متكلما فى الولاية مع التقدمة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه نادى السلطان للعسكر بالعرض وأشيع أمر التجريدة الى ابن عثمان . فلما عرضهم السلطان بادر اليهم بتفرقة النفقة ، ثم وقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب من المماليك الجلبان ، وقام السلطان من الدكة ونزل وقال : « أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضى الى مكة » ، فتلطف به الأمراء . ثم آل الأمر بعد ذلك الى أن أنفق عليهم لكل مملوك مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة أشهر ، وثمن جمل سبعة أشرفية . فأنفق فى ذلك على عدة طباق . واستمر على ذلك حتى أكمل النفقة ثم حملت نفقة الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات وقد تعينوا للسفر أجمعين . ولم يبق بمصر سوى أقبردى الدوادار وأزدمر تمساح ، فكانوا على الحكم الأول كما تقدم ، فبلغت النفقة على الأمراء والجند نحوا من خمسمائة ألف دينار . وكانت هذه التجريدة آخر تجاريد الأشرف قايتباى الى ابن عثمان وغيره ولم يجرد بعدها أبدا ثم نادى للعسكر بألا يخرج منهم أحد قبل الباش ، فما سمعوا له شيئا .

وفيه قرر تنم الرجبى الخاصكى الخازندار فى نيابة جدة عوضا عن جاهين الجمالى ، وقد سئل الاعفاء عن ذلك .

وفيه تعين كرتباى كاشف البحيرة فى امرية الحاج بركب المحمل ، وعين اينال الفقيه الحاجب الثانى فى الركب الأول .

***

وفى خامس عشر ربيع الآخر خرج أمير كبير أزبك من القاهرة ، قاصدا البلاد الحلبية ، وصحبته الأمراء والعسكر وكانت عدتهم عشرة وهم على ما ذكرناه فى التجريدة الماضية ، وأما الأمراء العشراوات والطبلخانات فكانوا زيادة على الخمسين أميرا . وأما المماليك السلطانية فكانوا زيادة عن أربعة آلاف مملوك ، فكان لهم يوم مشهود ، حتى رجت لهم القاهرة . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، وخرج مماليك الأمراء وهم باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعدت هذه التجريدة من نوادر التجاريد . وقد طال الأمر بين السلطان وبين ابن عثمان فى أمر الفتن والأمر لله .

***

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بنقل اسكندر ابن النحال من البرج الذى فى باب السلسلة الى دار كاتب السر البدرى ابن مزهر ، وأمره بالحفظ عليه .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوقوع سيل عظيم فى خامس صفر ، وقيل انه بلغ الى الحجر الأسود وهدم عدة أماكن ، وحصل منه غاية الضرر .

***

وفى جمادى الآخرة قويت الاشاعات بسفر السلطان بنفسه الى حلب . ونزل الى الميدان وعرض الهجن وعين جماعة من الخاصكية للسفر معه ، وأمر من بقى من العسكر بعمل بركهم ، وأن يكونوا على يقظة من السفر .

وفيه وصل أقبردى الدوادار من البحيرة ، وكان قد خرج بسبب فساد العربان .

***

وفى رجب كان ختان ابن السلطان المقر الناصرى محمد الذى تسلطن بعده وكان عمره يومئذ نحوا من سبع سنين وأشهر ، وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات فاجتمع به سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان أن تزين القاهرة فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل

ـسواق المشهورة وغير ذلك ، وخرج الناس فى ـسف والفرجة عن الحد . وكان العسكر غائبا فى جريدة والناس فى أمن من أذى المماليك . وكانت ـ الأيام منهودة لم يسمح بمثلها ، ودخل على ـلطان من التقادم ما لا يحصى من مال وحبول ـماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك مما يزيد ى خمسين ألف دينار . وكان من جملة ما أهداه ـهابى أحمد بن العينى طست وأبريق دهب ـته ستمائة مثقال برسم الختان ، وأشياء كثيرة ـير ذلك . واختتن مع ابن السلطان جماعة كثيرة ـن أولاد الأمراء والأعيان والخاصكية فكانوا ـيادة عن أربعين ولدا . فرسم لكل صبى منهم ـكسوة على قدر مقام أبيه فكان من جملة أولاد لأعيان ابن الخليفة أمير المؤمنين عبد العزيز وهو بنه سيدى عمر وابن الجمجمة بن عثمان ، وأولاد لعلائى على بن خاص بك وغير ذلك من أولاد الأمراء والأعيان . فلما كان يوم الخميس عشريه اجتمع الأمراء والأعيان من الناس بالحوش السلطانى ، وركب ابن السلطان من قاعة البحرة ومشت قدامه الأمراء والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومشى قاضى القضاة الحنفى ناصر الدين الاخميمى ، وسائر أعيان المباشرين وأولاد الجيعان ، وأعيان الخدام ، وكان ماسك لجام الفرس الأمير أقبردى الدوادار والشهابى أحمد ابن العينى وهم بالشاش والقماش ، ولم يكن بمصر من الأمراء المقدمين غير الأمير أقبردى الدوادار والأمير أزدمر تمساح والأمير أزدمر المسرطن . واستمر ابن السلطان فى ذلك الموكب من قاعة البحرة الى باب الستارة والسلطان جالس فى المقعد ينظر اليه ، وفرشت تحت فرسه الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضة ، ولاقته المغانى فنزل عن فرسه بباب الستارة ودخل به قاعة البيسرية فكان الختان بها ، وقبل دخل على المزين نحو من خمسة آلاف دينار . فأنعم عليه من ذلك بألف دينار . والباقى تقاسمه الرؤساء من المزينين ، وعد هذا الختان من النوادر . ثم نزل ابن الجمجمة وأولاد العلائى على بن خاص بك وتوجهوا الى بيوتهم ، فشقوا من القاهرة فى موكب حافل ، ورسم للقضاة الأربعة بأن يركبوا قدامهم ففعلوا ذلك .

وفيه كانت وفاة الزينى خضر بن سنان النوروزى الجركسى وكان رئيسا حشما من أعيان الناس وله اشتغال بالعلم على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ورحمه . وكان فى سعة من المعيشة ، ومات وهو فى عشر الستين .

وفيه خسف القمر ودام فى الخسوف نحوا من أربعين درجة حتى انجلى .

وفيه عين السلطان جماعة من الجند الى مكة وجعل عليها باش أقبردى تمساح الظاهرى أحد الأمراء العشراوات ، وعين الطواشى اياس الشامى فى مشيخة الحرم النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

وفيه ثار مماليك أقبردى الدوادار عليه ، وحاصروه وهو فى داره ، وطلبوا منه زيادة فى جوامكهم . فبعث اليه السلطان بالوالى فقبض على جماعة منهم وضربهم بالمقارع وقطع أيدى جماعة منهم وفر الباقون الى الجامع الأزهر ، وأقاموا به أياما ، ثم آل الأمر الى أن نفى طائفة منهم الى جهة قوص وطائفة الى البلاد الشامية ، فسكن الحال قليلا .

وفيه وصل هجان من عند العسكر ، وأخبر بأن العسكر قصد التوجه الى بلاد ابن عثمان وقد أرسلوا ماماى الخاصكى رسولا الى ابن عثمان ، فلما أبطأ عليهم خبره زحف العسكر المصرى على

أطراف بـلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية ، وفتكوا بها ونهبوا عدة من ضياعها وأحرقوها ، ثم فعلوا مثل ذلك بعدة أماكن من بلاد ابن عثمان واقسموا فرقتين ، فرقة الى ماوندة وفرقة مقيمة بكولك بنتظرون ما يكون من هـذا الأمر ، ثم حضر جان بلاط الغورى أحد مماليك السلطان وكان من الأمراء العشراوات يومئذ وأخبر بأن العسكر فى قلق زائد بسبب الذى هناك ، وأن العليق ما يوجـد ، وأنهم قد عولوا على المجىء الى مصر ، فما سر السلطان ذلك .

* * *

وفى شعبان رفعت امرأة قصة للسلطان تشكو فيها من بدر الدين بن القرافى أحد نواب المالكية ، فأمر السلطان باحضاره فلما حضر ضربه بين يديه ضربا مؤلما ، وآل أمره الى أن غرم فى هذه الكائنة مالا له صورة بعد عقد مجلس بينه وبين المرأة التى رافعت فيه .

وفيه كانت البشـارة بالنيل المبـارك وجاءت القاعدة سبعة أذرع الا ثمانى أصابع .

وفيه قرر شهاب الدين بن الصيرفى فى تدريس الشافعية بالخانقاه الشيخونية عوضـا عن جلال الدين ابن اللبانة بحكم نزوله عنها ، ولم ينزل أحد عن هذه الوظيفة قبل اليوم قط الا آن تحرج عنه بحكم وفاته .

وفيه تغير خاطر السلطان على دقاق نائب القدس الشريف ، وفخر الدين بن نسيبة من أعيان بيت المقـدس ، فرسم باحضـارهما ، فلما حضرا أمر بضربهما ، فلما ضربا بين يديه أمر بنفى ابن نسيبة الى الواح حتى شفع فيه .

* * *

وفى رمضان قبض الوالى على جماعة من المماليك الأروام وجدهم يشربون الخمر فى رمضان نهارا فضربهم ، وأشهرهم بالقاهرة وسجنهم .

وفيه أخبرنى من أثق به ، أنه رأى بأسـوان شخصا أسمر اللون وله عين واحدة فى جبهته ، وله أنف نابت فى وجهه تحت تلك العين ، وبين أنفه وفمه نحو من أربع أصـابع ، فكان من جمـلة الأعاجيب .

وفيه ظهرت فى القاهرة امرأة ولها ثلاثة أبزاز ، أحدها تحت ابطها .

وفيه فى رابع مسرى كان وفاء النيل المبـارك ونزل أزدمر تمساح وفتح السد على العادة ، وكان الوفاء فى عاشر شهر رمضان . ومن النوادر أنه زاد فى اليوم الثالث من مسرى ثلاثة وثلاثين اصبعا فى دفعة واحدة .

وفيه توفى برهان الدين التتائى أخو شرف الدين الأنصارى ، وهو ابراهيم بن على بن سـليمان التتائى الأنصارى المالكى ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم . ومولده سنة عشرين وثمانمائة .

وفيه حضر هجان وأخبر بأن العسـكر على حصـار قلعة كوارة ، ومات فى مدة المحاصرة قانصوه بن فارس المعروف بقرا وهو من مماليك السلطان ، وكان من الأمراء العشراوات ، ثم أخذت هذه القلعة فيما بعد وهدمت الى الأرض .

* * *

وفى شوال كان الموكب السلطانى فى يوم عيد الفطر بالحوش على العادة التى استجدها السلطان فى غيبة الأمراء ، فلم يحضر فى موكب العيد سوى الأمير أزدمر تمسـاح ، وكان أقبردى الدوادار مسافرا الى جهة البحيرة بسبب فساد العربان ، فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وخلع على المباشرين وأرباب الدولة وانفض الموكب سريعا .

وفيه تزايد شر العبيد حتى خرجوا فى ذلك عن الحد وصار يقتل بعضهم بعضا حتى أعيا الوالى أمرهم وصاروا طائفتين ، طائفة تعادي طائفة .

وفيه قرر فى قضاء الشافعية بحلب شمس الدين محـمد بن عثمان الزعيم ، عوضا عن عز الدين الحسبانى .

وفيه قرر شمس الدين محـمد بن أبى الفتح الكتبى فى مشيخة القبانين ، ثم تولى بعـد ذلك التحدث على مباشرة بندر جدة .

* * *

وفى ذى القعدة رسم السـلطان بنقل سـوق الحمير من عند باب الميدان الى جهة مدرسة قانى باى الجركسى ، واستمر على ذلك الى الآن .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة المكان الذى أنشأه على بركة الفيل برسم ولده المقر الناصرى ، وكان يظن أن ولده يسكن بعده فيه ويستمر مقيما بمصر فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفيـه أفرج السـلطان عن علاء الدين الحنفى نقيب قاضي القضاة الشافعى ، وكان قاسى شدائد ومحنا ، وأقام فى الترسيم مدة طويلة ، وغرم جملة من المال .

وفيه رسم السلطان بقلع عينى شخص يقال له على بن محمد المرجوشي ، وقطع لسـانه أيضا . وسبب ذلك أنه أوحى الى السـلطان بأنه يعرف علم صنعة الكيمياء ، فانصاع له السلطان حتى أتلف عليه جملة مال له صـورة ، ولم يستفد من ذلك شيئا . وفعل نظير ذلك بالأمير تمراز الشمسي أمير سلاح فأتلف عليه جملة مال ولم يستفد من هذا شيئا . فحنق منه السلطان وفعل به ما فعل .

وفيه خرج الأمير أقبردى الدوادار مسافرا الى جهة نابلس ، وحصل منه غاية الضرر للناس ، من ذلك أنه أخذ جمال السـقائين لحمل سنيحه حتى عز وجود الماء وغلا سعر الراوية بسبب ذلك وضاق الأمر .

وفيه خلع السلطان على الطواشي فيروز وقرره فى الزمامية عوضا عن الصاحب خشقدم بحكم نفيه الى قوص .

وفيه جاءت الأخبـار بموت آقبردى ططر الظاهرى چقمق أحد العشراوات وشاد الشون ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأخذ قلعة كوارة من يد عسكر ابن عثمان فسر السلطان بذلك . ثم بعد مدة وردت عليه الأخبار بأن العسكر قلق وهو طالب المجيء الى مصر . فتنكد السلطان لذلك ، وأرسل عدة مراسيم للأمراء بالاقامة فما سمعوا له شيئا . ثم جاءت الأخبار بأن أزبك أمير كبير قد دخل الى الشام هو والأمراء والنواب والعسكر قاصـدين الدخول الى القـاهرة من غير اذن . وقد جاءوا طالبين وقوع فتنة وصرحوا بذلك . ثم نودى من قبل السلطان بأن العسكر الذى قدم من التجريدة يصعد الى القلعة ، فامتنع المماليك من ذلك ولم يصعدوا الى القلعة .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الفرنج قد استولوا على مدينة غرناطة ، وهى دار ملك الأندلس ، ووقع بسبب ذلك أمور شتى يطول شرحها ، وقتل من عساكر الغرب والفرنج مقتلة عظيمة ، ثم بعد ذلك وقع الصلح بين أهل غرناطة والفرنج . وقرر للفرنج فى كل سنة شيء من المال يوردونه لهم .

وفيه توفى قاضى قضاة المالكية محيى الدين ابن تقى وهو عبد القادر بن أحمد بن محمد بن على ابن تقى الدميرى المالكى . وكان عالما فاضلا من أعيان المالكية رئيسا حشما ، وناب فى الحكم مدة

وكان لا بأس به ، وأخذ العلم عن جماعة من الأقدمين كالبساطى والشيخ عبادة والشيخ طاهر وغير ذلك من المشايخ .

وفى السنة المذكورة كانت وفاة الشيخ الصالح المعتقد سيدى أحمد بن عقبة اليمنى وكان من كبار أولياء الله تعالى . وتوفى القاضى فتح الدين محمد السوهاجى وكان من اعيان نواب الشافعيه ، وتوفى زين الدين الطوخى الخالدى وكان من الفضلاء وله نظم جيد .

سنة ست وتسعين وثمانمائة (١٤٩٠ م) :

فيها ، فى مستهل المحرم ، كان دخول أزبك أمير كبير ومن معه من الأمراء والعسكر ، ودخلوا الى القاهرة فى موكب حافل ، وكان لهم يوم مشهود . فلما طلعوا الى القلعة خلع السلطان على أزبك أمير كبير وعلى بقية الأمراء ، ونزلوا الى دورهم وهذه آخر تجاريد أزبك أمير كبير الى البلاد الحلبية .

وفيه قرر السلطان كرتباى ابن أخته فى شادية الشراب خاناه ، وقرر مملوكه جان بلاط بن يشبك فى تجارة المماليك .

وفيه أشيع بين الناس أن المماليك يقصدون اثاره فتنة ويرومون نفقة على جارى العادة ، فأقسم السلطان بالله العظيم أنهم ان طلبوا نفقة يتوجه تحت الليل الى مكة المشرفة ويقيم بها

وفيه توفى قاضى القضاة المالكية كان ، وهو ابراهيم بن عمر بن محمد بن موسى بن جبيل اللقانى المالكى الأزهرى ، وكان عالما فاضلا بارعا فى مذهبه دينا خيرا رئيسا حشما مات وهو منفصل عن القضاء ، وكان محمود السيرة فى أفعاله .

وفيه توفى الشيخ سنان الأونجانى الحنفى وهو يوسف بن موسى بن سعد الدين ، وكان قرر فى مشيخة تربة الأمير يشبك الدوادار وكان من أعيان الناس الحنفية .

وفيه توفى الشيخ زين الدين عبد الرحمن الشنتناوى شيخ خانقاه سعيد السعداء ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ حافظ العجمى المقرى وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على أربعة من خاصكيته بأمريات عشرة منهم برد بك بن بير على الذى كان بقى مقدم ألف وخرج الى مكة المشرفة بعد كائنة أقبردى الدوادار ، وأمّر أيضا قيت الرجبى الذى تولى الأتابكية فيما بعد ، وأمّر أيضا مصرباى الذى تولى الدوادارية الكبرى فيما بعد ، وأمّر أيضا كسباى الذى تولى نيابة الاسكندرية ومات بها .

* * *

وفى صفر أنعم السلطان على جانم الذى كان نائب قلعة حلب بتقدمة ألف ، وقد تعينت له قبل أن يحضر الى القاهرة ، فأقام جانم فى هذه التقدمة نحوا من سنة ومات بالطاعون فى السنة الآتية .

وفيه قدم الشهابى أحمد بن فرفور من دمشق وأشيع عنه بين الناس أنه جاء يسعى فى كتابة السر ، فما وافق السلطان على ذلك . فأقام فى مصر مدة ثم عاد الى دمشق .

وفيه جلس السلطان لتفرقة الجامكية فقطع فى ذلك اليوم عدة جوامك من جماعة الجند نحوا من ثمانين انسانا من الشيوخ والعواجز والضعفاء ،

فكثر عليه الدعاء من الناس فى ذلك اليوم بسبب ذلك .

* * *

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الشيخ عبد الغنى بن تقى وقرره فى قضاء المالكيه عوضا عن أخيه محيى الدين بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان للأتابكى أزبك بأن يتوجه الى شبرمنت بنواحى الجيزة بسبب عمارة القناطر التى هناك ، فصرف عليها السلطان نحوا من خمسة آلاف دينار بسبب ترميمها ، فجاءت من أحسن البناء . وبنى هناك رصيفا به نفع للمسافرين فى أيام النيل ، وبنى هناك لنفسه منظرة وغيطا على بركة هناك ، فجاء ذلك غاية فى الحسن من أجل المتنزهات وهو باق الى الآن .

وفيه من الحوادث المهولة أنه فى أثناء الشهر المذكور توجه السلطان الى قبة يشبك الدوادار كان ، التى هى فى رأس دور الحسينية فجلس هناك وأرسل خلف القضاة الأربعة فحضر القاضى الشافعى زين الدين زكريا ، والقاضى الحنفى ناصر الدين بن الأخميمى ، والقاضى المالكى عبد الغنى بن تقى ، والقاضى الحنبلى بدر الدين محمد السعدى . فلما تكامل المجلس شرع السلطان فى التكلم معهم فذكر لهم أن ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحلبيه قد فسدت ، الت الى الخراب ، وأن التجار منعوا ما كان يجلب الى مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون منى نفقه ، وان لم أنفق عليهم شيئا نهبوا مصر والقاهرة ، وحرقوا البيوت ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان الى البلاد الحلبية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم ... ثم شرع يقسم بالله تعالى أنه ما بقى فى الخزائن شىء من المال لا كثير ولا قليل . والقصد أن أفرض على الأوقاف والأملاك التى بمصر والقاهرة من أماكن وغيطان وحمامات وطواحين وأفراز ومراكب وغير ذلك أجرة سنة كاملة أستعين بها على خروج التجريدة . فسكت المجلس ساعة . ثم قال القاضى الشافعى « لعل الله تعالى يكفيكم مؤنة ذلك » . وقال القاضى المالكى : « ان أجرة سنة كاملة تثقل على الناس ولا يطيقون ذلك ، فان كان ولا بد من ذلك فلنفرض عليهم أجرة خمسة أشهر . وقبل ذلك فرض عليهم أجرة شهرين ، فهذه سبعة أشهر وما يطيق الناس أكثر من ذلك » . فتوقف السلطان ، ثم آل الأمر الى ما قاله قاضى القضاة المالكى ، وانفض المجلس على ذلك . فلما بلغ الناس ما وقع ، اضطربت الأحوال وكثر القال والقيل فى ذلك ، وأشيع عن السلطان أنه يفرض على الجماجم من كل ذكر وأنثى من كبير وصغير على كل راس دينارين ذهبا ، وتكلموا من هذا النمط بأشياء كثيرة ثم بعد أيام رسم السلطان لتغرى بردى الاستادار بأن يكون متكلما فى جباية الاملاك من باب زويله الى دير الطين . ورسم لابن الصابونى ناظر الخاص بأن يكون متكلما فى جباية الأملاك من باب زويله الى خارج الحسينية . فعند ذلك اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال ، وتوجهت الرسل الغلاظ الشداد ، ولم يراعوا الوداد ، وأكثر الناس صاروا رسلا . وطلبوا أعيان الناس ، وانقطع الرجاء باليأس ، وصار الانسان يخرج من داره فيرى أربعة من الرسل فى انتظاره . فيكون نهاره أغبر . ويخرج وهو فى أذياله يتعثر ، فيقدحون فيه الزناد ، ولا يرى له من اعتماد ، وقد قال بعض الموالة فى هذا المعنى :

عرمت شهرين عن أجرة مكانى أمس
وأصبحت معسوس فى بحر المغارم غسس

رب الخـلايق والقمر والشمس
ما طقت شهرين كيف أقدر أطيق الخمس

ند جرى فى هـذه الواقعة أمور عجيبـة ،
بات غريبة ، فمن ذلك أن بعض الرسل توجه
لحسينيـة ، فأتى امرأة سـاكنة فى حوش
ـد عندها شيئا من متاع الدنيا ، فطالبها ذلك
ـ بأجرة الحوش الذى هى سـاكنة فيه ،
عليها من الأجرة عشرون نصفا عن مدة خمسة
، فلم تجد شيئا تعطيه للرسول فأغلظ عليها
، منه الحد . فلما رأت منه ذلك وكان عندها
رة نبق فى الحوش ، فقـالت له اقطع هذه
ة وبعها وخذ ثمنها فى نظير ما جاء على ...
ر القطاعين وقطع تلك السدرة وحملها ومضى.
حصل للمرأة غاية الضرر لقطع شجرتها التى
تستظل تحتها فى أيام الصيف . وكانت هذه
نة من أشـنع الحوادث فى دولة قايتباى .
ه صرف هذا المال فى شىء عاد نفعـه على
، ولكن صرفه فى غير مستحقه وراح فى
، ولم ينتفع به كما سيأتى ذكر ذلك .

يه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

يه كانت مصادرة المهتار رمضان ، فضيق عليه
لان حتى أخذ منه ستين ألف دينار ، وقيل
من ذلك . وكان المهتار متحصله فى كل يوم
الأربعين دينارا خارجا عن جهاته وحماياته ،
ذلك . وكان متحدثا فى نظر الكسوة وغير
من الجهـات السلطانية ، ورأى من العـز
لمة ما لم يره غيره من المهاترة السلطانية .

* * *

، ربيع الآخر ثارت المماليك الجلبـان على
لان ، فطلبوا منه نفقة بسبب هـذه النصرة
وقعت لهم . فلما رأى منهم عين الجد أنفق
م على العادة ، كما تقدم شرح ذلك .

وفيه عين السلطان قرقماش أمير أخـور تانى ليتوجه الى دمشق بسبب جباية أملاك دمشق عن خمسة أشهر ، كما وقع بمصر . وعين قاصدا أيضا الى ثغر الاسكندرية ودمياط ، وكانت هذه المصيبة عامة على الناس ، حتى أخذ من أوقاف البيمارستان خمسة أشهر ، وانقطع معلوم الأيتام الضعفاء فى رواتبهم مدة خمسة أشهر ، وكذلك سائر أوقاف الجوامع والمدارس والترب . وقطع معلوم الصوفية والصدقات الجارية . فلما توجه قرقماس المذكور الى دمشق أظهر بهـا من المظالم أشياء كثيرة لم يفعلها هناد فى زمانه .وقرقماس هذا هو الذى تولى نيابة حلب فيما بعـد ، وقبض عليـه طومان باى الدوادار لما خرج الى الشام بسبب عصيان قصروه نائب الشام . فسجن قرقماس هذا بقلعة دمشق ثم عاد الى مصر ، وقد تولى الأتابكية .

* * *

وفى جمادى الأولى خلع السلطان على تانى بك الجمالى وقرره فى امرية مجلس عوضا عن برسباى قرا المحمدى بحكم وفاته فى حلب . وكانت امرية مجلس شاغرة مدة طويلة . وكان تانى بك الجمالى متكلما فيها بغير تقرير .

وفيه انتهت عمارة ابن الجيعان أبو البقاء من تجديد ما عمره فى الزاوية الحمراء التى عند قناطر الأوز ، وصارت من جملة متفرجات القاهرة . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

عجبت لجامع قـد زاد حسنا
وأبدع فى التزخرف والبنـاء
به الأنهار تجرى فى جنـان
وقصر شـاهق لأبى البقـاء

وصنع هنـاك جامعا بخطبة وجاء من أحسن البناء .

وفيه انفصل على باى عن نيابة ثغر الأسكندرية وأتى الى مصر معزولا .

وفيه قدم اقبردى الدوادار وكان مسافرا الى جهة نابلس فأهلك الحرث والنسل فى هذه السفرة وحضر صحبته أركماس بن ولى الدين دوادار السلطان بدمشق ، وقد كثرت فيه الشكاوى فاستجار بالأمير أقبردى وحضر صحبته .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الكرك بأنه ظهر بها فى قبيلة بنى لام رجل من بنى آدم ذقنه قدر غربال القمح ، وكان يأكل اللحم النى بعظمه ، ويأكل الجيف من على الكيمان ، وربما افترس من بنى آدم جماعة ، وكان يفترس البقر والغنم ، وكانوا يخرجون اليه جماعة من بنى لام ويرمونه بالنشاب ، فلا يؤثر ذلك فيه ولو ضربوه بالسيوف وكان اذا صرخ تسقط منه الحوامل . فلما قوى تسلطه على ذلك المكان رحل عنه بنو لام وتركوه له . وقد أعيا الناس أمره ... وهذه الواقعة مشهورة بين الناس ، وقد وصل مطالعة الى السلطان بمعنى ذلك .

وفيه أرسل السلطان مراسيم الى نائب الشام بأن يجمع أعيان التجار بها ومساتير الناس ، ويفرض عليهم الأموال الجزيلة كل واحد على قدر مقامه مساعدة للسلطان على خروج التجريدة ، كما فعل بمصر . وكتب بمعنى ذلك مراسيم الى الاسكندرية ودمياط . وأشيع بين الناس أن السلطان يخرج هذه المرة بنفسه . وقد قويت الاشاعات بذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة وقعت بالقاهرة زلزلة خفيفة وماجت الناس ، ثم سكنت بعد أن ماجت منها الأرض بعد المغرب .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند ابن عثمان ، صحبة ماماى الخاصكى ، الذى تو[جه] قبل تاريخه الى ابن عثمان . وكان هذا القاص[د] الذى حضر من أجل قضاة ابن عثمان . وكان متو[لى] القضاء بمدينة بروسه ، وهو شخص من أهل العل[م] يقال له الشيخ على جلبى . فلما صعد الى القل[عة] أكرمه السلطان وبالغ فى تعظيمه جدا ، وأحضر ع[لى] يديه مفاتيح القلاع التى كان ابن عثمان قد استو[لى] عليها فسلمها الى السلطان . وأشيع أمر الص[لح] فنزل القاصد فى مكان عد له وهو فى غاية الاكر[ام] ثم ان السلطان أطلق اسكندر بن ميخال الذى ك[ان] أسر وسجن كما تقدم ، وأقام مدة طويلة ، فلم[ا] أطلقه السلطان أحسن اليه وكساه ، وكذلك أطل[ق] الأسراء الذين كانوا مأسورين من عسكر ا[بن] عثمان وكساهم وأحسن اليهم . وتوجهوا ا[لى] بلادهم صحبة القاصد لما سافر ... وهذا ما كان م[ن] ملخص أمر الصلح بين السلطان وبين ابن عثمان

وفيه أمر السلطان بضرب أبى يزيد الصغير آ[غا] البجمقدارية ، وكان من خواصه ، ولكن ضربه لأ[مر] أوجب ذلك . وأبو يزيد هذا هو الذى صار رأ[س] نوبة ثانى فيما بعد ، وقبض عليه العادل طومان با[ى] وسجنه بقلعة دمشق لما توجه الى هناك وتسلطن

وفيه كسفت الشمس كسوفا تاما ودامت الكسوف نحوا من ثلاثين درجة وعاودت الزلز[لة] التى كانت بالأمس وكانت خفيفة جدا .

* * *

وفى رجب طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالش[هر] وحضر قاصد ابن عثمان فعرض السلطان فى ذا[ك] اليوم كسوة الكعبة ومقام ابراهيم عليه السلام وزف معهما المحمل الشريف ، وكان يوما مشهود[ا]

وفيه توفى بركات الصالحى وكيل بيت الم[ال] وكان من أعيان الموقعين ، وهو بركات محمد محمد بن أبى بكر القاهرى الشافعى الصالحى ، وك[ان]

غير محمود السيرة فى أفعاله كثير الظلم والعسف . ومولده سنة احدى وثمانمائة . وكان اعتراه آكلة فى رجله فاستمر بها الى أن مات . وفيه يقول بعض الشعراء مداعبة لطيفة :

بركات زاد الظلم فى أيامه
وعلى الورى قد جار فى توكيله
وبرجله كان الهلاك بعاهة
فمشى الى نار الجحيم برجله

وهو الذى كان سببا لايقاف جماعة قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، واستمر الشيخ برهان الدين القلقشندى فى التوكل به حتى مات بركات الصالحى ، فأفرج عنه بعد أن غرم أموالا لها صورة .

وفيه كان انتهاء العمل من جامع السلطان الذى أنشأه بالروضة وجاء فى غاية الحسن ، وكان البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين يصنع فى كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ، ويسمونها البدرية وينصب على شاطىء البحر قدام الجامع من الخيام ما لا يحصى ، وتجتمع المراكب هناك حتى تسد البحر ، ويجتمع الجم الغفير من العالم ويوقد بالجامع وقدة عظيمة . ويحضر هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ ، وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم . واستمر الحال على ذلك مدة ثم بطل هذا الأمر .

وفيه أشيع بين الناس أن الشيخ جلال الدين الأسيوطى أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل الروضة . لأن الاجماع منعقد على منع البناء فى شطوط الأنهار الجارية . وأما ذكر أن ذلك يجوز فى مذهب الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه ورحمه فباطل وليس له صحة فى كتب الشافعية قاطبة .

وفيه خرج جان بلاط بن يشبك قاصدا من عند السلطان الى ابن عثمان ، فخرج فى تجمل زائد وموكب حافل . وجان بلاط هذا هو الذى تولى السلطنة فيما بعد بعشر سنين .

* * *

وفى شعبان قرر السلطان كرتباى بن مصطفى المعروف بالأحمر فى حجوبية الحجاب بطرابلس ، ونظر جيشها وغير ذلك من الوظائف بها .

وفيه ظهرت أعجوبة ، وهى انه ولد مولود لستة أشهر ، فلما نظروا اليه وجدوا فى وجهه لحية وعلى فمه شارب ، وقد دارت لحيته فى وجهه ، وفى فمه أسنان مفلجة وكان عليه بشاعة ، فعاش ثلاثة أيام ومات .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على يشبك بن حيدر الذى كان والى القاهرة وصار مقدم ألف ، وقرره فى نيابة حماه عوضا عن اينال الخسيف فى تقدمة ألف بمصر فيما بعد .

وفيه تغير خاطر السلطان على أزدمر المسرطن أحد مقدمى الألوف بمصر وقرره فى نيابة صفد عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته عنها . وكان أزدمر هذا من خواص السلطان ، وكان عنده من المقربين وكان آغات أقبردى الدوادار ، ثم وقع بينه وبين السلطان فى الباطن ، فمقته وولاه نيابة صفد عوضا عن يلباى المؤيدى بحكم وفاته ، واستمر بها الى أن مات .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية فى سائر البضائع حتى بيع كل ثلاثة أرادب فسح بدينار ، ورخص سائر الغلال جدا .

* * *

وفى شوال ليلة عيد الفطر كان وفاء النيل المبارك فأخر السلطان فتح السد فى ذلك اليوم ، وفتح فى اليوم الثانى من شوال . ووافق ذلك خامس عشر مسرى القبطى فصار العيد عيدين ، فعد

لك من النوادر . وفى هذه الواقعة يقول شيخنا جلال الدين الأسيوطى هذه الأبيات :

يوم عيد الفطر وافى بهناء وسعاده
ختم الصوم وأوفى النيل فى أحسن عاده
يا له من يوم عيد فيه حسنى وزياده

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير أزدمر تمساح .

* * *

وفى ذى القعدة توفى تقى الدين بن نصر الله وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوقوع فتنة كبيرة بين نائب حلب وبين جماعة من أهلها ، وقتل فى هذه المعركة من مماليك أزدمر نائب حلب سبعة عشر مملوكا ، وقتل من أهل حلب نحو من خمسين انسانا ، وأحرقوا جماعة من حاشية النائب بالنار ، وكادت حلب أن تخرب عن آخرها ، ولولا أن قانصوه الغورى حاجب الحجاب بحلب قام فى اخماد هذه الفتنة حتى سكنت ما كان يحصل خير فى هذه الحركة . فلما سمع السلطان بذلك تنكد جدا ، وعين ماماى الخاصكى بأن يتوجه الى حلب ليكشف عن هذه الفتنة ، وأخذ فى أسباب السفر الى حلب .

* * *

وفى ذى الحجة كان ابتداء الفتنة بين قانصوه خمسمائة أمير أخور كبير ، وبين أقبردى الدوادار وقد وقع بينهما بسبب نوتى واستمرت الفتن تتزايد بينهما حتى كان من أمرهما ما سنذكره فى موضعه .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الشرق بوقوع فتنة كبيرة بين ملوك الشرق ، وأن يعقوب بن حسن الطويل قد قتل أخاه ، ووقع أيضا فتنة بين خليل الصوفى وسليمان ماجان ، واستمرت الفتن قائمة هناك فى جهات متعددة ، ووقعت أيضا فتنة كبيرة فى طرابلس الغرب ، وقتل شاسى بن أبى النصر بن رجاء الخير قائد طرابلس ، وكان من خيار أعيان بلاد الغرب .

سنه سبع وتسعين وثمانمائة (١٤٩١ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان دخول المحمل الى القاهرة وحجت فى تلك السنة زوجة أقبردى الدوادار ، وهى بنت العلائى على بن خاص بك أخت خوند زوجة السلطان قايتباى ، وكان طريق الحجاز فى تلك السنة مخوفا بسبب فساد العربان .

وفيه تغير خاطر السلطان على مجد الدين اسماعيل الناصرى ، قاضى قضاة الحنفية بدمشق ، فلما أحضر ضرب بين يديه ضربا مؤلما ، وقيل بل ضرب بالمقارع نحوا من عشرين شيبيا .

* * *

وفى صفر توفى نور الدين على بن محمد بن عبد المؤمن البتنونى الشافعى ناظر الجوالى ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفى يشبك حبيب بن ططخ الظاهرى جقمق أحد الأمراء الطبلخانات رأس نوبة كبير ، وكان لا بأس به ، وقد جاوز السبعين سنة من العمر .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه قرر الناصرى محمد بن جرباش فى مشيخة المدرسة الظاهرية التى بين القصرين .

وفيه توفى تاج الدين بن الجيعان ، وهو عبد اللطيف بن عبد الغنى بن علم الدين شاكر ، وكان متحدثا فى كتابة السر ، وكان شابا حسنا محمود السيرة فى أفعاله . مات وهو فى عشر الثلاثين .

وفيه نوفى أبو يزيد قصيعا الظاهرى جقمق وكان من الأمراء العشراوات .

* * *

وفى ربيع الآخر تزايدت الأقوال بوقوع الطاعون حتى حكى أن شخصا من الأتراك رأى فى منامه ملك الموت عليه السلام ، فقال له : « من أنت ؟ » قال : « أنا ملك الموت جئت الى أخذ أرواح الكثير من الناس ، فان الطاعون قد دخل الى مصر » . فقال له ذلك الجندى : « فهل تقبض روحى فى هذا الوباء ؟ » فقال له : « قد بقى من عمرك سبعة أيام » .

فانتبه الجندى من المنام وهو مرعوب . فلما أصبح كتب وصية ، ثم انه فى اليوم السابع مات كما رأى . فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفيه جاءت الأخبار بأن مملكة حسن بك الطويل فى اضطراب ، وأن ابن عثمان قد أشرف على أخذ بلاد حسن الطويل من يد أولاده ، فلما بلغ السلطان ذلك قصد أن يخرج تجريدة صحبة حسين بن أعزلو بن حسن الطويل الذى كان مقيما بالقاهرة . ثم آل الأمر الى اهمال خروج التجريدة . ومات حسين فيما بعد لما حج ، ودفن بالمدينة الشريفة .

* * *

وفى جمادى الأولى قويت الاشاعات بوقوع الطاعون ، وزعموا أن انسانا رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال له : « ان الطاعون كان واقعا عليكم ، فشفعت فيكم ، عند ربى ، وقل للناس يصومون سبعة أيام متوالية » فصار الكثير من الناس يصوم سبعة أيام متوالية فلم يفد ذلك شيئا ، ووقع الطاعون بالديار المصرية . وكان طاعونا مهولا « قلت » ولم يقع الطاعون بمصر من سنة احدى وثمانين وثمانمائة الا فى هذه السنة . وقد غاب الطاعون ست عشرة سنة لم يدخل مصر ، وكان هذا الطاعون من الطواعين المشهورة بموجب أبطائه هذه المدة ، وهو الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى وكان مبدأ هذا الطاعون من حلب ، وكان فى مدة انقطاعه عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من قوم يظهر فيهم الزنا الا اخذوا بالفناء » . قال العلامة شهاب الدين بن حجر : والحكمة فى ذلك أن الزنا حده ازهاق الروح فى المحصن ، فاذا لم يقم فيه الحد يسلط الله عليهم الجن فيقتلونهم . ولما كان الزنا يقع من بنى آدم سرا سلط الله عليهم الجن يقتلونهم سرا من حيث لايرونهم . وقاعدة العذاب أنه اذا نزل يعم المستحق له وغيره ... والرحمة لا تكون الا مخصوصة . ثم يوم القيامة يبعثون على قدر نياتهم . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « اذا بخس المكيال حبس القطر ، واذا كثر الزنا وقع الطاعون ، واذا كثر الكذب وقع الهرج » .

* * *

وفى جماى الآخرة هجم الطاعون بالقاهرة ، وفشا جملة واحدة ، وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، وكانت قوة عمله فى المماليك والعبيد والجوارى والأطفال والغرباء ، ووقع فى هذا الطاعون أمور غريبة وحكايات عجيبة . منها أن الكمثرى بيعت كل رطل بأشرفيين ولا توجد ، وبيعت الواحدة منها باثنى عشر نصفا . ومنها أن انسانا كان معه خمسة أولاد فطعن الخمسة فى يوم واحد وماتوا فى يوم واحد . ومن العجائب أن جماعة كثيرة فروا من الطاعون لما دخل الى مصر ، فتوجهوا الى أماكن عديدة ، فلما ارتفع الطاعون عادوا الى مصر ، ولم يفقد منهم ولا من أولادهم أحد ، فسبحان القادر على كل شىء . ولما كثر الموت عز

وجود البعلبكى ، وآضر ذلك بحال الناس ، وكفنوا موتاهم فى الخام والملحم ، وغير ذلك .

وفيه توفى برسباى الخازندار أحد خواص السلطان والمتكلم على أوقافه ، وكان شابا رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه توفى مغلباى الشريفى ابن الطويل ، وكان لا بأس به ، وهو أحد مقدمى الألوف ، وأصله من ممالبك الأشرف قايتباى .

وفيه توفى جانم بن مصطفى الذى كان نائب قلعة حلب ، ثم بقى مقدم ألف بمصر .

وفيه توفى قيت الساقى أحد العشراوات ووالى القاهرة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى مغلباى الأشرفى أحد الأمراء العشراوات ، وأصله من مماليك قايتباى .

وفيه توفيت بنت أزبك الأمير الكبير زوجة الأمير قانصوه خمسمائة أمير أخور كبير ، وكانت شابة جميلة .

وفيه توفيت أختها بعدها بأيام وكانت بكرا .

وفيه توفى نامق المؤيدى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

* * *

وفى رجب توفيت بنت السلطان قايتباى وكانت تسمى ست الجراكسة ، وكانت شابة جميلة مستحقة للزواج ، وكانت من سريته ، فماتت هى وأمها فى يوم واحد ، وأخرجت قدام نعش ابنتها ، وكانت جنازة بنت السلطان حافلة ، وأخرجت فى بشخانه زركش وقدامها كفارة ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه جان بلاط بن يشبك بتقدمة ألف ، وبعث اليه باليلب . وجان بلاط هذا هو الذى تسلطن فيما بعد . وأنعم أيضا على مملوكه شاد بك بن مصطفى الخوخ الدوادار الثانى بتقدمة ألف ، ثم حضر جانم المعروف بالمصبغة من الشام الى مصر ، فأنعم عليه السلطان بتقدمة ألف بمصر ، وأنعم على كرتباى قريبه بتقدمة ألف ، وقرر ماماى الخاصكى فى الدوادارية الثانية عوضا عن شادبك الخوخ بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر قيت الرجبى فى ولاية القاهرة عوضا عن قيت الساقى بحكم وفاته بالطاعون .

وفيه كانت وفاة الشاب الفاضل على باى بن برقوق نائب الشام ، وكان شابا رئيسا حشما دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان له نظم جيد . ومولده سنة ست وستين وثمانمائة . ومن شعره الرقيق قوله :

عود خيار شنبر ... قد جاءنا بالعجب
أزهاره أبدت لنا ... شمارخا من ذهب

ومما مدحه به المنصورى قوله :

محيا على باى بن برقوق مشرق
كطرة وسنى ليس بينهما فرق
فان يك سباقا الى الفضل والندى
فلا تعجبوا منه فوالده برقو . (ق)

ومن النكت اللطيفة ، قيل وقع بين الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرى وبين سيدى على باى هذا بعض وحشة ، فسطا على سيدى على باى وسماه زلابية مضافا الى اسم شخص من الأتراك كان مضحكا تعبث به الناس ، ويقولون له زلابية فيرجمهم ، فلما أشيع ذلك بين الناس أخذ بعض شعراء العصر هذا المعنى وعمل فى ذلك مداعبة ، وقال :

قد شبهوه بمن يدعى زلابية
وصح تشبيههم والأب برقوق
لكنهم فاتهم فى الوز نسبته
فان اسم أبيه نصفه فوق

* * *

وفيه توفى جكم كاشف منفه ، وشادبك كاشف قليوب ، ومن الخشقدمية جماعة كثيرة منهم : قان بردى الظريف ، وكسباى المحمدى ، واقباى الطويل ، وقانصوه قمر ، واينال الأشقر ، وغير ذلك جماعة كثيرة من مماليك السلطان والأمراء . ومات من العبيد والجوارى والأطفال والغرباء ما لا يحصى عددهم ... وفى أواخر الشهر المذكور تناقص أمر الطاعون وخف بالنسبة لما كان عليه بعد ما جرف الناس جرفا وأخلى الدور من أهلها . وقيل أحصى من مات فى هذا الطاعون بمصر ، وورد اسمه لديوان المواريث خارجا عن الغرباء ومن لم يرد اسمه الى الديوان ، فكانوا زيادة عن مائتى ألف ، فمن ذلك بنات بكر اثنا عشر ألف بنت من مصر والقاهرة والضواحى . وقد قال القائل فى المعنى :

زالت محاسن مصر فى ... عينى من هم ودهش
كادت بنو نعش بها ... أن يلحقوا ببنات نعش

وقال الشيخ بدر الدين الزيتونى العوفى هذا الزجل يرثى به أهل مصر لما وقع الطاعون بها وهو :

وحد ومن قد حكم بالموت
ونفد حكمه بما يختار
واحتجب عن العيون سبحان
جل من لا تدركو الأبصار

* * *

بالممات رب البشر لما
قد حكم فى الكاينات باجمع
اختفوا فى ذا الوجود وأضحوا
ما لهم من ذا القضا مدفع
جا أخذ منهم ملاح كانوا
شبه أقمار البدور طلع

* * *

فاندبوا ياأهل الحمى وابكوا
واجعلوا دمع العيون مدران
واحزنوا على الذين ماتوا
واختفوا عن أعين النظار

* * *

كنت أجد أقمار بدور طلع
وشموس تشرق على الأطلال
حسنهم سما وقد كانوا
فى هنا بالجاه وكتر المال
جا الممات سرعه وعاندهم
اختفوا حين عاينوا الأهوال

* * *

وبقوا تحت الثرى غياب
بعد ما كانوا يروا أجهار
يا أسف قلبى وطول حزنى
عنى قد غابت شموس واقمار

* * *

حين أتى كأس الممات للناس
وبقى ما بينهم داير
وسقاهم فى القسام شربه
حتى صار فى سرهم ساير
أصبحوا فى حضرتو غياب
بعد ما كان كل أحد حاضر

* * *

سكروا فى حضرة الساقى
لما كاس الموت عليهم دار
وبقوا ندمان وقد غابوا
من شراب ما هو خمر خمار

* * *

ركب الطاعون وقد طلب
وحل فى عسكر الأطفال

كم جـرح قلوب وكـم أفنى
من جمـوع لمـا عليهـم مالْ
كم ترك مطعون يقى مطـروح
كم كسر شـجعان وكم أبطـالْ
* * *
كم رأيت مقتول بذى الوقعـة
بعـد كسرو ما يجـد اجبـارْ
والقضـا فرّق جمـوع الناس
كنْ كان فى أيدى القضا بتـارْ
* * *
كم رأيت ملسـوع بسم الموت
قد لسـع ولا يجـد ترياقْ
كم رأيت منصـاب من افعـالو
جت اليه آفـة بلا تسـاقْ
كـم رأيت ثكلى وهى حيـة
شـعرها ناشر من الأشـواقْ
* * *
كـم رأيت فارس بـقى ملقى
بعد ما كان فى الوجود سيارْ
كم رأيت من دار خلاها الموت
ما تـرك فيهـا ولا ديـارْ
* * *
يا فهيم انظـر لدى الدنيـا
كيف بقت تحكى لنـا بسـتانْ
والبشر قد آصـبحوا فيهـا
كأنهم آثمـار على الأغصـانْ
ومليـك المـوت بأمـر الله
قد بقى فيهـا شـبيه جنـان
* * *
كلمـا انتهى الى واحـد
وبلغ حـدو الى المقـدار

جا اليـه بأمر الذى أنشـاه
قطعـوا من بـين دى الأعمـار
* * *
نسـألك يا رب يا رحمـن
يا الله يا أول ويا آخـر
يا لطيـف بالخـلق يا حـافظ
يا عليـم بالـذنب يا غـافر
يا بصـير يا فـرد يا واحـد
يا سـميع يا حـق يا قـادر
* * *
ارفع الطـاعون بجـاه أحمـد
المجيـد صـاحب الأنـوار
وانـزل الرحمـة ومتعنـا
بالرضـا والعفـو يا سـتار
* * *
وأنا العـوفى ولى أزجـال
من نظام تحكى عقـود جوهر
كلمـا كررتهـا تحـلو
ما أحسن السـكر اذا تـكرر
فاسمعوا لى ما أقول واصـغوا
يا جميـع من حـل دا المحضر
* * *
وحـدوا من قد حكم بالموت
ونفـذ حكمـه بمـا يختـار
واحتجب عن العيون سـبحان
جـل من لا تدركو الأبصـار
* * *

وفى شعبان ارتفع الطاعون عن مصر والقاهرة جملة واحدة ومشى نحو بلاد الصعيد .

وفيه توفّى الشيخ شـمس الدين الحمصانى محمد بن أبى بكر بن محمد القاهرى الشـافعى الكاتب المجيد ، وكان عالما فاضلا عارفا بالقراءات

السبع . وكان امام جامع ابن طولون ، وكان خيرا دينا لا بأس به ، ومولده سنة عشر وثمانمائة .

وفيه توفى محمد العجمى الذى كان مقيما بجامع كراى وكان من أولياء الله تعالى مشهورا بالصلاح .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفنش صاحب قشتيلة الفرنجى قد ملك غرناطة التى هى دار مملكة الأندلس وكانت هذه الواقعة من أعظم الوقائع المهوله فى الاسلام .

* * *

وفى رمضان قرر ناصر الدين محمد الصفدى فى وكالة بيت المال وحصل منه الظلم والعسف فى النـاس .

وفيه ثارت فتنة بين المماليك الجلبان بسبب تفرقة الأقاطيع التى توفرت عن المماليك الذين ماتوا بالطاعون .

* * *

وفى شوال خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى أمير مجلس ، وبالأول كرتباى قريب السلطان .

وفيه تغير خاطر السلطان على الصاحب قاسم فعزله ، وكان يومئذ ناظر الدولة ، فلما صرف عنها قرر بها عبد القادر الطويل عوضا عن قاسم شغيته .

* * *

وفى ذى القعدة ابتدأ السلطان بتفرقة الأقاطيع المتوفرة عمن مات بالطاعون فى السـنة المذكورة فصار يفرق أقطاع كل من توفى من الطباق لأهل طبقته ، ولا يخرج من ذلك شيئا لغير أهل طبقته . وكانت آغوات الأطباق والمماليك الجلبان يتراصون مع بعضهم بالنوبة ويحضرون ويعرضون ذلك على السـلطان فينعم لهم بذلك ، فمنهم من يكون طبقته فيها اقطاعات كثيرة متوفرة ، ومنهم من يكون فيها شيء قليل فتأخر من المماليك الجلبان جماعة بلا أقاطيع . وذلك الى آخر خرج المماليك فى السنة المذكورة سنة سبع فعرضهم السلطان فيما بعـد وأخرج لهـم أقاطيع كانت متوفرة فى الذخـيرة ، ففرقها على المماليـك الذين لم يخصهم شيء من الاقطاعات المتوفرة من الطاعون ... وصار الديوان يستدعيهم بأسمائهم ، والسلطان يعطيهم ، ويكتب حتى لم يبق من جلبان قايتباى أحـد بلا أقطاع الا الذين استجدوا من بعد الفصـــل ، وكانت الأقطاعات التى فرقت أكثـرها ثلاثون ألفا وأقلها خمسة عشر ألف درهم . والأقطاعات التى توفرت من جماعة المماليك الاينالية فرقها على خشداشينهم الاينالـيـة فوق اقطاعاتهم ، والتى توفـرت من الخشقدمية أعطاها لخشداشينهم من الخشقدمية . وأعطى لبعض خشداشينه وبعض أولاد الناس ممن كان منزلا بالديوان وهو بالطبقة ، أقطاعات خفيفة . واستمرت تفرقة الاقطاعات مدة ثلاثة أشهر .

وفيـه أمر السلطان بتجـديد عمارة الميـدان الناصرى ، وكان أزبك أمير كبير شادا على العمارة حتى انتهى منه العمل .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ونزل أزبك أمير كبير وفتح السد على العادة .

وفيه اختفى تغرى بردى الاستادار وقد تغير خاطر السـلطان عليه . فلما طال اختفاؤه خلـع السلطان على الأمير أقبردى الدوادار وقرره فى الاستادارية عوضا عن المذكور ، مضافا لما بيده .

وفيه فرق السلطان على جميع العسـكر من القرانصة والجلبان وأعطى لكل واحد منهم فرسا

وديعة من موجود الذين ماتوا بالطاعون ، وذلك لأجل كثرة الخيول وقلة الغلمان لخدمتها .

* * *

وفى ذى الحجة جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة الخواجا شمس الدين بن الزمن ، وكان من مشاهير التجار فى سعة من المال ، وله بر معروف . وهو صاحب المدرسة التى ببولاق عند الرصيف ، وكان دينا خيرا وكان لا بأس به .

وفيه توفى شيخ جبل نابلس يونس بن اسماعيل وتوفى يوسف بن برد بك العجمى ، وكان شابا حسنا لا بأس به ، وتوفى على بن الجمجمة الذى كان مقيما بمصر واختتن مع ابن السلطان .

سنة ثمان وتسعين وثمانمائة (١٤٩٢ م) :

فيها ، فى المحرم ، لم يحضر مبشر الحاج وصار الناس فى قلق بسبب ذلك ، وكان المبشر فى السنة المذكورة تانى بك الأبح أحد المماليك السلطانية ، فاعترضه بعض العربان فى أثناء الطريق ، وأعاقوه عندهم أياما .

وفيه توفى برهان الدين بن النعمان المحدث ، وكان انسانا حسنا لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر دمياط بأنه نزل برد تحت الليل فكان قدر كل بردة مثل بيضة النعام ، ونزل بها بردة كبيرة فكانت زنتها خمسة وسبعين رطلا بالمصرى ، فقتل بسبب ذلك بهائم وطيور وغير ذلك ، وكان أمرا مهولا .

* * *

وفى صفر خرج الأمير أقبردى الدوادار الى جهة نابلس ، وخرجت تجريدة الى جهة البحيرة ، وكان الباش عليها الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النوب وعدة وافرة من الأمراء العشراوات والجند .

وفيه عاد الطاعون الى القاهرة ثانيا لكنه كان خفيفا بالنسبة لما قبل ذلك . ومات به جماعة من المماليك والأطفال ، ومن كان فر — قبل دخول الطاعون — من القاهرة فى السنة الماضية .

وفيه أنعم السلطان على مملوكه قانى باى قرا الرماح بامرية عشرة ، ثم بعد ذلك بمدة يسيرة قرره فى نيابة صهيون . وقد سعى فى ذلك بمال له صورة وقانى باى هذا هو الذى بقى أمير آخور كبير فيما بعد .

* * *

وفى ربيع الأول أنعم السلطان على مملوكه أكسباى الشريفى بامرية عشرة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا على العادة وحضر القضاة الأربعة والأمراء .

* * *

وفى ربيع الآخر عين قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير فى امرية الحاج بركب المحمل ، وعين الناصرى محمد بن أزبك أمير كبير بالركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بأنه فى ليلة تاسع عشر صفر سقطت صاعقة عظيمة فى المسجد الشريف ، فأحرقت منه جانبا وتساقطت فى تلك الليلة عدة صواعق خارج المدينة الشريفة ، فلما بلغ السلطان ذلك أمر باصلاح ما فسد من المسجد الشريف .

* * *

وفى جمادى الأولى توفى بركات بن الظريف المقرى وكان علامة فى قراءات الرياسة بالجوق .

وفيه توفى الناصرى محمد بن برد بك ، وهو سبط الأشرف اينال ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكان مفرطا فى السمن جدا ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الخواجا عمر بن غازى وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وكان لا بأس به .

***

وفى جمادى الآخرة خسف جرم القمر جميعه .

وفيه توفى الشهابى أحمد بن برقوق نائب الشام ، وهو أخو سيدى على باى بن نائب الشام ، فكان بينه وبين موت أخيه دون السنة ، وكان شابا حسنا جميلا لم يلتح بعد .

***

وفى رجب ثار جماعة من المماليك الجلبان على السلطان ووقفوا بالرميلة ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، وآل الأمر الى طلب نفقة من السلطان . فمشى بعض الأمراء بينهم وبين السلطان فى ذلك فوعدهم بالنفقة بعد مضى شهر ، فسكن الحال قليلا ، ولكن استمرت الدكاكين مغلقة ، وكذلك الأسواق ... حتى نودى لهم بعد أيام بالأمان والاطمئنان .

وفيه وصل قاصد من عند رستم بن قراملك صاحب العراقين ، وكان ملك العراقين بعد أمور يطول شرحها .

وفيه توفى القاضى نور الدين على بن قاسم أحد نواب الحكم الشريف المالكى وكان عالما فاضلا لا بأس به .

وفيه توفى صندل الحبشى نائب المقدم .

وفيه توفى برسباى أمير جندار وكان قد طعن فى السن .

***

وفى شعبان توفى شاد بك الأشقر المحمدى الظاهرى جقمق ، أحد الأمراء العشراوات ونائب ثغر دمياط وشاد الحجر ، وكان لا بأس به

وفيه عين السلطان قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أحد الأمراء العشراوات بأن يتوجه قاصدا من السلطان الى ملك الشرق رستم أحد أولاد حسن الطويل متولى العراقين . وقد جرى بينه وبين اخوته ما لا خير فيه . حتى تولى بعد أمور وقعت له ، فخرج قانصوه المذكور بعد أيام فى تجمل زائد .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهلها قد رجموا النائب قانصوه اليحياوى ، وقد ثارت بدمشق فتنة كبيرة .

***

وفى رمضان نودى بالصوم بعد ضحوة النهار ، وقد ثبت الهلال بعد طلوع الشمس بثلاثين درجة . وقد أكل غالب الناس فى ذلك اليوم ، ولا سيما العوام ، فثقل عليهم الامساك فى ذلك اليوم بعد الافطار .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة سودون الطويل الاينالى أحد الأمراء المقدمين بدمشق ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة . فخلع على القضاة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على الفقهاء ، ووقع فى ذلك اليوم بحث بين البرهان الدميرى أحد نواب المالكية وبين بعض الطلبة ، فأنكروا على البرهان الدميرى بما أجاب به فى المسألة ، وكان الختم حافلا جدا .

***

وفى شوال كان وفاء النيل المبارك ووافق ذلك ثانى عشر مسرى القبطى ، وتوجه أزبك أمير كبير وفتح السد على العادة .

وفيه خرج الأمير قانصوه خمسمائة بركب المحمل ، والناصرى محمد بن أزبك أمير كبير بالركب الأول ، فكان لهما بالقاهرة يوم مشهود . وطلب الأمير قانصوه ذلك الطلب الذى تقدم ذكره فى التجريدة . ومن غريب الاتفاق أن النيل أوفى

وغالب الناس فى بركة الحاج مشغولون بالحجاج . فلما بلغ أزبك وفاء النيل حضر تحت الليل حتى فتح السد وعاد .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة الشيخ المحدث الواعظ برهان الدين ابراهيم بن الحموى رحمه الله ورضى عنه ، مات بطريق الحجاز قبل وصوله الى العقبة ودفن هناك . وكان عالما فاضلا محدثا بارعا فى الحديث ، وكان دينا خيرا من أهل الصلاح ، ومولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه خلع السلطان على داود بن سليمن من أولاد ابن عمر أمير عربان هوارة ، وقرره فى امرية الوجه القبلى ببلاد الصعيد .

* * *

وفى ذى الحجة توفى ابن العبيسى ناظر الأحباس وهو عبد العزيز بن محمد بن محمد بن أحمد العبيسى الشافعى ، وكان رئيسا حشما محمود السيرة لا بأس به ، وتوفى السيد محمد الشريف القادرى أخو زين العابدين ، وكان لا بأس به .

سنة تسع وتسعين وثمانمائة (١٤٩٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، وصعد أيضا الشيخ جلال الدين الأسيوطى . فلما جلس سأله السلطان عن أى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يفعلها ، فلم يجبه الشيخ جلال الدين عن ذلك بشىء مع غزارة علمه وقوة اطلاعه . وكان السلطان عنده كتاب يسمى حيرة الفقهاء ، ثم أجاب الشيخ جلال الدين بعد ذلك بجواب حسن كاف فى هذه المسألة بأنه قصد بذلك الأذان فانه سنه ولم يفعله ، والأصح أنه أذن فى وقت وورد فى ذلك حديث . وعمل فى هذه المسألة كراسا مطولا ، وذكر فيه أشياء كثيرة مما سنه النبى صلى الله عليه وسلم ولم يفعله .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من مماليكه بامريات عشرة ، منهم ماماى جوشن ومصرباى أخو مغلباى وبرسباى العلائى واسنباى الأصم وآخرون .

وفيه وصل الحجاج ولم يثنوا على قانصوه جميلا ولا حمدت سيرته فى هذه السفرة ، وحكوا عنه أمورا غير صالحة ، فانه رمى الناس وأخذ جمالهم ، وترك جماعة منهم بالينبع ، حتى أتوا من البحر الملح فيما بعد . وشال له الحجاج راية سوداء وهم داخلون البركة . وما لاقى الحجاج فى السنة المذكورة خيرا . وكانت سنة صعبة على الناس من الغلاء ، وموت الجمال ، واستمر قانصوه خمسمائة فى عكس ، ولم ينجح أمره من بعد ذلك ، حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه توفى الشيخ جمال الدين يوسف بن جاهين الكركى سبط الحافظ ابن حجر القاهرى الشافعى ، وكان عالما فاضلا محدثا رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان تغلبوا على الكرك والشوبك ، وحصل هناك فتن مهولة .

* * *

وفى صفر نزل ابن السلطان من القلعة فى موكب حافل وتوجه الى داره التى أنشأها له السلطان على بركة الفيل فأقام بها ساعة ثم عاد الى القلعة . وهذا أول ظهوره للناس ونزوله الى المدينة . وكان معه أقبردى الدوادار والجم الغفير من الجند . وكان نزوله سببا للانفاق على الجند لكل واحد منهم خمسون دينارا ، وسموها نفقة نزول ابن السلطان . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لكى يشاع ذلك بحضرته .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة أزدمر المسرطن نائب

صفد الظاهرى جقمق ، وكان من أعيان الأمراء جليلا سليم الفطرة ومات وهو فى عشر الستين .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة أزدمر نائب حلب قريب السلطان وكان انسانا حسنا لا بأس به . وتولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة طرابلس ، ونيابة صفد ونيابة حلب ، وامرية مجلس بمصر ، وغير ذلك من الوظائف والنيابات ، ومات وهو فى عشر الستين . وكان فى أوائل عمره فى قلة وخمول ، وأقام على ذلك دهرا طويلا . فلما تسلطن السلطان قايتباى ظهر أنه من قرابته ، فجاءت اليه السعادة بغتة فأقام فيها مدة ومات . وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وهو أزدمر بن مزيد . ثم بعد موته أرسل السلطان خلعة الى اينال السلحدار نائب طرابلس ، ونقله الى نيابة حلب عوضا عن قريبه أزدمر بحكم وفاته . وكان اينال هذا تولى نيابة صفد أيضا بعد أزدمر المسرطن وقتل فى واقعة قبردى الدوادار لما سافر الى حلب .

* * *

وفى ربيع الأول توفيت خوند بنج زوجة الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة كبير وكانت زوجة تنم المؤيدى نائب الشام وكانت من مشاهير الخوندات وهى والدة سيدى فرج الماضى ذكر وفاته ، وكانت لا بأس بها ، وكانت تقرب للملك الظاهر جقمق .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه توفى الشيخ أحمد بن زروق المغربى المالكى وكان من أهل الصلاح والدين .

وفيه قبض السلطان على بدر الدين الاينالى نائب جيش الشام فضربه بالمقارع بين يديه وأمر بقطع لسانه حتى شفع فيه بعض الأمراء فعوفى من ذلك ، ولم يكن له ذنب يوجب ذلك ولكن خرج خلق السلطان فى ذلك اليوم جدا .

* * *

وفى ربيع الآخر توفى القاضى تاج الدين ابن الامام وهو محمد بن أحمد بن محمد الامام ، وكان أحد نواب الحكم من الحنفية ، وكان غير مشكور فى قضائه وعنده خفة ورهج كما قال فيه الشهاب المنصورى :

قالوا علا التاج وهو فاض
فقلت ياضيعة الحقوق
غايته أنه تويج
ملقى على مفرق الطريق

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأنه سقط بها ثلج حتى عم الأسطحة والشوارع مثل ثلج الشام ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه عين السلطان أزدمر تمساح أمير حاج ركب المحمل ، وعين الناصرى محمد بن العلائى على ابن خاص بك أمير الركب الأول ، وعين يشبك الأشقر باش المجاورين بمكة المشرفة .

وفيه عين السلطان الأمير ماماى بن خداد الدوادار الثانى بأن يتوجه رسولا الى ابن عثمان ، وقد توجه قبل ذلك مرة أو مرتين ، وهذا آخر قصاد السلطان الى ابن عثمان ، فشرع ماماى فى عمل برق عظيم وصنع له دركا ببركة الرطلى فى زمن الشتاء ، وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة ، وهرعت الناس الى هناك بسبب الفرجة ، وعمل الجسر ، وسكن به الناس أياما فى قلب الشتاء ، حتى عد ذلك من النوادر . وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل ، ومغانى عرب ، أو ابن رحاب المغنى ، أو جوق المحبظين ، وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة ، حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد ، وأقاموا على ذلك نحوا من

عشرين يوما ، ثم سافر الأمير ماماى ، وخرج فى تجمل زائد ، وموكب حافل فتوجه الى بلاد ابن عثمان .

وفيه تغير خاطر السلطان على فيروز الطواشى الزمام وأمر بسجنه فسجن فى البرج الذى بالقلعة أياما حتى شفع فيه وأطلق ، وسبب ذلك أن شهاب الدين الكخيتى رافع فيه عند السلطان فتغيظ عليه .

* * *

وفى جمادى الأولى أمر السلطان بتجديد عمارة باب القرافة فعمره ، وأنشأ هناك الربوع والسبيل وجاء من أحسن البناء ، ثم بعد مدة يسيرة أنشأ جامعا بخطبة خارج باب القرافة فعمره ، فجاء فى غاية الحسن ، وحصل به النفع للناس .

وفيه قرر برد بك الطويل فى دوادارية السلطان بدمشق ، وقرر برسباى الصغير فى الحجوبية الثانية .

وفيه توفى القاضى محيى الدين بن مظفر ، وهو عبد القادر بن محمد بن أحمد بن على بن مظفر أحد نواب الحكم الشافعى وكان عالما فاضلا رئيسا حشما محمود السيرة فى قضائه وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ الصالح سيدى على الجبرتى ، مقيما بالجامع الأزهر ، مات فجأة وهو بالحمام وكان رجلا مباركا .

* * *

وفى جمادى الآخرة كان الحريق المهول بالقلعة فى حواصل السلطان التى عند قاعة البحرة ، وكان فيها خيام كثيرة فاحترق غالبها ، ولعبت فيها النار ولم يسلم منها شىء سوى خيمة المولد الشريف فقط ، فقومت الخيام التى احترقت فكانت نحوا من مائتى ألف دينار ، وقيل بل أكثر من ذلك ، ولم يعلم سبب وقوع النار هناك ، فقام السلطان بنفسه وبقى يطفىء الحريق مع المماليك ، فأقامت النار تعمل هناك ثلاثة أيام ، فلما طلع النهار صعد الأمراء الى القلعة وصاروا يسلمون على السلطان بسبب ذلك الحريق ، وقد تأثر السلطان لذلك ، وشق عليه حرق تلك الخيام ، وشرع كل من طلع اليه من الأمراء يشكو له بأنه لم يبق عنده من الخيام شىء . فصارت الأمراء كل من كان عنده شىء من الخيام الجدد يقدمه للسلطان ، ففعل ذلك الكثير من الأمراء والمباشرين ، ثم أشيع بعد ذلك أن النار كانت من مطبخ بيت الخليفة ، وكان الخليفة ساكنا بالقلعة داخل الحوش بجوار قاعة البحرة ، فعند ذلك رسم السلطان للخليفة بأن ينزل من القلعة ويسكن بالمدينة . وما حصل للخليفة خير بسبب ذلك ، ونزل هو وعياله من القلعة وسكن بالقاعة التى بطريق السيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها . وكانت اشاعة النار بأنها من مطبخ الخليفة باطلة ليس لها صحة ، وانما ذلك كلام الأعداء فى حق الخليفة .

وفيه خسف جرم القمر خسوفا تاما حتى أظلمت الدنيا وأقام فى الخسوف نحوا من ثلاثين درجة .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع الغلاء المهول حتى مات من أهلها نحو من ألفين وخمسمائة انسان من شدة الجوع ، وأكلوا الجيف والميتات .

وفيه أمر أزبك الأمير الكبير بتجديد عمارة المدرسة المنصورية التى بدهليز البيمارستان وعمل على الفسقية التى بها قبة ، وجدد بها منبرا ، وأقام بها خطبة ولم يعهد قبل ذلك أن أحدا من الأتابكية قبله أقام بها خطبة ، فعد ذلك من النوادر ولقد رام الأتابكى أيتمش البجاسى فى دولة الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتين وثمانمائة أن يفعل

ذلك فتعذر عليه وآفتاه بعض العلماء بأنه لا يجوز له ذلك وأن فيه مخالفة لشرط الواقف . فرجع عن ذلك فلما تولى الأتابكية تمراز الشمسى بعد آزبك أبطل الخطبة منها . فلما قتل تمراز وأعيد آزبك الى الأتابكية ثانيا أعاد بها الخطبة ، واستمرت الى الآن .

وفيه ثارت ريح مزعجة حتى ارتاع الناس منها ، فلما أصبح الناس اجتاز بعض الناس بالكيمان التى خلف المجراة فرأى فى الأرض أثر قدم انسان فكان طوله فوق الذراع ، وقد أثر ذلك فى التراب خلف المجراة ، فأشيع ذلك بين الناس ولا يعلم ما سبب ذلك .

***

وفى رجب كانت وفاة الشيخ صلاح الدين الطرابلسى ، وهو محمد بن محمد بن يوسف الحنفى ، وكان عالما فاضلا مفتيا بارعا فى فى مذهبه ، وتولى عدة مدارس ، ثم تولى مشيخة المدرسة الأشرفية التى تجاه سوق الوراقين ، ومات وهو فى عشر الستين ، وكان لا بأس به .

وفيه قدم شخص من ماردين يقال له نور على وقد فر من رستم صاحب العراقين لذنب أوجب ذلك ، فانتمى الى سلطان مصر ، فلما حضر أكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه . وأقام بمصر مدة طويلة حتى توفى الأشرف قايتباى ففر الى بلاده .

وفيه توفى يشبك قرقماس الحسينى الأشرفى برسباى أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

***

وفى شعبان أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية لبرهان الدين الكركى الامام عوضا عن الصلاح الطرابلسى بحكم وفاته .

وفيه كانت وليمة عرس الأمير جان بلاط على ابنه القاضى كاتب السر ابن مزهر ، وهى أخت البدرى كاتب السر ابن مزهر وكان مهما حافلا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب تونس ومدينة افريقية وهو زكريا بن يحيى بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبى فارس الحفصى ، مات بالطاعون ، فلما توفى قرر ولده عمر فى مملكة افريقية عوضا عن أبيه زكريا .

***

وفى رمضان رخص سعر البطيخ العبدلى حتى بيع كل حمل بنصفين فضة ، ولولا المكس لبيع كل حمل بأقل من ذلك ، وبيع فى الحوانيت كل قنطار بنصفين فضة .

وفيه كانت وفاة العلائى على بن خاص بك صهر السلطان ، وهو على بن خليل بن حسن خاص بك التركى الأصل ، وكان رئيسا حشما دينا خيرا من أعيان أولاد الناس ، وقد كبر سنه وشاخ ، ومولده قبل الثلاثين والثمانمائة ، وكانت جنازته حافلة وأخرج بكفارة ، ونزل السلطان وصلى عليه فى سبيل المؤمنين ، ومشت قدامه الأمراء للتربة ، وكان له اشتغال بالعلم وكان ينظم الشعر وله شعر جيد فمن ذلك قوله فى مؤذن :

ومؤذن فى حسنه   أنا مغرم لا أصبر
لما طلبت وصاله   أضحى على يكبر

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية ، منهم طوغان باى الثور وتمر القصير الذى بقى زرد كاش ، ثم بقى مقدم ألف ، وقايتباى الأشقر ، وآخرون .

***

وفى شوال كان عيد الفطر يوم الجمعة ، ولهج غالب الناس بزوال السلطان عن قريب ، وما ذاك الا أن العيد كان يوم الجمعة ويخطب فى ذلك اليوم خطبتان ، ويدعى للسلطان فى ذلك اليوم مرتين ، فلهج الناس بأن فيه كمال سعد السلطان ، وهو

وجه العلة فى هـذه المسألة . وقد جاء فى أيام الأشرف قايتباى خمسة أعياد بالجمعة ولم يضره ذلك . ومكث هـذه المدة الطويلة ولم يؤثر فيـه ذلك شيئا . فمن ذلك كان عيد الفطر بالجمعة سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ، وعيـد قطر بالجمعة أيضا سـنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر بالجمعة سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، وعيد نحر أيضا بالجمعة سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وعيد فطر أيضا سنة تسع وتسعين وثمانمائة ، فهـذه خمسة أعياد قد مرت عليه وهى بالجمعة وهو ثابت فى مملكته لم يتزحزح عن ملكه منذ ثلاثين سنة الا أياما وأشهرا ، فكان كما يقال :

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله
فالله يفعل ... لا جدى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر
فلا يضرك مريـخ ولا زحل

وفيه توفى الأديب الفاضل محمد بن شـادى خجا المحمدى ، وكان شاعرا ماهرا وله نظم جيد فائق فى المعانى . ومن شعره الرقيق قوله :

ما حيلتى فيمن بنى فى الحشا
بيتـا من الحب لواش وشى

رشـا له لحظ اذا مارنا
أنساك فيه الغى عين الرشا [1]

ومولده بعد الخمسين والثمانمائة ، ومما قاله فيه الشهاب المنصورى من المديح وأجاد :

أنت شـاد بنغمـة الشحرور
فى رياض المنظـوم والمنثـور

وادكارى بالعنبر الرطب منـه
ضـائع عنـد طيب ذاك العبير

عجبـا لى مكاتب ورقيـق
مع أنى أحتـاج للتـدبير

يا ابن شاد مذ صار مدحك ذكرى
قلت انى من حسنه فى قصور

وفيه خرج المحمل من القـاهرة وكان أزدمر تمساح بالمحمل واينال الفقيه بالأول .

وفيـه توفى تانى بك الخـازندار ، وكان من خواص السلطان لا بأس به .

وفيـه قرر فى قضـاء الحنابلة بسكة المشرفة الشيشى ، وهو قاضى قضاة الحنبلية الآن بمصر .

وفيه توفى جانى بك المحمودى الظاهرى جقمق خنداش السلطان . وكان من الأمراء العشراوات ، ورآى غاية العز فى أيام السـلطان قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيـه توفى الشيخ أبو الكرم المغربى ، وكان فاضلا فى علم الفلك ومعرفة أحواله .

***

وفى ذى القعدة توقف النيل عن الزيادة أياما حتى قلق الناس لذلك وارتفع سعر الغـلال ، وتكالب الناس على شراء القمح والشـعير وغير ذلك من الغلال ، واستمر النيـل واقفا وربما نقص الذى كان زاده . ثم بعث الله تعالى بالزيادة واستمر حتى كان الوفاء ، وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه وهو قول ابن صادق :

قلعت أصـابع نيلنـا عين الذى خزن الغلال
وغدت تقول النقص كان على الوفـا قطعا وزال

وقال شيخنا عبد الباسط الحنفى :

النيـل وفى ووفى مبشرا بالمنافـع
وخازن القوت عينيـه قلعت بالاصابع

وفيه كان الوفاء فى آخره ، وحصل للناس غاية الجبر بكسره ، بعد أن كان قد نقص وأيس الناس من طلوعه فى السـنة المذكورة ، فتوجه أمير كبير أزبك وفتح السـد على العـادة ، وكان يوما مشهودا .

---

(1) الرشا ...

وفيه توفى عبد العظيم أحد كتاب المماليك . وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الاخبار بوفاة يشبك بن حيدر نائب حماه ، وكان أصله من مماليك الأشرف اينال ، وتولى عدة وظائف سنية منها ولاية القاهرة والأمير آخورية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف بمصر ثم بقى نائب حماه وكان لا بأس به ، ومات وهو نائب حماه ودفن بها . فلما مات يشبك خلع السلطان على أقباى الطويل وقرره فى نيابة حماه عوضا عن يشبك بن حيدر بحكم وفاته .

وفيه من الحوادث أنه وقع واقع وهو مقطع بالجبل المقطم على جماعة من الحجارين فماتوا تحته . ومن المماليك ثلاثة أنفار كانوا هناك بسبب النقارة . ومات تحت الواقع عدة جمال وحمير كانت هناك لأجل حمل النقارة . وكان وقع على حين غفلة وكان أمرا مهولا . ومن العجائب ان شخصا من المماليك الذين كانوا هناك ووقع الواقع عليهم تصلب عليه شىء من الأحجار فأقام تحت الردم ثلاثة أيام ، فعمل له نقب وخلصوه وهو فيه الروح وعاش بعد ذلك مدة طويلة .

* * *

وفى ذى الحجة فتح الاتابكى أزبك سد بركه الأزبكية وكان يوما مشهودا . ثم بعد أيام صنع وقدة حافلة وحراقة نفط ، وعزم على ابن السلطان ، فنزل اليه وبات عنده فى القصر المطل على البركة ، ومد له أسمطة حافلة ، وقدم له تقادم حافلة ما بين مماليك وخيول وقماش وغير ذلك ، ثم طلع ابن السلطان الى القلعة فى اليوم الثانى أواخر النهار ، ولم ينزل ابن السلطان من المدينة سوى ذلك اليوم من منذ نشأ ، وكان مقيما بالقلعة لم ير البحر قط .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب سمرقند وهو الملك المعظم أحمد بن أبى سعيد ، فلما مات تولى على سمرقند بعده أخوه محمود صاحب بلخشان .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب فرغانة من بلاد المشرق وهو عمر بن أبى سعيد ، وكان فيه الخير والعدل فى الرعية ، ولما مات تولى من بعده على مدينة فرغانة أخوه أحمد .

سنة تسعمائة (١٤٩٤) :

فيها ، فى المحرم ، صعدت القضاة الأربعة الى القلعة للتهنئة بالعام الجديد ، فلما جلسوا أمر السلطان بعقد مجلس فى المدرسة الصالحية بسبب شمس الدين ابن الطواى المغربى القاضى المالكى بدمشق ، وكان قد حضر الى القاهرة لأمر أوجب ذلك .

وفيه انتهى العمل من تجديد عمارة الجامع الأزهر ، وقد جدده الخواجا مصطفى بن محمود ابن رستم الرومى وصرف عليه من ماله نحوا من خمسة عشر ألف دينار ، وجاء غاية فى الحسن وهو على ما جدده به الآن .

وفيه تغير خاطر السلطان على شخص يقال له شمس الدين محمد بن عمران المقدسى ، وكان رفيقا لأحمد الحسينى فضرب بين يديه ضربا مؤلما مما أطاق ذلك ومات بعد أيام قلائل .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار بوفاة يونس الاشرفى حاجب دمشق ، فلما مات قرر فى حجوبية دمشق قانى بك نائب غزة عوضا عن يونس المذكور .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن الحج الشامى لما رجع الى الشام خرج عليهم فى أثناء الطريق طائفة من عربان بنى لام فاحتاطوا على الركب جميعه ، وسبوا الحريم ، ونهبوا الأموال وأسروا أمير الركب

أركماس ، وكان أمرا مهولا ، فتنكد السلطان وانزعج لذلك .

وفيه توفى كسباى بن آزبك الساقى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الأول توفى القاضى نور الدين الصوفى الحنفى أحد نواب الحنفية . وكان رئيسا حشما لا بأس به ، وكان من أعيان الناس .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا على العادة .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق وأخذ منه أشياء كثيرة من القماش والأمتعة ، وقتل تحت الليل جماعة من أرباب الدرك .

وفيه توفى يشبك بن قصروه المعروف بيشبك سحاب ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على كرتباى أخى الأمير آقبردى الدوادار وقرره فى نيابة صفد .

وفيه توفى جانى باى الحسنى الظاهرى جقمق أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الأولى قرر عفيف الدين بن الشحنة فى قضاء الشافعية بحلب ، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

وفيه قرر مصرباى بن على باى فى نيابة قلعة حلب .

وفيه تعين تانى بك الجمالى فى امرية الحاج بركب المحمل وعين كرتباى ابن أخت السلطان فى امرية الركب الأول .

* * *

وفى جمادى الآخرة توفى الأمير أزدمر تمساح ابن يلباى الظاهرى جقمق أحد المقدمى الألوف . وكان رئيسا حشما محمود السيرة ولا سيما فى سفر الحجاز . وقد سافر أمير حاج بركب المحمل عدة مرار والناس عنه راضون والثناء عنه جميل .

وفيه توفى الصاحب قاسم شغيته . وكان من الأعيان ، وتولى نظر الدولة والوزارة غير ما مرة ، وجاء فى الوزارة على الوضع ، وكان كفؤا للمنصب ، سائرا بالسداد ، منقادا فى مباشرته ، وجرى عليه شدائد كثيرة ومحن ومات وهو فى التوكل به ... وربما قيل انه كان فى الخشب حتى مات ، وباشر ديوان الوزارة مدة طويلة وآل أمره الى أن مات شر ميتة . نقل بعض المؤرخين أن قاسم هذا كان فى مبتدأ أمره خبازا وأن صلاح المكينى أشهره فى القاهرة لما كان محتسبا ، ثم ان قاسم هذا صار من جملة صيارف اللحم ، فلما قرر شمس الدين محمد البباوى تحشر فيه وصار من جملة المباشرين بالدولة ، فلما غرق البباوى تكلم فى الوزارة هو وعبد القادر الطويل ، ثم ان قاسم راج أمره وترشح للوزارة حتى استقر بها وصار من أعيان الرؤساء بمصر ، وباشر الوزارة أحسن مباشرة ، وتتج فى السداد بها وقد قيل فيه :

وكم سيد يستوجب الرفع قدره
غدا شاكيا من لحن ألفاظه خفضا
وكم جاهل يدعى رئيسا لقوة
كذلك الخصى يدعى رئيسا من الأعضا

* * *

وفى رجب كانت وفاة القاضى شرف الدين يحيى بن البدرى حسن ناظر الأوقاف ، وكان رئيسا حشما ، لكنه أظهر للسلطان نتيجة وعادى الناس قاطبة ولا سيما الأتراك بسبب ماقرضه على البلاد

لأجل الحسن كما تقدم ذكر ذلك ، ونهب المماليك داره فى بعض الركبات واستمر فى عكس الى آن مات . ولم يبق أحد عليه حيرا فى مدة ولايته لنظار الأوقاف كما يقال :

يولاها وليس له عدو

ويفارقها وليس له صديق

وفيه توفى قاضى بولاق بن قرقماس أحد نواب الحنفيه . واسمه عبد القادر بن أحمد بن على بن محمد بن أبى بكر الدماصى . وكان يعرف بابن قرقماس ، وكان من اعيان الحنفية مشكور السيره فى قضائه وكان لا بأس به .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصريه حتى بيع كل عشرة أرادب قمح بثلاثه دنانير . حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه توفى الطواشى سرور شاد الحوش ، وكان عنده شموخ زائده وعسف وظلم.وهو الذى أحدث بالقلعة السجن المسمى بالعرقانة من داخل الحوش ، وكان يحبس فيها من يختار من أصحاب الجرائم . واستمر بعده الى الان يسجن به .

وفيه توفى المسند عبد القادر بن الزيات المناوى ، وكان لا بأس به .

وفيه تغيظ السلطان على ولده الناصرى محمد وألبسه زنطا حبقيا وكبر حام ونزل به الى طبقة الرماح . وقال لأغاة الطبقه نوروز المجنون : « دعه يكنس الطبقه ويقعد على السفرة آخر المماليك ، وان قوى رأسه اضربه علقة قويه ، وعامله معاملة المماليك الجلبان » ... فأقام فى الطبقة أياما حتى طلع الأتابكى أزبك وشفع فيه ، واستمر عنده ممقوتا حتى مات .

* * *

وفى شعبان وصل الى القاهرة شخص جركسى ، وهو جلب قح وقد جاوز الستين سنة من العمر ، ومعه اثنان من الأولاد وهما شباب ملاح الهيئة ، فذكروا أن ذلك الشيخ أخو السلطان ، وأنه ببيع ببلاد الفرنج . وكان مقيما بها ، فلما حضر استسلمه السلطان وسماه قيت ، واستسلم أولاده وسمى احدهما جانم والآخر جانى بك ، وأنزلهم بالطبقة ورتب لهم جوامك ، وصاروا من جملة المماليك السلطانيه .

وفيه قدم الى القاهرة شهاب الدين أحمد بن فرفور الدمشقى ، قاضى القضاة بها الشافعى . فلما حضر جرى عليه أنكاد ومحن من السلطان ، وغرم مالا له صورة . حتى استمر فى قضاء الشافعية بدمشق على عادته .

وفيه توفى أحمد حزينات ، وكان أستاذا فى فن الموسيقى . وعنده فكاهة وحسن محاضرة .

وفيه أشيع الخبر بموت الجمجمة بن محمد بن عثمان ملك الروم بنابل من بلاد الفرنج . وجرى عليه أمور يطول شرحها ، ومات وهو فى أسر الفرنج . وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه غرقت معدية بساحل بولاق فمات بها كثير من الناس من رجال ونساء وأطفال وبهائم .

* * *

وفى رمضان توعك السلطان فى جسده حتى أرجف بموته . ونسب الى قانصوه خمسمائة فى مدة توعك السلطان أنه تقحم على السلطنة فمنع من الدخول على السلطان فى مدة انقطاعه . ثم ان السلطان حصل له الشفاء ونودى فى القاهرة بالزينة واستمرت الزينة أياما فى شهر رمضان حتى تعطلت الناس عن البيع والشراء .

وفيه أقيمت الخطبة بالجامع الذى أنشأه الأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة كبير بدرب البابا .

وفيه توفى تغرى برمش الاينالى أحـد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

* * *

وفى شوال ليلة عيد الفطر خرج الأمير قانصوه خمسمائة مسافرا الى بعض بلاده ، ولم يحضر موكب العيد فكثر القال والقيل فى ذلك اليوم ، وكان سفره برأى السلطان ، فلما كان يوم العيد ثارت فتنة من المماليك الجلبان ، وركب الكثير منهم فى ذلك اليوم ، وتوجهوا الى دار قانصوه خمسمائة ونهبوا ما فيها . وأحرقوا بعض أماكن بها وأخربوا غالبها ، وهى الدار التى أنشـأها فى قناطر السباع المطلة على الخليج الحاكمى . وكان الذى أثار الفتنة طائفـة من المماليك من عصبة أقبردى الدوادار فحصـل الاضطراب فى ذلك اليوم ، ثم سكن الحال قليلا .

وفيه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمـل تانى بك الجمالى ، وبالأول ابن أخت السلطان .

وفيـه توفى القاضى نور الدين على بن داود الصيرفى الاسرائيلى الحنفى أحد نواب الحكم ، وكان من أعيان الحنفية ، وكان يكتب التـاريخ مجازفة لا عن قائل ولا عن راو ، وله فى تاريخه خبطات كثيرة وجمع من ذلك عدة كتب من تأليفه فكان كما يقال :

يا من يقـول بأن فى التـاريخ كتبـا كامله
لك بالأباعر نسـبة لم تدر ما هى حامله

وكان مولده سنة سبع عشرة وثمانمائة . وكان لا يخلو من فضيلة .

* * *

وفى ذى القعـدة وصل سيف قان بردى نائب قلعة دوركى وكان غير محمود السيرة .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، وتوجه الأتابكى أزبك وفتح السد على العادة وكان هذا آخر فتح أزبك أمير كبير للسد .

وفيه وقع الرخاء بالديار المصرية حتى بيع كل ثمانية أرغفة من الخبز البائت بثلاثة دراهم فلوس حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه ابتدأ بالسلطان توعك فى جسده وظهر عليه أشـاير الموت ، وضرب الكرة فى السنة المذكورة ضربا هينا بالنسبة لما كان عليه قبل ذلك من القوة فسبحان مغير الأحوال .

وفيه توفى سيدى عبد الرحمن البمبى وكان من أولياء الله تعالى .

وفيه توفى أقبردى التماسيحى الظاهرى جقمق وكان من الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه توفى أزدمر بن مراد خجا الأشرفى برسباى ، وكان أحد الأمراء العشراوات وباش مكة ، وكان لا بأس به .

وفيه ظهرت أعجوبة وهى أن امرأة ولدت مولودا صـورته كصوره الفيل وله زلومة سوداء وكان بشع المنظر فمات من يومه

وفيه توفى الطواشى سرور السيفى نائب المقدم وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة صاحب خراسان وهو حسين بن بيمرا بن منصور وبيمرا جده ، قيل انه مات بعله النقرس .

* * *

وفى يوم الخميس مستهل ذى الحجة جرت كائنة عظيمة ، وهى أن قانصوه خمسمائة لما توجه الى اقطاعه فى ليلة عيد الفطر ، كما تقدم ، توجه طائفة من المماليك الى داره ونهبوا ما فيها وأحرقوا غالبها . فلما رجع قانصوه خمسمائة من السفر ، تعمرت القلوب بالعداوة بينه وبين أقبردى الدوادار ، وصارت العداوة كل يوم فى مزيد . فلما كان يوم الخميس المذكور ركب قانصوه خمسمائة ولبس آلة الحرب ، والتف عليه جماعة من أخصائه وخشداشينه ، مثل قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات جملة كثيرة ، منهم : برسباى الخسيف ، وقرقماس الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتباى المبتر أيضا ، وأزبك قفص ، وقيت الرحبى ، وغير ذلك من الأمراء ، والجم الغفير من الخاصكية والمماليك السلطانية ... فلبسوا آلة الحرب وتوجهوا الى بيت الأتابكى أزبك الذى أنشأه فى الأزبكية . فاجتمع هنالك من العسكر ما لا يحصى . فلما بلغ الأمير يشبك الجمالى الزردكاش الكبير ، أن العسكر قد اجتمع عند أزبك حضر عنده ، وكمل هنالك أربعة أمراء مقدمين ، وجاء العسكر أفواجا أفواجا ، ولا بقى يعلم ان كانت الركبة على السلطان أم على الأمير أقبردى الدوادار ؟ فلما اشتد الأمر طلع تانى بك قرا حاجب الحجاب الى السلطان ، ونصحه وخلا به وقال له : « انما هذه الركبة على السلطان وأن العسكر قائمة مع أزبك أمير كبير لأجل قانصوه خمسمائة ، فانه كان صهره » . فلما تحقق السلطان ذلك اضطربت أحواله ، وخشى من اتساع الفتنة ، فنزل وجلس فى المقعد المطل على الرميلة ، وعلق الصنجق السلطانى ، ودقت الكئوسات حربى . ثم نادى للعسكر : « من كان طائعا لله ولرسوله وللسلطان فليطلع الى الرميلة ويقف تحت الصنجق السلطانى » . فلما بلغ الأمراء المقدمين ذلك طلع تمراز الشمسى أمير سلاح ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، وأقبردى الدوادار الكبير ، وأزبك اليوسفى رأس نوبة كبير ، وتانى بك قرا حاجب الحجاب ، وجان بلاط بن يشبك ، وشاد بك الخوخ ، وبقية المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلما بلغ من بالأزبكية من العسكر أن السلطان نادى بأن العسكر يطلعون الى الرميلة ويقفون تحت الصنجق ، صاروا فى الحال يتسحبون من هناك شيئا فشيئا ويطلعون الى الرميلة حتى لم يبق فى الأزبكية الا مماليك الأمراء الذين هناك . فظهرت الكسرة على قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء . وهذه أول حركات قانصوه خمسمائة ، وكان معكوس الحركات فى سائر أفعاله كما قيل :

وأخرنى دهرى وقدم معشرا
على أنهم لا يعلمون وأعلم
فمذ أفلح الجهال أعلم أننى
أنا الميم والأيام أفلح أعلم

فبينما الأتابكى جالس بمقعده ، واذا بالأمير أزبك اليوسفى رأس نوبة النواب دخل اليه ، وصحبته الحاج رمضان المهتار بالطشتخانة ، فقال له : « قم كلم السلطان فى خبر » ، فقام من وقته ، وتوضأ وصلى ركعتين ، وركب وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة بيضاء ، وهو مفكك الأزرار فطلع صحبتهما الى القلعة . فلما رآه المماليك الجلبان ، كادوا أن يقطعوه بالسوف . وقيل ان الأمير أقبردى الدوادار لكمه وشتمه . فلما وقف بين يدى السلطان قام له وأمر بادخاله الى قاعة البحرة خوفا عليه من المماليك الجلبان أن يقتلوه . فلما بلغ قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء ، أن أزبك أمير كبير قد عوقوه

بالقلعة ، ركب وتوجه من على قنطرة الحاجب واختفى من حيث لا يعلم له خبر وكذلك قانصوه الألفى ، وقانصوه الشامى وبقية الأمراء ممن كان من عصبة قانصوه خمسمائة . فلما اختفى الأمراء انفض ذلك الجمع الذى كان بالأزبكية كأنه لم يكن . وكان قانصوه خمسمائة فى السنة المذكورة جدد سور باب السلسلة ، وأنشأ المقعد المطل على الرميلة ، والبيت ، وحوله أبراج موجودة به الى الآن ... ثم ان السلطان نادى للعسكر أن يقلعوا آلة الحرب ، ويتوجهوا الى بيوتهم . ونادى للناس بالأمان والاطمئنان . وسكنت تلك الفتنة .

فلما كان يوم الجمعة صبيحة ذلك اليوم قبض بعض مشايخ العربان على قانصوه الألفى ، وكان قد توجه الى بر الجيزة ، فقبض عليه من هناك ، وأحضره الى بيت آقبردى الدوادار ، فقيده وأرسله الى السجن بقلعة صفد . ثم ان قانصوه الشامى أرسل يطلب من السلطان الأمان ، فأرسل له فى ذلك اليوم منديل الأمان . فلما قابل السلطان خلع عليه وقرره فى نيابة حماه ، ورسم له أن يخرج من يومه الى السفر . ثم ان الأمير آقبردى الدوادار صار يقبض على جماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ممن كان من عصبة قانصوه خمسمائة ، فقبض على قيت الرجبى ، وبرسباى الثور الشريفى ، فقيدهما وتوجهوا بهما الى السجن بالصليبية ، ثم على جماعة آخرين منهم ، وهم : برسباى الخسيف ، وقرقماس الشريفى ، واسنباى المبشر ، وقايتباى المبشر أيضا ، وأزبك قفص ، ولكن فر من أثناء الطريق . وقبض على سودون الفقيه . فنفى هؤلاء الجماعة عن آخرهم . واستمر قانصوه خمسمائة مختفيا ، حتى كان من أمره ما سيأتى ذكره فى موضعه . وقد انتصف أقبردى الدوادار على جماعة قانصوه خمسمائة ، وبدد شملهم ، وفتك فى تلك الأيام

وطاش وخف الى الغاية ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد ، ليس على يده يد ، وكان ذلك من أكبر الفساد فى حقه كما قيل :

كل شيء اذا تناهى تواهى
فانتقاص البدور عند التمام

ثم ان أقبردى الدوادار فرق فى تلك الأيام المذكورة أضحية جزيلة على العسكر ، فكانت تعادل ضحايا السلطان ، من بقر وغنم ، حتى غمر العسكر بالاحسان ، فكان كما يقال فى المعنى :

أنا أسمر والراية البيضاء لى
لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل لى عيش العداة لأننى
نوديت يوم الحرب بالمرّان

هذا ما كان من أمر هؤلاء — وأما ما كان من أمر أزبك أمير كبير ، فانه أقام بقاعة البحرة ثمانية أيام ، فلما كان يوم الجمعة رسم له السلطان بأن يصلى معه بالشاش والقماش على عادته ، فخرج وصلى مع السلطان الجمعة . فلما فرغ من صلاة الجمعة أراد أن ينزل فقيل له ان المماليك واقفة بالرميلة ، ومتى نزلت يقطعوك ويقتلوك لا محالة ، فخاف عليه السلطان وأدخله الى قاعة البحرة . ثم انه اجتمع بالسلطان وقال له : « أنا ما بقى لى اقامة بمصر ، يقتلنى المماليك الجلبان ، وقصدى أتوجه الى مكة المشرفة » ، فأجابه السلطان الى ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن ذى الحجة من تلك السنة نزل الأتابكى أزبك من القلعه وهو راكب على أكديش ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، وعليه ملوطة بيضاء من غير تقييد ، ولا أوجاقى خلفه ، فتوجه الى مكة المشرفة من الطور مسافرا بالبحر ، الى أن يصل الى جدة ، ويرحل من جدة الى مكة المشرفة ، ورسم له السلطان أن يأخذ

ولده يحيى معه الى مكة المشرفة ، وكانت نكبة بغتة على حين غفلة كما يقال :

على قدر فضل المرء تأتى خطوبه
ويعرف عند الصبر فيما يصيبه

ومن قل فيما يتقيه اصطباره
فقد قل فيما يرتجيه نصيبه

وكانت مدته فى الأتابكية نحوا من سبع عشرة سنة وسوف يعود الى الأتابكية ثانيا ، كما سيأتى الكلام عليه

وفيه ، فى ذلك اليوم ، رسم السلطان باخراج شبك الجمالى الزردكاش الكبير ، وأحد المقدمين ، فخرج منفيا الى القدس ، ولم يكن له ذنب غير أنه كان من جماعة أمير كبير ، وحضر يوم الركبة ، فصار له ذنب . وكان يشبك الجمالى من خواص السلطان ، ثم انقلب عليه ، فأقام بالقدس منفيا الى آن مات عن قريب . فكان كما قيل :

يعدون ذنبا واحدا ان جنيته
علىّ وما أحصى ذنوبهم عدًا

وفيه جاءت الأخبار من تونس بأن بها ثارت فتنة عظيمة ، وحصل لعساكر المغرب مقتلة مهولة ، والأمر لله تعالى فى ذلك

سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٥ — ١٤٩٦ م) :

ختمها الله بخير وهى أول القرن العاشر وكان مستهلها بالأحد وهو أول أسابيع الأيام ، وأول افتتاح العالم بالأحد .

ففى المحرم كان خليفة الوقت ، الامام المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز العباسى . وسلطان العصر : الملك الأشرف أبو النصر قايتباى المحمودى الظاهرى جقمق وقاضى القضاة الشافعية : زين الدين زكريا الأنصارى

والقاضى الحنفى : ناصر الدين محمد الأخميمى . والقاضى المالكى : عبد الغنى بن تقى الدين . والقاضى الحنبلى : بدر الدين محمد السعدى .

فمن حوادث هذه السنة أن السلطان أحدث مكسا على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب نصف فضة ، ولم يعهد هذا قبل ذلك وكانت هذه الفعلة من أقبح مساويه . واستمر ذلك فى صحيفته الى الآن .

وفيه قدم على باى نائب الاسكندرية فقرره السلطان فى تقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء المقدمين .

وفيه قدم الحاج وقد قاسى فى السنة المذكورة مشقة زائدة ، ولم يجدوا الماء بنخل . فعرج بهم أمير الحاج ، الى جهة عيون موسى ، حتى وجدوا الماء ، وأخبر بعض الحجاج أنه سمع ، وهو واقف بعرفة ، ما جرى بمصر من ركوب المماليك وغيره من الأول الى الآخر . فعد ذلك من النوادر ، كيف أشيع ذلك بعرفة من غير مخبر أتى هناك .

وفيه قدم للسلطان أترجة غريبة الشكل ، اجتمع فيها سبع عشرة أترجة من أصل واحد ، فكانت بديعة الخلقة جدا .

وفيه عاد الشيخ عبد المؤمن العجمى ، شيخ قبة السلطان التى بالمرج والزيات وكان قد توجه الى ابن عثمان قاصدا عن لسان السلطان ، وصحبته هدية حافلة الى ابن عثمان ، من حملتها قماش فاخر ، وسبع ، وزرافة ، وبيغا حمراء اللون ، وغير ذلك أشياء كثيرة فلما عاد عبد المؤمن أخبر بأن ابن عثمان قد تلاشى أمر عسكره ، وبطلت همته عن محاربة عسكر مصر ، فسر السلطان بهذا الخبر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة صالح الكردى ، حاجب حلب ، وشيخ الأكراد بها ، مات قتيلا .

وفيه جاءت الأخبار من حلب أيضا بقتل محمود ابن أبى سعيد ، صاحب سمرقند ، قتله محمود ابن يونس كان ، صاحب شاس ، وملك من بعده سمرقند . وكان محمود هذا آخر ذرية تمرلنك ، وبه زالت دولتهم كأنها لم تكن . وهو محمود بن أبى سعيد بن أحمد بن ميرزا شاه بن تمرلنك ، وكان من أعيان ملوك الشرق .

وفيه ترشح أمر تمراز الشمسى بأن يلى الأتابكية .

* * *

وفى صفر فى مستهله يوم الاثنين عمل السلطان الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء : فقرر تمراز الشمسى فى الأتابكية ، عوضا عن الأتابكى أزبك بن ططخ ، بحكم نفيه الى مكة المشرفة . وخلع على تانى بك الجمالى ، وقرره فى امرية مجلس عوضا عن تمراز بحكم انتقاله الى الأتابكية . وقرر أزبك اليوسفى فى امرية سلاح ، عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم انتقاله الى امرية مجلس . وقرر تانى بك قرا الاينالى رأس نوبة كبير ، عوضا عن أزبك اليوسفى بحكم انتقاله الى امرية سلاح . وقرر اينال الخسيف فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن تانى بك قرا بحكم انتقاله الى رأس نوبة كبير . وأنعم فى هذا الشهر بتقادم ألف على جماعة من مماليكه منهم : ماماى ابن خداد ، وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، وكرتباى الأحمر كاشف البحيرة ، وقانم قريبه ... وأنعم على جماعة كثيرة ممن هم من عصبة أقبردى بأمرية طبلخانات وعشراوات ، منهم : اقباى الطويل ، وخاير بك الدوادار ، وطقطباى من طبقة الأربعين ، وطقطباى أيضا من طبقة الطازية ، وغير ذلك جماعة كثيرة يأتى الكلام عليهم فى موضعه .

وفيه خلع السلطان على قانى بك الشريفى ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن على باى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه توفى المسند شرف الدين القبانى وكان من أهل الفضل لا بأس به .

وفيه خلع على الأتابكى تمراز وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى ، فتوجه الى هناك فى موكب حافل .

* * *

وفى ربيع الأول خلع السلطان على شمس الدين محمد بن مزاحم ، وقرره فى نظر الأوقاف والأحباس ونظر القرافتين . وكان أصله من طرابلس ، وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، وهذا آخر موالد السلطان قايتباى . ولم يحضر بعد ذلك مولدا .

وفيه خلع على تانى بك قرا وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وقرر برد بك فى امرية الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بوفاة يشبك الجمالى ، الذى تقدم ذكره . وكان دينا خيرا وأصله من مماليك ناظر الخاص يوسف ابن كاتب جكم ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية منها حسبة القاهرة ، والزردكاشية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، وجمع بين الزردكاشية والتقدمة وسافر أمير حاج بركب المحمل غير ما مرة .

وفيه وقع بين الأمير أقبردى الدوادار وقرقماس ابن ولى الدين أميرآخور ثالث ، واستمرت العداوة بينهما تتزايد حتى كان ما سنذكره .

* * *

وفى ربيع الآخر خلع السلطان على شاد بك بن مصطفى المعروف بالخوخ ، وقرره أميرآخور كبير

عوضا عن قانصوه خمسمائة بحكم اختفائه . وقرر برد بك المحمدى الاينالى أمير آخور ثانى . وقرر صولان باى بن عينى الاينالى فى الزردكاشية الكبرى ، عوضا عن بتنبك الجمالى بحكم وفاته بالقدس الشريف بطالا وقرر برقوق الساقى الاينالى فى الحسبة . عوضا عن كسباى وقرر كسباى فى الدوادارية الثانية وكان يعرف بكسباى الشريفى . وقرر مصرباى فى شادية الشراب خاناه . وقرر أركماس الحلبى فى نيابة القلعة وقرر سودون العجمى فى استادارية الصحبة وقرر برد بك بن بير على فى تجارة المماليك ، فخلع السلطان على هؤلاء فى يوم واحد .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة الشريفة ، على ساحبها أفضل الصلاة والسلام ، بأن أمير المدينة وجماعته هجموا على حواصل المال التى بها من قبل النذور ، فاستولى على اثنى عشر ألف دينار ، وأخذ عدة قناديل دهب كانت معلقة بالحجرة النبوية الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وخرج الى جهة العراق فلم يدرك .

وفيه أخبر جماعة من الفلكية بأن زحلا قد اقترن مع المريخ فى برج الجوزاء ، وذكروا أن هذا القران سيقع فيه فتن عظيمة عن قريب ، فأجاب شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى عن ذلك بقوله :

ليس القران بفاعل ... كلا ولا بمؤثر
ان المؤثر من له ... خلق القران ففكر
فالفعل عنه صادر ... كم يا منجم تفترى

وفيه توفى يبغوت قرا بن قنبجق قرا الأشرفى برسباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لابأس به . فلما مات أنعم السلطان بامريته على تانى بك الأبح .

وفيه رخص المغل جدا ، حتى بيع كل خمسة أرادب قمح بدينار ، وبيعت البطة الدقيق بثلاثة أنصاف ، وعم الرخاء سائر البضائع .

* * *

وفى جمادى الأولى رسم السلطان بقطع أيدى ثمانية أنفار ممن يعمل الدراهم الزغل ، وكان فيهم شيخ قد أناف على الثمانين سنة من العمر ، فقطعت أيديهم وشهروا بالقاهرة .

وفيه توفى قايتباى الناظر الظاهرى خشقدم ، وكان من الأمراء الطبلخانات بدمشق .

وفيه أذن السلطان للقاضى بدر الدين محمود ابن آجا بأن يتوجه الى حلب على وظيفته فى قضاء الحنفيه ، وكان قد حج فى العام الماضى .

* * *

وفى جمادى الآخرة نزل جماعة من المنسر على العلائى على بن الصابونى ناظر الخاص ، وكان فى تربته التى أنشأها فى رأس دور الحسينية ، فأخذوا جميع ما كان عنده ، وجرح ابن الصابونى فى يده ، وكانت واقعة مهولة .

وفيه مات ينبك دجاج المحمدى الظاهرى جقمق أحد العشراوات .

* * *

وفى رجب توفى الشيخ تاج الدين عبد الوهاب ابن عربشاه الدمشقى الحنفى . شيخ المدرسة الصرغتمشية ، وكان من أهل الفضل وكان لا بأس به وقرر عوضه فى مشيخة الصرغتمشية شمس الدين الغزى .

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه نائب دوركى ، شنق قاضى المدينة سيف الدين يوسف الحنفى ، وقد بلغه أنه يكاتب ابن عثمان بأخبار هذه المملكة ويدعوهم لذلك .

* * *

وفى شعبان كانت وفاة القاضى عبد الغنى بن الجيعان ، وهو عبد الغنى بن علم الدين شاكر ، وكان متولى كتابة الخزانة ، وكان من خيار بنى الجيعان ، رئيسا حشما موصوفا بالكرم الزائد ويحكى عنه أشياء فى بره الناس ما لا يحكى عن البرامكة فى أيامهم ؛ ومات وهو فى عشر الثمانين وكانت جنازته حافلة وكان أحق بقول القائل :

فلو أن البـرامك عاينـــوه
وأنعمه تعـم الخلق سقيا
فينضب جعفر ، ويعوز فضل
ويبلى خالد ، ويموت يحيـا

وفيه هجم المنسر على سوق التجار بجامع ابن طولون ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما كان فيها من القماش ، وراحت على أربابها .

***

وفى رمضـان توفى سودون أكرش الظاهرى جقمق ، أحد العشراوات ، وكان لا بأس به

وفيه من الحوادث فى الشـهر المذكور : أن السلطان نادى للعسكر بالعرض ، فلما طلعوا الى القلعة أحضر لهم المصحف الشريف الكبير العثمانى وحلفهم عليه قاطبـة — وكذلك الأمراء — بألا يخرجوا عن طاعته ، ولا يخالفوه فيما يأمر .

وفيه أنفق السلطان على العسكر ، وقيل صدقة ، ففرق على المماليك القرانصة والسيفية الدين كانوا منزلين بالديوان قبل سلطنته ، هم وجلبانه ، لكل واحد منهم مائة دينار . والسيفية الذين نزلوا أيام سلطنته لكل واحد منهم خمسون دينارا . ولأولاد الناس أصحاب الجوامك ألفين ، لكل واحد عشرون أو ثلاثون دينارا . وقيل انه فرق بعـد ذلك على الخدم الطواشية لكل واحد منهم عشرون دينارا واثنا عشر دينارا . ثم أرسل نفقة للخليفة ، ولبعض الأمراء فبلغت هذه النفقة زيادة عن أربعمائة ألف دينار . ولا يعلم ما سبب هذه النفقة التى أنفقت من غير موجب لذلك ، والذى أشيع بين النـاس أن السلطان قال : « أنا لما تسلطنت لم أنفق على العسكر شيئا فهذه فى نظير ذلك » ، والأصح ذلك لأنه أنفق على القرانصة العتق ، والسيفية العتق ، مائة دينار لكل واحـد . وعلى الذى تجدد من القرانصة السيفية فى أيامه خمسين دينـارا لكل واحد ، وسماها صدقة . والوجه الثانى ما قيل ان السلطان قصده ظهور قانصوه خمسمائة ، وكانت له به عناية تامة ، فأنفق على العسكر حتى أرضاهم بسبب ظهور قانصوه خمسمائة ... فما سهل ذلك على أقبردى الدوادار وأخذ حذره كما سيأتى .

ومن العجائب أن مال هذه النفقة كان مجمدا حاضرا ، وهو من الخمسة أشهر التى أخذها من أجـرة الأملاك والأوقاف ومن أوقاف الجـوامع والمدارس والبيمارستان ، وصادر فيها طائفة اليهود والنصارى ، وتجار الفرنج وتجار المغاربة والبرانسة وغير ذلك من أعيان التجار ومشاهير الناس . وكان هذا المال الذى جىء من هذه الجهـات تحت يد القاضى على بن الصابونى ناظر الخاص ، والأمير تغرى بردى الاستادار . فلما خمدت فتنة ابن عثمان التى كانت سببا لذلك لم يوفق الله تعالى السلطان أن برد للناس ما أخذه منهم ، كما فعـل الأشرف برسباى ، لما أخذ من أجناد الحلقة عن اقطاعاتهم ، بسبب تجريدة شاه روخ بن تمرلنك لما تحرك عليه فى سنة احدى وأربعين وثمانمائة . فلما بطل أمر التجريدة ، وحصـل للأشرف برسباى توعك فى جسده ، رد لأجنـاد الحلقة ما كان أخذه منهم ، وكتب ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة . والأشرف قايتباى جمع هذا المال من وجوه المظالم ، وحصل

للناس بذلك مشقة زائدة ، وأخرجه فى غير مستحقه لا فى وجه فيه منفعة للمسلمين كما قيل .

لست أعطى فى حرام أبدا الا حـــراما

* * *

وفى شوال قرر عنبر التكرورى فى نيابة تقدمة المماليك ، ثم بقى بعد ذلك مقدم المماليك .

وفيه توفى تنم الصبع الظاهرى جقمق أحد الأمراء العشراوات ، وكان أخو تانى بك الجمالى أمير سلاح . فلما مات تنم الضبع وقف شخص من الأمراء يقال له ملاج بن ططخ الظاهرى جقمق ، يطلب من السلطان اقطاع تنم الضبع ، فلم يوافق السلطان على ذلك ، فحنق ملاج من السلطان . فلما نزل ملاج الى داره شنق نفسه من شدة قهره فمات هو وتنم الضبع فى يوم واحد . وقد تقدم القول على وفاة ملاج .

وفيه وقعت الوحشة بين أقبردى الدوادار وبين جان بلاط . وسبب ذلك أن جان بلاط طلب امرية الأخورية الكبرى وعينت له . فوقف أقبردى وباس الأرض على أن يكون شاد بك الخوخ أمير آخور كبير . فأنعم السلطان على شاد بك بها ، فمن حينئذ وقعت الوحشـــة بينهما . وقد التف على كرتباى الأحمر ويشبك قمر ، وكان جان بلاط أعز أصحاب أقبردى .

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير المحمـــل الشريف تانى بك قرا ، وأمير الركب الأول برد بك نائب جدة .

وفيه توفى آركماس الحلبى نائب القلعة ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى محمد بن نوروز المحمدى الميقاتى ، وكان علامة فى فن الميقات .

وفيه ظهر الأمير قانصوه خمسمائة ، وكان مدة اختفائه تســعة أشهر فلما طلع الى القلعة رسم السلطان له بأن يأخذ ثوبا بعلبكيا حتى يرق عليه قلب العسكر . يعنى جاه وكفنه تحت ابطه . فلما وقف بين يدى السلطان قبــل الأرض وخلع عليه كاملية صوف صينى بسمور ، ورسم له بأن يتوجه الى داره . ونزل من القلعـة فى موكب حافل ، وصحبتــه الأتابكى تمــراز وأقبردى الدوادار ، فأوصلاه الى داره ورجعا .

* * *

وفى ذى القعدة ثارت فتنة كبيرة من المماليك الجلبان ، ممن هم من عصبة قانصوه خمسمائة ، فلبسوا آلة الســـلاح ، وطلعوا الى الرميلة ، وحاصروا أقبردى الدوادار ... فلمــا تزايد الأمر أحرقوا الربع الذى عند سوق الحلاق . فلما بلغ السلطان ركب ونزل الى باب السلسلة ، وجلس بالمقعد المطل على سوق الخيل بالرميلة ، فلم تخش منــه المماليــك ، وتزايد الأمر . ومما أفحش به المماليك فى حق السلطان أنه قبل ذلك بمدة طويلة ، كان السلطان ينــــام فى الصيف على الدكة التى بالحوش ، فدخل بعض الخاصكية عليه فى الليل ، وقالوا : « ان المماليك الذين فى طبقـــة المطلع قد عولوا على أن ينشبوا على السلطان وهو راقد على الدكة » . فلمابلغ السلطان ذلك ، قام وبادر وراح من على الدكة . فلما أصبح وجد ثلاثة أسهم من النشاب فى المخـــدة واللحاف الذى كان للسلطان بسبب النوم والتغطية عليه . فما وسع السلطان الا أنه فرق المماليك الذين بطبقة المطلع على الأطباق ، وجعل على حائط طبقة المطلع بناء يستتر منه رؤية الحوش ... وقيـــل ان الذى فعل به ذلك ورمى هو شخص خاصكى من أخصائه يسمى شرامنت ، فأحضره وضربه بين يديه نحوا من ألفى عصا حتى قيل انه مات ، وضرب معه جمـــاعة من أصحـــابه

وسجنهم بالبرج ، وقطع جوامكهم ، وأبطل شرامنت من العسكرية ، وذلك قبل فتنة ابن عثمان مع السلطان ... واستمر السلطان جالسا بالمقعد الذى بباب السلسلة الى ما بعد العصر ، فبلغه أن أقبردى الدوادار قد غيب من داره ، فعند ذلك قام السلطان وقد حم فى جسده ، فركب وطلع الى القلعة . وكان هذا آخر ركوبه ورؤية الناس له . فلما دخل الى الحوش طلع الى المقعد ، ودخل الى البيت الذى كان به فلزم الفراش ، وثقل فى المرض من ليلته . ولما غيب أقبردى نهب العوام داره ، ودور الأمراء الذين من عصبته ، منهم اينال الخسيف ، وشاد بك ، وقانم ، وجانم مصبغة وغيرهم . وهذه أول كسرة أقبردى فكان كما قيل :

لا تعجبــوا للدهـــر فى أفعاله
ان أضحك الباكى وأبكى الضاحكا

ثم ان السلطان تزايد به الألم ، وقوى عليه أمر الاسهال المفــرط ، وعجز عن الحركة ، وكثر القيل والقال بين الناس .

ثم ان النيل أوفى فى تلك الأيام فرسم السلطان لتمراز أمير كبير بأن يتوجه ويفتح السد ، والناس فى غاية الاضطراب . ثم طلع الأتابكى تمراز الى القلعة ، ولبس خلعة بسبب فتح السد ... هذا كله والسلطان على غير استواء ، وأشيع أنه فى النزع وقد خرس .

فلما كان يوم الجمعــة خامس عشريه طلع الأتابكى تمراز الى القلعة ، ودخل على السلطان فى البيت فوجده فى السياق ، فقال له : « يا مولانا السلطان ان الأحوال قد فسدت ، ومن الرأى أن تسلطن سيدى محمد » فلم يرد السلطان له جوابا . فأخذ سيدى محمد ابن السلطان ، ونزل به الى باب السلسلة ، فأجلسه فى المقعد الذى هناك ، وجلس معه ليوليه السلطنة . فانتظر الأمير أقبردى الدوادار أن يطلع اليه ، فاختفى أقبردى ، ولم يطلع الى القلعة فى ذلك اليوم . فلم يشعر تمراز الا وقــد هاجمته العساكر كالجــراد المنتشر ... وذلك أن قانصوه خمسمائة وكرتباى الأحمر لما بلغهما أن تمراز الأمير الكبير بباب السلسلة ، ومعــه ابن الســلطان ، لبســوا الســلاح وهجموا ودخلوا الميدان من عند حــوش العرب ، وطلعوا الى باب السلسلة من الاصطبل ، فقبضوا على تمراز الأمير الــكبير ، وقيدوه وسجنوه بالبرج الذى ببــاب السلسلة ، ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلوا به وهو مقيد بقيدين أحدهما برجليه ، والآخر بركبتيه ، وخلفه أوجاقى بخنجر . فنزلوا به من باب الميدان الذى عند الحوش ، وتوجهوا به من جهة المجراة الى البحر ، فأنزلوه فى الحراقة وتوجهوا به الى الاسكندرية ، فسجن بها . وكان المتسفر عليــه جانم بن برسباى أخو قانصــوه الألفى . وبطلت الاشاعات بسلطنته . فلما جرى ذلك ، وقع النهب فى داره ، وفى دار آقبردى الدوادار وجماعة من الأمراء ممن كانوا فى عصبة أقبردى الدوادار . ثم ان قانصوه خمسمائة وكرتبــاى الأحمر وجمــاعة من الأمراء ممن هم فى عصبة قانصوه خمسمائة ، باتوا بباب السلسلة واشتوروا فيمن يلى السلطنة فترشح أمر سيدى محمد ابن السلطان ، ووقــع الاتفاق على سلطنته .

فلما كان يوم السبت سادس عشرى ذى القعدة اجتمع الأمراء والعسكر بباب السلسلة . وأرسلوا خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعة ، وهم قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى ، وقاضى القضاة ناصر الدين محمــد الاخميمى الحنفى ، وقاضى القضاة عبد الغنى بن تقى المالكى ، وقاضى القضاة

بدر الدين محمد السعدى الحنبلى . فلما تكامل المجلس تكلموا فى خلع الأشرف قايتباى ، بحكم أنه قد أشرف على الموت ، فخلع ، وبايع الخليفة ولده الناصرى محمد بالسلطنة عوضا عن أبيه الأشرف قايتباى ، وشهد عليه القضاة بذلك ... هذا كله والسلطان فى النزع ، لم يشعر بشىء مما جرى .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى الشهر المذكور ، من سنة احدى وتسعمائة ، كانت وفاة السلطان الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى الى رحمة الله تعالى فى ذلك اليوم بعد العصر .

ومات بالقلعة ، وأخرج صبيحة يوم الاثنين ثامن عشرى ذى القعدة . وتوفى وله من العمر نحو من ست وثمانين سنة . ومات وهو بعلة الدبيلة ، واعترته علة البطن أيضا ، وامتنع عن الأكل مدة انقطاعه حتى مات .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ، تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، بما فيه من مدة انقطاعه عند توعك جسده ... فانه تسلطن يوم الاثنين سادس رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، وتوفى يوم الأحد سابع عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة .. وهذه المدة لم تتفق لأحد من الملوك غيره قبله ، وعاش عمره كله وهو فى عز وشهامة من حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ، وما نفى قط ، ولا سجن ، ولا تقيد . وكانت عليه سكينة ووقار ، ومهيب الشكل فى العيون ، جميل الهيئة ، مبجلا فى موكبه ، كفؤا للسلطنة ، وافر العقل سديد الرأى عارفا بأحوال المملكة ، يضع الأشياء فى محلها . ولم يكن عجولا فى الأمور ، بطىء العزل لأرباب الوظائف ، يتروى فى الأمور أياما قبل وقوعها . وكان لا يخرج اقطاع أحد من الجند الا بحكم وفاته ، ولا من أبناء الناس المقطعين الا بحكم وفاته ، ويرسل يكشف عليه وهو ميت حتى يصدق بموته . وكانت صفته : طويل القامة ، عربى الوجه مصفر اللون ، نحيف الجسد ، شائب اللحية . تولى الملك وله من العمر أربع وخمسون سنة . وكان موصوفا بالشجاعة ، عارفا بأنواع الفروسية ولا سيما فى فن لعب الرمح ، علامة فى فنه .

لكنه كان محبا لجمع الأموال ، ناظرا لما فى أيدى الناس ، ولولا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الجراكسة على الاطلاق . ولكنه كان معذورا فى ذلك ... تحرك عليه فى أيام سلطنته شاه سوار ، وحسن الطويل ، وابن‌عثمان ، وغير ذلك من ملوك الشرق وغيرهم . وجرد عليهم عدة تجاريد كثيرة ، وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ماصرفه على نفقات التجاريد التى جردها فى أيام سلطنته الى أن مات ، فكانت نحوا من سبعة آلاف ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار ، خارجا عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد . وهذا من العجائب التى لم يسمع بمثلها .

وكان مغرما بشراء المماليك ، حتى قيل لولا الطواعين التى وقعت فى أيامه ، لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . ومن العجائب أنه من بعده قد انحصرت مملكة مصر فى مماليكه فقط دون غيرهم . وتسلطن منهم الى الآن أربعة سلاطين ... وكان متقيا فى نفسه ، لم يشرب قط خمرا ، ولاكان يستعمل شيئا من الأشياء المخدرة . وكان له اشتغال بالعلم ، كثير المطالعة فى الكتب ، وله أذكار وأوراد جليلة الى الآن تتلى فى الجوامع . وكان له اعتقاد فى الفقراء ، ويعظم العلماء ، عارفا بمقام الناس ، ينزل كل أحد منزلته .

وكان تابعا لطريقة الصوفية فى التقشف ، وكان لايوصف بالكرم الزائد ، ولا بالبخل المفرط ، وكان

[illegible] ووقف عنده جهات على وجوه [illegible] محاسنه أكثر من مساويه ، [illegible] ولم يخلف من الأولاد سوى ولده محمد الذي [illegible] من بعده ، وكان من سريته [illegible] ولم يتزوج مدة عمره سوى فاطمة [illegible] العلائي على بن خاص بك ؛ واستمرت معه [illegible] أن مات رحمه الله تعالى عليه .

وفي أيامه توفي الأديب زين الدين أبو الخير بن النحاس ، وكان من أعيان الشعراء في عصره ، وكانت وفاته بالشام .

ولما مات الأشرف قايتباى رثاه الشيخ بدر الدين محمد بن الزيبوني بهذا الزجل فقال :

يرحم الله سلطاننا الأشرف
كان مؤيد على العدا ظاهر
وكذا ابنو المظفر المنصور
بنصر الله العادل الناصر

* * *

لما زاد الضعف بقايتباى
والدوادار في غاية الامكان
وتوافق مع الأمير تمراز
وطلع قانصوه الى الميدان
وأتى القلعة مع كرتباى
والأمارة وهدموا البنيان

* * *

هرب أقبردى وقيدوا تمراز
وتولى سلطاننا الناصر
من يخالف أمره ومن يعصيه
رد مقهور والأمر للقاهر

* * *

فولى الملك سادس العشرين
من شهر ذى القعدة طلوع شمسو
بعد واحد من السنين تالى
تسعماية بعد انقضا أمسو
وتوفى أبوه أخير النهار
في صباحو واروه حلول رمسو

* * *

بعد ملكه تسعة وعشرين عام
وأربعة أشهر بالكاتب الحاصر
ويليها واحد وعشرين يوم
لا تزيد أول ولا آخر
مات الأشرف والقبر صار حاويه
بعد لسعو بالموت وسمو حاق
وسرا فيه سم الدبيب حائق
ما وجدلو من ذى القضا ترياق
وقد أمسى مرهون بأفعالو
وأنت لو آفة قضاه تنساق

* * *

لهف قلبي عليه شجاع وقتو
والخوندات تبكى عليه باكر
كم رأينا ثكلى وهي حيرة
شعرها صار من حزنها ناشر

* * *

لهف قلبي على الأمير تمراز
كان موقر وهو الأمير كبير
والدوادار حولو رجال واعوان
يضربوا بالحسام ومالو كتير
قالوا لتمراز ما عندنا غيرك
كن مساعد وانت النظام والمشير

* * *

جت جماعة لقانصوه بالخبر
خبر وبيه ركب وكان صابر
وطلع للقلعة مسك تمراز
وظفر بيه وصار عليه ظافر

* * *

العجب في الركبة نهار جمعة
من سنه كان في الأزبكية القوم

كيف يوافق لشهر ذى القعـدة
والعدد فيه خمسه وعشرين يوم
مثل يومو فى الشهر والجمعـة
والعدد فيـه فاعجب لهـذا دوم
* * *
والجزا من جنس العمـل قالوا
وبهـذا صـار المثـل سـائر
كل من كان يحفـر لاخيه حفره
ما يقع فى الحفرة سـوى الحافر
* * *
الدوادار وشـاد بك والخسيف
هم وجـانم غابوا عن الحضـار
والجمـالى نظام أمير سـلاح
بالمقعـد وكرتباى قد صـار
هو المقـدم وكاشف الكشـاف
ومـدبر وزيـر واسـتادار
* * *
وعلى الـكل قانصـوه عالى
خمسماية هو الشـاطر المـاهر
قـد تولى أتابك العسـكر
والأمـير كبير وهـو الناظـر
* * *
خلت دوله كرقعـة الشـطرنج
والدوادار وقانصـوه فى رهان
كم رأينا بيـدق من الحاشـية
قد تقـدم عندو وصـار فرزان
لما ساق الفـرس يريد الفيـل
غالبهم فى حـرمة الميـدان
* * *
ضربوا شاه لما انكشف رخـو
ما وجـدلو فى رقعتو سـاتر
ماتت النفـس وانقلب دسـتو
وهـرب مرماه وهـو الخاسر
* * *
ضربو تخت الرمـل للغيـاب
جـو دلتهم دلت عـلى الحضره
ورآينـا الألـفى نقـا خـدو
فى بياضو قـد أشرقت حمـره
واجتماعو بأصحابو بالاحبـاب
وكـذا اشـكال يلقى بهم نصره
* * *
وظهرلـو راية فرح فى الطـريق
مـع جماعـة بالعز تتبـاشر
بانو يطلع وينظر السـلطان
مرحبـا بالطالع وبالنـاظر
* * *
اعتـذارى للى سـمع قولى
ان صـحبى والقـرب يأتونى
يطلبـونى ويقصـدوا فنى
وان توانيت بالعجـز يرمونى
أستحى أن أظهـر ضعيف نظمى
وأحمـالى تنسـب لزيتـونى
* * *
ولكنى أبو النجـا العـوفى
ان تجـدنى فيما أقـول حاضر
استر العيب واربح ثواب سترى
جل من لا عيب فيه وهو الغافر
* * *
لو تكون البحـار مع الانهـار
وجميـع الميـاه وسيل الغمـام
حبر جارى وسـائر الأعشـاب
والنبات والشجر جميع أقـلام
والسموات والارض والأكوان
تبقى أوراق طباق ليوم القيـام
* * *

وجبسع العالم يجو كتساب
بكتبوا المدح فى النبى الطاهر
للقيسامه مسا يحصروه ذر
من مديحو ووصسفه الفساخر
* * *
كان للاشرف خصال ملاح فاسمع
ما رأينسا فى عصرنا مثسلو
يا الذى جا يسمع بديع نظمى
خسذ وحزر عنى جميسع نقلو
وان أتى لك من يطلب التاريخ
والوقائع عن المسلوك قسلو
* * *
يرحم الله سسلطاننا الأشرف
كان مسؤيد على العسدا ظاهر
وكسذا ابنو المظفر المنصسور
ينصر الله العسادل النساصر
* * *

وأما ما أنشأه الأشرف قايتباى فى أيام دولتسه من البنيان الفاخر فأشياء كثيرة منها : أنه جسدد عمارة المسجد الشريف النبوى ،على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، لما احترق ، وأنشأ قبة عظيمة على القبر النبوى الشريف على صاحبه أفضسل الصلاة والسلام ، وأنشأ هناك مدرسة مطلة على الحرم النبوى على صساحبه أفضسل الصسلاة والسلام ، وأنشأ مدرسة بمكة المشرفة عند باب السلام وعدة ربوع وأماكن بمكة المشرفة

وأنشأ مدرسة ببيت المقدس ومدرسة وبيوتا ودكاكين بدمشق ، ومدرسة بغزه ، ومدرسة بثغر دمياط ، ومدرسسة بثغر الاسكندرية ، والبرج العظيم الذى أنشأه مكان الفنار القديم ، والبرج الذى بثغر رشيد .

وأما ما أنشأه من البنيان بالديار المصرية : فالجامع الذى بالصحراء مكان تربته ، وجامع بالروضه . وجامع برأس الكبش : وجامع بباب الخرق عند الشيخ سلطان شاه ، والسبيل والمكتب الذى بترب تحت الربع ، وجامع لطيف خارج باب القرافه . وجدد عمارة قبة الامام الشسافعى رضى الله عنه ورحمه . وأنشأ زاوية بالمرج والزيات ، ومدرسه بالخانقاه ، وغير ذلك من الجوامع والمدارس فى أماكن شتى من البلاد ... وأنشسأ السبيل الذى برأس سويقة عبد المنعم . وأنشا بالقساهرة عدة زوايا وأسبلة وصهاريج وغير ذلك ، وعدة ربوع وحوانيت فى مواضع متفرقة ، وجعلها وقفا على الدشيشة التى قد كان قررها بالمدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وأما ما أنشأه بالقلعة : فالمقعد الذى أنشأه داخل الحوش ، والمبيتان اللذان حوله ، والحواصل التى بجسوار قاعة البحرة ، وجسدد عمسارة الايوان الناصرى الذى بالقلعة ، وأنشسأ مواضع كثيرة بالقلعة .

وجدد عمارة قناطر أبى المنجسا ، والقناطر التى بشبرمنت بالجيزة . وأنشأ هناك رصيفا وحصل به غاية النفع فى أيام النيل للمسافرين . وجدد عمارة قنطرة باب البحر . وجدد عمارة الميدان الكبير الذى بجوار البركة الناصرية ، وصرف عليه جملة مال . وجدد مقام سدى أحمد البدوى ، وبناه بناء حافلا ووسسعه . وجدد بناء زاوية الشيخ عماد الدين رحمه الله . وجدد عمارة باب القرافة . وأنشأ هناك الربوع . وأنشأ مقعدا ومبيتا وجنينة بدار البقر التى تحت القلعة . وجدد عمارة جامع الرحمة الذى بغيط جانى بك نائب جدة . وأنشسأ عدة ربوع بالخشسابين والبندقانيين ، وبالجامع الأزهر وغير ذلك .

وله عدة أماكن قد أنشأها وحصل بها النفع العام للمسلمين .

وأما ما أبطله فى أيام سلطنته من شعار المملكة ، فخدمة القصر بالشاش والقماش . وقد قررته الملوك السالفة لاقامة الحرمة ونظام المملكة . وأبطل الرمايات التى تعمل ببركة الحبش ، ودخول الملوك الى القاهرة والعسكر قدامها بالشاش والقماش ، ويكون يوما مشهودا . وأبطل لبس الصوف بالمطعم — وكان الملك يشق من القاهرة وهو لابس الصوف هو والأمراء ويكون لهم يوم مشهود — وأبطل المركب المسماة بالذهبية ، وكانت من شعار المملكة ، ولاسيما فى يوم الوفاء بالنيل ، وكانت الملوك تتوجه فيها الى المقياس ، وكان بها ستون مقذافا ... وأبطل المركب المسماة بالدرمونة ، وكانت تحمل مغل الحرمين الشريفين ، وكانت غريبة الهيئة فى شكلها . وأبطل دوران المحمل الرجبى فى أيام سلطنته وما كان بعمل فيه . وأبطل المسايرات التى كانت تعمل فى تلك الأيام ، وكان ينفق فى مدة دوران المحمل ما لا ينحصر ... وأبطل فى أيام سلطنته أشياء كثيرة من شعار المملكة لم نذكرها خوف الاطالة . ولكن آخر من مشى من السلاطين على النظام القديم ، مما ذكرناه ، الظاهر خشقدم رحمه الله تعالى .

وأما ما عد له من المساوى : فانه لما تولى السلطنة ندب يشبك الدوادار لما تولى الوزارة ، فقطع لحوم جماعة من الناس كانت مرتبة لأيتام ونساء أرامل ، وكانت تباع وتشترى من الناس من الديوان الى آخر دولة الظاهر خشقدم . وكانت الوزراء تنتج بالسداد لذلك . ثم فعل مثل ذلك بالجوامك ، وقطع عدة جوامك لجماعة من أولاد الناس . والذى أبقاه أخذ منه مائة دينار ممن له جامكية ألفا درهم ، وأخذ ممن له جامكية ألف درهم خمسين دينارا ، وذلك بسبب بدل تجريدة سوار ممن لم يسافر للتجريدة . وأخذ من أجرة الأملاك والأوقاف من الجوامع والترب بالقاهرة وغيرها أجرة سبعة أشهر ، وحصل للناس بذلك الضرر الشامل . وصادر اليهود والنصارى فى أيامه مرتين . وصادر جماعة من أعيان التجار ، ومن تجار الأرياف والبرانسة . ورمى على البلاد التى فى الشرقية شيئا يقال له الخمس ، بسبب خيالة تخرج مع التجريدة الى ابن عثمان ، وفعل مثل ذلك بعربان جبل نابلس ، ثم قطع هذا الخمس من خراج المقطعين .

ومنها أنه كان ولى جماعة من مماليكه عوضا عن مشايخ العربان ، فجاروا أيضا على الفلاحين ، وأخذوا منهم غير العادة أضعافا . وكذلك الكشاف يقرر عليهم الأموال فيجورون أيضا على البلاد ، ويأخذون المال آمثالا ... فمن يومئذ تلاشى أمر البلاد ، وانحط خراج المقطعين جدا .

ومنها أنه أحدث مكسا على بيع الغلال ، وجعل على كل أردب نصف فضة خارجا عن ثمنه لمن يشترى أو يبيع . وقد تزايد الأمر بعده فى ذلك حتى صار على كل أردب نصفان . وهو أول من أحدث تفرقة الجامكية بحضرته ، وضيق على الناس ، ولم يفعل ذلك أحد قبله من الملوك . وكان مقدم المماليك ، وأحد رءوس النوب يتولى تفرقة الجامكية فى الابواب ، ولم يشعر السلطان بذلك . فبطل ذلك ، واستمرت من يومئذ تنفق بحضرة السلطان الى الآن .

ومنها أنه فعل بجماعة من المباشرين وغيرهم الأفعال الشنيعة . منها شنق القاضي ابن المقسى ، وتوسيط مجد الدين ابن البقرى الاستادار ، وغير ذلك مما تقدم ذكره . وقطع يد ابراهيم بن فريعين

صرف الجامكية وكان فى سن الشيخوخة ، وعاش بعد ذلك مدة طويلة وهو أقطع . وقد رتب له السلطان ما يكفيه الى أن مات . وهو أول من أحدث برددارية السلطان ، ولم تكن هذه الوظيفة قبل ذلك تعرف : فصارت زيادة مظلمة أخرى .

ومن محاسن الأشرف قايتباى رحمة الله عليه أنه كان فى شدة غضبه يستحيل فى الحال راضيا ، ويزول ما كان عنده من الحدة ، وهذه من أجمل الخصال . وبالجملة كانت محاسنه أكثر من مساويه . وكان من خيار ملوك الترك بالنسبة لمن جاء بعده من السلاطين . ولو لم يكن عنده بعض طمع لكان أجل ملوك الجراكسة . وكان من خيارهم ولكن كما يقال :

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها
كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

وقال بعض الشعراء :

اذا أنت لم تنفع فضر فانما
يرجى الفتى كيما يضر وينفع

ولما مات تولى ابنه محمد .

الملك الناصر أبو السعادات

هو الملك الناصر أبو السعادات ناصر الدين محمد ابن الملك الأشرف أبى النصر قايتباى المحمودى الظاهرى .

وهو الثانى والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بالديار المصرية .

تقدم أنه بويع له بالسلطنة يوم السبت سادس عشرى ذى القعدة سنة احدى وتسعمائة (١٤٩٦ م) . وقد تقدم أن قانصوه خمسمائة ، وكرتباى الأحمر والأمراء الذين يلونهم ، لما هجموا على الامير تمراز بباب السلسله ، قبضوا عليه وقيد وأرسل الى السجن بثغر الاسكندريه . فلما جرى ذلك ، وقع الاتفاق على سلطنة الناصر محمد ابن السلطان قايتباى ... فأحضروا الخليفة ، والقضاة الأربعة . وخلعوا الأشرف قايتباى من السلطنة ، وبايعوا ولده — من غير عهد له من أبيه — ولقبوه « بالملك الناصر » وكنى « بأبى السعادات » وكان تلقب بالمنصور أولا ، ثم قرر لقبه بالناصر . فلما انقضى أمر المبايعة ، أحضر اليه شعار الملك ، وهى الجبه السوداء ، وقد فصلت على قدره ، ولفت له عمامة لطيفة مناسبة له ، وتقلد بالسيف الحمائلى ، وقدمت اليه فرس النوبة ، بالسرج الذهب والكنبوش ، وركب من سلم الحراقة .

وكانت مبايعته فى الساعة الرابعة من النهار ، والماضى من الشروق ثمان وأربعون درجة ، والطالع بالميزان .

فلما ركب تقدم قانصوه خمسمائة ، وحمل القبة والطير على رأسه — وقد ترشح أمره لأن يلى الأتابكية — فركب السلطان والخليفة معه ، ومشى بين يديه الأمراء ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض ، وضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ... وفى حال جلوسه على سرير الملك خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ، وخلع على قانصوه خمسمائة ، وقرره أميرا كبيرا عوضا عن تمراز الشمسى . وخلع على جان بلاط بن يشبك وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن آقبردى الدوادار . وخلع على تانى بك الجمالى وصيره نظام الملك مضافا لما بيده من امرية سلاح . وكان القائم فى هذه الأمور وتدبيرها كرتباى الأحمر .

هذا كله جرى والأشرف قايتبـاى فى النزع لم يشعر بما وقع من هذه الأمور ، ولو كان واعيا لما مكن الأمراء أن يسلطنوا ولده ، ولا كان هــذا قصده .

وكان الملك الناصر لمـا تولى الملك له من العمر نحو أربع عشرة سنة وأشهر ، وقد قارب البلوغ ، وكان مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة . وكانت آمه جركسية تسمى أصلباى من مشترى الأشرف قايتباى . وكان الملك الناصر محمد هـذا جميل الهيئة ، مليح الشكل ، وعنده عترسة ، وجراءة فى الأمور ، متحركا فى نفسه ، وعنده رهج وخفة ، ومما مدح به قول القائل :

ان العنـاصر فى سلطاننا اجتمعت
شـمائل بهـرت من حـين مولده
قد ناسب النار عزما ، والهوا خلقا
والبحر جودا ، وملك الأرض فى يده

ولما كان يوم الأحد سابع عشرى هذا الشهر ، كانت وفاة الملك الأشرف قايتباى رحمة الله عليه . توفى بعد العصر من ذلك اليوم ، وبات بالقلعة . فطافت له نذراء بالقاهرة ، وهم يقولون : « يصلى غدا باكر النهار على العبد الفقير الى الله تعالى ، الملك الأشرف قايتباى ، رحمه الله » . فتأسف عليه الكثير من الناس .

فلما كان يوم الاثنين ثامن عشريه ، وهو اليوم الثالث من سلطنة ولده ، شرع الأمراء فى تجهيزه واخراجه . فغسل فى البيت الذى مات فيه ، وأخرج نعشـه قدام الدكة التى بالحوش ، وصلى عليـه هنالك ، ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدامه الأمراء والعسكر قاطبة ، وكانت جنازته مشهودة ، بخـلاف من يموت من الملوك . فتوجهوا به الى تربته التى أنشأها بالقرب من زاوية سيدى عبد الله المنوفى رحمه الله . فدفن بهـا وانقضت مدته من الدنيا كأنهـا لم تكن ، وزال ملكه بعد أن حكم بالبلاد الشامية والبلاد المصرية تسعا وعشرين سنه وأربعة أشهر وواحدا وعشرين يوما ، وهذه المدة لم تتفق لأحـد من ملوك الترك قبله . وقد قيـل فى المعنى :

ان الذى اغتر بالدنيـا وزينتهـا
وظـل فيهـا بحب المـال مفتونا
أتت اليـه المنـايا وهى مسرعـة
فأصبح الجسم تحت الترب مدفونا
قد فارق الأهل والأوطان وانقطعت
آماله وغـدا فى القـبر مرهونا
خـلا بأعمـاله ما كان من حسـن
أو من قبيح به قد صـار مقـرونا

* * *

وفى ذى الحجـة فرق السـلطان الملك الناصر الضحايا على العادة للعسكر .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف ، على جماعة من الأمراء منهم : أزبك اليوسفى الظاهرى چقمق المعروف بقشق ، وكسباى الزينى ، ويشبك العجمى المعروف بقمر ، وقرقماس بن ولى الدين .

وفيه كتب المراسيم بحضور الأمراء الذين كانوا أخرجوا الى النفى من حين كانت وقعـة قانصوه خمسمائة وأقبردى ، وكتب بحضـور قانصـوه الشامى الذى كان قرر فى نيابة حماه ، وقرر عوضه بنيابة حماة أركماس أحد المقدمين بدمشق . وكتب بحضور قانصوه الألفى أيضا وبقية الأمراء المنفيين .

وفيه ظهر تغرى بردى الاستادار ، وكان له مدة وهو مختف تزيد على أربع سنين ، وكان قد فر خوفا من السلطان قايتباى لمـا تجمد عليه مال له صورة .

وفيه جاءت الأخبار بقتل أحمد بن بهادر نائب قلعة صفد ، وكان لا بأس به ، وقد قتله كرتباى أخو أقبردى الدوادار . وكان كرتباى يومئذ نائب صفد ، فخرجت المراسيم بقبضه على يد خاصكى يقال له ألماس بن ولى الدين . فلما تحقق كرتباى ذلك ، ضرب عنق ألماس ، وأحمد بن بهادر نائب القلعة ، وخرج من مدينة صفد .

وفيه عينت نيابة صفد لبرد بك الطويل ، عوضا عن كرتباى بحكم صرفه عنها

وفيه قرر القاضى عبد القادر القصروى فى نظر الجوالى ، وهذه أولى وظائفه .

وفيه عظم أمر الأتابكى قانصوه خمسمائة الى الغاية ، حتى انه لم يصل مع السلطان صلاة عيد النحر ولا صلاة الجمعة . ثم أمر باخراج مماليك أقبردى الدوادار الى أماكن شتى من البلاد ، وكان قد تخوف منه .

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى على الغزال ، وكان مقيما بخانقاه سرياقوس .

وفيه فرق الملك الناصر جملة أقاطيع كانت فى الذخيرة من أيام الأشرف قايتباى ، وكانت نحوا من ألف اقطاع ، ففرقت على المماليك جميعا ما بين أقاطيع ورزق وغير ذلك .

وفيه قرر جان بلاط الغورى فى نيابة القلعة عوضا عن أيدكى .

وفيه قرر طراباى الشريفى أمير آخور رابع ، عوضا عن تغرى بردى يونس السيفى الدوادار ، بحكم انتقاله الى أمرية الأخورية الثالثة .

وفيه قرر السيد الشريف عبد الرحيم الحموى فى كتابة سر دمشق ، عوضا عن محب الدين الأسلمى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، وتوجه الى ابن عثمان فأكرمه .

وفيه قرر بخشباى فى تقدمة ألف بدمشق ، ثم تولى نيابة حماه فيما بعد

وفيه قرر كرتباى الأحمر فى الوزارة والاستادارية وكاشف الكشاف ، مضافا لما بيده من تقدمة ألف ، وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، فأظهر أشياء كثيرة من أنواع العدل ، منها أنه أبطل وظيفة نظر الأوقاف ، ونودى بذلك فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وأبطل عدة مكوس ومظالم ، وحجر على البردارية والرسل والنقباء ألا يأخذوا من الأخصام أكثر من نصفى فضة ، وأن أحدا منهم لا يقرر على أحد رسما ... ولو دام كرتباى بمصر لحصل للناس به خير .

وفيه قبض على القاضى أبى المنصور صاحب ديوان أقبردى الدوادار ، فتسلمه الأمير جان بلاط الدوادار وضربه ضربا مبرحا ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه خلع على الأمير أقباى الطويل نائب غزة واستمر على نيابته بغزة ، وكان أشيع عزله لأنه كان من عصبة أقبردى الدوادار ... فلما أراد أن يتوجه الى غزة أخذ معه أقبردى الدوادار فى الخفية ، فلما بلغ قانصوه وكرتباى الأحمر أن أقبردى الدوادار خرج صحبة أقباى الطويل ، بعثا اليه والى الشرطة الى الخانقاه ، ففتشوا حموله حتى الحوايجخاناه ، وستر الله تعالى على أقبردى حتى خرج من القاهرة ، ولم يظفر به أحد . وهذا كان سبب خروج أقبردى من مصر وتوجهه الى غزة ، وكبسوا بسببه فى ذلك اليوم عدة أماكن ودور بالخانقاه ، حتى هجموا هناك الجوامع والزوايا ، وحصل الضرر الشامل بسبب ذلك للناس . وقيل انه لما خرج من الخانقاه ، فتشوا سنيح الأمير اقباى الطويل أيضا ، وكان قد

اختفى أقبردى فى الدست الكبير الزخمية ، لما حملوها على الجمل ، فستر الله عليه

وفيه نزل السلطان الملك الناصر من القلعة ، وتوجه الى القرافة ، فزار وعاد الى القلعة ، وهذا أول ركوبه فى حال السلطنة .

وفيه حضر الأمير خشكلدى السيفى ، وكان مقيما بدمشق من أيام الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى . فلما حضر أكرمه السلطان وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه كثرت الاشاعات بوقوع فتنة ، فبادر الأتابكى قانصوه وقبض على جماعة من طائفة الاينالية ، نحو ستة عشر نفرا ، وأخرجوا مع نقيب الجيش شيئا فشيئا ، وتوجهوا نحو البلاد . فكان منهم برد بك المحمدى ، وبرقوق ، ودولات باى بن عيسى ، وآخرون .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على أقبردى الدوادار ، وهجموا بسببه عدة دور فلم يجدوه ، ولم يعلموا أنه خرج صحبة أقباى نائب غزة .

سنة اثنتين وتسعمائة (١٤٩٦ ـ ١٤٩٧ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام المتوكل على الله عبد العزيز العباسى . وكان سلطان العصر يومئذ الناصر أبو السعادات محمد ابن الأشرف قايتباى . والقضاة الأربعة على الحكم الأول كما تقدم ... وكان الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ونظام الملك تانى بك الجمالى الظاهرى ، والدوادار الكبير جان بلاط بن يشبك ، والاستادار كرتباى الأحمر .

وفيه خرج اصطمر بن ولى الدين ، ومعه عدة من الجند ، بسبب القبض على أمير الحاج تانى بك قرا الاينالى ، فلاقاه من عجرود وقيده ، وبعث به من هناك الى ثغر الاسكندرية ، فسجن بها مع تمراز أمير كبير كان .

وفيه جاءت الأخبار بقتل عساف الحبشى ، نائب صيدا وبيروت ، وكان من مشاهير الرؤساء ، وله شهرة زائدة بتلك البلاد .

وفيه كانت نفقة البيعة على الجند ، فأنفق على الجند على العادة ، ولكن لم يعط مائة دينار كاملة لغير القايتباهية ، وأعطى من دون ذلك لكل واحد خمسون دينارا ، وأنفق على أولاد الناس ثلاثين دينارا .

وفيه أحضر السلطان المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الأمراء والعسكر . ولم يطلع الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ولا حلف ... ولكن طلع بعد أيام ، وحلف أيمانا غير صادقة ، كما يقال فى المعنى :

خان اليمين وعهد الود قد فسخا
ولا ترى قط صدقا خالصا نسخا

وفيه قرر دولات باى بن أركماس الساقى فى نيابة البيرة ، وخرج اليها عن قريب . ودولات باى هذا هو الذى تولى الأتابكية بمصر .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على شمس الدين الفرنوى امام أقبردى الدوادار ، وعاقبه أشد العقوبة ، وتسلم أيضا المنصور وعاقبه أشد العقوبة ، وجرى لهما أمور يطول شرحها ، وما خلصا الا بعد جهد كبير . وكان السلطان له عناية فى الباطن بجماعة أقبردى الدوادار .

وفيه قبض كرتباى الأحمر على جماعة من الأمراء العشراوات ممن كان من عصبة أقبردى الدوادار منهم : اسنباى الأبراهمى المعروف بالأصم ، وبرسباى السلحدار ، وجانى بك بن أزدمر المعروف بالصغير ، وبخشباى بن عبد الكريم ، وطقطباى ابن برد بك الدوادار . ومن الخاصكية : تمراز

جوشن ، وابنال السلحدار ، وقانصوه الساقى ، وأبو يزيد الصغير وآخرون غيرهم ولم يكن ذلك باختيار السلطان .

وفيه توفى الشيخ حمزة بن محمد ابن حسن ابن على بن عبد الحليم المغربى اليحياوى المالكى ، وكان عالما فاضلا مقيما بالخانقاه الشيخونية ، وكان لا بأس به

وفيه رسم السلطان للخليفة بأن يطلع الى القلعة ليسكن فيها كما كان ساكنا من قبل . وكان السلطان قايتباى رسم له بأن ينزل ويسكن بالمدينة عندما حرق حاصل الخيام كما تقدم .

وفيه من الحوادث أن السلطان ضرب امرأة بين يديه بالمقارع ، وشهرت على حمارة وفى عنقها زنجير ، وهذا لم يعهد قط فلما طاش الملك الناصر وخف ، وكل كرتباى الأحمر أربعة من الخاصكية يمنعونه من اللعب مع أولاد العوام ، ومن كل تصرف فى شىء ، وصار تانى بك الجمالى نظام الملك ، يبيت عنده كل ليلة بالقلعة ومع ذلك ما ارعوى ، وما حصل من هذا طائل ، وزاد فى الطيشان حتى خرج فى ذلك عن الحد . وكان منه ما سنذكره فى موضعه .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة ، وقد نفى تانى بك قرا من عجرود ، فلما دخل المحمل طلبه السلطان عنده بالقلعة ليراه ، ولم يكن رآه قط قبل ذلك

وفيه أنعم السلطان بتقدمة تانى بك قرا على قيت الرجبى

وفيه أن من جملة طيشان الملك الناصر أنه خرج لصلاة الجمعة ، وهو بغير كلوته بل بتخفيفة صغيرة ، فشق ذلك على الأمراء ، وعابوا عليه هذه الفعلة .

***

وفى صفر خلع السلطان على قانصوه الشامى ، الذى كان نائب حماه ، وقرره فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن تانى بك قرا لما بقى أمير مجلس ونفى الى الاسكندرية

وفيه قرر فى مشيخة تربة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير كان ، الشيخ أبو النجا الفوى الواعظ ، وكان من أهل الفضل .

وفيه من الحوادث أن الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، عهد للشيخ جلال الدين الأسيوطى بوظيفة لم يسمع بمثلها قط ، وهو أنه جعله على جميع القضاة قاضيا كبيرا يولى منهم من يشاء ، ويعزل منهم من يشاء ، مطلقا فى سائر ممالك الاسلام وهذه الوظيفة لم يلها قط سوى القاضى تاج الدين ابن بنت الأعز فى دولة بنى أيوب . فلما بلغ القضاة ذلك شق عليهم ، واستخفوا عقل الخليفة فى ذلك ، وقالوا ليس للخليفة مع وجود السلطان حل ولا ربط ولا ولاية ولا عزل ، ولكن الخليفة استخف بالسلطان لكونه صغيرا فلما قامت الدائرة والألسنة على الخليفة رجع عن ذلك . وقال : « ايش كنت أنا ؟ الشيخ جلال الدين هو الذى حسن لى ذلك ، وقال لى : هذه كانت وظيفة قديمة ، وكان الخلفاء يولونها من يختارونه من العلماء » . ثم أشهدوا على الخليفة بالرجوع عن ذلك ، وبعث أخذ العهد الذى كان كتبه للشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادت أن تكون فتنة كبيرة بسبب ذلك ، ووقعت أمور يطول شرحها ، ثم سكن الحال بعد مدة .

وفيه أشيع أن الأتابكى أزبك قد حضر من مكة فى الخفية ، فاضطربت أحوال المماليك الجلبان ، وكادوا أن ينشئوا فتنة . ولم يكن لتلك الاشاعة صحة

وفيه عزل الشهابى أحمد ناظر الجيش ، وتولى

القاضي محيي الدين عبد القادر القصروى ، وكان الساعى فى ذلك جان بلاط الدوادار ، وكان من أخصائه

وفيه ابتدأ الأمراء المقدمون فى لبس التخافيف التى بالقرون الطوال ، وقد خرجوا فى ذلك عن الحد . وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

نقول أميرنا لما تبدى
أنا فى الحرب ذو القرنين دعنى
أنا كبش وأعدائى نعاج
اذا برزوا فأنطحها بقرنى

وفيه خلع السلطان على قانصوه الألفى ، وقرره أمير آخور كبير ، عوضا عن شاد بك الجوخ ، بحكم انتقاله .

وفيه انعم السلطان على دولات باى الفلاح ، بتقدمة ألف ، وصار من جملة المقدمين

وفيه خلع السلطان على بجشباى ، وقرره فى نيابة قلعة دمشق ، بعد ما كانت بيد غيره . وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كرباى نائب البيرة ، وكان قصد الحضور الى مصر فمات ببعلبك .

***

وفى ربيع الأول خلع السلطان على الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن العينى ، وقرره فى نظر الجوالى عوضا عن عبد القادر القصروى

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا ، وهذا أول موالده فلما جلس بين الأمراء اعتراه النعاس ، حتى رش الماء على وجهه كى يستفيق .

وفيه نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى تربة والده ، فزار قبره ، ثم توجه من هناك الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية ، ثم عاد الى القلعة ، وشق من القاهرة فى موكب حافل

وفيه خلع السلطان على كرتباى ابن عمة السلطان ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل .

وفيه قرر قانصوه الدوادار يشبك فى امرية ميسرة بحلب ، ثم جرى عليه بعد ذلك أمور شتى

وفيه قرر قصروه فى نيابة الكرك ، كما كان أولا .

وفيه قرر طومان باى الخازندار فى نيابة الاسكندرية ، فأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى القاهرة ... وطومان باى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وتلقب بالعادل .

وفيه حضر الى القاهرة قانى باى الرماح ، وكان أتابكا بحلب وصرف عنها .

***

وفى ربيع الآخر سافر سيباى الدوادار الثانى الى جهة غزة بسبب أقبردى الدوادار وقد ثبت أنه عند أقباى نائب غزة ثم جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوادار خرج من غزة هو وأقباى نائب غزة ، وتوجها الى البلاد الشامية ... فتأثر الأمراء لذلك ، وضربوا مشورة فى أمره ، فوقع الاتفاق على أن يكتبوا له بأمان من السلطان والأمراء ، فكتبوا له أمانا وأرسلوه له . وكل هذا عين الخداع .

وفيه قرر محمد بن أبى يزيد ، فى نظر البيمارستان المنصورى ، وكان قد عظم أمره فى تلك الأيام جدا .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة قانصوه نائب قلعة الروم ، وكان لا بأس به .

***

وفى جمادى الأولى نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى قبة يشبك الدوادار التى فى المطرية وبات بها ، ثم طلع الى القلعة وشق من القاهرة ، وزينت له وكان يوما مشهودا

وفيه تزايدت الاشـــاعات بوقوع فتنة كبيرة ، ونفل الناس أمتعتهم من الدور . فلما كثر الكلام فى ذلك أحضر السلطان المصحف العثمانى ، وطلع به الى القلعة ، وحلف عليـــه الأمراء والجند بأن يكونوا كلمة واحدة ، ويكونوا عباد الله اخوانا ، وأن الأمراء الذين هم من عصـبة الأمير أقبردى الدوادار يظهرون ويكونون واياهم شيئا واحدا .. فوافق الأتابكى قانصـــوه خمسمائة على ذلك ، وكذلك كرتباى الأحمر وبقية الأمراء . فلما جرى ذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن الغياب الذين من عصـــبه اقبردى يظهرون ، ولهم الأمان من السلطان ... فعند ذلك ظهر شاد بك الخوخ الذى كان أمير آخور كبير ، واينال الخسيف الذى كان حاجب الحجـــاب ، وقانم قريب الســـلطان أحد المقـــدمين بمصر ، وجانم مصبغة . فلمـــا ظهروا وطلعوا الى القلعة ، خلع عليهم الســـلطان كوامل بسمور ، وذلك فى يوم الثلاثاء سابع عشرى الشهر المذكور .

ثم رسم لهم الســـلطان بأن يتوجهوا الى دار الأتابكى قانصوه خمسمائة التى بقناطر السباع ، ويقبلوا يده . فتوجهوا الى هنـــاك ، وقبلوا يد الأتابكى قانصوه خمسمائة ، ورجعوا الى بيوتهم . فلمـــا كان آخر النهار من ذلك اليـــوم ، أرسل الأتابكى قانصوه خلفهم وزعم أنه يضيفهم ويسد لهم مدة ، فحضر اليه شـــاد بك الخوخ ، واينال الخسيف ، وقانم قريب الســـلطان ، ولم يحضر صحبتهم جانم مصـــبغة ، وكان صاحب الرأى فى فى عدم حضـــوره . فلما اجتمعوا عنـــد الأتابكى قانصوه طاولهم بالكلام ، ثم أحضر لهم ســـفرة الشراب ، فشربوا ولم يجلس معهم شاد بك . ثم فتحـــوا بينهم باب العتاب ، واستمروا على ذلك حتى تنصف الليل ... فلم يشعروا الا وقد دخل عليهم مصرباى الثور والى القاهرة ، فقبض على الثلاثة ، وتوجه بهم الى نحـــو الجزيرة الوسطى ، فقيل انه أغرقهم هناك . وكان هذا آخر العهد بهم كما قيل فى المعنى :

لما رأيت الغـــــدر منهم بدا
والبغض من أعينهـــم لى يلوح
فقلت للقلب ارتجـــع عنهـــم
ما قصدهم منك سوى أخذ روح

فلما كان يوم الثلاثاء ليلة الأربعاء ثامن عشريه ، صلى الأتابكى قانصوه العشاء ، وركب بمن معه من الأمراء والعسكر ، وهجم وملك باب السلسلة — وكان قانصوه الألفى أمير آخور كبير ، فما أحوجه يدق باب السلسلة ، ولا ينتظر الجواب .

فلما كان يوم الأربعاء صبيحة تلك الليلة جلس الأتابكى قانصوه خمسمائة فى الحراقة التى بباب السلسلة ، وأرسل خلف أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ، فحضر وحضر القضاة الأربعـــة . واجتمع عنده أربعة عشر مقـــدم ألف ، والعسكر قاطبة ، من الأمراء والجند . فلما تكامل المجلس ، مشـــوا مع الخليفة فى خلع الملك الناصر وتوليـــة قانصـــوه خمسمائة ... فخلع الناصر من الســـلطنة بصـــورة شرعية ، وكتب بذلك صـــورة محضر ، وشهد فيه جماعة كثيرة ، وبويع قانصوه خمسمائة بالسلطنة ، وتلقب « بالأشرف أبى النصر » على لقب أستاذه الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته قبـــل له الأمراء الأرض والعســـكر قاطبة ، ونودى له فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام ، وخلع على شخص يسمى جانم أخا قانصوه الألفى ، وجعـــله والى القاهرة ، وكان قانصـــوه خمسمائة محبـــا للناس قاطبة ، بخلاف أقبردى ،

فلما لم يبق سوى أن يفاض عليه شعار الملك ، ويركب فرس النوبة ، ويحمل على رأسه القبة والطير ، ويصعد الى القلعة ، ويجلس على سرير الملك ... وقع عند ذلك العجائب والغرائب كما يقال فى المعنى :

ستقضى لنا الأيام غير الذى قضت
ويحدث من بعد الأمور أمور

ثم ان قانصوه خمسمائة بعث بعض الأمراء الى القلعة ، بأن يقبض على الملك الناصر ، ويدخله الى قاعة البحرة . فتعصب له جماعة من مماليك أبيه الذين كانوا بالطباق وجمداريته وكتابه ، وكانوا نحوا من ألف مملوك . وكان رأس الجلبان قانصوه خال الملك الناصر ، فمنعوه من دخول قاعة البحرة ومن اعطائه الترس والنمچاه ولم يكن عند الناصر أحد من الأمراء ، فقام قانصوه فى محاربة قانصوه خمسمائة أشد القيام . وقاتل هو والجلبان قتال الموت ، فملكوا فى ذلك اليوم رأس الصوة وسلم المدرج والطبلخاناه ... وعمد قانصوه خال السلطان الى الزردخانة ففتحها ، وأخرج منها زرديات وخوذا وقسيا ونشابا ، وفرقها على المماليك الجلبان . وكان البدرى حسن بن الطولونى نائبا بالقلعة ، فأحضر النجارين والحجارين ، فعملوا أشياء من الطوارق والمدافع . وكان عند الملك الناصر عدة وافرة من العبيد رماة ، ما بين بندق رصاص ونفطية ، فحاصروا قانصوه خمسمائة وهو بباب السلسلة أشد المحاصرة ثم ان كرتباى الأحمر توجه خلف القلعة ، ونصب مكحلة على الجبل المقطم تجاه القلعة ، ورمى بها على الحوش السلطانى فلم يفد ذلك شيئا ... ثم ان قانصوه خمسمائة نادى فى القاهرة بأن أولاد الناس النفطية تطلع الى باب السلسلة ويبيتون بها ، فلم يطلع اليه أحد منهم ، فاستمر قانصوه فى المحاصرة ، وهو مقيم بباب السلسلة ، والخليفة والقضاة الأربعة والأمراء عنده واستمر على ذلك يومى الأربعاء والخميس .

* * *

فلما كان يوم الجمعة ، مستهل جمادى الآخرة ، وقع فى ذلك اليوم واقعة مهولة وقت صلاة الجمعة ، وأحرق المماليك الذين بالقلعة سقيفة الاصطبل السلطانى بحراريق وبارود رموه عليها ، فاحترق الاصطبل ، وصار المقعد الذى بباب السلسلة مكشوفا ، فخاف قانصوه خمسمائة على نفسه أن يرموا عليه شيئا من فوق . وكانت سقيفة الاصطبل تمنع الرمى عن المقعد الذى بباب السلسلة . فلما رأى قانصوه خمسمائة عين الغلب ، ركب ونزل من باب السلسلة ، ووقف عند سبيل المؤمنين ، فحرر عليه بعض الرماة بكفيه وقيل ببندقية ، فجاءت على طرق أذنه جواز ، فسقط عن فرسه الى الأرض ، وقد أغمى عليه وغاب عن الوجود ، فحمله الغلمان على أعناقهم ، وبقى لباسه بتكته بائنا للناس ، ورأسه مكشوف وعليه زنط أقرع . فنزلوا به من الصليبة وهو على هذه الهيئة . فلما وصلوا به الى المدرسة الجاولية أركبوه على حمار .وهو مغمى عليه لا يدرى ما جرى له فلما وصلوا به الى درب الشمسى اختفى فى مكان هناك . وكانت هذه الواقعة من أعجب الوقائع كما قيل :

وبين اختلاف الليل والصبح معرك
يكر علينا جيشه بالعجائب

فلما انكسر قانصوه ، وخرج من باب السلسلة على أنحس حال ، نزل المماليك الجلبان من القلعة الى باب السلسلة ، ونهبوا كل ما فيه من سلاح وقماش وغير ذلك ، ونهبوا طشتخاناة الأمراء والخليفة ، وخطفوا عمائم القضاة ونوابهم ، وما

سلم الخليفة والقضاة من القتل الا السلامة . وقتل فى هذه الحركة جماعة من الجند ، وقتل شخص من الأمراء العشراوات : يقـال له كمشبغا ، وكانت النصرة للملك الناصر على قانصوه خمسمائة على عير الفياس ؛ بعد أن ملك باب السلسلة ، وبايعه الخليفة ، وتلقب بالأشرف ، واجتمع عنده سائر الأمراء المقـدمين — من الظاهرية الجقمقية ، والفايتباهية وسائر العسكر من كبير وصـغير — وقبلوا له الأرض قاطبة . فأورث الخذلان وانتصر عليه الملك الناصر ... وكان قد استخف به لصغر سنه وقلة عصبته ، فكان كما قيل فى المعنى :

ولا تحقرن صـغيرا رماك
وان كان فى سـاعده قصر
فان السـيوف تحـز الرقاب
وتعـجز عما تنـال الابر

وقال آخر :

لا تحقرن كيد الصـغير فربما
تموت الأفاعى من سموم العقارب

وقال آخر :

لا تحقرن صغيرا فى مخاصمة
ان الذبابة تدمى مقلة الأسـد

***

فلما كان يوم السبت مستهل جمادى الآخرة ، طلع الخليفة الى القلعة والقضـاة الأربعة يهنئون السلطان بالشهر ، وبهذه النصرة التى حصلت له . ثم ان الخليفة أعاد الناصر الى السلطنة وبايعه ثانيا ، وكان خلع من السلطنة ، وأقام ثلاثة أيام الى أن عاد اليها . وقيل ان الملك الناصر رشد فى ذلك اليوم وثبت رشده . وأباحوا له التصرف فى المملكة بما يختار . ثم انه خلع على الخليفة ، ونزل الى داره ، وضربت البشائر بالقلعة ، وتخلق جماعة السلطان بالزعفران ، وفرق على الخاصكية سلاريات حرير أصفر بسنجاب ، وتوشحوا بالبنود الحرير الأصفر .

وفى ذلك اليوم رسـم السلطان بالافراج عن الأتابكى تمراز الشمسى ، وتانى بك ، فتوجهوا بالمراسيم الى ثغر الاسكندرية الى مغلباى الشريفى وهو الآن الزردكاش الكبير . وكتب السلطان أيضا مراسيم الى أقبردى الدوادار بالحضور ، وتوجه اليه جانى باى .

وفى ذلك اليـوم خلع السلطان على اينـال السلحدار ، وقرره فى ولاية القـاهرة ، عوضا عن مصرباى الشـور ، بحكم اختفائه . وصرف نظر الجيش عن عبد القادر القصروى ، وأعيـد اليها الشهابى أحمد بن ناظر الخاص يوسف . وقرر البدرى محمد بن كمال الدين ناظر الجيش فى نظر الجوالى عوضا عن الناصرى محمد بن العينى بحكم صرفه عنها . وقرر شمس الدين الفرنوى فى نظر الأحباس ، عوضا عن محمد بن مزاحم الطرابلسى . وعين الأمير سودون العجمى فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قانى بردى البهلوان ، وأرسل بالقبض عليه . فلما جرى ذلك وقع النهب فى بيوت الأمراء الذين اختفوا لما انكسر قانصوه خمسمائة . وأقامت القـاهرة نحوا من أربع عشرة ليلة لم يدق فيها طبلخانات بموجب اختفائهم . واضطربت الأحوال .

وفى هذه المدة كانت القلعة شاغرة لم يقم بها خدمة ، ولا يصعد اليها أمير ، والاشاعات كل ليلة قائمة بوقوع فتنة . وكثر القال والقيل فى ذلك ، وامتنع الناس من السفر الى الشرقية والغربية ، لتزايد فساد العربان فى الطرقات ، والقاهرة مائجة بأهلها يترقبون فتنة كبيرة .

وفيه من الوقائع أنه لما انكسر قانصوه خمسمائة توجه فى ذلك اليوم قانصوه الشامى ومصرباى ،

والى القاهرة ، فخرجا على جرائد الخيل الى بر الجيزة ، وتوجها من هناك الى ثغر الاسكندرية ، ليقتلا الأتابكى تمراز وتانى بك قرا — وكانا بالسجن كما تقدم — وكان قانى بردى البهلوان ، أخو قانصوه خمسمائة ، يومئذ نائب الاسكندرية ... فلم يشكا بأن نائب الاسكندرية يمكنهما من قتل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا . وكان تدبيرهما فى يد غيرهما ، فبينما هما فى أثناء الطريق ، اذ خرج عليهما جماعة من العربان فى تروجة فتحاربا معهم ، فانكسروا وقبضت عليهما العربان ، فقتل مصرباى الثور ، وحزت رأسه وعلقت على باب الاسكندرية . وأما قانصوه الشامى فقبضوا عليه ، وأحضروه الى الاسكندرية ، فسجن بالبرج الذى كان فيه الأتابكى تمراز ... والمجازاة من جنس العمل . وكانت مدة سجن الأتابكى تمراز بالاسكندرية ستة أشهر وأياما ، وكذلك تانى بك قرا بعده بمدة يسيرة ، وأخرجا من السجن معا . وقد قيل :

وكم من طالب يسعى لشىء
وفيه هلاكه لو كان يدرى

فأقام قانصوه الشامى أياما فى السجن بثغر الاسكندرية .

وفيه بعث السلطان مراسيم على يد قانصوه دوادار الأمير شاد بك الخوخ الذى قتل ، بضرب عنق قانصوه الشامى . فلما وصلت المراسيم الى ثغر الاسكندرية أخرج قانصوه الشامى من برج الاسكندرية ، وتوجه به الى آخر المدينة وضرب عنقه . قيل وكان المشاعلى غائبا والذى ضرب عنقه كان صبى المشاعلى . وقيل انه ضربه ثلاث ضربات حتى أطاح رأسه وعذبه غاية التعذيب . وذلك أن قانصوه دوادار شاد بك الخوخ أخذ بثأر أستاذه منه ، وعلقت رأسه على باب الاسكندرية ، وهى مشهورة ، فكان أول من قتل من الأمراء . وكان شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية وكان لا بأس به

وفى أثنائه وصل الأتابكى تمراز وتانى بك قرا فخرج الناس الى ملتقاهم ، وطلعا الى القلعة فى موكب حافل ، وعليهما الملاليط الطرح . فلما قابلا السلطان خلع عليهما ، ثم أعاد تمراز الى الأتابكية عوضا عن قانصوه خمسمائة . وخلع على تانى بك قرا وقرره فى امرية مجلس ، عوضا عن أزبك اليوسفى المعروف بالخازندار ، وأنعم على قانى بك المعروف بنائب الاسكندرية ، وقرره من جملة المقدمى الألوف . وقرر خشكلدى فى استدارية الصحبة وعزل اينال السلحدار عن ولاية القاهرة ، وقرر بها قانصوه الفاجر عوضا عن اينال .

وفيه أنعم السلطان على مصرباى الشرفى شاد الشرابخاناه بتقدمة ألف ، وخلع على خاله المقر السيفى قانصوه بن قانصوه ، وقرره فى شادية الشرابخاناه وأنعم عليه بامرية طبلخاناه وهذا أول ظهوره بمصر واشتهاره ... وكان من جمله مماليك السلطان الجمدارية ، ولم يكن خاصكيا ، فخدمه السعد جملة واحدة ، واستمر يرتقى الى أن بقى سلطانا ، كما سيأتى ذكره فى موضعه ... فلما بقى شاد الشرابخاناه اجتمعت فيه الكلمة ، وصار صاحب الحل والعقد بالديار المصرية ، وصار السعى لأرباب الوظائف من بابه ، وعولت الناس على أشغالها فى رد جوابه فهذا كله جرى وقانصوه خمسمائة من حين انكسر مختف . والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة . وصار الناس على رءوسهم طيرة .

ثم أشيع بين الناس أن المماليك الذين من عصبة قانصوه خمسمائة ، يقصدون قتل الأتابكى تمراز

وتانى بك قرا ، فرسم لهما السلطان بأن يطلعا الى القلعه . ويقيما بها حتى يكون من الأمر ما يكون فطلع الأتابكى تمراز وتانى بك قرا وأقاما فى الجامع الصغير . الذى هو داخل الحوش السلطانى أياما .

فلما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، ظهر الأشرف قانصوه خمسمائة من مكان فى درب المرسينة ، الذى عند قناطر السباع ، وكان قد أشيع بأنه قد خرج على وجهه من حين انهزم من الرميلة . فلما ظهر تسامع به من كان من عصبته ، وأتوا اليه أفواجا أفواجا . فركب من هناك وتوجه الى الميدان الناصرى الذى عند البركة ، وعلى رأسه صنجق . فلما تسامع به العسكر حضر عنده جماعة من الأمراء ، ممن كان من عصبته واختفى يوم الهزيمة ... فحضر قانصوه الألفى وجان بلاط بن يشبك ، وماماى ، وقرقماس بن ولى الدين ، وقانصوه المحمدى ، وقيت الرجبى ، وكرتباى الأحمر ، وكسباى الشريفى ، ويشبك قمر ... فهؤلاء مقدمو ألوف . وحضر من الأمراء الطبلخانات والعشراوات جماعة كثيرة . فلما تكاثر هناك العسكر ضاق بهم الميدان ، فحسن ببال قانصوه خمسمائة أن يأخذ العسكر ويتوجه الى الأزبكية ، فتوجه الى هناك ، ونزل بدار الأتابكى أزبك ، فلم يحضر اليه من العسكر الا قليل ، فتلاشى أمره وبان عليه الخذلان ، وهو لا ينتهى عما هو فيه . كما يقال فى الأمثال : « الموت فى طلب الثار ، ولا الحياة فى العار » :

وقال آخر :

فموتى فى الوغى عيشى لأنى
رأيت العيش فى أرب النفوس

فبات تلك الليلة هناك فى الأزبكية ، فلما أصبح يوم الأربعاء انسحب من كان عنده من العسكر ، ولم يبق عنده منهم لا قليل ولا كثير ، وتوجه الأمير كرتباى الأحمر الى المطرية وخليج الزعفران ، لأجل أخذ الخيول ، فانها كانت فى الربيع . وبلغ قانصوه خمسمائة أن المماليك الجلبان نازلة من الطبقات وهم مشاة ، وقد وصلوا الى رأس البندقانيين . فلما تحقق ذلك ، طلب الفرس وركب هو ومن عنده من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، نحو من عشرين أميرا والطواشى فيروز الزمام ، ومنهم قايتباى الأقرع الزردكاش ، وبرسباى الخسيف أمير آخور ثانى ، وقرقماس الشريفى المحتسب ، واسنباى المبشر ، وتمراز الشيخ ، ودولات باى المصارع ، وأزدمر الخازندار ودولات باى جركس ، وتمرباى المحمدى كاشف الشرقية ، وسودون الدوادار ، وطومان باى أخو الأمير جانم ، وآخرون من الأمراء . فخرجوا من الأزبكية بعد طلوع الشمس ، وهم على جرائد الخيل ، وتوجهوا نحو خانقاه سرياقوس بعد أن أخذوا خيول السلطان وغيره من الربيع ، وكان آخر العهد بهم ، وقد قتلوا أجمعين كما سيأتى ذكره . فكانت هذه ثالث كسرة وقعت لقانصوه خمسمائة . وكان أرشل معكوس الحركات فى سائر أفعاله لم يطب طبه ، وكان ذلك خذلانا من الله تعالى له . وقد قيل فى المعنى :

على المرء أن يسعى لما فيه نفعه
وليس عليه أن يساعده الدهر

فان نال بالسعى المنى تم سعده
وان حالت الأقدار كان له العذر

فلما وصل المماليك الجلبان الى الأزبكية ، وجدوا قانصوه قد انسحب منها . وكان الأتابكى تمراز نزل مع جماعة من الجلبان من على باب الخرق ، وأتوا الى الأزبكية ، والجماعة الثانية مع

تانى بك قرا نزلوا وتوجهوا من البندقانيين من على قنطرة الموسكى . وأتوا الى الأزبكيه من هناك فلم يجدوا بها أحدا ... فأحرقوا طبلخانة الأمير أزبك ، ونهبوا داره والربوع التى هناك ، ونهبوا قناديل الجامع والحصر التى به . وكان هناك حواصل للأتابكى فيها خيام ونشاب فنهبوا ذلك جميعه ، ونهبوا دور سكان الأزبكية . فكان كما قال :

غيرى جنى وأنا المعذب فيكم
فكأننى سبابة المتندم

وفيه جاءت الأخبار بأن قانصوه خمسمائة لما خرج من الأزبكيه قصد التوجه الى غزة ، ليقتل اقبردى الدوادار ولكن فاته الشنب . وكان مقيما عند اقباى نائب غزة ، وكان السلطان أرسل خلفه ليحضر الى القاهرة ، وكان يظن أن الوقت قد صفا له بكسره قانصوه خمسمائة . فقصد التوجه الى الديار المصريه ، فلما خرج من غزة ووصل الى خان يونس الذى هناك ، فلم يشعر الا وقد دهمته عساكر قانصوه خمسمائة ، ولم يكن عنده علم بذلك فأحاطوا به وكان بينهما واقعة قوية مهولة فانكسر أقبردى الدوادار ودخل الى خان يونس ، وأغلق عليه الباب ، فحاصره قانصوه خمسمائة أشد المحاصرة ، وأحرق باب الخان ، وأشرف أن يظفر به . فلما رأى آقبردى عين الغلبة طلب من قانصوه خمسمائة الأمان ، فلم يعطه الأمان . فبينما هو على ذلك وقد دنت الشمس للغروب ، واذا باقباى نائب غزة ، واينال باى نائب طرابلس ، وشيخ العرب ابن نبيعه ، ومعهم جماعة من العربان والعشير أتوا ليتوجهوا مع أقبردى الى القاهرة ، فوجدوه فى المحاصرة وهو فى خان يونس ، فكان كما يقال « فى أضيق الوقت يأتى الله بالفرج » ، فكان بينهما واقعة لم يسمع بمثلها ، فلما حال بينهما الليل انكسر قانصوه خمسمائة ومن معه من الأمراء والعسكر ... وهذه رابع كسرة وقعت لقانصوه خمسمائة ، فكان كما يقال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة
حتى تروم التى من دونها العطب

فكان أول من أسر من الأمراء ماماى بن خداد ، فحزت رأسه بين يدى أقبردى ، ثم حزت رأس فيروز الزمام ، وحزت رأس سودون الدوادار . وأما قانصوه خمسمائة ، فمن الناس من يقول انه قتل فى المعركة وحزت رأسه ، وأخذت فرسه ، والهياكل التى كان حاملها ، ومن الناس من يقول انه لما انكسر ، وحال بينهما الليل ركب فرسه ، وكان مجروحا فنجا بنفسه ، ولم يعلم له خبر . والأصح أنه قتل وحزت رأسه ، وأحضرت بين يدى آقبردى ، ودخلت رأسه الى القاهرة وهى على رمح ، وصار الناس بعد ذلك يشكون فى قتله الى الآن ، ويزعمون أنه باق فى قيد الحياة الى الآن ، وهذا من الأمور المستحيلة . وقد قضى الأمر فى قتله . فلما كان صبيحة يوم الواقعة ، صار آقبردى يقبض على الأمراء الذين كانوا صحبة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليهم من الغيطان التى هناك والخانات فأمسك منهم قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة عن عشرين ممن تقدم ذكرهم ، فلما قبض عليهم قيدهم ، وقبض على جماعة من الخاصكية ممن كان صحبة قانصوه خمسمائة . واستمروا فى أسره حتى كان من أمرهم ما سنذكره فى موضعه .

هذا ما كان من أمر قانصوه خمسمائة وأقبردى الدوادار . وأما ما كان من أمر الملك الناصر بعد حركة قانصوه خمسمائة ، فانه صار مع مماليك

أبيه فى الضنك وهو يهدد كل يوم بالقتل ، حتى امتنع من صلاة الجمعة ، وصار الأتابكى تمراز فى غاية المشقة ، وقد وعد بالقتل غير ما مرة

وفيه ، فى يوم السبت تاسع عشريه ، وقعت قلقلة بين المماليك والأمراء بالقلعة ، فقال المماليك للأمراء : « غيروا لقب السلطان ولقبوه بالأشرف على لقب أبيه » ، فطال الكلام فى ذلك . فقالت الأمراء : « كيف يكون هذا الأمر بعد ما خرجت عدة مناشير ومربعات الى البلاد الشامية باسم الملك الناصر . فكيف يغير لقبه بالملك الأشرف ؟ » فقال المماليك : « لا بد من ذلك » وصمموا على قولهم . فعند ذلك غير لقبه ، ونودى فى القاهرة بأن السلطان تغير لقبه وتلقب بالملك الأشرف ... فتعجب الناس من ذلك ، وصار الخطباء منهم من يخطب باسم الملك الناصر ، ومنهم من يخطب باسم الملك الأشرف . وكان سبب تغير لقب السلطان أنه أخرج خرجا من المماليك ، فصاروا يسمون الناصرية ، ومماليك أبيه يسمون الأشرفية ، فصارت المماليك الناصرية أرجح كفة من المماليك الأشرفية ، فما أطاقوا ذلك ، وقالوا «لقبوا السلطان بالأشرف ، ونصير كلنا أشرفية» . فما زالوا على ذلك حتى فعلوه . وتقرب هذه الواقعة مما اتفق للملك الصالح أمير حاج ابن الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون الألفى ، أنه تسلطن أولا وتلقب بالملك الصالح ، الى أن خلعه الظاهر برقوق من السلطنة وتسلطن عوضه فلما أعيد الى السلطنة ثانيا ، وخلع برقوق من السلطنة فى فتنة يلبغا الناصرى ومنطاش ، غيروا لقبه بعد مضى ثمانية أشهر ، ولقبوه بالملك المنصور . وقد تقدم سبب ذلك .

وفيه كثر الاضطراب بالديار المصرية ، وامتنع الأمراء من طلوع الخدمة ، وكثر بين الناس القال والقيل بأن المماليك يقصدون الهجوم على السلطان ويقتلونه ... فرسم السلطان بسد باب السلسلة ، وباب الميدان ، وباب الحوش الذى يلى العرب ، فسدوها بالحجر واستمروا على ذلك مدة طويلة . فكان الناس يطلعون الى القلعة من باب المدرج فقط ، ويطلعون الى باب السلسلة من الباب الذى عند الصوة تحت الطبلخانات .

* * *

وفى رجب خلع السلطان على ابن سيف وقرره فى امرية آل فضل عوضا عن أبيه .

وفيه رسم السلطان بنفى أزبك قشق الظاهرى جقمق .

وفيه أنعم السلطان بتقادم ألوف على برد بك نائب جدة ، ومصرباى وقرقماش التنمى .. ولكن لم يتم له ذلك فيما بعد ، وقرر فى نيابة غزة عوضا عن أقباى كما سيأتى الكلام عليه .

وفيه أنعم السلطان أيضا على قانى بك نائب الاسكندرية ، وصار من جملة المقدمين ، وقرر مغلباى البجمقدار فى الخازندارية الكبرى .

وفيه هجم المنسر على سوق باب اللوق ، وأخذوا أموال التجار ، وفتحوا عدة من الدكاكين ، وفعلوا مثل ذلك بسوق تحت الربع ، وكسروا منه عدة دكاكين ، وأخذوا ما فيها .

وفيه قبض الملك الناصر على القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، وأودعه بالطشتخاناه التى بجوار البحرة ، وقرر عليه أموالا لا يقدر عليها ... وهذه أول نكباته ، وقاسى من البهدلة والانكاد ما يطول شرحه ، واستمر بعد ذلك فى النكبات ، وهى تترادف عليه شيئا بعد شىء ، حتى كان فيه هلاكه كما سيأتى ذكر ذلك ... وكان سبب ذلك أنه يوم مبايعة قانصوه خمسمائة ، كان هو المذبذب له ، وأظهر البشر والفرح فى ذلك

اليوم ، فصار له ذنب عند الملك الناصر بسبب ذلك . ومن جملة ما قاساه أن الناصر لكمه على عينه فنفرت من مكانهـا ، وكادت أن تذهب ، وأقام أياما وعينه مرفوده وهو فى التوكل به أياما حتى أورد مالا له صورة مما قرر عليه .

وفيه رسم السلطان للأتابكى تمراز والأمير تانى بك قرا بأن ينزلا الى دورهما ، وكانا بجامع القلعة من حين ركب قانصوه خمسمائه وانكسر ، كما تقدم ذكر ذلك . وخلع عليهما ، ونزلا الى دورهما فى غاية التعظيم

وفيه جاءت الأخبار بنصرة آقبردى الدوادار على قانصوه خمسمائه ، فلما تحقق السلطان ذلك نادى فى القاهره بالزينة ، ودقت البشائر بالقلعه .

وفيه فى يوم الخميس رابع رجب جاءت رءوس من قتل فى المعركة على خان يونس ، كما تقدم ذكر ذلك . فكان عده الرءوس التى حضرت الى القاهرة أربعا وثلاثين رأسا ؛ وهى معلقة على رماح ، وينادى عليها : « هذا جزاء من يخامر ويعصى على السلطان » . وكان من جملة تلك الرءوس رأس ماماى بن خداد أحد المقدمين ، وكان رئيسا حشما وافر العقل شجاعا بطلا ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ... توجه قاصدا الى ابن عثمان غير ما مرة ، وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية : ثم بقى مقدم ألف ، وهو الذى جدد الدار المعظمة التى بين القصرين ، وصرف عليها جملة مال عظيم . ومن جملة الرءوس رأس فيروز الطواشى الزمام ، فلم يرث له أحد من الناس ، ولا أثنى عليه خيرا ؛ وكان عنده خفة وطيش . ومن الأمراء العشراوات : بخشباى ابن عبد الكريم . وتمرباى كاشف الشرقية ، وسودون الدوادار . ومن الخاصكية عدة وافرة ، منهم قانباى بن قيت الرجبى ، وخاير بك دوادار الأتابكى أزبك ، وأزبك اليبرى السيفى جانى جدة وآخرون من الخاصكية المماليك السلطانية .

وكان آخر الرءوس الذى تسلطن — وما كان أغناه عن هذه السلطنة — فصنعوا له عيونا من زجاج حتى يعرف بها من بين الرءوس .

وكان قانصوه خمسمائة أميرا جليلا موصوفا بالشجاعة ، وافر العقل ، كثير الأدب والحشمة . ويقال كان أصله من مماليك الملك الظاهر خشقدم ومن كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباى ، وأعتقه فهو من عتقائه . وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، والأميراخورية الكبرى ، ثم بقى أتابك العساكر بمصر ، ثم تسلطن وتلقب بالأشرف ، وأقام فى السلطنة ثلاثة أيام ، وخرب بسببه عدة دور ، وقتلت جماعة كثيرة من الأمراء . وكان قانصوه خمسمائة ليس له سعد فى حركاته ، وقتل وهو فى عشر الخمسين . فلما عرضوا تلك الرءوس شك أكثر الناس بأن هذه ليست برأس قانصوه خمسمائة ، واستمروا على ذلك الى الآن . والأصح أنها رأسه ... فأمر السلطان أن تعلق بباب زويلة وباب النصر ، واستمرت الكئوسات تدق بالقلعة سبعة أيام ، وكذلك بيوت الأمراء المقدمين .

ثم أن آقبردى الدوادار أرسل يشاور السلطان فى أمر هؤلاء الأمراء الذين أسروا بخان يونس ، فبرزت اليه المراسيم الشريفة بقتلهم أجمعين . فلما وصل آقبردى الى الخطارة سلم هؤلاء الأمراء الى شيخ العرب أحمد ابن قاسم بن بقر ، فأتى بهم الى فاقوس وقتلهم أجمعين تحت جميزة كانت هناك . ثم رموهم ببئر كانت هناك ، وانقضت أخبارهم . وقيل ان الذى باشر قتلهم تانى بك أبو شامة ، وقتل تانى بك أبو شامة بعد مدة يسيرة كما سيأتى الكلام عليه ... ومثل ما تعمل شاة الحمى

فى القرظ يعمل القرظ فى جلدها . فكان عدة من قتل هناك من الأمراء نحوا من خمسة عشر أميرا . منهم مقدمو ألوف ثلاثة ، وهم قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر . وكان قانصوه الألفى من خواص الأشرف قايتباى ، وتولى من الوظائف الدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى أمير آخور . وكسباى الزينى تولى حسبة القاهرة ، والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف . ويشبك قمر تولى ولاية القاهرة ، ثم مقدم ألف ... ومات بقية الأمراء شر ميتة ، حتى قيل ان العرب قطعوا أرجلهم بالخناجر حتى أخذوا منها القيود الحديد ، وألقوهم هناك فى بئر خراب .

وأما من قتل هناك من الأمراء الطبلخانات . فالأمير قايتباى الأقرع الزردكاش الكبير ، وبرسباى الخسيف أمير آخور ثانى ، وقرقماش الشريفى المحتسب ، واسنباى المبشر استادار الصحبة ، وتمر باى ، وتمراز الشيخ ، ودولات باى بن جركس ، وأزدمر الخازندار ، ودولات باى المصارع وآخرون من الأمراء العشراوات . وقد تقدم القول على ذلك . وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع وأبشعها . وكان قانصوه خمسمائة لما تسحب من الأزبكية وقصد التوجه الى غزة ، أخذ عدة خيول للسلطان وللناس ، كانت فى المرابط على البرسيم فى زمن الربيع فحصل بسبب ذلك غاية الضرر . وكانت تلك الأيام كلها اضطرابا .

وفيه أرسل السلطان الملك الناصر يستحث أقبردى الدوادار على الدخول الى القاهرة ، وكان ظن أن الوقت قد صفا له ، ولكن حدث بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليها .

وفيه خلع السلطان على جوهر المعينى ، وقرره فى الزمامية ، عوضا عن فيروز الرومى ، بحكم قتله كما تقدم . وقرر عبد اللطيف الرومى فى الخازندارية الكبرى ، عوضا عن فيروز أيضا .

وفيه أنعم السلطان على قانى باى الرماح بتقدمة ألف ، وكان أمير عشرة ، وولى نيابة صهيون قبل ذلك .

وفيه خلع السلطان على أبى يزيد الصغير ، وقرره فى باشية مكة المشرفة ، وكان ذلك باختياره خوفا على نفسه من القتل والفتن .

وفيه من الحوادث أن مماليك الأتابكى تمراز قتلوا شخصا من خواصه يقال له محمد البارنبالى ، وكان من وسائط السوء عند تمراز ، وكان صاحب ديوانه ومباشره . فما أطاق المماليك فعله فقتلوه وهو جالس بباب الأتابكى تمراز . وتعصب لهم بعض مماليك السلطان ، فلم يطلع من يد الأتابكى تمراز فى حقهم شىء ، وراح القتل فى كيس محمد البارنبالى .

وفيه ابتدأ الملك الناصر فى الطيش ومخالطة الأوباش والأطراف ، وحملت اليه مركب صغيرة فجعلها فى البحرة ، ووضع بها حلواء وفاكهة وجبنا مقليا ، وصار ينزل فى المركب بنفسه ، ويبيع كما يصنع البياعون فى المتفرجات ... وكان كل ذلك خفة لصغر سنه . ثم انه عرض المحابيس فأطلق منهم جماعة ، وأمر باتلاف سبعة أنفار من المفسدين كانوا معهم فى السجن ، ثم أدخلهم الى الحوش الذى قدام باب قاعة البحرة ، فوسطهم بيده وعلمه المشاعلى كيف يوسط ، ثم قطع أيديهم وآذانهم وألسنتهم بيده ، والمشاعلى يعلمه كيف يصنع . وهذا كله من أقبح الفعال التى لا تليق بالملوك ، ولكن قصد أن يمشى على طريقة الملك الناصر فرج بن برقوق ، وهى أنحس طريقة .

وفى يوم الأحد رابع عشر رجب ، كان دخول أقبردى الدوادار الى القاهرة ، فزينت له ودخل

فى موكب حافل ، وطلب طلبا عظيما ، وكان له يوم مشهود . ودخل معه من الأمراء آقباى نائب غزة ، واينال باى نائب طرابلس ، وشيخ العرب ابراهيم ابن نبيعة ، وجماعة من الأمراء والخاصكية ممن كان من عصبته وفر معه ، منهم : برد بك المحمـدى الخـازندار الاينالى ، ودولات باى ، ومغلبـاى عسل نحل ، وجانم الأجرود ، فهؤلاء من الاينالية . وأما من كان من القايتباهية فهم : اسنباى الأصم ، وبرسباى السـلحدار ، وجانى بك الصـغير ، وآخرون . وأحضر صحبته جماعة ممن كان فر مع قانصوه خمسمائة من الخاصكية والمماليك السلطانية ممن أسر منهم ، وهم فى جنازير حديد ، فقصد أقبردى أن يدخـل بهم قدامه وهم فى جنـازير ، وكانوا نحو مائتى انســان ، فتعصب لهم خشداشينهم وقالوا : « متى فعل ذلك قتلناه » فرجع عن ذلك . وكان أحضر معه رأس قانصوه الألفى ، وكسباى الزينى ، ويشبك قمر ، الذين قتلوا فى الخطارة . وقصد أن يشهرهم على الرماح قدامه لما يدخل الى القـاهرة ، فلم يجسر يفعل ذلك . ولكن عرضهم على السلطان فيما بعد فى الخفية ، ولم يشعر بهم أحد . فلما شق القاهرة وطلع الى القلعة خلع السلطان عليه وعلى من جاء صحبته من الأمراء ، وعلى شيخ العرب ابن نبيعة ، ونزلوا الى دورهم .

ثم ان الملك الناصر قصـد أن نفتك بالمماليك الذين حضروا صحبة أقبردى ، ممن أسر على خان يونس ، فما جسر على ذلك وخشى من وقوع فتنة ، فما وسعه الا أن عفا عنهم ، وأنفق على كل واحد منهم عشرة دنانير وأطلقهم ، وخمدت فتنة قانصوه خمسمائة .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وحضر الأتابكى تمراز ، وتانى بك قرا أمـير مجلس ، وأقبردى الدوادار . ثم أحضر المصحف العثمانى الى القلعة فحلف عليه الأتابكى تمراز وتانى بك قرا وأقبردى الدوادار — ولم يكن حلفهم قبل اليوم — بأنهم لا يخـامرون ولا يعصـون ولا يركبـون على السلطان ، فحلفوا على ذلك .

ثم انه خلع على أقبردى الدوادار ، وقرره فى امرية سلاح عوضا عن تانى بك الجمالى بحكم أنه اختفى ، وقرره أيضا فى الدوادارية الكبرى عوضا عن جان بلاط بن يشبك بحكم اختفائه ، وقرره أيضا فى الوزارة والاستادارية الكبرى ، وكاشف الكشاف ، عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم اختفائه أيضا . فصار كما كان يشبك بن مهدى ، وكان نهاية سعد أقبردى فأقام على ذلك مدة يسيرة نحوا من شهرين . وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قرر كرتباى أمير آخور كبير ، عوضا عن قانصوه الألفى بحكم قتله .

وفيه خلع السلطان على أقباى نائب غزة وقرره فى رأس نوبة الكبرى عوضا عن قانصوه الشامى بحكم قتله بالاسكندرية . وأنعم على جانم الأجرود كاشف منفلوط بتقدمة ألف ، وأنعم على برد بك المحمدى بتقدمة ألف ، وأنعم على كرتباى أخى أقبردى بتقدمة ألف ، وقرر اينال باى نائب طرابلس على حاله ، فأقام فى القاهرة أياما ورجع الى طرابلس على عادته .

وفيه رسم السلطان لكاتب السر وناظر الجيش ألا يخـرجوا مراسـيم سـلطانية ولا مربعـات ولامناشير الا بختم من وراء العلامة السلطانية ، وأن يكتبوا أيضـا وراء العلامة ما تضمنه ذلك المرسوم .

وفيه قويت الاشاعات بوقوع فتنة ، وأخـذ

السلطان فى تحصين القلعة . ونقل اليها أشياء كثيرة من الدقيق والبقسماط والاحطاب والماء والعليق ، وغير ذلك . وكانت الاحوال فى غاية الاضطراب . وظهر غالب من كان اختفى من عصبة قانصوه خمسمائة . وانضموا الى قانصوه خال السلطان ، والتفوا عليه بعضا فى أقبردى الدوادار . وقد تلاشى أمره لما عاد فى هذه المرة وصار مهددا بالقتل فى كل ليلة ، ولم تنفذ له كلمة ، كما نقال :

ما الناس الا مع الدنيا وصاحبها
فحينما انقلبت يوما به انقلبوا
يعظمون أخا الدنيا فان وثبت
يوما عليه بما لا يشتهى وثبوا

فكان زوال أقبردى عن قريب .

***

وفى شعبان أنعم السلطان بامرية عشرة على مراكز البهلوان ، وهى امرية قايتباى الشرفى الذى قتل بغزة .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة برد بك الطويل نائب صفد . فلم يأذن له السلطان بالاجتماع به ، ومنع من الطلوع الى القلعة عند حضوره . وقاسى من أقبردى الدوادار غاية البهدلة

وفيه أمر السلطان بأن تقطع الحيات التى تصنع فى البيمارستان بحضرته حتى يتفرج عليها ... فأحضروها بين يديه بقاعة البحرة ، فقطعت بحضرته وهو ينظر اليها وخلع على رئيس الطب شمس الدين القوصونى وولده والحاوى الذى أحضر الحيات وآخرين منهم .

وفيه أنعم السلطان على طومان باى الخاصكى بالخازندارية وأمرية عشرة ، وكان قد قدم من البلاد الشاميه وطومان باى هذا هو الذى تسلطن فيما بعد ، وتلقب بالملك العادل ، وكان بين امرية العشره وسلطنته دون الأربع سنين .

وفيه هجم المنسر على سوق أمير الجيوش ، وأخذوا منه أشياء كثيرة من عدة دكاكين ، وقتلوا الخفير ، وراحت على أصحابها

وفيه خلع السلطان على جانم المصبغة ، وقرره فى حجوبية الحجاب عوضا عن اينال الحسيف

وفيه رسم السلطان بشنق عبد القادر صبى القصديرى .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بقتل شمس الدين ابن بدر الدين حسن بن المزلق الدمشقى ، مات مذبوحا بدمشق ، وهو فى داره ، وكان متولى قضاء الشافعية بدمشق

وفيه جاءت الأخبار بوفاة رستم صاحب العراقين وديار بكر ، وكان لا بأس به .

وفيه ثارت فتنة من المماليك الجلبان على السلطان ، وطلبوا منه نفقة بسبب هذه النصرة التى وقعت له ، فأنفق عليهم بعدما كانت فتنة كبيرة بسبب ذلك ، فبلغت هذه النفقة نحوا من خمسمائة ألف دينار . وصودر فيها جماعة كثيرة من المباشرين وغيرهم .

وفيه صار السلطان يخرج اقطاعات الناس والرزق والأملاك ويفرقها على مماليكه الجلبان . وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك

وفيه قرر السلطان تمراز جوشن أمير آخور ثانى ، وقرر قصروه فى نيابة القلعة

وفيه قبض أقبردى الدوادار على داود بن عمر أمير هواره ، وقد آل أمره فيما بعد الى أنه شنق على باب شونة منفلوط بالوجه القبلى لأمور حقدها عليه .

وفيه جاءت الأخبار من نواحى هرمز بأن خسف بها مدينة كاملة بأهلها .

وفيه أكمل السلطان النفقة على الجند والأمراء .

وفيه توفى شهاب الدين أحمد بن عامر المغربى المالكى ، شيخ تربة الأشرف قايتباى ، وكان عالما فاضلا صالحا متقشفا لا بأس به

وفيه جاءت الأخبار بأن الطاعون قد وقع بمدينة غزة ، وهو زاحف نحو البلاد المصريه .

وفيه خلع السلطان على وفاء الماوردى وقرره فى امرية دون أميرشكار ، وأمر له بأن يتــزيا بزى الأتراك ويلبس التخفيفة التى بالقرون والسلارى القصير الكم — وكان عاميا يلبس لبس العوام — فعد ذلك من نواقص الملك الناصر .

وفيه تزايد أذى الجلبان فى حق أقبردى وصار مهددا بالقتل فى كل يوم ، حتى سأل السلطان أن يوليه نيابة الشام ، ويخرج اليها خوفا على نفسه من الجلبان ، فلم يسمح له السلطان بذلك .

* * *

وفى رمضان فى أول ليلة منه لم يطلع أحد من الأمراء ، ولا أفطر عنــــد السلطان على جارى العادة ، وكثرت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة بسبب أقبردى .

فلما كان يوم السبت رابع شهر رمضان ركب الأمير اقبردى ، ووافقه على ذلك مانى باى قرا أمير مجلس ، واقباى نائب غزه رأس نوبه النوب ، وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وجانم الأجرود كاشف منفــلوط أحد المقــدمين ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، والجم الغفير من الجند ، ممن كان من عصبه أقبردى ، فوقع فى ذلك اليوم واقعه مهوله ، فانكسر اقبردى بعد العصر واختفى فلما دخــل الليــل هرب أقبردى هو ومماليكه ، وأخذ صحبته أقباى نائب غزة رأس نوبة كبير فلما هرب توجه نحو الصعيد فأقام به حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه توفى خالص الطواشى التكرورى مقــدم المماليك ، وكان عنده لين جانب وكان لا بأس به . فلما مات قرر فى تقــدمة المماليك مثقال الحبشى البرهانى ، الذى كان مقــدم المماليك ، ونفى الى القدس وأعيد الى القاهرة .

وفيه اشتد الحر وعز وجود السقائين ، وتكالب الناس على الروايا والجمال حتى تخانقوا بالعصى ، وبلغ سعر راوية الماء ثلاثة أنصاف .

وفيه من الوقائع الغريبة أنه فى اليوم التاسع والعشرين من الشهر المذكور ، أمر السلطان بأن تدق الكئوسات بالقلعة ، وقال : « أنا أعمل العيد فى الغــد من هذا الشهر ان رأوا الهلال أو لم يروا » .

فلما أشيع ذلك بين الناس ركب قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا وطلع الى القلعة ، فاجتمع بالسلطان وعرفه بأن العيد لا يكون الا اذا رؤى الهلال فى تلك الليلة . فشق ذلك على السلطان ، وهم بعزل القاضى فى ذلك اليوم . فلما دخل الليل لم ير الهلال فى تلك الليلة ، وجاء العيد بالجمعة . وكأن الناصر تطير بالعيد أن يجىء يوم الجمعة ، فكان ذلك على رغم أنفه .

* * *

وفى شوال لم يخرج السلطان الى صلاة العيد ، ولا طلع الأتابكى تمراز الى القــلعة ، ولا بقية الأمراء المقــدمين ، فبعث السلطان الخلع اليهم فى بيوتهم . وفى أواخر ذلك اليوم طلع الخليفة ليهنى السلطان بالعيد ، وكان بقاعة البحرة مع الأوباش الذين يعاشرهم ، فلم يخرج اليه السلطان ، وأرسل يتشكر منه ، وأمره بالانصراف ، فعــد ذلك من نوافص الملك الناصر وكان الملك الناصر فى تلك الأيام فى غاية الطيشان .

وفيه أنعم السلطان على قصروه بتقدمة ألف

بمصر ، وخلع على عمه قست وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن قصروه ، بحكم انتقاله الى التقدمة ، وقرر ولده جانم فى الزردكاشية عوضا عن أبيه .

وفيه رسم السلطان لشخص من الأمراء يقال له قانصوه الساقى ، بأن يكون أمينا على باب القلعة عند سلم المدرج ، يحيط علما بمن يطلع الى القلعة أو ينزل منها ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه جاءت الأخبار من المدينة المشرفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، بوفاة الحافظ شمس الدين السخاوى ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر بن عثمان ، وكان عالما فاضلا بارعا فى الحديث ، وألف تاريخا فيه أشياء كثيرة من المساوى فى حق الناس ، وكان مولده بعد الثلاثين والثمانمائة .

وفيه جاءت الأخبار من الصعيد بأنه قد قامت هناك فتنة كبيرة بين حميد بن عمر أمير هوارة ، وهو أخو داود الماضى خبره ، فوقع بين حميد وبين قريبه ابراهيم فتنة مهولة يأتى الكلام عليها .

وفيه كانت الفتن قائمة بين طائفة بنى حرام ، وبنى وائل ، حتى أعيا جان بردى الكاشف أمرهم ، وخرجت اليهم تجريدة ، وبها عدة من الأمراء . ولم يفد ذلك شيئا .

وفيه عين السلطان أبا يزيد الصغير بأن يتوجه الى أقبردى الدوادار للصعيد ، وصحبته خلعه وفرس بسرج ذهب وكنبوش ، وعلى يده مراسيم شريفة لأقبردى الدوادار ، بأنه على عادته فى وظائفه حتى يصير له حرمة على العربان ثم حضر الى القاهرة عن قريب وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل مصرباى أحد المقدمين ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن العينى . وكان الحاج فى تلك السنة قليلا .

وفيه صعد سليمان ابن فرطام أحد مشايخ بنى حرام الى القلعة ، وعلى رأسه منديل الأمان من السلطان . فلما مثل بين يديه لكمه قانصوه الفاجر ، والى الشرطة ، وأخذ منه منديل الأمان ، والسلطان ساكت لم يتكلم . وثارت عليه جماعة من المماليك السلطانية ، وقالوا : « هذا قتل خشداشينا الذين قتلوا بالخطارة ، فكيف تعطونه منديل الأمان » . فشق ذلك على السلطان ، وقام من فوق الدكة وهو غضبان من المماليك .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة قانصوه اليحياوى نائب الشام ، وحضر سيفه . وكان أصله من مماليك السيفى جقمق ، وكان لا بأس به تولى عدة وظائف سنية ، منها نيابة الاسكندرية ، ونيابة صفد ، ونيابة طرابلس ونيابة حلب ، ونيابة الشام . وجرى عليه شدائد ومحن ، وأسر عند يعقوب بك ابن حسن الطويل فى كائنة يشبك الدوادار مع بابندر ونفى الى القدس ، ثم تولى بعد ذلك نيابة الشام ومات بها وهو على نيابته . وكان من أجل الأمراء وأعظمهم قدرا

وفيه توفى الشيخ الصالح المسلك نور الدين الذاكر ابن عين الغزال ، وكان معروفا بالصلاح لا بأس به .

***

وفى ذى القعدة توفى قاضى القضاة الحنبلى بدر الدين السعدى . وهو محمد بن محمد بن أبى بكر بن خلف بن ابراهيم الحنبلى ، وكان عالما فاضلا عارفا بمذهبه تولى القضاء بمصر وهو فى عنفوان شبوبيته ، وأقام به مدة طويلة حتى مات وهو فى وظيفته ، وكان لا بأس به توفى وهو فى عشر الستين .

فلما مات أرسل السلطان خلف شهاب الدين الشيشى ، وكان بمكة المشرفة ، فلما حضر خلع عليه السلطان ، وأقره فى قضاء الحنابلة بمصر ، عوضا عن بدر الدين السعدى بحكم وفاته . وهو باق على وظيفته الى آن مات بها ، لكن بعد عزل واعادة .

وفيه ظهر قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، أحد الأمراء المقدمين ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر . فلما ظهر أمنه السلطان على نفسه ، وأقام بداره .

وفيه من الحوادث أن القاضى أبا البقاء بن الجيعان ، كان طالعا الى القلعة فصلى صلاة الفجر ، وخرج من داره . فلما وصل الى الحمام الذى هو خارج من زقاقهم ، خرج عليه بعض المماليك بخنجر فضربه فى بطنه ضربة بالغة فمات من وقته ، وما عرف قاتله ، واتهم به جماعة من المماليك . وكان رئيسا حشما فاضلا عالما عارفا بأحوال المملكة ، وكان مقربا عند السلطان الأشرف قايتباى ، ترقى فى أيامه وانتهت اليه الرياسة ، وفاق على من تقدم من أقاربه . وكان أدوبا حلو اللسان سيوسا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان من نوابغ أولاد ابن الجيعان ، وهو أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر ، وله بر ومعروف ، وهو الذى أنشأ عمارة الزاوية الحمراء ، وجعل بها خطبة وحوضا وسبيلا ، وأنشأ هناك القصور والمناظر والغبط ، وصار ذلك المكان من جملة متفرجات القاهرة ، تسعى اليه الناس فى زمن النيل بسبب الفرجة هناك ، وصار عوضا عن التاج والسبعة وجوه التى كانت من المتفرجات القديمة . ومات أبو البقاء ، وقد قارب الستين سنة من العمر ، فلما مات خلع السلطان على أخيه صلاح الدين وقرره فى استيفاء الجيش ، مضافا لما بيده من نيابة كتابة السر .

وفيه تزايد شر المماليك الجلبان ، وضيقوا على السلطان ، وصار معهم فى غاية الضنك . فأرسل يستنجث أقبردى الدوادار فى سرعة المجىء .

وفيه ، فى رابع عشرى الشهر المذكور يوم الخميس ، وصل أقبردى الى بر الجيزة ، فلما تسامع به الأمراء خرجوا اليه قاطبة ، وكذلك العسكر ، ولم يخرج اليه قانصوه خال السلطان ، فتلطف به الأتابكى تمراز حتى ركب معه ، وتوجها الى نحو السواقى التى عند الهد بالقرب من درب الخولى ، فقصد خال السلطان أن يعدى من هناك ويتوجه الى أقبردى ليسلم عليه فمنعه المماليك من ذلك ، وقالوا له : « متى عديت ورحت اليه يقبض عليك » فتخيل من ذلك ، ورجع من حيث أتى ... فعند ذلك كثر القال والقيل ، واضطربت الأحوال ، وصار العسكر على ثلاث فرق : فرقة مع أقبردى الدوادار ، وفرقة مع قانصوه خال السلطان — وهى الفرقة التى كانت من عصبة قانصوه خمسمائة فالتفوا على خال السلطان — وفرقة وافرة من المماليك الجلبان مع السلطان . ثم ان طائفة من المماليك لبسوا آلة السلاح ، وتوجهوا الى بيت أقبردى الدوادار عند حدرة البقر ، فأحرقوا مقعده ونهبوا رخامه وأخشابه وأبوابه ، وذلك قبل دخول أقبردى الى القاهرة .

فلما كان يوم الجمعة خامس عشرى الشهر المذكور عدى أقبردى من الجيزة الى مصر ، فلما وصل مصلاة خولان التى بالقرافة الكبرى ، لاقاه الأتابكى تمراز وتانى بك قرا — وقد ظهر وكان مختفيا من حين كسرة أقبردى فى شهر رمضان ،

كما تقدم — وتوجه الى أقبردى الجم الغفير من العسكر . وكان أقبردى أرسل خلف جماعه من عربان عزالة وبنى وائل . ثم ان العربان كانوا فى طلائع عسكر أقبردى وأتوا معه ووصلوا الى باب الزغلة وقد كان توجه اليهم جماعة من المماليك الذين هم من عرضى قانصوه خمسمائة . فالتقى معهم حاير بك الكاشف وجماعة من المماليك الذين هم من عصبة أقبردى ، فكسروهم وطردوهم هم والعرب الى أن وصلوا المجراة التى عند باب الزغلة وصار العرب يشوشون على الناس الذين يتوجهون من هناك ، ويعرونهم ويأخذون عمائمهم وأثوابهم . وقتل فى ذلك اليوم جماعة من الغلمان واثنان من المماليك السلطانية .

فلما كان يوم سادس عشرى الشهر المذكور دخل أقبردى الدوادار من مصلاة خولان ، ودخل المدينة على مشهد السدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ، ولم يشق من الصليبية بل توجه الى بيته من درب الحازن . فلما استقر بداره أتى اليه الأمراء والعسكر أفواجا أفواجا ، ولو حطم فى ذلك اليوم وطلع الى القلعة لملكها من غير مانع . وكان ذلك من عين الصواب لكن أشار عليه الأتابكى تمراز بالمجىء الى داره والتثبت فى ذلك . فكان كما يقال فى المعنى :

وربما فات بعض الناس حاجته
مع التأنى وكان الرأى لو عجلا

فلما بلغ قانصوه خال السلطان أن أقبردى دخل الى القاهرة ، واحضر صحبته عربان من بنى وائل وعزالة ، اضطربت أحواله . ولم يكن عنده بالقلعة من العسكر الا القليل ، فعند ذلك طلع الى القلعة الأمير كرتباى الأحمر ، وكان مختفيا من عهد واقعة خان يونس . فلما بلغ جماعة قانصوه خمسمائة بأن كرتباى قد طلع الى القلعة بادروا اليه بالطلوع .

وكان قد حضر من الشام مماليك قانصوه اليحياوى وصعدوا الى القلعه استزلهم السلطان فى الديوان ، فأقاموا بالجامع وصاروا من عصبة الفواقة . وكان أكثرهم رماة بالمدافع والسبقيات والبندق الرصاص وهم الذين كانوا سببا فى كسرة أقبردى فقويت شوكة خال السلطان بهم وبالأمير كرتباى الأحمر . وصار جماعة المماليك طالعين الى القلعة أفواجا أفواجا ، وقويت الفواقة . وأرسل خال السلطان خلف طائفة عربان من بنى حرام . وأحضر قراجا نائب غزة كان ، عربان السواملة ، فصارت العربان يقاتل بعضهم بعضا . فلم يحصل بالطائفتين نفع بل حصل منهم غاية الضرر ، وصاروا يعرون الناس ، ويخطفون العمائم بالمطرية وبولاق ومصر العتيقة والقرافة ، وصاروا ينهبون الترب ومزارات الصالحين ، حتى مزار الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهم ورحمهم . وأظن أن هذا هو الذى كان سببا فى كسرة أقبردى .

ثم ان أقبردى أحضر أشياء كثيرة من الأخشاب وشرع فى عمل طوارق ، وأحضر عدة قناطير نحاس وشرع فى سبك مكحلتين كبار ، وأحضر المعلم دميلكو السباك وشرع فى سبكها . وأظهر أقبردى الدوادار فى هذه الحركة همة عالية . وكان عنده من الأمراء الأتابكى تمراز وتانى بك قرا الاينالى أمير مجلس ، وكرتباى ابن عمة السلطان أمير آخور كبير ، واقباى نائب غزة رأس نوبة النوب ، وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وتانى بك الشريفى نائب الاسكندرية أحد مقدمى الألوف ، وجانم الأجرود أحد المقدمين ، وبرد بك المحمدى الاينالى أحد المقدمين ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات زيادة على ثلاثين أميرا ، منهم : مغلباى صصرق الأشرفى برسباى ، وغير ذلك من الأمراء . واجتمع عنده الجم الغفير من العسكر من سائر الطوائف .

فكان أقبردى فى كل يوم يمد للأمراء والخاصكية أسمطة حافلة فى أول النهار ، وفى آخره ، ثم يحضر لهم السكر والحلواء والفاكهة والبطيخ الصيفى واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ، وحاصر أقبردى من بالقلعة أشد المحاصرة ، ومنع الغلمان والعبيد أن يصعدوا الى القلعة بشىء من الأكل ، وقطع آذان جماعة من العبيد وأيديهم بسبب ذلك .

***

وفى ذى الحجة قوى عزم أقبردى على محاصرة القلعة ، وكان يركب كل يوم هو والأتابكى تمراز والأمراء ، وعلى رأسه الصنجق السلطانى يخفق . وقد أرسله اليه الملك الناصر فى الدس ، وكان له به عناية فى الباطن ، فصار أقبردى يظهر أنه لم يكن راكبا على السلطان ، وانما له غرماء من الأمراء ، وقصده القبض عليهم .

هذا ما كان من أمر أقبردى الدوادار ... وأما ما كان من أمر الملك الناصر فانه لم يكن عنده من الأمراء سوى قانصوه خاله . ثم صعد فى ذلك اليوم كرتباى الأحمر على الفور ، وكان مختفيا وجلس بالمقعد الذى برأس سلم المدرج . وكان الأمير سودون العجمى ، وجان بلاط الغورى ، وقانى باى الرماح ، وطومان باى الشريفى ، ودولات باى قرموط ، وغيرهم من الأمراء — قد ركبوا المكاحل حول القلعة والسبقيات ، وركبوا المكحلة المسماة بالمجنونة على باب السلسلة . وكان غالب مماليك قانصوه اليحياوى — نائب الشام الذى توفى وحضرت مماليكه فى تلك الأيام — كلها رماة بالسبقيات والبندقيات الرصاص . فأخذ بخاطرهم كرتباى الأحمر ، وخال السلطان قانصوه ، وأنزلوهم فى الديوان السلطانى ، وصرفوا اليهم الجامكية ، حتى انهم صاروا معهم ، وكانوا زيادة عن مائتى انسان .

وصار الحرب ثائرا بين الفريقين . فبقى مع الفرقة التى بالقلعة من باب المدرج ، الى رأس الصوة ، الى باب زويلة ، الى باب النصر ، الى المطرية .

وصار مع الفرقة التى مع أقبردى من باب القرافة الى الصليبة ، الى قناطر السباع ، الى مصر العتيقه ، وبولاق . وصار يقتتل فى كل يوم من طوائف العربان مقتلة كبيرة ، من بنى وائل وبنى حرام ، وكانوا يدخلون برءوس القتلى آخر النهار فى شباك التبن . فقتل فى هذه المعركة من العربان نحو من ألف انسان وزيادة على ذلك . فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم . وكانت الأتراك تقاتل مع بعضها ، والعربان تقاتل مع بعضها . فلما قرب عيد الأضحية ، فرق أقبردى على الأمراء والعسكر الذين ركبوا معه عدة أبقار وأغنام كثيرة . ثم أنفق لهم جامكية ذلك الشهر ، والأضحية من ماله دون مال السلطان ، فصرف فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وياليت هذا أفاده شيئا ! ثم ان أقبردى أحضر دميلكو السباك ، واستحثه فى سرعة عمل سبك المكحلة ، فأخذ فى أسباب ذلك ... ثم ان أقبردى وزع الأمراء فى أماكن شتى بسبب حصار القلعة ، فكان كرتباى ابن عمة السلطان أمير آخور كبير ، وتانى بك قرا أمير مجلس وجماعة من العسكر ، فى مدرسة السلطان حسن ، بسبب حصار القلعة . فكانوا يرمون عليها فلم يفد شىء من ذلك .

ثم انهم رموا بالمكحلة المسماة بالمجنونة على من فى مدرسة السلطان حسن ، فخرق المدفع شباك المدرسة ، ودخل فقتل ثلاثة أنفار من المماليك الذين هناك ، فحصل للعسكر من ذلك زمقة ، وكان لهم يوم عيد النحر واقعة قوية تشيب منها النواصى ، وقتل فى ذلك اليوم شخص

من الأمراء العشراوات يقال له جانم بن قايتباى ، وآخر من الأمراء يقــال له طومان باى نائب البهسنا ، وشخص يسمى قصروه نائب سنجر ، وكان حضر صـحبة الأمير أقبردى الدوادار من البلاد الشامية

وقتل ممن كان بالقلعـة شخص من الأمـراء الطبلخانات يقال له برسباى اليوسفى أبو ذقن ، وكان من مماليك الظاهر جقمق . مات فجأة بالقلعة في مدة المحاصرة ، وكان لا بأس به فلما طال على العسكر الذين كانوا مع أقبردى أمر الحصار ، وأبطأ عليهم دميلكو بفراغ المكحلة التى شرع فى سبكها ، وصار نقتل كل يوم من جماعة أقبردى جماعة كثيرة ، فبقى ينسحب منهم جماعة ويطلعون الى القلعة شيئا فشـيئا . فبان على أقبردى أمر التلاشى ، فلما حييت الطائفة الفوقانية ، ظهر جان بلاط بن يشبك الذى كان دوادارا كبيرا ، وظهر الأمير قرقماس بن ولى الدين ، وفيت الرحبى ، وقانصوه المحمدى المعروف بابرجى ، وكان ظهر قبل هذا اليوم عند دخول أقبردى القاهرة كرتباى الأحمر ثم ظهر أزبك اليوسفى الظاهرى ، وتانى بك الجمـالى ، وغير ذلك من الأمراء ممن كان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر . فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة . قويت شوكتهم ، وحـدوا فى القتال ولو حطم أقبردى أول يوم دخل فيه الى المـدينة ، وطلع الى القلعة ، لكان ملك القلعة فى ذلك اليـوم من غير مانع ، ولم يكن بها أحد من العسكر ، وكانت قلوب العسكر معمرة منه بالكرب الشديد واستخف أقبردى بمن فى القلعة ، وسمع رأى الأتابكى تمراز ، وتوجه الى بيته حتى كان ذلك سببا لقلة نصرته . ولم يعلم ما وراء ذلك

فاشتد أمر القتال ممن كان بالقلعة ، واستطالوا على التحتانيين الذين من حلف أقبردى بالنشاب والبندق الرصاص والمدافع ، حتى أهلكوا منهم ما لا يحصى . وكان مع أقبردى مدرسة السلطان حسن ، وسبيل المؤمنين ، وسويقة عبد المنعم . وصار أقبردى معه صنجق سلطانى ، ويقـول : « الله ينصر السلطان الملك الناصر » . وكرتباى الأحمر وبقية الأمراء معهم صنجق سلطانى وهم يقولون : « الله ينصر السلطان » . فحار الناس بين الفريقين، ولم يبق يعلم هذه الركبة على من : هل هى على السلطان ؟ أو على الأمراء فى بعضـهم ؟ واستمر الحال على ذلك حتى كان ما سنذكره فى موضعه

وفيه توفى من الأعيان قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن الأخميمى الحنفى ، وهو محمد بن أحمد ابن الأنصارى القاهرى الحنفى ، وكان عالما فاضلا يقرأ بالسبع روايات ، وكان ضنينا بنفسه ، وكان امام السلطان الملك الأشرف قايتباى ، ثم قرر فى قضاء القضاة ، واستمر به الى أن مات . وكان موته فجأة فأخرجت جنازته ولم يشعر به أحد من الناس بسبب تلك الفتن القائمة

وفيه توفى القاضى أبو الفتـح المنوفى ، كاتب المماليك ونائب جدة ، وكان من أعيان المباشرين ، ورأى من العز والعظمة ما لا يوصف . وفى آخر عمـره قاسى شدائد ومحنا ، واعتراه جنـون وماليخوليا ، واستمر على ذلك حتى مات

وفيه توفى سيدى ابراهيم بن أبى الفضل بن أبى الوفاء وكان شابا صالحا لا بأس به

وفيه جاءت الأخبـار من دمشق بوفاة تمربغا الترجمان ، وكان لا بأس به .

وفيـه توفى شمس الدين محمد بن الخـادم الحنفى ، وكان من أهل العلم والفضـل ، وكان لا بأس به .

وفيه توقف النيل عن الزيادة فى ليالى الوفاء ، وكان كل أحد مشغولا بنفسه عن ذلك ، والفتن قائمة .

وفيه فى يوم الاثنين ثانى عشرى الشهر المذكور (الموافق لسابع عشرى مسرى) وفى النيل المبارك وكسر فى الثامن والعشرين من مسرى ، وقد أبطأ عن ميعاده . فلما وفى شاوروا الأمير أقبردى فى فتح السد ، فبعث اليه والى القاهرة ليفتحه ، فوجد الشيخ عبد القادر الدشطوطى رضى الله عنه ، قد فتح جانبا منه قبل مجىء الوالى ، ولم يتوجه أحد ليتفرج على فتح السد على جارى العادة ، لكون القاهرة كانت فى غاية الاضطراب من عدم الأمن ، وفساد الأحوال ، من هذه الشرور والفتن . فكان كما قيل :

أتطلب من زمانك ذا وفاء
وتنكر ذاك جهلا من بنيه
لقد عدم الوفاء به وانى
لأعجب من وفاء النيل فيه

فلم يقم النيل سوى أيام قلائل ، وهبط بسرعة ، وشرق غالب البلاد ، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل .

ولما وقعت بمصر الفتن بين الأتراك ، وقعت الفتن أيضا بين العربان ، وأحرقوا القمح والشعير وهو فى الجرون ، ونهبوا عدة بلاد ، فوقع الغلاء بالديار المصرية ، وانتهى سعر القمح الى ألف درهم كل أردب ، واستمر على ذلك مدة طويلة ... وكانت الأحوال فى تلك الأيام فى غاية الفساد ، واستمر الحرب ثابتا على ما ذكرناه من القتل ، والنهب حاصل ، والحصار ليلا ونهارا حاصل فى القلعة .

وفيه ، فى يوم الجمعة سادس عشرى الشهر المذكور ، تسحب من كان عند أقبردى الدوادار من العسكر جملة ، ولم يبق معه سوى مماليكه وبعض مماليك السلطان والأمراء المقدمين . وكان الأمير جانم الاينالى ، كاشف منفلوط وأحد المقدمين ، قد جرح واختفى ، ومات من ذلك ولم يشعر به أحد . ثم ان الأمير أقبردى اضطربت أحواله ، وتشتت عنه جماعته ، بعد ما أكلوا عيشه ، وأخذوا أضحيته وجامكيته ، وصرف عليهم جامكية شهرين من ماله ، ولم يراعوا له حق ذلك ولا أثمر فيهم ما فعله بهم ... فكان كما قيل فى المعنى :

لقاء أكثر من تلقاك أوزار
فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار
وفعلهم مأثم للسرء أو عار
لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وكان أحسن لغالبهم ، وأنفق على بعضهم ، وأرضاهم بكل ما يمكن ، بعد ذلك بعضهم رماه وطلع الى القلعة .

فلما كان وقت المغرب من ليلة السبت ، نزل كرتباى الأحمر من القلعة ، وصحبته جميع من كان بالقلعة . وكان خشكلدى البيسقى قد ظهر وطلع الى القلعة ، فنزل صحبة الأمراء ممن كان بالقلعة ، والمماليك الكبار والصغار الذين كانوا بالطباق ، فزحفوا زحفة واحدة وهجموا على جماعة أقبردى ، فانكسروا وفروا ، فهجموا على من كان بمدرسة السلطان حسن ، وأحرقوا بابها ، ودخلوا على من بالمدرسة من الأمراء ، فأخرجوا كرتباى ابن عمة السلطان وهو مجروح جرحا بليغا ، قتل منه وهو أمير آخور كبير . وهرب تانى بك قرا ، فلم يظفروا

به ، وهرب من كان بمدرسة السلطان حسن من الأمراء والمماليك ، فنهب الجلبان جميع ما كان بالمدرسة من طشتخانات الأمراء ، ونهبوا بسط المدرسة ، والقناديل ، وقلعوا شبابيك القبة التى بالمدرسة ، وأخذوا رخامها ، وأحرقوا الربع الذى عند سوق الرميلة ، بجوار بيته ، وربع يشبك الدوادار ، وربع خشكلدى البيسقى ، وسبيل المؤمنين ، وبعضا من بيوت الصوة ، وغير ذلك .

فلما دخل الليل ركب أقبردى فى نفر قليل من مماليكه ، وطلع الى الرميلة ، فلم يطب طبه ، واستمر على ذلك طول الليل . فلما أصبح يوم السبت سابع عشرى الشهر المذكور وهو ذو الحجة ، انكسر أقبردى كسرة مهولة ، ورجع الى داره وأخذ بركه ، وزردخانته ، والطشتخاناه ، وخرج من داره وعلى رأسه صنجق ، وقدامه طبلان وزمران ، ومماليكه حوله وهم لابسون آلة السلاح . وخرج صحبته من الأمراء تانى بك قرا أمير مجلس ، وأقباى نائب غزة رأس نوبة كبير ، وجانم مصبغة حاجب الحجاب ، وقانى بك نائب الأسكندرية أحد المقدمين ، وكرتباى أخو أقبردى الدوادار أحد المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات جماعة كثيرة نحو من عشرين أميرا ، فمن جملتهم : اينال السلحدار المعروف بالصغير ، ومن المماليك السلطانية والسيفية نحو من ألف مملوك . فلما خرج من داره دخل من الدرب الذى عند حمام الفارقانى ، وخرج من الدرب الذى تجاه المدرسة الصرغتمشية ، وتوجه من هناك الى بولاق ، وطلع على جزيرة الفيل ، ثم خرج الى الفضاء ، وقصد التوجه الى البلاد الشامية ، فدخل خانقاه سرياقوس ، فلم يقم بها . واستمر يجد السير حتى وصل الى بلبيس ، فلم يتبعه أحد من الأمراء ولا العسكر ، حتى خرج وتوجه الى البلاد الشامية . وجرى منه أمور يطول شرحها ... يأتى الكلام على بعضها فى مواضعه .

والذى وقع لأقبردى الدوادار لم يقع لمنطاش الناصرى فى أيام الظاهر برقوق ، وكانت مدة محاصرته للقلعة أحدا وثلاثين يوما ، ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم ، قال بعض المؤرخين : « لم يقع بمصر من يوم فتحها الى الآن ، مثل واقعة أقبردى الدوادار ، فكانت من غرائب الوقائع . وفى مدة هذه المحاصرة كانت الأسواق معطلة ، والدكاكين مقفلة ، وامتنع البيع والشراء ، ولم تظهر فى تلك الأيام امرأة بالأسواق ، ولا بالطرقات ، وكثر القتل والنهب ، وكان الناس فى أمر عظيم » ... قيل : لما طال أمر هذه الفتنة ، دخل على الأمير أقبردى ، جماعة من الفقراء الرفاعية والقادرية والأحمدية ، وجماعة من الصوفية ، سألوه أن يكف عن هذا القتال ، وأن يقع الصلح بين الطائفتين ، فأبى أقبردى ذلك . ثم نزل اليه مثقال مقدم المماليك رسولا عن لسان السلطان ، بأن يكون الصلح بينه وبين الأمراء على يد السلطان ، فأبى أقبردى ذلك .

وكان دميلكو قد فرغ من المكحلة وركبها ، ورمى بها أول حجر ، فكسر باب السلسلة ، فاضطرب من كان بالقلعة ، وهجموا على المكحلة ، ودقوا بها مسمارا وكانت معيبة ، فلما خرقوا منافضها وشمت النار ، خرج الحجر منها على حين غفلة ، وانكسر أقبردى . وكانت هذه ثالث كسرة وقعت لأقبردى ، وكانت آخر العهد به ، فلم يدخل بعدها الى مصر ، وقاسى شدائد ومحنا يأتى الكلام عليها .

فهذا ماكان من أمر أقبردى الدوادار . وأما ما كان من أمر الأتابكى تمراز فانه كان مقيما

بالبيت الذى بجوار بيت يشبك الدوادار ، الذى كان عند المدرسة البندقدارية ، وكان متوعكا فى جسده ، فلم يشعر بكسرة أقبردى ، فلما أراد أقبردى أن يفر أرسل خلف الأتابكى تمراز وأعلمه بما جرى ، وأراد أن يأخذه معه ، فأبطأ عليه وخشى من العسكر أن يهجموا عليه ويقتلوه ، فأسرع فى الخروج من داره وترك الأتابكى تمراز فى داره ومضى ثم ان الأتابكى لبس قماشه ، وركب وخرج من البيت الذى كان به ، فلما وصل الى بيت تانى بك قرا ، لاقاه جماعة من المماليك الفواقه وقبضوا عليه ، وقصدوا قتله ، وأدخلوه الى بيت تانى بك قرا ، ثم بدا لهم أن يطلعوا به الى القلعة. فلما خرجوا به من بيت تانى بك قرا ومشوا الى رأس الصليبة ، لقيه طائفة من المماليك الفواقة غير هؤلاء فقنطروه عن فرسه فوقع الى الأرض ، وطلعوا به الى دكان هناك ونزعوا ثيابه عنه ، وحزوا رأسه على الدكان بالسيف ، فلم تنقطع ، فكسروها حتى خلصت عن جثته . وكان الذى قتله من أرذل المماليك السيفية يقال له برد بك الأشقر . ثم أخذ رأسه ، وقبض عليها من ذقنه ، وطلع بها الى القلعة . فلما عرضت على الملك الناصر شق عليه ذلك ، لكونه كان من قرابة أبيه الملك الأشرف قايتباى رحمه الله . ثم أمر بلفها فى فوطة ، وأرسل معها ثوبين بعلبكيين ، وثلاثين دينارا . ثم ان بعض جماعة الأتابكى تمراز أحضروا له نعشا ، وأخذوا فيه جثته وتوجهوا بها الى مكان بالقرب من بيت تغرى بردى الاستادار ، وخيطوا رأسه على جثته ، وغسلوه ، ثم أحضروا كرتباى ابن عمة السلطان الذى قتل فى مدرسة السلطان حسن ، فغسلوه مع الأتابكى تمراز ، وأخرجوهما فى يوم واحد ، وصلوا عليهما فى مصلى باب الوزير ، ثم توجهوا بهما الى تربة الأشرف قايتباى ، فدفن الأتابكى تمراز داخل القبة ، ودفن كرتباى ابن عمة السلطان على جانم قريب السلطان الذى كان ناظر الجوالى ومقدم ألف . وكان الأتابكى تمراز أميرا جليلا معظما دينا كثير البر والصدقة محسنا للناس ، جميل الهيئة ، وله آثار ومعروف . منها ما فعله فى الجسور التى صنعها بالغربية ، وهو كاشف التراب بالغربية ... وكان أصل الأتابكى تمراز من مماليك الأشرف برسباى فأعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من الجمدارية . ثم بقى خاصكيا ساقيا فى دولة الأشرف اينال ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة وصار عنده من المقربين ، ثم نفى الى دمياط فى دولة الظاهر خشقدم ، ثم حضر الى القاهرة فى دولة الظاهر تمربغا ، ثم ظهر أنه ابن أخت السلطان الأشرف قايتباى ، فلما تسلطن جعله مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير سلاح ، ثم بقى أتابك العسكر عوضا عن أزبك بن ططخ لما نفى الى مكة المشرفة كما تقدم ... وكان تمراز أميرا كبيرا ، كان اذا جلس فى أى مكان ودخل اليه الأدنى أو الأعلى يقوم له القيام الكلى ويجلسه ، وكان لا يجلس بمقعده الا وهو مزرر الملوطة ، وهو بالخف والمهماز ، ولم تبن له رجل وهو جالس ، وهذا من النوادر فى زمننا هذا . فلما مات رثيته بهذه الأبيات ، وهى قولى مع التضمين :

أرغمت يا دهر أنوف الورى
بقتل تمراز ويتم العباد

أتابك العسكر ذو رأفة
بالجود قد شاع لأقصى البلاد

أخطأت يا قاتله كيف قد
قتلت من يقمع أهل العناد

مصيبة جلت فمن أجلها
قد أطلقت فى كل قلب زناد

لـكن له فى قتـله أسوة
الى الحسين بن على الجواد
من آودعوه الرمس ما أنصفوا
بل كان يخبى فى صميم الفؤاد
فالله يأجره على ما جـرى
من قتـله بالعفو يوم المعـاد

ومات الأتابكى تمراز وهو فى عشر الثمانين ، وكان لين الجانب واسطة خير ، وكان يظن كل أحد أنه يتسلطن . وقد ترشح أمره اليها غير ما مرة ، وكان اذا سأله أحد فى حاجة يقول له : « اصبر علينا حتى يجىء وقتهـا » . وكان طامعا فى السلطنة فخابت فيـه الظنون ، وجاء الأمر بخلاف ما أمل أن يكون .

وفيـه جاءت الأخبار بأن أقبردى لـما مر على الشرقية ، كادت طائفة عربان بنى حرام أن تقتله ، فرجموه حتى جاءته رجمة فى وجهه ، وسبوه سبا قبيحا ، وفعلوا به ذلك فى عدة أماكن ، وما خلص منهم الا بعد جهد كبير ... وسبب ذلك أنه سلط عليهم بنى وائل ، وقتـل منهم فى مدة المعركة ما لا يحصى ، فلما انكسر ومر بهم انتقموا منه ، وجرى عليه منهم ما لا خير فيه . فلما هرب أقبردى وقتل تمراز اضـطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، ونزل المماليك من القلعة ، وعطعطوا فى المدينة ، وصاروا يدخلون الحارات وينهبون البيوت ، حتى نهبوا الربوع التى هى سكن العوام . ثم توجهوا الى حارة زويلة ونهبوها بسبب أنه كان لأقبردى حاصل هناك فيه مال ، فنهبوا ما كان فيه ، حتى قيل كان فيه ما يزيد على مائة ألف دينار غير الخيام والقماش الذى كان به . ونهبوا بيوت اليهود الذين حوله ، ودخل الزعر والعبيد فنهبوا القبة التى فى مدرسة السلطان حسن ، وأخذوا الرخام الذى بها ، والشبابيك النحاس التى بها ، والأبواب ...

ومن يومئذ تلاشى حال المدرسة الى الآن . واستمر النهب والقتل دائرا ثلاثة أيام متوالية . ولم يجدوا من يردهم عن ذلك ، والمدينة مائجة . وقد تعطلت الخطبـة ، واقامة الصلاة من مدرسة السـلطان حسن ، نحوا من ستة آشهر . وكان كل من ظفروا به من جماعة أقبردى يقتلونه شر قتلة . ثم قبض على المعلم دميلكو ، وأحضروه عند الأمير كرتباى الأحمر فقطع رأسه وعلقها على باب السلسلة ، كما قيل فى الأمثال : « وربما عوقب من لا جنى » .

وقد خرجت السنة المذكورة على ما شرح فيها من الفتن والانكاد والفساد وخراب البلاد . ووقع فيها الغلاء ، وتشحطت الغلال ، وقتـل فيها من الأمراء نحو من خمسين أميرا ، ما بين مقدمى ألوف وطبلخانات وعشراوات . وقد تقدم ذكر ذلك عند وقوع كل حادثة ، من أوائل السـنة المذكورة الى آخرها ، حسبما أوردناه من الوقائع . وقتـل من الجند والعرب نحو من ألف انسان ، فلا حول ولا قوة الابالله العلى العظيم . وما حصل لعسكر مصر بعد وفاة الأشرف قايتباى خير ، وجاءت الأمور بضد ما أملوه من بعده ، فكان كما يقال :

يسعى ابن ادم فى قضا أوطاره
والمـوت يتبعـه على آثاره
يلهـو وكف الموت فى أطواقه
كالكبش يلعب فى يدى جزاره
يمسى وقـد أمن الحوادث ليله
فلربمـا تطـرقه فى أسـحاره
من رام ينظر كيف تصبح داره
من بعـده فليعتبر بجـواره

سنة ثلاث وتسعمائة (١٤٩٧/١٤٩٨ م) :

كان مستهل المحرم يوم الثلاثاء ، ووافق ذلك اليوم يوم النوروز للقبط بموجب تحويل السنة القبطية الى السنة العربية . فصعد القضـاة الى

التهنئة بالشهر والعام الجديد ، وبهـذه النصرة التى وقعت للسلطان . ولم يحضر الخليفة فى ذلك اليوم بسبب أنه كان متوعكا فى جسـده ، وهو مقيم بالقلعة ، فنزل الى داره فى محفة ، وكان ذلك ابتداء ضعف الموت .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على برهان الدين ابن الكركى الامام ، وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن ناصر الدين بن الأخميمى بحكم وفاته ، وهذه أول ولاية ابن الكركى . وخلع على الشيخ سرى الدين عبد البر بن الشحنة ، وقرره فى مشيخة المدرسـة الأشرفية ، عوضا عن البرهان الكركى ، فلم يقم بها عبـد البر غير ثلاثة أشهر ، وأعيد اليهـا ابن الكركى ، مضافا لما بيده من قضاء الحنفية

وفيه تحوف السلطان على نفسـه من الأمراء ، فأحضر لهم المصحف العثمـانى ، وحلف عليـه الأمراء الذين هم من حزب قانصوه خمسـمائة ، بأنهم لا يخونونه قط ولا يغدرون به ولا يركبون عليه ، وهذا رابع يمين حلفه السلطان للأمراء على المصـحف العثمانى ... وكل ايمانهم كانت كاذبة فاجرة .

وفيه عمل السلطان الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء منهـم : المقر السيفى قانصـوه خال السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى ، عوضا عن أقبردى بحكم هروبه . وخلع على كرتباى الاحمر وقرره فى امرية سلاح وخلع على جان بلاط بن يشبك وقرره فى نيابة حلب ، وخرج اليهـا عن قريب .

وفيه دخل مبشر الحاج ، وهو شخص من العرب ، وقد تأخر عن عادته ستة أيام لفساد طريق الحجاج .

وفيه توفى الزينى قاسم بن قاسم المالكى أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا متفننا لا بأس به

وفيه قرر كمشبغا الشريفى فى نيابة الاسكندرية عوضا عن اسنباى .

وفيه عين السلطان خاير بك أخا قانصوه ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم .

وفيه قرر عبد القـادر بن النقيب فى مشيخة خانقاه سعيد السعداء ، وكانت عينت للمسلمى ، ولم يتم له ذلك .

وفيه توفى الشيخ بدر الدين محمـد الوفائى ، وكان لا بأس به .

وفيه خلع السلطان على طرباى الشريفى وقرره أمير آخور ثانى ، وهذه أول وظائفه . وخلع على دولات باى الأجرود وقرره فى ولاية الشرطة .

وفيه وقع الاتفاق من الأمراء على عود الأتابكى أزبك ، وحضوره من مكة المشرفة ليلى الأتابكية ، عوضـا عن تمراز . فكتبت له المراسيم بالحضور ، وتوجه بها طراباى الشريفى ، الذى قرر أمير آخور ثانى ، فخرج على الفور بسبب ذلك .

وفيه خلع السـلطان على قانى باى الرماح ، وقرره أمير آخور كبير ، عوضا عن كرتباى بحكم قتله بمدرسة السلطان حسن فى واقعة أقبردى . وخلع على قانصوه المحمـدى المعروف بالبرجى ، وقرره فى امرية مجلس ، عوضـا عن تانى بك قرا الاينـالى بحكم هروبه مع أقبردى . وخلع على قيت الرجبى ، وقرره حاجب الحجاب ، عوضا عن جانم مصبغة بحكم اختفائه وهروبه مع أقبردى وخلع على طومـان باى ، وقـرره فى الدوادارية الثانية ، عوضا عن سيباى سـيس . وخلع على سيباى ، وقرره فى تقـدمة ألف ، وهى تقـدمة جانم الأجرود الاينالى كاشف منفلوط ، بحكم أنه خرج فى واقعة أقبردى ومات عقيب ذلك . وخلع على تمراز الزردكاش الكبير ، وقرره بهـا عوضا عن قيت الأحول أخى الأشرف قايتباى . وقـرر

ببرس فى نيابة القلعة ، عوضا عن قيت عم الملك الناصر ، فعزل عن الزردكاشية الكبرى ، ونيابة القلعة ، وقد نسب الى ميل مع عصبية أقبردى الدوادار .

وفيه خلع السلطان على أزبك اليوسفى ، المعروف بالخازندار ، وقرره مقدم ألف مشير المملكة . وقرر قانصوه كرت فى الخازندارية الكبرى .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة بعد ما قبض على أمير الحاج مصرباى فى عجرود ، وتوجهوا به من هناك الى السجن بثغر الاسكندرية ، فسجن بها .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى الدوادار لما خرج من مصر بعد فراره استولى على غزة ، وملكها ، فاتفق رأى الأمراء على تجريدة اليه .

وفيه خلع السلطان على جان بلاط الغورى ، وقرره فى رأس نوبة كبير ، عوضا عن اقباى نائب غزة بحكم فراره مع أقبردى . وقرر أزبك قفص فى الرأس نوبة الثانية .

وفيه أشيع بين الناس أن الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز قد اشتد به المرض ، وأشرف على الموت ، وقد عهد بالخلافة الى ولده الشرف يعقوب ، وحكم بذلك قاضى القضاة المالكى عبد الغنى بن تقى ، ونفذه بقية القضاة ، وعهد أيضا لولده محمد من بعد أبيه يعقوب ... فلما بلغ ذلك ابن عمه خليل ، اضطربت أحواله ، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، وكان منتظرا للخلافة بعد عمه عبد العزيز ، فلم ينله من ذلك شىء ، وفاته المطلوب . فقدح فى الشرف يعقوب بكلمات قبيحة من نار قلبه ، فلم يفده من ذلك شىء ، ولم يلتفت اليه أحد من القضاة ولا السلطان . وتولى الخلافة يعقوب ، على رغم أنف خليل ، كما سيأتى ذكر ذلك ، وقد قلت مع التضمين فى هذه الواقعة :

قالت العليا لمن حاولها
سبق المولى وقد حل عراها

فدعوا الحاسد فيها انها
حاجة فى نفس يعقوب قضاها

فلما كان يوم الخميس سلخ المحرم من سنة ثلاث وتسعمائة ، كانت وفاة أمير المؤمنين أبى العز عبد العزيز ، وهو عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله . ولم يل والده يعقوب الخلافة ، بل جده محمد المتوكل على الله . وكان الخليفة عبد العزيز رئيسا حشما ذا شهامة ، جميل الهيئة كفؤا للخلافة ، وافر العقل سديد الرأى ، وله اشتغال بالعلم وحفظ جيد مع حسن عبارة ، وكان عنده لين جانب واتضاع ، كثير العشرة للناس . وتوفى وله من العمر نحو من أربع وثمانين سنة . ومولده بعد العام السابع عشر والثمانمائة ، وكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وأياما . وحضر مبايعة الملك الناصر محمد بن قايتباى الأشرف رحمهم الله تعالى ، ومبايعة قانصوه خمسمائة ... وكان من خيار بنى العباس ، وكان له مشهد عظيم . ونزل الملك الناصر وصلى عليه بسبيل المؤمنين ، ودفن بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ورحمها ورحمهم ، داخل القبة التى بها مشاهد الخلفاء . ثم بعد وفاته تولى بعده ولده يعقوب .

خلافة المستمسك بالله أبى الصبر

هو أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن عبد العزيز بن يعقوب بن محمد المتوكل على الله ، وهو الرابع والخمسون من خلفاء بنى العباس فى العدد ، وهو الخامس عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . وهو من خلاصة بنى العباس لكونه هاشمى الأبوين ... ولم يل الخلافة

من هو هاشمي الأبوين غير أربعة من بني هاشم ، وهم : الامام علي كرم الله وجهه وكانت أمه هاشمية وهي فاطمة بنت أسد بن هاشم . ثم ابنه الحسن رضي الله عنه ورحمه ، وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم محمد الأمين ابن زبيدة ، وكانت أمه هاشمية . ثم يعقوب بن عبد العزيز ، وأمه هاشمية تسمى آمنة بنت أمير المؤمنين المستكفي بالله ، أبي الربيع سليمان ... فهؤلاء الأربعة هاشميو الأبوين ، وغيرهم من الخلفاء كانوا من سراري مولدات وحبش وغير ذلك .

* * *

وكانت صفة ولاية الشرفي يعقوب : أنه لما كان يوم السبت ثالث صفر بعث الملك الناصر خلف الشرفي يعقوب ، فحضر وحضر ابن عمه خليل ، فعرض العهد المقدم ذكره على السلطان ، فشرع خليل يتكلم في حق الشرفي يعقوب بكلمات فاحشة ، منها أنه قال : « انه قليل النظر ولا تصح ولايته » ، فلم يلتفت السلطان الى كلام خليل وقال : « أهذا أبوه كان خليفة ؟ » ، فقيل له : « لا » ، فقال : « ما يلي الخلافة الا من كان أبوه خليفة » . وشرع كرتباي الأحمر ، وأزبك اليوسفي مشير المملكة ، وتغري بردي الاستادار - يساعدون الشرفي يعقوب ، فترشح أمره لأن يلي الخلافة ... وفي الحقيقة لم يكن يومئذ من بني العباس من يصلح للخلافة غير الشرفي يعقوب ، في الدين والخير والصلاح ، فاتفق رأي الأمراء على ولايته ، ونزل خليل من القلعة بخفي حنين .

فلما حضر القضاة وتكامل المجلس ، لم يحتج الى مبايعة ثانية ، لأنه استقر في الخلافة بعهد من أبيه له عند موته ، فاستكفى القاضي الشافعي بذلك . ثم أحضر اليه شعار الخلافة ، فأفيض عليه ، وتلقب « بالمستمسك بالله أبي الصبر » وعد لقبه هذا من النوادر . وقيل ان الشيخ جلال الدين الأسيوطي هو الذي كناه ولقبه بهذا اللقب . ومن الغرائب أنه لم يل الخلافة من بني العباس ، ولا من بني أمية ، من اسمه يعقوب سواه . فلما تمت بيعته أحضر اليه التشريف ، وأفيض عليه ، فصار في غاية الأبهة والوقار . وفي الحقيقة انه من عباد الله الصالحين ، لم يعهد له صبوة منذ نشأ الى الآن رضي الله عنه . وفيه أقول مضمنا :

يا أمير المؤمنين اقبل ولا
ترتجي غير الذي قد شرفك
لو أتى العباس أضحى قائلا
يرحم الله الذي قد خلفك

وكان له من العمر ، لما تولى الخلافة ، نحو من خمسين سنة . وقد وخطه الشيب . فنزل من القلعة في موكب حافل ، حتى وصل الى داره ، واستمر في هذه الولاية مدة طويلة ، حتى كان من أمره ما سنذكره في موضعه .

* * *

وفي ربيع الأول خلع السلطان على قانصوه خاله ، وقرره في الاستادارية والوزارة عوضا عن كرتباي الأحمر بحكم استعفائه من ذلك .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة ، بوفاة السيد الشريف الحسيب النسيب محمد بن بركات أمير مكة المشرفة . وكان رئيسا حشما في سعة من المال ، كفؤا لامرية مكة المشرفة ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة اينال باي الابراهيمي نائب طرابلس ، وكان من حلف أقبردي الدوادار .

وفيه جاءت الأخبار أيضا بوفاة اينال باي ، وبوفاة كرتباي أخي أقبردي الذي كان نائب صفد ، ثم بقي مقدم ألف بمصر ، وفر مع أخيه أقبردي فمات في أثناء الطريق ودفن هناك .

وفيه خلع السلطان على تغرى بردى القادرى ، وقرره فى الاستادارية نائبا عن قانصوه خال السلطان.

وفيه فى أوائل بابه أمطرت السماء مطرا مهولا حتى وقعت منه عدة أماكن ، وخسف غالب القبور التي بالقرافة والصحراء . وكان من نوادر الوقائع .

وفيه خلع السلطان على كرتباى الأحمر وقرره فى نيابة الشام ، عوضا عن قانصوه اليحياوى بحكم وفاته . وكان كرتباى الأحمر هو الساعى فى ذلك خوفا على نفسه من الملك الناصر أن يسلط عليه المماليك الجلبان يقتلونه ، وقد هم بذلك غير ما مرة لأجل أن كرتباى الأحمر كان يحجر على الملك الناصر ويمنعه عن الأفعال الفاحشة الشنيعة ، فكرهه بسبب ذلك ، وقصد قتله ... حتى قيل انه ذبح يوما كبشا بيده وقال : « هكذا أفعل بكرتباى الأحمر عن قريب » . فلما خرج كرتباى الأحمر من القاهرة كان له يوم مشهود ، وطلب طلبا حافلا .

وفيه عين السلطان تجريدة بسبب أقبردى الدوادار ... فانه لما انكسر وخرج من مصر هاربا حاصر الشام ، وقصد أن يملكها فما قدر . فنهب الضياع التى حول دمشق ، وخرب غالبها ، وفعل مثل ذلك بضياع حلب . فوقع الاتفاق من الأمراء على خروج تجريدة له ، فعينوا ذلك . وأنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، وبعث نفقة الأمراء الذين عينوا للخروج الى التجريدة ، وهم قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب ، وقانصوه الغورى أحد المقدمين ، وهو الذى تسلطن فيما بعد ، واصطمر بن ولى الدين أحد المقدمين ، وقصروه أحد المقدمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات عدة وافرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن أقبردى بعد أن حاصر الشام نحوا من شهرين لم يقدر عليها ، وحاربه الأمراء الذين بالشام ، ورموا عليه بالمدافع ، وفر الى حلب . فلما توجه الى حماه حاصرها ، وأخذ منها أموالا لها صورة . فلما وصل الى حلب حاصرها نحوا من شهرين ، وكان اينال السلحدار يومئذ نائب حلب ، وكان من عصبة أقبردى فقصد أن يسلمه مدينة حلب ، فرجمه أهل المدينة وطردوه منها ، وحصنوا المدينة بالمدافع على الأسوار ... فعند ذلك فر أقبردى ومن كان معه من الأمراء والعسكر ، وكذلك اينال نائب حلب صحبتهم ، وفروا أجمعين ، وتوجهوا الى على دولات والتجأوا اليه . فلما بلغ الأمراء ذلك اضطربت أحوالهم فوقع الاتفاق على أن يولوا جان بلاط بن يشبك الذى كان دوادارا كبيرا نيابة حلب ، عوضا عن اينال الذى كان بها بحكم فراره مع أقبردى .

وفيه خلع السلطان بعد خروج كرتباى الأحمر الى محل نيابة الشام على محمد بن العظمة ، وأعاده فى نظارة الأوقاف . وكان الساعى له فى ذلك عبد القادر بواب الدهيشة ، فكثر عليه الدعاء من الناس بسببه .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه فى يوم الخميس ثانى عشريه كان دخول الأتابكى أزبك الى القاهرة ، وقد حضرّ من مكة المشرفة . فلما حضر خلع عليه السلطان وأعاده الى الأتابكية عوضا عن تمراز الشمسى بحكم وفاته ، فكانت مدة غيبته بمكة سنتين وثلاثة أشهر .

وفيه خلع السلطان على جان بلاط الموتر ، أحد العشراوات ، وقرره فى الحسبة ، عوضا عن تانى بك بن حذيد بحكم وفاته .

وفى تلك الأيام اشتد الغلاء ، وانتهى سعر القمح الى ثلاثة أشرفية كل أردب .

وفيه هجم المنسر على سوق تحت الربع ، وسوق الحاجب ، وفتحوا عدة دكاكين . فلما بلغ

الوالى ذلك ركب وتحارب مع المنسر ، وقتل جماعة من أعوانه ، ولم يبلغ من المنسر أربا ، وراحت على التجار أموالها .

***

وفى ربيع الآخر ، يوم الثلاثاء رابعه ، كان خروج الأمراء الذين عينوا للتجريدة ، فكان لهم يوم مشهود ، حتى ارتجت لهم القاهرة . وقد تقدمهم كرتباى الأحمر الذى تقرر فى نيابة الشام ، وجان بلاط بن يشبك الذى تقرر فى نيابة حلب ، واستمرت الأطلاب تنسحب الى قريب الظهر ، والعسكر خارجون أفواجا أفواجا .

وفيه ظهر تانى بك الجمالى ، وكان مختفيا من حين ركب قانصوه خمسمائة وانكسر ، فلما ظهر خلع عليه السلطان وأعاده الى امرية سلاح عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم انتقاله الى نيابة الشام .

وفيه أعيدت مشيخة المدرسة الأشرفية الى برهان الدين بن الكركى ، وانفصل عنها عبد البر ابن الشحنة .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، فلما أصبح شق من القاهرة فى موكب حافل ، وصحبته قانصوه خاله وبعض أمراء ، وجعل قدامه طبلين وزمرين ، وعبيدا سودا ترمى بالنفوط قدامه على هيئة الكشاف وقد تهتكت حرمة السلطان ، والمملكة ، ولم يقع من أبناء الملوك من السوافط ما وقع للناصر هذا ، كما سيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفيه حضر الشهابى الشيشينى من مكة المشرفة وقد أرسل اليه السلطان مرسوما بالحضور ليلى قضاء الحنابلة ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره فى قضاء الحنابلة بمصر عوضا عن بدر الدين السعدى .

وفيه نادى والى القاهرة على لسان السلطان بأن أهل الأسواق والحارات يعملون عليهم دروبا ، فامتثلوا ذلك وبنيت بالقاهرة عدة دروب ، منها على سوق تحت الربع ، وسوق أحمد بن طولون ، وسوق أمير الجيوش ، وغير ذلك من الأسواق والحارات . وكانت المناسر قد كثرت فى تلك الأيام جدا ، وصاروا يهجمون على الأسواق والحارات ويعطعطون بها .

وفيه من الحوادث الشنيعة نادى السلطان فى القاهرة بأن الأمراء المختفين ، الذين هم من عصبة أقبردى ، يظهرون وعليهم أمان الله تعالى . وأشيع أن أقبردى قد ظهر وأنه عند السلطان بالقلعة ، فعند ذلك ظهر برد بك المعروف بنائب جدة الذى كان من جملة المقدمين ، وظهر برد بك المحمدى الاينالى ، وأبو يزيد الصغير ، وبرسباى السلحدار ، وبرقوق المحتسب . وشاد بك ، وبيبرس ، وقانصوه التاجر ، وكرتباى الكاشف ، وخاير بك الكاشف ، وقانصوه الساقى ، ردولات باى بن عينى ، وآخرون من الخاصكية . وكان قبل ذلك رسم السلطان بالافراج عن مصرباى — وكان فى السجن بثغر الاسكندرية — فحضر ، وحضر أيضا قنبك أبو شامة ، وتانى بك المحمدى الاينالى ، وجانى باى ... وكان هؤلاء فى السجن من حين ركب أقبردى الدوادار وانكسر فلما ظهر هؤلاء كثر القال والقيل فى سبب ظهورهم ثم ان السلطان صرح فى قوله وقال : « أنا ما رسمت بالافراج الا لأصلح بينهم وبين الطائفة التى من عصبة قانصوه خمسمائة » . فلما ظهروا وطلعوا الى القلعة قرى السلطان تلك الليلة ختمة ، ومد أسمطة حافلة ، وباتوا عنده ... فلما صلوا العشاء أحضر عدة خلع ، فخلع على مصرباى وعينه أمير آخور كبير ، وخلع على أبى يزيد الصغير وعينه دوادارا ثانيا ، وخلع على قنبك أبى شامة وعينه نائب القلعة ، وقرر آخرين منهم فى تقادم ألوف ،

وآخرين فى امريات عشرة . وكل هذا خفة وطيش وصبينة من الملك النـاصر . وقد طاش الى الغاية لما خرج كرتباى الأحمر الى الشـام ، وكان يظن أنه ما بقى على يده يد . وكل هذا من عقل الصغار فكان كما قال المعمار :

دى دولة خـواطر تسويقــه معـتر
خليـلى وشـامى والخيـــار مقصر

فلما جرى ذلك تحت الليل ، بلغ الأمراء الذين من عصبة قانصوه ما وقع من السلطان تلك الليلة . فلما طلع النهار لبسوا آلة الحرب ، وصعدوا الى القلعة ، ووثبوا على بعضهم بها ، وكانت فتنــة مهولة ، فقتلوا الأمير أبا يزيد الصغير ، والأمــير برسباى الأشقر ، وهرب الأمير مصرباى ، وقتل قنبك أبو شامة ، واتسعت الفتنة ، وقتل فى هذه المعركة جماعة من الخاصكية ، وقد هموا بقتــل السلطان لولا أنه اختفى ، ثم نزلوا بجثة أبى يزيد على حمار ، وتوجهوا بهـا الى داره ليغسـلوه ويدفنوه . ثم نزل جماعة من المماليك ونهبوا بعض أماكن الأمراء الذين من حلف أقبردى ، ونهبـوا بيت الناصرى محمـد بن خاص بك لكونه كان صهر أقبردى الدوادار . فلما بلغ الأتابكى أزبك ماجرى طلع الى القلعة ، واجتمع بالسلطان ، ولامه على هذه الأفعال الشنيعة التى تصدر منـه ، فلم يلتفت الى كلامه .

ثم نزل الأتابكى أزبك الى داره ، وقد خمدت هذه الفتنة قليـلا ، وكان ذلك فى يوم الخميس حادى عشرى ربيع الآخر .

* * *

وفى جمادى الأولى وقع من الناصر غاية القبح فى حق الأمراء المقدمين ، بأشياء ماسبقه اليها أحد ، وهو أنه أضاف لكل أمير مقدم ألف ثلاثين مملوكا من المماليك الجلبان ، يأخذون من اقطاعه فى كل سنة ، كل واحد منهم عشرة آلاف درهم . وأضاف الى أمير كبير أربعين مملوكا لكل واحد كما تقدم ، وأضاف الى كل أمير طبلخانات عشرة من المماليك يأخذون من اقطاعه كما تقدم . وأضاف الى كل أمير عشرة خمسة مماليك يأخذون منهم كما تقدم ، فحصل من المماليك فى حق الأمراء ما لا خير فيه . وصاروا يدخلون بيوت الأمراء وهم راكبـون ، ويشوشون على مباشريهم بالضرب والسب ، حتى يأخذوا منهم ما قرر لهم . فأضر ذلك بحال الأمراء وما أطاقوا ذلك ، ولكن لم يطلع من أيديهم شىء بسبب اضطراب الأحوال فى تلك الأيام ، فكان كما يقال :

أخضـع لقرد السـوء فى زمانه
وداره ما دام فى ســلطانه

وفيه أمر السلطان بهدم كنيسة اليهود التى فى دموه ، فتوجه الى هناك بنفسه ، وهدمت بحضرته ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه تزوج الأمير طومان باى الدوادار الثانى بنت الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، فكان لها مهم حافل .

وفيه كانت وفاة شيخنا علامـة العصر الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر بن حسن بن عمران ابن نجيب المعروف بالقادرى ، وكان شاعر العصر على الاطلاق بعد الشهاب المنصورى ، وكان مولده بعد الثلاث والثلاثين والثمانمائة ، وكان شـاعرا ماهرا وله شعر جيد . فمن ذلك قوله فى ميقاتى وأجاد :

فى صنعة الميقات بدر نجمــه
بالسعد يخدمه مدى الساعات
حجت عيون الناس كعبة حسنة
وقضت مناسكها من الميقـات

وقوله فى فرس محجل الثلاثة مطلوق اليمين :

وطرف زانه التحجيل يحكيه
لمن يحكيب بالسحـر المبيـن
جـواد رام أن يخـفى نوالا
فأسبـل كمـه فوق اليمـين

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأنه وقع بين السيد الشريف بركات ، وبين أخيه هزاع ، فتنة كبـيرة ، وكادت أن تخرب فيها مكة المشرفة .

وفيه توفى امام الكاملية وابن امامها ، وكان من عباد الله الصالحين ، دينا خيرا لا بأس به .

* * *

وفى جمادى الآخرة وقعت الوحشة بين السلطان والأمراء ، بل وبين خاله قانصوه ، بسبب ما تقدم من تلك الفتنة التى وقعت من حلف أقبردى . وقد نسب فيها السلطان الى غرض .

وفيه قرر يحيى بن سبع فى امرية الينبع عوضا عن دراج بحكم صرفه عنها .

وفيـه جاءت الأخبـار بقتـل الطواشى لؤلؤ الرومى ، رأس نوبة السقاة والخـازندار ، وكان قد خرج الى الوجه القبلى فى بعض أشغال ليتوجه الى مكة المشرفة . وكان صحبته السجينى المرافع فخرج عليهم جماعة من العربان ، فقتـلوا لؤلؤا والسجينى ومن معهم .

وفيه نزل السلطان وبات فى تربة أبيه ، وحصل منه تلك الليلة عدة مساوى لاينبغى شرحها .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الطاعون الى قطيا ، وقد فشا بها وهو زاحف نحو الديار المصرية .

وفيـه نادى السلطان فى القاهـرة ومصر بأن تعلق على الحوانيت قناديل وكذلك البيوت المطلة على الشوارع . وصار يركب هو بنفسـه فى كل ليلة بعد العشاء وقدامه فانوسان أكره ، وأربعـه مشاعل ، ومعه أولادعمه قيت — وهما جانم وأخوه جانى بك — وقدامه عدة عبيد سود معهم بندقيات نفط . وكان اذا طاف بالقاهرة بعد العشاء ورآى أحدا يمشى ، يقطع أذنه مع أنفه ، ومنهم من يضربه بالمقارع ، ومنهم من يوسطه ... فقتل من الناس جماعة فى مدة يسيرة . وكان اذا مر بدكان ولم ير عليها قنديلا يأمر بتسميرها وهو واقف بنفسه عليها حتى يسمروها ، وكل هذا خفة وطيش . وقد بهدل حرمة المملكة فى أيامه ، ولم يتبع طريقـة الملوك السالفة فى اقامة حرمة السلطان . وصار على طريقة والى الشرطة .

وفيه قبض بعض الخاصكية والمماليك على عبد من عبيد السلطان يقال له فرج الله ، وكان مقربا عنده الى الغاية ، فضربوه وقتلوه بالرميلة ، فشق ذلك على السلطان ، وتأسف عليه ، ولم يقدر أن يحميـه من المماليك ، فانهم كانوا يومئـذ طالبين للشر مع السلطان بسبب هذه الأفعال التى تصدر منـه .

وفيه قرر شـاهين الجمـالى فى نظر الحـرم الشريف ، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، على عادته ، فخرج الى السـفر عن قريب ، وأمره السلطان بأن يتوجه الى يحيى بن سبع أمير الينبع ويصلح بينه وبين أمـير مكة المشرفة ، وكان قد وقع بينهما فى تلك الأيام وحشة .

* * *

وفى رجب ظهر الطاعون بالقـاهرة ومات بها جماعة .

وفيه تخوفت خوند أصـل باى أم الناصر على ولدها من خاله قانصوه ، وكانت المماليك قد التفت عليه ، فأحضرت المصحف العثمانى بين يديها فى قاعة العواميد ، وحلفت عليه أخاها قانصوه ، وابنها الملك الناصر محمد ، بوفاء كل منهما لصاحبه ، ولم تفد تلك الأيمان شيئا .

وفيه خرج خاير بك بن قانصوه البرجى ، قاصدا

الى ابن عثمان . فخرج فى تجمل زائد ، وصرف فى هذه الحركه مالا له صورة .

وفيه توفى الشيخ داود المالكى ، وكان من أعيان علماء المالكية . من أهل العلم والدين ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى شعبان تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية ، ومات من المماليك والأطفال والعبيد والجوارى جانب . فلما كثر الموت فى المماليك صنع السلطان ثلاثين نعشا برسم من يموت بالقلعة ، وحصل بذلك النفع .

وفيه توفى اينال الفقيه الحسنى الظاهرى جقمق أحد الأمراء الطبلخانات حاجب ثانى ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من المماليك السلطانية مات وغسل وكفن ، ووضع فى نعشه ، وحمل ليدفن ... فبينما هو فى أثناء الطريق اضطرب وتحرك فى أكفانه ، فوضع على الأرض . وحلوا أكفانه ، فاستوى قائما ، وعاش بعد ذلك مدة .

وفيه توفى العزى عبد العزيز بن البرهان ، وكان من مشاهير الناس لا بأس به ، ومات بالطعن .

وفيه من الحوادث أن الصوفية الذين بالخانقاه البيبرسية ثاروا على شيخهم الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكادوا أن يقتلوه ، ثم حملوه بأثوابه ورموه فى الفسقية ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها وكان طومان باى الدوادار محطا عليه ، فلما تسلطن فيما بعد ، اختفى الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، فى مدة سلطنته ، حتى كان من أمره ما سنذكره .

وفيه خلع السلطان على ماماى جوشن ، وقرره فى الحجوبية الثانية .

وفيه صارت معاملة الفلوس الجدد بالعدد ، وبطل أمر وزنها بالميزان .

وفيه تزايد شر المماليك ، وجاروا على الناس بخطف القماش من الدكاكين ، والبضائع من الأسواق ، وصاروا يستخفون بالسلطان والأمراء .

قيل ان بعض المماليك كان راكبا على فرس حرون ، فصادف جنازة فى وجهه فجفل منها فرس ذلك المملوك ووقع على الأرض ، فقام وهاش وضرب الحمالين الذين كانوا يحملون الميت . فلما عاين ذلك الحمالون ، ألقوا الميت على الأرض ، وهربوا فلما هربوا وقع المملوك فى الميت ، وضربه بالدبوس ، حتى اشتفى . وصار الميت ملقى على الأرض الى آخر النهار . وقد جرت هذه الواقعة فى سويقة صفية .

وصار الطعن عمالا ، والمماليك جائرة فى حق الناس بالأذى حتى قلت فى ذلك هذه المداعبة ، وهى قولى :

قد قلت للطعن والمماليك
جاوزتما الحد فى النكاية
ترفقا بالورى قليلا
فى واحد منكما كفاية

وكان الناس على ما ذكرناه من هذه الأفعال الشنيعة ، والملك الناصر فى طيشانه ولعبه .

وفيه نزل الناصر الى بولاق ، ليلة سيدى اسماعيل الأمبابى ، رحمه الله تعالى ورضى عنه ، وشق البحر فى مركب ومعه جماعة من العوام يغنون على النداء والاجهار ، وكان معه أولاد عمه وهما جانم وأخوه جانى بك ، وأحرق تلك الليلة ببولاق حراقة نفط عظيمة ، وبات فى المركب تلك الليلة وكانت من الليالى المشهورة . وفعل مثل ذلك عدة مرار .

وفيه مات بالطاعون شاه بضاع بن دلغادر أمير التركمان ، وكان مقيما بالقاهرة .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذين توجهوا الى مواجهة أقبردى ، قد تبعوه الى عين تاب ، وتقاتلوا معه هناك ، ووقع بينهم واقعة عظيمة ، فانكسر أقبردى كسرة مهولة ، وقتل من عصبته جماعة كثيرة ، منهم اينال السلحدار نائب حلب الذى كان معه ، وقتل لعلى دولات معه ولدان ، وقتل من الخاصكية والمماليك الذين كانوا معه جماعة كثيرة . وقد حاربه كرتباى الأحمر نائب الشام أشد المحاربة وكان قد توجه اليه صحبة العسكر ، الى عين تاب ، حتى تحارب معه وانكسر وهرب ، وطلع على جبل الصوف ... وقيل انه لما انكسر وصعد على جبل الصوف توجه الى نحو الفرات بمن معه من الأمراء والمماليك .

* * *

وفى رمضان تزايد أمر الطاعون ، وفتك فى المماليك والأطفال والغرباء والعبيد والجوارى فتكا ذريعا ، حتى قيل انه انتهى الى ثمانية آلاف من الأموات ، فكان كما قيل :

ألا ان بحر الوبا قد طغى
وقد أرسل الطعن طوفانه
ولا عاصم اليوم من أمره
سوى رحمة الله سبحانه

ومات من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم . الناصرى محمد ابن الشهابى أحمد بن العينى ، وكان شابا رئيسا حشما أديبا عاقلا ، تولى من الوظائف حسبة القاهرة ، ونظر الجوالى ، ووكالة بيت المال ، وتوجه الى الحجاز أمير أول فى دولة الملك الناصر ، وكان عنده من أخصائه . ومات بيبرس ابن حيدر الأشرفى قايتباى ، نائب القلعة . ومات الأمير جان بلاط الغورى ، رأس نوبة النوب ، وكان قليل الأذى لا بأس به ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى . ومات صنطباى المبشر الأشرفى قايتباى ، أحد الأمراء الطبلخانات . وماتت شاشة أم أقبردى الدوادار الجركسية ، فنزل السلطان وصلى عليها وحمل نعشها قانصوه خال السلطان ، ومشى به خطوات . وماتت أم الجمجمة بن عثمان ، سرية أبيه محمد بن عثمان ، ملك الروم . وكان اسمها ججك ، وكانت لابأس بها . ومات قيت الأشرفى أحد العشراوات ، وشاد الطرانة . ومات عبد القادر الألواحى بواب الدهيشة ، وكان عند الملك الناصر من جملة المقربين ، وكانت الناس تسعى فى الوظائف على يديه .

وفيه من الوقائع أن شخصاً من المماليك الجلبان طعن ، فلما أشرف على الموت أحضر شهودا وأخرج بين أيديهم جملة قماش ، ما بين بشاخين ومقاعد ومخدات وبسط وغير ذلك ، ومبلغا نحوا من ثلاثة آلاف دينار ، وأخبر أنه نهب ذلك من مكان سماه . ثم قال لغلامه : « امض وائتنى بأصحاب ذلك القماش » . فمضى الغلام والشهود جالسون عنده فغاب ساعة ، ثم أحضر أصحاب القماش ، فعرفهم ذلك المملوك فسلمهم تلك الأموال والقماش بحضرة الشهود . وسألهم المحاللة فلما حاللوه ومضوا مات من ليلته ... فعد ذلك من الوقائع . ومات آخر من المماليك الجلبان فوجد عنده خمسة عشر ألف دينار ، فذكر غلامه أنه نهب ذلك من حاصل أقبردى الدوادار ، فى حارة زويلة ، فحمل ذلك المال الى خزائن السلطان . ومات مصرباى بن على باى الذى كان نائب قلعة حلب وعزل عنها .

وفيه رسم السلطان لما كثر الموت بعمارة سبيل المؤمنين ، وهى المصلى التى بالرميلة ، وكان خرابا من حين حاصر أقبردى القلعة .

وفيه جدد الأمير طومان باى الدوادار الثانى ما فسد من مدرسة السلطان حسن ، من حين كانت واقعة أقبردى الدوادار ... فجدد باب المدرسة الذى كان احترق ، وسد شبابيك القبة ، وأصلح ما فسد منها ، وأقيمت الخطبة بها وصلاة التراويح ، وكانت معطلة نحوا من عشرة أشهر بسبب ما تقدم .

وفيه قبض على انسان زعموا آنه ينبش القبور على الموتى ، ويسرق أكفانهم ، فأمر السلطان بسلخ وجهه وهو حى ، فسلخوه من رأسه الى رقبته ، وأرخوه على صدره ، وصار عظم رأسه ظاهرا ، وطافوا به فى القاهرة ، ثم علقوه على باب النصر ، واستمر معلقا الى آن مات . ثم نودى للحفارين بحفظ أكفان الموتى .

وفى أواخره تناقص أمر الطاعون ، وكانت مدته ثلاثة أشهر ، ومات به زيادة على مائتى ألف انسان ، من كبير وصغير ، ومن المماليك السلطانية نحو من ألف ومائتى انسان .

* * *

وفى شوال خلع السلطان على قرقماس بن ولى الدين ، وقرره فى رأس نوبة كبير ، عوضا عن جان بلاط الغورى بحكم وفاته .

وفيه قرر بلباى المؤيدى ، من جملة المقدمى الألوف بمصر .

وفيه فى رابع عشره وصل سودون الدوادارى ، أحد الأمراء العشراوات ، وصحبته عدة رءوس ممن قتل فى المعركة التى وقعت بين أقبردى والعسكر ، الذين خرجوا من مصر ، كما تقدم . فكان عدة تلك الرءوس احدى وثلاثين رأسا . وكان فيها رأس اينال السلحدار ، نائب حلب الذى فر مع أقبردى ، وفيها رأس ابن على دولات الذى قتل فى المعركة . وقيل ان الذين قتلوا اثنان وثلاثون ... فكان لدخولهم فى القاهرة يوم مشهود ودخلت الرءوس وهى مشهورة على رماح ، وشقوا بها من القاهرة والمشاعلى ينادى عليها ... فلما عرضوا على السلطان ، رسم بأن يعلقوا على أبواب المدينة ، فعلقت رأس اينال ، ورأس ابن على دولات ، على باب زويلة . والباقى على باب النصر وغيره ... وكل هذا يشق على الملك الناصر فى الباطن . وكانت له عناية بأقبردى وتعصب . وأخبر سودون الدوادارى أن كرتباى الأحمر نائب الشام رجع الى الشام ، وأن جان بلاط نائب حلب رجع الى حلب ، وأن العسكر واصل عن قريب .

وفيه جاءت الأخبار أن كرتباى الأحمر لما استقر فى نيابة الشام ، استولى على نيابة قلعة الشام أيضا ، مضافا لما بيده من نيابة الشام ، وهذا الأمر عزيز الوقوع جدا

وفيه امر السلطان ببناء جامع الفيوم ، وكان القائم فى ذلك الشيخ عبد القادر الدشطوطى . وأرسل السلطان صحبته جماعة من البنائين والمهندسين .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن كاتب السر بدر الدين بن مزهر لما توجه الى مكة أصلح بين أمير مكة المشرفة وأخيه بمرسوم السلطان . وجاءت الأخبار من مكة المشرفة أيضا بوفاة برد بك نائب جدة ، وكان أحد المقدمين بمصر ، وخرج منفيا الى مكة المشرفة بعد كسرة أقبردى ، فمات بها وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء الوحشة بين السلطان وخاله ، وصار بعض الأمراء يرمى بينهما الفتن ، حتى بلغ بذلك مقاصده ، وخيلوا الملك الناصر من خاله ، وخيلوا خاله منه بأشياء من أنواع الحيل والخداع ، وأخذوا فى أسباب ما تتم به الحيلة

على قتل الملك الناصر ، وقد سعوا فى ذلك سعى الشـطار ، حتى كان من أمـره ما سـنذكره فى موضعه . وقد قيل فى معنى ذلك :

صف بالدهاء الذى يخشى الدهاء فما
ينـام خيفـة أن تبـدو له الحيـل
فقـد يبيت بقلب ضـمه أسـد
ولا يبيت بقـلب ضـمه رجـل

وفيه خرج الحاج من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل تانى بك الجمالى ، وأمير ركب الأول جان بلاط الموتر المحتسب .

وفيه جدد الأمير قانصوه خال السلطان خطبـة فى المدرسة البشيرية التى بدرب الخـازن ، ولم يكن بها قبل ذلك خطبة ، فجدد الخطبـة بسبب مماليكه ، وكان ساكنا بالقرب منها .

وفيه قبض الوالى على شـخص من السراق ، فلما عرضـه على السلطان أمر بقطع يده ورجله ، وألزم ذلك السارق أن يقطعهما بيده ، ففعل ذلك بحضرة السلطان .

وفيه دخلت التجريدة التى توجهت الى أقبردى الدوادار ، وقد حضروا من غير اذن السـلطان ، فشق عليه ذلك وأخـذ حذره من الأمراء لكونهم دخلوا من غير اذن منه .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبـار من حلب بأن أقبردى الدوادار لما بلغه أن التجريدة عادت الى مصر ، عاد الى عين تاب ، وصـار ينهب البلاد ، ويقطع الطريق على التجار . فلما بلغ الأمراء ذلك أعياهم أمره .

وفيـه تزايد أمر العـربان بالشرقيـة ، حتى خرج اليهم قانصـوه خال السـلطان ، وقرقماس رأس نوبة كبير . فلما خرج قانصوه خال السلطان سرح فى بلاد الشرقية والغـربية سرحة عظيمة ، وغاب نحوا من شهر ، ودخل عليه جملة تقادم حافلة من الكشاف ومشايخ العربان وغيرهم .

وفيه قصد السلطان أن يخرج الى مولد سيدى أحمـد البدوى رحمه الله ورضى عنه ، فلم يمكنه الأمراء من ذلك .

وفيه توفى الخطيب الوزيرى شمس الدين محمد ابن ابراهيم بن عثمان المالكى ، وكان من أهل العلم والفضل لا بأس به .

* * *

وفى ذى الحجة عاد قانصوه خال السلطان من السرحة ، فنادى له السلطان فى القاهرة بالزينـة فزينت له . ثم انه دخل فى موكب حـافل ، وطلع الى القلعة ، فخلع عليه السلطان خلعة سنية . فلما نزل من القلعة ، ووصل الى رأس الصوة ، لاقاه جماعة من المماليك السلطانية الجلبـان ، وبأيديهم دبابيس مسحوبة ، فقالوا له : « قل للسلطان ينفق علينـا بسبب نصرنه على أقبردى » . واستمروا يحاصرونه من رأس الصـوة الى أن دخل بيتـه الذى عنـد درب حمام الفارقانى . فلما دخل الى بيته وقفوا له على الباب حتى قلع الخلعـة وأكل المدة ، وأركبوه ثانيا وطلعوا به الى القلعة ، وهو مهدد معهم بالقتل . فلما طلع الى السـلطان لم يوافقه على ذلك ، فرد الجواب على المماليك بالمنع من السلطان ، فاستمروا صابرين حتى مضى عيد النحر وانقضى أمر تفرقة الأضحية ، فلبسـوا آلة الحرب ، وطلعوا الى الرميلة ، وحاصروا السلطان وهو بالقلعة — وكان قانصوه خاله عنـده فوق القلعة — وتوجهوا الى بيت الأتابكى أزبك فأركبوه غصبا وطلعوا به الى القلعـة ، فتكلم مع السلطان فى ذلك فامتنع ساعة . ثم انه وقع الاتفاق على أنه ينفق عليهم بعد مضى شهر ، لكل مملوك خمسون دينارا . فلما نزل الأتابكى أزبك من القلعـة ، رد عليهم الجواب بذلك فخمدت تلك الفتنـة وقلعوا آلة السلاح .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب جمع الأموال ، فورع على المباشرين جانبا ، وعلى قضاة القضاة جانبا ، وعلى أعيان الناس من التجار ، وغير ذلك حتى علي اليهود والنصارى قاطبة ، ومشاهير السوقة والمتسببين . وكان القائم فى ذلك قانصوه خال السلطان وأعوانه ، وهم ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وابراهيم المهاجرى امام الأمير قانصوه خال السلطان ، وقانى بك الدوادار . فجلس قانصوه خال السلطان فى داره التى عند درب حمام الفارقانى ، وأحضر المعاصير والكسارات ، وأحمى خود حديد على النار ، وطلب الناس بالرسل الغلاظ الشداد . فأما قاضى القضاة المالكى ابن تقى فانه اختفى فى بيته ، وكذلك قاضى القضاة الحنبلى الشهاب الشيشينى . وطلب القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش فامتنع مما قرر عليه ، فطرح على الأرض ليضرب . وكذلك ناظر الخاص علاء الدين بن الصابونى . وعلى هذا فقس بقية الناس من الأعيان والمشاهير . فجمعت تلك الأموال من الناس بالضرب والحبس والتراسيم ، وحصل لهم غاية المشقة بسبب ذلك ، فكثر الدعاء على الناصر وخاله . وقد تزايد الظلم والجور فى تلك الأيام الى الغاية ، حتى فرج الله تعالى عن قريب ، وكان كما قيل :

وماذا ينفع الترياق يوما
اذا وافى وقد مات اللديغ

فلما تكامل جمع الأموال ابتدأ السلطان بتفرقة النفقة ، فأعطى لطائفة المماليك القايتباهية ، لكل واحد منهم خمسون دينارا ، وما عدا ذلك خمسة وعشرين دينارا .

وفيه أن من أخبار الملك الناصر التى هى فى غاية البشاعة ، أنه دخل الى حارة الروم ، وهجم على دار ابراهيم مستوفى الخاص ليلا ، وقبض على ولده أبى البقاء ورام توسيطه ، فألقى والده نفسه عليه وافتداه بألف دينار . قيل كان سبب ذلك أن الناصر بلغه أن زوجة أبى البقاء جميلة ، فهجم عليه بسببها فأخفوها منه ، فجرى بسبب ذلك ماجرى . وهذا الكلام مستفاض بين الناس والله أعلم .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن المسلمين أخذوا حصن جربة من أيدى الفرنج ، وكانوا قد استولوا عليه نحوا من سنة وأشهر ، فكانت النصرة للمغاربة على الفرنج .

وفيه كثرت الفلوس الجدد بأيدى الناس ، حتى صار النصف الفضة يصرف بأربعة عشر من الفلوس الجدد . وصار الدينار الذهب يصرف من الفلوس بثلاثين نصفا . وصارت البضائع تباع بسعرين : سعر بالفضة ، وسعر بالفلوس الجدد . وأضر ذلك بحال الناس . وقد وقع فى دولة الأشرف قايتباى أن النصف الفضة وصل صرفه بالفلوس أربعة وعشرين .

وفيه تزوج قايتباى قمر أمير آخور كبير ، بنت يشبك الدوادار التى كانت زوجة كرتباى ابن عمة السلطان الأشرف قايتباى الذى قتل فى واقعة أقبردى بمدرسة السلطان حسن

وفيه خرج نوروز الخوخ أحد الأمراء العشراوات قاصدا الى كرتباى الأحمر نائب الشام ، وعلى يده مراسيم بالعتب عليه لكونه استولى على نيابة قلعة الشام من غير اذن السلطان . فتوجه اليه وعاد بعد مدة بغير طائل .

وفيه توفى أقباى استادار الذخيرة ، وكان لابأس به .

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة أسنباى الذى كان نائب الاسكندرية ، واتهم بموته كاتب السر لما توجه الى هناك . وقد خرجت السنة المذكورة عن الناس وهم فى أمر عظيم ، ووقع بها الغلاء والفناء والمصادرات ،

وجور السلطان فى حق الناس ، كما تقدم ، وأذى المماليك فى حق الرعية ، وقد كان الناس فى غاية الاضطراب . وما كفى هذا كله حتى فشا فى الناس داء يقال له الحب الفرنجي[1] — أعاذنا الله تعالى منه والمسلمين أجمعين بمنه وكرمه — وقد أعيا الأطباء أمره ، ولم يظهر هذا بمصر قط الا فى أوائل هذا القرن ، ومات به من الناس ما لا يحصى .

سنة اربع وسبعمائة (١٤٩٨ — ١٤٩٩) :

فى المحرم ، كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبا الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان العصر الملك الناصر أبا السعادات محمد ابن الأشرف قايتباى رحمه الله . وأما القضاة الأربعة : فالقاضى زين الدين زكريا الشافعى ، والقاضى برهان الدين بن الكركى الامام الحنفى ، والقاضى عبد الغنى بن تقى المالكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشى الحنبلى .

وأما الأمراء المقدمون فقد تقلبت أحوالهم بموجب ما جرى من الفتن والقتل ، كما تقدم فى أخبار السنة الخالية . فكان الأتابكى أزبك بن ططخ أمير كبير يومئذ . وتانى بك الجمالى الظاهرى جقمق أمير سلاح . وقانصوه المحمدى المعروف بالبرجى أمير مجلس ، وقانى باى الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه خال السلطان دوادار كبير واستادار كبير وكاشف الكشاف ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة كبير ، وقيت الرجبى حاجب كبير . وبقية الأمراء على حكم ما تقدم من أخبارهم . وأما المباشرون فالقاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ونائبه ، وصلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين بن الصابونى ناظر الخاص ، ووكيل بيت المال ، وبقية المباشرين على حكم ما تقدم .

وفيه من الوقائع أن النيل أوفى تاسع عشر مسرى الموافق لرابع المحرم . وكان السلطان عول على أن ينزل ويفتح السد بنفسه ، وأخذ فى أسباب ذلك فلم يمكنه الأمراء من ذلك خوفا عليه من القتل ، فشق عليه ذلك . فلما صلى العشاء نزل من القلعة على حين غفلة ، وقدامه عدة فوانيس ومشاعل ، ومعه أولاد عمه وبعض خاصكية نحو من مائة خاصكى . فتوجه الى السد وفتحه تحت الليل ، ثم توجه الى سد قنطرة قديدار ففتحه أيضا ثم عاد الى القلعة ، وكل هذا تحت الليل . فلما طلع النهار وجد الناس الماء فى الخلجان والبرك قد غمرت بالمياه فتعجبوا من ذلك . وما وقع قط فى الجاهلية ولا فى الاسلام أن السد فتح بالليل . وقد قطع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء ، وما كان فيه من القصف والفرجة المعتادة . وفى هذه الواقعة يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

منذ للسلطان قالوا	للورى بالكسر جبر
كسر السد بليل	فغدا للناس كسر

وفيه توجه السلطان الى قناطر أبى المنجا ، وفتح سدها أيضا ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه ضرب السلطان الكرة بالحوش فى غير موكب . وكان معه بعض أمراء الطبلخانات والعشراوات ، منهم الأمير طومان باى الدوادار الثانى ، فاقتحم على أخذ الكرة من السلطان ، فحنق منه السلطان وضربه على ظهره بالصولجان غير ما مرة ، فكان ذلك من جملة ما حقده طومان باى ، حتى كان سببا لقتله عن قريب .

وفيه مر السلطان من بين القصرين بعد العشاء

(١) هو « الزهرى » ، عاد به كولومبس وملاحوه من امريكا ، ولم تكن معروفا فى العالم القديم من قبل .

فرأى شخصا ماشيا فى السوق ، وقد خرج من الحمام . فقيل له هذا الرجل سكران ، فوسطه ولم يفحص عن أمره ، وراح ذلك الرجل ظلما . وكان الناصر قد تزايد شره فى تلك الأيام الى الغاية .

وفيه نادى السلطان لسكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية فامتثلوا ذلك . وصار ينزل فى المراكب ، ويطوف البركة هو وأولاد عمه ، وان رأى امرأة جميلة فى بيتها هجم عليها ، وطلع لها من الطاق ، وأخذها غصبا ، وضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته . فارتاب الناس منه ، وبقى على رءوسهم طيرة .

وفيه من الحوادث أنه أشيع بين الناس أن السلطان عمل له برقا حافلا بتربة أبيه ، وقد عول على أن يسافر فى الدس الى نحو البلاد الشامية بسبب أقبردى الدوادار ليكون له عونا على نصرته ودخوله الى مصر . وكان الناصر له عناية بأقبردى ظاهرا وباطنا . فلما بلغ الأمراء ذلك توجهوا الى المكان الذى فيه السنيح ونهبوه الى آخره ، وضربوا الغلمان الذين تعينوا الى السفر مع السلطان . وكادت أن تكون فتنة مهولة بسبب ذلك ، وقصدوا أن يلبسوا آلة السلاح ، ويثيروا فتنة عظيمة ، ثم سكن الأمر قليلا .

وفيه وصل الحاج ودخل الى القاهرة بعد أن قاسى مشقة زائدة وعطشا وقلة أمن من فساد العربان . وأشيعت الأخبار بوفاة يوسف بن أبى الفتح ، كاتب المماليك ، مات بمكة المشرفة وكان مجاورا بها ، وكان لا بأس به .

وفيه وقعت نادرة ، وهى أن المحمل لما دخل الى القاهرة صحبة الحجاج شق المدينة ، فلما أن وصل الى جامع الماردانى بركوا جمل المحمل هناك ، وأرادوا أن ينزعوا ما عليه من القماش ، واذا بقاصد من عند السلطان يطلب المحمل ، وكان بقبة يشبك التى بالمطرية . فتوجهوا به اليه ، فشقوا به من القاهرة ثانيا ، حتى رآه السلطان وهو بالقبة ، ثم عادوا به فشق القاهره ثالث مرة ، فعد ذلك من النوادر التى قط ما وقعت .

***

وفى صفر جاءت الأخبار من البحيرة بأن الجويلى ومرعى أثاروا فتنة مهولة بالبحيرة ، ونهبوا البلاد وآسروا النساء وقتلوا الأطفال ، وأشيع أن الجويلى حلف أنه لا يمكن أحدا من أرباب الدولة أن يأخذ خراجا من بلاد الغربية والبحيرة فى السنة المذكورة . فلما تحقق السلطان ذلك عين تجريدة الى البحيرة فلم يوافق أحد من الأمراء ولا العسكر على ذلك ، وكان النيل فى قوة زيادته . ثم ان السلطان نادى للعسكر بالعرض فى الميدان ، فلما حضر العسكر لم ينزل اليهم السلطان ، وقد تخوف على نفسه ، فانفض ذلك الجمع ، وكثر القال والقيل بين الناس . وكانت أيام الناصر كلها فتنا وشرورا .

وفيه ظهر البدرى بن مزهر كاتب السر ، وكان مختفيا ، فأرسل له السلطان بالأمن والأمان .

وفيه قرر السلطان قانصوه جركس ، المعروف بابن اللوقا ، فى حجوبية الحجاب بدمشق .

وفيه قرر ابراهيم بن يحيى المهاجرى فى نظر الديوان المفرد بواسطة قانصوه خال السلطان ، فانه كان أمامه .

وفيه نودى فى القاهرة من قبل السلطان بأن جميع الحوانيت التى بالأسواق والشوارع يبيضون وجوهها ويزخرفونها بالدهان ، فحصل للناس بسبب ذلك غاية المشقة . ثم رسم بتبييض وجوه الربوع المطلة على الشوارع . وكل هذا من وسائط السوء التى حوله وعقل الصغار .

وفيه تزوج السلطان بمصرباى الجركسية ، زوجة كرتباى أخى أقبردى الدوادار ، الذى كان نائب صفد ، ووقع بين السلطان وأمه بسبب زواج مصرباى ما لا خير فيه ، وكانت عليه كعب الشوم ، فأقام معها دون الشهر وقتل .

* * *

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان المصحف العثمانى بين يديه وحلف العسكر قاطبة عليه ، ثم حلف الأمراء . فلما حلفوا قالوا مثل ما حلفنا للسلطان يحلف لنا هو أيضا أنه لا يمسك منا أحدا بغير سبب ، فتوقف السلطان فى ذلك اليمين ، وكان المتكلم بين السلطان والأمراء تانى بك الجمالى أمير سلاح . فانفض المجلس على مانع ونزل الأمراء من غير رضا .

فلما كان يوم الجمعة لم يطلع من الأمراء أحد الى صلاة الجمعة مع السلطان ، واجتمعوا فى بيت قانصوه خاله ، ولم يمكنوه من الطلوع الى القلعة . واستمر الحال الى يوم الاثنين ثم ان السلطان أرسل نقيب الجيش الى طومان باى الدوادار الثانى وطراباى أمير آخور ثانى ، وأزدمر شاد الشراب خاناه ، وأسنباى . فقال لهم نقيب الجيش عن لسان السلطان : « رسم السلطان لكم بأن تكتبوا وصية وتخرجوا فى عقيب هذا اليوم وتتوجهوا الى مكة المشرفة من البحر » . فلم يلتفتوا الى كلام نقيب الجيش ، وقالوا له : « ما نخرج من مصر لموضع ، ومهما يفعله بنا يفعل » . فعند ذلك أضمروا له السوء ، وتغيرت عليه خواطر الأمراء قاطبة وهو فى غفلة عما يراد به . وقد حقدوا عليه قبل ذلك مما يقع منه من هذه الأفعال الشنيعة ، وصار كل أحد من الناس حاقدا عليه باطنا وظاهرا من سوء تدبيره . كما قيل :

ما تفعل الأعداء فى جاهل
ما يفعل الجاهل فى نفسه

وفيه ظهر مصر باى وآخرون من الأمراء ممن كانوا مختفين من عصبة أقبردى الدوادار . فلما ظهروا طلعوا الى القلعة ، وهم : مصرباى ، وقانبك أبو شامة ، وقانصوه التاجر ، وتمراز جوشن ، وقانصوه الساقى ، وآخرون من الخاصكية . وكان ظهورهم بأمر السلطان وجماعة من الاينالية ، منهم : دولات باى بن عينى ، وبرقوق الساقى . فلما قابلوا السلطان خلع عليهم وعلى خاله ، وأشيع بأن الصلح قد وقع بين حلف أقبردى الدوادار وبين حلف قانصوه خمسمائة . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الملك الناصر ، وأخذ عقيب ذلك بأيام .

وفيه نزل السلطان بقبة يشبك الدوادار التى بالمطرية فأقام بها الى آخر النهار ، وعاد الى القلعة . وكان هذا آخر ركوبه الى جهة قبة يشبك .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، فلم يطلع الى القلعة من الأمراء سوى أزبك أمير كبير ، وتانى بك الجمالى أمير سلاح ، وبعض أمراء عشراوات ، والقضاة الأربعة . ولم يطلع خاله قانصوه ، ولا أحد من الأمراء ، ولا حضروا المولد . ووقع فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان فى حق الأمراء والفقهاء ما لا خير فيه ، ورجموا الأمراء من الأطباق ، وكبوا عليهم الماء المتنجس بالأوساخ ، وخطفوا عمائم الفقهاء ، وكان يوما مهولا . فلما انقضى يوم المولد بعث السلطان يقول لطومان باى دوادار ثانى : « اخرج فى هذه الساعة على جرائد الخيل الى جهة البحيرة بسبب فساد جويلى ومرعى » . فخرج طومان باى من يومه ، وأتى الى بر الجيزة ، ونصب بها خيامه .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشر الشهر المذكور نزل السلطان من القلعة ، وتوجه الى نحو القناطر العشر ؛ وكان ذلك فى آواخر النيل . فعدى الى بر الجيزة وسبقه الخيام والمطبخ . وكان عنده جانب كبير من بقية احتياج المولد . فلما وصل السلطان الى الوطاق نزل به ، ولم يكن معه سوى أولاد عمه قيت ، وهما جانم وجانى بك أخوه ، وجماعة من الخاصكية . ولم يتوجه معه أحد من الأمراء ، ولا خاله . فأرسل أحضر أبا الخير ومعه خيال الظل ، وجوق مغانى العرب ، وبرابوه رئيس المحبظين . فأقام هناك ثلاثة أيام وهو فى أرغد عيش . وقد خرج عن الحد فى اللهو والخلاعة والانشراح . ومد هناك أسمطة حافلة وحلوى وفاكهة وغير ذلك ، وأنعم على جماعة من الخاصكية بخيول وقماش ومال ، وانشرح فى تلك الأيام بخلاف العادة ، وتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بأمثاله من المقدمين . فكان كما قيل :

تزود من الدنيا فانك لا تدرى
اذا جن ليلك هل تعيش الى الفجر
فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينا من الدهر
وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى

فلما كان يوم الأربعاء خامس عشر الشهر المذكور أدركت السلطان تفرقة الجامكية ، فأذن للخاصكية الذين كانوا معه أن يتقدموا قبله كى لا يزاحموه وقت التعدية ... فتقدم جماعة منهم وراحوا الى بيوتهم ... فصلى السلطان العصر وركب ولم يبق معه سوى ابنى عمه وبعض سلحداريته . فلما ركب مر على الطالبية ، وكان الأمير طومان باى هناك بقصد التوجه الى البحيرة ، كما تقدم ذكره . فلما مر عليه خرج له طومان باى مسرعا وعزم عليه فلم ينزل عنده ، فخرج اليه بجفنة فيها لبن فاخر ، فوقف السلطان وهو راكب على فرسه ، فقدموا له الجفنة اللبن ومعلقة ، فمد يده الى الجفنة وأكل من اللبن . فبينما هو يأكل والأمير طومان باى ماسك لجام فرسه ، فلم يشعر الا وقد خرج عليه كمين من الخيام التى هناك ، نحو من خمسين مملوكا وهم لابسون آلة السلاح ، فاحتاطوا به وعاجلوه بالحسام قبل الكلام . فقتلوه شر قتلة ، وحملوا عليه أى حملة . فجاءته ضربة على عاتقه وكتفيه فهدلته ، وطعن فى جوفه فوقع عن فرسه الى الأرض ، وقتلوا ولدى عمه الاثنين جانم وأخيه جانى بك وكانا شابين جميلين ، وقتل معهما شخص من السلحدارية يقال له أزبك الغمرى الخاصكى المعروف بالبواب ، وكان من خواص السلطان . وتقرب هذه الواقعة من واقعة الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاون . وقد قتل مثل هذه القتلة بعينها فى تروجة بمكان يعرف بالحمامات ، وذلك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة . قتله مماليك أبيه أيضا .

وكانت قتلة الملك الناصر فى يوم الأربعاء بعد العصر خامس عشر ربيع الأول سنة أربع وتسعمائة ، وقتل بأرض الطالبية . وقد نسب قتله الى طومان باى وأزبك وأزدمر وبعض مماليك أبيه . فكان كما قيل فى المعنى :

كنت من كربتى أفر اليهم
فهمو كربتى فأين المفر

أو كما قيل :

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها
فكيف اذا الرعاة هى الذئاب

فلما قتل الملك الناصر صارت جثته مرمية

على الأرض ، ومن قتل معه . فلما دخل الليل حمله جماعة شيخ الطالبية ، وأدخلوه مسجدا هنــاك ، وألقوه على حصير هو ومن معه وهو ملطخ فى دمه ، ورأسه مشتبكة فى جثته ببعض شيء . فبات هناك فى تلك الليلة . فلما جاءت الأخبار الى القاهرة بما وقع للناصر من قتله اضطربت أحوال المدينــــة وماجت بأهلها . ولبس العسكر آلة الحرب ، وكانوا تلك الليلة فى اضطراب . وكان جماعة من الأمراء قرروا مع الأمير قانصوه ، خال السلطان ، أنه اذا قتل الناصر يكون هو السلطان بعده فتغــافل عن هـــذه الواقعة حتى قتل الناصر ، ولولا أنهم استمالوا خاله لما قدروا عليه ولا قتلوه .

فلما كان يوم الخميس صبيحة ذلك الأمر ، بعث خال السلطان ثلاثة نعوش الى الطالبية ، فأحضروا جثة السلطان وأولاد عمه جانم وأخيه جانى بك وأزبك بك الخاصكى . فلما عدوا بهم من الجيزة أتوا بهم الى بيت الأشرف قايتبــاى الذى أنشأه بقرب حمام الفارقانى ، فغسلوا السلطان وأولاد عمه والخاصكى ، وأخرجوا ولم يكن معهم غير الحمالين فقط . فأتوا بهــم الى باب الوزير فلم يجدوا من يصلى عليهم حتى أمسكوا بعض الفقهاء وصلى عليهم . ثم توجهوا بهم الى تربة الأشرف قايتباى فدفنوا الملك الناصر على أبيــه داخــل القبة ، وأولاد عمــه على جانى قريب السلطان ، وأزبك الخاصــكى وحده بعيدا عنهم فى التربة . وقد رثيت الملك الناصر لما مات بهذين البيتين وهما قولى :

يا قبر لا تظلم عليــه فطالما
جلى بطلعته دجى الاظــــلام

طوبى لقبر قد حواه وكيف لا
يحكى السماء وفيه بدر تمام

وكان الملك الناصر حسن الشكل ، أبيض اللون ، عربى الوجه ، نحيف الجسد ، معتدل القامة ، وكان ضعيف الخط فى العلامة . قتل وله من العمر نحو من سبع عشرة سنة . وكان مولده سنة سبع وثمانين وثمانمائة . وكان يوصف بالكرم الزائد والشجاعة لكنه كان جاهلا عسوفا جرىء اليد سفاكا للدماء سيىء التدبير ، كثير العشرة للأوباش من أطراف الناس . ووقعت منـــه أمور شنيعة فى مدة سلطنته لا ينبغى شرحها . وليس له من المحاسن الا القليل . وسار فى المملكة أقبح سير ، ولم يقع من أبنــاء الملوك من السوء قط ما وقع منه فى سائر أفعاله ، حتى جاوز الحد فى ذلك . وفيه أقول :

سلطاننا الناصر المفســدى
أخبــاره نقلهــا صــحيح

بالجهل أضحى قبيح فعــل
فلم يفـــد شــكله المليح

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية نحــوا من سنتين وثلاثة أشـــهر وتسعة عشر يوما . وكانت أيامه كلها فتنا وشرورا وحروبا قائمة ، كما تقدم ذكر ذلك من الوقائع وما كان قصد السلطان الأشرف قايتباى أن يتسلطن ولده خوفا عليه من ذلك .

ولما قتـــل الملك الناصر تولى بعده خاله المقر السيفى قانصوه الدوادار الكبير .

الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه

هو الملك الظاهر أبو سعيد قانصوه ابن قانصوه الأشرفى ، وهو الثالث والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهــو الســابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد . وكان

اصله جركسي الجنس ، اشتراه الأمير قانصوه الألفي مع جملة مماليك وقدمهم للسلطان الأشرف قايتباي في سنة ثمان وتسعين وثمانمائة . فأنزل بالطبقة مع جملة المماليك الكتابية ، فأقام بها مدة يسيرة . ثم ظهر أنه أخو سرية السلطان أصل باى الجركسية ، أم ولده محمد الذى تسلطن ... فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، فأقام على ذلك حتى توفى الأشرف قايتباى ، وتسلطن ولده الناصر محمد . فجعله خازندارا كبيرا ، وبقى يسمى خال السلطان . فلما وثب قانصوه خمسمائة على الملك الناصر كما تقدم ، لم يكن عنده بالقلعة الا خاله قانصوه هذا وجماعة كثيرة من المماليك الجلبان . فقام قانصوه بنصرته هو والمماليك الجلبان ، وقاتلوا قتال الموت بعد ما أرسل قانصوه خمسمائة بادخال الناصر الى قاعة البحرة وتقييده . فلما انتصر الناصر على قانصوه خمسمائة ، خلع على خاله قانصوه ، وقرره أمير طبلخانات وشاد الشراب خاناه دفعة واحدة ، فعظم أمره وشاع بين الناس ذكره .

ولما ركب آقبردى الدوادار وانكسر ، وتوجه الى البلاد الشامية ، خلع السلطان على خاله وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن أقبردى . ثم قرره فى الوزارة والاستادارية فعظم أمره جدا . فلما قتل الناصر وقع الاضطراب بين الأمراء فيمن يتسلطن بعد الناصر . فاجتمع الأمراء بدار الظاهر تمربغا ، وحضر الأتابكى أزبك وبقية الأمراء ، وأشيع فى ذلك اليوم أن قانصوه خمسمائة فى قيد الحياة ، فنودى له بالأمان وأن يظهر فلم يكن لهذا الكلام تأثير ، وبطلت هذه الاشاعات . ثم قالوا للأتابكى أزبك تتولى السلطنة أنت ، فحلف بالطلاق ثلاثا من بنت الظاهر بأنه ما يتسلطن ، وأن يعود الى مكة المشرفة كما كان . ثم صعدوا الى باب السلسلة

وحضر قانصوه خال السلطان الناصر من بيته المشهور ، وصعدوا الى باب السلسلة ، ووقع الاتفاق على سلطنته . وكان القائم فى ذلك طومان باى الدوادار الثانى ، فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة . وهم زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن تقى المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى ، فبايعه الخليفة بالسلطنة وشهد عليه القضاة الأربعة بذلك . وتلقب « بالملك الظاهر أبى سعيد » وذلك فى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الأول من سنة أربع وتسعمائة . وذلك فى أثناء الساعة الرابعة وهى لزحل ، فأحضر شعار الملك وهو الجبة والعمامة السوداء والسيف البداوى . فأفيض عليه شعار الملك ، وقدمت له فرس النوبة ، وركب من سلم المقعد الذى بباب السلسلة ، ومشت الأمراء بين يديه ، وركب الخليفة معه ، وتقدم الأتابكى أزبك وحمل القبة والطير على رأسه ، وكان هو أولى بالسلطنة من كل أحد ، وقد فاتته عدة مرار كما قيل :

اذا رفع الزمان محل شخص
وكان سواه أولى لو تصاعد
فكم فى العرس أبهى من عروس
ولكن للعروس الوقت ساعد

فلما طلع الظاهر الى القصر جلس على سرير الملك فأول من قبل له الأرض الأتابكى أزبك ، ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا . وقيل ان الذى لقبه بالملك الظاهر هو تانى بك الجمالى أمير سلاح .

فلما جلس خلع على الخليفة ونزل الى داره ، وخلع على الأتابكى أزبك بالاستمرار فى الأتابكية وخلع على طومان باى الدوادار الثانى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن نفسه . ثم دقت البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت

الأصوات له بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته ، بغضا فى الملك الناصر مما كان يفعـله من الأفعال الشنيعة . فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم ، خطب باسم الملك الظاهر عـلى المنابر . وجاء فى حال سلطنته بأشياء على الوضع وانصلحت الأحوال فى أيامه على قدر ما كان جليا . فتولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة . وكان له عقل وافر وثبات جنان . والذى وقع له لم يقع لأحد من مبتدا دولة الأتراك الى الآن ، فانه كان من دخوله الى مصر واقامته فى الطبقة وحضوره من بلاد جركس وامريته وسلطنته دون الست سنين ، وهذا لم يتفق لأحد من الأتراك قبله . وكان من جملة الجمـدارية فى دولة الأشرف قايتباى ، ثم صار فى دولة الناصر كما تقـدم ، وكان له سعد خارق من العناية الأزلية فى القدم كما قيل :

اذا خصص الرحمن عبدا بنعمة
فكل حسود بعـد ذلك مقمع
فياطالب العلياء مهلا ولا تطل
فليس بسعى المرء ما شاء يصنع

وفى حال سلطنته حضر سيف كرتباى الأحمـر نائب الشـام لموته ، وقد مات الناصر بحسرة أن يسمع بذكر موته . ويقـال ان الناصر رشا على قتـل كرتباى الأحمر بألف دينار . قيل ان بعض غلمانه سمه فى زيق الكوفية ، وقيل فى قبة العرقية فلما لبسها وعرق سرى السم فيه فورم وجهـه ووصل الورم الى قلبه فمات . وقد تمت حيـلة الناصر عليه . وكان كرتباى الأحمر أميرا جليلا ، رئيسا ، وكان يحجر على الناصر وينهاه عن هـذه الأفعال الشنيعة ، فكرهه بواسطة ذلك . وكان الناصر يصور أوراقا بقاعة البحـرة بهيئة كرتباى الأحمر وهو مسمر على جمل والناس تتشبه . وكان كرتباى يصرخ فى وسط مجلسه فى الشام ، ويقول: « أنا من تحت حكم صبى أو امرأة » يعنى الناصر وأمه . ولما استقر كرتباى فى نيابة الشام ملك قلعتها وطرد نائبها ، ووقع منه أمور شتى فى حق السلطان الناصر يطول شرحها .

وفى ذلك اليوم ثار جماعة من المماليك الجلبان على ناصر الدين الصفدى وكيـل بيت المـال ، فضربوه ضربا مبرحا حتى كاد أن يموت .

وفيه عمل السلطان الموكب بالقصر ، وخلع على قصروه بن اينال ، وقرره فى نيابة حلب عوضا عن جان بلاط بن يشبك ، وأرسل الى جان بلاط خلعة وتقله من نيابة حلب الى نيابة الشـام عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم وفاته .

وفيـه قـرر الأمـير طومان باى فى الوزارة والاستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى

وفيه ثار جماعة من المماليك الناصرية على الأمير طومان باى ورجموه من الطباق ، وقصدوا قتله غير ما مرة ، وقد أشيع عنه أنه كان سببا لقتـل الناصر . فلما بلغ السلطان ذلك رسم بسد جميع الطباق والشبابيك والمناور التى تطل على دهاليز القلعة من طباق المماليك .

وفيـه خلع السـلطان على طراباى الشريفى ، وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن طومان باى المذكور . وقرر تانى بك الجمالى ، أحـد الأمراء العشراوات ، فى الخازندارية ، وقرر أقباى الطويل فى نظر الجوالى ، وأنعم على بيبرس الأشقر بامرية عشرة .

وفيه قبض الأمير طومان باى على على بن رحاب المغنى ، وضربه بالمقارع وشهره بالقاهرة ، وهـو عريان مكشوف الرأس على حمار . وكان على بن رحاب طالمـا أدخل نفسه فيما لا يعنيه ، وتعصب

لأتبردى الدوادار ، وصار يسب الأمراء سبا قبيحا فى المجالس جهارا ، ويهجوهم الهجو الفاحش ، ويصرح بذلك فى السماعات وهو على الدكة . وكان كرتباى الأحمر قبض عليه قبل ذلك وأراد ضربه ، ثم وبخه بالكلام وعفا عنه . فلما زاد فى هذا الأمر ضربه طومان باى وشهره فى القاهرة ، والمشاعلى ينادى عليه « هذا جزاء من يكثر كلامه ويدخل نفسه فيما لا يعنيه » .

وفيه أخذ السلطان فى أسباب تحصيل الأموال لأجل النفقة على الجند ، فقرر على الشهابى أحمد ناظر الجيش مبلغا له صورة فاختفى . فلما اختفى خلع السلطان على القاضى عبد القادر القصروى ، وقرره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمد بحكم اختفائه .

وفيه اختفى الشهابى أحمد بن العينى بسبب مال فرض عليه ، واختفى جوهر المعينى الزمام بسبب مال فرض عليه . وقبض على محسن الطواشى الخازندار وآخرين من الطواشية وقرر عليهم الأموال ، وتسلم طراباى محسن الخازندار والطواشية وعاقبهم ، واستخلص منهم الأموال ، حتى باعوا جميع ما يملكونه من بيوت وقماش ولم يبق مما فرر عليهم شىء . وكان من جملة الطواشية مسك الساقى وغيره من الطواشية .

* * *

وفى ربيع الآخر خرج قصروه فى نيابة حلب ، وخرج صحبته أقباى الذى قرر فى نيابة قلعة الشام .

وفيه تعين قرقماس بن ولى الدين رأس نوبة كبير فى امرية ركب المحمل ، وتعين أزبك المكحل أحد الأمراء الطبلخانات فى آمرية الركب الأول .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار قد حاصر حلب أشد المحاصرة ، وأحرق ما حولها من الضياع ، وأشرف على أخذ المدينة . وقد التم عليه الجم الغفير من الناس والتركمان ، وحصل منه غاية الضرر . فلما تحقق السلطان ذلك عين تجريدة ثقيلة الى أقبردى . وكان باش العسكر تانى بك الجمالى أمير سلاح ، وبها من الأمراء المقدمين : قانى باى أمير آخور كبير ، وسودون العجمى ، وبلباى المؤيدى ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات وعدة وافرة من العسكر فأنفق عليهم ، واستحثهم على الخروج الى حلب بسرعة .

وفيه توجه جانم طاز الأبراهيمى أحد العشراوات الى على دولات بن دلغادر ، وصحبته خلعة وتقليد الى على دولات باستمراره على امرية التركمان على عادته .

وفيه أمر السلطان بتوسيط شخص من المماليك يقال له ألماس ، وقد قتل قتيلا ، فوسطه السلطان بسبب ذلك .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين عاشره ، خرجت التجريدة المعينة الى اقبردى الدوادار ، وكان لخروجها يوم مشهود

وفيه صنع السلطان مولدا فى غير وقته . وحضر فيه القضاة الأربعة على العادة ، وكان يوما حافلا سلطانيا .

وفيه أنعم السلطان على جان بردى الأشقر الكاشف بامرية عشرة .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بوفاة هلال الطواشى الرومى ، وكان صار مقدم المماليك ، وكان لا بأس به .

وفيه كان ابتداء نفقة البيعة على الجند .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصروه الذى قرر نائب حلب ، لما دخل الى الشام

وضع يده على مال كرتباى الأحمر جميعه ، وكان مبلغا ثقيلا نحوا من سبعة وستين ألف دينار ، وكان هذا أول عصيان قصروه واستخفافه بالسلطان فلما بلغ السلطان ذلك تنكد لهذا الخبر ، وعين مشد أحد الدوادارية بالتوجه الى قصروه ، وأن يأمره برد ما أخذه من مال كرتباى الأحمر . فلما توجه الى قصروه لم يلتفت الى مراسيم السلطان ، ولا رد شيئا من المال الذى أخذه ، واعتذر بأشياء لم تقبل

وفيه قبض السلطان على شخص من الحرامية يقال له ابن الوارث ، فقطع لسانه ، وكحلت عينه بالنار ، ومع هذا لم يرتجع عن الحرام والسرقة . وقد قبض عليه بعد ذلك وعلى رأسه عملة ... والطبع فى الانسان لا يتغير .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة كمشبغا الشريفى نائب الاسكندرية ، وكان لابأس به .

وفيه أخرج السلطان تقدمة أزبك اليوسفى بحكم أنه كبر سنه وعجز عن الحركة . فلما أخرجت عنه ، أنعم السلطان بها على أزدمر بن على باى الذى كان شاد الشراب خاناه .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، عاد الأمير طومان باى الدوادار من السرحة التى سرحها نحو بلاد الصعيد . وأحضر صحبته من الأغنام فوق الأربعة آلاف رأس زعموا أنها من أغنام عرب عزالة . وجرى فيما بعد أمور غريبة بسبب ذلك يأتى الكلام عليها .

وفيه قرر السلطان أزبك المكحل فى نيابة الاسكندرية عوضا عن كمشبغا الشريفى

وفيه كثرت المصادرات للمباشرين وأعيان الناس بسبب النفقة ، وقد عجز السلطان عن سدها .

وفيه عين السلطان البدرى بن مزهر كاتب السر بأن يخرج الى مكة المشرفة فى بعض المهمات الشريفة .

وفيه قبض السلطان علّى الناصرى بن خاص بك ، أخى خوند زوجة الأشرف قايتباى ، فأقام فى الترسيم مدة ، وطلب منه مال له صورة ، وعرض للضرب غير ما مرة ، وقد آل أمره الى أن يخرج أمير حاج بالركب الأول ، وأمره بأن يقوم بما يحتاج اليه من ماله ، ولا يأخذ من السلطان شيئا . ثم قبض على أخت خوند بنت خاص بك التى كانت زوجة أقبردى الدوادار ، ورسم عليها وطالبها بمال له صورة ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مائة ألف دينار ، وأجرى عليها ما لا خير فيه من الأنكاد والضرر .

وفيه غمز بعض التجار على قنبك أبى شامة أحد الأمراء ، وكان مختفيا فى مكان فى رأس حارة زويلة ، فكبس عليه والى الشرطة ، ومعه جماعة من المماليك . فلما دخلوا عليه هاش عليهم بالسيف ، فتكاثروا عليه ، ومسكوه وقتلوه بالدار التى كان بها . وكان قنبك أبو شامة من الأمراء الطبلخانات ، وكان من أكبر أصحاب أقبردى الدوادار ، وقد فاته القتل عدة مرار ، وكان غير مشكور السيرة فى أفعاله .

* * *

وفى رجب أنعم السلطان على أنس باى وقرره فى شادية الشراب خاناه ، عوضا عن أزدمر بن على باى بحكم انتقاله الى التقدمة .

وفيه خلع السلطان على بخشباى ، وقرره فى نيابة حماه وخرج اليها فيما بعد .

وفيه قرر شخص يقال له محمد الباسطى فى التكلم على جهات الحسبة ، وجرى من الباسطى هذا أمور يطول شرحها ، وآل أمره الى أن ضرب بالمقارع وشهر على جمل فى دولة العادل طومان باى .

* * *

وفى شعبان غرق محب الدين محمد ابن قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا . قيل انه كان فى مركب فغرق قدام المقياس . وكان غير مشكور السيرة

وفيه جاءت الأخبار بأن الأمير طومان باى الدوادار لما توجه الى جهة الصعيد ، احتال على حميد بن عمر أمير عربان هوارة ، فلما ظفر به قتله وحز رأسه وأرسلها الى مصر ، فعلقت بباب زويلة ثلاثة أيام .

وفيه ، فى حادى عشر ، وصل خاير بك أخو قانصوه البرجى ، الذى توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان الملك الناصر أرسله قاصدا عن لسانه الى ابن عثمان ، فأكرمه وأظهر الفرح بسلطنة الملك الناصر ، فلما بلغه قتلة الملك الناصر شق عليه ووبخ خاير بك بالكلام

وفيه تغير خاطر السلطان على جان بردى الغزالى ، كاشف الشرقية ، وأمر بتوسيطه حتى شفع فيه

وفيه عاد الطاعون الذى كان فى العام الماضى ، ومات فيه كثير من الناس من الغرباء ممن فر وعاد بعد رفع الطاعون . وفى هذه السنة كان الطاعون خفيفا جدا .

وفيه جاءت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان زحفوا على بلاد السلطان ، وآل الأمر الى أن ابن عثمان أرسل يقول لنائب حلب : « اعزل ابن طرغل » ، فأجابه نائب حلب الى ذلك وعزل ابن طرغل .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على بهاء الدين عبد الرحمن بن قدامة الدمشقى ، وقرره فى قضاء الحنبلية ، وصرف عنها الشهاب أحمد بن الشيشينى فأقام ابن قدامة فى منصب القضاء شهرا واحدا وأربعة أيام ، وعزل عنها ، وأعيد الشيشينى الى القضاء ثانيا .

وفيه تغير خاطر السلطان على الشيخ سر الدين عبد البر بن الشحنة ، ورسم بنفيه قوص ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفى ، فر له بأن يلزم داره ولا يركب ولا يجتمع على أ من الناس ، وجرت عليه أمور مهولة فى تـ الأيام .

وفيه اجتمع السلطان والأمراء فى قاعـ البحرة ، وضربوا مشورة فى أمر أقبرد الدوادار ، فوقع الاتفاق فى ذلك اليوم على أقبردى يستقر فى نيابة طرابلس ، وأن آقـ الذى كان رأس نوبة كبير يستقر فى الأتابكيـ بدمشق ، وأن تانى بك قرا يتوجه الى القـ بطالا ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على جان بـ الأبح نائب القلعة ، وأمر بنفيه نحو البـ الشامية ، حتى شفع فيه بعض الأمراء من النفى

وفيه وقع للناصرى محمد ابن بنت جمـ الدين الاستادار كائنة عظيمة ، وهى أن شخـ تخاصم معه ، فشكاه من بيت طراباى — و يومئذ دوادارا ثانيا — فوقع من ابن بنت جمـ الدين فى المجلس بعض كلام فى حق خصمه فبطحه طراباى بين يديه ، وضربه ضربا مبر حتى كاد أن يهلك

وفيه قرر ابن قدامة فى قضاء الحنابلة بدمشق وتوجه اليها فيما بعد .

وفيه ، فى يوم الأربعاء عشرينه ، كانت و الأتابكى أزبك بن ططخ . وقد زعموا أن و يحيى قد سحره حتى مات . وقبض على شخـ يقال له القصديرى وصبيه اتهم أنه الذى سحر حتى مات . وجرى بسبب ذلك أمور يطـ

شرحها . وكان أزبك من أجل الأمراء قدرا ، وأعظم ذكرا ، وكان أميرا جليلا فى سعة من المال ، وافر الحرمة نافذ الكلمة وكان أصله من عتقاء الظاهر جقمق ، يقال ان أصله من كتابية الأشرف برسباى ، واشتراه الظاهر جقمق من بيت المال ، وأعتقه فصار من عتقائه ، وصاهره مرتين فى ابنته . وتولى عدة وظائف سنية بمصر ، منها حجوبية الحجاب ، ورأس نوبة كبير ، ثم بقى نائب الشام فى دولة الظاهر بلباى ، ثم عاد الى مصر ، وتولى الأتابكية فى دولة الأشرف قايتباى ، سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة ، وأقام بها نحو ثلاثين سنة . وكان من مبدأ أمره رئيسا حشما ، قرر فى امرية العشرة فى سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ولا زال يترقى حتى كان من أمره ما ذكرناه وقاسى شدائد ومحنا ونفى نحوا من أربع مرات ، وسجن بالاسكندرية مرتين ... وكان كفؤا للمهمات السلطانية والتجاريد ، وقد سافر فى عدة تجاريد . ويطلب الأطلاب الحافلة ، وصرف على التجاريد من ماله ما لا يحصر وكان مسعود الحركات فى سائر أفعاله ، ذا شهامة وعلو همة ، وأظهر العزم الشديد فى قتال عسكر ابن عثمان ، ولم يجيء فى الأتابكية بعده مثله ، ومات وله من العمر نحو من خمس وثمانين سنة ، وخلف من الأولاد ولده الناصرى محمد الذى من بنت الظاهر جقمق ، وولده يحيى ، وصاهره قانصوه خمسمائة فى احدى بناته ، وماتت معه . فلما مات ترافع محمد ويحيى بين يدى السلطان ، فوضع السلطان يده على تركته من صامت وناطق قيل وجد له من الذهب العين سبعمائة ألف دينار ، خارجا عن البرك والخيول والقماش والتحف ، وخارجا عن جهاز ابنته التى ماتت مع قانصوه خمسمائة . وقد قوم ذلك بنحو من مائة ألف دينار ، فحمل ذلك جميعه الى الخزائن الشريفة وقد نال أزبك أمير كبير من الدنيا منالا عظيما فكان كما قيل :

أتلهو من نعيمك فى قصور
وأنت من الهلاك على شفير
فيا من غره أمل طويل
يؤديه الى أجل قصير
أتفرح والمنية كل يوم
تريك مكان قبرك فى القبور ؟!
هى الدنيا فان سرتك يوما
فان الحزن عاقبة السرور
سنسلب كل ما جمعت منها
كعارية ترد على المعير

ولولا الذى صرفه أزبك أمير كبير على التجاريد ، وعمارة الأزبكية ، ما كان ماله ينحصر . وكانت تركته تعادل موجود سلار نائب السلطنة . وقد تقدم ذكر ذلك ومن أراد أن يعلم علو همة الأتابكى أزبك ، فلينظر ما صنعه من عمارة الأزبكية ، وقد أنشاها فى سنة احدى وثمانين وثمانمائة وقد تقدم ذكر ذلك كما يقال :

ليس الفنا بفناء يستظل به
حتى يكون له فى الأرض آثار[1]

ومما عد من مساوى أزبك أمير كبير ، أنه كان شديد الخلق صعب المراس ، اذا سجن أحدا لايطلقه أبدا ، وكان عنده حدة زائدة ، وشح فى نفسه ، جرىء اللسان مع تكبر وبطش . وقد فاتته السلطنة عدة مرار فكان كما يقال :

اذا منعتك أشجار المعالى
جناها الغض فاقنع بالشميم

فلما علم السلطان بموته نزل وصلى عليه ، وكان له يوم مشهود ، ودفن بتربة أستاذه الملك الظاهر جقمق . فلما نزل السلطان وصلى عليه ، قيل له ان الأمير أزبك اليوسفى أمير مجلس فى

(1) لعل فى الاصل تحريفا .

النزع وسيموت فى هذه الساعة فجلس السلطان على مدورة فى سبيل المؤمنين ، ينتظر أزبك اليوسفى حتى يموت ويصلى عليه ، فلم يمت فى تلك الساعة فقام السلطان وطلع الى القلعة . فلما كان وقت العصر من ذلك اليوم توفى فيه الأمير أزبك اليوسفى ، فهيىء وصلى عليه السلطان وطلعت جنازته من الصليبة . فلما رجعوا به توجهوا به الى مدرسته التى أنشأها ودفن بها .

وكان أميرا جليلا دينا خيرا لين الجانب . وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان يعرف بأزبك الخازندار وناظر الخاص ... مات وهو طرخان وقد كبر سنه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر .

وكان قليل الأذى ، كثير البر والصدقات ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها الخازندارية الكبرى ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم مشير المملكة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم أخرجت عنه التقدمة الى أزدمر بن على باى ، فأقام على ذلك مدة يسيرة ومات .

* * *

وفى شوال ، فى يوم عيد الفطر ، جاءت الأخبار بأن عربان عزالة ثاروا على الكاشف بالبحيرة . فحاربهم ففروا منه ، وعدوا من الوراق ، وطلعوا بالقرب من شبرا ، وتوجهوا من خلف الجبل الأحمر ، وطلعوا من بحر بلامه قبالة طرا ، ثم نزلوا بالمعيصرة ، وهى ضيعة هناك . فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة ، فخرج اليهم فى الحال قانصوه البرجى أمير مجلس ، وقرقماس بن ولى الدين رأس نوبة النوب ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب ، وسنباى نائب سيس أحد المقدمين . ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات منهم طراباى الشريفى دوادار ثانى والجم المفسير من العسكر ، فلبسوا آلة السلاح وخرجوا يوم عيد الفطر ، فتوجهوا الى نحو المعيصرة فوجدوا هناك عزالة نازلين ، فتقاتلوا معهم قتالا عظيما ، فانكسر الأتراك وتشتتوا ، وقتل من الأتراك من المماليك السلطانية نحو من خمسين مملوكا ، ومثل ذلك من الغلمان والعبيد ، وجرح الأمير قرقماس رأس نوبة كبير فى وجهه ، وكذلك قيت الرحبى . وأما طراباى فقيل انه جاءته حربة فى نحره ذبحته من وريده لكنه لم يمت من ذلك ، وجرح من العسكر ما لا يحصى ... ثم ان العرب نهبوا بركهم عن آخره ، وتوجهوا الى نحو بلاد الصعيد فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت وماجت ، فنادى السلطان للعسكر قاطبة للخروج الى المعيصرة وهم لابسون آلة السلاح ، فلما وصلوا الى هناك وجدوا العرب قد رحلوا ، والذين قتلوا من العسكر مطروحين على الأرض ، فأرسلوا يطلبون من القاهرة عدة نعوش بسبب من قتل هناك ، فأرسلوا لهم نعوشا فى مراكب من البحر الى طرا ، فأحضروا فيها من قتل . وصار العيد مثل المأتم ، فى كل حارة نعى ، كأيام الفصول ، بسبب من قتل . وموجب ذلك أن الترك استخفوا بالعرب ، فأكمنوا لهم أكمنة ، فخرجت الترك وخرجت العرب من ورائهم ، فانكسروا وقتل منهم من قتل ، وكانت هذه الحادثة من الحوادث المهولة . وقد قلت فى معنى ذلك :

ألا قولوا لأعراب تجروا
على حرب فهل يخشوا عقبيه
سهام مليكنا أضحت نفوذا
ونرجو أن تكون لكم مصيبه

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الأمير دولات باى الفلاح ، أحد المقدمين ، خرج فى يوم الأربعاء

يسير الى نحو الرصد ، فلعب هنـاك بالكرة ، وساق الفرس فى أرض محجرة فقنطرته ، فمات لوقته ، فحملوه على قفص حمـال وأتوا به الى بيتـه حتى غسـلوه وكفنوه ، وأخـرجوه يوم الخميس ، ونزل السلطان وصـلى عليه . ثم ان السلطان بعد أن صلى عليه توجه الى بيت طراباى الدوادار الثانى وسلم عليه بسبب ما وقع له من عرب عزالة .

وفيه تغير خاطر السلطان على قراجا نائب غزة فأحضره الى القاهرة وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه . ثم آل أمره الى أن تولى نيـابة طرطوس وقتل .

وفيه دخل الأمير طومان باى الدوادار الكبير الى القاهرة وكان مسافرا فى جهة الصعيد ، فلما بلغه ما فعلت عرب عزالة ، كما تقدم ذكره ، كبس عليهـم فى مكان بالوجـه القبلى ، وقبض على جماعة منهم نحو من ثلثمائة انســان من رجال ونساء وصغار ، فوصلوا بهم الجيزة ، وعـدوا بهم ، وطلعوا بهم من الصليبة قدام الأمير طومان باى فكان يوما مشهودا ، فوضعوا الرجال فى زناجير ، والنســاء والصغار فى حبال ، وعلقوا رءوس من قتل من الرجال فى رقاب النسـاء وكانت واقعه من الوقائع الغريبة ، ولم يتفق مثل ذلك الا فى أيام الظاهر برقوق ، بما وقع لبدر بن سلام كبير عربان البحيرة . وقد تقدم ذكر ذلك فى أخبار الظاهر برقوق . فلما طلع الأمير طومان باى الى القلعـة ، صـادف ذلك اليوم خروج المحمل من القـاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قرقماس رأس نوبة كبير ، وبالأول النـاصرى بن خاص بك ، فلمـا عرضوا عـرب عـزالة على السلطان ، رسم بتسميرهم على جمال فسمروهم وشقوا بهم من القاهرة . وكان يوما مشهودا ، وصـارت الفرجة فرجتين على المحمـل وعلى عربان عزالة . ثم انهـم كلبوهم وعلقوهم على أبواب المدينة ، على كل باب نحو من عشرة أنفار ، حتى على باب القنطرة وباب الشعرية ، وغير ذلك من الأبواب . ثم ان السلطان رسم بأن سائر الناس يرجمون العربان بالأحجار ، حتى يكون من أمرهم ما يكون ... وقد قام الأمير طومان باى بنصرة الأتراك على العرب بعد كسرتهم التى تقدمت . وفى هذه الواقعة يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى :

نحمد الله ونشـكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العـرب بالدوادار والعصـب

* * *

والعرب أكثروا الفساد من عـزاله وعـزلوا
جـو وعدوا وشرفوا وعلى الحـرب عولوا
وأهلكوا الحرث والنسل فى الضواحى وحملوا

* * *

من عزاله عرب طعوا عمرهم فى الوغا ذهب
جتهم الترك أرخـوا واقعتهم بمـا الذهب

* * *

صار عزيز العرب دليل وبقى فى الوجود عدم
وجميع ما جـرى لهم بالمقـدر وبالحـكم
كان مسطر على الجبين وبهـذا جرى القلم

* * *

نحمـد الله ونشكرو خالق الجسم والعصب
اذ نصرنا على العـرب بالدوادار والعصـب

وهذا الزجل يقرب من الزجل الذى قاله الغبارى فى واقعة العرب التى كانت فى سنة احدى وثمانين وسبعمائة ، فى دولة الظاهر برقوق ، وقـد وقع فيها ما يشبه ذلك . وهذا الزجل الذى تقدم من اختصاره .

وفيه قرر شمس الدين بن مزاحم الطرابلسى ، فى نظر الاصطبل ، عوضـا عن يحيى بن البقرى بحكم صرفه عنها . ومات يحيى عقيب ذلك .

وفيـه جاءت الأخبار من حلب بأن أقبردى الدوادار دخل الى حلب طائعا ، وقد تم الصلح

بينه وبين الأمراء الذين توجهوا من مصر . وسبب ذلك أن العسكر الذين توجهوا الى قتال آقبردى وجدوه بالمرعش عند على دولات ، فلما طال الأمر على العسكر — وكان الغلاء موجودا بحلب ، والعليق لم يوجد — أرسل قاصروه نائب حلب يسأل آقبردى فى الصلح ، فتوجه اليه قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، فمشى فى أمر الصلح — وكان السلطان والأمراء مائلين الى ذلك — فلما وثق أقبردى بذلك حضر صحبة قانى باى الرماح ، ودخل الى حلب طائعا مختارا ، فلاقاه قصروه نائب حلب وسائر الأمراء الذين كانوا هناك ، وكان له بحلب يوم مشهود .

وكان الأمير أقبردى متوعكا فى جسده ، فلما استقر بحلب كاتبوا بذلك السلطان ، فعين له خلعة حافلة وفرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وكتب له تقليد نيابة طرابلس ومالها فى كل سنة ، ثم أخذوا فى أسباب التوجه اليه .

وفيه توفى برهان الدين مستوفى الخاص ، وكان لا بأس به .

وفيه أرسل السلطان الأمير تمراز الزردكاش ، الى المقر السيفى جان بلاط بن يشبك نائب الشام ، يسأله فى الحضور الى مصر ليلى الأتابكية عوضا عن أزبك بحكم وفاته . فخرج تمراز بسبب ذلك .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار بوفاة آقبردى بن على باى الدوادار الكبير ، وكان أميرا جليلا ، رئيسا حشما ، بشوشا متواضعا ، كريما سخى النفس فى سعة من المال مثريا جدا . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى ، ثم ظهر أنه قريبه ، ورقى فى أيامه الى منتهى الرياسة ، وتولى عدة وظائف سنية منها امرية السلاح ، والدوادارية الكبرى ، والاستادارية ، والوزارة ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة ، وصاحب الحل والعقد بالديار المصرية . وكان قريب السلطان وعديله تزوج بأخت خوند الخاصكية ، وكان وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، شديد العزم ، شجاعا بطلا مقداما فى الحرب ، تولى الدوادارية الكبرى بعد يشبك بن مهدى سنة سبع وثمانين وثمانمائة ، وأقام فيها نحوا من ست عشرة سنة . وكان مشهورا بالعطاء الجزيل على الأمراء والعسكر ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونهبت أمواله أربع مرات ، وقاسى من الشدائد والضيق ما يطول شرحه . واستمر يحارب عسكر مصر بمفرده ثلاث سنين ، وكان غالبا للعسكر ، وتوجه الى آخر الصعيد ، ثم توجه الى الشام وحاصرها ، وكذلك حماه وحلب ، ثم توجه الى بلاد التركمان ولم يظفر به أحد ، ولم يسلم نفسه عن عجز ، ولا سجن قط ولا تقيد ... وآخر الأمر مات على فراشه من غير أن يقتل فكان كما قيل :

آنا آسمر والراية البيضاء ى
لا للسيوف وسل من الشجعان
لم يحل لى عيش العداة لأننى
نوديت يوم الحرب بالمران

قيل ان آقبردى لما دخل الى حلب وأقام بها اعترته آكلة فى فمه ، وقيل فى وجهه ، رعت فيه حتى مات بحلب ، ودفن عند سيدى سعد الأنصارى رحمة الله عليه . ثم نقلت جثته الى القاهرة فى أواخر صفر سنة خمس وتسعمائة ودفن بتربته التى أنشأها له فى الصحراء ، ومات وله من العمر دون الخمسين سنة . وكان أسمر اللون ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، غير عبوس الوجه ، وكان لا بأس به . وكان الأمراء والسلطان يخشون من سطوته ، فلما مات كفى كل أحد شره . وقد قلت فى ذلك مع التضمين والاقتباس هذه الأبيات :

مات أقبردى الأمير وولى
بعد عز وحاز جاها ومالا

فأتاه من بعـد ذا ريب دهـر
نال منـه من العنـا ما نالا
وقضى نحبه بغير قتـال
وكفى الله المؤمنين القتـالا

فلما تحقق السلطان موت أقبردى ، جهز مراسيم للأمراء الذين كانوا صحبة أقبردى . وهم تانى بك قرا الذى كان أمير مجلس ، وأقباى نائب غزة الذى كان رأس نوبة كبير ، وجانم مصبغة الذى كان حاجب الحجاب ، وقنبك نائب الاسكندرية أحد الأمراء المقدمين بمصر . فأما تانى بك قرا وأقباى فرسم السلطان لهما بأن يتوجها الى القدس ويقيما به بطالين وأما جانم مصبغة وقنبك فرسم لهما أن يتوجها الى الشام بطالين . فاستمروا مقيمين بالشام والقدس حتى كان من أمرهم ما سنذكره . وأما اينال الصغير السلحدار الذى كان واليا أحد العشراوات ، قيل انه قتل ، وقيل انه غرق فى بعض الأنهار . وأما بقية العسكر الذين كانوا مع أقبردى فمات منهم جماعة كثيرة ، ودخل الباقون الى مصر ؛ وخمدت فتنة أقبردى كأنها لم تكن ، بعد ما جرت منه أمور مهولة بمصر والشام وغير ذلك . وهذا ملخص واقعته .

* * *

وفى ذى الحجة فرق السلطان الضحايا على العسكر وكان عيدا حافلا ، وجاء العيد بالجمعة ، فلهج الناس بزوال السلطان عن قريب . وكان الأمر كذلك . ولم يهم الى العيد الثانى .

وفيه توفى الطواشى مقبل الرومى رأس نوبة السقاة الأشرفى اينال وكان لا بأس به . فلما مات خلع السلطان على الطواشى محسن الحبشى الأشرفى قايتباى ؛ وقرره رأس نوبة السقاة عوضا عن مقبل الرومى بحكم وفاته . وقد قاسى محسن هذا فيما بعد غاية الشدائد والمحن .

وفيه انتقل قصروه من نيابة حلب الى نيابة الشام ، عوضا عن جان بلاط نائب الشام ، بحكم انتقاله الى الأتابكية بمصر . وانتقل دولات باى ابن آركماس نائب طرابلس ، الى نيابة حلب عوضا عن قصروه . وقرر يلباى المؤيدى فى نيابة طرابلس عوضا عن دولات باى ، وأضيف الى يلباى حجوبية طرابلس مع النيابة .

وفيه دخلت مسرى من الشهور القبطية فكانت زيادة النيل فى ثالث مسرى ثلاثين أصبعا . وفى الرابع منها أربعين أصبعا ، وفى الخامس منها عشرين أصبعا ، فوفى فى خامس مسرى ، وكسر فى اليوم السادس منها الموافق لحادى عشرى ذى الحجة ، فرسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار الكبير بأن يتوجه ويفتح السد ، وكانت الأتابكية شاغرة من حين توفى أزبك ، وكانت الأمراء غائبين فى التجريدة بسبب أقبردى ، فلم يكن بمصر أكبر من طومان باى ، فتوجه الى المقياس فى الحراقة وفتح السد ، وكان له يوم مشهود . وكان نيلا عظيما فى تلك السنة ، وثبت فى أواخر بابه . كما قيل :

وفت أصابع نيلنا وطغت وطافت فى البلاد
وأتت بكل مسرة ما ذى أصابع ذى أياد

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا توجهوا الى التجريدة بسبب أقبردى ، فحضر صحبتهم من كان مع أقبردى من الأمراء العشراوات ، منهم : اسنباى الأصم ونوروز أخو يشبك الدوادار كان ، وجانم أقچى الابراهيمى ، وآخرون من الخاصكية ، ممن كان من عصبة أقبردى . فأقاموا بالقاهرة مدة يسيرة ، ثم عادوا الى البلاد الشامية .

وفيه توفى شرف الدين بن الأشقر وكان من أعيان المباشرين .

وفيه توفى جلال الدين الصالحى وكان لا بأس به ، وقاسى شدائد ومحنا فى آخر عمره .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة داود باشا وزير ابن

عثمان ، ملك الروم ، وكان رئيسا حشما مدبر المملكة الرومية ، سديد الرأى ، وافر العقل ، مشكور السيرة .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة كبيرة ببلاد الغرب ، بين ملوك الفرنج وملوك الغرب ، وكانت النصرة للمسلمين على الفرنج ولله الحمد .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة تربته التى بالصحراء ، وحصل للناس منه غاية الضرر بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بوقوع فتنة بين الشريف محمد أمير مكة المشرفة ، وبين آخيه هزاع ، واستمرت الفتنة قائمة هناك فيما بعد حتى كان ما سنذكره فى موضعه .

سنة خمس وتسعمائة (١٤٩٩/١٥٠٠ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان الخليفة آمير المؤمنين المستمسك بالله ، أبا الصبر يعقوب العباسى ، الهاشمى الأبوين . والسلطان الملك الظاهر أبا سعيد قانصوه خال الناصر . وأما القضاة الأربعة فعلى حكم السنة الماضية ، وكذلك الأمراء المقدمون من أرباب الوظائف غير الأتابكية ، فانها عينت الى جان بلاط المقدم ذكره ، وكتب له بالحضور .

وفيه توفى يحيى بن البقرى الذى كان ناظر الاصطبل وصرف عنه ، وكان لا بأس به

وفيه تغير خاطر السلطان ، على القاضى علاء الدين بن الصابونى ، ناظر الخاص ، فعزله ورسم عليه . ثم خلع على شهاب الدين الرملى ، وقرره فى نظر الخاص ، عوضا عن ابن الصابونى . ولم يكن شهاب الدين هذا تقدم له رياسة بمصر ، ولا ولى قط تلك الوظيفة السنية . وكانت ولايته من غلطات الزمان . وفى ذلك يقول شيخنا عبد الباسط الحنفى :

قد ولى الرملى على منصب الـ
ـخاص برأس العام يا خلى
من عدم الدست ومن جهل من
يطبخ حتى انحط للرملى

وفيه استعفى هلال الرومى من تقدمة المماليك ، وسأل أن يتوجه الى الشام ، ويكون بها على امرية عشرة فأجيب الى ذلك . ثم ان السلطان خلع عليه بذلك ، وخلع على عنبر التكرورى وقرره فى تقدمة المماليك عوضا عن هلال الرومى .

وفيه توفى أزبك قفص الأشرفى قايتباى ، أحد الأمراء الطبلخانات الرأس نوبة الثانى ، ثم بعد موته خلع السلطان على أبى يزيد المحمدى وقرره فى رأس نوبة ثانى عوضا عن المذكور بحكم وفاته

وفيه كانت اقامة الخطبة بالجامع الذى أنشأه بركات بن قريميط بحارة زويلة ، وجاء فى غاية الحسن ولا سيما فى ذلك الخط .

وفيه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى فى تلك السنة مشقة زائدة ، وخرج طائفة من العربان على الركب الغزاوى بالقرب من الشرفة ، فاستولوا عليه من أوله الى آخره ، وأسروا النساء وقتلوا الرجال . ولولا أنهم أدركهم قرقماس أمير كبير ، بعد آمير ركب المحمل ، لأخذوا جميع من فى الركب الغزاوى . وقد نهبوا أطراف الركب الأول من الناصرى محمد ، وكان أمير الركب الأول الناصرى محمد بن خاص بك أخو خوند .

وفيه توفى الشيخ خالد الوقاد النحوى الأزهرى الشافعى ، وكان فاضلا فى النحو وله فى ذلك عدة تصانيف .

* * *

وفى صفر كان دخول المقر السيفى جان بلاط نائب الشام ، فلما حضر خلع عليه السلطان وقرره عوضا عن أزبك فى الأتابكية بحكم وفاته ، وسكن

بالأزبكية . فلما أقام بمصر شرع فى بناء تربته التى بجوار باب النصر ، وصنع بها جامعا بخطبة ، ولم تم الا بعد موته ودفن بها .

وفى ثالثه توفى الشيخ الصالح الزاهد الورع أبو العباس أحمد بن محمد العمرى ، رحمه الله ورضى عنه ، ودفن بجامعه الذى أنشأه بالقرب من مرجوش وباب القوس .

وفيه حضرت جثة آقبردى الدوادار ، ودفنت فى تربته التى أنشأها بالصحراء ، وقد نقلت من حلب الى مصر بعد دفنه فى تربة سيدى سعد الأنصارى رحمه الله ورضى عنه .

* * *

وفى ربيع الأول عين السلطان ، قانصوه كرد أحد الأمراء الطبلخانات والخازندار الثانى ، بأن يتوجه الى ابن عثمان ، ملك الروم ، قاصدا . فخرج بعد مدة وجرى عليه أمور شتى من بعد ذلك

وفيه جاءت الأخبار بوفاة آبدكى حمار الأشرف قايتباى نائب قلعة الشام ، وجرى عليه قبل موته شدائد ومحن شتى .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا .

وفيه عين السلطان الأمير قانصوه البرجى المحمدى أمير مجلس ، أمير ركب المحمل ، وعين جان بلاط الموتر المحتسب أمير الركب الأول .

وفيه جاء للسلطان ولد ذكر من زوجته خوند جان كلدى الجركسية ، فسماه أحمد فلما كان يوم سابعه اجتمع سائر الخوندات ونساء الأعيان بالقلعة ، وكان مهما حافلا ، وحمل الزمام جوهر المعينى ، القبة والطير على رأس خوند جان كلدى . وكان لها يوم مشهود .

وفيه تزوج السلطان بخوند مصرباى زوجة الناصر ، وكانت عليه كعب الشوم ولم يسن معها .

* * *

وفى ربيع الآخر جاءت الأخبار بأن قصروه الذى تولى نيابة الشام قد عصى ، وخرج عن الطاعة ، واستولى على قلعة دمشق ، كما فعل كرتباى الأحمر ، واستمر العصيان يتزايد من قصروه حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قبض السلطان على خاير بك الكاشف ، فأحضر فى الحديد ، فأمر بنفيه الى قلعة المرقب ، فسجن بها ، ثم أطلق ، وجرى عليه من الأنكاد ما لا خير فيه ، وصودر غير ما مرة .

وفيه قدم البدرى محمود بن أجا وقد انفصل من قضاء الحنفية بحلب ، وأتى الى مصر ، وأقام بها ، وكان من أمره ما سنذكره .

وفيه قرر فارس المنصورى نائب دمياط ، فى كشف الغربية ، عوضا عن خاير بك الماضى ذكره .

وفيه قبض على سليمان بن قرطام وكان من كبار المفسدين بالشرقية ، فلما قبض عليه رسم السلطان بأن يشنكلوه على باب زويلة ، وأقام معلقا ثلاثة أيام بلياليها .

وفيه قبض السلطان على أخت خوند بنت خاص بك زوجة أقبردى فرسم عليها بالقلعة وقرر عليها مالا له صورة ، وقد رافعها أبو المنصور مباشر أقبردى ، وزعم أن آقبردى أودع عندها مالا ، فأقامت فى الترسيم حتى أوردت ما قرر عليها . وفعل مثل ذلك بأختها خوند الكبرى زوجة قايتباى ، وقرر عليها مالا له صورة ، ووكل بها خمسة من الطواشية ، حتى أوردت ما قرر عليها ، وباعت أشياء كثيرة من قماشها . وقد حصل عليها ما هو أعظم من ذلك ... وهو أنه فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى

توجه طائفة من المماليك الجلبـان الى دارها ، وقصـدوا أن يهجموا عليهـا ، ثم قالوا نبعض الطواشـية ادخلوا قولوا لخوند تنفق علينـا ، لكل مملوك خمسون دينارا ، فلما بلغ خوند ذلك غيبت من البيت . وكان سبب ذلك أنه أشيع عنها أنها تزوجت بقانصوه خمسمائة فى الخفية ، فلمـا قتل قانصوه تحرشت المماليك على خوند وطلبوا منها النفقة ، كما تقدم . وكان الذى تحرش على خوند ، جماعة من عصبة أقبردى . فلما بلغ ذلك الملك الناصر قام مع خوند قياما تاما ، ونادى فى القـاهرة لجميع العسكر حسبما رسـم السلطان المقام الشريف ، أن لا يتوجه أحد من العسكر الى بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، ولا يقف لها على باب ، وكل من خالف مرسوم السلطان شنق بلا معاودة . فانكف المماليك عن التوجه الى بيت خوند من حين نادى . وكان تقدم ذكر ذلك فى دولة الملك الناصر ، وقام بنصرتها بعد ما قصـدت أن تسافر الى المدينـة ، مع أن الملك الناصر صادر خوند فى أيامه بحسن عبارة ، وأخذ منها جملة مال ، وحصل لها عقيب ذلك طلوع فى وجهها واستمر بها ذلك العارض حتى ماتت ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى اليوم الثانى منه ، نزل السلطان الى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وبات بها ، فلما أصبح ركب وشق من القاهرة وزينت له ، ثم طلع من الصـليبية — والأمـراء والمباشرون قدامه — واسـتمر فى ذلك الموكب الحافل حتى طلع الى القلعة .

وفيه قرر ابن النيربى فى نظر الجيش بدمشق ، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

* * *

وفى جمادى الآخرة جاءت الأخبار بو[...] هـلال الرومى الذى كان مفدم المم[...] بدمشق وكان لا بأس به .

وفيه ، فى يوم الجمعة ثامنه ، عقد له بلاط على خوند أصل باى الجركسي[...] الناصر ، وأخت الملك الظاهر قانصوه [...] بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة [...] حافلا .

وفيه جاءت الأخبار من القدس بو[...] الطويل ، الذى كان نائب غزة ، ثم يقـ[...] كبير ، وفر مع أقبردى الدوادار لما انكـ[...] من مصر وآل أمره الى أن أقام بالقدس [...] مات . وكان أصله من مماليك الأشر[...] وقيل انه مات مسموما . وكان شجاعا [...] عليـه شـدائد ومحن ، وقاسى ما لا [...] بسبب صحبته لأقبردى الدوادار ، وهـ[...] سببا لنصرته على قانصوه خمسمائة بخان يونس ، الذى بقرب غزة .

وفيه قرر على بن طرغل فى نيابة [...]

وفيه توفى شمس الدين محمد الذ[...] كان امام أقبردى الدوادار ثم بقى ناظر[...] وكان يكتب الخط الجيد المنسوب [...] الشدائد والمحن ما لا يعبر عنه ، و[...] الأحمر بأنواع العذاب .

وفيه توفى الشيخ أحمـد المجذو[...] يجلس تحت الكوم الذى عند القنطر[...] وكان من كبار الصالحين .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدو[...] الى الشرقية والغربية ، فسرح فى البـ[...] عشرين يوما ، ثم عاد الى القاهرة ، و[...] خيول وجمال وأغنام من العربان .

* * *

وفى رجب تزايدت عظمة الملك الظاهر قانصوه ، خال الناصر ، فجلس على الدكة التى بالحوش ونصب سحابة جديدة صنعها من المخمل المذهب ، وبها رنوك زركش ، فجاءت غاية فى الحسن . فجلس على الدكة والسحابة على رأسه ، وطلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا حافلا .

وفى حادى عشر منه تغير خاطر السلطان على القاضى كاتب السر بدر الدين ابن مزهر ، فقبض عليه وسجنه بالعرقانة ، ثم طلب أخاه كمال الدين محمد ، وقرره فى كتابة السر عوضا عن أخيه بدر الدين .

وفيه قرر سيباى فى نيابة صهيون ، عوضا عن قنبك الشيخ بحكم فراره عند ابن عثمان ، وخوفه على نفسه من القتل .

وفيه كان دخول خوند أصل باى أم الملك الناصر ، على جان بلاط أمير كبير ، فنزل جهازها من القلعة فى يوم السبت خامس عشره ، وشق من القاهرة ، واستمر ينسحب من ضحوة النهار الى وقت الظهر ، وتوجهوا به الى الأزبكية ، فكان عدة الحمالين أربعمائة حمال ، والبغال نحوا من مائتى بغل ... فرجت له القاهرة ، وكان يوما مشهودا . وكان فيه من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه الواصفون .

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشره نزلت خوند أخت السلطان فى محفة زركش ، وتوجهت الى الأزبكية ومشى قدامها جماعة من المباشرين منهم كاتب السر كمال الدين بن مزهر ، وناظر الجيش عبد القادر بن القصروى ، وصلاح الدين بن الجيعان نائب كاتب السر ، وآخرون من المباشرين والطواشية ، وبعض أمراء عشراوات ، وهم بالشاش والقماش ، وعدة وافرة من الخاصكية . فلما وصلت الى باب البيت الكبير الذى بالأزبكية ، فرشت لها الشقق الحرير تحت حوافر بغال المحفة ، ونثرت على رأسها خفائف الذهب والفضة ، وكان يوما مشهودا ، ولكن جرى بعد ذلك أمور شتى وأنكاد مترادفة يأتى الكلام عليها فى موضعها . كما يقال :

أمور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

وفى شعبان فى يوم السبت سادسه جاءت الأخبار من القدس بقتل الأمير تانى بك قرا ، وكان مقيما بالقدس كما تقدم ذكر ذلك . وكان من عصبة أقبردى ، وفر معه ، فلما استقر بالقدس توجهت المراسيم بخنقه فخنق وهو بين أولاده وعياله ، وكانوا توجهوا اليه . وكان قتله يوم الأحد ثانى عشرى رجب ، ودفن بالقدس . فلما جاءت الأخبار بوفاته تأسف عليه الكثير من الناس . وكان أميرا جليلا رئيسا حشما لين الجانب قليل الأذى ، كثير الخير ... ومن آثاره السبيل والصهريج الذى أنشأهما برأس سويقة ابن عبد المنعم ، تجاه الرميلة ، وصرف على ذلك من ماله مالا له صورة . فلما كمل بناء ذلك قدم هذا السبيل والصهريج للسلطان قايتباى ، فصار ذلك يعرف بسبيل السلطان . ومن آثاره المسجد اللطيف الذى أنشأه بجوار بيته عند خوخة القردمى . وكان أصله من مماليك الأشرف اينال ، ورقى فى دولة الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف ، منها تاجر المماليك ، والدوادارية الثانية ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم بقى حاجب الحجاب ، ثم بقى رأس نوبة كبير ، ثم بقى أمير مجلس ... ووقع له من الشدائد والمحن ما يطول شرحه . وفاته القتل عدة مرار ، وفر مع أقبردى الى البيرة ، وعدى الى الفرات ، وكان موصوفا بالفروسية والشجاعة ، ومات وله من

العمر زيادة عن ستين سنة والله أعلم ولما مات رسه بهذه الأبيات :

س طالع التاريخ يوما أو قرا
يروى صروف الدهر عن تنبك فرا
شاع الحديث بحنقه فلأجل ذا
خنقت بعبرتها الورى مستعبرا
قد خانه ريب الزمان بفعله
والدهر ان يصفو يعود مكدرا
قد كنت أحذر من وقوع حمامه
والآن دمعى كالدماء وقد جرى
لهفى عليه من أمير صارم
فى يوم حرب للعداة مدمرا
لم يقتلوه فوق ظهر جواده
لكن قاتله تعدى وافترى
يا لهف قلبى قد تجرع فقده
وتجددت أحزانه بين الورى
يا لهف قلبى كم أمير كان فى
عز وجاه فانطوى تحت الثرى
قد غادر الأمراء جور زمانهم
فالحكم للرحمن فيما قدرا
يا رب فاجعل قبرهم فى روضة
واجعل برحمتك الجنان لهم قرا

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى ، توفى ببلاد ابن عثمان ، وكان لا بأس به . وهو الذى جدد عمارة الجامع الأزهر ، وصرف على ذلك مالا له صورة من ماله . وكان مشكور السيرة

وفيه طلع الأتابكى جان بلاط الى القلعة ، وضمن بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، فان الأتابكى جان بلاط كان زوج أخت بدر الدين بن مزهر . فلما ضمنه تسلمه من السلطان على مال قرره عليه . فلما استقر عنده هرب تلك الليلة فى مكان بالأزبكية فتشوش الأتابكى جان بلاط لذلك . ثم عمزوه على بدر الدين بن مزهر ، فقبض عليه عقيب ذلك ، وآل أمره الى كل سوء .

وفيه توفى ابن السلطان الماضى حديث وضعه ، وكانت مدة حياته أربعة أشهر وثلاثة عشر يوما ، فأظهروا عليه الحزن والأسف ، ودفن فى تربة أبيه التى أنشأها بالصحراء ، فكان كما يقال فى المعنى :

بدا وفى حاله توارى فيالها طلعة شريقه
جوهرة ما علمت الا دموع عينى لها عقيقه

وفيه توفى القاضى شهاب الدين بن الصيرفى ، وهو أحمد بن صدقة الاسرائيلى الشافعى ، أحد نواب الحكم بالديار المصرية ، وكان عالما فاضلا مفننا ، من أعيان النواب ، وله تصانيف ونظم جيد ، ومات وقد قارب السبعين سنة

وفيه جاءت الأخبار بقتل قراجا نائب سيس ، وكان يولى نيابة غزة ، وكان موصوفا بالشجاعة

وفيه توفى الناصرى محمد بن أبى يزيد ، وكان رئيسا حشما من أعيان الناس

وفيه عين السلطان نيابة حلب للأمير قرقماس ولى الدين ، فلما قرر فى نيابة حلب ، أخرج عنه وظيفة رأس نوبة الكبرى ، وقرر بها الأمير قانصوه الغورى ، ولم يتم أمر قرقماس فى نيابته بحلب ، وأعيد الى تقدمة ألف ، ووقع بعد ذلك أمور شتى

* * *

وفى رمضان عرض السلطان المحابيس من الرجال والنساء التى بالحجرة ، وعمل مصالح أرباب الديوان ، وصالح عنهم أرباب الحقوق ، ووزن عن جماعة من ماله ، وأطلق فى ذلك اليوم نحوا من مائتى انسان ، وضاع للناس بعض حقوقها ممن كان له دين على من أطلقه من المحابيس . فكان كما يقال فى المعنى :

رام نفعا فضر من غير قصـــد
ومن البر ما يكون عقـوقا

وفي يوم الاثنين رابع عشره عين السلطان تجريدة الى الكرك ، بسبب عربان بنى لام ، وقد تقدم منهم فى حق الحجاج غاية الضرر ، وكان باش العسكر سنباى نائب سيس أحد المقدمين ، وجماعة من الجند ، فخرجوا فى أثناء ذلك اليوم مسرعين .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن قصروه نائب الشام خرج عن الطاعه ، وأظهر العصيان جملة واحدة ، وحضر قانصوه بن سلطان چركس ، المعروف بابن اللوقا حاجب دمشق ، وأخبر أن قصروه نائب الشام صرفه عن الحجوبية ، وقصد القبض عليه ففر منه ، وأخبره بأن قصروه نائب الشام قد استولى على قلعة الشام ، وعلى ما فيها من المال فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، واضطربت أحواله ، واظهر أنه يخرج الى الشام بنفسه ، وشرع فى أسباب ذلك . ثم نزل الى الميدان وعرض ما عنده من الهجن ، وأمر صلاح الدين بن الجيعان بأن يحضر قوائم مصروف الأشرف برسباى عند توجهه الى آمد ... وكل هذا هيت وتهييت على الأمراء والعسكر . ثم عين قانى بك أحد الدوادارية أن يتوجه لكشف الأخبار عن الحقيقة .

وفيه أفطر السلطان ليلة العيد بالقصر الكبير ، واجتمع عنده الأمراء وضربوا مشورة فى أمر قصروه ، فعد فطوره فى الايوان من النوادر .

* * *

وفى شوال صادف أن فى يوم عيد الفطر قلع السلطان الصوف فى ذلك اليوم ، ولبس البياض ، وخرج الى صلاة العيد وهو راكب على فرس أبيض قرطاسى بسرج فضة بيضاء من غير طلاء ، وعباءة حرير أبيض ، وخف أبيض ومهاميز بيض ، حتى قلع الكلفتاه ، حتى المشاية التى فى رجله كانت برغالى أبيض فعد ذلك من النوادر . وكان لبس البياض فألا عليه ، فانه خلع من السلطنة عقيب ذلك .

وفيه صلى الأمير طومان باى الدوادار الكبير صلاة الجمعة مع السلطان بالقلعة فلما انقضت الصلاة خلع عليه السلطان ، ونزل متوجها للوجه القبلى ... وكان فى تلك الأيام قويت الاشاعات بأن السلطان يقصد القبض على الأمير طومان باى ، وكان وقع بينهما فى الباطن بسبب قصروه نائب الشام وكان الأمير طومان باى متواطئا مع قصروه على السلطان . وكان طومان باى يقصد التمهيد لنفسه حتى يتسلطن . وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد كما يقال :

بت فى قلوب أسود	لا فى قلوب رجال
فالكيد للناس لا للـ	ـبهائم الجهال

وفيه أشارت الأمراء على السلطان بأن يبعث الى قصروه قاصدا ، وعلى يده مراسيم بأن يكون على نيابة الشام ، وأن يسلم قلعة الشام الى نائبها ، ولا يؤاخذه بما فعل . فعين له أقباى الطويل ناظر الجوالى فخرج عن قريب .

وفيه خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد وكان أمير المحمل قانصوه البرجى ، وبالأول جان بلاط الموتر المحتسب . فلما توجه الى بركة الحاج استمر المحمل مقيما بالبركة الى خامس عشرى شوال ، حتى عد ذلك من النوادر . وسبب ذلك أن غلمان أمير الركب الأول هرب أكثرهم ، وتعطلت أحواله بموجب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن قصروه قد استولى على مدنة طرابلس ، وقبض على نائبها بلباى المؤيدى وسجنه بقلعة دمشق .

* * *

وفى ذى القعدة خلع السلطان على فيت الرجبى ، حاجب الحجاب ، وقرره فى نيابة طرابلس ، عوضا عن بلباى المؤيدى ؛ ولم يتم له ذلك فيما بعد .

وفيه خلع السلطان على شخص من خواصه يقال له نمر بن جانم ، وقرره فى الحسبة عوضا عن جان بلاط الموتر وهو غائب بالحجاز ، فلم ينتج أمره هذا ، وقبض عليه فيما بعد .

وفيه أنعم السلطان على أنس باى شاد الشراب خاناه ، وقرره فى تقدمه ألف .

وفيه فى ثالث عشره حضر أقباى الطويل الذى توجه الى قصروه كما تقدم ، فعاد الجواب على السلطان بأن قصروه مستمر على العصيان ، ولم يدخل تحت الطاعة . فعند ذلك عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى قصروه ، وعين بها من الأمراء المقدمين ثمانية ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات نحوا من ثلاثين أميرا ، ومن المماليك السلطانية ألفى مملوك ، وأظهر السلطان أنه يخرج الى الشام عقيب ذلك بنفسه .

وفيه جاءت الأخبار بقتل قانى بك أحد الدوادارية الذى كان توجه الى قصروه لكشف الأخبار ، وكان قد سافر من البحر الملح لموجب فساد الطرقات .

وفيه قويت الاشاعات أن السلطان أرسل بالقبض على الأمير طومان باى الدوادار ، وهو بالصعيد . وكانت هذه الاشاعات من أكبر الفساد فى زوال ملك الظاهر قانصوه . فلما قويت الاشاعات بذلك نادى السلطان فى القاهرة بأن أحدا لا يكثر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأمير طومان باى دوادار كبير على عادته . وكان ترك هذه المناداة أصوب ، وقد تأكد الأمر بذلك .

وفيه هجم المنسر على سوق الوراقين ، وسوق الهرامزة ، وكسروا عدة حوانيت ، ونهبوا ما فيها وقتلوا ثلاثة من الخفراء . وكان المنسر نحوا من مائة نفر ما بين مشاة وركاب ، ومعهم قسى ونشاب ، فنهبوا قماشا بنحو عشرة آلاف دينار . وكانت هذه من الوقائع المهولة .

وفيه كانت وفاة الرئيس نور الدين بن رحاب ، المغنى الناشد المادح ، فريد عصره ووحيد دهره .

وكان من نوادر الزمان ينظم الشعر ويلحن الخفائف بألحان عريبة ، وكان آخر مغانى الدكة فى الدخول والطرب ، ولم يجىء بعده أحد فى الدخول مثله . وقد رثيته بعد موته بهذه الأبيات :

توفى نزهة الأسماع طرا
وصار العيش منا فى ذهاب

وناحت بعده الآلات حزنا
وأظهرت الصراخ مع انتحاب

وأبدى الدف والماصول زعقا
كمن جاء المآتم فى المصاب

وأضحى الناس فى قلق ولم لا
وقد ضاق الوجود بلا رحاب

وفى آخره حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان مسافرا الى جهة الصعيد . فلما حضر الى الجيزة خرج الأمراء والعسكر قاطبة الى ملاقاته ، فأقام بالجيزة ولم يعد ، فتوجه اليه الأمير طراباى أحد المقدمين ، وعلى يده صورة حلف عن لسان السلطان ، أنه لا يشوش عليه اذا قابله ولا يقبض عليه . فلما توجه اليه طراباى ، لم يشق الأمير طومان باى بذلك الحلف وأظهر العصيان . فرجع الأمير طراباى بجواب غير صالح ، وقد تقلب على الظاهر قانصوه ، خال الناصر ، غالب العسكر . فلما رأى أحواله مضطربة تحقق وقوع فتنة ، فأخذ فى أسباب تحصين القلعة ، ونقل اليها أشياء كثيرة من البقسماط والجبن ، وملأ الصهاريج

التى بالقلعة ، وفرق السلاح على مماليكه ، وانتظر ما يكون من الأمير طومان باى . فلما عدت اليه الامراء قبض على جماعة ، منهم الأمير قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، فلما قبض عليه شكه فى الحديد ، وقبض على القاضى عبد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلى آخرين من الأمراء .

فلما كان يوم الأربعاء ، سادس عشرى ذى القعدة ، عدى الأمير طومان باى من معادى امبابة ، وطلع من بولاق بمن معه من العسكر ، وتوجه الى الأزبكية بعد العصر ، وبات بها . وكان الأتابكى جان بلاط ساكنا هناك . فاجتمع الأمراء عنده ، وضربوا مشورة فى أمر الظاهر قانصوه ، فوقع الاتفاق على خلعه من السلطنة .

فلما كان يوم الخميس ، سابع عشريه ، لبس العسكر آلة الحرب ، وركب الأتابكى جان بلاط ، والأمير طومان باى ، وبقية الأمراء من الأزبكية وتوجهوا الى بيت الظاهر تمربغا ، الذى عند سوق السلاح بالقبو ، فعند ذلك ركبوا وتوجهوا لحصار القلعة ، ولم تكن عند الظاهر من الأمراء سوى جان بلاط الأبح نائب القلعة ، وبعض أمراء عشراوات ، ومن الجند نحو ألف انسان . واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ثلاثة أيام وذلك على قلة من عنده من العسكر بالقلعة . وكان الظاهر قانصوه حصن القلعة وسد باب الاصطبل الذى من جهة باب القرافة .

فلما كان يوم الجمعة بعد العصر ، ملك الأمير طومان باى باب السلسلة .

فلما كان يوم السبت ، تاسع عشريه ، انكسر الظاهر قنصوه ، وتشتت من كان عنده بالقلعة ، فلما رأى عين الغلب دخل الحريم وتزيا بزى النساء ، ونزل من القلعة ، وتوجه الى نحو الترب ، فاختفى فكان كما يقال :

وقائلة : لم دهتك الهموم
وأمرك ممتثل فى الأمم ؟

فقلت : ذرينى على غصتى
فان الهموم بقدر الهمم

فلما انكسر الظاهر قانصوه لم يجسر الأمير طومان باى أن يتسلطن ، وكان قدامه الأتابكى جان بلاط ، فاستمرت القاهرة بلا سلطان يوم السبت ويوم الأحد . وقد أشيع وجود قانصوه خمسمائة الذى تسلطن فنودى فى القاهرة « ان كان قانصوه خمسمائة موجودا فليظهر وله الأمان » فلم يكن لهذه الاشاعة صحة . فعند ذلك وقع الخلف بين الأمراء فيمن يلى السلطنة . فذكر تانى بك الجمالى ، فلم يرض به العسكر .

ثم ذكر الأتابكى جان بلاط ، فلم يرض به العسكر . فتعصب له الأمير طومان باى حتى تسلطن . كما سيأتى ذكره فى موضعه .

وكانت مدة الظاهر قانصوه فى السلطنة سنة وثمانية أشهر وثلاثة عشر يوما . وكان ملكا هينا لين الجانب قليل الأذى ، كثير البر والمعروف ، وكان مسلوب الاختيار مع الأمراء مهما يقولوا له يقل : « بخشى » ، فسمته العامة « بخشى » ، كما سموا الظاهر بلباى « ايش كنت أنا ؟ قل له » .

وكانت أيام الظاهر قنصوه أصلح حالا من أيام الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ... وقد انصلحت أحوال البلاد الشرقية ، وقل الأذى من العربان ، وكذلك البلاد الغربية ، ووقع الرخاء فى أيامه فى سائر البضائع ، وانكفت المماليك عما كانوا يعملون من الأذى فى أيام الملك الناصر . وساس الناس فى أيامه أحسن سياسة ، وخلع والناس عنه راضون ... وكانت صفته أبيض اللون

يميل الى الصفرة ، نحيف الجسد قصير القامة ، أسود الشعر عربى الوجه ، مستدير اللحية جميل الهيئة ، حسن الشكل فى المنظر ، چركسى الجنس ، قليل الكلام بالعربى ، الغالب عليه الجلوبية ... تولى الملك وله من العمر دون الثلاثين سنة ، وكان وافر العقل ثابت الجنان ، مع سكون وعدم رهج .

وأما ما عد من مساويه : فقتله الأمير تانى بك قرا من غير ذنب ؛ أرسل بخنقه وهو بين عياله وأولاده بالقدس . ومنها أنه صادر خوند الخاصبكية زوجة أستاذه الملك الأشرف قايتباى ، ووكل بها طواشيته حتى باعت قماشها مثل التركة وأوردت ما قرر عليها من المال . وصادر أختها زوجة أقبردى ، ووكل بها بالقلعة ، وطالبها بمائة ألف دينار ، وزعم أن أقبردى أودع عندها مالا . وصادر أخاها الناصرى محمد بن خاص بك ، وعرضه للضرب غير ما مرة ، وألزمه أن يسافر أمير حاج بالركب الأول من ماله ، ولم يعطه شيئا كعادة أمراء الحاج من النفقة . ومنها أنه ظلم جماعة من أعيان المباشرين من رجال ونساء ، وأخذ أملاكهم غصبا ، وهدمها بسبب البيت الذى أنشأه على بركة الفيل لأجل أخيه قانم . وفعل مثل ذلك بالتربة التى أنشأها بالصحراء ، وضيق بها الطريق على المارين هناك ، وأعمى ترب الناس التى بجواره . ومنها أنه كان متواطئا مع الأمراء على قتل الملك الناصر محمد ابن أخته ، ولولا تراخيه لما قدروا على قتله . ومنها أنه رسم بشنق بدرالدين بن مزهر ، كاتب السر ، حتى شفع فيه طومان باى الدوادار . ومنها أنه كان غير عفيف الذيل على ما قيل والله أعلم .

الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط

هو الملك الأشرف أبو النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى . وهو الرابع والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثامن عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد . وكان أصله جركسى الجنس ، اشتراه الأمير يشبك بن مهدى أمير دوادار كبير ، وأقام عنده مدة ، وحفظ القرآن . ثم ان الأمير يشبك قدمه مع جملة مماليك الى الأشرف قايتباى رحمه الله تعالى . ثم أخرج له خيلا وقماشا وصار من جمله المماليك الجمدارية ، ثم بعد مدة بقى خاصكيا . ثم بقى دوادار سكين ، وسافر أمير حاج بالركب الأول وهو خاصكى غير ما مرة ، ثم أنعم عليه السلطان بامرية عشرة فى سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، وسافر الى الحجاز أمير ركب المحمل وهو أمير عشرة ، وقرر فى نظر الخانقاه ، ثم توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم فى سنة ست وتسعين وثمانمائة ، وكان يومئذ أمير طبلخاناه تاجر المماليك . ثم بقى مقدم ألف فى آخر دولة الأشرف قايتباى ، ثم بقى دوادارا كبيرا عوضا عن أقبردى فى دولة الناصرية . ثم قرر فى نيابة حلب وخرج اليها . فلما تولى السلطنة الظاهر قانصوه نقله الى نيابة الشام عوضا عن كرتباى الأحمر بحكم وفاته . ثم أحضر الى القاهرة وقرر فى الأتابكية عوضا عن الأتابكى أزبك بحكم وفاته . ثم تزوج بخوند أصلباى أم الملك الناصر ، واستمر على ذلك حتى وثب طومان باى على الظاهر قانصوه وخلعه من السلطنة وانكسر ، فوقع الاتفاق على سلطنته على كره من الأمراء والعسكر .

وكانت صفة مبايعته : أنه لما نسحب الظاهر قانصوه من القلعة ، واختفى كما تقدم ، أقامت القاهرة يومين بغير سلطان . فلما كان يوم الاثنين ثانى ذى الحجة ، صعد الأمراء والعسكر الى باب السلسلة ، واشتوروا فيمن يلى السلطنة ، وكانت قصد الأمير طومان باى الذى تسلطن فيما بعد ، ولكن كان قدامه جان بلاط ، وتانى بك الجمالى أمير مجلس ، فلم يجسر أن يتسلطن . وكان العسكر غير راض بجان بلاط ، فما وسع طومان باى الا أنه تعصب له وسلطنه ... فأرسل خلف أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة — وهم زين الدين زكريا الشافعى ، والبرهان بن الكركى الحنفى ، وعبد الغنى بن تقى المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى — فلما تكامل المجلس عملوا صورة محضر لخلع الظاهر قانصوه ، فخلع من السلطنة فى الحال . ثم ان الخليفة بايع الأتابكى جان بلاط بالسلطنة ، وتلقب بالأشرف ، وكنى بأبى النصر ، على لقب أستاذه الأشرف قايتباى . فلما تمت بيعته ، أحضر اليه شعار الملك ، وهو الجبة والعمامة السوداء ، فأفيض عليه ذلك الشعار ، وقدمت اليه فرس النوبة ، فركب من سلم الحراقة الذى بباب السلسلة ، ورفعت على رأسه القبة والطير ، وركب الخليفة عن يمينه ، ومشت الأمراء بين يديه ... واستمر فى ذلك الموكب حتى طلع من باب سر القصر ، وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض من كبير وصغير ، ثم خلع على الخليفة وألزمه أن ينتقل من يومه ويسكن بالقلعة . ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء . وكان ملء العيون ، كفئا للسلطنة ، وافر العقل سديد الرأى .

وفى حالة سلطنته رسم بالافراج عن الأمير قانى بك الرماح أمير آخور كبير ، وكان مشكوكا فى الحديد عند الأمير طومان باى الدوادار ، وقد قاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وكذلك الأمير طراباى عنده فى الترسيم أيضا . فخلع السلطان على قانى باى الرماح ، وأعاده الى الأميراخورية الكبرى ، وأطلق طراباى وأنس باى شاد الشراب خاناه ، وأبقاهما على وظائفهما . ثم انه عين الأتابكية الى قصروه نائب الشام ، وكان يظن أنه يدخل تحت طاعته ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وقيل انه تسلطن فى ساعة الشمس .

وفى يوم الثلاثاء ثالثه جلس فى شباك الدهيشة ، وعرض مماليك الظاهر قانصوه ، ومسح منهم جماعة.

وفيه ، فى ذلك اليوم ، بعث الأمير طومان باى الدوادار نحوا من ثلثمائة فرس من خيوله الخاصة التى كانت عنده لما حضر من الشام .

وفى يوم الخميس خامسه فرق السلطان الأضحية على الأمراء والجند ومن له عادة . ثم خلع على بدر الدين بن مزهر وأعاده الى كتابة السر ، وعزل أخاه كمال الدين عنها . وأعيد الشهابى بن ناظر الخاص الى نظر الجيش ، وعزل عبد القادر القصروى وأعاده فى الترسيم ، وقرر عليه مالا له صورة . وخلع على جلال الدين بن الصابونى وأعاده الى نظر الخاص . وعزل شهاب الدين بن الرملى عنها وسلمه الى طراباى على مال قرر عليه .

وفيه خلع السلطان على قيت الرجبى ، وأعيد الى حجوبية الحجاب ، وبطل سفره الى طرابلس نائبا . وخلع على أزبك الناشف ، وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن جان بلاط الأبح ، بحكم اختفائه . ثم عين قصروه الصغير بأن يمضى الى قصروه نائب الشام بالبشارة بسلطنته ، وظن أن قصروه يسر بسلطنته ، فما ازداد الا عصيانا . وأرسل اليه

بالحضور ليلى الأتابكية ، فلم يجب قصروه الى ذلك ، وتمادى على ما هو عليه من العصيان .

وفيه قبض السلطان على تمر قريب السلطان الظاهر قانصوه ، الذى كان محتسبا ، ووكل به وقرر عليه مالا . وكذلك قبض على تانى بك الخازندار وقرر عليه مالا .

وفيه عين السلطان لدولات باى تقدمة ألف ، وكذلك برد بك المحمدى ، وكذلك خاير بك أخو قانصوه البرجى .

وفيه قوى الفحص والتفتيش على الظاهر قانصوه ، وصار والى الشرطة فى كل يوم وليلة يكبس الحارات ويهجم البيوت ، وحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل من الكبس والنهب . فلما طال الأمر قبض السلطان على الطواشى مسك وضربه ، فأقر بأن زوجته خوند جان كلدى تعرف طريقه فبعث اليها السلطان الأمير طراباى فسألها عنه ، فلم تقر بشىء . فأحضر اليها المعاصير وعصرها فى رجليها فلم تقر بشىء فأحضر الوالى وعاقب الجوارى ، وآخرين من جماعتها فلم يقروا بشىء .

ولما اشتد الأمر بسبب ذلك ، حضر شخص من أولاد الناس يقال له محمد بن اينال — وكان ساكنا فى سويقة صفية عند الزير المعلق — فأسر للأمير أزدمر ، أحد الأمراء المقدمين ، أن الظاهر قانصوه عنده فى بيته فلما تحقق الأمير أزدمر ذلك ، طلع وأعلم السلطان ، فأرسل جماعة من الخاصكية مع والى الشرطة الى ذلك المكان ، فقبضوا عليه ، وأركبوه على بغل — وعلى رأسه زنط ، وعليه كبر أبيض — وأتوا به على بركة الناصرية ، وقاسى من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه وقيل انه وقع من فوق البغل فى أثناء الطريق وتعترس عليهم ، فأركبوه غصبا . وكان القبض عليه فى يوم الأحد ثانى عشرى ذى الحجة وكانت مدة اختفائه أربعة وعشرين يوما ، فجرى عليه هذا كله وهو ساكت لا يتكلم ، فكان كما يقال :

الصبر أولى بوقار الفتى
من قلق يهتك ستر الوقار
من لازم الصبر على حاله
كان على أيامه بالخيار

واستمر على هذه الحالة حتى أتوا به الى بيت أزدمر فلما رآه قام له وأدخله الى البيت فلما كانت ليلة الثلاثاء خامس عشريه رسم السلطان باخراج الظاهر الى ثغر الاسكندرية فسجن بها وقيل ان السلطان جان بلاط أنعم عليه بخمسة آلاف دينار لكونه كان صهره زوج أخته . وكان المتسفر عليه الأمير أزدمر بن على باى ، فأوصله الى ثغر الاسكندرية وسجنه بها ، وعاد وخمدت فتنة الظاهر كأنها لم تكن .

وفيه قامت المماليك على الأشرف جان بلاط بسبب نفقة البيعة ، فلما رأى منهم الجد ، أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأطلق فى الناس نار المصادرة ، وقبض على جماعة من الأعيان ، ووزع على قاضى القضاة مالا له صورة ، فشفع الخليفة فى قاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، فعفى عما قرر عليه لفقره .

وفيه قبض السلطان على الحاج رمضان المهتار ، وسلمه الى طراباى فعاقبه ، وعصره واستخلص منه ثلاثين ألف دينار . وقد صودر غير ما مرة وهذه آخر مصادراته ، فباع جميع ما يملكه حتى بيوته وشوار نسائه ، وانكشف حاله جملة واحدة . وكان رئيسا حشما ، أقام فى مهترته بالطشتخاناه نحوا من ثلاثين سنة ، ونال من العز والعظمة فى دولة الأشرف قايتباى ما لا رآه غيره من المهاترة .

وفيه اشتد الأمر على الناس بسبب المصادرات ، وقاسى أعيان الناس من البهدلة والأنكاد ما لا يعبر عنه . وكان المتكلم فى أمر هـــده المصادرات بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، فأظهر النتيجة لصهره الأشرف جان بلاط ، وحصل منه للناس غاية الضرر الشامل . وشوش على الـــكثير منهم . وقد عقب ذلك عليه حتى كان من أمره ما سنذكره . وعمت هذه المصادرة طائفة اليهود والنصارى وجماعة من أعيان التجار والطواشية ، منهم مســك ومحسن ومختص وغيرهم ، وكانت حادثة مهولة .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على خاير بك العلائى أحـــد خواصه ، وعلى جانم المحمـــدى الظاهرى خشقدم ، وعلى على باى دوادار خشكلدى البيسقى ، وآخرين من الخاصكية .

وفى ليلة الجمعة سابع عشريه وقعت بالقـــاهرة زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نصف درجـــة ، وقد شاهدوا بعض النجوم فى السماء تتناثر .

وفيه نزل الســـلطان وتوجه نحو تربة الأشرف قايتباى ، فزار قبره ثم توجـــه الى باب النصر ، وكشف عن عمارة مدرسته التى أنشأها هناك . ثم دخل من باب النصر وشق المدينة ثم أتى الى بيت الأشرف قايتباى الذى أنشـــأه ببركة الفيـــل ، فكشف عن زوجته خوند أم الملك الناصر ، وكانت مقيمة هناك فزارها ، ثم عاد الى القلعة

وفيه أعيـــد الطواشى محسن كما كان ، وقد قاسى من الأنكاد ما لا خير فيه

وفيه كانت وفاة صاحبنا تقى الدين بن محمود أحد أعيان الشهود بالمدرسة الصـــالحية ، وكان رئيسا حشما عشيرا للناس ، فكه المحاضرة ، لكنه كان ملسنا ، كثير التعلق بالناس ، لا يفوته أحـــد من كبير وصغير ، وكانت أعيان الناس يخشون من كلامه ولسانه ، حتى قضاة القضـــاة وقد هجاه الأديب زين الدين ابن النحاس بقوله فيه :

قف وقفـــة وانتظر عند الامام ترى
جيوش أجفانه بالسود قد كسرت
ومن توقد نيران الحشـــيش عدت
عيناه ترمى جمـــارا كلـــا نفرت

وفى هذه السنة انقطع البلسان من مصر وهو البلسم ، وكان من آثار عيسى بن مريم عليهمـــا السلام ، وكانت الفرنج يجيئونه من أقصى البلاد حتى يشتروا من دهن هذا البلسم ويتغالوا فى ثمنه . وقد أحضر حب البلسان البرى من الحجاز وزرعوه بأرض المطرية ، وعالجوه فلم ينبت . وانقطع من مصر بالكلية ، كأنه لم يكن قط بعين شمس . وهو أجل نبات بها وهذا لم يتفق قط . وكان قبل ظهور الاســـلام بمدة طويلة ، وكان زكى الرائحة أشبه شىء بورق الملوخية ، وكان دهنه ينفع للأمراض البـــاردة ، كوجع الظهـــر والركب وغير ذلك من الأمراض الباطنيـــة . وكان يستخرج دهن هـــذا البلسم فى رابع عشرى بشنس القبطى ، وكان فى الزمن القـــديم يحضر يوم استخراج دهنـــه بعض الأمراء ، وقيل الخازندار الكبير وأجود ما طبخ دهنه فى برمهات ، وكان يزرع حبه فى بؤونة الى هاتور ، وكان معدودا من جملة محاسن مصر ، وكان انقطاعه من مصر فى رأس القرن العاشر .

ومن حوادث هذا القرن أيضا الحب الفرنجى ، أعاذنا الله منه ، فشا فى النـــاس جدا ، وقد أعيـــا الأطباء أمره ، واستمر يعرض للناس الى الآن .

سنة ست وتسعمائة (١٥٠٠ — ١٥٠١) :

فيها كان خليفة الوقت المستمسك بالله أبا الصبر يعقـــوب الهـــاشمى الأبوين ، والســـلطان الملك الأشرف أبا النصر جان بلاط بن يشبك الأشرفى . والقضاة الأربعـــة على حكم ما تقـــدم . وكانت الأتابكيـــة شـــاغرة . وقد تعينت لقصروه نائب الشام .

وفى يوم الثلاثاء ، مستهل المحرم ، كان صعود خوند أصلباى ، زوجة الأشرف جان بلاط ، وهى أم الناصر وسرية الأشرف قايتباى ، وأخت الظاهر قانصوه ، فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا . فشقت من الصليبية ، وهى فى محفة زركش ، وحولها الخدام من أعيان الطواشية ، وقدامها أعيان المباشرين ، وجماعة من الخاصكية نحو من خمسين انسانا ، وهم بالشاش والقماش ، وجماعة من المماليك نحو من مائة انسان ، وبأيديهم العصى يفسحون الناس . فاستمرت فى هذا الموكب الحافل حتى صعدت الى القلعة ، ومعها نحو من مائتى امرأة على مكارية .

وفيه فرق السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد جمع هذا المال من وجوه الظلم والمصادرات . ففرق على جماعة مخصوصة من العسكر ، وقطع للأكثر من الجند ، وأولاد الناس وغيرهم .

وفى يوم الخميس ثالثه حضر قصروه الصغير ، الذى كان قد توجه الى قصروه نائب الشام ببشارة سلطنة الأشرف جان بلاط . فلما عاد أخبر أن قصروه نائب الشام باق على عصيانه ، ولم يدخل تحت طاعة الأشرف جان بلاط ، ولم يلبس خلعته ، ولا قبل له الأرض . فلما تحقق السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وكان يظن أن قصروه يدخل تحت طاعته ، فجاء الأمر بخلاف ذلك .

وفى يوم الجمعة رابعه صلى السلطان صلاة الجمعة ، وجلس بباب الستارة ، وخلع على الأمير تانى بك الجمالى ، وقرره فى الأتابكية عوضا عن نفسه . وكان السلطان أخر الوظيفة لقصروه ، فلما تمادى على عصيانه قرر بها تانى بك الجمالى ، وخلع على الأمير طومان باى ، وقرره فى امرية السلاح ، مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى . وقرره أيضا فى الوزارة والاستادارية ، وكشوفية الكشاف — كما كان الأمير يشبك بن مهدى — فعظم أمره جدا ، وصار صاحب الحل والعقد فى تلك الأيام .

وفيه استمر قرقماس بن ولى الدين فى ولاية حلب كما قرره الظاهر قانصوه . وقرر برد بك الطويل فى نيابة طرابلس عوضا عن قيت الرحبى الذى كان تعين اليها وقرر قانصوه بن سلطان چركس المعروف بابن اللوقا فى نيابة حماه ، وكان قرره قبل ذلك فى نيابة غزة . ثم بطل أمر هؤلاء النواب جميعا . وحدثت أمور بعد ذلك يأتى الكلام عليها فى موضعها .

وفى يوم السبت خامس المحرم ، الموافق لثامن مسرى ، وفى النيل المبارك ، وكسر يوم الأحد سادس المحرم . فلما وفى توجه الأمير طومان باى الدوادار ، وفتح السد على العادة ، فأظهر فى ذلك اليوم غاية العظمة ، وفرق على المتفرجين نحوا من مائتى مجمع حلوى ، ومائتى مشنة فاكهة ، حتى فرق البطيخ الصيفى ، ونثر للعوام فضة لما أراد أن يركب عند السد ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان له يوم مشهود وكان هذا آخر فتحة للسد . وعقيب ذلك تسلطن ، وجرت عليه أمور يأتى الكلام عليها . فابتهج الناس بيوم الوفاء لكون النيل كان وفاؤه مسرعا ، وحصل به غاية النفع ، وكان نيلا عاليا مباركا ، فكان كما يقال :

كأن فى يوم الوفا نيلنا
أتقن علم الحرف بالضبط
اذ بالصبا صفحات خلجانه
تجدولت بالكسر والبسط

وفيه تكلم وسائط السوء مع السلطان فى اعادة وظيفة نظر الأوقاف . فلما عرضوا ذلك على الأمير طومان باى ، لم يوافق على اعادة هذه الوظيفة . وكان الملك الناصر أبطلها بواسطة

كرتباى الأحمر . فلما توجه كرتباى الأحمر الى الشام ، وطاش الملك الناصر بعده · سعى محمد ابن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف فى اعادته الى هذه الوظيفة . وكان الساعى له عبد القادر البواب بواب الدهيشة ، فقرره السلطان فى نظر الأوقاف . فأقام بها مدة يسيرة ، وضج منه الناس ، فشكوه للملك الناصر فقبض عليه ، وضربه ضربا مبرحا ، ونفاه الى قوص . وقد تولى هذه الوظيفة غير ما مرة ولم ينتج أمره ، وقد تولاها جماعة كثيرة . منهم شخص يسمى الفار الوكيل فلم ينتج أمره ، وتولى بها أيضا شرف الدين بن البدرى حسن فلم ينتج فيما تقرر عليه من المال . وقد تولاها جماعة كثيرة ، ولم يمكنهم السداد — وهى وظيفة شر وظلم — فشكر الناس فعل الأمير طومان باى الدوادار على ابطال هذه الوظيفة فى تلك الأيام المسيئة .

وفيه قبض السلطان على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاصطبل ، وقرر عليه مالا له صورة يورده للخزائن الشريفة .

وفيه عاد سنباى نائب سيس أحد المقدمين ، وكان توجه الى الكرك لقتال بنى لام ، وعاد من غير طائل .

وفيه اجتمع السلطان بالأمراء وضربوا مشورة فى أمر قاصروه نائب الشام ، فأشاروا على السلطان بأن يرسل اليه قاصدا ، فعين شخصا من الأمراء العشراوات ، وهو أزدمر الفقيه ، وعين معه الأمير أصباى فتوجها اليه عن قريب . وفى أثناء ذلك حضر خاير بك الكاشف الذى كان الظاهر نفاه ، وفر من أثناء الطريق وتوجه الى قصروه ، وأظهر العصيان معه ... فلما بلغه سلطنة الأشرف جان بلاط ، فر من عند قصروه ودخل تحت طاعة الأشرف جان بلاط . فلما حضر خلع عليه ، ووعده بتقدمة ألف .

وفى خامس عشريه كان دخول الحاج الى القاهرة ، وقد حصل لهم مشقة زائدة ، وعوقهم العرب حتى فات ميعاد دخولهم .

وفيه تعين تمرباى خازندار الأمير طومان باى ، وأظهر للسلطان أنه يروم الصلح بينه وبين قصروه ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، وانما أرسل تمرباى فى عمل مصلحة نفسه ، وقد ظهر ذلك فيما بعد ، وتلاعب بالأشرف جان بلاط ، وهو يظن أنه له من الناصحين وهو بضد ذلك . كما يقال فى أمثال « الصادح والباغم » :

جهد البلاء صحبة الأضداد
كأنها كى على الفؤاد

ومنها :

كذاك من يستنصح الأعادى
يردونه بالغش والفساد

ومنها :

أعظم ما يلقى الفتى من جهد
أن يبتلى من جنسه بالضد

وفيه جاءت الأخبار بأن قصروه قد استولى على غزة وأعمالها ، والقدس وغير ذلك من النواحى .

* * *

وفى صفر عظم أمر الأمير طومان باى جدا ، وتصرف فى أحوال المملكة كما يختار ، وصار الأشرف جان بلاط معه كالمحجور عليه ، لا يقضى أمرا دونه .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن دولات باى نائبها أظهر الطاعة للسلطان ، وأنه ليس مع قصروه نائب الشام . وهذا كله حيل وخداع وترتيب من

الأمير طومان باى . حتى كل عزم السلطان عن ارسال تجريدة الى قصروه نائب الشام . وكانت أحواله كلها معكوسة ، وصار طومان باى يمهد لنفسه فى الباطن .

وفيه توعك قاضى القضاة زين الدين زكريا وحصل له ضعف فى بصره ، فأغلق عليه بابه ، وأظهر أنه قد عزل نفسه عن القضاء ، فلم يلتفت السلطان اليه .

فلما كان يوم الاثنين عشريه خلع السلطان على محيى الدين عبد القادر بن النقيب وقرره فى قضاء الشافعية ، عوضا عن القاضى زكريا بحكم انفصاله عنها . فكانت مدة ولاية الشيخ زكريا فى قضاء الشافعية نحوا من عشرين سنة . فانه تولى فى دولة الأشرف قايتباى فى سادس رجب سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وعزل فى صفر سنة ست وتسعمائة . وهذه المدة لم تقع لأحد من قضاة الشافعية ، فى ولاية واحدة غيره ، فعد ذلك من النوادر . وسيعود الى القضاء ثانيا عن قريب . فلما تولى عبد القادر بن النقيب ، شق على كل أحد من الناس ولايته ، ولاموا السلطان على ذلك . وكان يومئذ فى الشافعية من هو أولى بالقضاء منه . ولكن سعى بمال له صورة حتى تولى على كره من الناس فكان كما يقال دوبيت :

فى مصر من القضاة قاض وله
فى أكل مواريث اليتامى وله
ان رمت عدالة فقم مجتهدا
من عد له دراهما عدله

وهو أول قضائه بمصر ، وقيل انه سعى بسبعة آلاف دينار حتى تولى ، وسيعزل عن قريب .

وفيه جاءت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التى هى دار ملك الأندلس ، ووضعوا فيها السيف للمسلمين ، وقالوا من دخل فى ديننا تركناه ، ومن لم يدخل قتلناه . فدخل فى دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفا على أنفسهم من القتل ثم ثار عليهم المسلمون ثانيا وانتصفوا عليهم بعض شىء واستمر الحرب ثائرا بينهم ... والأمر لله تعالى فى ذلك .

* * *

وفى ربيع الأول نزل السلطان الى بيت الأمير طومان باى ، وترجل ونزل عن فرسه ، ودخل هو واياه الى البيت ، وأقام عنده ساعة يتحدثان فى أمر قصروه ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا وهو أول موالده .

وفيه ، فى يومه ، عين السلطان خاير بك أخا قانصوه البرجى ، ومعه جماعة من العسكر ، وأمرهم أن يقيموا بغزة ، خشية من قصروه أن يطرق غزة على حين غفلة . فخرج خايربك والعسكر مسرعين .

وفيه ماتت خوند حبيبة ابنة الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق ، وهى زوجة الأمير طومان باى الدوادار ، وكانت جنازتها حافلة .

وفيه عين السلطان الأمير سودون العجمى ، أحد المقدمين ، وقرره فى امرية الحاج بركب المحمل ، وعين دولات باى قرموط والى القاهرة بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وعين تجريدة الى قاصروه نائب الشام . وقد تمادى على العصيان والخروج عن الطاعة ، واضطربت أحوال البلاد الشامية ، وامتنع ورود القماش والفاكهة وغير ذلك مما كان يجلب من البلاد الشامية ... فلما عرض العسكر ، عين نحوا من ألفى مملوك ، ومن الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا . وكان الباش على هؤلاء الأمراء المقر السيفى طومان باى دوادارا كبيرا ،

وأمير سلاح ، ووزيرا واستادارا ، وكاشف الكشاف ، ومشير المملكة ، وما مع ذلك من الوظائف .

وفيه عرض السلطان العسكر ، وأنفق عليهم ، وبعث نفقة الأمراء ، ثم استحثهم على الخروج بسرعة ، ورسم لهم أن يخرجوا شيئا بعد شيء .

فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشريه ، خرج جماعة من الأمراء الطبلخانات المعينين فى هذه التجريده فكان جاليش العسكر قيت الرجبى حاجب الحجاب ، واصطمر بن ولى الدبن أحد المقدمين ، وسودون الدوادار أحد المقدمين ، وخرج صحبتهم خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية .

وفيه قرر الأمير قاد بردى اليوسفى فى شادية الشرابخاناه مع امرية أربعين ، وكان من خواص الأمير طومان باى الدوادار ، وقرر قلج فى نيابة البيرة ، ثم لم يتم له ذلك وقرر فى نيابة الاسكندرية ، ثم نفى فى دولة العادل طومان باى الى البلاد الشامية .

وفيه قرر الشيخ صنطباى فى نظر المدرسة السنقرية التى بباب النصر وأخرج النظر عن قاضى القضاة الشافعى بأمر السلطان .

وفيه قرر السلطان أنس باى الذى كان شاد الشرابخاناه فى تقدمة ألف ، وكان من خواص الأمير طومان باى .

وفيه قرر طقطباى فى كشف أسيوط ، وصرف عنها يوسف النوام وقرر جانم المحمدى الخشقدمى فى كشف منفلوط ، وصرف عنها حيدر السيفى أزبك اليوسفى .

* * *

وفى يوم السبت مستهل ربيع الآخر خرج من تعين من النواب المقدم ذكرهم ، وهم قرقماس ابن ولى الدين المعين لنيابة حلب وبرد بك الطويل المعين لنيابة طرابلس ، وقانصوه ابن سلطان جركس ، المعروف بابن اللوقا ، المعين لنيابة حماه ، وقد تعينت لدولات باى نائب حلب نيابة الشام ، عوضا عن قصروه اذا قبض عليه . وكانت هذه التراتيب كلها فى البطال ، وآل الأمر الى خلاف ذلك كما يأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفى يوم الاثنين رابعه خرج المقر السيفى طومان باى أمير سلاح وما مع ذلك فلما خرج طلب طلبا حافلا حتى رجت له القاهرة . فلما طلع الى القلعه ، أفاض عليه السلطان خلعة حافلة ، وهى فوقانى حرير أزرق بوجه أخضر بطرز يلبغاوى عريض ... قيل كان طوله ثلاثة أذرع فى عرض ذراعين ونصف من الذهب الخالص البندقى ، وكان ما دخل فيه ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل قط مثله ولا سمع بمثل ذلك . وكان الأشرف جان بلاط يقاتل على رضا الأمير طومان باى بكل ما يمكن ، ومع هذا كان الأمير طومان باى يضمر له كل سوء فكان لسان حال جان بلاط يقول :

أقاسى المنون لنيل المنى
ويا ليت هذا بهذا يفى !

وكان الأمير طومان باى باغيا على الأشرف جان بلاط ، فكان كما يقال :

والغدر بالعهد قبيح جدا
شر الورى من ليس يرعى عهدا

فلما خرج كان صحبته من الأمراء المقدمين فانى باى الرماح أمير آخور كبير ، والأمير قانصوه الغورى رأس نوبة كبير ، والأمير أزدمر بن على باى أحد المقدمين ، وأنس باى أحد المقدمين . فكانوا بمن تقدمهم من الأمراء المقدمين أحد عشر أميرا ، ومن المماليك السلطانية نحو من ألفى مملوك وزيادة . وكانت هذه التجريدة المعينة الى

قصروه نائب الشام ، تعادل تجريدة ابن عثمان ، وقد تقدم ذكر ذلك فى دولة الملك الأشرف قايتباى .

فلما شق الأمير طومان باى من القاهرة كان له يوم مشهود ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان محبوبا للناس ، ولا سيما العوام ، فلهج الناس بأنه سيعود سلطانا ، وكان الأمر كذلك . واستمر فى ذلك الموكب حتى نزل بالريدانية فى الوطاق فأقام به أياما . وقيل ان السلطان نزل اليه هنالك فى الخفية تحت الليل ، وجلس عنده وتحدثا فيما يكون من أمر قصروه ، وأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة ، من مال وقماش وتحف حتى بأحجار حيوانية لمنع السموم القاتلة ، ثم ودعه وطلع الى القلعة . وكان يظن أن الأمير طومان باى ناصحا له ، وكان الأمر بخلاف ذلك .

وفيه من الحوادث أن السلطان تغير خاطره على القاضى كاتب السر بدر الدين بن مزهر ، فقبض عليه وعلى حاشيته وسجنه بالعرقانة ، وضربه ضربا مبرحا غير ما مرة ، وسبب ذلك أن السلطان لما صادر الناس كما تقدم ، ندب القاضى بدر الدين الى ذلك ، فأظهر من الظلم والعسف والتشويش على الناس ما يطول شرحه ، وأظهر النتيجة فى ذلك للأشرف جان بلاط ، فانه كان صهره ، فكثر الدعاء عليه وأخذه الله من الجانب الذى يأمن اليه ، وكان كما يقال :

فكان كالمتمنى أن يرى فلقا
من الصباح ، فلما أن رآه عمى

ثم انه قرر عليه مالا ، وأقام فى العرقانة حتى يورد ما قرر عليه من المال ، وكان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

فلما كان يوم الخميس ثانى عشره خلع السلطان على صلاح الدين بن يحيى بن شاكر بن الجيعان ، وقرره فى كتابة السر ، عوضا عن بدر الدين بن مزهر ، بحكم صرفه عنها . وهذه آخر ولايته لكتابة السر ، فلم يعد اليها بدر الدين بعد ذلك .

وفى ليلة الجمعة ثالث عشره خسف جرم القمر خسوفا تاما ، وأقام فى الخسوف الى قريب التسبيح ، وغرب وهو مكسوف .

وفيه توفى القاضى جلال الدين بن الأمانة أحد نواب الشافعية ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما ، وفاته منصب القضاء غير ما مرة ، وهو آخر من روى صحيح مسلم عن الزينى الزركشى بالسماع ، وكان قد طعن فى السن وقارب التسعين من العمر .

وفيه نودى من قبل السلطان بابطال ما تجدد من المكوس والمظالم الحادثة من بعد موت الأشرف قايتباى .

وفيه عاد تمر باى خازندار الأمير طومان باى الدوادار الذى كان توجه الى قصروه نائب الشام ، ليمشى بينه وبين السلطان بالصلح ، فلم يوافق قصروه على ذلك .

وفيه توفى أصباى الأشرفى قايتباى ، وكان أحد الدوادارية ، وكان لا بأس به

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين خامسه ، وصل هجان من الشام فى الخفية ، وعلى يده مكاتبات الى تمرباى خازندار طومان باى ، ليفرقها على الأمراء . فكان مضمونها أنه تسلطن بالشام وتلقب بالملك العادل . واستفاض هذا الكلام بين الناس وفشا --- فلما فرق تمرباى المكاتبات على الأمراء خاف على نفسه ، ففر تحت الليل ، وستر الله عليه حتى خرج من القاهرة .

وفيـه جاءت الأخبار مفصلة بصحة ما جرى . وهو أن العسكر لما وصـل الى الشام ، نزل فى مكان يسمى سعسع بالقرب من دمشق ، فركب قصروه نائب الشام فى نفر قليـل من عسكره ، وأظهر أنه طائع ، فاطمأن له العسكر ، وكان غالب الأمراء خشداشينه . فلما حضر اليهم دخـل معهم الى الشام ، واجتمعوا فى القصر الأبلق الذى فى الشام بالميدان . ولما حضر قصروه نائب الشـام ذكروا له أنه يطلع الى القلعـة ويقـرأ مراسيم السلطان ، فطلع وطلع الأمراء الى القلعة . فعنـد ذلك قرأوا عليه مراسيم السلطان ، فلم يلتفت الى ذلك . ثم تفاوض هو والأمراء فى الكلام ، ثم ثارت فتنة كبيرة بالقلعة ، ثم أمر قصروه والأمير طومان باى بالقبض على جماعـة من الأمراء ، وهم : قرقمـاس ابن ولى الدين نائب حلب الذى قـرر بهـا ، وأزدمر بن على باى أحـد الأمراء المقدمين ، وخاير بك أخو قنصوه البرجى ، أحد الأمراء المقدمين ، وسودون بن يشبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه بن سلطان جركس الذى قرر فى نيـابة حمـاه . وقبض على آخرين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات . فلمـا قبض عليهم قيدهم وسجنهم بالقلعة بدمشق .

وفى أثناء ذلك حضر الى دمشق دولات باى بن أركماس نائب حلب الشهير بأخى العـادل ، فلما حضر تعصب للأمـير طومان باى ، وتكـلم فى سلطنته ، فأحضر قضاة الشام ، وكتب صـورة محضر فى خلع الأشرف جان بلاط من السلطنة ، وبايعوا طومان باى من غير خليفة ، وتلقب بالملك العادل أبى النصر ، وأحضر له شعار الملك فأفيض عليه ، وقبل له الأمراء الأرض . فأول من قبل له الأرض قصروه نائب الشام ، ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا . فلما تم أمره فى السلطنـة عين الأتابكيـة بمصر لقصروه نائب الشام ، وعين نيابة الشـام لدولات باى نائب حلب ، وعين نيـابة حلب الى اركماس بن ولى الدين ، وعين نيابة طرابلس لبرد بك الطويل ، وعين نيابة صفد لجانم ، وقرر قيت الرجبى فى امرية سلاح عوضا عن نفسـه ، وقرر قانصوه الغورى فى الدوادارية الكبرى والاستادارية والوزارة وكاشف الكشاف عوضـا عن نفسه ، وقـرر قانى بك ، نائب الاسكندرية ، فى الرأس نوبة الكبرى ، وقرر اصـطمر بن ولى الدين فى الحجوبية الكبرى ، وعين عـدة امريات ألوف ، وامريات طبلخانات وعشراوات لجماعة من عصبته .

ثم انه رسم بشنق أحـد مشـايخ العربان من أولاد ابن نبيعة ، وشنق شخصا آخر من مشايخ بنى حرام يقال له نابت . فلما تم أمره فى السلطنة خطب باسمه على منابر دمشق ، ثم أخذ فى أسباب الحضور الى مصر . فلما سمع الأشرف جان بلاط هذه الأخبـار ، اضطربت أحواله ، وضـاقت به الدنيا . ثم أخذ فى أسباب تقرير الوظائف للأمراء الذين بمصر ، عوضا عمن أظهر العصيان بدمشق ، فاستمال قلوبهم حتى يكونوا له عونا ، ويدخلوا طاعته ... فأحضر لهم المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الأمراء من كبـير وصغير بعـد صلاة الجمعة ، بحضرة الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ... وكان قاضى القضاة الشافعى عبـد القادر بن النقيب ألف صورة أيمان مغلظة بالله ، وبالمصحف ، وبالحج ، وبالعتـق والطلاق ثلاثا ، وغير ذلك من التأكيد فى الأيمان المغلظة ، وكتب ذلك فى سجل ، ودفعه الى صلاح الدين بن الجيعان كاتب السر ، ليحلف عليه الأمراء . وكان هذا سببا لانتقام العادل من ابن النقيب لما حضر الى مصر ، وتم أمره فى السلطنة ، فجرى على ابن النقيب منه أمور مهولة يأتى الكلام عليها .

فلما تكامل المجلس حلف الأمراء بتلك الأيمان التى تقدمت ، أنهم لا يخونون ، ولا يغدرون ، ولا يميلون مع العادل اذا حضر ، فحلفوا على ذلك . ثم أحضر لهم عدة تشاريف ، فخلع على قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى ، وقرره فى أمرية السلاح ، عوضا عن طومان باى بحكم سلطنته بدمشق . وقرر خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم فى امرية مجلس ، عوضا عن قانصوه البرجى بحكم انتقاله الى أمرية سلاح . وقرر مصرباى فى الدوادارية الكبرى ، عوضا طومان باى بحكم سلطنته بدمشق . وقرر سنباى نائب سيس فى الأميراخورية الكبرى ، عوضا عن قانى باى الرماح بحكم عصيانه مع طومان باى . وقرر سودون العجمى فى الرأس نوبة الكبرى ، عوضا عن قانصوه الغورى بحكم عصيانه مع طومان باى . وقرر برد بك المحمدى الاينالى فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن قيت الرجبى بحكم عصيانه . وقرر قانصوه الصغير فى ولاية القاهرة ، وقرر تانى بك الأبح فى شادية الشراب خاناه ، وقرر اقباى الطويل فى تجارة المماليك ، وقرر تمر باى أمير شورى فى استادارية الصحبة ، وقرر جان بردى رأس نوبة ثانى . وأنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم بيبرس الفهلوان ، وأزبك المكحل ، وخشكلدى الذى كان استادار الصحبة ، ودولات باى قرموط الذى كان والى القاهرة ، وأزبك الناشف ، وتمراز جوشن ، وتمراز الزردكاش ، وقرقماس الشرابى ، وخير بك الكاشف ، وغير ذلك من الأمراء ممن خامر مع طومان باى . ثم فرق عدة أقاطيع على الخاصكية عوضا علن كان صحبة طومان باى . ثم أخذ فى أسباب تحصين القلعة ، فركب حولها المكاحل المعمرة بالمدافع ، وأصلح سورها وأبراجها ، وبنى فوق سلم المدرج بابا — وهو موجود الى الآن — ثم بنى برجا محيطا على باب السلسلة ، فبناه بالفص الحجر ، وصنع فيه مرامى وأبوابا صغارا . ثم سد باب الميدان ، وباب حوش العرب ، وباب الأصطبل الذى عند الصوة ، وصار ينزل فى النهار مرتين يكشف على العمارة بنفسه . ثم رسم بهدم مدرسة السلطان حسن فهدم منها بعض شىء من وراء ظهر محراب القبة ، فأقاموا يهدمونها ثلاثة أيام فلم يقدروا على هدم ذلك ، فتكلم الأمير تغرى بردى الاستادار مع السلطان فى عدم ذلك ، فرجع السلطان وترك الهدم . وقد تأسف الناس على هدمها لأنه لم يعمر فى الدنيا مثلها ، ولو هدمها ما كان يفيده من هدمها شىء ، وما كان يقدر على هدمها ، فكان ترك ذلك أوجب ، وقد ظهر عجزه عن ذلك . وفى هذه الواقعة يقول شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى :

هتكت قبة الحسن ... وانتفى وصفها الحسن
ان فى ذا لعبرة ... لكن المستفيق من

وقال محمد بن قانصوه بن صادق سامحه الله :

حسن السلطان قد هتكت
— خيفة المحذور — قبته
تعس الراضى بذا ، وغدت
مثلها فى الهتك حرمته

ثم ان السلطان نقل الى القلعة من البقسماط والجبن والغنم والبقر والأوز والدجاج والقمح والشعير وأشياء كثيرة من احتياج المطبخ ما يكفى للمحاصرة نحو الشهرين . ثم نادى فى القاهرة باصلاح الدروب ، واصلاح باب المدينة ... فاضطربت الأحوال ، وتزايدت الأقوال ، وكثر القيل والقال ، ووزعوا قماشهم فى المخابى ، وظن

كل أحد أن هذه فتنة مهولة ما تنجلى الا عن أمور شتى . وصار الناس فى رعب من ذلك ، وقد اشتد الأمر جدا .

وفيه قبض السلطان على اسماعيل زامل وشنقه على باب الميدان . وسبب ذلك أنه هرب تمرباى خازندار طومان باى الذى تسلطن بالشام ، مكنه أن يتوجه الى الشام ، وما أعلم السلطان بذلك ، فشنقه لأجل ذلك ، وصار له ذنب كبير . ثم ان السلطان أراد أن يقبض على الأمير طراباى ، وعوقه بالقلعة ساعة ، ثم بدا له ترك هذا الأمر . ثم ان السلطان رسم بقطع سلالم مدرسة السلطان حسن ، وأمر بنقض أماكن من دار يشبك الدوادار ونقل الى القلعة أخشابا كثيرة صنع منها عدة طوارق ، وسلالم خشب ، وغير ذلك من آلة الحرب . ثم فتح الزردخانة ، وفرق منها على جماعة من الجند عدة سيوف ، وزرديات ، ولبوس وتراكس وقيسى ونشاب وغير ذلك . ثم فرق عليهم عدة خيول خاص من خيول الأمراء الذين خامروا مع طومان باى ... فأخذ خيولهم وفرقها على العسكر ، وفرق عليهم من خيوله الخاص أيضا ، وأرضى العسكر بكل ما يمكن ، وأنعم على أكثرهم بوظائف واقطاعات ، وفرق مثالات تكتب على بياض على جميع من كان عنده ... ولم يفده من ذلك شىء ، فكان كما قيل :

اذا طبع الزمان على اعوجاج
فلا تطمع لنفسك فى اعتدال

* * *

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم الأربعاء مستهله ، خلع السلطان على الأمير عبد اللطيف الطواشى وقرره زماما وخازندارا كبيرا ، عوضا عن جوهر المعينى بحكم وفاته كما تقدم..

وفيه توفى الشيخ الصالح المعتقد سيدى عبد القفاص ، وكان من الصالحين

وفى يوم السبت رابعه جاءت الأخبار بأن العادل طومان باى خرج من الشام ، هو وقصروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وجماعة من النواب ، والتف عليهم الجم الغفير من عسكر الشام ، وعربان جبل نابلس والعشير ، وغير ذلك . وقد وصل الى غزة . فلما تحقق السلطان ذلك ، علق الصنجق السلطانى على باب السلسلة ، ونادى للعسكر بأن يطلع الطائع الى القلعة ، ومعه آلة الحرب وأن سائر الأمراء تطلع الى القلعة صغارهم وكبارهم . ثم رسم لقصاة القضاة بأن يطلعوا الى القلعة فطلعوا الى القلعة ، وكذلك سائر المباشرين من أرباب الوظائف ، يطلعون الى القلعة أجمعين فامتثلوا ذلك ، وطلعوا الى القلعة ، وأقاموا بها ، واحتاط فى الأمور بكل ما يمكن ، ولم يفده من ذلك شىء . فكان كما يقال :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما كان يوم الخميس تاسعه ، وصل العادل بمن معه من العساكر الى خانقاه سرياقوس ، ودخل أوائل عسكره الى القاهرة ، فماجت القاهرة واضطربت ، وقلق الأشرف جان بلاط وضاقت عليه الدنيا بما رحبت . فكان كما يقال فى المعنى :

قد كان يرجف فى ليالى وصله
قلبى ، فكيف الآن عند صدوده

وفيه جاءت الأخبار بوصول عسكر العادل الى المطرية ، فخرج اليه بعض العساكر السلطانية ، وتقاتلوا معهم هناك قتالا هينا . ففر منهم أزبك النصراوى ، ودخل تحت طاعة العادل ، وقبل له الأرض ، فخلع عليه العادل هناك ، وقرره والى

الشرطة بالقاهرة . ثم ان بعض المماليك توجه الى بيت العادل الذى كان ساكنا به ، وهو بيت الظاهر تمربغا الذى عند سوق السلاح بالقبو ، فأحرقوا مقعده ومبيته ، ونهبوا منه بعض أثاث .

وفى يوم السبت حادى عشره ، كان دخول العادل طومان باى الى القاهرة ، فدخل من باب الفتوح ، ورفع على رأسه صنجق خليفتى . وكان معه من الأمراء قانى باى الرماح أمير آخور كبير ، وقانصوه الغورى رأس نوبة كبير ، وقيت الرحبى حاجب الحجاب . وكان معه من النواب قصروه نائب الشام ، ودولات باى نائب حلب ، وبرد بك الطويل نائب طرابلس ، وجانم نائب حماه ، وغير ذلك من الجند والعربان والعشير ... فشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان محببا للناس قاطبة ، فنادى بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وألا يشوش أحد على أحد من الرعية . فتزايدت له الناس بالدعاء وكان الناس يظنون أن العادل طومان باى يخرب مصر عن آخرها بسبب ما يقع من الفتن ، وأن الأمر يطول فى ذلك ، فما حصل الا كل خير ، وانفرج الأمر عن قريب . فاستمر العادل طومان باى فى ذلك الموكب ، وكان له يوم مشهود ، حتى توجه الى بيت قانى بك قرا الذى عند حمام الفارقانى فنزل به ، ونزل قصروه بالأزبكية بدار الأتابكى أزبك ، ونزل دولات باى نائب حلب بجامع شيخو ، ونزل نائب طرابلس بدار أزبك اليوسفى أمير مجلس ، الذى كان بدرب ابن البابا بالقرب من الصليبة . وتوزع الأمراء والنواب الذين حضروا صحبة العادل كل واحد فى مكان بالقرب من الصليبة . ثم ثار الحرب بين الفريقين وعظم الأمر جدا . وكان القائم بنصرة العادل قصروه نائب الشام ، فأمر بحفر خنادق فى الطرقات ، ووراءها سوز من الحجارة فحفروا خندقا برأس الرميلة عند سويقة ابن عبد المنعم ، وخندقا عند حدرة البقر ، وخندقا عند باب الوزير ، وخندقا برأس سوق جامع أحمد بن طولون ، وخندقا عند سوق القبو عند مدرسة السلطان حسن ، فكانت خمسة خنادق .

ثم ان العادل أحضر عدة أخشاب لاطات ، وجزم وصوارى ، وأحضر جماعة نجارين ، فصنعوا منها عدة طوارق وسلالم ، وشرعوا فى عمل مجانيق ، وسدوا عدة أماكن شتى ، وبنوا عليها دروبا ، وصاروا يغلقونها ، وظنوا أن هذه الفتنة يطول أمرها

ففى اليوم الثالث من المحاصرة ، ملك قصروه مدرسة السلطان حسن ، وركبُ المكاحل المعمرة بالمدافع ، ووقف بها ، ورموا على من بالقلعة بالسبفيات ، وبالبندق الرصاص ، فقتل ممن كان بالقلعة جماعة كثيرة ، وجرح آخرون فضعف عزمهم عن القتال ، وبانت الكسرة عليهم . ولم يكن عند الأشرف جان بلاط بالقلعة سوى الأتابكى تانى بك الجمالى ، والأمير طراباى ، والأمير مصرباى ، والأمير قانصوه البرجى ، وخشكلدى البيسقى ، ونائب سنباى ، وآخرين من الأمراء المقدمين ، وغيرهم . وكان الرماة أشاعوا عن السلطان جان بلاط ، لما وصل العادل الى المطرية ، أن يخرج اليه الأتابكى تانى بك الجمالى ، وآخرون من الأمراء ويحاربونه ، وكان هذا عين الصواب لو فعلوه . كما يقال فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة
تصير ان لم تنتهزها غصة

واسبق الى الأجود سبق الناقد

فسبقك الحصـــم من المكايد

ثم ان العادل قصد أن يحضر جماعة من فرسان عربان الشرقية بقاتلون معه ، كما فعـــل آقبردى الدوادار ، فلم يوافقه الأمراء على ذلك ، وقالوا هذا يحصل منه غاية الفساد .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره اشتد الحرب بين الفريقين ، ووقع بينهما واقعة مهـــولة بباب الوزير فجرح فيها شحص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له تمرباى الطويل استادار الصـــحبة ، فلما جرح أغمى عليه فسقط عن فرسه ، فأخذوا لبسه وسلاحه ، وحمل الى داره فمات بعد أيام . وفى ذلك اليوم تقنطر الأمير مصرباى الدوادار بالتبانة ، وأخذوا فرسه من تحته ونجا بنفسه ، وهرب . وجرح فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من الفريقين . وقتل فى ذلك اليـــوم أيضا الأمير قانى بك نائب الاسكندرية ، أحد الأمراء المقدمين ، قتل بكفيه ، وكان من عصبة الأمير أقبردى الدوادار ، وحضر الى القاهرة صحبة قصروه نائب الشـــام ، وكان مقيما بالشام . وقتل جماعة من الخاصكية فى ذلك اليـــوم .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره اســـتمر الحرب ثائرا بين الفريقين الى يوم الخميس سادس عشره ، فأنفق العادل طومان باى على العسكر الذين من عصبته جامكية شهر ... وصـــار الأشرف ينفق الجامكية بالقلعة على من عنده من العســـاكر ، والعادل طومان باى ينفق الجامكية فى بيت تانى بك قرا على من عنده من العسكر . فلما تلاشى أمر الأشرف جان بلاط ، وترشـــح أمر العادل طومان باى ، ولاحت عليه لوائح النصر ، صار جماعة من الأمراء والعسكر يتسحبون من القلعة ، وينزلون عند العادل طومان باى ... فنزل اليـــه قانصـــوه الفقيه ، وتمر الظاهرى ، وجان بلاط الأبح ، وقانى بك الأبح ، وغير ذلك من الأمراء والخاصكية ثم نزل فى ذلك اليـــــوم القاضى عبد القادر القصروى ، وتوجه الى العادل فخلع عليه ، وأقره فى نظر الجيش ، عوضا عن الشهابى أحمـــد ناظر الجيش ، وكان الأشرف جان بلاط وعد العسكر أنه ينفق عليهم مع الجامكية ، فلم ينفق عليهم شيئا ، فانقلبوا عليه وتسحب غالبهم ، وأتوا الى العادل فرحب بهم .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خرج العادل من بيت تانى بك قرا ، وهو راكب ، وعليه سلارى شوح أحمر بفرو سمور ، وعلى رأســـه تخفيفة صغيرة ، والأمراء حوله ، فتوجه الى جامع شيخو ، فصلى به صلاة الجمعة . فارتفعت له الأصـــوات بالدعاء ، وانطلقت له النســـاء بالزغاريت من الطيقان ، وكان يوما مشهودا . فلما خطب الشرفى يحيى بن العداس ، خطيب جامع شيخو ، دعا فى آخر الخطبة باسم الملك العادل ، فهى أول خطبة خطبت باسم العادل فى القاهرة قبل أن يخلع جان بلاط من السلطنة . وقد خاطر الشرفى يحيى بن العداس بنفسه فى ذلك ، فعد ذلك من النوادر .

فلما تسلطن العادل وتم آمره فى السلطنة ، كتب للشرفى يحيى بن العداس ، جامكية فى كل شـــهر ألف درهم ، فى نظير ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشره وقت صلاة الفجر ، نزل من القلعة جماعة من الأمراء العشراوات ، منهم جان بردى الغزالى ، وخاير بك الكاشف ، وآخرون من الخاصكية ، فتوجهوا الى العادل . ثم ان جان بلاط رسم بتفرقة الجامكية الثانية فى الاصـــطبل السلطانى ، وحضر هناك العسكر وهم لايســـون

آلة الحرب ... فبينما العسكر الذين بالقلعة مشغولون بنفقة الجامكية ، واذا بالقلعة قد ماجت واضطربت ، وثار الجم الغفير بالرميلة من المماليك الذين من عصبة العادل ، فنهبت الجامكية عن آخرها التى أنفقت بالاصطبل . وكان سبب ذلك ما استفاض بين الناس أن الملك الأشرف جان بلاط كان مقيما فى مدة حصاره بالقلعة بالقصر الكبير ، وعنده جماعة من المشايخ الصوفية ، ومن يعرف بالصلاح . فلما ضاق الأمر على الأشرف جان بلاط قام ودخل الى دور الحريم ، فأبطأ فيه ساعة طويلة ، فعمد الأمير طراباى الى النمجاة والترس فأخذهما ونزل بهما من القلعة ، وتوجه الى العادل طومان باى ، وأشاع أن الأشرف جان بلاط قد هرب من القلعة . فلما سمع بذلك الأتابكى قصروه — وكان مقيما بمدرسة السلطان حسن — حطم بمن معه من الجند فملك باب السلسلة ، وسلم المدرج ، من غير مانع ، ولم يفد تحصين الأشرف جان بلاط شيئا ، ولا بناية تلك الأبراج ، ولا تركيب المكحلة الكبيرة التى يقال لها المجنونة . وكان هذا خذلانا من الله تعالى له . وقد قلت فى المعنى مع التضمين :

تحصن خوفا جان بلاط بقلعة
فلم تدافع الأعداء عنه المدافع
وكانت مدافعه كفارغ بندق
خلّى من المعنى ولكن بفرقع

فلما كانت الكسرة على الأشرف جان بلاط ، وقع النهب بالقلعة فى الحواصل السلطانية ، فنهبوا أشياء كثيرة من قماش وسلاح وخيول وغير ذلك ، مما نقله الأشرف جان بلاط الى القلعة ، من أغنام وأبقار وبقسماط وسكر واحتياج المطبخ وغير ذلك .

ثم انه فى ذلك اليوم رسم العادل بالافراج عن القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، وكان الأشرف جان بلاط سجنه بالعرقانة وقرر عليه مالا له صورة ، وأقام بالعرقانة مدة طويلة فأفرج عنه ونزل الى داره فى ذلك اليوم فلما حصلت هذه النصرة من غير قتال مهول ، ركب العادل طومان باى من بيت تانى بك قرا ، وعلى رأسه الصنجق السلطانى ، وصعد الى باب السلسلة من غير مانع وملكه ، وكان من أمر سلطنته ما سيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفى أثناء ذلك اليوم قبض على الأشرف جان بلاط ، قيل وجد فى مكان مهجور بدور الحريم ، فأمسك من هناك . فلما قبضوا عليه أدخلوه الى قاعة البحرة ، وقيدوه بقيد ثقيل ، ووكلوا به جماعة من الخاصكية ، وفيهم شخص من مماليك أقبردى الدوادار ، فحصل للأشرف جان بلاط منه غاية الضرر والبهدلة وما لا خير فيه . فكان كما يقال فى أمثال « الصادح والباغم » :

عند تمام المرء يبدو نقصه
وربما ضر الحريص حرصه

ومنها :

كم عشت فى لذة عيش وهنا
فاصبر الآن لهذى المحنا

ثم نقل الأشرف جان بلاط من البحرة الى المبيت الذى بجوار المقعد الذى بالحوش ، فأقام نحوا من ثمانية عشر يوما . وقيل كان تأخير الأشرف جان بلاط هذه المدة لأجل أن يورد ما قرره عليه العادل من المال .

فلما كان يوم الاثنين خامس رجب توجهوا بالأشرف جان بلاط الى السجن بثغر الاسكندرية ، فنزلوا به من باب الدرفيل وقت الظهر ، وهو مقيد ، وخلفه أوجاقى بخنجر ، فتوجهوا به من

جهة المجراة الى البحر ، فنزلوا به فى الحراقة وساروا الى الاسكندرية . وكان المتسفر عليه الأمير أنس باى أحد المقدمين ، والأمير قان بردى أحد الأمراء العشراوات ، وجماعة من الخاصكية ، فتوجهوا به الى الاسكندرية ورجعوا .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ستة أشهر وثمانية عشر يوما . وكان فى هذه المدة فى غاية الضنك مع الأمير طومان باى . وآخر الأمر وثب عليه وخلعه من السلطنة ، وحاصره وهو بالقلعة نحوا من سبعة أيام ... فانه دخل الى القاهرة يوم السبت حادى عشر هذا الشهر ، وهو جمادى الآخرة ، وملك القلعة يوم السبت ثامن عشره . وتعب فى تحصين القلعة ، ونقل اليها أشياء كثيرة من كل صنف كما تقدم ، وظن أن حصار القلعة يطول فما أفاده ذلك شيئا .

وكان الأشرف جان بلاط أرسل غليظ القلب ، قليل الحظ ، عسوفا ظالما ، حصل منه فى مدة سلطنته للناس غاية الضرر من المصادرات وأخذ الأموال . ولو أقام فى السلطنة لحصل للناس منه غاية المشقة من الظلم والأذى ... فعجل الله تعالى به . ومن مساويه ما وقع له مع أقبردى الدوادار ، فانه كان من أعز أصحابه ، وقيل ضبط ما وهبه له أقبردى ، فكان ينيف عن خمسين ألف دينار ، ثم بعد هذا الاحسان انقلب عليه كأنه لم يعرفه . وكانت صفته أبيض اللون ، طويل القامة ، مستدير الوجه ، أسود اللحية ، جميل الهيئة حسن الشكل . تولى الملك وله من العمر نحو من أربعين سنة . وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى تسلطن ، وأقام هذه المدة اليسيرة ، وآل أمره الى أن خنق وهو مسجون بالبرج ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

الملك العادل

هو الملك العادل طومان باى ابن قانصوه ، أبو النصر الأشرفى قايتباى . وهو الخامس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم فى العدد ، وهو التاسع عشر من ملوك الچراكسة وأولادهم بالديار المصرية ، وكان أصله چركسى الجنس ، اشتراه قانصوه اليحياوى نائب الشام ، وقدمه مع جملة المماليك الى الأشرف قايتباى ، فأقام بالطبقة مدة طويلة ، ثم أعتقه وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية جمدارا ، ثم بقى خاصكيا خازندار كيس فى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى أمير عشرة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، ثم قرره فى نيابة الاسكندرية فى سنة اثنتين وتسعمائة ، وتوجه اليها وأقام بها مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر ، ثم بقى مقدم ألف دوادارا كبيرا فى دولة الظاهر قانصوه ، ثم بقى أمير سلاح ، ودوادارا كبيرا ، واستادارا ، ووزيرا ، وكاشف الكشاف ، ومدبر المملكة فى دولة الأشرف جان بلاط .

ثم سافر لما عصى قصروه نائب الشام فتسلطن هناك ، وعاد سلطانا كما تقدم . فلما دخل الى القاهرة وصحبته قصروه وبقية النواب ، قام قصروه بنصرته قياما حافلا ، وصار ينفق على حفر الخنادق ، ويشيل التراب بالقفة على رأسه وكتفه ، هو ومماليكه مع الفعلاء ، ونصب المكاحل على مدرسة السلطان حسن ، ووقف الرماة بالبندق الرصاص ، واستمر يحاصر القلعة سبعة أيام .

فلما كان يوم السبت عشر هذا الشهر انكسر الأشرف جان بلاط ، فحطم العادل وملك باب

السلسلة من غير مانع . فلما استقر بباب السلسلة قبض على قاضي القضاة الشافعي محيي الدين عبد القادر بن النقيب ، ووكل به جماعة من الأوجاقية ، وفرر عليه مالا له صورة ، فنزلوا به وهو ماش على أقدامه ، وحوله أوجاقية ورسل قابضون عليه من أكمامه ، فشقوا به من الصليبة ، وهو على هذه الهيئة ، فسبه العوام وكادوا آن يرجموه ، حتى حماه بعض الأتراك . واستمر على ذلك حتى أتوا به الى بيت على بن أبي الجود البزدار — وكان ساكنا فى ربع الأشرف برسباى الذى بالصليبة — فأقام هناك فى الترسيم حتى يورد المال الذي قرر عليه ، وكان قد بلغ العادل ما رتبه من الأقسام المغلظة التى حلفها الأشرف جان بلاط للعسكر ، لما بلغ ابن النقيب سلطنة العادل بدمشق ، فانتقم منه العادل بسبب ذلك ، وعزله عن القضاء ، فكانت مدته فى هذه الولاية ثلاثة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وسيعود الى القضاء ثانيا عن قريب . وقد قلت فى ذلك :

ولوك أشرف منصب يا قاضيا
لكن ان عدل الزمان ستنسخ
طبخوا بنار العزل قلبك بعد ذا
وكذا القلوب على المناصب تطبخ

ثم ان الملك العادل طلب قاضي القضاة زين الدين زكريا ، فلما توجهوا اليه امتنع من الحضور واعتذر بأنه متوعك فى جسده ، فلا زالوا به حتى أركبوه وطلعوا به الى القلعة ، فخلع عليه العادل وأعادة الى القضاء عوضا عن ابن النقيب بحكم عزله كما تقدم . ثم حضر قاضى قضاة الحنفية ابن الكركى ، وقاضى قضاة المالكية عبد الغنى بن تقى ، وقاضى قضاة الحنابلة الشهاب الشيشينى . ثم حضر أمير المؤمنين أبو الصبر المستمسك بالله يعقوب . فلما تكامل المجلس عملوا صورة شرعية فى خلع الأشرف جان بلاط ، وولاية العادل طومان باى . فخلع جان بلاط من السلطنة . وبايع الخليفه طومان باى بالسلطنة ، وجدد له مبايعة ثانية ، زيادة على ما بيده من مبايعته بالشام . واستمر على لقبه بالعادل الذى تلقب به بالشام . وكان أولا تلقب بالملك المؤيد وهو بالشام ، ثم تحول لقبه الى الملك العادل . فلما انكسر الأشرف جان بلاط ، كما تقدم ، وطلع العادل الى القلعة ، لم يجلس بالمقعد الذى بباب السلسلة ، بل طلع الى القصر الكبير وجلس به ، وحضر الخليفة العباسى والقضاة الأربعة ووقعت مبايعته هناك ، وأفيض عليه شعار الملك . واجتمع عليه هناك الأمراء والعسكر وأرباب الدولة قاطبة ، واستمر على ذلك حتى جلس على سرير الملك ورفع الزردكاش القبة والطير على رأسه ، وكان قانى بك الجمالى أمير كبير مختفيا . وقبل له الأمراء الأرض قاطبة ، ثم خلع على الخليفة العباسى — وكان ساكنا بالقلعة — ثم قرر قصروه فى الأتابكية عوضا عن قانى بك الجمالى بحكم اختفائه ، فخلع عليه فى ذلك اليوم الفوقانى الذى كان الأشرف جان بلاط صنعه له عند توجهه الى دمشق ، وكان فوقانى حرير أزرق ، بوجه مخمل أخضر ، بطرز يلبغاوى عريض ، طوله ثلاثة آذرع فى عرض ذراعين ونصف ، قيل فيه من الذهب ثمانمائة مثقال بحيث لم يعمل مثله قط . ثم قام العادل لقصروه وقبل رأسه ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، فتوجه الى الأزبكية بدار الأتابكى أزبك . وكان هذا كله عين الخداع من العادل فى حق قصروه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكان كما يقال فى المعنى :

اذا رأيت ثنايا الليث كاشرة
فلا تظن بأن الليث يتبسم

ثم ضربت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى

القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء . وكان محببا للناس ، ولا سيما العوام ، فزينت له القاهرة سبعة أيام متوالية . وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وصار كل أحد فى فرح بسلطنته ، وانفرجت تلك الفتنة عن الناس عن قريب ، وكان يظن كل أحد أن أمر الفتنة يطول ويتسع ، فآل الأمر الى خير بخمود الفتنة عن قريب . فكان كما يقال :

ملك نداه المبتدا
للناس والمدح الخبر
أمضى لسان سيفه
حكم القضاء والقدر

فلما تم أمره فى السلطنة كان أول شىء صدر منه من الأفعال الشنيعة ، أنه قبض على خوند أصل باى أم الناصر ، وزوجة الأشرف جان بلاط ، وأخت الظاهر قانصوه ، فوكل بها عشرة من الخدام ، وقرر عليها نحوا من خمسين ألف دينار ، وقيل عشرين ألف دينار ، فباعت أشياء كثيرة من قماشها وأخذت فى أسباب وزن ما قرر عليها من المال . ثم انه عزل برهان الدين ابن الكركى عن قضاء الحنفية ، وقرر بها الشيخ سرى الدين عبد البر ابن الشحنة ، وهذه أول ولايته لقضاء الحنفية .

وفيه قرر قرقماس المقرى فى الحسبة ، فلما قرر بها قبض على محمد الباسطى الذى كان متكلما فى الحسبة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى . فلما قبض عليه ضربه بالمقارع فى يوم شديد البرد ، وأشهره فى القاهرة على جمل ، فما أطاق ذلك ومات عن قريب . وكان من الظلمة الكبار .

وفيه خلع على أسنباى الأصم وقرره فى الحجوبية الثانية ، وقرر نوروز أخا يشبك الدوادار فى رأس النوبة الثانية ، وقرر طومان الأشرفى فى الأميراخورية الثانية ، وقرر القاضى عبد القادر القصروى فى نظر الجيش ، وصرف عنها الشهابى أحمد ابن ناظر الخاص .

وفيه رسم السلطان برم ما فسد من حيطان مدرسة السلطان حسن فى مدة محاصرة القلعة ، فرمّ ذلك جميعه .

وفيه توفى الشرفى يونس بن محمد أينبك أحد الزردكاشية ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى ليلة الخميس مستهل رجب ، جرى من الحوادث الغريبة أن الأتابكى قصروه طلع الى القلعة ليبيت عند السلطان ... وكان يبيت بالقلعة ليلة الاثنين وليلة الخميس فى تلك الأيام . فلما طلع على جارى العادة وأكل السماط ، وجلسوا ساعة يتحدثون ، قال له السلطان : « قلبى خائف منك يا أمير كبير » . فلما صلى العشاء مع السلطان أمر بعض الخاصكية بالقبض عليه ، فأقاموه من مجلس السلطان ، وتوجهوا به الى المكان الذى أنشأه الظاهر قانصوه بجوار الدهيشة ، فأقام هناك أياما ثم أمر بخنقه فخنق تحت الليل ، وغسل وكفن ، وأنزلوه من باب الدرفيل ، فدفن فى تربة الصاحب خشقدم الزمام التى بالقرب من حوش العرب .

وكان قصروه أميرا جليلا رئيسا حشما مهيبا مبجلا ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية منها نيابة حلب ، ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر . وكان فى أيام العادل له الأمر والنهى فى الموكب . واذا نزل من القلعة يتوجه معه الأمراء الى الأزبكية ، وجميع قراء البلد والوعاظ . وعزم على سائر الأمراء فى ليلة ، وعمل أسمطة حافلة جدا ، وحضر عنده جميع الأمراء أكابرهم وأصاغرهم وباتوا عنده ، وأنعم فى تلك الليلة على جماعة من الأمراء بخيول ومال ، حتى استمال

قلوبهم . وكان يوصف بالكرم الزائد مع الشجاعة ، فوعد العسكر بكل جميل ، فمالوا اليه ، وعولوا فى السلطنة عليه ... فلما بلغ العادل ذلك المجلس استغنم الفرصة ، وبادر بالقبض عليه ، وخنقه تحت الليل ودفنه ، فكان كما قيل فى الأمثال :

وانتهز الفرصة ان الفرصة
تصير ان لم تنتهزها غصة

وقد قلت فى واقعة قصروه عدة مقاطيع منها :

اعجبوا من أمر قصروه الذى
ملكه بالشام جهلا قد ترك
وأتى مصرا فما نال المنى
ورماه الدهر فى وسط الشرك

وقولى فيه :

كان قصروه قصيرا عمره
خانه الدهر فولى مسرعا
طلبوا التسليم منه فأبى
ثم ما سلم حتى ودعا

وقولى فيه أيضا مضمنا :

لم ينل قصروه ما أمله
من علو فاته فى دهره
رام كيدا لمليك عادل
فرماه كيده فى نحره

ولكن كان العادل باغيا على قصروه ، ووشت بينهما الأعادى بالكلام حتى وقع بينهما وجرى ما جرى من القتل . وكان قصروه سببا لنصرته بالشام وبمصر ، وكان فى الحصار بمصر معه بكل ما يمكن كما تقدم ، وكان يشيل التراب مع الفعلاء على كتفه عند حفر الخنادق وقت محاصرة القلعة عند حضوره من الشام ، وما أبقى ممكنا فى نصرة العادل على جان بلاط ، وآخر الأمر قتله ظلما ، فلم يعش الملك العادل بعده الا أياما قلائل وقتل . قال على كرم الله وجهه : « من سل سيف البغى قتل به » . وفى الأمثال :

البغى داء ما له دواء
ليس لملك بعده بقاء

وكان بين العادل طومان باى وبين قصروه أيمان غليظة ، وعهود ومواثيق ، وما كان قصروه يظن أن العادل يخون تلك الأيمان والعهود كما قيل :

وحلفت أنك لا تميل مع الهوى
أين اليمين وأين ما عاهدتنى

وكان قصروه عفيفا عن المنكرات ، شجاعا بطلا سخى النفس ، غير أنه كان عنده طيش ، وخفة وسلامة باطن ، ومات وقد قارب الخمسين سنة من العمر ، ووكزه الشيب . فلما مات تأسف عليه الكثير من الناس ، وزال حب طومان باى من قلوب الناس كأنه لم يكن . ولم يستحسن أحد منهم قتله لقصروه الذى كان سببا لنصرته ... فنفرت عنه قلوب الرعية ، وكان هذا على غير القياس . كما يقال :

لا تشكرن امرأ حتى تجربه
ولا تذمنه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تختبره خطا
وذمه بعد شكر محض تكذيب

ويقرب من واقعة قصروه مع العادل طومان باى ، ما وقع لطشتمر حمص أخضر وقطلوبغا الفخرى مع الملك الناصر محمد بن قلاوون ... فان طشتمر وقطلوبغا الفخرى كانا سببا لنصرته لما حضر من الكرك . فلما تسلطن قبض عليهما ، وقيد طشتمر وقطلوبغا ولم يرع لهما ودا ، ثم أمر بتوسيطهما عند عوده من الكرك ، ولم يكن لهما من الذنب ما أوجب ذلك . وهذه الأفعال ما تصدر الا من جاهل أحمق يعد من جملة

المجانين . وكانت هذه الواقعة فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة . وفعل العادل هذه الفعلة مع قصروه بعد ما خدعه وألبسه الأتابكية ، وخلع عليه وعلى الأمراء الذين كانوا معه بالوظائف السنية ، منهم : قيت الرجبى خلع عليه وقرره فى امرية سلاح ، وقانصوه المحمدى البرجى خلع عليه وقرره فى امرية مجلس ، وقانصوه الغورى خلع عليه وقرره فى الدوادارية الكبرى ، وخلع على قانى باى الرماح وقرره فى الأميراخوريه الكبرى ، وخلع على طراباى الشريفى وقرره فى الرأس نوبة الكبرى ، وخلع على طشتمر وقرره حاجب الحجاب وأنعم على جماعة بأمريات تقادم ألوف ، منهم : خضر بك أخو قانصوه البرجى ، أنعم عليه بتقدمة ألف ، وطبلخانات ، وعشراوات ، ووظائف ممن كان فى عصبته .

وفيه قبض السلطان العادل على تخشباى ، الذى كان نائب حماه ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط . وقبض على تمراز جوشن أمير آخور ثانى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء فقرره بحجوبية الحجاب بدمشق ، وخرج من يومه . ثم قبض على جان بردى الغزالى كاشف الشرقية ، وعلى جماعة أخر من الأمراء العشراوات والخاصكية ممن كان من عصبة قصروه .

وفى يوم الخميس ثامن رجب قبض السلطان على الأمير قانصوه البرجى المحمدى أمير مجلس ، وأمر بنفيه الى مكة المشرفة بطالا ، فتوجه من البحر الملح . ثم قبض على قلج نائب الاسكندرية وبعثه الى الشام بطالا . وقبض على جان بلاط الموتر الذى كان محتسبا ونفاه .

وفيه خرج الأشرف جان بلاط منفيا الى ثغر الاسكندرية وهو مقيد كما تقدم .

وفى يوم الجمعة عاشره عقد السلطان طومان باى على خوند فاطمة ابنة العلائى على بن خاص بك زوجة الأشرف قايتباى ، فعقد لها عليه بجامع القلعة ، وحضر القضاة الأربعة العقد ، وكان يوما مشهودا .

وفيه أنعم السلطان على قان بردى اليوسفى بتقدمة ألف ، وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن طراباى الشريفى بحكم انتقاله الى الرأس نوبة الكبرى .

وفيه عمل الموكب ، وخلع على جماعة من الأمراء ، فخلع على دولات باى المشهور بأخى العادل وقرره فى نيابة الشام ، وقرر أرقماس بن ولى الدين فى نيابة حلب عوضا عن دولات باى ، وخلع على جانم بن قجماس وأقره فى نيابة طرابلس عوضا عن برد بك الطويل ، وخلع على الأمير سنباى نائب سيس وقرره فى نيابة حماه ، وخلع على قانصوه الفاجر وقرره فى نيابة صفد ، وخلع على ملاج الأشرف قايتباى وقرره فى نيابة القدس ، وخلع على قصروه الصغير وقرره فى نيابة البيرة ، وخلع على جانم وقرره فى نيابة طرسوس. فلما خلع عليهم استحثهم فى الخروج بسرعة الى محل ولايتهم ، فخرجوا بغير أطلاب .

وفيه أمر بنفى جماعة من الأمراء العشراوات الى نحو قوص ، منهم جان بردى الغزالى ، وقرقماس قرا ، وقايتباى ، وآخرون من الخاصكية . وقيل انه فقد منهم جماعة .

وفيه ، فى يوم السبت سادس عشريه ، خلع السلطان على جانى بك السيفى أقبردى الدوادار وقرره فى شادية الشراب خاناه ، وقرر طوخ المحمدى فى نيابة القلعة ، وقرر تمرباى أحد خواطه فى الخازندارية الكبرى .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الأمراء بتقادم ألوف ، منهم : طقطباى وماماى جوشن .

وفيه حضر خاير بك أخو قانصوه البرجي ، وكان ممن سجن بقلعة دمشق مع الأمراء المقدم ذكرهم ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف . واستمرت الأتابكية شاغرة من حين قتل قصروه ، فرسم السلطان للأمير طراباى أن يتكلم فى جهات الأتابكية حتى يقرر فيها من يختار .

وفيه عزل السلطان القاضي عبد البر الحنفى ، وأعاد البرهان بن الكركى ، فكانت مدة القاضى عبد البر فى القضاء أياما وعزل عنها . وقد قلت فى ذلك :

ولوك قاضى القضاة لكن
جاءوك بالعزل عن قريب
فمدة الحكم منك كانت
أقصر من جلسة الخطيب

ولما أعيد قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى الى القضاء ، قلت فى ذلك :

بقاضى القضاة استبشرت مصر فرحة
بعودته فى منصب للشرائع
فمذ قيل من أولى بمرتبة القضا
على مذهب النعمان من كل بارع
أشار اليه بالأيادى مليكها
وأوما اليه نيلها بالأصابع

وقد سعى ابن الكركي فى عوده الى القضاء بمال له صورة .

وفيه اختفى شيخنا جلال الدين السيوطى ، وقد طلبه ليفتك به ، وكان بينهما حظ نفس من حين كان السلطان العادل فى الدوادارية الكبرى ، وجرى بينهما أمور شتى يطول شرحها . فلما اختفى قرر السلطان الشيخ يس البلبيسى فى مشيخة الخانقاه البيبرسية عوضا عن الجلال السيوطى بحكم صرفه عنها .

وقد جاءت الأخبار بالقبض على مغلباى زجاج حاجب دمشق ، ونائب قلعتها أيضا . ثم ان السلطان قرر فى حجوبية دمشق برد بك تفاح ، وقرر تمر بن جانم الظاهر فى حجوبية حلب عوضا عن تمراز جوشن ، وكانت حيلة عليه ، فلما خرج أرسل بالقبض عليه ، ومضوا به الى القدس بطالا .

* * *

وفى شعبان المبارك كانت تفرقة السلطان لنفقة البيعة .

وفيه حضر قاصد على دولات وعلى يده مكاتبات للسلطان تتضمن أنه أرسل يشفع فى الأمير أرقماس نائب البيرة ، وكان فر الى ابن عثمان وعاد ، فأقام عند على دولات حتى شفع فيه عند السلطان .

وفيه عول السلطان بالقبض على الأمير خشكلدى البيسقى ، فلما بلغه ذلك فر من داره ، واستمر مختفيا حتى جرى للعادل ما جرى .

وفيه طلع جهاز خوند الخاصكية الى القلعة ، فشق من الصليبة وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين رابع الشهر المذكور جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بقتل الأشرف جان بلاط مخنوقا ، وهو بالبرج بالاسكندرية ، قاتل الله من فعل به ذلك . وكان قد أرسل العادل مرسومه على يد مصرباى الصغير الى نائب الاسكندرية بخنقه وهو فى قيده . وقيل لما أرادوا خنقه أحدث فى ثيابه وصار شخيره كالثور العظيم . فلما مات غسل وكفن وصلى عليه ودفن بمقابر الاسكندرية . ثم نقل بعد موته كما سيأتى الكلام عليه فى موضعه . وكان الأشرف جان بلاط ملكا جليلا وافر العقل ، جميل الهيئة ، وكان من خواص الأشرف قايتباى ، وتولى عدة وظائف سنية ، منها تجارة المماليك ، وتقدمة ألف والدوادارية الكبرى ونيابة حلب ونيابة الشام ، والأتابكية بمصر ، ثم تولى السلطنة ، وأقام بها ستة أشهر وثمانية عشر

يوما ، وآل أمره الى أن مات مخنوقا بالسجن ، وقاسى شدائد ومحنا ، كما يقال فى الأمثال :

والمرء لا يدرى متى يمتحن
فانه فى دهـره مرتهن

ولما مات الأشرف جان بلاط كان له من العمر زيادة على الأربعين سنة . ولما مات على تلك الحالة رثيته بهذه الأبيات :

جان بلاط بدا له — طالع النحس طرده
نجمـه لاح مخبرا — بعـكوس مؤبده
عنـد ما ظن أنه — نال بالملك مقصده
جاءه الموت عاجلا — فى بروج مشيده

وفى يوم الخميس سابعه صعدت خوند الخاصكية زوجة الملك العادل طومان باى الى القلعة . فخرجت من بيتها الذى بقنطرة سنقر ، وهى فى محفة زركش ، ومشى قدامها رءوس النوب والحجاب والخاصكية ، وهم بالشاش والقماش ، ومشى أيضا قدامها الوالى ، ونقيب الجيش ، وعبد اللطيف الزمام ، وأعيان الأكابر والمباشرين ، منهم : كاتب السر صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلاء الدين ابن الصابونى ، وناظر الخاص ، وبقية المباشرين قاطبة ، وأعيان الطواشية ، منهم : عنبر مقدم المماليك ، وآخرون من الخدام ، وكان معها من نساء الأمراء والأعيان نحو مائتى امرأة .

فلما وصلت الى باب الستارة فرشت لها الشقق الحرير تحت حوافر بغال المحفة ، ونثر عليها خفائف الذهب والفضة ، وحمل الزمام القبة والطير على رأسها حتى جلست بقاعة العواميد ، والنوبة السلطانية عمالة ، وكان يوما بالقلعة مشهودا . واستمر المهم بالقلعة عمالا ثلاثة أيام ، وكان لها موكب حافل لما شقت من الصليبية ، وكان قدامها المجمع السلطانى ، والبقج وطشت وابريق بلور ، ومدورة زركش ... ولم يتفق لاحدى الخوندات قبلها أنها نزلت من القلعة ، وعادت اليها على هذا الوجه ، سوى هذه وخوند أصل باى ، أم الملك الناصر ، ولكن هذه أعظم وأحكم موكبا ، وقلت فى هذه الواقعة أبياتا لطيفة المعنى :

عادت خـوند الى سرور ثان
مذ زوجت بالعـادل السلطان
فى وجهها الاقبـال والبشر الذى
يتقـاولـون به بكل لسـان
طلعت كشمس الأفق ضمن محفة
تجلى كحور العين وسط جنان
فى موكب يحكى مواكب قيصر
فاقت على كسرى أنو شروان
لما أتت عند الصـعود لقلعة
نثرت عليهـا الدر كالعقيـان
عادت الى الأوطـان فى بشر وفى
عـز واقبـال وصـفو زمـان
نالت مـراتب عـزها مذ أقبلت
عاد السرور بمقـدم السـكان
واستبشرت دار بها سكنت وقد
رقصت بها طربا على العيـدان
وتبسمت أزهار أغصـان الربا
فرحا بها فى روضـة البسـتان
بحـر السماح غـدا براحة كفها
يروى العطـاش بمنهل الاحسان
وتجود من فيض الندى بمكارم
فيـكون منه شـفاء للظمـآن
فالله يكفيهـا مئونة حاسـد
ويطيـل أيامـا لهـا بأمـان
ما ماس غصن فى الرياض وكللت
أيدى الغمـام شـقائق النعمان

وقدعرضت هذه القصيدة على خوند واستحسنتها .

وفيه خلع السلطان على طوخ المحمدى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم اختفائه .

وفيه قرر شمس الدين أبو النصر فى كتابة الخزانة مشاركا لصلاح الدين بن الجيعان .

وفيه قبض السلطان على القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى ووكل به . وخلع على القاضى شهاب الدين أحمد وأعاده الى نظر الجيش عوضا عن القصروى .

وفيه تغير خاطر السلطان على الأمير اصطمر بن ولى الدين ، وقصد الاخراق به لكونه صهر البيسقى ، وصار ممقوتا عنده .

* * *

وفى مستهل رمضان رسم السلطان للخليفة أن ينزل ويسكن بداره ، وكان الملك الأشرف جان بلاط رسم له أن يسكن بالقلعة .

وفى يوم الاثنين خلع السلطان على المقر البدرى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى الحنفى ، وقرره فى كتابة السر بالديار المصرية ، عوضا عن صلاح الدين بن الجيعان بحكم استعفائه منها . وقد تقدم للبدرى محمود أنه ولى قضاء الحنفية بحلب غير ما مرة ، وكان والده القاضى شمس الدين محمد بن أجا الحلبى رئيسا حشما من الأعيان ، وتولى قضاء العسكر فى أيام الأشرف قايتباى . وكان من خواص الأمير يشبك الدوادار ورأى الأوقات الحميدة

وفيه توفى العلائى على بن الصابونى ، ناظر الخاص ، وهو على بن أحمد بن محمد بن سليم البكرى الدمشقى الشافعى . وكان رئيسا حشما وتولى عدة وظائف سنية ، منها قضاء الشافعية بدمشق ، ووكالة بيت المال ، ونظر الخاص بمصر ، ومات وله من العمر خمس وثمانون سنة . فلما مات خلع السلطان على علاء الدين على بن حسن الامام ، وكان من جملة مباشرى الخاص ، وتولى نظارة الطور . وكانت نظارة الخاص تعينت الى ناصر الدين الصفدى ، ثم تحولت الى علاء الدين ابن الامام .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر على العادة .

وفيه أرسل السلطان خلعة الى قانصوه قرا الذى كان كاشف الشرقية ثم بقى نائب غزة ، وقرره فى نيابة حلب . فاستعظم الناس عليه ذلك ، ولاموا السلطان على هذه الفعلة . فخرج اليه بالتقليد شخص من بعض الدوادارية يقال له أيدكى .

وفيه قرر السلطان فى نيابة غزة على باى السيفى ابن يشبك ، عوضا عن قانصوه الشهير بفرا رجله ، بحكم انتقاله الى نيابة حلب . وقرر بلباى المؤيدى فى دوادارية السلطان بدمشق ، وفى نظارة الجيش بها أيضا ، حتى عد ذلك من النوادر . وقرر قانصوه الجمل فى الأتابكية بدمشق ، عوضا عن قرقماس التنمى بحكم صرفه عنها

وفيه مات فجأة كسباى المغربى الاينالى ، أحد الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفيه تزايد شر العادل ، وصار يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا منه ، وهم مصر باى ، وطقطباى باى ، وتمر باى ، وكرتباى ، وخشكلدى ، وجماعة آخرون . وصار طراباى ، وأنس باى ، وبيبرس البهلوان ، وقان بردى الغورى ، وأزبك النصراوى ، ووالى الشرطة يطوفون بعد العشاء ومعهم جماعة وافرة من مماليك السلطان ، فيشوشون على الناس ، ويكبسون عليهم البيوت تحت الليل ، ويسبون حريمهم ... فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فما كان عن قريب حتى هرب العادل واختفى ، وصاروا يكبسون عليه البيوت

والحارات ، ويطلبونه أشد الطلب ، وكما يدين الفتى يدان .

وفيه حضرت الى القاهرة زليخا خاتون ابنة خليل بن حسن الطويل ، ملك العراقين ، حضرت تروم الحج ، فأكرمها السلطان ، ورسم لها بعمل برك .

وفيه كان ختم البخارى بالقلعة ، واجتمع القضاة الأربعة ، وأرسل السلطان خلف قانصوه الغورى أمير دوادار كبير ، وقيت الرحبى أمير سلاح — وكان يوما حافلا — فلم يحضر قانصوه الغورى ، ولا قيت الرحبى ، وقد أحسا بما عول عليه السلطان من مسكهما .

وفيه دارت عدة طواشية على الخيل ، وأشيع بالعرض للعسكر ، وأن السلطان يريد القبض على جماعة من الجند والمماليك . فتخيلوا من ذلك ، ولم يطلع أحد منهم الى القلعة ، وقد تغيرت عليه خواطر العسكر قاطبة .

وفيه أخرج السلطان جماعة من مماليكه وسماهم العادلية

وقد استمر الحال فى اضطراب الى يوم الأحد سلخ شهر رمضان ، فلبس العسكر آلة السلاح ، ووثبوا على العادل . وكان القائم بهذه الفتنة قيت الرحبى ومصرباى ... فلما اتسعت الفتنة ظهر جماعة من الأمراء المختفين منهم خشكلدى البيسقى ، وجان بردى الغزالى ، وآخرون من الأمراء ممن كان مختفيا . فلما تحقق العادل أن الركبة عليه ، نزل الى باب السلسلة وعلق الصنجق السلطانى ، ونادى للعسكر أن تطلع الى القلعة ، فلم يطلع اليه أحد من الأمراء ولا من العسكر ، ولم يكن عنده أحد من الأمراء سوى الأمير قان بردى الدوادار الثانى أحد المقدمين — وكان من عصبته ومن خواصه ، وقد أشيع بين الناس أنه سيوليه الأتابكية عوضا عن قصروه — وكان عنده قرقماش المقرى المحتسب ، وطراباى رأس نوبة كبير ، وأنس باى وآخرون من الأمراء وبعض مماليك سلطانية ... فجلس فى المقعد المطل على الرميلة فلم يطلع اليه أحد من العسكر .

وفى ذلك اليوم وقع قتال هين وجرح الأمير أقبردى فى وجهه . فلما كان وقت الغروب من سلخ شهر رمضان نزل الأمير قانى باى الرماح من باب السلسلة ، ومعه ماماى جوشن ، ونزل طراباى وأنس باى . فلما رأى ذلك من كان عند العادل من المماليك السلطانية ، تسحبوا جميعا ، وتمت الكسرة على العادل . فلما دخل الليل قام ونزل من القلعة ، واختفى ، وكانت ليلة عيد الفطر ، فاضطربت الأحوال ، ولا سيما فى تلك الليلة ، وقد قلت فى المعنى :

فى ليلة العيد أتى	سلطاننا كل الضرر
فلم تكن كسرته	الا كلمح بالبصر

وكان سبب هذه الفتنة ، أنه قد أشيع بين الناس فى ليلة العيد ، أن السلطان قد عول على مسك جماعة من الأمراء يوم العيد وهم فى الجامع . فلما بلغهم ذلك وثبوا عليه تلك الليلة . فلما نزل من القلعة واختفى ، وقع النهب فى الاصطبل السلطانى والزردخاناه ، فنهب منها أشياء كثيرة بنحو من ستين ألف دينار على ما قيل . فلما كان يوم العيد لم يصل أحد من الأمراء صلاة العيد ، واشتغل كل أحد بما هو فيه ، ووقع الخلف بين الأمراء فيمن يلى السلطنة ، وكان من الأمر ما سنذكره . فكانت مدة السلطان الملك العادل طومان باى بالديار المصرية ثلاثة أشهر وعشرة أيام ، خارجا عن سلطنته بدمشق .

وكان ملكا جليلا ، مهيبا مبجلا ، تولى الملك وقد جاوز الأربعين سنة . وكانت صفته :

طويل القامة ، أبيض اللون ، مشربا بحمرة ، مدور الوجه ، مستدير اللحية ، أسود الشعر ، الغالب عليه الشقرة . وكان ممتلىء الجسد جميل الهيئة ، وافر العقل سديد الرأى ... غير أنه كان سفاكا للدماء عسوفا ظالما : قتل الأتابكى قصروه ظلما ، وأرسل بخنق الأشرف جان بلاط وهو بالبرج ، وعول على خنق الظاهر قانصوه أيضا وهو بالبرج ولكن كان فى أجله تأخير ، ونفى جماعة كثيرة من الأمراء والخاصكية والمماليك فى هذه المدة اليسيرة . ولو دام فى السلطنة لوقع منه أمور شتى ، ولكان يقتل غالب الأمراء وثلث العسكر .

وكانت مدة سلطنته كلها شرور وفتن مع قصرها ، وآخر الأمر هرب واختفى ، واستمر مختفيا حتى ظهر وقبض عليه ، وقطعت رأسه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وآل الأمر الى أن خلع من السلطنة ، وتسلطن بعده قانصوه الغورى كما سنذكره فى محله .

الملك الأشرف

هو الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى الأشرفى . وهو السادس والأربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو العشرون من ملوك الجراكسة وأولادهم فى العدد . وقد قلت فى ذلك ابتداء :

أصفى التاريخ حكى	بسجعه الشحرورى
فاق التواريخ بما	أوردته للغورى

وكان أصله جركسى الجنس من مماليك الأشرف قايتباى وأعتقه فهو من معاتيقه ، ثم أخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى خاصكيا ، ثم قرر فى كشف الوجه القبلى سنة ست وثمانين وثمانمائة بواسطة الأمير قانصوه خمسمائة ، ثم أنعم عليه الأشرف قايتباى بامرة عشرة فى سنة تسع وثمانين وثمانمائة ، وخرج فى بعض التجاريد الى البلاد الحلبية ، ثم قرر فى نيابة طرسوس . ثم انه عاد الى حلب وقرر فى حجوبيتها عوضا عن باكير بن صالح الكردى وذلك فى سنة أربع وتسعين وثمانمائة ، ثم بقى نائب ملطية بعد حجوبية الحجاب بحلب ... وكل ذلك فى دولة الأشرف الملك الناصر محمد بن قايتباى ، وأنعم عليه بتقدمة ألف ، ثم بقى رأس نوبة النوب فى دولة الملك الظاهر قانصوه خال الملك الناصر ، وذلك فى ثالث ذى القعدة سنة خمس وتسعمائة ، وسافر الى الشام صحبة الأمير طومان باى لما خرج الى محاربة قصروه نائب الشام لما أظهر العصيان على الأشرف جان بلاط . فلما تسلطن طومان باى بالشام ورجع الى القاهرة وهو سلطان ، خلع عليه وقرره فى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية عوضا عن نفسه ، فاستمر على ذلك حتى وثب العسكر على العادل فى سلخ شهر رمضان سنة ست وتسعمائة ، واختفى فى ليلة عيد الفطر بعد العشاء .

فلما أصبح ذلك اليوم ، وأشيع هروب العادل ركب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح ، وقانصوه الغورى أمير دوادار كبير ، وطراباى ، وقانى باى قرا أمير آخور كبير ، ومصر باى ، وأصطمر ، وأنس باى ، وبيبردى الفهلوان ، وطقطباى ، وماماى جوشن ، وخاير بك — أخو قانصوه البرجى — وآخرون من الأمراء المقدمين . ثم ظهر خشكلدى البيسقى ، وكان مختفيا من العادل لما أراد القبض عليه . فلما تكاملوا اجتمعوا ببيت قانصوه خمسمائة الذى بقناطر السباع ، فحضر اليهم الأتابكى تانى بك الجمالى — وكان مختفيا من حين كسر الأشرف جان بلاط وتسلطن العادل — فلما حضر وقع الاتفاق

على سلطنته أولا ، فركب من هناك وعلى رأسه الصنجق السلطانى وقد ترشح أمره الى السلطنة . فلما طلع الى باب السلسلة ليلى السلطنة ، أشيع فى ذلك اليوم أن الأشرف قانصوه خمسمائة باق فى قيد الحياة ، فأشهروا النداء فى القاهرة بأن قانصوه خمسمائة ان كان موجودا فليظهر وله الأمان ، وان لم يظهر بعد ستة أيام فلا أمان له . فلما طال المجلس انفض العسكر من الرميلة ونزل غالب الأمراء الذين كانوا قد اجتمعوا فى الحراقة بباب السلسلة .

وكان يوم عيد الفطر يوم الاثنين ، فاختار كل أحد عوده الى داره حتى يقع اختيار الأمراء على من يولونه السلطنة ، فأعرض غالب العسكر عن الأتابكى تانى بك الجمالى ولم يرض به أحد منهم . وكان الأتابكى تانى بك الجمالى أرشل معكوس الحركات فى أفعاله ، وطاش لما ذكر للسلطنة ، ثم آل أمره بعد ذلك الى كل سوء ، فلم تقم له السلطنة ، وكانت من نصيب قانصوه الغورى كما سيأتى الكلام على ذلك ، فكان كما يقال :

تنافس الناس فى الدنيا وقد عظمت
فصفوها لك ممزوج بتكدير
لم يرزقوها بسعى عند ما قسمت
لكنما رزقوها بالمقادير
لو كان عن طلب بالسعى ندركها
طار البزاة بأرزاق العصافير

فلما رأوا المجلس مانع ، تعصب الأمير قيت الرجبى أمير سلاح والأمير مصرباى الى قانصوه الغورى وقالوا : « ما نسلطن الا هذا » ، فسحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكى ، وربما كلمه مصرباى ومزق طوق ملوطته وهو يمتنع غاية الامتناع ، فحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب وقاضى القضاة عبد الغنى بن تقى المالكى والشهاب الشيشينى الحنبلى ، وتأخر قاضى القضاة الشافعى زين الدين زكريا والبرهان الدين بن الكركى الحنفى حتى يقع رأى الأمراء فيمن يولونه السلطنة . فكتب القاضى الحنبلى صورة محضر فى خلع العادل من السلطنة ، وشهد فيه جماعة كثيرة من الناس بأنه سفاك للدماء . ثم حضر القاضى الشافعى والقاضى الحنفى وعقدت البيعة لقانصوه الغورى وبايعه الخليفة ، وكانت سلطنته فى يوم الاثنين مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، ثم أحضر اليه شعار السلطنة وهى الجبة والعمامة السوداء فأفيض عليه ذلك ، كل هذا وهو يمتنع ويبكى ... فلقبوه بالملك الأشرف ، وسما فى علوه وأشرف ، وكنوه بأبى النصر قانصوه الغورى ، وبه صارت مصر مشرفة بالنورى ، وقيل :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ثم قدمت اليه فرس النوبة بالسرج الذهب والكنبوش ، فركب من على سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، فتقدم قيت الرجبى وحمل القبة والطير على رأسه وقد ترشح أمره الى الأتابكية ، فركب الخليفة عن يمين السلطان ، ومشت بين يديه الأمراء وهم بالشاش والقماش ، حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، والباقى للزوال نحو من خمس وعشرين درجة ، وكان الطالع بالسرطان ، فأول من قبل له الأرض قيت الرجبى ثم بقية الأمراء شيئا فشيئا ، ثم خلع على الخليفة ونزل الى داره ، وخلع على مصرباى وقرره فى الدوادارية الكبرى والوزارة والاستادارية — عوضا عن نفسه — فنزل الى داره فى موكب حافل .

ثم دقت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت الأصوات له بالأدعية الفاخرة ، وزال ما كان من الشكوك والظنون ، وأقرت من

الناس بسلطنته العيون ؛ فكانت سلطنته على غير القياس ، وأشيع بأن بنيانه على غير أساس ، فصار منه بعد ذلك الهزل جدا ، ومكث فى السلطنة مكثا جاوز الحد ، فزال عنه الأضرار والباس ، وامتلأت منه أعين الناس ، فتولى الملك وله من العمر نحو من ستين سنة ، ولم يظهر بلحيته الشيب حتى عد ذلك من جملة سعده .

ومن العجائب أن أرباب الملاحم قالت للعادل طومان باى : « ما يأخذ الملك منك الا حرف القاف » ... فظن أنه « قصروه » ، فقتله ظلما ولم يكن يحسب لقانصوه الغورى حسابا ، فكان كما قال :

الرزق لم يزل للمرء ملتزم
ما المن سمى الا لمن قسم

ومن الحوادث فى يوم سلطنته أن طائفة من المماليك الجلبان توجهوا الى بيت فخر الدين كاتب المماليك الذى فى الأزبكية فاحرقوه ونهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت شمس الدين أبى المنصور مباشر العادل فنهبوا ما فيه ، ثم توجهوا الى بيت قرقماس المقرى المحتسب وبيت أزبك النصرانى والى القاهرة فنهبوا ما فيهما ، ثم توجهوا الى بيت عبد العظيم الصيرفى فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس نقيب الجيش ، وحصل فى ذلك اليوم غاية الاضطراب ولا سيما فى مثل يوم العيد .

ثم ان السلطان خلع على شخص من الأتراك يسمى طومان باى الجلب وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن أزبك النصرانى ، فركب ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمان وأن المماليك تكف عن النهب ، فسكن الاضطراب قليلا .

وفى ذلك اليوم اختفى جماعة من الأمراء ممن كان من عصبة العادل ، وجانى بك شاد الشراب خاناه ، ومسايد ناظر الجوالى ، ومصر باى الصغير ، وأزبك النصرانى وآخرين من الأمراء ممن كان من حلفه .

وفى ذلك اليوم ظهر الشيخ جلال الدين الأسيوطى ، وكان مختفيا من العادل فى مدة سلطنته ، وكان يقصد الاخراق به فكفاه الله مؤنته ، وذكر أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وبشره بزوال العادل عن قريب .

وفيه كتبت المراسيم السلطانية بحضور الأمير قانصوه المحمدى البرجى ؛ وكتبت المراسيم أيضا بالافراج عن سجنه العادل بقلعة دمشق وهم قرقماس وأزدمر وقانصوه بن اللوقا وسودون الدواداري وآخرون من الأمراء ممن كان سجنهم العادل بقلعة دمشق وقد تقدم ذكرهم

وفى يوم الخميس رابعه عمل السلطان الموكب بالحوش ، وهو أول مواكبه ، فخلع على جماعة من الأمراء خلع العيد ونزلوا من القلعة فى موكب حافل ، وكذلك أرباب الوظائف من المباشرين .

وفى يوم السبت ، السادس من شوال ، خلع السلطان على جان بردى الغزالى وقرره فى الحسبة عوضا عن قرقماس المقرى ، وقرر نانى بك أخو ماماى فى الخازندارية الكبرى عوضا عن تمر باى خازندار العادل ، وخلع على آقباى الطويل وقرره فى شادية الشراب خاناه عوضا عن جانى بك المتسد ، وقرر تمرباى أمير مسوى فى نظر الجوالى ، وقرر مغلباى الشريفى فى الزردكاشية الكبرى عوضا عن تمر الحسنى بحكم انتقاله الى التقدمة .

ثم ان السلطان قبض على الأتابكى تانى بك الجمالى ووكل به بالقلعة وأمره بالخروج الى مكة صحبة الحاج .

وفيه أنعم السلطان على قانصوه الفاجر بتقدمة

ألف ، وكذلك قرقماس التنمى ، وأنعم أيضا على دولات باى قرموط بتقدمة ألف ، وكذلك طقطباى ابن ولى الدين .

وفيه هجم الوالى على بيت قاضى القضاة الحنفى برهان الدين بن الكركى بسبب التفتيش على العادل فلم يجدوه عنده ، فنهبوا بيته وأخذوا منه علبة كان فيها مال الأوقاف الذى كان تحت يده .

وفيه ، فى ثامن عشره ، خرج الحاج من القاهرة . وكان أمير ركب المحمل سودون العجمى أحد المقدمين ، وبالركب الأول دولات باى قرموط ، وخرج صحبته الأتابكى تانى بك الجمالى فرسم له بالاقامة فى مكة فخرج وهو فى التوكيل به ، ورسم السلطان لخاتون ابنة خليل بن حسن الطويل صاحب العراقين بعمل برك ، وحجت فى تلك السنة .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه خلع السلطان على الشيخ سرى الدين عبد البر بن الشحنة وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن برهان الدين بن الكركى بحكم صرفه عن القضاء ، وقد قاسى غاية المشقة بما جرى عليه بسبب اختفاء العادل .

وفيه كثر شر المماليك على السلطان بسبب طلب الأقاطيع والوظائف ، حتى أنه تبرأ من السلطنة وهم بأن يختفى بنفسه حتى يولوا من يختارونه من الأمراء .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بفرار دولات باى نائب الشام ، وقد بلغه ما جرى على العادل وكان من أقاربه ، فخاف على نفسه ، فأخذ بركه وحريمه وخرج من الشام وتوجه الى نحو بلاد ابن عثمان ملك الروم .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء — وكان العادل نفاهم الى دمياط — منهم برد بك المحمدى الاينالى الذى كان الأشرف جان بلاط قرره فى حجوبية الحجاب ، وأرزمك الناشف الذى كان مقدم ألف ، ومامش الرحبى ، وتمر باى الشيخ ، وآخرون من الخاصكية ، وكان عدتهم نحوا من ثمانية عشر نفرا .

وفيه زاد أمر التفتيش على العادل وصار والى القاهرة يركب ومعه حاجب الحجاب والأمير طراباى رأس نوبة النوب ، ومعهم الجم الغفير من المماليك وهم بآلات السلاح ، فيهجمون البيوت والحارات تحت الليل بسبب العادل . وكان العادل يكبس البيوت والحارات بسبب الأمراء الذين اختفوا منه ، فما عن قريب حتى صاروا يكبسون البيوت والحارات بسببه ... والمجازاة من جنس العمل .

وفيه عرض السلطان مماليك العادل ، وأمر باخراجهم الى جهة الصعيد ، وكان العادل أخرج خرجا من المماليك وسماهم العادلية .

وفيه توفى على باى الظاهرى تمربغا وكان من الأمراء العشرات ، ومات وهو طرخان وكان لا بأس به .

وفى الثانى والعشرين من شوال أحضرت جثة الأشرف جان بلاط من ثغر الاسكندرية ، وقد تقدم أن العادل بعث بخنقه وهو فى البرج فخنق ودفن بالاسكندرية ، ثم وقف مماليك جان بلاط الى السلطان وسألوه فى نقله الى القاهرة فرسم لهم بذلك ، فنقل وهو فى سحلية ، فلما حضرت جثته دفن أولا بتربة الأشرف قايتباى وأقام بها أياما ، ثم تعصبت له مماليكه وقالوا : « ما ندفن أستاذنا الا فى تربته التى بباب النصر » ، فرسم لهم السلطان بذلك ، فنقلوه ودفنوه فى تربته التى بباب النصر . وهذه ثالث نقلة وقعت له ، وكان نقله الى تربته فى ليلة الجمعة سادس عشرين هذا الشهر .

وفيه ، فى تاسع عشرينه ، خلع السلطان على قيت الرحبى وقرره فى الأتابكية عوضا عن قصروه

نائب الشام بحكم موته . وكانت الأتابكية شاغرة من يومئذ حتى قرر بها فيه ، وكان المتكلم فى جهات الأتابكية فى هذه المدة الأمير طراباى رأس نوبة النوب .

وفيه قرر شمس الدين أبو المنصور القبطى فى نظر البيمارستان المنصورى .

وفى أوائل هذا الشهر توفيت عزيزة بنت السطحى ، وكانت من أعيان مغانى مصر ، فريدة عصرها فى النشيد مع حسن الصوت وفصاحة باعراب الشعر ، فلم يخلفها من بعدها أحد من النساء المغانى ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية العز والعظمة ما لا رآه غيرها من أرباب هذا الفن ، وماتت وهى فى عشر الثمانين ، وكان لها بمصر شهرة زائدة . ومما قاله فيها الشهاب المنصورى :

وفتاة نزهت طرفى فيها
شنفت مسمعى بجوهر فيها
منذ زارت محبها وتغنت
كاد يرمى بنفسه من آبيها

* * *

وفى ذى القعدة ثار طائفة من المماليك ولبسوا آلة السلاح ، وطلبوا من السلطان نفقة البيعة ، فوعدهم حتى يجمع المال ، فسكن الأمر قليلا .

وفيه اجتمع القضاة الأربعة والخليفة وقرىء عهد السلطان بحضرتهم وكان موكبا حفلا .

وفيه قبض على قاضى القضاة برهان الدين بن الكركى الحنفى ، ثم توجهوا به الى دار الأتابكى قيت فوكلوا به بالمدرسة الباسطية ، وقد تكلم بعض الناس فى حقه بأن العادل قد أودع عنده مالا فأقام فى الترسيم يوما وليلة ، ثم تكلم بعض الأمراء مع السلطان فى أمره فرسم بالافراج عنه فعاد الى داره ، وكان معه فى التوكيل بدر الدين السعودى نقيبه المعروف بابن الوقاد ، فآل أمره آن طلب منه مال وأخذ منه فيما بعد .

وفى يوم الثلاثاء سابعه خلع على الأمير خشكلدى البيسقى وقرره فى امرية مجلس ، وكان مختفيا من العادل لما أراد القبض عليه .

وفيه تزايد آمر التفتيش على العادل فهجموا بسببه دار سيدى على بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينال فلم يجدوا بها أحدا ، وهجموا زاوية الشيخ أبو شامة التى بالناصرية ، وصاروا يهجمون عليه عدة بيوت وأماكن . وكان العادل فى مدة اختفائه يكتب أوراقا ويرسل يعلقها عند سوق السلاح بالقبو وغير ذلك من الأماكن التى يجتمع بها الأتراك ، ويكتب فيها انه اذا عاد الى السلطنة ينفق على العسكر مائتى دينار لكل واحد منهم وفرس ، وأن الذى وقع منه فى الماضى لا يعاد ، ونحن أولاد اليوم .

وفى يوم الأثنين ثالث عشره ، حضر قانصوه الخازندار ، وكان الظاهر قانصوه خال الناصر أرسله قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة سنة وثلاثة أشهر ، فلما حضر أكرمه السلطان وخلع عليه .

وفيه قبضوا على العادل طومان باى من مكان بالقرب من بيت الأتابكى جرباش كرد الذى عند زاوية الشيخ خلف ، وكان من ملخص أمره آنه لما طال اختفاؤه ، وصارت الأمراء على رءوسهم الطيرة منه ، ولا ينامون فى بيوتهم الا ومماليكهم لابسون آلة السلاح ليلا ونهارا ، فلما تزايد الأمر أخذوا فى أسباب عمل الحيلة على العادل ، فاستمالوا جانى بك الذى كان شاد الشراب خاناه وجانى بك الشامى وكان من أخصاء العادل ، فوعدوا كلا منهما بتقدمة ألف ، وكانا يجتمعان

على العادل فى مدة اختفائه ، فحسنوا للعادل بأن يجيء الى بيت جانى بك الشامى الذى بجوار بيت الأتابكى جـرباش كرد ، وكان الأمير مصر باى الدوادار ساكنا فى بيت الظاهر تمر بغا الذى عنـد سوق القبو خلف بيت الأتابكى جرباش ، فقرروا مع العادل أنه اذا حضر الى بيت جانى بك الشامى يهجمون على مصر باى بعد العشاء وهو جالس فى مقعده ، فيدخلون عليه من باب سر الأتابكى جرباش الذى خلف بيت تمر بغا فيقتلونه تحت الليل على حين غفلة ، فاذا قتـل مصر باى يركب العادل من هنـاك ويحطم باب السلسلة فيملكه ، فانصاع العادل الى هذا الكلام وحضر الى بيت جانى بك الشامى ... وكان هـذا عين الخداع ، وصار من تدبيره ، ما عاد فى تدميره . فلمـا صار عنده فى البيت مد له أسمطة حافلة وبات عنده ، فأرسل جانى بك الشـامى أعلم مصر باى بذلك ، فبينما العادل فى أرغد عيش فما شـعر الا وقد هجموا عليه وأحاطوا بالمكان الذى به وقد تمت الحيلة عليه ، كما يقال :

لا تركنن الى الخـريف فماؤه
مستوخم وهـواؤه خطاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها
ومن الصديق على الصديق يخاف

قيل لما هجموا عليه قام وهرب فتسلق من على حائط ورمى بنفسه من أعلى الحـائط فوقع على فخذه فانكسر نصفين ، فأدركه شخص من مماليك الأشرف جان بلاط يقال له أرزمك فقطع رأسه ، وصار كل من مماليك جان بلاط وقصروه ، يشتفى منه ويضربه بالسيف حتى هروه ، فلما قطعوا رأسه أحضروها بين يدى مصر باى الدوادار ، فوضعها فى طبق من النحاس ، وأخرجها من بيته والمشاعلية تنادى عليه : « هذا جزاء من يسفك الدمآء ويقتل الأمراء بغير حق » ، فعز ذلك على بعض الأمراء .

فلما عرضت رأسه على السلطان رسم بدفنه وأرسل معه ثوبا بعلبكيا وعشرين دينارا ، فأعادوا رأسـه الى جثتـه ، وغسلوه وكفنوه وصلوا عليـه ، ثم توجهوا به الى تربته التى أنشأها بالقرب من المطعم السلطانى فدفن بها ، ولما أرادوا التوجه به أدخلوه من باب زويلة ومعه والى القاهرة وجماعة كثيرة من المماليك السلطانية وهم لابسون آلة السلاح ، وكان هذا خوفا على العادل من مماليك الأشرف جان بلاط ومماليـك قصروه أن يحرقوه وهو فى التابوت ... وكان قصدهم ذلك حقيقة فما قدروا على ذلك . وواقعة العادل طومان باى تقرب من واقعة الأتابكى تمراز الشمسى وقد تقدم ذكر ذلك .

وكان العادل طومان باى ملكا جليلا مهابا ذا شهامة زائدة وحرمة وافرة ، وكان من مبتداه الى منتهاه وهو فى عز وضخامة ، لكنه لما ولى السلطنة ظهر منه أمور فاحشة وأخرق فى سفك الدماء وقتل الأمراء ، ولو دام فى السلطنة كان يظهر منه أمور شـنيعة ويقتـل غالب الأمراء ، وكان عنده مكر وخداع ... لكنه كان يظهر العدل فى بعض الأمور ، وكان محببا للناس ، ولا سيما طائفـة العوام ، وقد تقدم ما أوردناه من أخباره ، وما ولى من الوظائف السنية ، وما وقع منه من الأمور فى تغيير الدول ، وما فعل بالملك الناصر والظاهر قانصوه والأشرف جان بلاط وغير ذلك من الأمراء ، وقد قلت فى ذلك :

العـادل السـلطان لا تعجب له
فيما جـرى منه بتغيـير الدول
أعمـاله ردت عليـه بما جنى
والدهر قد جازاه من جنس العمل

وكانت مدة اختفائه من حين تسحب من القلعة ليلة عيد الفطر الى حين قبض عليه اثنين وأربعين يوما ، فلما قبضوا عليه وجدوا شعر رأسه قد طال حتى صار كفروة الغنم ، وكانت الناس فى مدة اختفائه فى جمرة نار من هجم البيوت وكبس الحارات ، وقاسوا غاية المشقة بسبب ذلك حتى ظهر . وكانت واقعته من النوادر الغريبة ، فكانت تقرب واقعته من واقعة الملك العزيز يوسف بن الأشرف برسباى لما اختفى وحصل للناس الضرر بسببه .

فيل لما قتل العادل تخلق بدمه عيال خوند أم الناصر وأظهروا الفرح والسرور فى ذلك اليوم . وكانت معذورة فيما فعلت ، فانه قتل ابنها الناصر ، وسجن أخاها الظاهر قانصوه ، وقتل زوجها الأشرف جان بلاط . وعد قتل العادل من جملة سعد الغورى .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له قرقماس البيسقى تنم نائب الشام وقرره فى نيابة القدس ، وكان أحد الأمراء العشراوات .

* * *

وفى ذى الحجة حضر من كان سجنه العادل من الأمراء بدمشق وهم قرقماس بن ولى الدين ، وأزدمر بن على باى ، وقانصوه بن سلطان جركس الذى كان نائب حماة ، وسودون الدواداري . فلما مثلوا بين يدى السلطان خلع عليهم ووعدهم بكل جميل .

وفيه ظهر تمر باى خازندار العادل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر قرر عليه مال وأقام فى الترسيم حتى يورد ما قرر عليه من المال .

وفى يوم الخميس ثامن ذى الحجة عزل قاضى القضاة زين الدين زكريا الشافعى عن القضاء ، وهذا كان آخر عزله وولايته للقضاء ، وقد كف بصره عقيب ذلك . فلما عزل زكريا سعى محيى الدين عبد القادر بن النقيب فى عوده الى القضاء ، وقد أورد مالا له صورة ، فخلع عليه وأعيد الى القضاء عوضا عن زكريا بحكم انفصاله عنها ، وهذه ثانى ولاية وقعت لابن النقيب .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر وقطع أضحية لبعض جماعة من الفقهاء والخدام .

وفيه أنعم السلطان بعدة تقادم ألوف على جماعة من الأمراء ، منهم قرقماس بن ولى الدين قرره فى امرية السلاح عوضا عن قيت الرجبى بحكم انتقاله الى الأتابكية ، وقرر أصطمر بن ولى الدين فى امرة مجلس عوضا عن خشكلدى البيسقى ، وبقى خشكلدى البيسقى مقدم ألف بغير وظيفة وكان يجلس فوق أصطمر ، وقرر أزدمر بن على باى فى حجوبية الحجاب عوضا عن أصطمر بن ولى الدين بحكم انتقاله الى امرة مجلس ، وأنعم على أرزمك الناشف الذى كان نائب القلعة بتقدمة ألف ، وكذلك قانصوه الخازندار الذى كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ، وكذلك قانصوه الفاجر ، وخشكلدى الذى كان أستادار الصحبة ، وكان الأشرف جان بلاط أنعم عليه بتقدمة ولم يتم له ذلك من بعده وصار أمير طبلخاناه ، وغير هؤلاء جماعة آخرون .

وفيه رسم السلطان باحضار جماعة من الأمراء العشراوات وكان العادل نفاهم الى دمياط فحضروا جملة واحدة ، وكانوا نحوا من ثمانية أنفار .

ومن الحوادث الشنيعة أن طائفة المماليك وقفوا وقت طلوع الفجر الى القاضى شمس الدين

أبي المنصور مباشر العادل فقتلوه وهو خارج من بيته الذي بالمقس طالع الى القلعة ، فقتله بعض المماليك بخنجر في بطنه فمات من يومه ولم تنتطح في ذلك شاتان ، كما وقع لأبي البقا بن الجيعان في البندقانيين وهو طالع من بيته الى القلعة ، وكان أبو المنصور من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة أيام أقبردى الدوادار ، وباشر عدة جهات سنية في أيامه ، ثم من بعد أقبردى التجأ الى العادل طومان باى من حين كان دوادارا كبيرا وخرج معه الى الشام في تجريدة « قصروه » ، فلما عاد وهو سلطان تزايدت عظمة أبي المنصور عنده وجعله متكلما في الخزائن الشريفة مع صلاح الدين ابن الجيعان ، وكان أصله من بني الأقباط وكان لا بأس به .

وفي يوم الثلاثاء حادي عشرينه [1] تغير خاطر السلطان على قاضي قضاة الشافعية محيي الدين عبد القادر بن النقيب فعزله عن القضاء ورسم بنفيه الى قوص ، فتوجه اليه نقيب الجيش وأركبه على حمار وتوجه به الى البحر ، فشفع فيه بعض الأمراء من النفي وقرر عليه مال ، فكانت مدته في هذه الولاية الثانية ثلاثة عشر يوما لا غير ، فانه أعيد الى القضاء بعد عزل قاضي القضاة زكريا في يوم الخميس ثامن ذي الحجة ، وعزل عن القضاء في يوم الثلاثاء حادي عشرين ذي الحجة فهي ثلاثة عشر يوما سوى .

وفي يوم الخميس ثاني عشرينه [1] طلب السلطان الشيخ برهان الدين ابراهيم بن أبي شريف المقدسي ، فخلع عليه وقرره في قضاء الشافعية بمصر عوضا عن عبد القادر بن النقيب ، فكان له يوم مشهود لما شق من القاهرة وهو لابس التشريف ، وكان كفؤا للمنصب .

وفيه اضطربت الأحوال وارتج الأمر على السلطان من قبل المماليك بسبب نفقة البيعة ، فشكا السلطان بأن الخزائن خالية من المال ، فان المماليك ثائرة بسبب النفقة وقد كثر العسكر من سائر الطوائف ما بين ظاهرية وأشرفية واينالية وخشقدمية وقايتبايهية وناصرية ومماليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جان بلاط ومماليك العادل طومان باى ومماليك النواب والأمراء الذين قتلوا ممن تقدم ذكرهم ، وقد صار كل أحد منهم يروم له رزقا ، وأن الملك الناصر بن الأشرف قايتباى فرق الأقاطيع التي كانت في الذخيرة جميعا فمن أين آسد هؤلاء المماليك ؟

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرين ذي الحجة اجتمع الأمراء عند السلطان في الدهيشة وضربوا مشورة في ذلك اليوم ، وأقاموا في القلعة الى بعد العصر ، فلما نزلوا أشيع بين الناس أن السلطان يقصد يخرج أوقاف الجوامع والمدارس ويبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط ، وأنه يفرق بلاد الأوقاف بمثالات على الأمراء والمماليك ، فلما بلغ الناس ذلك اضطربت الأحوال وكثرت في ذلك الأقوال .

سنة سبع وتسعمائة (١٥٠١/١٥٠٢ م) :

فيها ، في المحرم ، صعد الخليفة المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب والقضاة الثلاثة — وهم برهان الدين بن أبي شريف الشافعي ، وعبد الغني بن تقي المالكي ، والشهاب أحمد الشيشيني الحنبلي — وتأخر قاضي القضاة الحنفي عبد البر بن الشحنة ، ولكن طلع فيما بعد ، فلما طلعوا الى القلعة ليهنوا

[1] تأمل .

السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى بالعام الجديد تكلم مع القضاة فيما تقدم ذكره فى أمر الأوقاف ، فلم يوافق القاضى الشافعى على ذلك ولا القاضى المالكى ولا الحنبلى ، ثم ان القاضى الحنبلى أغلظ على السلطان فى القول فانحرف منه وقال له : « اذا ركبوا المماليك وطلبوا منى نفقة أنا أبعثهم لك فى بيتك كلمهم مثل ما تعرف » . فانفض المجلس مانعا ونزل القضاة الى دورهم على غير رضا من السلطان ، ثم طلع القاضى الحنفى عبد البر الى السلطان فى أواخر النهار فتكلم معه فى ذلك ، فمشى عبد البر فى غرض السلطان بما يريد ، ثم اجتمع الأمراء عند السلطان فى مجلس ثان وضربوا مشورة فى معنى ذلك . فوقع الاتفاق على أن الأوقاف تبقى على حالها ويؤخذ من ريعها سنة كاملة ، ومن أجرة أملاك القاهرة من بيوت وربوع وحوانيت وحمامات وغيطان ومراكب وغير ذلك يؤخذ منهم أجرة عشرة أشهر كاملة ، حتى من وقف البيمارستان المنصورى وسائر الأوقاف من عال الى دون ، وكتبت المراسيم بمعنى ذلك الى ثغر الاسكندرية ودمياط حتى الى دمشق وأعمالها وسائر البلاد الشامية والحلبية . وكان القائم فى هذه المظلمة الأتابكى قيت الرحبى . وصار الأتابكى قيت الرحبى يرسم على أعيان الناس بسبب ذلك بالمدرسة الباسطية حتى يردوا الأموال ، لا جزاه الله خيرا !

ثم ان السلطان نادى فى القاهرة بأن كل من كان ناظرا على وقف ، وكل من كان له اقطاع من أجناد الحلقة أو غيرها ، يتوجه الى بيت الأتابكى قيت الرحبى ، وأن أرباب الرزق من النساء والخوندات والستات يتوجهن الى بيت القاضى ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وأن أرباب الأملاك والحوانيت يتوجهون الى بيت الأمير مصرباى الدوادار .

ثم ان السلطان رسم لثمانية من الأمراء المقدمين بأن يتكلم كل واحد منهم على فرع من أبواب هذه المظالم ، فتكلم الأتابكى قيت فى جهات الأوقاف قاطبة واقطاعات الحلقة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وتكلم مصرباى فى جهات الأملاك قاطبة ، فكتبت القوائم بأسماء الأقاطيع والرزق من بيت أولاد الجيعان وطلبت أعيان الناس بالرسل الغلاظ الشداد ، وطلب مصرباى أرباب الأملاك التى هى من الصليبة الى مصر العتيقة الى دير الطين ، وتكلم الأمير قرقماس أمير سلاح على جهات البيوت التى هى داخل بابى زويلة قاطبة ، وتكلم الأمير أزبك المكحل أحد المقدمين فى جهات البيوت التى هى خارج باب الشعرية من جزيرة النيل الى المطرية ، وتكلم قانى باى قرا أمير آخور كبير فى جهات المراكب والسواقى قاطبة ، وتكلم الأمير طقطباى أحد المقدمين على جهات الغيطان قاطبة ، وتكلم طراباى رأس نوبة النوب على جهات مصادرات التجار ومساتير الناس ، وتكلم أنص باى أحد المقدمين هو وأزدمر بن على باى على مصادرات طائفة اليهود والنصارى وقد قرر عليهم نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وتكلم ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال على جهات رزق النساء من الخوندات والأعيان من الستات . ثم قرر السلطان مالا على جماعة من الخدام منهم محسن ومختص وغير ذلك من الخدام ، وأطلق فى الناس جمر نار المصادرات ، وصار كل منهم فى أليم الغمرات .

ان يوم الاثنين رابع المحرم وثب جماعة
ك على السلطان ولبسوا آلة السلاح ،
لك أن السلطان قد أبطأ عليهم بتفرقة
ثة أشهر فوثبوا عليه وطالبوه بالنفقة ،
م : حتى تجبى الأموال ... فلم يرضوا
نادى لهم أن النفقة تكون بعد مجىء
سكن الحال قليلا ، وآل الأمر الى الحث
ء المصادرات فى سرعة استخراج الأموال ،
بهم نيران الأهوال ، وعملوا فيهم بالباع
، ولم يجدوا لهم من حميم ولا شفيع
ان أصحاب الأملاك ضيقوا على السكان
بأن يعجلوا لهم من أجرة الدكاكين
عشرة أشهر معجلا لأجل هذه الغرامة ،
م بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتعطلت
من البيع والشراء ، وغلقت غالب دكاكين
ووقع الاضطراب للغنى والفقير ، وصار
جمرتين ، ويطلبون فى اليوم الواحد من
ساعة كثيرة من الحكام مرتين ، حتى
، ذلك ، وقلت فى المعنى :

ا أملاك مصر والقرى
فى عام سبع مضنى الاهلاك
ير يا له من حادث
قد ضج منه الأرض والأملاك

ن يوم الجمعة ثامن المحرم تزايد الأمر ،
ى الجوامع ، ومنعوا منها الخطبة فى ذلك
ها جامع الجنيد الذى هو داخل الدرب
رب من قناطر السباع ، وجامع آخر
وق ، وغير ذلك عدة جوامع . فلما
كى قيت الرحبى الى القلعة وصلى
السلطان ونزل ، وقفت له جماعة كثيرة
وشكوا له أن أصحاب الأملاك ضيقوا
ليوهم بعشرة أشهر معجلا بسبب هذه
الغرامة وما لهم قدرة على ذلك ، فلم يلتفت الى
كلامهم ، فلما وصل الى الجامع الصالح الذى تجاه
بابى زويلة فكبروا عليه العوام ورجموه فجاءته
رجمة فى كلوته ، وكان الى جانبه الأمير طراباى
رأس نوبة النوب فجاءته رجمة فى جبهته حتى سال
منه الدم ، فلما عاينوا المماليك ذلك سلوا
أسيافهم ووقعوا فى العوام وجرح منهم جماعة
وقتل فى ذلك اليوم نحو من ثلاثة أنفار ثم ان
الزعر والعبيد نهبوا عدة دكاكين من البسطيين الى
داخل باب زويلة ، واستمر النهب والقتل عمالا
الى قريب المغرب ، ونهب للناس مال له صورة
وبضائع كثيرة ، حتى قيل نهب لشخص حريرى
خمسمائة دينار ذهب عين ، وغير ذلك من شمع
وفاكهة وسكر . فلما تزايد الأمر ركب والى
القاهرة وقبض على جماعة من الزعر والعبيد
ووسط منهم نحوا من أربعة عشر انسانا ، وكادت
القاهرة أن تخرب عن آخرها مما جرى فى هذا
الحادث العظيم .

فلما كان يوم السبت صبيحة ذلك اليوم وقف
جماعة من السوقة من أهل الصليبة الى الأمير
أزدمر بن على باى أحد المقدمين وشكوا له حالهم
وكلموه بلطافة وحشمة عن أمر أجرة العشرة
أشهر ، فلما طلع الى القلعة اجتمع بالسلطان وتكلم
معه فى ذلك ، فاتفق الحال على أن يحط من
العشرة أشهر ثلاثة أشهر وتصير سبعة كما فعل
الأشرف قايتباى . ثم ان السلطان نادى فى القاهرة
للناس بالأمان والاطمان والبيع والشراء وأن
السلطان حط من أجرة البيوت والدكاكين ثلاثة
أشهر وصارت سبعة ، فسكن الحال قليلا .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشره قبض السلطان على
الأمير مصرباى الدوادار وهو بالقلعة ، وقد وقع
اختيار الأمراء على ذلك . فلما قبضوا عليه أدخلوه

البحرة وقيدوه . وقبضوا فى ذلك اليوم على آخرين من الأمراء العشراوات من غير سبب .

وفى يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير أزدمر بن على باى وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن مصرباى بحكم القبض عليه ، وأخلع على الأمير خاير بك أخى قانصوه البرجى ، وقرر فى حجوبية الحجاب، عوضا عن أزدمر بحكم انتقاله الى الدوادارية الكبرى ، وخلع على الأمير طقطباى بن ولى الدين وقرر فى التقدمة والوزارة والأستادارية عوضا عن مصرباى .

وفى أثناء هذا الشهر توفى الأمير قان بردى الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وكان من خواص العادل وترشح أمره بأن يلى وظيفة الأتابكية بعد قصروه ، وما تم ذلك وجرح لما وثبوا على العادل فى رمضان واستمر من ذلك الجرح عليلا حتى مات .

وفيه تقرر جان بلاط الموتر فى الحسبة عوضا عن جان بردى الغزالى بحكم انفصاله عنها .

وفى يوم السبت سادس عشر المحرم أشيعت الأخبار بأن جانى بك الشامى الذى كان من أخصاء العادل وخاير بك كاشف الغربية الشهير باللامى قد تسحبا من البرج الذى بالقلعة وقت الظهر وقتلوا السجان ، وتسحب معهم عدة مماليك كانوا بالبرج ، فلما تسحبوا اختفوا بالقاهرة فاضطربت الأحوال وكثر القيل والقال ، فلما بلغ السلطان ذلك أحضر المصحف العثمانى وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة الخليفة والقضاة الأربعة ، فحلفوا بأنهم لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يركبون عليه .

وفى يوم الاثنين ثامن عشر المحرم الموافق لتاسع مسرى أوفى النيل المبارك ، فلما أوفى لم يجسر الأتابكى قيت بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فتوجه لفتحه مغلباى الشريفى الزردكاش

وكان فى ذلك اليوم تفرقة الجامكية فلم يطلع الى القلعة أحد من العسكر . ثم فى ذلك اليوم لبسوا آلة السلاح وثارت الفتنة مهولة واستمر الأمر على ذلك الى قريب المغرب ، وكان القائم فى هذه الفتنة مماليك الظاهر قانصوه ومماليك الأشرف جان بلاط ومماليك العادل طومان باى ، فلما ركبوا طلعوا الى الرملة فلم يفد من ركوبهم شيئا ، ونزل اليهم الأمير طراباى رأس نوبة النوب ومعه جماعة من الأمراء ، فلما عاينوهم هربوا من وجوههم وتمت الكسرة على طائفة المماليك الذين وثبوا .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه نادى السلطان فى القاهرة بأن مماليك الظاهر قانصوه والأشرف جانبلاط والعادل طومان باى يخرجون الى جهة الصعيد ويقيمون بها ، وكل من تأخر من بعد المناداة شنق بلا معاودة . وصاروا يكررون هذه المناداة ثلاثة أيام متوالية ، فصاروا يخرجون الى جهة الصعيد شيئا فشيئا وهم فى غاية الذل .

وفيه خلع السلطان على الأمير بيبردى الفهلوان وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن قان بردى بحكم وفاته .

* * *

وفى صفر — فى أول يوم منه — نزلوا بالأمير مصرباى من القلعة وهو مقيد ، فتوجهوا به الى السجن بثغر الاسكندرية فسجن بها .

وفى يوم الاثنين ثانيه أنفق السلطان على العسكر نفقة البيعة ، وقد صبرهم نحوا من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات ، فأنفق على طبقتين لا غير وصبر الباقين حتى تجمع الأموال ،

ولم يعط لأحد من المماليك مائة دينار كاملة سوى المماليك القايتبايهية فقط .

وفيه قبض السلطان على الأمير عبد اللطيف الزمام وقرر عليه مالا له صورة ، فسلمه الى الأمير طراباى وأقام عنده فى التوكل به حتى يرد ما قرر عليه من المال ، فباع أملاكه وقماشه حتى سد ذلك ، وصودر عنبر مقدم المماليك ونائبه وشاد الحوش وجماعة آخرون من الخدام . وقد عمت هذه المصادرة حتى غلمان الاسطبل السلطانى والأوجاقية والسر آخورية ونقباء القصر والمعاملين والطباخين ، حتى الفراشين والبابية والشربدارية ، وغير ذلك من غلمان السلطان قاطبة ممن له جامكية فى باب السلطان — وكل هذا لأجل النفقة على المماليك — وكانت حادثة عامة على غالب الناس من الأعيان وغيرهم ، وقد وقع الاضطراب فى أوائل سلطنته الى الغاية .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر توفى الأمير بيبردى الفهلوان الذى قرر فى الدوادارية الثانية ، فأقام بها مدة يسيرة ومات . فلما مات خلع السلطان على جانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة وقرره فى الدوادارية الثانية عوضا عن بيبردى الفهلوان بحكم وفاته .

وفى سلخ هذا الشهر خلع السلطان على طقطباى العلاى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طوخ المحمدى .

وفيه هجم المنسر تحت الليل على سوق الجملون وسوق الخشبية والوراقين ، ونهبوا منها نحوا من عشرين دكانا ... ولم تتنطح فى ذاك شاتان ، وراحت على التجار أموالهم .

وفيه ضيق بعض الأمراء الذين تولوا جباية الأملاك عن السبعة أشهر ، فأرسلوا الى أصحاب الأملاك مهندسين صحبة خاصكى من قبل السلطان ، فطافوا الحارات وهجموا البيوت وقطعوا أجرة الأملاك ثانيا ولم يرضوا بما آخذه الأشرف قايتباى بمقتضى وصولات معهم عما أوردوه فى مغرم السبعة أشهر كما تقدم ، فكانت النكسة أمر من الضعف ، وآخذوا منهم مظلمة ثانية وشددوا عليهم واستوفوا أجرة ثانية .

وفيه أرسل السلطان قبض على خوند أصل باى أم الملك الناصر ، وطلع بها الى القلعة ، ووكل بها عدة من الطواشية ، وأقامت فى الترسيم مدة أيام وقاست غاية البهدلة ، وقرر عليها مال له صورة فلم تورد منه شيئا وأظهرت العجز ، فرسم السلطان بنفيها الى مكة ، فشفع فيها الأمير قرقماس أمير سلاح والأمير طراباى من النفى ، وأوردت من المال الذى قرر عليها بعض شىء .

وفى هذا الشهر أنفق السلطان على العسكر نفقة البيعة ، فأنفق على طبقتين كالحكم الأول ، فكان مجموع ما أنفقه فى هذه المدة على أربعة طباق لا غير .

وفيه تعطلت الأسواق من البيع والشراء بسبب فلوس جدد ضربها السلطان تخسر فى المعاملة الثلث .

وفيه جاءت الأخبار بقتل كاشف الشرقية ، قتله العرب . فلما قتل خلع السلطان على أقباى وقرره فى كشف الشرقية عوضا عن الذى قتله العرب .

* * *

وفى ربيع الأول عمل السلطان المولد النبوى بالحوش ، واجتمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، وكان يوما مشهودا ، وهذا كان أول موالد السلطان .

وفيه انتهت زيادة النيل المبارك الى سبعة عشر

أصبعا من عشرين ذراعا واستمر ثابتا الى نصف بابه.

وفى يوم السبت سابع عشرينه خلع السلطان على موفق الدين بن القمص القبطى وقرره فى التحدث على أوقاف الزمامية نيابة عن عبد اللطيف الزمام.

وفى سلخ هذا الشهر كانت وفاة قاضى القضاة المالكى عبد الغنى بن تقى، وكان عالما فاضلا من ذوى البيوت، مات وهو فى عشر السبعين، وكان لا بأس به.

* * *

وفى ربيع الآخر جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الأمير مصرباى الدوادار قد كسر قيده وهرب من البرج، وقد قيل ان شخصا من مماليكه يقال له اياس صنع له مبردا من فولاذ وجعله ضمن موكبة شمع وأدخلها لأستاذه وهو فى البرج فبرد به قيده ونزل من أعلى السور، وأحضر اليه مركبا صغيرا فنزل به وقد ستر الله عليه وتمت حيلته فحضر الى القاهرة فى الخفية، فلما أشيع هذا الخبر اضطربت أحوال الأمراء وبقى على رءوسهم منه طيرة، وصار الوالى فى كل يوم وليلة يكبس بسببه البيوت والحارات، وحصل للناس غاية الضرر.

* * *

وفى جمادى الأولى، فى يوم الخميس ثامنه، خلع السلطان على العلامة برهان الدين ابراهيم الدميرى، وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن ابن تقى بحكم وفاته. وقد اشتبه على ولاية قاضى القضاة برهان الدين الدميرى هل كانت فى شهر ربيع الآخر أو فى جمادى الأولى.

وفيه قبض السلطان على جماعة من الأمراء، منهم قانصوه الفاجر أحد الأمراء الطبلخانات، وتانى بك الأبح، واسنباى الأصم، وآخرون من الأمراء. فأرسل قانصوه الفاجر الى السجن بثغر الاسكندرية، ثم ان الأتابكى قيت شفع فى تانى بك الأبح وأسنباى الأصم.

وفيه خلع السلطان على الأمير علان بن قراجا، وقرره فى ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن طومان باى الجلب، وخلع على تانى بك الخازندار وقرر فى الحسبة على شخص يسمى محمد بن يوسف، وكان جابى أوقاف الجامع المؤيدى، فقرره فى نظر الأوقاف كما كان محمد بن العظمة، فحصل للناس منه غاية الضرر، وصار يشوش على أعيان الناس ويبهدلهم، وصار يعضده شخص من الأمراء العشراوات حتى لا يحتمى عليه أحد من الناس، فوقع منه أمور مهولة فى حق الناس، فكان كما يقال:

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

هذا جزاء امرىء أقرانه درجوا
من قبله فتمنى فسحة الأجل

وفيه وثب العسكر ولبس آلة السلاح، ولم يكن لهذه الركبة سبب، فأسفرت القضية على أن هذه حيلة على الأمير مصرباى حتى يظهر ان كان هو مختفيا بمصر فيظهر. فلما علم أنها حيلة عليه لم يظهر، فخمدت تلك الفتنة فى أواخر النهار عن غير طائل.

وفيه طلع مجد الدين بن كراوية ناظر الدولة، وشكا الى السلطان انشحات الديوان وعدم وجود اللحم، فوكل السلطان به بالقلعة، وأقام نحوا من اثنى عشر يوما وطباق المماليك معطلة من اللحوم، فضج العسكر. من ذلك ثم ان السلطان رسم بقطع لحوم أولاد الناس والمباشرين والفقهاء وغير

ذلك من الناس قاطبة حتى رواتب الخوندات ، وألا يصرف سوى للمماليك فقط ... فما عن قريب حتى وصل الأمير طقطباى بن ولى الدين وزير الديار المصرية — وكان مسافرا الى جهة الصعيد — فأحضر صحبته اثنى عشر ألف رأس من الغنم ، فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفيه خلع السلطان على ناصر الدين الصفدى ، وقرره فى نظارة الخاص ، عوضا عن علاء الدين ابن الامام بحكم صرفه عنها ، فجمع الصفدى بين وكالة بيت المال ونظارة الخاص كما كان ابن الصابونى .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن الأمير مصرباى وبقية الأمراء المختفيين يظهرون وعليهم أمان الله تعالى ، فلم يظهر سوى جان بردى الغزالى . فلما ظهر خلع عليه السلطان وقرره فى حجوبية الحجاب بحلب فخرج عن قريب .

* * *

وفى جمادى الآخرة دخل الأتابكى قبت الى القاهرة — وكان توجه الى نحو العباسة على سبيل التنزه — فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه أفرج السلطان عن القاضى فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك — وكان له مدة وهو فى الترسيم — فقرر عليه مالا وأطلقه ، وكذلك الصيارفه .

وفيه قبض السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له ألماس ، فضربه ضربا مبرحا ، وضرب معه شخصا آخر يسمى جانى بك الأشرف جان بلاط ، فمات تحت الضرب فوق الخمسمائة عصاة ، ورماه فى البرج . وكان سبب ذلك قد أشيع عنه أنه يرمى الفتن بين الأمراء فصار يضربه غير ما مرة .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق بأن أهل الشام قد رجموا النائب وأخرجوه من البلد . وكان سبب ذلك أن السلطان لما جبى أملاك مصر والقاهرة بسبب السبعة أشهر التى رسم بها فأرسل مراسيم الى نائب الشام يأخذ أجرة سبعة أشهر من أملاك أهل الشام ، فجار على أهل الشام بسبب ذلك ، فما طاقوا هذا الحال فرجموه حتى أخرجوه من البلد ، وكادت دمشق أن تخرب عن آخرها فى هذه الحركة ./

* * *

وفى رجب كانت وفاة الأمير أقباى الطويل شاد الشراب خاناه ، فنزل السلطان وصلى عليه وكانت له جنازة حافلة .

وفيه طلع الى السلطان شخص يقال له صلاح الدين بن الجنيد ، وكان أصله رسولا عند ناظر الخاص علاء الدين بن الصابونى ، فلما طلع الى السلطان اجتمع به وعرض عليه قوائم فيها أسماء جماعة من أعيان التجار ومساتير الناس ، حتى من أعيان النساء المساتير من الخوندات والستات ، وقرر أنه يأخذ على كل رأس من عبد وجارية دينارا ، ثم قال للسلطان : « ألبسنى خلعة وأنا أضمن لك مائتى ألف دينار من غير ضرر ولا أشلة » . فانصاع السلطان الى كلامه ، وأراد أن يلبسه خلعة . فلما بلغ الأمراء ذلك شق عليهم ، وكادت أن تثور فتنة بسبب ذلك ، فاستدرك السلطان فارطه وأحضر ذلك الرجل المرافع وضربه بالمقارع وأمر بقطع لسانه وأشهره فى القاهرة على جمل وهو عريان . فلما شق المدينة كادت العوام أن ترجمه أو تحرقه ، ثم توجهوا به الى المقشرة فسجن بها ، وعد ذلك من النوادر . وكان ضربه

بالحوش بين يدى الأمراء حتى أرضاهم بذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على ولده المقر الناصرى محمد وقرره فى شادية الشراب خاناه عوضا عن أقباى الطويل بحكم وفاته ، وكان ابن السلطان حديث السن وقد قامت الأمراء على السلطان حتى قرره فى شادية الشراب خاناه ، وكان القائم فى ذلك الأتابكى قيت الرحبى والسلطان يمتنع .

ومن الحوادث أن السلطان عين شخصا من الخاصكية يقال له نانق الخازن بأن يتوجه الى جهة البلاد الشرقية والغربية ليستوفى على المقطعين ما كانوا أوردوه من الخراج عن السنة التى أفردها السلطان على المقطعين . فلما توجه نانق المذكور الى هناك ضيق على الفلاحين وفحص عن أصل خراج كل حصة وما تعمل فى كل سنة من الخراج ، فصارت المقطعون فى وجل بسبب ذلك ، ورحل غالب الفلاحين وقد طالبهم ببقية الخراج زيادة عما أورده المقطعون فى بيت الأتابكى قيت الرحبى ، فأرسل الفلاحون يطلبون من المقطعين الرجعات بما أوردوه ببيت الأتابكى قيت ، فغرم الفلاحون لنانق المذكور جملة من المال حتى حل عنهم . وقد ضاع خراج تلك السنة أيضا على المقطعين بين الفلاحين وبين نانق المذكور ، ثم آل أمر هذه الحركة الى السكون . وقد تقدم ما وقع لأصحاب الأملاك ما يقرب من ذلك وغرموا مغرما ثانيا كما تقدم ، وقد ضاق الأمر على الناس جدا .

وفيه ضرب السلطان فلوسا جددا وقد نقش عليها هيئة شباك ، فوقف أمر الفلوس التى كانت قبل ذلك وصارت السوقة لا تأخذ الا الفلوس التى منقوش عليها الشباك ، فوقف حال الناس وصارت البضائع تباع بسعرين : بسعر من الفلوس الجدد ، وسعر بالفلوس العتق . وفوق هذا كله ما قرره المحتسب على السوقة من مال يردونه فى كل شهر . وقد أحال السلطان بما تقرر على الحسبة لبعض الأمراء المقدمين وبعض أمراء عشراوات عوضا عن الأقاطيع ، وكان ما قرر على الحسبة فى كل شهر فوق الألفى دينار وقيل أكثر من ذلك ، وصارت مقررة على سائر السوقة والطحانين وغير ذلك ، ومن يومئذ تحسنت البضائع فى الأثمان بموجب المشاهرة التى تقررت على السوقة .

* * *

وفى يوم الخميس تاسع شعبان عرض السلطان أولاد الناس أصحاب الجوامك والأيتام من نساء ورجال ، فلما عرضهم قطع عدة جوامك ممن له أشرفى أو مائتان فأضر ذلك بحال الأيتام من نساء وصغار ، ثم قطع عدة جوامك لجماعة كثيرة من أعيان أولاد الناس والمباشرين ووبخهم بالكلام ، وقطع جوامك جماعة من الأوجاقية ونقباء القصر والسرآخورية وغلمان الاسطبل السلطانى ، وسائر من له جامكية فى باب السلطان من الفقهاء والمتعممين حتى جماعة من الخوندات والستات ، فجماعة أبقى لهم النصف من جوامكهم وشىء قطع لهم الجوامك كلها وصار بالقسم والنصيب ، وكان القائم فى هذه المظلمة أيضا الأتابكى قيت الرحبى لا جزاه الله خيرا ، فحصل للناس فى ذلك اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة بغير طائل ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا طالب الرزق مهلا ... فلا بسعيك تطمع
وثق برب كريم ... فالله يعطى ويمنع

وفيه عين السلطان الأمير قانصوه بن سلطان جركس بأن يتوجه الى الشرقية كاشفا ، فلما توجه الى هناك لم يقابله من العربان أحد وازدادوا عصيانا فوق عصيانهم ، وسموه « هات لبن » ،

فأقام بالشرقية نحوا من أربعين يوما ورجع من غير طائل .

وفيه أكمل السلطان نفقة البيعة على العسكر ، وقد طاول العسكر هذه المدة الطويلة واعتذر عن ذلك حتى جمع الأموال ثم أكمل لهم النفقة بعد ذلك .

وفى أواخر هذا الشهر توفى القاضى زين الدين سالم صاحب ديوان الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان من أعيان المباشرين ورأى غاية العز والعظمة فى أيام الأتابكى أزبك ، وكان فى سعة من المال وله ثروة زائدة وكان لا بأس به ، ومات وقد جاوز السبعين سنة من العمر .

وفيه توجه الأمير طقطباى وزير الديار المصرية الى جهة الصعيد لجمع المغل ، فصلى الجمعة مع السلطان ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأمراء المقدمون ، وكان له يوم مشهود .

* * *

وفى رمضان ، فى يوم مستهله ، نادى السلطان فى القاهرة بأن أولاد الناس والأيتام من النساء والصغار يطلعون الى القلعة ، وأشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يرد جوامك الأيتام التى قطعت — وكان قصده ذلك حقيقا — فلما طلعوا الى القلعة لم يمكنه الأتابكى قيت من ذلك ، فرد فى ذلك اليوم لبعض جماعة من المماليك ، ونزل البقية خايبين من غير طائل ، كما قيل :

سل الله ربك من فضله
اذا عرضت حاجة مقلقه

ولا تسأل الترك فى حاجة
فأعينهم أعين ضيقه

ومن الحوادث أن فى ليلة الاثنين ثانى عشر شهر رمضان طلع الأمراء الى القلعة ليفطروا مع السلطان على العادة ، فلما فطروا ونزلوا من القلعة ووصلوا الى رأس الصوة واذا بطائفة من المماليك نحو من اثنى عشر مملوكا قد أحاطوا بهم ، فأسفرت هذه الواقعة بأن الأمير مصرباى الدوادار ظهر والتفت عليه طائفة من أخمل المماليك فقصد أن يقطع الطريق على الأمراء وهم نازلون من القلعة ، فوقفوا لهم عند باب السلسلة . فلما نزلوا من القلعة خرج عليهم مصر باى بمن معه من تلك المماليك اليسيرة ، فرموا على الأمراء بالنشاب ، فجرح الأمير طراباى والأمير تمر الزردكاش ، لكنه جرح خفيف فما تأثروا له ، ولكن قتل فى تلك الليلة شخص بالرملة من المماليك يقال له جانى بك ، قيل انه قرابة الأمير طراباى . وكان قصد مصرباى قتل أزدمر الدوادار وقيت الرحبى وبقية الأمراء فما قدر على ذلك وانكشف رخه وافتضح ، وكانت هذه غاية الخفة من مصرباى ، فلما جرى ذلك اضطربت الأحوال تلك الليلة ولبس العسكر آلة السلاح وباتوا على وجل ، فوقف مصرباى بالرملة ساعة فلم يحضر عنده أحد من العسكر ، فنزل من الرملة بغير طائل ، ثم رجع الأمير أزدمر الى القلعة وبات بها عند السلطان تلك الليلة ونزل الأتابكى قيت الى داره ، وقد أشيع أن السلطان كان مع مصرباى فى الباطن ، ولم يكن لهذا الكلام صحة . فلما رجع مصرباى من الرملة دار على الأمراء تحت الليل فلم يطاوعه أحد على الركوب معه ، فعند ذلك توجه الى الأزبكية وبات بها وانتظر أحدا يأتيه من المماليك السلطانية فلم يجىء أحد له . فلما طلع النهار اجتمع عنده بالأزبكية نحو من عشرين مملوكا أو دون ذلك ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل اليه طائفة من المماليك صحبة الأمير علان والى القاهرة فحاربوه هناك ، فلم يكن الا

ساعة يسيرة وقد كسر الأمير مصرباى وقتل بالأزبكية شر قتلة ، فحمله بعض المماليك قدامه على الفرس وهو ميت وطلع به الى القلعة . فلما عاينه السلطان أمر بدفنه ، فغسل وكفن وصلى عليه ودفن ، وكانت واقعته من أبشع الوقائع وأنحسها ، وقد خطر بباله أنه يقتل الأمراء ويملك القلعة بهذه الطائفة اليسيرة التى معه من المماليك وهى دون عشرين مملوكا ، وكان هذا غاية الخفة منه ، مع أنه كان من ذوى العقول وعنده ثبات جنان ، وكان دينا خيرا . وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وساعدته الأقدار حتى ولى الدوادارية الكبرى بمصر فى دولة الغورى ، ثم قبض عليه وسجن بثغر الاسكندرية ، ثم تسحب من البرج الذى كان به مسجونا وجرى بسببه على الناس ما لا خير فيه من كبس بيوت وحارات وغير ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك بالرملة كما تقدم فلم يطب طبه ، وكانت الأمراء على رءوسهم طيرة منه ، فلما توجه الى الأزبكية وبات بها وأصبح فجمع صغار باب اللوق ، ودق له هناك طبلخاناه ، وكانت طبلخانة فشار ، وآخر الأمر كسر وقتل فى يومه ، كما تقدم ذكر ذلك ، فكان كما يقال :

ما تبلغ الأعداء من جاهل
ما يبلغ الجاهل من نفسه

وكان الأمير مصرباى سببا لقتل الملك العادل طومان باى ، وقد عمل عليه حيلة حتى ركن اليه ثم غدره حتى قتل ، ووضع رأسه فى طبق وأشهره بالرملة والمشاعلية تنادى عليه ، وأفحش فى حقه الى الغاية ... فما عن قريب حتى أخذ مصرباى وجرى عليه شدائد ومحن ، وافتضح وهو طالع الى القلعة ميت على فرس وخلفه من يحضنه والناس ينظرون اليه ، وهذا غا... والمجازاة من جنس العمل ، كما يقال :

اذا ما الدهر جر على أناس
كلاكله أناخ بآخرين
فقل للشامتين بنا مهيلا
ستلقوا عن قريب ما لقين

وكان فى هذه الواقعة عبرة لمن اعتبر قتل مصرباى خمدت تلك الفتنة ، و... جملة سعد السلطان .

ثم فى يوم السبت سابع عشر رمض... السلطان مماليك أقبردى الدوادار و... جماعة منهم الى البلاد الشامية ، فنفى ثمانين مملوكا فأخرجهم وهم فى زناجير وقد أشيع عنهم بالركوب مع مصرباى ذنب كبير .

* * *

وفى شوال لم تثبت رؤية الهلال ... العشاء ، وكان العيد بالجمعة ، فحص... تلك الليلة توعك فى جسده فلم يصل ... واحتجب عن الناس وكثر القيل والقال فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خرج ... القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ر... أصطمر بن ولى الدين أمير مجلس ... الأول الناصرى محمد بن العلاء على بك . فلما خرج المحمل رسم السلط... قانم أخى الظاهر قانصوه صحبة الحاج بمكة بطالا ، وكان صحبته قانصوه ال...

وفيه خلع السلطان على أقباى ...

---

(١) الرواية الصحيحة :
فقل للشامتين بنا أفيقوا
سيلقى الشامتون كما لقينا

وقرره فى كشف الشرقية عوضا عن قانصوه بن سلطان جركس .

وفى هذا الشهر تحول الأتابكى قيت من بيت الأشرف جان بلاط الذى بحارة عبد الباسط وسكن بالأزبكية فى بيت الأتابكى أزبك .

* * *

وفى ذى القعدة كان ختان ابن على بن أبى الجود برددار السلطان .

وأما برددارية السلطان فهى وظيفة حادثة لم تعهد فى الدول الماضية وانما حدثت فى دولة الأشرف قايتباى . وأول من تولى بها محمد بن الحمامية ، فلما مات تولاها من بعده جماعة كثيرة ، واستمرت الى الآن حتى تولاها على بن أبى الجود ، ففتك بها فتكا ذريعا . فلما كانت زفة ولده رجت لها القاهرة وزينت الدكاكين ، وأوقدوا له الشموع والقناديل من المدرسة الأشرفية الى الصليبة ، ومشى بها أعيان الناس من المباشرين والتجار حتى تغرى بردى الأستادار وبعض أمراء عشراوات منهم تغرى برمش وجماعة من الطواشية وغير ذلك من الأعيان ، وكان لها يوم مشهود مثل دوران المحمل حتى عد ذلك من النوادر ، ثم اشتهر أمر على بن أبى الجود من بعد ذلك حتى كان ما سنذكره فى موضعه

وفيه كانت الأسواق معطلة والبضائع مشحوتة بسبب الفلوس الجدد حتى يعمل لهم معدل .

* * *

وفى ذى الحجة — فى يوم الخميس رابعه — كانت وفاة ناصر الدين بن الصفدى ناظر الخاص ووكيل بيت المال ، مات فجأة . قيل طلب منه السلطان مالا فلم يقدر على ذلك ، فيقال انه ابتلع فصا من الماس فمات من ليلته ، وكان لا بأس به ، وعد من أعيان مصر .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العادة ، ولكن قطع لجماعة من الفقهاء والطواشية والنساء .

وفيه حضر الأمير طقطباى الوزير وكان مسافرا نحو بلاد الصعيد ، فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه رسم السلطان لعلى بن أبى الجود بأن يتكلم فى جهات الخاص الى أن يتولى من يختاره السلطان عوضا عن الصفدى .

وفيه ختم السلطان ضرب الكرة ، وعزم على الأمراء فى الدهيشة ومد لهم أسمطة حافلة .

وفيه توفى القاضى شهاب الدين بن البرقى ، وكان من أعيان نواب الحنفية وله شهرة بين الناس وكان لا بأس به .

وفى أواخر هذه السنة صار يحترق فى كل ليلة عدة أماكن بالقاهرة بسبب الدريس ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وقد خرجت هذه السنة من الناس وهم فى أمر مريب بسبب ما وقع فيها من الفتن والمصادرات ، وكانت سنة كثرت فيها الحوادث والوقائع صعبة شديدة ، فانقضت على خير .

سنة ثمان وتسعمائة (١٥٠٢/١٥٠٣ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان خليفة الوقت يومئذ الامام المستمسك بالله أبو الصبر يعقوب بن المتوكل على الله عبد العزيز ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى .

وأما القضاة الأربعة فالقاضى برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، والقاضى سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبى الحنفى ، والقاضى البرهان ابراهيم الدميرى المالكى ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الشيشينى الحنبلى .

فلما دخلت هذه السنة ، وتم أمر السلطان فى السلطنه ، وتبتت فواعد دولته ، قرر الأمراء المقدمين أربعة وعشرين أميرا مقدم ألف منهم أرباب الوظائف وهم الأتابكى قيت الرحبى أمير كبير ، وقرقماس ابن ولى الدين أمير سلاح ، وأصطمر بن ولى الدين أمير مجلس ، وقانى باى قرا بن ولى الدين أمير آخور كبير ، وطرباى الشريفى رأس نوبة النوب ، وأزدمر بن على باى دوادار كبير ، وخاير بك بن ملباى حاجب الحجاب — وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام — فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء المقدمون الذين بغير وظائف فهم : خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وقانصوه ابن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير سودون العجمى ، وماماى المحمدى المعروف بجوشن ، وأنصباى بن مصطفى ، وتمر الحسنى ، وطقطباى العلائى نائب القلعة ، وطقطباى بن ولى الدين وهو الوزير والأستادار ، ودولات باى قرموط ، وقانصوه بن طراباى المعروف بكرت ، وأرزمك الشريفى الناشف ، وأزبك بن طراباى المكحل ، ونوروز بن أزبك أخو يشبك الدوادار وأبو يزيد المحمدى ، وعلى باى السيفى يشبك الذى كان نائب غزة ، وخاير بك السيفى اينال ابن اينال كاشف الغربية ، وجانبلاط المحمدى أخو قانصوه البرجى

ثم قرر من الأمراء الطبلخانات خمسة وسبعين أميرا ، منهم أرباب الوظائف عشرة وهم : عبد اللطيف الزمام والخازندار الكبير ، والمقر الناصرى محمد بن السلطان شاد الشراب خاناه ، وجانم قريب الأشرف قانصوه خمسمائة أمير دوادار ثانى ، ومغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، وتمراز جوشن رأس نوبة ثانى ، وجان بردى تاجر المماليك ، وطومان باى قرا حاجب ثانى ، وقلج ابن ولى الدين أمير آخور ثانى ، وتانى بك بن يشبك محتسب القاهرة وخازندار ثانى ، وعلان والى القاهرة ويعرف بعلان بن فراجا ، وقانصوه ابن دولات بردى أستادار الصحبة ... فهؤلاء أرباب الوظائف .

وأما الأمراء الذين بغير وظائف فهم : قرقماس الشريفى — وكان الأشرف جان بلاط أنعم على خشكلدى بن ولى الدين بتقدمة ألف وعلى قرقماس الشريفى فلم يتم لهما ذلك من بعده وآل أمرهما الى أمرة طبلخاناه — وأزدمر بن يشبك ، وخشكلدى بن ولى الدين ، وقانصوه بن بردبك ، وجانى بك بن آزدمر ، وبرسباى العلائى ، وطوخ المحمدى الذى كان نائب القلعة ، وقانصوه الابراهيمى ، وتانى بك المعروف بالأبح ، وتانى بك النجمى ، وقيت الأحول ، ويشبك بن تبوك ، وبرقوق بن خجا بردى ، وشاد بك الناصرى ، وجانباى المحمدى ، وجانبلاط بن ولى الدين أيضا ، وقرقماس بن يشبك ، وتمر باى بن سيباى ، وبكبلاط بن أبناى ، وقانى باى بن يشبك ، وجانم الابراهيمى ، وأزبك الشريفى ، ومصرباى الشريفى ، وطومان باى بن طوبزه ، ونوروز الشريفى ، وبلاط بن حيدر ، ومامش الرجبى ، وكرتباى بن حيدر ، ومغلباى بن بختجا ، وجاذ بلاط بن قانصوه ، وأصطمر بن بشمان ، وقانى باى بن آزدمر ، وسودون بن مصطفى ، وألماس ابن برد بك ، وقنبك بن شاد بك ، وجانم بن خضر ، وجان بردى بن قانم ، وبرسباى الدمرداشى وتمر الابراهيمى ، وجانى بك الشريفى ، وتنم بن شاد بك ، وماماى بن قيت ، وقانصوه بن يشبك ، وقان بردى بن قانصوه ، وأرزمك بن برد بك ، وتمر باى السيفى قجماس خازندار العادل طومان

باى ، وجانم بن قانصوه ، ومسايد بن حيدر ، وبرش بن عبد الكريم ، ومسايد أيضا بن قانصوه، وجانى بك قرا الشريفى ، وطـراباى الشريفى ، وقايتباى بن جانى بك المعروف بالأشقر ، وشادى بك اليحياوى ، وقانصوه بن يشبك ، وتانى بك السـيفى آقبردى ، ودولات باى بن مصطفى ، وقانى بن سودون الابراهيمى ، وجانم بن قجماس ، وطراباى بن جانم ، ومغلباى بن جانم ، ومصرباى الأبو بكرى ، وجانى بك بن حيدر .

ثم قرر الأمراء العشراوات مائة وخمسة وثمانين أميرا وهم : عنبر مقـدم المماليك ، وخشكلدى الشريفى ، وتبك الناصرى ، وأسنباى ابن برسباى ، وقراكز الشريفى ، وجانى باى بن يشبك ، وبكتمر بن ولى الدين ، وسنقر العلائى ، وقلج السيفى قانصوه خمسمائة ، وجانم السيفى قايتباى ، وأسنباى بن قروس ، وطقطمش السيفى اينال ، وسيباى الأبو بكرى ، واينال بن جانم ، وقانصوه الابراهيمى ، وسـودون بن حيـدر ، ويوسـف بن مصطفى ، وعلان بن ولى الدين ، وأقبردى الحسى ، وقنبك الشريفى ، وبهادر بن قرقماس ، وأزدمر بن عبد الرحيم ، وبيبردى بن جانبلاط ، وبرد بك النريعى ، وبيبردى بن كسباى وأركماس السيفى قانصوه ، وبكباى بن قراجا ، وطوماى باى بن مصطفى ، وأقبردى الشريفى ، واينال باى بن مصطفى ، وخاير بك بن قجماس ، وجانى بك بن مهدى ، وأقباى السيفى يشبك ، وطوبى الناصرى ، وبرسباى بن بردبك ، وبكبلاط المحـــمدى ، وأزدمر بن تمر باى ، ونانق بن يخشباى ، ونوروز بن يلباى ، وشاهين الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وجانم السيفى قايتباى ، ونوروز السيفى قانى باى ، وقنبك السيفى يونس

ودولات باى الابراهيمى ، وجانى باى الحسنى ، وسنطباى المحمدى ، وتغرى بردى الشرفى ، ودولات باى السيفى يشبك ، وجانى بك بن جانبلاط ، وأزدمر السيفى اينال ، وقانم بن نانق ، وقنبك بن قانى باى أمير جندار ، وقصروه بن قانصوه ، وتغـرى بردى الترجمـان ، وقرقماس المحمدى ، وجان بردى بن ولى الدين ، وتغرى بردى الحسـنى ، وأزدمر المهمنـدار ، وأزبك النصرانى أمير شكار ، وقانصوه بن أبى يزيد ، وقانصوه الناصرى ، وأبرك السيفى لاجين ، ويلباى بن على باى ، وأبو يزيد بن قانصوه ، ومغلباى بن اياس ، ودولات باى المحـــمدى ، وقانصوه بن جانم ، ونانق بن أنت ، وتبك بن أزرم ، وقطلو باى بن عبد الرحيم ، وقانى باى ابن أزرم ، وسودون بن ولى الدين ، وسيباى بن جانى باى ، واينـــال بن بيبردى ، وقرقمـاس الابراهيمى ، ومغلباى بن حيدر ، وعلى باى بن شبتان ، وأسنباى اليوسفى ، ودولات باى الابراهيمى ، وأزبك بن قانصـوه ، وماماى بن قبيد ، وجانم بن قجماس ، وقانصوه العـلائى ، وقلج الشريفى ، وعلى باى بن صدقة ، وبكبلاط ابن فانصوه ، واياس المحـمدى ، وقانصوه بن شبك ، وبرسباى بن جانى بك ، وقانصوه بن عبد الرحيم ، وطراباى السيفى أزبك ، ونوروز العلائى ، وملاج بن برد بك ، وبرسباى السيفى يشبك ، وجانى باى الحسنى ، وكزيم بردى بن فروس ، وأزبك بن مصطفى ، وقانصوه بن جان بلاط ، وقرقماس الشريفى ، وتمر بن ولى الدين ، ودولات باى بن أزبك ، وأزبك الشريفى ، وجان بلاط بن مغلباى ، وبكباى السيفى أزبك ، وتغرى بردى المحمدى ، ونبك المحمدى ، وبرد بك

السيفى قانى باى ، وبيبرس بن قرقماس ، وأركماس الابراهيمى ، وأركماس السيفى آزبك ، ويوسف البدرى كاشف البحيرة — وهو الوزير الآن — وبيبرس بن يشبك ، وخاير بك العلائى وآقباى بن يشبك ، وتبك بن اياس ، وجانم بن يشبك ، وقانصوه بن جانم ، ومصرباى بن لاجين ، وخاير بك الشريفى ، وجانم المحمدى ، وعلى باى السيفى خشكلدى ، وجانى بك الناصرى كاشف منفلوط ، وجان بلاط الشريفى ، وقان بردى الشريفى ، وأزبك الابراهيمى ، وقانم بن كرتباى ، وتغرى برمش السيفى كسباى ، وأبرك الشريفى ، وجانم بن مصطفى ، وأزبردى بن قلج ، وأقطوه ابن قانصوه ، ويوسف بن مصطفى ، وقانصوه بن عبد الرحيم ، وتمرباى بن چكم ، وبيبق اليوسفى ، وأقطوه بن يشبك ، وبرسباى بن قراجا ، وجان بردى بن مصطفى ، وتنم بن قانى باى ، وأقبردى المحمدى ، وقانى باى بن حمزة ، وأقبردى المحمدى أيضا ، وبرمش بن بيبردى ، وبرد بك بن أيدكى ، وأسنباى بن برد بك ، وقطلوباى بن تمر ، وقايتباى بن طوبرزه ، وكرتباى السيفى يشبك ، وقان بردى بن قجماس ، وأركماس السيفى قانصوه ، وتنم السيفى أرغون شاه ، وقراكز بن يشبك ، وجانى بك السيفى برسباى ، وقراكز السيفى چكم ، وبكبلاط الأبو بكرى ، ونوروز بن ألماس ، وبرد بك السيفى يشبك ، واينال السيفى آزبك ، وقانصوه بن درويش ، وتمراز بن اينال باى ، وخشكلدى بن أركماس ، وقيت بن حيدر ، وقانى باى الرمضانى ، وجانى بك بن ولى الدين ، وألماس بن قردمش ، وتمرباى السيفى أزبك ، وجان بلاط بن جانم ، ومغلباى بن قيت ، وتمراز بن آقباى ، وقرقماس السيفى برد بك ، ومامش المحمدى ، وعلى باى السيفى اينال ، وبرد بك الابراهيمى ، وسودون ابن درويش ، ومغلباى البوسفى ، وأيدكى الشريفى ، وشاد بك بن قانصوه ، وسيباى بن جانى بك ، وجانى باى المحمدى ، وقانصوه بن قانى باى ، وقانصوه بن ولى الدين ، وقانصوه ابن ولى الدين أيضا ، وطراباى بن قانصوه ، وبيبرس بن قانصوه ، وخدا بردى الشريفى ، وشاهين معلم الدبوس .

واجتمع فى هذه السنة من الخاصكية ثمانمائة خاصكى على ما قيل ، ثم تزايد عدد الخاصكية فيما بعد حتى صاروا ألفا ومائتى خاصكى .

وأما النواب بالبلاد الشامية فكان ممن قرر بها من أوائل هذه السنة وهم . قانصوه المحمدى المعروف باليرجى نائب الشام ، وسيباى المعروف بنائب سيس قرر فى نيابة حلب ، وقرر جانم فى نيابة حماة . وقرر دولات باى قرابة العادل فى نيابة طرابلس ، وكان قبل ذلك نائب الشام وقر ، ثم عاد وقرر فى نيابة طرابلس ، وقرر سودون الدواداری فى نيابة صفد ، وقرر فى نيابة غزة قانصوه قرا ويعرف بقانصوه الجمل ، وكان العادل قرره فى نيابة حلب وما تم ذلك وهو الآن مقدم ألف بمصر ، وقرر ملاج فى نيابة القدس ، وقرر أيدكى فى نيابة قطية ، ونائب الاسكندرية قانصوه خمسمائة السيفى يشبك الدوادار ، ونائب دمياط شخص من الأتراك يسمى فارس المنصورى عثمان ، فهذا كان حكم النواب بالبلاد الشامية فى أوائل هذه السنة ، ثم تغيرت الأحوال من بعد ذلك ، وانتقلت النيابات الى آخرين من الأمراء يأتى الكلام عليهم .

وأما أرباب الوظائف من المتعممين وهم :

القاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى الحنفى كاتب السر الشريف بالديار المصرية ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الجيوش المنصورة ، والقاضى صلاح الدين بن الجيعان مستوفى ديوان الجيش وناظر الخزائن الشريفة ، والقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش كان ، وهو الآن ناظر الكسوة الشريفة وناظر الجوالى ، والشهابى أحمد ابن الجيعان نائب كاتب السر ، وشمس الدين محمد بن مزاحم ناظر الاسطبل الشريف ، ومجد الدين بن كراوية ناظر الدولة والصحبة الشريفة ، وكان على بن أبى الجود متحدثا فى جهات الخاص يومئذ من حين توفى ناصر الدين الصفدى ، ثم فى عقيب ذلك تولى نظارة الخاص علاء الدين بن الامام وهذه ثانى ولاية . وقد راج أمره فى هذه المرة الى الغاية ، وكان يومئذ القاضى فخر الدين ابن العفيف كاتب المماليك السلطانية ، وموفق الدين بن القمص الأسلمى ناظر الذخيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وعبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، والشرفى يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد ، ومحمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وصاحب ديوان الأحباس شمس الدين بن العبسى ، وصاحب ديوان جيش الشام بدر الدين ابن الانبابى وشريكه يوسف بن السيرجى .

وأما الوظائف التى غير هؤلاء فكان نقيب الجيش يومئذ الشرفى يونس بن الأقرع ، ومعلم المعلمين يومئذ البدرى حسن بن الطولونى ... فهذا كان ترتيب دولة الغورى فى أوائل سنة ثمان وتسعمائة ثم انتقلت من بعد ذلك الأمريات والوظائف الى جماعة كثيرة من الأمراء والمباشرين يأتى الكلام عليها فى موضعه من ولاية وعزل .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن مضى الخامس عشر من المحرم ولم يعلم للحجاج خبر ولا حضر المبشر ، فكثر القيل والقال بسبب ذلك ، فلما كان يوم الأحد تاسع عشره حضر هجان وأخبر أن أحوال الحاج مضطربة الى الغاية ، وأن الجازانى ابن أمير مكة قد أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتف عليه يحيى ابن سبع أمير الينبع ، ومالك ابن رومى أمير خليص ، وطائفة من عرب الحجاز يقال لهم بنى ابراهيم ، قد خرجوا على ركب الحاج الشامى فى رابغ قبل أن يدخلوا الى مكة فنهبوا الركب عن آخره ، وقتلوا الرجال ، وأسروا النساء ، وفعلوا بهم ما لا فعله تمرلنك لما دخل الى الشام . فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة ، اضطربت أحوال الناس لهذه الأخبار ، ثم انقطعت أخبار الحاج مدة طويلة لم يأت من عندهم خبر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه — الموافق لرابع مسرى — زاد الله فى النيل المبارك أربعين أصبعا فى يوم واحد .

وفى يوم الجمعة خامس مسرى زاد الله فى النيل المبارك عشرين أصبعا .

ثم أوفى فى يوم الأحد ثامن مسرى وزاد عن الوفاء احدى عشرة اصبعا ، فكان فتح السد فى يوم الاثنين تاسع مسرى — الموافق لسابع عشرين المحرم — وهو سابق النيل الماضى بيوم واحد والفضل بينهما سبع عشرة أصبعا عن النيل الماضى ، فكان كما قيل :

النيل قال وقوله	اذ قال ملء مسامعى
فى غيض من طلب الغلا	.عم البلاد منافعى
وعيونهم بعد الوفا	قلعتها بأصابعى

فلما أوفى توجه الأتابكى قيت الرجبى وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

* * *

وفى صفر فى مستهله نزل الحاج الى البركة على حين غفلة . ثم فى يوم السبت ثانيه ، دخل المحمل الى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل أصطمر بن ولى الدين أمير مجلس ، وبالركب الأول الناصرى محمد بن خاص بك ، ودخل الحاج وهو فى غاية النكد بسبب ما جرى على الناس فى طريق الحجاز .

وكان من ملحص واقعة الحجاج — وهو ما استفاض بين الناس — أن أصطمر أمير الحاج لما وصل الى بطن مرو قبل أن يدخل الى مكة ، لاقاه الجازانى من هناك ، فأحضر اليه أصطمر خلعة وقال له « ان كنت تستقر أمير مكة احمل للسلطان خمسين ألف دينار » . فقال الجازانى : « نعم أنا أحمل للسلطان هذا القدر » ، فألبسه الخلعة حتى طمنه ، وقد أظهر العصيان من قبل ذلك وجرى منه أمور شتى .

ثم ان أصطمر أرسل فى الدس مكاتبة للشريف بركات أخى الجازانى بأن يجمع العربان ويلاقيه حتى يقبض على الجازانى ، فلما أحس الجازانى بذلك تسحب تحت الليل من بطن مرو . وكان أصطمر أرشل قليل الدربة ، فلما تسحب الجازانى لاقى الركب الشامى فى رابغ وجرى منهم ما تقدم ذكره من قتل ونهب وأسر النساء .

فلما دخل الحاج الى مكة وبلغه ذلك ، اضطربت الأحوال الى الغاية ، ووقف الحاج بالجبل ، وهم على وجل من الجازانى وعرب بنى ابراهيم ، فلما انتهى الوقوف بالجبل وخرج الحاج من مكة قال أصطمر للشريف بركات : « اخرج معنا ولاق الجازانى » .

فلما خرج الشريف بركات صحبة الحاج ووصل الى مكان يسمى الدهنة ، لاقاه أخوه الجازانى فى جمع كثير من عرب بنى ابراهيم ، فأرسل الجازانى يقول لأصطمر : « لا تدخل بينى وبين أخى بركات ودعنا نقتتل فى بعضنا وخذ أنت الحاج وامض » ، فلم يسمع أصطمر منه ذلك .

ثم حضر يحيى بن سبع أمير الينبع وصار عونة مع الجازانى ، فاتقعوا مع الشريف بركات ، ودخل أصطمر بينهم ونادى فى الركب بأن من كان معه سلاح يحضر عونة على قتال الجازانى ، فاجتمع الجم الغفير من الجمالة والعكام والضوية ، فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصى . وآل الأمر الى كسرة أصطمر أمير ركب المحمل ، وقتل ممن كان معه من المماليك السلطانية نحو من مائة مملوك ، غير الغلمان والطفش ، وتمت الكسرة على من كان بركب المحمل فى ذلك اليوم ونهب كل ما فيه حتى عروا النساء من أثوابهن وأخذوا عصايبهن من على رءوسهن ، وقاسين من الشدة ما لا خير منه .

وتخلف غالب الحاج بالينبع وصاروا ينزلون فى مراكب من البحر الملح ويدخلون الى القاهرة بعد مدة طويلة وهم فى أنحس حال ، وقاسوا فى هذه السنة غاية المشقة وجرى عليهم كل سوء ... وقيل ان الجازانى لم يفحش فى حق من بالركب الأول كما فعل بمن فى ركب المحمل . وقد راعى الناصرى محمد بن خاص بك دون أصطمر وكان متأثرا من أصطمر ، فلما جرى ذلك رجع الشريف بركات الى مكة وهو مهزوم من أخيه الجازانى ، فلما رجع من بقى من الحجاج الى الأزلم ، وجدوا الآبار قد ردمت بالحجارة فمات من الحجاج جماعة كثيرة بالعطش .

فلما وصل الحجاج الى العقبة لاقاهم جماعة من عربان بنى لام فعوقوهم عن طلوع العقبة ، وأفردوا عليهم ثلاثة آلاف دينار ، فجبى أمير الحاج ذلك من الحجاج ، ودفعها للعرب حتى مكنوهم من طلوع العقبة ، ودخلوا الى بركة الحاج وهم فى أسوأ حال .

فلما طلع الأمير أصطمر والناصرى محمد بن خاص بك الى القلعة ووقفوا بين يدى السلطان ، وبخهما بالكلام بسبب ما جرى على الحجاج من الجازانى وابن سبع . ثم رسم بادخال أصطمر الى قاعة البحرة ورسم أيضا على الناصرى محمد بن خاص بك ووكل به ، ثم أرسل بالقبض على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ووكل به ، وقد وشى به عند السلطان بأنه كاتب يحيى بن سبع ، وأيقظه بأن السلطان يقصد القبض عليه ، فأوسع خياله حتى عصاه على ما قيل .

وكذلك قبض السلطان على أزدمر المهمندار ، قيل ان يحيى بن سبع كاتبه ولم يعلم السلطان بذلك ، فصار لكل واحد منهم دنب واستمر الحال على ذلك .

وفى الثلاثاء خامس صفر توفى جانبلاط المحمدى أحد مقدمى الألوف ، وهو أخو قانصوه البرجى نائب الشام ، فلما مات دفن فى تربة أخيه خاير بك التى أنشأها بباب الوزير ، وكانت مدته فى التقدمة يسيرة ومات عقيب ذلك .

وفى تاسع صفر رسم السلطان باخراج أصطمر منفيا الى ثغر دمياط فنزل من القلعة بعد العشاء ، وتوجهوا به الى البحر ، وسار فى مركب الى دمياط وهو مقيد بقيد ثقيل . وأما قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، فرسم السلطان بنفيه الى قوص ، وكان ببيت نقيب الجيش هو وأزدمر المهمندار ، فشفع فيهما الأتابكى قيت الرجبى . ثم بعد أيام خلع السلطان على القاضى عبد البر وأعاده الى القضاء على عادته ، وشفع فى أزدمر المهمندار أيضا .

وأما الناصرى محمد بن خاص بك فانه أقام فى التوكيل مدة أيام وقرر عليه السلطان عشرين ألف دينار ، واستمر على ذلك حتى ضمنه الأمير قرقماس أمير سلاح وتسلمه من السلطان ، وشفع فيه حتى حط عنه خمسة آلاف دينار ، واستمر عند قرقماس فى الترسيم نحوا من ثلاثة أشهر حتى غلق ما قرر عليه من المال ، وآتى الى بيته وحصل له غاية الضرر .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب ان خارجيا تحرك على البلاد يقال له شاه اسماعيل الصوفى . فلما جاءت هذه الأخبار الى القاهرة اضطربت الأحوال ، وجمع السلطان الأمراء ، وضربوا مشورة فى أمر الصوفى ، وعين السلطان تجريدة . ثم انه قبض على جماعة من المباشرين ووزع عليهم مالا له صورة بسبب أمر التجريدة . فقبض على الشهابى أحمد ناظر الجيش وسلمه الى الأمير طراباى رأس نوبة النوب فعرضه للضرب غير ما مرة حتى أورد ما قرر عليه من المال . وقبض على صلاح الدين بن الجيعان ووكل به بالقلعة ، وقبض على فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك ، وقبض على موفق الدين بن القمص القبطى ووكل به بالقلعة ، وقبض على عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه وقرر عليه مالا له صورة فلم يشر به [1] فضربه بالحوش ضربا مبرحا ، وضرب أيضا موفق الدين بن القمص وفخر الدين كاتب المماليك . وقبض أيضا على شمس الدين بن مزاحم ناظر الاسطبل ، فأقام هؤلاء فى الترسيم والضرب حتى غلقوا ما قرر عليهم من المال .

ثم فى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من حلب بأن عسكر الصوفى رجع الى بلاده وخمدت فتنته وبطل أمر التجريدة . ولكن استمرت المصادرات عمالة فى المباشرين وغير ذلك .

ومن الحوادث أن فى ليلة السبت ثالث عشرين هذا الشهر ، هجم المنسر على سكان المسطاحى

(1) اى : فلم يستطع الوفاء به .

التى بجوار قنطرة الحاجب ، فقتلوا من الخفراء واحدا ونهبوا عدة بيوت ، ثم دخلوا الى الجسر الذى بجوار بركة الرطلى ، وكان النيل فى قوة الزيادة والجسر عامرا بالسكان ، فخطفوا عدة عمائم وشدود ، وكانوا نحوا من ستين رجلا ومعهم قسى ونشاب ، فعطعطوا تلك الليلة فى الجسر والمسطاحى وقام العياط من الطيقان وكانت ليلة مهولة .

فلما بلغ علان والى القاهرة ما جرى بالجسر تلك الليلة ، أخذ جماعة من المماليك وساق خلف المنسر بطول الليل ، فظفر منهم بثمانية أنفس فقبض عليهم من ناى وطنان وهرب الباقون . فلما طلع النهار وصل بهم الى باب القلعة ، ثم عرضهم على السلطان فرسم بشنقهم على قنطرة الحاجب فسمروهم على جمال ، وطافوا بهم القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود ، فأتوا بهم الى قنطرة الحاجب ، فشنق منهم جماعة ، ووسط منهم جماعة ، وانطلقت لهم الزغاريت من النساء . ولبس علان الوالى خلعة حافلة فى ذلك اليوم لكونه بيض وجهه وقبض على المنسر فى ليلته ، وعد ذلك من النوادر ، كما يقال :

كأن فجاج الأرض يمناك ان يسر
بها خائف تجمع عليه الأنامل
فأين يفر المرء منك بجرمه
اذا كان تطوى فى يديك المراحل

وفى يوم الاثنين ، خامس عشرين هذا الشهر ، كانت وفاة القاضى بدر الدين محمد النويرى الحنفى أحد نواب الحكم ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما لا بأس به .

***

وفى ربيع الأول فى مستهله أفرج السلطان عن صلاح الدين بن الجيعان ونزل الى داره ، وكان فى الترسيم بسبب ما قرر عليه من المال ، وقد أشرف على تغليق ذلك .

وفى يوم الخميس خامسه ، خلع السلطان على الأمير سودون العجمى وقرره فى أمرة مجلس عوضا عن أصطمر بن ولى الدين بحكم توجهه الى دمياط .

وفيما بعد توفى الجمالى يوسف بن الزرازيرى — كاشف الوجه القبلى ، وتولى الوزارة أيضا — بالمقشرة مغضوبا عليه وقاسى شدائد ومحنا ، وكان لا بأس به .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى بالحوش واجتمع به القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة .

ومن الحوادث أن فى ليلة تفرقة الجامكية ، طلع حمل المال من حارة زويلة وقت صلاة الفجر ، فلما وصلوا به الى رأس البندقانيين فى أثناء الزقاق المظلم خرج عليهم جماعة من الأتراك فى زى العرب ، فحاشوا البغل الذى عليه المال برسم الجامكية واقتلعوه من الموكل به ، وربما أشيع قتله ، فأخذوا البغل بماعليه من المال ومضوا ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان . وكان قدر المبلغ اثنى عشر ألف دينار مما جمعه على بن أبى الجود من وجوه المصادرات بالضرب والحبس لأعيان التجار ومشاهير الناس وغير ذلك ، فذهب ذلك المال ولم ينتفعوا به ، فكان كما يقال :

« لست أعطى فى حرام أبدا الا حراما »

وفى أواخر هذا الشهر أكمل السلطان نفقة البيعة على الجند ، وقد طاولهم نحوا من سنة ونصف سنة وهو يحتج بجمع المال ، حتى راج أمره فى السلطنة وتمت قواعد دولته ، وكان هذا بتدبير الأتابكى قيت الرحبى حتى خمدت تلك الفتن القائمة .

ومن الحوادث أن فى يوم السبت سلخ هـذا الشهر طلع الأمير أزدمر الدوادار الى القلعة وقت صلاة الصبح ، فلما وصل الى باب القـلة التى بالقلعة ، لم يشعر الا وقد جاء سهم نشاب من بعض طباق المماليك ، فجاء السهم من تحت ابطه فأخرق الملوطة التى عليـه . فلما جرى ذلك أخذ السهم النشاب ، ودخل به الى السلطان وقال له : « ان كنت تقصد قتلى فلا تخلى المماليك الجلبان يقتلونى» فحلف السلطان على المصحف الشريف أن لم يكن له عـلم بذلك ولا جـرة . ثم بعث خلف آغوات الطباق ، وضرب منهم جماعة ، وقررهم عمن فعل ذلك ، فأسـفرت القضـية على أن شـخصا من المماليك ، قيـل هو أخو الأتابكى قيت الرجبى ، الذى فعل ذلك . فأمر السلطان بنفيـه الى الشام فخـرج من يومه ، وكان هـذا المملوك من شرار المماليك وقيل له عدة قتلى .

* * *

وفى ربيع الآخر — فى يوم مستهله — طلع ابن أبى الرداد ، وثبت النيل المبارك على خمس أصابع من عشرين ذراعا ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك .

وفيه كسفت الشمس عند طلوعها وقت الاشراق وأقامت على ذلك ساعة حتى انجلت .

وفيه جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بوفاة نائبها قانصوه خمسمائة ، وكان أصله من مماليك يشبك الدوادار ، وكان لا بأس به .

وفى ليلة الأحـد رابع عشره خسف جرم القمر أيضا ، فكان بين كسوف الشمس وخسوف القمر أيام قلائل ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من أهل حلب انكسر عليه مال ، فشنقه على باب زويلة وهذا أول ما نفذه من أمر القتل فى أيام دولته .

وفيه أفرج السلطان عن فخر الدين كاتب المماليك وكان له مدة فى الترسيم حتى غلق ما قرر عليه من المال ، واستمر على وظيفته .

وفيه خلع السلطان على تانى بك النجمى أحد الأمراء الطبلخانات ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن قانصوه خمسمائة بحكم وفاته .

وفيـه رسم السلطان بشنق التاجر ابن الملقى وشخص آخر من الأتراك قيـل انه كان خازندارا لجانى بك الشامى ، وكان جانى بك الشامى مختفيا فلم يقر بسكانه فسمره السلطان على جمل هو وابن الملقى ونزلوا بهما من القلعة ، فأرسـل الأتابكى قيت شفع فيهما فتوجهوا بهما الى المقشرة فسجنوا بها .

وفيه قبض السلطان على محمد بن يوسف ناظر الأوقاف ، وسجنه بالعرقانه بسبب مال قد انكسر عليه ولم يقم به .

وفيه غمز على جانى بك الشامى وخايربك اللامى فى مكان عند المدرسه القجماسية ، فتوجه اليهما علان والى القاهرة وهجم ذلك المكان وكانا فى ربع هناك ، فقبض على جانى بك الشامى وخاير بك اللامى وعلى صاحب البيت الذى كانا فيه ، وكان صاحب البيت يبيع البطيخ ، فلما قبضوا عليهما وطلعوا بهما الى القلعة ، رسم السلطان بتوسيطهما عنـد سلم المدرج ، فوسطوا خاير بك اللامى وجانى بك الشامى هنـاك ، ثم رسم السلطان بشنق صـاحب البيت الذى وجدوا فيه ، فشنق على دكانه وراح ظلما ، فكان كما يقال :

من لا تجانسه احـذر تجالسه
فالشمع آفته من صحبة الفتـل

وكان أصـل جانى بك الشـامى ، وخاير بك اللامى ، من ممـاليك الأمير أقبردى الدوادار ، وكانا يعرفان بالشجاعـة والاقدام فى الحـرب ،

لا يفزعان من الموت . فلما تسلطن الغورى قبض عليهما وقيدهما وسجنهما فى البرج الذى بالقلعة . فلما كان ليلة وفاء النيل فى عام سنة سبع وتسعمائة تسحبا من البرج ، وكسرا قيودهما وقتلا السجان ونزلا من القلعة وقت الظهر والناس مقيلة ، واستمرا فى اختفاء وهما بالقاهرة ، فكان السلطان والأمراء على رءوسهم الطيرة منهما ولا سيما الأمير طراباى. وصار الوالى يكبس البيوت والحارات لأجلهما ، واستمروا على ذلك مدة طويلة حتى ظفروا بهما ، وجرى منهما أمور غريبة فى مدة اختفائهما ، حتى قيل انهما اللذان قطعا الطريق على حمل الجامكية وهو خارج من حارة زويلة وقد تقدم ذكر ذلك ، وكانت الأمراء فى وجل منهما .

ومن الحوادث أن الأمير طقطباى الأستادار ، حسن للسلطان أن يبطل المعتــدات التى كانت فى الديوان المفرد ، فأضر ذلك بحال المقطعين .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد ناظــر الجيش ، وألبسه خلعة ونزل الى داره ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى التوكل به فى بيت الأمير طراباى بسبب المصادرة كما تقدم ، فباع أملاكه وغيطه الذى أنشأه بفم الخور ، وباع أشياء كثيرة من وقف والده حتى سد ذلك القدر الذى قرر عليه .

وفيه أفرج أيضا عن الناصرى محمد بن خاص بك ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر وهو فى الترسيم ببيت الأمير قرقماس أمير سلاح ، حتى أورد ما قرر عليه من المال وهو خمسة عشر ألف دينار ، وكان فى هذا الأمر مظلوما .

***

وفى جمادى الأولى — فى يوم مستهله — خلع السـلطان على على ابن أبى الجود وقرره فى نظر الأوقاف عوضا عن محمد بن يوسف ، فتزايدت عظمة على ابن أبى الجود ، ولبس الطوق وركب الخيول بالأخفاف والمهاميز وصار يعد من جملة رؤســاء مصر ، فاجتمع فيه وكالة بيت المــال ، ونظر الأوقاف ، وبرددارية السلطان ، وتكلم فى ديوان الوزارة والأســتادارية وديوان الخاص ، وغير ذلك من الوظائف ... فاجتمعت فيه الكلمة ، وتصرف فى أمر المملكة بما يختــار ، وقمع سائر المباشرين ، وصار فى خدمته الناس قاطبــة ، ولا يحتمى عليــه أحد من التجــار ولا المباشرين ... فأظهر الظلم الفاحش بالديار المصرية ، حتى فاق على هناد الذى أحدث المظالم . فكان الناس على رءوسهم طيرة منــه ، ودخــل فى قلوبهم الرعب الشديد بسببه ، فكان العبد يرافع سيده ويشكوه من باب على بن أبى الجود ، فيتنصف العبــد على سيده . وكذلك المرأة اذا تخاصمت مع زوجها تشكوه من باب على بن أبى الجود . وكان من له عدو يشكوه من بابه ويكذب عليــه ، ويقول : « هــذا لقى مال » ، فيسلب نعمة ذلك الرجل ، ويأخذ منه ما لا يقدر عليه . فأطلق فى الناس النار ، وصار على بابه نحو من مائة رسول . فكانت أرباب الصنائع تترك أشغالها ويعملون رســلا على باب ابن أبى الجود ، وصار غالب النــاس لا يشكون خصماءهم الا من باب على بن أبى الجود ، حتى صــار بابه أعظــم من أبواب أرباب الوظائف من الأمراء المقدمين . وكان هذا أكبر أسباب الفســاد فى حق على بن أبى الجود ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى هذه الأيام تزايد ظلم على بن أبى الجود ، حتى شاع ذكره فى بلاد ابن عثمان ملك الروم ، وفى بلاد الشرق من ديار بكر وغير ذلك من البلاد ، بسبب مصــادرات تجار الأروام وجوره عليهم ، وكان السلطان قرر على على بن أبى الجود فى كل شهر اثنى عشر ألف دينار يردها على الجوامك ليس تحتها جهة من الجهات ، وانما هى من أبواب المظالم

فطاش ابن أبى الجود فى تلك الأيام الى الغاية ، وعادى أرباب الدولة قاطبة ، من أمير ومباشر وغير ذلك حتى ملوك الشرق لأجل تجار الأروام مما يشكون منه من كثرة المصادرات لهم ، وكان هذا كله دمارا فى حقه ، كما قد قيل :

أقــــول له اذ طيشته رياسة
رويدك لا تعجل فقد غلط الدهر
ترفق يراجــع فيك دهرك رأيه
فما سدت الا والزمان به سكر

وقد قلت فيه أيضا :

بالذى أركبك البغلة بعــد المشى حافى
وكسا جسمك بعد العرى خزا ونصافى
لا يكن خلقك يوما يا علاء الدين جافى

وكان أصله سوقيا من الصليبية ، قيل فى الأمثال :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجــده حــديث

وكان أبوه أصله نجارا ، يقال له المعلم حسن ، ثم تعلق على صنعة الحلوى ، وسمى نفسه « ابو الجود » ، وأقام مدة طويلة يبيع الحلوى على باب حمام شــيخو ، واســتمر على ذلك حتى مات ، فاستقر ابنه على فى دكانه ، وكان يقلى المشبك بيده فى رمضان ، واستمر على ذلك مدة طويلة ، ثم انه تكلم فى بعض جهات الوزر ، وأبطل بيع الحلوى ، ثم بقى برددارا عند تغرى بردى الأستادار ، ثم سعى فى برددارية الأمير طومان باى لما كان دوادارا كبيرا ، فلما تسلطن وقرر فى الدوادارية الكبرى الأمير قانصوه الغورى سعى عنده فى البرددارية ، فلما تسلطن الغورى حظى عنده وطاش وجرى منه ما تقدم ذكره ، وجار على الناس بالظــلم ، حتى أخرب ثغر الاسكندرية ، ودمياط ، وبندر جدة ، وغير ذلك من الثغور ، بسبب مصادرات التجار ، فتلاشى أمر الثغور والبنادر من يومئذ ، وتضاعف أمر المكوس جــدا حتى جاوزت الحد فى ذلك ، فهابت الناس على بن أبى الجود قاطبة وصارت له حرمة وافرة بمصر ، فكان كما يقال فى المعنى :

اذا مــا اللئيم رقا رتبــة
تملق له وانتظر وضــعها
وقبــــل يديه اذا مدهــا
اذا كنت لم تستطع قطعها

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصــد ابن عثمــان ملك الروم ، وصحبته تقــدمة حافلة الى السلطان ، فأوكب السلطان فى ذلك اليوم موكبا عظيما بالحوش ، وكان يوما مشهودا .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، عزم السلطان على قاصد ابن عثمان فى الميدان الذى تحت القلعة ، وأحضر فى ذلك اليوم عدة مماليك يرمون بالنشــاب على الخيل ونصب لهم هناك القبق يرمون عليه ، وأحرق النفط بالنهار قدام القاصد ، وكان يوما مشهودا .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من مشايخ عربان بنى وائل يقال له شرف الدين بن موسى ، فشنقه على باب زويلة .

وفى سابع عشرينه كانت وفاة الشيخ العارف بالله برهان الدين ابراهيم المواهبى الشاذلى ، تلميذ الشيخ العارف بالله أبى الصفا محمد بن أحمد بن محمد التونسى الشــاذلى الوفائى ، المعروف بأبى المواهب ، قدس الله روحه . وكان الشيخ ابراهيم عالمــا فاضــلا ، ورعا زاهدا ، من أعيان مشايخ الصوفية ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى رجب فى خامسه توفى الأمير طقطباى بن ولى الدين أحد المقــدمين الألوف ، وزير الديار المصرية وأستادار العالية ، وكان ظالما غاشما كثير

الأذى جاهلا لا يعرف الحلال من الحرام ، وهو الذى كان سببا لقطع المعتدات التى كانت تخرج من الديوان المفرد ، وكانت الملوك تسامح بذلك فى الدولة الماضية ، فقطع ذلك فى هذه الدولة ، وحصل للمقطعين بسبب ذلك الضرر الشامل .

وفيه — فى يوم السبت خامس عشره — توفى الأمير خشكلدى البيسقى الظاهرى خشقدم ، وكان أميرا جليلا دينا خيرا من ذوى العقول ، تولى من الوظائف رأس نوبة النوب ، ثم بقى أمير مجلس ، ثم صرف عن أمرة مجلس وبقى مقدم ألف ، ومات عقيب ذلك ، وقاسى فى أثناء عمره شدائد ومحنا ونفى الى الشام ، وأقام بها مدة طويلة ، ثم عاد الى مصر وبقى أمير مجلس ، ومات فى عشر السبعين من العمر ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره توجه الأمير أزدمر الدوادار الى نحو قناطر العشرة ، وكان فى زمن الربيع ، فعزم على قاصد ابن عثمان هناك ومد له أسمطة حافلة ، وأظهر العظمة من الفتك هناك الى الغاية ، وأقام من يوم الثلاثاء الى يوم السبت وهو فى أرغد عيش ثم عاد الى داره .

وفيه عزم السلطان على قاصد ابن عثمان فى الميدان ، وأضافه وألبسه خلعة السفر .

وفيه ، فى يوم الأحد ثالث عشرينه ، توفى الأمير شاد بك الفهلوان ، أحد الأمراء العشراوات ، مات فجأة ، وكان لا بأس به .

***

وفى شعبان خلع السلطان على الأمير أزدمر الدوادار ، وقرره كاشف الكشاف مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره توفى والدى المرحوم الشهابى أحمد ابن المرحوم اياس الفحرى بن جنيد ، وكان أصله من مماليك الظاهر برقوق ، وقرر دوادارا ثانيا فى دولة الناصر فرج بن برقوق . وأما والدى فانه عاش من العمر نحوا من أربع وثمانين سنة ، وجاءته من الأولاد خمسة وعشرون ولدا ما بين ذكور واناث ، غير المسقوط ، وعاش له من ذلك ثلاثة أولاد صبيان وبنت ، وكان كثير العشرة للأمراء وأرباب الدولة رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير أبناء الناس .

وفيه خلع السلطان على الأمير تغرى برمش ، وقرره فى الوزارة عوضا عن طقطباى بحكم وفاته ، وقرر الأمير تغرى بردى فى الأستادارية عوضا عن طقطباى أيضا . وكان على بن أبى الجود هو المشار اليه فى الديوانين وتزايدت عظمته جدا .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الجازانى ابن أمير مكة تحارب مع أخيه الشريف بركات فكسره ، ثم ان الجازانى جمع عربان بنى ابراهيم وهجم على مكة ولعب فى أهلها بالسيف ، ونهب أموال التجار والسرحات التى بمكة ، فكان الشخص الواحد من بنى ابراهيم اذا غرس رمحه على باب بيت من بيوت مكة ، أو سرحة ، فيملك جميع ما فيها من قماش أو بضائع أو بهار ، ويخرج صاحب البيت بمفرده لا مال ولا قماش وربما يقتلونه .

ثم ان الجازانى هجم على تانى بك الجمالى الذى كان أتابك العسكر بمصر ونفى الى مكة ، فلما هجم عليه طلب منه مالا فاعتذر عن ذلك ، فربط خصيته بوتر واستمر يعاقبه الى أن مات ، وأخذ ماله .

وهجم على الناصرى محمد بن جانم نائب الشام ، فأخذ ما فى داره من أثاث وقماش وغير ذلك ، فمات الناصرى محمد بن جانم من الرجفة

عقيب ذلك ، هو وأمه خوند الجركسية زوجة الظاهر جقمق

وهجم على الشهابى أحمد ابن العينى ، وكان مجاورا بمكة ، فنهب جميع ما فى داره ، وهرب ابن العينى هو وعياله الى نحو المدينة الشريفة .

وهجم على دولات باى السيفى قنبك باش المجاورين ونهب جميع ما فى داره ، وقتل جماعة كثيرة من المجاورين ، ومن أهل مكة نحوا من سبعمائة انسان ، حتى هرب غالب أهل مكة ، وحضر الى القاهرة من البحر الملح ، والذين تخلفوا بمكة اشتروا أنفسهم منه بمال جزيل ، وكانت واقعة الجازانى من أبشع الوقائع وأنحسها ، وقد قلت فى المعنى :

تقول مكة واحرباه
مما جرى من جازانى
سيأخذو ربى وأقول
هذا جزاء من جازانى

وقد كادت مكة أن تخرب فى هذه الواقعة عن آخرها ، وتقرب واقعة الجازانى من واقعة أبى طاهر القرمطى ، وما فعله بمكة من النهب وقتل الناس ، وكان ذلك فى زمن الخليفة المقتدر بالله خليفة بغداد ، سنة ثمان عشرة وثلثمائة ، وقد انقطع الحج من بغداد وغيرها من البلاد نحوا من تسع عشرة سنة لم يحج فيها أحد الى مكة ، وانقطع بسبب ذلك هذه المدة ، وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب الكبار ، وقد تقدم ذكر ذلك مفصلا فى الجزء الثانى من تاريخ الخلفاء .

فلما بلغ السلطان هذه الأخبار اضطربت أحواله الى الغاية ، وعين الأتابكى قيت الرجبى أمير ركب المحمل ، وعين أنص باى أحد المقدمين بالركب الأول ، وعين صحبتهم نحوا من ستمائة مملوك من المماليك السلطانية ، ثم بعد أيام أنفق على المماليك المعينة الى مكة ، لكل مملوك مائة دينار . وأخذوا فى أسباب عمل بركهم الى السفر ، ثم ان السلطان رسم لأقباى كاشف الشرقية ، بأن يرمى على بلاد المقطعين جمالا بسبب التجريدة المعينة الى مكة ، فشرع يرمى على كل بلد جملين أو ثمن ذلك خمسين دينارا ، فأضر ذلك بحال المقطعين ، وقطع هذا القدر من خراجهم ، وخربت عدة بلاد بسبب ذلك .

***

وفى رمضان عرض السلطان المحابيس من الرجال والنساء وأطلق منهم جماعة ، وأبقى أصحاب الجرائم على حالهم .

وفى يوم السبت ، سابع عشرين رمضان ، عرض السلطان كسوة الكعبة الشريفة والمحمل وخلع العيد ، وكان يوما مشهودا .

وفى سلخ هذا الشهر تغير خاطر السلطان على العلاء على بن أبى الجود ، ووكل به بطبقة الخازندار ، ثم قبض على حاشيته وغلمانه ، وختم على حواصله وبيوته ، ورسم على نسائه ، وأحاط به البلاء من كل جانب . وكان هذا آخر سعده وأول عكسه ، فكان كما يقال :

اذا كنت فى نعمة فارعها
فان المعاصى تزيل النعم
واذا تم أمر بدا نقصه
توقع زوالا اذا قيل تم

واستمر على بن أبى الجود فى الترسيم به مدة أيام ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

***

وفى شوال أشيع أمر الركوب على السلطان ، ووزع الناس قماشهم فى الحواصل ، فلما بلغ

السلطان ذلك أحضر المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الأمراء بحضرة قاضى القضاة المالكى برهان الدين الدميرى ، فلما حلفوا حلف هو لهم أيضا أنه لا يمسك منهم أحدا بغير ذنب ، وحلفه بعد ذلك المماليك الذين فى الطباق طبقة بعد طبقة على المصحف العثمانى ، فسكن الأمر قليلا وخمدت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفيه خلع على قانصوه اليحياوى الذى كان أتابك العساكر بغزة ، وقرره فى نيابة حماة عوضا عن جانم الذى كان بها .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره خلع على علاء الدين ابن الامام ، وقرر فى نظر الأوقاف مضافا لما بيده من نظارة الخاص ، وكانت نظارة الأوقاف بيد على ابن أبى الجود .

وفيه خلع على معين الدين بن شمس وقرر فى وكالة بيت المال عوضا عن على بن أبى الجود ، فاجتمع مع معين بن شمس وكالة بيت المال ونظر البيمارستان المنصورى فعظم أمره جدا .

وفيه خلع على الحاج بركات بن موسى وكان أبوه موسى من العرب وأمه تسمى عنقا ، ثم بقى ركاب الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، فاستقر بردار السلطان ومتحدثا على جهات البهار ، وغير ذلك من أمور المملكة ، عوضا عن على بن أبى الجود . وهذا أول ظهور بركات بن موسى ، واشتهاره فى الرياسة ، فعظم أمره جدا وصار معدودا من أعيان رؤساء مصر ، وتزايدت عظمته من بعد ذلك حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه ، فكان كما يقال فى المعنى :

هذا الزمان على ما فيه من كدر
من انقلاب لياليه بأهليه
غدير ماء تراءى فى أسافله
أشخاص قوم قياما فى أعاليه

وكان بركات بن موسى من جملة صبيان البزادرة الذين يحملون الطير على أيديهم .

ثم ان السلطان سلم على بن أبى الجود الى الحاج بركات بن موسى ليعاقبه ، ويستخلص منه الأموال ، فنزلوا بابن أبى الجود من القلعة وهو فى الحديد ، وتوجهوا به الى دار بركات بن موسى .

وفى يوم الاثنين فى العشرين منه خرج المحمل من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأتابكى قيت الرحبى ، وبالركب الأول أنص باى أحد المقدمين ، ثم نادى السلطان فى القاهرة بأن امرأة لا تحج فى هذه السنة خوفا على الحجاج من فساد العربان ، وقد تقدم ما فعله الجازانى بمكة .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرينه عرض السلطان على بن أبى الجود بالحوش ، وضربه بالمقارع عشرين شيبيا حتى خرق جنبه ، وأشرف على الموت ، فلم يرث له أحد من الناس ، بموجب ما كان يفعله من أنواع المظالم بالناس ، وقد أخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه خرج الأمير أزدمر الدوادار الى نحو جبل نابلس بسبب جمع الأموال من مشايخ عربان نابلس ، كما كان يصنع الأمير أقبردى الدوادار ، فتوجه الأمير أزدمر وصحبته جماعة من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية .

وفيه خرج الأمير قرقماس أمير سلاح ، وتوجه الى نحو المنزلة بسبب حفر فم البحر الصغير ، الذى تروى منه جهات المنزلة وما حولها .

ومن الحوادث ، أن فى أواخر هذا الشهر هجم المنسر على سوق جامع أحمد بن طولون ، وكسر فى تلك الليلة نحوا من أربعة وعشرين دكانا ، ونهبوا ما فيها من قماش وغير ذلك ، فلما جرى ذلك وقف جماعة من التجار ممن أصيب فى ماله الى السلطان ، وشكوا له مما أصابهم من أمر نهب

الدكاكين وذهاب أموالهم . فلما وقفوا الى السلطان ، رسم للوالى بتحصيل غرمائهم ، فلا زال يفحص عمن فعل ذلك ، حتى قبض على جماعة منهم نحوا من عشرين نفرا من المنسر ، فوسطهم الوالى فى وسط سوق جامع ابن طولون ، ولبس علان الوالى خلعة بسبب ذلك .

***

وفى ذى القعدة رسم السلطان بنقل على بن أبى الجود الى بيت الوالى ليعاقبه ، فلما تسلمه الوالى عصره فى رجليه ويديه ، حتى آورد بعض شىء من المال الذى قرر عليه .

وفى هذا الشهر تزايد الفساد من العربان والعشير فى جهة الشرقية والغربية ، وجهة الصعيد ، حتى كادت أن تملك العربان البلاد من آيدى المقطعين ، فعند ذلك جمع السلطان الأمراء فى الدهيشة ، وضربوا مشورة بسبب فساد آحوال البلاد الشرقية والغربية ، فعين فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء بأن يخرجوا لمحاربة العربان وطردهم عن البلاد ، فعين طراباى رأس نوبة النوب الى جهة الغربية ومعه جماعة من المماليك السلطانية ، وعين الأمير قانى باى قرا آمير آخور كبير الى جهة الشرقية ، وعين خاير بك حاجب الحجاب ، وقانصوه ابن اللوقا أحد الأمراء المقدمين ، الى جهة الصعيد ، وعين آزبك المكحل أحد المقدمين ، ودولات باى قرموط آيضا ، بأن يتوجها الى جهة البحيرة ، فخرج هؤلاء الأمراء وصحبتهم الجم الغفير من العسكر ، ثم بعد أيام جاءت الأخبار بأن عربان الشرقية قد كسروا الأمير قانى باى أمير آخور كبير ، وقطعوا طبوله وجرح فى وجهه ، فعند ذلك أرسل له السلطان نجدة ، فعين الأمير تمر الزردكاش أحد الأمراء المقدمين ومعه جماعة من المماليك السلطانية فتوجهوا اليه .

وفى سابع عشره — الموافق لثامن عشر بشنس القبطى — فيه خلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وابتدأ بضرب الكرة . وكان غائبا من الأمراء المقدمين ثلاثة عشر أميرا ، فجماعة منهم الى جهة الحجاز ، وجماعة مفرقة فى البلاد الشرقية والغربية والصعيد وغير ذلك من البلاد . ثم ان الأمراء الذين توجهوا الى محاربة العربان ، صاروا يقطعون رءوس شبان العرب ، ويرسلونها الى القاهرة فى شلف التبن على الجمال . وأشيع عن الأمير طراباى أنه كان ينشر جماعة من العربان بالمنشار من رءوسهم الى أقدامهم ، وسلخ منهم جماعة كثيرة وراح الصالح مع الطالح حتى مهدوا البلاد ، وقتل من العربان زيادة على ألفى انسان . فمن يومئذ سكن الاضطراب الذى كان بالشرقية والغربية قليلا ، وخف أمر العشير الذى كان طافشا فى البلاد .

***

وفى ذى الحجة حضر الى الأبواب الشريفة جانم الذى كان نائب حماة وانفصل عنها ، فأكرمه السلطان وأمره بالاقامة فى القاهرة .

وفى ليلة عيد النحر من هذا الشهر ، انتهى العمل من بناء مدرسة السلطان التى آنشأها فى الشرابشيين ، فعمل هناك فى تلك الليلة وليمة حافلة ، وحضر فيها الخليفه المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، واعيان الناس من المباشرين والأمراء . وحضر فى تلك الليلة قراء البلد والوعاظ ، ومد أسمطة حافلة ، وعمل هناك وقدة حافلة ، وزينت الدكاكين التى هناك من باب زويلة الى الشوايين ، وعلقت تنانير بها قناديل موقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة .

وكان أصل من بنى أساس هذه المدرسة الطواشى « مختص » الذى كان رأس نوبة السقاة فى دولة الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر محمد . فلما تسلطن قانصوه الغورى ، تغير خاطره على مختص ، فقبض عليه وصادره ، وقرر عليه مالا له صورة ، فأعطاه هذه المدرسة من جملة ما قرر عليه من المال ، وكان بنى منها بعض شىء . فلما ملكها الغورى ، هدم ما بناه مختص ، ثم أوسع فى بنائها ، وأخذ سوق الجملون وما حوله من الأسواق ، وتناهى فى زخرفها ورخامها وبنائها ، فجاءت فى غاية الحسن والظرف والرونق ، بحيث لم يعمر فى عصرنا مثلها . ولكن شنعت عليه الناس ، أن مصروف عمارة هذه المدرسة ، كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس ، وأخذ غالب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان ، وخرب قاعة شموال اليهودى الصيرفى ، وأخذ رخامها وأبوابها ، وفعل مثل ذلك بعدة قاعات . وقد سمى بعض اللطفاء هذه المدرسة « المسجد الحرام » لما وقع فيها من غصوبة الأرض ، ومصروف العمارة من مال فيه شبهات . وقد شنع الناس قبله على المؤيد شيخ ، لما بنى جامعه الذى بجوار باب زويلة ، أكثر ما شنعوا على الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وأهل مصر ما يطاقون من ألسنتهم اذا أطلقوها فى حق الناس ، فكان كما قيل :

ومن سوء حظ المرء فى الدهر أنه
يلام على أفعاله وهو محسن

ثم ان السلطان رسم باستبدال قيسارية الأمير على التى تجاه جامعه ، وكانت جارية فى أوقاف المدرسة الناصرية التى بين القصرين ، فلما استبدلها من الجكندار شخص يقال له « بره » هدمها وبنى مكانها القبة والمدفن والصهريج والسبيل وغير ذلك من الأماكن التى استجدها ، وقد قلت فى معنى ذلك :

بنى الأشرف الغورى للناس جامعا
فضاع ثواب الله فيه لطالبه
كمثل حمام جمعت فى شباكها
متى ألق عنها طار كل لصاحبه

وفيه حضر الناصرى محمد بن قانصوه البرجى نائب الشام ، وكان السلطان وقع بينه وبين أبيه ، فحضر وعلى يده تقدمة حافلة ، وشرع يستعطف خاطر السلطان ، وكان السلطان منع المكاتبة اليه من المراسيم وغيرها ، فلما حضر ابن نائب الشام ، خلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ونزل بدار عمه خاير بك حاجب الحجاب .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرينه ، حضر مبشر الحجاج وأخبر أن الأتابكى قيت طرد عربان بنى ابراهيم عن مكة ، وهرب الجازانى من وجهه ولم يقابله ، وأنه مهد مكة وقبض على بركات وأخيه قايتباى ، وجماعة من اخوته ، ووضعهم فى الحديد وهو واصل بهم . فلما تحقق السلطان ذلك ، أمر بدق الكوسات بالقلعة ، وعلى أبواب الأمراء ، ونادى فى القاهرة بالزينة سبعة أيام ، فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق ، وأقامت مزينة سبعة أيام ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفيه توفى الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع المؤيدى ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا من كبار علماء الحنفية ، ومات وهو فى عشر السبعين من العمر ، وكان الأشرف قايتباى أخرج مشيخة الجامع المؤيدى عن أولاد الديرى ، وقرر بها الشيخ سيف الدين الحنفى ، فلما مات قرر بها شمس الدين بن الدهانة . وكان المؤيد شيخ قرر

بها شمس الدين الديرى ، وجعل مشيخة هذا الجامع بيد أولاد الديرى ، واستمروا على ذلك الى دولة الأشرف قايتباى فلما توفى قاضى القضاة برهان الدين بن الديرى ، أخرجت مشيخة الجامع عن أولاد الديرى الى جماعة كثيرة من الحنفية ، واستمروا على ذلك الى أن تسلطن الغورى فأعاد المشيخة الى الشيخ بدر الدين بن الديرى كما كان أولا ، فعد ذلك من محاسن الغورى ، واستمر بها الشيخ بدر الدين الى أن مات ، فخلع السلطان على شخص من أبناء العجم يقال له الشيخ حسين الشريف الحنفى ، فقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى عوضا عن الشيخ بدر الدين بحكم وفاته ، واستمر بها الى الآن .

سنة تسع وتسعمائة (١٥٠٣ - ١٥٠٤ م) :

فيها — فى المحرم — جاءت الأخبار من مكة بأن الأتابكى قيت قد قبض على الجازانى ، ففرح السلطان لهذا الخبر ، ونادى فى القاهرة باعادة الزينة ثم ظهر بأن هذا الخبر ليس له صحة ، وهو باطل ، ولم يقبض على الجازانى ، فشق على الناس اعادة الزينة حين راحت فى البطال .

وفيه خرج الأمير تانى بك الخازندار الذى تعين قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فخرج وصحبته هدية حافلة الى ابن عثمان .

وفيه قبض شيخ العرب نجم ، على شخص من العرب العصاة من مشايخ بنى حرام ، يقال له علاء الدين بن قرطام ، فلما قبض عليه قطع رأسه وأرسلها الى القاهرة ، ، وقد قبض عليه من جبل الطور ، وحز رأسه هناك وبعث بها الى القاهرة ، فطيف بها وعلقت على باب زويلة ، ثم نقلت الى خانقة سرياقوس فعلقت بها أياما . وقد عد قتل ابن قرطام من النوادر ، فانه كان فى تحصيله فرصه .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه رسم السلطان بشنق على بن أبى الجود ، فشنق على باب زويلة ، واستمر معلقا ثلاثة أيام ، لم يدفن حتى نتن وجاف ، ثم نزلوا به ودفن ، ولم يرث له أحد من الناس ، ولا ترحم عليه ، مما سبق منه فى حق الناس من الأفعال الشنيعة كما تقدم ذكر ذلك . وكان السلطان استصفى أمواله ، وعاقبه وعصره ، ودق القصب فى أصابعه ، وأحرقها بالنار ، وقاسى شدائد ومحنا ، وكان قد طاش وركب فى غير سرجه ، وكثر فى الناس هرجه ، فأغواه الشيطان ، حتى أطاع أمر السلطان . ثم انه انقلب عليه ، وأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه . فكان كما يقال فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله
رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

* * *

وفى صفر — فى يوم الثلاثاء ثامنه — كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى تاسع مسرى ، فتوجه الأمير سودون العجمى أمير مجلس ، وفتح السد على العادة ، وكان الأتابكى قيت غائبا فى مكة كما تقدم .

وفى الخميس عاشره ، دخل الأمراء الذين قد توجهوا الى الشرقية والغربية بسبب فساد العربان كما تقدم .

وفيه ابتدأ السلطان بعمارة الميدان الذى تحت القلعة ، فعلى حيطان سوره ، ورمى فى أرضه الطين الكثير قدر أربع أذرع ، وجعل ذلك فى

الجهة الغربية من الميدان ، ثم ساوى أرضه وفرش بها النقارة . ثم شرع فى بناء مقعد وبيت بالميدان برسم المحاكمات ، وأنشأ فى الجهة الغربيـة من الميدان قصرا حافلا ، ومنظرة ، وبحرة ، وغير ذلك من البنـاء الفاخر . ثم شرع فى نقل أشجار من سـائر الفواكه وأصناف الأزهار والرياحين وغير ذلك ، فغرست بالميدان فى الجهـة الغربيـة ، ثم أجرى اليه المياه من السواقى التى بباب القرافة ، وأجرى اليه المياه أيضا من السواقى التى بحدرة البقر . ثم أنشـأ قصرا على باب الميدان مطلا على الرملة ، وصنع ممشاة من القلعة الى الميدان بسلالم متصـلة الى ذلك القصر المطل على الرمـلة ، وجعـل للميـدان بابا كبيرا ، وعليـه سلسـلة حديد ، والى جانبـه باب صغير أيضا ، وعليـه سلسلة من الحديد مثل الباب الكبـير . ثم أمر بعمارة سـبيل المؤمنين ، وعقـد سقفه بالحجر النحيت ، وأنشأ الى جانبه حوضا وساقية ، وصنع هناك مغسلا برسم الأموات ، وميضة وغير ذلك مما ينتفع به . وقيل ان السلطان صرف على بناء هـذا الميـدان من مبتدئه الى منتهاه نحوا من ثمانين ألف دينار ، ولكن وقع له فى بناء هـذا الميدان امور غريبة لم تقع لأحد قبله من الملوك ، وكان غالب مواكبـه به ، ووقع له به محـاكمات غريبة ، وأوقات عجيبـة ، يأتى الكلام عليها فى مواضعه .

* * *

وفى ربيع الأول — فى يوم الخميس ثانيه — دخـل الأتابكى قيت الرحبى وصحبته الحجـاج الذين حجوا معه تلك السـنة ، فلما دخل الى القاهرة كان له يوم مشهود ، وكان صحبته أولاد أمـير مكة ، وهـم الشريف بركات ، وأخـوه قايتباى ، وبقية اخوته ، والوزير عنقا ، وأخوه ، وهم الجميع فى زناجير حديد . فما شكر الأتابكى قيت على تلك الفعـلة ، فلم يقدر على تحصـيل الجازانى ، فقبض على اخوته هؤلاء ، وأحضرهم فى الحديد وعمل حكمه فيهم . وأظهـر بمكة غاية الجور والمظالم ، وما حصل بتوجهه الى مكة خير ، بل تزايد أمر الفتنة التى كانت بين أولاد أمير مكة ، ووقع من بعد ذلك أمور يأتى الكلام عليهـا فى مواضعه ، فكان كما يقال :

حججت البيت ليتـك لا تحج
فظلمك قد فشا فى الناس ضج
حججت وكان فوقك حمل ذنب
رجعت وفوق ذاك الحمل خرج

فلما طلع الأتابكى قيت الى القلعـة ، وعرض الشريف بركات واخوته على السـلطان ، رسم بفكهم من الحديد ، ونزلوا مع الأتابكى قيت الى داره ، وأقاموا بها حتى كان من أمرهم ما سنذكره فى مواضعه .

ولما دخل الحاج الى القاهرة أشيع بين النـاس وفاة الشـهابى أحمد بن العينى ، توفى بالمدينة الشريفة ، وكان لما توفى ولده الناصرى محمـد توجه الى مكة وأقام بها نحوا من ست سنين . فلما جرى من الجازانى ما تقدم ذكره ، فر منه الشهابى أحمد بن العينى الى المدينة الشريفة فأدركته المنية هناك ، فمات بها ودفن بالبقيع . وكان رئيسا حشما . وهو أحمد بن عبد الرحيم بن قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى الحنفى رحمة الله عليه . وكانت والدته ربيبة الملك الظاهر خشقدم ، فلما تسلطن رقى الشـهابى أحمـد بن العينى فى أيامه الى الغاية ، وصـار صـاحب الحل والعقد فى تلك الأيام ، حتى صار فى زمرة أولاد السلاطين . وأنعم عليه الظاهر خشقدم بتقدمة ألف ، وهى تقدمة قانم التاجر لما قرر فى الأتابكية ، ثم بقى أمير آخور كبير

ى المؤيدى لما قرر فى الأتابكية بعد موت
ن قانم التاجر . ثم بقى أمير مجلس فى دولة
رى بلباى ، لما قرر تمربغا فى الأتابكية ،
. على ذلك حتى تسلطن الأشرف قايتباى ،
عليه وضربه كما تقدم ، واستصفى أمواله ،
منه فوق المائتى ألف دينار . وقاسى بعد
لظاهر خشقدم شدائد ومحنا ، وآخر الأمر
طن الغورى أرسل يطلبه فى الحديد ، فلما
الأتابكى قيت الى المدينة الشريفة وجده قد
وكان السلطان رسم للأتابكى قيت الرحبى
بقبض على ابن العينى ويحضر به فى الحديد
خل المدينة وجده قد مات ودفن بالبقيع وكفاه
الغورى . وقد تقدم من أخباره ما يغنى عن
. .

كان السلطان رسم للأتابكى قيت عند عوده
مكة أن ينقل قانصوه الفاجر ، وقانم أخا
ر قانصوه ، من مكة الى القدس ، وكان
لمان نفاهما الى مكة ، ثم بدا له نقلهما الى
ى ، فلما حضرا صحبة قيت شق ذلك على
لمان وبعث بهما الى القدس ، ولم يقبل فيهما
ة . وكان من آمر قانصوه الفاجر ما سنذكره
وضعه .

فيه عمل السلطان المولد النبوى ، وكان حافلا
العادة ، وخلع السلطان على الأمير أنص باى
المقدمين ، وقرره أمير ركب المحمل ، وفرر
كب الأول تانى بك الأبح .

* * *

فى ربيع الآخر — فى يوم الجمعة مستهله —
ب فى جامع السلطان الذى أنشأه فى الشرابشيين
. تم بناؤه وجاء غاية فى الحسن والتزخرف ،
مه به مئذنة لها أربعة رءوس ، وهو أول من
ذ ذلك ، وانتهى العمل من المدرسة التى تجاه
الجامع ، وعقد هناك قبة كبيرة على المدفن ، وغلفها بقاشانى أزرق ، فلم ينطل ذلك على الناس . فكان أول من خطب بهذا الجامع قاضى قضاة دمشق الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى الشافعى ، فلبس السواد وخطب ، وكان المرقى قدامه القاضى عبد القادر القصروى . وحضر فى ذلك اليوم الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، وهم : برهان الدين بن أبى شريف الشافعى ، وعبد البر ابن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى المالكى ، والشهاب الشيشينى الحنبلى . وحضر غالب الأمراء المقدمين ، وولد السلطان المقر الناصرى وأعيان المباشرين قاطبة ، والجم الغفير من الأمراء العشراوات والخاصكية وأعيان الناس ، وزينت الشرابشيين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا . وخلع السلطان فى ذلك اليوم ، على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، لكونه حكم بصحة الخطبة فى هذا الجامع ، وخلع على اينال شاد العمارة خلعة حافلة ، وأنعم عليه بأمرة عشرة ، وخلع فى ذلك اليوم على عدة وافرة من المهندسين والبنائين والمرخمين والنجارين وغير ذلك من أرباب الصناعات ممن كان بالجامع ، وأنعم على الفعلاء لكل واحد بألف درهم .

ثم فى الجمعة الثانية رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بن الشحنة بأن يخطب بهذا الجامع ، فخطب تلك الجمعة خطبة بليغة ، ولكن ميزوا خطبة قاضى القضاة عبد البر عن خطبة ابن فرفور .

وفى ربيع الآخر ثبت النيل المبارك على احدى عشرة أصبعا ، من تسع عشرة ذراعا ، وكان نيلا شحيحا وشرق غالب البلاد ، ولكن ثبت الى العشرين من توت .

وفيه حضر الأمير أزدمر الدوادار وكان مسافرا الى جهة نابلس ، وكان صحبته ماماى جوشن ،

وقانصوه كرت ، فلما صعدا الى القلعة خلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفيه خلع السلطان على الأمير جانم وأعاده الى نيابة حماة كما كان ، وصرف عنها قانصوه اليحياوى الذى كان أتابك العسكر بغزة .

❊ ❊ ❊

وفى جمادى الأولى ، نادى السلطان فى القاهرة بأن أصحاب الدكاكين قاطبة يقطعون الطرقات من الشوارع قدر الذراع بالعمل ، وكانت الطرقات قد عليت جدا ، فلما رسم السلطان بذلك ، حصل للناس الضرر الشامل بسبب الكلفة على ذلك ، وقد استحثوا الناس فى سرعة العمل ، وعز وجود الترابة وصار الطلب فى ذلك حثيثا ، وقد قلت :

من دولة الغورى ومن جوره
لقد حملنا فوق ما لا نطيق
وقد كفى من فعله ما جرى
من قلة الأمن وقطع الطريق

وفى خامس عشره خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له « قنبك » فقرر فى نيابة غزة وخرج عن قريب .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يدور المحمل فى رجب ، وتلعب الرماحة على العادة القديمة ، وكان هذا الأمر قد بطل من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة ، من دولة الظاهر خشقدم ، ونسئ هذا الفن من يومئذ ، فأراد السلطان أن يجدد هذا الأمر حتى يصير له التذكار بين الملوك بتجديد هذا الفن ، فعين الأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش بأن يكون معلم الرماحة ، وعين معه من الباشات أربعة وهم : أبو يزيد أحد الأمراء المقدمين ، وجانم الدوادار الثانى ، وهو قرابة قانصوه خمسمائة ، وعلان والى القاهرة ، وقرقماس المقرى . وعين من الخاصكية أربعين مملوكا على جارى العادة القديمة .

❊ ❊ ❊

وفى جمادى الآخرة ، خرجت الرماحة المعينون للعب الرمح ، فلعبوا عند زاوية الشيخ أبو العباس الحرار رحمة الله عليه .

وفيه خلع السلطان على شرف الدين الصغير وقرره فى نظر الدولة ، عوضا عن مجد الدين بن كراوية بحكم صرفه عنها .

وفيه كان انتهاء عمارة المقعد والمبيت التى أنشأها بالميدان ، فجلس السلطان فى المقعد ، ورسم للرماحة بأن يسوقوا قدامه فى الميدان ، فساقوا وهو جالس وحوله الأمراء . فلما ساقوا عيبت عليهم المماليك القرانصة ، وخطأهم فى طريقة لعب الرمح عما كان يفعله الأقدمون من البنود التى كانت تقع فى لعب الرمح على العادة القديمة .

وفى يوم الخميس ثالثه كانت وفاة الشيخ الصالح المعتقد سيدى أبو الخير الكليباتى المجذوب رحمة الله عليه ، وكان من أعيان الأولياء ، فلما توفى دفن بجوار جامع الحاكم وبنى له السلطان هناك زاوية .

❊ ❊ ❊

وفى رجب حضر الأتابكى قيت ، وكان توجه الى العباسة على سبيل التنزه ، فأرسل له السلطان خلعة بسبب دوران المحمل .

وفيه ثار ريح أسود حتى أظلم منه الجو ، ووقع فى ذلك اليوم بيوت وعدة أماكن ونخيل ، ثم فى عقيب ذلك جاءت الأخبار من ثغر دمياط ، بأن فى ذلك اليوم هاج الريح هناك جدا ، حتى فاض ماء البحر الملح ، وأغرق عدة بساتين من دمياط ، وكذلك بفارسكور وحصل هناك للناس الضرر

الشامل ، وغرق فى ذلك اليوم عدة مراكب بناسها من المسافرين وكان أمرا مهولا .

وفى يوم الخميس ثامنه ، نادى السلطان فى القاهرة بالزينة بسبب دوران المحمل .

ثم فى يوم السبت عاشره لبس الرماحة الأحمر على العادة القديمة ، وطافت المسايرات بالقاهرة .

ثم فى ليلة الاثنين ثانى عشره بات السلطان بالقصر ، وأحرق تلك الليلة احراقة نقط بالرملة ، وكانت ليلة مشهودة ، ورأت الناس أشياء كانت قد نسيت . فلما كان يوم الاثنين جلس السلطان فى الخرجاة المطلة على الرملة ، وساق الرماحة قدامه بالرملة ، ثم طافوا بالكسوة الشريفة والمحمل على العادة مرتين ، باكر النهار ، وبعد الظهر ، كما كان يفعل فيما قبل . فخرجت البنت من خدرها تتفرج على المحمل بعد ما كان قد نسى أمره ، فجاءت الناس أفواجا من الخانكاه ، ومن بلبيس ، وغير ذلك من أماكن شتى بسبب الفرجة على الرماحة ودوران المحمل ، حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

بيع اللحاف والطراحة حتى أرى ذى الرماحة
بيع لى لحاف ذى المخمل حتى أرى شكل المحمل

وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد فلما انقضى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير تمر معلم الرماحة أطلسين ، وخلع على الباشات الأربعة كوامل بسمور ، ونزلوا الى دورهم ، وانقضى أمر المحمل ، فعد ذلك من محاسن الغورى حيث فرج الناس على أشياء كانت قد نسيت فجددها ، حتى يصير له بذلك التذكار بين الملوك بعد ما نسى هذا الأمر .

وفى يوم دوران المحمل توفى الأمير مغلباى صصرق ، وكان من أعيان اشرفية برسباى ، وكان أميرا جليلا حشما رئيسا لا بأس به ، ولكن قاسى شدائد ومحنا ، ونهب بيته فى وقعة أقبردى الدوادار ، وقاسى ما لا خير فيه .

* * *

وفى شعبان قبض قاضى القضاة الشافعى برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، على محمد بن يوسف ، الذى كان ناظر الأوقاف ، فضربه ضربا مبرحا ، وأشهره فى القاهرة على حمار وهو عريان مكشوف الرأس ، لأمر أوجب ذلك . وكان منفصلا عن نظر الأوقاف ، والمتحدث بها يومئذ ناظر الخاص علاء الدين بن الامام .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن بك باى دوادار الأتابكى أزبك قد احتال على الجازانى ابن أمير مكة الذى جرى منه ما تقدم ذكره ، فقتلته المماليك المجاورون بمكة حين دخل الى الحرم ، فلما تحقق ذلك سر الناس لهذا الخبر . وكان الجازانى هذا جاهلا عسوفا سفاكا للدماء ، وجرى منه أمور شتى ، والتف عليه عربان قبيلة بنى ابراهيم ، وحصل منه غاية الضرر كما تقدم .

* * *

وفى رمضان خسف جرم القمر عند آخر الليل ، واستمر فى الخسوف نحوا من عشرين درجة .

ومن الحوادث أنه فى سابع عشر هذا الشهر قبض الوالى على أربعة أنفار من العوام وجدهم فى بستان ومعهم امرأة ، وهم يأكلون ملوحة بالنهار ، وربما قيل كانوا سكارى . فلما قبض عليهم هربت تلك الامرأة فقبض على الرجال ، وضربهم بالمقارع ، وأشهرهم فى القاهرة ، ثم سجنهم بالمقشرة فأقاموا مدة طويلة .

* * *

وفى شوال وقعت حادثة ، وهى أن الشريف بركات أمير مكة ، الذى كان مقيما ببيت الأتابكى

قيت ، هرب هو واخوته من بيت الأتابكى قيت الذى بالأزبكية . وكان السلطان قرر على الشريف بركات واخوته مالا له صورة ، فما وافقــوا على ذلك ، وهربوا على حين غفــلة . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد ولام الأتابكى قيت على ذلك ، ووقــع فى المجلس بعض تنافس بين الأمير قرقماس أمير سلاح والأتابكى قيت ، وقال قرقماس لقيت : « هذا كله شغلك أنت الذى هربته من بيتك » ، فاتسع بينهما الــكلام حتى دخل بينهما السلطان بالصــلح ، فاصطلحوا صلحا على فساد ، وكان من أمرهمــا ما سنذكره فى موضعه .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير آنص باى أحد المقدمين ، وبالركب الأول تانى بك الأبح أحد الأمراء الطبلخاناات ، ولم يحج فى تلك السنة امرأة لفســاد العربان بطريق مكة .

* * *

وفى ذى القعدة حضر تانى بك الخازندار ، وهو المحتسب أيضــا ، الذى كان قد توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فكانت مدة غيبته فى هذه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم أنعم عليه فيما بعد بتقدمة ألف .

وفيه أرسل أقباى الكاشف برأس شخص من عربان الشرقية ، وكان من العصاة ، يقال له ابن بيسار وله حكايات غريبة يطول شرحها ، وكان من شرار العــربان . فلما أحضرت رأســه بين يدى السلطان ، رسم بتعليقها على باب زويلة .

وفى عقيب ذلك قبض أقباى الكاشف أيضا على شخص من العربان المفسدين يقــال له ابن بهيج ، فلما قبض عليــه بعث به للسلطان فرسم بشنقه فشنق على باب النصر .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره توفى الأمير أبو يزيد الصغير أحد المقدمين ، فنزل السلطان وصلى عليه

وفى أثنــاء هذا الشــهر ظهر الطاعون بالديار المصرية وفشا ، لكنه كان خفيفا بالنسبة للطاعون الذى كان فى السنة التى تليها ، وهى سنة عشر وتسعمائة كما سنذكره .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض وابتدأ بضرب الكرة .

وفيه رسم السلطان بأن يقطعوا الخلجان على قدر ثلاثة أذرع ونصف ، فشق ذلك على أصحاب الأملاك ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك وعز وجود الترابة لأجل شيل التراب ، فلما عظم الأمر ، باع غالب الناس أملاكهم التى على الخلجان بأبخس الأثمان ، فى نظير شيل التراب .

* * *

وفى ذى الحجة أشيع بين الناس بأن عنبر مقدم المماليك ، قد هرب وتوجه الى نحو بلاد التكرور ، وسبب ذلك أن السلطان طلب منه مالا لم يقدر عليه ، فهرب وظن أنه يختفى أمره . ثم بعد مضى أربعة أيام قبضوا عليه وأحضروه بين يدى السلطان فرسم بسجنه فى العرقانة . قيــل لما قبض عليه ، ووقف بين يدى السلطان ، وبخه بالكلام وقال له : « من ايش هربت وانت بقيت مقدم المماليك أمير عشرة » ، فقــال له عنبر : « من عادة العبيــد السودان الهروب » . فاستحسن السلطان منه ذلك الجواب .

وفى أواخر هذا الشـــهر قوى أمر الطاعون بالقاهرة ، وفشا أمره بعد مضى أيام فطر النصارى ،

وهى التى يسمونها الخماسين . وقد ظهرت الثريا ، واستمر الطعن عمالا حتى دخل شهر بؤونة القبطى ونزلت النقطة ، وهذا بخلاف العادة حتى عد من النوادر . لكنه كان خفيفا بالنسبة لما جاء بعده فى سنة عشر وتسعمائة . وقد وقع الطاعون فى سنتين متواليتين حتى عد من النوادر .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه ، كانت وفاة خوند فاطمة ابنة العلاء على بن خاص بك ، وهى زوجـة الملك الأشرف قايتباى ، ثم تزوجت بعده بالعادل طومان باى ، وقيل تزوجت بالأشرف قانصوه خمسمائة فى الخفية على ما يقال ، وكانت من مشاهير الخوندات فى سعة من المال وقد ظهر لها فيما بعد تركة حافلة ، وأقامت فى الخونداتية وهى صاحبة القاعة نحوا من ثلاثين سنة ، وأظهرت من الفتك والعظمة ما لا أظهره غيرها من الخوندات ، وماتت وهى فى عشر الستين سنة من العمر . ولما ماتت أخرجت فى بشخانة زركش ، ومشت قدامها القضاة الأربعة والأمراء المقدمون . ونزل السلطان وصلى عليها فى سبيل المؤمنين ، ونهب العـوام الكفارة من قدامها ، حـين وصلت الى رأس الصليبة ، وكان لها جنازة حافلة .

وجرت عليها فى أواخر عمرها شدائد ومحن ، منها أن المماليك الجلبان ، هجموا عليها وهى فى دارها التى بجوار قنطرة سنقر ، وطلبوا منها نفقة ، وأغلظوا عليها فى القول ، وقصدوا الاخراق بها . وكان القائم فى ذلك طائفة من المماليك ، من حلف الأمير أقبردى الدوادار . فلما بلغ الملك الناصر ذلك تعصب لها ، ونادى فى القـاهرة بأن طائفة المماليك قاطبة لا يتوجهون الى بيت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، ولا يقفون لها على باب ، وكل من فعل ذلك شنق بلا معاودة ، فانكفوا عنها من يومئذ . وسبب ذلك أنه قد بلغ المماليك بأن خوند قد تزوجت بقانصوه خمسمائة فى الدس ، فلما قتل تحرشوا بها وطلبوا منها نفقة ، واستمرت مختفية عن بيتها مدة من بعد ذلك .

ومنها أن الظاهر قانصوه صادرها ، وأخذ منها مالا له صورة ، ووكل بها جماعة من الخدام حتى أوردت ما قرر عليها . وكذلك الملك الناصر أخذ منها جملة مال . ثم انهـا تزوجت من بعد ذلك بالعادل طومان باى فأقامت معه نحوا من شهرين ، وجرى له ما جرى . واستمرت من بعد ذلك مريضة وقد طلع لها فى خدها أكلة ، وأقامت بها مدة طويلة ، فلما ثقلت فى المرض توجهت الى بولاق ، ثم ماتت هناك ، وحملت وهى ميتة الى دارها التى بجوار قنطرة سنقر ، فأخرجت جنازتها من هناك .

وفى أثناء هذه السنة كانت وفاة العلامة الحافظ فخر الدين عثمان الديمى شيخ الحـديث ، وكان عالما فاضلا محدثا دينا خيرا ، ومات وهو فى عشر الثمانين ، وكان لا بأس به .

وفيها توفى أيضا القـاضى ولى الدين محمد النحريرى المالكى أحد نواب المالكية ، وكان رئيسا حشما فاضلا فى مذهبه من أعيان المالكية ، وكان لا بأس به .

سنة عشر وتسعمائة (١٥٠٤ — ١٥٠٥ م) :

فيها — فى المحرم — خلع السلطان على عنبر الطواشى وأعاده الى تقدمة المماليك كما كان أولا ، وقد قاسى شدائد ومحنا وسجن فى العرقانة مدة ، ثم رضى عليه السلطان وأعاده الى وظيفته ، وقد استحسن منه السلطان جوابه آن من عادة السودان الهروب فعفا عنه فيما بعد .

وفيه أخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع على حكم السنة الماضية .

وفيه ، فى الثالث والعشرين ، دخل الحاج الى القاهرة مع السلامة .

وفيه أشيع بين الناس بوقوع فتنة كبيرة فوزع الناس فماشهم فى الحواصل : فلما بلغ السلطان ذلك جمع الأمراء ، وأحضر لهم المصحف العثمانى ، وحلفهم عليه ، فخمدت تلك الاشاعات الفاسدة .

* * *

وفى صفر عرض السلطان جماعة من أولاد الناس ، ومن المماليك السيفية ، ممن كان قطع جوامكهم ، وقرر لجماعة منهم جوامكهم وجماعة بحكم النصف .

وفيه توقف النيل عن الزيادة ستة أيام ، فقلقت الناس لذلك ، وتشحطت الغلال ، وتكالب الناس على مشترى الغلال ، ثم ترادفت الزيادة من بعد ذلك حتى أوفى عن قريب .

* * *

وفى ربيع الأول ، خلع السلطان على الشهاب أحمد بن فرفور الدمشقى قاضى القضاة بدمشق ، وقرره فى قضاء الشافعية بمصر ، عوضا عن القاضى برهان الدين بن أبى شريف المقدسى بحكم صرفه عنها . وقد جمع الشهاب بن فرفور بين قضاء الشافعية بمصر والشام فى وقت واحد ، فعد ذلك من النوادر .

وفى سابعه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى خامس عشرين مسرى ، فتأخر عن النيل الماضى سبعة عشر يوما ، فزاد عن الوفاء فى ذلك اليوم خمس أصابع من الذراع السابعة عشرة ، فكان كما قيل فى المعنى :

يانيل مصر كم بد لك بالوفا
آوليتنا بالكسر جبرا دائما

قد زدت قبل الكسرخمس آصابع
كرما فكانت للوفاء خواتما

فلما أوفى توجه الأتابكى قيت وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا . وهذا كان آخر فتح الأتابكى قيت للسد وقد أخذ عقيب ذلك وكان من آمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه حضر سيف قانصوه المحمدى المعروف بالبرجى نائب الشام ، وكان آصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وولى عدة وظائف سنية وآل أمره الى أن بقى نائب الشام ومات بها .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفيه خلع السلطان على قانى باى قرا أمير آخور كبير وقرر فى أمرة ركب المحمل ، وقرر بالركب الأول جان بردى تاجر المماليك .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شيخ العرب بيبرس بن أحمد بن بقر ، وأعاده الى مشيخته كما كان أولا .

وفيه خسف جرم القمر عند طلوعه واستمر فى الخسوف نحوا من خمسين درجة .

وفيه خلع السلطان على قنبك بن شاد بك ، وقرر فى رأس نوبة الثانية ، عوضا عن تمراز جوشن بحكم وفاته بدمشق ، وكان قد توجه فى بعض مهمات السلطان فمات هناك .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره قبض السلطان على القاضى بدر الدين محمد بن مزهر ، الذى كان متوليا لكتابة السر وعزل عنها . فأرسل اليه السلطان بعض البابية ، فتوجه الى بيته الذى ببركة الرطلى ، فقال له : « قم كلم السلطان » فقام وطلع

معه الى القلعة ، فلما وقف بين يدى السلطان وبخه بالكلام ، ثم شكه فى الحديد ، وسجنه بالعرقانة . وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان بأن بدر الدين بن مزهر اجتمع بالأتابكى قيت الرحبى ، وقال له : « قم وتسلطن وضمان نفقة البيعة على » ، وقيل انه كتب قوائم بأسماء جماعة من حاشية السلطان ، ووزع عليهم مالا له صورة ، وذكر فى القوائم جماعة من المباشرين وغير ذلك ، حتى أسمى فيهم ابن السلطان ، وخاير بك الخازندار ، وبركات ابن موسى ، وآخرين من جماعة السلطان ، فتكلم الأعداء فى حق بدر الدين بن مزهر بسبب ذلك ، وغيروا خاطر السلطان عليه ، وآل أمره من بعد ذلك الى كل سوء ، حتى كان ما سنذكره فى موضعه .

* * *

وفى ربيع الآخر ، عمل السلطان الموكب بالحوش ، وخلع على الأمير سودون العجمى ، وقرره فى نيابة الشام عوضا عن قانصوه البرجى بحكم وفاته . وخلع على الأمير خاير بك ، أخى قانصوه البرجى الذى كان نائب الشام ، وقرره فى نيابة حلب عوضا عن سيباى الذى كان بها ، ورسم لسيباى بأن يحضر الى القاهرة ليلى أمرة مجلس عوضا عن سودون العجمى بحكم انتقاله الى نيابة الشام ، فلم يتم هذا الأمر وكان ما سنذكره فى موضعه .

وفى هذا الشهر ثبت النيل المبارك على ثلاث عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى ثامن عشرين توت .

وفيه خلع السلطان على الأمير أنص باى بن مصطفى ، وقرر فى حجوبية الحجاب ، عوضا عن خاير بك بن يلباى ، أخى قانصوه البرجى الذى كان نائب الشام ، بحكم انتقاله الى نيابة حلب كما تقدم .

وفى هذا الشهر اهتم السلطان بعمارة قاعة البيسرية وقاعة العواميد ، وغير ذلك من الأماكن التى بالقلعة ، فجدد ما فيها من العمارة ، وزخرفها الى الغاية . لكن حصل منه غاية الضرر ، منها أنه رسم للقاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بأن يفك رخام قاعة والده ناظر الخاص يوسف ، التى سماها نصف الدنيا ، وكان فيها الرخام المثمن الذى لايوجد . وقد أفنى ناظر الخاص يوسف عمره على بناء هذه القاعة ، فلا زال به السلطان حتى فك رخام نصف الدنيا ، ونقله الى قاعة البيسرية ، وقاعة الأعمدة ، وغير ذلك مما أنشأه بالقلعة ، فحصل على أولاد ناظر الخاص ، بسبب ذلك ، ما لا خير فيه . وكانت هذه الواقعة من أقبح الوقائع . ولو أن السلطان نقل هذا الرخام الى مدرسته لكان أولى من وضعه فى قاعة البيسرية . كما يقال : « فأفقرنى فيمن أحب ولا أستغنى » . وقد قلت فى هذه الواقعة مطلع زجل فى معنى ذلك :

سلطاننا الغورى قد جار	والصبر منا قد أعيا
وصار فى ذا الجور عمال	حتى خرب نصف الدنيا

وفيه جاءت الأخبار من غزة بوفاة الشيخ الصالح المعتقد المسلك ، سيدى محمد الغزاوى ، رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية .

* * *

وفى جمادى الأولى كملت عمارة مدرسة السلطان التى أنشأها تجاه جامعه الذى بالشرابشيين ، وأنشأ هناك مدفنا له ، وعقد فوقه قبة ، وأنشأ صهريجا ومكتبا ، وقرر بهذه المدرسة حضورين وصوفية ، يحضروا بكرة والعصر ، وجعل قاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف شيخ

الحضور باكر النهار ، ومحب الدين الحلبى الامام شيخ الحضور العصر ، كما أمر بذلك . فجاءت هده المدرسة من محاسن الزمان ، ولا سيما فى هذا الخط الذى لم يتفق لأحد من الملوك البناء فيه ، فعد ذلك من جملة سعد قانصوه الغورى . وكان أصل هذا المكان قيسارية تسمى قيسارية الأمير على ، فاستبدلت من وقف الناصر محمد بن قلاوون .

ووقع للغورى أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك ، منها : أنه نقل الأثر الشريف النبوى من مكانه الذى كان به المطل على بحر النيل ، فجعله فى مدرسته ، حتى عد ذلك من النوادر . وقد تعب الصاحب بهاء الدين بن حنا فى نقل هذا الأثر الشريف . وكان عند جماعة من بنى ابراهيم بالينبع ، فلا زال يتلطف بهم حتى اشتراه منهم بستين ألف درهم بالدراهم القديمة ، ثم نقله الى الديار المصرية وبنى له مسجدا مطلا على بحر النيل . وكان الناس يقصدون الزيارة اليه فى كل يوم أربعاء . فلما تلاشى أمر ذلك المكان الذى كان به الأثر الشريف استفتى السلطان العلماء ، فأفتوه بنقله الى مدفنه بالقبة ، وهذا بخلاف شرط الواقف .

ثم ان السلطان نقل المصحف العثمانى الى مدرسته أيضا ، وعد ذلك من النوادر . ثم نقل الى المدرسة أيضا الربعة العظيمة المكتوبة بالذهب التى كانت بالخانقاه البكتمرية التى بالقرافة . قيل ان مشتراها على الواقف ألف دينار ، ولم يكتب نظير هذه الربعة ، سوى ربعة أخرى بخانقة سرياقوس ، اشتراها الملك الناصر محمد بن قلاون بألف دينار أيضا . وأخرى بالمدينة الشريفة ، وأودعها بهذه الخانقة .

وقد وقع للأشرف قانصوه الغورى فى مدرسته من المحاسن ما لا وقع لأحد قبله من الملوك ، وحاز فيها أشياء غريبة عزيزة الوجود . ولما نقل الأثر الشريف والمصحف العثمانى الى مدرسة السلطان ، كان له يوم مشهود ، ونزل قدامه القضاة الأربعة ، والأتابكى قيت ، وجماعة من الأمراء المقدمين والفقراء أرباب الزوايا بالأعلام وهم يذكرون .

وفى ذلك اليوم ، خلع على الشيخ برهان الدين ابن أبى شريف ، وقرره فى مشيخة هذه المدرسة . وقد صرف عن قضاية القضاة ، وانفرد بمشيخة مدرسة السلطان ، واستمر بها الى الآن . وقد قلت من قصيدة مدحت بها السلطان ، وقد عرضت عليه واستحسنها ، فمن أبياتها قولى فى جامعه الذى أنشأه ، وهو قولى :

بنى بمصر لله بيتا	رخامه قائم ونائم
فجاء فى حسنه فريد	من كل عيب يقال سالم
فليس يبنى له نظير	فى سائر المدن والأقالم

وفيه — فى يوم الخميس — ثانى عشرينه — عرض السلطان القاضى بدر الدين بن مزهر بالحوش بين العسكر ، وهو فى الحديد فوبخه بالكلام ، ثم بطحه وضربه ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك وهذا أول عقابه .

وفيه أحضرت جثة قانصوه المحمدى البرجى الذى كان نائب الشام ، فلما حضرت دفنت بتربة أخيه الأمير خاير بك التى أنشأها بباب الوزير .

***

وفى جماى الآخرة رسم السلطان للرماحة بأن يسوقوا على العادة ، ويدور المحمل فى رجب كما فعل فى العام الماضى .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن سيباى نائبها ، امتنع عن الحضور الى القاهرة ، ولم يوافق بأن يلى أمير مجلس ، وقد أظهر العصيان . فلما تحقق السلطان ذلك ، بطل أمر سودون العجمى من نيابة

الشام ، وأعيد الى أمرة مجلس كما كان ، وأرسل السلطان خلعة وتقليدا الى أركماس نائب طرابلس ، بأن يكون نائب الشام عوضا عن سودون العجمى الذى كان قد قرر بها .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، توفى الحافظ تقى الدين بن الأوجاقى ، وكان من أعيان مشايخ الحديث ، وكان عالما فاضلا دينا خيرا ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، ومات وقد جاوز المائة سنة من العمر .

وفى يوم الأحد تاسع عشره توفى ابن المحرقى ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفيه خرج الأمير خاير بك الذى قرر فى نيابة حلب ، فكان له يوم مشهود ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه الأمراء قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار بأن دولات باى ، قرابة العادل طومان باى ، الذى كان نائب الشام ، وولى أيضا نيابة طرابلس ، وقد أظهر العصيان ، والتف على سيباى نائب حلب ، وقد توجهوا الى دمشق ، وحاصروا المدينة ، وقد أشرفوا على أخذها . فلما تحقق السلطان ذلك ، اضطربت أحواله ، وأراد أن يبطل دوران المحمل فى رجب ، فمنعه الأمراء من ذلك . ثم انه جمع الأمراء فى قاعة البحرة ، وضربوا هناك مشورة فى أمر سيباى نائب حلب ، ودولات باى ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب العصر .

وفيه عاقب السلطان بدر الدين بن مزهر ، وعصره فى أكعابه وركبه ، ودق القصب فى أصابعه ، وأحرقها بالنار حتى وفعت عقد أصابعه ، ثم نوعوا له أنواع العذاب ، فأخذوا له كماشة حديد ، وأحموها بالنار واختطفوا بها أبزازه وأطعموها له ، ثم أخذوا له حبل قنب ولووه على أصداغه حتى نفرت عيناه من وجهه وسالت على خديه ، وقاسى ما لا خير فيه ، وعذب بأنواع العذاب الشديد . وكان المتولى عقابه الحاج بركات ابن موسى ، ومعين الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وابراهيم دوادار الوالى ، والريس كمال الدين المزين ، فما أبقوا ممكنا فى عذابه . وكان هذا من مقت الله تعالى فى حق بدر الدين بن مزهر ، وقد روى فى بعض الأخبار أن الله تعالى يقول « اذا عصانى من يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » .

***

وفى رجب — فى يوم الأربعاء رابعه — توفى القاضى بدر الدين بن مزهر بالقلعة ، وقد مات تحت العقوبة ، فغسل بالقلعة وكفن وصلى عليه ، ونزلوا به من القلعة وتوجهوا به الى تربة أبيه فدفن عليه . وكان رئيسا حشما تولى عدة وظائف سنية منها نظارة الخاص ، والحسبة ، وكتابة السر تولاها عن أبيه ، وكان جميل الهيئة مليح الشكل ، وتوفى عن ثلاث وخمسين سنة من العمر ، وكان من أعيان الرؤساء بمصر أنصارى الأصل ، وهو محمد بن أبى بكر بن محمد بن محمد بن محمد ابن أحمد بن عبد الخالق بن عثمان ، الشهير بمزهر الدمشقى الأنصارى الشافعى ، وكان له اشتغال بالعلم لكنه كان يتقرب الى خواطر الملوك بايذاء الناس ، فأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وقد رثيه بقولى مع التضمين :

خسف البدر المفدا وبسحب الترب غابا
يا ترابا ضم بدرى ليتنى كنت ترابا

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار بأن دولات باى أخا العادل توجه الى حماة ونهب غالب ضياعها ، وفر منها النائب الذى كان بها ، وقبض على أعيان أهلها . فلما بلغ السلطان ذلك عين تجريدة الى البلاد الشامية ، وعين الأتابكى قيت باش العسكر وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم بطل ذلك

فيمـا بعـد وعين الأمير أزدمر الدوادار باش العسكر ، وصحبته جمـاعة من الأمراء غير تلك الطائفة التى تعينت صحبة قيت ، ولم يتم ذلك أيضا وكان من الأمر ما سنذكره

وفيه ترافع الشيخ أبو شامة مع خليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنـه ، فرسم السـلطان بايداع خليفة سيدى أحمد البدوى فى الترسيم ، ثم ان السلطان خلع على ولد خليفة سيدى أحمد البدوى ، وقرره فى المشيخة ، عوضـا عن أبيه ، وأشرك معـه شخصا من الأتراك يقال له لاجين رأس نوبة الجمدارية ، وقـرره أيضا ناظرا على مقام سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه .

وفى يوم تاسعه نودى فى القـاهرة بالزينـة ، بسبب دوران المحمـل ، ولبس الرماحـة الأحمر على العـادة ، وكان معلم الرماحة تمر الحسنى الزردكاش أحد المقدمين والباشات الأربعة على حكم السنة المـاضية غير أنه لمـا توفى الأمير أبو يزيد ، وكان أحـد الباشـات ، قرر عوضه شـخص من الأمراء الطبلخـانات ، يقـال له مصرباى ، فساقوا فى هذه السنة أحسن مما ساقوا فى العام الماضى ، وبات السلطان بالقصر وأحرقوا قدامه احراقة نفط حافلة ، ودارت المسايرات فى القاهرة على العادة القديمة ، ثم ساقوا الرماحة بالرملة مرتين على العادة ، ونزلوا عن خيولهم وباسوا الأرض للسلطان فى الرملة عنـد انتهـاء اللعب ، كما كان يفعل للملك الظاهر خشقدم ، فأول من أحدث ذلك السلطان قايتباى لما كان يسوق فى المحمل ، ثم دار المحمل وكسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، فلما انقضى أمر المحمل خلع السلطان على المعـلم والأربعـة باشات ونزلوا الى دورهم .

وفى هذا الشـهر خلع السـلطان على شيخ العرب بيبرس بن بقر وقرره فى شياخة العرب على عادته ، وقرر أقباى فى كشوفية الشرقية على عادته ، وكانت الشرقية يومئذ فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان .

ومن الحوادث أنه فى يوم الاثنـين سادس عشر رجب ، قبض السلطان على الأتابكى قيت الرحبى ، وهو واقف بالحوش بين الأمراء فأدخـلوه قاعة البحرة ، وقبضوا معه على الأمير أزبك المكحل ، فكثر القيل والقال فى ذلك اليوم ، ثم ان السلطان نادى فى القـاهرة بالأمان والاطمان ، والبيـع والشراء ، فسكن ذلك الاضطراب قليـلا . وكان الأتابكى قيت ظالما غاشما عسـوفا ، واسطة سوء قليل الخير كثير الأذى ، وهو الذى كان سببا لأخذ أجرة الأملاك سبعة أشهر ، وكذلك خراج الاقطاعات والرزق عن سنة كاملة ، ثم تسبب فى قطع جوامك أولاد الناس والأيتام والنساء ، وحصل منـه غاية الضرر للناس قاطبـة ، وكان اذا استعمل صانعا يقطـع أجرته ، وقد اجتمع فيه أشـياء كثيرة من المساوىء . وقد اسود وجهـه من كثرة المظالم ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا مشبها فى فعـله لونه
لم تخط ما أوجبت القسمه
فعلك من لونك مستخرج
والظلم مشـتق من الظلمه

ولمـا قبض السلطان على قيت ووبخه بالكلام أنكر ما نقل عنه ، فأحضر له السلطان عدة مراسيم بما كان يكاتب بها النواب مما نقل عنه ، فعند ذلك تبين صحة ما نقل عنه ، وافتضح بين الأمراء . وكان سبب تغـير خاطر السـلطان على الأتابكى قيت الرحبى ، أنه كان له الغرض التـام بأن يتسلطن ، فكاتب سيباى نائب حلب بأن يظهر العصيان ، حتى

يخرج اليه قيت فى التجريدة ، فاذا توجه الى البلاد الشامية ، التف عليه دولات باى الذى كان نائب طرابلس ، وسيباى نائب حلب ، وغير ذلك من النواب ، ويتسلطن هناك كما فعل العادل طومان باى . فلما تحقق السلطان ذلك ، أبطله من باشية العسكر ، بعد أن عينه صحبة التجريدة التى تعينت الى سيباى نائب حلب . ثم لما انقضى أمر المحمل ، قبض عليه عقيب ذلك ، وأدخله الى قاعة البحرة ثم قيده وزنجره ، وقبض معه على الأمير أزبك المكحل . ثم ان السلطان احتاط على موجود الأتابكى قيت من صامت وناطق ولم يترك له شيئا ، فوجد عنده أشياء كثيرة من آلة السلاح ، ووجد له من الذهب العين ستين ألف دينار ، ومن البرك والخيول والقماش أشياء كثيرة ، فاحتاط السلطان على ذلك جميعه ، واستمر قيت فى التوكيل به فى قاعة البحرة .

وفى سلخ هذا الشهر ، بات السلطان بالقصر ، وعمل الموكب بالشاش والقماش ، فلما أصبح يوم الاثنين ، خلع على المقر السيفى قرقماش بن ولى الدين أمير سلاح ، وقرره أتابك العساكر بمصر — عوضا عن قيت الرحبى — بحكم القبض عليه ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه سائر الأمراء وغالب العسكر .

* * *

وفى شعبان — فى يوم السبت حادى عشره — رسم السلطان باخراج قيت الرحبى الى ثغر الاسكندرية ، فنزلوا به من القلعة وهو مقيد مزنجر وخلفه أوجاقى بخنجر ، وقدامه أزبك المكحل أحد الأمراء المقدمين .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بنفى شخص من الأمراء الطبلخانات ، يقال له يلباى ، قيل انه قرابة سيباى نائب حلب .

فنزلوا بالأتابكى قيت ومن معه من الأمراء بعد العصر من باب الدرفيل وتوجهوا به من خلف القلعة الى البحر فأنزلوه فى مركب وأقلعوا به فى يوم هوا مريسى ، وكان المتسفر عليه الأمير جانم الدوادار الثانى ، وعلان والى القاهرة ، ونحو من خمسين مملوكا من المماليك السلطانية ، فسجنوا قيت بثغر الاسكندرية . وكان يومئذ خدابردى مملوك السلطان متوليا نيابة الاسكندرية ، فسب قيت الرحبى عند ما سجن بالبرج ، وما قاسى منه خيرا ، وكان خدابردى تقرر فى نيابتها — عوضا عن تانى بك النجمى — بحكم انتقاله الى التقدمة من نيابة الاسكندرية . وتوجهوا بأزبك المكحل الى نحو دمياط فسجن بها ، فعد نفى الأتابكى قيت من جملة سعد السلطان ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وقد قلت فى ذلك :

قد كان قيت باغيا	ولكل شر يسرع
فجنى عليه بغيه	ولكل باغ مصرع

وفيه خلع على الأتابكى قرقماس بن ولى الدين خلعة الأنظار ، فنزل من القلعة ، وتوجه الى البيمارستان المنصورى ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خلع على الزينى بركات بن موسى وقرر فى حسبة القاهرة ، وقد عد من جملة أعيان الرؤساء بمصر ، وقد عظم أمره جدا ، وقد قيل فى المعنى :

من ولى الحسبة يصبر على
تعرض الواقف والعابر
فليس يحظى بالمنى والغنى
فيهم سوى المحتسب الصابر

وفيه رجع الأمراء الذين توجهوا صحبة الأتابكى قيت فسجنوه بالاسكندرية ورجعوا .

وفيه عرض السلطان المحابيس من الرجال

والنساء ، فأفرج عن جماعة منهم ، وصالح عنهم أرباب الديون وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

* * *

وفى رمضان خلع السلطان على الناصرى محمد ابن القمارى ، وقرره أمير شكار ، عوضا عن محمد ابن أحمد بن أسنبغا الطيارى بحكم صرفه عنها .

وفيه تسحب من سجن العرقانة التى بالحوش السلطانى ، شخص من الأتراك يقال له أرزمك ، وكان له مدة طويلة وهو فى السجن ، وقيل انه هو الذى قتل العادل طومان باى فلما تسحب خنق السجان حتى مات ، وأخذ ثيابه ولبسها ونزل من باب السبع حدرات ، فاضطربت القلعة فى تلك الليلة ، وهرب بعض الطواشية ، ثم بعد ثلاثة أيام أرسل يطلب من السلطان الأمان وقد شفع فيه الأتابكى قرقماس ، فعفا عنه السلطان من القتل ورسم بنفيه .

وفى أثناء هذا الشهر افشا الطاعون بالديار المصرية ، وقد وقع فى أواخر السنة التى قبلها ، وكان تارة يقوى ، وتارة يخف ، ثم قوى أمره فى هذه السنة ، وهجم فى هذا الشهر جملة واحدة ، فلما تزايد الأمر فتح السلطان مغسلا للأموات بجوار سبيل المؤمنين فحصل به للناس غاية النفع .

وفى يوم السبت تاسع عشره توفى القاضى كمال الدين بن مزهر أخو القاضى بدر الدين كاتب السر كان ، وكان شابا رئيسا حشما وولى كتابة السر بعد أخيه بدر الدين فى دولة الظاهر قانصوه .

ومن العجائب أن أولاد القاضى أبو بكر بن مزهر كاتب السر ماتوا الثلاثة فى سنة واحدة ، فبدر الدين مات تحت العقوبة كما تقدم ، وأخوه يوسف شنق نفسه من خوفه من السلطان ، وأخوه كمال الدين مات مطعونا ، فكانت آجالهم متقاربة من بعضهم ، وكانوا أشكالا حسنة ولا بأس بهم .

* * *

وفى شوال كان العيد بالجمعة ، وخطب فى ذلك اليوم خطبتان ولهج الناس بزوال السلطان عن قريب ولم يكن ذلك .

وفيه حضر قاصد على دولات وقد أرسل يشفع عند السلطان فى سيباى نائب حلب ، ودولات باى نائب طرابلس ، وكان قد أشيع عنهما العصيان ، وأنهما من عصبة قيت الرحبى ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفيه تزايد أمر الطاعون ، وفتك فى الأطفال والمماليك والعبيد والجوار والغرباء ووصل الى أربعة آلاف جنازة كل يوم ، وعز وجود السكر النبات حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف ، وعز وجود البطيخ الصيفى والرمان .

وفيه توفى القاضى ابراهيم اللادنى مستوفى الزردخاناه ، ومات ابنه محمد عقيب موته رحمهما الله تعالى ، وكان رئيسا حشما من أعيان المباشرين .

وفيه نودى فى القاهرة من قبل السلطان بأن لا يعمل عزاء بطارات ولا نائحة تنوح على ميت ، ثم غمز على نائحة عملت عزاء بطارات ، فجرسها بركات بن موسى على حمار ، والطارات معلقة فى عنقها ، ووجهها ملطخ بالسواد ، فلما جرى ذلك رجع النساء عن تلك الأفعال الشنيعة . ثم نادى الوالى أن النساء لا يخرجن فى نعى بالليل .

وفيه خرج الحاج من القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل ، قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وبالركب الأول جان بردى تاجر المماليك ، فلما تزايد أمر الطاعون نادى السلطان بأن أرباب الوظائف من

الأمراء ، يمنعون النقباء من جلوسهم على أبوابهم قاطبة ، وألا يشتكى أحـد خصمه الا من الشرع الشريف ، ثم رسـم السلطان لحاجب الحجاب ، ووالى القاهرة ، بأن يكبسوا بيوت النصـارى ويكسروا ما عندهم من جرار الخمر ، ويحرقوا أماكن الحشيش والبـوزة ، ولا يبقـوا فى ذلك ممكنـا ، وقـد وقع فى دولة الأشرف شـعبان ابن حسين ما يقرب من هـذه الواقعة حتى قال فى ذلك الأديب ابراهيم المعمار مواليا فى المعنى :

يا من على الخمر أنكر غاية النكران
لاتمنع القس يملأ الدن والمطـران
وأمر ببلع الحشيشة تكتسب أجران
وتغتنم دعوة المصطول والسكران

وكان ذلك فى سنة تسع وستين وسبعمائة .

وفى خامس عشرينه خلع السلطان على قاصد على دولات ، وأذن له بالعـود الى بلاده ، وكتب له الجواب عن أمر سيباى نائب حلب ودولات باى نائب طرابلس .

وفى ثامن عشرينه توفيت للسلطان ابنة وكانت مستحقة للزواج ، فأخرجت فى بشـخانة زركش وقدامها كفارة ، وصلى عليها فى الجامع الأزهر ، ودفنت فى مدرسة أبيها داخل القبة ، وكان لهـا جنازة مشهودة .

* * *

وفى ذى القعـدة — فى يوم مستهله — توفى الأمـير جانم الدوادار الثانى ، وكان يقرب الى الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان شابا جميـل الهيئة ، شجاعا بطلا مشهورا بالفروسية ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى جمـاعة كثيرة من الأمراء العشراوات ومن الخاصكية .

وفيه توفى للأمير طراباى ابن صغير عمره دون العشر سنين ، وتوفى له عبـد حبشى كان جمقدارا له ، فوجد عنده من الذهب العين ثمانيـة آلاف دينار غير القماش ، وتوفى له بواب الواحى فوجد له من الذهب العين ألف دينار خارجا عن مساطير على الناس .

وفى هذا الشهر أظهر السلطان العدل فى الرعية ونادى فى القاهرة بأن المشاهرة التى كانت مقررة على الحسبة قد أبطلها السـلطان ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح الناس بذلك ، فلما مضى أمر الطاعون أعيدت كما كانت وزيادة .

وفى يوم الجمعة سادسه كانت وفاة المقر الناصرى محمد ولد السلطان ، وكان متولى شادية الشراب خاناه ، وكان شابا جميل الصورة ، مليح الشكل ، بهى المنظـر ، توفى وله من العمر نحو من ثلاث عشرة سنة ، وكان وافر العقل ، قليل الأذى ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، وكانت وفاته بالقلعة وصلى عليه بعد صلاة الجمعة عند باب الستارة ، ونزلوا به من سلم المدرج ، ومشت قدامه الأمراء فتوجهوا الى الدرب الأحمر وأدخلوه من خوخة أيدغمش ، وكانت له جنازة مشـهودة ، ونهب العـوام الكفارة من قدامه عنـد باب الوزير ، واستمر الأمراء ماشين حتى أتوا به الى مدرسـة أبيه فدفن بها داخل القبة ، وقد رثيته بقولى :

لهفى عـلى من كـان ظنى أننى
أفنى المـدائح فى الثناء قوافيا
فمضى وأثكلنى فها أنا ناظـم
تلك المعـانى الغر فيـه مراثيا

ثم فى عقيب ذلك توفيت للسلطان سرية جركسية وهى أم ولده الصغير فدفنت داخل القبة أيضا .

وفى يوم الثلاثاء عاشره توفى جان قلج الخازندار

أحد الأمراء العشراوات ، وكان من خواص السلطان وكان شابا جميل الهيئة مليح الصورة ، وقد أقبلت له الدنيا ، وكان تعين للدوادارية الثانية قبل موته .

وفى يوم الاثنين سادس عشره خلع السلطان على علان بن قراجا والى القاهرة ، وقرره فى الدوادارية الثانية — عوضا عن جانم قريب قانصوه خمسمائة — بحكم وفاته . وخلع على قانصوه المعروف بأبى سنة ، وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن علان بحكم انتقاله الى الدوادارية الثانية ، وخلع على الأمير طومان باى قريب السلطان وقرر فى شادية الشراب خاناه عوضا عن ابن السلطان بحكم وفاته .

وفى يوم الأربعاء خامس عشرينه ، توفى الناصرى محمد بن الأمير تانى بك قرا أمير مجلس كان ، وكان من أعيان أولاد الأمراء رئيسا حشما لابأس به .

وفى سادس عشرينه توفى أزبك النصرانى أحد الأمراء العشراوات أمير شكار ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه توفى الشهابى أحمد خليفة سيدى أحمد بن الرفاعى رضى الله عنه وكان من أعيان مشايخ الصوفية ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

* * *

وفى ذى الحجة خلع السلطان على القاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ، وقرر فى نظر الجيش عوضا عن الشهابى أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص .

وفيه رسم السلطان باحضار أربعة من الأمراء العشراوات الذين كانوا نفوا الى ثغر دمياط ، فلما حضروا ألبسهم سلاريات بسنجاب ونزلوا الى دورهم .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة القاضى بهاء الدين بن قدامة الحنبلى ، وكان تولى قضاء مصر ، فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ثم قرر فى قضاء الحنابلة بدمشق فخرج اليه ومات فى أثناء الطريق .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وذلك فى حادى عشرين بشنس القبطى ، ثم ابتدأ بضرب الكرة .

وفيه دخلت خماسين النصارى والطعن عمال ، وقد فتك فى الناس فتكا ذريعا وأفنى من المماليك والعبيد والجوار والأطفال والغرباء ما لا يحصى ، وفى هذه الواقعة يقول شيخنا جلال الدين الأسيوطى من أبيات :

يا رب بالهادى النبى المجتبى
أغمد عن الاسلام أسياف الوبا
يارب لا نشكو أليم عذابه
الا اليك فقد أخاف وأرعبا
كم حل فى دار فبدد شمل من
فيها فلا يجدون منه مهربا
يا رب لطفا بالعباد، فما لهم
رب سواك يقيهم المستصعبا
انا اعترفنا بالذنوب فكلنا
عاص مسىء للعذاب استوجبا
لكن اذا قرنت عظيم ذنوبنا
بعظيم عفوك كان عفوك أغلبا
ان كان لا يرجوك الا محسن
فى العالمين فمن يجير المذنبا

وقد خرجت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب بما وقع فيها من الفناء والغلاء وفساد العربان بالشرقية والغربية حتى بأرض الحجاز ، والأمر الى الله تعالى .

سنة احدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥ — ١٥٠٦) :

فيها ، فى المحرم ، اهتم السلطان باصلاح بناء

الدهيشة ، وسد البحرة التى كانت بها ، وفرش أرضها بالرخام الملون ، وصارت مدهشه للناظرين ، ولكن حصل منه الضرر الشامل ، وذلك أنه رسم بفك رخام قاعات كاتب السر أبو بكر بن مزهر ونقله الى الدهيشة ، وجددها من سقوفها وأبوابها وما بها من المعالم قاطبة .

وفيه فى ثامنه ، حضر هجان من الحجاز وأخبر أن المبشر معوق عند العرب ، وأخبر بوفاة مختص الطواشى ، وكان من أعيان الحدام رئيسا حشما جميل الهيئة ، وهو الذى بنى أساس جامع السلطان الذى بالشرابشيين ، وكان عمره أولا لنفسه ، ثم أخذه منه السلطان ، وزاد فى اتساعه كما تقدم ذكر ذلك .

ومن الحوادث أنه فى يوم عاشوراء سقط ربع من داخل المشهد الحسينى ، فمات فى ذلك اليوم تحت الردم نحو من عشرين انسانا من رجال ونساء .

وفيه أنعم السلطان على تانى بك النجمى بتقدمة ألف وبقى من جملة الامراء المقدمين .

وفيه خلع السلطان على تمرباى خازندار العادل طومان باى ، وقرر فى الأستادارية الكبرى ، عوضا عن تغرى بردى بن يلباى بحكم صرفه عنها

وفيه أخذ قاع النيل وجاءت القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزيادة فى أول يوم من المناداة خمس أصابع

وفى الرابع والعشرين منه دخل الحاج الى القاهرة وقد قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة من موت الجمال والعطش وفساد العربان .

❊ ❊ ❊

وفى صفر تغير خاطر السلطان على الأمير محسن الخازن الطواشى الحبشى ، فرسم بنفيه الى سواكن ، ورسم بنفى جوهر الشمسى شاد الحوش فنفاه الى مكة ، وكان سبب ذلك أنه غفل عن آرزمك الذى تسحب من العرقانة .

وفيه خلع السلطان على سرور الزينى ، وقرره فى شادية الحوش — عوضا عن جوهر الشمسى بحكم نفيه الى مكة .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له أزبك الصوفى ، وقرره فى نيابة القدس — عوضا عن ملاج — بحكم صرفه عنها .

وفيه أذن السلطان لحريمه أن يصعدن الى القلعة ، وكان فى هذه المدة لم تصعد خوند زوجة السلطان الى القلعة ، وكانت مقيمة ببيت الأمير ماماى الذى بين القصرين . فكان يوم صعودها الى القلعة يوما مشهودا ، فصعدت الى القلعة فى محفة زركش وكان لها موكب حافل . فلما صعدت الى القلعة حملت على رأسها القبة والطير ، ونثرت عليها خفائف الذهب والفضة ، وفرشت لها الشقق الحرير من باب الستارة الى قاعة العواميد ، ومشت قدامها الخوندات حتى جلست على المرتبة ، وكان السلطان فى هذه المدة جدد عمارة قاعة العواميد وزخرفها بخلاف ما كانت عليه أولا .

❊ ❊ ❊

وفى ربيع الأول — فى يوم السبت ثانيه — كان وفاء النيل المبارك ، وقد وافق ذلك تاسع مسرى ، فتوجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وقد أوفى وزاد عن الوفاء ثلاث أصابع ، وكان نيلا عظيما كما يقال :

ذا النيل ما يبرح فى سعده
وحاله الماشى حالا

يجرى لنا ماض ومستقبلا
لا أوقف الله له حالا

وكانَ من مبتـدأ زيادته الى هبوطه لم يتوقف يوما واحدا .

وفى يوم الاثنين رابعــه حضر الى الأبواب الشريفة ، سيباى نائب حلب ، الذى كان قد أظهر العصـيان بسبب واقعة قيت الرجبى ، فلما جرى له ما جرى ونفى أرسل سيباى يطلب من السلطان الأمان ، فأرسـل له منـديل الأمان ، ورسم له بالحضور الى القاهرة ، فلما طلع بين يدى السلطان ، حمل تحت ابطه ثوبا بعلبكيا ، وفكك أزراره كما فعل قانصوه خمسمائة لما قابل الأشرف قايتباى ، فلما قابل السلطان ، خلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا .

وفيه خسف جرم القمر خسوفا فاحشا واستمر فى الخسوف الى آخر الليل .

وفى حادى عشرينه عمل السـلطان الموكب ، وخلع على سـيباى نائب حلب ، وقرره فى امرة السلاح ، عوضا عن قرقماس بن ولى الدين بحكم انتقاله الى الأتابكية .

وفيه خلع السلطان على أيدكى والى قطيا ، وقرره فى نيابة القدس عوضا عن أزبك الصوفى ، ونقل أزبك الصوفى الى نيابة غزة عوضا عن ملاج الذى كان نائب القدس ، وسجن ملاج .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرينـه توفى الأمير تغرى بردى بن يلبـاى المعروف بالقـادرى أمير أستادار العالية ، فلما مات دفن بجـوار الامام الشافعى رضى الله عنه بتربته التى أنشأها هناك ، وكان أميرا جليلا دينا خيرا رئيسا حشما ، وكان من جمـلة الأمراء العشراوات ، وولى الأستادارية الكبرى غير ما مرة ، وأقام بها مدة طويلة ، وكان ينتج بالسداد والناس عنه راضية ، وكان أقل ظلما من غيره من الأستادارية وكان لا بأس به .

* * *

وفى ربيع الآخـر خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قايتباى من طوبرزه ، وقرره فى نيابة الكرك فخرج اليها عن قريب .

وفيـه عرض السلطان العسـكر وعين ثلاث تجاريد ، واحدة الى مكة بسبب يحيى ابن سبع أمير الينبع ، وواحـدة الى الكرك بسبب فسـاد عربان بنى لام ، وواحدة الى الهند بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند ، فعين فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من العسكر وأخذوا فى أسباب عمل اليرق .

وفيه خلع السلطان على القـاضى ابراهيم الشرايبشى ، المعروف بابن البابا ، مباشر الأتابكى قيت الرجبى ، وقرره متحدثا على أوقاف الزمامية وناظر الذخيرة ، وغير ذلك من الجهات السلطانية ، عوضا عن شهاب الدين المرقبى بحكم صرفه عنها .

وفيه استعفى الأمير تمر باى خازندار العادل من الأستادارية ، فأعفاه السلطان منها ولم ينتج بالسـداد فيها .

* * *

وفى جمادى الأولى — فى يوم مستهله — خلع السلطان على القاضى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد وقرره فى الأستادارية الكبرى عوضا عن الأمير تمرباى بحكم انفصاله عنهـا ، وهذه الوظيفة لم يلها متعمم من بعد القاضى تاج الدين بن المقسى ، لما جمـع بين نظارة الخـاص والأستادارية فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتباى ، سوى شرف الدين يونس النابلسى ناظر الديوان المفرد .

وفيه ثبت النيل المبارك على احدى عشرة أصبعا

من عشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى آخر بابه وكان نيلا مباركا .

وفى يوم الخميس تاسع هذا الشهر كانت وفاة شيخنا الحافظ العلامة جلال الدين الأسيوطى . وهو عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق ابن أبى بكر بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن الهمام الحيضرى الأسيوطى الشافعى . وكان عالما فاضلا ، بارعا فى الحديث الشريف ، وغير ذلك من العلوم . وكان كثير الاطلاع ، نادرة فى عصره ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، وبلغت عدة مصنفاته نحوا من ستمائة تأليف ، وكان فى درجة المجتهدين فى العلم والعمل ، وكانت مدة حياته نحوا من اثنتين وستين سنة وأشهر ، وكان مولده فى جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وثمانمائة ، ولما مات دفن بجوار خانقة قوصون ، التى هى خارج باب القرافة ، قيل لما غسل أخذ الغاسل قميصه ، وقبعه ، فاشترى بعض الناس قميصه من الغاسل بخمسة دنانير للتبرك به ، وابتاع قبعه الذى كان على رأسه بثلاثة دنانير للتبرك به ، ولما مات رثاه شيخنا عبد الباسط بن خليل الحنفى بهذه الأبيات وهو قوله :

مات جلال الدين غوث الورى
مجتهد العصر امام الوجود
وحافظ السنة مهدى الهدى
ومرشد الضال لنفع يعود
فيا عيون انهملى بعده
ويا قلوب انفطرى بالوفود
واظلمى دنياى اذ حق ذا
بل حق أن ترعد فيك الرعود
وحق للضوء بأن ينطفى
وحق للقائم فيك القعود
وحق للنور بأن يختفى
ولليالى البيض أن تبق سود
وحق للناس بأن يحزنوا
بل حق أن كلا بنفس يجود
وحق للأجبال خرا وأن
تطوى السماء طيا كيوم الوعود
وأن يغور الماء والأرض أن
تميد اذ عم المصاب الوجود
مصيبة جلت فحلت بنا
وأورثت نار اشتعال الكبود
صبرنا الله عليها وأو
لاه نعيما حل دار الخلود
وعمه منه بوبل الرضا
والغيث بالرحمة بين اللحود

وفيه مالت مئذنة جامع السلطان الذى أنشأه بالشرابشيين . فلما تشققت وآلت الى السقوط رسم بهدمها ، وقد ثقلت من علوها كون أنها بأربعة رءوس ، فلما هدمت أعيدت على الصحة ، وقد بنى علوها بالطوب وصنعوا عليه قاشانى أزرق . وقد تقدم مثل هذه الواقعة للمؤيد شيخ ، فلما بنى جامعه الذى هو داخل باب زويلة مالت مئذنته الشرقية عند انتهاء العمل منها فأمر بهدمها ، فهدمت وأعيدت على ما كانت عليه وذلك فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة .

* * *

وفى جمادى الآخرة ــ فى يوم مستهله ــ أنفق السلطان على من تعين من العسكر صحبة التجريدة المعينة الى بلاد الهند ، فأعطى لكل مملوك عشرين دينارا وصرف لهم جامكية أربعة أشهر معجلا وكذلك العليق ، فكان جملة ما صرف لهم نحوا

من خمسين دينـــارا لكل شخص ، وكان العسكر الذى خرج فى هذه التجريدة ملفقا ما بين أولاد ناس ، وبعض مماليك سلطانية ، والغـــالب فيهم مغـــاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك ، وأرسل السلطان صحبتهم جماعة كثيرة من البنائين والنجـــارين والفعلاء ، بسبب تلك الأبراج التى أنشأها السلطان فى جدة وانشاء السور .

وفى يوم الخميس ثانيـــه ، كانت وفاة قاضى القضاة الشافعى شهاب الدين أحمد المعروف بابن فرفور الدمشقى ، وكان عالما فاضلا ، رئيسا حشما ، فى سعة من المال ، ذا شهامة وعظمة ، وقد جمع بين قضاء الشافعية بمصر والشام وهذا لم يتفق لأحد قبله من القضاة ، ولما توفى الشهاب بن فرفور رسم السلطان لقاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن الشحنة ، بأن يخطب به ويصلى صلاة الجمعة بالقلعة الى أن يلى قاض شافعى .

فلما كان يوم الجمعة خرج عبد البر وخطب بالسلطان وهو لابس السواد ، فصعد المنبر وخطب خطبة مختصرة .

وفى يوم الاثنين سادسه ، خرجت تلك التجريدة المعينة الى بلاد الهنـــد ، وكان لها يوم مشهود ، فكان باش المماليك الذين توجهوا فى المراكب الى جـــدة ، والتركمان والعبيد الذين بهـــا ، حسين المشرف ، وباش المغاربة الذين بها ، الخواجا نور الدين على المسلاتى المغربى ، فلما خرجوا توجهوا الى نحو السويس ونزلوا من هناك فى مراكب الى جدة ، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح وغير ذلك .

وفيه كانت وفاة الشيخ الصالح سيدى محمد المغربى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان من مشاهير الأولياء .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الشيخ ولى الدين محمد ولد قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور وقرره فى قضاء الشافعية بدمشق عوضا عن أبيـــه بحكم وفاته ، وكان شـــابا لم يلتح بعد .

وفى يوم الجمعة رسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بن الشحنة بأن يخطب به ويصلى الجمعة كما فعل فى الجمعة الماضية .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على الشيخ جمـــال الدين القلقشندى وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضا عن شهاب الدين بن فرفور بحكم وفاته .

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن شخصا من الأمراء العشراوات ، يقال له مغلباى المقترع ، قتله عبده تحت الليل ، فلما بلغ السلطان ذلك ، شنق العبد على باب سيده فى مكان قتله به .

وفى سلخ هذا الشهر خلع السلطان على أقباى كاشف الشرقية ، وقرره فى نيابة غزة ، عوضا عن أزبك الصوفى الذى كان بها وصرف عنها .

* * *

وفى رجب — فى يوم مستهله — كانت وفاة الناصرى محمد بن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان شابا رئيسا حشـــما ، أصيلا عريقا ، سبط الملك الظاهر جقمق ، وأمه خوند بنت البارزى ، ابنة الظاهر جقمق ، وكان من جملة الأمراء العشراوات . وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس رابعه خلع الســـلطان على شخص يقال له أقطوه ، وقرره فى كشف الشرقية ، عوضا عن أقباى بحكم انتقاله الى نيابة غزة .

وفى يوم الأحد سابعه جلس السلطان بالميدان عرضوا عليه أبقار الجراريف وأبقار الدواليب ، ما عرضوا على السلطان ، ورجعوا ، نهب صبيان خولة عدد دكاكين من باب النصر الى باب زويلة . كادت القاهرة أن تخرب فى ذلك اليوم عن آخرها سج أصحاب البضائع واستغاثوا وطلعوا الى سلطان وقد نهب لهم بضائع وقماش ، نحو من سمائة دينار ، فلما بلغ السلطان ذلك تشوش ى الغاية ، ووبخ الجمالى يوسف بن أبى أصبع — وكان هو المتحدث على تلك الجهات — وألزمه حضار من فعل ذلك من صبيان المرابعين ، فنزل تينى بركات بن موسى ويوسف بن أبى أصبع يحررا ما نهب للناس ، ويرضياهم فى بضائعهم حسبما رسم السلطان بذلك ، فلما نزل ابن موسى يوسف بن أبى أصبع قبضا على جماعة ممن عل ذلك ، فرسم السلطان بشنق أربعة أنفس منهم ضرب جماعة منهم بالمقارع ، وكانت هذه الواقعة ن أشنع الوقائع .

وفيه خرج الأمير قايتباى الرمضانى ، الذى لى نيابة الكرك ، الى محل ولايته وخرج صحبته لعسكر المعين الى الكرك بسبب فساد عربان بنى لام .

* * *

وفى شعبان جاءت الأخبار بوفاة نائب صفد لأمير قانصوه قرا ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض السلطان المحابيس فأطلق منهم جماعة ، وأبقى أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفيه خرج الأمير أقباى كاشف الشرقية الذى قرر فى نيابة غزة الى محل ولاته بها .

وفيه خلع السلطان على الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وقرر قنبك رأس نوبة ثانى بالركب الأول ، ولم يتم ذلك وبطل .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له قانى باى العثمانى ، وقرره فى نيابة صفد — عوضا عن قانصوه قرا — بحكم وفاته .

وفيه حضر شخص من فقراء الصعيد يقال له مهدى ، فلما مثل بين يدى السلطان قامت عليه البينة بأنه زنديق ساحر يتوضأ باللبن ويستنجى به ، وذكروا عنه أشياء كثيرة من هذا النمط تخالف الشريعة ، فأرسله السلطان الى قاضى القضاة المالكى ، فحكم بكفره ، بموجب ما قامت به عليه البينة ، وضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية ، بعد أن أشهروه على جمل وهو عريان .

وفيه كان دخول الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، على أخت خوند الخاصبكية وهى زوجة الأمير أقبردى الدوادار ، فكان لهما مهم حافل .

وفيه خرج قانى باى العثمانى الذى قرر فى نيابة صفد الى محل ولايته بها .

وفيه وقعت نادرة لطيفة وهى أن الشيخ جمال الدين السلمونى الشاعر ، هجا القاضى معين الدين ابن شمس ، وكيل بيت المال هجوا فاحشا ، فمن جملة ذلك هذا البيت :

وحرفته فاقت على كل حرفة
يركب ياقوتا على فص خاتمه

فلما بلغ معين الدين ذلك ، شكا السلمونى الى السلطان ، فقال له ان وجب عليه شىء بالشرع أدبه ، فنزل ووضع السلمونى فى الحديد ، وأتى به الى بيت قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وادعى عليه ، فضربه عبد البر وعزره وأشهره على حمار وهو مكشوف الرأس . وقد

ورد فى بعض الأخبار أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أول من عاقب على الهجاء ، وقد قال بعض شعراء العصر فى واقعة السلمونى بيتين هما :

وشاعر قد هجا شخصا فحل به
من حاكم الشرع توبيخ وتعزير
فأشهروه وجازوه بفعلته
تبا له شاعر بالهجو مشهور

فلما بلغ السلطان ما فعله معين الدين بن شمس بالسلمونى ، شق ذلك عليه ووكل به وأمر بقطع لسانه ، فانه قال السلطان رسم لى بأن أشهر السلمونى ، ولم يكن السلطان رسم بشىء من ذلك ، واستمر ابن شمس فى الترسيم مدة طويلة حتى تراضى السلطان بمال له صورة ، حتى رضى عليه وألبسه خلعة .

***

وفى رمضان تغير خاطر السلطان على شخص من الأتراك ، يقال له الشيخ سنطباى ، وكان يدعى التصوف ، وكان مقيما بالمدرسة السنقرية التى تجاه خانقة سعيد السعداء ، فوشى به عند السلطان أنه يضرب الدراهم والدنانير الزغل ، فأرسل قبض عليه ، فوجد عنده عدة ضرب الزغل ، وكان عنده جماعة يفعلون ذلك ، فأمر السلطان بقطع أيديهم ، وأما الشيخ سنطباى فشفع فيه الأتابكى قرقماس من قطع اليد ، فرسم له السلطان بأن يتوجه الى القدس ويقيم به بطالا . وكان الشيخ سنطباى أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان يدعى الصلاح فانكشف رخه وظهر للناس أمره ، وقد قال فيه القائل :

يا من بضرب الفلس صار مشتغل
وما رأيناه قط يضرب ذهب
الا بطول الدهر ضراب فلوس
ولحد ضرب الفلس عقله ذهب

وفيه جاء شخص من بلاد جركس وهو صبى صغير زعموا أنه أخو السلطان ، وكذلك حضر آخر زعموا أنه أخو الأمير أزدمر الدوادار فأنزلوهما بالطبقة .

وفيه كان ختم قراءة صحيح البخارى ، وكان الختم بالحوش السلطانى ، وقد نصبت هناك خيمة كبيرة ، وكانت العادة القديمة بأن البخارى يقرأ بالقصر ، ويختم بالقصر الكبير ، ويكون له يوم مشهود ، وتفرق هناك الخلع على القضاة ومشايخ العلم وكذلك الصرر ، فبطل ذلك وصار البخارى يقرأ بجامع القلعة ، ويختم بالحوش ، فتكون ساعة يسيرة ، ثم ينفض ذلك المجلس عن أمر هين .

***

وفى شوال كان موكب العيد حافلا وفرقت الخلع على الأمراء ونزلوا الى دورهم ، وكان يوما مشهودا .

وفيه جاءت الأخبار من دمشق ، بأن أهل المدينة ثاروا على نائبها أركماس بن طراباى ، ورجموه وأخرجوه من المدينة ، فلما بلغ السلطان ذلك أرسل بالحضور الى أركماس نائب الشام ، وعين نيابة الشام الى سيباى أمير سلاح . ثم ان السلطان قبل أن يخلع عليه ، رسم له بأن يتوجه الى بيت الأمير أزدمر الدوادار ، وأن يحضر الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، والقضاة الأربعة ، ويحلفوه بحضرتهم . فلما تكامل المجلس أحضروا سيباى وحلفوه على مصحف شريف ، وكتبوا عليه صورة حلف بأنه لا يعصى على السلطان ، ولا يخامر ولا يخون الأيمان ، وشهد عليه الخليفة والقضاة الأربعة بذلك .

ثم فى يوم الخميس سابع عشره خلع السلطان على سيباى وقرره فى نيابة الشام عوضا عن أركماس الذى كان بها ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الأحوال فاسدة ، وأن عربان بنى ابراهيم قد التفوا على يحيى بن سبع أمير الينبع ، ومالك بن رومى أمير خليص ، وقد اشتد الأمر فى ذلك جدا ، فلما تحقق السلطان ذلك أمر بابطال التوجه الى الحجاز فى هذه السنة من مصر والشام وسائر الأعمال قاطبة وكانت هذه الواقعة من أعظم المصائب والثلم فى الدين . وقد حضر الركب التكرورى والركب المغربى ولم يحج منهم أحد فى تلك السنة . ثم ان السلطان أرسل كسوة الكعبة الشريفة ، وصرر الحرمين ، والزيت ، من البحر المالح فى مراكب من الطور ، ويتوجهون من هناك الى جدة .

ثم ان السلطان عزل يحيى بن سبع عن أمرة الينبع وولى بها شخصا من أولاد دراج الذى كان أمير الينبع قبل ذلك ، ولم يسمع من مبتدأ دولة الأتراك والى الآن ، بأن الحجاج امتنع خروجهم الى مكة سوى هذه السنة ، وهى سنة احدى عشرة وتسعمائة ، وقد تقدم ما وقع من الجازانى فى حق الحجاج بالركب الشامى والعراقى والمصرى ، وما صنع بالمجاورين بمكة فى سنة ثمان وتسعمائة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وقد جرى على الناس من الحوادث القديمة ما هو أعظم من ذلك ، وهو أن فى سنة ثمانى عشرة وثلثمائة ، فى دولة الخليفة القاهر بالله أبى منصور محمد بن الخليفة المعتضد بالله العباسى ، خليفة بغداد ، لما تغلبت على الخلفاء طائفة من العربان يقال لهم القرامطة ، وكان أميرهم شخصا يسمى أبو ظاهر القرمطى ، وكان يدعى أنه علوى من أولاد الامام على رضى الله عنه ، وكان يقول نحن أفضل من بنى العباس ، وكانت هذه القبيلة دون الألف انسان ، وكان أبو ظاهر القرمطى خارجيا سفاكا للدماء جاهلا ، وكانت قبيلة هذه القرامطة يسكنون بهجر ، فلما خرج ركب الحاج من بغداد ، وكان أمير الركب يسمى منصور الديلمى ، فلما وصل بالحاج الى مكة ، وأقام بها الى يوم الصعود ، هجم عليهم أبو ظاهر القرمطى بمن معه من العربان ، فقتل محارب أمير مكة ، وقتل منصور الديلمى أمير الركب ، ونهب جميع الأموال التى بمكة ، وقتل الحجاج عن آخرهم ، وأسر النساء والصبيان الصغار ، فكان عدة من قتل فى هذه الحركة نحوا من خمسة وثلاثين ألف انسان ، وطرح غالب القتلاء ببئر زمزم حتى امتلأت بالقتلاء ثم دخل الى البيت الشريف وأخذ ماكان فيه من القناديل الذهب والفضة ، وقلع باب الكعبة الشريفة ، وقلع الحجر الأسود وعرى الكعبة ونزع الكسوة عنها ، وكانت هذه الحادثة من أجل المصائب وأعظمها .

ثم ان أبا ظاهر القرمطى نقل ما نهبه من الأموال وغيرها الى هجر ، واستمر الحج منقطعا من بغداد وغيرها من البلاد نحوا من عشرين سنة لم يحج فيها الى البيت أحد .

فلما كانت خلافة الراضى بالله أحمد بن المقتدر ، مشى أبو على بن يحيى العلوى بين طائفة هذه القرامطة وبين الخليفة بالصلح ، حتى أذنوا للناس بالحج ، وجعلوا على الحجاج فى كل سنة نحوا من خمسين ألف دينار تعطى حتى يمكنوهم من الدخول الى مكة ، وهذا أول مكس أخذ على الحجاج من يومئذ ، وكان ذلك فى سنة احدى وثلاثين وثلثمائة . وقيل ان أبا على بن يحيى العلوى تلطف بالقرامطة حتى ردوا الحجر

الأسود وباب الكعبة الى مكانهما بعد جهد كبير . أورد ذلك ابن الجوزى ، انتهى ما أوردناه من هذه الواقعة ، ومن هنا نرجع الى أخبار دولة الغورى .

***

وفى ذى القعدة ، ركب القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وطلع الى القلعة ، وكان له مدة طويلة وهو منقطع فى داره بسبب توعك جسده حتى شفى ، فلما طلع الى القلعة ، خلع عليه السلطان ونزل من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين قاطبة .

وفيه جاءت الأخبار بوصول الأمير جانم المصبغة ، الذى كان حاجب الحجاب بمصر ، وخرج مع الأمير أقبردى الدوادار لما انكسر ، فلما مات أقبردى أقام جانم هذا بدمشق ، وقد نسى أمره مدة طويلة ، فشفع فيه بعض الأمراء ، فرسم السلطان باحضاره الى القاهرة ، فلما وصل الى غزة مرض واستمر عليلا حتى دخل خانقة سرياقوس ، فمات بها ولم يدخل الى القاهرة ، فلما مات هناك حملت جثته ودفن بالصحراء . وكان أميرا جليلا ، رئيسا حشما ، وولى عدة نيابات سنية ثم بقى حاجب الحجاب بمصر ، وكان من حلف أقبردى الدوادار ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وفاته القتل مرارا عديدة ، وكان من خيار مماليك الأشرف قايتباى .

وفيه سافر تغرى بردى الترجمان الى نحو بلاد الفرنج ، وأخذ معه كتاب البترك ، وكان قد تزايد تعبث الفرنج بالسواحل وأخذ أموال التجار .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه ، خلع السلطان على قاضى القضاة الشافعى ، محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وأعاده الى قضاء الشافعية — عوضا عن جمال الدين القلقشندى — بحكم صرفه عنها ، فكانت مدة جمال الدين القلقشندى فى القضاء نحوا من ستة أشهر ، وقد سعى فيها بثلاثة آلاف دينار ، ثم سعى عليه ابن النقيب بخمسة آلاف دينار ، وغرم نحوا من ألفى دينار للذى سعى له من الأمراء وغيرهم ، وكان الساعى له الأمير أزدمر الدوادار وغيره من خواص السلطان ، وهذه ثالث ولاية وقعت لابن النقيب بمصر ، وقد نفد منه مال له صورة على ولاية القضاء ، ولم يقم بها فى الثلاث مرات الا مددا يسيرة ويعزل عنها ، فكان كما يقال فى المعنى :

يفنى البخيل بجمع المال مدته
وللحوادث والأيام ما يدع

كدودة القز ما تبنيه تهدمه
وغيرها بالذى تبنيه ينتفع

وكان غير مشكور السيرة ، رث الهيئة ، يجافى النفس ، يزدريه كل من يراه ، وقد قال فيه بعض شعراء العصر مداعبة لطيفة ، وهو قوله :

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما
الى جدال بحكم غير منفصل

يبدى الزهادة فى الدنيا وزخرفها
جهرا ويقبل سرا بعرة الجمل

وقال آخر وقد أفحش فى حقه جدا ، فلا حول ولا قوة الا بالله وأنا استغفر الله تعالى من ذلك :

ياأيها الناس قفوا واسمعوا
صفات قاضينا التى تطرب

يلوط . يزنى . ينتشى . يرتشى
ينم . يقضى بالهوى . يكذب

وفى هذا الشهر كثر الحريق بالقاهرة ، وصار فى كل ليلة يحترق عدة أماكن ، بسبب الدريس ، الذى يكون ببيوت الأتراك ، وكانت المماليك

أكثرت من خزن الدريس فى هذه السنة ، وصارت المماليك يمسكون النـاس من الطرقات غصبا ، ويحبسونهم عندهم أياما بسبب نقـل الدريس ، وتعطلت أحوال الناس بسبب ذلك ، حتى صنف العوام رقصة وهم يقولون :

اهرب يا تعيس ... والا يحملوك الدريس

***

وفى ذى الحجة — فى يوم الخميس سابعه — خرج سيباى الذى قرر فى نيابة الشام ، فكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى ثامنه ، حضر المقر السيفى أركماس الذى كان نائب الشام وانفصل عنها ، فلما حضر وقابل السلطان أكرمه ، وخلع عليه ورسم له بأن ينزل فى الأزبكية ، ويسكن فى بيت الأتابكى أزبك .

وفيه بلغ السلطان أن طائفة من المماليك الذين توجهوا الى الكرك ، صحبة التجريدة ، قد دخل منهم جماعة فى الخفية الى القـاهرة من غير اذن السلطان ، فصار يكبس عليهم ، وحصـل لهـم الضرر الشـامل من السلطان ، ونادى لهـم بأن يعودوا الى الكرك ، والا تقطع جوامكهم ويحصل عليهم ما لا خير فيـه ، فخرجوا من يومهم على وجوههم .

وفيه قلع السلطان الصوف ، ولبس البياض ، وذلك فى ثالث عشر بشنس القبطى ، ثم ابتـدأ بضرب الكرة ، وكانت الأمراء المقدمون جميعهم ، حاضرة بمصر لم يكن منهم أحد غائبا فى السفر ، فكانت للسلطان فى هذه السنة مواكب مشهودة حافلة ، كما يقال فى المعنى فى ضرب الكرة :

يا حسنها كرة كالنجم سائرة
قد طال تردادها بين الجواكين
تفـرق الهم اذ كانت مؤلفة
بين القلوب بآراء السلاطين
لجبرهم لقلوب الجند اذ لعبوا
مع الملوك وهم بعض المساكين

وفيها أنعم السلطان على قرابته الأمير طومان باى ابن أخيه بتقدمة ألف ، مضافا لما بيده من شادية الشراب خاناه .

وفيه جاءت الأخبار من الشرقية بأنه وقعت هنالك معركة مهولة بين شيخ العرب بيبرس بن بقر ، وبين نجم شيخ العـايد ، فقتل فى هذه المعـركة جماعة كثيرة من العربان ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين ، ودخل أقطوه الكاشف الى القاهرة وهو مشحوت من العرب .

وفيـه حضر شخص من أولاد على دولات ، أخى سوار ، أمير التركمان وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه ، ثم قرره فى تقدمة ألف بحلب فيما بعد .

وقد وقع فى هـذه السنة الخصب والرخاء فى سائر الغلال والبضائع ... وكانت سنة هادئة من الفتن بين الأتراك ، ولكن كان معظم الأمر فيهـا بطلان الحاج بسبب عصيان يحيى بن سبع أمير الينبع ، ومالك بن رومى أمير خليص ، ولم يبطل الحاج فى هذه السنة كبير أمر أوجب ذلك ، وانما السلطان أهمل الأمور فى أول الأمر حتى تزايدت الفتن بين قبيلة بنى ابراهيم والتفوا على الجازانى ، وجرى منهم ما تقدم ذكره ، وغلب القضاء والقدر فى هذا الأمر . والحكم لله فيما يريد .

سنة اثنتى عشرة وتسعمائة (١٥٠٦ - ١٥٠٧) م

فيها — فى المحرم — جاءت الأخبار من الكرك بأن أهل الكرك قد وثبوا على النائب الذى توجه اليها ، فخرج منها هاربا وأتى الى غزة ، وسبب ذلك أن نائب الكرك لما تولى عليها أراد أن يظهر

له حرمة ، فشنق حاجب المدينة وأخاه وأولاده ، فما طاق ذلك أهل الكرك ووثبوا عليه ، فلما بلغ السلطان ذلك تغير خاطره على نائب الكرك ، ورسم بنفيه الى القدس بطالا .

وفيه كبا الفرس بالأمير طراباى رأس نوبة النوب وهو يضرب الكرة مع السلطان فانزعجت يده ، ومات الفرس الذى كان تحته ، فأنعم السلطان عليه بفرس غيرها .

وفيه ، فى يوم عاشوراء ، أمر السلطان بأن تجمع الفقراء والحرافيش عند سلم المدرج ، فاجتمع هناك الجم الغفير من الفقراء والحرافيش ، ونزل السلطان بنفسه ، ووقف وهو راكب على فرسه تحت سلم المدرج ، وصار يعطى لكل انسان من الفقراء من رجل وامرأة ، وكبير وصغير ، أشرفيا ذهبا ، فوقع الازدحام بين الفقراء ، حتى قتل منهم فى ذلك اليوم ثلاثة أنفار ، من شدة ازدحامهم ، فكان كما يقال فى المعنى :

فيا له من عمل صالح
يرفعه الله الى أسفل

وقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحوا من ثلاثة آلاف دينار ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فلما رأى ازدحام الفقراء ، لم ينزل مرة أخرى ، ولم نفرق شيئا ، وكان قصده يفرق على الفقراء مرة أخرى .

وفيه خلع السلطان على ملاج وأعاده الى نيابة القدس ، كما كان أولا ، وأضاف اليه نيابة الكرك والتحدث على مدينة لد والرملة ، وكان ملاج غير مشكور السيرة سيىء التدبير فى أفعاله ..

وفيه حضر نجاب من مكة ، وأخبر أن طائفة بنى ابراهيم قد دخلوا تحت طاعة أمير مكة ، وتلاشى أمر يحيى بن سبع ، فلم يثق السلطان بذلك .

وفى ثامن عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع وعشر أصابع أرجح من النيل الماضى بعشر أصابع .

وفى يوم سلخه خرج ملاج الى محل نيابته بالقدس ، وخرج صحبته المماليك الذين كانوا حضروا من الكرك بغير اذن كما تقدم .

* * *

وفى صفر كان ختام صرب الكرة ، فجمع السلطان الأمراء ، ومد لهم مدة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه أخرج السلطان له خرجا من المماليك ، نحوا من أربعمائة مملوك ، وأخرج لهم خيلا وقماشا ، ولم يخرج من بعد انفصل حرجا سوى هذا ، وصاروا يسمون الأشرفية الغورية .

وفيه حضر القضاة الأربعة ببيت الأمير أزدمر الدوادار بسبب عقد مجلس ، فوقع فى ذلك المجلس بعض تشاجر بين قاضى القضاة الشافعى محيى الدين عبد القادر بن النقيب ، وبين قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، فتفاوضا فى الكلام حتى خرجا فى ذلك عن الحد ، فدخل بينهما الأمير أزدمر الدوادار حتى سكن الأمر بينهما قليلا ، وسبب ذلك لأجل خزانة الكتب التى بالمدرسة المحمودية ، وأمر هذه الواقعة قد اشتهر بين الناس .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن حضر الى مكة بسبب الحج جماعة كثيرة من اليمن والعراق ، وغير ذلك من البلاد ووقفوا بالجبل ، فتنكد السلطان بسبب ذلك لعدم خروج المحمل من القاهرة ، ورأى ذلك فى حقه نقصا بين ملوك اليمن وغيرها .

وفيه جاءت الأخبار من الينبع بأن التجريدة

التى خرجت الى الهند ، بسبب تعبث الفرنج ، لما وصلوا الى الينبع اتفعوا مع يحيى بن سبع أمير الينبع فهرب من وجههم ، وكانت الكسرة عليه وقتل من عربانه لجماعة كثيرة ، وأحرقوا الدور التى على ساحل البحر الملح التى ببندر الينبع ، وخربوا غالب دكاكينه ، وشتتوا العربان التى به . ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل الى جدة ، شرع حسين باش العسكر وسنقر أحد الزردكاشية ، وعلى المسلاتى المغربى ، فى بناء أبراج على ساحل بندر جدة ، وكان هذا عين الصواب ، ومن أحسن المبانى .

ثم جاءت الأخبار بأن العسكر لما وصل الى سواكن ملكوها بالأمان واحتاطوا على ما فيها من بهار وغيره وشتتوا أهلها عنها ، فانشرح السلطان لهذه الأخبار .

وفيه خلع السلطان على ابن على دولات وأذن له بالسفر الى أبيه ، وعين معه شاد بك نائب المهمندار ، وأرسل صحبته تقدمة حافلة الى على دولات .

وفيه وقعت فتنة كبيرة بين الزعر فى الرملة تحت القلعة ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب ومعه جماعة من المماليك وهم لابسون آلة السلاح ، فاتقعوا معهم فى وسط الرملة فقتل من الزعر فى ذلك اليوم سبعة أنفار وانهزم الباقون .

ومن الحوادث أن جارية سوداء قتلت ستها وابن ستها وأخا ستها ، فلما عرضت على السلطان رسم بقطع يدها وشهرت فى القاهرة ، ثم كلبت وعلقت عند خوخة المغازليين فى مكان قتلت فيه ستها .

وفيه خلع السلطان على قانصوه روح لو ، وأعيد الى كشوفية الشرقية كما كان أولا ، وقد اضطربت أحوال الجهات الشرقية الى الغاية فخرج قانصوه المذكور ، وصحبته جماعة كثيرة من العسكر ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا من جملة الأمراء المقدمين فعظم أمره جدا .

* * *

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة الى القلعة لأجل التهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس أصلح السلطان بين القاضى الشافعى عبد القادر بن النقيب ، وبين القاضى الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وكان بينهما وحشة كما تقدم ، فلما اصطلحا خلع السلطان عليهما ونزلا الى دورهما .

وفيه جاءت الأخبار من الشرفية بأن العرب العصاة قطعوا جسر سنيت والحلفاية على الجرون حتى غرقت ، وكان النيل قد أشرف على الوفاء ، وحصل بسبب ذلك الضرر الشامل ، وتوقف النيل عن الزيادة لأجل المقاطع التى قطعت عليه .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا .

وفى العشرين منه كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى العشرين من مسرى وكبر فى الحادى والعشرين منها ، فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن الأتابكى قرقماس ، لما أراد أن يطلع من الحراقة ، عند المقياس نثر خازنداره على رأسه خفائف الذهب والفضة ، فتكاثرت عليه الناس ، فجفل الفرس به فقلبه فى البحر ، فلاقته النواتية وطلعوا به فى المركب ، وقد ابتل شاشه وقماشه حتى غيرهما ، وتوجه الى نحو المقياس وهو ماش ، وقيل ان الفرس غرق ، وطلعوا به وهو يعرج . وحصل للأتابكى قرقماس فى ذلك اليوم مشقة زائدة بسبب ذلك .

ومن الحوادث فى هذا الشهر كان انتهاء العمل من الجامع الذى أنشأه الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، بجوار بركة الرطلى ، على أرض الطبالة ، وبركة القرع ، فلما كمل خطب به الشيخ علاء الدين الاخميمى النقيب ، واجتمع به فى ذلك اليوم قضاة القضاة وأعيان الناس ، وكان يوما مشهودا . ثم ان الشيخ عبد القادر أشار بفتح فم بركة القرع ، حتى تدخلها المراكب مثل بركة الرطلى ، ففتح لها مسرب من الخليج الحاكمى ، من عند ديل التمساح ، فلما كان يوم الجمعة دخل فيها المراكب وانطلقت لها ألسن النساء بالزغاريت ، وكان يوما مشهودا ، وعد ذلك من النوادر ، وصارت المراكب تدخلها فى كل سنة من يومئذ .

***

وفى ربيع الآخر تغير خاطر السلطان على أربعة من الأمراء الطبلخانات ، فقبض عليهم ، وهم جان بردى تاجر المماليك ، وقلج أمير آخور ثانى ، وبيبردى أخو جان بلاط الذى تسلطن ، وتنم المقرى . فلما قبض عليهم قيدهم . وسبب ذلك أنه بلغ السلطان أن هؤلاء الأمراء كانوا قد اتفقوا على قتله لما ينزل الى الميدان وقت الظهر ، وقد أقر بعضهم على نفسه بصحة ما نقل عنهم ، فلما تحقق السلطان ذلك قبض عليهم ورسم بنفيهم .

وفيه توفى القاضى شمس الدين محمد بن مزاحم الطرابلسى ناظر الاسطبل ، وكان رئيسا حشما ، وولى عدة وظائف سنية ، لكنه كان غير مشكور السيرة ، وعنده ظلم وعسف .

وفيه خلع السلطان على الأمير ماماى جوشن ، وقرره كاشف الغربية ، عوضا عن الأمير خاير بك ابن اينال الذى كان بها ، وقد نعين باش التجريدة الى الحجاز .

وفيه وقع أن شخصا من الأتراك ، يسمى ماماى الداودى ، أبا الأمير أبى يزيد أحد المقدمين ، ضرب شخصا من تجار الأروام بسبب مشترى بغل ، فلما ضربه سال دمه ، فطلع التاجر شكاه الى السلطان ، فرسم لنقيب الجيش بالقبض عليه ، وأن ينفيه الى الواح . فلما قبض عليه نقيب الجيش هرب من عنده تلك الليلة ، فحصل على نقيب الجيش ما لا خير فيه بسببه ... فلما هرب ماماى المذكور ، اختفى الأمير أبو يزيد بسبب ذلك ، ثم ان ماماى توجه الى الأتابكى قرقماس ليشفع فيه عند السلطان ، فطلع به وقابل السلطان ، فحط عليه وقصد ضربه ثم رسم بنفيه الى الواح . وكان ماماى هذا من شرار المماليك ، وكان مشدا على جهات المكوس بقطبا

وفى هذا الشهر وقع الاضطراب بين الأمراء ، وأشيع أمر الوثوب على السلطان بسبب الأمراء الذين رسم بنفيهم كما تقدم ، وقد صمم على نفيهم لأمر أوجب ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على الزينى فرج الحاجب ، ورسم بتسليمه الى بركات بن موسى ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، ثم آل أمره الى أن حط عنه خمسة آلاف دينار ، ويرد خمسة آلاف ، فباع جميع قماشة ورزقه وما بملكه ، وأقام مدة طويلة وهو فى التنكيل به ، وقاسى شدائد ومحنا عظيمة . وسبب ذلك أن أنصباى حاجب الحجاب أمره أن يحرس بعض الجسور فى أيام النيل ، فامتنع من ذلك ، فطلع أنصباى وشكاه الى السلطان ، فجرى عليه ما جرى ، وموجب هذا كله خسة نفسه وشحه أوجب ذلك ، كما يقال :

ورب جار لنا شحيح ... ليس له بالجميل عاده
أعظم شيء تراه منه ... مساكم الله بالسعاده

وفيه جلس السلطان بالحوش ، وأحضر المصحف العثمانى ، وحلف عليه سائر الامراء من الأكابر والأصاغر ، وموجب ذلك كثرة الاشاعات بأمر الوثوب على السلطان .

وفى ذلك اليوم خلع على الأمير نوروز أغات أزدمر الدوادار وقرره تاجر المماليك عوضا عن الأمير جان بردى المغضوب عليه .

وفيه خلع على بيبرس قريب السلطان ، وقرر أمير آخور ثانى ، عوضا عن قلج المغضوب عليه .

وفيه خلع السلطان على شمس الدين محمد ابن فخر الدين ، كاتب المماليك ، وقرره فى نظر الاسطبل عوضا عن ابن مزاحم بحكم وفاته .

وفيه رسم السلطان باخراج هؤلاء الأمراء الذين قبض عليهم ، فنفى بيبردى أخا الأشرف جان بلاط وتنم المقرى الى البلاد الشامية ، فتسلمهما الوالى وهما فى قيود ، وتوجه بهما الى الخانكاه ، فرسم لأحدهما بالتوجه الى طرابلس ، والآخر الى حلب . وأما جان بردى وقلج فاستمرا فى البرج ، وهما فى قيود وزناجير حتى يكون من أمرهما ما يكون .

وفيه جاءت الأخبار من الكرك بأن عربان بنى لام كسروا ملاج نائب القدس ، وقتلوا من المماليك السلطانية الذين خرجوا معه فى التجريدة جانبا كبيرا ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وكتب عدة مراسيم الى نائب الشام ، ونائب طرابلس ، ونائب صفد ، بأن يجمعوا العساكر ويزحفوا على العربان من بنى لام .

وفى هذا الشهر تزايد فساد العربان بالشرقية والغربية ، حتى أعيا الكشاف أمرهم ، واضطربت الأحوال جدا .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن جكم ، وكان من أعيان أولاد الناس وكان لا بأس به .

وفيه كانت الأسعار مشتطة فى سائر البضائع والغلال .

* * *

وفى جمادى الأولى تغير خاطر السلطان على القاضى فخر الدين بن العفيف كاتب المماليك ، ورسم عليه أربعة من الخاصكية ، وأقام مدة وهو فى الترسيم ، وقرر عليه مالا حتى يرده لما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمره .

وفى يوم الاثنين عاشره أنفق السلطان على العسكر المعين الى تجريدة الحجاز ، فأنفق لكل مملوك مائة دينار وسبعة أشرفية ثمن جمل ، وقرر معهم بأن يكون السفر أول رجب ، فشرعوا فى عمل اليرق .

وفيه خلع السلطان على القاضى فخر الدين كاتب المماليك ، وأعاده الى وظيفته ، بعد أن أورد نحوا من ألفى دينار وكسور .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعا وأصبعين من عشرين ذراعا ، وهبط قبل دخول بابه وكان نيلا متوسطا .

وفيه عقد للأمير طومان باى قريب السلطان ، على ابنة الأمير أقبردى الدوادار ، وكان العقد بالقلعة وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان الناس ، وكان الأمير طومان باى يومئذ فى غاية العظمة ، وقد جمع بين شادية الشرابخاناه وتقدمة ألف .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص يسمى عمر — وكان مباشرا بالواح — فشنق على باب زويله ، وشنق معه شخص آخر يسمى الشيخ حسن ، من مباشرى الواح أيضا .

وفى أواخر هذا الشهر رسم السلطان بعقد مجلس فى الميدان ، فاجتمع هناك القضاة الأربعة ،

وذلك بسبب شخص يسمى شمس الدين بن أبى عبيد ، وقصته مشهورة بين الناس ، فوقع فى ذلك المجلس بسببه بين القضاة ما لا خير فيه ، وآل أمره بأن السلطان رسم بعزله عزلا مؤبدا ، وانفصل المجلس على ذلك .

❋ ❋ ❋

وفى جمادى الآخرة قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد خالف العادة فلبس الصوف فى سادس عشرين بابه قبل دخول هاتور بأربعة أيام ، ولم يكن الحال يقتضى ذلك ولا أفرط البرد فى تلك الأيام ، فعد ذلك من النوادر ، ولم يعلم ما سبب ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من أبناء التجار ، يقال له عمر بن عبد اللطيف ، وكان والده من أعيان التجار ، فأشيع عنه أنه قد قتل زوجته فى بتية خشب ، وأحرقها بالنار لأمر وقع منها ... وكانت هذه الواقعة برشيد . فلما بلغ السلطان ذلك ، أحضره فى الحديد ، فلما حضر عاقبه على ذلك أشد العقوبة فلم يقر بشىء ، فاحتاط على موجوده جميعا وسلب نعمته ، وكان فى سعة من المال ، ثم سجنه وأقام به مدة طويلة ، نحوا من أربع سنين ، وقاسى شدائد ومحنا وأمره مشهور .

وفيه أنعم السلطان على أركماس بن طراباى الذى كان نائب الشام ، وحضر الى القاهرة بتقدمة ألف ، وجعل له مرتبا على الذخيرة من غير اقطاع ، ورتب فى كل شهر له ألف دينار ، وفى كل سنة ألف أردب قمح ، ورسم له بأن يقف فى المواكب فوق الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وأحضر له تخفيفة من تخافيفه التى بالقرون الطوال فألبسها له ، وقلع من عليه سلارى وشق وألبسه له ، فحصل له فى ذلك اليوم غاية الجبر من السلطان ، واستمر ساكنا بالأزبكية .

وفيه توفى الركنى عمر بن تغرى بردى السيفى ، سودون بقجة ، الذى كان دوادار الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز ، وكان رئيسا حشما كثير العشرة للناس ، وكان لا بأس به فى أولاد الناس .

وفيه سافر ناظر الخاص علاء الدين بن الامام الى جهة الطور ، بسبب تجهيز العليق لأجل العسكر المعين الى مكة ، فخرج ومعه جماعة من المماليك السلطانية .

❋ ❋ ❋

وفى رجب خلع السلطان على شرف الدين النابلسى الأستادار ، باستمراره فى الأستادارية ، وكان أشيع عزله .

وفى يوم الاثنين سابعه حضر دولات باى ، قرابة العادل طومان باى الذى كان نائب الشام ، وولى نيابة طرابلس أيضا ، وكان أظهر العصيان والتف على سيباى نائب حلب . فلما حضر سيباى وقابل السلطان ، فر دولات باى والتجأ الى على دولات وأقام عنده . فأرسل على دولات ولده الى السلطان ليشفع فى دولات باى ، فأجابه السلطان الى ذلك ، وأرسل له أمانا على يد شاد بك نائب المهمندار . فلما وثق من ذلك حضر الى القاهرة ، وقد حدثت من دولات باى هذا أمور شتى ، وتوجه الى بلاد ابن عثمان ، على أن يثير فتنة كبيرة ، فما طلع من يده شىء ، وآل أمره الى أن حضر بالأمان ، فلما قابل السلطان حمل تحت ابطه ثوبا بعلبكيا أى كفنه ، كما فعل قانصوه خمسمائة فعفا عنه السلطان ، وخلع عليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفى هذا الشهر خرج العسكر المعين الى مكة ، وكان باش العسكر خاير بك بن اينال كاشف الغربية ، أحد المقدمين ، وصحبته قنبك بن شاد بك رأس نوبة ثانى ، وخرج صحبتهم جماعة من الأمراء العشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، وخرج صحبتهم هجار بن دراج الذى فرر فى امرة الينبع ، عوضا عن يحيى بن سبع ، وخرج صحبتهم المحمل الشريف ، فكان لهم يوم مشهود ... لكن رسم السلطان بأن امرأة لا تخرج صحبة العسكر ، ومنعوا من ذلك ، وخرج صحبة الأمير خاير بك نحو من مائة قواس ، فأقام المحمل لما خرج بالريدانية الى يوم الأربعاء تاسعه ، ثم رحل من هناك صحبة العسكر . ولما خرج الأمير خاير بك رسم السلطان لجان بردى ، تاجر المماليك الذى كان غضب عليه وسجنه بالبرج ، بأن يخرج صحبة العسكر منفيا الى مكة ويقيم بها .

وفى ذلك اليوم رسم باخراج قلج أمير آخور ثانى الى حلب منفيا ، وقد تقدم أنه غضب عليه .

وفى يوم الجمعة حادى عشره صلى السلطان بالجامع ، وجلس على باب الستارة ، وخلع على الأمير دولات باى المقدم ذكره ، وقرره فى امرة السلاح عوضا عن سيباى بحكم انتقاله الى نيابة الشام .

* * *

وفى شعبان عرض السلطان المحابيس والنساء التى بالحجرة ، وأطلق منهم جماعة وصالح عنهم من أرباب الديون من ماله .

وفيه وصل الى السلطان من البلاد الشامية صناديق خشب وفيها أشجار بطينها ما بين تفاح شامى وكمثرى وسفرجل وقراصية وكروم عنب ، وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض ، وسبوسان ، وزنبق ، وغير ذلك من الأزهار الشامية ، حتى أحضر اليه شجرة جوز هند بطينها ... فغرس ذلك جميعه بالميدان الذى تحت القلعة ، فكانوا نحوا من مائة وخمسين حملا ، فعد ذلك من النوادر اللطيفة .

وقد تقدم أنه أنشأ به مناظر ومقاعد وأماكن للمحاكمات ، ورمى بأرضه الأحمال الطين . وكان السلطان مولعا بغرس الأشجار ، وحب رؤية الأزهار ، والرياضات . وهذه الأخبار تقرب من أخبار خمارويه بن أحمد بن طولون ، حيث أنشأ بستانا بالقرب من جامع أبيه الذى أنشأه بأعلى الكبش ، وقد تقدم ذكر ذلك . ولما كملت عمارة هذا الميدان صار من جملة متنزهات الديار المصرية ، وصار السلطان ينزل اليه فى كل يوم ، ويعمل به المواكب فى غالب الأيام ، وكان أكثر اقامته به لأجل التنزه . وقد صار هذا الميدان مثل غوطة دمشق ، ما بين أشجار ومياه جارية حتى عد ذلك من النوادر ، وقد قلت فى المعنى :

عاينت بالميدان بستانا زها
أشجار أومت لنا بسلام
والزهر مختلف به ألوانه
ولقد يجل ثراه عن نمام

ولقد وقع للأشرف قانصوه الغورى أشياء كثيرة من الغرائب لم تقع لغيره من الملوك السالفة ، وربما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من الطور ، بأنه قد غرقت مراكب مسمارى كبار ، فيها قمح للدشيشة التى رتبها الأشرف قايتباى الى المدينة الشريفة ، وكان فى تلك المراكب أصناف بضائع بنحو عشرة آلاف دينار للأتابكى قرقماس ، فغرق جميعه ، وغرق فيها ما لا يحصى من رجال ونساء

وصغار عند بركة غرندل ، فشق ذلك على الناس ، ولا سيما أهل المدينة الشريفة فقد كان بها الغلاء الشديد .

***

وفى رمضان فى مستهله عرض القاضى شرف الدين الصغير ، ناظر الدولة ، اللحم والخبز والدقيق والسكر على السلطان وهو بالميدان ، وطلع به مزفوفا على رءوس الحمالين على جارى العادة ، فخلع عليه وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب ، وخلع فى ذلك اليوم على شيخ العرب نجم ، شيخ العايد ، باستمراره على عادته ، وطلع القضاة الأربعة والخليفة على الدكة بالحوش جلوسا عاما ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان توجه الى الطور بسبب ارسال عليق العسكر الى المتوجه الى التجريدة ، فأرسله فى مراكب من البحر الملح الى جدة .

وفى يوم الاثنين خامسه طلع الأمراء الى الخدمة ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان المصحف العثمانى بين العسكر ، وحلف عليه الأمير دولات باى الذى فرر فى امرة السلاح ، وحلف أيضا أركماس الذى كان نائب الشام ، فحلفا للسلطان بأن يكونا تحت طاعته ، فلما حلفا ألبس كلا منهما سلارى صوف بسمور ، وانفض الموكب على ذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره ، خلع السلطان على قاضى القضاة جمال الدين القلقشندى وأعاده الى قضاء الشافعية ، وهذه الولاية الثانية ، وعزل عبد القادر بن النقيب ، فكانت مدته فى هذه الولاية تسعة أشهر ، وعشرين يوما وهى الولاية الثالثة ، وكان فى هذه الولايات فى غاية الضنك وكان غير محبب للناس .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره توفى الأمير طقطباى قرابه آقبردى الدوادار ، وكان أحد الامراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفى ثامن عشره حضر هجان من مكة ، وأخبر بأن العسكر الذى توجه الى مكة قد انتصر على عربان بنى ابراهيم ، وهرب يحيى بن سبع ، وقتل من العربان ما لا يحصى ... فلما تحقق السلطان ذلك أمر بدق الكوسات ثلاثة أيام ، وسر الناس قاطبة لهذا الخبر .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، وهى مزفوفه على رءوس الحمالين ، وشقوا بها من القاهرة ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة ، فألبسه السلطان خلعة حافلة ، لكونه سار فى هذه السنة بالسداد .

***

وفى شوال فى يوم عيد الفطر خلع السلطان على من له عادة ، وكانت الخلع فى غاية الوحاشة من القماش القطنى الملون ، تساوى الخلعة من ذلك نحو ثلاثة دنانير ، وكانت الخلع من قديم الزمان من المنسوجات الحرير الملون بفرو وسنجاب .

ومن جملة ما بطل من شعائر المملكة ، موكب الوزير فى يوم العيد ... فكان ينزل من القلعة وهو راكب بغلة بزنارى ، وعلى رأسه طرحه بيضاء ، وتحت عمامته عرقيه بذهب — وهى التى يسمونها الطاسة — ويتقلد بسبحة بأكر من عنبر ، وتركب قدامه الأوجاقية وهى بالتتريات الحرير الأصفر قائدة الجنائب ، وقدامه مبخرة السلطان بالبخور ، ويستمر فى هذا الموكب الحافل حتى يصل الى داره . وآخر من أدركناه يفعل

ذلك الصاحب علاء الدين على بن الأهناسى ، فصار الآن تغرى برمش الوزير ، اذا نزل من القلعة فى يوم العيـد ، لم يشعر به أحد من الناس اذا شق من القاهرة .

وفيـه نادى السـلطان فى القـاهرة للمقطعين بأن كل من كان له حصة خراب ينزل يعمـرها ، ويجرف جسورها ، ويرد فلاحيها المتسحبين حيث كانوا .

وفيه جاءت الأخبار بأن العربان بالشرقيـة قد قطعوا الطريق على القفل الذى جاء من المحلة ونهبوا كل ما فيه ، وكان فيه حمل مال للسـلطان فأخذ مع جملة ما أخذ .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ، قيل انهم من سياس الأمير آزدمر الدوادار ، وسبب ذلك أنهم قتلوا قتيلا فى بولاق فشنقوا هناك .

وفيه حضر أقباى نائب غزة ، وقد حصل بينه وبين مـلاج نائب القـدس تشاجر فشكاه أقباى الى السلطان ، فأرسل باحضار ملاج فلم يحضر ، وأظهر العصيان ، فتغير خاطر السلطان عليه .

وفيـه تغير خاطـر السلطان على تغرى برمش الوزير ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وقد رافعهما بعض العمـال على أنهما يأخذان الغلال من البلاد بالكيل الكبير ، ويصرفانه من الشـون بالكيل المصرى ، فقرر السلطان عليهما فى نظير ذلك عشرة آلاف دينار يردانها للخزائن الشريفة .

وفيه أنعم السلطان على جماعة من الخاصكية بامريات عشرة ، فأمر فى هذا الشهر نحـوا من أربعين أميرا ، زيادة على ما ذكرناه فى أخبار سنة ثمان وتسعمائة .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه ، حضر شخص من الأمراء العشراوات ، يقال له خاير بك المعمـار ، وصحبته نحو من خمسين رأسا ممن قتل فى الواقعة من العربان من بنى ابراهيم ، وهى الواقعة الأولى . فلما حضر خاير بك المعمار الى القاهرة أنعم عليه السلطان بامرة طبلخاناه بمصر ، فلما حضروا زينت لهم القـاهرة ، ودقت الكئوسات ، ودخلت تلك الرءوس وهى مشهورة على رمـاح ، والمشـاعلية تنادى عليهم : « هذا جزاء من يقطع الطريق على الحجاج ، وينهب أموالهم » . فلما عرضوا على السلطان خلع على خاير بك المعمار ، ورسم بتعليق تلك الرءوس على أبواب القـاهرة . وقد قامت حرمة المملكة بعد ما كانت قد انتهكت ، وتبهدلت الأتراك ، وكاد الحاج أن ينقطع عن التوجه الى مكة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه ، توفى الشهابى أحمد بن الأمير تمرباى رأس نوبة النوب ، وكان قد كبر وشاخ وقارب التسعين سـنة من العمر . وكان لا بأس به رئيسا حشما من أعيـان أولاد الناس .

وفى يوم الاثنين سلخ هذا الشهر رسم السلطان للأمير آزدمر الدوادار ، بأن يخرج على حين غفلة ، ويسـافر الى جهة الكرك ونابلس بسبب فسـاد العربان من بنى لام ، فخرج عن قريب ، وعين معه نحوا من خمسمائة مملوك من المماليك السلطانية .

* * *

وفى ذى القعدة ، فى يوم مستهله ، خلع السلطان على أقباى نائب غزة ، وسافر اليها على عادته . وقد تقدم سبب حضوره الى القاهرة .

وفى ذلك اليوم حضر عدة هجـانة من مكة ، وأخبروا بأن العسكر المتوجه الى يحيى بن سبع ، قد انتصر عليه نصرة ثانية ، وكان من ملخص أخبار هذه النصرة ، أن العسكر لمـا اتقع مع يحيى ابن سبع ، وانكسر أولا ، توجه الى طائفة من العربان

يقال لهم العنزة ، وهم من بنى لام ، فالتجأ اليهم واستمر مقيما فى مكان بالقرب من الينبع .

فلما مضى شهر رمضان ، ودخل شوال حضر الشريف بركات أمير مكة ، وحضر أخوه الشريف قايتباى ، وحضر معهما من العربان نحو من ألف انسان .. فركب الأمير خاير بك باش العسكر ، ووزع تلك العربان ، وأكمنهم فى مواضع متفرقة ، فلما وصل العسكر الى مكان يسمى السويق ، بالقرب من الينبع ، أتى اليهم بن سبع ، وقد التف عليه مالك بن الرومى . أمير خليص ، وأمير المدينة ، وحميضة أخو الجازانى ، فاتقعوا هناك وقعة مهولة ، فقتل بها من العربان ما لا يحصى ، ومن الأتراك أيضا ، فلم تكن الا ساعة يسيرة وقد انكسر يحيى بن سبع ومن كان صحبته من العربان . فلما انهزموا خرج عليهم الأكمنة التى أكمنها الأمير خاير بك فاحتاطوا بهم ولم ينج منهم الا القليل ، بعد ما قتل منهم نحو من ثمانمائة انسان ، وأسر منهم قدر ذلك . وجرح فى هذه الواقعة الشريف بركات أمير مكة فى وجهه ... فلما هرب يحيى بن سبع وقع النهب فى نجع العرب فغنم منهم الأتراك أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش ، مما نهبوه من ركب الحاج الشامى والعراقى كما تقدم . وقد تمت الكسرة على يحيى ابن سبع ، وأمير المدينة ، وحميضة أخى الجازانى ، فهربوا ولم يعلم لهم خبر .

فلما صحت هذه الأخبار زينت القاهرة سبعة أيام ، واستمرت الكوسات عمالة ، وصارت الأمراء تخلع على الهجانة الذين أتوا بهذه البشارة ، كوامل وسلاريات ، وكانت هذه النصرة على غير القياس . ثم فى عقيب ذلك جاءت الأخبار بأن الشريف بركات وأخاه قايتباى ، لما رجعوا من الينبع ، وأتوا الى خليص ، اتقعوا مع مالك بن الرومى أمير خليص واقعة مهوله ، فانكسر ابن الرومى وهرب ، فلما هرب غنم منه عربان الشريف بركات أشياء كثيرة ، من جمال وأغنام وقماش وسلاح ، مما كان نهبه من الحجاج .

وفى هذا الشهر كان دخول الأمير طومان باى قريب السلطان على ابنة الأمير أقبردى الدوادار فكان لها مهم حافل ، وزف لها الجهاز الحافل ، حتى رجت له القاهرة . فلما كان ليلة الدخول مشى فى زفة الأمير طومان باى الأتابكى قرقماس وسائر الأمراء قاطبة ، وبأيديهم الموكبيات الشمع الموقدة . وكانت هذه الزفة تعادل زفة الأمير جانم قرابة الأشرف قايتباى لما تزوج بأخت خوند ابنة خاص بك .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، فأكرمه السلطان وأحسن اليه .

وفى أثناء هذه السنة توفى الشيخ بدر الدين محمد المارديني ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكانت له يد طائلة فى علم الميقات ، وغير ذلك من العلوم .

وفى هذه السنة توفى أيضا خشكلدى المعروف بنصف وجه ، وكان أحد الحجاب بالديار المصرية ، وكان مفردا فى فتنه ، بعثوا عليه الناس حتى السلطان وكان قد كبر وشاخ .

ومن الحوادث ، أن شخصا من المماليك القرانصة فى سن الشيخوخة ، طلع الى القلعة وقت صلاة الصبح ، وكان يوم الجامكية ، فبينما هو طالع برأس الصوة واذا بثلاثة أنفار من المماليك الجلبان خرجوا عليه هناك ، فقتلوه بخنجر فى بطنه فمات لوقته ، وقتلوا عبده أيضا وكان ماشيا معه حاملا قماشه التى يلبسها عند طلوعه الى القلعة ،

فآل أمره بأن ذلك الجندى كان له اقطاع فمرض ، فلما ثقــل فى المرض طلع هؤلاء المماليك يطلبون اقطــاعه ، فقــال لهم السـلطان : « حتى يموت خذوه » . ثم ان الجندى عوفى من ذلك المرض ، فلما طاب وطلع الى القلعة ، قتله هؤلاء المماليك من قهرهم منه . وأعجب من ذلك أن السلطان أخرج الاقطــاع الى غير هؤلاء المـماليك الذين قتلوا الجندى ، بسبب اقطاعه ، فكان كما يقال :

فغض الطرف انك من نمـير
فلا كعــبا بلغت ولا كلابا

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، كان له حاصل فى درب الخازن ، وفيه دريس فحرق بالنهــار وقت الظهر ، فذكر بعض الجيران أنه رأى شخصا فى صفة فلاح ، كان هنــاك فى عمارة مع جملة الفعلاء ، فرمى فى ذلك الدريس نارا ، وربما كان هذا الكلام كذبا عليه ، فأرسل من قبض عليه وضربه بالمقارع ، ثم قطع يده اليمين ، وأشهره فى القاهرة ، ثم أراد حرقه بالنار فشفع فيه بعض الأمراء .

وفى ســادس عشره ، توفى القاضى بدر الدين محمد ابن القاضى شمس الدين بن محمد القرافى المالكى ، وكان من أعيان نواب المالكية ، وكان ينتسب الى الشيخ عبد الله بن أبى جمرة رحمة الله عليه .

وفيه توفى شخص حريرى ، كان له دكان على رأس عطفة الماطيين ، تجاه سوق اليوسفية ، فوجد عنده فى دكانه أربعة آلاف دينار ما بين ذهب وفضة وهى موزعة فى برانى فى سقف الدكان ، وكان رث الهيئة يدعى الفقر .

ويقرب من ذلك أن امرأة كانت تستعطى عند جامع ابن طولون ، فلما ماتت وجد عندها سبعمائة دينار ، ما بين ذهب وفضة ، ووجد عندها أمطار فيها فلوس جدد ، ووجد عندها ربع غزل ، نحو من ثمانمائة ربعة ، فتعجب الناس من ذلك .

* * *

وفى ذى الحـجة ، فى يوم سابعه ، خـــرج الأمير أزدمر الدوادار مسافرا الى جهة الكرك ، ونابلس ، بسبب فساد بنى لام ، وخرج صحبته الأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تانى بك النجمى ، وجماعة كثيرة من الأمراء العشراوات ، ومن المماليك السلطانية نحو من خمسمائة مملوك ، فكان له يوم مشهود .

وفيه خلع السـلطان على قانصــوه كاشــف الشرقية ، وعلى ماماى جوشن كاشف الغربية ، بأن يكونا على عادتهما ، وكان أشيع عزلهما .

وفيه ركب القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وكان عليــلا منقطعا عن الركوب . فلما طلع الى القلعــة ، خلع عليه الســلطان كاملية ونزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيــه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك خامس بشنس القبطى ، ثم ابتــدأ يضرب الكرة ، ففى أول يوم من ذلك تقنطر أمير كبير قرقماس ، ووقع الى الأرض ثم قام وركب .

وفيــه هجم المنسر على شــخص من الأمراء العشراوات ، يقــال له خشكلدى الهوارى ، وكان دوادار الأتابكى قيت الرحبى ، وكان ساكنا بالقرب من حدرة الكماجيين ، فلما هجم عليه المنسر تحت الليل ، ذبحوه وهو راقد فى فراشه ، وأخذوا كل ما فى البيت ولا يعلم من فعل ذلك . وقد أشيع بين النــاس أن زوجة خشكلدى المذكور كانت هى الســبب فى قتله ، فأقامت مدة وهى فى الترسيم ببيت بركات بن موسى .

وفيه حضر مبشر الحاج ، وأخبر بأن العسكر لما انتصر على يحيى بن سبع ، توجه الى مكة ووقف بالجبل ، وأخبر بأن العيد كان هناك يوم الجمعة ، وأن مكة مغلية [1] ، وأخبر أيضا أن الفرنج كثر تعبثهم ببحر الهند ، وأن حسين باش العسكر المتوجه الى هناك يشرع فى بناء أبراج على ساحل جدة وصور ، وقد جهزوا المراكب الى الخروج الى عدن ، فسر السلطان لهذا الخبر ... لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز ، حتى بلغوا فوق عشرين مركبا ، وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق فى الأماكن المخيفة ، ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات والأرز من مصر وغيرها من البلاد .

وسبب هذه الحادثة أن الفرنج تحيلوا حتى فتحوا السد الذى صنعه الاسكندر بن فلبس الرومى . وكان هذا نقبا فى جبل بين بحر الصين وبحر الروم ، فلا زال الفرنج يعبثون فى ذلك النقب مدة سنين حتى انفتح وصارت تدخل منه المراكب الى بحر الحجاز ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد (!) .

وفى أواخر هذه السنة ظهر الطاعون ببلاد الصعيد ، ولم يقع بها فى سنة عشر وتسعمائة لما ظهر بالقاهرة

وفى هذه السنة طلع الى السلطان شخص يسمى أبو الخير المرافع ، وقال له : « أنا ألتزم لك بمائتين وخمسين ألف دينار ، أستخلصها لك ممن أعرفه ، ولا تنتطح فى ذلك شاتان » ! فمال السلطان الى كلامه ، وقصد أن يخلع عليه ويشرع فى ذلك ، فاجتمع بعض الأمراء بالسلطان ورجعه عن ذلك فرجع ولله الحمد .

(1) مغلية : اى بها غلاء

وفى هذه السنة تزايد ظلم الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وشرع يأخذ أوقاف الناس ، من بلاد وبيوت وغير ذلك ، فيحلها فى ساعة واحدة ، ويرسم عليهم ، ويأخذ أماكنهم بأبخس الأثمان ، وكل من امتنع من ذلك يضربه ضربا مبرحا ويدعه فى الترسيم حتى يعذر له ، ولا سيما ما وقع ليونس ابن جانم الزردكاش ، أخذ منه بيت أبيه الذى أنشأه بزقاق حلب ، فامتنع يونس من ذلك ، فضربه ضربا مؤلما حتى أعذر له ، وهو تحت العقوبة ، وفعل مثل هذه الواقعة بجماعة كثيرة يطول الشرح فى ذكرهم

ومن الحوادث اللطيفة ما وقع فى أواخر هذه السنة ، أن السلطان أبطل المجراة القديمة التى كانت عند درب الحولى بمصر العتيقة ، وشرع فى بناء مجراة جديدة ، فجمع المهندسين فاختاروا أن يكون مبتدأها من عند موردة الخلفاء ، بالقرب من الجامع الجديد ، فأنشأ هناك بئرا ، وجعل لها مسربا من بحر النيل ، وصنع على هذه البئر عدة سواقى نقالة ، وأنشأ من هناك مجراة على قناطر معقودة على دعائم متصلة الى باب الزغلة ، ومن هناك تتصل الى الميدان والقلعة ، فجاءت هذه المجراة من العجائب والغرائب ، لكن صرف على بنائها ما لا يحصر من الأموال ، وغالبه من وجوه الظلم والمصادرات .

وقد وقع فى زمن الشيخ زين الدين بن الوردى رحمة الله عليه ما يشبه ذلك ، وهو أن بعض الملوك أجرى قناة بدمشق الى بعض الجوامع ، وكان ذلك المصروف من مال فيه شبهة ، فأنشأ الشيخ زين الدين فى هذه الواقعة وهو يقول :

كرهت وضوءا من قناة تساق من
دماء الرعايا أو بمال محرم

سيشرق فى يوم الحســـاب ندامة
كما شرقت صـــدر القناة من الدم

وفى هده السنة طلعت جزيره ببولاق تجاه ربع قانم التاجر ، فصارت هذه الجزيرة فى كل ســـنة تزرع آمقتة ورياحين ، فتوجهت اليهـــا النـــاس ، وخرجوا فى القصف والفرجة هنـــاك عن الحد ، وضربوا الخيام الكثيرة ، وتعمل هناك أخصاص للمتفرجين بها ، وصاروا يبيتون هناك ليلا ونهارا ، وصار الناس يخوضون فى البحر الى نصف الليل ، وقد قال القائل فى المعنى :

فى جزيرة بولاق رأينـــا عجب
أسد ســـاروا معهم ظبا شاردين
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح
أذهلونا خضـــنا مع الخايضـــين

وقال آخر وأجاد :

امض لبـــولاق ترى بجزيرة
حـــور وولدان لهـــا تأنيق
لى من تحابى وردها نشر زها
ولهـــا بقلبى هزة وعلـــوق

وقد خرجت هذه السنة على الناس وهم فى آمن وسلامة ، وكانت سنة مباركة على الناس ، أخصب فيهـــا الزرع ، ووقع بها الرخاء فى سائر البضائع والغلال ، وكانت سنة هادئة من الفتن بين الأتراك ، وقد حصلت بها هذه النصرة العظيمة على عربان الحجاز ، بعد ما كاد الحاج آن ينقطع من فساد الطرقات الى مكة من عرب بنى ابراهيم فلله الحمد .

سنة ثلاث عشرة وتسعمائة (١٥٠٧/١٥٠٨ م) :

فيها ــ فى المحرم ــ كان خليفة الوقت : الامام المستمسك بالله أبو النصر يعقـــوب ، الهاشمى الأبوين ، ابن المتـــوكل على الله عبـــد العـــزيز .

والسلطان يومئذ : الملك الأشرف ، أبو النصر قانصوه بن بيبردى الغورى عز نصره .

والقضـــاة الأربعـــة : جمـــال الدين ابراهيـــم القلقشندى الشافعى ، وسرى الدين عبد البر بن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين ابراهيم الدميرى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الشيشينى الحنبلى .

وأما الأمراء أرباب الوظائف من المقدمين فهم : الأتابكى قرقماس بن أركماس بن ولى الدين أمير كبير ، ودولات باى قرابة العادل أمير السلاح ، وسودون العجمى أمير مجلس ، وقانى باى قرا الرماح أمير آخور كبير ، وطراباى الشريفى رأس نوبة النوب ، وأزدمر بن على باى دوادار كبير ، وأنصباى بن مصطفى حاجب الحجاب .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين : فالقاضى محب الدين محمـــود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشـــاء بالديار المصرية ، والقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين بن الامـــام ناظـــر الخاص ، والأمير تغرى برمش متحدث مع القاضى شرف الدين الصـــغير فى الوزارة ، وشرف الدين يونس النابلسى متحدث على وظيفة الأستادارية الكبرى ، وبقية المباشرين من أرباب الوظائف على حكم ما شرح فى السنة الخالية .

وفى هذا الشهر وقع لقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة واقعـــة غريبـــة ، وهى آن جمال الدين السلمونى الشاعر هجا القاضى عبد البر بن الشحنة هجوا فاحشا . بقصيدة مطولة يأتى الكلام عليها . وسبب ذلك أن السلمونى كان قد هجا معين الدين بن شمس وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فشكاه معين الدين الى القاضى عبد البر ، فأحضر السلمونى بين يديه ، وضربه وعزره وأشهره فى القاهرة ، وهو عريان مكشوف الرأس . فلما بلغ السلطان ذلك ، أرسل من خلصه من القاضى

عبد البر . فلما خلص هجا عبد البر بهذه القصيدة الفاحشة ، وقد دارت بين الناس ، فلما بلغ القاضى عبد البر ذلك ، شكا السلمونى الى السلطان لما طلع الى القلعة فى يوم التهنئة بالشهر ، وعرض عليه تلك القصيدة التى هجاه بها ... فأحضر السلطان السلمونى بين يديه ، ووبخه بالكلام وقال له : « أتهجو شيخ الاسلام بهذا الكلام الفاحش ؟ » ، فأنكر السلمونى ذلك وقال : « أنا ما قلت فيه هذا كله » ، فقامت عليه البينة بأن هذا نظمه ، فرسم السلطان لقاضى القضاة عبد البر بأن يتوجه بالسلمونى الى المدرسة الصالحية ، ويعمل معه ما يقتضيه الشرع الشريف ، فنزل بالسلمونى وهو فى الحديد . وكان السلطان له عناية بالسلمونى فى الباطن . فلما أتوا به الى الصالحية ، تعصب عليه القضاة قاطبة وقصدوا ضربه بالسياط ، واشهاره فى القاهرة ... وهذه ثانى واقعة وقعت للسلمونى بسبب الهجاء .

وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أول من عاقب على الهجاء ... فلما أرادوا ضرب السلمونى وتعزيره ، تعصب له جماعة كثيرة من العوام ، وقصدوا يرجمون قاضى القضاة عبد البر وهو فى وسط ايوان المدرسة الصالحية ، وجمعوا له الحجارة فى أكمامهم ، فما وسع القاضى عبد البر الا أنه عفا عن السلمونى من التعزير والاشهار فى القاهرة . ثم ان القضاة أمروا بسجن السلمونى ، فسجن وأقام مدة طويلة فى السجن ، يأتى الكلام عليها . وأما القصيدة الموعود بذكرها فهى قصيدة مطولة فيها ألفاظ فاحشة الى الغاية ، واساءة مفرطة لا ينبغى أن تذكر ، ولكن نورد منها بعض أبيات مما نظمه جمال الدين السلمونى ، وهو قوله من أبيات :

فشا الزور فى مصر وفى جنباتها
ولم لا وعبد البر قاضى قضاتها
أينكر فى الأحكام زور وباطل
وأحكامه فيها بمختلفاتها
اذا جاءه الدينار من وجه رشوة
يرى أنه حل على شبهاتها
فاسلام عبد البر ليس يرى سوى
بعمته والكفر فى سنماتها
أجاز أمورا لا تحل بملة
بحل وبرم مظهرا منكراتها
ألست ترى الأوقاف كيف تبدلت
وكانت على تقديرها وثباتها
وقد وثبت فيها فضاياه بالأذى
وبالبيع شبه الأسد فى وثباتها
فان كان فى الأوقاف تم بقية
تكذبنى فيما أقول فهاتها
ولا بد من بيع الجوامع تارك
الجماعات منها مبطل جمعاتها
ولا بد أن يستبدل الناس أعبدا
بأحرارها بيعا لنفس ذواتها
ولو أمكنته كعبة الله باعها
وأبطل منها الحج مع عمراتها
ومصداق قولى أنه كان مغريا
ليحيى بن سبع فى خراب جهاتها
وقد كان ذئبا لابن سبع وقومه
يطالع بالأخبار قبل رواتها
ولو يعط دينارا وطاوعه الورى
لأسقط عنها صومها وصلاتها
شكت ملة الاسلام مما ينالها
بأفعاله ، يا هل تزيل شكاتها ؟
فيبكى على الدين القويم وشرعه
وأحكامه فيها بمنعوجاتها

نعى مذهب النعمان من قبح فعله
على فتوات الزور لا عن ثقاتها
تعقب يعقـوبا وخـالف رأيه
فكم حل من وقف وأبدى شتاتها
وعن زفر قد زفر النقـل كاذبا
بتزويج أرحام لحين براتهـا
وقد خان قاضى خان فى فتواته
بتغييرها عن مقتضى موجباتهـا
فلا تخشن اثما أن تخوض بعرضه
فغيبته للنـاس خير لغاتهـا
فماذا على الاسلام حل من الردى
بأيام عبـد البر مع سـنواتها

انتهى ذلك على سبيل الاختصار ، وأنا أستغفر الله العظيم وأتوب اليه .

وفى رابع هذا الشهر ، خرج الأتابكى قرقماس الى نحو الشرقية والغربية ، وقد سرح فى البلاد وغاب فيها .

وفى حادى عشره كان ببولاق ليلة حافلة بسبب وقت مولد سـيدى اسماعيل الانبابى رحمة الله عليه ، فضربت فى تلك الجـزيرة التى تجاه بولاق نحو خمسمائة خيمة ، صنعوا سـوقا بدكاكين ، وخرج الناس فى الفتك والفرجة عن الحد ، وأقاموا هناك ليالى متوالية ، وموجب ذلك أن كان الرخاء والأمن موجودين .

وفى عقيب ذلك عمل مولد الشيخ سـويدان المجذوب ، فى مدرسة ابن الزمن التى ببولاق عند الرصيف ، فكان له مولد حافل ، وضربت هناك الخيام الكثيرة عند المدرسة ، لكن حدث تلك الليلة حادثة مهولة ، وهو أن امرأة طبخت على شاطىء البحر ، فطارت منها شرارة فتعلقت بمركب هناك كان فيها كتان فعملت فيه النار ، وكان تلك الليلة الريح عاصفا ، فمشت النار الى شونة تبن فى معصرة هناك فعملت فيها النار فاحترقت المعصرة ، ونهب ما فيها من قصب وسكر وعسل ، وحصل للناس تلك الليلة غاية النكد ، ولولا لطف الله تعالى ، ثم بركة الشيخ سويدان ، لاحترقت تلك الأماكن التى هناك عن آخرها .

وفيه تغير خاطر السلطان على أبى الخير المرافع ، بعد أن قربه ، وكان قد أخذ فى أسباب مصادرات الناس ، ولو دام لحصـل للناس منه كل سوء ، فتسـلمه الزينى بركات بن موسى ، فنزل به من القلعـة وهو فى الحديد ، فلما شق من القـاهرة كادت العوام أن ترجمه ، وارتفعت الأصوات لابن موسى بالدعاء لأنه كان سببا لذلك . فلما أتى الى داره ضرب أبا الخير المرافع بالمقـارع ، وبعث به منفيا الى الواح .

ومن الحوادث أن مملوكا من المماليك الجلبان نزل الى سوق الرقيق ليشترى عبدا أو يرد عبدا ، فوقع بينه وبين الدلال تشاجر . فلما تزايد الأمر بينهما ضربه المملوك بقبقاب على رأسه فى السوق بين الناس ، فحمل الى داره ، فأقام نحو شهر ثم مات ، فلم تنتطح فى ذاك شاتان .

وفى عقيب ذلك ، ضرب الأمير أرزمك الناشف ، أحد الأمراء المقدمين ، شحصا من النواتية فمات تحت الضرب . وسبب ذلك أن هذا النوتى حمل للأمير أرزمك مغلا فنقص ، فضربه بسبب ذلك . فلما مات النوتى وقف أولاده للسلطان ، فلما علم بهذه الواقعة تغافل عن ذلك وقال للأمير أرزمك : « ارض أولاد هذا المقتول » ، وانفض المجلس على ذلك وراحت على من راح .

* * *

وفى صفر كان ختام ضرب الكرة ، ثم ان السلطان أضاف الأمراء بالبحرة ، ومد لهم أسمطة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفيه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع ، وكانت الزيادة فى أول يوم من المناداة خمس أصابع .

ومن الحوادث أنه فى يوم الخميس ثالث عشره تسحب من سجن القلعة ، وقت الظهر ، نحو سبعين انسانا من المحابيس ، ما بين مشايخ عربان وفلاحين وغير ذلك فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، فمضوا ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيه جاءت الأخبار أن عربان الشرقية هاجوا ونهبوا الضياع ، فعين لهم السلطان فى ذلك اليوم تجريدة ، وعين بها من الأمراء سودون العجمى أمير مجلس ، وأنصباى حاجب الحجاب ، وتمر الزردكاش أحد المقدمين ، ودولات باى قرموط ، ومن المماليك السلطانية نحوا من خمسمائة مملوك ، فخرجوا من يومهم ... وقد تقدم القول بأن الأتابكى قرقماس خرج قبل ذلك الى نحو الشرقية والغربية ، فلما سمع بمجىء العسكر لاقاهم من هناك .

* * *

وفى ربيع الأول رسم السلطان للقاضى علاء الدين ناظر الخاص بأن يتوجه الى جدة . وقد بلغ السلطان أنه وقع تشاجر بين حسين باش العسكر الذى هناك ، وبين على المسلاتى المغربى ، فخرج ناظر الخاص ليكشف عن حقيقة ذلك ، وعين معه السلطان نحوا من خمسين مملوكا تقوية للعسكر الذى هناك .

وفيه كان رجوع الأمراء والعسكر الذين توجهوا للشرقية ، بسبب فساد العربان ، فرجعوا بغير طائل من ذلك .

وفيه رسم السلطان بشنق أحمد بن مهنا شيخ بنى وائل ، فسمروه هو وأقاربه ، وطافوا بهم القاهرة ، ثم شنقوا أحمد بن مهنا على باب النصر . وكان ذنبه أنه هرب من السجن ، وقتل السجان وكسر القيد ، وكان من شرار العربان ، فلما ظفر به شنقه .

وفى يوم الثلاثاء عاشره ، كان دخول العسكر المتوجه الى الحجاز بسبب محاربة يحيى بن سبع ، فدخل الأمير خاير بك باش العسكر ، وقنبك رأس نوبة ثانى المتوجه صحبته ، وبقية الأمراء والعسكر ، فكان لهم يوم مشهود . ودخل المحمل صحبتهم ، فزينت لهم القاهرة ، ودقت لهم الكوسات بالقلعة ، ودخل صحبتهم ثمانمائة رأس من رءوس العربان ، من بنى ابراهيم الذين قتلوا فى المعركة ، فأشهروهم على رماح ، والمشاعلية تنادى عليهم .. فلما طلع الأمراء الى القلعة خلع عليهم السلطان ، ونزلوا الى دورهم . فكانت مدة غيبتهم فى هذه التجريدة ثمانية أشهر وأياما . وقد بيضوا وجههم بهذه النصرة التى وقعت لهم ، وفتحوا درب الحجاز فتحا ثانيا فى الاسلام ، بعد أن كاد الحج ينقطع ، فلله الحمد على ذلك ...

وقد شق على السلطان مجىء العسكر ، وكان قصده أن يتبعوا يحيى بن سبع حيث توجه حتى يقطعوا جادرة بنى ابراهيم عن آخراهم . وكان العليق هناك ما يوجد ، والموت فى الجمال كثيرا فتقلق العسكر ، وطلب المجىء .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع القضاة الأربعة والأمراء المقدمون على العادة ، ونصب الخيمة الكبيرة المدورة التى صنعها الأشرف قايتباى وصرف عليها نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وكان مولدا حافلا .

وفى رابع عشره جاءت الأخبار من عنـد الأمير أزدمر الدوادار أنه لما توجه الى الكرك ونابلس ، قاتل عربان بنى لام الذين كانوا من عصبة يحيى بن سبع ، فانتصر عليهم وقتـل منهم جمـاعة كثيرة ، وأسر من كبارهم نحو عشرة أنفار ، وملك منهم مدينة الكرك . فلما تحقق السلطان ذلك أمر بدق الكوسات بالقلعة ، وكانت القاهرة مزينة من حين دخل العسكر ، فصارت الفرحة فرحتين .

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، خلع السلطان على الأمير طراباى رأس نوبة النـوب ، وقرره فى امرة ركب المحمـل ، وقرر قانصوه أبا سنة والى القاهرة بالركب الأول .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن الناس تحج فى هذه السنة مطلقا من رجال ونساء على العادة ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء ، وكان من أعظم فرحات الاسلام .

وفيه تغير خاطر السلطان على القاضى فخر الدين ابن العفيف كاتب المماليك ، فعزله ورسم عليه ، وقرر عليه ألفى دينار يوردها للخزائن الشريفة ، وكان هدا آخر عزل القاضى فحر الدين وولاياته .

وفيه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك عاشر مسرى ، وفتح السـد فى اليوم الحادى عشر من مسرى ، ووقع فى زيادة هذا النيل أمور غريبة ، وهو أنه سلسل فى أول الزيادة ، فلما كان سادس مسرى زاده الله ثلاثين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى اليوم السابع منها زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم فى اليوم الثامن منـها زاد الله فيه أيضـا عشرين أصبعا ، وكانت زيادته سبعين أصـبعا فى ثلاثة أيام ... واستمرت الزيادة عمالة مترادفة حتى أوفى الله ، فتوجه الأتابكى قرقماس ، وفتح السـد على العادة ، وكان له يوم مشهود ، كما يقال فى المعنى :

سد الخليج بكسره جبر الورى
طرا فكل قـد غـدا مسرورا

البحـر سلـطان فكيف تواترت
عنـه الأشائر اذ غـدا مكسورا

وفيه توفى شرف الدين بن أبى الخـير كاتب الجرافة مبـاشر الأمير طراباى ، وكان من وسائط السوء عنده .

❊ ❊ ❊

وفى ربيـع الآخر خلع السـلطان على القاضى شرف الدين الصغير وقرر فى كتابة المماليك عوضا عن فخر الدين بن العفيف بحـكم صرفه عنـها ، فتضاعفت عظمة شرف الدين الصغير ، وصار ناظر الدولة كاتب المماليك مستوفيا على الدواوين وغير ذلك من الوظائف .

وفيه جاءت الأخبـار من عنـد نائب حلب بأن اسماعيل شاه بن حيدر الصوفى ، المقـدم ذكره ، قد تحـرك على بلاد السلطان ، ووصـل أوائل عسكره الى ملطية ، وحكوا عنه أمورا شنيعة فى أفعاله .. فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وجمع الأمراء وضربوا مشورة فى أمر الصوفى ، فأشـار الأمراء على السلطان بأن يرسـل اليـه تجريدة ، فنادى للعسكر بالعرض ، فطلع العسكر قاطبة الى القلعة فعرضهم — وكان قاصد ابن عثمان حاضرا ، وخليل بيك بن رمضان أمير التركمان — فكتب من العسكر نحـوا من ألف وخمسمـائة مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين فى ذلك اليوم خمسـة ، وهم : قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وجعله باشا على العسـكر ، وصحبتـه أرزمك الناشف أحد المقدمين ، ودولات باى قرمـوط ، وقانصوه كرت ، وتانى بيك الخازندار . وعين من الأمراء الطبلخانات والعشراوات نحـوا من عشرين أميرا . ثم عين بيبرس أمير آخـور ثانى قرابتـه

بأن يتوجه الى حلب ، ويعلم النواب بمجىء العسكر ، وليجتهدوا في عمل اليرق ، وأن نائب حلب يجمع عساكر حلب ، ويخرج ليحرس أطراف البلاد ويكشف الأخبار ، ثم بطل ذلك جميعه فيما بعد ، كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

* * *

وفى جمادى الأولى — فى ثامنه — حضر أبرك نائب قلعة حلب ، وقد انفصل عنها ووقع بينه وبين نائب حلب تشاجر ، وأصله من مماليك السلطان . فطاش وفتك بحلب ، ولم يستشن لنائب حلب بشأن .

وفيه جاءت الأخبار بأن عساكر الصوفى عدت من الفرات ، ووصل جاليشهم الى أطراف بلاد السلطان ، وأن على دولات جمع التركمان ، وخرج اليهم وتحارب معهم .

فلما جاءت هذه الأخبار ، اضطربت القاهرة وماجت ، ونادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الاثنين . وكان قد أشيع بين الناس بأن التجريدة بطالة ، فأهمل العسكر ذلك حتى طرقتهم هذه الأخبار ، فعند ذلك شرع المماليك يكبسون على الطواحين والاسطبلات بسبب البغال والأكاديش ، وكان السلطان أخر أمر النفقة الى أن يحضر الأمير أزدمر الدوادار ، وكان توجه الى الكرك ونابلس بسبب عربان بنى لام . فلما جاءت هذه الأخبار أنفق السلطان على العسكر المعين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار على العادة ، وجامكية أربعة أشهر معجلا ، وثمن جمل سبعة أشرفية ... فكان ما خص كل مملوك نفقة وجامكية وثمن جمل مائة دينار وثلاثين دينارا . ثم شرعوا فى عمل اليرق .

وفى يوم الأربعاء ، رابع عشره ، عزم السلطان على قاصد ابن عثمان فى قاعة البحرة ، فأظهر فى ذلك اليوم غاية العظمة فى الفرش وفى الأسمطة والفواكه والحلوى ، وملأ صحن فرعون الذى تحت شباك قاعة البحرة سكرا بماء الليمون ، برسم جماعة القاصد ، وعند الانصراف خلع على القاصد كاملية مخملا أحمر بسمور فاخر ، وكان يوما حافلا جدا .

وفى تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة ، شخص يقال له كمال ، من خواص جماعة ابن عثمان ، وقد ترجموا كمال هذا بتراجم عظيمة ، بأنه لا يكل ولا يمل من الجهاد فى الفرنج ليلا ونهارا ، حتى أعيا الفرنج أمره ، وأنه رأس المجاهدين المرابطين فى الاسلام . فلما حضر أكرمه السلطان وبالغ فى اكرامه وخلع عليه ، فأقام بمصر مدة يسيرة ورجع الى بلاده .

وفى العشرين من هذا الشهر جاءت الأخبار من غزة ، صحبة هجان ، بوفاة الأمير أزدمر بن على باى الأشرفى أمير دوادار كبير ، توفى بغزة يوم الخميس خامس عشر هذا الشهر ، وقد مرض مدة ثلاثة أيام ومات . فلما جاء هذا الخبر تأسف عليه الكثير من الأمراء ممن كان من عصبته ، وكان موته بغتة على حين غفلة ، وأشيع بين الناس أنه مات مشغولا ، وكان أميرا جليلا رئيسا حشما ، لين الجانب قليل الأذى ، وكان فى عنفوان شبوبيته ، وكان مرموقا بالشجاعة والفروسية .. وهو من مشتريات الأشرف قايتباى ، وولى عدة وظائف سنية ، منها شادية الشراب خاناه ثم بقى مقدم ألف ، ثم ولى الدوادارية الكبرى بعد الأمير مصرباى فى سنة سبع وتسعمائة ، فكانت مدته فى الدوادارية الكبرى نحوا من ست سنين وخمسة أشهر الا أياما . فلما تحقق السلطان موته ، ضرب الحوطة على

موجوده ، ورسم على جماعته وغلمانه ومباشريه وقرر عليهم مالا له صورة .

وفيه حضر تغرى بردى الترجمان ، وكان توجه الى بلاد الفرنج ، وأقام بها نحوا من سنتين ، فلما حضر خلع عليه السلطان وأقره على وظيفته .

وفيه ثبت النيل المبارك على ثمانى عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك بثمانى أصابع .

وفيه توفى القاضى جمال الدين الأتميدى أحد نواب الحكم الشافعى ، وكان لا بأس به

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن شخصا يقال له عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى المحلى ، وكان خطيبا ببعض الجوامع ، فقيل عنه انه وقع فى حق سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام بكلام فاحش لا ينبغى أن يذكر ، فضبطوا عليه ذلك ... ثم ان بعض القضاة استتوبه ، وحكم شمس الدين الحليبى بحقن دمه . فلما بلغ السلطان ذلك تعصب لابراهيم الخليل عليه السلام ، وقال : « ما أرجع حتى أضرب عنق هذا القائل لهذا الكلام » . فأمر بعقد مجلس بحضرته وجلس فى الدهيشة وأرسل خلف القضاة الأربعة ، فحضر جمال الدين القلقشندى الشافعى ، وسرى الدين عبد البر بن الشحنة الحنفى ، وبرهان الدين الدميرى المالكى ، والشهاب أحمد بن الشيشينى الحنبلى ، ثم أمر السلطان باحضار القضاة المنفصلين ، فحضر شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعى ، وحضر برهان الدين ابن أبى شريف الشافعى ، وبرهان الدين بن الكركى الحنفى ، وجماعة من مشايخ العلم ، منهم الشيخ نور الدين المحلى ، والشيخ عبد الحق السنباطى الشافعى وغير ذلك من المشايخ والعلماء . فلما تكامل المجلس تباحثوا فى هذه المسألة ، فقال الشيخ زكريا : « مذهبنا أن هذا القائل اذا تاب الى الله تعالى واستغفر تقبل توبته » . ووافقه على ذلك ابن أبى شريف ، فحصل فى ذلك المجلس بعض تشاجر بين قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة وبين الشيخ نور الدين المحلى ، وأحضر كل من العلماء النقول فى هذه المسألة ... وانفصل المجلس مانعا على أن هذا القائل يسجن مدة طويلة حتى يتوب ، ثم انفض المجلس على ذلك ، والسلطان قد صمم على ضرب عنق هذا القائل ، فتوجهوا به الى السجن فسجن ، وهذا ما كان من ملخص هذه الواقعة .

وفيه حضر الأمراء الذين كانوا توجهوا صحبة الأمير أزدمر الدوادار الى نابلس ، وأحضروا صحبتهم جثة الأمير أزدمر وهى فى سحلية ، فدفن فى تربته التى أنشأها بالقرب من باب الزغلة ، وانطوى أمره ، وخلا منه المكان ، ودخل فى خبر كان .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم السبت ثانيه ، رسم السلطان بتوسيط شخص من العربان المفسدين ، يسمى عبيد بن أبى الشوارب ، فوسطه عند قنطرة الحاجب ، ووسط معه أيضا شخصا يسمى قاسم الغريب ، وكانا من كبار المفسدين بالشرقية .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع السلطان على الأمير طومان باى ابن أخيه وقرر فى الدوادارية الكبرى عوضا عن الأمير أزدمر بن على باى بحكم وفاته ، فنزل من القلعة فى موكب حفل ، وسكن فى دار الأمير أزدمر فيما بعد ، ورسم السلطان للأمير يشبك الفقيه ، الذى كان دوادارا عند الأمير أزدمر ، أن يستمر دوادارا عند الأمير طومان باى على عادته ، فامتثل ذلك .

وفيــه خلع الســلطان على شيخ العرب عبد الدايم بن أبى الشوارب ، وقرر فى مشيخة العرب بالقليوبية .

وفيه خلع الســلطان على مملوكه أبرك الذى كان نائب قلعة حلب وحضر الى مصر ، فقرره فى شادية الشراب خاناه عوضا عن الأمير طومان باى بحكم انتقاله الى الدوادارية الكبرى .

وفى يوم الثــلاثاء سادسه حضر قاصد من عند على دولات ، وأخبر أنه لما توجــه الى عســكر الصــوفى ، تحارب معهم فكسرهم كسرة قوية ، فانهزموا نحو بلادهم مكسورين ، وقتل منهم جماعة كثيرة . وأرسل على دولات عدة رءوس ممن قتل من عسكر الصوفى ، وفيهم شخص من أمرائه بالحياة وعلى رأسه طرطور أحمر ... فلما عرضــوا على السلطان سر بهذه الواقعة ، وأمر بأن تعلق تلك الرءوس على باب زويلة . فلما تحقق صحة هذه الواقعة بطل أمر تلك التجــريدة التى كان عينها الى الصوفى ، ورسم باعادة النفقة التى كان أنفقها على العســكر بسبب التجريدة ، فتوجهت اليهم الطواشية واستعادوا منهم النفقة ، فشق ذلك على المماليك ، وكانوا قد تصرفوا فى غالبها . فلما بلغ الســلطان ذلك رسم بأن يترك لهم ثمن الجمــل الذى كان أعطاه لهم ، وقدره سبعة دنانير ويعيدوا الباقى ، فامتثلوا ذلك وأعادوا ما أخذوه ، والذى تأخر عليه من ذلك شىء قطع من جامكيته .

وفى يوم الاثنين حادى عشره ، خلع الســلطان على قاصد أبى يزيد بن عثمان خلعة سنية ، وألبس جماعته سلاريات وشقا وسمورا وأذن لهم بالعود الى بلادهم ، فمضوا وهم شاكرون من السلطان .

وفى يوم الخميس رابع عشره ، خلع السلطان على الأمير طومان باى الدوادار خلعة الأنظار ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه قلع السلطان البياض ، ولبس الصوف ، ووافق ذلك عاشر هاتور .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات أمير مكة ، توجه الى مالك بن الرومى أمير خليص ، وكبس عليه على حين غفلة ، فظفر به وحز رأسه وحز رءوس جماعة من أقاربه ، وأن ناظر الخاص علاء الدين واصل بذلك عن قريب ... فسر السلطان لهذا الخبر .

ومن الحوادث فى أواخر هذا الشــهر ، وقعت فتنة مهوله ببولاق حتى كادت تخرب عن آخرها . وسبب ذلك أن جماعة من الجوابر الذين ببولاق وقع بينهم وبين جمــاعة من النفر ، بسبب ضائع ضاع لهم ، فتعصب الجوابر على النفر وضربوهم وجرحوا منهم جماعة ، واستخلصوا منهم الضائع . فلما بلغ ذلك طائفــة النفر اجتمع منهم الســواد الأعظم ، وتوجهــوا الى بولاق ، ووثبــوا على الجوابر ، ونهبوا ما فى مراكبهم من الغلال ، ونهبوا دكاكين بولاق ، وخطفوا عمائم النــاس ... فلما تزايد الأمر من النفر ثار عليهم الجوابر والنواتية الذين بــولاق ، وأتوا اليهم بالسيوف والمقاليع فسقط بينهم ســاقط ، فاتسعت الفتنة واستمرت على ما ذكرناه ثلاثة أيام متوالية . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد ، وكانت الجوابر فى حمــاية الأتابكى قرقماس ، والنفر فى حمــاية قانى باى قرا ، أمير آخور كبير ، فتعصب كل منهما لجماعته فتحــير بينهما السلطان ، وراح على الناس ما نهب لهم فى هذه الحركة .

* * *

وفى رجب كان انتهاء العمل مما جدده السلطان

من العمارة بالقصر الكبير ، فلما تم ذلك صنع به وليمة حافلة ، وعزم على القضاة الأربعة ، والأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ ، ومد به أسمطة حافلة ، وبات تلك الليلة هناك .

وفيه نزل السلطان الى خلف القلعة عند قبة الهوا ، وجربوا قدامه مكاحل نحاسية كان سبكها ، فأقام هناك ساعة يسيرة ثم عاد الى القلعة .

وفيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى فضربه ، ووكل به ثلاثة من المماليك الخاصكية ، وسبب ذلك أن العسكر تضرر من كثرة الفضة النحاس التى يجدونها فى الجامكية فشكوه الى السلطان ، فقبض عليه وقرر عليه مالا له صورة بسبب ذلك .

* * *

وفى شعبان ، حضر قاصد من عند اسمعيل شاه الصوفى ، وعلى يده مكاتبة يذكر فيها أن الذى وقع من عسكره فى دخولهم الى أطراف بلاد السلطان ، لم يكن ذلك عن اذنه ولا علم بذلك ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأوكب له بالحوش موكبا حافلا ، وكان هذا القاصد هو وجماعته فى غاية الغلاسة ، وعلى رءوسهم طراطير حمر ليس عليهم رونق بخلاف قصاد ابن عثمان .

وفيه وقعت فتنة مهولة بين مماليك السلطان وبين مماليك الأمير خاير بك الخازندار بسبب حمير النقارة ، فقتل من مماليك السلطان مملوك ، فتعصب له خشداشينه ، ونزلوا من الطباق مشاة وتوجهوا الى بيت خاير بك ونهبوا ما فيه وأحرقوا بابه ، فهرب منهم واختفى وطلع الى السلطان . وقد اتسعت هذه الفتنة . فلما جرى ذلك أرسل السلطان قبض على مملوك خاير بك الذى فعل هذه الفعلة ، فوسطه فى الرملة ، حتى خمدت هذه الفتنة قليلا .

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، دخل القاضى علاء الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم أنه توجه الى جدة ، بسبب تجهيز المراكب صحبة العسكر الذى توجه الى عدن ، بسبب تعبث الفرنج هناك . فلما تم أمره من جدة ، وقصد الرجوع الى مصر ، أرسل صحبته الشريف بركات أمير مكة رأس مالك ابن الرومى أمير خليص ، وعدة رءوس ممن قتل معه من العربان فى المعركة كما تقدم ، فكان عدتهم نحوا من تسعة وعشرين رأسا ، فارتجت لهم القاهرة ، وأشهروا على رماح ، فلما عرضوا على السلطان وهو بالميدان ، خلع على ناظر الخاص كاملية مخملا أحمر بسمور ، وأركبه فرسا بسرج مغرق وكنبوش ، وتوجه الى داره فى موكب حافل وصحبته قضاة السلطان ، ورسم بأن تعلق تلك الرؤوس على أبواب القاهرة .

وفى يوم السبت سابع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعزم على قاصد الصوفى هناك ، وأحضر قدامه مماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، وهم بآلة السلاح ، فأظهروا فى فنون النشاب أشياء غريبة ، وأحرق قدام القاصد احراقة نفط بالنهار ، ثم مد له أسمطة حافلة وخلع عليه وعلى جماعته ، وأذن لهم بالعودة الى بلادهم فسافروا فيما بعد .

وفيه كانت واقعة الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين الأستادار ، مع الناصرى محمد بن قجق نديم السلطان . وملخص هذه الواقعة أن محمد ابن بنت جمال الدين ، كان له عبد حبشى ، فأفسد جارية لمحمد بن قجق ، فشكاه للسلطان ، فطلب ابن بنت جمال الدين ، وقصد الصلح بينه وبين

ابن قجق ، وأن يرضيه فى جاريته ، فتواحش ابن بنت جمـال الدين فى حق ابن قجق ، وسـبه فى مجلس السـلطان ، وكان ابن بنت جمال الدين أهوج أحمق رهاجا . فلما جرى ذلك تغير خاطر السلطان عليه ، ورسم بتسليمه الى نقيب الجيش ، فاتسعت هذه الواقعة على ابن بنت جمال الدين ، وقرر عليه السلطان عشرة آلاف دينار ، فاستمر فى الترسيم وضرب فى بيت الوالى ، وباع جميع موجوده ولم يف بهذا القدر ، وآخر الأمر رسم السلطان بنفيه الى الواح ، فنفى وجرى عليه شدائد ومحن . وكان قليل الدربة ، فلو سد هذه القضية بدون الخمسين دينـارا كانت تسـتد ، ولا كان يجرى عليه هذا كله ... وهذه الواقعة تقرب من واقعة الزينى فرج الحاجب ، وقد تقدم ذكر ذلك فيما جرى عليه . ويقرب من هذه الكائنة ، ما وقع لشخص من أبناء الناس ، يقال له محمد بن سودون السودونى ، وقـد تغير خاطر السـلطان عليه ، وحصل له منه ما لا خير فيه ، وسـجنه وقاسى شدائد ومحنا وأمره مشهور .

وفى سلخ هـذا الشهر حضر الأتابكى قرقماس وكان مسافرا فى اقطاعه بالمنزلة ، ودخل صحبته بعدة رءوس من العربان العصاة ، فعرضـوا على السلطان بالميدان ، فخلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل .

***

وفى رمضان ـ فى يوم مستهله ـ عرض القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، والزينى بركات ابن موسى المحتسب ، اللحـم والغنم والدقيـق والسكر ، على السلطان وهو بالميدان ، فطلعا به مزفوفا على العادة فخلع عليهما .

وفى يوم الخميس ثالثه عرض السلطان المحابيس بالميـدان فأطلق منهم جماعة من رجال ونسـاء ، وأبقى منهم أصحاب الجرائم والفلاحين .

وفيه وقف شخص من الغلمان للسلطان وهو مقطوع اليد ، وأنهى فى قصته أن الأمير طراباى قطع يده لأجل بغلة ماتت منه فى الربيع فلم ينصفه السلطان من طراباى .

وفى يوم الجمعة خامسه ، أفرج عن عبد العظيم الصيرفى ، وقد أورد نحوا من عشرة آلاف دينار ، وقرر عليه باقى المال .

وفيه توفى أحمد بن اسمعيل رأس نوبة الأمير طراباى ، وكان على عوج فيه خيرا من غيره من الظلمة .

وفيه رسم السلطان بالافراج عن جمال الدين السلمونى الشاعر ، وكان فى السجن من حين وقع له مع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ما تقدم ذكره ، وكان السـلطان له عناية بالسـلمونى فى الباطن .

وفيه خلع السلطان على مملوكه الأمير أبرك ، وأعاده الى نيابة قلعة حلب ، كما كان أولا ، مع استمراره على شادية الشراب خاناه بمصر ، وصار يحمل اليه معلومها وخراج الاقطاع وهو بحلب ، فعد ذلك من النوادر . ثم خرج فى أثناء هذا الشهر الى حلب متكلما على نيابة القلعة بها ، ومتوليـا شادية الشراب خاناه بمصر . وأعجب من هـذا أن السـلطان أنعم عليـه فيما بعد بتقدمة ألف بمصر ، وصار يحمل اليه خراج اقطاع التقـدمة وهو بحلب .

ومن الحوادث فى هذا الشـهر أن جماعة من السراق نقبوا قاعة الذهب ، وذبحوا البـواب ، وأخذوا من القـاعة سـبائك ذهب وفضة بنحو

عشرة آلاف دينار ، فراحت ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفى هذه الليلة نقبوا من سوق مرجوش أربعة دكاكين .

وفى ليلة الثلاثاء ثانى عشرينه هجم ذلك المنسر على شخص أعجمى تاجر ، وكان فى سعة من المال ، وكان ساكنا عند باب سر المدرسة الصالحية ، فذبحوه وذبحوا عبده معه ، وأخذوا كل ما فى داره من مال وقماش ، فتتبع الوالى أمر هؤلاء السراق ، حتى ظفر بجماعة منهم فشنقوا على باب ذلك التاجر الذى قتل .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه ، كانت وفاة قاضى القضاة المالكى برهان الدين ابراهيم الدميرى ، وكان عالما فاضلا ، دينا خيرا ، رئيسا حشما ، لين الجانب كثير التواضع ، وانتهت اليه رياسة المالكية فى عصره ، ولم يكن يومئذ فى المالكية أعلى طبقة منه على الاطلاق ، ومات وهو فى عشر الثمانين ، وكانت مدته فى منصب القضاء ، الى حين توفى رحمة الله عليه ، ست سنين وستة أشهر الا أياما ، وكان نادرة عصره فى الخط الجيد ، والعبارة الحسنة ، وكان عارفا بالأحكام الشرعية . فلما بلغ السلطان وفاته ، نزل من القلعة ليصلى عليه فتبين أنهم توجهوا به الى الجامع الأزهر فصلوا عليه هناك .

فلما تحقق السلطان ذلك توجه الى نحو القرافة وزار الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، فنزل عن فرسه ودخل فزارهما بتواضع . وتصدق فى ذلك اليوم بمبلغ له صورة ، وكان ذلك أول نزوله فى حال السلطنة .

وفيه توفى ابن سلطان العلايا الذى كان مقيما بمصر .

وفى سلخ هذا الشهر ، نزل السلطان على حين غفلة ، وتوجه الى المجراة التى أنشأها فكشف عن بنائها ، وكان معه الأمير طومان باى الدوادار وبعض أمراء عشراوات ، ومن مماليكه نحو من خمسمائة مملوك ، وأول ما نزل من القلعة خرج من باب القرافة ، وتوجه الى تربة الأمير أزدمر الدوادار ، ونزل عن فرسه وزار قبره . ثم ركب من هناك ، وتوجه الى نحو كوم الجارح ، وزار الشيخ أبا السعود الذى كان هناك مقيما . ثم توجه من هناك الى المجراة وكشف عليها وغسل وجهه من ماء النيل .

فلما رجع الى القلعة ، رجع من على مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وزار وهو راكب على فرسه ، ورسم لخدام السيدة بعشرة دنانير ، ثم خرج من باب القرافة ، وطلع الى القلعة وتصدق فى ذلك اليوم بمال له صورة ، وأنعم على البنائين والمهندسين فى ذلك اليوم بمائة دينار .

* * *

وفى شوال عمل السلطان موكب العيد ، وكان حافلا وفرق الخلع على العادة .

وفى يوم الخميس ثامنه ، عرضت كسوة الكعبة على السلطان ، ومقام ابراهيم عليه السلام ، وقد شقوا من القاهرة ، وهى على رءوس الحمالين مزفوفة ، فلبس القاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى فى ذلك اليوم خلعة كونه كان ناظر الكسوة أيضا .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن المماليك الجلبان ، وثبوا على السلطان بالقلعة ، ونزلوا من الطباق بكباشيات مقلوبة ، فعطعطوا بالقلعة ، وأظهروا العصيان ، وحصل منهم فى ذلك اليوم غاية الفساد ، وقصدوا أن يهجموا على السلطان

وهو جالس فى الدهيشة ، فخرج اليهم جماعة من الأمراء العشراوات وتكلموا معهم فلم يسمعوا لهم ، وقالوا ما نرجع حتى ينفق علينا لكل واحد مائة دينار ، فباتوا وأصبحوا على ذلك ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، فلم يخرج السلطان فى ذلك اليوم ، ولا قعد على السماط ، وقصد أن ينزل من القلعة ويختفى من قهره من المماليك ، فلم يمكنه الأمير طومان باى الدوادار من ذلك ، فاستمرت هذه الفتنة قائمة ثلاثة أيام والقلعة مائجة ، ثم سكن الحال قليلا عن غير رضا من المماليك .

وفى يوم السبت سابع عشره خلع السلطان على الشيخ محيى الدين يحيى ابن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى المالكى وقرر قاضى قضاة المالكية عوضا عن أبيه بحكم وفاته ، وقد ولى منصب القضاء وهو شاب ، وكان حسن السيرة وله اشتغال بالعلم ، فما استكثر عليه أحد ذلك ، وخضعت له المالكية قاطبة .

ومما وقع لوالده قاضى القضاة برهان الدين الدميرى ، أن السلطان رسم لقضاة القضاة بأن يخطب به كل واحد منهم جمعة ، وكان قاضى القضاة الشافعى جمال الدين القلقشندى غير ماهر فى الخطبة ، فرسم له السلطان ألا يخطب به ، فخطب به قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن الشحنة عدة مرار ، فلما جاءت نوبة قاضى القضاة برهان الدين الدميرى المالكى صعد المنبر بجامع القلعة فأرتج عليه أمر الخطبة ، وأنجبه من ذلك وتعفش ووقع عند نزوله من المنبر ، فلما صلى ونزل من القلعة مرض ولزم الفراش واستمر عليلا الى أن مات عقيب ذلك بمدة يسيرة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، ولا سيما قد أذن السلطان للناس فى الحج بالتوجه الى الحجاز على العادة ويكون ذلك مطلقا من نساء ورجال ، فحج فى هذه السنة من الناس ما لا يحصى ، وكان أمير ركب المحمل طراباى رأس نوبة النوب ، وبالركب الأول قانصوه أبو سنة والى القاهرة ، فكان لهما يوم مشهود . وحج فى هذه السنة من الأعيان جماعة كثيرة ، منهم القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، والقاضى شمس الدين التتائى المالكى ، وكان قاضى المحمل . وحج جماعة من الأمراء العشراوات ، وحجت خوند أصل باى أم الملك الناصر ، سرية الأشرف قايتباى ، وحجت خوند جان كلدى زوجة الظاهر قانصوه ، خال الملك الناصر ، وحجت زوجة الأمير تانى بك قرا وهى ابنة الأمير برد بيك صهر الأشرف اينال ، وحج غير ذلك من الأعيان جماعة كثيرة .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه توفى الركنى عمر ابن أمير المؤمنين المتوكل على الله عبد العزيز ، أخو أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وكان شابا رئيسا حشما ، أسمر اللون جدا ، أمه جارية حبشية ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه توفى الشيخ أبو الفضل بن المحرقى ، وكان من خيار الناس لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه ، حضر الأمير بيبرس قريب السلطان ، وكان مسافرا نحو البلاد الشامية بسبب الكشف على القلاع .

وفى ذلك اليوم حضر الأمير علان الدوادار الثانى ، وكان توجه الى نحو عجرود بسبب اصلاح السواقى التى فى مناهل الحاج . فعمر ما فسد منها ورجع .

وفى هذا الشهر لم ينزل السلطان الى الميدان ولا جلس به ، وسبب ذلك أنه قد تخيل من المماليك

الجلبان ، وقد تقدم ما وقع له معهم ، وطلبوا منه نفقة فلم يعط لهم شيئا ، واستمر مصمما على عدم ذلك ، فلم ينزل الى الميــدان حتى يرى ما يكون من أمر المماليك .

* * *

وفى ذى القعدة عين السلطان تجريدة الى بلاد الفرنج ، وقد تزايد منهم الأذى والتعبث بالناس فى البحر الملح ، وكان الباش على هذه التجريدة الأمير محمد بيك قريب الســلطان ، وصــحبته جماعة من المماليك السلطانية ، وأولاد النــاس وغير ذلك .

وفيه خلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثالث بشنس القبطى .

وفى يوم الاثنــين حادى عشره ، توفى الشهاب أحمد ابن الشيخ على المقرى ، وكان علامة فى عصره شيخا عارفا بطريقة القراءة ، وكان رئيسا حشما عشير الناس ، وكان لا بأس به .

وفيه أنعم السلطان على الأمير بيبرس قرابته بتقدمة ألف ، وخلــع على أقباى الطويل وقــرره أمير آخور ثانى ، عوضا عن بيبرس ، بحكم انتقاله الى التقدمة .

ومن الحوادث أن جماعة من عبيد السلطان تحاسدوا فى بعضهم فقتلوا منهم واحــدا كان مقربا عنــد السلطان من بينهم ، فلما قتلوه رموه فى سراب من أسربة القلعة ، فلما فحص السلطان عن أمره طلع به من ذلك السراب ، ثم قبض على من فعل ذلك من العبيد ، فوسط منهم أربعــة فى الرملة وهرب منهم جماعة .

وفيه وجدت امرأة موســطة نصفين كل نصف منهما مرمى فى حارة فلا يعلم من فعل ذلك بها .

وفيه غمز على فران قتل صبيا كان عنده ، ورماه فى جورة الفرن فاحترق وهرب الفران ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

وفيه قتل بعض الغلمان بياع لبن لأجل شقفة لبن لم يبعها له اللبان فقتله ، فلما بلغ السلطان ذلك وسط الغلام الذى قتل اللبان ، فراح هذان الرجلان لأجل شقفة لبن ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وفى أثناء هذه السنة توفى الأستاذ على بن غانم وكان علامة فى ضرب الطنبورة ومعرفة الأنغام ، وهو الذى أظهر الخفائف النجدية بمصر ، ولحنها فى التلاحين الغريبة ، حتى أبطل بها فن الموسيقى .

* * *

وفى ذى الحجة فرق الســلطان الأضحية على العسكر ، وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء وغير ذلك .

وفيه توفيت امرأة يقال لها خديجة الكليباتية ، وكانت تدعى الصلاح ، وتدخل بيوت الأكابر ، فوجــد لها ذهب عين ثلاثة آلاف دينار ، وأثاث البيت بنحو من خمسمائة دينار ، فعــد ذلك من النوادر ، ومع ذلك كانت تأخذ من الناس الصدقة .

وفى يوم الخميس تاسع عشره توجه ناظر الخاص علاء الدين ، الى نحــو الاسكندرية ورشيد ، بسبب تجهيز المراكب التى عينها السلطان للتجريدة صحبة محمد بيك .

وفى رابع عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر عن الحجاج بالأمن والسلامة والرخاء .

سنة أربع عشرة وتسعمائة (١٥٠٨ - ١٥٠٩) :

فيها ، فى المحرم ، ابتدأ السلطان بضرب الكرة وكان أكثر ضربه للكرة فى الميدان ويعمل به المواكب الحافلة .

وفيه رسم السلطان بشنق ثلاثة أنفار ممن كان

سرق السبائك الذهب من قاعة الذهب ، وكان منهم شخص يسمى يوسف المصارع ، وكان مقربا عند السلطان ، فظهر أنه كان موالسا مع السراق ، فمات تحت العقوبة بالمقشرة ولم يشنق معهم .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة ، ابن يحيى ابن سبع الذى جرى من أبيه على الحجاج ما جرى ، فحضر بالأمان من السلطان ، فلما قابله خلع عليه وقال له : « على أبيك يحضر وعليه منى آمان الله تعالى » .

وفيه جاءت الأخبار من غزة بأن قد ظهر بساحل البحر الملح سمكة عظيمة الخلقة ، قيل أن طولها سبع وعشرون ذراعا ، وعرضها عشرة أذرع ، فأرسل السلطان يقول لنائب غزة ان كان ممكن احضارها الى القاهرة فيحضرها ، فتعذر ذلك عليه . ثم أرسل نائب غزة فيما بعد عظمتين من أضلاعها حتى شاهدها السلطان ، وقد وضعهما عند باب القلعة تجاه السبيل الذى هناك ، وهما باقيتان الى الآن ، وهما عظمتان من أضلاعها على ما قيل .

وفيه تزايدت عظمة الأمير طومان باى الدوادار ، واجتمعت فيه الكلمة ، ومما عد من محاسنه أنه حجر على النقباء والرسل الذين على بابه ، ورسم لهم بألا يأخذوا من الغرماء الذين يطلبون من بابه أكثر من نصفين فضة ، ومن يأخذ أكثر من ذلك لا يقف له على باب ، وضيق عليهم أياما بسبب ذلك ... وبالجملة فعنده لين جانب ، وقلة أذى ، بخلاف من تقدمه من الدوادارية .

وفى يوم السبت عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة مع السلامة ، فطلع الأمير طرباى أمير ركب المحمل ، وقانصوه أبو سنة أمير ركب الأول ، فخلع عليهما السلطان ونزلا فى موكب حافل . ثم شاعت الأخبار بأن السلطان رد خوند أصل باى أم الملك الناصر من الينبع ، ورسم لها بأن تقيم بمكة ، وقد تغير خاطره عليها ، فرجعت من الينبع الى مكة واستمرت هناك حتى كان من أمرها ما سنذكره فى موضعه .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى ثانيا ، بعد ما أفرج عنه ، فتسلمه الزينى بركات بن موسى ، فعاقبه وقرر عليه مالا له صورة .

وفى يوم الأربعاء ، خامس عشرينه ، توفى نور الدين على المسلاتى المغربى ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وكان توجه صحبة العسكر الذى خرج الى التجريدة ، نحو بلاد الهند ، ورجع مع ناظر الخاص وهو فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .

وفى تاسع عشرينه ، جاءت الأخبار بوفاة جان بلاط نائب غزة ، وكان من نواب طقطباى نائب القلعة ، فأقام فى نيابة غزة مدة يسيرة ومات .

وفى سلخه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ، وأقامت نحوا من ربع درجة والأرض تضطرب .

* * *

وفى صفر كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبابى ، ونصبت الخيام فى الجزيرة التى تجاه بولاق ، وخرجت الناس فى تلك الليلة عن الحد فى القصف والفرجة ، وكانت ليلة حافلة .

وفيه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع وعشر أصابع ، وكان فى العام الماضى أرجح من ذلك .

وفى يوم السبت خامس عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء بقاعة البحرة ، ومد لهم أسمطة حافلة ، وأقاموا بالقلعة الى بعد العصر .

وفى يوم الخميس سلخه ، عزل السلطان قاضى

القضاة الشافعى جمال الدين القلقشندى ، وخلع على الشيخ كمال الدين محمد الطويل ، المعروف بالقادرى ، وقرره فى قضاء الشافعية بمصر ، عوضا عن جمال الدين القلقشندى بحكم صرفه عنها . وقد اجتمع مع الشيخ كمال الدين مشيخة الخانقاه البيبرسية ، وقضاية القضاة الشافعية ، ولم يتفق مثل ذلك سوى للعلامة شهاب الدين بن حجر ، وشمس الدين القاياتى . وكان أصل قاضى القضاة كمال الدين هذا من أبناء الأتراك ، وهو كمال الدين أبو الفضل محمد بن نور الدين على بن الناصرى محمد بن السيفى بهادر العسرى القادرى .

* * *

وفى ربيع الأول كان مستهله بالجمعة ، فطلع قاضى القضاة كمال الدين فى ذلك اليوم ، وخطب بالسلطان خطبة بليغة فأعجب السلطان والأمراء ، وقد جاء فى القضاء على الوضع .

وفى سادسه توفى الأمير على باى السيفى يشبك أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به .

وفيه أظلم الجو ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك فى أبيب من الشهور القبطية ، وكان النيل فى قوة الزيادة فلم يتأثر البحر لذلك حتى عد من النوادر .

وفيه عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان حافلا ، واجتمع القضاة الأربعة والأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المجراة وكشف على عمارتها ، ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى ربيع الآخر جاءت الأخبار بأنه وقع خسف بجزيرة تجاه مدينة اقريطش ، فهلك به من الناس والبهائم ما لا يحصى .

وفيه غرق شخص من الخاصكية يقال له أقباى ، وكان دوادارا سكيرا ، توجه الى نحو الجزيرة الوسطى ، ونزل وعام فى البحر وهو سكران ، فغرق تحت الساقية التى بالجزيرة ، وكان غير محمود السيرة فى أفعاله .

وفيه نزل السلطان ، وتوجه الى القرافة وزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ثم توجه الى نحو المجراة فكشف عليها وعاد الى القلعة .

وفيه أمطرت السماء أيضا بعد العشاء مطرا غزيرا ، ووافق ذلك ثالث مسرى ، والنيل فى قوة الزيادة ، فلم يتأثر البحر لذلك . وقد وقع أمر هذا المطر فى هذه السنة مرتين والنيل فى الزيادة فتعجب الناس من ذلك .

وفيه خلع على ماماى جوشن وقرر أمير الحاج بركب المحمل ، وقرر قانصوه أستادار الصحبة بالركب الأول .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان لخاير بك المعمار بأن يتوجه الى عقبة أيلة ، ويأخذ معه جماعة من البنائين والمهندسين . وقد شرع السلطان فى بناء خان بالعقبة ، والبروج وفساقى ، برسم ملاقاة الحجاج ، وعمر رصيفا على البحر عند العقبة ، ورسم باصلاح العراقيب التى بالعقبة ، وكانت تتضرر منها الحجاج ، فقيل أصلح ذلك وجاء من أحسن المبانى فى ذلك المكان .

وفيه أنعم السلطان على جان بردى تاجر المماليك بتقدمة ألف ، وهى تقدمة على باى المقدم ذكر وفاته .

وفيه ، فى حادى عشر مسرى ، زاد الله فى النيل المبارك خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان قبل ذلك توقف أياما ، فرسم السلطان لقضاة القضاة بأن يتوجهوا الى المقياس ويبيتوا به ، فتوجهوا الى هناك ، واجتمع قراء البلد ، ومد السلطان بالمقياس أسمطة فاخرة وكانت ليلة حافلة . ثم

فى اليوم الثانى ، وهو ثانى عشر مسرى ، زاد الله فيه عشرين أصبعا ، ثم فى ثالث عشر مسرى زاد الله فيه عشرين أصبعا ، فكانت زيادته فى ثلاثة أيام تسعين أصبعا ، ولم تقع مثل هذه الزيادة من مبتدأ الاسلام سوى مرتين . مرة فى دولة الظاهر برقوق سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، فانه زاد فى أول يوم من مسرى اثنتين وستين أصبعا فى يوم واحد ، ثم فى ثالث يوم من مسرى زاد خمسين أصبعا ، فكانت زيادته فى أربعة أيام سبع أذرع ونصف وأصبعين ... ولم يسمع بمثل ذلك من مبتدأ الاسلام حتى الآن . والمرة الثانية فى دولة الأشرف برسباى ، سنة خمس وعشرين وثمانمائة ، فانه زاد فى يوم واحد خمسين أصبعا دفعة واحدة ، وكان الوفاء فى تاسع عشرين أبيب . ثم فى هذه السنة فى دولة قانصوه الغورى زاد تسعين أصبعا فى ثلاثة أيام كما تقدم ، وكان الوفاء فى رابع عشر مسرى . فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، كما قال :

لله در الخليج ان له تفضلا لا نطيق نشكره
حسبك منه بأن عادته يجبر من لا يزال يكسره

وفيه رسم السلطان بنقل عبد العظيم الصيرفى من بيت الزينى بركات بن موسى الى بيت الوالى ليعاقبه ، فتسلمه الوالى وعاقبه أشد العقوبة وعصره فى رأسه وأكعابه ، واستمر فى العقوبة مدة أيام ، حتى كان من أمره ما سنذكره فى موضعه .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن أحدا من الناس لا يرافع فى أحد ، ولا يأخذ منه شيئا بغير حق ، وأن من ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ... فارتفعت الأصوات له بالدعاء . فكان سبب ذلك أن بعض التجار وقف للسلطان وشكا فى بركات ابن موسى بحضرة الأمراء ، وكان ذلك التاجر مظلوما ، فاستحى السلطان من الأمراء ، ونادى فى القاهرة بما ذكرناه ، ولم يتم ذلك ، وعاد كل شىء على حاله .

وفيه رسم السلطان بنفى ابراهيم ، والى مصر العتيقة ، فنفى الى الواح ، وكان مستحقا لذلك ، وهو الذى كان متوليا عقاب بدر الدين بن مزهر الذى كان كاتب السر ، فعذبه بأنواع العذاب .

وفيه تعير خاطر السلطان على مغلباى الزردكاش ، ومباشرى الزردخاناه ، وقرر عليهم عشرة آلاف دينار ، فرسم على عبد الباسط بن تقى الدين ووضعه فى الحديد ، وجرى عليه ما لا خير فيه .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى يوم مستهله ، كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية .

وفى يوم الأربعاء ثانيه توفى الامام العالم العامل ، الورع التقى ، الشيخ بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الديرى الحنفى شيخ الجامع المؤيدى ، وكان عالما فاضلا ، رئيسا حشما ، من أعيان علماء الحنفية ، ومات فى عشر السبعين ، وكان لا بأس به ، رحمة الله عليه . فلما مات خلع السلطان على شخص من أبناء العجم يقال له الشريف حسين ، وقرره فى مشيخة الجامع المؤيدى ، عوضا عن الشيخ بدر الدين الديرى بحكم وفاته ، وخلع على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وقرره فى مشيخة المدرسة الصرغتمشية ، عوضا عن القاضى نور الدين على الدمياطى الحنفى بحكم انفصاله عنها .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن بعض الفلاحين كان معه جملان محملان كتانا ، فدخل بهما وقت العشاء ، وشق بهما من السويقة التى عند بيت الخليفة ، فتعلق فى ذلك الكتان الذى على ظهريهما نار من مسارج البياعين الذين هناك ...

فلما أحس الجملان بالنار طفشا فى الناس ، فمات بعض صغار ، وداسا الناس ، فتعطب جماعة كثيرة ، ودهكت بضائع الناس ... وكانت ساعة مهولة ، فلم يقدر أحد من الناس على مسك الجملين ، واستمرا طافشين حتى وصلا الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فوقع هناك أحد الجملين فمات .

* * *

وفى جمادى الآخرة — فى يوم الخميس ثانيه — توفى الشيخ بدر الدين محمد بن جمعة الحنفى ، ودفن فى قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وكان من أهل العلم والفضل وله شعر جيد ونظم رقيق ، ومن مخترعاته وهو قوله :

ورب غزال بالقرافة شمته
مجاور قبر الليث بارقة الغيث
فلم أر قبل اليوم خشعا من الظبى
تأنس حتى فى مجاورة الليث

ومات وهو عن ستين سنة ، وكان يقول فيه الشهاب المنصورى :

بدر تم مذ قر طرفى منه
بطلوع شاهدت أحسن طلعه
عجبا كيف فاق أهل المعانى
فى فنون العلوم وهو ابن جمعه

وفيه يقول الشهاب بن صالح :

لا يشبه بالبدر بدرى سناء
وسنا فهو منه أكمل طلعه
ذاك تم ابن جمعتين سناء
وحبيبى أتم وهو ابن جمعه

ومن الحوادث الشنيعة فى هذا الشهر ، أن السلطان شرع يخرج اقطاعات أولاد الناس من أجناد الحلقة ، وغير ذلك من النساء اللاتى لهن الرزق وربما تعرض للرزق الأحباسية والأوقاف ، فأخرج نحوا من ثلثمائة اقطاع ورزقة من غير جنحة ولاسبب ، وصار ينعم بها على المماليك بمكاتبات ، وهذا الأمر ما سبقه به أحد من الملوك السالفة . . فحصل للناس الضرر الشامل ، ولا سيما أولاد الناس صارت المماليك يهجمون عليهم ، ويأخذون منهم مناشيرهم غصبا عنهم ، ويبهدلونهم بالضرب ، وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلها ، وأنا من جملة من وقع له ذلك ، وخرج اقطاعى لأربعة من المماليك ، ولكن أعان الله تعالى ورجع الى اقطاعى ولله الحمد ، وقد قلت هذين البيتين المواليا فى المعنى :

يا مالك الملك يامن بالعباد ألطف
دبر عبيدك وأصلح دولة الأشرف
كم من أقاطيع أخرجها وما أنصف
وأطغى المماليك ذا يهجم وذا يخطف

وفى ذلك يقول محمد بن قانصوه بن صادق :

أيا بنى الأتراك أرزاقكم
ما قطعت الا لأمر عجيب
لا تضجروا من قطعها واصبروا
ستكشف الغمة عنكم قريب
لا تضجروا ترجع فادعوا بنا
فى السر والجهر السميع المجيب
واحتسبوا من رموا سهام الدعا
فكل سهم حيث يرمى مصيب

ومن الحوادث أن عبد العظيم الصيرفى ، رافع صلاح الدين بن الجيعان ، وقال : « أنا أثبت فى جهته أربعمائة ألف دينار أخذها من الخزانة أيام الملك الناصر محمد بن قايتباى » ، فمال السلطان الى هذا الكلام ، ورسم على صلاح الدين بن الجيعان ، وعلى علم الدين كاتب الخزانة ،

وبانوب النصرانى ، وقرر عليهم مائة ألف دينار . ثم قبض علـى تاج الدين ابن كاتب الدواليب ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار ، واستمروا علـى ذلك وهم فى الترسـيم حتى يكـون من أمرهم ما يكون .

وفيه ثبت النيل المبارك على تسع عشرة ذراعا ، وثبت الى العشرين من بابه ، ثم هبط . وكان نيلا عظيما قوى العزم مباركا ، وحصل به غاية النفع ، فكان كما يقال فى المعنى لبعضهم :

كأن النيـل ذو فهم ولب
لمـا يبدو لعين الناس منه

فيـأتى عنـد حاجتهم اليه
ويمضى حين يستغنون عنـه

وفى النيل يقول محمد بن قانصوه :

اضمر على النيـل فانظر ما تسر به
اذا ضمرت فما فى الفال اشـكال

لفـالك المـاء رمـل والنسيم به
مبدى ضميرك والتجعيد أشـكال

ومن الحوادث : أن فى هـذا الشهر وقع غالب البيوت التى بالروضة من قوة عزم الماء ، وقد هرى البحر الجانب الغربى ، فرمى البيوت المحكمة البناء ، وهذا قط ما اتفق سوى فى هذه السنة .

وفيه كان انتهاء العمل من المجراة ، التى أنشأها السلطان كما تقدم ، فدارت هنـاك الدواليب ، وجرى الماء فى المجراة ، حتى وصل الى الميـدان الذى تحت القلعة ، ثم ان السلطان صنع هنـاك سـواقى نقالة ، وبنى ثلاثة صهاريج تمتلىء من ماء النيل ، برسم المماليك الذين يلعبون الرمح فى الميـدان ، وشرع فى بنـاء بحرة فى وسط ذلك البستان الذى أنشأه بالميدان ، فكان طول تلك البحرة نحوا من أربعـين ذراعا ، وقيل أكثر من ذلك ، وبنى هناك عدة مقاعد ومناظر مطلات على ذلك البستان ، وفك رخام قاعات الأتابكى أزبك التى أنشاها بالأزبكية ، ونقل ذلك الى الأماكن التى أنشأها بالميدان ، وصارت هذه البحرة تمتلىء كل يوم بماء النيل ، وفائضـها يسقى البستان فجاءت كما يقال فى المعنى :

تهنأ بهـا يا أيهـا البحـر بحرة
حـكتك فمـا تنفـك باسطة يدا

لهـا فى هبوب الريح تجعيد مبرد
فمن أجل ذا تجلو عن المهج الصدا

وقال آخر :

عجبت منها بحرة بيضت
بخافقى كسـنا البـارق

كيف غدا الماء بهـا ساكنا
يرهو وقلب المـاء خافق

***

وفى رجب حضر يحيى بن سـبع ، الذى كا[ن] أمير الينبع ، وجرى منه فى حق الحجاج ما تقد[م] ذكره ، فأرسل اليه السلطان منديل الأمان ، فحض[ر] وقابل وكان قد أظهر العصيان مدة طويلة . فط[لع] وعلى رأسه منديل الأمان ، فخلع عليه السلطان فلما نزل من القلعـة ، كادت العوام أن ترجمه وسبوه سـبا فاحشـا ، ولولا كان صحبة الأ[مير] الدوادار لرجموه لا محـالة ، فلما بلغ السلط[ان] ذلك نادى فى القـاهرة بأن لا أحـد من النا[س] يتعرض لابن سـبع ، ولا يسبه ، ومن فعل ذ[لك] شـنق من غير معـاودة ، فتكلم النـاس فى [حق] السلطان ، بأنه أخذ من ابن سبع مالا له صـو[رة] وضيع حقوق الحجاج فيما فعل بهم .

وفى يوم الجمعة الموافق لثامن هاتور القبطى قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وكان أشـ

بين الناس أن السلطان ينزل الى المطعم ، ويلبس الأمراء الصوف هناك ويوكب ويشق القاهرة ، فلم يتم ذلك وبطل هذا الأمر ، فلبس الصوف يوم الجمعة وخرج الى الجامع .

وفى هذه السنة كبرت الأمراء تخافيفهم ، وطولوا قرونهم ، حتى خرجوا فى ذلك عن الحد ، وقد قال القائل فى المعنى :

قد لبس الصوف كل كبش
قرونه يا لها قرون
فرحت من ذاك مستريحا
لا صوف عندى ولا قرون

وفيه خلع السلطان على شمس الدين بن عوض ، واستقر به مستوفى الدواوين .

وفيه تغير خاطر السلطان على شرف الدين يونس النابلسى الأستادار ، فرسم عليه ووضعه فى الحديد ، وسجنه بالعرقانة هو وأخاه زين الدين .

وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان مسافرا نحو الرشيد بسبب أمر المراكب التى عمرها السلطان لأجل التجريدة ، فلما قابل السلطان خلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى ذلك اليوم حضر الأمير محمد بيك ، وكان توجه بسبب عرض المراكب المعينة للتجريدة .

وفى هذا الشهر وقعت تشحيطة بالقاهرة ، وعز وجود الخبز من الأسواق ، وبلغ سعر القمح كل أردب خمسمائة درهم ، وعز وجود التبن أيضا وتناهى سعره كل حمل بدينار .

* * *

وفى شعبان طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وطلع الخليفة المستمسك بالله يعقوب ، فوقع بينه وبين ابن عم أبيه خليل تشاجر فاحش بمجلس السلطان ، فقال خليل للخليفة يعقوب . « أنت ولايتك ما تصح فانك أعمى » ، وكان الخليفة يعقوب بعينيه ضعف ، فقام اليه الناصرى محمد بن الخليفة ، وقال له « وأنت ما تصح خلفك صلاة لأنك ما تحسن قراءة الفاتحة » ، وكان خليل ألثغ لا ينطق بحرف الراء ، ثم ألزمه السلطان بأن يقرأ بحضرة القضاة فلما قرأ تعفش فى القراءة بين الناس ، ثم سكت ولم يكمل قراءة الفاتحة ، وانفض المجلس مانعا وكان مجلسا مهولا ، فقال السلطان : « يوم الاثنين نعقد مجلسا فى أمر من يصلح للخلافة » . فقام الخليفة يعقوب والقضاة على أن الميعاد يوم الاثنين ، وقد ترشح أمر الناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب ليلى الخلافة عوضا عن أبيه ، وكان السلطان محطا على الخليفة يعقوب ، رائما منه مالا ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى يوم السبت ثانيه توفى الأمير أزبك اليوسفى المعروف بفستق ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وقرر فى تقدمة ألف فى دولة الناصر محمد ابن الأشرف قايتباى ، وكان شاخ وكبر ومات وهو فى عشر الثمانين ، ومات وهو طرخان ، وكان له مرتب على الذخيرة حتى مات ، وكان لا بأس به .

فى يوم الاثنين رابعه حضر القضاة الأربعة والخليفة يعقوب وولده محمد وابن عمهم خليل ، وكان الخليفة يعقوب عهد لولده محمد بالخلافة عند ما حصل له ذلك فى المجلس المقدم ذكره ، فعرض ذلك العهد على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وكان الخليفة عبد العزيز عهد بالخلافة من بعده لولده يعقوب ، ثم من بعده لولد ولده محمد ، فلما وقف قاضى القضاة على هذين

العهدين قال : « الحق للناصرى محمد بن الخليفة يعقوب » .

ثم ان الخليفة قال للسلطان : « أنا قد شخت وكبر سنى ، وقد عزلت نفسى من الخلافة ، وعهدت الى ولدى بالخلافة ، فان شاء السلطان يوليه أو لا » ، فقال السلطان : « قد وليت ولدك » . وساعدته الأمراء على ذلك ، فتقدم كاتب السر محمود بن أجا ، واسترعى الشهادة على السلطان بولاية الناصرى محمد بن يعقوب ، ثم خطب خطبة بليغة وقال : « يا مولانا السلطان ، نشهد عليك أنك وليت الخلافة للناصرى محمد ابن الخليفة يعقوب فقال : « نعم » . فشهد القضاة عليه بذلك .

فقام الخليفة يعقوب وودع السلطان ، فأكرمه وعظمه ، ونزل الى داره ، وهو فى غاية العز والعظمة ، وألبسه السلطان سلارى صوف أبيض بسمور من ملابيسه ، وألبس سيدى خليل أيضا سلارى من ملابيسه ، وألبس ولديه أيضا سلارين بسنجاب ، ثم أحضروا للناصرى محمد شعار الخلافة ، فأفيض عليه ، وتلقب بأبى عبد الله المتوكل على الله ، فولاه السلطان الخلافة على أتم وجه جميل ، ولم يراع من الأنام خليل ... فكان السادس عشر من خلفاء بنى العباس بمصر . فلما لبس الشعار جلس بين يدى السلطان ، ثم ان القضاة شهدوا عليه بأنه فوض للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ، ما فوضه اليه والده المستمسك بالله يعقوب ، فقال : « نعم » ، ثم قام وقد ارتفعت الأصوات للسلطان بالدعاء ، كون أنه لم يخرج الخلافة عنهما ، وكان ابن عمهم خليل سعى على الخلافة بمال جزيل ، فلم ينل من ذلك مناه ، فما كان عن ذلك السعى أغناه ، فولى خليل بوجه طويل ، ونزل من القلعة وقد اشتعل قلبه بنار الخليل ، فكان كما يقال فى المعنى :

ألا قل لمن كان لى حاسدا
أتدرى على من آسأت الأدب

أسأت على الله فى فعله
لأنك لم ترض لى ما وهب

فجازاك عنه بأن زادنى
وسد عليك وجوه الطلب

ثم ان المجلس انفض ، وقام الخليفة المتوكل على الله ، وقد تلقب بلقب جده عبد العزيز ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته القضاة الأربعة وأعيان الناس وزينوا له حارته ، وأوقدوا له الشموع بالصليبة ، وكان له يوم مشهود ، وولى الخلافة وهو شاب ، وكان مولده سنة سبعين وثمانمائة ، ولم يتفق لأحد من خلفاء مصر بأنه ولى الخلافة ووالده فى قيد الحياة ، مقيما معه فى بيت واحد ، سواه .

وكانت مدة خلافة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب اثنتى عشرة سنة الا ثلاثة أشهر ، فانه ولى الخلافة يوم السبت ثالث صفر سنة ثلاث وتسعمائة فى دولة الناصر محمد بن قايتباى ، وخلع نفسه من الخلافة رابع شعبان سنة أربع عشرة وتسعمائة ، وقيل انه تكلف فى هذه الحركة الى اثنى عشر ألف دينار ، ولولا فعل ذلك كان اتفى الى دمياط أو الى القدس ، فكان ما فعله عين الصواب كما يقال :

يعوض الله مالا أنت متلفه
وما عن النفس ان أتلفتها عوض

وهذا ما كان من ملخص أخبار الخليفة يعقوب وولاية ولده الناصرى محمد .

وفى يوم الجمعة ثامنه ، نزل السلطان الى الميدان ، ورسم بجمع الحرافيش ، فاجتمع هناك السواد الأعظم من رجال ونساء ، ففرق على

كل واحد منهم نصفين فضة ، فقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحوا من أربعمائة دينار .

وفيه نزل السلطان من الدهيشة ، وتمشى ودخل الى الزردخاناه ، وعرض الأسلحة التى كانت فى الزردخاناه من قديم الزمان ، فرأى أشياء كثيرة منها تلفت من الصدأ ، فطلب عبد الباسط ناظر الزردخاناه ووبخه بالكلام ، ثم قصد شنقه فى ذلك اليوم على باب الزردخاناه ، فألزم باصلاح ما فسد من الأسلحة ، واستمر فى الترسيم بعد ذلك مدة طويلة وهو فى الحديد .

وفى يوم الاثنين حادى عشره عزل السلطان شرف الدين النابلسى الأستادار ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار ، وقرره فى الأستادارية ، عوضا عن شرف الدين النابلسى ، فصار الأمير طومان باى أمير دوادار كبير وأستادار العالية ، وكاشف الكشاف كما كان الأمير أقبردى . وخلع على شمس الدين بن عوض وقرره ناظر ديوان المفرد.

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه الى نحو بلاد الهند صحبة الأمير حسين قد انتصر على الفرنج الذين كانوا يتعبثون فى البحر ، وغنم منهم العسكر غنائم كثيرة ، فسر السلطان لهذا الخبر ، وأمر بدق الكوسات ، فدقت ثلاثة أيام متوالية ، ثم ان حسين أرسل يطلب عسكرا ثانيا حتى يتقوى به على من بقى من الفرنج .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض المحابيس ، فأطلق منهم جماعة من رجال ونساء ، وأبقى الفلاحين وأصحاب الجرائم .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه حضر مراكب أغربة عدتها ست ، وهى التى كان ناظر الخاص توجه الى رشيد بسبب عمارتها ، فلما وصلت أرسى بها عند رأس الجزيرة الوسطى ، فخرج الناس يتفرجون عليها ، وقد زينت بالصناجق والشطفات ، ودقت فيها الطبول ، وزعقت الزمور ، واجتمع هناك الناس أفواجا أفواجا .

فلما كان يوم الثلاثاء ، سادس عشرينه ، نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء قاطبة والمباشرون ، وتوجه الى نحو طرا ، وضربت له هناك الخيام . ثم أحضر بين يديه تلك المراكب الأغربة ، فلعبوا قدامه فى البحر ذهابا وايابا والطبول والنفوط عمالة ، ورموا قدامه فى البحر عدة مدافع ، وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس . وأقام السلطان هناك الى بعد العصر ، ومد له هناك ناظر الخاص أسمطة حافلة ، ولم يقع للسلطان من حين تسلطن يوم مثل ذلك اليوم فى القصف والفرجة . فلما ركب من هناك خلع على ناظر الخاص كاملية بسمور ، وخلع على رئيس المراكب وجماعته الخلع السنية ، ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى رمضان — فى يوم مستهله — نزل السلطان الى الميدان ، وطلع اليه الخليفة محمد المتوكل على الله بن يعقوب وهنأ بالشهر ، وهو لابس العمامة البغدادية ، وهذا أول مواكبه فى الخلافة ، فقام اليه السلطان وعظمه الى الغاية ، فلما قام دخل بعده قضاة القضاة .

وفى ذلك اليوم طلع شرف الدين الصغير ، ناظر الدولة ، والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وعرضوا عليه اللحم والغنم والخبز والدقيق والسكر وهو فوق على رءوس الحمالين ، فخلع عليهما السلطان ، وخلع على تغرى برمش الوزير ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأحد تاسع شهر رمضان ، حضر الى الأبواب الشريفة قاصد صاحب بغداد ، وهو شخص يسمى بيرك . فلما بلغ السلطان حضوره

أنزله بدار الأشرف جان بلاط التى بحارة عبد الباسط ، ورتب له ما يكفيه .

فلما كان يوم الخميس ، ثالث عشر رمضان ، أوكب السلطان بالحوش بغير شاش ولا قماش ، واجتمع بالحوش سائر الأمراء ، ورسم بأن يزينوا باب الزردخاناه الذى عند الجامع ، فزينوه باللبوس وآلة السلاح والصناجق السلطانية ... ثم طلب السلطان القاصد ، فطلع صحبة المهمندار وقابل السلطان ، وقرأ كتابه الذى حضر على يده .

وكان سبب حضور هذا القاصد أن متملك بغداد مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل ، كان متوليا على بغداد ، فزحف عليه شاه اسمعيل ابن حيدر الصوفى فتغلب عليه عسكره ومال الى الصوفى ، فلما رأى ذلك هرب ودخل الى بلاد السلطان وأرسل قاصده الى السلطان بأن يمده بعسكر حتى تحارب الصوفى ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأحسن اليه ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة القان أحمد ابن أويس ، متملك بغداد ، وقد زحف عليه تمرلنك ، فهرب منه والتجأ الى الملك الظاهر برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك فى موضعه .

وفيه ترافع شمس الدين ابن عوض والمعلم يعقوب اليهودى ، فقال ابن عوض أنا أثبت فى جهة يعقوب ستين ألف دينار بطريق شرعى ، فمال السلطان الى كلام ابن عوض واعتدل على يعقوب اليهودى ، وأودعه فى الترسيم على مال يرده .

وفيه أرسل خاير بيك المعمار ، الذى توجه الى عقبة أيلة ، بسبب عمارة الأبراج التى أنشأها هناك ، والخان والحواصل واصلاح طريق العقبة ، فأرسل للسلطان حجارة زعم أن داخلها معدن النحاس الأصفر ، وأنه وجد تلك الأحجار فى واد بالقرب من العقبة ، فرسم السلطان بسبك تلك الأحجار ، فظهر منها بعض شىء من النحاس لا يساوى تعبه ، فرجع عن ذلك .

وفى سابع عشره ، خلع السلطان على الجمالى يوسف البدرى ، وقرره فى الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى ، بحكم انفصاله عنها ، وخلع على أحمد بن العكام وقرر فى بردادارية السلطان عوضا عن بركات بن موسى ، وكان السلطان تغير خاطره على بركات بن موسى ، وأخذ فى أسباب الهبوط حتى أخرج عنه التحدث على خانقاه سرياقوس ، والتحدث على جهات البرلس وجعلها لناظر الخاص ، وغير ذلك من الجهات التى كان يتحدث عليها ، فانه كان متحدثا على ست عشرة جهة .

وفيه خلع السلطان على معين الدين بن شمس ، وقرره نائب كاتب السر عوضا عن الشهابى أحمد ابن الجيعان بحكم انفصاله عنها ، وقد اجتمع مع معين الدين هذا وكالة بيت المال ونيابة كتابة السر وغير ذلك من الوظائف ، وكان هذا من أكبر أسباب الفساد فى حقه كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، وقد سعى معين الدين بن شمس بمال له صورة حتى استقر فى نيابة كتابة السر ، وكان معين هذا شنيع المنظر ، بشع الوجه ، فكان اذا وقف وقرأ القصص بين يدى السلطان يقول السلطان : « والله تعالى انى لأستحى من العسكر لما يقف ابن شمس يقرأ على القصص قدامهم » .

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر فجلس بالميدان وكان يوما ماطرا .

وفيه قويت الاشاعات بأن الصوفى زاحف على بلاد السلطان ثم خمدت تلك الاشاعات عن قريب .

وفى ثامن عشرينه ، جاءت الأخبار من دمياط بوفاة الأمير أصطمر بن ولى الدين الذى كان أمير مجلس ، ونفى الى دمياط بسبب واقعة الحجاج ،

وقد تقدم ذكر ذلك . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان أميرا جليلا رئيسا حشما وكان عنده لين جانب ، وكان لا بأس به .

وفيه عرض على السلطان خلع العيد وهو بالميدان ، وكان يوما مشهودا .

وفى سلخه حضر كاشف الشرقية وصحبته شيخ العرب عبد الدايم بن الأمير أحمد بن بقر ، وقد قبض عليه بحيلة عملها حتى مسكه ، وكان له مدة طويلة وهو عاص يفسد فى البلاد ، فلما قابل السلطان رسم بتقييده وايداعه فى البرج .

***

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، وكان بيرك قاصد صاحب بغداد حاضرا فألبسه السلطان سلارى صوف بسمور من ملابيسه ونزل صحبة الأمراء .

وفى يوم الخميس ، رابعه ، نزل السلطان الى الميدان ، وجلس بالمقعد الذى به ، واجتمع حوله الأمراء ، ثم حضر قاصد صاحب بغداد . وفى ذلك اليوم ساق الرماحة بالميدان قدام السلطان ، ودخل المحمل وكسوة الكعبة ، وطافوا بها فى الميدان ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان يوما مشهودا ، ولا سيما كان ذلك بحضور قاصد صاحب بغداد .

ثم بعد أيام عزم السلطان على القاصد بالميدان وأحضر قدامه جماعة من المماليك ، وهم لابسون آلة السلاح ، فرموا فى ذلك اليوم رماية نشاب على الخيول ، وأظهروا أنواعا غريبة فى فن النشاب ، أدهشوا ذلك القاصد ، وأحرق السلطان فى ذلك اليوم احراقة نفط بالنهار فى الميدان ، وقد فعل مثل ذلك مرتين بحضرة القاصد وهو بالميدان .

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة قرقماس الشريفى باش المجاورين ، فلما تحقق السلطان موته ، عين باشية مكة الى شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جان بردى بن قانم .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة فى تجميل زائد ، وكان أمير ركب المحمل ماماى جوشن ، وبالركب الأول قانصوه بن دولات بردى أستادار الصحبة أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان يوما مشهودا .

***

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من الطينة بأن الأمير تمر باى الهندى لما توجه الى هناك بسبب عمارة الأبراج التى أنشأها السلطان هناك على ساحل البحر المالح ... فبينما هو هناك جاءت اليهم مركب فيها فرنج فتعبثوا بالسواحل ، فجمع الأمير تمرباى جماعة من الخفراء الذين هناك ، وممن كان معه من المماليك ، وتحارب مع تلك الفرنج ، فانتصر عليهم وأسر منهم نحوا من سبعة وعشرين نفرا وملك مركبهم وما كان فيها ، وأرسل الفرنج الأسرى ومركبهم الى السلطان فسره ذلك

وفيه حضر قاصد من عند صاحب قبرس وعلى يده تقدمة حافلة للسلطان ، فأكرمه وخلع عليه .

وفيه خلع السلطان ، على الزينى بركات بن موسى وأعاده الى الحسبة ، وعزل يوسف البدرى عنها . وكان قد وقع فى تلك الأيام تشحيطة فى القمح وارتفع الخبز من الأسواق ، وكادت العوام أن ترجم يوسف البدرى . فلما خلع على ابن موسى وأعاده الى الحسبة ، فرح به الناس قاطبة ، وسكن ذلك الاضطراب .

وفيه خلع السلطان على قاصد صاحب بغداد وأذن له بالسفر . وكان يروم أن السلطان يمد صاحب بغداد بعساكر من مصر حتى يحارب الصوفى ، فما طاوع السلطان على ذلك .

وفيـه جلس السلطان فى الدهيشـة ، وعرض الأستادار شرف الدين النـابلسى ، وكان له مدة وهو مسـجون بالعرقانة فى قيد وزنجير ، وقاسى ما لا خير فيه ، فشفع فيه بعض الأمراء فأفرج عنه ، وقد ضمنه الزينى بركات فيما بقى عليه من المال ، وفيه يقول محمد بن قانصوه :

يارب نج الخلق من ذى حسـبة
فى كعبـه التعسـير لا التيسـير
ان سـعر الأشـيا غلت من كعبـه
وغلت وزاد بكعبـه التسـعير

وفى ذلك اليوم عرض السلطان عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، وكان له مدة طويلة وهو فى الترسيم بجامع القلعة وهو فى الحديد . وكان السـلطان أوعده بالشنق ، فأفرج عنه فى ذلك اليوم ، وأورد بعض ما قرره عليه من المال ، وضمنه فى الباقى الأمير مغلباى الزردكاش ، وكان السـلطان قـد قرر على مغلبـاى الزردكاش ، وعبد الباسط النـاظر ، وعبد الكريم بن اللاذنى المستوفى ، ويحيى بن يونس أحد الزردكاشية ... فقرر عليهم السلطان عشرة آلاف دينار ، فأوردوا منها شيئا ، وتأخر عليهم باقى ذلك حتى يغلقوه . وكان قد رافعهم أحمد بن قراكز أحد الزردكاشية ، ومحمود وعلى باى وغير ذلك من الزردكاشـية ، فخلع السـلطان على مغلباى الزردكاش ، وعلى عبد الباسط ، وعلى عبد الكريم اللاذنى ، ونزلوا الى دورهم بعد ما قاسوا شدائد ومحنا .

وفيه قبض السلطان على يوسف ابن أبى أصبع الحلبى — وكان من خواصه — فقاسى غاية الضرر والأنكاد ، وأمره قد شهر بين الناس بما جرى عليه من الضرر البالغ .

واستمر المعلم يعقوب اليهودى فى الترسيم ، وعلم الدين المتحـدث فى الخـزانة ، وبانوبه النصرانى ، حتى يعلقوا ما قرر عليهم من الأموال الجزيلة . وكذلك صلاح الدين بن الجيعان ، وقد تقدم القول على ذلك بما قرر عليهم من المال .

وفيه أفرج السلطان عن عبد العظيم الصيرفى ، وكان له مدة طويلة وهو فى الحديد موكل به فى جامع القلعة ، فأورد مما قرر عليه من المال شيئا ، وبقى عليه من ذلك المال بعض شىء ، فضمنه بعض الأمراء ، وتكلم له مع السلطان بأن يطلقه حتى يسعى فى بقية المال . وقد قاسى عبد العظيم من الشدة ما لا خير فيه ، وضرب وعصر غير ما مرة فى أكعابه وأصـداغه وأضـلاعه ، وغير ذلك من أنواع العذاب .

* * *

وفى ذى الحجة ، خـرج الأمير طومان باى الدوادار ، وسافر الى جهة الصـعيد ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ومن له عادة .

ومن النوادر أن شخصا من الناس ، قيل هو بواب جامع الحاكم ، طلع الى السلطان وذكر له أنه رأى فى المنام قائلا يقول له . قل للسلطان ان فى جامع الحاكم فى بعض دعائمه دعامة تحتها دنانير ذهب لا ينحصر عددها . فلما سمع السلطان ذلك مال لكلامه ، وظن أنه حق ، فأرسل الأمير خاير بيك الخازندار ، وبركات بن موسى ، وجمـاعة آخرين من أخصائه ، وأخـذوا معهم جماعة من المهندسين والبنائين ، وأحضروا ذلك الرجل القائل وقالوا له : « أرنا الدعامة التى تحتها الذهب » . فقال : « لا أعلم أيها الدعامة التى تحتها الذهب » .

غال المهندسون : « ما يظهر حتى نهدم جميع الدعائم تى هنا » .

فاجتمع فى ذلك اليوم الجم الغفير من النـــاس لجامع ، وكثر القـــال والقيل فى ذلك ، وكذبوا لك الرجل . ثم شاوروا السلطان على هدم دعائم جامع ، فلم يوافق على ذلك ، ورجع عن هـــذا لأمر من قريب ... وقد وقع مثـــل ذلك فى دولة لملك الأشرف برسباى ، وفى أيام الظاهر جقمق الظاهر خشــقدم ، ونزل الأمــير خاير بيــك خازندار الى هناك .. ثم وقع مثل ذلك فى دولة لأشرف قايتباى ، ولم يظهر من هــذه القضــية نيجة قط ، ولم يفد من هذا الكلام شىء .

وفى ثالث عشرينه حضر مبشر الحـــاج ، وأخبر الأمن والسلامة ، وقد جد فى السير حتى وصل ، هذه المدة اليسيرة .

وفيه وقع تشاجر بين أنصباى حاجب الحجاب، بين الأمير نوروز أحد الأمراء المقدمين ، فوصل مرهما الى السلطان ، فأنصف السلطان أنصباى لى نوروز . وكان سبب ذلك أن ربعـــا بجوار نطرة الموسكى ، وهو بالقرب من بيت نوروز ، كان يسكن به بنـــات الخطأ يعملن الفاحشة ، قصد أنصباى حاجب الحجاب كبس ذلك الربع، كان الربع للأتابكى أزبك ، فتوجه اليـــه دوادار نصباى وجماعة من النقباء ، فلما وصـــلوا الى نـــاك ، ثارت عليهم غلمان نوروز وعبيـــده ، ضربوا جماعة حاجب الحجاب ، ومنعـــوهم من بس ذلك الربع . فلما بلغ أنصـــباى ذلك ركب نفسه ، وكبس ذلك الربع ، وضرب النساء اللاتى ن به ، وأشهرهن فى القـــاهرة على حمير . فطلع روز ، وشكا أنصـــباى الى الســـلطان ، فحط لسلطان على نوروز وقصد الاخراق به وانتصف ليه أنصباى .

وفيه وقعت زلزلة خفيفة بعد العشاء ولم يشعر بها أحد من الناس الا القليل .

وفى هذه السنة صار السلطان يعمـــل غالب المواكب بالميدان ، وأبطل لبس الشاش والقماش فى المواكب ، وصار لا يلبس الا فى يوم الجمعة فقط عند صلاة الجمعة وفى الأعياد وعند خروج الحاج ، أو عنـــد حضور قاصـــد ... وقد أبطل أشـــياء كثيرة كانت من شعـــار المملكة ، مما كان يعمـــل من النظام القديم .

وفى هـــذه السنة كثر الموت فى الدجاج حتى شح جمـــاعة من الفلاحين من ذلك ، وصار يموت منهم فى كل يوم ما لا يحصى عدده .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه ، حصل للسلطان توعك فى جســـده واسهال مفرط ، وامتنـــع عن الخـــروج الى الأمراء أياما ، ثم عوفى من ذلك وخلع على الحكماء .

ومن النوادر أن البلســـان ، وهو الذى يسميه الناس البلسم ، كان قد انقطع زريعته من أرض المطرية من أوائل سنة تسعمائة من القرن التاسع ، وكانت مصر تفخر بذلك على سائر البلاد ، وكانت ملوك الفرنج تتغالى فى دهن هذا البلسم ويشترونه بثقله ذهبـــا ، ولا يتم عندهم التنصر حتى يضعوا من دهنـــه شيئا فى ماء المعمودية وينغمسوا فيه . وكان يستخرج دهنه شيئا فى فصـــل الربيع فى برمهات ... فلما انقطعت زريعته من أرض المطرية تنكد السلطان لذلك ، ولا زال يفحص عن أمره حتى أحضر اليـــه بلســـان برى من بعض أماكن بالحجاز ، وهو فى طينه فزرعه بالمطرية فى مكانه المشهور به ، فنتج وطلع لما سقى من ماء تلك البئر التى هناك ، فنتج فى هذه السنه وطلع ما كان قد

بطل أمره من مصر ، فعد ذلك من محاسن الملك الأشرف قانصوه الغوري .

وقد خرجت هـذه السنة عن الناس على خير ، وكانت سنة كثيرة الحوادث ، وقد وقع فيهـا عزل وولاية ومصـادرات ... فمن ذلك عزل الخليفـة المستمسك بالله يعقوب وولاية ولده محمد المتوكل على الله .

ومنها عزل قاضى القضاة الشافعى برهان الدين القلقشندى وولاية الشـيخ كمال الدين الطويل .

ومنهـا عـزل شرف الدين يونس النابلسى الأسـتادار وولاية الأمير طومان باى الدوادار واسـتقراره فى الأسـتادارية مع ما بيـده من الدوادارية الكبرى .

ومنها عزل الشهابى أحمد بن الجيعان عن نيابة كتابة السر وولاية معين الدين بن شمس .

ومنها عزل الزينى بركات بن موسى عن الحسبة وولاية الجمالى يوسف البدرى .

وكانت سنة شديدة البرد حتى عدم أشـياء كثيرة من الفواكه والقثاء وغير ذلك ، ووقع فيها أيضـا تشحيطة فى القمح حتى بلغ سـعره الى أشرفيين كل أردب ، وعز وجود التبن والدريس .

ومنها عزل فخر الدين بن العفيف عن كتـابة المماليك وولاية شرف الدين الصغير لها .

ومنها مرافعة عبدالعظيم الصيرفى لصلاح الدين ابن الجيعـان ، وعلم الدين المتحدث فى الخزانة الشريفـة ، وبانوب النصرانى . وقد صودروا ، وأخذ منهم مال له صورة بسبب مرافعة عبد العظيم الصيرفى لهم .

ومنها مصـادرة مغلباى الزردكاش ، ومباشرى الزردخاناه ، وجماعة من الزردكاشية .

ومنها مصادرة يوسف بن أبى أصبع الحلبى وكان من أخصاء السلطان .

ومنها مصادرة المعلم يعقوب اليهودى . وصودر تاج الدين بن كاتب الدواليب ، وقرر عليه نحـو عشرة آلاف دينار . وصودر فى هذه السنة جماعة كثيرة من أعيان الناس .

ومنها ما وقع لأولاد الناس من أجنـاد الحلقة وغيرها ، فى خروج اقطاعاتهم من غير سبب ولا موجب لذلك ، فاخرج السلطان فى هـذه السنة نحوا من أربعمائة اقطاع ورزقة ، حتى الرزق التى كانت بيد النساء ، وربما تعدلوا الى الجهات التى هى موقوفة على جهـات بر وصـدقة ورواج الصالح . وقاست أولاد الناس من المماليك ما لا خير فيـه ، وصاروا يهجمون عليهم فى بيوتهم ، ويضربونهم ويبهدلونهم أشد البهدلة والأمر لله . وجرى فى هذه السنة من الحوادث ما لا يحصى .

سنة خمس عشرة وتسعمائة (١٥٠٩ — ١٥١٠ م)

فيهـا ، فى المحـرم فى رابعـه ، الموافق لأول يوم من بشنس القبطى ، أظلم الجـو وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ، واستمرت تمطر يومين متواليين ، حتى عد ذلك من النوادر ، حيث أمطرت فى بشنس .

وفى حادى عشره خرج علاء الدين ناظر الخاص ، وتوجه الى نحو الطور لأجـل عمارة المراكب التى أنشأها السلطان هناك بسبب تجريدة الهند

ومن الوقائع اللطيفة ، أنه فى يوم الخميس ليلة الجمعة ، خامس عشره ، نزل السلطان الى الميدان ونصب به خيمة كبيرة مدورة ، وملأ البحرة التى أنشأها هناك من ماء النيل من المجراة التى أنشأها ، ثم رسم بجمع كل ورد فى القاهرة ووضعه فى تلك

البحرة ، وجمع قراء البلد قاطبة والوعاظ . وعلق أحمالا بها قناديل ، وفرش حول البحرة الفرش الفاخرة ، وعزم على القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ، وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأعيان الناس قاطبة ، وبات السلطان تلك الليلة بالميدان ، وبات عنده الأتابكى قرقماس وجماعة من الأمراء . ومد تلك الليلة أسمطة حافلة ، أعظم من سماط المولد ، فمد فى السماط أربعمائة صحن صينى . ورسم بأن تعمل المأمونية الحموية ، وكل قطعة نصف رطل ، وكان من الأوز والدجاج والغنم ما لا ينحصر ، ومن اللحم ألف وخمسمائة رطل ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسون معلوفا ، ومن الرمسان الرضع أربعون رميسا ، حتى قيل صرف على ذلك السماط فوق الألف دينار بما فيه من حلوى وفاكهة وسكر وغير ذلك ، وكانت ليلة مشهودة .

وفيه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك تاسع بشنس القبطى ، ثم فى عقيب ذلك ابتدأ يضرب الكرة .

وفيه نزل السلطان الى الميدان ، وأحضر جماعة من المماليك يرمون بالنشاب على الخيل ، وهم بآلة السلاح ، وأحرق فى ذلك اليوم احراقة نفط بالنهار ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى ثانى عشرينه ، دخل الحاج الى القاهرة مع الأمن والسلامة ، وكانت سنة رخية مباركة . ولما رجع الحجاج ، أخبروا بما فعله السلطان من وجوه الخير من العمارة بالعقبة ، وقد أنشأ هناك خانا وفيه عدة حواصل ، برسم الودائع ، وأبراجا ، وجعل بها جماعة من الأتراك قاطنين هناك ، يقيمون بها سنة ثم يعودون الى مصر ، ويتوجه جماعة غيرهم الى هناك ، وأصلح طريق العقبة وقطع الأماكن الصعبة التى كانت بها العراقيب ، وأنشأ برجا بعجرود ، وبرجا بنخل ، وأصلح عدة مناهل بطريق مكة ، وبنى هنالك أشياء كثيرة من هذا النمط ، وحصل بها غاية النفع ، وأنشأ بالأزلم برجا أيضا ، وجعل به جماعة من المماليك يقيمون به وكلما مضت سنة يحضرون ، ثم يتوجه غيرهم[1] .

وفيه عين السلطان الأمير علان الدوادار الثانى ، بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، وكان قد أشيع فى تلك الأيام بأن ابن عثمان قد مات ، وربما صلوا عليه صلاة الغيبة فى جامع الأزهر ، ثم ظهر بأن هذا الكلام كذب ، وأسفرت هذه الاشاعة عن أنه كان مريضا وشفى ، فعين السلطان علان بأن يتوجه اليه ويهنئه بالعافية .

وفيه حصل للسلطان بعض قولنج ، فامتنع أياما عن ضرب الكرة ، ثم شفى من هذا العارض وضرب الكرة فى الميدان ، وهذا بخلاف العادة القديمة أن الكرة تضرب فى الميدان .

* * *

وفى صفر جاءت الأخبار من دمياط بأن شخصا من أولاد ابن عثمان يقال له قرقد بيك ، قد وصل الى دمياط . فلما تحقق السلطان ذلك عين الى ملاقاته الأمير أقباى أمير آخور ثانى ، وأزدمر المهمندار ، ونانق الخازن . وأرسل صحبتهم ملاقاة حافلة من كل نوع فاخر . وجهز المراكب حتى الحراقة الكبيرة التى يكسر فيها السد ، برسم ابن عثمان ، ليجىء فيها فى البحر . وجهز له احراقة نفط تحرق قدامه فى البحر لما أن يقلع ، وما بقى من اكرامه ممكن . فتوجهوا الى دمياط بسبب الملاقاة .

وفى يوم السبت سابعه ، قبض السلطان على الشهابى أحمد بن الجيعان ووكل به وقرر عليه خمسة آلاف دينار ، وكان فى هذه المصادرة مظلوما .

(1) لعله يعنى : « يتوجهون » ثم « يحضر » غيرهم هـ

وفيـــه أفرج السلطان عن شرف الدين يونس النابلسى الأستادار ، وقرر عليه عشرة آلاف دينار وقد قاسى شدائد ومحنا ، وأقام فى السجن بالعرقانة نحوا من عشرة أشهر وهو فى زنجير وقيد بخشب اليدين .

وفى يوم الأربعـــاء ، حادى عشره ، كانت ليـــلة سيدى اسمعيل الانبـــابى ، وكانت ليلة حافلة . وضرب فى الجـــزيرة التى تجـــاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرج الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفيه ، فى ليلة الأحد ، خامس عشره ، خسف جرم القمر وأقام فى الخسوف نحو احدى وأربعين درجة

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، تســـحب جمال الدين الزغلى من المقشرة وهرب ، وكان التزم بدار الضرب وقرر عليه للسلطان فى كل شـــهر مال له صورة ، فأتلف سائر المعاملة من الذهب والفضة ، وظهر بها الزغل كالشمس ، حتى ضج من ذلك سائر الناس والأمراء ، وصارت معاملة السلطان لا تمشى فى غالب البلاد ، وامتنع الذهب البرسبية والجقمقى والأينالى والخشقدمى والقـــايتبية ، وصار الذهب الغورى والفضة هى التى عليها العمل مع ما بها من الغش الفاحش . فلما تزايد الأمر فى ذلك شكا بعض الأمراء هـــذا الحـــال الى الســـلطان فقبض على جمال الدين الزغلى وضربه ضربا مبرحا وســـجنه بالمقشرة ، فأقام بها أياما وهرب . فلما هرب مقت السلطان قانصـــوه أبا سنة الوالى بسبب ذلك ، وقصد الاخراق به ، ثم قرر عليه خمسة عشر ألف دينار . وهرب معلمو المقشرة واختفوا ، وضرب بسبب ذلك يحيى بن نوكار دوادار الوالى ، وحصل على جماعة من الناس بسبب جمال الدين الزغلى ما لا خير فيه ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعـــاء ثامن عشر صفر وصل قرقد بيك بن عثمان الى شبرا ، وهو قرقد بن أبى يزيد ابن محمد بن مراد بيك المتصل النسب الى جدهم عثمان . فلمـــا وصل الى شبرا أخلى له السلطان قاعات البرابخية التى ببولاق ، ورسم لناظر الخاص بأن يحضر اليه جميع ما يحتاج له من فرش وأوان وصينى وغير ذلك من الاحتياج ، فخرج جماعة من الأمراء الى ملاقاته . وكان السلطان رسم للكشاف ومشـــايخ العربان ، بأن يلاقوه بطول الطـــريق ، ويصنعوا له الأســـمطة والمدات الحافلة ، فرموا على بلاد المقطعين أشياء كثيرة من أغنـــام وأوز ودجاج وغير ذلك ، فاستمر على ذلك حتى وصل الى قاعات البرابخية وهو فى الحراقة التى يكسر فيها الســـد . فلما دخل البرابخية مد له السلطان هناك مدة حافلة .

ثم توجـــه اليـــه الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمون قاطبـــة فسلموا عليـــه . ثم توجه اليه القضاة الأربعة وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف فشرع يقوم لكل من يجئ اليه من الناس ...

واستمر على ذلك الى يوم الاثنين ثالث عشرين صفر ، فأرسل السلطان عشرين فرسا له ولمن معه ... منهم أربع جنائب بالسروج الذهب والكنابيش الزركش والغواشى الحرير الأصفر .

ثم ان السلطان رسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء قاطبة ، ويعلمهم بأن الموكب فى الحوش بالشاش والقماش . ثم ان السلطان نصب السحابة الزركش على الدكة وغشى الدكة بالأطلس الأصفر ، ورســـم بأن تزين القلعـــة عنـــد باب الزردخاناه بالصناجق السلطانية وآلة الســـلاح ، وأن تصف المكاحل الكبـــــار ، على باب الزدخاناه ... ثم

رسم للمهندار ورءوس النوب ، بأن يتوجهوا الى ابن عثمان وهم بالشاش والقماش ويطلعوا قدامه الى القلعة ، فتوجهوا الى بولاق وأركبوه من البرابخية على فرس بسرج ذهب وكنبوش ، وقدامه الجنائب السلطانية ، فطلعوا به من على المقس وأتوا به من على سوق مرجوش ، وشقوا به القاهرة ، فكان له يوم مشهود . وخرج الناس أفواجا أفواجا لرؤيته .

واستمر فى ذلك الموكب الحافل حتى وصل الى القلعة ، فطلع وهو راكب الى عند الحوش السلطانى ونزل على مصطبة باب الدهيشة ، ففرشوا له هناك مقعدا حريرا ، فاستراح ساعة نحو درجة ثم دخل الحوش . فلما وصل الى أوائل البساط نزل السلطان من على الدكة واستمر واقفا حتى وصل اليه ابن عثمان فتعانقا ، وقيل ان ابن عثمان باس يد السلطان ووضعها على عينيه . ثم تحدث معه السلطان ساعة وهو واقف على أقدامه ، فلما خلع عليه السلطان وخرج من الحوش ركب من على مصطبة شاد الحوش .

وكان سبب مجىء قرقد بن عثمان الى مصر ، قيل حصل بينه وبين أبيه حظ نفس ، فأتى الى السلطان ليصلح بينهما .

وكانت صفة قرقد بيك بن عثمان رجلا شابا فى عشر الأربعين : معتدل القامة ، عربى الوجه ، يميل الى الصفرة ، نحيف الجسد ، أسود اللحية ، جميل الهيئة ، وعلى رأسه عمامة تركمانى ، وهى صغيرة دون عمائم جماعته . وقيل انه كان أكبر أولاد أبى يزيد بن عثمان .

ثم ان السلطان طلب خلعة فأحضر اليه خلعة جر ذهب منسوجة شغل القاعة تلمع كالبرق ، فأفيضت على قرقد بيك بن عثمان ، وكان عليه لما طلع الى القلعة دلامة حرير أصفر وفوقها جندة صوف أخضر مفتوحة ، فنزع ذلك من عليه ولبس خلعة السلطان . وقد بالغ السلطان فى اكرامه جدا ، بخلاف ما وقع لجمجمة بن عثمان مع الأشرف قايتباى ، فانه لما دخل عليه لم يقم له ، ولا وصل الى الحوش وهو راكب ، ولا أنعم عليه بأشياء حافلة كما فعل الغورى مع قرقد هذا .

وفى ذلك نكتة لطيفة وهى أن الجمجمة لعلها لقب لقب بها بعض أولاد آل عثمان وليس علما لواحد منهم ، ومع ذلك ما اشتهر بها رجل منهم فى بلاد الروم وغيرها اللهم الا فى مصر ، ثم أخى يعتقد أن المراد به هو السلطان جم ابن السلطان أبى الفتح محمد خان ، هرب الى مصر لما تسلطن أخوه السلطان بايزيد خوفا منه على نفسه . وقضيته مشهورة لم يل ملك الروم ، وقرقد ولى على اسطنبول كرسى مملكة الروم مدة يسيرة لما مرض أبوه وأشرف على الموت ، فولى على الروم عوضه حتى شفى ، وكان أكبر أولاده .

ثم ان السلطان رسم للأمراء بأن ينزلوا صحبة قرقد بن عثمان ، فنزلوا معه الى الصليبة ، فحلف عليهم بالرجوع الى دورهم ، وتوجهوا به الى بولاق من على الجزيرة الوسطى ، وصحبته الرءوس النوب بالشاش والقماش حتى وصل الى البرابخية ، ثم انفض ذلك الموكب . ومد له السلطان هنا مدة حافلة . ثم فى أثناء ذلك أرسل اليه السلطان تقدمة حافلة . قيل بعث اليه بعشرين ألف دينار ، عشرة فضة وعشرة ذهب وعدة بقج فيها قماش مفتخر ، ما بين سكندرى ومنزلاوى ، وغير ذلك . ثم قدم ابن عثمان للسلطان فيما بعد تقدمة حافلة ما يحضرنى قدرها .

وفى هذا الشهر توفى الأمير مغلباى دجاج أحد الأمراء الطبلخانات .

وتوفى أيدكى دوادار علان الدوادار الثانى ، وكان غير مشكور السيرة فى أفعاله .

ومن الحوادث أن فى يوم الخميس ، سادس عشرينه ، توفى أحمد بن الحكام برداد السلطان ، وقد مات قتيلا . وسبب ذلك أن بعض أعدائه سلط عليه من قتله بخنجر فى البندقانيين وهو طالع الى القلعة بعد صلاة الصبح ، كما جرى لأبى البقا ابن الجيعان ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توجهت طائفة من المماليك الى بيت شخص من الأمراء الرءوس النوب يقال له اينال باى ، فأحرقوا بيته ونهبوا ما فيه . وكان سبب ذلك أن صبيا أمرد كان بجمقدارا عند بعض المماليك ، فهرب من عنده واحتمى بهذا الأمير ، فدخل اليه المملوك يطلب الصبى من عنده ، وادعى أنه سرق من عنده شيئا ، فأغلظ المملوك على ذلك الأمير فى القول ، فأدبه وضربه . فتعصبت له خشداشينه وأتوا الى بيت اينال باى المذكور ونهبوا ما فى مراكبهم أجمعين ، فتنكد السلطان يلتفت الى كلامه وراح النهب فى كيسه .

وفيه جاءت الأخبار بأن العسكر الذى توجه الى الهند صحبة حسين المشرف قد كسرهم الفرنج كسرة فاحشة ، وقتلوا العسكر عن آخره ، ونهبوا ما فى مراكبهم أجمعين ، فتنكد السلطان لهذا الخبر .

وفيه سافر ناظر الخاص ، والأمير محمد بيك قريب السلطان الى ثغر الاسكندرية ، بسبب تجهيز المراكب التى يتوجه فيها الأمير علان الى بلاد ابن عثمان .

وفيه أفرج السلطان عن الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكان له مدة وهو فى الترسيم حتى غلق ما قرر عليه من المال .

* * *

وفى ربيع الأول طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ست أذرع وثمانى عشرة أصبعا ، وكانت أزيد من العام الماضى بثمانى أصابع .

ومن النوادر اللطيفة أن بركة الرطلى زرعت فى هذه السنة حشيشا ، وهذا لم يتفق قط . وكان الذى زرع الحشيش كمال الدين بن قوسان ، وقد استأجر أرض بركة الرطلى ، فكان كل من دخل اليها يبتهج بذلك ، ولا سيما أصحاب الكنبة[1] من الحشاشين ، فجاءت اليها الناس أفواجا يتفرجون على ذلك الحشيش ، وقد وضع من أهله فى محله ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، وفيه يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلى حسنا
وصارت جنة فيها عروش
ومذ زرعوا الشرانق فى ثراها
ببدو نسيمها طلع الحشيش

وفى يوم الثلاثاء ، ثامنه ، عزم السلطان على قرقد بيك بن عثمان فى الميدان ، ولعب السلطان والأمراء قدامه بالكرة ، ومد له أسمطة حافلة بالبحرة التى بالميدان ، ولم يحضر فى ذلك المجلس سوى عثمان وجماعته . ثم ان ابن عثمان تكلم مع السلطان فى أمر الأمير أزبك المكحل الذى نفى الى دمياط بسبب الأتابكى قيت الرجبى ، كما تقدم ، فلما قدم ابن عثمان الى دمياط ترامى عليه أزبك المكحل بأن يشفع فيه عند السلطان أن يعود الى مصر ، ويقيم بها بطالا ، فشفع فيه ابن عثمان فى ذلك المجلس وباس يد السلطان ، فرسم باحضاره الى مصر ، فلما أراد ابن عثمان الانصراف ، خلع

(1) اسم «الحشيش» باللاتينية « Cannabis indica »

عليه السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، وأركبه فرس بوز بسرج ذهب وكنبوش .

وفى يوم الجمعة ، حادى عشره ، عمل السلطان المولد النبوى ، واجتمع الأمراء والقضاة الأربعة على العادة ، وحضر قرقد بيك بن عثمان ، فلما طلع قام له السلطان وأجلسه عن ميمنته فوق المرتبة التى هو جالس عليها ، فوق القاضى الشافعى . وفى ذلك اليوم لبس السلطان الشاش والقماش ، ولم يكن عادة أن السلطان يلبس الشاش والقماش فى المولد . وانما فعل ذلك لأجل ابن عثمان ، وأظهر السلطان فى ذلك اليوم غاية العظمة بخلاف كل سنة .

وفى يوم الخميس ، سابع عشره ، خلع السلطان على الأمير طقطباى نائب القلعة أحد الأمراء المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وقرر مغلباى الزردكاش بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان جماعة من المماليك وأولاد الناس ، وعين منهم جماعة الى الطينة يقيمون بها سنة فى الأبراج التى أنشأها هناك ، ويصيرون بالنوبة ، كلما مضت سنة يأتى تلك الجماعة ويتوجه خلافهم الى هنالك ، ويقيمون بها سنة كاملة .

وفى يوم السبت ، تاسع عشره ، حضر أزبك المكحل من دمياط ، وكان منفيا بها ، فشفع فيه قرقد بيك بن عثمان كما تقدم ذكر ذلك . فلما حضر خلع عليه السلطان ونزل الى داره ، ورتب له ما يكفيه من الذخيرة بغير اقطاع ، واستمر طرخانا .

وفيه خلع السلطان على علي البرماوى وقرره فى برددارية السلطان ، عوضا عن أحمد بن العكام بحكم موته ، وصار البرماوى من تحت يد الزينى بركات بن موسى .

وفيه كان ختم ضرب الكرة ، وحضر ابن عثمان عند السلطان ، ومد فى ذلك اليوم أسمطة حافلة ، ووقع خصمانية فى لعب الرمح فى ذلك اليوم قدام السلطان والأمراء ، وكان يوما مشهودا .

***

وفى ربيع الآخر قبض على جمال الدين الزغلى الذى تسحب من المقشرة ، فرسم السلطان بشنقه ، فأشهروه وهو عريان على حمار ، والمشاعلية تنادى عليه حتى أتوا به الى بيت شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمرباى ، وكان ساكنا فى مصر العتيقة على البحر ، فشنق هناك على بابه ، وشنق معه خمسة أنفار كانوا يعملون الزغل معه . وسبب ذلك أن تمرباى المذكور كان هو الذى عرف بين السلطان وبين جمال الدين وقال للسلطان ان جمال الدين يعرف صنعة الكيمياء ، فظهر أن ذلك كذب .

وفيه فى ليالى وفاء النيل وقع ببركة الرطلى حريق فى بعض بيوت الجسر التى بها ، فاحترق نحو سبعة أماكن ، ولا يعلم من فعل ذلك . وكان الجسر خاليا بغير سكان .

وفيه تغير خاطر السلطان على علاء الدين ناظر الخاص بسبب العجمى الذى كان عند السلطان الشنقشى ، وهذه الواقعة مشهورة بين الناس بما كان سببها ، فكادت ديار ناظر الخاص أن تخرب فى هذه الحركة ، وألزمه السلطان بأن يعتق عبيده وجواريه قاطبة .

وفيه وقع تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى وبين كاتب السر البدوى محمود بن أجا بسبب وقف كان بينهما بحلب ، فرسم السلطان بعقد مجلس بينهما بالمدرسة الصالحية ، فلما توجها الى هناك انتصف كاتب السر على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة واستخلص منه الوقف الذى

بحلب ، وكان السلطان قائما مع كاتب السر ، ومحطا على عبد البر بن الشحنة .

وفيه تغير خاطر السلطان على سودون نائب دمياط بسبب ما وقع منه فى حق ابن عثمان لما دخل الى دمياط ، فلما حضر سودون المذكور ضربه بين يديه وقرر عليه مالا له صورة .

وفيه حضر تمرباى الهندى أحد الأمراء العشراوات الذى كان توجه الى الطينة بسبب عمارة الأبراج التى أنشأها السلطان هناك ، فلما انتهى منها العمل وحضر خلع عليه بسبب ذلك .

وفيه انقطع جسر أم دينار الذى بالجيزة ، وكان ليالى وفاء النيل فاضطربت الأحوال لذلك ، وخرج قانى باى قرا أمير آخور كبير على جرائد الخيل ، وعدى الى الجيزة فأعياه سده ، فأرسل يطلب من السلطان عونة على ذلك ، فرسم السلطان لجماعة من الأمراء المقدمين بأن يتوجهوا الى هناك ويتعاونوا على سده ، فتوجه الأمير دولات باى أمير سلاح ، والأمير طرا باى رأس نوبة النوب ، والأمير تمر الحسنى أحد المقدمين ، والأمير ماماى جوشن وجماعة آخرون من الأمراء العشراوات . فلما توجهوا الى هناك أعياهم سد ذلك الجسر ، وحصل للناس بسببه الضرر الشامل ، وصاروا يمسكون الناس من الطرقات ويرمونهم فى الحديد ويتوجهون بهم الى جسر أم دينار ، وخولوا اليه بأخشاب كثيرة وسلب ، ومع هذا أعياهم سده ، حتى عد ذلك من الوقائع الغريبة . وفيه يقول محمد بن قانصوه :

مذ نقص النيل ليالى الوفا
وأمتع البحر من البر
وأى لقلبى البر فى كسره
فخصه بالجبر فى الكسر

وفيه جاءت الأخبار من مكة بوفاة خوند أصل باى أم الملك الناصر ، وسرية الملك الأشرف قايتباى ، وأخت الملك الظاهر قانصوه ، وزوجة الملك الأشرف جان بلاط ، توفيت بمكة ودفنت هناك . وقد تقدم القول بأن خاطر السلطان قد تغير عليها ، فلما حجت وقصدت العود الى مصر أرسل السلطان مراسيم بعودها الى مكة ، فعادت اليها من أثناء الطريق ، واستمرت مقيمة بمكة الى أن ماتت بها بعد مضى سنين .

وفيه كان وفاء النيل المبارك الموافق ذلك لرابع عشر مسرى ، فلما أوفى توجه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان له يوم مشهود .

وفيه شرع السلطان يقبض على جماعة خوند أم الناصر ، وقد ظهر لها أشياء كثيرة من أموال وتحف فى عدة حواصل ، وقد حصل على جماعة من النساء بسببها ما لا خير فيه ، وضربوا وعصروا غير ما مرة ، وما قاسوا خيرا فى جرتها ، واستمروا فى التراسيم مدة طويلة وهم الى الآن على ذلك .

وفيه كان انتهاء العمل من الجامع الذى أنشأه السلطان خلف الميدان عند حوش العرب وخطب به ، وقد جاء فى غاية الحسن .

***

وفى جمادى الأولى ، حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان قد سافر الى جهة بلاد الصعيد ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان ، ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى يوم الخميس ، سادسه ، توجه الأمير علان الدوادار الثانى الى السفر ، وقد تقدم أن السلطان عينه قاصدا الى ابن عثمان ، وكان تقرر الحال أولا على أنه يسافر من البحر الملح فما تم له ذلك وسافر من البلاد الشامية ، فخرج فى ذلك اليوم فى موكب حافل .

وفيه طلع الأمير طومان باى الدوادار الكبير بتقدمة حافلة الى السلطان ، كون أنه جاء من الصعيد ، فكان من جملة التقدمة : عشرة آلاف دينار ، ومائة فرس ، ومائة بقرة ، وخمسمائة رأس غنم ، وثلاثون رأس رقيق ، وغير ذلك أشياء كثيرة.

وفيه رسم السلطان بشنق شخص زغلى ، فشنق على باب زويلة .

ومن الحوادث أن شخصا شابا يقال له سكيكر أشيع عنه أنه قد قتل أباه ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشيء ، فرسم بتسليمه الى الوالى ، فعاقبه فلم يقر بشيء ، فسجن بالمقشرة حتى يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر علاء الدين ناظر الخاص ، وكان توجه الى ثغر الاسكندرية بسبب تجهيز المراكب المعينة صحبة الأمير محمد قريب السلطان .

وفى هذا الشهر وقعت زلزلة خفيفة بعد العصر فلم يشعر بها الا القليل من الناس .

* * *

وفى جمادى الاخره ، فى يوم تاسعه ، نزل السلطان الى الميدان وحضر عنده ابن عثمان . ووقع فى ذلك اليوم خصمانية فى لعب الرمح ، وأحرق السلطان قدامه احراقة نفط بالنهار فى الميدان ، وكان يوما مشهودا .

وفيه ثبت النيل المبارك على اثنتين وعشرين أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وقد ثبت الى أواخر بابه .

وفيه ظهرت امرأة غريقة عند قناطر الأوز ، ووجد عليها ثياب فاخرة ، وفى آذانها حلق بلخش ، وفى يدها سوار ذهب ، فطلع بها والى القاهرة ووضعها فى تابوت عند جامع الظاهر ، فأقامت يوما وليلة ولم يظهر لها معرفة فدفنت بعد ذلك .

وفيه وقع ربع فى الكداشين ، وكان مطلا على الخليج ، فقتل تحت الردم شخص يقال له شمس الدين البهواشى ، أحد نواب الحكم من الشافعية ، وكان لا بأس به ، وقتل شخص معلم صاجاتى ، وقتل جماعة آخرون ممن كانوا ساكنين فى ذلك الربع ، وكانت حادثة مهولة .

* * *

وفى رجب نادى السلطان بأن لا يتجاهر الناس بالمعاصى ، ولا يمشى بسلاح من بعد المغرب ، وأن الناس يواظبون على الصلوات الخمس فى الجوامع ، فسمعوا من أذن وخرج من أخرى .

وفيه قبض السلطان على الشمسى محمد ابن فخر الدين كاتب المماليك ، الذى قرر فى نظر الاسطبل السلطانى ، كما تقدم ، فلما قبض عليه قرر عليه مال ووكل به ، وكان مظلوما فى هذه الواقعة .

وفيه قبض السلطان على جلال الطنبدى ، أحد نواب الحنابلة ، وقد كذب عليه بعض أعدائه وأوحى للسلطان بأن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد أودع عنده مالا ، فطلبه السلطان ورسم عليه ، وقاسى شدائد ومحنا ، وصودر غير ما مرة بسبب قانصوه خمسمائة فانه كان من جملة أصحابه .

وفيه توفى والد معين الدين بن شمس وكيل السلطان ، مات بغتة ، قيل طلب منه السلطان مالا فابتلع فصا من الماس فمات فى ليلته ، فكانت الواقعة تقرب من واقعة ناصر الدين الصفدى وكيل بيت المال ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه قبض الوالى على امرأة تسمى أنس ، وكانت قبيحة السيرة تجمع عندها بنات الخطاء ، وكانت ساكنة بالأزبكية ، فلما تولى الأتابكى قرقماس توجهت الى قليوب ، فأرسل السلطان بالقبض عليها ، فلما قبضوا عليها رسم السلطان

بتغريقها ، ويقال انها فدت نفسها بخمسمائة دينار ورسم بنفيها .

وفيه خلع السلطان على آقباى وأعاده الى كشف الشرقية ، كما كان قبل ذلك ، وصرف عن كشف الشرقية كرتباى مملوك السلطان .

وفى هذه السنة أرسل السلطان تقليدا الى يوسف الناصرى وقرره فى نيابة حماة عوضا عن جانم الذى كان بها ، وقرر جان بردى الغزالى فى نيابة صفد عوضا عن سودون الدواداری ، وقرر سودون الدواداری فى نيابة طرابلس ، وقرر فى نيابة الكرك يوسف دوادار ملاج نائب القدس .

ومن الحوادث فى هذا الشهر ، أن قرقماس المقرى ، أحد الأمراء العشراوات كان ساكنا ى زقاق الكحل فسرق من بيته عملة بألف دينار ، فقبض على جيران الحارة أجمعين ، وسلمهم الى الوالى فعاقبهم أشد العقوبة ، وغرمهم أضعاف ما سرق له ، وكانوا فى هذه الواقعة ليس لهم ذنب ، وقد ظهرت هذه العملة فيما بعد عند جماعة قرقماس المقرى ، بعد ما عاقب جماعة من مشاهير الناس ، منهم أولاد ابن البقرى ، وغير ذلك من جيران الحارة من أعيان الناس .

وفى يوم الخميس حادى عشره جاءت الأخبار بأن سيباى نائب الشام قد وصل الى خانقة سرياقوس ، وقد حضر ليزور السلطان ، وكان قد وقع بينه وبين حاجب دمشق حظ نفس ، فحضر الى السلطان يشكو له من ذلك . فلما حضر دخل الى القاهرة ليلة الجمعة ، ونزل فى مدرسة السلطان التى أنشأها فى الشرابشيين فبات بها ، فلما أصبح يوم الجمعة ، ودخل وقت صلاة الجمعة ، أرسل السلطان خلفه فطلع الى القلعة وهو بالشاش والقماش ، وأرسل اليه السلطان جنائب بسروج ذهب وكنابيش ، فركب من المدرسة وطلع الى القلعة وصلى مع السلطان صلاة الجمعة وجلس معه فى المقصورة ، فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه السلطان ونزل من القلعة ، وصحبته الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، وقدامه تلك الجنائب . واستمر فى هذا الموكب الحافل حتى أنزله فى بيت قرقماس الجلب الذى بالتبانة ، وقد خلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وكان له يوم مشهود ، وقيل وصل من الشام الى القاهرة فى سبعة أيام وقد جاء على جرائد الخيل ، وكان قد بلغه أن أركماس يسعى عليه فى نيابة الشام فاضطربت أحواله، وجد فى السير حتى أتى الى مصر فى سبعة أيام .

وفيه قبض السلطان على أصيل بردار الأتابكى قيت الرجبى وسلمه الى الوالى ، فعاقبه وضربه كسارات حتى مات تحت العقوبة . وكان سبب ذلك أن قد وشى به عند السلطان أنه يعانى صنعة الزغل ، وقد اشتهر بذلك بين الناس ، وكان أصيل هذا من وسائط السوء ظالما غاشما يستحق كل أذى .

وفيه عزم السلطان على سيباى نائب الشام فى الميدان ، وجلس هو واياه على البحرة التى به ، ومد له أسمطة حافلة ، وأقام عنده الى أواخر النهار ، ثم ألبسه كاملية بسمور ، وتوجه الى المكان الذى نزل به ... ولما حضر سيباى نائب الشام لم يحضر مواكب السلطان بالقلعة .وسبب ذلك أن الأمير دولات باى أمير سلاح لم يوافق على أن سيباى نائب الشام يجلس فوقا منه . وقد تقدم أن الأمير دولات باى ولى نيابة حلب ونيابة الشام قبل سيباى ، فبموجب ذلك لم يوافق الأمير دولات باى على أن سيباى يجلس فوقا منه .

لع السلطان على أبي البقا ابن ابراهيم
الخاص ، وقرره فى نظر الاسطبل
عوضا عن محمد بن فخر الدين كاتب
حكم صرفه عنها . وقد جمع أبو البقا
ء الخاص ونظر الاسطبل .

م الجمعة لبس السلطان الصوف وقلع
ووافق ذلك سادس هاتور القبطى .

عاد خاير بيك المعمار من بناء الخان
لتى أنشأها السلطان فى العقبة ، فلما
دة يسيرة ورسم له السلطان بأن يتوجه
ن البحر الملح ، ويأخذ صحبته جماعة
ن والنجارين والمهندسين ، وقد أمر
، ببناء مارستان ورباط فى مكة ، وأن
م ويجرى عين ماء بازان الى مكة ، فخرج
ذا الشهر وتوجه الى الطور .

وقعت فتنة بين العبيد وصاروا يقتلون
ضا حتى أعيا الوالى أمرهم .

، جاءت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن
حمد بيك لما توجه الى الجون بسبب
الأخشاب صادف مراكب فيها فرنج
، البحر على التجار فتحارب معهم
ليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسر
، منهم ، وغنم ما كان معهم فى المراكب ،
ء كثيرة تقدر بنحو من مائة ألف دينار ،
لطان لهذا الخبر .

، نزل السلطان الى الميدان ، وحضر
د بيك بن عثمان . ورسم للرماحة الذين
فى أيام المحمل بأن يسوقوا فى الميدان
، عثمان حتى يتفرج عليهم ، فساقوا وهم
آلة السلاح ، وكان يوما مشهودا .

أفرد السلطان على طائفة المغاربة اثنين
وثلاثين ألف دينار . وكان سبب ذلك أن تغرى
بردى الترجمان لما توجه الى بلاد الفرنج اشترى
من ملوك الافرنج عدة أسرى من المغاربة بنحو من
خمسين ألف دينار ، فلما خلصوا أراد السلطان
أن يوزع ما غرمه من المال على طائفة المغاربة التى
بمصر وبالاسكندرية فى نظير ما غرمه .

وفيه ظهر فى السماء ، من جهة القبلة ، نور ساطع
مثل قلع المركب ، يظهر وقت طلوع الفجر ثم
يختفى ، فأقام على ذلك مدة ثم اختفى ولم يعلم
ما سبب ذلك .

وفيه لما قوى البرد ، رسم السلطان لابن عثمان
بأن يتحول من بولاق ، ويسكن فى بيت الأشرف
جان بلاط الذى فى حارة القاضى عبد الباسط ،
فأقام به مدة يسيرة ثم عاد الى بولاق كما كان .

* * *

وفى شعبان ، خلع السلطان على سيباى نائب
الشام وأذن له بالعودة الى محل نيابته ، فسافر
فى أثناء ذلك .

وفى رابع عشره توفى الطواشى عنبر التكرورى
مقدم المماليك ، وكان دينا خيرا لين الجانب ، وكان
أصله من طواشية الأمير جانى بيك المرتد .

وفى يوم الخميس ، سادس عشره ، حضر الأمير
محمد بيك الذى كان قد توجه الى الجون بسبب
احضار الأخشاب ، وحضر صحبته تلك الفرنج
الذين أسرهم كما تقدم ، فكانوا نحوا من خمسين
نفرا ، فشق بهم من القاهرة وهم فى زناجير ، وكان
لهم يوم مشهود . فلما عرضوا على السلطان ،
وهو بالميدان ، خلع على الأمير محمد بيك ورسم
بسجن الفرنج فسجنوا بالمقشرة ، وقيل أسلم منهم
خمسة أنفار .

وفى ذلك اليوم كان قدام السلطان رماية
نشاب على الخيل ، وأحرق قدامه فى ذلك اليوم

احراقة نفط بالميدان بالنهار ، وكانت نوبة آنياب الأمير بهـادر الغورى ، وكان ابن عثمان حاضرا والأمراء المقدمون ، وكان يوما مشهودا .

ومن الحوادث أن الأمير طومان باى الدوادار خرج يسير نحو المطرية وصحبته الأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد المقدمين ، فساقوا فى الرمل فتقنطر الفرس بالأمـير خاير بيك فانكسر بعض أعضـائه ، ورد وهو محمـول وقد أشرف على الموت ، وأقام أياما وهو فى الفراش منقطعا حتى شفى بعد مدة طويلة .

* * *

وفى رمضان ، كان مستهله يوم الخميس ، فنزل السلطان الى الميدان ، وعرضوا عليه اللحم والخبز والدقيق والسكر والغنم وهو مزفوف على رءوس الحمالين على جارى العادة ، وخلع فى ذلك اليوم على تغـرى برمش الوزير ، وعلى شرف الدين الصغـير ناظر الدولة ، وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب .

وفيه كان انتهاء العمل من المقعد الذى أنشأه السلطان خلف جنينة البحرة ، المطل على الحوش السلطانى ، وقد جعل طوله ستين ذراعا وعرضـه نحو عشرين ذراعا ، وجعل له شبابيك على الحوش ، وشبابيك على جنينة البحرة ، وجعله مقعدا قبطيا بغير أعمدة ، ورخمه وزرة عالية . فلما كان أول ليلة من شهر رمضان أفطر فيه واجتمع عنده الأمراء ومد السماط به ، وأظهر غاية العظمة فى تلك الليلة .

وفيه خلع السلطان على الأمير شاهين الجمالى وقرره فى مشيخة الحرم النبوى كما كان أولا .

وفيه ظهرت بقليوب ، وقيل بقلمة ، ابنة صغيرة دون البلوغ ، قيل انها رأت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام مرارا متعددة ، وظهـر لها كرامات خارقة ، فتوجـه اليها النـاس أفواجا أفواجا ، واشتهر عنها أنها تقيم المقعد وترد بصر الأعمى ... وحكى عنها من هذا النمط أشياء غريبة ليس لهـا صحة ، فبلغ كرى كل حمار من القاهرة الى قليوب أشرفيا ، وتوجه اليها جماعة من الخاصكية والأمراء العشراوات وأعيان الناس ، ووقع لها سمعة زائدة بالقاهرة .

وفى هذا الشهر ، أو فى الذى قبله ، توفى الشرفى يونس بن الأمير طوخ بونى بازق ، وكان أبوه أمير مجلس فى دولة الأشرف اينـال ، وكان الشرفى يونس من أعيان أولاد الناس ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس خامس عشره ، خلع السلطان على الطواشى سـنبل العثمانى الهندى وقرره فى تقدمة المماليك عوضا عن عنبر التكرورى ، بحكم وفاته ، وخلع على الطواشى جوهر الزومى وقرره نائب مقـدم المماليك عوضا عن سـنبل ، بحكم انتقاله الى تقـدمة المماليك ، وخلع على الطواشى بشير وقرره رأس نوبة السقاة عوضا عن خشقدم الرومى بحكم وفاته .

وفيه نزل السلطان الى الميدان فوقف اليه جماعة من المغاربة ، نحو من سبعين انسانا ما بين رجال ونساء ، وقد قصدوا الحج فى هذه السنة ، فرسم لهم السلطان بأشرفى لكل واحد منهم ثمن بقسماط .

وفيـه ، فى يوم الجمعـة ثالث عشرينه ، طلع قرقد بن عثمان الى القلعة ، وأفطر عنـد السلطان تلك الليلة وبات ، فلما أصبح ألبسـه السلطان سلارى صوف أبيض بسمور من ملابيسه .

ومن الحوادث أن فى ليلة الأحد خامس عشرينه وجد اثنان من مماليك السلطان من طبقة الصندلية قتلى عند بركة باب اللوق ، بالقرب من شـاطىء الخليج ، ولا يعلم من قتلهما ، فلما طلع النهار نزل من القلعة الجم الغفير من المماليك من خشداشين أولئك المماليك الذين قتلوا ، فنهبوا عدة دكاكين

من باب اللوق ، وكادوا أن يحرقوا البيوت التى هناك حتى أدركهم الوالى ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد وألزم الوالى بتحصيل من فعل ذلك ، فنزل الوالى وقبض على جماعة كثيرة من أرباب الأدراك الذين هناك ، ومن الغيطانية والمرابعين ، وغير ذلك ممن لا ذنب له فى ذلك ، وربما عوقب من لا جنى . فلما عرضوا على السلطان أمر بسجنهم فى المقشرة .

وفى أثناء هذا الشهر ظهر محمد بن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف ، فترامى على بعض الخاصكية بأن يسعى له عند السلطان فى عوده الى نظر الأوقاف ، فلما ذكر للسلطان مال اليه ، فلما بلغ محمد بن العظمة ذلك طاش وشرع يطلب أعيان الناس بالرسل الغلاظ الشداد . وكان علاء الدين ناظر الخاص متحدثا فى نظر الأوقاف ، فلما بلغه ما فعله ابن العظمة طلع الى السلطان وشكا له من ابن العظمة ، فقال له السلطان : « أنت تشتكى عندى من هذه الوظيفة وتقول باخسر فيها » ! فقال ناظر الخاص : « أسد فيها بسعادة السلطان » . فألبسه كاملية ونزل الى داره ، فلما نزل قبض على محمد بن العظمة وضربه وسجنه بالمقشرة واستمر بها مدة طويلة .

وفى خامس عشرينه كان ختم البخارى بالقلعة ، ونصب السلطان خيمه بالحوش واجتمع القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، وفرقت الخلع والصرر على العادة ، وكان ختما حافلا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، فخلع عليه السلطان .

وفيه وصل الى السلطان تقدمة حافلة من عند نائب الشام ، وهى ما بين خيول ومماليك وقماش ومال وغير ذلك .

وفيه توفى الشيخ ناصر الدين محمد بن جرباش ، وكان من أعيان علماء الحنفية ، وكان دينا خيرا لا بأس به .

***

وفى شوال كان موكب العيد حافلا ، وحضر قرقد بيك بن عثمان وصلى مع السلطان صلاة العيد ودخل فى المقصورة وهو بغير كلفتاه . وكان الجمجمه ابن عثمان لما حضر مع الأشرف قايتباى صلاة العيد ألبسه الكلفتاة وصلى بها معه ، فلما خرج السلطان من الجامع مشى قدامه قرقد بيك ابن عثمان مع الأمراء من الجامع الى الحوش ، فلما خلع على الأمراء خلع على ابن عثمان أيضا كاملية تماسيح على أحمر بفرو سمور ، ورسم له بأن يركب من الحوش ، فركب ونزل مع الأمراء فى موكب حافل ، حتى وصل الى بولاق ونزل بالبرابخية . ومن جملة ما بالغه السلطان فى اكرام قرقد بيك بن عثمان أنه أرسل اليه بكتاب على يد كاتب السر بأن يرتب له فى كل شهر ألفى دينار برسم نفقته ما دام بمصر ، فكانت تصرف له من الذخيرة فى مدة اقامته بمصر .

وفى يوم الاثنين عاشره نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام ، وطافوا بهم فى القاهرة مع المحمل ، وكان لهم يوم مشهود .

وفيه حضر القاضى محب الدين كاتب سر دمشق فأكرمه السلطان الى الغاية ، وحضر صحبته تقدمة حافلة للسلطان .

وفيه توفى للأمير طومان باى الدوادار ولد صغير من سرية ، وعمره نحو من ثلاث سنين ، فتأسف عليه ودفن وقت صلاة الفجر على الفوانيس ، فرسم السلطان بأن يدفن فى مدرسته التى بالشرابشيين فدفن بها .

وفى يوم الاثنين سابع عشره خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، وبالركب الأول مغلباى الزردكاش أحد الأمراء الطبلخانات ، فكان لهما يوم مشهود ، وحضر أمير من أمراء ابن عثمان الكبير يروم الحج وصحبته نحو من أربعين ألف دينار أرسلها ابن عثمان على يده ليفرقها على فقراء مكة والمدينة ، فسافر صحبة الحجاج .

ومن الحوادث أن شخصا يسمى بركات من فراشى الأمير طومان باى الدوادار قتل صبيا من صبيانه وكان شابا صغيرا جميل الصورة ، فلما عرض بركات المذكور وغرماؤه على السلطان دفعهم الى قاضى القضاء المالكى ، فحل فى أمر بركات لما علم أنه من فراشى الدوادار ، فسجنوه حتى تقام عليه البينة بأنه قتل . وفى عقيب ذلك قتل ساعى الدوادار أيضا قتيلا وهو شخص يعرف بالشقيفاتى ، وكان شيخا مسنا . فلما عرض الساعى على السلطان وعلم أنه من جماعة الدوادار دفعه للشرع أيضا ، فحلوا عنه ولم يجىء أحد يشهد عليه بأنه قتل ، وكان قتله بالنهار بعد العصر فى وكالة الأشرف برسباى التى بالصليبة ، وراح أمر القتيلين على أقاربهما وأولادهما ، والأمر الى الله تعالى .

* * *

وفى ذى القعدة الشريفة ، فى يوم الخميس خامسه ، حضر سودون الدوادارى الذى كان نائب طرابلس ، وقد حصل بينه وبين أهل طرابلس تشاجر ، فأرسل السلطان خلفه بأن يقيم بمصر .

وفيه نزل السلطان وسير نحو المجراة ، ولما عاد الى القلعة طلع من الصليبة فى موكب حافل .

ثم فى يوم الأحد ، ثامنه ، نزل وسير نحو بركة الحبش ووصل الى طرا ، ثم عاد من يومه وشق من على ساحل البحر .

ثم فى يوم الأربعاء ، حادى عشره ، نزل من القلعة وتوجه الى نحو الصحراء وزار سيدى عبد الله المنوفى رحمة الله عليه ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه ضيق السلطان على جماعة من المباشرين وأفرد عليهم نحوا من ستمائة ألف دينار . وسبب ذلك أن كل من كان عليه مال منكسر فى الديوان من قديم وحديث يرده ، فجلس بنفسه فى الدهيشة وعمل حسابهم بحضرته فاضطربت أحوال المباشرين قاطبة ، وضيق عليهم فى سرعة استخراج تلك الأموال على تفرقة الأضحية . وكان غالب هذه الأموال بقايا مصادرات قديمة على صلاح الدين بن الجيعان وعلم الدين المتحدث فى الخزانة وبانوب النصرانى وشمس الدين بن عوض وشرف الدين الصغير ناظر الدولة وشرف الدين النابلسى الأستادار ويوسف بن أبى أصبع الحلبى وفخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك . ومنهم ناظر الجيش عبد القادر القصروى وبركات بن موسى وغير ذلك جماعة آخرون ، فنزلوا من القلعة وهم سكارى بغير مدام .

وفى يوم السبت ، رابع عشره ، نزل السلطان وسير وتوجه الى نحو تربة الأشرف قايتباى ، فنزل عن فرسه ودخل وزار قبره وبكى هناك وتمرغ على قبره وقرأ له الفاتحة ، ثم رسم للبوابين وللصوفة بمائة دينار ، وركب من هناك وتوجه الى تربة العادل طومان باى ، فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له الفاتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم ركب من هناك ورجع الى تربة الأمير يشبك الدوادار فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له الفاتحة ، ثم ركب من هناك ونزل من على سوق

الدريس وأتى الى تربة الأشرف جان بلاط التى بباب النصر فنزل عن فرسه وزار قبره وقرأ له الفاتحة ورسم للصوفة بمائة دينار ، ثم ركب من هناك وعاد من الصحراء وطلع الى القلعة وكان فى نفر قليل من العسكر .

وفيه توفى جانم كاشف الوجه القبلى ، وكان من الأمراء العشراوات .

وفيه توفى القاضى صالح بن طه أحد نواب الشافعية ، وكان من قضاة الجاه .

وفيه توفى الخواجا عطية ، وكان فى سعة من المال ، وكان أغلس خلق الله على الاطلاق ، وهو من البخل على جانب عظيم ، كما قيل :

لبست ثياب لؤم عنك شقت
ومن يكسى ثياب العار عارى
فلو لبس الحمار ثياب خز
لقال الناس : يالك من حمار !

وفيه توفى الشيخ عبد القادر الدماصى ، وكان فاضلا ناظما ناثرا فكه المحاضرة ، بقية السلف ، عشير الناس . وكان له شعر جيد . ومن نظمه ما ألغزه فى غزال وبعث به الى الشهاب المنصورى :

مولاى ما اسم لوحش نافر آنس
فى مأربى منه أشيا جمعت فيه
حروفه أربع لكنها عجب
ان زال أول حرف زال باقيه

فأجابه الشهاب المنصورى عن ذلك :

مولاى ألغزت فيما ناب عن قمرى
جيدا وحاكى سوادا فى أماقيه
فالبعض لام حكت لامات سالفه
وبعضه قد غزا فى الله باقيه

* * *

وفى ذى الحجة قبض السلطان على المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، فلما قبض عليه قرر عليه ستين ألف دينار واستمر فى التوكيل به ، وكان المعلم على هذا من خيار الناس ، ناتجا بالسداد ، وله شهرة طائلة وبر ومعروف . وكان كثير الحشمة فى حق الناس .

وفيه فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع أضحية كثيرة لجماعة من المباشرين والفقهاء كانت على الذخيرة ، حتى قطع السكاكين التى كانت تفرق على الناس فى عيد النحر من الزردخاناه وكانت من العادات القديمة ، فأبطلها فى هذه السنة بواسطة شخص من الزردكاشية يقال له أحمد بن قراكز .

وفيه كان الأتابكى قرقماس مسافرا فى بعض جهاته ، وقد فر لأجل تفرقة الأضحية .

وفيه توفى الأمير قانصوه جوشن أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان لا بأس به .

وفيه كان موكب العيد حافلا وأوكب السلطان على العادة ، فلما انقضى يوم العيد نزل السلطان فى اليوم الثانى من العيد وتوجه الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية وأقام هناك الى بعد العصر . ووافق ذلك اليوم عيد النصارى وأول الخماسين فانشرح هناك ومد أسمطة حافلة . وحضر عنده جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، ورسم لبعض الأمراء العشراوات بأن يرقص فقام ورقص بين يدى السلطان فرسم له بمائة دينار . ولما صار العصر وركب من هناك أخذ فى جيبه كيسا فيه ذهب وصار يفرق منه بطول الطريق على الفقراء ومن يقف له من الناس ، فشرع يعطيهم من يده بغير واسطة بحسب ما يقسم لهم ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة وكان يوما بالسلطانى .

ولما مضى العيد وأيام التشريق عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وخلع على الشيخ بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة

صلاح الدين المكينى وقرره فى قضاء الشافعية بمصر عوضا عن كمال الدين الطويل بحكم صرفه عنها ، وقد جمع بدر الدين المكينى بين قضاء الشافعية ومشيخة الخشابية والشريفية ، وقد سعى فى ولاية القضاء بثلاثة آلاف دينار ، وياليته ما سعى فكان سعيه غير مشكور ، فكان كما يقال فى المعنى :

الحمد لله كم أسعى بعزمى فى
نيل القضا وقضاء الله بنكسه

وكان غالب الأمراء والعسكر مائلا الى قاضى القضاة كمال الدين وسيعود الى القضاء عن قريب .

وفيه توفيت الست آمنة والدة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وهى ابنة أمير المؤمنين أبى الربيع المستكفى بالله سليمان ، وكانت دينة خيرة صالحة ، وقد كف بصرها فى أواخر عمرها . وكانت لا بأس بها .

وفيه وصل مبشر الحاج فى ثلاثة عشر يوما ، وأخبر بالأمن والسلامة لجميع الحجاج .

وفيه توفى الرئيس بركات السكندرى رئيس الطب ، وكان عارفا بأمر الطب لطيف الذات عشير الناس ، وكان لا بأس به .

وتوفى القاضى شمس الدين محمد بن بدر الدين ابن عبد القادر بن عبد الرحمن بن عبد الوارث أحد نواب الحكم المالكى ، وكان عالما فاضلا شابا رئيسا حشما لا بأس به .

وقد خرجت هذه السنة على الناس على خير ، وكانت سنة مباركة رخية خصبة ، وكان نيلها نيلا مباركا عاليا ، وثبت الى نصف هاتور القبطى ، وزاد فى هاتور ثمانى أصابع حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، ولكن حصل منه للناس بعض ضرر وغرق البذار الذى كانوا بذروه فى أراضى الجيزة عند هبوط النيل ، ثم زاد بعد ذلك هذه الثمانى أصابع ، فرسم السلطان للقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى المقياس ويدعوا الى الله تعالى فى هبوطه ، فتوجهوا الى هناك وباتوا بالمقياس ، وقرأ السلطان تلك الليلة ختمة شريفة ومد أسمطة حافلة ، فانهبط فى تلك الليلة نحوا من نصف دراع . فعد ذلك من الوقائع الغريبة .

وفى هذه السنة أينعت الأشجار التى غرسها السلطان بالميدان ، وأخرجت ماشتله به من الأزهار ما بين ورد وياسمين وبان وزنبق وسوسان ، وغير ذلك من الأزهار العريبة . ولقد عاينت به وردا أبيض دكى الرائحة ، وهو غير أنواع الورد التى بمصر وقد نقل من الشام ، وكان يطرح فى أوان الصيف والنيل فى قوة الزيادة ، وهو نوع غريب لم يوجد بمصر . فكان السلطان يضع له دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس ويفرش فوقها مقعدا مخملا بنطع ويجلس عليه ، وتظله فروع الياسمين وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه ، ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبشى وبط صينى وحجل وغير ذلك من الطيور المختلفة ، وتارة يجلس على البحرة التى طولها أربعون ذراعا وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقى نقالة من المجراة تجرى ليلا ونهارا ، فيجلس على سرير هناك فى غالب أيام الجمعة ولا يدخل عليه من الأمراء أحد الا من يختاره . وقد وقع له من المحاسن أشياء غريبة لم تقع لغيره من السلاطين ، وقد صار هذا الميدان جنة على وجه الأرض ، كما يقال فى المعنى :

وشدت على العيدان ورق أطربت
بغنائها من غاب عنه المطرب

فالورق تشدو والنسيم مشبب
والماء يسقى والجداول تشرب
واذا تكسر ماؤه أبصرته
فى الحال بين رياضه يتشعب

ومما وقع لى أن السلطان كان قد أخرج اقطاعى فى حركة المماليك لما أخرج اليهم أقاطيع أولاد الناس كما تقدم ذكر ذلك ، فوقفت اليه بقصة فى الميدان ، فرد الى اقطاعى وحصل لى منه غاية الجبر ونصرنى على المماليك الذين كانوا أخذوا اقطاعى ، فعند ذلك امتدحته بهذه القصيدة ، وذكرت فيها أشياء كثيرة مما وقع له من المحاسن ، وقدمتها اليه على يد شخص من خواصه . وهى هذه القصيدة :

بالأشرف الغورى المفدا
أصبح ثغر الزمان باسم
يا قانصوه العلى قدرا
فقت على من مضى وقادم
فكل يوم تراه عيدا
به فأوقاتنا مواسم
تشرف الغور باسمه مذ
رفرف طير السرور حائم
اختاره الله من امام
لقمع أهل الفساد صارم
فالشكر لله مذ تولى
على جميع الأنام لازم
هذا الذى عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم
يصير الشاة فى حماه
تمشى مع الذئب والضراغم
قد جاءه السعد عبد رق
والنصر أضحى لديه خادم

له بقلب الملوك رعب
أغنى عن السمر والصوارم
وسيفه فى الوغى طويل
له نفوس العدى غنائم
جيوشه كالأسود أضحت
تقتحم الحرب بالهزائم
تاريخه فى الملوك أضحى
يحير العرب والأعاجم
فاكتبه بالتبر لا بحبر
واصغ لأخباره العظائم
ليس له فى الملوك ند
فى البأس والجود والمكارم
مظفر ظاهر عزيز
مؤيد عادل الأقالم
بنى بمصر لله بيتا
رخامه قائم ونائم
فجاء فى حسنه فريدا
من كل عيب نقال سالم
فليس يبنى له نظير
فى سائر المدن والأقالم
وقلعة السعد مذ حواها
جدد بها سائر المعالم
بعزمه الماء جاء يجرى
بمجرة تحتها دعائم
دارت دواليبها فهامت
لحسن أصواتها البهائم
فاقت بناء الملوك طرا
فالمدح فى وصفها يلائم
تسقى بميدانه رياض
ناحت بأغصانه الحمائم

أشجاره بالنسيم مالت
وزهرها فاح فى الكمائم

وأنشأ به بحرة تحاكى
كالنيل أمواجها ملاطم

وغردت حولها القمارى
سماعها هيج العزائم

فعش هنيئا بملك مصر
فى نصرة دائم الدوائم

ما رقص الريح غصن روض
ونقطت لؤلؤ الغمائم

ابن اياس محمد قد
أتى بدر المديح ناظم

عرائسا بالعقود تجلى
تأليفها خير النواظم

ختمتها بالصلاة منى
على نبى للرسل خاتم

محمد أشرف البرايا
فى الخلق والخلق والعزائم

صلى وسلم عليه ربى
ما دام هذا الوجود قائم

والآل والصحب ما تغنى
حاد بواد العقيق هائم

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة خمس عشرة وتسعمائة ، وقد نظم الشيخ بدر الدين الزيتونى فى معنى ما قلته هذه الأبيات ، وهو قوله من قصيدة مطولة :

يا حبذا الميدان من جنة
مساكن الولدان والحور

أغصانه هب عليها الهوى
من كل ممدود ومقصور

أطياره فى دوحها غردت
من كل مسموع وعصفور

وكل سن ضاحك مطرب
وكل حسون وزرزور

وبلبل هيج بلبالنا
ومن هزار حول شحرور

وبحرة مذ هب فيها الهوى
جعدها تنقيش تصوير

فى جمع تصحيح ترى ماءها
وبالهوى فى جمع تكسير

ومجرة الميدان انشاءه
عقودها دور على دور

وعمر الروضة صارت به
أماكنا عامرة الدور

وجدد المقياس حتى غدت
تزهو بمنظوم ومنثور

وفى طريق الحج كم منهل
عمره فى غاية الخير

وعين بازان جرى ماؤها
تجديدها آمنا من الغور

وأنشأ بمصر جامعا لم يزل
بيتا بذكر الله معمور

والقبة الزرقاء وصهريجها
والماء والكيزان والزير

كأن برد الثلج فى مائه
لكل عطشان ومحرور

وكم له قنطرة جددت
بأمره من غير مأمور

على الخليج الحاكمى وضعها
قد شاع فى طول وتقصير

كم ناصب أعـرب فى رفعها
لمـركب فى الكسر مجـرور
أكرم به من ملك أشرف
مؤيد بالعـــز منصـور
ينصره الله ويجعـــل لنا
أيامه أمنا بلا جــــور
ما أقبـل الصـبح بأنواره
وأدبر الليـــل بديجـور
انتهى ذلك ، ثم قال فى استشهاده منها :
وصـــل يا رب على المصطفى
منقــذنا من كل محـــذور
صـلاة عـوفى برى نشرها
أطيب من مســـك وكافور
والآل والأنصـار مع صحبه
أهل الثنا والفضـــل والخير
ما ماس من غصن بروض زها
وغردت فى دوحـــه الطير

* * *

سنة ست عشرة وتسعمائة (١٥١٠ — ١٥١١ م):

فيها ، فى المحرم ، نزل السلطان الى الميدان ، وطلع اليه القضاة الأربعة يهنئونه بالعـام الجديد ، وحضر قاضى القضـاة الشافعى بدر الدين المكينى وهـذا أول تهنئته بالشهر ، فلما انفض المجلس قام السلطان ودخل الى البحرة التى أنشأها بالميـدان وعزم على الأمراء وحضر الأتابكى قرقماس والأمراء المقدمون ، فلما تكامل المجلس أحضر السلطان فوطة فيها ورد من بستان الميدان ، فأخذ من ذلك الورد وردة وشمها ثم دفعها الى الأتابكى قرقماس فأخذها وقام وقبل الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم دفعها الى دولات باى أمير سلاح فأخذها وقام وقبل الأرض ، ثم أخذ وردة أخرى وشمها ثم دفعها الى سودون العجمى أمير مجلس ، فأخذها وقام وقبل الأرض . ثم فرق على جميع الأمراء المقدمين لكل واحد وردة فيأخذها ويقوم ويقبل الأرض ، فقبل له الأرض الأمراء المقدمون جميعهم فى ذلك اليوم لأجل الورد ، حتى عد ذلك من النوادر ، ثم مد لهم فى ذلك اليـوم أسمطة حافلة وأقاموا عنده الى بعد الظهر ، وأبطل المحاكمات فى ذلك اليوم .

وفيه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وعاد الى القلعة ، ثم نزل بعد ذلك وسير الى نحو طرا وعاد الى القـلعة ، وفى مدة سلطنته لم يشق من القاهرة قط .

وفى يوم السبت ، حادى عشره ، ثار جماعة من المماليـك الجلبان ورجموا النـــاس من الطباق ، فأسفرت هذه الواقعة على أن المماليك يرومون من السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار . وكان فى تلك الأيام اللحم معطل بسبب المعلم على الصـغير فانه كان فى الترسيم ... فلما جرت هذه الحركة أراد السلطان أن يوسط المعلم على الصغير فشفع فيه بعض الأمراء . ثم ان المماليك نزلوا من الطباق وهم مشاة وتوجهوا الى بيت الأتابكى قرقماس فأركبوه غصبا وقالوا له : « اطلع الى السلطان وقل له ينفق علينـــا » ، ثم توجهوا الى سودون العجمى أمير مجلس وأركبوه غصـبا ، ثم توجهوا الى الأمير طراباى رأس نوبة النوب وأركبوه غصبا ،ثم توجهوا الى الأمير طومان باى الدوادار وأركبوه غصبا ، فلما طلعوا بهم الى القلعة تكلموا مع السلطان فى أمر النفقة فامتنع من ذلك غاية الامتناع وكاد أن يخلع نفسه من السلطنة ، فلما ردوا الجواب على المماليك بأن السلطان امتنع من اعطاء النفقة فاتسعت الفتنة ونزل المماليـك من الطباق أفواجا أفواجا وهم بزموط وكباشـيات ومطارق فى أيديهـم ، فتوجهوا الى سوق جامع أحمد بن طولون فنهبوا

منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين الصليبية ، ثم توجهوا الى سوق تحت الربع فنهبوا منه عدة دكاكين ، وكذلك دكاكين البسطيين وغير ذلك من الأسواق حتى كادت مصر أن تخرب عن آخرها فى ذلك اليوم . وأغلقت الأمراء أبوابها خوفا من المماليك ، فاستمروا ذلك اليوم على هذا الحال والأمر مضطرب ، وقد نهب للناس أشياء كثيرة بنحو عشرين ألف دينار . والتف على المماليك الجم الغفير من الغلمان والعبيد ... وبات الناس تلك الليلة على وجل ولم يجدوا من يرد المماليك عن ذلك ، وكانت ليلة مهولة وكل مفعول فيها جائز ، وقد قلت فى ذلك :

يارب ان المماليك جاروا علينا بعسف
واستفتحوا العام فينا بوقع نهب وخطف

ثم أصبحوا يوم الأحد على ما هم فيه من النهب والخطف ، وتزايد الأمر جدا ومنعوا الأمراء من الركوب والمرور فى الطرقات ، وغلقت الأسواق ، ثم ان السلطان نادى للمماليك بالعرض فى الحوش ، فلم يطلع منهم أحد ، واستمروا على ذلك الى يوم الاثنين فلبسوا آلة السلاح وتوجهوا الى الأزبكية وهجموا على الأمير دولات باى أمير سلاح وأرادوا أن يسلطنوه ، ففر منهم وطلع الى عند السلطان . ثم ان المماليك بلغهم أن الأمراء يقصدون الوثوب عليهم ويقبضون منهم على جماعة فعند ذلك قلعوا آلة السلاح وطلعوا الى الطباق ، ثم ان الوالى نادى فى القاهرة بأن لا مملوك ولا عبد ولا غلام يمشى فى الأسواق من بعد المغرب ، وصار كل من رآه يمشى من بعد المغرب يوسطه . فوسط فى ذلك اليوم من العبيد والغلمان جماعة كثيرة ، فسكن الحال قليلا . ثم ان الأمير طومان باى الدوادار صار يركب فى عدة مماليك ويطوف الأسواق والحارات ويكبس على المماليك فى اسطبلاتهم فمن وجد عنده شيئا من النهب أخذه ورده الى أصحابه . وصار الناس يغمزون على كل من كان عنده نهب فيكبسون عليه ويأخذون ما عنده من النهب ، فردوا منه لأصحابه بعض شىء . ثم ان تجار جامع ابن طولون وتجار تحت الربع وقفوا الى السلطان بقصة وشكوا له ما أصابهم من المماليك ، فرسم السلطان الى بركات بن موسى بأن ينزل ويحرر عن أمر النهب ، فوجد ما نهب للناس خمسمائة وسبعون دكانا ، وراحت على الناس أموالها . وقد قدروا ما نهب للناس فى هذه الحركة أشياء بنحو من عشرين ألف دينار . فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم !

وفيه غيب شرف الدين الصغير ناظر الدولة بسبب نعطل اللحم فى تلك الأيام ، وهذا كان سببا لاقامة الفتنة المقدم ذكرها .

وفى يوم الأربعاء ، خامس عشره ، توفى القاضى صلاح الدين بن الجيعان وهو محمد بن يحيى بن شاكر ، وكان رئيسا حشما وله اشتغال بالعلم واجتمعت فيه الرياسة دون بنى الجيعان ، وولى من الوظائف استيفاء الجيش والتكلم على الخزائن الشريفة ونيابة كتابة السر ، ثم ولى كتابة السر فى دولة الأشرف جان بلاط ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وصودر فى دولة الغورى غير ما مرة ، ومات وهو فى عشر السبعين .

وفى يوم الجمعة ، سابع عشره ، توفى الأمير جان بردى أحد الأمراء المقدمين ، وكان لا بأس به .

وتوفى أسنباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس ، ثالث عشرينه ، دخل المحمل الى القاهرة ، وقد تأخر بعد دخول الركب الأول بيومين .

وفيه ظهر شرف الدين الصغير ، وكان مختفيا من حين ركب المماليك بسبب تعطل اللحم ، فلما قابل السلطان خلع عليه وأقره فى نظر الدولة كما كان .

وفى يوم الخميس ، ثالث عشرينه أيضا ، توفى الشيخ أبو السعود بن الشيخ الصالح المسلك سيدى مدين رحمة الله عليه ، وكان دينا خيرا رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه أشيع أن طومان باى قرا الحاجب الثانى قد قتل دواداره وخنقه بوتر ودفنه فى الاسطبل ، وقد فعل ذلك وهو سكران ، فلما بلغ السلطان ذلك تغافل عن هذه الواقعة .

وفيه رسم السلطان بتسليم يوسف بن أبى أصبع الى الوالى يعاقبه ، وكان له مدة طويلة وهو فى السجن بالعرقانة ، وقرر عليه نحوا من أربعين ألف دينار فتراقد عن وزن المال فسلمه الى الوالى ، وكان يوسف بن أبى أصبع من خواص السلطان .

وفى يوم الأحد سادس عشرينه أخرج السلطان خرجا من المماليك نحوا من خمسمائة مملوك وفرق عليهم زرديات وسيوف وتراكيش .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه خرج الأمير طومان باى الدوادار وسافر الى جهة الصعيد ، وقد بلغه أن قد وقعت هناك فتنة مهولة بين قبيلة بنى عدى وبين بنى كلب ، وكادت جهات الصعيد أن تخرب عن آخرها . فتوجه بسبب ذلك وكان أوان ضم المغل .

وفيه جلس السلطان على الدكة وأحضر المصحف العثمانى وحلف عليه المماليك الجلبان كل طبقة على انفرادها ، وحلف أغواتهم أيضا ، فحلفوا على العثمانى أنهم لا يثيرون فتنة ولا يركبون ولا يرمون فتنا فى بعضهم ، ثم فرق عليهم الرماح ورسم بأن يلعبوا الرمح فى الميدان ، ورسم لكل مملوك بثلاثة أشرفية ثمن البعلبكى ، وانفض المجلس على ذلك وخمدت تلك الفتنة .

وفى يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك سابع عشر بشنس ، وكان الوقت فى تلك الأيام رطبا والبرد موجودا .

ومن الوقائع أن الأمير قرقماس المقرى كان قد سرق له من داره عملة بنحو ألف دينار فاتهم بها الجيران أضعاف ما سرق له ، وقد تقدم القول على ذلك ، ثم ظهر بعد ذلك أن الذى سرق العملة مملوكه وهرب وسافر الى الحجاز من البحر المالح . فلما توجه الحجاج الى مكة قبض أمير الحاج على مملوك قرقماس المقرى ووضعه فى الحديد وأحضره صحبته الى القاهرة ، فسلمه الى أستاذه فضربه وقرره ، فاعترف أنه هو الذى سرق الذهب ، وقد تصرف فى غالبه وهو بمكة وفتك هناك وقد بقى معه البعض من المال . فلما بلغ الجيران ذلك طلعوا الى السلطان وشكوه بقصة فيما فعل بهم ، فطلبه ، فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام وسبه وألزمه بأن يرضى الجيران فيما تكلفوه من الغرامة بسبب ذلك ، فلما نزل أرضاهم فى جميع ما تكلفوا من الغرامة فعد ذلك من النوادر ، واستمر قرقماس المقرى ممقوتا عند السلطان ، وكان غير محمود السيرة .

ومن الحوادث أن شخصا يقال له تقى الدين بن الرومى أحد نواب الحنفية ، قيل عنه انه وقع فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بكلمات غير مشكورة ، فضبط عليه ذلك جماعة كثيرة ممن كان حاضرا فبلغ السلطان ذلك .

***

وفى صفر طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما اجتمعوا بين يدى السلطان قال لهم احصوا عن أمر ابن الرومى فيما قيل عنه

ثم راجعونى فيما يثبت عليه ، وكان ابن الرومى قد اختفى بسبب ذلك ، فانفض المجلس من قدام السلطان على احضار ابن الرومى ، واستمر فى طلب من السلطان حثيث وأمره فى ذلك الى الله .

وفيه خلع السلطان على الشهابى أحمد بن الجيعان وقرره فى استيفاء الجيش والتكلم فى الخزانة الشريفة عوضا عن عمه صلاح الدين بحكم وفاته ، وأشركوا معه أولاد عمه صلاح الدين فى الوظيفة ، فتضاعفت عظمة الشهابى أحمد وصار بيده هذه الوظائف مضافا لما بيده من نيابة كتابة السر ، وكان كاتب السر البدرى محمود بن أجا حصل له عارض فى جسده وانقطع فى داره عن الركوب نحوا من عشرة أشهر ، وصار التكلم فى هذه المدة للشهابى أحمد وصار هو كاتب السر لا محالة واجتمعت فيه الكلمة وكان أهلا لذلك .

وفى يوم الاثنين خامسه خلع السلطان على الجمالى يوسف البدرى وقرره فى الوزارة عوضا عن تغرى برمش بحكم انفصاله عنها ، واستمر شرف الدين الصغير على حاله فى نظر الدولة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه كرتباى الذى كان كاشف الشرقية وقرره فى ولاية القاهرة عوضا عن قانصوه أبى سنة بحكم انفصاله عنها ، وصار قانصوه أبو سنة من جملة الأمراء المقدمين وجلس معهم وبقى مقدم ألف ، ورتب له فى نظر الاقطاع شيئا من الذخيرة .

وفى ذلك اليوم قبض على شخص من غلمان الأمير أقبردى الدوادار ، وكان مطلوبا بما يقال عنه انه عنده سروج مغرق وكنابيش للأمير أقبردى ، فقبضوا عليه من المحلة وأحضروه فى الحديد ، فلما عرض على السلطان لم يقر بشىء فرسم بتوسيطه فوسطوه .

وفى يوم السبت تاسعه ابتدأ السلطان بضرب الكرة فى الميدان ، ففى ذلك اليوم تقنطر من على الفراس الأمير نوروز أخو يشبك الدوادار أحد المقدمين ، فأغمى عليه وتشوش لذلك ونزل الى داره وهو محمول .

وفى حادى عشره كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبابى وكانت ليلة حافلة ، ونصب فى الجزيرة التى تجاه بولاق نحو من خمسمائة خيمة ، وخرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق السلطان على جماعة مخصوصة من الخاصكية الأعيان ، ممن كان يرمى بالنشاب على الخيل فى الميدان ويلعب الرمح ، لكل واحد منهم عشرة آلاف درهم ، وأعطى لجماعة منهم ستة آلاف درهم ، ولم ينفق لبقية المماليك شيئا ، فبلغت هذه النفقة اليسيرة نحوا من أربعين ألف دينار ، وقد تأثرت بقية المماليك لذلك ولكن لم يلتفت السلطان اليهم .

وفيه تعير خاطر السلطان على مهتار الطشتخاناه محمد ومنعه من الطلوع الى القلعة وأقام بداره أياما وهو مختف ، فتكلم له مع السلطان الأمير طومان باى وباس رجله بسبب ذلك حتى رضى عليه ، ولكن قيل انه أورد للخزائن الشريفة خمسة آلاف دينار حتى رضى عليه وأعاده كما كان وخلع عليه ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على المهتار محمد أن شخصا شابا يقال له محمد بن سعيدة كان قد تحشر فى السلطان وصار يتقرب اليه بمرافعة الناس ، فرافع فى محمد المهتار وجماعة آخرين من خواص السلطان فوزع عليهم مالا له صورة بسبب ذلك .

وفيه عين السلطان معين الدين ابن شمس نائب كاتب السر بأن يتوجه قاصدا الى ملك الهند ، ثم بطل سفره الى بلاد الهند ، وكان غير مقبول الشكل يشبه وجه المصاصة العتيقة ، وقبض عليه السلطان

عقيب ذلك وسجنه بالعرقانة وقد وشى به عند السلطان بأنه يدعو عليه ويقصد زواله .

وفيه حضر قاصد الملك محمود شاه صاحب كنبايه ، وآخرين من ملوك الهند ، وعلى أيديهم مثالات للسلطان تتضمن سرعة تجهيز تجريدة الى جهات الهند بسبب تعبث الفرنج هناك ، وقد تزايد أمرهم وطمعوا فى أخذ البلاد ؛ من حين كسروا حسين الذى أرسله السلطان باش التجريدة التى أرسلها الى هناك .

وفيه فى سلخه خلع السلطان على الشيخ حسام الدين محمود بن قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة ، وقرره فى نظر البيمارستان المنصورى عوضا عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر السلطان عليه ، وقد تقدم للبدرى محمود هذا أنه ولى قضاء الحنفية بحلب فيما بعد وأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها .

***

وفى ربيع الأول — فى يوم مستهله — خلع السلطان على قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر ابن النقيب ، وقرره فى قضاء الشافعية عوضا عن بدر الدين المكينى بحكم صرفه عنها فكانت مدة ولاية بدر الدين المكينى فى وظيفة قضاء الشافعية شهرين وأربعة عشر يوما ، وقد سعى فيها بثلاثة آلاف دينار وأقام فيها هذه المدة اليسيرة وعزل عنها والناس غير راضية عنه ، كما يقال :

تولاها وليس له عدو وفارقها وليس له صديق

وكان فى هذه الولاية فى غاية العكس ومنعه السلطان ألا يخطب به فى مدة ولايته ، وقد سعى عليه ابن النقيب بمال حتى عزله وتولى ، وهذه رابع ولاية وقعت لابن النقيب فى قضاء الشافعية بمصر ، وقد نفد منه فى هذه الأربع ولايات نحو من سبعة وعشرين ألف دينار وهو غير مشكور ، وكان عزله عن قريب فى هذه الولاية .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الشهابى أحمد بن الجيعان وأعاده الى نيابة كتابة السر عوضا عن معين الدين بن شمس بحكم تغير خاطر السلطان عليه ، ومما قلته فيه من المديح :

وكم حاز الأكابر من ثناء
به حمدوا ولكن أنت أحمد

ففقت على بنى الجيعان قدرا
وسعدك فى الورى قد صار أسعد

وتعينت وكالة بيت المال الى شمس الدين بن عوض .

وفيه عين السلطان تجريدة الى الجون وكتب بها نحوا من مائتى مملوك وأنفق عليهم ، وعين الأمير محمد بيك قريبه باشا على ذلك العسكر .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن جماعة من عسكر الصوفى طرقوا أطراف ضياع البيرة ونهبوا أغنام جماعة من الأكراد ، فلما بلغ نائب البيرة ذلك ركب واتقع معهم ثم خمدت هذه الاشاعة .

وفى يوم الاثنين عاشره وصل الأمير علان الدوادار الثانى الذى كان السلطان أرسله قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل فى موكب حافل ، وقيل ان ابن عثمان بالغ فى اكرامه وأحسن اليه ، ثم ان السلطان فى عقيب ذلك أنعم على الأمير علان بن قراجا بتقدمة ألف مضافا لما بيده من الدوادارية الثانية .

وفيه قبض السلطان على عبد العظيم الصيرفى وسجنه بالعرقانة ، وقرر عليه مالا له صورة .

وفى حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى على العادة وكان مولدا حافلا ، وحضر ذلك قرقد

بيك بن عثمان وأجلسه السلطان معه على المرتبة وبالغ فى اكرامه ، وحضر القضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين .

وفى يوم الخميس ، ثالث عشره ، طلع ابن أبى الرداد بيشارة النيل ، وجاءت القاعدة سبع أذرع زيادة عن العام الماضى بعشر أصابع ، وكانت الزيادة فى أول يوم من المناداة خمس أصابع .

وفى هذا الشهر ارتفع سعر البصل حتى بلغ سعر كل قنطار اثنين وعشرين نصفا ولا يوجد ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ، سابع عشره ، خرج الأمير تمرباى الهندى أحد الأمراء العشراوات ، وقد عينه السلطان قاصدا الى اسماعيل شاه الصوفى متملك العراق ، فخرج مسافرا فى ذلك اليوم وكان له موكب حافل .

وفيه خلع السلطان على قانصوه بن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وعينه أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير نوروز تاجر المماليك وعينه أمير حاج بالركب الأول .

وفيه عرض السلطان معين الدين بن شمس الذى تغير خاطره عليه كما تقدم ، فضربه بالمقارع بين يديه نحوا من مائة شيب حتى أشرف على الموت ، وقد أخذ بخطيئة كاتب السر بدر الدين بن مزهر فانه كان متوليا عقابه فعذبه بأنواع العذاب ولم يرث له فيما جرى عليه ، فما عن قريب حتى أذاقه الله تعالى طعم العذاب ، فكان كما يقال :

جرع كأسا كان يسقى بها
والمرء مجزى بأعماله
ظن بأن الدهر يصفى له
فخيبت من ذاك آماله

وفى رابع عشره خرج الأمير محمد بيك الذى تعين الى نحو الجون بسبب قطع الأخشاب لأجل عمارة المراكب المعينة الى تجريدة الهند ، فخرج فى موكب حافل ، وكان ذلك آخر سعده .

وفيه خرج الطواشى بشير رأس نوبة السقاة وقد عينه السلطان بأن يتوجه الى بلاد الهند ، وقد كاتب السلطان جماعة من ملوك الهند بأن يكونوا مع السلطان عونة على قتال الفرنج الذين صاروا يتعبثون بسواحل بلاد الهند وقد كثر منهم الفساد هناك ، وبلغت عدة المراكب التى يعبثون بها فى السواحل نحوا من خمسين مركبا ، والأمر الى الله فى ذلك .

وفيه تغير خاطر السلطان على شرف الدين النابلسى الأستادار بسبب انشحات الجامكية ، فبطحه بين يديه وضربه نحوا من مائة عصا .

وفيه تغير خاطر السلطان على محمد بن سعيدة المقدم ذكره الذى كان عوانيا عند السلطان وينقل له أخبار الناس ، وكان حظى عنده بحيث أنه كان يجلس معه على المرتبة ويلعب معه الشطرنج ، واشتهر بين الناس بالمرافعة ، وهو الذى سعى لقاضى القضاة محيى الدين ابن النقيب فى عوده الى القضاء ، ثم وقع بينه وبين محمد بن سعيدة فطلع ابن النقيب وشكاه الى اسلطان بأنه سبه وشتمه ، فحنق السلطان من محمد بن سعيدة وكان قد طاش فى تلك الأيام الى الغاية ، وعادى الناس بسبب مرافعته لهم ، وكثر الكلام فى حق السلطان بسببه — فانه كان جميل الصورة — فلما تغير خاطر السلطان عليه طلبه وبطحه بين يديه وضربه ضربا مبرحا ورسم بنفيه الى الواح فنفى ، فكان كما يقال فى المعنى :

اياك أن تفرط فى حق من
يعرف بالجود فقد يحنق
ولا تقل ذا حلمه واسع
فالماء ان أسخنته يحرق

وفيه تسحب من البرج الذى بالقلعة أربعة أنفار منهم شيخ العرب ابن مهنا وآخرون من العربان ، فلما تسحبوا قبض شيخ العرب ابن بغداد على ابن مهنا الذى تسحب من البرج ، فقطع رأسه ورأس آخرين ممن تسحب معه وأرسل بهم الى السلطان .

***

وفى ربيع الآخر كان ختم ضرب الكرة ، وعزم السلطان على الأمراء ومد لهم أسمطة حافلة وجلس فى المقعد الذى أنشأه بالميدان عن قريب .

وفى يوم الخميس رابعه طلع قرقد بيك بن عثمان الى القلعة واستأذن السلطان فى عوده الى بلاده فأذن له فى ذلك ، وخلع عليه خلعة سنية وهى منسوجة بالذهب شغل القاعة ، ونزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأتابكى قرقماس وبقية الأمراء المقدمين وجماعة من الرءوس النوب ، فاستمروا معه الى بولاق فقدموا له الحراقة التى يكسر فيها السلطان السد ، وجهز معه عدة مراكب فيها زوادة برسم الاقامات ، وأرسل معه السلطان أزدمر المهمندار ونانق الخازن وغير ذلك من غلمان السلطان يستمرون فى خدمته حتى يصل الى رشيد . وقدبالغ السلطان فى اكرام قرقد بن عثمان هذا ووقع له معه أشياء غريبة لم تقع لغيره من الملوك السالفة فيما تقدم ، ولا وقع قبل ذلك للقان أحمد ابن أويس صاحب بغداد لما حضر الى مصر فى دولة الظاهر برقوق لما حضر بسبب تمرلنك فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، فما فعل الظاهر برقوق معه كما فعل الأشرف قانصوه الغورى مع قرقد بيك ابن عثمان ، ولا بالغ فى اكرامه مثله ، فانه رتب له فى كل شهر ألفى دينار بسبب نفقته ، وكان كلما طلع اليه يلبسه سلارى بسمور من ملابسه قيمته مائتا دينار ، ويركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وذلك غير ما يرسل اليه من الانعامات وغير ذلك ، وكان يقوم له كلما طلع اليه ويجلسه فوق أمير كبير معه على المرتبة ، وقد بالغ فى اكرامه جدا ، وكذلك الأمراء المقدمون أرسلوا اليه تقادم حافلة له ولجماعته ، فما خرج من مصر الا شاكرا ناشرا ، كما يقال فى المعنى :

طوقتنى نعما فها أنا ساجع
شكرا ولا عجب لسجع مطوق

وفيه خرج الأتابكى قرقماس الى السرحة نحو الشرقية والغربية .

وفيه حضر أمير عربان الوجه القبلى عمر من أولاد ابن عمر أمير هوارة ، فأقام فى الترسيم ببيت الأمير الدوادار الكبير ، وقد قرر عليه السلطان مالا له صورة .

وفيه غيب المعلم خضر أحد معاملى اللحم ، وقد قرر عليه السلطان مالا فما أقام به وفر خوفا من السلطان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة جان بردى الغزالى نائب صفد ، وقد حضر بطلب من السلطان ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان وأقام بمصر أياما .

وفيه توفى الشرفى يحيى الرشيدى خطيب جامع الأزبكية ، وكان من أهل الفضل ماهرا فى الخطب .

وفيه حضر الى السلطان فيل من بلاد الزنج ، وكان صغيرا قدر الجاموسة ، عمره نحو من سنة ، فلما طلع الى السلطان رجت له القاهرة ، وكانت الأفيال قد انقطعت من مصر نحوا من أربعين سنة حتى نسى بين الناس هيئته فصاروا يعجبون منه ، ثم بعد مدة حضر فيل آخر وقد أشيع بين الناس وصوله عن قريب ، ومما وقع لابن المعتز فى تشبيه الفيل وأجاد بقوله :

كأنما الفيل الذى يبـدو تعجبنا به

ليل قد افترس النهار فبان فى أنيابه

وفيه وقعت نادرة غريبـة ، وهى أن ثلاثة من المماليك قد خطفوا نسوة من طريق المقس كانوا مع مودنات كعادة النساء فى الأعراس ، فلما قبضوا عليهن خلصت منهن واحدة وتوجهوا بالبقية الى اسطبلاتهم ، فلما بلغ الوالى ذلك ركب وهجم على أولئك المماليك وقبض عليهم أجمعين ، فلما عرضوا على السـلطان ضرب المـماليك ضربا مبرحا حتى كادوا يهلكون ورسم بسجنهم فى المقشرة ، وكان عرضهم يوم الجامكية فرسم السـلطان لـكاتب المماليك أن يدفع جامكية المماليك الى تلك النسوة فى نظير ما شوش عليهن المـماليك ، فدفعوا لكل امرأة ألفى درهم ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى يوم الثلاثاء سلخه وقعت طبقة الحوش ، فقتل تحت الردم خمسة من المماليك وتعطب آخرون منهم ، وكانت حادثة مهولة .

* * *

وفى جمادى الأولى فى ثانيه قرأ السلطان ختمة فى المقياس ، ومد هناك أسـمطة حافلة ، وحضر القضاة وأعيـان الناس ، وسبب ذلك أن البحـر سلسل فى الزيادة وقد مضى من مسرى ستة عشر يوما ولم يف ، فلما توجه القضـاة الى هناك زاد النيل تلك الليلة ثمانى أصابع ، ثم فى الليلة الثانية زاد خمس عشرة أصبعا ، واستمرت الزيادة عمالة حتى أوفى فى العشرين من مسرى ، وفتح السد فى الحادى والعشرين من مسرى الموافق لثامن جمادى الأولى ، وقد تأخر الوفاء عن العام الماضى سبعة أيام ، فلما أوفى توجـه الأتابكى قرقماس وفتح السد على العادة ، وكان يوما مشهودا ، وكان هذا آخر فتح الأتابكى قرقماس للسـد ، وقد مات فى أواخر هذه السنة كما يأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأحد ثانى عشره توفى قاضى القضاة بدر الدين محمد ابن قاضى القضاة صلاح الدين أحمد بن محمد بن بركوت المكينى ، وكان عالما فاضلا رئيسـا حشما تولى مشـيخة الخشـابية والشريفية ، ثم سعى فى قضاية القضاة بثلاثة آلاف دينار فأقام بها شهرين وأربعـة عشر يوما وسعى عليه محيى الدين بن النقيب فعزل ، فلمـا عزل حصل له غاية القهر فاعتل ومات ، فكان بين عزله وموته شهران واثنا عشر يوما فمات قهرا لا محالة ، وكان له من العمر نحـو من ستين سنة ، فجاءه القضاء الأكبر وفاته القضاء الأصغر ، كما قيل :

حضيت عزمى شوقا اليكم

فـلم أطـق مكثة بأرض

وجئت لـم أحـظ بالتلاقى

فغـايتى أن ألـوم حضى

وفى يوم الجمعة ، سابع عشره ، طلب السلطان قاضى القضـاة كمال الدين الطويل وخلع عليـه وأعاده الى قضاء الشافعية كما كان ، وعزل عنها محيى الدين بن النقيب فـكانت مدته فى هـذه الولاية شهرين وستة عشر يوما ، ونفد منه مال له صورة على هذه المدة اليسيرة ، فكان كما يقال :

لم أستتم عنـاقه لقدومه

حتى ابتدأت عناقه لوداعه

ثم وكل به السلطان وبعثه الى بيت ناظر الخاص وقد بقى عليه ألف دينار من بقية ما سعى به فلم يتركها له السلطان ، فلم يرث له أحد من الناس فيما جرى عليه ، ولم ينطل على أحد منهم ، وقد تعصبت الأمراء قاطبة لقاضى القضاة كمال الدين حتى أن بعض الأمراء لم يصل بالقلعة فى مدة ولاية ابن النقيب ولم ينطل على أحد منهم . فلما كان يوم الجمعة المذكور طلب السلطان قاضى القضاة كمال الدين وهو بالميدان فخلع عليه هنـاك ،

وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وزينت له الدكاكين بالشموع والأمتعة الفاخرة ولاقته المغانى والطبل والزمر وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، واستمر فى هذا الموكب الحافل حتى وصل الى الخانقاه البيبرسية . فلما كان وقت صلاة الجمعة من ذلك اليوم طلع وخطب بالسلطان خطبة بليغة فى معنى عوده الى القضاء ، وقرأ فى المحراب « هذه بضاعتنا ردت الينا » . فلما انقضى أمر الصلاة خلع عليه ثانيا وأشيع أنه قرر فى مشيخة الخشابية والشريفية عوضا عن بدر الدين المكينى ، وقد صار بيده مشيخة الخانقاه البيبرسية ومشيخة الخشابية والشريفية مع قضاية القضاة وهذا لم يتفق لغيره من القضاة ، بل وقع لابن حجر والقاياتى أنهما جمعا بين قضاية القضاة وبين مشيخة الخانقاه البيبرسية وهذا عزيز الوقوع جدا ، وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين سعى فى قضاية القضاة ومشيخة الخشابية والشريفية بخمسة آلاف دينار ، وكانت مشيخة الخانقاه البيبرسية بيده من قبل ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشره رسم السلطان للزينى بركات بن موسى بأن يتسلم جماعة كانوا فى الترسيم بسبب ما قرر عليهم من المال فتراقدوا عن ايراد ذلك ، فرسم لابن موسى بأن يتسلمهم ويعاقبهم على استخراج الأموال ، فتسلم بهاء الدين مباشر قانصوه خمسمائة وكان له نحو من ست سنين وهو فى الترسيم ، وتسلم معين الدين ابن شمس الذى كان وكيل السلطان ، وتسلم علم الدين الذى كان يتحدث فى الحزانة ، ومحمد ابن فخر الدين كاتب المماليك وقاضيا حنفيا من قضاة الشام ، فلما تسلمهم ابن موسى أقاموا عنده أياما ولم يردوا شيئا من المال فشاور عليهم السلطان فرسم للوالى بأن يتسلم بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين وقاضى الشام وشفع فى محمد بن فخر الدين كاتب المماليك ، فلما تسلمهم الوالى عاقب بهاء الدين وابن شمس وعلم الدين أشد العقوبة وبعث بهم الى المقشرة ، وكان من أمرهم ما سنذكره فى موضعه

وفى هذا الشهر كثرت مصادرات السلطان للمباشرين ، حتى انه صادر عرب اليسار الذين يسكنون تحت القلعة وقرر عليهم مالا له صورة ، وقال لهم : « انتو عملتو كيمان تراب تحت القلعة من عفشكم ما يشتال ولا بعشرة آلاف دينار » ، وجعل ذلك حجة عليهم .

وفيه توفى تغرى بردى السيفى يونس الدوادار ، وكان أمير آخور ثالث وأحد الأمراء العشراوات ، وكان لا بأس به .

وفيه جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الفرنج قد ملكوا مدينة طرابلس الغرب ، وهذه المدينة من أجل مداين الغرب وهى مدينة عاصية ولولا أن الفرنج تحايلوا على أخذها لما قدروا على ذلك ، وقد أحاطوا بها برا وبحرا فوقع بين الفريقين واقعة عظيمة وقتل من المسلمين نحو من أربعين ألف انسان ، وكانت هذه الحادثة من معظم الحوادث المهولة ، وقد جاءها الفرنج من البحر فى مائة مركب ، ومن المراكب طلعوا الى البر ووقع بينهما القتال حتى ملكوها ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية وكذلك الناس قاطبة

وفيه جاءت الأخبار من مكة بأن الشريف بركات أمير مكة قبض على ثلاثة أنفار من الفرنج دخلوا الى مكة وهم فى زى الأروام ، فلما قبض عليهم وجدهم بغير ختان فتحقق أنهم فرنج وأنهم دواسيس من عند بعض ملوك الفرنج ، فقبض عليهم ووضعهم فى الحديد ، وبعث بهم الى السلطان .

وفيه جاءت الأخبار من عند نائب البيرة بأنه

قبض على جماعة من عند اسمعيل الصوفى وعلى أيديهم كتب من عنـد الصوفى الى بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونة على سلطان مصر ، وأنهم يجوا إلى مصر من البحر ويجى هو من البر ، فقبض نائب البيرة عليهم وبعث بهم الى السلطان .

وفيه جاءت الأخبار بأن صاحب تلمسان من بلاد الغرب قد انتصر على الفرنج الذين كانوا قد أخذوا مدينة طرابلس الغـرب وطردهم عنهـا ، وكانت النصرة للمسلمين عليهم ، فسر السـلطان والناس قاطبة لهذا الخبر .

* * *

وفى جمـادى الآخرة حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان مسافرا الى جهة الصعيد وصحبته خاير بيك كاشف الوجه الغربى أحد المقدمين ، وكان طومان باى الدوادار له نحو من خمسـة أشهر وهو مسافر فى الصعيد ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان وعلى الأمير خاير بيك ونزلا فى موكب حافل .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة خليل بيك بن رمضان أمير التركمان ، وكان رئيسا حشما لا بأس به .

وفى يوم الأربعـاء سادسه انتهى العمـل من مكاحل سبكها السلطان ، فرسم بنقلها الى نحو تربة العادل التى بالريدانية ، فسحبوها على العجل وكانوا نحوا من خمس عشرة مكحلة فقـاسوا فى نقلها ما لا خير فيه ، وقتل فى ذلك اليوم شخص من العتالين يقـال له المقدم خطاب وتعطب منهم جماعة آخرون من النجارين ، وكان يوما مهولا .

وفى يوم الأحد عاشره جاءت الأخبار من عند نائب طرابلس بأن الفرنج خرجوا على الأمير محمد بيك قريب السلطان الذى كان قد توجه إلى الجون بسبب احضار الأخشاب ، فخرج عليه طائفة من الفرنج بالقـرب من ساحل قلعة اياس ، فتحارب معهم الأمير محمد بنفسه وقد فر عنه من كان معه من العسكر ، فقتـل ، وقتل من كان معـه من الجند ، وأخذوا ما كان معه من المراكب المشحونة بالسلاح وآلة الحرب وكانت نحوا من ثمانية عشر مركبا ، فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية وامتنع عن الأكل يومين ، وقد تزايد شر الفرنج فى هذه السنة وكثر تعبثهم بالناس فى البحر الرومى والبحر الهندى والأمر الى الله تعالى ، وقد ارتج الأمر على السلطان فى هذا الشهر من جهات عديدة واضطربت أحواله جدا ، فكان كما يقال فى المعنى :

لا تجزعن فبعد العسر تيسير
وكل شىء لـه وقت وتدبير
وللمهيمن فى أحـوالنا نظر
وفـوق تـدبيرنا لله تـدبير

وفى يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان الى نحو تربة العادل التى بالريدانية وجربوا قدامه تلك المكاحل التى سبكها كما تقدم ، فلما أطلقوا فيهم البارود تفرقعوا أجمعين وبقى نحاسهم طاير مع الهوا ولم تصح منهم واحدة ، وكانوا نحوا من خمس عشرة مكحلة ، فتزايد نكد السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية ورجع الى القلعـة سريعا ، وكان عول على أن يمد هنـــاك أسمطة للأمراء وينشرح فى ذلك اليوم فلم يتم ذلك .

وفيه أرسل السـلطان بالقبض على الرهبـان الذين بالقيامة التى بالقدس ، وكذلك قبض على سائر الفرنج الذين بالاسكندرية ودميـاط وغير ذلك من السواحل ، وهذا بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد وأخذوا مراكب السلطان .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على جان بردى الغزالى ، وأقره فى نيابة صفد على عادته وأضاف اليه نيابة الكرك أيضا ، فخرج اليها من يومه وتوجه نحوها ، وخلع على « قانصوه روح

او » أحد الأمراء المقدمين ورسم له بأن يتوجه الى قطيا ويقيم بها دائما خوفا من الفرنج أن يهجموا على من بالطينة ، وجعل « قانصوه روح لو » باشا على العسكر الذى بالقلعة التى أنشأها السلطان بالطينة ، وأنعم عليه بخراج قطيا ما دام هناك وعين معه جماعة من المماليك السلطانية .

ومن العجائب أن « قانصوه روح لو » الذى ولى نيابة قطية كان قبـل ذلك نائب غزة ، فلما تسلطن العادل قرره فى نيابة حلب وأرســل اليها متسلمه فلم يتم له ذلك ، ثم بقى مقدم ألف ، ثم آل أمره الى أن بقى نائب قطية وهذه سفلى درجة الى الغاية ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفيه خلع السلطان على عمر من أولاد ابن عمر أمير عربان هوارة وأقره على عادته فى امرة هوارة . وخلع على شخص من أولاد ابن رمضان وأقره أميرا للتركمان عوضا عن خليل بيك المقدم ذكر وفاته ، وخلع على الشيخ أبى بكر الجيوسى وقرره فى مشيخة جبل نابلس .

وفيه قوى عزم السلطان على أن يتوجه الى ثغر الاسكندرية ليتفقد الأبراج التى هناك خوفا من طروق الافـرنج لثغر الاسكندرية ، فنـزل الى الميدان وعرض مماليكه وفرق عليهم عدة خيول وبغال وسلاح من سيوف وزرديات وغير ذلك ، وأخذ فى أسباب عمل يرق ثقيل وأشيع سفره بين الناس حقيقا .

وفيه جاءت الأخبار بأن وقع باسطنبول زلزلة مهولة حتى رمت المآذن وخربت عدة أماكن وهلك بسببها من الناس ما لا يحصى ، وهذه كرسى مملكة ابن عثمان ، وكانت حادثة عظيمة .

وفيه ثارت رياح عاصفة وأمطرت السماء مطرا غزيرا وقام الرعد والبرق ، وكان ذلك فى أواخر توت والنيل فى قوة الزيادة ، حتى عـد ذلك من النوادر .

وفيه قام الأتابكى قرقماس على السلطان ومنعه من السفر الى ثغر الاسكندرية وقبل له الأرض عدة مرار ، وقال له ان الطرقات وحل من ماء النيل وسلوك البر صعب فى هذه الأيام ، وكان يقصد السفر من البر فبطل ذلك .

وفيه نُت النيل المبارك على احـدى وعشرين آصبعا من ثمانى عشرة ذراعا وانهبط فى أواخر توت ولم يثبت ، وكان نيلا شحيحا فشرق غالب البلاد ولولا لطف الله تعالى لوقع غلاء عظيم ، وكان عند جماعة الأقباط عادة أن فى ليلة عيد ميكائيل صبحة نزول النقطة يزنون الطينة وعـددوها على ستة عشرة قيراطا فمهما زادت عن القـراريط يكون بقدرها أذرع فى زيادة النيل ، فوزنوها فى هذه السنة وجاءت قريب عشرين قيراطا ، فتفاءل الناس بأن النيل يبلغ فى هـذه السنة عشرين ذراعا فلم يكن ذلك ، وهذه القاعدة قط ما أخرمت عنـد القبط سوى هذه السنة ، فعد ذلك من النوادر . وكذلك البئر التى فى منيل أبى شـعرة بنواحى البهنسـا ، قيل ان فى ليلة الخامس والعشرين من بشنس يطف ماء تلك البئر فى الليل ، فمهما تغطى من الدرج التى فى تلك البئر يكون فألا للنيل ، فطف ماؤها وغطى نحوا من عشرين درجة من درج البئر ، فتفاءل الناس بأن النيل يبلغ فى هذه السنة نحـوا من عشرين ذراعا فلم يكن ذلك وأخرمت هذه القاعدة أيضا . وقيل ان امرأة صالحة رأت فى المنام أن ملكين نزلا من السماء وتوجهـا الى البحر فرفسه أحدهما برجله فانهبط سريعا ، ثم قال أحدهما الى الآخر : « ان الله تعالى كان أمر النيل أن يزيد الى عشرين ذراعا فلما تزايد الظلم بمصر أذن له بالهبوط وهو فى ثمانى عشرة ذراعا »

فلما انتبهت من المنام انهبط النيل فى تلك الليلة دفعة واحدة .

وفيه توفى جانم الابراهيمى أحد الأمراء الطبلخانات وكان مسرفا على نفسه ، مات قتيلا . وقد وقع من مكان عال وهو سكران فمات لوقته .

وفيه رسم السلطان بشنق شخص من العربان المفسدين يقال له عمر بن موسى النفعى من عربان ثعلبة ، وكان من شجعان العرب .

وفيه نزل السلطان الى عند قبة الهوى التى تحت القلعة وجربوا قدامه مكاحل ، وأقام هناك الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة .

* * *

وفى رجب خرج الأتابكى قرقماس وتوجه الى ثغر الاسكندرية وصحبته الأمير علان الدوادار الثانى ، وكان سبب ذلك أن السلطان لما قصد أن يسافر الى الاسكندرية ليكشف على الأبراج التى هناك ويصلح ما فسد منها فقال له الأتابكى قرقماس أنا أسافر وأكشف عن ذلك عوضا عن السلطان ، فسافر بسبب ذلك .

وفيه توفى بهاء الدين مباشر قانصوه خمسمائة ، مات وهو بالمقشرة وقاسى شدائد ومحنا ، وأقام فى الترسيم نحوا من ست سنين ، وآخر الأمر سلمه السلطان للوالى فعاقبه الى أن مات .

وفيه توفى الصارمى ابراهيم بن الأمير برد بيك صهر الملك الأشرف اينال ، وكان لا بأس به .

وفيه طلع الى السلطان شخص من أبناء الناس يقال له يونس بن سودون الفقيه ، وكان ساكنا بالقرب من زقاق حلب على بركة الفيل ، فأنشأ عنده جنينة وزرع فيها شجرة جوز شامى فنتجت وطلع فيها الجوز بعد ثلاثين سنة حتى طرحت ، فجمع من ذلك الجوز ستين جوزة وطلع بها الى السلطان فابتهج بها ولم يصدق بأن هذا الجوز يطرح بمصر ، فكشف عن حقيقة ذلك حتى ظهر له مصداق ذلك ، فأنعم على يونس المذكور بعشرة دنانير وبالغ فى اكرامه .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة رهبان القيامة التى بالقدس ، كان السلطان أرسل خلفهم بسبب الفرنج الذين قتلوا الأمير محمد بيك قريب السلطان ونهبوا ما فى المراكب التى جهزها السلطان صحبته ، فلما وقفوا بين يدى السلطان وبخهم بالكلام على لسان تغرى بردى الترجمان ، وقال لهم : « كاتبوا ملوك الفرنج بأن يردوا ما أخذه الفرنج من المراكب والسلاح وان لم يردوا ذلك هدمت القيامة وأشنق الرهبان » ، فتسلمهم ناظر الخاص على ما يحرر من أمرهم ، وكانوا نحوا من عشرين راهبا . وفى عقيب ذلك قبض نائب الاسكندرية على جماعة من تجار الفرنج الذين كانوا بثغر الاسكندرية وبعث بهم الى السلطان ، وكانوا نحوا من خمسين انسانا .

وفيه توفى القاضى تقى الدين محمد بن بدر الدين محمد الزجاجى أحد نواب الحنفية ، وكان فاضلا رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأسواق وحصل للناس وقوف حال بسبب ذلك وتعطلت الأسباب عن البيع والشراء ، واستمرت تمطر ثلاثة أيام متوالية حتى انخسف غالب القبور التى بالصحراء ، وكان ذلك فى أوائل هاتور .

وفيه توفيت زوجة الأتابكى قانم التاجر ، وكانت جركسية ، وكانت فى سعة من المال ، فاحتاط السلطان على موجودها قاطبة .

وفيه خلع السلطان على مهتاره محمد مهتار الطشتخاناه وأعاده على ما كان عليه ، وكان تغير خاطره عليه وصادره كما تقدم ذكر ذلك ، فشفع

فيــه الأمــير طومان باى الدوادار وباس رجل السلطان بسبب ذلك حتى رضى عليه .

وفيه عين السلطان الأمير آقباى الطويل أمير آخور ثانى بأن يتوجه الى القدس ويحتاط على مال الفرنج الذى فى القيامة ، فخرج وسافر من يومه .

وفيه حضر يونس العادلى وكان السلطان أرسله الى بلاد ابن عثمان ليشترى له أخشابا وحديدا وبارودا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذى كان مع يونس العادلى وقال : « أنا أجهــز من عندى زردخاناه للسلطان » ، فحضرت فيما بعد .

وفيه خلع السلطان على أقبارى كاشف الشرقية وأعاده الى كشف الشرقية عوضا عن كرتباى الذى كان بها ، وخلع على يخشــباى قرا أخى الوالى وقرره فى شادية الشون عوضا عن تانى بيك الأبح بحكم صرفه عنها ، وأشرك معه فى الشادية شخصا من الأمراء العشراوات يقال له خشقدم .

وفيــه حضر الأتابكى قرقماس والأمير علان الدوادار الثــانى وكانا قــد توجهــا الى ثغــر الاســكندرية ، بسبب الكشف على الأبراج التى هناك ، فخلع عليهما السلطان ونزلا من القلعة فى موكب حافل .

* * *

وفى شــعبان قلع الســلطان البيــاض ولبس الصوف ، ووافق ذلك حادى عشر هاتور القبطى .

وفى ليلة الجمعة ثانى عشره كان دخول الأمير أنصباى حاجب الحجاب على إبنة الأشرف قانصوه خمســمائة ، فكانت له زفة حافلة مشى فيها الأتابكى قرقماس وبقيــة الأمراء المقدمين وهم بالشــاش والقماش وبأيديهم الشموع الموقدة ، وشق من الصليبة فى هذا الموكب الحافل حتى دخل الى قاعة العرس ببيت يشبك الدوادار الذى بحدرة البقر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره نزل الســلطان وتوجه الى نحو المطرية عند تربة العادل ، وكان المعلم حسن بن الصياد المهندس خط له بالجبس فى الأرض صــفة مدينة ثغــر الاسكندرية وعدد أبراجها وأبوابها وهيئة سورها والمنار التى كان بها وقدر عرضها وطولها ، فنزل السلطان بسبب ذلك حتى تأملها وتفرج عليها ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى هذا الشهر كثرت الأمراض بالناس وحدث لهم السعال وذات صدر حتى صاروا يتساقطون على بعضهم ، ولكن كان الغالب فيه السلامة .

وفيه توفى القاضى نور الدين على الدمياطى أحــد نواب الحنفية ، وكان لا بأس به ، وقاسى شدائد ومحنا ، وصودر وأخذ منه مال له صورة .

* * *

وفى رمضــان فى يوم مســتهله عرض الوزير الجمالى يوسف البــدرى اللحم والخبز والسكر والدقيق والغنم ، فطلع بذلك وهو مزفوف على رءوس الحمالين ، وكان الســلطان فى الميدان فخلع عليه وعلى الزينى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة .

وفى يوم الأربعاء عاشره توفى القاضى ابراهيم بن البــابا المعروف بالشرايبشى ناظــر الذخــيرة والمتحدث على أوقاف الزمامية ، وكان رئيســا حشما لين الجــانب ، ومات وهو فى عشر الثمانين وزيادة ، وكان لا بأس به ، فلمــا توفى خــلع السلطان على ولده الشمسى شمس الدين محمد وقرره فى تلك الجهات كما كان والده .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره توفى القاضى كمال الدين محمد بن القاضى خير الدين الشنشى أحد نواب الحنفية ، وكان رئيســا حشما لا بأس به .

وفى ليـلة الثلاثاء ثالث عشرينـه كانت وفاة الأتابكى قرقماس بن ولى الدين أتابك العسـاكر بالديار المصرية ، فرجت لموته القـاهرة ، وكانت جنازته مشهودة ومشى فيها القضاة الأربعة وسائر الأمراء من كبير وصغير ، وكذلك أعيان المباشرين ومشـاهير الناس بحيث لم يتأخر منهم أحـد ، وكانت جنازته حافلة وأخرجوا قدامه كفارة ما بين خبز وتمر وغنم ، فلما وصلوا به الى مدرسـة السـلطان حسن نهب العوام تلك الكفـارة عن آخـرها ، ثم نثروا على نعشه الفضـة فى عدة أماكن ، وكثر عليه الحزن والبكاء من الناس فانه كان لين الجانب وعنده تواضع ، فلما وصل الى سـبيل المؤمنين خرج السـلطان من الميدان وهو راكب وأتى الى سبيل المؤمنين فنـزل عن فرسه ودخل المصلاة ، فلما وضعوا نعشه بين يديه قبله وهو فى النعش وبكى عليه بكاء كثيرا ، فلمـا صـلوا عليه حمل نعشه ومشى به خطوات حتى أخذه منـه الأمراء وتوجهوا به وهم قدامه مشاة الى تربته التى أنشأها بالصـحراء ، بجوار تربة الأشرف اينال ، فدفن بها داخل القبـة رحمة الله عليه ، وقد رثيته وهو قولى :

يا عين جـودى بفيض دمع
وأكثرى فى البكا انتحابيك
على قرقماس قد رزينـا
واستوحشت مصر للأتابيك

وكان الأتابكى قرقمـاس أميرا جليلا مبجلا معظما ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى وأعتقه فهو من معـاتيقه ، وولى من الوظائف امرة آخورية الثانية ثم بقى مقدم ألف ثم بقى رأس نوبة النوب وقرر فى نيابة حلب فى دولة الأشرف جان بلاط ولم يتم ذلك ، ثم سجن بقلعة الشام لما توجـه مع الأمير طومان باى الدوادار ، فلمـا تسلطن هناك سجنه مع جملة من سجن من الأمراء بقلعة دمشق ، فلما تسلطن قانصوه الغورى أفرج عنه من سجن قلعة دمشق ، فلما حضر قرره فى امرة السـلاح ثم بقى أتابك العساكر بمصر عوضا عن قيت الرجبى لما نفى الى ثغر الاسكندرية سنة عشر وتسعمائة . فأقام فى الأتابكية ست سنين وشهرين الا سبعة أيام ومات وهو فى عشر الستين وزيادة ، وكانت مدة توعكه أربعـة أيام ، وخلف أولادا صغارا ما بين ذكور واناث عدتهم أربعة ، وظهر له من الموجود نحو من سبعين ألف دينار خارجا عن بركه ، وأعتق جميع من عنده من مماليك وعبيد وجوار . فلما مات استمرت الأتابكية بعده شاغرة لم يلها أحـد من الأمراء ، ورسم السلطان للزينى بركات بن موسى أن يتحدث فى جهات الأتابكية الى أن يليها من يختاره السلطان .

وفيه ، فى ثامن عشرينه ، كان ختم البخـارى بالقلعة على العادة وحضر القضاة الأربعة ، ونصب السلطان خيمة كبيرة بالحوش وحضر بين القضاة فى ذلك اليوم ، وخلع على من له عادة من الفقهاء وفرقت الصرر ، وكان ختما حافلا .

وفى تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وطلع بها الى القلعة وهى مزفوفة على رءوس الحمالين .

وفى ليالى العيد اشتد البرد وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت منه الأسواق ، وجاءت الأخبار من الشرقية والمنوفية بأن قد وقع فى تلك الأيام برد كل واحدة قدر أحد عشر رطلا فقتلت عدة بهائم وتعطب منها أولاد الفلاحين ، وأفسدت بعض الزروع ، وكانت حادثة مهولة .

* * *

وفى شوال — فى يوم سـابعه — حضر الأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى الذى كان قد توجه الى القدس بسبب القيامة ، وأشيع بين الناس أنه احتاط على ما فى القيامة من مال الفرنج ، وربما يحصل من هـذه الحـادثة مفسدة كبيرة من قبل الفرنج .

وفى يوم الخميس تاسـعه حضر الى الأبواب الشريفة المقـر السيفى خاير بيك بن ملباى نائب حلب ، وقد حضر ليرى وجه السلطان ويزوره ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان متمر وفوقه فوقانى بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية . ونزل من القلعة فى موكب حافل وتوجه الى بيت الأمير قرقماس الجلب الذى بالتبانة فنزل به . وقد عظمه السلطان الى الغـاية وأوكب بالقصر ولبس الأمراء الشاش والقماش بسببه .

وفى يوم السبت ثامن عشره خـرج المحمـل الشريف من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه ابن سلطان جركس ، وبالركب الأول نورلز تاجر المماليك أحد الأمراء الطبلخانات وكان لهما بالقاهرة يوم مشهود .

وفيـه تغير خاطر السـلطان على جمـاعة من الزردكاشية فقبض على شخص يسمى أحمد بن قراكز ، وعلى شخص يسمى محمود الأعور ، وغيب عبـد الكريم بن اللاذنى مسـتوفى الزردخاناه ، ورسـم على عبد الباسط بن تقى الدين الناظر ، فسلمهم السـلطان الى الأمير مغلبـاى الشريفى الزردكاش ، ووضع أحمد بن قراكز فى الحديد ثم ضربه فيما بعد هو وابنه ، وقد قرر عليهم السلطان عشرة آلاف دينـار ، وكان أحمد بن قراكز هذا سببا لمصـادرة مغلباى الزردكاش وعبد الباسط الناظر ، وغرموا مالا له صورة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وكان أحمـد بن قراكز ما أبقى ممكنا فى مرافعة مغلباى الزردكاش وعبد الباسط النـاظر ومباشرى الزردخاناه ويحيى بن يونس أحـد الزردكاشية ، وكان حظى عنـد السلطان بسبب المرافعة وداخله فى أمور شتى ، فما عن قريب حتى تغير خاطر السلطان عليه ورافعه جمـاعة وأثخنوا جراحاته عند السلطان ، فغضب عليه وسلمه الى الأمير مغلباى الزردكاش فظفر به واشتفى منه ، فكان كما يقال فى المعنى :

قل للعـذول يرعوى
وينتهـى عن عتبـه
ولا يكون فى الهـوى
يشمت بى أشـمت به

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى أن شـخصا من المماليك السلطانية يقال له شاهين ، وهو فى سن الشيخوخة ، قصد الحج فى هذه السنة ، فخرج هو وزوجته الى بركة الحاج ، ثم عرضت له حاجة فى بيته فرجع تحت الليل ، فخرج عليه جماعة من العربان فقتلوه عند سبيل علان ، فحملوه وآتوا به الى داره حتى غسلوه وكفنوه ودفنوه ، فرجعت زوجته من بركة الحاج ولم يقسم لهمـا الحج فى هذه السنة ، حتى عد ذلك من النوادر .

وفيه طلعت الى السلطان تقدمة حافلة من عند نائب حلب وهى أطباق فيهـا ذهب عين ومماليك جراكسـة نحو من ثلاثة وأربعين مملوكا ، ومن الخيول خمسين فرسـا منهـا فرس بسرج بلور وكنبوش ذهب وأنعاله من الذهب ، قيل ان مشتراه

ألف دينار ، وعدة حمالين عليها زردبات وصوف، وسمور ووشق وسنجاب وغير ذلك من الأصناف الفاخرة .

وفيه أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وجعل للمماليك الذين استجدهم طبقـة جامكية خامسـة فى أواخـر الجوامك تصرف لهـم على انفرادهم .

وفيه غيب المعلم على الصغير ، وكان السلطان قرر عليه مالا لم يقدر عليه فهرب ، وقرر عوضه المعلم خضر ، وقد تعطل اللحم فى هذه الأيام الى الغاية .

وفيه توعك جسد السلطان وأفصد واحتجب عن الناس ولم يخرج الى صلاة الجمعة ، فكثر القيل والقال بسبب ذلك . واستمر منحجبـا أياما فطلع اليه الخليفة المتوكل على الله وعاده ، ثم طلع اليه القضاة الأربعة وعادوه ، ثم بعـد أيام شفى وخرج الى صـلاة الجمعة وهو راكب ، فخطب قاضى القضاة الشافعى خطبة بليغة مختصرة ، ثم انقضى أمر الصلاة وعاد السلطان الى القبـة التى أنشأها الأشرف جان بلاط بجوار الدهيشة فأقام بها .

وفيه توفى قاضى قضاة غزة شمس الدين محمد ابن النحاس الشافعى ، وكان من خواص السلطان ، وكان لطيف الذات عشير النـاس رئيسا حشما ، وكان لا بأس به .

وفيـه وصلت عدة مراكب من عند ابن عثمان ملك الروم فيها زردخاناه للسلطان ، فوصلت الى بولاق عند الرصيف وشرعوا يحولون ما فيها الى القلعة ، فكان من جملة ذلك مكاحل سبقيات العدة ثلاثمائة ، ونشاب ثلاثين ألف سهم ، وبارود مطيب أربعون قنيطارا ، ومقـاذيف خشب ، العـدة ألفا مقذاف ، وغير ذلك من نحـاس وحديد وعجـل وحبال وسلب ، ومراسى حـديد ، وغير ذلك مما تحتاج اليه المراكب ، فشكره السلطان على ذلك ، وكان السلطان أرسل مالا على يد يونس العادلى الى بلاد ابن عثمان ليشترى له بها أخشابا ونحاسا وحديدا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد عليه المال وجهز ما ذكرناه من عنده تقدمة للسلطان .

* * *

وفى ذى القعدة جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب تلمسان تحارب مع الفرنج وقتل منهم نحوا من عشرين ألف انسان ، واستخلص منهم ما كانوا قد استولوا عليـه من جهات الأندلس وغيرها ، فسر الناس قاطبة لهذا الخبر .

وفيـه ، فى يوم الاثنـين حادى عشره ، نزل السلطان الى الميـدان وعزم على خاير بيك نائب حلب ، واجتمع الأمراء المقدمون ، وسـاق قدامهم فى ذلك اليوم الرماحة وهم لابسون الأحمر وآلة السلاح ، كما يفعلون فى أيام دوران المحمل . وكان معلم الرماحة الأمير تمر الحسينى أحـد المقدمين المعروف بالزردكاش ومعه أربعة باشات ، فساقوا أحسن سوق ونزلوا عن خيـولهم وباسوا الأرض للسلطان على جارى العادة ، فخلع على المعلم وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وخلع على الأربعـة باشات ، ثم خلع فى ذلك اليوم على الأمراء المقدمين كوامل الشتاء ، ثم تحول ودخـل الى البحرة التى بالميدان ومد الى نائب حلب هناك أسمطة حافلة

وفى ذلك اليوم رسم السـلطان بشـنق ثلاث جوار وغلام قد قتلوا سيدتهم ، وهى أم كسباى

الذى كان دوادارا ثانيا وقتل فى معركة قانصوه خمسمائة كما تقدم ذكر ذلك ، فشنقوا على باب سيدتهم فى مكان قتلوها فيه .

وفيه نزل السلطان من القلعة وصحبته الأمراء المقدمون قاطبة وعليهم كوامل الشتاء التى ألبسها لهم السلطان ، وصحبته أيضا أعيان المباشرين ، فشق من الصليبة وتوجه من على قناطر السباع الى الجزيرة الوسطى ، ثم أتى الى بولاق ومر من على الرصيف ووقف عند مدرسة ابن الزمن ، وزار سيدى سويدان الذى هناك مقيما بالمدرسة ، ثم عرج من على جزيرة الفيل وأتى الى شبرا ، واستمر على ذلك حتى وصل الى قناطر أبى المنجا حتى كشف على الأخشاب التى أرسلها ابن عثمان وكانت هناك فى حاصل ، ثم رجع من على المنية وطلع من على قنطرة الحاجب ودخل من باب الشعرية ، فزينوا له الخشابين وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان . ثم خرج من باب القنطرة وعرج من بين الصورين وطلع من باب الخرق وشق من سوق تحت الربع . ثم طلع من على البسطيين واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود . ومن حين سلطنته الى ذلك اليوم لم يقع له موكب مثل ذلك .

وفى هذه السنة تعطبت سائر الفواكه ، حتى البطيخ والثوم والبصل وغير ذلك من الفواكه والخضر ، حتى الرياحين والأزهار والغلال ، وكانت غالب الأراضى مجدبة .

وفيه قبض السلطان على شرف الدين الصغير كاتب المماليك وعلى شرف الدين النابلسى الأستادار ، وقرر عليهما مالا له صورة ، ووضعهما فى الحديد وسجنهما بالعرقانة ، واستمرا على ذلك حتى يكون من أمرهما ما يكون .

وفى يوم السبت سادس عشره حضر قاصد من عند ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة للسلطان ، فلما ناولها له قبلها السلطان ووضعها على عينيه ، ثم ناولها الى كاتب السر فقرأها بحضرة السلطان والأمراء ، وكانت ألفاظ هذه المكاتبة مرجزة ، صنعة البديع ، وقد نعت فيها السلطان نعتا عظيما . وكان من مضمونها ، أنه أرسل للسلطان عدة مراكب فيها زردخاناه فما يدرى هل وصلت الى السلطان أم لا ، وأخبر فيها أن الرئيس كمال المجاهد قد غرق ولا يعلم له خبر ، فأقام القاصد بمصر أياما قلائل وكتب له الجواب عن مكاتبته وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى هذا الشهر أنعم السلطان على الأمير خاير بيك الخازندار بتقدمة ألف ، وصار من جملة الأمراء المقدمين .

وفيه توفى شمس الدين محمد الصالحى وكيل الشرع الشريف ، وكان علامة فى صنعة التوكيل عارفا بأمور الشرع ، وكان لا بأس به .

ومن النوادر اللطيفة ما وقع فى هذا الشهر وهو أن السلطان رسم بشيل الدكة التى كانت بالحوش يجلس فوقها السلاطين للمحاكمات ، وقد جلس فوق هذه الدكة جماعة كثيرة من الملوك ونفذوا عليها الأحكام السلطانية ، وكانت عوضا عن كرسى المملكة ، فعز على الناس تغييرها ولم يتفاءلوا بذلك ، ثم انه بنى مكان هذه الدكة مصطبة بالحجر الفص وزخرفها بالرخام السماقى والزرزورى والمرسينى وغير ذلك من أصناف الرخام الملون الفاخر ، ونقش بروزها وألبسها بالذهب وجعل

لها افريزا من الرخام الأبيض وله رمانتا رخام ، وكسا هذا الافريز بالذهب ونقش عليه اسمه ، وصنع فوق هذه المصطبة وزرة من الرخام الملون طولها أربع أزرع ، فجاءت هذه المصطبة غاية فى الحسن بحيث لم يعمل مثلها قط ولا سبقه أحد من الملوك الى ذلك ، وقد قلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات وهو قولى :

قد جدد الأشرف سلطاننا
مصطبة أوصافها تحكه
رخامها شبهت ألوانه
جواهر فى عقد مشتبكه
ألبسها الحسن لباس البها
حتى غدت تزهو على الدكه
يجلس للموكب من فوقها
يظهر فى أحكامه فتكه
فاق ملوك الترك فيما مضى
ولم يضاه ملكهم ملكه
بخدمة البيت وما حوله
وفارس البيداء فى العركه
قد خصه الرحمن بالملك فى
مصر ، ومن عاداه فى هلكه
أيده الله بطول البقا
ما طافت الحجاج فى مكه

وقولى أيضا :

بنى الأشرف الغورى فى الحوش بسطة
ليغنى بها عن دكة الحكم بالأمس
فجاءت من الآيات كرسى ملكه
وطلعته فاقت على البدر والشمس
فحصنته لما استوى بجلوسه
عليها برب الناس مع آية الكرسى

وفيه جاء الى السلطان شخص شريف وأخبره أنه وجد معدن البارود فى بلد خراب بالقرب من الكرك ، وترابها كله من ذلك البارود ، فطبخوه فوجدوه بارودا جيدا ، ففرح السلطان بذلك وأنعم على ذلك الرجل الذى أحضره بعشرة دنانير وأرسل يحضر منه أشياء كثيرة . وقبل ذلك بمدة ظهر معدن الرخام السماقى والزرزورى فى جبل بالقرب من البدرشين ، فأرسل السلطان وقطع منه فوجده رخاما جيدا ففرح بذلك وعد من النوادر .

ومن الوقائع أن الأمير أركماس الذى كان نائب الشام طلع الى السلطان بقطعة فولاذ هيئة الكرة وزعم أنها صاعقة نزلت ببعض الجبال وأن أعرابيا أهداها اليه ، ففرح السلطان بذلك وجمع السباكين فقالوا انها صاعقة لا محالة ، فنظر اليها بعض الزردكاشية فأنكر ذلك وقال : هذه حجر مرقشيتة وهو حجر صلب ، فلما سمع السلطان ذلك شق عليه ونزل الى الميدان وجمع السباكين وحضر الأمير أركماس ، ووضعوا ذلك الحجر الذى على هيئة الفولاذ فى النار ، فمجرد ما وضعوه فى النار صار مثل الخرنفش وتفتت ، فخجل الأمير أركماس من ذلك ، وانتصف عليه ذلك الزردكاش ، وهو الجمالى يوسف أخو مؤلفه ، وعد ذلك من النوادر .

ومما حكى عن أمر الصاعقة الحقيقية : أن سنة ست وتسعين وثلاثمائة وقعت صاعقة عظيمة بجرجان ، فرجت لها الأرض وسقطت من هولها الحوامل ، فخرج الناس الى مكان سقطت فيه ، فوجدوها قد ساخت فى الأرض على قدر قامة ، فنبشوا عليها فوجدوها قد بقيت قطعة حديد قدر مائة وخمسين منا ، وهى أجزاء جاروشية صغار مستديرة قد التصق بعضها ببعض ، فسمع بذلك السلطان محمود بن سبكتكين صاحب خراسان ، وهو أول من تلقب بالسلطان ، فكتب الى عامل

جرجان بنقل هــذه القطعة الحديد فتعذر عليهم نقلها ، فحاولوا كسر قطعه منهــا فلم تعمل فيهــا الآلات ، فعولج كسر قطعة منها بعــد جهد كبير فحملت اليه ، فرام أن يصنع منها سيفا له فتعذر عليه ذلك ولم يتم له ما أراد .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه قناصلة الفرنج ، منهم القنصل الذى بثغر الاسكندرية ، والقنصل الذى بدمشق، والقنصل الذى بطرابلس . فلمــا وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام ووعدهم بالشنق . وسبب ذلك أن نائب البيرة قبض على دواسيس من عنــد اسمعيل الصفوى[1] ، وعلى أيديهم مكاتبات الى القناصل بأن يكاتبوا ملوك الفــرنج بأن يأتوا فى مــراكب من البحر ، وأن يزحف هو ومن معه من العساكر من البر على سلطان مصر وعلى ابن عثمان ملك الروم ، فانكشف رخهم وافتضحوا فى هذه الواقعة ، فرسم السلطان بتسليمهم الى ناظر الخاص ليقررهم عن حقيقــة ذلك ، وان لم يقروا يسلمهم الى الوالى ، فانفضوا على ذلك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الدنوشرى مباشر الأتابكى قرقماس ، وقد غمز عليه بأن عنــده مالا لأمير كبير ، فلما عرضه لم يقر بشىء فرسم بتسليمه الى نقيب الجيش فقبض عليــه وعلى الخازندار أيضــا ، واستمرا فى الترسيم لما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمرهما .

وفى ذلك اليوم توفيت خوند جان كلدى زوجة الملك الظاهر قانصوه المسجون بثغر الاسكندرية ، فأخرجت وعلى نعشها بشــخانة زركش ، وكانت ذات عقل ودين لا بأس بها ، ولكن قاست شدائد ومحنا ، وعصرت فى آكعابها وآكتافها حتى أشرفت على الموت . وسبب ذلك أن زوجها الظاهر قانصوه لما وثبوا عليه وانكسر نزل من القلعة واختفى أياما فلم تقر بمكانه ، فعوقبت بسبب ذلك .

وفى أواخر هذا الشهر أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى اســتجدها بسبب المــماليك الذين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامســة تصرف لهم على انفرادهم دون جوامك العسكر . وقد تزايد أمر هذه المماليك الأراذل الذين صــار يستكثر منهم فى الديوان ، ففيهم من لا يعرف يجذب القوس ولا يمســك الرمح وهــذا أمر عجيب ! يشح فيمن يستحق الجــامكية ، ويعطيها لغير مستحقيها ... كما قيل :

انى أشــح بدرهم متصـــــدقا
وأجود فى قدح بما ملكت يدى

وفيه وصل الى السلطان فيل صــغير غير ذلك الفيل المقدم خبره لما وصل .

وفيه توفى تانى بيــك النجمى المعروف بالأبح الذى كان شاد الشون وصرف عنهــا ، وكان من الأمراء الطبلخانات ، وكان لا بأس به .

وفى عقيب ذلك توفى أيضا شــخص من الأمراء العشراوات يسمى تمراز الشهابى .

* * *

وفى ذى الحجة كان مستهل الشهر يوم السبت، فعمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس

(١) هو اسماعيل شاه بن حيدر الصفوى . وقد ورد اسمه « الصــوفى » خطأ بين الصفحات ٧٥٧ و ٨٠٠ من الكتاب . وهو مؤسس الأسرة الصفوية التى حكمت فارس من سنة ١٤٩٩ الى سنة ١٧٣٦ .
وقد نبهنا الى ذلك الدكتور جمال مرسى بدر جزاه الله خيرا .

على المصطبة التى أنشأها بالحوش مكان الدكة ، وقد تقدم ذكر ذلك . وكان سبب هذا الموكب أن السلطان خلع على خاير بيك نائب حلب وأذن له بالسفر الى محل ولايته بحلب على عادته ، وخلع فى ذلك اليوم على الأمير طومان باى الدوادار وخرج الى السفر نحو الشرقية والغربية ، وقد غيب لأجل أمر الأضحية ولعله يغيب فى هذه السفرة نحوا من شهرين .

وفى ذلك اليوم طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان موكبا حافلا ، ولا سيما كان أول جلوس السلطان على هذه المصطبة فكان لها موقع عظيم .

وفيه أمطرت السماء مطرا غزيرا حتى أوحلت الأسواق والشوارع ، وكان ذلك ليلة الأحد ثانيه ، ولم يقع فى هذه السنة من الأمطار أعظم من هده المطرة .

وفيه عين السلطان شادية الشراب خاناه الى ولده الصغير ، عوضا عن أخيه المقدم ذكر وفاته .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء رابعه ، فرق السلطان الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفيه كانت الأضحية غالية ومشحوتة بسبب تشويش المماليك على المتسببين ، وقد صاروا يخرجون الى المطرية ويقطعون الطريق على ضيافات الأمراء حتى صارت الأمراء يرسلون مماليكهم يلاقون ضيافاتهم . وقد خرج المماليك عن الحد فى الأذى للناس فى هذه السنة الى الغاية ، وحصل منهم غاية الضرر والفساد فى حق الناس ، والأمر لله .

وفيه — فى يوم الجمعة سابعه — وقعت زلزلة خفيفة بعد العصر وارتجت منها الأرض ، ولم يشعر بها من الناس الا القليل .

وفيه كان موكب العيد حافلا ، وجلس السلطان بالحوش على المصطبة التى أنشأها وضحى بالايوان الكبير على العادة .

وفيه ، فى يوم عيد النحر ، وقعت حادثة مهولة ، وهو أن شحصا من أبناء الأتراك صغير السن دخل الى اسطبل أبيه فرفسه بغل على قلبه فمات فى ذلك اليوم ، فحصل على أهله من الأنكاد ما لا خير فيه بسبب فقد ولدهم ولا سيما فى يوم العيد .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له أزدمر ، وهو أنى[1] الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وقرره فى نيابة عينتاب .

وفيه جلس السلطان على المصطبة التى أنشأها مكان الدكة وأنفق الجامكية على العسكر ، فقام له الأمراء المقدمون ، وقبلوا له الأرض وهنوه بجلوسه على تلك المصطبة حيث كملت ، ومن العسكر من لم ينظل عليه ذلك وقال : « الدكة كانت أعظم حرمة من هذه المصطبة » .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بأن الصفوى قد انتصر على أزبك خان ملك التتر وقتله وقطع رأسه ، فتنكد السلطان لهذا الخبر وأقام عنده الأمراء الى قريب الظهر وهم فى ضرب مشورة بسبب ذلك . وكان أزبك خان ضد الصفوى وكان مشغولا بمحاربته عن ابن عثمان وسلطان مصر ، فلما أشيع قتل أزبك خان خشى السلطان من أمر الصفوى أن يزحف على البلاد .

وفى أواخر هذه السنة توفى الشيخ أبو النجا

(١) يريد أن يقول ان أمير العشرة أزدمر كان مملوكا «يقتنيه» الأمير قانى باى قرا ..

القمنى ، وكان شاعرا لطيف الذات عشير الناس ، وقد ناف عن السبعين

وفيه توفى رضى الدين حسن بن عبد القادر ابن حسين المقرىء ، وكان لا بأس به .

وفى عقيب موت رضى الدين توفى أيضا الناصرى محمد بن عبد العزيز المقرىء ، وكان علامة فى فن القراءات حسن الصوت عارفا بطريقة القراءات ، وكان لا بأس به .

وفيه نادى السلطان بألا يمشى أحد من الناس من بعد العشاء فى الطرقات ، ومن وجدوه يمشى ومعه سلاح بشنق من غير معاودة فسكن الأمر قليلا وكان قد فسدت الأحوال فى تلك الأيام الى الغاية .

سنة سبع عشرة وتسعمائة (١٥١١ م) :

فيها — فى المحرم — كان مستهل الشهر بالأحد . ففيه ، فى يوم الجمعة سادسه ، كانت وفاة الأمير طراباى الشريفى رأس نوبة النوب . وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى فهو من معاتيقه ، وولى من الوظائف السنية الدوادارية الثانية ، ثم بقى رأس نوبة النوب فى دولة الأشرف جان بلاط عوضا عن قرقماس بن ولى الدين الذى ولى الأتابكية فيما بعد وكانت وفاة الأمير طراباى فى ليلة الجمعة ؛ ودفن صبيحة يوم الجمعة ، وكانت جنازته مشهودة ، ونزل السلطان وصلى عليه فى سبيل المؤمنين ، وأخرجت قدامه كفارة ونهبت من على بابه ، ودقت عليه زوجته بالطارات فى العزاء ؛ وكانت مدة انقطاعه بهذا العارض نحو شهر ، وقد اعتراه ورم فى رجله وركبته ، وكان له بمصر حرمة وافرة وكلمة نافذة وسطوة زائدة لم تقع لأحد من الأمراء فى عصرنا غيره . فرجت لموته القاهرة وفرح بذلك غالب الناس ، فانه كان صارما عسوفا شديد البأس زائد القسوة ، وقع منه أشياء كثيرة من أنواع المظالم بالديار المصرية لم تقع من غيره من الأمراء فيما تقدم ، وحصل منه الضرر الشامل لجماعة كثيرة من الناس من مصادرات وأخذ بيوت ورزق وحل أوقاف وغير ذلك من مفاسده . وقد قلت فيه هذه الأبيات :

بموت طراباى أفرج الله كربة
عن الناس من خلق السموات والأرض

فهذا فتوح عاد فى مصر ثانيا
وعمت به الأقطار فى الطول والعرض

وقد كان جبارا عنيدا معاندا
فكم جار فى الأحكام بالبرم والنقض

ويبطل حق الناس من كل واجب
ويقضى خلاف الشرع فى الندب والفرض

ولما طغى ظلما وزاد تجبرا
فعجل عزرائيل للروح بالقبض

وأسكنه ضيق اللحود معذبا
وأخلى منازله فى طرفة الغمض

وقد جاء يسعى للجحيم برجله
وأجزم بعد الرفع بالنصب والخفض

ومذ شاع بين الناس أخبار موته
فصار يهنى بعض من سر للبعض

فيا رب سابله بما يستحقه
وأودعه فى الأغلال للبعث والعرض

كان الأمير طراباى من مبتدأ أمره وهو فى عز وشهامة لم ينتكب ولم ينف قط ، واستمر فى سعده الى أن مات ، ومات وهو فى عشر السبعين . فلما كان يوم السبت صبيحة موته عرض على السلطان مماليكه فوزعهم فى الطباق ، وأشيع بين الناس بأن ظهر له من الموجود ما لا ينحصر من أموال وخيول

وجمال وسلاح وبرك وغير ذلك ، فكان موجوده أعظم من موجود الأتابكى قرقماس بأشياء كثيرة ، وكان بين موت الأتابكى قرقماس وبين موت الأمير طراباى ثلاثة أشهر واثنا عشر يوما ، حتى عد ذلك من جملة سعد السلطان قانصوه الغورى الذى ورث هذين الأميرين فى هذه المدة اليسيرة واحتاط على موجودهما من صامت وناطق .

وفى يوم الاثنين تاسعه حضر الطواشى بشير الذى كان توجه الى بلاد اليمن قاصدا الى بعض ملوكها ، فلما حضر خلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، ثم بعد أيام أهدى الى السلطان هدية حافلة .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره قبض السلطان على تغرى بردى الترجمان ، ووضعه فى الحديد ووكل به ، وأرسل ختم على بيته واحتاط على موجوده ورسم على عياله ، وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان أن تغرى بردى كاتب ملوك الفرنج بأحوال مملكة مصر ، وأن السلطان ليس له همة الى ارسال تجريدة ، وأن السواحل خالية ليس بها مانع . وقد أحضروا الى السلطان مكاتبات بخط تغرى بردى بمعنى ذلك ، فأحضر السلطان تغرى بردى وأوقفه على تلك المطالعات ، فأنكر ذلك ، فغضب عليه وشكه فى الحديد ووكل به وأحضر خيوله وقماشه ، واستمر فى الترسيم الى الآن .

وفى يوم الاثنين سادس عشرينه خلع السلطان على شخص من الخاصكية يسمى طومان باى ، وهو خازندار كيس ، ورسم له بأن يتوجه الى الشام ليصلح بين سيباى نائب الشام وبين جان بردى الغزالى نائب صفد . وكان قد بلغ السلطان بأن قد حصل بينهما تشاجر مفرط حتى خرجا فيه عن الحد ، فرسم السلطان لطومان باى بأن يتوجه ويصلح بينهما ، ورسم له بخمسة آلاف دينار تسفيرا عليهما .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره توفيت الست زينب ابنة أمير المؤمنين المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز ، وهى أخت أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وعمة ولده المتوكل على الله محمد خليفة الوقت الآن ، وكانت لا بأس بها

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه حضر الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وكان مسافرا نحو الشرقية والغربية ، فأهلك الحرث والنسل وأفرد على سائر البلاد التى بالشرقية والغربية الأموال الجزيلة ، حتى أفرد على بلاد الأوقاف التى على الجوامع والمدارس ، فضج من ذلك المقطعون ، وما حصل على الناس بنزوله الى البلاد خير .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه دخل الحاج الى القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل قانصوه بن سلطان جركس ، وبالركب الأول توروز تاجر المماليك . وقد قاست الحجاج فى هذه السنة مشقة زائدة من الوخم وموت الجمال ، وقد ضبط من مات من الحجاج فى هذه السنة فكان جملة ذلك ألفا وثمانمائة انسان . وكانت سنة شديدة صعبة على الحجاج والذين سلموا ردوا ضعافا ، حتى قانصوه أمير ركب المحمل رد وهو عليل

وفيه نادى السلطان بأن أصحاب الأملاك التى على الخلجان يقطعون أراضى الخلجان قدر ثلاث أذرع ونصف ، فامتثلوا ذلك ولكن حصل للناس غاية الضرر من الغرامة والبهدلة من جماعة حاجب الحجاب بسبب شيل التراب ، وكان السلطان نادى بأن الذى يعجز عن القطع يكون بيته للسلطان ، فقاست أصحاب الأملاك التى بالجزيرة الوسطى ما لا خير فيه بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار صحبة الحجاج بوفاة هجار أمير الينبع الذى كان السلطان ولاه امرة الينبع عوصا عن يحيى بن سبع ، وحصر جماعة من أقاربه يسعون فى امرة الينبع ، فنم الأمر

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه توفى شاهين معلم الدبوس ، وكان أحد الأمراء العشراوات ، وكان علامة فى فن الدبوس .

وفيه توفى معين الدين بن شمس الذى كان وكيل بيت المال ونائب كاتب السر ، مات بالمقشرة وقد قاسى شدائد ومحناً ، وضرب بالمقارع غير ما مرة وعصر فى أكعابه وأخذ منه جملة مال . وكان غير مشكور ، فما رثى له أحد من الناس فيما جرى عليه

وفى يوم الاثنين سلخ المحرم حضر الى الأبواب الشريفة الأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماة وعزل عنها ، فنقل السلطان نائب طرابلس الى حماة عوضا عن يوسف الناصرى ، وقرر فى نيابة طرابلس أبرك ، مملوك السلطان الذى كان نائب قلعة حلب ، وقرر فى نيابة قلعة حلب شخص من مماليك السلطان . ولما حضر يوسف الناصرى خلع عليه السلطان ، ونزل الى داره واستمر طرخانا .

* * *

وفى صفر صعد الخليفة الى القلعة ليهنىء بالشهر، وكذلك القضاة الأربعة ، فحصل فى ذلك اليوم للقاضى شمس الدين الحليبى غاية المقت من السلطان وكاد يبطش به . وسبب ذلك أنه حكم فى بعض الوقائع بما اعترض عليه فى ذلك فتغير خاطر السلطان عليه ولم يقبل له فى ذلك عذرا ، وحط على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل بسببه ، وكان مجلسا مهولا .

وفى يوم الخميس ثالثه نزل السلطان وشق من الصليبة ، وتوجه الى المنشية فكشف عن مراكب عمرها هناك ، ثم توجه الى الجزيرة الوسطى وكشف عن قطع الخليج ، ودخل من تحت قنطرة قديدار ، وشق من بطن الخليج وكشف على القطع واستحث الناس على ذلك ، فبينما هو شاقق من بطن الخليج كبا به الفرس فى جورة من القطع التى هناك ، فلم يتأثر الى ذلك واستمر شاققا من بطن الخليج حتى وصل الى قناطر الأوز ، فطلع من هناك وشق من الحسينية ، ثم دخل من باب النصر أو باب الفتوح وشق من القاهرة على حين غفلة ، فوقدت له الشموع على الدكاكين ، وانطلقت له الزغاريت من النساء فى الطيقان ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام ، وكان له موكب حافل وقدامه جماعة من الأمراء والمباشرين . ولكن شق من القاهرة وهو لابس تخفيفة صغيرة مملسة . وسبب ذلك أنه كان قد طلع له دمل فى رأسه فلم يستطع لبس التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال .

واستمر فى هذا الموكب حتى خرج من باب زويلة وقد زينت له ، ثم طلع من البسطيين ، وشق من على بيت الظاهر تمر بغا وطلع من هناك الى الرملة ودخل الميدان . ولم يشق من القاهرة منذ تسلطن سوى فى ذلك اليوم فقط ... ومما أحدثه عند دخوله من القاهرة فى ذلك اليوم أنه أمر المشاعلية تنادى قدامه بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يشوش على أحد ، وكان ذلك غاية الخفة منه ، وترك هذا كان أوجب .

وفى يوم الثلاثاء ثامنه نزل السلطان من القلعة أيضا ، وسير من على ساحل البحر حتى وصل الى البهطلة ، فقدمت له الحراقة التى يكسر فيها السد ، فنزل بها وعدى الى المقياس ، فطلع من

السلم التى تجاه بر الجيزة ، وتمشى ودخل الى المقياس ونزل الى الفسقية التى يقاس بهـا النيل فتوضأ منها ، وطلع وصلى هنـاك ركعتين ... ثم تحول ودخل الى قاعة المقيـاس ، فمد له هنـاك عـلاء الدين ناظـر الخـاص وبركات بن موسى المحتسب اسمطه حافلة ولم يبقوا فى ذلك ممكنا ، وكان مع السلطان من الأمراء المقدمين الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، والأمير خاير بك كاشـف الغربية أحد المقدمين . والأمير خاير بك الخازندار أحد المقدمين ، وجمـاعة من الأمراء العشراوات ، والجم الغفـير من الخاصـكية . وكان معه من المباشرين القـاضى عبـد القادر القصروى ناظر الجيش ، وعلاء الدين ناظر الخـاص ، والشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر وغير ذلك من الأعيان .

فلما فرغ من الأكل ، أمر باصلاح ما فسـد من عمـارة المقياس ، وأمر ببناء جامع بجوار المقياس تجاه دير النحاس فأخذوا فى أسباب ذلك . ثم نزل فى الحـراقة ونصب له سحابه حـرير أصـفر ، وأحضرت حوله مراكب كثيرة برسم العسـكر ، وفيهم غراب قد زين بالصناجق والشطفات ، ثم شـق من على بر الروضـة فانطلقت له النسـاء بالزغاريت ، واستمر على ذلك حتى طلع من عند قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، ثم شق من بطن الخليج ، وطلع من الناصرية من على بيت قانصوه خمسمائة ، وطلع من على قناطر السباع ، وشق من الصليبـة وقـدامه المشاعلية تنـادى بالأمان والاطمان كما فعل لما شق من القاهرة .

وفى يوم الخميس عاشره عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير وأمر الأمراء والعسكر بلبس الشاش والقماش ، فلمـا تكامل الموكب خلع على المقر السيفى دولات باى بن أركماس المعروف بالساقى أمير سلاح . فقرره أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن الأتابكى قرقماس بن ولى الدين بحكم وفاته . وكانت الأتابكية شاغرة نحو أربعة أشهر ونصف شهر من حين توفى الأتابكى قرقماس فى ثالث عشرين شـهر رمضـان سـنة ست عشرة وتسعمائة

وخلع فى ذلك اليوم على المقر السيفى سودون العجمى ، وقرره فى امرة السلاح عوضا عن دولات باى بحكم انتقاله الى الأتابكية

وخلع على المقر السيفى أركماس بن طراباى ، وهو الذى ولى نيابة الشام قبل ذلك ، فقرره فى امرة مجلس عوضـا عن سودون العجمى بحكم انتقاله الى امرة السلاح .

وخلع على المقر السـيفى سـودون الدواداری الذى كان نائب طرابلس وقرره راس نوبة النوب عوضـا عن طراباى الشريفى بحكم وفاته ، فلبس هؤلاء الأربعة أمراء هذه الوظائف السنية فى يوم واحد ، وكان لهم يوم مشهود وموكب حافل .

وفى ذلك اليـوم توفى شـخص من الأمراء العشراوات يقـال له يبسق اليوسفى ، وأصله من مماليـك الأشرف اينـال فيمـا يقـال ، وكان لا بأس به

وفى يوم الجمعة قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك سابع بشنس القبطى

وفى يوم الجمعة حادى عشره كانت ليلة سيدى اسمعيل الانبـابى ببولاق ، وكانت من الليـالى المشهودة فى القصف والفرجة وخرج الناس فيها عن الحد ، وصربت نحو من خمسمائة خيمـة فى الجزيرة التى طلعت تجاه بولاق . وصنعوا هناك سوقا بدكاكين مبنية ونقلوا اليه من سائر البضائع الفاخرة ، وكانت ليلة هادئة من الفتن والشرور .

وفى يوم السبت ثانى عشره ابتدأ السلطان بضرب الكرة فى الميدان ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وهم بالشاش والقماش ، والأوزان عمال والمغانى على جارى العادة

وفى يوم الأحد ثالث عشره جاءت الأخبار من الغربية بقتل شيخ العرب عيسى بن يوسف المعروف بابن جميل ، وكان من أعيان مشايخ الغربية وكان فى سعة من المال ، فقتلوه شر قتلة وقتلوا ولده معه وجماعة من حاشيته ونهبوا أمواله وأغنامه ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وكانت فى تلك الأيام الفتن قائمة بالشرقية والغربية واقليم الصعيد ، والأمر لله .

وفى يوم الاثنين رابع عشره خلع السلطان على شخص يقال له أجود بن مسفار — وهو ابن عم هجار — فقرره فى امرة الينبع عوضا عن هجار بحكم وفاته ، وقد سعى يحيى بن سبع بأن يعاد الى امرة الينبع كما كان ، فلم يوافق السلطان على ذلك .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره جاءت الأخبار من الغربية بأن الجويلى قبض على جماعة من العربان الذين قتلوا عيسى بن جميل ، فحاشهم فى مكان مضيق وأرسل يعلم السلطان بذلك ، فرسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار بأن يخرج من يومه على جرائد الخيل ويتوجه الى الغربية ، فخرج تحت الليل . وصحبته خاير بك الكاشف أحد المقدمين وآخرين من الأمراء والعسكر

وفى يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر وشرع كل من أخذ جامكيته يقول له : « عبىء بركك للسفر » . وأشيع بين الناس أنه يعين أربع تجاريد ، وانفض الموكب على ذلك .

وفى هذا الشهر رسم السلطان بعمارة قنطرة الخروبى وعلاها مقدار ثلاث أذرع ، وكذلك قناطر السباع ، فانه كان حصل لهما تشعث وآل أمرها الى السقوط .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه ضرب السلطان الكرة بالميدان ، ففى ذلك اليوم تقنطر من على الفرس بهادر الغورى أحد الأمراء الطبلخانات وكان من خواص السلطان ، فلما تقنطر أغمى عليه فنزل الى داره وهو محمول على بغل وقد انقطع نخاعه ، فلما وصل الى داره مات من وقته ، وكان من المتكبرين وعنده الشمم الزائد فعد موته من الغرائب ، فكان كما يقال فى المعنى :

فكم من صحيح مات من غير علة
وكم من عليل عاش حينا من الدهر

وكم من فتى يمسى ويصبح آمنا
وقد نسجت أكفانه وهو لا يدرى

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه نزل السلطان من القلعة وتوجه إلى نحو طرا ونصب له هناك وطاقا عظيما ، وكان معه بعض أمراء مقدمين ، فان الأتابكى دولات باى كان مريضا على خطة ، وكذلك سودون العجمى أمير سلاح ، وكان الأمير طومان باى الدوادار مسافرا نحو الغربية بسبب فساد العربان مما تقدم ذكره من قتل عيسى ابن جميل ، وكان سبب نزول السلطان الى هناك فيل انه عرض المركب الكبير الغليون الذى عمره فى بولاق عند الرصيف ، فلما كمل زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل وتوجهوا به الى طرا وعرضوه على السلطان فى البحر ، ورموا فدامه بالمدافع ذهابا وايابا كما فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغربة ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فمد هناك أسمطة حافلة وابتهج فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا ، وأقام هناك الى بعد العصر ، فلما رجع من طرا رجع من البحر فأحضروا له الحراقة التى بكسر فيها السد فنزل بها ، ونزل الأمراء والعسكر فى عدة

مراكب ، واستمر حادرا فى البحر حتى طلع من رأس الجزيرة الوسطى من تحت قصر ابن العينى ، ثم طلع من هناك الى القلعة وشق من سوق جامع ابن طولون ، وكان يوما بالسلطانى .

وفى يوم الجمعة خامس عشرينه كانت وفاة الأتابكى دولات باى بن آركماس المعروف بالساقى ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وقد ساعدته الأيام حتى ولى عدة وظائف سنية منها نيابة حلب ونيابة الشام ونيابة طرابلس ، ثم حضر الى مصر ، وولى امرة السلاح فى دولة الأشرف قانصوه الغورى وأقام بها مدة طويلة ، ثم بقى أتابك العساكر بالديار المصرية بعد وفاة الأتابكى قرقماس بن ولى الدين ، فأقام فى الأتابكية خمسة عشر يوما ومات ، فانه ولى يوم الخميس عاشر صفر ومات ليلة الجمعة خامس عشرينه ، فكانت مدته فى الأتابكية خمسة عشر يوما لا غير وقد قلت فى معنى ذلك :

ان دولات باى لما أن رقى امرة الكبراء ولى مسرعا
جاء للمنصب يحكى زائرا ثم ما سلم حتى ودعا

وكانت جنازته حافلة ونزل السلطان وصلى عليه ، ثم توجهوا به الى تربة العادل طومان باى فدفن بها فانه كان قرابته . وكان الأتابكى دولات باى أميرا جليلا جميل الصورة مليح الهيئة طويل القامة أبيض اللون مستدير اللحية أسود الشعر شابا فى عنفوان شبابه ، مات وله من العمر نحو من أربعين سنة ، فكثر عليه الأسف والحزن من الناس فانه كان لين الجانب قليل الأذى لا ينسب اليه خير ولا شر ، وكان مشغولا بملاذ نفسه ، وكانت مدة توعكه خمسة أيام حتى أشيع بين الناس أنه مات مشغولا ، وكان موته فجأة ، وخلف من الأولاد صبيين ، قيل وبنات أيضا ، وظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وقماش وبرك وغير ذلك مما لا ينحصر ، فكان بينه وبين موت الأمير طراباى دون الشهرين .

وقد توفى فى مدة يسيرة من الأمراء المقدمين ثلاثة كانوا نوابغ الأمراء وهم : الأتابكى قرقماس ابن ولى الدين ، وطراباى رأس نوبة النوب ، والأتابكى دولات باى ، هذا غير ماتوفى من الأمراء الطبلخانات والعشراوات .

وفى يوم السبت سادس عشرينه ظهر المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، وكان له مدة وهو مختف ، فقابل السلطان فى ذلك اليوم وقيل خلع عليه كاملية بسمور .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه حضر الأمير طومان باى الدوادار ، وكان توجه الى نحو الغربية بسبب فساد العربان ، وقد خرج اليهم على جرائد الخيل ثانيا ، فلما وصل الى هناك هربت العرب من وجهه فتبعهم الى قريب السباخ ، فلم يظفر بأحد منهم وقاسى من المشقة ما لا خير فيه ، فلما رجع وطلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة حافلة ونزل الى داره فى موكب عظيم .

وفى أثناء هذا الشهر وقع حريق مهول عند قنطرة الأمير حسين ، وكانت ليلة شعث قام فيها ريح عاصف ، فاحترق تلك الليلة نحو من أربعين دارا ، وكان ذلك وقت المغرب ، فلعبت النار فى البيوت وأعيا الناس طفيها ، واستمرت على ذلك أياما ، وذهب للناس جملة أموال وقماش وبضائع وغير ذلك .

وفى أواخر هذا الشهر تشحط القمح وارتفع سعره الى أشرفى كل أردب بعد ما كان كل أردبين بأشرفى ، وسبب ذلك أن النيل كان فى العام الماضى خسيسا وشرق غالب البلاد ، ثم حدث أمر الفأر تسلط على الجرون وصار يقرض القمح والشعير

وهو فى سنبله . وهذا الفأر أمر من الله تعالى لا يقدر أحد على رده ولا يطاق لكثرته .

ووقع فى هذا الشهر من الحوادث أشياء كثيرة .

* * *

وفى ربيع الأول فى يوم الاثنين سادسه خلع السلطان على جانى بك دوادار الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقرره فى نظر الديوان الشريف المفرد لمشاركة الأمير طومان باى الدوادار الكبير فى الأستادارية ، وهذه مصادرة لجانى بيك فى أخذ ماله بحسن عبارة وأقرب طريقة .

وفى يوم السبت حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى وكان حافلا ، واجتمع به القضاة الأربعة والأمراء ، ولم يكن تقرر أحد فى الأتابكية من بعد الأمير دولات باى الى يوم تاريخه .

وفى ذلك اليوم توفى القاضى تاج الدين ابن القاضى شمس الدين نصر الله المعروف بابن النجار ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت ، تولى والده القاضى شمس الدين الوزارة فى دولة الأشرف اينال سنة تسع وخمسين وثمانمائة فأقام بها مدة يسيرة وعزل عنها ، ومات القاضى تاج الدين وهو فى عشر السبعين ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن صاحب جربة انتصر على الفرنج نصرة عظيمة ، وغنم منهم غنائم كثيرة ، وقتل منهم نحوا من سبعة آلاف انسان ، وأسر منهم جماعة كثيرة ، ثم بعثوا للسلطان مكحلة نحاس كبيرة وأشياء كثيرة من أنواع الهدية وشخصين من أسرى الفرنج وعليهم آلة السلاح ، فشكر لهم السلطان ذلك ، وسر بهذه النصرة التى وقعت لهم .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره توفى الشهاب أحمد المحلاوى مؤذن السلطان ، وكان حسن الصوت مطبوعا فى فنه مقاتلا على الدخول ، وكان لا بأس به ، ومات وقد ناف عن الأربعين سنة من العمر ، وقيل جاوز الخمسين .

وفى يوم الجمعة سابع عشره فى ليله توفى الرئيس شمس الدين محمد القوصونى ، وكان علامة فى فن الطب ، فريد عصره فى ذلك ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفى يوم السبت ثامن عشره دخل قاصد اسماعيل شاه الصفوى فأنزلوه فى بيت قانى باى سلق الذى فى رأس الرملة عند سوق الجلاق ، فاستقر هناك الى أن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان للأمراء والعسكر بأن يخرجوا الى المطرية ويلاقوا القاصد ففعلوا ذلك ، وخرج الجم الغفير من العسكر حتى ضاق بهم رحب الفضاء ، ولكن وقع من السلطان فى ذلك اليوم غاية الخفة وهو أنه نزل وسير الى نحو المطرية فوقف عند تربة الملك العادل طومان باى ليرى القاصد والعسكر عن بعد ، فانعقد هناك الغبار فلم يتمكن السلطان من رؤية القاصد والعسكر فرجع الى القلعة ، فعد هذا من النوادر الغريبة ، فلما طلع الى القلعة دخل الى القصر الكبير ليرى القاصد من الرملة وهو داخل الى بيت قانى باى سلق ، وكان ذلك غاية الخفة من السلطان .

وفى يوم الاثنين عشرينه عمل السلطان الموكب بالحوش بغير شاش ولا قماش ، وجلس على المصطبة الجديدة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم بتزيين باب الزردخاناه فزينوه بالصناجق السلطانية والشطفات وآلة السلاح من بركستوانات وزرديات وأطبار وسيوف وغير ذلك ، فلما تكامل الموكب واجتمعت

الأمراء أذن الى قاصد اسماعيل شاه الصفوى بالطلوع الى القلعة فطلع من بيت فانى باى سلق الدى بالرملة ، وطلع صحبته المهمندار ووالى القاهرة ، فلما مثل بين يدى السلطان ، قبل الأرض وباس رجل السلطان ، ثم قرئت مكاتبته بين يدى السلطان ، ثم ان القاصد قدم للسلطان مصحفا شريفا وسجادة برسم الصلاة ، فقبل السلطان ذلك المصحف وأخذه ، ثم أحضر القاصد صندوقا لطيفا ففتح بين يدى السلطان فوجد به رأس شخص من ملوك التتار يسمى أزبك خان وهو الذى قتله الصفوى وأخذ بلاده ، فرسم السلطان بدفن تلك الرأس ، ثم أحضر القاصد صحبته قوسا عريضا عرضه نحو شبر ، فندب السلطان شخصا من الزردكاشية ، وهو الزردكاش الثانى ، يقال له الأمير يوسف ، فجذب القوس بحضرة السلطان فكسره وذلك بعد نزول القاصد ، وكان ذلك الموكب حافلا من المواكب المشهودة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على المقر السيفى طوماى باى الدوادار الكبير وقرر أمير الحاج بركب المحمل ، وخلع على شخص من الأمراء العشراوات يقال له بك باى وقرر أمير الحاج بالركب الأول ، وكان بك باى هذا أصله من مماليك الأتابكى أزبك وولى نيابة القدس وصار من الأمراء العشراوات .

وفى يوم الجمعة رابع عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وجاءت القاعدة ست أذرع سوى ، وكانت فى العام الماضى أرجح من ذلك

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه عمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وخلع على المقر السيفى سودون العجمى واستقر به أتابك العساكر بالديار المصرية عوضا عن دولات باى بن آركماس بحكم وفاته كما تقدم ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وكان له يوم مشهود ، وكانت الأتابكية شاغرة من حين توفى دولات باى . ولما قرر سودون العجمى فى الأتابكية قلت فى ذلك :

أميرنا الأكبر المشهور بالعجمى
وجوده فى الورى قد آل للعدم
تقول مصر لأن ولوه سلطنة
ياضيعة الناس بين العرب والعجم

وفى ذلك اليوم حضر الرئيس حامد المغربى وصحبته جماعة من الفرنج نحو من مائتى انسان وجدهم يتعبثون بسواحل البرلس فقبض عليهم وشكهم فى زناجير ، وشق بهم من القاهرة وطلع بهم الى القلعة ، فلما عرضوا على السلطان أمر بسجنهم حتى يحرر أمرهم فيما تكون .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه عزم السلطان على قاصد الصفوى فى الميدان وضرب الكرة هو والأمراء المقدمين قدامه ، فلما انتهى ضرب الكرة دخل السلطان الى البحرة التى أنشأها بالميدان ، فلما جلس عليها طلب قاصد الصفوى وأضافه هناك ضيافة حافلة وألبسه سلارى صوف فستقى بسمور من ملابيسه ، ثم عاد الى المكان الذى أنزلوه به .

وكان السلطان وكل به جماعة من الخاصكية يمنعون من يدخل اليه من الناس قاطبة ، ولا يمكنون أحدا من جماعة القاصد يخرج الى الأسواق ولا يجتمع بأحد من الناس ، ثم انه فى هذه المدة ركب مرة وصحبته أزدمر المهمندار فزار الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ثم عاد الى المكان الذى أعد له .

ومن النكت اللطيفة ما أشيع بين الناس أن القاصد لما قابل السلطان أول مرة وصحبته رأس

أزبك خان ملك التتار والقوس العريض المقدم ذكر ذلك ، فلما قرئت مطالعة الصفوى بين يدى السلطان وجدوها مكتوبة باللغات الأعجمية ، فأحضروا من قرأها وهو شخص شريف يقال له الشيخ حسين من أبناء العجم ، ثم وجدوا ضمن تلك المطالعة هذين البيتين ، الحمد لله ، ولما أرسل الصفوى فى كتابه بهذين البيتين الى السلطان أرسل الى سليم شاه بن عثمان أيضا بهذين البيتين وهو يقول :

نحن أناس قد غدا شأننا
حب على بن أبى طالب
يعيبنا الناس على حبه
فلعنة الله على العائب

فأجابه ابن عثمان عن ذلك :

ما عيبكم هذا ولكنه
بغض الذى لقب بالصاحب
كذبتمو عنه وعن ابنته
فلعنة الله على الكاذب

وأرسل يهدد أهل مصر لما قتل أزبك خان ملك التتار بهذين البيتين وهما :

السيف والخنجر ريحاننا
أف على النرجس والآس
مدامنا من دم أعدائنا
وكأسنا جمجمة الراس

وكان لما حز رأس أزبك خان ملك التتار جعل جمجمة رأسه كأسا يشرب فيها الخمر فى المقامات كما قيل عنه .

وقد أشيع فى بلاد الصفوى بأن السلطان قد اشتغل بما أنشأه فى الميدان من غرس الأشجار وشتول أنواع الأزهار والرياحين ، فقصدوا ينكتون عليه بذلك ، وهذا من نوع التهكم على السلطان ، فأجبت عن ذلك بقولى :

بالسيف والخنجر نفنى العدا
وكم لنا فى الحرب من باس
نسلب بالرعب عقول الورى
وعقلنا وافر فى الراس

وقد عمل فى ذلك جماعة كثيرة من الشعراء عدة مقاطيع على أنواع مختلفة ، وقد قلت أيضا :

ندفع بالصديق كيد العدا
ونرفض الباغى الذى ياسى
ومن نراه زاغ عن شرعنا
جوابه بالسيف فى الراس

وقيل ان السلطان لم يعجبه شىء من هذه الأجوبة التى أجابت بها الشعراء ، وانما أعجبه قول صفى الدين الحلى فكتبه عن جواب الصفوى ، وهو قوله :

ولى فرس للخير بالخير ملجم
ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقويمى فانى مقوم
ومن رام تعويجى فانى معوج

وقلت أيضا بخلاف ما تقدم من المعنى من زيادة فيها :

بالسيف والخنجر نفنى العدا
وكم لنا فى الحرب من باس
وليس شرب الدم فى شرعنا
بجائز والذم للآسى
من يبغض الصديق أو صحبه
فذاك أشقى الخلق فى الناس
ان كان قد ضلت عقول لكم
فعقلنا الوافر فى الراس

ومن مخترعاتى قولى فى أشكال الشطرنج ملتزما القافية على المعنى بما تقدم :

عساكر الصفوى ان فرزنت
فرخهم مكشوف للناس
ونفسهم قد أوجست خيفة
من عزمنا مع شدة الباس
وفيلهم قد صار ناموسة
مذ قابل الأسد بأفراس
ودستهم نصبا على رقعة
ان ديدبوا مرمادهم خاسى
فان مشى من جيشنا بيدق
يسوت شاه طايح الراس

وقولى أيضا فى مديح السلطان :

سلطان مصر لم يزل شأنه
على ملوك الأرض ذا باس
أعيذه من شر أعدائه
بسورة الفتح وبالناس
عسكره يوم الوغى طعنهم
فاق على طاعون عمواس
وان أتاه الخارج المعتدى
يجعله جسما بلا راس
ينسى الورى طاعون عمواس

وقال الأشمونى :

يراعنا الرمح وقرطاسنا
صدر عدو منكر الباس
مدادنا من دمه خطنا
تاريخ طعن مذكر الناس

وقال ابن الحجار :

يا قائلا أف على نرجس
أف على الباغى على الناس
فان خير الناس من لا يرى
شرب دم المسلم فى الكاس

وللناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

والعدل والحلم لنا حلة
حيكت مع القوة والباس
وسنة المختار طرز لها
وذكرنا تاج على الراس

وقوله أيضا :

نحن نجوم والسما ملكنا
يهدى بنا من ضل فى الناس
كم من مريد صار من شهبنا
شبه مريد وهو ذو باس

وقال الشربينى :

مغارس السنة بستاننا
نقطع منه هامة الراس
والدم لا يشرب فى شرعنا
لكن فينا قوة الباس
والعلم ثم الحلم من شأننا
كذا الحجا كالجبل الراسى
وفى ميادين الوغى عزمنا
يعجب منه سائر الناس

وقوله أيضا :

السب لا ينسب من شأننا
لكل سنى من الناس
وجيشنا كالرمل تعداده
ولم يرعنا بعشة الراس

وقال على الغزى :

نحن أسود الحرب غاباتها
رماحنا للطعن والباس

وخيلنا تسرع فى سوقها
شدت لحرب المعتدى القاسى
وسيفنا الهندى رقا للوغى
يمسح للكف مع الراس
فدأبنا يوم لقتل العدا
ويوم للنرجس والآس
والمجد لا ينسب الا لنا
مقامنا الأشرف عباسى
من خالف السنة فى شرعنا
رد على أعقابه خاسى

ولابن العاقل :

تلاوة القرآن ريحاننا
تنشق منه خير أنفاس
شرابنا الذكر به يرتوى
سناء قلب غافل قاسى
والعدل والانصاف من دأبنا
من أجل ذا سدنا على الناس
ثناؤنا بين الورى نشره
أذكى من النرجس والآس
والحمد لله على أننا
أهل العلا والأيد والباس
من أظهر الغدر لنا فالجفا
منا له والسيف للراس
ومن أتانا مخلصا وده
له لدينا كل ايناس

وقال آخر :

صحابة المختار ساداتنا
وما على المحسن من باس
نزهتنا وصل طراد العدا
وسيفنا يقطع للراس

ومن أسا ييأس من عفونا
أف على الأيس والآسى

وقال الشريف العباسى :

وسنة المختار خير الورى
جنتنا من كل وسواس
العدل والانصاف ريحاننا
خل شذى النرجس والآس
وشربنا من صفو توحيدنا
ليس من الجرة والكاس
وشأننا الحلم على من جنى
وديننا صون دم الناس

وقال شهاب الدين البحيرى المالكى :

السيف والخنجر ريحان من
يخشى من الضراء والباس
والعادل المنصف ياذا الحجا
ريحانه الاحسان للناس
شرابنا الذكر بكاس الهنا
أف على جمجمة الراس

وقال الشيخ ناصر الدين بن الطحان :

أسد الوغى فرساننا كم سقت
كأس المنايا باعيا آسى
ومن يزغ عن أمرنا طاغيا
نذقه مر الباس والكاس

وقوله أيضا :

شجعان مصر هم أسود الوغى
بقوة السطوة وابباس
وفخرهم بالسيف والرمح قد
خص بهم عن سائر الناس

وقوله أيضا :

شم الرياحين يزيد القـــوى
وشـــدة البطشـــه والبـــاس
والفتك فى الحـــرب هو الفخر لا
لعـــق الدما كالكلبُ فى الراس

وقال الفقيه موسى بن بقسماطة :

ان كان جبـــد السيف ريحانكم
وكاســـــكم جمجمة الراس
وشربكم من دم أعـــدائكم
أف عليكم أرذل النـــــاس
نحن تشرفنا عـــــلى غـــيرنا
بخـــــــدمة البيت فلا باس
أعـــداؤنا من تحت أقدامنـــا
وليس نخشى قط من خاسى

وقال الشيخ جمال الدين السلمولى :

آف عـــــلى أفك يا خارجا
حجـــاك محتـــاج الى الآس
ما أنت الا جعلى عـــــلى
رفضـــك شم الورد والآس

ولنور الدين بن حشيش :

ان كان ضرب السيف ريحانكم
وكأســـــكم جمجمة الراس
وشربكم من دم أعـــدائكم
أف عليـــكم أرذل النـــاس

وللناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

السمر والبيض غراس لنـــــا
فى وســـــط النمام والآس
وحلمنـــا ستر لمن قد جنى
ان لم يكن فى النـــاس ذا باس

وقال محمود الحلبى :

العـــــــز والسطوة ريحاننـــا
لا من شـــذى النرجس والآس
شرابنا التـــــــوحيد لا من دم
يشرب من جمجمـــــة الراس

وقال اسماعيل :

خـــــدمة بيت الله والمصطفى
كلاهمــــــا لى نوره كاسى
وملء ذاك الكاس توحيـــد من
شرفنـــا بالملك فى النـــــاس
وصرت فى مصر عـــزيزا بهـــا
لا أختشى من كيد خنـــاس
كنانة الله فمـــن شــــــانها
أهلـــكه ذو الأيد والبـــاس

وقد نظم فى هذا المعنى جماعة كثيرة من فضلاء العصر فوق المائتى انسان ، وقد جمعوا بين الغث والسمين ، وهذا ما وقع عليه اختيارى من هـــذا المعنى بحسب ما تيسر لى من المقاطيع الرقيقة من هذه الأجوبة والخنجر المقـــدم ذكر ذلك فى أول المقاطيع من هذا المعنى ، فمن ذلك قولى :

من عاب للنـــــرجس والآس
أف عليـــه فى الورى آسى
ومن يكون الســـيف ريحانه
لا رأفة فى قلبــــه القـــاسى
من كان شرب الدم من شأنه
وكأســــه جمجمـــــة الراس
فذاك كالكلب العقـــور الذى
لا يختشى فى النـــاس من باس

انتهى ما أوردناه من هـذا المعنى . ويقرب من واقعة هـذين البيتين اللذين أرسلهما الصفوى فى معنى : السيف والخنجر ريحاننا ، فقد تقدم أن هلاكو ملك التتار لما استولى على بغداد وخربها وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل سائر أمرائه . فلما فعل ذلك ببغداد طمع فى أخـذ مصر فأرسل كتابا الى سلطان مصر والى أمرائه ، وذكر فيه ألفاظا فى ذيل كتابه هذين البيتين وهما :

أين المفـر ولا مفر لهـارب
ولنا البسيطان الثرى والمـاء
ذلت لهيبتنا الأسـود وأصبحت
فى يدنا الأمراء والخلفـاء

وقال بعد ذلك :

سـتعلم ليلى أى دين تداينت
وأى غريم بالتقاضى غريمهـا

وكان سلطان مصر يومئذ المظفر قطز المعـزى ، فلما سمع ذلك جمع العساكر ، وخرج الى هلاكو بعد أن وصل الى أطراف البلاد الشامية فتحارب معه ، فانكسر هلاكو كسرة مهولة وغنم منه عسكر مصر أشياء كثيرة من سـلاح ودواب وغير ذلك . وقد أوضحنا ذلك فى أوائل ابتداء الدولة التركية فى الجزء الرابع من التـاريخ ، فالصفوى بالنسبة الى هلاكو لا شىء ، وقد قال القائل :

لو كل من قال نارا أحرقت فمه
لمـا تفـوه باسم النار مخلوق

* * *

وفى ربيع الآخر أمر السلطان بحفر الخليج ثانى مرة ، ورسم للأمير أنص باى حاجب الحجـاب بأن يتوجه الى قناطر الأوز ويباشر حفر هـذا الخليج بنفسه ، فتوجه الى هنـاك وأقام به وضرب له الخيام ، واهتم بحفر الخليج من القنطرة الجديدة الى قناطر الأوز الى سد الخشب الذى عند فاى وطنان ، فاحتفل بحفره الى أن كاد أن ينبع المـاء من أرضه وأحضر الجراريف والأبقـار ... ولكن حصل من هذه الحركة غاية الضرر وهو أن السلطان رسم بأخذ خراج الحصص والرزق قاطبـة التى تروى من هذا الخليج ، فأخذوا منهم خراج سنة كاملة وتحصل من هذه الجهة نحو من خمسين ألف دينار على ما قيل ، فصرف منها البعض عـلى حفر الخليج وحمل الباقى الى الخزائن الشريفة وحصل للمقطعين الضرر الشامل .

وفيه أمر السلطان بعمل جسر فى خليج الزربية ، فوضعوه عنـد قنطرة موردة الجبس ، فامتنعت المراكب من الدخول الى الزربية ، وحصل لسكان الجـزيرة الوسطى غاية الضرر ، ولم سكن من بيوتها فى هذه السنة الا القليل وبارت من الكرى الذى جرت به العادة ، وكانت تتزاحم الناس على كراها ولا تلحق ، وكان القائم فى عمل هذا الجسر ابن فرو شيخ جهات المطرية ، وقد حسن للسلطان بأن بسد خليج الزربيـة من جهة بولاق ، ويصير الماء يدخل بعزم من تحت قصر ابن العينى الذى بالمنشية ويدخل الى الخليج الناصرى لبمكث الماء فى الخليج حتى تروى منه أراضى المطرية والبلاد التى تحتها .

وفى يوم الثلاثاء خامسه كان ختام ضرب الكرة بالميدان . فلما انتهى ذلك أحضر السـلطان ثيرانا وكباشا يتنـاطحون قدامه ، ووقع فى ذلك اليوم خصمانية بين المماليك فى لعب الرمح وكان قاصد الصـفوى حاضرا ، فلمـا انقضى أمر الكرة طلع السلطان من الميدان الى الحوش وجلس بالمقعـد الذى أنشأه هناك ومد به أسمطة حافلة ، وكانت

الأمـــراء حاضرين ، وانشرح الســـلطان فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأربعـــاء ثالث عشره نزل الســـلطان وتوجه الى نحو خليج الزعفران وكشف على حفر الخليج الذى رسم به ، وكان معـــه جماعة من الأمراء المقدمين وبعض خاصكية . فلمـــا نظر الى ما حفروه من الخليـــج لم يعجبـــه ، ومقت الأمير أنص باى حاجب الحجاب فيما صنعه ، ثم توجه من هنالك الى تربة العادل التى بالريدانية فأقام بها الى بعد العصر ، وجرب هنالك مكاحل ، ومد له بركات ابن موسى المحتسب هنالك مدة حافلة ، ثم ركب بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس رابع عشره قبض نائب الغيبة بالشرقية على شخص من العربان العصاة يقال له أحمد بن شكر ، وكان من شرار المفسدين ، فلمـــا قبض عليه سلخ جلده وحشـــاه تبنا وأرسله الى السلطان ، فسر الناس لذلك فانه كان من كبـــار المؤذين وكان يشوش على المسافرين ففرح به كل أحد من الناس ، فكان كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

وفى يوم الأحد سابع عشره نزل السلطان أيضا وتوجه الى تربة العادل ، وجربوا قدامه مكاحل غير تلك المقدم ذكرها .

وفى ذلك اليوم توفى أيدكى دوادار سكين ، وقد بقى من الأمراء العشراوات ، وكان لين الجانب قليل الأذى ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره جلس السلطان فى المقعد الذى بالميدان وساقت الرماحة قدامه وهم لابسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحمل فى رجب ، ففعلوا ذلك ثلاثة أيام متوالية ، وكان المعلم نمر الحسنى أحـــد المقدمين الألوف فساقوا أحسن سوق ، وكان قاصد الصفوى فتعجب من ذلك غاية العجب .

وفى هذا الشهر أمر السلطان بهدم خان ا وقد ملكه بطريق شرعى ، فلما هدمه أنشأه جديدا وجعل به الحواصل والدكاكين ، و تزخرفه جدا .

وفى أواخر هذا الشهر توفيت الريسة ا ريسة خوند الخاصبكية ، وكانت من أعياز البلد ، وكانت لا بأس بها .

* * *

وفى جمادى الأولى ، فى يوم الاثنين ثانيه ختام سوق الرماحة ، وخلع السلطان على والأربعة باشات على جارى العـــادة ، وكاذ مشهودا .

وفى يوم الجمعة ســـادسه خلع الســـلطا قاصد الصفوى وأذن له بالعود الى بلاده ، فى باكر النهار ، ولم يعلم ما أجابه به السلطا جـــواب البيتين اللذين تقـــدم ذكرهما فى م السيف والخنجر ريحاننا ، ولم يكتب له شئ أجاب به الشعراء ، وفى مدة اقامته بمصر و الســـلطان جمـــاعة من الخـــاصكية ومنعو الاجتماع بالناس قاطبة .

وفيه قبض السلطان على المعلم على الص وأخيه المعلم أحمد والمعلم خضر المعاملين فى ال فلما قبض عليهم وضعوهم فى الحديد وســ بالعرقانة . وســـبب ذلك أن ديوان الدولة ك غاية الانشحات واللحوم معطلة ، وانكسر للع نحو من ثلاثة أشهر لم يصرف فيهـــا لهم لحو وقد جرى بسبب ذلك ما لا خير فيـــه ، و الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره تسلسل النيل الزيادة بعد ما كان قد أشرف على الوفاء ، فر

السلطان لحاجب الحجاب والوالى بأن يتوجهـا ويكبسا على المتفرجين الذين فى الخيام بالروضة ، فتوجه الى الروضـة أنص باى حاجب الحجـاب ووالى القـاهرة ، فلم يشـوشا على أحـد من المتفرجين ، ونادیا بالأمان والاطمئنان ، وأن أحدا لا يتجاهر بالمعاصى ، وخرقا بعض خيـام ، وكان يوما مهولا .

وسـبب ذلك أن النيـل كان قد أشرف على الوفاء ، وبقى عليه من الوفاء خمس أصابع ، فزاد فى تلك الليلة أصـبعين وتأخر عن الوفاء ثلاث أصابع ، ثم زاد من بعد ذلك أصبعين وتأخر عن الوفاء يومئذ أصبعا واحدة فصج الناس من ذلك ، وأشيع بين الناس أن الروضه كثر فيها الفسق والمعاصى ... فعند ذلك رسم السلطان لحـاجب الحجاب والوالى بكبس الروضـة ، فتوجها الى هناك ، وكبسا على النـاس الذين بالخيـام ولم يفحشـا كل الافحاش فى ذلك . وكان السـلطان قبل ذلك توجه الى المقياس وصلى هناك ودعا الى الله تعالى بالوفاء ، ثم انه رسم للقصاة الأربعة بأن يتوجهوا الى المقياس ويبيتوا به ، وقرأوا هنـاك ختمة ، ومد أسمطة حافلة ، واجتمع هنـاك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغير ذلك من مشاهير الناس

ثم فى يوم الخميس ثانى عشره نزل السلطان الى المقياس ، فقدموا له الحراقة المعـدة لكسر السد ، فنزل بها ونوجه الى المقياس ، فطلع من على القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، فأقام هناك الى بعد الظهر ، ومد هنـاك مدة حافلة ، ثم نزل من المقياس فى الحراقة وشق من بر الروضة . فارتفعت الأصـوات له بالدعاء ، وانطلقت له النسـاء من الطيقان بالزغاريت ، ولا سيما كانت ليـلة وفاء النيل وكانت الروضة فى غاية البهجة وهى محتبكة بالخيام ، فكان له يوم مشهود ، فاستمر شاقا فى البحـر حتى طلع من عنـد قصر ابن العينى . فلما طلع الى القلعـة أوفى النيل فى تلك الليلة ، وكسر فى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى الموافق لخامس عشر مسرى ، فاسـتبشر النـاس بنزول السلطان الى المقياس وكونه أوفى النيل تلك الليلة بقدومه الى المقياس .

وفيه نزل السلطان وتوجه الى نحو قناطر الأوز وكشف على الحفر الذى حفره أنص باى حاجب الحجاب ، وشق من بطن الخليج فلم يعجبه القطع فأمر باعادته ثانيا ففعلوا ذلك . فكان كما قيل فى المعنى :

مولاى ان النيـل لمـا زرته
حياك وهو أبو الوفا بالأصبع
أرخى عليـه الستر لما جئته
خجـلا ومد تضرعا بالأذرع

وكان النيل قد توقف عن الوفاء على أصـبع واحدة فأوفى تلك الليلة وزاد عن الوفاء أصبعين . وكان مع السلطان لما نزل الى المقياس الأتابكى سودون العجمى والأمير أركمـاس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والعشراوات . فلما وفى النيل علقوا الستر فى شباك القصر الذى أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، ثم رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السـد على العـادة ، فنزل فى الحراقة وأتى للمقياس وخلق العمود ، ثم توجه الى فتح السد ، وكان له يوم مشهود ، وهذا أول فتحه للسد وهو فى الأتابكية فأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة ولكن لم يصل فى ذلك الى من تقـدمه من الأتابكية . فلمـا فتح السد قدموا له فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم طلع الى القلعـة وخلع عليه السلطان خلعة حافلة على العـادة . وقد سر الناس بوفاء النيـل قاطبة

بعد ما كان قد تسلسل فى الانكسار وتشحطت الغلال فجاء الفرج من عند الله تعالى ، فكان كما قيل فى المعنى :

ان بحر النيل قد وفى لنا
ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين الا أنه
حين وفى ما عليه انكسرا

ومما وقع فى يوم فتح السد من الوقائع المهولة أن الناصرى محمد بن العلاء على بن خاص بك توجه الى دار عند قنطرة سنقر ليتفرج هناك على قتال الزعر ، فلما قعد فى تلك الدار اجتمع فوق سطحها نحو من مائتى انسان بسبب الفرجة ، فهجم عليهم طائفة من المماليك ، وطلعوا فوق السطح فوقع بهم على من فى الدار فقتل من المماليك سبعة أنفس وقتلت امرأة صاحبة الدار وجاريتها ومن كان عندها من العيال ، ثم وقع سقف الدار على الناصرى محمد بن خاص بك فتصلب عليه الخشب هو وولده فلم يضره ذلك لكن حصل له تشويش فى بعض أعضائه وانزعاج وكانت سلامته على غير القياس هو وولده ، ومات من جماعته شخص يسمى أحمد كنينوا وكان من أولاد الناس وهو حواليه يتقاضى أشغاله وكان لا بأس به ، فرجع ابن خاص بك الى بيته وهو محمول ودفن أحمد كنينوا فى ذلك اليوم ، وكان عدة من قتل فى ذلك اليوم تحت الردم سبعة عشر انسانا ما بين رجال ونساء ، وكانت حادثة مهولة لم تكن لأحد فى اكتلاء والمقدر كائن ، كما يقال فى أمثال الصادح والباغم حيث يقول :

والمرء لا يدرى متى يمتحن
فانه فى دهره مرتهن

وقوله أيضا :

وليس فى العالم ظلم جارى
اذ كان ما يجرى بحكم البارى

وفيه أفرج السلطان عن أبى البقا ناظر الاسطبل بعد ما قاسى شدائد ومحنا وضرب بين يدى السلطان وصودر ، فطلع علاء الدين ناظر الخاص وتسلمه من قدام السلطان وضمنه فى ثمانية آلاف دينار ، فخلع عليه السلطان ونزل الى داره واستمر يورد ما قرر عليه من المال .

ومن الوقائع أن السلطان قبل وفاء النيل أمر يعمل جسر على خليج الزربية من عند قنطرة موردة الجبس ، حتى يحوش الماء ويدخل الى الخليج الناصرى وتروى منه جهات المطرية . فلما صنع هذا الجسر حصل لسكان الزربية غاية الضرر ، وامتنعت عنها المراكب من نحو بولاق ، وصار ماء الخليج راكدا ، فلم يسكن بالزربية بيت فى هذه السنة ولا عمل بها مقصف ولا فتح بها دكان وآل أمرها الى الخراب . وكان القائم فى عمل هذا الجسر ابن فرو شيخ جهات المطرية حتى يحوش الماء من الخليج الناصرى ، وكان النيل فى هذه السنة عاليا فلم يحتج الى عمل هذا الجسر .

وفى هذا الشهر منع السلطان جماعة من المباشرين ألا يسكنوا فى بركة الرطلى ، وضيق عليهم فى ذلك ، وقال لهم : « أنتم تضيعون مالى فى بركة الرطلى فلا يسكن أحد منكم بها » ، فلم يسكن بها أحد من المباشرين فى هذه السنة حتى ولا القضاة فكانت بركة الرطلى فى هذه السنة فى غاية الانهمال وقلة البهجة ، حتى ولا بيوت الجسر لم يسكن بها الا القليل .

وقد أشيع بين الناس أن السلطان يقصد سد فم البركة ويمنع المراكب من الدخول اليها ، فحصل للناس غاية المشقة بسبب هذه الاشاعات ، فلم يكن

لهذا الكلام صحة ، ولكن لم سكن بها أحد من المباشرين فى هذه النيلية . وقد تقدم ما أشيع من أن الملك الظاهر جقمق أمر بسد خوخة باب الجسر ومنع الناس من سكنته ، فسدت خوخة باب الجسر وأقامت وهى مسدودة أياما حتى تكلم ناظر الخاص يوسف مع السلطان فى أمرها فرسم بفتحها على العادة .

وفى يوم الخميس تاسع عشره حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الكرج ، فأكرمه السلطان وقرأ مطالعتــــه ، وأوكب له فى الحوش ، وجلس على المصطبة التى أنشأها عوضا عن الدكة بالحوش .

وفى يوم الأحد رابع عشرين مسرى زاد الله فى النيل المبارك بعد الوفاء ثمانى أصابع دفعة واحدة فعد ذلك من النوادر ، وقد بلغ الى ثمانى عشرة ذراعا قبل مضى مسرى .

وفى ليلة الثلاثاء رابع عشرينه أشيع بين الناس أن المعلم على الصغير معامل اللحم قد تسحب من السجن المسمى بالعرقانة التى هى من داخل الحوش السلطانى ، قيل انهم نقبوا حائط السجن ونزلوا فى حبال الى تحت القلعه ، وكان بالعرقانة جماعه من المعاملين وهم المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد والمعلم خضر وأخوه المعلم محمد ، فأما المعلم على الصغير لما تدلى فى الحبل انقطع به فنزل على ضلعه فانكسر فأغمى عليــه ، واستمر باركا مكانه حتى قبضوا عليه . ثم فى صبيحة ذلك قبضوا على المعلم خضر والمعلم أحمــد أخى على الصــغير وآخرين منهم ، فلما عرضوا على السلطان وبخهم بالكلام واشتد غضبه عليهم ورسم بتسليمهم الى الوالى .

ومما وقع للســلطان فى أمر المصادرات من الغرائب ، أنه فى أوائل دولته قبض على شموال اليهودى الصيرفى وعاقبه وعصره هو وزوجته ، واستخرج منه فوق الخمسمائة ألف دينار ، حتى أخذ رخام بيته الذى فى حارة زويلة فوضعه فى مدرسته ، واستمر يعاقب شموال هو وزوجته حتى ماتا تحت العقوبة .

وفى يوم الثلاثاء المذكور قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده ووكل بهما فى الجــامع الذى بالحوش ، وكان شمس الدين بن عوض رأس المرافعين فى المباشرين قاطبة وهو غير محبب للناس .

وفى يوم السبت ثامن عشرينه فيــه ثارت فتنة كبيرة من المماليــك الجلبان ، وركبوا وطلعوا الى الرملة وهم بزموط وكبورة . وكان سبب ذلك أن اللحم الذى كان يصرف للمماليك فى كل يوم تعطل بواسطة المعلم على الصغير والمعلم خضر بسبب ما تقدم لهما ، وكان العليق أيضا معطلا ، فما طاق المماليك ذلك فثارت الفتنة من كل جانب وركبوا على السلطان ، وقصــدوا قتــل الوزير يوسف البدرى فهرب وغيب من بيتــه ، ثم ان المماليك طلبوا من السلطان نفقة لكل مملوك مائة دينار ، وكان للمماليك مدة يقصدون الوثوب على السلطان فما صدقوا بأمر اللحم والعليق فجعلوا ذلك حجة .

فلما ثارت هذه الفتنة اضطربت أحوال القاهرة ووزع الناس قماشهم وغلقت الأسواق والدكاكين خوفا من النهب كما فعل المماليك قبل ذلك من أمر النهب كما تقدم لهم ، فبات الناس على وجل .

فلما كان يوم الأحد صبيحة ذلك خشى السلطان من اتساع الفتنة فنادى للمماليك بأن ينفق عليهم لكل مملوك مائة دينار فى أول شهر رجب ، فلما سمع المماليك ذلك خمدت الفتنة قليلا ، وسكن الحال بعد ذلك الاضطراب .

وفى هــذا الشــهر أفرج السلطان عن القاضى

شرف الدين الصغير ناظر الدولة وكاتب المماليك ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بجامع القلعه ، وأفرج عن عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد بن صلاح الدين وكانا فى الحديد وهما فى الترسيم بجامع القلعة ، وأفرج عن علم الدين المتحدث فى الخزائن الشريفة ، وأفرج عن المعلم يعقوب اليهودى وبانوب النصرانى الكاتب فى الخزانة ، فلما أفرج عن هؤلاء وزع عليهم أربعمائة ألف دينار ، فقرر على عبد الكريم بن الجيعان وابن عمه محمد خمسين ألف دينار ، وقرر على شرف الدين الصغير عشرين ألف دينار ، وقرر على علم الدين خمسين ألف دينار ، وقرر على المعلم يعقوب اليهودى مائة وأربعين ألف دينار ، وأفرج عن شمس الدين بن عوض وعن ولده ، وقرر على شمس الدين بن عوض مائة ألف دينار ، وقرر على بانوب النصرانى عشرين ألف دينار ، وهذا على ما أشيع بين الناس ان كان صحيحا ، فقيل كتبوا خطوط أيديهم بذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة ، فى يوم الخميس ثالثه ، نزل السلطان من القلعة وشق من القاهرة وقدامه ولده ، فزينت له القاهرة ، واستمر حتى نزل فى جامعه الذى أنشأه فى الشرابشيين ، فكشف عليه وعلى المدرسة ، فمد له هناك الأمير خاير بك مدة حافلة ، وأنعم فى ذلك اليوم على صوفية المدرسة لكل واحد منهم ، وأنعم على البوابين والفراشين وأيتام المكتب ، ففرق فى ذلك اليوم نحوا من خمسمائة دينار بأشرفى ، وأنعم على مشايخ الدرس لكل واحد بعشرة أشرفية ، وحضر قدامه قراء البلد والوعاظ ، وكان له موكب حافل ، ومشت قدامه الأمراء الرءوس النوب بالعصى من باب زويلة الى الجامع ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له الزغاريت من الطيقان ، ولم يفع له من حين عمر الجامع والمدرسة أنه نزل وكشف على عمارتهما سوى هذه المرة ، وكان له يوم مشهود .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن السلطان لما طلع الى المدرسة تزاحمت الناس على سلم المدرسة فوقع الافريز الرخام الذى كان على السلم فانعطب من تحته شخص كان تحت السلم فانكسرت رجله ، وحصل لجماعة آخرين الضرر الشامل بسبب ذلك . وكان معه من الأمراء الأتابكى سودون العجمى ، وأركماس أمير مجلس ، والأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، والأمير طومان باى الدوادار قريب السلطان ، وآخرون من الأمراء المقدمين والعشراوات ، والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية .

وفيه توفى شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له أزبك الشريفى ، وكان يعرف بأزبك اليهودى ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم السبت خامسه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو المطرية ، ثم رجع ودخل من باب النصر وأتى الى خان الخليلى وكشف عن العمارة التى أنشأها هناك ، وقد ملك خان الخليلى وهدمه وأنشأه عمارة جديدة .

وفى يوم الاثنين رابع عشره عمل السلطان الموكب فى الحوش بالشاش والقماش وخلع على الأتابكى سودون العجمى خلعة الأنظار ، وكذلك سودون الدواداری رأس نوبة النوب .

وفى يوم الخميس سابع عشره عرض السلطان المعلم على الصغير وأخاه المعلم أحمد والمعلم خضر وكانوا فى التراسيم مدة ، فلما عرضوا على السلطان قرر عليهم اثنى عشر ألف دينار وألزمهم بأن يحضروا ذلك فى تلك الساعة وكان يوم الجامكية ، فقالوا

ما تقــدر على ذلك ، فخنق السلطان منهم ، فأمر بضربهم بالمقارع فضربوا ضربا مبرحا حتى أشرفوا على الموت ، ولم يقدر أحد من الأمراء يشفع فيهم ، وقد قيل فى المعنى :

ومن خدم السلطان أكرم نفسه
ولكنــه عمــا قليــل أهانهــا
كمن عبد النيران لم ننتفع بهــا
ولم يلق الا حــرها ودخانهــا

وفى يوم الأحــد عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطعم السلطانى ، فجربوا هناك قدامه عدة مكاحل فصح منها بعض شىء ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه توجه السلطان الى سد أبى المنجا ففتح بحضرته ، وكان يوما مشهودا ، ثم توجه من هناك ونزل فى الحراقة الى نحو المقياس فمد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة فأقام هناك الى بعد الظهر ، ثم نزل فى الحراقة وأتى الى بولاق فكشف عن المراكب التى أنشأها هناك ، ثم عزم عليه الأمير خاير بك الخازندار فى السبكية التى ببولاق فمد له هنــاك مدة حافلة ، فأقام هنــاك الى بعد العصر فركب وشق من على جزيرة الفيل من بين الغيطان ، واستمر شاقا حتى طلع من على قنطرة باب البحر وشق من المقس ، ثم أتى الى باب القنطرة وكشف على الربعين اللذين أنشــأهما هنــاك ، ثم شق من سوق مرجوش الى القاهرة وخرج من باب زويلة وطلع من هناك الى القلعة ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية

وفى يوم السبت ســادس عشرينه رسم السلطان بتوسيط تسعة أنفار ، منهم مشــايخ عربان ومنهم جماعة كانوا نقبوا حائط المقشرة وقصدوا التسحب من هناك فأدركوهم وقبضوا عليهم ، ثم وسطوهم فى أماكن شتى .

وفى هذا الشهر عم النيل أراضى الديار المصرية وتطنبت منه الحلجان ، وكانت البهجة فى هذه السنة للخليج الحــاكمى لكون أن السلطان على قنطرة الخروبى وقنطرة باب القنطرة ، وصار يدخل من تحتهما المراكب المستترة بالدلور ، فصــار الناس ينزلون فى المراكب ويشقون الخليــج الحاكمى الى عنــد قنطرة السد ويرجعون ، فحصل للمتفرجين بهجة ثانية . ونظم الشيخ بدر الدين الزيتونى فى هذه الواقعة بديعية كلها غرر ، وذكر فيها ما جدده السلطان من قنــاطر وعمائر وغيطان وغير ذلك من التذكار الحسن بالديار المصرية وغيرها من الجهات ، كما ســيأتى الكلام على ذلك فى القصــيدة التى نوردها هنا وهى هذه :

قد جــدد الغورى ســـلطاننا
قنــاطر للأجــر والخــير
أكــرم به من ملك أشرف
مؤيد بالعــز منصـــور
على الخليج الحاكمى وضـعها
قد شــاع فى طول وتقصــير
قنــاطر الور لقــد أقبلت
تزهو ببشـــنين وفرفور
كذا بنى وايل معمـــورة
بأمــره من غــير مأمور
وجددت قنطره بعــدها
بالكحل قد ضــاءت من النور
قنطرة الحاجب تجــديده
والعين للحاجب ذو نور
فاق على الخروب فيما بنى
من ضــيق بنيان وتحقير
وكان فى تجددها حكمة
لم يحتكمها صاحب السور

قنطرة الباب ترى فوقها
بابا بها يسمى بتقدير
على بناها صار فى وسعة
يدخل فيها كل شختور
بعدة القلع وان شاء فى
مستر فيها بدلور
لا يقطع الموصول مع منشد
غنى على دف وطنبور
وكل عواد نرى عوده
صحبة جنكلى وسنطير
ناصبها أعرب فى رفعها
مركب فى الكسر مجرور
والموسكى صلح بنيانها
بسرعة منه على الفور
كذا حسين صار مع سنقر
بناهما فى مصر كالطور
وباب خرق حار لما رأى
قنطرة فاقت على السور
طقزدمر شيد بنيانه
كذا عمر شاه بعد تأخير
وكم سباع قادها نصره
تسلسلت من غير تنكير
ومن بكى فى السد يوم الوفا
بجبر قلب غير منكور
فهو نهار الكسر مع جبره
ما بين مكسور ومجبور
وجسر البحر بزاربية
فجاء جسر غير مشكور
وانقطعت لذات سكانها
من مقلع يأتى ومحدور

وجدد المقياس حتى غدا
يزهو بمنظوم ومنثور
ومجرة الميدان انشاءه
عقودها دور على دور
ميدانه يحكى لنا جنة
مساكن الولدان والحور
أغصانه هب عليها الهوى
من كل ممدود ومقصور
أطياره فى دوحها غردت
من كل مسموع وعصفور
وكل سن ضاحك مطرب
وكل حسون وزرزور
وبلبل هيج بلبالنا
وكل قمرى وشحرور
ومن هزار بات مع الفه
مطوقا بالوصل مسرور
وفاخت فى شكره دائما
فى ضيقة الأقفاص مأسور
وبحرة هب عليها الهوا
جعدها تنقيش تصوير
فى جمع تصحيح نرى ماءها
وبالهوا فى جمع تكسير
وعمر القلعة صارت به
أماكنا عامرة الدور
وقد حوى فى مصر من جامع
فرد بذكر الله معمور
والقبة الزرقا وصهريجها
والماء والكيزان والزير
كأن برد الثلج فى مائه
لكل عطشان ومحرور

وفى طريق الحج كم منهل
عمره قصدا الى الخير
وعين بازان جرى ماؤها
تجديدها آمنا من الغور
فالله ينصره ويبقى لنا
أيامه آمنا بلا جور
وصل يا رب على المصطفى
منقذنا من كل محذور
صلاة زيتون يرى نشرها
أطيب من مسك وكافور
والآل والأنصار مع صحبه
أهل الثنا والفضل والخير
ما أقبل الصبح بأنواره
وأدبر الليل بديجور

* * *

وفى رجب — فى يوم مستهله — توجهت طائفة من المماليك الجلبان الى شونة السلطان ونهبوا أشياء كثيرة من الشعير ، فعز ذلك على السلطان ، وكانت المماليك متقحمة على الشر ، وأشيع أمر الركوب وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك

وفى يوم الجمعة ثالثه ، الموافق لسابع عشرين توت القبطى ، ثبت النيل المبارك على تسع أصابع من عشرين ذراعا ، وكان نيلا جدا لكن كان حب البرسيم غاليا وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل أردب ، وارتفع سعر سائر الغلال ، واستمر النيل ثابتا الى أواخر بابه .

وفى يوم الأحد خامسه ، قوى أمر الاشاعة بركوب المماليك ووزع التجار ما كان عندهم من القماش وغلقت الأسواق قاطبة ، وسبب ذلك أن السلطان رجع عن أمر النفقة بعد أن نادى فى القاهرة للعسكر بأن النفقة مع جامكية شهر رجب فلما رجع عن ذلك أشيع أمر الركوب .

وفى يوم الأحد خامسه . عرض السلطان المماليك فى الحوش وهم مماليكه الجلبان فقط ، فلما عرضهم وبحهم بالكلام وقال : أنا أخلع نفسى من السلطنة وولوا من تختارونه ، فأقام يعرض المماليك الى بعد العصر ، فآل الأمر الى أن وقع الاتفاق على أنه ينفق على مماليكه المشتريات فقط وأن النفقة تكون أربعين دينارا . فامتنع المماليك من ذلك ، فتكلم بعض الأمراء مع السلطان بأن تكون النفقة خمسين دينارا وهو يقول : « ما أقدر على ذلك » ، فانفصل المجلس على أنه ينفق عليهم لكل مملوك خمسين دينارا ، ثم ان السلطان شرع فى بيع أملاك ورزق مما كان أوقفهم على مدرسته بسبب تحصيل المال لأجل النفقة ، وأظهر أن الخزائن مشحوتة من المال وأنه عاجز عن تحصيل المال .

وفى ليلة الثلاثاء رابع عشره فيها خسف جرم القمر خسوفا فاحشا ، وأقام فى الخسوف نحوا من خمسين درجة حتى أظلمت الدنيا ، ولم ينجل الى قريب التسبيح ، وفى واقعة حال الخسوف يقول بعض الشعراء :

كأنما البدر وقد شانه
خسوفه فى ليلة البدر
وجه مليح حسن وجهه
جارت عليه ظلمة الشعر

ثم ان السلطان رمى على التجار فاطبه شاشات وأزرا وأثوابا صوفا ، ورمى على السوقة ريتسا وعسلا وزبيبا وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث . وصاروا يستحثونهم فى سرعة الثمن لأجل النفقة ، فغلقت الأسواق بسبب ذلك وأقامت وهى مغلوقة أياما ، ثم ان السلطان رمى على بعض جماعة من الأمراء المقدمين ررق مشترياته ، وحثهم فى سرعة

قبض ثمن ذلك ، ورمى على جماعة من أعيان اولاد الناس قبل ذلك وحثهم فى سرعة قبض ثمن ذلك . ومن جملة أولاد الناس الناصرى محمد بن خاص بك ، وغيره من اولاد الناس أيضا وحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذه النفقة ، ثم ان السلطان آنفق على مماليكه المشتريات فقط ولم يعط المماليك القرانصة شيئا ولا مماليك الأشرف قايتباى ولا المماليك السيفية ، فأنفق على ممالكه لكل مملوك خمسين دينارا ، فعز ذلك على المماليك القرانصة وكثر القال والقيل فى ذلك ، وأشيع أمر الركوب على السلطان بسبب ذلك ، فلم يطلع من يدى المماليك القرانصة شيء وراحت على من راحت ، وأكمل السلطان النفقة على مماليكه ولم يعط القرانصة شيئا .

وفى يوم الأحد سادس عشرينه تشحط اللحم من القلعة وأقام أياما لم يصرف للعسكر لحم سوى للمماليك الذين فى الطباق فقط ، فنهب المماليك القرانصة اللحم وهو طالع الى القلعة ففعلوا ذلك مرتين فى هذا الشهر

***

وفى شعبان — فى يوم الخميس مستهله — خلع السلطان على الأمير يوسف الناصرى ، الذى كان نائب حماة وولى نيابة ملطية وحماة ونيابة قلعة حلب ثم حضر الى الديار المصرية ، فقرره فى شادية الشراب خاناه ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين توجه الأمير أبرك مملوك السلطان الى حلب وأعيد الى نيابة قلعتها كما كان ، وذلك قبل أن يلى نيابة طرابلس .

وفى هذا الشهر تشحط اللحم البقرى والضانى أيضا واضطربت أحوال القاهرة ، وكان سبب ذلك أن السلطان قد رمى على الجزارين نيران الأكرة وأقامها عليهم كل ثور بأربعين دينارا ، فهرب الجزارون من هذه الرماية وتعطل بيع اللحم البقرى والضانى ، فأقامت المدينة معطلة أياما حتى تراجع الأمر قليلا ، وكانت لحوم العسكر معطلة نحوا من أربعة أشهر لم تصرف بسبب ما جرى للمعلم على الصغير والمعلم خضر كما تقدم .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو تربة العادل وجرب هناك مكاحل ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الأحد ثامن عشره نزل السلطان وشق من القاهرة وتوجه الى خان الخليلى وكشف عن عمارته التى أنشأها هناك ، ثم توجه الى باب الفتوح وكشف عن عمارة الأتابكى قرقماس التى أنشأها هناك ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو بولاق وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، ثم نزل فى الحراقة وتوجه الى المقياس وجلس فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، ثم صلى العصر وعدى من المقياس الى بر مصر وطلع الى القلعة وشق من الصليبة فى موكب حافل

وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه ، الموافق لسابع عشر هاتور القبطى ، فيه قلع السلطان البياض ولبس الصوف .

ثم فى يوم السبت صبيحة ذلك نزل السلطان وتوجه الى نحو مدرسته التى بالشرابشيين ، فمد له هناك الأمير خاير بك الخازندار مدة حافلة فأكل منها ، ثم ركب وطلع الى القلعة .

وفيه أنعم السلطان على الأمير أزبك المكحل بتقدمة ألف كما كان أولا ، وكان من حين شفع

فيـه قرقد بك بن عثمان وحضر من دمبـاط وهو طرخان ، وأنعم على قانصوه الفاجر بتقدمة ألف أيضا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشرينه نزل السـلطان وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد سماطا حافلا ، وأقام هناك الى بعـد العصر ، وعدى من هناك الى نحو بولاق فكشف على المراكب ثم عاد الى القلعة .

* * *

وفى رمضان — وكان مستهله يوم السبت — طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وطلع الوزير يوسف البدرى الى القلعة والزينى بركات ابن مـوسى المحتسب ، وطلعوا باللحم والخـبز والدقيق والسكر وهو مزفوف على رءوس الحمالين وكان السلطان فى الميدان فخلع عليهما ، وكان يوما مشهودا .

وفيه وزع السلطان على اليهود السمرة نحوا من سبعين ألف دينار فتشكوا من ذلك ، وسبب توزيع هذا المال أن المعلم يعقوب اليهودى لما صـادره السلطان قرر عليه مائة ألف دينار فشكا من ذلك وأظهر العجز ، فرسم السلطان بأن طائفة اليهود السمرة والربان تساعد المعلم يعقوب فى هـذه المصـادرة ، فوزعوا ذلك على السمرة والربان والقراء وجماعة من التجار اليهود ، فحصـل لهم الضرر الشامل قاطبة ، وقيل تضاعفت هذه المصادرة الى دون المائة ألف دينار .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من البلاد الحلبية والشامية بأن الموت قد كثر فى الأبقار فمات منها ما لا يحصى ، وقد وقع مثل ذلك بالديار المصرية فى أيام الخلفاء الفاطميين .

وفى يوم الأحد تاسعه نزل السلطان من القلعة وصحبته ولده ، فتوجه الى نحو المطعم السلطانى وجلس على المصطبة التى هناك ، فرموا قدامه رماية بالطيور والكلاب وانشرح فى ذلك اليوم ، وسير الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الخميس ثالث عشره حضر الى الأبواب الشريفة قانصـوه خازندار الأمير آزدمر الدوادار الكبير كان ، وكان السلطان قرر قانصوه هذا فى نيابة عينتاب فسعوا عليه حتى عزل ورجع الى مصر وهو معزول ، بعد أن سعى فى ذلك بمال له صورة فأقام مدة يسيرة وعزل عنها .

وفيه تغير خاطر السلطان على الرئيس كمال الدين بن شمس المزين ، وكان من خواصه ، فمنعه من الطلوع الى القلعة ورسم له بأن يتوجه الى بلاده ويقيم بها .

وفى يوم الأحد سابع عشره توفى الأمير عبـد اللطيف الزمام وكان أصله من خدام الأشرف اينال وكان دينا خيرا لين الجانب قليل الأذى ، وكان قد كبر سنه وشاخ وناف عن الثمانين سنة من العمر وكان رومى الجنس أبيض اللون طويل القامـة نحيف الجسد .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره تغير خاطر السلطان على القاضى أبى البقاء ناظـر الاسطبل ومستوفى الخـاص ، فوضعه فى الحـديد وعراه من أثوابه وكشف رأسه وكان ذلك فى قوة البرد ، فسلمه الى الوالى فى ذلك اليوم ونزل من القلعة وهو ماشى عريان مكشوف الرأس فى الحديد ، وحلف السلطان بحياة رأسه أنه لا يلبس أثوابه ولا عمـامته حتى يغلق ما قرره عليه من المال ، ورسم للوالى بأن يقعده على البلاط من غير فرش ، وهذه ثانى نكبة وقعت لأبى البقـا مع السلطان وكان مظلوما مع السلطان فى هذه الواقعـة ، فان أمره كان رائجا وله دواليب قصـب بدمياط تسد ما عليه فوضع

السلطان يده على الدواليب وطلب منه بعد ذلك المال الذى قرره عليه فحصل له الضرر الشامل بسبب ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

يا من يرى خدمة السلطان عمدته
هل أرث ذلك الا الهم والهرم
فقلبه وجل والنفس خائفة
وعرضه عرض والدين ملتثم
هذا اذا كان فى أيام دولته
فكيف بالمرء ان زلت به القدم

وفيه أنفق السلطان الكسوة على العسكر وكانت فى غاية الانشحات من تعطيل المباشرين .

وفى يوم السبت ثانى عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة شخص من أمراء عربان الشام يقال له محمد بن ساعد ، وكان من العصاة لم يدخل قط تحت طاعة السلاطين ولا نواب الشام ، وكانوا يخشون من بأسه ، فحضر فى دولة الغورى الى الديار المصرية وصحبته تقدمة حافلة الى السلطان ما بين مال وخيول وسلاح وغير ذلك ، فعد حضور ابن ساعد الى مصر من جملة سعد السلطان قانصوه الغورى وكيف دخل تحت طاعته ، وقد قيل فى المعنى :

أيا مليك العصر لا زلت فى
عز وتأييد ونصر وفى
صارمك المشهور ماضى الشبا
ونورك بالسعد لا ينطفى

وفى يوم الأحد ثالث عشرينه نزل السلطان من القلعة وصحبته ولده ، فتوجه الى المقياس وأقام به ساعة ، ثم نزل فى الحراقة وأتى الى بولاق وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، ثم ركب من هناك وأتى الى قنطرة الحاجب فطلع من عليها ودخل من باب الشعرية ، ثم آتى الى باب القنطرة وكشف على الربع الذى عمره على القنطرة من الجهتين ، وخرج من باب القنطرة وشق من سوق مرجوش ، ثم شق من القاهرة وطلع من بابى زويلة الى القلعة ، وكان فى نفرقليل من العسكر ، ومشى الوالى ورءوس النوب قدامه بالعصى والزينى بركات بن موسى المحتسب من بولاق الى القلعة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه نزل السلطان وسير الى جهة المطرية ثم عاد الى القلعة .

وفى ذلك اليوم كان ختم البخارى بالحوش السلطانى فى خيمة كبيرة وحضر القضاة الأربعة ومشايخ العلم ، وفرقت الصرر على من له عادة من الفقهاء ، وخلع على القضاة الأربعة ومن له عادة من العلماء ، وكان ختما حافلا .

وفى هذا الشهر كان سعر الحلوى المشبك والمنفوش فى غاية الارتفاع بموجب غلو السكر والفستق فرفعت هذه القصيدة الى القاضى بركات ابن موسى المحتسب بمعنى أنواع الحلوى وذكرت فيها أشياء لطيفة فمن ذلك قولى :

لقد جاد بالبركات فضل زماننا
بأنواع حلوى نشرها يتضوع
حكتها شفاه الغانيات حلاوة
ألم ترنى من طعمها لست أشبع
فلا عيب فيها غير أن محبها
يبدد فيها ماله ويضيع
فكم ست حسن مع أصابع زينب
بها كل ما تهوى النفوس مجمع
وكم كعكة تحكى أساور فضة
وكم عقدة حلت بها البسط أجمع
كفوف من الحلوى غدت مبسوطة[1]
لكم بدعاء صالح تتضرع

(١) الشطرة مكسورة .

وكم قد حلا فى مصر من قاهرية
كذاك المشبك وصله ليس يقطع
وفى ثوبه المنفوش جاء برونق
فيا حبذا أنواره حين تسطع
وقد صرت فى وصف القطايف هائما
ترانى لأبواب الكنافة أقرع
فيا قاضيا بالله محتسبا عسى
ترخص لنا الحلوى نطيب ونرتع

وفى يوم السبت تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، وكانت فى هذه السنة فى غاية الوحاشة وهى من القماش القطنيات الملون التى مثل العنكبوت وغالبها بلا طرز ، ولم يعطوا لأحد عادته غير أصحاب الوظائف فقط ، فحل عند الناس كسر خاطر وراحت على من كان له عادة بخلعة فى العيد ، وكان ناظر الخاص فى هذه السنة فى غاية الانشحات والمطل للناس .

وفى يوم الأحد ، وهو الثلاثون ، غمى الهلال ولم ير ، وكان فى أوائل رمضان جاءت الأخبار بأن أهل الاسكندرية ودمياط والمحلة قد صاموا يوم الجمعة ، فكان يمكن أن يجيء رمضان ناقصا بناء على أن غالب البلاد قد صاموا يوم الجمعة ، وكان الصيام فى مصر يوم السبت ، وكان ذكر فى التقاويم على أن رمضان يجيء ناقصا فجاء تماما ، فقامت الأشلة على قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقالوا : « قد فطّرنا فى أول رمضان وصوّمنا فى يوم العيد » . وقال :

يا قاضيا بات أعمى	عن الهلال السعيد
أفطرت فى رمضان	وصمت فى يوم عيد

وقال آخر :

ان قاضينا لأعمى	أم على عمد تعامى
سرق العيد كأن الـ	ـعيد من مال اليتامى

وقد وقع مثل ذلك فى أيام الهروى وكان سببا لعزله من القضاء .

❊ ❊ ❊

وفى شوال ، كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، وكان موكب العيد حافلا ، فخلع على الأمراء وأرباب الوظائف . وكانت الخلع سبة من السبب ، وكان القاضى كاتب السر محمود بن أجا متوعكا فى جسده وكان له مدة وهو منقطع فى داره فحصل له الشفاء ، فدخلت اليه فى يوم العيد وسلمت عليه وهنيته بالعيد وبالشفاء وقدمت اليه هذين البيتين وهما :

قد عم بالعيدين فرحات الورى
بشفائكم وبعيد فطر أشرفا
فالشكر لله الذى عافاكمو
لما توسلنا بآيات الشفا

وكان حاضرا فى المجلس جماعة من الأعيان فطربوا لذلك ، ولى فيه قبل ذلك من المديح وقد صرحت باسمه بما وافق التورية فى المعنى ، وهو قولى :

يا قاضيا شأنه الأسرار يكتمها
لا يعدم الناس جودا فيك موجود
فالناس تحمد من فعل تسود به
وأنت فى سائر الأفعال محمود

وفى يوم السبت سادسه نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، وصنع له الزينى بركات بن موسى المحتسب طواجن بوزى ومأمونية وحلوى وأشياء مؤنقة ، فأقام هناك الى بعد العصر ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه نزل السلطان وتوجه الى خان الخليلى وكشف على عمارته التى أنشأها هناك

ثم عاد الى القلعة من يومه ، وقد أضر الناس كثرة نزول السلطان وتعطلت أحوال الرعيه من عدم المحاكمات فى أشغال الناس وقد قلت العلامة على المراسيم ، فكان السلطان يقعد نحوا من أربعين يوما لا يمسك فيها قلما ، ولا يعلم على مرسوم ، حتى عزت العلامات جدا وبيعت ، وكان السلطان يكره المحاكمات ويكره العلامات على المراسيم ، وكان دأبه الركوب فى كل يوم والاشتغال برؤية التنزه والرياضات دائما .

وفى يوم الاثنين ثامنه حضر الى الأبواب الشريفة أيرك نائب طرابلس ، وهو من مماليك السلطان ، وكان ولى نيابة قلعة حلب ، ثم حضر الى القاهرة فى سنه احدى عشرة وتسعمائة ، فلما حضر قرره السلطان فى شادية الشراب خاناه عوضا عن ولده لما توفى ، فأقام بمصر نحوا من شهر وعاد الى حلب وفرر فى نيابة قلعتها ، ثم ولى نيابة طرابلس فتغير خاطر السلطان عليه فأرسل خلفه فحضر ، فلما قابل السلطان لم يخاطبه ولا خلع عليه ، ثم نزل فى مكان أعد له

وفى يوم الاثنين خامس عشره جلس السلطان فى الميدان جلوسا عاما ، ثم عرض كسوة الكعبة الشريفة ، البرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل الشريف ، فشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود

وفيه ظهر بالقبة التى أنشاها السلطان فى مدرسته تشقق فاحش حتى آلت الى السقوط ، فأمر بهدمها فهدمت من سفلها ، ثم علقوها ورموها رما حافلا ، وقد تقدم أن المئذنه التى بالجامع هدمت قبل ذلك وأعيدت ثانيا

وفى يوم الخميس ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان له يوم مشهود حتى ارتجت له القاهرة ، وكان أمير ركب المحمل الأمير سومان باى الدوادار الكبير ابن أخى السلطان . وبالركب الأول الأمير بك باى أحد الأمراء العشراوات الذى كان نائب القدس قبل ذلك .

وفى هذه السنه حج جماعة كثيرة من الأعيان منهم الأمير خاير بك ، أحد المقدمين الألوف الذى كان كاشف العربيه قبل ذلك ، وحج الشرفى يونس بن الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وغير ذلك جماعة من الرؤساء بالديار المصريه . وحجت فى هذه السنة زوجه الأمير طومان باى ابنه الأمير أقبردى الدوادار ، ووالدتها بنت خاص بك ، وحجت ايضا زوجة الأتابكى سودون العجمى ، وغير ذلك جماعة من مشاهير الستات ، وحج شيخ العرب الأمير احمد بن بقر ، وحج حسام الدين بن بغداد وجماعة من مشايخ عربان هوارة . وغير ذلك من الأعيان .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة يخشباى حاجب حجاب دمشق ، وكان ولى نيابة صفد ونيابة حماة ثم ولى نيابة طرابلس ثم بقى بعد ذلك حاجب حجاب دمشق ، وكان صهر الأتابكى دولات باى قرابة العادل ، فحضر الى الديار المصرية بطالا ، فعين له السلطان لما حضر تقدمة ألف وصار يقف مع الأمراء المقدمين

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه رسم السلطان بتوسيط أربعة أنفار قد سرقوا وقتلوا ووجب عليهم القتل ، فوسطوهم فى الرملة .

* * *

وفى ذى القعدة — فى يوم الأربعاء ثانيه — نزل السلطان وتوجه الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وطلع وشق من الصليبة فى موكب حافل

وفى يوم الخميس ثالثه قبض السلطان على

شمس الدين بن عوض ووكل به بجامع القلعة الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفى يوم الاثنين رابع عشره نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة ، وجلس هو واياهم فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ومد لهم فى ذلك اليوم أسمطة حافلة ، ونصبت الأمراء لهم صواوين على شاطىء البحر الذى تجاه الجيزة ، وأغدق عليهم فى ذلك اليوم بأشياء كثيرة من حلوى وفاكهة وغير ذلك ، فأقام هناك الى قريب العصر ثم نزل فى الحراقة وتوجه الى بولاق ، ونصب له فى الحراقة سحابة أطلس أصفر ، وقيل انه ألبس الأمراء المقدمين فى ذلك اليوم لكل واحد منهم سلارى ما بين وشق وسمور ، وكان ذلك اليوم بالسلطانى .

وفيه أحضروا بين يدى السلطان شخصا من الشحاتين الجعيدية ، وجدوا معه مائة وسبعين دينارا ، وهى ضرب الأشرف برسباى ، فقال له السلطان : « من أين لك هذا الذهب ؟ » فقال : « ورثتها من أمى » . فأخذ السلطان منه ذلك الذهب وسلمه الى محمد مهتار الطشتخاناه ، ورسم بأن يشترى للشحات من ذهبه جوخة وقميصا وعمامة ، وأن يصرف له فى كل يوم نصفين فضة يأكل بها حتى تفرغ فلوسه ، فلم يرض الشحات بذلك ، وصار يقول : « عبدوا لى ذهبى ومالى حاجة بكسوتكم » . واستمر الذهب تحت يد محمد المهتار .

* * *

وفى ذى الحجة — فى يوم الاثنين خامسه — فرق السلطان الأضحية على العسكر ، وقطع لجماعة كثيرة من الفقهاء والأيتام ، وضيقوا كتاب المماليك على الناس فى هذه السنة فى تفرقة الوصولات الى الغاية ، وراحت الأضحية فى هذه السنة على كثير من الناس .

وفى يوم الخميس[1] خامس عشره ركب القاضى كاتب السر محمود بن أجا وطلع الى القلعة ، وكان له مدة خمسة أشهر لم يركب وهو منقطع فى داره فركب فى ذلك اليوم ، وخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، ونزل الى داره وهو فى غاية العظمة ، وقد قلت فى ذلك :

سيدى أنت معدن التشريف
بدر تم منزه عن خسوف
فابق واسلم ودم وعش فى شفاء
لألوف من كل عصر ألوف

وفى هذا الشهر نادى السلطان على الفلوس الجدد والعتق بأن الرطل منهم بثمانى عشرة نقرة ، وضرب فلوسا معاددة تخسر فيهم السوقة الثلث ، وهم فى غاية الخفة ، فصارت البضائع تباع بسعرين : سعر بالفلوس الجدد ، وسعر بالفلوس العتق .

وفى يوم الخميس[1] خامس عشره المذكور أعلاه توفى الشيخ علاء الدين الملة على العجمى الشافعى شيخ تربة جانى بك نائب جدة ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، وله شهرة فى مصر بين العلماء ، وكان لا بأس به .

وفى يوم السبت[1] سابع عشره رضى السلطان على أبى البقا ناظر الاسطبل ، وخلع عليه واستمر على وظيفته كما كان بعد أن قاسى شدائد ومحنا ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفيه توفى القاضى نور الدين الأشمونى ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، بقية الناس ، وله شهرة بين النواب ، وكان لا بأس به .

وفيه أذن السلطان للخليفة المنفصل المستمسك بالله يعقوب ، والد المتوكل على الله محمد ، بأن

(١) كان فى الأصل الثلاثاء خامس عشره ، وصحتها الخميس وكان فى الأصل الخميس سابع عشره ، وصحتها السبت كما أثبتناه .

يركب الى صلاة الجمعة ويسير ويزور القرافة ، وكان من حين انفصل من الخلافه وولى ولده وهو مختف فى داره لم يركب ولم يجتمع بأحد من الناس ، حتى أذن له السلطان فى الركوب .

وفى يوم الثلاثاء[1] عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد على دولات وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ، فمن جملتها مماليك وخيل وجمال بخاتى ، ومن جملة ذلك خيمة كبيرة منقوشة بحرير ملون صفة أشجار مزهرة وعليها أطيار ، ومن جملة التقدمة خركاه خشب مدهونة بماء ذهب ولازورد وألوان غريبة وهى منقوشة هيئة وحوش كاسر ومكسور ، ولهذه الخركاه غشى جوخ آزرق مقصص ، ولها أطناب وعراوى حرير أحمر ولها باب خشب موشق وعليه ضبة ، ولتلك الخركاه بساط مدور على قدرها منقوش صنعة غريبة لم يعمل مثله ، وكانت هذه الخركاه من تحف حسن بيك الطويل فوصلت الى اسمعيل الصفوى ، والصفوى أرسلها الى على دولات وعلى دولات أرسلها الى السلطان ، فكانت هذه الخركاه والخيمة من جملة التحف الغريبة ، فأمر السلطان بنصبهما فى الحوش للفرجة ، وأوكب فى ذلك اليوم لأجل القاصد موكبا حافلا بغير شاش ولا قماش .

وفى أواخر هذه السنة توفى القاضى شمس الدين المنوفى أحد نواب الشافعية .

وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وكان أشيع بين الناس عن الحجاج أخبار مهولة فبطل ذلك حين جاء المبشر وكان من أهل الفضل .

وفى يوم الثلاثاء[2] سابع عشرينه عزم السلطان على قاصد على دولات فى الميدان ، وجلس هو واياه على البحرة التى فى البستان ، ومد له هناك مدة حافلة ، وقد عزم عليه قبل ذلك مرة أخرى فأقام عنده الى بعد الظهر فى الميدان ، ثم انصرف القاصد وطلع السلطان الى القلعة ، وألبس القاصد سلارى بسمور من ملابيسه .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه رسم السلطان بتسمير ثلاثة أنفار ، قيل انهم سرقوا حجرة[1] من حجورة[1] السلطان تسوى نحو مائتى دينار ، فسمروهم ووسطوهم ، وقيل ان الحجرة[1] سرقت وهى فى الربيع فى بر الجيزة

انتهى ما أوردناه من أخبار هذه السنة ، وقد خرجت عن الناس على خير ، وكانت سنة مباركة لم يقع فيها طاعون ولا فتن ، غير أن كان البرد فيها شديدا ووقع فيها عدة أيام أفرط فيها البرد حتى جمدت المياه وصارت جليدا ، وأحرق غالب الأشجار ، ووقع فيها تشحيطة فى سائر الغلال وتناهى سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، وكذلك الشعير والفول وجميع الحبوب كانت مشتطة فى أسعارها ووقع الغلاء فيها أيضا ، حتى وقع الغلاء فى أصناف الحضر أيضا ، وفى سائر البضائع من السكر والعسل والزيت والسمن والسيرج ، حتى الزيت الحار والزبيب والأرز وسائر الأصناف ، حتى البرسيم وغير ذلك .

سنة ثمانى عشرة وتسعمائة (١٥١٢ م) :

فيها — فى المحرم — كان مستهل الشهر بالجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة يهنون السلطان بالعام الجديد .

وفى يوم الأحد ثالثه نزل السلطان من القلعة ، وصحبته ولده ، فتوجه الى القرافة وزار

(١) الحجرة : الأنثى من الخيل (المختارة) .

(١) كان فى الأصل الخميس عشرينه ، وصححها الثلاثاء كما ابتناه .

(٢) كان فى الأصل الأربعاء سابع عشرينه ، وصححها الثلاثاء ابتناه .

الصالحين ، ثم توجه من هناك الى شاطىء البحر فشق من عليه وطلع من على الصليبة الى القلعة .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع السلطان على قاصد على دولات وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى يوم الثلاثاء خامسه نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، وكان يوما ماطرا مغيما ، فنزل من هناك فى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، فأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الأربعاء سادسه توفى الشيخ شمس الدين محمد الغزى خطيب جامع السلطان الذى فى الشرابشيين ، وكان من أهل العلم والفضل ، وكان علامة فى الخطب فصيحا فى عبارته ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الجمعة ثامنه توفى القاضى عز الدين عبد العزيز بن الأمانة أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، وهو ابن أخى القاضى جلال الدين بن الأمانة .

وفى يوم السبت تاسعه طلع الرئيس كمال الدين بن شمس المزين وقابل السلطان ، وقد تقدم القول بأنه قد تغير خاطره عليه ومنعه من الطلوع الى القلعة ، فاختفى هذه المدة ولم يعلم له خبر ، فطلع فى ذلك اليوم وصحبته فقراء من مقام سيدى ابراهيم الدسوقى رضى الله عنه وهم يذكرون ومعهم أعلام ومصاحف فدخلوا الحوش ، وكان السلطان عرض فى ذلك اليوم مماليك كتابية وأخرج منهم خرجا على جارى العادة ، وكان ذلك اليوم فى غاية السودنة ، فلما دخل أولئك الفقراء عليه وهم على هذه الهيئة ازداد سودنة ، فلما وقفوا بين يديه رأى كمال الدين بن شمس وعليه احرام صوف أبيض وهو بطيلسان وعذبة فى عمامته ، فلما رأى ذلك نهر الفقراء الذين معه وشتتهم ، ثم التفت الى كمال الدين بن شمس ، ووبخه بالكلام وشتمه وسبه سبا فاحشا وقال له : « أنا ما قلت لك لا ترينى وجهك ، فأنا ما شوشت عليك ولا صادرتك ، فما تروح عنى بشحم كلاك ، غبت وجئت الى شيخ من المشايخ ! متى بقى لك سر وبرهان ؟ ! » ، ثم ان السلطان رسم بتسليمه الى الوالى يعاقبه ... ثم فى ثانى يوم أشيع بين الناس أن السلطان أرسل كمال الدين الى المقشرة . فما أحد شكر كمال الدين على ذلك ، وكان عدم مقابلته له أصوب . وكان كمال الدين من خواص السلطان ويكبّسه وقت الظهر اذا نام ، ثم تغير خاطره عليه . وكان سبب ذلك أن السلطان حصل له قرو فى محاشمه ففصده كمال الدين فى محاشمه عدة مرار ، فبلغ السلطان أن كمال الدين قد شرع يقول للأمراء والناس : « ان السلطان بقى مقيلط » . فتغير خاطره عليه بسبب ذلك . وقيل كان كمال الدين يبلص الأمراء والمباشرين على لسان السلطان ، فكثرت فيه المرافعات من كل جانب وسقط نجمه من السماء .

وفى يوم الأحد ، وهو يوم عاشوراء ، فيه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وجلس فى القصر الذى أنشأه هناك ، وكان معه جماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى قريب المغرب ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات ... ثم ان شخصا مضحكا يقال له على باى الذى يعمل عفريتا فى المحمل ، فقام رقص ثم سحب الوالى كرتباى فرقصه ، ثم سحب أمير آخور ثانى أقباى الطويل فرقصه ، ثم سحب بركات بن موسى المحتسب فرقصه ، ثم سحب عبد العظيم الصيرفى فرقصه ، وكان جسيما فضحك عليه السلطان ، ونثروا بين يديه أشياء من أنواع الورد والزهر والفاكهة ومجامع الحلوى فتخاطف ذلك المماليك ، وابتهج

فى ذلك اليوم ، ثم عدى أواخر النهار من الروضة وطلع من عند قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، وطلع من هناك الى القلعة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره حضر الى الأبواب الشريفة قصاد من عند ملوك الفرنج الفرانسة ، وكان هؤلاء القصاد من رؤساء الفرنج ، فأرسل لهم السلطان خيولا يركبونها من بولاق الى القلعة ، فلما طلعوا أوكب لهم السلطان بالحوش ، وزينوا لهم باب الزردخاناه وباب القلعة بالصناجق واللبوس وآلة السلاح ، فلما طلعوا الى القلعة فكانوا نحوا من خمسين نفرا ، ومن أعيانهم اثنان لابسان ثياب مخمل كفوى ، فى رقابهما سلاسل من ذهب ، فلما وقفوا بين يدى السلطان أظهروا التعاظم ثم باسوا له الأرض ، فلما قرأوا كتابهم انصرفوا وأنزلوهم فى بيت كاتب السر أبو بكر ابن مزهر الذى فى بركة الرطلى ، ونزل نائب المهمندار صحبتهم ، وشقوا من القاهرة ، وكان ذلك يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس رابع عشره توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمر الذى كان كاشف الجيزة فيما بعد ، وكان موته فجأة .

وفى هذا الشهر قرر السلطان قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى فى خطابة جامعه الذى بالشرابشيين عوضا عن شمس الدين الغزى بحكم وفاته ، فلما سعى الشرفى يحيى فى الخطابة رسم له السلطان بأن يخطب به حتى يسمع خطبته ، وكان ذلك فى أول جمعة فى السنة ، وخطب قاضى القضاة الشافعى كمال الدين فى ذلك اليوم فى جامع السلطان ، فلما خطب الشرفى يحيى بالسلطان أعجبه خطبته فقرره فى خطابة جامعه عوضا عن الغزى .

وفى يوم الخميس حادى عشرينه دخل أمير الحاج بالركب الأول وهو الأمير بكباى ثم فى يوم السبت ثالث عشرينه دخل المحمل الى القاهرة صحبته أمير الحاج طومان باى الدوادار الكبير ، فطلع الى القلعة وخلع عليه السلطان فوقانى بطرز يلبغاوى عريض ، وخلع على من حج معه من الأعيان وهم الأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد المقدمين ، والشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وشيخ العرب أحمد بن بقر ، وغير ذلك من مشايخ العربان ممن كان فى الحجاز ، ومنهم ابن بغداد وآخرون من الأعيان ، فنزل الأمير طومان باى فى موكب حافل وقدامه الأمراء المقدمون قاطبة ، وكان له يوم مشهود ، وقد رجع من هذه السفرة والناس عنه راضية ، وأشيع عنه أخبار حسنة مما فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والاحسان وفعل الخير وحمل المنقطعين والصدقات بطول الطريق على الفقراء والمساكين ، فشكر له الناس ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه ، ورد على السلطان أخبار ردية من البحيرة بأن العربان قد جالت هناك والقتل بينهم عمال ، وقد آل أمر تلك الجهات الى الخراب ، وقيل تحالفت سبع طوائف من العربان بأن يكونوا كلمة واحدة على العصيان ، فلما تحقق السلطان ذلك عين جماعة من الأمراء ، فلم يبادروا بالعزم الى ذلك ، فحنق منهم وقال : « أنا أخرج الى ذلك بنفسى » ، فشرع فى ذلك اليوم بعرض السنيح والخيول والجمال والسفايين ، ورسم بعمل حراقة نفط على أنه يتوجه من هناك الى ثغر الاسكندرية ، فقوى عزمه على ذلك وأقام يعرض أشياء كثيرة فى الميدان الى بعد العصر ، وما يعلم ما بعد ذلك .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه جاءت الأخبار من البحيرة بأن عرب غزالة وغيرهم من العربان قد

أظهروا العصيان ، وزحفوا على البلاد وأفسدوا الزروع ونهبوا المغل ، وأن شيخ العرب الجويلى معهم فى المحاصرة ، وطردوا كاشف المنوفية وغيره عن البلاد ... فلما تحقق السلطان دلك عين لهم تجريدة وبها من الأمراء الأمير طومان باى الدوادار الكبير قريب السلطان الذى كان فى الحجاز ، وعين أيضا الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد المقدمين ، وعين الأمير علان الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وآخرين من الأمراء والعسكر ... فصلوا صلاة الجمعة وخرجوا على جرائد الخيل ، فرجت لهم القاهرة ، فخرج الدوادار ومن معه من الأمراء ونزلوا بانبابة حتى يتكامل خروج بقية العسكر ، وقد كثر الكلام وزادت الاشاعات بسفر السلطان الى ثغر الاسكندرية ، وأنه أرسل يقول للخليفة والقضاة الأربعة : « جهزوا لكم برك حتى تخرجوا صحبتى الى ثغر الاسكندرية » ، وكذلك أعيان المباشرين ، فاضطربت الأحوال بسبب ذلك .

وفى يوم السبت سلخه جلس السلطان بالميدان وعرض جماعة من العسكر فكتب منهم نحوا من مائتى مملوك ، وأمرهم بسرعة الخروج مع الدوادار الى البحيرة ، وكتب طائفة من المماليك الى جهة الفيوم والبهنسا ... فبينما السلطان يعرض العسكر ، ورد عليه قصاد من عند نائب حلب ، وأخبروا بأن أوائل عسكر اسمعيل شاه الصفوى قد وصل الى البيرة ، وأن جماعة من عسكر البيرة التف على عسكر الصوفى . فتنكد السلطان فى ذلك اليوم لهذه الأخبار ، واضطربت أحواله بين أمر العربان الذين جالت وبين أمر الصفوى . ولله الأمر فى ذلك .

وفى هذا الشهر طلع قاصد ملك الفرنج بتقدمة حافلة للسلطان ما بين أوانى بلور مزيكة بذهب ، وحمالين عليهم جوخ ومخمل وتماسيح مذهب ، وقيل ذهب عين ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للملوك .

وفى أواخر هذا الشهر خلع السلطان على شرف الدين بن روق وقرره فى نظر الخزائن الشريفة وجعله مستوفيا على أولاد الجيعان ، وقد سعى فى ذلك بخمسة آلاف دينار ، فاستخف الناس عقله على ذلك الذى يستوفى على أولاد بنى الجيعان وهذه غاية الخفة ، وأشيع أنه متحدث فى وكالة بيت المال أيضا ، وغاية الأمر أن كان معه مال فأذهبه فى البطال على شىء لا يظهر له منه نتيجة ، وكان ساعيا قبل ذلك فى قضاء الشافعية بمصر فما تم له ذلك ، وقد خف وركب الخبل وطاش فى الحال .

وفى أواخر هذا الشهر توفيت الست بنت خوند بنت الملك المؤيد شيخ ، وهى بنت الأمير يشبك الفقيه الذى كان دوادارا كبيرا فيما بعد ، وكانت من أعيان الستات .

* * *

وفى صفر بطل سفر السلطان الى ثغر الاسكندرية بموجب ما ورد عليه من أخبار الصفوى فتنكد لذلك .

وفى يوم الاثنين ثانيه خرج الأمير قانصوه بن سلطان جركس أحد المقدمين والأمير ماماى جوشن فتوجها الى نحو البهنسا والفيوم ، وخرج صحبتهما نحو من مائتى مملوك .

وفى يوم الخميس خامسه رسم السلطان بشنكلة شخص من الغلمان زعموا أنه حرق بيت أستاذه لأجل النهب ، فاحترق فى ضميمته عدة بيوت وربوع ، فلما قبضوا عليه عرضوه على السلطان فرسم بأن يشنكل ويعلق فى مكان حرقه ، ففعلوا به ذلك .

وفى يوم الاثنين تاسعه توفيت الريسة خديجة

أم خوخة ، وكانت من أعيان مغانى الدكة ، ولهـا فى هذا الفن اليد الطويلة ، وقبل ذلك بأيام قلائل توفيت الريسة بدرية بنت جريعة وكانت من أعيان المغانى أيضا ، ولها شهرة بين المغانى بذلك .

وفى يوم الخميس ثانى عشره توفى الأمير طوخ المحمدى أحد الأمراء الطبلخانات ، وأصـله من مماليك الأشرف قايتباى ، وقيل ان أصله كان من مماليك تنم نائب الشام ، وكان لا بأس به عشرة لطيف الذات .

وفى يوم الاثنين سـادس عشره حضر الأمـير طومان باى الدوادار ، وكان قد توجه الى البحيرة بسبب فساد العربان كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الجمعة عشرينه عرض السلطان العسكر فى الميدان باكر النهار ، فعين من فرسانهم جماعة يتوجهون صحبة الجويلى شيخ جهات البحيرة ، ورسم السلطان الى العسكر بأن يقيموا بالبحيرة بعد وفاء النيل .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره غيب القاضى شرف الدين الصـغير كاتب المماليك ، فلما غيب اختفى جميـع أقاربه حتى غلمانه وحاشـيته ، فرسـم السلطان للقاضى بركات بن موسى أن يكبس على داره ويفحص عن أمره ، وقد اشتد الأمر فى طلبه جدا . وسبب ذلك أن كان عليه تقاسيط من المال على الجوامك فى كل شهر فلم يف بذلك فتغيب واختفى .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد ملك الفرنج البنادقة ، فكان له يوم مشهود ، وأوكب السلطان فى ذلك اليوم وزين باب الزردخاناه باللبوس والسلاح ، ثم طلع القاصـد وصحبته تقدمة حافلة نحو من مائة حمال ما بين أوانى بلور وجوخ ومخمل وأثواب مخمل تماسيح وشقق وحرير أطلس وغير ذلك أشياء حافلة ، فطلع القاصد وهو راكب على فرس وقدامه سبعة أنفس من أخصائه وهم راكبون على خيـول والبـاقى مشاة ، فكانوا نحوا من خمسين انسانا من جماعة القاصد الذين جاءوا صحبته . وكان القاصد رجلا شيخا بذقن بيضاء وهو جسيم وعليه وقار ، وكان لابسا خلعة جر ذهب على حرير أصفر فطلعوا الى القلعة وقابلوا السلطان ، ثم نزلوا الى مكان أعد لهم ، وأشاعوا أن قاصد ملك الفرنج قـد جاء يسعى عند السلطان فى فتح القيامة التى بالقدس الشريف ، وكان السلطان أغلق بابها ومنع الفرنج من الدخول اليها بسبب ما تقدم منهم .

وفى ذلك اليوم أطلق السلطان شيخ العرب بفر بن الأمير أحمد بن بفر ، وكان له مدة طويلة وهو فى البرج بالقلعة ، فأفرج عنه فى ذلك اليوم وكان له نحو من اثنتى عشرة سنة وهو فى البرج بالقلعـة مقيد ، فشفع فيه أبوه الأمير أحمد بن بفر وضمنه حتى أطلقه السلطان .

وفى يوم الجمعة سـابع عشرينه قلع السـلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك ثامن عشر بشنس قبطى ، وقد أبطأ فى قلع الصوف هذه السنة بموجب أن الوقت كان رطبا .

ومن الحوادث فى أواخر هذا الشهر أن قـد سرق من سوق الباسطية ثلاثة دكاكين ، وكذلك من الصاغة ، فراح على التجار جملة أموال لهـا صورة ولا يعلم من فعل ذلك ولا نقب لهم حائط ، وراحت على من راح .

وفى يوم السبت ثامن عشرينه أرسـل الأمير قانصوه بن سلطان جركس الذى توجه الى الصعيد فبعث ثمانية رءوس من عرب عزالة منهم شخص يسمى خضر بن كروان وكان من كبار المفسدين ، وقيل هو الذى كان سببا فى قتل ابن جميل ، وقد تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الأحد تاسع عشرينه رسم السلطان بعرض السادة الأشراف ، وسبب ذلك أن السلطان قصد أن يخرج عنهم شيئا من الجهات الموقوفة عليهم مثل بركة الحبش وبلقس وغير ذلك من الجهات ، وكان القائم فى مرافعتهم الشريف بن مصبح دلال الأملاك ، فالتزم بأن يوفر للسلطان من هذه الجهات فى كل سنة عشرة آلاف دينار ، فرسم السلطان بعقد مجلس بالقضاء الأربعة بسبب الأشراف ، وقد طعنوا فى أنساب جماعة منهم ، وهذه من جملة الوقائع الفاحشة فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

* * *

وفى ربيع الأول طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فكان فى ذلك اليوم عقد مجلس بين يدى السلطان بسبب بنت يشبك الدوادار زوجة قانى باى قرا أمير آخور كبير وبنت جانى بك حبيب زوجة الأمير دولات باى قرموط .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى جددها لأجل المماليك التراكمة وأولاد الناس الذين نزلهم ، فقيل انه عوق جوامك جماعة منهم وقطعها .

وفى يوم الخميس رابعه ظهر بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وكان له مدة وهو مختف كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الاثنين ثامنه خلع السلطان على مملوكه أبرك وأعاده الى نيابة طرابلس كما كان أولا ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأمراء .

وفى يوم تاريخه رسم السلطان بنقل المكاحل التى سبكها فى المسبك الذى بجوار الميدان ، فأمر بأن يتوجهوا بها الى نحو تربة العادل حتى يجربها هناك ، فوضعوها على عجل وسحبتها الأبقار ، فنزلوا بها من الصليبة ، فرجت لها الأسواق وصاروا يتصلبون بين الدكاكين فما خلصوا الا بعد جهد كبير . فلما وصلوا الى بيت الأمير تانى بك قرا الذى عند حمام الفارقانى ، انخسف باحداها سرداب هناك ، فوقعت تلك المكحلة الكبيرة فى السرداب فأعيا الناس طلوعها ، وأقامت على ذلك الى قريب المغرب وهى على حالها ، وقيل ان السلطان سبك نحوا من سبعين مكحلة ما بين كبار وصغار من نحاس وحديد ، فكان منها أربع كبار فقيل وزن كل واحدة منها ستمائة قنطار شامى ، فكان طول كل واحدة نحوا من عشر أذرع ، فحصل فى ذلك اليوم غاية المشقة بسبب ذلك ، وكان صحبة المكاحل الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش فما قاسى فى ذلك اليوم خيرا من التعب الزائد والمشقة .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى الأمير دولات باى قرموط أحد الأمراء المقدمين ، فنزل السلطان وصلى عليه ، وكان له جنازة حافلة ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان موصوفا بالشجاعة ، وكان من أعيان المقدمين ، وتولى من الوظائف ولاية القاهرة ثم بقى مقدم ألف . وقد توفى من الأمراء المقدمين خمسة فى مدة يسيرة ، وكانوا من أجل الأمراء وأعظمهم ، وقد قلت فى ذلك :

اذا صفا الدهر يوما ... عن ذلك الصفو يرجع
هل من لبيب تراه ... بأيسر العيش يقنع
فكم نرى لأمير ... من مصرع بعد مصرع

وفى يوم الخميس حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى ، وصادف ذلك أنه جاء فى ليلة الجمعة فاجتمع القضاة الأربعة فى ذلك اليوم بالحوش السلطانى ، وسائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، وكان مولدا حافلا على جارى العادة .

وفى يوم الأحد رابع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية وكشف على المكاحل التى توجهوا بها الى هناك حتى يجربوها ، فلما توجه الى هناك أقام ساعة وعاد الى القلعة سريعا .

وفى يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير طومان باى الدوادار وسافر الى جهة الصعيد بسبب ضم المغل ، وسافر معه جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية ، وكان صحبته الأمير خاير بك الكاشف أحد المقدمين ممن كان من مضافاته ، فخرج فى موكب حافل وكان له يوم مشهود .

وفى يوم الخميس ثامن عشره أرسل نائب سيس الى السلطان عشرة رءوس وعليهم طراطير حمر ، وزعموا أنهم من عسكر الصفوى كانوا يفسدون فى البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وحز رءوسهم وأرسلهم الى السلطان ، فلما عرضوا عليه رسم باشهارهم على رماح فأشهروهم فى القاهرة ثم علقوهم على باب النصر وباب الفتوح ، وقد قويت الاشاعات بأن الصفوى متحرك على البلاد ، وأن قاصده واصل الى السلطان .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه خلع السلطان على الأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد الأمراء المقدمين ، وقرره فى امرة الحاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير يوسف الناصرى شاد الشراب خاناه الذى كان نائب حماة فيما تقدم وقرره فى أمرة الحاج بالركب الأول فتشكى من ذلك فلم يقبل .

وفيه رسم السلطان لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلا على البلاد ، ويستخرجا من الفلاحين الحمايات والشياخة وقدوم الكشاف عن سنة ثانى عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل ، وقبل أن تنزل النقطة وينادى على النيل ، فحصل للمقطعين غاية الضرر وصارت الكشاف تنزل على البلاد وتكبس على الفلاحين ويستخرجون منهم الأموال بالضرب ، والذين يهربون يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم . فخرب غالب البلاد ، ورحل عنها الفلاحون ، فصار الذى تخرب بلاده من المقطعين يأخذون جامكيته فى نظير الحماية والشياخة ، وصارت الكشاف يستخرجون المال من البلاد ، وجانى بك يستخرج من المقطعين بالقاهرة ، فضاع الخراج بينهما ، والذى يكون مسافرا من المقطعين يرسمون على زوجته وأولاده ووصيه حتى يأخذوا منهم الحماية . وكان القائم فى ذلك جانى بك الذى كان دوادار الأمير طراباى رأس نوبة النوب ، وقد بقى الآن ناظر الديوان المفرد ، فنوع فى أيامه أنواع المظالم التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم .

ومن العجائب أن المغل كان قائما على أصوله فى الأرض لم يحصد بعد ، والعسكر لم يقلعوا الصوف ، وصار جانى بيك يكبس على بيوت الأمراء العشراوات بالطواشية ويقبض منهم الحماية بالعسف ، ويرسم على الخاصكية ، ويدعهم فى التراسيم بسبب الحماية والشياخة وقدوم الكشاف ، ولا يعرف ان كانت البلاد خرابا أو عامرة ، فجرى على المقطعين ما لا خير فيه من المغارم والبهدلة .

وفى يوم السبت فى العشر الثالث من هذا الشهر ابتدأ السلطان بضرب الكرة فلعب هو والأمراء بالميدان .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه قبض السلطان على المهتار حسن الشراب دار ، ورسم عليه وختم على بيوته وحواصله ، وقرر عليه عشرين ألف دينار فأورد من ذلك نحوا من ثمانية آلاف دينار ، وقسط الباقى عليه فى كل شهر ألف دينار على الجوامك ، وكتب عليه بذلك التزام ، واستمر فى

الترسيم حتى يغلق ما كتب عليه ، وكان سبب مصادرة المهتار حسن أن شخصا من غلمان الشرابخاناه يقال له أبو الخير الاسمر رافع المهتار حسن عند السلطان ، وقال له لما قتل الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى أحضر نجارا وصنع عدة مفاتيح للحواصل التى بالقلعة وأخذ منها ما قدر عليه ، ومن جملة ذلك سكرجة زمرد وحمل ما أخذه على بغل من بغال الحمارة . فلا زال السلطان يفحص عن حقيقة هذا الأمر ، فأحضر النجار الذى صنع المفاتيح فاعترف بذلك وأحضر الحمار الذى حمل الحوائج من القلعة فاعترف أيضا بذلك وقال : « ما أعرف ما كان فى العلب التى حملتها » ، فعند ذلك قبض السلطان على المهتار حسن ورسم عليه وشكه فى الحديد ، وقرر عليه عشرين ألف دينار ، فأورد منها سبعة آلاف دينار وكسور وحلف أنه لا يملك غيرها ، فلم يقبل منه السلطان ذلك واستمر فى التوكيل به حتى يغلق ما قرره عليه .

ثم بعد ذلك بمدة فعل ذلك بمهتاره الحاج على مهتار الخيل وقرر عليه مالا نحو ذلك ، ورسم عليه حتى يرد ما قرره عليه من المال ، وقيل انه عرض ما كان فى تسليمه من السروج المغرق والكنابيش فوجد ذلك قد نقص منه أشياء كثيرة .

وفى أثناء هذا الشهر قبض السلطان على شرف الدين بن روق الذى كان قد سعى فى استيفاء الخزائن الشريفة ، فلم ينتج أمره فى ذلك ولا عرف يباشر فى مصطلح الخزائن ولا عرف يكتب وصولات الرجعات ، وكان رجلا أهوج وعنده خفة ورهج فلم يرث له أحد فيما جرى عليه . فلما قبض عليه السلطان سلمه الى الزينى بركات بن موسى المحتسب وكان ابن روق هذا زوج أخت علم الدين الذى كان متحدثا فى الخزانة ، فلما قبض السلطان على علم الدين واختفى فضمنه ابن روق فى عشرين ألف دينار ، فلما قبض السلطان على ابن روق طلب منه ما ضمنه بسبب علم الدين . وكان ابن روق يتهم بسعة المال ، وكان قصده يسعى فى قضاء الشافعية ، فما تم له ذلك ولم يساعده الزمان على ذلك ، وكان من أعيان الشافعية ولكن كان أرشل قليل الحظ ، كما يقال :

اذا أذن الله فى حاجة ... أتاك النجاح بها يركض
فلا رشد الا بتوفيقه ... وان محض الرأى من يمحض
فمن ذا يدبرنا غيره ... ومن يبرم الأمر أو ينقض

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه حضر جماعة من الأمراء الذين كانوا توجهوا الى نحو بلاد الصعيد بسبب فساد العربان ، وكان الذى توجه من الأمراء المقدمين قانصوه بن سلطان جركس والأمير ماماى جوشن ، وغير ذلك من الأمراء العشراوات والمماليك السلطانية . فلما طلعوا الى القلعة خلع السلطان على الأمراء المقدمين ونزلوا الى دورهم .

* * *

وفى ربيع الآخر — فى يوم الأحد سادسه — نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التى بالريدانية ، وجلس هناك ونصب له سحابة واجتمع حوله الأمراء على المصطبة وحضر الجم الغفير من العسكر ومن الناس المتفرجين ، ثم جربوا قدامه مكاحل كبار وصغار التى كان سبكهم بالميدان ، فكان عدتهم سبع وخمسين مكحلة ، فلم يخطىء منها سوى واحدة وقيل اثنتان ، والذى صح من المكاحل فيها من عدى حجره الى قريب بركة الحاج ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية ،

وأقام هناك الى بعد العصر ونصب له خيمة كبيرة وهى الخيمة التى أهداها اليه على دولات وقد تقدم ذكر ذلك ، ومد هناك أسمطة حافلة وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاءت القاعدة ستة أذرع ، أنقص من العام الماضى بذراع . ولما عاد السلطان الى القلعة طلع من بين الترب ولم يشق من القاهرة .

وفى يوم السبت ثانى عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير تمرباى الهندى أحد الأمراء العشراوات ، الذى كان قد توجه قاصدا الى الصفوى شاه اسماعيل ملك العراقين ، وكانت مدة غيبته فى هذه السفرة نحوا من سنتين ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وماتت خيوله وجماعة من غلمانه ومن الخاصكية الذين كانوا صحبته ، ولم ينصفه الصفوى ولا أكرمه ، وقيل لم يقابله غير مرة واحدة ولم يكتب له الجواب عن مطالعة السلطان التى أرسلها اليه ، وأرسل جوابه صحبة قاصده .

فلما نزل تمر باى الى خانقة سرياقوس أرسل يعرف السلطان أن قاصد الصفوى جاء صحبته وقاصد من عند ملك الكرج ، فعين السلطان الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يلاقيهم ويمد لهم هناك مدة ، فتوجه الى الخانكاه ومد لهم هناك مدة حافلة ، فلما دخل قاصد الصفوى أنزلوه فى بيت قانى باى سلق الذى فى رأس الرملة عند سويقة عبد المنعم ، وكان مع هذا القاصد شديد البأس أغلظ على نائب حلب فى القول لما قدم عليه .

وفى ذلك اليوم ضرب السلطان الكرة فى الميدان فتقنطر فى ذلك اليوم الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، فنزل على كتفه فانصدع فتألم لذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشره طلع قاصد الصفوى الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكب السلطان بالحوش من غير شاش ولا قماش ، وجلس على المصطبة التى أنشأها ونصب السحابة الزركش ، وحضر الأمراء المقدمون واجتمع العسكر ، وأمر بأن يزين باب الزردخاناه فزينوه فى ذلك اليوم بآلة السلاح والصناجق واللبوس ، فخرج القاصد من بيت قانى باى سلق وصحبته أزدمر المهمندار والأمير كرتباى والى القاهرة ، فطلع القاصد وصحبته تقدمة الى السلطان فكانت نحوا من أربعين حمالا ، عليها من الفهودة سبعة وقيل كانوا تسعة فمات منهم اثنان ، فلما طلعوا بهم الى القلعة جعلوا عليهم أجلال حرير ، ومن جملة هذه التقدمة طوالة خيل ، ومنها حمال عليه فضيات ما بين أباريق فضة وشربات وطاسات ذهب ، ومنها حمالان عليهما زرديات وخوذ خاص وأثواب مخمل ملون ولبوس خيل مكفتة ، ومنها حمالان عليهما أقواس حلقة ، وحمالين عليها شقق حرير برصاوى مقصب ، وحمالان عليهما بعلبكى ، وغير ذلك أشياء كثيرة ما بين سجاجيد رومى ومديات وغير ذلك .

فلما طلع القاصد بين يدى السلطان وكانا اثنين ، قيل هما من أعيان أمراء الصفوى ، فباسا الأرض للسلطان ، ثم تقدما وباسا ركبة السلطان ، وقدما اليه مطالعة شاه اسمعيل الصفوى ، فلما قرئت بين يدى السلطان بحضرة الأمراء وجد فيها ألفاظا يابسة وكلاما فجا ، فلم ينشرح السلطان لذلك وظهر فى وجهه الكظم ، ثم نزل القاصد من عند السلطان الى المكان الذى أعد له .

ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع قاصد ملك الكرج ، وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ما بين

سمور ووشق وسنجاب وصوف ، وغير ذلك أشياء حافلة .

وفيه تغير خاطر السلطان على الناصرى محمد ابن الشهابى أحمد بن الأمير أسنبغا الطيارى الكلبكى أمير شكار ، فلما تغير خاطره عليه قبض عليه وأودعه فى الترسيم وقرر عليه ألف دينار فأغلظ على السلطان فى القول ، فحنق منه فرسم بنفيه الى قوص ، فلم يجسر أحد من الأمراء أن يشفع فيه ، وكان الناصرى محمد عنده شمم زائد ورقاعة فلم يرث له أحد من الناس ، فكتب وصيته وتوجه الى نحو الصعيد ، والذى أكله كركى تقاياه بلشون .

وفيه ، فى يوم الأحد عشرينه ، نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل ، وجلس على المصطبة التى هناك ، وجربوا قدامه بقية المكاحل المقدم ذكرها ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد هناك سماطا حافلا ، ونصب له هناك وطاقا ، واجتمع عنده جماعة من الأمراء المقدمين ، ثم ركب بعد العصر ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان له يوم مشهود .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه ، حضر الى الأبواب الشريفة طراباى أخو الأتابكى فيت الرحبى ، وكان مسجونا بقلعة دمشق ، وكان سبب نفيه الى هناك أنه فى سنة تسع وتسعمائة خلى الأمير أزدمر الدوادار طالعا الى القلعة فلما وصل الى باب القلعة رمى عليه من الطبقة ثلاث فردات نشاب ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما بلغ السلطان ذلك نفاه الى دمشق وسجنه بقلعتها . فاستمر هناك حتى شفع فيه الأمير طومان باى الدوادار .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له طراباى ، وكان طراباى هذا ولى الأتابكية بحلب ثم حضر الى مصر وسعى فى نيابة صفد بمال له صورة حتى تولاها من يشبك، واستقر نائبا بصفد عوضا عن جان بردى الغزالى بحكم انتقاله الى نيابة حماة ، وكان طراباى هذا من مماليك يشبك ابن حيدر الذى ولى حماة .

وفيه ، فى يوم الخميس رابع عشرينه ، نادى السلطان فى القاهرة أن لا أمير ولا جندى يركب بغدارة فى سرجه ومن فعل ذلك لا يلوم الا نفسه . وكان سبب ذلك أن مملوكا من مماليك السلطان تشاجر مع شخص من المماليك يقال له جانم ، وكان أصله من مماليك الأمير طراباى رأس نوبة النوب ثم بقى مملوك سلطان ، فلما تشاجر معه حل عليه الغدارة وضربه على يده قطعها ، فوقف ذلك المملوك للسلطان ويده مقطوعة ، فشق ذلك على السلطان ونادى فى ذلك اليوم بأن لا أحد من العسكر يركب بغدارة قط ، فرجعوا المماليك عن ذلك . ورسم للأمير مغلباى الزردكاش بأن يكتب قسائم على الصناع أن لا يصنعوا لأحد من المماليك غدارة ، وكان بهذه الغدارات يحصل من المماليك الضرر الشامل .

وفيه ، فى يوم الجمعة خامس عشرينه ، رسم السلطان لأزدمر المهمندار بأن يأخذ قاصد الصفوى وجماعته ويتوجه بهم الى جامع السلطان الذى أنشأه فى الشرابشيين ، فيصلوا الجمعة هناك . فلما حضروا بالجامع اجتمع به القضاة الأربعة وأعيان الناس وجماعة من الأمراء ، فخرج قاضى القضاة المالكى يحيى بن الدميرى ، وكان قرر قبل ذلك فى خطابة جامع السلطان ، فصعد المنبر وهو لابس السواد ، وخطب خطبة بليغة ، وذكر فيها مناقب الامام أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فكان

بالجـامع يوم مشـهود ، واجتمع به قراء البـلد والوعاظ .

ومن النوادر الغريبة أن قاضى القضاة محيى الدين يحيى بن الدميرى لما ولى القضاء لبس له طوقا ، وهذا بخلاف زى القضاة ، و لايعلم حجته فى ذلك .

وفيه رسم السلطان الى الزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يتسلم شرف الدين بن روق الذى كان ولى التحدث على الخزائن الشريفة ، فتسلمه على عشرين ألف دينـار . فلمـا تسلمه شكه فى الحديد ونزل به من القلعة حتى يكون من أمره ما يكون .

وفيه ، فى يوم السبت سـادس عشرينه ، خلع السلطان على قاصد ملك الفرنج الفرانسة وأذن له بالسفر .

وفيه عزم السلطان على قاصد ملك الكرج ومد له سماطا بالبحرة التى بالميدان ، وخلع عليه وأذن له بالسفر .

وفيه ، فى يوم الأحد سابع عشرينه ، عزم السلطان على قاصد شاه اسماعيل الصفوى فجلس معه فى المربع الذى بالميدان وفرجه على لعب الكرة ، ثم دخل به الى البحرة التى ببستان الميدان ، وأظهر فى ذلك اليوم أنواع العظمة بحضرة القـاصد ، ومد له هناك أسمطة حافلة ، حتى أدهشه مما رأى فى ذلك اليوم من حسن النظام وتزايد العظمة .

وفيه فى يوم الاثنين ثامن عشرينه ، حضر قاصد ابن رمضان أمير التركمان وعلى يده تقدمة حافلة للسلطان .

ومن العجائب أن فى هذا الشـهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا ، وكل قاصد من عند ملك على انفراده ، فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصفوى ، وقاصد ملك الكرج ، وقاصد ابن رمضان أمير التركمان ، وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم ، وقاصد يوسف بن الصوفى خليل أمير التركمان ، وقاصد صاحب تونس ملك الغرب ، وقاصد من مكة ، وقاصد الملك محمود ، وقاصد ابن درغل أمير التركمان ، وقاصـد من عند نائب حلب ، وقاصـد من عند حسين الذى توجه الى الهند ، وقاصد ملك الفرنج الفرانسة ، وقاصد البنادقة ، وقاصد على دولات ، وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب .

وفيه ، فى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه ، كان ختام ضرب الكرة بالميدان ، وكانت جماعة من هؤلاء القصاد حاضرين ، فلما انتهى ضرب الكرة قام السـلطان وطلع الى الحوش وجلس بالمقعـد ، وأحضروا قـدامه ثيرانا تتناطح وكباشـا ، ومد فى ذلك اليـوم أسمطة حافلة وعزم على الأمراء المقدمين قاطبة وكذلك القصاد . فلما صلى الظهر خرج وأحضر مماليك يلعبون بالرمح فوقع بينهم فى ذلك اليوم خصمانية ، حتى تعجب القصاد من ذلك ، وكان يوما مشهودا بالحوش ، فاستمروا على ذلك الى بعـد العصر فنزلت الأمراء وانفض ذلك الجمع .

وفى يوم الأربعاء سلخه نزل السلطان وتوجه الى نحو المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وعاد الى القلعة .

* * *

وفى جمادى الأولى طلع الخليفـة والقضـاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

وفى ذلك اليـوم طلع قاصـد صاحب تونس وصحبته تقدمة حافلة للسلطان ، قيل انها قومت بعشرة آلاف دينـار ، وهى ما بين قماش فاخر

وخيول وســلاح وغير ذلك ، فخلع عليه السلطان كاملية صوف بسمور ونزل من القلعة .

وفيه طلع قاصد ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مطالعة للسلطان ، فأشيع بين النــاس أن ابن عثمان أبا يزيد ضعيف على خطة ، وقد نزل عن الملك الى ولده الصغير الذى يسمى سليم شــاه وصار متملكا على بلاد الروم عوضا عن أبيه أبى يزيد ، فجاء القاصد ببشارة ذلك .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى استجدها برسم المماليك التراكمة وأولاد الناس ، كما تقدم ذكر ذلك .

وفى يوم الجمعة ثانى هذا الشهر وردت الأخبار بوفاة الســلطان المعظم المفخم المغازى المجاهد المرابط ملك الروم وصــاحب مدينــة الروم بالقسطنطينية العظمى وما مع ذلك من الفتوحات ، وهو الســلطان أبو يزيد بن السلطان محمد بن السلطان مراد خان بن أبى يزيد المعروف بيلدرم ابن أورخان بن عثمان بن أرطغرل بن ســليمان ابن عثمان الأكبر الذى مات شهيدا بالغزاة وكان مولد السلطان أبا يزيد سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وولى على ملك الروم وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وأقام فيه الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، فقدمت الأخبــار بوفاته يوم الجمعة ثانى جمادى الأولى من هذه السنة ، فكانت مدة ولايته على مملكة الروم نحوا من ثلاث وثلاثين سنة الا أشهرا ، وفتح فى أيامه عدة مدن من بلاد الفرنج ، وانتشر ذكره بالعدل فى سائر الآفاق ، وكان من خيار ملوك بنى عثمان قاطبة .

ولما مات خلف من الأولاد الذكور ثلاثة : هم قرقد بك وكان أكبرهم ، وأحمــد بك ، وسليم شاه الذى عهد له بالملك بعده ، فتولى على ملك الروم فى حياة والده أبى يزيد ، وقد جاءت الأخبار بولايته على مملكة الروم قبل وفاة أبيه .

فلما تحقق السلطان وفاته بكى عليه وأظهــر الحــزن والأسف ، ثم صلى عليه صــلاة الغيبة بالقلعة ، فلما شاع الخبر بموته فى ذلك اليــوم بين النــاس صلوا عليه صلاة الغيبة بعد صــلاة الجمعة فى الجامع الأزهر وجامع الحاكم وجامع ابن طولون وفى جامع السلطان الذى بالشرابشيين وغير ذلك ، وقد حزن عليه الناس فانه كان قامعا للفرنج لا يفتر عن الجهاد فيهــم ليلا ولا نهارا ، وكان به نفع للمسلمين .

وفى يوم الأحد رابعه أشيع بين الناس بموت أمير مكة الشريف قايتباى ، وبموت الشيخ عامر صــاحب اليمن وكان من خيــار ملوك اليمن ، وبموت الخواجا عيسى القارى وكان من أعيــان تجار مكة وهو فى سعة من المال وله شهرة زائدة .

وفى يوم الاثنين خامسه طلع الأمير بيبرس بن الأمير أحمد بن بقر شيخ العــرب الى السلطان وقابله ، فخلع عليه ونزل الى داره ، وكان له مدة طويلة وهو عاص على الســلطان فقابله فى ذلك اليــوم

وفيه طلع الأمير خاير بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية بسمور . ونزل الى داره فى موكب حافل وصحبته الأمراء ، فزينت له القاهرة ، وسبب ذلك أنه كان قد مرض مرضا خطرا وأشرف فيه على الموت ثم شفى من ذلك .

وفى يوم الأربعــاء سابعه نزل الســلطان الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، وكان النيل قد

قارب الوفاء فزاد فى تلك الليلة أربعا وعشرين أصبعا فى دفعة واحدة ، فتفاءل الناس بنزول السلطان الى المقياس .

وفى يوم الخميس ثامنه جلس السلطان فى الميدان ، وأحضر قصاد الصفوى وخلع عليهم كوامل مخمل أحمر كفرى بسمور ، وعلى بقية جماعته سلاريات صوف مفرية ما بين سمور ووشق وسنجاب ، ودفع اليهم جواب كتابهم ، ولكن كتب الى الصفوى فى جوابه عبارة ألفاظها يابسة فى الكلام ، وكان الصفوى أرسل الى السلطان فى كتابه ألفاظا فاحشة فأجابه بمثل ذلك وزيادة ، وهذا أول ابتداء وقوع الوحشة بين السلطان وبين شاه اسماعيل الصفوى ، وكان الصفوى قد حصل منه فى حق قاصد السلطان الأمير تمرباى الهندى لما توجه اليه غاية الفحش به .

وفى هذا الشهر وقعت نادرة وهو أن أشيع بين الناس أن رودس قد فتحت على يد المسلمين بحيلة من غير قتال ولا حرب ، فقويت الاشاعات بذلك ، وهم أن يدق السلطان الكوسات فى ذلك اليوم ويزين القاهرة ، وكان سبب ذلك أن شخصا من أبناء الشام جاء الى شخص من مماليك الأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين ، وكان هذا المملوك شادا فى بلد تسمى زفتة ، فجاء اليه ذلك الرجل الشامى ودفع اليه عدة مطالعات ، وقال له : هذه من عند الأمير محمد بك قرابة السلطان الذى أشاعوا قتله ، وقد ظهر أنه فى قيد الحياة وقد تحيل على أهل رودس حتى أخذها منهم وملكها وأسر أهل المدينة بحيلة ، وأن الأمير محمد بك قد وصل الى الطينة وأرسل يطلب فرسا وقماشا ، فأخذ المملوك منه المطالعات وحضر الى عند السلطان ، فلما قرأ تلك المطالعة انصاع لذلك الكلام وظن أنه حق ، فخلع على ذلك المملوك خلعة ، وفرق على الامراء مطالعاتهم ، وهم أن يدق الكوسات لهذا الخبر ، وأرسل صحبه ذلك المملوك فرسا وبقجة فيها قماش ، وكذلك الأمير طقطباى نائب القلعة ، والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، فأخذ المملوك القماش والخيل ومضى ، ثم ظهر فى عقيب ذلك أن هذا الكلام كذب مصنوع ، فعين السلطان يحيى بن نكار دوادار والى القاهرة بأن يتوجه خلف ذلك المملوك ويحضره ويحضر الرجل الشامى الذى دفع اليه المطالعات ، فغاب أياما وأحضر المملوك وما أخذه من الخيول والقماش ، وأحضر ذلك الرجل الشامى الذى جاء بالمطالعة ، فلما حضر بين يدى السلطان حزق عليه بالكلام فاعترف أنه صنع تلك الكتب افتعالا عن الأمير محمد بك ، وأن شدة الفقر أحوجته الى ذلك ، فقال له السلطان : « كنت أنت وقفت الى وطلبت منى شيئا كنت أنعم عليك به » ، ثم عراه بين يديه ليضربه بالمقارع فوجد فى أجنابه أثر الضرب بالمقارع ، فسأله عن ذلك ، فاعترف أنه كذب مرة أخرى على خاير بك نائب حلب فضربه بالمقارع وقطع أنفه ، ثم ان السلطان ضربه بين يديه وبعثه الى المقشرة من يومه ، واستعاد الخيول والقماش من ذلك المملوك الذى أتى بالمطالعات .

وفيه أنعم السلطان على تمرباى الهندى الذى توجه قاصدا الى الصفوى بامرة طبلخاناه ، وكان قبل أن يسافر أمير عشرة .

وفى يوم الجمعة تاسعه تلاقى ماء النيل ودخل الى الزربية ، وكان له يوم مشهود ، وكان السلطان فى العام الماضى سد خليج الزربية وعمل له جسرا من عند قنطرة موردة الجبس ، فلم تسكن بيوت الزربية فى العام الماضى ، ولم يدخل خليجها المراكب

على جارى العادة بالغلال ، فوجدوا فم الخليج قد تربى فيه الطين نحوا من سبع أذرع ، فرسم السلطان بابطال ذلك الجسر ، ففرح به سكان الزربية .

وفى يوم السبت عاشره خلع السلطان على قاصد ملك الكرج وأذن له بالسفر الى بلاده .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى فى أول يوم من مسرى وفتح السد فى اليوم الثانى منها ، ووقع مثل ذلك فى دولة الأشرف قايتباى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة أن النيل أوفى فى آخر يوم من أبيب وفتح السد فى أول يوم من مسرى ، فلما أوفى فى هذه السنة زاد عن الوفاء عشر أصابع من الذراع السابعة عشرة ، فعد ذلك من النوادر .

وفى اليوم الثانى من بعد الوفاء زاد النيل اثنتى عشرة أصبعا ، وزاد فى اليوم الثالث ست عشرة أصبعا فغلق سبع عشرة ذراعا وأربع أصابع من ثمانى عشرة ذراعا ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة . فلما أوفى النيل رسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فتوجه وفتح السد وكان له يوم مشهود ، وقد قيل فى المعنى :

النيل زاد زيادة قد أذنت
من كل باسقة النخيل بقلعها
فلكم به من مركب فى الجو قد
أمسى عمود الصبح صارى قلعها

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وكانت ليلة البدر فبات بسطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ومد هناك أسمطة حافلة ، وقرأ ختمة وحضر سائر قراء البلد والوعاظ ، وأقام هناك الى اليوم الثانى وطلع بعد العصر ، وكانت ليلة الجامكية ، وهذا أول بياته عن القلعة ، ولم يقع له من حين ولى السلطنة أنه بات عن القلعة سوى هذه الليلة ، وكان ولده المقر الناصرى محمد صحبته ، قيل انه قرأ فى تلك الليلة عشرين ختمة بالجبرتية ، وانشرح تلك الليلة الى الغاية ، ثم فى اليوم الثانى نزل السلطان من المقياس فى الحراقة وتوجه الى بولاق ، وكان الأمير خاير بيك الخازندار عليلا وهو مقيم فى البيت المعروف بالسبكية ، فطلع عنده السلطان وعاده فمد له خاير بك هناك مدة حافلة ، فأكل منها ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى هذا الشهر تناهى النيل فى الزيادة الى اثنتى عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، وذلك قبل دخول النوروز بستة عشر يوما ، حتى عد ذلك من النوادر ، فأخصبت الفواكه فى هذا الشهر جدا ، حتى البطيخ الصيفى والعبدلى والعنب والرمان وسائر الفواكه ، لكن الزبيب كان غاليا وتناهى سعره الى خمسة أشرفية كل قنطار ، وصاروا يخلطون مع الأقسماء العجوة ، وكانت أصناف الغلال جميعها مشططة ، وسائر البضائع من السيرج والزيت والزيت الحار والسمن مشططة فى السعر ، وكذلك سائر الأجبان حتى السكر والقطر ، وتشحط اللحم الضانى والبقرى ، وغلا سعر الأرز ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

* * *

وفى جمادى الآخرة تغير خاطر السلطان على الزينى بركات بن موسى المحتسب ، وسبب ذلك أنه حصل بينه وبين الجمالى يوسف البدرى الوزير تشاجر بحضرة السلطان ، فخرج الزينى بركات على البدرى فى القول قدام السلطان وأساء عليه . فحنق السلطان من الزينى بركات وأمر بالقبض

عليه ، ووكل به ألماس دوادار سكين وشخصا آخر من دوادارية السكين ، فأطلعوه الى طبقة الحوش ، ورسم له السلطان بأن يقيم له حساب أربع سنين عن الجهات التى كان يتكلم عليها ، فاستمر فى الترسيم ثمانية أيام وهو فى كل يوم يدفع الى ألماس ورفيقه مائة دينار ، ولم يجسر أحد من الأمراء أن يكلم السلطان فى أمره .

فلما كان يوم السبت تاسع هذا الشهر أفرج السلطان عن الزينى بركات وألبسه كاملية صوف بسمور ، ونزل من القلعة فى موكب حافل ، ومعه جماعة من أرباب الدولة ، فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين ، وتخلق الناس بالزعفران ، حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون فعلقت فى الطيقان ، وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقته الطبول والزمور ومغانى النساء ، وكان ساكنا ببركة الرطلى فى أيام النيل . وكان الزينى بركات محببا للناس فى أيام ولايته على الحسبة ، ولما قبض السلطان عليه رثى له الناس ، وكانت الأعداء شنعت عليه أن السلطان يقصد شنقه مثل على بن أبى الجود ، فنجاه الله تعالى من ذلك ، وقد هنيته لما خلص بهذين البيتين وهما :

تاب اليك الدهر مما جنى
من فعله فى حكمه الجاير
فما نجا من شر كيد العدا
سوى الفتى المحتسب الصابر

وقيل ان السلطان قرر عليه نحوا من ثلاثين ألف دينار ، وقيل أربعين ، يقوم بشىء من ذلك فى كل شهر على الجوامك .

ومن الوقائع الشنيعة أن الوالى قبض على شخص من الأتراك يقال له دمرداش ، وكان مشدا على دار البطيخ التى بباب النصر ، وقد غمز عليه أنه ينبش على القبور ويأخذ رءوس الموتى ولحمهم ويبيع ذلك للفرنج يعملون منه المومية ، وقيل السم ، فلما قبضوا عليه وجدوا عنده من عظام الموتى أشياء كثيرة من جماجم وأعضاء ، فحملوا ذلك فى قفاف على حمير وطلعوا بها الى السلطان حتى شاهد تلك العظام . فلما وقف دمرداش المذكور بين يدى السلطان ، سأله عن أمر هذه الجماجم ، فقال : هذه من قبور النواويس يأتينى بها العربان فأصنع منها المومية وأبيع ذلك فى بلاد الفرنج ، ثم وجدوا على العظام لحما طريا ، وشهد عليه الناس أنه فى كل يوم يتوجه الى الصحراء وينبش قبور الموتى الجدد ويأخذ لحمهم وعظمهم يبيع ذلك على الفرنج . فلما تحقق السلطان ذلك أمر بشنقه ، فسمروه على جمل وأشهروه فى القاهرة حتى أتوا به الى داره بالقرب من دار البطيخ فشنق هناك ، وكان له يوم مشهود .

وقد تقدم مثل هذه الواقعة بعينها فى دولة الأشرف برسباى . وذلك أن رجلا أعجميا كان بمصر ينصب على النساء والأطفال ويقتلهم وينزع لحمهم عن عظمهم ، ويبيع اللحم على الفرنج كل قنطار بخمسة وعشرين دينارا ، فلما غمز عليه قبض عليه السلطان وأشهره فى القاهرة وقطع يديه وعلقهما فى رقبته ثم وسطه ، وكان ذلك فى سنة سبع وعشرين وثمانمائة .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه من بين الكيمان الى أن وصل الى السواقى التى فى الهد ، فنزل من هناك فى الغراب الذى عمره ، ثم انحدر الى المقياس وطلع الى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، ثم ان السلطان

عزم هناك على الأمراء قاطبة من المقدمين والطبلخانات والعشراوات وغالب العساكر ، فنصب الأمراء لهم خياما على شاطىء البحر الذى تجاه بر الجيزة ، فبات السلطان تلك الليله فى المقياس هو والأمراء قاطبة ، فمد له هناك القاضى كاتب السر محمود ابن أجا أسمطة حافلة ، وما أبقى فى ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى وفاكهة وسكر حريف وأقسماء وبطيخ صيفى وأجبان مقلى فى الطوارى ، وعم ذلك على سائر الأمراء قاطبة ، وممن كان صحبة السلطان من المباشرين وأرباب الدولة ، فألبسه السلطان هناك كاملية مخمل أحمر بسمور من ملابيسه ، وشكر له السلطان ما صنعه من ذلك ... فكان مصروف تلك الأسمطة نحوا من سبعمائة دينار ، وعزم السلطان هناك على القضاة الأربعة وأعيان الناس ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ .

ثم ان السلطان أوقد فى قاعة المقياس وقدة حافلة باطنا وظاهرا ، وعلق أحمالا بقناديل فى القصر الذى أنشأه على شرفات المقياس ، قناديل فى أحمال وأمشاط ، حتى أوقد جامع المقياس والمئذنة ، ثم ان سكان بر مصر وبر الروضة علقوا فى بيوتهم القناديل فى الأحمال والأمشاط بطول البرين ، حتى أوقدوا المربع الذى أنشأه السلطان للسواقى تجاه بر الروضة . ثم أحضر السلطان المركب الكبير الغليون الذى عمره وصرف عليه نحوا من عشرين ألف دينار فأرسوا به قبالة المقياس ، وصنعوا له ثمانية مراس فى البحر ، وعلقوا فى صواريه القناديل فى الأمشاط ، فكان الذى وقد فى المقياس تلك الليلة خمسة قناطير زيت وعشرة آلاف قنديل .

ثم صنع السلطان فى تلك الليلة حراقة فكان مصروفها نحوا من مائة وسبعين دينارا مثل حراقة نفط المحمل التى كانت تصنع بالرملة قدام القلعة ، فشقوا بالنفط من القاهرة وهو مزفوف وقدامه الطبول والزمور ، فكان عدة قلاع النفط خمسين قلعة ، والمآذن ستين مئذنة ، وأزيار عشرة ، وجرر أربعين جرة ، وصواريخ كبار ثلاثمائة ، ومأويات ألفا ومائتين ، وشجرات عشرة ، وتنانير عشرين ، وقطع ألفين ، وشعل أربعين ، فلما وصلوا بالنفط الى شاطىء البحر أنزله فى خمسين مركبا ، وصفوا المراكب قبالة المقياس عند البهطلة . ورسم السلطان للأمراء المقدمين بأن يحضروا طبلخاناتهم فى مراكب عند المقياس ، ففعلوا ذلك ، فكان حس الطبول والزمور مع الكوسات مثل صوت الرعد القاصف . فلما صلى السلطان العشاء جلس على سطح القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، والأمراء حوله ، وأحرقوا قدامه النفط ، وكان النيل فى ثلاث أصابع من عشرين ذراعا ، وكانت ليلة البدر ، فكانت تلك الليلة ، فدقت كوسات السلطان مع كوسات الأمراء المقدمين ، وهم أربعة وعشرون مقدم ألف ، فقاموا فى صعيد واحد عند احراق النفط ، فكانت تلك الليلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم ، ولم يقع لأحد من الملوك قبله مثل هذه الواقعة ، ولا للمؤيد شيخ ولا للناصر فرج ابن برقوق .

وقد وقع للأمير جانى بك نائب جدة أمير دوادار كبير أنه لما أنشأ القبة التى فى منشية المهرانى وكملت أوقد فيها تلك الليلة وقدة حافلة ، وأحضر مراكب وعلق فيها أحمالا بقناديل وركز صوارى قدام القبة وعلق فيها قناديل فى حبال ، وكانت له ليلة حافلة ، وذلك فى أواخر سنة سبع وستين وثمانمائة . وقد تقدم ذكر ذلك فى دولة الظاهر خشقدم ، ولكن لم تعادل ليلة وقعت للأشرف الغورى فانها كانت من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة ، وقد بلغ كرى كل مركب فى تلك الليلة

خمسة دنانير وأكثر من ذلك ، والمراكب التى هى مرسية على البر اشحنت بالحلايق ، فأخذوا على كل رأس أربعة أنصاف فتحصل من ذلك جملة مال للنوانية .

وكان بطول الليل والى القاهرة يدور فى مركب وينادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد يشوش على أحد ولا مملوك يعبث على امرأة ، فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان ، ولكن عبثت المماليك فى الطرقات على الناس وصاروا يخطفون العمائم والشدود ، وقتل مملوك امرأة فى طريق مصر وقد ساق الفرس فقوى رأسه عليه فداس امرأة راكبة على حمار فماتت من وقتها ، وغرقت مركب تلك الليلة بمن فيها من الناس ، وكانت ليلة كثيرة الاضطراب ماجت فيها الناس وخرجت البنت فى خدرها حتى تنظر وفدة السلطان وحراقة النفط ، فأقام السلطان فى المقياس يوم الأربعاء ويوم الخميس الى بعد العصر ثم طلع الى القلعة ، وكان ولده المقر الناصرى محمد صحبته وغالب الأمراء ، وقد نظمت هذه القصيدة فى هذه الوافعة حيث أقول :

لم يسمح الدهر فيما جاد من فرج
كليلة سمحت للأشرف الغورى
فان ترد وصفها أنشدت مرتجلا
فى وقدة الليل بالأملاك والدور
من بر مصر ومقياس يقابله
كأن التقابل بين النور والنور
حاكت مصابيحها ضوء النجوم اذا
ما أزهرت بالدجى فى ليل ديجور
وكم رأينا قلاعا فى ذخائرها
صوارخ بضياء فى الجو منشور
كواكب النفط قد حاكت لنا قمرا
بضوء زهر بدا فى الماء منشور
قلوب أزياره صارت مفرقعة
من وهج نيرانها فى زى مقهور
وصوت باروده مثل الرعود اذا
ما صرخوه يحاكى نفخة الصور
وضاق رحب الفضا فى البحر من سفن
لما بدت فى ازدحام كل شختور
وكم سمعنا مغن صوته طرب
يشدو على آلتى عود وطنبور
قالت لنا روضة المقياس ذا عجب
هل بعد يوم الوفا جبر لمكسور
تاريخ سلطاننا فاق الملوك اذا
تفاخروا فهو تاج الكل بالدور
حفت عساكره من حوله زمرا
فكم سبا جمع أحزاب على الفور
لو عاش من أنشأ المقياس قال له
الآن أنت علينا خير مشكور
فلا الرشيد ولا المأمون ناسبه
فى أمره ناهيا عن كل منكور
فالله يبقيه فى عز وفى شرف
أعيذه من شرار الناس بالطور
ما غرد الطير فى روض وناشده
على الغصون هزار حول شحرور
محمد بن اياس نظمه درر
وقد أضاءت بمدح الأشرف الغورى
ثم الصلاة على المختار ما طلعت
شمس الضحى واستنار الأفق بالنور

وفى يوم الجمعة ثالث عشرينه خلع السلطان على ناظر الخاص وخرج على الهجن وسافر الى

مكة ، وخرج صحبته جماعة من مصر يرومــون الحج .

وفى يوم الخميس رابــع عشرينه توفى قراكز الشريفى الفهلوان أحد الأمراء العشراوات ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم الخميس ثامن عشرينه أشيع بموت علم الدين الذى كان متحدثا فى كتابة الخزانة ، وقد قاسى شدائد ومحنا وصودر ، واستمر فى المصادرة من سنة أربع عشرة وتسعمائة الى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ، وضرب غير ما مرة وعصر وأخذ منه مال له صورة نحو من مائة وعشرين ألف دينار على ما قيل ، والله أعلم بحقيقة ذلك ، وآخر الأمر مات وهو تحت العقوبة فى الترسيم .

وفيه قبض الســلطان على تاج الدين ابن كاتب الدواليب وسلمه الى الزينى بركات بن موسى ، وسبب ذلك قيل عنه أن عنده لعلم الدين المذكور وديعة .

وفيه حضر الناصرى محمــد بن الشهابى أحمد ابن أسنبغا الطيارى أمير شكار ، وقد تقدم أن السلطان تغير خاطره عليه بسبب علم الدين جلبى السلطان فرسم بنفيه الى قوص ، فلما توجه الى هناك كان الأمير طومان باى الدوادار مسافرا نحو الصعيد ، فلما وصل الناصرى محمــد الى هناك ترامى على الأمير طومان باى بأن يشفع فيه عند السلطان ، فأرســل شفع فيه ، فرسم الســلطان بعــوده الى مصر ، فلمــا طلع الســلطان خلع عليه ونزل الى داره ، لكن عرم مالا له صورة .

وفى يوم الجمعة تاســع عشرينه هجم المنسر ليــلة السبت على سكان الزربية من المتفرجين ، فدخلوا المقاصف ونهبوا عمائم الناس وقماشــهم وعبيهم وقتلوا شخصا من الخفراء ، وكانت ليلة مهولة ، وراحت على من راح .

وفى يوم الجمعة المذكور صنع الأمير قانصوه ابن سلطان جركس أحــد الأمراء المقدمين وقدة وحراقة نفط فى بركة الفرايين ، مكان داره التى أنشأها هناك ، فكانت له ليلة حافلة وعــزم على الأمراء عنده ، ونقل مراكب صعارا على جمال الى بركة الفرايين فكانوا نحــوا من ثلاثين مركبا أو دون ذلك ، وأمر ســكان البركة بأن يوقــدوا فى بيوتهم القنــاديل والثريات والأمشاط ، فأوقدوا وقدة حافلة تلك الليلة ، ومد أســمطة حــافلة للأمراء ، ولم يقع قط فى بركة الفرايين ليلة مثل تلك الليلة فى الفرجة والقصف .

***

وفى رجب ، كان مستهله يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فحصل للقاضى الشافعى من السلطان بعض مقت ، وسبب ذلك أن قوس الهــلال كان تلك الليــلة لا يرى ، فقيل رآه بعض الناس ، وكان قوســه تلك الليلة على درجتين ونصــف ، وكان عسر الرؤيه وحكم أرباب التقويم أنه لا يرى تلك الليلة ، فثبت رؤيته على قاض فى الصــليبة يقــال له شمس الــدين الأتميدى ، فلمــا طلع القضاة الى السلطان وقال للقاضى الشافعى : أحضر لى القاضى الذى ثبت عليه برؤية الهلال على درجتين ونصف وهو غير ممكن الرؤية ، فنزل القاضى الشافعى كمال الدين الطويل وهو فى غاية التعفيش وأشيع عزله

وفى يوم الأربعاء خامسه نزل الســلطان الى المقياس وأقام به الى أواخر النهار ، وكان بلعــه مجىء الأمير طومان باى الدوادار من الصعيد ، فلما أن وصل بالمركب نزل الى المقياس وسلم على السلطان هناك ، ثم فى ثانى يوم طلع وليس خلعة حافلة ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى يوم الخميس سادســه خلع السلطان على

قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب وقرره فى قضاء الشافعية عوضا عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل بحكم انفصاله عنها ، وهـــذه خامس ولايـــة وقعت لابن النقيب ، وقد سـعى فى هـــده المرة بثلاثة آلاف دينار وقيل انه نفد منه فى هذه الخمس ولايات نحو من سبعة وعشرين ألف دينـــار ، غير ما سـعى به للمتكلمين له على ما قيل

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره نزل السلطان الى المطرية وأقام فى قبة يشـبك الدوادار الى بعـــد العصر ، وأكل السماط هناك ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، الموافق لأول يوم من بابه ، ثبت النيل المبارك على ثمانى أصابع من احدى وعشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى نصف هاتور . وقد تقدم القول أن فى سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة فى دولة الأشرف قايتبـــاى ، ثبت النيل المبارك على احدى عشر أصبعا من احدى وعشرين ذراعا ، فكان أزيد من هذا بثلاث أصابع .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه فرق السلطان على الممـــاليك القـــرانصة الخيول التى كانت لهم فى الديوان ، فأعطى لهم عن كل فرس فحل خمسة آلاف درهم ، والذى له فحل واكديش ثلاثة آلاف درهم عن الاكديش وأعطاه فحلا مع الثلاثة آلاف ، ومن حين تسلطن الى يوم تاريخـــه لم ينفق على المماليك القرانصة ثمن خيول الرد سوى فى هذا الشهر .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وكانت ليلة مستهل الشهر .

* * *

وفى شعبان طلع الخليفة والقضــــاة الأربعة الى السلطان ليهنوه بالشـــهر ، فقيل لهم بأن السلطان فى المقياس لم يطلع الى الآن ، فرجع الخليفة الى داره ، وقيل ان القضاة عدوا له الى المقياس وهنوه بالشهر هناك ، وكل هذا استخفاف بالناس ، ولم يكن له فى ذلك اليوم شغل يقتضى فعاده فى المقياس ذلك اليوم ، فكان يوم تفرقة الجامكية الخامسة التى استجدها .

وفى يوم الثلاثاء ثانيه نزل السلطان الى الميدان وجلس فيه الى قريب الظهر ، ثم طلع الى الدهيشة فلم يأكل السماط على جارى العادة ، وحصل له توعك فى جسده ودخل الى دور الحرم ، وأقام فيه يوم الأربعـــاء والخميس ، فكثر القال والقيل بين الناس ، وأشيع أنه قد أصابه القولنج . ثم خرج يوم الجمعـــة وصلى فى الجامع فأبطل ذلك القيل والقـــال .

وفى هذا الشهر قبض السـلطان على أقبـــاى كاشف الشرقية ووكل به بالقلعـــة وتغير خاطـــره عليه ، فنادى فى القاهرة كل من كان له ظلامة عند أقباى كاشف الشرقية فعليه بالأبواب الشريفة . وكان أقبـــاى أفحش فى الشرقية غاية الافحاش ، حتى ضج منه جميع المقطعين وكثرت فيه الشكاوى من العسكر . ثم رسم السلطان بنزوله الى بيت نقيب الجيش حتى يرضى العسكر فيما أخذه من البلاد غير العــادة ، فلم يفـــد من ذلك . وأرضى الســـلطان بمال وراح على المقطعين ما أخـــذه من بلادهم عن سنة ثمانى عشرة الخـــراجية معجلا . وفعل أشياء بالشرقية لم يفعلها غيره من الكشاف .

وفى يوم الاثنـــين خامس عشره خلع الســـلطان على قانصوه العادلى وقرره كاشف الشرقية عوضا عن أقباى بحكم انفصـــاله عنها ، وخلع على جان بلاط الأشرفى كاشف الغـــربية وأقـــره على حاله بالغربية ، وكان أشيع عزله .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره رسم الســـلطان بالافـــراج عن شرف الدين يونس النابلسى الذى

كان أستادارا وعزل عنها ، وقد قاسى شدائد ومحنا ، وأقام نحوا من ثلاث سنين وهو فى الترسيم بالجامع الصغير الذى هو داخل الحوش السلطانى ، وربما كان فى الحديد فى هذه المدة ، وضرب بين يدى السلطان غير ما مرة ، وصودر وقرر عليه مال له صورة يرد منه على الجوامك فى كل شهر خمسمائة دينار .

وفيه كانت كاينة الخواجا شمس الدين الحليبى مع السلطان ، وسبب ذلك أن السلطان كان صادره مرارا عديدة وأخذ منه جملة مال ، فأرسل الحليبى الى مكة كتابا بخط يده الى شخص من أصحابه بمكة وذكر فيه ما فعله به السلطان ، وأرسل يقول له : « ادع على السلطان فى تلك الأماكن الشريفة فانه ما هو مسلم ولا فى قلبه رحمة قليل الدين » .

فظفر بعض أعداء الحليبى بهذا الكتاب فأوصله الى السلطان ، فلما قرأه أحضر الحليبى وأطلعه على ذلك الكتاب فأنكر الحليبى ذلك وقال : « هذا ما هو بخطى » . فشهد عليه جماعة أن هذا خطه ، فرسم السلطان عليه وشكه فى الحديد ، وقصد عليه أن يثبت عليه كفرا كون أنه عمله قليل الدين وما هو مسلم . ثم آل أمره على أن السلطان قرر عليه مالا له صورة .

وفيه فرق السلطان اطلاقات الطين على الأمراء ، ولكن أحدث شيئا ما فعله أحد من الملوك قبله ، وهو أنه نقص من اطلاقات الأمراء أشياء كثيرة وأخذ منهم الحلوان زيادة عن العادة ، فنقص من اطلاق أمير كبير سودون العجمى مائتى فدان ، وكان قبل ذلك سلخ من اقطاعه جهات بنحو من عشرين ألف دينار كون أنه كان لين الجانب فاستضعفه ، ونقص من اطلاق بقية الأمراء المقدمين كل واحد مائة فدان ، ومن اطلاقات الأمراء الطبلخانات كل واحد عشرين فدانا ، ومن اطلاقات الأمراء العشراوات كل واحد خمسة عشر فدانا ، وفرق على أصحاب الوظائف لكل واحد أشرفيين ، وبقية المماليك كل واحد أشرفيا ، وآخرين أشرفيا ونصف .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه نزل السلطان الى المقياس وأقام به الى آخر النهار ، ومد هناك سماطا حافلا ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر .

وفى يوم الخميس خامس عشرينه خلع السلطان على المعلم يعقوب اليهودى ، وقرره متحدثا على دار الضرب ، كما كان ابن نصر الله الذى تسحب كما تقدم ذكر ذلك ، فألبسه كاملية صوف أزرق بسمور ونزل من القلعة وهو فى غاية العظمة .

وفى يوم الجمعة سادس عشرينه ، الموافق لتاسع هاتور القبطى ، فيه قلع السلطان البياض ولبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشرينه نزل السلطان وتوجه الى المقياس ، ثم نزل فى خرطوم الروضة ونصب له هناك خياما وأقام الى أواخر النهار . وانشرح فى ذلك اليوم ، وكان صحبته ولده المقر الناصرى محمد وجماعة من الخاصكية . وأشيع أن خرطوم الروضة أعجبه فأمر أن يبنى هناك قصر بأربعة أوجه .

وفى أواخر هذا الشهر لم يعرض السلطان المسجونين الذين فى الحبوس على جارى العادة ، وكان له عادة يعرض من فى الحبوس قبل رمضان بأيام قلائل ، ويطلق من المحابيس جماعة ، وينعم على المديونين بشىء ، ويصالح عنهم الغرماء ، ويفعل أشياء كثيرة من هذا النمط ، فلم يعمل فى هذه السنة شيئا من ذلك وتغافل عن هذا الأمر .

* * *

وفى رمضان كان مستهله يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وجلس

السلطان فى الميـــدان وعرض عليه الوزير يوسف البدرى اللحـم والخبز والدقيق والسكر والغنم وغير دلك ، على جارى العادة ، وهو مزفوف على رءوس الحمـــالين ، فخـلع الوزير عـلى الزينى بركات بن موسى المحتسب ونزلا من القلعـة فى موكب حافل .

وفى أوائل هذا الشهر عز وجود الحطب قاطبة ، وصـــار الناس يقـدون الجـلة والكرس وقش الغيطان ، وتعطلت مطـابخ الأمـراء بسبب ذلك ولا سيما فى رمضـــان ، واستمر الحال على ذلك الى أواخر الشهر .

وفى يوم الخميس ثانى رمضان حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند ملك الهند ، وصحبته فيلان عظيما الخلقة ، وعليهما بركستوانات مخمل أحمر بمسامير كفت ، وعلى ظهورهما صنـــاجق ، وعلى أنيابهما غلوف من الفولاذ ، فرجت لهما القـاهرة لما دخلوا ، وكان السـلطان فى الميـدان فعرضا عليه وقدامهما الطبول والزمور ، فتسارع الفيلان قدام السلطان فى الميـــــدان ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ثم رسم بأن يتوجهوا بهما الى بيت الأتابكى تمراز الذى عند القبو فأقاما به ، وحضر صحبة القاصد أولاد الخواجا عيسى القارى الذى توفى بمكة ، فقرر عليهما مائة ألف دينار ، فتشكوا من ذلك فحلف بحق رأسه ما يأخذ منهم الا مائتى ألف دينـــار ، فرجعوا من عنده وهم فى أسوأ حال .

وفى يوم الأربعاء ثامنه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطعم الذى بالريدانية وجلس على المصطبة التى هناك ، وأطلقوا قـدامه الكلاب والصقورة والفهـودة ، وانشرح فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع الســـلطان على المقر السيفى طومان باى أمير دوادار وقرره متحدثا على ديوان الوزارة والأستادارية وسائر الدواوين قاطبة ، وأشيع أنه بقى نظام المملكة ، فتضاعفت عظمته جـدا ، واجتمع فيه عـدة وظائف سنية ولا سيما لكونه قـرابة السلطان ، فلما نزل من القلعـة كان له يوم مشهود ، ونزل صحبته سائر الأمراء وأرباب الدولة حتى الفيلين المقدم ذكرهما ، وهما مزينان بالصناجق واللبوس ، وقدامهما الطبول والزمور .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الرئيس حامد المغربى وكان السلطان أرسله الى بلاد ابن عثمان ليشترى أخشـــابا وحبالا ومكاحل نحاس . فلما بلغ ابن عثمان مجيئه أكرمه وأرسل صحبته الى السلطان عدة مكاحل نحاس وحديد وأخشـــاب وحبال وغير ذلك أشياء كثيرة فى مراكب موسوقة .

وفى يوم الجمعـــة عاشره حضر على الجركسى قاصـــدا من عنـــد خاير بك نائب حلب ، وكان السلطان أنعم على الجركسى بأمرة عشرة بحلب وجعله حاجبا ثانيا هناك ، وذلك لأجل خاطر خاير بك نائب حلب ، ويقال ان على الجركسى هذا كان أصل أبيه فرانا ، وكان على حسن الشكل فأخذه الأمير خاير بك عنده بجمقدار ورباه صغيرا حتى كبر ، فلا زال يرقى حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ، والعبد بسعيه لا بأبيه ولا بجده .

وفيه كان ما وقع لرئيسة المغانى ، وهى امرأة يقـــال لها هيفة اللذيذة ، وقد رافعها بعض أعدائها بأن لها دائرة كبيرة من المـــال ولها حلة للكرى ، فلما سمع الســـلطان ذلك قبض عليها وأقامت فى الترسيم ، وعرضت للضرب غير ما مرة ، وقرر عليها خمسة آلاف دينار ، فباعت الحلى وجميع ماتملكه وأوردت ألف دينار ، وقد تكلم لها القاضى بركات

ابن موسى بأنها لا تملك غير ذلك ، فقرر عليها بعد ذلك خمسمائة دينار ترد فى كل شهر مائة دينار على كل جامكية ، وقد طفل السلطان نفسه الى مصادرات المغانى أيضا ، والأمر لله .

وفى يوم الخميس سادس عشره فرق السلطان الكسوه مع الجامكية ، ولكن جعل كسوة أولاد الناس والمماليك العواجز ألفى درهم ، وصار لا يأخذ كسوة ثلاثة آلاف درهم سوى المماليك القرانصة وجلبانه فقط .

وفى ذلك اليوم حضر سيف نائب كختا ، وأشيع أنه مات قتيلا من بعض التراكمة .

وفى يوم الأحد تاسع عشره نزل السلطان وسير الى نحو المطرية ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة ونزل فى مدرسته وزار قبر أولاده ، ثم عرض الأيتام الذين بالمكتب ورسم لهم بكسوة على العيد ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين عشرينه خلع السلطان على الشيخ خليل بن اسمعيل بن شبانة ، شيخ عربان جبل نابلس ، وقرره على عادته فى مشيخته بجبل نابلس ، وقد سعى فى ذلك بمال له صورة .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أن شخصا من النصارى يقال له عبد الصليب ، وهو من نواحى دلجة من الجهات القبلية ، فقيل عنه انه وقع فى حق النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بكلمات فاحشة . فشهد عليه جماعة بذلك وكتبوا به محضرا وثبت على قاضى الناحية ، فلما أحضروا النصرانى بين يدى السلطان اعترف بما قاله فى حق النبى صلى الله عليه وسلم ، فعرضوا عليه الاسلام فأبى ، فبعثه السلطان الى بيت الأمير طومان باى الدوادار ، فعقد له مجلس فاعترف بين يدى القضاة بما قاله وصمم على ذلك ، وقد بايع نفسه على عدم تغيير دينه ، فحكم القضاة بسفك دمه ، وثبت ذلك على بعض نواب المالكية فأركبوه على جمل وهو مسمر وأشهروه فى القاهرة حتى أتوا به الى عند المدرسة الصالحية ، فضربوا عنقه تحت شباك المدرسة . ثم ان العوام أحضروا له النار والحطب وأحرقوا جثته فى وسط السوق ، فلما دخل الليل أكل الكلاب عظامه ومضى أمره .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه عرض السلطان خلع العيد ، وكانت فى هذه السنة فى غاية الوحاشة ، وهم بحكم النصف عن كل سنة ، وتعوق غالب الخلع . وسبب ذلك أن ناظر الخاص كان مسافرا فى الحجاز .

وفى ذلك اليوم كان ختم البخارى بالقلعة ، وحضر القضاة الأربعة ، وفرقت الخلع والصرر على من له عادة ، وكان ختما حافلا بالحوش السلطانى فى الخيمة المدورة .

وفى يوم الخميس سلخ الشهر حضر الأمير حسين الذى كان توجه باش التجريدة التى توجهت الى بلاد الهند ، وكانت مدة غيبة الأمير حسين فى هذه السفرة نحوا من سبع سنين وثلاثة أشهر ، وتوجه الى بلاد الهند واتقع هناك مع الفرنج وكسروه ونهبوا ما كان معه من المراكب والسلاح ، وجرى عليه شدائد ومحن ، وهو الذى كان شادا على عمارة الصور والأبراج التى أنشأها السلطان بجدة وجاءت من أحسن المبانى . وكان الأمير حسين قرر فى نيابة جدة فى هذه المدة ، وأظهر هناك الفتك والعظمة ، وجار على التجار فى أمر العشر ، وظلم الناس قاطبة حتى ضجوا منه ، وتوجه فى هذه المدة الى جماعة من ملوك الهند . ولما حضر الأمير حسين جاء صحبته قاصد من عند الملك مظفر شاه ابن الملك محمود شاه صاحب كنباية ، الذى توفى الى رحمة الله تعالى ، فحضر

قاصد الملك مظفر شاه حتى يأخذ له من الخليفة تقليدا بولايته على كنباية ، فخلع السلطان على الأمير حسين وعلى قاصد ملك الهند ، ونزلا فى موكب حافل .

* * *

وفى شوال كان العيد يوم الجمعة ، وخطب فى ذلك اليوم خطبتان ، وكان موكب العيد حافلا .

وفى يوم الاثنين رابعه طلع الأمير حسين بتقدمة حافلة للسلطان ، ومثلها تقدمة من عند قاصد ملك الهند صاحب كنباية ، وكانت تقدمة الأمير حسين لها المنتهى من كل صنف فاخر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه حضر القاضى علاء الدين ناظر الخاص ، وقد تقدم القول على أنه توجه الى مكة لينظر فى أمر من يلى امرة مكة عوضا عن الشريف قاتباى الذى توفى . فلما حضر ناظر الخاص حضر صحبته ابن الشريف بركات ، وحضر صحبتهم موذن عزورة أمير مكة وهو صبى صغير السن يقال له محمد أبو نمى ، وحضر معه ابن عمه الشريف عرعر ، وحضر صحبتهم قاضى قضاة مكة الشافعى والقاضى المالكى ، فلما أقبلوا قام لهم السلطان وأكرمهم غاية الاكرام ، وخلع عليهم كوامل بسمور ، وعلى ناظر الخاص . وقد لاقاهم لما دخل قضاة مصر الأربعة والقاضى كاتب السر ابن أجا وأعيان الناس ، فنزلوا فى مكان أعد لهم .

وفى يوم الأربعاء سادسه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، فأقام بها الى ما بعد الظهر ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الخميس رابع عشره جلس السلطان بالميدان ، وعرضوا عليه كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ومقام ابراهيم عليه السلام والمحمل ، وشقوا بها من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خرج الحاج من القاهره وصحبتهم المحمل الشريف ، وكان أمير ركب المحمل تمر الحسنى أحد الأمراء المقدمين ، وبالركب الأول يوسف الناصرى شاد الشراب خاناه الذى كان نائب حماة ، وخرج صحبتهما الأمير قطلوباى الذى قرر باش المجاورين ، فكان لخروجهم يوم مشهود ، وظهر لهم أطلاب حافلة حتى رحت لهم القاهرة ، وخرج قدام المحمل الأفيال الكبار وهى مزينة باللبوس ، وعلى ظهورها الصناجق ، وقدامها الطبول والزمور . وخرج قدام المحمل القضاة الأربعة وقضاة مكة الذين حضروا وابن الشريف أمير مكة ، وخرج قدام أمراء الحاج أعيان الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم السبت ثالث عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة مصطفى التى فى المرج والزيات وبات بها تلك الليلة وأقام هناك .

وفى يوم الأربعاء سابع عشرينه نزل السلطان الى نحو تربة العادل وجلس هناك ، وجربوا قدامه عدة مكاحل ، ثم أقام هناك الى بعد العصر وعاد الى القلعة .

وفيه توفى المعلم عبد القادر الشماع ، وكان علامة فى فن التقويم وأخبار الملك .

وفى أواخر هذا الشهر توفى الأمير اينال شاد العمائر السلطانية ، وكان أصله من مماليك الأتابكى أزبك بن ططخ ، وأنعم عليه السلطان بأمرة عشرة ، وكان عنده من المقربين ، وكان عارفا بأمور الهندسة وأحوال البناء وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر رسم السلطان بتجديد عمارة

ميدان المهارة الذى بالقــرب من قناطر السباع ، فشرع فى ذلك وأمر الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير بأن يتولى أمر العمارة ويباشر ذلك بنفسه . فامتثل ما رسم به وأظهر العزم فى ذلك .

***

وفى ذى القعدة ، فى يوم الأربعاء خامسه ، نزل السلطان الى نحو تربة العادل التى تجاه المطرية ، وجلس على المصطبة التى هناك ، وجربوا قدامه عدة مكاحل بأحجار كبــار ، تم توجه الى قبة يشبك التى هنـــاك ، وأمر بعمارة فساقى وحفر بئر بسبب مرور المســافرين من هناك ، وشرع فى فتح عمــارة كبيرة . وجعــل الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين شادا على هــذه العمارة ، فقدروا على مصروف هذه العمارة مالا جزيلا ، وما كان الوقت محتاجا الى تلك العمارة هناك ، وتكلموا بأنه ينشىء هناك قصرا عظيما ، وبحرة طولها نحو من مائة ذراع ، وينشىء هناك غير ذلك أشياء كثيرة .

ومما وقع فى هذه الأيام أن كلبة فى الأزبكية ولدت أحد عشر كلبا فى بطن واحدة فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى يوم الخميس سادســه حضر الى الأبواب الشريفة أحــد أولاد أحمد بك بن عثمان ملك الروم ، وهو شــخص يسمى سليمان بك ، فلما حضر أكرمه السلطان وألبسه ســلارى صوف بسمور من ملابيسه ، وقيل ان والده أحمد بك فر من أخيــه سليم شاه الذى تولى على مملكة الروم ، وقصد أنه يحضر الى عند السلطان ، فبدا له من بعد ذلك أمر ، فتوجه الى عند شاه اسماعيل الصفوى وحضر ابنه الى عند السلطان ، فما انشرح السلطان لذلك وخشى مما يأتى من هذه الحركة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير أقباى الطويل أمير آخور تانى ، وعينه بأن يتوجه قاصدا الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، ليهنيه بالملك ، وينسج مودة بينهما . فنــزل أقباى من القلعة فى موكب حافل .

وفيه تغير خاطر السلطان على الشرفى يونس بن الأقرع نقيب الجيوش المنصورة ، وقرر عليه عشرين ألف دينار وكتب خط يده بذلك ، وكان سبب هذه الكاينة له أن يونس السيفى قيت الرجبى كاشف منفلوط تغير السلطان عليه وقرر عليه مالا له صــورة ، وسلمه الى يونس نقيب الجيش . فلما نزل به الى داره تسحب من عنده واختفى فتغير خاطر السلطان على نقيب الجيش وقال : « ما أعترف بالمال الذى عليه الا منك » . فكان هذا سببا لكاينة نقيب الجيش مع السلطان ، وكان نقيب الجيش من وسائط السوء اذا وقف بين يدى السلطان ما يتحدث فى أحد من الناس بخير ، ويحصل للناس منه الضرر الشامل ، فكان يستحق كل سوء ، فلما جرى عليه ذلك شرع فى بيع أملاكه ورزقه وقماشه وخيوله ، وجاء عليه الســلطان مجىء وحش ، والمجــازاة من جنس العمل .

وفى يوم الخميس ثالث عشره خلع السلطان على قاضى القضــاة كمال الدين وأعاده الى منصب القضـــاء ، وصرف عنه محيى الدين بن النقيب ، وهذه ثالث ولاية وقعت لكمال الدين الطويل ، وقد نفد منه فى هذه الثلاث ولايات فوق العشرة آلاف دينار ، وأما محيى الدين بن النقيب فانه تولى خمس ولايات ، فكانت مدته فى هذه الخمس ولايات ســنة وتسعة أشهر وثمانية أيام لا غير ، كما يقال فى المعنى :

أعماله ردت عليه بما جنى
والدهر قد جازاه من جنس العمل

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره نزل السلطان وكشف على العمارة التى فى الميدان ، كما تقدم ذكر ذلك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الجمعة رابع عشره صلى السلطان صلاة الجمعة بالقلعة ، ثم ركب ونزل وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه ثلاث طوابل خيول بسروج ذهب وكنابيش ، وقدامه من الأمراء الأمير طومان باى الدوادار الكبير فقط ، ومن الأمراء الطبلخانات أقباى أمير آخور ثانى وكرتباى والى القاهرة ، وجماعة من الخاصكية والسلحدارية ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة لمساء ، وعليه سلارى صوف فستقى بسمور ، وهو راكب فرسا بسرج ذهب وكنبوش . وأشيع أنه يتوجه الى نحو الأهرام ويقيم به أياما ، فنصب هناك وطاقا . وأشيع أنه يتوجه من هناك الى الفيوم كما وقع للأشرف قايتباى نظير ذلك ، فرجت القاهرة لسفره على حين غفلة ، وماج العسكر الذى لم يكن على نقطة من احتياج السفر . ولما نزل السلطان من القلعة توجه الى المقياس وبات به لسلة السبت ، فلما طلع النهار عدى من هناك وطلع الى بر الجيزة وتوجه الى الوطاق الذى نصبه عند الأهرام .

وقيل ان السلطان أخذ معه جماعة من المغانى وأرباب الآلات ، فمنهم محمد بن عوينة العواد وجلال السنطيرى والبوالقة وابن الليمونى وغير ذلك من المغانى . فلما توجه الى الوطاق أقام به يوم السبت والأحد ، ثم رحل عن الوطاق يوم الاثنين سابع عشره وقصد التوجه الى نحو الفيوم وكان صحبته من الأمراء الأتابكى سودون العجمى وقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء المقدمين ، ومن الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية ، فتوجهوا على الهجن وساروا الى الفيوم .

وفى يوم الاثنين المذكور فرقت الجامكية على العسكر فى غيبة السلطان بباب القلعة . وحضر ذلك مقدم المماليك والأمير خاير بك الخازندار والوزير يوسف البدرى ، وغير ذلك من الأعيان مثل القاضى بركات بن موسى المحتسب وغيره

ومن الحوادث فى غيبة السلطان قد حضر المقر علاء الدين بك أخو سليمان بك أولاد المقر الشهابى أحمد بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، وكان توجه الى زيارة بيت المقدس فلم يحضر صحبة أخيه سليمان بك لما حضر ، فأنزلوه عند ما حضر فى بيت الأتابكى تمراز الذى عند القبو الى أن يحضر السلطان

فلما توجه السلطان الى الفيوم وجدها خرابا وشرق غالبها ، وقد تقطع الجسر الذى بها ، فلم يقم بها السلطان سوى ليلة واحدة ، ورسم للأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين بأن يقيم هناك حتى يعمر الجسر الذى بها ، ثم ان السلطان رسم له بأن يفرد على البلاد التى هناك من اقطاعات ورزق على كل فدان طين عشرة أنصاف ، وقيل أفرد على المقطعين هناك ثلث ما لهم من الخراج ، فحصل للمقطعين بسبب ذلك غاية الضرر .

وكان قبل ذلك رسم السلطان بعمارة جسر أم دينار الذى بالجيزة ، فندب الى عمارته الشرفى يونس نقيب الجيش وشخصا آخر من المباشرين يقال له جمال الدين ، فأفردوا على البلاد والرزق والاقطاعات التى هناك فى اقليم الجيزة الثلث من الخراج ، فحصل للمقطعين الضرر الشامل ، وصار

يتعسف معهم ويستخرج منهم المال ، وصار السلطان يعــوق جوامك المماليك الذين لهم اقطاعات فى اقليم الجيزة بسبب عمارة هذا الجسر ، فمــا أبقى نقيب الجيش فى ذلك ممكنا من باب المظالم ، لا سيما شدة عسفه فى المظالم السلطانية .

ثم جاءت الأخبار بأن السلطان قد قصد العود من الفيوم ، فخرج الى تلقيه أمير المؤمنين وهو المتوكل على الله محمد فلاقاه من دهشور وهى بلد الخليفة ، فأقبل عليه السلطان ورحب به وبالغ فى اكرامه وتعظيمه وألبسه ســلارى صوف فستقى بسمور من ملابسه ، قيــل ان مشترى سموره ثلثمائة دينار .

وكان الخليفة لما توجه السلطان الى الفيوم مر من على دهشور بلد الخليفة فقــدم اليه الخليفة مهارة وأغناما وأبقارا وأشياء كثيرة من دجاج وأوز ومن أنواع الأكل قدور عسل نحل وجرر لبن وغير ذلك أشياء كثيرة ، فشكر له ذلك .

ثم ان الســلطان أتى الى الوطاق الذى تركه منصوبا تحت الأهرام ومضى الى الفيوم ، فلما نزل بالوطاق تسامعت به النــاس فتوجه اليه قضــاة القضاة ، وهم كمال الدين الطويل الشافعى ومحيى الدين يحيى الدميرى المالكى والشهاب أحمد الشيشينى الحنبلى ، وخرج اليه غالب أعيان الناس ، فنزل السلطان بالوطاق يوم الأربعاء سادس عشرينه ، فأقام به يومى الأربعاء والخميس وأحرق هناك احراقة نفط ثانية .

فلما كان يوم الجمعة عدى السلطان من هناك ونزل بالمقياس فأقام به الى يوم الأحد سلخ الشهر فتوجه اليه هناك أولاد ابن عثمان الذين حضروا كما تقدم القول على ذلك .

* * *

فلما كان يوم الاثنين مستهل ذى الحجة ، عدى السلطان من المقياس وأتى الى بر مصر وركب من هناك ، ومشت قدامه الرءوس النوب بالعصى ، ومشى قدامه الجم الغفــير من الخاصكية بغــير شاش ولا قماش ، وركب قدامه الأتابكى سودون العجــمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار الكبــير وحاجب الحجاب أنص باى ، وجماعة من الأمراء المقــدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وأعيان المباشرين من أرباب الوظائف ، وكان قاضى القضاة الحنفى عبدالبر بن الشحنة مسافرا صحبه السلطان فركب قدامه ، فألبس السلطان الأمراء المقدمين كوامل مخمل أحمر بسمور ، وهم أمير كبير وأمير مجلس والدوادار الكبير ، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور ، وكذلك جماعة من الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف ممن كان مسافرا مع السلطان ، وألبس قاضى القضاة الحنفى عبد البر كاملة صوف أبيض بسمور وكان مسافرا معه ، وركب قدامه العسكر قاطبة ، فشق من الصليبة مع طلوع الشمس وهو فى موكب حافل ، وعليه كاملية مخمل أحمر بسمور ، وهو راكب على فرس بسرج ذهب وكنبوش ، وقدامه ثلاث طوايل خيل بسروج ذهب وكنابيش ، وقدامه حجورة بسروج بداوى وركب مغربى ، وكان قدامه أربع نوب هجن فيها نوابتان بأكوار زركش ، وكان قدامه الفيــلان الكبيران وعليهما البركســتوان المخمل الأحمر ، وعلى ظهورهما الصناجق الحــرير الملون ، وكان قدامه طبلان وزمران والنفير البرغشى والطبردارية . قد شاهدت هذا كله بعينى ، وركب قدامه أولاد ابن عثمان ملك الروم ، وركب قدامه جماعة من أولاد ابن قرمان كانوا بمصر ، وركب قدامه جماعة من

مشايخ عربان جبل نابلس ، وغير ذلك من الأعيان ، فاسمر فى هذا الموكب الحافل حتى طلع الى القلعة ، وهذه كانت أول سفرات السلطان ، وكانت مدة غيبته فى هده السفرة سبعة عشر يوما ذهابا وايابا .

ووقع له فى هذه السفرة امور غريبة لم يقع للأشرف قايتباى مثلها لما سافر الى الفيوم ، وقد بلغنى ممن أثق به أن السلطان فتك فى هذه السفرة فتكا زائدا وأظهر أنواعا من العظمة ، وصار يمد للأمراء بطول الطريق أسمطة حافلة وطوارى فاخرة فى كل يوم أربع مرار ، ما بين حلوى وفاكهة وأجبان مقلى وجلاب وغير ذلك من الأسمطة الحافلة ، ولا يمنع من يأكل على السماط من الغلمان وغيرهم . وكان يطوف على العسكر بالسكر فى قرب مع السقايين ويسقيهم السكر بالطاسات ، وحكوا عنه أشياء غريبة من هذا النمط ، ورتب العليق لخيول العسكر بطول الطريق ، وكانت هذه السفرة على سبيل التنزه .

وقد أشيع بين الناس أن السلطان توجه الى هناك بسبب مطلب وجد هناك ، والأصح أنه توجه بسبب الكشف على الجسر الذى هناك ، وهو جسر اللاهون ، وجسر آخر هناك ، فانه كان تقطع حتى شرق منه اقليم الفيوم . فلما توجه السلطان الى هناك صار يتصيد فى جهات الفيوم ودخل عليه جملة تقادم من مشايخ العربان وغيرهم .

وقد بلغنى ممن أثق به أن السلطان فرق على الأمراء الذين كانوا معه من التقادم التى دخلت عليه ، فأعطى الأتابكى سودون العجمى ثلاثمائة دينار وفرسين وخمسين رأس غنم وخمس بقرات ، وأعطى الأمير أركماس أمير مجلس مائتى دينار وفرسا وأربعين رأس غنم وأربع بقرات ، وأعطى الأمير طومان باى الدوادار الكبير مثل ذلك ، وأعطى الأمير أنص باى حاجب الحجاب مثل ذلك ، وأعطى لبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم مائه وخمسين دينارا وفرسا وبقرتين وأربعين رميسا ، هذا خارجا عن الأوز والدجاج . وأعطى للأمراء الطبلخانات لكل واحد منهم أربعين دينارا وللأمراء العشراوات لكل واحد مهم عشرين دينارا وفرق عليهم أغناما بحسب مقام كل واحد منهم ، وأنعم على جماعة من الخاصكية من أرباب الوظائف بحسب ما يختاره ، ثم أنعم على من كان معه من المغانى لكل واحد منهم بعشرين دينارا وحنين صوف بسنجاب . وهذا على ما نقل ولم ألتزم صحة ذلك .

ثم ان السلطان ألبس الأمراء المقدمين عند عوده الى القلعة لكل واحد من أرباب الوظائف كاملية مخمل أحمر بسمور ، وألبس بقية الأمراء المقدمين كوامل صوف بسمور ، وألبس قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة كاملية صوف أبيض بسمور ، وألبس جماعة ممن كان معه من أرباب الوظائف لكل واحد منهم كاملية صوف بسمور ، وقد تقدم القول على ذلك .

فلما طلع السلطان الى القلعة دخل الى الميدان وكان مستهل الشهر ، فطلع القضاة الى الميدان وهنوه بالشهر ، ثم نزلوا صحبة قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة .

وهذا ملخص ما وقع للسلطان فى هذه السفرة الى الفيوم .

وفى يوم الأربعاء ثالثه نزل السلطان الى قبة يشبك التى فى المطرية وكشف على العمارة التى أنشأها هناك .

وفى يوم الخميس رابعه ابتدأ السلطان بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بشنق ابن حمادة شيخ العرب بالقليوبية ، فشنق على قنطرة الحاجب .

وفى يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، وكانت الأضحية فى هذا العيد فى غاية الانشحات من الغنم والبقر وذلك بسبب تسلط المماليك الأجلاب على الفلاحين الذين يحضرون البقر والغنم ، فكان المماليك يخرجون الى المطرية والى الخانكاه ويخطفون الغنم غصبا ، فحصل للناس غاية الضرر بسبب ذلك ، حتى الفحم كان مشحوتا والحطب فى هذا العيد .

وفى يوم الاثنين خامس عشره خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له جان بلاط وقرره فى نيابة كختا ، فخرج فى ذلك اليوم الى محل نيابته بكختا ، وخرج بطلب لطيف .

وفى يوم الأحد حادى عشرينه نزل القاضى بركات ابن موسى المحتسب ونادى على الفلوس الجدد بأن تكون الفلوس الجدد والعتق بالميزان وهى بنصفين الرطل ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه أظلم الجو وثار ريح عاصف واشتد البرد ، وكسفت الشمس فى ذلك اليوم كسوفا فاحشا ، وكان ذلك قبل العصر بأربع عشرة درجة ، وأقامت فى الكسوف نحو ساعة .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه أمطرت السماء بردا غزيرا مثل الحصا التى فى الصحراء .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وكانت سنة مباركة خصبة نتج فيها الزرع وأفلح فيها البطيخ العبدلى والبطيخ الصواصلى وسائر الفواكه ، ووقع فيها الرخاء ، وكان فيها النيل عاليا وثبت فيها ثباتا جيدا ، وكانت سنة هادئة من الفتن والشرور ، ولم يظهر فيها الطاعون بمصر بل ظهر بثغر الاسكندرية ورشيد وبعض السواحل ولم يدخل منه الى مصر شىء .

سنة تسع عشرة وتسعمائة (١٥١٣ م)

وكان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، ففيه فى المحرم طلع أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد .

وفى ذلك اليوم أمطرت السماء مطرا غزيزا وفيه حصى وهبت رياح عاصفة .

وفى يوم السبت رابعه نقلت الشمس الى برج الحمل وهو أول فصل الربيع ، فلما نقلت الشمس الى برج الحمل ظهر الطاعون بمصر ومات به جماعة من الأطفال والعبيد والجوارى ، فخرجت طائفة من الواحية وتوجهوا الى بلادهم فرارا من الطعن وقد فشا أمره .

وفى يوم الأحد خامسه نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ، وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، وانشرح فى ذلك اليوم ، وطلع القلعة بعد العصر .

وفى يوم الثلاثاء سابعه كانت كاينة قرقماس المقرى ، وذلك أنه قد اتهم بقتل امرأة ومملوك . وسبب ذلك أنه كان ساكنا عند غيط المرستان فى زقاق الكحل ، فطلعت غلمانه وعبيده الى هذه الامرأة والمملوك وفى أيديهم السيوف وزعموا أنهم منسر ، فضربوا الامرأة والمملوك زوجها ، وقطعوا آذان ابنتها وأخذوا منها الحلق ، فماتت البنت فى ليلتها ، فلما طلع النهار وجد فى الامرأة والمملوك جروح بالغة ، حتى قيل وجد فيه ست عشرة ضربة بالسكاكين ، فحملوهما على أقفاص حمالين وعرضوهما على السلطان ، فقال له المملوك والامرأة : ما لنا غرماء سوى قرقماس المقرى وغلمانه . وكان هذا المملوك ساكنا بالقرب من بيت قرقماس المقرى فى زقاق الكحل ، فلما تحقق السلطان من ذلك شك قرقماس المقرى فى الحديد

وسلمه الى الوالى هو وغلمانه ورسم له بأن يعاقب الغلمان والعبيد حتى يقروا على من فعل ذلك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان الأمير يخشباى الذى كان كاشف البهنسا ، وعرض أغاته الأمير قنبك الشيخ أحد الأمراء العشراوات ، وكان له مدة وهو مختف لأمر أوجبه ، فلما عرضوهما على السلطان شك الأمير يخشباى فى الحديد وسلمه للوالى ، وكذلك الأمير قنبك الشيخ ، واستمر عند الوالى حتى يكون من أمرهما ما يكون .

ثم ان السلطان حل بعد ذلك فى أمر قرقماس المقرى ، ولم يأخذ بيد المملوك الذى جرح ولا بيد الامرأة التى ماتت ابنتها لما قطعوا آذانها ، وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على شخص من مماليكه يسمى جان بردى وقرره فى نيابة طرسوس ، وكان من الأمراء العشراوات .

وفى يوم الأحد تاسع عشره كان فيه فطر النصارى ، فنزل السلطان فى ذلك اليوم الى قبة يشبك التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ، وعزم على جماعة من الأمراء ومد هناك أسمطة حافلة وانشرح فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة قبل غروب الشمس ، وكان يوما حافلا .

وفى يوم الاثنين عشرينه كان أول يوم فى الخماسين وهو عيد النصارى ، فكانت النصارى فى هذا العيد فى غاية النكد بسبب ما قرر عليهم السلطان من المال ، وهو نحو من عشرين ألف دينار ، وذلك بسبب أنهم يشترى لهم جوار للخدمة ، فتغير خاطر السلطان عليهم ومنعهم من ذلك ، وقد ترافعوا فى بعضهم فحنق منهم السلطان وصادرهم وضيق عليهم ، فكانوا فى هذا العيد فى غاية الضرر .

وفى يوم الاثنين المذكور وقعت زلزلة خفيفة ، واستمرت تعاود الناس ثلاث مرار والأرض تضطرب اضطرابا ظاهرا ، وكان هذا كله دلائل على تزايد أمر الطاعون ، فلما دخلت الخماسين تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا .

ثم ان بعض الحكماء أشار على السلطان بأن يلبس فى أصابعه خواتم ياقوت أحمر فانه ينفع لمنع الطاعون . فأخرج من الذخيرة فصى ياقوت أحمر مثمنة وصاغهما على ذهب خاتمين ، وصار يلبسهما دائما ويجلس فى المواكب وهو لابس تلك الخواتم فى أصابعه ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولا سيما من سلطان تركى .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشرينه ثارت رياح عاصفة ، وقام فى الجو رعد شديد وبرق وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وذلك بعد نقل الشمس الى برج الحمل بأيام عديدة .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشرينه دخل أمير الحاج بالركب الأول وهو يوسف الناصرى ، وصحبته الأمير خاير بك العلاء المعمار باش المجاورين .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه دخل المحمل الى القاهرة صحبة الأمير تمر الزردكاش أحد الأمراء المقدمين ، فلما طلع الى القلعة خلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل من القلعة فى موكب حافل ، ولكن كان الثناء الحسن من الحجاج بالركب الأول للأمير تمر يوسف الناصرى ، ولم يثن الحجاج على الأمير تمر أمير المحمل خيرا ، وشكا من بخله فى الطريق الحجاج قاطبة .

وفى يوم الجمعة فى الرابع والعشرين منه أمطرت السماء حصى قدر البندق وذلك وقت صلاة الجمعة ، حتى أعاق الناس عن دخول الجامع من شدة الأمطار والوحل ، وذلك بعد نقل الشمس الى برج الحمل ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين سـابع عشرينه خرج الأمـير طومان باى الدوادار الـكبير وتوجه الى نحـو جهات الصعيد بسبب مساحة الأراضى وضم المغل ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وطلب طلبا حربيا ، وكان له يوم مشهود .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرينه نزل السـلطان وعدى الى المقياس وأقام به الى أواخر النهـار ، وأشيع بين الناس أنه عمر مركبا ببولاق على صفة المركب القديم المسماة بالذهبية ، فلما فرغ منهـا العمل أمر بأن تزين بالصناجق ويضعوا فيها الطبول والزمور النفوط ، وتجىء وهى على هـذه الهيئة من بولاق الى تحت المقيـاس حتى يشـاهدها السلطان وهو بالمقياس ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية وابتهج ، ثم صلى العصر وعدى وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود .

* * *

وفى صـفر تزايد أمر الطاعون بالديار المصرية وحصل للناس غاية الرعب ، فهرب قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة أولاده من أمر الطاعون فأخرجهم الى نحو جبل الطور ، وله بذلك عادة بأنه يهرب أولاده الصغار الى جبل الطور فى أيام الفصول ويسلمون من الطاعون ويجيئون بعد مضى الفصل وهم سالمون ، لا يفقد منهم أحد حتى ولا من عيـاله ، ويقـال ان تلك الجهات لا يدخلهـا الطاعون .

ثم ان القاضى عبد البر حسن للسلطان عبـارة بأن يرسل ولده الى هناك فلم يوافق على ذلك .

ثم ان الأمير قانى باى أمير آخور كبير لما رأى قاضى القضاة عبد البر أرسل أولاده الى الطور ، فقامت زوجته بنت الأمير يشبك الدوادار الى أمير آخور وقالت له : أرسـل ولدى صـحبة أولاد القاضى ، فعمل لها سنيح وخرجت فى محفة وابنها صـحبتها ، ثم عمل مثل ذلك الأمير جان بردى الذى كان باش المجاورين فأرسل ولده صحبة ابن أمير آخور . ثم ان الأمير نوروز تاجر المماليك أرسل ولده وسراريه صحبة ابن أمير آخور ، ثم ان أنص باى حاجب الحجاب أرسـل جماعة من مماليكه الى هناك ، وكذلك الأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وتبعهم جماعة من أعيان الناس على ذلك وأرسلوا أولادهم الى الطور خوفا عليهم من الطعن ، وهذا شىء لم تفعله الأمراء قط سوى فى هذا الفصل من عظم ما وقع فى قلوب الناس من الرعب من هذا الطاعون ، ومع أنه كان خفيفا جدا بالنسبة الى الطواعين المتقدمة .

وفى هـذا الشهر أمر السلطان بهدم القبة التى أنشأها بمدرسته التى فى الشرابشيين وكانت قد تشققت وآلت الى السـقوط ، فهـدموها عن آخرها ثم أعادوها ثانية .

وفى يوم الأربعـاء سـابعه كانت وفاة قاضى القضاة الحنبلى ، وهو شهاب الدين أحمد بن على ابن أحمد الشيشينى الحنبلى ، وكان علامة فى مذهبه من أهل العلم والفضل ، ومولده سنة أربع وأربعين وثمانمائة ، وكان قد شاخ وكبر سـنه وناف عن السـبعين سـنة من العمـر ، ومات بالطاعون ، وصلى عليه فى الجامع الأزهر ، وكانت جنازته حافلة .

وفى يوم الخميس توفى الأمـير تغرى برمش السيفى كسـباى الششمانى المؤيدى المعـروف بالرماح ، وكان تغرى برمش رئيسا حشما تولى الوزارة غير ما مرة وأقام بها مدة طويلة ، وكان قد طعن فى السن وذهل فى عقله ، وقد باشر ديوان الوزارة أحسن مباشرة .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان وتوجه الى

ميدان المهارة الذى بقناطر السباع وكشف على العمارة التى أنشأها بالميدان ، ثم توجه من هناك الى الروضة وأقام بالمقياس ذلك اليوم .

وفى ذلك اليوم كان عقد مجلس بالمدرسة الصالحية ، وحضر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وقاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى ابن الدميرى ، وكان هذا العقد للمجلس بسبب شرف الدين بن روق ، ومن ملخص واقعته أنه كان رجلا أهوج ، وعنده خفة ورهج ، وكان السلطان حاططا عليه بسبب علم الدين الذى كان متحدثا على الخزانة وقد تقدم القول على ذلك ، وكان شرف الدين بن روق صهر علم الدين زوج أخته ، فلما جرى لعلم الدين ما تقدم ذكره فضمنه شرف الدين بن روق فيما تأخر عليه من المال الذى قرره عليه السلطان ، فلما مات علم الدين رسم السلطان على ابن روق وطالبه بما على علم الدين وجرى على ابن روق بسبب ذلك شدائد ومحن يطول شرحها .

ثم ان ابن روق وقع من لسانه بكلمات فاحشة فى حق قضاة العصر وغيرهم من الناس حتى قيل عنه انه قال : « لم أستكمل الآن أحدا من القضاة ولا غيرهم بأن أصلى خلفه » فضبطوا عليه ذلك ، فلما أحضروه فى المدرسة الصالحية فجر على قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة وعلى قاضى القضاة المالكى يحيى بن الدميرى ، وكان شرف الدين بن روق من أهل العلم والفضل بارعا فى أصول الدين . فلما أفحش فى حق عبد البر بن الشحنة ، عزره قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وسطحه على ظهره فى وسط المدرسة الصالحية ، وضربه على رجليه بعض عصيات بسبب اساءته على قاضى القضاة عبد البر ، فلما جرى ذلك كادت العوام أن ترجم عبد البر بن الشحنة وتعصبوا الى ابن روق ، ثم انفض ذلك المجلس مانعا ، وكان السلطان قائما فى أن يثبت على ابن روق كفرا ويضرب عنقه فلم يتم له ذلك ، وكان قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل قائما فى الباطن مع ابن روق ، فلما بلغ السلطان ذلك مقت القاضى الشافعى بسبب أنه لم يوافق على اتلاف ابن روق .

فلما انفض المجلس من الصالحية تسلم القاضى بركات المحتسب ابن روق ومضى به الى بيته ليعاقبه ، فوضعه فى الحديد وحصل له غاية البهدلة فى ذلك اليوم ، حتى قيل ان ابن موسى ضربه فوق المائة عصا ، واستمر عنده فى الحديد حتى يستخلص منه المال الذى ضمن فيه علم الدين . وقيل ان شرف الدين ابن روق لما عرضوه على السلطان كلمه بكلام فاحش حتى حنق منه السلطان وقصد أن يوقع فيه فعلا ويتلفه ، فلم يتم له ذلك .

وفى يوم الأربعاء رابع عشره توفى القاضى شرف الدين يحيى الأنصارى نقيب القضاة الحنفى ، وكان من أعيان نواب الحنفية ، وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك فى المماليك وفى العبيد والجوارى والأطفال والغرباء ، وصار يوما يزيد ويوما ينقص ، وتناهت ورقة التعريف فى هذا الشهر بعدة من يموت فى كل يوم ، فبلغت الى ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ممن يرد التعريف ، والعادة فى الفصول الكبار أن الواحد من التعريف بعشرة ممن لا يرد التعريف ، فلما تزايد أمر الموت فتحت مغاسل السبيل على جارى العادة فى الفصول المتقدمة .

ومما أحدثه السلطان من أبواب المظالم فى هذا الفصل أنه رسم للأمير مغلباى الزردكاش بأن

يأخذ من موجود من يموت من المماليك السلطانية ممن له جامكية ، فيرسم على وصى الميت حتى يحضر بسيف مسقط بفضة وزرديه وخوذة وتركاش ، فصار الزردكاش يرسم على زوجة المملوك الذى يموت حتى يأخذ منها ما ذكرناه ، ثم رسم للأمير آخور كبير بأن يأخذ ممن يموت من المماليك ممن له جامكية وعليق فيأخذ من وصيه فرسين أو ثمنهما ، والخاصكى ثلاثة رءوس خيل وبغلة ، وأصحاب الوظائف ممن يموت منهم فيأخذ من وصيه خمسة رءوس خيل وبغلة ، فيرسم على الوصى وزوجة الميت حتى يأخذ منهما ما ذكرناه .

وما هو أعظم من هذا كله أنه رسم الى الماس دوادار سكين بأن يأخذ ممن يموت من مماليكه الأجلاب خمسين دينارا ، وهى النفقة التى كان قد أنفقها عليهم ، ويأخذ من الجمدار عشرين دينارا ، فأطلق فى أوصياء المماليك النار وصاروا يمتنعون من الوصية ، فما طاق العسكر ذلك وكادت أن تنشأ من ذلك فتنة كبيرة ، فأقام الحال على ذلك أياما ثم رجع عن بعض شىء من ذلك ، وهذا الأمر لم يقع قط من ملك قبله ولا أحدث هذه المظلمة ، فلما تزايد أمر الموت رسم السلطان بشيل الدكك التى على أبواب الحكام ، ومنع النقباء قاطبة من على أبواب الأمراء أرباب الوظائف ، ووقع له أيضا مثل ذلك فى سنة عشر وتسعمائة لما وقع فيها الطاعون فرسم بشيل الدكك ومنع النقباء قاطبة ، وهذا ثالث فصل وقع فى أيامه فان الطعن وقع فى أيامه سنة تسع وتسعمائة ، وكان خفيفا جدا وتناهت فيه ورقة التعريف الى مائة انسان ممن يريد التعريف ، ثم اختفى الطعن وغاب ثمانية أشهر وظهر فى سنة عشر وتسعمائة وتناهت فيه ورقة التعريف الى أربعمائة وخمسة عشر انسانا ممن يريد التعريف ، ثم وقع الطاعون فى أيامه فى هذه السنة وهى سنة تسع عشرة وتسعمائة ، ومن العجائب أن هذه الطواعين التى ذكرناها يستمر الطعن فيها عمالا حتى تنزل النقطة ويزيد النيل ، وقد تناهت فيه ورقة التعريف الى ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ممن يريد التعريف .

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره نزل السلطان وتوجه الى العمارة التى أنشأها فى المطرية وكشف عليها ، ثم عاد ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ، ثم طلع الى مدرسته وكشف عن القبة التى بها ، وقد تقدم القول على أنها قد تشققت وآلت الى السقوط فأمر بهدمها عن آخرها ، وقد رممها ثلاث مرار ولم يفد من ذلك شيئا ، فلما شق السلطان من القاهرة أسمعته العوام الكلام بسبب تشحيط الخبز وغلو الدقيق ، وكان القمح الجديد قد وصل وأشيع بين الناس أن السلطان يشترى القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل اردب قمح الى سبعة أشرفية ، وكذلك حلب أيضا ، فكان يشترى القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانشطحت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد ، فلما شق السلطان من القاهرة تسببت عليه العوام بالكلام المنكى وقالوا له جهارا : « الله يهلك من يقصد الغلاء الى المسلمين » فسمع ذلك بأذنه فتنكد فى ذلك اليوم وطلع الى القلعة من بين الدروب ولم يشق من باب زويلة .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الرئيس الأصيل العريق ، وهو سليمان بك بن أحمد بك بن السلطان أبو يزيد بن عثمان ملك الروم ، فلما بلغ السلطان وفاته تأسف عليه فانه كان حسن

الشكل جميل الهيئة ، وكان حضر الى مصر فرارا من عمه سليم شاه لما تولى على مملكة الروم ، وقد تقدم القول على ذلك ، فتوفى ببولاق فى المكان الذى أنزلوه به فأخرجت جنازته من هناك ، ومات بالطاعون ، فصنع له السلطان كفارة قدام جنازته ، وأخرجوا قدام جنازته خيوله وهى مقصوصة الأذناب وقد قلبوا سروجها ، ووضعوا عمامته على نعشه ، وكسروا أقواسه ووضعوها على نعشه ، وهذه على طريقة بلادهم ، فنزل السلطان وصلى عليه ، وعاتب الأمراء الذين لم يمشوا قدام جنازته من بولاق ، ثم توجهوا به الى الصحراء فدفنوه فى تربة البجاسى .

وفى أثناء هذا الشهر عرض السلطان محابيس الحجرة من النساء وأطلق من كان بها من النساء ، وهن زوجة رمضان المهتار وسريته وقد سجنتا بسبب خوند أم الملك الناصر ، وأطلق تحفه التى كانت دوادارة خوند أم الناصر ، وأطلق ام معين الدين بن شمس الذى كان وكيل السلطان وجرى عليه ما جرى ، وأطلق فاطمة بنت عاقولة وكانت سجنت بسبب بنت خوند بنت المؤيد شيخ ، وأمرها مشهور ، وأطلق زوجة القاضى هانى وكانت مسجونة على دين ، ولم يعرض من فى الحبوس من الرجال واستمر الحال على ذلك .

وفى ذلك اليوم توفى الأمير سودون بن حيدر ، ويعرف أيضا بسودون الفقيه ، وكان من الأمراء العشراوات ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفى ذلك اليوم توفى القاضى كمال الدين محمد الأبوتيجى ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان فى سعة من المال ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين سادس عشرينه نادى السلطان بمنع بيع النبيذ والحشيش والبوزة ، ومنع النساء الخواطى من عمل الفاحشة ، واستمر يشهر المناداة بذلك ثلاثة أيام متوالية ، وكان قد تزايد أمر الطاعون وصار الناس كل من يموت له بنت عروسة يجعل على نعشها شربوش الحلى مع الطرحات ، ويضعون عصافير الحلى فى أرجل النعوش ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه فيه أحضرت جثة كاشف الغربية وهو الأمير جان بلاط ، وأصله من مماليك الأشرف الغورى ، وكان من الأمراء العشراوات ، فلما أحضرت جثته دفن بالقرافة .

وفى ذلك اليوم توفى منلباى دوادار سكين ، وكان من أعيان الخاصكية .

ومن الغرائب ما وقع فى أواخر هذا الشهر ، وذلك أن فى يوم الخميس المذكور بعد انفضاض الموكب ، نزل الزينى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة من القلعة ، وقدامه مشاعليين ينادون فى مصر والقاهرة حسبما رسم به المقام الشريف بابطال المشاهره والمجامعة . وابطال المكوس قاطبه التى كانت مقررة على السوقة وعلى أصحاب البضائع من المتسببين قاطبة حتى على الطواحين التى فى القاهرة قاطبة ، ورسم بابطال ما كان يؤخذ على مشترى كل اردب من الغلال موجب ، فكان يؤخذ على كل اردب قمح نصف فضة ثم صارت نصفين موجب ، وكيالة فتصل الى ثلاثة أنصاف على كل أردب ، واستمر ذلك على سائر مشترى الغلال ، فلما رسم السلطان بابطال ذلك ارتفعت له الأصوات بالدعاء ثم انطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكانت الأسعار قد غلت فى سائر البضائع بموجب ذلك وصارت تباع المثل مثلين ولا يقدر أحد يزجر البياعين على ذلك فانه أمر سلطانى ، وكان متحصل هذه الجهات فى كل سنة فوق الأربعين ألف دينار ، بل أكثر من ذلك مما كان من مشاهرة وغير ذلك

من مكوس ، وكان السلطان يحيل بهـذا القدر جماعة من الأمراء عوضا عن الاقطاعات ، وهـذا كان أشد الظلم على الناس قاطبة أمر هذه المشاهرة والمجامعة ، وكان ابطال ذلك فى أيام السلطان من العجائب التى لم يسمع بمثلها ، وسـبب ذلك أن الطعن كان كل يوم فى تزايد وكان السلطان موهوما على نفسه ، وقد أشيع بين الناس أنه رأى مناما بأن النجوم قد تساقطت من السماء الى الأرض ، ثم بعد ذلك سقط القمر ، فأول ذلك بأن النجوم هى العسـكر والقمر هو الملك ، فعنـد ذلك أخذ فى أسباب اظهار العدل وابطال شىء من المظالم ، ولله الحمد على ذلك .

وفى يوم الجمعة سلخ هذا الشهر قلع السلطان الصوف ولبس البيـاض ، وذلك فى حادى عشر بشنس القبطى ، وكان الوقت رطبا .

* * *

وفى ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة للتهنئة بالشهر ، ففى ذلك اليوم خلع السلطان على العزى عز الدين ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمـد الشيشينى الحنبلى وقرره فى قضاء الحنابلة عوضا عن أبيـه بحكم وفاته ، وكان شابا حسن السيرة لا بأس به ، وقد سعى فى هـذه الوظيفة جماعة من الحنابلة منهم شهاب الدين الفتوحى وغيره فلم يوافق السلطان على ذلك ، وأرسل يقـول لعز الدين : أورد ألف دينار والبس وظيفة أبيك ، ففعل ذلك .

وفى يوم الاثنـين ثالثه نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وأشهر المناداة عن لسان السلطان بتسـعير البضائع حتى الدقيـق ، فعز ذلك على السوقة وغلقـوا الدكاكين أياما واضطربت بسبب ذلك القاهرة ، ثم امتثلوا ذلك وسكن الاضطراب .

وفى يوم الثلاثاء رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من العسكر وعين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى الغربية ، فان العربان من حين مات جان بلاط الكاشف اضطربت أحوال الغربيـة ، وكان السلطان لما توفى جان بلاط الكاشف خلع على أخيه وولاه على كشف الغربية عوضا عن أخيـه ، فلما توجه الى هنـاك فزعت عليه العربان وطردوه وقتل خاصكى كان صحبته وجماعة من البلاصية ، فلما بلغ السلطان ذلك عين لهم تجريدة وخرجت على الفور .

وفى يوم الأربعاء خامسه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له جانم البواب ، وكان أصله من مماليـك الأشرف قانصوه الغـورى ، وكان لابأس به .

وفى يوم السبت ثامنـه توفى الرئيس الأصيل العـريق عـلاء الدين بك أخو سـليمان بـك ابن أحمـد بك ابن السـلطان أبى يزيد بن عثمان ملك الروم ، وقد تقدم ذكر وفاة أخيـه سليمان فتبعه أخوه عـلاء الدين على بك ، وكان ترابهما بمصر ، وماتا بالطاعون ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلى عليـه ، ومشت الأمراء قدام نعشه ، وأخرجوا قدامه كفارة كما فعلوا بأخيه سليمان ، ودفن على أخيه بالصحراء .

وفى يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى مدرسته التى أنشأها بالشرابشيين فقام بها الى آخر النهار ، ونصب له سحابة على سطح المدرسة حتى يكشف على عمارة القبة التى هدمت وأعيدت ثانيا .

وفى يوم الاثنين عاشره جاءت الأخبـار بوفاة مصرباى أخى جان بلاط الذى قرر فى كشف الغربية عوضا عن أخيـه جان بلاط ، فلم يقم فى كشف الغربية بعد أخيه الا أياما ومات ، فلما مات خلع

السلطان فى ذلك اليوم على شخص يقال له ألماس الساقى ، فقرره فى كشف الغربية عوضا عن مصرباى الذى توفى كما تقدم .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى على العادة ، ولكن كان الطعن عمالا والناس فى غاية النكد ، ومات بالطاعون من العسكر ما لا يحصى .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد ابن عثمان بأن سليم شاه الذى تولى على مملكة الروم بعد أبيه أبى يزيد بن عثمان ، وقد وقع بينه وبين أخيه قرقد شقيقه وهو الذى حضر الى مصر كما تقدم ، فلما وقع بينهما احتال عليه حتى حضر الى عنده فقتله وقيل خنقه بوتر ، وأشيع أيضا أنه قتل اخاه أحمد بك الذى حضر أولاده الى مصر وماتوا بالطاعون كما تقدم ، وأشيع أنه قتل جماعة من وزرائه ، وقد صار ملك الروم فى اضطراب وربما يخشى عليه من الفرنج ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وقد فنى أكثر أولاد ابن عثمان ، وكان ابن عثمان ماسك زمام البلاد لطرد الفرنج عنها .

وفى يوم السبت خامس عشره توفيت ابنة السلطان الأشرف جان بلاط ، فصلى عليها السلطان ودفنت فى مدرسة أبيها بباب النصر ، وكان لها من العمر نحو من اثنتى عشرة سنة ، وكانت جنازتها حافلة .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان الى مدرسته وكشف على عمارة القبة ، وأقام هناك الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة ، ونصب له السلطان سحابة على سطح المدرسة ، ونظر الى عمارة القبة واستحث البنائين على سرعة البناء .

وفى هذا الشهر تزايد أمر الطاعون وفتك فى المماليك حتى صار يموت منهم فى كل يوم نحو من خمسين مملوكا ، وكان قوة عمله بعد الخماسين وظهور الثريا ، ونزلت النقطة والطعن عمال .

وفى يوم الاثنين سابع عشره احتجب السلطان فى الدهيشة ولم يخرج الى الناس ، وتزايد به ذلك العارض الذى فى عينه ، وأشيع بين الناس أن جفونه ارتخت على عينه ، ولم يحضر تفرقة الجامكية وكثر القال والقيل بين الناس ، فلما كان يوم الجمعة لم يخرج السلطان الى صلاة الجمعة ، فلما انقضت صلاة الجمعة دخل قاضى القضاة الشافعى والأمراء المقدمون وسلموا على السلطان وهو فى الدهيشة فأسقاهم سكرا ، ثم سلموا عليه وانصرفوا .

وفى يوم السبت ثانى عشرينه حضر هجان من مكة فى مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران وأنهم بيحاصروا مدينة سواكن ، وأن الشريف بركات أمير مكة خرج الى جدة هو وباش المجاورين وجماعة من المماليك المجاورين الذين هناك بمكة ، وأقاموا بجدة خوفا على البندر من الفرنج أن يهجموا عليه ، فأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، فلما جاء هذا الخبر تنكد له السلطان الى الغاية ولا سيما كان منقطعا فى الدهيشة بسبب عينه ، فحصل للناس بهذا الخبر غاية النكد .

فلما كان يوم الجمعة خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة ، فلما خرج قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ورقى الى المنبر خطب خطبة بليغة فى معنى هذه النازلة التى وقعت بسبب الفرنج وأخذهم لعدة بلاد من سواحل اليمن ، فلما قامت الصلاة قال المؤذنون : « القنوت عقيب

الصلاة » . فلما صلى قاضى القضاة صلاة الجمعة قنت فى الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة ، فقنت السلطان والأمراء ومن فى الجامع قاطبة ، فعد ذلك من النوادر .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأمر بعرض العسكر الذين استجدهم فى الطبقة الخامسه ، فعرضهم وهم لابسون الزرديات والخوذ وفى أوساطهم السيوف ، وكان منهم رماة بالبندق الرصاص . فلما عرضهم كتب منهم جماعة نحوا من ثلاثمائة انسان ، وعين باشهم الأمير أركماس أمير مجلس ومعه الأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين ، وعين معهم جماعة من المماليك السلطانية ، ورسم لهم بأن يتوجهوا الى السويس ويقيموا به بسبب عمارة المراكب التى عمرها السلطان هناك .

وفيه عين السلطان الأمير حسين بأن يتوجه الى جدة ويستقر فى نيابتها على عادته ، وعين الأمير خشقدم شاد الشون بأن يتوجه الى جدة ويقيم بها لأجل الكشف على أخبار الفرنج وغير ذلك .

وفيه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من الزردكاشية ورماة البندق الرصاص والنفطية ، وعين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى جدة صحبة الأمير خشقدم ويقيموا بها الى أن يعين لهم السلطان تجريدة .

وفيه صلى السلطان صلاة الجمعة ودخل الى الدهيشة واجتمع هو والأمراء وضربوا معه مشورة فى أمر الفرنج الذين تسلطوا على جهات اليمن ، فأشيع بين الناس أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربع تجاريد الى جهات معلومة ، فأقام الأمراء عند السلطان فى ضرب هذه المشورة الى قريب العصر وتخففوا من ثيابهم ، وكان مجلسا حافلا ، ووقع فيه بعض جدال بين السلطان وبين الأمراء بسبب من يسافر منهم .

وفيه تزايد أمر الطاعون وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، حتى بلغت ورقة التعريف فى يوم واحد ثلاثمائة وخمسة وستين انسانا ، خارجا عمن يخرج من المغاسل والأسبلة ، فيقال ان ورقة التعريف فى أيام الفصول الواحد فيها بعشرة ، فعلى هذا يقاس أن كان يموت فى كل يوم ثلاثة آلاف وكسور ، وصار يزيد يوما وينقص يوما ، وكان أكثر فتكه فى الجوارى والعبيد والمماليك والأطفال .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال لهورديش بن قانصوه ، وتوفى سيدى يحيى بن تانى بك قرا الأينالى أمير مجلس كان ، وكان شابا لا بأس به ، فكان بينه وبين وفاة أخيه سيدى محمد ثمانى سنين .

وفيه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له تمراز بن أقباى .

وفيه توفى شخص من أولاد ابن قرمان أمير التركمان يقال له مصطفى بن حمزة ، وكان مقيما بمصر فمات بالطاعون .

وفيه سرقت عملة ثقيلة من بيت الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وكانت عملة بنحو خمسة آلاف دينار ، فاتهموا بها جماعة من الجيران منهم ابن اينال باى دوادار سكين وجماعة من الغلمان ، فلما بلغ السلطان ذلك رسم للوالى بأن ينزل الى بيت ابن الجيعان ويحرر أمر هذه العملة ويفحص عمن فعل ذلك ، فلما حضر الوالى الى هناك وحزق على جماعة ممن اتهم بذلك فظهر من تلك العملة أشياء كثيرة ، منها بشبخاناه عنبر ومخدات

عنبر وصحون صينى ونحاس أصفر مكفت وفواتى مقفولة لم يعلم ما فيها ، وغير ذلك من مقاعد وألحفة ، واستمر الوالى يحضر فى كل يوم الى هناك ويقرر من فعل ذلك والعملة يظهر منها شىء بعد شىء ، حتى ظهر غالبها فى عدة أيام متفرقة .

وفى أواخر هذا الشهر رسم السلطان بابطال مولد سيدى احمد البدوى رضى الله عنه ، وسبب ذلك أن العربان كانت ثائرة فى البلاد ، والطعن كان عمالا فى القاهرة ، والأحوال مضطربة من كل وجه ولا سيما بتوعك السلطان بعينه ، والاشاعات قائمة باثارة فتنة كبيرة .

* * *

وفى ربيع الآخر ، ففى يوم الاثنين ثانيه ، خلع السلطان على الأمير قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين وقرره فى امرة ركب المحمل ، وخلع على الأمير طومان باى حاجب ثانى وقرره فى امرة الحاج بالركب الأول ، وكان من الأمراء الطبلخانات .

وفى تلك الليلة نزلت النقطة وكان عيد ميكائيل .

وفى ذلك اليوم كان وفاة على الجركسى ، وكان من أخصاء خاير بك نائب حلب ، فحضر الى مصر فى بعض أشغال نائب حلب فمات بالطاعون بمصر ، وكان رقى فى أيام خاير بك نائب حلب حتى بقى حاجبا ثانيا بحلب ، وهى فى منزلة امرة طبلخاناه بمصر .

وكان أصل على الجركسى هذا ابن فران ، وكان فى صغره مليح الشكل فحظى عند الأمير خاير بك حتى بقى عنده بجمقدارا ، فلما قرر خاير بك فى نيابة حلب سعى له عند السلطان فى الحجوبية الثانية بحلب وصار من جملة الأعيان بمصر وحلب ، وكان حضر الى مصر وتوجه الى الحجاز فحج ورجع من الحجاز وأقام بمصر مدة يسيرة ومات مطعونا ، وكانت له جنازة حافلة .

وفيه أبطل السلطان ضرب الكرة بسبب ذلك العارض الذى حصل له فى عينه ، ولأجل أن الطعن كان عمالا ، وكان غالب الأمراء فى نكد بسبب فقد أولادهم .

وفيه تزايد بالسلطان رخو فى جفونه ، فجمع الأطباء والكحالين وعقدوا له مجلسا بسبب ذلك الرخو الذى فى جفونه ، فاجتمع رأى الحكماء والكحالين على أنهم يقصوا من جفنه ما طال ، فلم يوافق السلطان على ما قالوه من قص جفنه ، فطلعت اليه امرأة تركية وقالت له : « أنا أداويك من غير أن أقص جفنك بشىء من الفولاذ » . فأقامت عند السلطان مدة وهى تعالج فى عينه .

وفى يوم الاثنين تاسعه جلس السلطان فى شباك الأشرفية التى بجوار الدهيشة ، وعرض جماعة من المماليك السيفية وغير ذلك من أولاد الناس ، وكتب منهم نحوا من ثلاثمائة مملوك بأن يتوجهوا الى السويس صحبة الأمير أركماس أمير مجلس والأمير قانصوه أبو سنة ، بسبب الكشف على المراكب التى عمرها السلطان هناك واستعجال سرعة العمل فى ذلك ، ثم ان السلطان عين الأمير مغلباى الزردكاش الكبير وعين معه ثلاثين انسانا من الزردكاشية بأن يتوجهوا الى نحو السويس صحبة المكاحل التى يرسلها السلطان الى هناك ، وعين معهم جماعة من النجارين والحدادين ، وعين معهم جماعة من الرماة بالبندق الرصاص وجماعة من النفطية ، ورسم لهم بأن يخرجوا الى هناك بسرعة من غير نفقة فتضرروا من ذلك ، ثم بلغ السلطان أن المماليك المتعينين الى السفر قد صمموا على عدم السفر ،

وكان منهم ناصرية وظاهرية وأشرفية وعادلية وغير ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره نزل السلطان الى الميـدان وجلس به ورسم بعرض المماليك المعينة الى السفر ، فلم يطلع منهم فى ذلك اليوم أحد ، فبلغ السلطان أنهم قالوا : « نحن نسافر بلا نفقة نموت فى البرارى بالجوع والعطش » . فتنكد السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية ، وقام من المجلس سريعا ، وكان فى غاية التشويش بسبب عينـه ، وأشيع فى ذلك اليوم الركوب على السلطان .

وفى يوم الأربعـاء حادى عشره نزل السلطان وتوجه الى المطرية وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، ثم أقام فى قبة يشبك التى هنـاك الى بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الخميس ثانى عشره جاءت الأخبار من عند نائب حلب بأن اسمعيل شاه بن حيدر الصفوى ملك العراقين قد خرج عليه بعض أعدائه من ملوك التتر ، فتحارب معهم فانكسر الصفوى وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفا ، وأن الصفوى جرح وفقد ولم يعلم له خبر ، فكاتب السلطان بهذا الخبر سبعة من النواب ، فلمـا سمع السلطان هـذا الخبر سر به .

وفيه توفى الريس عبـد القادر القطبى ، وكان من أعيان الأطباء .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره نزل السلطان وتوجه الى المقياس وصلى هناك صـلاة الجمعة ، وتوجه الى هناك قاضى القضاة الشافعى وخطب به فى جامع المقياس وصلى صلاة الجمعة هناك ، وأقام بالمقياس الى بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة ، فتزايد به رخو الجفون فى عينيه وأشيع بين النـاس أنه قد عمى وغارت عينه ، فاحتجب أياما عن النـاس فى القبة الأشرفية ، وكثر القـال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، فتعطلت الناس فى هـذه المده من المراسيم لأجل قلة العلامة وعدم المحاكمات ، حتى اشيع بين الناس أن السلطان يقصد أن يخلع نفسه من الملك ويولى ولده عوضا عنه لأجل العلامة على المراسيم والمحاكمات ، فلم تتم تلك الاشـاعة التى أشيعت بين الناس بذلك . ومما بلغنى من بعض اخصاء السلطان أنه لمـا تزايد به هـذا العارض فى عينيه واضطربت به الأحوال ، كان يقف فى شباك قبة الأشرفية بطول الليل ويتضرع الى الله تعالى ويقول : « يا من لا يوصف بالظلم والجور ، ارحم عبـدك قانصوه الغورى » . ثم يقول : « ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . وكان يكثر من قول : يا بصير يا بصير ، وقد خشى مما شاعت به أعداؤه ، ونسى ما قدمت يداه ، وقد قلت فى معنى ما وقع له :

سلطاننا الغـورى غارت عينـه
لمـا اشترى ظلم العباد بدينـه
لا زال ينظر أخذ أرزاق الورى
حتى أصـيب بآفة فى عينـه

وفيه شاوروا السلطان على اعادة الدكك التى على أبواب الحكام فلم يوافق على اعادتها ، وقال : « أنا تركت ما كان على الحسـبة من المجامعـة والمشاهرة وكانت بنحو ثلاثين ألف دينار فى كل سنة ، فكيف ما تبطل الأمراء ما كان يحصل لهم من أمر الدكك ؟ » .

وكان الطعن قد أخذ فى التناقص قليلا .

وفى يوم الاثنين سـادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر .

وفى ذلك اليوم طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وجاء القاع ست أذرع وست عشرة أصبعا ، فلما أنفق السلطان الجامكية لم يحضر تفرقة الجامكية

الى آخرها ، وكان ذلك اليوم فى غاية التشويش من عينه .

وفيه توفى شخص كان من العوانية الخوارج ، يقال له محمد بن طاهر ، يرافع الناس عند السلطان ، فلما وقع الطاعون بمصر طعن ابن طاهر هذا ومات بالطعن ، فأراح الله تعالى المسلمين منه ، فعد موته من حسن الزمان .

ومما وقع له فى المرافعة أنه رافع امرأة جارية بيضاء يقال لها زوجة اينال باى ، وكانت ساكنة فى درب الحجر بالقرب من قنطرة سنقر ، فرافعها بأن عندها مالا وديعة لبعض الأمراء فطمعت عليه ، فلما سمع السلطان ذلك أرسل قبض على تلك الامرأة ورسم عليها عشرة آلاف دينار ، فباعت جميع ما تملكه وأوردت من ذلك شيئا ، فلما رأت أنها لم تقدر على ما قرر عليها من المال وصارت فى الترسيم شنقت نفسها بيدها تحت الليل ، ووقعتها مشهورة بين الناس ، ولو عاش ابن طاهر هذا لظهر منه للناس غاية الضرر ، فعجل الله تعالى بروحه الى النار ، كما يقال :

زبانية النيران تكره وجهه
ومنه استعاذت مذ رأته جهنم

ويقال ان ابن طاهر هذا كان من أقارب ابن علم الدين رأس باش الأوجاقية .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه قويت الاشاعة بالركوب على السلطان ، ولم يفتح فى ذلك اليوم باب السلسلة ولا باب المدرج ولا باب الميدان ، ووزعت الأمراء قماشهم وغالب الناس ، واضطربت الأحوال على السلطان وضاق به الأمر حتى صار يدعو على نفسه بالموت . ثم ان السلطان أرسل خلف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء . فلما طلعوا الى القعلة جلس السلطان معهم فى الدهيشة وعينه مرفودة بخرقة بيضاء ، ثم التفت الى الأمراء وقال لهم : « بلغنى أنكم بنوزعوا قماشكم » . فقالوا له : « نعم قد بلغنا أن المماليك الجلبان يقصدون قتلنا ونهب بيوتنا فلما سمعنا ذلك وزعنا قماشنا » . فلما سمع السلطان ذلك أحضر مصحفا وحلف عليه بأنه لا يخونهم ولا يغدرهم ولا يمسك منهم أحدا ، ثم انه حلف الأمراء أيضا بأنهم لا يخامرون ولا يركبون عليه ، فحلفوا بذلك على المصحف ، ثم قامت الأمراء من عنده وانفض المجلس .

فلما نزلت الأمراء رسم السلطان للوالى بأن ينادى فى القاهرة للناس بالأمان والاطمان والبيع والشراء ، وأن أحدا من الناس لا ينقل له قماشا من مكان الى مكان ، ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة ونهب ما معه من القماش ، وأن لا مملوك ولا غلام ولا عبد يمشى من بعد المغرب بسلاح ، ولا مملوك يعبث على سوقى فى دكانه ولا متسبب .

ثم بعد ذلك قبض الوالى على غلام الأمير ماماى جوشن أحد الأمراء المقدمين ، فلما قبض عليه بالليل وجد معه بغال محملة قماشا فاخرا ، فأخذ منه القماش وأمر بشنقه حتى شفع بعض من كان مع الوالى من الأمراء حتى أطلقه ، وقيل عرض على السلطان فأمر بضربه بالمقارع فشفع فيه بعض الأمراء ، وكان الوالى فى مدة توعك السلطان يطوف فى القاهرة من بعد العشاء ومعه جماعة من الخاصكية نحو من مائة انسان ، وكان غالبهم لابس زرديات وفى أيديهم رماح ، فيطوف فى كل ليلة المدينة والحارات والأزقة ويقبض على من يجده يمشى من بعد العشاء .

ومن الحوادث أن جماعة من الصناع دخلوا الى الزردخاناه ليصحنوا البارود ، فصعد منه الدخان فاحترق سقف الزردخاناه وعملت فيه النار ،

فاضطربت القلعة لذلك ، وكان السلطان فى شباك الأشرفية فقام واختفى من عظم الدخان ، فاحترق من الصناع ثلاثة أنفار حتى ذاب لحمهم عن عظمهم من النار فنزلوا بهم الى بيوتهم فقاموا ثلاثة أيام وماتوا الثلاثة قاطبة ، فتفاءل الناس بأن حرق الزردخاناه فأل على السلطان .

ولما تزايد بالسلطان ذلك العارض فى عينه طلع الخليفة وسلم عليه ، فأشيع بين الناس بأن السلطان أرسل خلف الخليفة ليخلع نفسه من الملك ويولى ولده ولم يكن لهذا الكلام صحة ، فاضطربت الأحوال لذلك ، فسلم الخليفة على السلطان ونزل الى بيته ، فلما نزل خمدت تلك الاشاعات الفاسدة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه جلس السلطان فى القبة الأشرفية وحضر عنده الأتابكى سودون العجمى وعلم على المراسيم وحكم وهو جالس فى الشباك ، وأظهر أنه قد شفى من ذلك العارض والا لما حاذر على عينه الأخرى التى كان ينظر بها ، وفى هذه الواقعة يقول محمد بن قانصوه بن صادق :

شفاك الله يا ملك البرايا
من الداء الموكل بالعيون
وأذهب عنهما باللطف منه
سقاما محدثا رخو الجفون
لتبقى فى هناء بها قريرا
قريبا والتحرك فى سكون
بمن لقتادة قد رد عينا
وقال كأختكى فى الحسن كونى
ومن رمد بتفلته عليا
شفى فى الحال من ألم مبين

ثم ان جماعة من الكحالين قالوا للسلطان : ما تصح عينك حتى تقطع ما طال من جفنك ، فامتنع السلطان من ذلك فأحضروا قدامه أربع أنفس بهم رخو فى جفونهم ، وكان فيهم شخص يسمى سيدى محمد بن منكلى بغا فقصوا جفنه بحضرة السلطان على أنه يشجعه على ذلك ، فلم يوافق السلطان على القص ، فأقام الناصرى محمد ابن منكلى بغا أياما وشفى مما كان به فى عينه وطلع الى السلطان فرأى عينه وقد طابت .

وفى يوم الأربعاء خامس عشرينه تزايد الأمر فى الاشاعة بالركوب على السلطان ، فلما بلغ السلطان ذلك نزل الميدان وجلس به وأرسل خلف الأمراء قاطبة ، فلما طلعوا اليه وبخهم بالكلام وقال لهم : « ما هذه الاشاعة التى تبلغنى عنكم فى أمر الركوب علىّ ؟ ان كان عندكم من تسلطنوه فأنا أخلى لكم القلعة وأنزل أقعد فى جامعى الى أن أموت » ، فقام له الأمراء قاطبة وباسوا له الأرض واستغفروا له ، ثم التفت الى الأمير أركماس أمير مجلس ووبخه بالكلام ثم قال له : « الزم بيتك » . والتفت الى قانى باى قرا أمير آخور كبير ووبخه بالكلام وأغلظ عليه فى القول لأمر بلغه عنه فى أمر الركوب ، ثم التفت الى الأمير أنص باى والأمير تمر والأمير سودون الدواداري والأمير علان ووبخهم بالكلام لأمر بلغه عنهم ، ثم ان المماليك الجلبان صارت متقحمة على مسك الأمراء فى ذلك اليوم ، فما نزلوا من القلعة وفى عينهم قطرة وقد ملئوا منهم رعبا ، فلما نزلوا من القلعة أشيع الركوب على السلطان ووزع الأمراء قماشهم فى الحواصل .

واشتد وجع عين السلطان وارتخى جفنه على عينيه واحتجب عن الناس فى الأشرفية أياما ، وكثر القيل والقال بين الناس ، وأشيع أن السلطان قد عمى فصار يجلس فى شباك الأشرفية قدر درجة حتى ينظره الناس ، فكانت الكحالين يصنعون له

رفادة على عينيه وفى الرفادة لزق بعـلوكات حتى يرتفع جفنه قليلا عن عينه وينظر الناس ما دام جفنه مرتفعا فاذا قلعت تلك اللزق ارتخى جفنه كما كان أولا .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له جان بلاط بن تعرى بردى ، وكان أصـله من ممـاليك الملك الأشرف قايتباى .

وفى يوم الجمعة سابع عشرينه لم يخرج السلطان ولا صلى الجمعة ، وكثر الاضطراب بسبب ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشرينه فرق السلطان على مماليكه سـيوفا وزرديات ، وصـاروا يباتون فى القلعة كل ليلة ومعهم آلة السلاح ، والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة وأن السلطان يقصد القبض على بعض الأمراء ، فأخذت الأمراء حذرهم من السلطان وصاروا لا يطلعون القلعة الا قليلا . وفى هذه المدة أشيع بأن السلطان أرسل الى ثغـر الاسكندرية مراسم بأن نائب الاسكندرية يضيق على الظاهر قانصوه وهو فى السجن ويمنع عنه من كان يدخل اليه من الناس حتى من غلمانه الذين كانوا يدخلون عليه ، وصار الظاهـر فى غاية الضنك ، وقيل ان الأمراء يقصدون عوده الى السلطنة ، فأشيع ذلك حتى أرسل السلطان ضيق عليه .

وفى يوم الأحد تاسع عشرينه أراد السلطان بأن يظهر العدل بين الناس فجلس فى شـباك الأشرفية وأمر بعرض المحابيس الذين فى الحبوس ، فلمـا عرضوا عليه من فى الحبوس الأربعة أمر بعـرض من فى البرج الذى بالقلعـة ومن كان بالعـرقانة التى بالحوش السلطانى . فلما عرضوا عليه أمر باطـلاق جماعة منهم ممن كان بالعرقانة ، وهم : الأمير تغرى بردى الترجمان ، والجمالى يوسف بن أبى أصبع الحلبى وكان من جملة أخصاء السلطان ، ثم نعير خاطره عليه وجرى عليه شدائد ومحن .

وأطلق صهره عبد الرحمن ، وكان له مدة طويلة وهو فى العرقانة ورسم السلطان بأنه لا يحلق له رأس ولا يقص له أظفار ، فلما خرج من العرقانه طال شعره حتى صار مثل شعر النساء فعجب منه الناس لما خرج ورأوا شعره .

وأطلق ابن الخـولى المتحدث وكان مسـجونا بسبب المماليك الدين قتلوا فى باب اللوق . وكان من أمراء الشام . ومن فى المقشرة وبقية الحبوس جماعة كثيرة منهم الرئيس كمال الدين ابن شمس المزين ، وكان من أخصاء السلطان ، ثم تغير خاطره عليه فسجنه فى المقشرة .

وأطلق الشـيخ شمس الدين بن روق بعـد ما جرى عليه شـدائد ومحن ووافعته مشهورة .

وأطلق الخواجا شمس الدين الحليبى التاجر ، وأطلق شخص يسمى تمر باى أبو قورة الذى كان أمير الحاج بالركب الشـامى وكسره الجازانى ، فغضب عليه السلطان لكونه فرط فى أمر الحاج حتى نهب الركب الشامى فأقام فى البرج مدة طويلة نحوا من عشر سنين .

وأطلق الأمـير قنبك الشيخ أحـد الأمـراء العشراوات وكان فى البرج لأمر أوجب ذلك .

وأطلق يخشـباى الكاشـف خازندار الأتابكى قرقماس ، وكان تغير خاطر السلطان عليه فسجنه ، وأطلق تانى بك ، وشيخ العرب عبد الدائم ابن الأمير أحمد بن بقر ، وكان له مدة وهو فى البرج مقيدا بموجب عصيانه على السلطان فضمنه لأبيه وأطلقه وخلع عليه .

وأطلق ابن فتوح بردار الأمير حسين نائب جدة وكان تغير خاطر السلطان عليه كونه أحدث أشياء كثيرة من المظالم بجدة .

وأطلق يحيى بن أحمد بن قراكز أحد الزردكاشية وكان السلطان سجنه بالمقشرة لما هرب أبوه وواقعته مشهورة .

وأطلق شخصا يسمى محمد سكيكر وكان أشيع عنه أنه قد قتل أباه فلما عرضوه على السلطان أطلقه وقال : « اذا كان يوم القيامة ، هو وأبوه يتحاكمان بين يدى الله تعالى » .

وأطلق بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط وكان مسجونا على مال فلما أطلقه من المقشرة سلمه للزينى بركات بن موسى حتى يغلق ما عليه من المال .

وأطلق أخاه نجم الدين قاضى أسيوط أيضا وولده محمد ، وأطلق شخصا شريفا كان من منفلوط وقد اتهم بقتل شخص ، وأطلق شهاب الدين المرقبى الذى كان متحدثا فى أوقاف الزمامية وسجنه السلطان على مال ، وأطلق محمد بن العظمة الذى كان ناظر الأوقاف وكان ناظر الخاص وسجنه لكونه قد سعى عليه فى نظر الأوقاف .

وأطلق ابن الطحاوية أحد مشايخ عربان الشرقية ، وأطلق محمد بن سودون السودونى وكان له مدة طويلة وهو فى السجن بسبب احضار مكتوب وقف ، وأطلق الشبراوى التاجر . وفى ذلك اليوم أطلق جماعة كثيرة من مشايخ العربان والمدركين والفلاحين والغلمان ممن كان عليه مال أو دين فسامحهم بذلك جميعه ، وأطلق من كان فى سجنه قاطبة دون من سجن فى أيام غيره ، حتى الحرامية استتوبهم وأطلقهم ، حتى أصحاب الجرائم والزغلية والعمال ممن عليه مال منكسر ، فأطلق فى ذلك اليوم واحدا وثمانين انسانا ، وأظهر العدل فى ذلك اليوم جدا حتى ارتفعت له الأصوات بالدعاء وكبر من كان حاضرا فى الحوش السلطانى من الجم الغفير من الناس حتى سمعوهم من الجبل المقطم ، وكان يوما مشهودا ، فانطلقت النساء له بالزغاريت فى الحوش وضجت له الرعية بالأدعية السنية .

ثم فى ذلك اليوم شاوروه على اعادة الدكك التى كانت على أبواب الحكام فلم يوافق على ذلك وقال : « الذى له حق يتوجه بغريمه الى الشرع ، والحرامية يتوجهون بهم الى بيت الوالى » .

وفى ذلك اليوم أشهر السلطان المناداة للعسكر بالعرض ولا يتأخر منهم لا كبير ولا صغير ، فصار العسكر لا يدرون ما سبب هذا العرض ، وكان الطعن قد أخذ فى التناقص عما كان .

* * *

وفى جمادى الأولى طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وجلس السلطان فى المقعد الذى بالميدان ، وطلع اليه العسكر والأمراء قاطبة من كبير وصغير ، فلما قام الخليفة والقضاة وانصرفوا رسم السلطان باحضار المصحف العثمانى فتوجه لاحضاره ألماس دوادار سكين ، فلما أحضروه بين يدى السلطان تقدم القاضى كاتب السر محمود بن أجا وحلف عليه الأمراء المقدمين قاطبة ثم الأمراء الطبلخانات ثم جماعة من الأمراء العشراوات ، فحلفوا على المصحف العثمانى بأنهم لا يخامرون على السلطان ولا يركبون عليه ولا يثيرون فتنة بين المماليك وبين السلطان ، فلما حلفوا حلف لهم السلطان أيضا بأنه لا يغدرهم ولا يخونهم ولا يمسك أحدا منهم لا كبيرا ولا صغيرا ، ثم أحضروا الأمير أركماس أمير مجلس فحضر وهو بتخفيفة صغيرة ، وقد تقدم القول على أن السلطان تغير خاطره عليه وقال له ، الزم بيتك أو توجه الى دمياط ، فلما طلع رضى عليه السلطان وألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور من ملابيسه وأقره فى امرة مجلس على عادته .

فلما نزلت الأمراء التفت الى العسكر وشرع يأخذ بخواطرهم وقال لهم : « أنا مقصر فى حقكم لا تؤاخذونى ونحن أولاد اليوم فكل من كان له عليق مكسور أو لحم مكسور أصرفه له » ، ثم نادى للعسكر فى الميدان بأن النفقة مع الجامكية لكل مملوك ثلاثون دينارا من كبير وصغير حتى أولاد الناس والأمراء المقدمين ، لكل واحد منهم ألف دينار ، والأمراء الطبلخانات لكل واحد مائتا دينار ، والأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار ، فلما سمع العسكر ذلك ضجوا له بالدعاء ونزلوا وهم فى غاية الجبر من السلطان . وكان سبب هذه النفقة أن السلطان لما حصل له هذا العارض فى عينه أشاعوا عنه أنه قد عمى فاتفق رأى الأمراء على خلعه من السلطنة ، وذكر للسلطنة جماعة من الأمراء ثم ذكر الظاهر قانصوه الذى بالسجن بثغر الاسكندرية ، وذكر للسلطنة سيباى نائب الشام ، وذكر أيضا للسلطنة ابن السلطان . وكان العسكر قاطبة مقلوبا على السلطان بسبب أن لهم عليقا مكسورا ، وكذلك اللحوم ولم ينفق عليهم شيئا لما أنفق على مماليكه ، وكانوا يشكون من خراب اقطاعاتهم من جور الكشاف ومشايخ العربان ووزن الحمايات فضجوا من ذلك ، فكان كما يقال فى أمثال الصادح والباغم وهو قوله :

ومن أضاع جنده فى السلم
لم يحفظوه فى لقاء الخصم
فالجند لا يرعون من أضاعهم
كلا ولا يحمون من أجاعهم
وأضعف الملوك طرا عقدا
من غره السلم فأقصى الجندا

فلما رأى السلطان أن العسكر قد تغلب عليه نادى لهم بالنفقة وشرع يستجلب خواطرهم مما تقدم منه قبل أن يتسع الخرق على الراقع .

وفى ذلك اليوم ظهر محمد بن نصر الله الذى كان ناظر دار الضرب واختفى من السلطان مدة طويلة ، فلما أظهر السلطان العدل فى هذه الأيام أرسل يطلب منه الأمان فبعث اليه بمنديل الأمان حتى ظهر .

ثم بعده ظهر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وكان له مدة وهو مختف من السلطان ، فلما طلع وقابله خلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل ، وكان السلطان قد أرسل اليه منديل الأمان حتى ظهر ولكنه لما خلع عليه لم يعده الى وظيفته فى كتابة المماليك كما كان أولا .

ثم شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر الأمير أزدمر الدوادار وكان له مدة طويلة وهو مختف فظهر بالأمان من السلطان .

وفى يوم الثلاثاء ثانيه ظهر المعلم على الصغير وأخوه المعلم أحمد ، المعاملين فى اللحم ، وكان المعلم على له مدة وهو مختف من السلطان فنادى له بالأمان حتى ظهر هو وأخوه المعلم أحمد .

وفى يوم الأربعاء ثالثه جلس السلطان فى شباك الأشرفية وأنفق على المماليك الذين عينهم صحبة الأمير خشقدم شاد الشون ، فأنفق على كل مملوك ثلاثين دينارا ، وأنفق لكل مملوك جامكية أربعة أشهر ، واستحثهم فى سرعة الخروج صحبة قاصد ملك الهند الذى حضر قبل تاريخه .

وفيه ظهر القاضى تقى الدين بن الرومى الحنفى وكان له مدة وهو مختف بسبب ما وقع له من أمر الواقع الكفرى الذى وقع فيه ، وكان السلطان متطلبه طلبا حثيثا ، فلما أفرج السلطان عن المسجونين ظهر فى هذه الحركة وقابل السلطان فعفا عنه .

وفى يوم الخميس رابعه شاوروا السلطان فى اعادة الدكك التى كانت على أبواب الأمراء

الحكام ، وكان السلطان لما تزايد أمر الطاعون رسم بشيل الدكك من على أبواب الأمراء كما تقدم ، فلما شاوروا السلطان على ذلك قالوا له : « السلطان ما يحكم شيء والأمراء ما يتحكم شيء وضاعت حقوق الناس عليهم » . فعند ذلك أشهر المناداة فى القاهرة باعادة الدكك على أبواب الحكام ، وأن النقباء والرسل لا يجورون على الأخصام فى غرامتهم لهم على حق طريقهم ، ولكن المجامعة والمشاهرة التى كانت على الحسبة استمرت بطالة ، وكذلك المكوس التى كانت على القمح والبطيخ وسائر الغلال أبطلها جميعها ، فياليت شعرى هل يتم ذلك أم لا !

ثم نادى فى القاهرة أن كل من قهر أو ظلم فعليه بالأبواب الشريفة ، وأن لا ظلم اليوم . فارتفعت الأصوات له بالدعاء من الخاص والعام ، وتمنى كل أحد له البقاء على الدوام ، فكان كما يقال فى المعنى :

لم يبق للجور فى أيامكم أثر
الا الذى فى عيون الغيد من حور

فلما أظهر السلطان العدل شفعوا عنده فى الناصرى محمد ابن بنت جمال الدين ، وكان السلطان تغير خاطره عليه بسبب واقعة ابن فجق فرسم السلطان بنفيه الى الواح . فلما شفعوا فيه رسم باحضاره الى مصر ، ثم رسم باحضار يشبك حبلص الاينالى وكان نفاه الى الصعيد بسبب الأتابكى قيت الرحبى كونه كان عشيره ، ورسم باحضار ابراهيم بن السكر والليمون وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى مكة ، فلما شفعوا فيه رسم بعوده الى مصر .

ومما فعله من وجوه البر والاحسان أن وقف له القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك ، فلما وقف له شكا له من ضيق حاله فرسم له بجامكية ألفى درهم فى كل شهر وزبديتين لحم فى كل يوم ، ورسم باعادة جامكية الناصرى محمد بن الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيارى الذى كان أمير شكار وكان تغير خاطر السلطان عليه ورسم بنفيه الى قوص وقطع جامكيته ، فلما رضى عليه أعاده الى مصر وصرف له ما قطع من جامكيته .

ثم ذكر له الشرفى يونس النابلسى الذى كان أستادارا وعزل عنها فسامحه بما بقى عليه من مال المصادرة ، وقيل انه رتب له على الجوالى فى كل شهر ثلاثة آلاف درهم ورسم له باعادة بلد فى نابلس كانت أخذت منه فى المصادرة ، بعد ما قاسى شدائد ومحنا فعطف عليه ورتب له ذلك ... هذا على ما قيل وأشيع بين الناس ولم ألتزم صحة ذلك .

وقيل ان السلطان فرق فى هذا الشهر نحوا من ثلاثة آلاف دينار على مجاورى جامع الأزهر والزوايا التى بالقرافة والمزارات ، وفعل فى هذا الشهر أشياء كثيرة من هذا النمط من وجوه البر والاحسان حتى عد ذلك من النوادر الغريبة .

وأشيع بين الناس أن السلطان قد رد لبعض جماعة من أولاد الناس ما كان أخرجه عنهم من اقطاعاتهم ، ووعد برد الجوامك التى قطعت للنساء والأيتام بواسطة الأتابكى قيت الرحبى أن يعيدها اليهم عن قريب . ومما وقع لى أننى امتدحت السلطان نصره الله تعالى بقصيدة سنية ومن جملة أبياتها :

قد أظهر العدل فى الرعايا
وأبطل الجور والمظالم
هذا الذى عنه أخبرتنا
طوالع النجم والملاحم

يصـــير الشـــاة فى حمـــاه
تمشى مع الأســد والضراغم

فلامنى الناس على قولى :

قـد أظهـر العدل فى الرعايا
وأبطـل الجـــور والمظالم

وكان السلطان فى فوة عسفه على الناس فى تلك الأيام فما عن فريب حتى أظهر السلطان هذا العدل العظيم الذى وقع منه فى هذه الأيام ، فكان الفأل بالمنطق فى اظهـار عدله وقـد ألهمه الله تعـالى الى ذلك .

وفى يوم السبت سـادسه جلس السـلطان فى شباك الأشرفية وفرق على مماليكه الذين أخـرج لهم الخيل والقماش ففرق عليهم فى ذلك اليـوم سيوفا وأقواسا وتراكيش ونشابا وزرديات ، وكانوا نحوا من ثلاثمائة مملوك . وفى اليوم الثانى فرق على ثلاثمائة أخر .

وفى يوم الأربعـاء عاشره ابتدأ السلطان فيـه بتفرقة النفقة على الأمراء المقدمين ، فأرسل أولا الى الخليفة المتوكل على الله ألف دينار عـلى يد بدر العـادلى فراش الخزانة ، فلما أحضر للخليفة ألف دينار ، ألبسه كاملية صوف بسمور وأعطاه خمســين دينارا ، ثم أرسـل للأتابكى سـودون العجمى ألفى دينار ، وأرسل لبقية الأمراء المقدمين لكل واحـد منهم ألف دينار ، وأرســل للأمراء الطبلخانات لكل واحد منهم مائتى دينار ، وأرسل للأمراء العشراوات لكل واحد منهم مائة دينار .

وفى يوم الخميس حادى عشره ابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العســكر فأعطى لكل مملوك ثلاثين دينارا .

وفى يوم الجمعـة ثانى عشره خـرج الأمـير خشقدم شـاد الشون الذى تعين صحبة قاصـد الهند . وفى ذلك اليـوم توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له شاهين ، وكان كاشف البحيرة .

وفى يوم الاثنين خامس عشره فرق السـلطان الجامكية على العادة ومعها النفقة ، فأعطى ثلاثين دينارا لكل مملوك ، وأعطى للعواجز منهم عشرين دينارا ، وللشيوخ الضعفـاء منهم عشرة دنانير ، وأنفق على المماليك الكتابيـة لكل مملوك خمسة دنانير ، وأنفق على بعض جماعة من الأيتام ممن له جامكية أشرف فأعطاهم أشرفيين ، وأعطى لمن له جامكية ألف عشرة دنانير ، فقيل كان جمـلة هذه النفقة على ما قيل ثلاثمائة ألف دينار ، وقيل فوق ذلك ، حتى عدت هذه النفقة من النوادر الغريبة كونه صرف ذلك بطيب من خاطره من غير كره منه ، فكان كما يقال فى المعنى :

كأنه فى العطـــاء بحـر ندا
وبذلـــه النقـد فيه تيـار

ان استمال القـلوب لا عجب
لله عنـد القـلوب أسرار

قـد راقب الله خشـية وله
عند اكتســاب الثواب أوطار

ثم انه فى يوم الثلاثاء سـادس عشره نادى فى الحوش بأن كل من كان قطعت له جامكية من رجال أو نساء فيطلع فى أول الشهر حتى ينظر السلطان فى حالهم ويرد لهم ما قطع لهم ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس ثامن عشره رسم السلطان بأن يبطل ما كان على الخانكاه من المشاهرة والمجامعة التى كانت على الحسبة .

وفيه أرسل السلطان للخليفة المنفصل المستمسك بالله يعقوب والد المتوكل على الله ، وقـد تذكره

السلطان ، فأرسل اليه نفقة خمسمائة دينار على يد الأمير طقطباى نائب القلعة ، ورسم بأن أحدا لا يكلفه بشيء . فلما نزل اليه الأمير طقطباى قال له : « السلطان يسلم عليك ويقول لك ادعو له وابرى ذمته ولا تؤاخذه بما وقع منه فى حقك » . فكان فى حظ نفس ، فقال له : « والله أنا داعى للسلطان وخاطرى طيب عليه وما حصل منه الا خير » . وقد تقدم القول على أن السلطان لما ترافع سيدى خليل مع الخليفة يعقوب تعصب السلطان لسيدى خليل وقال للخليفة يعقوب : « أنت ضعيف النظر فلا تصح ولايتك على المسلمين » . وكسر بخاطره وغرمه مالا وخلعه من الخلافة بغير ذنب كما تقدم ذكر ذلك ، فلما حصل للسلطان هذا العارض فى عينه ظن أن ذلك بخطيئة الخليفة يعقوب ، فأرسل الأمير طقطباى نائب القلعة وأحد الأمراء المقدمين يتعطف بخاطره ويسأله له الدعاء وأرسل اليه خمسمائة دينار ... فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه أنفق السلطان على أولاد الناس والتراكمة الذين فى الطبقة الخامسة المستجدة ، فأعطى لكل مملوك عشرة أشرفية ، وأعطى لجماعة منهم ثمانية أشرفية ، وأنفق عليهم النفقة مع الجامكية ، وفى ذلك اليوم فرق السلطان على مماليكه أتراسا وخوذا وكثرت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة .

* * *

وفى جمادى الآخرة طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان بالميدان ، ففرق فى ذلك اليوم على جماعة من المماليك القرانصة خيولا نحوا من ألف فرس ، وذلك لمن كان له فرس فى الديوان مدونا ومات .

وفى يوم الخميس ثانيه خرج الأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى الذى عينه السلطان بأن يتوجه قاصدا الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، فخرج بطلب حافل ، وهذا قط لم تتفق لقاصد قبله أنه خرج على هذه الهيئة الجميلة حتى عد ذلك من النوادر ، فشق ذلك الطلب من داخل الميدان حتى نظر اليه السلطان وهو جالس فى المقعد الذى بالميدان .

وفيه حضر قانصوه العادلى كاشف الشرقية وصحبته شخص من أولاد شيخ العرب ابن قرطام يسمى صالح ، وهو من بنى حرام ، فسلخ جلده وحشاه تبنا ، وأركبوه على فرسه وألبسه زمطه على رأسه وألبسه كبرة حرير ، وكان شابا جميل الهيئة فتأسف عليه الناس ، فلما عرضه على السلطان شق ذلك عليه ولم يكن يرسم بسلخه قبل ذلك ، فلما جرى ذلك ثارت العربان فى البلاد وقطعوا جسر الحلفاية فساح على الأرض فى غير مستحقه وكان ذلك ليالى الوفاء .

وفى يوم الجمعة ثالثه خرج السلطان وصلى صلاة الجمعة وهو بالشاش والقماش وكان له نحو من ست جمع لم يخرج ولم يصل الجمعة بسبب ذلك العارض الذى حصل له فى عينه ، فشال الرفادة عن عينه وخرج وصلى الجمعة ، فسر الناس لذلك وتخلقت الخدام بالزعفران وكذلك الغلمان ، وكان شفاؤه على غير القياس ، وكانوا أشاعوا عنه أنه قد عمى لا محالة .

وفى يوم الأحد خامسه كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك رابع عشر مسرى ، فأوفى وزاد عن الوفاء خمس أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وكان عرس النيل ، وفتح السد فى يوم الاثنين سادس جمادى الآخرة الموافق لخامس عشر مسرى ، وفى ذلك يقول القائل :

قد وفا النيل رابعا عشر مسرى
فملا بشره قلوب العبـاد
جاء فى وقته اذا قلت أهـلا
بحبيب قـد جاء فى الميعـاد

فرسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ونفتح السـد على العادة ، فكان له يوم مشـهود ، فلما عاد من فتح السد كان له موكب حافل ومشت قـدامه الأفيال الكبار وهى مزينة بالصناجق والطبول ، فطلع الى القلعـة فألبسـه السلطان خلعة على جارى العادة

وفى يوم السبت حادى عشره ركب السـلطان ونزل من القلعة ، ولم يركب من حين حصل له ذلك العـارض فى عينه ، فلما ركب سير نحو المطـرية وكشف على العمارة التى أنشأها هناك ، فمد له الزينى بركات بن موسى المحتسب هنـاك مـدة حافلة ، وأقام بقبة الأمير يشبك الى بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة ولم يشق من القاهرة ، وكانت الناس شرعوا فى الزينة على أنه يشق من القاهرة ، فطلع من بين الترب ولم يشق من المدينة فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به ، وخلع على الأمير حسين نائب جدة وأقره فى نيابتها على عادته وسافر من يومه .

وفى ذلك اليوم عرض السـلطان الأيتـام من الرجال والنساء فـرد لجمـاعة منهم ما قطع من جوامكهم ، وذلك بحكم النصف ، فرد منها شيئا يسيرا .

وفى يوم الخميس سادس عشره جلس السلطان على الدكة التى بالحوش وحكم بين الناس وأنفق الجامكيه ، وكان له نحو من ثلاثة أشهر لم يجلس على الدكة ولا حكم بين النـاس بالحوش عـلى جارى العادة . وقد هنيته بهذين البيتين لما شفى من ذلك العارض الذى حدث له فى عينه من رخو الجفون ، فقلت فى ذلك مع اظهار التورية :

بعافية السلطان قـرت عيونـنا
ونال الورى منه بلوغ المقاصد
وقالوا به عين أصـابت لعينـه
فلما شفى غارت عيون الحواسد

فلمـا قرئا على السلطان استحسنهما وابتهج بهما

وفى يوم السبت ثامن عشره جاءت الأخبار بوفاة الناصرى محمـد ابن بنت جمال الدين أسـتادار العالية ، وكان من أعيـان أولاد الناس ، وجرى عليه شدائد ومحن ، ونفـاه السلطان الى الواح بسبب جاريه ابن فجق كما تقدم ذكر ذلك . فلما أظهر السلطان العدل وأطلق من فى السجون قاطبة شفع بعض أخصاء السلطان فى ابن بنت جمـال الدين فرسم بأحضاره من الواح ، فلما وصل الى منفلوط مرض هنـاك ومات فدفن بمنفلوط ولم يدخل الى مصر .

وفى يوم الاثنين عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة نائب طرابلس ، وهـو أبرك ممـلوك السلطان ، فحضر هو وعياله بطلب من السلطان ، فاستمر بالقاهرة حتى يكون من أمره ما يكون

وفى يوم الأربعـاء ثانى عشرينه نزل السلطان وتوجه الى المطرية ، ثم فتح سد الأميرية بنفسه ، فدخل الماء الى الملقة ثم رجع وشق من باب الشعرية فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وارتفعت له الأصـوات بالدعاء ، فطلع من على الناصرية وقناطر السباع وشق من الصليبة ، ثم طلع الى القلعة وهو فى غاية السـودنة ، وقد وقفت له العـوام وتسيبوا عليه بسبب الفلوس الجدد ، وقد وصل

صرف النصف الفضة الى عشرين من الفلوس الجدد ، وصارت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، وتشحط الخبز من على الدكاكين فى تلك الأيام ، وغلقت الأسواق بسبب الفلوس ، وحصل للناس غاية الضرر .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ، وكان مسافرا فى جهات بلاد الصعيد ، فحضر فى ذلك اليوم وصحبته جماعة كثيرة من مشايخ عربان الصعيد والمدركين وجماعة كثيرة من الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل من أيام ابن ثعلب وغيره من المباشرين ، حتى قيل كان عليهم نحو من سبعين ألف أردب من القمح . فلما طلع الأمير الدوادار الى القلعة ألبسه السلطان خلعة سنية ونزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه أمير كبير وبقية الأمراء المقدمين والجم الغفير من العسكر ، فلما عرضوا على السلطان هؤلاء الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد قال : « ما بال هؤلاء ؟ » . فقالوا له : « ان عليهم مغل منكسر من السنين الخالية من أيام ابن ثعلب وغيره نحوا من سبعين ألف أردب » . فسكت ساعة قال : « أطلقوهم أجمعين فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وكان فيهم الشيوخ والضعفاء والعواجز والصبيان الصغار ، فأطلقوهم من الحديد أجمعين وهو ينظر اليهم ، حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، فكان أحق بقول القائل :

فاذا سطا ملأ القلوب مهابة
واذا سخا ملأ العيون مواهبا

وفى يوم الأحد سادس عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو المطرية وكشف على العمارة التى هناك ، ثم أتى الى قبة الأمير يشبك فأقام بها الى بعد العصر ، فمد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فتعشى بعد العصر وطلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه كان يوم النوروز وهو أول السنة القبطية ، ففى ذلك اليوم قبض السلطان على شخص من الأتراك وقد نقل عنه أنه كاتب نائب حلب وجماعة من النواب بأن السلطان قد عمى ولم صار ينظر شيئا ، فأرسلوا المكاتبات الى السلطان ، فلما أحضر السلطان ذلك المملوك وعرض عليه تلك المكاتبات أنكر ذلك ، فلما قامت عليه البينة بذلك رسم السلطان بضربه فضرب ضربا مبرحا وسجنه السلطان بالبرج حتى نقر على من ألجأه الى ذلك من الأمراء فلم يقر بشىء .

* * *

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فجلس السلطان بالمقعد الذى بالحوش ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنئونه بالشهر .

فلما كان يوم الأحد رابعه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وأقام به الى بعد العصر ، ومد له الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة فانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، وكان النيل يومئذ فى عشر أصابع من تسع عشرة ذراعا .

وفى يوم الثلاثاء سادسه نزل السلطان وكشف على العمارة التى بالمطرية ، فلما عاد شق من المدينة ودخل من باب النصر ، فلما أن وصل الى مدرسته نزل عن فرسه ودخل اليها ، فتوشحت الغلمان بالبنود الحرير الأصفر حتى توشح بذلك جماعة من المباشرين ، فنهاهم السلطان عن ذلك ، وأقام السلطان هناك الى بعد الظهر ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم الخميس ثامنه خلع السلطان على الزينى بركات بن موسى وأقره فى الجلسة الشريفة

على عادته ، وكان أشيع عزله بسبب اضطراب البلد لأجل الفلوس ، ثم ان السلطان أشهر المناداة فى القاهرة بأن الفلوس تصرف بالميزان بعدما كانت معاددة ، فخسر الناس فى هذه الحركة جملة مال له صورة .

ومن العجائب أن السلطان لما حصل له ذلك العارض فى عينه جاد مع الناس وأبطل المجامعة التى كانت على الحسبة والمشاهرة وأشياء كثيرة من المكوس ، مما كان على القمح والبطيخ وغير ذلك ، فلما شفى من ذلك العارض وشق من المدينة ضجت له العوام بسبب الفلوس الجدد ، فلما طلع الى القلعة حنق منهم ورسم باعادة المجامعة والمشاهرة والمكوس التى كانت على القمح والبطيخ وغير ذلك كما كانت وزيادة ، وقال : « أنا أبطلت عنهم أشياء كثيرة بنحو ألفين دينار فى كل شهر وهم يتضررون من الفلوس ! » . ثم ان السلطان شرع فى مطالبة من كان عليه بواقى مال من المصادرات التى تقدم ذكرها واعاد القاضى ابن ثعلب الى المقشرة بسبب ما تأخر عليه من المال ، وكان أشيع بين الناس أن السلطان لما كان عليلا بعينه سامح أرباب المصادرات بما عليهم من الأموال ، فلم يتم ذلك وشرع يطالب كل من كان عليه شىء من المال وقد ندم على ما فعله من اظهار العدل فى تلك الأيام ، وقد قلت فى معنى ذلك :

سلطاننا مذ كان فى ضعفه
يمنحنا عدلا واحسانا
فمذ شفاه الله من دائه
أحدث ظلما فوق ما كانا

فكان الفأل بالمنطق ، ورجع كل شىء الى ما كان عليه من وجوه الظلم كما كان أولا .

وفى هذا الشهر قوى عزم النيل حتى قطع جسر أم دينار الذى بأراضى الجيزة وشرق غالب أرضها بسبب ذلك ، وكان السلطان أمر الوزير يوسف البدرى بأن يهتم بعمارة جسر أم دينار هذا . فندب اليه شخصا من المباشرين يسمى جمال الدين فما أبقى ممكنا فى الظلم ، وأفرد على كل فدان بأراضى الجيزة ألف درهم ، فحصل على المقطعين بتلك النواحى ما لا خير فيه وضاع عليهم خراج تلك السنة من أجل هذا الجسر ، ولم يفد من ذلك شيئا ، وشرق غالب الأراضى بالجيزة لأجل ذلك الظلم .

وفى يوم الأحد حادى عشره أشيع بين الناس أن شخصا من البرابرة قبض على فرس البحر من بعض جهات الصعيد وأحضرها بين يدى السلطان ، فلما أحضرت بين يدى السلطان فرح بها وقيل انه أطلقها فى البحرة التى فى الميدان ، وقد أخبرنا بصفاتها الياس أحد الأمراء الآخورية .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره ترافع أحمد ابن الصايغ برددار الزينى بركات بن موسى ، ترافع معه ، وكان الزينى بركات تشكى بأنه يخسر فى تلك الجهات التى فى تحدثه ، فقال أحمد بن الصايغ : علىّ السداد ، فخلع عليه السلطان كاملية وأشرك بينه وبين بركات بن موسى فى التحدث على البلاد التى فى تقسيطه والحمايات ، ولم يشركه معه فى التحدث فى الحسبة الشريفة .

وفى يوم الخميس خامس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، فخست الجامكية تسعمائة دينار فغلقها ابن الصايغ من ماله ، فكان هذا أول عكسه .

وفى يوم الجمعة سادس عشره توفى شخص من الأمراء العشراوات يقال له مصرباى بن يشبك .

وفيه ثبت النيل المبارك على أربع أصابع من

عشرين ذراعا وكان فى العام الماضى غلق العشرين ذراعا وزاد ثمانى أصابع من واحد وعشرين ذراعا ، واستمر فى ثبات الى نصف هاتور القبطى .

وفى يوم الأحد ثامن عشره نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى فى المطريه ، ومد له هناك الزينى بركات بن موسى مدة حافله . فتعشى هناك ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره جلس السلطان بالمقعد الدى بالحوش ، وخلع على شخص من الأمراء كان بطالا يقال له جانم بن ولى الدين ، واستقر به نائب طرابلس عوضا عن الأمير أبرك مملوك السلطان بحكم انفصاله عنها ، وجانم هذا تقدم أنه تولى نيابة حماة ونيابة طرابلس قبل ذلك ، وكان السلطان عين نيابة طرابلس الى الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب فلم يوافق على ذلك وأبى ، فخلع السلطان على جانم هذا وأقره فى نيابة طرابلس كما كان قبل ذلك ، وقيل انه سعى فى نيابة طرابلس بستين ألف دينار على ما قيل .

وفى يوم الخميس ثانى عشرينه احتجب السلطان ولم يخرج الى الأمراء ، وأشيع أنه قد فص ما طال من جفنه وقطبوه له فتشوش من ذلك .

فلما كان يوم الجمعة لم يخرج ولم يصل الجمعة ورسم للأمراء بألا يطلعوا الى القلعة بسبب الصلاة ولا يكلفوا خاطرهم فان السلطان شارب فى ذلك اليوم دواء ، فلم تطلع الأمراء فى ذلك اليوم الى صلاة الجمعة فى القلعة .

وفى ذلك اليوم توفى القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك وعزل عنها ، فأقام مدة وهو بطال حتى مات ، وكان من أعيان المباشرين وقد قارب الثمانين سنة من العمر ، وقاسى شدائد ومحنا وصودر غير ما مرة ، وكان أصله من أبناء الأقباط .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بفتح سد أبى المنجا ، فتوجه الأمير كرتباى والى القاهرة وفتح السد على العادة .

وفى يوم الأحد سادس عشرينه توفى الأمير نانق بن يحشباى أمير شكار كان ، وكان أصله من مماليك الظاهر جقمق ، وكان من الأمراء العشراوات وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض السلطان المماليك الذين قررهم فى الطبقه الخامسة ، وهو العسكر الملفق ، فرسم لهم بأن يعملوا برقهم ويتوجهوا الى السويس لأجل حفظ المراكب التى أنشأها السلطان هناك ، فقالوا : « نحن ما نسافر بلا نفقة » . فحنق السلطان منهم وقال : « أنا أسافر الى السويس بنفسى » . وقد تقدم القول على أن الفرنج قد زاد تشويشهم على التجار فى البحر الملح وصاروا يخطفون البضائع من المراكب ، وقد ملكوا كمران وهى من بعض جهات الهند . وقد تكامل من مراكب الفرنج فى البحر نحو من عشرين مركبا ، فكثرت الاشاعات بسفر السلطان الى السويس .

* * *

وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فلم يجتمعوا بالسلطان وقيل لهم قد دخل الحمام ، وقد حصل له الشفاء لما قطبوا له جفنه ، وكان السلطان يظن الهلال لا يرى تلك الليلة فدخل الحمام فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت ثانيه نزل السلطان الى الميدان وشال الرفادة عن عينه وجلس وحكم بين الناس ، ورسم للعسكر بأن يصرف لهم العليق شعير ،

وكان يصرف لهم العليق مثمن فرسم لهم بأن بصرف العليق شعير .

وفى يوم الاثنين رابعه طلعت الأمراء الى القلعة على العادة ، فخرج لهم السلطان من الدهيشة وهو ماشى على أقدامه وقد لبس التخفيفة الكبيرة المسماة بالناعورة ، وهى الآن فى مقام التاج لملوك مصر من حين تولى بها الأتراك ، وكانت التيجان يلبسها ملوك الفرس من الأكاسرة ، فصارت التخفيفة الكبيرة التى بالقرون الطوال لسلاطين مصر هى التاج لهم ، كما كان التاج لملوك الفرس ، وقد جاء فى بعض الأخبار أن العمائم تيجان العرب وكان السلطان له نحو من أربعة أشهر لم يلبس هذه التخفيفة الكبيرة ولا جلس على المصطبة التى يحكم عليها بالحوش ، فلما خرج تمشى وجلس على تلك المصطبة ، فباس له الأمراء الأرض وهنوه بلبس التخفيفة الكبيرة ، ثم أحضروا له بالدواة فعلم فى ذلك اليوم على عدة مراسيم ونفذ عدة محاكمات ، ثم قام وطلع الى المقعد الذى أنشأه بالحوش ، فلما قام نثر على رأسه المعلم يعقوب اليهودى خفائف من ذهب وفضة ، فتخاطفتها الخاصكية وتزاحموا على السلطان حتى كاد أن يقع من شدة الازدحام . فلما طلع الى المقعد خلع فى ذلك اليوم عدة كوامل صوف بسمور ، فخلع على الرئيس شمس الدين بن القيصونى ، وخلع على الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وخلع على الرئيس تقى الدين المنوفى الكحال الذى قطب له عينه ، وخلع على الرئيس صلاح الدين الشامى ، وقيل رسم لكل رئيس منهم بمائة دينار ، ثم خلع على محمد مهتار الطشتخاناه كاملية حافلة بسمور ، وخلع على علم الدين الحلبى كاملية حافلة بسمور ، ثم ان خوند زوجة السلطان أرسلت لكل واحد من هؤلاء المذكورين كاملية حافلة بسمور ، ثم ان الحكماء صاروا يدخلون الى بيوت الأمراء المقدمين ويبشرونهم بعافية السلطان فيخلعون عليهم الكوامل الحافلة ، وكذلك أرباب الوظائف من المباشرين قاطبة وأخصاء السلطان ، فدخل عليهم عدة كوامل بسمور حافلة ، وقد قلت لما شفى السلطان ولبس التخفيفة الكبيرة فى ذلك اليوم فهنيته بهذين البيتين وهما :

لما شفى السلطان من رمد به
بوسيلة من صاحب المعراج
فتفاءلت كل الأنام بأنه
فى الملك باق يوم لبس التاج

وهنأه الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق بهذه الأبيات :

يا ملكا عدله أرانا
تبسما فى فم الزمان
وقد حبانا بحار جود
يقصر عن عدها لسانى
اهنأ ببرء يلى بقاء
مؤيدا مظهر التهانى
لا زلت للملك ذا نظام
تبدى به جوهر المعانى

وفى يوم الاثنين المقدم ذكره حضر الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وكان السلطان رسم له بأن يقيم فى الفيوم حتى يعمر الجسر الذى هناك ، فأقام بالفيوم مدة حتى انتهى ذلك العمل من الجسر ، فلما حضر خلع عليه السلطان كاملية بسمور حافلة ونزل الى داره ، ولكن حصل منه غاية الضرر على كل من كان له فى الفيوم رزقة أو اقطاع ، فأفرد عليهم ثلث خراجهم فى هذه السنة بسبب

عمارة الجسر المقدم ذكره الذى سافر السلطان الى الفيوم بسببه ، فجار الأمير أرزمك على أصحاب الرزق والاقطاع غاية الجور ، وراح على المقطعين خراجهم فى هذه السنة بسبب عمارة هذا الجسر .

وفى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته أعيان المباشرين وأرباب الدولة وهم موشحون بالحرير الأصفر لأجل عافية السلطان ، فشق من القاهرة وقدامه الحكماء بالخلع ، فنادى فى القاهرة بالزينة لأجل عافية السلطان ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، ثم ان الزينى بركات بن موسى أشهر المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطيقان لأجل عافية الملك . فانطلق سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطيقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ... ودارت الطبول والزمور فى المراكب يهنون أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان ، ثم ان سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطيقان أحمالا وأمشاطا فيها القناديل ، فاحتفل سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية ، وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ، ويقع بالبركة من القصف والفرجة ما لا يحصى وصفه ولا سيما قد صار أمرا سلطانيا .

وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى ذلك عن الحد ، وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه زينت القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق ، وهم سوق الشرب والباسطية وسوق الحاجب وسوق الفاضل وسوق جامع ابن طولون وسوق مرجوش وسوق الوراقين وسوق الجواهرة وغير ذلك من الأسواق ، وزينوا مصر العتيقه وبولاق حتى زينوا أسواق الخانكاه ، وزينوا حارة زويله وخان الخليلى وغير ذلك من أسواق القاهرة ، ثم ان الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من الأمراء الطبلخانات زينوا أبوابهم بالصناجق والخيام الحافلة مثل زينة العيد ، ثم ان الخليفة زين بابه بستور ضريح السيدة نفيسة رضى الله عنها ، ثم ان قضاة القضاة زينوا أبوابهم بالشاخين المحمل والنواميس الحرير ، ولاسيما قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة فانه خرج فى الزينة عن الحد ، فزين بابه بالبشاخين الزركش والعنبر فعد ذلك من البدع المنكرة ، ثم ان الزينة أقامت سبعة أيام متوالية ، والكوسات عمالة كل يوم نوبتين باكر النهار وبعد العصر ، وهى بالقلعة وعلى أبواب الأمراء المقدمين . ولم يقع قط بمصر مثل هذه الواقعة فى عافية سلطان ولا أمير ، وهذا من باب الوجاهة والزوكرة للسلطان ، فان قضاة القضاة زينوا أبواب المدارس التى يسكنون بها حتى باب المدرسة الصالحية وخانقاه بيبرس وغير ذلك من الأماكن الجليلة ، فعاب بعض الناس على القضاة هذه الفعلة ، وقد صنع قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ردكا بأشجار وأحواض جلد على باب الخانقاه البيبرسية ، فعد ذلك من البدع المنكرة وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

لبرئك يا ذا الملك سرت نفوسنا
وقد زينت من بعد ما عطلت مصر
وأصبح ثغر الدهر مبتسما لنا
وفى وجنة الدنيا غدا ينظر البشر

وكان سبب ايساع هذه الزينة أن الأخبار قد شاعت فى البلاد الشرقية والغربية بأن السلطان قد

عمى بعينيه الاثنتين ، فأراد السلطان اظهار هـذه الزينة حتى يشاع فى البلاد أن السلطان قد شفى وزال عنه الألم الذى كان فى عينيه ، فأمر بزينة القاهرة ودق الكوسات حتى يشاع ذلك بدق الكوسات بالقلعة وعلى أبواب الأمراء .

وفى يوم الخميس سابعه جلس السلطان على المصطبة بالحوش وعين فى ذلك اليوم خمسة أنفس من الأمراء المقدمين بأن يعملوا يرقهم ويتوجهوا الى السويس ، ثم بطل ذلك فيما بعد ولم يسافر منهم أحد ، وكان أشيع سفر السلطان بنفسه الى السويس ولم يتم ذلك ، فشرع يقول للعسكر والأمراء : « جهزوا يرقكم فانى أسافر نصف الشهر » ، وصنع أربع محفات ، وجعل يعرض نوب هجن وبغال وغير ذلك .

وفى يوم الاثنين حادى عشره جلس السلطان فى الميدان وفرق اطلاقات الطين على العسكر وكان غالب أراضى الجيزة شراقى ، فردوا وصولات الاطلاقات ، وكادت أن تكون فتنة .

وفى يوم السبت نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها ، ورسم لنقيب الجيش بأن يطوف على الأمراء المقدمين قاطبة ويعلمهم بأن السلطان يوكب من القبة ويشق من القاهرة ، وأرسل يعزم على الأمراء فى القبة ، فحضر اليه الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس وبقية الأمراء المقدمين قاطبة ، فباتوا عند السلطان بالقبة ومد لهم هناك أسمطة حافلة ، فلما كان يوم الأحد ركب السلطان من القبة وقدامه الأمراء المقدمون قاطبة والأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين قاطبة وأعيان الدولة والعسكر قاطبة . وكان السلطان قصد أن تحمل على رأسه القبة والطير فنهاه الأمراء عن ذلك وقالوا له : « ما هى عادة أن السلطان اذا خرج الى المطرية تحمل على رأسه القبة والطير » ... فرجع عن ذلك .

ثم ان السلطان دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل ، ولاقته طائفة اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، وسارت قدامه أرباب الوظائف من المباشرين وهم متوشحون بالحرير الأصفر ، وكذلك نقيب الجيش والوالى وأعيان الخدام وولد السلطان ، ومشت قدامه الرءوس النوب بالعصى من باب النصر الى القلعة ثم سحبت قدامه الجنائب بالكنابيش الزركش ومشى قدامه الأوزان والشبابة السلطانية والنفير البرغشى والمجامع السلطانية بالغشاء الحرير الأصفر ، ولم تلبس الأمراء ولا أحد من العسكر فى هذا الموكب الشاش والقماش ، ولم يستطع السلطان لبس التخفيفة الكبيرة من العارض الذى فى عينه ، بل كان فى هذا الموكب بتخفيفة صغيرة مكسى وسلارى بعلبكى أبيض ، ومشى قدامه غالب الخاصكية من باب النصر الى القلعة ، فكان له يوم مشهود ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة عليه ، وتركزت له الطبول والزمور فى عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان وكانت القاهرة مزينة زينة حافلة منذ سبعة أيام ، وأوقدوا له الشموع والقناديل فى الأحمال بالنهار على الدكاكين ، وأطلقوا له البخور فى المجامر ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب الحافل على ما ذكرناه حتى طلع الى القلعة . وقد قلت فى هذه الواقعة أبيات مواليا وهى هذه :

سلطاننا لو محاسن فيه موصوفه
ولو مواكب لهـا أوقات معروفه

مذخف عنو الرمد بألطاف محفوفه
أوكب لها أوقات مصر مصفوفه

ولما شق السلطان من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وقال له جماعة من العوام : ابطل عنا أمر المجامعة والمشاهرة التى على الحسبة ، فلم يلتفت الى كلامهم وتغافل عن ذلك .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن امرأة خرجت تتفرج على السلطان وكانت حاملا ، فجاءتها ضربة على بطنها فنزل الولد من بطنها فى الحال وماتت من يومها ، فرجعت الى بيتها فى تابوت وذلك بالقرب من باب النصر .

ثم شرع كل أحد من أعيان المباشرين يقدم للسلطان تقادم حافلة ما بين ذهب وقماش وسكر وأغنام وغير ذلك ، وقدم اليه أيضا جماعة من الأمراء من أخصاء السلطان تقادم حافلة ما بين خيول وصوف ووشق وسنجاب وغير ذلك ، فخلع عليهم فى ذلك اليوم كوامل مخمل أحمر بسمور ، والذى لم يقدم له شيئا لم يخلع عليه .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه عرض السلطان عسكر الطبقة الخامسة التى استجدها ، فلما عرضهم عين منهم جماعة بأن يتوجهوا الى السويس فشرع مقدم المماليك سنبل يقول لهم : « يا أغاوات عبوا يرقكم حتى تسافروا الى سويسة ! » فضحكت عليه الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه صنع السلطان ستورا من حرير أسود بطرز مزركشة ، وكانوا نحوا من سبعة ستور لبقية الأنبياء الذين هناك ، ولأجل ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، فشقوا من القاهرة وقدامهم الطبل والخليلة ، وكان لهم يوم مشهود ، وكان خادم حرم الخليل عليه السلام حاضرا فنزل قدام الستور هو وجماعة من الفقراء .

وفى يوم الخميس رابع عشرينه دخل جماعة من المماليك الذين تعينوا الى السويس على الأمير طومان باى الدوادار وشكوا له سفرهم الى السويس بلا نفقة ، وصمموا على عدم السفر الى السويس ، فطلع الأمير طومان باى وذكر للسلطان ما قاله المماليك ، وكاد أن يقع من ذلك فتنة ، فلما سمع السلطان ذلك أمر ببطلان السفر الى السويس وخشى من اقامة فتنة .

وفى يوم الجمعة نزل السلطان وعدى الى الروضة ، ونصب له خياما على خرطوم الروضة وبات هناك ومد له الزينى بركات بن موسى هناك أسمطة حافلة ، فأقام الى يوم الأحد وطاب له ذلك المكان وانشرح به ، وكان صحبته مغانى وأرباب الآلات ، فطلع الى القلعة يوم الأحد أواخر النهار .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج الأمير جانم الذى قرر فى نيابة طرابلس كما تقدم ذكر ذلك ، فكان له يوم مشهود .

وفى يوم الخميس من أواخر هذا الشهر كانت وفاة الأمير برد بك تفاح ، وكان من الأمراء الطبلخانات ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان أميرا من جملة الأمراء المقدمين الألوف بالشام ، فأتى الى مصر ليسعى فى الحجوبية الكبرى بالشام فلم يتم له ذلك فاستمر مقيما بمصر ، وكان له مرتب على الذخيرة فى كل شهر حتى مات وكان له مدة وهو عليل ، فلما مات كانت له جنازة حافلة ومشت قدامه خشداشينه من الأمراء وأخرجوا قدامه كفارة ، وكان لا بأس به .

وفيه نزل السلطان وسير الى مصر العتيقة وشق من على ساحل البحر ، ثم طلع من على قناطر

السباع وشق من الصليبة وطلع الى القلعة ، فلما شق من الصليبة ضجت له العوام بالدعاء وذكروا له أمر الفلوس الجدد وأن البضائع صارت تباع بسعرين ، فلما طلع الى القلعة نادى فى ذلك اليوم بأن الفلوس تكون بنصفين الرطل ، وكانت بثلاثة أنصاف الرطل ، فخسرت السوقة فى هذه الواقعة نحو الثلث من أموالها ، وكانت البضائع تباع بسعرين سعر بالفضة وسعر بالفلوس ، ففرح غالب الناس بهذه المناداة .

وفى يوم السبت سلخ الشهر نزل السلطان الى المطرية وتوجه الى قبة يشبك وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

* * *

وفى رمضان كان مستهل الشهر يوم الأحد ، فجلس السلطان بالميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعه يهنونه بالشهر على جرى العادة

وفى ذلك اليوم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب باللحم والخبز والدقيق والسكر والغنم وهم على رءوس الحمالين وقدامهم الطبول والزمور ، وشقوا من القاهرة وكان لهم يوم مشهود ، فخلع السلطان على الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى ونزلوا الى بيوتهما فى موكب حافل ، ثم ان السلطان رسم الزينى بركات بن موسى بأن ينادى فى القاهرة بتسعير البضائع : بأن البطة الدقيق بسبعة أنصاف واللحم الضانى بتسع نقر الرطل واللحم البقرى بست نقر الرطل ، وسعر الأجبان والسيرج والزيت وغير ذلك من البضائع ، وأن النصف الفضة لا يصرف بأكثر من اثنى عشر درهما ، وأن الفلوس العتق والجدد بالميزان وكل رطل بنصفين .

وفى يوم الجمعة سادسه قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، ووافق ذلك ثامن هاتور القبطى .

وفى يوم الاثنين سادس عشره أنفق السلطان الكسوة مع الجامكية على العسكر

وفى ذلك اليوم كانت وفاة المعلم على الصغير أحد معاملى اللحم ، وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، ولكن قاسى فى أواخر عمره شدائد ومحنا وصودر غير ما مرة ، وضرب بالمقارع على أجنابه بين يدى السلطان ، وسجن بالعرقانة مدة وتسحب من هناك وتدلى بحبل فانقطع به ووقع على الأرض فانكسر ضلعه ، واستمر مختفيا مدة ، وسافر الى الحجاز وهو مختف ، ثم ظهر عند ما أفرج السلطان عن أصحاب الجرائم كما تقدم ذكر ذلك ، فظهر واستمر عليلا مما قاساه حتى مات ، وكان قد جاوز السبعين سنة من العمر ، وكان من أعيان المعاملين ناتجا بالسداد ، وقد ذكر فى أيام الأمير أقبردى الدوادار بأن يلى الوزارة مثل البباى فلم يتم له ذلك .

وفى هذا الشهر أشيع بين الناس بأن الناصرى محمد بن أزدمر نائب حلب كان قد قتل فى معركة ببلاد ابن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان تغير خاطره عليه فرسم بشنقه فى حلب ، فلما بلغه ذلك فر الى بلاد ابن عثمان فقتل هناك ، وكان غير مشكور السيرة فى سائر أفعاله .

وفى يوم الأحد ثانى عشرينه نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وكشف على العمارة التى هناك ، فلما رجع دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى الروضة وأقام فى خرطوم الروضة ، وأشيع بين الناس بأن السلطان نقصد أن ينشىء هناك قصرا بأربعة وجوه .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه كان ختم صحيح البخارى بالقلعة ، ونصب السلطان خيمة

كبيرة بالحوش على العادة ، وحضر هناك القضـاة الأربعة ومشايخ العلم وأعيان الفقهاء ففرقت عليهم الخلع والصرر لمن له عادة ، وكان ختما حافلا .

وفى يوم الأحـد تاسع عشرينه نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التى بالمطرية فجلس على المصطبة التى هناك وجربوا قدامه عدة مكاحل بحجارة كبار ، فأقام هناك ساعة ثم عاد الى القلعة .

وفيه عرض ناظر الخاص خلع العيد وكانت فى غاية الوحاشة .

وفيه أنفق السـلطان الكسوة والجامكية على عسكر الطبقة الخامسة .

* * *

وفى شوال كان عيد الفطر يوم الثلاثاء ، فخرج السـلطان وصلى صلاة العيد وهو بالشـاش والقماش ، وكان موكب العيد حافلا .

وفى يوم السبت خامسه نزل السلطان وعدى الى الروضة وبات بالمقياس تلك الليلة ، وأقام به يوم الأحد الى بعـد العصر ، ثم عدى وطلع الى القلعة وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه ولده وبعض أمراء ، وكان قدامه قاضى القضـاة عبد البر بن الشحنة وجماعة من الأمراء العشراوات ، والأمير خاير بيك الخازندار أحد الأمراء المقدمين وكان صحبة السلطان فى المقياس .

وفى يوم الاثنين سابعه توفى القاضى عرفات بن السجان ، وكان من أعيان نواب الشافعية ، وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر خلع السلطان على عبد العظيم الصيرفى وقرره فى التحدث فى أمر الشون السلطانية وجهات الذخيرة ، فتعاظم عبد العظيم الى الغـاية وكبر عمامته وصار من أعيـان الرؤساء ، وركب الخيول ونسى ما جرى عليه من الضرب بالكساوات وعصر أكعابه بالمعاصير وحرق أصابعه بالنـار ، فنسى ذلك كله وصار فى شمم عظيم .

وفى يوم السبت ثانى عشره نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة يشبك الدوادار وبات بها ليلة الأحد ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم السبت المقدم ذكره وقعت كائنة عظيمة وهى التى عمت وطمت ، وكان سـبب ذلك أن شخصا من نواب الحنفية يقال له غرس الدين خليل ، وكانت له زوجة حسناء فهويها شخص من نواب الشافعية يقال له نور الدين على المشالى واعتشر بها مدة طويلة ، فاتفق أن فى ليلة السبت المقدم ذكره طلع غرس الدين خليل الى الامام الليث رضى الله عنـه وبات به ، فأرسلت الامرأة خلف نور الدين المشالى وأعلمته بأن زوجها خليل بائت فى الامام الليث ، فاطمأن بذلك ثم أرسـل اليها ما يلائم ، وكان بجوار بيت الامرأة شخص تسـميه الناس شميس ، وهو ابن أخت القاضى نور الدين الدمياطى ، وكان يهوى هذه الامرأة وهى لم ترض به ، فلما تحقق أن نور الدين المشالى بائت عندها تلك الليلة فصبر حتى طلع اليها نور الدين واستقر عندها فى البيت ، فركب شمس الدين ابن أخت الدمياطى وتوجه الى الامام الليث وأعلم خليـل زوج الامرأة بذلك ، فركب خليل من وقته وجاء الى بيته فوجد الباب مقفولا . ودخل الى البيت ، فوجد نور الدين وزوجته فى الناموسية وهما تحت اللحاف متعانقان فقبض عليهما باليد .

فلما تحقق نور الدين المشالى أنه تعدى على خليل وطلع الى بيته وفسق فى زوجته قصد تستر هذا الأمر فقال لخليل : « أكتب لك على مسطورا بألف دينار ولا تفضحنى بين النـاس » . وقالت الامرأة : « خذ جميع ما فى البيت من الأمتعة وستر هذه القضية والستر مطلوب » . فلم يوافق خليل

على ذلك ، ثم أغلق عليهما الباب وأتى الى دار حاجب الحجاب فقص عليه ما جرى له ، فأرسل حاجب الحجاب فبض عليهما ، فلما مثلا بين يديه أقر نور الدين المشالى أنه طلع الى بيت خليل وكان بينه وبين زوجتــه ما كان من آمر الزنا ، ثم ان حاجب الحجاب أحضر القاضى شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية فشهد على نور الدين المشالى بما أقر به على نفسه بالزنا وكتب خطه بذلك وكتب بذلك محضرا وثبت عليــه . ثم ان حاجب الحجاب عرى نور الدين المشــالى وضربه ضربا مبرحا حتى كاد يهلك ، ثم ضرب الامرأة عــلى أكتاف المشاعلية ضربا مبرحا ، ثم أمر باشهارهما فى القاهرة ، فأركب نور الدين المشالى على حمار وألبسه عمامته وأركب الامرأة أيضــا على حمار وقلبوا وجهيهما الى خلف الحمار وطافوا بهما فى الصليبة والقاهرة وقناطر السباع ، وكان لهما يوم مهول ، ثم رجعوا بهما الى بيت حاجب الحجاب ، فقرروا على الامرأة مائة دينار لحاجب الحجــاب فقالت الامرأة : « أنا زوجى وضع يده على جميع مالى فلا أملك من الدنيا شيئا » فقالوا لزوجها : «هات من مال زوجتك مائة دينار لحاجب الحجاب». فلم يوافق على ذلك وامتنع فرسموا عليه ، وكان لخليل ولد صغير يقرأ مع المقربين عند السلطان فى الدهيشة ، فلما رسموا على أبيه طلع الى السلطان وذكر له ما جرى من أوله الى آخره ، فعند ذلك اتسع الخرق على الراقع وفشــا الكلام بالمواقع ، فلما اتصــل هذا الأمر بالسلطان كان من الأمر ما سنذكره فى موضعه .

وفى يوم رابع عشره نزل السلطان الى الميدان وعرضوا عليه كسوة الكعبة والبرقع ومقام ابراهيم عليــه الســلام والمحمــل الشريف ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم وقف الى الســلطان بشخص قتيــل يقــال له قانم المداقف ، وكان من جملة الزردكاشية ، فأنهوا أولاد القتيــل على أن بعض المماليك الأجلاب عزم عليه وأسكره ثم قام اليه وخنقه بوتر حتى مات ، وكان بيد قانم هذا اقطاع تقيل فقتله الجلبان بسبب ذلك ، وكان له أولاد وزوجة فقتل ولم تنتطح فى ذلك شــاتان ، وحل السلطان فى آمره ولم يأخذ له بثأر .

وفى ذلك اليوم توفى الحاج رمضــان مهتــار الأشرف قايتباى ، وقد قاسى فى أواخر عمره أشياء كثيرة من شدائد ومحن ، وصودر غير ما مرة ، وضرب وعصر فى أكعابه ، وباع بيوته فى المصادرة وجميع ما يملكه ، وصار يســتعطى من الأمراء بالقصص ، وكان أصله من الصعيد ، وخدم الأشرف قايتباى حين كان خاصكيا الى أن بقى سلطانا ، ورأى فى أيامه من العز والعظمة ما لا رآه غيره من المهاترة الذين سلفوا من قبله ، وكان بيده مهترة الطشتخاناه الشريفة ونظــر الكسوة الشريفــه والتحدث على جهات السلطان ، وكان غالب السعى لأرباب الدولة من بابه ، ويقال كان متحصله فى كل يوم نحوا من أربعين دينارا ، فســلب ذلك منه جميعا ومات فقيرا لا يملك من الدنيا شيئا ، وكان قد شاخ وكبر سنه ومات وهو فى عشر الثمانين .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره أرسل السلطان خلف القضاة الأربعة ، فلما حضروا بين يديه وبخهم بالكلام الفج وقال لهم: « والله افتخرتم ياقضــاة الشرع : نوابكم شىء يشرب الخمر وشىء يزنى وشىء يبيع الأوقاف » . وفى ذلك تسميعة لقاضى القضــاة الحنفى عبــد البر بن الشحنة وكان هو المقصــود بذلك الكلام ، ثم طلب المحضر الذى ثبت على القاضى شمس الدين بن وحيش ، فقال

له ابن وحيش : « أنا ثبت عنـدى رجمهما » . فانصاع السلطان لهذا الكلام وقصد بذلك اظهار العدل حتى يكتب ذلك فى تاريخه أنه رجم من زنى فى أيامه ، كما وقع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم لماعز وزينب اللذين أمر النبى برجمهما ، فقال السلطان لابن وحيش : « احكم برجمهما » : فقال ابن وحيش : « حتى ينفذ لى قاضى القضاة الشافعى » . فقال القاضى الشافعى : « قد نفدت لك ذلك » . فانفصل المجلس على رجم المشالى والامرأة وعلى أن يحفر لهما حفيرة ويرجما فيها ، ولو فعـل السلطان ذلك فى يومه لمشى أمر الرجم وقضى ذلك الأمر ، لكن عارض السلطان خروج المحمل وأمر الحجاج ، فأخر هذه القضية لبعد خروج الحجاج .

فلما كان يوم الخميس سابع عشر شوال خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد الى الغاية ، وكان له يوم مشهود ، وحضر فى هذه السنة ملكان من ملوك التكاررة ، فحرجا فى ركب وحدهما بعـد خـروج الحـاج بأيام ورجعا صحبه الحجاج لما حضروا ، وحرج قدامه القضـاة الأربعة ، وكان أمير ركب المحمل قانصـوه كرت أحـد الأمراء المقدمين ، وبالركب الأول الأمـير طومـان باى حاجب ثانى ، فخرجا فى موكب حافل وقدامهما الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين .

فلما اشـتغل السـلطان بأمر خروج الحجاج تعصب لنور الدين المشالى شخص يقال له شمس الدين الزنكلونى أحـد نواب الشافعية ، فكتب فتاوى على أن الرجل اذا زنى واعترف بالزنا ثم رجع عن ذلك الاعتراف فهل سقط عنه الحد أم لا ، فدار بهـذا السؤال على جماعة من العلماء ومشايخ الاسلام ، فكتب على ذلك السؤال الشيخ برهـان الدين بن أبى شريف المقدسى الشـافعى وكتب عليـه جماعة آخرون من العلماء بمعنى ما أجاب به الشيخ برهان الدين بن أبى شريف أنه اذا رجع عن الاقرار يسقط الحد من رجم وغير ذلك من الحدود . فلما بلغ السلطان ذلك اشتد غضبه على القضاة وقال : « يامسلمين رجل يطلع الى بيت رجل ونفسق فى زوجته ويقبض عليه تحت اللحاف، مع زوجته ويعترف الخصم بذلك ويكتب خط يده بما وقع منه ... يقولوا بعد ذلك له الرجوع !! » . فأمر بعقد مجلس بين يديه بالقلعة وأمر بأن القضاة الأربعة تحضر ومشايخ العلم قاطبة .

فلما كان يوم الخميس رابع عشرين شـوال حضر الأربعة قضـاة وهم : كمال الدين الطويل الشـافعى وعبد البر بن الشحنة الحنفى ومحيى الدين يحيى بن الدميرى المالكى وعز الدين بن الشيشينى الحنبلى ، فجلسوا عن يمين السلطان وحضر شيخ الاسـلام المنفصل عن القضاء زين الدين زكريا فجلس راس الميسرة ، وجلس تحته الشيخ برهان الدين بن أبى شريف وحضر قاضى القضاة الشيخ برهان الدين القلقشندى المنفصل عن القضاء ، وحضر الشيخ برهان الدين بن الكركى الحنفى ، وحضر غير ذلك من مشايخ العلماء جماعة كثيرة منهم الشيخ نور الدين المحلى والشيخ عبد الحق السنباطى الشافعى وآخرون من المشـايخ والفقهاء . فلما تكامل المجلس أخذ السلطان يتكلم مع الشيخ زكريا والشـيخ برهان الدين بن أبى شريف ، فقال لهم : « كيف يكون رجـل متزوج بامرأة ويطلع الى بيته فيجد رجلا أجنبيا راقدا مع روجتـه تحت اللحاف ويعترف بالزنا وتقولوا له الرجوع ؟ » . فقال له ابن أبى شريف : « شرع الله هذا » . وأراه النقل فى هـذه المسألة ، فلم

يلتفت الى النقول فى ذلك وقال : « أنا ما أنا ولى الأمر ولى النظر العام فى ذلك ؟ » . فقال له ابن أبى شريف : « نعم ولكن بموافقة الشرع الشريف . وان قتلتهما تلزمك ديتان عنهما » . فحنق منه وكاد أن يبطش به فى المجلس ، ثم التفت الى الشيخ زكريا وقال له : « ايش قلت انت فى هذه المسألة ؟ » . قال : « له الرجوع بعد الاعتراف . واذا رجع سقط عنه الحد » . فقال له السلطان : « هذا يبقى فى ذمتك » . فقال الشيخ زكريا : « ايش كنت أنا ؟ هذا فى ذمة الامام الشافعى صاحب المذهب » . فذكر على أن السلطان قال له : « أنت ذهلت ما بقى لك عقل » . ثم التفت الى قضاة القضاة ووبخهم بالكلام وقال : « انتو الأربعة قوموا لا ترونى وجوهكم قط » . فقاموا من ذلك المجلس وهم يتعثرون فى أذيالهم ، وكان لهم يوم مهول ، فانفصل المجلس مانعا وحصل فيه كل سوء من مقت السلطان لهم .

ثم ان السلطان عزل الشيخ برهان الدين بن أبى شريف من مشيخة مدرسته وأشيع بنفيه الى القدس ، وعزل محيى الدين يحيى بن الدميرى من قضاء المالكية ومن خطابة جامعه ، واشتد غضبه على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة ، وكاد أن يبطش به . وكان عنده من المقدمين الأخصاء ، وكان يبات عنده ثلاث ليال فى الجمعة وكان من ندمائه ، ويسافر معه اذا شوط ، وصار بيده الحل والعقد فى أمور السلطنة ، فانقلب عليه كأنه لم يعرفه قط ، وكان بمنزلة جعفر البرمكى من هرون الرشيد ، الحمد لله .

ومما وقع فى ذلك المجلس بحضرة السلطان أن الشيخ نور الدين على المحلى قال للسلطان : « يا مولانا السلطان . ان الذى صدر من مشايخ الاسلام بصحة الرجوع فهو الحق ، وهو نص ما نقله الامام الشافعى وغيره من العلماء رضى الله عنهم أجمعين بعد القرار فى أمر الزنا فلا عبرة باقراره فى ذلك » . فقال له السلطان : « ان شاء الله تطلع الى بيتك فتجد من يفعل فى زوجتك الفاحشة كما فعل المشالى فى زوجة خليل » . فقال له الشيخ نور الدين المحلى : « عافانا الله من ذلك » . فشق كلامه على السلطان فى الباطن ، وانفض ذلك المجلس من غير طائل ، وحصل للعلماء فى ذلك المجلس غاية البهدلة ولا سيما ما حصل للشيخ برهان الدين بن أبى شريف وأمره مشهور . فكان كما يقال فى المعنى :

احذر مداخلة الملوك ولا تكن
ما عشت بالتقريب منهم واثقا
فالغيث غوثك ان ظمئت وربما
ترمى بوارقه اليك صواعقا

ويقال ان سبب تغير خاطر السلطان على قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة أنه فى أول الأمر وافق السلطان على أن الرجل والامرأة يرجمان ، فلما أفتوا أنه اذا رجع عن الاقرار يسقط عنه الحد فوافقهم عبد البر على ذلك ، فقال له السلطان : « أنت تقرر معى شيئا وترجع عن ذلك ؟ كنت قلت لى هذا من الأول حتى عرفت أمر الرجوع بعد الاقرار » . فلما تحقق عبد البر أن السلطان متغيظ عليه دار على الأمراء وكاتب السر بأن يشفعوا فيه عند السلطان ، ثم ان السلطان رسم الى يحيى بن نكار دوادار الوالى بأن يسجن نور الدين المشالى الذى زنى ، فتوجه به الى المقشرة وتوجه بالامرأة الى الحجرة .

وبعد مضى الحجاج بخمسة أيام خرج ركب التكرور والمغاربة وعين معهم السلطان ثلاثة من الدللة يرشدونهم الى الطريق فتوجهوا بهم من

مخالص غير مخالص الحجاج . وفى هـذه السنة حج الأمير بقر بن الأمير أحمـد بن بقر شـيخ العرب ، وحج صحبته الجم الغفير من الفلاحين .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميـدان وجلس به وأرسـل أحضر شمس الدين الزنكلونى الذى دار على العلماء بالفتوى بسبب نور الدين المشـالى حين رجع عن الاقرار ، فلما حضر قال له السلطان : « يا زنكلونى ! حكمك أنت يمشى وحكمى أنا يبطل ؟ » . ثم بطحه على الأرض وضربه نحوا من ألف عصا وضرب أولاده الاثنين كل واحد نحوا من ستمائة عصا . وكان رفيقهم فى هذه المسألة ابن شريف الوكيل ، فلما بلغه ذلك اختفى ، وكان المتعصب عليهم فى ذلك القاضى شمس بن وحيش وأوحى للسـلطان أن الزنكلونى وأولاده قد أسـوا عليه وسـبوه فحرض عليهم السلطان حتى جـرى ما جـرى للزنكلونى . ثم ان السلطان رسم بنفى الزنكلونى الى الواح فنزلوا بالزنكلونى وأولاده وهم على وجـوههم راكبين على حمير والدم يسـيل من أكعـابهم .

وفى يوم الأربعاء سلخ الشهر أشيع بين الناس بأن الزنكلونى قد مات من شـدة الضرب ، وأن أولاده فى حال العدم .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو قليوب ، وظن أن الشهر قد هل فى ذلك اليوم فنزل حتى لايقابل القضاة ولا ينظر اليهم ، وقد كثرت الاشاعة بعزل القضاة الأربعة .

* * *

وفى ذى القعدة كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع الخليفة وهنأ فى ذلك اليوم . فلما قام الخليفة من عنده ركب السلطان ونزل الى دار البقر حتى لا يجتمع على القضاة ، وكان القضاة قد جلسوا فى الجامع فلم يجتمع عليهم السلطان ونزل سير ، فلما بلغ القضاة ذلك نزلوا من القلعة بحمى حنين .

ومن العجائب أن من يوم عقد المجلس المقـدم ذكره وحصل ما حصل على القضاة بسبب الفتوى فى أمر الرجوع ، فصرح السلطان فى ذلك اليوم بعزل القضـاة الأربعـة ، فأقامت مصر شـاغرة نحوا من خمسة أيام لم يعقد فيها عقد نكاح ولا وقع فيهـا أحكام شرعية ، وأغلقت الشـهود دكاكينهم قاطبة ، وتعطلت أحوال مصر واضطربت فى تلك الأيام الى الغاية ، ورسم السلطان للوالى وقال له : « كل من وجدته من الفقهاء وهو سكران فاقبض عليه وأنا ألبسك كاملية مخمـل بسمور وأركبك فرس بكنبوش » . وأشيع بين الناس أن السلطان قال : « لا يدخل علىّ أحد من المباشرين وهو لابس عمامة » من بغضه فى الفقهاء ، فكان القراء اذا دخل أحد منهم على السلطان فيلبس له زمط وعليه شد ملفوف . وأشيع أن الزينى بركات ابن موسى لبس له تخفيفة ودخـل على السلطان فضحك عليه ، وكذلك القاضى عـلاء الدين ناظر الخاص لبس له تخفيفة ودخل على السلطان فقال له : « بقيت مثل المماليك الجراكسة » .

ومن الحوادث فى يوم مستهل هذا الشهر سقط ربع تجاه باب الوراقين على رأس عطفة الخراطين فقتل تحت الردم شخص بيـاع جزر ، فمات هو والحمار من وقته تحت الردم .

وفيه كثر الكلام بسبب عزل القضـاة ، فنزل السلطان الى الميدان ، فلما جلس به قام الأتابكى سـودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار وغير ذلك من الأمراء المقدمين والقاضى كاتب السر ، فقاموا فى صـعيد واحد وباسوا الأرض للسلطان ثم شفعوا فى القضاة الأربعة ، فلما سمع السلطان ذلك حنق على الأمراء

وحلف بحياة رأسه أنه ما يعيد أحدا من القضاة الى وظيفته وصمم على ذلك ، وقد قلت فى هذه الواقعة :

سلطاننا عزل القضاة لحادث
قد شاع فى مصر وعم الأسمعه
مذ خالفوه وحاودوا عن أمره
نفذ القضا فيهم بعزل الأربعه

ولم يتفق قط أن القضاة الأربعة يعزلون كلهم فى يوم واحد الا فى هذه الواقعة التى جرت ، فعد ذلك من الوقائع الغريبة .

ولما كان يوم الجمعة ثانيه أرسل السلطان يقول للقاضى كاتب السر : « أبصر لنا من يخطب ويصلى بنا صلاة الجمعة » . فذكر له الشيخ علاء الدين الاخميمى الشهير بالنقيب ، وكان يخطب فى جامع الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وكان علامة فى الخطب والقراءة فى المحراب ، فلما ذكر للسلطان قال : « أعرفه » . وكان تقدم للشيخ علاء الدين أنه خطب بالسلطان قبل ذلك عدة مرار فى أيام قاضى القضاة ابن أبى شريف وفى أيام قاضى القضاة ابن فرفور ، وكان الشيخ علاء الدين له شهرة طائلة عند الأتراك ، وكان علامة فى الرمى بالنشاب عارفا به وكان له اليد الطولى فى ذلك ، وكان عارفا باللغة التركية ، وقد حوى كل فن من علوم شتى وهو نادرة عصره ، فأرسل القاضى كاتب السر خلف الشيخ علاء الدين فتوجه اليه الحاج على الأسمر البرددار ، فقال له : « القاضى يقول لك اطلع واخطب بالسلطان » . وكان يومئذ علامة عصره فى أمر الخطبة ، فقيل ان الشيخ علاء الدين لما أراد أن يطلع يخطب بالسلطان توجه الى قاضى القضاة كمال الدين الطويل واستأذنه فى ذلك قبل أن يطلع فقال له : « اطلع واخطب على بركة الله تعالى » . فطلع فى ذلك اليوم وخطب بالسلطان فترشح أمره بأن يلى القضاء ، وكان ذلك من الأمور الربانية والسر المكنون . وقيل فى أمثال الصادح والباغم فى المعنى :

الرزق بالحظ وبالتقدير
وليس بالسعى ولا التدبير

ومنه :

تنال بالرفق وبالتأنى
ما لم تنل بالحرص والتعنى

وفى يوم الثلاثاء سادسه رسم السلطان بتوسيط مملوك من مماليكه وقد قتل قتيلا ، فلما عرضوه على السلطان أراد ضربه بين يديه فتعترس قدام السلطان فحنق منه فرسم بتوسيطه ، فوسطوه فى الرملة .

وفى يوم الأربعاء سابعه كانت كاينة نور الدين المشالى والامرأة ، وذلك أن السلطان رسم بشنقهما ، فأمر يحيى بن نكار بأن يتوجه الى دار الشيخ برهان الدين بن أبى شريف وينصب على بابه مشنقة ، وكان ساكنا فى بيت أبى البقا بن الجيعان فى حارة أولاد الجيعان ، وكان السلطان تقصد ذلك عمدا بسبب المقت فى حق ابن أبى شريف لكونه أفتى بأمر الرجوع ، فاشتد غضب السلطان عليه بسبب ذلك ، وأشيع بنفيه الى القدس بطالا . فلما توجه يحيى بن نكار دوادار الوالى الى بيت ابن أبى شريف ونصب المشنقة على بابه ظن عياله أن الشيخ هو الذى يشنق فقاموا بالصراخ واللطم والبكاء ، ثم أسفرت القضية على شنق نور الدين المشالى والامرأة ، فنصبوا لهما مشنقة على باب ابن أبى شريف وأحضروا نور الدين المشالى من المقشرة وأحضروا الامرأة من الحجرة وشنقوهما على باب ابن أبى شريف ، ورسم السلطان بأن يشنقا فى حبل واحد ويجعلوا وجه الرجل فى وجه الامرأة ، فصلبت

الامرأة وهى بازارها وعليها أثوابها مسبولة ، فلما شنقا جاء الناس أفواجا أفواجا يتفرجون عليهما من كل فج عميق ، وقد قلت فى هذه الواقعة :

لقد صلب السلطان من كان زانيا
وأظهر فى أحكامه مسلكا صعبا
فقلت لأرباب الفسوق تأدبوا
فحد الزنا قد صار فى عصرنا صلبا

وفى ذلك يقول الأديب محمد بن الصايغ .

أيا لهما من عاشقين عليهما
قضى من قضى بالموت حتما وأشنقا
فقلباهما عند الحياة تألفا
وجسماهما عند الممات تعلقا
ببعضهما متعلقان ولو يكن
لجسميهما روحان كانا تعانقا

وقد تقدم للأشرف قايتباى أنه صلب جارية بيضاء جركسية من جوار حريمه وقد حملت من بعض مماليكه فى طريق الحجاز ، فلما وضعت ذلك الجنين قتلته من خوفها ، فلما بلغ السلطان ذلك شنقها لكونها قتلت قتيلا ، فصلبها فى طريق حدرة ابن قميحة عند درب نكار على شجرة عند الأحواض ، فصلت بازارها ، وأما المملوك فخصاه وقطع محاشمه ، فعد ذلك من النوادر .

فأقام نور الدين المشالى والمرأة التى زنى بها يومين لم يدفنا ثم شاوروا السلطان فى دفنهما فأذن فى ذلك ، وكان لهما يوم مهول .

وفى ذلك اليوم أرسل السلطان يقول لناظر الخاص : « اطلع غدا معك بأربعة تشاريف لأجل القضاة الأربعة » .

فلما كان يوم الخميس ثامن هذا الشهر طلب السلطان القضاة الذين عزم على ولايتهم فحضر الشيخ علاء الدين ابن الشيخ جلال الدين الاخميمى النقيب والشيخ شمس الدين السمديسى امام مدرسته ومؤدب ولده والشيخ جلال الدين عبد الرحمن بن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم والشيخ شهاب الدين أحمد بن عز الدين عبد العزيز الفتوحى الشهير بابن النجار ، فلما حضروا أفاض عليهم التشاريف وأحضر لهم أربعة بغال مكفية بالعدد الفاخرة ، فقرر الشيخ علاء الاخميمى فى قضاء الشافعية عوضا عن القاضى كمال الدين الطويل بحكم انفصاله عن القضاء ، وقرر الشيخ شمس الدين السمديسى فى قضاء الحنفية عوضا عن القاضى عبد البر بن الشحنة بحكم انفصاله عن القضاء ، وقرر الشيخ جلال الدين بن قاسم فى قضاء المالكية عوضا عن محيى الدين يحيى ابن الدميرى بحكم انفصاله عن القضاء ، وقرر الشيخ شهاب الدين الفتوحى فى قضاء الحنابلة عوضا عن عز الدين الشيشينى بحكم انفصاله عن القضاء ، فخلع السلطان على الأربعة قضاة فى ساعة واحدة حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ، فلما نزلوا من القلعة تلقاهم جماعة النواب من الأربعة المذاهب فكانوا نحوا من ثلاثمائة نائب فرجت لهم القاهرة .

وفى القاضى علاء الدين الاخميمى يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

قاضى القضاة علاء الدين أنت لها
كفء لتنفيذ أحكام بأحكام
خليفة الشافعى فى الحكم صرت فدم
جبرا اذا لاح كسر الدين كلام

يعنى كالمرهم فى ذلك اليوم، وكان يوما مشهودا فشقوا من القاهرة فى موكب حافل ، وكان قدامهم العلاء ناظر الخاص وجماعة من أعيان الناس ، فاستمروا فى هذا الموكب حتى نزلوا بالمدرسة الصالحية النجمية كما جرت به العادة ، فاصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ولاقتهم

الرسل مشاة يقولون : الدعا لمولانا السلطان بالنصر أدام الله أيامه ، ولم يقع قط فيما تقدم من الدول الماضية أن السلطان ولى القضاة الأربعة فى يوم واحد ، فعد ذلك من النوادر الغريبة التى لم يسمع بمثلها قط .

وقد وقع فى أيام الظاهر خشقدم أنه ولى قاضى القضاة صلاح الدين المكينى عوضا عن قاضى القضاة شرف الدين يحيى المناوى ، وولى قاضى القضاة برهان الدين الدميرى عوضا عن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى ، فنزلا من القلعة وعليهما التشاريف فى يوم واحد ، فعدوا ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما بولاية هؤلاء الأربعة فى يوم واحد . وأعجب من هذا أن السلطان لم يأخذ من هؤلاء القضاة الذين تولوا ولا الدرهم الفرد ، وقد فاته فى ولاية هؤلاء القضاة الأربعة نحو اثنى عشر ألف دينار ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولا سيما من الأشرف الغورى فكانت ولايتهم على وجه العز والاقبال من غير سعى ولا كلفة بخلاف ما وقع لغيرهم من القضاة فيما تقدم ، فعد لهم ذلك من جملة السعد ، وقد قلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات :

امام الورى ولى قضاة لشرعنا
فهم أربع وهى البدور الطوالع
فمنهم علاء الدين قاض معظم
بدا نوره بين الورى وهو ساطع
ومنهم امام جيد شاع زهده
على مذهب النعمان لله طائع
ومنهم عريق الأصل من نسل قاسم
أتى مالكى للموطأ تابع
ومنهم فقيه تابع لابن حنبل
أتته فتوح العلم أولاه صانع
بهم بنية الاسلام صحت وكيف لا
تصح وهم أركانها والطبائع
فلا عجب ان وسع الله فى الهدى
مذاهبنا بالعلم فالشرع واسع

وكان السلطان لما ولى هؤلاء القضاة قرر معهم بأن يخفوا من نوابهم .

فلما كان يوم الجمعة طلع القاضى علاء الدين وخطب بالسلطان ، فلما انتهى أمر الصلاة عرضوا على السلطان قوائم بأسماء النواب من الأربعة مذاهب ، فرسم للقضاة الأربعة بمائة نائب : للقاضى الشافعى أربعين نائبا ، وللقاضى الحنفى ثلاثين نائبا ، وللقاضى المالكى عشرين نائبا ، وللقاضى الحنبلى عشرة نواب . وقرر معهم ألا يولوا أحدا من النواب الا باذنه ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفى يوم السبت عاشره نزل السلطان من القلعة وأشيع سفره الى وادى العباسة ، فلما نزل توجه الى قبة يشبك التى بالمطرية فبات بها ، وكان صحبته الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة ، خلا أمير آخور كبير وطقطباى نائب القلعة وخاير بيك الخازندار ، فكان معه الجم الغفير من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية ، فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم . فأقام السلطان فى قبة يشبك الى يوم الأحد فرحل من هناك هو والأمراء قاطبة ، وكان صحبته من البيرق والسنيح ما يعادل سفر البلاد الشامية .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره توجه قاضى القضاة الشافعى علاء الدين الأخميمى الى درس المدرسة الصالحية النجمية ، وهو أول حضوره الى الدرس ، فتصدر للتدريس بها فأبدى فوائد كثيرة وقواعد جليلة مع الفصاحة وحسن التأدية ، فقال فى ذلك

صاحبنا الشيخ شمس الدين أبو اليمن السنهورى وأجاد فى ذلك حيث قال :

لدرس الصالحية جئت حبا
الى قاضى القضاة أبى العلاء
علاء الدين الأخميمى أبدى
قواعد من علوم مع ثناء
ولا عجب لما أبدى فان ال
قواعد من تآليف العلاء

وقال الناصرى محمد بن قانصوه :

قاضى القضاة علاء الدين أنت لها
كفؤ لتنفيذ أحكام بأحكام
خليفة الشافعى فى الحكم صرت فدم
جبرا اذا لاح كسر الدين كلام

ولما تم أمر القاضى علاء الدين فى القضاء جاء على الوضع وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، وله يد طائلة فى معرفة أمور القضاء ، فكان كفؤا لذلك ، وكان دينا خيرا ما عهد له صبوة قط ، مطرح النفس عفيفا عن الرشوة من حين كان نائبا والى أن بقى قاضى القضاة ، فهو من أهل الفضل والدين ، ثم انه قرر الشيخ محلى بأن يتولى أمور بابه بما يرد عليه من الفتاوى وغير ذلك .

وفى يوم الثلاثاء المقدم ذكره كانت وفاة الأمير جانم السيفى قانى باى الفهلوان الذى كان دوادار الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، وجانم هذا هو الذى أنشأ المدرسة اللطيفة التى تجاه جامع قوصون ، وكان دينا خيرا لا بأس به ، وكان قد كبر وطعن فى السن .

وفيه حضر سيف تمراز نائب قلعة حلب ، وكان تولى نيابة قلعة البيرة وعينتاب

وفيه جاءت الأخبار من البحيرة بوفاة الجويلى شيخ مشايخ عربان البحيرة ، وكان محمود السيرة فى طرد العربان المفسدين عن البلاد ، وكان فى سعة من المال ، فلما مات تقرر بعده ابن أخيه فى مشيخة البحيرة .

وفى يوم الخميس خامس عشره فرقت الجامكية فى غيبة السلطان ، فحضر الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير خاير بك الخازندار وشمس الدين ابن عوض وكتاب المماليك ، وفرقت الجامكية على العسكر وحصل السداد فى غيبة السلطان .

وفى يوم الجمعة سادس عشره كان السلطان مسافرا ، فلم يطلع القاضى الشافعى فى ذلك اليوم ولم يصل بالقلعة ، بل صلى فى جامع الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، ولم يخطب هو به فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت سابع عشره عاد السلطان من تلك السرحة وقد وصل الى العكرشا ثم عاد ، فكانت مدة غيبته فى هذه السرحة ثمانية أيام ، وقد تكلف الأمراء كلفة زائدة ، وكان أشيع أنه يسرح فى البلاد الشرقية ويتوجه الى وادى العباسة فلم يصح ذلك ، ولما رجل نزل بالوطاق بالريدانية وبات به ليلة الأحد وأحرق هناك احراقة نفط ، فلما كان يوم الأحد أوكب السلطان من هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة ولبس التخفيفة الناعورة ، وركب قدامه الأمراء قاطبة والمباشرون ، ولاقته القضاة الأربعة من رأس الحسينية ، ولم تكن هذه عادة أن السلطان اذا خرج وشوط تلاقيه القضاة الأربعة ، ولكن عملوا ذلك خدمة له كونهم تولوا جددا ، فشق من القاهرة فى موكب حافل ، وكان له يوم مشهود ، على حكم الموكب المقدم ذكره قبل ذلك ، وقد

انشرح فى هذه السفرة وتصيد ودخل عليه تقادم كثيرة من كاشف الشرقية وشـيخ العرب ، من خيـول وبقر وغنم وغـير ذلك ، ولكن حصـل للمقطعين غاية الضرر . وقد أفرد الكاشف وشيخ العرب على البلاد خيولا وأغناما وأبقارا ومبلغا ، وحصل بسبب ذلك ما لا خير فيه . وكان السلطان أخذ معـه محفة على أنه يتوجه من هنـاك الى السويس ، فلم يتم له ذلك ورجع عن قريب .

وفيه كانت وفاة الزينى فرج أحـد الأمـراء المقدمين الألوف ابن برد بك أحد الحجاب ورأس باش البريدية ، وكان من أعيـان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما من ذوى العقول ، وقاسى فى أواخر عمره شـدائد ومحنا ، وصودر وأقام فى الترسيم مدة طويلة ، وباع جميع ما يملكه ، وكان شاخ وكبر سنه وجاوز الثمانين سنة من العمر .

وفى يوم الاثنين سـادس عشرينه توفيت نور كلدى الجركسـية زوجة الأمـير خـاير بك أحد المقدمين الذى كان كاشف الغربية ، وهى بنت أخت خوند الجركسية قرابة الملك الظاهر جقمق ، وكانت شابة جميلة حسنة ، فكان لها مشهد حافل ، ومشت قدامها الأمراء قاطبة ، وصـلى عليها فى سبيل المؤمنين .

* * *

وفى ذى الحجة كان مسـتهل الشـهر يوم الجمعة ، فصعد الخليفة للتهنئة بالشهر ، وصعد القضـاة الأربعة الذين تولوا جـددا ، فجلس كل منهم فى منزلته على العادة ، وكان السـلطان فى الميدان .

وفى يوم الاثنين رابعه رسم السـلطان لنقيب الجيش بأن يقبض عـلى أولاد الزنكلونى الذى مات تحت الضرب ، فشكهما فى الحديد ، ورسم له السلطان بأن يرسلهما الى جهة الواح فى مكان يسمى «موط» ، وهو كثير العقـارب والهوام ، فقبض عليهما وأرسل صحبتهما متسفرا ، وأخـذ منهما خمسة عشر دينارا . وقد كفى ما جرى عليهما .

وفى يوم الأحد كان عيد النحر ، وكانت الأضحية مشتطة فى السعر ولا توجد بسبب أذى المماليك وخطفهم للأغنام والأبقار ، وأعجب من هـذا أن الملح حرج السلطان على بيعه وحكره ، فعز وجود الملح حتى بيـع كل أردب ملح بثمانمائة درهم . وهذا قط ما اتفق فيما مضى من السـنين ، وعز وجود الفحم حتى بيع كل قنطار بثمانية أنصاف ، وكذلك الشـعشاع حتى عد ذلك من النـوادر الغريبة .

وكان السلطان حرج على بيع الخشب السنط بسبب عمارة المراكب ، وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطـان غصبا باليـد ويرسـلونه الى السويس لأجل عمارة المراكب التى هناك ، وعز الكبريت أيضا حتى بيع كل رطل بثمانية أنصاف ولا يوجد الا قليلا .

وفى يوم السلبت سادس عشره نزل السلطان باكر النهار وعدى الى بر الجيزة ، وكان صحبته الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلخانات والعشراوات والجم الغفير من الخاصكية والمماليك السـلطانية ، فنصب له وطاقا فى المنية وأشـيع بين الناس أنه يتوجه من هناك الى جهة الفيوم حتى يكشـف على الجسر الذى عمره الأمير أرزمك الناشف ، وكان تقدم له أنه فى أواخر السنة الخالية توجه أيضـا الى الفيوم . ثم ان السلطان أخذ صحبته محفة فتحقق عند الناس أنه لا بد أن يشوط من هناك الى مكان يختاره .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره أنفقت الجامكيـة على العسكر فى غياب السلطان .

وفى أثناء هذا الشهر قتل شخص من المماليك السلطانية يقـال له برسباى حداية ، وكان أصله من مماليك الظاهر خشـقدم ، فوجدوه مذبوحا فى داره هو وعبـده ولا يعلم من قتله . ويقال ان بعض المماليك الأجلاب قتله لأجل اقطاعه ، وكان غير مشكور السيرة .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره جاءت الأخبار بأن السلطان لمـا توجه الى بر الجيزة نزل بالمنية التى عند انبابة ، ثم توجه من هنـاك الى المنصورية ونصب بها الوطاق هو والأمراء وأقام بها أياما ، وصار يركب من هناك ويسير ويتصيد ، وقيل أنه توجه الى جسر أم دينار وكشف عليه ثم رجع الى الوطاق .

ثم انه فى يوم الجمعة رحل من المنصورية وعاد الى انبابة فأقام بها فى ذلك اليوم ، وكان أشيع بين الناس بأن السلطان بحرق هناك فى ليلة السبت احراقة نفط ، فتوجهت اليه الناس أفواجا أفواجا بسبب الفرجة فلم يصح أمر النفط هناك ، وقد استخف عقل السلطان جمـاعة من الأمراء فى هذه التشوطة التى شوطها فى هذه الأيام الشاتية ، وقد حصل للأمراء والعسكر غاية الكلفة والمشقة من غير سبب يوجب ذلك . وكان السـلطان أخـذ صحبته محفة وقويت الاشـاعة بين النـاس بأن السلطان يتوجه من هنـاك الى الفيوم وقيل الى ثغر الاسكندرية فلم يصح ذلك .

فلمـا كان يوم السبت ثالث عشرينـه صـلى السلطان العصر بالوطاق ، ثم عدى من هناك الى بولاق وقصد التوجه الى القلعة ، فطلع من على قناطر السباع وشق من الصليبية ، وكان فى موكب هين بخلاف ستة أنفس وهم : الأمير طومان باى الدوادار والأمير علان الدوادار الثـانى أحـد المقدمين والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير تمر أحد المقدمين والأمير خـاير بك الكاشف أحد المقـدمين والأمير ماماى جوشن أحـد المقدمين وبعض أمراء عشراوات وبعض خاصكية مشـاة . وكان قدامه جماعة من أرباب الوظائف من أعيان المباشرين ، خلا القاضى كاتم السر ابن أجا فانه كان عليلا منقطعا عن الركوب ، وكان السـلطان والأمراء بتخافيف صـغار وسـلاريات صـوف بسمور . وكان قدام السلطان بعض جنائب ونوب هجن ، وكان قدامه طبلان وزمران والنفير البرغشى فطلع الى القلعـة قبـل المغرب بخمس درجات . فكانت مدة غيبته فى هذه التشوطة ثمانية أيام .

وفى يوم السبت المقدم ذكره حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وقد وصل من مكة الى القاهرة فى أحد عشر يوما فعد ذلك من النوادر .

وقد خرجت هذه السنة المباركة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة وقع فيها الرخاء فى سائر الغلال ، وأخصب فيهـا الزرع والفواكه والبطيخ ، وكان النيل فيها عاليا وثبت الى أواخر بابه ، وكانت سـنة مباركة غير انها كانت كثيرة الحوادث ، ووقع فيها الطاعون فى أوائلها ، وحصل فيهـا توعك للسـلطان فى عينه حتى أشرف على العمى ثم شفى من ذلك . وحصل فيها عزل للقضاة الأربعة فى يوم واحد وولى السلطان أربعة قضاة عوضـهم فى يوم واحـد ، وكان السلطان أبطل المجامعة والمشـاهرة التى كانت تؤخذ من جهات الحسـبة ففرح الناس بذلك . ثم بدا للسـلطان اعادة ما أبطله من وجوه المظالم فشق على الناس ذلك ، وكانت جهـات الشرقية والغربيـة فى غاية الاضطراب بسبب فسـاد العربان لموت الجويلى

وجور الكشاف ومشايخ العربان ، والأمر فى ذلك كله الى الله تعالى .

سنة عشرين وتسعمائة (١٥١٤ م) :

فيها ، فى المحرم ، كان مستهل الشهر يوم الأحد المبارك ، فكان الخليفة يومئذ الامام المتوكل على الله محمد بن الامام المستمسك بالله يعقوب ابن الامام المتوكل على الله عبد العزيز ، وسلطان الديار المصرية الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره . وأما القضاة الأربعة آئمة الدين فالقاضى السافعى علاء الدين الأخميمى ، والقاضى الحنفى شمس الدين بن النقيب محمد السمديسى الامام ، والقاضى المالكى جلال الدين عبد الرحمن ابن الشيخ زين الدين قاسم بن قاسم ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، وأما الأمراء المقدمون فالأمير سودون بن جانى بك الشهير بالعجمى آتابيك العساكر بالديار المصرية ، والأمير أركماس بن ولى الدين آمير مجلس . وكانت امرة السلاح يومئذ شاغرة ، وبقية الأمراء المقدمين على حكم ما ذكر فى السنة الخالية . وفى هذه السنة تكاملت عدة الأمراء المقدمين سبعة وعشرين مقدم ألف ، ويأتى الكلام على أسمائهم فى مواضعه ، وذلك خارجا عن امرة السلاح فانها كانت شاغرة .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضى بدر الدين محمود بن أجا الحلبى صاحب ديوان الانشاء بالديار المصرية ، وبقية المباشرين على حكم ما تقدم ذكره فى السنة الخالية .

فلما كان مستهل الشهر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ، فبالغ السلطان فى اكرامهم وقام اليهم فسلموا ونزلوا الى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء ثالثه جلس السلطان بالميدان وعين الى خاصكيته خوذا ولبوس خيل منخاصات البركستوانات ، وقبل ذلك بمدة فرق عليهم سيوفا مسقطه بفضة وزرديات عال ، حتى فرق عليهم التراكيش والفسى وقد اعتنى بهم بخلاف من تقدمه من الملوك ، فانه كان ينعم عليهم فى الباطن والظاهر بالمال والاقطاعات والقماش الفاخر وغير ذلك .

وفى يوم الأربعاء رابعه وجد فى سوق الغنم شخص من المماليك القرانصة وهو فتيل ، وقد خنق بوتر فى رقبته وعروه من آثوابه ورموه على قارعة الطريق ولم يعلم من قتله ، فقيل ان ذلك من فعل المماليك الأجلاب بسبب اقطاعه ، وقد فعلوا مثل ذلك بجماعة كثيرة من المماليك القرانصة بسبب اقطاعاتهم ، فقتلوا ولم تنتطح فى ذاك شاتان .

وقد اضطربت الأحوال فى هذه الأيام الى الغاية وصار المماليك يقتلون من يلوح لهم عليه مضرب لأجل اقطاعه ، واذا عرضوا من يقتل على السلطان فيتغافل عن ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الخميس خامسه تغير خاطر السلطان على الأمير جانى بك الأستادار فقبض عليه وأودعه فى الترسيم حتى يقيم الحساب ، فانتدب الى عمل حسابه شمس الدين بن عوض والشرف يونس النابلسى الذى كان استادارا ، فالتزموا بأن يبقوا عليه فى حساب الديوان المفرد خمسة وثلاثين آلف دينار ، فاستمر فى الترسيم بالقلعة حتى يكون من أمره ما يكون ، وكان جانى بيك ظالما عسوفا غير محبب للناس ، فلم يرث له آحد فى هذه الكائنة التى وقعت له .

وفى يوم السبت سابعه تعطل اللحم الذى كان يطلع الى طباق المماليك الأجلاب فضجوا فى ذلك اليوم وكادت آن تقع فتنة كبيرة ، وكان الوزير يوسف البدرى مسافرا فى جهة البحيرة وديوان الدولة فى غاية الاضطراب ، وقد تعطلت لحوم جماعة من المماليك القرانصة نحوا من ستة آشهر

لم تصرف لهم من حين عزل المعلم على الصــغين ومات عقيب ذلك ، فكثر الكلام فى حق السلطان من المماليك وربما ينتشى من ذلك فتنة ، وكان فى تلك الأيام ديوان المفــرد وديوان الدولة وديوان الخاص فى غاية الانشحات والتعطيل ، فان بنــدر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه البضــائع فى السنة الخالية ، وبندر جدة خراب بســبب تعبث الفرنج على التجار فى بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جــدة نحوا من ست ســنين ، وكذلك جهة دمياط ، وكانت جهة البحيرة فى هذه الأيام فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان من حين مات الجويلى وولى ابن أخيه عوضه .

وفى يوم السبت المذكور نزل السلطان وتوجــه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية ، وأقام بها ذلك اليوم ... كل هذا من ضيقة حضيرته من أجل هذه الأحوال التى هى غير صالحة ، والأمر الى الله .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره جلس الســلطان بالحوش وعرض جماعة من خاصكيته فقط وفرق عليهم خوذا نحو ثمانمائة خــوذة ، وفرق عليهم أيضــا بركستوانات ما بين مخمل ملون وفــولاذ وذلك نحو ستمائة بركستوان ، وكان قبــل ذلك بمدة يسيرة فرق عليهم زرديات وأتراســا ورماحا بسن وسيوفا مسقطة بفضة ، وفرق عليهم أيضا تراكيش وقسيا ونشابا . وكان ذلك بالزردخاناه من مواجيــد المماليك الذين ماتوا فى الفصــل فى السنة الخالية ، ولم يفرق موجودهم الا فى هــذا الشهر .

وفى يوم الاثنين سادس عشره أنفق الســلطان الجامكية على العسكر ، وفى هذا الشهر حسن ببال السلطان أن يضيف الطبقة الخامسة التى جددها برسم العسكر الملفق ، فوزع ذلك العسكر عــلى الطباق الأربع كما كانوا فى الأول ، وأبطــل أمر الطبقة الخامسة ، وصار العسكر شيئا واحــدا فى تفرقة الجامكية .

وفى يوم الخميس تاسع عشره دخل الحاج الى بركة الحاج ، فدخل الركب الأول وقــد جــد فى السير أمير الحاج طومان باى حاجب ثانى ، فخرق العوائد فى دخوله فى التاســع عشر من المحرم ، فدخل القاهرة وطلــع الى القلعة فى يوم الجمعــة عشرينه ، فخلع عليه السلطان وشكره على ذلك .

وفى يوم السبت حادى عشرينه دخل المحمــل الشريف الى القاهرة وطلع أمير ركب المحمل الأمير قانصوه كرت أحد الأمراء المقدمين ، فخلع عليه السلطان خلعة ســنية ونزل الى داره فى موكب حافل ، ورجعا والحجاج راضية عنهما فيما فعــلاه فى طريق الحجاز .

وفى هذه السنة رجع من الحجاز القاضى شمس الدين التتاى المالكى أحد النواب ، وكان مجاورا بمكة ثلاث ســنين .

ورجع سيدى خليــل ابن عم الخليفة ، وكان مجاورا بمكة فرجع وهو مريض على خطة لايعى ، فلما توجه الى داره أقام بها الى يوم الاثنين ثالث عشرينه وتوفى الى رحمة الله تعالى . وهو خليل ابن محمد بن يعقوب بن محمــد المتوكل على الله العباسى الهاشمى القرشى . وكان رئيسا حشما بهى المنظر شائب اللحية ، وكان فى عشر السبعين لــما مات ، فكان له جنازة حافلة ودفن على أبيه بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وقد كبر سنه وشاخ ولم يل الخلافة ، لاهو ولا أبوه محمــد ولا جده يعقوب ، وكان خليل هذا طامعا بأن يلى الخلافة فلم يقسم له ذلك وجاءه الموت على غرة ، فمات وفى قلبه من الخلافــة حسرة ، ففاته نيل

الخلافة ، وعانده الدهر فيما أمله بخلافه . وقد قلت فى المعنى :

مات سيدى خليل بالقهر لما
لم ينل بالخلافة التفضيلا
وتولى عنه الزمان بريب
وكذا الدهر لا يراعى خليلا

وكان سيدى خليل عنده رهج وخفة وكان أهوج فى نفسه ، وقد جرى بينه وبين ابن عمه أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب بسبب الخلافة ما لا خير فيه . وقد تقدم ما وقع لهما فى سنة أربع عشرة وتسعمائة ، فما أبقى سيدى خليل ممكنا فى أذى ابن عمه الخليفة يعقوب ، وقد ذكرنا ذلك فى موضعه ، ومات والعداوة واقعة بينهما ، وقد كفى الله الخليفة يعقوب وولده محمد المتوكل على الله شر خليل بصبرهما عليه . وقد قيل فى المعنى :

اصبر على مضض العدو
فان صبرك قاتله
النار تأكل بعضها
ان لم تجد ما تأكله

وفى يوم الاثنين ثالث عشرين المحرم فيه خلع السلطان على الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور عثمان ابن الملك الظاهر جقمق وقرره أمير حاج بالركب الأول فبكى وشكا من ذلك ، وكان فقيرا لايحمل حاله ذلك ، فلم يلتفت السلطان الى شكواه ولارق له ، وقد خالف السلطان العوائد القديمة فى لبس أمراء الحاج فى شهر المحرم ، وكانت العادة القديمة بأن يلبسوا بعد المولد فى شهر ربيع الأول ، فبادر السلطان وألبسهما فى هذا الشهر وعجل بذلك .

وفى أواخر هذا الشهر جاءت الأخبار من مكة بوفاة قطلباى باش المجاورين ، فلما تحقق موته خلع السلطان على شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جانى بك قرا وقرره فى باشية مكة عوضا عن قطلباى بحكم وفاته بمكة .

وفيه خلع السلطان على شخص من المماليك يقال له يونس ، وقرره ترجمانا عوضا عن تغرى بردى الترجمان ، وكانت هذه الوظيفة شاغرة من حين تغير خاطر السلطان على تغرى بردى كما تقدم ذكر ذلك . وكان يونس هذا قبل ذلك من جملة الزردكاشية ثم بقى نائب الترجمان ثم بقى ترجمانا كما كان تغرى بردى .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه عرض السلطان جماعة من خاصكيته وعين منهم نحوا من ثلاثمائة خاصكى ليتوجهوا معه الى السويس بصحبته . ثم عين بعد ذلك جماعة من الأمراء المقدمين ليتوجهوا صحبته الى السويس ، فعين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار قرابة السلطان ، وعين الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين ، والأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين . وعين جماعة من الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف منهم مغلباى الزردكاش ، وجماعة آخرين من الأمراء العشراوات ، فلما عينهم شق عليهم سفر السلطان الى السويس لعدم الماء والكلفة .

وفيه نزل السلطان وعدى الى الروضة وأقام فى خرطوم الروضة ذلك اليوم ، وكان نهار غيم فانشرح فى ذلك اليوم ، وأحضر له الزينى بركات ابن موسى هناك مآكل فاخرة وأسمطة حافلة ، فأقام هناك الى بعد العصر وعدى وطلع القلعة وشق من الصليبة فى نفر قلائل من الخاصكية ، وكان صحبته الأمير خاير بيك الخازندار أحد

الأمراء المقدمين وآخرون من الأمراء العشراوات .

وفى يوم السبت ثامن عشره صلى السلطان صلاة الفجر ، ونزل من القلعة فتوجه الى الريدانية ونزل بالوطاق الذى نصب هنـاك ، وجلس بالمخيم الشريف ، وخرج صحبته الأمراء المعينون المقدم ذكرهم ، فأقام السلطان بالوطاق من يوم السبت الى يوم الأربعـاء ، وقد قصـد التوجه الى نحو السويس ليكشف على المراكب التى أنشأها هناك . وكان صحبته من المباشرين القاضى شـهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر وأخوه كريم الدين وأولاد الملكى كاتب الخزانة وأبو البقا ناظر الاسطبل وناظـر الخاص علاء الدين وأولاده ابن فخـيرة كتـاب المماليك وآخرون من أعيـان المباشرين .

وأخـذ السلطان صحبته الصنجق السلطانى والكوسات والطبول والزمور ... وأخذ صحبته محفة بغشى أطلس أصفر وطلبـا حربيا ، ورسم للعسكر الذين صحبته بأن يأخـذوا معهم اللبس الكامل من زرديات وبركستوانات وخوذ وغير ذلك من آلة السلاح ، فلما تحقق العسكر خروج السلطان ماجت القاهرة لخروجه وتكالب العسكر على مشترى قرب وبقسماط وغير ذلك من احتياج السـفر ، ولم يعهد قط من سلطان أنه خرج الى السويس وسـافر على هـذا الوجه . ولما كان السلطان فى الوطاق خلع على شخص من الأمراء العشراوات يقـال له جانى بك قرا فقرره باش المجاورين بمكة ، ولمـا نزل السلطان من القلعة شـق من بين الترب حتى نزل بالوطاق ، فرسم للوالى بأن يشهر المناداة فى القاهرة عن لسـان السلطان بأن لا مملوك ولا ابن ناس ولا غـلام ولا عبد يخرج من داره من بعـد المغرب ، وان لا أحـد يمشى بسـلاح ولا مملوك يغطى له وجه ، ولا يعبث على متسبب . فلما أشهر النداء بذلك ارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فصار الوالى يكرر هذه المناداة فى القاهرة ثلاثة أيام متوالية .

* * *

وفى صفر كان مستهل الشـهر يوم الثلاثاء ، وكان السلطان مقيما بالوطاق فتوجه اليه الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فبالغ السلطان فى اكرامهم ، ولا سيما أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فان فى ذلك اليوم توجه أبو بكر وأخوه أحمد أولاد سيدى خليل ابن عم الخليفة الذى توفى فرافعوا أمير المؤمنين المتوكل عند السلطان بسبب المرتب الذى كان لوالدهم خليـل ، فان الخليفة المتوكل لما ولى الخلافة زاد فى مرتب سيدى خليل حتى قطع بذلك لسانه عنه ، فلما توفى سـيدى خليل قرر الخليفة ما كان زاده فى مرتب سيدى خليل لولده سيدى هرون ، فلما سمع السلطان كلام أولاد سيدى خليل تعصب للخليفة ونهر أولاد سيدى خليل وقال لهما : « اذا زاد فى معلوم أبوكم شىء حتى قطع به لسانه عنه فلما مات أقول له اجعل الذى زدته لخليل من بعـده لأولاده . أنا أحكم عليه فى شيه . اخـرجوا عنى لا ترونى وجوهكم قط » . ثم قال : « والله ان يرجع أحد منكما يشكو من الخليفة عندى ما يحصل له معى خير . اخرجوا من وجهى نزقتونى » . وكان الذى بالغ فى مرافعة الخليفة أبو بكر بن سيدى خليل وأخوه أحمد ، ثم قال لهما : « كونوا كلكم تحت طاعة ابن عم أبيـكم » فخرجا من بين يديه وهما يتعثران فى أذيالهما ، ونصر الخليفـة المتـوكل عليهما ، وقرر الخليفة ما كان زاده لخليل وجعله لابنه هرون ، ولم يطلع من يد أولاد خليل فى حق الخليفة شىء وانتصف عليهما ، ورجع الخليفة من عند السلطان وهو فى غاية العز والعظمة .

ثم ان السلطان أقام بالوطاق الى يوم الأربعاء ثانى الشهر ، فرحل من الريدانية بعد الظهر وتوجه الى الخانكاه فتعشى هناك ، ثم رحل وقصد التوجه الى نحو السويس ، ورجع بقية الأمراء الذين لم يسافروا مع السلطان ، فلما رحل من الخانكاه جاءت الأخبار بأن الماء الذى حمله السلطان معه فى القرب قد فسد جميعه من القرب كونها كانت جديدة فصار الماء أحمر كالدم ونتن ودود ، وكان السلطان حمل معه نحو ثلاثة آلاف قربة ، ففسد ذلك الماء جميعه .

فلما كان يوم الجمعة رابعه أرسل السلطان الى الأمير خاير بك الخازندار والزينى بركات بن موسى المحتسب بأن يرسلا اليه جمال السقايين بالروايا والماء ، فعند ذلك قبض الزينى بركات بن موسى على جمال السقايين الذين بالقاهرة فاختفى بقية السقايين وأخفوا الجمال ، فعند ذلك ماجت القاهرة واضطربت لأجل منع الماء ، واشتد عطش الناس ، وصار الأمراء والعسكر الذين بالقاهرة ينقلون الماء فى الجرو على ظهور الخيل والبغال ، وبقية الناس ينقلون الماء بالجرو على ظهور الحمير ، واستمرت القاهرة أربعة أيام لم يلح بها راوية ماء على جمل . وقبض الزينى بركات بن موسى على نحو مائة وعشرين جملا بروايابها وأرسلها الى السلطان . فبلغ بعد ذلك سعر كل قربة ماء نصفين فضة ولا توجد . وصار الناس يشربون من الصهاريج والآبار العذبة فى مدة ذلك الاضطراب . وقد قلت فى هذه الواقعة :

مذ عطلت مصر من سقا يلوح بها
لما أحل بها السلطان بلواء
وقد بقينا لفقد الماء من ظمأ
مثل البنات العذارى نشتهى الماء

وقال آخر :

سبحان من يحكم فى خلقه
بعدله فيهم ولو شاء بطش
خوفهم بالجوع لم ينتهوا
عذبهم من بعده بالعطش

وفى يوم الأربعاء تاسعه جاءت الأخبار بأن السلطان عاد من السويس ونزل ببركة الحاج ، فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ثمانية أيام . وقاسى العسكر فى هذه المدة اليسيرة غاية المشقة ، ومات لهم عدة بغال ووقع فيهم عطشة شديدة . وتكلف الأمراء والعسكر فى هذه السفرة كلفة كبيرة . فلما بلغ الخليفة والقضاة الأربعة مجىء السلطان توجهوا اليه نحو بركة الحاج ، وذلك فى يوم الخميس عاشر صفر ، فلما سلموا عليه وهنوه بالسلامة بالغ فى اكرامهم ، ثم توجه اليه الأمراء والعسكر الذين كانوا بالقاهرة فخرجوا اليه قاطبة ، ولاقاه القاضى كاتب السر ابن آجا وغير ذلك من الأعيان .

وكان من ملخص أخبار هذه السفرة أن السلطان لما وصل الى السويس كان يوم دخوله هناك يوما مشهودا ، وطلب طلبا حافلا ما بين جنائب وهجن باكوار زركش ، وكان صحبته محفة والكوسات والطبول والزمور ، وكان هناك الرئيس سلمان العثمانى وجماعة من العثمانية البحارة فقصد السلطان اظهار العظمة لأجل جماعة ابن عثمان حتى قيل دخل العسكر الى السويس وهو لابس آلة الحرب ، وكان جماعة ابن عثمان هناك نحوا من ألفى انسان ، فلما وصل السلطان الى هناك كشف على تلك الأغربة التى عمرها هناك وكانت نحو عشرين غرابا ، فالذى انتهى منه العمل أنزلوه الى البحر الملح بحضرة السلطان ، وكان ذلك اليوم

هناك مشهودا ، وقيل كان مصروف تلك الأغربة بما فيها من مكاحل نحاس وحديد وغير ذلك من آلة السلاح فصرف على ذلك من مال السلطان نحو أربعمائه ألف دينار وكسور على ما قيل ، وكان الرئيس سلمان العثمانى هو الشاد على عمارة تلك الأغربة ، وهو المشار اليه فى ذلك ، فلما حضر السلطان مد له هناك الرئيس سلمان مدة حافلة ، فخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور ، وأنعم عليه بألف دينار ، وخلع على جماعة من النجارين والحدادين والقلافطة لكل واحد خلعة سنية .

وقيل ان فى ذلك اليوم احترق جماعة من الصناع الذين يصحنون البارود فمات منهم نحو عشرين انسانا ، وقيل ان النار تعلقت فى قلع غراب من الأغربة فأحرقته عن آخره ، فكان مصروف ذلك القلع نحو خمسمائة دينار لأن قلوع بحر الملح بخلاف قلوع بحر النيل

وأشيع أن السلطان عبث على بعض الأمراء فأنزلهم فى الغراب الكبير الذى برسم الباش ، وكان به قاعة تحت المقعد الذى يجلس فيه الباش ، فرسم للأمراء بأن ينزلوا الى تلك القاعة ، فنزل الأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب . والأمير أنصباى حاجب الحجاب ، والأمير علان الدوادار الثانى ، وآخرون من الأمراء . فلما استقروا بتلك القاعة طلع الأمير طومان باى الدوادار وأغلق على الأمراء باب الطابقة التى على تلك القاعة وتكاسل عنهم ساعة ، فظن الأمراء أن السلطان قد قبض عليهم بهذه الحيلة التى عملها عليهم ، فأقاموا والطابقة مغلوقة عليهم نحو عشر درجات فضاق الأمر عليهم وساء بهم الظن ، فعند ذلك جاء اليهم الأمير طومان باى الدوادار فقال لهم : من أراد أن يطلع من الطابقة يحضر كل واحد منكم قنطار سكر للسلطان ، فما صدقوا بذلك وقالوا : السمع والطاعة ، ففتح لهم باب الطابقة فطلعوا وهم فى غاية الاضطراب ! ..

وكانت اقامة السلطان فى السويس ثلاثة أيام .

وقد أنشأ السلطان هناك خانا ودكاكين وبعض دور وغير ذلك من الأبنية المفيدة ، وحفر هناك آبارا وصنع عليها سواقى ، فلما عاد السلطان الى بركة الحاج أنعم على الأمراء الذين كانوا بصحبته . فأنعم على الأتابكى سودون العجمى بخمسمائة دينار فى نظير كلفته وتعبه ، وأنعم على الأمير أركماس أمير مجلس بأربعمائة دينار ، وكذلك الأمير سودون الدوادارى والأمير طومان باى الدوادار والأمير أنصباى حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ممن كان صحبته . وأنعم على الأمراء الطبلخانات ممن كان صحبته وهم : قنبك رأس نوبة ثانى ومغلباى الزردكاش وآخرون من الأمراء الطبلخانات فأنعم على كل واحد منهم بمائة دينار فى نظير كلفته . وأنعم على الأمراء العشراوات ممن كان صحبته لكل واحد منهم بخمسين دينارا فى نظير كلفته ، ثم ان السلطان رحل من بركة الحاج ونزل بالريدانية .

فلما كان يوم السبت ثانى عشر صفر ركب السلطان من هناك ودخل من باب النصر وشق القاهرة فى موكب حافل بغير شاش ولا قماش ، وكان قدامه ولده المقر الناصرى محمد ، وهو لابس تبع سلطانى ، ولا صنجق سلطانى ولا قبة ولا طير ، فلاقاه القضاة الأربعة من الريدانية ودخلوا القاهرة قدامه ، ولاقاه سائر الأمراء المقدمين قاطبة والمباشرين . وكان الأتابكى سودون العجمى ابنه ضعيف على خطة فدخل قبل السلطان واشتغل بولده ، وكان السلطان ألبس الأمراء

المقدمين الذين كانوا صحبته كوامل مخمل أحمر بسمور ، وشيء كوامل صوف بسمور

فلما تحقق الناس دخول السلطان اصطفوا له على الدكاكين بسبب الفرجة ، واصطفت له الطبول والزمور على عدة دكاكين من القاهرة ، فشق من القاهرة وقدامه طبلان وزمران والنفير السلطاني ، وقدامه عدة نوب هجن فيها أربعة نوب بأكوار زركش والبقية بأكوار محمل ملون . وكان قدامه من الجنائب نحو أربعين فرسا بعضها بكنابيش زركش وسروج مغرق . وكان من جملة الجنائب بغال وحجورة بسروج بداوى وركب بداوى فعد ذلك من النوادر .

وكان قدامه عشر كاشات بأغطية حرير أصفر ، وكان قدامه محفة على بغال بعشى حرير أصفر . فلما مشى الطلب والجنائب والأمراء جاء بعدهم السلطان وقدامه الخاصكية مشاة ورءوس النوب والشبابة السلطانية والشعراء . وكان لابسا تخفيفة صغيرة ملساء وعليه سلارى صوف أبيض بوجه صوف أخضر ، فشق القاهرة فى ذلك الموكب وكان له يوم مشهود ، وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، فطلع من على سويقة العزى من على مدرسة السلطان حسن ، وشق الرملة ثم دخل من باب الميدان بعد أن سلم على القضاة والأمراء وانفض ذلك الموكب . فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ذهابا وايابا ثمانية أيام منها اقامته فى السويس ثلاثة أيام .

وفى يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالميدان جلوسا عاما وحكم بين الناس الى قريب الظهر ، وكان له مدة طويلة لم يحكم بين الناس من قبل أن يتوجه الى السويس .

وفى ذلك اليوم رسم بتوسيط شخصين من الغلمان قد سرقوا زرديتين لأستاذ بينهما فى هذه السفرة ، فوسطهما فى الرملة عند سوق الخيل

وفى يوم السبت تاسع عشره فيه ثارت فتنة كبيرة بالقلعة من المماليك الأجلاب ، ومنعوا الأمراء من الطلوع الى القلعة ، ونهبوا الدكاكين التى فى خرائب التتر ، ونزلوا الى بيت الأمير طومان باى الدوادار وأركبوه من بيته غصبا ، وطلعوا به الى القلعة وقالوا له : قل للسلطان ينفق علينا كما أنفق على الأمراء الذين سافروا صحبته الى السويس . فاستمرت المماليك ثائرة بالقلعة ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، وأغلقوا باب السلسلة وباب الميدان فى ذلك اليوم ، وكان العسكر قاطبة له أربعة أشهر لم يصرف لهم قيها لحم ولا عليق .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بأن من كان له عليق مكسور أو لحم مكسور يطلع الى القلعة يوم الاثنين فيصرف له ذلك ، فلما كان الاثنين طلع العسكر قاطبة فلم يصرف لهم سوى العليق فقط واستمر اللحم موقوفا ، وكان ديوان المفرد فى تلك الأيام فى غاية الانشحات ، والوزير يوسف البدرى مع المماليك فى غاية الذل ، وهو مهدد منهم بالقتل فى كل يوم . وكان السلطان أخرج عن ديوان الوزارة عدة جهات كانت توسعة فى الديوان ، منها جهات قطيا وغير ذلك من الجهات ، فأنعم بجهات قطيا على الأمير قانصوه روح لو ، واستمر مقيما هناك على تقدمته ، فانشحت الديوان الى الغاية بسبب ذلك ، وكان العسكر كثيرا ولا سيما ما جدده السلطان من العسكر فى الطبقة الخامسة فانشحتت الدواوين من الجوامك واللحوم والعليق بسبب ذلك .

وفى يوم الأحد عشرينه جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش ، وأحضر الوزير يوسف

البـدرى ومباشرى الديوان ، وأحضر المعـاملين والطباخين فعملوا حسابهم بحضرة السلطان ، فظهر لهـم مال له جرم منكسر فى الديوان ، فرسم على المباشرين بجامع القلعة وأقام فى عمل حسابهم الى بعد الظهر ، وكان ذلك اليوم فى غاية النكد ، هذا والمماليك قائمة عند حظوظ أنفسهم ، وقد أتسـيع بين الناس أمر الركوب على السلطان .

وقيل ان السلطان أحضر بعد العصر جماعة من أعيان خاصكيته وعتبهم على هذه الأفعال الشنيعة فأغلظ عليه بعض الخاصكية وقال له : « أنت الذى أشحت الدواوين بهذا العسكر الكثير الذى جمعته وجعلت له طبقة خامسة وقطعت جوامك الأيتام والنساء بسببهم وهم ما بين تراكمة وأعجام وسويخاتة وأساكفة وأولاد ناس ملفقين شىء خياط وشىء بخانقى » . فقال لهم : « أنا ما جعلت ذلك العسكر المستجد الا أن يكون فداء لكم فى الأسفار والتجاريد » . فقال له المماليك : « هذا ما كان طريقة الملك الأشرف قايتباى وأنت الذى أشحت الدواوين حتى صار اللحم ينكسر خمسة أشهر ، وكذلك العليق يعطوه لنا من الشون قمح مسوس ما تأكله الخيل . والجامكية التى تعطيها لنا ما تكفانا لكراء بيت واسطبل وجامكية الغلام ولكسوتنا ، والقماش كله غالى حتى الخام ما يوجد . والأقسمة صارت غالية كل جرة بنصفين فضة ، فما نشبع فى أيامك لا من اللحم ولا من الأقسمة ، ونحن جياعة عراية » . فسكت السلطان ساعة ثم قال : « لكم الرضا أصرف لكم اللحم المكسور وكذلك العليق أصرفه لكم شعير مغربل وأجعل لكم الأقسمة كل جرة بنصف فضة » . فارتفعت له الأصوات بالدعاء وانصرفوا من بين يديه وهم شاكرون وخمدت تلك الفتنة قليلا .

وكان المماليك الأجلاب عولوا على نهب بيوت الأمراء والمباشرين ونهب أسواق القاهرة والدكاكين وحرق البيوت ، فلطف الله تعالى وجاء الأمر الى سلامه ولله الحمد ، ولو فعلوا دلك لطلع دلك من أيديهم وما كانت تنتطح فى ذلك شاتان ، ولكن الله سلم .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول الخماسين وهو يوم عيد النصارى وفطرهم .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه طلع الجنـاب الشرفى يونس ولد الأتابكى سودون العجمى الى القلعة ، فخلع عليه السلطان كاملية مخمل أحمر بسمور من ملابيسه ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر ، وزينت له دكاكين حارته عند قنطرة سنقر . وكان سبب ذلك أن الشرفى يونس كان مـرض مرضا عظيما حتى أشرف فيه على الموت ، ثم بعد ذلك بعث الله تعالى له بالشفاء فشفى من ذلك العارض وطلع الى القلعة ، وكان له يوم مشهود ، وكان قبل ذلك أنعم عليه السلطان بامرة عشرة وصـار من جملة الأمراء العشراوات .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على عسكر الطبقة الخامسة . وحدث فى ذلك اليـوم نادرة غريبة ، وهى أن المماليك الأجلاب وقفوا فى الحوش وصار كل من قبض الجامكية من عسكر الطبقة الخامسة يأخذون منه أشرفيا من الجامكية ويقولون له : « نشرب به أقسمة » . فيأخذون منه الأشرفى طوعا أو كرها ، فحصل لعسـكر الطبقة الخامسة فى ذلك اليوم من المماليك الجلبان غاية البهدلة وما قدر السلطان على منعهم من ذلك ، وصاروا يخطفون الجامكية من يدى من يقبضها ، فمنهم من يأخذ منها أشرفيا ويعيـد الباقى الى أصحابه ، ومنهم من يأخذ الجامكية كلها ويهرب ، فأعيا أمرهم الرءوس النوب ، وحصـل فى ذلك اليوم غاية الضرر لعسكر الطبقة الخامسة .

* * *

وفى ربيع الأول كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعه للتهنئة بالشهر ، واتفق أن ذلك اليوم كان أول بشنس من الشهور القبطية فوافق أن الشهر العربى والقبطى كانا فى يوم واحد ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الخميس ثانيه خلع السلطان على القاضى شرف الدين الصغير وأعاده الى نظر الدولة وكتابة المماليك كما كان أولا ، وجعل له التكلم فى ثلث الوزارة مع يوسف البدرى المتولى للوزارة فتضاعفت عظمة القاضى شرف الدين الصغير الى الغاية ، وكان له مدة طويلة وهو بطال مختف فى داره حتى رضى عليه السلطان وأعاده الى وظائفه ، وقيل سعى فى ذلك بثمانية آلاف دينار وخمسة آلاف أردب شعير ، فلما خلع عليه نزل من القلعة فى موكب حفل وقدامه أعيان المباشرين وغير ذلك من أعيان الناس ، وكان له يوم مشهود .

وفى يوم السبت رابعه فرق السلطان على المماليك رماحا بسبب لعب الرمح ، ثم أنفق عليهم فأعطى لكل مملوك ستة أشرفية ثمن خام على جارى العادة ، وكان فى السنة الخالية لم يعطهم شيئا ، فأعطاهم ست أشرفية عن هذه السنه وما قبلها حتى يرضيهم وهم غير راضين بذلك والاشاعات قائمة بوقوع فتنة كبيرة وصار الناس على رءوسهم طيرة ، ووزع التجار قماشهم من الدكاكين خوفا من النهب .

وفى يوم الاثنين سادسه خرج الأمير طومان باى الدوادار الكبير الى بلاد الصعيد بسبب ضم المغل وجمع الأموال ، فخلع عليه السلطان ونزل من القلعة فى موكب حفل ، وصحبته الأمراء المقدمون وأعيان المباشرين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء سابعه جلس السلطان على المصطبة بالحوش وفرق على العسكر ثلاثة أشهر عن سن اللحم المنكسر لهم ، فغلق لهم الى آخر سنة تسع عشرة وتسعمائة ، وصار لهم من أول سنة عشرين وتسعمائة ، وصار يستدعى طبقة بعد طبقة مثل تفرقة الجامكية .

وفى يوم الجمعة عاشره قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، ووافق ذلك عاشر بشنس القبطى ، وكان الوقت رطبا .

وفى يوم السبت حادى عشره عمل السلطان المولد الشريف النبوى ، ونصب الخمة الكبيرة بالحوش ، وحضره القضاة الأربعة الذين تولوا عن قريب ، وهذا كان أول اجتماعهم فى المولد النبوى بالقلعة ، وحصر الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين ، فكان المولد فى ذلك اليوم حافلا .

وفى هذا الشهر جاءت الأخبار من الجيزة بأن عرب عزالة نازلين بالقرب من البدرشين ، فلما بلغ ذلك الأمير طومان باى الدوادار ركب من وقته وكبس عليهم ، فقبض على جماعة من مشايخهم وشكلهم فى الحديد ، وقيل كان عدتهم غير المشايخ المذكورين من أعيانهم وكانوا نحو ثمانية عشر انسانا — مائة خمسة وأربعين انسانا وبعث بهم الى السلطان ، فلما عرضوا على السلطان قصد أن يكلبهم على أبواب القاهرة ، فمنعه بعض الأمراء من ذلك وقال له : « متى أن قتلت هؤلاء العربان نهبت عرب عزالة اقليم الجيزة عن آخره » . فرجع عن قتلهم وأمر بسجنهم فى المقشرة .

وفى يوم الخميس سادس عشره خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له قانصوه الفقيه ، وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، فقرره فى نيابة عينتاب ، وقيل نيابة سيس ، وكان

قبل ذلك فى نيابة سيس ثم عزل عنها ، وكان مقيما بمصر بطالا حتى خلع عليه وولاه كما كان

وفى يوم الجمعة سابع عشره نزل السلطان وعدى الى الروضة وأقام بالمقياس وصلى هنـاك صلاة الجمعة ، فلما بلغ ذلك قاضى القضاة الشـافعى علاء الاخميمى توجـه السـلطان الى المقيـاس ، فتوجه اليه وخطب به فى جامع المقياس وصلى به الجمعة هناك . ثم ان السـلطان أقام فى المقيـاس الى بعد العصر ونزل فى مركب وشـق على بر الروضة وطلع من على الجزيرة الوسطى وأتى الى القلعة .

وفى يوم السبت ثامن عشره فيه ابتـدأ السلطان بضرب الكرة فى الميدان ، فطلع اليه الأمراء على جارى العـادة ، ولكن كان السلطان محصتكا فى جسده فلم يضرب الكرة الا ضربا هينا ... حتى يقال ان السلطان ضرب الكرة فى هذه السنة !

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السـلطان على الأمير أزبك المكحل كامليـة صوف صـينى بسمور ، وألبسه تخفيفة كبيرة التى يسـمونها الناعورة ، وكان امن حين حضر من ثغـر دمياط وهو بتخفيفة صغيرة ولم يدق على بابه طبلخاناه وكان كهيئة الطرخان ، فجبر السـلطان بقلبه فى ذلك وخلع عليه وأعاده الى التقدمة كما كان .

وفى ذلك اليوم المذكور حضر قاصد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، وكان السلطان بالميدان ، فلما قرىء على السلطان مطالعة ابن عثمان أشيع بين الناس أن ابن عثمان يقصد أن يمشى على شـاه اسمعيل الصفوى صـاحب العراقين . فأرسـل يعلم السـلطان بذلك وأن يكون هو والسلطان أمرا واحـدا وقولا جازما على الصفوى حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى ذلك اليوم توفى الخواجا شـمس الدين محمد الحلبيى وكان من أعيان التجار فى سعة من المال ، ولكن جرى عليه شدائد ومحن فى أواخر عمره ، وصودر وأخذ ماله غير ما مرة ، وقد تقدم القول بما وقع له مع السلطان من المصـادرات ودخوله الى المقشرة وهو فى الحديد وأقام بهـا مدة ، وكان السلطان قصد أن يثبت عليه كفرا ويضرب عنقه وقد تقدم سبب ذلك فى موضعه ، وقد مات قهرا مما وقع له .

وفيه توفى صاحبنا أبو الفضل الذى كان متحدثا فى نظر المواريث ، وكان لين الجانب عشير الناس وكان لا بأس به ، ومات والناس عنه راضية .

وفى يوم السبت خامس عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعزم على قاصد ابن عثمان وأضافه وخلع عليـه ، وأذن له بالعـودة الى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته .

وفى هذه الأيام اشتد أمر الحر ، فأقام السلطان فى الميدان أربعة أيام بلياليها وهو فى أرغد عيش ، وأطلق الماء فى البحرة التى بالميـدان ، وصار يمد السماط هناك ويأكل هو وأخصاؤه ، فشق ذلك على بقية مماليكه ، فلما نزلوا اليه بالسماط خطفوه وكسروا الصحون الصينى ، فلما بلغ السـلطان ذلك تنكد وقام من وقته وطلع الى الدهيشة ، وكان قصده الاقامة فى الميدان الى يوم الجمعة فنكد عليه المماليك .

* * *

وفى ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الجمعة فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا بالشهر

وفى يوم الاثنين رابعـه حضر الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وكان له مدة وهو مقيم بالفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك كما تقدم

ذكر ذلك ، فلما كمل عمارته حضر الى القاهرة فخلع عليه السلطان كاملية حافلة بسمور ونزل الى داره وصحبته جماعة من الأمراء .

وفى يوم الثلاثاء خامسه كانت وفاة شيخنا العلامة زين الدين عبد الباسط بن الغرسى خليل ابن شاهين الصفوى الحنفى ، وكان عالما فاضلا رئيسا حشما من ذوى البيوت ، وكان من أعيان الحنفية ، وكان مولده سنة أربع وأربعين وثمانمائة فكانت مدة حياته نحو ست وسبعين سنة . وكانت له اليد الطولى فى علم الطب ، وله عدة مصنفات نفيسة منها تاريخه الكبير المسمى بالروض الباسم وآخر دونه يسمى نيل الأمل فى ذيل الدول ، وآخر فى التوفيقات على حروف المعجم ، وآخر فى علم الطب ، وغير ذلك فى الشروحات على كتب الحنفية ، وكان والده الغرسى خليل من أعيان الناس ولى الوزارة بالديار المصرية وولى عدة نيابات جليلة منها نيابة حماة وصفد والقدس الشريف ونيابة الاسكندرية وغير ذلك من النيابات الجليلة وكان فى مقام الأمراء المقدمين ، وأما الشيخ عبد الباسط رحمه الله فكانت صفته طويل القامة نحيف الجسد ، وكان يربى له ذؤابة شعر فى رأسه على طريقة الصوفية ، وكان له أنف وافر جدا حتى أن بعض شعراء العصر قال فيه مداعبة لطيفة وهو قوله :

أدخلت فى منخرة أصبعى
وقلت : ما ذا العضو ؟ .. سميه
فقال لى مستعجلا : منخرى
قلت : أنا يا سيدى فيه

وكان الشيخ عبد الباسط ضنينا بنفسه وعنده يبس طباع مع شمم زائد ، وكان معظما عند الأتراك والأمراء ، وكان عارفا باللغة التركية وفيه جملة محاسن ، وكان بقية السلف وعمدة الخلف وكان أصابه علة السل فأقام نحو سنة ونصف وهو عليل منقطع فى داره حتى مات رحمة الله عليه .

وفى يوم الخميس سابعه نزل السلطان وتوجه الى تربة العادل التى بالريدانية ، وجلس هناك على المصطبة ونصب له سحابة ... ثم جربوا قدامه مكاحل نحاس وحديد ، فكان عدتهم نحو أربع وسبعين مكحلة فصح منهم شىء وتفرقع شىء .

ثم ان السلطان قام من هناك وتوجه الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية فأقام هناك الى بعد العصر ، وركب وعاد الى القلعة وشق من القاهرة ودخل من باب الفتوح فى نفر قليل من العسكر ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء وقيل انه فرق فى ذلك اليوم نحو مائة دينار وكسور على الفقراء والمساكين والمغانى الذين كانوا صحبته فى القبة ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره كان آخر مضى الخماسين ، وصادف أنه فى ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة فى ليلة الاثنين . وقد مضت الخماسين على خير ولم يقع فيها الطاعون ، ولم يدخل الى مصر . وكانت الناس تلهج بوقوع الطاعون فى هذه السنة ويكون أمرا عظيما ، فوقع بعض طعن فى الشرقية وأقام أياما وارتفع ولم يفش أمر الطاعون بمصر .

وفى ليلة الثلاثاء ثانى عشره كانت ليلة سيدى اسماعيل الانبابى رضى الله عنه ، وكانت من الليالى المشهودة وخرجت فيها الناس عن الحد فى القصف والفرجة ، وضرب فى الجزيرة التى ببولاق تجاه الرصيف فوق الخمسمائة خيمة ، وكانت الناس فى أمن ورخاء ، وكان فى الرمل سوق حافل بدكاكين مبنية ونقلوا اليها أفخر البضائع ، وكثر هناك البيع والشراء على المتفرجين .

وفى يوم الخميس رابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى الذى كان توجه قاصدا الى ابن عثمان ملك الروم ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه كاملية حافلة بسمور ونزل فى موكب مشهود ، وحصل له جملة تقادم عظيمة من ابن عثمان ومن النواب ما بين مال وخيول ومماليك وقماش وغير ذلك .

وفيه وقعت مرافعة مهولة بين الزينى بركات بن موسى وبين أحمد بن الصايغ ، وقصد ابن الصايغ أن يتسلم الزينى بركات بن موسى على ثلاثين ألف دينار ، واستمرت هذه المرافعة عمالة بينهما حتى يكون من أمرهما ما سنذكره فى موضعه

وفيه جاءت الأخبار من مكة المشرفة بأن فى حادى عشر صفر وقع سيل عظيم حتى دخل الى الحرم ، ووصل الماء الى عتبة البيت الشريف وغطى الحجر الأسود ومقام ابراهيم ، وهدم عدة دور بمكة وغرق فيه من الناس ما لا يحصى ، وكان أمرا من الأمور المهولة ، وتقدم القول على أن فى دولة الأشرف قايتباى وقع مثل هذا السيل بعينه حتى عام المنبر الذى بالحرم وامتلأت بئر زمزم بالماء وكان أيضا أمرا مهولا .

وفيه رسم السلطان للشهابى أحمد ناظر الجيش المنفصل بأن يطلع الى الخدمة فى كل يومى اثنين وخميس ويقف فوق ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، فاستمر على ذلك مواظبا للخدمة وهو وهو منفصل عن نظر الجيش ، ولم يعلم ما قصد السلطان بذلك .

وفى يوم الجمعة خامس عشره توفى القاضى رضى الدين الاسحاقى أحد نواب المالكية ، وكان موته فجأة ، وكان رئيسا حشما من أعيان الناس ، وكان لا بأس به فى نواب المالكية .

وفى يوم السبت سادس عشره ضرب السلطان الكرة بالميدان ، ثم بعد ذلك رسم للأمراء بأن يتخففوا من ثيابهم ، ثم دخل هو واياهم فى البحرة التى فى الميدان وخلا بهم وضربوا مشورة فى أمر التجريدة ، فوقع الرأى من الأمراء بأن العسكر يخرج من مصر ويقيم فى حلب حتى يظهر ما يكون بين ابن عثمان والصفوى من الفتن ، وأن العسكر لا يدخل بين الفريقين حتى يبدو من أحدهما الغدر الى عسكر مصر ، فأقام عند السلطان الأمراء فى هذه المشورة الى بعد الظهر ، وانفض المجلس على ما ذكرناه من خروج العسكر من مصر ويقيم بحلب يحصنها من العدو حتى يكون من هذه الفتنة التى بين ابن عثمان وبين الصفوى ما يكون ، فانفض المجلس على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره طلع الأمير أقباى الطويل القاصد بتقدمة حافلة الى السلطان ما بين خيول ومماليك وسلاح وقماش وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل ذهب عين ما يعلم قدره وقد اختلف فيه .

أقول ولما صار شمس الدين بن عوض من جملة الرؤساء لم يخرج عن طبع الفلاحين الذى ربى عليه ، فكانت عمامته عمامة الفلاحين وكلامه كلام الفلاحين كأنه فلاح قحف كما جاء من وراء المحراث ولم ينطل فى رياسته ، فكان كما يقال :

ورب قحف قد أتى	لنا به الدهر غلط
سألت عنه قيل لى	هذا من النخل سقط

وقال آخر فى المعنى :

فقيه ريف يقول : انى
برعت فى العلم والرواية
فقلت : لا شك أنت عندى
تصلح للدرس والدرايه

وكان أصل شمس الدين بن عوض فلاحا من

فلاحين منية مسير بالغربية ، وقيل من بانوب والله أعلم .

وفى يوم الثلاثاء المذكور بعد العصر قبض السلطان على شمس الدين بن عوض وعلى ولده الصغير فوضعوهما فى الحديد ، وكان سبب ذلك أن الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين كان متحدثا على بعض بلاد فى تقسيط ابن عوض ، فحصل بينه وبين ابن عوض حظ نفس بسبب ابن جميل أحد مشايخ الغربية وقد شفع فيه عنده فلم يقبل شفاعته . فقال الأمير خاير بك للسلطان : « أنا أثبت لك فى جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار » . فاعتدل السلطان على ابن عوض وشكه فى الحديد هو وولده وأرسلهما الى بيت الأمير خاير بك ، ثم نقلهما من بعد ذلك الى بيت الزينى بركات بن موسى ، وكان الزينى بركات بلغه أن ابن عوض ساعى فى القبض عليه فبادر اليه ابن موسى ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات بن موسى التزم بما قرر على شمس الدين ابن عوض من المال وتسلمه ونقله الى داره وشرع فى عقابه وضربه وعصره بالمعاصير فى أصداغه وأكعابه هو وولده وتفنن فى عذابهما تفنينا ، فلم يرد ابن عوض من المال الذى قرر عليه الا اليسير ، وكلما زاد فى عقابهما لم يفده ذلك شيئا ، وكان شمس الدين بن عوض متكلما على عدة جهات من البلاد ، وقبض عليه السلطان ، وابنه متكلما على كتابة الخزائن الشريفة مع مشاركة أولاد الجيعان ، وكان ابن عوض من المقربين عند السلطان فأخذ من الجانب الذى كان يأمن اليه .

وفيه غيب أحمد بن الصايغ لما رأى السلطان مائلا الى الزينى بركات بن موسى ولم يسمع فيه مرافعة ، فما وسعه الا أن غيب خوفا من ابن موسى . وكان أحمد بن الصايغ باغيا على الزينى ابن بركات بن موسى فانه هو الذى أنشأه وكان برددارا عنده ، فلما راج أمر أحمد بن الصايغ صار شريكا للزينى بركات فى جميع جهاته التى يتكلم عليها حتى الحسبة الشريفة ، فلم يقنع بهذا كله فقصد أن يشترى الزينى بركات من السلطان بثلاثين ألف دينار فلم يوافقه السلطان على ذلك ونهره ، فخاف وغيب واختفى مدة يسيرة وسيظهر بعد ذلك .

وفيه فى يوم الجمعة ثانى عشرينه خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعودة الى بلاده وعين صحبته اينال باى دوادار سكين ليوجهه الى هناك ويكشف عن الأخبار الصحيحة ويعلم السلطان بذلك ، وقيل ان السلطان أنعم على اينال باى بخمسمائة دينار لأجل عمل يرقه ، فخرج فى ذلك اليوم على جرائد الخيل وقرر معه السلطان أياما معدودة ويرد عليه الجواب عن الأخبار الصحيحة عن مشى ابن عثمان على الصفوى ، فخرج قاصد ابن عثمان واينال باى فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين خامس عشرينه خلع السلطان على شخص من أولاد ابن رمضان أمير التركمان يقال له سليم بك ، فخلع عليه وقرره فى امرة التركمان عوضا عن ابن عمه محمود بك فى امرة شقر أباه .

ومن الحوادث أن شخصا خياطا يقال له نجا بن تمساح زنق صبيا صغيرا عمره نحو عشر سنين ، فزنقه فى بيت فى الجزيرة الوسطى فاستغاث الصبى فذبحه ذلك الخياط ورماه فى بئر ، فلما شاع أمره قبضت أم الصبى على الخياط وعرضته على السلطان فاعترف بقتل الصبى ، فرسم السلطان بشنق ذلك الخياط فى المكان الذى قتل فيه الصبى وقيل رسم السلطان بأن تقطع محاشمه وتعلق فى

عنقه وهو مشنوق ففعلوا به ذلك ، وقد تقدم مثل هـذه الواقعة لشخص طحان ورسم السلطان بأن يخوزقوه فخوزقوه فى المدابغ وقد تقـدم القول على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ست أذرع واثنى عشر أصبعا ، وكانت فى العام المـاضى أرجح من ذلك ، وكانت زيادته فى أول يوم خمس أصابع . وفى يوم الثلاثاء المذكور كانت وفاة القاضى فخر الدين والد القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة وكاتب المماليك . وكان القاضى فخر الدين هذا من أعيان المباشرين وباشر ديوان قانى باى أمير آخور كبير وغيره من الأمراء ، وكان رئيسا حشما لا بأس به بين المباشرين .

* * *

وفى جمـادى الأولى كان مستهل الشهر يوم السبت ، فجلس السلطان بالميـدان وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوه بالشهر .

وفى ذلك اليوم كان ختام ضرب الكرة وختام خصمانية لعب الرمح ، فلما انقضى ضرب الـكرة طلع السلطان الى الحوش وجلس بالمقعد الذى به ومد هناك للأمراء مدة حافلة وما أبقى ممكنا من المآكل الفاخرة ، ومد عدة طوارى مؤنقة ما بين حلوى وفاكهة وسكر حريف وبطيخ صيفى وأجبان مقـلى وجلاب وغـير ذلك من المآكل ، وأحضر الأفيال الكبار والسباع والثيران والكباش برسم النطاح فتناطحوا بين يدى السلطان ، وأقام هناك الى بعد العصر وعنـده الأمراء مجتهدين ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الخميس سادسه خلع السـلطان على شـخص من الأمراء العشراوات يقـال له ماماى الخازندار ، وأصله من مماليك السـلطان ، فعينه بأن يتوجه الى الشام وعين صحبته الخواجا يونس العادلى ، وسبب ذلك أن السلطان قوى عزمه على أن يزوج ولده بابنة سيباى نائب الشام فأرسل هذين اللذين عينهما بالمهر ، وأنهما يعقدان العقد بالشام ، فلما توجها الى غزة جاءت اليهما الأخبار بأن بنت سيباى نائب الشام التى توجها بسـببها قد توفيت الى رحمـة الله تعالى ، فأرسـلا كتابا للسـلطان بذلك وأن لنائب الشـام بنتا أخرى صغيرة ، فأرسل السلطان يقول لهما ادفعا لنائب الشام المهر الذى أرسلناه واعقدا العقد على ابنته الصغرى ، فامتثلا لذلك .

وفى عقيبه خلع السلطان على شـخص يقال له ابراهيم السمرقندى وعين صحبته خاصكيا ، بأن يتوجهـا الى القـدس والكرك فى بعض المهمات السلطانية ، ثم بعد ذلك بطل سفرهما الى تلك الجهات لأمر أوجب ذلك .

وفى يوم الخميس المذكور تغير خاطر السلطان على جانى بك دوادار الأمير طراباى الذى هـو متحدث فى الأستادارية الآن ، وكان السلطان أنعم على جانى بك هذا بامرة عشرة ، وكان سبب تغير خاطر السلطان على جانى بك أن الأمير طومان باى الدوادار أرسل مطالعـة للسلطان وهو بالصعيد يشكو فيها من جانى بك هذا أنه صار يعارضـه فيما يرسم به ويعاكسه فيما يقوله فى أمر الديوان المفرد ، وكان جانى بك غير محبب للناس لا يراعى من الأمراء أحدا ويأخذ الحمايات المقطعين معجلا قبل أن تروى البلاد ، فصار معه سنة معجلة من المقطعين من الحماية والشياخـة دايرة فى حساب الديوان المفرد وربما راحت على المقطعين ، ويرسم

على الأمراء وأعيان الناس حتى يستخلص منهم جميع ما عليهم من الحمايات فى يوم واحد فضج منه الأمراء والعسكر ، فلما تزايد ظلمه وعسفه بالعسكر والفلاحين وضعفاء الناس أخذه الله تعالى من الجانب الذى كان يأمن اليه ، وكان عند السلطان من المقربين الخواص فانقلب عليه ما كأنه يعرفه ، وهذا الذى وقع له بدعوة مظلوم ، فكان كما قيل فى المعنى :

ألا قولوا لشخص قد تقوى
على ضعفى ولم يخش رقيبه
بعثت له سهاما فى الدياجى
وأرجو أن تكون له مصيبه

فلما عزل جانى بك من التحدث فى الأستادارية كثرت فيه المرافعات وقال له السلطان : أقم الحساب بما قبضته من الأموال فى مدة تحدثه فى الأستادارية على ما قيل ، ومن نوقش الحساب عذب .

وقيل ان جانى بك لما رأى أن الأمير طومان باى الدوادار محطا عليه سأل السلطان وباس رجله بأن يعفيه من التحدث فى الأستادارية ، ولا زال يقسم عليه حتى أعفاه من التحدث فى الأستادارية ، ولما عزل جانى بك وقف على البرماوى برددار السلطان والتزم بالسداد على الجهات التى كان جانى بك متحدثا عليها وضمن ذلك . فقصد السلطان أن يخلع عليه فقال له : « ما ألبس خلعة حتى يجىء الأمير الدوادار » . واستمر متحدثا فى الأستادارية عوضا عن جانى بك بحكم انفصاله عنها .

وفى يوم السبت ثامنه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية وبات بها وأقام يومين ، وسبب ذلك أن السلطان أنشأ هنالك فساقى وقد تقدم ذكر ذلك ، فأطلق فيها الماء فى ذلك اليوم ، وانشرح السلطان لذلك الى الغاية .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الزينى بركات بن موسى وقرر فى أستادارية الذخيرة ، عوضا عن شمس الدين بن عوض بحكم انفصاله كما تقدم . فنزل من القلعة فى موكب حفل وقدامه أعيان المباشرين ، ورسم له السلطان بأن ينادى قدامه أن لا أحد من الناس يحتمى عليه ولا يتجاها . فتزايدت عظمة الزينى بركات وصار محتسبا وأستادار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف السنية . وكان الزينى بركات له سعد خارق وهو مسعود الحركات فى أفعاله محببا للناس ، وأشيع بين الناس أن الزينى بركات تسلم ابن عوض على مائة وخمسين ألف دينار ، فشرع فى عقابه وضربه وعصره كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الجمعة ثانى عشرينه خرج اينال باى دوادار سكين صحبة قاصد ابن عثمان ، وقد تقدم القول على أن السلطان عين اينال باى بأن يخرج صحبة القاصد ويقف على صحة الأخبار فى أمر ابن عثمان والصفوى ويرد الجواب على السلطان بسرعة ، وقرر معه لا يبطىء عليه بالخبر غير مسافة الطريق ، وأنعم عليه بخمسمائة دينار ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الخميس ثالث عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش ونصب السحابة وأمر بعرض العسكر ، وعين تجريدة كبيرة الى حلب يقيمون بها حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان والصفوى ، وعين فى ذلك اليوم تجريدة أخرى الى نحو بلاد الهند بسبب تعبث الفرنج هناك كما تقدم ، وعين جماعة من أولاد الناس وغيرهم من

المماليك لحفظ الجسور التى بالشرقية والغربية ، فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة قيل ثلاثة آلاف مملوك وقيل ألفا مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين أربعة وهم : الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير وجعله باش العسكر ، وعين الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، وعين الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وعين الأمير بيبرس قرابته ثم بطل عقيب ذلك ، وتعين عوضه الأمير أبرك الذى كان نائب طرابلس وهو الآن مقدم ألف . وأبرك هذا من مماليك السلطان ، فلما عينه جعله باشا على المماليك الجلبان الذين عينوا الى السفر ، وعين فى ذلك اليوم جماعة من الأمراء الطبلخانات ومن الأمراء العشراوات .

ثم فى يوم السبت خامس عشره نزل السلطان الى الميدان وعرض بقية العسكر ، وكتب الغالب منهم الى حلب .

وفى هذه الأيام تصدى الزينى بركات بن موسى الى عقوبة شمس الدين بن عوض وولده ، فما أبقى ممكنا فى ذلك من ضرب كسارات وعصر أكعاب ، وعصرهما فى أصداغهما وفى أيديهما وحرق أصابعهما بالنار ، ولم يرد ابن عوض من المال الذى قرر عليه الا القليل وكان جلدا على العذاب . وقد تقدم له مع الأمير أزدمر الدوادار أنه عاقبه أشد العقوبة ولم يقر بشىء من المال .

وفى يوم الاثنين سابع عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش وأنفق الجامكية على العسكر ، ثم أنفق نفقة السفر على العسكر المعين الى حلب ، فدفع الى كل مملوك مائة دينار على العادة وجامكية أربعة أشهر معجلا وثمن جمل سبعة أشرفية ، وقد مشى على طريقة الملك الأشرف قايتباى فى أمر النفقة على العسكر عند توجههم الى البلاد الشامية .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره نزل السلطان وزار ضريح الامام الشافعى والامام الليث بن سعد رضى الله عنهما ، وتصدق فى ذلك اليوم بمبلغ له صورة ، وكان السلطان فى حملة كبيرة بسبب ابن عثمان والصفوى .

وفيه ظهر أحمد بن الصايغ شريك الزينى بركات ابن موسى ، وكان له مدة وهو مختف من الزينى بركات وقد تقدم القول على ذلك ، فطلع به بعض الأمراء وقابل السلطان فلم يخلع عليه لأجل خاطر الزينى بركات .

وفى ذلك اليوم جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك فكان الذى كتب من القرانصة والجلبان جملة ذلك نحو ألفين وأربعمائة مملوك على ما قيل وعينهم للسفر الى حلب .

وفى يوم الخميس عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة السادة الأشراف اخوة السيد بركات أمير مكة ، وكان سبب حضورهم الى القاهرة أن وقع بينهم وبين أخيهم السيد بركات فتنة مهولة ، وقتل جماعة كثيرة من الفريقين ، فانكسر اخوة السيد بركات وولوا مدبرين ، فما وسعهم الا الحضور الى عند السلطان حتى يكون من أمرهم ما يكون .

وأرسل الأمير حسين نائب جدة يعلم السلطان بذلك وأن الفرنج قد زاد تعبثهم بسواحل الهند وملكوا كمران من ضياع جهات الهند . وأرسل يستحث السلطان فى ارسال تجريدة بسرعة قبل أن تملك الفرنج سواحل الهند وربما يخاف على جده من أمر الفرنج . وفى هذا الشهر اضطربت الأحوال على السلطان من جميع الجهات .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه حضر الى

الأبواب الشريفة قاصد من عند سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، وهذا القاصد جليل القدر من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان ابن عثمان عين هذا القاصد من حين كان الأمير أقباى الطويل عنده فلم يحضر الى مصر الا الآن ، فلما دخل القاهرة أنزله فى بيت الظاهر سربغا الذى عند سوق السلاح بالقبو الى أن يقابل السلطان .

وفى يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى قبة يشبك وأقام بها الى بعد العصر وعاد الى القلعة .

***

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر .

وفى ذلك اليوم طلع قاصد ابن عثمان الى القلعة وقابل السلطان ، فأوكب له بالحوش وجلس على المصطبة ونصب على رأسه السحابة الزركش ، ورسم بأن يزينوا باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق فزينوه ، واصطفت الأمراء والعسكر بالحوش من غير شاش ولا قماش ، ثم طلع القاصد وصحبته أزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب ، وطلع معه تقدمة حافلة للسلطان تشتمل على خمسة وعشرين حمالا ما بين وشق وسمور وقاقم وأثواب مخمل وبرصاوى وشقق سمرقندى ملون ، وحمال عليه أوانى فضة ، وطلع صحبته بخمسة وعشرين مملوكا صغارا حسان الأشكال . وكان ذلك القاصد جميل الهيئة وصحبته جماعة من العثمانية ذوو هيئات جميلة . فلما طلع وقابل السلطان أكرمه وقرأ مطالعته ثم نزل وانفض الموكب ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر نزل السلطان الى المقياس وبات به ، وعزم على قاصد بن عثمان هناك وجلس معه فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ومد له هناك أسمطة حافلة وأظهر أنواع العظمة الزائدة فى تلك الليلة ، وأحضر قراء البلد وأقام بالمقياس يومين . ثم طلع الى القلعة يوم الأربعاء أواخر النهار وانشرح هناك الى الغاية .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه أرسل السلطان الى الأمراء المقدمين الذين تعينوا الى السفر فأرسل لهم فى ذلك اليوم النفقة ، فأشيع أنه أرسل الى الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر خمسة آلاف دينار ، وأرسل الى سودون الدواداري رأس نوبة النوب أربعة آلاف دينار ، وأرسل الى الأمير أرزمك الناشف ثلاثة آلاف دينار ، والأمير أبرك مثله .

وفى ذلك اليوم وقعت كائنة عظيمة للأمير قانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين . وسبب ذلك أن علاء الدين ناظر الخاص كان اقترض من الأمير قانصوه هذا مبلغا له صورة وشرع يمطله به مدة طويلة ، فحنق منه الأمير قانصوه فركب وجاء الى بيته فوقع بينه وبين ناظر الخاص تشاجر ، ففجر عليه ناظر الخاص فحنق منه الأمير قانصوه وشتمه فأغلظ عليه ناظر الخاص فى القول ، فقام اليه ولكمه على رأسه فطلع ناظر الخاص الى القلعة وشكاه الى السلطان . فلما تحقق السلطان صحة ذلك تغير خاطره على الأمير قانصوه وأرسل يقول له : الزم بيتك . وقصد يختم على حواصله ويحتاط على موجوده . وأشيع نفيه الى دمياط فقيل ان الأتابكى سودون العجمى طلع الى السلطان وشفع فيه من النفى ، ورضى خاطر السلطان عليه واستمر على امرته كما كان .

بدائع الزهور
في وقائع الدهور



وفى يوم الجمعة ثانى عشره جاءت الأخبار بأن ابن عثمان أرسل قاصدا آخر مطرا على جرائد الخيل ، فلما وصل الى الصالحية بات بها تلك الليلة فسرق له من تحت رأسه بقجة فيها قماش القاصد وبعض مبلغ ، ومن جملة ذلك مطالعة ابن عثمان الى السلطان . فلما بلغ السلطان ذلك تنكد الى الغاية ، وقيل انه قبض على لحيته من شدة غضبه ، وعين فى الوقت والساعة بابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر وعلى يده مراسيم بأن يفحص على من أخذ بقجة هذا القاصد من العربان ، وان ضاعت مطالعة ابن عثمان التى فى البقجة كانت روحه قبالة ذلك . فتوجه اليه البابا ، وأشيع فيما بعد بأن شيخ العرب قبض على من أخذ بقجة القاصد وأعيد اليه ما سرق له بالتمام من يومه . وقيل ان السلطان حلف بحياة رأسه ان لم يحضر شيخ العرب أحمد بن بقر بهذه البقجة بجميع ما فيها والا توسط الأمير أحمد فى ثيابه ... واستمر الأمر على ذلك حتى يظهر أمر البقجة .

ويقرب من هذه الواقعة ما اتفق فى دولة الملك الظاهر جقمق رحمة الله عليه . وذلك أن فى سنة ثمان وأربعين وثمانمائة حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند شاه روخ بن تمرلنك ، فلما حضر أنزله فى مكان بالقرب من بين القصرين . وكان شاه روخ أرسل الى الملك الظاهر على يد هذا القاصد تقدمة حافلة ، فلما طلع القاصد الى القلعة أدخله السلطان الى البحرة ، فأبطأ عند السلطان ، فأشيع فى القلعة أن السلطان قد قبض على القاصد ، فنزلت المماليك الجلبان من الطباق وتوجهوا الى المكان الذى نزل به القاصد فنهبوا كل ما كان فيه . والتف عليهم السواد الأعظم من العوام فلم يبقوا للقاصد شيئا ، وأخذوا التقدمة التى كانت للسلطان حتى أخذوا خيوله .

ولما بلغ الملك الظاهر ذلك نتف لحيته بيده ورسم لحاجب الحجاب وقراجا الوالى بأن يدركوا رد الناس عن النهب ، فنزلوا من القلعة على حمية فلم يردوا من النهب الا بعض شىء ، وراحت على من راح . فقبض الوالى على جماعة كثيرة من العوام وضربهم بالمقارع ، وشىء قطع أيديهم ، وكادت القاهرة أن تخرب فى ذلك اليوم لهذه الواقعة . ثم ان الملك الظاهر بعث يعتذر الى القاصد مما جرى وأن ذلك من غير علمه ، ثم أرسل الى القاصد عشرة آلاف دينار أكثر مما نهب له ، وصار القاصد كلما شق من القاهرة بسببه جماعة من العوام ويبهدلونه ، وما قاسى خيرا من أهل مصر .

وفى يوم السبت ثالث عشره فيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن شخصا يهوديا يقال له خضير ، وكان بالصليبة ، وهو يدعى الطب ، فتوجه الى عليل من أولاد الناس فوصف له حقنة ، فلما احتقن مات عقيب الحقنة بيومين . فقبضوا على ذلك اليهودى وتوجهوا به الى شاد الشراب خاناه ، فقيل انه من خوفه قصد أن يسلم ، ثم رجع الى دينه ، ولم يثبت عليه قتل ذلك العليل وادعى أن العليل كان قد ضربه الخمر على قلبه فمات عقيب الحقنة بأجله ، فلم تثبت على اليهودى قتله ، وقيل ان اليهودى غرم مبلغا له صورة ، وأدبوه ثم خلص من القتل وراح القتل فى كيس العليل . وقد قيل فى المعنى :

ليت شعرى وللزمان خطوب
وبلاء يختص بالأحرار
هل لميت قضى عليه طبيب
من كفيل أو آخذ بالثار

وفى يوم الأحد رابع عشره أرسل السلطان النفقة الى الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات المعينين الى التجريدة ، وذلك على جارى العادة .

وفى يوم الأحد المذكور كانت وفاة القطب العارف بالله تعالى الوالى الزاهد المجذوب الشيخ محمد بن زرعة الأحمدى البدرشينى رضى الله عنه . وكان من أعيان الأولياء ، وله كرامات خارقة ومكاشفات صادقة ، ومات وهو فى عشر السبعين ، وكانت جنازته مشهودة وصلى عله فى جامع الشيخ سلطان شاه ودفن فى زاويته التى بالقرب من قنطرة قديدار ، وكان معتقدا بالصلاح رضى الله عنه .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر المعين للتجريدة ، فأنفق عليهم جامكية جمادى الآخرة توسعة عليهم خارجا عما أنفقه لهم من الأربعة آشهر المعجلة كما تقدم ذكر ذلك ، وأنفق عليهم عليق ذلك الشهر ، وفرق عليهم الخيول التى كانت لهم فى الديوان ... فجماعة من المماليك أخذوا لهم خيولا شىء فرس وشىء فرسين ، وجماعة منهم أخذوا لهم ثمن فرس خمسة آلاف درهم ، وقد بالغ السلطان فى الاحسان اليهم وما أبقى فى ذلك ممكنا ووعدهم بأن يصرف لهم ثمن اللحم أيضا عقيب ذلك ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من العسكر .

وفى يوم الخميس ثامن عشره أشيع موت شمس الدين بن عوض أستادار الذخيرة الشريفة وغير ذلك من الوظائف السنية . وهو محمد بن أحمد بن عوض ، وأصلهم فلاحون من منية مسير . وكان شمس الدين هذا فى مبتدأ أمره فقيرا جدا فباشر ديوان جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمير أزبك الخازندار والأمير أزدمر الدوادار وغير ذلك من الأمراء ، ثم راج أمره فى دولة الأشرف قانصوه الغورى وباشر ديوان السلطان ، وصار أستادار الذخيرة ، وابنه شرف الدين مستوفى على الخزائن الشريفة ، وابنه فخر الدين مباشر عند الأمير طومان باى الدوادار ، فتلاعبت به الدنيا لكثرة هرجه وركب فيها فى غير سرجه ، فأخذ فى أسباب المرافعات فى المباشرين وأعيان الناس حتى ضجت منه الأفلاك والأملاك . وكان انفرد بالسلطان وعول عليه ، فأخذه الله تعالى من الجانب الذى كان يأمن اليه ، فتغير خاطر السلطان عليه وقبض عليه كما تقدم ذكر ذلك ، فتسلمه الزينى بركات بن موسى على مائة وخمسين ألف دينار غير ستين ألف أردب شعير . فلما تسلمه شرع يعذبه بأنواع العذاب من ضرب مقارع وعصره فى آكعابه وأصداغه هو وولده شرف الدين ، وصار ابن عوض يقاسى ذلك العذاب الأليم ولم يرد من المال الذى قرر عليه سوى قدر عديم ، فاستمر تحت العقوبة الى أن مات وولى عمره وفات . فمات وهو فى بيت الوالى على حصير والحديد فى عنقه ، فما فكوه من عنقه حتى مات شر موتة « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » فلما مات فى بيت الوالى حمل الى داره فغسل وكفن ولم يمش له أحد فى جنازة ، وفى ذلك عبرة لمن يعتل ، وقد قيل فى المعنى :

ألا انما الدنيا كمثل أراكة
اذا اخضر منها جانب جف جانب
هى الدار ما الآمال الا فجائع
عليها ولا اللذات الا مصائب
فكم سخت بالأمس عين قريرة
وقرت عيون دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة
على ذاهب منها فانك ذاهب

وكان سبب نكبة ابن عوض قيل وقع بينه وبين الأمير خاير بيك كاشف الغربية من أجل ابن جميل أحد مشايخ الغربية ، فطلع خاير بيك وشكا ابن عوض الى السلطان ، وبالغ فى شكواه حتى غير خاطر السلطان عليه . وقيل ان خاير بيك قال :

أنا أثبت فى جهة ابن عوض مائة وخمسين ألف دينار .

وفى يوم الخميس المقدم ذكره صنع السلطان وليمة حافلة بالمقياس . واجتمع بها القضاة الأربعة وأعيان الناس من العلماء وغير ذلك ، ومد هناك الأسمطة الحافلة ، واجتمع هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة حافلة . والسلطان كل سنة يصنع مثل ذلك بالمقياس قرب وفاء النيل .

وفى سنة عشر وتسعمائة صنع وليمة بالمقياس مثل هذه فزاد الله تعالى فى النيل المبارك تلك الليلة خمسين أصبعا دفعة واحدة ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير طومان باى الدوادار ، وكان له مدة وهو مسافر فى الصعيد بسبب ضم المغل .

فلما كان يوم الأحد بلغ السلطان وصوله الى الجيزة فنزل الى المقياس ولاقاه من هناك ، وكذلك قاصد ابن عثمان . فلما طلع الى القلعه يوم الاثنين المذكور خلع عليه السلطان خلعة حافلة ، ونزل من القلعة فى موكب مشهود ، وصحبته سائر الأمراء المقدمين والمباشرين وأعيان الناس ، واستمر على ذلك حتى دخل الى داره . وخلع عليه السلطان فى ذلك اليوم فوقانى أخضر بطرز يلبغاوى عريض . ومشت الأفيال وهى مزينة قدامه فى ذلك الموكب وشق من الصليبة .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشرينه توفى الأمير ماماى جوشن أحد الأمراء المقدمين الألوف ، وكان رئيسا حشما جميل الهيئة قليل الأذى بين الأمراء ، ومات وهو فى عشر الستين ، وقيل أصله من مماليك الظاهر خشقدم من كتابيته ، واشتراه الأشرف قايتباى من بيت المال وأعتقه فهو من جملة معاتيق الأشرف قايتباى ومن مماليكه ، فلما بلغ السلطان وفاته نزل وصلى عليه ، وكانت جنازته مشهودة رحمه الله تعالى عليه

وفى يوم الثلاثاء المذكور كان وفاء النيل المبارك ، أوفى بعد الظهر ، وعلق الستر على شباك القصر الذى أنشأه السلطان على بسطة المقياس ، وقد أوفى الله الست عشرة ذراعا وأصبعين من سبع عشرة ، ووافق ذلك ثانى عشرين مسرى ، وقد أبطأ هذا النيل عن نيل السنة الماضية بسبعة أيام ، وكانت الناس بسببه فى غاية الاضطراب .

وفى يوم الأربعاء رابع عشرينه ، الموافق لثالث عشرين مسرى ، فتح السد وكان يوما مشهودا قل أن يقع مثله فى الفتك والفرجة ، ورسم السلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه ويفتح السد على العادة ، فكان له فى ذلك موكب حافل ، وخلع عليه السلطان فوقانى أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، وحصل للناس غاية الجبر بكسر السد فى ذلك اليوم . وقد قيل فى المعنى :

كسر الخليج وكان ذلك نعمة
سرت قلوب العالمين لبشره
ومن العجائب والغرائب أنه
جبرت قلوب المسلمين لكسره

وقيل فى المعنى أيضا :

أرى نيل مصر قد غدا يوم كسره
اذا رام جريا فى الخليج تقنطرا
ولكن بعد الكسر زاد تجبرا
وأفرط هجما فى القرى وتجسرا

ووافق أن النيل زاد بعد فتح السد بيومين عشر أصابع فى دفعة واحدة ، ثم فى اليوم الثالث من فتح السد زاد الله فى النيل المبارك احدى عشرة أصبعا فى دفعة واحدة ، ثم فى اليوم الخامس من

فتح السد زاد سبع أصابع فزاد ست عشرة أصبعا من ثماني عشرة ذراعا وذلك فى أواخر مسرى بعد الوفاء بخمسة أيام ، فعد ذلك من النوادر .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه خرج جماعة كثيرة من المماليك السلطانية المعينين الى التجريدة ، وقد رسم لهم السلطان بأن كل من انتهى شغله يخرج ويسافر قبل الباش ، فخرجوا أفواجا أفواجا واستمروا على ذلك فى كل يوم تخرج منهم جماعة بعد جماعة .

***

وفى رجب كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء ، فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة يهنونه بالشهر .

وفى يوم الخميس ثالثه خلع السلطان على يوسف البدرى الوزير كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلع على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، وعلى مقدم الدولة ، خلع الاستمرار ، ونزلوا من القلعة فى موكب حفل ، حتى رجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس المذكور أشيع أن السلطان قبض على جانى بيك الأستادار الذى كان دوادار الأمير طراباى ، وكان السلطان ندبه بأن يتكلم فى الأستادارية نيابة عن الأمير طومان باى الدوادار ، فخلع عليه ، فلما تكلم فى الأستادارية أظهر الظلم والجور ، وصار لا يراعى من الأنام خليلا ، فعادى سائر الأمراء والعسكر قاطبة بسبب الحمايات وأمور البلاد . فكان يرسم على الأمراء الطبلخانات والعشراوات بسبب الحماية ، ويرسل الرسل الغلاظ الشداد الى بيوت الأمراء المقدمين ويطالبهم بالحماية الطلب العسف ، حتى ضج منه الأمراء والعسكر . فكان يأخذ حماية سنة معجلا قبل أن يطلع النيل وكذلك الشياخة ، وكان السلطان قربه أولا وصار لا يقبل فيه شكوى ، وكان ذلك من أكبر أسباب الفساد فى حقه ، فلا زال بعض أعدائه يتكلمون فى حقه عند السلطان حتى غيروا خاطره عليه بالكلية ، فانقلب عليه كأنه ما يعرفه قط . فلما رسم عليه انتدب الى حسابه نور الدين على البرماوى البردار بالخدم الشريفة وجماعة من المباشرين ، فدققوا عليه الحساب وحاسبوه على الفتيل والنقير والقطمير والقليل والكثير ، حتى قيل حاسبوه على ما كان يدخل اليه من الضيافات والتقادم وغير ذلك ، فقيل بقوا عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار على ما قيل ، واستمر فى الترسيم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى يوم الأحد سادسه جلس السلطان بالميدان وحضر عنده قاصد ابن عثمان وسائر الأمراء المقدمين ، فجلس قاصد ابن عثمان فوق أمير كبير سودون العجمى باذن السلطان له ، عند السلطان فى المقعد ، وساق قدامه الرماحة وهم لابسون الأحمر كما يفعلون فى لعب الرمح عند دوران المحمل فى رجب ، وكان لهم مدة طويلة وهم يدمنون فى لعب الرمح كما جرت به العادة القديمة ، فكان المعلم تمر الحسنى أحد المقدمين الألوف ، ويعرف بالزردكاش أيضا ، وأما الباشات الأربعة وهم الأمير كرتباى بن قصروه والى القاهرة والأمير أزبك بن دولاتباى والأمير اينال الأشقر الأشرفى والأمير مصرباى الأبو بكرى ، فأظهروا فى لعب الرمح الفنون الغريبة حتى تحير القاصد من ذلك وتعجب غاية العجب ، ثم فى أواخر السوق نزل المعلم والباشات الأربعة والأربعون فارسا وباسوا الأرض للسلطان ، وقد أحدث ذلك الأشرف قايتباى لما كان يسوق فى دوران المحمل فكان

ينزل عن فرسه ويبوس الأرض للسلطان خشقدم فى وسط الرمله ، وكان السلطان قصد سوق الرماحة قدام القاصد عمدا حتى يريه فروسية عسكر مصر ، وكان ذلك عين الصواب ، فاجتمع فى الميدان فى ذلك اليوم الجم الغفير من الخلائق ، وكان يوما مشهودا ، فساق الرماحة فى ذلك اليوم مرتين ، ثم لعب بعد ذلك جماعة من المماليك خصمانية فى الرمح ، والقاصد ينظر اليهم ويتعجب من ذلك ، فلما انقضى أمر سوق الرماحة قام السلطان ودخل الى البحرة التى أنشأها فى الميدان ، وأضاف القاصد هناك هو والأمراء ومد لهم أسمطة حافلة وأظهر أنواع العظمة فى ذلك اليوم الى الغاية ، ثم خلع على قاصد ابن عثمان خلعة سنية وأذن له فى السفر صحبة العسكر ، ثم بدا للسلطان بأن يعوق قاصد ابن عثمان الى أن يحضر اينال باى دوادار سكين ، فلم يخرج صحبة العسكر كما أشيع قبل ذلك أمر سفره مع الأمراء ، ثم خلع السلطان فى ذلك اليوم على الأمير تمر المعلم وأركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، وخلع على الباشات الأربعة كما جرت به العادة القديمة ، وقد جدد السلطان ذلك بعد ما كان قد نسى أمره من أيام الأشرف قايتباى ، فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفى يوم الاثنين سابعه خرج الأمراء المعينون للتجريدة وهم الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر المنصور والأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب والأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين والأمير أبرك مملوك السلطان أحد الأمراء المقدمين وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، فكان لهم يوم مشهود . واستمرت الأطلاب تنسحب من اشراق الشمس الى قريب الظهر ، فأظهروا غاية العظمة فى ذلك اليوم فى تزخرف الأطلاب ، حتى ارتجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وكان طلب أمير آخور كبير غاية فى الحسن ما أبقى فيه ممكنا ، وكذلك بقية الأمراء ، ثم ان السلطان خلع على أمير آخور خلعة السفر ونزل من القلعة فى موكب حفل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين ، فاستمروا صحبته حتى نزل فى الوطاق بالريدانية .

وفى يوم الثلاثاء ثامنه كان أول يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية ، سنة عشرين وتسعمائة الخراجية وكان هذا اليوم عند الأقباط له شأن عظيم وكان يقع لهم فيه أخبار غريبة . وهو أول الأيام من توت من أول الشهور القبطية .

وفى يوم الأربعاء تاسعه أشيع بين الناس أن السلطان رسم بتسليم جانى بيك الأستادار الى الزينى بركات بن موسى ليعاقبه حتى يستخلص منه الأموال التى قررت عليه . وكان السلطان قرر عليه ثلاثة وثلاثين ألف دينار فامتنع جانى بيك من ذلك وتكلم بكلام يابس . فلما بلغ السلطان ذلك حنق منه ورسم بتسليمه الى الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الخميس عاشره أشيع بين الناس أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم قد انتصر على الصفوى وملك منه أرزنكان وتبريز ، فلم يثق السلطان بهذا الخبر وتثبت حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فيدق الكوسات ، ولكن سر السلطان بهذه الاشاعة وأمر بأن تقرأ عدة ختمات فى أماكن من الجوامع ، فقرىء فى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه سبعون ختمة بالجبرتية ، وقرىء فى مقام الامام الليث بن سعد رضى الله عنه عدة ختمات ، وكذلك فى جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه ، وفى جامع أحمد بن طولون ، وفى الجامع الأزهر

وغير ذلك من الجوامع التى بالقاهرة ، وارسل لكل جامع من الجوامع مبلغا بسبب القراء ، وعمل أسمطة للفقراء فعد ذلك من محاسن السلطان .

وفى يوم الاثنين رابع عشره نزل الزينى بركات ابن موسى من القلعة وقدامه عبد من عبيد ابن عوض وقد رسم السلطان بتوسيطه ، وسبب ذلك أنه قيل عنه كان يعرف ذخائر أستاذه شمس الدين ابن عوض ولم يقر بمكان فيه المال ، وعاقبه ابن موسى وسجنه فى المقشرة مدة ولم يقر بشىء من المال ، فحنق منه الزينى بركات فشاور عليه السلطان فرسم بتوسيطه ، فوسطه عند قنطرة الحاجب ولم يقر بشىء من المال الذى كان يعلم به . فراح ظلما أن علم بالمال أو لم يعلم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى نحو مصر العتيقة بعد أن صلى صلاة الفجر ، فلما وصل الى فم السد نزل من هناك فى مراكب قدمت اليه ، وكان صحبته جماعة من الأمراء منهم الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير طومان باى الدوادار والأمير أنص باى حاجب الحجاب ، والأمير تمر أحد المقدمين والأمير علان الدوادار الثانى أحد المقدمين ، وغير ذلك من الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشراوات ، وجماعة كثيرة من الخاصكية ، فتوجه الى بر الجيزة واستمر حادرا من هناك الى بولاق فطلع الى البرابخية ، وكان القاضى كاتب السر محمود بن أجا عزم عليه هناك ، فلما استقر هناك هو والأمراء أحضر كاتب السر بين يدى السلطان مدة عظيمة ما أبقى فيها ممكنا وأتبعها بطوارى حفلة ما بين حلوى وفاكهة ومخبوز وغير ذلك من المآكل الفاخرة ، فبات السلطان عنده تلك الليلة فى البرابخية ، فكان سماط العشاء أعظم من سماط الغداء ، وقيل أحضر فى الطارى بعد الظهر أربعين خروفا شوى وقيل ثلاثين وخمسين جفنه فيها جذابة ، ثم مد له فى اليو الثانى سماطا للغداء فقيل ان القاضى كاتب السر صرف على تلك المدات فوق الألف دينار ، فلد تغدى السلطان عنده نزل هو والأمراء فى المراكب وتوجه الى المقياس فأقام به الى أواخر النهار ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، فلما طلع أرسل اليه القاضى كاتب السر تقدمة حفلة ما بين سمور ووشق وسنجاب وصوف وجوخ وبعلبكى وغير ذلك ، وقيل أرسل اليه ذهب عين ما علم قدره ، ومملوكا جركسيا مليحا . قلت والقاضى كاتب السر هذا هو آخر رؤساء مصر من المباشرين .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره وقعت نادرة غريبة وهى أن قاصد ابن عثمان الثانى الذى جاء وزعم أن العرب سرقوا بقجته من تحت رأسه وفيها مطالعة ابن عثمان وتنكد السلطان بسبب ذلك ، فلما حضر بين يدى السلطان صار يعتذر له مما سرق له ، فأقام فى مصر أياما فأرسله السلطان الى القاصد الذى جاء فى الأول فأنكر أمره وقال ان ابن عثمان لم يرسله وأن هذا القاصد لم يكن من جماعة ابن عثمان ، فاستمر بمصر الى أن طلب الاذن من السلطان فى العود الى بلاده فأذن له فى ذلك وأنعم عليه بمال له صورة ، فلما خرج وسافر وقع بينه وبين رفيقه بسبب المبلغ الذى حصل له فلم يعط رفيقه منه شيئا ، فلما وقع بينهما رجع رفيقه ونم عليه عند السلطان بأن هذا داسوس من عند حسن بن أحمد بيك بن عثمان الذى حضر أبوه الى مصر ومات بها بالطاعون كما تقدم ذكر ذلك ، وهو الآن عند الصفوى مقيم وأرسل ه[illegible] القاصد ليستفهم الأخبار بما جرى فى مصر . و[illegible] هذا القاصد نصب على النواب وأخذ منهم مبل[illegible] له صورة ، فلما تحقق السلطان ذلك رسم [illegible]

القاصد من الطريق ، فلما حضر بين يدى السلطان قصد أن يشنقه ثم سلمه الى الوالى فشكه فى الحديد ونزل به ماشيا على أقدامه والمشاعلية تنادى عليه هذا جزاء من يكذب على الملوك ، ثم توجه به الى المقشرة فسجن بها ، وقيل رسم السلطان الموالى بأن يعاقبه ويستخلص منه ما كان أخذه من النواب من المبلغ والتقادم التى دخلت عليه .

وفى يوم السبت تاسع عشره نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وأقام هناك الى يوم الأحد أواخر النهار وانشرح الى الغاية .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه أذن السلطان الى قاصد ابن عثمان بالسفر ، وهو الذى حضر أولا ، وكان من أمرائه المقدمين قيل انه أمير آخور كبير عند ابن عثمان ، فلما طلع رسم السلطان بأن يزين باب الزردخاناه بالسلاح والصناجق ، وكذلك باب القلعة وباب سلم المدرج ، فلما طلع القاصد عمل السلطان الموكب بالحوش وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء ، وكان الموكب حافلا ، ثم خلع السلطان على القاصد خلعة معظمة وهى كاملية جر ذهب شغل القاعة بسمور عال ، وفوقها فوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب ، وخلع على من معه من جماعة ابن عثمان سلاريات صوف بسمور عال ... ونزل القاصد من القلعة فى موكب حافل وصحبته الرءوس النوب ، ثم أخذ فى أسباب الخروج الى السفر .

وفى ذلك اليوم المقدم ذكره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير اينال باى دوادار سكين الذى كان توجه الى سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، وقد توجه اليه بعد مجىء أقباى الطويل ، فلما قابل ابن عثمان أكرمه وأقبل عليه وميزه على أقباى واستحسن كلامه فى رد الجواب وشكره على أقباى ، فلما قصد التوجه الى مصر خلع عليه خلعة سنية وأنعم عليه بمال له صورة ، وكتب معه مطالعة للسلطان ونعته فيها بأنعات عظيمة وبالغ فى تعظيمه ، وقيل ان ابن عثمان أظهر فى مكاتبته بعض تعاظم بكثرة عساكره وشدة بأسه ، فلم يلتفت السلطان الى شىء من ذلك .

* * *

وفى شعبان كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فسلموا على السلطان وعادوا الى بيوتهم .

وفى يوم السبت رابعه أشيع بين الناس أن قد حضر ساع ، وأخبر بأن سليم شاه ابن عثمان قد انتصر على الصفوى وملك بعض ضياع بديار بكر وأشيع أنه ملك تبريز أيضا ، فعند ذلك تثبت السلطان ولم يدق الكوسات حتى ترد عليه الأخبار الصحيحة فى ذلك ، وفى هذه الأيام كثر القيل والقال بين الناس بأن ابن عثمان قد أسر الصفوى ووضعه فى حديد وطاف به فى البلاد ، ولم تصح هذه الأخبار بل اشاعات بين الناس .

وفى يوم الاثنين سادسه حضر سيف جاذ [illegible] طرابلس ، وكان أصله من مماليك الأشرف ديسباى وكان لا بأس به .

وفى يوم الجمعة عاشر شعبان رسم السلطان بفتح سد خليج أبى المنجا ، ووافق ذلك ثانى بابه وقد تأخر فتحه عن العادة الى اليوم وفات أوان ميعاد فتحه . وكان النيل يومئذ فى خمس عشرة أصبعا من عشرين ذراعا وقد حصل به غاية المنافع وعم البلاد قاطبة ، واستمر النيل فى ثبات

على ماذكرناه الى أواخر بابه لم يتهبط منه شيء .

وفى ذلك اليوم وقعت حادثة مهولة ، وذلك أن فى يوم فتح سد أبى المنجا توجه الأمير كرتباى والى القاهرة الى فتحه ، فلما توجه الى هنـــاك أوسق مركبين فيهما مطابق فيها آكل حلوى وفاكهة وكان فى المركبـــين شيء من الفـــرش والقمـــاش والأوانى ، فلما وصلا الى قناطر أبى المنجا قوى عليهمـــا تيار الماء ، فانقلب هـــذان المركبان بما فيهما مما ذكرناه فغرقا بكل ما كان فيهما جميعا وغرق للوالى مملوك من مماليكه الخاص وبعض غلمان ، وكان ذلك اليوم مهولا وما جـــرى على الوالى فى ذلك اليوم خير .

وفى يوم الأربعاء خامس عشر شعبان ، الموافق لسابع بابه ، فيه ثبت النيل المبارك على خمس عشرة أصبعا من عشرين ذراعا ، وكان هذا النيل المبارك أزيد من نيل السنة الخالية باحدى عشرة أصبعا .

وفى أثناء هذا الشهر نزل السلطان الى قبة يشبك التى بالمطرية وبات بها ، وكانت ليلة مقمرة ، فمد له الزينى بركات بن موسى هناك مدات حافلة ، وما أبقى فى ذلك ممكنا من أطعمة فاخرة وحلوى وفاكهة وسمك وخرفان شوى وغير ذلك . وحضر عند السلطان مغانى وأرباب آلات وانشرح هناك الى الغاية ، وأقام فى القبة يومين ، وكانت الملقة معمرة بالماء وهى فى غاية البهجة ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر .

وفى هذا الشهر كان الأمير خاير بيك الخازندار مريضا على خطة وأشيع موته غير ما مرة ، واستمر على ذلك وهو مريض ملازم للفراش والاشاعات قائمة بموته فى كل يوم .

* * *

وفى يوم الخميس كان مستهل شهر رمضـــان فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فجلس السلطان بالميـــدان ، وطلع الوزير يوسف البـــدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وعرضا اللحم والدقيق والخبز والغنم والبقر على السلطان كما جرت به العادة وهو مزفوف على رؤوس الحمالين ، فخلع السلطان عليهمـــا وخلع على القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الخلع السنية ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وأما فى ليلة رؤية الهلال فحضر القضاة الأربعة بالمدرسة المنصـــورية ، وحضر الزينى بركات بن موسى المحتسب ، فلما ثبتت رؤية الهلال وانفض المجلس ، ركب الزينى بركات بن موسى من هناك فتـــلاقاه الفوانيس الأكرة والمجانيق والمشـــاعل والشـــموع الموقودة ، فلم يحص ذلك لكثرته ، ووقـــدوا له الشموع على الدكاكين . وعلقوا له التنانير والأحمال الموقودة بالقناديل من الأمشاطيين الى سوق مرجوش الى الخشابين الى سويقة اللبن الى عند بيته ، فارتجت له القاهرة فى تلك الليلة ، وكانت من الليالى المشهودة ، وأطلقوا له مجامر بالبخور بطول الطريق ، وكان ذلك يعادل المواكب السلطانية ، وكان الزينى بركات بن موسى محببا للناس قاطبة فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وكان له سعد خارق لم يقع لغيره من الناس الا القليل ، ولا سيما ما اجتمع فيه من الوظائف السنية ما لا اجتمع فى أحد من الأعيان قبله منها الحسبة الشريفة واســـتادارية الذخـــيرة وغير ذلك من الوظائف والتحدث على الجهات من البلاد السلطانية .

وفى يوم السبت ثالثه جاءت الأخبار من بلاد الشرق صحبة السعاة من بعض النواب بأن سليم شاه ابن عثمان سلطان الروم وقع بينه وبين شاه اسمعيل الصفوى وقعة مهولة تشيب منها النواصى ،

وقتل من عسكر ابن عثمان نحو من ثلاثين ألفا ، وقيل نحو ستين ألفا ، وقتل مثل ذلك من عسكر الصفوى ، فكان بينهما من الحروب المهولة ما يطول شرحه ، وكان ذلك فى سادس رجب سنة عشرين ، وقيل قتل من أمراء ابن عثمان اثنـا عشر أمـيرا مقدم ألف ، وقتل من عسكر الصفوى أضـعاف ذلك ، وقيل كانت هذه الواقعة بالقرب من تبريز العجم ، وكانت الكسرة أولا على ابن عثمان وآخر الأمر أن الصفوى انكسر كسرة قوية ، وقتل غالب عسكره وانهزم الباقون ولم ينج منهم الا القليل ، وأشيع أن الصفوى قد قتل فى المعركة ووجد تاجه مرميـا على الأرض ، وقد تواترت الأخبار بذلك وقويت الاشاعات بقتله والله أعلم بحقيقة ذلك .

وأشيع أنه واصل عقيب ذلك عدة رءوس ممن قتل من عسكر الصفوى من أعيان أمرائه وعسكره وقد ملك ابن عثمان غالب بلاد الصفوى من ممالك الشرق ، فلم يرسم السلطان بدق الكوسات لهذا الخبر ، وكذلك الأمراء أخذوا حذرهم من ابن عثمان ، وخشوا من سطوته وشدة بأسه لما يحدث منه بعد ذلك الى جهة بلاد السلطان .

وفى يوم الجمعة تاسع شهر رمضان كانت وفاة الأمير خاير بيك الخازندار الكبير ، أحد الأمراء المقـدمين وصهر السلطان زوج أخته قـديما ، فأخرجت جنازته من بيته الذى عند جامع الأزهر ، وتوجهوا بنعشه الى سبيل المؤمنين فنزل السلطان له وحضر الخليفة وصلى عليـه . وكانت جنازته حافلة ومشت فيها قضاة القضاة والأمراء المتقدمون وأعيان المباشرين وغير ذلك من الأعيان ، ودفن فى تربته التى أنشأها بالصحراء ، وكان أصـله من مماليـك الظاهر خشقدم ، وكان متزوجا بأخت السلطان قانصوه الغورى من حين كان جمدارا ، فلما تسلطن الغورى أنعم عليه بامره عشرة ، ثم بقى خازندارا كبيرا عوضا عن عبد اللطيف الزمام بحكم وفاته ، ثم صار أمين السلطان على خزائن الأموال وغيرها ، وصـار لا يقضى أمر من أمور المملكة دون علمه ، ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف فتزايدت عظمته وتضاعفت حرمته ، ونال من العز والعظمة ما لا ناله أغاته الأمير خـاير بيك الخازندار مملوك الظاهر خشقدم فى دولة أستاذه فى أيام خازنداريته . ولكن كان خاير بيك هذا عنده رهج وخفة وبادرة بسفاهة مع حدة زائدة ، وكان اذا رسم السلطان بأمر لا يراجعه فيه الا الأمير خاير بيك ولا يكون الا ما يقوله الأمير خاير بيك ، وكان له محاسن ومساوىء ، وكان له الادلال الزائد على السلطان ، وكان عنده من المقربين . وتوفى الأمير خاير بيك وله من العمـر نحو ثمانين سنة ، ولما مات ظهر له من الموجود أشياء كثيرة ما بين مال وقماش وبرك وسلاح وتحف وخيول وبغال وجمال وغير ذلك من الموجود الحافل ، وقد تكلموا على موجوده بأشياء كثيرة لكننى لم أقف على صحتها فلم أوردها هنـا خوف الاعتراض على فى ذلك ، وهذا القدر كاف هنا .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل السلطان الى مدرسته ، وعرض الأيتام والصوفية الذين بها ، ورسم للأيتام بكسوة ، وأقام هنـاك الى قريب الظهر ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس خـامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة ماماى السلحدار أحـد الأمراء العشراوات ، الذى كان توجه للشام بسبب تزويج ابن السلطان ببنت سيباى نائب الشام ، فتوجه الى الشام بالمهر وعقد العقد لابن السلطان فتعلل نائب الشام وقال أنا ابنتى صغيرة عمرها ست سنين لم تستتحق للزواج ، وكان له ابنة أكبر من هذه

توفيت فى السنة الخالية لما وقع الطعن بالشام وكانت هى المقصودة للزواج ، فلما ماتت قصد السلطان أن يعقد لابنه على بنت الصغرى فلم يوافق نائب الشام على ذلك وتعلل بأنواع العلل ، فلما طلع الأمير ماماى الى بين يدى السلطان خلع عليه وعلى الخواجا يونس العادلى ونزلا من القلعة فى موكب حافل .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الكسوة على العسكر مع الجامكية . ولما حضر الأمير ماماى الى القاهرة حضر صحبته من الناس ما لا يحصى من أهل حلب وغير ذلك من الناس ، فكان فى هذا القفل من أهل حلب عدد كبير ، وسبب ذلك أن العسكر لما دخل الى حلب جرى على أهل حلب من مماليك السلطان الجلبان ما لا خير فيه ، نزلوا فى بيوتهم ، ونهبوا أمتعتهم ، وفسقوا فى حريمهم وأولادهم وعيالهم ولم يسمعوا للباشا ولا نائب حلب ، فوقع بين مماليك السلطان الجلبان وبين مماليك نائب حلب فتنة مهولة وكادت حلب أن تخرب عن آخرها وهم أهلها بالجلاء منها ، وغضب نائب حلب ، وخرج من حلب الى الفضاء وأقام به بسبب مماليك السلطان الجلبان فلم يسمعوا من كبير ولا صغير ، وأشيع بين الناس بأن قرقماس المقرى قد قتل فى هذه المعركة ، وقيل ان مماليك الأتابكى دولات باى هم الذين قتلوه ، فانه كان اتهم بقتل أستاذهم دولات باى بأنه قد أشغله ، والله أعلم بحقيقة ذلك ان كان قتل أم لا .

فلما جرى ذلك بحلب خشى غالب أهلها على عيالهم وأولادهم فأرسلوهم الى مصر صحبة ذلك القفل المقدم ذكره . واستمر أهل حلب مع المماليك الجلبان فى اضطراب زائد ، وربما يقع بسبب ذلك فتنة كبيرة بين الأمراء وبين مماليك السلطان الذين هناك ، فان الأحوال مضطربة والأمور غير صالحة

وأما ما أشيع من الأخبار صحبة هذا القفل الذى حضر من حلب مما كان بين ابن عثمان وبين الصفوى من أمر هذه النصرة على الصفوى ، قيل ان فى سادس رجب من هذه السنة وقع بين ابن عثمان وبين الصفوى وقعة مهولة بالقرب من تبريز : فكسر الصفوى ابن عثمان أولا كسرة قوية وقتل من أمرائه الأعيان اثنا عشر أميرا مقدم ألف غير الأمراء الذين دونهم ، وقتل من عسكره نحو من ثلاثين ألفا وفيل أكثر من ذلك ، وكانت الكسرة على ابن عثمان أولا . ثم ان ابن عثمان أحضر اثنى عشر ألف رام بالبندق الرصاص وتلاقى مع الصفوى فكسر الصفوى كسرة قوية ، وقيل انه جرح وولى مهزوما فلم يعلم له خبر ، وقيل ان ابن عثمان أسر أمراء الصفوى وحز رقابهم وأرسلهم الى بلاد الروم ، فزينت له المدائن بالروم ، مدينة اسطنبول وغيرها من المدائن . وقيل قتل من عسكر الصفوى ما لا يحصى عددهم ، ثم ان ابن عثمان ملك تبريز بالأمان ، وكذلك قاشان وسيواس وغير ذلك من البلاد مما كان بيد الصفوى ، وخطب له باسمه بها على المنابر . وكانت هذه النصرة لسليم شاه ابن عثمان على غير القياس ولم يقع لأحد من أجداده مثل هذه النصرة قط ، والكلام فى ذلك كثير ان صحت هذه الأخبار من أمر هذه النصرة .

وفى أثناء هذا الشهر توفى القاضى بدر الدين ابن الانبابى كاتب جيش الشام رحمة الله عليه ، وقرر فى وظيفته الشرف يونس النابلسى الأستادار كان ، وكان بدر الدين لا بأس به .

وفى يوم الجمعة سادس عشر شهر رمضان قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، ووافق ذلك

سابع هاتور القبطى ، وهى العادة القديمة فى لبس الصوف .

وفى يوم الأحد ثامن عشره توفى الناصرى محمد ابن قجق نديم السلطان ، وكان علامة فى ضرب الطنبورة عارفا بصنعة الأنغام ، وكان لطيف الذات عشير الناس ، فكانت جنازته حافلة ومشى فيها أعيان الناس ، حتى أعيان مغانى البلد والآلاتية قاطبة فانه كان شيخهم ، وكان من المقربين عند السلطان .

وفى يوم الاثنين سادس عشرين شهر رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن المماليك السلطانية أثاروا بحلب فتنة مهولة وركبوا هناك على الأمراء وطردوهم عن حلب وقالوا لهم : أرسلوا قولوا للسلطان ينفق علينا لكل مملوك خمسين دينارا كما أنفق على مماليكه الجلبان قبل ذلك ، وأشاعوا عنهم أخبارا شنيعة الى الغاية ، وأن الأحوال مضطربة بحلب والأمور غير صالحة . فتنكد السلطان لهذا الخبر الى الغاية ، وضرب مشورة هو والأمراء بسبب هذه الحادثة .

وقيل انه عين الأمير اينال باى دوادار سكين بأن يتوجه الى حلب ، ويكشف عن صحة هذه الأخبار الشنيعة ويطالع السلطان بذلك . وقد كثر القيل والقال بين الناس بسبب ذلك

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرينه ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وفرقت الخلع والصرر على القضاة ومشايخ العلم ، وكان ختما حافلا بالمقعد الذى بالحوش السلطانى .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من المدينة الشريفة بوفاة الأمير شاهين الجمالى شيخ الحرم النبوى ، وكان أصله من مماليك الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس تاسع عشرينه عرض ناظر الخاص علاء الدين بن الامام خلع العيد على السلطان وهى مزفوفة على رءوس الحمالين ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الخميس المذكور حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مطالعة للسلطان تتضمن أخبار هذه النصرة التى وقعت له على اسماعيل شاه الصفوى . وذلك أن فى يوم الأربعاء سادس رجب الفرد سنة عشرين وتسعمائة تلاقى عسكر سليم شاه ابن عثمان مع عسكر اسماعيل شاه الصفوى على مكان بالقرب من تبريز يقال له اسكندران ، فكان بينهما هناك وقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وتذهل العقول عند سماعها من كل دان وقاص ، فصيرت الرءوس عن الأجساد طائرة ، وطفشت العساكر بالخيول الغائرة ، ووقع القتل بالسيف حتى أجرى الدماء منهم كالسيل ، واستمر الحرب ثائرا حتى حال بينهما الليل ، فسكر القوم من خمر ذلك الحرب ، وتراقصت الخيول على وقع السيوف الداخلة فى الضرب ، فقتل من العسكرين ما لا يحصى عددا ، وانهزم الباقون وتبدد شملهم بددا ، فيالها من ساعة مهولة ، لا ترضى الله ولا رسوله ، فوقعت الكسرة على عساكر ابن عثمان أولا وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ، حتى قيل قتل من أمرائه سبعة عشر أميرا أصحاب صناجق ، وقتل من عسكره نحو النصف ، فلما عاين ابن عثمان ما وقع له من هذه الكسرة كادت روحه أن تزهق من شدة قهره ، ثم قام على عسكره وحضهم على القتال فقوى عزم عساكر الروم على القتال وأتوا بالصارم البتار ، وقال لسان حالهم الموت فى طلب الثأر ، خير من الحياة فى العار ، فوثبوا على عساكر الصفوى وثوب الليث الهمام ، وبايعوا أنفسهم فى

بلوغ المرام ، وقيل ان ابن عثمان كان فى جاليش عسكره اثنا عشر ألف رام بالبندق الرصاص ، فلما زحفوا على عسكر الصفوى عمهم الدهوة ، ولم يحملوا معهم غلوة ، فانكسر الصفوى وولى مهزوما وقتل من عسكره أضعاف ما قتل من عساكر الروم ، فيقال ان الصفوى جرح وهرب فى نفر قليل من عسكره ولم يثبت أنه قد قتل فى المعركة كما أشيع عنه فيما تقدم ، وقيل قتل من أمرائه جماعة كثيرة منهم صاحب ديار بكر ويسمى سيحلى محمد وأولاده ، وغير ذلك من أعيان عسكره وأمرائه ما لا يحصى عددهم ، وكانت النصرة لسليم شاه ابن عثمان على الصفوى من النوادر الغريبة ، كما يقال :

فيوم علينا ويوم لنا   ويوم نساء ويوم نسر

ثم ان ابن عثمان حز رقاب من قتل من أمراء الصفوى وأرسلها الى بلاده ، فطافوا بها هناك وعلقت على أبواب مدائن الروم . ولم تقع مثل هذه النصرة لأحد من أجداد سليم شاه ابن عثمان ، ولا لوالده السلطان أبى يزيد المعروف بيلدرم ابن أورخان ، لما زحف تمرلنك كسره وأسره ووضعه فى قفص من الحديد وصار يدخل به البلاد ويعجب عليه ، فما طاق يلدرم ذلك فبلع له فصا من الماس فمات وهو فى القفص الحديد وأمره مشهور .

ووقع لوالده السلطان أبى يزيد لما زحف على البلاد السلطانية فى أيام الأشرف قايتباى ، فكسر الأشرف قايتباى عسكره ثلاث مرات ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عددهم ، ودخل بجماعة من عسكره أسرى الى مصر فى الحديد وصناجق أمرائه منكوسة ، وحصل على عساكر الروم ما لا خير فيه .

فكان لسليم شاه سعد خارق بهذه النصرة على الصفوى ووقع له ما لا وقع لأبيه ولا لأجداده وهذا أمر الهى .

فلما وقع لسليم شاه ذلك رجع الى بلاده ليشتى بها ، وبعد الشتاء ما يعلم ما يكون بينه وبين الصفوى من الحروب المهولة . فلما رحل ابن عثمان جعل على تبريز نائبا من أمرائه وكذلك على البلاد التى ملكها من أيدى الصفوى ، فاستناب له بها نوابا من أمرائه ثم رحل عن بلاد الصفوى .

فلما حضر قاصد سليم شاه ابن عثمان بين يدى السلطان ، وقرئت مكاتبته بحضرة الأمراء ، خلع على القاصد الذى حضر بأخبار هذه النصرة كاملية مخمل أحمر كفوى بسمور عال من ملابيسه ، ثم نزل القاصد من القلعة ولم يرسم السلطان بدق الكوسات بالقلعة ، ولم يناد فى القاهرة بالزينة لأجل هذه النصرة ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وأشيع عن قرقماس المقرى بأنه فى قيد الحياة ، ولم يثبت موته كما أشاعوا عنه بما تقدم من الاشاعات الفاسدة .

* * *

وفى شوال كان مستهل الشهر يوم السبت ، وكان ذلك اليوم عيد الفطر فخرج السلطان الى صلاة العيد ، فصلى ثم خلع على الأمراء ومن له عادة بالخلع السنية ، وكان موكب العيد حافلا كما جرت به العادة .

وفى يوم الاثنين عاشره خلع السلطان على الأمير اينال باى دوادار سكين ، وأذن له بأن يتوجه الى حلب بسبب رد الجواب على الأمراء والعسكر السلطانى فيما أرسلوا يسألون فيه من أمر النفقة ، وهى الخمسون دينارا التى أثاروا الفتنة بحلب بسببها ، وبهدلوا الباش قانى باى قرا أمير آخور كبير ، وعين له القتل المماليك القرانصة والجلبان ، وقالوا : « أنفق فى السنة الخالية على مماليكه الجلبان لكل واحد منهم خمسون دينارا ولم يعط

المماليك القرانصة شيئا ، فمثل ما أنفق على مماليكه ينفق علينا نحن أيضا والا ننهب أسواق حلب » !
فأرسل لهم السلطان الجواب عن ذلك بما تقتضيه الآراء الشريفة ، فتوجه اينال باى بمراسيم شريفة تقرأ على الأمراء والعسكر بحلب عن الجواب فى ذلك .

ثم ان السلطان بعد أن خلع على الأمير اينال باى ورسم له بالسفر فعوقه عن السفر من بعد ذلك أياما لأمر أوجب ذلك مما عنّ له ، ثم سافر بعد ذلك فى العشرين من هذا الشهر ، وكذلك قاصد ابن عثمان المقدم ذكره .

وفى اليوم المذكور خلع السلطان على قاصد ابن عثمان الذى حضر بأخبار النصرة على الصفوى فخلع عليه وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب بالتهنئة عن أمر هذه النصرة التى تمت .

ومن الحوادث أن السلطان أنشأ سوقا بالقرب من خان الخليلى يباع فيه الرقيق ، وأبطل السوق القديم الذى كان يباع فيه الرقيق ، وصار العمل على هذا السوق من يومئذ .

ومن النوادر الغريبة أن الأمير خاير بيك الخازندار لما توفى رسم السلطان للأمير طومان باى الدوادار والزينى بركات بن موسى المحتسب ، بأن يتوليا ضبط موجود الأمير خاير بيك الخازندار ، فلما شرعا فى ذلك ظهر له موجود يقرب من موجود سلار الناصرى نائب السلطنة كان ، فظهر له فى أول يوم من الذهب العين ثلاثة وثمانون ألف دينار ، وزعم السلطان أنه لما حصل له التوعك فى عينه أودع عنده خمسمائة ألف دينار فلم يظهر للسلطان منها شىء وخفيت تحت الأرض ولم يعلم مكانها ، ومات خاير بيك عن غير وصية ولم يخلص ذمته فيما عليه من حقوق الناس الذين كان يقطع مصانعتهم ويأكل حقوقهم ، فلما ضاعت على السلطان تلك الوديعة صار يفل الرحمة على الأمير خاير بيك ولم يقرأ له ختمة على قبره ولا صنع له مأتما ولا تصدق عليه برغيف خبز ، ثم ظهر له من بعد ذلك من المعادن والجواهر والفصوص الماس والياقوت الأحمر واللؤلؤ الكبار والتحف الفاخرة ما قوم بمائة ألف دينار ، ثم ظهر له ألف ثوب بعلبكى ومن الأثواب الصوف والأبدان السمور والوشق والسنجاب والقطع الجوخ وثياب البدن من سلاريات وجنينيات جوخ وغير ذلك ما قوم بخمسين ألف دينار ، وظهر عنده بشاخين زركش وأشياء من ثياب النساء تركة وحليهن ما لا يحصى ، وسبب ذلك أنه استولى على ست عشرة من تركات الخوندات والستات وأعيان الرؤساء من الملوك وغير ذلك ممن توفى فى دولة السلطان قانصوه الغورى ، وظهر له من الخيول والبغال والجمال ما لا يحصى ... فدخل ذلك الى الحواصل السلطانية ، وظهر له من الرزق والأملاك والبيوت والربوع والحوانيت وغير ذلك ما عنهم من الخراج وكرا أماكن فى كل سنة فوق العشرة آلاف دينار ، واستمر الحال على ذلك الى يوم تاريخه يظهر له فى كل يوم من الموجود أشياء جديدة ولم ينته ضبطه الى الآن وضاع له تحت الأرض وعند الناس أضعاف ذلك ، فكان موجوده اذا قوم جميعه يقارب أربعمائة ألف دينار ... ومع هذا المال الجزيل لم يلهم الله تعالى الأمير خاير بيك عند موته أن يبر ابن استاذه الظاهر خشقدم بشىء من المال فى الباطن حتى يستعين بذلك على فقره ووفاء دينه ، فعد ذلك من مساوىء خاير بيك ولم يثن عليه أحد بعد موته بخير قط ، فذهبت عنه الدنيا وفاتته الآخرة ، فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

ولما توفى الأمير خاير بيك أشيع أن السلطان عين تقدمه الأمير خاير بيك الى أقباى الطويل امير آخور ثانى ، وأنعم على ولده المقر الناصرى محمد بامرة طبلخاناه ، وقرره فى الخازندارية الكبرى عوضا عن خاير بيك بحكم وفاته ، فتزايدت عظمة سيدى ابن السلطان وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاث عشرة سنة . وقد تقدم القول على أن السلطان أرسل يخطب بنت ملك الأمراء سيباى نائب الشام الى ولده المذكور ، فتعلل نائب الشام على أن ابنته صغيرة ، وكان اسمها فاطمة وتدعى أيضا شقرا ، وقيل انها جميلة عمرها ثمانى سنين ولم تستحق للزواج ، فأرسل السلطان يقول له : لا بد من ذلك وأرسل له عشرة آلاف دينار مهرها . فلما رأى السلطان قد صمم على ذلك قبل المهر وأجاب بالسمع والطاعة وأذن فى تزويج ابنته الى ابن السلطان . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشره جلس السلطان على المصطبة التى بالحوش وفرق على المماليك الذين أخرج لهم الخيل والقماش ، ففرق عليهم فى ذلك اليوم السيوف والزرديات والتراكيش ، وكانوا نحو مائة وستين مملوكا من جلبانه .

وفى يوم الجمعة رابع عشر شوال فيه كان عقد المقر الناصرى محمد بن السلطان على ابنة ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فكان الوكيل عن ابن السلطان الأتابكى سودون العجمى ، والوكيل عن سيباى نائب الشام الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، وكان جملة الصداق نحو عشرين ألف دينار : من ذلك عشرة آلاف دينار معجلا وعشرة آلاف دينار حال . وكان العقد بجامع القلعة وحضر القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخميمى الشافعى والقاضى شمس الدين السمديسى الحنفى والقاضى جلال الدين ابن قاسم المالكى والقاضى شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وحضر سائر الأمراء من الأكابر والأصاغر وحضر القاضى كاتب السر محمود بن أجا وأعيان المباشرين قاطبة . فلما فرغ السلطان من صلاة الجمعه فرشت له مرتبة على باب المقصورة فجلس عليها ، وجلست الأمراء حوله بالشاش والقماش والقضاة الأربعه ، وجلس نواب القضاة عند المحراب ، ثم خطب قاضى القضاة الشافعى خطبة النكاح ، وطافوا على الحاضرين من الأعيان بنحو عشرين سلطانية صينى فيها سكر ، ثم ان السلطان خلع على القضاة الأربعة كوامل صوف أبيض بسمور ، وخلع على الأتابكى سودون العجمى والأمير طومان باى الدوادار كوامل مخمل أحمر بسمور ، كونهما وكيلين فى العقد ، وخلع على محب الدين الحلبى امام السلطان كاملية صوف بسمور ، ثم قام السلطان وانفض المجلس فى نحو خمس درج ، وقد قال القائل فى المعنى :

على أيمن الساعات عقد مبارك
بهى كما شاء الاله وأظهرا
سنى المعالى يسرت حركاته
اذا الله سنى أمر عقد تيسرا

ولم يقع فى هذا العقد ما هو كبير أمر من الأفعال الملوكية ، وأين هذا مما وقع للخليفة المأمون بن هرون الرشيد لما أن عقد له على بوران بنت الحسن بن سهل وزيره ، قال صاحب كتاب « الاكتفاء فى تواريخ الخلفاء » : « ان الحسن بن سهل الوزير لما عقد المأمون على ابنته بوران ببغداد اجتمع أعيان بغداد من العلماء والأمراء والحجاب بالجامع الكبير ، فلما انفض ذلك الجمع نثر الوزير

الحسن بن سهل على رؤوس الأعيان من الناس رقاعا مكتوب فيها أسماء ضياع وأملاك ، فمن وقعت بيده رقعة مكتوب فيها اسم ضيعة أو ملك بعث الى صاحب الرقعة بتسليم ما فى الرقعة من ضيعة أو ملك » . وهذا من غرائب الأخبار ، وكان ذلك فى سنة عشر ومائتين من الهجرة .

ومما يحكى أن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى زوج ابنه الملك السعيد بينت الأتابكى قلاوون الألفى ، وكان الملك الظاهر يظن أنه اذا زوج ابنه ببنت الأتابكى قلاوون يكون له من بعده عونا لولده على تقلب الزمان ، فجاء الأمر بخلاف ذلك وأخذ قلاوون الملك من أولاده ونفاهم الى الكرك ولم يفده من تلك المصاهرة شيء ولا راعاهم من بعده . وكان ذلك فى سنة ثلاث وسبعين وستمائة ، فكان كما يقال فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله

رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

وفى ذلك اليوم سافر ماماى الغورى الخاصكى ، الذى عينه السلطان للتوجه الى جبل نابلس وغيرها من الجهات ، بسبب أمر المشاة الذين أفرد السلطان الأموال علي البلاد بسببهم لأجل التجريدة المقدم ذكرها ... فخرج ماماى هذا ليجبى الأموال التى قررت على البلاد ، حتى قيل قرر على أهل جبل نابلس من الأموال مائة ألف دينار وأربعة وعشرين ألف دينار بسبب المشاة ، ولم ينفق قط هذا لأهل جبل نابلس بل كان الأشرف قايتباى فى التجاريد التى كان يرسلها ينفق على الرجال المشاة من حاصله لكل واحد منهم قدرا معلوما ، فلم يوافق السلطان على شيء من ذلك وأفرد على مشايخ جبل نابلس ما تقدم القول عليه من المال ، ومشايخ جبل نابلس يفردون ما قرر عليهم من المال على عربان جهة نابلس ، ولم يقدروا على بعض ذلك، وسوف يخلون أهل جبل نابلس منه عن قريب .

وقرر على أهل الشام مال له صورة بسبب المشاة ، وكذلك أهل غزة ، وكذلك على اهل صفد وطرابلس ، وكتب بمعنى ذلك مراسيم على يد أمير آخور باش العسكر بأن يفرد على اهل حلب مال بسبب المشاة ، وكذلك على أهل حماة ، فقيل قرر على كل انسان من هذه الجهات عشرون دينارا بسبب المشاة ، وهذا كله يؤول أمره الى خراب البلاد وفساد الأحوال وضعف أحوال الجند وعدم عمارة البلاد ... والأمر فى ذلك الى الله تعالى ما شاء يفعل ، فأطلق النار فى تلك البلاد بسبب أمر المشاة .

وفى يوم السبت خامس عشره خرجت المدورة الى بركة الحجاج .

وفى ذلك اليوم نزل السلطان الى قبة شبك التى بالمطرية وبات بها ، ثم ركب يوم الأحد وتوجه الى بركة الحجاج ، ورتب كيف ينصب الوطاق للأمراء الحاج . وكان ممن حج فى هذه السنة من الأعيان وهم المقر الناصرى محمد ابن السلطان ، وخوند زوجة السلطان ، والقاضى كاتب السر محمود بن أجا والأمير نانق الخازن ، وكان هو المتسفر على السنيح وكان من أخصاء السلطان .

أما أمراء الحاج الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين أمير ركب المحمل ، والركنى سيدى عمر ابن الملك المنصور ابن الملك الظاهر جقمق أمير الركب الأول ، والأمير جانى بيك قرا أحد الأمراء الطبلخاناه باش المجاورين . فجعل السلطان وطاق ابنه بين وطاق كاتب السر وبين وطاق طقطباى أمير

ركب المحمل ، ثم ان السلطان عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين سابع عشر شوال فيـه خرج المحمل الشريف ، وكان لخروجه يوم مشـهود لم يقع قط مثله فيما تقدم من السنين المـاضية وذلك قد انسحب فيه أربعة أطلاب حافلة : طلب جانى بيك قرا باش المجاورين وكان حافلا ، ثم انسحب طلب سيدى عمر بن المنصور آمير الركب الأول وكان حافلا ، وظهر له من السنيح العظيم أشـياء كثيرة يعجز عنها الأمراء المقـدمون . ثم انسحب طلب المقر الناصرى سـيدى ابن السلطان فحرج بطلب حـربى وقدامه طبـلان وزمران وصناجق سلطانية ، وفيه نوبتان هجن بأكوار زركش من ذهب بنادقة وبقية الأكوار مخمل ملون ، وانسحب فى طلبه عدة خيول بكنابيش زركش بغواشى حرير أصـفر ، وعـدة خيول نحـو طواتين ملبسـة ببركستوانات فولاذ مكفتة ، وانسحب فى طلبـه نحو عشرين جملا مزينة بآلات الشراب خاناه من الأوانى الصينى واللازورد والزجاج البلورى وغير ذلك ، وأيضا أحمال مزينة بآلات الطشتخاناه من الأباريق الكفت والطسوت الكفت والشماعد وغير ذلك مما يحير الأبصار ، ومحفة جوخ أصفر مزهر فى آخر الطلب ، ثم بعد ذلك انسحبت محفة خوند زوجـة السـلطان فكانت غاية فى الحسن منتهى ما يعمل من المحفات ، فكانت محمل أحمر كفوى وهى مرقومة بالذهب ، طرازها وأرضـية الثـوب عروق لاعبة زركش من الذهب الخالص البنادقة ، وفوقها خمس رصافيات لؤلؤ وفيها رصعات ذهب بفصوص بلخش وفيروز ، وحول نوب المحفـة بهرجان ذهب وفضة شقاق ، وقدام المحفة أربعة مشـاعل بفوط زركش بشراريب مثلث ، وقيـل صنعوا لخوند حمـاما من نحاس صفايح وداخلها أحواض نحاس وعلايات يصب منها الماء سـاخنا ، فعد ذلك من النوادر ... قيل ان مصروف هذه المحفة فوق العشرين آلف دينار . وآما الرصافيات اللؤلؤ زعموا أنها رصافيات خوند زوجة الأشرف قايتباى صنعتها لما حجت فوجدت فى تركتها ، وكان خلف المحفه أربعة جمال غير الذى تحت المحفة ، وعلـها كنابيش زركش على مخمل أحمر ، وحولها مرتعش ذهب وفضة وقدام المحفة حاديان ، ونحو عشرين نفرا من الخدام حول المحفة ، ثم بعد المحفة انسحب نحو عشرين محارة مخمل ملون برسم عيال خوند وغيرها ممن يلوذ بها ، فلما شقت من الرملة ارتجت لها ، ولا سيما اجتمع بالرملة الجم الغفير من الأمراء والعسكر والخلائق الذين لا يحصون لكثرتهم ، ثم طلعت المحفة من الصوة ونزلت من على باب الوزير وشقت من القاهرة ، فارتجت لها القاهرة فى ذلك اليوم رجا .. ولم يكن من العادة القديمة أن محفة حريم السلطان تشق من القاهرة .

وقد تقدم أن خوند زينب زوجة الأشرف اينال لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، بل طلعت من بين الترب ، وكذلك خوند الأحمـدية زوجة الظاهر خشقدم لم تشق محفتها من القاهرة ، ولا خوند زوجة الأشرف قايتباى لما حجت لم تشق محفتها من القاهرة ، ولكن أشيع آن خوند زوجة السلطان لم تخـرج فى ذلك اليوم ولم تنزل من القلعة فشقوا بالمحفة من القاهرة ثم أعادوها من بين الترب الى القلعة حتى تنزل خوند . ويأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، ثم انسحب سنيح خوند وابن السـلطان فكان فيه ألف جمل ما بين زاد وقرب ماء وغير ذلك من البرق الحافل . ثم انسحب طلب الأمير طقطباى أمير ركب المحمل فكان غاية

فى الحسن ، وهو منتهى ما يعمل فى الأطلاب الملوكية ، فانسحب فيه نحو مائتى فرس ما بين حيول ملبسة بركستوانات فولاذ مكفت ، وغير ذلك من المحمل الملون ، وخيول بكنابيش زركش ، وغير دلك من المحفات والأحمال المزينة ، فارتجت لهذه الأطلاب الرملة . ثم انسحب المحمل وقدامه ابن السلطان والأمراء الحاج والخاصكيه المسافرون الى الحجاز فطلعوا . وكان السلطان فى ذلك اليوم فى شباك القصر ينظر اليهم من القلعة ، فخلع السلطان على ولده متمرة وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض ، وخلع على امراء الحاج مثمرات ، وخلع على باش المجاورين كاملية صوف بسمور ، وكان بالقاهرة شخص من قضاة مكة فألبسه السلطان تشريفا وطرحاه هو وقاضى المحمل ، ثم نزل ابن السلطان من القلعة وأمراء الحاج وصحبتهم الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين وسائر أعيان المباشرين . وكان قاصد ابن عثمان حاضرا لهذا الموكب العظيم ، فشقوا من القاهرة فى موكب حفل لم نقع مثله فى خروج الحجاج فيما تقدم من المواكب ، فلهج الناس بأن ذلك نهاية سعد السلطان مما وقع له من الأمور الخوارق فيما تقدم ذكره .

وفى ذلك اليوم أشيع بأن قاصدا ثانيا واصلا من عند ابن عثمان ملك الروم ، فلما سمع السلطان بمجيء القاصد عوق اينال باى دوادار سكين عن السفر الى حلب حتى يسمع ما جاء فيه القاصد من الأخبار ، وقد تقدم القول على أنه خلع على اينال باى وأذن له بالسفر ثم عوقه عن السفر لأمر بدا له فى ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره نزلت خوند من القلعة بعد صلاة الفجر فجلست فى المحفة من باب الستار ، ثم نزلوا بها من دار البقر الى خلف القلعة وقدامها المشاعل والفوانيس ، وركب قدامها سائر المباشرين ومقدم المماليك وسائر الخدام من الطواشية ، وركب خلف محفتها من الخوندات والستات نحو ألف مكارى ، فاستمرت فى هذا الموكب الحافل الى بركة الحجاج .

وفى ذلك اليوم خرج القاضى كاتب السر محمود ابن آجا فى محفة على بغال وتوجه الى بركة الحجاج وكان عليلا وله مدة على ذلك ، وكان الحاج فى هذه السنة لا يحصون عددا لكثرتهم ، وكان فى الركبين فوق العشر محفات للأعيان والأمراء والستات .

وفى يوم الخميس عشرينه أشاعوا أن اينال باى دوادار سكين قد خرج وسافر الى حلب بسبب ما تقدم ذكره من أمر النفقة التى أرسل بطلبها العسكر ، فمضى اليهم الجواب عن ذلك .

وفى يوم الجمعة حادى عشرينه رحل أمير أول من بركة الحجاج . وكذلك باش المجاورين .

ثم فى ليلة السبت طلوع القمر رحل ابن السلطان وخوند زوجة السلطان والقاضى كاتب السر ، ونادوا فى البركة أن أحدا من الحجاج لا يسافر صحبة خوند فى ركبها .

ثم فى يوم السبت ثانى عشرينه رحل المحمل من البركة ، وقد ضج الناس من كثرة الحجاج فى هذه السنة . وربما يخشى عليهم من موت الجمال وشدة البرد .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرينه جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان وهم باللبس الكامل من آلة السلاح الآدمية والخيول ، فعرض فى ذلك اليوم اربع طباق فعين منهم نحو مائة وخمسين مملوكا . وسبب ذلك أن السلطان كان له مدة طويله وهو يلهج بالسفر الى الاسكندرية

فقوى عزمه فى هذه السنة على السفر الى ثغر الاسكندرية كما فعل الأشرف قايتباى .

ثم فى ذلك اليوم عرض آلة الطلب وهى الخيول الملبسة بالجواغين الفولاذ المكفت ، وعرض خيول النوبة وهى بالكنابيش الزركش والسروج والأرقاب الزركش الذهب والغواشي الذهب ، وعرض التختنين وهما بغواشى حرير أصفر ، ثم طلع الى الدهيشة وعرض الصناجق السلطانية والقبة والطير . وقد غير الطير الذهب الذى كان فوق القبة وجعل مكانه هلالا ذهبا مخرما ، وعرض ست خزائن التى تكون فى الطلب بالأغشية الحرير الأصفر ، وعرض الجوشنين وهما من آلة الطلب ، وعرض محفة على بغال وهى بغشاء من حرير أصفر .

ثم فى يوم الأربعاء سادس عشرينه ركب السلطان ونزل الى الميدان ليعرض مماليكه الخاصكية الذين يسافرون صحبته ، فوجد الميدان فيه وحل من المطر ، فخرج الى الرملة ووقف على باب الميدان وهو راكب وعرض مماليكه الجلبان من الخاصكية فعين منهم فى ذلك اليوم مائة وعشرة من الخاصكية ممن يسافر معه الى الاسكندرية ، فصار كاتب المماليك ماشيا على أقدامه فى وسط الرملة وهو يستدعى أسماء المماليك ، فرجت الرملة فى ذلك اليوم وتحقق سفر السلطان ، واضطربت أحوال العسكر بسبب سفر السلطان فى قلب الشتاء وشدة البرد ، فلما طلع السلطان الى القلعة فتح حواصل الذخيرة وأخرج منها زرديات وخوذا وأتراسا ورماحا بسن فولاذ وسيوفا وجواغين ، ففرق منها على خاصكيته أشياء كثيرة مما يحتاجون اليه من آلة السلاح .

وفى يوم السبت تاسع عشرينه نزل السلطان الى الميدان وعرض جماعة من مماليكه الخاصكية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح ، فعين منهم جماعة يسافرون معه الى الاسكندرية . وقد أشيع بأنه يعين معه نحو خمسمائة خاصكى من مماليكه ، وفى ذلك اليوم برز السلطان خامه وتوجه به الى بولاق ثم عدوا به الى بر انبابة ، ورسم بأن ينصب فى المنصورية ذلك الوطاق .

***

وفى ذى القعدة كان مستهل الشهر يوم الاثنين فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر على العادة ، فجلس السلطان بالميدان وكان فى همة الخروج الى سفر الاسكندرية . فلما قام الخليفة والقضاة الأربعة طلب العلامة وعلم على بعض مراسيم ، ثم ركب من الميدان وانسحب قدامه الطلب فكان طلبا حربيا فيه طبلان وزمران والنفير البرغشى ، ثم انسحب فيه خمس وأربعون فرسا عليها أجلال شعر وفى رقابها مقاود ، ثم انسحب فيه ثلاث عشرة نوبة هجن بأكوار زركش ومخمل ملون ، ثم انسحب فيه نحو خمسين فرسا بسروج ذهب وكنابيش وغواشى حرير أصفر وتختنين بغواشى حرير أصفر ، فكان عدة الخيول به نحو مائة وعشرين فرسا ، ثم تقدمت الخاصكية وبعدهم المباشرون قاطبة ، وبعدهم الأمراء المقدمون وهم : أمير كبير سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير الدوادار الكبير والأمير أنص باى حاجب الحجاب وبقية الأمراء المقدمين ، ثم جاء من بعدهم السلطان وهو راكب على فرس بوز ، وعليه سلارى جوخ بنفسجى مفرى وشق ، وعلى رأسه تخفيفة صغيرة مدورة بغير قرون ، فشق من الصليبة فى ذلك الموكب الحفل ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، فقيل انه توجه فى ذلك اليوم الى المقياس هو والأمراء ومد لهم هناك

مدة حافلة وأقام بالمقياس ذلك اليوم ، وأشيع غير ذلك أن السلطان لما نزل من القلعة توجه الى بولاق ونزل فى مكان يسمى السبكية فبات بها ، وقيل بل بات فى المنية بإزاء انبابة ، والأقاويل فى ذلك مختلفة ، وكان بها الوطاق .

ثم ان السلطان رسم للأمير طومان باى الدوادار بأن يكون نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من السفر ، فتحول من يومه وطلع الى باب السلسلة وأقام به الى أن يعود السلطان الى القلعة .

وفى يوم السبت سادسه رحل السلطان من الوطاق الذى ببر انبابة وقصد التوجه الى ثغر الاسكندرية ، ورجع جماعة كثيرة من هناك من الأمراء والعسكر ، ولم يسافر مع السلطان الا جماعة من الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، فمن الأمراء المقدمين : الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس بن ولى الدين أمير مجلس والأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش أحد المقدمين والأمير قانصوه ابن سلطان جركس ، والأمير خاير بيك كاشف الغربية أحد المقدمين والأمير علان بن قراجا أحد المقدمين دوادار ثانى والأمير يخشباى أحد المقدمين والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين ، وقد قرر فى تقدمة الأمير خاير بيك الخازندار عن قريب ، فكان عدة الأمراء المقدمين الذين توجهوا مع السلطان الى ثغر الاسكندرية عشرة من المقدمين . وأما من توجه معه من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة منهم : الأمير قنبك الشريفى رأس نوبة ثانى والأمير مغلباى الشريفى الزردكاش ، وآخرون منهم ما يحضرنى أسماؤهم . وأما من توجه صحبته من الأمراء العشراوات فجماعة كثيرة نحو عشرين أميرا ، وقيل كان مع السلطان من خاصكيته نحو خمسمائة خاصكى وقيل أكثر من ذلك ، وأما من توجه معه من المباشرين فالقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش والقاضى شهاب الدين ابن الجيعان نائب كاتب السر وأخوه كريم الدين كاتب الخزائن الشريفة والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وأولاد الملكى وأبو البقا ناظر الاصطبل ، والقاضى علاء الدين ناظر الخاص ، وجماعه من كتاب المماليك ، وآخرون من أعيان جماعة المباشرين ، وكان صحبته الشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وغير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان ما يحضرنى أسماؤهم الآن .

وقيل كان صحبة السلطان جماعة من المغانى وأرباب الآلات من دواخل البلد فى الغناء ، وخرج السلطان بسنيح عظيم وبرك حافل فى أرغد عيش من التنزه والفرجة حتى رحل ، فنصب له الوطاق بالمنصورية وتوجه اليها على ما نقل من أخباره الصحيحة عن ذلك .

وأشيع أن السلطان أقام فى الوطاق الذى بالمنية ستة أيام . وسبب ذلك أنه كان ينتظر كتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده الذى توجه الى الحجاز وأخبار زوجته خوند ، فلما ورد عليه كتب العقبة بالأمن والسلامة سر لذلك وانشرح ، ورحل من المنية ، وتوجه الى المنصورية ، ونصب بها المخيم الشريف ونزل هناك ، ثم يتوجه من بعد ذلك من مرحلة الى مرحلة حتى يدخل الى ثغر الاسكندرية .

وفى يوم الاثنين ثامنه رسم الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة بأن ينادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن يعلقوا على كل دكان قنديلا من المغرب وأن لا مملوكا ولا غلاما ولا عبدا يخرج من بعد العشاء ومعه سلاح ،

وأن لا مملوكا يغطى وجهه اذا خرج الى السوق ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة ، فضج الناس له بالدعاء .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى الحاج ياقوت فراش الخزانة ، وكان أصله من عبيد المقر السيفى برقوق نائب الشام وأعتقه ، وساعدته الأقدار حتى صار فى سعة من المال وصار أمين السلطان على الخزائن الشريفة . فلما مات فى غيبة السلطان جاء الزينى بركات بن موسى وختم على حواصله ورسم على ولده وعلى عياله الى أن يحضر السلطان ، وكان ياقوت متهما بالمال الجزيل ، وكان هو والأمير خاير بيك الخازندار يتصرفان فى الخزائن الشريفة كيف شاءا منها ، فكان كما يقال فى المعنى :

وقائلة أرى الأيام تعطى
لئام الناس من رزق خبيث
تمنع من له شرف وفضل
فقلت لها خذى أصل الحديث
رأت حل المكاسب من حرام
فجادت بالخبيث على الخبيث

وفى يوم الخميس حادى عشره وسط الوالى شخصا من الغلمان قيل عنه انه كان يخطف العمائم فى الأسواق بعد العشاء ، فلما قبضوا عليه وسطوه فى وسط الصليبة قدام حمام شيخو ، وقيل وسطوا آخر من الغلمان عند الكبش ، وفى هذه الأيام كثر هجم المناسر فى الحارات والأماكن من القاهرة وغيرها حتى ضج الناس من ذلك ، ولا سيما كان السلطان غائبا فى السفر الى الاسكندرية فماجت القاهرة لذلك .

وفى يوم الاثنين خامس عشره فرقت الجامكية فى غيبة السلطان ، وحضر تفرقتها القاضى جلال الدين نائب كاتب المماليك ، وحضر الأمير سنبل مقدم المماليك ونائبه والزينى بركات بن موسى المحتسب وغير هؤلاء ، وفرقت الجامكية عند سلم المدرج ، وكانت فى غاية الانشحات .

وفى يوم الجمعة سادس عشرينه نودى فى القاهرة بالزينة بسبب عود السلطان من ثغر الاسكندرية .

وفى يوم السبت سابع عشرينه سبق المخيم الشريف ونصب الوطاق فى الريدانية الى أن يحضر السلطان . ثم ان السلطان عدى من بر انبابة باكر النهار ، وطلع الى المكان المسمى بالسبكية ببولاق فتغدى هناك وأقام الى الظهر ، ثم ركب من هناك وشق من بين الغيطان وطلع من على قنطرة الفخر ، وطلع من هناك من على كوم الريش حتى وصل الى قناطر الأوز ، فطلع من عليها الى أن خرج الى الوطاق بالريدانية فأقام به . فلما تسامع به الأمراء أتوا اليه وسلموا عليه ، ثم جاء اليه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة فسلموا عليه ثم عادوا الى دورهم ، وكان السلطان أرسل بأن ينادى فى القاهرة بأن لا أحد من الأمراء والعسكر يلاقى السلطان الا من الوطاق الذى بالريدانية فامتثلوا لذلك .

وفى يوم الأحد ثامن عشرينه نادى الأمير الدوادار فى القاهرة بأن يقووا الزينة ، فزينت القاهرة زينة حافلة ، حتى زينوا داخل الأسواق مثل سوق الشرب والجملون والجواهرة وسوق الوراقين والباسطية وسوق الحاجب وخان الخليلى وسوق جامع ابن طولون ومرجوش وغير ذلك من أسواق القاهرة ، حتى مصر العتيقة وبولاق وغير ذلك من الأماكن .

وفى يوم الاثنين سلخ ذى القعدة رسم السلطان

بعمل احراقة نفط تحرق فى الوطاق فحرقت ليلة الثلاثاء بالوطاق ، فحصل للناس فى تلك الليلة غاية الضرر وسرق من الوطاق فى تلك الليلة من عـدة خيام ، وأخذ منها بعض قماش وسيوف وبقج ، حتى أشيع بين الناس أن الرصافيات الأربعة التى فى محفة السلطان قد سرقت تلك الليـلة لكثرة الرهج والاضطراب .

* * *

وفى يوم الثلاثاء كان مستهل ذى الحجة الحرام فتوجه الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان السلطان قد أخذ فى أسباب الدخول الى القـاهرة وصار يرتب الطلب بنفسه وهو راكب على فرسه ، فكان من ملخص أخبار الطلب أنه جر به نحوا من مائة وثمانين فرسا ، منها ببركستوانات مخمل ملون وجواغين فولاذ مكفت بذهب وفضة نحـو ستين فرسا ، ومنها خيـول بسروج ذهب وكنابيش نحو عشرين فرسا ، وكان من جملة السروج ما هو بلور مزيك بذهب وسروج عقيق مزيكة بذهب وسروج مرصعة بفصـوص مثمنة وطبول بازات فضة مينة وشىء بلور ، ومنها خيول بعراقى وسروج بغواشى حرير أصفر وطبول بازات نحو خمسين فرسا ، وجوشنان أحـدهما حرير أصفر والآخر مخمل مزهر ، وتختنان بأغشية حرير أصفر ، وست خزائن بأغشية حـرير أحمر وأصفر ومحفة بغشى حرير أصفر وهى على بغلين ، وكان به حجـورة بسروج بداوى وركب بداوى بعراقى نسيج مغربى نحو عشرين حجـرة . وكان قدام الطلب ست عشرة نوبة هجن ، منهـا ثمانى نوب هجن بأكـوار زركش وكنابيش زركش ، والبقية بأكوار مخمل ملون ، وكان قدام الطلب أربعة طبول وأربعة زمور ووراء الطلب اثنا عشر حمل كوسات ، وكان به الأفيال الكبار وهى مزينة بالصناجق والبركستوانات الحرير الأحمر ، وكان مع الكوسات العصائب السـلطانية ، وكان قدام السلطان أربع أرؤس خيل بسروج ذهب وكنابيش ذهب وريش وعليهـا رقاب ذهب وريش وفوقها غواشى ذهب بطيور ذهب عليها .

فلمـا انتهى ترتيب الطلب ركب السلطان من الوطاق الذى بالريدانية ، فركب على فرس بوز قرطاسى ، وكان عليه الشاش والقماش وكامليـة مخمـل أحمـر بسمور ، وركب ، وسرج ذهب وكنبوش ذهب وريش ، وعلى الفرس رقبة زركش ، فلما تسامعت الأمراء بركوب السلطان ركبوا وهم بالشـاش والقماش ، وجميـع الأمراء المقدمين والأربعينات والعشراوات ، والرءوس النـوب بالعصى ، ثم ان الأتابكى سـودون العجمى تسلم القبة والجلالة ورفعها على رأس السلطان ، ومشى عن يسـاره ، وركب الخليفة محمد المتوكل على الله عن يمينه وهو لابس العمامة البغدادية وعليه قباء صوف أبيض بمقلب صوف أخضر ، وركب قدامه القضاة الأربعة وهم : علاء الدين الاخميمى الشافعى وشمس الدين السمديسى الحنفى وجلال الدين بن قاسم المالكى وشـهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وقد تقـدم القول على أنهم أتوا يهنون السلطان بالشـهر وهو فى الوطاق فصادف ذلك اليوم طلوع السلطان الى القلعة فركبوا صحبته ، ولم يكن يحزر ركوب الخليفة والقضاة الأربعة مع السلطان حين جاء من هذه السفرة ، ولكن قصدوا التوجه الى السلطان ليحظوا عنـده بذلك ، وقد اتفق أن الأشرف قايتباى توجه الى ثغر الاسكندرية مرتين ، فكان يجىء من السفر ويطلع الصبح الى القلعة من بين الترب ولم يشعر به أحد من الناس ، ولكن كل أحد له اختيار بذاته .

فلما ركب السلطان من الريدانية رسم للخاصكية الذين كانوا معه فى ثغر الاسكندرية بأن يدخلوا الى القاهرة وهم لابسون آلة السلاح كما دخلوا بثغر الاسكندرية وهم لابسون ، فلبسوا آلة السلاح الزرديات والخوذ ، وألبسوا الخيول البركستوانات المخمل ، وأخذوا الرماح بالشطفات بأيديهم وركبوا وراء السلطان فى الطلب ، وكانوا نحو أربعمائة خاصكى من جلبان السلطان من أعيانهم فعد ذلك من النوادر ، وركب مع السلطان سائر المباشرين من أرباب الوظائف من المتولين والمنفصلين ، فلما تكامل الموكب مشى السلطان وكان الصنجق السلطانى فى كيس حرير أصفر فلم ينشر على رأس السلطان ، فلما وصل الى قبة الأمير يشبك التى فى رأس الحسنية لاقاه الشعراء بالشبابة السلطانية والمزاهر ، ولاقاه الطبردارية وفى أيديهم الأطبار فمشوا قدامه ، ثم لاقاه طائفة اليهود والنصارى وفى أيديهم الشموع موقودة .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن السلطان لما وصل الى رأس سوق الدريس فكان هناك حمل معلق فيه قناديل معمرة بالزيت ، فصدم به الأتابكى سودون العجمى هلال القبة الذى هو عوض عن الطير الذهب ، فسقطت تلك القناديل على القبة وكلفتة السلطان والكاملية المخمل الأحمر التى عليه فانطرطشوا بالزيت الطيب تطرطشا فاحشا ، فلم يتفاءل الناس بذلك على السلطان ، ووقع له أنه لما دخل لمدينة الاسكندرية سقط هلال القبة الذى على رأسه الى الأرض وانكسر نصفين فى وسط سوق الاسكندرية ، وكذلك رصافية المحفة سقطت الى الأرض فبادروا اليها ووضعوها على المحفة ، فلم يتفاءل الناس بهذا أيضا على السلطان . لكن وقع للأشرف قايتباى أنه لما دخل الى ثغر الاسكندرية وشق من سوقها سقط الطائر الذهب الذى على القبة الى الأرض ، فبادر الأمير يشبك الدوادار الكبير ونزل عن فرسه وركب الطائر على القبة وثبته عليها بيده وأعاده كما كان ، ثم ركب على فرسه ومشى السلطان الى أن خرج من باب البحر ، فتفاءل الناس بزوال السلطان بعد ذلك ، فلم يؤثر فيه هذا التطير ومكث من بعد ذلك دهرا طويلا . ثم ان السلطان لما جرى ذلك كظم فى الباطن وعاب على الأتابكى سودون العجمى حمل القبة والطير ، وقد حملهما على رأس السلطان بغير معرفة وكان لهما طريقة فى حملهما غير ذلك ، فاستمر السلطان فى هذا الموكب على ما ذكرناه أولا ، فكان النفير السلطانى المسمى بالبرغشى قدام الطلب ووراءه الطبول والزمور ، ثم انسحبت النوب الهجن وانسحب بعدها الجنائب الملبسة بالبركستوانات المخمل الملون ثم انسحب من بعد ذلك الخيول التى بالكنابيش والسروج الذهب والبلور والعقيق المزيكة بالذهب ، وكان فى السروج ما هو مرصع بالفصوص المثمنة ، وكان على الخيول طبول بازات بلور مزيك بذهب وشىء فضة مينة ، فكان من هذه الأصناف نحو عشرة طبول ، ثم انسحب جوشنان حرير ملون وخزائن المال وعدتهم ست بأغشية حرير أصفر وأحمر ، ثم انسحب المحفة بغشى حرير أصفر مزهر عليه بالتقاصيص الحرير ملون ، ثم وراء ذلك جاء المباشرون ثم الأمراء الطبلخانات والعشراوات ، ثم جاء الأمراء المقدمون وهم بالشاش والقماش ، ثم جاء القضاة الأربعة ، ثم مشى الشعراء والشبابة السلطانية ، ثم مشى من بعد ذلك الأمراء الرءوس النوب وبأيديهم العصى . وكان الأمير كرتباى الوالى ماشيا بالشاش والقماش ، ونقيب الجيش

وغير ذلك من الخاصكية ، ثم جاء السلطان وعليه الشـاش والقماش وقد تقدم القول على ترتيب الطلب فى الريدانية أولا .

وهـذا كان صفته لما شق من القاهرة بالموكب السلطاني وهو لابس كاملية محمل أحمر بسمور ، والخليفة عن يمينه وهو بالعمامة البغدادية وعليه قبـاء صوف أبيض ، وكان أمير كبـير سودون العجمى عن يساره رافعا القبة على رأسه والجم الغفير من الخاصكية خلفه وهم بالخوذ والزرديات وبأيديهم الرماح بالشطفات الحرير الملون ، وكان الصنجق السلطانى مطويا فى كيس حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة كانت مزينة بالزينة الحافلة ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وتركزت له الطبول والزمور على الدكاكين من باب النصر الى رأس الرملة ، فرجت له القاهرة فى ذلك اليوم رجا وابتهجت الناس أى بهجة ، ثم ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الخاص والعام .

وكان هذا الموكب من الوقائع الغريبة فى هذا العام ، وكان من المواكب المعدودة والأيام المشهودة ، قل أن بقى يقع لأحـد من ملوك مصر مثـل هذا الموكب فيمـا يأتى من الزمان ، ولم يقع للأشرف الغورى من حـين تسلطن والى اليوم أنه أوكب وشق من القاهرة هو والأمراء بالشـاش والقماش غير هذا الموكب ، فاستمر فى هذا الموكب حتى طلع من على جامع الماردينى ، من على مدرسة السلطان حسن فشق من الرملة ، وقد ماجت له الرملة فى ذلك اليوم من العسكر وكثرة الخلائق ، فاستمر على ذلك حتى دخل من باب الميـدان ، فوقف له الخليفة هناك والقضاة الأربعة ، فطوبوا له ورجعوا الى دورهم ، ودخـل السلطان الى الميـدان هو والأمراء .

وكان الأمير طومان باى الدوادار الكبير نصب له بالميدان الخيمة الكبيرة التى تنصب فى المولد ، ومد بها مدة حافلة قيـل كان مصروف تلك المدة فوق الألف دينـار ، وفرش تحت حافر فـرس السلطان الشقق الحرير من باب الميدان الى الخيمة ، وقيل نثر على رأسه خفائف الذهب والفضة .

ثم ان السلطان جلس فى الخيمة وأكل من المدة هو والأمراء ، فلما انقضى أمر المدة أحضر كوامل مخمل أحمر بسمور فخلعهـا على الأمراء العشرة الذين كانوا صحبته بثغر الاسكندرية ، وخلع على الأتابكى سودون العجمى كامليـة مخمـل أخضر بسمور ، وقيل خلع عليهم الكوامل بالريدانيـة ، وخلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور بسبب تلك المدة التى مدها ، وخلع على بعض خاصكية من السقاة من أرباب الوظائف . ثم ان الأمراء نزلوا من الصـليبة فى موكب حافل وتوجهوا الى بيوتهم ، وانقضى ذلك اليـوم على خير ، وهذه الواقعة من معظم وقائع سنة عشرين وتسعمائة قل أن يقع فى التواريخ مثلها من الوقائع الغريبة فى أخبـار السلاطين ، وقد نظمت فى ذلك هذه القصيدة التى لم ينسج مثلهـا على منوال ، وهى هذه :

سر الأنام لمقـدم السـلطان
وتبـاشروا منـه بكل أمان

وتغردت أطيـار أزهـار الربا
فوق الغصون بأطيب الألحـان

والروض أضـحى زهره متبسما
كتبسم الحسنا بضوء جمـان

وتهللت من مصر دوحـة روضها
عنـد القـدوم تهلل الفـرحان

وتضاحك الميـدان مذ غنت به
أطيـاره سـحرا على العيـدان
عاينتـه لمـا بدا فى موكب
يزهـو على كسرى أنوشروان
لمـا ارتقى عنـد الصعود لقلعة
رفعت عليـه قبـة السـلطان
طلع الخليفة والقضـاة أمامه
فى الموكب المحفوفه بالفرسـان
قـالت مراتب عزه لمـا أتى
لا تعجبوا فالسر فى السـكان
لسـكندرية كان يوم دخـوله
قد عـد ذاك اليوم بالسـلطان
ما زال أهل الثغر من فـرح به
بتبـاشر فى السر والاعـلان
لو كان ذو القرنين حيا فى الورى
لاقاه بالاكـرام والاحسـان
واختـاره ملكا يلى من بعـده
فى سـائر الأقطـار والبـلدان
فاق الملوك بمصر ممن قد مضى
أخبـاره فى سـالف الأزمـان
قد عـاد للأوطان فى بشر وفى
نصر وتأييـد وصـفو زمـان
فالله يكفيـه مؤنة حاسـد
ويطيـل أيامـا له بتهـان
ما ماس غصن فى الرياض وكللت
أيدى الغمـام شـقائق النعمان
قد ضـاء لابن اياس شعر قاله
فى الأشرف الغورى العظيم الشان
ثم الصلاة على النبى المصطفى
خـير البرية من بنى عـدنان
والآل والأصحاب ماطرد الدجا
ضوء الصـباح وعم للأكوان

وأما ما كان من ملخص أخباره عند توجهه الى ثغر الاسكندرية ، فانه نزل من القلعة وسافر فى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، فنزل أولا فى المكان المسمى بالسبكية فى بولاق ، فتغدى هناك ثم عدى الى بر انبابة ونزل بالوطاق الذى بالمنية ، فأقام به خمسة أيام ، قيل انه كان منتظرا لكتب العقبة حتى يعلم أخبار ولده وزوجته خوند ، فلما ورد عليه كتب العقبة اطمأن ورحل من المنيـة ، وقد قاسى العسكر فى التعدية ما لا خير فيه ، وجرح شخص من الخاصكية بالسيف فى وجهه من جماعة من المماليك عند التعدية بسبب ازدحام العسكر .

ثم ان السلطان توجه من المنية الى المنصورية وأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من هنـاك الى البحيرة فأقام بها يوما وليلة ، واستمر يرحل من مكان الى مكان الى أن نزل بالنجيلة فأقام بهـا يومين وليلتين ، وأحضر له الصيادون هناك تمساحا فأمر بتوسيطه بين يديه .

فلما كان يوم السبت ثالث عشره دخل السلطان ثغر رشيد فأقام به الى يوم الأحد .

ثم أوكب من هناك ودخل الى مدينة الاسكندرية فى يوم الاثنين خامس عشره ، فدخل العسكر وهو لابس آلة الحـرب باللبس الكامل ، وانسحب الطلب والجنائب كما تقدم القول على ذلك ، ثم دخلت الأمراء وهم بالشاش والقماش ، ولم يلبس السلطان الكلفتة بل لبس تخفيفة صغيرة مدورة ، وعليه كاملية محمل أحمر بسمور ، وحمل الأتابكى سودون العجمى القبة والجلالة على رأسه ، وكان السلطان اقترح على القبة هيئة جلالة ذهب عوضا عن الطير الذى كان يعمل على القبة ، فشق من

المدينة فى موكب حافل ، فنثر بعض تجار الفرنج البنادقة على رأسه بعض ذهب وفضة ، فلما شق من المدينة زينت له زينة فشروية ، وكان ثغر الاسكندرية يومئذ فى غاية التزحل والخراب .

ومن الحوادث أنه لما شق من المدينة صدم الأتابكى سودون بالجلالة التى على القبة بعض السقائف التى هناك ، فانكسرت تلك الجلالة نصفين وسقطت الى الأرض ، وكذلك لما مرت المحفة من هناك انكسرت الرصافية التى كانت عليها ، ثم ان السلطان خرج من باب البحر الملح وجلس بالمخيم الشريف ، فأرسل اليه مملوكه خدا بردى نائب الاسكندرية تقدمة حافلة ما بين ذهب عين ومماليك وقماش على حمالين وخيول وغير ذلك ، ثم قدم اليه الخواجا ابن أبى بكر تاجر السلطان تقدمة حافلة ، ولم يكن بثغر الاسكندرية يومئذ أحد من أعيان التجار لا من المسلمين ولا من الفرنج ، وكانت المدينة فى غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز بها فلم يوجد ولا الأكل ، ووجد بها بعض دكاكين مفتحة والبقية خراب لم تفتح .

وكانت الاسكندرية من أجل مدائن الدنيا حتى قيل كان بها لما فتحها عمرو بن العاص رضى الله عنه أربعة آلاف دار محكمة البناء مفروشة بالرخام الملون ، وفى كل دار منها حمام تختص بها ، وكان بها اثنا عشر ألف بقال يبيعون البقولات من بعد العصر الى العشاء ، وكان بها أربعون ألف يهودى ممن وجب عليه الجزية ، وكان بها من الروم والقبط ستمائة ألف انسان ، وكان بها مائة ألف مركب من مراكب الروم الكبار ، وشتان ما بين هذه الأخبار من هذه الأخبار التى هى بها الآن .

ثم ان السلطان ألبس الأتابكى سودون العجمى الكاملية المخمل الأحمر التى كانت عليه ، وخلع على نائب الاسكندرية والخواجا ابن أبى بكر .

وفى ذلك اليوم ثارت مماليك السلطان الخاصكية على خدا بردى نائب الاسكندرية ، وقالوا له : أنفق علينا لكل مملوك عشرين أشرفيا كما فعل قجماس نائب الاسكندرية لما دخل الأشرف قايتباى الى الاسكندرية ، فلم يعطهم شيئا فكادوا أن يخرقوا به وما سلم من القتل الا بعد جهد كبير .

ثم حضرت التقادم الحافلة للسلطان من الكشاف ومشايخ العربان بالغربية وهى ما بين ذهب عين وخيول وأبقار وأغنام وغير ذلك ، ففرق منها على الأمراء ممن كان صحبته أشياء كثيرة من الخيول والأبقار والأغنام ، فلما بات بالمخيم تلك الليلة وقدوا له مآذن المدينة ، وعلقوا على شراريف الصور كل واحدة قنديل ، فلما أصبح السلطان ركب وضرب الكرة على ساحل البحر الملح هو والأمراء الذين كانوا صحبته ، ثم توجه وزار الصالحين الذين هناك ، ثم توجه الى البرج الذى أنشأه الأشرف قايتباى فطلع فى البرج هو والأمراء ورموا قدامه فى ذلك اليوم بالمكاحل والمنجنيق ، ثم توجه من هناك وكشف على الأبراج التى بثغر الاسكندرية وعرض ما فيها من السلاح والمكاحل .

وفى ذلك اليوم أنعم السلطان على مملوكه يوسف الزردكاش الثانى بامرة طبلخاناه .

ثم فى ليلة الأربعاء سابع عشره أحرق السلطان فى الوطاق احراقة نفط حافلة على شاطىء البحر الملح .

ثم فى يوم الأربعاء سابع عشره رحل السلطان

عن ثغر الاسكندرية ا فكان مدة اقامته بها يومين وليلتين .

ففي ذلك اليوم الذى رحل فيه أرسل محمد مهتار الطشتخاناه الى الظاهــر قانصوه الذى فى البرج والى قيت الرجبى الذى فى البرج ورسم له بأن يكسر قيودهما ، وأرسل على يده لكل واحد منهما ألف دينـــار وبدنين سمور وبدنين سنجاب وثوبين بعلبكى وغير ذلك من القماش الفــاخر ، وأرسل يقول لهما : « لا تجتمعوا على أحد من خلق الله ولا تكاتبوا أحدا من الأمراء فما يحصل لكما من السلطان خير » . فباسوا له الأرض فى البرج وأجابوا بالسمع والطاعة واستمروا فى البرج بغير قيود . ثم رحل السلطان عن ثغر الاسكندرية بعد اقامته فيها يومين وليلتين ، ثم توجه الى دمنهور فأقام بها يوما وليلة ، ثم توجه من بعد ذلك الى النجيلة عند عوده أيضا .

ومن الحوادث أنه لما أقام فى النجيلة غرق بها شخص من الخاصكية فى البحر فمات هناك .

ثم توجه منها الى الطرانة فأقام بها يوما وليلة ، ثم نزل بالمنصورية وأرسل يقول للأمير طومان باى الدوادار بأن ينادى فى القــاهرة بأن لا أحــد من العسكر يلاقى الســلطان الا اذا نزل بالريدانية فى الوطاق ، فامتثلوا ذلك ، ثم ان السلطان رحل من المنصورية الى المنية وعدى من هناك وحضر الى الوطاق بالريدانية ، وهذا ما كان من ملخص أخباره فى هذه السرحة .

وكان أول من دخــل الى ثغــر الاسكندرية من السلاطين الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون وذلك فى سنة سبع وستين وسبعمائة وكان سبب دخوله الى ثغر الاسكندرية أن الفرنج طرقوا الثغر على حين غفلة وملكوا المدينة ... فلما جاءت الأخبار بذلك خــرج السلطان على جرائد الخيل وصحبته الأتابكى يلبغا العمرى وجماعة من الأمراء ، فلما بلغ الفرنج مجيء السلطان رحلوا عن الثغر بعــد ما نهبوا المدينة وقتلوا من أهلها ما لا يحصى ، فدخل السلطان ورد النــاس الى المدينة وطمنهم ورجع بسرعة الى مصر .

ثم دخلها ثانى مرة فى سنة احــــدى وسبعين وسبعمائة ... ففى هذه المرة أوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه ، وكان خليــل بن عرام نائب الاسكندرية ففرش له الشقق الحــرير من باب رشــيد الى باب البحــر الملح ، ونثر على رأسه خفائف الذهب والفضــة وكان له يوم مشــهود بالاسكندرية .

ثم دخلها من بعد ذلك الملك الناصر فرج بن الملك الظاهر برقوق فى سنة أربع عشرة وثمانمائة ، فأوكب بها موكبا حافلا وحملت القبة والطير على رأســه . ومما وقع له أنه لمــا شــق من مدينــة الاسكندرية وقف له بعض تجــار المغاربة بقصة يشكون فيها من جــور القباض ، فلما قرأ تلك القصة ، رسم بابطال ما كان يؤخذ منهم من المكوس المحدثة وكتب لهم بذلك مرسوما شريفا فارتفعت له الأصوات بالدعاء .

ثم دخلها من بعد ذلك الأشرف قايتباى فى سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة ، وأوكب بها وحملت القبة والطير على رأسه . فلما شق المدينة نثر عليه بعض تجار الفرنج البنادقة ألف بندقى ذهب فتزاحمت الناس عليه يلتقطون الذهب ، فكاد السلطان أن يسقط من على ظهر الفــرس حتى أدركه تمراز الشمسى رأس نوبة النوب فضرب النــاس حتى أفسحوا للسلطان ومشى .

ثم دخلها مرة أخرى فى جمادى الأولى سنة أربع

وثمانين وثمانمائة ، فلم يوكب بها مثل المرة الأولى .
وكان سبب دخوله هذه المرة لأجل انهاء عمارة البرج الذى أنشأه هناك فكشف عليه لما كملت عمارته ورجع بسرعة ، وسافر هذه المرة من البحر وكان أيام النيل والأراضى مغمورة بالمياه فأقام بثغر الاسكندرية ثلاثة أيام ، وكذلك فى المرة الأولى . ثم دخلها من بعد ذلك الملك الأشرف قانصوه الغورى فى سنة عشرين وتسعمائة كما تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء ثانى الشهر ، نزل السلطان صبيحة يوم طلوعه وشق من الصليبة وهى مزينة ، ثم توجه الى بولاق وكشف على عمارته التى هناك ، ثم رجع من على باب البحر ودخل من باب القنطرة وتوجه الى البندقانيين وكشف على عمارته التى هناك وكان فى نفر قليل من المماليك . وأشيع عنه أنه قال للعوام : قووا الزينة ولا تفكوها لبعد مضى عشرة أيام ، وجعل يقول لهم ذلك بنفسه ، فعاب عليه الناس ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثه ، ثارت المماليك الجلبان على السلطان بالقلعة ورجموا الأمراء من الطباق ، وقصدوا ينزلون لنهب الزينة ، فأغلق عليهم السلطان أبواب القلعة وباب السلسلة وباب الميدان ، فلما بلغ الناس ذلك ارتجت القاهرة وفكوا الزينة فى لمح البصر ، ووزع الناس الأمتعة فى الحواصل ، وكثر القال والقيل بين الناس ، وقعد الأمراء المقدمون فى بيوتهم وأغلقوا أبوابهم . وكان الأتابكى سودون العجمى مسافرا نحو بلاده وقد سافر بعد حضوره مع السلطان . فلما جرى ذلك تنكد السلطان لهذه الواقعة ، وبلغه أن المماليك يرومون منه نفقة لكل واحد منهم مائة دينار حلاوة السلامة . وشرع المماليك القرانصة يورون المماليك الجلبان على ذلك ، وكان العسكر جميعه غير راض عن السلطان بسبب تعطل اللحم ، فان العسكر قاطبة من نحو سبعة أشهر لم يصرف لهم فيها زبدية لحم ، وحصل لهم بسبب ذلك الضرر الشامل . وكانت الدواوين فى غاية الانشحات لكثرة العسكر فى هذه الأيام ، ولا سيما ما جدده السلطان من العسكر فى الطبقة الخامسة . وكانت الاقطاعات خرابا والبلاد معطلة من جور الكشاف ومشايخ العربان وهجاج فلاحى المقطعين عن البلاد ، فصارت المماليك القرانصة ينتظرون حركة مثل هذه الحركة فما صدقوا بهذه الحركة

وفى بقية ذلك اليوم غلقت الأسواق والدكاكين وارتفعت البضائع منها ، ثم فى بقية ذلك اليوم — قرب المغرب — نزل طائفة من المماليك الى الصليبة ونهبوا بعض بضائع من الدكاكين ، ثم ثم ان المماليك قبضوا على شخص من العوام وقالوا له : نادى عن لسان السلطان أن النفقة مع الجامكية لكل مملوك من المماليك السلطانية مائة دينار . فما وسع ذلك الرجل الا أنه نادى لهم كما قالوا له ، ولم تكن هذه المناداة من قبل السلطان .

وفى يوم الجمعة رابعه أشيع أن شخصا من مماليك السلطان يسمى وردبش ، وهو أمير عشرة تدلى بحبل من طبقة الميدان لما ثارت المماليك فانقطع به الحبل ، فسقط الى الأرض فمات من يومه . وقد صارت المماليك فرقتين ، فرقة مع السلطان وفرقة عليه ، فلما كان وقت صلاة الجمعة لم يخرج السلطان ولم يصل صلاة الجمعة ، ولم يطلع من الأمراء غير ثلاثة أمراء مقدمين ، وقد اضطربت أحوال السلطان من بعد مجيئه من هذه السفرة وتكدر عيشه ، وطرقته عين عقيب ذلك الموكب العظيم الذى طلع فيه ، فكان كما يقال فى

أمثال الصادح والباغم :

لا تغتــرر بالحفظ والســلامه
فانمــا الحيــاه كالمــدامه
والعمر مثل الكاس والدهر القدر
والصفو لا بد له من الكدر

ومن أمثاله أيضا

فى لمحــة العــين بــكاء وضحك
وناجذ باد ودمــع منسفك

وفى يوم السبت خامسه ابتدأ فيــه السلطان بتفرقة الأضحية على العسكر ومن له عادة .

وفى يوم الاثنين سابعه أشيع أن السلطان رسم للوالى بأن يتسلم جانى بيك الأستادار ويعاقبه على بقية المال الذى قرر عليــه ، فانه كان قرر عليــه ثلاثة وثلاثين ألف دينار أورد منها ستة عشر ألف دينار ، فباع بيته وخيوله وقماشه ولم يغلق ذلك القدر الذى قرر عليه ، فأظهر العجز فلم يقبــل له السلطان عذرا فى ذلك وسلمه للوالى ، فأشــيع أنه قد عصر فى أكعابه وضرب كسارات على ركبه ، واستمر تحت العقوبة الى الآن . وكان جانى بيك هذا من الظلمة الكبار اذا ظفر بأحــد من الناس لا يرحمــه — ولا سيما ما فعــــله فى ولايتــه للأســــتادارية ، وما جرى على العســـكر بسبب الحمايات وغيرها — فلما جرى له ذلك لم يرث له أحد من خلق الله تعالى .

وفيه توفى يونس سر آخورى السلطان ، وكان قبل ذلك فى خدمة الأتابكى تمراز الشمسى ، وكان حسن السيرة لا بأس به

وفى يوم الثلاثاء ثامنه جلس السلطان بالميدان وفرق بقيــة الأضحية ، لكنه شح فى هذه السنة وضاقت عينه ، فقطع ضحايا الزوايا والمزارات التى بالقرافة وغــيرها من زوايا الأعاجم ، فحصل لهم كسر خاطر بسبب ذلك .

ثم انه رسم لبعض زوايا بالقرافة بصرر فيهـــا دراهم يسيرة مثل مقام الامام الشـــافعى والامام الليث رضى الله عنهما وبعض مزارات بالقــرافة ، وتوقف فى البقية ، ثم قطع ضحايا الفقهاء والمباشرين الذين لهم ضحايا فى الديوان والذخــيرة فقطــع أضحية الذخيرة وأبقى الذى فى الديوان . وكانت الأضحية فى هذه السنة فى غاية الغلو فى الســعر وهى مشحوتة لم يظهر منها شىء بسبب تشويش المماليك على الفلاحين ، فقل الجالب بسبب ذلك وكانت الأحوال فى هذه السنة غير صالحة .

وفى يوم الخميس عاشره كان عيد النحر ، وكان الســلطان فى غاية النــكد من مماليكه ، وكان الأتابكى سودون مسافرا فى اقطاعه وقد هرب من تفرقة الأضحية ، وكذلك الأمــير تمر الزردكاش ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد فى الجامع ، ثم ركب من هناك ودخل الحوش ولم يضح فى الايوان على العادة القديمة . فلما دخل الحوش لم يذبح بيده شيئا فى ذلك اليوم ، ورسم للأمير مغلباى الزردكاش ويوسف الزردكاش الثانى بأن يذبحا عنه ، ثم جلس فى الحوش ساعة سيرة وقام ودخل الدهيشة واحتجب عن الناس

وفى يوم الاثنين خامسه [1] أشيع بين الناس بأن الأمير طومان باى الدوادار ضمن للمماليك الجلبان بأن السلطان ننفق عليهم فى شهر صفر لكل مملوك مائة دينار ، فرضوا بذلك وخمدت الفتنة قليلا . ثم ان السلطان نادى للناس فى ذلك اليوم بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن أحدا لا يكثر كلاما فيما لا يعنيه ، وأن الأسواق تفتح على العادة وأن لا أحد يشوش على أحــــد من المتسببين ، وكانت الأسواق جميعها مقفلة من حين وقعت هذه الحركة بسبب المماليك ، فلما أشهر المناداة بذلك

(١) خامسه يوم سبت .

ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس وخمدت تلك الاشاعات بالركوب على السلطان .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره نزل السلطان الى الميدان وجلس به وأنفق على المماليك الكتابية جامكية هذا الشهر ، ثم أحضر أغوات الطباق الأعيان ووبخهم بالكلام وقال لهم : « ان كان لكم قصد أن تسلطنوا أحدا غيرى فأنا أنزل له عن الملك وأرسلونى فى أى مكان تختارونه » . فباسوا له الأرض وقالوا : ما لنا أستاذ الا أنت وما نموت الا تحت رجليك وما لنا حاجة بنفقة من السلطان وقد رضينا بلا نفقة ان شئت تعطى أو لا تعطى . فقال السلطان : « خلى المشاعلى ينادى بأن النفقة بطالة » . فلم يطلع الوالى ولا المشاعلى فى ذلك اليوم ، فقام الزينى بركات بن موسى المحتسب ونادى بنفسه فى الميدان بين العسكر بأن معاشر الأمراء والعسكر المنصور حسبما رسم المقام الشريف بأن النفقة على العسكر بطالة . ثم بعد ذلك طلع المشاعلى فقال له السلطان : « نادى فى القاهرة بأن النفقة بطالة » . فنزل الزينى بركات بن موسى والمشاعلى قدامه ينادى للعسكر بأن النفقة بطالة ، وقد طمعت آمال المماليك بالنفقة وما يعلم ما وراء ذلك الا الله .

وفى يوم الخميس سابع عشره ، جلس السلطان فى الحوش على المصطبة وأنفق الجامكية على العسكر ، وأشيع أن فى تلك الليلة ثارت المماليك بالقلعة بعد العشاء ، فثار المماليك الذين فى طبقة الطازية على المماليك الذين فى طبقة الزمامية حتى اتقعوا بالدبابيس وقالوا : « انتو عملتوا لكم وجه عند السلطان وقلتوا ما لنا حاجة بنفقة فتصيروا انتو أحبابه ونحن نصير أعاديه ، فأحق ما نكون ونحن وانتوا على كلمة واحدة ، وما نرجع عن طلب النفقة لكل مملوك مائة دينار » . وصمموا على ذلك ، وصار طائفة من المماليك مع السلطان وطائفة عليه .

فلما سمع الناس ذلك شرعوا يوزعون قماشهم وأمتعتهم فى الحواصل ، وكذلك السوقة وزعوا ما فى دكاكينهم من البضائع ، ولهج الناس باقامة فتنة كبيرة ، والأمر فى ذلك لله تعالى .

وفى يوم الجمعة ثامن عشره ، ثارت المماليك الجلبان بالقلعة بعد صلاة الجمعة ونزل طائفة منهم الى الصليبة فنهبوا ما وجدوه ، واستمروا على ذلك مهما لاح لهم يخطفوه ، فباتوا على أن يصبحوا ينهبوا المدينة وبيوت الأمراء ، وكان أكثر الأمراء وزع قماشهم .

فلما أصبحوا يوم السبت أشيع بأن النفقة عمالة لكل مملوك خمسون دينارا ، وأن القرانصة ما يعطيهم شيئا ، فمن المماليك الجلبان ما رضى بالخمسين دينارا ومنهم من قال : ما نأخذ الا مائة دينار ، وأشيع بأن المماليك القرانصة والسيفية لم ينفق عليهم شىء ، واستمر القيل والقال عمالا بين الناس وقد لهجوا باقامة فتنة كبيرة .

وفى يوم الأحد عشرينه نزل السلطان وسير نحو المطرية ، ثم عاد من يومه الى القلعة ، وشق من القاهرة فى ذلك اليوم ، وسكن أمر حركة المماليك قليلا من حين نادى لهم بأن النفقة فى شهر صفر مع الجامكية لكل مملوك خمسون دينارا .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه[1] رسم السلطان بسجن جانى بيك الأستادار الذى كان دوادار طراباى ، فتوجهوا به الى المقشرة وهو راكب على بغلة فبات بالمقشرة ليلة واحدة ثم أعادوه الى بيت

(1) فى الاصل : الاثنين ثانى عشرينه . وفى أيام هذا الشهر اضطراب فى الاصل صححناه فى طبعتنا .

الوالى ثانيا ليعاقبه على المال الذى تأخر عليه . وكان صحبته لما أدخلوه المقشرة ابن شمس الدين بن عوض ، وقد تقدم القول على أن والده ابن عوض مات وهو تحت العقوبة ، وصار ابنه هذا تحت العقوبة حتى يقر بالمال الذى قرر على أبيه ، وكان صحبتهما شخص من أولاد ابن عمر مشايخ عربان الصعيد ، فباتوا جميعا بالمقشرة ليلة واحدة ثم عادوا بهم الى بيت الوالى ليعاقبهم على المال الذى تأخر عليهم .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشرينه نزل السلطان وسير الى نحو بولاق وكشف على العمارة التى هناك ، ثم عاد الى القلعة من يومه وشق من الصليبة ذهابا وايابا .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرينه دخل جماعة من العسكر من المماليك السلطانية ممن كان مسافرا بحلب فى التجريدة ، وقد أرسل لهم السلطان مراسيم بالمجىء فما صدقوا بذلك ، وقد قاسوا فى هذه السفرة ما لا خير فيه من الغلاء الذى وقع بحلب ، فباعوا خيولهم وسلاحهم وقماشهم حتى أكلوا بهم ، وما قاسى منهم أهل حلب خيرا ... نزلوا فى دورهم ونهبوا قماشهم وفسقوا فى حريمهم ، وشوشوا على سوقة حلب وأخذوا بضائعهم منهم غصبا ، حتى قيل ان بعض المماليك الجلبان آزال بكارة بنت صغيرة عمرها نحو ثلاث سنين ، وأشيع أنها ماتت ولم يصح موتها ، وقيل كانوا يهجمون على النساء فى الحمامات ويخطفونهن منها غير ما مرة ، وفعلوا أشياء فاحشة من هذا النمط ما فعلها من تقدمهم من المماليك السلطانية ، وثاروا على الباش قانى باى أمير آخور كبير وبهدلوه، وأخرقوا به عدة مرار وما سلم من القتل الا سلامة، وخربوا حلب عن آخرها من الظلم والجور ، وكان ترك رواحلهم الى حلب أصوب وما أفاد من رواحهم شيئا بل أفسدوا ما أصلحوا وما حصل برواحهم نفع قط .

وفى يوم الخميس رابع عشريه حضر مبشر الحاج ، وقد جد فى السير فكانت مسافته فى الطريق اثنى عشر يوما ، فأخبر بالامن والسلامة ، وأن ابن السلطان طيب وكذلك خوند وبقية الحجاج طيبون ، وكذلك القاضى كاتب السر محمود ابن أجا طيب فى خير وسلامة ، وكان أشيع موته فما صح ذلك ، ففرح أكثر الناس بسلامته . وكان محببا للناس قاطبة ، وأخبر المبشر بأن عيد النحر كان هناك يوم الجمعة . ثم ان المبشر طاف على الأمراء والمباشرين وأعيان الناس وأخبرهم بسلامة ابن السلطان فأفيضت عليه الخلع السنية من الأمراء وأعيان الناس قاطبة .

ومما أشيع من الأخبار فى كتب الحجاج أن ابن السلطان لما دخل الى مكة لاقاه السيد الشريف بركات أمير مكة ، فلما وصل ابن السلطان الى باب المعلة دخل مكة فى موكب حافل ، وأشيع أن الشريف بركات نزل عن فرسه ومسك بأزكة لجام ابن السلطان ومشى عن ميمنته ، ومشى الأمير طقطباى امير ركب المحمل عن يساره وهو ماسك بأزكة اللجام ، ومشى أمير ركب الأول ، ثم لاقاه قضاة مكة وأعيان التجار فمشوا قدامه حتى وصل الى باب السلام ، فعد ذلك من النوادر .

ثم ان الشريف بركات أرسل الى ابن السلطان تقادم حافلة ما بين ذهب عين وقماش ورقيق وغير ذلك ، وأرسل لخوند زوجة السلطان أضعاف ذلك ، ثم قدم اليه قضاة مكة وأعيان التجار الذين بها التقادم الحافلة ، وكذلك الأمير حسين نائب جدة ، فدخل على ابن السلطان وخوند من التقادم الحافلة ما لا يحصى ، وأشيع أن الشريف بركات واصل صحبة ابن السلطان بركب المحمل ، وقيل

ان خوند زوجة السلطان لما دخلت الى مكة حملت محفتها على أكتاف جماعة الشريف بركات من باب المعلة الى باب السلام ، هكذا أشيع فعد ذلك من جملة سعد السلطان . وأشيع في كتب الحجاج بأن الغلاء بمكة فى سائر البضائع ، وأن الشاشات والأزر لم يوجدا بمكة لعدمهما جدا .

وفى يوم الجمعة خامس عشرينه توجه الأمير طومان باى الدوادار الى الخانكاه وقد بلغه أن مماليك جراكسة وصلوا صحبة القفل ، وأن له أقارب جراكسة صحبه المماليك ، وأشيع أن السلطان واصل له أخ جركسى صحبة القفل ، فخرج الأمير الدوادار بسبب ذلك .

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة عشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير وسلامة ، وكانت سنة مباركة هادئة من الفتن ، وأخصب فيها الزرع ووقع فيها الرخاء فى سائر الغلال والبضائع ، ولم يقع فيها الطاعون بمصر ولا أعمالها ، وحصل فيها نصرة عظيمة لابن عثمان ملك الروم على اسمعيل الصفوى ملك العراقين ، وخرجت من مصر تجريدة بسبب حفظ مدينة حلب ورجع العسكر وهم سالمون من تلك الفتنة .

* * *

سنة احدى وعشرين وتسعمائه (١٥١٥م) :

فيها فى المحرم ، افتتاح العام كان يوم الخميس المبارك ، وكان خليفة الوقت يومئذ المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب ، والسلطان يومئذ الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره .

وأما القضاة الأربعة فكان يومئذ القاضى علاء الدين الأخميمى الشافعى والقاضى شمس الدين السمديسى الحنفى والقاضى جلال الدين بن قاسم المالكى والقاضى شهاب الدين الفتوحى الحنبلى .

وأما الأمراء المقدمون فكان عدتهم يومئذ سبعة وعشرون أميرا مقدم ألف وهم : الأتابكى سودون العجمى أمير كبير ، وكانت امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس ، والأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدواداري رأس نوبة كبير ، والأمير طومان باى دوادار كبير ابن أخى السلطان ، والأمير أنص باى ابن مصطفى حاجب كبير ، وأما بقية الأمراء المقدمين غير أرباب الوظائف فالأمير قانصوه بن سلطان جركس ، والأمير تمر الزردكاش ، والأمير أرزمك الناشف والأمير طقطباى نائب القلعة ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزبك المكحل والأمير تانى بيك النجمى ، والأمير تانى بيك الخازندار ، والأمير نوروز أخو يشبك الدوادار ، والأمير جان بلاط الموتر ، والأمير علان الدوادار الثانى ، والأمير خاير بيك كاشف الغربية ، والأمير بيبرس قريب السلطان ، والأمير يخشباى والأمير قانصوه روح لو نائب قطيا ، والأمير قانصوه أبو سنة الذى كان والى القاهرة ، والأمير أبرك مملوك السلطان ، والأمير خدا بردى نائب الاسكندرية مملوك السلطان ، والأمير خاير بيك العلائى الشهير بالمعمار وهو آخر من قرر مع المقدمين ، والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى .

وأما الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات فازداد منهم جماعة وانتقص منهم جماعة مايحضرنى اسماؤهم الآن .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين فالقاضى كاتب السر محمود بن أجا صاحب ديوان الانشاء الشريف ، ونائبه الشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيوش المنصورة ، وعلاء الدين بن الامام ناظر

الخواص الشريفة ، والجمالي يوسف البدرى وزير الديار المصرية ، وشرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب المماليك أيضا ، والأمير طوماز باى الدوادار متكلما فى الأستادارية وغير ذلك من الوظائف ، والقاضى أبو البقا بن المستوفى ناظر الاسطبل الشريف ، وبقية المباشرين على حكم السنة الخالية ، وكانت وظيفة الزمامية شاغرة من حين توفى الأمير عبد اللطيف الزمام ، وبقية أرباب الوظائف على حكم السنة الخالية .

فكان مستهل السنة يوم الخميس المبارك ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالعام الجديد ، وكان السلطان فى الميدان ، وكان قبل ذلك بأيام نادى للعسكر أصحاب الطبقة الخامسة بالعرض ، وقد أشيع أنه يرسل تجريدة الى بلاد الهند بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند ، فلما طلع العسكر وعرضهم فى ذلك اليوم فلم يقع فيه كتابة ولا تعيين بل قال لهم : اطلعوا يوم الأحد أيضا .

وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند سليم شاه ابن عثمان ملك الروم وعلى يده مكاتبة من سليم شاه للسلطان ، فكان من مضمون تلك المكاتبة أن شخصا من أولاد شاه سوار بن ذالغادر حصل بينه وبين عمه على دولات تشاجر بسبب بلاد أبيه فحنق منه وتوجه الى ابن عثمان ، فتعصب له سليم شاه وأرسل يسأل السلطان فى أن يعطى ابن سوار بلاد أبيه التى بيد على دولات ، فلم يوافق السلطان على ذلك ، وتنكد لهذا الخبر فى ذلك اليوم الى الغاية ، واشتور مع الأمراء فى هذا الأمر ، وربما تتسع هذه الفتنة بين ابن عثمان والسلطان ، والأمر فى ذلك الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع من الأخبار بأن ابن عثمان أمد ابن سوار بعساكر وتوجه على حين غفلة وكبس على عمه على دولات وحصل بينهم مقتلة مهولة قتل فيها ابن على دولات وابن ابنه وقتل جماعة كثيرة من عسكره فى المعركة ، وأن على دولات اختفى فى قلعة زمنطوا ، وأن ابن عثمان ما هو راجع عن على دولات ، فشق على السلطان هذه الأخبار ، وأشيع أن ابن عثمان أظهر فى مكاتبته التى أرسلها للسلطان غاية العظمة وقال فيها : ان مقامنا الشريف ، وقال فى حق السلطان : مقامكم العالى ، وهذا من نوع الاستخفاف بالسلطان ، وكان سليم شاه بن عثمان هذا عنده جهل زائد ويحب اقامة الفتن ، وكان سفاكا للدماء فقتل اخوته وأولادهم وكان فيهم من هو مرضع ، عما قيل من جهله .

فلما كان يوم الجمعة ثانى الشهر ، صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلا هو والأمراء وضربوا مشورة فى أمر ابن عثمان وعلى دولات ، وأشيع أن السلطان عين فى ذلك اليوم أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب ، وأشيع أن السلطان أرسل يقول للأمراء الذين فى حلب : لا تجوا حتى ننظر ماذا يكون من أمر ابن عثمان وعلى دولات . ولكن غالب العسكر من المماليك السلطانية دخل الى مصر ، وكان السلطان قبل ذلك بعث اليهم مراسيم بالمجىء الى مصر لما قلقوا من أمر الغلاء الذى بحلب ، ثم بعد ذلك طرقه هذه الأخبار فندم على حضور العسكر ، وكثر فى ذلك القيل والقال بين الناس عن أمر مجىء العسكر حتى أشيع عودهم الى حلب والأحوال غير صالحة .

وفى يوم السبت ثالثه أنفق السلطان على جماعة الأمراء الذين لهم مرتبات على الذخيرة ، وكان لهم من حين توفى الأمير خاير بيك الخازندار لم يصرف لهم شىء ، فغلق لهم فى ذلك اليوم ما كان منكسرا لهم من المرتبات .

وفى يوم الأحد رابعه نزل السلطان الى الميدان وعرض عسكر الطبقة الخامسة وقال لهم : اعملوا يرقكم الى السفر فى أول ربيع الأول ، وسافروا الى الهند بسبب تعبث الفرنج فى بحر الهند .

وقيل انه وعد الذى له جامكية ألف وخمسمائة درهم بأن يكملها له ألفى درهم اذا بيضوا وجوههم فى هذه السفرة وتصير جامكية الكل ألفى درهم ، فارتفعت الأصوات له بالدعاء فى ذلك اليوم ، وقيل انه كتب عسكر الطبقة الخامسه جميعها وهم ما بين أولاد ناس ومماليك وتراكمة وغير ذلك .

وفى ذلك اليوم خرج القاضى شهاب الدين بن الجيعان وتوجه الى العقبة لأجل ملاقاة ابن السلطان وخوند والقاضى كاتب السر ، فخرج وصحبته جماعة من المماليك السلطانية وغير ذلك من الأعيان ، وكان صحبته أشياء حافلة من مأكل ومشرب برسم المدات التى تعمل هناك ، وحلوى وفاكهة وبطيخ صيفى وغير ذلك من الأشياء الملوكية .

وفى يوم الاثنين خامسه جلس السلطان بالميدان ونادى للعسكر الذى جاء من حلب بأن يطلع الى القلعة ويقابل السلطان وعليه أمان الله تعالى ، وكان العسكر من حين حضر من حلب وهو مختف فى البيوت لم يظهر منهم أحد .

وفيه حضر للسلطان شخص من بلاد جركس زعموا أنه ابن أخيه ، فطلع فى ذلك اليوم وقابل السلطان وكان رجلا كاملا شابا مستدير اللحية ، وكان يقرب للأمير الدوادار أيضا .

وفى يوم الخميس ثامنه حضر الى الأبواب الشريفة طراباى نائب صفد بطلب من السلطان ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وقيل كان أصله من مماليك يشبك بن حيدر .

وحضر عقيب ذلك قاصد من عند على دولات وعلى يده مكاتبة للسلطان يذكر فيها ما وقع له مع ابن أخيه سوار ، وأن ابن عثمان منعصب له وقائم معه ، والأمر على ما يراه السلطان . وكان سبب حضور نائب صفد قيل انه وقع بينه وبين أمير كبير حتى يرى الظالم من المظلوم فيحكم بينهم بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

وأشيع أن الشهابى أحمد بن الجيعان لما خرج الى ملاقاة ابن السلطان من العقبة أرسل صحبته السلطان خلعة سنية الى السيد بركات أمير مكة ، وقد بلغ السلطان حضوره صحبة المحمل مع ابن السلطان وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم السبت عاشره طلع قاصد على دولات وقابل السلطان ، فلما قرأ مكاتبته جمع الأمراء المقدمين قاطبة والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وقرأ عليهم مكاتبة على دولات ، ولم ينشرح السلطان فى ذلك اليوم ولا الأمراء لهذه الأخبار التى وردت عليه من على دولات بسبب ابن عثمان ، وأنه ما هو راجع عن على دولات وأظهر التعصب لابن سوار ، فأقام الأمراء عند السلطان الى قريب الظهر وهم فى ضرب مشورة بسبب ابن عثمان وعلى دولات . وأشيع أن السلطان عين أربعة من الأمراء المقدمين يتوجهون الى حلب ويقيمون بها زيادة على ما هناك من الأمراء المقدم ذكرهم ، حتى يروا ما يكون من أمر ابن عثمان .

وفى هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا كمال الدين ابن قوسان ، وكان عشير الناس بشوشا مستغرقا

فى ملاذ نفسه ، وكان لا بأس به ، فمات وقد قارب السبعين سنة من العمر .

وفى يوم الأحـد حادى عشره نزلَ السـلطان وعدى الى المقياس وبات به تلك الليلة وانشرح هناك ، وقيل انه لم يبت بل أقام به الى بعد العصر وهو فى أرغد عيش من مأكل ومشرب ، ثم عاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم الاثنين ، ثانى عشره ، عين السلطان خاصـكيا يقال له جانم ، وأصـله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان من ذوى العقـول ، بأن يتوجه قاصـدا الى ابن عثمان ، وكتب على يده مطالعة الى ابن عثمان بالجواب عن مطالعته بما تقتضيه الآراء الشريفة فى أمر على دولات وابن أخيـه سوار ، وقرر معه اذا سـافر يخرج على جرائد الخيل حتى يعود بسرعة الجواب عن ذلك .

وفى يوم الثـلاثاء ثالث عشره أشـيع وصول ابراهيم بن السكر والليمون الى بندر الطور ، وكان قد تغير خاطر السلطان عليه فنفاه الى مكة فأقام هناك نحو ثلاث عشرة سـنة ، فلما حصل للسلطان ذلك التوعك فى عينه كما تقدم ورسم باطلاق من فى السجون فتكلم بعض المباشرين مع السلطان وشفع فى عود ابراهيم هذا الى الديار المصرية ، فأجاب السلطان الى ذلك ، وكتب له مراسيم بالحضور الى مصر ، فلم يحضر الا بعد أشهر ، وقد جاء من البحر الملح فوصل الى الطور على ما قيل ، وقد قاسى شدائد ومحنا عند عوده وأشيع أن أولاده وعياله وجميع ما يملكه غرقوا فى البحر ، وأمره الى الله تعالى .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه توفى القاضى ابن بيرم أحد نواب الحنابلة ، وهو أحمـد بن على بيرم ، وكان بينه وبين وفاة أخيـه شمس الدين دون السنة ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الأربعـاء حادى عشرينه نزل الحاج بالبركة ، فنزل سيدى عمر بن الملك المنصور أمير ركب الأول ، ونزل الأمير طقطبـاى أمـير ركب المحمل ، ونزل سيدى ابن السلطان وخوند زوجة السلطان ، وحضر صحبة ابن السلطان السـيد الشريف بركات أمير مكة وولـده وصهره عرعر ، وحضر القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، وحضر شيخ العرب عبد الدائم بن بقر وأخوه بيبرس ، وغير ذلك من أعيان الحجاج ، فخرجت الأمراء قاطبة الى تلقيهم وأعيان الناس ، فكان لدخولهم الى بركة الحاج يوم مشهود ، ولاقاهم القضـاة الأربعة فأقام ابن السلطان فى بركة الحاج الى بعد العصر وركب من هناك ودخل الى القاهرة فنزل فى مدرسة أبيه وبات بها ، وكذلك أمراء الحاج .

وأما خوند زوجـة السلطان فانها طلعت الى القلعة فى المحفة تحت الليـل وحولهـا المشـاعل والفوانيس ، فطلعت من باب الدرفيل ولم يشعر بها أحد من الناس ، ودخل القاضى كاتب السر الى بيته تحت الليل ، وكان عليلا ، فدخل فى محفة الى داره .

فلما كان يوم الخميس ثانى عشرين المحرم جلس السلطان بالحوش وعمل الموكب بالشاش والقماش وحضر الأتابكى سودون العجمى أمير كبير وسائر الأمراء المقدمين غيرهم وأرباب الدولة قاطبة . ثم ان ابن السـلطان ركب من مدرسة أبيـه التى بالشرابشـيين وركب قدامه الشريف بركات أمير مكة وولده وصهره وهم بكوامل مخمل أحمـر بسمور ، وكان السلطان أرسل تلك الكوامل الى الشريف صحبة الشهابى أحمـد بن الجيعان الى

العقبة لما خرج الى ملاقاة سيدى ابن السلطان ، فلبس الشريف بركات وولده وصهره تلك الكوامل عند طلوعهم الى القلعة ، ولبس سيدى ابن السلطان كاملية تماسيح على أحمر ، فلاقاهم رءوس النوب وهم بالشاش والقماش ، واستمروا على ذلك حتى وصلوا الى سلم المدرج ، وكان قدامه الشريف بركات وأمراء الحاج ، فلما وصلوا الى سلم المدرج نزل ابن السلطان من على الفرس ، وكان تحتـه فـرس بوز بسرج وكنبوش ، وكذلك الشريف بركات وأمراء الحاج ، من عند المكان الذى تنزل عنده الأمراء المقدمون ، ثم طلعوا بالفرس ثانيا الى عند المصطبة التى يجلس عليها نائب القلعة ، فركب ابن السلطان من هناك ثانيا ، ومشى قدامه الشريف بركات ومسك بأزكة لجامه من على الميمنة ومسك بأزكة اللجام من على الميسرة الأمير طقطباى أمير ركب المحمل ، وكان الأمير طقطباى يومئذ مقدم ألف نائب القلعة ، ومشى قدامه الجم الغفير من الرءوس النوب والخاصكية وهم بالشاش والقماش ، ومشى قدامـه الشبابة السلطانيـة والشـعراء والشاوشية ، واستمر فى هذا الموكب الحافـل حتى وصل الى باب الحوش ، فنزل على مصطبة مشد الحوش ودخل من باب الحـوش والموكب عمال . وكان ابن السلطان عمره يومئذ نحو عشر سنين .

ولقد أدركت الملك المؤيد أحمـد ابن الأشرف أينـال لما أن حـج — وكان اذ ذاك أتابك العساكر — فلما حضر من الحجاز وطلع الى القلعة ما وقع له مثل ما وقع لابن الأشرف الغورى هذا من المواكب الحافلة بالحوش ... فلمـا وصل الى المصطبة التى جالس عليها السلطان تقدم الشريف بركات الى عند السـلطان فقام له نصف قومة ، وباس أمراء الحج له الأرض ، ثم تقدم ابن السلطان وباس الأرض لأبيه ، فأحضر لهم الخـلع : على الشريف بركات مثمر وأطلسين ، وخلع على ابن الشريف بركات وصـهره كوامل مخمل أحمـر بسمور ، وخلع على أميرى الحج لكل واحد منهما مثمر وأطلسين لكون أن سيدى عمر ابن السلطان ثم أحضروا لابن السلطان فوقانى حـرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض فوق الكاملية المخمل التى بالسمور ، ثم نزل الشريف بركات وولده وصهره من القلعة ، ودخل ابن السلطان الى دور الحرم ، وانفض ذلك الموكب على خير .

فلما نزل الشريف بركات وأمراء الحـاج من القلعة نزل صحبتهم الأتابكى سـودون العجمى وجماعة من الأمراء المقدمين ، فشقوا من القـاهرة وكان لهم يوم مشهود . فأوصلوا الشريف بركات الى المكان الذى أنزله فيه السلطان ، قيل أنزله السلطان فى بيت الأمير جانم مصبغة الذى بالقرب من مدرسـة السلطان ، فأوصل الأمراء الشريف بركات الى ذلك المكان ورجعـوا الى بيوتهم ، وكذلك أمراء الحـاج ، وأما القاضى كاتب السر محمود بن أجا فانه لما رجع من الحجاز كان متوعكا فى جسده فلم يطلع الى القلعة ولا قابل السلطان ، وقد هنيته عند عوده من الحجاز بهـذين البيتين وهما :

عن كاتب السر شـاع فضـل
يستوجب الشـكر والمحامد
قـد عم من بره البرايا
وحج فى النـاس وهـو قاعد

فكان لهـذين البيتين موقع لما عرضا عليـه وقرأهما ، فلما رجع الحجاج الى القاهرة أثنوا بكل خير على سيدى عمر بن الملك المنصور أمير ركب الأول وشالوا له الرايات البيض فى وسط الرملة ، بخلاف الأمير طقطباى أمير ركب المحمل .

وأما خوند زوجة السلطان وولده فلم يثن عليهما أحد بخير ولا ظهر لخوند فى المناهل مكارم أخلاق كما كانت تفعل خوند الخاصكية زوجة الأشرف قايتباى لما حجت ، فلم ير لهم أحد من الحجاج رأس سكر ولا مجمع حلوى ، وكل من كان معهم رد يشكو من الجوع ، فكان كما يقال فى المعنى :

وكم لله من رجل سمين
كثير المال مهزول البذال
كذاك الطبل يسمع من بعيد
وداخله من الخيرات خال

وكان سبب ذلك أن السلطان هذا أخس خلق الله وأبخلهم على الاطلاق ، فلم يمكن أحدا من الناس فى شىء من أمر السنيح ، وكان ابن السلطان صغيرا لا يحكم على شىء من أمور السنيح ، حتى قيل ردوا بالأكل الذى فى السنيح لم ينقص منه الا القليل ، فكان كما يقال :

لا تعجبوا ان سعى كريم
لحاجة فى يدى بخيل
فانه كالخلاء حتما
لابد فيه من الدخول

* * *

وفى صفر طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، وكان مستهل الشهر يوم السبت .

وفى يوم الأربعاء خامسه جلس السلطان فى القصر الكبير المطل على الرملة ، وعزم هناك على الشريف بركات أمير مكة ومد له أسمطة حافلة ، وأقام عنده الى أواخر النهار ، وقدم له السلطان تقدمة حافلة ما بين خيول وجمال وغير ذلك .

وفى يوم الخميس سادسه خلع السلطان على الشرفى يونس النابلسى الذى كان أستادارا وقرره فى استيفاء جيش الشام عوضا عن بدر الدين بن الانبابى بحكم وفاته ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفى يوم الأحد تاسعه نزل السلطان الى المقياس وعزم على الشريف بركات هناك ، وجلس معه فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس ، وأقام هناك الى أواخر النهار ، ومد له أسمطة حافلة ، ثم نزل فى مركب وشق من على الروضة وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، واستمر فى المركب حتى طلع من بولاق ثم توجه الى القلعة من هناك .

وفى الاثنين عاشره أشيع بأن فى تلك الليلة سرق من دار الضرب التى هى بالقلعة داخل الحوش السلطانى ثمانية آلاف دينار وكسور من الذهب الجديد الذى ضربه السلطان بسبب النفقة ، فذهبت ولا يعلم من فعل تلك الفعلة ، فلما بلغ السلطان ذلك ألزم المعلمين الذين فى دار الضرب بما سرق من ذلك القدر ، فمضت ولم ينتطح فى ذلك شاتان .

وفى يوم ثالث عشره صمم المماليك على استعجال النفقة ، فأخرج السلطان من حواصل الذخيرة أشياء كثيرة من الأمتعة التى كانت فى الحواصل من ترك الخوندات والستات اللاتى متن واحتوى السلطان على موجودهن ، ما بين قماش وبشاخين زركش وعنبر وأوانى بلور وصينى وكفت وغير ذلك ، وأخرج أشياء كثيرة من شاشات وأزر وأثواب بعلبكى وأثواب صوف قبرسى وغير ذلك فقوم ذلك بنحو خمسين ألف دينار ، فطلب التجار ورمى عليهم تلك الأصناف بأغلى الأثمان فأطلق فى التجار النار ، وكان المتكلم فى ذلك محمد مهتار الطشتخاناه وقد جعله السلطان متكلما على حواصل الذخيرة من حين توفى الحاج يافوت

فراش الخزانة ، فشدد محمد المهتار على التجار فى جبى الأموال فجبيت منهم فى مدة يسيرة لأجل النفقة ، وحصل على التجار الضرر الشامل وقد خسروا فى الأثواب الصوف النصف فانها كانت معتوته ، كذلك خسروا فى البعلبكى والأزر والشاشات والأنطاع والمحابس اليمنى وغير ذلك .

ثم ان السلطان أطلق فى المباشرين النار وضيق عليهم بسبب بواقى فضلات الأموال التى قررت عليهم من فضلات بواقى الحسابات ، فكتبوا له قوائم بما تأخر على المباشرين والعمال والمدركين وأرباب المصادرات فكان ذلك القدر نحو مائة ألف دينار ، فظهر على علاء الدين ناظر الخاص ثلاثة وثلاثون ألف دينار ، وعلى الزينى بركات بن موسى المحتسب خمسة عشر ألف دينار ، وعلى القاضى شرف الدين الصغير خمسة آلاف دينار ، وغير ذلك من العمال ومن بواقى المصادرات ، فأطلقوا فيهم النار بسبب النفقة على المماليك ، وما قاسى أحد من أرباب الدولة بسبب هذه النفقة خيرا ، وقد استحثهم السلطان فى سرعة ورود المال على النفقة .

وفى يوم الاثنين سابع عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أبرك أحد الأمراء المقدمين ، وأصله من مماليك السلطان ، وكان خرج الى حلب صحبة التجريدة وقد جعله السلطان باشا على المماليك الجلبان ، فلما رسم لهم السلطان بالعود الى مصر حضر الأمير أبرك قبل مجىء الأمراء فدخل الى مصر وسبق الباش ، ودخل صحبته جماعة كثيرة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات ممن كان ، التجريدة ، فلما طلع وقابل السلطان خلع عليه ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، وأنفق عليهم النفقة التى كان وعد العسكر بها وجرى بسببها ما تقدم ذكره ، فلم تكن هذه النفقة عامة على العسكر بل كانت لجماعة مخصوصة من المماليك ، فأعطى لمماليكه الجلبان لكل واحد منهم خمسين دينارا ، وأعطى مثل ذلك للمماليك الأشرفية القايتبيية الشباب أصحاب الدقون السود دون الشيوخ ، ولم يعط المماليك القرانصة الشيوخ شيئا ، ولا المماليك السيفية شيئا ، ولا أولاد الناس شيئا ، ولاأصحاب الطبقة الخامسة التى تجددت ، فحصل للعسكر فى ذلك اليوم كسر خاطر الى الغاية ، وقيل ان بعض المماليك وقف اليه بسبب النفقة وأغلظ عليه فى الكلام ، فرسم بقطع جامكيته فى ذلك اليوم ولو زاد عليه لرسم بنفيه أيضا ، فلما جرى ذلك اعتبر بقية المماليك عن طلب النفقة .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن لا مملوكا يركب فى سرج بداوى ولا ركب بداوى ولا يتخلل باحرام صوف أبيض ولا يغطى وجهه اذا ركب ، ولا مملوك ولا غلام ولا عبد يخرج من بعد العشاء ، وصار يكرر هذه المناداة يومين موالية ، فشق على المماليك هذه المناداة وكانوا قد زادوا فى الضرر للناس .

ثم ان جماعة من المماليك توجهوا الى الأمير طومان باى الدوادار ليكلم السلطان فى أمر النفقة على بقية المماليك ، فلما كلمه لم يفد من كلامه شيئا ، واستمر السلطان باقيا على عدم النفقة على المماليك الشيوخ والعواجز ، فما وسعهم الا الصبر والسكوت عن ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

أنفقت عمرى وصحتى شغفا
عليك والصبر آخر النفقة

وفى أثناء هذا الشهر حضر الأمير اينال باى دوادار سكين وكان توجه الى حلب بسبب مجىء

العسكر وغير ذلك من الأشغال السلطانية ، وحضر الأمير خاير بيك المعمار ، وكان توجه الى العقبة بسبب اصلاح العراقيب التى بطريق العقبة لأجل خوند وابن السلطان قبل أن يحجوا الى العقبة .

وفى هذا الشهر كثر الدعاء من المماليك القرانصة على السلطان بسبب منعه لهم من النفقة .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره أرسل السلطان خلف قاضى القضاة الشافعى محيى الدين بن النقيب المنفصل ، فتوجه اليه بعض مهاترة الطشتخاناه ، فلما طلع به أرسل السلطان يقول له : « أورد ثلاثة آلاف دينار وتول وظيفتك على العادة » . فأرسل يقول للسلطان : « ما معى حاصرا غير ألف وخمسمائة دينار فولونى وقسطوا الباقى على كل شهر مائتا دينار » . فما رضى السلطان بذلك وانفصل المجلس مانعا ، فلما نزل ابن النقيب من عند السلطان أتى اليه الزينى بركات بن موسى ، فأخذه من المدرسة الناصرية ، وأركبه على حمار وتوجه به الى داره ورسم عليه حتى يرد ثلاثة آلاف دينار ان ولى أو لا يلى ، فأقام عنده فى الترسيم أياما ثم توجهوا به الى بيت القاضى كاتب السر وأحضروا له شرف الدين بن الأسيوطى الوكيل ، والقاضى شمس الدين بن وحيش ، ويقصدون أن يدعوا عليه بأن تحت يده ثلاثة آلاف دينار ثمن بدل عن وقف ابتاعه وأن ذلك القدر تحت يده ، فاعترف ابن النقيب بذلك وقال : « قد دفعت من ذلك القدر ألفين ومائتى دينار للسلطان » . وأظهر رجعة ذلك ، وذكر أن باقى ذلك المبلغ فقد من حاصله ، فانصرف فى الترسيم الى بيت ابن موسى يرد ثلاثة آلاف دينار فقاسى من البهدلة ما لا خير فيه واستمر فى الترسيم مدة حتى يرد ذلك القدر ، ثم أشيع ولايته الى القضاء أياما وخمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن ، وكان ابن النقيب أرشل قليل الحظ غير محبب للناس .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه كان أول يوم من الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم ، ومن جملة لطف الله تعالى لم يقع فى هذه السنة طاعون بمصر .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرينه نزل السلطان الى الميدان وساق فدامه الرماحة كما يسوقون عند دوران المحمل فى رجب ، وكان الشريف بركات أمير مكة حاضرا عند السلطان ، فلما مضى أمر الرماحة دخل السلطان هو والشريف بركات الى البستان الذى بالميدان ومد له أسمطة حافلة .

وفيه عين السلطان شخصا من الخاصكية يقال له جانم بأن يتوجه الى سليم شاه بن عثمان ملك الروم ويكشف عن أخباره هل هو يقصد أن يمشى على بلاد السلطان أم على بلاد الصفوى ، فان الاشاعات كانت كثرت بمشى ابن عثمان على بلاد السلطان ، فخرج جانم هذا بسبب ذلك ، وقيل لأجل أقارب السلطان الذين أتوا من بلاد جركس وأسرهم بعض ملوك التتر ، فتوجه جانم ليشتريهم من ملك التتر بمبلغ له صورة .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه فيه أكمل السلطان أمر النفقة ، واستمر مصمما على عدم اعطاء النفقة للمماليك القرانصة والسيفية وأولاد الناس ، ثم فى أثناء ذلك اليوم نادى السلطان فى القاهرة بأن المماليك الذين أخذوا النفقة يعملون يرقهم ويكونون على يقظة فان التجريدة عمالة الى حلب ، فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان بشنق شخص من أولاد الناس كان عائقا مجرما وله عدة قتلاء ، فشنق على باب الدرب الذى فى السبع سقايات .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر نزل السلطان وتوجه الى نحو قبة يشبك الدوادار التى بالمطرية وأقام بها الى أواخر النهار ثم عاد الى القلعة من يومه .

* * *

وفى ربيع الأول طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، ثم عادوا الى بيوتهم .

وفى يوم الاربعاء ثالثه ورد على السلطان أخبار غير صالحة بأن سليم شاه ابن عثمان قد جهز عساكر عظيمة ورمى عدة مراكب فى البحر ، وأنه زاحف على على دولات بنفسه ، فتنكد السلطان لهذا الخبر ورسم لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ويقول لهم . اطلعوا الى عند السلطان حتى يقرأ عليكم الكتب التى وردت عليه عن أخبار ابن عثمان . فطلعوا الى عند السلطان فى ذلك اليوم ، فلما اجتمعوا قرأ عليهم ما ورد عليه من المطالعات عن أخبار ابن عثمان ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر وهم فى ضرب مشورة بسبب على دولات وابن عثمان ، ثم بعد أيام خمدت تلك الاشاعات واستمر الأمر مبنيا على السكون .

وفى يوم الأربعاء عاشره نزل السلطان الى الميدان وساقوا قدامه الرماحة وهم لابسون الأحمر والخوذ كما يفعلون عند دوران المحمل فى رجب ، واجتمع فى الميدان الجم الغفير من الناس بسبب الفرجة ، وكان الشريف بركات حاضرا مع الأمراء ، وكان يوما مشهودا .

وفى ذلك اليوم توفى الأمير أسنباى الأصم أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان من أعيان مماليك الأشرف قايتباى ، وكان علامة فى لعب الرمح وقد فاتته التقدمة من قبل ذلك ، وكان لابأس به ، وقد مات فجأة على حين غفلة .

وفى يوم الخميس حادى عشره عمل السلطان المولد الشريف النبوى ونصب الخيمة الكبيرة المدورة بالحوش ، قيل ان مصروف تلك الخيمة على الأشرف قايتباى ستة وثلاثون ألف دينار ، فحضر القضاة الأربعة والشريف بركات أمير مكة ، قيل أجلسه السلطان فوق الاتابكى سودون العجمى ، واجتمع سائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف ومشايخ العلم ، وكان يوما مشهودا على العادة .

وفى يوم السبت ثالث عشره أشيع أن اقطاع أسنباى الأصم أنعم به السلطان على الأمير قايتباى الذى كان نائب الكرك ، فصار من جملة الأمراء الطبلخانات

وفيه حضر الأمير ألماس دوادار سكين الذى كان توجه الى طرابلس بسبب ضبط موجود جانم نائب طرابلس الذى توفى ، وقرر عوضه تمراز مملوك السلطان الذى كان نائب قلعة حلب ، وقرر فى نيابة قلعة حلب قانصوه الساقى عوضا عن تمراز الأشرفى بحكم انتقاله الى نيابة طرابلس ، وتوجه ألماس أيضا بسبب تقليد تمراز المذكور لما ولى نيابة طرابلس ، وبسبب جبى الأموال التى قررت على عربان جبل نابلس ، وغير ذلك من البلاد بسبب المشاة ، فأهلك الحرث والنسل .

وفى يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير باش العسكر الذى كان توجه الى حلب ، وحضر الأمير سودون الدواداري رأس نوبة النوب ، وحضر الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكانوا توجهوا فى هذه التجريدة صحبة أمير آخور ، فلما دخلوا الى القاهرة باتوا فى مدرسة السلطان ، ثم طلعوا الى القلعة وقابلوا فى ذلك اليوم السلطان ، فخلع عليهم كوامل بسمور ونزلوا

الى دورهم فى موكب حافل ، فكانت مدة غيبة الأمراء فى هذه السفرة نحو تسعة أشهر ورجعوا وهم سالمون لم يفقد منهم أحد ، ولا وقع بينهم قتال بسبب ابن عثمان والصفوى ، لكن قاسى العسكر فى هذه السفرة مشقة زائدة بسبب الغلاء الذى وقع بحلب وقلة العليق على الخيول ، فباعوا خيولهم وسلاحهم وقماشهم ، فدخلوا الى مصر وهم فى غاية التعفيش ومنهم من دخل وهو راكب على حمار .

وفى ذلك اليوم أكمل السلطان على العسكر النفقة المقدم ذكرها على حكم ما شرح فيه ولم يعط المماليك القرانصة العواجز ولا أولاد الناس شيئا ، وصار الذى يأخذ النفقة يكتبه كاتب المماليك طائفة الى جهة الشرقية وطائفة الى جهة الغربية ، وطائفة الى منفلوط وطائفة لحفظ الجسور ، فصار بعض المماليك يقول : « ما لنا حاجة بنفقة على هذا الوجه » .

فلما أقام قانى باى أمير آخور فى المدينة ثلاثة أيام أهدى الى السلطان تقدمة حافلة على ما قيل ، فكان من جملتها ذهب عين عشرة آلاف دينار وخمسة وعشرون مملوكا جراكسة وخيول خاصات أربع طوابل وأربعمائة رأس غنم وأثواب بعلبكى وأثواب صوف وغير ذلك أشياء فاخرة ، وقيل أحضر الى السلطان ثمانين ألف دينار وذلك مما جباه من أمر المشاة الذين أفردهم السلطان على الشام وحلب وحماه وغير ذلك من البلاد بسبب المشاة التى تخرج قدام العسكر فى التجريدة ، فحصل على أهل تلك البلاد منه الضرر الشامل وأخذ أموالهم بالظلم والعسف ، وقرر على جهات البلاد الشامية من الاقطاعات والرزق على كل رأس من الفلاحين قدرا معلوما ، كما فعل بعربان جبل نابلس وغيره من البلاد ، فضج منه الأفلاك والأملاك بسبب ذلك ، وكان المحرك لذلك يوسف ابن أبى أصبع .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره نزل السلطان الى الميدان وأرسل خلف الشريف بركات أمير مكة ، وحضر أمير كبير وجماعة من الأمراء المقدمين ، ثم أحضر مماليك يرمون بالنشاب على الخيل وهم باللبس الكامل فأظهروا أشياء عريبة فى فنون الرماية ، وأحرق السلطان احراقة نفط بالنهار فى الميدان ، وأحضر الأفيال الكبار فتصارعت قدامه ، وكذلك السبع والهزبر ، فانشرح السلطان فى ذلك اليوم وكان يوما مشهودا فأقام فى الميدان الى قريب الظهر

وفى يوم الجمعة تاسع عشره الموافق لسابع بشنس القبطى ، فيه قلع السلطان الصوف ولبس البياض ، وكان الوقت يومئذ رطبا .

وفى يوم السبت عشرينه نزل السلطان الى الميدان وبات به ليلة الأحد ، فدخل الى البستان الذى أنشأه به فأطلق ماء البحرة ونثر فيها الورد والياسمين ، وفرش حولها الفرش الفاخرة ، وعلق بين الأشجار أحمال قناديل وتعاليق كثيرة ما بين تنانير وأمشاط وغير ذلك حتى أضاء البستان بالنور ، ثم أرسل خلف الشريف بركات وبات عنده تلك الليلة ، ومد له أسمطة حافلة وطوارى فاخرة ما بين حلوى وفاكهة وغير ذلك ، ثم أحضر اليه مغانى البلد وأرباب الآلات الدواخل ، فكانت ليلة حافلة من الليالى الملوكية ، كما قال فيها الشاعر :

ومجلس راق من غير واش يكدره
ومن رقيب له فى اللوم ايلام
ما فيه ساع سوى الساقى وليس به
على الندامى سوى الريحان نمام

فلما أصبح صبح يوم الأحد خرج السلطان وجلس فى الميـــدان وأحضر جماعة من المماليك يرمون بالنشـــاب على القبق ، فأقام فى الميدان يومين وليلة ثم طلع الى القلعة ، وقد بالغ فى اكرام الشريف بركات بأشياء لم تقع لأحد من أجداده ولا أقاربه .

وفى يوم الاثنين ثانى عشرينه ، فيــه خلــع السلطان على أمراء الحاج فقرر الأمير علان أحد المقدمين ودوادار ثانى أيضا أمير ركب المحمل ، وقرر الجنـــاب العـــلاء على بن المؤيد أحمد بن الأشرف اينـــــال أمير ركب الأول ، فكان لهما موكب حافل .

وفى ذلك اليوم أشيع أن خشـــقدم شـــاد الشـــون قد هرب وصحبته جمـــاعة من المماليك السلطانية فهيأ له مركبا بستة عشر مقدافا ، وقيل انه أخذ معه نحو عشرة مماليك ، وخرج من مصر على حمية ، فأشيع أنه قد توجه الى عند ســـليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، وقيل ان له أخا عند ابن عثمان أمير من أمرائه فتوجه اليه ، وأصـــل خشـــقدم هذا من مماليك الســـلطان قانصـــوه الأشرف الغورى من مشترياته ، وكان أنعم عليه بامرة عشرة وجعله رأس نوبة عصاة ثم قرره فى شادية الشون ، وكان قبل ذلك تكلم فى نيابة جدة نيابة عن الأمير حسين نائب جدة فاستمر على ذلك مدة ، ثم ان السلطان صادره وأخـــذ منه نحـــو خمسة آلاف دينار ، وكان خشقدم هذا متزوجا ببنت جانى بيك دوادار طراباى الذى كان ناظر الديوان المفرد ، فلما قبض الســـلطان على جانى بيك أمر خشقدم بطلاق بنت جانى بيـــك غصبا وقيل كان له منها أولاد وربما ألزمه بما تأخر على جانى بيك من المال ، فما طاق خشقدم ذلك وحمل على نفسه فهرب نحو بلاد ابن عثمـــان ، فكان كما يقال فى المعنى :

لعمرك ما ضاقت بلاد بأهلها
ولكن أخلاق الرجال تضيق

فلما أشيع توجه خشقدم الى بلاد ابن عثمان كثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك ، وقيل ان أخا خشقدم هذا كان مقيما عند ابن عثمـــان ســـليم شاه وهو من أخصـــائه ، فخشى بعض العقلاء أن خشقدم يحسن لابن عثمان أن يمشى على بلاد السلطان ويهون عليه ذلك الأمر ، والله غالب على أمره .

وفى يوم الجمعة سادس عشرين هذا الشـــهر كانت وفاة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبـــير الذى كان باش العسكر المتوجه الى حلب ، وكان موته بغتة على حين غفـــلة ، وكانت مدة توعكه خمسة أيام حتى أشيع أنه مات مسموما من بعض أخصائه ، والعلم عنـــد الله تعالى ، وكان أصـــل الأمير قانى باى هذا من مماليـــك الملك الأشرف قايتباى من مشترياته ، فأعتقه وأخرج له خيـــلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى سلحدارا ، ثم أنعم عليه بامرية عشرة فى سنة ثمـــان وتســـعين وثمانمائة ، وأقام على ذلك مدة يسيرة ، وقرره فى نيابة صهيون ، وقيل سعى فيها بمال له صورة فأقام بصهيون مدة ، وكان الساعى له فى نيابة صهيون الأمير أزبك الخازندار ، وقيل قرر فى امرية الكبرى بحلب مدة يسيرة ، ثم عاد الى مصر وبقى مقدم ألف فى دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير آخور كبير — بعد وقعة الأمير أقبردى الدوادار — لما قتـــل الأمير كرتباى ابن عمة الأشرف قايتباى فى

مدرسة السلطان حسن ، فقرره الملك الناصر فى امريه آخوريه الكبرى عوضا عن الأمير كرتباى بحكم قتله ، وذلك فى المحرم سنه ثلاث وتسعمائة فأقام فى امرة آخورية الكبرى نحوا من ثمانى عشرة سنة وثلاثة أشهر .

وكان أميرا جليلا مبجلا معظما ، فى سعة من المال والسلاح والبرك والخيول والبغال والجمال والمماليك ، وكان فى ملاءة من كل شىء ، وهو الذى أنشأ الجامع الذى عند المصنع تجاه سوق الخيل ، والجامع الذى بالقرب من ميدان المهارة الذى بجوار البركة الناصرية ، وكان له من العمر لما مات نحو ستين سنة .

وكانت صفته طويل القامة ملىء الجسد أسمر اللون جدا كما وكزه الشيب ، وكان مشهورا بالشجاعة والفروسية ولعب الرمح بحيث كان يدعى بقانى باى الرماح ، لكنه كان عنده الطمع الزائد والظلم والعسف ، وكانت معاملته أنحس المعاملات يأكل أموال الناس بغير حق ، وان وضع يده على وقف أو تركة أكلها عن آخرها ، وان اشترى من أحد شيئا أكل ثمنه عليه ، وان استعمل صنايعيا أو مسببا قطع مصانعته فى أجرته ، ويخرج من بابه غير راض عنه .

وكان السلطان قرره باش العسكر على التجريدة التى توجهت الى حلب ، فاظهر فى البلاد الشامية والحلبية غاية الظلم ، وأفرد الأموال الجزيلة على جهات البلاد الشامية والحلبية بسبب المشاة الذين يكونون أمام العسكر ، فجار على الناس وأخذ جملة من الأغنام لأهل الضياع من الفلاحين نحو ثلاثين ألف رأس غنم ، وقيل أكثر من ذلك .

وكان السلطان فى وقت عينه بأن يتوجه الى جهات الشرقية بسبب فساد العربان ، فكان اذا ظفر بأحد من الفلاحين الضعفاء يوسطه أو يسلخه من رأسه الى قدميه ، وربما صنع ذلك بجماعة من الأشراف وزعم أنهم من العربان العصاة على ما قيل عنه ، وكانت مساوئه أكثر من محاسنه ، وكان شديد القسوة كثير الجهل ، وقد أراح الله تعالى الناس منه . فلما مات لم يثن عليه أحد من الناس بخير قط ، وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة :

جهنم منذ قالت
لقانى باى خذ حذارك
قد زاد نيران وجدى
من كثرتى لانتظارك

وأنا أستغفر الله العظيم وأتوب اليه من ذلك ، ولكن أحببت أن أذكر هنا شيئا من مساوئه حتى يعتبر من بقى لعل أن تحسن أخبارهم من بعدهم .

وكان السلطان متأثرا من الأمير قانى باى هذا فى الباطن ، وقد عين له امرة السلاح غير ما مرة ويترك امرية آخورية الكبرى فيأبى من ذلك ، وكان السلطان له قصد أن يقرر أحدا من أخصائه فى أمرية آخوريه الكبرى فيعارضه فى ذلك ، فلما مرض الأمير قانى باى استمر مقيما بباب السلسلة فى مدة انقطاعه نحو خمسة أيام ، فمات بباب السلسلة ليلة الجمعة بعد العشاء ، فرسم السلطان أن ينزل الى داره وهو ميت فنزلوا به فى تابوت الى بيته الذى عند حدرة البقر .

وكان متزوجا ببنت الأمير يشبك بن مهدى أمير دوادار كبير فأقامت له نعيا بالطارات ، واستمرت تدق عليه بالطارات ثلاثة أيام متوالية فعز ذلك على السلطان فى الباطن ، وأشيع بين عياله أنه قد مات مسموما ، فحقد ذلك على بنت الأمير يشبك فيما بعد وقرر عليها فوق الثلاثين ألف دينار وزعم أن

قانى باى أمير آخور أودع عندها مالا فشرعت فى بيع جهازها حتى ترد ما قرر عليها من المال .

فلما كان يوم الجمعة حضر القضاة الأربعة والأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، وأخرجت جنازته من بيته وقدامه كفارة ، فطلعوا به من على حدرة البقر ، فلما وصل الى الرملة نهب العوام تلك الكفارة ، فلما وصل الى سبيل المؤمنين خرج السلطان من الميدان وصلى عليه وكانت جنازته حافلة ، ثم رجعوا به من المصلاة ودفنوه فى مدرسته التى تجاه سوق الخيل ، وخلى بعمله وانقضى أمره .

وفى يوم السبت سابع عشرينه فيه ابتدأ السلطان بضرب الكرة فى الميدان على العادة .

وفى يوم الاثنين تاسع عشرينه وقف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين قاطبة وباسوا الأرض للسلطان وسألوا بأن يكون سيدى ابن السلطان أمير آخور كبير عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته ، فأعجب السلطان ذلك فى الباطن وقد مشت الأمراء فى غرض السلطان لما رأوا له قصدا فى ذلك ، فأنعم على ولده المقر الناصرى محمد فى ذلك اليوم بامرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى قرا ، فحضر ابن السلطان وباس الأرض على ذلك الانعام له .

* * *

وفى ربيع الآخر كان مستهل الشهر يوم الثلاثاء فطلع الخليفة والقضاة الأربعه والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد بالغ السلطان فى اكرام السيد الشريف بركات وقام اليه وعظمه تعظيما بالغا .

وفى يوم الخميس تانى الشهر أكمل السلطان النفقة على جماعة من المماليك القرانصة ، وكان عول قبل ذلك أن لا ينفق عليهم شيئا ، ثم أنفق عليهم ، ولكن أعطاهم السم فى الدسم فكتب منهم جماعة الى الشرقية وجماعة الى العربية وجماعة الى العقبة والأزلم والى منفلوط ثم صرح لهم جهارا وقال : « الذى يطلب يخرج ويسافر من يومه والذى ما يطلب نفقة يقعد ويستريح فى بيته » . فرجع غالب المماليك عن طلب النفقة والذى أخذ النفقة خرج الى السفر من يومه .

وفى يوم الاثنين سادس هذا الشهر عمل السلطان الموكب بالقصر الكبير ، ودار نقيب الجيش على الأمراء المقدمين وأعلمهم أن الموكب بالقصر الكبير ، وهو بالتساش والقماش ، فلما تكامل الموكب وحضر الأمراء المقدمون طلب السلطان ولده المقر الناصرى محمد وخلع علنه وقرره فى امرية آخورية الكبرى عوضا عن الأمير قانى باى قرا بحكم وفاته . فلما خلع عليه نزل وصحبته الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فنزل من سلم المدرج وتوجه الى باب السلسلة وقدامه الأمراء قاطبة بالشاش ، ومشت قدامه الشعراء والشبابة السلطانية ، فدخل الى باب السلسلة ونزل على سلم الحراقة وطوب للأمراء وانفض ذلك الموكب الحافل ، وكان سن ابن السلطان يومئذ احدى عشرة سنة .

ولم يسمع فيما مضى من الأخبار المتقدمة أن ابن سلطان ولى أمير آخور كبير سوى هذا ، ولكن الملك الظاهر خشقدم قرر ربيبه الشهابى أحمد بن العينى أمير آخور كبير ولم يكن ابن سلطان ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، ولم يسمع فيما مضى من الأخبار أن ابن سلطان ولى الأتابكية فى حياة والده وتسلطن منها سوى الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

وفى يوم الأربعاء ثامنه نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس فى الحراقة ومد بها سماط الغداء ،

ثم عرض مماليك الأمير قانى باى أمير آخور وعرض البوتات التى كانت للأمير آخور ورسم بجميع ذلك الى ولده .

وفى يوم الخميس تاسعه رسم السلطان لولده أن يركب ويتوجه الى بيت أمير كبير سودون العجمى ويتشكر منه الذى تعصب له فى آن يلى أمير آخور كبير ، فنزل وصحبته الأمير طومان باى أمير دوادار كبير وجماعة من الأمراء العشراوات والجم الغفير من المماليك والخاصكية ، فشق من الصليبة وتوجه الى بيت أمير كبير فقام اليه ولاقاه من الحوش ، ثم ألبسه كاملية مخمل أحمر بسمور وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، ثم شق من الصليبة ثانيا فى موكب حافل فطلع وهو لابس الفوقانى الكاملية ، فباس الأرض للسلطان ثم رجع الى باب السلسلة .

وفى يوم السبت ثامن عشره فيه توفى الأمير نانق الغورى الخازن أحد الأمراء الطبلخانات ، وكان عند السلطان من المقربين ، فكان مونه فجأة على حين غفلة ، وكان متسهورا بالشح الزائد والبخل وكان غير مشكور فى أفعاله .

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه خلع السلطان على شخص من الأمراء العشراوات يقال له بيبردى ابن كسباى وقرره باش المجاورين بمكة عوضا عن جانى بيك قرا الذى كان بها فى السنة الخالية ، وخلع على شخص من الأمراء العشراوات الرءوس النواب يقال له قراكز الجكمى وقرره فى نظر الحسبة الشريفة بمكة ، وكانت الحسبة مضافة لباشية مكة ففصلها السلطان منها وقرر بها قراكز هذا .

وفى يوم السبت خامس عشرينه كان ختام ضرب الكرة ، فلعب السلطان الكرة فى الميدان ، ثم طلع الى القلعة وعزم على الأمراء وجلس فى المقعد الذى آنشاه بالحوش ومد لهم هنالك أسمطة حافلة وطوارى فاخرة ، فأقام الأمراء عنده الى بعد العصر ، وكان السيد الشريف بركات أمير مكة حاضرا ذلك المجلس فبالغ السلطان فى اكرامه وتعظيمه الى النااية وأجلسه فوق أمير كبير ، ثم أحضر السلطان ثيرانا وكباشا تتناطح قدامه فى الحوش ، فلما دخل وقت الظهر أحضر جماعة من المماليك لعبوا خصمانية فى الرمح واستمروا على ذلك الى بعد العصر ، ثم انفض ذلك الجمع ونزل الأمراء الى بيوتهم .

وفى يوم الاثنين سابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفة الأمير أقباى الذى كان كاشف الشرقية وكان قد توجه الى نحو طرابلس فى أشغال السلطان ، فلما طلع الى القلعة كان عليه كاملية بسمور من عند نائب طرابلس انعاما .

* * *

وفى جمادى الأولى كان مستهل الشهر يوم الخميس فطلع الخليفة والقضاة الأربعة والسيد الشريف بركات أمير مكة فهنوا السلطان بالشهر ، ثم ان السلطان خلع فى ذلك اليوم على السيد الشريف بركات خلعة السفر وأذن له بالعود الى مكة ، فخلع عليه أطلسين وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية ، وخلع على ولد الشريف كاملية مخمل أحمر بسمور ، وخلع على عرعر صهر الشريف بركات كاملية صوف بسمور ، وخلع على شخص من أولاد دراج أمير الينبع وقرره فى امرة الينبع ، وجعل للشريف بركات التحدث على بندر الينبع يولى به من يشاء من تحت يده ويعزل من يشاء .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على ولده المقر الناصرى محمد أمير آخور كبير خلعة الانظار ،

فألبسه أطلسين وفوقاني حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض مثل خلعة الأتابكية ، فخــرج من الميدان وقدامه السيد الشريف بركات أمير مكة والأتابكى سودون العجمى وجمــاعة من الأمراء المقــدمين وأرباب الوظائف من المباشرين ، فشقوا من القاهرة فى موكب حافل وكان لهم يوم من الأيام المشهودة ، فتوجه ابن السلطان الى المدرسة البرقوقيــة على جارى العادة ، وتوجه السيد الشريف بركات الى تربة الملك الظاهر برقوق فأقام بها الى حين يرحل .

وفى يوم الجمعة ثانى هذا الشــهر أرســل السلطان الى السيد الشريف بركات تقدمة حافلة وهو فى تربة الظاهر برقوق ، فكان من جملتهــا ذهب عين أربعة آلاف دينار ، وأربعة مماليــك فرســان وهــم باللبس الكامل ، وكان الشريف بركات اشترى من مصر مماليك ، وأهدى اليــه الأمراء عدة مماليك ، فكان معــه نحو خمســين مملوكا مكملة بالسلاح ، وأرسل اليــه السلطان ست بقج ضمنها صوف وسمور ووشق وسنجاب وبعلبكى وتفــاصــيل حــرير سكندرى وأبراد منزلاوى وشقق برق بجر ذهب وأثواب مخمــل ملون وأثواب برصاوى مزهر بقصب ، فأرســل اليه من كل صنف من هذه الأصناف عشر قطع ، وأرســـل اليه نمچاه زعموا أنهــا نمچاه بعض الصحابة ، فكتب السلطان اســم الشريف بركات عليها وسقطها بالذهب ، وأرسل اليــه أربعــة أسياف خاص وهى مسقطة بالذهب ، وأرســل اليه أربع زرديات وهى مسقطة بالذهب ، وأرسل اليه صنجقين سلطانى بطلعتين فولاذ ، أحدهمــا حرير أصفر مرقوم بالذهب وآخر حــرير أصفر برسم الأسفار ، وأرسل اليه محفة بغشى جــوخ أصفر ، وكان قبل ذلك أرسل اليه عدة خيــول وهجن وجمال بخاتى وبغــال وسلاح برســم المماليك الذين معه ، وقد أغدق عليه بكثرة الانعام له حتى أدهشه بالعطايا فوق ما أهدى اليه السيد الشريف بركات بأضعاف ، فلمــا وصلت هــذه التقــدمة الى الشريف بركات خلع على غلمــان السلطان والمهتار محمد مهتار الطشتخاناه الخلع السنية وفرق عليهم الدنانير والدراهم ، ولم يقع لأحد من أجــداده ولا أقاربه ما وقع له مع الملك الأشرف قانصــوه الغورى ، وقد بالغ فى اكرامه وتعظيمه جدا .

وفى يوم الأربعاء سابع هــذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبــارك ، وأخــذ قاع النيل فجاءت القاعدة سبع أذرع وأربع أصابع ، أرجح من نيل السنة الخالية بعشرين أصبعا كما قيل .

وفى يوم الأربعاء المذكور توجه القاضى كاتب السر محمود بن أجا ونائبه الشهابى أحمــد بن الجيعان ، فتوجها الى السيد الشريف بركات أمير مكة وعلى أيديهمــا تقيــد بولاية امرة مكة ، وقد بالغــوا فى نعته وترجمته الى الغــاية ، ثم أحضروا له مصحفا شريفا وسيفا وحلفه عليهما أنه لا يخون السلطان ولا يعطى عليه ولا يخرج عن طاعته على ممر الليالى والأيام ولا ولا ... فلمــا حلف كتبوا صورة هذا الحلف فى ورقة وأشهدوا عليه وكتب خط يده على تلك الورقة ، ثم عادوا الى القلعة وعرضوا ذلك الحلف على السلطان ، وكل ذلك وقــع والشريف بركات فى تربة الظاهر برقــوق ، فألبس الشريف بركات القاضى كاتب السر كامليــة مخمل بسمور وكذلك الشــهابى أحمد بن الجيعان .

وفى يوم الجمعة تاسعه نزل الأمير طومان باى الدوادار من عند السلطان الى المقــر النــاصرى محمــد ابن الســلطان وعلى يده منشور باقطاع

الامرية بالتقدمة ، فلما نزل الأمير طومان باى الى عند ابن السلطان بالمنشور ألبسه أطلسين وفوقانى حرير أخضر بطرز يلبغاوى عريض واركبوه فرسا بسرج ذهب وكنبوش ، فلما وصل الأمير الدوادار الى بيته أرسل اليه ابن السلطان على يد لالاته سنبل الطواشى خمسمائة دينار وقيل ألف دينار ، فألبسه الأمير الدوادار كاملية مخمل أحمر بسمور ودفع اليه خمسين دينارا ، وقد تعاظم أمر ابن السلطان فى امرية آخورية الكبرى وصار فى كل ليلة يوقد على باب السلسلة فانوسين أكرة وكذلك على باب الميدان وقد عظم أمره جدا ، ورسم السلطان أن أحدا لا يقول له سيدى بل يقولون له أمير آخور كبير .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره جلس السلطان فى الميدان وعرض العسكر أصحاب الطبقة الخامسة ، فكتب منهم جماعة نحو ستمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، وعينهم الى جهة الهند ، وكان فيهم جماعة من مماليك السلطان الجلبان وجماعة من المماليك القرانصة وأولاد الناس وغير ذلك ، وكان السلطان من حين بلغه أن الفرنج تزايد عبثهم فى البحر الملح وطفشت به مراكب الفرنج ، فاهتم بعمارة مراكب فى السويس نحو عشرين مركبا وأوسقهم بالسلاح والمكاحل والمدافع وغير ذلك من آلة الحرب ، وجعل سلمان العثمانى رئيسا لتلك المراكب ، وتحت يده جماعة كثيرة من العثمانية والمغاربة البحارة نحو ألفى انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، فلما عين السلطان العسكر فى ذلك اليوم استحثهم على الخروج بسرعة ، ورسم أن النفقة تكون يوم الثلاثاء بعد النصف ، فانفصل المجلس على ذلك .

وفى يوم الأربعاء رابع عشره أشيع بين الناس أنه فى ذلك اليوم حضر هجان من البلاد الحلبية وأخبر أن سليم شاه بن عثمان ملك الروم مشى على شاه اسمعيل الصفوى ملك العراقين ، فلما بلغ على دولات أن طائفة من عسكر ابن عثمان قد قربت من بلاده خرج اليها وتحارب معها فانكسرت تلك الطائفة اليسيرة التى من عسكر ابن عثمان وقتل منها جماعة ونهب على دولات ما معهم ، فعند ذلك طمع على دولات فى عسكر ابن عثمان ، فلما بلغ سليم شاه بن عثمان ذلك أرسل الى على دولات عسكرا ثقيلا نحو ثلاثين ألف مقاتل على ما قيل ، ومعهم من الأمراء نحو سبعة أمراء من أمرائه ، ومعهم سبعة صناجق فتحاربوا مع على دولات وكسروه ونهبوا عسكره ، وقتل على دولات فى المعركة هو وولده ، وحزوا رءوسهما على ما قيل وأشيع ، ووقعت الكسرة على على دولات وقد قويت الاشاعات بقتله والعلم عند الله تعالى .

فلما سمع السلطان هذا الخبر تنكد له الى الغاية ، ثم أرسل خلف الأمراء فى ذلك اليوم وأطلعهم على ما بلغه من هذه الأخبار وضربوا مشورة فيما يكون من أمر هذه الواقعة ، والأمر لله فى ذلك ، فكان حال على دولات مع ابن عثمان كما يقال فى المعنى :

لا تأمنن عدوا وان دنا للمنيه
فحية السم تدعى بعد المنية حيه

وقد تقدم القول على أن ابن عثمان كان متعصبا لابن شاه سوار بأن يرد اليه بلاد أبيه سوار من يد عمه على دولات ويوليه مكان أبيه ، فكان يخشى من السلطان . وقد تقدم القول على أنه كان أرسل يسأل فصل السلطان فى ذلك ، وكان الأمر مبنيا على السكون فما يعلم الآن ما يصير من بعد ذلك .

وفى يوم الخميس خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة السيفى جانم الخاصكى الذى كان توجه الى ابن عثمان ، فلما حضر أخبر أن ابن عثمان أكرمه غاية الاكرام وخلع عليه عند عوده الى مصر خلعة تماسيح بسمور ، ولكن هذا الأمر حدث من بعد مجىء جانم من عند ابن عثمان ، والحركات والسكون بيد الله تعالى .

وفى ذلك اليوم خرج نائب بهنسا الذى قرره السلطان بها وهو شخص من الخاصكية خادم السجادة يقال له قانصوه العجمى ، وأصله من مماليك السلطان الغورى ، وقد سعى فى هذه النيابة بمال له صورة حتى وليها .

وفى يوم الخميس المذكور رحل السيد الشريف بركات من تربة الظاهر برقوق وتوجه الى بركة الحاج وعزم على السفر الى مكة ، فخرج معه جماعة كثيرة من الناس يرومون الحج ، فخرجوا صحبته الى مكة .

وفى يوم الثلاثاء عشرينه أنفق السلطان على العسكر المعين للهند نفقة السفر ، فأعطى لكل مملوك خمسين دينارا ، ووعدهم أن ينفق عليهم جامكية ستة أشهر معجلا قبل أن يسافروا ، وقيل أعفى منهم جماعة من أولاد الناس ممن شكا ضعفا فى جسده أو من به حب أفرنجي[1] ، وصار يصرح لهم جهارا ويقول : « الذى ما يطيق سفر البحر الملح يعلمنى بذلك فأعفيه من السفر » ... فعد ذلك له من محاسنه .

وفى أثناء هذا الشهر جاءت الأخبار من بلاد الغرب بأن الشيخ يحيى صاحب جربة قد توفى الى رحمة الله تعالى ، وكان لا بأس به ، وقيل انه مات قهرا من أولاده وقد افتتنوا فى بعضهم وقتل بعضهم بعضا ، فحصل له توعك فى جسده واستمر عليلا الى أن مات .

* * *

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الجمعة ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه أنفق السلطان على العسكر المعين للهند جامكية أربعة أشهر معجلا ، ومنهم من تشكى بأن به الحبة الافرنجى وما يقدر يسافر فأعفاه السلطان من السفر وقال له : « أعد النفقة التى أخذتها ولا تسافر » . وربما رسم على بعض أولاد الناس حتى يعيد الخمسين أشرفيا التى أخذها نفقة وقال لهم : الذى ما يقدر على السفر وهو ضعيف يعيد النفقة ولا يسافر ، وكان مجموع هذا العسكر الذى كتب للهند نحو خمسمائة انسان ، غير التراكمة البحارة من جماعة الرئيس سلمان .

وفى يوم الأربعاء سادسه عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى علاء الدين الاخميمى ، فكانت مدته فى هذه الولاية سنة وسبعة أشهر الا يومين ، وكان ماشيا فى منصب القضاة على الأوضاع كما ينبغى ، ومباشرا هذه الوظيفة بعفة زائدة وحسن تصرف ، وجاء فى منصب القضاة كفؤا لذلك ، وعزل من هذه الوظيفة والناس عنه راضية وحاز الثناء الجميل من الدين والخير ومنع الرشوة ، وكان فى مدة ولايته لا يتعاطى شيئا من معلوم الأنظار بل كان ينعم بذلك على طلبة العلم والفقهاء وغير ذلك .

فلما عزل خلع السلطان فى يوم الأربعاء المذكور على قاضى القضاة محيى الدين عبد القادر بن النقيب وولاه القضاء ، وهذه سادس ولاية وقعت

(١) هو مرض الزهرى .

له بالديار المصرية ، منهـا خمس ولايات فى دولة الأشرف الغورى والولاية الأولى فى دولة الأشرف جان بلاط ، فلما لبس التشريف بالمقعـد الذى بالحوش نزل من القلعة فى موكب حافل وقدامه القضاة الثلاثة وسائر نواب الشافعية وناظر الجيش وناظر الخاص وغير ذلك من الأعيان ، فتوجه الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، ولكن سعى فى هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار غير خدمة للأمير الدوادار الكبير والدوادار الثانى والقاضى كاتب السر . فقيل نفد منه فى هذه الست ولايات فوق الثلاثين ألف دينار ، وولى هـذه الولاية فى يوم الأربعاء وهو يوم نحس مستمر ، فتفاءل له الناس بعدم اقامته فى هـذه الولاية لكونه ولى فى يوم الأربعاء ، فذهب منه هـذا المال العظيم ، وياليته لو شبع من ماله بنصف رطل سكر أو طير دجاج بر به نفسه ، وأخبـاره فى الشح والبخل الزائد مشهورة بين الناس فما يحتاج لشرح ذلك ، فكان كما يقال فى المعنى :

ويحبس روثه فى البطن شـهرا
مخـافة أن يجـوع اذا خريه
ويبكى بالدموع لهضـم أكل
كما يبكى اليتيم على أبيـه

وفى يوم السبت تاسعه رسم السلطان بشنق أربعة أنفـار منهم جارية بيضـاء رومية وجارية حبشية وصبى ابن ناس لفاف وشخص قواس . وسبب ذلك أن ابن الناس هذا والقواس أفسدا هاتين الجاريتين وحسنا لهما بأن تقتلا أستاذهما ، وكان أستاذهما شخصا من أولاد الناس مقطع ، فقتلوه ثم ألقوه فى المستراح وأخذوا كل ما فى بيته وسافروا الى نحو اطفيح ، ومضى على هذا الأمر نحو خمسة أشهر ثم فشا من بعد ذلك أمرهم ونمت عليهم جارية صغيرة ، فقبض عليهم بعض مشايخ اطفيح وأرسلهم الى السلطان ، فقررهم فاعترفوا بقتله وأنهم ألقـوه فى المستراح ، ثم رسم السلطان للوالى بأن يفحص عن أمره ، فتوجـه وكشـف المستراح فوجده فيه وقد تقدد جلده فأخرجه من المستراح ، فلما عرضه على السلطان رسم بدفنه وأخرج اقطاعه لبعض المماليك ، ثم رسم بشـنق هؤلاء الذين فعلوا ذلك ، فلمـا توجهوا بهم الى الشنق ارتجت لهم القاهرة فى ذلك اليـوم ، ثم توجهوا بهم الى المكان الذى قتلوا فيه أستاذهم ، وهو مكان بالقرب من باب سعادة ، فشنقوا هناك الأربع أنفس ومضى أمرهم .

وفى يوم الخميس رابع عشره خلع السلطان على الأمير يوسف الذى كان نائب القـدس وقرره فى نيابة صفد عوضا عن طراباى الذى كان بها ، وكان عادة نيابة صفد ما يليها الا مقدم ألف ، وآخر من وليهـا من الأمراء المقدمين الأمير أزدمر المسرطن وأقام بها الى أن مات . فلما وليها الأمير يوسف عز ذلك على الأمراء كونه سـيفيا ، وكان يعرف بيوسف بن سيباى ، ولكن سعى فى نيابة صـفد بمال له صورة حتى وليها ، وما زال الدهر كثير الغلطات .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من مماليكه يقال له قانصوه الساقى ، وقرره فى وظيفة الأمير نانق الخازن على الحواصل السلطانية .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير قانصوه حبانية ، ورسم له بأن يتوجه الى طرابلس فى بعض المهمات الشريفة .

وفى يوم الاثنين ثامن عشر جمادى الآخرة كان وفاء النيل المبارك ، وقد أوفى يوم الأحد خامس مسرى ، وفتح السد فى يوم الاثنين سادس مسرى ، وكان نيلا مباركا قوى العزم ، فلمـا أوفى رسم السـلطان للأتابكى سودون العجمى بأن يتوجه

ويفتح السد ، فتوجه الى المقياس وخلق العمود ونزل فى الحراقة وفتح السد على العادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، ووقع فيه محاسن كثيرة على العادة ، فلما فتح السد ومضى طلع الى القلعة فخلع عليه السلطان خلعة سنية ونزل الى داره ، وللناس مدة طويلة لم يروا النيل أوفى فى خامس مسرى ، وقد قيل فى المعنى :

رعى الله مصر كم بهـا من مسرة
ومنزل أنس لاح بالطالع السـعد
رويت الوفا عن سدها يوم كسره
فها أنا مهما عشت أروى عن السد

وفى يوم الاثنين خامس عشرينـه حضر قاصد ملك الروم سليم شاه ، فلما حضر طلع الى القلعة ، فجلس السلطان فى الحوش على المصطبة ، فلما مثل بين يديه أحضر صـحبته رأس على دولات وراس ولده ورأس وزيره وهى فى علبـة ، فلما أحضروا تلك الرءوس بين يدى السلطان شق عليه ذلك وقال : ايش أرسللى هذه الرءوس ؟ هى رءوس ملوك الفرنج انتصر عليهم حتى أرسلهم لى ؟ ثم رسم للوالى بأن يأخذ تلك الرءوس ويدفنها على شاه سوار عنـد الكوم الذى بالقرب من زاوية الشيخ كهنبوش ، فانفض الموكب فى ذلك اليوم والسـلطان والأمراء فى غاية الاضطراب ، وكثر القال والقيل فى ذلك أن قلعة زمنطو وبلاد على دولات جميعها ملكها ابن عثمان واستناب فيهـا ابن سوار ، وقد خرجت بلاد على دولات من يدى السلطان ولم تنتطح فى ذلك شاتان ، وابن عثمان يقصد فى الباطن اثارة فتنة كبيرة بينه وبين السلطان وأظهر التحرش بالسلطان وفتح باب الشر ، فتنكد السلطان فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشرينه لم يخرج السـلطان من الدهيشة ولم ينزل الى الميـدان ، وأشيع أنه قد شرب دواء وأنه متوعك فى جسده ، وكان حصـل له فى يوم الاثنين انزعاج لما حضر قاصد ابن عثمان برأس على دولات ، وحصل فى ذلك اليـوم بين السـلطان والأمراء كلام يابس وخاشنوه فى الكلام وقالوا له : يامولانا السلطان غالب البـلاد الحلبية خرجت من أيدينا وصارت بيد ابن عثمان وخطب له فيها باسمه وضربت له السكة باسمه وشرع فى بناء برج عند عقبة بغراص وآخر على باب الملك والسلطان يده فى الماء البارد وفسـدت أحوال المملكة وغالب الرعيـة بحلب وغيرها من ظلم النواب وجورهم بيميلوا الى ابن عثمان لأجل عدله فى الرعية ، وهذه الأحوال غير صالحة ... فشق عليه كلام الأمراء وكظم لذلك ولم ينزل الميـدان فى ذلك اليوم ولا حكم بين الناس .

ومن الحوادث قد أشيع بين النـاس أن سنبل الطواشى لالا سيدى ابن السلطان وقع بينه وبين جمـاعة من المماليك الجلبان بسبب مملوك كان ساقيا عند ابن السلطان ، فضربه سنبل ضربا مبرحا بسبب فشروى فأقام أياما ومات ، فتعصب له جماعة من المماليك الجلبان وأوعدوا سنبل بالقتل فى ذلك اليوم ، وكثر القيل والقال فى ذلك وأشـيع اقامة فتنة كبيرة بين المماليـك والسلطان لأجل سنبل بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس ثامن عشرين هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباى بن يشبك الذى كان نائب صفد وعزل عنها فاستقر به حاجب الحجاب بدمشق ، وهذه درجة من حيدر لأسفل ، وقيل انه سعى فى ذلك بمبلغ له صورة .

وفى يوم الجمعة تاسع عشرينه قويت الاشاعات بوقوع فتنة كبيرة من المماليك الجلبـان بسبب

سنبل الطواشى لالا سيدى ابن السلطان ، وقد تقدم سبب ذلك من أجل المملوك الذى قتله ، فلم يطلع من الأمراء فى ذلك اليوم الا القليل ، وقيل ان السلطان لم يخرج ولم يصل الجمعة وكان فى غاية النكد ، وأرسل قبض على سنبل الطواشى وأودعه فى الترسيم واحتاط على موجوده ورسم عليه بالدهيشة أربعة من الخاصكية ، ومن حين وقعت هذه الحادثة رسم السلطان لولده بأن يقيم فوق القلعة ولا ينزل لباب السلسلة ، خوفا عليه من المماليك حتى تخمد هذه الفتنة ويكون من أمرها ما يكون .

* * *

وفى رجب ، كان مستهل الشهر يوم السبت ، فطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، وكان بالميدان فسلموا عليه ونزلوا الى دورهم .

ومما وقع فى ذلك اليوم من الحوادث المهولة أن المماليك الجلبان لما أصبحوا فى ذلك اليوم استمروا على اثارة الفتنة المقدم ذكرها ، فلبسوا كباشيات مقلوبة ووقفوا على باب سلم المدرج ومنعوا الناس من الطلوع الى القلعة ، وخاف مقدم المماليك وغيب من باب القلعة ، وقصد المماليك أن ينهبوا الدكاكين التى فى خرائب التتار ، وقصدوا أن ينزلوا الى المدينة وينهبوا الأسواق ، فمنعهم من ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة من النزول الى المدينة ، فلما طلع السلطان من الميدان ودخل الى الدهيشة بلغه أمر هذه الفتنة ، ثم اتسع الكلام بين المماليك وبين السلطان بسبب سنبل الطواشى الذى قتل المملوك ، وقد تقدم القول على ذلك ، فأرسلت المماليك تقول للسلطان : « ان لم تسلمنا سنبل الطواشى أو تنفق علينا لكل مملوك منا مائة دينار وتقيم حرمتنا فان السوقة صارت تمسك لجام المماليك فى الأسواق وتبهدلهم وما صار لنا حرمة بين الناس على أيامك » . فلما ترددت الرسل بين المماليك وبين السلطان بسبب ذلك ، وقد رأى السلطان عين الغدر من المماليك ، رسم للوالى بأن يقبض على سنبل ويخرج به الى المماليك ، وكان سنبل من حين جرى منه ما جرى بسبب المملوك الذى قتله وهو فى الترسيم عند السلطان فى الدهيشة ، فأخذه الوالى وخرج به وهو ماشى وعلى رأسه زمط وعليه ملوطة بيضاء وهو مفكك الأطواق ، فلما خرج الى باب القلعة أحاط به المماليك وقصدوا أن يقطعوه بالسيوف ، فصار يسأل قرابة المملوك الذى قتل بألف دينار فأبى من ذلك وقال : ما آخذ الا روحه ، ثم أنزلوه من سلم المدرج وأتوا به الى عند الحوض الذى تحت سلم المدرج فوسطوه هناك ، وأحضروا له تابوتا فحملوه فيه ومضوا به فغسلوه ودفنوه ، ومضى أمره كأنه ما كان .

وكان سنبل هذا من أعيان الخدام حبشى الجنس جميل الصورة يدعى سنبل بن غارى ، وكان له من العمر يومئذ نحو ثلاثين سنة ، وكان لالا سيدى ابن السلطان وحج معه ورأى من العز والعظمة غاية التعظيم ، وكان خازنداركيس ، وكان من المقربين عند السلطان وافر الحرمة نافذ الكلمة ، ولا سيما لما ولى ابن السلطان أمير آخور كبير فصار سنبل هو المتصرف فى أمور باب السلسلة ويحكم عوضا عن ابن السلطان ، وصار لا يقبل لأحد من الأمراء رسالة ولا شفاعة ، فعادى جميع الأمراء وحملوا منه فى الباطن ، فلما جرى له ما جرى لم يرث له أحد من الأمراء ، ولم يفد سنبل مما ناله من ذلك العز والعظمة شيئا ، ومات هذه

الموتة الشنيعة ، ولم يتفق لأحد من الخدام قبله أنه مات موسطا ، وكان ذلك من الأمور المقدرة .

فلما توسط سنبل خمـدت تلك الفتنة وطلعت المماليـك الى الطبـاق وبطل أمر الفتنة ، ثم ان السلطان أشهر المناداة فى القاهرة : بأن لا سوقيـا ولا تاجرا يبهدل مماليك السلطان ولا يمسك لأحد منهم لجـام فرسه ، ومن فعـل ذلك قطعت يده ولا يقل حياه عليهم ، وكانت هذه المناداة من أكبر الفساد فى حق الناس ، وصارت المماليك من بعد ذلك يدخلون الى الأسواق ويخطفون القماش من على الدكاكين ولا يقدر أحد يمنعه من ذلك ، وصار الناس معهم من بعد ذلك فى غاية الضنك والقهر ، وقد أرضى المماليك بقتل سنبل وبهذه المناداة عن طلب النفقة .

وفى يوم الاثنين ثالثه وردت على السلطان أخبار ردية بأن سليم شاه بن عثمان تملك غالب بلاد على دولات وشرع فى بناء أبراج على عقبة بغراص عند باب الملك ، وأرسل نائب الشام ونائب حلب يعاتبان السلطان فى تأخير ارسال التجريدة الى اليوم بسبب حفظ البلاد قبل أن يتمكن منها عسكر ابن عثمان ، فلما وردت هذه الأخبار على السـلطان تنكد الى الغاية وطلع الى الدهيشـة هو والأمراء وضربوا مشورة فى ذلك الأمر .

وفى يوم الأربعاء خامسه نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك التى بالمطرية فأقام بها الى بعد العصر ، فلما رجع الى القلعة شق من على باب اللوق ، فلما شق من هناك وقف له جمـاعة هنـاك من التجار وشكوا له من أذى المماليـك فى حقهم وخطفهـم القماش من على الدكاكين ، فلم يلتفت الى ذلك ، وربما أغلظ التجار على السلطان فى القول ، فطلع الى القلعة وهو فى غاية السودنة من العوام .

وفى يوم الخميس سادسه توفى القاضى أبو الفتح السرم ساحى ، وكان من أعيـان النـاس ورأس الموقعين العدول ، وكان موته فجأة على حين غفلة .

وفى يوم السبت ثامنه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى المقياس وبات به ، وأصبح يوم الأحد مقيما هنـاك ، ومد له الزينى بركات بن موسى أسمطة حافلة وانشرح هناك ، ثم طلع الى القلعة بعد العصر من يوم الأحد ، وكان النيل يومئذ فى عشرين ذراعا ، فجلس فى القصر الذى أنشأه على بسطة المقياس وكان ذلك اليوم بالسلطانى .

وفى يوم الاثنين عاشره جلس السلطان فى الميدان وعرض العسكر المعين الى جهة الهنـد ، فعرضهم وهم باللبس الكامل واستدعاهم كل واحد باسمه ، فلما فرغ من عرض العسكر خلع على الرئيس سلمان العثمانى كاملية مخمل أحمر بسـمور وقرره باش المراكب المجهزة للهند ، وقرر الباش الثانى شخصا يسمى يشبك وهو أمير عشرة ، وقرر الباش الثالث شخصا يقال له دمرداش الاقريطشى ، وكان أصله افرنجى يبيع النبيذ الاقريطشى فاشـتهر بذلك ، فأنعـم عليـه السلطان بامرة عشرة وجعله باش العسكر — وكان ذلك من غلطات الزمان ! — فلما انتهى أمر العرض بسط السلطان يده وقرأ سورة الفاتحة ودعا بالنصر للعسـكر . ثم ان العسكر خرج من الميدان ونزل وشق من القاهرة وقدامهم الطبول والزمور ومكاحل النفط والبندقيات وعلى رءوسـهم الصنجق السـلطانى ، وكان لهم يوم مشهود . وكان مجموع هذا العسكر المتوجه الى الهند على تحرر أمره نحو سـتة آلاف انسان ، تفصـيله : خاصكية خمسـون ، جمدارية مائة وخمسون ، ومن الطبقة الخامسة المتجددة ما بين أولاد ناس ومماليك وغير ذلك أربعمائة وخمسون ،

وبحارة ومقاتلين وتراكمة ومغاربة وغير ذلك خمسة آلاف وثلاثمائه أربعة وأربعين على ما قيل ، فلما خرجوا من القاهرة توجهوا الى الريدانية الى أن يرحلوا من هنـــاك الى السويس ، فكان السلطان في مدة اقامتهم في الريدانية يمد لهم أسمطة حافلة من ماله بكرة وعشـــيا الى أن رحلوا من هنـــاك وتوجهوا الى نحو السويس ، وكان عدة المراكب التي أنشـــأها السلطان بالسويس عشرين مركبا ، وقد شحنوها بالمكاحل والمدافع والبارود وغير ذلك من الزاد بسبب العسكر ، وقد تقدم القول على أن السلطان أنفق على هؤلاء العسكر قبـــل ذلك وأعطى لكل مملوك منهم خمسين دينارا ، ووعدهم بأن ينفق عليهم قبل أن يسافروا جامكية ستة أشهر معجلا عند خروجهم الى السفر .

وفي ذلك اليوم خلع السلطان على قاصد ابن عثمان وأذن له بالعود الى بلاده وكتب له الجواب عن مطالعته التي حضرت على يده ، ثم ان السلطان قصد أن يعين له قاصدا من عنده فلم يطاوعه أحد من الأمراء ولا من الخاصكية بأن يتوجه قاصدا الى ابن عثمان ، وقالوا للسلطان . هذا رجل جاهل سفاك للدماء وكل من توجه اليه بهـــذا الجواب قتـــله ، فلم يوافق الى التوجـــه اليه أحـــد من العسكر

وفي يوم الخميس ثالث عشره خلع الســـلطان على الوزير يوسف البدري بأن يستمر في الوزارة على عادته ، وكان له مدة وهو في الترسيم بسبب عمل الحساب . وآخر الأمر كتب عليه السلطان مسطورا بخمســـة وستين ألف دينار والتزم بأمر الســـداد هو والقاضي شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، فخلع الســـلطان عليهما ونزلا في موكب حافل .

وفي يوم السبت خامس عشره نزل السلطان من القلعة وعدى الى الروضة ونصب له خيمة عند خرطوم الروضة وصواوين ، وأقام هنـــاك يومين وليلة ، وأحضر عنده مغاني وأرباب الآلات ، ومد له هناك الزيني بركات بن موسى المحتسب أسمطة حافلة وطواري فاخرة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما يهدى للملوك ، فانشرح الســـلطان هنـــاك الى الغاية وصنع دكة خشب في وسط الماء وكان النيـــل في قـــوة الزيادة ، وجلس عليهـــا وحوله الخاصـــكية وهم خائضـــون في الماء حتى ابتلت ملاليطهم بالمـــاء والطين ، وقـــد فتك في القصف والفرجة حتى خـــرج في ذلك عن الحد ، وكان الســـلطان حصـــل له قبل ذلك غاية النكد بسبب توسيط الطواشي ســـنبل وفتنة المماليك في طلب النفقة ، فما صـــدق باخماد تلك الفتنة عنه فنزل هناك وانشرح في ذلك اليوم ، واستمر مقيما هناك الى يوم الأحـــد آخر النهار ، وكانت ليلة تفرقة الجامكية ، فطلع من هناك الى القلعـــة وشق من الصليبة ولم يكن قدامه أحـــد من الأمراء سوى جماعة من خاصكيته فقط .

وفي يوم الخميس عشرينـــه خرج الأمير طومان باي الدوادار الكبير وصـــحبته الأمير خاير بيك أحـــد المقدمين الذي كان كاشف الغربية وبعض أمراء عشراوات وخاصكية ، فخرج في ذلك اليوم وتوجه الى جبل نابلس بسبب فســـاد العـــربان الذين هناك ، فانه حصل بينهم وبين نائب غزة فتنة كبيرة وقتل فيها جماعة ، واضطربت أحوال الدرب السلطاني من غزة الى مصر ، وخرج الأمير الدوادار بغير طلب ، وكان ذلك اليـــوم يوم نوروز وأول السنة القبطية فلم تتفاءل الناس بخروج الدوادار في ذلك اليوم وقالوا : يستمر سنته كلها في هجاج وسفر .

وفى يوم السبت ثانى عشرينه توفى شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له جانى بيك قرا بن حيدر وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين رابع عشرينه رحل الأمير الدوادار من الريدانية وتوجه الى الخانكة ، ومما عد من محاسن الأمير طومان باى الدوادار أن شخصا من الفقراء كان على باب جامع شيخو يتمنى مائة دينار ذهبا وجملا وعبدا حتى يتوجه الى الحجاز ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، وكان يتلش بالأمراء كلما طلعوا الى القلعة ونزلوا فأصورهم وأبادهم شرا وحرمهم أن يشقوا من الصليبة . ففى بعض الأيام أرسل اليه الأمير طومان باى الدوادار خمسين دينارا ذهبا وجملا وعبدا وقال له : امض الى الحجاز ، فقال له ذلك الفقير : احملنى معك الى القدس فأزوره قبل أن أحج ، فحمله معه لما سافر الى نابلس ، فعد ذلك من النوادر اللطيفة من الأمير الدوادار . وكان فيه الخير ، وكان قليل الأذى بخلاف من تقدمه من الدوادارية .

وفى يوم الخميس سابع عشرينه عزل السلطان قاضى القضاة الشافعى محيى الدين بن النقيب فكانت مدته فى هذه الولاية خمسين يوما لا غير ، ونفد منه فى هذه الولاية ثلاثة آلاف دينار غير الكلف ولم يقم فيها سوى هذه المدة اليسيرة وعزل فلما عزل لم يرث له أحد من الناس فى سعيه فى هذه الوظيفة ، وقد نفد منه على وظيفة القضاء فوق الثلاثين ألف دينار ، وهو ممقوت عند الناس ولم يمكث فى هذه الست ولايات الا مدة يسيرة نحو السنتين ، وكان أرشل قليل الحظ .

فلما عزل ابن النقيب فى ذلك اليوم خلع السلطان على قاضى القضاة كمال الدين الطويل وأعاده الى القضاء ، وهذه رابع ولاية وقعت لقاضى القضاة كمال الدين ، وقد سعى فى هذه الولاية بثلاثة آلاف دينار ، وكان الساعى له القاضى علاء الدين ناظر الخاص والشرفى يحيى الشطرنجى نديم السلطان ، فلما لبس التشريف وشق من القاهرة أوقدوا له الشموع على الدكاكين وزينوا له بعض دكاكين فى حارته عند الخانقاه البيبرسية . وكان قاضى القضاه كمال الدين محببا للناس قاطبة ، ولما عاد قاضى القضاة كمال الدين الى منصب القضاء هنئته بهذين البيتين وهما :

الى قاضى القضاة تقول مصر
لقد جاد الزمان بمشى حالى
ولما عاد منصبه أتاها
سرور بالتمام وبالكمال

فلما أحضروا له التشريف وقف السلطان عن لبسه فى ذلك اليوم وصار يعتبه بكلمات مما تقدم منه ، وقال له : « لا تبقى تحكم وترجع عن أحكامك » .

وفى يوم الجمعة ليلة السبت ثامن عشرين رجب كانت وفاة قاضى القضاة الحنفى سرى الدين عبد البر بن قاضى القضاة محب الدين بن الشحنة ، وقد تقدم ترجمة نسبه فى الجزء الثامن من التاريخ ، وكان قاضى القضاة عبد البر اماما فاضلا عالما علامة فى هيبة ، وكان رئيسا حشما من ذوى البيوت من أعيان علماء الحنفية ، توفى وله من العمر نحو خمس وسبعين سنة أو دون ذلك ، ومات وهو منفصل عن القضاة ، وقد أقام فى منصب القضاء نحو ثلاث عشرة سنة وأشهر . ورأى فى دولة الأشرف قانصوه الغورى ما لا رآه غيره من القضاة ، وكان من أخصاء السلطان بحيث انه كان يبات عند السلطان بالقلعة ثلاث ليال

فى الجمعة ، وصار هو المتصرف فى أمور المملكة بحضرة السلطان ، واستمر على ذلك حتى تغير خاطر السلطان عليه بسبب ما تقدم ذكره من عزل القضاة الأربعة فى يوم واحد ، فعزل معهم ، واستمر على عزله والسلطان متغيظ عليه ولا يسمع بذكره قط حتى مات من شدة قهره ، ثم مات رحمة الله عليه ، وقد قلت فى هذه الواقعة :

طلعت لعبـــد البر أعظم ذبلة
من قهر أحكام القضـــا لما عزل
قد نال ذل الطـــرد من سلطانه
وأتى اليـــه كل عكس متصل

* * *

وفى شـــعبان كان مستهل الشهر يوم الأحد ، فجلس الســـلطان فى الميـــدان ، وطلع القضـــاة الأربعه للتهنئة بالشهر ، وكان الخليفة متوعكا فى جسده فلم يطلع للتهنئة بالشهر

وفى يوم الثلاثاء ثالثه نزل السلطان وتوجه الى قبة الأمير يشبك النى بالمطرية ، فبات بها وتفرج على الملقة وكانت فى قوة ملوها ، فأقام هناك الى يوم الأربعاء آخر النهار ثم عاد الى القلعة ، ونزل أيضا عقيب ذلك الى القبة وبات بها .

وفى يوم الاثنـــين ســـادس عشره حضر الى الأبواب الشريفة جانم الخاصكى الذى كان أرسله الســـلطان الى ملك التتار بسبب أقارب السلطان الذين أسرهم ملك التتار عنـــده ، فلما مر من على بلاد ابن عثمان أرسل قبض عليه وأخذ ما كان معه من الهدية التى كان أرسلها الســـلطان الى ملك التتار ، وحصل لجانم من ابن عثمان غاية البهدلة ، وهم بشنقه غير ما مرة حتى شفع فيه بعض وزراء ابن عثمان ، فلما رجع جانم أخبر عن ابن عثمان أمورا شنيعة قالها فى حق السلطان وعسكر مصر ، وأنه جهز عدة مراكب كثيرة نحو أربعمائة مركب فى البحر تجىء ثغر الاسكندرية ودمياط ، وفرقا من عسكره تجىء من على البلاد الحلبية ، فلما تحقق السلطان ذلك أرســـل خلف أمير كبـــير سودون العجمى وبقية الأمراء ، فجلســـوا فى الدهيشـــة وضربوا مشورة بسبب ابن عثمان ، وقيل انه حلف الأمراء فى ذلك اليوم بأن يكونوا كلمة واحدة ولا يخرجوا عن طاعته ظاهرا وباطنا ، وحلف هو أيضا لهم بمعنى ذلك ، وانفض المجلس بعد الحلف .

ويقال كان سبب اثارة هذه الفتنة الحادثة بين الســـلطان وبين ابن عثمان أن خشقـــدم مملوك السلطان الذى كان مشد الشون . وقد تقدم القول على أنه كان قد حصل له من السلطان حنق بسبب زوجته بنت جانى بيك دوادار الأمير طراباى وقد تقدم ذكر ذلك ، فلما رأى خشقدم أن الســـلطان محط عليـــه بسبب جانى بيك فر على حين غفلة ونزل فى مركب وتوجه الى عند سليم بن عثمـــان وكان له أخ عند ابن عثمان ، فلما توجـــه خشقدم الى ابن عثمان أكرمه وأنعم عليه بامرية فى بلاده .

فلما استقر خشقدم عند ابن عثمان شرع يحط على السلطان عند ابن عثمـــان ويخبره بأمور من أفعال السلطان من أبواب المظـــالم ، وأخبره بما أحدثه على السوقة من أمر المشاهرة والمجامعة على أرباب البضائع من المال المقرر عليهم فى كل شهر ، وأخبره بأمر الغش الذى فى المعـــاملة فى الذهب والفضة ، وأخبره بأشياء كثيرة من هذا النمط عن أحوال مصر ، حتى أخبره بجملة عساكر مصر وما يشتملون عليه ، وأخبره عن أمر قضاة مصر قاطبة وأنهم يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعيـــة ، وحسن له أن يمشى على بلاد السلطان وسهل عليه ذلك الأمـــر ، فعـــرفه كيف يرســـل مراكب على الاسكندرية ودمياط .

فعند ذلك طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر والله تعالى غالب على أمره . فمن حين توجه خشقدم الى ابن عثمان وهو يظهر المشي على بلاد السلطان ، ولا سيما قتل على دولات وملك بلاده وولى فيها ابن سوار وجعله نائبه وصار يكاتب السلطان فى مطالعاته بألفاظ يابسة ، وكل ذلك مما أوحاه اليه خشقدم عن أحوال الديار المصرية .

فلما حضر جانم الخاصكى وأخبر السلطان بما قاله ابن عثمان فى حقه من هذه الأخبار المقدم ذكرها ، اضطربت أحوال السلطان وتنكد لذلك ، واستمرت الوحشة بينه وبين ابن عثمان عمالة .

وهذه الواقعة تقرب مما وقع للملك الناصر محمد بن قلاوون مع قبجق نائب الشام ، فانه أظهر العصيان على السلطان فأرسل بالقبض عليه ، فلما تحقق ذلك فر من الشام وتوجه الى غازان ملك التتار وقوى عزمه وحسن اليه بأن يمشى على بلاد السلطان فيملكها من غير مانع ، وكذا جرى فمشى غازان على بلاد السلطان وملك حلب والشام ، فخرج اليه الملك الناصر محمد بن قلاوون وتحارب مع غازان فكسر غازان الملك الناصر كسرة مهولة ، فرجع الملك الناصر الى مصر وهو مهزوم ، ثم تحايا عسكر مصر ورجع الملك الناصر وتحارب مع غازان ثانيا فكسره كسرة مهولة وغنم منه أشياء كثيرة من خيول وسلاح وغير ذلك ، وكان هذا كله من فتنة قبجق لما توجه اليه وحسن له ذلك ، ونعوذ بالله أن تكون فتنة ابن عثمان مثل ذلك ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشره جاءت الأخبار من السويس بأن المراكب التى جهزها السلطان الى الهند غرق منها مركب وقد صدمت فى شعب فانكسرت وغرق جميع ما كان فيها ، وفقد من العسكر الذى كان فيها جماعة ، فلم تتفاءل الناس بذلك .

وفى يوم الخميس تاسع عشره خلع السلطان على الأمير اينال باى دوادار سكين وعينه بأن يسافر الى البلاد الشامية بسبب أمور تتعلق بأشغال السلطنة ، فتوجه اليها .

وفى يوم الجمعة عشرينه فتح سد بحر أبى المنجا ، وكان النيل يومئذ فى ست عشرة أصبعا ، من احدى وعشرين ذراعا ، وكان فتحه فى أول يوم من بابه من الشهور القبطية ، وقد تأخر فتحه عن العادة الى ذلك اليوم ، وكان النيل فى قوة عزمه من الزيادة ، فلما فتح سد أبى المنجا نقص النيل فى ذلك اليوم ولم يزد من بعد ذلك شيئا ، وقد ثبت على ست عشرة أصبعا من احدى وعشرين ذراعا ، وحصل به غاية النفع وروى سائر البلاد التى قط ما رويت ، واستمر ثابتا الى أوائل هاتور فعد ذلك من النوادر .

ومن العجائب أن مع وجود علو النيل وثباته لم يسكن فى الجزيرة الوسطى ولا بيت واحد ولم يفتح فيها دكان ولم يعمل بها مقصف للمتفرجين ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، ولكن أشاعوا أنه سكن بالجزيرة عدة مناخات جمال لابن السلطان والأمراء ، فخشى الناس أن يسكنوا الجزيرة من النفر الذين هناك ، فهذا كان السبب فى منع الناس من سكنى الجزيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرينه نادى السلطان فى الحوش للعسكر بأن يعملوا يرقهم وأن يكونوا على يقظة فان السلطان ينفق ويخرج فى جمعته ، وصار فى كل جامكية ينادى للعسكر بذلك فى الحوش ، وأشيع أن السلطان هو الذى يسافر بنفسه بسبب

ابن عثمـــان ، واستمرت الاشـــاعات قائمة بسفر السلطان ثم خمدت تلك الاشاعة قليلا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة القاضى جلال الدين محمد الزفتاوى أحد نواب الشافعية ، وكان لا بأس به ، ومات وهو فى عشر الثمانين سنة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشرينه نزل السلطان الى بولاق وتوجه الى ضيافة القاضى كاتب السر محمود ابن أجا بالبرابجية التى هنالك فأقام عنده الى يوم الأربعاء وهو فى أرغد عيش ، فمـــا أبقى القاضى كاتب السر فى ضيافته ممكنا وأحضر من كل شىء أحسنه ، حتى قيل انه تكلف على أسمطة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للســـلطان فوق ألف دينـــار . وكان ابن الســـلطان معــه وجماعة من الخاصكية ، وانشرح الســـلطان هنــــاك الى الغاية وأحضر بين يديه مغـــانى وأرباب الآلات ، وأظهر القـــاضى كاتب السر أنواع العظمـــة من الفرش الفـــاخرة والأوانى الصينى والنحاس المكفت وغير ذلك من كل صنف .

ثم ان السلطان صلى العصر يوم الأربعاء وطلع الى القلعـــة وكانت لبلة جامكية ، فلما ركب من هناك خلع على القاضى كاتب السر كاملية حافلة من ملابيسه مخمل أحمر بسمور فاخر ، وتشكر منه لما تكلفه له من الأسمطة الحافلة وغير ذلك من المأكل والمشرب والتقادم الحافلة .

وفى يوم الخميس سادس عشرينه أنفق السلطان الجامكية ، وهى آخر الجوامك ، ثم نادى للعسكر بأن يعمـــلوا يرقهم وأن يكونوا على يقظـــة فان التجريدة الى حلب عمالة ، فلما تحقق المماليك ذلك نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجـــار وهجموا عليهـــم الحارات والبيوت ، وأنزلوا الفقهاء من على بغالهم فى وسط الأسواق وأخذوها من تحتهم ، وأخذوا بغلة الشـــيخ برهان الدين بن الـــكركى وهو فى الحضور فى المدرسة الأشرفية فبرطل عليها بمبلغ له صورة حتى خلصها ، ثم صارت المماليك تسافر الى نحو بابيس والصالحية ويأخذون بغال المسافرين وأكاديشهم ، حتى صج منهم جميع الناس وتزايد منهم الضرر الشامل فى حق الناس جدا ، وصاروا يبهدلون القضـــاة والعلماء بالضرب وينزلونهم من على بغالهم ، وفعلوا من هذا النمط أشياء كثيرة .

❊ ❊ ❊

وفى رمضان كان مستهل الشهر يوم الثـــلاثاء ، فجلس السلطان فى الميدان ، وطلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشـــهر ، ثم طلع الوزير يوسف البدرى والزينى بركات بن موسى المحتسب ، وطلعوا بالخبز والسكر والدقيق وهو على رءوس الحمالين مزفوف ، وطلعوا بأغنام وأبقار كما جرت به العادة فخلع السطان على الوزير وناظر الدولة شرف الدين الصغير والمحتسب ... وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الأربعاء ثانى شهر رمضـــان قوى عزم السلطان بأن يسافر الى ثغر الاسكندرية ورشـــيد بسبب تفقد أحوال الأبراج التى هناك ، وأشيع أنه شرع فى بناء سور برشيد على شواطىء البحر الملح فأرسل عدة بنـــائين وحجارين بسبب ذلك ، وقد بلغه عن ابن عثمان أنه يقصد يطرق ثغر الاسكندرية ودمياط على حين غفلة ، فلما صلى السلطان الصبح يوم الأربعاء نزل من القلعـــة وتوجه الى بولاق وعدى الى بر انبابة ونصب له خيمة هناك حتى يتكامل خـــروج العســـكر ، فكان صـــحبته من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى

رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب والامير نانى بيك الخازندار أحد الامراء المقدمين ، وجماعة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات منهم الأمير خاير بيك المعمار ، وكان صحبته من المباشرين الشهابى أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر والقاضى أبو البقا ناظر الاسطبل ، وآخرون من المباشرين من أرباب الوظائف ، وعين معه نحو خمسين خاصكيا من أرباب الوظائف وألزمهم بأن يصحبوا معهم كل واحد فرسا وبغلا جنيبا . فقاسوا فى المراكب بسبب الخيول ما لا خير فيه ، وكان النيل فى عشرين ذراعا والطرق مقطوعة من كثرة الماء ، فحصل للأمراء والعسكر مشقة زائدة ولا سيما فى رمضان والصيام عمال كل يوم ، فأقام السلطان فى بر انبابة الى يوم الخميس ثالث الشهر فنزل فى مركب ورحل من انبابة هو والأمراء فى عدة مراكب كثيرة ، وكانت هده السفرة على حين غفلة

وفى ليلة الجمعة رابع الشهر سقط سقف زاوية الشيخ أبى العباس البصير رحمة الله عليه ، وهى التى عند باب الخرق المطلة على الخليج ، فقتل تحت الردم رجل وصبى صغير وهرب من كان بها من المصلين وقت العشاء فسلموا ، ولم يقتل غير اثنين كما تقدم .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن المماليك الجلبان ربطوا كلاب حديد فى حبل ، وشلقوه فتعلق فى شباك الطبقه التى على باب الزردخاناه ، وتسلقوا عليه وهم من داخل الحوش السلطانى ، فلما وصلوا الى الشباك وجدوا بالقرب منهم أربع طقزيات بأسقاط فضة فسحبوها وأخذوها .

فلما طلع النهار حضر الأمير مغلباى الشريفى الزردكاش الكبير ، فأعلموه بذلك ورأى الحبل معلقا فى الشباك فكتب بذلك محضرا ، ولم يفد من ذلك شىء وراحت على من راح .

وفى يوم الأحد ثالث عشره أشيع بين الناس أن الوالى عاقب جانى بيك دوادار طراباى على بقية المال الذى تأخر عليه ، فطالبوه بأن يورد مما عليه شيئا على الحامكية فقال : ما بقى معى شىء من المال غير روحى خذوها ، فضربوه كسارات على ركبه ، وقيل عصروه فى أصداغه ، وهو يقول ما بقى معى شىء من المال ، فاستمر يعاقبه الوالى حتى أشرف على الموت ، وأشيع بين الناس موته ، ولكن ما صح ذلك ، وهذا انتقام من الله تعالى فان جانى بيك هذا كان من وسائط السوء مستحقا لكل الأذى .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشر هذا الشهر حضر السلطان من ثغر الاسكندرية ، وهذه هى السفرة الثانية فكانت مدة غيبته فى هذه السفرة ثلاثة عشر يوما لا غير ، بخلاف السفرة الأولى ، وكان سبب توجهه الى ثغر الاسكندرية فى هذه المرة أنه لما بلغه عن سليم شاه ابن عثمان بأنه قد جهز نحو أربعمائة مركب وهو قاصد الى ثغر الاسكندرية ودمياط الشهير ، فتوجه السلطان الى هناك لتفقد أحوال الأبراج التى هناك وترميم ناثها ، وتوجه الى رشيد وأيضا رسم بأن يبنى عليها سور من جهة البحر الملح ، وأشيع أن السلطان أنعم هناك على خاير بيك العلائى الشهير بالمعمار بتقدمة ألف وجعله متحدثا فى باشية برج الأشرف قايتباى ، وأشيع أيضا أن السلطان حصل له هناك توعك فى جسده وأفطر يوما من شهر رمضان عندما حصل له دوخة وأغمى عليه ، فعند ذلك بادر بسرعة المجىء الى مصر ، فأتى فى مركب لبر مصر عند السواقى التى أنشأها هناك فطلع من عند السواقى هو والأمراء الذين كانوا صحبته ،

فخلع عليهم هناك كوامل مخمل بسمور ، فلما طلع لاقاه من هناك الخليفة والقضاء الأربعة وبقية الأمراء الذين كانوا بمصر ، فشق من السبع سقايات الى قناطر السباع ، ورسم لأمير كبير سودون العجمى بأن يتوجه الى بيته من هناك ، فلما وصل الى المدرسة الصرغتمشية رسم للخليفة بأن يتوجه الى بيته من هناك ، وكان الأمير أركماس أمير مجلس حصل له رمد فى عينه فلم يركب مع السلطان ، فشق السلطان من الصليبة وطلع الى الرملة ودخل الى الميدان ، فطوب الى القضاة وانصرفوا الى بيوتهم ، وكان موكب السلطان هينا بخلاف مواكبه المقدمة .

وفى يوم الخميس رابع عشره فرق السلطان الكسوة على العسكر مع الجامكية .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة سرى الدين عبد البر ابن الشحنة وقرره فى قضاء الحنفية ، عوضا عن القاضى شمس الدين السمديسى الحنفى بحكم انفصاله عن القضاء ، فكانت مدته فى القضاء سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام ، وكان من أخصاء السلطان وامامه ولكن سعى عليه الحسامى محمود ابن الشحنة بثلاثة آلاف دينار حتى ولى وظيفة القضاء ، وكان الحسامى محمود شابا قليل الرأسمال من العلم ولم يكن فى طبقة علماء الحنفية ممن ولى وظيفة قضاء الحنفية ، ولكن السلطان ما عنده أعز ممن يورد له مالا ويكون مهما كان ، وقد استكثر غالب الناس على محمود وظيفة القضاء ، وفيه يقول القائل :

لا واخذ الرحمن سلطاننا
أفعاله بالطبع رهاجه
ولى علينا للورى قاضيا
ما كان للدهر به حاجة

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى وأعاده الى قضاء المالكية ، عوضا عن جلال الدين ابن قاسم بحكم انفصاله عن القضاء ، وقد سعى عليه محيى الدين يحيى الدميرى بألفى دينار ، وهذه ثانى ولاية وقعت لمحيى الدين بن الدميرى بمصر ، فكانت مدة جلال الدين بن قاسم فى قضاء المالكية سنة وعشرة أشهر وثمانية أيام مثل مدة السمديسى الحنفى فانهما وليا فى يوم واحد ، وقد تولى الحسامى محمود ومحيى الدين يحيى بن الدميرى فى يوم واحد ، وشقا من القاهرة وعليهما التشاريف ، وكان لهما يوم مشهود .

وفى هذا الشهر كملت عمارة مدرسة الأمير بيبرس قريب السلطان التى أنشاها بقرب خط الجودرية ، وجاءت فى غاية الحسن والظرف ، فخطب بها فى ذلك الشهر .

وفى يوم الاثنين حادى عشرينه كان أول هاتور الشهر القبطى . ومن العجائب أن النيل استمر فى ثبات لم ينهبط حتى دخل هاتور ، وكان يومئذ فى تسع عشرة ذراعا ونصف ذراع ، حتى عد ذلك من النوادر ، ولكن حصل بذلك الضرر الشامل على المزارعين بمكث الماء على الأراضى . ومن العجائب مع وجود ثبات النيل هذه المدة لم تسكن الجزيرة الوسطى فى هذه السنة ولا كرى فيها بيت ولا دكان .

وفى ذلك اليوم توفى الأمير أقبردى الحسنى أحد الأمراء العشراوات من طبقة الزمامية ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفى يوم الأحد سابع عشرينه كان ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وخلع السلطان على القضاة الأربعة وأعيان العلماء ومن له عادة ، وفرقت الصرر على جارى العادة ، وكان ختما حافلا .

وفى يوم الاثنين ثامن عشرينه عرض ناظر الخاص خلع العيد على السلطان ، وألبسه كاملية محمل أحمر بسمور ، ونزل من القلعه فى موكب حافل ، وكانت الخلع فى هده السنة فى غاية الوحاشه من انشحات ناظر الخاص بخلاف كل سنة .

* * *

وفى شوال كان مستهل الشهر يوم الأربعاء ، وهو يوم عيد الفطر ، فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، ثم دخل الى الحوش الكبير وجلس على الدكة وخلع على القضاة الأربعة ثم على أمير كبير وبقية الأمراء المقدمين .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على الأمير خاير بك المعمار وألبسه مثمر وأطلسين لكونه بقى مقدم ألف ، ثم خلع على المباشرين ومن له عادة . وكان موكب العيد حافلا . وكان الأمير طوماى باى الدوادار مسافرا فى جبل نابلس ، وكانت الخلع فى هذا العيد فى غاية الوحاشة ، وأبطل ناظر الخاص الطرز النخ الذى كان يعمل فى الخلع ، وكانت الخلع من القماش القطنى الذى مثل القش . ثم نزل ابن السلطان الى باب السلسلة وعليه فوقانى بطرز يلبغاوى عريض ، ونزل فى موكب حافل وقدامه الشعراء والشبابة السلطانية ، فمد بباب السلسلة مدة حافلة وخلع على غلمانه أرباب الوظائف ، ثم خلع الفوقانى الذى كان عليه على الأمير آقباى الطويل أمير آخور ثانى أحد المقدمين فلما انقضى أمر المدة بباب السلسلة نزل المقر الناصرى ولد السلطان من باب السلسلة ، وعليه تخفيفة صغيرة وسلارى بعلبكى أبيض ، وقدامه القاضى محيى الدين عبد القادر القصروى ناظر الجيش والقاضى أبو البقا ناظر الاسطبل وبعض جماعة من الخاصكية ، وقدامه ثلاث طوائل خيل بنواشى حرير أصفر ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات بالدعاء وأوقدوا له أحمالا وتنانير بالنيار من الورافين الى آخر البندقانيين ، وزدوا له عند بيته ربة حافلة بالخيام والسحائب ، وصنعوا له ردكا على بابه وفيه أشجار وأحواض جلد بفواوير ماء عماله ، واصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، ودقت له الكوسات على بابه ، وزفته المغانى بالطارات على الدكاكين ، ولاقته طائفة اليهود بالنسوع مرقودة قدامه ، فاستمر فى هذا الموكب حتى دخل الى بيته الذى فى خط البندقانيين ، ومد له هناك مدة ثانية واستمر هناك فى بيته الى أواخر النهار ، ثم ركب من هناك وطلع الى القلعة .

وفى يوم الخميس ثانيه تغير خاطر السلطان على عبد العظيم الصيرفى وأودعه فى الحديد ، وأرسله الى بيت الامير الدوادار حتى عمل حساب الشعير الذى هو متحدث عليه ، فاستمر فى الترسيم حتى يكون من أمره ما يكون .

وفى يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان جماعة من المماليك القرانصة ، وعين منهم جماعة الى العقبة وجماعة الى الأزلم وجماعة الى الاسكندرية والى رشيد وجماعه الى دمياط يقيسون بها ، فغالب المماليك اختار دمياط ورشيد دون تلك المواضع وشرعوا يتشكون من ذلك فقال لهم السلطان : أنا ما شرطت عليكم كل من أخذ منكم الخمسين دينار النفقه يسافر الى العقبة والأزلم وغير ذلك من الأماكن وقلتوا نحن نسافر الى أى مكان أرسلنا فيه السلطان ؟ فحصل فى ذلك اليوم بين السلطان وبين المماليك بعض تشاجر ، وانفض المجلس مانعا ، وحنق السلطان من المماليك القرانصة فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفى يوم الخميس تاسعه خلع السلطان على الأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية على عادته .

وفى يوم الجمعة عاشره ، الموافق لتاسع عشر هاتور القبطى ، فيه لبس السلطان الصوف وقلع البياض ، وقد آخر لبس الصوف عن عادته أياما .

وفى يوم السبت حادى عشره قبض السلطان على المعلم خضر معامل اللحم ، وشكه فى الحديد وقيده ، وسجنه بالعرقانة حتى يغلق ما عليه من اللحوم المكسورة للعسكر . وفى ذلك اليوم ورد عبد العظيم الصيرفى مما قرر عليه بسبب الشعير المنكسر ألفى دينار ، واستمر فى الترسيم حتى يعلق ما بقى عليه وهو فى الحديد .

وفى يوم السبت المذكور توفى الأمير نوروز أخو الأمير يشبك الدوادار أحد الأمراء المقدمين الألوف وكان له مدة وهو منقطع فى بيته عليل حتى مات فى ذلك اليوم .

وفى يوم الخميس سادس عشره أنفق السلطان الجامكية على العسكر ، ووقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب . وسبب ذلك أن السلطان كان عين من المماليك القرانصة خمسين مملوكا يتوجهون الى مكة صحبة باش المجاورين على جارى العادة ، وكان قد عينهم فى ربيع الأول وأخذوا فى أسباب عمل يرقهم ، فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره بدا للسلطان فى ذلك اليوم بأن يبطل هؤلاء الخمسين مملوكا الذين كان عينهم صحبة باش المجاورين وعين غيرهم فى ذلك اليوم وأبطل الذين كان عينهم قبل ذلك ، وكان قد بقى لخروج المحمل يومان ، فحصل الضرر الشامل للمماليك الذين بطلوا بعد أن باعوا خيولهم وقماشهم ، وآكروا لنسائهم على أنهم يقيمون فى مكة سنة ، فتنكدوا الى الغاية بسبب ذلك ، وحصل غاية الضرر للمماليك الذين تعينوا الى مكة فى ذلك اليوم ، وقد بقى لخروج الحجاج يومان فخرجوا على وجوههم ، وفيهم من سافر فى نصف ، وما حصل عليهم خير ، فما شكر السلطان أحد على ذلك وعابوا عليه هذه الفعلة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان كسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم عليه السلام ، وعرض المحمل الشريف ، وكان السلطان فى الحوش جالسا به ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان له يوم مشهود ، وكان أمير ركب المحمل الأمير علان الدوادار الثانى أحد الأمراء المقدمين ، وأمير الركب الأول المقر العلاء على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف اينال ، وكان باش المجاورين فى تلك السنة الأمير بيبردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات ، ومحتسب مكة الأمير قراكز الجكمى رأس نوبة عصاة ، فارتجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره وقعت فيه نادرة غريبة . وهى أن السلطان نزل الى الميدان وجلس به وأحضر بين يديه شخصا يهوديا يقال له يوسف شنشوا ، وكان أصله تاجرا من تجار الفرنج ، وكان يعرف باللغة التركية ، ثم بقى معلما فى دار الضرب فقيل انه تأخر عليه مال من بقايا المصادرات وحساب قديم ، وهو مبلغ اثنى عشر ألف دينار ، فتكاسل عن وزن ذلك ، فأرسله السلطان الى المقشرة فأقام بها أياما ولم يرد شيئا مما عليه من المال ، فأحضره السلطان بين يديه وأحضر له المعاصير وعصره فى أكعابه فى وسط الميدان بين يديه ، فلما تزايد به أمر الوجع من عصر أكعابه أسلم وقال : « أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، برئت

عن كل دين بخلاف دين الاسلام » . فكبر الحاضرون من العسكر والناس أجمعين ، فلم يلتفت السلطان الى اسلامه وأبقاه بالعمامة الصفراء ورسم ليحيى ابن نكار دوادار الوالى بأن يتسلمه ويعاقبه ويستخلص منه المال جميعه ، وقال : « المسلمون كثير والاسلام ما له حاجة بهذا ! » . فشكه ابن نكار فى الحديد ونزل به ليعاقبه ويستخلص منه المال فكان كما يقال : اذا تسلط على اليهودى يسلم !

وفى هذا الشهر أشيع بين الناس أن العجمى الشنقجى الذى كان نديم السلطان يضحك عليه ، وقد تقدم القول على أن السلطان كان أرسله فى أواخر شهر رمضان الى نائب الشام والى نائب حلب ، وعلى يده فيلان تقدمة من عند السلطان : أحدهما الى نائب الشام والآخر الى نائب حلب ، فأشيع بين الناس أن الشنقجى قد مات على غير وجه مرضى ، وقد اختلف القول فى سبب موته والى الآن لم يثبت عنه خبر صحيح فى كيفية موته والأقوال فى ذلك كثيرة . وكان هذا العجمى مشعوذا مضحكا يلعب بالصحون النحاس على جريدة فى الحلق ، فلما قربه السلطان وأحسن اليه صار من جملة أعيان المملكة ، ويركب وقدامه الساعى ويشق من القاهرة وتعظمه الأمراء وتقوم اليه اذا دخل عليها ، وكذلك أرباب الدولة من المباشرين وغيرها . وقيل انه لما دخل الى الشام كان فى موكب حافل وزينت له مدينة دمشق لما شق فيها الفيلان اللذان أرسلهما السلطان . ويقال ان نائب الشام أنعم عليه بنحو ألف دينار وكذلك نائب حلب ، وكسب من السلطان أموالا جزيلة وسلاريات سمور ووشق وغير ذلك أشياء كثيرة ، ومن الأمراء وأعيان الناس ، وكان الناس يسألونه فى قضاء حوائجهم عند السلطان ، ورأى من العز والعظمة بالديار المصرية ما لا رآه أحد قبله من المقربين عند الملوك ، وكانت رياسة هذا العجمى من غلطات الزمان كما قيل :

ما طاب فرع أصله خبيث
ولا زكا من مجده حديث

ولم يصح موته .

وفى يوم الأربعاء سادس عشرينه حضر مبشر الحاج وقد أبطأ عن ميعاده أياما . وسبب ذلك أن العربان خرجوا عليه وعروه وأخذوا جميع ما معه حتى الراحلة التى تحته وجميع كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من الناس من حجاجه كتاب فى هذه السنة ، وقيل ان المبشر مشى على أقدامه يومين وهو لابس بشت ، فلما سمع السلطان ذلك تنكد والناس قاطبة لهذه الأخبار المهولة .

فلما حضر المبشر أشيع بين الناس وفاة القاضى زين الدين النابلسى ، أخى الشرف يونس النابلسى الذى كان أستادارا ، وكان القاضى زين الدين مجاورا بمكة فمات هناك .

وفى هذا الشهر أشيع سفر السلطان الى جهة الفيوم ليكشف عن الجسر الذى انهدم من الماء وشرق غالب بلاد الفيوم ، فلما تسامعت المماليك الجلبان بسفر السلطان الى الفيوم تنكدوا لذلك وقالوا : « كيف يسافر السلطان فى قوة الشتاء وخيولنا فى الربيع » . فشق عليهم ذلك وربما أشاعوا وقوع فتنة كبيرة .

وفى يــوم الخميس ســابع عشرينه حضر الى الأبواب الشريفــة ابن على دولات الكبير ، وقد اجتمع أولاد على دولات وأخوه عبد الرزاق الكل بمصر . ولما حضر ابن على دولات حضر صحبته حاجب ثانى بحلب وهو شخص يقال له قانصوه ابن نفيس ، وكان نائب حلب أرسله الى ابن عثمان قاصدا بسبب القلاع التى أخــذها من بلاد على دولات . فلما حضر قانصوه هــذا من عند سليم شــاه ابن عثمان أخبر عنه بأخبار غير صالحة بأنه قال : أنا ما أخذت هذه القلاع الا بالسيف وما أردها الا بالسيف ، وأنه ماهو راجع عن التوجه الى حلب والشام وحدثته نفسه بأخذ مصر ، وهو فى عمل يرق عظيم وجهز مراكب فى البحــر ليجىء على اسكندرية ودمياط . فلما سمع السلطان ذلك تنكد واجتمع هو والأمــراء فى ضرب مشــورة بسبب ذلك . وأخبر هذا القاصــد أنه أراد أن يعوقه عنده أو يقتله فما مكنه أمراؤه من ذلك ، وقالوا : القاصد ما يقتل .

وفى ذلك اليوم كان آخــر تفرقة الجامكية ، فأشيع فى ذلك اليوم باقامة فتنة كبيرة من المماليك الجلبان . فلما كانت ليلة الجمعة أثار المماليك فتنة بالقلعة ورجموا من الطباق ، فلما طلع النهار يوم الجمعة نزل السلطان الى الميــدان ، وجلس به وترددت الرسل بينه وبين المماليك ، وقد أرسل لهم جماعة من الأمراء والخاصكية فقــالوا لهم : نحن ما نطلب منــه نفقة ، وانما نطلب أن يبطل المجامعة والمشاهرة التى قررها على الســوقة فى الدكاكين وعلى سائر البضائع حتى ما نلتقى شيئا نأكله ، ويصرف هــذه اللحوم المنكسرة للعسكر ، ففيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له ستة أشهر وأربعة أشهر مكسورة وأن يبطل هذا الظلم الزائد والمصادرات للناس وأن يمشى على طريقة الملوك السالفة ، وأن يعزل ابن موسى من الحسبة ويعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة ويعزل كرتباى الوالى ، فانه قتل من خشداشينا مملوكا وما بقى لنا حرمة بين العوام ، وذكروا أشياء كثيرة من هذا النمط .

وفى رواية أخرى أن المماليك قالوا : ويسلمنا علم الدين الحلبى وجمال الدين بواب الدهيشة ، فان جمال الدين كان متحدثا فى الخزائن الشريفة من بعد موت الأمير خاير بيك الخازندار ، فصار جمال الدين يعارض المماليك فيما رســم لهم به السلطان من انعــام لهم . فلما طال المجلس على السلطان ، وأعيت الرســل المترددة بالرسائل بين السلطان وبين المماليك ، قام السلطان من الميدان وقد أدركته صــلاة الجمعــة ، فلما طلع أغلقت المماليك فى وجهه باب السبع حدرات ثم رجموه من الطباق ولم يمكنوه من الدخول الى الحوش ، وقيل جاءته رجمة فى تخفيفته وسبوه من الطباق سبا فاحشا بعبارة قبيحة .

فلما عاين السلطان ذلك خاف على نفســه من البهدلة فرجع الى الميدان وخرج من باب الميدان الذى عند حوش العرب وخرج من بين الكيمان وتوجه الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليــوم ، ثم نادى لأصــحاب المراكب أن لا يعدى أحــد من النواتية بأمير ولا مملوك الا بمشورة السلطان .

فلما قرب وقت صلاة الجمعة طلع جماعة من

الأمراء المقدمين الى صلاة الجمعة فلما بلغهم توجه السلطان الى المقياس صلوا الجمعة بالقلعة ، ثم نزل ستة عشر أميرا مقدم ألف ، وتوجهوا الى السلطان في المقياس لكى يرضوا خاطره على مماليكه مما وقع من المماليك فى حقه ... فلما اجتمعوا بالسلطان قال لهم : « أنا ما بقيت أعمل سلطانا ، ولوا عليكم من تختارونه غيرى » . فبات تلك الليلة بالمقياس ، وبات عنده الأمراء المقدمون .

فلما كان وقت المغرب نزل من القلعة الجم الغفير من المماليك الجلبان ، وقصدوا أن ينهبوا بيوت الأمراء ، فمنعوا بعضهم بعضا من ذلك ، فنهبوا بعض دكاكين من الصليبة مثل الشمع والحلوى والخبز وغير ذلك . واستمر الحال على ذلك بطول الليل وهم يشوشون على الناس ، ويخطفون العمائم والشدود ، وحصل منهم فى تلك الليلة الضرر الشامل من أذى المماليك ، وكان السلطان لما توجه الى المقياس أخذ ولده معه خوفا عليه من المماليك أن ينكدوا عليه .

فلما كان يوم السبت تاسع عشرينه توجه الأمراء المقدمون قاطبة الى السلطان ، وكذلك الأمراء الطبلخانات والعشراوات من أرباب الوظائف ، فوقف الأتابكى سودون العجمى وبقية الأمراء المقدمين وباسوا الأرض للسلطان على أنه يقوم ويطلع الى القلعة ويرضى عن مماليكه ، فشق السلطان ملوطته وبكى حتى أغمى عليه ، ورشوا على وجهه الماء وهو يقول : « ما بقى لى حاجة بسلطنة فأرسلونى أى مكان تختارونه وولو أمير كبير » . فخاف أمير كبير ، وصار يرعب من كلام السلطان وحصل له وهم .

وقد وقع مثل ذلك للملك الأشرف قايتباى لما طلب منه المماليك نفقة عند حضورهم من تجريدة ابن عثمان ، فجمع الأمراء قاطبة والخليفة والقضاة الأربعة ، وأحضر القبة والطير وفرس النوبة وقال : « سلطنوا أمير كبير أزبيك » ، وفكك أزرار ملوطته على أنه يدخل الى البحرة ، وقال للقضاة : « اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى من السلطنة » . وقد تقدم ذلك فى أول التاريخ من أخباره ، فلما خلع نفسه من السلطنة أعاده الخليفة الى السلطنة ثانيا ، وكان سبب ذلك المماليك أيضا .

ثم ان السلطان أرسل خلف أغوات الطباق وهو فى المقياس ، فلما حضروا بين يديه صاروا يشكون له أن اقطاعاتهم لم يصل لهم منها شىء ، وأن الحماية يأخذونها من المقطعين معجلا قبل أوان النيل بمدة ، وأن لحوم العسكر مكسورة بالأشهر ، وأن جميع البضائع غالية بسبب المشاهرة والمجامعة التى قررت على السوقة ، وأن كل شىء غال حتى الخام والبعلبكى والتبن ما يوجد ، وصارت الجامكية ما فيها بركة كونها من مال المصادرات ، وأغلظوا عليه فى القول ، وقالوا له : « ليش ماتمشى على طريقه الملوك السالفة وتقل من هذا الظلم » . ثم قرروا معه بأن يصرف للعسكر اللحوم المكسورة وأن يبطل المشاهرة والمجامعة ، ويعزل المحتسب ويولى غيره ، ويعزل الوزير والوالى ويولى غيرهما ، فقال السلطان : « نعم أفعل لكم ذلك جميعه » . وصاروا يشرطون عليه شروطا كثيرة من هذا النمط ، وهو يقول : نعم . وكان ألماس دوادار سكين هو الذى يتردد بالرسائل بين السلطان وبين المماليك .

فلما طاب خاطر المماليك على ذلك أحضر لهم السلطان مصحفا شريفا وحلف عليه آغوات الطباق من الخاصكية ، وكل واحد منهم على انفراده ، بأن يرجعوا بقية المماليك ، ويخمدوا هذه الفتنة ويكونوا تحت طاعة أستاذهم . فحلفوا على ذلك ودخلوا على السلطان ، وباسوا له الأرض . وخمدت تلك الفتنة على خير ... ولولا لطف الله تعالى فى اخماد هذه الفتنة عن قريب ، والا كان قصد المماليك الجلبان أن ينهبوا المدينة وأسواق القماش وبيوت الأمراء وأعيان الناس ويقتلوا من الأمراء من أرادوا قتله ، ولو فعلوا ذلك لطلع من يدهم ، وكل مفعول جائز فى هذه الأيام ، ولكن الله سلم ولله الحمد على ذلك .

سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة (١٥١٦ م) :

كان مستهل المحرم يوم الاثنين ، وكان يومئذ خليفة الوقت أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب عز شرفهما . وسلطان مصر يومئذ الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عز نصره .

وأما السادة القضاة الأربعة : فالقاضى الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى الحنفى قاضى القضاة حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة سرى الدين عبد البر بن الشحنة الحلبى ، والقاضى المالكى قاضى القضاة محيى الدين ابن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى قاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى أيد الله بهم الاسلام .

وأما الأمراء المقدمون فكانت عدتهم يومئذ ستة وعشرين أميرا مقدمى ألوف ، منهم أرباب الوظائف ستة ، وهم : الأتابكى سودون العجمى أمير كبير ، وكانت يومئذ امرية السلاح شاغرة ، والأمير أركماس طرباى امير مجلس ، والمقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، والأمير سودون الدوادار رأس نوبة النوب ، والأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، والأمير طومان باى بن قنصوه ابن أخى السلطان أمير دوادار كبير ، وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف .

وأما الأمراء المقدمون غير أرباب الوظائف ، فهم : الأمير بخشباى بن عبد الكريم نائب طرابلس كان ، والأمير قانصوه بن كسباى بن سلطان جركس المعروف بابن اللوقا ، والأمير تمر الحسنى المعروف بالزردكاش ، والأمير قانصوه أبو سنة الوالى كان السيفى يشبك ، وقيل ان السلطان عين له تقدمة الأمير حسين نائب جدة وتوجهت اليه البشائر بها من قبل ، والأمير طقطباى العلائى نائب القلعة ، والأمير قانصوه كرت بن تمر باى ، والأمير جان بلاط المحمدى المعروف بالموتر ، والأمير تانى بك النجمى ، والأمير أرزمك الشريفى الناشف ، والأمير تانم بك بن يشبك المعروف بالحازندار ، والأمير قانصوه يشبك المعروف برجلة نائب قطيا ، والأمير خاير بك السيفى اينال ، والأمير قانصوه الفاجر ، والأمير أزبك بن طراباى المعروف بالمكحل ، والأمير بيبرس ابن عبد الكريم ، والأمير آبرك الأشرفى ، والأمير علان بن قراجا وقد جمع بين التقدمة والدوادارية الثانية ، والأمير خدابردى الأشرفى نائب الاسكندرية ، والأمير أقباى بن قانصوه وقد جمع بين الأمير آخورية الثانية والتقدمة ، والأمير خاير بك العلائى المعروف بالمعمار .

وأما نواب البـــلاد الشامية والحلبية : فالمقر السيفي سيباى بن بخت خجا ، والمقـــر السيفي خاير بك بن بلباى نائب حلب ، وتمراز الأشرفي نائب طرابلس ، وجان بردى الغزالى نائب حماه ، ويوسف الذى كان نائب القدس ، وانتقل الى نيابة صفد ، ونائب غزة دولات باى وقد أضيف اليه نيابة القدس والكرك مع نيابة غزة .

وأما الأمراء الطبلخانات من أرباب الوظائف : فالأمير يوسف الناصرى الذى كان نائب حماه شاد الشرابخانة الشريفـــة ، والأمير مغلباى الشريفي الزردكاش الكبير ، والأمير نوروز تاجر المماليك ، والأمير قانصوه بن دولات بردى استادار الصحبة ، والأمير قانى بك بن بخشـــباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طـــومان باى قرا حـــاجب ثانى ، والأمير كرتبـــاى الأشرف والى الشرطة ، والأمير أزدمر المهمندار ، والشريفي يونس نقيب الجيـــوش المنصورة ، والأمير بخشباى قرا شاد الشـــون ، والأمير يونس الترجمان ، ومعلم المعلمين البدرى حسن بن الطولونى ولكن الوظيفة بيد ولده أحمد من حين كف بصره وانقطع .

وأما الأمراء الرءوس نوب فكثيرون لم نوردهم هنا خشية الاطالة .

وأما أرباب الوظائف من أعيـــان المباشرين المتعممين : فالمقر القاضوى المحبى محمود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف ناظر ديوان الانشـــاء أعزه الله ، ونائبه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، والمقر القاضوى محيى الدين عبـــد القادر الشهير بالقصروى ناظر الجيش الشريف ، والزينى عبـــد القادر وأخوه أبو بكر أولاد الملكى مستوفيا ديوان الجيوش الشريف ، والمقر العلائى على بن الامام ناظر الخـــاص الشريف وناظر الأوقاف ، وكانت الوزارة يومئذ شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى ، فكان حينئذ القاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ، ومتكلما فى ديوان الوزارة ، وقد جمع بين نظارة الدولة وكتابة المماليك ، وكانت وظيفة الاستادارية يومئذ بيد الأمير طومان باى الدوادار ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل الشريف ومستوفى ديوان الخاص ، والقاضى عبد الباسط تقى الدين ناظر الزردخانة ، والقاضى عبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانة ، والقاضى زين الدين بركات ابن موسى ناظر الحســـبة الشريفة وغير ذلك من الوظائف ، والأمير شرف الدين يونس النـــابلسى استادار العالية كان ، وناظر الأحباس بدر الدين العبسى ، ونقيب الأشراف السيد الشريف أفضل الدين محمد والآن صار متحدثا فى استيفاء ديوان الجيش الشامى ، والقاضى كريم الدين أخو القاضى شرف الدين أحمد بن الجيعان ، والشمسى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان متحدثا فى الخزائن الشريفة ، والشمسى محـــمد بن ابراهيم الشرابيشى متحدثا فى وظيفة الزمامية ، والعلائى على البرماوى متحدثا فى جهـــات الديوان المفرد وبرددارية السلطان ، وعبد العظيم الصيرفى متحدثا فى الشون السلطانية وأمر العليق ، وغير ذلك من المباشرين وأعيان الدولة .

وأما الأعيان من الخدام الطواشية ، فان وظيفة الزمامية لها مدة وهى شاغرة من حين توفى الأمير

عبد اللطيف الزمام ، والآن الأمير بشير بن مصطفى رأس نوبة السقاة ، والأمير مرهف بن قانصوه ساقى خوند ، والأمير سنبل العثمانى مقدم المماليك ونائبه جوهر الرومى ، والأمير سرور الحسنى شاد الحوش الشريف ، وغير ذلك من أعيان الخدام .

وفى هذه السنة تكاملت خاصكية السلطان نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترياته ، فقرر منهم جماعة أرباب وظائف ما بين دوادارية سكين وسلحدارية وزردكاشية وأمراء آخورية وسقاة وغير ذلك من الوظائف . وقد تكامل فى هذه السنة من الأمراء الطبلخانات والعشراوات فوق الثلثمائة أمير وقد كثر العسكر وقلت الرزق

ولما كان مستهل الشهر يوم الاثنين جلس السلطان فى الميدان وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوا السلطان بالعام الجديد ورجعوا الى دورهم .

ثم فى ذلك اليوم نزل الزينى بركات بن موسى المحتسب وصحبته الأمير كرتباى والى القاهرة وأشهروا المناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء وأن لا أحد من الناس يكثر الكلام وأن كل شيء على حكمه يعنى فى أمر المشاهرة والمجامعة التى قررت على الحسبة ، وأن لا أحد من الناس يخرج من بعد العشاء بسلاح ولا يتزيا بزى ولا يغطى وجهه فى الأسواق ، ومن فعل ذلك شنق من غير معاودة ، وأن لا أحد من الناس يحتمى على المحتسب . وقد تقدم القول بأن المماليك الجلبان أثاروا فتنة كبيرة حتى حنق منهم السلطان ، وتوجه الى المقياس وأقام به ثلاثة أيام ، فمشت الأمراء بينه وبين مماليكه بالصلح على أن يعزل الوزير يوسف البدرى من الوزارة والأمير كرتباى من الولاية والزينى بركات بن موسى من الحسبة ويبطل المشاهرة والمجامعة التى قررت على السوقة أرباب البضائع ، وقد تقدم القول بما كان سبب ذلك .

فلما أن طلع السلطان الى القلعة وبات بها أصبح فأمر بأن ينادى فى القاهرة بما تقدم ذكره ، ولم يفعل شيئا مما وقع عليه الاتفاق مع المماليك الجلبان ، فشقت عليهم هذه المناداة وأشيع باثارة هذه الفتنة ثانيا وكثر القال والقيل بين الناس ، وكانت الناس استبشرت بابطال المشاهرة والمجامعة فلما نودى بأن كل شيء على حكمه نزل على الناس جمرة بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى الشهر جلس السلطان فى الحوش وعرض آغاوات الطباق ، فلما وقفوا بين يديه وبخهم بالكلام وقال : « لا تسمعوا للمماليك القرانصة كلاما لأنهم يرمون بينى وبينكم ، ولا تشمتوا العدو فينا ، وابن عثمان متحرك علينا ، ولابد من خروج تجريدة له عن قريب ، فحصلوا معكم ذهبا ينفعكم اذا سافرتم ، والذى هو منكم متزوج يطلق زوجته حتى لا يبقى وراءكم التفاتة اذا سافرتم فى التجريدة » . فلما سمعوا ذلك شق عليهم وقصدوا أن يثيروا فتنة فى ذلك اليوم وتزايد الاضطراب ولهج الناس بوقوع فتنة عظيمة . وقد توعد المماليك بركات بن موسى المحتسب بالقتل لأنه لما نزل فى ذلك اليوم ونادى بأن كل شيء على حكمه ، وتخلقت جماعته بالزعفران فى عمائمهم ،

وشق فى القاهرة ، تنكد المماليك الجلبان لذلك ، وقالوا . « لم يطلع بأيدينـا من الاتفاق شيء ، وخلق جماعته بالزعفران جكارة فينا ... والله ما نرجع حتى نقتله ! » . وقـد تقـدم القول بأن المماليك قالوا للسلطان : « سـلم لنا ابن موسى المحتسب نقتله » ... بسبب غلو البضائع من كل شى فى الأسواق .

وفى يوم الأحـد سابعه توفى الشرفى يحيى بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، وكان شابا حسن الشكل ضخم الجسد ، ومات وله من العمر نحو عشرين سنة ، وكانت جنازته حافلة .

وفى أثناء ذلك اليـوم ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب وشق القاهرة وقبض على جماعة من السوقة أرباب البضائع وضربهم ضربا مبرحا وأشهرهم فى القاهرة ، وأشهر المناداة فى ذلك اليوم وسعر اللحم والدقيق والخبز والأجبان وسائر البضائع ، وكل ذلك خوفا من المماليك الجلبان .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة قاصد من عند سوارشاه الذى تعصب له ابن عثمان عوضا عن دولات ، فأحضر صحبته تقدمة فشروية للسلطان وجودها وعدمها سواء ، وهى خمسة عشر جملا بخاتى وثمانى أكاديش وستة بغال من غير زيادة على ذلك ، وأرسل يترفق للسلطان فى مطالعته فاستشار السلطان الأمراء بأن يقبل منه تلك التقدمة أم يردها عليه ، فأقامت الأمراء عند السلطان الى قرب الظهر ولم يعلم أحد ما وقع عليه الاتفاق فى ذلك اليوم .

وفيه خرج الأمير طومان باى الدوادار وصحبته الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين فتوجها الى جهة الفيوم ليكشفا عن الجسر الذى هناك . وقد قيـل انه لما كان النيل عاليا فى هـذه السنة انقلب . وكان السـلطان قبل وقوع فتنة المماليك المتقدم ذكرها قصد أن يسافر الى الفيـوم بنفسه ويكشف عن أمر هذا الجسر . فما تم له ذلك فرسم الى الأمير الدوادار بأن يتوجه الى هناك ويكشف عن أمر هذا الجسر .

وفيه نادى السلطان للعسـكر بأن يطلعوا الى القلعة بسبب اللحوم المنكسرة فطلع الجم الغفير من العسكر الذين معهم وصول باللحم المنكسر ، وقد تجمد للعسكر من اللحـوم المكسورة فى ديوان الوزارة فوق أربعين ألف دينـار ، فثقل أمر هذا على السلطان .

وفيه نادى السلطان بأن الوزير يوسف البدرى يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وكان مختفيا من حين توعدته المماليـك الجلبان بالقتل . فظهر فى يوم الثلاثاء تاسعه ، فلما قابل السلطان خلع عليه كاملية بسمور ونزل الى داره .

وفى يوم السبت ثالث عشره رسم السلطان بتوسيط خمسة أنفار من المنسر الذى شاع أمره فى القاهرة وقد قبض عليهم شيخ العرب بن أبى الشوارب ، فرسم السلطان بتوسيطهم فى ذلك اليوم وكان فيهم شخص يسمى أبو عزرائيل وهو كبيرهم فوسطهم أجمعين .

وفى هذا الشهر أو الذى قبله كانت وفاة الشيخ العارف بالله تعالى الولى المعتقد سيدى محمد بن عثمان رحمة الله عليه ، وكان من أعيـان المشايخ الصوفية وله شهرة بالصلاح والاعتقاد بين الناس .

وفى يوم الاثنين خامس عشره حضر الى الأبواب الشريفة الأمير قانصوه جانية وكان قد توجه الى طرابلس بسبب المشاة من العربان الذين يخرجون أمام العسكر فى التجريدة فأحضر الأموال صحبته ودخلت الى الخزائن الشريفة .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره ابتدأ السلطان بتفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر فصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، وكان فيهم من له عشرة أشهر مكسورة وفيهم من له أربعة .

وفى يوم الخميس ثامن عشره كان دخول الأمير قايتباى أحد الأمراء الطبلخانات — وهو قريب زوجة الأتابكى قانم التاجر — على ابنة الأمير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة ، قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة ، ومدوا فيه أسمطه حافلة من الأطعمة الفاخره وصنعوا شموعا مزهرة بين وشامات وكان من المهمات المشهورة .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه دخل أمير ركب الحاج الأول وهو المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد ، فخلع عليه السلطان ونزل الى داره فى موكب حافل .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه دخل الأمير علان أمير حاج ودخل صحبته المحمل الشريف ، وكان يوما مشهودا . فطلع الأمير علان الى القلعة وخلع عليه السلطان خلعة سنية ، ونزل الى داره فى موكب حافل . وقد أثنى عليه الحجاج خيرا كثيرا بما فعله فى طريق الحجاز من وجوه البر والصدقات ، وقد حصل فى هذه السنة للحجاج مشقة عظيمة فى مغارة شعيب بسبب السيل الذى نزل عليهم هناك . وهلك من الحجاج فى هذه السنة جماعة كثيرة وكان معهم الغلاء موجودا . وكان العربان طائشة فى درب الحجاز ولا سيما ما وقع للمبشر فى هذه السنة وقد تقدم القول بأن العربان عروه وأخذوا كل ما معه حتى كتب الحجاج ، فلم يصل لأحد من حاجه فى هذه السنة كتاب ولا علم بهم خبر .

ولما حضر الأمير علان أشيع أنه قبض فى مكه على شخص يقال له المعلم أحمد الشامى وكان أصله من عتالين الزردخاناه فوجد معه مالا يتجر فيه فى مكة ، فلما بلغ أمره الأمير علان قبض عليه ، وكان له رفيق فهرب من هناك فلما دخل أحمد الشامى هذا الى القاهرة أسفرت القضية عن كونه سرق العملة الضائعة التى كانت بالقلعة ، وسرقت من مال السلطان وهى اثنا عشر ألف دينار وقد تقدم الكلام على ذلك ، وأن السلطان غرمها للمعلم يعقوب اليهودى معلم دار الضرب ، فلما حضر أحمد الشامى بين يدى السلطان اعترف بذلك فسلمه السلطان للوالى يعاقبه حتى يستخلص منه المال الذى أخذه . ثم ان أحمد الشامى أقر على شخص كان معه لما أخذ المال وهو كان بالقاهرة مقيما ، فلما أقر عليه خاف على نفسه من العقاب فأرسل للسلطان أربعة آلاف دينار ، وقال هذا هو القدر الذى نابنى من المال ولم يخصنى شىء غير ذلك . فلم يكتف منه السلطان بذلك ورسم عليه وشكه فى الحديد حتى يحضر بقية المال . وكان هذا الشخص من معلمى دار الضرب أيضا ، وقد ظهر هذا المال الذى سرق من دار الضرب بعد مدة طويلة فعد ذلك من جملة سعد السلطان .

وفى يوم الخميس خامس عشريه حضر قاصد من عند ملك الحبشة وكانت قصاد ملوك الحبشة لهم مدة طويلة لم يدخل منهم أحد الى مصر ، وقد دخل قاصد من عند ملك الحبشة فى دولة الملك الأشرف قايتباى وذلك فى سنه ثمانين وثمانمائة . ومن بعد ذلك لم يدخل قاصد من عند ملوك الحبشة سوى هذا القاصد لأن بلادهم بعيدة وما لهم شغل فى مصر . فلما حضر هذا القاصد عمل له السلطان موكبا بالحوش من غير شاش ولا

قماش ، كما تقدم للأشرف قايتباى . فجلس السلطان على المصطبة التى أنشأها بالحوش ونصب على رأسه السحابة الزركش واصطفت الأمراء عن يمينه وشماله كل واحد منهم فى منزلته ، ثم طلع القاصد من الصليبة وصحبته الأمير آزدمر المهمندار وجماعة من الرءوس النوب ومن المماليك السلطانية وغير ذلك . وكان القاصد معه من أعيان أمراء الحبشة نحو خمسة أنفار ، والبقية كلهم ليسوا من الأعيان ، وفيهم من هو عريان مكشوف الرأس وعلى رأسه شوشة شعر ، وفيهم من فى أذنه حلق ذهب قدر القرصة وفى أيديهم أساور ذهب .

وأما القاصد الكبير فذكروا أنه كان ابن أمير كبير الحبشة وقيل ان أباه هو الذى حضر فى دولة الملك الأشرف قايتباى وكان على رأسه خوذة مخمل أحمر وفيها صفائح ذهب وفيها بعض فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة وعليه شايات حرير ملون ، وعلى بقية أمراء الحبشة شايات حرير ملون وعلى رءوسهم شدود حرير . وذكروا أن فيهم شخصا شريفا ... وكان مجموع هؤلاء الحبشة الذين حضروا الى مصر نحو ستمائة انسان وأوساطهم مشدودة بحوائص كهيئة الدنانير . وكان معهم لما شقوا من الصليبة طبلان على جمل يضربون عليهما وكان صحبتهم البترك وعليه برنس حرير أزرق . وكانت أعيانهم راكبة على خيول والبقية مشاة ، فطلعوا القلعة من سلم المدرج والبترك ماش قدامهم . فلما وصلوا الى باب الحوش كان صحبتهم كراسى حديد عالية وقصدوا أن يجلسوا عليها بحضرة السلطان فلم تمكنهم رؤوس النوب من ذلك ، ووقع فى أيام الملك الأشرف قايتباى مثل ذلك وطلعوا معهم بكراسى فما مكنوهم من الجلوس عليها بحضرة السلطان . فلما وصل هذا القاصد الى الحوش قبل الأرض ، فلما وصل الى أوائل البساط قبل الأرض هو ومن معه من أعيان الحبشة ولم يدخل معه قدام السلطان غير سبعة أنفس والبقية لم يدخلوا ، فلما قربوا من السلطان قبلوا الأرض بين يديه ثالث مرة ، ثم قدموا كتاب ملك الحبشة ، قيل انه فى ضمن غلاف من الفضة وقيل من الذهب ، فلما قرىء على السلطان وجد فيه ألفاظا حسنة ونعتا عظيما للسلطان ، وأن قصادنا أتوا الى مصر ليزوروا القيامة التى بالقدس ، فلا تمنعوهم من ذلك . فاستمروا على أقدامهم واقفين نحو خمس درج حتى قرأوا كتابهم ثم انصرفوا ونزلوا من القلعة ، فرسم لهم السلطان أن يقيموا فى ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع الى أن يسافروا ، وأرسل لهم خياما ضربت لهم من داخل الميدان ووكل بباب الميدان جماعة من المماليك يمنعون من يدخل اليهم من العوام .

فلما نزلوا من القلعة نزل معهم الوالى والمهمندار وجماعة من رءوس النوب فوصلوهم الى الميدان خوفا عليهم من العوام أن يرجموهم ، فكان لهم يوم مشهود . فان قصاد ملوك الحبشة لا يدخلون الى مصر الا قليلا لأن بلادهم بعيدة ، حتى قيل ان هذا القاصد له تسعة أشهر وهو مسافر حتى دخل الى مصر . ثم ان القاصد أرسل الى السلطان تقدمة لم تكن كبيرة أمر ، قيل قومت بنحو خمسة آلاف دينار أو دون ذلك ، فلما عاينها السلطان وبخ الذى طلع بها وأحضر له قوائم هدايا ملوك الحبشة الى الملوك السالفة مثل الأشرف برسباى والظاهر جقمق والأشرف قايتباى وغير ذلك من الملوك ، وأحضر له عدة تواريخ

يذكر فيها هدايا ملوك الحبشة الى ملوك مصر فقرئت عليه ، ولكن ضعف أمر ملوك الحبشة بالنسبة الى ما كانوا عليه من قديم الزمان حتى نقل بعض المؤرخين أنه كان لملوك الحبشة على نواحى النيل ستون مملكة لا ينازع بعضها بعضا فيما بأيديهم من الأراضى التى هناك ، والآن قد ضعف أمرهم بالنسبة الى ما كانوا عليه من قبل ذلك . وقد أرسل بعض ملوك الحبشة تقدمة للملك الناصر محمد بن قلاوون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة ، فقومت بمائة ألف دينار أو أكثر من ذلك حتى عدت من النوادر . ثم ان قاصد الحبشة أقام فى الميدان ثلاثة أيام وسافر هو ومن معه الى القدس ليزوروا القيامة .

وفيه حضر الأمير طومان باى الدوادار وقد تقدم القول على أنه سافر الى جهة الفيوم هو والأمير أرزمك الناشف ليكشفا على الجسر الذى هناك وقد انقلب من الماء . وكان السلطان قصد أن يتوجه الى هناك بنفسه فما تم له ذلك كما تقدم ذكره ، فلما توجه الأمير الدواذار الى هناك قررا على عمارة هذا الجسر نحو ثلاثين ألف دينار ، فلما رجعا أخبر السلطان بذلك .

وفيه خلع السلطان على شخص يقال له شمس الدين السكندرى وقرره اماما عوضا عن الشيخ محب الدين الشاذلى الامام بحكم وفاته ، قيل ان شمس الدين السكندرى سعى فى هذه الوظيفة بألف ومائتى دينار حتى قرر بها .

وفيه احتمل السلطان تفرقة ثمن اللحوم التى كانت منكسرة للعسكر ، وقيل ان السلطان أخرج من الخزائن الشريفة خمسة عشر ألف دينار وسلمها للقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة ليشترى بها أغناما لأجل تفرقة لحوم المماليك ، وقال مابقيت أكسر للعسكر لحوما بعد هذا اليوم ، وقد ثقل عليه ما صرفه للعسكر بسبب اللحوم التى كانت منكسرة لهم ، حتى قيل انه صرف فى حركة تفرقة اللحوم فوق الأربعين ألف دينار . واستمرت الوزارة شاغرة من حين عزل عنها يوسف البدرى .

وفيه نادى السلطان للعسكر بأن كل من كان له فرس أو أكثر فى الديوان يطلع يقبض ثمنه . ومن حين تحقق السلطان أن ابن عثمان زاحف على البلاد السلطانية وهو يأخذ بخواطر المماليك القرانصة ويرضيهم بكل ما يمكن ، وصرف لهم اللحوم التى كانت منكسرة وأعطاهم ثمن الخيول التى كانت لهم فى الديوان .

وفيه أخرج السلطان جانبا من مماليكه الغورية وفرق عليهم فى ذلك اليوم زرديات وسيوفا وتراكيش وقسيا ونشابا ، وكانوا نحو ثلثمائة مملوك .

وفيه توفى الأمير قنبك بن تربك احد الأمراء الطبلخانات ، وهو ابن عم الأتابكى أزبك ، وكان قد شاخ وكبر سنه وعجز عن الحركة .

وفيه أرسل السلطان الى عبد الرزاق أخى دولات والى أولاد على دولات الكبار والصغار ثمانية آلاف دينار فقسمت بينهم ، وأرسل يقول لهم : « اعملوا بهذه النفقات برقكم واخرجوا سافروا قبل خروج التجريدة واجمعوا عساكركم من التركمان الى أن أحضر أنا والعسكر » .

وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع وصوانا الى ثغر الاسكندرية وسافرت فى المراكب الى هناك فكانت نحو مائتى مكحلة ، وقد بلغه أن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجىء على السواحل للديار المصرية .

وفيه نادى السلطان فى القاهرة بأن أصحاب الدكاكين والأملاك يقطعون الأراضى من الأسواق

والشوارع فامتثلوا ذلك وشرعوا فى العمل ، لكن حصل للناس مشقة زائدة فى الصرف على ذلك لجماعة الوالى والترابة فى شيل التراب ، وقد وقع له مثل ذلك فى أوائل سلطنته فى سنة تسع وتسعمائة وقطع الطرقات قاطبة وادعى آن الأراضى قد علت ، وقد تقدم لى أنى قلت فى ذلك :

فى دولة الغورى رأينا العجب
وقد حملنا فوق ما لا نطيق
وقد كفى فى عامنا ما جرى
من قلة الأمن وقطع الطريق

وفى يوم الخميس خامس عشريه أظهر السلطان العدل وأشهر المناداة عن لسان السلطان فى سواحل مصر العتيقة وبولاق بأن المكوس التى كانت تؤخذ على الغلال بطلت ، وكانت مظلمة عظيمة من البدع المنكرة ، وهى أنه كان يؤخذ على كل أردب قمح أو شعير أو فول يباع أو يشترى نصف فضة . وكان الأشرف قايتباى أبطل ذلك فلما تسلطن ابنه الملك الناصر أعاد هذه المظلمة . فلما تسلطن الأشرف قانصوه الغورى تزايد الأمر حتى صار يؤخذ على كل أردب ثلاثة أنصاف من البائع والمشترى ، وصار يسمى الموجب ، ثم انتقلوا من الغلال الى أن جعلوا على البطيخ مكسا أيضا . فاستمر ذلك مدة طويلة الى أن ألهم الله تعالى السلطان ابطال ذلك جميعه .

وفى يوم السبت سابع عشريه كان دخول الأمير ألماس أحد الأمراء العشراوات على ابنة الأمير قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، فكان ذلك المهم من المهمات المشهورة ، وحضر فى هذه الوليمة الأتابكى سودون العجمى والمقر الناصرى محمد نجل المقام الشريف وسائر الأمراء من كبير وصغير وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين تاسع عشريه أكمل السلطان تفرقة تمن الجيول التى كانت للعسكر فى الديوان وأكمل تفرقة اللحوم التى كانت مكسورة للعسكر وعوق بعض اللحوم التى كانت منكسرة لجماعة من المباشرين الزردخانية .

وفى ذلك اليوم طرق السلطان أخبار رديئة بسبب ابن عثمان فتنكد لذلك وخلا هو والأمراء يضربون مشورة بينهم فى أمر ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء سلخ هذا الشهر ، أشهر السلطان المناداة فى القاهرة للعسكر بالعرض يوم الخميس ، وألا يتأخر عن العرض احد من كبير ولا صغير فاضطربت لذلك أحوال العساكر قاطبة .

* * *

وفى صفر وكان مستهله يوم الأربعاء طلع الخليفة والقضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فقال السلطان للخليفة لما جلس عنده : « اعمل برقك الى السفر وكن على يقظة فأنا مسافر الى حلب بسبب ابن عثمان » . وقال للقضاة الأربعة مثل ما قال للخليفة : « اعملوا يرقكم وكونوا على يقظة حتى تخرجوا صحبتى » ... فقالوا : « الأمر لمولانا » .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على شخص من القراء يقال له شهاب الدين بن الرومى وقرره اماما عوضا عن عبد الرازق بحكم وفاته ، وقيل انه سعى فى ذلك بألف دينار حتى قرر بها .

وفى يوم الخميس ثانيه جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر من كبير وصغير وكتب الجميع ، فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق ولم يعف من العسكر أحدا .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة الأمير خاير بك ابن اينال أحد الأمراء المقدمين ويعرف بكاشف الغربية وأصله من مماليك الأمير اينال الأشقر أمير

سلاح كان ، وقد ساعدته الأقدار حتى صار باش العسكر ثم بقى كاشف الغربية ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف ، وسافر الى الحجاز باش العسكر فى التجريدة التى خرجت بسبب الجازانى وانتصر على العربان من قبيلة بنى ابراهيم فحز رءوسهم وأرسلها الى القاهرة ، وكان مسعود الحركات . فلما مات نزل السلطان وصلى عليه وكانت جنازته مشهودة ، وكان فى سعة من المال فخلف من الموجود ما لا يحصى .

وفى يوم السبت رابعه عرض السلطان مماليك الأمير خاير بك المتوفى ، وأخـذ منهم ما اختاره وأرسلهم الى الطباق ، ثم أرسل رسم على دوادار خاير بك وعلى مباشريه وشكهم فى الحديد . وكان الأمير خاير بك قد كتب وصـية وبرأ جماعته فلم يلتفت السلطان الى وصيته .

وفى أثناء هـذا الشهر كانت وفاة الشيخ نور الدين على المحلى رحمه الله وكان يعزف بقريبة ، وكان من أعيان علماء الشافعية وله شهرة زائدة بين الناس .

ومن الحوادث فى هذا اليوم ما وقع لعلم الدين چلبى السلطان ، وهو أنه كان ساكنا فى الحسينية وكان السلطان رسم للوالى بأن يباشر قطع أراضى الأسواق بنفسه ، فلما انتهوا فى القطع الى الحسينية جاء مماليك الوالى الى الحسينية ، وأخذوا حميرا من حمام الحبالين ليشـيلوا عليهـا التراب الذى قطعـوه ، فمنعهـم من ذلك جماعة علم الدين وتخاصموا مع مماليك الوالى ، فجاء عبـد علم الدين وقال لأستاذه على ذلك ، وكان علم الدين فى الحمام فقال علم الدين : « اضربوا مماليك الوالى وامنعوهم » . ففتكوا بهم وضربوهم ضربا مبرحا حتى شجوا بعضهم وكسروا أيدى بعضهم ، فلما سـمع الوالى بذلك ركب وأتى الى علم الدين ، فأغلظ عليه علم الدين فى القول ، وربما سفه على الوالى ، فقبض الوالى على عبد علم الدين الذى ضرب مماليك الوالى فوضعه فى الحديد ، ثم طلع الوالى الى السلطان وأحضر مماليكه الذين ضربوا بين يدى السلطان ، فلما عاين السلطان ذلك شق عليـه ما فعل علم الدين فى حق الوالى . ثم طلع علم الدين الى السلطان وظن أن السلطان يقوم فى نصره ، فلما عاين السلطان علم الدين رسم لنقيب الجيش بأن يقبض على علم الدين ويمضى به الى الوالى يوسطه ، وصمم السلطان على ذلك . فقبض نقيب الجيش على علم الدين وقلع سلاريه وفك أزرار ملوطته وأركبـه على بغلة ، ومضى به الى الوالى ليوسطه ، فاستدرك الوالى فرصة فى هذه الواقعة وركب فى أثناء ذلك اليوم وأتى الى الأمير الكبير سودون العجمى ، وترامى عليه بسبب علم الدين بأن يطلع يشفع فيـه عند السـلطان من التوسـيط ، فطلع أمير كبير فشفع فيـه فقبلت شفاعته ، ثم أن الوالى ألبس علم الدين كامليـة صوف بسمور وطلع علم الدين الى السلطان ليبوس الأرض ، فنتر فيـه السـلطان لما رآه وقال له : « الزم بيتك ولا ترنى وجهك أبدا » . فقيل ان علم الدين خدم السلطان بمال له صورة حتى رضى عليه وخدم الوالى أيضا بمال لكنه استمر ممنوعا من الطلوع الى القلعة من بعد ذلك ، وقد تزايد هذا الأمر الفشروى حتى خرج عن الحد . وكان علم الدين لما قرره السلطان طاش ، وكان فى خـدمة السلطان من مبدأ أمره حين كان أمير عشرة . وكان علم الدين عنده بجمقدار وهو صبى أمرد ، فلما تسلطن السلطان صار علم الدين عنده من المقربين

وصار يلبس سلارى بكم قصير مثل الأمراء العشراوات ويشق القاهرة والركبدار يمشى فى جانبه يفسح له الطريق وخلفه بجمقدار وعلى كتفه فوطة حرير وهو راكب على بغلة عالية فكانت المماليك كلما رأوه يلعنونه فى الباطن ، وربما توعدوه بالقتل . وأمه كانت صانعة ، وقيل ان أصله كان من أبناء الساسة التى بالحسينية وعنده كثافة فى طبعه وقلة فضيلة فكان كما قيل :

نقصت عقلا وفهما　　وزدت شحما ولحما
ورثت طالوت جسما　　ولم ترث منه علما

وفى يوم الاثنين سادس صفر جلس السلطان بالميدان وعرض من العسكر فى ذلك اليوم أربع طباق . ومن الحوادث اللطيفة فى ذلك اليوم أن السلطان آمر بابطال المشاهرة والمجامعة التى كانت للمحتسب ، وأشهر النداء فى مصر والقاهرة بذلك وان مكس البحرين الذى كان يؤخذ على الغلال بطال . فارتفعت له الأصوات بالدعاء بالنصر ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ونقطت الناس المنادين بالفضة على تلك البشارة الحسنة التى سرت القلوب والأسماع وكان يوما مشهودا وقلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات :

قد جاد سلطان الورى　　بعدله فى القاهرة
مذ رخص الأسعار مع　　ابطاله المشاهرة
كم جائع من فرحة　　يدعو له مجاهرة
وكم حزين قلبه　　بالكسر أضحى جابره
وقد عفا غلالنا　　من المكوس الجائره
وصرف اللحم الذى　　أرضى به عساكره
فارتفعت أيدى الورى　　له بفضل شاكره
وحاز أجرا ناله　　من الدنا والآخره
وقد علا تاريخه　　فوق النجوم الزاهرة
لأنه فى عصره　　بين الملوك نادره
فيالها من سنة　　خيراتها مبادره
فكم له فى الخير من　　أفعال بر ظاهرة
يا رب فاجعل يده　　لكل باع قاهره

وكانت هذه المشاهرة من أكبر أسباب الفساد فى حق المسلمين ، فان الوسائط السوء حسنوا للسلطان عبارة بأن يجعل على السوقة فى كل شهر مالا يوردونه للمحتسب فتزايد الأمر الى أن صار مقررا على السوقه فى كل شهر فوق الفى دينار من هذه الجهة وغيرها من الجهات المتكلم عليها الزينى بركات بن موسى ، وكان جماعة من الأمراء الذين بغير أقاطيع محتالة فى كل شهر على الزينى بركات ابن موسى بما يتحصل من المشاهرة والمجامعة ، فكانت السوقة تجور فى أسعار البضائع ولا يجسر أحد من الناس يكلمهم فيقولون علينا مال للسلطان نورده فى كل شهر ، فاستمر ذلك من أول دولة السلطان الى أن ألهمه الله تعالى ابطالها .

وفيه وجد مملوك من مماليك السلطان مقتولا بباب الوزير وكان ذلك المملوك من جلبانه وكان مصارعا ولا يعلم من قتله فتنكدت المماليك بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سابعه عرض السلطان الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات وكان قد دار عليهم نقيب الجيش من قبل وأعلمهم أن العرض يوم الثلاثاء فطلعوا جميعا ، فقيل عين فى ذلك اليوم من الأمراء المقدمين ستة عشر أميرا وأما الأمراء الطبلخانات والعشراوات فلم يعف منهم الا القليل وقال لهم : « الذى له عذر يعوقه عن السفر يذكره لى » ... فأعفى منهم جماعة .

وفى يوم الخميس تاسعه أكمل السلطان عرض العسكر قاطبة ولم يعف منهم أحدا .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على القاضى بركات بن موسى وقرره ناظر الذخيرة الشريفة كما كان شمس الدين بن عوض ولم يعد الزينى بركات الى الحسبة ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وصحبته الأمير طومان باى الدوادار وقدامه السعاة ماشية وشق من الصليبة واستمرت الحسبة شاغرة الى الآن لم يلها أحد .

وفى يوم الجمعة عاشره صلى السلطان صلاة الصبح ونزل الى الميدان ثم خرج من باب الميدان الذى عند باب القرافة وتوجه من هناك الى الروضة وعدى الى المقياس وأقام به ذلك اليوم . وأشيع أن السلطان يريد أن يتوجه من هناك الى الفيوم ليكشف عن أمر الجسر الذى انقلب هناك من الماء ، وذلك لأنه لم يكتف بتوجه الأمير طومان باى الدوادار والأمير أرزمك الناشف الى هناك قبل ذلك كما تقدم ذكره فصمم على ذلك وتوجه فكان صحبته من الأمراء المقدمين الأتابكى سودون العجمى والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدوادارى رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب والأمير طومان باى الدوادار والأمير تمراز الزردكاش أحد المقدمين وبعض أمراء عشراوات ، ونحو خمسين خاصكيا وبعض جماعة من المباشرين وأقام فى المقياس الى أن صلى الجمعة وعدى الى الجيزة ونصب له وطاق عند الأهرام ، فأقام ذلك اليوم هناك ثم توجه الى الفيوم من تحت الجبل .

ومن الوقائع الغريبة أن السلطان لما غضب على علم الدين الچلبى بسبب ما تقدم ، واستمر علم الدين ممنوعا من طلوع القلعة قال السلطان لمحمد المهتار : « انظر لى چلبى يحلق رأسى » ... فعرض عليه عدة چلبية فما أعجبه منهم أحد ، فقال له محمد : « بقى عندنا صبى صغير أمرد يسمى عبد الرزاق أصله من باب الوزير وهو يتيم وكان يحلق لجماعة من الخدام وهو يحلق مليحا » . فقال السلطان : « أحضره حتى يحلق لى » . فأحضره ، فلما حلق له أعجبته حلاقته ، فاستقر به چلبى السلطان عوضا عن علم الدين ، فسافر هذا الصبى مع السلطان الى الفيوم وأنعم عليه بكسوة حافلة وأخرج له اكديشا وبغلة وصار چلبى السلطان فى ساعة واحدة . واذا أعطى لا مانع ، والله عند القلوب المنكسرة جابر ، والعبد بسعده لا بأبيه ولا بجده ... فعد ذلك من النوادر !

وفى يوم الاثنين ثالث عشره خرج عبد الرزاق أخو دولات وأولاد على دولات الذين كانوا حضروا الى مصر فلما حضروا أرسل اليهم السلطان ثمانية آلاف دينار ليعملوا بها برقهم ، فتأهبوا وخرجوا وسافروا فى ذلك اليوم وقصدوا التوجه الى حلب .

وفى يوم الخميس سادس عشره جلس نائب القلعة ومقدم المماليك عند باب القلعة ، وصرفا الجامكية على المماليك والعسكر فى غيبة السلطان على جارى العادة .

وفى يوم الأحد تاسع عشره حضر السلطان من الفيوم وعدى من الجيزة فلاقاه الخليفة والقضاة الأربعة فشق من الصليبة وقدامه القضاة الأربعة والأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء المقدمين وأعيان المباشرين وانسحبت الجنائب قدامه وطلع الى القلعة فى موكب حافل ، وكانت مدة غيبته فى الفيوم تسعة أيام ، فكشف على الجسر الذى هناك وعاد فدخل عليه تقادم كثيرة من الكشاف ومن المدركين ما بين خيول وأغنام وأبقار وجمال وغير ذلك من التقادم الفاخرة . قيل لما توجه الخليفة ليسلم على السلطان لم يجتمع به هناك فطلع بعد

العصر الى القلعة ، وسلم على السلطان وهنأه بالسلامة .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم أن السلطان لما عدى من الجيزة كان فى ذلك اليوم رياح عاصفة فغرقت مركب قدام المقياس ، وقد ازدحمت فيها الخيول وشبت على بعضها ، فأشيع أن المركب قد انقلبت بمن فيها ثم خمدت تلك الاشاعة عن ذلك الخبر .

وفى يوم الاثنين عشريه كان عيد النصارى وهو أول يوم من الخماسين ، وكانت خماسين مباركة لم يظهر فيها علة بمصر ولا بأعمالها قاطبة .

وفى يوم الخميس ثالث عشريه أشيع بين الناس أن النيل قد زاد ذراعين فطلع ابن أبى الرداد وأخبر السلطان أن النيل قد زاد نصف ذراع وكان النيل يومئذ فى اثنى عشر ذراعا وثلاث أصابع فزاد على ذلك نصف ذراع وكان ذلك فى شهر برمهات . وسبب هذا الزيادة أن الأمطار كانت بأعلى بلاد الصعيد فانحدرت منها السيول الى النيل فزاد هذه الزيادة فى غير أوانها ، وقد وقع مثل ذلك فى بعض السنين الماضية وزاد فى غير أوانه بسبب السيول نحو ذراعين .

وفى يوم السبت خامس عشريه جلس السلطان فى الميدان وعرض الأمراء الطبلخانات والعشراوات ورؤوس النوب ، فلما عرضهم قال لهم : « اعملوا برقكم وكونوا على نقطة من السفر فانى أنفق وأخرج فى جمعتى هذه » ... فنزلوا على ذلك .

وفى يوم الخميس سلخ هذا الشهر حضر ساع وقيل اثنان من عند نائب حلب وأخبرا بأن نائب حلب أرسل مطالعة على يديهما فلما قرئت على السلطان فاذا فيها ان شاه اسماعيل الصفوى ملك العراقين جمع من العسكر ما لا يحصى وهم زاحفون على بلاد ابن عثمان ، وكان فى سنة عشرين وتسعمائة حصل بينه وبين سليم شاه ملك الروم واقعة مهولة ، وقد تقدم القول على ذلك وانكسر اسماعيل شاه الصفوى كما تقدم . فاستمر الصفوى من حين جرى له ما جرى وهو فى جمع عساكر واستعان بملوك التتار فقيل انه جمع الجم الغفير من العساكر ، فان ابن عثمان كان قد قتل غالب عسكره فى الواقعة المقدم ذكرها .

فلما راج أمر الصفوى وجمع العساكر قصد الزحف على بلاد ابن عثمان ، فقيل انه كبس على جماعة ابن عثمان الذين كانوا فى آمد وقد كان ملكها من يد الصفوى حين محاربته معه فى الواقعة المذكورة وجعل ابن عثمان فيها نائبا من قبله ، فأشيع أن الصفوى كبس على من كان بآمد على حين غفلة ، وقتل من كان فيها من العثمانية ، واستخلصها من يد جماعة ابن عثمان وانتصر عليهم .

فلما طرق هذا الخبر سمع السلطان اجتمع بالأمراء فى الميدان وأقاموا فى ضرب مشورة بسبب ذلك الى قريب الظهر ، فأشيع أن السلطان قال : « أنا أخرج بنفسى وأقعد فى حلب حتى أنظر ما يكون من أمر الصفوى وابن عثمان فان كل من انتصر منهما على غريمه لا بد أن يزحف على بلادنا » .

فانفض المجلس على أنه لا بد من خروج تجريدة تقيم بحلب وتحرس البلاد الحلبية ، وأشيع فى ذلك اليوم باحضار الكشاف ومشايخ العربان والزامهم أن شرعوا فى تحصيل عشرين ألف خيال من العشير وفرسان العرب ، ويوزعوا ذلك على سائر البلاد من الشرقية والغربية وجهات الصعيد ، وهذا من أكبر أسباب الفساد فى حق الجند والمقطعين ، فان الكشاف ومشايخ العربان

يأخذون فى هذه الحركة من البلاد المثل عشرة أمثال لأنفسهم .

* * *

وفى ربيع الأول وكان مستهله يوم الجمعة طلع الخليفة والقضاة الأربعة وهنوا السلطان بالشهر ، وقيل ان السلطان أرسل شمس الدين بن ناشى وبركات بن الظريف شيخ القراء الى الخليفة وهو يقول : « اعمل برقك الى السفر فانه لا بد من سفر السلطان الى حلب ، وانه ينفق ويخرج فى شهر واحد » ... فتنكد الخليفة لهذا الخبر .

وفى يوم الأحد ثالثه جلس السلطان بالميدان وعرض الأمراء الطبلخانات وخاصكية الخواص ، وعين منهم جماعة للسفر . ثم طلع ودخل الى قاعة البيسرية وفتح الحواصل وأخرج منها عدة سروج بلور وعقيق وكنابيش زركش وسروج ذهب وبركستوانات فولاذ مكفتة بذهب وغير ذلك ، وأفرد منها ما حسن بباله لأجل الطلب اذا خرج وسافر ... وهذا كله حتى يشاع بين الناس سفر السلطان الى حلب .

وفى يوم الثلاثاء خامسه جلس السلطان بالميدان وعرض الأمراء الطبلخانات والعشراوات وألزم كل أمير أن يستخدم عنده مماليك شىء خمسة وشىء ثلاثة وشىء اثنان بحسب اقطاعه ، وقرر معهم أن بعد المولد الشريف يعرضهم قدامه بالميدان وهم باللبس الكامل والخيول الجيدة وكل من لم يفعل ذلك يخرجه عن امريته ويجعله طرخانا .

وفى يوم الثلاثاء المذكور نزل القاضى شهاب الدين بن الجيعان نائب كاتب السر عن لسان السلطان الى أمير المؤمنين المتوكل على الله بسبب عمل برقه ، وقد كشفوا فى الدفاتر القديمة فوجدوا أن الخليفة اذا سافر صحبة السلطان يكون جميع برقه على السلطان ... فكتب الخليفة قوائم بمصروف عمل للبرق فكان ذلك بعشرة آلاف دينار ، وقيل خمسة آلاف دينار فأخذ الشهابى أحمد تلك القوائم وطلع بها الى القلعة ليعرضها على السلطان .

وفى هذا الشهر خلع السلطان على الأمير طراباى الذى كان قبل ذلك نائب صفد وأعاده الى نيابة صفد كما كان ، وعزل عنها يوسف الذى كان نائب القدس فكان مكثه فى نيابة صفد دون السنة ثم عزل وولى طراباى المذكور .

وفى يوم الأربعاء سادسه جلس السلطان بالميدان وعرض مماليكه الجلبان قاطبة وعينهم الى السفر صحبته ، ولم يعف منهم سوى المماليك الصغار الكتابية المرد .

وفى يوم الخميس سابعه رسم السلطان للطواشية بأن تدور على المماليك البطالة وأولاد الناس الذين كان السلطان قطع جوامكم ، بأن يطلعوا يوم السبت للعرض ، فالذى يصلح للسفر يعيد السلطان له جامكيته ويكتبه للسفر . ثم من بعد ذلك ظهرت اشاعة رد الجوامك التى قطعت .

فلما كان يوم السبت تاسعه جلس السلطان بالميدان وعرض جماعة من المماليك القرانصة من الشيوخ والعواجز وأولاد الناس أصحاب الجوامك ، فلما عرضهم عين منهم جماعة للشرقية ، وعين منهم جماعة مع كاشف الغربية وجماعة الى البحيرة وجماعة منهم الى الطرانة ، وجماعة الى المنوفية وجماعة الى منفلوط وجماعة الى الجيزة ، وألزمهم بأن يكونوا مع الكشاف لرد العربان اذا ظهر منهم فساد وحفظ البلاد فى غيبة السلطان اذا سافر . وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان الى

حلب ، ودارت الطواشية على المماليك القرانصة وأولاد الناس بسبب هذا العرض حتى عين هؤلاء الجماعة الى هذه الجهات المذكورة لا بسبب رد الجوامك التى كانت قطعت للمماليك العواجز وأولاد الناس ، واستقرت هذه الواقعة على ما ذكرناه .

وفى يوم الأحد عاشره نزل السلطان وعدى الى بر الجيزة وعرض جمال الأمير خاير بك كاشف العربية الذى توفى ، ثم عاد وطلع الى القلعة ودخل الى قاعة البيسرية ، وعرض فى ذلك اليوم بكاير وقرقلات وجواشن وغير ذلك أشياء كثيرة من آلات السلاح من حواصل الذخيرة .

وفى يوم الاثنين حادى عشره عمل السلطان المولد النبوى الشريف على العادة ونصب الخيمة العظيمة التى صنعها الملك الاشرف . وكانت هذه الخيمة كهيئة قاعة فيها لواوين ثلاثة وفى وسطها قبة على أربعة أعمدة ، قيل لم يعمل فى الدنيا قط لها نظير وهى من قماش ملون ، وهذه الخيمة كان لا ينصبها الا ثلثمائة رجل من النواتية ، وقيل ان مصروفها ستة وثلاثون ألف دينار ، فنصبها بالحوش ونصب الشربدارية فى الحوش أحواض جلد مملوءة بالماء الحلو وعلقوا شوكات بالكيزان الفاخرة ، وزينوا بالأوانى الصينى والطاسات النحاس ، وأوسعوا فى زينة الشرابخانة الزينة الفاخرة أكثر من كل سنة . ثم جلس السلطان فى الخيمة ، وحضر الأتابكى سودون العجمى وسائر الأمراء من المقدمين وغيرهم وحضر القضاة الأربعة وأعيان الناس والمباشرون والوعاظ على العادة ثم مدوا السماط وقد أوسع فى أمره . وكان مولدا مشهودا أبهج مما تقدم من الموالد الماضية .

وفى ذلك اليوم توفى قاضى القضاة محيى الدين ابن النقيب رحمة الله عليه ، وهو محيى الدين عبد القادر بن على بن مصلح الشافعى ... وكان يقرب للخواجا شمس الدين بن فضا الجوهرى ، وكان من أهل العلم والفضل ، لكنه كان جاف النفس ، وينسب الى شح زائد وله فى ذلك الامر أخبار شنيعة لم تذكر هنا لكنها شائعة بين الناس ، ومات وله من العمر نحو الثمانين سنة . وكان سبب موته أنه كان يمشى فى الأسواق بقبقاب سجك فتوجه الى خان الخليلى فرفسه فرس فوقع على فخذه فانكسر ، فحملوه الى خلوته التى فى المدرسة المنصورية فأقام بها أياما ومات . وكان منفصلا عن القضاء وقد ولى منصب القضاء ست مرات ، ونفد منه فى هذه الست ولايات ستة وثلاثون ألف دينار ، وكانت اقامته فى الست ولايات نحو سنتين ، وكان قليل الحظ عند الناس قاطبة ، وكان يسعى على القضاة المتولين ولا يزال عليهم حتى يعزلهم ويتولى منصب القضاة ، فعزل به قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة ابن أبى شريف وقاضى القضاة القلقشندى وقاضى القضاة عماد الدين الطويل وبدر الدين المكينى وعلاء الدين بن النقيب ، وكان يسعى بجملة من الأموال ولا تقيم فى منصب القضاة غير أشهر ثم يعزل ، فنفد منه مال له صورة على هذه الطريقة . وقد قلت فى ذلك مداعبة لطيفة :

منصب الحكم فى القضا قال لما
كشف الله ما به من هموم
زال عنى ابن النقيب وانى
كنت معه فى قبضة الترسيم

وقيل كان متحصل ابن النقيب هذا فى كل يوم من وظائفه نحو آشرفيين من خبز وجوامك ، وكان حرم نفسه من المأكل والمشرب والملبوس .

وفى ذلك اليوم توفى المهتار حسن شربدار السلطان وكان فى سعة من المال ، وصادره السلطان غير ما مرة . فلما مات ختم السلطان على حواصله ولم يلتفت الى أولاده .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشره توفى الشيخ محب الدين الحلبى امام السلطان وكان من المقربين عنده وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس رابع عشره ورد على السلطان مطالعة من عند سيباى نائب السلطان بالشام ، فأرسل يقول له : « يا مولانا السلطان ان البلاد الشامية مغلية والعليق والتبن لا يوجد ، والزرع فى الأرض لم يحصد ولا ثم عدو متحرك ، ولا يتعب السلطان سره ولا يسافر ، وان كان ثم عدو متحرك فنحن له كفاية » . فلم يلتفت السلطان الى كلامه واستمر باقيا على حركة السفر الى حلب .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره خلع السلطان على الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين ، وقرره أمير حاج بركب المحمل ، وخلع على الأمير برسباى الفيل أحد أمراء الطبلخانات وقرره أمير حاج الركب الأول ، فنزلا من القلعة فى موكب حافل .

وفى هذا اليوم خلع السلطان على الأمير ألماس أحد الأمراء العشراوات ، ويعرف بدوادار سكين وقرره فى ولاية الشرطة بالقاهرة عوضا عن الأمير كرتباى بحكم انتقاله الى تقدمه ألف . وكان الأمير كرتباى من أعيان مماليك السلطان ، وولى كشف الشرقية وولاية القاهرة ثم أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف . وقيل ان الأمير ألماس سعى فى الولاية بأحد وأربعين ألف دينار منها عشرون ألف دينار معجلة وواحد وعشرون يدفعها على نقدات متفرقة .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على مملوكه الأمير ماماى الصغير وقرره فى نظر الحسبة الشريفة عوضا عن الزينى بركات بن موسى بحكم انتقاله الى استدارية الذخيرة ، وكانت مدة اقامة الزينى بركات بن موسى فى الحسبة احدى عشرة سنة الا شهرا وعزل عنها والناس عنه راضية . وقيل ان الأمير ماماى الصغير سعى فى الحسبة بخمسة عشر ألف دينار حتى وليها ، وكانت الحسبة والولاية فى قديم الزمان من أقل الوظائف ، ووليها جماعة كثيرة من أبناء الناس والفقهاء ، ولكن عظم أمر هاتين الوظيفتين فى هذا الزمان الى الغاية ، وصارتا من أجل الوظائف ، وهذه الأموال العظيمة التى يسعى بها هؤلاء انما يستخلصونها من أضلاع المسلمين ودمائهم والأمر الى الله .

وفى ذلك اليوم أنفق السلطان على العسكر نفقة السفر ، وقد تحقق أمر خروج التجريدة ، فأنفق على كل مملوك مائة دينار وجامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف وثمن جمل سبعه دنانير ، ثم ان السلطان كتب أولاد الناس قاطبة الى السفر ولم يعطهم نفقة بل أعطاهم جامكية أربعة أشهر بثمانية آلاف ، وكان سبب ذلك أن القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك قال للسلطان : « انا نظرنا فى بعض التواريخ أن الملك الظاهر برقوق لما خرج الى التجريدة لم ينفق على أولاد الناس شيئا » . فأعجب السلطان منه ذلك ، وقطع نفقة أولاد الناس قاطبة ، فكثر عليه الدعاء من أولاد الناس بسبب ذلك . وكانت هذه الواقعة من أعظم مساويه فى حق أولاد الناس ، وحصل لهم كسر خاطر شديد .

وفى يوم الأحد سابع عشره ظهر أحمد بن الصائغ الذى كان ضد الزينى بركات بن موسى فى الحسبة وكان له مدة وهو مختف ، فظهر فى

ذلك اليوم وقابل السلطان ثم خمد أمره ولم ينتج مع وجود الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره توفيت خوند جان سكر الجركسية مستولدة السلطان وهى أم ولده الذى توفى فى الفصل سنة عشرين وتسعمائة ، وكانت دينة خيرة قليلة الأذى ، فلما أشيع موتها طلع الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء وأعيان المباشرين ، فصلى عليها الخليفة عند باب الستارة ونزلوا بها من سلم المدرج وهى فى بشخانة زركش ونهبت الكفارة من قدامها قبل أن تنزل من القلعة ، ومشى الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء قدامها من القلعة الى مدرسة السلطان التى فى الشرابشيين ، فدفنت هناك على أولادها . ولم يدخلوا بها من باب زويلة بل دخلوا بها من خوخة أيدغمش . وكانت جنازتها حافلة ، وكثر عليها الأسف والحزن من الناس .

وفى يوم الخميس حادى عشريه وقف جماعة من أولاد الناس الى السلطان بسبب النفقة ، فلما وقفوا له ساعدهم الأمير علان الدوادار وبقية الأمراء ، فلم يرث لهم السلطان ، وقال : « أنا ما عندى نفقة لهؤلاء فالذى لا قدرة له على السفر يرد الأربعة شهور الجامكية التى أخذها وأنا أترك له شهرا ويستريح وتنقطع عنى جامكيته » . فرد جماعة كثيرة من أولاد الناس جامكية الأربعة شهور التى أخذوها واستمر أمرهم مبنيا على السكوت .

وفى يوم الأربعاء ويوم الخميس أنفق السلطان على بقية العسكر النفقة . وفى يوم السبت ثالث عشريه أكمل السلطان النفقة على العسكر قاطبة من قرانصة وجلبان ، ونادى عليهم فى الحوش أن السفر أول الشهر ، فاضطربت أحوال العسكر وارتجت القاهرة وعز وجود الخيل والبغال ، وصار المماليك يهجمون الطواحين ويأخذون منها الخيول والبغال والأكاديش ، فغلقت الطواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ووقع القحط بين الناس وضج العوام وكثر الدعاء ، وغلقت أسواق القماش بسبب المماليك واختفى الصنائعية والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة واختفى جماعة من النجار خوفا من المماليك ، واختفى طائفة من الغلمان خيفة السفر ، وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامه كل واحد يقول يارب روحى . وقد عاب العسكر على السلطان هذا الرهج الذى وقع منه ، ولم يمش على طريقة الملوك السالفة عند خروجهم للسفر مع انه لم يكن أمر يستحق هذا الرهج العظيم ، ولا جاءت أخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى حلب ولا جاليشه ولا تحرك على بلاده ، وعابوا على السلطان أيضا عرضه عسكر مصر قاطبة فى أربعة أيام ، وأنفق عليهم مع العرض ، فخشوا أن يشاع فى بلاد ابن عثمان وبلاد الصفوى أن السلطان الغورى قد عرض عساكره جميعا فى أربعة أيام فينسبونهم الى قلة وانه ما ثم بمصر عسكر ، وربما يطمع العدو اذا سمع بذلك . وما كان هذا الرأى من الصواب وهذه الأحوال كلها غير صالحة .

وفى يوم السبت المقدم ذكره أرسل السلطان نفقة الأمراء المقدمين ، فأرسل للأتابكى سودون العجمى خمسة آلاف دينار ، والأمير أركماس أمير مجلس والأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب والأمير أنص باى حاجب الحجاب لكل واحد أربعة آلاف دينار ، وبقية الأمراء المقدمين الذين هم بغير وظائف لكل واحد منهم ثلاثة آلاف دينار . وأين هذه النفقة من النفقة التى كان يرسلها الأشرف قايتباى للأمراء المقدمين عند خروجهم الى

تجاريد ابن عثمان ؟ فكان يرسل للأتابكي آزبك وحده ثلاثين ألف دينار والأمير تمراز أمير سلاح عشرين ألف دينار وأمير مجلس مثل ذلك وبقية الأمراء المقدمين لكل واحد منهم عشرة آلاف دينار حتى عد ذلك من النوادر الغريبة ... ولم يفعل الأشرف قايتباي ذلك الا فى آخر تجاريده لابن عثمان سنة خمس وتسعين وثمانمائة ، فبلغت نفقة الأمراء قاطبة دون الجند مائة ألف دينار .

وفى يوم الأحد رابع عشريه نزل السلطان وتوجه الى مدرسته التى بالشرابشيين فأقام بها الى ما بعد العصر ، وأشيع أنه قد عرض موجود خوند ، فان حواصلها كانت هناك فظهر لها موجود عظيم ما بين ذهب وفضة عين وفصوص وقماش فاخر وغير ذلك .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه أنفق السلطان على الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات ، وصار يستدعيهم واحدا بعد واحد مثل تفرقة الجامكية ، فأعطى لكل أمير طبلخانات خمسمائة دينار ، وأعطى لكل أمير عشرة مائتى دينار ، ولم يرسل للخليفة نفقة ، فحصل له غاية المشقة وترامى على جماعة من الأمراء فى أن يقرضوه مبلغا بربح ، ودخل فى جهته ديون كثيرة ... ولم يتفق قط أن السلطان اذا سافر البلاد الشامية وصحبته الخليفة أن يخرج بلا نفقة ، وكانت عادة جميع السلاطين أن برك الخليفة اذا سافر يكون على السلطان ، وكان يرسل اليه خمسمائة دينار لأجل جوامك أتباعه ، فلم يلتفت السلطان لشىء من ذلك وشح معه فى أمر النفقة ، وكان الخليفة مظلوما مع السلطان فى هذه الواقعة . ثم انه عرض المماليك القرانصة الشيوخ والعواجز وكتب منهم جماعة الى الشرقية والغربية والصعيد وألزمهم أن يخرجوا بلا نفقة وكانوا نحو خمسمائة مملوك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشريه نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الريدانية ، ورتب الفراشين كيف ينصبون الوطاق اذا برز السلطان للسفر ، ورتب منازل الأمراء وكيف تكون منازلهم بالريدانية .

وفى ذلك اليوم رسم السلطان لولده أمير آخور كبير بأن يعمل برفه ويسافر صحبته ، وكان فى الأول رسم له بأن يكون مقيما بباب السلسلة الى أن يحضر السلطان ثم بطل ذلك ، ورسم له بأن يشرع فى عمل برقه الى السفر .

وفى يوم الجمعة تاسع عشريه ، الموافق لسادس بشنس القبطى ، خلع السلطان الصوف ولبس البياض . وكانت أول جمعة خوند زوجة السلطان التى توفيت فصنع لها السلطان مادة حافلة وحضر هناك الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من الأمراء المقدمين ، وحضر قراء البلد قاطبة والوعاظ وكانت ليلة مشهودة بمدرسة السلطان التى بالشرابشيين .

❊ ❊ ❊

وفى يوم السبت مستهل شهر ربيع الآخر جلس السلطان بالميدان ، وطلع اليه الخليفة والقضاة الأربعة فهنوه بالشهر الجديد وعادوا الى دورهم .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على ولد المهتار حسن الشربدار الذى تقدم ذكر وفاته وقرره فى وظيفة أبيه فى مهتارية الشرابخاناه عوضا عن أبيه بحكم وفاته .

وفى ثانيه فرق السلطان على مماليكه الجلبان لبوس الخيل من حرير ملون وخود وأتراس وبدلات ما بين زنود وركب فولاذ ، وغير ذلك من آلة السلاح التى فى الزردخانه ، فتزاحمت عليه المماليك

وصاروا يخطفون اللبوس الملاح بأيديهم ، ولا يرضون بالذى يفرقه السلطان عليهم ، فعجز عن رضاهم فى ذلك اليوم وكثر تمردهم فى هذه الأيام الى الغاية .

« أعجوبة » قيل ان امرأة ولدت ولدا له رأسان وأربع أيدى وأربع أرجل ، فلما شاهده السلطان تعجب منه وقيل وقع مثل ذلك فى زمن الامام على رضى الله عنه .

ومن جملة انعام الله تعالى على المسلمين آن السلطان أبطل سفر العربان الذين أفردهم على البلاد الشرقية والغربية والصعيد ، وقد تقدم القول على أن السلطان قصد أن يأخذ معه فى التجريدة جماعة من الخيالة من فرسان العرب يكونون أمام العسكر وقت الحرب ، فأحضر مشايخ العربان والكشاف ، وأفرد عليهم نحو خمسمائة خيال وقيل خمسة آلاف خيال ، فنزلوا الى البلاد قاطبة ، وصاروا يفردون على كل بلد خيالين بمائة دينار وعلى البلد الكبيرة أربع خيالة بمائتى دينار . فلما سمع أهل النواحى من الفلاحين بذلك الأمر أخلوا البلاد وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا وخرب بعض بلاد فى هذه الحركة ... فلما بلغ الأمراء ذلك وقفوا للسلطان وشكوا له من ذلك ، وأن غالب البلاد تخرب واخلاها الفلاحون وأغلظ الأمراء على السلطان فى القول وقالوا له : نسافر معكم وتخرب بلادنا فمن أين نأكل ونسدد ديواننا اذا سافرنا ؟ فاستحى منهم السلطان وأمر بابطال ذلك ، وأخرج مراسيم شريفة الى الكشاف ومشايخ العربان بابطال ما كان قد رسم به فى الأول ، واعادة ما أخذ من الفلاحين بالنواحى . فخرجت المراسيم الشريفة الى البلاد بمنع ذلك ، ولو استمر على قوله الأول لخربت مصر عن آخرها ووقع بها الغلاء العظيم من خراب البلاد . فلله الحمد على ذلك .

ومن الحوادث فى هذه المدة آن السلطان صادر ابنة الأمير خاير بك كاشف الغربية أحد الأمراء المقدمين ، وهى زوجة الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وهى التى كان وقع لها ذلك الأمر الفاحش المقدم ذكره ... فلما صادرها قرر عليها مالا ثقيلا له صورة ، فأرسل رسم عليها بجماعة من الطواشية . فلما تحققت ذلك شرعت فى بيع جهازها وجميع ما تملكه من صامت وناطق .

وكان سبب ذلك أنه لما توفى والدها الأمير خاير بك تكلم الأعداء فى حقها بأنها أخذت من موجود أبيها ثلاث قدور فيها مال جزيل له جرم ، فأرسل خلفها فلما حضرت بين يديه سألها عن ذلك فأنكرت وحلفت أنها مارأت تلك القدور الذهب التى اتهموها بها ، فحنق منها السلطان وقال لها : « أنسيتى ذنبك ؟ » يعنى أمر الصبى الذى وجدوه عندها ، فحلف السلطان ان لم تحضر بالمال الذى أخذته من مال أبيها والا يغرقها ، وصمم على ذلك ... فلما جرى ذلك شرعت فى بيع جهازها لتورد المال الذى قرر عليها ، فصار فى كل يوم سبت وثلاثاء يحضر الزينى بركات بن موسى وجماعة من المباشرين ويبيعون قماشها مثل التركة . وقد وقع لابنة يشبك الدوادار زوجة الأمير قانباى أمير آخور كبير كهذه الواقعة بعينها وصودرت وباعت جهازها وقماشها وجواريها مثل التركة ، وغلقت ما عليها من المال . وقد تقدم ذكرها .

وفى يوم الخميس سادسه صرف السلطان للعساكر المتوجهة الى السفر ثمن اللحوم المنكسرة لهم على ثلاثة أشهر لكى يتوسعوا فيها ، ولم

يصرف للذين تأخروا بمصر شيئا ، وأحالهم على الطباخين يصرفون لهم فى غيبته .

وفى ذلك اليوم برز السلطان خيامه الى الريدانية وقد تحقق أمر سفره الى البلاد الشامية ، ثم نادى للعسكر فى الميدان أن كل من جهز برقه ولا بقى له عاقة يخرج ويسافر ويتقدم قبل خروج السلطان ، ولكن الى الآن لم يعلق السلطان الچاليش الذى هو مقدمة الجيش اذا سافروا الى البلاد الشاميه ، وكانت العادة أنهم اذا سافروا الى البلاد الشامية يعلقون الچاليش قبل خروجهم بأربعين يوما ، فلم يمش السلطان على طريقة الملوك السالفة .

وفى يوم الخميس المذكور أرسل السلطان الى أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله نفقة السفر ، على يد حسام الدين الألواحى بواب الدهيشة ، ألف دينار وكان الساعى له فى ذلك الأمير طومان باى الدوادار الكبير ، ولولا هو ما كان يرسل له شيئا ، فان السلطان أرسل للقضاة الأربعة يقول لهم اعملوا برقكم ، ولم يرسل لهم شيئا من النفقة ، وقد حصل لهم غاية الكلفة والمشقة لأنه من حين سافر الأشرف برسباى الى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة لم يخرج الخليفة ولا القضاة الأربعة الى البلاد الشامية صحبة السلطان ، وكان للخليفة والقضاة الأربعة على السلطان عادة أنهم اذا سافروا الى البلاد الشامية يرسل لهم نفقة السفر ، فتغافل السلطان عن ذلك .

ثم بعد أيام أرسل السلطان للخليفة سيفا مسقطا بالذهب ، على يد شخص من الزردكاشية يقال له محمد العادلى ، وقد تقدم القول على أنه أرسل له نوبة جام جديد ، فكان مجموع ما حصل له من السلطان من الانعام ، ذهب وغير ذلك ، دون ألفى دينار ، وقد تكلف الخليفة فى هذه الحركة على مصروف برقه وغير ذلك نحو الخمسة آلاف دينار أو أكثر .

وفى يوم الجمعة سابعه خرجت جماعة كثيرة من مماليك السلطان ، وتوجهوا الى السفر نحو البلاد الشامية ، وقد نادى عليهم السلطان قبل ذلك أن كل من جهز برقه يخرج ويسافر قبل خروج السلطان ، فصار يخرج فى كل يوم جماعة من العسكر شيئا فشيئا ولم يسافروا .

وفى ذلك اليوم حضر خليفة سيدى أحمد البدوى وقد حضر بطلب من السلطان فلما مثل بين يديه قال له اعمل برقك حتى تسافر صحبتى الى حلب . فلما سمع ذلك تعلل وأظهر أنه ضعيف ولم يقدر يسافر ، فحنق منه السلطان وألزمه بالسفر ولم يقبل له عذرا . وأرسل يقول لخليفة سيدى أحمد الرفاعى رحمة الله عليه اعمل برقك حتى تسافر صحبتى .

فلما تحقق القضاة سفر السلطان أخذوا فى تجهيز أمرهم وعمل برقهم ، وعينوا معهم جماعة كثيرة من النواب ، فتقلقلوا من أمر السفر ، فعند ذلك فرض القضاة الأربعة مبلغا له صورة على نوابهم على كل واحد من النواب قدر معين على قدر مقامه ، فقامت الثائرة والشناعة على القضاة بسبب ذلك . ولما بلغ السلطان ذلك الخبر أنكر على القضاة هذه الفعلة .

وفيه طلع قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وصلى بالناس صلاة الجمعة ، ثم استأذن فى الدخول على السلطان ، فدخل عليه وهو بالدهيشة ، فلما جلس بين يدى السلطان شرع يحلف له أنه لم يدخل كيسه شىء مما قرروه على النواب ، وانما النواب الذين عينوا للسفر قالوا

نجعل كلفتنا على النواب المقيمين بمصر . فلما سمع السلطان ذلك قال : « لا تشوشوا على أحد من النواب ولا تأخذوا أحدا منهم بالغصب ، فالذى يسافر من تلقاء نفسه يسافر والذى لا يسافر لا تغصبوه على السفر » ... فبطلت تلك الحادثة الشنيعة ولله الحمد بعد ما كان جماعة من النواب شرعوا فى بيع قماشهم وكتبهم . وقد حصل لهم الضرر بسبب ما قرروه عليهم كما تقدم ذكره . ولم يقع للقضاة مع نوابهم مثل ذلك لما سافر الأشرف برسباى الى آمد .

وفيه عرض السلطان غلمانا للبيوتات من الفراشين والبابية والركبخانة والحجارين والشربدارية والزردخانية من النفطية وغير ذلك ، وطلب الأمير علم الدين الذى يحكم على الطبالين والزمارين وألزمه أن يصرف على من يسافر صحبته من الطبالين والزمارين والمنقرين من كيسه ، وقال له : أنت تأكل معلوم هذه الوظيفة عدة سنين فأنفق عليهم من عندك والا فعندنا من يلى هذه الوظيفة ويفعل ذلك . ثم عرض مغانى الدكة وهم أحمد أبو سنة والمحوجب والمحلاوى ، وأمرهم بأن يسافروا صحبته ، ثم عين جماعة من النجارين والحجارين وأمرهم بالسفر معه ، ثم عرض هؤلاء المذكورين ولم ينفق عليهم شيئا ، بل صرف لهم جامكية أربعة شهور لا غير ، ولم يعطهم نفقة وقال لهم : « أنتم تأكلون جوامك السلطنة كذا وكذا سنة فعند ارادتى سفركم تطلبون منى نفقة » . وكان قبل ذلك لما قرر القضاة على نوابهم مبلغا مساعدة للنواب الذين يسافرون ، أفرد شمس الدين الظريف نقيب القراء على جماعة من القراء والوعاظ والمؤذنين ، وأمرهم أن يسافروا صحبة السلطان كما فعل القضاة مع نوابهم .

وفى يوم الأحد تاسعه حضر الى الأبواب الشريفة العجمى الشنقجى ، نديم السلطان الذى كان توجه بالأفيال الى نائب الشام ونائب حلب وقد أبطأ مدة طويلة حتى أشاعوا موته غير ما مرة ، فظهر أن السلطان أرسله الى شاه اسمعيل الصفوى فى الخفية فى خبر سر بين السلطان وبين اسمعيل شاه كما أشيع ذلك بين الناس .

وفى يوم الاثنين عاشر ربيع الآخر خرج طلب السلطان . وكان من ملخص أمره أنه أخرج الطلب من الميدان قبل طلوع الشمس ومشى به من الرميلة ونزل من حدرة البقر وطلع به من الصليبة ، وكان ما اشتمل عليه ذلك الطلب أنه جر فيه خمس عشرة نوبة هجن بأطوار زركش وكنابيش وخمس عشرة نوبة بأكوار مخمل ملون ، وأما الخيول فثلثمائة فرس ، منها مائة فرس بيركستوانات فولاذ مكفت بذهب وجواغين مكفتة بالذهب وشىء مخمل ملون ومنها ثلاث طوايل بكنابيش زركش وسروج ذهب ومنها ثلاث طوايل بعراقى وسروج بداوى وطبول بازات . وكان فى الطلب أربعة وعشرون تختا بأغشية حرير أطلس أصفر وكجاوتين مخمل بزركش وهما الجوشنان ، وكان فيه ست خزائن بأغشية حرير أصفر ، وكان فيه محفتان على البغال بأغشية حرير أصفر ، وكان بالطلب خمسة رءوس خيل خاصة منها اثنان بأرقاب مزركش وكنابيش وسروج بلور مزيكة بذهب وشىء عقيق وطبول بازات بلور مزيكة بذهب ، وكان به فرسان بكنابيش وسروج ذهب عليها غواشى ذهب وعليها هلالات ذهب عوضا عن الطيور ، وكان راكبا بالطلب بعض أمراء عشراوات رءوس بالشاش والقماش ، وبعض خدام من الطواشية ، وكان

راكبا به من المباشرين القاضى محمود بن أجا كاتب السر ، والقاضى محيى الدين القصروى ناظر الجيش ، والقاضى علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان كاتب السر ، والقاضى أبى البقاء ناظر الاسطبل ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وناظر الدولة ، والشرفى يونس النابلسى الاستادار كان ، والقاضى كريم الدين بن الجيعان ، وأولاد الملكى وغير ذلك من المباشرين . ثم جاء الصنجق السلطانى وانجرت الكئوسات والصناجق السلطانية والخليفة ، وكان به أربعة طبول وأربعة زمور وعشرة أحمال كئوسات ، وكان عادة طلب السلطان أن يكون به أربعون حمل كئوسات ، فشق طلب السلطان من الرميلة واصطف العسكر والجم الغفير من الناس بسبب الفرجة على الطلب ، فلما مر الطلب لم يعجب الناس واستقلوا الخيول التى به .

وقال من أدرك طلب الأشرف برسباى لما خرج الى آمد : كان فى طلبه أربعمائة فرس مزينة بالبركستوانات المخمل الملون والفولاذ ، وميز بعض الناس يشبك الدوادار لما خرج الى شاه سوار على طلب السلطان وشكره على هذا الطلب ، لأنه كان مرتبا عن طلب السلطان ونزل من جهة باب الوزير ودخل من باب زويلة ، وشق من القاهرة وكان يوما مشهودا حتى رجت له القاهرة فى ذلك اليوم . فاستمر ينسحب حتى خرج من باب النصر وتوجه الى المخيم الشريف بالريدانية .

وفى ذلك اليوم خرج سنيح أمير المؤمنين المتوكل على الله ، وكان قدامه طبلان وزمران ونفير . ولم يخرج فى ذلك اليوم غير طلب السلطان فقط ، وكانت العادة القديمة أن يخرج السلطان عقيب طلبه ثم تنسحب أطلاب الأمراء بعده شيئا فشيئا ، فلم يمش السلطان على النظام القديم وخالف عوائد الملوك فى أشياء كثيرة من أفعاله ، منها أنه لم يعلق الچاليش على الطبلخانات كعادة الملوك السالفة فانهم كانوا يعلقون الچاليش ، ويعرضون العسكر ثم ينفقون عليهم نفقة السفر ، ويستمر الجاليش معلقا الى أن يخرج السلطان ولو بعد شهرين .

وقد حكى عن الظاهر برقوق أنه لما جرد الى تمرلنك خرج طلبه ينسحب من باب الميدان وكان الظاهر برقوق يرتب طلبه بنفسه وهو راكب على فرسه وفى يده طبر ويكر بفرسه من باب الميدان الى الصوة .

قيل أن السلاطين المتقدمة كانوا يخرجون الى البلاد الشامية عند ما تنتقل الشمس الى برج الحمل فى أوائل فصل الربيع والوقت رطب ، وأما الغورى فانه سافر فى قوة الحر والشمس فى برج السرطان فحصل للعسكر مشقة شديدة فى الطريق وليس من العادة القديمة أن السلطان يشق عند خروجه القاهرة بل يخرج من الصوة ، وفى العود يشق القاهرة . وكان السلطان الغورى لا يقتدى الا برأى نفسه فى جميع الأمور .

وفى يوم الخميس ثالث عشره أشيع بين الناس أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان يقال له جانم الأفرنجى ، وكان مجرما عائقا مسرفا على نفسه ، خرج صحبة المماليك السلطانية الذين تقدموا قبل خروج السلطان ، فصار جانم هذا يخطف كل شىء لاح له ، ويؤذى الناس بطول الطريق . فلما بلغ السلطان ذلك أرسل مراسيم شريفة الى أرباب الادراك بأن يقبضوا عليه ويشنقوه حيث وجدوه من غير مشورة ، فقيل انهم قبضوا عليه وشنقوه على شجره فى بلبيس وهو

بقماشة وسـيفه وتركاشـه ، ووضعوا غلمانه فى الحديد الى أن أتوا بهم الى المقشرة .

وفى يوم الجمعة رابع عشره نزل السلطان من القلعة وتوجه الى القرافة وزار قبر الامام الشافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، وكان صحبته ولده أمير آخور كبير ، وقيل انه تصدق فى ذلك اليوم بمال له جرم .

وفى ذلك اليوم برز سنيح السلطان وتوجه الى الريدانية ، وكذلك الأمراء خرج سنيحهم .

فلمـا كان يوم السـبت خامس عشره خـرج السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى الى البلاد الشامية والحلبية ، وللناس مدة طويلة لم يروا سـلطانا خرج الى تلك البلاد على هـذا الوجه من حين توجه الأشرف برسباى العلائى الى آمد ، وذلك فى سـنة سـت وثلاثين وثمانمائة ، فكانت المدة نحو سبع وثمانين سنة .

ولما كانت صبيحة يوم السبت المذكور اجتمع سائر الأمراء المقدمين عند السلطان بالميدان ، وهم بالشاش والقماش ، فخلع السلطان فى ذلك اليوم ميمر وأطلسين على الأمير آركماس بن طراباى أمير مجلس وقرره فى امرية السلاح ، وكانت شـاغرة من حين قرر الأمير سودون العجمى فى الأتابكية ، فكانت عدة الأمراء المقدمين الذين تعينوا للسفر صحبة الركاب الشريف خمسة عشر أميرا ... منهم أرباب الوظائف خمسة وهم المقر الأتابكى سودون ابن جانى بك الشـهير بالعجمى ، والمقر السيفى أركماس أمـير مجلس سـلاح ، والمقر الناصرى محمد ابن المقام الشريف أمير آخور كبير ، والمقر السيفى سودون الدوادارى رأس نوبة النوب ، والمقر السيفى قانصوه بن سليمان جركس ، ثم الأمير تمر الحسنى الشـهير بالزردكاش ، والأمير علان بن قراجا دوادار ثانى أحد المقدمين ، والأمير قانصوه كرت ، والأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، والأمير تانى بك الشـهير بالخازندار ، والأمـير بيبرس قـريب السـلطان ، والأمير أبرك رأس الجلبـان الأشرفى ، والأمير آقبـاى الطويل أمير آخور ثانى أحـد المقـدمين ، والأمير كرتبـاى الأشرفى الذى كان والى القاهرة أحد المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخـانات من أرباب الوظائف منهم الأمير يوسف النـاصرى شاد الشرابخاناه ، والأمير مغلباى ، والشرفى يحيى الزردكاش الكبير ، والأمير قانى بك بن بخشباى رأس نوبة ثانى ، والأمير طومان باى قرا حاجب ثانى ، وغير ذلك من الأمراء الطبلخانات . وأما الأمراء العشراوات فعين منهم جماعة كثيرة يخرجون الى السفر صحبة الركاب الشريف . وأمـا الأمـراء الذين تخلفوا بالقاهرة فهم المقر السيفى طومان باى أمير دوادار كبير ابن أخى السلطان ، وقد تعين أن يكون نائب الغيبـة عن السـلطان الى أن يحضر ، والأمـير طقطباى نائب القلعة أحد المقدمين ، والأمير أرزمك الشهير بالناشف ، والأمير قانى بك النجمى أحد المقدمين وكان قرر فى امرية الحاج ، والأمير أزبك الشـهير بالمكحل أحد المقدمين ، والأمير قانصوه الفاجر أحد مقدمى الألوف ، والأمير بخشباى أحد المقدمين ، وكان قد توجه الى الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك ، والأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين وكان مقيما بثغر رشـيد بسبب عمارة الأبراج التى هناك والسور ، والأمير خدابردى نائب الاسكندرية أحد المقدمين وكان مقيما بها ، والأمير قانصوه الشهير برجله أحد الأمراء المقدمين نائب قطيا وكان مقيما بها .

فلمـا أشرقت شمس يوم السبت خامس عشر

ربيع الآخر المقدم ذكره انسحبت أطلاب الأمراء المقدمين المتوجهين صحبة الركاب الشريف ، فكان أولهم طلب الأمير كرتباى أحد المقدمين ، وهو الذى كان والى القاهرة ، ثم طلب الأمير أقباى الطويل أمير آخور تانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير تانى بك الخازندار ، ثم طلب الأمير أبرك الأشرفى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير علان بن قراجا الدوادار الثانى أحد المقدمين ، ثم طلب الأمير بيبرس قريب السلطان ، ثم طلب الأمير جان بلاط الشهير بالموتر ، ثم طلب الأمير قانصوه كرت ، ثم طلب الأمير تمر الحسنى الشهير بالزردكاش ، ثم طلب الأمير قانصوه ابن السلطان جركس ، ثم طلب الأمير أنص باى بن مصطفى حاجب الحجاب ، ثم طلب الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، ثم طلب المقر الناصرى محمد ، نجل المقام الشريف أمير آخور كبير ، ثم طلب الأمير أركماس بن طراباى أمير مجلس وقد قرر أمير سلاح ، ثم بعد ذلك مشى طلب الأتابكى سودون بن جانى بك الشهير بالعجمى وكان طلبه غاية فى الحسن والترتيب .

فلما انقضى أمر الأطلاب خرج السلطان من باب الاصطبل الذى عند السلم المدرج ، فخرج وقدامه النفير السلطانى المسمى بالبرغشى وهو فى موكب عظيم قل أن يتفق لسلطان موكب مثل ذلك الموكب فكان فى أول الموكب الأفيال الثلاثة وهى مزينة بأنواع الزينة ، ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقماش ثم الأمراء رءوس النوب بالعصى يفسحون الناس ، وقد ترادفت الأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات قاطبة ثم أرباب الوظائف من المباشرين ، منهم المقر القاضوى محب الدين محمود بن أجا كاتب السر الشريف ، والقاضى ناظر الجيش محيى الدين عبد القادر القصروى ، ومنهم ناظر الخاص علاء الدين ابن الامام ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومستوفى ديوان الانشاء الشريف ، والقاضى شرف الدين الصغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب العساكر المنصورة ، والقاضى بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة واستادار الذخيرة ، والشرفى يونس النابلسى كاتب جيش الشام واستادار العالية كان ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاصطبل المعمور ، وأولاد الجيعان كتاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكى كتاب استيفاء الجيش ، وكاتب الزردخاناه ، وغير ذلك من أرباب الوظائف من المباشرين ، والشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة

وكان حاضرا هذا الموكب السادة الأشراف اخوة الشريف بركات أمير مكة ، فكانوا قدام الأمراء المقدمين ، ثم تقدمت الأمراء المقدمون قاطبة وصحبتهم ولد السلطان المقر الناصرى أمير آخور كبير والى جانبه الأتابكى سودون العجمى . ثم من بعد ذلك تقدمت السادة القضاة الأربعة مشايخ الاسلام وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن الشحنة ، وقاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى الدميرى ، وقاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين أحمد الفتوحى الشهير بابن النجار ، ثم بعدهم أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب العباسى وهو لابس العمامة البغدادية التى بالعذبتين ، وعليه قباء بعلبكى بطراز أسود حرير ، ولم يكن على رأسه صنجق خليفتى ، وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه . ثم مشت الجنائب السلطانية فكانوا طوالتين خيل بعراقى وسروج

بغواشى حرير أصفر وطبول بازات ، وطوالتى خيل بكنابيش وسروج ذهب ومياثر زركش وبعضهم بسروج بلور مزيكة بالذهب وشىء عقيق مزيك بفضة ، وقد تقدم ذكر الطلب بما شرح من وصفه قبل ذلك ، ثم تقدمت جماعة من رءوس النوب مشاة والجاويشية والطبردارية مشاة بالأطبار ، ولم يكن قدامه لا وطاق ولا شبابة سلطانية كما هى عادة السلاطين فى المواكب . ثم مشت البقج والمجاميع مغطية بالحرير الأصفر ومشى البخورى بالمبخرة قدامه ، ثم أقبل السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى عز نصره ، وكان الخليفة فدامه بنحو عشرين خطوة . وكان السلطان راكبا على فرس أشقر بسرج ذهب وكنبوش وعلى رأسه كلوته وهو لابس قباء بعلبكى أبيض بطرز ذهب على حرير أسود عريض قيل كان فيه خمسمائة ذهب بنادقة ، وكان ذلك اليوم فى غاية الأبهة والعظمة ، فانه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون مبجلا فى المواكب ، وأقبل والصنجق السلطانى على رأسه ومقدم المماليك سنبل العثمانى خلفه وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش والجم الكثير من الخاصكية والجمدارية . فدخل من باب زويلة وشق القاهرة فى ذلك الموكب الحافل ، فارتجت له القاهرة فى هذا اليوم ، وضجت الناس له بالدعاء من العوام وغيرهم ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى خرج من باب النصر وكان يوما مشهودا . ثم وصل الى المخيم بالريدانية ، ثم فى عقيب ذلك اليوم نزلت خوخجانات فيها الذهب والفضة وضمن كل واحدة من الذهب العين ألف دينار خارجا عن المعادن وقد فرغ الخزائن من الأموال التى جمعها من أوائل سلطنته الى أن خرج فى هذه التجريدة ، وفرغ أيضا حواصل الذخيرة وأخذ ما فيها من التحف وآلات السلاح الفاخرة التى كانت بها من ذخائر الملوك السالفة من سروج ذهب وبلور وعقيق وغير ذلك من كنابيش زركش وطبول بازات بلور ومينة وبركستوانات مكفتة وأكوار زركش وغير ذلك من التحف الملوكية . فنزل جماعة من كتاب الخزينة صحبة الخوخجانات وجماعة من الخازندارية وهم بالشاش والقماش ، فكانت تلك الخوخجانات محملة على خمسين جملا ، ثم نزلت الزردخانة وهى محملة على مائة جمل ، وقدامها طبلان وزمران وعيدان نقر على جمال ، فتوجهوا الى الوطاق .

وفى يوم الأحد سادس عشره أرسل السلطان نادى فى القاهرة أن الرحيل يوم الجمعة حادى عشريه ، فلا يتأخر أحد من العساكر الذى تعين للسفر ولا يحتج بحجة ولا عذر ، ولما أقام السلطان فى الوطلق عين جماعة من نواب السادة القضاة للسفر صحبة الركاب الشريف . فأما نواب الشافعية : فعين منهم الشيخ زين العابدين نجل القاضى كمال الدين الطويل ، والقاضى شمس الدين بن وحيش ، والقاضى شمس الدين التفهنى امام الأمير أركماس أمير سلاح ، والقاضى زين الدين الظاهرى ... فجملة ذلك أربعة من نواب الشافعية . وعين من مشايخ العلم الشافعية جمال الدين الصابونى مفتى المسلمين ، والشيخ صلاح الدين القليوبى قارىء الحديث الشريف ، وسافر صحبة هؤلاء العلماء اخوة الشريف بركات أمير مكة .

وأما من تعين من نواب السادة الحنفية : فالسيد الشريف القاضى البردينى ، والقاضى زين الدين

الشرنقاشى ، والقاضى شرف الدين البلقينى ، والقــاضى عز الدين خليل . وأما نواب الســادة المالكية فتعين منهم : القاضى شمس الدين المدينى والقاضى معين الدين بن يعقوب . وأما نواب السادة الحنابلة فتعين منهم : القاضى شهاب الدين الهيثمى والقاضى شمس الدين الطرابلسى . وأما من توجه صحبة الركاب الشريف من مشايخ الصوفية : فمنهم السادة الأشراف القادرية ، وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، والشيخ محمد بن كشك ، وخليفة سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه ، والشيخ عفيف الدين شيخ مشــهد السيدة نفيسة رضى الله عنهــا . وأما من توجه صــحبة الركاب الشريف من أئمة السلطان : فقاضى القضاة الحنفية شمس الدين السمديسى ، والشيخ شهاب الدين بن الرومى . وأما من توجه من مشــايخ القراء صحبته : فالشيخ شمس الدين بن الظريف ، والشــيخ الخواص ، والرومى ، والشيخ حسن الطنتنائى ، وابن القاضى خليل ، والشيخ أبو الفضل الفار ، وابنا عثمان الاثنان . وأما من ســافر معه من المؤذنين ، فمنهــم : نور الدين الخــواص ، ونور الدين الحسنى ، وجــلال الدين ، وناصر الدين . وأما من توجه صحبة السلطان من الموقعين : فمنهم القــاضى رضى الدين الحلبى ، والقاضى عمر بن معين الدين ، والقاضى علم الدين العباسى ، والقاضى محب الدين الظاهرى ، وشمس الدين الجيزى ، وسعد الدين بن الرومى . وأما من توجه صحبته من كتاب الخزينة فمنهم : القاضى كريم الدين عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد ، والقاضى شمس الدين محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان . وأما كتاب الزردخانة فمنهم : القاضى زين الدين عبد الباسط ، والقاضى عبد الكريم بن الأدنى ، وغير ذلك من المباشرين .

وأما من توجه صحبه السلطان من الاطباء فمنهم . محمد ابن الرئيس شمس الدين القوصونى وهو رأس الاطباء الان ، وصحبته جماعه من الاطباء ، ومن الكحالين عبد الرحمن ابن الشريف ، ومحمد ابن العفيف ، وآخرون . ومن المزينين عبد القادر المرشدى وآخرون من الجرايحية . وأما من توجه صحبته من مغانى الدكة : فهم نور الدين المحوجب وأحمد بن أبى سنة وأحمد المحــلاوى . وتوجه صحبة السلطان جماعة كثيرة من البنايين والنجارين والحدادين كما جرت به العادة .

وسافر معــه شيخ المشايخ ، المســمى بشيخ الحرافيش ، وجنــده وصنجفه وطبله ، وكان هو قدام طلب السلطان لما دخل الى دمشق كما جرت به العوائد القديمة عند خروج التجاريد .

ولما كان يوم الثلاثاء ثامن عشر ربيع الآخر رحل من المخيم الشريف ثلاثة من الأمراء المقدمين وهم الأمير كرتباى الأشرفى الذى كان والى القــاهرة وبقى مقدم ألف ، وكان جملة ما معه من مماليكه أربعين مملوكا ، والأمــير أبرك الأشرفى والأمير بيبرس قريب السلطان ، وكان جملة ما معــه من مماليكه أربعة وأربعين مملوكا .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشره رحل من الأمراء المقدمين ثلاثة أيضا وهم : الأمير تانى بك الخازندار وكان جمــلة ما معه من مماليكه اثنين وســتين مملوكا ، والأمير قانصوه كرت وكان جملة ما معه من مماليكه اثنين وخمسين مملوكا ، والأمير قانصوه ابن سلطان جركس وكان جملة ما معه من مماليكه ستة وسبعين مملوكا ، وأما الأمير جان بلاط المونر فكان جملة ما معه من مماليكه ستة وثلاثين مملوكا ،

والأمير تمر الزردكاش كان جملة ما معه من مماليكه اثنين وسبعين مملوكا .

وفى يوم الجمعة حادى عشريه رحل من الأمراء المقدمين أرباب الوظائف الأمير أنص باى حاجب الحجاب وكان جملة من معه من المماليك أربعة وستين مملوكا ، والأتابكى سودون العجمى ، وأما المقر الناصرى ولد السلطان أمير آخور كبير والأمير أقباى الطويل أمير آخور ثانى فانهما لا يرحلان الا فى ركاب السلطان ، وكان جملة ما مع الأتابكى سودون من مماليكه مائة وخمسة وثلاثين مملوكا ، وولد السلطان عشرين مملوكا كتابية صغارا للخدمة ، وجملة ما مع الأمير أقباى الطويل من مماليكه خمسة وأربعين مملوكا ، فكان جملة ما مع هؤلاء الأمراء الذين توجهوا صحبة السلطان تسعمائة وأربعة وأربعين مملوكا على ما قيل . ويقال ان عدة المماليك الذين خرجوا فى هذه التجريدة من القرانصة والجلبان وأولاد الناس خمسة آلاف نفر ، على ما قيل ، والله أعلم . وقيل تأخر بالقاهرة من المماليك القرانصة والعواجز والشيوخ والمماليك الجلبان فى الطباق والقلعة وأولاد الناس نحو ألفى نفر على ما قيل .

ولما كان السلطان بالمخيم الشريف ورد عليه مطالعة من عند نائب حلب واذا فيها : « ان ابن عثمان أرسل قاصدا فعوقناه عندنا وأخذنا الكتاب منه وهاهو واصل لكم » فوصل اليه وهو بالمخيم بالريدانية . ولما فكه السلطان وقرأه فاذا فيه عبارة حسنة وألفاظ رقيقة ، منها أنه أرسل يقول له : « أنت والدى وأسألك الدعاء وانى ما زحفت على بلاد على دولات الا باذنك وانه كان باغيا على ، وهو الذى أثار الفتنة القديمة بين والدى والسلطان قايتباى حتى جرى بينهما ما جرى ، وهذا كان غاية الفساد فى مملكتكم وكان قتله عين الصواب . وأما ابن سوار الذى ولى مكانه فان حسن ببالكم أن تبقوه على بلاد أبيه أو تولوا غيره ، فالأمر راجع اليكم . وأما التجار الذين يجلبون المماليك الجراكسة فانى ما منعتهم وانما هم تضرروا من معاملتكم فى الذهب والفضة فامتنعوا عن جلب المماليك اليكم ، وان البلاد التى أخذتها من على دولات أعيدها لكم وجميع ما ترومونه ويريده السلطان فعلناه » .

فلما سمع السلطان ذلك أحضر الأمراء المقدمين وقرأ عليهم كتاب ابن عثمان ، فانشرح الأمراء والسلطان لهذا الخبر ، واستبشروا بأمر الصلح والعود الى الأوطان عن قريب ... وكان هذا كله حيل وخداع من ابن عثمان حتى يبلغ بذلك مقاصده ، وقد ظهر حقيقة ذلك فيما بعد .

وفى عقيب ذلك اليوم حضر الأمير اينال باى الدوادار سكين ، الذى كان توجه الى حلب بسبب كشف خبر ابن عثمان ، فلما حضر وجد السلطان قد برز خيامه الى السفر وخرج من القاهرة فأخبر أن قاصد بن عثمان وصل الى حلب ، وأن ابن عثمان يقصد الصلح بينه وبين السلطان ، فقدم لاينال باى هناك تقدمة حافلة .

ومما وقع للسلطان وهو بالوطاق أن ليلة رحيله من الريدانية خلع على الأمير طومان باى الدوادار كاملية بسمور حافلة وقرره نائب الغيبة بالقاهرة الى أن يحضر . وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبه عوضا عن الأمير ماماى الى آن

يحضر ، وجعل الزيني بركات بن موسى المذكور متحدثا فى جميع أمور السلطنة . وفى تلك الليلة أحضر مشاعل موقدة فطارت منها شرارة على خيمة السلطان فاحترق جانب منها ، فلم تتفاءل الناس بذلك بسبب السلطان . فلما دخل الزيني بركات ابن موسى الى القاهرة تضاعفت عظمته الى الغاية وصار فى مقام نظام الملك وهو المتصرف فى آمور المملكة ، والأمير الدوادار الكبير معه كاللولب يديره كيف يشاء .

وفى تلك الليلة أيضا خلع على الأمير ألمـاس ، وقرره والى القاهرة وأوصاه بحفظها وعدم الظلم ، وخلع على الأمير ماماى المحتسب ورسم له بالسعر معه الى حلب ، فرجع الأمير الدوادار من عند السلطان وشق من الصليبة فى موكب حافل وقدامه المنادون ينادون بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحـد من الناس يمشى من بعـد العشاء بسلاح ، ولا يشوش مملوك ولا غلام على مسبب ، وأن من كانت له ظلامة أو حق شرعي على أحد ولم يدفعه له فعليه بباب الدوادار فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء . وكان الأمير الدوادار محببا للرعية والفقراء ، قليل الأذى فى حق الناس . ولما شق الصليبة شق فى موكب حافل وقدامه السعاة والسـقاءون والجم الكثير من النـاس والأتباع والمماليك السلطانية ، وتوجه الى منزله فى ذلك الموكب . وقد قلت فى ذلك :

لقـد شرف الأكوان نائب غيبـة
أمـير دوادار الى النهـى والأمـر

كريم شـجاع فى المعـامع فارس
له نصرة فى الحرب بالبيض والسمر

اذا ما اشتكى المظلوم من جور ظالم
له طلعـة بالعـدل تؤذن بالفجـر

فيارب كن عونا له ومسـاعـدا
على كل ما يغشاه من حادث الدهر

وأبق ابن مـوسى للرعيـة انـه
كليم زكى القلب أمن من السـحر

جنـاب كريم نم ناظـر حسـبة
ومولده قـد كان فى ليلة القـدر

وللسـادة الأشراف ينظـر بالتقى
ونال بهـذا غاية الفـوز بالأجـر

وصـار لديوان الذخـيرة ناظـرا
وعامله فى أعنـاق أعدائه يبرى

عزيز بمصر حاز طلعـة يوسـف
أعوذه بالنجـم والنـور والحشر

وفى يوم السبت ثانى عشرى ربيع الآخر رحل السـلطان من المخيم الشريف بالريدانية وصحبته الخليفة والقضاة الأربعة وولده المقر الناصرى أمير آخور كبير وأقباى الطويل أمير آخور ثانى فصلى صلاة الصبح ورحل وتوجه الى خانقاه سرياقوس ، وكانت مدة اقامته فى الوطاق بالريدانية سبعة أيام ، فلما توجه الى خانقاه سرياقوس أقام بها يوما وليلة ورحل عنها يوم الأحد ثالث عشريه .

وفى يوم الاثنين رابع عشريه فرقت الجامكيـة الثالثة على العسكر الذى تأخـر بمصر ، فجلس الأمير طقطباى عند سلم المدرج ، وصرفت الجامكية بحضرته ... وهذه أول جامكية صرفت فى غيبـة السلطان .

وفى ذلك اليوم رسم الأمير الدوادار للأمراء المقدمين الذين عينهـم السـلطان الى الشرقيـة والغربية بأن يخرجوا ويسافروا لأجل حفظ البلاد

من فساد العربان ، فتوجه الأمير تانى بك الى الشرقية ، والأمير أزبك المكحل الى الغربية ، والأمير قانصوه الفاجر الى المنوفية ، والأمير قانصوه أبو سنه الى البحيرة ، والأمير بخشباى كان مسافرا الى جهة الفيوم بسبب عمارة الجسر الذى هناك . ثم نادى الأمير الدوادار فى القاهرة لجميع المماليك السلطانية المعينين الى البلاد بأن يخرجوا صحبة الأمراء الذين يسافرون الى الشرقية والغربية ولا يتأخر عن ذلك أحد من المماليك المعينة للسفر فامتثلوا ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشريه توفى الأمير نوروز تاجر المماليك وأحد الأمراء الطبلخانات ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان قد كبر وثقل فى الشحم حتى عجز عن الحركة ، واستمر على ذلك حتى مات ، فأشيع أن السلطان أنعم على مملوكه ماماى الذى قرر فى الحسبة ببرك نوروز وخيوله وبغاله وخيامه على ما قيل والله أعلم .

وفى ذلك اليوم أظلم الجو وأرعد وأبرق ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا ، وكان ذلك فى أول بؤونة من الشهور القبطية ، فاستمر المطر عمالا ثلاثة أيام متوالية حتى عد ذلك من النوادر . وقام عقيب ذلك رياح واصفر الجو صفرة عظيمة وقت المغرب فتفاءل الناس بوقوع فتن فى الوجود وقد جرى فيما بعد .

وفى ذلك اليوم جاءت الأخبار من عند السلطان أنه لما رحل من الخانقاه وجد فى وطاقه شخص من السعادنة ، زعموا بأنه فداوى أرسله علم الدين چلبى السلطان الذى تغير خاطره عليه كما تقدم ذكر ذلك ، فقال أعداء علم الدين انه أرسل ذلك الفداوى ليقتل الصبى المسمى بعبد الرزاق الذى صار چلبى السلطان عوضا عن علم الدين ، فقبضوا على ذلك الرجل الذى زعموا أنه فداوى وأحضروه بين يدى السلطان ، فقرره فأنكر فرسم بشنقه .

ثم ان السلطان أرسل يقول للأمير ألماس والى القاهرة بأن يكبس على علم الدين وعلى أقاربه ويقبض عليهم ويشنق علم الدين على بابه ، فلما بلغ علم الدين الچلبى ذلك اختفى وهرب من بيته .

ثم ان الوالى قبض على جماعة من الساسة من أقارب علم الدين ووضعهم فى الحديد ، فأشيع بين الناس أنهم شنقوهم فى المقشرة أو سجنوهم حتى يحضر السلطان . وكان قبل ذلك حرق للأمراء أيضا عدة شون دريس فى الحسينية بنحو ألفى دينار ، فنسبوا ذلك لفعل جماعة من الساسة من أقارب علم الدين الچلبى ، واذا وقعت البقرة كثرت سكاكينها ، واستمر الطلب الحثيث على علم الدين الچلبى الى أن ظفروا به ، فقيل ان الوالى لما هرب علم الدين أرسل مماليكه باللبس الكامل فى طلب علم الدين فلم نظفروا به .

وفى يوم الجمعة ثامن عشريه خرج الأمير الدوادار وسافر بسبب سد جسر الفيض وجسر أبى المنجا وقد أعيا الخولة سدهما ، وكان النيل قد زاد قبل المناداة ، وكان فى اثنى عشر ذراعا فتعب الأمير الدوادار فى سد تلك الجسور غاية التعب ، وكسر مراكب فى أساس هذين السدين والماء بقوى على ما يصنعون الى أن أعان الله وسدهما ورجع .

* * *

وفى جمادى الأولى خرج الأمير ماماى الصغير المحتسب وسافر ولحق السلطان ، وخرج صحبته صبى صغير عمره ثلاث عشرة سنة ويقال له قاسم

ابن أحمد بك بن أبى يزيد بن عثمان وكان عمه سليم شاه ابن عثمان لما قتل أخاه أحمد بك فر ابنه قاسم هذا هو ولالاه ، ودخل الى حلب فى الخفية ثم جاء الى مصر وأقام بها الى أن خرج السلطان الى جهة البلاد الشامية ، فأخذه صحبته ليبلغ بذلك مقاصده ، فلم يفد من ذلك شىء . ولما خرج صحبة الأمير ماماى خرج وقدامه جنائب ، وكان السلطان قد قام له بمصالح البرق ، وتكلف عنه بنحو ألفى دينار حتى يظهر أمره ويشاع ذكره فى بلاد بنى عثمان بأن فى مصر من أولاد بنى عثمان ولدا ذكرا ، وظن السلطان أن عسكر ابن عثمان اذا سمعوا ذلك يخامرون على سليم شاه ويأتون الى هذا الصبى قاسم ، فلم يظهر لهذا الأمر نتيجة ولا أفاد ما قصده شيئا ، فشق من الصليبة وعلى رأسه عمامة تركمانية وفى وسطه خنجر ملوكى . وقيل كان فى أذنه بلخشة مثمنة ، وصحبته جماعة من العثمانية . وخرج صحبته الأمير ماماى والأمير اينال باى دوادار سكين الذى كان قد حضر من البلاد الشامية ، فرسم له السلطان بالعود ثانيا صحبته الى حلب .

ومن الحوادث التى جرت فى غيبة السلطان أن الأمير ألماس والى الشرطة صار يحجر على الناس ، ويأمرهم بأن يعمروا على الحارات والأزقة دروبا فى أماكن شتى ، فعمروا دربا فى رأس سوق الدريس ودربا فى الحسينية ودربا على قنطرة الحاجب ودربا عند الفرايين وآخر عند خوخة القطانين وآخر عند المقس وعدة دورب فى أماكن شتى ، وسد عدة خوخ كانت بالقاهرة فصار على رأس الناس طيرة بسبب المناسر والحريق بالقاهرة ، وأمرهم بأن يعلقوا على كل دكان قنديلا ، وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء ولا يمشى بسلاح .

ومن الوقائع اللطيفة أن الأمير الدوادار لم يشوش على أحد من أجناد الحلقة ولا ألزمهم بالمبيت فى القلعة فى غيبة السلطان ، وكانت العادة القديمة أن السلطان اذا سافر نحو البلاد الشامية تتسلط نقباء القصر على أولاد الناس من نقباء الحلقة ويلزمونهم بالمبيت فى القلعة فى كل ليلة فى مدة غيبة السلطان الى أن يحضر من السفر ، فيحصل لهم مشقة زائدة ويقاسون تعبا شديدا بسبب طلوعهم كل ليلة الى القلعة ليبيتوا بها بعيدا عن بيوتهم فى الشتاء ، والذى لا يبيت يقيم له بديلا يبيت عنه بالقلعة . وكان ذلك يعمل الى أيام الأشرف قايتباى لما كان يسافر ، فلم يتعرض الأمير الدوادار لما سافر الغورى الى أحد من الناس من أجناد الحلقة ، فكتب ذلك فى صحيفة الأمير الدوادار ودعا له أولاد الناس الذين أبطل عنهم هذه السنة السيئة .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من مماليك السلطان الجلبان قصد أن يشترى قمحا من مركب على شاطىء البحر ، فلما اشتراه لم يجد تراسا فوجد شخصا من الفلاحين الصعايدة ومعه حمار وزكيبة ، فأمسك المملوك ذلك الحمار والزكيبة فلم يعطه الفلاح اياهما ، وتنازع معه فضربه المملوك ضربا مبرحا على رأسه حتى سال دمه ، فألقى الرجل نفسه فى البحر فأغمى عليه فمات ، فعند ذلك تكاثر الناس على ذلك المملوك فمسكوه وأتوا به الى بيت الأمير الدوادار ، فوضعه فى الحديد وأرسله الى الوالى ... فلما بلغ خشداشينه أتوا الى بيت الدوادار فوجدوه غائبا نحو جسر الفيض بسبب سده ، فقيل للمماليك

ان ذلك المملوك سلمه الأمير الدوادار الى الأمير ألماس الوالى ، فعنـد ذلك نزل من الطباق الجم الكثير من المماليك الجلبان لأجل أن ينهبوا بيت الوالى ويحرقوه ويطلقوا المملوك ، فتغافل الأمير الدوادار عن أمر ذلك القتيـل وراحت على من راحت .

ومن الحوادث فى غيبة السلطان أن شخصا من الطواشية يقال له عنبر مقدم طبقة الأشرفية ، وكان سـاكنا بالقلعة فى خرائب تتر وكان متهما بالمال ، وكان عنده ودائع من جوامك المماليك ، فنزل عليه بعض الحراميـة وهو راقد فى بيته ليلا وضربوه على رأسـه بالجلبات حتى مات ، وأخذوا جميع ما فى بيته ، وقتلوا عبده وجاريته ولم ينتطح فيها شاتان ، حتى تحير الأمير طقطباى نائب القلعة من ذلك ، وكيف جرى فى وسط القلعة والأبواب تغلق من بعد المغرب ... فعد ذلك من العجائب !

وفى يوم الثلاثاء تاسـعه توفى قاضى القضـاة الشافعية جمال الدين ابراهيم ابن الشـيخ علاء الدين القلقشندى رحمة الله عليه ، وكان من أهل الدين والعلم والفضل وله سـند عال فى الحديث الشريف ، وولى منصب القضاة فى أيام الأشرف الغورى مرتين . وكان قد كبر وشـاخ وقارب التسعين سنة ، وكان من أعيان علماء الشـافعية رحمة الله عليه .

وفيه وردت الأخبـار بأن السلطان دخل الى الصالحية فى يوم الثلاثاء خامس عشرى ربيع الآخر . قيل انه لما أراد الرحيل منها أذن للخليفة والقضاة الأربعة أن يتقدموا الى غزة ، ثم لما وصـل الى قطيا لاقاه الأمير قانصوه رجلة نائب قطيا ومد له هنـاك مدة حافلة ، وقدم له تقدمة جيـدة على ما قيل .

ومن الاشاعات التى أشيعت فى أثناء الطريق أنه سرقت بغلة قاضى القضـاة الحنفية ثم ظهرت بعد ذلك وتكلف عليها الحلوان حتى رجعت اليه . وأشيع أن بقجة فيها قماش قاضى القضاة الحنبلى سرقت من خيمته . وأشيع أنه قد سرق للسلطان جمل عليـه مال له صورة ، فقبض على من فعل ذلك ، ووسط من الجمالة ثلاثة أنفار ... وكل ذلك اشاعات ليس لها صحة .

* * *

ثم وردت الأخبار أن السلطان دخل مدينة غزة المحروسـة يوم الخميس رابع جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير دولات باى نائب غزة ومد له مدة حافلة ، وقدم له تقدمة عظيمة ، وقيل انه أقام بها خمسة أيام ورحل عنها .

وأشيع أن السلطان لما كان بغزة خلع على جمال الدين الألواحى بواب الدهيشـة وقرره معلـم المعلمين عوضا عن الشهابى أحمد بن الطولونى بحكم انفصاله عنها ، وكان هذا من غلطات الزمان فى تولية الوظائف غير أهلها .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك ، فأخذ القاعدة فجاءت اثنى عشر ذراعا وهذا من النوادر ، وقد بقى على الوفاء ستة أذرع . هكذا نقله المقريزى فى الخطط ، وزاد الشـيخ جلال الدين السيوطى فى كتابه المسمى بكوكب الروضة أربعا وعشرين اصـبعا . وكان الناس من أيام الناصر محمـد بن قلاون ما رأوا القاعدة جاءت اثنى عشر ذراعا ، فان أيامه سنة احدى وستين وسبعمائة جاءت القاعدة اثنى عشر ذراعا وكان الوفاء سادس مسرى وبلغت الزيادة فى تلك السنة الى ما يقرب من أربعة وعشرين ذراعا ، فحصـل للناس بسبب ذلك الضرر الشـامل ،

واستمقوا فى هبوطه حتى هبط بعد ما مكث الى آخر توت .

ثم فى أيام الأشرف برسباى فى سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة جاءت القاعدة أحد عشر ذراعا وعشر أصابع . وكان الوفاء ثانى مسرى وبلغت الزيادة فى تلك السنة عشرين اصبعا من الذراع العشرين ، وثبت الى أواخر بابه . فلما جاءت القاعدة فى هذه السنة اثنى عشر ذراعا حسبت الناس أن النيل يمكث على الأراضى وقت أوان الزرع وأنه يبقى فى غير أوانه ، فما حصل فى هذه السنة الا كل خير ، ووفى النيل فى أوانه ، وسيأتى الكلام عليه فى موضعه .

وفى يوم السبت سابع عشريه توفى الأمير جانى باى من طبقة الزمامية ، وكان من أمراء الطبلخانات وأصله من مماليك الأشرف قايتباى ، وكان لا بأس به .

وفيه أخرجوا فلوسا جددا وأبطلوا الفلوس العتق ، ونادوا بأن الفلوس العتق بنصفين الرطل والجدد معاددة ، فوقف حال الناس بسبب ذلك .

* * *

وفى جمادى الآخرة وكان مستهله يوم الثلاثاء ، توجه جماعة من نواب القضاة وأعيان الناس الى بيت الأمير الدوادار وهنوه بالشهر .

وفى هذا الشهر وردت الأخبار بأن السلطان دخل الى دمشق المحروسة يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى ، فلاقاه الأمير سيباى نائب الشام ودخل فى موكب حافل وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشراوات وأرباب الوظائف من المباشرين والجم الكثير من العسكر والناس . ولاقاه أمراء الشام وعساكرها ، وحمل على رأسه القبة والجلالة كما جرت به عوائد الملوك من قديم الزمان ، فزينت له مدينة دمشق زينة حافلة ودقت له البشائر بقلعة دمشق ، ونثر على رأسه بعض تجار الأفرنج ذهبا وفضة وفرش له سيباى تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، وازدحمت عليه المماليك بسبب نثار الذهب والفضة ، فكاد السلطان يسقط عن ظهر فرسه من شدة زحام الناس عليه ، فمنعوهم من نثار الذهب والفضة ومن فرش الشقق الحرير تحت حافر فرسه ، فكان له بدمشق يوم مشهود وعد ذلك من المواكب المشهودة . فاستمر ذلك الموكب الحفل حتى دخل من باب النصر الذى بدمشق ، وخرج الى الفضاء منها ، وتوجه الى المصطبة التى يقال لها مصطبة السلطان ، وهى بالقابون القاقونى ، فنزل هناك ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها ، وكانت قد تشعثت من مرور السنين . وهذا الموكب لم يتفق لسلطان من بعد الأشرف برسباى لما توجه الى الشام فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة سوى الملك الأشرف قانصوه الغورى .

ثم ان السلطان أقام بالمصطبة التى بالقابون تسعة أيام . وقيل ان قاضى القضاة كمال الدين الطويل خطب بجامع بنى أمية جمعتين ولم يحضر السلطان هناك لصلاة الجمعة . وقيل استمرت مدينة دمشق مزينة سبعة أيام ، ثم ان السلطان رحل عنها وتوجه الى حمص ، ثم رحل عنها وتوجه الى حماه فلاقاه نائبها جان بردى الغزالى . قيل انه مد له هناك مدة حافلة أعظم من مدة أمير الشام على ما أشيع . وقيل ان السلطان لما رحل من حماه نزل بها قاسم بك بن أحمد بن عثمان الذى تقدم ذكره عندما خرج من مصر وسافر صحبة الأمير ماماى المحتسب كما تقدم .

وقيل انه فى ليلة الاثنين رابع عشر هذا الشهر خسف جرم القمر خسوفا فاحشا ، حتى أظلمت

الدنيا وأقام فى الخسوف فوق خمسين درجة ، وتغطى بالسواد جميعه ، واستمر فى الخسوف الى ثلث الليل الأخير .

وفى يوم الاثنين رابع عشره رسم الأمير الدوادار بشنق شخص من العربان المفسدين على قنطرة الحاجب .

وقد ضبط الأمير الدوادار أحوال الديار المصرية فى غيبة السلطان ضبطا جيدا ، ورسم للأمير آلماس والى القاهرة بأن يطوف فى كل ليلة من بعد العشاء ، وعين معه مائة مملوك من المماليك الجلبان يطوفون معه : كل ليلة تنزل جماعه من المماليك من طباقهم بالنوبة ويطوفون مع الوالى الى طلوع الفجر ، فلم يقع فى غيبة السلطان فى القاهرة الا كل خير ، وكان ذلك على غير قياس .

وكان الأمير الدوادار فى كل وقت يقمع الأمير آلماس الوالى بسبب ما أخذه من الناس لأجل الدورب ، وقد أفحش فى الظلم فى هذه الحركة ، فكان يتفق مع أرباب الأدراك والخفراء فيجبون له من سكان الخطط والحارات لأجل عمارة الدروب ، فجبوا له من الناس أموالا لها صورة ... فكانت الخفراء اذا وقفوا على باب أحد من السكان يقررون عليه من الدراهم بحسب ما يختارونه من ذلك ، فاذا هرب صاحب الدار سمروا الباب على أولاده وعياله حتى يحضر ويدفع لهم ما قرروه عليه ، والمرأة الأرملة يسمرون بابها عليها ويتركونها بالجوع والعطش حتى ترمى لهم من الطاقة اللحاف أو الطراحة أو البساط أو غير ذلك ، فكانوا يقررون على الفقراء من الناس شىء أشرفى وشىء أشرفين ، وأما أعيان الناس فكانوا يقررون عليهم شىء خمسة أشرفية وشىء عشرة أشرفية بحسب ما يختارونه ... ففعلوا مثل ذلك بخط المقس وخط باب البحر وسويقة اللبن بالحسينية وسوق الدريس وخط بركة الرطلى وغير ذلك من الأماكن والخطط ، ففعلوا فى هذه الحركة ما لم يفعله هناد ، من وجوه الظلم والفساد ، وهم يزعمون أن فى ذلك نفعا للمسلمين فى عمارة الدروب . فجبوا من هذه الحركة مالا له صورة ، ولم يصرفوا منه الا القليل .

ثم حسنوا للوالى عبارة بأن يجبى من جامع ابن طولون الى مشهد السيدة نفيسة الى آخر السوق الطولونى على جميع الأملاك والدكاكين التى هناك ، وزعموا أنهم ينشئون سورا على حدرة ابن قميحة الى باب القرافة ، وزعموا أن ذلك يمنع هجمة العربان على حين غفلة ، وكل هذا حيلة على أخذ مال الناس . فشرعوا فى كتب أسماء الدكاكين والأملاك التى بتلك الحارات الطولونية والقرافية . فلما بلغ الأمير الدوادار زجر آلماس وحط عليه . وكان أشاع ذلك على لسان الأمير الدوادار فحلف الأمير الدوادار أيمانا مغلظة أنه ما له علم بذلك ، وأبطل هذه الحادثة المهولة فدعا له الناس قاطبة .

ثم ان جماعة حاجب الحجاب قصدوا أن ينشئوا مظلمة أخرى ، وهى أنهم يجبون من سكان بركة الرطلى مالا له صورة بسبب قطع الطين الذى فى فم البركة ، فانه كان قد علا جدا حتى امتنع دخول المراكب للبركة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك أبطل هذه الفعلة أيضا ورسم بسد فم البركة رأسا حتى لا تدخل اليها المراكب .

وفى يوم السبت تاسع عشره حضر الأمير الدوادار وكان قد توجه الى الفيوم ليكشف عن الجسر الذى عمره الأمير بخشباى هناك ، فكشف عليه وعاد بعد أيام .

وفى غيبة السلطان كان الأمير الدوادار يركب كل يوم ومعه الأمراء العشراوات الذين بمصر ويسيرون نحو المطرية وبركه الحاج ، فاذا رجع يدخل من باب النصر ، وقدامه الجم الكثير من الأمراء والعسكر ، وكل هذا لأجل العرب والفلاحين حتى لا يظنوا أنه ما بقى فى مصر عسكر ولا يطمعوا فى آمر العامة ، وكان هذا من الآراء الحسنة .

وفى يوم الاثنين حادى عشرى جمادى الآخرة الموافق لسابع عشرى أبيب كان وفاء النيل المبارك ، وفتح السد يوم الثلاثاء ثانى عشريه الموافق الثامن عشرى أبيب ، وقد وفى قبل دخول مسرى بأربعة أيام ، وكان للناس مدة طويلة من سنة خمس وأربعين وثمانمائة ما رأوا النيل وفى سابع عشرى أبيب الا فى تلك السنة . فصنف منادى البحر هذه الكلمات : « ياحبيب اهنا وطبب ، النيل أوفى فى أبيب ، وقد بقينا فى هنا ، يافرحنا » . وكلمات أخر غير ذلك .

فلما وفى النيل توجه الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة لفتح السد فنزل فى مركب الحراقة وتوجه الى المقياس وخلق العمود . ثم نزل من المقياس فى الحراقة المذكورة وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين الذين كانوا بمصر ، منهم الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف وآخرون من الأمراء ... فتوجه لفتح السد وكان يوما مشهودا . فلما فتح السد عاد الأمير الدوادار الى بيته فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء بالشاش والقماش ، وجماعة من المباشرين . فلما فتح السد جرى الماء فى الخلجان بعزم قوى ، وسر الناس فى ذلك اليوم بوفاء النيل قبل ميعاده ، وقد قيل فى المعنى :

تمتع بماء النيل قبل وفائه
فقد طاب منه الشرب وهو لنا طب

وقد سكبت منه الجنادل فيضها
فأضحى بلا شك حلاوته سكب

ومن الحوادث أن الأمير الدوادار نائب الغيبة منع الناس آن يسكنوا الجسر الذى ببركة الرطلى والحلجان فاطبة ، وعمل جسرا على خليج الزربية عند موردة الجبس ، فآل آمر الجزيرة الوسطى الى الخراب . فلم يكن بها بيت ، ولا فتح فيها دكان ، ومنع المقاصفية آن ينصبوا مقصفا فى الجسر ، ولا فى الزربية ، فلم يكر فى الجسر ولا فى الزربية بيت ولا دكان ، ولم يسكن المسطاحى ولا حكر الشامى ولا الزربية ، وصارت بيوت بركة الرطلى خاوية على عروشها ولا سيما بيوت أولاد الجيعان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت الأعيان ، فحصل للناس فى هذه السنة غاية الأنكاد بسبب ذلك ، وخسر الناس كراء بيوتهم . وأشيع سد خوخة الجسر ، فتلطف القاضى بركات بن موسى المحتسب بالأمير الدوادار فى آن يسمح للناس فى دخول المراكب على العادة ، وأن يسكنوا الجسر فأبى من ذلك ، وقال ان العوام يفسدون نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان فى هذه النيلية ، واستمر مصمما على منع ذلك .

ثم فى أواخر النيلية شفع القاضى بركات بن موسى فى خمسة مراكب للبياعين آن تدخل فى البركة على العادة ، فدخل الحلوانى والجبان والفاكهانى والعداس والسويخاتى لا غير ، فأقاموا أياما يسيرون فلم يجدوا من يبيعون عليه ، فمضوا الى حال سبيلهم . واستمرت بركة الرطلى ليس بها ديار ولا نافخ نار ، فعند ذلك عمل الشيخ بدر

الدين الزيتونى هذه المرثية اللطيفة فى واقعة الحال فقال :

سألت اله العرش ينعم بالنصر
لسلطاننا الغورى فهو أبو النصر
مليك عـزيز أشرف ومظفـر
مؤيد دين ظاهـر كامل القـدر
لغيبته أضحى على الكون وحشة
فها بركة الرطلى مدمعهـا يجرى
يحق لنا نرثى المقـاصف بالبكا
خصوصا من المسطاح مع لذة الجسر
لقـد كان فيه للخليع تواصل
لعمرك ان الوصـل خير من الهجر
وكان بها جميـزة طاب ظلها
فناح عليها الطير والوحش فى القفر
على ما جرى للجسر ساقية بكت
وصاحت بقلب صار فى غاية الكسر
ودوحتـه تبـكى بجـامعه دما
وقد أصبح الشامى يبكى على الحكر
وأضحت بيوت الجسر خاليـة فلا
لصاحبها سكنى ولا أحد يكرى
وقد أصبحت تلك القصور خواليا
فياوحشة السكان من كل ذى قصر
على بركة الرطلى نوحـوا وعددوا
لما حل فيها من نكال ومن خسر
فكان بهـا للقـادسى حـلاوة
مشبكها يشدو من المسك والعطر
وكان بهـا الفكاه يسعى بمركب
بخـوخ ورمان يبشر بالبشر
وزهـر ونسرين وآس ونوفر
لها بهجـة للمرء طيبة النشر
وكان بهـا الجبـان يقـلى بمركب
فيجمع بين النار والمـاء فى البحر
وكان بهـا للآكلين قطـايف
بها عطش تسقى من الغيث بالقطر
لها رونق فى الصحن من فستق بها
وسكرها يروى حديث أبى ذر
وكان بهـا للراكبين مراكب
مسترة فيها وأخـرى بلا ستر
وكم داخـل فيها مغن ومنشد
بنغمة فم من خفيف ومن شـعر
وكم آلة للمطربين عهـدتها
وجنـك وأعواد تغرد كالقمرى
وقد درست تلك المعـاهد كلها
وناحت بها الغربان والبوم فى الوكر
وشق شقيق الروض فيها ثيابه
وأرمى غصين الدوح مافيه من زهر
وقد لبس الشحرور سود ثيـابه
وأبدى خـرير الماء لطما من النهر
وسالت دموع السحب من أعين السما
وصار ضياء الصبح كالليل اذ يسرى
وقد كسفت شمس الضحى فى سمائها
وأظلم نور البـدر بالخسف للفجر
جـزيرتنا الوسطى خـراب لأنها
بها وضعوا سـد الماء بها يجرى
وقد أخـذوا أنقـاضها لمبيعها
ولم يبق فيها من بناء سوى الجدر
وقد أصبح النوتى فى غاية الضـنا
ولا يلتقى فيها معـاش ولا مكرى
وباع قمـاش الستر منها وقلعها
وباع المدارى حيث يدرى ولايدرى

فيامقلتي جودي بدمع تحسرا
ويامهجتي صبرا وناهيك بالصبر
رعى الله أياما تقضت بطيبها
ونحن بمصر فى أمان وفى بشر
وكان الدوادار الكبير هو الذى
أشار بهذا المنع بالنهى والأمر
أراد بهذا المنع صون حريم من
غدا صحبة السلطان والبنت فى الخدر
فكان بهذا الأمر أكرم صائن
حريم جميع الناس من آفة الدهر
ولولا ابن موسى كان فى البعض شافعا
وقد نال شكر الشاكرين مع الأجر
لما سمحوا فيها بمركب بائع
ولا لاح فيها من جليس على الجسر
فياربنا أنعم علينا بنصرة
لسلطاننا الغورى والعسكر المصرى
وأنعم بعود الكل فى خير مقدم
الى الأهل والأوطان فى غاية الجبر
وصل على المختار من آل هاشم
محمد الهادى الى الخير والبشر
كذا الآل والأصحاب والتبع الأولى
لهم غاية الاحسان فى موقف الحشر
عليهم صلاة الله ما هبت الصبا
صباحا على عود وما غرد القمرى
وناظمها العوفى يدعو لكل من
رأى عيب زيتونى وينعم بالستر

وفى يوم الجمعة خامس عشريه توفى الشيخ تاج الدين الذاكر رحمه الله وكان من أعيان مشايخ الصوفية ، وله شهرة طائلة بالصلاح والاستقامة بين الناس ، وكان لا بأس به .

* * *

وفى شهر رجب توفى الأمير طراباى أحد الأمراء العشراوات ، وكان مستهله يوم الخميس فتوجه جماعة من نواب القضاة والكتاب والأعيان الى بيت الأمير الدوادار نائب الغيبة وهنئوه بالشهر .

وفى يوم الخميس ثامنه توفى تغرى بردى المعروف بالشمشمانى وكان يدعى أنه من الأمراء العشراوات ، قيل انه كان من جملة السقاة فمات عن عدة أقاطيع ورزق مشترياته ، وكان فى سعة من الرزق ، وكان ينسب الى شح زائد وبخل .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة شخص من الأمراء العشراوات يقال له مسايد ، وكان مسافرا صحبة السلطان فى التجريدة ، وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى .

وفيه دخل الأمراء الذين كانوا فى نواحى الشرقية والغربية كما تقدم ذكر ذلك فرجعوا عندما أوفى النيل وتقطعت الطرقات بالمياه .

وفيه قلق الناس بسبب الفلوس الجدد فصارت البضائع تباع بسعرين ، ووصل صرف النصف الفضة بالفلوس العتق الى ستة عشر درهما وكانت الفلوس الجدد تصرف معاددة وهى فى غاية الخفة ، فتضرر الناس لذلك وغلقت الدكاكين بسبب ذلك وتشحط الخبز وسائر البضائع ، وكادت أن تنشأ من ذلك غلوة .

وفيه وردت الأخبار بأن السلطان وصل الى حلب فدخلها فى يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة . فكان لدخوله يوم مشهود ، وقدامه الخليفة والقضاة الأربعة وسائر الأمراء كموكبه بالشام ، وحملت القبة والجلالة على رأسه ، وكان حاملها ملك الأمراء خاير بك نائب حلب كما فعل سيباى نائب الشام .

وفى حال دخول السلطان الى حلب حضر قصاد

سليم شاه بن عثمان ملك الروم ، فقيل انه أرسل اليه قاضي عسكره — وهو شخص يقال له ركن الدين — وأحد أمرائه يقال له قراجا باشا ، وصحبتهم سبعمائة عليقة ، فنزلوا بمدينة حلب .
وبلغنى من الكتب الواردة بالأخبار أن السلطان لما حضر بين يديه قاضي ابن عثمان وقراجا باشا شرع يعتبهم على أفعال ابن عثمان وما يبلغه عنه وما جرى منه فى حقه ، وأخذه لبلاد على دولات ، فقال له القاضي وقراجا باشا : « نحن فوض لنا أستاذنا أمر الصلح ، وقال كل ما اختاره السلطان افعلوه ولا تشاورونى » ... وكل هذا حيل وخداع حتى تبطل همة السلطان عن القتال وينثنى عزمه عن ذلك . وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد .

ثم ان قاضي ابن عثمان أحضر فتاوى من علماء بلادهم ، وقد أفتوا بقتل شاه اسمعيل الصفوى ، وأن قتله جائز فى الشرع . وأرسل يقول فى كتابه للسلطان : « أنت والدى وأسألك الدعاء ، لكن لا تدخل بينى وبين الصفوى » .

ومن جملة مخادعة السلطان ابن عثمان للسلطان الغورى أنه أرسل يطلب منه سكرا وحلوى فأرسل له الغورى مائة قنطار سكر وحلوى فى علب كبار وهذه حيلة منه ، وأرسل يقول فى كتابه : « انى لا أحول عن اسمعيل شاه أبدا حتى أقطع أثره من وجه الأرض ، فلا تدخل بيننا فيما يكون فى أمر الصلح » . وأظهر أنه قاصد نحو الصفوى ليحاربه والأمر بخلاف ذلك فى الباطن . وذكروا له أنه على القيسارية يقصد التوجه الى الصفوى .

ثم ان السلطان خلع على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وقيل ان السلطان ابن عثمان أرسل الى السلطان الغورى تقدمة حافلة ، وللخليفة وأمير كبير سودون العجمى ، فكان ما أرسله ابن عثمان من التقدمة أربعين مملوكا ، وأبدان سمور وأثواب مخمل وأثواب صوف وأثواب بعلبكية وغير ذلك .
وكان ما أرسله الى الخليفة بدنين سمور وثوب مخمل بكفوف قصب وثوبين صوف عال . وأرسل اليه قاضي عسكر ابن عثمان ثوبين صوف وسجادة وبغلة . وأرسل ابن عثمان الى أمير كبير أيضا تقدمة حافلة ما بين سمور ومخمل وصوف ومن المماليك اثنين .

ثم ان السلطان عين الأمير مغلباى دوادارسكين بأن يتوجه الى ابن عثمان وعلى يده مطالعة من عند السلطان الى ابن عثمان تتضمن أمر الصلح بينهما ، والأمراء والعسكر منتظرون رد الجواب عن ذلك . وقد نظمت هذه القصيدة فى معنى واقعة سفر السلطان من حين خروجه من مصر الى دخوله مدينة حلب فقلت :

ادعو بنصر للمليك الأشرف
سلطان مصر ذى المقام الأشرف

قد قدر الرحمن نقل ركابه
نحو الشآم وحسنها المستظرف

اختار أن يطأ البلاد لكشفها
فغدت تجود له بجود متحف

خضعت له النواب طوعا باللقا
من غير حرب أو حسام مرهف

لو كان ذو القرنين حيا فى الورى
لاقاه بالاكرام والفضل الوفى

تاريخه فاق الملوك تعاظما
فاصغى له واسمع بغير تكلف

عاينته يوما مضى فى موكب
يزهو على برقوق وهو الأشرف

ركب الخليفة والقضـــاة أمامه
وجيوشه منهـا الأساود تختفى
عودت طلعته بســـورة يوسف
وجميع عســكره بآى الزخرف
فى غزة قد كان يوم دخـــوله
يوم الخميس بعسكر مترادف
قالت دمشق لفرحها لما أتى
أهـلا بسلطان الأنام المنصف
وتهللت بالنـور جبهة ربوة
لما اكتست بالزهـر حلة يوسف
وحماة احماها بصـائح عدله
فأطـاعه العـاصى بغـير توقف
واشتاقه نهر الفرات وقد أتى
تيـــاره بالماء فى عزم وفى
واستأنست حلب به مذ زارها
واستوحشت مصر له بتكلف
شرفت به حلب وقالت فرحـــة
يا حبـــذا من قادم مستظرف
سلطاننا الغـورى صار مؤيدا
مذ حفه الرحمن باللطف الخفى
فالله يبقيـه على طول المـدى
ما أسكرت ريح الصبا كالقرقف
قد صار لابن اياس شـعر قاله
لكن نظمى قـد أتى بتضعف
ثم الصـلاة على النبى المصطفى
خـير البرية ياله من مسعف
والآل والأصحاب ما جن الدجى
أو ضاء صبح بعـد ليل أوطف
وختـام مسك قد شذا لما بدا
سلطان مصر ذو المقام الأشرف

وحكى أن السلطان لمـا دخل الى حلب رسم لقاضى القضاة كمال الدين الطويل بأن يخطب فى الجامع الكبير الذى بحلب ، فاجتمع الجم الكثير من أهل حلب فى الجامع المذكور ، فخرج قاضى القضـاة كمال الدين الطويل ورقى المنبر وخطب خطبة بليغة ، وأورد أحاديث شريفة فى معنى الصلح . وأذن المؤذنون بالجامع وقرأوا حـزب السلطان هناك ، وعملت الوعاظ . وكان يوما مشهودا بالجامع المذكور ، ولم يحضر السلطان ولم يصل صـلاة الجمعة هناك كما فعل بدمشق ، فعابوا عليه ذلك . وكان قاضى القضـاة كمال الدين يخطب بالجامع الكبير مدة اقامة السلطان بحلب .

ومن الحوادث التى وقعت من السلطان بحلب أنه أنعم على قانصوه نائب حلب بتقـدمه ألف ، وعلى يوسف الناصرى شاد الشرابخاناة الذى كان نائب حماه ، وعلى طراباى نائب صـفد ، وعلى تمراز نائب طرابلس .

ومنها أنه أنفق على أولاد الناس الذين توجهوا صحبته بلا نفقة ، لكل واحد منهم ثلاثون دينارا . وكان رسم لهم قبل ذلك لكل واحد بخمسين دينارا ، فعارض فى ذلك كاتب المماليك وجعلها ثلاثين دينارا . وصرف العسكر ثمن اللحم عن ثلاثة شهور .

ثم ان السلطان فرق على مماليكه الجلبان من حواصل قلعة حلب عدة سلاح لم يعبر عنها ، وفرق عليهم خيولا ما لها عـدد ، وصـار ينعم عليهـم بالعطايا الجزيلة من مال وخيول خاص وسـلاح بطول الطريق ، ولم يعط المماليـك القرانصة شيئا فعز ذلك عليهم فى الباطن .

ثم ان السلطان قرأ ختمة فى الميدان الكبير بحلب يوم الخميس مع ليلة الجمعة ، وحضر أمير المؤمنين

المتوكل على الله والقضاة الأربعة ومشايخ الزوايا ، وصلى أمير المؤمنين بالسلطان فى الخيمة صلاة العصر وصلاة المغرب .

وأنعم السلطان فى ذلك اليوم بأربعمائة دينار ، ومائة رأس غنم ، وأنعم على قاضى القضاة الشافعى بسبعين دينارا ، وعلى نوابه ومن معه من العلماء بسبعين دينارا ، والقاضى الحنفى كذلك . وأنعم على القاضى المالكى بخمسين دينارا ، وعلى نوابه الثلاثة بثلاثين دينارا ، وكذلك القاضى الحنبلى . وأنعم على مشايخ الزوايا لكل واحد منهم خمسون دينارا ، ، وأنعم على الفقراء الذين سافروا صحبته لكل واحد منهم عشرة دنانير ، وأنعم على القراء الذين حضروا هذه الختمة من قراء حلب وغيرها لكل واحد خمسة دنانير . وفى عقيب ذلك أحضر السلطان الأمراء المقدمى الألوف والنواب والأمراء الطبلخانات والأمراء العشراوات وحلفهم على المصحف الشريف بأنهم لا يخونونه ولا يغدرونه ، فحلفوا كلهم على ذلك .

ثم نادى للعسكر بالعرض فى الميدان الذى فى حلب فعرضوا وهم باللبس الكامل وأدخلهم من تحت سيفين على هيئة قنطرة ، كما هى عادة الأتراك . وعندهم أن هذا هو القسم العظيم .

ثم ان السلطان أرسل خلف قاسم بك فى حماة فلما حضر خلع عليه وأشهر أمره بحلب .

ثم وردت الأخبار الى حلب بأن سليم شاه بن عثمان قبض على قاصد السلطان الذى كان أرسله الى ابن عثمان ، وهو الأمير مغلباى أحد الدوادارية ووضعه فى الحديد . وكان السلطان جهز الأمير كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين الذى كان والى القاهرة الى ابن عثمان وصحبته هدية حافلة بنحو عشرة آلاف دينار ، وخلع على قاضى عسكر ابن عثمان ووزير قراجا باشا الذى تقدم ذكرهما خلعة سنية بطرز يلبغاوى عريض ، وأذن لهما بالعود الى بلادهما . وكان هذا هو عين الغلط من السلطان الغورى ، حيث أطلق قصاد ابن عثمان قبل أن يحضر مغلباى ويظهر له من أمر ابن عثمان ما يعتمد عليه .

ثم لما وصل الأمير كرتباى الى عنتاب بلغه أن السلطان ابن عثمان أبى الصلح وقبض على الأمير مغلباى ووضعه فى الحديد بعد أن قصد شنقه ، فشفع فيه بعض وزرائه وقصد حلق لحيته . وقد قاسى منه من البهدلة ما لا يمكن شرحه . فلما تحقق الأمير كرتباى ذلك رجع الى حلب وأعلم السلطان بما فعله سليم شاه ابن عثمان بالأمير مغلباى ، وأن طوالع عسكره قد وصلت الى عنتاب وملكت قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغير ذلك من القلاع . ولما وصل الأمير كرتباى بهذه الأخبار الردية الى السلطان اضطربت أحواله وأحوال الناس وأحوال العسكر قاطبة .

ثم ان السلطان أنعم على الأمير عبد الرزاق وولاه على اقليم أولاد ذو الغادر ، فخرج من حلب وصحبته ملك الأمراء خاير بك فى موكب حافل . فخرج نائب حلب وأمراؤها وعساكرها ونزلوا عن حلب بيوم ، وصحبتهم من المشاة خمسة آلاف ماش ، وأنفق عليهم السلطان جامكية شهر واحد . ثم خرج بعدهم ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، وتمراز نائب طرابلس ، وطراباى نائب صفد ونائب حمص ونائب غزة ، فخرجوا من حلب يوم السابع عشر من شهر رجب . وقد أشيع أن ابن عثمان ماش من جهة وابن سوار ماش من جهة .

ثم ان السلطان نادى للعسكر بالرحيل من

حلب والنزول على جيلان لقتال الباغى ابن عثمان ، وأن السلطان والأمراء عن قريب يخرجون الى القتال ، والذى يريده الله هو الذى يكون ... وهذا ما نقل من شرح كتاب أمير المؤمنين الى ولده أمير المؤمنين يعقوب .

ثم ذكر فيه عن أمر الأسعار فى حلب ، فقال : الشعير كل أردب بسبعة وعشرين نصفا ، والخبز كل رطل بثلاثة دراهم ، والجبن بنصفين الرطل ، واللحم بتسعة دراهم كل رطل مصرى ، والدبس بنصف فضة الرطل المصرى ، وتناهى سعر القمح الى أشرفيين كل أردب ، والكرسنة عليق الجمال بمائة وأربعة وعشرين درهما الأردب

ثم ان السلطان أرسل مثالا شريفا الى الأمير الدوادار تتضمن الوصية بالرعية ، وأن المماليك الجلبان الذين بالطباق يكفون الأذى عن الناس ولا يشوشون على أحد من المتسببين ، وأن الأمير الدوادار يعرض جميع من فى الحبوس قاطبة من رجال ونساء ، ويطلق المديونين وغيرهم ، ولا يترك بالحبوس غير أصحاب الجرائم ممن عليه دم . وأرسل أيضا يقول له ان كان درب الحجاز آمنا من العربان فجهز الحاج من القاهرة ، وان كان مخوفا فلا يسافر أحد من الحجاج فى هذه السنة .

وأرسل أيضا مثالا شريفا الى المماليك الجلبان الذين بالطباق بأنهم لا ينزلون من الطباق الى المدينة ، ولا يشوشون على أحد من الناس قاطبة ، ومن يفعل ذلك يشنق من غير معاودة ، فقرىء عليهم هذا المثال بالقلعة بين يدى الأمير طقطباى نائب القلعة ، وأرسل بالسلام على الأمراء والعسكر قاطبة .

* * *

وفى شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة — ووافق ذلك يوم النوروز من السنة القبطية فعد ذلك من النوادر ، وقد دخلت سنة قبطية فى أول يوم من الشهور العربية ، ولا سيما يوم الجمعة وهو يوم فيه ساعة الاجابة .

وفى يوم السبت خلع الأمير الدوادار على شخص من الخاصكية يقال له جانى بك القصير وهو من مماليك السلطان وقرره فى كشف منفلوط عوضا عن اينال بن جانى بك الذى كان بها ، وقد ضعف بصره .

وفى يوم الأحد ثالثه عرض الأمير الدوادار المحابيس الذين بالسجون وعرض النساء اللاتى بالحجرة فأطلق منهم جماعة ممن عليهم دين ، وصالح أرباب الديون من ماله وأرضاهم ، واستتاب جماعة من الحرامية وأطلقهم ، ورسم بتوسيط جماعة ممن عليهم الدم ، وأبقى منهم جماعة فى السجون الى أن يحضر السلطان .

ثم ان الأمير الدوادار تصدق على الفقراء بمبلغ له صورة ، ورسم بقراءة ختمات فى جميع مساجد القاهرة ، وقال ادعوا للسلطان بالنصر .

وفى يوم الاثنين رابعه خلع الأمير الدوادار على يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان ، وهذه رابع ولاية له بالوزارة .

وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بسفر الحاج على العادة ، وكان أشيع عدم خروج الحاج فى هذه السنة .

وفى يوم الثلاثاء خامسه مع ليلة الأربعاء توفى قاضى الحنفية كان برهان الدين ابراهيم بن الكركى وهو ابراهيم بن الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن اسماعيل الكركى الحنفى وكان عالما فاضلا رئيسا حشما من أعيان الحنيفة ، سمع على الشيخ محيى الدين الكافيجى ، والشيخ سيف الدين وآخرين

من علماء الحنفية . وكان امام الأشرف قايتباى ، ورأى فى أيامه غاية العز والعظمة ، وولى عدة وظائف سنية ، منها أنه ولي مشيخة أم السلطان التى فى التبانة ، ومنها استيفاء الصحبة ، ثم ولى قاضى قضاة الحنفية مرتين ، ثم ولى مشيخة المدرسة الأشرفية وقاسى محنا وشدائد من الأشرف . وكان بشوش الوجه عنده رقة حاشية ولطافة ، غير كثيف الطبع ومات وهو فى عشر الثمانين ، وعاش سعيدا ومات شهيدا ، وكان فى أرغد عيش من المال والجاه . وكان سبب موته أنه كان ساكنا على بركة الفيل فنزل يتوضأ على سلم القيطون وفى رجله قبقاب ، فزلقت رجله بالقبقاب ، فوقع فى البركة وكانت فى قوة ملئها أيام النيل ، ولما وقع ثقلت عليه الثياب فمات من وقته رحمة الله عليه ومات شهيدا .

وفيه خلع الأمير الدوادار على شخص من الخاصكية يقال له قجماس وقرره فى كشف المنوفية عوضا عن قانصوه الذى كان بها .

وفيه جاءت الأخبار من حلب بوفاة شمس الدين محمد بن ناشى شيخ سوق الكتبيين ، وكان مقربا عند السلطان ، وقد حاز عدة وظائف سنية .

وفيه جاءت الأخبار بوفاة الأمير يوسف الشهير بالمقطش الذى كان نائب صفد وعزل عنها ثم توفى بحلب . وأشيع وفاة أبرك الذى كان كاشف اقليم الجيزة وكان من الأمراء العشراوات . وأشيع وفاة جماعة كثيرة كانوا صحبة السلطان بسبب وخم حصل لهم . فمات فى غزة وفى الشام وفى حلب من الأمراء العشراوات والخاصكية والغلمان وغير ذلك مالا يحصى عدده ماتوا من كثرة الأوخام التى كانت معهم بطول الطريق .

وفيه جاءت الأخبار بصحة ما تقدم ذكره . وأن السلطان لما كان بحلب أنعم بتقادم ألوف على جماعة من الأمراء منهم الأمير يوسف الناصرى شاد الشرابخاناه ، ومنهم طراباى بن يشبك نائب صفد ، ومنهم قانصوه استادار الصحبة ، ومنهم قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب ، ومنهم تمراز نائب طرابلس ، وآخرون . والذى يظهر من أمر السلطان أنه كان يريد ابطال جماعة من الأمراء المقدمين العواجز ويجعل هؤلاء عوضا عنهم .

وفى يوم الجمعة خامس عشر شعبان ، توفى الحاج على البرماوى بزددار السلطان والمتحدث على جهات الديوان المفرد ، وقد رأى من العز والعظمة ما لم يره غيره من البزددارية ، وساعدته الأقدار حتى وصل الى ما لم يصل اليه غيره فى هذه الوظيفة ، وكان سبب موته أنه طلع له شفغة فى ظهره فانقطع اثنى عشر يوما ومات .

وكان أصله من فلاحين برمة يبيع الخام والطرح فى الأسواق وهو راكب على حمار الى أن فتح الله عليه ، وكان لا بأس به ، وعنده لين جانب مع تواضع زائد ، وظهر له من الموجود بعد موته من الذهب العين خمسمائة ألف دينار وستمائة دينار . ووجد له فى مكان اثنا عشر ألف دينار ذهب عين برسبيهية ، ووجد له من الحجورة والمهارة نحو خمسة وأربعين رأسا ، ومن الجاموس مائة رأس ، ومن الغنم الضأن ألف رأس ، ووجد له بالدواليب أربعمائة ثور ، وضاع له عند الفلاحين بالبلاد أكثر مما تقدم ذكره ، فقوم ذلك الموجود بمائة ألف دينار .

وفى يوم السبت سادس عشر شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة التى طمت وعمت وزلزلت لها الأقطار ... وما ذاك الا أن أخبار السلطان والعسكر انقطعت مدة طويلة ، ثم حضر كتاب على يد ساع مجرد مطرد من عند الأمير علان دوادار ثانى أحد

الأمراء المقدمين وضمنه أن السلطان كان يكذب فى أمر سليم شاه بن عثمان تارة ويصدق أخرى ، الى أن حضر الأمير مغلباى دوادار سكبن من عنده وهو فى حال نحس ، بزنط أقرع على رأسه ، وعلى بدنه كبر عتيق دنس ، وهو راكب على اكديش هزيل ، وقد نهب جميع بركه ، وأخذت خيوله وقماشه . وأخبر أن ابن عثمان أبى الصلح وقال له : « قل لأستاذك يلاقينا على مرج دابق » . وأخبره أنه وضعه فى الحديد ، وقصد أن يحلق لحيته ، وقدمه الى الشنق ثلاث مرات فشفع فيه بعض وزرائه ، وحمله الزبل من تحت خيله فى قفة على رأسه ، وقاسى منه من الهوان والأهوال ما لا خير فيه . فلما سمع السلطان هذه الحكاية تحقق وقوع الفتنة بينه وبين ابن عثمان . فقيل انه أنعم على مغلباى بألف دينار وخيول وقماش فى نظير ما ذهب له .

والذى استفاض بين الناس من أخبار السلطان انه صلى الظهر وركب ، وخرج من ميدان حلب يوم الثلاثاء فى العشرين من رجب وصحبته أمير المؤمنين المتوكل على الله ، والقضاة الأربعة ، وكان قد تقدمه نائب الشام ونائب حلب وجماعة من النواب ، فخرجوا بأطلاب حربية وطبول وزمور ونفوط حتى رجت لهم حلب .

فلما خرج السلطان من حلب توجه الى جيلان فبات بها ، فلما أصبح يوم الأربعاء حادى عشرى رجب رحل السلطان من جيلان وتوجه الى مرج دابق ؛ فأقام الى يوم الأحد خامس عشرى رجب — وهو يوم نحس مستمر — فما يشعر الا وقد دهمته عساكر سليم شاه ابن عثمان ، فصلى السلطان صلاة الصبح ، ثم ركب وتوجه الى زغزغين وتل الفار ، قيل ان هناك مشهد نبى الله داود عليه السلام .

فركب السلطان وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة وعلى كتفه طبر وصار يرتب العسكر بنفسه . وكان أمير المؤمنين على الميمنة وهو بتخفيفة وملوطة وعلى كتفه طبر مثل السلطان ، وعلى رأسه الصنجق الخليفتى . وكان حول السلطان أربعون مصحفا فى أكياس حرير أصفر وعلى رءوس جماعة أشراف وفيها مصحف بخط الامام عثمان بن عفان رضى الله عنه . وكان حول السلطان جماعة من الفقراء وهم خليفة سيدى أحمد البدوى ومعه أعلام ، والسادة الأشراف القادرية ومعهم أعلام خضر ، وخليفة سيدى أحمد بن الرفاعى ومعه أعلام ، والشيخ عفيف الدين خادم السيدة نفيسة رضى الله عنها بأعلام سود ، وكان الصبى قاسم بك ابن أحمد بك بن عثمان المقدم ذكره واقفا بازاء الخليفة وعلى رأسه صنجق حرير أصفر وقيل أحمر ، وكان الصنجق السلطانى خلف ظهر السلطان بنحو عشرين ذراعا ، وتحته مقدم المماليك سنبل العثمانى والسادة القضاة الأربعة والأمير تمر الزردكاش أحد المقدمين ، وكان على ميمنة العسكر الأمير سيباى نائب الشام ، وعلى الميسرة خاير بك نائب حلب ، فقيل أول من برز الى القتال فى الميدان الأتابكى سودون العجمى وملك الأمراء سيباى نائب الشام والمماليك القرانصة دون المماليك الجلبان ، فقاتلوا قتالا شديدا هم وجماعة من النواب فهزموا عسكر ابن عثمان وكسروهم كسرة مهولة منكرة ، وأخذوا منهم سبع صناجق وأخذوا المكاحل التى كانت على العجل ورماة البندق . فهم ابن عثمان بالهروب أو بطلب الأمان ، وقد قتل من عسكره فوق العشر آلاف انسان ، وكانت النصرة لعسكر مصر أولا ويا ليته تم ذلك . لكنه قد بلغ المماليك القرانصة أن السلطان قال للمماليك الجلبان :

« لا تقاتلوا أبدا ، وخلوا المماليك القرانصة يقاتلون وحدهم » ...

فلما بلغهم ذلك ثنوا عزمهم عن القتال ، فبينما هم على ذلك واذا بالأتابكى سودون العجمى قتل فى المعركة ، وقتل ملك الأمراء سيباى نائب الشام ، فانهزم فى الميمنة من العسكر جانب كبير . ثم ان خاير بك نائب حلب انهزم وهرب ، فكسر الميسرة . وأسر الأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل قتل . وقيل ان خاير بك كان موالسا على السلطان الغورى فى الباطن ، وهو مع ابن عثمان على السلطان ، وقد ظهر مصداق ذلك فيما بعد ، فكان هو أول من هرب قبل العسكر قاطبة وأظهر الهزيمة ، وكان ذلك من الله تعالى خذلانا لعسكر مصر حتى نفذ القضاء والقدر . وصار السلطان واقفا تحت الصنجق فى نفر قليل من المماليك ، فشرع ينادى : « يا أغوات هذا وقت المروءة ، هذا وقت النجدة » فلم يسمع له أحد قولا وصاروا يتسحبون من حوله ، وهو يقول للفقراء : « ادعوا الله تبارك وتعالى بالنصر فهذا وقت دعائكم » وصار لا يجد له معينا ولا ناصرا ، فانطلقت فى قلبه جمرة نار لا تطفأ ، وكان ذلك اليوم شديد الحر ، وانعقد بين العسكرين غبار حتى صاروا لا يرى بعضهم بعضا ، وكان نهار غضب من الله تعالى قد انصب على عسكر مصر ، وغلت أيديهم عن القتال ، وشخصت منهم الأبصار . وقد قلت فى هذه الواقعة هذه الأبيات :

لما التقى الجيشان مع سلطاننا
فى مرج دابق قال هل من مسعفى
فله أجاب لسان حال قائلا
عرضت نفسك للبلا فاستهدف
واشتد بالجلبان رعب قلوبهم
وغدوا يقولوا أى أرض نختفى
والنهب أطمعهم لذل نفوسهم
حتى أتاهم بالقضاء المتلف

فلما اضطربت الأحوال ، وتزايدت الأهوال ، خاف الأمير تمر الزردكاش على الصنجق السلطانى فأنزله وطواه وأخفاه . ثم تقدم الى السلطان وقال له : « يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد أدركنا فانج بنفسك وادخل الى حلب » . فلما تحقق السلطان ذلك غلبه فى الحال خلط فالج ، أبطل شقه وأرخى حنكه ، فطلب ماء فأتوه بماء فى طاسة من ذهب فشرب منه قليلا ، وألفت فرسه على أنه يهرب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الأرض ، فأقام نحو درجة وخرجت روحه ومات من شدة قهره ، وقيل فقئت مرارته وطلع من حلقه دم أحمر .

فلما أشيع موته زحف عسكر ابن عثمان على من كان حول السلطان فقتلوا الأمير بيبرس أحد المقدمين ، وقتلوا جماعة من الخاصكية وغلمان السلطان ممن كان حوله ، وأما السلطان من حين مات فلم يعلم له خبر ، ولا وقف له على أثر ، ولا ظهرت جثته بين القتلى ، فكأن الأرض قد ابتلعته فى الحال ، وفى ذلك عبرة لمن اعتبر . فداس العثمانية وطاق الغورى بما فيه من الأمتعة والأرزاق التى كانت حوله بأرجل الخيول ، وفقد المصحف العثمانى ، وداسوا أعلام الفقراء وصناجق الأمراء ، ووقع النهب فى أرزاق عسكر مصر وبرقهم ، وزال ملك الأشرف الغورى فى لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه ولا يتغير .

فاضمحل أمره وزال ملكه ، بعد ما تصرف فى ملك مصر وأعمالها ، والبلاد الشامية وأعمالها ، وكانت مدة سلطنته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر

وعشرين يوما ... فانه ولى ملك مصر فى مستهل شـوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى فى الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وكانت الناس معه فى هذه المدة فى غاية الضنك وقد قلت فى المعنى :

اعجبوا للأشرف الغورى الذى
مذ تنـاهى ظلمه فى القـاهرة
زال عنـه ملكه فى سـاعة
خسر الدنيـا اذن والآخـره

وقد أقامت هذه الواقعة من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، وانتهى الحال الى الأمر الذى قد قدره الله تعالى ، فقتل فى تلك الواقعة من عسكر السلطان ابن عثمان ومن عسكر السلطان الغورى ما لا يحصى عدده ، فقتل من الأمراء المقدمين ثلاثة وهم : الأتابكى سودون العجمى ، وبيبرس قريب السلطان ، وآقباى الطويل ، وأسروا قانصوه بن سلطان چركس ، وقتل سيباى نائب الشام وتمراز نائب طرابلس وطراباى نائب صفد وأصلان نائب حمص وغير ذلك جمـاعة كثيرة من أمراء دمشق وأمراء حلب وطرابلس ، وقتل من أمراء مصر جماعة كثيرة من أمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية وأكثر من قتل من عسكر مصر المماليك القرانصة . ولم يقتل من المماليك الجلبان الا القليل فانهم لم يقاتلوا فى هذه الواقعة ولا ظهر لهم فروسية ولا جذبوا سيفا ولا هزوا رمحا فكأنهم خشب مسندة . وقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى ضبطه ، وقتل من أمراء مصر ومن دمشق وحلب فوق الأربعين أميرا ، وقتل فى ذلك اليوم القاضى ناظر الجيش عبد القـادر القصروى وجماعة كثيرة من الجند يأتى الكلام على ذلك فى موضعه ، فكانت ساعة يشيب منها الوليد ، ويذوب لسطوتها الحديد . فكان مرج دابق فيه جثث مرمية وأبدان بلا رءوس ووجوه معفرة بالتراب قد تغيرت محاسنها ، وصار فى ذلك المكان خيول مرمية موتى ، وسروج مفرقة وسـيوف مسـقطة بذهب وبركستوانات فولاذ بذهب وخوذ وزرديات وبقج قماش فلم يلتفت اليها أحد ، وكل من العسكرين قد اشتغل بما هو أهم من ذلك ، وقال بعض المواليا فى المعنى :

صفق جوادى وقد جسيت يوم الحرب
عودى فغنت صوارم شرقها والغـرب
ضربت عادة تنقط فى سـماع الضرب
رءوس الأعادى وترفص داخله فى الحرب

ثم ان ابن عثمان زحف بعسكره وأتى الى وطاق السلطان ، ونزل فى خيامه وجلس فى المـدورة ، واحتـوى على الطشتخاناه وما فيهـا من الأوانى الفاخرة ، وعلى الزردخاناه وما فيها من السلاح ، وعلى خزائن المال والتحف ، ونزل كل أمـير من أمرائه فى وطاق أمير من أمراء الغورى واحتوى على ما فيها ، فاحتوى على وطاق خمسـة عشر أميرا مقـدمى ألوف خارجـا عن أمـراء الطبلخانات والعشراوات ، واحتوى العسكر على خيام العسكر المصرى والشامى والحلبى وغير ذلك كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

ولم يقع قط للملوك ابن عثمان مثل هذه النصرة على أحد من الملوك قاطبة ، بل ان تمرلنك زحف على بلاد ابن عثمان وحارب أحد أجداده وهو شخص يقال له يلدرم . فلما حاربه انكسر فأسره تيمور ووضعه فى قفص حديد وصار يعجب عليه فى بلاد العجم ، فما طاق ابن عثمان ذلك فابتلع فص الماس فمات وهو فى ذلك القفص الحديد . ولم يقع قط لأحد من سلاطين مصر مثل هذه الكائنة ، ومات

تحت صنجقه فى يوم واحد وانكسر على هذا الوجه أبدا ، ولا سمع بمثل ذلك ونهب ماله وبركه بيد عدوه غير فانصوه الغورى . وكان ذلك فى الكتاب مسطورا ، وكان السلطان والأمراء ما منهم أحد ينظر فى مصالح المسلمين بعين العدل والانصاف ، فردت عليهم أعمالهم ونياتهم وسلط عليهم ابن عثمان حتى جرى لهم ما جرى كما قيل فى المعنى :

أين الملوك الأولى فى الأرض قد ظلموا
والله منهم لقـــد أخلى أماكنهم

ثم ان السلطان ابن عثمان تحول من مرج دابق فدخل الى حلب فملكها من غير مانع ونزل بالميدان الذى بهـا فى المكان الذى كان به السلطان الغورى ...

وهـــذا ما انتهى الينـا من ملخص هـــذه الواقعة مع ما فيها من زيادة ونقصان ، فهذا ما كان من أمر السلطان الغورى وابن عثمان . وأما ماكان من أمر الأمراء والعسكر بعد الكسرة فانهم توجهوا الى حلب وأرادوا الدخول بها ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جمـاعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وبرقهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التى كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان .

وكان أهل حلب بينهم وبين المماليك السلطانية حظ نفس من حين توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب صحبة قانى باى أمير آخور كبير . فنزلوا فى بيوت أهل حلب غصبا وفسقوا فى نسائهم وأولادهم وحصل منهم غاية الضرر والأذية لأهل حلب ، فما صدق أهل حلب أن وقعت لهم هـــذه الكسرة فأخذوا بثأرهم منهم ... فلما رأى الأمراء وبقية العسكر ذلك خـرجوا من حلب على حمية وتوجهوا الى دمشق ودخلوها وهم فى أفحش حال ، لا برك ولا قماش ولا خيول ، ودخل غالب العسكر الى الشام وبعضهم راكب على حمار وبعضهم راكب على جمل وبعضهم عريان وعليه عباءة أو بشت . ولم يقع لعسكر مصر مثل هـــذه الكائنة ، فأقام الأمراء والمباشرون والعسكر فى الشام حتى تتكامل البقية ويظهر السالم من العاطب ... قيل ان الأمراء لما دخلوا الى الشام وصاروا فى حـــر الشمس لم يجـدوا ما يستظلون به حتى صنع لهم الغـــلمان عرايش من فروع الشجر يستظلون بها .

وأما ما كان من أمر سليم شاه ابن عثمان فانه أقام بالميدان الذى فى حلب فتوجه اليه أمير المؤمنين المتوكل على الله والقضاة الثلاثة وهم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى . وأما قاضى القضاة محمود بن الشحنة فانه هرب مع العسكر الى الشام ونهب جميع بركه وقماشه ، ودخل الى الشام فى أنحس حال .

قيل لما دخل أمير المؤمنين على ابن عثمان وهو بالميدان عظمه وأجلسه وجلس بين يديه فأشيع انه قال له : أصلكم من أين ؟ فقال له : من بغداد ، فقال له ابن عثمان : نعيدكم الى بغداد كما كنتم . والأقوال فى ذلك كثيرة ... فلمـا أراد الخليفة الانصراف خلع عليه خلعة سنية من ملابسه ، وأنعم عيه بمال له صورة ورده الى حلب ووكل به ألا يهرب .

وقيل لما دخل عليه القضـــاة الثلاثة المذكورون وبخهم بالكلام ، وقال لهم أنتم تأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، وتسعون بالمال حتى تتولوا القضاء ، وما منكم من أحد يرشد الى الخير ، لأنكم لم تمنعوا سلطانكم عن المظـــالم التى كان يفعلها بالنـــاس ، وأنتم ترون ذلك منه ولا تنكرونه .

وأشاعوا من هذه الأخبار العجائب والغرائب ، والمعول فى ذلك على الصحة .

وأخبرنى من رأى سليم شاه ابن عثمان أنه مربوع القامة واسع الصدر أقنص العنق مكرفس الأكتاف مترك الوجنتين واسع العينين درى اللون وافر الأنف ملىء الجسد حليق اللحية ليس له غير الشوارب ، كبير الرأس عمامته صغيرة دون عمائم أمرائه . فلما جاء الى حلب سلمه أهلها المدينة من غير نزاع ، وهرب قانصوه الأشرفى نائب القلعة ، وتوجه الى الشام مع العسكر وترك أبواب قلعة حلب مفتحة ... فلما بلغ ابن عثمان ذلك أرسل اليها شخصا من جماعته أعرج أجرود وفى يده دبوس خشب ، فطلع الى قلعة حلب فلم يجد بها مانعا يرده . فختم على الحواصل التى بها واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وتحف وغير ذلك ، وقد فعل ابن عثمان ذلك ليقال انه أخذ قلعة حلب شخص أعرج وفى يده دبوس خشب وهو أضعف من فى عسكره وقد قيل فى المعنى :

لا تحقرن صغيرا فى مخاصمة
ان الذبابة تدمى مقلة الأسد

وأشيع أن ابن عثمان من حين استولى على مدينة حلب لم يدخلها غير ثلاث مرات : المرة الأولى دخلها وطلع الى القلعة بسبب عرض حواصلها ، فلما عرضت عليه رأى ما أدهشه من مال وسلاح وتحف ، وكان فيها من المال نحو مائة ألف ألف دينار ، ورأى من الكنابيش الزركش والرقاب الزركش والطبر والسروج الذهب والبلور وطبول البازات واللجم المرصعة والفصوص المثمنة والبركستوانات الفولاذ الملون والسيوف المسقطة بالذهب والزرديات والخوذ الفاخرة وغير ذلك من السلاح ما لم يره قط ، ولا فرح به أحد من أجداده ، ولا أحد من ملوك الروم ، لأن الذى جمعه الغورى من الأموال من وجوه الظلم والجور ، والتحف التى أخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفة من عهد ملوك الترك الچراكسة ، احتوى عليه جميعه السلطان سليم شاه ابن عثمان من غير تعب ولا مشقة . هذا خارج عما كان للأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات والمباشرين والعسكر قاطبة من الودائع بحلب من مال وسلاح وقماش وبرك وغير ذلك ، فاحتوى ابن عثمان على ذلك جميعه .

وقيل انه ملك ثلاث عشرة قلعه من بلاد السلطان ، واحتوى على ما فيها من مال وسلاح وغير ذلك ، فكان الذى ظفر به سليم بن عثمان فى هذه الواقعة من الأموال والسلاح والتحف وغير ذلك لا ينحصر ولا ينضبط ، وقد قسم له ذلك من القدم ... واحتوى على خيول وبغال وجمال لا يحصى عددها ، واحتوى على خيام وبرك ولا سيما ما كان مع السلطان وأمراء العسكر ، كما يقال فى المعنى :

ألا انما الأقسام تحرم ساهرا
وآخر يأتى رزقه وهو نائم

ودخل المرة الثانية فصلى صلاة الجمعة فى جامع الأطروش الذى بحلب وخطب باسمه ودعى له على المنابر فى مدينة حلب وأعمالها ، وزينت له مدينة حلب وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء وهو مار عند عوده من الجامع ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، وانتمى اليه الخواجا ابراهيم السمرقندى والخواجا يونس العادلى والعجمى الشنقجى . وكان هؤلاء من أخصاء الغورى ، وكانوا مع ابن عثمان فى الباطن ويكاتبونه بأحوال السلطان وما يقع من أخبار

المملكة . فلما فقد السلطان الغورى أظهروا عين المحبة لابن عثمان وصاروا يحطون على الغورى ويذكرون أخباره الشنيعة لابن عثمان ، وصاروا من جماعته ونسوا احسان الغورى اليهم كما يقال فى المعنى :

لقاء أكثر من يلقاك أوزار
فلا تبالى أصدوا عنك أو زاروا
أخلاقهم حين تبلوهن أوعار
وفعلهم منكر للمرء أو عار
لهم لديك اذا جاءوك أوطار
اذا قضوها تنحوا عنك أو طاروا

وممن كان موالسا على السلطان فى الباطن خاير بك نائب حلب ، فانه أول من كسر عسكر السلطان ، وانهزم عن ميسرته ، وتوجه الى حماه . ولما ملك ابن عثمان حلب أرسل خلفه ، فلما حضر اليه خلع عليه وصار من جملة أمرائه ولبس زى التراكمة — العمامة المدورة والدلامة — وقص ذقنه وسماه السلطان « خاين بك » لكونه خان سلطانه وطاع ابن عثمان . فلما جرى ذلك تسحبت مماليك خاير بك ، وتوجهوا صحبة العسكر الى مصر ، ودخل هو تحت طاعة ابن عثمان .

وهذه الواقعة تقرب من واقعة ابن العلقمى وزير بغداد لما والس على الخليفة المعتصم بالله وملك هولاكو بغداد وقتل الخليفة ، فصار ابن العلقمى مقربا عند هولاكو ثم انقلب عليه وقتله ، وقال : « أنت ما فيك خير لأستاذك فما يكون فيك الخير لى » . وربما يقع لخاير بك مثل ذلك .

ثم ان ابن عثمان دخل الى مدينة حلب ثالث مرة بسبب أنه دخل بها الحمام وأنعم على المعلم بمبلغ له صورة ... واستمر الخليفة والقضاة الثلاثة الشافعى والمالكى والحنبلى فى الترسيم بحلب لا يخرجون منها الى ان يأذن لهم ابن عثمان ، وأقام بحلب جماعة كثيرة من أعيان الناس بعد الكسرة منهم : القاضى عبد الكريم بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وعبد الكريم بن فخيرة أحد كتاب المماليك ، وعبد الكريم بن الأدمى مستوفى الزردخانه ، والرئيس محمد بن القيسونى امام السلطان الغورى ، والسمديسى الذى كان قاضى القضاة الحنفية وامام السلطان ، والخواص مؤذن السلطان ورفيقه رصاص المؤذن ، ويحيى بن بكير ورفيقه ، وجماعة آخرون لم تحضرنى أسماؤهم الآن ... فهؤلاء تخلفوا بحلب بعد الكسرة حتى يؤذن لهم .

وقيل لما دخل ابن عثمان الى مدينة حلب نادى فيها بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وكل من كان عنده للأمراء والعسكر شىء من خيول أو سلاح أو قماش يحضر ما عنده ، وان لم يحضر ما عنده وغمز عليه شنق من غير معاودة .

وأما من قتل فى هذه المعركة من الأمراء وأعيان الناس ، فالذى يحضرنى من ذلك وتحققته : الأتابكى سودون العجمى ، وملك الأمراء سيباى نائب الشام ، والأمير قانصوه بن سلطان چركس ، وقيل لم يقتل وأسر الأمير بيبرس قريب السلطان وهو صاحب المدرسة التى بالقرب من الجودرية ، والأمير أقباى الأشرفى الطويل أحد المقدمين أمير آخور ثانى ، فهؤلاء الذين قتلوا من الأمراء المقدمين فى هذه الواقعة .

وأما من قتل من النواب : فتمراز الأشرفى نائب طرابلس ، ونائب صفد ، وأصلان نائب حمص ، وجماعة كثيرة من نواب الشام وحلب .

وأما من قتل من الأمراء الطبلخانات فجماعة كثيرة : منهم طومان باى ابن قرا حاجب ثانى وجانى بك العادلى شاد الشرابخاناه كان ، وقانصوه حبانية ، وبرد بك رأس نوبة عصاه ، ونوروز رأس نوبة عصاه ، وقانصوه الذى كان أستادار الصحبه ، وبخشباى قرا شاد الشون ، وقيت الأحول ، وقرقماش المقرى توفى بالشام ، ويوسف المفتش الذى كان نائب صفد . ومن الأمراء العشراوات جانم المحمدى ، وجان بردى الذى كان كاشف الرميلة ، وبرسباى أحد الأمراء العشراوات ، وتوفى أقباى الطويل الذى كان كاشف الشرقية ، وملاج الذى كان نائب القدس ، وجان بردى وطراباى أخو الأتابكى قيت الرحبى ، وخدا بردى ، وقانم الأعرج ، وجانم الطويل ، وقايتباى أخو اصطمر . وتوفى مسايد ، وتوفى طراباى قرا ، وأقطوه الطويل خادم السادة ، وجان بلاط الذى كان والى قطيا ، وبرسباى أحد الأمراء العشراوات وصهره ، وتوفى لاجين ناظر مقام سيدى أحمد البدوى بغزة ، وقانصوه الناصرى ، وطراباى الأشرفى ، وتوفى الأمير أينال خازندار الأمير قانى باى أمير آخور كبير وكان من أمراء الطبلخانات ، وغير ذلك ممن يأتى ذكره ، حتى قيل انه مات فى هذه الواقعة من أمراء مصر والشام وحلب وغير ذلك نحو أربعين أميرا لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وقتل أزبك العجمى أمير طبلخانات ، وقتل جان بلاط الساقى أمير طبلخانات ، وتوفى شاد بك نائب المهمندار ، وتوفى الأمير اياس المشطوب رأس نوبة عصاه من العشراوات .

وأما من توفى من المباشرين فالقاضى ناظر الجيش عبد القادر القصروى ، وقتل بوطاق السلطان . وقتل محمد العفيف رئيس الكحالين ، وتوفى جلال الدين أحد كتاب المماليك بغزة عند العود ، وخليفة سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه ، وغير ذلك ممن لا تحضرنى أسماؤهم ، وأما القاضى جمال الدين عبد الله مباشر وقف قانى باى الجركسى فقد قيل انه قتل فى الواقعة .

وأما من توفى من أولاد الناس فالشرفى يونس ابن قانصوه أحد أولاد بنت قرقماس الطبردارية وشخص يقال له محمد بن قرقماس الجمالى أحد الطبردارية أيضا ، وقتل ابراهيم قريب الشرفى يونس نقيب الجيوش المنصورة ، وآخرون من الأعيان ممن لا تحضرنى أسماؤهم الآن . وقتل بعد الواقعة بحلب عبد الكريم الأدمى مستوفى الزردخاناه ، وقتل ابن على الزردى .

ومن هنا نرجع الى أخبار القاهرة بعد هذه الواقعة ، فانه لما ورد كتاب الأمير علان الدوادار الثانى بما وقع من هذه الأمور المهولة فى تلك الواقعة وقتل الأمراء والأعيان والقضاة ، قام العزاء والصراخ فى بيت الأتابكى سودون العجمى وكان أميرا دينا خيرا لين الجانب ، وكان يعرف بسودون بن جانى بك وكان أصله من مماليك الأشرف قايتباى وولى عدة وظائف سنية منها امرية مجلس ، وامرية سلاح ، والأتابكية ، واصطلى الحرب وأظهر الفروسية فى هذه الواقعة ، واستمر يقاتل حتى قتل على ظهر فرسه رحمة الله عليه .

وقام نعى السلطان فى ذلك اليوم ، ونعى الأمراء والأعيان الذين قتلوا وصار فى كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء بسبب من قتل من العسكر وغيرهم ، ورجت القاهرة

وضجت الناس واضطربت الأحوال وكثر القال والقيل .

وفى يوم الأحد سابع عشر شعبان وردت الأخبار على الأمير الدوادار بأن عربان بنى عطية والنعائم نهبوا ضياع الشرقية وأخذوا منها نحو أربعمائة رأس غنم من غنم السلطان والدوادار ودخلوا وادى العباسة ، ولما بلغ الأمير الدوادار ذلك صلى الظهر ثم ركب وخرج اليهم وصحبته خمسمائة مملوك ، فكبس عليهم ، فهربوا من وجهه وغنموا ما نهبوه من الأموال والمواشى والغلال وغير ذلك ، فرجع الأمير الدوادار الى داره .

وفيه خلع الأمير الدوادار على الزينى بركات ابن موسى ، فشق القاهرة وأشهر النداء بالأمان والاطمئنان وأن المشاهرة والمجامعة بطالة ، وجميع المظالم الحادثة بطالة ، وأن الزينى بركات بن موسى على عادته ولا يحتمى عليه أحد ، وقد تضاعفت حرمته ، ونفذت كلمته فوق ما كان ، واجتمع معه عدة وظائف سنية ، وصار هو المتصرف فى جميع أمور المملكة ليس على يده يد .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره أنفق الأمير الدوادار الجامكية على العسكر الذين فى القاهرة ، فجلس الأمير طقطباى نائب القلعة عند سلم المدرج ، وأنفق الجامكية هناك ، والاشاعات فاشية بموت السلطان ، والأحوال مضطربة .

وفيه رسم الدوادار بعرض من فى السجون حتى النساء اللاتى بالحجرة ، فلما عرضوا عليه أفرج على جماعة كثيرة منهم جان بك دوادار الأمير طراباى ، وكان له مدة وهو فى السجن بالمقشرة بسبب المال الذى تبقى عليه من حين كان متحدثا فى نظر الديوان المفرد ، وأفرج عن القاضى بدر الدين بن ثعلب قاضى أسيوط ، وكان له مدة فى المقشرة على بقايا من مال المصادرة ، وأفرج عن ولده شمس الدين وأخيه نجم الدين ، وأفرج عن صلاح الدين ابن كاتب غريب ابن أخى أبى الفضل ، وأفرج عن المعلم شنشو اليهودى الذى كان يهوديا وأسلم وقد تقدم سجنه ، وأفرج عن المعلم يعقوب الصائغ معلم دار الضرب ، وأفرج عن جماعة كثيرة من العمال والفلاحين وغيرهم ، حتى أفرج عن النساء اللاتى كن بالحجرة ، وعمن كانوا فى السجون من الأعيان . ولم يبق فى السجون غير أصحاب الجرائم ومن عليه دم قديم . وقطع أيدى جماعة وأطلقهم ، ثم وسط جماعة من المجرمين منهم شخص يقال له عبدالقادر أبو دية وآخرون منهم ، وقطع أيدى جماعة من الحرامية ، وأفرج عن القاضى صلاح الدين بن أبى السعود ابن القاضى ابراهيم بن ظهيرة قاضى قضاة مكة ، وكان له مدة وهو فى الحديد فى بيت الزينى بركات بن موسى فى الترسيم ، وأقام على ذلك مدة طويلة حتى أفرج الله عنه ، وكان سبب ذلك شخص يقال له ابراهيم السمرقندى ترافع معه عند السلطان حتى قال انه لقى خبيئة بمكة فيها مال كثير ، وأرسل السلطان أحضره على غير صورة مرضية من مكة ، ولما حضر قال له : « المال الذى لقيته أحضره لى » فأنكر ذلك فوضعه السلطان فى الحديد وسلمه الى الزينى بركات ، فأقام عنده فى الترسيم فى الحديد مدة طويلة بغير ذنب .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشره خلع الأمير الدوادار على الشهابى أحمد بن المنذرى حسن ابن الطولونى وأعاده الى وظيفته معلم المعلمين ، وكان السلطان أخرجها عنه وجعل جمال الدين

الإلواحى بواب الدهيشة متكلما فى المعلمية عوضا عن ابن الطولونى .

وفيه رسم الأمير الدوادار نائب الغيبة باشهار المناداة فى القاهرة بأن جميع المكوس الحادثة بطالة ، وتجرى على ما كانت عليه أيام الأشرف قايتباى من غير زيادة على ذلك ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء .

وفى ذلك اليوم شق الزينى بركات بن موسى القاهرة ، وسعر جميع الأسعار ، حتى الكنافة سعرها بدرهمين الرطل ، وكانت بأربعة دراهم كل رطل ، وسعر الأجبان واللحوم .

وفى أثناء ذلك الشهر فتح سد أبى المنجا ، وكان النيل يومئذ فى عشرين ذراعا ، ووافق ذلك ثانى عشرى توت أول الشهور القبطية . وكان الأمير الدوادار فى مدة غيبة السلطان يركب فى كل يوم ويسير نحو المطرية ، فاذا رجع يدخل من باب النصر ويشق من القاهرة وقدامه الأمراء المقدمون الذين تخلفوا بمصر ، والجم الكثير من العسكر . فيشق القاهرة وقدامه السعاة والعبيد النفطية ومماليكه متقلدون بالسيوف وبأيديهم رماح بشطفات حرير ملون ، فترتج له القاهرة وترتفع له الأصوات بالدعاء من الناس ، فكانت نفسه تحدثه بالسلطنة قبل وقوعها ، وقد عظم أمره جدا وهابه الناس هيبة عظيمة .

وفى يوم الجمعة ثانى عشريه لما تحقق موت السلطان لم تدع الخطباء فى ذلك اليوم على المنابر باسم السلطان ، بل دعوا باسم الخليفة فقط ولم يذكروا اسم السلطان ، وبعضهم قال : « اللهم ول علينا خيارنا ولا تول علينا شرارنا » . واستمر الحال على ذلك مدة طويلة ومصر بلا سلطان ، وكذلك البلاد الشامية .

وفى تلك الأيام وقع الفساد من العربان فى الشرقية وغيرها من البلاد ، فنهبوا عدة بلاد من المنزلة وغيرها من ضواحى الشرقية ، ولم يبقوا لهم مواشى ولا بقرا ولا غنما ، حتى أخذوا صيغة النساء ، وقتل من الفلاحين فى هذه الحركة ما لا يحصى عددهم ، وكذلك من القصاد وغيرهم . وانقطعت جميع الطرقات من المسافرين ولا سيما لما تحققوا موت السلطان ، وصارت مصر فى اضطراب والاشاعات قائمة بالأخبار الرديئة عما جرى للسلطان والعسكر .

وكان أكثر من شن هذه الغارات أولاد شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وجماعة من العشير ، وفعلوا ما عظم خبره فى العساكر والتجار الذين دخلوا صحبة القفل الشامية ، فقتلوا من العساكر والتجار ما لا يحصى عددهم ، وأخذوا أموالهم وجمالهم ، والذى سلم من القتل عروه ، وجرى على العسكر من هؤلاء العربان ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان ، ووقع لهم ذلك بين قطيا والصالحية عند ما وصلوا الى الأمان .

وفى هذا الشهر أشيع أن المماليك الجلبان قصدوا أنهم ينزلون من الطباق ، وينهبون خان الخليلى ثم يحرقونه ، ويقتلون من به من تجار الأروام ، وقالوا : هؤلاء التجار من جهة ابن عثمان وقد شمتوا بأستاذنا لما مات ... فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك أحضر أغوات الطباق وقال لهم : « لا أطلب خمود هذه الفتنة الا منكم » . فمنعوهم من النزول من الطباق ، ولولا أن الأمير الدوادار قام فى هذا الحركة حتى خمدت هذه الفتنة لخربت مصر عن آخرها من المماليك الجلبان .

وفيه اهتم الأمير الدوادار بعمل طوارق خشب وكفيات وبندقيات وغير ذلك من آلات الحرب ... وأشيع أنه يتسلطن قبل مجىء العسكر ، وكان

القائم فى ذلك الأمير طقطباى نائب القلعة والأمير علان الدوادار الثانى .

وفى يوم الجمعة الثانيــة لم تذكر الخطباء اسم سلطان فى الدعاء كما فعلوا فى الجمعــة الماضية ، ومن حين ورد كتاب الأمير علان بما جرى للعسكر من أمر الكسرة وأمر السلطان لم ترد من بعــد ذلك أخبار صحيحة ، وانقطعت الأخبار عن مصر نحو أربعين يوما ، وكثر القال والقيل فى ذلك على أنواع شتى .

ومن جملة ما أشيع أن جان بردى الغزالى نائب الشام منع أن يصل الى مصر أحد ، وعوق العسكر بالشام .

وفيه وردت أخبــار من عنــد الأمير حســين نائب جدة ، والرئيس سلمان العثمانى ، أنهما لمــا توجها الى الهند صحبة العسكر المقدم ذكرهم ، ووصلا الى كمران ، وهى ضيعة من ضياع الهند ، أنشئوا هناك قلعة ذات أبراج ، فكمل بناؤها فى نحو خمسة أشهر . ثم ان الأمير حسين أرســل طائفة من العسكر نحو مكان يسمى اللحيــة ، وأرسل طائفة من العسكر الى مكان يسمى مورا ، وأقام الأمير حســين هو وبقية العسكر فى مكان يسمى « بيت الفتية » فأقاموا بها نحو شهر . ثم ان الأمير حســين والأمــير سلمان والعســكر توجهوا الى نحو زبيد ، وحاصروا صاحبها عبد الملك أخا الشيخ عــامر فملكوا منه زبيــد وذلك صبيحة يوم الجمعة فى العشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فوجدوا بها من الأمم ما لا يحصى عددهم ، ثم ذكروا فى الكتاب أن الأمير حسين لما أن فتح زبيد توجه الى حصار مدينة عدن ، وأنه أشرف على أخذها ، ولما ملكوا زبيد أقاموا بها شخصا من مماليك الأشرف الغورى وهو من أمراء العشراوات يسمى برسباى ، ومعه بعض جماعــة من المماليك وأولاد الناس الذين كانوا صحبتهم ، والتف عليهم جماعة من العربان نحو عشرة آلاف انسان . ولما ملك برسباى زبيد تسلطن بها ورتب له دوادارا وخازندارا وأرباب وظائف كعادة السلاطين ، وغنم منها أموالا جزيلة هو ومن معه من العسكر . ولما توجه الى حصار عدن أيضا ملكها كما قيل .

وفى هذا الشهر عرض الأمير الدوادار العسكر الذين فى القاهرة وكان ذلك العرض فى بيته وكان سبب هذا العرض أنه بلغ الأمير الدوادار أن عدة مراكب وصلت الى ثغر اسكندرية ورشيد ، فخشى أن تكون من عند ابن عثمان ، فبــادر الى عرض العسكر وقال لهم : كونوا على يقظة وعبوا برقكم حتى يتضح هــذا الخبر ، وانفصل المجلس على ذلك ... فانصرف العسكر فى هرج .

* * *

وفى شهر رمضان ، وكان مستهله يوم السبت ، توجه لبيت الأمير الدوادار جماعة من نواب القضاة وهنئوه بالشهر وكانت القضاة الثلاثة والخليفة فى أسر سليم شاه ابن عثمان بحلب لا يمكنهم العود الى مصر .

وفى يوم الأحد ثانيه كان أول بابه من الشهور القبطيــة ، فثبت فيه النيل المبــارك على عشرين ذراعا ، وكان فى العام المــاضى أرجح من ذلك ، واستمر فى ثبات الى أول هاتور ، ثم وردت الأخبار على يد ساع بأن الأمــراء والعسكر دخلوا الى الشــام وهم فى أنحس حــال ، وقد نهب بركهم وخيولهم وجمالهم وجميع مايملكونه ... وأخبر ذلك الساعى أن أهل الشام لما تحققوا موت السلطان وثب بعضهم على بعض ، ونهبوا زروع الشــام ، وأخذوا أموالهم ، وقتلوا منهم جماعة ، واضطربت أحوال البلاد الشامية غاية الاضطراب .

وفيه دخل قاضي القضاة محمود بن الشحنة وقد نهب جميع بركه وكل ما يملكه ، وأخبر أن ابن عثمان ملك ثلاث عشرة قلعة ، وخطب باسمه فيها ومشى حكمه من الفرات الى حلب . وأخبر أن الخليفة والقضاة الثلاثة فى أسر ابن عثمان بحلب ، ولولا أنه هرب مع العسكر والا كان آسر معهم .

وأخبر أن ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقجى — الذين كانوا من أخصاء السلطان — لما مات الغورى التفوا على سليم شاه ابن عثمان ، وصاروا من جماعته ، وصاروا يتقربون اليه بذكر مساوى أستاذهم الغورى وأمرائه ، ويظهرون له معائبهم وقبائحهم ، ولم يذكروا شيئا من احسان الغورى لهم لا جليلا ولا حقيرا ، وكأنه لم يكن سلطانا لهم ولا أستاذا ، ونسوا جميع انعامه واحسانه اليهم ، ولا سيما ما أحسن به الى العجمى الشنقجى من سلاريات وشقق حرير وسمور ومال وانعامات جزيلة ، فلم يثمر ذلك فيهم . فلما بلغ الأمير الدوادار ذلك رسم للوالى أن يكبس على بيت السمرقندى ويونس العادلى ، فتوجه اليهم الوالى وقبض على عيال السمرقندى ويونس العادلى وحريمهما وحاشيتهما ، ووضع عبد السمرقندى فى الحديد ، وختم على حواصل السمرقندى ويونس العادلى ، وظهر أنهم كانوا موالسين على السلطان ، وكانوا يكاتبون سليم شاه ابن عثمان فى الباطن بأحوال السلطان وأمور المملكة ... وصاحب البيت أدرى بالذى فيه .

* * *

وفى يوم الجمعة سابعه صلى الأمير الدوادار صلاة الجمعة ، وخرج الى ملاقاة الأمراء المقدمين الذين حضروا من الشام ، وقد بلغه وصولهم الى بلبيس ، فدخل القاضى محمود بن أجا كاتب السر وهو فى محفة وصحبته الشهابى أحمد بن الجيعان ، ودخل الأمير أركماس أمير سلاح وهو فى محفة عليل ، ودخل الأمير أنص باى حاجب الحجاب وتمر الزردكاش والأمير علان الدوادار الثانى وآخرون ، ثم دخل بقية العسكر وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع والضعف ، ودخلوا وأطواقهم مفككة ، وأظهروا الحزن على السلطان ، وصار الأمراء والعسكر يدخلون شيئا فشيئا .

وفى يوم الخميس ثالث عشره دخل الأمير سودون الدواداری رأس نوبة النوب ، والأمير كرت قانصوه والأمير جان بردى الغزالى نائب حماه ، ودخل المقر الناصرى محمد نجل السلطان الغورى ، والأمير جان بلاط الموتر والأمير آبرك الأشرفى والأمير تانى بك الخازندار والأمير كرتباى .

وفيه تكامل دخول الأمراء فسلم عليهم الأمير الدوادار ورجع الى منزله ، ودخل صحبته الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب قلعة حلب ، وهو الذى سلم القلعة بما فيها من المال والسلاح والقماش والكنابيش الزركش والسروج الذهب وغير ذلك من التحف ، فتسلمها ابن عثمان من غير أن يحاصر القلعة ، فخرج قانصوه هذا والأمراء الذين معه فارين الى جهة الشام ، مع أن قلعة حلب حصينة مانعة ... فلما قابله الأمير الدوادار وبخه بالكلام ، ورسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة ، واستوعده بكل سوء .

فلما دخل الأمراء الى القاهرة اجتمع رأى الجميع على سطنة طومان باى الدوادار . وترشح أمره لأن يلى السلطنة ، فصار يمتنع من ذلك غاية الامتناع ، والأمراء كلهم يقولون : « ما عندنا من نسلطنه الا أنت ، ولا محيد لك عنها طوعا أو كرها » .

ثم ان الأمير الدوادار ركب وصحبته جماعة من الأمراء المقدمين ، منهم الأمير علان والأمير أنسباى حاجب الحجاب والأمير تمر والأمير طقطباى نائب القلعة وآخرون من الأمراء وتوجهوا الى العارف بالله تعالى الشيخ أبى السعود الذى فى كوم الجارح ، فلما تكامل المجلس عنده ذكروا له أمر سلطنة الدوادار وانه امتنع من ذلك ، فأحضر لهم الشيخ مصحفا شريفا ، وحلف الأمراء الذين حضروا صحبة الدوادار بأنهم اذا سلطنوه لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يخامرون عليه ويرضون بقوله وفعله ... فحلف الجميع على ذلك .

ثم ان الشيخ حلفهم ألا يعودوا الى ما كانوا عليه من ظلم الرعايا ، وألا يشوشوا على أحد بغير طريق شرعى ، ولا يجددوا مظلمة ، وأن يبطلوا جميع ما أحدثه الغورى من المظالم ، ويبطلوا ما كان على الدكاكين من المشاهرة والمجامعة ، وأن يجروا الأمور على ما كانت عليه فى أيام الأشرف قايتباى ، ويمشوا الحسبة على طريقة يشبك الجمالى لما كان محتسبا ... فحلفوا على ذلك .

ثم ان الشيخ ذكر للأمراء أن الله تعالى ما كسركم وذلكم ، وسلط عليكم ابن عثمان ، الا بدعاء الخلق عليكم فى البر والبحر ، فقالوا : « تبنا الى الله تعالى من اليوم عن الظلم » . ثم انفض المجلس على ذلك وخرجوا من عند الشيخ أبى السعود على أن يسلطنوا الأمير الدوادار ، وأخذ الشيخ عليهم العهد بجميع ما حلفهم عليه بحضرته كما تقدم . وترشح أمر الأمير الدوادار الى السلطنة ، وتسلطن كما سيأتى ذكر ذلك فى موضعه .

ومن هنا نرجع الى أخبار الأشرف الغورى ، فانه خرج من القاهرة خامس عشر ربيع الآخر من هذه السنة ، واستمر نافذا الكلمة وافر الحرمة الى أن دخل الى حلب وأقام بها ، وأرسل اليه ابن عثمان عدة قصاد بالخلع السنية ، وأنعم عليهم بالعطايا الجزيلة الى أن حضر مغلباى دوادار سكين الذى كان أرسله الى ابن عثمان ، فلما رجع من عنده وهو فى غاية التحقير كما تقدم ، وكان السلطان أرسل مغلباى هذا الى ابن عثمان فى هيئة تشعر بالشدة والقوة ، لابس آلة الحرب باللبس الكامل . فشق ذلك على ابن عثمان وبهدله . فلما حضر الى الغورى أعلمه أن ابن عثمان قد أبى من الصلح .

فلما تحقق السلطان أن ابن عثمان يريد الشر معه نادى للعسكر بالرحيل والخروج من حلب ، فخرج العسكر قاطبة وهم كالنجوم الزاهرة ، من آلة السلاح والخيول الفاخرة ، وكل فارس مقوم بألف فارس من عسكر ابن عثمان ، ولكن الله تعالى يعطى النصر من يشاء ... فتوجهوا الى مرج دابق يوم الأحد خامس عشرى رجب من هذه السنة ، فلما بلغه أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى تل الفار ، ركب صبيحة يوم الأحد المذكور وهو يوم نحس مستمر ، فبرز فيه الى قتال ابن عثمان ، وكانت الكسرة أولا على عسكر ابن عثمان ، ثم بدل الله سبحانه وتعالى هذا الأمر ، وعادت الكسرة على عسكر مصر .

ولما رأى السلطان عين الغلب من عسكره أراد أن يلفت فرسه ليهرب وينجو بنفسه ، فاعترته سارقة من الرجفة فأغمى عليه فسقط عن ظهر فرسه الى الأرض فطلعت روحه فى تلك الساعة ، وصار ملقى على الأرض ، فزحفت عساكر ابن عثمان ، ففر من كان حوله من الغلمان ،

والساحدارية والمماليك الجلبان ، وتركوا جثتــه على الأرض فكان آخر العهد به ولم تر له جثة ولا عرف له مكان قبر ، فكأنما ابتلعته الأرض ، ولم يقف له أحد من الناس على خبر .

ومن العجائب انه لم يدفن فى مدرسته التى صرف عليها نحو مائة ألف دينار ، وظن أنه يدفن بها على عزة وحفظ مقــام ، فكان المقدور خلاف ذلك ، وصار مرميا فى البرارى تنهشه الذئاب والنمور ، ومات وله من العمر نحو ثمانية وسبعين سنة .

وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبــلاد الشامية خمس عشرة سنة وتســعة أشهر وخمسة وعشرين يوما . وكانت هذه المدة على الناس كل يوم كألف سنة مما يعدون .

وكانت صفته أنه طويل القامة ، غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحينه الشيب الا قليلا . وكان ملكا مهيبــا جليــلا مبجــلا فى المواكب ، تملأ العيون منه فى المنظر ، ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية لكان خيــار ملوك الجراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة .

وكان فى يومى الاثنــين والخميس ينزل الى الحوش الســلطانى ، ويومى السبت والثــلاثاء بالميدان . فينزل من السبع حدرات وقدامه طوالتين خيل بسروج ذهب وكنابيش زركش . وكان يكثر فى الأسفار من ركوب الحجورة بالسروج البداوى والركب العراض ، وكان يشــد فى وسطه حياصة ذهب عوضا عن الشد البعلبكى ، وكان يلبس فى أصابعه الخــواتم الياقوت والفيروزج والزمــرد والألماس وعين الهر ، وكان مولعا بشم الرائحــة الطيبة من المسك والعود والعنبر ، وكان ترفا فى ملبسه ويحب رؤية الأزهار والفواكه ، ويميل الى أبناء العجم وربما كان يميل الى مذهب النسيمية من ميله الى معاشرة الأعاجم ، وكان مولعا بغرس الأشجار وحب الرياضيات وسماع الأطيار المغردة ، ونشق الأزهار العطرة . وكان يستعمل الطاســات الذهب يشرب فيهــا ، وكان يســتعمل الأشــياء المفرحة ، وكان نهمــا فى الأكل والشرب ، وكان يغوى طيور المسموع .

وكان يعرف بقانصوه بن بيبردى الغــورى ، واستمر يرتع فى ملك مصر على ما ذكرناه من التنعم والرفاهية وهو نافذ الكلمة وافر الحرمة ، والأمراء والنواب والعسكر فى قبضة يده لم يختلف عليه اثنان فى كلمة ، الى أن وقعت الواقعــة بينه وبين سليم شاه ابن عثمان ملك الروم ، فخرج اليه كما ذكرنا وجرت له هذه الكائنة التى لم تقع لملك من ملوك مصر ولا غيرها من الملوك ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا . وقد قلت فى معنى ذلك :

طالعت تاريخ المــلوك فلم أرى
فيما سمعت حوادثا ممــا جرى

لا زالت الأيام يبــدو فعلهــا
بعجائب وغرائب بين الورى

لكن هــذى وقعــة ما مثلهــا
سبقت لســلطان ولا متأمرا

والأشرف الغــورى كان مليكنا
لــكنه قد جار فينــا وافترى

والموت أوجب هزمه مع جيشــه
قد كان ذلك فى الكتاب مسطرا

أعمــاله ردت عليه بما جنى
والدهــر جازاه بأمر قدرا

وكان للغورى محاسن ومساوى ، لكن مساويه أكثر من محاسنه ...

فأما ما عدّ من محاسن الغورى فانه كان رضى الحلق ، يملك نفسه عند العصب ، وليس له زيادة حدة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زائد فى الفقراء والصالحين . ومنها انه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنهـا أنه كان ماسك اللسان عن سب الناس فى شدة غضبه . ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغنـاء ، وليس له هرج . وكان مغـرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار ، وكان قريبا من الناس ، يحب المزح والمجون فى مجلسه ، غير أنه كشف من حيث النظر الى ذاته . وكان عنـده لين جـانب ورياضة بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا كبر نفس ولا رقاعة زائدة بخلاف عادة الملوك فى أفعالها .

وأما ما عد من مساويه فانها كثيرة لا تحصى : منها أنه أحدث فى أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث فى سائر الدول من قبله . ومنها أن معاملته فى الذهب والفضـه والفلوس الجـدد أنحس المعاملات جميعها : زغل ونحاس وغش ، لا يحل بها بيع ولا شراء . ولا معاملة فى ملة من الملل . ومنها ما قرره على الحسبة فى كل شهر وهو مبلغ ألفين وسبعمائة دينار . وكانت السوقة تبيع البضـائع بمـا يختارونه من الأثمان ، ولا يقـدر أحد أن يكلمهم ، فان كلمهم أحـد يقولون علينـا مال السلطان ، فكانت سـائر البضائع فى أيامه غالية بسبب ذلك .

وقرر على دار الضرب مالا له صـورة فى كل شهر ، فكانوا يضيفون فى الذهب والفضة والنحاس والرصاص جهارا . فكان الأشرفى الدهبى اذا صفى يظهر فيه ذهب يساوى اثنى عشر نصفا . وقد سلم السلطان دار الضرب الى شخص يسمى جمـال الدين ، فلعب فى أموال المسلمين ، وأتلف المعاملة ، وسبك ذهب السلاطين المتقدمة حتى صار لا يلوح لأحد من الناس منها لا دينار ولا درهم . فلما شنق جمـال الدين فرر فى دار الضرب المعـلم يعقوب اليهودى ، فمشى على طريقة جمال الدين . وقد استباح أموال المسـلمين فكان النصف الفضـة ينكشف فى ليلته ويصير من جملة الفلوس الحمر . فاسـتمر الغش فى معاملته فى مدة دولته الى أن مات . وقد ورد الحـديث الشريف « من غشـنا فليس منا » .

ومنها أنه كان يولى الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف فيأخذ كل منهم المثل أمثالا ، فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد الشامية والحلبية . وكان يفرد عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة فيأخذونها من الرعية وزيادة بالظلم والعسف ... فكان كل واحد من الرعيـة أصحاب الأقطاع والأوقاف يتمنى الرحيل من بلاده الى غيرها من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب ، ولا سيما ما حصل لعربان جبل نابلس بسبب المال الذى أفرده عليهم لأجل المشـاة عنـد خـروج التجريدة ، فما حصل لأهل البلاد الشامية بسبب ذلك خير .

وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجـار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره الى الخراب . وعز وجود الشاشات بمصر ، وعز وجود الأصناف التى كانت تجلب من بلاد الافرنج ، والأرز والأنطاع ، وخرب البندر ، وكذلك بنـدر الاسـكندرية ، وبندر دمياط ، فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم .

وكان كل أحد من أراذل النـاس يتقرب الى خاطر السلطان بنوع من أنواع المظالم ، فقرر على بيع الغلال قدرا معلوما يؤخذ على كل اردب ثلاثة

أنصاف من البائع والمشترى ، وكذلك على البطيخ والرمان ، حتى حرج على بيع الملح ، وجدد فى أيامه عدة مكوس من هذا النسط لم يفعلها هناد فى زمانه ، ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره .

وصادر أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، وأخذ منه مالا له صورة ، ودخل فى جملة ديون حتى أورد ما قرر عليه .

وأما من مات تحت عقوبته بسبب المال ، فمنهم القاضى بدر الدين بن مزهر كاتب السر ، ومنهم شمس الدين بن عوض ، ومعين الدين بن شمس الدين ، وعلم الدين كاتب الخزانة ، وغير ذلك جماعة كثيرة من المباشرين والعمال ماتوا فى سجنه بسبب المال والمصادرات .

ومن أفعاله الشنيعة ما فعله مع أولاد الناس من خروج أقاطيعهم ورزقهم من غير سبب ، واعطاء ذلك الى مماليكه الجلبان . ومنها قطع جوامك الضعفاء والأيتام من الرجال والنساء والصغار ، وحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك . ومنها أنه أرسل فك الرخام الذى بقاعة ناظر الخاص يوسف التى تسمى نصف الدنيا ، فوضع ذلك الرخام فى قاعة البيسرية التى بالقلعة .

ومنها أنه قطع معتاد الناس من الديوان المقرر من قديم الزمان ، وجدد أخذ الحمايات من المقطعين من قبل أن يزيد النيل وتزرع الأراضى ، وكانت المقطعين تقاسى من الهوان والذل ما لا خير فيه . ثم تزايد حرصه على جمع الدنيا وشحه حتى صار يحاسب السواقين الذين فى سواقى القلعة ، والخولة الذين فى سواقى الميدان ، على الجلة وروث الأبقار وما يتحصل فى كل يوم مما يبيعونه ، وقرر عليهم مبلغا يؤدونه للذخيرة الشريفة . وكانت أرباب الوظائف من المباشرين والعمال معه فى غاية الضيق ، لا يغفل عنهم من المصادرات يوما واحدا . وكان من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار يباشر ضبط أمر الخزانة بنفسه ، ما يدخل اليها وما يخرج منها وما يعرضون عليه من الأمور فى ذلك جميعه من الوصولات ، وما يصرف من الخزائن فى كل يوم . وكانت هذه الأموال العظيمة التى تدخل له يصرفها فى عمائر ليس بها نفع للمسلمين ، ويزخرف الحيطان والسقوف بالذهب ، وهذا عين الاسراف لبيت مال المسلمين ... وكان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من المكتب ، وما كانت له محاكمة تخرج على وجه مرضى ، بل على أمور مستقبحة . وكان يتغافل عن أمر القتلى ويدفعهم الى الشرع ، ويضيع حقوق الناس عليها . وكان يكسل عن علامة المراسيم ، فلا يعلم على المراسيم الا قليلا ، فتتعطل أشغال الناس بسبب ذلك ، حتى كانت تشترى العلامة العتيقة بأشرفى حتى تلصق على المرسوم لأجل قضاء الحوائج . ولو شرحنا مساويه كلها لطال الشرح فى ذلك .

وأما من تولى الخلافة فى أيامه فأمير المؤمنين محمد المتوكل على الله ، نجل امين المؤمنين المستمسك بالله يعقوب .

وأما قضاة الشافعية فأولهم شيخ الاسلام قاضى القضاة زكريا ، وقاضى القضاة محيى الدين عبد القادر النقيب ، تولى وظيفه القضاء فى ايامه خمس مرات ، وقاضى القضاة برهان الدين بن أبى شريف المقدسى ، وقاضى القضاة ابن فرفور المقدسى ، وقاضى القضاة جمال الدين القلقشندى ، تولى القضاء فى أيامه مرتين ، وقاضى القضاة كمال الدين بن محمد بن على الشهير بالطويل القادرى ، وقاضى القضاة بدر الدين المكينى ، وقاضى القضاة علاء الدين بن النقيب ، ثم أعيد

قاضي القضاة كمال الدين الطويل ، وقد ولى القضاء في دولته أربع مرات .

وأما قضاة الحنفية فالقاضي سرى الدين عبد البر ابن الشحنة ، ثم القاضي برهان الدين بن الكركى ، ثم القاضي شمس الدين محمد السمديسى ، ثم القاضي حسام الدين محمود بن الشحنة .

وأما قضاة المالكية فالقاضي عبد الغنى بن تقى الدين ، ثم القاضي برهان الدين الدميرى ، ثم ولده محيى الدين يحيى ، ثم جلال الدين بن قاسم ، ثم أعيد محيى الدين بن الدميرى ثانيا .

وأما قضاة الحنابلة فالقاضي شهاب الدين أحمد الششينى ، ثم ولده عز الدين محمد ، ثم شهاب الدين الفتوحى .

وأما كتاب سره فالقاضي محب الدين الحلبى .

وأما نظار جيشه فالقاضي شهاب الدين أحمد بن الجمالى يوسف ناظر الخاص ، والقاضي عبد القادر القصروى وأما نظار خواصه فالقاضي علاء الدين ابن الصابونى أولا ، ثم علاء الدين ابن الامام ، ثم ناصر الدين الصفدى ، ثم أعيد ابن الامام ثانيا .

وأما وزراؤه فالأمير طقطباى بن ولى الدين ، وجمع بين الوزارة والأستادارية ، ثم الأمير تغرى برمش ، ثم الأمير يوسف البدرى .

وأما استاداريانه ، فالأمير تغرى بردى بن بلباى القادرى ، ثم الأمير تمرباى حاردار الملك العادل طومان باى . ثم الشرفى يونس النابلسى . ثم قرر الأمير طومان باى الدوادار في الأستادارية مضافا لما بيده من الدوادارية الكبرى ، واستمر بها الى أن تسلطن .

وأما من ولى الحسبة في أيامه فالأمير قرقماس المقرى ، والأمير جان بردى الغزالى . ثم أعيد قرقماس المقرى ، ثم الزينى بركات بن موسى ، ثم الأمير ماماى الصغير .

وأما أتابكيته فأولهم قيت الرجبى ، وقرقماس ابن ولى الدين ، ودولات باى بن أركماس ، وسودون العجمى .

وأما دواداريانه فأولهم مصرباى ، ثم أزدمر بن على باى ، ثم طومان باى الذى تسلطن بعده .

وأما حجابه فالأمير خاير بك بن باى الذى قرر في نيابة حلب ، والأمير أنص باى بن مصطفى .

وأما بقية الأمراء وأرباب الوظائف فعلى حكم ما تقدم من أخبارهم .

وأما نوابه بالشام : فالأمير دولات باى بن أركماس ، ثم قانصوه المحمدى الشهير بالبرجى وسيباى بن بخت خجا . وأما نوابه بحلب : فأركماس بن طراباى ، وبخشباى بن عبد الكريم ، وسودون بن يشبك ، وجانم ويشبك وأبرك الأشرفى ، وتمراز الأشرفى . وأما نوابه بصفد : فقانصوه بن قرا ، وتانى باى العثمانى ، وسودون الدوادار . وأما نوابه بغزة : فالأمير صلاح الدين الذى كان نائب القدس ، وأزبك المسوق الذى كان نائب القدس أيضا ، وأقباى الذى كان كاشف الشرقية . وآخر من ولى بها في أيامه دولات باى الأعمش ، وقد جمع له بين نيابة القدس والكرك ونيابة غزة ، وولى بها آخرين غير هؤلاء .

وأما ما أنشأه بالقاهرة : فمن ذلك الجامع والمدرسة اللذان أنشأهما عند الشرابشيين ، والوكالة والحواصل والربوع التى أنشأها خلف المدرسة عند المصبغة ... ومن انشائه المئذنة التى عمرها بالجامع الأزهر وهى برأسين ، وأنشأ هنالك الربع والحوانيت التى بالسوق خلف الجامع ، وأنشأ الربوع التى بخان الخليلى ، وجدد عمارة

خان الخليلى ، وأنشأ به الحواصل والدكاكين ... وأنشأ فى باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وكذلك الربعين اللذين بين السورين والطاحون عند المصبغة ... وأنشأ البيت الذى فى البندقانيين لولده ، وتناهى فى زخرفته . وأنشأ هناك ربعا ووكالة .

وأنشأ الميدان الذى كان تحت القلعة ، ونقل اليه الأشجار من البلاد الشامية ، وأجرى اليه ماء النيل من سواق نقالة ، وأنشأ به المناظر والبحرة والمقعد والمبيت برسم المحاكمات ... وأنشأ جامعا خلف الميدان عند حوش العرب بخطبة ومئذنة ، وجدد عمارة بالقلعة منها الدهيشة ، وقاعة البيسرية ، وقاعة العواميد ، وقاعة البحرة . وأنشأ المقعد القبطى الذى بالحوش ، وجدد عمارة المطبخ الذى بالقلعة ، وجدد عمارة سبيل المؤمنين ، وجعل سقفه معقودا بالحجر . وأنشأ الربع والدكاكين التى بسويقة عبد المنعم . وأنشأ الربع والوكالة التى فى الجسر الأعظم . وجدد عمارة ميدان المهارة الذى بالقرب من قناطر السباع ، وبناه بالحجر الفص المشهر بعد ما كان بالطوب اللبن . وأنشأ المجراة ونقلها من درب الخولى الى موردة الحلفاء .

وجدد عمارة المقياس ، وأنشأ به القصر على تلك البسطة التى كانت هناك . وأنشأ بها المقعد المطل على البحر ... وجدد عمارة قنطرة بنى وائل ، والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب ، وقنطرة الخرنوبى وأعلاها ، حتى صارت تدخل المراكب من تحتها . وجدد عمارة قناطر السباع . وأنشأ المساطب وعليها الدعائم عند قبة الأمير يشبك التى بالمطرية .

وأنشأ بالطينة على ساحل البحر المالح قلعة لطيفة بها أبراج وجامع بخطبة . وأنشأ بثغر رشيد سورا وأبراجا لحفظ الثغر ، وجدد عمارة الأبراج بالأسكندرية ، وأصلح طريق العقبة ، ودوار حقن .

وأنشأ هناك خانا وأبراجا على بابه ، وجعل فيه حواصل لأجل ودائع الحجاج . وأنشأ فى الأزلم خانا وجعل فيه حواصل مثل الخان الذى فى العقبة ، وحفر هناك الآبار فى عدة مواضع من مناهل الحجاج .

وأنشأ بسكة المشرفة مدرسة ورباطا للمجاورين والمنقطعين هناك ، وأجرى عين بازان بعد ما كانت انقطعت من سنين ، وأنشأ بجدة سورا على ساحل البحر المالح ، وفيه عدة أبراج بسبب حفظ بندر جدة من الفرنج ، وجاء هذا السور من أحسن المبانى هناك . وله غير ذلك من الآثار الحسنة عدة مبان بها نفع للمسلمين .

وبالجملة أن السلطان الغورى كان خيار ملوك الجراكسة على عوج فيه ، ولم يجىء من بعده أحد من الملوك يشابهه فى أفعاله وعلو همته وعزمه فى الأمور . وكان كفؤا تاما للسلطنة ، مبجلا فى المواكب ، تملأ منه العيون .

وأما من توفى فى أيامه من أعيان العلماء ، ومشايخ الاسلام ، وقضاة القضاة ، فمنهم : الشيخ بدر الدين ابن عبد الرحمن الديرى رحمة الله عليه ، وكان من أعيان علماء الحنفية مفتيا مدرسا عريقا ولى مشيخة الجامع المؤيدى ، وكان من خيار أبناء الديرى . وتوفى الشيخ شهاب الدين ، خليفة سيدى أحمد البدوى رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الحقيقة . وجاءت الأخبار بوفاة قاضى القضاة الحنبلى بهاء الدين بن قدامة ، توفى بدمشق وولى قضاء الحنابلة بمصر والشام . وتوفى الشيخ ابراهيم المواهبى الشاذلى رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ الصوفية . وتوفى العلامة تقى الدين الأوجاقى شيخ الحديث ، رحمة الله عليه . وتوفى الحافظ العلامة جلال الدين عبد الرحمن الأسيوطى ، وكان من أعيان علماء الشافعية ، بلغت

مصنفاته ستمائة مؤلف ، وكان بارعا فى علم
الحديث ، توفى فى جمادى الأولى سنة احدى عشرة
وتسعمائة . وتوفى قاضى قضاة المالكية برهان الدين
الدميرى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة . وتوفى
القاضى ناصر الدين محمد بن جرباش ، وكان من
أعيان علماء الحنفية . وتوفى الشيخ علاء الدين
العجمى الشافعى شيخ تربة جانى بك نائب جدة ،
وكان من أعيان علماء الشافعية . وتوفى قاضى قضاة
الحنابلة شهاب الدين أحمد الشيشينى ، وكان علامة
فى مذهبه ، توفى سنة تسع عشرة وتسعمائة . وتوفى
الشيخ عبد الباسط بن خليل المؤرخ ، وكان من
أعيان الحنفية ، وكانت وفاته فى ربيع سنة عشرين
وتسعمائة . وتوفى الشيخ العارف بالله تعالى ، محمد
ابن عنان رحمة الله عليه ، وكان من أعيان مشايخ
الصوفية .وتوفى قاضى قضاة الشافعية كان ، محيى
الدين عبد القادر بن النقيب ، وكانت وفاته سنة
اثنتين وعشرين وتسعمائة . وتوفى قاضى القضاة
كان ، جمال الدين ابراهيم بن علاء الدين
القلقشندى الشافعى ، وكان من أعيان علماء
الشافعية . وتوفى الشيخ نور الدين على المحلى
وكان يعرف بفريبه ، وكان من أعيان علماء
الشافعية . وتوفى الشيخ تاج الدين الذاكر ، وكان
من أعيان الصوفية . وتوفى قاضى قضاة الحنفية ،
وكان يسمى برهان الدين بن الكركى . وكان من
أعيان علماء الحنفية ، مات غرقا فى أيام دولته .
ومات غير هؤلاء جماعة كثيرة من الأعيان لم نذكرهم
هنا خشية الاطالة . ولا بأس بايراد هذا الزجل الذى
عمله الشيخ بدر الدين أبقاه الله تعالى ، يرثى به
الملك الأشرف قانصوه الغورى عند وقوع تلك
الفتنة المقدم ذكرها وما جرى له ، وهو قوله :

غربت شمس دولة الغورى
وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم
والفلك دار ولم يزل داير
ابن عثمان باداه بأخذ القلم
ويمنع التاجر مع الجلاب
أن يجيبوا الى مصر مملوك
ولا فروة سمور ولا سنجاب
ولا وشق ولا ثعلب يجلبوا
ومن الصوف ماعاد يجينا ثياب
على الصوف ياما قعدنا سنين
ما يجى من عندو ولا تاجر
والأمارة جو للملك قالوا
ابن عثمان باغى عليك جاير
الأمير الكبير سمى سودون
للعجم نسبتو خلاف القياس
والمقر الأشرفى العالى
هو أمير سلاح سمى أركماس
وبسودون رأس نوبة النواب
لو رياضه مع سائر الأجناس
وأنص باى هو حاجب الحجاب
لو شجاعة فى الحرب بالساتر
ومحمد يدعى أمير آخور
نجل سلطان أشرف عزيز ناصر
والدوادار تانى أمير علان
وان أردت المقدمين تذكر
ابن جركس مقدم كبير
وتمر بالزردكاش يشهر
وكذا جنبلاط معو كرتباى
وأربعين فى ذى العدد واكثر
وتبعهم من الاساوة كثير
طبلخاناه بالنصر تتباشر

والعساكر معهم كثير فرسان
عشراوات من ترك تتكاثر
ضرب الكل بينهم مشورة
قالوا ملت منا القلوب والنفوس
نحن نخرج جميع لاجل القتال
بالجنائب والسلاح واللبوس
ونجرد لنصرة السلطان
نكسر الروم والأراضى ندوس
راهنوا بالنفوس وهم أقمار
كل واحد بمهجتو قامر
ولا يدرى ما قد خبى فى الغيب
من تقادير القادر القاهر
خامس العشر من ربيع آخر
لتسعماية اثنين وعشرين عام
ورخوها من هجرة الهادى
شافع الخلق فى نهار الزحام
كان خروج السلطان بتجريدة
لابن عثمان طالب بلاد الشام
والامارة فى خدمتو موكبين
بالمماليك والطلب تتفاخر
وخروج الجميع من القاهرة
كان بتقدير الواحد القاهر
فى محفة خرج معو القاضى
كاتب السر المنتخب محمود
والخليفة المتوكل ولد يعقوب
هو محمد فعلو الجميل محمود
وقضاة القضاة ومن معهم
كل نائب قد أبذل المجهود
خرج معو لاجل الخلع
ناظر الخاص الناهى الآمر
هو المباشر للخاص وهو العامل
وكذا الفخرى للجيش ناظر
دخلوا الشام أوكب بهم موكب
ما سمعنا موكب رئى مثله
ولا نالوا ملك ولاسلطان
فى المواكب ولا أحد قبله
ومن الشام خرج دخل فى حلب
وقطع من وعره الى سهله
وسليم شاه لما سمع أظهر
أن طبعو منها بقى حاير
طلب الصلح أرسل لهم قاصد
بالهدايا والملبس الفاخر
قالوا دا الصلح سيد الأحكام
من يخالف يرجع هداه فى ضلال
والأمانة فى محمل الانسان
وأبى حملها عوالى الجبال
وقضى ربنا بحقن الدما
وكفى الله المؤمنين القتال
جو جواسيس الأشرف الغورى
أعلموه انو عليه ماكر
قالوا احذر تركن الى صلحو
واعلم انه خاين عليك غادر
حقق القول ومن حلب برز
والعساكر معو لاجل القتال
وجد الروم مجهزين بالسلاح
والتراكيش معمره بالنبال
ووقع بين العسكرين وقعة
للفريقين شابت لها الأطفال

نصر الله المصري على الرومي
وبحيلو أضحى عليه غاير
ولا يدري ما قد خبى فى الغيب
ولا يدري ما هو اليه صاير
ابن عثمان كان لو من العسكر
خلق كانوا على الشمال كامنين
فى اشتغال العسكر بنهب الروم
خرجوا فى القتال لاجل السين
فاستغات الملك وبو سارقه
ارتمى على الأرض عن جوادو ينين
جا ابن عمو بيبرس واقباى الطويل
كل واحد لنصرته بادر
والشجاعه ما تغلب الكثره
قطعوهم بالصارم الباتر
جل ربى محرك الحركات
جعل الله لكل قتله سبب
والعجب كان فى قتلة الغوري
فى التواريخ تكتب بماء الذهب
تسعمائة اثنين وعشرين عام
ما جرى لو خامس وعشرين رجب
نسأل الله أن يحسن العاقبه
وبعيد الرابح هو الخاسر
يكشف العار عنا بأخذ التار
ويرد الكسره على الكافر
أشتهى التار لقتلة الغوري
ولعلى أن أبلغ الأوطار
والتهاني ذاك النهار عندي
ويعنوا على وسر او طار

بعد هذا ما أخشى غراب البين
ان زعق فى دارنا أو طار
والعجائب فى قتلة الغوري
راح برجلو لقتلتو خاطر
وحسنا كل الحساب الا
ما جرى لو ما مر بالخاطر
دمعة العين منى على الغوري
من دماها يجرى لحزنى عين
أرتجى عين فى الناس تساعدنى
من صباحى حتى تغيب العين
كان عليه ترقب زمان ملكو
والسعاده حتى أصابو عين
الجواد غاب بين العدا أرماه
مات ودمعو من العيون غاير
كل من غار منو بقى فرحان
بعد ما كان غاير على الغاير
ذى العساكر شبهتها روضه
فيها أغصان فرسان عليها زهور
والنسيم فى النهر فصل زرد
واذا هو كالسيف ظهر مشهور
واللبوس من فوق الحديد تحكى
وود أحمر بين الرياض منثور
ومن البان شطفات غصون مذهبه
وحماها صناجق الباتر
وحكى الياسمين بدن مجروح
وشقيق النعمان عليه داير
فى سما حرب عسكر السلطان
تطلع انجم فرسان تزين اللبوس

والأسـنة تحكى شهب ثاقبـه
وخودهم مثل النجوم فى الشموس
والملك بينهـم قمر مخسـوف
وحكى الرعد ضربهم فى التروس
خلت أسهم من قوس قزح ترمى
للعسـاكر فى ليل غبـار عاكر
السحاب صار يمطر سـهام خارقه
للأعادى ولـم يـزل ماطـر
ذى العساكر بستان وفيه فاكهه
ودماهـم خمـر العنب مدفوق
واحد اصفر لونو حكى مشمش
وذا لون العنـاب وذا معشـوق
ما رأى حد مثـل ذى الوقعـة
لا تقـل لى النـاصر ولا برقوق
والأمارة تحكى شـجر مثمـر
فى رياض نشروا غـدا عاطـر
والمدافع ترمى سـفرجل كبـار
ول رمان يحكى من الفحول فاخر
كم أسـلى قلبى على الغورى
وأقـلو يا قلب اتفـكر
أين سـليمان وأين هو النمرود
وأين هو فرعون وأين هوا قيصر
وأين ملوك الزمان وذو القرنين
واللى يسمى ان صح الاسكندر
وأين كسرى آنو شروان وايوانه
مات والايوان بعـدو بقى داثر
كل حادث بأمر القـديم راحل
والاقـامة للأول الآخـر

لو يكن فى هـذا البلد حمـال
ويراهـن فى واجب الملعـوب
نحن عصبه نحـزن على غلبـه
لمـا يبقى دستو عليـه مقلوب
فايش تقـل سلطاننا الغـورى
لمـا جرد قتـل ومات مكروب
بعد ملكو خمسه وعشر سـنين
تسـعة أشهر بالكاتب الحـاصر
ويليهـا خمسـه وعشرون يوم
عـز كاتب حاسب أمين ذاكـر
العجب كان فى قتـلة الغـورى
كل مقـدور لا يمنعه المحـذور
ويوم خروجو من البـلد أوكب
ولا يدرى ما فى الجبين مسطور
بالمقـدر قال لو لسـان الحال
قد بقى من عمـرك ثلاث شهور
انتبـه من رقـدة الغفـلة
واحمـل الطول من الأمل قاصر
بعـد الاشـهر عدة تسـعة أيام
والمنيـة تكون فى العـاشر
ذى الملك كان رئيس وهو مقدام
وابن عثمـان مؤخر ولاح كسره
خندس الريح عليـه وحل مركبو
وابن عثمـان عوم وبان نصره
غرق السـفن واخرب السـفان
وبسيفو رمى الجميـع بحـره
من جثثهم ومن دماهـم صـار
بحـرهم بر بالجثت صـادر

وتركهـم لمـا رجـع مقلع
برهـم بحر بالـدما حـادر
قد جلا لو عروس جمـال ملكو
خالق الخلق ربنـا ذو الجـلال
وجبـا لوانو يقـع ميت
عن جواد ويوم الحروب والقتال.
وزوى لوانو يمـوت مقهـور
ولا يعـرف قبره ليـوم الزوال
كم تطـير بالرمـل والـرمال
طـاير الله هـو أعظـم الطاير
طـار حسـابو وكل ما أمـل
وبهـذا ما طار عليـه طاير
ابتـداى فى النظم والخـاتم
بمـديحى فى المصطفى المختـار
كلمو الضب والذراع والبعـير
وسعت لو فى خدمتو الاشـجار
والغـزاله حـديثها مشـهور
ونطـق لو فى راحتـو الاحجار
والقمـر انشـق له نصـفين
بعد ما كان كامل صـحيح ناير
وأشبع الجيش كلو ببعض الزاد
وجـرى المـا من اصبعو فاير
ان يقـولوا أبو النجـا العوفى
فى نظـامو ما فى البـلد مثـلو
يا الذى جا يسمع عقـود نظمه
خـذ وحـرر عنـو بديع نقلوا
وان أتالك من يطلب التـاريخ
والوقـايع عن المـلوك قلو
غـربت شمس دولة الغـورى
وابن عثمـان نجمو طلع سـاير
وبهـذا رب السما قـد حـكم
والفلك دار ولم يزل داير

وهذا آخر ما انتهى الينا من أخبار دولة الملك الأشرف أبى النصر قانصوه الغـورى رحمـة الله عليه . وقد افتتح أوائل دولته بمصادرات وظلم ، وأخذ أموال بغير حق ، واختتمت أواخر دولته بفتن وضرب سـيف وذهاب أموال وأرواح ، وأمـور مهوله وحوادث غريبة ، وفتن عظيمه ليس لها آخر. والأمر الى الله تعالى من قبل ومن بعد ، يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل .

واستمر سليم شاه بن عثمان مستوليا على البلاد الشامية والحلبية وملك قلاعها وأعمالها ، وحكم من الفرات الى الشـام ثلاثة شهور ، وملك ثلاث عشرة قلعة بالأمان من غير حرب ولا قتال ، وملك قبـل ذلك عدة قلاع من أعمال شـاه اسـمعيل الصفوى . والذى وقع لسليم شاه ابن عثمان من السـعد والنصرة على الصفوى وسلطان مصر ، وأخـذ أموالهم وبركهم وخيولهم واحتوائه على بلادهم ، وخزائن أموال الأمراء وأموال السلطان الغورى وناهيك بها — ما وقع قط لأحد من ملوك الروم قبله ولا بعده ، وهذا الأمر من الله تعالى ، وقد وعده بذلك من القدم ، ان وعد الله حق وهو لا يخلف الميعاد .

الأشرف أبو النصر طومان باى

وهو السـابع والأربعـون من ملوك الترك وأولادهـم بالـديار المصرية ، وهـو الحـادى والعشرون من ملوك الچراكسـة وأولادهـم فى

العدد وكان أصله من كتابية الأشرف قايتباى ، اشتراه الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وكان يتود له بصرايه . فلما اشتراه قدمه الى الأشرف قايتباى ، ولهذا يدعى طومان باى بن قانصوه . فصار من جملة مماليكه الكتابية ، واستمر على ذلك حتى تسلطن الملك الناصر محمد ابن قايتباى ، فأخرج له خيلا وقماشا وغلمانا وصار من مستخرجات الناصر ومعاتيقه . وبقى جمدارا ثم بقى خاصكيا ، واستمر على ذلك حتى سلطن قريبه قانصوه الغورى ، فأنعم عليه بامرية عشرة ، واستمر على ذلك الى سنة عشر وتسعمائه ... فلما توفى ابن السلطان المقر الناصرى فى الفصل الذى جاء بها أنعم عليه السلطان بامرية طبلخاناه وجعله شاد الشرابخاناه عوضا عن ولده بحكم وفاته ، واستمر على ذلك الى سنة ثلاث عشرة وتسعمائة .

فلما توفى الأمير أزدمر بن على باى الدوادار الكبير فى جمادى الأولى وهو مسافر بجبل نابلس ، خلع عليه السلطان وقرره فى الدوادارية الكبرى عوضا عن الأمير آزدمر بحكم وفاته ، فاستمر فى الدوادارية الكبرى الى أن خرج السلطان الى التجريدة بسبب ابن عثمان ... فجعله نائب الغيبة عوضا عن نفسه الى أن يحضر من السفر ، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية ، وأطاعه العسكر الذين تخلفوا بمصر قاطبة . وقد جمع بين الدوادارية الكبرى والاستادارية العالية وكاشف الكشاف ونائب الغيبة .

وكان يركب فى كل يوم اثنين وخمس ويسير نحو المطريه ، ويدخل من باب النصر ، ويشق القاهرة وقدامه الجم الكثير من العسكر والأمراء المقدمين ، وقدامه سعاة وعبيد نفطية يرمون بالنفط من المكاحل فترتج له القاهرة كلما شق منها وفتح السد فى غيبة السلطان ، وكان له يوم مشهود

ولم يزل على ذلك حتى ثبت موت السلطان الغورى ، ورجعت الأمراء من التجريده ، فوقع الاختيار منهم على سلطنته ، فامتنع من ذلك غاية الامتناع ، والأمراء تقول ما عندنا سلطان الا أنت ، وهو يمتنع من ذلك

ثم ركب هو والأمير علان وجماعة من الأمراء المقدمين وتوجهوا الى كوم الجارح عند الشيخ أبى السعود ، فلما جلسوا بين يديه وذكروا له ذلك تعلل الأمير طومان باى على السلطنة بأنواع من العلل . منها ان خزائن بيت مال المسلمين ليس فيها درهم ولا دينار ، فاذا تسلطنت ما انفق على العسكر شيئا . ومنها أن ابن عثمان ملك البلاد الشاميه وهو زاحف على مصر ، وأن الأمراء لا يطاوعونى على الرجوع الى السفر ثانيا ومنها أنه اذا تسلطن يغدرون به ، ويركبون عليه ، ويخلعونه من السلطنة ، ويرسلونه الى السجن بثغر الاسكندريه ، ولا يبقونه فى السلطنة الا مدة يسيرة ثم ان الشيخ أبا السعود احضر بين يدى الأمراء مصحفا شريفا وحلف عليه الأمراء الذين جاءوا بصحبته بأنهم اذا سلطنوه لا يخامرون عليه ولا يغدرونه ، ولا يثيرون فتنا .. وأنهم ينتهون عن مظالم المسلمين قاطبة فحلفوا كلهم على المصحف الشريف بمعنى ذلك فلما تحالفوا ترشح أمر طومان باى الى السلطنة ، وانفض المجلس على ذلك ، وتوجه الأمراء الى بيوتهم .

فلما كان يوم الجمعه رابع عشر شهر رمضان من هذه السنه صلى الأمير الدوادار صلاة الفجر ، وركب ومعه الأمراء المقدمون وقدامه الفوانيس والمشاعل ، فطلع الى باب السلسلة وجلس به .

فلما ركب من بيته الذى فى درب البابا شق من الصليبة . وهو بتخفيفة صغيرة وملوطة بيضاء ، وكذلك الأمراء الذين طلعوا صحبته . فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وانطلقت النساء له بالزغاريت من الطيقان .

فلما استقر بباب السلسلة أرسل خلف أمير المؤمنين يعقوب والد أمير المؤمنين المتوكل على الله ، فحضر وصحبته سيدى هرون ولد الخليفة محمد المتوكل على الله واولاد ابن عمهم خليل ، وحضر قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود بن الشحنة ، والقاضى شرف الدين يحيى ابن البرديني أحد نواب الشافعية ، وجماعه نواب القضاة الذين بالقاهرة ، فلما تكامل المجلس واجتمع سائر الأمراء المقدمين وغيرهم من الأكابر والأصاغر والعسكر أظهر أمير المؤمنين يعقوب وكالة مطلقة عن ولده محمد المتوكل على الله بأنه وكله فى جميع أموره ، وما يتعلق به من أمور الخلافة وغيرها ، وكالة مفوضة ، وثبت ذلك على يد القاضى شمس الدين بن وحيش ، فاكتفوا بذلك ... وكان أشيع أن يولو الخلافة الى أحد من أولاد سيدى الكبير خليل ، فان الخليفة المتوكل على الله كان فى أسر ابن عثمان ، ووالده يعقوب عزل نفسه من الخلافة ، فلما أحضر هذه الوكالة عن ولده اكتفوا بذلك ... وكان قاضى قضاة الشافعية كمال الدين الطويل فى أسر ابن عثمان وكذلك قاضى قضاة المالكية محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة الحنبلى الشهابى الفتوحى . فلم يحضر هذه المبايعة من أعيان نواب الشافعية الا الشرفى يحيى بن البرديني . فبايع السلطان الخليفة أمير المؤمنين يعقوب ، وشهد عليه بذلك الشرفى يحيى بن البرديني وجماعة من نواب القضاة نيابة عن محمد المتوكل ، وحضر فى آخر المجلس قاضى القضاة الحنفى محمود بن الشحنة .

فلما تمت له البيعة أحضروا له خلعة السلطنة ، وهى الجبة السوداء والعمامة السوداء والسيف البداوى ، فأفيض عليه شعار الملك ، وتلقب بالملك الأشرف ، مثل قريبه الغورى . ثم قدموا له فرس النوبة بغير كنبوش ولا سرج ذهب ، ولا وجدوا له فى الزردخانات لا قبة ولا طيرا ، ولا الغواشى الذهب . فركب من سلم الحراقة التى بباب السلسلة ، والخليفة قدامه . فطلع من باب سر القصر الكبير ، وجلس على كرسى المملكة ، وقبل له الأمراء الأرض ، ودقت له البشائر بالقلعة ، ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء ، وفرح كل أحد من الناس بسلطنته .

وكان محببا للعوام ، فانه كان لين الجانب ، قليل الأذى ، غير متكبر ولا متجبر . فلما انتهى أمر المبايعة خلع السلطان على أمير المؤمنين ونزل الى داره فى موكب حفل . وزالت دولة الغورى كأنها لم تكن . فسبحان من لا يزول ملكه و لايغير على طول المدى . وقد قال محمد بن قانصوه :

قد ذهب الغورى الى ربه
وذا الذى قدره الله
الملك لله فمن شاء من
عباده الملك ولاه

فلما كان وقت صلاة الجمعة فى ذلك اليوم خرج السلطان وصلى صلاة الجمعه ، وخطب به الشرفى يحيى بن البرديني ، واستمر يخطب به فى كل يوم جمعة . ثم ان الخطباء خطبوا باسمه فى ذلك اليوم على منابر مصر فى القاهرة بعد ما كان الخطباء لم يذكروا فى الخطبة اسم سلطان ، ولم

يدعوا نحـو خمسـين يوما ، بل كانوا يدعون للخليفة فقط

وفى هـذا اليـوم قبض السلطان على قانصوه الأشرفى نائب قلعة حلب الذى سلم القلعـة الى ابن عثمان من غير حرب ولا محاصرة ، فلما حضر قانصوه هذا صحبة العسكر تغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك . فقبض عليـه وأودعه فى البرج بالقلعة . حتى يكون من أمره ما يكون

وفى يوم السبت خامس عشر رمضان حضر جماعة من الأمراء ممن تخلف بعـد العسكر بدمشـق ، فحضر الأمير جان بردى الغزالى نائب حماه وقد ترشح امره أن يلى نيابة الشام ، والامير سودون الدوادار رأس نوبة النوب ، والأمير قانصوه كرت أحد المقدمين وكان مريضا فلما حضروا وجدوا الدوادار قد تسلطن فعز ذلك على الأمير سودون الدوادار . وكان قـد ركن الى السـلطنة وهو بالشام فلم يتم له ذلك فلما حضروا طلعوا الى القلعـة وقبلوا الأرض للسـلطان . ونزلوا الى دورهم

ثم جاءت الأخبار من بعد ذلك بأن أمير عربان حماه الأمير ناصر الدين بن الحنش بلغه أن ابن عثمان أرسل چالش عسكره وصحبته ابن سـوار — الذى كان بعصب له — فلما وصلوا الى قابون بالقرب من دمشق ، التقيهم ابن الحنش ، وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة مهولة ، وقتل منهم جماعة وأطلق عليهم الماء من أنهر دمشق ، حتى صار كل من دخل فى تلك المياه بفرسه يوحل ، فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسـكر ابن عثمان جماعة كثيرة حسبما أشيعت بذلك الأخبار . وقد قلت فى المعنى :

قـل لا بن عثمـان اذا قابلتـه
افبل نصيحة ناصح ودع الطيش
واحذر تعارض شـاميا بجهالة
نخشى عليك اللدغ من ابن الحنش

فلما دخلت الأمراء دخل صحبتهم جماعة كثيرة من أعيان أهل دمشق وأولادهم وعيالهم ، وسبب ذلك أنه لما حصل لعسكر مصر هـذه الكسرة ، وقتل سيباى نائب الشام ، واضطربت الأحوال ، وثب أهل الشام بعضهم على بعض . ونهبوا حارة السمرة ، وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم وكذلك فعلوا بتجار الفرنج الذين هناك ، ونهبوا اموالهم ، وكانت فتنة مهولة . ونهبوا بيوت اعيان النـاس بدمشق من القضاة والتجار . فخرج غالب أعيان دمشق منها بسبب ذلك ، وبسبب فتنة ابن عثمان وفساد الاحوال بمصر والبلاد الشامية فلما بلغ السلطان ما فعله ناصر الدين بن الحنش مع عسكر ابن عثمان رسم له بنيابة حمص ، وقيل برزت له المراسيم الشريفة أنه اذا كسر عسكر ابن عثمان قرره السـلطان فى الأتابكية بدمشق ، فان ابن الحنش أرسل يقول للسـلطان . « مدنى ببعض عسكر وأنا أجمع العربان وضمان كسرة عسـكر ابن عثمان على » وكان فى قديم الزمان بعض أجداد الحنش متوليا على نيابة حمص .

وفيه حضر شخص يقال له اينال الأعور وكان جان بردى الغزالى قرره فى نيابة صفد فلما بعث اليها دواداره ومباشريه وثب عليهم اهل صفد ، ولم يمكنوهم من الدخول الى المدينـة ، وربما قتلوا منهم جماعة فحضر الى مصر ليلبس خلعة ويمضى الى صفد ، ليقتص من أهلها

وفى يوم الاثنـين سابع عشره أنفق السـلطان الجامكية على العسكر فى الحوش ؛ وحصـل فى

ذلك اليـــوم بين الأمراء خلف بسبب الوظائف ، وحصل بين الأمير علان الدوادار الثانى وبين جان بردى الغزالى تشاجر حتى خرجا فيه عن الحد .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض وهم الذين كانوا مقيمين بمصر ولم يحرجوا فى التجريدة صــحبة السلطان . ونادى أيضا أن كل من أخذ شيئا من نهب سلاح العسكر أو قماشهم يرده ، ومن لم يرد شيئا وغمز عليه شنق من غير معاودة . وقد بلغه أن جماعة من الغلمان والعبيد ممن كان فى التجريدة نهب أشياء كثيرة من مال وسلاح وقماش وغير ذلك .

ومن الوقائع اللطيفة أن السلطان لما تسلطن أمر بهدم المسطبة التى كان أنشأها السلطان الغورى بالحوش أيضا عوضا عن الدكة التى كان يجلس عليها الأشرف قايتباى ، فهــدم السلطان المسطبة وأعاد الدكة كما كانت فى أول الأمر وجلس عليها ، وكانت قد تكسرت فأصلحوها وجعل لها غشاء من الجوخ الأصفر وصار يجلس عليها للمحاكمات كما كان يجلس الأشرف قايتباى ، وقد قلت فى المعنى :

قد عادت الدكة للحــكم
وانهـــدمت مسطبة الظلم
وصار طومان باى بين الورى
يمشى به الذيب مع الغنم
فيـــاله من ملك عــدله
قد شاع بين العــرب والعجم

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، جلس السلطان على الدكة وعرض العسكر بالحوش ، وكتب منهم نحو ألفى مملوك ، وعين من الأمراء المقدمين الذين كانوا بمصر نحو ستة مقدمين . وعين الأمير جان بردى الغزالى باشا على العسكر ، وقد ترشح أمره بأن يلى نيابة الشام .

وفيه قبض السلطان على المهتار محمد القجولى ، وعلى أخيه على مهتار الطشطخاناه بخدمة السلطان الغورى ، وقبض على جمال الدين الألواحى بواب الدهيشة ، وهذا كان أول حكم للسلطان طومان باى . وسبب ذلك أن السلطان لما تسلطن عرض الخزائن فوجدها فارغة ليس فيها درهم ولا دينار . وكان محمد المهتار وجمال الدين البواب من حين توفى الأمير خاير بك الخازندار جعلهما السلطان الغــورى متحدثين فى أمور الخزائن الشريفـــة ، فصارا يتصرفان فيها كيف يختاران ، فطاشا وركبا فى غير سرجيهما ، وما كانا يظنـــان أن الســـلطان الغورى يموت فى هــذا الزمان . فكان ذلك من أكبر أسباب الفساد فى حقهما كما يقال فى المعنى :

أمور تضحك الســفهاء منها
ويبكى من عواقبهــا اللبيب

وفى يوم الخميس عشرى شــهر رمضان ، عمل السلطان الموكب بالشاش والقماش ، وجلس على الدكة بالحوش ، وخلع على من يذكر من الأمراء ، وهم المقر السيفى سودون الدهابى الدوادار ، وقرره أتابكى العساكر عوضا عن سودون العجمى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على المقر السيفى جان بردى الغزالى ، وقرره فى نيابة الشام عوضا عن سيباى بن بخت خجا بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على المقـــر السيفى أركماس بن طراباى ، وقرره فى امرية سلاح على عادته . وخلع على المقر السيفى بخشباى بن عبد الكريم وقرره أمير مجلس عوضا عن أركماس بحكم ولايته فى امرية سلاح . وخلع على المقر السيفى أنص باى ابن مصطفى وقرره أمير آخور كبير عوضا عن نجل المقام الشريف الغورى بحكم انفصاله عنها . وخلع على تمر الحسنى وقرره رأس نوبة النوب عوضا

عن سودون الدواداري بحكم انتقاله الى الأتابكية . وخلع على طقطباى العلائى نائب القلعه وقرره حاجب الحجاب عوضا عن آنص باى بحكم انتقاله الى امريه آخور الكبرى . وخلع على الأمير علان ابن قراجا وقرره أمير دوادار كبير عوضا عن المقام الشريف بحكم انتقاله الى السلطنة . وخلع على الأمير أبرك الأشرفى وقرره وزيرا واستادارا وكاشف الكساف عوضا عن المقام الشريف . وخلع على كرتباى الأشرفى أحد الأمراء المقدمين وقرره دوادارا ثانيا مقدم الف كما كان علان . وخلع على ماماى دوادار قانى باى قرا أمير آخور كبير كان ، وقرره أمير آخور ثانيا عوضا عن آقباى الطويل بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان . وخلع على شخص من الأتراك يقال له تنم السيفى مغلباى الساقى ، وقرره فى نيابة الاسكندرية عوضا عن خدا بردى الأشرفى ، بحكم أنه بقى مقدم ألف . وخلع على شخص يقال له بخشباى الذى كان كاشف البهسنا وقرره فى نيابة صفد . وخلع على شخص آخر من الأتراك وقرره فى نيابة طرابلس . وخلع على شخص يقال له تانى بك الأشرفى وقرره فى نيابة القلعة عوضا عن طقطباى بحكم انتقاله الى الحجوبية الكبرى . وخلع على آقطوه وقرره كاشف الشرقية ثم أبطل ذلك فيما بعد . وخلع على الأمير بشبك الفقيه وقرره خازندارا كبيرا عوضا عن خاير بك الذى توفى . وخلع على جنتمر وقرره خازندارا ثانيا . وخلع على ماماى الصغير وأقره فى الحسبة على حاله . وخلع فى ذلك اليوم على جماعة كثيرة وقررهم فى وظائف معلومة .

وأما أرباب الوظائف من المباشرين ، فخلع على القاضى محمود كاتب السر ابن أجا وأقره على حاله . وأقر الشهابى أحمد ناظر الخاص ابن يوسف متحدثا فى نظارة الجيش عوضا عن القصروى بحكم قتله هناك . وخلع على سائر المباشرين من أرباب الوظائف باستمرارهم على وظائفهم . وخلع على نقيب الجيش ، وأزدمر المهمندار ، والمساس والى الشرطة ، وسنبل مقدم المماليك ، باستمرارهم على عادتهم .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشريه خلع السلطان على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر باستمراره على عادته . وقد حصل من أولاد أحمد بن بقر فى هذه السنة من الفساد ما لا يحصل من بلاد الفرنج ، من قتل النفوس ونهب الأموال ، ولا سيما ما فعله ابن الجذامى بالعسكر لما رجع وهو مكسور ، وما فعله أولاد عبد الدائم بالشرقية من نهب الأموال وقتل النفوس ، ولم تنتطح فيها شاتان . وخلع عليه وراحت على من راح .

وفى يوم الخميس سابع عشريه ، خلع السلطان على مصرباى الأقرع أحد أمراء الطبلخانات وقرره فى الحجوبية الثانية عوضا عن طومان باى قرا بحكم قتله فى واقعة عثمان . وخلع على تمرباى العادلى وقرره تاجر المماليك عوضا عن نوروز بحكم وفاته . وخلع على شادبك وقرره شاد الشرابخاناه عوضا عن يوسف الناصرى بحكم انتقاله الى التقدمة . وخلع على على بك وقرره على نظر الجوالى عوضا عن القصروى . وخلع على فخر الدين بن عوض واستقر به ثالث فلم فى كتابة المماليك عوضا عن جلال الدين بحكم وفاته . وخلع على حاجب الحجاب بدمشق باستمراره على عادته .

وفى أواخر هذا الشهر قرىء عهد السلطان بحضرة أمير المؤمنين يعقوب وقاضى القضاة الحنفى ، وجماعة من النواب ، وحضرت جماعة من المقدمين على العادة . ثم ان السلطان أنعم على أمير المؤمنين يعقوب لما بايعه بالسلطنة بحصة

ونصف وثلث فى منشية دهشور ، فأنعم عليه فى ذلك اليوم بما ذكرناه .

وفى يوم السبت تاسع عشريه طلع ناظر الخاص بخلع العيد وعرضها على السلطان وهى مزفوفه على رءوس الحمالين .

وفى يوم الأحد سلخ هذا الشهر حضر الناصرى محمد ابن بلباى المؤيدى حاجب ميسره بدمشق وأخبر بأن سليم شاه بن عثمان قد ملك مدينه دمشق وملك قلعتها ، وقتل على باى الأشرفى نائب القلعة ، وقتل سته وثلاثين أميرا من أمراء دمشق غير من وجده من الرعية بالشام .

وحضر ابن بلباى هذا وهو فى زى العرب ببشب وزنط على رأسه . فلما أشيعت الأخبار فى القاهرة بأن ابن عثمان ملك الشام صارت النـاس فى أمر مريب بسبب ذلك ، وقالوا ما بقى بعد أخذ الشام الا مصر ، وجزموا بهذا الأمر . وعول بعض الناس على الهروب الى جهة الصعيد ... فتنكد السلطان والأمراء والناس قاطبة لهذا الخبر ، ولا سيما أنها ليلة عيد الفطر ، والناس جرحهم طرى بسبب موت السلطان وكسرة العسكر ، والأشلة قائمة بسبب من قتل من العسكر ، وقد قلت :

يا ابن عثمان كف عن أخذ مصر
بلد شرفت بخـير امام
حبرنا الشـافعى قطب ولى
نجل ادريس عمدة الاسلام
هى تدعى كنـانة من غزاها
قصم الله ظهـره بالحسام

***

وفى شوال ، وكان مستهله يوم الاثنين ، صلى السلطان صلاة العيد ، وخلع على الأمراء ومن له عادة . فخطب بالسلطان فى ذلك اليوم الشرفى يحيى ابن البرديني ، وكان موكب العيد حفلا .

وفى يوم الجمعة خامسه ، الموافق لرابع هاتور القبطى ، قلع السلطان البياض ولبس الصوف ، وقد عجل بلبس الصوف .

وفيه توفى الأمير جانم الابرنهيمى أحد الأمراء الطبلخانات .

وفى يوم السبت سـادسه طلع الى السـلطان شخص يقـال له على الشعبانى نقيب المحتسب ، وشخص آخر يقال له ابن خبيز السمسار فى الغلال ، فلما وقفا بين يدى السلطان تكلما معه بأن يجعل على الحسبة مالا معينا ، وعلى الغلال أيضا ، ولا يحصـل من ذلك ضرر للمسلمين ... فلم يلتفت السلطان الى كلامهما وضرب على الشعبانى بالمقارع وابن خبيز ، وأشهر الشعبانى فى القاهره وهو ماش مكشـوف الرأس ، وقد ضرب بالمقارع ونودى عليه : هذا جزاء من يتعاون فى انشاء المظالم فى الدولة العادلة بعد ما بطلت ، وأمر السلطان بعزل الشـعبانى من التحدث فى أمر الحسـبة ، فأقام الشعبانى بعد ذلك أياما يسيرة ، وأشيع موته من الضرب الذى حصل له كما تقدم .

وفى يوم الاثنين ثامنه ، حضر دوادار نائب غزة المسمى بعلى بك الأحدب ، وأخبر بأن ابن عثمان من حين دخل الشام تلاشى أمره ووقع الوخم فى عسكره ، فصار يموت منهم فى كل يوم جماعة ، وعز عندهم وجود الأقوات من الغلال والعلف . وقد ضيقت عليه العربان ومنعوا عنه ما يجلب من الشعير والقمح والتبن ، وكل من خرج من عسكره الى الضياع قتله العرب ، وقد تجون بدخوله فما بقى يمكنه الخروج منها ، وسارت خيول عسكره سائبـة تأكل من ورق الأشـجار وهى فى غاية الحصر .

وفيه حضر خدابردى نائب الاسكندرية وخرج اليها تنم الذى قرر بها ، وحضر الأمير خاير بك المعمارى الذى كان توجه الى ثغر رشيد بسبب عمارة السور والأبراج التى هناك كما تقدم .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له ملباى المشرف وقرره فى استادارية الصحبة عوضا عن قانصوه الأشرفى بحكم قتله فى واقعة ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه كانت كائنة الزينى بركات ابن موسى مع الشيخ أبى السعود وسبب ذلك أن شخصا مدابغيا يبيع الجلود ، يقال له الدمراوى — مكاسا على بيع الجلود — فجار عليه ابن موسى ، فوقع بينه وبين ابن موسى حظ نفس ، فقصد ابن موسى أن يقبض عليه فتوجه الدمراوى الى الشيخ أبى السعود واحتمى به ، فأرسل الشيخ أبو السعود رسالة الى ابن موسى بسبب ذلك ، وقد شنع فيها ، فتوقف ابن موسى فى أمره ولم يلتفت الى رسالة الشيخ وطاوله فى أمر الدمراوى . فأرسل الشيخ لابن موسى فأحضره ، فما حضر عنده فى كوم الجارح وبخه الشيخ بالكلام ، وقال له : « ماكلب كم تظلم المسلمين » . فحنق منه ابن موسى وقام من عنده على غير رضا ، فأمر الشيخ بكشف رأس ابن موسى وضربه بالنعال . فصفعوه بالنعال على رأسه حتى كاد أن يهلك ، ثم وضعه فى مكان وأرسل خلف الأمير علان الدوادار الكبير ... فلما حضر قال له ضعه فى الحديد ، واطلع وشاور السلطان عليه وأعلمه بأنه يؤذى المسلمين .

فلما طلع الأمير علان وشاوره فى أمر ابن موسى وما جرى له مع الشيخ أبى السعود ، أرسل السلطان يقول للشيخ أبى السعود : مهما اقتضاه رأيك فيه فافعله فلما ورد الجواب على الشيخ بذلك أمر باشهار ابن موسى فى القاهرة ثم يشنقوه على باب زويلة . فأخرجوا ابن موسى من زاوية الشيخ التى فى كوم الجارح وهو ماش مكشوف الرأس بكبر طاق وهو فى الحديد ينادى عليه : « هذا جزاء من يؤذى المسلمين » . فتوجهوا من كوم الجارح الى ساحل مصر العتيقة وهم ينادون عليه الى أن وصل الى بيت الأمير علان الدوادار الذى بالناصرية ... فأراد أن يوقع فيه بشنق أو تغريق . ثم عاودوا الشيخ فى أمره بأن عليه مالا للسلطان ومتى شنق ضاع على السلطان ماله ، فعفا الشيخ عنه من القتل ، واستمر ابن موسى عند الأمير علان وهو فى الحديد حتى يكون من أمره ما يكون . وكانت واقعة مهولة بين ابن موسى والشيخ أبى السعود ، وقد أشرف ابن موسى فى هذه الكائنة على الهلاك . وقد قلت فى هذه الواقعة :

تعجبوا مما جرى فى الوجود
بين ابن موسى كان وأبى السعود

تشاجر قد طال ما بينهما
واشتعلت نيرانه بالوقود

فصرح الشيخ بعزلانه
وأكد القول بألا يعود

ويغلب الله على أمره
ويرغم القاهر أنف الحسود

ليت شعرى ذا الهبوط الذى
نال ابن موسى بعده من صعود

ولما جرى لابن موسى ما جرى ، ظهر غريمه شهاب الدين بن الصائغ ، وكان يسعى عليه فى أيام الغورى . فلما وقعت هذه الكائنة لابن موسى

انتدب الى مرافعته ابن الصائغ وقال : أنا أثبت فى جهة ابن موسى للسلطان مائة ألف دينار .

ثم ان ابن الصائغ توجه الى بيت ابن موسى وصحبته طواشية وقواسة وجماعة كثيرة ، وكبس على نساء ابن موسى . وقبض عليهن ونهب ما فى بيوتهن من قماش وأمتعة . وقبض على عبيده وغلمانه وحاشيته .

فلما رأى السلطان ما قد حل به توقف عما كان فيه من أذى ابن موسى ... ثم ان ابن موسى قال أنا أثبت فى جهة ابن الصائغ مائتى ألف دينار ، وقال للأمير علان . أرسل خلف ابن الصائغ وضعه فى الحديد حتى يعمل حسابه . فلما حضر ابن الصائغ وضعه الأمير علان فى الحديد حتى يقيم حسابه مع ابن موسى .

وأما ما كان من أمر الشيخ أبى السعود ، فانه لما فعل بابن موسى ما فعل قامت عليه النائرة والأشلة وأنكر عليه الناس والفقراء ، وقالوا . ايش للشيخ شغل فى أمور السلطنة لا واستقلت الناس به ولم يشكره أحد على ما فعله بابن موسى .

وفى يوم الأحد رابع عشره طلعت الى القلعة خوند بنت الأمير أقبردى الدوادار ، وهى زوجة السلطان ، وأمها بنت خاص بك أخت خوند زوجه الأشرف قايتباى فطلعت وقت صلاة الصبح بالفوانيس والمشاعل . ومعها الجم الكثير من الخوندات والستات وأعيان نساء الأمراء والمباشرين . فاستمرت فى موكبها حتى طلعت الى القلعة ودخلت الى قاعة العواميد . فحمل الأمير بشير الطواشى رأس نوبة الستارة على رأسها القبة والطير ، حتى جلست على مرتبتها . وكان لها يوم مشهود بالقلعة .

وفى يوم الأحد عرض الأمير علان الدوادار ابن موسى ، وابن الصائغ ، وكان قرر على ابن موسى عشرين ألف دينار ، وأن يورد منها على الجامكية عشرة آلاف دينار ، فلم يورد منها شيئا فبطحه على الأرض . وضربه نحو عشرين عصا ، فوعد أنه يورد ذلك القدر .

ثم طلب أحمد بن الصائغ وضربه فوق أربعمائة عصا حتى كاد أن يهلك ، وأشيع بين الناس موته .

وفى يوم الخميس ثامن عشره لم يخرج المحمل من القاهرة ولم يحج أحد من الناس قاطبة بسبب فتنة ابن عثمان ، وأشيع أنه يرسل جماعة من عسكره الى مكة المشرفة وصحبتهم كسوة الى الكعبة ، فلم يثبت ذلك .

ثم ان السلطان أرسل الطواشى مرهف من البحر المالح وصحبته كسوة الكعبة المشرفة والصرر لأهل مكه المشرفة والمدينة . فتوجه الى الطور ونزل من هناك الى البحر .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن الشيخ أبا السعود أرسل خلف ابن موسى وفكه من الحديد وأظهر أنه قد رضى عليه ، وصار يتصرف فى أمور المملكة من عزل وولاية ، فأنكر عليه الناس ذلك .

وفى يوم السبت عشريه طلع الزينى بركات بن موسى الى السلطان على أنه يعيده الى وظائفه فلم يلتفت اليه ، ونزل من عنده بغير طائل وهو فى التوكيل به حتى يغلق ما قرر عليه من المال ، فتوجه الى بيته وهو فى غاية الذل بعد ما زينت له حارته فى سويقة اللبن ، وتخلقت جماعته بالزعفران فنزل عليهم خمدة بسبب ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشريه ، خلع السلطان على شرف الدين بن عوض وقرره فى استادارية

الذخيرة عوضا عن ابن موسى بحكم انفصاله عنها

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة .

وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك ، وأنه قد وقع بين الرئيس سليمان العثمانى وبين الأمير حسين نائب جدة ، وأن كلا منهما توجه الى جهة من جهات الهند .

وفيه خلع السلطان على شخص من الأتراك يقال له قجماس — وكان شادا فى بنها العسل — وقرره فى كشوفية الشرقية ، وأبطل من كان قرر بها .

وفيه أنفق السلطان على العسكر المعينين للتجريدة ، فأعطى لكل مملوك خمسين دينار ، فردوها عليه وقالوا « بق ، بق » ، وخرجوا من باب الحوش على حمية ، وقصدوا أن ينشئوا فتنة ، فأشار بعض الأمراء على السلطان بأن يرضيهم ، وأن ينفق عليهم كل واحد مائة دينار على جارى العادة . فاسترد من خرج من العسكر على غير رضا ، ثم لما ردوا أنفق لكل مملوك مائة دينار وجامكية ثلاثة شهور عبارة عن مائة وعشرين دينارا لكل مملوك . فأنفق فى ذلك اليوم على أربع طباق ، وأشيع أن هذا العسكر لما يخرج يقيم فى غزة هو والأمراء ويحرسون المدينة الى أن تخرج التجريدة الكبيرة بعد الربيع .

وفيه أرسل السلطان بالقبض على جماعة من الأروام الذين كانوا فى خان الخليلى ، وقد بلغه عنهم أنهم يكاتبون ابن عثمان بما يقع فى مصر من أمور المملكة ، وعندهم جواسيس لابن عثمان ، فأرسل بالقبض عليهم ووضعهم فى الحديد .

وفيه أشيع أن السلطان طلب ابن عثمان الصبى الصغير الذى يقال له قاسم بن أحمد بك ابن عثمان الذى توجه مع السلطان الغورى الى التجريدة ، فلما انكسر العسكر رجع مع الأمراء الى مصر ، فبلغ السلطان أن جماعة يقصدون قتله ، فحاف عليه السلطان من القتل ... فطلع به الى القلعة وأسكنه فى مكان بالبحرة ورتب له ما يكفيه فى كل يوم هو وجماعته .

وفيه حضر الى الأبواب الشريفة الشرفى يحيى ابن الأتابكى أزبك بن ططخ ، وكان مقيما بحماه ، فلما ملكها ابن عثمان فر منها وجاء الى مصر من البحر المالح من جهة طرابلس .

وفيه خلع السلطان على الأمير طقطباى حاجب الحجاب ، وجعله متحدثا فى كشوفية البحيرة عوضا عن يوسف البدرى مضافا لما بيده من الحجوبية الكبرى .

وفى يوم الجمعة سادس عشريه حضر الى الأبواب الشريفة القاضى عبد الكريم بن الجيعان أخو الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكان فى الأسر عند ابن عثمان بالشام ، ففر منه وحضر الى مصر وهو فى زى جمال وعليه بشت وعلى رأسه زنط . وحضر صحبته شخص يقال له أحمد الدمياطى وهو تاجر فى الوراقين ، وأخبر السلطان بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره ، وأن عساكره مختلفون ؟ وأن ناصر الدين ابن الحنش ضيق عليه الطرقات . وصارت العربان تقتل كل من انفرد من عسكره فى الضياع ، وأخبر أنه ملك مدينة الشام وقلعتها ، وملك قلعة طرابلس وصفد وأعمالها ، وصار بيده من الشام الى الفرات ، وأناب فى هذه المدن التى ملكها جماعة من أمرائه كما فعل فى حلب وحماه وحمص وغير ذلك من البلاد . وقيل ان ابن

الحنش أرسل الى السلطان مطالعة يستحثه فى ارسال تجريدة بسرعة قبل أن يزحف ابن عثمان الى غزة . ثم ان السلطان خلع على القاضى عبد الكريم ونزل الى بيته .

وفى يوم الاثنين تاسع عشريه خلع السلطان على ابن خليفة سيدى أحمد البدوى الذى قتله ابن عثمان فى حلب وقرره عوضا عن أبيه بحكم قتله ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وعلى رأسه الأعلام وقدامه سائر الفقراء الأحمدية .

* * *

وفى ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وخلع فى ذلك اليوم على الشرف يحيى بن البرديني وقرره فى قضاء الشافعيه عوضا عن قاضى القضاة كمال الدين الطويل بحكم أسره عند ابن عثمان . وخلع على قاضى القضاة الحنفية حسام الدين محمود ابن الشحنه وأقره فى قضاء الحنفيه على عادته وخلع على الشيخ شمس الدين التتائى وقرره فى قضاء المالكية عوضا عن القاضى محيى الدين الدميرى بحكم اسره عند ابن عثمان وخلع على قاضى القضاة عز الدين الششيبى وأعاده الى قضاء الحنابله عوضا عن شهاب الدين الفتوحى بحكم أسره عند ابن عثمان ... وهذه ثانية ولايه وقعت لعز الدين بن الششيني . فلما خلع السلطان على القضاة الأربعه فى يوم واحد ونزلوا من القلعه وعليهم التشاريف رجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت لهم الناس على الدكاكين بسبب الفرجة . وقد تولى هؤلاء القضاة والقاهرة فى غاية الاضطراب بسبب ابن عثمان .

وفى ذلك اليوم أكمل السلطان النفقة على العساكر المعينة للتجريدة ، وأخذوا فى أسباب عمل البرق والخروج الى غزة ... قيل ان السلطان أنفق على نحو ألفى مملوك ، وهم المعينون للسفر .

وفى يوم الجمعه رابعه طلع ملك الامراء جان بردى الغزالى نائب الشام الى القلعة فصلى مع السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع عليه السلطان وجعله باشا على العسكر المعينين للتجريدة . فلما نزل من القلعة توجه الى وطاقه الذى بالريدانية وخرج من غير طلب ، بل قدامه بعض جنائب خيول بعراقى وطبول بازات ، وقدامه عبيد نفطية ، فتوجه الى الريدانيه فى ذلك اليوم قبل خروج الأمراء والعسكر .

وفى يوم السبت خامسه نادى السلطان للعساكر المعينة للتجريدة بأن يخرجوا صحبة الباشا فى ذلك اليوم ، ومن لا يخرج يستاهل ما يجرى عليه فوقف له جماعة من المماليك المعينة وقالوا لا نخرج ولا نسافر حتى تنفق علينا ثمن جمل ستة أشرفية ، وتصرف لنا العليق ، وثمن اللحم المنكسر . فحصل فى ذلك اليوم بعض اضطراب ، وخرج المجلس مانعا ، والعسكر غير راض ، والأحوال غير صالحة ، وابن عثمان زاحف الى غزة ، ونائب غزة أرسل يقول : أدركونا بالعسكر قبل أن يملك ابن عثمان مدينة غزة ، وتتعبوا فى خلاص البلاد من يده

وفى يوم الأحد سادسه خرج شخص من الأمراء المقدمى الألوف المعينين للسفر ، وصار فى كل يوم يخرج منهم الى الوطاق جماعة شيئا فشيئا ، والباشا جان بردى مقيم بالريدانية حتى يكمل خروج العسكر .

وفى يوم الاثنين سابعه أنفق السلطان على العسكر المعين للسفر ثمن اللحم عن ثلاثة أشهر ، فخص كل مملوك نحو أربعة أشرفية ونصف توسعة عليهم ليستعينوا بذلك .

وفى ذلك اليوم حضر شخصان من المماليك السلطانية وكانا فى بعض الضياع عند العرب .

فدخلا مصر فى هيئة الغلمان بأبشات وعليهما زنوط ، فأخبرا بأن ابن عثمان قد تلاشى أمره وأن عسكره مختلف عليه ، وقد وقع بينه وبين خاير بك نائب حلب ، وربما أشاعوا قتله . ولم يكن لهذا الخبر صحة فى أمر ابن عثمان ولم تثبت صحة هذه الأخبار .

وفى يوم الأربعاء تاسعه حضر دوادار خاير بك نائب حلب ، وزعم أنه قد فر من ابن عثمان ، وأخبر أن ابن عثمان أرسل عسكرا نحو خمسة آلاف فارس صحبة ابن سوار وقد أشرفوا على أخذ غزة ، بل أشاعوا أخذها ، وان نائب غزة قد هرب . فاضطربت الأحوال لهذه الأخبار ، وتنكد السلطان الى الغاية ، ونادى فى ذلك اليوم بالخروج من غير تأخير ، ومن تأخر يستاهل ما يجرى عليه .

فلما كان فى ذلك اليوم خرجت العسكر على وجوههم مسرعين ، وأشيع سفر السلطان بنفسه وصحبته الأمراء قاطبة ، وأنه هو الذى يلاقى ابن عثمان بنفسه وصحبته نائب حلب أمير كبير ، وهو فى الحديد ، وجماعة من أجناد الحلقة بغزة ، وهم فى الحديد ، وأرسل نائب غزة يرافع فيهم بأنهم كاتبوا ابن عثمان بأن يحضر الى غزة ويملكها من غير مانع .

فلما حضروا بين يدى السلطان حلفوا له أن هذا الأمر ما وقع منهم ولا كاتبوا ابن عثمان ، وانما دولات باى نائب غزة بينه وبين أجناد غزة حظ نفس ، فكذب عليهم بهذه التهمة الباطلة ، فصدقهم السلطان على ذلك . وأرسل جان بردى الغزالى نائب الشام يشفع فيهم ويبرئهم مما قالوه فى حقهم بالباطل ، ففكهم السلطان من الحديد ، وأرسلهم الى نقيب الجيش حتى يتبصر فى أمرهم .

وفى يوم الخميس خلع السلطان على الأمير يوسف البدرى الذى كان وزير وقرره ناظر الذخيرة الشريفة ، ووكيل بيت المال عوضا عن الزينى بركات بن موسى .

وفى يوم الجمعة حادى عشره تزايد أمر الاشاعات بأن ابن عثمان أرسل الى غزة عسكرا صحبه جماعة من أمرائه ، منهم شخص يسمى اسكندر باشا ، والآخر يسمى داود باشا ، وآخرون من أمرائه . وأشيع أنهم قد ملكوا مدينة غزة ، وأحرقوا منها بعض بيوت . وأن نائب غزة هرب وعسكر ابن عثمان زاحف على مصر ، وأن الاحوال غير صالحة

فلما تحقق السلطان هذه الأخبار ، أشيع أنه يخرج الى لقاء ابن عثمان بنفسه . ونادى فى ذلك اليوم بأن الزعر والصبيان الشطار والمغاربة وكل من كان مختفيا على قتل قتيل أو عليه دم يظهر وعليه امان الله ، والعرض بهم فى الميدان ، وان السلطان يصرف لهم الجوامك والمركوب ويكونون صحبة الزردخانات اذا سافر السلطان . فلم تعجب الناس هذه المناداة لقوله ولو كانوا قتلوا القتلى يظهرون وعليهم أمان الله — وكان السكوت عن هذا أجمل — فاضطربت الأحوال فى ذلك اليوم ، وارتجت القاهرة ، وخرج العسكر المعين للسفر على وجوههم مسرعين .

وفى ذلك اليوم خرج الأمير خدا بردى الأشرفى أحد المقدمين الذى كان نائب الاسكندرية ، فخرج فى موكب حفل بعير طلب ، وقدامه الجنائب الحربية ، وصحبته الجم الكثير من العسكر من مماليكه . وقيل كان عنده ثلثمائة مملوك ... فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، والنصرة للعسكر على ابن عثمان . وقد صارت الناس فى وجل بسبب ابن عثمان .

وفى يوم السبت ثانى عشره جلس السلطان على

الدكة بالحوش ، وحضر الأمراء فاستحثهم السلطان على أن يخرجوا كلهم فى ذلك اليوم فقال الأمير طقطباى حاجب الحجاب : أنا عزمت على السفر الى البحيرة ... وكان السلطان قد جعله متحدثا فى كشوفية البحيرة . فقالت الأمراء : الخروج الى قتال ابن عثمان أوجب من الخروج الى البحيرة ، وأنت ما خرجت صحبة السلطان الغورى لما سافر ، ولا نهب لك برك ولا قماش . فتعلل أنه ضعيف ، فحصل بينه وبين الأمراء فى ذلك اليوم تشاجر عظيم بحضرة السلطان ، وقصد المماليك الجلبان أن ينزلوا فينهبوا بيته ويحرقوه ... وقيل ان بعض المماليك لكمه وقاسى من البهدلة ما لا خير فيه ، فتقرر الحال على أنه يخرج الى التجريدة صحبة الأمراء ، ومنع السلطان المماليك من نهب بيته .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بالعرض قاطبة .

وفى ذلك اليوم خرج الأمير نائب حماه الذى قرر عوضا عن جان بردى الغزالى فخرج بطلب حربى .

وفى ذلك اليوم خرج الأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين وطلب طلبا حربيا ، وكان قدامه جنائب وطبلان وعلى رأسه صنجق . وصارت الأمراء تخرج شيئا بعد شىء الى قتال ابن عثمان .

وفى يوم الأحد ثالث عشره جلس السلطان بالميدان وعرض العسكر الذين كانوا مسافرين الى التجريدة ، فكتبهم الى السفر ثانيا ولم يترك منهم الا القليل . فعرض فى ذلك اليوم أربع طباق وكتب غالب من فيها من المماليك .

وفى ذلك اليوم عرض السلطان عجلة من خشب تجرها أبقار ، وفيها رماة بالبندق الرصاص ... وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك . وعرض جمالا وفوقها مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال . وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب . فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال ، وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه الى قتال ابن عثمان ، واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة ولم ينفق على الأمراء شيئا ، وقال لهم : اخرجوا قاتلوا عن أنفسكم وأولادكم وأزواجكم فان بيت المال لم يبق فيه لا درهم ولا دينار ، وأنا واحد منكم ، ان خرجتم خرجت معكم ، وان قعدتم قعدت معكم ، وما عندى نفقة أنفقها عليكم .

وفى يوم الاثنين رابع عشره جلس السلطان بالحوش وعرض من العسكر أربع طباق .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان تغير خاطره على الزينى بركات بن موسى وأعاده الى الترسيم بعد ما كان ترشح أمره الى اعادته فى وظائفه . وكان سبب ذلك أن السلطان لما حصل لابن موسى ما حصل قرر عليه مالا فلم يورد منه الا القليل ، وادعى العجز . فلما جاء على السلطان أمر نفقة العسكر وخروجهم بسرعة ، ضيق على أصحاب المصادرات ، منهم : ابن موسى ، ومحمد المهتار ، وجمال الدين بواب الدهيشة ، وآخرون ممن بقيت عليهم بواقى الأموال المنكسرة ليستعين بذلك على نفقة العسكر ... ومن حين قرر يوسف البدرى فى وظائف ابن موسى آل أمره الى العكس والزوال .

وفيه خرج الأمير قانصوه الفاجر أحد المقدمين وتوجه الى السفر .

وفى يوم الاثنين المتقدم ذكره خرج الأمير طقطباى حاجب الحجاب وتوجه الى السفر ، فطلب طلبا وقدامه طبلان وزمران وبعض جنائب ، كما خرج أرزمك الناشف .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره جلس السلطان بالميدان وعرض بقية العسكر ثم نادى فى ذلك اليوم بأن الأمراء وبقية العسكر يخرجون فى هذا اليوم ومن تأخر لا يسأل عما يجرى عليه . وقد خرج هذا العسكر فى قلب الشتاء فى وسط الأربعانية وقاسى غاية المشقة .

وفى هذا اليوم خرج الأمير تانى بك النجمى أحد الأمراء المقدمين بطلب حربى .

وفى يوم الخميس سابع عشره خرج الأمير ألماس والى القاهرة وبرز الى السفر فى ذلك اليوم .

وفيه قبض على شخص أعجمى كان يصنع السنبوسك عند قناطر السباع ، فوجدوه قد عمد الى كلب أسود سمين فذبحه وسلخه وعمل منه السنبوسك ، فلما قبضوا عليه أحضروه بين يدى الأمير ماماى المحتسب ، فضرب العجمى بالمقارع وأشهره فى القاهرة والكلب معلق فى رقبته ، فطافوا به فى المدينة ثم سجنوه فى المقشرة ولم تزل الاعجام تقع منهم هذه الفعلة الشنيعة من قبل .

وفى يوم الاثنين حادى عشريه وقع فيه من الحوادث ان بعض المماليك السلطانيه خرجوا يسيرون نحو المطرية ، فرأوا جماعة مقبلين من نحو بركة الحاج ، فلما قربوا منهم فاذا هم من جماعة ابن عثمان ، فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا نحن قصاد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكانوا نحو خمسة عشر انسانا ، وفيهم القاصد الكبير ، وهو رجل شيخ بلحية بيضاء وعليه ثياب مخملة . ورأوا صحبتهم شخصا من مصر يقال له عبد البر ابن محاسن ، كان كاتب الخزانة عند الأتابكى سودون العجمى ، فلما قتل وملك ابن عثمان حلب والشام ، تحشر فيه بواسطة يونس العادلى والسمرقندى ، فلما أرسل ابن عثمان هذا القاصد ما جسروا يجيئون من جهة غزه ، فان نائب الشام جان بردى الغزالى كان بالقرب من غزة يحاصر جماعة ابن عثمان الذين بغزة ، فبرطل القاصد بعض العربان بمال له صورة حتى أتوا بهم من طريق الدرب السلطانى وطلعوا بهم من التيه وأتوا بهم الى عجرود فما شعر بهم أهل مصر الا وهم فى وسط المدينة فلما صادفهم هؤلاء المماليك قبضوا على القاصد الكبير وعلى جماعته وعلى محاسن ، ووجدوا معهم ثلاثة من العربان ، فقبضوا على الجميع فبينما هم على ذلك اذ رأوا ثلاثة أنفار من الأروام الذين فى خان الخليلى قد أتوا اليهم وسلموا عليهم ، وباسوا أيديهم ، فقبض عليهم هؤلاء المماليك وقالوا لهم . « من اين علمتم أن هذا القاصد يجيء اليوم حتى أتيتم اليه ؟ ما أنتم الا جواسيس من عند ابن عثمان » . فقبضوا عليهم بعد ما أشبعوهم ضربا ، وأتوا بالكل الى بيت الأمير علان الدوادار الكبير .

فلما دخل القاصد بيت الأمير علان ، قالوا له انزل عن فرسك وسلم على الأمير الدوادار ، فلم يوافق على ذلك ، وأغلظ عليهم فى القول . ثم سل سيفه وهاش على من حوله من جماعة الدوادار .

فلما راى الدوادار الكبير ذلك ، رسم للمماليك أن ينزلوه عن فرسه غصبا ، فأنزلوه وأخذوا سيفه منه ، ثم بهدلوه ومن معه من العثمانية ، وضربوهم ومسكوهم وعروهم من ثيابهم ، ووضعوهم فى الحديد بعد ما قاسوا غاية البهدلة من جماعة الدوادار .

فلما بلغ السلطان ذلك رسم للأمير مغلباى دوادار سكين — الذى كان أرسله السلطان الغورى الى ابن عثمان وحصل منه فى حقه غاية البهدلة — فقال

له السلطان « انزل وبهدل قاصد ابن عثمان كما بهدلوك » . فأخذ خشداشينه وتوجه بهم الى بيت الأمير علان على أنهم يوقعون فى جماعة ابن عثمان فعلا من أنواع البهدلة ، أو يقتلونهم ، فما مكنهم الأمير علان من ذلك .

... ابن محاسن الذى حضر صحبتهم ، فلما مثل بين يدى السلطان شرع يطنب فى أوصاف ابن عثمان وفى تزايد عظمته . فمن جملة ما حكى عنه أنه لما دخل الى حلب قطع فى يوم واحد ثمانمائة رأس من جماعة اهل مصر من جملتهم خليفة سيدى أحمد البدوى وآخرين من الأعيان ممن تخلفوا بحلب . وأخبر ان عسكر ابن عثمان فوق الستين ألف انسان ، وأنه خطب باسمه من بغداد الى الشام ، وأن معاملته ماشية من بغداد الى الشام ؛ وأنه لما دخل الى الشام وملكها شرع فى عمارة سور وأبراج من القابون الى آخر مدينة دمشق ، ويجعل فى ذلك السور أبوابا تغلق على المدينة ، وهو فى همة زائدة ، ويقول ما أرجع حتى أملك مصر ، واقتل جميع من بها من المماليك الجراكسة ... وأخبر ان ابن عثمان يحتجب عن عسكره أياما لا يظهر فيها ، ففى هذه المدة يقتل عسكره خلقا فى المدينة ويتجاهرون بالمعاصى والفسوق ، وانهم لا يصومون شهر رمضان ، ويشربون فيه الخمر والبوزة ، ويستعملون فيه الحشيش والبرش ، ويفعلون الفاحشة فى الصبيان المرد فى شهر رمضان ، وأن ابن عثمان لا يصلى صلاة الجمعة الا قليلا ... وقد أشيعت عن ابن عثمان هذه الأخبار الشنيعة من غير ابن محاسن ممن شاهد هذا من أفعال عسكره بحلب والشام .

فلما أطنب ابن محاسن فى أخبار ابن عثمان ، حنق منه السلطان ، وقال له : « أنت جاسوس من عند ابن عثمان أتيت لتكشف أخبارنا وتطالعه بذلك » . فرسم بسجنه فى البرج الذى بالقلعة ، فسجن به أياما حتى طلع الأتابكى سودون الدواداري وشفع فيه حتى أطلقه من البرج ، وقد قطع قلب العسكر بما حكاه عن ابن عثمان .

ثم ان السلطان رسم بشنق اثنين من العربان الذين أتوا بالقاصد من هذه الطريق التى كانت مخفية عليهم . وأشيع أنه حضر صحبة القاصد من جماعة ابن عثمان نحو أربعين نفرا ، فاختفوا فى القاهرة . فلما بلغ السلطان ذلك نادى فى خان الخليلى « بأن لا أحد يأوى عنده غريبا من جماعة ابن عثمان ، ومن غمز عليه بأن عنده أحد من العثمانية شنق من غير معاودة » .

ثم ان السلطان أرسل أخذ المطالعات التى حضرت على يد القاصد ، ولم يقابله . فوجدوا معه عدة مطالعات للأمراء والمباشرين وأعيان الديار المصرية . فالذى أشيع من مطالعة السلطان أن غالب ألفاظها تركيه ، وكان من مضمونها : من مقامه السعيد الى الأمير طومان باى ، أما بعد ، فان الله قد أوحى الى بأنى أملك البلاد شرقا وغربا كما ملكها الاسكندر ذو القرنين . ومن جملة المطالعه وعد ووعيد ، وتهديد وتشديد فمن جملة ذلك « أنك مملوك تباع وتشترى ، ولا تصلح لك ولايه ، وأنا ملك بن ملك الى عشرين جدا ، وقد توليت الملك بعهد من الخليفة والقضاة » . وذكر فى مطالعته أشياء كثيرة من هذا النمط . ثم ذكر فى أثناء المطالعه « وان أردت أن تنجو من سطوة بأسنا فاضرب السكة فى مصر باسمنا ، وكذلك الخطبة ، وتكون نائبنا بمصر ، ولك من غزة الى مصر ، ولنا من الشام الى الفرات ، وان لم تدخل تحت طاعتنا ، أدخل الى مصر ، وأقتل جميع من بها من الجراكسة حتى أشق بطون الحوامل ، وأقتل الأجنة التى

فى بطونهن من الجراكسة » . وأظهر التعاظم وقوة البأس ، ولعل الله تعالى أن يخذله بسبب هذا التعاظم الزائد . وفى آخر مطالعته : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . فلما قرئت هذه المطالعة على السلطان بكى وحصل له غاية الرعب . وكانت المماليك الجلبان اتفقوا على أنه اذا طلع القاصد الى القلعة ، يقطعونه بالسيوف ، فلم يطلع الى القلعة بسبب ذلك .

وفيه أشيع بين الناس ما فى مطالعة ابن عثمان من هذه الدعاوى العريضة كما تقدم ذكره . ثم اضطربت أحوال الديار المصرية ، وأخذ كل أحد حذره من ابن عثمان ، وقالوا مثل ماطرقتنا قصاده على حين غفلة ، كذلك هو يطرقنا أيضا على حين غفلة . فشرع الناس فى تحصين أماكن فى أطراف المدينة وجوانبها ليحتفوا فيها اذا دخل ابن عثمان الى مصر ، وبعض الناس عول على أن ينزل هو وأولاده وعياله ويتوجه الى أعلى الصعيد اذا تحقق مجىء ابن عثمان .

وأشيع أن خاير بك نائب حلب ، الذى عصى ودخل تحت طاعة ابن عثمان ، أرسل مطالعات الى بعض الأمراء المقدمين ، وهو يرغبهم فى الدخول تحت طاعة ابن عثمان ، وشرع يطنب فى محاسنه وعدله بين الرعية ، وأنه اذا دخل مصر يبقى كل أحد من الأمراء على وظيفته وعلى رزقه . وكل هذا حيل وخداع ، حتى يتمكن من الدخول الى مصر .

ثم ان السلطان نادى للعسكر أن أول النفقة يوم الأربعاء ثالث عشرى الشهر ، فجلس السلطان بالحوش على الدكة ، وطلع العسكر لقبض النفقة فلما طلعوا أنفق عليهم لكل مملوك ثلاثون دينارا وجامكية ثلاثة أشهر بعشرين دينارا ، فرموا تلك النفقة فى وجهه ، وقالوا ما نسافر حتى نأخذ مائة دينار كل مملوك ، فاننا لم يبق عندنا لا خيول ولا قماش ولا برك ولا سلاح ، فنزلوا كلهم من القلعة على حمية ، وهم على غير رضا ، فحنق منهم السلطان وقام عن الدكة وطلع المقعد ، وقال « ما أقدر على مائة دينار لكل مملوك ، والخزائن فارغة من المال ، وان لم ترضوا بذلك فولوا عليكم من تختارونه فى السلطنة ، وأنا أتوجه الى مكة أو غيرها من البلاد » فوقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب ، وأشيع أن بعض المماليك قال للسلطان « ان كنت تعمل سلطانا فامش على طريقة من تقدمك من الملوك ، وان رحت لعنة الله عليك ، غيرك يجى يعمل سلطانا » . فسمع ذلك بأذنه منهم .

وأشيع أن السلطان قال للعسكر « أنتم أخذتم من السلطان الغورى ثلاثين دينارا ولم تقاتلوا شيئا ، وكسرتم السلطان وحنتموه حتى قتل » . فنزل العسكر على غير رضا ... وأشيع اثارة فتنة بين العسكر .

ثم انه فى ذلك اليوم نادى السلطان بأن جميع الأمراء من الأكابر والأصاغر يطلعون غدا باكر النهار ، فان العرض عام . وانفض المجلس على ذلك .

فلما كان يوم الخميس رابع عشريه ، جلس السلطان على الدكة بالحوش ، وطلع الأمراء قاطبة والعسكر ، وطلع سيدى محمد ابن السلطان الغورى ، فقال السلطان : « هذا ابن أستاذكم قد حضر ، اسألوه ان كان أبوه ترك فى الخزائن شيئا من المال يخبركم بذلك ، وان كنتم تسلطنونه فانا أول من يبوس له الأرض » . فقالت المماليك الجلبان : « نحن نسافر بلا نفقة حتى نأخذ بثأر

أستاذنا » . وقالت المماليك القرانصة « نحن ما نسافر حتى نأخذ مائة وثلاثين دينارا كما أعطى من سافر قبلنا » . فانفض المجلس مانعا أيضا ... وكثر القال والقيل فى ذلك اليوم .

وأشيع أن بعض الأمراء قال للسلطان : اعمل كما عمل الأشرف قايتباى والسلطان الغورى ، وخذ من الأملاك والأوقاف والرزق والاقطاعات لتستعين بذلك على النفقة بسبب دفع العدو عن مصر . فلم يوافق السلطان على ذلك ، وقال : ما أحدث فى أيامى مظلمة أبدا . فشكره الناس على ذلك ، ودعوا له . ولو فعل ذلك جاز وقالوا يعذر لأجل دفع العدو . وما ثم فى الخزائن مال ولكن وفقه الله تعالى الى فعل الخير ، وسطر أجر ذلك فى صحيفته الى يوم القيامة ، فكان كما قيل فى المعنى :

للخير أهل لا تزا ل وجوهه تدعو اليه
طوبى لمن جرت الأمو ر الصالحات على يديه

وفى هذا اليوم أشيع أن السلطان أرسل يقول لأولاد الملك المؤيد . وأولاد الملك المنصور ، وأولاد الأمراء الذين بمصر ، اعملوا برفكم واخرجوا للسفر ، والذى لا يسافر منكم يقيم له بديلا عوضا عنه للسفر

وقيل وزع على جماعة من المباشرين والخدام من الطواشية مالا له صورة مساعدة السلطان على النفقة . وشرع السلطان فى بيع قماش وسلاح وتحف وذخائر وصوف وسمور وبعلبكى وغير ذلك من الأصناف ، وأخذ من ابن السلطان الغورى مالا له صورة مساعدة على النفقة

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان أرسل بعض الخاصكية الى الأتابكى قيت الرجبى لنقله من ثغر الاسكندرية الى ثغر دمياط ، وأرسل مراسيم شريفه الى الظاهر قانصوه الذى بثغر ... أن يسكن فى قاعة الملك المؤيد بالاسكندرية ، وأن يركب ويصلى صلاة الجمعة مع الناس فى الجامع ، وأن يسير نحو البساتين التى بالاسكندرية .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه خرج الامير خاير بك المعمار أحد الأمراء المقدمين والأمير أزبك المكحل ، فخرجا فى ذلك اليوم الى التجريدة وطلبا أطلابا حربية .

وفى يوم السبت سادس عشريه طلع العسكر بسبب العرض ، ولم يطلع فى ذلك اليوم أحد من الأمراء المقدمين ، واحتجب السلطان فى الدهيشة ولم يخرج الى العسكر ، فنزلوا الى بيوتهم من غير طائل .

وفى هذا اليوم ، نادى السلطان بأن لأحد من الناس يتجاهر بالمعاصى ، ولا يهودى ولا نصرانى يبيع خمرا ، ومن شهر عليه بيع الخمر شنق من غير معاودة ، وكذلك البوزة والحشيش . فلم يسمع له أحد ذلك ولم ينتهوا عما هم فيه .

* * *

وفى ذى الحجه ، كان مستهل الشهر يوم الخميس ، طلع القضاة الذين تولوا جديدا فى الشهر الماضى ، وهنوا السلطان بالشهر ونزلوا الى بيوتهم .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم السبت ثالث الشهر ، وقد اتفق مع العسكر على أنه ينفق لكل مملوك خمسين دينارا ، ويصرف ثمن اللحم المنكسر خمسة أشهر ، والعليق المنكسر ، فتراضوا .

وفيه أنعم السلطان بامرية عشرة على جماعة من الخاصكية نحو عشر أنفس ، منهم شخص يقال

... خير بك الجمدار ، وهو من خيار مماليك الأشرف قايتباى .

وفيه أشيع أن السلطان خرج عن ألف دينار فرقها على الفقراء الذين فى الزوايا وفى المزارات التى بالقرافة وغيرها من المزارات ، وفرق عليهم أيضا قمحا لكل زاوية خمسة أرادب . وقال لهم ادعوا بالنصر للسلطان وهلاك العدو . وقرأ عدة ختمات فى المزارات ، منها عند الامام الشافعى والامام الليث وغير ذلك من المزارات .

وفيه استحث السلطان أولاد السلاطين وأولاد الأمراء والمباشرين والخدام فيما قرره عليهم من المال بسبب النفقة ، وأشيع أنه أخذ من ابن السلطان الغورى مالا له صورة . وقيل ان السلطان الغورى كان قد خصص ولده قبل أن يسافر الى البلاد الشامية بمائة ألف دينار ... هكذا أشيع .

وفى يوم السبت ثالثه طلع العسكر الى القلعة ليقبضوا النفقة كما نادى ، فورد على السلطان فى ذلك اليوم أخبار ردية بأن العسكر الذين توجهوا الى غزة قد انكسروا فى يوم الأحد رابع عشرى ذى القعدة .

ومن العجائب أن الواقعة الأولى التى انكسر فيها السلطان الغورى كانت فى يوم الأحد خامس عشرى رجب ، فكان التفاوت بينها وبين هذه الواقعة يوما واحدا ، وهذا من العجائب . وهذه الكسرة الثانية كانت يوم الأحد .

وكان من ملخص أخبار هذه الكسرة ، أن جان بردى الغزالى — نائب الشام — خرج الى التجريدة قبل العسكر بمدة أيام ، وصار الأمراء والعسكر يخرجون بعده متفرقين بتكاسل زائد فلما أبطأوا على الغزالى جمع بعض عربان وتقدم الى غزة هو والأمير أرزمك الناشف أحد المقدمين الذى ولى نيابة حماه ، ودولات باى نائب غزة ، وأصله من مماليك السلطان الغورى ، وجماعة من المماليك السلطانية ، فقاطعوا على عسكر ابن عثمان من طريق الدرب السلطانى ، فتلاقوا مع عسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان .

وكان باش العسكر العثمانية سنان باشا ومعه آخرون من أمرائه ومن العساكر العثمانية الجم الكثير ، وكان جان بردى الغزالى ومن معه من الأمراء فى فئة قليلة من العسكر ، فوقع بين الفريقين هناك واقعة مهولة تشيب منها النواصى ، وكان ذلك بالقرب من بيسان ، فانكسر الأمير جان بردى الغزالى ومن معه من العساكر والأمراء ، وقتل الأمير خدابردى أحد الأمراء المقدمين ، وقتل الأمير على باى السيفى ، وأزدمر الدوادار أحد الأمراء الطبلخانات ، وأشيع موت جماعة من الأمراء ولكن لم أقف على صحة من قتل من الأعيان فى هذه المعركة .

وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالى قد جرح والأمير أرزمك الناشف أيضا . وقتل من المماليك السلطانية جماعة ، ومن الغلمان ما لا يحصى عددهم ، وقد حزت رءوسهم بالسيوف . وقيل ان هذا الخبر ورد من عند الأمير طقطباى حاجب الحجاب ، وكان من حين خرج الى السفر وهو مقيم بالصالحية ، فورد عليه بعض المماليك السلطانية وأخبره بذلك ، فطالع السلطان بما قد جرى من أمر هذه الحركة المهولة .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان قد احتوى على برك الغزالى وأرزمك الناشف لما وقعت الكسرة ، فلم يتركوا لهما بركا ولا خيولا ولا جمالا ولا سلاحا . وقد تقوى العثمانية ثانيا بهذه الكسرة

الثانية ، ولم ينج من عسكر مصر فى هذه المعركة الا من طال عمره .

وقيل ان مماليك الغورى هم الذين أحسوا بالعسكر وبادروا بالهروب حتى وقعت هذه الكسرة الثانية ، ولما تزايدت الأقوال فى ذلك عين الأمير سنبل مقدم المماليك بأن يتوجه الى الصالحية ليكشف الأخبار ، فخرج من يومه وسافر .

وفى يوم الأحد رابعه وقعت حادثة مهولة وهى أن السلطان نزل الى الميدان ، واجتمع الأمراء والعسكر فلم يشعروا الا وقد قامت ضجة كبيرة فى الرميلة ، وأشاعوا أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى الريدانية ، فقال السلطان للعسكر : « كم قلنا لكم اخرجوا للتجريدة ما ترضون تسافرون . فاخرجوا ولاقوا ابن عثمان » . فلبس العسكر آلة الحرب وركبوا قاطبة ، ورجت القاهرة رجا مهولا ، ووزع الناس قماشهم فى الأماكن المخفية .

فلما اضطربت الأحوال ركب العسكر وتوجهوا الى الريدانية ، فلم يروا هناك أحدا من العثمانية ، فرجع العسكر الى بيوتهم بعد ما ارتجت القاهرة ، وعول الناس على أن يحتفوا فى فساقى الموتى ، ثم أسفرت هذه الواقعة عن جماعة من العربان نزلوا من الجبل وأتوا الى الريدانية فأشاع الذى رآهم من بعد أنهم من العثمانية ، فانتشرت هذه الأخبار فى القاهرة من غير سبب

وفى هذا اليوم أفرج السلطان عن الأمير قانصوه الأشرفى الذى كان نائب حلب ، وسلم القلعة الى ابن عثمان من غير قتال ولا محاصرة . فتغير خاطر السلطان عليه بسبب ذلك وسجنه فى البرج بالقلعة ، فأقام به مدة ثم أفرج عنه فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنين خامسه دخل الأمراء والعسكر الذين توجهوا الى غزة وانكسروا من عسكر ابن عثمان ، فدخل جان بردى الغزالى وأرزمك الناشف وبعض أمراء عشراوات ، ودخل العسكر وهم فى أنحس حال مما جرى عليهم من النهب والقتل ، أنحس من المرة الأولى ... فدخل بعض المماليك السلطانية وهم راكبون على حمير ، وبعضهم على جمال ، وقد نهب قماشهم وخيولهم وسلاحهم ، ولم يسلم من القتل الا من كان فى أجله مدة . وذكروا عن ابن عثمان أن مع عسكره رماحا بكلاليب يخطفون بها الفارس عن فرسه ويلقونه على الأرض . وذكر جان بردى أنهم رموه على الأرض ولولا غلمانه قاتلوا عنه العثمانية لكانوا حزوا رأسه مثل الأمير خدابردى الذى قتل .

وحكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر ، لا يحصى عددهم ، وأن معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر ، وحكوا عنهم أشياء كثيرة من هذا النمط .

وحضر الأمير دولات باى نائب غزة الذى كان بها . وحضر أيضا الأمير بخشباى الذى كان مشد الشون ، أخو الأمير كرتباى الذى كان والى القاهرة ، وكان أشيع موته فى الواقعة التى وقعت فى مرج دابق ، فظهر أنه فى قيد الحياة ، وكان مختفيا عند العرب ، فحضر فى ذلك اليوم ، وحضر أيضا شخص من الأمراء العشراوات يقال له قرقماس الرجبى ، وكان أشيع موته فى الواقعة التى كانت فى مرج دابق ، فظهر أنه فى قيد الحياة ، وحضر أيضا جماعة كثيرة كان أشيع موتهم ، فظهر أنهم فى قيد الحياة .

فلما طلع الأمير جان بردى الغزالى والأمير أرزمك الناشف الى القلعة ألبسهما السلطان كلاريات بسمور ونزلا الى منزلهما . وقد فرح

كل واحد من الناس بسلامتهما لأنهما فرسان الاسلام ، فدقت لهما البشائر على أبواب دورهما .

فلما حضر الغزالى ومن معه من الأمراء والعسكر ، ظهر أمر من قتل من الأمراء العشراوات والعسكر والغلمان ، فصار فى كل حارة نعى مثل أيام الفصول .

وفى ذلك اليوم نادى السلطان للعسكر بأن أول النفقة يوم الثلاثاء سادسه ، فلما طلع النهار بادر العسكر بالطلوع الى القلعة فابتدأ السلطان بتفرقة النفقة على العسكر ، فأعطى لكل مملوك خمسة وعشرين دينارا ، وأعطاهم ثمن الأضحية على العادة ، وكان أولا سألهم بأن يعطيهم ثلاثين دينارا كل مملوك فأبوا ذلك .

فلما رأوا عين الجد وأن ابن عثمان زاحف على البلاد ، وقد وصل الى قطيا ، رضوا بخمسة وعشرين دينارا نفقة ، ونزلوا من القلعة وأخذوا فى أسباب آلة السفر .

وفيه ورد على السلطان أخبار ردية بأن سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان الذى ملك مدينة غزة قد لعب فى أهل غزة بالسيف ، وقتل منهم نحو ألف انسان ما بين نساء ورجال وصغار . وكان سبب ذلك أن الغزالى لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة ، أشيع فى غزة أن الغزالى قد انتصر على عسكر ابن عثمان ، وقتل سنان باشا ، وعسكر ابن عثمان . فبادر على باى دوادار نائب غزة وأجناده فنهبوا وطاق العثمانية وأحرقوا خيامهم ، وقتلوا من كان فى الوطاق والمدينة من العثمانية نحو أربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان ، ومن كان بها مريضا ، وأحرقوا الخيام التى كانت فى وطاقهم .

فلما ظهر أن الكسرة على عسكر مصر ، وقتل من قتل من الأمراء ، رجع سنان باشا الى غزة ، فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق ، فجمع أهل غزة قاطبة وقال لهم : « من فعل ذلك بنا ! » ، قالوا : « على باى دوادار نائب غزة وأجناد غزة ، ولم نفعل نحن شيئا من ذلك » . فأمر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا بها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم . فقال لهم سنان باشا : « نحن لما دخلنا غزة هل شوشنا على أحد منكم أو نهبنا لكم شيئا ؟ » قالوا لا ، فقال لهم : « كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ؟ » فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجة ... فعند ذلك أمر عسكره أن يلعبوا فيهم بالسيف ، فقتلوا منهم ما لا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا .

وقد قيل فى المعنى :

ان ترمك الأقدار فى أزمة
أوجبها أجرامك السالفه
فادع الى ربك فى كشفها
ليس لها من دونه كاشفه

وفى يوم الأربعاء سابعه حضر الى الأبواب الشريفة جماعة من طوائف العربان من غزالة ومحارب ، ومن عربان هوارة . وكان السلطان ألزم مشايخ العربان أن يأتوا وصحبتهم جماعة من فرسان العربان ممن هو أشجعهم ، حتى يتوجهوا صحبة التجريدة مع العسكر . فلما حضروا نزلوا بالجيزة ، واجتمع بها الجم الكثير من العربان ، ثم دخلوا الى الرميلة ونزلوا بها حتى يعرضهم السلطان بالميدان . وقد انحط أمر الترك عند العرب والفلاحين بسبب هذه الكسرات التى وقعت للعسكر ، وتملك ابن عثمان البلاد الشامية ، وثبت عند الناس أن دولة الچراكسة قد آلت الى الانقراض ، وأن ابن عثمان هو الذى يملك البلاد

وصار جماعة من الفلاحين اذا أتاهم قاصد من باب أستاذهم يقولون ما نقدر نعطى خراجا حتى يتبين لنا أن البلاد لكم أو لابن عثمان ، فنبقى نورد الخراج مرتين . وقد اضطربت الأحوال برا وبحرا والأمر الى الله تعالى .

وفى ذلك اليوم أشيع بين الناس أن السلطان وسم بتغريق القاصد الذى حضر من عند ابن عثمان ، وقد تقدم ذكر ذلك ، فأشيع أنهم أغرقوه ومن معه من العثمانية تحت الليل ... هكذا أشيع .

وفيه ابتدأ السلطان بتفرقه الأضحية على العسكر ولم يعط المماليك الذين كانوا صحبة الغزالى وانكسروا ، فقال لهم السلطان : أنتم هربتم ولم تقاتلوا شيئا ، وخنتم الأمراء حتى انكسروا .

وفيه أشيع بين الناس أن أوائل عسكر ابن عثمان قد وصل الى قطيا ، وقد تملكوا القلعة التى بالطينة ، وهرب من كان بها من أولاد الناس القاطنين بها . وقيل لم يثبت أمر هذه الاشاعة

وفى يوم السبت عاشره كان عيد النحر فخرج السلطان وصلى صلاة العيد ، وطلع الأمراء بالشاش والقماش على جارى العادة وكان موكب العيد حافلا ، لكن كان الناس فى غاية الوجل والخوف من ابن عثمان . وقد بلغ الناس أن أوائل عسكره وصل الى قطيا ، ولا سيما ما بلغ الناس مما فعله عسكر ابن عثمان بأهل غزة من القتل والنهب وسبى النساء وقتل الأطفال ، كما أشيع ذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره أخرج السلطان الزردخاناه الشريفة التى يخرجها صحبة العسكر ، فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التى كان صنعها بسبب التجريدة ، فكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانية ربة ، وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق الرصاص ... فنزل السلطان من المقعد وركب وفى يده عصا ، وصار يرتب العجلات فى مشيها بالميدان ، ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق نحو ألف وخمسمائة طارقة ، ومحملة أيضا بارودا ورصاصا وحديدا ورماح خشب ، وغير ذلك . وقدام العجلات أربعة طبول وأربعة زمور . وقدامها من الرماة نحو مائتى انسان ما بين تركمان ومغاربة ، وبأيديهم صناجق بعلبكى أبيض وكندكى أحمر ، وهم يقولون الله ينصر السلطان . وجماعة من النفطية ما بين عبيد وغيرهم يرمون بالنفط قدام العجلات .

وركب قدامها الأمير مغلباى الزردكاش الكبير ، ويوسف الزردكاش الثانى ، وجماعة من الزردكاشية ، وعبد الباسط ناظر الزردخاناه ، والشهابى أحمد بن الطولونى ، وقدامهم الجم الكثير من النجارين والحدادين الذين يعينوا للسفر مع التجريدة ... فخرجوا من باب الميدان الى الرميلة ونزلوا من جهة القبور ، وشقوا من البسطيين ، ودخلوا من باب زويلة ، وشقوا من القاهرة فرجت بهم القاهرة فى ذلك اليوم ، واصطفت الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكان يوما مشهودا . وارتفعت الأصوات له بالدعاء بالنصر على ابن عثمان الباغى ، وتباكى الناس لما عاينوا تلك العجلات والمكاحل والهمة العالية التى من السلطان فيما صنعه . واستمروا شاقين من القاهرة حتى خرجوا من باب النصر وتوجهوا الى الريدانية عند تربة العادل التى هناك .

وأشيع أن امرأة قتلت فى ذلك اليوم من شدة الازدحام ، فلما وصلت العجلات الى تربة العادل صفوهم هناك الى أن تخرج الأمراء . فكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة فى الفرجة

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره ، أشيع أن بعض

الناس شفع فى المماليك الذين حضروا من غزة ، ولم يصرف لهم السلطان الأضحية ، فصرفها لهم فى ذلك اليوم بعد ما ويحهم بالكلام . وقال لهم كيف هربتم حتى كسرتم الأمراء ولم تقاتلوا وبقى وجهكم أسود بين الناس ؟

وفى يوم الأربعاء رابع عشره ، حضر الى الأبواب الشريفة الناصرى محمد بن شمس الدين القوصونى رئيس الطب ، وكان فى حلب آسيرا عند ابن عثمان ، فهرب من هناك مع العربان ، وغرم لهم مالا له صورة حتى آتوا به الى مصر فطلع وقابل السلطان فى ذلك اليوم ، وقد غير هيئته وحلق ذقنه وتزيا بزى العرب ، حتى تخلص من جماعة ابن عثمان ، وأخبر السلطان آنه قد بلغه عن ابن عثمان آن عسكره مختلف عليه ، وآنه مات له من الجمال والخيول ما لا يحصى عدده من الثلج الذى وقع بالشام ، وأن الغلاء هناك ، وآن عسكره قد قلق من البرد والثلج وموت الخيول .

وأشيع فى ذلك اليوم آن عسكر ابن عثمان كان فى غزة ورحل عنها ، وقد صارت العربان تقتل منهم جماعة كثيرة ممن يجدونه فى الضياع ، فيقتلونهم ويهربون فى الجبال .

وفى يوم الخميس خامس عشره طلع العسكر لقبض الجامكية ، فقال لهم الطواشية : « يا أغوات ما فى هذا اليوم جامكية ، البلاد خراب ، والعرب مشتتة فى الطرقات ، والمدركون ومشايخ العربان ما آرسلوا من التقاسيط التى عليهم شيئا ، فان حصل شىء على يوم الاثنين ينفق لكم » .. فنزل العسكر من القلعة وهم فى غاية النكد ، فان لهم ستة آشهر لم يصرف لهم السلطان من اللحم المنكسر شيئا ، وقد تعطلت الجوامك أيضا .

وفى ذلك اليوم خلع السلطان على قانصوه رجلة ، أحد الامراء المقدمين الذى كان نائب قطيا ، وقرره كاشف الشرقيه عوضا عن قجماس الذى كان بها ، فانه كان عاجزا عن اصلاح أحوال الشرقية . وخلع على آلماس كاشف الغربية بآن يستمر على عادته فى كشف الغربية . وخلع على الأمير آبرك الوزير والاستادار باستمراره على عادته . وكان آشيع عزله . وقد صارت آحوال الديار المصرية فى هذه الأيام فى غاية الاضطراب من وجوه شتى

وفى يوم الجمعة صلى السلطان صلاة الجمعة ، ثم خلع على الأتابكى سودون الدوادارى ، وقرره باش العسكر على التجريدة .

وفيه حضر الأمير طقطباى حاجب الحجاب وكان قد توجه صحبة التجريدة المعينة الى غزة ، فأظهر أنه مريض ، وآقام بالصالحية فلما انكسر جان بردى الغزالى ورجع الى مصر ، آقام بقية الأمراء فى الصالحية الى أن تخرج التجريدة التى تعينت ثانيا ، فلما حضر الأمير طقطباى دون الأمراء الذين هناك عز ذلك على الأمراء والعسكر ، ونسبوه الى العجز ، وصار ممقوتا عند العسكر قاطبة .

وفيه آشيع أن السلطان رسم لطوائف العربان الذين حضروا بأن يرجعوا الى بلادهم . وقد أشار بعض الأمراء على السلطان أن العربان ليس لهم فائدة فى خروجهم مع التجريدة ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم .

وفى يوم الأحد ثامن عشره ورد على السلطان أخبار ردية بأن ابن عثمان خرج من الشام بنفسه هو وعساكره ، وهو قاصد مصر ، وقد أشيع أنه قسم عسكره فرقتين ، فرقة تجىء من الدرب السلطانى ، وفرقة تجىء من التيه .

وفى أثناء هذا الشهر خلع السلطان على الأمير

اينـال خازندار الأمير طـراباى ، أحـد الأمراء العشراوات ، وقرره فى نيابة دمياط عوضا عمن كان بها ، فلما بلغ السلطان هذا الخبر المتقدم آرسـل أحضر الأمراء وضربوا مشورة فى ذلك . وأشيع أن السلطان يحرج الى الريدانية ويقيم بها ، ويقسم العسكر فرقتين فرقة تتوجه الى ناحيـة عجرود ، والفرقة الثانية تتوجه الى المكان الذى جاء منه القاصد الذى تقدم ذكره . وكان الأمراء عـولوا على خروج التجريدة من أول السنة الجديدة ، فلما وردت عليهم هـذه الأخبار اضطربت أحوالهم ، ورسم لهم السلطان أن يبرزوا خيامهم فى الريدانية بسرعة ، ويكونوا على يقظة ، فان ابن عثمان قد وصـل الى غزة ... وقيل انه توجـه يزور بيت المقدس ، ثم يمشى بعساكره الى مصر ، وقد كثر القال والقيل فى ذلك ، واضطربت أحوال الناس قاطبة ، الى أين يذهبون حتى تنقضى هذه الفتنة .

وفى ذلك اليوم رسم السـلطان لنقيب الجيش بأن يدور على الأمراء المقدمين ، ويقول لهم برزوا خيامكم بالريدانية فى هذا اليوم . فحرجت خيام جماعة من الأمراء فى ذلك اليوم الى الريدانية .

وفى هذا اليوم نادى السلطان بأن جميع المغاربة الذين فى مصر والقاهرة يحضرون غدا للعرض .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره ، جلس السلطان على الدكة فى الحوش ، وطلع الجم الكثـير من المعاربة . فلما طلعوا الى القلعه لم يجتمـع عليهم السلطان ، وآرسل اليهم الأمير شاد بك الأعور ، فقال لهم . « السلطان يقول لكم عينوا منكم ألف انسان من شجعانكم حتى يحرجوا مع التجريدة » فأرسلوا يقولون للسلطان : « نحن ما لنا عادة نخرج مع العسكر ، ونحن ما نقاتل الا الافرنج ، وما نقاتل مسلمين » وأظهروا التعصب لابن عثمان .

فلما عاد الجواب على السلطان بما قاله المغاربة ، عز على السلطان ذلك ، وأرسل يقول لهم : « ان لم تخرجوا وتقاتلوا ابن عثمـان والا فالمماليك الجلبان يقتلون كل مغربى فى مصر حتى لا يخلوا فيها مغربيا يلوح » . فنزلوا من القلعـة على غير رضا من السلطان .

وفيه آشيع أن ابن عثمان أرسل كتابا الى شيخ العرب أحمد بن بقر ، يقول له فيه : « ادخل تحت طاعتنا ولك الأمـان ، ولاقينـا من الصـالحية ، وصحبتك ألف أردب شعير »

وأشيع آن عبد الدائم أحمد بن بقر الذى كان عاصيا توجـه الى ابن عثمان لغزة ، والاشاعات فى أخبار ابن عثمان كثيرة .

وفى يوم الاثنين المقـدم ذكره نادى السلطان للعسكر قاطبة من كبير وصغير بأن يعرضوا غدا فى الريدانية وهم باللبس الكامل من آلة السلاح .

ثم ان السلطان نزل الى الميدان ، وصلى صلاة العصر وركب من هنـاك وتوجه الى الريدانية ، وبات بها فى الوطاق . وهدا أول نزوله من حـين ولى السلطنة .

وفى يوم الثـلاثاء عشريه لبس العسـكر آلة السـلاح وخرجوا للعـرض بالريدانيـه بحضرة السلطان .

وفى ذلك اليـوم صـارت الأمـراء المقدمون يخرجون الى الريدانية ، وهم الأمراء الذين تعينوا للتجريدة وصـاروا يحرجون شـيئا بعـد شىء وهم بأطلاب حربيـة ، ومماليكهـم لابسـه آلة الحرب ، وهم على جرائد الخيل .

ثم خـرج الأتابكى سودون الدواداری ، وجان بردى الغزالى نائب الشام ، وأركماس امير سلاح ،

وبخشباى أمير مجلس ، وأنص باى أمير آخور كبير ، وتمر رأس نوبة النوب ، وعلان الدوادار الكبير ، وطقطباى حاجب الحجاب ، وقيسل بل أعفى من السفر بسبب ضعفه ؛ ولكن الأصح سفره .
وخرجت بقية الأمراء المقدمين الالوف قاطبة ، والأمراء الطبلخاناة ، والعشراوات قاطبة ، وعساكر مصر ، ولم تبق بها من الأمراء والعسكر الا القليل . وهذه التجريدة أكثر عسكرا من التجريدة التى خرجت مع السلطان الغورى .

وكان هذا السلطان له عزم شديد فى عمل هذه العجلات وسبك المكاحل وعمل البندق الرصاص ؛ وجمع من الرماة ما لا يحصى ، وكانت له همة عالية ومقصد جميل ؛ ولعل الله تعالى أن ينصره على ابن عثمان . وكان ابن عثمان باغيا على عسكر مصر ، وقد عاداهم وتعدى عليهم بغير سبب ، والباغى له مصرع .

وفيه أشيع أن السلطان رسم بأن الأفيال الكبار تخرج صحبة العسكر اذا تقاتلوا مع ابن عثمان بعد ثلاثة أيام .

وفى ذلك اليوم لما خرج العسكر ركب السلطان من الوطاق ، وتوجه الى المصطبة التى بالريدانية ، التى تسمى المطعم ، فجلس بها واجتمع الجم الكثير ، وهم لا يسون آلة السلاح ، وقد سدوا الفضاء واجتمع هناك السواد الأعظم من العوام حتى النساء ، وقد أطلقوا الزغاريت هناك ، وارتفعت الأصوات بالدعاء للسلطان بالنصر ، وكان يوم مشهود .

فلما نظر السلطان الى العسكر لم يعرضهم باستدعاء هناك ؛ بل نادى بأن جميع العسكر المنصور من كبير وصغير لا يتأخر منهم أحد ، وأن العرض فى الصالحية ، وأن السلطان لا يتوجه الى الصالحية حتى يخرج العسكر قدامه من هناك ثم يعود الى القلعة وكان ذلك عين الصواب .

وفى يوم الاربعاء حادى عشريه استمر السلطان مقيما بالريدانية وخرج فى ذلك اليوم بقية العسكر وقد ترادف الخروج من غير عذر ولا حجة والسلطان يستحثهم فى سرعة الخروج .

ولما نزل السلطان من القلعة أخذ صحبته قاسم بك ، وهو الصبى الذى من أولاد ابن عثمان ، وقد تقدم ذكره . فجعل له السلطان بركا وسنجقا على انفراده ، ورسم له بأن يسافر صحبة العسكر ، ويقف وقت الحرب تحت الصنجق السلطانى .

وأشيع أن سليم شاه فى قلبه الواجس من هذا الصبى . وقيل ان غالب عسكره مائل الى هذا الصبى ، ويقولون اذا انكسر سليم شاه مالنا الا ابن أستاذنا هذا سلطنه عوضا عن سليم شاه .

وفى ذلك اليوم أشيع أن صاحب رودس ، أرسل الى السلطان ألف رام من جماعته يرمون بالبندق الرصاص . وأرسل اليه عدة مراكب فيها بارود ، فدخلت تلك المراكب الى ثغر دمياط ، وأرسلوا يعلمون السلطان بذلك ، وهذه عونة من صاحب رودس الى سلطان مصر ، حتى يستعين بذلك على قتال ابن عثمان الباغى على أهل مصر . فلم يظهر لاشاعة هذه العونة خبر ولا نتيجة ، وانما هى اشاعة ليس لها صحة فيما نقل عنها .

ولما خرج السلطان الى الريدانية أشيع أنه يتوجه من هناك الى الصالحية ليلاقى عسكر ابن عثمان ؛ فمنعه الأمراء من التوجه الى الصالحية ، وقالوا ما تقع بيننا وبينه قتال الا فى الريدانية .

ثم ان التجار صارت تنقل أمتعتها وأموالها من الدكاكين التى فى الأسواق ، ويدخلونها فى الأماكن المنسية ، حتى تسلم ، وما سلم منها شىء .

وفيه تحول غالب الناس من أطراف المدينة ودخلوا القاهرة وسكنوا بها ، ونقل أعيان الناس قماشهم الى الترب ، والى المدارس والزوايا والمزارات ، والى بيوت العوام التى فى الرباع ، لعله يسلم وما سلم منه شىء ، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى آخر هذه السنة توفى الشهابى أحمد بن الأمير أسنبغا الطيارى رأس نوبة النوب كان . وكان الشهابى أحمد من أعيان أولاد الناس الرؤساء ، وكان حشما رئيسا لا بأس به ، ومات وله من العمر ما قارب التسعين سنة ، وكان من المعمرين فى الأرض .

وفى يوم الخميس ثانى عشريه وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزة ، وأن أوائل عسكره قد وصل الى العريش . وأشيع أن السلطان رسم بحفر خندق من سبيل علان الجبل الأحمر والى آخر غيطان المطرية ، ثم ان السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق والمكاحل معمرة بالمدافع ، وصف حولها العربات الخشب التى صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلك .

ثم ان السلطان رسم للأمير ماماى الصغير المحتسب بأن ينادى فى القاهرة للسوقة وأرباب البضائع من الزياتين والخبازين والجزارين بأن يحولوا بضائعهم الى الوطاق عند تربة العادل ، وينشئوا هناك سوقا ويبيعوا على العسكر الذى هناك .

ثم ان السلطان رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للعسكر الذين تأخروا بأن يخرجوا الى الريدانية ولا يتأخر منهم أحد . فنادت المشاعلية فى الحارات والأزقة بأن المماليك السلطانية تخرج فى ذلك اليوم الى الوطاق ، وكل من تأخر منهم شنق على باب منزله من غير معاودة . وجعل يكرر المناداة فى ذلك اليوم مرتين ، فانه قد بلغ السلطان أن جماعة من المماليك السلطانية صاروا يتوجهون الى الوطاق فى باكر النهار حتى ينظرهم السلطان ، ثم يرجعون الى بيوتهم ويبيتون بها ، فشق ذلك على السلطان وحجر عليهم بأن يبيتوا فى الوطاق كل ليلة .

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل أوائله الى قطيا ، فاضطربت أحوال الناس لذلك .

وفى يوم السبت رابع عشريه عرض السلطان العسكر الذين بالوطاق ، فاجتمع منهم الجم الكثير فوعدهم السلطان أنهم اذا قاتلوا عسكر ابن عثمان بقلب ، وانتصروا عليهم ، ينفق على كل واحد منهم عشر أشرفيات ، وينعم على كل واحد منهم بسيفه وترس . ورسم للأمير أنسباى أمير آخور بأن نصلح بين زعر الصليبية وزعر المدينة .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتم بعمل حائط يستر بها المكاحل التى نصبها بالريدانية ، وأشيع أن السلطان جعل يحمل الحجارة بنفسه مع البنائين . فلما رأى العسكر أن السلطان حمل الحجارة بنفسه ، صار المماليك يحملون الحجارة ويشيلون التراب مع الفعلة فى حفر الخندق ، وعمل الحائط التى تستر المكاحل .

ثم وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل الى بلبيس .

وفى يوم الأحد خامس عشريه ، حضر الأمير قانصوه العادلى ، الذى كان كاشف الشرقية ، وكان السلطان قد أرسله ليكشف أخبار عسكر ابن عثمان ، اذا كانوا قد وصلوا الى هناك ، أى الى القرب من الصالحية . فلما وصل الأمير قانصوه الصالحية ، رأى جماعة من عسكر ابن عثمان قد

وصلوا الى هناك ، فقبض على شخصين منهم وحز رأسيهما وأحضرهما بين يدى السلطان . وكان صحبة تلك الرءوس شخص من أبناء حلب من جماعة خايربك نائب حلب الذى خامر على السلطان الغورى والتف على ابن عثمان . فلما وقف بين يدى السلطان طومان باى أخبره أن الواصل اليك خايربك نائب حلب وصحبته ابن سوار وجماعة من أمراء ابن عثمان ، وان هذا الچاليش فيه من عسكر ابن عثمان ثمانية آلاف فارس ، وقد بطلت خيولهم من التعب والجوع ، وأن الغلاء موجود فى عسكره . ووجدوا مع ذلك الرجل الحلبى عدة مطالعات من خاير بك نائب حلب الى الأمراء المقدمين الذين بمصر ، فأخذ السلطان المطالعات التى كانت معه ، ووضع ذلك الرجل الحلبى فى الحديد .

وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخل بلبيس نادى لأهل بلبيس بالأمان والاطمئنان ، وأن لا أحد من العساكر العثمانية شوش على أحد من أهل بلبيس ، ولا الفلاحين قاطبة .

ثم أشيع أن عسكر ابن عثمان قد وصل الى العكرشه ، فلما تحقق السلطان ذلك أراد أن يخرج بالعسكر ويلاقيهم من هناك ، فلم تمكنه الأمراء من ذلك ... ولو لاقاهم من هناك كان عين الصواب ، فان خيولهم كانت قد بطلت من الجوع والتعب ، وكان غالب عسكر ابن عثمان مشاة على أقدامهم من حين خروجهم من الشام وهم فى غاية التعب ، فكان ربما يكسرهم قبل أن يدخلوا الى الخانكاه ، ويجدوا العليق والمآكل والمشرب والراحة من التعب ... فلم يتفق للسلطان أن يلاقيهم من هناك حتى تمكنوا من الدخول الى الخانكاه .

ثم رسم السلطان للعسكر بأن يبيتوا تلك الليلة قدام الوطاق ، وهم على ظهور خيولهم لابسين آلة الحرب ، ولا ينساموا الا بالنوبه خوفا من هجمة تحت الليل من العثمانية . وقد اشتد الرعب فى قلوب الچراكسة من عسكر ابن عثمان .

فلما قرب عسكر ابن عثمان من الخانكاه خرج منها غالب أهلها بأولادهم وعيالهم وقماشهم ... ودخلوا الى القاهرة خوفا على أنفسهم من عسكر ابن عثمان ، وكذلك غالب فلاحى الشرقية وأهل بلبيس ، قد دخلوا الى القاهرة خوفا من النهب والقتل من العثمانية .

ثم ان العربان من السوالمة صاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العثمانيه ، ويقطعون رءوسهم ويحضرونها بين يدى السلطان ، فيرسم السلطان بأن تعلق على باب النصر وباب زويلة .

ثم ان السلطان عرض العسكر بالريدانيه وهم لابسون آلة الحرب حتى عرض الأمراء المقدمين والعشراوات ... وحضر الأمراء المقدمون وهم بالطبول والزمور ، وكان لهم يوم مشهود بالريدانيه .

ثم ان السلطان سار الى بركة الحاج وصحبته الأمراء والعسكر قاطبة فسير بهم ، ثم رجع الى الوطاق وقدامه الطبول والزمور والنفوط ، فامتدت العساكر من الجبل الأحمر الى غيطان المطرية حتى سدت الفضاء .

وأشيع أن السلطان لما تحقق وصول ابن عثمان الى بلبيس ، رسم بحرق الشون التى فى بلبيس وما حولها ، حتى الشون التى فى الخانكاه ، فأحرقوا أشياء كثيرة من التبن والدريس وغير ذلك من القمح والشعير والفول ، وذلك لأجل عسكر ابن عثمان حتى لا ينهبوها بسبب خيولهم ، فيقوى بذلك العسكر على القتال .

وفى هذه المدة صارت العربان تقطع رءوس العثمانية الذين يظفرون بهم فى الطرقات ، فيرسل السلطان يعلق تلك الرءوس على أبواب المدينة .

ومن الحوادث فى هذه السنة انه اشيع أن السلطان كان جالسا فى الخيمة واذا بشخص من التركمان قد دخل عليه وهو لابس زنطا أحمر وفى وسطه محمق وتركاش ، وقد ضرب على وجهه لثاما ، وكان السلطان فى نفر قليل من الخاصكية . فلما هجم ذلك الشخص على السلطان وقرب منه دفعه بعض الطواشية الذين كانوا واقفين بين يدى السلطان ، فلما مس صدر ذلك الشخص وجد فى صدره ثديين طويلين فكشف اللثام عن وجهه ، فاذا ذلك الشخص امرأة من نساء التراكمة ، فتوهم السلطان انها تقصد قتله ، فقال أخرجوها من قدامى . فلما خرجت من بين يديه وجدوها لابسة زردية من تحت ثيابها وهى متحملة بخنجر كبير من تحت ثيابها ، فلما عاينها المماليك الجلبان على تلك الحالة ضربوها بالسيوف ، وقد تحققوا أنها هجمت على السلطان تريد قتله لامحالة . فلما قتلوها رسم السلطان بأن يعلقوها على باب النصر ، فأتوا بها وهى عريانة وصاروا يسحبونها من الريدانية الى باب النصر ، حتى علقوها هنالك على مكان تجاه باب النصر ، واستمرت معلقة هنالك يومين عريانة وعورتها مكشوفة بين الناس ، ثم دفنت .

ثم ان السلطان أرسل مع دوادار الوالى رأسين مقطوعين ، فزعموا أن أحدهما رأس ابراهيم السمرقندى ، والآخر رأس أمير من أمراء ابن عثمان ، فعلقوهما على دكان عند باب زويلة . وقد تحيل بعض العربان على ابراهيم السمرقندى وأضافه وبات عنده ، وكان السمرقندى أتى صحبة ابن عثمان . فلما بات تلك الليلة عند البدوى حز رأسه تحت الليل ، فلما طلع النهار أحضرها بين يدى السلطان طومان باى وقال له : « الذى يأتيك برأس ابراهيم السمرقندى ايش تعطيه ؟ » فقال له السلطان : « أعطيه ألف دينار » . فأخرج رأس السمرقندى من تحت برنسه وقال له : « هذا رأس ابراهيم السمرقندى » ، فلما تحقق السلطان ذلك دفع لذلك البدوى ألف دينار . وكان ابراهيم السمرقندى أصله من المدينة الشريفة ، وطاف من بلاد العجم الى بلاد الروم ، وكان يعرف اللغة التركية ... فلما دخل الى مصر تحشر فى السلطان الغورى وصار من جملة أخصائه ، فلما جرى للغورى ما جرى وانكسر التف على سليم شاه بن عثمان وصار من أخصائه . وقيل هو الذى حسن لابن عثمان أن يدخل مصر ويملكها ويقطع جادرة الجراكسة من مصر ، وأطمعه فى ذلك حتى دخل مصر ... وكان السمرقندى من الظلمة الكبار ، ولو عاش الى أن ملك ابن عثمان مصر ما كان يحصل لأهلها منه خير قط . وكان يرافع فى أعيان مصر أشد المرافعة ، فأراح الله تعالى منه الناس قاطبة وكفاهم شره .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرى ذى الحجة وردت الأخبار بأن جاليش عسكر ابن عثمان قد نزل الحاج ، فاضطربت أحوال عسكر مصر ، وأغلقوا باب الفتوح ، وباب النصر ، وباب الشعرية ، وباب البحر ، وباب القنطرة ، وغير ذلك من أبواب المدينة . وغلقت الأسواق التى بالقاهرة ، وتعطلت الطواحين ، وتشحط الدقيق والخبز من الأسواق .

ثم ان السلطان لما تحقق وصول عسكر ابن عثمان الى بركة الحاج ، زعق النفير بالوطاق ، فركب العسكر قاطبة وركب سائر الأمراء المقدمين والأمراء الطبلخانات والعشراوات ، وركب قاسم بك بن

عثمان ، فاجتمع من الصناجق نحو ثلاثين صنجقاً ، واجتمع من العساكر من أرباب الوطاق ومن المماليك السلطانية ومماليك الأمراء والعربان نحو عشرين ألف فارس ، ودقت الطبول والزمور حربيا ، وصار السلطان طومان باى راكبا بنفسه ، وهو يرتب الأمراء على قدر منازلهم ، وصف العسكر من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، فاجتمع هناك الجم الكثير من العسكر ، وكان السلطان طومان باى له همة عالية ، ولو كان السلطان الغورى حيا ما كان يفعل بعض ما فعله السلطان طومان باى ، لكن لم يعطه الله النصر على ابن عثمان ، ولم يقع فى ذلك اليوم بين الفريقين قتال ، ولم يبرز كل منهما الى غريمه . فقطعوا فى ذلك اليوم بعض رءوس من العثمانية ، وأرسلوا علقوها على أبواب المدينة .

فلما كان يوم الخميس تاسع عشرى ذى الحجة وقعت فيه كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولى الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك الا أن السلطان طومان باى لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق ، حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وصف هناك طوارق ، وصنع عليها تساتير من خشب ، وحفر خندقا من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك . ثم ان السلطان جعل خلف المكاحل نحو ألف حمل جمل وعليها زكائب فيها عليق ، وعلى أقتابها صناجق بيض وحمر تخفق فى الهواء ، وجمع عدة أبقار بسبب جر العجل ، وظن أن القتال يطول بينه وبين ابن عثمان ، أو أن الحصار يبقى مدة طويلة ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما نزل عسكر ابن عثمان ببركة الحاج ، أقام بها يومين ، فلم يجسر السلطان طومان باى أن يتوجه اليهم . ولو توجه وقاتلهم هناك قبل أن يدخلوا الريدانية لكان عين الصواب .

فلما كان يوم الخميس المقدم ذكره زحف عسكر ابن عثمان ووصل أوائله الى الجبل الأحمر ، فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ، ونادى السلطان للعسكر بالخروج الى قتال ابن عثمان ، فركب الأمراء المقدمون ودقوا الطبول حربيا ، وركب العسكر قاطبة حتى سدوا الفضاء ، وأقبل عسكر ابن عثمان كالجراد المنتشر ، وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة يطول شرحها ، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق . فقتل من العثمانية ما لا يحصى عددهم ، وقتل سنان باشا لالا ابن عثمان ، وكان أكبر وزرائه ، وقتل من أمرائه وعسكره جماعة كثيرة ، حتى صارت الجثث مرمية على الأرض من سبيل علان الى تربة الأمير يشبك الدوادار

ثم ان العثمانية تحايوا وجاءوا من كل ناحية أفواجا أفواجا كأنهم قطع الغمام ، ثم انقسموا فرقتين : فرقة جاءت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة جاءت للعسكر عند الوطاق بالريدانية . وطرشوهم بالبندق الرصاص وهجموا عليهم هجمة منكرة ، فما كان غير قليل حتى قتل من عسكر مصر ما لا يعلمه الا الله تعالى . وقتل من الأمراء المقدمين جماعة كثيرة منهم أزبك المكحل ، وجرح الأتابكى سودون الدوادارى جرحا بالغا ، وقيل انكسر فخذه فاختفى فى غيط هناك ، وجرح الأمير علان الدوادار ، فلم تكن الا ساعة سيرة مقدار خمس عشرة درجة ، حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة . فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى نحو عشرين درجة ، وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك

السلحدارية فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى . فلما تكاثرت عليه العساكر العثمانية ، ورأى العسكر قد دهب من حوله ، خاف على نفسه أن يقبضوا عليه ، فطوى الصنجق السلطاني وولى واختفى ، قيل انه توجه نحو طرا وهده ثالث كسرة وقعت لعسكر مصر .

وأما الفرقة العثمانيه التى توجهت من تحت الجبل الأحمر ، فانها نزلت على الوطاق السلطاني ، وعلى وطاق الأمراء والعسكر ، فنهبوا كل ما كان فيه من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك ، ثم نهبوا المكاحل التى كان نصبها السلطان هنالك . ونهبوا الطوارق والتساتير الخشب والعربات التى تعب عليها السلطان وصرف عليها جملة من المال ، ولم يفده من ذلك شيء . ونهبوا البارود الذى كان هنالك ، ولم يبقوا بالوطاق شيئا لا قليلا ولا كثيرا ، فكان ذلك مما جرت به المقادير ، والحكم لله العلى الكبير .

ثم ان جماعة من العثمانية لما هرب السلطان ونهبوا الوطاق ، دخلوا القاهرة بالسيف عنوة ، وتوجه جماعة منهم الى المقشرة ، وأحرقوا بابها وأخرجوا من كان بها من المحابيس ، وكان بها جماعة من العثمانية سجنهم السلطان لما كان بالريدانية ، فأطلقوهم أجمعين ، وأطلقوا من كان فى الديلم والرحبة والقاعه أجمعين .

ثم توجهوا الى بيت الأمير خاير بك المعمار أحد المقدمين ، فنهبوا ما فيه ، وكذلك بيت يونس الترجمان ، وكذلك بيوت جماعه من الأمراء وأعيان المباشرين ومساتير الناس ، وصارت الزعر والغلمان ينهبون البيوت فى حجة العثمانية ، فانطلق فى أهل مصر جمرة نار .

ثم دخل جماعة من العثمانية الى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والاكاديش وأخذوا عدة جمال من جمال السقائين ، وصارت العثمانية فنهب ما يلوح لهم من القماش ، وغير ذلك . وصاروا يخطفون جماعة من الصبيان المرد والعبيد السود ، واستمر النهب عمالا فى ذلك اليوم الى ما بعد المغرب ، ثم توجهوا الى شون القمح التى بمصر وبولاق ، ونهبوا ما فيها من الغلال حق المسلمين . وهذه الحادثة التى وقعت لم تكن لأحد على بال ، وكان ذلك مما جرت به الأقدار فى الأزل . وقتل فى هذه المعركة ابن سوار بالريدانية ، ودفن على جده سوار فى تربته التى تجاه يشبك الدوادار ، وقتل سنان باشا وزير ابن عثمان الأكبر . وفى دلك يقول الشيخ بدر الدين الزيتونى :

نبكى على مصر وسكانها
قد خربت أركانها العامره
وأصبحت بالذل مقهورة
من بعد ما كانت هى القاهرة

وفى يوم الاثنين — سلخ سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة — دخل أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله القاهرة ، وصحبته وزراء ابن عثمان والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ودخل ملك الأمراء خاير بك ، ودخل قاضى القضاة الشافعية كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ، وكل هؤلاء كانوا فى آسر ابن عثمان من حين مات السلطان الغورى .

فلما دخل الخليفة من باب النصر ، شق القاهرة وقدامه المشاعليه تنادى للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، والأخذ والعطاء ، وأن لا أحد من العسكر العثمانى يشوش على أحد من الرعية . وقد أغلق باب الظلم وفتح باب العدل ، وان كل من كان عنده مملوك چركسى ولا يغمز عليه وظهر عنده يشنق من غير معاودة ، والدعاء للملك المظفر

سليم شاه بالنصر . فضج له الناس بالدعاء ، ولكن لم يلتفت أحد من العثمانيه لهذه المناداة ، وصاروا يهجمون بيوت أولاد الناس ، حتى بيوت الربوع فى حجه أنهم يفتشون على المماليك الجراكسه فاستمر النهب والهجم عمالا فى بيوت الأمراء والعسكر وأهل البلد ثلاثة أيام متواليه لا يتردون خيلا ولا بغالا ولا قماشا ولا قليلا ولا كثيرا ، وما أبقوا فى ذلك ممكنا .

ودخل فى ذلك اليوم يونس العادلى ، وخشقدم الذى كان متسد الشون بمصر ، وكان قد هرب من المحورى الى البلاد العثمانية ، وهو الذى كان سببا لهذه الفتنه العظيمه .

وفى يوم الجمعه خطب باسم السلطان سليم شاه على منابر مصر والقاهرة ، وقد ترجم له بعض الخطباء فى خطبته فقال : « وانصر اللهم السلطان ابن السلطان ، ملك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصرا عزيزا ، وافتح له فتحا مبينا يا مالك الدنيا والآخرة يارب العالمين » .

وقد قلت فى ذلك :

حم العـــام بحـــرب وكدر
وجـــرى للناس غايات الضرر
وأتاهم حـــادث من ربهـــم
كل هـــذا بقضـــاء وقدر

سنة ثلاث وعشرين وتسعمايه (١٥١٧ م) :

كان مستهل المحرم يوم السبت ، وفيـه أرسل السلطان سليم شاه جماعة من الانكشارية وأوقفهم على ابواب المدينه يمنعون النهابه من نهب البيوت ، ولما انكسر عسكر مصر حول السلطان سليم شاه وطاقه من بركة الحـاج ونصبه فى الريدانية ، وشرعت العثمانيه تقبض على المماليك الجراكسة من الترب وسواقى الموتى ، ومن غيطان المطريه ، فلما أحضروهم بين يدى السلطان أمر بضرب أعناقهم

ثم ان بعض مشايخ العربان قبض على الأتابكى سودون الدوادارى ، وأحضره بين يدى السلطان سليم شـــاه . فلما حضر بين يديه وبخه بالكلام فوجده قد جـــرح وكسر فخـــذه وهو فى حالة الأموات ، فلم تأخذه عليـه شفقه ، بل أركبه على حمـــار وألبسه عمامه زرقاء وجرسه فى وطاقه ، وقصد أن يشهره فى القاهرة ، فمات وهو على ظهر الحمار ، وقيل حز رأسه بعد الموت وعلقوها فى الوطاق .

وصـــار العثمانية يكبسون الترب ، ويقبضون على المماليك الجراكسة منها ، وكل تربة وجد فيها مملوك چركسى حزوا رأسه ورأس من بالتربة التى وجدوه فيها من الحجازيين ، وعلقوا رءوسهم فى وطاق ، فضرب فى يوم واحد ثلثمـــائة وثـــلاثون رأسا من سكان الصحراء . وقيل كان فيهم ينابعة وأشراف ، فراحوا ظلما لا ذنب لهم ، وصـــاروا يكبسون الحـــارات والبيوت ، ويقبضـــون على المماليـــك الجراكسة من اصطبلاتهم باليـــد ، ويتوجهون بهم الى الوطاق بالريدانيه ، فيضربون أعناقهم هناك . فلما كثرت رءوس القتلى بالريدانية نصبوا صوارى وعليها حبال وعلقوا عليها رءوس من قتل من المماليك الجراكسة وغيرهم ، حتى قيل قتل فى هـــذه الواقعـــة بالريدانية فوق أربعمائة انســـان ، ما بين چراكسة وغلمان ، وعربان مـــن الشرقية والغربية . وصارت الجثث مرمية من سبيل علان الى تربة الأشرف قايتبـــاى ، فجافت منهـــم

الأرض وصارت لا تعرف جثة الأمير من جثة المملوك ، وهم ابدان بلا رءوس وأما من قتل من عسكر ابن عثمان فى هذه الواقعة فلا يحصى عددهم

ثم ان ابن عثمان أرسل خلف المقر الناصرى محمد بن السلطان الغورى . فلما حضر ألبسه قفطانا من مخمل أحضر مذهب ، وألبسه عمامه عثمانيه ، وأعطاه ورقه بالأمان له على نفسه ، ورسم له بأن يسكن فى مدرسه أبيه التى أنشأها فى الشرابشيين . وأسكن الدفتردار فى بيته الذى فى البندقانيين ، وهو احد وزراء السلطان سليم شاه .

ثم توجه اليه الأمير يوسف البدرى الوزير فأعطاه أمانا وألبسه قفطانا مخملا وأقره متحدثا على جهات العربيه . وخلع على الأمير فارس السيفى تمراز وأقره كاشف المنية ، وغير ذلك من الجهات القبليه وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وجعله متحدثا فى الحسبة على أن يقرر بها من يختاره

وفى يوم الأحد ثانى المحرم أشيع أن السلطان سليم شاه نقل وطاقه من الريدانيه ونصبه فى بولاق من تحت الرصيف الى آخر الجزيره الوسطى ، وقد أحضروا اليه مفاتيح قلعه الجبل فلم يلتفت الى ذلك ، واختار الاقامه على شاطىء بحر النيل فلما كثرت العثمانيه بالقاهره صاروا يدورون فى الحارات والأزقه والأسواق . وكل من رأوه من أولاد الناس لابسا زنطا أحمر وتخفيفه يقولون له أنت جركسى ، فيقطعون رأسه فلبس أولاد الناس كلهم عمائم حتى أولاد الامراء والسلاطين قاطبه ، وأبطلوا لبس التخافيف والزنوط من مصر .

وفى يوم الاثنين ثالث المحرم أوكب السلطان سليم شاه ، ودخل الى القاهره من باب النصر وشق المدينة فى موكب حافل ، وقدامه الجنائب المسومة الكثيرة العدد ، والعساكر المتراكمة ما بين مشاة وركاب ، حتى ضاقت بهم الشوارع . واستمر سائرا من المدينة حتى دخل من باب زويلة ، ثم عرج من تحت الربع وتوجه من هناك الى بولاق ، ونزل بالوطاق الذى نصبه تحت الرصيف .

فلما شق من المدينة ، ارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . وقيل ان صفته درى اللون ، حليق الذقن ، وافر الأنف ، واسع العينين ، قصير القامة ، وعلى رأسه عمامة صغيرة وكان عنده خفة ورهج ، كثير التلفت اذا ركب الفرس . وقيل انه كان له من العمر حين ذاك نحو أربعين سنة أو دون ذلك ، وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوك السالفة . وكان سيىء الخلق ، سفاكا للدماء شديد الغضب ، لا يراجع فى القول .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الخليفة والقضاة الأربعة وجماعة من المباشرين الذين كانوا بمصر ، وكان ينادى كل يوم فى القاهره بالأمان والاطمئنان ، والنهب عمال من جماعته ، ولا يستمعون لمناداته . وحصل للناس منه الضرر الشامل .

ومما أشيع عنه أنه قال فى بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام : اذا دخلت الى مصر أحرق بيوتها قاطبة ، وألعب فى أهلها بالسيف . فقيل تلطف به الخليفة حتى رجع عن ذلك ، ولو فعل ذلك ما كان يجد له من مانع يمنعه ، ولكن الله سلم والله غالب على أمره .

ولما زاد ضرر العثمانية فى القاهرة صارت أعيان الناس والمباشرين يجعلون على أبوابهم جماعة من العثمانيه يحفظون بيوتهم من النهب ، وصارت العثمانية يمسكون أولاد الناس من الطرقات ، ويقولون لهم أنتم جراكسة فيشهدون الناس

عندهم أنهم ما هم جراكسة . فيقولون لهم اشتروا أنفسكم من القتل ، فيأخذون منهم بحسب ما يختارونه من المبلغ . وصار أهل مصر تحت أسرهم ، ثم صار الزعر وعياق مصر يغمزون العثمانية على حواصل الخوندات والستات فينهبون ما فيها من القماش الفاخر . فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد وغير ذلك من كل شيء جليل ، وظفروا بأشياء لم يظفروا بها قط فى بلادهم ، ولم يروها قبل ذلك ، ولا أستاذهم الكبير .

ومن هنا نرجع الى ترجمة سليم شاه ابن عثمان وذلك على سبيل الاختصار من أخباره بحسب ما يتيسر لى من ذلك ، على ما مشت عليه طريقة التاريخ من مبتداه الى هذه الواقعة .

سليم شاه بن أبى يزيد

هو الملك المظفر سليم شاه ، بن السلطان أبى يزيد ، بن السلطان محمد بن السلطان مراد خان ابن أبى يزيد المعروف بيلدرم بن أرخان بن أردن بن عثمان بن سليمان بن عثمان الكبير ، الشهيد بالغزاة بعد أن عاش تسعا وستين سنة .

وسليم شاه هذا هو الشهير بابن عثمان ، من خلاصة ملوك الروم ، وهو الثامن والاربعون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية ، وهو الثالث من ملوك الروم بمصر . فان أول ملوك الروم بمصر الظاهر خشقدم ، والثانى الظاهر تمربغا ، والثالث سليم خان ابن عثمان .

ملك القاهرة عنوة بقائم سيفه ، وقد حصل له سعد عظيم لم يحصل لآبائه ولا لأجداده من قبله . وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ، فتصدى الى قتال شاه اسماعيل الصفوى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فانكسر منه الصفوى ، وقتل غالب عسكره . واحتوى على أمواله وسلاحه من غير مانع ، وملك غالب بلاده التى بالعراقين .

ثم تصدى الى قتال الملك الأشرف قانصوه الغورى ، وتلاقى معه على مرج دابق فى رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، فلم يحمل معه غير مدة يسيرة وانكسر ، ومات قهرا فى وسط الحرب .

وملك سليم شاه مدينة حلب وقلعتها من غير محاصرة . فلما ملك قلعة حلب أرسل اليها شخصا من جماعته أعرج أعور وفى يده دبوس خشب ، وهو ماش على أقدامه ، فتسلم الأموال والسلاح التى كانت بها ، حتى قيل كان بها من الأموال السلطانية للغورى مائة ألف ألف دينار وثمانمائة ألف دينار ، خارجا عن السلاح والكنابيش الذهب والسروج الذهب والبلور والعقيق والخلع التى بالطراز الذهب اليلبغاوى ، وغير ذلك من التحف الفاخرة . فاحتوى على ذلك جميعه خارجا عن برك السلطان والأمراء وأولادهم ، وبرك العساكر وخيولهم وبغالهم وجمالهم ، وخيامهم فاحتوى على ذلك جميعه .

ثم توجه الى الشام فملكها بالأمان ، ثم نزل اليه اغات الشام بالأمان فقتله وقتل معه نحو أربعين أميرا من أمراء الشام ، وملك قلعتها واحتوى على ما فيها من الأموال والسلاح والغلال والبارود وغير ذلك مما كان بها .

ثم خرج من الشام وقصد التوجه نحو الديار المصرية ، فتسلم طرابلس وصفد وغزة وبيت المقدس وجبل نابلس وعدة بلاد من تلك الجهات ... تسلم الكل بالأمان من غير حرب ولا مانع ، ولم يتفق ذلك لأحد من الملوك قبله .

ثم توجـه الى القـاهرة فتلاقى مع الأشرف طومان باى على الريدانية فوقع بينهما قتال هين ، فلـم يكن الا عشرون درجـة وانكسر الأشرف طومان باى وولى مهزوما ، وقتل من العسكر ما لا يحصى عددهم ، وآخر الأمر ملك مصر والقاهرة عنوة بقائم سيفه .

ومن عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه فاتح مصر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة النبوية عنوة بقائم سيفه ، لم تفتحها أحد من الملوك بعده عنوة سوى سليم شاه بن عثمان ، ولم يقع مثل ذلك الا لبختنصر فى قديم الزمان .

ومن هنا نرجع الى أخبار ابن عثمان ، فانه لما نزل بالوطاق الذى نصبه فى بولاق عند الرصيف أقام به الى يوم الثلاثاء رابع المحرم .

فلما كانت ليلة الأربعاء خامس الشهر بعد صلاة العشـاء لم يشعر ابن عثمان الا وقد هجم عليـه الأشرف طومان باى بالوطاق بما معه من العسكر ، واحتاط به ، فاضطربت أحوال ابن عثمـان الى الغاية ، وظن أنه مأخوذ لا محالة . وأشيع أنه هجم عليه بجمال محملة ساسا وأطلق فيها النار ، فاحترق بعض خيـام من وطاق ابن عثمـان ، وأوقع فيهم السيف تحت الليل ، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لا يحصى عددهم ، واجتمع هناك الجم الكثير من الزعر وعياق بولاق من النواتية وغيرهم ، وصاروا يرجمون فى الوطاق بالمقاليع وفيهـا الحجـارة . واستمروا على ذلك الى أن طلع النهار ، فلاقاهم الأمير علان الدوادار الكبير من الناصرية عنـد الميدان الكبير ، فأسعفهم .

وكان بين عسكر ابن عثمان وبين عسكر مصر ، هناك واقعة تشيب منها النواصى ، فسلكوا منهم من رأس الجزيرة الوسطى الى قنطرة باب البحر ، والى قنطرة قديدار ، واستمر الحرب ثائرا بين الفريقين من طلوع الفجر الى ما بعد المغرب .

ثم أشيع أن العربان لما وقعت هذه الحركة نهبوا وطاق العثمانية الذى كان بالريدانية .

ثم ان المماليك الجراكسـة صـاروا يكبسون البيوت والحارات على العثمانيـة ، كمـا كانت العثمانية تكبس البيوت على الجراكسـة ، ومثل ما تعمل شاة الحمى فى القرظ ، يعمل القرظ فى جلدها ، فصاروا يدورون فى الحارات ، وكل من يظفرون به من العثمانيـة يقطعـون رأسـه ، ويحضرونها بين يدى السلطان طومان باى ، وصار الطالب مطلوبا ، ولكن لم يتم لهم ذلك .

فلما كان يوم الخميس سادس المحرم ، اشتد القتال بين الفريقين ، ونادى السلطان طومان باى فى النـاصرية وقناطر السباع للزعر والعياق بأن « كل من قبض على عثمانى يأخذ عريه ، ويقطع رأسه ، ويحضرها بين يدى السلطان » .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من بولاق وجزيرة الفيل . وملكوها منهم ، ثم ان الأتراك خرقوا عقد قنطـرة قديدار خوفا من العثمـانية أن يهجموا عليهم ، ثم ان العثمانية هجموا على زاوية الشيخ عمـاد الدين التى بالناصرية ، وقبضوا على من بها من المماليك الجراكسة ، وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية ، ونهبوا القنـاديل والحصر التى فى الزاوية ، وقتلوا جماعة كثيرة من العوام ، وفيهم صغار وشيوخ لا ذنب لهم .

ثم ان العثمانية طردوا الأتراك من الناصرية الى قناطر السباع ، ثم ان السلطان طومان باى نزل فى جامع شيخو بالعمرى الذى بالصليبة وصار يركب بنفسه ويكر من الصليبة الى قناطر السباع فى نفر قليل من العسـكر . ثم رسم بحفر خندق فى رأس

الصليبة ، وآخر عند قناطر السباع ، وآخر عند رأس الرملة . وآخر عند جامع ابن طولون ، وآخر عند حدرة البقر .

ثم ان السلطان طومان باى رسم بحرق خان الخليلى ، فمنعه بعض الأمراء من ذلك ، وأشيع أنه قسم العسكر الى أربع فرق . فرقة الى جهة قناطر السباع ، وفرقه الى جهة الرملة ، وفرقة الى جهة جامع ابن طولون ، وفرقة الى جهه باب زويلة . فلم يقاتل من المماليك الجراكسة الا القليل ، وصاروا يختفون فى الاصطبلات والزوايا خوفا من القتال ، وقد دخل الرعب فى قلوبهم من العثمانية فما بقى يخرج منها .

ثم ان طائفة من العثمانية توجهوا من جهة مصر العتيقه ، وطلعوا من جهة باب القرافه ، وملكوا من باب القرافة الى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فدخلوا الى ضريحها ، وداسوا على قبرها ، وأخذوا قناديلها الفضة والشمع الذى كانت عند قبرها ، وبسط الزاوية ، وأخذوا من مقامها شيئا كثيرا ، وقتلوا أيضا فى مقامها مماليك جراكسة وغير ذلك من الناس الذين كانوا اجتمعوا بها حين هربوا من المعركة .

ثم أن السلطان قصد أن يهدم قناطر السباع ، فهدم من عقدها بعض شىء ثم ان الأتراك سجنوا جماعة من العثمانية ، فهربوا وطلعوا الى مآذن الجوامع . فطلعوا مئذنة المؤيد ، وصاروا يرمون الناس بالبندق والرصاص ، ويمنعونهم من الدخول الى باب زويلة ، واستمروا على ذلك حتى طلع لهم الأتراك وقتلوهم فى المئذنه شر قتلة .

ثم صارت القتلى من الأتراك والعثمانية أجسادهم مرمية من بولاق الى قناطر السباع ، والى الرميلة والى تحت القلعة ، وفى الحارات والأزقة ، وهم أبدان بلا رءوس .

هذا والعربان واقفة عند قنطرة الحاجب يعرون الناس ، ويأخذون أثوابهم ، ويقتلونهم ويقتلون كل من يلوح لهم من العثمانية ، وغيرهم ، ولولا لطف الله تعالى لهجموا على الناس فى القاهرة ، ونهبوا أسواقها ودورها .

ثم ان السلطان طومان باى نادى فى القاهرة أن كل من أمسك احدا من العثمانية ، وطلب منه الأمان لا يقتله ويأتى به حيا .

ومن العجائب فى هذه الواقعه ، أن السلطان طومان باى لما ظهر فى هذه المرة بعد انهزامه فى الريدانية ، خطب باسمه فى القاهرة ، وكان فى الجمعة الماضية خطب باسم سليم شاه بن عثمان فكان كما يقال فى المعنى :

لا تيأسن من فرج ولطف
وقوة تظهر بعد ضعفه

فاستمر السلطان طومان باى يرتفع امره مع عسكر ابن عثمان ، ويقتل منهم فى كل يوم ما لا يحصى من يوم الأربعاء الى طلوع شمس يوم السبت ثامن المحرم ، فتكاسل العسكر عن القتال ، واختفوا فى بيوتهم ، وتفرقت الأمراء عنه كل واحد فى ناحية ، واستمر السلطان طومان باى يقاتل فى عسكر ابن عثمان وحده فى نفر قليل من العبيد الرماة وبعض مماليك سلطانية وبعض أمراء ، كالأمير شاد بك الأعور ، وآخرين من الأمراء العشراوات . فلما ظهر له الغلب هرب وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وكان قليل الحظ غير مسعود الحركات فى أفعاله كما قيل فى المعنى :

قليل الحظ ليس له دواء
ولو كان المسيح له طبيب

وهذه رابع كسرة وقعت لعسكر مصر مع ابن عثمان ، وقد غلت أيديهم عن القتال حتى نفذ القضاء والقدر ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا .

ولما هرب السلطان طومان باى وقعت فى القاهرة المصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، وهو أنه لما هرب السلطان طومان باى صبيحة يوم السبت ثامن المحرم . طفشت العثمانية فى الصليبة وأحرقوا جامع شيخو ، فاحترق سقف الايوان الكبير والقبة التى كانت به ... فعلوا ذلك لكونه كان به وقت الحرب لما تقدم ، وأحرقوا البيوت التى حوله فى درب ابن عزيز ثم قبضوا على الشرف يحيى بن العداس خطيب الجامع ، واحضروه بين يدى سليم شاه ابن عثمان ، فهم بضرب عنقه ، فلما بلغ الخليفة ذلك ، ركب وأتى الى ابن عثمان ، وشفع فى ابن العداس ، وخلصه من القتل ، ولولا أنه كان فى أجله فسحة لضربوا عنقه فى الحال ، وقاسى شدة من الضربة .

ثم ان العثمانية طفشت فى جميع الحارات والأماكن ، وحطوا عطلهم فى العبيد والغلمان والعوام من الزعر وغيرهم ، ولعبوا فيهم بالسيف ، وراح الصالح بالطالح ، وربما عوقب من لاذنب له فصارت جثثهم مرمية فى الطرقات من باب زويلة الى الرملة ، ومن الرملة الى الصليبة الى قناطر السباع ، الى الناصرية الى مصر العتيقة فكان مقدار من قتل فى هذه الواقعة من بولاق الى الجزيرة الوسطى الى الصليبة فوق العشرة آلاف انسان ، فى مدة هذه الأربعة الأيام ، ولولا لطف الله تعالى لفنى أهل مصر قاطبة بالسيف .

ثم ان العثمانية صارت تكبس على المماليك الجراكسة فى البيوت والحارات ، فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه ، وكذلك الجوامع الكبار ، والمدارس والزوايا . فهجموا على الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وغيرها ، وقتلوا من وجدوه من المماليك الجراكسة فيها . فقيل قبضوا على نحو ثمانمائة مملوك ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، ومماليك سلطانية . فضربوا رقابهم أجمعين بين يدى السلطان سليم .

وقيل ان المشاعلى الذى كان هنالك افرنجى ، وقيل يهودى من الروم . وكان اذا ضرب عنق أحد من الجراكسة يعزلها وحدها ، ويعزل رءوس الغلمان والعربان وحدها ، ثم ينصب الحبال على الصوارى ويعلق عليها تلك الرءوس فى الوطاق الذى بالجزيرة الوسطى . وكان المشاعلى اذا حز رأس المماليك يرمى جثثهم فى البحر .

وأخبرنى من أثق به أنه شاهد جثة الأمير قانصوه رجله أحد الأمراء المقدمين الذى كان نائب قطيا وهى مرمية قدام سبيل السلطان ، والكلاب تنهش فى مصارينه وشحم بطنه ، فانه كان رجلا جسيما .

وقتل فى هذه الواقعة الأمير يخشباى الذى كان فرره السلطان طومان باى أمير مجلس كما تقدم ، وقتل آخرون من الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية وغير ذلك ، وصارت الجثث مرمية فى الرملة الى سوق الخيل ، ثم الى الحسينين ، وقد تناهشت الكلاب أجسادهم .

ولم يقاس أهل مصر شدة مثل هذه قط . الا ما كان فى زمن بختنصر البابلى لما أتى من بابل وزحف على البلاد بعسكره وخربها وهدم بيت المقدس . ثم دخل مصر وخربها عن آخرها ، وقتل من أهلها مائة ألف ألف انسان ، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهى خراب ، ليس بها ديار ولا نافخ نار . فكان النيل يعلو ويهبط فلا يجد من

يزرع عليه الأراضى ولا ينتفع به . لكن هذه الواقعة لها نحو ألفى سنة وهى قبل ظهور عيسى ابن مريم عليه السلام .

ثم وقع مثل ذلك فى بغداد فى فتنة هولاكو ، وهو المعروف بتتار ، لما زحف على بغداد وخربها وأحرق بيوتها ، وقتل الخليفة المستعصم بالله ، واستمرت من بعد ذلك خرابا الى الآن ، فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك ، وما زالت الأيام تبدى العجائب .

فلما هرب السلطان طومان باى وقتل من قتل من الأمراء والعسكر ، رجع السلطان سليم شاه الى وطاقه الذى فى الجزيرة الوسطى ، ونصب فى وطاقه صنجقين أحدهما أبيض والآخر أحمر ، وذلك اشارة عندهم لرفع السيف عن أهل المدينة . هكذا عادتهم فى بلادهم اذا ملكوا مدينة وفتحوها بالسيف عنوة .

وفى هذا الشهر توفى الشيخ شهاب الدين القسطلانى ، وكان علامة فى الحديث ، وله شهرة طائلة بين الناس ، وكان لا بأس به .

وفى تلك الأيام صار الخليفة المتوكل على الله هو صاحب الحل والعقد ، والأمر والنهى بالديار المصرية . وصارت أولاد السلاطين جالسه فى دهليز بيته لا يعبأ بهم ، مثل المقر العلائى على بن المؤيد أحمد ، وابن الظاهر خشقدم ، وأولاد الملك المنصور عثمان ، وغير ذلك من أولاد الأمراء ، وأعيان الناس من الرؤساء والمباشرين ؛ وجماعة من الأمراء مثل قانى بك رأس نوبة ثانى ، وسنبل مقدم المماليك ، وغير ذلك من الأمراء ، فى دهاليز بيته لم يلتفت اليهم ، وصار رنكه مضروبا على غالب البيوت . وكانت مراسلته ماشية فى المدينة لا ترد ، وشفاعته كافية فى كل أمر اشتد . وصار هو فى مقام سلطان مصر فى نفوذ الكلمة ، وظهور العظمة فى تلك الأيام . ودخل عليه من الناس أموال وتقادم عظيمة لم تصل لآبائه ولا أجداده ، وصارت الستات والخوندات مرمية فى دهاليز بيته لا يلتفت اليهن ، وصارت خوند ابنة الأمير أقبردى الدوادار زوجة السلطان طومان باى مقيمة فى بيته ، وقد قرر عليها السلطان سليم شاه مالا جزيلا توررده الى الديوان . فلا زال الخليفة يتلطف بالسلطان سليم شاه حتى حط عنها جانبا من المال الذى قرره عليها . وحصل له من الستات والخوندات خدم جزيلة . فطاش الخليفة فى تلك الأيام الى الغاية ، وظن أن هذا الحال بنم له ، وما علم أن القبان بآخره . كما قيل فى المعنى :

أمور تضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبها اللبيب

ومن الحوادث أن أولاد الزنكلونى الذين جرى لهم مع السلطان الغورى ما جرى ، ومات أبوهم تحت الضرب . وابن نور الدين المشالى الذى شنقه الغورى — كما تقدم ذكره — لما تغيرت الدول ودخل ابن عثمان الى القاهرة ، ونادى من كانت له ظلامة يرفع أمره الى السلطان سليم ، ثار أولاد الزنكلونى وابن نور الدين المشالى على القاضى شمس الدين وحيش ، وقالوا له أنت كنت سببا لشنق نور الدين المشالى ، وضرب الزنكلونى . وقصدوا أن يمضوا به الى ابن عثمان ليقطع رأسه ، فترامى على الخليفة فى عمل المصلحة بينه وبين أولاد الزنكلونى وابن المشالى ، فتكلم الخليفة بينهم على أن ابن وحيش يدفع الى أولاد الزنكلونى ثلثمائة دينار ، ولابن المشالى مائتى دينار ، فأبوا من ذلك ، واستمرت دعوتهم باقية على شمس الدين بن وحيش الى أن يعرضوا ذلك على ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم ، نادى لسلطان سليم شاه بعد العصر فى القاهره بأن لأمراء المقدمين والأمراء الأربعينيات والأمراء العشراوات الذين اختفوا بعد الواقعة يظهرون وعليهم أمان الله تعالى .

وقيل ان السلطان سليم شاه كتب للامراء عهدا وأمانا فى ورقة طويلة وعلقها المنادى على جريدة ، ونادى أيضا بأن الأمراء المختفين يظهرون ويتوجهون الى مدرسة السلطان الغورى وعليهم الأمان . فظهر الأمير آركماس أمير سلاح ، والأمير أنص باى أمير آخور كبير ، والأمير تمر الحسنى رأس نوبة النوب ، والأمير طقطباى حاجب الحجاب ، والأمير تانى بك الخازندار أحد المقدمين ، والأمير تانى بك النجمى أحد المقدمين ، والأمير قانصوه أبو سنة أحد المقدمين .

ومن الأمراء الطبلخانات الأمير مصرباى الأقرع ، والأمير قانى بك رأس نوبة ثانى ، والأمير يشبك الفقيه دوادار السلطان طومان باى ، وكان مختفيا فى الجامع الأزهر فطلع بالأمان .

وظهر من الأمراء العشراوات نحو أربعين أميرا وأكثر من ذلك وآخرون من الخاصكية .

فلما ظهروا واجتمعوا فى المدرسة الغوريه احتاط بهم جماعة من العثمانية ، ثم مضوا بهم الى الوطاق وأرادوا أن يخونوهم . فلما قابلوا السلطان سليم وبخهم بالكلام وبصق على وجههم ، وذكر لهم ظلمهم وما كانوا يصنعون ، ثم رسم لهم بأن يطلعوا الى القلعة ، ويقيموا بها محتفظا بهم فطلعوا الى القلعة .

وفيه أشيع أن جان بردى الغزالى أرسل يطلب الأمان من السلطان سليم شاه . وقد وصل الى الخانقاه وصحبته جماعه من المماليك الجراكسه الذين هربوا بعد الكسرة ، فأرسل له السلطان سليم شاه أمانا .

وفيه أشيع ان السلطان طومان باى لما هرب من الواقعة التى كانت بالصليبة ظهر بعد ذلك أنه توجه الى البهنسا وأقام بها ، فلما ضجر من الذى قاساه من الحروب والشرور ، أرسل القاضى عبد السلام قاضى البهنسا ليطلب له الخليفة الأمان من السلطان سليم شاه .

وفيه أشيع أن العثمانية هجموا على مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ونهبوا ما فيه من البسط والقناديل فى حجة المماليك الجراكسة ، وكذلك مقام الليث بن سعد أيضا نهبوا ما فيه .

وفى يوم الثلاثاء ، ثامن عشر المحرم ، دخل جان بردى الغزالى القاهرة وعلى رأسه منشور فيه أمان من السلطان سليم شاه ، فتوجه اليه وهو فى الوطاق وقابله هناك . وكان الغزالى لما انكسر السلطان طومان باى فى الريدانية أشيع أنه هرب الى عكة ، وقيل الى غزه ، ومعه جماعة من المماليك الجراكسة . وكان جان بردى الغزالى متواطئا مع ابن عثمان فى الباطن من أيام الغورى . وكان سببا لكسرة العسكر فى مرج دابق هو وخاير بك نائب حلب ، وانهزما قبل العسكر ، وأشاعا الكسرة على عسكر مصر .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشر المحرم ، أشيع أن المماليك الذين ظهروا صحبة الغزالى رسموا عليهم ، وقيل سجنوهم بالقلعة ، وكانوا نحو أربعمائة مملوك ، وقد ظهروا بالأمان من ابن عثمان . فلما ظهروا قبض عليهم وغدر بهم ، وكان من عادته يعطى الأمان للأمراء والمماليك ثم يغدر بهم فى الحال ، فكان لا يثق أحد منه بالأمان .

وفيه قرر السلطان سليم شاه جماعة من أمرائه فى الولايات على بعض البلاد ، منهم نائب غزة ، ومنهم كاشف المحلة والشرقية والغربية ، فولى عدة كشاف فى أماكن مختلفة من البلاد .

وفى يوم الخميس عشرى المحرم ، نادى السلطان سليم شاه فى الصليبية وقناطر السباع بأن أصحاب الأملاك الذين فى الصليبية وجامع ابن طولون يخلون بيوتهم ، فان السلطان سليم شاه طالع الى القلعة ليقيم بها ، وصار يكرر المناداة فى كل يوم بذلك ، فأخلى الناس بيوتهم .

فلما طلع الى القلعة نادى للناس بالأمان والاطمئنان ، وكيف الأمان وقد حرجت الناس من بيوتهم على وجوههم فى أسوأ الأحوال ، وانطلقت فى قلوبهم جمرة نار ، وهجمت الطوائف العثمانية على الناس فى بيوتهم ، وأخرجوهم منها وسكنوا بها ، حتى صارت الحارات والأزقة ما تنشق منهم ، وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم ، من الصليبية الى جامع قوصون الى قناطر السباع الى داخل باب زويلة ، وما خلا منهم موضع فى المدينة . وصارت الناس تسد أبوابها وتضيقها مثل الحوخ حتى لا تدخل فيها الخيول ، ولم يفد ذلك شيئا ، وهدموا ما بنوه وسكنوا بها .

ثم ان السلطان سليم شاه طلع الى القلعة فى موكب حافل رجت له القاهرة ، وكان معه المماليك الذين طلعوا بالأمان ، وقيدوهم وأودعوهم فى الوكالة التى خلف مدرسة السلطان الغورى .

وفى أوائل هذه السنة كانت وفاة الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف المقدسى الشافعى ، كان عالما فاضلا فى مذهبه ، بارعا فى العلوم ، ورعا زاهدا ... ولى قضاء الشافعية فى أيام السلطان الغورى ، فأقام بها مدة وعزل عنها ، ثم قرره الغورى فى مشيخة مدرسته ، وقاسى فى أواخر عمره شدائد ومحنا من السلطان الغورى وأقام مدة طويلة وهو عليل ، حتى مات ، وعاش من العمر فوق الثمانين سنة . ولما أن مرض ثارت الحروب والفتن وتكاثرت الأهوال على الناس بمصر ، فمات ولم يشعر بموته أحد من الناس ، رحمة الله عليه .

وتوفى أيضا البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين كان ، وكان رئيسا حشما من أعيان أولاد الناس ، وكف بصره قبل موته بمدة طويلة ، وكان أنشأ له تاريخا لضبط الوقائع ، وكان علامة فى كل فن ، رحمة الله عليه .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشرى المحرم ، خلع السلطان على الشرفى يوسف الاستادار قفطانا من المخمل بالذهب ، وجعله متحدثا على جهات بلاد الشرقية ، ليمسح البلاد ويكشف ما فيها من اقطاعات المماليك الجراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف . فأخذ فوائم من أولاد الجيعان بمعنى ذلك . ونزل الى الشرقية ، فما أبقى من أبواب المظالم شيئا حتى فعله بالشرقية . وقرر فخر الدين ابن عوض وبركات أخا شرف الدين الصغير متحدثين فى جهات الغربيه . وقرر الزينى بركات بن موسى متحدثا على جهات المحلة . وقرر شرف الدين الصغير وأبا البقا ناظر الاصطبل متحدثين فى الجهات القبلية ، فأظهر كل منهم أنواعا من المظالم فى حق الناس بسبب الاقطاعات والرزق .

وأشيع أن السلطان سليم شاه أوقف أمر المناشير

التى بيد أولاد الناس بسبب أقاطيعهم ، فحصل لهم غاية الضرر بسبب ذلك .

وفى آخر هذا الشهر تشحطت الغلال وارتفع الخبز من الأسواق ، وسبب هذا الأمر أن العثمانية لما دخلوا القاهرة نهبوا المغل الذى فى الشون ، وأطعموه لخيولهم ، حتى لم يبق فى الشون شىء من الغلال . ونهبوا القمح الذى كان بالطواحين ، واضطربت أحوال الناس قاطبة

ثم ان الأخبار ترادفت بأن طومان باى ظهر أنه فى الصعيد ، عند أولاد عمر ، ومنع المراكب من الدخول الى مصر بالغلال . فبموجب ذلك وقعت التشحيطة بمصر .

وأما السلطان سليم فانه لما طلع الى القلعة احتجب عن الناس ولم يظهر لأحد ، ولم يجلس على الدكة بالحوش السلطانى جلوسا عاما ، ولم يفصل بين ظالم ومظلوم ، بل كان يتحدث منه ومن وزرائه كل يوم مظلمة جديدة من قتل وأسر وأخذ أموال بغير حق . وكان هذا على غير القياس . فانه كان أشيع العدل الزائد عن أولاد ابن عثمان وهم فى بلادهم ، قبل أن يدخل سليم شاه الى مصر ، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجه ، ولا متى سليم شاه على قواعد السلاطين السالفة ، ولم يكن له نظام يعرف لا هو ولا وزراؤه ولا أمراؤه و لاعسكره ... بل كانوا همجا لا يعرف الغلام من الأستاذ .

ولما أقام ابن عثمان بالقلعه ، ربطت العسكر الخيول فى الحوش الى باب القلعة عند الايوان الكبير وباب الجامع الذى بالقلعة ، وصار روث الخيل هناك كأنه كيمان التراب على الأرض ، حتى سد الطريق .

وخرب ابن عثمان غالب الأماكن التى بالقلعة وفك رخامها ونزل به فى المراكب يتوجهون به الى القسطنطينية .

ولما أقام سليم شاه بالقلعة نصب وطاق عسكره بالرميلة من باب القرافة الى سوق الخيل ، ثم ان العثمانية نصبوا خيمة فى وسط الرميلة وجعلوا فيها دنان بوزه ، وخيمة أخرى فيها جفان حشيش ، وخيمة أخرى فيها صبيان مرد لأجل المحارفة كعاداتهم فى بلادهم .

وفى يوم الجمعة جاءت الأخبار من بلاد الصعيد بأن السلطان طومان باى قويت شوكته ، والتف عليه جماعة كثيرة من العربان ، واجتمع عنده من الأمراء والعسكر الجم الكثير

وأشيع أنه وصل اليه من ثغر الاسكندرية زردخاناه ما بين نشاب وقسى وبارود . فلما تحقق السلطان سليم شاه ذلك أخذ حذره من الملك الأشرف طومان باى ، وصار على رأس أهل مصر طيرة مما جرى عليهم فى الواقعة التى كانت بالصليبية ، فخشوا من مثل ذلك .

* * *

وفى صفر وكان مستهله يوم الأحد ، فى يوم الثلاثاء ثالثه حضر العلائى على ناظر الخواص ، وكان قد توجه الى ثغر الأسكندرية ، فلما حضر أحضر صحبته جماعة من المماليك الچراكسة كانوا هناك ، فأحضرهم فى زناجير . ثم أشيع بعد ذلك أن ناظر الخواص كان قد توجه الى ... [1] ويقول لهم سبحان الله ان كنتم نسيتونا فنحن ما نسيناكم . وأرسل يعتب عليهم ويتحرش بهم .

ثم بعد أيام أشيع أن طومان باى أرسل يقول لابن عثمان : « ان كنت تروم أن أجعل الخطبة والسكة باسمك ، وأكون أنا نائبا عنك بمصر ،

(١) بياض بالأصل .

وأحمل اليك خراج مصر حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا من المال الذى أحمله اليك فى كل سنة ، فارحل عن مصر أنت وعسكرك الى الصالحيه ، وصن دماء المسلمين بيننا ، ولا تدخل فى خطيئة أهل مصر من كبار وصغار وشيوخ ونساء ، وان كنت ما ترضى بذلك اخرج ولاقنى فى بر الجيزة ، ويعطى الله النصر لمن يشاء منا » .

فلما وقف السلطان سليم شاه على مطالعة السلطان طومان باى ، أرسل خلف أمير المؤمنين والقضاة الأربعة ، وأحضر جماعة من وزرائه ، وكتب بحضرتهم صورة حلف الى السلطان طومان باى ، وكتب ابن عثمان خطه عليها ، ووقع الاتفاق فى القلعة على أن الخليفة والقضاة الأربعة يتوجهون الى السلطان طومان باى بذلك الحلف على أيديهم .

ثم ان ابن عثمان خلع على القضاة الأربعة خلعا سنية وقال لهم : « انزلوا فى هذا الوقت واعملوا برقكم حتى تتوجهوا الى طومان باى نحو الصعيد » . فنزلوا من القلعة على ذلك .

ثم ان الخليفة امتنع من التوجه الى السلطان طومان باى ، وقال أنا أرسل دواداری برد بك الى طومان باى صحبة القضاة الأربعة . وأشيع أن المطالعة التى أرسلها طومان باى الى ابن عثمان ذكر فى ذيلها : « ولا تحسب أنى أرسلت أسألك فى أمر الصلح عن عجز ، فان معى ثلاثين أميرا ما بين مقدمى ألف وأربعينيات وعشراوات ، ومعى من المماليك السلطانية والعربان نحو عشرين ألفا ، وما أنا بعاجز عن قتالك ، ولكن الصلح أصلح لصون دماء المسلمين » .

ثم فى عقب ذلك توجهت القضاة الأربعة ، وبردبك داوادار الخليفة ، الى السلطان طومان باى نحو الصعيد .

وفى هذه الأيام قويت الاشاعات بأن السلطان طومان باى جمع من العساكر والعربان ما لا يحصى عددهم وهو زاحف على ابن عثمان فى بر الجيزة . فكثر القيل والقال ، ووقع الاضطراب فى القاهرة بسبب ذلك .

ثم أشيع أن الأمير علان بن قراجا الدوادار الكبير قد توفى بالصعيد ودفن فى بعض الضياع هناك وصلى عليه السلطان طومان باى والأمراء الذين كانوا هناك . وكان الأمير علان جرح فى الواقعة التى كانت بالريدانية ، واستمر عليلا من ذلك الوقت حتى مات هناك ، وكان من فحول الأمراء وأشجعهم والله غالب على أمره .

وفى يوم الاثنين سادس عشر صفر تزايد فساد العربان بالشرقية ، وصاروا يقطعون الطريق على العثمانية ويقتلونهم ويأخذون خيولهم وجمالهم وسلاحهم ، ونهبوا بلاد عبد الدائم بن أبى الشوارب وأحرقوها ، ونهبوا عدة بلاد من الشرقية ، منها قليوب وقلقشنده ، وغير ذلك من البلاد ، ووصلوا الى شبرى ، وصاروا يعدون من شبرى الى قنطرة الحاجب . فلما تزايد الأمر أرسل اليهم السلطان سليم شاه تجريدة فيها من العسكر نحو ألف وخمسمائة عثمانى ، وجعل عليهم جان بردى الغزالى باشا ، فخرجوا من القاهرة على حسية وتوجهوا الى الشرقية فأقاموا بها أياما ، فذهبت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبال فرجع العسكر ولم يلاقوهم .

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من الصعيد بأن القضاة الأربعة وبردبك دوادار الخليفة ، وقاصد ابن عثمان مصلح الدين الذى كان أرسله معهم ،

وجماعة من العثمانيين ، وصلوا الى قريب البهنسا ، فخرج عليهم جماعه من الجراكسة فقتلوا العثمانيه ، وهرب بردبك دوادار الحليفة حتى نجا من القتل ، ونهب جميع ما معه من القماش ، وغيره . وأشيع قتل قاضي البهنسا عبد السلام ، ونهبوا ما كان مع القضاة من البرك ، وما سلموا من القتل الا بعد جهد كبير .

فلما بلغ ابن عثمان ذلك اغتاظ غيظا شديدا وتحقق أن السلطان طومان باى قد أبى الصلح بعد أن أرسل يطلب الأمان ، ثم ان ابن عثمان نقل وطاقه من الجزيرة الوسطى الى بركة الحبش .

وفى يوم السبت حادى عشرى صفر نزل السلطان سليم شاه من القلعه ومعه الجم الكثير من العساكر ببركة الحبش ، ونوجه المباشرون صحبته ، حتى القاضى كاتب السر ، وأخذ السفائين بجمالهم ، فضج الناس من العطش لأن السلطان ابن عثمان طلب جميع السفائين بجمالهم ورواياهم ليسافروا معه الى الصعيد بسبب السلطان طومان باى ، وان كان يهرب منه الى بلاد الزنج ويتبعه ، فوصل ثمن الراوية الماء أربعة أنصاف .

وفى يوم السبت ثامن عشرى صفر أشيع أن أوائل عسكر السلطان طومان باى قد وصل الى ترسه بالقرب من الجيزة ، فرسم ابن عثمان بعمل وحسات على شاطىء البحر بجهة طرا لأجل تعديه العسكر ، وكذلك فى بر مصر العتيقة . وفى هذه الأيام امتنع جلب البضائع التى كانت تدخل الى القاهرة من الجبن والسمن والأغنام وغير ذلك من البضائع التى كانت تجلب من الجيزة ونواحيها ، وقليوب وشبرى وغير ذلك من البلاد ، واضطربت أحوال القاهرة جدا بسبب اقامة هذه الفتنة .

* * *

وفى ربيع الأول ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، أشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج من بلاد الشرقية ، كبس على عدة بلاد منها حين وصل الى التل والزنكلون ، فنهب مافيها من الأبقار والأغنام والأوز والدجاج ، وأسر نساء الفلاحين وأولادهم الصبيان والبنات ، وصاروا يبيعونهم فى القاهرة بأبخس الأثمان ، كما فعل أقبردى الدوادار فى الأحامدة وأولادهم . فاشترى بعض الناس بنتا بأربع أشرفيات وأعتقها ووهبها الى أمها ، وقد رق عليها .

ثم ان جان بردى الغزالى فعل فى الشرقية ما لم يفعله بختنصر لما دخل الى مصر . ثم ان يونس باشا نادى فى القاهرة أن كل من اشترى شيئا من نهب بلاد الشرقية من الأبقار والأغنام يرده على أصحابه ، وكذلك أولاد الفلاحين . ولام الغزالى على فعله ذلك فى الشرقية لوما عنيفا . وقد قيل فى المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
يبع الهوان ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منه تستحى

وفى يوم الأربعاء ثانى ربيع الأول رسم السلطان سليم شاه بأن الأمراء الذين كانوا بالقلعة فى الترسيم يحضرون بين يديه فى الوطاق الذى فى بركة الحبش ، فنزلوا بهم من القلعة : شىء على بغال ، وشىء على حمير ، وشىء مشاة . وهم فى جنازير وعليهم كبوره عتق ، وعلى رءوسهم كوافى بغير شاشات . وقيل كان فيهم من الأمراء المقدمين سبعة ، وهم : أركماس أمير سلاح ، وأنص باى أمير آخور ، وتمر رأس نوبة النوب ، وطقطباى حاجب الحجاب ، وتانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وتانى بك النجمى أحد الأمراء المقدمين ، وقانصوه أبو سنة أحد الأمراء المقدمين .

وأما الأمراء الطبلخانات فهم قانى بك رأس نوبة ثانى ، ومصرباى الأفرع ، والماس والى القاهره ، وماماى النسعير المحتسب ، ويوسف الأشرفى الزردكاش الثانى . وآخرون من الأمراء الطبلخانات لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأما الأمراء العشراوات فجماعة كثيرة لم تحضرنى أسماؤهم . فكان مجموع هؤلاء الأمراء المقدم ذكرهم أربعة وخمسين أميرا ما بين مقدمى ألوف وغير ذلك . فلما مثلوا بين يدى السلطان سليم شاه ، وبخهم بالكلام ، ثم امر بضرب أعناقهم أجمعين فضرب أعناقهم فى الوطاق الذى ببركة الحبش ، وذلك فى يوم السبت خامس ربيع الأول . وصارت أجسادهم مرمية على الأرض تنهشهم الكلاب بالنهار ، والضباع والذئاب بالليل وصارت المرأة من نساء الأمراء المقدمين تبرطل المشاعلية بمال له صورة حتى يسكنوها من نقل جثة زوجها فتحضر له تابونا وحمالين يحملونه من بركة الحبش الى المدينة ، فتغسله وتكفنه وتدفنه فى تربته ان كان له تربة . وتركت جثث البقية هناك مرمية تنهشها الكلاب .

وكانت هذه الكائنة من أعظم الكوائن فى حق الأمراء . وقد ظهروا بالأمان لابن عثمان ، ثم غدرهم وقتلهم ، فكان لا يثق أحد له بالأمان ، وليس له قول ولا فعل .

وقيل كان سبب قتل هؤلاء الأمراء أن السلطان طومان باى لما قتل قاصد ابن عثمان وجماعه من عسكره الذين توجهوا صحبه القضاة الأربعة ، لما طلب طومان باى الأمان من ابن عثمان ، فلما فعل ذلك طومان باى علم ابن عثمان أنه قد أبى من الصلح ، فقتل هؤلاء الأمراء ظلما بعد أن أعطاهم الأمان وكان ذلك من شدة غيظه وحنقه وقد قلت فى هذه الواقعة :

جل الذى أفنى عساكر مصرنا
من دولة أتراكها من جركس
وأتت الينا دولة عوجاء من
أولاد عثمان ذوى الفعل المسى
قتلوا أكابرنا بأيسر حيلة
عملت عليهم لا بأسهام القسى
ياليت شعرى دولة الأتراك هل
تأتى كما كانت ونذكر مانسى ؟!

ومن الحوادث أن السلطان سليم شاه لما قتل هؤلاء الأمراء أرسل فقبض على نسائهم ورسم عليهن ، وأرسلهن الى بيت ناظر الخاص وأشيع أنه بقصد مصادرتهن ، وقرر عليهن مالا يوردنه . فأقمن فى بيت ناظر الخاص أياما ، ولم يوردن من المال شيئا ، فنقلوهن الى بيت الدفتردار فقصد أن يعاقبهن ، وقيل سجن منهن جماعه فى الحجرة حتى يوردن ماقرر عليهن من المال . ورسم على مباشرى الأمراء الذين قتلوا حتى يعملوا حساب اقطاعاتهم فأقاموا فى الترسيم مدة .

وفى يوم الأحد سادس ربيع الأول عدى السلطان سليم الى بر الجيزة بسبب قتال الأشرف طومان باى . وقد بلغه أنه وصل الى المنوات ، ومعه من العربان والعسكر ومن المماليك الجراكسه الجم الكثير .

فلما عدى الى بر الجيزة أقام بها الى يوم الخميس عاشر شهر ربيع الأول ، فتلاقى عسكر ابن عثمان وعسكر السلطان طومان باى على وردان ، وقيل على المنوات ، فكان بين الفريقين واقعة لم يسمع بمثلها ، أعظم من الواقعة التى كانت بالريدانية . وقيل كانت هذه الواقعة عند كوم الحمام وانكسر عسكر ابن عثمان فوق ما مرة ، وطردتهم الأتراك

الجراكسة حتى ألقوا أنفسهم فى البحر ، وكانت الكسرة عليهم أولا ، وقتـل منهم جماعة كثيرة .

ثم بعد ذلك تكاثرت العثمانية على الأتراك ، وطرشتهم الرماة بالبندق الرصـاص ، فهزموهم هزيمة منكرة ، ووقعت الكسرة على الأتراك ، وولى السلطان طومان باى مهزوما فتوجه الى قرية تسمى البوطة فى أعلى تروجه ، وهذه خامس كسرة وقعت على عسكر مصر . وكان السلطان طومان باى ليس له سعد فى حركاته ، كلما رام أن ينتصر على ابن عثمان ينعكس ، كما يقال فى المعنى :

اذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

فلما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر ، قطع رءوس المماليك الجراكسة ، وقطع رءوس جماعة كثيرة من العربان الذين كانوا مع السلطان طومان باى فلما تكامل قطع الرءوس رسـم ابن عثمان باحضار مراكب ، فلما حضرت وضعوا فيها رءوس الذين قتلوا ، فلما عدوا الى بولاق صنعوا مدارى خشب ، وعلقوا عليها تلك الرءوس ، وحملتها النواتية على أكتافهم ، ولاقتهم الطبول والزمور ونادوا فى القاهرة بالزينة فزينت زينة حافلة ، وشقوا بتلك الرءوس من البحر الى باب القنطرة ، وطلعوا بهم على سوق مرجوش ، وشقوا بهم من القاهرة ، وكان لهم يوم مشهود وقيل كان عدة الرءوس الذين قتلوا فى هذه الواقعة ودخلوا القاهرة نحو ثمانمائة رأس ما بين أتراك وعربان وغير ذلك ، والذين قتلوا هناك وألقوهم فى البحر أكثر من ذلك .

وفى يوم الجمعة حادى عشر ربيع الأول ، كانت ليلة المولد النبوى ، فلم يشعر به أحد من الناس . وبطل ما كان يعمل فى ليلة المولد من اجتماع العلماء والقضاة الأربعة والأمراء بالحوش السلطانى ، والأسمطة التى كانت تعمل فى ذلك اليوم ، وما كان يعطى للمقرئين والفقراء من الشقق والأنعام فى تلك الليلة ، فبطل ذلك جميعه .

وأشيع أن ابن عثمان لما طلع الى القلعة وعرضت عليه الحواصل التى بها رأى خيمة المولد فباعها للمغاربة بأربعمائة دينار ، فقطعوها قطعا وباعوها للناس ستائر وسفر . وكانت هذه الخيمة من جملة عجائب الدنيا لم يعمل مثلها قط . قيل ان مصروفها على الأشرف قايتباى ثلاثون ألف دينار ، وقيـل أكثر من ذلك ، وكانت غاية فى التجمل حين تنصب ليلة المولد الشريف . وكانت كهيئة قاعة ، ولها أربعة لواوين ، وفوقها قبة بقمريات ، والكل من قماش . وكان فيها تقاصيص غريبة ، وفصـوص غريبة ، وصنائع لا يعمل الآن مثلها أبدا ، وكانت اذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو خمسمائة انسان حتى ينصبوها فى الحوش السلطانى ، وكانت من جملة شعائر المملكة السلطانية بالقاهرة ، فابتيعت بأبخس الأثمان ، ولم يعرف ابن عثمان قيمتها ، وفقدتها الملوك من ذلك الوقت ، وهذه من جملة مساويه التى فعلها بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما بلغه أن الدفتردار رسم على نسـاء الأمراء الذين قتلوا ، أنكر على الدفتردار ذلك ، وأمر باطلاقهن من الترسيم ، وأمر ألا يأخذ أحد منهن شيئا ويترك لهن ماتأخر عليهن من المال .. فارتفعت له الأصوات بالدعاء ، ولم يظهر لهذا الكلام نتيجة فيما بعد ، واستمرت المصادرات عمالة كما كانت بل ازدادت أضعافا .

وفيه جاءت الأخبار من البهنسا بأن قاضى القضاة الحنفى حسام الدين محمود ابن قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة قد قتل هو وأخوه أبوبكر . وكان

السلطان سليم شاه أرسله مع القضاة الثلاثة الى السلطان طومان باى بالبهنسا ، لما أرسل يطلب من ابن عثمان الأمان . فكتب له آمانا وصورة حلف ، وأرسله على يد قاضى القضاة ، وأرسل صحبتهم أميرا من آمرائه ، وجماعة من العثمانية . فلما وصلوا هناك لم يوافق السلطان طومان باى على الصلح ، ولم يمكنه الأمراء من دلك ، وثاروا على جماعة ابن عثمان وقتلوهم عن آخرهم وقتلوا عبد السلام قاضى البهنسا وقتلوا قاضى القضاة محمود بن الشحنة .

ويقال ان سبب قتله أن أخاه أبا بكر كان عنده عبرسه وملوحة رقبة ، فلهذا سماه الناس الموبر ، فزعموا آنه غمز على شخص من المماليك الجراكسة كان مختفيا فى مكان ، فدل العثمانيه عليه ، فهجموا على ذلك المملوك وقطعوا رأسه .

فلما سافر قاضى القضاة محمود بن الشحنة الى السلطان طومان باى بسبب الأمان الذى أرسله اليه ابن عثمان ، سافر آبو بكر صحبة أخيه محمود الى البهنسا ، فثارت الجراكسة على جماعة ابن عثمان فقتلوهم هناك ، فكان للمملوك الذى قتل أخ هناك فغمزه بعض المماليك على أبى بكر وقالوا له هذا الذى غمز على أخيك حتى قطعوا رأسه فوثب ذلك المملوك على آبى بكر وقطع رأسه هنالك . فتعصب له آخوه محمود بن الشحنة ، فوثبوا عليه فقطعوا رآسه أيضا ، ودفنا هناك .

هذا ما آشيع واستفاض بين الناس من أمرهما . ولما انتصر ابن عثمان على عسكر مصر آقام فى بر الجيزة آياما ، وسار من هناك وتفرج على الأهرام وتعجب من بنائها .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره نادوا فى القاهرة بابطال الفلوس العتق . وضربوا للناس فلوسا جددا كل اثنين بدرهم ، وعليها اسم سليم شاه ، وكانت فى غاية الخفة ، فتضرر الناس منها الى الغاية .

وفى آثناء هذا الشهر كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد الأشقر شيخ الشيوخ بخانقاه سرياقوس ، وكان اصيلا عريقا من ذوى البيوت . وكان والده القاضى محب الدين الاشقر ولى نظارة الجيش . وكتابة السر بالديار المصريه . وكان من أعيان الرؤساء رحمه الله عليه ، مات وله من العمر فوق الثمانين سنة . وكان عنده لين جانب مع تواضع زائد ، وكان أسمر اللون جدا ، كانت آمه جاريه حبشيه مسولدة الأشقر .

ومن هنا نرجع الى اخبار السلطان طومان باى فانه لما تلاقى مع عسكر ابن عثمان على المنوات وفيل بوردان ، انكسر عسكر السلطان طومان كما تقدم القول على دلك ، فتوجه طومان باى الى نحو تروجه بالغربيه منهزما ، فلاقاه حسن ابن مرعى وشكر ابن آخيه مشايخ البحيرة فى ضيعة تسمى البوصه ، فعزما على السلطان طومان باى ليضيفاه . وكان حسن بن مرعى بينه وبين السلطان طومان باى صداقة قديمة ، فركن له السلطان طومان باى ونزل عنده على سبيل الضيافة .

ثم ان السلطان طومان باى آحضر الى حسن بن مرعى وشكر مصحفا شريفا وحلفهما عليه انهما لا يخونانه ، ولا يغدران به ، ولا يدلسان عليه بشىء من الأشياء ، ولا بسبب من أسباب المسك ، ولا يدلان عليه . فحلفا له على المصحف سبع أيمان بمعنى ذلك ، فطاب قلب السلطان طومان باى عند ذلك ونزل عندهما .

فلما استقر عندهما احتاطت به العربان من كل جانب وهو لايدرى بما به المقادير تجرى . ثم انهما

أرسلا الى السلطان سليم شاه أعلماه به ، فأرسل اليه جماعة من عسكره فقبضوا عليه ، ووضعوه فى الحديد ، وتوجهوا به الى ابن عثمان ، ولما رأى من كان مع السلطان طومان باى من الأمراء والعسكر أنهم قبضوا عليه ، تفرقوا من حوله ، وتشتتوا فى البلاد . وتمت الحيلة على السلطان طومان باى ، وخانه حسن بن مرعى بعد أن حلفه على المصحف الشريف وركن اليه .

وكان حسن بن مرعى من أعز أصحاب السلطان طومان باى . وله عليـه غاية الفضل والمساعدة من أيام السلطان الغورى ، وقام بما عليه من المال مرارا، فلم يذكر له من هذه الأخلاق شيئا ولا أثر فيه الخير . فكان كما قيل فى المعنى :

لا تركنن الى الحـريف فماؤه
مسـتوخم وهواؤه خطـاف
يمشى مع الأجسام مشى صديقها
ومن الصديق على الصديق يخاف

فلما أحضروا السلطان طومان باى بين يدى ابن عثمان وهو لابس مثل لبس العرب الهوارة ، وعلى رأسـه زنط ، وعليه شـاش ، وعلى بدنه ملوطة بأكمام طوال . فلما وقعت عين ابن عثمان عليه قام له ثم عاتبه ببعض كلمات ، فلمـا خرجوا به من قدامه توجهوا به الى خيمة من الخيام ، فأقام بها ، واحتاطت به الأنكشارية بالسيوف لأجل الحفظ به فأقام هناك أياما وهو بوطاق ابن عثمان ببر انبابه .

وفيه وردت الأخبار الى القاهرة بمسك السلطان طومان باى ، فصـارت طائفة من النـاس تكذب بمسكه ، وطائفة تصدق ذلك . فأقام السـلطان طومان باى فى الوطاق عند ابن عثمـان ، وهو فى الحديد الى يوم الاثنين حادى عشرى ربيع الأول من تلك السنة . وكان ذلك اليوم يوم الخماسين ، وهو يوم فطر النصارى وعيدهم الأكبر . فعدوا بالسلطان طومان باى من بر انبابة الى بولاق ، وطلعوا به من هناك وهو راكب على أكديش : وهو فى الحديد ، وعليه لبس العرب الهوارة كما تقدم . وكانت مدة اقامته فى الوطاق على تلك الحالة نحو سبعة عشر يوما . وأشيع أن ابن عثمان قصد أن يرسل طومان باى الى مكة ولا يقتله ، ثم بدا له بعد ذلك ما سنذكره .

فلما علم ابن عثمان أن الناس لا تصدق بمسك طومان باى ، حنق من ذلك وعدى به الى بولاق ، فلما طلع الى بولاق وشق من المقس ، كان قدامه نحو أربعمائة عثمانى ورماة بالنفط ، فطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة ، فجعل يسلم على الناس بطول الطريق . حتى وصـل الى باب زويلة وهو لا يدرى ما يفعل به .

فلما أتوا الى باب زويلة ، أنزلوه عن فرسـه وأرخـوا له الحبـال ، ووقفت حوله العثمـانية بالسيوف مسلولة . فلما تحقق أنه يشنق وقف على أقدامه على باب زويلة ، وقال للناس الذين حوله : اقرأوا لى الفاتحة ثلاث مرات . ثم بسط يده وقرأ الفاتحة ثلاث مرات ، وقرأت الناس معه ، ثم قال للمشاعلى : اعمل شغلك .

فلما وضعوا الحبة فى رقبته ورفعوا الحبـل ، انقطع به فسقط على عتبة باب زويلة ، وقيل انقطع به الحبل مرتين ، وهو يقع على الأرض ثم يعلقونه وهو مكشوف الرأس ، وعلى جسده شاياه جوخ أحمر ، وفوقها ملوطة بيضاء بأكمـام كبار ، وفى رجليه لباس من جوخ أزرق ... فلما شنق وطلعت روحه ، صرخت عليه الناس صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . فانه كان شابا حسن الشكل ، كريم الأخلاق ، سنه نحو أربع وأربعين سنة . وكان

شجاعا بطلا تصدى لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، وفتك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ، وكسرهم ثلاث مرات ، وهو فى نفر قليل من عسكره . ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة .

وكان لما سافر عمه السلطان الغورى ، جعله نائب الغيبة عنه الى أن يحضر من حلب ، فساس الناس فى غيبة السلطان أحسن سياسة ، وكانت الناس عنه راضية فى غيبة السلطان ، وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الأمن من المناسر والحريق وغير ذلك .

لما مات السلطان الغورى عمه ، وتسلطن عوضه ، أبطل من المظالم أشياء كثيرة مما كان يعمل فى أيام الغورى ، ولم يشوش على أحد من المباشرين فى مدة سلطنته .

ولما وصل ابن عثمان الى الشام وقصد أن يخرج اليه ، قيل له ان الخزائن خالية من الأموال . فقال له الأمراء وجماعة المباشرين : « افعل كما فعل السلطان الغورى ، وخذ أجرة الأماكن التى بالقاهرة سبعة أشهر ، وخذ من الرزق والأقطاعات خراج سنة » . فلم يسمع لهم شيئا وأبى من ذلك ، وقال : « ما أجعل هذا مسطرا فى صحيفتى » .

وكان ملكا جليلا قليل الأذى ، كثير الخير ، وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، فانه تسلطن رابع عشر رمضان ، وانكسر وهرب تاسع عشرى ذى الحجة .

وكان فى هذه المدة فى غاية التعب والنكد ، وقاسى شدائد ومحنا ، وحروبا وشرورا وهججا...وتشتت فى البلدان ، وآخر الأمر شنق على باب زويلة . وأقام ثلاثة أيام وهو معلق حتى فاحت رائحته .

وفى اليوم الثالث أنزلوه وأحضروا له تابوتا ، ووضعوه فيه ، وتوجهوا به الى مدرسة السلطان الغورى عمه ، فغسلوه وكفنوه ، وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة ، ومضت دولته كأنها لم تكن ، وقد قلت من أبيات :

لهفى على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لن يذكرا
شنقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقد أذاقوه الوبال الأكبرا
يا رب فاعف عن عظائم جرمه
واجعل جنان الخلد رب له قرى

وكان شنق السلطان طومان باى من غايات سعد السلطان سليم شاه بن عثمان ولم يسمع بمثل هذه الواقعة فيما تقدم من الزمان أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط ، ولم نعهد مثل هذا ، ومن عهد شاه سوار الذى علقوه على باب زويلة ، لم يعلق أحد ممن له شهرة طائلة غير السلطان طومان باى .

ثم ان ابن عثمان لما شنق طومان باى صفا له الوقت ، وفعل بعد ذلك أمورا يأتى الكلام عليها .

ثم أخذ فى أسباب التوجه الى نحو بلاد القسطنطينية ، فأشيع أنه يجعل يونس باشاه نائبا عنه بمصر . ثم خلع على شخص من جماعته وقرره نائب غزة . وخلع على شخص آخر وقرره نائب القدس . فخرجا من القاهرة فى أواخر هذا الشهر ، وقدامهما طبلان وزمران وجنائب . وخرجا فى موكب حافل .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشريه صنع بعض النفطية الى السلطان نفطا ، وتوجه به الى وطاقه بالنيابة ، فأحرقوه قدامه بالوطاق .

ومن الحوادث المهمة أنه قد أشيع أن السلطان سليم شـــاه ، عول على جمـــاعه من أهل مصر من أعيانهم يرسلهم الى اسطنبول .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه أتى الســـلطان سليم شاه من وطاقه الذى فى ابابه ، وعدى الى بولاق وتوجه الى القاهرة ، وشق من باب الخرق ، ودخل من باب زويلة ، وتوجه من هناك الى الجامع الأزهر ، وزينت له القاهرة ، فصلى بالأزهر صلاة الجمعة ، وتصـــدق هناك بمبلغ له صـــورة . ثم توجه الى بولاق من الطريق التى أتى منها ، وكان فى موكب حافل .

ثم بعد أيام أشيع أنه دخل الى حمام الاستدار التى بيـــولاق فأتى من الرملة ولم يشق بولاق . وكان أهل بولاق زينوا له السوق ، ولما خرج من الحمام عاد من الطريق التى أتى منها ، وقيـــل انه أنعم على الحمامى فى ذلك اليوم بعشرين دينارا ، وأعجبه حمام بولاق وشكره ثم عاد الى الوطاق .

ثم ان جماعه من وزراء ابن عثمان وأهل مشورته جلسوا فى المدرسة الغورية ، وشرعوا يطلبون جماعة من القضاة والشهود والمباشرين ، وأعيـــاد تجـــار المغـــاربة ، وتجـــار الوراقين ، وتجـــار الشرب ، والباسطية ، وجماعة من البزدارية والرسل ، وجماعه من السوقة المتسببين فى البضـــائع ، وطائفـــه من البنائين والنجارين والمرحمين والمبلطين والحدادين وغير ذلك من أرباب الحرف ، حتى طلبوا جمـــاعة من أعيان اليهود . فلما تكامل عرضهم فى المدرسة الغورية عينـــوا جمـــاعة منهم أن يســـافروا الى اسطنبول . فكتبوا أسماءهم فى قوائم ، وألزموا كل واحد منهم بأن يحضر له ضامنا يضمنه . فلما أحضروا لهم الضمان أطلقـــوهم الى حال سبيلهم .

ويأتى الكلام بعد ذلك فى أمورهم وما تم لهم فى هذه الحركة .

وفى يوم الأحد سابع عشريه قبض الوالى على شخص من العمانية قيل انه خطف امرأة من السوق وزنى بهـــا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك أمر الوالى أن يقطع رأسه فقطع رأسه فى الحال ، وطاف بها فى القاهرة وهى على رمح ، فظهر من ابن عثمان فى ذلك اليوم عدل عظيم لعل أن يعتبر بمثله عسكره ويكفوا عن الأذى .

وفى أثناء ذلك الشهر وقع أن ابن عثمان شرع فى فك الرخام الذى بالقلعـــه فى قاعة البيسرية والدهيشة ، وقاعة البحرة والقصر الكبير ، وغير ذلك من أماكن بالقلعة ، وفك العواميد السماقية التى كانت فى الايوان الكبير ، قيل انه قصد أن ينشىء له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسه السلطان الغورى ، فلم يتيسر له ذلك .

ثم صار يحيى بن بكار بركب ويأخذ معه جماعة من المرخمين ، فيهجمون قاعات الناس ، وياخذون ما فيها من الرخام الســـماقى والزرزورى الملون . فأخربوا عدة قاعات من أوقاف المسلمين وبيـــوت الأمراء قاطبة ، حتى القاعات التى ببولاق ، وقاعات الشهابى أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص التى على بركة الرطلى ، وغير ذلك من قاعات المباشرين والتجار وأبناء الناس ، والمدارس التى فيها الكتب النفيسة ، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها ، ولم يعرفوا الحلال من الحرام .

وفيه نادوا فى القاهرة بابطال الفلوس العتـــق وضربوا للناس فلوسا جددا خفافا جـــدا ، فحسر الناس الثلث ، ووقف حال الناس بسبب ذلك ... فصارت البضائع تباع بسعرين : ســـعر بالفلوس العتق ، وسعر بالفلوس الجدد .

وفيه صاروا يقبضون على جماعة من مباشرى الأمراء ، ويقولون لهم حاسبونا على خراج الأمراء الذين قتلوا فى المعركة .

* * *

وفى ربيع الثانى وكان مستهله يوم الأربعاء ، أشيع أنه قد حضر قاصد من شاه اسمعيل الصفوى وعلى يده مطالعة لابن عثمان ، فلما قرأها تنكد وقصد أن يقبض عليه ، فهرب ذلك القاصد من عند ابن عثمان ، وكان بالمقياس . فلما هرب صاروا يكبسون بيوت مصر العتيقة ، وبيوت الروضة ، فلم يحصلوه لا فى البر ولا فى البحر ، فحصل لأهل مصر العتيقة غاية الضرر من كبس البيوت بسبب هروب هذا القاصد . فمن الناس من يقول انهم قبضوا عليه فيما بعد وقطعوا رأسه ، ومنهم من يقول انهم لم يحصلوه واستمر هاربا .

ومن الحوادث أن شخصا من التجار الأروام كان له دين على الزينى عبد القادر الملكى وأخيه أبى بكر بن الملكى ، نحو خمسة آلاف دينار ، وقيل عشرة آلاف دينار ، فكان كلما طالبهما سوفا به ومطلاه . وتماديا على ذلك مدة طويلة ، فشكاهما الى الدفتردار ، فأرسل حلفهما ، فلما حضرا اعترفا لذلك التاجر بالقدر المذكور ، فأمرهما الدفتردار بأن يدفعا له ذلك ، فقالا ما معنا شىء من المال ، ولكن يصبر حتى يبعث الله لنا بشىء من المال ، فندفع له حقه . فقال لهما ما بقيت أصبر عليكما . فحنق منهما الدفتردار وأمر بسجن عبد القادر وأخيه أبى بكر ، فسجنا فى سجن الديلم ، وأقاما به أياما حتى سعى لهما الشهابى أحمد ابن الجيعان وأطلقا من السجن ، ثم استرضوا ذلك التاجر حتى أفرج عنهما .

وفى أوائل هذا الشهر حضر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى المالكى محيى الدين بن الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى . وكانوا توجهوا الى نحو البهنسا بسبب الأمان الذى توجهوا به من عند ابن عثمان الى السلطان طومان باى ، ولم نفد توجه هؤلاء القضاة اليه شيئا .

ولما حضر هؤلاء القضاة أخبروا بصحة قتل قاضى القضاة حسام الدين محمود بن الشحنة الحنفى وأخيه أبى بكر ، وقد تقدم القول على سبب قتلهما ودفنا هناك .

وفى يوم الاثنين سادسه أشيع أن ابن عثمان عدى الى المقياس . وكان فى ذلك اليوم رياح عاصفة فكاد أن يغرق . فلما سلم من الغرق أقام بالمقياس ونقل وطاقه الى الروضة ومصر العتيقة ثم ان أمراءه طردوا السكان الذين بالروضة وبمصر العتيقة ، وسكنوا فى دورهم ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، فأعجبه المقياس فأقام به مدة أيام ، وكان وزراؤه يعدون الى الروضة فى كل يوم ويطالعونه بالأمور التى يفعلونها فى الناس من خير أو شر .

وفى يوم الثلاثاء سابعه توفيت ابنة الأمير يشبك ابن مهدى أمير دوادار ، وهى زوجة قانى باى أمير آخور كبير ، وقاست قبل موتها شدائد ومحنا ، وصودرت غير ما مرة من السلطان الغورى ، ومن ابن عثمان أيضا ، واستمرت مختفية حتى ماتت . وكانت من أعيان الستات فى سعة من المال ، وكانت لا بأس بها .

وفيه خلع السلطان على شخص من العلماء ، يقال له الشيخ شمس الدين بن يس الطرابلسى ، وقرره فى قضاء الحنفية عوضا عن محمود بن الشحنة بحكم قتله كما تقدم

وفيه وقعت كائنة عظيمة لخوند ابنة المقر آقبردى

الدوادار ، وهى زوجة السلطان طومان باى ؛ وذلك انه كان عندها جاريه بيضاء چركسيه رقاصه ، فهربت من عندها وتوجهت الى بعض وزراء ابن عثمان ، فعرفه بمكان حاصل سيدتها ، فتوجهوا اليه ونقلوا كل ما كان فيه من بشاخين زركش وعنبر ومقاعد سمور ووشق وحياصات ذهب ولؤلؤ وجوهر مرصع وكوامل ذهب ، وغير ذلك من الامتعه الفاخرة ، وأوانى بلور وأوانى فضة ونحاس مكفت بالذهب ، وصينى موشى بلازورد ، وغير ذلك . فنقلوا جميع ما كان لها فى الحاصل ، فذهب لها أشياء كثيرة بنحو خمسين ألف دينار ، وما قنع ابن عثمان بذلك ، فصادرها وقرر عليها وعلى والدتها بنت العلائى على بن خاص بك عشرين ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك القدر ، فحصل لها ولوالدتها الضرر الشديد ؛ وقاسيا شدائد عظيمة ومحنا وبهدلة وتهديدا بالقتل ، وما جرى عليهما خير .

وفى يوم الجمعة سابع عشره رسم الدفتردار باخراج طائفة من اليهود ممن كان تعين الى السفر الى اسطنبول . فخرجوا فى ذلك اليوم جملة واحدة . فنزلوا فى المراكب وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية الى أن يمضوا الى اسطنبول ... فأخذوا نساءهم وأولادهم ومضوا . وفى عقب ذلك خرجت طائفة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين ، وفيهم البعض من النصارى . وطائفة من الفعلة ، وذلك بسبب المدرسة التى أراد ابن عثمان أن ينشئها باسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى . وأشيع أنه أرسل طائفة من المغاربة أيضا تقيم باسطنبول .

وفى يوم السبت ثامن عشره خرج الى السفر لاسطنبول طائفة أخرى من نواب القضاة والشهود فمنهم القاضى شمس الدين الحلبى أحد نواب الشافعية ، وقد قاسى من العثمانية غاية البهدلة من الضرب والصك ، وأنزلوه المركب على رغم أنفه ، ومنهم الزينى زين الدين الشرنقاشى ، أحد نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأثميدى ، أحد نواب الشافعية ، والقاضى بدر الدين البلقينى ، نقيب قاضى القضاة الشافعى ، والقاضى شهاب الدين بن الهيثمى ، أحد نواب الحنابلة . والشريف البردينى الحنفى ، وآخرون من نواب القضاة الأربعة .

وخرج فى ذلك اليوم جماعة كثيرة من تجار الشرب والوراقين ... منهم محمد المسكى الأسود . ومن تجار الباسطية شهاب الدين الخطيب الأسمر ، ومن تجار خان الخليلى وغيره ... وخرج يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وخرج ابن شقيرة التاجر الذى بمرجوش . ومن تجار الهرامزة وغير ذلك من التجار والأعيان من مشاهير الناس ... فهؤلاء خرجوا فى ذلك اليوم ثم تبعهم طائفة أخرى يأتى الكلام عليها . وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان . وهذه عبارة عن أسر المسلمين ونفيهم الى اسطنبول .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشريه أشيع بين الناس أن ابن عثمان كان فى أصبعه خاتم من الفضة وهو مرصود للمقابلة . وكان يتبرك به فسقط من أصبعه فى البحر وهو فى المقياس ، فتأسف عليه غاية الأسف ، وأحضر الغطاسين فغطسوا عليه عدة مرات فلم يجدوه فى ذلك المكان . ويقال ان هذا الخاتم كان فى ذخائر أجداد ابن عثمان حتى فقد منه .

وفى أواخر هذا الشهر أرسل ابن عثمان يقول لأمير المؤمنين : « اعمل برقك حتى تسافر الى

اسطنبول » فلما تحقق الخليفة ذلك اضطربت أحواله ، وشرع فى عمل برفه وقال سافر أنت واولاد عمك خليل وصهرك محمد بن خاص بك . فلما بلغهم ذلك تنكدوا أجمعون .

وفيه نزل ابن عثمان بالرخام الذى فكه من القلعة ، فوضعه فى صناديق خشب ونزلوا به فى المراكب لتوجهوا به الى اسطنبول

ومن العجائب أن السلطان الغورى ظلم أولاد ناظر الخاص يوسف ، وأخذ رخام قاعتهم التى تسمى بنصف الدنيا ، وجعل ذلك الرخام فى قاعة البيسرية ، فسلط الله تعالى عليه بعد موته ابن عثمان ، ولم ينتفع به أحد من بعده ، والمجازاة من جنس العمل . وقد خرج هذا الشهر على الناس وهم فى أمر مريب مما جرى عليهم من ابن عثمان .

* * *

وفى شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم الجمعة ، ففى ذلك اليوم خرج المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد ابن الملك الأشرف اينال ، وكان تعين الى السفر الى اسطنبول ، فخرج فى ذلك اليوم ، وخرج جماعة من الفقهاء وأعيان التجار ممن تعين الى اسطنبول ، فمنهم شمس الدين ابن روق وكان القاضى بدر الدين بن الوقاد أحد نواب الحنفية تعين الى السفر الى اسطنبول ، فلما تحقق ذلك اختفى ، وحصل على نقيب الجيش من الدفتردار ما لا خير فيه ، وبهدله وهم بضربه لأنه كان ضامنه .

وفى يوم السبت ثانى الشهر ، عرض السلطان سليم شاه عسكره ببر الجيزة ، وعين منهم جماعة يسافرون صحبته الى ثغر الاسكندرية ، وأشيع سفره الى هناك

وفى يوم الاثنين رابعه عدى ابن عثمان من المقياس الى بر مصر العتيقة ، وشق من جامع ابن طولون وطلع الى القلعة ، ثم عاد من يومه الى المقياس وأقام به .

ومن الحوادث أن شخصا من نواب الشافعية قيل عنه انه زوج امرأة من نساء الأتراك لشخص من العثمانية ، فظهر أنها لم تكمل عدة زوجها الذى مات ، فدلس ذلك على القاضى الذى زوجها الى العثمانى فلما رفع أمرها الى ابن عثمان احضر ذلك القاضى ولم نقبل له عذرا ، وبطحه وضربه ضربا شديدا ، ثم كشف رأسه وألبسه عليها كرشا من كروش البقر بروثه ، وركبه على حمار مقلوبا ، وأشهره فى القاهرة ، وكان قبل ذلك نادى السلطان فى القاهرة بان لا أحد من قضاة مصر يعقد عقدا لعثمانى ، ولا يزوجه بأحد من نساء الأتراك . وكذلك الشهود ، وحرج عليهم فى ذلك الى الغاية ، فلم يسمع له قضاة مصر شيئا من ذلك ، وصاروا يزوجون العثمانية بنساء الأتراك الذين قتلوا فى الحرب كما تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الخميس سابع هذا الشهر نزل السلطان سليم شاه من المقياس فى مراكب هو وجماعة وقصدوا التوجه الى ثغر الاسكندرية وقيل كان معه من فرسان عسكره ألف فارس ، وتوجه يونس باشا من البر على تروجة بعسكر آخر يلاقيه من هناك .

وفى يوم الثلاثاء ثانى عشر جمادى الأولى خرج أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصدا السفر الى

اسطنبول ، وخرج صحبته أولاد عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، وخرج صحبته الناصري محمد ابن العلائي على بن خاص بك صهر الخليفة ، وخرج الشرفي يونس ابن الاتابكي سودون العجمي ، وآخرون من الأعيان ، فتوجهوا الى بولاق ، ونزلوا من هناك في المراكب لتوجهوا الى ثغر رشيد ، فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف ، وقالوا قد انقطعت الخلفاء من مصر ، وصارت باسطنبول ... وهذه من الحوادث المهولة .

ثم ان الخليفه عوم من بولاق الى رشيد ، ثم بعد ذلك وردت الاخبار بأن الخليفه مقيم بالمركب ببر بولاق الى يوم الثلاثاء تاسع عشره ، فعوم في أثناء ذلك اليوم من بولاق ، وتوجه الى رشيد . ثم بعد ذلك وردت الأخبار بأن الخليفة قد وصل الى ثغر رشيد ، وأقام به هو وجماعه من الذين سافروا ، ثم دخلوا الى ثغر اسكندرية ووجدوا الصهاريج التى بها مشحونة من الماء ، فبلغ ملء كل كراز خمسة أنصاف ، وذلك من كثرة الخلق الذين اجتمعوا هناك ، ولا سيما لما دخل اليها عسكر ابن عثمان .

وأشيع أن السلطان سليم شاه لما دخل ثغر الاسكندرية ، رسم بأن الجماعة الذين أتوا من مصر يسجنون في الخانات ، وفي أبراج الاسكندرية الى أن يتكاملوا ، ثم يسافرون دفعة واحدة . فوضعوهم في الأبراج ونساءهم في الخانات ، فقاسوا مشقة عظيمة بسبب ذلك .

وخرج في عقيب ذلك مقدم المماليك سنبل وسافر الى اسطنبول ونائبه جوهر ، وقيل توجه سنبل الى بيت المقدس من بعد ذلك

وفي يوم الجمعه ثاني عشرى جمادى الأولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشهابي أحمد ناظر الجيش وابن الجمالي يوسف ناظر الخاص ، وخرج صحبته بدر الدين وأخوه كمال الدين ، وخرج ناصر الدين العزى ويحيى بن الطنساوى موقع الدرج ، وخرج جان بك دوادار طراباى .

وفي يوم الجمعة المقدم ذكره حضر السلطان سليم شاه من ثغر الاسكندرية ، فكانت مدة غيبته في هذه السفرة خمسة عشر يوما ذهابا وايابا ، وقيل انه أقام بثغر الاسكندرية ثلاثة أيام لا غير . ودخل عليه من التقادم من مشايخ العربان بالغربية شيء كثير ما بين خيول وجمال وأبقار وغير ذلك . فلما حضر أتى الى المقياس وشق من جهة الروضة بالمراكب ، فانطلقت له النسوان من الطيقان بالزغاريت .

وفي يوم السبت ثالث عشريه عرض يونس باشا الذى قرر نائب السلطنة بمصر عسكر ابن عثمان ذلك اليوم ، وأشيع أن ابن عثمان قد طرقته الأخبار الرديئة من عند الصفوى وأنه قد زحف على بلاده وملك منها عدة بلاد .

وفي يوم الجمعة تاسع عشرى جمادى الأولى خرج الى السفر الى اسطنبول الشيخ زين العابدين ابن قاضى القضاة الشيخ كمال الدين الشافعي الطويل ، فكثر عليه الأسف والحزن فانه كان محببا للناس ، وخرج زين الدين البتنونى ناظر المواريث أيضا وآخرون من مباشرى المواريث . وخرج جماعة من الزردكاشية منهم يحيى بن يونس ومحمد العادلى المعروف بابن البدوية وزين الدين بن محمود الأعور وأحمد بن الهوارى وآخرون من صناع الزردخانة . وخرج ابراهيم مقدم الدولة وخرج جماعة من مباشرى الخوشكانة .

وفى أثناء هذا الشهر توفى تقى الدين بن الطرينى كاتب السعين بالشون السلطانيه ، وكان لا بأس به .

وفى يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع ابن ابى الرداد ببشارة النيل المبارك ، وجاءت القاعدة ثمانى أذرع وست عشرة أصبعا . وكانت القاعدة فى العام الماضى لما آخذ قاع النيل اثنتى عشرة ذراعا ، حتى عد ذلك من النوادر العربية

* * *

وفى جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأحد . فى ذلك اليوم كان أول المناداة على النيل المبارك فزاد ثلاث أصابع ... وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان سليم شاه خلع على وزيره يونس باشا وقرره نائبا عنه بمصر وأعمالها اذا سافر الى بلاده . فلما تقرر يونس باشا فى النيابة بمصر ، وأشيع سفر ابن عثمان ، ظهر جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة وتزيوا بزى العثمانيه ولبسوا الطراطير والقفاطين الحرير ، وصاروا يخالطون العثمانية ، ويركبون معهم فى الأسواق بطول النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع هذا الشهر نادى السلطان فى عسكره بأن كل من كان متزوجا من مصر بامرأة يطلقها ، والا شنق من غير معاودة فمنهم من طلق زوجته ومنهم من أبقاها فى عصمته .

ومن الحوادث أن القاضى بدر الدين بن الوقاد لما تعين للسفر الى اسطنبول وضمنه نصف الجيش تخلص واختفى أياما فغمز عليه فقبضوا عليه من المكان الذى كان به . فلما أحضروه بين يدى الدفتردار وبخه بالكلام ، وبطحه على الأرض ، وهم بضربة حتى شفع فيه بعض الحاضرين ، وقاسى من البهدلة والسب ما لا خير فيه ، وغرم مالا له صورة ، وآخر الأمر سافر الى اسطنبول ، والذى خاف منه قد وقع فيه .

وفى يوم الخميس خامسه ، عدى السلطان سليم شاه من الروضة ، وطلع الى الرميلة ، وعرض عسكره فى الميدان الذى تحت القلعة ، وعين منهم جماعة يقيمون بمصر صحبة يونس باشا ، وعين جماعة يسافرون صحبته ، ورسم للمشاة من عسكره بأن يسافروا فى البحر ، واستمر يعرض عسكره ثلاثة أيام متوالية

وفى ذلك اليوم خرج حريم ملك الأمراء خاير بك ، وحريم جان بردى الغزالى ، للاقامة بحلب الى أن يأتى السلطان هناك . وقد قويت الاشاعات بسفر السلطان عن قريب

وفى يوم الجمعة سادس هذا الشهر ، خرج جماعة من المباشرين للسفر الى اسطنبول ، منهم القاضى عبد الكريم أخو الشهابى أحمد بن الجيعان كاتب الخزائن الشريفة ، وخرج الناصرى محمد ابن القاضى صلاح الدين بن الجيعان كاتب الخزائن أيضا . وخرج الزينى عبد القادر بن الملكى مستوفى ديوان الجيش . وخرج شخص من أولاد ابن البارزى يقال له بهاء الدين ، وخرج محمد المجولى مهتار السلطان الغورى بالطشتخاناه الشريفة ، وخرج عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخانة وولده زين الدين ، وخرج فى ذلك اليوم بعض نصارى من كتاب الخزينة . وخرج كمال الدين بزددار الطرابية ، وخرج فرج الدين البريدى رأس نوبه حاجب الحجاب ، وخرج فتح الدين بن فحيرة أحد كتاب المماليك . وخرج جماعة كثيرة من البزددارية ، والرسل وأرباب الصنائع من كل فن ممن تعين الى اسطنبول ، وخرج الشهابى أحمد ابن البدرى وحسن بن الطولونى معلم المعلمين ، وخرج يحيى شكار دوادار ، وشيخ سوق الغزل بدر الدين ، وخرج ابراهيم مقدم الدولة ، وخرج

جماعة كثيرة غير هؤلاء فى أوقات متفرقة ، ونزلوا فى المراكب ونوجهوا الى ثغر الاسكندريه ، ومن هناك يتوجهون الى اسطنبول . وقيل ان عده من خرج من أهل مصر الى اسطنبول ألف وثمانمائة انسان ، وقيل دون ذلك .

وقيل ان السلطان سليم شاه لما أخذ من مصر هؤلاء الجماعة أحضر غيرهم من اسطنبول يقيمون بمصر عوضا عن الذين خرجوا منها ، وقيل ان هذه عادة عندهم اذا فتحوا جهه أخذوا من أهلها جماعة يمضون الى بلادهم ، ويحضرون من بلادهم جماعة يقيمون فى تلك المدينة عوضا عن الجماعه الذين أخذوهم .

وفيه نادوا فى القاهرة أن لا عبد ولا جارية ولا امرأة ولا صبى أمرد يخرج الى السوق حتى يخرج العسكر العثمانى من مصر ، وذلك خوفا عليهم من التركمان أن يخطفوهم ويسافروا بهم .

وفيه توجه السلطان سليم شاه الى بئر البلسان التى بالمطرية واضافه هناك الناصرى محمد بن الريس شمس الدين القوصونى ومد له هناك مدة حافلة ، وكذلك الشيخ دمرداش ، وانشرح ابن عثمان فى ذلك اليوم الى الغاية ، وغسل وجهه من مائها ، وأقام هناك الى ما بعد العصر ، ثم رجع الى الوطاق ، .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الدفتردار ضيق على الناس أصحاب الأملاك بسبب أملاكهم ، وندب الشرفى يونس نقيب الجيش الى ضبط البيوت التى فى القاهرة قاطبة . فصار الناس يعرضون عليه مكاتيبهم ، فالذى يكون من الأعيان يفرج له عن بيته ، ويواسى نقيب الجيش بشىء من الدراهم ، ويكتب على مكتوبه « عرض » . والذى يكون جاريا فى ملك المماليك الجراكسة ، ولم يظهر له أصحاب ، يكون ملكا للسلطان ، ويدخل الى الذخيرة .

ويقرب من هذه الواقعة أن الدفتردار رسم لقاضى القضاة المنفصل علاء الدين بن النقيب أن يتحدث على أوقاف الحرمين الشريفين قاطبة ، ورفع يد قاضى القضاة كمال الدين الطويل الشافعى من التحدث على أوقاف الحرمين الشريفين ، فكان أصحاب الأوقاف يعرضون مكاتيبهم على قاضى القضاة علاء الدين ويكتب عليها « عرض » ، ثم يمضون بها الى الدفتردار فيخرج مراسيمهم بالافراج عن ذلك . فيقع عليهم كلفة للقاضى علاء الدين ، وكلفة لمراسيم الدفتردار ، وان لم يفعلوا ذلك ، ولم تخرج مراسيم الدفتردار بالافراج عن جهات الأوقاف ، يضع المباشرون والظلمة أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون منها الخراج ، ويروح ذلك على النظار . وهذا من جملة مساوى ابن عثمان فيما فعله فى أهل مصر من الأنكاد والضرر الشامل لهم .

وفى يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الآخرة ، حضر الشرفى يونس النابلسى الأستادار ، وكان قد توجه الى بلاد الشرقية بسبب جمع الخراج من بلاد المقطعين والأتراك والأمراء الذين قتلوا فى المعركة ، فمسح بلاد الشرقية قاطبة وحصل منه غاية الضرر . وضيق على الناس فى أرزاقهم من نساء ورجال ، ووضع يده على خراجهم بغير حق ، وما حصل لأحد منه خير . فكان كما يقال فى المعنى :

مباشر فى الورى لم تخف سيرته
بين الأنام وما يخشى من الريب
تنجو به رجله مما جنت يده
كأنه القط فى خطف وفى هرب

وفى يوم الأحد خامس عشره ، حضر الى

الأبواب الشريفة ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، وكان سبب حضوره أنه أتى ليهنىء ابن عثمان بمملكة مصر ، وأحضر صحبته تقـادم فاخرة ، وحضر صحبته بيبردى بن كسباى أحـد الأمراء العشراوات الذى كان باش المجـاورين بمكة ، وحضر قراكز الذى كان محتسبا بمكة . فلما حضر أشيع بين الناس أن حسين نائب جدة قد قتل على يد الرئيس سلمان العثمانى ، وقيل انه أغـرقه فى البحر . وكان حسين قد ظلم وجار على أهل مكة وجدة ، وجدد مظالم فى أيام السلطان الغورى ، وكان من المفسدين فى الأرض ، فقتل كما تقدم ، وكان غير محب لأهل جدة ومكة .

ومن الحوادث أن النيل المبارك توقف فى أثناء الزيادة واستمر فى التوقف ستة أيام ، فقلق الناس لذلك ، وزاد سعر القمح ، وتشحطت سائر الغلال ، واضطربت الأحوال جدا . ثم بعد ذلك زاد النيل المبارك أصبعا واحدة فسكن الحال قليلا .

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، حضر جماعة من المباشرين الذين كانوا قد توجهـوا الى الغـربية والمنوفية والمحلة ... فحضر ابو البقـاء ناظر الأسطبل ، وبركات أخو شرف الدين الصـغير ، ويحيى بن الطنساوى وآخرون من المباشرين .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره أشيع أن بيبردى باش المجاورين وقراكز المحتسب والمماليك الذين حضروا صحبتهما من مكة يريد قتلهم ابن عثمان ، فشفع فيهم ابن الشريف بركات من القتل ، فرسم أن يتوجهـوا الى اسطنبول ، فخـرجوا فى ذلك ونزلوا فى المراكب ، وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية ومن هناك توجهوا الى اسطنبول .

وفى يوم الأربعـاء ثامن عشره ، حضر الزينى بركات بن موسى المحتسب ، وحضر فخر الدين بن عوض ، وكانا فى بعض جهـات الغربية ، بسبب استخراج الخراج وعمارة الجسور التى هناك .

وفى يوم الخميس تاسـع عشره ، توفيت ابنة السلطان طومان باى . وكان لها من العـمر نحو عشر سنين ، وكان قد حصـل لها طربة على أبيها لما قتل .

وفى يوم الأحد ثانى عشريه اضطربت أحوال القاهرة ، وصارت الأدراك تقف على أبواب المدينة ويمسكون الناس من رئيس ووضيع ، ويضعونهم فى الحبال حتى من يلوح لهم من القضاة والشهود ، وما نعلم ما يصنع بهم . فلما طلعوا بهم الى القلعة أسفرت هـذه الواقعة عن أنهم جمعوا الناس ليسحبوا المكاحـل النحـاس الكبار التى كانت بالقلعة ، وينزلوها الى شاطىء البحر ، ثم يضعوها فى المراكب ، ويمضوا بها الى اسطنبول .

وكان قبل ذلك بمدة نزلوا بالعمودين السماقى اللذين قلعوهما من الايوان الذى بالقلعة ، فارتجت لهما الصليبة لمـا نزلوا بهما من القلعـة . وقاسى الناس فى سحبهما غاية المشقة ، وحصل لهم بهدلة من الضرب والصك وخطف العمائم والشدود ثم فى عقيب ذلك نزلوا بالمكاحل من القلعه وصاروا يربطون الرجال بالحبـال فى رقابهم ، ويسوقونهم بالضرب الشـديد على ظهورهم ، ولو كانوا من أعيان الناس . فحصل للناس بسبب ذلك ما لا خير فيه .

وفى يوم الخميس سادس عشريه رسم السلطان سليم شاه باحضـار ألف رأس من الغنم ، ومائة جمل ومائة بقرة ، فلما حضرت بين يديه أمر أن تفـرق قربانا على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ومزارات الصالحين التى بالقرافة وغيرها من المـزارات المشـهورة ، حتى على أبواب ترب

السلاطين المتقدمين . ففرقوا ذلك جميعه وصاروا يذبحون الغنم والبقر والجمال على أبواب الجوامع والمساجد والزوايا ويفرقونها على المجاورين الذين بها وقيل ان سبب ذلك أن لهم عادة فى بلادهم اذا حلت الشمس فى برج الأسد يفرقون هذا القربان على مجاورى الجوامع والمساجد والزوايا ، ويفرقونها على المجاورين الذين فى بلادهم قاطبة ، ففعل مثل ذلك بمصر .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه نزل فى مركب وتوجه نحو الآثار الشريفة ، فهاج عليه ريح عاصف فانقلبت به المركب فى البحر ، فكاد أن يغرق ، وأغمى عليه وما بقى من موته شىء ، وقيل انه كان سكران لا يعى ، فكان فى أجله فسحة حتى عاش الى اليوم .

ومن الحوادث فى هذا الشهر أن الخليفة لما سافر الى اسطنبول أخرجوا عنه نظر مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكان ذلك بيد الخلفاء من قديم الزمان ، وكان من جملة تعظيمهم . وكان يحصل لهم من هذه الجهة غاية الخير من الشموع والزيت ، وكان يحصل لهم فى كل يوم من الصندوق الذى تحت رأس السيدة نفيسة مبلغ له صورة من النذور التى كانت تدخل عليهم ، فخرج ذلك كله عنه ، وحصل للخليفة يعقوب والد المتوكل على الله غاية الضرر بسبب ذلك ، وشق عليه ذلك ، ولم يفده من ذلك شىء .

وفى أثناء هذا الشهر ، خرج الشرفى يحيى بن البرديني الذى كان ولى قضاء القضاة فى دولة الأشرف طومان باى ، ولما رأى الأحوال مضطربة وبعثوا أعيان الناس الى اسطنبول ، سعى بمال له صورة حتى قرر فى مشيخة الحرم الشريف النبوى ، كما كان جاهين الجمالى . فخرج من هذا الشهر وسافر من البحر المالح وتوجه الى المدينة الشريفة من الينبع ، وكان من قديم الزمان لايلى مشيخة الحرم الا الطواشية .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه لما كان بالمقياس ، أحضر فى بعض الليالى خيال الظل ، فلما جلس للفرجة قيل ان المخايل صنع صفة باب زويلة وصفه السلطان طومان باى لما شنق عليها ، وقطع به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين دينارا ، وخلع عليه قفطانا مخملا مذهبا ، وقال له اذا سافرنا الى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه أنشأ له قصرا من خشب بالمقياس فوق القصر الذى أنشأه السلطان الغورى فوق بسطة المقياس ، وصار يجلس به فى اليوم الحر ، وأحضر جماعة من النجارين والبنائين وشرع فى بنائه حتى فرغ فى أيسر مدة . وقد قلت فى ذلك :

لو علم الغورى أن قصره
يسكن للمظفر المؤيد
أضرم فيه النار من يومه
ولم يدع فى جدره جلمد

* * *

وفى رجب وكان مستهله يوم الاثنين ، فى يوم الأربعاء ثالثه ، توفى القاضى رضى الدين الحلبى الموقع ، وكان شابا حسن الشكل والهيئة . وكان من أخصاء القاضى كاتب السر محمود ابن أجا ، وكان من أعيان الموقعين ، وكان من جملة أصحابنا رحمة الله عليه . وكان له مدة وهو متوعك فى جسده ، وكان تعين الى سفر اسطنبول فمرض عقيب ذلك . فدخل انكشارى من العثمانية فرآه مريضا ، فقال له اخرج فى هذا اليوم وسافر . فقال

له لا أستطيع القيام ، فحمله العثمانى بالنطع الذى تحته ، وأراد أن يخرجه من الباب ، فدخلوا عليه ودفعوا له سبع أشرفيات حتى تركه ومضى . فمات تلك الليلة من الرجفة التى حصلت له .

وفى يوم الخميس رابعه خرج الى السفر ابن السيد الشريف بركات أمير مكة ، فتوجه الى وطاقه الذى بالريدانية ، فكان له موكب حافل ، وخلع عليه السلطان قفطان تماسيح مذهب ، وقدامه الرماة بالنفط . وخرج صحبته غالب الحجازيين الذين كانوا بالقاهرة ، وقد أشار عليه السلطان بأن الحجازيين الذين بالقاهرة تخرج صحبته الى اسطنبول .

وأشيع أن السلطان سليم شاه كتب مراسيم للسيد الشريف بركات أمير مكة بأن يكون عوضا عن الباشا الذى بها ، وجعله هو المتصرف فى أمر مكة قاطبة . وأضاف له نظر الحسبة بمكة أيضا ، وأنصفه غاية الانصاف . وتزايدت عظمة السيد بركات الشريف الى الغاية ، وأكرم ولده غاية الاكرام .

وفيه ترافع جماعة من المباشرين مع بعضهم ، واتنبذ الى عمل حسابهم الزينى بركات بن موسى ، وألزمهم بالعود الى البلاد ثانيا ليغلقوا ما كان بقى عليهم من الخراج فى البلاد ، فانهم كانوا أرسلوا خلفهم بالاستعجال الى سفر اسطنبول .

وفى أثناء هذا الشهر توفى القاضى ناصر الدين محمد بن العمرى ، موقع الأمير يشبك الدوادار ، وكان من المعمرين فى الأرض .

ومن الحوادث أن الدفتردار أوقف المناشير التى فى يد أولاد الناس بسبب اقطاعاتهم ، ولم يمض غير الأوقاف والرزق التى بالمكاتيب ، والمربعات الجيشية فقط . فحصل لأولاد الناس غاية الضرر بسبب ذلك ، ووضع المباشرون أيديهم على خراجهم ، وراح عليهم الخراج فى هذه السنة بين الفلاحين والمباشرين .

وفى يوم الأربعاء عاشر رجب حضر شيخ العرب أحمد بن بقر ، وقد أرسل اليه ابن عثمان أمانا بالحضور ، فحضر وقابل يونس باشا وبقية الوزراء ، وكان له مدة وهو عاص فى وادى العباسة ، ومعه جماعة من المماليك الجراكسة ، وكان يحسن اليهم بالعليق وغير ذلك من القوت .

وفى يوم السبت ثالث عشر رجب ، الموافق ثامن مسرى من الشهور القبطية ، أظلم الجو ظلمة شديدة ، وأمطرت السماء مطرا غزيرا حتى توحلت منه الأرض والأسواق . وكانت الشمس فى برج الأسد ، فتعجب الناس غاية العجب من كون المطر جاء فى غير أوانه ، وكان قد بقى على ميعاد الوفاء أربع وستون أصبعا ، والنيل فى قوة الزيادة ، فخشى الناس على النيل من النقص ، وأشيع كسوف الشمس فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره تحول السلطان سليم شاه من المقياس ، وأتى الى بيت الأشرف قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى المطل على بركة الفيل ، فأقام به ، فتعجب الناس لذلك كيف ترك المقياس فى ليالى الوفاء وسكن فى هذا المكان الذى بين الدروب ، فاختلف الناس فى الأقوال بسبب ذلك ، ولم يعلم ما سبب تحوله من المقياس الى هذا المكان مع وجود كثرة رغبته فى اقامته بالمقياس . فلما سكن فى ذلك المكان طفشت عساكره فى بيوت الناس التى حول الصليبة وأعمالها ، وطردوا أصحابها منها وسكنوها ، فحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس خامس عشريه طلع ابن عثمان الى القلعة ودخل الى الحمام الذى بها بالبحرة ، ثم

رجع الى بيت الأشرف قايتباى . فقيل اصطفت عساكره من الصليبه الى باب السلسلة ما بين مشاة وركاب .

وفيه وردت الأخبار من البحيرة بأن حسن بن مرعى محاصر مع الجويلى . فأرسل لهما السلطان تجريدة الى البحيرة ، وعين بها ألف عثمانى من عسكره .

ومن الحوادث المهولة أن النيل المبارك توقف ليالى الوفاء على اصبع واحدة . وكان مضى من مسرى ثمانية عشر يوما ، فاضطربت أحوال الديار المصرية بسبب ذلك . ثم أشيع أن النيل قد نقص أربع أصابع ، واستمر فى ذلك التوقف ستة أيام ، وقد مضى من مسرى واحد وعشرون يوما ، فاضطربت الأحوال بسبب ذلك . ولولا خوف السوقة من ابن عثمان لرفعوا الخبز من الأسواق ، وكادوا أن ينشئوا علوة عظيمة . وقد توقف النيل فى هذه السنة مرتين ستة أيام فى أبيب وستة أيام فى مسرى ، ولولا أن الله بعث الزيادة بعد ذلك لأكل الناس بعضهم بعضا ، وقال القائل فى المعنى :

لو نطق النيل قال قولا
يشفى به غاية الشفاء

قد كثر الجور فاعذرونى
لما توقفت فى الوفاء

فلما كان يوم السبت سابع عشرى رجب ، الموافق لثانى عشرى مسرى . زاد الله فى النيل المبارك اصبعا واحدة عن النقص الذى كان نقصه . ثم فى يوم الأحد ثالث عشرى مسرى القبطى ، الموافق لثامن عشرى رجب ، زاد النيل ما كان نقصه ، ووفى ست عشرة ذراعا واصبعا من السابعة عشرة ، وكان النقص أربع أصابع عن الوفاء ، فزاد النقص وأوفى وزاد أصبعا من السابعة عشرة . وذلك من فضل الله تعالى على عباده . فلما كان يوم الاثنين تاسع عشرى رجب الموافق لرابع عشرى مسرى فتح السد وجرى الماء فى الخليج الحاكمى والناصرى ، وقد قيل فى المعنى :

عجبت لنيل مصر حين وفى
على جور الأنام العاديات

فخضنا فى حديث النيل لكن
مزجناه بأوصاف الفرات

وكان الذى فتح السد فى ذلك اليوم يونس باشا نائب السلطنة ، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة . وبطل ما كان يعمل فى ذلك اليوم من الأسمطه التى كانت تصنع بالمقياس ، والمجامع الحلوى ، والمشنات الفاكهة التى كانت تفسرق فى ذلك اليوم . فنزل يونس باشا فى الحراقة السلطانية وتوجه الى السد وفتحه على العادة . ولكن أين الثريا من يد المتناول بالنسبة لما كان يعمل يوم الوفاء بمصر .

ومن الحوادث أنه لما دخل الماء الى بركة الرطلى سكنت العثمانية فى بيوت الجسر قاطبة . وربطوا خيولهم فى القواطين المطلة على البركة ، وأخذوا الأبواب والطيقان والدرابزانات وأوقدوها فى النار ، وكذلك بيوت المعطاحى وحكر الشامى ، وسكنوا فى بيوت الأكابر التى كانت على البركة قاطبة . فامتنعت مراكب البياعين من الدخول الى البركه ، وكذلك المتفرجون ، ومنعوا المتفرجين من الدخول الى الجسر ، وصاروا يهوشون على الناس بالعصى . وأما الجزيرة الوسطى فانها خرجت عن آخرها . ولم يبق منها الا الجدر ، ونقل أصحاب الأملاك سقوف البيوت والأبواب والطيقان ، ولم يدعوا منها غير الحيطان . وأما بركة الأزبكية فان

التركمان نصبوا وطاقهم بهـا ومنعوا المـاء من الدخول اليها وحربوا غالب بيوتها ، وأخذوا غالب ما فيها من الأبواب والطبقان وغير ذلك من الأخشاب

وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر رجب أشيع أن حسن ابن مرعى شيخ عربان البحيرة قد حضر بالأمان ، وكان قد بقى له ادلال على ابن عثمان ، من حين تحيل على السلطان طومان باى وقبض عليه . فلما قابل ابن عثمان قبض عليـه وسجنه بالبرج الذى بالقلعة ، وقبض على ابن صقر ، وقبض على ابن أخى الجويلى ، وسجنهم بالبرج أيضـا . وكان شيخ العرب أحمد بن بقر أتى ليقابل ابن عثمان ، فلما رأى ما جرى على مشايخ العربان هؤلاء رجع بعد أن دخل القاهرة ، ومضى الى الشرقيه . وقد شمت فى حسن بن مرعى كل النـاس ، فانه كان سببا لمسـك السلطان طومان باى حتى شنق . والمجازاة من جنس العمل

وفى آخر هذا الشـهر توفى صاحبنا القـاضى أبو الفتح السراجى أحد نواب الحنفية رحمة الله عليه ، وكان عالما فاضلا بارعا فى النحو ، وكان له شعر جيد وألف عدة كتب . وكان من الأفاضل فى عصره ، عارفا بطريقة صـنعة التوقيع ، حسـن العبارة وكان مجلسه بخط جامع ابن طولون وعاش من العمر ما قارب السبعين سـنة ، وكان حسن الهيئة ، وقلت :

نوحوا على مصر لأمر قد جرى
من حادث عمت مصيبته الورى
زالت عسـاكرها من الأتراك فى
غمض العيون كأنها سنة الكرى
وأتى اليهـا عسـكر سيماهمو
حلق الذقون ولبس طرطور يرى
وأميرهم بين الورى قـد حقرا
لا يعرف الأسـتاذ من غلمـانه
جـل الاله مصـدقا عما حكى
فى سورة الروم العظمـة أخبرا
قد أوعد الرحمن وعدا صـادقا
أن ابن عثمـان يلى وكذا جرى
ولاه رب العرش سـلطانا على
مصر وهـذا الأمر كان مقدرا
أين الملوك بمصر من سـاداتها
مثل البدور تضى وكانت أنورا
يا لهف قلبى للمـواكب كيف لم
تلقى بقلعتها الحزينة عسـكرا
لهفى على ذاك النظـام وحسنه
ما كان فى الترتيب منه أفخـرا
لهفى على ضرب الكرات ولعبها
فى الحوش صارت فى الحضيض الى ورا
لهفى على النشاب والرمح الذى
كانا مع الدبوس تكسر عنتـرا
لهفى على لبس الكلوتة والقبـا
كانا بها التجميل من غير ازدرا
لهفى عـلى تلك التخافيف التى
كانت على الأمراء تزهو منظـرا
لهفى على لبس الكراف بقندس
بطلت وألغوا كل زنط أحمـرا
لهفى على المهماز والخف الذى
كانا نهـار الحرب أصون للثرا
لهفى على أعيـاد مصر كيف قد
أفنت تشـاريفا بهـا ومتمسرا
وكذا الكنابيش التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى

وكذا السروج المفرقات بلمعهـا
كانت كبرق أو كليـل أقمـرا
لهفى على الأبواب كيف تكسرت
وخلت أماكنها وصاحبها سرى
لهفى على نهب القماش وبيعـه
وبأبخس الأثمان صارت تشترى
وأشيع بيع الخيمه العظمى التى
للمولد النبوى أحسـن ما يرى
بيعت بأبخس قيمة عمـا حكى
يالهف قلبى كـم يزيد تحسرا
لهفى على شبحو وجامعه الذى
قد كان للصلوات مجمع للورى
درست معالمه بحرق صـار من
بعـد التزخرف والرباضة أغبرا
لهفى على سوق الصليبة كيف قد
أخلت حوانيت به ممـا جرى
لهفى عـلى فك الرخام ونقـله
من كل بيت كان زاه أزهـرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بهـا تزهو على كل القرى
لهفى على الأمراء كيف تشتتوا
وخلت منـازلهم وعادت مقفـرا
لهفى على أتراك مصر اذ غـدت
مكسـورة وقلوبهـا لن تجبرا
لهفى على الفرسان كيف تقطعت
أعنـاقهم بيـد العدو اذ افترى
صارت على الطرقات من أجسادهم
رمم حكت عيد الضحى الأكبرا
لهفى على ذاك الحـريم وهتكه
من بعد صون فى الحريم مخدرا

وتيتمت أطفـال جند قد غدت
أجسامهم نهش الكلاب على الثرى
قتلوا بأصغر بندق من شأنهـا
كالسم تجرى فى الجسوم ولا ترى
لمـا تـسكرت الجراكسـه التى
كانوا بمصر أذلهـم رب الورى
لهفى على سلطان مصر كيف قد
ولى وزال كأنه لم يذكـروا
شـنقوه ظلما فوق باب زويلة
ولقـد أذاقـوه الوبال الأكبرا
يارب فاعف عن عظـائم جرمه
واجعل جنـان الخلد رب له قرا
يالهف قلبى للخليفة كيف قـد
طـردوه عن مصر بجور وافترا
وأذيق من ذل السؤال وفاقة ال
أيدي وأتعـاب بما قـد أقهرا
وكذا بنو عم له قـد أخرجـوا
معه لأسطنبول وامتـد السرى
وكذاك أبنـاء الملوك تحـيروا
عند الخروج ولم يراعوا الأوقرا
وكذاك أعيان التجار وغـيرهم
صـارت دموعهمو بمصر أنهرا
لهفى على الشرع الشريف وحكمه
قد كان فى زمن القضـاة موقرا
يا لهف قلبى للشـهود بمجلس
كانوا بهم تقضى الحوائج للورى
الله أكبـر انهـا لمصيبة
وقعت بمصر ما لها مثـل يرى
ولقد وقفت على تواريخ مضت
لم يذكروا فيها بأعجب ما جـرى

لهفى على عيش بمصر قد خلت
أيامــه كالحــلم ولى مــدبرا
وأتى من التكدير ما لا مخبــــر
ســمعت به أذن ولا عين ترى
وتوقف النيل السعيد عن الوفا
فى هــذه الأيام آخر ما جرى
وتزايد الكرب العظيم لأجله
حتى وفى وبه المنــادى بشرا
قد كان هــذا الانتقام بمصرنا
سبقت به الأقدار كان مصــدرا
ياليت شعرى بعــد هــذا كله
تنفى الهموم ونرتجى فرجا نرى
يارب انا بالنــبى المصــطفى
والأنبياء الكل ســادات الورى
نســألك كشــفا للأمور بسرعة
واعف عن الأجرام عفوا واغفرا
قد جاد لابن اياس شــعر قاله
لكن منه النظم يحكى جــوهرا
ثم الصــلاة على النبى محمــد
والآل والأصــحاب ممن بشرا
ما ماس غصن فى الرياض وغردت
أطيــاره عند النسيم اذا سرى

***

وفى أول شــعبان المكرم وكان مســتهله يوم الأربعاء ، أشيع أن شيخ العرب أحمد بن بقر لما رأى أن السلطان سليم شاه قبض على حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة ، وسجنه بالبرج ، خاف على نفسه ، وخرج من القاهرة على حين غفلة ، وتوجه الى جهات الشرقية ، ولاقتــه العربان . ولو تكاسل يوما واحدا لقبض عليــه ابن عثمان وسجنه ، كما قد فعل بحسن بن مرعى .

وفيه أشيع أن جماعة من العثمانلة قتلوا أميرا من أمراء ابن عثمان وهو نائم على فراشه ، وكان صاحب صنجق ، ولم يعلم ما سبب ذلك . وقيل قبضوا على من فعل ذلك من العثمانيه وشنق منهم جماعة من اجل ذلك .

وفيه أشيع أن السلطان سليم شاه بدا له أن يعزل يونس باشا من نيابة السلطنة بمصر ، ويولى ملك الأمراء خاير بك عوصا عنه لأمر قد عن له .

ومن الحوادث ، ان ابن عثمان لــما سكن فى بيت الأشرف قايتباى المطــل على بركة الفيــل ، وجرى الماء فى الخليج الحاكمى ، أمر بسد الخليج من عند قنطرة عمر شــاه حتى تملأ بركة الفيــل بسرعة .

وفى يوم الجمعــة ثالث شعبان ، أشيع أن ابن عثمان قوى عزمه على العود الى بلاده ، وخروجه من مصر ، فعين شخصا من أمرائه يقال له على بك فى ذلك اليوم ، وصحبته جماعه من العثمانيــة ، بسبب اصــلاح الآبار فى طــريق غزة ، وتنظيف الطرقات من الوعر قبل خروج السلطان ، فلمــا تحقق عسكره أمر خروجه الى السفر لأسطنبول شرعوا فى عمــل برقهــم ، ومشترى أزوادهم ، فارتجت لهم القاهرة بسبب ذلك .

وفى يوم السبت رابع شــعبان ، وقعت حادثة مهولة ... وهى أن السلطان سليم شاه قبض على جماعة من عسكره نحو أربعه وعشرين انسانا ، وقيل أكثر من ذلك . فلما قبض عليهم رسم بشنق جماعة منهم فى أماكن مختلفة ، وكلب منهم اثنين على باب زويلة ، واثنين على باب الصاغة ، واثنين بين القصرين ، والبقية عند جامع قوصون ، وشىء فى الصليبية ، وشىء فى قناطر السباع . وأشيع أن سبب ذلك ان جماعة من الانكشارية قصدوا أن

بقتلوا ابن عثمان لما كان بالمقياس ، فاستدرك أمره ، وتحول الى بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى ، وصار يقبض على من كان سببا لاشاعة قتله .

وفيه حضر الريس سلمان العثمانى الذى كان قد توجه صحبة المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى الى الهند .

وفيه أشيع أن الريس سلمان هو الذى أغرق حسين نائب جدة ، وكان بينهما عداوة من أيام الغورى ، فلما مات الغورى وظفر سلمان بحسين قتله على ما قيل . ولما حضر الريس سلمان أحضر صحبته جماعة من الفرنج الذين كان آسرهم من بحر الهند ممن كان بعبث به ، ويقطع الطريق على مراكب التجار الذين يمرون من هناك .

وأشيع أن الريس سلمان ، وحسين نائب جدة ، كانا فتحا عدة بلاد بالهند من بلاد الشيخ عامر ، وغنموا منها أموالا جزيلة لا تحصى هم والعسكر الذين توجهوا صحبتهما فى أيام الغورى ، وهم من عسكر الطبقة الخامسة التى كان جددها الغورى فى زمانه .

وفى يوم السبت حادى عشر شعبان كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية . وفيه أشيع ان ابن عثمان أرسل الى خاير بك الذى قرره فى نيابة السلطنة صنجقا ، وتحقق الناس أنه نائب السلطنة عوضا عن يوس باشا ، وكان ابن عثمان قرره فى نيابة السلطنة قبل ذلك .

وفيه عرض ابن عثمان عسكره بالميدان الذى تحت القلعة وهم لابسو الزرديات ، وفى أيديهم الرماح والأتراس . وأشيع سفره أواخر الشهر الى اسطنبول

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره وقفت جماعة الوالى على أبواب المدينة ، وصاروا يقبضون على كل من يلوح لهم من العوام وغيرهم ، فاذا قبضوا عليهم يضعونهم فى الحبال . وصاروا يقبضون على الناس من شطوط بولاق ، ومن شطوط مصر العتيقه ، وكذلك يقبضون على جمال السقائين بالروايا التى عليها ، فاضطربت أحوال الناس ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، واختفت الناس فى البيوت ، وكثر القيل والقال فى ذلك فمن الناس من يقول انهم يقبضون عليهم بسبب أنهم يمسكون الخيول الجنائب اذا سافر ابن عثمان ، ومنهم من يقول انهم يقبضون عليهم حتى يسافروا بهم الى أسطنبول فى المراكب . فحصل للناس الضرر الشامل بسبب هذا .

وأما سبب مسك جمال السقائين ، فانهم أشاعوا ان ابن عثمان اذا خرج يأخذ معه جمال السقائين بالروايا الى ان يصل الى غزة ، لأجل عدم الماء فى الطريق من هنا الى غزة ، فامتنع السقاءون من الخروج فى هذه الأيام وعز وجود الماء ، فضجت الناس لذلك ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام متوالية .

وفيه خرج الوالى الذى كان ابن عثمان قرره فى ولاية القاهرة ، فخرج وبرز الى الريدانية الى أن يخرج ابن عثمان .

وفيه أشيع ان ابن عثمان أطلق الجماعة الذين كان قبض عليهم من العوام والفلاحين والسوقة ، وكان أشيع عنهم أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول . وكانوا لما قبضوا عليهم سجنوهم فى أماكن متفرقة حتى يكون من أمرهم ما يكون . ثم نادى فى القاهرة بأن لا أحد يشوش على أحد من العوام ولا من الفلاحين ، فسكن الاضطراب قليلا ، وفتحت الدكاكين فى الأسواق ، وخمدت هذه

الحركة . قيل ان بعض وزراء ابن عثمان شفع عنده فى اطلاق الناس الذين سجنوهم كما تقدم .

وفى يوم الجمعة سابع عشره توجه السلطان سليم شاه الى الجامع الأزهر وصلى به الجمعة وتصدق فى ذلك اليوم بمال له صورة ، ثم شق من القاهرة فى موكب ، وكان ذلك آخر مواكبه فى القاهرة ، ثم رجع الى المكان الذى كان به .

وفى يوم الاثنين عشريه عرض السلطان سليم شاه كسوة الكعبة الشريفة ، وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وكسوة ضريح سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام ، وصنع للمحمل الشريف كسوة . وقد تباهى فى كسوة الكعبة بخلاف العادة ، وتباهى فى زركشة البرقع الى الغاية ، وكذلك فى ثوب المحمل الشريف ، وما أبقى فى ذلك ممكنا .

وفيه أطلق ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا فى سجن الديلم فأطلقهم أجمعين ، وكانوا نحو أربعة وخمسين مملوكا ، وقد راج أمر المماليك الجراكسة قليلا .

وفى يوم الأربعاء ثانى عشريه خرج القاضى محب الدين بن أجا — كاتب السر الشريف وصاحب ديوان الانشاء — فخرج هو ونساؤه وعياله وصهره الجمالى يوسف بن الطحان ، فخرجت النساء فى محائر وشقادف . فلما خرج القاضى كاتب السر سكن فى بيته الذى عند قنطرة سنقر الوزير يوسف البدرى .

وفى يوم الخميس ثالث عشرى شعبان خرج وتوجه الى السفر سلطان مصر الملك المظفر سليم شاه بن عثمان ، فخرج من بيت السلطان قايتباى الذى خلف حمام الفارقانى ، وشق من الصليبة وطلع الى الرميلة ، فخرج فى موكب حافل ، وقدامه ملك الأمراء خاير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب الشام ، وقدام العسكر طبلان ورمران وعدة جنائب حربية . وكان راكبا على بغلة صفراء عالية — قيل انها من بغال السلطان الغورى كان يركبها فى الأسفار — وكان عليه قفطان مخمل أحمر ، وقدامه جماعة من الوزراء ، منهم يونس باشا والدفتردار وبقية الوزراء والأمراء والجم الكثير من عساكره ما بين مشاة وركاب . فطلع من جهة الصور ، ونزل من جهة تربة الأشرف قايتباى ، ووقف هناك وقرأ سورة الفاتحة وأهداها اليه . وكان قدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط المرعبة . ثم شق من بين الترب الى تربة العادل التى بالفضاء ، واستمر على ذلك حتى نزل بالوطاق الذى نصبه ببركة الحاج . ولو شق من القاهرة لكان يوما مشهودا ، ولكن خرج على حين غفلة فلم يشعر به أحد من الناس .

ولما خرج من بين الترب قسم عسكره فرقتين: فرقة مرت من تحت الجبل الأحمر ، وفرقة من تربة العادل ، ثم تلاقوا على بركة الحاج . ولما وصل الى الوطاق لم ينزل به وتوجه على ظهر الخانقاه فنزل هناك .

ثم ان ابن عثمان لما رحل من مصر ترك بها من عسكره ، ممن يقيم بالقاهرة عند خاير بك ، نحو خمسة آلاف فارس ، ومن الرماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام . وقرر من أمرائه شخصا يقال له خير الدين باشا ، وجعله نائب القلعة ، يقيم بها ولا ينزل الى المدينة .

ومن العجائب أن مصر صارت نيابة بعد أن كان سلطان مصر أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة لأنه خادم الحرمين الشريفين ، وحاوى ملك مصر

الذى افتخر به فرعون اللعين حيث قال : « أليس لى ملك مصر » وقد تباهى بملك مصر على سائر ممالك الدنيا ، ولكن ابن عثمان هتك حريم مصر ، وما خرج منها حتى غنم أموالها ، وقتل أبطالها ، وبتم أطفالها ، وأسر رجالها ، وبدد احوالها ، وأظهر اهوالها فلم يدخل اليها أحد من الخوارج ، ولا ملكها قط أحد ، ولا جرى مثل ما جرى عليها من ابن عثمان الا ان كان فى زمن بختنصر البابلى ، فقد جرى عليها من ابن عثمان بعض ما جرى عليها من بختنصر . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم

وأشيع أن ابن عثمان خرج من مصر ومعه ألف جمل محملة ، ما بين ذهب وفضة ، هذا خارجا عما غنمه من التحف والسلاح والصينى والنحاس والمكفت والخيول والبغال والجمال وغير ذلك ، حتى نقل منها الرخام الفاخر ، وأخذ منها من كل شيء أحسنه ، مما لم يفرح به آباؤه ولا أجداده من قبله أبدا وكذلك ما غنمه وزراؤه من الأموال الجزيلة ، وكذلك عسكره ، فانهم غنموا من النهب مالا يحصى وصار أقل ما فيهم أعظم من أمير مائة ومقدم ألف ، مما غنمه من مال وسلاح وخيول وغير ذلك ... فما رحلوا عن الديار المصرية الا والناس فى غاية البلية .

وفى مدة اقامة ابن عثمان بالقاهرة حصل لأهلها الضرر الشامل . وبطل منها نحو خمسين صنعة ، وتعطلت منها أصحابها ، ولم يعمل بها فى أيامه بمصر . وكانت مدة اقامة ابن عثمان بمصر ثمانية أشهر الا أياما قلائل . ومدة استيلائه على مصر والبلاد الشامية والحلبية من حين قتل الغورى ، واستيلائه على حلب الى خروجه من مصر ، سنة وشهر واحد . وهو مالك من الفرات الى مصر الى الشام ، ويخطب فيها باسمه ، وكذلك السكة على الذهب والفضة باسمه ، وكذلك ما حول العراقين ، وقد وعده الله بذلك .

وفى مدة اقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوسا عاما ، ولا رآه أحد ، ولا أنصف مظلوما من ظالم[1] بل كان مشغوفا بلذته وسكره واقامته فى المقياس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه . فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الجراكسة ، وما كان له أمان اذا أعطاه لأحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض لا يثبت على قول واحد كقول الملوك وعادتهم فى أفعالهم ، وليس له سماط يعرف ، ولانظام كعادة السلاطين فى سماطهم كانت تجلس عليه الخاصكية فى كل يوم .

وأما عسكره فكانوا جميعا عيوبهم دنية ، ونفوسهم قذرة ، يأكلون وهم راكبون على خيولهم فى الأسواق ، وعندهم عفاشة فى أنفسهم زائدة وقلة دين ، يتجاهرون بشرب الخمر فى الأسواق بين الناس . ولما جاءهم شهر رمضان كان غالبهم لا يصوم ولا يصلى فى الجامع ، ولا صلاة الجمعة الا قليلا منهم ، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة ، وليس لهم نظام يعرف لاهم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم ، وهم همج كالبهائم .

ولما خرج ابن عثمان من مصر ، رسم لابن السلطان الغورى بأن يسافر معه فبرز سنبحه ، وخرج وسافر صحبته . وأشيع أن جان بردى الغزالى لما خرج مع ابن عثمان كان وعده بنيابة الشام ، بل قيل انه ولاه نيابة طرابلس ونيابة صفد ونيابة غزة ونيابة الرملة وبيت المقدس وجبل

(١) فى الأصل : « ولا أنصف ظالما من مظلوم » .

نابلس ولم يوله نيابة الشام ، فشق ذلك عليه ، ثم قرره فى نيابة الشام وتوجه اليها صحبته .

وفى يوم السبت خامس عشريه نادى خاير بك بأن المماليك الجراكسة تظهر وعليهم أمان الله تعالى . فظهر منهم الجم الكثير وهم فى أسوا حال فى زى الفلاحين ، وعليهم زنوط قرع وبرد سود ومصان بأكمام كبار . فاذا رآهم أحد لا يفرق بينهم وبين الفلاحين .

وفيه وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد وصل الى بلبيس ، وحصل له توعك فى جسده ، فأرسل الى خاير بك يطلب محفة ، فأرسل له خاير بك محفة الى بلبيس .

وفى يوم الأحد سادس عشرى شعبان ، طلع المقر السيفى ملك الأمراء خاير بك بن بلباى نائب السلطنة بالديار المصرية الى قلعة الجبل ، فكان له موكب حافل ، وقدامه عدة جنائب بغواشي حرير أصفر ، وقدامه جماعة كثيرة من العثمانية مشاة يرمون بالنفط ، وقدامه الجم الكثير من عسكر ابن عثمان . فشق من الصليبة بعد طلوع الشمس ، وطلع الى القلعة وأقام بها ... وصارت مصر نيابة بعد أن كانت سلطنة ، وتقلبت الأحوال ، وكثرت الأقوال . وقد قلت فى خاير بك لما تولى نيابة السلطنة شعرا وهو :

مصر أضحت فى سرور عندما
قد تولى للنيابة خير بك
فلسان الحال عنها قائل
يالعمرى قد أتانى خير بك

فلما أقام خاير بك بالقلعة ، أرسل خلف البنائين والنجارين والمبلطين ليرموا ما فسد من أماكن القلعة . ثم ان خاير بك خلع على شخص من الأتراك يقال له كشبغا ، وقرره فى ولاية القاهرة وهو مملوكه .

وفيه خلع ملك الأمراء خاير بك على جماعة من المباشرين وقررهم فى وظائف سنية : فخلع على القاضى ناظر الجيش « علاء الدين ابن الامام » وقرره كاتب السر الشريف ، عوضا عن محمود بن آجا بحكم توجهه الى السفر كما تقدم ، وقرره ناظر الجيش ايضا عوضا عن الشهابى أحمد ابن ناظر الخاص ، وأبقى علاء الدين فى نظارة الخاص مضافة لما بيده من هذه الوظائف . وقيل انه قرره فى نظر الكسوة الشريفة ، وجعله أمير ركب المحمل أيضا ، فصار بيده خمس وظائف سنيه ، فتضاعفت عظمته فوق ما كان .

وخلع على الزينى بركات بن موسى ، وقرره مدبر المملكة ، وناظر الحسبة الشريفة ، وناظر المارستان المنصورى ، وناظر الذخيرة الشريفة ، وغير ذلك من الوظائف . وتزايدت عظمته ، واجتمعت الكلمة فيه ، وصار عزيز مصر فى هذه الفترة ، فتوجه الناس الى بابه لقضاء حوائجهم ، وصار هو حاكم البلد ، وقد قلت فيه :

يا نجل موسى عدت بالبركات فى
أعلى المراتب حيث كنت وأزيدا
قد كان قطعا زال عنك ولم تزل
فى السعد عالا على رغم العدا

وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وقرره نائب كاتب السر على عادته ، ورسم له بأن يتوجه الى مكة من البحر المالح وكسوة الكعبة بصحبته .

وخلع على القاضى شرف الدين الصغير وقرره متحدثا فى ديوان الوزارة . وخلع على الشرفى يونس النابلسي وقرره استادار العالية وصاحب الديوان المفرد . وخلع على فخر الدين وأخيه\

شمس الدين كاتب المماليك ، وقررهما فى التحدث على جهات الذخيرة . وخلع على عبد العظيم الصيرفى وقرره فى استادارية الشعير وغير ذلك من الوظائف ... فنزلوا من القلعة وهم بالقفطاطين المخمل عوضا عن الخلع ، فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد ، وهذا أول تصرف خاير بك فى أحوال المملكة .

وفيه أشيع أنه قد عقد لخاير بك على خوند مصرباى زوجة الظاهر قانصوه .

وفيه ظهر الزينى أبو بكر ابن الملكى وكان له مدة وهو مختف ، فلما ظهر خلع عليه خاير بك قفطانا مخملا ، وقرره فى استيفاء الجيش على عادته

وفى يوم الثلاثاء ، ثامن عشرى شعبان ، حضر الأمير قايتباى الذى كان نائب الكرك ، وكان قد ارسله خاير بك الى ابن عثمان بمطالعة من عنده لأجل أن جماعة من عسكره الانكشارية ثاروا على خاير بك ، وقالوا له « رتب لنا جامكية كما كانت تأخذ المماليك الجراكسة ، واجعل لنا لحما وعليقا مثل الجراكسة » فقال لهم : « حتى أرسل أستاذن استاذكم بذلك » .. فأرسل الأمير قايتباى نائب الكرك الى ابن عثمان بسبب ذلك . فلما حضر ما علم احد بما أجاب ابن عثمان عن تلك المطالعة التى أرسلها بسبب جماعه الانكشارية كما تقدم . فلما حضر قايتباى أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى الخطارة قطع رأس يونس باشا ، ولا يعلم ما سبب ذلك . وكان يونس باشا أعظم وزرائه ، وكان لطيف الذات وعنده رقة حاشية بخلاف طبع الأتراك . وكان قرره أولا فى أن يكون نائبا عنه بمصر ، ثم رجع عن ذلك وقرر خاير بك فى النيابة . وكان يونس باشا مقربا عند ابن عثمان الى الغاية بخلاف بقية الوزراء ، ويقال ان يونس باشا هو الذى كان سببا لولاية سليم شاه على مملكة الروم دون اخوته ، فما زال يجتهد ويسعى حتى ولاه الروم ، ثم سار معه على ذلك حتى دخل الى مصر وملكها .. ولكن سليم شاه ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ، ولا أمان منه لأحد من وزرائه ولا من عسكره ، ومن طبعه الرهج والخفة ، ويحب سفك الدماء ولو كان لولده . ويقال انه قتل أباه واخوته لأجل مملكة الروم ، وآخر الأمر قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة ، وكان يونس باشا يظن أن سليم شاه يرعى له الود القديم ، فكان كما قيل فى المعنى :

ربما يرجو الفتى نفع فتى
خوفه أولى به من أمله
رب من ترجو به دفع الأذى
سوف يأتيك الأذى من قبله

فلما أشيع قتل يونس باشا ، اضطربت القاهرة وغلقت أبواب المدينة من بعد العصر ، وخشوا من هجمة العرب على المدينة ، ثم سكن ذلك الاضطراب قليلا .

* * *

وفى شهر رمضان ، وكان أوله يوم الخميس ، فلما كانت ليلة الرؤيا ركب الزينى بركات بن موسى المحتسب من المدرسة المنصورية ، وقدامه الفوانيس موقودة والمشاعل كذلك على العادة ، وكان له موكب حافل .

فلما كان صبيحة شهر رمضان ، خلع ملك الأمراء خاير بك على القاضى شرف الدين الصغير وابن موسى ، قفطانين مخملين كما هى عادتهم فى أول شهر رمضان ، ونادوا فى القاهرة بأن لا أحد يحتمى على الزينى بركات ابن موسى ناظر الحسبة الشريفة .

وفى يوم الخميس ، مستهل الشهر ، خلع ملك الأمراء خاير بك على الأمير قايتباى الشهير

بنائب الكرك وقرره فى الدوادارية ، وكانت شاغرة من حين مات الأمير علان الدوادار .

وفى يوم الخميس ثامن شهر رمضان طلعت الى القلعه خوند مصرباى — وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء خاير بك قد تزوج بها — وطلعت الى القلعة فى ذلك اليوم قبل شروق الشمس وصحبتها نساء كثيرة من نساء أعيان وهن على حمير المكارية .

وفى يوم الجمعة تاسع الشهر آشهروا فى القاهرة أربع نسوة ، وهن على حمير ووجوههن ملطخة بالسواد ، فيل انهن كن يجمعن عندهن الأجانب من الأتراك فى شهر رمضان ، ويأتين لهم بالنساء الأجنبيات ، فغمز عليهن ، وأمر خاير بك باشهارهن على تلك الحالة .

وفى يوم السبت عاشره ظهر الأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرفيه ، وقد أرسل اليه ملك الأمراء خاير بك منديل الأمان ، وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة . فلما طلع الى القلعة ، وقابل خاير بك ، خلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل فسكن فى بيت الأمير قانصوه جركس الذى فى حارة السقائين . وأشيع ظهور جماعه من الأمراء العشراوات .

وفيه قابل شيخ العرب أحمد بن بقر ، وخلع عليه وعلى ولده بيبرس ، وقد التزما باصلاح جهات الشرقيه ولم يتم ذلك . واستمرت أحوال الشرقية فى غاية الفساد من عبد الدائم بن بقر واخوته .

وفى يوم الاثنين ثانى عشر رمضان — وكان أول بابه من الشهور القبطيه — ثبت النيل المبارك على اربع عشرة أصبعا من تسع عشرة ذراعا ، واستمر فى ثبات الى آخر أيام بابه ، وشرق غالب بلاد الصعيد ، وأكثر البلاد العالية التى لا تروى الا من عشرين ذراعا ، وكان نيلا شحيحا من أوله الى آخره .

وفيه ظهر أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وكان مختفيا ، فلما ظهر ألبسه خاير بك قفطانا مخملا ، وأقره على عادته متحدثا على جهات الاسطبل الخاص .

وفى يوم الاثنين المقدم ذكره ، عرض ملك الأمراء خاير بك كسوة الكعبة الشريفة والبرقع ، وكسوة مقام ابراهيم الخليل عليه السلام ، وكسوة ضريح النبى صلى الله عليه وسلم ، وعدة ستور من قبل ابن عثمان ، وقد تناهوا فى زركشة البرقع ، وسيج كسوة الكعبة الى الغاية ، بخلاف العادة . فشقوا بها من القاهرة وقدامهم الأعيان من المباشرين والجم الكثير من العساكر العثمانية ، ومن الرماة جماعة كثيرة يرمون بالنفوط ، وكان ذلك اليوم مشهودا . فلما طلعوا الى القلعة عرضوا على خاير بك نائب السلطنه ، ثم رجعوا ثانيا من حيث جاءوا .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر رمضان ، نادى ملك الأمراء خاير بك ، بأن المماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر يركبون الخيول ويشترون السلاح ، وكان قبل ذلك نادى فى القاهرة لتجار القبو بأنهم لا يبيعون على المماليك الجراكسة شيئا من آلة السلاح ، فشق ذلك على العثمانية ، ووقفوا لخاير بك فى الحوش ، وكلموه وأرادوا معه فتح باب الشر ، وقالوا له : « نحن ما يكفينا هذا القدر الذى رتبته لنا ، وهو ثلاثة أنصاف فى كل يوم ، وكل شىء فى السوق غال » .ثم قالوا له : « رتب لنا جوامك فى كل شهر ألفين ، ولحما وعليقا ، وفرق علينا اقطاعات مثل ما كانت المماليك الجراكسة » . وأغلظوا عليه فى القول ، فقال لهم :

« ليس لى هــذا التصرف ، لأنى انمــا أنا نائب السلطنة ، وهذا لا يكون الا بأمر السلطان ، فهو الذى يفــرق عليكم الاقطاعات ، ويجعل لــكم الجوامك واللحوم والعليق » . فلما سمعوا ذلك منه سبوه سبا قبيحا وهموا بقتله ، فقام ودخل البيت مسرعا ، وأغلق عليه الباب دونهم . فوقع فى ذلك اليوم بعض اضطراب بالقلعة ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة . وثاروا على خير الدين الذى جعله السلطان نائب القلعة ، فأغلق باب القلعــة واختفى . ثم أشيع أن خاير بك أرســل الى ابن عثمان ساعيا يخبره بما وقع من أمر هذه الحركة ، وعول خاير بك على رد الجواب عن ذلك .

وفى يوم الاحد ثامن عشر رمضــان ، نادوا فى القــاهرة بأن المماليك الجراكســة الذين ظهروا يلبسون الزنوط الحمر والملاليط على عادتهم ، ولا يتزيوا بزى العثمانيه ولا يخرجوا الى الطرقات . وسبب ذلك أنه أشيع أن جماعة من الجراكســة يتزيوا بزى العثمانيه ، ويخرجون الى الطرقات . ويخطفون عمائم النــاس ، وما يلوح لهــم من البضائع وغيرها فى حجة العثمانية ، فــنادى خاير بك تلك المناداة حتى صار الجراكسة من العثمانية ، ولم يفد ذلك شيئا .

وفى يوم الاثنين تاسع عشره خرج الشهابى أحمد ابن الجيعان نائب السر ، ومصــلح الدين خازندار ابن عثمان ، وصحبتهما كسوة الكعبــة الشريفة وهى محزومة محملة على الجمال ، وأشيع أنهما يتوجهان بها من البحر المالح الى جــدة الى مكة المشرفة ، فكان لهما فى القاهرة موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، وخرج صحبتهما ألفا عثمانى وقدامهــم طبلان وزمران ورماة بالنفط وركب قدامهما الأمير قايتباى الدوادار الكبير ، وأعيان المباشرين ، فلما خرجوا من القاهرة رجعت لهم مصر ، فخرجوا من باب النصر ، وتوجهوا الى الوطاق بالريدانية .

وفى ذلك اليوم ثارت جماعة من العثمانيه على الزينى بركات بن موسى المحتسب ، بسبب الفلوس الجدد ، فان ابن عثمان ضرب فلوسا جددا وجعل فيها اسمه ، ورسم للسوقة ونادى لهم بأن يصرف كل ستة عشر جديدا بنصف فضه معاددة . وكانت هذه الفلوس فى غاية الخفة ، فحصل للناس الضرر الشــامل بســبب ذلك ، ووقف حالهــم وغلقت الدكاكين . فلما جرى ذلك نادى الزينى بركات بن موسى بأن النصف الفضة يصرف بأربعة وعشرين جديدا ، ليعرف الدرهم الفلوس من الدرهمين فى المعاملة ، فثارت العثمانية على ابن موسى ، وقالوا له : « هل مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، حتى تبطل من مصر معاملتــه » ؟ وهموا بضربه فنادى فى ذلك اليوم بأن كل شىء على حاله من الفلوس ، كل ستة عشر جديدا بنصف فضة كما كان فى الأول . فأغلقت السوقة دكاكينهم ، ورفعوا البضائع ، ووقع فى القاهرة بعض اضطراب .

وأشيع أن خاير بك نائب السلطنة صــنع من الخوازيق الحديد عدة ، وأنه بعد العيد يخوزق جماعة من السوقة على باب القاهرة ، فلما أشيع ذلك خافت السوقة وفتحت الدكاكين ، ومشــوا صرف النصف بســتة عشر جديدا ، كما كان فى الأول .

وفى يوم الثلاثاء عشرى شهر رمضــان ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى تربة العادل ليودع مصلح الدين والشــهابى أحمد بن الجيعان ، فودعهما ورجع ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه نحو ألفين من العثمانية ، وجماعة مشاة يرمون بالنفط ،

فرجت له القاهرة فى ذلك اليـوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة ، وهـذا أول مواكبه بالقاهرة من حين تولى نيابة السلطنة .

ثـم فى يوم الخميس ثانى عشريه ، نزل ملك الأمراء من القلعة ثانيا ، وتوجه الى باب الشعرية ، وزار الشيخ عبد القادر الدشطوطى ، وجلس عنده ساعة . فقيل ان الشيخ عبد القادر قال له استوص بالرعية فانك تسأل عن ذلك يوم القيامة . فبكى خاير بك ، وقبل يده وخرج من عنده ، وعاد الى القلعة من يومه .

وفى يوم السبت رابع عشرى شهر رمضان ، ظهر الأمير آرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين . فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الأمراء خاير بك ومنديل الأمان على رأسـه ، قام له خاير بك واعتنقـه وأجلسه بين يديه . وكان لما طلع القلعة لابسا زى العرب ، وعليه زنط وشاش وملوطة بأكمام كبار ، فألبسه خاير بك قفطانا مخملا بتماسيح ، وألبسه عمامة عثمانية . وكان لما قابله معه ستة أنفار ما بين أمراء عشراوات وخاصكية ، فخلع عليهم قفاطين مخملة ونزلوا من القلعة الى أماكن أعدت لهم .

وفى يوم الأربعاء ثامن عشرى شهر رمضان ، ختم صحيح البخارى بالقلعة ، وحضر ملك الأمراء خاير بك والقضاة الأربعة وجماعة من أعيان العلماء والفقهاء وأعيان المباشرين .

فلما انفض المجلس خلع خاير بك على القضاة قفاطين من جوخ أزرق بوجه صوف ، وفرق على الفقهاء والعلماء صررا فيها دراهم ، وكان ختما حافلا . وشتان بين هذا الختم وما كان يعمل فى ختم السلاطين الماضية فى مثل هذا اليوم .

ولما سافر سليم شاه بن عثمـان ، وخرج من مصر ، استمرت الخطبـة والسكة عمالة فى مصر باسمه ، فكان سائر الخطباء يدعون فى يوم الجمعة باسمه ، ويقولون : « وانصر اللهم السلطان الملك المظفر سليم شاه » . وكذلك اسمه على الدنانير والدراهم والفلوس الجدد .

* * *

ثم كان مستهل شوال يوم السبت ، فطلع القضاة الأربعة وجماعة من أعيان المباشرين ، فخرج ملك الأمراء خاير بك وصلى صلاة العيد بجامع القلعه .

ثم أنه مد مدة حافلة لجمـاعة من العثمانيـة ، فنزلوا على ذلك السماط مثل الصفورة ، فلم يبقوا منه غير العظام ، ولم يفضل لغلمان القلعة شىء . وكان خاير بك يظن أن الأمراء الجراكسـة الذين ظهروا والخاصكية يطلعون ويحضرون المدة ، فلم يطلع له أحد من هؤلاء ، وخافوا أن تكون مكيدة أو حيلة . وكان هذا اليوم لم يكن عيدا ، بل كان فى غاية الخمود فى كل شىء .

وفى هذا العيد لم يخلع خاير بك على أحد من قضاة القضاة ، ولا على أحد من المبـاشرين قاطبة كما كانت العادة القديمة .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى نحو البريم على سبيل التنزه ، ونصب له هناك خياما ، وأراد أن يبيت على شاطىء البحـر ، وأحضر جمـاعة ممن يقلون السمك ، وقصد أن ينشرح فى ذلك اليوم هناك ، فصنع له السيد نقيب الأشراف مدة حافلة وأحضرها هنالك ، فخرج عليها جماعة من العثمانية فى أثنـاء الطريق ، فخطفوا ذلك الأكل من فوق رءوس الحمالين . فلما بلغ خاير بك ذلك تنكد من العثمانية بسبب هـذه الفعلة ، ولم يكن له عند العثمانية حرمة ولا وقار ، ولا مراعاة له فى سائر الأحوال .

وفى ذلك اليوم فتح البريم بحضرة خاير بك ، وأحضر جماعة من الصيادين فى مراكب ومعهم أسماك كثيرة ، فصار القلايون يقلون من هذه الاسماك ويطعم العسكر الذين بصحبته ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، وأقام هنالك الى ما بعد العصر ، ثم نزل فى مركب وشق من جهة الروضة ، وطلع من بر مصر العتيقة الى القلعة .

وفى ذلك اليوم أشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان أرسل مطالعة الى خاير بك على يد ساع ، فكان من مضمونها انه وصل الى الشام ودخل اليها ، وزينت له لما دخلها . ومن مضمون تلك المطالعة أن ابن عثمان أرسل يطلب من خاير بك أربعين ألف أردب شعير وقمح يرسلها له فى مراكب من البحر المالح الى الشام ، فألزم خاير بك المباشرين بذلك ، فأخذوا فى تجهيز ذلك وارساله من البحر كما برز الامر .

وفى أثناء هذا الشهر وردت الأخبار من عند الجماعة الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول ، بأن مركبا من المراكب التى توجهوا بها قد غرقت فى البحر المالح ، وغرق للناس فيها جملة مال ، وغرق فيها أربعمائة انسان ، وفيهم جماعة من الأعيان الذين خرجوا من مصر ، ولكن لم يثبت الى الآن أسماء من غرق فيها من الأعيان .

وقد أشيع أنه كان فيها يبردى بن كسباى أحد الأمراء العشراوات الذى كان باش المجاورين بمكة ، وحضر صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب قراكز الجكمى رأس نوبة عصا ، الذى كان محتسبا بمكة ، وكان بها نحو أربعين مملوكا ، وكانوا صحبة باش المجاورين ، وحضروا صحبة ابن الشريف بركات أمير مكة . وقد تقدم القول على ذلك .

وكان بتلك المركب محمد بن ابراهيم النرابيتى . الذى كان ناظر الاوقاف المتعلقة بالزمامية فى أيام السلطان الغورى ، وكان بها غير هؤلاء جماعة كثيرة من الناس فأشيع غرقهم أجمعين ، ولكن لم يتأكد القول بذلك الى الآن . وأشيع غرق جماعة من البزدداريه الذين كانوا خرجوا من مصر ليتوجهوا الى اسطنبول . وأشيع أن الطاعون عمال باسطنبول وبها الوخم والغلاء ، وهذا ما أشيع والله أعلم بصحة ذلك .

وفى يوم السبت خامس عشر شوال ، حضر أمير من عند ابن عثمان من الشام يقال له الأمير على ، قيل هو الذى كان واليا بالقاهرة لما كان بها ابن عثمان ، فخرج الأمير قايتباى الدودار الى ملاقاته ، فدخل من باب النصر .

وحضر صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ، وجماعة من المماليك المتعلقين بسلك الأمراء خاير بك الذين كانوا بحلب . قيل انهم نحو ثلثمائة مملوك ، فأنزلوا هذا القاصد فى بيت الأتابكى سودون العجمى الذى فى قنطرة سنقر ، فلم تصح هذه الاشاعة ، وأنزلوه فى مكان غير ذلك المكان الذى ذكروه ، فأخبر هذا القاصد بأن ابن عثمان دخل الى الشام وهو مقيم بها . وقيل انه يشتى هناك ، وأن أهل الشام فى غاية الضنك والشدة من عسكره ، لأنهم طردوهم عن بيوتهم وسكنوا بها ، وحصل منهم لأهل الشام الضرر الشامل أكثر مما حصل لأهل مصر . وأخبر أن الغلاء بالشام حتى بلغ ثمن العليقة الواحدة ستة أنصاف ولا توجد .

واختلفت الأقوال فى مجىء هذا القاصد ... فمن الناس من يقول جاء بسبب استعجال هذا المغل الذى أرسل يطلبه ابن عثمان ، ومن الناس من يقول ان ابن عثمان ولاه نيابة الاسكندرية ،

وقيـل جاء بسبب غير ذلك . والأقوال فى ذلك كثيرة .

وفى يوم الأحد سادس عشره نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة ، وتوجه الى منشيه المهرانى ، بسبب وسق المراكب بالمغل الذى أرسل بطلبه ابن عثمان ، فقيل جهز من المغل نحو ثلاثين ألف أردب قمحا وشعيرا ، وقيل أكثر من ذلك

وفى يوم الاثنين سابع عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة فى موكب حافل ، وكان أمير ركب المحمل فى تلك السنة القاضى علاء الدين بن الامام ناظر الخاص ، الذى قرر فى كتابة السر كما تقدم .

وقد خرج الحاج فى هذه السنة ركبا واحدا ، الأول والمحمل معا . وكان الحاج فى هذه السنة قليلا جدا خوفا من فساد العربان فى الطريق ، لأنه فى السنة الماضية ــ فى دولة الأشرف طومان باى ــ لم يخرج المحمل من القاهرة ، ولم يحج فيها من أهل مصر أحد .

ولما خرج القـاضى ناظر الخاص ، طلب طلبا حربيا ، يشـتمل على أربعـة نوب هجن بأكوار مخمل ، وبعض خيول جنائب عليها بركستوانات فولاذ وكنابيش زركش ، وثلاثة خزائن بأغشية حرير أصفر ، ومحفة جوخ أزرق ، وقدامه طبلان وزمران من غير صنجق . وقد احتفل بعمل سنيح حافل بسبب من حج معه من العثمانية فى هـذه السنة .

ولما شق من القاهرة كان قدامه الأمير قايتباى الدوادار والأمير أرزمك الناشف أحـد الأمراء المقـدمى الألوف الذى ظهر عن قريب ، والأمير قانصوه العادلى الذى كان كاشف الشرقية ، وكان قدامه جماعة من أمراء ابن عثمان ومن عسكره وركب قدامه سائر الأعيان من المباشرين من كبير وصغير ، ثم أتى بعـده المحمل وقدامه القضـاة الأربعة على العادة

وممن حج فى هـذه السنة من الأعيان قاضى القضـاة محيى الدين المالكى ــ وهو ابن الدميرى ــ فألبسه خاير بك قفطانا مخملا ، وقرره قاضى المحمل وحج آخـرون من الأعيان لايحضرنى أسماؤهم الآن .

وقد جـدد ابن عثمان كسوة المحمل فى هذه السنة ، فصنع له كسوة فاخـرة كلها زركش ، وكتب عليها اسمه ، ولما شقوا من القـاهرة كان لهم يوم مشهود على العادة القديمة . هذا ما كان من ملخص خروج المحمل فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت ثانى عشريه خلع ملك الأمراء خاير بك على قانصوه العـادلى قفطانا مخملا بتماسيح ، وقرره كاشف الشرقية كما كان أولا .

وفى يوم الأحد ثالث عشريه قبض الوالى على خمسة أنفار من العثمانيه أشيع عنهم أنهم يخطفون العمائم ويعرون الناس فى الطرقات ، وأنهم يخطفون النساء والصبيان المرد ، وتزايد منهـم الفساد . فلما قبض عليهم ، رسم سنان باشا أحد أمراء ابن عثمان أن يشـنقوا على باب زويلة فشنق منهم اثنان على باب زويلة ، وواحد على باب الشعرية . وأما الاثنان فقد شفع فيهمـا من الشنق فى ذلك اليوم فسجنا

وكانت العثمانية الذين بمصر كثر منهم الأذى فى حق أهل مصر من حين رحل ابن عثمان عنهم ، وصـاروا لا يسمعون لخاير بك كلامه ، ولا له عليهم حرمة .

وفى يوم الاثنين رابع عشرى شـوال توجهت المماليك الجراكسة الى بيت الأمير قايتباى الدوادار

بسبب أنه وعد المماليك أنه يصرف لهم جوامك فى دلك اليوم ، فطلع الى القلعه واجتمع بملك الأمراء خاير بك ، وأقام بالقلعه الى قريب الظهر ، والمماليك الجراكسة فى انتظاره على بابه ، فلما نزل قال لهم : « يا آغوات شاورت ملك الأمراء عن أمركم ، فقال حتى نجمع المال ، وننفق عليهم الجوامك » . ولم يواعدهم على يوم معين ، فرجعوا من عنده بغير طائل .

وقد صارت المماليك الجراكسة فى غاية الذل من الفقر والعرى ، ومنهم من سأل الناس فى رغيف يقتات به ، ومنهم من يطوف فى الأسواق يسأل التجار والسوقة فى درهم يشترى به كبشة فول يأكلها ، فسبحان من يعز ويذل . وصاروا يمشون فى الأسواق لا خيول لهم ولا قماش ولا سلاح ولا بيوت تأويهم ، ولا اصطبلات ولا عبيد ولا غلمان ، وقد نظر الله اليهم بعين المقت جزاء ما كانوا يعملون ، فسبحان من قهر الجبابرة بعز سلطانه .

* * *

وفى يوم الأحد كان مستهل ذى القعدة الحرام ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بالشهر ، وعادوا الى بيوتهم .

وفى يوم الخميس خامسه خلع ملك الأمراء على يوسف البدرى وأعاده الى الوزارة كما كان أولا ، فخلع عليه قفطانا مخملا عوضا عن المتمر . وقد صارت الأمراء الجراكسة الذين ظهروا كلهم بقفطانات مخملة ، وبعضهم بقفطانات جوخ وطراطير جوخ أسود ، وعليهم عمائم مدورة ، وفى أرجلهم سقمانات جلد فى زى العثمانية ، فصارت الأمراء الجراكسة والمماليك السلطانية كلهم على هذه الهيئة ، واختلط العثمانية مع الجراكسة ، حتى صاروا لا يعرف هذا من هذا الا بشىء واحد وهو أن المماليك الجراكسة تعرف بذقونهم ، والعثمانيه بغير ذقون . وقد قلت فى هذا المعنى مواليا :

امشى مع الدهر قدر الجهد يا غلطان
واخلع ثياب المواكب واتبع السلطان
فى لبس سقمان أو طرطور أو قفطان
وكن مع القوم فى الملبوس والأوطان

وفى يوم الأحد ثامن الشهر ، نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة باكر النهار ، وتوجه الى نحو قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ومد فى دلك اليوم مدة حافله ، واهدت اليه جماعه من المباشرين مجامع حلوى ، ومشنات فاكهة ، وسكر وخرفان شوى ، وأقفاص أوز ودجاج ، وغير ذلك أشياء فاخرة ، على أعناق الحمالين وظهور الدواب ، وكان يوما سلطانيا . ولم يتم حتى وقعت حادثة ... وهى أنه فى ذلك اليوم بعد العصر ، نزل جماعة من العربان من نحو الجبل الأحمر ، بالقرب من سبيل علان ، فقطعوا الطريق على جماعة من الفلاحين معهم جمال محملة قمحا وبطيخا ، فأخذوا منهم نحو أربعين جملا ، وذهبوا بها الى الجبل ، ومضوا بها ولم تنتطح فيها شاتان . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد غاية النكد بسبب ذلك ، فلما ذهبت العرب بالجمال أتى الفلاحون الى ملك الأمراء واستغاثوا بين يديه وبكوا ، فقام من وقته وهو منكد ، وطلع الى القلعة بعد العصر ، ولم يخرج من يده شىء فى رد الجمال من أيدى العربان الى أصحابها .

وفى يوم الثلاثاء عاشر ذى القعدة حضر الى الأبواب الشريفة شيخ العرب عبد الدائم بن شيخ

بالحارات ، وأقامت الأبواب مغلقة الى ضحوة النهار ، ثم فتحت بعد ذلك . وسبب ذلك أن حسن ابن مرعى شيخ عربان البحيرة ، الذى كان سببا لمسك السلطان طومان باى ، تحيل عليه السلطان سليم شاه بن عثمان حتى قبض عليه ، وقيده بقيدين ، وأودعه فى الاعتقال فى طبقة عند باب القلعة ، ووكل به جماعة من العثمانية يحفظونه ، فأقام على ذلك مدة ، وغافلهم ، وبرد القيدين بمبرد حديد ، وتدلى بحبل من السور الذى بالقلعة ، وهرب بعد العشاء من القلعة . فلما بلغ ملك الأمراء هروب حسن بن مرعى من القلعة تنكد لذلك غاية النكد ... وهرب حسن بن مرعى وفاز بذلك ، ونحوف الناس من هروبه

وفيه وردت الأخبار من الشام ، بأنه لما أقام بها ابن عثمان وقع بهـا فى تلك الأيام وخم عظيم ، ومات من عسكره جماعة كثيرة من ذلك الوخم . وأشيع موت حليم چلبى فقبه ابن عثمان وندبه ، وأشيع موت أخى حليم چلبى أيضا ، ومات من أمرائه جماعة كثيرة ، وأنه وقع بالشام غلاء عظيم ، حتى وصلت كل علقة الى خمسة أنصاف ، ووصل سعر الرغيف الخبز نصف فضة وأن عسكره تقلق من الغلاء والوخم ، وتفرقوا عنه فى الضياع والجبال

وأشيع أن عسكر ابن عثمان خرب غيطان الشام ، ونهب الفواكه من فوق الأشجار ، ورعت خيولهم فى الغيطان ، وأكلوا أوراق الأشجار ، وطردوا الناس من بيوتهم وسكنوا بها ، وخربوا غالب بيوت الشام ، وحصل منهم لأهل الشام غاية الضرر ، أكثر مما حصل منهم فى حق أهل مصر من الفساد بها

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع فى هذا الشهر

منَ أن جماعة من المباشرين بالديوان المفرد ، منهم يوسف النابلسى الأستادار ، وفخر الدين وأخوه أولاد ابن عوض ، وبركات أخــو شرف الدين الصــغير . وشرف الدين الكبير ، وأبو بكر بن الملكى مستوفى ديوان الجيش ، وبركات بن موسى وعلاء الدين ناظر الخاص . وعبد العظيم أستادار الصغير ... فهؤلاء التسعة الرهط الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، اتفقوا على أخذ أموال المسلمين ، فاستباحوا أموالهم ودماءهم ، وما ذاك الا أن غالب البلاد قد شرق فى هذه السنة بسبب خسة النيل . وكان المباشرون التزموا بتعليق المال الذى على البلاد ، فلما حصل هذا الشراقى ضربوا مشوره بين بعضهم وقالوا : « نحن فى العام الماضى أوقفنا اقطاعات أولاد الناس التى بالمناشير ، وأخذنا خراجهم ، وفى هــذه السنة أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية ، ونضع أيدينا على خراجها فى هذه السنة فى نظير شراقى البلاد » فطلعوا الى ملك الأمراء خاير بك ، وعرضوا عليه ذلك وحسنوا له عبارة فى استخراج خراج الرزق فى هذه الســـنة فى نظير الشراقى ، فقال لهم : « انزلوا افعلوا ذلك » فنزلوا من عنــده ، وأطلقوا فى الناس النار ، وأرسلوا العمال بالمراسيم الى البلاد ليستخرجوا منها الأموال من الرزق التى بالمربعات قاطبة ، حتى الرزق الأحباسية ، ولو كانت الرزقة تشترى بمربعة شريفة . فضجت أولاد النــاس والنساء الأرامل من هذه الحــادثة المهولة ، وحصل الضرر الشــامل للأرامل والأيتام . والله تعالى لا يغفل ولا ينام .

وصار الناس يقفون الى ملك الأمراء خاير بك ، ويشكون اليه ذلك ، فيقول لهم : « أنا أوقفت المناشير والمربعات بأمر الخنكار ابن عثمان » ، فنزلوا من عنده فى أسوأ حال ، وصاروا يسألون الأستادار بمال يدفعونه له حتى يفــرج عن رزقهم ، فلا يجيبهم ولا يقضى لهم حاجة .

ثم ان فخر الدين بن عوض — لا جــزاه الله خيرا — استدرج من الرزق الى خراج بلاد الأوقاف التى كانت بالمكاتيب الشرعيه ، فصــار يستخرج خراج الأوقاف ويأكله على أصحابه رغما عن أنفهم ، فحصل للناس فى هــذه الحركة غاية الضرر الشامل ، وقد اشتد الأمر على الناس بسبب ذلك ، وكل هــذا من المباشرين وأذاهم فى حق المسلمين . وقد قلت فى المعنى مواليا :

كان ابن عثمان مذ جا مصر مثل الضيف
رحــل وولى علينا كل صاحب حيف
مباشرين يجــوروا فى الشتا والصيف
أطراف أقلامهم تفعل مثل فعل السيف

وفى يوم الأحد ثانى عشرى ذى القعدة ، خرج الأمير قايتباى الدوادار ، وعدى الى بر الجيزة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من العثمانية ، ومعهم مكاحل نحاس ومدافع نحاس وعجل ، وقد أشيع أن عدة قبائل من العرب نزلوا على الجيزة فافتتنوا مع عرب عزالة ، وحصل منهم غاية الفساد . فخرج الأمير قايتباى وصحبته تجــريدة وعسكر من الچراكسة بسبب العــربان وطــردهم عن البلاد فخرج وقام فى بر الجيزة الى أن تكامل العسكر .

وفى يوم الاثنين ثالث عشريه ، اجتمع المماليك الچراكســة فى بيت الأمير قايتباى الدوادار — وهو بيت الأتابكى قــرقماس الذى عند حــوض العظام — واجتمع القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، ولم يكن الأمير قايتباى الدوادار حاضرا ، بل حضر أخوه جان بك . فأنفقوا على المماليك الچراكسة لكل واحد منهم ألفا درهم .

وصاروا يستوعبونهم طبقة بعد طبقة ، فأنفقوا عليهم يوم الاثنين ويوم الثلاثاء رابع عشريه ، وأنفقوا يوم الأربعاء ويوم الخميس أيضا ، وقد ظهر من المماليك الجراكسة الجم الكثير فوق الخمسة آلاف مملوك ، وقد كانوا موزعين فى البلاد عند الفلاحين ، وآخرون قد اختفوا فى البيوت والحارات ، حتى خمدت الفتنة ثم ظهروا بعد ذلك .

وفى يوم الخميس سادس عشريه ، أشيع أن الأمير قايتباى الدوادار ، لما توجه الى بر الجيزه بسبب فساد العربان ، وأقام هنالك أياما حتى يتكامل خروج العسكر ، وردت الأخبار بأن العسكر العثمانى لما توجهوا الى هنالك ، وقع بينهم خلف فى بعضهم ، فوثبوا على باشهم ، وهو شخص من أمراء ابن عثمان ، وراموا قتله فهرب واستجار بالأمير قايتباى . فلما جرى ذلك أرسل الأمير قايتباى كاتب ملك الامراء بما جرى من العثمانية فى حق باشهم .

ثم أشيع واستفاض بين الناس ، أن حمادا شيخ عربان عزالة قد حضر عند ملك الأمراء خاير بك ، وأخبره أن العربان الذين أتوا الى بر الجيزه ، عدة قبائل لا تحصى ، وأن العسكر الذى أرسله لا يقاوم هذه العربان الكثيرة ، فانهم فوق العشرين ألف انسان . ونشأ هذا كله من حسن بن مرعى لما هرب من الحبس ، فانه طاف بالعربان وأنشأ هذا الفساد . ثم قال له : « ان لم تخرج أنت بنفسك ، وتعدى بر الجيزة ، والا فما يقع للعسكر اتفاق بينهم » ، فصلى ملك الأمراء خاير بك صلاة الفجر ، ثم نزل من القلعة وقدامه جماعة كثيرة من الرماة بالنفوط ، والجم الكثير من العثمانية ، ومعهم صناجق حرير أحمر ... فشق من الصليبه وتوجه الى بولاق ليعدى الى الجيزة .

وفى يوم الجمعة سابع عشريه ، حضر الأمير قايتباى الدوادار ، وكان قد خرج باش التجريدة الذى توجهت الى العرب ، وأخبر أنه لم يظفر بحسن ابن مرعى ، وترافع هو والعربان الى الأودية والجبال . وأشيع أن باش عسكر العثمانية هو الذى أهمل فى أمر حسن بن مرعى حتى أخلى من وجه العسكر ، ومضى بجمعه ، ودخل الى الأودية والجبال .

وفى آخر هذا الشهر وقع بين القاضى فخر الدين بن عوص ، وبين خشقدم الاشرفى مملوك السلطان الغورى .. الذى كان شاد الشون وهرب وتوجه الى بلاد ابن عثمان ، وكان سببا لانشاء هذه الفتنه بين سليم شاه بن عثمان وبين السلطان الغورى — وقد تقدم القول على ذلك — فلما دخل ابن عثمان الى مصر وملكها قرر خشقدم هذا كاشف أسيوط مع منفلوط فلما رحل ابن عثمان عن مصر ، وقرر ملك الأمراء خاير بك نائب السلطنة بمصر ، عزل خشقدم من التحدث على أسيوط . فلما حضر خشقدم من أسيوط وقع بينه وبين فخر الدين بن عوص فتنه بسبب الرزق التى هناك ، فحصل بينهما تشاجر عظيم ، فتشاتما وتسابا سبا قبيحا . وقال فخر الدين بن عوص لخشقدم : أنت كنت سببا لوقوع الفتنة بين أستاذنا الغورى وبين ابن عثمان ، فتحمل خشقدم من فخر الدين بن عوص ، وشق عليه ذلك .

فلما كان يوم السبت ثامن عشرى ذى الحجة ، طلع خشقدم الى القلعة ، ووقف الى ملك الأمراء خاير بك ، وشكا له فخر الدين بن عوض مما قاله فى حقه ، فتعصب له جماعة من العثمانية ، وأغلظوا على خاير بك فى القول بسبب فخر الدين بن عوص فلما طلع ابن عوص الى القلعة يوم السبت ، وبخه

خاير بك بالكلام ، وقامت عليه الثائرة من أمراء ابن عثمان الدين بمصر ، وقالوا له : « هذا خلى أستاذه الغورى وهرب من عنده وجاء الى الخنكار وصار من جماعته ، وأنت تبهدله وتشتمه ! » ، فقامت البينة على ابن عوض بأنه شتم خشقدم وسبه ، فغضب خاير بك على ابن عوض ، وأمر بوضعه فى الحديد ، وأسلمه للوالى ، ورسم له بأن يوسطه ، فقصد الوالى أن ينزل به من القلعة ليوسطه . فقامت جماعة من المباشرين وتداخلوا على خشقدم ، وأصلحوا بينه وبين فخر الدين بن عوض ، فدخل الى ملك الأمراء خاير بك ، وشمع فيه من التوسيط وقاسى ابن عوض فى ذلك اليوم غاية البهدلة من أمراء ابن عثمان بسبب خشقدم .

وكان ابن عوض مستحقا لذلك ، فانه صار فى هذه الأيام من وسائط السوء ، ولا سيما مافعله فى جهات الغربية . ووضع يده على رزق الناس وأوقافهم ، واستخراج حراجهم ، وضاعت على الناس حقوقهم ، وحصل منه الضرر البليغ ، ولا حول ولا قوة الا بالله .

وفى ذلك اليوم حضر هجان بكتب الحاج ، وقد حضر فى السابع والعشرين من ذى الحجة ، وأشيع عن كتب الحجاج أن مكة بها غلاء ، وقد وصل الحمل الدقيق الى أربعين دينارا ، ووصل الأردب القمح الى عشر أشرفيات ، ووصلت البطة الدقيق الى ثلاث أشرفيات . وكذلك اشتد السعر فى سائر البضائع والأصناف والغلال . وذكروا أنه مات من الجمال ما لا يحصى ، حتى وصل كراء الموهية الى أربعين دينارا . وذكروا من هذا النمط أشياء كثيرة ، وأن أمير مكة السيد الشريف نادى فى مكة أن لا أحد من الناس يتجاور بمكة تلك السنة بسبب الغلاء .

وأشيع عن كتب الحجاج أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد جاور بمكة ، وكذلك مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، وغير ذلك من الأعيان ، والذين كانوا بها نزلوا صحبة الحجاج لما اشتد أمر الغلاء بمكة .

انتهى ما أوردناه من حوادث سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وقد خرجت هذه السنة على خير ، وكانت سنة صعبة شديدة على الناس ، كثيرة الحوادث والفتن ، جرت فيها أمور شنيعة لم تجر فى سالف الأزمان ، وقتل فيها جماعة من الأمراء والعسكر والمماليك السلطانية فى فتنة ابن عثمان ، وقتل فيها من أهل مصر من ليس له ذنب وراح ظلما . فقتل من الناس مالا يحصى عددهم ، ولعب السيف فى أهل مصر سبعة أيام ، وقتل فيها ثلاثة سلاطين وهم : الأشرف الغورى ، والأشرف طومان باى ، والظاهر قانصوه — قتل فى البرج بثغر الاسكندرية — وتغير فيها ثلاث دول ، وخربت فيها دور كثيرة ، ونهب فيها أموال وقماش لا يحصى . وتيتم فيها أطفال ، وترملت فيها نساء ، وجرت فيها مفاسد كثيرة لم يسمع بمثلها . ولم تقاس أهل مصر شدة أعظم من هذه الا فى زمن بختنصر البابلى ، فانه خرب مصر وأحرقها حتى أقامت أربعين سنة خرابا . فكان النيل يطلع ويهبط ، ويفرش على الأرض فلا يجد من يزرع شيئا من أراضيها . وهذا كله بتقدير الله تعالى فنسأل الله تعالى حسن الخاتمة ، ورد العاقبة الى خير .

وقد وقفت على كتاب تأليف الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه ، ذكر فيه « أن فى هذا القرن يبدو الخراب فى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ثم يتزايد الأمر الى سنة خمسين وتسعمائة ، فيقع فيها فناء عظيم ، حتى

يفنى من أهل مصر نحو النصف » . وقد ظهرت علامة ذلك فى هذه السنة . ومن أعظم مساوىء ابن عثمان اخراج أعيان الرؤساء بالديار المصرية ، ونفيهم الى اسطنبول ، ونحن نذكر منهم ما تيسر فنقول :

ذكر من توجه فى هذه السنة الى القسطنطينية من أعيان رؤساء الديار المصرية

وهم : مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله ابن المستمسك بالله يعقوب ، وأولاد ابن عمه سيدى خليل ، وهما : أبو بكر وسيدى أحمد ، ثم المقر العلائى على ابن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال .

ومن أولاد الأمراء : الشرفى يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والجناب الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك صهر الأشرف قايتباى . ومن الأمراء بيبردى ابن كسباى الذى كان باش المجاورين بمكة أحد الأمراء العشراوات ، وقراكز الجمكى أحد الأمراء العشراوات ، وقانصوه القيم باش المدينة الشريفة ، وجماعة من المماليك السلطانية الذين كانوا مجاورين بمكة المشرفة ، وجان بك دوادار الأمير طراباى .

ومن أولاد الناس : الشهابى أحمد بن البدرى حسن بن الطولونى معلم المعلمين ، ويوسف بن أبى الفرج الذى كان نقيب الجيش ، ويحيى بسكار الذى كان دوادار الوالى

ومن نواب السادة الشافعية : الشيخ زين العابدين بن قاضى القضاة كمال الدين الطويل ، والشيخ شرف الدين بن دوق ، والشيخ شمس الدين الحلبى والشيخ شمس الدين بن وحيش ، والشيخ كمال الدين بن مظهر ، والشيخ بدر الدين البلقينى ، والشيخ برهان الدين الأبناسى ، والشيخ شمس الدين الحجازى ، والشيخ شمس الدين بن الآدمى الدمياطى ، والقاضى شمس الدين المفسى العزيزى ، والسيد الشريف الحجار ، والقاضى ولى الدين البتنونى ابن الشرمساحى ، والقاضى شمس الدين بن جمال الدين الأتميدى .

ومن نواب السادة الحنفيه الشيخ زين الدين الشرنقاشى ، والسيد الشريف البرديسى ، والشيخ بدر الدين بن الوفاد السعودى ، والشيخ بدر الدين محمد بن الرومى .

ومن نواب السادة المالكية : الشيخ شهاب الدين أحمد بن الفيشى ، والشيخ شهاب الدين الابنامى .

ومن نواب السادة الحنابلة : الشيخ شهاب الدين الهيتمى ، والشيخ جلال الدين الطنبدى ، والقاضى جمال الدين الحنبلى .

وأما من توجه الى اسطنبول من المباشرين السلطانيه فهم : المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش ابن ناظر الخاص يوسف ، وابن أخيه بدر الدين ابن كمال الدين ، والجناب الشمسى محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان أحد كتاب الخزائن الشريفة ، والقاضى زين الدين عبد القادر الملكى مستوفى ديوان الجيوش المنصورة ، والشمسى محمد البارزى .

ومن كتاب المماليك وغيرهم : شمس الدين محمد بن فخر الدين ، وسعد الدين وفرج وكريم الدين ، وفتح الدين من أولاد ابن فحيرة ، وابن أبى المنصور ، ومحمد بن عبد العظيم ، ومحيى الدين ابن بهاء الدين من أولاد ابن البقرى ، وأبو الحسن ابن الرفيق ، وعبد العظيم بن غالب ، ويحيى بن الطنساوى ، وشهاب الدين بن عبد العظيم ، وعبد العظيم بن تقى الدين ناظر الزردخاناه ، وولده زين الدين ، وتاج الدين أخو عبد الكريم اللادبى ،

وكمال الدين من أولاد ابن البفرى ، وشرف الدين وعلى المرجوشى ، وأخو يونس الاستادار ، وابن الزكى ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وأحمد ابن فريميط ، وعبد القادر بن فريميط ، وأبو السعادات ، وأفضل الدين المنوفى ، وناصر الدين العزى الموقع ، وولى الدين ناظر المواريث ، وعامل المواريث ، وسعد الدين أخو علاء الدين ناظر الخاص ، وبركات المنوفى وسعد الدين المنوفى ، ومحمد الكوير ناظر الخاص ، وأحمد بن حنسو البطن ، وابن نصر الله ، وكريم الدين صهر عبد الفتاح ، ومحمد بن أبى غالب ، وصفى الدين بن الهيصم ، وتاج الدين بن البفرى ، وشقيقه بركات بن سلمان ، وكمال الدين بن الناصرى ، وعبد الرحمن مباشر أمير آخور كبير ، وبدر الدين بن خازوفة ورفيقه ، وأبو الفضل مباشر الوالى ورفيقه ، والعبادى ورفيقه ، وبدر الدين مباشر الأمير أنص باى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير آخور كبير ، وآخرون من المباشرين لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

ومن أعيان الناس : المهتار محمد النجولى مهتار السلطان الغورى كان ، والمهتار سليمان ، ومحمد ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وعلم الدين جلبى السلطان الغورى ، وعلى مقدم الدولة .

ومن الزردكاشية : يحيى بن يونس ، ومحمد العادلى الشهير بابن البدويه ، وزين العابدين بن محمود الأعور ، وجماعة من السيوفيه والصياقلة والسباكين والحدادين .

ومن تجار الباسطية : شهاب الدين الخطيب الأسمر ، وأحمد الديروطى ، وأولاد ابن نفيس ، وعلى بن خشيم ومن تجار سوق مرجوش : ابن الشعيرة ، وأبو العوز الحصصانى ، وبدر الدين شيخ سوق الغزل . ومن تجار المغاربة : الشيخ سالم التاجورى ، وسعيد اللبدى ، وأبو سعيد ، وآخرون لم تحضرنى أسماؤهم من المباشرين والتجار بأسواق القاهرة وغيرها .

ومن الخدام : مقدم المماليك سنبل العثمانى ونائبه ، وعثمان الرومى ، وشهاب الدين أحمد الجارحى . قيل مات من الرجفة قبل سفره بأيام .

ومن البزددارية كمال الدين بن يزددار أمير كبير ، وعبد القادر بن المنقار ، وابن الشيخ محمد ابن رسلان ، وناصر الدين واسمعيل ومحمد الكاتب ، وأبو بكر وابن السمينى ، ويحيى بن يحيى ، وبركات بن المبيض ، ومحمد بن الجيعان ، وبركات النائب ، وسعد الدين بن البحلاق ، ويحيى مقدم الخاص ، وحسن نائب البرماوى ، والسوهاجى ، ومحمد قطارة ، ومحمد بن فرو شيخ جهات الأميرية ، وآخرون ما تحضرنى أسماؤهم الآن .

ومن رءوس النوب : فرج بن البردينى وآخرون .

ومن مقدمى السقائين : عبيد وأبو الخير وابن فريخ النار .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من البنائين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والخراطين والمهندسين والحجارين والفعلاء جماعة كثيرة لم تحضرنى أسماؤهم الآن . وقد زعموا أن الخنكار ابن عثمان تقصد أن ينشىء له مدرسة فى اسطنبول مثل مدرسة السلطان الغورى التى بالشرابشيين .

وتوجه الى اسطنبول جماعة من طائفة اليهود والسامرية . ومن طائفة النصارى : بانوب الكاتب بالخزائن الشريفة ، وأبو سعيد ، وأمين الدولة ، ويوحنا الصغير ، ويوسف بن هبول ، وشيخ الملكيين الأسكندرى وولده ، وآخرون من النصارى واليهود لم تحضرنى أسماؤهم . فيقال ان جميع من خرج من أهل مصر وتوجه الى اسطنبول دون الألف انسان ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وفيهم

نسوان أيضا وأولادهم صغار رضع ، ومنهم كبار .

ولم يقاس أهل مصر من قديم الزمان أعظم من هذه الشدة ، ولا سمع بمثلها فى التواريخ القديمة ، وكان ذلك فى الكتاب مسطورا ... ففارق الناس أوطانهم وأولادهم وأهاليهم وتغربوا من بلادهم الى بلد لم يطئوها قط ، وخالطوا أقواما غير جنسهم ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

وكانت سنة مشومة على الناس ، مباركة على المباشرين الذين بمصر ، وصاروا هم الملوك يتصرفون فى المملكة بما يختارونه من الأمور ، ولا سيما ما فعلوه فى جهات الشرقية والغربية وجهات الصعيد ، ووضعوا أيديهم على رزق الناس والاقطاعات ، ثم استدرجوا الى أن أخذوا أموال الناس بغير حق شرعى ، ثم استدرجوا ثانيا الى أن أخذوا أموال الأوقاف . وصاروا ليس على يدهم يد ، يفعلون ما شاءوا من هذا النمط ، فغنموا فى هذه السنه أموالا جزيله من البلاد مما أخذوه من خراج الناس ... فكان مجىء ابن عثمان غنيمة للمباشرين ، وبعض الأفراد الذين أودع عندهم الأمراء الجراكسة والعسكر الأموال والقماش وقتلوا فى الواقعة ، فقعدوا على تلك الودائع ، وراحت على من راحت ، فكان كما يقال فى المعنى : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

سنة اربع وعشرين وتسعمائة (١٥١٨ م) :

فيها كان افتتاح شهر المحرم يوم الأربعاء ، فطلع القضاة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء خاير بك بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى دورهم

فلما كان يوم السبت رابع المحرم ، شكا الناس من أذى العثمانية الذين بمصر ، وتزايد منهم الفساد فى حق الناس ، وصاروا يتوجهون الى الاماكن التى فى زقاق الكحل والمسطاحى والتى فى الجسر وحكر الشامى والأزبكية ويأخذون ما فيها من الأبواب والسقوف والشبابيك الحديد والطيقان ، ويحملونها على الجمال بين الناس على النداء والاجهار ، ويبيعونها بأبخس الأثمان ، ولم يجدوا من يردهم عن ذلك .

ثم صاروا يطلعون بالنساء الى القلعة ويتحشرون بهن فى أطباق المماليك الذين بالقلعه ، وصنعوا بالطباق أطباق بوزة ، وصارت خانه برسم حرافهم . وصاروا يأخذون ما بالطباق من الأبواب والسقوف ويطبخون بها الطعام ، حتى خربوا غالب السقوف التى بالقلعه .

ثم تزايد منهم الفساد حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان المرد وعمائم الناس من الطرقات والأزقة والأسواق فى النهار والليل ، وصار الناس على رءوسهم طيرة من العثمانية ، ويجدون القتلى مرمية فى الطرقات .

فلما تزايد هذا الأمر دخل جماعة من الناس الى القاضى الذى جعله ابن عثمان فى المدرسة الصالحية أمينا على قضاة مصر ، فشكوا له من أفعال العثمانية وما يفعلونه بالناس . فلما سمع هذا الكلام ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وأركبه وطلع به الى القلعة ، وأخبروا ملك الأمراء خاير بك بهذه الأحوال التى تصدر من العثمانية .

ثم ان قاضى ابن عثمان أغلظ على خاير بك فى القول وقال له : « انظر فى أحوال المسلمين والا تخرب مصر عن آخرها ، فقد فسدت الأحوال جدا ، ومتى بلغ الخنكار هذه الأخبار يرسل يضرب أعناقنا ، ويقول لنا كيف كتمتم عنى أخبار مصر ، وغفلتم عن أحوال المسلمين ، حتى جرى فيها ما جرى » .

فلما سمع ملك الأمراء خاير بك هذا الكلام وعد القاضى والأمير قايتباى الى يوم السبت حادى

عشر الشهر ، فأحضر الأنكشارية والأصباهية وعرضهم ، وفحص عمن يفعل هذا منهم .

ثم أن خاير بك نادى فى القاهرة بأن لا امرأة تخرج من بيتها ولا صبى أمرد ، ولا يتوجهون فى هذا الشهر الى السيدة نفيسة ، ولا الى مشهد الحسين ، ولا الى بين القصرين ، وان الدكاكين والأسواق تغلق بعد المغرب ، ولا يمشى أحد من الناس بعد المغرب .

وفى يوم الاحد ثانى عشر المحرم ، حضر من الشام من عند ابن عثمان قاصدان زعما أنهما من أعيان أمرائه ، وقيل ان أحدهما أغات طائفة الانكشارية ، والآخر أغات الأصباهية ، فلما بلغ ملك الأمراء حضورهما نزل من القلعة ولاقاهما ، وكان لهما موكب حافل ، فطلعا الى القلعة . واجتمعت الأمراء العثمانيه والأمير قايتباى الدوادار وقرءوا مطالعة الخنكار .

ثم أشيع أن ابن عثمان أرسل يطلب الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تمرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الأصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ، فكثر القيل والقال فى ذلك .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشره أرسل ملك الأمراء خاير بك الى الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تمرباى العادلى ، وأرسل يطلب جماعة من الانكشارية وجماعة من الاصباهية الذين كان قد تركهم بمصر ... فكثر القال والقيل فى ذلك .

وأرسل ملك الأمراء خاير بك الى الأمير أرزمك الناشف أربعمائة دينار وقال له . هذه نفقة السفر : فاعمل بها برقك واخرج سافر . فشكا أرزمك من ذلك وقال ايش يكفينى هذا القدر لعمل برق السفر . ثم ركب وتوجه الى بيت الأمير قايتباى الدوادار وشكا له من أمر هذه النفقة ، فقال له : اصبر حتى أطلع الى ملك الأمراء خاير بك فى ذلك اليوم » .

ثم فى يوم الأربعاء خامس عشره ، أشيع بين الناس أن جماعة من الانكشاريه والاصباهية لما تحققوا أن الخنكار أرسل يطلبهم أظهروا العصيان ، وخرج بعضهم الى نحو الشرقية والغربية وتفرقوا فى البلاد .

ومن الحوادث الغريبة أنه فى يوم الجمعة سابع عشر المحرم من هذه السنة ، أشيع واستفاض بين الناس أنه قبض على قاسم بك بن أحمد بك بن أبى يزيد بن محمد بن عثمان ملك الروم . وقاسم بك هذا هو الذى كان قانصوه الغورى اجتهد كل الاجتهاد حتى أدخله الى مصر ، وصار ضدا لسليم شاه ابن عثمان . وكان سليم شاه يخشى من أمر قاسم بك هذا أن يلتف عليه عسكر الروم من عساكر جده ويولوه مملكة الروم . وسافر قاسم بك هذا صحبة الأشرف قانصوه الغورى الى حلب ، وصنع له برقا وسنيحا حافلا ، وجعل له صنجقا من حرير أخضر وأحمر كما هى عادة ملوك الروم ، وحضر الواقعة التى كانت فى مرج دابق ، فلما فقد السلطان الغورى وجرى ما جرى ، رجع قاسم بك صحبة الأمراء الى مصر وصار معظما عند السلطان طومان باى ، وحضر معه فى الواقعة التى كانت بالمطرية ، فلما انكسر السلطان طومان باى هرب معه الى جهة الصعيد ، فلما وقع السلطان طومان باى هو وابن عثمان فى الجيزة بالقرب من وردان انكسر طومان باى وهرب . فلما قبضوا عليه وشنق اختفى قاسم بك ولم يعلم له

خبر مدة طويلة ، وقد فاته القتل مرارا عـديدة . وكان السلطان حاسب حسابه جدا ليلا ونهارا ، وكان عسـكر ابن عثمان قصـدهم المخـامرة عليه والتوجه الى قاسم بك . وقد أشيع بين الناس انه لما هرب بعـد كسرة طومان باى ، توجه مع بعض العربان الى نحو الجبل الأخضر الذى بأعلى البحيرة ، وكان قد نسى أمره .

فلما كان يوم الجمعة المقدم ذكره أشاعوا أنهم قد قبضوا عليه فى مكان عند العطوف بالقرب من البرقية ، وقد غمز عليه بعض غلمانه فى ذلك المكان ، فتوجه اليه كمشبغا والى القاهرة وشخص آخر يقال له جانم الحمزاوى شاد الشون من خدمة ملك الأمراء خاير بك ، وهو دوادار الآن ، فتوجها اليه وقبضا عليه من ذلك المكان المذكور . فلما قبضوا عليه عروه من أثوابه وقلعوه عمامتـه وألبسوه برنسا أسود وغطوا وجهـه . وسبب ذلك أنهم خشوا أن العثمانية متى بلغهم أنهم قبضوا عليـه وهو طالع الى القلعة يخلصونه ويقتلون من معه ، وتثور بين العثمانيين فتنة عظيمة ، وتكون سببا لزوال ملك سليم شاه بن عثمان . فلما طلعوا به الى القلعـة بعد العصر قريب المغـرب من يوم الجمعـة ، عرضوه على ملك الأمراء خاير بك ، فرسم بادخاله الى سجن العرقانة الذى هو داخل الحوش السلطانى ، فأدخلوه به وأغلقوا عليه باب السجن .

ثم اجتمـع ملك الأمراء خاير بك ، والأمير قايتباى الدوادار ، ومن الأمراء العثمانيين فائق بك وسنان بك ومصطفى بك وخير الدين بك نائب القلعة . فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر قاسم بك ، فقال ملك الأمراء خاير بك : دعوه فى السجن وأرسلوا كاتبوا الخنكار فى أمره وانتظروا الجواب فيما يرسم به . فقال فائق بك : هذا ما هو رأى ، متى بات فى قيد الحياة تدخل علينا التراكمة وتقتلنا عن آخرنا وتقع فتنة كبيرة . فلما دخل وقت العشاء أحضروا المشاعلى ودخلوا عليـه وهو فى العرقانة فخنقوه بها ، وكان آخر العهد به .

فلما أصبح يوم السبت ثامن عشره ، أخرجوا قاسم بك من العـرقانة وهو ميت ، ورقدوه على مسطبة بالحوش ، وكشفوا عن وجهه ، وأرسلوا خلف العثمانيين قاطبة حتى رأوه ، فقالوا لهم : هذا قاسم بك بن أحمد بك ابن أبى يزيد بن عثمان . ثم صاروا يقلبونه باطنا وظاهرا ، ثم شهد منهم جماعة كثيرة أن هذا هو قاسـم بك ابن أحمد بك ابن عثمان . ثم بعد ذلك أرسل ملك الأمراء خاير بك خلف قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة الحنفى الطرابلسى ، وقامت عندهما البينة بصحة معرفة قاسم بك هذا ، فكتبوا بذلك محضرا وثبت عند قاضى القضاة . ثم انهم شرعوا فى تجهيز قاسم فغسلوه وكفنوه ، وأخرجوه قدام الدكة التى بالحوش السلطانى ، فصلوا عليه هناك ، وكان الذى صلى عليه قاضى القضاة الشافعى . وكانوا أطلقوا له نذراء فى القاهرة بأن الصلاة على الشاب الشهيد قاسم بك بن عثمان ، فانه ينزل من القلعة . ثم ان ملك الأمراء خاير بك أشهر المناداة فى القاهرة بأن يصلى على قاسم بك بن عثمـان صلاة الغيبة فى الجوامع ، كل هـذا حتى يتحقق الناس موته عن يقين .

فلما صلوا عليه بالحوش حمل الأمراء نعشـه على أكتافهم ، ثم نزلوا به من سلم المـدرج ، ووضعوا عمامته على نعشه ورفعوا عليه علمـا أبيض ، ثم توجهـوا به الى تربة البجانى فدفنوه فيها على أقاربه . وكانت جنازته مشهودة ، وكثر عليه الأسف والحزن من الناس ، فانه كان شابا جميل الصورة ، حسن المنظر ، له من العمر سبع

عشرة سنة ، وقد قتل ظلما بغير ذنب ، وقد تناحرت عليه العثمانيون بالبكاء

فلما دفنوه ولحدوه قطعوا رأسه بليل ووضعوها فى علبه وتوجه بها جانم الحمزاوى هى والمحضر الى الخنكار بالشام ... هذا ما أشيع واستفاض بين الناس ، والله أعلم بصحة ذلك .

وقد عد مسك قاسم بك وقتله أعظم من مسك الأشرف طومان باى وقتله ، فتعجب الناس من عوة سعد سليم شاه بن عثمان من مبدئه الى منتهاه ، وهذا أمر من الله تعالى ليس فى قدرة بشر . وكانت الناس تظن أن قاسم بك هذا سيلى مملكة الروم بعد عمه سليم شاه ، فخابت فيه الظنون وعاجله ريب المنون ، وكان ذلك مما سبقت به الأقدار ، والحكم لله الواحد القهار

وفى يوم الأحد تاسع عشره أنفقوا الجامكية على المماليك الجراكسة فى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، فأنفقوا لكل مملوك ألفى درهم ، وهى جامكية شهر واحد ، فأنفقوا عليهم يوم الأحد ويوم الاثنين .

وفى ذلك اليوم نادى ملك الأمراء خاير بك فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يخبى فى بيته عثمانيا ولا انكشاريا من عسكر ابن عثمان ، وكل من خبأ عنده أحدا وغمز عليه شنق على باب داره من غير معاودة . وسبب ذلك أن الخنكار بن عثمان لما أرسل يطلب جماعة من الانكشارية ومن الاصباهية اختفى منهم جماعة وجماعة تفرقوا فى الشرقية والغربية وتوجهوا اليها هاربين فى البلاد ، وأظهروا العصيان ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الاثنين سابع عشريه أشهروا المناداة فى القاهرة حسبما رسم ملك الأمراء بأن جميع الانكشارية والاصباهية يحرجون يوم الاثنين صحبة القصاد ، وكل من تأخر منهم شنق من غير معاودة ، فشق من القاهرة جماعة من الأمراء العثمانية وقدامهم مشاعلى ينادى بالتركى وآخر ينادى بالعربى وذلك بعد الظهر . فلما بلغ العثمانية ذلك اضطربت أحوالهم وخرج غالبهم الى نحو الشرقية ، وقد التفت عليهم المماليك الجراكسة ، وصاروا يرمون بينهم وبين الأمراء العثمانية الذين بمصر الفتن حتى يقع بينهم الشر ويظهروا العصيان على ابن عثمان .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشرى المحرم ، دخل الحاج الى القاهرة ودخل المحمل الشريف ، والقاضى علاءالدين ناظر الخاص أمير ركب المحمل ، وقاضى قضاة المالكية محيى الدين بن الدميرى ، وبقية الحجاج ، وأخبروا أنهم قاسوا فى هذه الحجة مشقة زائدة وشدائد عظيمة من الغلاء وموت الجمال ، وفساد العربان فى الطريق ، وكثرة الأمطار والسيول ، وقلة العليق . ومشى غالب الحجاج على أقدامهم فى الرجعة ، وقد أثنوا على ناظر الخاص فيما فعله بالحجاج فى الطريق من البر والصدقات وفعل الخير ، وكان اذا رأى أحدا من الحجاج منقطعا يركبه على جماله وينعم عليه بالماء والبقسماط فى الطلعة والرجعة . فرجع الحجاج وهم عنه راضون فيما فعله بهم ، وقد رفق بهم فى مشى الركب بسبب المنقطعين من الحجاج ، وقد أثنوا عليه خيرا .

وفى يوم الأربعاء تاسع عشريه ، دخل الى القاهرة الأمير قانصوه العادلى كاشف جهات الشرقيه ، وكان أشيع عنه العصيان من حين عين للسفر ، فأتى لتبطل عنه الاشاعات . فلما طلع يوم الخميس الى القلعة خلع عليه ملك الأمراء خاير بك قفطانا مخملا مذهبا ، ونزل يعمل برقه .

وقد مضى هذا الشهر وعسكر ابن عثمان فى خلف بينهم بسبب السفر الى الشام ، واستمرت الانكشارية فى أمر العصيان عن السفر ، وصاروا يكبسون عليهم بيوتهم وحاراتهم ، ويقبضون على نسائهم اللاتى تزوجن بهن من مصر ، وحصل لهن الضرر الشامل بسبب ذلك .

* * *

وفى صفر الخير ، وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، فهنئوا ملك الأمراء خاير بك بالشهر ورجعوا الى دورهم .

وفى هذا اليوم خرج جماعة من الانكشارية والاصباهية من الطائعين منهم دون العاصين الذين هربوا كما تقدم ، فخرجوا صحبة القصاد الذين جاءوا لطلبهم من الشام حسبما رسم الخنكار سليم شاه بن عثمان . قيل انه أرسل بطلب ألف انسان من الاصباهية ، ومن الانكشارية أربعمائة انسان .

وفى يوم الاثنين رابع صفر ، خرج بقية العسكر العثمانى الذى تعين للسفر ، وخرج الأمراء المعينون للسفر ، وهم : الأمير أرزمك الناشف أحدالمقدمين ، والأمير قانصوه العادلى كاشف الشرقية ، والأمير تمرباى العادلى ، والأمير خشقدم الأشرفى الذى كان شاد الشون أيام السلطان الغورى . ولم يشعر بخروجهم أحد من الناس ، ولم يطلبوا طلبا على جارى العادة ، فلما خرجوا توجهوا الى الريدانية ونزلوا بها الى أن يرحلوا منها .

وفى هذه الأيام تزايد القال والقيل بين الناس بوقوع فتنة كبيرة .

وفى يوم الثلاثاء خامس صفر خلع ملك الأمراء خاير بك على شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر وقرره فى مشيخة جهات الشرقية عوضا عن ابنه عبد الدائم ، وقد أظهر عبد الدائم العصيان ونهب منية غمر وأحرقها وغيرها من بلاد الشرقية ووقع الاضطراب بها ، وطفشت العربان فى البلاد بالفساد والنهب ، وحصل منهم الضرر الشامل . وصار عبد الدائم رأس كل فتنة فى كل دولة ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم السبت تاسعه قويت الاشاعات بعصيان عبد الدائم ، وأنه قد التف عليه عربان كثيرة من الشرقيـة والغربية ، وطردوا آباه من الشرقيـة . واضطربت أحوال الشرقية الى الغاية

وأشيع فى البلاد أن مصر ما بقى فيها أحد من عساكر ابن عثمان . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم لخير الدين بك نائب القلعة وجماعة من الأمراء العثمانية بأن يشـفوا من القاهرة ومعهم الانكشارية الذين تأخروا بمصر . فنزل من القلعة وقدامه من الانكشارية نحو ثلثمـائة انسان وهم مشاة وبأيديهم مكاحل ، وشق من الصليبة وتوجه من بين الصورين وطلع من جهة سوق مرجوش ، وشق من القاهرة فرجت له فى ذلك اليوم ، ثم عاد الى القلعة .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك آخذ فى أسباب تحصين القلعة ، وسد منهـا عدة أبواب ، وأبقى منها الأبواب الكبار على حكمها ، وقصد أن يسد بعض أبواب من القـاهرة ، وأظهر الخوف والفزع ، ودخلت رأسه الجراب من عبد الدايم بن بقر وكثرة العربان التى اجتمعت معه . وكثر القيل والقال فى ذلك والروايات مختلفة .

وفيه أشيع أن الريس سلمان العثمانى الذى كان فى البرج بالقلعة وضعه خاير بك فى الحديد وأرسله الى ابن عثمان بالشام ، وكثرت الحوادث فى هذه الايام جدا .

وفى يوم الاثنين حادى عشره أشـيع أن ملك

الأمراء خاير بك عين الأمير قايتباي الدوادار بأن يخرج الى عبد الدائم بن بقر وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة ومن العثمانية . وعرض في ذلك اليوم طائفة من العثمانية يقال لهم كلمبا ، فعرضهم في بيت سنان باشا العثماني ، وعين منهم جماعة يخرجون الى التجريدة صحبة الأمير قايتباي الدوادار بسبب عبد الدايم كما تقدم .

وفي أثناء هذا الشهر أشيع أن الخنكار سليم شاه ابن عثمان خرج من دمشق وقصد التوجه الى حلب ، وما يعلم سبب ذلك . وكثرت الأقاويل في خروجه من الشام الى حلب .

وفي يوم الأربعاء عشرى صفر عرض الأمير قايتباي الدوادار المماليك الجراكسة في بيته الذي بين القصرين ، وعين جماعة منهم يخرجون الى الشرقية بسبب عصيان شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وقد قويت الاشاعات بعصيانه ، وقد التفت عليه جماعة كثيرة من العربان ، وفسدت أحوال الشرقية قاطبة من قطع الطريق على القصاد ، ونهب البلاد ، ووقع الاضطراب جدا هناك حتى كادت أن تخرب بلاد الشرقية ، ولما عرض الأمير قايتباي الجراكسة وجد غالبهم مشاة على أقدامهم بغير خيول ولا سلاح ، فبطل أمر العرض والتجريدة .

وفي يوم السبت ثالث عشريه خرج شيخ العرب بيبرس بن بقر أخو عبد الدائم وصحبته الشيخ أبو الحسن بن الشيخ أبي العباس الغمري يسعون بين عبد الدائم وبين أبيه الأمير أحمد وبين اخوته بالصلح . وأشيع أن ملك الأمراء خاير بك أرسل صحبتهما خلعة الى عبد الدائم لعله يقع الصلح على أيديهما ، وكذا جرى .

***

وفي يوم السبت مستهل شهر ربيع الأول حضر جانم الحمزاوي دوادار ملك الأمراء خاير بك ، وقد تقدم القول على أنه كان توجه الى الشام عند السلطان سليم شاه ابن عثمان ببشارة قتل قاسم بك بن عثمان ، فلما أخبر سليم شاه بذلك سر الى الغاية . وأشيع أنه أنعم على جانم الحمزاوي بنيابة ثغر الاسكندرية ، ثم رسم له بالعود الى القاهرة ، وأرسل على يده خلعة الى ملك الأمراء خاير بك في استمراره بنيابة السلطنة بمصر على عادته ، وأرسل خلعة الى الأمير قايتباي الدوادار ، وقيل الى كمشبغا والى القاهرة لكونه قبض على قاسم بك ابن عثمان . فلما وصل القاصد صحبة جانم الحمزاوي الى الريدانية بات في تربة العادلي .

وفي هذا اليوم نزل ملك الأمراء خاير بك من القلعة وصحبته الأمير قايتباي الدوادار والأمراء العثمانية الذين بمصر ، وطائفة من الانكشارية والاصباهية وغير ذلك من الطوائف الذين تركهم ابن عثمان بمصر ، وصحبتهم جماعة كثيرة من الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين ظهروا بمصر كما تقدم . وخرج الجم الكثير من العساكر العثمانية وفيهم من يرمي بالنفوط . فتوجه الى تربة العادلي وجلس على المسطبة التي هناك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك لبس القفطان المخمل المذهب الذي أرسله له السلطان سليم شاه ابن عثمان ، فأشيع ذلك اليوم أن ابن عثمان جعله مستمرا على نيابته بمصر على عادته ، وأن يجعل السكة والخطبة باسمه ، فلم تصح هذه الاشاعات فيما بعد .

ثم ان ملك الأمراء ركب من هناك ودخل من باب النصر وشق من القاهرة في موكب حافل وقدامه قضاة القضاة . وموجب ذلك أن هذا اليوم كان مستهل الشهر ، فتوجهت اليه القضاة هناك ليهنوه بالشهر . فلما رجع الى القاهرة رجعوا صحبته وركبوا قدامه الى أن طلع الى القلعة ،

وركب قدامه أيضاً أعيان المباشرين ، ولاقته النصارى بالشموع فى أيديهم من باب النصر . فلما وصل الى بين القصرين ومر على بيت الأمير قايتباى الدوادار نثرت على رأسه كبشة جيدة من الفضة ، فتخاطفتها الناس .

فلما شق من القاهرة زينت له زينة خفيفة فى بعض أماكن ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من بعض الناس ، وأشهروا النداء قدامه بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد من الرعية ، وأن كل من ظلم أو قهر عليه بباب ملك الأمراء خاير بك ، والدعاء بالنصر لمولانا السلطان سليم شاه ابن عثمان . فضج الناس له بالدعاء قاطبة . واستمرت الانكشارية يرمون قدامه بالنفوط وهم مشاة حتى طلع الى القلعة وكانوا نحو أربعمائة انسان .

وكان أشيع أن ملك الأمراء خاير بك يستقل بمملكة مصر ، ويجعل السكة والخطبة باسمه حسبما رسم الخنكار ابن عثمان ، فلم تصح هذه الاشاعة ، وخمدت كأنها لم تكن ، واستمر نائبا على حكمه وكانت هذه الاشاعة من الكلام المختلق من جملة كذب الناس ، وصار غالب أهل مصر فى هذه الأيام يختلقون الكلام الكذب ، ويشيعونه بين الناس بما يختارونه ، ثم يبطلونه وينقضونه ويأتون بكلام غيره . والكل ليس له صحة وهو من جملة المختلق . وقال القائل فى المعنى :

أبناء مصر مقالهم عجب
تواتر الصدق منه مرفوض
مقالهم لا يزال مختلقا
وكله ناقض ومنقوض

ولما حضر جانم الحمزاوى أشيع بين الناس أن السلطان سليم شاه لما أقام بالشام رسم لقاضى القضاة الشافعى محب الدين ابن قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور بأن يتقلد بمذهب الامام أبى حنيفة ويترك مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه . وأشيع أنه لا يحكم بالشام غير قاضى قضاة الحنفية لا غير ، كما هى عادة بلاد الروم . وأبطل من الشام المذاهب الثلاثة فتفاءل الناس له بسرعة الزوال عن قريب بسبب ذلك ، وأشيع أنه أبطل الوكلاء والرسل من أبواب القضاة ونوابهم . فلما بلغ ملك الأمراء خاير بك ذلك رسم لقضاة القضاة بمصر أن يخفوا من نوابهم ، فرسم لقاضى القضاة الشافعى بخمسة من النواب ، وقاضى القضاة الحنفى بأربعة من النواب ، وقاضى القضاة المالكى بثلاثة من النواب ، وقاضى القضاة الحنبلى باثنين من النواب ، من غير زيادة على ذلك . ثم ان ملك الأمراء خاير بك رسم لنواب القضاة أن يبطلوا الوكلاء والرسل من المدرسة الصالحية ، وأن نواب القضاة لا يحكمون الا فى بيوتهم من غير رسل ولا وكلاء ، فلم يتم هذا الأمر ولم يسمع له شىء .

ومما وقع فى هذه الأيام من الحوادث الشنيعة ، أن شخصا من أمراء ابن عثمان صار يجلس على دكة بباب الصالحية يسمونه المحضر ، وحوله جماعة من الانكشارية ، فكان لا يقضى أمر من الأحكام الشرعية حتى يعرض عليه فكان يقف بين يديه الشاكى والمشتكى ويخاطبونه بترجمان بينهما عن أمر الشكاية ، فكان يقرر على كل محكمة فى كل أشرفى ستة دراهم نقرة ، يأخذها لنفسه من الشاكى والمشتكى ، يسمون ذلك مصلحات . وكان اذا أمر بشىء لا تعارضه القضاة . وكان يزعم أنه مستوفى على القضاة فى الأمور الشرعية . وكان يضرب من يستحق الضرب ، ويسجن من يستحق السجن ، ولا يراجع القضاة

فى ذلك ، فكان يتصل له فى كل يوم من ذلك القدر المعلوم مال له صـورة ، يأخـذه من الشـاكى والمشتكى .

ثم انهم أحدثوا مظلمة أخرى ، وهى أنهـم قرروا انصافا على كل دكان من الشهود ومجالس القضاة الذين بمصر والقاهرة قاطبة كل شهر ستة ، ويزعمون أنهـم يوردون ذلك القـدر لبيت مال المسلمين ، ويجهزونه الى السلطان ابن عثمـان . وقد ضعفت شوكة الشرع فى هذه الأيام جدا ، وقد قال القائل فى المعنى :

يارب زاد الظلـم واستحوذوا
والفعـل منهم ليس يخفى علىك
ومالنـا الاك فانظـر لنـا
ونجنـا منهم وخـذهم اليـك

ولما حضر الأمير جانم الحمزاوى دوادار ملك الأمراء خاير بك أخبر بأن السلطان سليم شاه لما دخل الى الشام استقر بالأمير جان بردى الغزالى نائب الشام . وجعل له التحدث من غزة الى الشام وأعمالها ، يولى من يختار ويعزل من يختـار . وأشيع أن عسكر ابن عثمان لما دخلوا الى الشام طردوا النـاس عن بيوتهم وسـكنوا فيهـا كما فعلوا بمصر ، وخربوا غيطانها وزروعها ، وقطعوا أشجارها ، وأكلوا جميع فواكهها .

وفى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول أشـيع بين الناس بالمراسيم التى حضرت من عند الخنكار سليم شـاه على يد الأمـير جانم الحمـزاوى ، فكان مضمونها أنه أرسل يقول لملك الأمراء خاير بك « اصرف لأولاد الناس جوامكهم على العـادة ، وكذلك المماليك الجراكسة ، وكل من له جامكية يصرفها له ، ويجرى الناس على عوائدهم من كبير وصغير » . فشكر له الناس ذلك ودعوا له .

فلما بلغ أولاد الناس ذلك طلعوا الى القلعـة ونزلوا أسماءهم عند القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، حتى كل من كان له جامكية أشرفى أو مائتا درهم . وأرسل يقول له احتفظ بالرعية .

وفى يوم الاثنين عاشره طلع المماليك الجراكسة الى الميـدان الذى تحت القلعـة ، وحضر كاتب المماليك شرف الدين الصغير ، وأنفق على المماليك جامكية شهر واحد ، وبقى لهم شهران مكسوران . ولم يحضر ملك الأمراء تفرقة الجامكية بالميدان ، بل حضر شرف الدين الصـغير وجماعة من كتاب المماليك . وشرع شرف الدين كاتب المماليك يقول للمماليك : يا أغوات كل من أخذ الجامكية يعمل برقه للسفر . ويقول له : اذا طلبت منـك هؤلاء المماليك للسفر فأحضر بهم . فنزلوا من القلعة على ذلك .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول كانت ليلة المولد النبوى ، فصنع له ملك الأمراء مولدا لم يشعر به أحد من الناس . فقيل أحضر عنـده عشر جـوخ للمقريين فضجوا من ذلك ، وقالوا نحن كان يدخل علينا فى مولد السلطان لكل واحد منا مائة شقة ، فكيف نأخذ فى مولد ملك الأمراء جوخة بأشرفيين ؟ فرسم لكل منهم بجوخة بأربع أشرفيات لا غير .

ثم بعد العصر مد سماطا فى المقعد الثانى الذى بالحوش ليس بكبير أمر ، تخاطفته العثمانية فى لمح البصر وبات غالب الفقهاء بلا عشاء ، وأين الحسام من المنجل بالنسبة لما كان يعمل فى مولد السلاطين الماضية من الأسمطة الحـافلة ، والشقق الحرير التى كانت تدخل على المقريين والوعاظ ، ولا سيما ما كان يعمل فى مولد السلطان قانصوه الغورى ، فكان يصرف على مولده فوق الأربعة آلاف من

الدنانير ، ويحضر عنده في تلك الخيمة المعظمة التى لم يسمح الزمان بمثلها أبدا القضاة الأربعة ، ومن الأمراء المقدمين أربعة وعشرون أميرا مقدم ألف ، غير بقية الأمراء والعسكر وهم بالشاش والقماش ، فأين هذا النظام من ذلك النظام العظيم . فما أسفى على تلك الأيام ، كأنها منامات أحلام ! وقد قال القائل في المعنى :

يا دهر بع رتب المعالى مسرعا
بيع الهوان ربحت أم لم تربح
قدم وأخر من أردت من الورى
مات الذى قد كنت منهم تستحى

وفي يوم السبت خامس عشر ربيع الأول خلع ملك الأمراء خاير بك على الزينى بركات بن موسى المحتسب واستقر به أمير ركب المحمل الشريف ، وكانت هذه الوظيفة لا يستقر بها الا أمير مقدم . ولعمرى أن هذه الوظيفة قد هانت حتى سامها كل مفلس ، فخلع عليه قفطانا مخملا مذهبا ، ونزل من القلعة في موكب حافل وقدامه أعيان المباشرين والأمراء العثمانية ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، والمماليك الجراكسة ، فرجت له القاهرة في ذلك اليوم ، وزينت له الدكاكين بالشموع ، وعلقت له الأحمال بالقناديل ، ولاقته مشايخ العربان من بنى هلال ، وكاشف الشرقية ، ومشى قدامه جماعة من الانكشارية نحو مائتى انسان يرمون بالنفوط ، ومشى قدامه جماعة من القواسة نحو ثلثمائة انسان ، ومشى قدامه السقاءون يرشون الماء بطول الطريق ، ومشى قدامه الضوية بالمشاعل وعلها الفوط الزركش ، ومشى قدامه جميع الرسل قاطبة وبأيديهم العصى ، ولاقاه الشعراء والشبابية السلطانية مثل مواكب السلاطين ، ولاقاه المغانى من النساء بالطارات ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وساق قدامه البرجاس عربان بنى حرام ، وكان ذلك اليوم من الأيام المشهودة قل أن يقع لأحد من الأمراء مثل ذلك ، فلهج الناس بهذا الموكب ، وقالوا لعل هذا نهاية سعد الزينى بركات بن موسى . ولم يقع مثل هذا الموكب للملك المظفر سليم شاه ابن عثمان لما دخل الى القاهرة حين ملكها . فلما نزل الزينى بركات بن موسى الى داره ، أنعم على الانكشارية بثلثمائة دينار ، فحصل لكل واحد منهم أشرفى ، وأنعم على القواسة والسقائين أيضا بمبلغ جيد . وقد قلت في هذا الموكب أبياتا :

ان ابن موسى لم تزل حركاته
تأتى بسعد خارق بين الورى
عاينته في موكب حفل فلا
سمعت به أذن ولا عين ترى
في يوم سبت شرفوه بخلعه
فاق الملوك وصار يزهو منظرا
لما استقر أمير محمل سرنا
واستبشرت لقدومه أم القرى
وتفاءل الحجاج أن بكعبة
يلقوا الرخا والأمن ممن بشرا
يا ربنا فأطل بقاه بنعمة
تحمد بها الركبان عاقبة السرى

وفي يوم الأحد ثالث عشريه أنفق ملك الأمراء على جماعة من الأمراء الجراكسه : فأعطى لكل أمير طبلخانات أربعين دينارا ، وأعطى لكل امير عشرة عشر أشرفيات ، وقيل خمسة وعشرين أشرفيا في نظير أقاطيعهم ولحومهم وعليقهم ، وأعطى المماليك الجراكسة لكل واحد منهم ألفى درهم من غير زيادة على ذلك .

وفي يوم الاثنين رابع عشرى ربيع الأول ، وافق

ذلك اليوم دخول أول يوم من الخماسين وهو يوم عيد النصارى وفطرهم . ومن جمله انعام الله تعالى أنه لم يقع فى هذه الخماسين طاعون بمصر ولا غيرها من البلاد .

وفى ذلك اليوم كانت وفاة صاحبنا الناصرى محمد بن منكلى بغا ، وكان موته فجأة . وكان لطيف الذات ، حسن المحاضرة حسن العبارة فى كلامه ، رقيق الطباع ، عشير الناس ... وكان لا بأس به .

وفى هذا الشهر حضر الناصرى محمد المعروف بابن الورد لاعب الشطرنج ، وكان بالشام من حين أرسل خلفه السلطان سليم شاه ، وكان السلطان أرسل له مبلغا له صورة يستعين به . فلما توجه الى الشام وجد الحنكار غير منشرح بسبب الصفوى ، فأقام مده بالشام ثم استأذن السلطان فى عوده الى مصر ، فأذن له بالعود الى مصر ، فأخبر الناصرى محمد بن الورد أن قصاد الصفوى قدموا على ابن عثمان وهو بالشام من مكان غير الطريق السالكه ، فما شعر بهم ابن عثمان الا وهم بين يديه ، فدفعوا اليه مطالعة من عند الصفوى ، وتقدمة حافلة . فلما قرأ تلك المطالعه وجد فيها عبارة لطيفه ، وألفاظا رقيقة تتضمن أمر الصلح بينه وبين الصفوى ، ونعته بنعوت عظيمة فى المطالعة . فلما قرأ المطالعة اضطرب لذلك، وقال هذا كله مخادعه من الصفوى حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ، ثم يطرقنى على حين غفلة ، كما فعلت أنا مع السلطان الغورى . فرحل من الشام على الفور ، وقصد التوجه الى حلب . وقال لوزرائه : أنا أعلم من حيل اسمعيل الصفوى ومخادعته ما لا تعلمونه . فكان كما قال فى المعنى :

توقع كيد من خاصمت يوما
ولا تركن الى ود الأعادى
فان الجرح ينكث كل حين
اذا كان البناء على فساد

ثم أشيع أن ابن عثمان لما دخل الى حلب أخذ فى أسباب تحصين المدينة ، ثم قبض على جماعه من أهل بانقوسه ممن كان مشهورا بالفساد ، فشنق منهم جماعة . ثم أشيع أنه صادر جماعة من أهل حلب ، وأفرد عليهم الأموال الجزيلة ، وحصل لأهل حلب منه ومن عساكره غاية الضرر ، والأمر لله .

* * *

واستهل شهر ربيع الآخر ، وكان أوله يوم الأحد . ففى يوم الخميس خامسه قدم الى الأبواب الشريفة مصلح الدين بك خازندار ابن عثمان ، وكان توجه الى مكه من البحر المالح صحبة الشهابى أحمد بن الجيعان ، فلما نزل ببركة الحاج خرج الأمير قايتباى الدوادار الى ملاقاته ، وكذلك أعيان المباشرين ، فلما طلع الى القلعة وقابل ملك الأمراء خلع عليه ونزل الى منزله فى موكب حافل ، وقدامه الأمراء العثمانيه والجراكسة والجم الكثير من العساكر .

وفى يوم الثلاثاء عاشره وقعت حادثة غريبة ، وهى أن ملك الأمراء خاير بك أشهر النداء فى القاهرة بأن كل من رأى كلبا يقتله ويعلقه على دكانه . فبادر الناس بالقبض على الكلاب ، وصارت التراكمه يمسكون الكلاب من الطرقات ويوسطونها بالسيوف نصفين ، فقتلوا فى ذلك اليوم ما لا يحصى من الكلاب ، حتى قيل انهم قتلوا فى ذلك اليوم فوق الخمسمائة كلب على ما أشيع . وصار العياق يمسكون الكلاب من الحارات والأزقه ويقتلونها شر قتلة ، وصاروا يعلقونها على الدكاكين ، ولم يعلم ما سبب ذلك .

ثم أشيع بأن عادة التراكمة فى بلادهم باسطنبول اذا كثرت عندهم الكلاب فى المدينة يقتلون منها جانبا كبيرا فى أيام الخماسين ، يزعمون أن بذلك يخف الطاعون من المدينة ، فصارت عندهم عادة ، ثم استمر السيف يعمل فى الكلاب يوما وليلة حتى

هجت الكلاب مما دهاها الى الترب والصحراء . وقد قلت فى المعنى :

تأملوا ما جـــرى بمصر
من حادث عم بالعـــذاب
فســا رعى الترك فى دماء
فكيف يرعــوا دم الكلاب !

فلما تزايد الأمر فى قتل الكلاب ، طلع الزينى بركات بن موسى المحتسب الى ملك الأمراء خاير بك وشفع فى الكلاب من القتل ، وقال لملك الأمراء لا تتعرض لقتل الكلاب لأن أزبك أمير كبير تعرض لقتل الكلاب التى كانت بالأزبكية ، فلم يعش بعد ذلك غير سنة واحـــده ومات ، فرجع ملك الامراء عن قتل الكلاب ، ونادى فى القاهرة بأن يرفعوا القتل عن الكلاب ، وكل من قبض على كلب يطلقه الى حال سبيله . فدعا النـــاس للزينى بركات بن موسى الذى شفع فى الكلاب من القتل ، ثم سكن الاضـــطراب الذى كان بالقـــاهرة بسبب قتـــل الكلاب .

وفى هذه الأيام أشيع أن ملك الأمراء أخـــذ فى أسباب تحصين القلعة وسد منها أبوابا ، وحصن الأبراج التى بها وركب عليها المكاحل ، وشرع فى عمل عجلات وعمل مكاحل ومدافع ، وعمل نشاب ولم يعلم ما سبب ذلك .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أحضر مصحفا شريفا وأحضر الأمراء العثمانية الذين بمصر وحلفهـــم بأنهم لا يخونونه ، ولا يغـــدرونه ، وأن يكونوا هم واياه على كلمة واحدة . ثم انه حلف الأمير قايتبـــاى الدوادار بمعنى ذلك ، فأقام الامراء فى القلعة على ذلك الى بعـــد الظهر وهم فى ضرب مشورة بينهم .

ومن الوقائع الغريبة أنه فى يوم الثلاثاء سادس عشره وقعت نادرة ، وهى أن شخصا ظهر بالنحارية وزعم أنه السلطان قانصوه الغورى ، وصار يفسد عقول الفلاحين ، ويقول لهم أنا السلطان الغورى ، وصار يكتب كتبا ويرسلها الى مشـــايخ العربان ، وهى مخلقة بالزعفران ، فصدق غالب الناس بأن السلطان الغورى قد ظهر وهو فى قيـــد الحياة ، فامتلأت القاهرة بهذه الاشاعة . فلما قويت أخبار هذا الرجل ارسل ملك الأمراء بالقبض عليه من النحاريه فقبضوا عليه ، واحضروه بين يدى ملك الأمراء . فلما مثل بين يديه عرفه، وكان نصب عليه قبل ذلك وهو شاب وادعى انه قانصوه خمسمائة الذى تسلطن ، وأفسد عقول الناس أيضا بحلب . فضربه ملك الامراء فى حلب بالمقارع وقطع انفه ثم أتى الى مصر وأشاع أنه الأمير محمد بك قريب السلطان الغورى الذى قتل فى غزاة الفريج . وقد نصب بسبب ذلك واحد من الكشاف ومشـــايخ العربان جملة تقادم . وقد قرب الى عقولهم أنه الامير محمـــد بك قريب السلطان ، فقبض عليـــه السلطان الغورى وضربه وسجنه بالمقشرة ، فأقام بها مدة . وقيل كان أصله من القواســـة ببعض جهات دمشق . فلما سافر السلطان الغورى الى حلب واســـتقر الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبه أطلقه من المقشرة مع جملة من أطلقه ، فلما ادعى أنه السلطان الغورى وقبض عليه ملك الأمراء خاير بك وقال له : « أنا ما قطعت أنفك فى حلب وقلت لى انى تبت عن الكذب على الملوك » . ثم انه رسم بتكليبه على باب الشعريه ، فنزلوا به من القلعة وربطوا رجله فى ذنب أكديش ، وصـــار يسحبه على وجهه الى باب الشعريه ، والمشاعليه تنادى عليه : هذا جزاء من يكذب على الملوك . فرجت له القـــاهرة فى ذلك اليـــوم ، وكان يوما مشهودا فى الفرجة عليه ، والناس تقول قد مسكوا السلطان الغورى . فلما وصل الى باب الشعرية كلبوه على الباب بين البرجين ، فاستمر مكلبا ثلاثة

أيام لم يمت . فلما بلغ ملك الأمراء أنه لم يمت الى الآن ، رسم بأن ينزلوه ويوسطوه ، فأنزلوه ووسطوه عند باب الشعريه فى مفرق الطرق ، بعد أن قاسى أنواع العذاب ، ودفنوه ومضى أمره وكفى الناس شره .

وفيه كانت كائنة الشيخ أبرك الرومى ، وقد تعين خاطر ملك الأمراء عليه فوضعه فى الحديد ، وقيل ضربه بالمقارع ، وأشيع أنه قصد شنقه فشفع فيه بعض الفقراء ولم يعلم ما ذنبه حتى تغير خاطر خاير بك عليه . وقد اختلفت الأقوال فى أمره ، وكان عنده تحشر زائد فى الاكابر ، وآخر الامر وقع فى هذه الكائنة المهولة

وفى يوم الأربعاء سابع عشره نزل ملك الأمراء من القلعة ، وعدى الى الروضة وأقام بالمقياس ، وكان صحبته الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من العثمانية ، وأضافهم ضيافة حافلة . ومد لهم اسمطة وطوارى . وسبب ذلك أن ملك الامراء خاير بك كان بينه وبين الأمير قايتباى وحشة ، وقد صار بعض الوسائط يرمى بينهما الفتن ثم ان ملك الأمراء خاير بك حلف الامير قايتباى الدوادار على مصحف شريف بان يكون هو واياه على كلمة واحدة ، ولا يخون بعضهم بعضا . وقد تقدم القول على ذلك ، فلما تحالفا زال ما كان بينهما من الوحشة .

وكان نقل الى ملك الأمراء أن الأمير قايتباى الدوادار متفق مع المماليك الجراكسة على زواله وكانت هذه فتنة من الأعداء . ثم أشيع بين الناس أن الشيخ ابرك كان يسعى بينهما بالفتن وينقل الكلام الباطل . فصنع ملك الأمراء تلك الوليمة فى المقياس . وعزم على الأمير قايتباى وجماعة من الأمراء العثمانية ، وأقام ملك الأمراء بالمقياس الى آخر النهار ، فأرسل اليه الزينى بركات بن موسى هناك مدة حافلة على رءوس الحمالين ، وصار كل واحد من المباشرين يهدى اليه شيئا من المأكول الفاخر ، وكان يوما سلطانيا ، ثم عاد ملك الأمراء الى القلعة بعد العصر من يومه .

وفيه حضر شخص من حلب بهلوان ونصب فى بركة الفرع التى بالحسينيه صوارى وحبالا . وكان يوم الجمعة ، فاجتمع الجم الكثير من الخلائق . فلما صعد على الحبال اظهر اشياء غريبة فى صنعة البهلوانية وهو واقف على الحبال ، منها أنه نصب له أدماج وسيه ورمى بالنشاب فى السيه وهو واقف على الحبال ، ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعيناه مربوطه بخرقة ، ومنها أنه مشى على الحبل وفى رجله قبقاب وتحته ألواح صابون ، ورمى فى الادماج وهو واقف على سيوف مسلولة ، ومنها أنه مشى على الحبال مقلوبا وهو مغمى العينين ، وأظهر من هذه الألعاب العجائب والغرائب...وكان لمصر لمدة طويلة من أيام الأشرف برسباى لم يدخلها مثل هذا فى صنعة البهلوانية . وكان هذا البهلوان يدعى يوسف ، وقيل انه من أبناء حلب ، وقيل انه نشأ باللاذقية . وكان شابا جميل الصوره وله عبيد علمهم صنعة البهلوانيه يمشون على الحبال أيضا ويظهرون الفنون الغريبة مثله .

وفيه حضر الزينى طيلان رأس نوبة ، وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين بك والشهابى أحمد بن الجيعان ، وكان أشيع عنه أنه توجه الى اسطنبول مع جملة من توجه هناك ، فلم يصح ذلك ، وانما كان توجه الى مكة وحضر من البحر المالح أيضا .

وفيه توفى العلائى على بن طوغان الذى كان دوادار الأشرف قانصوه خمسمائة ، وكان من أعيان أولاد الناس ، وكان رئيسا حشما لين الجانب سيوسا فى أفعاله ، وقاسى فى آخر عمره شدائد ومحنا بسبب قانصوه خمسمائة .

وفيه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه ، فلما حضر أشيع بين الناس أن السلطان مقيم بحلب ، وأن شاه اسماعيل الصفوى متحرك على ابن عثمان ، وهو فى جمع كبير من العساكر ، وأن ابن عثمان أخذ حذره منه . وأشيع بين الناس أن نائب الشام جان بردى الغزالى تحايل على ناصر الدين ابن الحنش شيخ الأعراب والبقاع وغير ذلك من جهات دمشق . فلما تحايل عليه ونصب حيلته عليه قتله وقتل شخصا آخر من مشايخ العربان يقال له ابن الحرفوش . وكان ناصر الدين بن الحنش كثير العصيان على نواب حلب ، بل وعلى سلاطين مصر أيضا . وكان لما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من المقابلة به ، فتحايل عليه جان بردى الغزالى حتى أخذه بغتة وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش ، وأرسل رأسيهما الى ابن عثمان وهو بحلب ، فعد ذلك من جملة سعد بن عثمان ، ولولا تحيل الغزالى على قتل ابن الحنش بحيلة صعدت من يده لما قدر على قتله ابن عثمان أبدا ، وقد عجز عن ذلك سلاطين مصر .

وفيه أشيع أن الخنكار سليم شاه لما توجه الى حلب ارسل سيدى محمد ابن السلطان الغورى الى اسطنبول من هناك ، وأرسل صحبته آخرين من امرائه يتحفظون به الى أن يدخل الى اسطنبول

وأشيع أن الخنكار لما دخل الى حلب أقام بها مدة وحصن سورها وأبراجها وابوابها ، وعمر فيها ما يحتاج اليه من العمارة ، وقتل من أهل حارة بانقوسه جماعة من شرار أهلها ، وقيل وزع على جماعة من أعيان حلب مالا له صورة ، وعمل فيهم البطيط ، فلما بلغه أن شاه اسمعيل الصفوى يقصد أن يزحف على البلاد الحلبيه أخذ يتلافى خواطر أهل حلب ، ورفع عنهم ما أحدثه عليهم من المظالم . وقد تقدم القول أن ابن عثمان لما كان مقيما بدمشق طرقته قصاد الصفوى على حين غفلة من طريق غير الطريق السالكة ، وهى أسربة قليلة السالك ، وهى طريق يقال لها الحلويه بالقرب من تدمر ، فما شعر ابن عثمان الا وهم بين يديه ، فقال لهم : « لم لا أتيتم من الطرق السالكه » فقالوا له ، ان شاه اسمعيل الصفوى أرسل اليك عدة قصاد ، ونوابك الذين فى البلاد يقتلونهم ، فقال لنا: توجهوا من هذه الطريق ، ثم قدموا اليه مطالعة الصفوى ، فأشيع أن مضمونها أنه أرسل يترفق له فى المطالعه ، ونعته فيها بنعوت سنيه بانك ملكت البلاد والعباد ، وملكت مصر وصرت خادم الحرمين الشريفين ، وأنت الآن اسكندر عصرك ، والماضى بيننا لا يعاد ، فتتوجه أنت الى بلادك ، وأتوجه أنا الى بلادى ، ونصون دماء المسلمين بيننا ، ومهما كان قصدك فعلته لك. فلما وقف السلطان على مطالعة الصفوى قال لوزرائه . « ان هذه الهديه التى ارسلها الينا ، وهذا الكلام الذى فى المطالعة كله حيل وخداع ، حتى يبطل عزمى عن ملاقاته ويطرقنى على حين غفلة ، كما فعلته قصاده » . فقيل انه أخذ الهدية التى أرسلها ، وقتل القصاد وما أبقى منهم سوى كبيرهم فكان كما قيل فى أمثال الصادح والباغم :

وان من يستنصح الأعادى يردونه بالغش والفساد

ثم ان ابن عثمان لما وردت اليه قصاد الصفوى وهو بالشام رحل عنها ، وتوجه الى حلب ، وأخذ فى أسباب تحصينها كما تقدم .

* * *

وفى جمادى الأولى ، وكان مستهل الشهر يوم الثلاثاء طلع القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى منازلهم .

وفى يوم الأربعاء ثانيه توفيت زوجة الأمير قايتباى الدوادار ، وهى سرية الملك الأشرف طومان باى ، التى تدعى نال باى ، فلما ماتت دفنت فى حوش مدرسه السلطان الغورى .

وفى يوم الخميس ثالثه قدم القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ، وكان توجه الى مكة المشرفة من البحر المالح صحبة مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، فسبقه مصلح الدين وتأخر بعده مدة ثم حضر . فلما حضر طلع الى القلعه وقابل ملك الامراء فخلع عليه قفطانا احمر مخملا مذهبا ، ونزل من القلعه فى موكب حفل وقدامه علاء الدين الامام كاتب السر ، وأعيان المباشرين من ارباب الوظائف ، وركب قدامه نقيب الجيش الشرفى يونس وجماعة من الأمراء العثمانية ، ومن الأمراء الچراكسة . فزينت له حارة البندقانيين وأوقدوا له بها الشموع على الدكاكين ، وتخلقت جماعته بالزعفران ... وكان ذلك اليوم مشهودا فى القصف والفرجة .

وفيه رسم ملك الأمراء بالافراج عما بأيدى أولاد الناس والنساء من المربعات التى كانوا أوقفوها من أول السنة ولم يمضها المباشرون ، فحصل لأولاد الناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، وعمل المباشرون بجملة مال له صورة ، وأمضوا للناس الافراج عن رزقهم واقطاعاتهم ونفعوا الناس غاية النفع ، ولم يشعر ملك الأمراء بشىء من ذلك .

وفيه وقعت حادثة شنيعة ... وهى أن شخصا من العوام كان أصله مؤذنا ، فدخل فى بعض الغيطان وقطع عيدان خيار شنبر ووضعها فى قفه ، فقبض عليه الخولى وحصل بينهما تشاجر ، فأغلظ عليه الخولى وأتى به الى بيت الوالى وقص عليه أمره ، فطلع به الوالى الى ملك الأمراء وعرضه عليه وهو حامل القفة التى فيها الخيار الشنبر . فلما علم ملك الأمراء بذلك ، وكان ملك الأمراء حرج على بيع خيار الشنبر ، وصار يشتريه على ذمته ويتجر فيه . ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بشنق ذلك الرجل الذى سرق خيار الشنبر ، فأشهره فى القاهرة ، وعلق القفة التى فيها الخيار الشنبر فى رقبته ، وشق به من القاهرة حتى أتى به الى القنطرة التى بزقاق الكحل فشنقه هناك ، وأقام ثلاثة أيام وهو مصلوب لم يدفن ، وراح الرجل ظلما على بعض عيدان خيار شنبر ما تساوى أربعة أنصاف ، فتأسف الناس عليه كيف راح ظلما على شىء ما يستحق هذا كله . وكان له أولاد وزوجة .

وكان ملك الأمراء يبيت يسكر طول الليل ، ويصبح فى خبال السكر يحكم بين الناس بما يقول له عقله ، ولم يظهر العدل فى محاكماته قط منذ ولى على مصر .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره ، فى تلك الليلة خسف القمر ، وأقام فى الخسوف ثمانيا وأربعين درجة .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على الأمراء الطبلخانات ، وعلى الأمراء العشروات ، وعلى المماليك الجراكسة ، فأعطى الأمراء الطبلخانات كل واحد أربعين دينارا ، وأعطى الأمراء العشراوات كل واحد منهم خمسة وعشرين دينارا ، كما أنفق عليهم فى الشهر الماضى . وأنفق على المماليك كل واحد منهم ألفى درهم على العادة . وأنفق على أولاد الناس ممن نزل اسمه فى الديوان ، فأنفق على العسكر جامكية شهرين كانت منكسرة لهم فى الديوان من غير لحوم ولا عليق .

وفى يوم السبت تاسع عشره توفيت والدة الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكانت لها جنازة حافلة .

وفى يوم الأحد عشريه وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء خاير بك كان عين جماعة من الانكشارية والاصباهية أن يسافروا الى الخنكار بحلب صحبة مصلح الدين . فلما قصد مصلح الدين السفر هربت الانكشارية والاصباهية فى تلك الليلة ، وكسروا أبواب القلعة ونزلوا منها على

حمية ، وتوجهوا الى مصر العتيقة ، فنزلوا فى المراكب الكبار ، ثم أخذوا جماعة من النواتية وسافروا فى المراكب ، وقصدوا أن يتوجهوا الى جهة الصعيد .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل يقول للأمير قايتباى الدوادار : اخرج فى هذه الساعة وسافر خلف الانكشارية ، وكل من ظفرت به منهم اقتله . فصلى الأمير قايتباى صلاة الصبح وركب وخرج على حمية ، وصحبته الامير جانم الحمزاوى ، والامير على العثمانى ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسه ، وجماعة من العساكر العثمانية ، فعدوا الى بر الجيزة وأقاموا فيه ذلك اليوم حتى تكامل خروج العسكر ، وخرجوا أفواجا افواجا ، فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم وكثر القال والقيل فى ذلك اليوم بين الناس بسبب ذلك ، واضطربت أحوال العثمانية فى بعضهم ، وصاروا فرقتين : فرقة مع ملك الأمراء ، وفرقة منهم عليه

ثم ان الأمير قايتباى رحل من الجيزة هو والعسكر وتوجه الى نحو الميمون بالقرب من جزيرة بنى على ، فتلاقوا هناك مع الانكشارية والاصباهية الذين هربوا هناك .

ثم ان الزينى بركات بن موسى المحتسب رسم له ملك الأمراء خاير بك بأن يتوجه الى مصر العتيقة ويمسك مراكب ، ويرسل فيها زواده للأمراء والعسكر الذين توجهوا الى الميمون . فأوسق عدة مراكب فيها زوادة ما بين بقسماط وجبن حالوم وزر وسمن وعسل وغير ذلك من الزواده ، وأرسل ذلك الى العسكر .

ثم فى يوم الأربعاء ثالث عشريه وردت الأخبار بأن الأمير قايتباى الدوادار قد انتصر على الانكشاريه والاصباهيه الذين هربوا ، فلما تلاقوا معه عند جزيرة بنى على تصدى الى قتالهم الأمير جانم الحمزاوى والأمير على العثمانى ، فحاصر الانكشاريه فى المراكب ، ورموا عليهم بالمدافع والبندق الرصاص ، فأحرقوا مراكبهم ، فطلبوا الأمان من الأمير على ، والامير جانم الحمزاوى وقد وقع غالبهم فى البحر فغرق من غرق ، وقبضوا على الباقى وأسروهم ، فحزوا رءوس جماعه منهم ، وكانوا نحو ستة وثلاثين رأسا ، وأسروا الباقين بالحياة ثم ان الأمير قايتباى ارسل تلك الرءوس والأسارى الى ملك الأمراء فى مراكب ، فلما طلعوا بها علقوها على مدارى كما فعلوا برءوس الجراكسه ، والمجازاه من جنس العمل ، فلما طلعوا بهم الى القلعة قصد ملك الامراء أن يعلق تلك الرءوس على ابواب المدينه فشق ذلك على بقية العثمانيه ، ومنعوا ملك الأمراء من ذلك . وأما بقية الانكشارية الذين أسروا بالحياة فقطعوا رءوسهم اجمعين ، فقيل كانت عدة الانكشاريه الذين قتلوا والذين هربوا والذين غرقوا نحو مائة وخمسين انسانا .

ومن العجائب أن التراكمه كانت فى العام الماضى تقتل أولاد الجراكسة ، فعما قريب صارت المماليك الجراكسة تقتل التراكمة فى الليل والنهار ، وهذا عجيب ! وقد ورد فى بعض الأخبار « لا تكرهوا الفتن فان فيها حصاد المنافقين » ، وقد قيل فى المعنى :
لاتكرهو الحرب ان فيه حصاد نذل مع الخبيث
فمستريح ومستراح منه كما جاء فى الحديث

وفيه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان ، الذى قدم من مكة ، فتوجه الى الريدانية ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان . وقد أشيع أن ابن عثمان كان قد أرسل خلفه ، فلما أقام بالريدانية نزل اليه ملك الأمراء وودعه ، ثم رجع ودخل من باب النصر وشق من القاهره فى موكب حافل ،

وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة . ثم ان مصلح الدين أقام بالريدانية أياما ثم عاد الى القاهرة ، فأشيع أن سبب ذلك أن قاصد صاحب اليمن قد وصل الى الطور ، وصحبته تقدمه حافلة الى السلطان سليم شاه بن عثمان ، فلما بلغ ذلك ملك الأمراء أرسل استرد مصلح الدين الى القاهرة حتى يدخل الى القاهرة قاصد صاحب اليمن ، ويأخذه صحبته مع التقدمة ويمضى الى الخنكار ، فهذا كان سبب رجوع مصلح الدين الى القاهرة .

وفيه رسم ملك الأمراء للقضاة بأن يتوجهوا الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ويقرءوا هناك ، ويدعوا الله تعالى بالنصر للسلطان سليم شاه على اسماعيل الصفوى فتوجه قضاة القضاة الى مقام الامام الشافعى رضى الله عنه ، وقرءوا هناك ختمة ، وفرقوا أجزاء الربعة على الحاضرين ، فقرءوا أجزاء الربعة عشر مرار ، وأهدوا ثواب ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم الى السلطان سليم شاه ودعوا له بالنصر على الصفوى .

وفى يوم السبت سادس عشريه حضر الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير جانم الحمزاوى والأمير على بك العثمانى ، وكانوا توجهوا الى الميمون بسبب محاربة الانكشارية الذين هربوا ، كما تقدم . فلما انتصروا عليهم وقتلوهم رجعوا وطلعوا الى القلعة ، فخلع عليهم ملك الأمراء ونزلوا الى منازلهم

وفيه حضر الى القاهرة الأمير أرزمك الناشف أحد الأمراء المقدمين ، وكان لما ظهر ارسل الخنكار طلبه وهو بحلب ، فتوجه اليه هو والأمير قانصوه العادلى ، والأمير تمر باى العادلى ، وأقام عنده مدة ، ثم رسم له بالعودة الى القاهرة ، وكان أشيع بين الناس أن ابن عثمان قرره فى الأتابكية بمصر . فلما حضر لم يظهر لهذه الاشاعة نتيجة ، واستمر بطالا مقيما بمنزله . ولما حضر حضر بصحبته الأمير شاد بك نائب المهمندار ، والأمير جانم الطويل أحد الأمراء العشراوات ، وكان أشيع موتهما بمرج دابق ، فلما ظهر أنهما فى قيد الحياة حضر الى مصر .

وفى آخر هذا الشهر كثرت الاشاعات بأن عربان السوالم قد حضر منهم ما لا يحصى ، وقد قصدوا حرب ابن بقر ، وأظهروا غاية الفساد بالشرقية .

* * *

وفى جمادى الآخرة كان مستهل الشهر يوم الخميس ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثامنه رسم ملك الأمراء بقراءة سبع ختمات : واحدة فى مقام الامام الشافعى ، وواحدة فى مقام الامام الليث ، وواحدة فى مقام الشيخ عمر بن الفارض ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الحسن الدينورى ، وواحدة فى مقام الشيخ أبى الخير الكليباتى رضى الله عنهم أجمعين ، وواحدة فى المقياس ، وواحدة فى الجامع الأزهر . ورسم بأن يهدوا ثواب ذلك للسلطان سليم شاه ابن عثمان ، فانه خرج الى ملاقاة اسماعيل شاه الصفوى .

فلما قدم رسول صاحب اليمن ، وعلى يده تقدمة حافلة للسلطان سليم شاه بن عثمان ، استمر القاصد مقيما بالقاهرة الى أن سافر صحبة مصلح الدين ، كما سيأتى الكلام على ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشر هذا الشهر طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل وأخذ قاع النيل فجاءت القاعدة ست أذرع وعشر أصابع أنقص من السنة الخالية بذراعين وست أصابع . فانه كانت القاعدة فى السنة الخالية ثمانى أذرع وست عشرة أصبعا .

وفى يوم السبت سابع عشره طرقت ملك الأمراء أخبار رديئة ، بأن عربان السوالم قد طفشت حتى وصلت الى بركة الحاج ، ووصل أوائلهم الى المطرية . فلما بلغ ملك الأمراء ذلك تنكد ، وأرسل الى الأمير قايتباى الدوادار يقول له : « اخرج فى هذه الساعة ، واطرد العربان » . فخرج من يومه هو والمماليك الجراكسة وجماعة من العثمانية ، ورماة من الانكشارية ، فرجت لهم القاهرة فى ذلك اليوم ، فخرجوا وهم سائقون الى بركة الحاج . فقيل حصل بين الترك والعربان عركة يسيرة ، فقتل فيها جماعة من العربان ، وأسروا منهم جماعة ، وقطعوا رءوس أربعة . ثم رجع الأتراك بعد المغرب وقد وقعت خيولهم وبعض منها تفرقع من العطش ، وما رأوا خيرا ... فهربت العربان من وجوههم وصعدوا الى الجبل .

ثم رسم ملك الأمراء بشنق من أسر منهم على باب قنطرة الحاجب ، وعلقوا عليه تلك الرءوس التى قطعوها من العربان ، وقيل قتلوا من الأتراك جماعة ورجعوا من غير طائل من العربان .

وفى يوم الأربعاء حادى عشريه وقعت حادثة شنيعة ، وهى أن شخصا يقال له حسين وكان طشتدار عند الأمير نوروز أحد الأمراء المقدمين ، ثم بقى فى طشتخانات السلطان الغورى ، وهو رجل شيخ مسن زعم أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، وقال له امض الى سليم شاه بن عثمان وقل له يرجع الى بلاده ويكف القتال عن المسلمين بسبب اسماعيل شاه الصفوى . وادعى أن ابن عثمان دفع اليه مالا له صورة فلم يقبله منه . ثم ان ذلك الرجل دهب الى ملك الأمراء خاير بك وقص عليه تلك الرؤية فتهاون خاير بك بكلامه . ثم أن ذلك الرجل قال لملك الأمراء : « ارجع عن مظالم العباد أنت والمباشرون، خربتم مصر بظلمكم» ثم سب المباشرين بحضرة خاير بك سبا قبيحا ، وقال لبركات ابن موسى أنت لو حججت فى هذه السنة ما يقبلك النبى صلى الله عليه وسلم . فلما تزايد فى القول حنق منه ملك الأمراء ، فأمر بضرب عنقه فضرب عنقه فى الميدان . وقيل ان ذلك الرجل تكلم بكلام كثير ، وأظهر أنه كشف له عن أمور تأتى فى أواخر هذه السنة من الأهوال ، فان كان صادقا فيما قاله وادعاه من هذه الأخبار التى ذكرها فسوف تقع ، ويظهر أثره أو صلاحه أو كذبه .

وفيه أشهر ملك الأمراء النداء فى القاهرة بأن لا أحد من الحجاج يسافر فى البحر المالح ، ولا يرسل له أحمال من البحر ، وموجب ذلك فساد العربان فى الطرقات ، وعبث الفرنج فى سواحل البحر المالح .

وفى يوم الخميس ثانى عشريه خرج مصلح الدين خازندار ابن عثمان وتوجه الى نحو الريدانيه ، وقصد السفر الى الخنكار ابن عثمان ، فخرج وقت صلاة الصبح وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ، وأعيان المباشرين ، والأمراء العثمانية . فكان له موكب حافل .

ثم خرج بعده تقدمة حافلة أرسلها ملك الأمراء الى الخنكار هو وولده سليمان بك الذى باسطنبول . فكان ما اشتملت عليه تلك التقدمة من الخيول أربعين فرسا خاصات عليها عبى قلعى ، يصحبها أربعون فرسا من الأكاديش ، واثنان وأربعون جملا محملة قماشا محزومة ، قيل ضمنها تفاصيل سكندرية ، وأبدان منزلاوية ، وقماش فارسكورى ، وغير ذلك من شاشات وأرز ، وغير ذلك من مقاطع خمسينى ، وخام رفيع وغير ذلك ... ومن جملتها أربعة وستون جملا محملة سكرا ضمن صناديق جريد بأغشية لباد أبيض . قيل جملة ذلك أربعمائة قنطار . وقيل أن ملك الأمراء كرر السكر ثانيا وجعل فيه المسك والعنبر الخام .

ومن جملة التقدمة جمال محملة عصفرا وحناء وغير ذلك ، ومن جملة التقدمة أحمال شفادف ضمنها مرطبنات أشربة مربى .

وأشيع أن ملك الأمراء أرسل الى الخنكار ابن عثمان جمالا عليها مال من خراج مصر عن سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ولم يعلم ما قدر ذلك . فلما مضت تقدمة ملك الأمراء طلع فى عقيب ذلك تقدمة صاحب اليمن ، وهى تقدمة حافلة تشتمل على شاشات وأرز وتحف ومعادن ولؤلؤ وفصوص وطواشية وغير ذلك . فلما مضت تقدمة صاحب اليمن ، طلعت تقدمة الأمير على بن عمر صاحب جهات الصعيد ، وهى تقدمة حافلة منها مائتا قنطار سكر ، ورقيق ما بين عبيد وجوارى وخيل وجمال ، وغير ذلك أشياء حافلة تصلح للملوك .

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه رحل مصلح الدين من الريدانية ، وتوجه الى الخانقاه . وأشيع أنه لما كان مصلح الدين بالريدانية سرق من تحت رأسه بقجة قماش قيل ان فيها مبلغا له صورة .

وفى يوم الجمعة المذكور طرقتملك الأمراء أخبار رديئة ، بأن حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة أظهر العصيان وخرج عن الطاعة ، والتفت عليه عربان قبائل البحيرة وغيرها . فلما تحقق ملك الأمراء صحة هذا الخبر نزل الى الميدان قبل صلاة الجمعة وعرض المماليك الجراكسة ، والعسكر العثمانى . فكتب من الفريقين نحو خمسمائة انسان ما بين انكشارية ورماة ، وعين صحبتهم عشر عجلات تكون قدام العسكر ، وعين الأمير قايتباى الدوادار باش المماليك الجراكسة ، وعين أمير آخور باش العثمانية .

وفى هذه الأيام اضطربت أحوال ملك الأمراء جدا ، وقد بلغه أن العربان طردوا اسمعيل بن الجويلى عن أرض البساط وملكوها منه ، واضطربت أحوال الغربية الى الغاية ، واضطربت أيضا أحوال الشرقية بسبب عربان ال... والم وعبد الدائم بن بقر واخوته ، واضطربت أيضا أحوال جهات الصعيد ، وقد ضاعت مصالح المسلمين بينهم . وخرب من الشرقية والغربية عدة بلاد ، وظهر الفساد والفتن برا وبحرا . والأمر لله تعالى .

وفى يوم السبت رابع عشريه أرسل شكر أخو حسن بن مرعى شخصا من أقاربه يطلب الأمان له من ملك الأمراء ، فأرسل اليه ملك الأمراء منديل الأمان وصورة حلف على يد القاضى فخر الدين ابن عوض ، وأرسل اليه قفطان حرير مخملا . وخلع على شخص من أقارب حسن بن مرعى الذى جاء يطلب الأمان من ملك الأمراء .

وفى يوم الأحد خامس عشريه خرجت التجريدة التى كانت تعينت الى حسن بن مرعى ، وكان باش العسكر أمير آخور أخا ملك الأمراء وصحبته جماعة من العثمانية ما بين انكشارية ورماة بالبندق الرصاص ، وخرج صحبة العسكر تلك العجلات التى عينت لهم ، وكانت عدتها عشر عجلات ، وخرجت طائفة من المماليك الجراكسة وتوجهوا الى البحيرة وصحبتهم الأمان والخلعة الى شكر بن مرعى .

وفى هذا الشهر وردت الأخبار من مكة بأن عدة مراكب فيها افرنج يعبثون فى البحر المالح ويقطعون الطريق على المسافرين فى البحر . وأرسل السيد الشريف مطالعة الى ملك الأمراء بأن يرسل له تجريدة بسرعه ، وقد خشى على بندر جدة أن تطرقه الفرنج على حين غفلة ، ويملكوه من المسلمين .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشريه نزل ملك الأمراء الى الميدان الذى تحت القلعة ، وعرض العسكر ،

وعين منهم جماعة يسافرون الى جدة بسبب حفظ البندر . فلما عرض العسكر كتب منهم جماعة ما بين جراكسة وأولاد ناس ومغاربة وغير ذلك . وكان مجموع ما كتبه من العسكر فى ذلك اليوم نحو مائتين وخمسين انسانا ، وأنفق فى ذلك اليوم على طائفة المغاربة على حكم ما كان ينفق عليهم السلطان الغورى . فنزلوا من القلعة ، وشرعوا فى أسباب عمل برقهم الى السفر ، وأما بقية العسكر فلم ينفق عليهم شيئا . وقد صبر حتى يرد عليه من مكة خبر آخر فى أمر الفرنج يعتمد عليه .

❊ ❊ ❊

وفى شهر رجب وكان مستهله يوم الجمعة طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين رابعه حضر جان بك دوادار الأمير قايتباى ، والأمير بخشباى قرا الذى كان شاد الشون ، والقاضى عبد الفتاح وآخرون من المباشرين . وكان هؤلاء توجهوا نحو الشرقية بسبب أنهم مسحوا جهات الشرقية ، وميزوا الشراقى من الرى ، ومسحوا الأقاطيع والرزق ، وعملوا بالباع والذراع فى الشرقية ، وجاروا على المقطعين فى المساحة . ثم انتقلوا من الرزق والأقاطيع الى جهات الأوقاف فمسحوها ، وصاروا ينزلون الى البلاد ويفردون عليها المال ، ويضعون الفلاحين فى الحديد بعد الضرب المؤلم ، ويقررون على كل بلد ما يختارونه من الأموال . فجبوا من الشرقية فى هذه الحركة فوق المائة ألف دينار ، وخرب فى هذه الحركة غالب بلاد الشرقية ، ورحل منها الفلاحون . وكان هذا أكبر أسباب الفساد فى حق الناس ، فعمت هذه الحادثة أصحاب الرزق والأوقاف من الرجال والنساء حتى الأرامل والأيتام والمستحقين ، وقد تعطلت الأوقاف بسبب ذلك . وكان هذا كله بواسطة ملك الأمراء خاير بك فانه كان سببا لذلك ، فعد هذا من جملة مساويه فى حق أهل مصر ، وحصل فى هذه الحركة غاية النفع للمباشرين الذين تكلموا فى أمر هذه المساحة بالشرقية . والأمر لله وحده .

وفى يوم الاثنين حادى عشره أشهر ملك الأمراء خاير بك المناداة فى القاهرة بأن المماليك الجراكسة لا يلبسون زنوطا ، ولا يمشون بقبباقيب فى الأسواق ، ولا يجلسون على المساطب فى الحارات ، ولا على أبواب الجوامع ، وكان ملك الأمراء سامح لهم أولا فى ذلك ، ثم ضيق عليهم ومنعهم من هذه الأفعال فيما بعد .

وفى يوم السبت سادس عشره رسم ملك الأمراء بشنق شخص عجمى فشنق ، وكان هذا الشخص تاجرا فى سعة من المال ، فلما حضر من بلاد الشرق ومعه متجر بمال له صورة طمع ملك الأمراء فى ماله وزعم أنه جاسوس من عند شاه اسمعيل الصفوى حضر ليكشف عن مصر وأحوالها ، ويطالع الصفوى بذلك . فشنقه ظلما ، واحتاط على جميع أمواله ، وجعل له ذنبا أنه جاء من عند الصفوى جاسوسا

وفى يوم الأربعاء عشريه حضر شيخ العرب شكر أخو حسن بن مرعى شيخ جهات البحيرة صحبة القاضى فخر الدين بن عوض ، وقد تقدم القول بأن ملك الأمراء كان أرسل له منديل الأمان على يد ابن عوض ، فأطاع وحضر الى القلعة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه قفطان حرير ونزل من القلعة وتوجه ليحضر أخاه حسن بن مرعى ، فتوجه الى نحو قليوب وصحبته القاضى بركات المحتسب ليحضر حسن بن مرعى ، وأرسل له ملك الأمراء منديل الأمان على يد القاضى بركات المحتسب .

ثم فى أثناء ذلك اليوم حضر حسن ابن مرعى ودخل القاهرة وعلى رأسه منديل الأمان ، وصحبته جماعة من العثمانية ، وأمير آخور أخو ملك الأمراء ، والزينى بركات المحتسب ، وفخر الدين

ابن عوض ، وجماعة كثيرة من العربان . فشق من القاهرة ومنديل الأمان على رأسه . فلما طلع الى ملك الأمراء بالقلعة وقابله خلع عليه قفطانا محملا مذهبا ، ونزل من القلعه فى موكب حافل .

وكان أشيع أن ملك الأمراء سيقبض عليه ، فانه وقع فى ذنب عظيم . وسبب ذلك أنه كان مسجونا بالقلعه من حين قبض عليه الخنكار وسجنه بها ، فتسحب من هنالك ليلا وهرب ، واستمر فى عصيان وهجاج مدة طويلة ، وكثر القيل والقال بسببه ، والتف عليه جماعة كثيرة من عربان الغربية . فلما طلع وقابل ملك الأمراء وخلع عليه بطلت تلك الاشاعات التى كانت تشاع بين الناس بسبب عصيانه .

وفى يوم الاثنين خامس عشرى شهر رجب ، كانت وفاة صاحبنا الشيخ بدر الدين محمد بن محمد الزيتونى العوفى رحمة الله عليه ، وكان أحد نواب الساده الشافعية ، وكان فاضلا عارفا بصنعة القضاء والتوقيع ، ماهرا فى الخطب . وكان فكه المحاضرة كثير العشرة للناس . وكان علامة فى فن الزجل . وكان ينظم الشعر على فنون ، وهى الشعر ، والدوبيت ، والمواليا ، والموشحات . وكان له شعر جيد ، ونظم أرجوزة مفيدة فى الفقه وشرحها شرحا على الأوضاع مفيدا فى معناه . ومن شعره الرقيق قوله ملغزا فى اسم حمزة :

يا سائلى عن اسم من خدوده كالعندم
فى خده وثغره وفى فؤادى المغرم

وكان مولده سنة احدى وثلاثين وثمانمائة ، وذلك فى شهر شعبان فى سادسه . فكانت مدة حياته أربعا وتسعين سنة الا يوما . فلما مات حضر القضاة الأربعه وصلوا عليه ، وكانت له جنازة حافلة ، ودفن بحوش تربة الصوفيه ، رحمه الله تعالى .

ولما توفى الشيخ بدر الدين الزيتونى رثاه ولده القاضى بدر الدين محمد بهده القطعة الزجل اللطيفة وهى قوله :

يحق لى أن أرثى لموت والدى
كان أفصح النظام وعقلو رجيح
فى درج الأكفان للقياما اندرج
واجب على فقدو بعزمى أصيح
كان والدى فى فن الأزجال تقصدوا
حفاظ مصر والكل بيه يعتنون
وفى جميع العلوم مالو نظير
فقيه مدرس فى جميع الفنون
يدرى الأصول والنحو معرب خطيب
ومنطقى فى الصرف عاقل مصون
جا الموت خدو وأصبحت بين الورى
فريد وجميع الناس بحزنى تنيح
وينـدبوا هـى عليه بالفراق
وما جرى من جفن عينى القريح
قوموا بنا جمع الموالى والصحاب
نرثى الدى قد كان وكان فى الدهور
زين الوجود مالو وجود فى الورى
عارف بفن الشعر والكل زور
أصحابنا زيدوا النواح والنحيب
على أديب يدرى أصول البحور
مثلو ما حد يحسن زجل فى الأنام
ولا موشح لو ودوبيت صحيح
والفرق ظاهر مثل صبح الدجى
ما بين قاضى الكل والزمر ريح
كان فى الأدب ناظم وناثر فصيح
وقد حوى جملة محاسن ملاح
ان قلت فى التحرير حريرى النظام
بل سيدو لما تعد الفصاح

أو عنتر العبسى نهار المجال
آو نشر حاتم طى عند السماح
وما لشماخ رقتوا فى البديع
وقس ما ينقاس بنطقو الفصيح
وسائر الحفاظ تراهم لديه
ما يقتدوا الا بقولو الصحيح
يا من روى الأخبار كان والدى
مختص بالآداب وكان لى مفيد
مفتاح لباب الرزق للضيق فرج
وجهو سرور كعبو مبارك سعيد
مختار لفعل الخير بشير الفرح
مرشد ومحسن كل ما فيه مليح
ياقونيا الخط وبجوهراتى
فرقو صباح ظاهر ووجهو صبيح
كان آخر النظام وبحر العلوم
وروض تربه زاهر بديع الصفات
ونقلدان مع راح وريحان وروح
جمع ضريحو ذى المعانى الشتات
كيف لا أحرك للضريح ساكنى
وأبكى عليه طوال الحيا للممات
ومشتكى حزنى وروضى الترب
والنقل والراح الدى لى يريح
والروح والريحان وما قد عدم
من الوجود موجود بدالك الصريح
بعدو على الدوم قد الفت النواح
والحزن عن يعقوب ورثت النحيب
أصبحت من ما نوح سفينى غريق
والدمع طوفان ما طفا لى لهيب
يارب هب لى صبر أيوب عليه
وارسل اليه رحمه بطه الحبيب
قلبى من أجلو صار بحزنى كليم
والدمع لو فى صحن خدى مسيح
ونا غريق محروق بنار الخليل
وشبه اسماعيل بحزنو ذبيح
قد نظم الجوهر بتآليف كتاب
حاوى علوم الفقه سهل البيان
وقد شرح لو شرح واضح مفيد
وصار لو بيه تذكار بطول الزمان
وقال دخيرة لى ليوم النشور
آسكنه ربى فى فسيح الجنان
دار النعيم فيها مقيم لم يزل
ما بين آشجار وكوثر بسيح
والحور والولدان وما يشتهيه
من الفواكه مع مقام فسيح
ونا ابن ريسونى عريق النسب
يا رب الارباب يا لطيف يا خبير
اجبر بلطفك كسر قلبى الحزين
يا جابر العظم الرميم الكسير
واعطف على بحنو الورى
وما تعسر فاجعلولى يسير
مدح المجد للخلائق شما
به يهتدى قلبى وبو آستريح
ونا آريد آمدح محمد عسى
يطفى لهيبى واهتدى بالمديح
صلوا على المختار حبيب الاله
من آرسلو الله للخلائق شفيع
يوم القيامه والخلائق زمر
ياتوا لآدم يقول ما أستطيع
اشفع تشفع فى أمتك يسمع ال
مولى ويغفر كل ذنب قبيح
ويدخلوا الجنة كذا قد ورد
عن النبى مسند حديث صحيح

وفى هـذا الشـهر توقف النيل وسلسـل فى الزيادة ، وصـار يزيد فى كل يوم أصبعا ، وتارة اصبعين وقد مضى من مسرى عشره أيام ولم يصل النيل الى عشر أذرع . فاضطربت احوال الناس فى تلك الأيام ، وتشحطت الغلال . وبلغ سعر البطة الدقيق اثنى عشر نصفا ... فعند ذلك رسم ملك الأمراء بأن ينزل الوالى ويكبس الروضه ، فنزل هو وجماعة من الأمراء العثمانيه وكبس الروضة ، وفك الخيـام التى كانت بهـا ، واشهر المناداة هنـاك بأن لا أحد يتجاهر بالمعـاصى ولا يجمع جمـوعا ولا ينصب خيمه على شاطىء البحـر ، ومن يفعل ذلك يشنق على باب داره من غير معاودة فى ذلك فانكف الناس عن التجـاهر بالمعاصى بالروضه ، فنزل فى ذلك اليوم غالب النـاس من الروضة .

***

وفى شهر شعبان ـــ وكان مستهله يوم الأحد ـــ طلع القضاة الأربعه ، وهنئوا ملك الامراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الاثنـين تاسـع الشـهر كانت وفاة الشيخ الصالح القطب العارف بالله تعالى ، الورع الزاهد الناسك الشيخ محيى الدين عبد القادر ، ابن الشـيخ الصـالح العارف بالله تعالى حسن ، ابن الشيخ الصالح العارف بالله تعالى بدر الدين ، المدعو شرف الدين موسى الدشطوطى ، رحمه الله عليهم أجمعين وكان الشيخ عبد القادر شـافعى المذهب مجذوبا واعيا . وكان مكشوف الرأس ، وكان دائما شعره فى رأسه وعلى جسده جبة خشنة دائما . وكان سواحا لا يتخذ له سكنا ولا زوجة ولا ولدا ولا عيالا وكان يتغـذى بالقراقيش والزعتر دائما . وكان لا يأكل طعام اللحم الا قليلا . وكان مهيبا معظما عند الملوك والسلاطين وأعيان الناس ، وكانت رسالته عندهم لا ترد . وكان فى أواخر عمره حصل له كفاف فى عينيه واستمر على ذلك حتى مات وقد عاش من العمر نحو ثمان وثمانين سنة أو فوق ذلك .

وكان محببا للناس ، وكانت النذور التى تدخل عليـه من عنـد الأكابر ننشىء بها جوامع بخطب ومسـاجد . وله عدة جوامع ومسـاجد فى أماكن شتى . ولما توفى ارتجت له القـاهرة ، ونزل ملك الأمراء والعثمانية والأمير فايتباى الدوادار والقضاة الأربعة وأعيان الناس وأرباب الدولة ، وخرج نعشه من بيت المعلم حسن الصياد المهندس خارج باب الشعريه ، ورفعت له الأعلام على نعشه ، وحضر أطفـال المكاتب وعلى رءوسهم المصاحف ، ومشوا حول نعشه ، واستمر على ذلك حتى وصـل الى مدرسته التى أنشأها تجاه سيدى يحيى البلخى فدفن بها . وكانت جنازته حافلة ، رحمة الله عليه ، وكان بقية السلف من الأولياء .

وفى هذا الشهر قبض ملك الأمراء على يوسف البدرى الوزير ، ورسم عليه وعلى زوجته وعلى عياله وغلمانه وحاشيته ، وقرر على يوسف البدرى مالا له صورة ، وعلى زوجته وجماعته . وتمادى أمره فى المصادرة حتى ذهب ما يملكه جميعا من صامت وناطق ، حتى باع أثاث البيت من قطارميز وزلع ، حتى الحـصر وغير ذلك ... واستمر فى المصادرة نحو شهرين هو وزوجته وهما فى الترسيم وعياله ، وآخر الأمـر أرسـلوه الى اسطنبول . وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفيه نادى ملك الأمراء فى القاهرة للمباشرين والعمال بأنهم لا يستخرجون من بلاد الشرقيـة والغربية عن سنة أربع وعشرين وتسعمائة شيئا الا بمرسوم من عند ملك الأمراء ، فاضطربت أحوال

المسلمين والمباشرين . وكثر بينهم القيل والقال بسبب ذلك .

وفى يوم الجمعة ثالث عشره ، الموافق لسابع عشرى مسرى ، وفى النيل المبارك الست عشرة ذراعا ولم يزد من الذراع السابعة عشره شيئا ، فلم يفتح السد فى ذلك اليوم .

وفى يوم السبت رابع عشره ، وفى النيل المبارك وزاد اصبعا من السابع عشر ففتح السد فى ذلك اليوم . فلما وفى نزل ملك الامراء وتوجه الى المقياس وخلق العمود ، ومد هناك مدة حافلة . وحضر الأمراء العثمانية ، ثم نزل فى الحراقة وصحبته الأمراء العثمانية ، وتوجه الى السد وفتحه ، وكان يوما مشهودا ، واوكب وهو طالع الى القلعة موكبا حافلا . وكان وفاء النيل فى هذه السنة على عير القياس ، لأنه كان نيلا شحيحا ، وسلسل فى الزيادة وتوقف أياما وتشحطت أسعار الغلال جميعها ، ثم وفى بعد ذلك ففرح به كل أحد من الناس ، وكان الأمر كما قاله المعمار :

النيل وافى وزال الهم وانفرجت
عنا الهموم وهان القسح ثم رمى
وراح خزانه للنيل ينظره
فاستكثر الماء فى عينيه ثم عمى

ومن الحوادث فى يوم وفاء النيل أن شخصا من العثمانية غرق فى البحر ، فتنكد ملك الأمراء والعثمانية بسببه .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره حضر قاصد من البحر من عند الخنكار ابن عثمان ، ولم يعلم ما قد جاء فيه ، وما سبب مجيئه . وكثر القيل والقال فى ذلك ، ثم ظهر من بعد ذلك ما جاء بسببه ، وسنذكر ذلك فى موضعه ان شاء الله تعالى .

ولما فتح السد وجرى الماء فى الخلجان ، لم تسكن البيوت فى الجسر ولا التى فى المصطاحى ولا حكر الشامى فشكا أصحاب الأملاك من ذلك الى والى القاهرة ، فنادى للناس فى الجسر بأن يسكنوا وعليهم أمان الله تعالى ، والذى لا يسكن فى بيته ولا يعمره يضرب عليه ملك الأمراء رنكه ويصير ملكه ، فصار يكرر تلك المناداة للناس ثلاثة أيام متوالية . فسكن فى الجسر بعض بيوت ، ودخل بركة الرطلى بعض مراكب البياعين .

وأما الجزيرة الوسطى فانها خربت عن آخرها ولم يبق منها غير الجدر ورسوم البيوت لا غير ، وابتاع أصحاب الأملاك بيوتهم انقاضا . وكان السلطان الغورى سد خليج الزربيه بجسر عند قنطرة موردة الجبس ، فتلاشى أمر الجزيرة الوسطى من يومئذ ، وخلت بيوتها من السكان ، وكانت من أجل متفرجات الديار المصرية . وكان مبتدأ منشئها فى دولة الأشرف اينال سنة اثنتين وستين وثمانمائة ، ولا زالت الناس تنشىء فيها الأملاك الجليلة الى سنة احدى وعشرين وتسعمائة ، فتلاشى أمرها وخربت جملة واحدة لما دخل ابن عثمان الى القاهرة وجرى منه ما جرى ، ونزل فى بر الجيزة على رملة البحر ، فصار عسكره يخرب بيوت الجزيرة ويأخذ سقوفها وأبوابها وطيقانها ، فخربت بالكلية من يومئذ ، وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا . والأصل فى ذلك أنها أسست على غير تقوى ، وكانت بقعة فسق وزنا ، فآل أمرها الى الخراب سريعا .

وفى يوم الاثنين ثالث عشرى هذا الشهر — وافق ذلك اليوم يوم النوروز — والنيل فى ست عشرة ذراعا ، ولم يدخل فى الذراع السابعة عشرة وكان من مبتداه الى منتهاه نيلا شحيحا .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشريه توفى سودون نائب دمياط ، وهو أحد الأمراء العشراوات ، مات بطالا .

* * *

وفى شهر رمضان ، وكان مستهله يوم الاثنين ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالصوم ، ثم عادوا الى دورهم . ولما دخل شهر رمضان كانت الأسعار مشحطة فى سائر البضائع ، وقد تناهى سعر القمح الى آشرفيين كل أردب ، والبطة الدقيق الى أربعة عشر نصفا ، والسكر تناهى سعره الى أربعة وعشرين أشرفيا كل قنطار ، والقطر النبات بخمسة أنصاف كل رطل ، والقطر المكرر بأربعة أنصاف كل رطل ، والعسل النحل بثلاثة أنصاف كل رطل ، والعسل الأسود بنصفين كل رطل ، والسمن بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن المقلى بثلاثة أنصاف كل رطل ، والجبن الحالوم بنصفين كل رطل ، والجبن الأزرار الذى فى مائه بنصف فضة كل رطل . وتشحط اللحم الضانى واللحم البقرى حتى صار لا يوجد الا قليلا . فابتيع اللحم الضأنى بثمانية عشر كل رطل ، والبقرى بثمانية كل رطل ، وابتيعت الحلوى المشبك من القادرى بخمسة أنصاف كل رطل ، والمنفوش بستة كل رطل ، وعمت هذه التشحيطة سائر البضائع وسائر الحبوبات حتى الخضر . وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى كان مشغولا بعمل برق الحجاز ، وقد أهمل أمور الحسبة ، ولم يلتفت اليها ، فجارت السوقة على الناس وهم فى أمر مريب بسبب هذه التشحيطة التى وقعت فى تلك الأيام ، وكادت الناس أن يأكل بعضها بعضا .

وفى يوم السبت ثالث عشره جلس ملك الأمراء فى المقعد الذى بالحوش ، فتكاثرت عليه المماليك الجراكسة فى المقعد فحنق منهم ، فقال للانكشارية الذين حوله : اضربوهم واطردوهم من المقعد . فلما سمعوا منه ذلك ضربوا المماليك الجراكسة بالعصى على وجوههم ضربا فاحشا ، فجاءت ضربه على أكتاف جانى بك دوادار الأمير قايتباى الدوادار فانزعج كتفه . فحصل للمماليك الجراكسة فى ذلك اليوم كسر خاطر ، ونزلوا من القلعة على أنحس وجه .

ثم فى عقيب ذلك اليوم طلع المماليك الجراكسة الى الميدان بسبب تفرقة الأطلاق ، فحضر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك وفرق الأطلاق ، فأعطى لجماعة من المماليك فدان طين ونصف ، وبعض فدانا ، وبعض نصف فدان ، فتضرر المماليك من ذلك ، وقالوا : ايش يكفينا النصف فدان ؟ وشكوا من ذلك فسبهم القاضى شرف الدين سبا قبيحا ، وقال لهم : « ياكلاب يازرابين أنتم بقى لكم باب والا راس حتى تتكلموا ، بيضتم وجوهكم فى اش حتى تستحقوا اطلاقات » ؟ وبهدلهم غاية البهدلة ، فنزلوا من الميدان على أقبح وجه . وقد قلت أبياتا فى هذا المعنى :

لما تكبرت الجراكسة التى
كانت بمصر أذلهم رب الورى
وأذاقهم ذل السؤال وفاقة
أبدى وأدبهم بما لهمو جرى

وفى هذا الشهر وقعت بين ملك الأمراء وبين الأمير قايتباى الدوادار فتنة ، وصار كلما طلع اليه يمقته . وسبب ذلك أن شخصا من عربان السوالم كان عند قايتباى ، فأرسل خاير بك اليه انكشاريا أخذه من عنده ، ووضعه فى الحديد ، فصار بينهما حظ نفس فى الباطن .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول على يد شخص من العثمانية ، وصار يفرق مراسيل على عيال من توجه الى اسطنبول ، فذكروا فى كتبهم

وفاة جماعة كثيرة من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأشيع أن الخنكار لما رحل عن حلب الى بلاد على دولات ، نزل بمرعش وأقام بها مدة ، ثم رحل من هناك وتوجه الى اسطنبول ، وهى القسطنطينية العظمى محل كرسى مملكة ابن عثمان ، فقيل ان أمير المؤمنين محمد المتوكل على الله لما بلغه مجىء الخنكار ، خرج من اسطنبول ولاقاه هو وأولاد عمه ، والعلائى على ابن الملك المؤيد وأولاد الأمراء الذين هناك ، والمباشرون وأولاد الجيعان الذين هناك ، وأولاد الناس من أهل مصر الذين توجهوا الى اسطنبول ... فلما وقعت عين الخليفة على ابن عثمان أراد أن ننزل له عن فرسه ، فحلف عليه الخنكار ومنعه من النزول اليه ، وقيل انه عظمه غاية التعظيم .

وأما بقية أعيان أهل مصر الذين هناك فلم يلتفت اليهم لما خرجوا اليه ولاقوه ، هكذا أشيع بين الناس ، وكانوا يظنون أن الخنكار اذا دخل الى اسطنبول يفرج عنهم ويرسم لهم بالعود الى مصر ، فلم يخاطب منهم أحدا ولم يلتفت اليهم .

وأشيع أنه لما دخل الى اسطنبول دخل فى موكب حافل فأقام نحو ستة أيام ، ورحل عنها وتوجه الى بلد من أعمال مملكته يقال لها أدرنة فأقام بها . وسبب ذلك أنه لما دخل الى اسطنبول وجد بها فناء عظيما ، وقد فتك بها الطاعون فتكا عظيما ، ومات به من عسكره ما لا يحصى . وقيل مات من أهل مصر ممن توجه الى اسطنبول نحو من ثمانين انسانا ، منهم أعيان وغير أعيان ، ولكن لم أقف على حقيقة أسماء من مات هناك من الأعيان . وسيظهر فيما بعد من توفى هناك من الأعيان .

ومن العجائب أن الفلكية وأرباب النجوم حكموا بأن سليم شاه ابن عثمان ما بقى يدخل الى بلده اسطنبول ، فكذبهم الله تعالى فيما قالوه ، ودخلها وأقام بها أياما ، وبطلت أقوالهم الكاذبة ، كما قال فى المعنى :

لا ترقب النجم فى أمر تحاوله
فالله يفعل .. لا حادى ولا حمل

مع السعادة ما للنجم من أثر
فلا يضرك مريخ ولا زحل

وقيل بلغ الخنكار أن شاه اسماعيل الصفوى طرد عسكر ابن عثمان عن البلاد التى كان ملكها ، واستناب بها جماعة من العثمانية ، فطردهم الصفوى عن بلادهم واستخلصها من أيديهم . فلما بلغ ابن عثمان ذلك خرج من اسطنبول مسرعا ، وأقام بأدرنة حتى يرى ما يكون من أمر شاه اسماعيل الصفوى . هكذا أشيع بين الناس والله أعلم بحقيقة ذلك .

وفى يوم الخميس مع ليلة الجمعة تاسع عشر شهر رمضان ، صنع الزينى بركات بن موسى مسايرة حافلة ، وركب معه جماعة من المباشرين ، فشق من القاهرة بعد صلاة العشاء بأربعين درجة ، وقدامه انكشارية وفوانيس ومشاة بفوانيس ومشاعل كثيرة . فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وارتفعت له الأصوات من العوام بالدعاء . وكانت من الليالى المشهورة . وارتجت له القاهرة فى تلك الليلة ، وكان محببا للناس قاطبة .

وفيه وقع من الحوادث أن شخصا من العثمانية كان فى خان الخليلى قد قبض على شخص من العوام زعم أنه سرق من جيبه أربعة أنصاف ، فلما قبض عليه طلع به الى ملك الأمراء ، فلما أوقفه بين يديه قص عليه قصته وما فعله به فى خان الخليلى ، وأنه قبض على يده وهى فى جيبه ، وأخذ من جيبه

وهو ماش أربعة أنصاف . فلما سمع ملك الأمراء ذلك رسم للوالى أن يقطع يده ، فقطع يده وعلقها فى رقبته وأشهره فى القاهرة . فتأسف الناس عليه كيف قطعت يده على أربعة أنصاف ، وقد راحت ظلما !

وقد تقدم القول أن ملك الأمراء شنق رجلا على عيدان خيار شنبر ، وكان ملك الأمراء يصبح وهو مخمور يحكم بين الناس بالعسف والظلم ، مما لا يسوغ الشرع الحكم به ، وكان الغالب عليه الجهل وقلة الدين فى أفعاله كلها

وفى يوم الخميس خامس عشريه ، حضر شيخ العرب عبد الدائم بن بقر ، وكان ملك الأمراء أرسل اليه منديل الأمان ، وخلعه بأن يستقر فى شياخة الشرقية . فلما حضر وقابل ملك الأمراء تقدم اليه والده شيخ العرب الأمير أحمد بن بقر ومسك ابنه عبد الدائم من طوقه بين يدى ملك الأمراء ، ثم التفت الى ملك الأمراء وقال له : يا ملك الأمراء متى أطلقت هذا صار فى ذمتك الى يوم القيامة ، وخرب الشرقية عن آخرها . فتعصب للأمير أحمد خير الدين بك نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء : « اذا كان أبوه يشكو منه فكيف تطلقه أنت ؟ » فساعده على ذلك سنان باشا ، فما وسع ملك الأمراء الا أنه وضعه فى الحديد ، وسلمه الى خير الدين نائب القلعة .

ثم ان ملك الأمراء قبض على جماعة عبد الدائم الذين كانوا حضروا صحبته قاطبة ، وكانوا نحو ثلاثين نفرا من أعيان العربان ، ووضعهم فى الحديد ، وأرسلهم الى السجن ، ثم أحضر قفطان حرير أخضر وخلعه على الأمير بيبرس ابن الأمير أحمد بن بقر ، وقرره فى مشيخة الشرقية عوضا عن عبد الدائم

وقد سر بمسك عبد الدائم كل أحد من الناس ، فانه كان من المفسدين فى الأرض ، ووقع منه أمور شنيعة من حين دخل ابن عثمان الى مصر ، وقطع الطريق على القوافل التى تأتى من الشام ، وقتل التجار وأخذ أموالهم ، وقتل جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة الذين كانوا قد طفشوا فى البلاد ، وأخذ سلاحهم وخيولهم . وقد فعل من هذه الأفعال القبيحة ما لا يحصى ، ووضع يده على خراج بلاد الأوقاف واستخرجها ، وفعل من هذا النمط أشياء كثيرة .

ثم ان ملك الأمراء أرسل ضرب الحوطة على موجود عبد الدائم من صامت وناطق ، حتى على سواقيه وزروعه ومواشيه وثيرانه وأبقاره وغير ذلك ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا

وفى يوم السبت سابع عشرى شهر رمضان نبت النيل المبارك على ست أصابع من سبع عشرة ذراعا ، وهبط سريعا ولم يزد فى بابة غير خمسة أيام ونقص . وكان نيلا شحيحا من مبتداه الى منتهاه .

وفى ذلك اليوم نزل ملك الأمراء وشق من القاهرة ، وقد بلغه أن قاصدا حضر من عند الخنكار ابن عثمان فنزل الى ملاقاته . فلما شق من القاهرة ضجت اليه العوام من قلة الخبز فى الأسواق ، وانطلقت الألسن فى حق ملك الأمراء بالكلام الفج ، وقالوا له انظر فى أحوال المسلمين بنور الله تعالى والا يصير ذلك فى ذمتك . فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم الى الغاية .. وكان صحبته الزينى بركات ابن موسى المحتسب ، فقاسى فى ذلك اليوم من ملك الأمراء ما لا خير فيه . وقال له : « قد غفلت عن الناس حتى صارت غلوة بمصر » .

ثم ان ملك الأمراء لما طلع الى القلعة ، رسم بفتح شونتين وأن تفرق على الطحانين ، ففعل ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سلخ شهر رمضان ، أرسل ملك الأمراء أمير علم الى بيت الأمير قايتباى ، وقال له قد رسم لك ملك الأمراء أن تدق على بابك فى هذه الليلة طبلخانات وكئوسات . فلما سمع ذلك الأمير قايتباى أرسل يقول لملك الأمراء : «أدق الطبلخانات على بابى دائما ، والا فى هذه الليلة فقط» ؟ فلما عاد الجواب الى ملك الأمراء قال : قل له فى هذه الليلة فقط . فلما بلغ الأمير قايتباى ذلك لم يوافق على دق الطبلخانات على بابه فى هذه الليله فقط ، وقال : « أدق الطبلخانات على بابى ليلة واحدة حتى تضحك على الناس ؟ » . وامتنع من ذلك ولم يدق الطبلخانات على بابه فى تلك الليله . وقد بطل أمر دق الطبلخانات على أبواب الأمراء من حين دخل ابن عثمان الى مصر وقد قلت فى ذلك :

لهفى على الكاسات قد دقت على
باب بسعد اميره قد بشرا

* * *

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الأربعاء ، فخرج ملك الامراء وصلى صلاة العيد فى جامع القلعه وخطب به قاضى القضاه كمال الدين الشافعى ، وانفض موكب العيد كأنه لم يكن ، ولم يخلع فيه ملك الأمراء على أحد من أرباب الوظائف ، ولا على قضاة القضاة ، ولا على أحد من المباشرين ولا على الأمير قايتباى الدوادار . وبطل ما كان يعمل فى يوم العيد من تلك المواكب الجليلة والخلع المتمرات ، والتشاريف السنية . وبطلت تلك الطرز اليلبغاوية العراض ، والفوقانيات الحرير الأخضر ، وبطلت أشياء كثيرة كانت من شعار المملكة . ووقع لى فى المرثية التى قلتها فى مصر أبيات فى معنى ذلك وهى :

لهفى على أعياد مصر كيف قد
أفنت تشاريفا بها ومتمرا
وكذا الكنابيش التى قد زخرفت
كانت تشد خيولها عند السرى
وكذا السروج المفرقات بلمعها
كانت كبرق أو كليل أقمرا
زالت محاسن مصر من أشياء قد
كانت بها تزهو على كل القرى

ثم نزل الزينى بركات بن موسى من القلعة فى موكب حافل ، وقدامه الملالية والمشاعل بالفوط الزركش عليها ، والانكشارية بالنفوط قدامه ، والفواسة قدامه مشاة . فشق من القاهرة فى ذلك الموكب .

وفى يوم الخميس ثانى شوال طلع جماعة من أعيان المباشرين الى القلعة على جارى العادة ، فلما تكاملوا أخرج اليهم ملك الأمراء مرسوم الخنكار ابن عثمان الذى أرسله على يد صوباشى من العثمانية ، الذى تقدم ذكر حضوره من البحر المالح . وكان من مضمون ذلك المرسوم أنه أرسل يطلب خمسة من المباشرين يتوجهون الى اسطنبول وهم : العلائى على ناظر الخواص الشريفة ، والشرفى يونس النابلسى ، والقاضى بركات أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب الرجع ، والقاضى فخر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل . وأرسل يطلب الأمير يوسف البدرى الوزير الذى كان كاشف العربية وأرسل يطلب الشرفى يونس نقيب الجيش ... فلما تحققوا ذلك اضطربت أحوالهم ، ورسموا عليهم بالقلعة ، وقالوا لهم اكتبوا وصاياكم ، ويوم الجمعة تسافرون من البحر .

ثم فى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على القاضى شهاب الدين بن الجيعان ، واستقر به فى كتابة السر

عوضا عن علاء الدين ناظر الخاص . وخلع على القاضى شرف الدين بن عوض أخى فخر الدين ، واستقر به فى كتابة الخزانة ومتحدثا فى جهات الشرقية . وخلع على القاضى بركات بن موسى وقرره فى الحسبة على عادته ، وجعله متحدثا على الاستادارية عوضا عن يونس النابلسى ، وأشرك معه الشرفى يونس النابلسى استادار ملك الأمراء ، وخلع على القاضى أبى بكر بن الملكى وقرره على عادته مستوفى ديوان الجيش ، وخلع على يوسف ابن نقيب الجيش واستقر به فى نيابة الجيش عوضا عن أبيه . فخلع على هؤلاء الجماعة فى يوم واحد ونزلوا من القلعة وعليهم القفاطين الحرير .

وفى يوم السبت رابع شوال نزل ملك الأمراء من القلعة وسار نحو بركة الحاج وصحبته الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير سنان باشا وفائق بك ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة من المماليك الجراكسة . ولما وصل الى سبيل علان ساق قدامه الركاب بالخيل الجنائب ، وساقت معهم خيول الأمراء ، فسبق فرس الأمير قايتباى الدوادار فرس سنان باشا .

قيل ان هذه عادة عند العثمانية أنه فى أيام العيد يخرج الخنكار ويسير فى الفضاء ، ويسوقون قدامه بالخيول ، فمن سبق فرسه ينعم عليه الخنكار بمائة دينار ، والذى تقصر فرسه عن السباق ينعم عليه ببطيخة ، وهذا من أنواع المماجنة . فانشرح ملك الأمراء فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه قبض ملك الأمراء على الخواجا شهاب الدين أحمد بن أبى بكر السكندرى ، ووضعه فى الحديد ، وقرر عليه مالا له صورة . وأشيع أن الخنكار أرسل بطلبه الى اسطنبول ، فاضطربت أحواله بسبب ذلك الى الغاية .

وفيه خلع على محيى الدين بن يوسف بن أبى أصبع ، وقرره على عادته استادار الذخيرة الشريفة.

وفى يوم الجمعة عاشره حضر القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك الى الميدان ، وعرض جماعة من أولاد الناس ومن المماليك ، وكتب منهم جماعة بأن يتوجهوا الى عقبة أيلة ، ويقيموا بالأزلم ... فكتب منهم جماعة فى ذلك اليوم نحو ستين انسانا أو فوق ذلك . فحصل لأولاد الناس بسبب ذلك غاية الضرر لأجل قلة العليق ... وكانت القاهرة فى تلك الأيام فى غاية الانشحات من قلة العليق ، وعدم الجمال بسبب خروج الحجاج .

وفى يوم السبت حادى عشره نزل ملك الأمراء وجلس بالميدان ، وعرضت عليه كسوة الكعبة الشريفة ومقام ابراهيم والمحمل ، وشقوا بهم من القاهرة . وكان ذلك اليوم مشهودا .

وفى يوم الأحد ثانى عشره أشيع أن ملك الأمراء أفرج عن القاضى نور الدين على الفيومى الحنفى ، وكان له مدة وهو فى الترسيم بالقلعة ، بسبب مكتوب ثبت عليه ، وكان غير محمود السيرة فى أفعاله ، وجرت له وقائع كثيرة .

وفى يوم الاثنين ثالث عشره أنفق ملك الأمراء على العساكر الذين تعينوا للعقبة والأزلم ، فأعطى لكل واحد منهم جامكية ثلاثة أشهر معجلا ، وهى عبارة عن ستة آلاف درهم . وقيل رتب لكل واحد منهم فى كل يوم رطلين بقسماطا تصرف لهم فى العقبة ، ورسم لهم بأن يجيئوا مع الحجاج اذا حضروا الى القاهرة . وتوجه هذا العسكر الى هناك لأجل حفظ ودائع الحجاج ، وملاقاتهم التى تتوجه لهم من مصر . فان العربان تزايد فسادهم فى حق الحجاج ، وأرسلوا يطلبون لهم نجدة عند عودهم الى مصر .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره رسم ملك الأمراء بشنق عشرة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بقر ، فانهم كانوا من المفسدين ، فشنقوا وعلقوا فى أماكن شتى من القاهرة ، فشيء فى قنطرة الحاجب ، وشيء فى رأس الحسينية ، وشيء فى باب النصر . وقد وسطوا منهم جماعة ، وشنقوا منهم جماعة ، وشيء خوزقوهم .

وفى يوم الجمعة سابع عشر شوال أنزلوا من القلعة جماعة من المباشرين ممن كانوا فى الترسيم . وقد تقدم القول أنهم يتوجهون بهم الى اسطنبول ، فأنزلوهم من القلعة بعد صلاة الصبح : منهم من هو راكب على بغلة ، ومنهم من هو راكب على حمار . فشقوا بهم من الصليبة وتوجهوا بهم الى بولاق ، وحولهم جماعة من الانكشارية مشاة بالسيوف فى أوساطهم . والصوباشى الذى هو متسفر عليهم راكب قدامهم . فكثر عليهم الأسف والحزن والبكاء من الناس ... فكانت عدتهم سبع أنفس ، وهم : القاضى علاء الدين بن الامام ناظر الخاص ، والشرفى يونس النابلسى الاستادار ، والقاضى بركات أخو شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، والقاضى فخر الدين بن عوض ، والقاضى أبو البقاء ناظر الخاص والأسطبل ، والشرفى يونس نقيب الجيش ، والأمير يوسف البدرى وزير الديار المصرية ، وأصله من مماليك الأمير يشبك بن مهدى الدوادار ، كان قدمه للأشرف قايتباى ، ولا زال يترقى حتى رأى من العز والعظمة غاية العلاء ، وجرت عليه بعد ذلك شدائد ومحن ، وآخر الأمر نفى الى اسطنبول .

فلما وصل هؤلاء الى بولاق نزلوا بقصر ناظر الخاص الذى هناك حتى تنتهى أشغالهم ، فحصل لنساء القاضى أبى البقاء والقاضى أبى البركات كاتب الرجع على أزواجهن غاية الحزن ، فقمن لنعيهم ودققن عليهم بالطارات ، وكذلك زوجة يوسف البدرى وبقية المباشرين . وكانت هذه الحادثة من أشنع الحوادث التى لم يقع قط مثلها فيما مضى من الزمان . فاستمروا بقصر ناظر الخاص ببولاق الى يوم الاثنين عشرى شوال ، فنزلوا وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية .

وكان هؤلاء المباشرون لما صفا لهم الوقت طاشوا وصاروا كأنهم هم الملوك بمصر ، يتصرفون فى أمور المملكة بما يختارونه ليس على يدهم يد واستغرقوا فى اللذات ، وعكفوا على شرب الخمور ، وسماع الزمور ، ولم يتفكروا فى عواقب الأمور ، فاستمروا على ذلك حتى طرقتهم الأخبار الردية ، وأحاطت بهم كل رزية ، فكانوا كما قيل فى المعنى :

من يرتشف صفو الزما
ن يغص يوما بالكدر

ثم فى عقيب ذلك سافر الى اسطنبول الناصرى محمد بن الورد لاعب الشطرنج ، ورفيقه الشهابى أحمد الاسكندرانى . وقيل ان الخنكار سليم شاه أرسل يطلبهما الى اسطنبول على لسان الخواجا يونس العادلى ، وأرسل لهما مبلغا له صورة بسبب كلفة السفر ، وعمل الزوادة .

ويقال ان جماعة من المباشرين الذين توجهوا الى اسطنبول سألوا ملك الأمراء بأن يعطوه مالا له صورة ويعفيهم من السفر الى اسطنبول ، فما قدر على ذلك .

وفى يوم السبت ثامن عشر شوال خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل عظيم ، وكان امير الركب الزينى بركات بن موسى المحتسب ، فخرج بطلب حافل ، فكان ما اشتمل عليه الطلب خمس عشرة نوبة من الهجن ، عليها أكوار ، ما بين مخمل

ملون وجوخ أصفر ، وبعض جنائب بركستوانات فولاذ ، وطبول ومحفتين جوخ لنسائه ، وثلاث خزائن على العادة ، وكاسات على العادة وطبلين وزمرين ، وعلى رأسه صنجق عثمانى حرير أحمر . وركب صحبته جماعة من المباشرين الذين تأخروا بمصر ، وهم : الشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، والقاضى تقى الدين أبو بكر بن الملكى ، والقاضى عبد العظيم الصيرفى ، وآخرون من المباشرين . وكان قدامه انكشارية ورماة وقواسة نحو مائتى انسان ... فلما شق من القاهرة دعا له العوام ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فلهج الناس بأن ذلك سيكون آخر سعده . وخرج فى هذه السنة حجاج كثيرة وغالبهم فلاحون وريافة .

وأشيع أن العربان وقفت لهم فى الطريق ، وأن الغلاء موجود معهم من حين خرجوا من مصر ، وكذلك العليق كان مشحوتا . فلما خرج الحجاج وقف جماعه من أولاد الناس ، والمماليك الذين عينوا الى العقبة الى ملك الأمراء ، وشكوا له من عدم الجمال وأنها لم توجد . فرسم بابطال جماعة منهم نحو ثلاثين انسانا . وكان الذين تعينوا فى الأول نحو ستين انسانا أو فوق ذلك

وأشيع أن أرباب الأدراك من العربان وقفوا الى القاضى بركات بن موسى بسبب عاداتهم من الصرر ، فنفر فيهم ونهرهم وسبهم ، فخرجوا من عنده على غير رضا ، وقيل ان ناظر الخاص لما حج فى السنة الخالية أنعم على العربان وأرباب الأدراك بألف جوخة حتى رجع بالحاج وهو سالم وبيض وجهه عند الناس .

* * *

وفى شهر ذى القعدة وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فلما تكامل المجلس وقع تشاجر بين قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى الدميرى ، وبين قاضى القضاة نور الدين على الطرابلسى الحنفى ، فتفاوضا الكلام فى ذلك حتى خرجا عن الحد بسبب وقف الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير ، فانه شرط فى وقفه النظر والتكلم للأمير تغرى بردى الاستادار ، وانه يدخل من شاء ويخرج من شاء من المستحقين ، ويستمر ذلك حتى يتوفى الأمير تغرى بردى . فسعت ابنة الأمير يشبك عند قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة فى ابطال ما كان شرطه والدها للأمير تغرى بردى ، ويجعل لها النظر على ذلك والتحدث على وقف والدها ، فحكم بنفسه فى ذلك ، وقد ساعدها على ذلك السلطان الغورى . فلما ثبت ذلك على يد القاضى عبد البر وحكم بما فيه ، أبطل ما كان اشترطه الأمير يشبك لتغرى بردى .

فلما توفى قاضى القضاة عبد البر ، وتوفيت ابنة يشبك ، سعى جماعة من معاتيق يشبك الدوادار لتغرى بردى ، فحكم بصحته وتبع فى ذلك شرط الواقف . فلما جرى ذلك عز على بقية القضاة ذلك لكونه نقض حكم قاضى القضاة عبد البر . فحضر فى ذلك اليوم شخص من أولاد عبد البر ، وقال لقاضى القضاة نور الدين الطرابلسى : « أتنقض حكم شيخ الاسلام عبد البر وأنت من بعض طلبته » ؟ وساعده قاضى القضاة على ذلك ، وحط عليه ملك الأمراء خاير بك ، وكان المجلس كله عليه ، فما وسعه فى ذلك المجلس الا أنه قال : « رجعت عن حكمى ، وأبقيت حكم قاضى القضاة عبد البر على ما كان عليه » . فشهدوا عليه فى ذلك المجلس بابطال ما كان حكم به ، فعد ذلك منقصة

فى حق قاضى القضاة نور الدين الطرابلسى ، ولامه الناس على سرعة نقضه لحكمه فى الحال ... فعد ذلك من النوادر الغريبة . وصارت الوحشة عمالة بين قاضى القضاة المالكى والحنفى فى الباطن ، فنزل قاضى القضاة الحنفى من القلعة فى ذلك اليوم وهو فى غاية التعس

وفى عقيب ذلك عزل قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل نوابه أجمعين ، ولم يبق منهم سوى أربع أنفس لا غير ... فاستمروا على ذلك مدة . ثم انه فوض لجماعة من أعيان نوابه ممن اختاره .

وفى مستهل هذا الشهر خلع ملك الأمراء على القاضى عبد العظيم الصيرفى وقرره فى نظر الحسبة عوضا عن الزينى بركات بن موسى الى أن يحضر من الحجاز . فلما ولى القاضى عبد العظيم أمر الحسبة أظهر النتيجة العظمى فى انحطاط سائر أسعار البضائع بعدما كانت تشحطت الأسعار فى تلك الأيام ... وصارت غلوة كبيرة بمصر ، واضطربت أحوال الناس ، وارتفع الخبز من الأسواق ، وغلقت الطواحين ، وارتجت القاهرة بسبب ذلك .

وكان عقيب ذلك خروج الحجاج ، وسافر المحتسب ، فجارت السوقة على الناس فى سائر البضائع . فلما ولى القاضى عبد العظيم صار يطوف القاهرة كل يوم ثلاث مرات ، وشرع يضرب الطحانين والخبازين ضربا مبرحا ، ويشهرهم فى القاهرة ، وصار يوعدهم والزياتين بالشنق والخوزقة ، حتى انحطت أسعار البضائع قليلا ، وسكن ذلك الاضطراب الذى كان بمصر .

ثم رسم للجبانين والسماكين بأن يقلوا بالسيرج الطرى دائما ، وكتب قسائم على المعصرانيين الا يصنعوا الزيت الحلو أبدا . ثم نادى فى القاهرة بتسعير اللحم الضانى والبقرى والجبن وسائر البضائع ، ثم سعر الدقيق وجعل كل بطة بثلاثة عشر نصفا ، وكانت البطة الدقيق وصلت الى ستة عشر نصفا ، فنفع الناس غاية النفع بعد ما صار بمصر غلوة شديدة . فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة . ثم أحضر القزازين والتجار وعمل معدلهم فى بيع الغزل والمقاطع الخام وسائر القماش الأبيض قاطبة . فهابته التجار والسوقة ، ودخل فى الحسبة دخولا مهولا ، وصار له حرمة وافرة وكلمة نافذة .

وفيه توفى الأمير ماماى أمير آخور ثانى كان . وكان من الأمراء الطبلخانات ، وأصله من مماليك الأمير تانى باى أمير آخور كبير . وكان موته فجأة على حين غفلة ، وقيل انه كان صحبة جماعة من العثمانية فوقع بينهما تشاجر ، فضربه ، أحدهم فمات فى ليلته .

وفيه ثارت العثمانية على ملك الأمراء وقالوا له : « زد فى جوامكنا والا أعطنا دستورا نرجع الى بلادنا ، فاننا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا ، وان فى مصر غلاء ، وكل شىء غال ، وهذه الجوامك ما تكفينا » . فوعدهم أنه يرسل يشاور الخنكار ، وأمهلهم الى شهرين . وكان القائم فى هذه الحركة جماعة الأصباهية .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد الصعيد بأنه قد فشا الموت هناك فى الأبقار والأغنام ، فمات منها ما لا يحصى عدده ، ووقع مثل ذلك بالشام ونواحيها ، ووقع مثل ذلك بجهات الشرقية والغربية ... وزيادة على ذلك ان الدودة رعت البرسيم من أرض الجيزة وغيرها من الأراضى التى زرعت بدريا . ووقع فى أواخر هذه السنة تشحيطة عظيمة فى سائر الغلال .

وفى يوم الأربعاء سادسه رسم ملك الأمراء بشنق ستة أنفار من جماعة عبد الدائم بن بقر ، فشنقوا فى عدة أماكن .

وفى يوم السبت تاسعه نودى فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يصنع خيال الظل ، ولا مغانى عرب ، ولا غير ذلك ، ولا يبطىء بزفة عريس الى بعد العشاء ، ولا يمشى فى الأسواق من بعد العشاء ، وأن الأسواق تغلق من بعد المغرب وسبب ذلك أن العثمانية صاروا يشوشون على الناس فى الليل ، ويخطفون العمائم والشدود ، ويخطفون النساء والمردان من الطرقات ليلا ونهارا ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل ، وصارت المماليك العثمانيه تؤدى الناس ، وصارت الطرقات من بعد المغرب مقفرة من قلة السالك بها ، وصار على الوجود خمدة

وفيه قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية بأن الجماعة الذين توجهوا هناك من المباشرين ، لما نزلوا فى المراكب وسافروا فى البحر المالح ، غابوا فيه ثلاثة أيام ، ثم عادوا الى ثغر رشيد . وسبب ذلك أنه فى تلك الأيام ثار ريح عظيم فرد المراكب من حيث جاءت ، فأقاموا فى رشيد أياما حتى طاب الريح ، ثم سافروا وقصدوا التوجه الى اسطنبول

وفيه أرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب يطلب من ملك الأمراء تجريدة تلاقيه من الأزلم عند عود الحجاج ، فان العربان شوشوا على الحجاج وأخذوا منهم جمالا محملة بما عليها من الأحمال ، وحصل منهم غاية الفساد فى حق الحجاج .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك نزل الى الميدان وعرض جماعة من العساكر . وعين تجريدة تلاقى الحجاج من الأزلم ، فكتب الى جماعة من المماليك الجراكسة وجماعة من العسكر وجماعة من أولاد الناس ، واستحثهم فى سرعة الخروج الى الأزلم .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه نزل ملك الأمراء من القلعة بعد صلاة الصبح ، وعدى الى بر الجيزة ، وتوجه الى نحو شبرامنت وقناطر العشرة ، وذلك على سبيل التنزه ، فصنع له الشهابى احمد بن الجيعان هناك مدة حافلة ، وكذلك القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك . وكان صحبته الأمير قايتباى الدوادار ، والأمير أرزمك الناشف ، وسنان باشا ، وفائق بك ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الجراكسة فاستمر هناك الى ما بعد العصر ، وركب وعدى من بر الجيزة ، وطلع الى القلعة . وأشيع أنه كان بين ملك الأمراء وبين الأمير قايتباى الدوادار حظ نفس فى الباطن ، فعزم عليه هناك وزال ما كان بينهما من تلك الوحشة ، وطابت الخواطر منهما .

وفى يوم الجمعة سلخ الشهر خرج الأمير قايتباى الدوادار ، وسافر الى نحو العباسة ، وسبب ذلك أنه تغيب من المماليك الجراكسة من خشداشينه لأجل تفرقة الأضحية ، فانها كانت غالية ومشحوتة ولا توجد .

***

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، وعادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس سادسه خرج العسكر المعين الى الأزلم . وكان باش هذه التجريدة شخص يسمى اياس ، فخرج مع العسكر

وفيه قدمت الأخبار من الصعيد بأن الأمير على ابن عمر ، خرج يغزو صاحب النوبة ، وأن الصعيد حواله مضطربة .

وفى يوم الجمعة سابعه خرج الأمير جانم الحمزاوى دوادار ملك الأمراء وقصد التوجه الى نحو البلاد الشامية ، وسبب ذلك أن ملك الأمراء أرسل على يده تقدمة حافلة الى شخص من أمراء ابن عثمان يقال له برى باشا ، وكان من أعيان أمراء ابن عثمان ، وكان مقيما على البيرة ، وقيل بحلب . فلما خرج الأمير جانم الحمزاوى ووصل الى العكرشا ، وردت عليه الأخبار من هناك بأن الأمير برى باشا الذى خرج بسببه قد توجه الى نحو اسطنبول ، وقد تغلب عليه العسكر الذين كانوا على البيرة من الغلاء وشدة البرد ، فرجع الى اسطنبول الى أن يذهب الشتاء . فلما تحقق الأمير جانم الحمزاوى رجوع الأمير برى باشا الى اسطنبول ، أرسل يشاور ملك الأمراء فى أن يرجع الى مصر أو يسافر الى حلب ، فرسم له ملك الأمراء بالعود الى مصر ، فرجع من العكرشا ، وصحبته التقدمة التى عينت لبرى باشا .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة بسد قناطر الحروبى الثلاث ، فورعوا سد هده القناطر على السكان الدين بيوتهم فوق السور . فحصل للسكان الذين بيوتهم فوق السور غاية الضرر من مصروف العمارة على ذلك . وأشيع سد قناطر السباع أيضا ، وقنطرة الموسكى ، ولم يعلم ما القصد من دلك . فسدوا قناطر الحروبى الثلاث بالحجارة ، فعد ذلك من النوادر الغريبه ، وكثر القيل والقال فى ذلك .

وفى يوم الاثنين عاشره كان عيد النحر ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد أضحية ، لا على الأمراء ولا على العسكر ، وقطع ضحايا الفقهاء والمباشرين ، حتى ضحايا الزوايا والمزارات التى فى القرافة وغيرها ، وقال : « أنا ما أمشى الا على طريقة ابن عثمان فى سائر أفعاله » . وقطع الأضحية التى كانت تفرق فى الأعياد .

وفى أواخر هدا الشهر وقع بين ملك الأمراء وبين الاصباهيه من عسكر ابن عثمان ، وقالوا له اعطنا دستورا لنسافر الى بلادنا فانا اشتقنا الى بلادنا وعيالنا . فقال لهم حتى أرسل أشاور الخنكار . فقالوا نحن ما نصبر حتى تشاور . وأغلظوا على سنان باشا فى القول ، وقالوا له هذا كله شغلك ، فانفق معهم ملك الأمراء أنه بعد مضى الشتاء يأذن لهم بالسفر والعودة الى بلادهم .

* * *

انتهى ما أوردناه من أخبار سنة أربع وعشرين وتسعمائة وخرجت عن الناس على خير ، وكانت سنة كثيرة الحوادث ، منهما خسة النيل ، ووقوع الغلاء فى سائر البضائع والغلال ، واستمرت هذه التشحيطه تتزايد الى اواخر السنة ، ووقع من الحوادث نفى المباشرين الى اسطنبول ، وغير ذلك حوادث كثيرة تقدم ذكرها .

سنة خمس وعشرين وتسعمائة هجرية (١٥١٩ م) :

كان مستهل الشهر يوم الاثنين ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم مستهل الشهر أمطرت السماء مطرا غزيرا ، فتفاءل الناس بأن ذلك العام يكون مباركا خصبا .

وفى يوم الخميس رابع المحرم ، وصلت من ملك الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالى الى ملك الأمراء خاير بك تقدمة ليست بعظيمة أمر ، وهى أربعة أرؤس خيل ، وثمانية شقادف تشتمل على بطارمير ، ضمنها مخلل ، وفى بعض الشقادف

كمثرى وتفاح وسواقه ، وأرسل ملك الأمراء جان بردى الى الامير قايتباى الدوادار فرسا وأربع شقادف ، ومثل ذلك للأمير آرزمك الناشف ، ومثل ذلك الى جماعة من الأمراء العثمانية ، فشكروا له ذلك .

وفى يوم الجمعة خامس المحرم ، حضر مبشر الحجاج وأخبر بالأمن والسلامة لهم ، غير أن معهم العلاء الشديد ، وموت الجمال ، فوصل كراء الجمل الى مائة وعشرين دينارا ، وأن مكة فيها غلاء شديد ، ونزل غالب من بها من المجاورين بسبب الغلاء ، وان العربان جائرة فى الطرقات ، وكانت سنة صعبة شديدة على الحجاج .

وفى يوم الأحد سابع المحرم قدمت الأخبار من قطيا بأن والى قطيا وهو شخص من الأتراك يقال له قان بردى ، وأصله من مماليك الظاهر برقوق ، وقيل من مماليك الغورى قانصوه ، أرسل اليه ملك الأمراء انكشاريين يطالبانه بمال قطيا ، فلم يعطهما شيئا ، فأغلظا عليه فى القول وقالا له نأخذك معنا فى الحديد الى ملك الأمراء ، فبطحهما على الأرض وضربهما بالمقارع حتى أشرفا على الموت وقيل مات أحدهما من الضرب . وقال لهما امضيا الى أستاذ كما وقولا له ايش ما طلع من يدك افعله ، فحضر أحدهما وأخبر ملك الأمراء بذلك ، فلما سافرا من قطيا ، أخذ والى قطيا ماله وغلمانه وتوجه الى جان بردى الغزالى فى غزة بسبب ملاقاة الحاج ، وقيل كان عند والى قطيا جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، فلما توجه الى الغزالى توجهوا معه اليه ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك خلع على شخص من الأتراك وقرره فى ولاية قطيا عوضا عن قان بردى بحكم عيبته كما تقدم .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره ركب عبد العظيم الصيرفى نائب المحتسب ، ونادى فى القاهرة بأن أرباب الدكاكين من السوقة يبيضون دكاكينهم ويزخرفونها بالدهان ، ويبيضون آلات النحاس التى عندهم فى الدكاكين لأجل مجىء القاضى بركات ابن موسى المحتسب من الحجاز .

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء نزل من القلعة وتوجه الى نحو بركة الحبش ، وعزم على وردبش دوادار نائب الشام الذى حضر بالتقدمة ، فصنع له هناك مدة حافلة ، ونصب سيباى له هناك سحابة عظيمة ، وحضر عنده الأمير قايتباى الدوادار ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، وحضر جماعة من الأمراء العثمانية منهم سنان باشا وفائق بك ، وحضر الأمير كمشبغا والى القاهرة ، وجماعة من الجراكسة .

فلما انقضى أمر المدة أحضر ملك الأمراء سفرة الشراب ، فلما دارت عليهم الكاسات وطلع الخمر فى رءوسهم ، طفح ما كان فى قلوبهم من الغدر . فقال فائق بك لكمشبغا الوالى : الجراكسة خائنون . وأجرى ذكر جان بردى الغزالى بما لايليق فقال له كمشبغا الله يعلم من هو الذى خان منا نحن أو أنتم ، وقد كتبتم أمانكم فى أوراق وفرقتوها على الأمراء ووضعوها على رءوسهم ، وطلعوا اليكم بالأمان. فغدرتم بهم وقتلتموهم فمن خان منا نحن أو أنتم . ثم تزايد بينهما الكلام الفج حتى حرجا فى ذلك عن الحد ، فوثب فائق بك على كمشبغا الوالى بخنجر ليقتله فجاءت الضربة فى قفطانه فانخرق ، فوثب كمشبغا على فائق بك ليقتله فحال بينهما الحاضرون .

ثم ركب كمشبغا ، وركب جماعة من المماليك الجراكسة ، وسلوا سيوفهم ، وركب جماعة من العثمانية وسلوا سيوفهم ، وقصدوا الوثوب على بعضهم ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة تذهب فيها

الأرواح ، فتنكد ملك الأمراء لذلك وركب على الفور ، وحال بين الفريقين ، وخمدت هذه الفتنة قليلا ، ورسم للعثمانية أن يمضوا على طريق مصر العتيقة ، ومضى هو والأمراء الجراكسة على طريق القرافة ، واستمر على ذلك حتى طلع الى القلعة من الميدان ، فما رأى نفسه فى القلعة وفى عينه قطرة . وقد اضطربت أحواله وخاف أن هذه الفتنة تتسع . فقيل انه حلف لا يشرب خمرا فى هـذه السنة ، واستمرت النفوس معمرة بالعداوة بين فائق بك وبين كمشبغا الوالى ، وهذه الحادثة أول حوادث سنة خمس وعشرين وتسعمائة .

ثم ان ملك الأمراء بعد وقوع هـذه الحـركة انحجب عن الناس ثلاثة أيام ، لم يظهر لأحد من شدة نكده مما قاساه فى ذلك اليوم .

وفى يوم الاثنـين ثانى عشريه خرجت المدورة الى بركة الحاج بسبب الملاقاة ، فلما أقامت المدورة هناك يوما وليلة أشيع أنها رجعت الى القـاهرة ؛ وسبب ذلك أن الزينى بركات بن موسى أرسـل هجانا الى ملك الأمراء وأخبره أن الحجاج وصلوا الى عيـون القصب ، وأنهم فى غاية ما يكون من الأنكاد بسبب موت الجمال والغلاء وموافقة فتنة العربان مع ذلك ، فتنكد الناس لذلك ، ورجع من كان طلع الى بركة الحاج من الملاقين .

وفى يوم السبت سابع عشريه حضر قاصد من عند السلطان سليم شاه بن عثمان ، وحضر صحبته الناصرى محمد الجلبى ، مهمندار ملك الأمراء ، الذى كان توجـه صحبة التقدمة المتقدم ذكرها ، وهى التى أرسلها ملك الأمراء الى ابن عثمان .

وحضر قاصد الأمير على بن عمر شيخ عربان جهات الصعيد ، وكان قد توجه صحبة التقـدمة التى أرسلها الى ابن عثمان ، فلما بلغ ملك الأمراء وصول القاصد الى سرياقوس نزل من القلعة وتلقاه من تربة العـادلى التى بالمطرية . وخرج صحبته الأمراء العثمانية ، والأمراء الجراكسة ، وأعيان المباشرين ، والعسكر العثمانى ، والانكشارية قدامه مشاة يرمون بالنفوط . فلما وصل الى تربة العادل نزل وجلس على المصطبة التى هنـاك . ثم حضر القاصد وأخرج قفطانا مخملا بتماسيح على أحمر أرسله اليه الخنكار ابن عثمـان بالاستمرار على نيابة مصر ، فلبسه ملك الأمراء وقبـل الأرض مرارا . وأرسل قفطانات تماسيح الى فائق بك ، وسنان باشا ، وخير الدين بك نائب القلعـة ، وأرسل قفطان تماسيح الى الأمير قايتباى الدوادار باستمراره فى الدوادارية فلبسه .

ثم ركب ملك الأمراء من هناك ودخل من باب النصر ، وشق القاهرة فى موكب حافل ، ولاقاه قضاة القضـاة الأربعة من باب النصر ، ثم مشت طائفة النصارى قدامه بالشموع . وكان ذلك يوم السبت فلم تحضر طائفة اليهود فى ذلك اليـوم ، واستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع القلعة وكان ذلك اليوم مشهودا .

فلما أقام القاصد أياما أشيع بين الناس أنه حضر يطلب طائفة الاصباهية التى بمصر ، وأشـيع أن الخنكار ابن عثمان أرسل تقدمة حافلة الى الأمير على بن عمر شيخ عربان الصعيد ، وأرسل اليـه قفطان تماسيح باستمراره على عادته ، ورسم بأن التقدمة والقفطان تتوجه اليه صحبة قاصده الى الصعيد ، فتضاعفت عظمة الأمير على بن عمر بسبب ذلك .

وفى يوم الأحد ثامن عشريه نزل الحاج بالبركة ، وحضر المحمل الشريف صحبة القاضى بركات بن موسى المحتسب أمير الحـاج ، فتغدى فى بركة

الحاج ، وتوجه الى مدرسة السلطان الغورى ، فلما طلع النهار من يوم الاثنين تاسع عشريه ، ركب من هناك وطلع الى ملك الأمراء وقابله فخلع عليه قفطانا مخملا احمر مذهبا ، ونزل من عنده وشق القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، فكانوا نحو مائتى انسان ، فشق الزينى بركات من القاهرة وهو لابس عمامة هوارية على زنط ، وهو ضارب لثاما .

ثم أشيع بين الناس أن الحجاج قاسوا فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال وقلة العليق ، وكانت سنة صعبة شديدة بفساد العربان والغلاء ، وقد منعوا مبشر الحاج من الدخول الى القاهرة .

ثم أشيع وفاة الطواشى الأمير بشير رأس نوبة السقاة ، وكان قد توجه الى المدينة الشريفة من حين دخل ابن عثمان الى القاهرة ، فتوجه صحبة قاضى القضاة الشرفى يحيى بن البردينى شيخ الحرم النبوى ، فأقام هناك الى أن مات ودفن بالمدينة وأشيع موت آخرين من الأعيان .

وكان غالب الناس قطع وجزم بعدم عود الزينى بركات بن موسى الى القاهرة . فانه حمل ما لا يطيق ، حيث طلع الى الحجاز أمير حاج ، وكانت هذه الوظيفة للأمراء المقدمين ، وكانت هذه السنة شديدة صعبة من فساد العربان فى طريق الحجاز وشدة الغلاء وموت الجمال ، فأعانه الله على ذلك ، ورجع مع السلامة

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن جماعة من الاصباهية غاروا على صبية ، فلما توجهت الى غيرهم كبسوها بالوالى فى ذلك المكان الذى كانت فيه وزعموا أنها كانت عند شخص نصرانى ، فقبضوا عليها وعلى ذلك النصرانى ، فلما عرضوا على ملك الأمراء رسم بأن تعرى المرأة من اثوابها ، وتكتف أيديها وأرجلها ، وأن نربط من رجلها فى ذنب اكديش ، وتسحب على وجهها من الكداشين الى باب زويلة ، ففعلوا بها ذلك وشقوا بها من القاهرة ، وقصدوا شنقها على باب زويلة ، فقيل انها ماتت فى أثناء الطريق ، وقيل بل غرقوها فى البحر عند الجزيرة الوسطى ، وقد مضى أمرها ، وقد قاست ما لا خير فيه حتى ماتت .

* * *

واستهل شهر صفر بيوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى أوائل هذا الشهر قدمت الأخبار من ثغر الاسكندرية مع بعض تجار البنادقة ، أن جماعة من المباشرين الذين خرجوا من مصر وتوجهوا الى اسطنبول فى البحر المالح ، لما وصلوا الى قرب جزيرة اقريطش خرجت عليهم طائفة من الفرنج الروادسة الذين هم أشد طوائف الفرنج ، فتحاربوا مع الجماعة العثمانية الذين خرجوا صحبة المباشرين ، فقتلوا منهم جماعة ومن جملتهم الخواجا هاشم ، وكان من أبناء العجم ، وكان من أخصاء ملك الأمراء خاير بك ، وكان قرره فى نظر المارستان ونظر جهات الجوالى ، فقتل فى هذه المعركة . وكان قصده أن يتوجه الى الخنكار صحبة المباشرين .

فلما خرجت عليهم الفرنج تحارب معهم حتى قتل فى المركب التى كان فيها الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، والقاضى بركات كاتب الرجع أخو القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وكان بهذه المركب يوسف البدرى الوزير ، والناصرى

محمد بن الورد لاعب الشطرنج أيضا ، فلما خرج عليهم الفرنج رموا على مركبهم بالمدافع فانخرقت وغرقت ، وغرق كل من كان فيها من المباشرين ، وغيرهم ، فغرقوهم وأموالهم التى كانت معهم جميعا ، فغرق الشرفى يونس النابلسى الاستادار ، وبركات كاتب الرجع ، ويوسف البدرى الوزير ، ومحمد بن الورد لاعب الشطرنج ، وقيل سلم من الغرق مع رفيقه أحمد الاسكندرانى .

ثم أشيع بأن المركب التى كان بها عـلاء الدين ناظر الخاص ، وفخر الدين بن عوض ، والقـاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل ، والشرفى يونس نقيب الجيش ، وأحمد الاسكندرانى لاعب الشطرنج ، سلمت من الغرق ، فسار بها الهواء الى نحو جزيرة افـريطش ، فخـرجوا وهم عراة حفاة مكشوفو الرءوس ، ومشوا نحو سبعة أيام حتى أعيوا من المشى وتورمت أقدامهم ، وأشرفوا على المـوت مرارا . وأما الشرفى يونس نقيب الجيش فانه مرض هناك ومات ودفن بجزيرة اقريطش ، وأما علاء الدين ناظر الخاص ، فانه مرض وعجـز عن المشى حتى حمله بعض الفرنج على أكتافه . وكذلك أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وفخر الدين بن عوض فاستمروا على ذلك سبعة أيام حتى وصلوا الى صاحب جزيرة اقريطش ، فلمـا رآهم أحسن اليهم وكساهم ، وأقاموا عنده مدة طويلة ، ثم جهزهم وأرسلهم الى اسطنبول ، هكذا أشيع والعلم لله تعالى .

فلما ثبت موتُ هؤلاء المبـاشرين خـرج نعيهم وطيف بالقاهرة ، ودقوا عليهـم بالطارات ، وكان هؤلاء المباشرون تزايد ظلمهم على أولاد الناس ، وضـيقوا عليهـم بسـبب أرزاقهم ، وأوقافهـم واقطاعاتهم . ولا سيما ما فعله فخر الدين بن عوض فى جهـات الغربية من وجوه الظلم ، فكثر عليهم الدعاء من الناس ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، وكان كما يقال فى المعنى :

فاستغن بالسمع عن مرآهمو عظة

فأصبحوا لا ترى الا مسـاكنهم

وصاروا يفتحون على الناس أبوابا من المظالم شيئا بعد شيء ، ووضعوا أيديهم على البلاد قاطبة ، حتى على الأوقاف التى على الجوامع والمسـاجد والزوايا ، وضاع على الناس حراجهم وحصل لهم الضرر الشـامل ، ثم انهم أبطلوا الاقطاعات التى بالمناشير ، وأدخلوها فى ديوان السـلطان ، ثم فى السنة الثانية أوقفوا الرزق التى بالمربعات الجيشية التى بيد أولاد الناس والنساء وغير ذلك ، وصاروا يضعون أيديهم على بلاد الأوقاف ، ويستخرجون منها الأموال ولا يفرجون عنها الا بعد جهد كبير لمن يأخذون برطيلة .

وكانوا اذا قرروا مع ملك الأمراء شيئا من أمر البـلاد يطاوعهم على الفساد ، ويقول لهم افعلوا ذلك ، وهو فى أيديهم مثل اللولب يدورونه كيف شـاءوا ، وكان الوقت قـد صفا لهم ، وصاروا يتصرفون فى أحوال المملكة بما يختارونه ، فأخذهم الله أخذا وبيـلا ، ولم يجدوا لهم من الله سبيلا ، وتكدرت معايشهم بعد الصفا ، وخانهم الدهر بعد الوفا ، وقد قلت :

اذا صفا الدهر يوما ... الى التـكدر يرجع
هـل من لبيب تراه ... بأيسر الرزق يقنـع
فليعتبر من يشـاهد ... لمصرع بعـد مصرع

وفيـه قدمت الأخبـار من دمشق بأن الحاج الشـامى قد استولت عليه الأعراب وعوقوهم عن الدخول الى البـلاد الشـامية ، ونهبوا أموالهم وجمالهم ، وغنموا منهم أموالا لها صورة ، فلما بلغ

الأمير جان بردى الغزالى ذلك ، خرج الى العربان من يومه ، وخرج صحبته نائب غزة بعساكر غزة ، ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وانتصر عليهم ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وغنم أموالهم وما كانوا غنموه من الحاج الشامى ، وهو شىء لا ينحصر ، فاحتاط على جميع ما معهم ، وهربوا من وجهه الى الجبال ، وخلص ما كانوا أسروه من رجال ونساء وصبيان وغلمان ، فكان له الشكر على ذلك .

وفيه تزايد الضرر من الاصباهية فى حق الناس ، وصـــاروا يخطفون النساء من الطرقات ، وكذلك الصبيان المرد ، حتى قيل انهم خطفوا امرأة عنـــد ســـلم المدرســـة المؤيدية تحت دكان الذى يبيع الكعك ، والناس ينظرون اليهم وهم يفسقون بها ، فلم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم ، ثم صاروا يقطعون الطرقات على نساء المسلمين ، وعلى البياعين ، وصـــار أهل مصر منهم فى غاية الضنك والامر لله تعالى .

وفى يوم الاثنـــين ثامن عشريه نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وأحضر سنان باشا أغات الاصباهية وقد صار بينـــه وبينهم وحشة بسبب جوامكهم ، فكان يأخـــذ من ملك الأمراء المال ولا يصرف لهم شيئا ، فلما وقع الحساب وجد فى جهته لهم أحدا وثمانين ألف دينار ، فاعترف أنها فى جهته وسيوصلها الى الخنكار ، فحصل بينه وبين الاصباهية فى ذلك اليوم تشـــاجر بسبب ذلك ، فقالت الاصـــباهية لاتعطوا سنان باشا من جوامكنا شيئا من الآن ، واصرفوا لنا مثل جوامك المماليك فى كل شهر على البساط .

ثم فى يوم الثـــلاثاء ويوم الأربعاء سلخ الشهر عرض ملك الأمراء الاصباهية ، فمثل ما وجد عند سنان باشا وجد فى جهة فائق بك من المال ، وقال مثل قوله ، فكثر بينهما القيل والقال بسبب ذلك ، وقد دبت عقارب الفتن بين الاصباهية وبين سنان باشا وفائق بك ، وأوعدوا سنان باشا بالقتل غير ما مرة .

***

وفى شهر ربيـــع الأول — وكان مستهل الشهر يوم الخميس — طلع القضـــاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنـــين خامس الشـــهر . نزل ملك الأمراء الى الميدان وعرض الاصباهية وعلم من فقد منهم ومن بقى ، ثم ظهر له ما كان يأخذه سنان باشا وفائق بك من جوامك الاصباهية وليس لهم وجود ، فظهر زيفه فى هذه الحركة .

و فى يوم الخميس ثامن الشهر قبض ملك الأمراء على طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع فى الحوش ضربا مبرحا ، وكان سبب ذلك أن أخت السلطان طومان باى رافعته ، وذكرت أن السلطان طومان باى أودع عنده ثمانية آلاف دينار ، فأنكر طيلان ، وحلف أنه ما أودع عنده شيئا من ذلك ، فلمـــا تزايد الأمر من أفواه الناس بسبب هـــذه الوديعة ، وصار طيلان ينكر ذلك ، حنق منه ملك الأمراء وأمر بضربه بالمقارع ، وهو لم يقر بشىء . فنزل من القلعـــة وهو فى الترسيم حتى يحقـــق ذلك .

وفى يوم الأحد حادى عشره مع ليلة الاثنين ، كان المولد الشريف النبوى ، فجلس ملك الأمراء فى المقعـــد الذى فى الحوش السلطانى ، واجتمع عنده بعض المباشرين ، وخير الدين نائب القلعة ، وبعض أمراء عثمانية ، واجتمع عنده من القراء والوعاظ ثلاث عشرة جوقة ، ثم فى أواخر النهار مد سماطا لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وأين هذا

مما كان يعمل فى مولد من تقدم من السلاطين ، ثم انه خلع على الوعاظ قفطانات واستردها بقدر هين .

وفى يوم الاثنين ثانى عشره خلع ملك الأمراء على مملوكه برسباى ، واستقر به أمير ركب الحاج الشريف ، فنزل من القلعة فى موكب حافل .

وفى يوم الخميس خامس عشره ، حضر قاصد من عند نائب حماه وصحبته تقدمة حافلة الى ملك الأمراء ، وأشيع أن الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام قد قبض على أربعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، منهم قراجا بن طراباى ، فلما قبض عليهم حز رءوسهم وأرسلها الى الخنكار بأدرنة ، فلما فعل ذلك اضطربت أحوال جبل نابلس ، وصارت العربان ينهبون الضياع التى حول جبل نابلس ، ويقتلون أهلها ، وتزايد الغلاء بالشام من قلة الجالب اليها .

وفى يوم الثلاثاء عشريه قدمت الأخبار من الغربية بأن اينال السيفى طراباى - كاشف الغربية — قد احتال على حسن بن مرعى وأخيه شكر شيخى عربان الغربية ، وهما اللذان كانا سببا لمسك السلطان طومان باى — وقد تقدم ذكر ذلك — فعزم اينال على حسن ابن مرعى وأخيه شكر فى مكان بالقرب من سنهور ، فأتيا اليه وأمناه وظنا أن ذنبهما قد نسى مما قد فعلاه ، فكان كما يقال فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها
عينا عليك اذا ما نمت لم تنم

فلما أقاما عنده ذلك اليوم مد لهما مدة حافلة ، ثم بعد ذلك أحضر لهما سفرة الشراب ، فلما شربا ودخلا فى السكر ، هجم عليهما جماعة من المماليك الجراكسة ممن كانوا عند اينال ، فعاجلوا حسنا وشكرا بالحسام قبل الكلام ، فقطعوا رءوسهما ، واشتفوا منهما ، حتى قيل ان بعض المماليك الجراكسة شرب من دمهما ، وبعضهم جزل لحومهما بالسيف ، والمجازاة من جنس العمل ، وكما تدين تدان .

وفى يوم الأربعاء حادى عشريه حضر الى القاهرة رأس حسن ابن مرعى ورأس شكر ، فرسم ملك الأمراء للوالى أن يعلقوهما على باب النصر ، وقيل ان رأس حسن بن مرعى لما دخلوا بها وبرأس شكر ، علقوهما فى رقبة فرس السلطان طومان باى الذى كان راكبا عليها لما قبضوا عليه فى تروجه ، فصودف أن هذا الفرس كان تحت حسن بن مرعى لما أتى الى اينال ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، وقيل ان عيال السلطان طومان باى لما علقت رأس حسن وشكر على باب النصر ، أظهروا فى ذلك اليوم الفرح والسرور ، وأطلقوا الزغاريت ، وتخلقوا بالزعفران . وأشيع أن أخا حسن بن مرعى كان مختفيا بالقاهرة لما قتل أخواه ، فغمز عليه ، فقبضوا عليه من بيت بعض أصحابه .

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه قدمت الأخبار من ثغر دمياط ، بأنه قد وصل الى الثغر قاصد من البحر أرسله الخنكار ابن عثمان يطلب سنان باشا وفائق بك ، فلما سمعا ذلك تنكدا لهذا الخبر ، وقالا لملك الأمراء خاير بك هذا كله شغلك آنت ، تكاتب فينا الخنكار فى الدس وترافع فينا عنده .

فلما وردت الأخبار بمجىء القاصد من دمياط ، رسم ملك الأمراء خاير بك للقاضى بركات بن موسى بالتوجه الى ملاقاته ، فخرج الى قليوب ورمى على البلاد من الشرقية والغربية أبقارا وأغناما وأوزا ودجاجا ، فجمع فى هذه الحركة فوق ألف

رأس من الغنم ، غير البقر والاوز والدجاج ، فمد القاضي بركات بن موسى للقاصد في قليوب مـدة حافلة ، فأشيع أنه صنع له فى تلك المدة أربعمائة رأس غنم ، ومثلها أوز ، ومثلها دجاج ، وخمسمائة مجمع حلوى وقيل ألف مجمع .

ثم مد له فى أبى الغيث مدة ثانية مثل الأولى ، فلما وصل القاصد الى هناك فاذا هم أميران أحدهما يسمى اسكندر باشا ، والآخر يسمى فرحات بك ، وصحبتهما من الغلمان نحو مائة انسان ، فلما انتهى أمر المدة أحضرا القـاضي بركات بن موسى بين أيديهما ، وقالا له الخنكار يسلم عليك ، ويقول لك بيض الله وجهك ، حيث رجعت بالحجـاج سالمين بخلاف ما جرى على الحاج الشامي ، فقام وقبل الأرض عدة مرات ، وكشف رأسه ، فلما وصـل القصـاد الى شبرا خرج الأمير قايتباى الدوادار الى ملاقاتهم ، وجماعـة من الأمراء الجراكسه ، فسلموا عليهم ورجعوا الى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشريه دخل القصاد الى القاهرة وقت صلاة الصبح ، فطلعوا على الجزيرة الوسطى ، وأتوا من باب الخرق ، وأتوا الى تحت الربع ، وتوجهوا على القربيين ، فأنزلوهم فى بيت الأتابكى قرقماس بن ولى الدين الذى عند حوض العظام ، فأنزلوا به اسكندر باشا ، وأنزلوا فرحات بك فى بيت الأمير كسباى المحتسب الذى عنـد مدرسة سودون بن زادة ، فمد لهما القاضي بركات ابن موسى هناك مدة ثالثة لكل واحد منهما على انفـراده ، واستمروا هنـاك يوم الثلاثاء سابع عشريه .

وطلع القضاة الأربعة الى القلعـة ، واجتمعوا بملك الأمراء ، وقرءوا مطالعة الخنكار ، فكان من مضمون تلك المطالعة ، طلب سنان باشا وفائق بك وخير الدين نائب القلعة ، وأرسل يقول لملك الأمراء خاير بك بأن يتوصى بالجراكسة ، وأن يصرفه لهم جوامكهم على العادة ، ولحومهم وعليقهم ، وأن ينظر فى أحـوال المعاملة ، ويزيل عنها الغش من الذهب والفضة ، وأن يحفظ الثغور .

فلما تحقق سـنان باشا وفائق بك أن السلطان أرسل يطلبهما ، اضطربت أحوالهما وهموا بقتل ملك الأمراء خاير بك ، وعلموا أن هـذا كله مما كان يراسل به الخنكار يشكو له منهما فاختفى ملك الأمراء فى الحريم ثلاثة أيام لم يظهر لأحـد من النـاس ، حتى أشيع أنه هرب من القلعـة ، فاضطربت أحوال القاهرة ، ووزع الناس أمتعتهم فى الحواصل ، ولهجوا بوقوع فتنة عظيمة تخرب فيها القاهرة ، وتنهب عن آخرها من الاصباهيـة والكملية ، فأقامت الناس على وجل ثلاثة أيام .

ثم طلع القاضي بركات بن موسى الى ملك الأمراء وقال له : ارسم للوالى بأن ينادى فى القاهرة للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن الأسواق والدكاكين تفتح وأن لا أحد يكثر كلامه ولا يتحدث فى شيء لا يعنيه ، ومن تكلم فى شيء لا يعنيه يشنق من غير معاودة ، فطاف الوالى فى القاهرة وأشهر النداء بذلك .

وصار ملك الامراء على رأسه طيرة من الاصباهية فبنى حائطا تجاه باب الستارة وصارت الاشاعات قائمة بوقوع فتنة عظيمة من الاصباهية ، وكانت عدتهم نحو ألفى انسان غـير الكملية ، وصاروا يركبون فى كل يوم ويقفون فى الرميلة ، ويسبون ملك الأمراء سبا قبيحا ويهمون بالهجوم عليه .

وفيه قدمت الأخبار من الشرقية بقتل شـيخ العرب على الأسمر ابن أبى الشوارب ، وقد احتال عليه كاشف المنوفية وعزم عليه ، وأسكره وهجم

عليه دواداره فقتله بغتة ولعب فيه بالسيف ، فلما جرى ذلك خاف شيخ العرب حسام الدين ابن بغداد على نفسه ، فاختفى مدة أيام ، وقد قوى عزم المماليك الجراكسة من حين قتل الأمير أينال كاشف الغربية حسن بن مرعى وشكرا آخاه .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على يونس الجلبى ، قيل ان أصله فلاح من الشرقية ، فبقى استادارا وكان له مقدار عند ملك الأمراء بسبب انسحاب المال على الجامكية ، فبطحه فى الحوش وضربه ضربا مبرحا نحو ستمائة عصا ، فنزل الى بيته وهو مسطوح على حمار ، فأقام أياما ومات من الضرب .

* * *

وفى شهر ربيع الآخر ، فى يوم الاثنين رابعه ، وقعت فتنة عظيمة بالقلعة بين الاصباهية والانكشارية من عسكر ابن عثمان ، قتل فيها من الاصباهية شخص ، وقيل اثنان ، فرسم ملك الأمراء للانكشارية بأن يقيمون بالقلعة دائما ، ولا ينزلوا الى المدينة ، فبطل أمر الانكشارية الذين كانوا يجلسون على أبواب المدينة ، وتشتكى الناس فى خلاص الحقوق منهم ، فرسم لهم ملك الأمراء بأن يسكنوا باطباق المماليك التى بالقلعة ، ولا ينزلوا الى المدينة أبدا ، وكان يحصل منهم غاية الفساد فى حق الناس ، من خطف النساء والصبيان ، والضيافات والبضائع من أيدى المتسببين ، وضج الناس من ذلك .

وفيه أشيع ان سنان باشا وفائق بك قد برزا خيامهما فى الريدانية بسبب السفر الى اسطنبول ، وأشيع ان سنان وفائق يتوجهان من البحر وبركهم يتوجه من البر .

وفى يوم الاثنين حادى عشره خرج سنان باشا وفائق بك وتوجها الى بولاق ، وشقا من الصليبة فى موكب حافل ، وقدامهما الاصباهية قاطبة والانكشارية ، وألبس كل منهما قفطانا مخملا ، وقيل أنعم على كل واحد منهما بألف دينار ، فاستمر معهما العسكر العثمانى حتى أنزلوهما فى المراكب من بولاق ، وساروا فى البحر الى ثغر دمياط ، ومن هناك نزلوا فى الأغربة .

وفى يوم الجمعة خامس عشره ، انتهى العمل من الجامع الذى أنشأه المقر الشهابى أحمد بن الجيعان الذى عند بركة الرطلى ، بالقرب من حدرة الفول ، وخطب به فى ذلك اليوم ، وكان مسجدا قديما بنى فى دولة الناصر محمد بن قلاوون سنة أربع وأربعين وسبعمائة ، ودفن به الشيخ خليل الرطلى ، وهو الذى تنسب اليه بركة الرطلى ، فاستمر على ذلك حتى خرب فجدده الصاحب سعد الدين بن ابراهيم البشيرى فى دولة الملك المؤيد شيخ ، فأقام مدة طويلة وجعل به خطبة لكونه كان بجوار بيته الذى بالبركة ، فاستمر على ذلك الى أن خرب ، وأقام مدة طويلة وهو خراب ، فجدد بناءه القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر فى هذه السنه ، فاجتمع به فى ذلك اليوم القضاة الأربعة ، وأعيان الناس من المباشرين ، وغيرهم ، وخطب به ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، فخطب به خطبة بليغة فى معنى انشاء الجوامع .

فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الشهابى أحمد بن الجيعان زبادى صينى فيها سكر نحو عشرين زبدية فطاف بها على الناس . ثم قامت جماعة من المنشدين وأنشدوا قصائد فى انشاء هذا الجامع ، من نظم جمال الدين السلمونى الشاعر ، وعبد اللطيف الدنجيهى ، وغيرهما من الشعراء .

ثم ان الشهابى أحمد بن الجيعان قرر بهذا الجامع حضورا من بعد العصر ، وصوفية ، وجعل

شيخ الحضور الشيخ نور الدين على بن ناصر شيخ حضور الشافعية ، وشيخ الحنفية هو شهاب الدين أحمد بن الصائغ ، وقرر شيخ الحديث الشريف الشيخ شمس الدين الضيروطى .

وفى يوم الأحد سابع عشره أشيع أن المملوك الذى قتل على الأسمر ابن أبى الشوارب ، قد قبض عليه الكاشف ، وأحضره الى ملك الأمراء ، فرسم بشنقه فشنق على باب زويلة ، وقيل ان أصله من مماليك الاتابكى سودون الدوادار ، فأرضى ملك الأمراء مشايخ العربان بشنق هذا المملوك .

وفى يوم السبت ثالث عشريه وقعت فتنة كبيرة بين الاصباهية والانكشارية ، فأغلقوا باب السلسلة وباب الميدان فى ذلك اليوم ، واستمر الشر عمالا بين الفريقين الى ما بعد الظهر ، فنزل الكيخية الكبير ليصلح بين الفريقين فضربوه فولى هاربا .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه ، كان يوم فطر النصارى وهو أول الخماسين .

* * *

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم السبت ، فطلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

ومن الحوادث فى ذلك اليوم ، أن ملك الأمراء أحضر طائفة الانكشارية الى القلعة ، ورسم لهم أن يحضروا بمكاحلهم والبندق الرصاص الذى عندهم ، فلما أحضروا ذلك رسم ملك الأمراء بادخال تلك المكاحل والبندق الرصاص فى الزردخاناه ، ورسم للانكشارية بأن يقيموا فى الأطباق التى بالقلعة ولا ينزلون الى المدينة أبدا ، فشق ذلك عليهم الى الغاية ، وانتصفت عليهم طائفة الاصباهية .

وفى يوم الأربعاء خامسه نزل ملك الأمراء فى مركب وعدى الى المقياس ، فأقام به الى آخر النهار ، ثم توجه فى المركب الى قصر ابن العينى الذى بمنشية المهرانى ، ثم توجه من هناك الى بولاق وأقام بالسبتية . ثم طلع الى القلعة فى أواخر النهار وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية .

وفيه خلع على القاضى شرف الدين الصغير ، والقاضى شرف الدين بن عوض ، واستقر فى التحدث فى جهات الشرقية ، عوضا عن يونس الذى كان استادارا ومات تحت العقوبة .

وفى يوم الأحد تاسعه خرج القاضى بركات بن موسى المحتسب ، الى مساحة بلاد الصعيد واستخراج المغل الذى بها ، وكانت هذه وظيفة الأمير يشبك الدوادار ، والأمير أقبردى الدوادار ، وغيرهما من الدوادارية ، فخرج فى موكب حافل وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط ، وسافر معه جماعة من المماليك الجراكسة ، وفعل فى أمر السنيح والخيام والبرك ما عجز عنه الأمراء المقدمون ، وقد ساعدته الأقدار على بلوغ الأوطار ورأى من العز والعظمة فى دولة ابن عثمان مالم يره فى دولة السلطان الغورى .

وفى يوم الخميس ثالث عشره توفى الشيخ صالح المعتقد عبد الرحمن البهنساوى ، الذى كان مقيما بالمدرسة البرقوقية ، وكان للناس فيه اعتقاد .

وفيه عرض ملك الأمراء خاير بك طيلان رأس نوبة ، وضربه بين يديه بالمقارع ثانيا ، وسبب ذلك أنه تأخر عليه ألفا دينار مما كان تقرر عليه من المال الذى يورده ، ثم بعد الضرب أرسله الى سجن الديلم فأقام به .

وفيه قبض ملك الأمراء على جماعة من اليهود من معلمى دار الضرب ، ومن الصيارف ، وسبب ذلك أن معاملة السلطان ابن عثمان فى الذهب والفضة قد ذهبت وفسدت وصارت كلها غشا وزغلا . فقبض على معلم دار الضرب وألزمته بأن يورد الى الخزائن الشريفة مائة ألف دينار ، وأن

المعلمين بدار الضرب قاطبة يتوجهون الى نحو اسطنبول أو يلتزمون باصلاح المعاملة ، فلما جرى ذلك أغلظ عليه جماعة من اليهود ، وقالوا له أرنا مرسوم الخنكار ان كان أرسل يطلبنا الى اسطنبول وأقاموا أياما بالسجن حتى يكون من امرهم ما يكون .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الأمير كمشبغا والى القاهرة فحنق كمشبغا من ملك الأمراء ، فلما نزل الى بيته أغلق الباب وطرد النقباء عن بابه ، ورفع دكته وأقام أياما لم يخرج من بيته ، فنزل اليه الأمير جانم الحمزاوى ، وطلع به الى ملك الأمراء وقابله به ، فخلع عليه قفطانا مخملا ، ونزل الى داره على عادته بعد ما كان أشيع وقوع فتنة عظيمة ، وقيل انه أورد الى ملك الأمراء ستة آلاف دينار .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد ضرب زوجته خوند مصرباى الجركسية ، ضربا مبرحا حتى كادت أن تموت ، ولم يعلم ما سبب ذلك ، وكثر فى ذلك القال والقيل .

وفى يوم الاثنين سادس عشريه حضر من عند الخنكار أولاق يبشر بمجىء عسكر عوضا عن الاصباهية الذين بمصر ، وقد عين الخنكار عسكرا وهو فى أدرنه بأن يحضروا الى مصر ، وزعم هذا القاصد أنه أتى من أدرنة الى مصر فى أحد وعشرين يوما ، وكانت الاصباهيه قد تقلقوا من الاقامه بمصر ، فجاء هذا الاولاق يبشر بمجىء العسكر حتى تطمئن الاصباهية بذلك .

* * *

وفى شهر جمادى الآخرة وكان مستهل الشهر يوم الاثنين ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى طيلان رأس نوبة وقد نال من الضرب بالمقارع كما تقدم ، فاستمر عليلا حتى مات ، وكان من وسائط السوء ، ظالما عسوفا من جملة أعوان الظلمة

وفى يوم الثلاثاء سادس عشره حضر قاصد أيضا من عند الخنكار وأخبر أن الفرنج قد تحركت على الخنكار ، وأرسل يقول لملك الأمراء بأن يحفظ الثغور ، ويحصن ثغر الاسكندرية وثغر دمياط بالمكاحل وآلة السلاح وغير ذلك

وفى يوم السبت عشريه طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاع فجاءت القاعدة ستة أذرع وعشرين أصبعا أرجح من العام الماضى بعشرة أصابع ، وكانت الزيادة أول يوم خمسة أصابع ، فتفاءل الناس بذلك .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه حضر شخص شريف من عند ابن عثمان ، وزعم أنه قد قرره فى نقابة الأشراف ، وأظهر مرسوم الخنكار بذلك . وأشيع أن الخنكار أرسل يطلب الاصباهية بأن يتوجهوا الى أسطنبول فأخذوا فى أسباب عمل برقهم .

وفى يوم السبت سابع عشريه ، خلع ملك الأمراء على القاضى عبد العظيم ، واستقربه فى التحدث فى نظر الحسبة الشريفة ، عوضا عن الزينى بركات ابن موسى ، وكان مسافرا نحو الصعيد كما تقدم ، وكان سبب ذلك أن ابن موسى لما سافر الى الصعيد جعل شخصا من العثمانية متحدثا عنه فى الحسبة الى أن يحضر من السفر ، فضاعت أحوال المسلمين فى هذه الأيام ، ووقع الغلاء بالديار المصرية ، وتشحطت الغلال ، وعز وجود الخبز فى الأسواق وتناهى سعر الأردب القمح الى ألف درهم ،

وتناهى سعر البطة الدقيق الى عشرين لصفا ، وعز وجود الشعير والفول والتبن ، فضج الناس من ذلك ، وعز وجود الأجبان والسمن والشيرج وغير ذلك ، فتوجه طائفة من التركمان الى بيت ابن موسى ، وضربوا المباشرين والرسل الذين على الباب ، وهرب التركمانى الذى كان يتحدث فى الحسبة .

ثم ان التركمان توجهوا الى بيت القاضى عبد العظيم ، وهجموا عليه فى حريمه ، وأخذوه وأركبوه غصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وقالوا له ان لم تول هذا الحسبه والا تخرب مصر على أيامك وتنهب المدينة عن آخرها ، فما وسع ملك الأمراء الا آن أحضر له قفطانا وأفاضه عليه ، واستقر به ناظر الحسبة عوضا عن ابن موسى ، فنزل من القلعة بعد العصر ، وشق من القاهرة ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس ، وكان محببا لأهل مصر قاطبة ، ففرح كل أحد من الناس بولايته ، وظهر الخبز فى ذلك اليوم على الدكاكين وقد تفاءل الناس بكعبه بالرخاء ، وسكن ذلك الاضطراب الذى كان فيه الناس قليلا .

وفى هذه الأيام توقف النيل عن الزيادة أياما فقلق الناس لذلك .

وفى يوم الاثنين سلخ الشهر ثارت طائفة من الأصباهية على الأمير جانم الحمزاوى وهو نازل من القلعة ، وعينوا له الضرب ، وقالوا له قل لملك الأمراء قد متنا من الجوع نحن وخيلنا من قلة الموجود ، فلا نلتقى فى الأسواق خبزا ولا شعيرا فاما يأذن لنا بالسفر أو يكفينا من القوت ، فما خلص منهم الأمير جانم الحمزاوى الا بعد جهد كبير ، وذكروا آن لهم ثلاثة أشهر جامكية مكسورة فى الديوان .

* * *

وفى شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى دورهم ، وقد قلق الناس من أمر الاصباهية ، ثم ان النيل استمر فى التوقف لم يزد شيئا ، فأمر ملك الأمراء بابطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة ، ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش .

ثم ان الوالى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة فى الأزبكية تجمع عندها بنات الخطا اللاتى يعملن الفاحشة ، وكان عليها مبلغ مقرر تورده كل شهر للوالى ، وكان أمرها مشهورا ، فرسم ملك الأمراء بتغريقها هى وامرأة أخرى يقال لها بدرية ، زوجة أحد من الناس يقال له البغيضى ، كانت ماشية على طريقة أنس هذه فى جمعها البنات الخطا ، فلما قبض الوالى على أنس توجه بها الى قصر ابن العينى الذى فى المنشية ، وغرقها هناك بعد العصر ، فاجتمع الجم الكثير من الناس بسبب الفرجة عليها ، وكان يوما مشهودا ، فغرقت على النداء والاجهار ، وأراح الله تعالى المسلمين وطهرت الأرض منها .

وفى يوم الجمعه رابع الشهر صلى ملك الأمراء صلاة الجمعه بالقلعة ، ثم نزل منها وتوجه الى المقياس وقرأ هناك ختمة ومد مدة حافلة للفقراء ، واستمر النيل سبعة أيام لم يزد فيها شيئا وأشيع أنه نقص أربعة أصابع ، فقلق الناس لذلك ووقع الغلاء فى سائر البضائع والاصناف .

وفى يوم السبت خامس رجب زاد الله فى النيل المبارك أصبعا واحدا بعد أن وفى النقص ، ففرح الناس بذلك وسكن الاضطراب الذى كان بمصر قليلا ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

قـد أصـبح الخزان مذ زاد
هذا النيل بعد النقص فى بوسى
وقد عـدا يمـرا على قمحه
قراءة تنسب للسـوسى

فلما زاد النيل هذا الأصبع وسكن الاضطراب شرع القاضى عبد العظيم المحتسب فى تسـعير البضائع قاطبة ، فانصلحت أحوال الديار المصرية قليلا ، ووقع الرخاء وتفاءل الناس بكعبه بالخير ، وقد قلت فى المعنى :

يا قاضيا قد عدا بالله محتسـبا
على الأعادى ولا يخشى من الباس
رخصت أسعارنا من بعد ماغليت
وحزت حسن الثنا من ألسن الناس
لما توليت زاد النيـل وانفرجت
وقـد حزى كل خزان ودراسى
ان زال هذا الغلا من مصر لاعجب
فكعبكم أخضر يزهو على الآس

ومن الحـوادث أنه فى يوم الخميس عاشر رجب ، وقعت واقعة شنيعة ، وهى أن اسكندر بك أحد أمراء ابن عثمان الذى كان حضر الى مصر عوضا عن سنان باشا ، لما أقام بمصر صار يعارض قضاة القضاة فى الأحكام الشرعية ، فوقع بينه وبين نور الدين على الميمونى نقيب قاضى القضاة الشافعى .

ثم انه فى يوم الخميس رسم بعزل على الميمونى من النقابة ، ولم يكتف بذلك حتى أنه تكلم مع ملك الأمراء فى نفيه فنفاه الى دمنهور ، وأخرجه من يومه .

ثم ان ملك الأمراء رسم بابطال نقبـاء قضاة القضاة الأربعة ، فعزل من النقابة شـهاب الدين أحمد بن سيرين نقيب قاضى القضـاة الحنفى ، وعزل نقيب قاضى القضاة المالكى شمس الدين الدميرى ، وعزل من النقابة ابن قاضى القضـاة الحنبلى ، ومنع جماعة من الوكلاء ومن الرسـل أيضا ، وحصل لقضاة القضاة منه غاية الضـنك بسبب نقبائهم

وقد تقدم القول ان ملك الأمراء لما توقف النيل سبعة ايام امر بابطال بيـوت الحشيش وبيوت الخمرة وبيوت البـوزة وعرق انس التى كانت تجمع عندها بنات الخطا اللاتى كن يعملن الفاحشة من امر الزنا ، فلما زاد النيل رجع كل شىء على حاله ، وسبب ذلك أن العثمانية تعصبوا فى اعادة ذلك ، فان أكثرهم كان يبيع البوزة فى الدكاكين ورسم ملك الأمراء بأن أولاد أنس لا يعارضون فيما يعملون من جمع بنات الخطا ، كمـا كانت تفعل أمهم أنس .

وفى هـذا اليوم قدمت الأخبار من حلب بأن الخنكار أرسل عسكرا يقيمون بمصر عوضا عن الأصباهية الذين كانوا بها .

وفى يوم السبت ثانى عشره رسم ملك الأمراء بشنق شخص سروجى فشنق عند باب خان الخليلى وسبب ذلك انه كان له عبد فباعه لبعض المماليك الجراكسة ، فهرب وخدم عند بعض التركمان ، ثم ان السروجى توجه الى سيدى أحمد البدوى ، فصادف ذلك العبد هناك فقبض عليه وأحضره الى القاهرة ، فهرب ذلك العبـد من بيت السروجى وأتى الى التركمانى ، وادعى أنه لم يكن فى ملك السروجى وأنه معتوق ، فطلع التركمانى وقص خبر العبد على ملك الأمراء ، فاحضر ذلك السروجى وأخبر أنه قد باعه لمملوك جركسى ، وقتـل فى الواقعة ومضى أمره ، فلم يثبت للسروجى عليـه

حق فأغلظ السروجى على ملك الأمراء فى القول فحنق منه ملك الأمراء ورسم بشنقه فشنق عند خان الخليلى ، فقيل ان السروجى سأل ملك الأمراء أن يفدى نفسه من الشنق بخمسمائة دينار ، فأبى ملك الأمراء من ذلك ، وشنق فراح ظلما .

وفى يوم الاثنين رابع عشره وقعت حادثة مهولة وهى : ان جماعة من الكملية والاصباهية وقفوا الى ملك الأمراء يطلبون منه جوامكهم عن ثلاثة أشهر ، ويأذن لهم بالسفر الى بلادهم ، فلم يلتفت اليهم ، فنزلوا من عنده ووقفوا بالرميلة ، فلما طلع الأمير جانم الحمزاوى أحاطوا به وضربوه وأنزلوه عن فرسه ، وأرادوا قطع رأسه ، فهرب ودخل الى الميدان وهو مكشوف الرأس ، فوقف فى وجوههم شخص من أمراء الجراكسة يقال له الأمير بخشباى — الذى كان كاشف البهنسا — فرموا غبنهم فيه فضربوه بالسيوف حتى أشبع موته ، فحملوه وأدخلوه الى باب السلسلة وفيه بعض نفس .

ثم ان الكملية استمروا بالرميلة طالبين شرا مع الجراكسة ، وانفتح بينهم باب الشر بسبب جانم الحمزاوى ، ثم أنزلوا الأمير بخشباى الى بيته فأقام الى يوم الأحد عشريه ومات ، وقد جرح فى رأسه جرحا بالغا ومات به ، وأشيع أن ملك الأمراء كتب محضرا بأن الكملية قتلوه وأرسل ذلك المحضر الى الخنكار بأدرنه ، ثم حضر جماعة من الأمراء الجراكسة وصلوا على الأمير بخشباى ، وكانت له جنازة حافلة وصنعوا قدامه كفارة .

وفيه قدمت الأخبار من حلب بوفاة القاضى محب الدين محمود ابن القاضى شمس الدين محمد بن أجا الحلبى ، وكان رئيسا حشما أصيلا عريقا فاضلا ، ولى قضاء الحنفية بحلب ، ثم ولى كتابة السر بالديار المصرية ، وأقام فى هذه الولاية ست عشرة سنة ، وهو عزيز فى مصر نافذ الكلمة وافر الحرمة ، وهو آخر كتاب السر بالديار المصرية ولم يوجد بعده من يناظره فى الرياسة والتعاظم والنظام ، ومشى مشى الرؤساء المتقدمين فى كتابة السر ، وكان مولده سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ، ومات وهو فى ست وأربعين سنة ، وكان كثير الأمراض فى جسده ، وأكثر اقامته فى داره ، والناس تسعى اليه فى أشغالها ، ولما مات رثاه الأديب ناصر الدين محمد بن فانصوه بهذه المرثية :

ألا فى سبيل الله نجل أجا الذى
يكل اذا عدت فضائله الفكر

فضائله كالزهر والزهر ذكرها
ومنظرها اذ فيهما النشر والبشر

كنجم بأفق الملك كان كم اهتدى
به من بليل الهم ضل به الحجر

كتابة سر الملك ماتت لكونها
به ختمت والسر من بعده جهر

لذا كان محمودا وبالقلب ذكره
رعى الله محمودا له الحمد والشكر

فمن مثل محمود ومن مثل قلبه
وذا القلب ممدوح يلذ به الذكر

لقد كان كالنعمان فى العلم والسخا
وفى الفخر نعم العلم والجود والفخر

له فكرة كانت تمد يراعه
بدائع لفظ نظم ابداعها الدر

لعمرك ما فى الفصل والوصل مثلها
بيان معانيها لرب الحجا سحر

أرى الله منه الروح روحا تفضلا
عليه وريحانا وزيد له الأجر
وصير قبرا ضمه خير روضة
تطيب بها فيه له اللف والنشر

وفى يوم الخميس رابع عشريه ثارت الاصباهية على ملك الأمراء وطلعوا الى الرميلة ، ووقفوا بها فأغلقوا فى وجوههم باب السلسلة ، وباب الميدان ، فصاروا يسبون ملك الأمراء سبا فاحشا ، وكان سبب ذلك أنه كان لهم ثلاثة أشهر جامكية منكسرة فأنفق عليهم شهرين وتأخر شهر واحد ، فقالوا ما نسافر حتى تنفق علينا الشهر المنكسر ، والا نزلنا فنهبنا المدينة وشوشنا على الناس ، فوقع الاضطراب بالقاهرة ، وغلقت الأسواق والدكاكين فى ذلك اليوم .

ثم ان الاصباهية توجهوا الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وأركبوه من بيته عصبا وطلعوا به الى ملك الأمراء ، وطلعوا أيضا بالأمير كمشبغا الوالى فاجتمعا بملك الأمراء وحدثاه فى أمر الاصباهية بأن ينفق عليهم ذلك الشهر الذى تأخر لهم ، فتوقف فى ذلك . ثم رسم لهم بأن ينفق عليهم ذلك الشهر فيما بعد ، وأخذوا فى أسباب عمل برقهم والتوجه الى اسطنبول .

وفيه أشيع انه حضر من اسطنبول جماعة ممن كان بها من السيوفيه والحدادين والبنائين والنجارين والمرخمين وغير ذلك من الصناع ، وأشيع أن الخنكار أنشأ له هناك جامعا وحماما ، فلما انتهى العمل منهما وقفوا له وقالوا له ان خلفنا أولادا وعيالا وقد أنهينا العمل الذى رسم به الخنكار وما بقى لنا شغل ، فرسم لهم بالعود الى بلادهم ، وكتب لكل واحد منهم ورقة بعدم المعارضة ، وحضر صحبتهم أيضا الجمالى يوسف ابن نقيب الجيش بن أبى الفرج وشخص من أقارب ابن الطولونى ، وقد أقاموا لهم ضمانا باسطنبول بأن يتوجهوا الى مصر ، ويقضوا أشغالهم ، ثم يعودوا الى اسطنبول ، وأخبر الجمالى يوسف بوفاة جماعة كثيرة من الأعيان الذين توجهوا من مصر الى اسطنبول ، ولم تحضرنى أسماؤهم .

* * *

واستهل شهر شعبان بيوم الخميس فطلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء سادس الشهر حضر القاصد الذى أرسله الخنكار بطلب الاصباهية ، وقد أرسل عسكرا صحبة ذلك القاصد عوضا عن الاصباهية ، فلما وصلوا الى الريدانية ، رسم لهم ملك الأمراء بأن يطلعوا من بين الترب ، ولا يشقوا من القاهرة ، قيل ان عدتهم دون ألف نفس ، والباشا الذى عليهم يقال له قراموسى . فلما وصل تحت القلعة أنزله ملك الأمراء بالميدان الذى تحت القلعة ، فنصب خيامه به ، وصارت التركمان الذين حضروا صحبته يهجمون على الناس فى بيوتهم ويسكنون بها .

فلما كان يوم الاثنين ثانى عشره خرج اسكندر بك وخرج صحبته الاصباهية الذين كانوا بمصر قاطبة ، فكان هو الباشا عليهم ، فشق عليه خروجه من مصر ، وكان هو المشار اليه فى أمور الديار المصرية ، وصار يعارض قضاة القضاة فى الأحكام الشرعية ، فقلق الناس منه الى الغاية حتى بعث الله تعالى بالفرج وأخرجه من مصر عاجلا . فلما خرج اسكندر ، نزل اليه ملك الأمراء وودعه وأنعم عليه بأشياء كثيرة من مال وخيول وزوادة وغير ذلك ، ولما دخلت هذه الطائفة من التركمان الى مصر

صارت الناس تضيق أبوابها حتى لا يدخل منهـا راكب لاجل التركمان .

وفى يوم الاربعاء رابع عشره رسم ملك الأمراء بشنق سبعة أنفار من طائفة الكسلية ، فيـل هم الذين قتلوا الأمير بختسباى كما تقدم ، فشنق منهم ستة أنفـار على شجرة النبق التى عنـد مدرسة السلطان حسن ، والآخر شنق عند باب النصر ، فشق ذلك على الـكسلية ، ولم يطلع من أيديهم شىء

وفى يوم الجمعه سادس عشر شـعبان كان وفاء النيل المبـارك ، ووافق ذلك تاسع عشر مسرى ، ففتح السد يوم السبت سابع عشر شعبان الموافق لعشرى مسرى ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا ، وزاد من الذراع السابع عشر أصبعين . وفتح السد فى العام الماضى ليلة النصف من شعبان ، فكان التفاوت بينهما يومين ، وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه :

شاهدت عند النيل يوم الوفا
حـرزا عظيما جانب الشط
للعـين والنظرة فيه غدت
كتـابة بالكسر والبسط

فلما طلع ابن الرداد ، وأخبر ملك الأمراء بوفاء النيل المبارك ، نزل من القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة ،ثم قدموا له المركب الغراب الذى كان عمره السلطان الغورى ، فنزل فيه وتوجه الى نحو السد الذى عند رأس المنشية ، ففتحه وأظهر التعاظم فى ذلك اليوم ، وفرق المجامع الحلوى ، والمشنات الفاكهة ، وكان ذلك اليوم مشهودا من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزمور . ثم ركب ملك الأمراء من هناك وتوجه الى القلعة ، ثم توجه الأمير كمشبغا الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد ، وفتح سد قنطرة قديدار ، ورجع الى داره ، وكان يوما مشهودا ، وقد عمت هذه الفرجة كل الناس .

وفيه أنفق ملك الأمراء الجامكية على المماليك الچراكسة ، فأنفق لهم شهرين ، وكان لهم جامكية أربعة أشهر مكسورة . ثم ان القاضى شرف الدين الصغير ، عوق جوامك جمـاعة من أولاد الناس بسبب ذلك .

وفيه تعير خاطر ملك الأمراء على جان بك كاشف الشرقية ، فأرسل بالقبض عليه واحضاره فى الحديد وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس ، واستغاثوا من ظلمه ، فلما حضر بين يدى ملك الأمراء وبخه بالكلام ، ثم وضع جنزيرا فى عنقه ، وقيـدا فى رجليه ، وأرسله صحبة جماعة من الانكشارية الى الشرقية ، ورسم باشهار المناداة فى الشرقية بأن من ظلمه جان بك كاشف الشرقية ، عليه بملك الأمراء يخلص حقه ، ثم عزل جان بك من كشف جهات الشرقية ، وقرر شخصا من الأتراك يقال له اياس ، وكان دوادارا بخدمة خاير بك المعمار قديما ، وقد تعين باش العسكر الذى كان قد تعين الى جدة ولم يتم له ذلك .

ثم ان ملك الأمراء فى عقيب ذلك ، أرسـل بالقبض على اينال السيفى طرابای كاشف الغربية ، وأحضره فى الترسيم ، واستمر على ذلك الى الآن لم يخلص من الترسيم .

وفى أواخر هذا الشهر قدمت الأخبار من مكة المشرفة بوفاة ابنة العلائى على بن خاص بك ، وهى أخت خوند زوجة الأشرف قايتباى ، وكانت رئيسة حشمة فى سعة من المال ، وقد تزوجت بعدة أمراء

مقدمي ألوف ، وهي حماة الأشرف طومان باي ، جاورت بمكة وتوفيت هناك .

وفي يوم الخميس آخر الشهر ، كانت ليلة رؤية هلال رمضان ، فتوجه قضاة القضاة الى المدرسة المنصورية التي بين القصرين ، وحضر القاضي عبد العظيم المحتسب ، فلما رؤي الهلال وانفض المجلس ، قام القاضي عبد العظيم وركب من المدرسة المنصورية ، فلاقته الفوانيس والمشاعل من هناك ، وعلقت له القناديل على الدكاكين ، ومشت قدامه الشموع والسقاءون بالقرب كما كان يصنع القاضي بركات بن موسى المحتسب ، فاستمر في هذا الموكب الحافل من بين القصرين الى بيته الذي في باب النصر ، والرسل قدامه بالشموع الموقودة ، وكانت تلك الليلة من الليالي المشهودة في الفرجة والقصف ، وفيه يقول الأديب ناصر الدين محمد ابن قانصوه :

كعب عبد العظيم كعب رخاء
ريح تسعيره الرخاء رخاء
باشر الحسبة الشريفة في المحـ
ـل فراح الغلا وجاء الرخاء
من كذا كعبه لدى المحل خصب
فهو طب للداء فيه دواء
دام فيها مدبر الحكم بالحكـ
ـمة ماقابل الصباح المساء

* * *

واستهل شهر رمضان بيوم الجمعة ، فطلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ومما وقع في ذلك اليوم أن قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل تكلم مع ملك الأمراء في ذلك المجلس بسبب نقيبه نور الدين على الميموني ، وقد تقدم القول أن ملك الأمراء نفاه الى دمنهور ، فلما كلمه القاضي كمال الدين بسبب ذلك رسم باعادته الى مصر ، بشرط أن يكون بطالا ، ولا يتكلم في النقابة بباب القاضي أبدا ، ومنع بقية القضاة أن يجعلوا لهم نقباء على أبوابهم ، ثم انفض المجلس على ذلك وقامت القضاة .

وفي يوم الثلاثاء خامس رمضان كان يوم النوروز ، وهو أول السنة القبطية سنة خمس وعشرين وتسعمائة الخراجية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة بأن في البحر المالح قبالة جدة نحو أربعين مركبا من مراكب الفرنج يعبثون بالتجار ويقطعون عليهم الطرقات ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك عرض جماعة من المماليك الجراكسة وغيرهم ، وعين منهم نحو ثلثمائة مملوك وكملية يتوجهون صحبة الحجاج ، ويقيمون بجدة خوفا من أن يطرقها بعض الفرنج على حين غفلة .

وفيه أشيع بين الناس أن قاسم الشرواني الذي كان استقر في نيابة جدة ، جمع المال الذي تحصل من جدة فوضع يده عليه ، وأخذ المكاحل التي كانت هناك والسلاح ، ونزل في مراكب وتوجه نحو بلاد هرمز ، فتنكد ملك الأمراء لهذه الأخبار الردية .

وفيه حضر شخص يقال له كيخيه أرسله ابن عثمان يقيم بمصر عوضا عن أغات الانكشارية الذي كان بمصر ، فانه أراد الحج في هذه السنة الى بيت الله الحرام .

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشر رمضان قبض على شخص من تجار الوراقين يقال له المحلاوي ، وكان قبيح السيرة مشهورا بأكل الربا ، وقد أنهوا في

حقه أنه يبيع الخمر والمعجون للتركمان فى شهر رمضان ، وقد شهد عليه جماعة من الوراقين بدلك . فلما عرض على ملك الأمراء بالميدان رسم بسليمه الى الوالى حتى يحرر ما يكون من أمره ، فتسلمه الوالى ونزل به الى داره ليعاقبه حتى يقر بما قيل عنه من بيع الخمر والمعجون ، وقد أوعده ملك الأمراء بالشنق بعد العيد ، فلما نزل به الوالى الى بيته قصد أن يكتب محضرا بسيرته ، فجاء اليه جماعة من الانكشارية من أصحاب المحلاوى الذين كان يبيع لهم المعجون ، فمنعوا الوالى من ذلك وأغلظوا عليه فى القول ، ثم توجهوا الى سوق الوراقين وضربوا التجار الذين تعصبوا على المحلاوى ، وقصدوا نهب التجار ، فأغلقوا الدكاكين قاطبة .

فلما كان يوم الأربعاء عشرى رمضان طلع التجار الى ملك الأمراء وأخبروه بما جرى من الانكشاريه فحنق منهم ورسم للوالى بأن يوسط المحلاوى على باب الميدان ، فوسطه هناك مسرعا ، ولم تنتطح فى ذلك شاتان .

ثم قبضوا على عبد المحلاوى فادعى أنه قد اعتقه أستاذه قبل أن يتوسط ، فقطع الوالى أذنه وأطلقه الى حال سبيله ، فعد ذلك من الحوادث المهولة . وما كان يجب على المحلاوى توسيط فراح ظلما .

وفى يوم الجمعة ثانى عشريه وقع من الحوادث أن ملك الأمراء كان وضع فى الرميلة — عند القماحين تجاه سبيل المؤمنين فلقين حشب نحل كهيئة المشنقة ، ووضع فيهما حبالا وكلاليب حديد كبارا . وأشيع بين الناس أن ملك الأمراء يقصد بعد العيد أن يشنق جماعة من مشايخ العربان

ويشنق جانى بك كاشف الشرقية ، واينال كاشف الغربية ، ويشنق جماعة من الكملبه والانكشاريه ، فجاءوا الى تلك المشنقة ورموا الأخشاب التى هناك ، وقطعوا الكلاليب والحبال ، ثم توجهوا الى بيت كمشبغا الوالى وقصدوا أن يهجموا عليه ، ثم ضربوا النقباء الذين على بابه ، ثم توجهوا الى الوراقين وقصدوا أن يقتلوا الجماعة الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى حتى وسطوه ، وكادت أن تكون فتنة عظيمة ، وباتوا على ما كانوا عليه من طلب الشر مع ملك الأمراء .

وفى يوم السبت ثالث عشريه ثارت الكملية والانكشارية ، وطلعوا الى الرملة ، وقصدوا نحو المماليك الجراكسة ، وكان الأمير قايتباى الدوادار واقفا قدام باب السلسلة ، فلما رأى التركمان وتزايد الأمر منهم ، سل السيف هو ومن معه من الأمراء الجراكسة ، وقصدوا مقاتلتهم ، وأغلظ التركمان على المماليك الجراكسة ، وقالوا لهم ايش أنتم واقفون تتفرجوا علينا ، نحن فى بعضنا نفتتن ، ايش أدخلكم بيننا ، ثم انفض ذلك الجمع على غير رضا ، ونزل كل أحد الى داره ، ثم ان التجار نقلوا أمتعتهم من الدكاكين خوفا من النهب ، واختفى غالب تجار سوق الوراقين المعينين الذين كانوا تعصبوا على المحلاوى .

وفى يوم السبت المذكور توجه جماعه من الانكشارية والاصباهية الى بيت شخص من تجار الوراقين يقال له كريم الدين البلدى ، فنهبوا كل ما فيه ، وقبضوا على أولاده ونسائه وعبيده وجواريه ولم يظفروا به . ثم أشيع أنهم قبضوا على جماعة من الوراقين ووضعوهم فى الحديد ، وقيل انهم ممن تعصبوا وشهدوا على المحلاوى بما قيل عنه . فتنكد جميع التجار لهذه الواقعة ، وصار على رءوسهم الطيرة من التركمان ،

وحولوا أمتعتهم من الدكاكين ، وصارت الناس على وجل ، خوفا مما يأتي منهم ، واستمر التركمان على ما هم عليه من اقامة فتنة عظيمة والأمر لله تعالى .

وفى يوم الاثنين خامس عشريه نادى ملك الأمراء بالقاهرة بأن القاضى شيخ سوق الوراقين يظهر وعليه أمان الله تعالى ، وان لم يظهر بعد ثلاثة أيام وغمز عليه يحرق المكان الذى هو فيه والحارة أيضا ، واستمر كمشبغا الوالى مختفيا لم يظهر . وقد عين التركمان القتل لخمسة من تجار الوراقين وشخص من تجار الجملون يقال له ابن ظلام ، وهم الذين شهدوا على المحلاوى بما تقدم ، وتعصبوا عليه . واستمر الاضطراب عمالا بسبب ذلك .

وفى يوم الثلاثاء سادس عشريه ، حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو الصعيد بسبب ضم الغلال وغير ذلك ، وكان له نحو خمسة أشهر وهو مسافر ، فلما طلع وقابل ملك الأمراء خلع عليه قفطانا مخملا ونزل الى داره ، فزينت له سويقه اللبن ودكاكين الحشاشين .

وفى يوم الأربعاء سابع عشريه ، خلع ملك الأمراء على الأمير كمشبغا الوالى وأعيد الى الولاية ، وكان له عدة أيام وهو مختف لم يظهر بسبب واقعة المحلاوى ، وقد وقع بينه وبين الكملية فتنة ، وعينوا له القتل فاختفى وأغلق عليه أبوابه أياما ، فلما تلافى ملك الأمراء خواطر التركمان وأرضاهم ، وزاد فى جوامكهم ، وخمدت تلك الفتنة ، ظهر كمشبغا ، وخلع عليه واستقر على عادته ، فعز ذلك على التركمان .

ولما حضر القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن ابن ظلام شيخ سوق الجملون ، وخلصه من الحديد ، وألبسه قفطانا مخملا ، وأقره شيخ الجملون كما كان ، وضمنه فى مال له صورة يورده الى ملك الأمراء ، وكان ابن ظلام صهر القاضى بركات بن موسى ، فبذل معه المجهود حتى خلصه .

وفى يوم الخميس ثامن عشرى رمضان خرج العسكر المعين الى بندر جدة ، فخرجت تلك التجريدة فى ذلك اليوم وهم مابين مماليك جراكسة وتركمان ، وكانت عدتهم نحو ثلثمائة انسان من الفريقين ، وكان الباشا عليهم شخصا من العثمانية يقال له أغات الكملية ، وقيل انهم يتوجهون الى السويس ، وينزلون من هناك فى المراكب الى البحر المالح ، حتى يصلوا الى جدة ، وقد كثرت الاشاعات بسبب فساد الفرنج وعبثهم فى البحر على التجار ، وقد جاءوا نحو بندر جدة .

* * *

وفى شهر شوال وكان مستهله يوم الأحد ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وصلوا مع ملك الأمراء صلاة العيد ، ثم نزلوا الى دورهم ، وبطل ما كان يخلع فى ذلك اليوم من الخلع على قضاة القضاة والأمراء والمباشرين وأرباب الوظائف قاطبة ، وزال ذلك النظام العظيم من مصر كأنه لم يكن أبدا

وفى يوم الخميس خامس شوال ، وافق ذلك اليوم أول يوم من بابه ، فيه ثبت النيل المبارك على ثمانى أصابع من عشرين ذراعا ، وكان أرجح من نيل العام الماضى بذراعين وأصبعين ، فانه ثبت فى العام الماضى على ستة أصابع من سبعة عشر ذراعا ، وهبط سريعا فشرق غالب البلاد

وفى يوم الاثنين تاسع شوال جلس ملك الأمراء بالميدان ، وعرض عليه كسوة الكعبة الشريفة والمحمل الشريف وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الجمعة ثالث عشر شوال انتهى العمل من مدرسة الشيخ الدشطوطي رحمه الله تعالى عليه ، التى بالقرب من حدرة الفول تجاه زاوية الشيخ يحيى البلحى ، وخطب فى ذلك اليوم بها ، فاجتمع هناك الأمراء العثمانية ، والأمير جانم الحمزاوى ، وقضاة القضاة الأربعه ، وأعيان المباشرين ، ومشاهير الناس ، فلما كان وقت الصلاه صعد المنبر قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وخطب خطبة بليغة فى المعنى ، فلما انقضى أمر الصلاة أحضر الأمير جانم الحمزاوى زبادى صينى ضمنها سكر ، وشى أقسمه ، فطاف بها على الحاضرين ، وكان يوما مشهودا ، وجاءت هذه المدرسة فى غاية الظرف ، وذلك ببركة الشيخ عبد القادر الدشطوطى رحمة الله عليه .

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، خرج المحمل الشريف من القاهرة فى تجمل عظيم ، وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان أمير ركب المحمل فى هذه السنة الأمير برسباى دوادار ملك الأمراء ، فطلب طلبا حافلا يشتمل على محاسن كثيرة ، كما هى عادة الأطلاب القديمة ، وشق من القاهرة فى موكب حفل ، وقدامه جماعه من الأمراء الچراكسة والعثمانية وأعيان المباشرين ، والجم الكثير من العثمانية والانكشارية يرمون بالنفوط ، وجماعة من القواسة ، وخرج صحبته سنيح عظيم من الزاد والماء ، وكانت الحجاج قليلة لأجل غلو العليق ، والكراء تشحط فى هذه السنة الى الغاية .

***

وفى شهر ذى القعدة — وكان مستهله يوم الثلاثاء — طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفيه حضر قاصد من عند ابن عثمان ، وأشيع بين الناس أن سبب حضور هذا القاصد أن الخليفه محمد المتوكل على الله ، لما توجه الى اسطنبول ، توجه صحبة أولاد ابن عمه خليل ، وهما أبو بكر وأحمد ، فوقع بينهما وبينه هنالك فتنه ، فترافعوا الى الخنكار ، وقالا انه لما كان بمصر قعد على ودائع كثيرة ما بين مال وقماش أودعه عنده الأمراء الذين قتلوا ، وأخذ من خوند زوجة السلطان طومان باى وأمها مالا كثيرا ، وكذا أخذ من نساء الأمراء المقدمين الذين قتلوا من الأموال ما لا يحصى ، ولم يطالع الخنكار على شىء ، وتكلما فى حقه بالباع والذراع ، وما أبقوا فى ذلك ممكنا . فاعتدى الخنكار على الخليفة المتوكل على الله ، وانحط قدره عنده ، وساعدت الوزراء أولاد خليل عند الخنكار .

وكان الخليفة لما أقام باسطنبول أظهر فتكا زائدا ، واشترى له جوارى يضربن بالجنوك ، ثم انه قطع معلوم أولاد ابن عمه فشكوه الى الخنكار ، فحنق على الخليفة وأمر بأن جهاتهم تقسم ثلاثة أثلاث بين الجميع بالسوية ، فأرسل هذا القاصد يحاسب لهم على ذلك ، فلما حضر القاصد رسم على مباشرى الخليفة ، وعلى دواداره برد بك ، وقال لهم أقيموا لنا حساب معلوم أولاد خليل بغاية الانصاف

وفى يوم السبت خامسه جلس الأمراء بالمقعد الذى بالحوش السلطانى ، وحضر قدامه مصارعان ، وهما شخص يقال له الشاطر أبو الغيث الزريكشى ، وخصمه شخص أعجمى شنيع المنظر فى خلقته ، فتصارع مع الزريكشى فغلب الزريكشى ورماه الى الأرض ، وركب فوقه وعصره فى الأرض حتى كاد يموت ، فانتصر عليه وغلب أبا الغيث ، وألبس ملك الأمراء الأعجمى قفطان حرير ، ونزل من القلعة وقدامه طبلان وزمران ، وجماعة من العثمانية وشق من القاهرة ، وكان له يوم مشهود .

وفى يوم الأحد مع ليلة الاثنين رابع عشره ، خسف جرم القمر خسوفا فاحشا حتى أظلم منه الجو ، وأقام فى الخسوف فوق أربعين درجة ، وقد خسف أول ما أشرق عند طلوعه ، واستمر يتزايد فى الخسوف حتى مضى من الليل جانب كبير ووقع مثل هذا الخسوف فى السنة التى مات فيها السلطان الغورى ، وكان بين موته وبين الخسوف نحو شهرين ، وجرى ما جرى من الأهوال عقيب ذلك . ونسأل الله اللطف فى هذا الخسوف الثانى .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى خليج الزعفران ، وسبب ذلك أن الأمير كمشبغا الوالى صنع له هناك مدة حافلة ، وأضافه فنزل اليه ، وأقام هناك الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة ، وكان قبل ذلك بيوم توجه الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، وقيل انه أقام هناك الى ما بعد العصر ، وعاد الى القلعة من يومه المذكور .

وفى يوم الاثنين حادى عشريه ، وقع بين خير الدين نائب القلعة وبين قرا موسى أغات الاصباهيه بحضرة ملك الأمراء بالقلعة فتنة ، وسبب ذلك أنه وقعت فتنة كبيرة بين الانكشاريه وبين الاصباهية ، وصار فى كل ليلة يوجد فى الأزقة والطرقات جماعة مقتولون بالسيوف ، فعز ذلك على قرا موسى ، وقال لنائب القلعة خير الدين . هذا كله فى ذمتك انت الذى أطمعت الانكشاريه فى حق النـاس ، حتى صاروا يخطفون النساء والصبيان ، ويخطفون عمائم النـاس بأيديهم ، ويعرونهم ويقتلونهم ، ويخطفون بضائع السوقة ، والخنكار ما يدرى بشىء من ذلك ، وان بلغه ذلك فما يحصل لك خير . ثم فى عقيب ذلك صار الكيخية أغات الانكشارية يركب فى كل يوم ويشق من القاهرة ، فان وجد فى طريقه انكشاريا يأخذ عصاه ويكسرها ، ويقول له اطلع الى القلعة واقعد فى الطبقة ولا تنزل الى المدينة أبدا . وقيل انه منع الناس ألا يشتكوا أحدا من الانكشارية مطلقا ، واستمرت الفتنة ثائرة بين الاصباهية والانكشارية الى الآن ، وكل منهما على حذر من رفيقه .

ومما وقع فى الشهر من الحوادث أن جماعة من المماليك الجراكسة ، نحو عشرة مماليك ، فيهم شخص من قرابة الأمير قانصوه ابن الامير جركس ، وشخص آخر كان والى قليوب ، خرجوا على حين غفلة وقصدوا أن يتوجهوا الى الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام ، فلما وصلوا الى قطيا قبض عليهم نائب قطيا ، ووضعهم فى الحديد ، وأرسل كاتب ملك الأمراء فيهم ، فأرسل اليه ملك الأمراء جماعة من التركمان ليحضروهم ، فلما ، وصلوا الى قطيا أظهروا مرسوما من عند ملك الأمراء الى نائب قطيا بأن يضرب رقابهم أجمعين ، فامتثل ذلك وضرب رقاب العشرة مماليك ، وكان معهم شخص من العربان يرشدهم الى الطريق ، فضرب عنقه أيضا وكان قتلهم فى مكان بين الصالحية وقطيا يسمى حيرة والعافوله . فلما أشيع هذا الخبر شق ذلك على جماعة من المماليك الجراكسة ، وشق ذلك على نائب الشام أيضا ، ووقعت الوحشة بينه وبين ملك الأمراء خاير بك من يومئذ ، ودبت بينهما عقارب الفتن .

وفى يوم الاثنين ثامن عشريه ، كانت وفاة الكاتب المجيد أبى الفضل محمد السنباطى ، المعروف بالأعرج ، قيل انه مات فجأة على حين غفلة وكان له حظ .

ومن الحوادث العجيبة الغريبة التى لم يسمع بمثلها ما وقع فى أواخر هذا الشهر ، وأشيع

واستفاض بين الناس ، أن قانصوه خمسمائة الذى تسلطن قد ظهر بعد مضى هذه المدة الطويلة ، وأنه باق فى قيد الحياة ، وقد تغيرت هيئته وصار له ذؤابة شعر فى رأسه ، وقد ابيضت لحيته . فكان من ملخص هذه الواقعة أن شخصا من أبناء العجم كان يرسل الى ابنة قانصوه خمسمائة — التى كانت زوجة انسباى حاجب الحجاب — ويقول لها أنا أبوك ، فترسل اليه ما ينفقه ، فأقام على ذلك مدة طويلة ، ثم أنه حضر اليها تحت الليل صحبة طواشى ، فطلع الى باب السلسلة ، وكانت تزوجت بأمير آخور كبير مملوك ملك الأمراء ، فلما فشا أمره ، ولم يعرفه أحد من حاشية ابنة قانصوه خمسمائة ، بلغ ذلك زوج ابنة قانصوه خمسمائة ، فقبض عليه ووضعه فى الحديد ، وسجنه فى البرج الذى بباب السلسلة ، حتى يعرضه على ملك الأمراء ، ويتبين ما يكون من أمره ، وقد أنكر ذلك الناس قاطبة ، فان قانصوه خمسمائة له نحو ثلاث وعشرين سنة من حين قتل عند خان يونس الذى بالقرب من غزة ، وكان من أمره ما كان مع الأمير اقبردى الدوادار ، وقطع رأسه هناك وأرسلها الى الناصر محمد بن الأشرف قايتباى ، وعلقت على باب زويلة ، فكان أمر وجوده من الأمور المستحيلة التى لا تقبلها العقول السليمة بعد هذه المدة الطويلة .

* * *

وفى شهر ذى الحجة ، وكان مستهله يوم الخميس ، طلع القضاة الأربعة وهنوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

فلما كا نيوم السبت ثالثه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وأحضر مماليك الأشرف قايتباى ، ثم أحضر ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فاذا هو شخص أعجمى مربوع القامة ، أبيض اللحية ، وله ذؤابة شعر فى رأسه . فقال ملك الأمراء للحاضرين من مماليك الأشرف قايتباى : أهذا قانصوه خمسمائة الذى كنتم تعهدونه ؟ فقال العسكر قاطبة . ليس هذا قانصوه خمسمائة ، وهذا قصير القامة أسمر اللون . ثم أن ملك الأمراء ضيق على ذلك الشخص الذى زعم أنه قانصوه خمسمائة ، فقال له ملك الأمراء : ما حملك على ذلك ؟ قال . الفقر والفاقة وقلة ما فى اليد . فلما اعترف بذنبه رسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم بدا له أن يضرب عنقه بين يديه فى الميدان ، فضرب عنقه ومضى أمره ، ثم أحضروا له تابوتا فحملوه فيه ليغسلوه ويكفنوه ويدفنوه . فخمدت هذه الاشاعة التى أشيعت بسبب قانصوه خمسمائة . وكان غالب الناس الذين ليس لهم عقول صدقوا بذلك ، وقد تبين أن ذلك الرجل نصاب شيطان ، أخذ من ابنة قانصوه خمسمائة خمسمائة دينار . ويقول لها أنا أبوك . وكان ينصب على الناس ويقول لهم أنا قانصوه خمسمائة ، ويلصهم غير ما مرة ، فأراح الله الناس منه .

وفى يوم الخميس ثامنه ، خرجت تجريدة الى الأزلم تلاقى الحجاج ، وكان بها نحو مائة مملوك ، وكان الباشا عليهم كاشف الشرقية وصحبته جماعة من الانكشارية يرمون بالبندق الرصاص وكان الباشا عليهم شخص من العثمانية .

وفى يوم السبت عاشره ، كان عيد النحر ، وكانت الأضحية فى غاية الغلو ، وقد لا توجد ، فلم يضح من الناس الا القليل . وكان اللحم البقرى يباع فى تلك الأيام بنصف فضة كل رطل ، فلم يفرق ملك الأمراء على أحد من الناس أضحية فى هذه السنة ، وقطع أضحية الزوايا قاطبة ، وعادة الفقهاء والأتراك قاطبة ، كما فعل فى السنة الماضية .

وفى يوم الأحد ثامن عشره ، نزل ملك الأمراء من القلعة وعدى بر الجيزة ، وتوجه الى نحو

شبرامنت على سبيل التنزه ، فأقام هناك من يوم الأحد الى يوم الثلاثاء ، وأخذ معـه خياما كثيرة وسنيحا ، وصنع له هناك القـاضي شرف الدين الصغير مدة حافلة ، وكان صحبته جماعة من الأمراء العثمانية وغير ذلك من المماليك الجراكسة ، فلما رجع من شبرامنت أقام بالقلعة ثلاثة أيام ، ثم عزم عليه الأمير كمشبغا الوالى فى خليج الزعفران ، ومد له هناك مدة حافلة ، وأقام عنده الى ما بعد العصر ، ثم عاد الى القلعة فى يومه ، وكان نهار شعث وغبار وهواء مريسى ، فلم يتهنأ بالفرجة فى ذلك اليوم .

وفيـه حضر قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة ، وجرى منـه ما جرى كما تقـدم ذكره ، فأرسل ملك الأمراء خلفه ، وأحضره فى الحديد ، فأحضره الشريف بركات أمير مكة فى البحر المالح ، فلما حضر سجنه ملك الأمراء بالعرقانة التى هى داخل الحوش السلطانى الى أن يكون من أمره ما يكون .

وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الوقفة كانت عندهم بالجمعة ، وأن الأسعار انحطت عما كانت عليه قليلا ، وأخبر المبشر أيضا أنه لما دخل الحاج الى مكة ثارت فتنة عظيمة بين عبيد أمير مكة بركات ، وبين جماعة من العثمانية ، وقتل من الفريقين نحو عشرة أنفار ، ثم خمدت تلك الفتنة وزال الشر قليلا بعد ما كاد أن يتسع .

وفيه توفى صاحبنا الشرفى يحيى بن الناصرى محمـد الأزبكى ، الذى كان أغات الغـورى ، فأشيع بعد موته أنه وجد له من الذهب العين عشرة آلاف دينار ، فعد ذلك من النوادر ، فان أباه محمد الأزبكى لم يكن فى سـعة من المال ، ولا أجداده ولا أقاربه .

وفى يوم الخميس سلخ هـذا الشهر ، توفى الشيخ جلال الدين عبد الرحمن ، ابن الشيخ زين الدين قاسم المالكى ، وكان عالما فاضلا ، علامة فى مذهبه ، ولى قضـاء المالكية فى أيام السـلطان الغورى ، أخذها عن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن أبى شريف .

وفى ذلك اليوم وقع بالقلعة خباط هين ، وهو أن ملك الأمراء وقف له طائفـة من المماليـك الجراكسة بسبب أن لهم جامكية شهرين مكسورة ، فلمـا وقفوا اليه وبخهم بالكلام ، وطفش فيهم ، وقال لهـم لازلتم حتى أوقعتـم بينى وبين نائب الشام ، وأنتم تغـدون وتروحون وتشـكونى عنده . فقام الأمير قايتباى الدوادار وجعل يرقع للمماليك ويقول له هؤلاء مماليكك وعبيدك ، وانما يفعلون ذلك من الجوع والقلة . فقال ملك الأمراء والله لولا أنا ما خلى الخنكار مملوكا يلوح على وجه الأرض ، فانى شفعت فيكم من القتل . فقال له الأمير قايتباى : الكل صاروا رعيتك ، ولهم أولاد وعيال ، وقد مسهم الفقر والفاقة ، والآن يطلبون صدقة الخنكار وصدقتك ، فرسم بشهر واحد يصرف لهم من جامكيتهم ، وكان لهم شهران مكسوران فى الديوان .

وقد خرجت هذه السنة عن الناس على خير ، وهم مرتابون من الغـلاء وقلة الأمن وجـور التركمان عليهم ، وتناهى سعر الأردب القمح الى ثلاثة أشرفية واثنى عشر نصفا كل أردب ، والبطة الدقيق بأشرفى وخمسة أنصاف ، وقد تشحطت الأسـعار فى سائر البضائع من المآكل والمشرب ، وصارت التركمان يخطفون عمائم الناس من فوق رؤسهم جهارا ، ولم يجدوا من يمنعهم من ذلك ، ويقطعون الطريق على المتسببين والضيافات التى تطلع من البلاد ، وصاروا يخطفون النساء والمرد من الطرقات كل يوم من بين الناس ، ولم يجدوا

من يخلصهم من أيديهم ، وحصل للناس من أيديهم غاية الضرر .

ووقف الحال بسبب المعاملة من الفضة ، فانها كلها غش ونحاس وزغل ، وصار الأشرفى القايتبايى يصرف بخمسة وستين نصف فضة ، والسوقة لا تقبل من الفضة الا القليل ، وكذلك الفلوس الجدد . وقاسى أهل مصر فى هذه السنة شدة عظيمة ما قاساها قط أحد من الناس ، والأمر لله تعالى من قبل ومن بعد .

سنة ست وعشرين وتسعمائة (١٥٢٠ م) :

فيها فى المحرم — وكان مستهل الشهر يوم السبت — طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالعام الجديد ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفى يوم الثلاثاء رابعه ، كان ختان ولد قاضى القضاة المالكى يحيى ، بن قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم الدميرى رحمة الله عليه ، فكان له فى ذلك اليوم زفة حافلة رجت لها القاهرة ، فمشت من الجامع المؤيدى الى المدرسة الصالحية ، ومشى فيها أعيان الرؤساء من المباشرين والتجار ، ومشاهير الناس ، وغيرهم من الأعيان ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وكان يوما مشهودا . وفى أوائل ذلك اليوم مدت مدة حافلة حضرها الأمير جانم الحمزاوى وجماعة من الأمراء العثمانية ومن الأمراء الچراكسة وغير ذلك .

وفى يوم الاثنين رابع عشريه ، دخل الحاج الى القاهرة صحبة المحمل الشريف ، وأمير الحاج الأمير برسباى ، وقد أثنى عليه الحجاج خيرا بما فعله فى طريق الحج ، وكان معهم الأمن والرخاء بطول الطريق .

* * *

واستهل شهر صفر بيوم الأحد فطلع القضاة الثلاثة الى القلعة ، وهنوا ملك الأمراء بالشهر ، ولم يطلع قاضى القضاة الشافعى وكان مريضا منقطعا بداره له مدة طويلة لم يركب .

وفيه وقع من الحوادث أن ملك الأمراء عزل الشرف يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى ، واستقر بشخص من أبناء العجم ، وقيل من العثمانية ، عوضا عن يحيى بن التاج ، وكان ذلك الشخص عاريا عن العلم والفضيلة ، ليس له شهرة بين الناس ، فقامت الأشلاء على ملك الأمراء من العلماء والفقهاء ، وأنكروا عليه أنه عزل يحيى بن التاج عن مشيخة الحضور بالجامع المؤيدى من غير جنحة ولا سبب ، وقرر بها من هو من غير أهلها ، ولم يكن يستحق ذلك ، وهذا من البدع المنكرة .

وفى يوم الخميس خامسه ، نزل ملك الأمراء من القلعة ، وصحبته الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء الچراكسة ومن الأمراء العثمانية ، وجماعة كثيرة من المماليك الچراكسة نحو خمسمائة مملوك ، وقيل أكثر من ذلك ، ومن الاصباهية والكملية والانكشارية الجم الكثير ، وعدة رماة بالبندق الرصاص ، وأشيع عنه أنه يقصد التوجه نحو البلاد الشرقية ، فصلى صلاة الصبح ، ونزل وشق من القاهرة ، وشق من بين الترب ، واستمر سائرا والأمراء والعسكر حوله حتى نزل بالعكرشا ، ثم توجه الى شبين ، ثم توجه منها الى مرصفة ، وقد اختلفت الأقوال فى ذلك ، فمن الناس من يقول انه خرج يسرح فى الشرقية على سبيل التنزه والفرجة ، ومن الناس

من يقول انه خرج بسبب محاربة عربان السوالم ، والأول أصح ، فخرج صحبته سائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الثلاثاء عاشره . حضر القاضي بركات بن موسى من عند ملك الأمراء وعليه عمامة هوارية ، وقد خلع عليه قفطانا محملا مذهبا ، وحضر صحبته ستة أنفار بو وقد سلخوا وحشوا تبنا ، فقيل انهم من عربان السوالم فأركبوهم على خيول ، وعليها بركستوانات محمل ، وألبسوهم جوحا وشاشات على زنوط فوق رءوسهم ، وقدامهم اثنا عشر رأسا مقطوعة ، وهي على رماح ، قيل انهم من أعيان عربان السوالم ، فشقوا بهم من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فعلقوا جماعة من المسلوخين ومن الرءوس على باب زويلة ، علقوا الباقي على باب النصر

وكان من ملحص هده الواقعة ما أشيع واستفاض بين الناس ، أن اياس كاشف الشرقية تحيل على مشايخ عربان السوالم ، وأرسل لهم بالأمان ، فركنوا له وحضروا اليه ، فصنع لهم ضيافة ، فلما استقروا عنده أرسل يعلم ملك الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضي بركات بن موسى ومعه جماعة من المماليك الچراكسة ، فتوجهوا نحو عربان السوالم ، وخرج صحبتهم عربان البلاد المجاورة من منية حمل والجوسق المحروقة وغير ذلك ، فوقعوا مع السوالم ، وكان بينهم واقعة مهولة ، فانكسرت السوالم وقبضوا على بقية مشايخهم .

ثم ان العسكر والعربان نهبوا نجع السوالم عن آخره ، وغنموا منه ما لا يحصى من جمال وخيول وسلاح وقماش ونحاس ومصاغ وغير ذلك من عبيد وجوار ، حتى أخذوا نساءهم وأولادهم ، فلما وقعت هذه الكسرة على السوالم هرب من بقي منهم الى الأودية والجبال ، فلما جرى ذلك سلخ الكاشف مشايخهم وأرسلهم الى القاهرة كما تقدم ذكر ذلك ، قيل كان فيهم من هو من أولاد قراجا بن طراباي شيخ جبل نابلس .

وأشيع أن ملك الأمراء رحل من جهة مرصفة وتوجه الى بنها العسل وأرسل سنيحه ومطبخه الى القلعة وأشيع عوده الى القاهرة .

وفي يوم الأربعاء حادي عشره رجع ملك الأمراء الى القاهرة ، فأتى من جهة قنطرة الحاجب ودخل من باب الشعرية ، وخرج من باب القنطرة ، وطلع على سوق مرجوش . وشق من القاهرة في موكب حافل ، وقدامه جماعة من الانكشارية الرماة ، وقدامه بعض جنائب ، ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية من باب الشعريه ، وكان عليه قمطان جوخ أحمر ، وكان قدامه ما اصطاده من الكراكي والأوز العراقي ، فاستمر في ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، وكان يوما مشهودا ، وكانت مدة غيبته في هذه السرحة سبعة أيام بلياليها .

ثم دخل بعده شيخ العرب نجم شيخ العائد ، وهو في الحديد ، وقد نسبوا اليه انه كان متواطئا مع عربان السوالم وهو من أغراضهم ، فقبض عليه ملك الأمراء ووضعه في الحديد حتى يكون من أمره ما يكون . ولم يكن في نزول ملك الأمراء الى الشرقية خير للناس ، فرعى العسكر زرع البلاد وقدمت له مشايخ العربان نحو ألفي رأس غنم ، فوزعوا ذلك على بلاد الشرقية ، وأحضروا له من شيبين ستمائة أردب شعير ، وذلك غير التقادم من خيول وجمال وغير ذلك من ذهب عين فوق العشرة آلاف دينار .

وقيل ان ملك الأمراء كان في هذه السرحة لا يصحو من السكر ليلا ولا نهارا ، حتى أشيع عنه انه أخذ معه أربعين بغلا وهي محملة بيذا

اقريطشى ، فكان فى نزوله هناك غاية الضرر فى حق الناس ، ولولا أنهم أخدوا عرب السوالم بحيله لما قدروا عليهم أبدا .

وفى يوم تاريخه عاين مؤلف هـذه الوقائع بالمشاهدة ، حضـور القاضى بركات بن موسى المحتسب ، وطلوع ملك الأمراء فى دلك الموكب المقدم ذكره ، فلما طلع ملك الأمراء الى القلعـه قدمت الأخبار من الشرقيه بأن عربان السوالم لما حصلت لهم تلك الكسرة توجهوا الى الصـالحية ونهبوا ما فيها فأحرقوها بمـا حولها من الضياع وحصل منهم عايه الضرر الشامل ، وهدا كله من سوء تدبير اياس كاشف الشرقية ، فانه استعجل بقتل مشايخ عربان السـوالم وكانوا من بوابع أعيان السوالم ، فسلخ الجميع . ومنها أنه نهب نجعهم ، وأخذ أموالهم ومواشيهم ، واسر حريمهم حتى قيل انه أسر ستين امرأة من اعيان نسائهم ، وأسر أولادهم . فلما طفشوا فى البلاد أرسل ملك الأمراء يهول للكاشف أطلق نساء السوالم وأولادهم الذين عندك من كل بد ، وقد استدرك ملك الأمراء ما وقع منه فى حق مشايخ عربان السوالم

وقـد أشيع امر هده الفتنه من كل جانب ، واستمرت أرباب هده الدوله فى آراء معكوسه ، ليس لأحد منهم رأى سديد ، ولا له مستشار يرجع اليه ، وصار كل منهم يشير برأى غـير صواب ، ويتكلم بكلام غير مفيد ، وقد ضاعت الكلمه بينهم وآل أمر مملكة مصر الى الخراب ، وكل هذا من سوء تدبيرهم ، وقلة معرفتهم ، وعـدم تجاوبهم للأمور ، وقلة نظرهم فى العواقب ، مما يؤول أمره الى خير أو شر ، فنسأل الله تعالى اصلاح الحال ، وحسن الخاتمة ، واخماد هده الفتن عن قريب

وفى يوم الجمعة ثالث عشره خلع ملك الأمراء على اخى نجم ، واستقر به شيخ العايد ، عوضا عن أخيه نجم ، وقـد بلغـه أن أحوال الشرقية قـد اضطربت الى الغاية ، وثارت بها العربان للفساد ، فلما خلع عليه خرج من يومه الى الشرقية بسبب هذا الفساد .

وفى يوم السبت رابع عشره ، أرسل ملك الأمراء تجريدة الى الشرقية ، وعين بها نحو مائة مملوك من الجراكسه وغيرهم ، وعين جماعة من الكمليـة والاصباهية ، وجماعـة من الرماة الانكشارية ، وجهز عجلات تخرج صحبتهم اذا خرجوا ، وقيل ان اياس كاشف الشرقيـة محاصر مع العربان فى بلبيس ، وقد أرسل يطلب نجدة بسرعة ، وأشـيع أن عربان نجم شيخ العايد لما أمسك صاروا يعرون الناس فى رأس المطرية ، وعند تربة العادلى .

وفيـه أشيع أن جماعة من الانكشارية هجموا على سوق النحاسين وأخدوا ما فيه من النحـاس لأجل أن يسبكوه مكاحل للبنـدق الرصاص ، فحصل للتجار الضرر الشامل من دلك ، وكانت حركة هؤلاء الجماعة الذين قتلوا من عرب السوالم من أكبر أسباب الفساد فى أحوال المملكة ، وأنهم لو أبقوهم فى قيد الحياة وسجنوهم لكان ذلك عين الصواب ، وأرجى لخمود هده الفتن ، ولـكن عجلوا بقتلهم حيث ظفروا بهم . فكان كما يقال فى المعنى :

أمـور نضحك السفهاء منها
ويبكى من عواقبهـا اللبيب

وفى يوم الثـلاثاء سابع عشره خرجت التجريدة التى عينها ملك الأمراء الى السوالم ، وكان الباشا عليها شخصا من أمراء العشراوات يقال له جانبردى الأشقر - الدى كان كاشف البحيرة أخو تنم الدى كان خازندار الملك الناصر محمد ابن الأشرف

قانصاى ، • كان بها من المماليك الجراكسة وغيرهم مائة مملوك . وتوجه قبل ذلك الى كاشف الشرقية ستون مملوكا نقموں عنده ، فخرجت التجريدة فى ذلك اليوم ، وتوجه من بها من المماليك الى خانقاه سرياقوس

وفى يوم السبت حادى عشريه ، حضر اياس كاشف الشرقية وصحبته جماعة ممن بقى من أعيان عربان السوالم ، وقد أتوا الى اياس طائعين بعد أن رأوا عين الغلب ، فأحضرهم الى ملك الأمراء ، فلما قابلوه خلع عليهم ، وأقرهم فى مشيخة عربان السوالم عوضا عمن قتل منهم ، وخمدت فتنة السوالم ، وكان ذلك على غير القياس من أمر هذه الفتنة .

* * *

وفى شهر ربيع الأول وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم .

وفى ذلك اليوم قدم قاصد من عند الخنكار سليم شاه ابن عثمان ، وقد حضر من البحر المالح الى ثغر الاسكندرية ، فلما طلع الى القلعة قرأ مراسيم الخنكار على ملك الأمراء .

وأشيع بين الناس أن الخنكار أرسل يقول لملك الأمراء أن يتوصى بالمماليك الجراكسة ، ويصرف لهم جوامكهم ولحومهم وعليقهم والأضحية والكسوة على العادة .

وأشيع أنه أرسل يقول لملك الأمراء كل من شوش من التركمان على أحد من الرعايا يشنقه من غير معاودة ، وأرسل يأمر ملك الأمراء بأن ينادى للناس بقطع الطرقات والشوارع والأسواق قاطبة فأخذ الناس فى أسباب ذلك ، وشرعوا فى قطع الطرقات .

ثم أشهروا المناداة فى القاهرة على لسان الخنكار حسبما رسم بأن لا احد من الانكشارية ولا من الأصباهيه يشوش على أحد من الناس ، ومن فعل ذلك بأحد يمسكه من طوقه ويتوجه به الى خير الدين نائب القلعه ، فأشهر المناداه بذلك أربعة مشاعليه ، اثنان يناديان بالتركى ، واثنان ينادیان بالعربى ، وهم قدام الأمير كمشبغا والى القاهرة ، وأظهروا العدل فى ذلك اليوم ، وليته دام .

ثم اشيع بين الناس أن الخنكار لما أرسل الى ملك الأمراء بطلب سنان باشا وفائق بك بأن يحضرا هما والأسباهيه الى اسطنبول سافروا ، فلما وصلوا هناك أحضر الخنكار سنان باشا بين يديه وأمر بشنقه ، فاقام مصلوبا ثلاثة ايام لم يدفن .

وأشيع أن طائفة من الاصباهيه الذين كانوا بمصر وأرسل طلبهم ، لما دخلوا مدينة اسطنبول ضرب رقاب اربعمائة اصباهى منهم ، ممن أشيع عنه الفساد بمصر من جماعة سنان باشا .

وأشيع أن الخنكار أرسل يحط على ملك الأمراء خاير بك بسبب تراخيه فى حق طائفة الانكشاريه والأصباهيه حتى جاروا على الناس ، وصاروا يتشوشون على الرعية ، وقد بلغ الخنكار ما يصنعونه بمصر من خطف النساء والمرد وبضائع المتسببين وخطف صيافات الناس ، فلما حضر القاصد فى ذلك اليوم وقرءوا مرسوم الخنكار بحضرة قضاة القضاة ، شهدوا بأن ملك الأمراء ناظر فى مصالح الرعية ، والناس عنه راضية ، وكانت هذه الشهادة عين الرياء ، واتباع الجاه لأجل المناصب .

ثم ان ملك الأمراء قصد أن يكتب محضرا ويأخذ عليه خط القضاة الأربعة بأن مصر فى غاية العدل والرخاء والأمن ، فلم يوافقه القضاة على ذلك ، وقالوا نكتب خطوط أيدينا على شىء باطل ويبلغ الخنكار بخلاف ذلك ، فنختشى على أنفسنا منه أن نذكر أن مصر فى غاية العدل والأمن والرخاء ، وأن التركمان لم يتشوشوا على أحد من الرعية ، وهذا باطل لا يجوز ، فرجع عن ذلك .

وفى يوم الخميس حادى عشره ، عمل ملك الأمراء المولد الشريف النبوى بالقلعة ، وجلس فى المقعد الذى بالحوش السلطانى ، وحضر القضاة الأربعة على حكم السنة الماضية .

وفيه قدمت الأخبار من مكة المشرفة بأنه وقع بين الشريف بركات أمير مكة وبين نائب جدة أغات الكملية الذى يسمى الكيخية ، واضطربت أحوال مكة الى الغاية .

وفى يوم الأحد رابع عشره ، خلع ملك الأمراء على الأمير جانم الحمزاوى كاشف البهنسا والفيوم وقرره أمير الحج بركب المحمل ، فنزل من القلعة موكب حافل

وفيه كانت كائنة الأمير جان بردى الأشقر ، أحد الأمراء العشراوات ، وهو أخو تمر الذى كان نائب الاسكندرية ، قيل انه عزم عليه شخص يسمى تمر الظاهرى ، فلما دخل عليهما الليل وقع بينهما تشاجر ، فثارت فى ذلك المجلس فتنه كبيرة فقتل فيها جان بردى الأشقر ، ولا يعلم من قتله من الحاضرين ، وقبضوا على من كان حاضرا ، واختفى تمر صاحب البيت ، وكانت واقعة مهولة فلما بلغ ملك الأمراء ذلك شق عليه قتل جان بردى الأشقر ، فانه كان صاحبه ، فأخذ فى الفحص على كل من كان سببا لقتله ، وألزم الوالى باحضار تمر الذى قتل فى بيته

وفيه أخرج ملك الأمراء تجريدة الى ثغر الاسكندرية بسبب عبث الفرنج هناك بالمسافرين وكان بها من العسكر نحو مائة انسان ، ما بين مماليك جراكسه وأولاد ناس وعثمانية وغير ذلك .

* * *

وفى شهر ربيع الآخر -- وكان مستهل الشهر يوم الثلاثاء -- طلع قضاة القضاة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثالثه خرج الأمير جانم الحمزاوى الى السفر ، وقصد التوجه الى اسطنبول فخرج فى موكب وصحبته الأمراء الجراكسة والمباشرون وأرباب الدولة من الأمراء العثمانية ، وقد أرسل ملك الأمراء صحبته تقدمة حافلة الى السلطان الملك المظفر سليم خان ، وكان ما اشتملت عليه تلك التقدمة على ماقيل : من الخيول الخاص خمسين فرسا ، وفيها بغلة قيل مشتراها خمسمائة دينار ، ومن القماش الحرير والتفاصيل السكندرى أشياء كثيرة ، ومن الشاشات المابنى أشياء كثيرة منها ما طوله مائة وعشرون ذراعا ، وأرسل اليه ملك الأمراء من جملة هذه التقدمة خمسمائة قنطار سكر معمولة بمسك ، ومن الأشربة والمربات أشياء كثيرة ، وأرسل اليه من الفصوص والمعادن واللؤلؤ أشياء كثيرة ، ومن الصينى اللازوردى والشفاف أشياء كثيرة ، وغير ذلك من التحف الغريبة مما يهدى للملوك .

وفيه قدمت الأخبار من تونس ببلاد الغرب بأنه قد وقع بها فتنة عظيمة بين صاحب تونس وبين الشيخ محمد بن تليس صاحب بصرت ، وكانت بينهما واقعة عظيمة فى أوائل صفر ، وقتل فى هذه

المعركة نحو أربعين ألف انسان ، وآخر الأمر انتصر السلطان حسن بن محمد صاحب نوس على ابن تليس ، وغنم منه غنائم جزيلة ، مابين مال وقماش وسلاح وخيول وجمال وغير ذلك .

وفيه نزل ملك الامراء الى بولاق ، واقام بها الى قريب الظهر ، فأحضر اليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة ، ما بين خرفان شوى ، وقدور هريسة ، وماموية ، وفاكهة وحلواء ، ومشموم .

ثم ان ملك الأمراء عرض المراكب الأغربة التى أنشأها ، ولعبت قدامه فى البحر ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية ، ونصب له سحابة فى الجزيرة التى تجاه انبابة ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الاثنين حادى عشريه ، كان عيد النصارى ، وهو اول يوم الخماسين ، وكانت خماسين مباركة ، لم يظهر فيها الطاعون بمصر ، ولا فى غيرها من الثغور .

وفيه توفى شرف الدين الجوينى الذى كان مباشر ديوان الأمير ازدمر الدوادار ، وباشر أيضا ديوان الأمير كسباى المحتسب ، وكان لا بأس به .

ومما وقع من الحوادث الشنعه ، أن امرأة مسلمة تبست مع شخص يهودى ، فلما شاع أمرهما قبض على اليهودى وعلى المرأة ، وعلى المكارى الذى أركب المرأة ، وقبض على شخص اسكاف كان واسطة بين المرأة واليهودى ، فلما عرض امرهم على ملك الأمراء ، أمر بضربهم بالمقارع ، وسجن المرأة بالحجرة ، وسجن اليهودى بالديلم ، حتى يكون من أمرهم ما يكون .

وفيه قدمت الأخبار من حلب : أن عبد الرزاق أخا على دولات ، وثب على ابن أخيه سوار ، وقد التفت عليه جماعة من التركمان البياضة والأكراد . فحصل بينهما واقعة مهولة ، فقتل بها جماعة كثيرة من التركمان ، وأشيع قتل سوار فى المعركه ، وفد ملك عبد الرزاق من سوار الابلستين والمرعش وغير ذلك من البلاد ، واستمرت الحرب ثائرة بين الفريقين ثمانية أيام ، وانتصر عبد الرزاق على سوار ، ثم خمدت هذه الاشاعات من بعد ذلك كأنها لم تكن .

* * *

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعه ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم وفى هذا الشهر تزايد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وبلغ سعر القمح ثلاث أشرفيات كل أردب ، وبلغ سعر الأردب الشعير أربعمائة درهم ، والفول ستمائة درهم كل أردب ، وشطح السعر فى سائر الحبوب ، وبلغ كل رطل سمن أربعة أنصاف ، والشيرج ثلاثة أنصاف كل رطل ، والأجبان قاطبة فى غاية الغلو ، واللحم الضأنى كل رطل بثمانية عشر درهما ، واللحم البقرى كل رطل بستة عشر نقرة ، وبلغ سعر السكر ثمانية أنصاف كل رطل ، وبلغ سعر العسل الأسود كل رطل ثلاثة أنصاف ، وبلغ سعر الصابون كل رطل خمسة أنصاف ، وعلى هذا فقس سائر البضائع والغلال وغير ذلك ، حتى بلغ سعر الراوية من الماء أربعة أنصاف ، وعم هذا الغلاء أنواع القماش قاطبة ، البياض والملون والحرير والصوف والجوخ ، وغير ذلك من القماش .

وسبب ذلك الغش فى المعاملة من الذهب والفضة ، وصار الأشرفى البرسبيهى يصرف بثلاث أشرفيات فضة ، والأشرفى القايتباهى يصرف بأشرفيين وثمانية أنصاف ، والأشرفى الغورى يصرف بأشرفيين وأربعة أنصاف ، وكذلك الأشرفى العثمانى ضرب الخنكار . وأما الفضة فجميعها فى غاية الغش والفساد ، وصار

النـاس فى أمر مريب بسبب ذلك . وقد تغيرت أحوال الديار المصرية تغيرا فاحشا الى الغاية ، وفوق ذلك جور التركمان فى حق أهل مصر من الخطف والنهب ، وأخذ أموال الناس بغير حق ، وخطف النساء والمرد من الطرقات .

ومن الوقائع الغـريبة ، كائنة الشيخ محمـد الرشيدى الذى كان ناظر الكسـوة ، وناظر الجوالى وغير ذلك من النظارات ، وكان الخنكار قرره فى ذلك ، وقد سعى له حليم جلبى فى ذلك ، وكان من جماعة الخنكار ، فاستمر على ذلك . ثم سعوا فى الرشيدى من عند ملك الأمراء ، فأخرج عنه ما كان بيده من النظارات ، فحصـل له غاية القهـر ، فاختفى وخـرج فى الدس صحبة بعض الهجانة على أنه يتوجه الى الخنكار بشكو له ملك الأمراء الذى أخرج عنه النظارات التى كان الخنكار قرره فيها ، فلما وصل الى قطيا قبض عليه نائب قطيا ، وعلى الهجان الذى كان صحبته ، وقال له أمعك مرسوم ملك الأمراء ، فقال انما رسم لى مشافهة ، فضيق عليه نائب قطيا ، فاعترف الرشيدى أنه خرج هاربا من ملك الأمراء . فقبض عليه نائب قطيا ووضعه فى الحديد ، وأشيع أنه شنق الهجان هناك ، وأرسل الرشيدى فى الحـديد الى ملك الأمراء . فلما وقف بين يديه وبخه بالكلام ، وقال له أنت تتوجه الى الخنكار وتشكونى له . ثم ان ملك الأمراء رسم بسـجن الرشيدى فى العرقانة التى هى داخل الحوش السلطانى .

وفيه أرسـل ملك الأمراء بالقبض على شخص يسمى محرات مقدم ، كاشف الغربية ، وقد كثرت فيه الشكاوى من الفلاحين ، واشيع عنه أنه ضرب شخصا من الفلاحين حتى مات تحت الضرب ، فلما مثل بين يدى ملك الأمراء أمر بتوسيطه فوسطوه فى باب زويلة .

وفى ذلك اليوم رسم ملك الأمراء بشنق اثنين من الكملية لأمر أوجب ذلك .

ومن الحوادث أنه فى يوم الثلاثاء سادسه ، وقع للأمير قايتباى الدوادار واقعـة مهولة ، وهى أنه سار الى نحو المطرية وعاد ، فلما دخل من باب النصر ، وجد عند وكالة الصابون بعض الانكشارية قد أخذ من شخص يبيع الصابون خمسة أرطال ، ودفع اليه ثمانية أنصاف ، وكان الصـابون قيمته أشرفيا ، فلما رأى صاحب الصابون الأمير قايتباى الدوادار تعلق بلجام فرسه ، وقص عليـه قصته ، وكان الانكشارى ضرب صاحب الصـابون حتى أدمى وجهـه ، فأرسل الأمير قايتباى مع صاحب الصابون بعض مماليكه الى الانكشارى لعله يعطى صاحب الصابون شيئا فوق ذلك القدر ، فلما قابل ذلك المملوك الانكشارى أغلظ عليـه المملوك فى القول ، فحنق منه الانكشارى فضرب المملوك على وجهـه فأدماه . ثم ان المملوك ضربه على وجهه بدبوس فأدماه ، فاتسعت الفتنـة بينهما ، فمضى الانكشارى الى أصحابه وأعلمهم بما جرى له مع مملوك الدوادار ، فاجتمع الجـم الكثير من الانكشارية وتوجهوا الى بيت الأمير قايتباى الدوادار ، وهجموا عليـه ، وبأيديهم سـيوف مسلولة ، وقصدوا أن يحرقوا بيته وينهبوه فاختفى منهم . فلما بلغ الكيخية أغات الانكشارية ركب ورد الانكشارية ، وخمدت تلك الفتنة . فلما بلغ ذلك ملك الأمراء شق عليه ذلك ولام الأمير قايتباى الدوادار على ما فعله .

ثم ان ملك الأمراء أرسل طلب المملوك الذى ضرب الانكشارى وأثار هـذه الفتنة ، فلما مثل

بين يديه أمر بضربه فضربوه ضربا مبرحا ، وسجن بالعرقانه ، فسكن ذلك الأصطراب قليلا ، وصار الأمير قايتباى على رأسه طيرة من الانكشارية ، وهو مهدد بالقتل منهم فى كل يوم ، وزعم الانكشارى الذى ضرب أنه سقط منه خنجر مفضض وسيف ، وادعى أنه كان معه ثلاثون دينارا فسقطت منه ، فدفع اليه الأمير قايتباى الدوادار عشرين دينارا على ما أشيع . هكذا قيل . وصار الأمير قايتباى لا يأمن على نفسه أن يطلع القلعة وحده ، وكان يركب فى كل يوم ومعه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، ويتوجه الى قبة يشبك التى بالمطرية ، ويقيم بها الى آخر النهار ، ثم يعود الى داره ومعه المماليك الجراكسة ، فاستمر على ذلك أياما ، ثم خمدت تلك الفتنة ولله الحمد .

وفى يوم الجمعة تاسعه ، قدمت الأخبار من حلب بأن خارجيا من التركمان يقال له جلال المهتدى ، قد تصدى لمحاربة الأمير على بن شاه سوار ، والتفت عليه جماعة كثيرة من التركمان . وكان جلال هذا من قرية بالروم يقال لها اعلاق شرى بوز ، فكان بينه وبين الأمير على بن سوار واقعة مهولة ، وقتل من التركمان بها نحو ثلاثة آلاف انسان ، وأشيع أن الأمير ابن سوار قد جرح فى وجهه بطبر ، وانتصر ابن سوار على ذلك الخارجى الذى يقال له جلال المهتدى ، وفر منه الى بلاده ، فخلع ملك الأمراء على الهجان الذى أتى بهذا الخبر ، ثم خمدت هذه الاشاعة كأنها لم تكن .

وفى ليلة الخميس خامس عشره ، خسف القمر ، وأظلمت الدنيا ، فأقام فى الخسوف نحو ساعة ثم انجلى عنه ذلك الخسوف .

وفى ذلك اليوم قبض القاضى بركات بن موسى المحتسب على أخى محمد بن خبير ، وضربه ضربا مبرحا حتى كاد أن يهلك ، ثم أشهره فى بولاق . وكان سبب ذلك أنه حجز على بيع الفول ، وصار يشتريه على ذمته ويخزنه ، فشحط سعر الفول فى تلك الأيام ، وكان أخوه محمد بن خبير متحدثا فى أمر الغلال التى كانت ترد من البلاد قاطبة ، وكان محتميا بالأمير جانم الحمزاوى ، فجار على الناس بسبب بيع الغلال ، فحنق عليه القاضى بركات بن موسى وضربه كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء كان سعر الذهب العثمانى أن يصرف بأشرفيين ، وكان قبل ذلك يصرف بأشرفيين وخمسة أنصاف ، وصار البيع بيعين بيع بالذهب ، وبيع بالفضة ، فوقفت أحوال الناس بسبب ذلك .

ثم ان ملك الأمراء نادى فى القاهرة بأن لا أحد من الناس يرد معاملة الفضة ، وكل من ردها شنق من غير معاودة ، وكانت الفضة يومئذ فى غاية الغش كلها نحاس ، اذا باتت ليلة واحدة تنكشف كلها ، وكانت الانكشارية تدخل الأسواق وترمى تلك الفضة النحاس على التجار ، فكل من رد منها شيئا تنهب دكانه ، ويضرب ذلك التاجر حتى يأخذها غصبا على رغم أنفه ، فيأخذون منه أشرفيا ذهبا ويعطونه أشرفيين من تلك الفضة النحاس ، فحصل للناس فى ذلك غاية الضرر الشامل .

وفى يوم الجمعة سادس عشره خطب فى مدرسة الست خديجة ابنة درهم ونصف ، التى بالقرب من جامع التركمانى عند طاحون السدر ، فاجتمع هناك قضاة القضاة الأربعة ، وأعيان المباشرين ، وأعيان الناس ، وخطب بها فى ذلك اليوم قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكان أصل هذه المدرسة قاعة أنشأها الدرهم ونصف ، ثم بدا لابنته خديجة أن تجعلها مدرسة ،

فأنشأت بها المحراب وجعلت بها منبرا ومئذنة ، وجعلت فيها خلاوى للصوفيه ، ثم أنها وقفت عليها جميع جهاتها المخلفة عن والدها ، فجاءت من محاسن الزمان ، وكان ذلك عين الصواب ، وقصدت بذلك الأجر والثواب

وفي هذا الشهر قدم جماعة كثيره من اسطنبول ممن كان نفى اليها من الأعيان بالديار المصرية ، منهم كمال الدين بن معين الدين الموقع ، وابن نصر الله ، ومرعى الذى كان من جماعة الأتابكى سودون العجمى ، وأحمد الضيروطى ، ومحمد بن فروشيخ جهات الأميرية ، وحضر محمد بن ابراهيم الذى كان متحدثا على الزمامية ، وحضر محمد ابن القاضى فخر الدين بن العفيف الذى كان كاتب المماليك ، وحضر محمد بن على كاتب الخزانة ، وحضر ابن العسريطى ، وحسام الدين بواب الدهيشة ، وآخرون منهم لم يحضرنى أسماؤهم الآن ، والكل فروا من اسطنبول من غير اذن من الخنكار ابن عثمان .

وحضر جماعة من السيوفيه والحدادين والنجارين والبنائين والمرخمين وغير ذلك ممن كان توجه الى اسطنبول ، فحضر الكل هاربين من غير علم السلطان ، فلما حضروا أشيع موت ابن شقيرة التاجر الذى من سوق مرجوش ، وأشيع موت جماعة كثيرة هنالك من اعيان أهل مصر قبل ذلك . وقدمت الأخبار بوفاة جاذ بك دوادار الأمير طراباى ، وكان من وسائط السوء . وتوفى محمد ابن يوسف الذى كان ناظر الأوقاف ، وكان من وسائط السوء أيضا . وتوفى محمد المسكى الذى كان من سوق الوراقين ، وتوفى هنالك جماعه كثيرة لم يحضرنى أسماؤهم الآن .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من اليهود الصيارفة ، من جماعة المعلم يعقوب اليهودى ، فضربه بالمقارع ثم قطع يده وعلقها فى عنقه ، وأشهره فى القاهرة ... وكان سبب ذلك ما أشيع عنه أنه يشترى الفضة النحاس المغشوشة ، ويصرفها فى الجامكية ، وقد قلق العسكر من ذلك

وفى يوم الخميس ثانى عشريه ، كان دخول الشرفى يحيى ابن الأمير طراباى رأس نوبة النوب على ابنه الأمير بيبرس ابن بنت سيرين ، ولست أعلم اسم أبيه ولا جده ، وهو يزعم أنه ينتسب الى الملك الظاهر برقوق بقوله ، فكان كما يقال فى المعنى .

شبهته مثل العقاب فأمه
معلومة وله أب مجهول

فكان له مهم حافل من المهمات المشهورة ، فصرف على المحبوز فى السماط ألف دينار ، وذبح فيه اثنتى عشرة بقرة ، ومن الخيل ثلاثة أرؤس ، ومن الغنم مائة رأس ، ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز مائتى زوج ، وصرف على الشمع المزهر مائة دينار ، وصرف على الخيام والتعاليق أربعين دينارا ، وعلى السقائين عشر أشرفيات ، وكان له زفة حافلة مشى فيها جماعة من الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية ، فمشوا فيها من بيت الأمير قانتباى الدوادار الى بيت القاضى عبد العظيم الذى عمل فيه العرس وكانت ليلة حافلة . وفيه رسم ملك الأمراء بشنق شخص من عمال البلاد ، فشنق على قنطرة الحاجب بعد العصر ، وكان سبب ذلك ما أشيع عنه أنه زور مراسيم على لسان بعض المباشرين باستخراج الرزق التى بالغربية ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل أحضره ، فلما حضر أمر بشنقه من يومه ، فشنق بعد العصر وأراح الله الناس منه .

* * *

واستهل شهر جمادى الآخرة بيوم الجمعة ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الاثنين رابعه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليم خان ابن عثمان ، فكان من مضمونها : انه أرسل يطلب الأمير كمشبغا والى القاهرة ، وقد بلغه ما فتحه من أبواب المظالم بمصر ، وقد كثرت فيه الشكاوى من الناس عند الخنكار ، فطلبه من ملك الأمراء عدة مرار ، وهو يتناسى عليه ، فلما رأى الطلب حثيثا فى أمره ، فما وسعه الا أن أرسله ، فخرج على وجهه فى أثناء هذا الشهر ، وسافر الى اسطنبول من البر دون البحر . وكان من وسائط السوء ظالما غشوما ، عسوفا سفاكا للدماء ، استباح أموال المسلمين ودماءهم ، فلم يتأسف لخروجه أحد من الناس ، وفرح غالب الناس لخروجه من مصر . وكان أصل كمشبغا هذا من مماليك ملك الأمراء رومى الجنس ، سيىء الخلق شديد البأس ، فلهج الناس بعدم عوده الى مصر .

وفى يوم الثلاثاء خامسه توفيت الست فضل العزيز ، وكانت يومئذ متزوجة بالشيخ عبد المجيد الطرينى ، فكانت لها جنازة مشهورة

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع للشيخ عبد المجيد الطرينى بسبب القتيل الذى قتل ، واتهموا به جماعته ، واتسعت هذه الكائنة حتى كاد أن تخرب دياره فى هذه الحركة ، وأمرها مشهور بين الناس بما وقع له بالمحلة ، واتصل خبرها بملك الأمراء ، وكان من أمرها ما يطول شرحه ، وتعصب لأبى الصبى الذى قتل الشيخ عبد الله بن الغمرى ، وآل أمر هذه الكائنة الى مال له صورة غرمه الشيخ عبد المجيد الطرينى .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن نائب الشام الأمير جان بردى الغزالى تغير خاطره على قاضى القضاة الشافعى ولى الدين محمد ابن قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن فرفور الدمشقى ، فهم بقتل القاضى ولى الدين غير ما مرة ، ففر منه واختفى مدة طويلة ، ثم ظهر بعد ذلك بمدينة حلب ، قيل انه كاتب ابن عثمان بما وقع له مع الغزالى ، فأرسل اليه مرسومه بأن يلى قضاء الشافعية بحلب ، فاستقر بها وأرسل لاحضار عياله وأولاده من دمشق ، وتزوج بالست حلية زوجة القاضى محمود كاتب السر بن أجا ، وصار صاحب الحل والعقد بمدينة حلب ، فشق ذلك على جان بردى الغزالى نائب الشام ، ولولا أن تدارك القاضى ولى الدين وفعل ذلك لقتله الغزالى لا محالة .

وكان سبب الوحشة بينه وبين الغزالى ، أن الغزالى قبض على شخص من المباشرين ، فوجد معه ثلاث مطالعات متوجها بها الى الخنكار : احداها بخط القاضى ولى الدين الشافعى ، والأخرى من عند شخص يسمى المظفرى شيخ المدرسة التى أنشأها الخنكار بدمشق ، والثالثة من عند نائب دمشق ، فكان من مضمون تلك المطالعات عدة شكاوى الى الخنكار فى الغزالى نائب الشام ، بأنه قد أظهر العصيان وهو يعمل فى برق عظيم ، وقد التفت عليه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة . فلما بلغ ذلك القاضى ولى الدين ، فر من الشام واختفى ، حتى ولى قضاء حلب ، وأمره مشهور ، وصار الغزالى فى قهر من القاضى ولى الدين ، وقيل انه شنق المظفرى ،

وشنق الهجان الذى وجدت معه تلك المطالعات ، ولو ظفر بالقاضى ولى الدين لشنقه أيضا

وفى يوم الجمعة خامس عشره توفى محيى الدين البلبيسى احد نواب الشافعية وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين ثامن عشره توفيت زوجة المقر الشهابى أحمد بن الجيعان ، وكانت چركسية الجنس تدعى شهددار ، وكانت بديعة فى الحسن والجمال من أجل النساء حسنا ، فافتتن بها المقر الشهابى أحمد ابن الجيعان حتى شغلته عن أحوال المملكة ، قيل انها كانت تحسن الضرب بالسبع آلات المطربة ، وهى الجنك والعود والصنطير والقانون والدربج والكمنجا والصينى . وكان أصل شهددار هذه من جوارى ابنة الأمير يشبك بن مهدى الدوادار الكبير ، فادعت انها معتوقة فتزوجها الشهابى أحمد بن الجيعان ، وأمهرها مائتى دينار ، ودخل عليها فأحبها حبا شديدا دون نسائه ، وافتتن بها الى الغاية ، وأقامت عنده مدة طويلة ، ثم تبين بعد ذلك انها فى رق ابنة الأمير يشبك الدوادار ولم تعتق . وصار الحق فيها الى بنت الأمير يشبك الدوادار ، فاشتراها المقر الشهابى أحمد بن الجيعان من الورثة بخمسمائة دينار ، وقاسى بسببها مشقة عظيمة زائدة ، فأقامت عنده مدة ، ثم انها مرضت وتزايد بها المرض حتى ماتت ، فحصل له عليها حزن شديد وتأسف عليها حتى كاد أن يموت من الحزن ، واستمر مقيما بالتربة أياما ، وبادر اليه الناس بالتعزيه والسلام عليه ، وصنع عدة مآتم ، واجتمع هناك القراء والوعاظ ، وعمل فيها الشعراء عدة مراث بديعة ، قيل لما توفيت زوجة زين الدين عمر بن الوردى أنشأ يقول :

اذا ما زوجة الانسان ماتت
فما بقيت لمسكنه سكينه
وكيف يطيعه نظم ونثر
ولا بيت لديه ولا قرينه

ويقرب من هذه الواقعة التى وقعت للشهابى أحمد بن الجيعان ، ما وقع ليزيد بن عبد الملك بن مروان ، وذلك أن أحد الخلفاء الأموية قد اشترى جارية مولدة من مولدات البصرة ، وكانت تسمى حبابة ، اشتراها بألف دينار ، وكانت تشتمل على جملة من المحاسن ، منها أنها كانت تضرب بالعود والجنك والقانون وسائر آلات الطرب ، وتحسن الغناء الجيد وتنظم الشعر ، وتحسن العربية ، ولها خط جيد ، وتلعب بالنرد والشطرنج ، وكانت بديعة الجمال ، فافتتن بها يزيد بن عبد الملك وأحبها حبا شديدا حتى أنها شغلته عن أمور الخلافة والنظر فى أحوال الرعية ، فاتفق له فى بعض الأيام أنه توجه الى بستان فى دمشق ، وصحبته تلك الجارية ، وقال لوزرائه وحجابه اذا كان الغد فلا يخبرنى أحد منكم بشىء من أمور المملكة ، ولا بكتاب يرد من سائر الجهات قاطبة

فلما استقر بالبستان أحضر سفرة الشراب ، ودارت بينهما الكاسات ، ولم يكن فى المجلس غير يزيد وحظته حبابة ، فبينما هما فى أرغد عيش ، اذ تناولت حبابة رمانة لتأكلها فشرقت بحبة من الرمان ، فوقفت فى حلقها فانخنقت واضطربت اضطرابا شديدا ، فخرجت روحها فى الوقت والساعة فلما عاين يزيد ذلك كادت روحه أن تزهق من جسده ، وتأسف على حبابة غاية الأسف .

قيل لما ماتت أقامت سبعة أيام لم تدفن وهى بين يديه يشاهدها ويقبلها ويقول ما نظرتها فى عينى أحسن من اليوم ، فلما جافت وتغيرت هيئتها ، ركب

تيه أثاريه وأين [illegible] وشنوه [illegible] ما قبله ، وأخذوا
تلك الجارية وأرسلوا [illegible] فذبحوها وخنقوها ، واستمر
يزيد في التأسف والحزن حتى مات بعدها بمدة
يسيرة .

وفي هذا الشهر اضطربت أحوال القاهرة ؛
[illegible] الأمور في [illegible] المعاملة في الذهب والفضة ،
بجعل ملك الأمراء على الأشرافي الكشارية بسبب
صرف الذهب الذهب بأكثر من أشرفين فضة ،
واشيع أن شخصا حجازيا من الصيارفة صرف
أشرفيا ذهبا بأشرفين فضة وخمسة أنصاف ، فرسم
ملك الأمراء بإشهاره في القاهرة وخزم أنفه ، وعلق
فيها الميزان ثم شنقه فراح ظلما

وفيه توفي محمد الريس فتات العنبر رئيس
المجبلين ، وكان أستاذا في صنعة الحبال ، وكان
فاق على بريوه في هذا الفن .

وفي يوم الاثنين خامس عشريه قدم ابن الشريف
بركات أمير مكة وهو الذي يسمى ثنية وصحبته
صهره عرار ، فلما حضر خرج أمراء الجراكسة
والأمراء العثمانية الى ملاقاته ، فدخل القاهرة في
موكب حافل ، وقدامه الانكشارية يرمون بالنفوط ،
فلما صعد الى القلعة تلقاه ملك الأمراء من وسط
الحوش السلطاني ، وبالغ في اكرامه الى الغاية ،
وخلع عليه قفطانا ، وخلع على من معه من العربان
وأنزلهم في مكان أعده لهم .

وفيه توفي الأمير طقطباي استادار الصحبة ،
أحد الأمراء العشراوات ، فلما مات دفنه ملك
الأمراء في مدرسته التي بباب الوزير .

* * *

واستهل شهر رجب بيوم السبت ، فطلع القضاة
الأربعة الى القلعة ، وهنؤا ملك الأمراء بالشهر ، ثم
عادوا الى دورهم . وفي ذلك اليوم قرىء كتاب
الشريف بركات أمير مكة بحضرة القضاة ، فكان
من مضمونه أنه أرسل يطلب من ملك الأمراء
استقرار قاضي القضاة الشافعية بمكة صلاح الدين
ابن ظهيرة على عادته فأجيب الى ذلك . ثم عين في
ذلك اليوم قاض مالكي وقاض حنبلي الى المدينة
الشريفة ؛ وانفض المجلس على ذلك .

وفي يوم الأربعاء خامس رجب ، طلع ابن أبي
الرداد ببشارة النيل المبارك ، وجاءت القاعدة ستة
أذرع وعشرة أصابع ، وكانت في العام الماضي أرجح
من ذلك بعشرة أصابع .

وفي يوم الخميس سادسه ، رسم ملك الأمراء
بشنق شخص من اعيان الاصباهيه وكان من أكبر
المفسدين ، يخطف النساء والمرد والعمائم القلهس
الاحمر ولا يجد من يرده عن ذلك ، فلما كثرت فيه
الشكاوى نصب على شنقه ملك الأمراء ،
وهرب موسى احد أمراء ابن عثمان ، وقام في ذلك
غاية القيام ، وأغلظ على ملك الأمراء في القول ،
وقال له الخنكار مايدري بشيء من ذلك ، فلما
شنق ذلك الشخص عز على الاصباهية وتأسفوا
عليه ، وأنزلوه عن المشنقة وغسلوه وكفنوه ودفنوه
رفيل شنق معه في ذلك اليوم اثنان من الاصباهية ،
وكانا من كبار المفسدين ، وهما اللذان توجها الى
بيت شاد البرلس ، ونهبا ما فيه وسبيا حريمه ، ولم
يكن له ذنب يوجب ذلك ، وتقدم القول على هذه
الواقعة .

وفي يوم الثلاثاء حادي عشره ، خرج قاسم
الشرواني الذي كان نائب جدة وعزل عنها وجرت
عليه شدائد ومحن ، وسجنه ملك الأمراء بالعرقانة
وقيده ، ثم ان الخنكار ابن عثمان أرسل طلبه
فتوجه الى اسطنبول وسافر اليها في ذلك اليوم .

ومن الحوادث في هذا الشهر أن ملك الأمراء تكلم مع القضاة الأربعة بأن يخففوا من نوابهم ، وأغلظ عليهم في القول ، فاقتصر قاضي القضاة الشافعي على خمسة عشر نائبا ، وأما القاضي الحنفي فانه عزل نوابه كلهم واقتصر على اثنين ، وهما شهاب الدين بن شبرين ، وابن بنت البدري محمد ابن الدهان ، الذي كان شيخ الجامع المؤيدي . فاما القاضي المالكي فاقتصر على سبعة من النواب ، وأما القاضي الحنبلي فاقتصر على سبعة من النواب أيضا ، ولم يتم ذلك فيما بعد ، وحصل للنواب في هذه الحركة غاية الضرر . وكان سبب ذلك أن نائبا من نواب القاضي الحنفي طلب امرأة الى الشرع فامتنعت من الحضور ، فقبض عليها القاضي ، وضربها نحو ثمانين عصا ، وقع له مثل ذلك مرتين . ثم ان امرأة طلعت وشكته الى ملك الأمراء فمقت القضاة بسبب نوابهم وما يفعلونه ، وقال لهم اعزلوا جماعة من نوابكم المناجيس .

وفيه توفي الأمير ماماي الساقي أحد الأمراء العشراوات الطبلخانات ، وكان أصله من مماليك السلطان الغوري ، وكان رئيسا حشما لابأس به فنزل ملك الأمراء وصلى عليه وكانت جنازته حافلة .

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشره ، كان ختان ولد القاضي شهاب الدين أحمد بن شبرين أحد نواب الحنفية ، فكان له زفة حافلة ، مشي فيها أعيان الناس من المباشرين وغير ذلك .

* * *

واستهل شهر شعبان بيوم الاثنين ، فصعد القضاة الأربعة وهنؤا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم . وفيه كانت كائنة محب الدين ابن أصيل الكفيف . فكان من ملخص واقعته أنه كان بيده مشيخة المدرسة الشيخونية والجالية ، أخذها بنزول شخص من القضاة عنها فأقامت بيده مدة ، ثم انتدب له من رافعه ، وقال له شرط الواقف أن تكون مشيخة الجمالية لأعلم علماء الشافعية ، وأنت شخص عار من العلم ، فأخرجه ملك الأمراء ، وقرر بها شيخ الاسلام زين الدين زكريا الشافعي ، فشق ذلك على محب الدين بن أصيل ، وحصل له غاية البهدلة من ملك الأمراء وقصته مشهورة بما جرى له

وفيه وقعت كائنة عظيمة للأمير الماس أخي أمير آخور كبير قرقماس ابن ولي الدين ، وكان من ملخص هذه الواقعة أنه كان عند الأمير الماس مملوك عايق يتزيا بزي العثمانية ، ويخرج بالليل يقطع الطريق ويخطف العمائم ، وقد وجدنا هذا المملوك يقطع الطريق في بولاق وغيرها من الأماكن فقال ملك الأمراء هذا مملوك من ؟ فقيل له مملوك الأمير الماس ، فقال له ملك الأمراء ليش ماكنت ترجع مملوكك عن الفساد ؟ فقال الماس ما كان يسمع لي . فقال ملك الأمراء ليش ما كنت شكوته لي وأنا كنت أنصفك منه . فطال بينهما الكلام . ثم ان الأمير الماس أغلظ على ملك الأمراء في القول فحنق منه فبطحه على الأرض ، وضربه ضربا مبرحا حتى عاين الموت ، قيل ضربه عشر نوب . ثم رسم بنفيه الى منفلوط ، وقيل الى قوص ، ثم رسم بتسليم ذلك المملوك الى الوالي ليعاقبه ، وخرج الأمير الماس منفيا من يومه

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الصيارف الحجازيين ، وكان يجلس عند شخص بسوق الباسطيين ، فلما قبض عليه رسم بشنقه فشفع فيه خير الدين نائب القلعة ، وغرم مبلغا له صورة ، حتى سلم من الشنق ، ولا ذنب عليه يوجب ذلك سوى انه خالف المناداة وصرف أشرفيا ذهبا بخمسة وخمسين نصفا بزيادة خمسة أنصاف فكاد أن يشنق ظلما .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق خمسة أنفار مسكهم شيخ العرب ابن أبي الشوارب ، زعم أنهم

كانوا من أكابر المنسر وأعيان المفسدين . فلما قبض عليهم ابن أبى الشوارب ، أرسل كاتب ملك الأمراء بذلك ، فأرسل اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب . فأحضرهم الى القاهرة ، فرسم ملك الأمراء بشنقهم ، فشنقوا . وشنق فى ذلك اليوم شخص من الناس زعموا أنه سرق ازارا ونقابا وشعرية فراح ظلما . وكان ملك الأمراء عجولا فى أمر القتل .

وفيه نزل ملك الأمراء وسار الى نحو بلقس ، ثم رجع من هناك ودخل من باب النصر وشق القاهرة ، فلما شق منها لم يدع له أحد من الناس بالنصر ، ولا زغرتت له النساء من الطيقان ، بل أغلظ عليه بعض العوام ، وقال له انظر فى أحوال المسلمين بالشفقة بسبب الخبز والدقيق ، وسائر الأسعار ، فان البضائع متشحطة .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه توفى القاضي شمس الدين محمد بن عبد الكافى ، أحد نواب الشافعية ، وكان من أعيان النواب ، وكان ضخم الجسد مثقلا بالشحم جدا .

وفى يوم الأربعاء عاشره كان أول مسرى من الشهور القبطية ، ففيه زاد الله فى النيل المبارك عشر أصابع ، فسر الناس بذلك ، وكان فى أول الزيادة صار يسلسل فى الزيادة أصبعا أصبعا على عشرة أيام متوالية ، ثم فى اليوم الثانى من مسرى زاد الله فى النيل المبارك خمس عشرة أصبعا فى دفعة واحدة فسر الناس بذلك الى الغاية

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد النصف من شعبان ، فأقرأ ملك الأمراء فى تلك الليلة ختمة بالقلعة ، واستدعى القضاة الأربعة . فلما تكامل المجلس شرع قاضى القضاة محيى الدين يحيى بن قاضى القضاة برهان الدين الدميرى تتكلم مع ملك الأمراء بأن يشفع فى القاصى نور الدين على الفيومى ، وقد تقدم القول أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه فنفاه الى دمنهور ، وأقام بها مدة طويلة . فلما شفع فيه القاضي المالكى رسم باحضاره من دمنهور ، وكان أحد نواب الحنفية فكثرت فيه الشكاوى ، وكان غير محمود السيرة

ثم فى ذلك المجلس شفع قاضى القضاة المالكى أيضا فى شمس الدين محمد السرماجى ، فتوقف ملك الأمراء فى أمره قليلا ، وعد له جملة مساوى ، فلا زال قاضى القضاة يتلطف به حتى رضى عليه ، وكان منعه أن يعمل قاضيا أو شاهدا ويلزم بيته دائما ، فكتب عليه قسامة بذلك فرضى .

ثم ان قاضى القضاة شفع فى نور الدين على الحسنى المعروف برصاص المؤذن بأن تعاد له وظائفه التى كانت فى المدرسة الغورية ، وكانت خرجت عنه لما توجه الى اسطنبول وأقام بها ، فلما شفع فيه رسم له باعادة وظائفه التى كانت بالغورية ، وكان قاضى القضاة المالكى عند ملك الأمراء من المقربين ، وكان يحضر مجلس محاكماته فى كل يوم سبت ، ويفصل المحاكمات بحضرة ملك الأمراء ، ورأى فى أيامه غاية العز والعظمة فوق ما رآه قاضى القضاة الحنفى عبد البر بن الشحنة فى أيام الملك الأشرف قانصوه الغورى ، فعد من النوادر اطاعة ملك الأمراء لقاضى القضاة المالكى فى جميع ما كلمه فيه فى ذلك المجلس بالاجابة ، ولم يرد له شفاعة فى ذلك المجلس فى أمر من الأمور

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأن الأمير جانم الحمزاوى ، لما وصل الى اسطنبول ، قابل الخنكار وقبل منه الهدية التى أرسلها معه ملك الأمراء ، وأكرمه الى الغاية ، وأذن له بالعود الى مصر ، وهو واصل عن قريب .

وأشيع فى الأخبار الواردة من اسطنبول ، أن جماعة من الأعيان تسحبوا من اسطنبول ، منهم القاضى علاء الدين ناظر الخاص على ابن الامام ، وأخوه محمد ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل ، وأخوه يحيى أولاد ابراهيم المستوفى . وبهاء الدين ابن البارزى وجلال الدين بن الشبراوى وآخرون من المباشرين الذين هناك . فلما بلغ الخنكار تسحبهم من اسطنبول ، شق عليه ذلك وأرسل خلفهم ستين شاويشا ، فقبضوا عليهم من أثناء الطريق ، ووضعوهم فى الحديد ، وقاسوا من البهدلة والاخراق بهم ما لا يمكن شرحه ، ودخلوا بهم الى اسطنبول ، وهم مشاة فى الحديد ثم سجنوهم ولا يعلم ما جرى لهم بعد ذلك .

وفيه قدمت الأخبار من بلاد المغرب بأن الفرنج توجهوا الى مدينة جربة — وهى من أجل المدن — ثم ان جماعة من ملوك الفرنج حاربوا من بها من ملوك الغرب ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل بها من الفريقين نحو ثلاثين ألفا ، وكانت النصرة لصاحب جربة على ملوك الفرنج ، وغنموا منهم أشياء كثيرة .

وفى يوم السبت عشريه ، خلع ملك الأمراء على ابن الشريف بركات أمير مكة ، وخلع على صهره عرار وأذن لهما بالعود الى بلادهما ، فكان لهما موكب حافل . فلما شقوا من القاهرة كان صحبتهما الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية والجم الكثير من الانكشارية يرمون بالنفوط ، وكان يوما مشهودا .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه كان ختان أولاد قاضى القضاة الحنبلى شهاب الدين الفتوحى المعروف بابن النجار ، فكان له زفة حافلة ، مشى فيها جماعة من الأعيان ، لكن قصر وصفها عن زفة أولاد قاضى القضاة محيى الدين الدميرى المالكى ، وابن العصام المنجلى .

ومن الحوادث الشنيعة ، أن شخصا يقال له محيى الدين بن مشرى البزددار . له ابنة صغيرة لها سن العمر نحو سبع سنين ، وكان أبوها ساكنا فى المراغة بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وكان على رأس تلك البنت كوفية ذهب ، فوقفت تلعب مع الصغار فى الحارة ، وكان لهم جار صبى أمرد يعمل صنعة القمريات ، فلعبت عينه على الكوفية الذهب التى على رأس البنت ، فلعب بعقلها وقال لها أمك فى السيدة نفيسة وأرسلت تطلبك هناك ، فمضت معه وأخذ معه عبدا أسود ، فلما مضوا توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة ، فذبحوها هناك وحملوها وألقوها فى فسقية موتى هناك ، وأخذوا الكوفية التى على رأسها ، وتركوها تتلعبط فى دمها ، فأقامت هناك يوما وليلة ، فكثر التفتيش عليها من أمها وأبيها ، فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار على الكوفية الذهب التى كانت على رأس ابنته ، فاذا رأوها فليأتوه بها .

فبينما هو فى الصاغة واذا بالصبى الأمرد الذى أخذ الكوفية وذبح البنت فى الصاغة ومعه الكوفية ، فأشهرها فى المناداة ، فتناهى سعرها الى أربعين أشرفيا ، فقال له بعتك فقال له الدلال أحضر لك ضامنا ثقة فلم يجد من يضمنه ، فقبضوا عليه ، وأحضروا أبا البنت فقبض عليه ، وتوجهوا الى باب الأمير كمشبغا ، فلما عرضوه على الوالى ضربه بعض عصى فأقر أنه أخذ الكوفية عن رأس البنت وذبحها ورماها فى فسقية موتى خلف مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها ، فقالوا له امض معنا وأرنا ذلك المكان الذى رميتها فيه ، فخرج معهم وهو فى الحديد ، وأتى بهم الى تلك الفسقية التى

رماها بها ، فنزل أبو البنت اليها فوجدها راقدة وهى مذبوحة وفيها بعض روح ، ولم ينقطع وريدها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية .

فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل فأحضر الجميع بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبى ، وما جرى له مع البنت ، فحزن عليها ملك الأمراء وقال لها من فعل بك هكذا فأشارت الى الصبى والعبد الأسود الذى على باب البيت الذى منه البنت ، وأحضروا للبنت من قطب لها مكان الذبح الذى برقبتها ، وعاشت بعد ذلك وبرئت من الذبح ، فعد ذلك من العجائب والنوادر الغريبة .

قيل ان البنت لما رماها الصبى فى الفسقية وهى مذبوحة ، حكت لأمها وقالت لما مت فى الفسقية دخلت على امرأة وعلى وجهها برقع ، وقالت لا تخافى أنا السيدة نفيسة ، وغدا أخلصك من هذا المكان ، ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال ، وسكن روعى مما كنت فيه . وهذه الواقعة قد اشتهرت فى القاهرة .

* * *

وفى شهر رمضان وكان مستهله يوم الثلاثاء ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم رجعوا الى دورهم . وفى ليلة الرؤيا توجه القاضى بركات بن موسى المحتسب الى المدرسة المنصورية التى بين القصرين واجتمع القضاة الأربعة هناك ، فلم تثبت رؤيا الهلال الا بعد العشاء ، فلما رجع القاضى المحتسب الى داره ، لاقاه ابن عوض بالفوانيس ، وعدة مشاعل كثيرة ، وكانت له ليلة حافلة .

ومن العجائب أن النيل المبارك كان على وفاء ، ولم يتأخر عليه غير أربع اصابع ، فأشيع بعد العصر أن النيل نقص فى تلك الليلة أصبعين ، فاضطربت أحوال الناس بسبب ذلك . وكان قد مضى من مسرى أحد وعشرون يوما ، ولم يف النيل ، وكانت أسعار الغلال والبضائع كلها فى غاية الارتفاع ، فكان كما يقال فى المعنى :

رب وف النيل انا	منه فى كرب وبلوه
ما بقى للناس صبر	يحملون اليوم غلوه

فاستمر النيل فى هذا التوقف على أربع أصابع ، وقيل نقص بعد ذلك أربع أصابع ، فاستمر على ذلك خمسة أيام لم يزد فيها شيئا ، فرسم ملك الأمراء لقضاة القضاة ومشايخ العلم ومشايخ الصوفية بأن يتوجهوا الى المقياس ، ويبتهلوا الى الله تعالى بالدعاء فى وفاء النيل ، فتوجه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، والقاضى الحنفى الطرابلسى ، والقاضى المالكى محيى الدين الدميرى ، والقاضى الحنبلى شهاب الدين الفتوحى ، ومن مشايخ الصوفية الشيخ محمد المنير وغير هؤلاء من مشايخ الصوفية ، فلما توجهوا هناك وباتوا بالمقياس نقص النيل فى تلك الليلة أصبعين فصار النقص ستة أصابع ، ثم نقص عشرة أصابع ، وكان تأخر عن الوفاء على أربع أصابع ، ونقص من بعد ذلك عشر أصابع فصار النقص أربع عشرة أصبعا عن الوفاء .

فلما كان يوم الأحد سادس رمضان ، نزل ملك الأمراء وتوجه الى المقياس ، وكان قد مضى من مسرى ستة وعشرون يوما ، فأقام ملك الأمراء فى المقياس ذلك اليوم ، وفرقوا أجزاء الربعة على الحاضرين من الفقهاء فقرءوا فيها عشرين دورا ، ثم قرءوا صحيح البخارى هناك .

وأشيع أن ملك الأمراء فرق هناك على الفقهاء مالا له صورة ، وأحضر الأطفال الأيتام وفرق عليهم

مبلغا له صورة ، وأحضر من الآثار الشريفة القميص من المدرسة الغورية ووضعه فى فسقية المقياس ، وغسلوه فى الماء الذى بها ، وكثر هنـاك الضجيج والبكاء والتضرع الى الله تعـالى بالزيادة ، فأقام ملك الأمراء فى المقياس الى قريب الظهر ، ثم طلع الى القلعة ، فلما طلع أمر باطلاق من فى السجون من الرجال والنساء والأطفال ، فأطلق منهم نحـو ثمانين انسانا ، ونزل الى القرافة وزار من بها من الصالحين ، وفرق على الزوايا التى هناك مالا له صورة ، وفعل من وجوه البر والصدقات أشـياء كثيرة ، وما أبقى فى ذلك ممكنا .

فلما كان يوم الأربعاء ، الموافق لتاسع عشرى مسرى ، عول ملك الأمراء على أن يخـرج الى الاستسقاء وصحبته النـاس قاطبة يوم الخميس ، وقد تزايد قلق الناس الى الغاية ، واشـتد الأمر عليهم بسبب نقص النيل عند ليـالى الوفاء وقد قال القائل فى المعنى :

بمسرى النيل ما أوفى فضجوا
ودب القحط فينـا من أبيب
ولم أضرع لمخـلوق لأنى
وجدت الله أشفق من أبى بى

وفى هذه الواقعة يقول الأديب البارع الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وقد أجاد حيث قال :

أسبل النيل من عيونى عبره
مذ أرانى من التنقص عبـره
يالهـا عبرة ثوت بفـؤادى
ورمت بالهموم فى القلب جمره
شهر مسرى تسع وعشرون يوما
فيـه فات الوفا فأين المسره
ربنا الطف بالخلق فى النيل واطلق
بزياداته من النقص أسـره
واشرح الصدر بالوفا منك واسبل
ياسميع الدعا بفضلك ستره
واجعل الأرض منه فى خير خصب
ورخاء واجبر بلطفك كسره

فلما كان يوم الأربعاء تاسع عشرى مسرى ، طلع ابن أبى الرداد الى ملك الأمراء بعد الظهر وبشره بأن النيل قد زاد من النقص ثلاث أصابع ، فسر ملك الأمراء بذلك . وقيل أنعم عليه بمائة دينار وفرس وألبسه قفطانا مخملا مذهبا ، وأنعم على الصبى الصياح الذى ينادى على البحر بجـوخة حمراء . فلما أشيع ذلك سر به الناس قاطبـة ، وانطلقت النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكانت فرحة عامة لجميع الناس قاطبة .

فلما كان يوم الجمعة حادى عشر رمضان الموافق لأول أيام النسىء زاد الله فى النيل المبارك خمس أصابع ، فسر الناس بهذه الزيادة ، وقد تأخر عن الوفاء ست أصابع ، فكانت مدة توقفه عن الزيادة ثمانية أيام متوالية ، حتى يئس الناس من طلوعه فى هذه السنة .

ثم فى ليلة السبت وفى الله الستة عشر ذراعاً وفتح السد فى يوم السبت ثانى عشر شهر رمضان الموافق للثانى من أيام النسىء ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا وأصبعين من السابع عشر ، وقد فات الوفاء عن ميعاده حتى مضت مسرى ، ودخلت أيام النسىء ... ولـكن تقدم أن النيل تأخر عن الوفاء الى سادس أيام النسىء ، وذلك فى سـنة أربع وتسعين وستمائة ، وبلغت الزيادة فى تلك السنة ستة عشر ذراعا ثم هبط سريعا ولم يثبت ،

فشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . واتفق مثل ذلك أن النيل وفى فى آخر أيام النسىء ، فى سنة ثلاث عشرة وسبعمائة ، وكان نياة شحيحا لم يثبت ، وشرقت البلاد ، ووقع الغلاء . نقل ذلك الشيخ جلال الدين السيوطى رحمة الله عليه .

فلما وفى النيل نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحراقة وفتح السد ، وكان يوما مشهودا ، كما وقع له فى السنة الخالية . وكان الوفاء على غير القياس مما جرى على النيل فى هذه السنة ، وقد قال الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال فى المعنى :

الحمد لله زاد النيل وانشرحت
صدورنا وأرانا بشره فرحا
والقلب أصبح بعد الكسر منجبرا
والأمر أمسى عقيب الضيق منفسحا

وقال آخر :

تهتك الخلق بالتخليق قلت لهم
ماأحسن الستر قالوا العفو مأمول
ستر الآله علينا لا يزال فما
أحلى تهتكنا والستر مسبول

وفى يوم الأربعاء سادس عشر رمضان كان أول النوروز ، وهو أول يوم من السنة القبطية ، وهى سنة ست وعشرين وتسعمائة خراجية ، ففى ذلك اليوم زاد الله النيل المبارك سبع أصابع ، فأوفى الله السبعة عشر ذراعا وأصبعا من الذراع الثامن عشر ، فسر الناس بذلك .

وفى يوم السبت سادس عشريه قدمت الأخبار بأن الأمير جانم الحمزاوى قد وصل الى قطيا ، وقد تقدم القول أنه كان توجه الى السلطان سليم خان ابن عثمان ، وصحبته تقدمة حافلة من عند ملك الأمراء الى الخنكار ابن عثمان ، فلما قابله أكرمه وخلع عليه ، وقبل منه تلك التقدمة فأقام هنالك مدة . ثم ان ابن عثمان رسم للأمير جانم بعوده الى مصر ، وكان أكثر الناس جزموا بعدم عوده الى مصر ، فجاء الأمر بخلاف ذلك . فلما أشيع وصوله الى قطيا خرج أعيان الناس الى ملاقاته ، وخرج الأمير ناصر الدين محمد المهمندار والأمير برسباى الدوادار وسائر المباشرين قاطبة .

فلما كان يوم الأحد سابع عشرى رمضان ختم صحيح البخارى بالقلعة على العادة ، وفرقت الصرر على الفقهاء ، ومن له عادة ، وخلع على قضاة القضاة .

وفى يوم الاثنين ثامن عشريه ، دخل الأمير جانم الحمزاوى الى القاهرة ونزل بتربة العادلى .

وفى يوم الثلاثاء تاسع عشريه نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى تربة العادلى ، ونزل على المصطبة التى هناك ، ولبس خلعة الخنكار التى أرسلها له على يد الأمير جانم الحمزاوى باستمراره فى النيابة بمصر ، وهى قفطان بتماسيح على مخمل أحمر ، فركب من هناك ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه جماعة من الأمراء الجراكسة ، ومن الأمراء العثمانية ، والعساكر الاصباهية والانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، ولاقاه طائفة من النصارى وبأيديهم الشموع موقدة ، ولاقاه الشعراء والشبابة السلطانية .

ولما وصل الى قبة الأمير يشبك التى فى رأس الحسينيه لاقاه القضاة الأربعة ، فكان القاضى الشافعى عن يمينه ، والحنفى عن يساره ، والمالكى والحنبلى قدامه ، والأمير جانم الحمزاوى قدامه ، وعليه قفطان مخمل مذهب كان آلبسه له الخنكار فاستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة وكان يوما مشهودا . فكانت مدة غيبة الأمير جانم الحمزاوى فى اسطنبول عند الخنكار ستة أشهر ، وقيل انه قابل الخنكار فيها مرة واحدة .

وأما ترجمة الأمير جانم الحمزاوى فهو جانم بن يوسف بن آركماس السيفى قانى باى الحمزاوى نائب الشام ، كان من أعيان آبناء الناس ، وقد رقى فى دولة ملك الأمراء خاير بك حتى صار صاحب الحل والعقد بمصر ، وصار فى مقام أمير كبير بمصر .

ولما استقر الأمير جانم الحمزاوى فى داره آشيع بين الناس أنه آخبر أن الخنكار ابن عثمان تغير خاطره على الخليفة محمد بن يعقوب المتوكل على الله الذى توجه الى اسطنبول ، فلما تغير خاطره عليه أخرجه من اسطنبول على غير صورة مرضية وهو فى غاية ما يكون من البهدلة ، ونفاه الى مكان عسر يسمى السبع قلبات ، قيل ان بينه وبين اسطنبول سبعة آيام ، وهو المكان الذى يضع فيه الخنكار آمواله وتحفه لكونه فى غاية التحصين .

وقد اختلف فى سبب تغير خاطره عليه ... فمن جملة الأقوال آن آولاد ابن عمه خليل رافعوه بسبب اقطاع الخلافة آن يعطيهم منها الثلث ويأخذ هو الثلثين فأبى من ذلك . الثانى أن الخليفه طاش هناك وصار ينهم العيش جهارا ، واشترى له جوارى يضربن له بالجنوك ، وفتك فى البسط والانشراح غاية الفتك ، فبلغ ذلك الخنكار فتغير خاطره عليه ، وكان الوزراء مساعدين أولاد عمه خليل ، ومحطين على الخليفة . الثالث أن جماعة كثيرة من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، تسحبوا من هناك ، منهم بدر الدين ابن القاضى كمال الدين ناظر الجيش ، وتسحب آخرون من الأعيان ، فخشيت الوزراء آن الخليفة يتسحب من هناك فضيقوا عليه والله أعلم .

❊ ❊ ❊

وفى شهر شوال كان عيد الفطر يوم الخميس ، فطلع القضاة الأربعة وصلوا مع ملك الأمراء صلاة العيد ، وخطب بهم قاضى القضاة الشافعى خطبة بليغة ، وكان موكب العيد موكبا حافلا .

وفى يوم الأحد رابع شوال ، جلس ملك الأمراء بالدهيشة ، وأرسل خلف القضاة الأربعة ، وأرسل خلف أعيان التجار ومشايخ الأسواق بسبب أمر المعاملة فى الذهب والفضة ، فلما تكامل المجلس قام ملك الأمراء ودخل الأشرفية التى بجوار الدهيشة ، ودخل معه القضاة الأربعة ، وأرسل خلف الأمراء العثمانية ، وهم قرا موسى ، وفرحات ، وخير الدين نائب القلعة ، والقاصد الذى حضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، فلما دخلوا الى الأشرفية لم يدخلها غير هؤلاء ، ولم يأذن للأمراء الجراكسة بالدخول معهم .

ثم ان القاصد آخرج مرسوم الخنكار الذى آرسله صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، فأجلس القضاة الأربعة على أربعة كراسى ، وأجلس الأمراء العثمانية على أربعة كراسى ، وقرىء عليهم مرسوم الخنكار ، وذلك على طريقة النسق العثمانى ، وكانت آلفاظ ذلك المرسوم باللغة التركية . فكان من مضمونه ما أشيع بين الناس أنه قد أرسل يأمر ملك الأمراء بالتوصية بالرعية غاية الوصية ،

وأن يصرف للمماليك الجراكسة جوامكم ولحومهم وعليقهم على العادة القديمة . وأرسل يقول لملك الأمراء أن يتوصى بأولاد الناس قاطبة ، وكل من كان له جامكية وقطعت يردها اليه . وأرسل يقول له في اصلاح المعاملة من الذهب والفضة ، فأحضروا من حل تلك الألفاظ التركية التى فى الموسوم ، فكان هذا معناها .

ثم ضربوا مشورة فى أمر المعاملة فأشار الحاضرون على ملك الأمراء أن يبقى كل شئ على حاله من أمر المعاملة حتى يراجع الخنكار فى ذلك مرة أخرى ، بأن الذهب والفضة ينتقص فى عدده الحركة الثلث ، فخرج ملك الأمراء ورسم باشهار المناداة فى القاهرة بأن كل شئ على حاله ، وأن الأشرفى العثمانى والغورى لا ينصرف بأكثر من خمسين نصفا فضة من غير زيادة على ذلك ، وأن النصف الفضة النحاس يرمى ، وما عدا ذلك يمشى . ثم انفض المجلس على ذلك ، ونزل القضاة الى دورهم ، وسكن الاضطراب قليلا فى أمر المعاملة .

وفى يوم الجمعة تاسع شوال ، قدم من البحر المالح الى ثغر الاسكندريه جماعة نحو تسعه انفار ممن كان أسر وتوجه الى اسطنبول ، فحضر فى ذلك اليوم الشيخ بدر الدين محمد السعودى المعروف بابن الوقاد أحد نواب الحنفية كان ، وحضر الشيخ كمال الدين الذى كان بزددار الامير طومان باى ، وحضر كمال الدين العائق مباشر أمير أخور كبير ، وحضر زين الدين حامل المزرة ، وحضر القاضى كريم الدين المجولى أحد نواب الشافعيه كان ، وحضر الخواجا عمر بن معزوز المغربى ، وحضر المهتار بدر العادلى ، والخواجا زين الدين العجمى ، ويوسف مناخير ، والمعلم حسين معلم المحك بدار الضرب . وكان هؤلاء باسطنبول وشكوا الى الوزراء بأن وظائفهم التى بمصر خرجت عنهم ، وقطعت جهاتهم ، وأخذ النصارى أموالهم بموجب غيابهم فى اسطنبول ، فقال لهم الوزراء : « أقيموا لكم حسانا وتوجهوا الى مصر صحبة جماعة من الانكشارية ، واكشفوا على جهاتكم ووظائفكم ، وارجعوا الى اسطنبول على وجه السيف » . ففعلوا ذلك وحضروا الى مصر وصحبهم الانكشارية ، وفيهم من ترك أولاده وعياله باسطنبول الى أن يرجع اليها .

ثم فى عقيب ذلك أشيع أنه حضر أيضا من اسطنبول جماعة ، منهم شمس الدين بن المرزوق المباشر ، وفرج بن البريدى ، والطواشى مسك ، وقيل ان الطواشى أقام بالشام عند الغزالى نائب الشام ، ورتب له ما يكفيه كل شهر ، ومحمد بن على كاتب الخزانة ، وآخرون حضروا فى الخفية وصاروا يسحبون من اسطنبول شيئا بعد شئ ويحضرون ، وكل ذلك من غير علم الخنكار ، فالله يلطف بهم .

وفى يوم الجمعة سادس عشره ، الموافق لأول يوم من بابه ، ثبت النيل المبارك على خمس أصابع من تسعة عشر ذراعا ، وكان فى العام الماضى ثبت على ثمانى أصابع من عشرين ذراعا ، فكان هذا النيل أنقص من النيل الماضى بذراع وثلاث أصابع ، وكان نيلا شحيحا من مبدأ زيادته الى حين هبوطه . وقد شرق غالب البلاد ، واشتد أمر الغلاء بالديار المصرية ، وتكالبت الناس على مشترى القمح ، وارتفع القمح من السواحل ، وصار اذا وصل مركب قمح لاتباع ولا تشترى الا بأوراق من عند المحتسب ، ولو كان ضيافة أو من الخراج ، فحصل للناس الضرر الشامل ، وارتجت القاهرة بسبب مع القمح ، ووقع الاضطراب الشديد فكادت أن تكون غلوة كبيرة .

وفي يوم الأحد ثامن عشره توفي شخص من الأمراء الطبلخانات يقال له ماماي الصغير ، ودفن في المدرسة الغورية .

وفي يوم الاثنين تاسع عشره خرج المحمل الشريف من القاهرة في تجمل عظيم ، وكان أمير المحمل الأمير جانم كاشف منفلوط والبهنسا ، فطلب طلبا حافلا على العادة القديمة كعادة الأمراء المقدمين ، وخلع على الأمير باباى أحد الأمراء العشراوات ، واستقر به في مشيخة الحرم النبوي عوضا عن الشرفي يحيى بن البرديني بحكم انفصاله عنها ، وكان قاضي المحمل في تلك السنة الشيخ فتح الدين أبو الفتح الوفائي المالكي أحد النواب بل من أعيانهم ، فحصل للحاج به غاية النفع . ولم يحج في هذه السنة من الأعيان الا القليل ، وكان أكثر الحجاج فلاحين ، ورباقة من البلاد .

* * *

وفي شهر ذي القعدة ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم . وفي يوم مستهله وقع لقاضي القضاة الحنفي الطرابلسي بين يدي ملك الأمراء بعض توبيخ بسبب نائبه كمال الدين ابن زريق ، وقد انكشف رخه في مكتوب ظهر أنه زوره وجرى بذلك أمور يطول شرحها ، فحصل للقاضي بعض مقت من ملك الأمراء ، فما وسعه الا أنه عزل كمال الدين بن زريق بحضرة ملك الأمراء عزلا مؤبدا ما دام حيا ، وانفض المجلس على ذلك .

وفي ذلك اليوم رسم ملك الأمراء باشهار المناداة في القاهرة بسبب المعاملة في الذهب والفضة فأطلق أربعة مشاعلية ، في القاهرة ومصر العتيقة ، أن الأشرفي الذهب العثماني والغوري يصرف بخمسين نصفا من غير زيادة على ذلك ، وأن الأشرفي الذي هو ضرب جمال الدين يصرف باثنين وأربعين نصفا ، وأن الفضة على حالها لا يرد منها الا النصف المكشوف ، وكل من خالف في ذلك شنق من غير معاودة ، فسكن الاضطراب قليلا بعد هذه المناداة بعد ما كان أشيع بابطال هذه المعاملة دائما ، وتخسر الناس من أموالها الثلث ، فتعطل الناس من البيع والشراء أياما ، وغلقت الأسواق . فلما نادوا بابقاء كل شيء على حاله سكن الرهج الذي كان فيه الناس .

قيل ان ملك الأمراء أرسل يشاور الخنكار ابن عثمان في أمر المعاملة اذا يطلب يتخسر الناس من أموالهم الثلث ، والأمر في ذلك موقوف على الجواب .

وفي يوم الأحد ، ثاني الشهر ، خلع ملك الأمراء على شخص من العثمانية يقال له الأمير علي الكيخيه آغات الانكشارية ، واستقر به في ولاية القاهرة ، عوضا عن كمشبغا الذي كان والي القاهرة وتوجه الى اسطنبول كما تقدم .

وفي يوم الخميس سادسه ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى الروضة ونصب له خياما في خرطوم الروضة تجاه مصر ابن العيني ، فنزل هناك وكان صحبته جماعة من الأمراء العثمانية والقاصد الذي حضر مع الأمير جانم الحمزاوي ، والأمير قايتباي الدوادار ، وبعض أمراء من الجراكسة ، والجم الكثير من الاصباهية والانكشارية ، فلما استقر هناك أحضر اليه القاضي بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، فيقال صرف عليها نحو خمسمائة دينار . فمن جملة ذلك أربعون خروفا شوى ، وأربعمائة مجمع حلوى وعدة مطابق ضمنها مأمونية سكب ، ومأمونية حموية محشوة بسكر ، وسنبوسك بسكر ، ورخامية بسكر ، وسمك على أنواع مختلفة ، وأشياء غير ذلك

مونقة ، وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى ، وأطنان قصب ، وأحمال تشطلة وبطط جلاب ، وأحمال موز وغير ذلك ، وما أبقى ممكنا فيما صنعه فى هذه المدة من الأشياء التى تصلح للملوك ، فشكره ملك الأمراء على ذلك ، وأثنى عليه بحضرة الأمراء .

وكان القاضى بركات المحتسب ، عالى الهمه ، نافذ الكلمة ، مسعود الحركات فى سائر أفعاله ، وقد وقع له أشياء غريبة لم تقع لأحد قبله من المباشرين ، ولا غيرهم ، ولا سيما ما كان يصنعه للسلطان . فأقام ملك الأمراء الى ما بعد العشاء ، ثم عدى من هناك وطلع الى القلعة ، وانقضى ذلك اليوم السلطانى .

وفى يوم السبت ثامنه ، وقعت كائنة مهولة ... وسبب ذلك أن ملك الأمراء جلس للمحاكمات على العادة ، فعرض عليه ثلاث محاكمات فى ذلك اليوم :

الأولى أن شخصا من الشهود يقال له شمس الدين محمد البساطى ، كان يجلس على رأس حارة زويلة ، وكان يخطب فى جامع ابن قريسيط الذى فى حارة زويلة ، فجاءت اليه مبايعة جارية حبشية كانت على ملك شخص من النصارى ، فابتاعها لشخص من الفرنج ، فهربت وأتت الى بيت الوالى وقالت له : « أنا جارية مسلمة ، كنت عند شخص نصرانى ، فباعنى لشخص افرنجى ، وقصد أن يسافر بى الى بلاد الفرنج ، فهربت من عنده وأتيت اليكم » . فعرض الوالى هذه الواقعة على ملك الأمراء خاير بك فطلب النصرانى البائع فهرب ، وهرب الفرنجى المشترى ، فقبض على شخص كان واسطة ، وعلى شمس الدين البساطى ، وقبض على النصرانى والأفرنجى فيما بعد ، وعوقبا وقرر عليهما مال له صورة . فلما وقف شمس الدين البساطى بين يدى ملك الأمراء قال له : ليش ماسأل الجارية ان كانت مسلمة أو غير مسلمة ؟ فاختلط فى الكلام وتلجلج لسانه عن الجواب . فاشتد غيظ ملك الأمراء عليه ، فرسم بقطع يده اليمنى فقطعت ، وأن يشهر فى القاهرة ففعل به ذلك .

وكان حاضرا فى المجلس قاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى ، والقاضى شهاب الدين بن شيرين أحد نواب الحنفية ، والقاضى شمس الدين العبادى ، والأمير أرزمك الناشف ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، فلم يجسر أحد منهم أن يشفع فيه لشدة غضب ملك الأمراء عليه ، وكان يوما مهولا .

والمحاكمة الثانية ، عرض عليه شخص يقال له محمد بن عز الدين ، كان أبوه من جملة رسل الصالحيه ، وكان يعرف بابن بابه ، وكان ابنه قبيح الصورة والسيرة ، مشهورا بتزوير المراسيم عن لسان المباشرين ، وسبقت له وقائع كثيرة عن لسان الأكابر ، فقيل انه زور مرسوما على لسان القاضى شرف الدين بن عوض ، فقبض عليه ابن العياثى وأحضره بين يدى ملك الأمراء ، فكثرت فيه من الناس الشكاوى ، فرسم بأن يشنق فشنق ، وشهر فى القاهرة وهو مخزوم الأنف ومقطع الآذان ، فأراح الله تعالى العباد منه ، فانه كان كثير النصب والحيل ، وتحكى عنه الغرائب والعجائب فى أمر الحيل والنصب والسرقة .

والمحاكمة الثالثة ، عرض عليه شخص من الفلاحين سرق ثورا ، فرسم بأن يخوزق وتقطع أنفه وآذانه وأن يركب على الثور ، ويشهر فى القاهرة ثم يخوزق . وكان ملك الأمراء عجولا فى أمر القتل ، وقد شنق وخوزق ووسط فى أيام ولايته على مصر ما لا يحصى من الناس ، والغالب راح ظلما من غير ذنب ، وكان ملك الأمراء شديد

القســوة صلبا فى الأمور جدا ، وكان الأمر كما قيل فى المعنى :

احذر تعاشر من يكن طبعهم
ظلم الورى دأبا وان أحسنوا

لقول رب العــرش ســبحانه
فى محكم الذكر ولا تركنوا

وفى يوم الخميس ثالث عشره ، رسم ملك الأمراء بشنق ثلاثة أنفار من القواسة كانوا حراسا على قصــب ، فأتى اليهم بعض التركمان ليسرق من القصب ، فضربه أحــد القواسة فجاءت الضربة صائبة فمات ذلك التركمانى . فلما بلغ خشداشينه ذلك توجهــوا الى تمبرى ونبهوا ما فيهــا ، ثم قبضوا على القواسة وعرضوهم على ملك الأمراء ، فرسم بشنقهم فشــنقوا فى ذلك اليــوم ومضى أمرهم . ويقال انهم أخذوا ظلما فليسوا هم الذين قتــلوا التركمانى ، والذين قتــلوه هربوا ولم يحصلوهم ، وراحوا ظلمــا وراحت فى كيسهم .

وقد وقع لملك الأمراء أنه قتل ثمانى أنفس فى هذه الجمعة ، فشنق منهم جماعة ، وخوزق منهم جماعة ، واقترحوا لهــم الصداب حتى صــاروا يخوزقونهم من أضلاعهم ، وراح غالبهم ظلمــا ، والأمر لله تعالى .

وفى يوم الجمعة رابع عشره أرســل كاشــف الشرقية اثنين من العربان المفسدين قطاع الطريق ، فرسم ملك الأمراء بشنقهما فشنقا . وقد وقع لملك الأمراء أنه شنق وخوزق فى هذا الشهر جماعــة كثيرة بخلاف العادة .

وفيه أشيع أن صبيانا صغارا قعدوا يلعبون فى بعض الحارات ، فعمل واحد منهم ملك الأمراء ، وآخر والى القاهرة ، ونادوا أن لا أحد يخرج من بعد العشاء ، فقام بعض الصغار وخطف عمامة آخر يمشى عليــه ، فقبضوا عليه وأحضروه بين يدى الذى جعلوه ملك الأمراء ، فرســم للذى أقاموه واليا بأن يقبض عليه ويخوزقه ، فدقوا له عصا فى الأرض وأقعدوه عليها غصبا ، فمنهم من قال أن الصبى مات من وقته ، ومنهم من قال لم يمت ، فلما جرى ذلك تواربت الصغار الى حال سبيلهم ، وقد هان القتل فى هذه الأيام حتى عند الصغار . وهذه الواقعة لم تثبت الا اشاعات .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، قدمت الأخبــار بأن الفرنج قد أتوا الى ساحل بيروت وحاصروا من بها ، فكسروهم وملكوا مدينة بيروت ، وأقامت معهم ثلاثة أيام . فلما بلغ ملك الأمراء نائب الشام جان بردى الغزالى ذلك عين دواداره ومعه الجم الكثير من العساكر ، فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة ، قتل فيها ما لا يحصى من الفرنج ، وأسر منهم ثلثمائة انسان ، وغنموا منهم أشياء كثيرة من ســلاح وقماش وغير ذلك . وقيل أسروا جماعة من أولاد ملوك الفرنج ، وملكوا ثلاث برشات من كبــار مراكبهم ، وكانت النصرة عليهم للغـــزالى نائب الشام ، بعد ما ملك الفرنج بيروت ، فطردهم عنها بعون الله تعالى .

ومن الحوادث العظيمة الغريبة ما وقــع يوم الأربعاء تاسع عشر ذى القعدة من سنة ست وعشرين وتسعمائة ، أنه قدم قاصد من البحر المالح وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن السلطان سليم شاه بن عثمان ، بأن السلطان سليم شاه قد توفى الى رحمة الله تعالى . وحضر صحبة القاصد مطالعة من عنــد الرئيس شمس الدين محمــد القوصونى الى صهره قاضى القضاة محيى الدين الدميرى ، تتضمن أخبار موت السلطان سليم شاه

ابن عثمان ، وهى الأخبار الصحيحة ، فأخبر أن السلطان سليم شاه خرج يتصيد ، فرجع من الصيد وهو متوعك فى جسده ، وقد طلعت له فرخة جمر ، تألم بها ولزم الفراش أياما ، وثقل فى المرض واشتد عليه الأمر جدا ، فمات فى يوم الخميس تاسع شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة . فلما مات كتم موته عن العسكر ثلاثة أيام ولم يدفن .

وكان ولده سليمان غائبا عن اسطنبول ، فلما حضر وقد جد فى السير حتى دخل الى اسطنبول وجلس على سرير الملك ، أشيع موت أبيه سليم شاه ، فأحضروه فى سحلية وهو مصبر ، وصلوا عليه ، ومشت الوزراء والعسكر قاطبة قدامه ، وكان دفنه يوم الأحد ثانى عشر شوال أو يوم الاثنين كما قيل ، ودفن على جده السلطان محمد ابن عثمان فى مدرسته باسطنبول ، ومضى الى رحمة الله تعالى كأنه لم يكن ، وزال عنه الملك فى طرفة عين ، فسبحان من لايزول ملكه ولا يتغير . وفى ذلك يقول ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق فى المعنى :

عظم الله أجركم فى مليك الورى سليم
عنه قد زال ملكه وغدا فى الثرى رميم

وتوفى الملك المظفر سليم شاه وله من العمر نحو سبع واربعين سنه على ما أشيع ذلك ، ووقع له من الأمور الغريبة ما لم يقع لأحد من آبائه ولا أجداده ، بل ولا لأحد من ملوك الشرق ، ولا ملوك الغرب ، ولا غيرهم ، فانه زحف على شاه اسماعيل الصفوى ملك العراقين ، وحاربه فكسره وقتل من عساكره ما لا يحصى حتى قيل : قتل فوق الخمسين ألفا ، وملك بلاده وطرده عنها . ثم تحرش بسلطان مصر ، ولا زال يخادعه ويظهر أنه تحت طاعته حتى خرج اليه وغدر به وحاربه وانكسر منه وفقد ، وقد طرقه على حين غفلة ، وجرى عليه منه ماجرى كما تقدم ذكر ذلك ، فملك مدينة حلب وقلعتها فى خمس درج ، واحتوى على أموال السلطان الغورى التى كانت بقلعة حلب من غير مانع ، ثم توجه الى دمشق فملكها وملك قلعتها من غير مانع فى أسرع من طرفة عين ، ثم توجه الى الديار المصرية ، وحارب السلطان طومان باى فكسره ، وقتل غالب عسكر مصر من المماليك الجراكسة ، وقتل من الأمراء ما تقدم ذكره ، وملك الديار المصرية فى نحو عشر درج .

وكانت مدة استيلائه على حلب والشام ومصر أربع سنين وخمسة أشهر ، وهو يخطب باسمه على منابر حلب وأعمالها ، ودمشق وأعمالها ، ثم خطب باسمه فى الديار المصرية وأعمالها وثغورها ، وضربت السكة باسمه فى هذه المدة .

وكان استيلاؤه على مدينة حلب فى أواخر رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة ، واستولى على دمشق فى سلخ رمضان ، واستولى على الديار المصرية فى المحرم سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، فكانت مدة اقامته فى القاهرة نحو ثمانية شهور من مستهل المحرم الى أواخر شعبان ، واستقر بخاير بك نائبا عنه بمصر

وأما مدة استيلائه على مملكة الروم من حين توفى والده السلطان أبو يزيد الى الآن ، فنحو تسع سنين الا شهرا ، فان والده أبا يزيد توفى فى ثانى جمادى الأولى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ،

وكان استيلاؤه على مملكة الروم فى حياة والده بأشهر ، فان والده أقام مريضا ملازما الفراش مدة طويلة ، فيقال انه عجل على أبيه وقتله لأجل الملك ، ثم انه خنق أخاه قرقط ، وقتل أخاه أحمد ، وظن أن الوقت قد صفا له ، فتلاعبت به الدنيا كما تلاعبت بغيره من الملوك ، ودهاه الموت الذى لا يدفع بقوة ولا حيلة ، وقد صار فى رمسه رهين الذنوب ، لا يعلم أهو فى نعيم أو فى عذاب ، وقد رثيته بهذه الأبيات :

لابن عثمان قصة فاسمعوها
واعجبوا من صنع ربى تعالى

ملك الشام للفرات وأضحى
فاتكا فى الأنام روحا ومالا

وأراد الدخول فى كل مصر
قلت هيهات رمت هذا محالا

طردته عنها سهام الدياجى
بدعاء فيها تفوق النبالا

بعد ما جار فى الأنام بقتل
من جيوش يدك منها الجبالا

منذ جاروا وبالغوا فى أذاهم
قد سألنا الاله يكشف حالا

فاستجاب الدعا ومن علينا
بانفراج الهموم جل تعالى

وأتتنا أخباره بزوال
صيرت رشده حقيقا محالا

كم ملوك أذلها بعد عز
وسطا فيهمو وأفنى الرجالا

لهف قلبى على ملوك تفانوا
من سطا سيفه وطال اشتعالا

ذلت الروم بعد ما قد دهاهم
موت أستاذهم وشاعوا المقالا

زال عنا بموته دون حرب
وكفى الله المؤمنين القتالا

وفى ذلك اليوم أشيع موت ابن ملك الأمراء الذى كان مقيما باسطنبول ، وكان رهينا عند ابن عثمان من حين استولى أبوه على نيابة السلطنة بمصر ، ولما تحقق ملك الأمراء موت السلطان سليم شاه أظهر الحزن والأسف وشق أثوابه ولبس السواد . وكذلك الأمير قرا موسى ، وخير الدين نائب القلعة وفرحات ، وسائر الأمراء العثمانية لبسوا السواد ، حتى الأمير قايتباى الدوادار لبس السواد ، ووضع على رأسه شدا أزرق وأظهر الحزن .

وفى يوم الخميس عشريه رسم ملك الأمراء بأربعة مشاعلية تنادى فى القاهرة : اثنان يناديان بالتركى ، واثنان يناديان بالعربى ... ترحموا على الملك المظفر سليم شاه ، وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان شاه . فارتجت القاهرة فى ذلك اليوم ، وتحققوا موت سليم شاه من غير شك ، وقالوا سبحان من هذ الجبابرة ... وأما المماليك الجراكسة فتزايد عندهم الفرح والسرور ، واستبشروا بالفرج كما يقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

فاستمر الأمراء وهم لابسون السواد ثلاثة أيام متوالية وهم يظهرون الحزن على سليم شاه ابن عثمان ، وكان موته من الغرائب على حين غفلة ، ولو عاش وصفا له الوقت ما حصل لأحد منه خير ، فكفى الله الناس شره .

الملك سليمان بن سليم

هو التاسع من ملوك الترك وأولادهم بالديار الرومية من بنى عثمان ، استولى على الروم بالقسطنطينية العظمى يوم الأحد ثانى عشر شوال سنة ست وعشرين وتسعمائة وجلس على سرير الملك بعد وفاة أبيه سليم شاه ، وصار متملكا على المملكة الرومية والديار المصرية ، وما مع ذلك من الممالك ، قيل استولى على الملك وله من العمر نحو ثمان وعشرين سنة ، وله أولاد ذكور واناث ، وقيل عنه انه من ذوى العقول ، وفيه أقول :

سرنا لما ولى سلطاننا
ابن عثمان وصرنا فى أمان
وارثا للملك عن أجداده
فهو فى الملك سليمان الزمان

وأما ترجمته ، فهو سليمان بن سليم شاه الذى أخذ مصر عنوة بالسيف ، ثم والده سليم أبو يزيد . ولد سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وولى على مملكة الروم ، وجلس على سرير الملك يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة ، وتوفى سنة ثمانى عشرة وتسعمائة ، وكانت مدة سلطنته ببلاد الروم نحو ثلاث وثلاثين سنة .

ثم والده السلطان محمد وهو أول ملك لقب بالسلطان من ملوك الروم ، ولد سنة خمس وستين وسبعمائة ، وكانت مدة حياته نحو ستين سنة .

ثم والده مراد خان ويدعى غازى أيضا ، ولد سنة عشر وسبعمائة . وكانت مدة سلطنته بمملكة الروم احدى وثلاثين سنة ، وعاش من العمر نحو ثمان وستين سنة .

ثم والده أبو يزيد المعروف بيلدرم ، ويلدرم باللغة التركية اسم البرق ، وهو الذى أسره تمرلنك ووضعه فى قفص من حديد ، وطاف به فى البلاد يتعجب عليه ، وكانت وفاته فى القفص الحديد سنة خمس وثمانمائة ، وكانت مدة مملكته على بلاد الروم تسع سنين أو نحو ذلك .

ثم أبوه أورخان عاش نحو ثمان وستين سنة .

ثم أبوه على أردن ، ثم أبوه عثمان الثانى ، ثم أبوه سليمان ولد فى بلاد الروم ، وكانت مدة استيلائه هو وعثمان الثانى على مملكة الروم من سنة سبع وثمانين وستمائة ، واستمر على ذلك حتى قتل فى الغزاة ببلاد الفرنج ، وخلف ابنه سليمان . فهؤلاء كلهم من نسل عثمان الثانى ، فأطلق عليهم ملوك الروم من بنى عثمان ، وهم تسعة بالعدد .

وأما جدهم الكبير عثمان ، فقال بعض المؤرخين انه ولد سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وعاش تسعا وستين سنة ، وأن أصله من عرب الحجاز من وادى الصفراء بالقرب من المدينة النبوية . فلما وقع الغلاء بالمدينة خرج منها عثمان فارا الى بلاد قرمان فنزل هناك ، وكان شجاعا بطلا فتزيا بزى أهل قونيا ، وكان ملك الروم يومئذ بيد طائفة يقال لهم السلجوقية ، فصار عثمان فى خدمة الأمير على بن قرمان ، فعظم أمر عثمان عنده ، ومشى على طريقتهم ، وتكلم باللغة التركية ، وصار له أتباع كثيرة وأعوان ، وعدة عساكر نحو عشرين ألفا . فعند ذلك خرج عن طاعة السلجوقية والقرمانية ، وصار له عدة بلاد افتتحها ، وصار يغزو بلاد الفرنج فى كل سنة ، ويغنم أموالهم ، ففتح عدة حصون تلى خليج القسطنطينية ، ولا زال ملك بنى عثمان يكثر وجنودهم تكثر ، وأظهروا العدل فى الرعية ، وعمروا التكايا والزوايا والخوانق .

(١) هذه العبارة من أولها الى آخرها فيها مخالفات كثيرة لما ذكره المؤرخون . فليكن ذلك معلوما .

وكان عثمان يحب العلماء ويقرب الصلحاء ، وكان طويل القامة أسمر اللون أقنى الأنف . وقيل عاش عثمان هذا نحو سبعين سنه ، ومات شهيدا فى بعض غزوات الفرنج ، وهو جد بنى عثمان قاطبة .

قال الشيخ تقى الدين أحمد المقريزى . لم يكن فى أبناء عثمان من يلقب بملك ولا بسلطان ، بل كانوا اذا كاتبهم أحد من ملوك مصر وعظمهم يقول لهم الخنكار أو الأمير فلان . وقال المقريزى انهم ينسبون الى أبى مسلم الخراسانى ، صاحب دعوة خلفاء بنى العباس ، الذى تعصب لهم ونزع الخلافة من يد الأموية ، وجعلها الى العباسية . انتهى ما أوردناه من نسب ابن عثمان ، وهذا هو النسب الصحيح عنهم ، والله أعلم بحقيقة ذلك

ومن هنا نرجع الى خبر الملك المظفر سليمان بن سليم شاه ابن عثمان ، فالذى أخبر به القوصونى فى كتابه ان السلطان سليمان لما جلس على سرير الملك ، أظهر العدل فى الرعية ، فأرسل أحضر الخليفة من المكان الذى كان سجنه فيه والده سليم شاه ، فأحضره الى اسطنبول كما كان ، ورتب له فى كل يوم ستين درهما .

وأفرج عن علاء الدين ناظر الخاص ، وعن جماعة كثيرة من المباشرين الذين كان سجنهم والده ، وأفرج عن جماعة من التجار الأعجام الذين كان والده سجنهم وزعم أنهم من عند الصفوى وأخذ منهم حريرا بنحو اثنى عشر ألف دينار . فلما آل اليه الملك أفرج عنهم ، وأعاد لهم الحرير الذى كان أخذه والده منهم ورسم لهم بالعود الى بلادهم وذكر عنه أشياء كثيرة من العدل من هذا النمط .

وفى يوم الجمعة حادى عشريه رسم ملك الأمراء بأن يصلى على السلطان سليم شاه ابن عثمان صلاة الغيبة بجامع القلعة ، وسائر جوامع القاهرة ، وأن يدعى للسلطان سليمان على المنابر ومضى أمر السلطان سليم شاه كأنه لم يكن .

وفى يوم السبت ثانى عشريه ، نودى فى القاهرة بالزينة ثلاثة أيام متوالية بسبب سلطنه الملك المظفر سليمان ، فزينت مصر والقاهرة زينة حافلة حتى داخل الأسواق وغالب الحارات ، ولا سيما خان الخليلى ، فان تجاره زينوا زينة عظيمة ، وصار الأمير على الكيخية والى القاهرة يطوف فى كل يوم عدة مرار ، وقدامه جماعة من الانكشارية ، وهو ينادى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يشوش على أحد من الرعية . وصار يأمر بتقوية الزينة ، ويضرب أصحاب الدكاكين بسببها ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه ابن صادق .

مذ غدت بعد سليم بعد حزن فى تهانى
زينب مصر وأضحت لسليمان الزمان

ومن الحوادث أن طائفة من الانكشارية قصدوا أن ينهبوا حارة زويلة . وقيل جرت العادة عندهم اذا مات السلطان ينهب العسكر حارة اليهود ، فقصد طائفة الانكشارية أن يفعلوا ذلك فمنعهم خير الدين نائب القلعة ، وقرا موسى وفرحات من ذلك ، فتعصبوا منهم وتوجهوا الى بركة الحبش على أنهم يدخلون على حميه ، وينهبون القاهرة عن آخرها ، فترددت الرسل بينهم وبين ملك الأمراء على أنه ينفق على طائفة الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار ، فتراضوا على ذلك ، وعلى أنه لا ينفق على طائفة الاصباهية ولا الكملية شيئا ، فتقرر الحال على ذلك .

ثم فى يوم السبت المقدم ذكره أرسل ملك الأمراء الى الأمير قايتباى الدوادار قفطان حرير صارى وشاش خمسينى ، ثم ان ملك الأمراء صار يتراضى خواطر المماليك الجراكسة ، فأنفق عليهم جامكية شهرين دفعة واحدة ، وصار القاضى شرف الدين الصغير يأخذ بخواطر المماليك الجراكسه

أيضا ، ويخاطبهم يا أغاوات ، بعد ما كان يقول يا كلاب يا زرابين . وقد أقامت المماليك الجراكسة صدورها من حين سمعوا بموت سليم شـاه ابن عثمان .

وفى يوم الاثنين رابع عشريه أشيع أن طائفـة الاصباهية وقفوا الى ملك الأمراء ، وقالوا مثل ما أنفقت على الانكشارية أنفق علينا أيضا ، فقال لهم الانكشـارية مماليك الخنكار وأنتم خدامه ، وما عندى ما أنفقه عليكم ، فنزلوا من عنده على غير رضا ، وأشيع أنهم يقصدون نهب الزينة ، فبادر الناس بفـك الزينـة ، ووقع الاضطراب فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثـلاثاء خامس عشريه ، أنفـق ملك الأمراء على الانكشارية فقط ، فأعطى لكل واحد منهم أربعين أشرفيا ذهبا تصرف بثمانين أشرفيـا فضة ، وأعطى الصوباشية أغوات الانكشارية لكل واحد منهم مائة دينار ، فشق ذلك على الاصباهية والكملية ، وأشيع اقامة فتنة .

وفى يوم الأربعاء سادس عشريه ، حضر قاصد من عند نائب الشام الأمير جان بردى الغزالى ، يقال له خشـقدم اليحياوى ، وهو أحد الأمـراء العشراوات بدمشـق ، وكان أمير جكار عنـد قانصـوه اليحيـاوى ، فلمـا حضر بين يدى ملك الأمراء دفع اليه مطالعة نائب الشام جان بردى الغزالى ، ومطالعة الى الأمراء ، فلما قرئت اضطربت أحواله ، ولم يعلم ما فى تلك المطالعات ، فأنزلوا القاصد فى بيت الأمير جانم الحمزاوى ، فأقام عنده فى الترسيم وهو محتفظ به .

ثم أشيع أن ملك الأمراء من حين حضر قاصد نائب الشام الغزالى وهو منكد ، وشرع فى تحصين قلعة الجبل ، وركب على أبراجها المكاحل ، ووزعت أعيان الناس أمتعتهم فى حواصل ، وتزايد القيل والقال بين الناس فى أمر جان بردى الغزالى نائب الشام ، وأشيع عصيانه بالشام ، وقد جمـع من العساكر ما لا يحصى .

ثم فى يوم الخميس سابع عشريه رسـم ملك الأمراء أن طائفة الانكشاريه يقيمون فى القلعه فى الطباق ولا ينزلون الى المدينة ، وأن طائفة الاصباهيه يسكنون حول القلعه بالقرب من بيت قرا موسى ففعلوا ذلك .

وفى يوم الجمعة ثامن عشريه خرج قاصد من عند ملك الأمراء يقال له أمير شيخ ، فأرسل على يديه مطالعات الى السلطان سليمان بن عثمـان يعـزيه فى والده السلطان سليم شـاه ، ويهنيه باستقراره فى الملك عوضا عن أبيه .

ثم أشيع أن ملك الأمراء أرسل قاصد نائب الشام وهو خشقدم اليحياوى الذى حضر وعلى يديه المطالعات ، فأرسله الى السلطان سـليمان وصحبته تلك المطالعات الواردة من عنـد نائب الشام ، فقيل أرسله فى الحـديد ، وتوجه أمير شيخ الى البحر الى ثغر الاسكندرية ، ومن هناك توجه من البحر المالح الى اسطنبول .

ثم أشيع بعد ذلك أن القاصد قد أغرقوه تحت الليل ، وكان آخر العهد به والله أعلم بحقيقة الحال .

ومما استفاض بين الناس من أمر واقعة نائب الشام جان بردى الغزالى ، أنه تسلطن بالشام . وقبل له العسكر الأرض وخطب باسمه على منابر دمشق ، وضربت السكة باسمه على الذهب والفضه

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، أرسـل يعلم السلطان سليمان ابن عثمان بمـا وقع من نائب الشام من سلطنته بالشام ، وأرسل اليه المطالعات التى وردت عليه بما جرى منه ، وصـار الأمر موقوفا على الجواب عن ذلك ، وقد تحقق عصيان نائب الشام وخروجه عن الطاعة .

وفى شهر ذى الحجة وكان مستهله يوم الاثنين طلع القضاة الأربعة الى القلعة وحضروا ملك الأمراء بالقصر ، فلما تكامل المجلس احضر ملك الأمراء مصحفا شريفا ووضعه على كرسى ، وحضرت الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية ، فتقدم الأمير أرزمك الناشف وحلف أنه يكون تحت طاعة السلطان سليمان كما كان تحت طاعة والده سليم شاه ، وأنه لا يخون ولا يغدر ولا يخامر عليه . فحلف على ذلك بحضرة القضاة الأربعة ، ثم تقدم الأمير قايتباى الدوادار فحلف بمعنى ما حلف به الأمير أرزمك الناشف ، ثم صارت الأمراء الجراكسة يحضر منهم اثنان اثنان ويحلفون على المصحف بمعنى ذلك . ثم قام شخص يقال له قراجا الطويل ، وقال : يا ملك الأمراء مثلما حلفنا للأمراء العثمانية يحلفون لنا هم أيضا . فقال ملك الأمراء : واجب علينا ذلك . فتقدم ملك الأمراء وحلف على المصحف ، وأوسع فى ألفاظ الحلف وأكد فى ذلك . ثم تقدم قرا موسى وحلف على المصحف ، وكذلك فرحات وخير الدين نائب القلعة والكيخية الكبير أغات الانكشارية فلما تكامل الحلف رسم ملك الأمراء أن ينادى فى القاهرة بالعربى والتركى بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن التجار تفتح دكاكينها وأن لا أحد يكثر كلاما ولا يدخل فيما لا يعنيه ، ولا ينقل له قماشا الى داره ، والدعاء بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمان ، فلما نودى بذلك سكن الاضطراب الذى كان بين الناس قليلا .

وفى ذلك اليوم عرض على ملك الأمراء شخص من النصارى قيل عنه انه وقع فى حق النبى صلى الله عليه وسلم بكلام فاحش ، وشهد عليه بذلك ، فحكم القاضى الحنفى بقتله ، فضرب عنقه تحت شباك المدرسة الصالحية ، ثم ان العوام أحرقوه بالنار حتى صارت جثته رمادا

ومن الحوادث الغريبة والنوادر العجيبة أنه أشيع أن بحر النيل زاد فى هذه الأيام بعد ما قد مضى من هاتور نصفه نحو ثلاثة أذرع ، حتى قيل بقى على علام الوفا ست عشرة أصبعا ، فعد ذلك من النوادر الغريبة التى لم يقع مثلها فيما مضى من الزمان ، ولم يحصل بهذه الزيادة نفع للناس ، بل أغرقت الزروع التى زرعت على الشطوط والأمتعة ، وهذا من جملة عجائب صنع الله تعالى فكان كما يقال فى المعنى :

النيل أفرط فيضا ... بفيضه المتتابع
فصار مما دهانا ... حديثنا بالأصابع

ثم أشيع من بعد ذلك أن النيل قد دخل الى خليج الزربية من عند قصر ابن العينى ، فتطير الناس من ذلك ، ثم أشيع أن الماء دخل الى الخليج الناصرى وفاض حتى دخل الى بركة الرطلى ، وغرق الزرع الذى كان بها ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وأشيع ان جهات المنوفية غرق ما كان زرع بها ، وهى عدة أفدنة كثيرة ، وكذلك غرق غالب البراسيم التى بالجيزة وما حصل بهذه الزيادة للناس خير .

وفيه أفرج ملك الأمراء عن نجم شيخ العايد ، وخلع عليه وأعاده فى مشيخة العايد ، كما كان أولا . وخلع على أربعة أنفار من عربان السوالم ، وقرر معهم أن يجمعوا من العربان ما يقدرون عليه ، بسبب ملاقاة نائب الشام جان بردى الغزالى ، فانه تزايدت الأخبار بسلطنته بالشام ، وقد تلقب بالملك الأشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له دمشق ثلاثة أيام ، وأوقدت له الشموع على

الدكاكين ، وقبل له الأمراء الأرض . وقد جمع العسكر الكثير وهو قاصد نحو الديار المصرية .

وفى يوم الأربعاء ثالث شهر ذى الحجة توفى الامام العالم العامل شيخ الاسلام والمسلمين ، مفتى الأنام فى العالمين ، بقية السلف ، وعمدة الخلف ، عالم الوجود على الاطلاق ، ومن ذكره قد شاع فى الآفاق . فهو آخر علماء الشافعية بالديار المصرية ، وانتهت اليه رياسة الشافعية ، فهو شيخ الاسلام زين الدين زكريا بن محمد ابن محمد الأنصارى السنيكى الشافعى رحمة الله عليه .

كان مولده فى سنة أربع وعشرين وثمانمائة ، ومات وله من العمر مائة سنة وسنتان بعدها . وكان رئيسا حشما فى سعة من المال ، وولى قضاء الشافعية فى دولة الأشرف قايتباى ، وأقام بها نحو عشرين سنة ؛ ومات وهو معزول من القضاء ، وقد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة .

وحضر مبايعة خمسة من السلاطين ، وهم الناصر محمد بن قايتباى ، وخاله الظاهر قانصوه ، والأشرف جان بلاط ، والعادل طومان باى ، والأشرف الغورى .

وولى تدريس قبة الامام الشافعى رحمة الله عليه ، وولى فى أواخر عمره مشيخه مدرسه الجمالية ، وكان بيده عدة تداريس ، وألف الكتب الجليله فى العلوم المفيدة ، وأفتى ودرس بالقاهرة نحو ثمانين سنة ، وانتفع منه غالب الناس وخلف ولدا ذكرا من جارية سوداء .

فلما بلغ ملك الأمراء وفاته أرسل اليه ثوبا بعلبكيا وخمسين دينارا على يد الأمير جانم الحمزاوى ، وحضر غسله وتكفينه والصلاة عليه ، وأخرجت جنازته من عند المدرسه السابقية ، ومشى فى جنازته قضاة القضاة وأعيان الناس ، وصلوا عليه فى سبيل المؤمنين ، ونزل ملك الأمراء وصلى عليه ، وحمل نعشه من سبيل المؤمنين أول ما طلعوا وكانت جنازته حافلة ، فلما صلوا عليه توجهوا به الى مقام الامام الشافعى رحمة الله عليه ، ودفن عند الشيخ محمد الخبشانى تجاه قبر الامام الشافعى رضى الله عنه ، فكان أحق بقول القائل حيث قال :

لقد عظمت رزيتنا فنبه
لها عمرا وىم جنح الليالى

فلا زالت ذوو الأقدار تلقى
من الأيام أنواع النكال

وكم جنت المنون على رجال
وجندلت الكماة بلا قتال

ودائى ليس بشفيه دواء
وجرحى لا ئول الى اندمال

به الأيام قد كانت قصارا
فويلى من لياليها الطوال

وكان ذخيرى فيها وكنزى
وكان هداتى عند الضلال

لقد درست دروس العلم حزنا
وقد ضل الجواب عن السؤال

ودق الناس أبواب الفتاوى
وقد وصلوا الى باب الصيال

بكاك العلم حتى النحو أضحى
مع التصريف بعدك فى جدال

بكت أوراقه بيض المواصى
دما ويراعه سمر العوالى

وعين دواته عمشت وآلت
يمينا لا تداوى باكتحال

تنكرت المعارف فى عيانى
وتمييزى غدا فى سوء حال
وما عوضت من بدل وعطف
سوى توكيد سقمى واعتلالى
فيا قبرا ثوى فيه تهى
فقد حزت الجميل مع الجمال
سقاه الله عينا سلسبيلا
وأسبغ ما عليه من الظلال
وبوأه من الفردوس فضلا
ورقاه الى الغرف الغوالى

وفى يوم الأربعاء المقدم ذكره ، توفى الشيخ شمس الدين محمد البساطى ، الشاهد الذى قطع ملك الأمراء يده ، فراح ظلما بلا ذنب أوجب ذلك وأشيع أن ملك الأمراء أرسل اليه مائة دينار على أنه يحالله على ما وقع منه ، فأبى من أخذ المائة دينار ، وقال حتى أقف أنا واياه بين يدى الله تعالى . وقيل أن يده التى قطعت استمرت عنده الى أن مات فدفنت معه فمات شهيدا

وفى يوم الثلاثاء تاسع ذى الحجة ، قدمت على ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان نزلوا على قطيا ونهبوا ما فيها ، واستمر النهب عمالا من قطيا الى الخطارة ، وطفشت العربان فى الشرقية ، واضطربت أحوالها ، وأشيع أن شيخ العرب أحمد ابن بقر أرسل حريمه وأدخلهم الى القاهرة ، ووزع أمواله وقماشه ومواشيه خوفا من النهب فى البلاد .

وقد وردت عليه أخبار غير صالحة ، وصار القيل والقال فى كل يوم عمالا بين الناس ، والأخبار الكذب أكثر من الصدق .

وفى يوم الأربعاء عاشره كان عيد النحر ، فوقع فى هذا العيد أمور غريبة بسبب الأضحية ، فبلغ سعر كل بقرة فوق الثلاثين دينارا ، وشىء منها بيع بأربعين دينارا ، ولم يسمع بمثل ذلك فيما تقدم من الزمان ، وبيع الخروف الكبير بعشر أشرفيات ، وشىء باثنتى عشرة أشرفية ، وشىء باثنى عشر ، فعد ذلك من النوادر الغريبة ، وسبب هذا أن الأشرفى الذهب العثمانى صار يصرف بخمسين نصفا من الفضة ، وأما المعاملة من الفضة فان غالبها نحاس ، وأكثرها غش ، فوقف حال الناس بسبب ذلك ، وصار الشىء يباع بمثلين ، وصار كل من البضائع وغيرها يباع بأغلى الأثمان ، وموجب ذلك قلة البقر والأغنام فى هذه الأيام ، وصارت الأبقار تجلب الى دمشق وتباع هناك بأغلى الأثمان ، فان الأبقار التى بدمشق دخل فيها الفناء وقل نسلها هناك جدا .

وفى يوم الاثنين خامس عشره خرج الأمير ناصر الدين محمد الجلبى المهمندار ، وتوجه الى نحو ثغر الاسكندرية بسبب تفقد الأبراج التى هناك خوفا من الفرنج أن يطرقوا الثغر على حين غفلة . وقد تزايد عبث الفرنج فى البحر المالح ، وقد طمعوا فى أخذ البلاد من حين مات السلطان سليم شاه ابن عثمان .

وفيه أشيع أنه حضر ساع من البلاد الشاميه وعلى يده مطالعة الى ملك الأمراء ، فقال له ان كان معك مطالعات الأمراء فأظهرها علينا ، فأنكر الساعى ذلك ، فحنق منه ملك الأمراء وضربه ضربا مبرحا وسجنه وهو لم يقر بشىء من المطالعات .

وفى يوم الجمعة تاسع عشره أشيع أن أمير شيخ — الذى أرسله ملك الأمراء الى السلطان سليمان ابن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه فى أبيه السلطان سليم شاه — قد رجع الى ثغر الاسكندرية وأنه وجد البحر المالح قد امتلأ بمراكب الفرنج ، فلم

يستعلم التوجه منه الى اسطنبول ، ورجع الى ثغر الاسكندرية ، وأرسل يعلم ملك الأمراء بما وقع له .

وفى يوم الأحد حادى عشريه نزل ملك الأمراء الى الميدان الذى تحت القلعة ، وعرض سنيحه وعرض العربات وهى العجلات التى صنعها ، وفرق على المماليك سلاحا ورماحا وغير ذلك ، ورسم لهم بأن يعملوا برقهم بسبب ملاقاة نائب الشام الأمير جان بردى الغزالى ، ورسم للعسكر العثمانى أن يعملوا برقهم أيضا .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه رسم ملك الأمراء للمماليك الجراكسة بأن يعملوا برقهم أيضا ، ويجهزوا أمورهم بسبب السفر ، فتوجهوا الى سوق القبو وجامع قوصون ، واشتروا ما يحتاجون اليه بسبب السفر .

وأشيع أن ملك الأمراء أمر طائفة الاصباهية والكملية بأن يخرجوا الى الصالحية ، ويقيموا بها الى أن يخرج العسكر ، فامتنعوا من ذلك وقالوا نحن لا نخرج الا فى ركاب ملك الأمراء اذا خرج وان لم يخرج ما نخرج . فوقع الخلف بينهما فى هذا الأمر ، وكثر القال والقيل بين الناس ، وأن ملك الأمراء أنفق على الانكشارية وأعوانهم ، ولم ينفق على الاصباهية ولا على الكملية شيئا فحنقوا منه .

وفيه أشيع أن اليهود حولوا جميع قماشهم من حارة زويلة وبنوا على أزقتها خوخا قصارا ، وقد أخذوا حذرهم من النهب ، وكذلك اعيان المباشرين ، وأن شخصا من الأمراء العشراوات يقال له جان قلج — وهو الذى كان نائب قطيا — حضر فى مجلس لهو ، فلما سكر نقل عن ملك الأمراء كلاما لم يقله ، فلما بلغ ملك الأمراء ما قاله جان قلج ، رسم للأمير قايتباى الدوادار بأن يدعو جان قلج عنده فى الترسيم حتى يعرضه عليه ، ويحقق ما قاله عنه فاستمر فى الترسيم عند الأمير قايتباى .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء ملأ الصهاريج الكبار التى بباب السلسلة ، وملأ عدة صهاريج بقلعة الجبل ، وأخذ فى تحصين القلعة بكل ما يمكن ، وطلع الى القلعة بأحمال بقسماط وأرز وقمح وشعير ودقيق وغير ذلك ، وأرسل طلب من ابن قريسيط المتحدث على شبرى خمسين ثورا من الثيران الكبار بسبب سحب المكاحل التى على العجل والعربات .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب شيخ المغاربة وقال له أحضر لى ألفى مغربى من شجعان المغاربة ، وهذه الواقعة تقرب من واقعة السلطان جان بلاط لما تسلطن العادل طومان باى بالشام ودخل هو وقصروه نائب الشام الى القاهرة — وقد تقدم ذلك — وكان الأشرف جان بلاط حصن القلعة أعظم من هذا التحصين ، ولم يمده منه شىء وانكسر ، وأخذت منه قلعة الجبل فى خمسة أيام ، ثم قبض عليه ونفى الى ثغر الاسكندرية .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشريه ، نودى فى القاهرة بأن أولاد الناس ومن بمصر من الأروام يطلعون الى القلعة للعرض بين يدى ملك الأمراء ، فصار جماعة من خان الخليلى من الطباخين ، ومن يعمل السراميج ، ومن يعمل السنبوسك ، يطلعون الى القلعة ويكتبون أسماءهم فى الديوان ، ويسمون أنفسهم الكملية ويتزيون بزيهم ، وصار العسكر ملفقا من سائر الطوائف والأجناس ففى سبيل الله خيار السبيل .

ثم ان طائفة الأصباهية والكملية تغلبوا على ملك الأمراء ، وقالوا : نحن ما نخرج الى قتال نائب

الشام الا بمرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، ونحن ما علينا الا حفظ درك القلعة والمدينة ، فان دخل الينا نائب الشام حاربناه فوقع الخلف بين العسكر العثمانى وبين ملك الأمراء بسبب ذلك .

وكان من حين تولى السلطان سليمان مملكة الروم لم يرسل الى ملك الأمراء خلعة الاستمرار ، فطمع فيه كل أحد بسبب ذلك ، وصارت الأخبار فى كل يوم ترد على ملك الأمراء بأن جان بردى الغزالى نائب الشام قد زحف وخرج من الشام فى عسكر كثيف ، وقصد نحو الديار المصرية ، ومعه طائفة كثيرة من الأكراد ومن عربان جبل نابلس ، ومن عربان بنى عطاء ، وبنى عطية ، وغير ذلك من طوائف العربان ، وغيرهم من عساكر دمشق .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان بنى عطاء وبنى عطية اتفقوا مع عربان طائفة السوالم وكسروا طراباى بن قراجا شيخ عربان جبل نابلس ، وكان ملك الأمراء خلع عليه وعلى جماعة من مشايخ عربان جبل نابلس ، وأنعم عليهم بمال له صورة على أنهم يلاقون جان بردى الغزالى ، ويحاربونه قبل أن يدخل الى القاهرة .

وفيه قدمت الأخبار بأن جماعة من عربان الغربية ثاروا على كاشف الغربية ، فهرب منهم وأرسل يعلم ملك الأمراء بذلك ، ليعين لهم تجريدة .

وفيه حضر شيخ العرب بيبرس بن بقر وقابل ملك الأمراء ، فخلع عليه ، وكان أشيع عصيانه .

وفيه عرض ملك الأمراء من بالسجون فأطلق منهم عشرين انسانا ، وقيل صالح جماعة منهم ممن عليهم الديون وقام بذلك من ماله .

وفيه قبض ملك الأمراء على شخص من الغلمان كان عند جان بردى نائب قطيا الذى تسحب منها ، فلما قبض عليه ومثل بين يديه قال له : أخبرنى عن أحوال الغزالى ، كيف تسلطن ، فقال ما عندى منه علم . وكان أشيع عن ذلك الغلام أنه أتى من عند الغزالى بمطالعات الى الأمراء الذين بالقاهرة ، فلما انكر الغلام ذلك حنق منه ملك الأمراء ، ورسم بتوسيطه فوسطه عند باب السلسلة قريب المغرب ، ومضى أمره .

وفى يوم الخميس خامس عشريه ، حضر مبشر الحاج ، وأخبر أنه حصل للحجاج مشقة عظيمة بسبب الغلاء فى سائر الأصناف والبضائع ، ومات من الحجاج جماعة كثيرة ، وأشيع الثناء الجميل على أمير الحاج جانم الكاشف .

وفيه قدم الخبر بأن نائب الشام جان بردى الغزالى توجه الى حلب بمن معه من العساكر ، وحاصر المدينة أشد المحاصرة ، وقد حاربه أهل حلب وتعصبوا عليه ، ولم يمكنوه من أخذ المدينة .

وقد انفصلت هذه السنة عن الناس وهم فى أمر مريب ، من استمرار الغلاء مع قلة الأمن ، والفتن القائمة فى البلاد الشامية والحلبية ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب جان بردى الغزالى ، فانه أشيع عنه أنه تسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف .

ومن أعظم حوادث هذه السنة ، موت الخنكار سليم شاه ابن عثمان ، فان موته كان من العجائب والغرائب ... ولا سيما ما جرى منه فى حق أهل مصر من الفعائل الشنيعة مما تقدم ذكره .

ومن لطائف صنائع الله تعالى أنه لم يقع فى هذه السنة طاعون ولا غيره فى البلاد الشامية ، ولا أعمال الديار المصرية .

سنة سبع وعشرين وتسعمائة (١٥٢١ م) :

استهل المحرم بيوم الأربعاء ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر والعام الجديد ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى ذلك اليوم حضر قاصد من عند السلطان سليمان نصره الله تعالى ، وعلى يده مراسيم شريفة ، فكان من مضمونها أن ملك الأمراء خاير بك على عادته فى النيابة بالديار المصرية . ثم انه أشيع أن السلطان سليمان أرسل يقول لملك الأمراء : انه عين تجريدة عظيمة الى نائب الشام جان بردى الغزالى ، وأرسل يقول : لا تخرج تجريدة نحن نكفيك أمره .

وفيه قدمت الأخبار بأن چاليش عسكر نائب الشام لما توجه الى حلب ، وحاصر المدينة ، انكسر ذلك الچاليش

ثم أشيع أن عربان الكرك قد استولوا على مدينة الكرك ، ورفعوا يد جماعة نائب الشام ، وقد انتدب الى محاربة جان بردى الغزالى شخص من عربان جبل نابلس يقال له جعيما شيخ عربان الكرك .

وفى رابع الشهر وقعت كائنة عظيمة لشخص من الأتراك يقال له اياس ، قيل انه من مماليك الأمير يشبك الدوادار ، رسم ملك الأمراء بتوسيطه فوسط فى الرميلة وكان سبب ذلك أنه كان فى مجلس لهو ، وحضر فى ذلك المجلس جماعة من الاصباهية ، فخلط اياس فى الكلام مع الأصباهية فى ذلك المجلس ، فقال بلغنى عن ملك الأمراء أنه يقصد أن يتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام . فلما حضر جماعة من الأمراء العثمانية عند ملك الأمراء ، قالوا له : بلغنا أنك تقصد أن تتسلطن بمصر كما تسلطن الغزالى بالشام . فقال لهم ومن نقل عنى ذلك ، قالوا شخص من الأتراك يقال له اياس ، فأمر باحضاره ، فلما حضر قال له : من قال لك عنى انى أقصد أن أتسلطن ؟ فقال له اياس : أنا سمعت ذلك من العوام ، فقال له ملك الأمراء : أحضر لى من نقل عنى ذلك ، فانعقد لسان اياس وتوهم من ذلك ، واضطربت أحواله ، وصار لا يدرى ما يقول ، فأخذ الأمير قايتباى الدوادار يرقع له خلله ، فطفش فيه ملك الأمراء وكاد أن يفتك به .

ثم ان ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على اياس المذكور ، فقبض عليه ونزل به من القلعة الى الرميلة ، فوسطه بسوق الخيل ، وراح ظلما من غير ذنب يوجب عليه ذلك ، فان أكثر الناس كانوا يحلطون فى ذلك من حين أشيع سلطنة جان بردى الغزالى بالشام ، واستمر اياس مرميا فى الرميلة والكلاب تنهش جثته فى الليل ، ورسم أن لا أحد يدفنه . وكان اياس شيخا مسنا ، وله أولاد وعيال ، ولكن اشتد غضب ملك الأمراء عليه فى ذلك اليوم ، فعد ذلك من مساوى ملك الأمراء .

وفى يوم الثلاثاء سابعه وقع من ملك الأمراء ما هو أشنع من ذلك ، وهو أنه رسم بتوسيط محمد ابن شمس الدين محمد الفرنوى . وسبب ذلك أن ابن الفرنوى قبض على فلاح وسجنه ، فانه كان مباشر وقف السلطان حسن ، فلما سجن ذلك الفلاح حمل بعض أقارب الفلاح على الفرنوى شخصا من العثمانية ، فكلم الفرنوى فى خلاص ذلك الفلاح ، فلم يوافق ابن الفرنوى على اطلاقه فأغلظ عليه العثمانى فى القول وسبه ، فقال ابن

الفرنوى : عن قريب يحضر جان بردى الغزالى نائب الشام وتحرجون على ايتمسه . فطلع العثمانى وشكا الى ملك الأمراء ما قاله ، فاحضر ابن الفرنوى وقال له : كيف تقــول عن قريب يحضر الغزالى ويتسلطن بمصر ؟ فأنكر ابن الفرنوى ذلك ، فأحضر العثمانى جماعة ممن كانوا حاضرين فشهدوا على ابن الفرنوى بأنه قال ذلك ، فحنق منه ملك الأمراء ورسم بتوسيطه فوسط فى الرميلة ، وراح ظلما كما وقع للناس . وكان ابن الفرنوى هذا من أعيان الناس ، أمام الأمير أقبردى الدوادار والأمير يشبك الدوادار .

وفيه صار ملك الأمراء يتصدق على الأطفال بالمكاتب قاطبه لكل طفل أربعه أنصاف ، ففرق مالا له صورة وصارت الأطفال يقرءون له الفاتحة ويهدونها فى صحيفة ملك الأمراء . وصار يتصدق على الزوايا والمزارات التى بالقرافة ، ويتصــدق على المجاورين بالجامع الأزهر ، فقيل انه صرف من ماله فى هذه السنة نحو خمسمائة دينار .

وفيه عزل كاشف الشرقية اناس واستقر عوضه شخص من الأتراك يقال له جانى بك ، وقد تقدم أنه ولى كشف الشرقية قبل ذلك

وفى يوم الخميس ثالث عشريه ، طرق ملك الأمراء أخبار رديئة بأن العربان قد زحفوا على قطيا ، وقد وصلوا الى الصالحيه ، فتنكد ملك الأمراء لذلك ، وعين لهم تجريدة ، فخرج اليهم طائفة من الاصباهية وطائفــة من الكملية ، فتوجهوا اليهم على الفور من يومهم وكثر القال والقيل بسبب العربان ، وغيرهم .

وفى يوم الأحــد سادس عشرى المحرم ، دخل الحجاج الى القاهرة مع الأمن والســلامة صحبة الأمير جانم أمير ركب المحمــل ، ودخــل قاضى المحمــل الشــيخ أبو الفتح فتح الدين الوفائى المالكى ، ودخل صحبته الشيخ شرف الدين يحيى ابن البردينى شيخ الحرم النبوى ، وكان السلطان سليم شاه قرره فى مشيخة الحرم النبوى ، فسعوا عليه فعزل واستقر بها الأمير بكباى ، كما تقدم ذكر ذلك . فلما عزل الشرفى يحيى بن البردينى عن مشيخة الحرم ، حضر صحبة الحاج .

وأشيع أن الحــاج قاسى فى الرجعة غاية المشقة من الغلاء وموت الجمال ، وتعرضت لهم جماعة من العربان ، فتقاتلوا مع الأمير جانم أمير الحــاج ، فانتصر عليهم وقتل منهم جماعة ، فرجع الحجاج وهم راضون عن أمير الحاج جانم ، وأثنوا عليه بكل جميل ، وشالوا له الراية البيضــاء فى بركة الحــاج .

❋ ❋ ❋

وفى شهر صفر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، صعد القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشــهر ، ثم عادوا الى دورهم ... وفيه جاءت الأخبار بأن الاصباهية والكملية الذين توجهــوا الى الصالحية بسبب محاربة العربان ، ظهر منهم غاية الفساد ، وصاروا ينهبون الضياع التى حول بلبيس والصالحية ، ويأخذون ما فيها من الدجاج والأوز والشعير والتبن ، فضج أهل الضياع من ذلك ، فاتى الفلاحون وشكوا الى ملك الأمراء ، أن التركمان نهبوا معلهم ، وفســقوا بنســائهم وبناتهم ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك أرسل خلف الاصباهية والكملية فحضروا الى القــاهرة ولم تحصل بهم نفع .

وفيه رسم ملك الامراء بشنق شخص يقال له الحاج ياقوت ، وكان من جملة تجار الوراقين ، وله

شهرة ، وهو فى سعة من المال فقتل من غير ذنب يوجب ذلك

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعـة وتوجه الى بولاق ، وكشف على المراكب التى عمرها هناك ، فأنزلوها الى البحر قدامه ، ثم رجـع وشق من القاهرة وارتفعت له الأصـوات بالدعاء ، وكان يوما مشهودا .

وفيه خرج الأمير جان بك أخو الأمير قايتباى الدوادار ، فتوجه من البحر وسـافر نحو البلاد الشامية ليكشف أخبار نائب الشـام جانُ بردى الغزالى ، وغير ذلك من الأشغال السلطانية .

وفيه انقطعت الأخبـار من البلاد الشـامية ، وامتنعت القوافـل والمسـافرون من الدرب السلطانى ، وانكتمت أخبار نائب الشام جان بردى الغزالى ، واستمر على ذلك ثلاثة أشهر ، وحصل للناس الضرر الشامل بسبب ذلك ، ومنع القوافل وجلب البضائع من البلاد الشامية .

* * *

واستهل شـهر ربيع الأول بيوم السبت فطلع القضـاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم

وفى يوم الثلاثاء رابعه ، نزل ملك الأمراء من القلعـة وتوجه الى بركة الحبش والبريم ، فأقام هناك الى ما بعد الظهر ، فأرسل القاضى بركات بن موسى المحتسب خمسـة جمـال ، ما بين خرفان شوى ، وحلوى وفاكهة ، وغير ذلك من مجامع ، ضمنها مأمونية ، وسنبوسك بسكر ، وغير ذلك أشياء فاخرة .

ثم ان ملك الأمراء نزل من هناك فى الحراقة ، وتوجه الى الروضة ، وكشف على المراكب التى عمرها هنـاك ، ثم شق من البحر وطلع من عند قصر ابن العينى ، وتوجه من هناك الى القلعة فانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية

ومن الوقائع اللطيفة ما وقع فى يوم الأحد تاسع الشهر ، وذلك انه وقع بين شخص من أرباب الفن يقال له محمد الأوجاقى ، ويعرف أيضا بالشرابى ، وشخص يقال له محمـد بن سرية ، فوقع بينهما رهان فى فن الموسيقى ، فقال محمد بن سرية : أنا أعرف قطعة من الفن ما سمعها أحد من أهل مصر قط . فقال محمد الأوجاقى : ان كان حقا ما تدعيه ، فنجمع مشايخ أرباب الفن ، ونجمع مغانى البلد قاطبة ، ويكون ذلك يوم الأحـد فى وسط بركة الرطلى ، وكان ذلك فى زمن الربيع فلمـا كان يوم الأحـد يوم الميعاد ، حضر جماعة من أرباب الفن ، وحضر مغانى البلد قاطبة ، وأتوا الى بركة الرطلى ، فجلسوا فى وسطها ، واجتمع هناك الجم الكثير من المتفرجين ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فغنى كل واحد من المغنين فى ذلك اليوم نوبة من أحسن ما عنده من الغناء ، وابتهج الناس فى ذلك اليوم غاية البهجة . وأما محمـد بن سرية فانه احتج بأنه ضعيف ، ولم يحضر ، وقال الرهان باق الى يوم الأحد الثانى فظهر عليه العجز ، ولم يف بما ادعاه مما تقدم ، فكان كما قيل :

كل من يدعى بما ليس فيـه

كذبته شـواهد الامتحـان

فانفض ذلك الجمـع ، وعـد ذلك اليوم من النوادر فى الفرجة والقصف .

وفى يوم الاثنين عاشره ، أشيع أن قاصدا حضر من عند السـلطان سليمان ، وعلى يده خلعـة الاسـتمرار الى ملك الأمراء ، فحضر القاصـد وصـحبته الأمير شـيخ والأمير على المحضر ،

وبرسباى استادار الصحبة مملوك ملك الأمراء الذى كان أرسله الى السلطان سليمان بن عثمان يهنيه بالملك ويعزيه فى موت أبيه السلطان سليم شاه ، فلما حضر طلعوا الى القلعة ، ومعهم مرسوم مختوم من عند السلطان سليمان بن عثمان ، فاجتمع بالقلعة الأمراء العثمانية والأمراء الجراكسة وقرىء عليهم مرسوم السلطان سليمان وهو مكتوب باللغة التركية ، فكان من مضمونه أن السلطان أرسل يقول لملك الأمراء انه فوض اليه نيابة مصر وما معها من الثغور والأعمال ، يعزل من يعزل ، ويولى من يولى ، ولم يرسل اليه خلعة الاستمرار ، فعز ذلك على ملك الأمراء ، وكثر بسبب ذلك القيل والقال بين الناس .

وفى يوم الثلاثاء حادى عشره كان المولد الشريف النبوى بالقلعة على حكم ما ذكرناه فى السنة الماضية .

وفى يوم الخميس ثالث عشره نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء خاير بك بأن من كان له حاجة الى الشام أو غزة يتوجه الى هناك ، فان الدرب السلطانى قد انفتح ، وكان الدرب السلطانى له نحو أربعة أشهر لم يسلك ، ولم تجىء منه القوافل ، حتى عزت البضائع التى كانت تجلب من هناك ، وذلك بسبب عصيان نائب الشام جان بردى الغزالى .

وأشيع أن جماعة من العربان أوقعوا مع جان بردى الغزالى ، وانكسر منهم وهرب ، فقصد ملك الأمراء أن يعلم الناس بأن الدرب قد انفتح وسلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على قرا موسى أحد أمراء ابن عثمان وقرره فى نيابة غزة ، فخرج اليها فى يوم الخميس وسافر .

وفيه قدمت الأخبار من الشام ، بأن السلطان سليمان بن عثمان ، أرسل الى نائب الشام جان بردى الغزالى عساكر عظيمة ، وصحبتهم ابن سوار ، فأوقعوا مع الغزالى فى ثانى عشرى صفر ، وكان بين الفريقين واقعة مهولة على حلب ، فانكسر منهم وهرب الى حماة ، فتبعوه واقتتلوا معه ، ففر منهم وهرب ، وقصد التوجه الى الشام ، وقطع قناطر الرستنى ، فتبعوه فكان بين الفريقين واقعة عظيمة خارج مدينة دمشق ، فقتل فى تلك المعركة نحو عشرة آلاف انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، ما بين عربان ومماليك ، وجماعة من عوام الشام ، وفيهم أطفال وصغار من أهل ضياع الشام ، وغير ذلك ممن حضر تلك الواقعة ، فكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما ملك الشام ، وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبى وحرق ضياع ، وما أبقوا فى ذلك ممكنا ، وليس الخبر كالعيان . والذى قتل تحت أرجل الخيل لا ينحصر ، وآخر الأمر انكسر نائب الشام والغزالى كسرة مهولة ، وقبض عليه وقتل ، وحزت رأسه ، وأرسلت الى اسطنبول مع رأس جماعة من أصحاب الغزالى ممن كان من عصبته ، ونهب وطاقه وبركه عن آخره ، وكانت من الوقائع العظيمة التى لم يسمع بمثلها .

وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وأربعة أشهر الا أياما ، وزال كأنه لم يكن .

وكان الغزالى عنده وهج وخفة زائدة ، أهوج الطبع ، ليس له رأى سديد ، رهاج فى الأمور ليس له تأمل ، وكان ولى نيابة الشام وهو فى غاية العظمة والحرمة الوافرة ، والكلمة النافذة ، وقد أصلح الجهات الشامية فى أيامه حتى مشى الذئب والشاة سواء ، كما يقال فى المعنى :

يا أيها الملك الذي سطواته

في البيد يخشى دائما من شاتها

وما كان بالشام التف عليه الجم الكثير من العساكر ما بين عربان جبلي نابلس والكرك وغير ذلك ، والتف عليه جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة ، وصاروا يخرجون من مصر في الخفية ويتوجهون اليه . والتف عليه طائفة من الأكراد والتركمان ، حتى اجتمع عليه اثنا عشر ألف مقاتل ، وفيهم رماة بالبندق الرصاص نحو خمسمائة رام ، وقيل أكثر من ذلك ، فعند ذلك حدثته نفسه بالسلطنة ، وثورته الجهلة فتسلطن وتلقب بالملك الأشرف ، وقبلوا له الأرض هناك ، وخطب باسمه على المنابر في جمعتين بدمشق ، وكل ذلك عين الغلط منه ، وكم من عجلة أعقبت ندامة ، فكان كما قيل في المعنى :

والنفس لا تنتهي عن نيل مرتبة

حتى تروم التي من دونها العطب

ولما تحقق ملك الأمراء أن الغزالي قد تسلطن بالشام ، وقبلوا له الأرض هناك ، اضطربت أحواله ، وسرت المماليك الجراكسة بذلك ، واستبشروا بالفرج ، ويا فرحة ما تمت .

وكان أصل جان بردي الغزالي من مماليك الأشرف قايتباي ، اشتراه وأعتقه ، وأخرج له خيلا وقماشا ، وصار من جملة المماليك السلطانية .

ثم ان الأمير تغرى بردي الأستادار ، قرره شادا في ضيعة بالشرقيه يقال لها منية غزال فنسب اليها ، وقيل له الغزالي مضافا لاسم تلك الضيعة ثم ان الأشرف قايتباي جعله جمدارا وقرره في كشف الشرقية ، ثم بقي أمير عشرة في أواخر دولة الناصر محمد بن قايتباي ، ثم بقي محتسب القاهرة في دولة السلطان الغوري ، ثم قرره في حجوبية الحجاب بحلب ، فخرج اليها من يومه ، وذلك بعد واقعة مصرباي لما انكسر . ثم ان الغوري نقله من حجوبية الحجاب بحلب الى نيابة صفد ، وذلك في سنة سبع عشرة وتسعمائة . ثم نقله من نيابة صفد الى نيابة حماه ، الى أن توجه السلطان الغوري الى حلب ، وانكسر وجرى له ما جرى ، فرجع الغزالي صحبة العسكر الى مصر ، فوجد الأشرف طومان باي قد تسلطن عوضا عن الغوري ، فاستقر بالغزالي نائب الشام وقد تقدم القول على ذلك .

فلما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان مصر أقره على عادته في نيابة الشام ، وجعل له التحدث على الشام وحماه وحمص وصيدا وبيروت وبيت المقدس والرملة والكرك وغير ذلك من الأعمال الشامية والطرابلسيه ، فلو قنع بذلك لكان خيرا له ، فكان كما يقال في الأمثال السائرة : « من شرب بكأس الطمع شرق به » .

وفي يوم الأحد ثالث عشريه قدمت الأخبار بأنه وصل قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، فلما تحقق ملك الأمراء ذلك ، نزل من القلعه وتوجه الى تربه العادلي ، وبات بها لأجل ملاقاة القاصد الذي حضر . وكان ملك الأمراء أرسل القاضي بركات بن موسى المحتسب الى الخانكاه ، ليمد له مدة هناك .

فلما كان يوم الاثنين رابع عشريه ، نادى ملك الأمراء في القاهرة بالزينة بسبب دخول القاصد ، فزينت زينة حافلة ، فلما دخل القاصد لاقاه ملك الأمراء من هناك ، ودخل هووااه من باب النصر ، وشق من القاهرة في موكب حافل ، وقدامه العسكر قاطبة من الجراكسة والعثمانية ، وقدامه جماعة كثيرة من الانكشارية وهم يرمون بالنفوط ، ودخل قدامه عشرة رءوس على رماح ، زعموا انها

رءوس مشايخ عربان ممن كان من عصبة نائب الشام جان بردى الغزالى ، فشق من القاهرة هو والقاصد ، وكان يوما مشهودا

وفى يوم السبت سلخ الشهر قدم قاصد آخر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وأشيع أنه أتى الى ملك الأمراء بخلعة الاستمرار ، فلما وصل الى تربة العادلى نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، فجلس على المصطبة التى هناك ، فألبسه القاصد الخلعة وهى قفطان مخمل أحمر بتماسيح مذهب ، ثم قام من هناك هو والقاصد ودخل من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل أعظم من الموكب المقدم ذكره ، وركب قدامه قضاة القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعى ، وعلاء الدين على الطرابلسى الحنفى ، ومحيى الدين يحيى الدميرى المالكى ، والشهابى أحمد الفتوحى الحنبلى . وركب قدامه الأمراء الجراكسة قاطبة ، والأمراء العثمانية ، ومشت قدامه الانكشارية والكملية وهم يرمون بالنفوط ، ومشت قدامه طائفة النصارى بالشموع الموقدة ، واصطف الناس له على الدكاكين بسبب الفرجة ، وكانت القاهرة مزينة فى قوة الزينة ، وعلقوا له أحمالا وثريات معمرة بالقناديل الموقدة بطول المدينة ، وأوقدوا له الشموع على الدكاكين ، ولا سيما ما فعله تجار الوراقين من الشموع الموكبيات الكبار ، وأطلقوا له المجامر بالعود القمارى ، ومرشات الماورد المسك .

ثم ان جماعة من التجار نثروا على رأسه الفضة فى عدة أماكن من المدينة ، وارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من كل جانب من البيوت والدكاكين ، وفرشت له الشقق الحرير تحت حافر فرسه من عند خان مسرور ، واستمر فى هذا الموكب الحفل ، حتى طلع الى القلعة وعليه خلعة الاستمرار من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وهى بتماسيح مذهب على مخمل أحمر ، وكان ذلك اليوم مشهودا فى الفرجة والقصف .

فلما طلع الى القلعة ، خلع على الأمير قايتباى الدوادار قفطانا مخملا ، ونزل الى منزله ، ثم نادى للناس بفك الزينة .

وقد أقامت الناس مزينة نحو عشرة أيام ، وتكلف الناس بسبب ذلك كلفة عظيمة ، من وقيد وقناديل ، ومشترى زيت ، وحصل فى هذه الزينة من التركمان غاية الفساد من خطف النساء والصبيان المرد ، والتجاهر بالمعاصى ليلا ونهارا ، حتى خرجوا فى ذلك عن الحد ، ولا سيما ما كان يفعل فى خان الخليلى من الفسق .

وقد ابتهج الناس بهذه الزينة غاية البهجة ، وفى هذه الواقعة يقول صاحبنا الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق يمدح السلطان سليمان بن سليم شاه بن عثمان عز نصره وأجاد حيث قال :

الحمد لله أضحى الملك مبتسما
من بعد ما كان أبدى وجهه كظما

وكيف لا يك يبدى وجهه كظما
على سليم وقد أضحى يرى رمما

وصار بعد سليم لابنه ، وغدا
من السرور به بالبشر مبتسما

وافتر عن شنب الفتح المبين فم الـ
ـنصر العزيز له بالسعد فيه لما

قد قطعت أرؤس الأعداء مخزية
وسيفه ملئت منه البطاح دما

وكيف لا وسـليمان مدبره
بخاتم الملك منه مذ به اختتمـا

وصار من كعبه فينا الغلاء رخا
والخوف أمنا بنا والنور زال عمى

والنيل قد زاد فى هاتور من فرح
به وروى أراضى مصر بعـد ظما

وكان أبطا لتـوت بالوفا حزنا
على سليم وما روى البـلاد بما

ومصر من فرح فى زينـة رقصت
لـا رأت لرخاها كعبـه علمـا

وأصبحت جنة من سعد خير بك
بعد الجحيم ونادى العدل من ظلما

وكيف لا وهو خير قد أحل بها
لو لم يكن هو خير قط ما حكما

يا أيهـا الملك الممدوح دم فرحا
وانظر لقصـد عبيد يشتكى ألما

فأنت بالطب أدرى من سواك به
ومن سواك يرى فى حكمه حكما

لازلت من ابن قانصوه الوفى ترى
مشـنفا بمديح مبدع حـكما

والجود كالجود يهمى منك من خلع
نيـابة عن سليمان له حـكما

وموكب الملك يبـديه وأنت بها
كما رأينا بمصر والسرور نمـا

وأنت فى فرج تبـدو وفى فرح
والملك مبتسم منـه ترى نعمـا

وكوكب السعد يسرى فى سما شرف
عليك فى سائر الأوقات محتكما

وقائلا حامدا مذ صار مبتسـما
الحمـد لله أضحى الملك مبتسما

وقد مضى هذا الشهر عن الناس على خير ، وكان كثير الحوادث ، ووقع فيه أمور غريبة ، وأحوال عجيبة ، ولا سيما ما وقع بالبلاد الشامية من الفتن العظيمة ، من القتل والنهب وحرق الضياع ، وذهاب الغلال ، وسبب ذلك عصيان نائب الشام جان بردى الغزالى ، واظهاره للسلطنة . ووقع مثل ذلك بحماه وحمص وغير ذلك من البلاد الشامية .

* * *

واستهل شهر ربيع الآخر بيوم الأحد ، ففى ذلك اليوم بلغ ملك الأمراء قدوم قاصد ، وهو الثانى من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، قد وصـل وعلى يده خلعة ثانية لملك الأمراء ، وهذا القاصد يقـال له الأمير على ، فلما تحقـق ملك الأمـراء وصوله ، نزل اليه من القلعة ولاقاه من عنـد تربة العادلى ، ولبس الخلعـة هناك ، ودخل من باب النصر ، وشق من القـاهرة فى موكب حافل ، وصـحبته الأمـير على الذى حضر ، ولم يكن صحبته من القضـاة سوى قاضى القضاة المالكى محيى الدين يحيى بن الدميرى . وكان هذا الموكب على حكم الموكب الذى تقدم ذكره .

ومن العجـائب أن ملك الأمراء أوكب ثلاثة مواكب حافلة ، وشق من القاهرة ثلاث مرات ، فى مدة سبعة أيام ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

وفى يوم الاثنين ثانى هذا الشهر ، خرج الأمير قرا موسى العثمانى الذى قرر فى نيابة غزة ، فخرج من بين الترب ، ولم يشق من القـاهرة ، وخرج صحبته الجم الكثير من الاصباهيه ، ومن التجار فان الدرب السـلطانى كان له مدة طويلة وهو منقطـع من السالك ، من حين جرى من الغزالى ما جرى ، الى أن أشيع قتله .

وفى يوم الاثنـين تاسعه ، كانت وفاة صاحبنـا القاضى محب الدين بن آصيل ، وكان رئيسا حشما

من ذوى البيوت ، وكان قد كف بصره قبل وفاته بمدة طويلة ، وحصل له شدائد ومحن ، ومات وهو فى غاية القهر بسبب خروج مشيخة المدرسة الجمالية عنه الى الشيخ زكريا ، وقد تقدم القول على ذلك .

وفى يوم الأربعاء حادى عشره ، توجه ملك الأمراء الى قبة الأمير يشبك الدوادار التى بالمطرية على سبيل التنزه ، فصنع له المقر الشهابى أحمد بن الجيعان هناك مدة حافلة ، وكذلك الخواجا هاشم ناظر المارستان ، وما أبقى فى ذلك ممكنا .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء فى يوم السبت رابع عشره ، رسم بقطع ثلاث رءوس من أعيان المماليك الجراكسة ، فقطع رءوسهم فى ذلك اليوم تحت شباك الدهيشة ، وأشهر تلك الرءوس على الرماح ، ثم علقها على باب زويلة ، فمنهم شخص يسمى ماماى الساقى ، وشخص يسمى قان بك الأشقر ، وهم من مماليك السلطان الغورى .

وكان سبب ذلك أن هؤلاء المماليك كانوا بالقاهرة ، وكان ملك الأمراء يحسن اليهم غاية الاحسان ، فلما أشيع عن جان بردى الغزالى نائب الشام أنه تسلطن هناك ، وتلقب بالملك الأشرف ، تسحب هؤلاء المماليك من مصر ، وتوجهوا الى الشام ، ودخلوا تحت طاعة الغزالى ، فلما انكسر الغزالى وقتل وجرى له ما جرى ، حصر هؤلاء المماليك واختفوا فى القاهرة ، فغمز عليهم .

فلما بلغ ملك الأمراء بذلك أرسل الوالى فقبض عليهم ، وأحضرهم بين يديه ، فلما مثلوا بين يديه ، وبخهم بالكلام ، فأغلظ عليه فى القول ماماى الساقى ، فحنق منه فرسم بقطع رقابهم بين يديه ، ورسم للوالى بأن كل من كان عند الغزالى من المماليك وحضر الى مصر ، يوسطه من غير اذن ، ولو كان من الأمراء . واشتد غضب ملك الأمراء فى ذلك اليوم بحيث انه حم جسده فى ذلك اليوم ولزم الفراش ، وانقطع عن المحاكمات ثلاثة أيام ، وأشيع أنه قد طلع له تساليك فى مشعره ، واشتد الألم عليه ، وانقطع عن الخروج ، وصار يتصدق على الزوايا والمزارات بمال له صورة ، وصار يذبح الذبائح من الأبقار على أبواب الجوامع الكبار ، ويتصدق بلحومها على المجاورين بالجوامع والزوايا .

وفى يوم الثلاثاء سابع عشره ، نودى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء : « معاشر كافة الناس ، ان كل من كان عنده مملوك من المماليك الجراكسة ، ممن كان عند الغزالى نائب الشام ، وأخفاه ولم يقر به ، يشنق على باب داره من غير معاودة » . وصارت هذه المناداة تتكرر فى كل يوم ثلاث مرات ، نحو ثلاثة أيام على لسان أربعة مشاعلية ، اثنان بالتركى واثنان بالعربى .

وقد اضطربت الأحوال فى هذه الأيام الى الغاية بسبب جان بردى الغزالى نائب الشام . فمن الناس من يقول انه باق فى قيد الحياة ، وأن الرأس التى قطعت غير رأسه ، ومن الناس من يقول انه قتل فى الواقعة التى كانت على القابون ، وحزت رأسه وأرسلت الى اسطنبول ، والأصح أنه قتل على القابون ، وهى ضيعة من الشام . وهذه الواقعة تقرب من واقعة قانصوه خمسمائة لما شك الناس فى قتله .

وفى يوم الخميس تاسع عشر ربيع الآخر ، كانت وفاة أمير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب ، ابن أمير المؤمنين عبد العزيز المتوكل على الله ، وكان مولده سنة احدى وخمسين وثمانمائة ، وأمه تسمى آمنة ، وهى ابنة أمير المؤمنين أبى الربيع سليمان بن محمد المتوكل على الله فهو هاشمى الأبوين . وكان رئيسا حشما دينا خيرا صالحا لين الجانب متواضعا ، ولى الخلافة فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى

الأشرف ، وأقام فيها احدى عشرة سنة ونصفا ، وبايع اربعه من السلاطين ثم صرف عن الخلافة فى دولة الأشرف الغـورى ، وعهـد الى ولده محمد المتوكل على الله ، وقاسى شدائد ومحنا ، وقد تقدم ذكر ذلك . وحصل له ضعف فى بصره ، وكان لا يقرأ ولا يكتب ، وكان رجلا مباركا لم تعهـد له صبوة قط ، ومات وله من العمر نحو ثمانين سنة أو دون ذلك ، وكان ولده غائبا باسطنبول من حين نفاه السلطان سليم شاه ابن عثمان ، ولما مات رثاه الأديب البارع ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق بهذه المرثية فقال :

رشـق الموت فى مرامى القلوب
من قسى النجوى سهام الكروب
يالهـا من سـهام كرب عظيم
فى مرامى الحشا برمى مصـيب
صـيرت دورنا خـرابا وصرنا
بعـد عـز أذلة للخطـوب
يا لهـا من مذلة بعـد عـز
صيرتنـا من عظمها فى لغـوب
أين خـير الأنام والآل والصحـ
ـب وأين الملوك أهل الحـروب
قـد قضى الله بالممات عليهم
مثـل ما قد قضى على يعقوب
الذى كف عن فـراق مناه
وتلقى البـلاء عـن أيوب
غاب عنه ابنه فمات بحـزن
كمدا .. من يطيق فقد الحبيب ؟
ابن عبـد العزيز أعنى أمـير الـ
ـمؤمنـين النجيب وابن النجيب
صاحب العهـد والخلافة والعقـ
ـد مع الحل واللوا والقضـيب
قلت صبرا على الذى حل لمـا
قد أشان فى ذا الزمان العجيب
هاشـمى أبا وأما وهـذا
غاية المجـد للحسيب النسيب
الـذى كان للأرامـل والأيـ
ـتام كفؤا وكان مأوى الغـريب
يا يتـامى ويا أرامل ضـجوا
واهطلوا عينكم بدمع سـكوب
واسألوا الله أن يسـكنه الفر
دوس فضـلا فالله خـير مجيب
والى مصر أن يجىء قـريبا
ابنـه فى هنـا وعيش خصيب
صـبر الله روح والـده فى
خـير روح بنشر بشر وطيب
وكذا روح من رثاه بهـذا
ان يمت مثـله بأوفى نصيب
وكذا قانصـوه أبوه امتنـانا
منه ما صـاح ذو بكا ونحيب
قائلا والعيـون تجرى عيـونا
رشـق الموت فى مرامى القلوب

ولما توفى الخليفة يعقوب لم يستطع ملك الأمراء أن ينزل من القلعة ويصلى عليه ، فانه كان فى غاية الضرر من تلك التساليك التى طلعت له فى مشعره ، فحضر مشهد الخليفة يعقوب قضاة القضاة ، وبعض الأمراء فصلوا عليه ودفن عند أقاربه بالمشـهد النفيسى رحمة الله عليه ، ودفن يوم الجمعة عشريه .

وتوفى بزدداره الحاج على فى ذلك اليوم ، ودفن عقيب دفن أستاذه يعقوب .

وفى يوم السبت حادى عشريه خرج الأمير قاسم العثمانى كزك باك الذى حضر صحبة الاصباهيه ،

فرجع الى اسطنبول وصحبته جماعة من العساكر العثمانية الذين كانوا بمصر ، فاختاروا عودهم الى بلادهم باسطنبول هم وهؤلاء الذين حضروا صحبة الخلعة التى جاءت الى ملك الأمراء من عند السلطان سليمان بن عثمان .

وفيه حضر الى الديار المصرية القاضى بدر الدين محمد المسعودى ابن الوقاد ، وكان توجه الى اسطنبول مع جملة من توجه من الأسارى ، فأقام فى اسطنبول مدة طويلة الى أن مات السلطان سليم شاه وولى ابنه سليمان ، فاستأذن الوزراء فى الحضور الى مصر لتفقد احواله ، ثم يعود الى اسطنبول ، فأذنوا له فى ذلك ، فحضر الى مصر وهو فى الترسيم بشاويش مرسم عليه ، وحضر صحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق ، وكريم الدين المجولى ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى وهو معتوق الناصرى ، ومحمد بن فارس ، فلما حضروا الى مصر أقاموا بها مدة .

فلما انقضى الميعاد الذى قرره معهم الشاويش ، استحثهم على الخروج والسفر الى اسطنبول . فلما كانت ليلة الرحيل ، اختفى القاضى بدر الدين بن الوقاد ولم يظهر ، فشق ذلك على الشاويش الذى كان مرسما عليهم .

وكان ابن الوقاد اختفى باذن ملك الأمراء ، حتى قيل ان ابن الوقاد قدم لملك الأمراء فى هذه الحركة ألف دينار فى الخفية ، وصار ملك الأمراء يظهر الغيظ على ابن الوقاد ويشدد فى طلبه ، ورسم على أصحابه وجيرانه ، وأظهر للشاويش الذى حضر صحبته أنه محث فى طلبه والأمر بخلاف ذلك ، ثم ان ذلك الشاويش قبض على كمال الدين بزددار طراباى ، وعلى كمال الدين العائق ، ويوسف مناخير ، وبدر العادلى ، ووضعهم فى الحديد وأخرجهم من مصر على أقبح وجه ، وسافروا من البحر الى اسطنبول ، وقاسوا شدائد ومحنا

وفيه توفى المعلم عبد الرحمن بن طبيله المعامل فى الدجاج والأوز ، وكان علامة عصره فى هذا الفن ، وكان فى سعة من المال لا بأس به ، وله بر ومعروف .

وفى يوم الاثنين ثالث عشريه ، كان عيد النصارى وهو أول يوم من الحماسين ، وكان ذلك اليوم رطبا وفى السماء غيم ، وهذا فأل للنيل بأن يكون فى تلك السنة عاليا جدا فى الزيادة .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشريه ، حضر أولاقى من عند السلطان سليمان بن عثمان ، وعلى يده مراسيم تتضمن أن كزك بك قاسم الذى حضر وعلى يده خلعة الاستمرار لملك الأمراء ، يستقر فى نيابة حلب ، عوضا عمن كان بها . وقيل ان كزك بك هذا رضع مع السلطان سليم شاه .

وقد صارت النيابات كلها بيد جماعة ابن عثمان ، فكزك هذا قرر فى نيابة حلب ، وشخص آخر يقال له اياس فى نيابة الشام عوضا عن الغزالى ، وقرر فرحات بك فى نيابة طرابلس ، وقرر قرا موسى فى نيابة غزة . وقد اقتسم العثمانية النيابات التى كانت بيد أعيان المماليك المصرية .

وفيه توفى الشيخ شهاب الدين أحمد بن نابتة الحنفى ، وكان لا بأس به . ولم يظهر القاضى بدر الدين بن الوقاد ، ولا كريم الدين المجولى ، فلما طال الأمر على الشاويش الذى كان توكل بهما ، تقلق وخرج وسافر من البحر وصحبته كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وكمال الدين العائق مباشر أمير اخور ، والخواجا عمر بن معزوز المغربى ، وزين العابدين حامل المزرة ، وبدر العادلى ، وحسين ويوسف مناخير ، فخرجوا من القاهرة

على أقبح وجه من الشاويش الذى وسم عليهم فوضعهم فى الحديد ، وكتف بعضهم بالحبال ، وساقهم مشاة قدامه حتى وصلوا الى بولاق فأنزلهم فى المراكب ، وسافروا نحو اسطنبول ، وحصل لهم الضرر الشامل من الشاويش . وقد حنق من ابن الوقاد والمجولى ، وحط غبنه فى هؤلاء ، ولم يتأخر بمصر ممن حضر صحبته سوى بدر الدين بن الوقاد والمجولى وزين الدين العجمى شفع فيه ملك الأمراء من التوجه الى اسطنبول .

وفيه أرسل الأمير على بن عمر شيخ جهات الصعيد ، تقدمة حافلة للسلطان سليمان بن عثمان قيل انها قومت بستين ألف دينار ، وكان السلطان سليمان بن عثمان أرسل الى الأمير على بن عمر خلعة الاستمرار على حاله بمشيخة الصعيد ، وقد رأى الأمير على بن عمر فى دولة ابن عثمان ما لم يره أحد من أجداده ولا من أقاربه ، من العز والعظمة والمال والجاه .

* * *

واستهل شهر جمادى الأولى بيوم الثلاثاء ، فطلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم رجعوا الى دورهم . ولما طلعوا الى ملك الأمراء وجدوه بالأشرفية التى بجوار الدهيشة ، فقام اليهم وكان له مدة وهو متوعك فى جسده بسبب طلوع التساليك التى فى مشعره ، وقد أشرف على الشفاء وبرىء من ذلك العارض ، وفى ذلك يقول ابن قانصوه :

الحمد لله ثغور الهنا
سرورنا منها أرتنا شفاه
لما الى نائبنا شاهدت
فابتسمت من فرح عن شفاه

وفى يوم الثلاثاء ثامنه ، ركب ملك الأمراء ، ونزل من القلعة ، وقد شفى من ذلك العارض الذى كان قد اعتراه . فلما نزل من القلعه توجه الى بيت الأمير فرحات بك الذى قرر فى نيابة طرابلس ، فنزل اليه وودعه ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة وشق من الصليبة وقدامه جماعة من الانكشارية مشاة يرمون بالنفوط ، وقد هنأه بالشفاء الأديب البارع محمد بن قانصوه بقوله :

الحمد لله زال الهم والألم
عنا لبرئك والأعدا لها سقم
وقلعة الملك أضحى وجهها طلقا
من بعد ماكان فيه قد بدا الكظم
وأصبحت مصر بعد الحزن فى فرح
بكم وأمست بثغر البشر تبتسم
وقد غدت بلسان الحال قائلة
الحمد لله زال الهم والألم

وفى يوم الجمعة حادى عشره ، قدم الأمير جانى بك وهو أخو الأمير قايتباى الدوادار ، وقد تقدم القول بأنه توجه الى كشف البلاد الشاميه ، وأرسل ملك الأمراء على يده تقدمة حافلة الى الأمير اياس العثمانى ، الذى استقر فى نيابة الشام عوضا عن جان بردى الغزالى ، فلما قابل ملك الأمراء خلع عليه ، ونزل الى منزله ، وهو فى غاية التعظيم .

وفى يوم الجمعة المقدم ذكره ، خرج ملك الأمراء وصلى صلاة الجمعة ، وكان له مده وهو منقطع لم يصل الجمعة فى جامع القلعة . فلما خرج من الصلاه خلع على المزينين والحكماء ، وقيل دخل على المزينين والحكماء ألف وخمسمائة دينار ، من نساء ملك الأمراء ، ومن سراريه ، ومن الأمير جانم الحمزاوى ، ومن الأمير برسباى الخازندار والمهمندار ، والمباشرين وأرباب الدولة قاطبة ، ومن الأمراء العثمانية وغير ذلك من أعيان الناس .

وفى يوم السبت ثانى عشره ، خلع ملك الأمراء على الأمير جانم الحمزاوى ، وخلع على الأمير [illegible] كاشف البحيرة ، ودرب فى أمره الناظر على [illegible] وخلع على الأمير [illegible] بن الأسعد [illegible] جهات البحيرة ، وقرره على عادته فى مشيخته

وفيه حضرت الأخبار بأن الأمير [illegible] الذى عين فى نيابة طرابلس ، لما وصل الى الصالحية ، وجد العربان هنالك مفتتنة ، فأرسل يطلب من ملك الأمراء نجدة ، فان العربان قد ثاروا عليه فى الطريق ، وكادوا يسلبونه ، فأرسل اليه جماعة من الكملية والاصباهية بسرعة على الفور ، حتى أدركوه واستمروا معه الى طرابلس ، وكانت العربان فى هذه الأيام فى غاية الفساد فى البلاد الشامية ، من عربان بنى عطاء وبنى عطية .

وفى يوم الأحد عشريه توفى القاضى بدر الدين محمد المعروف بابن العبسى ناظر ديوان الأمياس ، وكان رئيسا حشما حسن السيرة ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس رابع عشريه ، وقع أن ملك الأمراء تغير خاطره على شخص من الحدام يقال له متقال ، فقطع أنفه وأذنيه ، ورسم بنفيه الى مكة ، فنزل من القلعة والدم يقطر من أنفه وأذنيه ، ولم يكن له ذنب كبير يوجب ذلك .

وفيه حضر جماعة كثيرة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأخذهم من مصر ، فلما مات السلطان سليم شاه بن عثمان ، واستقر سليمان ولده بعده ، رسم بعود الأسرى قاطبة الى بلادهم ، ورأف بهم ، وأظهر العدل فيهم . فحضر منهم جماعة فى هذا الشهر ، منهم شهاب الدين أحمد بن قريبط ، ومحيى الدين وزين الدين بن بهاء الدين أحد كتاب المماليك ، والخواجا أبو الطيب بن الرئيس يحيى المزين ، وعبد الحفيظ

ابن الناظر ناظر بالقرامزة ، وأبو الفضل بن بركات [illegible] [illegible] ، وتاج الدين بن ابراهيم ابن القاضى [illegible] ، وبدر الدين [illegible] الأمير أخرى باقى [illegible] ، وآخرون لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وفى يوم الاثنين ثامن عشريه ، ذكر كريم الدين المجرلى ، وبدر الدين السعودى بن الوقاد ، وقد تقدم القول فى سبب اختفائهما من الشاويش الذى كان مترسما عليهما ، ورسم عليهما بالخروج الى الاسطنبول .

❋ ❋ ❋

وفى شهر جمادى الآخرة ، وكان مستهله يوم الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنأوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الخميس ثانى الشهر خرج الأمير جانم الحمزاوى وقصد التوجه الى اسطنبول ، وكان ملك الأمراء عينه الى السفر الى السلطان سليمان بتقدمة ، كما كان يرسله الى والده سليم شاه ، وقيل ان هذه التقدمة التى أرسلت على يد الأمير جانم الحمزاوى ، قومت بمائتى ألف دينار أو فوق ذلك ، فخرج الأمير جانم الحمزاوى فى موكب حافل ، ولم يشق من القاهرة ، بل خرج من التربة . وكان الأمير جانم الحمزاوى يومئذ من أرباب الحل والعقد بالديار المصرية ، واجتمعت فيه الكلمة ، ورأى من العز والعظمة فى دولة ملك الأمراء شيئا لم يره غيره من الأمراء .

وأشيع أن ملك الأمراء رسم لكريم الدين المجرلى بأن يسافر الى اسطنبول صحبة الأمير جانم الحمزاوى ، وأما القاضى بدر الدين السعودى بن الوقاد فأشيع أنه قدم لملك الأمراء ألف دينار حتى

آنام بمصر . وكانت عنه ملك الأمراء بأنه لايستطيع سفر الى اسطنبول

وفيه قدم الشيخ شمس الدين محمد السمديسى الحنفى ، الذى كان ولى قضاء الحنفية فى دولة الغورى بحلب . وكان السلطان سليم شاه بن عثمان لما انكسر الغورى ومات بحلب ، وملك سليم شاه حلب ، قبض على السمديسى وأرسله من هناك الى اسطنبول ، فأقام بها حتى رسم السلطان سليمان بعود الأسرى الى بلادهم ، فحضر السمديسى مع جملة من حضر الى مصر ، وحضر صحبته محب الدين الحنبلى الذى كان مقيما بالخانقاه الشيخونية ، وحضر أبو الفوز بن الحمصانى ، وأفضل الدين موقع السلطان طومان باى ، وحضر شمس الدين محمد المقسمى أحد نواب الشافعية ، فحضر هؤلاء كلهم من البحر المالح من دمياط .

وفيه دخل الأمير جانم الحمزاوى من الخانكاه وسافر .

وفيه حضر من اسطنبول المهتار محمد الخولى مهتار السلطان الغورى ، وحضر من التجار ابن أبى عوانة البرلسى ، وآخرون

وفيه استقر فى نيابة جدة شخص من تجار الأروام يقال له عيسى قرا قرر فى نيابة جدة عوضا عن حسين الذى كان بها .

وفى هذا الشهر ظهر شمس الدين محمد بن ابراهيم الشرابيشى الذى كان متحدثا فى أوقاف الزمامية ، وكان له مدة من حين حضر من اسطنبول فى الخفية ، فظهر لما أفرج السلطان سليمان بن عثمان عن الأسرى الذين كانوا باسطنبول .

وفى يوم الأربعاء خامس عشره ، توفى القاضى محيى الدين النبراوى أحد نواب الحنابلة ، وكان عالما فاضلا ، علامة فى مذهبه ، مات وله من العمر مائة سنة وسنتان بعدها ، وهو آخر نواب الحنابلة ممن ولى عن قاضى القضاة عز الدين العسقلانى ، وكان لا بأس به .

وفيه توفى الشيخ بدر الدين محمد المنوفى ، صاحب ملك الأمراء ، وكان لا بأس به ، وكان له فيه اعتقاد عظيم بالصلاح .

وفيه توفى الشيخ عبد الصمد خطيب المدرسة الجيعانية وكان لا بأس به

ومن الحوادث أنه فى يوم الجمعه سابع عشره ثارت فتنة عظيمة بين الاصباهية والانكشارية ، وغلقوا باب القلعه ، ومنعوا القاضى الشافعى أن يطلع القلعة ويصلى بملك الأمراء صلاة الجمعه

واستمرت هذه الفتنة عمالة بين الفريقين يومين ، وصارت الانكشارية ينزلون من القلعة مشاة ويقتتلون مع الاصباهية فى الرميلة ، ويطردونهم الى الصليبة ، فقتل من الاصباهية شخص من أعيانهم ، فلما تزايد الأمر دخل بينهم أغواتهم والكيخية الكبير ، فأصلحوا بينهما ، فاصطلحا على فساد ، وخمدت هذه الفتنة ولله الحمد .

وفيه قدمت الأخبار بأن عربان الشرقية قد خرجوا عن الطاعة ، وأظهروا العصيان ، ونهبوا الضياع ، فعند ذلك عين ملك الأمراء قايتباى الدوادار وصحبته جماعة من المماليك الجراكسة ، بأن يخرجوا الى العربان ويحاربوهم ، فخرج الأمير قايتباى من يومه على جرائد الخيل ، وتوجه الى بلبيس ، وأقام بها .

ثم أشيع أن الأمير قايتباى قد وقع بينه وبين شيخ العرب بيبرس بن بقر واقعة ، وكبس عليه تحت الليل ، فهرب منه وأظهر العصيان ، فتوجه الى

نحو الطور وأقام به ، فلما أظهر العصيان بيبرس ابن بقر اضطربت أحوال الشرقية الى الغايه ، حتى أشيع أن ملك الأمراء قصد أن يخرج الى العربان بنفسه ، فان سبع طوائف من العربان كلهم تحالفوا على العصيان ، والخروج عن الطاعة ، منهم بنو عطية ، وبنو عطاء ، وبنو حرام ، وغير ذلك من طوائف العربان المفسدين .

ثم ان ملك الأمراء خلع على الأمير أحمد بن بقر واستقر به فى مشيخة الشرقية عوضا عن أبيه بيبرس .

***

وفى شهر رجب — وكان مستهله يوم الخميس — اتفق أن ذلك اليوم كان عيد ميكائيل ، ونزلت النقطة بالليل مستهل الشهر ، فتفاءل الناس بأن النيل سيكون فى تلك السنة عاليا مباركا ، ففى أوله طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم ، وفى يوم الأحد رابعه قبض ملك الأمراء على شخص من الاصباهية قتل شخصا من المماليك السلطانية فى محل سكر ، فغضب على قتله خير الدين بك نائب القلعة ، فربطوه فى ذنب اكديش وهو على ظهره ، ثم سحبوه وطلعوا به الى القلعة ، وشنقوه ومضى أمره .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية ، وأقام هناك الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعة ، وكان له مدة لم يتنزه فى الروضة ، ولا غيرها من المتنزهات ، وسبب ذلك العارض الذى طلع له ولم يختم الى الآن .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كانوا هناك من أهل مصر ، وأشيع أن السلطان سليمان نادى فى اسطنبول بأن الجماعة الأسرى الذين من أهل مصر يرجعون الى بلادهم ولا يتأخر منهم أحد ، وكل من تأخر منهم شنق ، فلم يتأخر باسطنبول سوى سيدى على بن الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال ، وابن السلطان الغورى ، والناصرى محمد بن خاص بك ، ومن المباشرين محمد بن صلاح الدين بن الجيعان ، وعبد القادر بن الملكى ، وعبد الكريم أخى الشهابى أحمد بن الجيعان ، وآخرين من أعيان الديار المصرية .

فحضر من جملة من حضر من اسطنبول ، القاضى شمس الدين محمد الجلبى أحد نواب الشافعية ، وحضر القاضى شمس الدين محمد الدمياطى أحد نواب الشافعية بالديار المصرية ، وولى أمانة الحكم أيضا .

ومن العجائب أنه لما حضر الى القاهرة ، حصل له توعك فى جسده فى مدة اقامته فى البحر المالح ، فلما وصل الى منزله أقام به ليلة واحدة ومات رحمة الله عليه ، فكان ترابه بمصر . وحضر زين الدين المنوفى الموقع ، وابن عمه أفضل الدين . وحضر نور الدين على بن عبد الغنى مباشر الدشيشة . وحضر عبد العزيز السمسار فى البهار . وحضر عبد العظيم بن أبى غالب المباشر . وحضر القاضى شهاب الدين أحمد بن الهيثمى أحد نواب الحنابلة . وحضر شمس الدين محمد بن عبد العظيم أحد كتاب المماليك . وحضر يحيى بن يحيى مقدم الخاص . وحضر الخواجا أبو بكر الهاشمى . وحضر عبد الباسط بن تقى الدين ناظر الزردخاناه وولده زين الدين . وحضر ابن الطنساوى يحيى مباشر الديوان المفرد . وحضر ابن السيرجى وغير ذلك .

وفيه قدم شخص من الأمراء العثمانية يقال له نصر باى . فلما بلغ ملك الأمراء قدومه نزل اليه ولاقاه من عند تربة العادلى ، ودخل صحبته وشق من القاهرة وهو راكب عن يمينه ، فأنزله فى بيت الأمير أزدمر الدوادار ، ورتب له فى كل يوم ما يكفيه من دجاج وغنم وأوز وسكر ودقيق وغير ذلك ، وأشيع أنه مقيم بمصر عوضا عن جرجاب الذى فر فى نيابة حماه .

وفى يوم الثلاثاء ثالث عشره نزل اليه ملك الأمراء وأنعم عليه بخمسة آلاف دينار برسم النفقة على جماعته

وفى يوم الخميس خامس عشره ، طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل المبارك ، فجاءت القاعدة ستة أدرع وثمانية أصابع

وفى يوم الجمعة سادس عشره حضر الأمير قايتباى الدوادار من الشرقية ، وقد تقدم القول على أنه توجه الى الشرقيه بسبب العربان وفسادهم وعصيان بيبرس بن بقر ، فلما رحلوا الى الطور رجع الأمير قايتباى الدوادار الى القاهرة ، وحضر القاضى بركات بن موسى المحتسب صحبته ، فانه كان توجه الى الشرقية أيضا .

وفيه توجه ملك الأمراء الى الجزيرة الوسطى ، وسبب ذلك أن الأمير تنم الناظر على وقف الدشيشة كان قد صنع هناك مركبا عظيمة بسبب حمل مغل الدشيشة ، وكان طولها مائة وعشرين ذراعا ، وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ، ومقعد ومبيت واسطبل للخيل ، فعرضها على ملك الأمراء ، ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال الى الطور ، ومن هناك يرسلها الى البحر المالح . فلما نزل اليه ملك الأمراء مد له مدة حافلة ، وأقام عنده الى قريب الظهر ، ثم عاد الى القلعه

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن جماعه من عربان دمشق ثاروا على نائب الشام الأمير اياس بك ، فلما خرج اليهم ووقع معهم ، انكسر وجرح ورد الى الشام وهو مكسور من العرب ، وقتل من عساكر الشام ما لا يحصى ، ومن عربان جبل نابلس أيضا ، وكانت فتنة مهولة بدمشق .

وفيه نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلى ، ثم دخل من باب النصر وشق من القاهرة فى موكب حافل ، والأمراء صحبته ، فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء

* * *

وفى شهر شعبان — وكان مستهله يوم الجمعة — طلع القضاة الأربعه الى القلعه ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى منازلهم . وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول ، بأن طائفة من طوائف الفرنج يقال لها انكرس ، قد تحالفوا على قتال السلطان سليمان بن عثمان ، فلما تحقق ذلك جمع العساكر من كبير وصغير ، وخرج من اسطنبول وتوجه الى قتالهم فى الجم الكثير من العساكر والفرسان .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على شخص من الأتراك يقال له جان قلج ، فسجنه بالعرقانة وأوعده بالتوسيط ، وكان سبب ذلك أنه كان ساكنا فى بيت شخص من أبناء الناس — وهو ابن الأمير شاهين الجمالى الذى كان ناظر الحرم النبوى — فانكسرت عليه أجرة المكان ، فطالبه ابن شاهين ، فلم يعطه شيئا وسبه سبا فاحشا ، فطلع ابن شاهين وشكاه الى ملك الأمراء ، فأرسل خلفه

جان قلج فلم يطلع فى ذلك اليـوم ، وأساء على قاصد ملك الأمراء ، فبلغ ملك الأمراء ذلك ، ثم ان جان قلج طلع بعد ذلك الى ملك الأمراء وقابله ، فقبض عليه وسجنه بالعرقانة ، وكان تقدم له مع ملك الأمراء واقعه مهولة ، فاستمر فى نفس ملك الأمراء منه أشياء كمينة ، وكان جان قلج عنده بادرة وكلامه يابس ، كثير الفجور

ومن الحوادث المهولة أيضـا واقعه سـيدى عمر بن الملك المنصـور عثمان بن الملك الظاهر جقمق ، وذلك أن سيدى عمر كان مزوجا بابنة الأمير جانم الأشرفى الذى كان نائب الشـام — وكانت زوجة تمراز التمشى — فكان له رزقة وقفها عليها وبها فلاحون ، فلما تزوج بها سيدى عمر تكلم على جهاتها ، فقيل انه جار على فلاحى تلك الرزقة ولم يسش لهم أمر الشراقى فى الحصـة ، فتضرر الفلاحون لذلك ، فوقفوا الى ملك الأمراء وشكوا له من سيدى عمر بأنه قد جار عليهم ، وأخذ منهم أزيد من الخراج عن المقطعين بالناحية . فأرسل اليه ملك الأمراء يقول له انظر فى حالهم ولا تجر عليهم ، فقال سيدى عمر : « وايش كان ملك الأمراء حتى يدخل بينى وبين فلاحينى فى شيء ليس له فيه شغل ؟ » فبلغ ملك الأمراء ذلك فتغير خاطره على سيدى عمر ، فأرسل اليه قاصدا فأغلظ عليه فى القول ولم يطلع ، فحنق منه ملك الأمراء وأرسل اليه جماعة من الانكشارية فقبضوا عليه غصبا وبهدلوه ، وطلعوا به الى القلعة ، فلما دخلوا الى الحوش قبضوا عليه وأدخلوه العرقانة ، فسجن بها وبات تلك الليلة وأقام بها الى ظهر اليوم الثانى حتى شفع فيه بعض الأمراء ، فمضى الى داره بعد أن قاسى غاية البهدلة من الانكشارية ، فما شكر أحد من النـاس ملك الأمراء على هذه الفعـلة الفاحشة لأنه لا يستحق ذلك كله .

وفى هذا الشهر كانت وفاة الشـيخ زين الدين المغربى ، وكان صالحا معتقدا دينا خيرا ، وله اشتغال بالعلم ، وكان معتقد مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الخميس ثامن عشرى هذا الشهر ، قدم شخص من عند السلطان سليمان بن عثمان يقال له محمد بن ادريس ، ويعرف بتلفسز الدفتردار ، وصحبته شخص يقال له الأمير كمال . فلما وصل الى تربة العادلى نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، ثم دخل هو واياه من باب النصر ، وشق من القاهرة فى موكب حافل ، وقدامه الانكشارية والكسلية مشاة يرمون بالنفوط ، فاستمر فى ذلك الموكب حتى طلع الى القلعة ، وأنزل الدفتردار فى بيت الأمير يشبك الدوادار الذى فى حارة البقر ، ومد له هناك مادة حافلة ، وأنزل الأمير كمال فى مكان آخر ، واتسبع أن الأمير كمال حضر يروم الحج الى بيت الله الحرام ، والدفتردار حضر بسبب ضبط مال الثغور من الجهات المصرية .

***

وفى شـهر رمضـان ، وكان مسـتهله يوم السبت ، وكان الهـلال عسر الرؤية على خمس درج ، وقيل على أربع درج ، فرآه بعض النـاس وثبت عند القاضى زكرياء أحـد نواب الشافعية ، وركب القـاضى بركات بن موسى من المدرسـة المنصورية بعد المغرب ، وقدامه المشاعل والفوانيس وشق من القاهرة فى موكب حافل على العادة .

وفى يوم السبت مستهل الشهر كان وفاء النيل المبارك ، أوفى الله تعالى الستة عشر ذراعا وست أصابع من الذراع السابع عشر ، ثم فتح السد يوم الأحد ثانى شهر رمضان — الموافق الحادى عشر مسرى — ووقع فى دولة الأشرف قايتباى أن السد

فتح فى أول يوم من رمضان ، فلما أوفى النيل نزل ملك الأمراء الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحراقة ، وتوجه الى السد ففتحه على جارى العـادة ، وكان ذلك اليوم مشهودا فى الفرجـة والقصف ، كما يقال فى المعنى :

لله يوم الوفا والناس قد جمعوا
كالروض تطفو على نهر أزاهره
وللوفاء عمـود من أصـابعهم
مخلق تمـلأ الدنيـا بشائره

وفى يوم الثلاثاء رابع شهر رمضان ، صـعد الدفتردار محمد بن ادريس الى القلعة ، واجتمع الأمراء العثمانية بالقلعة ، وقرىء عليهم مرسـوم السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه التوصية بالرعية غاية الوصية ، وان ملك الأمراء ينظر فى اصلاح المعاملة من الذهب والفضة . فوقع فى المجلس بعض تشاجر بين الدفتردار وبين ملك الأمراء بسبب ذلك ، فقال ملك الأمراء : « أنا ما أغير معاملة السلطان سليم شاه ، ولا أخرج عما وقع فى أيامه من أن الأشرفى الذهب يصرف فى المعـاملة بخمسين نصفا على العادة » .

ثم ان ملك الأمراء رسم باحضار التجار ، فلمـا طلعوا الى القلعة تكلموا معهم فى أمرصرف الأشرفى الذهب الواسع بخمسين نصف فضـة ، فتضرروا من ذلك ، وقالوا ما يوافقنا أحـد من الناس على ذلك ، وانفض المجلس مانعا من ذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب ، تكلم مع ملك الأمراء بأن يصرف الأشرفى الذهب بخمسة وأربعين نصفا ، وقيل بخمسة وأربعين عثمانيا ، وفى البيع والشراء بخمسة وأربعين نصفا ، فوقع الاتفاق على ذلك ، ونودى فى القـاهرة بذلك ، فسكن الاضطراب قليلا . ثم ان القاضى بركات جعـل القاضى حمزه العثمانى متكلما على دار الضرب .

ثم بعد ذلك لم يتم أمر صرف الأشرفى الذهب الواسع بخمسة وأربعين نصـفا ، وصار يصرف بأربعين نصفا ، وعز وجود الفضة جـدا ، وصار الأشرفى الذهب يصرف بمشقة زائدة من السوقة ، ويعطون فيه النصف فضة والنصف فلوسا جددا ، وحصل للناس الضرر الشامل .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه وقع بها طاعون عظيم ، وصـار يموت بهـا كل يوم ما لا يحصى .

وفيه توجه الدفتردار الذى حضر الى ثغر دمياط والبرلس وثغر الاسـكندرية أيضا بسبب جبى الأموال التى أضيفت الى خزائن الخنكار بالروم ، فخرج الدفتردار وصحبته القاضى حمزة .

وفى أثناء هذا الشهر ، حضر جماعة من اسطنبول مع جملة من حضر منها ، فحضر القاضى علاء الدين ابن الامام ناظر الخاص وأخوه . وحضر القـاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل وأخوه يحيى . وحضر من نواب القضاة القاضى شمس الدين محمد العبادى أحد نواب الشافعية . وحضر القـاضى شمس الدين بن وحيش أحد نواب الشافعية . وحضر القاضى شمس الدين محمد الابشادى أحد نواب المالكية . وحضر بدر الدين بن الرومى . وحضر القاضى ابن عرفات أحد نواب الشافعية . وحضر تقى الدين العزيزى الشافعى . وحضر بدر الدين محمـد بن حازوقة مباشر الأمير علان الدوادار . وحضر أحمـد السكندرى الشطرنجى رفيق ابن الورد . وحضر أبو البقاء بن السيرجى . وحضر بدر الدين بن الهيصم وآخرون من المبـاشرين والقضاة والأعيان لم تحضرنى أسماؤهم الآن .

وأشيع أن السلطان سليمان — نصره الله تعالى — أعتق جميع الأسرى الذين كانوا باسطنبول من أهل مصر ، ولم يبق فيها سوى أولاد السلاطين وجماعة من المباشرين ، ومن أولاد الجيعان ممن تقدم ذكرهم ، وجماعة من أعيان الديار المصرية ، وأما الأمراء الجراكسة والمماليك الجراكسة الذين كان السلطان سليم شاه نفاهم الى اسطنبول ، فلما ولى ابنه سليمان لم يأمر لهم بالعود الى مصر ، ولم يقبل فيهم شفاعة ، واستمروا فى بلاد الروم الى الآن .

وأشيع أن السلطان سليم شاه بن عثمان كان أرسلهم الى مكان يحاصرون فيه الفرنج ، وقد خمدت أخبارهم ، فلما حضر هؤلاء الجماعة من اسطنبول ، أشاعوا أن السلطان سليمان شاه بن عثمان قد خرج الى القتال بسبب الفرنج ، ولم يرد من عنده خبر من حين توجه اليهم

وأخبر الجماعة الذين قدموا من اسطنبول أن القاضى شهاب الدين أحمد ناظر الجيش بن ناظر الخاص يوسف ، حصل له فى عقله ذهول ، وحصل له ضيق معيشة ، وصار يشترى عشاءه وغداءه من الطباخ فى زبدية ، ويحملها بنفسه على يده ، وهو لابس كنبك لباد أبيض ، وقاسى شدائد ومحنا .

وأخبروا عن زين العابدين ابن قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل أنه تسحب من اسطنبول ولم يعلم له خبر من حين خرج ، وكانت جماعة من الشاويشية ينصبون على من هناك من الأسرى من أهل مصر ، ويقولون نحن نسافر بكم من اسطنبول فى الخفيه ونتوجه بكم الى مصر ، فيخرجون بهم من اسطنبول ويقتلونهم فى الطريق ، ويأخذون ما معهم من مال وقماش ، وقد فعلوا مثل ذلك بكثير من أهل مصر ممن كان باسطنبول ، ولم يعلم لهم خبر الى الآن .

وفى يوم السبت خامس عشر شهر رمضان ، قدمت الملكة خاتون — عمه السلطان سليمان بن عثمان — وولدها مصطفى صحبتها ، وأشيع أنها قدمت الى مصر تروم حج بيت الله الحرام ، فأكرمها ملك الأمراء غاية الاكرام ، وأنزلها فى مكان مطل على بركة الفيل ، ورتب لها فى كل يوم أسمطة حافلة لها ولجماعتها الذين قدموا معها من بلاد الروم .

وفى يوم الخميس عشريه ، وقع فيه كائنه يحيى ظلام ، وكان يتجر فى السكر وله مطبخ يعمل فيه السكر ، فاستمر على ذلك مدة طويلة . ثم انه بعد ذلك انكسر وتجمد عليه جملة ديون كثيرة ، بحيث أشيع عنه أنه تجمد عليه نحو أربعين ألف دينار ، فلما انكسر طالبه أصحاب الديون ، وكان المال لأقوام من تجار خان الخليلى وغيرهم ، فلما طال الأمر عليهم شكوه الى ملك الأمراء ، فرسم عليه ملك الأمراء مدة طويلة بجماعة من الانكشارية حتى يرضى أصحاب الديون ، فاستمر فى الترسيم مدة طويلة ، وكان ملك الأمراء قرر عليه وألزمه بأن يرد لأصحاب الديون فى كل شهر خمسة آلاف دينار ، فما قدر على ذلك وعجز عن ايراد ذلك القدر . وكان ملك الأمراء حلف يمينا برأس السلطان سليمان ابن عثمان ان لم يرض أصحاب الديون فى حقوقها والا يوسطه ، فلما ضاق عليه الأمر خنق نفسه تحت الليل ، وأصبح ميتا . ثم أشيع أن الانكشارى الذى كان مرسما عليه خنقه تحت الليل ، وأخذ ما كان معه من المال الذى كان يورده لأصحاب الديون على أول الشهر ، وأشاع عنه أنه قد خنق نفسه وأصبح ميتا . ومضى أمره الى حال سبيله .

وفى يوم الخميس سابع عشرى شهر رمضان ، كان يوم النوروز ، وهو أول يوم من السنة

النيقلية ، وهى سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية ، ففى ذلك اليوم بلغ النيل فى الزيادة سبع عشرة أصبعا من تسعة عشر ذراعا واستمر عمالا فى الزيادة .

وفى يوم السبت تاسع عشرى شهر رمضان ، وقع فيه من الحوادث كائنة سيدى عمر بن الملك المنصور عثمان بن الملك الظاهر جقمق — وذلك أن القول تقدم بما وقع لسيدى عمر مع ملك الأمراء بسبب أمر الفلاحين ، فاستمر سيدى عمر يتابع عائلة مع الفلاحين كما تقدم ، فوقعوا وشكوه الى ملك الأمراء ثانيا ، فتغير خاطره على سيدى عمر واحتد منه ، فأرسل اليه نقيب الجيش ، فقال له رسم ملك الأمراء بأن تقوم فى هذه الساعة وتتوجه الى دمياط ، فاستمر عنده حتى كتب وصيته ، وقام وركب من وقته وتوجه الى بولاق ، ونزل فى مركب وسارت به الى نحو دمياط ، فهذا كله بسبب الفلاحين من صلابة سيدى عمر وقوة رأسه ، وقلة درايته ، حتى اتسعت هذه الحادثة بينه وبين ملك الأمراء على هذا الأمر الفشروى الذى لم يستحق هذا كله ، ووقعت له هاتان الكائنتان فى شهر واحد ، فشق ذلك على ملك الأمراء وعلى الناس قاطبة فوقع له البهدلة من ملك الأمراء مرتين ، الأولى بسجنه فى العرقانة ، والثانية بنفيه الى دمياط ، وركوبه على بغلة وهو متوجه الى بولاق ، فلما جرى ذلك توجه عيال سيدى عمر الى بيت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان بن عثمان ، وترامو عليها فى أن تشفع عند ملك الأمراء فى عود سيدى عمر من النفى ، فأرسلت الى ملك الأمراء ولدها مصطفى بك ، فشفع عنده فى سيدى عمر بأن يعود الى داره ، فقبل شفاعة الملكة خاتون ، ورسم بعود سيدى عمر الى منزله ، فعاد بعد ما سار فى البحر يوما وليلة ، فلما عاد تخلقت عياله بالزعفران ودقت له على بابه الطبلخانات والزمور ، وهنئوه بالسلامة

وفى سلخ شهر رمضان حضر الدفتردار محمد ابن ادريس الذى كان توجه الى دمياط والبرلس وبقية الثغور ، بسبب تحرير الأموال التى أضيفت الى خزائن مولانا السلطان سليمان ، فلما وصل الى بولاق نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك ، واستمر معه حتى أوصله الى منزله .

❋ ❋ ❋

وفى شهر شوال ، كان عيد الفطر يوم الاثنين ، وقد ثبتت رؤية الهلال بمصر ، فان هلال رمضان ثبت على يد القاضى زكريا أحد نواب الشافعية ، وشك الناس فى ذلك ، وقالوا ان ذلك اليوم الذى صاموه كان آخر يوم من شعبان ، فوقع الشك بسبب ذلك ، ومالاقى القاضى زكريا خيرا من الناس بسبب أن هلال رمضان ثبت عنده وكانت الميقاتية حكموا بأنه لا يرى فى تلك الليلة أبدا .

فلما كان هلال شوال أرسل ملك الأمراء يقول للقاضى الشافعى ، أنتم أثبتم هلال رمضان على أربع درج وقد شك الناس فى ذلك ، فما تفعلون فى هلال شوال ؟ فأرسل يقول له قاضى القضاة الشافعى ، هلال رمضان قد ثبت حقا ، وقامت به البينة وزكيت ، وغدا من شوال محقق .

ثم ان قاضى القضاة الشافعى نادى فى القاهرة أن غدا من شوال ، وهذا ما اتفق قط ان ينادى قبل رؤية الهلال أن غدا من شوال ، فعد ذلك من النوادر ، وكان موكب العيد حافلا بالقلعة .

وفيه كان دخول المقر الشهابى أحمد بن الجيعان على ابنة الأمير خاير بك كاشف الغربية ، أحد الأمراء المقدمى الألوف ، وهى التى كانت زوجة

الأمير تانى بك الخازندار أحد الأمراء المقدمين ، وكانت غير محمودة السيرة فى أفعالها

وقبل ذلك بمدة يسيرة تزوج القاضى أبو بكر ابن الملكى بابنة الأمير قانصوه المعروف بأبى سنة أحد الأمراء المقدمين ، ولا ينكر ذلك عليهم فى هذا الزمان .

وفيه قدمت الأخبار بأن السلطان سليمان ابن عثمان لما توجه الى قتال الفرنج أوقع معهم ، وكان بينهم واقعة مهولة ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده ، وقتل فى معركته الأمير قانصوه العادلى ، الذى كان توجه الى اسطنبول . وقد انتصر السلطان سليمان على الفرنج نصرة عظيمة ، ثم خمدت هذه الاشاعة من بعد ذلك ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك .

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة فى تجمل زائد ، وكان أمير ركب المحمل الأمير جانم كاشف الفيوم على العادة ، وخرجت صحبته الملكة خاتون عمة السلطان سليمان وولدها مصطفى بك ، فطلب الأمير جانم طلبا حافلا ، وكان به ست عجلات تسحبها الأكاديش ، وعليها عدة مكاحل نحاس ومدافع حجر ، بسبب قتال العربان الذين فى طريق الحجاز ، فانه كان فى السنة الماضية فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان .

وفى يوم الأربعاء رابع عشريه ، نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء ، بأنه لا مملوك ولا عثمانى يلبس زنطا أحمر . ولا أولاد الناس أيضا ، ومن ليس زنطا بعد المناداة شنق من غير معاودة فى ذلك .

ثم أشيع أن ملك الأمراء رأى عبيدا وغلمانا يجمقدارية ، وهم بزنوط حمر ، فتنال امضوا بهم الى بيت الوالى ينتقم ، فشفع فيهم بعض الأمراء .

ثم أشيع أن ملك الأمراء رسم للأمراء الجراكسة بأنهم لا يلبسون سرموجة تركية ، ولا يطلعون بها الى القلعة . وهذا كله عين المقت للجراكسة وبغض فيهم قاطبة .

وفى يوم السبت سابع عشريه ، الموافق لأول يوم من بابه من الشهور القبطية ، ثبت النيل المبارك على ثلاث وعشرين أصبعا من عشرين ذراعا ، فكان منتهى الزيادة عشرين ذراعا الا أصبعا واحدة ، وكان نيلا عظيما الى الغاية ، والناس مدة طويلة ما رأوا نيلا مثل هذا ، ففتكت الناس فى الفرجة والقصف ، وسكن غالب بيوت الجسر ، بعد ما كان آل الى الخراب وتهدمت بيوته ، وكاد أن يبقى مثل الجزيرة الوسطى فى خرابها .

* * *

وفى شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الأربعاء ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة ، وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الجمعة ثالثه ، نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء بأنلا أمير من الچراكسة ، ولا خاصكيا ، يركب وخلفه بغل وعليه غلام راكب ، بل يمشى على طريقة العثمانية فى أفعالهم ، يأخذ الغلام الغاشية على كتفه ويمشى قدامه .

وفى يوم الأربعاء ثامن الشهر ، أنفق ملك الأمراء الجامكية على المماليك الچراكسة بعد ما عوق جوامكهم وعليقهم ستة أشهر حتى عاينوا الموت من ضيق الحال ، فصرف لهم ثلاثة أشهر ، وأخر

لهم ثلاثة أشهر ، ولم يصرف لهم العليق . فقبض ذلك اليوم كل مملوك من الجراكسه أحد عشر أشرفيا ذهبا وثمانية أنصاف من الذهب العثمانى ، فأداوا عليهم كل أشرفى ذهب بأشرفيين فضة ، فخسروا فى صرف كل أشرفى عشرة أنصاف فضة ، فكانت خسارتهم فى العشرين أشرفيا خمسة أشرفيات وستى فضة ، فحصل لهم الضرر الشامل بسبب ذلك بعد صبرهم ستة أشهر ، وأخر العليق عنهم .

وانسبح ان الديوان مشحوت غاية الانشحات ، وان ملك الأمراء عليه ستون ألف دينار ، والمباشرون استخرجوا من البلاد القسط الأول ، أربعة أشهر معجلا من مغل سنة سبع وعشرين وتسعمائة قبطية خراجية قبل أن يفى النيل ويزرع الفلاحون وتروى الاراضى ، فحصل للفلاحين غاية الضرر من ذلك ، ورحل بعض فلاحين بسبب ذلك الظلم والجور وقد انحط سعر الغلال عما كان أولا من الارتفاع .

وكان سبب انشحات الديوان أن المال الذى يجىء صار ينقسم على سبع طوائف من العسكر ، وهم المماليك الجراكسة وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الاصباهية وأمراؤهم الذين تأخروا بمصر ، ثم الصوباشية ، والانكشارية ، والكملية ، ثم مماليك ملك الأمراء ، وذلك خارج عن كلفة من يرد من المملكة الرومية من القصاد والمترددين من اسطنبول وغيرها ، فكان ملك الأمراء ينعم عليهم بالعطايا الجزيلة .

وقد بلغنى ممن أثق به أنه كان متحصل خراج مصر فى دولة ابن عثمان لما ملكوها ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، ومن المغل ستمائة ألف أردب منها ثلثمائة ألف أردب قمح وثلثمائة ألف أردب شعير وفول وغير ذلك ، وأين هذا القدر مما كان عليه خراج مصر فى الزمن القديم .

نقل الشيخ تقى الدين المقريزى فى الخطط : قد بلغ خراج مصر فى زمن القبط عند تلاشى أحوال مصر مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار

وكان جملة خراجها فى زمن الفراعنة ، ألف ألف دينار بالدينار الفرعونى ، وهو ثلاثة مثاقيل من مثاقيلنا الآن ، وكان مساحة أراضى مصر فى زمن الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور

وجبى خراج مصر فى زمن عمرو بن العاص ، على عبد الله بن أبى سرح ، فى صدر الاسلام ، اثنى عشر ألف ألف دينار ، غير الدنانير المتعامل بها الآن .

وجبى خراج مصر فى أيام الأمير أحمد بن طولون ، مع وجود الرخاء ، أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ، غير ما يتحصل من المكوس والغلال .

وجبى خراج مصر فى أيام الأخشيدية ، فكان ألفى ألف ألف دينار غير دنانير الآن

وجبى خراج مصر فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، فكان اثنى عشر ألف ألف دينار ، مع تلاشى أحوال مصر وانحطاط خراجها الى ذلك .

وكان موجب انشحات الديوان فى أيام ملك الأمراء خاير بك أن الاصباهية والانكشارية والكملية لما استقروا بمصر ، رتب ملك الأمراء جوامك فى كل شهر ، فكان يعطى جماعة من الاصباهية فى كل شهر ستين دينارا ، وجماعة منهم خمسين دينارا . وجماعة منهم أربعين دينارا ، وجماعة منهم ثلاثين دينارا ، وباقيهم عشرين . وأما الانكشارية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيته كل شهر خمسة عشر دينارا ، وباقيهم اثنى عشر دينارا ، وأما الصوباشية فلهم فى كل شهر ثلاثون دينارا لكل واحد . وأما الكملية فكان الغالب فيهم من كانت جامكيته فى كل شهر اثنى عشر دينارا ،

وجماعة عشرة دنانير ، وجماعة منهم ثمانية دنانير ، وهذا كله خارج عن جوامك مماليك ملك الأمراء .

وأما المماليك الچراكسة فان ملك الأمراء رتب لكل واحد منهم فى كل شهر سبعة دنانير فى نظير الجامكية واللحم ، وذلك خارج عما رتب للأمراء الچراكسة القاطنين بمصر . وذلك خارج عن انعام ملك الأمراء للمترددين من المملكة الرومية وغيرها ، حتى قيل : كان يصرف ملك الأمراء على ماذكرناه فى كل سنة نحو ألف ألف دينار وستمائة ألف دينار . فبواسطة ذلك كله ضاق الحال عن صرف الجوامك فى كل شهر .

وأما المال الذى كان يرد من ثغر الاسكندرية ودمياط والبرلس وجدة وغير ذلك من الثغور ، فانه كان يحمل الى خزائن السلطان سليم شاه وولده السلطان سليمان نصره الله ، فلا يتعرض ملك الأمراء لشيء من ذلك . وما كان يستخرج غير خراج الشرقية والغربية والبحيرة وجهات الصعيد فقط لا غير .

فان قال قائل ان السلطان الغورى كان يسد أمر الجوامك فى كل شهر ، وكان العسكر أكثر من ذلك ، والأمراء أربعة وعشرون مقدم ألف ، غير الأمراء الطبلخانات والعشراوات والخاصكية فوق الألف خاصكى ، أقول ان السلطان الغورى ، كان يستعين على ذلك بكثرة المصادرات للمباشرين وأعيان التجار . وغير ذلك من مساتير الناس ، وكان يرد عليه أموال الثغور ، وأموال البلاد الشامية والحلبية والطرابلسية وغير ذلك من الجهات ، والآن البلاد الشامية والحلبية فى غاية الاضطراب ، ولم يرد منها شيء من الأموال ، فبموجب ذلك ضاق الأمر من المال على ملك الأمراء ، ونرجو من الله اصلاح الحال

وفى يوم الاثنين ثالث عشره ، خرج الدفتردار محمد بن ادريس ، وتوجه صحبته ملك الأمراء الى تربة العادلى ، وكذلك الأمراء قاطبة ، وخرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية والانكشارية ، فتوجه طائفة منهم فى البحر ، وأشيع أنهم توجهوا الى اسطنبول بطلب من السلطان سليمان نصره الله ، وقد بلغه انهم يشوشون على أهل مصر غاية التشويش ، فأرسل أخذ منهم خمسمائة انسان من الاصباهية والانكشارية ، وأراح الله المسلمين منهم ، فانهم كانوا من كبار المفسدين ، فخرج الدفتردار فى ذلك اليوم فى موكب حافل كما تقدم .

وفيه كانت وفاة الناصرى محمد ابن الأمير جانى بك كوهية ، وكان رئيسا حشما دينا خيرا من أولاد الناس ، حسن السيرة لا بأس به .

وفيه قدم من اسطنبول سيدى محمد بن الكويز ، وكان توجه الى نحو اسطنبول مع جملة من أسر من أهل مصر ، فلما أفرج السلطان سليمان عنهم ، حضر الى مصر ، وكان حسن السيرة فى التحدث فى أمر المواريث .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره ، حضر أولاق من عند السلطان سليمان وعلى يديه مراسيم تتضمن أنه قد انتصر على الفرنج نصرة عظيمة ، وفتح عدة مدائن من مدائن الفرنج ، وملك عدة قلاع من قلاعهم ، وصار كلما يملك مدينة من مدائنهم يجعل كنائسهم جوامع بمحاريب ومنابر ، وخطب باسمه فيها ، وكانت هذه النصرة على غير القياس .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك رسم بدق البشائر فى القلعة ، ونادى فى القاهرة بالزينة ، فزينت سبعة أيام متوالية ، وفتك الناس فى هذه الزينة فتكا ذريعا ، حتى خرجوا فى ذلك عن الحد ، وتجاهروا بالمعاصى ليلا ونهارا .

وفى يوم الخميس ثالث عشريه ، توجـه ملك الأمراء الى نحو الجزيرة التى تجاه الجيزة بالقرب من المقياس ، وأقام بها ذلك اليـوم على سبيل التنزه ، فأرسل اليه القـاضى بركات بن موسى المحتسب هنالك مدة حافله ، فتعدى ملك الأمراء هناك ، ورسم بأن الذى فضل من المدة يحمل الى القلعة ، وقد فضل منها أشياء كثيرة

ثم ان ملك الأمراء خلع على القاضى بركات بن موسى المحتسب قفطانا مذهبا ، وشكر له ما صنعه من أمر تلك المدة .

وفى يوم الأحـد سادس عشريه ، وقعت كائنة عظيمة للشيخ عبد المجيد بن الطرينى ، وذلك أن ملك الأمراء تغير خاطره عليه بسبب أنه كان تسلط عليه الدين الذى تقدم ذكره ، فلم يعط أصحاب الديون شيئا مما قسطه عليه ، فشكوه الى ملك الأمراء ثانيا ، فأرسل خلفه ، فلما حضر بين يديه قال له : « ألم أقسط عليك ذلك الدين فى كل شهر ، وقررت معى أنك ترضى أصحاب الديون بما قسطته عليك ، فلم تفعل من ذلك شيئا » . فلم ينطق فى ذلك بحجة ، فحنق منه ملك الأمراء ، ورسم بضربه فبطح على الأرض ، وضرب ضربا مبرحا ، حتى قيل ضرب ست نوب تبدلت عليه حتى كاد أن يموت . ثم وضعه فى الحديد ، وأرسله الى بيت الوالى ليعصره فى أكعابه بحضرة أصحاب الديون ، فرق له الوالى وأرسله لسجن الديلم ، فسجن به والحديد فى عنقه ، فاستمر فى السجن بالحديد حتى كاد أن يموت ، وقد عجز عن وفاء ما عليه من الديون ، حتى قيـل تجمد عليه من الديون نحو سبعين ألف دينار للتجـار الأروام وغيرهم

وقد تزايد غضب ملك الأمراء على الشـيخ عبد المجيد بن الطرينى حتى كاد أن يوسطه من شدة غضبه عليه ، وكان الشيخ عبد المجيد من أعيان الناس وله بر ومعروف ، حتى قيل كان يصنع فى كل يوم ستة أرادب دقيق برسم الوارد عليه فى المحـلة ، ويعلـق فى كل يوم اثنى عشر أردبا من الشـعير ، والدسوت عمالة بالطعام ليـلا ونهارا للوارد عليه من سائر البلاد ، فتجمدت عليه هذه الديون العظيمة ، وسـيق كما سـيق غيره من الأكابر ، ولكن يلطف الله به ، والكريم لا يضام أبدا . فكان الشيخ عبد المجيد أحق بقول القائل حيث قال :

لنا غنم تعرف وجوه ضيوفنا
تجى من مراعيها تروم الذبائح
لنا خدم ماينبت الشعر روسها
لحمل القرى من آخذات ورايح

وفيه رسـم ملك الأمراء بشنق شـخص من المماليك الجراكسة قيل هو من مماليك أمير أخور كبير ، وقيـل هو خازنداره ، وكان شابا حسنا فشق شنقه على الأتراك قاطبة ، وشنق فى ذلك اليوم معه أربعة من الجراكسة ، وقد تزايد شره فى هذه الأيام .

وفيه أشيع بين النـاس أن الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة وتوجهوا الى اسطنبول ، لما دخلوا الى ثغر الاسكندرية وقع بينهم هناك فتنة عظيمة ، وقتل منهم جماعة ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك

تنكد لهذا الخبر ، وعين لهم الكيخية الكبير أغاتهم ، فسافر الى الاسكندرية فى ساعته ، حتى يصلح بينهم ويكشف عن سبب هذه الفتنة ومن أثارها من الانكشارية أو من الكملية الذين سافروا من القاهرة ، فتوجه الكيخية الى ثغر الاسكندرية بسبب ذلك .

* * *

واستهل شهر ذي الحجة بيوم الجمعة ، فطلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم السبت المبارك ثانيه حضر قاصد من مكة ، وصحبته رأسان فى علبة مقفولة ، زعموا أن الأولى رأس شخص يقال له اسكندر ، وكان أصله من مماليك السلطان الغورى ، أرسله صحبة التجريدة التى أرسلها الى بلاد الهند بسبب محاربة الشيخ عامر متملك زبيد وعدن وكرمان ، فلما توجه العساكر الذين أرسلهم السلطان الغورى ، تحاربوا معه فانكسر منهم ، وقتل فى المعركة ، فملكوا منه البلاد وأمواله .

ثم ان اسكندر المذكور ملك بلاد الشيخ عامر وتسلطن بها وعصى على السلطان الغورى ، وجعل له هناك أمراء وعسكرا ، وخطب باسمه على منابر بلاد الشيخ عامر ، واستمر على ذلك ولم يدخل تحت طاعة الخنكار سليم شاه بن عثمان لما ملك الديار المصرية ، ولم يخطب باسمه ، ولم يضرب السكة باسمه هناك ، فلم يزل نائب جدة يتحيل عليه حتى قتله وحز رأسه وأرسلها الى القاهرة ، فعرضت على ملك الأمراء وهو بالميدان .

ثم ان ملك الأمراء أشهر تلك الرأس فى القاهرة ومعها رأس أخرى قيل انها رأس دواداره أو خازنداره أو وزيره ، ثم علقتا على باب النصر . وكان اسكندر هذا شجاعا ، بطلا ، مقداما فى الحرب قوى القلب ، ملك البلاد واحتوى على أموالها ، وفرقها على عسكره ، وجعل له أمراء وحجابا ودوادارية ، ولولا أنهم احتالوا عليه حتى قتلوه ، لما كانوا يقدرون عليه من شجاعته وحيله .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى أنه حضر قاصد من اسطنبول الى الشام ، ثم حضر الى القاهرة ، فلما استقر بها أنشر مراسيم من عند السلطان سليمان ، وأحضر معه ذراعا من الحديد يزيد على الذراع الهاشمى الذى تتعامل به أهل مصر بخمسة قراريط ، وأحضر معه سنج نحاس وأرطالا على طريقة اسطنبول . وأشيع أن السلطان سليمان بن عثمان رسم بابطال الذراع والسنج التى يتعامل بها أهل مصر ، وأن التجار وأرباب البضائع لا يتعاملون الا بهذا الذراع وهذه السنج ، فامتثل ملك الأمراء دلك ، وأجاب بالسمع والطاعة ، ورسم للقاضى بركات بن موسى المحتسب بأن ينادى فى القاهرة حسبما رسم الخنكار بابطال الذراع الهاشمى من مصر ، واستعمال الذراع الاسطنبولى فنزل المحتسب مع الوالى ونادى فى القاهرة بذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب كتب قسائم على التجار أنهم لا يبيعون ولايشترون الا بهذا الذراع الاسطنبولى ، فشق ذلك على التجار وأرباب البضائع . فلما أشهر المحتسب المناداة بذلك ، وأن كل من خالف مرسوم الخنكار شنق على دكانه من غير معاودة ، صارت رسل المحتسب تطلع الى دكاكين التجار الذين فى الأسواق وتأخذ الاذرعة الحديد وترميها فى الطرقات ، فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد

الاضطراب . ثم صاروا يكررون المناداة بذلك فى أمر المعاملة بذلك الذراع الاسطنبولى ، واستمر ذلك فى البيع والشراء الى الآن .

وفيه وقعت كائنة عظيمة للوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية وكان سبب ذلك أن شخصا من الوكلاء يقال له على الأزهرى ، توكل عن شخص يهودى فى شغل ، فأخذ منه فى ذلك الشغل أربعين دينارا وقيل خمسين دينارا ، فلما بلغ المحضر الذى فى المدرسة الصالحية ذلك ، طلب على الأزهرى وسأله عن ذلك فأنكر ، وقال ما أخذت منه هذا القدر أبدا ، وحلف وأقسم ، فحنق منه المحضر وأمر بضربه بين يديه .

ثم ان المحضر طلع الى ملك الأمراء وأخبره بأمر الوكلاء وما يصنعون ، فرسم باحضار سائر الوكلاء فاختفى منهم جماعة ، وقبضوا على أربعة منهم ، وهم : على الأزهرى ، وسالم ، ومسعود ، والحكرى . فطلعوا بهم الى القلعة وعرضوهم على ملك الأمراء فأوعدهم بكل سوء ، ثم أرسلهم الى بيت الوالى فأرسلهم الوالى الى سجن الديلم ، فسجنوا به الى أن تظهر البقية . وكان الذى رافع فى الوكلاء وأشلى فيهم بدر الدين بن الرومى ، وتعصب معه خير الدين نائب القلعة ، وقال لملك الأمراء هذه الأفعال التى يفعلها الوكلاء فى المدرسة الصالحية لاتحل ولا تجوز ، فاضطربت أحوال القضاة الى الغاية .

ثم ان الوكلاء الذين سجنوا بسجن الديلم شفع فيهم القاضى حمزة ، وقيل الأمير على أحد الأمراء الخنكارية ، ثم أقام الوكلاء فى السجن أياما ، ثم أخرجوا منه .

وفيه نودى بالقاهرة عن لسان ملك الأمراء بمنع الصيارف الحجازيين قاطبة ألا يصرفوا دينارا ذهبا ، فانه قد أشيع عنهم أن جماعة منهم يصنعون الزغل فى الذهب والفضة ، ويطيرونها على الناس فى الصرف ، فمنعوا من ذلك

وفيه قدم قاصد من عند السلطان سليمان ابن عثمان يقال له قاسم بك ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه انتصر على الفرنج نصرة ثانية ، وملك منهم عدة قلاع ، وقد ظفر بجماعة منهم وقتلهم .

فلما تحقق ملك الأمراء ذلك نادى فى القاهرة بالزينة ، فزينت ووافق ذلك يوم عيد النحر . فحصل للناس المتسمه الزائدة بهذه الزينة ، واشتغلوا بذلك عن الأضحيه والعيد ، ووقع فى ذلك اليوم مطر غزير ، فأعدم قماش الناس الذى فى الزينة ، وصار الوالى يبطح الناس على الأرض ويضرب الذى مازين دكانه ، فما حصل لأحد من الناس خير ، واستمرت الزينة معلقة الى أن نزل ملك الأمراء وتوجه الى بولاق بسبب ملاقاة القاصد الذى حضر من البحر ، فطلع من سوق مرجوش وشق القاهرة وهى مزينة ، والقاصد صحبته ، ومشى القاضى بركات بن موسى المحتسب قدامه بعصاه الى أن طلع الى القلعة ، فأوقدوا له الشموع بالنهار على الدكاكين ، فاستمر فى ذلك الموكب الى أن طلع الى القلعة ، ثم فكت الزينة فى ذلك اليوم ، وانقضى أمرها .

وفى يوم السبت سادس عشره ، جلس ملك الأمراء بالمقعد الذى بالحوش السلطانى ، وطلب قضاة القضاة الأربعة ، فلما حضروا حضر القاضى حمزة قاضى ابن عثمان ، فلما تكامل المجلس تكلم ملك الأمراء مع القضاة فى أمر نوابهم وما يفعلون ، وفى أمر الوكلاء ، فوقع فى ذلك المجلس غاية ما يكون من اللغط ، وكان القاضى حمزة فى ذلك المجلس أشد ما يكون على القضاة ، وصار

يقـول لهم : نوابكم يفعلون ما هو كيت وكيت . فجاء ملك الأمراء على القضاة بكل ما فيه بسبب نوابهم ، وقد كثر فسادهم .

فتكلم معهم ملك الأمـراء فى ذلك ، فـوقع الاتفاق فى المجلس بأن كل قاض من القضاة الأربعة يقتصر على سبعة من النواب لا غير ، على عدد أيام الجمعة ، والقاضى من النواب يجلس فى بيت قاضى القضاة فى نوبته ، ويسمع الدعوى هناك بمفرده ، وأن القاضى اذا عقد عقد نكاح ، يأخذ على من تزوج البكر ستين نصفا ، وعلى من تزوج الثيب ثلاثين نصفا ، يأخذ العاقد شيئا ، والشهود شيئا ، والباقى يحمل الى بيت الوالى ، ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة الأربعة ، وأن الوكلاء تبطل قاطبـة من المدرسة الصالحية ، فانفض المجلس على ذلك . وقام القضاة فقيل لهم امشوا على اليسق العثمانى ، فاضطربت أحوال القضـاة والشهود قاطبة ، وبطلت أسبابهم ومشوا على هذا الحكم .

وصار مقدم الوالى والجالية يأتون فى كل يوم من أيام الجمعة ، ويجلسون فى بيت كل قاض من القضـاة الأربعـة الى ما بعد العصر ، ويأخذون ما يتحصل من عقـود الأنكحة ، ويمضون به الى بيت الوالى ، كما تقرر الحـال على ذلك اليسـق العثمانى . فصار الذى يتزوج أو يطلق تقع غرامته نحو أربعة أشرفية ، فامتنع الزواج والطلاق فى تلك الأيام ، وبطلت سنة النكاح والأمر لله تعالى .

وفيه نزل من القلعة القاضى بركات بن موسى المحتسب ، وأشهر المناداة فى القـاهرة وصحبه الوالى بأن لا قاضى ولا شـاهد يحكم فى المدرسة الصالحية ، وأن لكل قاض من القضاة سبعة من النواب لا غير ، يحكم كل نائب يوما فى بيت قاض من القضـاة الأربعة ، ويسمع الدعوى فى بيت مستنيبه ، وأن لكل نائب من النـواب شاهدين لا غير ، وأن القاضى يأخذ على نكاح البنت البكر ستين نصفا ، ويأخذ على الثيب ثلاثين نصفا ، وأن سائر النواب والشهود بطالة من الأحكام الشرعية ، وهذا حسبما رسم به ملك الأمراء ، والمشى على اليسق العثمانى .

فلما سمع ذلك الناس اضطربت أحوالهم غاية الاضطراب ، ولاسيما النواب والشهود حصل لهم الضرر الشامل ، وصارت المدرسة الصالحية ليس يلوح بها قاض ولا شاهد ، بعد ما كانت كنسة العلماء .

ومن الحوادث ما وقع فى أواخر الشهر وهو يوم الأحـد خلع ملك الأمراء على شـخص يسـمى جمال الدين يوسف بن أبى الفرج ، ويعرف بابن الجـاكية — وهو ابن محمـد الذى كان نقيب الجيش من أولاد ابن أبى الفرج — واستقر به فى وظيفـة التفتيش عن الرزق ، فلما قرر فى هـذه الوظيفة أخـذ حذره منه سائر الأعيـان ودخلت رأسهم منه الجراب .

فلما استقر أمر ملك الأمراء بأن ينـادى له عن لسانه حسبما رسم ملك الأمراء لا أحد من الناس يحتمى على الأمير جمـال الدين يوسف بن أبى الفرج ولا يعارضه ، وأنه مسـموع الكلمة وافر الحرمة .

فلما جرى ذلك طغى الأمير يوسف بن أبى الفرج وتجـبر ، وصار معه الجم الكثير من الرسـل والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من رجال ونساء بالرسل الغلاظ الشداد ، فاذا حضروا الى بابه ومعهم مكاتيبهم ومربعاتهم ، يقرؤها ثم ينجش

لهم فيها انجاشا ، ويقول لهم أرونى أصول هـذا والأصول الأصول ، فاذا عجزوا عن ذلك يرسلهم الى بيت القاضى الحنفى ، ويشهد عليه أن لا حق لهم فى هذه المكاتيب ولا استحقاق ، ويأخذ منهم ما معهم من المكاتيب والمربعات ، ويمضوا خائبين . فيطلع بالمكاتيب والمربعات الى ملك الأمراء ، ففعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من أعيان الناس ، فأخذ من الجمالى يوسف نقيب الجيش ابن الشرفى يونس نقيب الجيش سبع عشرة رزقة بمكاتيب شرعية ، وحذف عليه ملك الأمراء ما عنده من المكاتيب جميعها ، فطلع له بها ، وفعل بجماعة كبيرة من أعيان الناس والستات مثل دلك ، والأمر لله تعالى .

وفيه حضرت مركب من الأغربة التى كان عمرها ملك الأمراء وأرسلها صحبة الأروام والمغاربة البحارة ، فلما دخلوا الى البحر المالح وجدوا جماعة من الفرنج يعبثون فى سواحل البحر المالح فأوقعوا معهم وقاتلوهم فانكسر الفرنج ، وقبضوا عليهم وأسروهم ، واحتووا على مراكبهم ، فوجدوا فيها بضائع وجوخا وأصنافا فاخرة ، فأخذوا جميع ما كان فيها ، وقبضوا على من كان فيها من الفرنج ووضعوهم فى الحديد ، وأرسلوهم الى ملك الأمراء ، فلما عرضوا عليه رسم بتوسيطهم فوسطوا منهم تسعة عشر رجلا ، وسجنوا الباقين وأخذ ملك الأمراء جميع أموالهم ، ثم تبين بعد ذلك أن هؤلاء كانوا تجارا أتوا من بلاد الفرنج فلما رأوهم قاتلوهم فانكسروا وأسروا وأخذت جميع أموالهم . وأشيع أنهم كانوا يعبثون فى سواحل البحر المالح .

وفيه قدم جماعة من اسطنبول ممن كان أسر من أهل مصر فى أيام السلطان سليم شاه بن عثمان فحضر علم الدين چلبى السلطان الغورى ، وحضر عقيب ذلك المقر الشهابى أحمد ناظر الجيش كان ، وهو ابن المقر الجمالى يوسف ناظر الخاص ، وحضر كمال الدين بزددار الأمير طراباى ، وحضر الرئيس عبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وحضر الناصرى محمد بن العلائى على بن خاص بك ، وحضر القاضى شمس الدين محمد الحجازى أحد نواب الشافعية ، وحضر آخرون من الأسرى ما تحضرنى أسماؤهم الآن .

وفى يوم الخميس ثامن عشريه ، قدم مبشر الحاج من مكة وأخبر بالأمن والسلامة عن الحجاج ، وأخبر أن الغلاء معهم عمال فى سائر الغلال والمأكول قاطبة ، وأخبر بموت الجمال مع الحجاج ، فخلع عليه ملك الأمراء ، ونزل الى منزله .

وقد خرجت هذه السنة على خير وسلامة ، وكانت سنه مباركه ، وقع فيها الرخاء فى سائر الغلال قاطبة بعد ما كان تناهى سعر القمح الى أربع أشرفيات ذهب كل أردب وكان النيل فيها عاليا عم سائر أراضى مصر قاطبة وثبت ثباتا جيدا الى أواخر بابه . ومن محاسن هذه السنة أنها خرجت عن الناس ولم يكن فيها الطاعون فى الديار المصرية ولا فى شىء من أعمالها قاطبة .

ولكن وقع فى أواخر السنة حوادث مهولة . منها عصيان الأمير جان بردى الغزالى نائب الشام وقتله ، وما وقع بالشام من الاضطراب ، فكان من ملخص واقعة الأمير جان بردى أنه لما استقر به السلطان سليم شاه نائبا بالشام ، أقام بها مدة وهو تحت طاعة السلطان سليم شاه فى الظاهر ، ولما ولى

بعده ابنــه سليمان على مملكة الروم ، أظهر جان بردى الغزالى العصيان جملة واحدة ، ولم يدخل تحت طاعة السلطان ســليمان بن عثمان ، فقــام معه أهل الشــام من الأمراء والعسكر والعربان والعشير ، وقالوا له قم وتسلطن فما بقى قــدامك أحــد تخشى منه ، ونحــن نقاتل معك حتى نقتل ، فاستمال لقولهم ، وطاش وخف ، وكم عجلة أعقبت ندامة ، فتسلطن بالشام وتلقب بالملك الأشرف أبى الفتوحات ، وقبلوا له الأرض ، وخطب باسمه فى جامع بنى أمية ، وعلى بقية منــابر دمشق . فلمــا تسلطن قالوا له : امض الى مصر وحارب خير بك ، واملك منه مصر ، فقال لهم : مصر فى قبضة يدى ، ولــكن أتوجــه الى حلب وأخلصها مــن أيدى العثمانية ، فما يبقى خلفى التفاتة ، ثم أتوجه الى مصر . ولو أتى الى مصر لكان خــيرا له ، وكان العسكر من الجراكسة وأهل مصر والعربان قاطبة يقلبوا على ملك الأمراء خاير بك ، ويمضوا اليه ، فانه كان محببا للرعية .

فلما توجه الغــزالى الى حلب ليملكها ، حاصر أهلها ، وأحرق غالب الضياع التى حولها ، وحصل منه الضرر الشامل لأهل حلب ، فلما حاصر مدينة حلب لم يقدر عليها وعجز عن ذلك . وكان الأمير جان بردى الغزالى أول ما توفى السلطان سليم شاه وتولى بعده ابنه سليمان ، أرسل يقول لملك الأمراء خاير بك تسلطن أنت بمصر ، وأستمر أنا بالشــام وأحكم من الفرات الى غزة ، ونطرد هذه العثمانية عن مملكة مصر . فلما وقف خاير بك على مطالعة الغزالى أفشى سره . وكان الغزالى أرســل يقول لخاير بك ان لم تتسلطن فعنــدى من يتسلطن ، فأراد خاير بك أن يتنصح للسلطان سليمان ، فأرسل له مطالعة الغزالى التى أرسلها له فى السر . فلمــا وقف السلطان على مطالعة الغزالى ، أرســل يقول لخاير بك : لا تخرج أنت من مصر للغزالى ، فنحن نكفيك شره .

ثم ان السلطان سليمان أرســل تجــريدة الى الغزالى نائب الشام ، فجهز له من العساكر العثمانية نحو أربعة عشر ألف مقاتل ، فخرجوا من اسطنبول على حمية ، وتوجهــوا من اسطنبول الى حلب ، فأوقعوا مع الغــزالى على حلب ، فانكسر منهم ، فتوجه الى دمشق ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة على القابون خارج مدينة دمشق ، فقتل من عسكر الغزالى هناك ما لا يحصى من عربان الكرك وأكراد وتركمان ومماليك جراكسة ، ومن أهل دمشق ، حتى قيل : قتل فى المعركة من أهل دمشق شيوخ وشبان وأطفال ، ومن سوقة دمشق ما لا يحصى .

وكانت هذه الواقعة تقرب من واقعة تمرلنك لما دخل الى دمشق ، وقد خرب فى هذه الواقعة ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبيوت ، وتمت الكسرة على الغزالى واختفى ، وقيل : بل قتل على المعركة وحزت رأســه وأرسلت الى اسطنبول ، ومضى أمره . والى الآن تشك جماعة من الناس فى قتله ، ويقولون ما قتل وهــو باق فى قيد الحياة ، وأنه هرب عنــد الصفوى بعــد وقوع المعركة ، والأصح أنه قتل فى الواقعة التى كانت على القابون ووقع الشك للناس فى ذلك ، كما وقع لهم فى قتل قانصوه خمسمائة من الشك .

ومما وقع فى هذه السنة من الحوادث ، حــرق النصــارى على باب المدرسة الصــالحية ، ومنع الشهود من الجلوس فى الحوانيت . ومن الحوادث ما وقع للشيخ عبد المجيد الطريني وقصته مشهورة .

ومن الحوادث منع الوكلاء من باب المدرسة الصالحية وعزل نواب القضاة الأربعة واقتصارهم على سبعة نواب لكل قاض من غير زيادة على ذلك .

ومنها واقعة العقود وما تقرر على تزويج البكر ستين نصفا والثيب ثلاثين نصفا ، وقد تقدم ذلك فكان ذلك من أشد الكرب على المسلمين .

ومنها جلوس مقدم الوالى والجالية على أبواب القضاة من باكر النهار الى آخره ، ليأخذوا ما يتحصل من عقود الأنكحة ، ويمضوا به الى بيت الوالى ، ويسمون ذلك اليسق العثمانى . ولا يتزوج أحد من الناس ولا يطلق الا فى بيت قاض من القضاة ، فضيقوا على المسلمين غاية الضيق .

ومن الحوادث الشنيعة أن ملك الأمراء خلع على شخص يقال له جمال الدين يوسف ابن أبى الفرج ، ويعرف بابن الجاكية ، وقرره فى وظيفة وسماه مفتش الرزق الجيشية ، فلما استقر فى هذه الوظيفة أطلق فى الناس النار ، ورافع الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه أخذ من ديوان الجيش أقاطيع سلطانية ورزقا جيشية ، وصنع لها مكاتيب شرعيه بمشترى من بيت المال ، وباعها على الناس .

ورافع أيضا الزينى أبا بكر بن أبى بكر بن الملكى بمثل ذلك ، حتى تكلم فى حق الشهابى أحمد بن الجيعان بأنه ابتاع من ديوان الجيش رزقا وأقطاعا ، وصنع لها مكاتيب شرعية ، وباعها على الناس بنحو عشرين ألف دينار . وأظن هذا الكلام ليس له صحة ، وهذا باطل لا محالة ، فتغير خاطر ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمد ابن الجيعان ، وصار اذا طلع الى القلعة لا يخاطبه أصلا ، ورسم للزينى أبى الوفاء الحلبى موقع ملك الأمراء من حين كان بحلب أن يقرأ عليه القصص ، بدلا عن الشهابى أحمد بن الجيعان ، فعظم أمر الزينى أبى الوفا فى هذه الأيام جدا ، حتى صار فى مقام من تقدم من كتاب السر ، وصار من أعيان الرؤساء بالديار المصرية .

ثم ان الجمالى يوسف بن ابى الفرج أخذ من الناصرى محمد بن خاص بك رزقتين بمكاتيب شرعية ، فطعن فى هذه الرزق وقال له أصل هذه الرزق أقاطيع سلطانية ، فأخذ منه المكاتيب وأشهد عليه بأن لا حق له فيها ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وصار يفعل من هذا النمط بجماعة كثيرة من رجال ونساء ، ويأخذ مكاتيبهم من أيديهم ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ويطلع بالمكاتيب الى ملك الأمراء ، فأطلق فى الناس جمرة نار ، وضج منه الناس قاطبة ، حتى قيل أخذ من أيدى الناس فوق الثمانين رزقة بمكاتيب شرعية ، وطلع بها الى ملك الأمراء ، وحصل للناس منه الضرر الشامل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العظيم

وما اكتفى ملك الأمراء بيوسف بن أبى الفرج حيث جعله مفتش الرزق الجيشية ، فجعل الأمير على العثمانى مفتش الأوقاف أيضا من بلاد وبيوت وغير ذلك ، فاجتمع على بابه الرسل الغلاظ الشداد ، والبزددارية ، وصاروا يطلبون الناس أصحاب الأوقاف ، فاذا حضروا ومعهم مكاتيبهم ينجشون عليهم ويقولون لهم ايش على هذا الوقف مصاريف ، وايش متحصله فى كل شهر ، فيدعون أصحاب الأوقاف فى الترسيم ، ويقررون عليهم مبلغا ثقيلا للأمير على هو ودواداره والبزددارية والرسل ومن عنده من المباشرين ، ويكتبون له على مكاتيبه عرض ، ثم يطلقونه بعد أن يلتهب من الغرامة فوق ما لا يطيق ، فصار الأمير على يتكلم

على فرع من أبواب المظالم المهولة ، فأطلق فى الناس النار الموقدة .

وأقول ان أولاد ابن أبى الفرج طول عمرهم بيت ظلم وعسف ، وطبعهم الأذى هم وأجدادهم من أيام الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق ، وقد تقدم القول على ذلك .

ومن الحوادث فى أواخر هذه السنة أن ملك الأمراء جهز مراكب أغربة وفيها جماعة من المقاتلين ، فتوجهوا الى البحر المالح ، وقد بلغه أن جماعة من الفرنج يعبثون فى السواحل على المسافرين ، فلما توجهوا الى البحر المالح ، وجدوا مراكب فيها تجار من الفرنج ، ومعهم بضائع بنحو خمسين ألف دينار ، فتقاتلوا معهم فكسروا الفرنج ، وقبضوا عليهم واحتاطوا على مامعهم من البضائع ، فلما حضروا الى مصر ، وعرضوا على ملك الأمراء ، رسم بتوسيط نحو تسعة عشر نفرا من الفرنج ، فراحوا ظلما ، وأخذت أموالهم ، وربما يثور من هذه الحركة فتنة كبيرة بين الفرنج وبين أهل مصر بسبب ذلك ، ويمنعون التجار من المرور فى البحر ، ويقتلونهم كما فعلوا بالفرنج المقدم ذكرهم .

وفى هذه السنة قتل ملك الأمراء من الناس مالا يحصى بتوسيط وشنق وخوزقة وأكثرهم راح ظلما ، والأمر لله تعالى .

سنة ثمان وعشرين وتسعمائة (١٥٢٢ م) :

فيها فى المحرم ، وكان مستهله يوم الأحد المبارك ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالعام الجديد ثم عادوا الى منازلهم .

وفى هذا الشهر تزايد ظلم الجمالى يوسف بن أبى الفرج وفتك فى الناس فتكا ذريعا ، وكثر على بابه الرسل والبزددارية ، وصار يطلب أعيان الناس من كبير وصغير ، فيحضرون ومعهم مكاتيبهم ، ويأخذها من أيدى أصحابها غصبا ، ويشهد عليهم أن لا حق لهم فيها ولا استحقاق ، ويطلع بها الى ملك الأمراء ، واستمر على ذلك يتزايد ظلمه الشنيع كل يوم حتى ضج منه الناس والأمر لله تعالى .

وفيه توفى الشهابى أحمد بن التمارى ، وكان من مشاهير أولاد الناس ، وكان أمير جكار ، وقد ترحل حاله فى أواخر عمره ومات فقيرا .

وفى يوم الخميس خامسه حضر جماعة من اسطنبول ممن كان السلطان سليم شاه أسرهم وأرسلهم الى اسطنبول ، فحضر بهاء الدين بن البارزى ، وجلال الدين ابن الخواجا بدر الدين حسين الشبراوى ، وحضر الخواجا يحيى بن عبد الدائم اللبدى المغربى من تجار جامع طولون ، وحضر آخرون ممن كان باسطنبول .

وفى يوم السبت سابعه ، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، وجلس هناك على المصطبة القديمة ، وكان القاصد الذى حضر بالأمس صحبته ، فمد له هناك مدة حافلة ، وأحضر صقورا وكلابا سلوقية ، ورمى قدام القاصد رماية هناك ، وانشرح فى ذلك اليوم الى الغاية .

فبينما هو على ذلك ، واذا بجماعة من الأعيان حضروا بين يديه ، منهم الشيخ شمس الدين محمد اللقانى المالكى ، والشيخ شمس الدين محمد

المعروف بالديروطى الشافعى ، والشيخ شهـ . ـدين احمد بن الجلبى وآخرون من العلماء ، فلما اجتمعوا قالوا . « يا ملك الأمراء قد أبطلتم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصرتم تأخذون على زواج البنت البكر ستين نصفا ، وعلى زواج المرأة ثلاثين نصفا ، ويتبع ذلك أجرة الشهود ، ومقدمى الوالى ، وغير ذلك ، وهذا يخالف الشرع الشريف ، وقد عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خاتم فضة ، وعلى ستة أنصاف فضة ، وعقد على آية من كتاب الله ، وقد ضعف الاسلام فى هذه الأيام ، وتجاهر الناس بالمعاصى والمنكرات ، وتزايد الأمر فى ذلك » . ثم ذكروا له آيات من كتاب الله تعالى ، وأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يلتفت ملك الأمراء الى شىء من ذلك ، وقال للشيخ شمس الدين محمد اللقانى المالكى : « اسمع يا سيدى الشيخ ، ايش كنت أنا ؟ الخنكار رسم بهذا ، وقال امشوا فى مصر على اليسق » . فقال له شخص من طلبة العلم يقال له عيسى المغربى : هذا يسق الكفر ، فحنق منه ملك الأمراء ، فرسم بتسليمه الى الوالى ليعاقبه ، فتوجهوا به الى بيت الوالى ، ثم شفع فيه بعض الأمراء .

فلما كان عقيب ذلك توجه الى ملك الأمراء جماعة من النجارين والقلافطة ، وعلى رءوسهم مصاحف ، وهم يستغيثون (الله ينصر السلطان سليمان) . فظن ملك الأمراء أنهم من الجامع الأزهر ، ثم تبين أنهم نجارون وقلافطة ، أتوا يشتكون من الشاد على المراكب التى عمرها ملك الأمراء فى الروضة ، بأنه قد ظلمهم وجار عليهم . فلما كثر منهم الضجيج ، رسم ملك الأمراء لمن حوله من الانكشارية بضربهم ، فشتتوا أجمعين . ثم طال المجلس بين ملك الأمراء وبين مشايخ العلم الذين حضروا ، فكان من جوابه للشيخ شمس الدين اللقانى المالكى : « ياسيدى الشيخ أنا أخاف على رقبتى أكثر من رقابكم ، امضوا باسم الله » . فقاموا من عنده وهم فى غاية القهر ، يتعثرون فى أذيالهم ، ولم يلتفت الى أقوالهم ، فقال له بعض الفقهاء الذين حضروا : « نحن نسافر الى السلطان سليمان نصره الله تعالى ، ونخبره بما يفعل فى مصر » . فتنكد ملك الأمراء فى ذلك اليوم بعد ما كان منشرحا ، ثم قام من هناك وطلع الى القلعة ، وخرج القاصد من هناك وتوجه من يومه وسافر الى اسطنبول .

فلما رجع الفقهاء من عند ملك الأمراء ، قامت الأشلة والنائرة على ملك الأمراء ، وكثر الدعاء عليه بسبب عقود الأنكحة ، وقصدوا يغلقون أبواب الجوامع والمساجد ، فلما جرى ذلك أرسل ملك الأمراء الزينى أبا الوفا الموقع ، يأخذ بخاطر الشيخ شمس الدين محمد اللقانى ، وقال له : لا تؤاخذ ملك الأمراء ، فانه لم يكن يعرفك . وأرسل على يد الزينى أبى الوفاء الموقع مائتى دينار وأربع بقرات ، ففرقت على مجاورى الجامع الأزهر ، وأرسل مثل ذلك الى مقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وأرسل مثل ذلك الى الزوايا التى بالقرافة ، والى مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، وغير ذلك من الزوايا والمزارات والمساجد ، وقصد أن يستجلب خواطر العلماء والفقهاء مما فعله من الأفعال الشنيعة ، ليمحو ذلك بذلك ، وهذا من المحالات ، كما يقال فى المعنى :

جفاء جرى جهرا لدى الناس وانبسط
وعذر أتى سرا فأكد ما فرط
ومن ظن أن يمحو جلى جفائه
خفى اعتذار فهو فى غاية الفرط

وفى يوم الاثنين سادس عشره ، أنفق ملك الأمراء على المماليك الجراكسه ، وكان لهم خمسة أشهر جامكية منكسرة ، وقد ضاع عليهم عليق أربعة أشهر ، فأنفق ملك الأمراء عليهم فى ذلك اليوم شهرين ، وأخر لهم ثلاثة أشهر ، فاضر ذلك بحالهم

وفيه اجتمع العسكر يبصو الجامكية فى الميدان ، فنزل لهم المقر الشهابى احمد بن الجيعان ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، وابن أبى أصبع ، فقالوا للمماليك الجراكسة : ملك الأمراء يقول لكم انه مسافر بعد الربيع ، فالذى له قدرة يعمل برقه ، والذى ما له قدرة على السفر لا يأخذ جامكية ويقعد يستريح . فلما سمع العسكر ذلك اضطربت أحوالهم .

ثم ان ملك الأمراء جلس فى شباك الدهيشة وأرسل خلف المماليك الجراكسة ، فلما طلعوا ووقفوا بين يديه ، استدعاهم واحدا بعد واحد ، وصار يختار من كل عشرة مماليك مملوكا واحدا ، الذى يجده شابا وله قدرة على السفر ، فيبقيه على جامكيته ، والذى يجده من الشيوخ العواجز يقف جامكيته ، فأبطل فى ذلك اليوم ألف مملوك من المماليك الجراكسة والناس وغير ذلك ، وفيهم من هو من الأغوات من مماليك الأشرف قايتباى ، فتزايدت قسوته فى ذلك اليوم عليهم .

ومما وقع فى ذلك اليوم من النوادر الغريبة ، أن ملك الأمراء لما عرض المماليك صار كل من رآه من المماليك ولحيته طويلة يقص منها نصفها ، ويعطيها له فى يده ، ويقول له امش على القانون العثمانى فى قص اللحى ، وتضييق الأكمام ، وكل ما تفعله العثمانية ، فنزل المماليك الجراكسة من القلعة فى ذلك اليوم وهم فى غاية النكد مما جرى عليهم .

وكان سبب قطع جوامك جماعة من المماليك الجراكسة ، ان الديوان كان يوجد فى عادة الانشحات ، وقد كثر العسكر وصار المال يقسم على سبع طوائف من العسكر ما بين أمراء عثمانيه ، وطائفة من الاصباهية ، وطائفة من الانكشارية ، وطائفة من الكملية ، وطائفة من الأمراء الجراكسة ، وطائفة من المماليك الجراكسة ، ومماليك ملك الأمراء طائفة سابعة ، فكان يصرف فى كل شهر لطائفة الاصباهية أحد عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة الانكشارية فى كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة الكملية فى كل شهر أحد عشر ألف دينار ، ويصرف لطائفة المماليك الجراكسة وأولاد الناس أحد عشر ألف دينار . ويصرف لمماليكه وخدامه وحاشيته وغير ذلك من الرواتب فى كل شهر ثلاثة عشر ألف دينار ، وذلك خارج عن جامكية الأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية والمترددين من القصاد العثمانية ، فبموجب ذلك وقع الانشحات فى تأخير الجوامك وكسرها الأشهر .

وكان السلطان الغورى لايستعين على سد الجوامك فى كل شهر الا بكثرة المصادرات للتجار وغيرهم من مساتير الناس وأعيانهم وكان يسد من مظالم العباد ، ويصير اثم ذلك عليه .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء قد تغير خاطره على خوند مصرباى الجركسية ، وأنزلها من القلعة ، ورسم لها بأن تسكن بمدرسته التى بناها بباب الوزير ، ورتب لها فى كل شهر مايكفيها من النفقة . وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء قدوم زوجته أم أولاده من اسطنبول ، وقد أتت صحبة الأمير جانم الحمزاوى من اسطنبول ، فاختار بأن تكون صاحبة القاعة عوضا عن خوند مصرباى ، فشق ذلك عليها .

وفى يوم الخميس تاسع عشره ، أكمل ملك الأمراء تفرقة الجامكية على العسكر ، وأوقف جوامك كثير من المماليك الجراكسة ، ومن أولاد الناس ، ومن العواجز والشيوخ ، وقال للذين صرف لهم الجوامك : كونوا على يقظة واعملوا برقكم ، فربما الخنكار يرسل يطلبكم على حين غفلة ، فقالوا كلهم : السمع والطاعة ، ونزلوا على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير فرحات العثمانى نائب طرابلس ، استقر فى نيابة الشام عوضا عن اياس ، الذى كان بها ، وتوجه اياس الى اسطنبول ، فصار الأمير فرحات بيده نيابة طرابلس والشام .

وفى يوم الأربعاء خامس عشريه دخل الحاج الى القاهرة ، ودخل الأمير جانم أمير ركب المحمل وصحبته المحمل الشريف .

ثم أشيع أن الحاج قد قاسى فى هذه السنة مشقة زائدة من الغلاء وموت الجمال . ولما طلع الى العقبة اشتد عليه البرد هناك والرياح العاصفة ، فمات من الحجاج ما لا ينحصر ، حتى قيل مات منهم من العقبة حتى دخلوا القاهرة نحو ثمانين انسانا ، ودخل الباقون مرضى من شدة البرد العاصف المضر بالأجساد .

ولما دخل الحاج أشيع موت الأمير باباى ، الذى كان ولى مشيخة الحرم النبوى ، وأشيع موت شخص من الأمراء العثمانية ، كان أغات الانكشارية ، توفى لما دخل المدينة الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ودفن بالبقيع ، وكان من خيار العثمانية .

وتوفى الأمير مقرن أمير عربان بنى جبر ، متملك جزيرة بين النهرين الى بلاد هرمز الأعلى ، وكان أميرا عظيما جليل القدر مبجلا فى سعة من المال ، وكان مالكى المذهب سيد عربان الشرق على الاطلاق ، وكان أتى الى مكة وحج فى العام الماضى ، وكان يجلب الى مكة اللؤلؤ والمعادن الفاخرة ، والمسك والزعفران ، والعنبر الخام والعود والقمارى ، والحرير الملون ، وغير ذلك من الأشياء المتحفة . قيل انه لما دخل الى مكة والمدينة تصدق على أهلهما بخمسين ألف دينار ، فلما حج ورجع الى بلاده لاقته الفرنج فى الطريق وتحاربت معه ، فانكسر الأمير مقرن منهم ، وقبضوا عليه باليد وأسروه ، فسألهم أن يشترى نفسه منهم بألف ألف دينار فأبى الفرنج من ذلك ، وقتلوه بين أيديهم ، ولم يغن عنه ماله شيئا ، وملكوا منه جزيرة بين النهرين ، وملكوا قلعتها التى هناك ، واستولوا على أموال الأمير مقرن وبلاده ، وكان ذلك أشد الحوادث فى الاسلام وأعظمها . وقد تزايد شر الفرنج على سواحل البحر الهندى ، والأمر لله تعالى .

ولما رجع الحجاج أثنوا على الأمير جانم أمير الحاج بكل جميل ، فى حفظه للحجاج ، ومنع الضرر عنهم ، وغير ذلك من أنواع البر والمعروف .

* * *

وفى شهر صفر ، وكان مستهله يوم الاثنين ، طلع القضاة الأربعة الى القلعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ، ثم عادوا الى دورهم .

وفى يوم الأربعاء ثالثه ، خرج الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء الجراكسة الى ملاقاة الأمير جانم الحمزاوى الذى كان توجه الى اسطنبول ، وصحبته تقدمة حافلة الى السلطان سليمان بن عثمان ، أرسلها ملك الأمراء خاير بك اليه على يد الأمير جانم كما تقدم ، فأكرمه وأحسن

اليه ، وقبل منه تلك التقدمة ، فأقام باسطنبول مدة ثم رسم له بالعود الى مصر

فلما بلغ الأمراء قدومه الى مصر ، حرجوا اليه قاطبة ، وخرجت اليه أعيان المباشرين قاطبة ، وجميع مشايخ العربان والكشاف المدركين قاطبة .

فلما كان بوم الجمعة ثانى عشر صفر ، وصل الأمير جانم الحمزاوى الى خانقاه سرياقوس ، فمد له القاضى بركات بن موسى المحتسب مدة حافلة ، هذا بعد آن لاقاه من الصالحية .

وأشيع أنه حضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى حريم ملك الأمراء الذى كان باسطنبول من حين ملك السلطان سليم شاه الديار المصرية ، فلما تولى السلطنة ولده سليمان ، رسم بعود حريم ملك الأمراء وأولاده اليه .

وفيه طلعت زوجة ملك الأمراء الى القلعة تحت الليل على المشاعل والفوانيس وهى فى محفة ، فلما طلع النهار طلع اليها جميع المغانى يهنئونها بالسلامة .

ثم ان الأمير جانم الحمزاوى رحل من الخانقاه ، وتوجه الى تربة العادلى وبات بها

فلما كان يوم السبت ثالث عشره ، صلى ملك الأمراء صلاة الفجر ، ونزل من القلعة وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، فجلس على المصطبة التى هناك ، وسلم على الأمير جانم الحمزاوى ، ثم أحضر الخلعة التى أرسلها له السلطان سليمان ابن عثمان باستمراره على نيابة مصر ، فقام ولبسها ، وقبل الأرض نحو القبلة ، وكانت الخلعة بتماسيح مذهب على أحمر . ثم قصد الدخول من باب النصر ، وشق من القاهرة ، فاصطفت له الناس على الدكاكين بسبب الفرجة ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، وعلقت له القناديل والثريات ، ولم تزين له القاهرة فى ذلك اليوم وكان سبب ذلك أنه بلغ ملك الأمراء أن السلطان سليمان قد مات له ولد ذكر مراهق ، فمنع الزينة بسبب ذلك .

فلما وصل الى قبة الأمير يشبك الدوادار ، لاقته الأمراء الچراكسة والعسكر من المماليك الچراكسة قاطبة ، ولاقته القضاة الأربعة ، وهم : كمال الدين الطويل الشافعى ، ونور الدين على الطرابلسى الحنفى ، ومحيى الدين الدميرى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الفتوحى الحنبلى . ولاقته الأمراء العثمانية . وهم . الأمير على ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح ، وغير ذلك من الأمراء العثمانية . وخرج اليه طائفة الاصباهية وأمراؤها ، والكواخى من أغوات الانكشارية ، ومشى قدامه الانكشارية قاطبة والكملية قاطبة وهم يرمون بالنفوط ، ولاقاه أعيان الشرقية وهم : الأمير أحمد بن بقر أمير طائفة جذام وأمير الرايتين ، ومشايخ عربان الغربية وهم : حسام الدين بن بغداد ، وشيخ العرب واصل بن الأحدب أمير هوارة ، وشيخ العرب اسماعيل بن أخى الجويلى ، وشيخ العرب جربيش ، وآخرون من عربان الشرقية والغربية . ومشى قدامه النصارى بالشموع الموقدة .

ودخل الأمير جانم الحمزاوى وعليه خلعة السلطان سليمان بن عثمان ، وهى مخمل مذهب . فلما دخل من باب النصر نزل القاضى بركات بن موسى عن فرسه ، ومشى بالعصا قدام ملك الأمراء من باب النصر الى أن طلع الى القلعة . وكذلك الجمالى يوسف نقيب الجيش ، ولاقته الشعراء بالدف والشبابة السلطانية ، فلما وصل الى مدرسة الناصر نثر عليه الحلوانى الذى هناك

شيئا من الفضة ، فقال له ملك الأمراء : كثر الله خيرك ، فلما وصل الى باب سوق الوراقين أطلقوا له مجامر البخور بالعود القمارى وركزوا له الطبول والزمور والمغانى من النساء والرجال فى عدة أماكن من القاهرة ، وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، وأوقدت له الشموع على الدكاكين ، ولا سيما تجار الوراقين فانهم أوقدوا له موكبيات شمع كبار مذهب ، وصار ملك الأمراء يسلم على الناس كلما مر عليهم يمينا وشمالا ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء من الناس قاطبة .

وكان الأمير جانم الحمزاوى قدامه وعليه خلعة السلطان سليمان ، وعن يمينه الأمير قايتباى الدوادار ، وعن يساره الأمير أزدمك الناشف ، وأعيان المباشرين قدامه .

ودخل صحبة الأمير جانم الحمزاوى جماعة من أعيان مصر ممن كان أسر مع السلطان سليم شاه ، فلما مات وتولى ولده سليمان السلطنة رسم لهم بالعود الى مصر ، فعد ذلك من جملة محاسنه وعدله وفعله الحسن .

فحضر صحبة الأمير جانم الحمزاوى ... الشرف يونس بن الأتابكى سودون العجمى ، والشمسى محمد بن القاضى صلاح الدين بن الجيعان ، والزينى عبد القادر بن القاضى بركات بن قريميط أحد كتاب المماليك ، والقاضى كريم الدين عبد الكريم بن اسرائيل ، والقاضى كريم الدين المجولى وسعد الدين بن جلال الدين أحد كتاب المماليك وأولاد المستوفى سعد الدين وأخوه بركات ، وكمال الدين العائق مباشر أميراخور كبير ، وشهاب الدين أحمد بن أخى الاستادار يونس النابلسى ، والحاج بدر العادلى المهتار ، وآخرون ممن كان باسطنبول وأسر من أهل مصر .

واستمر ملك الأمراء فى ذلك الموكب الحافل حتى دخل الى الميدان الذى تحت القلعة ، وقد طلع من جهة التبانة الى مدرسة السلطان حسن . وقد شاهدت هذا الموكب بالمعاينة ، وكان من المواكب المشهودة الحافلة .

فلما استقر ملك الأمراء بالقلعة خلع على الأمير على الشماشى ، والأمير قموح ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير شيخ . وخلع على القاضى زين الدين بركات بن موسى المحتسب قفطانا مخملا لكونه مشى بالعصا قدامه من باب النصر الى القلعة ، ولكونه مد للأمير جانم الحمزاوى عند ملاقاته مدة حافلة فى بلبيس ، ثم فى الخانقاه ، وغير ذلك من الأماكن . وفى هذه الواقعة يقول الأديب البارع الفاضل ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صادق وأجاد حيث قال :

أهلا بمن عنه التواضع راوى
شرفا ومنه الجود وجدا راوى

شرفا تخضر له الرءوس لكونه
شرفا على الفرقدين يساوى

يامرحبا من قادم أعنى به
مولى المقر هو جانم الحمزاوى

من جاء مصر بخلعة غرا حوت
والعز من ذى الملك فخرا حاوى

شرف من اسطنبول معه بها آتى
منه لخير بك وخيرا ناوى

لله ذاك اليوم وهو بها يرى
وسلامه داء القلوب يداوى

فى موكب الملك العظيم وحوله
أسد سطاها الراسيات يقاوى

والناس فى فرج وفى فرح به
والجو مثل النحل منهم داوى

وصباحهم بالنصر من عظم الدعا
وعـدوه كالكلب خزيا عاوى
ولبعضهم بعضا أصابعهم غـدت
تبدى الاشارة والرءوس تلاوى
جـانم مفـدى نائب فى مصرنا
والعز فى ذى الخلعتين سـاوى
لازال فى مثليهما مرقاهمـا
فيـه على زحل بغـير تهـاوى
ببقاء ذى الملك الذى أضحى له
شرف على كسرى وقيصر حاوى
أعنى سليمان المقيم بعـدله
أمنـا اليـه من تروع ياوى
والمـدح ممن قانصـوه له أب
يبدى على كبد العدو مكاوى
ولسـانه عن حال مصر قائل
ومقـاله داء الغلاء مـداوى
ان فاخرت بالنيـل مصر غيرها
فنواله لبـلاد مصر تقـاوى

ثم أشـيع ان السـلطان سليمان — نصره الله تعالى — أرسل سبعة قفاطين حرير الى مشـايخ العربان الذين بالصعيد ، والذين بالغربية ، والذين بالشرقية ، والذين بالبحيرة ، وأرسل لكل واحد منهم مرسـوما شريفا على انفـراده مع القفطان وأرسل على يد الأمير جانم الحمزاوى ، قفطانا مخملا مذهبا للسيد الشريف بركات أمير مكة المشرفة وأرسل قفطانا مخملا للأمير على بن عمر شـيخ عربان الصعيد . وأرسـل قفطانا مخملا لشيخ العرب واصل بن الأحدب أمير هوارة . وأرسل قفطانا مخملا الى الأمير أحمد بن بقر أمير جذام وأمير الرايتين . وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب حسام الدين بن بغداد شـيخ عربان الغربية وأرسل قفطانا مخملا لشيخ العرب اسمعيل ابن أبى الجويلى شيخ عربان البحيرة ، ثم سافروا ذلك مع المراسيم ، ومن كان منهم حاضرا فى القاهرة لبس قفطانه بحضرة ملك الأمراء

وفى يوم الأحد رابع عشره ، حضر بين يدى ملك الأمراء : الأمير على العثمانى ، ومحب الدين نائب القلعة ، والأمير نصوح ، والأمير شيخ ، والقاضى حمزة ، وغير هؤلاء من الكواشف . ثم أحضر الأمير جانم الحمزاوى مرسـوم السلطان سليمان ابن عثمان — نصره الله تعالى — فقام اليه الأمراء العثمانية قاطبة ، وملك الأمراء ، ولم يحضر ذلك المجلس أحـد من الأمراء الجراكسة . ثم قرىء عليهم ذلك المرسوم ، فكانت ألفاظه باللغة التركية ، فأحضروا من حلها بالعربية .

فكان من مضمونه أن السلطان سـليمان نعت ملك الأمراء نعتا عظيما ، وفوض له التكلم على مصر وأعمالها ، يعزل بها من يختار ، ويولى من يختار ، من الثغور والبلاد الشرقية والغربية وبلاد الصعيد .

ومن مضمونه أنه اذا قدم عليه قاصد من بلاد الروم ، لا ينعم عليه بأكثر من ألف دينار . فانه بلغ السـلطان سـليمان أنه ينعـم على قصـاده الواردة عليه من بلاد الروم بمال جزيل ، فمنعه من ذلك .

ومن مضمونه أن ملك الأمراء ينظر فى أحوال الرعية ، ويصرف للجند جوامكهم فى كل شـهر على العادة ، وأن ينظر فى أمر المعاملة فى الذهب والفضة .

ومن مضمونه أنه أرسـل يطلب جمـاعة من الأصباهية يمضون الى اسطنبول ، ويجىء الى مصر غيرهم .

وأرسل يقول لملك الأمراء أن ينظر فى أمر تسعير البضائع كالقمح وغيره ، وأظهر غاية العدل فى مرسوم ملك الامراء ، وآكد فيه النظر فى أحوال الرعية قاطبة . وفيه يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

كعب سليمان كعب خير
أعنى ابن عثمان دام ملكه
من كعبه مصر فى رخاء
ومن سطاه الملوك ملكه

وفيه أشيع أن السلطان رسم للأمير جانم الحمزاوى أنه اذا دخل الى حلب يطلع القلعة ويأخذ المال الذى كان السلطان الغورى أودعه بها لما خرج الى ملاقاة السلطان سليم شاه بن عثمان ، وكان نحو ستمائة ألف دينار وكسور ، فرسم السلطان سليمان بحمل ذلك الى ملك الأمراء خاير بك ، وأنه يسبك الفضة ويضربها باسم السلطان سليمان بمصر ، وتمشى فى المعاملة للناس ، والله أعلم بحقيقة ذلك هل له صحة أو لا .

وفى يوم الاثنين ثانى عشريه ، نزل ملك الأمراء من القلعة ، وعدى الى بر الجيزة ، ونزل بشنبرمنت على سبيل التنزه ، وكان صحبته الأمير قانصوه ، وآخرون من الأمراء الجراكسة ، والأمراء العثمانية والقاضى شرف الدين الصغير ، والشهابى أحمد بن الجيعان ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، وآخرون من المباشرين . وأقام بشبرامنت الى يوم الأربعاء رابع عشرى صفر وأرسل يطلب عليقا ودقيقا ، وغير ذلك من دجاج وأوز . وأشيع أنه توجه من هناك الى نحو النجيلة يتصيد فتوجه اليه الأمير جانم الحمزاوى ، ونقيب الجيش الجمالى يوسف ، والقاضى شرف الدين بن عوض ويوسف بن أبى الفرج المفتش ، وابن أبى اصبع وغير هؤلاء من الأعيان وأرباب الوظائف .

وفيه توفى القاضى بدر الدين محمد بن حجاج الموقع ، وكان من الأعيان وخدم عدة أمراء مقدمى ألوف .

* * *

واستهل شهر ربيع الأول بيوم الأربعاء ، وكان ملك الأمراء غائبا ، فلم تطلع القضاة الى القلعة ولم يهنئوا بالشهر .

فلما كان يوم الثلاثاء سابعه ، حضر ملك الأمراء من تلك السرحة ، فكانت مدة غيبته فى هذه السرحة خمسة عشر يوما ، فتنزه هناك وانشرح الى الغاية ، وتصيد عدة من الكراكى والغزلان ، ودخل عليه جملة تقادم حافلة من مشايخ العربان الذين بالعربية والشرقية ، والكشاف المدركين ، ما بين ذهب وفضة وخيول وجمال وبقر وجاموس وغنم وأوز ودجاج وقدور عسل نحل وسمن ، وغير ذلك أشياء فاخرة تهدى للملوك .

فلما رحل من النجيلة لم يتوجه الى الاسكندرية ولم يدخلها فى هذه المرة ، بل قصد العود الى القاهرة . فلما وصل الى قرية قليوب ، تسامع به الناس فخرجوا اليه ، فأضافه هناك شيخ العرب ابن أبى الشوارب ، وبات بقليوب . فلما أصبح رحل من هناك ، وتوجه الى تربة العادلى التى بالريدانية ، فمدت له هناك مدة حافلة ، فتغدى هناك ورحل ، فخرجت اليه قضاة القضاة لتلقيه فلم يجتمعوا به ، ولم يكن معه غير قاضى القضاة محيى الدين بن الدميرى فقط . ثم اصطف له الناس على الدكاكين لأجل الفرجة ، فلم يشق من القاهرة فى ذلك اليوم ، وطلع الى القلعة من بين الترب ، فلم يشعر به أحد .

وفى يوم السبت حادى عشره عمل ملك الأمراء المولد النبوى ، فاجتمعت القراء والوعاظ بالدهيشة

وأرسل يقول لقضاة القضاة : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا القلعة ، فان ملك الأمراء حصل له توعك فى جسده ، فلم يحضر المولد . ثم أرسل خلف قاضى القضاة المالكى على انفراده ، وقال له : اطلع واحضر المولد . وكان قاضى القضاة المالكى من أخصاء ملك الأمراء ، وكان عنده من المقربين .

ثم ان ملك الأمراء أرسل يقول للأمراء الجراكسة والأمراء العثمانية : لا تكلفوا خواطركم ولا تطلعوا الى القلعة بسبب المولد ، فان ملك الأمراء احتجب فى ذلك اليوم بالأشرفية التى بجوار الدهيشة . ولم يجلس عند المقرئين ، ولا حضر السماط فى ذلك اليوم ، بل قعد على رأس السماط قاضى القضاة المالكى ، والأمير برسباى ، والخازندار ، وآخرون من الأمراء العثمانية ، وانقضى ذلك .

وفيه خلع ملك الأمراء على القاضى أبى السعود ابن الشحنة ، واستقر أمير جكار عوضا عن الناصرى محمد بن أحمد بن اسنبغا بحكم صرفه عنها .

وفيه تغير خاطر ملك الأمراء على الطواشى مسك فرسم بتوسيطه ، ثم شفع فيه الأمراء العثمانية فرسم بنفيه الى المدينة الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فخرج من يومه وسافر فى البحر المالح ، وكان سبب ذلك أن مسك هذا لما ملك السلطان سليم شاه ابن عثمان الديار المصرية ، لم يقابله واختفى حتى رحل ابن عثمان عن مصر ، واستقر الأمير جان بردى الغزالى فى نيابة الشام وسافر اليها ، فخرج مسك صحبته فى الخفية ، وأقام عنده بالشام ، فلما جرى للغزالى ما جرى وقتل ، حضر مسك الى القاهرة ، وقابل ملك الأمراء وصار عنده من المقربين .

وكان مسك هذا لطيف الذات ، يشتمل على جملة من المحاسن ، منها الخط الجيد ، والقراءة الحسنة ، وغير ذلك من المحاسن ، فاتفق أن الطواشى الذى يحضر من اسطنبول رأى مسك هذا الذى كان يكره السلطان سليم شاه ، ولما دخل الى مصر هرب وتوجه الى جان بردى الغزالى فتغير خاطره عليه ، فرسم ملك الأمراء بتوسيطه ، ثم شفع فيه من التوسيط فرسم بنفيه ، وكان مسك هذا من أعيان خدام الأشرف قايتباى .

وفى يوم الجمعة سابع عشره خرجت الملكة خاتون عمة السلطان سليمان — وقد تقدم القول أنها أتت الى مصر لتحج — فلما حجت قصدت العودة الى بلادها ، وعين معها ملك الأمراء جماعة من الكملية ومن الأصباهية يحفظونها فى الطريق اذا سافرت . فأشيع بعد سفرها بأيام أن العربان خرجت عليها فى العريش ، ونهبت أطراف بركها من جمال وقماش وغير ذلك .

ومن النوادر الغريبة ما وقع يوم الخميس ثالث عشريه ، وذلك أنه قد أشيع فى القاهرة بين الناس ، أن الشهابى أحمد بن الجيعان قد شنق نفسه ، فاضطربت القاهرة فى ذلك اليوم أشد الاضطراب ، ولم يشك أحد من الناس فى ذلك ، لأن المقر الشهابى أحمد بن الجيعان حصل له فى تلك الأيام غاية الشدائد والمحن ، وصار ممقوتا عند ملك الأمراء ، وقد تقدم القول على سبب ذلك ، فلما قويت الاشاعات بذلك ، كان الشهابى أحمد بالقلعة ، فقال له الأمير جانم الحمزاوى قم وانزل وشق من القاهرة حتى تخمد هذه الاشاعة ، فقام ونزل من القلعة ، وشق القاهرة . فلما رآه الناس فرحوا به وهنئوه بالسلامة ، وخمدت تلك الاشاعة الباطلة التى ليس لها صحة ، فعد ذلك من النوادر الغريبة .

* * *

وفى شهر ربيع الآخر ، وكان مستهله يوم الجمعة ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر فلما تكامل المجلس حصل فى ذلك اليوم تشاجر بين قاضى القضاة الحنفى على الطرابلسى ، وبين مستنيبه محب الدين سبط الشيخ بدر الدين محمد بن الدهانة ، وقد ناقضه قاضى القضاة الحنفى فى القول ، وقال له حكمك لا يجوز ، قد وليت بالرشوة . وأسمعه من هذه الألفاظ المنكرة أشياء كثيرة بحضرة ملك الأمراء ، وبحضرة قضاة القضاة ومشايخ العلم ، فقال قاضى القضاة الشافعى لمحب الدين : حكمك الذى حكمته باطل . فقال له محب الدين : ما هو صحيح منك . واستمر المجلس يتزايد فى اللغط بين الفقهاء بحضرة ملك الأمراء . وكان قاضى القضاة الحنفى أهوج رهاجا ، وعنده صعصعة وبادرة حدة مع قلة دربة .

فلما رأى ملك الأمراء المجلس قد انفض على غير طائل ، أصلح بين قاضى القضاة الحنفى وبين مستنيبه محب الدين سبط ابن الدهانة ، فاصطلحا صلحا على فساد ، وانفض ذلك المجلس .

ثم ان ملك الأمراء قال لقاضى القضاة الحنفى : لا تبقى تعارض محب الدين فى أحكامه . فنزل محب الدين وهو منتصف على قاضى القضاة ، وقد بهدله فى ذلك اليوم غاية البهدلة .

وفيه قدمت الأخبار من اسطنبول بأنه قد وقع بها زلزلة عظيمة ، فهدمت عدة بيوت سفلت على أهلها ، ورمت الأعمدة التى تحت الأماكن والقبب ، وكانت من الأمور المهولة . وذكروا أنه وقع مثل هذه الزلزلة فى أيام الخنكار أبى يزيد جد السلطان سليمان ، فجرى عقيب ذلك ما جرى مع السلطان قايتباى ، وكسر مرتين ، وقتل من عسكره ما لا يحصى عدده .

وفى يوم الخميس سابعه أشيع أن شخصا منجما قال انه فى يوم الجمعة تثور على الناس رياح عاصفة ، وتقع زلزلة عظيمة حتى تسقط منها البيوت ، وتقبض الناس وهم فى صلاة الجمعة . فانتشرت هذه الاشاعة فى القاهرة ، وانطلقت ألسنة الناس بذلك قاطبة . فاضطربت القاهرة لهذه الاشاعة ، وصار الناس يودع بعضهم بعضا ، وباتوا تلك الليلة على وجل .

فلما أصبحوا وجاء وقت صلاة الجمعة دخلوا الى الجوامع فصلوا وعلى رءوسهم طيرة . فلما قضيت الصلاة ، وخرجوا من الجوامع ، صار لهم ضجيج وهم يهنئون بعضهم بعضا بالسلامة ، ويصافحون بعضهم بعضا ، وخمدت هذه الاشاعة التى لا أصل لها .

وقد اتفق وقوع مثل هذه الواقعة فى أوائل سلطنة الأشرف قايتباى . وأشيع مثل ذلك أن الناس اذا صلوا الصلاة يقبضون وهم فى صلاة الجمعة ، فلما دخل الناس الى الجوامع صار على رءوسهم طيرة ، فاتفق أن خطيبا كان فى الجامع الذى عند ميدان القمح ، وكان يعتريه خلط مصرع ، فلما صعد المنبر عرض له ذلك الخلط المصرع ، وهو على المنبر ، فاضطرب وسقط عن المنبر ، فلما عاين الناس ذلك اضطربوا وهربوا من الجامع ، ولم يصلوا وظنوا أن الذى أشيع حق ، فعد ذلك من السواد واهل مصر ليس لهم عقول ... يصدقون بالمحالات الباطلة التى ليس لها صحة !

وفى يوم الاثنين حادى عشر، نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى بولاق ، وكشف على المراكب الأغربة التى عمرها هناك ، فسيرت قدامه فى البحر ذهابا وايابا ، وهو ينظر اليها والنفوط عمالة ، ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم السبت سادس عشره ، سقطت القبة العظيمة التى كانت على الايوان باكر النهـار ، وهذه القبة من انشاء الناصر محمد بن قلاون . فلما سقطت تفاءل الناس بزوال ملك ملك الأمراء عن قريب ، وهذه القبة لها نحو مائتى سنة من حين عمرت ، وكانت من خشب وفوقها رصاص ، وكانت مغلفـة بقيشانى أخضر . ولم يعمر فى مصر أكبر منها ، وكانت من نوادر الزمان .

وفى يوم الاثنـين ثامن عشره توجه الأمير شيخ العثمانى الى اسطنبول ، وأرسل صحبتـه تقدمه حافلة الى السـلطان سليمان بن عثمان ، وأرسل يشاور السلطان فى أمور كثيرة من أحوال المملكة ، وينتظر الجواب عن ذلك .

وأشيع أن السلطان سليمان أرسل يطلب من ملك الأمراء نحيل بلح ليزرعهـا فى اسطنبول ، فشرع ملك الأمراء فى تجهيز ذلك ، فقيـل انه أرسل اليه خمسمائة نخلة من البلح الحيـانى ، وهى نحيل صغار تطرح بلحا حيانيا أحمر فى غاية الحلاوة ، فأرسل تلك النخيل فى صناديق خشب وهى فى طينها ، وأرسلها فى مراكب الى البحـر المالح ، وتتوجه من هناك الى اسطنبول ، وأرسل صحبتها خولة تزرعها هناك .

وفيه جهز ملك الأمراء الأغربة وبها مقاتلون من المغـاربة وغيرهم . وقد بلغـه أن جمـاعه من الفـرنج تعبث فى السـواحل وتشـوش على المسافرين فى البحر . ولما سافر بعض التجار من الأروام فى البحر ، وقصد يطلع من الاسكندرية ويتوجه من هناك الى اسطنبول ، أوسق معه عدة مراكب بضائع وأصنافا كثيرة من قماش وغـير ذلك بنحو مائة ألف دينار .

وكان فى ذلك المركب رجال ونساء وصـغار وتجار من الأروام وعبيد وجوار ، فلما سافروا من سـاحل بولاق وأقلعوا ذلك اليـوم ثارت عليهم رياح عاصفة ، فلمـا وصلت المراكب الى تبرا دارب فى البحر وغرقت هناك بكل ما فيهـا من الخلائق والبضائع والأصناف . وكان فيهـا تجار مغاربة وبحارة ، وكانوا قبل سفرهم صاروا يشوشون على الناس ويسكونهم من الطرقات غصـبا بسبب المراكب ، فكثر الدعاء عليهم من الناس بظلمهم ، وحصل لأهل مصر فى ذلك اليوم غاية الضرر . فلما سافرت المراكب غرق أكبرها فى يومه لما حلت من بولاق ، وذلك بدعاء الناس عليهم .

وفيه وقعت نادرة غريبة ، وهى : أن المعـلم ابراهيم اليهـودى ، معلم دار الضرب ، كان له جاريتان احداهما حبشية والأخرى سوداء ، فوطىء الجارية الحبشية فحبلت منه ، فوضعت بنتـا ، فعاشت تلك البنت سبعة أشهر ، ثم ان الجـارية الحبشية أظهرت أنهـا تريد أن تدخل الحمـام ، فلمـا وصلت الى الحمـام هربت وتوجهت الى بيت قاضى القضاة محيى الدين بن الدميرى ، وقالت له : يا سيدى القاضى أنا مسلمة ، وأبدت الشهادة بين يديه ، ثم قالت له أنا سيدى المعـلم ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب ، وقد وطئنى وحملت منه بهذه البنت ، وأنا صرت مسلمة مابقيت أقعـد عنده ، فحكم قاضى القضاة باسلامهـا فى الحال ، وأرسل خلف اليهودى معلم دار الضرب بسبب ابنته ، فانها صارت مسلمة تابعة لأمها ، فحكم قاضى القضاة باسلام البنت أيضا وأمها . فقيل ان المعلم ابراهيم دفع لقـاضى القضاة خمسمائة دينار على أن يجعـل البنت تبعا لأبيهـا فأبى من ذلك واسـتمر مصمما على حكمه ، فطلع ابراهيـم اليهودى الى ملك الأمراء وكتب قصة بشرح الحال ، ووقف الى ملك الأمراء ، فقال له : « قاضى القضاة حكم باسلام البنت وأمها وصارت مسلمة ، أعيدها أنا الى دين اليهود ؟ » . فلم يطلع من يد ابراهيم

اليهودى فى هذه الواقعة شىء ، ونزل من القلعة وهو مخزى ، وعتقت الجارية وابنتها على رغم أنفه .

وفيه قدمت الأخبار من الغربية أن عربان عزالة قد نزلوا على البساط بالقرب من تروجة وصاروا ينهبون الجرون ، ويرعون الزروع ، فحاربهم شيخ العرب اسماعيل ابن أخى الجويلى وكسرهم ، واحتوى على جمالهم وأغنامهم وخيولهم وغير ذلك ، ولم يترك لهم شيئا ، وهربوا ومضوا حيث شاءوا . ثم ان اسماعيل أرسل تلك الغنيمة الى ملك الأمراء ، فشكره على ذلك .

* * *

وفى شهر جمادى الأولى ، وكان مستهله يوم السبت ، طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر وعادوا الى منازلهم . وفى ذلك اليوم خلع ملك الأمراء على الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى كاشف الفيوم ، وقرره أمير ركب المحمل على عادته . وهذه ثالث مرة يسافر أمير الحاج فى دولة ملك الأمراء خاير بك .

وفى ذلك اليوم نادى ملك الأمراء فى القاهرة بأن الدينار السليم شاهى يصرف بأربعين نصفا من الفضة العتيقة ، والدينار السليمانى يصرف بخمسة وستين نصفا حسابا عن كل نصف فضة من الفضة الجديدة يقع بنصفين وربع ، عبارة عن أن الدينار السليمانى يقف فى البيع والشراء بخمسة وعشرين نصفا .

فلما نودى فى القاهرة بذلك اضطربت أحوال الناس فى تلك المعاملة ، وصارت البضائع تباع بسعرين ، سعر بالفضة الجديدة ، وسعر بالفضة العتيقة ، فضج الناس من ذلك ، وغلقت الأسواق والدكاكين ، وبطل البيع والشراء ، ووقف حال التجار والمسببين ، وصار النصف العتيق يصرف بستة دراهم فلوس جدد ، والفضة الجديدة تصرف بنصفين وربع ، وقد لعب ابراهيم اليهودى فى أموال المسلمين من ذهب وفضة وفلوس جدد ، وتحكم فى أخذ ما بيد الناس من أموالهم بغير حق ، والأمر الى الله تعالى .

وفى يوم الأربعاء خامس الشهر ، اجتمع الجم الكثير من السوقة والمسببين وجماعة من القزازين من منية أبى عبد الله ، وجماعة من المكاسة وغير ذلك ، وحملوا على رءوسهم مصاحف وربعات وأعلاما وطلعوا الى القلعة ، وزعموا أن محيى الدين بن أبى أصبع قد ظلمهم بسبب مكس الأطرون ، وأخذ منهم على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربع ، وقد ظلمهم وصار يقيم لهم النصف من الفضة العتيقة بستة نقرة . فلما طلعوا الى القلعة لم يجتمعوا بملك الأمراء ، واحتجب عنهم ، وأرسل اليهم الأمير جانم الحمزاوى والقاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك . فقال لهم ملك الأمراء : يقول لكم هذا أمر السلطان فى أمر المعاملة . فكابروا ووقفوا وشكوا وتحسبوا ، فخرج اليهم جماعة من الانكشارية فضربوهم بالعصى على وجوههم ، فتشتتوا ونزلوا على أسوأ حال وهم فى غاية الذل .

وفيه نزل ملك الأمراء وتوجه الى بركة الحبش على سبيل التنزه ، فجهز اليه القاضى المحتسب هناك مدة حافلة ، وأقام الى آخر النهار ، ثم عاد الى القلعة فى يومه .

وفيه نودى فى القاهرة بأن السنج والأرطال القديمة التى كانت تتعامل بها الناس من قديم الزمان تبطل جميعها من القاهرة ، وأخرجوا لهم سنج نحاس وأرطالا تسمى العثمانية ، وهى عبارة عن تسعة دراهم ، فتنقص كل مائة درهم أربعة

دراهم فى سائر الأوزان قاطبة فى البضائع ، حتى فى المسك والعود والعنبر وغير ذلك ، فتصير كل مائة درهم ستة وتسعين درهما ، وعملوا مثل ذلك فى القبان أيضا ، وخرجوا على الناس فى استعمال تلك السنج والأرطال ، وأوعدوا السوقة أن كل من خالف فى ذلك شنق من غير معاودة فى ذلك . وقد تقدم القول أنهم أبطلوا الذراع الهاشمى ، وأخرجوا الذراع العثمانى الذى يزيد على الهاشمى خمسة قراريط ونصف قيراط . وكتبوا على التجار قسائم ألا يستعملوا الا الذراع العثمانى فقط فشق ذلك على الناس قاطبة .

وفى يوم السبت ثامن الشهر ، رسم ملك الأمراء بشنق أنفار منهم يهودى ونصرانى ، وقد ظهر عليهم شيء من الزغل فى الذهب والفضة ، وقد نم النصرانى على اليهودى ، فكبسوا على اليهودى فى بيته ، فوجدوا عنده آلة الزغل ، وشخص آخر مقدم درك الأزبكية ، أشيع أنه قتل فى دركه شخصا من الانكشارية ، وشخص آخر قيل هو ابن أنس التى كانت فى الأزبكية وغرقوها قبل تاريخه ، فخوزقوا الأربعة فى يوم واحد فأما اليهودى فخوزقوه عند باب الصاغة ، والنصرانى خوزقوه بالقرب من المارستان ، وأشيع عنه أنه لما خوزقوه أسلم وتلفظ بالشهادتين فلم يلتفتوا الى اسلامه ، فخوزقوه وأقام يوما وليلة وهو فى قيد الحياة يتكلم حتى مات بعد ذلك ، وأما مقدم درك الأزبكية فخوزقوه فى الأزبكية عند الدكة بالقرب من بركة قرموط ، عند المكان الذى قتل فيه الانكشارى ، وأما ابن أنس القوادة التى غرقوها ، فخوزقوه فى الأزبكية ، قيل انه كان له جرة فى الانكشارى الذى قتل .

ومن الحوادث الشنيعة فى ذلك اليوم ، أن جماعة من الانكشارية مروا بذلك النصرانى الذى خوزقوه عند باب المارستان ، فوجدوه يتلفظ بالشهادتين ، فطلب شربة ماء من الانكشارية الذين حوله ، وكان أربعة مماليك من مماليك الأمير قايتباى الدوادار واقفين مع الانكشارية ، فرفقوا بذلك النصرانى وأنزلوه الى الأرض وقلعوا الخازوق من بطنه ، وسقوه شربة ماء وأرقدوه على الأرض ، فحصل بين الانكشارية وبين مماليك الأمير قايتباى الدوادار تشاجر بسبب ذلك النصرانى ، فاتسع الشر بينهم ، فسحب بعض مماليك الأمير قايتباى خنجرا وهاش به على الانكشارية ، فجرح منهم شخص وسال دمه ، وانقطعت جوخته ، فتكاثرت الانكشارية على المماليك فهربوا منهم ، وتوجهوا الى بيت الدوادار الذى بين القصرين ، فتبعهم الانكشارية وهجموا عليهم فى بيت الدوادار ، فأغلقوا الباب فى وجوههم ، فحنقوا منهم وقصدوا أن يحرقوا الباب ، وثارت فتنة عظيمة كما يقال . « ومعظم النار من مستصغر الشرر » .

فلما بلغ الوالى ذلك أرسل دواداره فأعاد النصرانى الى الخازوق ثانيا وفيه الروح ، فلما طلع النهار بلغ ملك الأمراء أخبار هذه الواقعة فتغير خاطره على الأمير قايتباى الدوادار بسبب مماليكه ، فأرسل يطلب منه مماليكه الذين فعلوا هذه الفعلة ، فطلع اليه الأمير جانى بك أخو الدوادار ، فلما رآه ملك الأمراء طفش فيه بالكلام ، وقال له ان لم تحضر هذه المماليك الذين أثاروا هذه الفتنة ما يحصل لك خير ، فنزل من عنده وهو فى غاية النكد .

ثم ان ملك الأمراء نادى فى القاهرة : كل من أخفى عنده مملوكا من مماليك الدوادار شنق على باب داره من غير معاودة ، والذى يحضر مملوكا منهم له مائة دينار وقفطان مخمل .

فلمـا كان يوم الاثنين عاشر الشهر نزل ملك الأمراء الى الميدان وأحضر بين يديه مملوكين من مماليك الأمير قايتباى الدوادار ممن فعل هـذه الفعلة ، وقد قبض عليهما الوالى ورسم بتوسطيهما فوسطوهما على باب الميدان ، ووسط معهما بواب الدوادار أيضـا لكونه أغلق فى وجه الانكشارية الباب ، فراح البواب ظلما . وكان عند ملك الأمراء الأمير قايتباى فمقته ملك الأمراء غاية المقت .

فلما رسم ملك الأمراء بتوسيط البواب ، قام الأمير خير الدين نائب القلعـة ، والأمير نصوح العثمانى ، وشفعا فى بواب الدوادار فان له أولادا وأبا شيخا كبيرا ، فلم يلتفت الى شفاعتهما ، فقاما وقبلا يدى ملك الأمراء ثانى مرة ، وهو لا يزداد الا قسوة ، وحصل للأمير قايتباى فى هذه الحركة غاية البهدلة ، وانحطت كلمته عندالناس قاطبة .

وقيـل ان الأمير قايتبـاى الدوادار دفـع للانكشارى الذى قالوا انه جرح مائة دينار وأعطاه جوخة كانت عليـه وجبتى حرير بفرو سنجاب فى نظير جوخته التى شرطت ، وأعطاه خنجرا عوضا عن خنجره الذى زعم أنه سقط منه ، وأرضاه بكل ما يمكن ، وهذه من أبشع الحوادث وأشنعها .

ومن هنا نرجع الى أخبار ذلك النصرانى الذى أسلم لما خوزقوه ، فاستمر يتلفظ بالشهادتين حتى مات ، فشاوروا عليـه قاضى القضـاة كمال الدين الطويل الشافعى ، فرسم بأن يغسلوه ويكفنوه ويصلوا عليه ويدفنوه فى مقابر المسلمين ، ففعلوا به ذلك ، وسار جماعة من العوام قدام نعشه حتى دفنوه بعد الصلاة عليه فى جامع الحاكم .

وفى يوم الخميس ثالث عشره ، سافر القاصد الذى كان حضر وبشر بأن الأمير مصطفى قد تزوج بابنة السلطان سليم شاه ، وهى أخت السـلطان سليمان ، فأنعم عليه ملك الأمراء بمال له صورة ، وكذلك سائر الأمراء العثمانية وأرباب الدولة ، فدخل عليه فوق العشرة آلاف دينار . ودخل عليه مثل ذلك بالشام وحلب وسائر النواب .

وفى يوم الجمعة رابع عشره ، أشيع قدوم شيخ العرب الأمير أحمد بن قاسم بن بقر ، ويعرف بأبى الشوارب ، وكان توجـه الى الأمير جان بردى الغزالى ، وطلب له من ملك الأمراء الأمان على نفسه ، فحضر الى القاهرة وقابل ملك الأمراء فخلع عليه ، وصار عنده من المقربين فأقام مدة على ذلك . ثم بدا لملك الأمراء قتله ، فأرسل الى جانى بك كاشف الشرقية بأن يقطع رأسه ، فتوجه اليه جانى بك وهو فى منيـة أبى الحارث بالدقهلية ، فهجم عليه وقطع رأسـه ، وقتل معـه شخصا آخر من مشايخ عربان العايد ، فلما قتل الأمير أحمـد بن قاسم بن بقر نهبت داره ، وسبيت نساؤه وأولاده ولم يعلم أحد ما سبب ذلك .

ثم ان الأمير جانى بك الكاشف أرسل رأس الأمير أحمد بن قاسم ، ورأس شيخ العايد ، فرسم ملك الأمراء بدفن الرءوس ، وقد أخذ ملك الأمراء بثأره من أحمد بن قاسم وكان فى قلبه منه شىء من حين توجه الى الغزالى نائب الشام فكان كمـا يقال فى المعنى :

قالت ترقب عيون الحى ان لها
عينـا عليك اذا ما نمت لم تنم

وفيـه توفى الأمير تمراز الشمسى السيفى الأتابكى الذى كان كاشف البحـيرة ، وكان لا بأس به .

وفى يوم الاثنين سابع عشره ، قبض ملك الأمراء على المقر الشهابى أحمـد بن الجيعان ، وسجنه بالقاهرة بالعرقانة ، وكان ملك الأمراء متحملا منه

فى الباطن غاية التحمل ، وكانت هـذه أول كائنة وقعت له مع ملك الأمراء ، وأمره الى الله تعالى ، فأقام أياما وهو فى الترسيم .

ثم أن ملك الأمراء خلع عليه بعد ما أورد مالا له صورة من التقسيط الذى كان عليه ؛ وقد نفد منه جميع ما معه من المال ولم يبق على ملكه لا رزقة ولا اقطاع ولا بيوت ولا دكاكين ، وباع سائر قاعاته التى على بركة الرطلى فاشتراها الأمير قاسم الشروانى الذى كان نائب جدة بأبخس الأثمان ، وجرى عليه شدائد ومحن دون أقاربه الذين مضوا ، وما لاقى خيرا فى هـذه الدولة وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه .

وفى يوم الاثنين كان عيد الفصح عند النصارى — وهو أول يوم من الخماسين — وهو أكبر أعياد النصارى ، فحكى عن يونس النصرانى مباشر ملك الأمراء أنه صنع فى ذلك اليوم خمسين بطة من الدقيق برسم الكعك والخشتنان ، واثنى عشر قنطار شيرج ، وعشرة قناطير سكر ، وعشرين ألف بيضة برسم صباغ البيض الذى يفرق على الناس ، ودخل عليه تقادم من الأعيان وأشياء كثيرة من أغنام وأوز ودجاج وغير ذلك .

وفيه وقعت نادرة غريبة وهى : أن شخصا يقال له ابن الشاطر حسن المصارع ، خرج من بيته بعد العصر ، وركب على حماره ، ثم جلس على مصطبة تحت بيت فى الجسر ليتفرج ، فاضطرب ساعة يسيرة ثم طلعت روحه فى الحال ، وصار ملقى على الطريق ، فمضى الناس الى ولده وزوجته وأخبروهما بموته ، فأحضروا له نعشا وحملوه عليه بعد المغرب ، ومضوا به الى بيته ، وكان ذلك الرجل يبيع الورق ، فنعوذ بالله من موت الفجأة على حين غفلة .

وفى يوم السبت ثانى عشريه ، قدم أمير من أمراء السلطان سليمان ، وقد طلع من البحر من ثغر الاسكندرية ، فلما بلغ ملك الأمراء قدومه رسم للأميرجانم الحمزاوى والأمير قايتباى الدوادار أن يخرجا الى ملاقاته ، فخرجا الى وردان ولاقوه من هناك ، ومدوا له هنالك مدة حافلة ؛ وصارت الكشاف ومشايخ العربان تمد له المدات بطول الطريق ، فلما وصل الى بولاق نزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من هناك .

فلما كان يوم الأربعاء سادس عشريه ، دخل الأمير سنان بك الذى أرسله السلطان سليمان الى مصر ليقيم بها عوضا عن الأمير نصوح ، ويسافر الأمير نصوح الى اسطنبول . قيل ان الأمير سنان هذا كان عند السلطان سليم شاه بن عثمان من المقربين ، وكان عنده بوابا لما دخل الى مصر ، وكان موكلا بحفظه ليلا ونهارا ، فلما رجع السلطان سليم الى اسطنبول جعله نائبا على بلد يقال لها انطاكية ، فلما تسلطن ولده سليمان أرسله الى مصر ليكون أمينا على ملك الأمراء . فلما توجه اليه ملك الأمراء أركبه فرسا بسرج ذهب ، وعرقية زركش ، وألبسه قفطانا مذهبا ، فركب من بولاق ، وملك الأمراء صحبته ، فتوجهوا من باب البحر ، وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخلفه طبلان وزمران ، وكان معه نحو مائة مملوك مشترواته ، فلما دخل من باب البحر استمر فى ذلك الموكب حتى شق من القاهرة وكان ذلك اليوم مشهودا ، فانزلوه فى بيت الأتابكى قرقماس الذى عند حوض العظام ، ومدوا له هناك مدة حافلة .

ثم أشيع أنه لما دخل الأمير سنان ، أخبر أن السلطان سليمان بن عثمان جهز خمسمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج بنفسه الى قتال أهل رودس من الفرنج ، وقد جمع من

العساكر ما لا يحصى عددهم ، وهو قاصد التوجه اليهم

قيل ان الأمير سنان لما مر على ضياع الشرقية التى على شاطىء البحر ، وقف اليه الجم الكثير من الفلاحين واستغاثوا به ، ودعوا بالنصر للسلطان سليمان ابن عثمـــان ، وقالوا قد خربنا من الظلم يأخذوا منا النصف من الفضه الجديدة بصفين وربع وعند الحساب يقيمونه علينا بنصف فضه ، ما يحل من الله سبحانه وتعالى ، فوعدهم بالنظر فى أحوالهم ولم يظهر لقوله نتيجة فيما بعد ، واستمر كل شىء على حاله .

وفى يوم الخميس ســـابع عشريه طلعت تقدمة الأمير سنان بك الى ملك الأمراء ، فكان من جملتها أربعـــة مماليك صغار مرد چراكسه ، وحمـــلان ما بين شربات وطاســـات وغير ذلك وحمـــلان شـــقق برصاوى مذهب ، وأثواب مخمـــل ملون وعليهـــا فرو سمور ووشق وسنجاب ، وحملان أقواس وغير ذلك .

وفى يوم السبت سلخ هذا الشهر طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحضر الأمراء العثمانية ، ثم ان الأمير سنان أحضر مرسوم السلطان سليمان الذى حضر على يده ، فلما قرىء عليهم ، كان من مضمونه الوصـــية بالرعيه ، والنظـــر فى أحوال الناس فى أمر المعاملة ، وأرسل يقول لملك الأمراء انه لايمكن أحدا من الانكشارية من النزول الى المدينة حتى لا يشتكى أحد من الناس منهم ، وان ملك الأمراء لا يصرف لهم فى كل يوم أكثر من درهمين فضة ، كما كانوا فى اسطنبول ، وأرسل يقول له أشياء كثيرة من تعلقات المملكة . .

* * *

وفى شهر جمادى الآخرة - وكان مستهله يوم الأحد — طلع القضاة الأربعة وهنئوا ملك الأمراء بالشهر ثم عادوا الى منازلهم . وقيل لما طلع القضاة الى القلعة للتهنئة نزل ملك الأمراء لزيارة الامام الشافعى والامام الليث فابطأ عليهم حتى أضحى النهار وهم جلوس بجامع القلعه ، فلما عاد جلس بالدهيشة وأرسل خلفهم فهنئوه بالشهر ونزلوا

وفى ذلك اليـــوم حضر الشريف البردينى من اسطنبول ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان متوج بعلامته ، بأنه استقر به ناظر المدرسة الشيخونية وشـــيختها ، وكذلك مشيخه مدرســـة الأمير قانى باى الچركسى التى فى الرميلة ، والنظر على جهات الســـادة الأشراف قاطبة ، فلم يلتفت الى ما فى مراسيمه ، وعز ذلك عليه ، فانه أخذ عدة أنظار ، ونزع أيدى المتحدثين عليها

ومما وقع فى ذلك اليوم أن شخصا وقف الى ملك الأمراء بقصه واشتكى فيهـــا المقر الشهابى أحمـــد بن الجيعان شـــكوى بالغة ، وكان ملك الأمراء متغيظا عليه ، فلما شكاه ذلك الرجل قبض عليـــه ملك الأمراء وسجنه فى مخزن عند بواب الحوش ، ورسم أن لا يدخـــل عليه أحـــد من جماعته ، ولا يفرش تحته شىء ولا حصـــير ثم قبض على دواداره محمد وضربه بين يديه وسجنه بالعرقانة داخل الحوش ، وقرر علـــه ألف دينار يوردها على الحامكية

وفى يوم السبت سابعه ، دخل العسكر الذين أرسلهم السلطان سليمان الى مصر يقيمون بها ، والذين كانوا بها يتوجهون الى اسطنبول ، فلما وصل العسكر الى الريدانيه ، نزل ملك الأمراء الى تربة العادلى ، ولاقى العسكر الذين حضروا من اسطنبول ، وكان باشهم سمى الأمير خضر ، وكان ذلك العسكر كله من الاصباهية ، قيل انهم فوق ألف انسان ، فدخل ملك الأمراء من باب النصر

وشق من القاهرة فى موكب حافل ، فلما دخلت الاصباهية الى مصر طفشوا فى المدينة بسبب البيوت التى ينزلون بها ، فصاروا يشوشون على الناس ويخرجونهم من بيوتهم غصبا بالضرب ويسكنون بها .

ثم أشيع أنه حضر صحبة العسكر شخص من العثمانية يزعم أنه قاض من قضاة ابن عثمان وعلى يده مراسيم من عند السلطان سليمان بأن يستقر فى وظيفة يقال لها القسام ، وموضوع هذه الوظيفة أن يكون متحدثا على جميع الترك قاطبة ، الأهلية وغير الأهلية ، ولا يعارضه أحد من الناس فى ذلك ، ويأخذ مما يتحصل من كل تركة العشر لبيت المال الأهلية وغير الأهلية ، فحصل للناس بسبب ذلك الضرر الشامل .

ومن مضمون مراسيمه أن لا أحد من المماليك الجراكسة وأولاد الأتراك قاطبة وأرباب الدولة والاصباهية والانكشارية يعقد عقدا على بكر أو ثيب الا عند ذلك القسام ، ويأخذ على عقد البنت ستين نصفا ، والثيب ثلاثين نصفا ، فأخذ قسائم على قضاة القضاة بذلك فاضطربت أحوال الناس لذلك ، ولم يتعصب أحد من قضاة القضاة لمنع ذلك عن المسلمين ، وقد خافوا على مناصبهم من العزل ، وتغافلوا حتى ضعفت شوكة الاسلام فى أيامهم ، واستطالت قضاة الروم عليهم .

وقد ترادفت الحوادث المنكرة ، والبدع الشنيعة المخالفة للشريعة فى هذه الأيام ، وسيأتى الكلام على ذلك فى موضعه . فصار يوسف بن أبى الفرج مفتش الرزق والاقطاعات ، وفخر الدين بن عوض مفتش الرزق الأحباسية التى بالصعيد ، والأمير على العثمانى مفتش الأوقاف قاطبة ، والقسام الذى حضر قسام الترك ، وملك الأمراء يعينهم على ذلك ، فأين المهرب ؟ كما يقال فى المعنى :

رعاة الشاة تحمى الذئب عنها
فكيف اذا الرعاة هى الذئاب ؟

وفى يوم الأحد خامس عشره ، خرج الأمير على العثمانى باش العسكر الاصباهية ، وتوجه الى خيامه بالريدانية .

ثم فى يوم الخميس تاسع عشره ، خرج الأمير نصوح العثمانى وصحبته من كان تأخر من الاصباهية ، فلما سافروا سكن الأمير سنان فى بيت الأمير أزدمر الدوادار عوضا عن الأمير نصوح ، وسكن الأمير خضر فى بيت الأمير طراباى ، عوضا عن الأمير على الذى توجه الى اسطنبول .

وفى يوم الجمعة عشريه ، حضر القاضى بركات ابن موسى المحتسب ، وكان مسافرا نحو المنزلة ، فأقام بها مدة ثم رجع ، فلما طلع الى القلعة ، وقابل ملك الأمراء خلع عليه ، فنزل من القلعة وهو فى موكب حافل . ففى ذلك اليوم أشهر المناداة فى القاهرة بأن الفلوس الجدد كل فلسين بدرهم ، فحصل للسوقة غاية الضرر بسبب ذلك .

ثم ان القاضى بركات بن موسى المحتسب ضمن الشهابى أحمد بن الجيعان ، وأفرج عنه من الترسيم ، وكان له مدة فى الترسيم كما تقدم ، ونزل الى منزله .

وفيه عزم الأمير سنان على ملك الأمراء فنزل اليه ملك الأمراء فمد له مدة حافلة ، وحضر أيضا الأمير خضر فأقام ملك الأمراء عنده الى قريب الظهر ، وركب من عنده وطلع الى القلعة .

وفيه رسم ملك الأمراء بشنق ثلاث أنفس ، وكان ذنبهم أنهم سرقوا شيئا يسيرا من الخيار الشنبر ، فشنقوا بسبب ذلك وراحوا ظلما .

وفى يوم الاثنين ثالث عشريه ، أنفق ملك الأمراء على العسكر جامكية ثلاثة أشهر ، وأخر لهم ثلاثة لأنهم كان لهم ستة أشهر مكسورة لم تصرف .

وفى ذلك اليوم قطع ملك الأمراء جوامك كثير من الجراكسة وأولاد الناس ، وصرف لهم بحكم النصف ، فجعل لكل واحد ألف درهم ، ويصير طرخانا ، فشق ذلك على المماليك الجراكسة ، وكان فيهم من هو كفء للأسفار والتجاريد ، وفيهم من هو شاب بطل ، وكذلك أولاد الناس .

وفى أواخر هذا الشهر حضر أولاق من اسطنبول فى البحر المالح الى الاسكندرية ، ثم قدم الى مصر وطلع الى ملك الأمراء ، وعلى يده مرسوم من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، فكان من مضمونه أن الواصل الى الديار المصرية الذى يسمى سيدى چلبى هو أعظم قضاة السلطان سليمان وأكبرهم ، وأن السلطان سليمان رسم بابطال القضاة الأربعة الذين بمصر ، ويصير قاضى العسكر الذى هو قادم بتصرف فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة ، وأن سائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ويقتصر الأمر على أربعة نواب من كل مذهب نائب لا غير ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشـــهود لا غير ، وأن النواب الأربعة يكونون فى الصالحية لا غير ، وأن لا أحد يعقد عقـــدا ، ولا يوقف وقفا ولا يكتب وصية ولا عتقا ولا اجارة ولا حجـــة ولا غير ذلك من الأمور الشرعيـــة حتى تعـــرض على قاضى العسكر بالمدرسة الصالحية دائما .

فلما وقف ملك الأمراء على مرسوم السلطان سليمان ابن عثمان ، أرسل يقول للقضاة الأربعة اصرفوا الرسل عن أبوابكم ، والنـــواب قاطبـــة والوكلاء ، والزموا بيوتكم الى أن يحضر قاضى العسكر ، حسبما رسم به السلطان سليمان ابن عثمـــان . فامتثلوا ذلك وصرفـــوا من كان على أبوابهم من الرسل والوكلاء ، فاضطربت أحـــوال النواب والشهود والقضاة قاطبة ، وضـــاق الأمر على الناس أجمعين .

وفى يوم الجمعه ســـابع عشريه ، وقعت حادثة مهولة ، وهى أن ملك الأمراء أرسل خلف الشهابى أحمد بن الجيعان شاويشا ، فلما حضر بين يديه ، بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة يضربونه بالعصى .

ثم انه طلب القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك — وكان مريضا ملازم الفـــراش وعينـــه موجوعة — ولما أرسل خلفه اعتذر بأنه قد شرب دواء وهو مريض . فحنق منه ملك الأمراء فأرسل اليه أربعة شاويشية ، فحملوه من فراشه وأركبوه غصبا ، فلما طلع الى القلعة ووقف بين يدى ملك الأمراء بطحه الى الأرض وضربه ضربا مبرحا حتى قيل تبدل عليه خمسة وعشرون نوبة ، وهو يقول للمماليك الذين يضربونه : « اضربوه قوى هـــذا عـــدوكم الأكبر » فضربوه حتى كاد أن يمـــوت ويهلك .

ثم طلب القاضى شرف الدين بن عوض ، فلما حضر بطحه على الأرض وضربه ضربا مبرحا دون ضرب الشهابى أحمد بن الجيعان .

ثم طلب محيى الدين بن أبى أصـــبع وهـــم بضربه ، فشهد له الأمير برسباى الحنازندار أنه غلق ما عليه من التقسيط ، فأقامه ولم يضربه فى ذلك اليوم .

ثم رسم ملك الأمراء بسجن الجميع فى العرقانة فسجنوا فيها ، وقد خرب بيت أولاد الجيعان عن آخره . وقد اشتد غضب ملك الأمراء على المباشرين فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا بالنكد عليهم قاطبة ، وقيل لم يسجن بالعرقانة سوى القـــاضى شرف الدين الصغير ، وسجن الشهابى أحمـــد بن

الجيعان وابن عوض عند باب الحوش الى أن يكون من أمرهما ما يكون .

أقول ان أولاد الجيعان قد خدموا سبعة عشر سلطانا وباشروا ديوان الجيش وكتابة الخزانة فى أوائل دولة الأشرف برسباى ، وكان أول اشتهارهم وظهورهم فى دولة الملك المؤيد شيخ ، وذلك نحو مائة وعشرين سنة ، فما أهينوا فيها قط ولا ضربوا ولا صودروا ولا جرى عليهم قط تشويش ، وهم فى كل دولة معظمون مكرمون ، وما تبهدلوا قط ، وما جرى عليهم مثل ما جرى على الشهابى أحمد هذا ، وكانت السلاطين تعظمهم غاية التعظيم الى غاية دولة الأشرف الغورى .

وفيه وقعت حادثة غريبة ، وهى أن شخصا من تجار الروم بخان الخليلى يقال له الخواجا محمود العجمى التبريزى ، وهو فى سعة من المال ، وكان يقرض أعيان المباشرين المال بالفوائد الجزيلة ، ويأخذ الربا من الناس على القرض ، ولا سيما المحتاج لذلك . فاتفق أنه سكر يوما وأتى الى منزله ، فوجد جواريه واقعات فى بعضهن ، وتقاتلن قتالا مهولا ، فحنق منهن ، فضرب جارية حبشية منهن على ضلعها ، فجاءت الضربة صائبة فماتت الجارية من وقتها ، وكان معه منها أولاد ، وكادت الأشلة تقوم عليه من الناس من أهل الحارة لأجل ذلك ، فطلع الى ملك الأمراء وقص عليه القصة بأمر تلك الجارية واعترف بقتلها ، فغضب عليه ملك الأمراء ورسم بمسكه ، ثم أرسله عند الوالى ، فركب الوالى وتوجه الى بيت الخواجا محمود ليكشف عن أمر تلك الجارية كيف قتلت ، فوجد الخواجا محمودا كان ظالما عليها ، وقد قتلها بغير ذنب ، وقد شهد أهل الحارة أنه يسكر كل ليلة ويعربد فى الجوارى ، فطلع الوالى الى ملك الأمراء وأخبره بسيرته القبيحة ، وأنه عاش على غير الطريق ، وأثخن جراحاته عند ملك الأمراء ، فرسم بسجن الخواجا محمود فى العرقانة ، وقيل انه سأل ملك الأمراء أن يدفع اليه ألف دينار فأبى من ذلك ، ولو أن الخواجا محمودا أرضى الوالى بمائة دينار ، وستر عليه هذه الكائنة ، ما وصل الأمر الى ذلك ، ولكن اتسعت هذه الواقعة الى الغاية .

وأشيع أن ملك الأمراء طلب منه عشرة آلاف دينار ، وهذا كله آفة الربا الذى كان يأخذه من الناس ، فانه كان يقرض الألف دينار بألف وخمسمائة دينار ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، فختم ملك الأمراء على حواصله . ثم شفع فيه بعض الأمراء العثمانية ، فأخذ ثلاثة آلاف دينار . ثم ان ملك الأمراء تتبع أصحابه الذين كان يسكر معهم ، فأخذ من كل واحد منهم ألف دينار ، وكانت هذه السكرة سكرة الشوم على الخواجا محمود وأصحابه .

وفى يوم الأحد تاسع عشريه ، عرض ملك الأمراء القاضى شرف الدين الصغير والشهابى أحمد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض ، وقصد ضربهم ثانيا ثم وضعهم فى الحديد ، ورسم للوالى أن يشنق الثلاثة على أبواب بيوتهم ، واحتاط بهم مقدمو الوالى ، فضمنهم القاضى بركات بن موسى المحتسب الى باكر النهار ، حتى يسعوا فى سداد ما كان تأخر عليهم من التقاسيط التى تأخرت فى البلاد ، فأخذ الشهابى أحمد بن الجيعان فى أسباب بيع بيوته ورزقه وأملاكه التى كانت على بركة الرطلى ، فاشتراها الأمير قاسم الشروانى بأبخس الأثمان ، ولم يبق بيد الشهابى أحمد لا

ملك ولا رزقة ولا بيت ولا ربع ولا دكان ولا شيء قل ولا جل .

ثم ان أخته باعت جميع ما تملكه من مصوغ وحلى ، حتى باعت البسط من تحتهـا والطراريح واللحف والمخدات وأثاث البيت ، وفعلوا مثـل ذلك بسراريه وجواريه المونقات ، وغير ذلك من حاشيته ، وعبيده وغلمانه .

ثم ان القاضي عبـد الجواد أخا القاضي شرف الدين الصغير ، أخذ فى أسباب ما يؤخذ على أخيه من التقسيط ، فاقترض وتداين وقد أشرف على التخليق وكذلك القاضي شرف الدين بن عوض .

وفى يوم الاثنين سلخ هـذا الشهر ، أشيع أن ملك الأمراء يقصد أن يعرض العسـكر ، فطلع العسكر الى القلعة قاطبة ، فلم يخرج ملك الأمراء فى ذلك اليوم ، وأرسل يقول للعسكر : العرض يوم السبت ، فانفضوا ونزلوا من القلعـة ، ولم يعرضوا فى ذلك اليوم .

وفيه جاءت الأخبـار بوفاة الشريف على بن هجار أمير الينبع ، توفى هو ووزيره أحمد بن زحام فى جمعة واحدة ، وكان من خيار من ولى امرية الينبع .

وفى ذلك اليوم نودى فى القاهرة بأن الغريب يسـافر لأهله وألا يقيم بمصر غـريب . وكان سبب ذلك أنه أشيع أنهم قبضوا على شخصين من الأعجام زعموا أنهم جواسيس من عنـد اسمعيل شاه الصفوى .

***

وفى شهر رجب ، وكان مستهله يوم الثلاثاء أهل هذا الشهر والنـاس فى أمر مريب ، بسبب ما وقع من الحوادث من عزل القضاة الأربعة وسائر نوابهم ، والشهود قاطبة ، وما وقع للمباشرين من هذه الكائنة العظمى .

ومنها أمر المعاملة التى حصل للناس منها غاية الضرر ، ولا سيما الفلاحين يقبضون الخراج منهم على حكم الفضة الجديدة بنصفين وربع ، ويقيمونه عند الحساب بنصف واحد ، وقد تزايد الاضطراب فى هذه الأيام جدا من وجوه كثيرة .

وفى يوم الأربعاء ثانيه أشيع هروب شيخ العرب بيبرس بن بقـر ، وأنه توجه الى نحـو الطور وأخوه عبد الدايم بالبرج فى القلعة ، وهو مقيد ، وله نحو ثلاث سنين فى البرج لم يفرج عنه ، وصار أبوهم الأمير احمد بن بقر هو المتكلم فى الشرقية قاطبة.

وفى هذا الشهر قدم الزينى عبد القادر بن الملكى الذى كان توجه الى اسطنبول مع من توجه من الأسرى ، فأفرج عنه السلطان سليمان ابن عثمان مع من أفرج عنه .

وفيـه نزل ملك الأمراء الى قصر ابن العينى الذى بالمنشية على سبيل التنزه ، فأقام هناك الى ما بعد العصر ، فأرسـل اليه القاضي بركات بن موسى المحتسـب هنـاك مدة حافلة على حكم ما تقدم له قبل ذلك .

وفى يوم الخميس ثالثـه ، طلب ملك الأمراء الشـهابى أحمـد بن الجيعان وشرف الدين بن عوض ، فلما مثلا بين يديه رسم بضربهما ضربا مبرحا فضربا حتى أشرفا على الموت ، وكانا فى غاية الألم مما نالهما من شدة الضرب الأول ، وجاء هـذا الضرب الثانى زيادة على ذلك ، وأمرهما الى الله تعالى .

وفى يوم السبت خامسه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس به وعرض العسكر قاطبة ، وعين منهم جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة نحو ألف وخمسمائة مملوك ، وقال لهم : كونوا على برق ان طلبكم السـلطان من البحر توجهوا اليه ، وان طلبكم من البر توجهوا اليه .

وفى ذلك اليوم طلع ملك الأمراء وقطع جوامك كثيره من العسكر ، وصرف لهم بحكم النصف من الجامكية

وفى يوم الأحد سادسه نودى فى القاهرة بأن كراء بيوت الأوقاف التى تحت نظر القضاة وغيرهم لا يقبضونه الا على حكم المعاملة الجديدة كل نصف بنصفين وربع ، وأن الأشرفى الذهب يصرف بسبعة عشر نصفا من الفضة الجديدة ، فشق ذلك على الناس قاطبة ، وحصل لهم غاية الضرر .

وفى يوم الاثنين سابعه ، عرض ملك الأمراء جماعة من أمراء الجراكسة ، ما بين أمراء طبلخانات وعشراوات ، فقطع رواتبهم التى كانت تصرف لهم ؛ ثم رسم بأن يصرف لهم بحكم النصف من ذلك ، كما فعل بالمماليك الجراكسة ، فحصل لهم فى ذلك اليوم كسر خاطر عظيم ، وكان فيهم شيوخ من القرانصة الأعوات

وفى يوم الخميس عاشر الشهر ، قدم قاضى العسكر الموعود به المسمى بسيدى جلبى ، واستمر ملك الأمراء بصحبته الى أن أنزله فى بيت الأمير جانم مصبغة ، الذى خلف المدرسة الغورية ، وأرسل اليه مدة حافلة ، فلما استقر هناك ، أتى اليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل ، وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى ، وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى ، وكان قاضى القضاة الحنفى مريضا فلم يحضر اليه ، فقيل لما دخلوا عليه لم يقم لهم ولم يعظمهم ، وكانت صفته أنه شيخ هرم ، أبيض اللحية ، طويل القامة ، وعلى عينه اليمنى فص ، فلم ينظر الا بعين واحدة ، وهو فصيح اللسان باللغة العربية ، حسن المحاضرة ولكن قال القائل فى المعنى :

لا تشكرن امرأ حتى تجربه
ولا تذمنه من غير تجريب
فشكرك المرء ما لم تبله خطأ
وذمه بعد شكر محض تكذيب

وفى يوم السبت ثانى عشره ، نودى فى القاهرة بابطال الفضة العتيقة قاطبة ، وأنها تدخل الى دار الضرب .

وفى ذلك اليوم نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس به وأحضر الأمراء العثمانية ، والأمير قايتباى الدوادار ، ثم حضر قاضى العسكر وأخرج مرسوم السلطان سليمان الواصل على يده ، فكانت ألفاظه باللغة التركية ، فأحضروا من قرأ ذلك فكان من مضمونه الوصيه بالرعية قاطبة ، وانصاف المظلوم من ظالمه ، واصلاح المعاملة فى الذهب والفضة بين الناس . وقد تعاظم عليهم قاضى العسكر ، فلم يجلس بينهم ، ولا حضر قراءة مرسوم السلطان . ومن جملة ألفاظه نعت قاضى العسكر ، فكان من نعته أوصاف جميله تختص به ، وأن يكون له التكلم فى الأحكام الشرعية على المذاهب الأربعة ، ويحكم فى المدرسة الصالحية بين الناس .

ثم ان قاضى العسكر جعل شخصا من العثمانية يقال له القاضى صالح أفندى نائبا عنه ، يحكم فى المدرسة الصالحية بين الناس ، وكان حنفيا ، ثم ان قاضى العسكر استناب شخصا آخر يقال له فتح الله ، وكان من العثمانية ، وكان شافعى المذهب ، ثم ان قاضى القضاة جعل تحت يد كل قاض من الأروام ، قاضيا من أولاد مصر ، فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائبا عن القاضى صالح افندى العثمانى ، وجعل القاضى شمس الدين محمد الحلبى الشافعى نائبا عن القاضى فتح

الله العثمانى ، وجعل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، وجعل نظام الدين الحنبلى يحكم بين الناس على قاعدة مذهبه ، والمرجع فى الأحكام الشرعية الى قاضى العسكر . ثم رسم لكل نائب من النواب الأربعة أن يقتصر على شاهدين لا غير ، وسائر النواب والشهود تبطل قاطبة ، ثم رسم قاضى العسكر للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية اذا وقفوا قدامه يأخذون فى أيديهم العصى . فاجتمع بالصالحية من الرسل فوق الستين رسولا ، وصاروا على هذه الهيئة ، ثم ان قاضى العسكر أقام من الأروام شخصا وسماه قسام الترك ، فجعل على كل تركة الخمس لبيت المال مع وجود الورثة من الأولاد الذكور والاناث ، فحصل للناس بذلك الضرر الشامل .

وفى يوم الأحد ثالث عشره ، نودى فى القاهرة عن لسان قاضى العسكر ، بأن الشهود قاطبة لا يعقد أحد منهم عقدا ، ولا يكتب وصية ولا اجارة ولا مبايعة ولا شيئا من الأمور الا فى المدرسة الصالحية عند القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، فحصل للناس بسبب التزويج فى هذه الأيام غاية المشقة ، واختار كل منهم العزوبية على التزويج .

وفيه نزل ملك الأمراء الى قاضى العسكر وسلم عليه ، وقد بلغه أنه توعك فى جسده ، فنزل اليه وعاده ، ثم طلع الى القلعة .

وفى يوم الثلاثاء خامس عشره ، أنفق ملك الأمراء على المماليك الجراكسة جوامكهم ، وكان لهم سبعة أشهر منكسرة ، فأنفق عليهم فى ذلك اليوم أربعة أشهر ، حتى على الغلمان والمباشرين والفقهاء والمقرئين ومن له عادة .

وفيه منع قاضى العسكر شمس الدين الحلبى من التكلم فى المدرسة الصالحية ، وقرر عوضه القاضى شجاع العثمانى ، وجعله قاضى العسكر متحدثا على أوقاف الجوامع والمدارس ومعالم الأنظار ، فطلب الجباة وقال لهم : ارفعوا لى حساب الأوقاف ، وقدر معاليم الأنظار ، وما قدرها فى كل شهر ، فشرعوا فى أسباب ذلك ، وفى عمل الحساب .

ثم ان قاضى العسكر رسم بأخذ الخلاوى التى فى المدرسة البرقوقية والأشرفية والغورية وغير ذلك من المدارس ، وأنزل فيها جماعة من الأروام الآفاقية .

ثم ان القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، عرض الرسل الذين فى المدرسة الصالحية ، ورسم لهم ألا يأخذ الرسول منهم فى الشغل الذى يتوجه اليه أكثر من نصف فضة من الفضة الجديدة بنصفين وربع ، وجعل على من يتزوج بكرا ثلاثة وأربعين نصفا ، ويتكلف للشهود والعاقد مثل هذا . هذا ما تقرر على العوام ، وأما الرؤساء فشىء غير ذلك . وقرر على كل شهادة تقع فى المدرسة الصالحية قدرا معلوما بحسب كل شغل ثقيلا كان أو خفيفا .

ثم أشيع عن قاضى العسكر أنه قال : قصدى أمشى نساء مصر على قاعدة نساء اسطنبول مع أزواجهن ، فان عادتنا اذا دخل الرجل على زوجته تعطيه نصف المهر الذى أعطاه لها ، وأن الرجل لا يقرر لزوجته لا كسوة ولا نفقة بل يكسيها فى كل سنة جوخة وقميصا ويطعمها فى كل يوم على ما يختار من قليل وكثير ، وتغزل وتكسى زوجها فى كل سنة . فلما سمع العوام بذلك فرحوا ودعوا لقاضى العسكر بسبب هذه الواقعة ، واغتم النساء

بذلك ، وظنوا أن ذلك الشيء واقع ، وأن قاضي العسكر أبطل كسوتهن ونفقتهن ، فشق ذلك عليهن ، فعد من النوادر الغريبة .

ومن الحوادث أن شخصا يهوديا وقف الى القاضي صالح نائب قاضي العسكر وكتب قصة واشتكى فيها الأمير تنم أحد الأمراء الطبلخانات ناظر الدشيشة ، فأرسل خلفه القاضي صالح رسولا وانكشاريا ، فلما حضر الى المدرسة الصالحية ادعى اليهودي على الأمير تنم ، فأنصف القاضي صالح اليهودي من الأمير تنم ، واستمر الأمير تنم في الترسيم حتى أرضى اليهودي .

ثم في عقيب ذلك اشتكت الأمير جاني بك أخا الأمير قايتباي الدوادار زوجته عند القاضي صالح ، فطلبه في المدرسة الصالحية ، ووضعه في الترسيم حتى أرضى زوجته فيما ادعته ، ولم يلتفت الى أخيه الأمير قايتباي الدوادار .

وفي يوم الخميس سابع عشره ، نودي في القاهرة عن لسان ملك الأمراء وقاضي العسكر ، بأن لا امرأة تخرج الى الأسواق الا العجائز ، وكل من خالف بعد ذلك من النساء تضرب ، وتربط من شعرها بذنب اكديش ، ويطاف بها في القاهرة ، فحصل للنساء بسبب ذلك غاية الضرر .

ثم بعد ذلك بأيام ، اتفق أن قاضي العسكر طلع الى القلعة ، فوجد نسوة يتحدثن مع جماعة من الاصباهية في وسط السوق ، فعز ذلك عليه ، فلما طلع الى القلعة قال لملك الأمراء ان نساء مصر أفسدت عسكر الخنكار ، ولا بقوا ينفعون لقتال قط . وقص عليه قصة النسوة مع الاصباهية ، فتغير خاطر ملك الأمراء على النساء قاطبة ، ورسم للوالي بأن لا امرأة تخرج من بيتها مطلقا ، ولا تركب على حمار مكاري مطلقا ، وكل مكاري أركب امرأة شنق من يومه من غير معاودة في ذلك .

ثم في عقيب ذلك اليوم رأوا امرأة راكبة مع مكاري في طريق الصحراء ، فأنزلوها عن الحمار ، وهرب الحمار ، فضربوها وقطعوا ازارها ، فما خلصت الا بعد جهد كبير ، وغرمت نحو أشرفيين .

فلما استمر ذلك الأمر باعت المكارية حميرها قاطبة ، واشتروا عوضها أكاديش ، وشدوها بنصف رحل ، وصارت النساء يركبن عليها بسجادة ، والمكاري قائد لجام الاكديش . واستمروا على ذلك ، وبطل أمر الحمير المكارية من القاهرة .

وركبت الخوندات والستات على الأكاديش على طريقة أهل اسطنبول ، وفيهم من ركب على بغل . ويقرب من هذه الواقعة ما وقع في أيام الأشرف برسباي ، أنه منع النساء من الخروج الى الأسواق مطلقا . وكان الطعن بمصر عمالا ، وكانت الغاسلة اذا خرجت الى ميتة لتغسلها ، تأخذ من المحتسب ورقة وتغرزها في ازارها حتى يعلم أنها غاسلة ، فاستمروا على ذلك مدة يسيرة . ثم في عقيب ذلك مرض الأشرف برسباي ، ومات بعد ذلك ، وأعيد كل شيء على ما كان عليه .

وفيه نزل القاضي بركات بن موسى المحتسب من القلعة بعد العصر ، ونادى بأن الأشرفي الذهب السليماني يصرف من الفضة الجديدة بخمسة وعشرين نصفا ، والأشرفي الذهب السليم شاهي والغوري يصرفه من الفضة الجديدة بخمسة عشر نصفا ، وان الفلوس الجدد كل أربع جدد بدرهم .

ثم ان المحتسب سعر سائر البضائع على ما كانت عليه في أيام يشبك الجمالي المحتسب . فلما نودي بذلك ارتجت القاهرة بسبب أمر المعاملة في الذهب

والفضة ، وحصل للناس غاية الضرر ، وخسروا أموالهم ، ولا سيما التجار ، فغلقت أسواق البلد والدكاكين قاطبة ، وتعطل الناس من البيع والشراء لأجل ابطال المعاملة ، وصرف النصف الفضة بنصفين وربع .

وفى يوم الأحد عشريه ، نودى فى القاهرة : « كل شىء على حكمه كما كان أولا فى صرف الذهب والفضة والفلوس الجدد كل اثنين بدرهم على ما كانت عليه أولا » فسكن الاضطراب قليلا .

وفى يوم الأربعاء ثالث عشريه ، نزل ملك الأمراء وتوجه نحو قصر ابن العينى الذى فى المنشية ، وكشف على المراكب التى أنشأها هناك ، واستعجل الصناع فى سرعة العمل .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه ، طلع ابن أبى الرداد ببشارة النيل ، وأخذ القاعدة ، فجاءت سبعة أذرع وعشر أصابع ، وذلك أرجح من العام الماضى .

وفى أواخر هذا الشهر ، قدم قاصد من البحر من عند السلطان سليمان ابن عثمان ، وعلى يده مرسوم شريف ، فكان من مضمونه أنه أرسل الى ملك الأمراء خاير بك يطلب منه عسكرا من الأمراء الجراكسة ، فعين الأمير قايتباى الرمضانى الدوادار الكبير بأن يكون باش العسكر ، ثم رسم له بأن يطلب الأمراء الجراكسة الى بيته ، ويعين منهم من يختاره ، فعرضهم عنده ، وكتب منهم جماعة نحو ثلاثة وأربعين أميرا ، منهم أمراء طبلخانات ، وأمراء عشراوات ، بسبب غزاة رودس ، وأن السلطان سليمان قد جهز الى أهل رودس ستمائة مركب ، وشحنها بالسلاح والمقاتلين ، وخرج الى الغزاة الرومية فى البحر المالح .

وفى يوم السبت سادس عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان ، وجلس فيه ، وعرض جماعة من الكملية وكتب منهم أربعمائة انسان ، وعرض طائفة الانكشارية وكتب منهم نحو مائة انسان .

وفى يوم الأحد سابع عشريه ، نزل ملك الأمراء الى الميدان وجلس به ، وعرض المماليك الجراكسة وكتب منهم نحو خمسمائة مملوك ، وقيل ثمانمائة وكان الأمير قايتباى الدوادار باش العسكر هو الذى يعين ويكتب منهم من يختاره . فلما تكامل عرض المماليك الجراكسة والاصباهية والانكشارية والكملية كان مجموع ذلك آلفا وخمسمائة انسان .

ثم فى يوم الاثنين ثامن عشريه ، أنفق ملك الأمراء على الجراكسة جامكية أربعة أشهر ، كانت لهم منكسرة فى الديوان ، ولم يعطهم زيادة على ذلك .

ثم ان ملك الأمراء عين الأمير قايتباى الدوادار باشا على الأمراء والمماليك الجراكسة فقط .

ثم ان ملك الأمراء جهز صحبة الأمير جانم الحمزاوى بقسماطا وجبن حالوم وبصلا وعسلا أسود . فجهز ذلك فى المراكب برسم العسكر يفرق عليهم بطول الطريق ، وقيل أرسل صحبته أربعين ألف دينار بسبب جوامك العسكر .

ومن الحوادث الشنيعه ، ما وقع فى أواخر هذا الشهر ، وذلك أن ملك الأمراء رسم للوالى بأن يقبض على جماعة من الغلمان والفلاحين والمغاربة لأجل المراكب حتى يقذفوا فيها بالعساكر ، فنزل الوالى وأطلق فى الناس النار وشرع يقبض على كل من رآه فى الرميلة وفى الطريق من الغلمان والفلاحين ، وكل من قبض عليه وضعه فى الحديد وأرسله الى السجن ، الى أن يخرج العسكر ، فصار يقبض على جماعة من السوفة والعبيد السود

ثم تدرج جماعة الوالى حتى صاروا يقبضون على جماعة من التجار والفقهاء وغير ذلك ، فصاروا يشترون أنفسهم من جماعة الوالى بمبلغ له صورة ، حتى تحصل مع الجالية مال له صورة من الناس .

ثم صار الوالى يركب ويكبس على ساحل بولاق ومصر العتيقة ، ويقبض على المواتية والفلاحين ، فهرب الناس قاطبة من السواحل .

ثم رسم ملك الأمراء لكاشف الجيزة وغيره ، أن يقبضوا على جماعة من الفلاحين من قلقشندة وقليوب وسبك الثلاث ، ومن شبرى والمنيه وغير ذلك من الضياع ، فصار الفلاحون يختفون فى المطامير ، وكادت مصر أن تخرب فى هذه الحركة عن آخرها . فقيل مجموع الذين قبضوا عليهم نحو ألفى انسان ، وقيل أكثر من ذلك ، وحصل للناس غاية الضرر . وقيل مات فى سجن الديلم جماعة كثيرة ممن قبض عليه ، ماتوا من الجوع ، وشدة الحر ، والوخم ، ونزل على أهل مصر نازلة عظيمة بسبب ذلك لم يسمع بمثلها قط ، انتهى ما أوردناه من حوادث شهر رجب . وكان كثير الحوادث . فوقع فيه أمور غريبة ، ونوادر عجيبة ، والأمر لله .

***

واستهل شهر شعبان بيوم الأربعاء ، فلم يطلع أحد من القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر ، فانهم استمروا فى العزل المقدم ذكره ، وصار قاضى العسكر هو المتكلم على المذاهب الأربعة .

ووقع فى هذا الشهر من الحوادث أن الأخبار قد قدمت من الصعيد بأن القاضى فخر الدين ابن عوض لما توجه ليمسح جهات الصعيد دخل سائر الرزق الأحباسية قاطبة فى المساحة التى بالمكاتيب الشرعية والمربعات والمناشير ، وقال لأصحابها من أراد الافراج عن رزقته يقف الى ملك الأمراء ويحضر مرسومه بالافراج عن رزقته .

ثم انه منع الفلاحين من اعطاء خراج الرزق حتى يحضروا بالافراجات من عند ملك الأمراء . فاضطربت أحوال الناس ، وتنكدوا غاية النكد ، وصار كل من وقف الى ملك الأمراء بسبب رزقته ، وأحضر مكتوبه أو مربعته يأخذ منه المكتوب أو المربعة ، ويقول له : امض الى حال سبيلك ، فان الرزق قاطبة دخلت الدخيرة ، فيرجع وهو فى غاية القهر .

(أقول) ان الرزق الأحباسية ما تعرض لها أحد من سلاطين مصر ، ولا أخرج منها شيئا عن أصحابها ولا ضيقوا عليهم بسبب ذلك .

وقيل ان الامام الليث بن سعد رضى الله عنه ، هو الذى دون ديوان الأحباس فى أيامه ، وأفرد للرزق الأحباسية ديوانا يختص بها دون ديوان الجيش ، واستمر ذلك باقيا من بعد الامام الليث الى الآن ، حتى جاء فخر الدين بن عوض ، فنقض ذلك الأمر الذى كان على جهات البر والصدقات ، وأبطل أمر الرزق الأحباسية وأدخلها الذخيرة ، وأبطل ما كان صنعه الامام الليث بن سعد رضى الله عنه .

وفى يوم الاثنين سادس الشهر ، خرج الأمير قايتباى الرمضانى الدوادار وتوجه الى السفر بسبب غزاة رودس ، فخرج صحبته الأمراء والعسكر قاطبة ، وخرج صحبته الأمير جانم الحمزاوى مشير المملكة ، وخرج الرئيس حامد القبطان رئيس المراكب ، وصحبته العسكر العثمانى الذى تعين من الأصباهية والانكشارية والكملية ، وخرج العسكر من المماليك الجراكسة ، فكان معه من الأمراء الجراكسة نحو ثلاثة وأربعين أميرا مابين أمراء طبلخانات وعشراوات . فلما طلع الى القلعة

خلع عليه ملك الأمراء قفطان حرير مذهب ، وخلع على الرئيس حامد القبطان قفطانا أيضا ، فخرج الأمير قايتباى من الميدان وعلى رأسه صنجق حرير أحمر ، وخرج ملك الأمراء من الميـدان صـحبته ليودعه ، وخرج صحبته قاضى العسكر ، والأمراء العثمانية قاطبة ، فشق من القاهرة فى موكب حافل وليس قدامه جنائب ، وخلفه طبلان ورمران عثمانيه ونزل وشق من القاهرة الى بولاق ، وكان يوما مشهودا .

ثم عاد ملك الأمراء الى القلعة ، وحصل لأهل مصر بسبب خروج التجريده غاية الضرر .

وفى يوم الثـلاثاء سابع الشهر ، أرسل ملك الأمراء يستعجل الأمير قايتباى الدوادار فى سرعة التوجه الى رودس ، والنزول فى المراكب ، ثم نودى فى القاهرة بأن العسكر المعين للسفر يخرج فى بقية ذلك اليوم ، وكل من تأخر عن الخروج فى بقية هذا اليوم شنق من غير معاودة ، فخرج المماليك المعينون للسفر قاطبة .

ومن الحوادث أن شخصا من نواب الحنفية يقال له شمس الدين محمد المناوى الحنفى ، شهد شهادة حقا بين شخصين فى تمارى بينهمـا بسبب دين ، فلما بلغ قاضى العسكر ذلك أرسل خلف القاضى شمس الدين محمد المناوى انكشاريين ، فلما حضر بهـدله وهم يضربه ، وقال له : أنا ما منعتكم أن تشهدوا على أحد من الناس الا فى المدرسة الصالحية . ثم أرسله الى السجن ، فشق ذلك على القضاة والنواب ، فاضطربت القـاهرة بسببه ، ثم شفع فيه عند قاضى العسكر القاضى شهاب الدين ابن شيرين الحنفى ، فأطلقه من السجن فى يومه هو والعجماوى ، وقد حصل لأهل مصر من قاضى العسكر غاية الضرر للرجال والنساء .

ووقع منه أمور شنيعة ما تقع من الجهـال ولا من المجانين ، وتزايد حكمه بالجور بين النـاس ، وقد ضيق عليهم غاية الضيق ثم تكلم النـاس مع قاضى العسكر فى أمر النساء ألا يمنعوا من طلوع الترب ، ودخول الحمام ، وزيارة الأقارب ، فأذن لهن فى ذلك ، وأن المرأة لا تخرج الى الطريق الا مع زوجها ، وألا يدخل الأسواق غير العجائز فقط ، فسمح لهن قاضى العسكر ، وأن النسـاء لا يركبن الا الخيـول والبغال دائما . فاستمروا على ذلك .

وقد فتك قاضى العسكر بالناس فى هذه الأيام فتكا ذريعا ، وقد جمع بين قبح الشكل والفعل ، فانه كان أعور بفرد عين بلحية بيضاء ، وقد طعن فى السن ، وكان قليل الرسمال فى العلم ، أجهـل من حمار ، لا يدرى شيئا فى الأحكام الشرعية ، وقدمت اليه عدة فتاوى فلم يجب عنها بشىء ، وقد هجاه الناس هجوا فاحشا فى مدة اقامته بمصر ، وقالوا فيه عدة مقاطيع . فمن جملة ذلك بعض كلام الشهود فيه وهو قوله :

رأينا شييخا أعورا قبل موتنـا
أتى من بلاد الروم يقطع رزقنـا
يقـدم قانونا على شرع أحمـد
فنسأل رب العرش يكشف كربنا

وقلت أنا :

رأيتـك لا ترى الا بعـين
وعينـك لا ترى الا قليـلا
فان تك قد أصـبت بفـرد عين
فخذ من عينك الأخرى كفيـلا
وقد أيقنت أنك عن قـريب
اذن بالـكف تلتمس السـبيلا

وفى يوم الجمعة عاشر الشهر قدم الأمير شيخ الذى كان توجه الى اسطنبول فى بعض أشغال ملك الأمراء ، فلما حضر أخبر بأن السلطان سليمان جهز عدة مراكب مشحونة بالسلاح والمقاتلين ، وجهز عساكر كبيرة بسبب غزاة رودس ، وخرج بنفسه ، وذلك فى خامس عشر رجب على ما أشيع بين الناس ، وأرسل على يده مراسيم شريفة ، تتضمن أن السلطان سليمان قد فوض أمر مملكة مصر الى ملك الأمراء خاير بك ، يعزل من يختار ، ويولى من يختار ، والمرجع فى ذلك اليه ، فيما يراه من المصلحة .

وفى يوم السبت حادى عشره ، نودى فى القاهرة بأن الأمير والى الجلبى العثمانى الذى حضر من اسطنبول ، قد استقر ناظرا على سائر الأوقاف قاطبة ، فلا يعصى عليه أحد من الناس . فتجددت مظلمة أخرى .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره كانت ليلة النصف من شعبان ، فنزل ملك الأمراء من القلعة ، وتوجه الى المقياس ، وأقرأ هناك ختمة ، ومد هناك مدة حافلة ، ورسم بقراءة عدة ختمات فى تلك الليلة : فى الجامع الأزهر ، ومقام الامام الشافعى ، والامام الليث رضى الله عنهما ، وغير ذلك فى أماكن متفرقة .

وفى يوم الخميس سادس عشره ، خلع ملك الأمراء على القاضى بركات بن موسى المحتسب قفطانا محملا مذهبا ، وفزره فى التحدث على جهات الشرقية قاطبة ، من المطرية الى دمياط ، وقد التزم فى كل سنة بأربعمائة ألف دينار يقوم بذلك على ثلاثة أقساط ، فنزل من القلعة فى موكب حافل ، ومشاعلية قدامه ، تنادى أن القاضى بركات ابن موسى ناظر الذخيرة الشريفة ، متحدث على الشرقية قاطبة ، فلا يحتمى عليه أحد من الناس ، ولا يشتكى أحد من الشرقية الا من بابه ، فتزايدت عظمة القاضى بركات بن موسى الى الغاية .

وفى يوم الأحد سادس عشريه ، خرج قاضى العسكر بقصد التوجه الى مكة المشرفة من البحر المالح ، فلما خرج نزل ملك الأمراء وركب صحبته ، وكذلك خير الدين نائب القلعة ، وجماعة من الأمراء العثمانية ، فودعوه من عند تربة العادلى ورجعوا ، فلما خرج قاضى العسكر من مصر أراح الله تعالى المسلمين منه ، فما حصل منه لأهل مصر خير . فعزلت القضاة الأربعة بسببه ، وأخرج عنهم الأنظار ، ومنع الشهود من الجلوس فى المجالس قاطبة ، واستمرت دكاكينهم مغلوقة ، ومنع نواب القضاة الأربعة من الأحكام الشرعية ، ولم يبق منهم غير من تقدم ذكرهم ، وضيق على الناس فى أمر عقود الأنكحة ، وقرر عليهم ما تقدم ذكره من المبلغ ، وصار لا يعقد عقد الا فى المدرسة الصالحية ، وضيق على النساء بما تقدم ذكره من الخروج الى الأسواق ، ومن ركوب الحمير ، فلما خرج من مصر صفقت النساء ، ورقصت . وضيق على أهل مصر فى أمور كثيرة يطول شرحها .

ولما خرج قاضى العسكر توجه الى نحو الطور ، فقيل ان ملك الأمراء أنعم عليه بعشرة آلاف دينار غير المغل الذى أرسله اليه لما قدم من اسطنبول .

ولما توجه قاضى العسكر الى الحجاز ، أشيع أن السلطان سليمان أرسل أربعين ألف دينار على يد شخص من العثمانية بسبب عمارة العين التى بمكة المشرفة ، لما تعطلت ، وهى التى بالحرم ، وعمارة المنارة التى بالحرم النبوى .

ولما خرج قاضي العسكر خرج صحبته جماعة كثيرة من الاصباهية ومن أهل مصر ، وخرجت صحبته زوجة الأمير سنان فى محفة . فلما سافر قاضي العسكر جعل القاضي صالح العثمانى الحنفى نائبا عنه يحكم فى المدرسة الصالحية الى أن يحضر من السفر من الحجاز .

وكان قاضي العسكر قبل أن يسافر ولى ستة وعشرين نائبا من نواب القضاة الأربعه ، وجعل منهم من هو فى بولاق ، وفى مصر العتيقه ، وفى جامع طولون ، وفى الحسينيه ، وغير ذلك من الأماكن . وجعل فى كل مجلس أربعة نواب يقضون بين الناس بالحق ، وجعل على كل مجلس شيئا معلوما ، وعليهم شاويش من العثمانية يضبط ما يتحصل فى كل يوم من أجرة أشغال الناس ، فيقسم للقاضي من ذلك المتحصل شيئا وللشهود شيئا وله شيء ، ثم يأخذ الباقي ويضعه فى صندوق برسم السلطان سليمان يودع بيت المال .

ومن الحوادث الشنيعة ما وقع لقاضي القضاة الحنفى على بن ياسين الطرابلسى بسبب وقف الخواجا شهاب الدين أحمد بن صالح السكندرى ، وذلك أنه طلع قاضي القضاة الحنفى الى ملك الامراء ، فلما رآه مقبلا من بعد قال ايش طلع هذا الثقيل يعمل ؟ فلما جلس وأخرج مكتوب الوقف الذى زوروه ، وثبت عليه ، انتبذ له جماعة من القضاة ، وحضر أبو الفتح الوفائى المالكى الذى يحكم لابن الخواجا شهاب الدين السكندرى ، وحضر ذلك المجلس القاضي صالح العثمانى نائب قاضي العسكر . ولما أخرج قاضي القضاة الحنفى المكتوب الذى صنعوه ، دفعه ملك الأمراء الى القاضي صالح العثمانى ، وقال له : انظر فى هذا المكتوب ، فلما قرأه قال هذا الحكم الذى حكم به قاضي القضاة الحنفى باطل لا تجوز قراءته ، فحصل لقاضي القضاة فى ذلك المجلس غاية البهدلة ، وأسمعته الفقهاء الكلام المنكى ، وانتصف عليه أبو الفتح فى ذلك الحكم الذى حكمه ، فقام قاضي القضاة من ذلك المجلس وهو يتعثر فى أذياله مما قاسى من البهدلة من ملك الأمراء ومن القاضي صالح وغيره . وكان قاضي القضاة الحنفى غير محب للناس ، وكان عنده صعصعة وجنون ، وسوء تدبير ويبس طباع ، مع وهج وخفة زائدة ، مع عبوسة وجه وشناعة زائدة ، وقد قلت فيه :

رب قاض قد اعتراه جنون
شأنه الوهج ما لديه سكون
لم يفده علمه اذا ضل شيئا
فهو فينا معلم مجنون

وقولى أيضا :

كم ضاع للنعمان من مذهب
فى عصرنا لما تولى فلان
تبا له من حاكم أهوج
أحكامه مشهورة بالجنان

وفى يوم الأربعاء سلخ شهر شعبان ، كانت ليلة رؤية هلال رمضان ، فلم يحضر من قضاة القضاة أحد الى المدرسة الصالحية على جارى العادة ، فانهم كانوا منفصلين عن القضاة ، فحضر بعض نواب القضاة ، منهم شمس الدين المجولى ، وشهاب الدين أحمد بن شيرين الحنفى ، وفتح الدين الوفائى المالكى ، ونظام الدين الحلبى الحنبلى ، وحضر القاضي بركات بن موسى المحتسب .

فلما رئى الهلال ركب من هناك القاضي بركات المحتسب ، وشق من بين القصرين فى موكب حافل ،

وقدامه عدة فوانيس ومشاعل على جارى العادة فى كل سنة .

***

فلما كانت ليلة الخميس آهل شهر رمضان ، فلم يطلع من قضاة القضاة أحد للتهنئة بالشهر ، وكان الناس فى غاية الاضطراب بسبب المعاملة ، فان الدينار السليمانى يصرف بخمسة وأربعين نصفا من الفضة القديمة حسابا عن كل نصف بنصفين وربع من الفضة الجديدة ، فوقف الحال بسبب ذلك ، ولا سيما حال الفلاحين فى البلاد ، فان العمال يحاسبونهم فى الدينار عند القبض بنصفين وربع من الفضة الجديدة ، ويفيمونه عليهم وقت الحساب بنصف واحد ، فخرب غالب البلاد بسبب هذه المعاملة وغير ذلك . وكانت أحوال الناس فى غاية الاضطراب بسبب الرزق الأحباسية التى أدخلها فخر الدين بن عوض فى ديوان السلطان ، وصار ملك الأمراء كل من طلع له بمكتوبه أو مربعته ، يأخذ ذلك منه ، ويقول له هذا دخل ديوان السلطان . فحصل للناس غاية الضرر من كل وجه .

ومن الحوادث أن ملك الأمراء طلب التجار قاطبة ، وكتب عليهم قسائم ألا يتعاملوا الا بالذراع العثمانى فى البيع والشراء ، وأبطل الذراع القديم الهاشمى ، وكتب القسائم على التجار بذلك ، وهو يزيد عن الذراع القديم نحو ربع ذراع .

واستهل رمضان وقضاة القضاة الأربعة منفصلون عن القضاء ، والمباشرون فى الترسيم بالقلعة من حين جرى عليهم ما جرى .

وفى يوم الخميس ثامنه مع ليلة الجمعة ، رأى الناس كوكبا عظيما جاء من نحو الغرب ، وخلفه شرار كمثل عمود النار ، فاستمر ماشيا فى السماء الى نحو الشرق فاختفى ، وقد شاع خبره بين الناس لما طلع النهار .

وفى يوم الأربعاء رابع عشر شهر رمضان كان وفاء النيل المبارك ، ووافق ذلك ثالث عشر مسرى .

وفتح السد فى يوم الخميس خامس عشر رمضان ، الموافق لرابع عشر مسرى ، فأوفى الله الستة عشر ذراعا وزاد ثلاث أصابع من الذراع السابع عشر . فلما أوفى نزل ملك الأمراء من القلعة وتوجه الى المقياس ، وخلق العمود ، ونزل فى الحراقة وصحبته الأمراء العثمانية ، ففتح السد الذى عند رأس المنشية ، ثم ركب من هناك وتوجه الوالى ففتح السد الثانى الذى عند قنطرة السد ، وكان ذلك اليوم مشهودا . وكان ذلك آخر فتح ملك الأمراء للسد ، ومات بعد ذلك بشهرين ، وفى ذلك يقول الناصرى محمد بن قانصوه :

خليج السد يوم الكسر جبر
بماء للعيون يرى بهيجا
وهذا اليوم يوم الجبر فاسرع
بنا قطعا نرى هذا الخليجا

وفيه قدم أولاق من البحر المالح وأخبر عن السلطان سليمان أنه فى المحاصرة مع الفرنج ، وكثر القال والقيل بين الناس بسبب ذلك .

وفيه جاءت الأخبار بأن ابن سوار قد قتل ، وسبب ذلك أنه قد بلغ السلطان سليمان بن عثمان أن ابن سوار قد التف على شاه اسماعيل الصفوى وصار يكاتبه فى الدس ، فندب اليه الأمير فرحات الذى كان توجه الى جان بردى الغزالى نائب الشام ، فتوجه الى ابن سوار وأظهر أنه يقصد

التوجه الى ديار بكر بسبب عسكر الصفوى ، فأنساقه ابن سوار وركن اليه ، فلما جلس معه على مجلس الشراب فى نفر قليل من أصحابه ، وثب على ابن سوار جماعة من العثمانية من حاشية الأمير فرحات ، فقتلوا ابن سوار وهو على سفرة الشراب على حين غفلة ، ولم يشعر به أحد من عسكره .

ولما أشيع قتله اضطربت أحوال السوارية بقتله . وقيل ان فرحات قتل بعد ذلك ثلاثة من أولاد ابن سوار ، وقتل جماعة من أمرائه ، ثم مضى عنهم ، وقد تمت حيلته على ابن سوار حتى قتله

ومن الحوادث أنه حضر الى القاهرة شخص قيل ان أصله من الشرق ، وقيل كان بمكة ، وأقام بها مدة ، فلما حضر ادعى أنه المهدى ، فلما طلع الى ملك الأمراء وقال له أنا المهدى ، وكان حاضرا فى ذلك المجلس القاضى شهاب الدين أحمد بن شيرين ، فسأله عن مسائل فى العلم فلم يجبه بشىء . وكانت صفته أنه شيخ طاعن فى السن ، قصير القامة جدا ، ولم يكن فيه من علامات المهدى شىء ، فلما أغلظ على ملك الأمراء فى الكلام ، رسم بالقبض عليه ، وأن يتوجهوا به الى المارستان ، ويضعوه فى الحديد ، ويسجنوه عند المجانين ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى نحو المارستان ، فكشفوا عن رأسه ، ووضعوه فى الحديد ، فلما بلغ الشيخ ابراهيم الذى فى الجامع المؤيدى ، والشيخ حسن العثمانى ، طلعا الى ملك الأمراء وشفعا فيه ، فرسم ملك الأمراء باطلاقه من المارستان . فأتى اليه الشيخ حسن العثمانى وحمله على أكتافه وأخرجه من المارستان ، وكان هذا الرجل معظما عند العثمانية ، وفى خدمته جماعة كثيرة من الأعجام نحو خمسين انسانا ، فلما خرج من المارستان ازدحم عليه الناس ليروا المهدى ، وكان ذلك اليوم مشهودا بسبب الفرجة عليه لما شق من القاهرة . فاستمر على أكتاف الشيخ حسن حتى توجه به الى المدرسة المؤيدية ، ثم بدا لملك الأمراء أن يرسل المهدى الى بيت الوالى ، فقبضوا عليه وتوجهوا به الى بيت الوالى ، فاستمر به مدة ثم شفع فيه .

وفى يوم الأربعاء حادى عشريه ، قبض ملك الأمراء على يوسف بن أبى الفرج بن الجاكية ، وسلمه الى القاضى بركات بن موسى ليقيم حسابه مما دخل عليه من المال بسبب الرزق ، ولما نزل الى بيت المحتسب هم أن يعريه ويضربه بالمقارع ، وقال له أقم حسابك من حين قررت فى هذه الوظيفة ، فقيل انه أورد سبعمائة دينار ، فقال له القاضى المحتسب : جلبت الدعاء على ملك الأمراء لأجل هذا القدر الهين ... لا جزاك الله خيرا !

وفى يوم الجمعة ثالث عشريه ، نزل ملك الأمراء وتوجه الى نحو الجامع الأزهر ليصلى هناك صلاة الجمعة ، وكان صحبته الأمراء العثمانية الذين بمصر ، وجماعة من الأمراء الجراكسة ، منهم الأمير أرزمك الناشف . فلما انقضى أمر صلاة الجمعة ، وقصد أن يركب ، وقف اليه رضى الدين بن الدهانة وجماعة من الفقهاء وقالوا له : يا ملك الأمراء انظر فى أحوال الرعية . فقال : نعم ، وركب بسرعة ، وخرج من باب الجامع ، وتوجه الى القلعة .

وقيل ان ملك الأمراء تصدق فى ذلك اليوم على مجاورى الجامع الأزهر بخمسمائة دينار ، وكان الذى تولى أمر الصدقة فى ذلك اليوم شهاب الدين المحلى امام أمير آخور كبير ، فما لاقى فى ذلك

اليوم خيرا بسبب تفرقة الصدقة ، وحصل له غاية البهدلة من الناس .

وفى يوم السبت رابع عشريه ، نودى فى القاهرة عن لسان ملك الأمراء ، بأن جميع القضاة والشهود يحضرون بدفاترهم الى المدرسة الصالحية ، ويسلمون ذلك الى القاضى صالح نائب قاضى العسكر ، فلم يوافق أحد من الناس على ذلك وأبطلوا هذا الأمر .

وفيه أشيع أن العربان قطعوا جسر الحلفاية ، فنقص البحر فى تلك الليلة ثمانى أصابع ، وكان فى قوة الزيادة ، فاضطربت أحوال الناس .

ثم فى يوم الخميس زاد الله فى النيل المبارك اصبعين من النقص ، فسكن ذلك الاضطراب ، واستمرت الزيادة عمالة الى بابه .

* * *

وفى شهر شوال ، وكان مستهله يوم السبت ، وهو عيد الفطر ، فكان أكثر العساكر مسافرا فى غزوة رودس ، وكذلك الأمير قايتباى الدوادار وجماعة من الأمراء ، فلما صلى ملك الأمراء صلاة العيد مد مدة حافلة ، وكانت الاصباهية والانكشارية تتخاطفها ، وكان هذا العيد خامدا .

وفى يوم الأحد ثانيه حضر أولاق من البحر وعلى يده كتاب من عند الأمير جانم الحمزاوى الى ملك الأمراء ، فقرىء بحضرة القاضى شهاب الدين بن شيرين ، فكان من مضمونه أن الأمير قايتباى الدوادار ، ومن معه من العساكر والأمراء والمماليك الچراكسة قد وصلوا الى رودس فى ثالث عشر رمضان ، فوجدوا السلطان سليمان فى جزيرة تجاه رودس ، فأقاموا ثلاثة أيام لم يجتمعوا بالسلطان . ثم فى اليوم الثالث أوكب السلطان سليمان وجلس للعسكر جلوسا عاما فى ذلك اليوم .

فلما نظر الأمير قايتباى الدوادار عظمه وأكرمه ، وكذلك الأمراء الذين صحبته ، ووقف المماليك الچراكسة قدامه نشكرهم ، وأثنى عليهم . وقيل ان السلطان سليمان استقل عقل والده سليم شاه الذى قتل المماليك الچراكسة وقال : مثل هذه المماليك كانت تقتل ؟ ؟

وقيل انه أنزل العسكر المصرى وطاقه عند الوزير الأعظم . وأخبر الأمير جانم فى كتابه أنه الى الآن لم يقع بين السلطان وبين أهل رودس قتال ، وأنه مقيم بجزيرة تجاه رودس ، والميعاد بعد العيد .

وفى يوم الاثنين ثالث الشهر ، قدم الخواجا ابن عبد الله من اسطنبول ، فنزل اليه ملك الأمراء ولاقاه من عند تربة العادلى ، وخلع عليه قفطان حرير . فلما حضر ابن عبد الله أشيع أن السلطان قرره ناظرا على الأوقاف قاطبة ، وأنه يكشف على سائر الأوقاف والجوامع والمدارس قاطبة ، فيعزل من يشاء ، ويبقى من يشاء . وأشيع عنه أنه يخرج الوظائف عن الفقهاء ، ولا يبقى بيد فقيه وظيفتين فى التصرف ، وأن يقرر الوظائف لجماعة آفاقية من الأروام . فلما أشيع ذلك اضطربت أحوال فقهاء مصر .

وفيه قدمت الأخبار من دمشق بأن الأمير فرحات نائب الشام قبض على جماعة من التجار أتوا من بلاد الشاه اسماعيل الصفوى ، وزعم أنهم جواسيس من عند الصفوى ، فلما قبض عليهم ، أخذ جميع ما معهم من الأموال والبضائع والأصناف التى أتوا بها ، ثم ضرب أعناقهم أجمعين ، وربما يثور من هذه الواقعة فتنة عظيمة بين العثمانية والصفوى .

ومن الحوادث الشنيعة أن جماعة من النصارى كانوا يسكرون فى بيت عند جامع المقسى على الخليج ، فلما قوى عليهم السكر ، تزايد منهم الضجيج والتجاهر بالسكر ، وكان فى جامع المقسى ابن الشيخ محمد بن عنان مقيما به ، فثقل عليه أمرهم ، فأرسل اليهم من ينهاهم عن ذلك ، فأغلظ عليهم فى القول ، وقال لهم : أما تستحون من الشيخ ابن عنان ؟ فسبوا الشيخ ابن عنان سبا قبيحا ، فطلع الشيخ الى ملك الأمراء وشكا من النصارى ، فأرسل ملك الأمراء بالقبض على النصارى ، فهربوا وقبضوا على واحد منهم ، فرسم ملك الامراء بحرقه ، فلما رأى النصرانى عين الجد ، اسلم خوفا من الحرق ، فألبسوه عمامة بيضاء . فلما جرى ذلك خاف بقية النصارى على أنفسهم ، واختفوا عند يوس النصرانى حتى تخمد هذه الواقعه عنهم

وفى يوم الجمعة قدم قاصد من عند الأمير جانم الحمزاوى ، وأخبر أن العسكر برز للقتال مع عسكر الفرنج الدين برودس ، وأشيع انهم أشرفوا على أخد السور الأول من مدينة رودس ، ولكن قتل فى هذه المعركة من العساكر ما لا يحصى .

وفى يوم الجمعة المقدم ذكره ، كان يوم النوروز — وهو أول توت من الشهور القبطية ، وأول سنة ثمان وعشرين وتسعمائة خراجية — وكان النيل يومئذ فى عشرين اصبعا من ثمانية عشر ذراعا ، وكان سائر المغل فى غاية الرخص بعد ما كان السعر قد انشحط لما توقف النيل عن الزيادة كما تقدم .

ومن الحوادث الشنيعة أن والى القاهرة شنق فى يوم واحد أربعة عشر انسانا ، وخوزق منهم جماعة ، وعلقهم فى أماكن متفرقة ، وكان أكثرهم حرامية وزغلية ومن عليه دم ، فأخرهم الوالى فى السجن الى آخر شهر رمضان ، وأتلفهم فى يوم واحد .

وفى ليلة السبت خامس عشره خسف جرم القمر خسوفا كاملا حتى أظلم الجو وصار القمر كالفحمة السوداء ، فأقام فى ذلك الخسوف نحو خمسين درجة ، وكان ذلك نصف الليل .

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشره ، خرج المحمل من القاهرة فى تجمل عظيم ، وكان يوما مشهودا ، وكان أمير ركب المحمل الشريف الأمير جانم السيفى دولات باى الأتابكى ، وهذه ثالث سفرة الى الحجاز سافرها الأمير جانم كاشف الفيوم ، فشق من القاهرة فى موكب حافل ، وطلب طلبا كأطلاب الأمراء المقدمى الألوف ، وكان فى موكبه ست عجلات ، وفى كل عجلة مكحلة نحاس برسم المدافع ، فان درب الحجاز كان فى غاية الاضطراب بسبب فساد العربان ، ولم يركب قدام المحمل أحد من القضاة الأربعة غير قاضى المحمل شمس الدين محمد بن النقيب .

وأشيع أن كسوة الكعبة الشريفة أرسلها ملك الأمراء من البحر المالح ، وسبب ذلك فساد العربان . وكذلك المال أرسله السلطان سليمان ابن عثمان الى مكة والمدينة النبوية لأجل الصدقة على مجاورى الحرمين الشريفين صحبة قاضى العسكر لما توجه من البحر المالح خوفا من العربان واضطراب درب الحجاز فى هذه الأيام المشطة

وفى يوم الاثنين رابع عشريه ، حضر قاصد من البحر ، وأخبر أن السلطان سليمان ابن عثمان فى المحاصرة مع الفرنج الروادسة ، وأحضر كتابا من عند الأمير جانم الحمزاوى ، يذكر فيه أن العسكر فى انشحات زائد من الغلاء بسبب القمح والدقيق ، وقد عزت الأقوات هناك ، فلما بلغ ملك الأمراء ذلك ، نزل الى الشون التى بمصر العتيقة ، وأخرج

ثلاثين ألف أردب وخمسمائة حمل دقيق ، فاستمر ينزل الى الشون بسبب ذلك أربعة ايام متوالية ، حتى جهز فى المراكب ثلاثين ألف أردب قمح ، وخمسمائة حمل دقيق ، وخمسمائة أردب أرز ، وقيل مثلها حمص وبسلة ، وقيل أرسل مع ذلك أشياء كثيرة من البصل وغير ذلك مما استحسنه ، فجهز ذلك بسرعة ، وأرسله من البحر الى السلطان والعسكر الذين هناك .

* * *

وفى شهر ذى القعدة ، وكان مستهله يوم الاثنين ، وكانت القضاة الأربعة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فلم يطلع منهم أحد للتهنئة بالشهر فى ذلك اليوم .

وفى يوم الثلاثاء ثانيه عزل الأمير جان بك من كشف الشرقية ، واستقر بالأمير اينال السيفى طراباى .

وفى يوم الاثنين ثامنه توفت أصيل القلعية ، وكانت من أعيان مغانى البلد ، وكان لها انشاد لطيف ، وكانت بارعة فى غناء الخفائف التى هى من فرح الزمان ، ورأت من الأعيان وأرباب الدولة غاية الحظ والاحسان لها .

وفيه نودى فى القاهرة بابطال الفضة العتيقة من المعاملة قاطبة ، وأن الفضة الجديدة تصرف كل نصف بنصفين وربع ، فازداد وقوف الحال على الناس ثانيا بابطال الفضة العتيقة من المعاملة ، والفلوس الجدد كانت كل اثنين بدرهم ، فنادوا عليها كل واحد بدرهم ، فازداد الحال وقوفا ثالثا .

وفيه أشيع أن ملك الأمراء خاير بك قد مرض ولزم الفراش وتزايد به المرض من يومه وانقطع عن المحاكمات . فلما قوى عليه المرض صار يتصدق على الأطفال الذين بمكاتب القاهرة قاطبة لكل صغير نصف فضة كبير ، بنصفين وربع ، وصار أحد الخازندارية وابن الظريف المقرى يدفع لكل صغير النصف فى يده ، ويعطى الفقيه خمسة أنصاف كبار ، والعريف ثلاثة أنصاف كبار ، ويقولون لهم اقرءوا الفاتحة وادعو بالشفاء والعافية لملك الأمراء .

وقد تكاثرت الأقوال بأن به ثلاثة أمراض : منها فرخة جمرة طلعت له فى مشعره ، ومنها حدار انصب له فى جميع أعضائه ، وهو من أنواع الفالج ، ومنها كتم البول فصارت الحكماء تبيت عنده فى كل ليلة وقد أعياهم أمره فى هذا العارض الذى به ، وقيل انه مشغول من حين نزل الى الشون .

وفى هذا الشهر ثبت النيل المبارك على احدى وعشرين اصبعا من تسعة عشر ذراعا ، وكان نيلا متوسطا ، وكان فى العام الماضى عشرين ذراعا الا اصبعا واحدة .

وفى يوم الثلاثاء تاسعه ، أفرج ملك الأمراء عن القاضى شرف الدين الصغير كاتب المماليك ، وأفرج عن القاضى شرف الدين بن عوض ، وألبسهما قفطانين حرير مذهب ، وأركبهما فرسين من الاسطبل السلطانى ، ونزلا من القلعة فى موكب حافل ، وشقا من القاهرة ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فتخلقت عيالهما بالزعفران ، فانهما خلصا من فم الموت ، وقد قاسيا شدائد ومحنا وضربا وبهدلة ، وسجنا فى العرقانة ، وقد أقاما فى هذه السدة نحو أربعة أشهر ، وقسا قلب ملك الأمراء عليهما . وقد قال فى ذلك الناصرى محمد بن قانصوه :

بالشرفى المقـــر أضـــحى
ديوان ذا الملك فى انضباط
لا زال فيـه الى المعـالى
بالسـعد يرقى بلا انهباط

فلما نزل القاضى شرف الدين الصغير الى بيته لم يقم به الا ساعة يسيرة ثم ركب وتوجه الى تربة الامام الشافعى رضى الله عنه ، فزاره ثم طلع الى القلعة ثانيا هو والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، فاجتمعا على ملك الأمراء وتكلما معـه على المقر الشـهابى أحمد بن الجيعان ، فان ملك الأمراء توقف فى الافراج عنه ، وقد عول على شنقه على باب زويلة ، فنجـاه الله تعالى من كيده ، ولولا اشتغال ملك الأمراء بنفسـه لكان شنق الشهابى أحمد بن الجيعان لا محالة .

فلما تكلم القاضى شرف الدين الصغير ، والقاضى بركات المحتسب ، وقيل ساعدهما خير الدين نائب القلعة ، فى أمر الشهابى أحمد بن الجيعان ، رسم ملك الأمراء بالافراج عنه بعد جهد كبير ، وكان ملك الأمـراء على خطر ، وبانت عليـه لوائح الموت .

فلما أفرج عنه ألبسه قفطان حرير ، وأركبه على فرس من الاصطبل السلطانى ، ونزل من القلعه ، وشق من القاهرة فرجت له ، وانطلقت له النساء من الطيقان بالزغاريت ، وارتفعت له الأصـوات من الناس بالدعاء . فان الشهابى أحمد كان محببا للناس فشق من القاهرة بعد العصر ، فكان له موكب حافل ، وكان ذلك اليوم مشهودا ، فتوجه الى منزله بعد ما قاسى شـدائد ومحنا ، وأوعد بالشنق من ملك الأمراء ، فكفاه الله تعالى شره . وفيه يقول الأديب ناصر الدين محمد بن قانصوه :

الحمـــــد لله بكم عيننا
قرت بفرحة لنا فى السرور
لمـا خلصـتم ونزلتم الى
منـازل العز وزال الشرور

وفى يوم الخميس حادى عشره ، أشيع بين الناس أن ملك الأمراء بطلت شقته ، وعجز عن القيـام ، وتزايد به ألم الفرخة الجمر ، واشتد عليه مخرج البول والغائط من الورم من تلك الجمرة ، وهذا العارض بعينه قـد وقع للخنكار سليم شاه ابن عثمان ومات به .

ثم ان قضاة القضاة الأربعة ركبوا وطلعوا الى ملك الأمراء وعادوا وسلموا عليه ، فلم يع لهم ، ولم يلتفت اليهم ، فقرءوا له الفـاتحة ونزلوا الى منازلهم .

فلما تزايد الأمر بملك الأمراء أعتق جميـع جواريه وعبيده ومماليكه ، ثم انه دفع للقـاضى بركات بن موسى المحتسب ألف دينار فضة ، ورسم بعشرة آلاف اردب قمـح من الشونة ، ورسم للمحتسب بأن يفرق ذلك كله على مجاورى الجامع الأزهر ، والمزارات والزوايا التى بالقرافتين قاطبة ، ومجاورى مقام الامام الشـافعى والامام الليث رضى الله عنهما ، ويفـرق باقى ذلك على الفقـراء والمساكين ومن عليه دين ، ففرق ذلك كما رسم له ملك الأمراء .

ثم انه رسم باخراج مراسيم للقاضى شرف الدين ابن عوض بأن يفرج عن أصحاب الرزق الأحباسية التى كان أدخلها الى الديوان السـلطانى ، وكان قدرها نحـو ألف وثمانمائة رزقة ، فأفرج عنهـا لأصحابها ، وأعاد مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجهـا المفتش يوسف بن الجاكيـة الى

أصحابها ، ثم صار يقول للمباشرين الذين شوش عليهم : حاللوني وأبرئوا ذمتي . فحاللوه غصبا .

وفي يوم الجمعة ثاني عشره رسم باطلاق المحابيس رجالا ونساء ، فتوجه القاضي شرف الدين الصغير والقاضي المحتسب الى بيت الوالي ، وعرضوا من في سجن الديلم والرحبة ، فطلعوا بالمحابيس في زناجير مشاة وتوجهوا بهم الى بيت الوالي ، فلما عرضهم هناك ، صار القاضي شرف الدين الصغير والقاضي المحتسب يصالحون أصحاب الديون الذين عليهم من أربعين آشرفيا ونازل ، فيقولون لأصحاب الديون اتركوا لأجل ملك الأمراء الباقي . فصالحوا أرباب الديون بقدر يسير ، وفعلوا ذلك بجماعة كثيرة من أرباب الديون ، وفيهم جماعة من أعيان الناس .

وأطلقوا جماعة كثيرة من الضمان ، وجماعة من الفلاحين ، فقيل أطلقوا من سجن الرحبة أربعين انسانا ، وأطلقوا من سجن الديلم دون ذلك ، ولم يتركوا بالسجنين غير الحرامية ، ومن عليه دم .

ولم ير الناس في أيام ملك الأمراء خاير بك أحسن من هذه الأيام ، فانه جاد مع الناس وبر الفقراء والمساكين ، ولم يعرف الله الا وهو تحت الحمل ، فلم يفده من ذلك شيء ، ويأبى الله الا ما أراد :

ويقرب من هذه الواقعة ما وقع للأشرف الغوري لما حصل له عارض في عينيه ، فجاد على الناس الى الغاية ، وأفرج عمن بالسجون ، وعن جماعة من المباشرين ممن كان في الترسيم بمال له صورة ، وكانت تلك الأيام خيار دولته على الاطلاق .

ويقرب من ذلك ما وقع للأشرف قايتباي لما وقع عن الفرس وانكسر فخذه ، وأقام منقطعا في القاعة التي بجوار الدهيشة ، وجلس على سرير مقور ، وصارت الناس تدخل عليه وتسلم عليه ، فجاد على الناس ، وأفرج عن جماعة كثيرة من المباشرين كانوا في السجن ، وتصدق بمال له صورة على الفقراء والمساكين ، وفعل أشياء كثيرة من أنواع البر والصدقات ، وكانت تلك الأيام خيار دولته .

وغالب هؤلاء الملوك ما يعرفون الله الا وهم تحت الحمل ، اذا جرت عليهم مصيبة يجودون في حق الناس ، ويفعلون الخير ..

وفي يوم السبت ثالث عشره ، اشيع ان ملك الأمراء قد نزل به النزع ، وأنه أرسل خلف الأمير سنان بك العثماني ، فلما طلع اليه وجده في حال التلف ، فدفع اليه خاتم الملك الذي كان السلطان سليم شاه أعطاه له .

ثم انه قال له على قدر الأموال التي في الخزائن ، وقال الأموال ستمائة ألف دينار ذهب عين ، هذا خارج عما كان في بيت المال من المال ، وخلف من الخيول والجمال والبغال والحمير ما لا ينحصر ، ومن الغلال والأغنام والأبقار أشياء كثيرة ومع وجود هذه الأموال التي تركها كان يكسر جوامك المماليك الجراكسة ستة أشهر لم يعطهم شيئا ، ويشتكي أن بيت المال مشحوت من المال .

وكان أصل ملك الأمراء من مماليك الأشرف قايتباي ، وهو جركسي الجنس أباظا ، وكان أبوه اسمه بلباي الجركسي ، ولهذا كان يدعى خاير بك بلباي ، وينسب الى الأشرف قايتباي .

ومات أيضا أخوه خضر بك ، وأما أخوه جان بلاط فانه بقي مقدم ألف ومات في دولة الملك الناصر محمد بن قايتباي ، مات بالطاعون . وأما أخوه قانصوه فانه كان يعرف بقانصوه المحمدي ، فارتقى حتى تولى نيابة الشام ، ومات في دولة الأشرف الغوري .

وأما خاير بك فانه أقام بالطبقة وصار من جملة المماليك السلطانية ، فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وصار من جملة المماليك الجمدارية ، ثم بقى خاصكيا دوادار سكين ، ثم بقى أمير عشرة فى سنة احدى وتسعمائة فى دولة الملك الناصر محمد ابن الأشرف قايتباى ، ثم بقى أمير طبلخانات فى دولته أيضا ، وأرسله قاصدا الى الخنكار أبى يزيد ابن عثمان ملك الروم فى سنة ثلاث وتسعمائة ، ثم بقى مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط ، وخرج صحبة العسكر الى الشام . فلما حضر العادل الى مصر أرسل بالافراج عنه ، فلما حضر أنعم عليه بتقدمه ألف كما كان . فلما تسلطن الأشرف الغورى ، جعله حاجب الحجاب ، واستمر على ذلك حتى توفى أخوه قانصوه المحمدى نائب الشام ، فنقل السلطان الأمير برسباى من نيابة حلب الى الشام عوضا عن قانصوه برج ، وخلع على الأمير خاير بك وقرره فى نيابة حلب عوضا عن برسباى ، وذلك فى سنة عشر وتسعمائة ، واستمر على ذلك حتى تحرك الخنكار سليم شاه ابن عثمان على السلطان الغورى، وانكسر ، وكان خاير بك سببا لكسرة الغورى .

فلما ملك سليم شاه الديار المصرية وجرى منه ما جرى ، وأراد التوجه الى بلاده ، خلع على يونس باشا وقرره نائبا على مصر ، ثم بدا له أن يقرر خاير بك نائب حلب على نيابة مصر عوضا عن يونس باشا ، فخلع عليه فى يوم الثلاثاء ثالث عشر شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، ودفع اليه خاتم الملك ، فاستمر على نيابته بمصر الى أن مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، فكانت مدة نيابته بمصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما ، بما فيها من مدة انقطاعه عن المحاكمات ، وتوعك جسده .

وأما ما عد من مساويه ، فانه كان جبارا عنيدا سفاكا للدماء . قتل فى مدة ولايته ما لا يحصى من الخلائق ، وشنق رجلا على عود خيار شنبر أخذه من جنينته ، وشنق من الناس ووسط وخوزق جماعة كثيرة ، واقترح لهم أشياء فى عذابهم ، فكان يخوزقهم من أضلاعهم ، ويسميه شك الباذنجان ، فقتل بمصر وحلب فوق العشرة آلاف رجل ، وغالبهم راح ظلما .

ومنها أنه أتلف معاملة الديار المصرية من الذهب والفضة والفلوس الجدد ، وسلط ابراهيم اليهودى معلم دار الضرب على أخذ أموال المسلمين .

ومنها أنه قرب شخصا من النصارى يقال له يونس ، وجعله متحدثا على الدواوين ، وصار المسلمون يقفون فى خدمته ويخضعون له .

ومنها أنه كان يكره الفقهاء وطلبة العلم والعلماء وعزل القضاة الأربعة ونوابهم قاطبة ، ومنع الشهود أن يجلسوا فى الحوانيت ويتقاضوا أشغال الناس .

ومنها أنه كان يكره المماليك الجراكسة ويعوق جوامكهم ستة أشهر ، ثم يصرف لهم شهرين بألف جهد .

ومنها أنه شوش على جماعة من أعيان المباشرين وضربهم وبهدلهم وعوقهم فى الترسيم نحو خمسة أشهر ، ولا سيما ما جرى على الشهابى أحمد بن الجيعان ، فانه سلب نعمته ، وأخذ منه فوق السبعين ألف دينار ، حتى باع جميع أملاكه وقماشه ورزقه ، وبقى على الأرض

ومنها أنه ندب يوسف بن أبى الفرج وقرره فى وظيفة يقال لها مفتش الرزق الجيشية ، فحصل للناس منه غاية الضرر الشامل .

ومنها أنه أرسل فخر الدين بن عوض الى بلاد الصعيد ، ومسح الرزق الأحباسية ، وأدخلها فى

الديوان ولم يفرج عنها ، وحصل للناس بسبب ذلك غاية الضرر ، فقيل انه آخرج آلفا وثمانمائة رزقة ، منها ما كان على الزوايا والمساجد والترب وغير ذلك .

ومنها أنه كان سببا لخراب الديار المصرية ودخول سليم شاه الى مصر ، وحسن له عبارة أخذ مصر ، وضمن له أخذها من غير مانع ، وعرفه كيف يصنع حتى ملكها ، وجرى منه ما جرى ، وقتل الأمراء والمماليك الجراكسة ، وشنق السلطان طومان باى على باب زويلة ، وكل ذلك بترتيبه ودوليته .

وكان كثير الحيل والخداع والمكر ، وكان من دهاة العالم لا يعلم له حال . ولو ذكرت مساويه كلها لطال الشرح فى ذلك ، وقد قلت فيه هـذه الأبيات عن لسانه :

أصبحت بقاع حفرة مرتهنا
لا أملك من دنياى الا كفنا
يا من وسعت عباده رحمته
من بعض عبيدك المسيئين أنا

فلما تحقق الناس موت ملك الأمراء ارتجت القاهرة ، وأشيع أن التركمان ينهبون الأسواق ، فانتقل مكان الجسر من بركة الرطلى على لمح البصر ووزع الناس أمتعتهم فى الحواصل .

ثم طلع الأمير سنان بك الى القلعة ، وحضر الأمير خير الدين بك نائب القلعة ، والأمير خضر بك ، والكواخى أغوات الانكشارية ، فلما اجتمعوا ضربوا مشورة فى أمر المملكة ، وما يكون من آمر العثمانية ، فالتزم الأمير خير الدين نائب القلعة والكواخى بأمر الانكشارية ، والتزم الأمير سنان بك والأمير خضر بك بأمر الاصباهية وغير ذلك من الكملية ، ثم حضر الأمير أرزمك الناشف ، فالتزم بأمر المماليك الجراكسة وما يحصل منهم .

ثم ختم نائب القلعة والأمير سنان بك على الحواصل التى بالقلعة .

ثم ان الوالى والقاضى بركات المحتسب نزلا من القلعة ونادى فى القاهرة بالأمان والاطمئنان والبيع والشراء ، وأن لا أحد يغلق له بابا ولا دكانا ، والدعاء للسلطان سليمان بالنصر ، فارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء قاطبة ، فكرروا هذه المناداة يوم الأحد ويوم الاثنين .

وكان عند العثمانية عادة اذا مات صاحب المدينة ينهبون المدينة عن آخرها ، فمنعهم الأمراء التركمان من ذلك ، وقالوا لهم متى نهبتم المدينه تقتلكم عوام مصر ، ويحصل بينهم وبينكم فتنة عظيمة ، وتخرب مصر عن آخرها ، فسكن الاضطراب قليلا .

ثم فى يوم الاثنين ، لما دفن خاير بك ، تحول الأمير سنان ، وطلع الى القلعة من يومه ، وسكن بها ، فوقع بين الأمير سنان والأمير خضر تشاجر بسبب النيابة ، فأظهر الأمير سنان مرسوما وعليه علامة السلطان سليمان ، بأنه اذا توفى ملك الأمراء خاير بك يكون عوضا عنه فى نيابة مصر ، فوقع الاتفاق بينهما بأن يستقر بالقلعة ، ويكاتب السلطان بموت خاير بك ، وينتظر الجواب بما تقتضيه الآراء الشريفة فى ذلك .

ثم ان الأمير سنان عرض ما فى بيت المال من المال ، فوجد خاير بك خلف من المال على ما قيل ستمائة آلف دينار ، خارجا عما كان فى بيت المال .

ثم ان الأمير سنان بك خلع على القاضى شرف الدين الصغير واستقر به متحدثا على جهات الغربية وخلع على الشهابى أحمد بن الجيعان ، وشرف

الدين بن عوض ، وجعلهما متحدثين على جهات الشرقية ، فامتنع الشهابى أحمد كل الامتناع من لبس القفطان وقال : أنا أصبحت رجلا فقيرا لا أملك من الدنيا شيئا ، وأنا ما بقيت أباشر شيئا فأرسلونى الى اسطنبول أو الى مكة المشرفة . ورد على الأمير سنان ذلك القفطان .

وخلع على القاضى بركات المحتسب ، وجعله متحدثا على جميع جهات الشرقية من دمياط الى المطرية على عادته . وخلع على محيى الدين بن أبى أصبع ، وجعله متحدثا على ديوان الوزارة وديوان الخاص على عادته كما كان .

وفى ذلك اليوم نزل حريم خاير بك من القلعة على وجوههن وهن فى غاية الذل .

وفى يوم الأربعاء سابع عشره رسم الأمير سنان بتوسيط شخص من الاصباهية فوسطه فى الرميلة . وسبب ذلك أنه خطف خرقة جوخ ثمنها مائة وعشرون دينارا ، فطلع صاحب الجوخة الى الأمير سنان وشكا له ذلك الشخص الأصباهى ، فقال له الأمير سنان : ألك عليه بينة بأنه خطف منك الخرقة الجوخ ؟ فقال له : نعم ، وأحضر له من شهد عليه بذلك ، فأرسل خلف الاصباهى وسأله عن ذلك فاعترف ، وأحضر الخرقة الجوخ ، وأعادها الى صاحبها ، ومضى بها . ثم انه رسم بتوسيط الاصباهى فوسطوه فى الرميلة عند باب الميدان ، وهذا أول حكم الأمير سنان فى القتل .

ثم ان الأمير سنان رسم بأن يعين جماعة من الانكشارية فى بيت المحتسب يضبطون ما يتحصل من أموال الحسبة فى كل يوم ، وجعل مثل ذلك فى بيت الوالى ، وبيت محيى الدين بن أبى اصبع لكونه متحدثا فى ديوان الوزارة والخاص ، وجعل مثل ذلك فى ديوان الوزراء ، يضبطون مايتحصل فى كل يوم ، وجعل مثل ذلك على المكاسة الذين فى بولاق ومصر العتيقة ، وغير ذلك من القباض

وفى يوم الخميس ثامن عشره ، سافر الأمير اينال السيفى طراباى الذى ولى كشف الشرقية الى محل ولايته بها .

وفى يوم الجمعه تاسع عشره ، حضر شخص من مماليك الأمير قايتباى الدوادار فى بعض أشغال أستاذه وعلى يده كتب ، فكان من مضمونها أن السلطان سليمان نازل على رودس ، وأنه بباب رودس يحاصرها أشد المحاصرة ، وقد قتل من العسكر العثمانى ما لا يحصى من البندق الرصاص ومن المدافع التى عمالة نازلة فى كل يوم من قلعة رودس ، وكلما هدم من سورها شيئا تبنيه الفرنج تحت الليل بالحجر الفص ، وقد أعياهم أمر الفرنج وقوة بأسهم ، وقد كتم موت من مات من الأمراء الجراكسة والمماليك .

وفى يوم السبت عشريه ، رسم الأمير سنان لمماليك ملك الأمراء خاير بك أن ينزلوا من الطباق التى بالقلعة ، فشق ذلك عليهم ، فلما نزلوا من الطباق طلع اليها جماعة من الاصباهية ممن هم من جماعة الأمير سنان ، والانكشارية من عصبة خير الدين نائب القلعة .

ثم أشيع أنه وقع بين الأمير سنان والأمير خضر العثمانى تشاجر بسبب النيابة ، فوقع الاتفاق على ما يرد من جواب السلطان على ذلك .

وفيه أشيع أن الأمير اينال السيفى ، الذى استقر كاشف الشرقية ، تحول عنها الى كشف الغربية ، وأعيد الأمير جان بك الى كشف الشرقية كما كان أولا .

* * *

واستهل شهر ذى الحجة بيوم الثلاثاء ، فكان المتحدث على الديار المصرية يومئذ الأمير سنان بك العثمانى ، نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، وكان قضاة القضاة منفصلين عن القضاء كما تقدم ، فلم يطلع الى التهنئة بالشهر أحد .

وفى يوم السبت خامسه ، توفى الشيخ أمين الدين بن النجار خطيب جامع الغمرى ، وكان دينا خيرا من أهل العلم والدين ، من أعيان الشافعية .

وفى عقيب موته توفى القاضى جلال الدين بن محمد بن بدر الدين بن محمد بن كسيل أحد نواب الشافعية ، وكان عالما فاضلا ، وله نظم جيد ، وكان من أعيان الشافعية

وفى يوم الخميس عاشره ، كان عيد النحر ، فصنع الأمير سنان مدة حافلة بالقلعة لأجل الاصباهية والانكشارية والكملية ، فتناهبوا تلك المدة على لمح البصر ، وقد ذاق الأمير سنان طعم المملكة ، ودخلت حلاوتها فى أسنانه .

وفى يوم الخميس سابع عشره ، نادى الأمير سنان بعد العصر فى القاهرة بأن السلطان سليمان استقر بالوزير الأعظم مصطفى باشا نائبا على مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته . وقد وصل ذلك النائب الى الاسكندرية ، ثم نادى فى ذلك اليوم للناس بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء وأن لا أحد يكثر كلاما فيما لا يعنيه .

فلما تحقق الناس ذلك ، خرج المباشرون وأعيان الناس الى ملاقاة ذلك النائب ، وأشيع أن الأمير جانم الحمزاوى قادم صحبة النائب ، وأنه قد وصل الى قليوب ، فخرج غالب العسكر العثمانى الى ملاقاته .

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل الوزير الأعظم مصطفى باشا الى ساحل بولاق . فلما أشيع ذلك نزل الأمير سنان من القلعة ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، وأتى اليهم الأمير خضر العثمانى ، وأتى اليهم الكواخى أغوات الانكشارية ، وأتى الأمير أرزمك الناشف آغات المماليك الجراكسة ، وسائر الاصباهية والانكشارية والكملية قاطبة ، وتوجهوا الى بولاق لأجل ملاقاة النائب مصطفى باشا .

فلما وصلوا الى بولاق ، احضروا للنائب فرسا من الخيول الخاص ، ولبس خلعة السلطان ، وهى بتماسيح على أحمر ، وأحضروا لجماعته نحو أربعمائة فرس ، فركب النائب من هناك هو وجماعته ، ومشت الانكشارية قدامه والكملية قاطبة يرمون بالنفوط ، وركب جميع الاصباهية وأمراؤهم ، وجميع الأمراء الجراكسة وأتباعهم ، وأعيان الناس قاطبة .

فدخل من باب البحر واستمر الى باب القنطرة ، فشق من سوق مرجوش ، ثم شق من القاهرة فى موكب حافل مثل موكب ملك الأمراء خاير بك ، وكان الأمير سنان عن يمينه ، والأمير جانم الحمزاوى عن يساره وعليه خلعة بتماسيح ذهب ، والأمير خير الدين نائب القلعة ، والأمير خضر قدامه ، وعلى رأسه صنجق بقمع فضة ، ومن ورائه طبلان وزمران عثمانية ، وخلفه جماعة بطراطير حمر بعصائب ذهب .

فلما شق من القاهرة ارتفعت له الأصوات من الناس بالدعاء ، وانطلقت له النساء بالزغاريت من الطيقان ، وكان ذلك اليوم مشهودا .

وكانت صفته أنه أبيض اللون ، عربى الوجه حليق اللحية ، ليس له غير شاربين أصفرين ، معتدل القامة ، وعليه حشمة وخفر ، وقيل هذا أعظم وزراء ابن عثمان ، حتى أطلق عليه أنه وزير الوزراء . واستمر فى موكب حافل حتى شق من الرميلة ، ودخل الى الميدان ، ثم صعد الى القلعة .
وفيه يقول الناصرى محمد بن قانصوه بن صادق :

لاتحزنى مصر على
موت الأمير خير بك

بل افـرحى بمصـطفى
سـتنظريه خـير بك

فلما قدم النائب مصطفى باشا الى مصر ، أشيع أن الأخبار وردت على السلطان سليمان بوفاة ملك الأمراء خاير بك وهو على رودس فى يوم الخميس ثالث ذى الحجـة . فلما تيقن موته خـلع على وزيره الأعظم مصطفى باشـا وقـرره فى نيـابة مصر عوضا عن خاير بك بحكم وفاته ، فاستقر فى النيابة يوم السبت خامس ذى الحجة سـنة ثمان وعشرين وتسعمائة ، وكانت ولايته فى الخامس وهو يوم نحس مستمر .

وكان السلطان على رودس ، فكانت مدة ولايته من حـين ولى برودس ، الى أن دخل الى ثغـر الاسكندرية ، تسعة عشر يوما ، وكانت مدة سفره فى البحر أربعة أيام ، ودخل الى شاطىء بولاق يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة ، فتكون مدة ولايتـه من حين ولى برودس الى أن دخل الى الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما .

فلما طلع النائب مصطفى باشا الى القلعة يوم الأربعـاء مد له الأمير سـنان هناك مدة حافلة بالقلعة ، ثم مد له بساط الأنس وسـلمه مفاتيح بيت المال ، ودفع له خاتم الملك الذى كان السلطان سليم شاه أعطاه لملك الأمراء .

ثم تحول الأمير سنان ، ونزل الى منزله بدرب ابن البـابا ، فكانت مدة نيـابته بالقاهرة الى أن حضر مصطفى باشـا ثمانية وثلاثين يوما ، كأنها أضغاث أحلام .

وفى يوم الخميس رابع عشريه ، نزل النـائب مصطفى باشا الى الميدان ، وحضر الأمير سنان ، والأمير خضر ، والأمير خير الدين نائب القلـعة ، وحضرت الأغوات المتعلقة بالانكشارية ، وقرىء عليهم مرسوم السلطان الذى حضر على يد مصطفى باشا ، فكانت براعة اسـتهلال ذلك المرسـوم : « الحمد لله الذى أنزل على عبـده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيمـا » . ثم نعت النائب مصطفى باشا بنعوت عظيمـة ، بأنه وزير الوزراء ، وأمير الأمراء ، وما أشبه ذلك من النعوت الحسنة .

ثم رسم له بأن يعطى فى كل سـنة من خراج أراضى مصر مائة ألف دينار له ولمماليكه وحاشيته .

ومن مضمون ذلك المرسوم أنه لا يصرف لطائفة الانكشارية والاصباهية أكثر من أربعة أنصاف فى كل يوم ، فشق عليهم ذلك . وكان ملك الأمراء خاير بك رتب لجماعة من الاصباهية أشرفيين فى كل يوم جماعة ، وأشرف كل يوم ، وكان فى طائفة الانكشارية من كان له فى كل يوم عشرون نصفا ، وشىء عشرة أنصاف ، وشىء ثمانية ، فبطل ذلك جميعه ، واستقرت على أربعة أنصاف كل يوم .

ومن مضمون المرسوم ، الوصية بالرعية قاطبة ، والمماليك الجراكسة ، واصلاح المعاملة ، والنظر فى أحوال الرعية والمسلمين بما فيـه اصلاحهم . وكان من مضمونه أشـياء كثيرة يطول شرحها .

وفى ذلك اليوم طلع القضاة الأربعـة يسلمون عليـه ، فوجدوه بالأشرفية التى بالقلعـة ، فلم يمكنوهم من الدخول اليه حتى شاوروه ، فأذن لهم ، فدخلوا عليه فوجدوه ملقى على ظهره ، فلم يلتفت اليهم ، ولا قام لهم ، ولم يعدهم من البشر . ثم قال لهم على لسان الترجمان النائب : « يقول لكم لولا أنه ضعيف لقام لكم » . فقرءوا الفاتحة وانصرفوا .

وفى يوم الجمعة خامس عشريه ، نزل النـائب مصطفى باشا الى الميـدان وجلس به ، وعرض موجود ملك الأمراء خاير بك من الجمال والخيول والبغال ، فوجد له من ذلك أشياء كثيرة لا تنحصر ، ثم طلع الى الحوش السـلطانى وعرض مماليك

خاير بك ، ثم عرض الحواصل التى فيها الموجودات من قماش ونحاس وصينى وغير ذلك ، فوجد له أشيــاء كثيرة أعظم من موجود الأشرف قايتباى ، ووجد له من الذهب العين على ما قيل ستمائة ألف دينار . وقد حاز هذا الموجود العظيم فى هذه المدة اليسيرة .

وفى يوم السبت سادس عشريه ، نزل مصطفى باشا الى الميدان وجلس به ، وحوله الأمير سنان والأمير خضر والأمير خير الدين نائب القلعة والأمير أرزمك الناشف وجماعة آخرون من الأمراء ، فأظهر التعاظم فى ذلك اليوم ، ومشى على طريقة الخنكار سليم شاه ، وصار كواحد منهم .

وكان النائب مصطفى هذا متزوجا بابنة الخنكار سليم شاه ، وهى أخت السلطان سليمان ، فوقف الوالى قدامه بالعصا ، وكذلك نقيب الجيش أيضا ، واصطفت قدامه الانكشارية والاصباهية والكملية وبأيديهم العصى . ثم ترادفت عليه القصص بحوائج الناس ، فلم يفهم منها شيئا ، وصار الترجمان يقول له معنى ما فى القصص بالتركى ، وهو كالخشبة .

ثم رسم بالمناداة فى القاهرة بالأمان والاطمئنان ، والبيع والشراء ، وأن كل من ظلم من بعــد ملك الأمراء خاير بك فعليه بالأبواب العالية .

ثم أشيع أنه نادى أن العمال يقبضون الخراج من الفلاحين ، النصف الفضة بنصفين ، ويقام لهم عند الحساب بنصفين وربع ، ففرح الفلاحون بذلك . ثم من بعــد ذلك تبين أن هذه الاشاعة ليس لها صحة ، وكل شيء على حكمه فى المعاملة .

ثم ان النــائب قام وطلع الى القلعة ، وهذا أول ديوان فى أيامه ، وأول محاكماته بين الناس ، وأول جلوسه للناس عامة .

وفى يوم الأحد سابع عشريه ، أشيع فى القاهرة أن القاضى بركات بن موسى قد انفصل عن الحسبة ، واستقر بها شخص من العثمانية من أقارب النائب مصطفى يقال له قاسم باشــا ، فاضطربت القاهرة بسبب ذلك ، وشق على الناس عزله .

وفى ذلك اليوم أشيع أن النائب قد أخذ مفاتيح الحواصل كلها جميعا التى فى القلعة من البوابين ، وسلمها لجمــاعة من الأروام من حاشيته ، وطرد البوابين والغلمــان والركابة والبابيــة ، وأبطل الشواش والركبدارية والفراشين وغلمان السلطان قاطبــة ، حتى بطل الطباخين من المطبــخ ، وأقام جماعة من الأروام عوضهم ، وأبطل المقرئين الذين كانوا يقــرءون بالقلعــة قاطبــة ، حتى أبطل من كان بالقلعة من المؤذنين ، وجعل لجــامع الحوش مؤذنا واحدا ، وأبطل جميع نظام القلعة الذى كانت عليه قديما ، ومشى على القانون العثمانى ، وهو أشأم قانون .

ثم انه شرع فى بيــع موجودات ملك الأمراء خاير بك ، فطلب التجار قاطبة فطلعوا الى القلعة بسبب المبيع .

وفى يوم الاثنــين ثامن عشريه ، طلع أعيــان المباشرين الى القلعة ، وتوجهوا الى بيت الدفتردار ، فاجتمعوا هناك وشرعوا فى أمر تقسيط البــلاد ، وأشيع أنهم قد أفردوا للنائب مصطفى باشا فى كل شهر ثمانيــة آلاف دينــار ، ولمماليكه خاصــة ، ولجماعته وحاشيته ومطبخه وانعاماته ، وغير ذلك مما حكم به الزمان الخبيث على الناس .

ثم ان المعلم الحلوانى العجمى الذى كان دكانه تجاه المدرسة الناصرية ، التى بين القصرين ، صار من خواص النــائب مصطفى باشا ، وصــار من المقربين عنده ، ويتقاضى حوائجه وحوائج النــاس عنده ، واجتمعت فيه الكلمة ، وصار المرجع اليه فى الأمور فى تلك الأيام ، حتى بقى كمنزلة الدوادار الكبير . فكان كما يقال فى المعنى :

ما كنت أحسب أنْ يمتدّ بي زمني
حتى أرى دولة الأوغاد والسفل

وفي يوم الثلاثاء تاسع عشريه ، قدم مبشر الحاج ، وأخبر بالأمن والسلامة ، وأن الغلاء وموت الجمال موجود مع الحجاج ، ولم يكن لما قالوه من أمر الفتن التي وقعت بمكة صحة ، ولله الحمد والشكر على ذلك .

وفي ذلك اليوم ، خلع مصطفى باشا على القاضي شرف الدين الصغير ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الغربية ، وخلع على القاضي فخر الدين بن عوض ، وأقره على ما كان عليه من التحدث على جهات الصعيد ، وخلع على القاضي بركات بن موسى ، والقاضي شرف الدين بن عوض ، واستقر بهما في التحدث على جهات الشرقية قاطبة كما كانا في الأول ، فنزلوا من القلعة ، وشقوا من القاهرة في موكب حافل .

ثم أشيع أن القاضي بركات بن موسى لم يعد الى الحسبة ، فتشوش الناس لذلك .

وفي يوم الأربعاء سلخ الشهر ، ترشح امر القاضي بركات بن موسى المحتسب لعوده الى الحسبة ، وقيل انه رتب لذلك الشخص العثماني أشرفيين كل يوم ، فنادى في القاهرة بعد العصر حسبما رسم الزيني بركات بن موسى كل شيء على حاله ، وأن السوقة والمتسببين يحضرون باكر النهار الى بيت القاضي بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة ، وناظر الذخيرة الشريفة ، فهو على حاله في الحسبة ، ففرح غالب الناس بذلك .

***

انتهى ما أوردناه في هذا التاريخ من الأخبار العجيبة ، والوقائع الغريبة ، وقد اشتمل على أخبار سبع دول كانت بالديار المصرية وقد تقدم ذكرها من الأول الى هنا . وقد وقع لي من المحاسن في هذا التاريخ ما لم يقع لغيري من المؤرخين فيما أوردوه من تواريخهم القديمة ، وقد أعان الله تعالى على انتهائه على خير ، ولله الحمد والمنة على ذلك وفيه أقول :

اغفر لمنشيه واصفح ... عما جنى بالتهامي
أحسنت لي في ابتداء ... يارب أحسن ختامي

وقولي أيضا :

تاريخنا بهجة المجالس ... يطرب من لفظه المجالس
سماعه للورى سرور ... يشرح صدرا لكل عابس

وغيره أيضا :

ألفته نعم الجليـ ... ـس اذا تغيرت البشر
يبقى على سنن الوفا ... أبدا ويقنع بالنظر

